

دير القديس أنبا مقار

الْمَلَاخِكُ

لِشَرَحِ إِنْجِيلِ الْقَدِّيسِ يُوحَنَّا

دراسة وتحليل

الأب متى المسكين

محتويات الكتاب

الصفحة

١٧

المقدمة

الباب الأول

٢٧ إنجيل القديس يوحنا كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول:

- ٢٨ القديس يوحنا الرسول
- ٢٨ ١ — شخصيته
- ٢٩ ٢ — ألقابه
- ٣٠ ٣ — صفاته كما تظهر في الإنجيل
- ٣٢ ٤ — بوانرجس «ابن البردة»
- ٣٢ ٥ — رسول المحبة
- ٣٤ ٦ — القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر الأعمال
- ٣٥ ٧ — القديس يوحنا الرسول في أفسس
- ٣٧ ٨ — ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول في أفسس
- ٣٩ ٩ — رعاية القديس يوحنا لأسقفية
- ٤١ ١٠ — القديس يوحنا في جزيرة بطمس
- ٤٢ ١١ — تلاميذ القديس يوحنا
- ٤٣ ١٢ — «يبقى إلى أن أجيء»

الفصل الثاني:

- ٤٥ ظروف وملابسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها
- ٤٥ ١ — شهادات من التقليد الكنسي المبكر
- ٥٢ ٢ — الأسباب الملحة التي حثمت بكتابة إنجيل يوحنا
- ٦٢ ٣ — الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا كما يراه القديس يوحنا نفسه
- ٦٣ ٤ — تفنيد بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا

الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا بالعهد القديم

٧٣

الفصل الأول:

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

٧٥

الفصل الثاني:

التوراة والناموس في إنجيل القديس يوحنا

٨١

٨١

أ — التوراة والترجمة السبعينية

٨٢

ب — مفهوم الناموس في العهد الجديد

٨٣

ج — الناموس في إنجيل القديس يوحنا

٨٥

د — الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

٨٦

هـ — ماء الحياة بين التوراة والمسيح

٨٦

و — خبز الحياة بين التوراة والمسيح

٨٧

ز — الخمر بين التوراة والمسيح

٨٨

ح — النور بين التوراة والمسيح

الفصل الثالث:

المسيا في إنجيل القديس يوحنا

٨٩

٨٩

أ — لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي

٩١

ب — المسيا، لا يعرف أحد من أين يأتي

٩١

ج — المسيا لا يموت

الفصل الرابع:

«جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله»

٩٣

تفرّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصته لم تقبله»

الفصل الخامس :

- ٩٦ دراية إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم
٩٦ ١ — درايته بالإمتيازات الفائقة التي مُنحت لليهود
٩٧ ٢ — درايته بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية
٩٩ ٣ — درايته بالنبوات وخاصة ما كان يشير فيها إلى المسيح

الباب الثالث

- ١٠٣ المعايير الروحية التي يقوم عليها إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول :

الحق والشهادة :

- ١٠٦ أ — الحق
١١٢ ب — الشهادة
١١٢ ١ — شهادة الآب
١١٣ ٢ — شهادة المسيح لنفسه
١١٤ ٣ — أعمال المسيح تشهد له
١١٥ ٤ — شهادة الأسفار المقدسة
١١٦ ٥ — شهادة يوحنا المعمدان
١١٧ ٦ — شهادة التلاميذ
١١٧ ٧ — شهادة الروح القدس

الفصل الثاني :

النور والمجد :

- ١١٩ أ — النور
١٢٣ ب — المجد

الفصل الثالث :

الحياة والدينونة :

- ١٢٩ أ — الحياة
١٣٠

- ١٣٠ — ١ — الحياة كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة
- ١٣١ — ٢ — الحياة عند القديس بولس الرسول
- ١٣٥ — ٣ — الحياة في إنجيل القديس يوحنا
- الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية
- ١٣٦ في إنجيل يوحنا
- ١٣٩ — المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية
- الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله
- ١٤١ وتوصل المعرفة بأعماقه

١٤٢ ب — الدينونة

الفصل الرابع:

الإيمان والمعرفة:

- ١٤٦ أ — الإيمان
- ١٥٣ ب — معرفة الله
- ١٥٣ ١ — معرفة الله في الفلسفة اليونانية
- ١٥٣ ٢ — معرفة الله عند العبرانيين
- ١٥٥ ٣ — معرفة الله عند القديس يوحنا
- ١٥٧ ٤ — تعرفون أني «أنا هو»
- ١٥٨ ٥ — الفرق بين معرفة «التأله» ومعرفة «الإتحاد»
- ١٥٩ ٦ — معرفة الحق
- ١٥٩ ٧ — معرفة الله للإنسان
- ١٦١ ٨ — رؤية الله

الفصل الخامس:

الخطية والخلاص:

- ١٦٤ أ — الخطية
- ١٦٧ ب — الخلاص

الفصل السادس:

المحبة والإتحاد بالآب والإبن:

- ١٧٠ أ — المحبة
- ١٧٣ ب — الإتحاد بالله

الباب الرابع

المفاهيم اللاهوتية الأساسية في إنجيل القديس يوحنا

١٧٧

الفصل الأول:

١٧٨

النظرة اللاهوتية إلى المسيح وعلاقته بالله الآب

١٧٨

— ألقاب المسيح كما جاءت في الأصحاح الأول

١٨٥

— المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١٨٥

١ — «الكلمة»

١٩٥

٢ — «المسيا»

(قد سبق عرض هذا اللقب في الباب الثاني — الفصل الثالث ص ٨٩—٩٢)

١٩٦

٣ — «ابن الإنسان»

٢٠٤

٤ — «ابن الله»

٢٠٤

— لقب «الكلمة» كأساس لاستعلان بنوّة المسيح لله

٢٠٥

— صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله

٢٠٧

— «الآب» و «الإبن» في إنجيل القديس يوحنا

٢٠٨

أولاً: «الإبن» ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة

٢١٠

ثانياً: «الآب» ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة

٢١٠

أ — «الآب الذي أرسلني»

٢١١

ب — «الآب» يعطي الإبن

٢١٢

ج — «الآب» يحب الإبن

٢١٣

د — «الآب» يشهد للإبن

٢١٤

ثالثاً: «أبي» ورود الكلمة بصورتها التخصصية في فم المسيح

٢١٦

— الطريق من الآب وإليه

٢١٨

ه — «أنا هو»

الفصل الثاني:

٢٤٧

الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الثالث:

٢٥٥

الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

٢٥٥	١ — الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا
٢٥٦	أ — تعريف شعب المسيح
٢٥٦	ب — قاعدة العبادة للكنيسة
٢٥٦	ج — الفردية والجماعية في الكنيسة
٢٥٦	١ — في مثل الكرمة
٢٥٨	٢ — في مثل الراعي الصالح
٢٥٨	د — سر الكنيسة كعروس المسيح
٢٦٠	هـ — سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح
٢٦٠	و — الكنيسة في جواهرها وحدة في الآب والإبن
٢٦١	ز — النظام وتدير الخدمة في الكنيسة في إنجيل يوحنا
٢٦٢	ح — الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً لمغفرة الخطايا والكراسة
٢٦٣	ط — مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا
٢٦٣	ي — رؤية الكنيسة من الداخل
٢٦٤	٢ — الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الرابع:

٢٦٨	الرموز (أو اللاهوت الرمزي) في إنجيل القديس يوحنا
٢٦٨	١ — رمز الراعي الصالح
٢٧٠	٢ — رمز الكرمة
٢٧٣	٣ — رمز الخبز النازل من السماء
٢٧٥	٤ — رمز الماء النابع من جنب الصخرة
٢٧٥	أولاً: رمز المياه في القديم
٢٧٥	أ — الوجه السلبي للمياه
٢٧٦	ب — الوجه الإيجابي للمياه
٢٧٦	١ — المياه النابعة من جنب الصخرة
٢٧٧	٢ — مياه التطهير
٢٧٩	٣ — الله مصدر المياه الحية
٢٧٩	ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد
٢٨٢	٥ — رمز الخبز والماء معاً

الفصل الخامس :

- ٢٨٩ «المعجزات» و «الآيات» و «الأعمال» في إنجيل يوحنا
٢٨٩ — معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى
٢٩٠ — «الآيات» في إنجيل القديس يوحنا
— مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل
٢٩٣ ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا
٢٩٤ — «الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا

الفصل السادس :

- ٢٩٧ الشخصيات الواردة في إنجيل يوحنا
٢٩٧ أولاً: الرافضون: أ — الجموع
٢٩٨ ب — اليهود
٣٠٤ ثانياً: المؤمنون:
٣٠٧ — إيمان فيلبس
٣٠٩ — إيمان توما

الفصل السابع :

- ٣١٢ الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

الباب الخامس

- ٣١٧ علاقة إنجيل القديس يوحنا بأسفار العهد الجديد

الفصل الأول :

- ٣١٨ الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

الفصل الثاني :

- ٣٢٤ العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا
٣٢٥ — نقاط التلاقي بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا
٣٢٩ — مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

الفصل الثالث:

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

٣٣٥

٣٣٥

— ما هو الإنجيل وكيف نقرب إليه ؟

٣٣٦

— تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى

٣٣٨

— ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل ، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا

٣٣٩

— المسيح في الأربعة الأناجيل

— أهم نقاط التلاقي والاختلاف بين

٣٤٣

إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

— التقابل بين إنجيل القديس يوحنا ، وكل من

٣٤٧

إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا

٣٤٧

أولاً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل مرقس

٣٥٠

ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا

— مجمل الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة

٣٥٥

علاقة إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى

الباب السادس

٣٦٠

شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا على مدى العصور

الفصل الأول:

٣٦١

شرح إنجيل القديس يوحنا عند آباء الكنيسة

٣٦١

تراث الشرق: شرح العلامة أوريجانوس

٣٦٤

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم

٣٦٥

شرح القديس كيرلس الإسكندري

٣٦٦

القديس أثناسيوس

٣٦٧

تراث الغرب: شرح القديس أغسطينوس

الفصل الثاني:

تتبع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا في العصر الحديث

٣٦٨

في ضوء عمليات النقد والدفاع

١ — اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية

٣٧٢ وشروحاتهم لإنجيل القديس يوحنا

٣٧٧ ٢ — مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر

الفصل الثالث:

٣٨٠ النقد الموجّه لإنجيل يوحنا والرد عليه

٣٨٢ أولاً: المصادر المزعومة أنها أثّرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله

٣٨٢ ١ — فلسفة هرمس وإنجيل القديس يوحنا

٣٨٣ ٢ — الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا

٣٨٥ ٣ — المانديون وإنجيل القديس يوحنا

٣٨٦ ٤ — مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا

٣٨٧ ٥ — فيلو العلامة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا

٣٨٩ ٦ — أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا

٣٩٢ ثانياً: النقد الموجّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا

٣٩٥ الرد على النقد التاريخي لإنجيل القديس يوحنا

٣٩٥ ١ — إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ

٣٩٦ ٢ — تحرّك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي

٣ — مميزات القديس يوحنا التي أهّلته

٣٩٧ لاستعلان أسرار المسيح، وتدوين إنجيله

٤ — إنجيل القديس يوحنا اختص بالناحية اللاهوتية

٤٠٢ معتمداً على التقليد الرسولي العام

٥ — مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر

٤٠٦ ومقياس اللاهوت يتجه ناحية الجوهر

٤١٠ ٦ — منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت

٤١١ ٧ — التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون قاعدة للإيمان

٤١٢ ٨ — صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن

٤١٣ ٩ — التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل

مقدمة

في ختام القرن الأول المسيحي كتب القديس يوحنا الرسول إنجيله في مدينة أفسس تحت إلماح أساقفة كنائس آسيا الصغرى الذي كان هو أسقفاً على أهمها وهي كنيسة أفسس. هذا بحسب مصادر التقليد الكنسي المنحدر إلينا من القرن الثاني ومن مصادر عديدة أخرى سنأتى على ذكرها.

ومعلوم أن القديس بولس الرسول هو الذي أسس كنيسة أفسس قبل ظهور إنجيل القديس يوحنا بما يقرب من ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً. وتأسيس كنيسة بالمفهوم اللاهوتى يعنى إرساء قواعد الإيمان المسيحي بكل أركانه. والرسالة التي أرسلها القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس تكشف عن المستوى اللاهوتى الذي بلغه ليس القديس بولس فحسب، بل والذين كُتبت الرسالة لهم، هذا الشعب الذي اتخذ هذه الرسالة منهاج إيمان وعقيدة وحياة وسلوك. من هذا نفهم لماذا كان هذا العمق اللاهوتى الذي اجتهد القديس يوحنا بإلهام الروح أن يستودعه إنجيله لهذا الشعب! إذ تحكمه نسبة المثل للمثل، لذلك حُسب إنجيل القديس يوحنا كضرورة تحتمها المناسبة. فالقديس يوحنا كتب إنجيله لشعب كان قد بلغ شأواً كبيراً في النضج الإيماني والوعي المسيحي، وقدم نماذج لإيمانه بحالات استشهاد رفيعة المستوى. ولكن كان يعوز هذا الشعب الإطار الإنجيلي الذي يشرح لهم المصادر الفائقة التي انحدر منها الإيمان المسيحي بكل أسرارها، ويقتن لهم المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة لكراسة القديس بولس الرسول محققاً إياها من فم المسيح مباشرة. الأمر الذي اشتاق أن يتممه القديس بولس الرسول يوماً ما بصفة خاصة وشخصية، كما يقول هو نفسه: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم... بموجب إعلان وعرضتُ عليهم (أي على القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا) الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بانفراد على المعترين لئلا أكون أسعى أو قد سميتُ باطلاً» (غل ٢: ١ و ٢). وها هو القديس يوحنا يضع ختم إنجيله على كل تعاليم بولس الرسول ليس بالإنفراد ولكن على الملأ على مشهد من الدنيا كلها.

وواضح أن إنجيل القديس يوحنا لا يهب الكنيسة في أفسس أو غيرها إيماناً جديداً بل يؤثّق ويشرح الذي وُضع. ولا يستحدث لها أسراراً ولكن يستعلن اللاهوت فيها حياً مشروحاً من فم

الرب. كما أنه لم يرفع إدراكات الكنيسة لترى مخلصها جالساً في السموات، فهذا وضّحه أول من وضّحه الشهيد إستفانوس بعد يوم الخمسين بقليل، كما قالت به الأناجيل وصوّره سفر الرؤيا أروع تصوير. فكانت هذه كلها حقائق يعيش الشعب على هداها ويستمد منها إيمانه وحرارته. ولكن جاء إنجيل القديس يوحنا محمولاً بالروح ليتتبّع هذه الحقائق في أصولها وينابيعها الأولى قبل أن توجد الأرض أو تُصوّر السماء مستقصياً عن المسيح — صاحب هذا الإيمان والخلاص والنور — لا في التاريخ في سجلات هيرودس ملك اليهودية ولا في منشور أوغسطس قيصر للإكتتاب العام ولكن في الأزلية، متعرّفاً على المسيح ليس ضمن أسباط إسرائيل بل في حضن الله بصفته الكلمة الأزلي الكائن معه وفيه منذ البدء وهو الخالق، وقد صاحبه بالإستعلان فيما وراء الدهور والأزمان في خلقة الأكوان حتى إلى تجسده حينما صار الكلمة جسداً، نازلاً من السماء حاملاً رسالة حب الآب الخلاص العالم. واضطلع الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا وعلى يد القديس يوحنا بعمل هو من أعظم أعمال الروح القدس إذ استعلن علاقة الآب بالإبن وعلاقة الإبن بالآب الكائنة منذ الأزل في ذات الله الواحد: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). وهكذا كشف عن لاهوت المسيح بأبلغ بيان وبأوثق بنیان. هذا السر أي سر بُنوة المسيح لله الذي نلنا منه وفيه بتجسد الإبن وتكميل الفداء حق التّبّي وتكميل الخلاص وانفتاح الحياة الأبدية علينا. وقد صوّر إنجيل القديس يوحنا ومن فم المسيح سر انكشاف علاقة الله الآب بالمسيح هكذا: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال (كما في الثلاثة الأناجيل على قدر نموهم الروحي) بل أخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥). فكانت هي ساعة كتابة هذا الإنجيل بلا شك!

هذا هو إنجيل القديس يوحنا الذي قُدّم للكنيسة في مياعده المحدد منذ الأزل، حينما بدت الكنيسة في نُضجها متعطشة غاية التعطّش لمعرفة المزيد عن المسيح إلهها لتردّ به شوقها إليه وترد على الذين يعيرونها كل يوم أين ومن أين جاء إلهها!! حينما وقفت أمام نشاط وثني وفلسفي منقطع النظر ولا قبَل لها بمواجهته إلا بقوة إيمان وحب!

ونحن نعلم ما هي أفسس ومن هم الذين كانوا في أفسس سواء أيام بولس الرسول أو أيام كتابة سفر الرؤيا. فسفر الأعمال يحكي ضمن ما يحكي عن مغامرات بولس الرسول هناك هكذا: «ثم سَكَن الكاتب الجمع (الهائج ضد بولس) وقال أيها الرجال الأفسسيون من هو الإنسان الذي لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس الإلهة العظيمة والتمثال الذي هبط من زَفُس» (أع ١٩: ٣٥). فأفسس كانت إحدى مواطن الحضارات اليونانية وكانت تموج بالآلهة الكاذبة وعُبادها هم أقوى الفلاسفة والمعلمين وغيرهم من أدباء اليونان ذائعي الصيت، وشعرائهم الأفذاذ الذين ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة والجمال والحب والمجون والفضن، واجتذبوا إلى صفوفهم

حتى من الطبقات العليا ذوي المعارف الفلسفية من المسيحيين وأصلوهم. ولقد جال القديس بولس الرسول جولاته الأولى في هذه المناطق، واستقطب غليان هذا النشاط المفرط في المعرفة الفلسفية وطوّعه بكل الجهد، وعن أصالة روحية وإقناع إلهي، وذلك لحساب المسيح باعتراف الوثنيين أنفسهم « وأنتم تنظرون وتسمعون أنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاع بولس هذا جمعاً كثيراً... فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة. » (أع ١٩ : ٢٦ و ٢٧)

فلما دخل الإيمان المسيحي في الصراع مع منطق الفلاسفة، كان الإيمان مجرد قوة فعّالة تستمدّها الكنيسة من حياة المسيح، كما في الأناجيل الثلاثة، تلهبها قوة صليبه. ولكن كان يعوزها منطق « الكلمة »: مَنْ هو المسيح ومن أين أتى؟ إزاء آلهة الفلاسفة التي هبطت من زُفُس؟ وهكذا ظهرت الحاجة أشد ما تكون الحاجة إلى « اللوغُس » النازل من السماء باسم الآب، والصاعد إليها بمجد الله، والعتيد أن يأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته. ثم كان يعوز الكنيسة في محنة هذا الصراع الفلسفي التعبير عن الحق الذي لها وفيها، لا بالمنطق الفلسفي الأرضي، بل بالمنطق والإقناع الإلهي بحسب فكر المسيح ونُطقه، فجاء دور المعايير الروحية الفائقة التي هي كنوز الكنيسة والتي غطّاها المسيح جميعها في عظمته المتوالية في إنجيل القديس يوحنا. ونجحت أيتها نجاح على أساس خبرة القديس يوحنا « ومن ملته نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً » (يو ١٦ و ١٧). وقام الروح القدس في هذا الصراع الرهيب بعمله السري والعلني: « ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق » (يو ١٦ : ١٣). ولما عزّت الشهادة شهد: « فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً » (يو ١٥ : ٢٦ و ٢٧). ولما شاءوا أن يرفعوا من قدر المسيح ويمجّدوه في أعين المتعظمين بعلمهم انبرى الروح يمجّد « ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم » (يو ١٦ : ١٤). ولم تكن الوثنية ولا الفلاسفة والأدباء اليونان هم وحدهم الجناح الذي دخل الحرب الطاحنة ضد المسيحية أيام القديس يوحنا الرسول، بل واليهود أيضاً كانوا يشكّلون الجناح الأكثر حقداً وإثارة، الذين كانت لهم أكبر جالية في العالم بجوار مدينة أفسس، وكان لها مجمع ضخم ذكره المسيح في سفر الرؤيا بالأسى والحزن « اكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا هذا يقوله القدوس الحق... ها أنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون. ها أنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجلك ويعرفون أنني أنا أحببتك. » (رؤ ٣ : ٧ و ٩)

كان هذا هو دور إنجيل القديس يوحنا الذي أعدّه الله وسلّحه بكل أسلحة الدفاع عن الحق والحياة للمحنة الكبرى التي أتت على الكنيسة من جناحي عالم الظلمة. ولكن نجحت الكنيسة

بإنجيلها وواجهت أخطر منحدراتها التاريخية بعد أن انتقل مركز وجودها الرسولي الأول من موطنه فلسطين بعد أن حُرِّبت أورشليم وهُدِّم وُحِرِّق هيكلها، إلى أفسس في قلب العالم الوثني المتسلح بضراوة بكل أسلحة الضلال.

ولكن لم تكن الكنيسة تواجه صراع الخارج السافر وحده سواء من فلاسفة أو يهود متعصبين — غير يهود^(١) — بل وكانت تواجه فراغاً مخيفاً من داخلها شعر به أساقفتها وشعبها خاصة من اليهود الذين دخلوا الإيمان المسيحي بتراث عبادتهم الأولى الزاخر بالقوانين والنواميس. الكل بدأ يطالب بمعالجة المشاكل والتساؤلات التي نشأت كحتمية فرضتها توقف العبادة اليهودية بعد خراب أورشليم ونزوح اليهود منها سنة ٧٠م. فأين سيكون مركز العبادة المسيحية؟ في أورشليم أم في جرزيم؟ أم في روما. ثم كيف ينبغي أن يكون السجود؟ وما عدده وما أصول التطهيرات اللازمة لحصوله؟ كل هذا وخلفية الكنيسة الذهنية نشطة من جراء تعاليم القديس بولس الرسول الذي شجب هذا كله وأمر ببطلان الإتكال على أعمال الناموس، وعدم توشط الفرائض التي تؤدَّى جسدياً، والمناداة بحرية البنين، وإعطاء الأهمية القصوى للإيمان الشخصي للفرد، وعمومية الإنجيل والإيمان لكل الأمم، واستعلان لاهوت المسيح كأساس للإيمان وكقوة فعالة تعمل عملها لخلقة الإنسان خلقاً روحياً. هذا كله أصبح على ألسنة الأساقفة قبل الشعب، أسئلة تحتاج إلى شرح إنجيلي، تقدم بها الأساقفة رسمياً إلى القديس يوحنا بإلحاح ضاغط مع توسل وصلاة وصوم لكي يكتب إنجيله بصفته الرسول الوحيد على قيد الحياة وهو الذي عاين وشهد وشهادته حق باعتبار الجميع. وبحسب التقليد ارتضى القديس يوحنا بضغط آخر من الروح القدس أن يكتب إنجيله. وهذا ما يقوله التقليد من الشرق والغرب.

يقول القديس إكليمندس الذي عاش (١٥٠-٢١٥م):

[إن التقليد الذي استلمناه هو أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية τὰ σωματικά صارت واضحة في الإنجيل (الثلاثة أناجيل الأولى) ألح عليه أحبائه. وبإلهام الروح القدس كتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον]^(٢) هذا تقليد الشرق.

ثم جاءنا التقليد من الغرب في وثيقة موراتوري والمعروف أنها هيبوليتس. وهذه الوثيقة يرق تاريخها إلى سنة (١٦٠-١٧٠م). تقول الوثيقة:

(١) «وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ: ٢: ٩)

² Euseb., Eccl. Hist. VI, 14, 7.

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ، إذ عندما توسل إليه زملاؤه التلاميذ والأساقفة في ذلك قال صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعض بكل ما يوحى به الله إلينا. وفي هذه الليلة عينها أعلن لأندراوس أحد الرسل (السبعين) أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علّمت بها الأناجيل الأخرى وكلها استُعلنت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد والآلام والقيامة وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول والثاني، الأول باتضاع وتواضع وقد أكمله، والثاني يأتي بالمجد وبالقوة الملكية. فأني عجب، إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بأذاننا ولمسناه بأيدينا». هذه الأمور كتبها *Scriptusimus* لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.]^(٣)

كما يصادق القديس إيرينيئوس على ما جاء في الوثيقتين، وقد سجّلنا كل أقواله في هذا الكتاب.

بهذا يتأكد لنا أن إنجيل القديس يوحنا اختص في التقليد بالروحانية واللاهوتية. وهذا تسجّل في قانون الأسفار المقدسة عدة مرات. ويقول عنه القديس أغسطينوس ما يلي:

[إن كل هذه الأناجيل الثلاثة لم تفارق نظرتها للأمور الأرضية إلا قليلاً يعني الأشياء التي أكملها المسيح على الأرض. أما بخصوص لاهوته فإنها جاءت قليلاً جداً. إذ تحدثوا بصفاتهم بشراً يسرون معه على الأرض، أما هذا الأخير هذا «النسر» يوحنا المبشر بالحقائق العليا فهو الذي حدّق بنظره مثبتاً إياه نحو النور العميق الأزلي] (العظة السادسة والثلاثون).

كذلك جاء في نفس هذه العظة:

[إن القديس يوحنا ليس كأنه بلا استحقاق من جهة العمق في الروحانيات شبّهه بالنسر فهو قد رفع بشارته أعلى وأسمى كثيراً عن الثلاثة أناجيل الأخرى] (العظة السادسة والثلاثون).

ولكننا مع كل هذه الشهادات بخصوص القيمة اللاهوتية التي اختص بها إنجيل القديس يوحنا، نود لو نخفّض قليلاً من علياء أغسطينوس وغُلوائه، فالأناجيل الأخرى وإن كانت قد قسّطت في استعلان لاهوت المسيح إلا أنها ما قصّرت قط وما أنقصت، فلاهوت المسيح يدمفها منذ بدء

³ Muratori, cited by: Barrett, Acc. to St. John., pp. 96, 97.

صفحاتها: «وهو ابن العليّ يُدعى» (لوقا: ٣٢)، «القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لوقا: ٣٥)، «ويُدعى اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (متى: ١: ٢٣)، «وهذا هو الذي سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (متى: ٣: ١١، لوقا: ٣: ١٦)؛ وهل ننسى أول آية جاءت في إنجيل القديس مرقس هكذا: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله» (مرقا: ١: ١)، وهي آخر آية جاءت في إنجيل القديس يوحنا «لكي تؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله» (يوحنا: ٢٠: ٣١)؛ ولكن كانت كل هذه الشهادات تحتاج بالفعل إلى شرح لاهوتي مفصّل من فم المسيح مع تطبيق بالآية المباشرة.

نفهم من هذا أن كتابة إنجيل القديس يوحنا في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الكنيسة كان حصيلة إرادة إلهية استجابة إلى حاجة كنسية أمثلتها ظروف تتعلق بحياة المؤمنين ونضجهم الروحي وبحياة الكنيسة واستمرار وجودها.

لذلك صَحَّ القول أن إنجيل القديس يوحنا هو أصدق وثيقة تصوّر لنا حالة الكنيسة المسيحية في ختام القرن الأول.

ولكن يلزم قراءة هذه الوثيقة، أي إنجيل القديس يوحنا هذا، على أصول لاهوتية قبل الأصول التاريخية مع دراسة واستقراء لنفهم ما فهمناه معاً الآن وأكثر.

ونحن لا نستطيع أن نختم مقدمتنا هذه عند هذا الحد؛ إذ يتحتم علينا أن نضيف، أن إنجيل القديس يوحنا كُتب في زمانه ليس لمواجهة صعاب زمانه وحاجة زمانه فحسب. فقد أسس الروح القدس هذا الإنجيل لكي يكون سهماً مبرياً في كف الكنيسة وسلاحاً مشهوراً في وجه الباطل أينما وُجد في أي زمان ومكان، والتاريخ يقص علينا ذلك:

فقد دخلت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي في حربها الضروس ضد آريوس الكافر الذي أنكر لاهوت المسيح ودوّخ الكنيسة مع أتباعه، وأتباعه كانوا أساقفة صفّا وراء صف، لأنها كانت رجعة تنذر بالخطر الويل، وقف فيها القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية ورئيس أساقفة مصر يحارب وحده، ولكن كان إنجيل القديس يوحنا هو معتمده، وكان سلاحه الأول والأمضى «تجسد الكلمة»، فهذا المعيار خير من يدافع به عن لاهوت المسيح. وكان إنجيل القديس يوحنا بمثابة الحصاة الناعمة في مقلع داود التي غرسها في جبين جليات فأرداه صريعاً إزاء ما عيّره به إله إسرائيل، هكذا فعل أثناسيوس وهكذا صرع الآريوسية التي عيّرت الكنيسة في إلهها، فخرّت صريعة تحت رجليه وهو رافع إنجيل القديس يوحنا نحو السماء ينطق بقانون الإيمان الذي اعتمدته الكنيسة حتى اليوم.

وبعد القديس أثناسيوس بقرن من الزمان قام نسطور ليزعج الكنيسة من نحو إيمانها وأيضاً من جهة لاهوت المسيح وناسوته ففرّقها إلى اثنين كما إلى مسيحين. وهكذا بطعنة مسمومة أراد هدم الإيمان الأرثوذكسي من أساسه. فانبرى له القديس كيرلس الكبير أسقف الإسكندرية أيضاً ورئيس أساقفة مصر، شاهراً نفس السلاح — إنجيل القديس يوحنا — و «بالكلمة صار جسداً»، وما يؤول إليه هذا المعيار اللاهوتي من الحقائق الزاخرة بالمعاني؛ انطلق القديس كيرلس الكبير في حربه حتى دارت دائرتها على نسطور فانهزم وولّى، وارتفع قرن كنيسة الإسكندرية فوق العالمين وفي يدها أيضاً إنجيل القديس يوحنا مع الإيمان القويم.

ولكن كان لا يزال يخفي الدهر حربه الأمضى سلاحاً ضد هذا الإنجيل نفسه لأنها كانت حرباً مزينة بالعلم ومسلّحة بالفلسفة والتاريخ فكانت أخطر الحروب. لأن الحروب السالفة صوّبت ضد الكنيسة من خارجها، فكان إنجيل القديس يوحنا دِرْعَها وسلاحها فغلبت به وغلب هو لها! أما هذه الحرب فجاءت مصوّبة ضد صحة هذا الإنجيل ومضداقته وكأنما شاء رئيس هذا العالم أن ينتزع من الكنيسة أعزّ وأمضى سلاح لها، فعلى مدى مئتين من السنين تضافرت قوى العقول الجبارة لمؤرخين وفلاسفة وعلماء لاهوت من ألمع الشخصيات قامت تنقذ إنجيل القديس يوحنا؛ من جهة زمان كتابته قالوا أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، ومن جهة كاتبه أنكروا على القديس يوحنا الرسول كتابته، ومن جهة تقليده الخاص قالوا أنه مأخوذ من رسائل بولس الرسول، ثم قالوا لا بل مأخوذ من الثلاثة الأناجيل الأخرى، ومرة وهذا هو الأمرُ قالوا أنه من مصادر عديدة منها الغنوسية والمناوية التي تعتبر يوحنا المعمدان مسيحها، ومنها مخطوطات وادي القمران اليهودية، ومنها فيلو العلامة اليهودي ومنها الأسفار الخاصة بالحكمة. وأخيراً وما أخطر هذا الأخير قالوا أنه بجانب التاريخ ولا يتبع خط التقليد التاريخي للأناجيل لذلك لا يُعتبر إنجيلاً! غير ما قالوا أن الكنيسة ليست ممثلة فيه، وأن الأسرار الكنسية غائبة عنه. ولم يُبقوا فيه على شيء صالح!

ولكن الله — في وسط هذه الترهات التي بُليت بها جامعات وكلّيات اللاهوت في أوروبا وأمريكا — قَبِضَ لهذا الإنجيل نخبة من أنقى رجال الروح واللاهوت تبوأ أغلبهم رئاسة جامعات وكلّيات لاهوت أيضاً وكراسي أسقفيات، حيّا الله أساقفة كراسي أكسفورد ودورهام ومانسفلد بانجلترا لأنه من بين الذين جلسوا على هذه الكراسي بالذات انبرى ثلاثة منهم على التتابع هم علماء لاهوت عظام مشهود لهم بالتقوى والإقتدار تصدوا لهذه التيارات فصّدوا وفنّدوا وردّوا حتى كسروا حدة هذا الهجوم النقدي المريع وذلك مع غيرهم من عشرات العلماء الأوفياء في ألمانيا وفرنسا، وانجلترا على وجه الخصوص، وقد أتينا على ذكر كثير منهم في كتابنا هذا. وبدفاعهم الحرّ أخرجوا إنجيل القديس يوحنا بعد مائتي سنة سليماً مبرّأً على قدر ما أعطاهم الروح وعلى قدر ما سمحت به

تَقْنِيَّةُ الْعِلْمِ الشَّحِيحَةُ فِي تَمْشِيهَا مَعَ الرُّوحِ .

وهنا يمكننا بشيء من الإطمئنان أن ننهي هذه المقدمة ، لهذا الكتاب الذي سميناه «المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا» . وقصدنا من إصداره أن يكون تمهيداً لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا ، لأنه يصعب إلى حد كبير البدء في شرح هذا الإنجيل قبل أن يكون القارئ قد أصبح على وعي عام بالمبادئ والإصطلاحات والرموز والخطوط العامة التي يسير عليها هذا الإنجيل .

وأملنا أن يقرأ القارئ ويتأني ولا يعبر على التوضيحات التي فيه سريعاً بل يحتفظ بها في ذاكرته . فهذا هو قصد الكتابة الأساسي من هذا المدخل حتى يتجلى الشرح فيما بعد أمامه ، وتُستعلن له كنوزه ومكنوناته .

مقّماً الشكر لله الذي قوّاني حتى أنهي من هذا الكتاب ،
بالرغم من ضعفه وهزال إمكانياتي ،
داعياً للقارئ بالنعمة الإلهية الفائضة من هذا الإنجيل ؛؛؛

الأب متى المسكين

الباب الأول

إنجيل القديس يوحنا

كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول

القديس يوحنا الرسول

١ - شخصيته:

هو كاتب الإنجيل الرابع بحسب التقليد الكنسي، الأمر الذي سنعود إليه بالتفصيل .
وهو - غالباً - الإبن الأصغر لأبيه «زبدي» وأمه «سالومة» التي استقرأنا اسمها من مطابقة الآيتين: «وكانت أيضاً نساءً ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة» (مر ١٥ : ٤٠)؛ «وكانت هناك نساءً كثيرات ينظرن من بعيد وهن كُنَّ قد تَبَعْنَ يسوع من الجليل يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي» (مت ٢٧ : ٥٥ و ٥٦). وواضح أنها كانت تتبع المسيح أيضاً كتلميذة وتخدمه من أموالها الخاصة، وظلت تتبعه حتى الصليب والقبر، فكانت من اللواتي حملن الطيب يوم الأحد لتحنيط الجسد: «وتبعته نساءً كُنَّ قد أتبن معه من الجليل وتظرُنَّ القبر وكيف وُضع جسده، فرجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرخن حسب الوصية» (لو ٢٣ : ٥٥ و ٥٦)؛ «وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطاً ليأتين ويذهبنه». (مر ١٦ : ١)

والإنجيل يركّز بشدة على تقوى هذه السيدة العظيمة سالومة (سالي، كما يختصرها الفرنجة)، فيوحي إلينا بأنها كانت مشبعة بروى المجد الآتي ومتيقنة من شخصية المسيا الذي كانت تخدمه. فهي التي يقدمها لنا إنجيل القديس متى: «حينئذ تقدمت إليه أم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها: ماذا تريدان؟ قالت له: قل أن يجلس ابناي هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك» (مت ٢٠ : ٢٠ و ٢١). وهذا يعطينا انطباعاً عن خلفية الأسرة التي نشأ فيها القديس يوحنا الذي كان يصغر الرب بعشر سنين، ولكن لشدة غيrote ومحبة للمسيح صار أقرب إلى قلب المسيح لأنه كان أيضاً أصغر التلاميذ سناً. وفي التقليد اليهودي، فإن الأصغر في الأولاد يجلس دائماً على شمال أبيه تعبيراً عن الأقرب للقلب، وهذا سنراه في طقس العشاء الأخير.

أما «زبدي» أبوه فكان صاحب مركب للصيد في بحيرة جنيسارت (طبرية) ويقتني صيادين أجراء مما يدلُّ على تيسُّر حاله (مر ١: ٢٠). وكانت العائلة من بيت صيدا تحترف الصيد: «ثم اجتاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه وهما في السفينة يصلحان الشباك» (مر ١: ١٩). ودعوة يوحنا جاءت مع دعوة أخيه يعقوب لأن بقية الآية السابقة تقول: «فدعاها للوقت فتركا أباهما زبدي في السفينة مع الأجرى وذهبا وراءه» (مر ١: ٢٠). ولكن يعقوب المدعو بـ «الكبير» استشهد كأول شهيد من الرسل سنة ٤٤ م.^(١) والمعروف في التقليد أن سالومة هي أخت مريم أم الرب، فيوحنا يُعتبر بالتبعية ابن خالة الرب. ومن هنا بدأت التلمذة على كل مستوياتها التي أهَّلته أن يسجل حتى نبضات قلب الرب.

٢ - ألقابه:

لقد لقَّبه الكنيسة بـ «اللاهوتي» و«يوحنا البتول» و«يوحنا الحبيب» و«التلميذ الذي يحبه يسوع» و«ابن الرعد» و«النسر الطائر في الأعالي» و«رسول المحبة» و«رأي العهد الجديد المبشر بالسماوات الجديدة والأرض الجديدة، الذي قاس أورشليم الجديدة طولاً وعرضاً ونظر العرش السماوي وعانين الحياة الأبدية وعاشها».

ويوحنا في التقليد^(٢) يُرسم دائماً بوجه هاديء وديع كوجه امرأة ويجعلون تحت قدميه نسياً حاداً البصر شديد المراس كمحاولة للتعبير عن شخصية يوحنا الوديمة المتحفظة والذي هو في نفس الوقت جسور ملتهب غيرةً. وهكذا يراه القديس أغسطينوس في عظته السادسة لشرح إنجيل يوحنا: [ليس جديداً على آذانكم، يا أحبة، أن يوحنا الإنجيلي يشبه النسر الذي يخلق في العلاي مرتفعاً فوق أجواء الأرض المعتمة ليثبت نظره بعينين تخترقان نور الحق.]

وتحفُّظه الشديد هو الذي دعاه لِيُسْقِطَ اسمه عمداً من إنجيله ليتوارى عن أعين الناس، بل وأسقط اسم أمه سالومة واسم أخيه يعقوب واسم القديسة العذراء مريم، وفي نفس الوقت هو نفسه الذي طار وخلق في الأعالي واخترق لا السموات فحسب بل والزمان أيضاً وعانين أسرار الله في الأزل وكشف طبيعة «الكلمة»: «في البدء كان الكلمة.» (يو ١: ١)

ويوحنا متحفُّظ، محترق بالمحبة الإلهية متحد بالرب ذهنياً وقلباً.

وليس من بين البشر جميعاً من استطاع مثل يوحنا أن يخترق أعماق طبيعة الله فيرى جوهره،

(١) أع ١٢: ٢.

² Jerome, Comm. ad. Matt., PG VIII, 10.

المحبة، «الله محبة» (١ يوحنا ٤: ٨)؛ ويرى لاهوت المسيح قبل مولده بالجسد: «وكان الكلمة الله» (يوحنا ١: ١)، بل ويستعلن «الحياة الأبدية» ويلمسها: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسه أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١ يوحنا ١: ٢ و١)

عاصر المناداة بالملكوت على يد المعمدان منذ أول لحظة وتفتحت أذناه على البشارة الأولى لعهد النعمة المجانية: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا ١: ٢٩). لم ينسَ يوحنا قط هذه اللحظات الأولى من حياته وهو ينتقل من تحت يد المعمدان إلى تحت رجلي المسيح وهو ابن عشرين سنة، فظل محتفظاً بها في قلبه يرددها على مدى الليالي والسنين حتى سجلها وهو ابن مئة سنة (٣).

٣ - صفاته كما تظهر في الإنجيل:

يوحنا كباقي التلاميذ كلهم من الجليل، وإن كانت اليهودية هي الموطن الأصلي للعائلة — بيت لحم اليهودية. أما يهوذا الإسخريوطي فكان من اليهودية. ولو أن الجليليين كانوا في عُرف المتحذلقين من الفريسيين جهلة (أع ٤: ١٣)، أي لا يجيدون حفظ تقاليد الربيين، إلا أنهم كانوا معروفين بغيرتهم الملتزمة ذوو بأس وأبطال لهم نفس مسحة أجدادهم الأوائل وروحهم المكافحة الوثابة. ونحن لا ننسى كيف اتحدت كلمتهم مرة أن يسكوا المسيح بالقوة ويجعلوه ملكاً، لولا أنه خرج من وسطهم واختفى عنهم (يوحنا ٦: ١٤ و١٥).

كان يوحنا واحداً من هؤلاء، إلا أن الإنجيل يذكر أن يوحنا كانت له صلة برؤساء الكهنة «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة» (يوحنا ١٨: ١٥)، (التقليد في الكنيسة يشير إلى أنه كان كاهناً (٤))، مما يكشف عن المستوى الخاص الذي يلمح به يوحنا عن نفسه من جهة درايته بالشؤون الدينية العليا وسياسات رؤساء الكهنة وعن درايته التعليمية الخاصة. ومهنة الصيد لا تمنع أن يكون يوحنا كاهناً — كما يظن بعض المؤرخين — وأن يدرس تحت رعاية أمه سالومة التقية على أيدي معلمي اليهود. وبقينا أنه تعلم كثيراً أثناء تلمذته للمعمدان عن كل ما يختص برجاء إسرائيل وملكوت الله الآتي سريعاً.

ولم يكن يوحنا فقط من الإثني عشر بل وكان أيضاً المحبوب من بين الثلاثة المختارين بطرس

(٣) القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد أنه كتب إنجيله وهو ابن مائة سنة وعاش بعدها عشرين سنة أيضاً:

Exell, Rev. J.S., The Biblical Illustrator, Saint John, London 1905, vol. 1, p. vii.

⁴ Euseb., Hist. Eccl., III, 31; V, 24.

ويعقوب ويوحنا. وإنه وإن ذكر على مدى الأحداث كآخر الثلاثة، إلا أنه في النهاية وعند الصليب انكشف سر العلاقة العظمى التي كانت تربطه بالرب، ومستوى الثقة التي لا تُحْدُ عندما تسلّم من فم المسيح أغلى وديعة تركها المسيح على الأرض: «فلما رأى يسوع أمّه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.» (يو: ١٩: ٢٦ و ٢٧)

وهنا يقول المؤرخ «فيليب شاف»^(٥) أنه يبدو أن القديس يوحنا كان يمتلك بيتاً خاصاً في أورشليم وهو الذي أخذ إليه القديسة مريم حالما سلّمها له المسيح على الصليب، [لذلك أيضاً لم يحضر القديس يوحنا ولا العذراء مريم مراسم دفن المسيح] وهنا يتحفنا العلامة أوريجانوس^(٦) في تأملاته بخصوص قول المسيح «هوذا ابنك» فيقول إن العذراء ليس لها إلا ابن واحد هو المسيح^(٧)؛ فبقول المسيح للعذراء «هوذا ابنك» فكأنه يقول لها عن يوحنا، هذا هو المسيح!!، ثم يعود أوريجانوس ويقول: «أليس كل من يحيا بتقوى المسيح يمكنه أن يقول أيضاً لستُ أحيا أنا بل المسيح يحيا فيّ؟» وهكذا يريد أوريجانوس أن يرفع من مرتبة القديس يوحنا كاتب إنجيل المسيح، وكأنه يقول أنه مع شركة سِرّ الأم وبروح المسيح كتب يوحنا إنجيل المسيح، وهكذا كل [من أراد أن يشرح هذا الإنجيل أو يفهمه فعليه أن يتكئ على صدر يسوع وأن يأخذ العذراء شفيعة].

ويوحنا هو التلميذ الذي اتكأ على صدر يسوع وعرف سِرّ الحائن. فعندما خرج يهوذا في الظلام بعيداً عن قلب المسيح كان يوحنا في النور أقرب ما يكون من القلب المجروح يُطَيَّب بالأمانة جُرح الخيانة.

يوحنا عاين مع التلميذين الآخرين يوم التجلي وسمع الصوت من المجد الأسنى يشهد للإبن الحبيب. ولكن العجيب أن يوحنا لم يسجل في إنجيله حادثة التجلي متشبهاً بأنه كان يعيش التجلي كل يوم مع المسيح: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو: ١٤: ١٤). ويوحنا أيضاً أحد الثلاثة الذين رافقوا الرب مع باقي التلاميذ في جثسيماني وكانوا على قُرب. ولكن لم يسمع أحد الصلاة التي صلاها وسجلها كلمة كلمة إلا يوحنا!!

ولكن يوحنا كان الوحيد الذي حضر كل محاكمات الرب عن قرب؛ ولا يفوتنا هنا أن ننوّه أن القديس يوحنا رافق الرب بشجاعة نادرة وجسارة وإقدام، فكان وهو في وسط المحاكمات

^٥ NPNF, 2nd series, vol. XIV, p. 4, note 9.

^٦ Origen, Comm. on John, ANF, vol. X, p. 300.

(٧) شهادة متقدمة من تقليد الكنيسة على أن المسيح لم يكن له أخوة من أمه.

والإتهامات في أمان كل الأمان ونجا. أما بطرس فرافق من بعيد والخوف والرعدة جعلاه يستبق نفسه مع العبيد والخدم، وخوفه وبُعده عن الرب أوقعاه في الإنكار والتجديف. وسار القديس يوحنا في موكب الصليب والمذراء تتوسد كتفه حتى الجليظة، فاستحق أن يفوز بهذه الجوهرة في بيته. وتمّ رجاء سالومة أمه، فقد وقف عن يمين عرش الصليب في مُلكه الغالب! ولكن كم بكى وكم سالت الدموع! وظل يوحنا رابط الجأش يتأمل ملياً في معلّمه المصلوب ولكن دون أن تلمحه الأم الحزينة التي وقف يشاركها وقفها المصلوبة وقد جاز في قلبها السيف تماماً كنوبة سمعان الشيخ (لو: ٢٥: ٣٥).

يوحنا كان أول من نظر القبر فارغاً والأكفان وحدها موضوعة، فأمن أنه قام. يوحنا أول من تعرّف على الرب عندما ظهر بعد القيامة لتلاميذه على بحيرة طبرية (يو: ٢١: ٧). وهذا ليس بحذق العين الفاحصة بل بالروح الكاشفة.

٤ - «بوانرجس»:

عجيب هذا الإسم الذي أعطاه الرب ليوحنا وأخيه يعقوب: «ابني الرعد» (مر: ٣: ١٧). فالمعروف عن «الرعد» أنه التعبير اليهودي عن صوت الله «إله المجد أرعد» (مز: ٢٩: ٣)، وكأن التسمية تحمل سر التعبير عن صوت أو كلمة الله. والمعروف أن المسيح شبّه نفسه أيضاً بالبرق «... كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه» (لو: ١٧: ٢٤). ولا يمكن أن تبرق السماء دون أن ترعد. وهكذا تأتي التسمية بإحكام أن يوحنا ابن الرعد سيشهد للنور والكلمة.

وعجيب أن يشهد يعقوب للمسيح مبكراً، فكان بداية الرعد، إذ كان أول من استشهد من الرسل تحت سيف هيرودس «وفي ذلك الوقت مدّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (أع: ١٢: ١ و٢). فطارت روحه ترعد بالشهادة في أنحاء السموات كلها. أما يوحنا فكان آخر دممة للعهد الرسولي أرعدت بالشهادة للنور ولا يزال صداها تتجاوبه السموات والأرض بإنجيله الحي حتى يجيء يوم البرق الموعود: «قال له (أي لبطرس الرسول) يسوع: إن كنتُ أشاء أنه (أي يوحنا) يبقى حتى أجيء فماذا لك؟...» (يو: ٢١: ٢٢). وإن وعد الرب ببقاء يوحنا حتى يجيء أليس يعني استمرار صوت إنجيل يوحنا الذي ما يكف عن أن يرعد معلناً عن النور الحقيقي في العالم كله حتى اليوم وإلى النهاية؟

٥ - رسول المحبة:

هذا اللقب هو صدق لروح بشارته الملتبة بالمحبة سواء في إنجيله أو رسائله. اسمعه يقرر: «كلُّ

من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومن لا يحب لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١ يوح٤ : ٨ و ٧). هكذا عاش يوحنا الرسول بهذا المفهوم اللاهوتي للمحبة معتبراً أن محبة المسيح هي الحياة الأبدية كمعادلة عملية لا تقبل النقاش: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة»، «من لا يحب أخاه يبق في الموت»، بل إن «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١ يوح٣ : ١٤ و ١٥). هكذا المحبة عند القديس يوحنا الرسول تعادل الحياة الأبدية بل وتعادل «النور»: «مَنْ قال إنه في النور وهو يبغض أخاه فهو إلى الآن في الظلمة. من يحب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة.» (١ يوح٢ : ٩ و ١٠)

والمحبة عند القديس يوحنا الرسول ليست مسألة فكر أو عاطفة: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق. وهذا نعرف أننا من الحق ونسكن قلوبنا قدامه.» (١ يوح٣ : ١٨ و ١٩)

أما مصدر المحبة العامل والمتأجج في القلب فصدره الوحيد محبة الله التي استعلنت بمجيء المسيح: «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١ يوح٤ : ٩). وكان عمل محبة الله في حياتنا متركّزاً ومتأسّساً في رفع قوة الخطية المميتة عن طبيعتنا: «في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله (أولاً) بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا» (١ يوح٤ : ١٠). لهذا أصبحت المحبة تعني رباط الحياة، أو شركة في عدم الموت! «نحن نجه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١ يوح٤ : ١٩)

أما أي من الإثنين أولاً، هل نحب الله أم نحب الإخوة؟ فيرد يوحنا على ذلك هكذا: «ولنا هذه الوصية منه أن مَنْ يحب الله يحب أخاه أيضاً» (١ يوح٤ : ٢١)، ولكن هونفسه يقول: «من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره» (١ يوح٤ : ٢٠). بمعنى أن النجاح في محبة الإخوة دليل على النجاح في محبة الله. هكذا يضع القديس يوحنا الطريق العملي للمحبة ويكشف سرّها العجيب أنها دائماً تبدأ من الله وإلى الله لتفيض على الآخرين.

وإن هذين اللقبين «ابن الرعد» و«رسول المحبة» يظهران بصورة واضحة في حياة القديس يوحنا الرسول، فرة نجده في غيرته وحماسته للرب يسأل — بصفته ابن الرعد — أن ناراً تنزل من السماء لتفني أهل السامرة حينما رفضوا أن يعبر الرب في أرضهم وهو متجه إلى أورشليم (لو٩ : ٥٣ و ٥٤). ثم هونفسه وبغيرته نفسها — بصفته ابن المحبة ورسولها — يذهب بعد ذلك مغلوباً من محبته إلى أهل السامرة أنفسهم ليكرز لهم ويهبهم الشفاء والعماد وإعطاء موهبة الروح القدس «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما

نزلوا صلياً لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنه لم يكن قد حلّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذٍ وضعوا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع ٨: ١٤-١٧)

كما يظهر تبادل انطباع هذين اللقبين في كل مواقف كتاباته، فإن أشدَّ وأعنف مواقف المسيح مع أعذب وأرقِّ مجاملاته وتعاليمه يجمعها معاً في سهولة ويُسْر. فخير عرس قانا الجليل بلطفه وبركاته المشبعة بروح المجاملة والإيناس استطاع أن يجمعه القديس يوحنا في أصحاب واحد مع خبر تطهير الهيكل تلك العملية العنيفة التي استلزمت استخدام السياط وقلب موائد الصيارفة وتوبيخه الصارم لحفظة الهيكل ورؤسائه.

وحتى سفر الرؤيا المملوء بالرعود والبروق والويلات لا يعدم مواقف للسلام ونشيد الراحة مع صورة مشرقة للسماء الجديدة والأرض الجديدة ونهر الحياة البللوري وأورشليم العروس المزينة لعريسها وانتهاء عهد الحزن والكآبة والتنهد.

٦ - القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر أعمال الرسل:

أصبح القديس يوحنا معتبراً في الكنيسة الأولى أحد الأعمدة الثلاثة: بطرس ويعقوب ويوحنا. أما عمله في هذه الفترة الأولى من حياة الكنيسة فيكاد يكون بلا مظهر براق مع أنه كان من أهم وأخطر الأعمال التي قام بها الرسل المسئولون بالنسبة للكنيسة الخالدة على ممر الدهور وهو التوفيق بين كنيسة الختان (اليهود) وكنيسة الغُرلة (الأمم) ووضع الأساس اللازم للداخلين إلى الإيمان من الأمم. ويذكر ذلك القديس بولس الرسول: «فإذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنامجاً يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (غل ٢: ٩). وهذه إشارة إلى تبادل أسس الإيمان بين القديسين يوحنا وبولس وبطرس.

ويقدّم سفر الأعمال يوحنا الرسول باعتباره الشخصية الثانية بعد بطرس الرسول في قوة البشارة وإتيان الأشفية والعجائب وقيادة كنيسة المسيحية الأولى. وهكذا أيضاً اعتبره سنهدريم اليهود حينما قبضوا على القديسين بطرس ويوحنا للمحاكمة، ولكنها أفحماهم بإجابات قاطعة فأطلقوها. «فدعوها وأوصوها أن لا ينطقا البتّة ولا يُعلّما باسم يسوع. فأجابهم بطرس ويوحنا وقالوا إنّ كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا. لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا. وبعد ما هدّدوها أيضاً أطلقوها إذ لم يجدوا البتّة كيف يعاقبونها بسبب الشعب. لأن الجميع كانوا يعجّدون الله على ما جرى. لأن الإنسان الذي صارت فيه آية الشفاء هذه كان له أكثر من أربعين سنة.» (أع ٤: ١٨-٢٢)

وقد تصدر القديس يوحنا مع القديس بطرس أول إرسالية للكنيسة خارج أورشليم: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا» (أع ٨: ١٤). وعاد القديس بطرس مع القديس يوحنا إلى أورشليم مركز كرازتهما: «ثم إنها بعد ما شهدا وتكلمتا بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبشرا قرى كثيرة للسامريين» (أع ٨: ٢٥). ولكن عند هذه الإشارة يتوقف سفر أعمال الرسل عن متابعة رسالة القديس يوحنا. إذ يبدو أنه غادر أورشليم حوالي سنة ٤٩ م.^(٨) أي بعد مجمع الرسل الأخير الذي حضره جميع الرسل والمشايع وكل الكنيسة (أع ١٥: ٢٢ و ٣٢؛ غل ٢: ٩). إذ لا نسمع عنه عند زيارة القديس بولس الرسول إلى أورشليم في المرة الخامسة والأخيرة التي حدثت سنة ٥٨ م.، وربما يكون ذلك بسبب نياحة القديسة العذراء مريم، لأنه معروف في التقليد أنها تنيحت حوالي سنة ٤٨ م.، بينما غادر هو أورشليم بعد نياحتها مباشرة^(٩)، وربما يكون قد ذهب إلى أنطاكية ومكث هناك مدة قبل استدعائه إلى أفسس^(١٠).

٧ - القديس يوحنا الرسول في أفسس:

سفر الرؤيا يقدم لنا تأكيداً قاطعاً أن القديس يوحنا الرسول كان على رأس كنيسة أفسس، وكان مسئولاً أمام الله عن جميع كنائس آسيا السبع في ذلك الوقت: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا»، «وسمعت ورأي صوتاً عظيماً كصوت بوق»، «الذي تراه أكتب في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس التي في آسيا، إلى أفسس وإلى سميرنا وإلى برغامس وإلى ثياتيرا وإلى ساردس وإلى فيلادلفيا وإلى لاودكية.» (رؤ ١: ٤ و ١٠ و ١١ وراجع رؤ ٢ و ٣).

وقد شهد جميع الآباء القديسين الأوائل بهذه الحقيقة، وبأن القديس يوحنا قضى أيام حياته الأخيرة في أفسس؛ أمثال القديس إيرينيئوس^(١١) وهو تلميذ القديس بوليكاربوس الأسقف الشهيد والذي كان تلميذاً للقديس يوحنا الرسول سنين طويلة؛ والعلامة اكليمندس الإسكندري يؤكد أن القديس يوحنا الرسول رُسم أسقفاً على كل نواحي آسيا^(١٢)، والعلامة أوريجانوس والعلامة ترتليانوس والمؤرخ يوسابيوس والقديس جيروم، هؤلاء كلهم شهدوا شهادة قاطعة أن القديس يوحنا الرسول عاش في أفسس حتى زمن حكم تراچان (٩٨-١١٧ م). فإذا علمنا أن القديس يوحنا يصغر الرب بعشر سنوات فإن سني حياة يوحنا الرسول تكون حوالي ٩٠ سنة. ولكن القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد - من جهة أخرى - أنه عاش ١٢٠ سنة.

⁸ Daniélou, Jean, Christian Centuries, translated from French "Nouvelle Histoire de l'Eglise", New York, 1964, p. 41.

⁹ Ph. Schaff, History of the Christian Church, 1, p. 424.

¹⁰ Temple, William, Readings in St. John's Gospel, London 1952.

¹¹ Adv. Haer. III, 1,1; 3,4; II, 22,5; Epiph. Haer. XXX, 24.

¹² Daniélou, Jean, op. cit., 1, p. 41.

ولكن لم يتعرف المؤرخون المدققون على السنة التي دُعي فيها القديس يوحنا إلى أفسس ولكنهم استقروا جميعاً على أنها ليست قبل سنة ٦٣ م. لأنه حتى هذا التاريخ كان القديس بولس الرسول لا يزال حياً وعلى صلة بأفسس، ولم يذكُر في أيٍّ من رسائله ما يدلُّ على أن القديس يوحنا قد وصل إلى هناك.

ويُظن أن استشهاد القديسين بطرس وبولس هو الذي دفع القديس يوحنا لتبني كنائس آسيا المترمّلة، بحسب ترتيب الله ودعوته لإنقاذ هذا البناء الروحي الضخم الذي شيّده القديس بولس الرسول بالجهد والدموع والآلام التي لا حصر لها قرابة ٣٠ سنة، والذي كان هدفاً لهجمات شريرة مفسدة من اليهود الدخلاء والوثنيين المتربّصين للانتقام لأهتهم المدحورة.

وأفسس كانت في ذلك الوقت عاصمة آسيا الصغرى ومركزاً للثقافة اليونانية وللتجارة والدين أيضاً، فكان بها أكبر جالية يهودية مستوطنة منذ أن تفرقوا بعد السبي من بلاد ما بين النهرين. وقد وصف القديس يوحنا مجتمعهم بمجمع الشيطان (رؤ ٢: ٩). كما كان بها هيكل أرطاميس المشهور مركز عبادة «ديانا». وكانت أفسس ذائعة الصيت بسبب اشتغال شعرائها بأغاني هوميروس وفلسفة طاليس وأناكسيمينوس وأناكسيماندر.

وقد ظل القديس بولس يخدم فيها ثلاث سنوات متتالية من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٧ م. حتى أسس فيها كنيسة مركزية ظلت مصدراً للإشعاع في كل ظلمات آسيا الوثنية قروناً عديدة وهي التي كانت تباشر رعاية الكنائس الفرعية في البلاد الأخرى المتاحة.

وفي ذلك يقول الوثنيون أنفسهم كما سجل عليهم ذلك سفر الأعمال: «... إنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاغ بولس هذا جمعاً كثيراً قائلاً: إن التي تُصنع بالأيدي ليست آلهة، فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يُحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع ١٩: ٢٦-٢٧)

وهكذا مهّد القديس بولس الرسول آسيا الصغرى كلها لتكون إيبارشية صالحة تقبل خدمة القديس يوحنا الهادئة العميقة، وذلك بأن مهّد الفكر الفلسفي لتقبُّل حقائق لاهوت المسيح — كما جاء في إنجيل يوحنا — مع المبادئ الروحية العميقة التي كان يستحيل أن تجد في ربوع فلسطين التربة التي تخصب فيها وتنمو. لذلك أصبحت أفسس بالنسبة لخدمة القديس يوحنا أعظم مركز يمكن أن يُطلَّ منه على كل العالم المسيحي لا من جهة جغرافيتها المكانية الملائمة فقط بل وأيضاً من

جهة تزعمها لكل التيارات العنيفة المعادية للمسيحية سواء كانت يهودية أو وثنية بأن واحد، إذ كانت أفسس أم البدع التي لا حصر لها ومهبط كل التعاليم الفاسدة.

لذلك كان تقلد القديس يوحنا هذه الأسقفية عملاً إلهياً محكماً. وهذا يبدو بصورة أوضح لو علمنا أن هذا قد تم قبيل خراب أورشليم وسقوطها بسنوات قليلة. وهكذا انتقلت القيادة الرسولية انتقالاً هادئاً طبيعياً من أورشليم — موطن اليهودية الذي كان يضغط بشدة على المسيحية المتفتحة حديثاً — إلى أفسس حيث البيئة المتفتحة الخصبة المهيأة لنمو حقائق الروح المسيحية العميقة. وظلت أفسس تنبض بالروح الرسولية الحرة بأنفاس يوحنا إنما بتحفظ شديد حتى نهاية القرن الأول أو أكثر قليلاً. ومن بعد القديس يوحنا استلم هذه الروح تلميذه القديس بوليكاربوس الذي كان أسقفاً على سميرنا (١١٠-١٥٥ م.)، ثم القديس إيرينيئوس الذي استمد دفاعه عن الإيمان من روح يوحنا وإنجيله قبل أن ينتقل إلى أسقفية ليون بفرنسا.

وإنجيل يوحنا ورسائله يعتبران المصدر الوحيد للتعرف على حالة المسيحية والكنيسة على مدى أربعين سنة تقريباً أي منذ استشهاد القديس بولس الرسول حتى ختام القرن الأول^(١٣)، والتي لولاها لظلت هذه الحقبة مظلمة في صفحات التاريخ الكنسي.

٨ - ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول في كنيسة أفسس:

إن الكنائس التي أنشأها القديس بولس الرسول في أفسس لم تحتفظ من جميع الإحتفالات الكنسية الطقسية إلا بطقس خدمة السواعي، وطقس شركة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا والصلاة كل يوم أحد من كل أسبوع^(١٤)، والعماد طبعاً. ثم يسجل لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن القديس بوليكراتس أسقف أفسس في نهاية القرن الثاني أنه بمجيء القديس يوحنا الرسول تثبت الإحتفال السنوي بطقس عيد الفصح، أي القيامة، إنما بالمعنى المسيحي الكامل. وقد حدد له الرسول اليوم الرابع عشر من نيسان كما هو تماماً في الطقس اليهودي^(١٥) — وذلك بخلاف جميع كنائس العالم آنئذ وبعثذ التي رفضت أن يكون عيدها الفصحي مع اليهود^(١٦) — ولكن ليس بالمعنى ولا بالممارسة اليهودية، فالقديس يوحنا الرسول لم يكن يرى في طقوس اليهود وأعيادهم أي

¹³ Iren., Adv. Haer. II.22.5.

¹⁴ Neander, Aug., General History of the Christian Religion and Church, Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh 1874, p. 388.

¹⁵ Hist. Eccl., III.31; V.24.

(١٦) وقد صارت أسقفيات الكنائس في العالم تعيد للفصح في الأحد الأول بعد ١٤ نيسان.

معنى مسيحي. ولكن كان العامل الأول لتحديد هذا اليوم بالذات هو الذكرى المقدسة لليوم الذي تألم فيه الرب وذبح وصار فصحاً أبدياً. فهذا وحده هو الذي كان يملأ كل قلبه وإحساسه.

كذلك يقول القديس بوليكراتس إن القديس يوحنا الرسول عيّد للعنصرة الذي هو عيد الخمسين على أن يكون في اليوم الخمسين تذكراً أبدياً لحلول الروح القدس على الكنيسة^(١٧). علماً بأن إنجيل يوحنا هو الإنجيل الذي اهتم اهتماماً بالغاً بموضوع إرسال الروح القدس وإعطائه اسمه «الباراكليت» وصفاته وأعماله أي وظائفه في الكنيسة. وقد أسهب الإنجيل في موضوع شهادته للمسيح وتمجيده بصورة كبيرة. وطبعاً كان القديس يوحنا يكتب بعد حلول الروح القدس وعمله واستعلان قوته على مدى أكثر من خمسين سنة، فجاء الوصف مطابقاً للواقع وخصوصاً لدى القديس يوحنا الذي كان ممثلاً وفائضاً من نعمته.

كما يصف المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن بوليكراتس أسقف أفسس^(١٨) أن القديس يوحنا الرسول كان كاهناً (إپريزفيتروس πρεσβύτερος)، وكان يحتفظ بملابس للخدمة الكنسية وكان يلبس الصدرة المقدسة على طقس نظام خدمة رؤساء الكهنة في العهد القديم^(١٩). وهذا يرجحه ما جاء في سفر الرؤيا أصحاح ١٧: ٢.

ومن عدة ملابس يمكننا أن نتأكد من صحة تقرير القديس بوليكراتس من جهة كهنوت القديس يوحنا. فنحن نعرف أن أمه اسمها سالومة^(٢٠) وهي أخت القديسة مريم العذراء^(٢١)، كما نعلم أن العذراء القديسة مريم هي نسيبة أليصابات (لوقا: ٣٦)، وأن زوج أليصابات هو الكاهن زكريا (لوقا: ٥)، أي أن هناك صلات قوية للقديس يوحنا بالكهنوت والهيكل. ومن هنا جاءت معرفة القديس يوحنا برؤساء الكهنة وحضوره في دار رئيس الكهنة محاكمة المسيح دون التلاميذ جميعاً (يوحنا: ١٨: ١٥)، كما يتضح لنا سبب وصية المسيح على الصليب للقديس يوحنا أن يعتني بالعذراء أمه كأم له (يوحنا: ١٩: ٢٥-٢٧) فهي خالته.

كذلك نفهم سرّ تركيز القديس يوحنا على خدمة المسيح في اليهودية وأورشليم دون بقية الأناجيل لأن العائلة كلها سواء العذراء أو يوحنا هما من اليهودية - بيت لحم^(٢٢).

¹⁷ Neander, op. cit., p. 391.

¹⁸ Eccl. Hist., III, 31; V, 24.

¹⁹ Ibid., V, 24, 3.

(٢٠) أنظر صفحة ٢٨.

(٢١) أنظر صفحة ٢٨.

²² Raymond E. Brown, The Gospel acc. to John, p. xcvi.

← كما نفهم سِرَّ انفراد القديس يوحنا بذكر المعجزات التي تمت في اليهودية وأورشليم، إذ أنه كان مرافقاً دائماً للمسيح هناك.

كما نفهم سِرَّ التقليد القديم في إنجيل يوحنا، أي الأقدم من المسجّل في الثلاثة الأناجيل، لأن القديس يوحنا التحق بتلمذة المسيح مبكراً جداً أثناء وجود المسيح في اليهودية مع يوحنا المعمدان، ولأن القديس يوحنا انتقل من التلمذة ليوحنا المعمدان إلى التلمذة للمسيح (يو: ١: ٣٥-٣٩)، حيث كان المسيح يسكن في اليهودية: «فأتيا ونظرا أين كان يمكث.» (يو: ١: ٣٩)

كما نفهم أيضاً سِرَّ تركيز القديس يوحنا على ذكر شهادة المعمدان بدقة وإسهاب دون الثلاثة الأناجيل لأن القديس يوحنا كان تلميذاً للمعمدان ورأى وسمع كلّ ما قاله المعمدان عن المسيح. كما نفهم سِرَّ المركز العالي الذي كان يحتله القديس يوحنا مع أخيه القديس يعقوب بصفتها من عائلة كهنوتية ومع القديس بطرس الرسول في الكنيسة الأولى في أورشليم، دون بقية الرسل، كأعمدة للكنيسة؛ إذ يقول القديس بولس الرسول عندما ذهب إلى أورشليم ليعرض خدمته على الكهنة وليأخذ منهم سلطان الخدمة هكذا: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً... وعرضتُ عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالإنفراد على المعتبّرين... (فهؤلاء) المعتبّرون... يعقوب وصفا ويوحنا المعتبّرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا ممين الشركة...» (غل ٢: ١-١٠)

كما نفهم سِرَّ تسجيل القديس يوحنا لتقرير مجمع السندريم ونبوة رئيس الكهنة قيافا كلمة كلمة (يو: ١١: ٤٧-٥٠) باعتباره واحداً من عائلة زمرة الكهنوت.

ويعود القديس إيفانيوس أسقف قبرص ويردد لنا حقيقة استخدام القديس يوحنا للملابس الكهنوتية نقلاً عن القديس هيچسبوس. ويتفق المؤرخون الكنسيون دين ستانلي^(٢٣) ولايتفوت^(٢٤) وفيليب شاف^(٢٥) أن هذه الإشارة تُعتبر أقدم وثيقة عن قدسية الملابس الكهنوتية المستخدمة في الكنيسة الآن.

٩ - رعاية القديس يوحنا لأسقفية:

ينقل لنا العلامة أكليمندس الإسكندري (نهاية القرن الثاني)^(٢٦) صورة مبدعة للقديس يوحنا

²³ Stanely, A.P., Sermons and Essays on the Apostolical Age, 1847, p. 285.

²⁴ Lightfoot, J.B., The Epistle of St. Paul to the Galatians, Zondervan, 1962, p. 362.

²⁵ Schaff, Philip, op. cit., p. 431.

²⁶ Clement of Alex., What Rich Man, 42; Cited by: Eusebius, Hist. Eccl. III, 23.

الرسول كأسقف حارٌّ بالروح وخادم خلاص أمين على نفوس رعيته، فيقص لنا كيف أنه حتى بعد أن صار متقدماً في السن كان يطوف بالكنائس يزور رعيته ويفتقدهم ويسأل عن التائبين الذين تابوا على يديه. ويقصُّ ضمناً قصة الشاب الذي ضلَّ بعد توبته، وكان قد سلَّمه لكاهن المدينة لرعايته، فصار لَصاً خطراً. فلما علم بذلك لم يرحم شيخوخته بل ذهب يبحث عنه في الجبال حتى وجده. فلما حاول الهرب منه جرى وراءه حتى لحق به وأعادته إلى حظيرة الإيمان مرة أخرى. هكذا كان القديس يوحنا الرسول نموذجاً لخدمة الأسقف.

وينقل لنا كلُّ من القديس إبيفانيوس^(٢٧) والقديس إيرينيئوس^(٢٨)، وذلك على لسان القديس بوليكاربوس أسقف أزمير الشهيد، قصة واحدة عن أن القديس يوحنا تقابل مرة مع أحد الهرطقة، وهو كيرنثوس الذي كان ينكر التجسد ولاهوت المسيح، تقابل معه في حمام عمومي وتحت سقف واحد، فرفض أن يبقى معه في الحمام لئلا يسقط السقف بسبب غضب الله. وبالفعل فإنه بعد خروج القديس يوحنا سقط السقف على مَنْ فيه. وهذا السلوك الذي اتَّبعه القديس يوحنا مع كيرنثوس يتوافق مع دعوته في رسالته: «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلامٌ. لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة» (٢ يو ١٠ و ١١). وهذا بدوره يتفق مع الآية: «إن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة.» (١ كو ١٥: ٣٣)

كما ينقل لنا يوسابيوس القيصري على لسان أبولونيوس الكاتب الكنسي الذي يُظن أنه كان أسقفاً على أفسس، خبر معجزة أجراها القديس يوحنا الرسول إذ أقام ميتاً بمعونة القوة الإلهية في مدينة أفسس^(٢٩).

وهناك تواتر في التقليد الكنسي المبكر قد وصل إلينا عن طريق العلامة ترتوليانوس يفيد بأن القديس يوحنا قد أُلقي في غلاية بها زيت مسخن إلى درجة الغليان ولكنه نجا منها بمعجزة^(٣٠).

كما ينقل لنا القديس جيروم^(٣١) صورة عن القديس يوحنا الرسول وهو يمارس خدمة المحبة حتى آخر لحظة من حياته وكان قد بلغ الشيخوخة. فكان يحمله تلاميذه على أذرعتهم ذاهبين به إلى الكنيسة ليقول عظته القصيرة التي كان يكررها بلا ملل: «يا أولادي الصغار أحبوا بعضكم بعضاً. هذه وصية الرب. وإذا عملتم بها وحدها فهذا يكفيكم».

²⁷ Adv. Haer. XXX, 24.

²⁸ Adv. Haer. III, 3, 4.

²⁹ Euseb. Hist. Eccl. V, 18, 4.

³⁰ Tertullian, Praescrip. Haer. 36.

³¹ Comm. ep. ad. Galat. VI: 10.

كما يعطينا الراهب كاسيان^(٣٢) (حوالي ٣٦٠-٤٣٥ م.) صورة وديعة عن القديس يوحنا الرسول تكشف لنا عن نموذج حياته البسيطة واتساع إدراكه لمتطلبات النفس البشرية، فيقصُّ علينا كيف مرَّ بالقديس يوحنا يوماً من الأيام صيَّادٌ يصطادُ بسهم وقوس، فوجد القديس يوحنا يلاعب طائراً صغيراً فاندesh، فابتدره القديس قائلاً: «لماذا يدهشك أسلوب البسيط في الترويح عن النفس والعقل الذي بدونه تتأذى الروح من الضغط والإرهاق؟ هل يمكنك أن تؤثر قوسك وتتركه هكذا دون أن ترخيه؟» فأجابه الصياد: «إنه يتلف». فقال له القديس يوحنا: «وهكذا ذهن الإنسان أيضاً».

ومن رسائل القديس يوحنا الرسول ندرك مدى قرب هذا الرسول المحبوب من شعبه بصورة فريدة لم نلاحظها قط في رسول قبله بترديده: «أكتب إليكم أيها الأولاد» ... «أكتب إليكم أيها الآباء» ... «أكتب إليكم أيها الأحداث» (١ يو ٢: ١٣ و ١٤) ... «أيها الأولاد هي الساعة الأخيرة... والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه» (١ يو ٢: ١٨ و ٢٨)، وكأنه بذلك يعكس روح المودة التي لمسها في الرب يسوع في تعامله مع التلاميذ في أيامه الأخيرة: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (١ يو ١٣: ٣٣)

١٠ - القديس يوحنا في جزيرة بطمس:

مؤثراً للغاية مطلع رسالته الرؤيوية هكذا: «أنا يوحنا، أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.» (رؤ ١: ٩)

وتقع جزيرة بطمس في بحر إيجه في الاتجاه الجنوبي الغربي من أفسس. وهي جزيرة صخرية قاحلة ما تزال قائمة حتى الآن تحمل الشهادة لصدق الإنجيل والرأي. وكلُّ مَنْ فيها وما فيها يشهد للقديس يوحنا حتى جبالها وصخورها والمغارة العميقة في سفح أحد الجبال الشمالية المنفردة حيث رأى القديس يوحنا رؤياه، وحيث قامت هناك الآن مئات الكنائس وبيوت كثيرة سكانها عُشَّاق لسيرة القديس يوحنا الرسول. وقد سمعت من أحد السائحين أن كل بيت يحتفظ بمبخرة يملأونها بخوراً كل صباح ويفتحون النوافذ المطلَّة على المغارة ويبخرون بخوراً مع صلوات عطرة تشفعاً بصلوات صاحب الرؤيا والإنجيل.

أما الزمان الذي نُفي فيه القديس يوحنا إلى هذه الجزيرة فغير محقَّق تاريخه، ولكن معظم

³² John Cassian, Conference XXIV, 21.

المؤرخين يؤكدون أنه كان حوالي سنة ٩٥ ميلادية، ومنهم جيروم ويوسابيوس وبالأكثر إيرينيئوس (١٣٠-٢٠٠ م.) الذي يقول بأن نفي القديس يوحنا كان في أواخر حكم الإمبراطور دوميتيان (تولى الحكم من ٨١-٩٦ م.). ولكن العالم «وستكوت» وهو مؤرخ وعالم لاهوتي يرى أن مضمون سفر الرؤيا يفيد أن النفي كان قبل خراب أورشليم أي قبل سنة ٧٠ م. والمعتقد أنه بمجرد موت دوميتيان (سنة ٩٦) عاد القديس يوحنا إلى أفسس وكتب بعد ذلك إنجيله.

١١ - تلاميذ القديس يوحنا الإنجيلي:

يعرّفنا التقليد الكنسي المبكر أن تلاميذ القديس يوحنا الرسول ثلاثة هم: القديس إغناطيوس والقديس بوليكاربوس والقديس پاپياس^(٣٣).

أ - القديس إغناطيوس: وقد سُجِّل في رواية استشهاده أنه «تلميذ يوحنا الرسول ورجل له كل الصفات الرسولية». وينص التقليد الكنسي أنه هو الولد الصغير الذي قرّبه إليه الرب (وربما حمله على ذراعه) في وسط التلاميذ كرمز للتواضع، ولهذا سُمِّي حامل الإله «ثيوفوروس» θεόφορος. وقد صار أسقفًا للكنيسة السريانية بأنطاكية. وتقبَّل الاستشهاد على يدي تراجان الإمبراطور، في روما حيث أُلقي للأسود.

ب - القديس بوليكاربوس: يقول عنه القديس إيرينيئوس إنه تعلَّم على يد الرسل وكان رفيقاً لكل من رأوا المسيح. وكان بحسب قول القديس إيرينيئوس هو أسقف أزمير (سميرنا). ولما أُمر قبل استشهاده أن يحلف باسم الإمبراطور ويحجد المسيح قال قولته المشهورة: «سته وثمانين عاماً خدمت المسيح ولم يسيء إليّ قط، فكيف أجحد ملكي ومخلصي؟» وفي وسط لهيب النار التي أُلقي فيها سبَّح الله قائلاً: «أشكرك لأنك حسبتني أهلاً أن أكون شريكاً في عداد شهدائك الذين شربوا من كأس مسيحك لقيامه الحياة الأبدية للنفس والجسد في عدم الفساد بروحك القدوس.»^(٣٤)

ج - القديس پاپياس: وهو أسقف كنيسة هيرابوليس بفريجية مكان ميلاد القديس إبيكتاتيس. ويقول عنه القديس إيرينيئوس^(٣٥) إنه من الأقدمين الذين استمعوا لتعاليم القديس يوحنا الإنجيلي، وهو رفيق لبوليكاربوس واستمع لكل من استمع للمسيح مباشرة. وقد جمع خمسة

³³ Exell, Rev. Joseph S., op. cit., p. viii.

(٣٤) رسالة أهل سميرنا عن استشهاد بوليكاربوس - فصل ١٤.

³⁵ Adv. Haer. V, 33, 4.

كتب من أقوال الرسل والذين رافقوا المسيح ولم يتبق منها إلا قصاصات. كما أنه هو الذي قال إن القديس مرقس الرسول كتب إنجيله عن إملاء من فم القديس بطرس. وهو الذي بلغنا أن القديس متى الإنجيلي كتب إنجيله باللغة العبرية. وقد استشهد في نفس الوقت مع القديس بوليكاربوس^(٣٦).

١٢ - «يبقى إلى أن أجيء»:

قول المسيح هذا الذي خاطب به بطرس الرسول: «فلما رأى بطرس هذا (يوحنا) قال ليسوع: يا رب. وهذا (يوحنا) ما له (أو ما الذي سيصيه)؟ قال له يسوع: إن كنتُ أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك؟ اتبعني أنت! فذاع هذا القول بين الإخوة إن ذلك التلميذ لا يموت...» (يو ٢١: ٢٣-٢١)؛ على هذه الرواية تألفت مئات القصص وقد قرأت منها الكثير الذي يحكي أن يوحنا لا يزال يعيش. ولكن أطرف ما قرأت هو هذه الرواية، وقد وردت في أخبار أيام «يوحنا برومتون» كما يقصها كتاب:

The Biblical Illustrator, Saint John, by Rev. Joseph S. Exell, p. IX.

[حدث في أيام ملك إنجلترا المشهور القديس إدوارد الثامن المعترف (١٠٠٣-١٠٦٦ م.)^(٣٧) وهو قديس قنّته الكنيسة الإنجليزية سنة ١١٦١ م. وتعيّد له في ١٣ أكتوبر من كل سنة، أن كان يسير بعد خروجه من الكنيسة عقب الإحتفال بعيد القديس يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الملك التي يوقّر القديس يوحنا بعد الرب يسوع والعذراء مريم، وكان ذلك في دير وستمينستر. وإذا بشحاذ يعترضه وطلب منه حسنة على اسم المسيح ومحبة في القديس يوحنا الإنجيلي. وكان الملك بطبعه كثير العطف على الفقراء. ففي الحال خلع خاتمه الملكي من أصبعه وأعطاه له دون أن يراه أحد. وبعد أن حكم الملك إدوارد أربعاً وعشرين سنة حدث أن إنجليزيتين كانا يحجّان في أورشليم في الأرض المقدسة. ولما همّا بالرجوع إلى وطنهما إنجلترا قابلهما سائح. وكعادة السوّاح استفسر منهما عن وطنهما، فقالا له إنهما من إنجلترا، فقال لهما: «عندما تعودان إلى بلدكما اذهبا إلى الملك إدوارد وبلغاه السلام باسمي واشكراه على الحسنة التي أعطاني إياها في الشارع الفلاني في وستمينستر، لأنه حدث في يوم أني طلبت منه حسنة فأعطاني خاتمه هذا (يبدو أن اسم الملك كان منقوشاً على الخاتم). وقد احتفظت به حتى اليوم، والآن أحمله إليه وقولا له إنه بعد ستة أشهر من اليوم سوف يغادر

³⁶ Exell, Joseph, loc. cit.

^(٣٧) ورد اسم هذا الملك القديس وتاريخ حياته الحافل بأعمال القداسة وتلقيبه بالمعترف وتقنيته قديساً للكنيسة الإنجليزية في

قاموس: Oxford Dict. of Chr. Church, Cross, p. 439.

العالم وينضم إليّ ليكون معي إلى الأبد». فاندھش السائحان وقالوا له : «ومن أنت ؟ وأين تسكن ؟»، فأجابها قائلاً : «أنا يوحنا الإنجيلي ، وإدوارد ملككم هو صديقي ، ولأجل قداسة حياته اعتبره عزيزاً عندي ، فاذهبا وبلغاه هذه الرسالة وأعطياه الخاتم على أني سأصلي لله من أجله». واستلم الملك الرسالة والخاتم بابتهاج وأكرم السائحين الإنجليزيتين وعمل لهما وليمة ملكية. وابتدأ يعدُّ نفسه للرحيل. وفي عشية عيد ميلاد سنة ١٠٦٦ م. مرض ، وفي عشية عيد الظهور الإلهي أي «الغطاس» لنفس السنة توفي. أما الخاتم فسلّمه لرئيس رهبان دير وستمينستر ليحفظه كأثر هناك . [



الفصل الثاني

ظروف وملابسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها

١ - شهادات من التقليد الكنسي المبكر:

بحسب التقليد الذي استلمته الكنيسة الأولى وفي أول عصورها، فإن القديس يوحنا الرسول ابن زبدي أخا يعقوب الكبير هو الذي كتب الإنجيل الرابع في سنّ شيخوخته الأخيرة وذلك في مدينة أفسس بآسيا الصغرى وذلك في نهاية القرن الأول.

وسنقدّم فيما يلي أقدم الشهادات التي وصلت إلينا من التقليد الكنسي المبكر عن نسبة هذا الإنجيل للقديس يوحنا الرسول:

أ - معروف أن علم اللاهوت الكنسي المهتم بفحص قضايا الإنجيل واللاهوت عامة يتبدىء بالقديس إيرينيئوس أسقف ليون الذي عاش وتربى في سني حياته الأولى في آسيا الصغرى وتربى تحت يدي القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن). فهو مواطن أزميري. عاش ما بين عام ١٣٠ إلى ٢٠٠ م. ويُعتبر وَضْلة هامة بين الشرق والغرب. وأهم مَخْلَفاته كتابه المعروف بـ «ضد الهرطقات» والذي فيه استخدم إنجيل يوحنا في دفاعه ضد الفتنسية والتي كان أهم زعمائها «قالستينوس»، وضد المونتانيين، وقد كتبه سنة ١٨٠ م. وهو الذي سجل أن الإنجيل الرابع هو من عمل القديس يوحنا الرسول حيث قال: (ويسجل المؤرخ يوسابيوس القيصري هذه الشهادات في كتابه «التاريخ الكنسي» - ٣: ٢٣: ٣):

[... وإن جميع الشيوخ Elders الذين رافقوا يوحنا تلميذ الرب في آسيا يحملون الشهادة أن يوحنا سلّمه (أي سلّم الإنجيل) إليهم. لأنه بقي معهم حتى حكم تراچان.]^(١)

^١ Adv. Haer. II, 22; 5.

[عندما كنت صبياً رأيتك في آسيا الصغرى مع بوليكارپوس تتمشى في خيلاء في الدهاليز الملكية محاولاً أن تلقى الإستحسان. إني أذكر حوادث تلك الأيام بأكثر وضوح من حوادث هذه الأيام. لأن ما يَحْصُلُ النشء فإنه ينمو مع عقولهم ولا يفارقها. حتى إني أستطيع أن أصف نفس المكان الذي كان يجلس فيه المغبوط بوليكارپوس عندما كان يتحدث، كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب فيما يخص معجزاته وتعاليمه، باعتبارهم شهوداً لـ «كلمة الحياة». وكان يقصُّ هذه الأشياء التي كانت متفقة مع الأسفار. هذه الأشياء التي قبلت لي برحة الله، كنتُ أستمع إليها بانتباه وكنت أحفظها ليس بورق وقلم ولكن في قلبي. وكنت أرددها باستمرار بنعمة من الله، وأستعيدها بأمانة].

هـ - وتوجد أيضاً شهادة أخرى للقديس إيرينيئوس يسجلها له المؤرخ يوسابيوس^(٥):
[وبعد ذلك (أي بعد كتابة الأناجيل الثلاثة) فإن يوحنا تلميذ الرب الذي اتكأ أيضاً على صدره أخرج ἐξέδωκε إنجيله بينما كان في أفسس].
وهذه الشهادة غاية في البساطة والكفاية.

وتعتبر شهادة القديس إيرينيئوس هذه ذات وزن عالٍ، لأنه وكما نخبرنا هو بنفسه أنه وهو شاب كان يستمع إلى القديس بوليكارپوس أسقف سميرنا (أزمير الآن) الذي استشهد سنة ١٥٥ م. ومعلوم أن القديس بوليكارپوس أدرك القديس يوحنا وعاش في أيامه^(٦).

و - وثمة مصدر آخر يسجل أن القديس يوحنا عاش ومات في أفسس يجيء لنا من بوليكراتس أسقف أفسس كاتباً ذلك سنة ١٩٠ م. للبابا فكتور بابا روما الذي خدم أسقفية روما ما بين عام ١٨٧-١٩٩ م ذاكرأ له:

[إن من بين النجوم الراقدة في أفسس يوحنا الذي اتكأ على صدر الرب الذي كان كاهناً والذي كان يلبس حزام الصدر الكهنوتي (الصدرة)، والذي كان شاهداً (للب) ومعلماً. هذا أيضاً رقد في أفسس.]^(٧)

^٥ Ibid., V, 8, 4.

^٦ Ibid., V, 20, 6.

^٧ Ibid., III, 31, 3; V, 24, 2f.

ب — وفي نفس الكتاب يؤكد ذلك مرة أخرى بقوله :

[ولكن الكنيسة في أفسس أيضاً التي أسسها بولس والتي بقي فيها يوحنا حتى زمان تراجان هي شاهد أمين للتقليد الرسولي .]^(٢)

ج — هذا الكلام عينه الذي للقديس إيرينيئوس يعود المؤرخ يوسابيوس ويوضحه في كتابه « التاريخ الكنسي »^(٣) وذلك بلسان القديس إيرينيئوس نفسه هكذا :

[ولكن بوليكارپوس ليس فقط تعلم على أيدي الرسل وتعرف على كثيرين من الذين عاينوا المسيح ؛ بل أيضاً قد عيَّنه الرسل في آسيا (الصغرى) على كنيسة سميرنا (أزمير الآن). ونحن أيضاً رأيناه في شبابنا المبكر لأنه عاش زمناً طويلاً وتوفي شيخاً متقدماً جداً في العمر، وقد مات ميتة شهيد، جليلة ومجيدة. وكان يعلم دائماً الأمور التي تعلمها من الرسل والتي كانت الكنيسة قد استلمتها أيضاً والتي هي الحق وحدها. وكنائس آسيا كلها تشهد بهذه الأمور. وكذلك يشهد بهذا حتى اليوم كل الذين جاءوا تباعاً بعد بوليكارپوس الذي كان أميناً وموثقاً ومستحقاً بتفوق كبير عن المدعو فالنتينوس ومارسيون (هرطوقيان) وبقية الهرطقة. وكان بوليكارپوس أيضاً في روما على عهد أنيسنتوس Anicentus ، وقد ردَّ هناك كثيرين من الذين وقعوا تحت تأثير هؤلاء الهرطقة وعادوا إلى كنيسة الله. وكان يعلن أنه قد استلم من الرسل هذا المنهج الوحيد للحق الذي كان قد سُلِّم إلى الكنيسة. كما أنه يوجد (عندنا) مَنْ سمع منه أن يوحنا تلميذ الرب عندما كان ذاهباً إلى الحمام في أفسس ورأى كيرنشوس في الداخل، خرج مسرعاً من الحمام دون أن يستحم زاعقاً: « نخرج ونهرب لئلا يقع سقف الحمام لأن كيرنشوس عدو الحق فيه ». وحدث مرة أن قابل مارسيون بوليكارپ فابتدعه قائلاً: « ألا تعرفني مَنْ أنا؟ » فأجابه بوليكارپوس. « نعم ! أعلم : الإبن البكر للشيطان » .]

د — كذلك احتفظ لنا التاريخ بصورة واضحة للعلاقة بين القديس إيرينيئوس والقديس بوليكارپوس في خطاب أرسله القديس إيرينيئوس إلى « فلورينوس » نقله لنا يوسابيوس المؤرخ الكنسي^(٤)، يصحح له جنوحه عن الأرثوذكسية لأن تعاليمه الغنوسية لم تكن هي التعاليم التي استلمها من معلميه الأرثوذكس الأوائل. فيقول له القديس إيرينيئوس :

² Adv. Haer. III, 3,4; all cited by Barrett, Acc. to John, p. 83.

³ Hist. Eccl. IV, 14, 3-8.

⁴ Ibid., V, 20, 4-8.

وقد دلت الحفريات الحديثة في سلقوك Selcuk وهي تلة بجوار أفسس وتحت كنيسة البازيليكا التي كانت قد أقيمت تكريماً للقديس يوحنا الإنجيلي، على وجود قبر فخم البناء يعود زمنه إلى القرن الثالث الميلادي. وقد فحص العالم براون Brown في شرحه لإنجيل يوحنا (الجزء الأول صفحة ٣٧٤) هذه الأبحاث وقال إن هذا الأثر يؤكد شهادة بوليكرائس عن قبر القديس يوحنا الرسول.

ز - كذلك تأتينا الشهادة أيضاً من الإسكندرية من العلامة اكليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥ م)، وهو تلميذ بنسطينوس رئيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وقد خلفه عليها عام ١٩٠ م.، فيقول:

[إنه بعد موت الطاغية (يقصد الإمبراطور دوميتيان) رجع يوحنا إلى أفسس من جزيرة بطمس.]^(٨)

ح - كذلك يسجل لنا في كتابه المدعو «هيبوتيبوزيس Hypotyposis» :

[إن التقليد استلم أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية (الخارجية) τὰ σωματικά قد صارت واضحة في الإنجيل، وإذ ألح عليه أحباؤه، وبإلهام من الروح القدس، ألف الإنجيل الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον.]^(٩)

ونعتقد أن المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أخذ عن العلامة اكليمندس الإسكندري قوله عن رجوع القديس يوحنا الرسول من بطمس بعد موت دوميتيان^(١٠).

ط - كذلك يأتي ذكر إنجيل يوحنا ضمناً في وثيقة قديمة تصف أسفار العهد الجديد ردّاً على أتباع ماركيون (نهاية القرن الثاني) Anti-Marcionite Prologue وأيضاً في وثيقة «الموراتوري»^(١١) Muratori المنسوبة لهيپوليتس، التي اكتشفت سنة ١٧٤٠ م. وهي ترقى إلى ما بين سنة ١٦٠-١٧٠ م. وتعتبر هاتان الوثيقتان من أقدم المصادر للتقليد الكنسي الغربي وللكنيسة الرومانية، وقد جاء في الأولى أنه:

[بحسب شروحات الكتب الخمسة التي ألفها پاپياس التلميذ المحبوب ليوحنا (الرسول) أن إنجيل (يوحنا) كان قد أكمل تأليفه وأرسل لكنائس آسيا بواسطة يوحنا نفسه أثناء حياته.]^(١١)

^٨ Ibid., III, 23, 6.

^٩ Ibid., VI, 14, 7.

^{١٠} Ibid., III, 23, 1.

(١١) وثيقة الموراتوري منسوبة لمكتشفها المدعو: L.A. Muratori

¹¹ Cited by: New Testament Intr. by Alfred Wikenhauser, p. 284.

علماً بأن باپياس عاش في حقبة زمنية معاصرة جداً للقديس يوحنا الرسول (٦٠ - ١٣٠ م). وكان أسقفاً على هيرابوليس في آسيا الصغرى ووصلتنا أجزاء من كتبه الخمسة على يدي القديس إيرينيئوس والمؤرخ يوسابيوس. ومن تسجيلات باپياس يبدو بوضوح أن إنجيل يوحنا كان منسوباً للقديس يوحنا الرسول منذ سنة ١٣٥ م. ومن هذا يتضح أن قبل حلول منتصف القرن الثاني كان قد رسخ في الكنيسة في كل أنحاء العالم أن إنجيل يوحنا هو للقديس يوحنا الرسول.

كما أن التسجيلات التي وصلت إلينا من مؤلفات اللاهوتيين والكنسيين والمدافعين إيرينيئوس واكليمنديس الإسكندري وترقليانوس، والتي بها نصوص من الدفاع عن الإيمان المسيحي تحوي شواهد من إنجيل القديس يوحنا لا حصر لها، ففي دفاع القديس إيرينيئوس في رده على هرطقة فالنتينوس توجد استشهادات من الأناجيل الثلاثة، ومن الإنجيل الرابع وحده أي إنجيل يوحنا أكثر من ١٠٠ شهادة. كذلك اكليمنديس الذي كان معلماً لأوريجنس، وهيوليتس يحتفظ لنا التاريخ في دفاعه على أكثر من ٥٠٠ استشهاد من الأناجيل الأربعة وأكثرها من إنجيل يوحنا.

ي - وأما وثيقة الموراتوري فتقول:

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ. إذ عندما توَّسل إليه زملاؤه (التلاميذ) والأساقفة في ذلك قال: صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعضنا بكل ما يوحي الله به إلينا. ففي هذه الليلة عينا أعلن لأندراوس أحد الرسل أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدِّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علَّمت بها الأناجيل الأخرى وكلُّها استُعملت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد (ميلاد الرب) وآلامه وقيامته وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول ومجيئه الثاني، الأول بإتضاع وتواضع وقد أكمله والثاني بالمجد والقوة الملكية الذي سيأتي؛ فأني عجب إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بأذاننا ولمسناه بأيدينا... هذه الأمور نكتبها إليكم *Scriptimus*» (١ يوا: ١ و٤)، لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وبسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.] (١٢)

وعلى الباحث أن يلاحظ أن كلاً من القديس إيرينيئوس وكاتب وثيقة الموراتوري Muratori يؤكد أن القديس يوحنا إنما كتب إنجيله بإلحاح وتوَّسل من أحبائه وزملائه الأساقفة. وهذا الاتفاق في التسجيل له وزنه التاريخي؛ وإن كانت هذه الوثيقة تخطيء في وضع اسم

¹² Cited by: Barrett, Acc. to St. John, pp. 96, 97.

أندراوس الرسول ضمن سرد ملابسات كتابة إنجيل يوحنا لأنه لم يكن أحد من الرسل على قيد الحياة وقت كتابة إنجيل يوحنا.

ك — كذلك يجيئنا من كتابات القديس بوليكارپوس الشهيد اقتباسات أصيلة من إنجيل يوحنا وباسمه واضحة غاية الوضوح علماً بأن القديس بوليكارپوس وحسب أدق البحوث العلمية قد ثبت أنه استشهد سنة ١٥٥ م. وكان له من العمر ٨٦ سنة. وهذا معناه أنه أمضى مع القديس يوحنا معظم حياته. بل ومن المعروف أنه عاش غيره من الرسل إذ أنه [تعيّن أسقفاً على كنيسة سميرنا من الرسل أنفسهم الذين كانوا معاً معاً للرب.] (١٣)، كما سجل ذلك أيضاً القديس إيرينيئوس في كتابه ضد الهرطقات (٣: ٤٣). وفي إحدى رسائله يتكلم عن القديس بوليكارپوس بخصوص ذلك:

[... كما أذكر دخوله وخروجه وهياته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب ...]
عن رسالة القديس إيرينيئوس إلى فلورينوس (١٤)

لهذا فإن القديس بوليكارپوس يُعتبر بحسب التاريخ الكنسي مصدراً في غاية الأهمية، لأنه الشخصية التي تُعتبر العلاقة الحية للوحدة الإيمانية بين القرن الأول والقرن الثاني، وشهادته تُعتبر أحد البراهين الرسولية لإنجيل يوحنا الرسول. هذا ما كان يعتقده ويتمسك به جداً القديس إيرينيئوس الذي كان يمسك بحبل التقليد الرسولي بكل قواه، والكنيسة تفتخر به على أنه أبو التقليد الكنسي.

ل — وأيضاً العلامة ترتليانوس (١٦٠ — ٢٢٠ م.) وهو أب كنائس شمال أفريقيا، مواطن قرطاجنة. عاد من الوثنية كمحامٍ إلى المسيحية كمُدافع سنة ١٩٥ م. وصار موعظاً ثم كاهناً — بحسب القديس جيروم — وقد دافع عن المسيحية بعد ذلك كل أيام حياته. وقد استشهد في دفاعه ضد هرطقة «مركيون» ذاكرًا اسم إنجيل يوحنا مع الأناجيل الأخرى في دفاعه. ويقول العلماء أن النسخة من إنجيل يوحنا التي كانت في حوزة ترتليانوس كانت تُعتبر أقدم وثيقة لإنجيل يوحنا في ذلك الوقت إذ كانت في حيازته قبل قيام هرطقة مركيون (١٣٩ — ١٤٢ م.). ومن محاجة مركيون الهرطوقي مع ترتليان يتضح بسهولة أن مركيون نفسه كان حائزاً على نسخة من إنجيل يوحنا.

وعلى سبيل الملاحظة للمعرفة فإن ترتليانوس هو أول كاتب لاتيني علّم بكلمة «الثالوث»

¹³ Euseb., Hist. Eccl. IV, 14,3.

¹⁴ Ibid., V, 20,6.

باللاتينية Trinitas (١٥) تعبيراً عن الآب والإبن والروح القدس. وهو أول لاهوتي مسيحي يكتب باللاتينية قاطبة، بل ويُعتبر أول مَنْ نَحَت العبارات اللاهوتية باللغة اللاتينية للغرب كله. ولكن للأسف فقد فقد كل عظمتة الكنسية بسبب انحيازه للمونتانية (هرطقة العصر آنذاك). ولولا ذلك، لكان مُضارعاً للقديس أغسطينوس في رصائته وقوة محاجاته ودفاعه عن لاهوت الثالوث الأقدس وباقي التعاليم الأرثوذكسية (١٦).

م — كما يوجد لدينا شهادة لإنجيل يوحنا ساطعة من قبل عام ١٥٠ م. وهي للقديس الشهيد يوستين (١٧) الذي كان لديه كل كتب الرسل وكان يسميها مذكرات Memoires الرسل. وقد استشهد في كتاباته بآيات من إنجيل يوحنا واستخدم اصطلاح «الكلمة» λόγος (الذي ورد في مطلع إنجيل يوحنا).

وفي حوار مع تريمثو اليهودي الذي تم سنة ١٣٦ م (١٨) الذي استشهد فيه بموضوع الألف سنة الذي جاء في سفر الرؤيا، قال فيه:

[إن إنساناً بيننا اسمه يوحنا، وهو واحد من رسل المسيح، الذي تنبأ في رؤيا أخذ فيها...]

وفي دفاعه بعد هذا التاريخ بعدة سنوات أظهر أنه على دراية بتعاليم إنجيل يوحنا وسردها ناسباً إياها إلى مسؤولية القديس يوحنا.

ن — كذلك توجد شهادة من هرماس صاحب كتاب «الراعي» (١٤٢-١٧٤ م.) الذي كان أسقفاً في هذه السنين على هيراكليس. ويشير في كتاباته إلى آيات من إنجيل يوحنا.

س — القول الفصل: وأخيراً ظهرت شهادة قاطعة مانعة من تحت رمال مصر من نجع حمادي من صعيد مصر ظهر فيها جزء من إنجيل يوحنا، عبارة عن ورقة مخطوطة وعلى إحدى صفحاتها نص من إنجيل يوحنا الأصحاح ١٨ الأعداد من ٣١-٣٤. وعلى الوجه الآخر الأعداد من ٣٧-٣٨ لنفس الأصحاح. وهي الآن معروفة باسم بردية «رايلاند» ومحفوظة في مانشستر تحت رقم ٥٢.

¹⁵ Cross, Oxford Dict. of the Christ. Church., p. 1334.

وأما باللغة اليونانية فقد سبقه في استعمال هذه الكلمة τριὰς ثاوفيلس الأنطاكي حوالي سنة ١٨٠ م.

¹⁶ Ibid.

¹⁷ Westcott, Acc. to St. John, p. XXXI, XXXII.

¹⁸ Ibid., p. 12, Justin, Dial. 81.

وبحسب بحوث العلماء تأكد أن يكون تاريخها ليس بعد عام ١٣٠ م. وهذا هو البرهان النهائي أن الإنجيل الرابع خرج خارج آسيا الصغرى في تاريخ لا يمكن أن يتعدى الجيل السابق على بداية القرن الثاني. وبهذا يكون زمن كتابة إنجيل يوحنا ليس بعد سنة ١٠٠ م. وذلك بحسب كل علماء الكتاب المقدس بلا استثناء أي في الزمن الرسولي بكل تأكيد! بل إن كثيراً من العلماء يقول إنها النسخة الأولى الأصلية.

وفي ختام بحثنا عن أصالة نسبة إنجيل يوحنا للقديس الرسول ابن زبدي، ننبه ذهن القارئ إلى حتمية تفرض نفسها بشأن الإنجيل، فليس كاتب الإنجيل فقط هو الذي يضفي على الإنجيل صدقه وأصالته وقانونيته، وإن كان هذا لازماً أيضاً. ولكن صحة التقليد الرسولي الذي يقوم عليه الإنجيل وأصالته تعلّمه والنور الإلهي الذي يشع منه هو الذي يعطي للإنجيل أصالته بل ويعطي لكاتبه أيضاً صفته الرسولية بالضرورة. كذلك فإن شهادة الكنيسة الحية من فم لفم وأخيراً الممارسة الروحية، وهذا هو التاريخ العريض الطويل الممتد للأساقفة المدافعين عن الإيمان والقديسين والعُباد والسَّاك واختباراتهم الفاخرة على مدى ألي سنة، تنطلقان بالقيمة الروحية واللاهوتية العظمى لإنجيل يوحنا وبالفضل لكاتبه. فلقد نجح إنجيل يوحنا في حمل وتوصيل الروح الرسولية والتقليد الرسولي الإيماني من جيل إلى جيل عَبرَ عشرين قرناً من الزمان. وهوذا نحن نشهد مع القديس يوحنا القرن الأول ومع الرسل والكنيسة عَبرَ الزمان كما شهدوا «ورأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو: ١٤)

٢ - الأسباب الملحة التي حثمت بكتابة إنجيل يوحنا:

حسب التقليد المبكر جداً المسلّم للكنيسة فإن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله تحت إلحاح شديد ومتواصل من رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون ويعملون معه والذين سمعوا منه كل ما كان يعظ ويعلم به بما كان ينقله عن فم الرب، راغبين أن يكون تحت أيديهم وثيقة من فم يوحنا تلميذ الرب تشهد لصحة ما يعلمون به هم أيضاً وتهديهم الطريق. وبهذا يقول التقليد إنهم اضطروا يوحنا لكتابة إنجيله بعد أن تعهدوا بالصوم والصلاة.

وتوجد وثيقة من زمن مبكر تُدعى «تعاليم في سفر الرؤيا» لمؤلفها «فيكتورينوس» Victorinus الذي من مدينة بيتاوا Pettau ، والذي توفي سنة ٣٠٤ م. تقول:

[إن يوحنا الرسول كتب إنجيله بعد كتابة سفر الرؤيا وذلك بعد أن أذاع كلُّ من الهرطقة فالنتينوس Valentinus وكيرنثوس Cerinthus وإبيون Ebion وآخرون من مدرسة

الشيطان تعليمهم وذاع في كافة أركان الدنيا مما اضطر الأساقفة الذين على كل البلاد المجاورة أن يجتمعوا إلى القديس يوحنا واضطروه أن يكتب إنجيل شهادته . [(١٩)]

ويقرر القديس إبيفانيوس نفس هذه الحقائق مؤكداً أن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله في نهاية العصر الرسولي ردًا على هرطقات القرن الأول بناءً على رجاء الكنائس (٢٠) .

إذن، فيسرُ الإلحاح على القديس يوحنا لكتابة إنجيله واضح لأن بلبلة الأفكار بسبب مهاجمة الهرطقة للإيمان المسيحي وتركيزهم على المسيح بالذات وإنكار لاهوته وقوة الخلاص والفداء الذي أكمله، مع عدم كفاية المكتوب والمتناقل عن التقليد الرسولي، هذا هو الذي أقنع القديس يوحنا للرضوخ للإلحاح الأساقفة والشعب . ولماذا ألحوا عليه إلا لكونهم قد سمعوا منه ما يصلح أن يكون إنجيلًا بالحق ؟ ولماذا وثقوا فيه . إلا لكونه تلميذاً ورسولاً ؟

وفي هذا المعنى يقول العالم هوسكينز^{٢١} (ه) أسقف دورهام بإنجلترا في شرحه لإنجيل يوحنا :
[إن تقديم حياة المسيح على هيئة أخبار متقطعة (كما جاء في الأناجيل الثلاثة) لا بد وأن يكون قد أنشأ خطورة عظيمة في نهاية القرن الأول . لأن الجماعات المسيحية المتفرقة لم تكن قد استكملت بعد قانوناً للإيمان يمكن أن يحفظ هذه الأخبار في قالب لاهوتي . كما لم تكن هناك بعد عبادة أيًا كان شكلها قائمة على قراءات رسمية ذات سلطان تهدف إلى غاية محددة مثل التي نقرأها مثلاً في مقدمة إنجيل يوحنا (وهذا أدى إلى مجرد معرفة تاريخية بالمسيح) . لذلك فبسبب خطورة احتمال سوء فهم المسيح وعدم الدراية بالتقليد الصحيح الشفاهي والمكتوب آنئذ عن المسيح ، صُمم إنجيل يوحنا لتثبيت المؤمنين .] (٢١)

وقد أجمع الباحثون العلماء في الكتاب المقدس أن مادة إنجيل يوحنا تأتي من حيث الصياغة الزمنية متأخرة عن ما جاء في الأناجيل الثلاثة وتحمل مضمون شكل الحياة المسيحية في وضعها اللاحق على صيغة الحياة في زمان الأناجيل الأخرى وتنطق بما أصاب أورشليم من الخراب بعد حرب عام ٧٠ م . وتبذد الشعب اليهودي .

¹⁹ PG V, 333, cited by: Westcott, op. cit., p. XXXVI.

²⁰ Epiphan., Adv. Haer. XLI, 12.

²¹ Hoskyns, According to St. John, p. 83; Schnackenburg, The Gospel according to St. John, New York 1982, p. 43.

فبشيء من التعمق في الملاحظة بين ما أورده القديس يوحنا خصيصاً وبين الوضع السائد في آسيا الصغرى عموماً نجد الردود واضحة. فهو يعتني أن يورد كل ما جاء على لسان المسيح مما يصلح أن يكون ردّاً على المساءلات التي كانت تُطرح عليه كأسقف عاش مع المسيح، وحلاً للمشاكل اللاهوتية والروحية والفلسفية التي كانت تعترض الكنيسة في مواجهتها للأجواء الجديدة معتمداً على وعد الرب أن الروح القدس يعرفكم بكل الحق ويخبركم بأمر آتية وأنه سيتكلم في فهمكم، بينما تردّ الثلاثة الأناجيل على مقاومة اليهود للمسيح ورفضهم للإيمان بالتحذيرات المرعبة وبالكارثة المحتمة التي ستحل بالأمة اليهودية والقضاء المزمع أن يأخذ مجراه وشيكاً، كما ورد في إنجيل متى الأصحاح ٢٤ وفي إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ وفي إنجيل لوقا الأصحاح ٢١.

— «لأن هذه أيام انتقام ليم كل ما هو مكتوب. وويل للجبالي والمرضعات في تلك الأيام. لأنه يكون ضيقٌ عظيم على الأرض المقدسة وسُخْط على هذا الشعب. ويقعون بفم السيف ويُشَبَّوْنَ إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكْمَلَ أزمّة الأمم.» (لو ٢١: ٢٢—٢٤)

كل هذا كتبه القديس لوقا وأورشليم لم تكن قد سقطت بعد ولا حدث أي شيء من هذا الوعيد. أما في إنجيل يوحنا فالأمر جدّ مختلف، لأن كل شيء من هذه الأمور المرعبة كان قد حدث بالفعل. فإنجيل يوحنا كُتب سنة ١٠٠ م. وخراب أورشليم تم سنة ٧٠ م. لذلك لا نسمع في إنجيل يوحنا لا نبوة عن خراب أورشليم ولا ذكراً لهذه الولايات والحروب وما لابسها من ضيق عظيم سيلقى اليهود. إذن، فالقديس يوحنا يكتب موضعاً العاقبة، تصديقاً لما وعد به الرب فقد تم كله وأصبح على القديس يوحنا أن يوضح في كل مناسبة السرّ وراء هذا السخط الذي تم عليهم. فكان يمعن في كشف كذبهم وريائهم وعنادهم في مصادمة الحق ورفضهم للنور والحياة والبركة كشعب بكر مختار؛ تماماً كما رفض عيسو البركة والبكورية رمز الاختيار!

وبهذا كشف إنجيل يوحنا السبب وراء رفضهم للمسيح ورفض المسيح لهم، لأن الداء كان متأصلاً ومتجذراً في أخلاقهم وسلوكهم ولذلك كان الجزاء محتملاً: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم.» (يو ١٠: ٢٦)

ثم يسجّل القديس يوحنا كيف وعلى طول المدى أخفقت الأمة اليهودية في الاختيار ورفضت المخلص الموعود والفادي الذي انتظرته الأجيال «إلى خاصّته جاء وخاصّته لم تقبله» (يو ١: ١١). وهو بذلك يشير إلى سبب خراب أورشليم بصورة مخفية وبالتالي إلى سبب وجوده هو في أفسس بدل أورشليم واختياره للعمل بين الأمم. ولكنه أيضاً وفي شعور بالإخفاق والمرارة يعود ويصف رفض كثيرين للنور بين الأمم أيضاً: «إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن

أعمالهم كانت شريرة» (يو ٣: ١٩). وهكذا يتساوى معاً كل الراضين للنور في الدينونة بلا تمييز «اليهودي أولاً ثم اليوناني» كما يقول القديس بولس الرسول (رو ٩: ١). ثم يضع القديس يوحنا القانون الذي سيسري على الجميع: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دُينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣: ١٨ و ١٩)

ثم يواجه القديس يوحنا الإلحاح العام الذي كان يختلج في قلوب كل المؤمنين بعد رفض الله للشعب اليهودي رفضاً دعت الضرورة القصوى إليه وبعد خراب أورشليم وانقطاع العبادة بكل مراسيمها اليهودية وفقدان كل الميراث الأول بكل غناه وكل عمقه مرة واحدة. ما هو، إذن، إطار العبادة المسيحية؟ وماذا سيكون أساس العلاقة التي لله بشعبه الجديد؟ وكيف سيحقق الشعب المسيحي وعد الله في أن يقيم خيمة داود الساقطة (عا ١١: ٩، أع ١٥: ١٦)؟ وما هي الوصايا الجديدة المفروضة على الكنيسة لتحل بصورة إلهية ومجيدة محل العبادة المؤقتة والشكلية المعبر عنها بـ «شبه السماويات وظلها» (عب ٨: ٥) التي كانت لإسرائيل؟

علماً بأنه عندما بدأ القديس يوحنا يكتب إنجيله، كانت الجماعات المسيحية — كما هو واضح من رسائل القديس بولس الرسول — في أوج نضوجها وانتظامها. ولكن السؤال الكبير الذي كان يواجهه الأساقفة مع الشعب في كل مكان هو كيف تُحكّم وتُدبّر هذه الكنائس لتحقيق نموذج ملكوت الله الذي نادى به المسيح؟ كان على القديس يوحنا أن يستلهم من كل حياة الرب وأقواله وتعاليمه بكل دقة وكل عمق وبكل وعي روحي تنبؤي ما يلزم تقديمه ليصلح أن يكون هو الأساس الإلهي الذي يُبنى عليه لاهوت المسيح بكل معنى الكلمة، وليكون هو أساس بنيان الكنيسة الخالدة على مدى كل العصور والأجيال، وليكون هو قوام بنيان النفس البشرية لتحيا وتلتصق وتتمجد بالرب.

فها هو من قصة السامرية يستوحي القانون الشامل الكامل لكل جوهر العبادة التي أعطاهها الرب للكنيسة: «... آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. قال لها (للمرأة السامرية) يسوع: يا امرأة (وكأنها الكنيسة وكل الأمم) صدّقتني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب هؤلاء الساجدين له، الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو ٤: ٢٠ — ٢٤)

وهكذا يضع القديس يوحنا، من فم المسيح، الحدّ الفاصل بين العبادة بالشكل والحرف التي

نُقِصَتْ يوم نُقِصَ الهيكل وتوقفت يوم صلبوا رب المجد، لتقوم العبادة بالروح والحق والتي أعطيت لتكون جوهرًا لدستور العبادة لكنيسة المسيح في كل أنحاء العالم وإلى الأبد.

ثم عاد القديس يوحنا في قصة نيقوديموس ومن خلال الحوار الساخن مع القديم الذي عَثَق وشاخ ليشرح كيف وضع المسيح القانون الجديد لدخول الحياة الأبدية لكل إنسان مهما كان وكيف يؤهل لقبول الروح لميلاد جديد ليأخذ عضويته السامية والجليلة في الهيكل الجديد أي جسد المسيح الذي كان يسمّى أيام القديس يوحنا بقانون الإنضمام!! ليصير واحداً في شعب الله الجديد «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو: ٣: ٥)

ويعود إنجيل القديس يوحنا وبصفة فريدة ليوضح سلطان الخدمة والإرسالية الذي لا يعتمد على مدرسة للربيين ولا شهادة من السندريم بل على الروح القدس القوة الإلهية الناطقة في أفواههم والمنيرة لعقولهم وأفهامهم والموضحة والشارحة للحق كل الحق: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تُغفر له ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت.» (يو: ٢٠: ٢١-٢٣)

وهكذا أرسى إنجيل يوحنا الأساس لقانون متكامل للعبادة والخدمة على أنقاض الناموس الذي توقف لإنهاء مدة صلاحيته بقيام الكنيسة وبدوام مسيرتها الجديدة في كل أنحاء العالم بقيادة الروح القدس وسلطانه.

وبدراسة إنجيل يوحنا نكتشف أنه كما اهتم ليعالج مشاكل وتساؤلات نشأت كحتمية فرضها توقّف العبادة بعد خراب أورشليم والهيكل؛ كذلك من جهة أخرى نجده وقد انشغل إلى أقصى حدّ لتقنين المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة كرازة القديس بولس الرسول في هذه المناطق. وهذه المفاهيم تتركز في معنى «حرية البنين» و«بطلان الإتكال على أعمال الناموس» و«الأهمية القصوى للإيمان الشخصي في الفرد» و«استعلان لاهوت المسيح» و«عمومية الإنجيل للأمم». فإنجيل يوحنا يوضح أن كل هذه الإتجاهات الجديدة التي انبثقت من كرازة الروح القدس على يدَي القديس بولس لم يغفلها المسيح في تعاليمه، فقد كان لكل واحدة منها موقف وتعليم.

وهكذا بدأ الروح القدس يعمل بصورة نشطة في ذهن القديس يوحنا ليرفع الغموض عن مواقف وتعاليم المسيح التي لم تكن مفهومة عندئذ يوم أن قيلت للرسول وهي على بُعدٍ من زمانها، كقول المسيح للقديس بطرس (عند تمنّعه من غسل المسيح لقدميه): «أجاب يسوع وقال: لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو: ١٣: ٧)؛ «... أما هو فكان يقول عن هيكل

جسده، فلما قام من الأموات تذكّر تلاميذه أنه قال هذا. فأمنوا بالكتاب وبالكلام الذي قاله يسوع.» (يو: ٢١ و ٢٢)

وحينما كشف القديس يوحنا المواقف والكلمات والتعاليم التي تركتها الأناجيل الأخرى ولم تأتِ على ذكرها، ظهرت شخصية المسيح بوضوح بالنسبة للعالم وكل المسيحيين. فالمسيح في إنجيل يوحنا أعظم من صانع معجزات، وأكثر من الملك الآتي، وليس هو المسيا موضوع انتظار اليهود لتخليص إسرائيل من عبودية الرومان كما خلّصهم موسى من مصر؛ بل هو «مخلّص العالم» كله كما ورد على لسان أهل السامرة. وهو ابن الإنسان بمعنى يَجُوبُ البشرية كلها، وهو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب. وهنا يرفع إنجيل يوحنا الغطاء عن مفهوم ميلاد المسيح في بيت لحم ليكون على مستوى «التجسد». «فالكلمة صار جسداً» هو السر الأساسي وراء حياة المسيح وأقواله جميعاً وهو الآية من وراء المعجزات العظمى التي عملها لكي تشير كلها إلى مصدرها أنها هي أعمال الله المكّلة والمجّدة للخُلُقَة التي اضطلع بها سابقاً المسيح نفسه قبل تجسده. وهكذا لم يتم في أذهاننا وضع اللمسات الأخيرة على قصة الميلاد في المغارة وسرفرج جند السماء مع الناس على الأرض إلا بعد أن استوعبنا إعلان إنجيل يوحنا أن «الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا» (يو: ١٤). وإعلان المسيح عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة»؛ «والذي رأي فقد رأى الآب»؛ و«أنا والآب واحد.» (يو: ١١: ٢٥؛ ١٤: ٩؛ ١٠: ٣٠)

كذلك فإن إنجيل يوحنا وضع على نفسه أن يضع الخلفية التاريخية مشروحة بفهم المسيح ومقنّنة روحياً كإنجيل الله لكل تعاليم القديس بولس الرسول التي أذاعها بين الأمم وغرسها غرساً جيداً في قلوب وأذهان كنائس آسيا الصغرى السبع، وواجهها القديس يوحنا كتلميذ مسؤل عن تحقيقها وانطباقها على تعاليم الرب نفسه. وهكذا وَجَدَ الإيمان المسيحي — مطبّقاً على إنجيل المسيح بيد القديس يوحنا — طريقه إلى كل مسيحي أممي. فصراخ فيلبس الرسول المتعطش لرؤية ومعرفة الآب باعتبار ذلك منتهى أمله في الإيمان بالمسيح والله كتلميذ، هو في الحقيقة تصوير عملي لكل صراخ الأمم وصراخ المستقبل المسيحي كله في كل العالم فيما بعد. هذا صوّره القديس يوحنا في إنجيله تصويراً مُبدعاً وأعطاه الرد كاملاً ومختصراً ملأ كتب اللاهوتيين شرحاً وتأملات: «الذي رأي فقد رأى الآب». فهو — أي الكلمة المتجسد — الصورة المنظورة لجوهر الله بالقول والعمل!! «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. قال له فيلبس: يا سيد أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زمناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رأي فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت: أرنا الآب؟ ألسنتك تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو: ١٤: ٦-١٠)

من أجل هذا كتب القديس يوحنا إنجيله ليصير الله لدى كل العالم في متناول الرؤيا القلبية بالتقوى والإيمان في نور أقوال المسيح وأعماله وإعلانه الصريح والواضح عن نفسه. فالمسيح في إنجيل يوحنا هو الإعلان الكامل لله.

أنظر كيف يتتبع القديس يوحنا تعاليم القديس بولس الرسول، فيستخرج أصولها الإلهية من فم المسيح:

تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا

تعاليم القديس بولس الرسول في رسائله

«كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم.» «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. كانوا لك» (٢٢)، «وأعطيتهم لي.» (أف ١: ٤)
(يو ١٧: ٦)

«لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتني لأنهم لك» (يو ١٧: ٩)
«والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم.» (يو ١٧: ٥)

«لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧: ٢٤)

«سبق فعيّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه.» «أما كل الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله.» (أف ١: ٥)
(يو ١٢ و ١٣)

«الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله.» (يو ٣: ٣)

(٢٢) «كانوا لك وأعطيتهم لي» تعني أنهم كانوا يؤمنون بالله (الآب) حسب نوراة العهد القديم، وفتح الله بصيرتهم واجتذبتهم إلى المسيح لينالوا بواسطته التبني والخلاص من العبودية والدينونة. هكذا أعطاهم الآب للمسيح ليردّهم المسيح إليه كأبناء: وهذه الآية تُفهم جيداً في ضوء كلمات المسيح: «أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي.» (يو ١٤: ١)

«المولود من الجسد جسدٌ هو والمولود من الروح هو روح.» (يو ٣: ٦)

«الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً، معيّنين سابقاً حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته.» (أف ١: ١١)

«ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقتكم.» (يو ١٥: ١٦)

«كل ما يعطيني الآب فالتي يُقبل. ومن يُقبل إليّ لا أخرجّه خارجاً.» (يو ٦: ٣٧)

«لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني...» (يو ٦: ٤٤)

«لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يُعْظ من أبي.» (يو ٦: ٦٥)

«إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح.» (أف ٣: ٦)

«ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة. ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد.» (يو ١٠: ١٦)

«أستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح.» (١ كو ٦: ١٥)

«أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (١ كو ١٢: ٢٧)

«لأننا أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥: ٣٠)

«أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام. كلُّ غصن فيّ لا يأتي بشمر ينزعه. وكلُّ ما يأتي بشمر يُتَّقِيه ليأتي بشمر أكثر... أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتي بشمر كثير.» (يو ١٥: ١ و ٢ و ٥)

«ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترباً بمؤازرة.» (أف ٤: ١٥ و ١٦)

«أما هو فكان يقول عن هيكل جسده.» (يو ٢: ٢١)

«أستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله.» (١ كو ٦: ١٩)

«أنتم فيّ وأنا فيكم.» (يو ١٤: ٢٠)

«أنا فيهم وأنت فيّ.» (يو ١٧: ٢٣)

وكان أخطر ما يواجه القديس يوحنا الرسول هو من جهة جوهر الإيمان المسيحي وتقنيته لدى الشعوب الداخلة في الإيمان في جيل ابتعد عن اليهودية تماماً. وقد وضع القديس بولس الرسول أصوله الأولى على أساس عدم توسُّط الفرائض التي تؤدّي جسدياً، والتي شجّبتها في كل رسائله جاعلاً الإيمان المسيحي قوة تغيير إلهية بالروح القدس تغير طبيعة الإنسان من مستوى السلوك بحسب الجسد إلى مستوى السلوك بحسب الروح ليكون إنساناً جديداً خليفة ثانية روحية؛ وإن هذه القوة تعتمد كلياً على اسم المسيح: «الذي به لأجل اسمه قَبِلْنَا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم.» (روا: ٥)

وهكذا جاء القديس يوحنا ليَقْنَنَ هذا الإيمان عينه إنجيلياً وعلى مستوى نُظَقَ المسيح وبصورة واضحة معتمداً اعتماداً كلياً على «اسم المسيح» القوة المحيية والمغيّرة والوالدة للإنسان الروحي: «وأما كل الذين قَبَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ» (يو: ١٢) «وأما هذه فقد كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَلَكِي تَكُونُ لَكُمْ، إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ.» (يو: ٢٠: ٣١) «ومهما سألتُم بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ لِتَتَمَجَّدَ الْآبُ بِالْإِبْنِ.» (يو: ١٤: ١٣)

وفي رسالته الأولى يعبّر القديس يوحنا باختصار شديد عن علاقة جوهر الإيمان باسم المسيح هكذا: «كُتِبَتْ هَذَا إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ لَكِي تَعْلَمُوا أَنَّ لَكُمْ حَيَاةً أَبَدِيَةً وَلَكِي تُؤْمِنُوا بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ.» (١ يو: ٥: ١٣)

ومرة أخرى يقف القديس يوحنا — وهو في ختام القرن الأول — موقفاً حاسماً ودقيقاً في مواجهة النشاط الفكري الضخم الذي كانت تمارسه الأوساط المحيطة في أفسس وغيرها من الفلاسفة والمعلمين والأدباء والشعراء الذين كانوا قد ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة. حتى المسيحيون أيضاً انغمسوا في مثل هذه المعارف. وقد ألقى القديس بولس الرسول بكل ثقله لاستقطاب هذا النشاط وقيّمه وسما فوقه معطياً في المقابل المدلولات الروحية الحقّة في المسيح. فإذا سيعطيهم القديس يوحنا من أقوال الرب لتكون الدستور الدائم للمعرفة المستمدة من يناييعها بل من ينبوعها الإلهي الأصيل والوحيد للحق، ومعناه وقيّمته وفعله وأثره المحرّر والمحيي؟ ثم ما هو التقييم العملي لعلاقة المنظور بغير المنظور (وبلغة الفلاسفة بما وراء الطبيعة)؟

هنا يُبرز إنجيل يوحنا مفهوم «الحق» كجوهر إلهي مُحيي وليس مجرد معرفة مجردة موضوعية دون ذات تُحييها وتحققها — فينادي إنجيل يوحنا بفهم المسيح: «تعرفون الحق، والحق يحرككم»، «أنا هو الحق»!! (يو: ٨: ٣٢؛ ١٤: ٦) والتحرر الحقيقي أو الحرية الحقيقية هو التحرر من رباط الخطية

وسلطانها الإستعبادي للنفس البشرية والذات ككل!! « كل مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية » (يو: ٨: ٣٤). أما كيف نتحرر من الخطية فبواسطة ابن الله الذي يعتقنا من عبودية الخطية والموت وسلطان الجسد وشهوته وطغيان الشيطان بأوهامه، لأن ابن الله هو الوحيد الذي له سلطان على الخطية والموت، وهو القيامة والحياة: « فإن حرركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً. » (يو: ٨: ٣٦)

هذا الحوار يقدمه إنجيل يوحنا بلا ملل وفي مواضع كثيرة، لأن القديس يوحنا يعلم أنه يواجه جيل الفلاسفة وعُشّاق المعرفة وعمالقة الفكر الباحثين عن الحق! لقد حطّم إنجيل يوحنا أسمى ما بلغ إليه الفلاسفة من الإرتفاع بالمعرفة نحو تجريدتها الكلّي لتكون عقلية خالصة تخلّق في سماء الفكر وحده دون الواقع حينما قال وفي بدء إنجيله: « والكلمة (اللوغس) صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده »!! (يو: ١: ١٤). وهذا استعلن « الحقيقة الأبدية » أو « الحق المطلق » ورفع عنها نقاب العقل الخالص واستحضرها متجسدة في إنسان، في ملء التاريخ، عاش وتألّم وصُلب ومات ثم قام أيضاً ليتّهب الإنسان خبرة الحياة والقيامة والنصرة على الموت والخطية لكل مَنْ يؤمن!

وهو في ذلك لم يكن يقصّ قصة أو يعطي علماً بل كان يقدّم شخص الحياة الأبدية شخص الحق وملء النور يسوع المسيح الذي عاش معه ورأته عيناه ولمسته يده، هو هو كلمة الحياة والحق والحياة الأبدية التي كانت عند الآب.

وهكذا يقدم القديس يوحنا للعالم الباحث وراء الحق والحياة الكاملة والأبدية شخص الحياة نفسها والحق نفسه لينال به كلُّ مَنْ آمن هذا الحق عينه وهذه الحياة الأبدية عينها: « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو: ١٧: ٣)، « الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. » (يو: ٥: ٢٤)

وعندما أعطى القديس يوحنا في مستهل إنجيله بشارته الحاسمة: « والكلمة صار جسداً »، كانت هذه هي البشارة الأولى من نوعها في عالم الفلاسفة والباحثين وراء فواصل اللامحدود بالمحدود والأبدي اللازم بالزمني والنور بالظلمة: « والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه » (يو: ١: ٥). وهكذا صالح إنجيل يوحنا، في المسيح، الفكر المنطلق وراء اللامحدود بالواقع الحي المنظور والملموس، ورؤيا الرائي لما فوق الطبيعة بالتجربة الإختبارية الحية والمحياة.

وفي هذه كلها نرى أن مادة إنجيل يوحنا هي شاهدة بحد ذاتها لزمان ومكان كتابة هذا الإنجيل العجيب بل وللظروف التي حثّت بكتابته تحثيماً.

٣ - الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا

كما يراه القديس يوحنا نفسه :

إن القديس يوحنا يوضح بجلاء وباختصار في نهاية الأصحاح العشرين الغرض الأساسي الذي من أجله كتب إنجيله هذا : « وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب . وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابنُ الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه » (يو ٢٠ : ٣٠ و٣١) . أي إن غرض الإنجيل هو :

أولاً : أن يؤمن القارئ أو السامع ،

وثانياً : أن يحصل على الحياة الأبدية بهذا الإيمان .

والإيمان ، عند إنجيل يوحنا ، يتجه إلى حقيقتين أساسيتين :

الحقيقة الأولى : الإيمان بأن يسوع الإنسان الذي دُعي بهذا الاسم هو المسيح أي « مَسِيحًا اليهود » الذي عليه يتعلق كل رجاء إسرائيل ، وهو محور كافة النبوات وغاية ونهاية وشرح كل أسفار العهد القديم .

الحقيقة الثانية : أن يسوع المسيح هذا هو هو ابن الله الحامل لجوهر الله مع الآب ، وبسبب كونه قد صار إنساناً فهو بسبب جوهره الإلهي وبشريته معاً فهو قريب غاية القرب من كل بني الإنسان وهو يدعوهم بصفته الإلهية والبشرية أن يصيروا أبناء الله كما تميزهم من واقع موته عن البشرية وقيامته .

وهكذا يعتمد شرح كل ما جاء في إنجيل يوحنا على هاتين الحقيقتين . ولقد تبرهنت ، بالفعل والاختبار اليومي كما عاشته الكنيسة الأولى التي آمنت بهذا الإيمان ، قوة هذا الإيمان عندما انبثقت بالفعل الحياة الأبدية بكل برهان الروح ومواهبه في جماعة المؤمنين البسطاء الذين اعتمدوا باسم المسيح مؤمنين بهاتين الحقيقتين : أن يسوع هو المسيح « المسيا » ؛ وأنه هو ابن الله الآتي إلى العالم لفدائه .

أ - فكان إيمانهم بالحقيقة الأولى أن يسوع هو المسيح شهادة على صدق كل ما جاء في أسفار العهد القديم حيث كان يشهد المعتمد على أنه يؤمن بجميع أسفار العهد القديم .

ب - وكان إيمانهم بالحقيقة الثانية أن يسوع هو ابن الله شهادة على غنى ميراث المسيح في الله الموهوب لكل البشرية وعلى قدرة المسيح على إعطاء القيامة والتبني والحياة الأبدية لكل من يؤمن به .

ونلاحظ أنه بالصفة الأولى، أي بأن يسوع هو المسيح، تلتحم المسيحية باليهودية فترث منها كل ميراث عطف الله ورحمته على كل الآباء والأنبياء القديسين القدامى.

أما بالصفة الثانية، أي بأن يسوع المسيح هو ابن الله نكون قد تحررنا كمسيحيين من كل حدود اليهودية الضيقة غاية الضيق.

٤ - تفنيد بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا:

أ - يشترك بعض الآباء القدامى في الرأي القائل أن القصد من كتابة إنجيل يوحنا كان هو الدفاع عن المسيحية ضد الهرطقات التي كانت منتشرة في آسيا الصغرى واليونان في ذلك العصر. وهذه هي نظرية القديس إيرينيئوس (٢٣) وكذلك العلامة إيرونيموس (چيروم) (٢٤). ولكن الفكر الأرثوذكسي يستبعد تماماً أن يكون ذلك هو الأساس أو كان الهدف الأساسي لكتابة الإنجيل. صحيح أن بعض الآيات تدحض تماماً هرطقة الإبيونيين وبدعة الدوسيتيين وادعاءات بعض تلاميذ يوحنا المعمدان الذين كانوا يقولون أن المعمدان هو صاحب الرسالة وليس المسيح، حيث جاء الرد في المواضع التالية: يوحنا ٣: ٢٨؛ يوحنا ٥: ٣٣-٣٦؛ يوحنا ١٠: ٩ و٨.

ولكن الحقيقة أن استعلان الإنجيل للحقائق الإلهية يأتي بصورة كاملة ومطلقة، فهي ليست بحد ذاتها دحضاً لرأي معين بل هي دحض لكل رأي، في كل مكان وزمان، يأتي مخالفاً للحقيقة الإلهية. فالحق المطلق هو أساس وهدف الإنجيل.

ونظرة واحدة على رسائل القديس يوحنا تجعلنا ندرك ما هو أسلوب الرد على الهرطقات الصريح الواضح والمباشر الذي يتبعه القديس يوحنا ضد هؤلاء المبتدعين أنفسهم، وذلك حينما يكون حُرّاً في الهجوم المباشر الذي يكتبه تحت مسؤوليته وبلغته وفكره وإيمانه هو. ففي الرسالة الأولى يشير بأصبعه بكل جرأة ومواجهة ضد الإبيونيين (ومعنى اسمهم: الفقراء من اليهود، وهم شيعة تحظ من قدر المسيح ومنهم «كيرنثوس» عدو القديس يوحنا) فيقول: «مَنْ هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الأب والابن» (١ يوحنا ٢: ٢٢)؛ «... قد صار الآن أضداداً للمسيح كثيرون» (١ يوحنا ٢: ١٨). أما ضد الدوسيتيين (أي الشبهيين وهم شيعة تقول إن المسيح لم يتجسد تجسداً حقيقياً بل كان شَبَهاً أو خيالاً وأن يهوذا الإسخريوطي صُلب بدل المسيح) (٢٥) فيقول: «... لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كلُّ روح يعترف

23 Iren., Adv. Haer. III, 11,1.

24 Hieron., Comm. on Matt., prolog.

25 Oxford Dict. of the Christ. Church, p. 409.

بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم» (١ يوحنا ٤: ١-٣).

ب - كذلك ينتحي بعض الآباء مثل يوسابيوس^(٢٦) وإيرونيμος^(٢٧) (جيروم) ناحية «نظرية التكميل»، أي أن إنجيل يوحنا جاء ليكمل ما في الثلاثة الأناجيل الأخرى. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا يختص بالكشف عن الأغوار اللاهوتية المتروكة في روايات الأناجيل الثلاثة وخاصة تلك الروايات التي سردت الأحاديث والتعاليم والحوار الذي كان يدور بين المسيح والتلاميذ وبين المسيح والمتعلمين من الكتبة والفريسيين أو مع الذين كانوا يناصبونه العداء لمسكوه بكلمة، الذين ما برحوا يحاورونه في أدق وأخطر الأمور ليقعوه في مخالفة قضاياهم. هذه التشكيكة المعقدة من التزعمات والثقافات والنيات استغلها القديس يوحنا في إبراز أقوال وتعاليم المسيح لأنه كان يعلم بالروح أنها نفس التشكيكة لكل عصر قادم، لذلك دقق القديس يوحنا جداً في الكشف عن خلفيات النيات المخفية وراء هذه المصادمات والتي قدم عليها المسيح أقوى الردود، وهي الردود التي أصبحت كما هي في إنجيل القديس يوحنا أعظم مادة يمكن أن تواجه بها الكنيسة كل فلسفات وثقافات العالم المنحرفة في كل عصر.

فإن بدا لبعض علماء الكتاب المقدس وشراحه أن التعاليم التي قدّمها القديس يوحنا في إنجيله إنما تكمل ما جاء في الأناجيل الثلاثة، فذلك مرجعه إلى أنها تعاليم كاملة بحد ذاتها صالحة أن تكمل كل معرفة حقيقية عن المسيح، لأن الإلهام الروحي واضح غاية الوضوح والذي يُقال بالروح يكمل كل معرفة روحية. ولكن لم يكن قصد القديس يوحنا أبداً أن يكمل ما جاء في الأناجيل الأخرى، لأن العلماء يقررون بكل ثقة أن القديس يوحنا لم يكن لديه نسخ من الأناجيل الثلاثة.

ج - كذلك يتجه بعض المفسرين القدامى أمثال اكليمنديس الإسكندري^(٢٨) إلى فكرة أن إنجيل يوحنا كُتب من أجل التعليم بمعنى أنه جاء شرحاً للأناجيل الأخرى وليس سرداً تاريخياً كبقاى الأناجيل. ولكن للأسف، لأنه حتى وإن كان بالفعل يشرح ما جاء في الأناجيل الأخرى إلا أن العامل الأساسي فيه هو صياغة الحقائق كما هي لغاية واحدة محدودة وهي هكذا: «وأما

²⁶ Euseb., Hist. Eccl. III, 24.

²⁷ Hieron., op. cit., prolog.

²⁸ Euseb., op. cit., VI, 14,7.

هذه (الآيات) فقد كُتبت ... لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣١). إذن، فهو يهدف إلى غاية عملية وليس نظرية تعليمية.

د - كما يقطع بعض الشُّراح بأن قصد إنجيل يوحنا كان هو التوفيق بين الأمور التي كان متنازعا عليها لاهوتياً أو تاريخياً. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا قدّم مادة إلهية حية من أقوال المسيح وتعاليمه تصلح بحمد ذاتها أن ترد وتوفّق وتصلح بين كل المتناقضات، وهذا شأن الروح. فإنجيل يوحنا بأقوال المسيح التي فيه لا يمكن وضعه في موازنة أمام أية مشكلة مهما كانت، فهو وإن كان يردُّ عليها حتماً - لأنه الحق ذاته - إلا أنه في عظمة ورزانة يتفوق فوق كل المشاكل ويظل كذلك أبداً! فهذا الشموخ واجه إنجيل يوحنا كل الفلسفات، ومنها فلسفة الغنوسيين^(٢٩) أعتى شيعة للمتعلمين في العالم، وقد كانت أخطر الفلسفات طرّاً، ولكنه باستعلان الحق الذي في المسيح حكم عليها، وبقي الإنجيل وانمحت الغنوسية.

(٢٩) هم جماعة «المعرفة» يخلطون المسيحية بالسحر والخرافات. وأهم قادتهم قائلتيوس وفاسيليديس وماركيون. وإذا أراد القارئ معرفة شيء عن هذه المخرطات كلها فليرجع إلى كتاب «التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي»، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص ١٠٥-١١٥.

الفصل الثالث

طابع إنجيل يوحنا

بسيط، إعجازي في بساطته، صاف ليس فيه ما يعكر الفكر وإن كان فيه ما يحير أعظم العقول، هادئ كهدوء الأبدية! كلماته حية محمولة على الروح، عميقة لا يمكن الوقوف لها على قرار، ترتفع بمن يقرأها كأجنحة سرّية في سرعة وسهولة حتى تضعه أمام الله، وكأن كلامه رؤيا تسلب قارئها وعيّه فترة، ثم تتركه وحده ليحكم على نفسه.

ولم يكن جزافاً أن يصف القديس يوحنا القميص الذي كان يلبسه المسيح وقت أن صُلب: «وكان القميص بغير خياطة منسوجاً كله من فوق. فقال بعضهم لبعض لا نشقه بل نقترع عليه» (يو: ١٩: ٢٣ و٢٤). نعم كان منسوجاً كله من فوق لم تضم أطرافه يداً، وحدة واحدة، كاملاً ومنسجماً. هكذا كان إنجيله! ولا يزالون يقترعون عليه لمن يكون في حوزة إيمانه ولم يستطع أحد أن يشقه إلى الآن!

من يقرأ إنجيل يوحنا يمكن أن يبتدىء فيه، ولكن أن ينتهي منه فهذا أمر يفوق الزمن، فإنجيل يوحنا ليست له نهاية لأنه يسلمك إلى ما وراء الكتابة وما بعد الزمن. وبحسب تعبير القديس يوحنا نفسه فهو يفوق طاقة العالم سعة وعلماً وإدراكاً: «وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يتسع الكتب المكتوبة. آمين» (يو: ٢١: ٢٥). وكأن قول المزمور قائم في ذهنه: «لكل كمال رأيت حداً؛ أما وصاياك فواسعة جداً.» (مز: ١١٩: ٩٦)

إنجيل يوحنا صورة حية للمسيحية التي تحمل طابع الرسولية في أوج نورها واستنارتها، كنيسة العصور الأولى، كنيسة الأغابي (ولائم المحبة) والأسرار والبتولية!!

الكنيسة القبطية لا تزال تحمل طابع إنجيل يوحنا. والذين يعيشون بروحها في إيمان وإخلاص وتقوى التزاماً بتراثها وتقليدها المسلّم مرة للقديسين هم جميعاً كثير الشبه بالقديس يوحنا. لذلك،

فإنجيل يوحنا هو السُّفر الروحي الذي أُعطي أن يفكّ ختمه لكل من تأجج حب المسيح والآب في قلبه وكان أميناً على ماضي التراث وحاضره.

فكر الإنجيل بحسب الشارحين له عموماً هو لاهوتي، أي منشغل بالله إلى أقصى حد، وهدفه أن يُشغل القارئ بالله ويُشعل في قلبه جذوة الإيمان الحي الذي يورثه الحياة الأبدية. ولكنه لا يقدم لنا الله بدون مدخل حي تاريخي فهو حلقات من الاستعلانات عاشها وآمن بها أشد الإيمان ونادى وعلم بها وصلى بها ما يقرب من ثمانين سنة، إن قلنا أنه أتى إلى المسيح وهو ابن العشرين عاماً وأنهى حياته على الأرض وهو ابن المائة.

والقارئ إذا انتبه يكتشف أن إنجيل يوحنا، من المقدمة حتى النهاية، هو قصة واحدة لاهوتية منسجمة ومتحدة، أو هو استعلان إلهي مرتّب وموقع تاريخياً، وهو كله واقع تحت مبدأ عقائدي واحد يضم جميع أطرافه. وليلاحظ القارئ الدارس الواعي أن هذه الوحدة اللاهوتية المنسجمة لا تأتي جزافاً أو من مهارة بشر مهما أوتي من مواهب، ولكنها صُنعة حائك سماوي مُطرز بالنعمة. وإذا دققنا نجد أن هذه الوحدة قائمة على عاملين: الأول، رؤية لاهوتية فائقة موحدة للتقليد الرسولي ككل الذي تقوم عليه كل الأناجيل، يراها الكاتب بالروح موقعة على كل أجزائه فتبدو الأجزاء مترابطة منسجمة وليست مجرد متفرقات من كلمات وعظات ومعجزات عملها المسيح في المكان والزمان، وبذلك يبرز إنجيل يوحنا شخص المسيح متألقاً بكامل صفاته منجمعة في كل زواياه، كما جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. أما العامل الثاني فهو الغرض والهدف الواحد الذي يجمع أطرافه وهو الإيمان بالمسيح ابناً لله، الأمر الذي كان في زمان كتابته عزيزاً وضرورياً أقصى ما تكون الضرورة في وسط فوضى الهراطقة المحاربين للإيمان الصحيح.

وإنجيل يوحنا، إذا عبّرنا عنه ببساطة، نجده شهادة وليس كرازة، فكاتبه يقف شاهداً لكل كلمة شاهدها وكتبها. وعلى عمق الحق الذي فيه، لا يمكن للقارئ أن يفلت من أن يقع هو الآخر تحت هذه الشهادة. وهذا هو غرض الإنجيل أو غرض الوحي الإلهي الذي أملاه. اسمعه وهو يشهد: «... وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١ يوحنا ١: ٣ و٢)

ويلزم جداً أن يعرف القارئ أن الكنيسة التي كُتب فيها هذا الإنجيل كانت واقعة أثناء الكتابة تحت اضطهاد بليغ مع مقاومات من جماعات منشقة ذات أصول كثيرة تحيّر العقول، منها ما هو يهودي ومنها اليوناني ومنها جماعات مسيحية كانت أعضاء في الكنيسة الأولى^(١) وجرفت تيارات

(١) يتضح ذلك من هذه الآية: «أكتبُ إلى ملاك كنيسة أفسس. هذا يقوله ... أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنت لا

تقدر أن تحتمل الأشرار، وقد جرّبت القائلين أنهم رُسُلٌ وليسوا رُسُلًا فوجدتهم كاذبين.» (رؤى ٢: ١ و٢)

بعضها فلسفي وبعضها تصوُّفي وبعضها سرائري سحري. ومن هذه الجماعات مَنْ جاء من اليهودية قبل وبعد خراب أورشليم ومن روما والإسكندرية، ومنهم من كان مستوطناً تلك البلاد منذ مئات السنين بعد سبي ما بين النهرين لليهود. وهؤلاء هم جماعة اليهود الأصوليين الذين كانوا متمركزين في أفسس، وقد كان لهم كيان ومجمع وسنهدريم نشيط. وقد ذكرهم القديس يوحنا في سفر الرؤيا (٢)، لذلك نسمع في إنجيل يوحنا - الذي تأثر من اضطهادهم جداً - ذكراً كثيراً لأعمال اليهود المقاومين للمسيح والإيمان.

إنجيل يوحنا له طابع كنسي سرائري يبدأ فيه تصوير الكنيسة بالإثني عشر في حياتهم السرية حيث كان المسيح فيهم رأساً مدبّراً وليس رئيساً يحكم، فكان معهم وليس فوقهم «الله معنا» = «عمانوئيل»، «أنا معكم زماناً هذه مدته» (يو ١٤: ٩)، ونسمع المسيح يخاطب الإثني عشر كأحباء بل كأولاد «لا أعود أسمىكم عبيداً... بل أحباء» (يو ١٥: ١٥)، «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد» (يو ١٣: ٣٣)، «يا غلمان أعل عندكم إداماً؟» (يو ٢١: ٥)

والقديس يوحنا لم يشرح لنا اللاهوت على مستوى المنطق والعقل، أو على مستوى التأمل في ما وراء الطبيعة، وهو لم يعرّفنا حقيقة الله عن طريق الإستبطان أو الخبرة الصوفية أو عن طريق تداريب النسك والتطهيرات اللازمة؛ ولكنه قدّم لنا الله والحق والحياة الأبدية في شخص «رأيناه»: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (١ يو ١: ١ و٢). إذ قدّم شخص ابن الله الوحيد متجسداً متأنساً ليكلّمنا بنفسه وعن نفسه وعن أبيه الذي لم يره أحد قط إلاّ هو، الذي عرّفنا بسرّ الحياة الأبدية التي فيه والتي غلبت الموت وبها وفيها قام ونفخها في تلاميذه مقدّماً البرهان على ما يقول بما يعمل حتى «إن لم تؤمنوا بي فأمنوا بالأعمال.» (يو ١٠: ٣٨)

والقديس يوحنا نفسه يقف شاهداً لصدق لاهوت المسيح وتجسده إذ يقدّم نفسه بلا مواربة كشاهد عيان لما رآه وسمعه ولمسه، وكشريك أخذ بالفعل من ملئه الإلهي: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦)، أي بفيض متصل. ثم هو في إنجيله يدعونا لمثل هذا الإيمان والأخذ ليكون لنا حياة باسمه.

والقديس يوحنا في إنجيله يقدّم لنا في عروض القصة أو الحادثة أو المعجزة المنظورة سرّ حضور

(٢) «أنا أعرف أعمالك وضيقنك وفقرتك مع أنك غني، وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ ١: ٢٠)

الله غير المنظور كاشفاً عن الفعل الإلهي المنسوجة منه القصة أو المعجزة، فيحس القارىء بالجانب الروحي الخفي، ويمجد نفسه في مواجهة السرّ الإلهي فيكتشف في المسيح بهاء مجد الله، ويرى فيه صورة جوهرة: «لعازر هلمّ خارجاً.» (يو ١١: ٤٣)

وهكذا وعلى مدى صفحات الإنجيل يتجلى في المسيح احتضان الأبدية للزمان باتفاق ومودة وجبروت المصالحة والمُصالح، كما يرى في المسيح ظهور غير المنظور في المنظور دون خداع أو خيال بل عن طريق اللمس والمشاهدة والواقع الحي، كما يرى في المسيح استعلان الحق «بالكلمة» أو بالآية سيّان، وفي النهاية يتحقق أن الله صار مدركاً في شخص المسيح يسوع وأن الحياة الأبدية قد انفتحت كل صنابيرها الغامرة بمفاعيلها السرية لتملأ النفس والعقل والقلب والروح، حيث يتقابل في شخص المسيح الإبن المحبوب قلب الله مع قلب الإنسان المهجور: «... الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). وهكذا يتم الاستعلان عن طريق الحب، استعلان ذات المسيح وذات الله بالتالي. وغياب الحب هو غياب الله. «والذي يبغضني يبغض أبي أيضاً» (يو ١٥: ٢٣). من أجل ذلك لقبوا إنجيل يوحنا بالإنجيل الروحي وكاتبه بيوحنا اللاهوتي ويوحنا الحبيب، وذلك من واقع الأثر الفعلي الذي خطّه إنجيل يوحنا في الكنيسة الأولى وما حقته الكنيسة بالفعل من آياته.

ولاهوت إنجيل يوحنا غير جدلي، فهو يقدم الحقائق اللاهوتية كما هي، كما سمعها وكما رآها ووعاها وكما استلهمها بروحه فيما بعد بيسرّ الروح القدس الذي قاده بالوحي من أول كلمة إلى آخر كلمة. فهو لا يستدرج القارىء إلى النقاش أو الجدل ولكنه يعلن عن الحق باقتضاب شديد ولكن بسلطان. فالقديس يوحنا لم يكن بطبيعته رجل منطق، ولا الروح الذي فيه كان كذلك، بل كان نبّي ورأي العهد الجديد. لم يحاول قط أن يبرهن على حقيقة واحدة ذكرها في الإنجيل، بل ترك الحقيقة تعلن عن نفسها بالسرّ الكائن فيها والروح الكائن في قارئها!

والقديس يوحنا يقرر الحقائق العميقة جداً بكلمات بسيطة جداً: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» (يو ١: ١٤). (ووحيد الآب ترجمة للكلمة اليونانية $\mu\omicron\nu\omicron\gamma\epsilon\nu\eta\varsigma$ = monogenes. والقديس يوحنا هو وحده الذي استخدم هذا التعبير دون باقي كاتبي الأناجيل. والتعبير يفيد «وحدة الجنس» فهو (المسيح) ابن وحيد ليس له مثيل، لأنه يمثل بنوّة فريدة لأنها في ذات الله. ويلاحظ هنا أن القديس يوحنا يسمّي المسيح بـ «الوحيد» فقط دون ألقاب أو أوصاف أخرى).

والحقائق التي يقررها الإنجيل بالرغم من أنها ضوابط إيمانية عقائدية غاية في الدقة والعمق والشمول، فإنه يسردها دون أن ينبه الذهن إليها أو يشير إلى أهميتها «المولود من الجسد جسد هو،

والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦). ويتحدث عن القاعدة ويطلقها كقانون إلهي ويترك الإستثناء فيقول: «ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم» (يو ٩: ٥). ولكن المعروف قطعاً أنه نور ليس لكل الذين في العالم بل كثيرون عثروا فيه وفضلوا الظلمة عليه. هذا لم يشغل إنجيل يوحنا حتى لا ينحرف عقل القارئ وقلبه وراء السلبات بل لكي ينطبع بالإيجابية الحرة وحسب. هو ينصح فقط: «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥). فإذا دققنا نجد أن القديس يوحنا ينظر إلى الغاية التي يحددها الإلهام في قلبه ويصوّب كلماته نحوها دون أن يعرّج هنا أو هناك لأنه يعلم أن مهمته تنصبُّ كلها في قيادة النفس الإنسانية إلى موطنها السماوي؛ إنما تخرج الكلمات بروح رئاسي وبسلطان، مشيرة إلى الفهم الذي كان قد نطقها! أليس هو الإنجيل تذكّرة السّفر المختومة؟

إنجيل يوحنا يفترض في القارئ الإستعداد للسمع والفهم بل ويفترض فيه أيضاً الإيمان. فلو دقق القارئ في أسلوب إنجيل يوحنا فإنه يكتشف خلوه تماماً من طابع الشخصية للكاتب، فالحقائق مقدّمة بسلطان الله يحس القارئ حيناً يقرأها لأول وهلة أنها بعيدة المنال، بعيدة عن مستوى المعقولات التي نتصورها جميعاً: «... ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو ٣: ٧). قالها المسيح فلما تعرّف فيها نيقوديموس أنكر عليه المسيح تعرّضه: «أنت معلّم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» لأنه مفروض أن نيقوديموس يملك مفاتيح ملكوت السموات. لأن الحق الإلهي لا يُناقش بالعقل بل يُستلهم بالروح، فيجده الإنسان أسهل من كل علوم الدنيا. والقديس يوحنا لا يحاول تقريبه للقارئ لتفادي عثرة نيقوديموس على الأقل، ولكنه لا يتدخل قط من عنده لتبسيطها أو شرحها بل يترك في موقف نيقوديموس تماماً. لقد توارى القديس يوحنا نهائياً عن المشاهد جميعها، وأخيراً وأخيراً جداً وفي نهاية إنجيله يقول كلمته ويروح بالسر: «... هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق» (يو ٢١: ٢٤). فالقديس يوحنا اكتفى في إنجيله أن يقدم نفسه لا كشارح ولا كمُدافع ولا كمُحاجج ولكن كان مثلاً صادقاً لمن شهد وآمن. وهو يدعوكم إلى هذا عينه.

لذلك يحس القارئ أن دعوة الإيمان في إنجيل يوحنا شيء أعلى بكثير عن رغبة الكاتب، بل هي ضرورة ملحة تملأها على الكاتب سلطة إلهية تفوق معرفته وتفوق قدرته بل وتفوق غيرته أيضاً!! فنحن مهما دققنا في الأحاديث الساخنة ومحاجة المسيح مع اليهود التي سجّلها القديس يوحنا لا نقف على أي أثر لشخصية القديس يوحنا، ولا على أية ملامح لانفعالاته ككاتب أو راوٍ أو شاهد، وهذا ليس من نوع التواضع ولا من قبيل عدم الإحساس بالذات كما يقول بعض المفسرين، ولكن هذا كان وضع كاتب الإنجيل أمام الصوت الإلهي الذي يرنّ في أعماقه فكان يسجّله كما هو.

لذلك حينما أراد القديس يوحنا في ختام إنجيله أن يعلن صوته بالشهادة لحق الإنجيل الذي كتب، لم يستطع أن يقول «أنا» بل «نحن»: «ونحن نعلم أن شهادته حق». هنا يتذكر القديس يوحنا بقية التلاميذ وكل الذين رأوا وسمعوا الرب وآمنوا به وكأنه معهم. ومع الرب بالروح كان هو يكتب وكان يشهد. فالقديس يوحنا تحصن في كلمة «نشهد» في صيغة الجمع، أي «نحن»، ويستمد منها سلطان الإنجيل كله!!!

ثم من هو الذي يستطيع أن يعلم في ذلك الوقت (سنة ١٠٠ م.) أن شهادة إنجيل يوحنا حق؟؟ وكل الرسل ماتوا. ثم من ذا الذي له الحق أن يختم فوق شهادة رسول مثل يوحنا؟ علماً بأن منطق إنجيل يوحنا أساساً أنه يرتفع فوق مستوى شهادة الناس: «أنا لا أقبل شهادة من إنسان...» (يوه: ٣٤). لذلك فشهادة القديس يوحنا الرسول المدموغة بكلمة «نحن» إنما هي أعمق تعبير عن حالة الشركة السرية التي ربطته شخصياً بالرب وبالروح وبكافة الرسل الذين عاينوا كل حقائق الإنجيل معه واشتركوا في حوادثه. فكلمة «نحن» هي في الواقع صوت الكنيسة الأولى كلها وعبر الدهور. وبذلك يكون القارئ مدعواً أيضاً ليكون واحداً من «نحن» كشاهد لحق المسيح الذي أتى وبأقوى أيضاً، وذلك كمن يرى ويسمع بعيني يوحنا وقلبه: «آمين. تعال أيها الرب يسوع.» (رؤؤ: ٢٢: ٢٠)

الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا
بالعهد القديم

هي علاقة ممتدة تضرب جذورها في كل محيط العهد القديم . فإنجيل يوحنا يجد ذاته وحدة تجميع عظمى لكل الميراث والتراث: آباء وأنبياء وتوراة وناموس ومدارس ربين والمفاتيح القديمة للملكوت السموات مع المسيا رجاء إسرائيل . سندرسها مع القارىء واحدة فواحدة لعله يكون من الوارثين .
وسنجمعها في المواضيع الآتية:

- ١ — الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا .
- ٢ — التوراة والناموس في إنجيل يوحنا .
- ٣ — المسيا في العهد القديم وفي إنجيل يوحنا .
- ٤ — «إلى خاصته (اليهود) جاء» . تفرد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصته لم تقبله» .
- ٥ — النقاط الرئيسية التي ركز عليها إنجيل يوحنا كاشفاً عن درايته الفذة للإمتيازات التي مُنحت لليهود، والمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية، وتطبيق النبوات على أعمال المسيح .

الفصل الأول

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

لقد اتضح للعلماء أن إنجيل يوحنا له خلفية عبرية يهودية ذات أبعاد عميقة في ذهنية القديس يوحنا الرسول وفي كتابته . وهذا تأكد لهم بعد أن أرجع بعض العلماء كثيراً منها إلى أصولها الأرامية والعبرانية ، وأشهرهم العالم بورني^(١) الذي حلل تركيب الجمل ، وأدوات الوصل ، والضمائر ، والأفعال ، وأدوات النفي ، وأثبت أن وراء اللغة اليونانية التي كتب بها القديس يوحنا إنجيله ، توجد اللغة الأم للكاتب واضحة . وقد ترجم هذا العالم بعض الجمل إلى الأرامية لكي يثبت أصل التركيب بصورة رائعة حقاً ، وسنقدم بعض الأمثلة لذلك .

ثم جاء بعد بورني العالم توري C.C. Torrey ليثبت صدق ما وصل إليه بورني بل ويتراءى له أن الأناجيل الأربعة مكتوبة أصلاً باللغة الأرامية ومترجمة إلى اليونانية^(٢) . وهذا يؤيد ما وصل إليه قديماً (نهاية القرن التاسع عشر ١٨٩٣م) العالم والأسقف لايتفوت ، الذي قرر أن إنجيل يوحنا ربما يكون أكثر كتب العهد الجديد عبرانية^(٣) .

ولكن آخر ما وصلت إليه أبحاث هؤلاء العلماء هو أن القديس يوحنا كان صاحب لغتين : اللغة الأم الأرامية التي عاصر بها السيد المسيح وتكلم بها ، واللغة المكتسبة اليونانية التي كتب بها إنجيله .

والقديس يوحنا يدرك أنه يكتب لغير اليهود لذلك اهتم بأن يترجم كل الإصطلاحات أو الكلمات الأرامية أو العبرية إلى معناها باليونانية ، وعلى سبيل المثال كتب هكذا :
« كيفاً وترجمتها الصفا أي الصخرة » (يو : ١ : ٤٢) ،

¹ Borney, Aramaic Origin of the fourth Gospel (1922).

² Hunter, According to John, p. 19.

³ Ibid., p. 18.

«هسيا أي المسيح» (يو ١: ٤١)،
«سلوام وتفسيره مُرْسَل» (يو ٧: ٩)،
«توما أي التوأم» (يو ١١: ١٦)،
«جَبَّاثَا أي البلاط» (يو ١٩: ١٣)،
«جُلُجَّة أي الجمجمة» (يو ١٩: ١٧)،
«رَبُونِي أي معلم» (يو ٢٠: ١٦).

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا باستخدام واو العطف للربط بين الجمل أو شبه الجمل بدل التركيب للوصل الصحيح في اليونانية، مما يكشف عن تغلب اللغة الأم في لغة الكاتب، مثل: «وتَقَل...، وصَنَعَ...، وطلَى...، وقال...» (يو ٦ و ٧)، وهذا غير مألوف في اللغة اليونانية. وهكذا يكشف الأسلوب عن الأرامية المخفية وراء اليونانية.

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا بالإستغناء عمّا نسميه أسماء الوصل، مثل «الذي» وحروف العلة «لأن» و «لذلك» و «لكن»، للربط بين الكلام حسب الأصول اليونانية المدرسية، بل إنه يسرد الكلام متتابعاً بدون تعقيد على سجيته الأرامية كجمل متراسة تعطي المعنى تماماً ولكنها تتجاوز أصول التراكيب اللغوية. وذلك واضح في أصحاح ١٥، إذ نجد الآيات متوالية ومتتالية وليست متصلة، لا يوصلها ببعض أي حرف أو كلمة: [«أنا الكرمة...، كل غصن...، وكل ما يأتي...، أنتم الآن أنقياء...، اثبتوا فيّ...، كما أن الغصن...، أنا الكرمة...، الذي يثبت...، لأنكم بدوني...، إن كان أحد...، إن ثبتتم...، بهذا يتمجد أبي...، كما أحبني الأب... إلخ »]. هذا أسلوب أرامي صرف يستخدمه القديس يوحنا خاصة عندما يسرد أقوال المسيح وكأنه يترجم ترجمة فورية.

كذلك لاحظ علماء اللغة أن القديس يوحنا في أكثر من عشر آيات استخدم الضمائر بحشوزائد كما هو سائد تماماً في الأرامية. وهذا لا يستقيم إطلاقاً مع اللغة اليونانية (ولا حتى العربية):
«الذي أنا لست له مستحقاً أن أحلّ سيور حذائه.» (يو ١٦: ٢٧)
«أنك أنت أرسلتني.» (يو ١٧: ٨ و ٢٥)

كذلك فرط في استخدام الضمائر في بدء الجمل:
«وكل الذين قبلوه إليهم هو أعطى...» (يو ١٢: ١٢)
وهذا تركيب أرامي أكيد.

كذلك لاحظ العلماء استخدام الإنجيل لحرف العلة «لكي» *iva* ١٢٩ مرة أي أكثر من ضعف

إلى ثلاثة أضعاف استخدامه في الثلاثة الأناجيل الأخرى. وهو يكشف عن اللهجة الأرامية المتغلبة على نطق الكاتب، ولا يمكن أن تستقيم مع اليونانية الأصلية.

وقد لاحظ العالم بورني أن القديس يوحنا يستخدم حرف العلة «لكي» في غير موضعه اللغوي، إذ يستخدمه عوض اسم الوصل «الذي»؛ كما في الآية:

«هذا هو الخبز النازل من السماء لكي (الأصح لغوياً «الذي») يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو: ٦: ٥٠)

«بل تأتي ساعة لكي (في اليونانية) يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو: ١٦: ٢)

كما اكتشف العالم بورني، وذلك سنة ١٩٢٥م، أن بترجمة كلام المسيح كما جاء في إنجيل القديس يوحنا ظهر أن الكلام جاء أصلاً إما سَجْعاً بالثر وإما مُقَفًى بالشعر، شأنه شأن الأسفار الموحى بها في المزامير والأمثال وغيرها، مما يشير إلى أنها إما من أصل أرامي محفوظ وإما أنها منقولة من أصل واحد مكتوب.

ولكن في سنة ١٩٤٦م جاء العالم متى بلاك^(٤) الذي تقدم خطوة أكثر في أبحاث العالم بورني من جهة أصالة اللغة الأرامية التي وراء الإنجيل، فوجد ترادفاً بديعاً بين ألفاظ المسيح، وأعطى في ذلك المثل الذي جاء في الآية: «كل من يعمل الخطية فهو عبد للخطية» (يو: ٨: ٣٤)؛ حيث كلمة «يعمل» بالأرامية هي «أبد»، وكلمة «عبد» تنطق أيضاً «أبد».

كذلك في كلام المعمدان في قوله عن «العريس وسماع صوت العريس وأنه ينبغي أن ينقص والمسيح يزداد أي يصير الكل». ففي الأرامية كلمة «العريس» تنطق (كال ليثا) والصوت (فال)، وينقص (قيلال) ويزيد أي يصير الكل (كلال). وهكذا فليتصور القارئ جمع هذه المترادفات ذات الصوت والرّتم الواحد معاً كيف تكون الآية إبداعاً في الرقابة النغمية الموسيقية.

وأخيراً جاء العالم دوود Dodd وقرر أن الأرامية تقف وراء إنجيل يوحنا لتبيّن أن شخصية كاتبه يهودي بكل تأكيد، بالرغم من الوسط الذي كان يعيش فيه واللغة اليونانية التي يتكلمها ويكتب بها.

كذلك يأتي علماء جدد أكثر اقتناعاً بأرامية وعبرية إنجيل يوحنا ويقررون بعد بحوث مضمينة أن هناك تقليداً (منقولاً محددة متوارثة بالتزام ودقة) سواء شفاهية محفوظة أو كتابةً، وراء كل أقوال

⁴ Matthew Black: An Aramaic Approach to the Gospels & Acts, 3rd Ed. 1967, pp. 171,147.

المسيح المدوّنة في إنجيل يوحنا، وليس من المستبعد بل هو من العدل أن نقول أن القديس يوحنا كان يحتفظ بها خاصة لديه^(٥)، وهؤلاء العلماء هم:

Driver, Bultmann, T.W. Manson, Matthew Black.

ولكن كان قد سبقهم منذ مائة عام تماماً العالم التي لايتفوت وقرر ذلك على عهده.

وواضح من أسلوب القديس يوحنا أنه يستخدم التبادل المعنوي بين النفي والإيجاب كما هو في أشعار المزامير تماماً. وذلك في اللغة العبرية يُقصد به من حيث الوحي زيادة التأكيد على السامع، وذلك كله صار من صميم التقليد العبري.

وهذا نجده واضحاً هكذا:

« كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. » (١ : ٣)

« فاعترف، ولم ينكر. » (١ : ٢٠)

« لكن يسوع لم يأتهم على نفسه، لأنه كان يعرف... ما كان في الإنسان. » (٢ : ٢٤ و ٢٥)

« كل من يؤمن به لا يهلك، بل تكون له الحياة الأبدية. » (٣ : ١٦)

« وأما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه. » (١٠ : ٥)

« أنا كلمت العالم علانية، ... وفي الخفاء لم أتكلم بشيء. » (١٨ : ٢٠)

كما يلاحظ القارئ أن هذا نفسه هو أسلوبه في رسائله:

« الله نور، وليس فيه ظلمة البتة. » (١ يوحنا : ٥)

« فهو كاذب، وليس الحق فيه. » (١ يوحنا : ٤)

« نضل أنفسنا، وليس الحق فينا. » (١ يوحنا : ٨)

« نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا. » (١ يوحنا : ١٠)

« وهي حق، وليست كذباً. » (١ يوحنا : ٢٧)

« يكون لنا ثقة، ولا نخجل منه. » (١ يوحنا : ٢٨)

كذلك يستخدم إنجيل يوحنا نفس أسلوب الوحي الذي جاء في سفر المزامير وهو تكرار الكلمات ذات الشغل العالي لتنبه روح الإنسان لشدة أهميتها بصورة تأكيدية، كما جاء في مزمور ١١٩ من جهة: « (ناموسك) »، « (وصاياك) »، « (أقوالك) »، « (شريعتك) »، « (أحكامك) »، حيث تكرارها ملفت للنظر جداً. هكذا جاء في إنجيل يوحنا مثل مطلع الإنجيل من جهة « (الكلمة) »:

⁵ Bultmann, cited by: Hunter, op. cit., pp. 17,22.

«الكلمة، والكلمة...، وكان الكلمة...» (١ : ١)

كذلك «الشهادة» يكررها:

— «جاء للشهادة ليشهد...، بل ليشهد...» (١ : ٧ و ٨) وذلك في آية واحدة.

— «إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي...، الذي يشهد لي...، ... أن شهادته التي يشهدها...، ... فشهد للحق...، وأنا لا أقبل شهادة...، وأما أنا فلي شهادة أعظم...، ... هي تشهد لي...، والآب نفسه... يشهد لي، وهي التي تشهد لي...» وهذه كلها جاءت متوالية وراء بعضها في الآيات (٥ : ٣٩-٣١)

كذلك كلمة «السجود» تتكرر عشر مرات في خمس آيات متتالية:

«آباؤنا سجدوا...، ... يُسجد فيه...، تسجدون...، أنتم تسجدون...، أما نحن فنسجد...، ... حين الساجدون...، يسجدون...، ... مثل هؤلاء الساجدين له، ... والذين يسجدون...، ينبغي أن يسجدوا.» (٤ : ٢٠-٢٤)

كذلك كلمة «الخبز» أي الجسد، تتكرر ١٦ مرة متتالية في أصحاح واحد (٢٧-٥٨). ولا يجهل القارئ قيمة «الجسد» في المسيح.

كذلك كلمة «الحياة» ومشتقاتها (الحي، يحيا... إلخ...) تتكرر ١٩ مرة متتالية في نفس هذا الأصحاح السادس.

كذلك كلمة «الثبات» ومشتقاتها (يثبت، اثبتوا... إلخ...) تتكرر ١٠ مرات في فقرة قصيرة (يو ١٥ : ١-١٠).

كذلك يهتم إنجيل يوحنا أن يكرر أيضاً الجمل وأشباه الجمل التي تحمل حقائق هامة عن المسيح للتركيز والترسيخ وزيادة الاستعلان:

«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه...، أما أنا فإني الراعي الصالح...» (يو ١٠ : ١١-١٤)

وواضح أمام القارئ أن كل المكررات في إنجيل يوحنا تحمل بحد ذاتها ثقلها عالياً في الحياة الروحية وفي الفكر اللاهوتي الخلاصي، وإنجيل يوحنا في هذا يلتزم بالروح العبرية وبالدرجة الأولى.

وبلاحظ العالم وشكوت^(٦) أن إنجيل يوحنا يخالف الثلاثة الأناجيل الأخرى في إيراد ما جاء

^٦ Westcott, The Gospel of St. John, LI.

على لسان المسيح: «فأجاب قائلاً» وهو التعبير الصحيح بحسب اللغة اليونانية. فإنجيل يوحنا يقول هكذا: «فأجاب وقال» (يو: ١٨: ٤٨ و٥٠؛ ١٩: ٢؛ ٣: ٣ و١٠؛ ٤: ١٣... إلخ...) وهو أسلوب آرامي صرف.

ثم جاء العالم الألماني أدولف سلاتر Adolf Slatter سنة ١٩٣٠ م، واكتشف في إنجيل يوحنا آثاراً عبرية يهودية أكثر من الأرامية (٧)، وقدم أمثلة غنية من التعبيرات الخاصة بالربيين وطريقتهم في التعبير. كما اكتشف أن كاتب الإنجيل يتقن طرق البحث والكتابة عند مدارس الربيين.

كذلك أمدنا بعض العباقرة المتخصصين في اللغة العبرية بدراسات فتحت مجالات جديدة هامة في البحث وتأويل الإصطلاحات وردّها إلى معناها الأصلي العبري، أمثال: C.F. Moore سنة ١٩٢٧ م، وأبحاثه تنحصر في الديانة اليهودية في فجر المسيحية، والعالم Israel Abraham سنة ١٩٣٧ م، وأبحاثه في الفريسية والأناجيل، والعالم Starck Biller Beck's سنة ١٩٢٢ - ١٩٢٨ م، وأبحاثه في شرح العهد الجديد بالنسبة للتلمود والمدراس.

وبهذه التحقيقات المتقدمة التي بلغها علماء اللغات السامية في دراسة إنجيل يوحنا، يكون قد أدخل أخيراً هذا الإنجيل بمنتهى الهدوء والثقة في جو الفكر اليهودي عائداً إلى تراث العهد القديم بأصوله وفروعه، تربته الأولى التي زرع فيها.

(٧) عل القارىء أن اللغة العبرانية هي اللغة المقدسة للتوراة والطقوس والصلوات. أما اللغة الأرامية فهي اللغة الدارجة للحديث والكتابة.

الفصل الثاني

التوراة والناموس في إنجيل يوحنا

كلمة «التوراة» = «توراح» تُعْتَبَر المفتاح لكل الأبحاث والمفاهيم والتعاليم اليهودية وكانت تعني عدة معاني. ولكن المعنى الأصلي القديم يفيد التوجيهات والتعليمات والتعاليم التي استلمها الملهَمون من فم الله.

وكان هذا المعنى يغطي:

أولاً: الوصايا، الشريعة كقوانين ونظم، الأحكام التي تسلمها مشرعو وقضاة وملوك إسرائيل من الله، وكانت تُجَمَّع تحت كلمة الناموس.

ثانياً: كل ما كان من الوحي الذي نطق به الكهنة سواء عموميين أو محليين.

ثالثاً: تعاليم أُعطيت بفم الأنبياء تخص طبيعة الله وأوصافه ومعاملاته عبر التاريخ ومقاصده من جهة شعبه ومطالبه من الناس.

والخمسـة الأسفار الأولى تسمى بالتوراة بنوع خصوصي. ولكن المعنى امتد ليشمل تعاليم الأسفار الأخرى وخاصة تعاليم الأنبياء.

كل هذا اعتُبر أنه استعلانات إلهية تحويها التوراة في المفهوم التقليدي.

أ — التوراة والترجمة السبعينية

عند بدء ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية (الترجمة السبعينية) اختاروا كلمة «الناموس» = Law ليعبِّروا بها عن التوراة، ولكن أضافوا على ما كانت تحويه التوراة من أصول ثوابت ملحقات

ولكن كان الناموس لا يعبر في الفكر اليهودي التقليدي عن التوراة، بل كان يعطي فقط المفهوم الأول المذكور أعلاه أي كل الوصايا من قوانين ونظم وشريعة وأحكام. فهذه وحدها التي كانت تسمى بالناموس في التقليد اليهودي القديم.

ولكن الترجمة السبعينية شملت بكلمة الناموس أموراً غريبة عن مفهوم التوراة في القديم مثل: العوائد، والقواعد الوضعية، والمبادئ المعترف بها، وهذه الإضافات هي من صنع الربيين التي قال عنها المسيح: «وصايا هي تعاليم الناس» أي ليست إلهية. وهي كلها إضافات يهودية مستحدثة بواسطة الربيين تحمل أخطاء شنيعة في التعليم كان من شأنها أن تطمس الحق في كلام الله، لذلك سماهم المسيح: «أتركوهم، هم عميان قادة عميان، وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة» (مت ١٥: ١٤) (أي في فخ الشيطان).

ب - مفهوم الناموس في العهد الجديد

- في حين أننا نجد مفهوم الناموس في الأناجيل الثلاثة وفي سفر الأعمال يقتصر على مضمون الخمسة الأسفار فقط بما تشملهم من قوانين كهنوتية وعلمانية؛
- وفي رسالة القديس يعقوب ابتداء الناموس يأخذ مفهومه السائد آنذ عند الرواقين عن الحرية: «ولكن من اطلع على الناموس الكامل ناموس الحرية...» (يع ١: ٢٥)؛
- أما عند القديس بولس فكلمة الناموس تمتد لتشمل المعنى المتسع لتغطي كل العهد القديم باعتباره إعلانات عن الله، مع ميل واضح نحو الفكر اليوناني (الرواق).
- نجد في إنجيل يوحنا، أو بمعنى أصح في فكر المسيح، أن حدود الناموس هي إلزام كامل بمفهوم الناموس اليهودي كما حددته الترجمة السبعينية في حدود التوراة ولكن بمعناها المتسع والملتزم بحدود التوراة الأصيلة، أو بمعنى أوضح أنه لم يخرج عن التقليد اليهودي بحدوده المرسومة ولم ينحرف قط ناحية الأصول اليونانية.

هذا الاتجاه الإلزامي في إنجيل يوحنا من جهة التوراة اليهودية، التي هي القاعدة الأساسية للفكر اليهودي، هو في غاية الأهمية كبرهان ضمني أصيل لتأصل إنجيل يوحنا والتزامه باليهودية. وهذه الدقة غير المعتادة بل والفائقة للتصور من نحو عدم الانحراف ناحية الفكر اليوناني في ذلك الوقت وذلك المكان، وكون القديس يوحنا يكتب باليونانية لأهل العالم اليوناني آنذ، لأمر يذهل العقل.

فهو دليل بليغ لإرتباط كاتبه ارتباطاً عنيداً بنقل صورة صادقة أمينة حية لما قاله المسيح تماماً وبكل تحفظ.

ج - الناموس في إنجيل القديس يوحنا

١ - يو ٧ : ٥١ و ٥٠ « فقال لهم نيقوديموس - الذي جاء إليه ليلاً - وهو واحد منهم (من الفريسيين)، أَلَعَلَّ نَامُوسُنَا يَدِينُ إِنْسَانًا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلًا وَيَعْرِفُ مَاذَا فَعَلَ. »
حيث نص الناموس (١) هكذا: [أَيُّ لَحْمٍ وَدَمٍ إِذَا سَمِعَ الْكَلِمَةَ مِنْ إِنْسَانٍ (مُخَالَفٍ) يُحْكَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلًا فَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ الْحُكْمُ.]

٢ - يو ٨ : ١٧ و ١٨ « وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فِدِينُونَنِي حَقًّا لِأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيْضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ. أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي وَيَشْهَدُ لِي الْآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. » والمقابل في التوراة: أنظر عدد ٣٥ : ٣٠، تث ١٧ : ٦، تث ١٩ : ١٥.

٣ - يو ٧ : ٢٣ وهنا يمعن الإنجيل في الكشف عن عمق وأصالة الدراية التي للقائل والكاتب بالناموس كما يفهمه الربيون حرفياً، حيث نجد التوراة منسوبة لموسى هكذا: « فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخُتَّانَ فِي السَّبْتِ لَثَلًا يُنْقَضُ نَامُوسُ مُوسَى أَفْتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لِأَنِّي شَفِيتُ إِنْسَانًا كُلَّهُ فِي السَّبْتِ. »

هنا تظهر معرفة المسيح الدقيقة في إنجيل يوحنا بالإستثناءات التي وضعها الربيون حيث يقول التلمود: [الْخُتَّانَ يَرَدُ (يُنْقَضُ) وَصِيَّةُ السَّبْتِ.] (٢)

٤ - يو ٩ : تفتيح عيني المولود أعمى يوم السبت.
حيث أقيمت محكمة جزئية (ليست على مستوى السندريم) وتتكون من عدد من الفريسيين تختص بطرد الأعضاء الذين يكسرون الناموس من المجمع أو ربما رجمهم.
وقد أقاموا القضية على أساس أن الأعمى الذي صار بصيراً يعترف بإنسان على أنه نبي مع أنه لا يحفظ السبت، فهو يستحق الرجم، على أن لا يُحسب هذا أنه نبي بل خاطيء.

أ - في البداية انقسم الفريسيون على بعضهم، فالفريق الأول تمسك بتعليم أحد الربيين

¹ Exod. R. 21.2. Cited by: Shlatta & Dodd. op. cit., p. 78.

² Ibid.

العظام وهو هاليل الكبير^(٣) صاحب المدرسة التي تتمسك بالحقائق الواقعة وفحصها على الواقع دون التأويل، فقالوا إن المسيح بما أنه أكمل معجزة لذلك لا يُحسب خاطئاً.

ب — المدرسة الأخرى لربي آخر اسمه شمائي^(٤)، وهي تأخذ بالنطق وبالمبدأ العام الذي يفوق الواقع، فقالوا هذا الشخص ليس من الله ولا يحسب نبياً صادقاً لأنه كسر الناموس. وعلى أساس هذا الخلاف لجأوا إلى الولد نفسه بعد أن سألوا والديه وتحققوا من إتمام المعجزة وعرفوا أنه كامل السن يتحمل كل المسئوليات. وكانت النية مبيّنة أن يجعلوا الأعمى الذي انفتحت عيناه يشهد أن يسوع ليس نبياً، لأنه يمكن الطعن في نبوته على أساس أنه رجل خاطيء لأنه يكسر الناموس، وحينئذ يَصْدُقُ حكم مدرسة شمائي على المسيح نفسه. فإذا لم يشهد أنه نبي حينئذ يشككوه في صحة عملية الشفاء كآخر وسيلة لإخراجه هو من العقاب، وهذا يظهر من السلوك الآتي:

استدعوا الولد لثاني مرة وبادروه بأمر رسمي خطير (بحسب الناموس مبيّنين على غرض سييء): «قالوا له: أعطِ مجداً لله Δόξ δόξαν τῷ θεῷ». وهذه الجملة خطيرة للغاية — وكثير من الشراح لم يفطنوا إلى ما وراءها إذ حسبوها تمجيداً لله وحسب — ولكن هي جملة التمهيد القانوني لرجم الأعمى الذي تمت فيه المعجزة أو توقيع عقاب شديد عليه، وذلك بحسب شرح المِشْنَا^(٥)، إذ يتحتم قبل رجم المحكوم عليه أن يعترف، إذ تقول المِشْنَا: [إنه وهم رافعون الحجر وهم على بعد عشرة أذرع (الذراع = ١٨ — ٢١ بوصة) يأمره أن يعترف، وذلك بقولهم: «أعطِ مجداً لله»، وذلك بقصد أنه إذا مات يكون قد اعترف وأعطى المجد لله فيكون له نصيب في الدهر الآتي]. وهذا ما تم بالفعل في محاكمة عخان بن كرمي ورجمه: «فقال يشوع لعخان يا ابني أعطِ الآن مجداً للرب إله إسرائيل واعترف له، وأخبرني الآن ماذا عملت» (يش ٧: ١٩). وبعد ذلك حكم برجه هو وأسرته وحرق ممتلكاته.

فلما أعطى الولد المجد لله أصر على صحة المعجزة ورفض رفضاً باتاً الإنصياع وراءهم أن يسوع رجل خاطيء، بل ورفض أن يكرر لهم طريقة شفائه ولم يعبأ بنيتهم وتهديدهم له بالموت. فلما أيقنوا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل شتموه [هذا خطأ قانوني]، وهددوه ملوِّحين بنوع العقوبة التي تناسب اتهاماً آخر: «أنت تلميذ ذاك» مما يفيد بأنهم صمموا على تطبيق القرار الذي وضعه السنهدريم «أنَّ كل من يعترف بيسوع يُطرد من المجمع». ودافع الولد عن يسوع المسيح دفاعاً أظهر

³ Ibid.

⁴ Ibid., p. 18.

⁵ Cf. Mishnah san. 6,2. Ibid.

فيه أنه لم يُعَظَّ عَيْنِينَ فَقَطْ بَلْ بِصِيرَةٍ وَقَلْباً شَجَاعاً لَا يَهَابُ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الشَّهَادَةِ لِلْحَقِّ!!

وكان ردهم عليه: «أنت وُلِدْتَ فِي الْخَطَايَا بِجَمَلَتِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُنَا». لاحظ هنا سوء فهمهم لفقد العينين عند الأعمى أنه بسبب خطاياهِ وخطايا والديه (وُلِدْتَ فِي الْخَطِيَةِ بِجَمَلَتِكَ). «أما نحن فإننا تلاميذ موسى» ومعروف أن هذا هو أرفع لقب فخري للفريسيين في التلمود^(٦)... هنيئاً لهم!

وهكذا نجد في هذا الفصل أنه قد ورد على لسان يوحنا الرسول كل التعبيرات القضائية وأصول المحاكمات التي يتقنها الربيون، بكل دقة وأصالة مما يفيد قدرته الفذة وتضلعه بأساليب الربيين وقوانين التوراة.

وأخيراً، فن جهة الناموس لا ننسى أن القديس يوحنا منذ أن آمن بالمسيح وهو يترفع على ناموس موسى بجملته: «لأن الناموس بموسى أُعْطِيَ أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً» (يو: ١٧)، حيث «النعمة والحق» كان اليهود الربيون يقولون أنها تأتي كشجرة لدراسة التلمود. فهنا يكون القديس يوحنا قد نفى عن التلمود هذه الموهبة ورفعها عنه بعد ظهورها واستعلانها علنياً في شخص يسوع المسيح، وهذا يفيد ضمناً دراية القديس يوحنا السابقة بقيمة التوراة عند الفريسيين.

د — الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

وذلك فيما يخص نوال الحياة الأبدية وهي تأتي بلسان المسيح:

«الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتُم هيئته وليست لكم كلمته ثابتة فيكم، لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به. فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياةً أبدية. وهي التي تشهد لي. ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة.» (يو: ٣٧ — ٤٠)

هذا الحديث يكشف عن دراية عميقة بمبادئ الربيين المتوارثة. فكلمة «فتشوا» كلمة مدرسية ترد على لسان الربيين، وتعني الدراسة المركزة بشدة للتوراة أي «اليدراش». فهذه الدراسة حسب تعليم الربيين الخاصة تؤدي إلى الحياة الأبدية: [التوراة بهذه الطريقة تعطي الذين يمارسونها حياة في هذا الدهر والدهر الآتي.]^(٧)

والإنجيل هنا يعارض هذا «الظن» بجملته وبكل ما يتبعه من جهد لسبب واحد وهو أن

⁶ Ibid., p. 81.

⁷ Pirke Aboth vii.6. Cited by: C.H. Dodd, p. 82.

« كلمة الله اللوغس » أي استعلان الله الحقيقي غير موجود في قلوبهم « لأن كلمته ليست ثابتة فيكم ». إذن، ليست كلمات التوراة بعد هي التي تعطي الحياة، ولكن كلمة الله المسيح الذي هو طريق الحياة وبابها الوحيد: « الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة. » (يو: ٦: ٦٣)

هـ — ماء الحياة بين التوراة والمسيح

في قصة عرس قانا الجليل نجد ستة أجران ماء مُعدّة للتطهير حسب الناموس، لكلّ يوم جُرْن واليوم السابع استراحة ليس له تطهير. هذه حوّلها المسيح إلى خمر لتطهير آخر في سر الخمر المتحول إلى دم، فإن ذلك كان تطهيراً حسب الجسد وهذا تطهير وتقديس للروح بإهراق دم المسيح وانسكاب الحياة الأبدية منه.

وماء بئر يعقوب ذخر الأجيال وميراث أبناء يعقوب المحبوبين كبركة للحياة، هذا صار مُعطشاً بجلوس المسيح عليه. هذا حوّلته المسيح إلى ماء حيّ ينبع إلى الأبد بالإيمان بالمسيح إسرائيل الجديد، عوّض يعقوب إسرائيل القديم.

وإذا كان في التلمود تتركز الإشارات كلها وفي مواضيع عديدة وخاصة في المدرّاش (أي كتاب دراسة التوراة) أن التوراة هي ماء الحياة [كما أن الماء هو الحياة بالنسبة للعالم، هكذا كلمات التوراة هي حياة العالم.] شرح على سفر التثنية ١١: ٢٢-٢٨: فقد جاء إنجيل يوحنا ليركّز على أن الإيمان بالمسيح وكلامه هو ينبوع ماء الحياة الأبدية.

و — خبز الحياة بين التوراة والمسيح

التوراة كانت تشير في تعليم الربّين أن كلامها هو خبز الحياة للسامعين، وأن عطية هذا الخبز من السماء صارت على يدي موسى: [إذا جاع عدوك فأطعمهم بكلام التوراة وإذا عطش فاروهم بكلام التوراة]^(٨). جاء هذا على لسان رابي براخيا (بزيكتا ٨٠-ب).

وفي شروحات الربّين خلطوا بين خبز التوراة ومَن موسى النازل من السماء، فيقولون أنه عندما ارتوى الشعب من ماء التوراة أرسل إليهم الماء من الصخرة، وعندما تغذى الشعب على كلام التوراة

^٨ Ibid., p. 83.

نزل عليهم المن من السماء. لذلك ظنوا أنه عند مجيء المسيا سينزل المن من السماء كعلامة لمجيئه.

وعلى هذا يردُّ إنجيل يوحنا: «آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي (وهو) يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣١-٣٥)

وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد أنهى على رجاء الربيين في التوراة وفي المن المنتظر بإعلانه عن نفسه أنه هو خبز الحياة الذي نزل فعلاً من السماء ليكون حياة للعالم كله سواء بكلمته كينبوع روح الحياة أو جسده كما كل للحق وللحياة الأبدية.

ز - الخمر بين التوراة والمسيح

لقد جعل الربيون الخمر رمزاً للتوراة أي أنها تُطَيِّب القلب وتُبهِج الفكر وذلك في شرحهم لكلام الحكمة الذي جاء في سفر الأمثال: «هلموا كُلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتُها» (أم: ٩: ٥). فشرحها الربيون هكذا: [الله تكلم: ما السبب في جفلكم تأكلون المن وتشربون من البئر (الصخرة)؟ هذا بسبب أنكم قبلتم الأوامر والوصايا وهكذا باستحقاق خبز (التوراة أي كلامه) أكلتم المن، واستحقاق الخمر التي مزجتُها لكم (أي كلام التوراة المشرح) شربتم من ماء البئر (الصخرة).]^(١)

وبهذا يكون الربيون قد جعلوا الخمر رمز التوراة.

وعلى هذا كانت أول معجزة قام بها المسيح في إنجيل يوحنا هي إعطاءهم خمرًا جيداً بتحويل الماء الذي للتطهير (رمز التوراة). وجاء على فم رئيس المتكأ تلميح أن الخمر الأول الذي كان يُعطى هو الدون أي رديئاً، وأن الجيد جاء بعد الرديء. وهكذا يعن إنجيل يوحنا في إعطاء المقارنة بين خمر الربيين وخمر المسيح أي بين «شبه السموات وظلّها» (عب: ٨: ٥) وبين الحق الإلهي (الأليشيا) الذي استعلن بالمسيح.

^١ Ibid., p. 84.

ح - النور بين التوراة والمسيح

في شرح الربيين لسفر العدد (٥٢: ٦) فصل ٤١ على بركة الكهنوت: [يضيء الرب بوجهه عليك أي بنور التوراة.]

وأيضاً في شرح (بابا باثرا ٤ أ) وشرح (بابا ابن بطا) موجهين كلامهم إلى هيرودس الكبير بعد أن قتل الربيين: [أنت قد أطفأت نور العالم]. وهذا كان شائعاً أيام المسيح، فكان رد المسيح عليهم هكذا: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو: ٨: ١٢). وهذا أثار الفريسيين فقالوا له: «أنت تشهد لنفسك! شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب» (يو: ٨: ١٣ و١٤). وطبعاً يشير المسيح هنا إلى المقارنة بين مجيء التوراة على فم موسى - بيد ملائكة - وبين مجيئه هو من الآب وأنه هو مصدر النور في التوراة. وللأسف جاء النور الحقيقي إلى خاصته أما خاصته فلم تقبله - لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

وقد أشارت الأناجيل الثلاثة إلى حادثة التجلي: «وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه» (مت ١٧: ٢ و٣). وكانت هذه إشارة واضحة أن المسيح هو التوراة الجديدة كلمة الله المنيرة التي لما قبل موسى قديماً شَبَّهَهَا وظَلَّهَا فقط لمع وجهه. وها هنا موسى نفسه جاء ليشهد له.

ولم يكن جزافاً أيضاً أن يظهر المسيح لشاول في وسط النهار في السماء بوجه أكثر لمعاناً من الشمس لكي يدرك شاول أنه صار خادماً للأقداس العليا وليس عبداً بعد ليُرْفَع ناموس موسى.

وفي إنجيل يوحنا لم تُذكر حادثة التجلي باعتبار أن المسيح كان متجلباً بطول إقامته: «ونحن رأينا مجده»، وهذه بحمد ذاتها إشارة أيضاً إلى التوراة الجديدة لإستعلان مجد الله بالإنجيل في وجه يسوع المسيح.

وهكذا تتضافر كافة الأسفار وخاصة إنجيل يوحنا في دحض دعوى الربيين والحكماء اليهود فيما يخص التعليم الصحيح عن الله وكلمته.

الفصل الثالث

المسيّا في إنجيل القديس يوحنا (١)

ماشِيح (عبري) *māšîaḥ*

ماشِيحَا (أرامي) *m'šîḥā'* (يوناني) *Μεσσίας*

(يو: ١: ٤١ و ٤: ٢٥)

أ - لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

إنجيل يوحنا يُعتبر الوحيد بين جميع أسفار العهد الجديد الذي استخدم كلمة «مسيّا» (وهي الترجمة اليونانية للكلمة العبرانية كما جاءت في كتب اليهود). وذلك في إنجيل يوحنا ١: ٤١: «هذا وَجَدَ أولاً أخاه سمعان فقال له قد وجدنا «مسيّا» الذي تفسيره المسيح». وظل إنجيل يوحنا يستخدم بعد ذلك لقب المسيح بدل مسيّا إلا في أصحاح ٤ عدد ٢٥: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيّا (الذي يُقال له المسيح) يأتي. فتي جاء ذاك يخبرنا بكل شيء».

ولكن حَرَصَ إنجيل يوحنا أن يستخدم اللفظين «مسيّا» و«المسيح» ليس بالمفهوم الذي كان متداولاً بين الشعب بحسب النبوات التي كانوا يترقبون تميمها، لأن شخصية «مسيّا» كانت مرتبطة في النبوات بالملك الذي سيأتي من بيت داود ليملك على إسرائيل مُلكاً فُهم في التقليد فُهماً سياسياً، الأمر الذي تحاشاه إنجيل يوحنا بكل حرص في كل ما كان يرتبط بشخص الرب، حتى لا يظهر المسيح على الأساس السياسي الذي كان يتلفه الشعب ويخشاه الفريسيون والرَّبِّيُّون ويعملون له ألف حساب.

(١) «مسيّا» بالعبري تعني «الممّوح»، لذلك ترجمتها السبعينية بـ«المسيح» أي الممّوح *χριστός* من أصل الكلمة *χρίω* أي «يمّح»، بمعنى «المدهون» بقرن الدهن مُلكاً على إسرائيل. والوعد بالمسيح أو المسيا جاء على فم ناثان النبي لداود الملك بأن من نسله من يأتي ليملك على كرسيه لإسرائيل إلى الأبد (٢ صم ٧: ١٢-١٧).

علماً بأن كافة النبوات التي جاءت عن شخص المسيا أو الشخص المنتقد لإسرائيل كملك على بيت داود خلطت بين أوصاف الملك السياسي والملك الروحي، أي بين الشخصية الملكية التي تبدو دنيوية والشخصية الإلهية التي للمسيح. كذلك فالإنجيل الثلاثة لم تفرّق بوضوح في بادئ الأمر — خاصة إنجيل لوقا — بين هذه الصفات بل وأمعنت في التأكيد بأنه «المسيح الملك». (لو ٢٣: ٢)

ولكن إنجيل يوحنا حينما ذكر الملوكية للمسيح، أعلنها على أنها «ملك إسرائيل» (١: ٤٩)، وذلك على لسان نشا ئيل. هذا صحيح لأن هذا هو لقب يهو نفسه كما جاء في سفر إشعياء (٤٤: ٦).

غير أن هذا اللقب، أي «ملك إسرائيل»، اختاره أيضاً الكهنة والفريسيون حينما كانوا يخاطبون المسيح وهو على الصليب للتحقير (مت ٢٧: ٤٢ ومر ١٥: ٣٢).

أما إنجيل يوحنا فقد اختار هذين اللقبين معاً «مسيا» و«ملك إسرائيل» اللذين يخصّان ابن الله فعلاً. فـ«مسيا» هو حسب آمال اليهود وتحقيق نبوات الأنبياء، و«ملك إسرائيل» (الجديد) هو على المستوى الروحي وليس السياسي، لأن السياسي ينحصر في لقب «ملك اليهود»، وقد ورد دون اختيار إنجيل يوحنا على لسان بيلاطس البنطي في يو ١٨: ٣٣ حيث هذا اللقب مكروه غاية الكره عند اليهود: «فقال (بيلاطس) لليهود هوذا ملككم... أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر. فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلَّب... وكتب بيلاطس عنواناً ووضع على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري ملك اليهود... فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس لا تكتب ملك اليهود.» (يو ١٩: ١٤-٢١)

ولكن حينما سأله بيلاطس: «هل أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع أمّن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟» (يو ١٨: ٣٣ و٣٤). وقصد المسيح بذلك أن يوجه سؤالاً خطيراً لبيلاطس بمعنى هل أجابُ على سؤالك على أنك وأنت روماني تعني هذا فعلاً؟ آخذاً كلمة «ملك» على أساس سياسي؟ فلما أجاب بيلاطس أنه إنما يكرر الإتهام الذي وضعه اليهود عليه وهم المسؤولون عن ذلك الإتهام، حينئذ أجاب يسوع ليوضح له أنه فعلاً ملك ولكن ليس بالمفهوم السياسي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». فانتز بيلاطس هذه الفرصة ليأخذ عليه أنه قال أنه ملك قائلاً: «أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع أنت (الذي) تقول أنا ملك. أنا أتيت إلى العالم لأشهد للحق لهذا ولدتُ أنا» (الترجمة الدقيقة) (يو ١٨: ٣٦ و٣٧).

وواضح أن الإنجيل يقصد من اصطلاح «ملك» في مضمون كلمة «مملكتي» لقب المسيّا الخاص اليهودي كصاحب سلطان على المستوى الروحي ولكن «ملك» فقط لمن يعرف الحق وأنه جاء ليُسلّم هذا الحق للعالم.

ولقد كان المسيح حريصاً أن لا يُشاع عنه أنه «المسيّا» مسيح الرب: «وأنتم من تقولون أنا أنا؟ فأجاب بطرس وقال مسيح الله. فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد» (لو: ٩: ٢٠ و٢١) وذلك تحاشياً لخطأ إثارة مشكلة الملك السياسي.

ب - المسيّا، لا يعرف أحد من أين يأتي:

«ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (يو: ٧: ٢٧). هذا كان شائعاً في المصادر اليهودية عموماً أن المسيّا قد أتى إلى العالم ولكنه مُخْفَى بالعناية الإلهية، وأنه سيظهر فجأة ولا يعرف أحد من أين يأتي، ويكون إنساناً كاملاً مهياً للعمل الذي سيضطلع به وأمه حكم إسرائيل، لذلك فنذ ميلاده وحتى ظهوره سيكون أمراً مخفياً. وقد اجتهد بعض الربيين في التخمين أنه ربما يكون في روما أو في الشمال والبعض قال أنه اختفى في الفردوس لبعض الوقت. وفي مؤلف يهودي معاصر للإنجيل يوحنا وهو سفر عزرا الرابع ١٣: ٥٢ يُرمز إليه بأنه سيظهر من البحر (على القارىء أن يربط ذلك مع سَيْر المسيح على المياه وظهوره فجأة في كفرناحوم - يو: ٦: ٢٤ و٢٥). على هذا الأساس بدأ اليهود يحاورون يسوع أنه لا يمكن أن يكون هو المسيّا لأنه معروف أنه من الجليل، ولكن بتهكّم ظاهر يرد عليهم المسيح أنه لا من روما ولا من الشمال ولا من الفردوس بل من الله نفسه: «فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفوني وتعرفون من أين أنا. ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني.» (يو: ٧: ٢٨ و٢٩)

ج - المسيّا لا يموت:

«فأجابه الجمع نحن سمعنا من الناموس (التوراة) أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان.» (يو: ١٢: ٣٤)

هذا لأن الشعب كان قد تسلم من الربيين تعاليم عن التوراة مأخوذة بالفكر الجسدي (إش: ٩: ٧) أن الملك الآتي (أي المسيا) سيحكم إلى الأبد، فأخذها الربّيون أنه حكم زمني على الأرض.

ويدحض الإنجيل هذه الحجة ويرد عليها من واقع نصها الأصلي من الأنبياء. ويرد عليها بأن

الموت الذي سيُباشره المسيح إنما يقصد أن يقوم ويبقى إلى الأبد، ليكون سلطانه على السماء والأرض، وليس ذلك فقط بل لكي يعطي كل من يؤمن به أن يبقى هو أيضاً حياً إلى الأبد.

الفصل الرابع

«جاء إلى خاصّته وخاصّته لم تقبله»

تفرّد إنجيل يوحنا في الكشف عن

سر كيف ولماذا «خاصّته لم تقبله»

التخصص الأول والأساسي لإنجيل يوحنا هو استعلان طبيعة المسيح — كابن الله — وبالتالي استعلان اسم الآب وتمجيده كنتيجة حتمية لاستعلان وظهور الابن. ولكن وإن كان هذا الاستعلان يخص بالدرجة الأولى خاصّته أي شعب إسرائيل، إلا أنه جاء وفي تصميمه أن يجمع خرافاً من حظائر آخر (١٠: ١٦) غير شعب إسرائيل، ويجمع «أبناء الله المتفرقين» (١١: ٥٢) في جميع أنحاء العالم الذين اختصّهم الروح منذ البدء ببصيرة نيرة للسعي وراء الحق الذي كانوا يترقبونه «لأنه لم يرسل الله ابنته إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (٣: ١٧)، «وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (٣: ٢١). «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق. كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي.» (١٨: ٣٧)

ولكن بالرغم من هذه الدائرة الهائلة المتسعة لعمل المسيح في العالم ومن أجل العالم، إلا أنه اختصّ إسرائيل باستعلان ذاته أولاً ليتمجد إسرائيل، كوعد الآباء والأنبياء «نور إعلان للأمم وبهداً لشعبك إسرائيل.» (لو ٢: ٣٢)

هذا وبالرغم من ذلك أيضاً نجد أن إنجيل يوحنا يقوم — أكثر من جميع أسفار العهد الجديد — بمهمة قُضح عيوب هذه الأمة المختارة شعباً ورؤساء وكهنة وناموسيين وفريسيين وكشف المدى الموصف الذي انتهت إليه العبادة المقدسة إلى تجارة!! «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو ٢: ١٦)؛ وكيف انتهى الناموس وانتهت الوصايا إلى تخريج فتاوي وتزييف حقائق حتى صارت «تعاليم هي وصايا الناس» (مت ١٥: ٩، مر ٧: ٧)، وانحرف شرحها عن الحق وأبعدتها عن مصدرها الذي هو

النور والحق والحياة، حتى وقع المعلم والتلميذ في ظلمات الجهالة والفساد، والأعمى قاد الأعمى إلى الحفرة. «أتركوهم هم عميان قادة عميان» (مت ١٥: ١٤). «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي — مفرد λόγος (الحق) — أنتم من أب هو إبليس.» (يو ٨: ٤٣ و٤٤)

ولكن رسالته كانت تحتم أن يبدأ بإسرائيل، خاصته. فكلّمته الأولى لا بد أن تُزرع في تربتها الأصلية لأن قلوباً كثيرة كانت تنتظرها بفارغ الصبر وهي معها على ميعاد. أليس هو القائل أن «الخلاص من اليهود» (يو ٤: ٢٢)؟

لقد جهلوا الاستعلان وقت ظهوره لأن كلمة الله العظمى والخوفة التي سُلمت إليهم بيد ملائكة بددوها وطمروها في طين أطماعهم وشهواتهم «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته λόγος ثابتة فيكم.» (يو ٥: ٣٧ و٣٨)

وطبيعة الله الذي كانوا يعبدونه بالجهد نهاراً وليلاً بأوفر غيرة وتوقير وحماس لم يعرفوها إذ لم يكن لها وجود في قلوبهم ولا أدركوا ماذا يعبدون ومن يعبدون: «وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو ١٦: ٣)، «فقالوا له أين هو أبوك. أجاب يسوع لستم تعرفوني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ٨: ١٩)، «أبي هو الذي يمجّدي الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه.» (يو ٨: ٥٤ و٥٥)

والمسيح يعثّفهم بشدة على كبريائهم الكاذب وثقتهم في الله التي ليس لها أساس في قلوبهم وسلوكهم. فحقائق إيمانهم المسلّم إليهم وتاريخ عناية الله بهم وإعرازه لهم على أساس أمانتهم ذهبت أدراج الريح، وعاشوا وباتوا بلا تاريخ صادق وبلا ميراث لأن الله سحب كلمته من قلوبهم واستردّ مفاتيح ملكوت السموات التي أغلقوها في وجه الداخلين، فلا دخلوا هم ولا جعلوا الداخلين يدخلون. فانغلقت عيونهم وقلوبهم عن أن ترى أو تسمع لأنهم أساءوا إلى إلههم واستهانوا بمخلصهم.

الله تراءى لآبائهم، أما هم فعميت أبصارهم. فأين هم من ميراث يعقوب «فدعا يعقوب اسم المكان قنيزيل. قائلاً لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونُجِّيت نفسي» (تك ٣٢: ٣٠). ثم أين هم من مخافة آبائهم ورِعْدَتهم عند سماع صوت الله من بعيد؟ «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت.» (خر ١٨: ١٩ و١٩)

أين الأمانة والوَدَّ وعبادة الحب التي أحب الله فيها إسرائيل كعروس فعاشت أيامها الحلوة في كنف عريسها الذي تراءى لهم فيها بشبه مجده، ومن فرحهم واطمئنأنهم ودالتهم جلسوا أمامه وأكلوا

وشربوا في حضرته كإفخارستيا عظمى سابقة لأوانها: «ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صُتعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل. فأروا الله وأكلوا وشربوا.» (خر ٢٤: ١٠ و ١١)

ثم أي شعب من شعوب الأرض طرأ تعاهد الله معه بصوته وسط النار ولقنه كلام شريعته مسموعة ومكتوبة؟ عشر كلمات خرجت من فم الله كميثاق وعهد خاها إسرائيل وأفسدها وأعطى لصاحبها القفا دون الوجه، نقضوها وأدعى رؤساؤهم ومعلموهم كذباً ورياءً أنهم لها حافظون: «فكلّمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتاً وأخبركم بعهد الذي أمركم أن تعملوا به (أي) الكلمات العشر وكتبه على لوحين حجري» (تث ٤: ١٢ و ١٣). «من السماء أسمعك صوته ليندرك. وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار. ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم...» (تث ٤: ٣٦ و ٣٧)؛ «وجهاً لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب. لأنكم خفتن من أجل النار.» (تث ٥: ٤ و ٥)

جاء المسيح في إنجيل يوحنا وكأنه يحاسبهم على كل هذه المراحم والعهود والوعود الطيبة مع كل التدليلات التي دلى الله بها شعبه الذي لم يترع عهداً ولا وعداً. بدأ المسيح يحاسب الرؤساء على الوكالة، كان يتكلم كمن هو نادم على المراحم العظمى التي أسبغها عليهم مجاناً فعبثوا بها وأهانوا مُعطيها: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم... الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو ٨: ٣٩ و ٤٧). «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي؟» (يو ٥: ٤٦ و ٤٧)

الفصل الخامس

دراسة إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم

- (١) درايته للإمتيازات الفائقة التي منحت لليهود.
- (٢) درايته المدروسة للمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية.
- (٣) استخدامه للنبوءات وخاصة ما كان يشير فيها للمسيا.

(١) وفي مطلع الإنجيل، وكأنها عريضة الإتهام التي تسبق المناقشة والحكم إزاء الإمتياز الصارخ الذي خانوه بإصرار راسخ: «إلى خاصّته جاء (النور) وخاصّته لم تقبله» (يو: ١: ١١): ذلك لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور؛ يضع الإنجيل موضوع اليهود كإفتتاحية عامة لرسالة المسيح وكأنه الموضوع الشاغل للمسيح منذ البداية. وبهذا المعنى بدا المسيح وكأنه يطالب بمكانته المفروضة والمهملة بين المراكز الدينية!

أما كون المسيح يمثّل لإسرائيل كما كان الله في العهد القديم، فهذا واقع ملموس. اسمعه وهو يستقبل تلميذاً يهودياً صادق الروح والعبادة، ولأول مرة، إنه نشايل: «هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه» (يو: ١٧: ٤٧). اسمعه يخاطب السامرية مفتخراً بإسرائيل صّنة يديه: «إن الخلاص هو من اليهود» (يو: ٤: ٢٢). ومفتخراً بعبادة إسرائيل الذي وضع أساسها المتين: «أما نحن فنسجد لِمَا نعلم!!» (يو: ٤: ٢٢). ثم انظر أين يضع المسيح نفسه في الهيكل: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة.» (يو: ٢: ١٦)

وعلى هذه الركائز الهامة يبدأ إنجيل يوحنا في المقابل يبني أساس العهد الجديد: فهو مع إسرائيل الحق الذي لا غش فيه، أي مع الشعب الجديد من كل أنحاء العالم، على أساس الخلاص الذي يشمل كل العالم كلّ من يُقبل إليه، وأساس العبادة بالروح والحق، والصلاة للآب بروح البنوة. وقد كان كل هذا الإمتياز الجديد من نصيب إسرائيل اليهود لو تعقّلوا و«فتشوا الكتب» (يو: ٥: ٣٩)، وهي الأمانة التي وُكِّلوا عليها، ولكنهم رفضوا نصيبهم وداسوا على وعد الله بلا أي تمييز

فهلكوا وهلك امتيازهم وهلك كل من انحاز إليهم: «فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون» (مت ٢٣: ١٣). اختاروا الأرض وباعوا المسيح لثلا «يأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا.» (يو ١١: ٤٨)

(٢) أما دراية إنجيل يوحنا بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية والتي تشير بلا ملل إلى مجيء المسيح وعهد الخلاص، فهي كالآتي:

+ ففي إبراهيم، أوضح كيف بدأ العهد مرتكزاً على إيمان إبراهيم النادر المثال. ولكن كان إبراهيم يتطلع إلى من يأتي ليحقق الوعد، إلى مَنْ كان قبله وسيأتي بعده: «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح» و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو ٨: ٥٦ و٥٨)

وإن كان في إبراهيم قد صار الوعد بالحرية للنسل «إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط»، ففي المسيح حرية بالحق من الخطية أصل كل عبودية: «فإن حررركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو ٨: ٣٣ و٣٦)

+ وفي يعقوب إسرائيل أوضح كيف رأى الآتي في حلم ليصل الأرض بالسماء: «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١: ٥١). فالذي رآه يعقوب إسرائيل في حلم كوعد، مارسه المسيح كعمل أمام عيونهم «كل حين في المجمع وفي الهيكل.» (يو ١٨: ٢٠)

وإن كان يعقوب حفر بئراً ليشرب منه النسل الشريد، فهوذا ينبوع ماء الحياة مجاناً الذي ينبع إلى الأبد والذي كلُّ «من يشرب من (هذا) الماء لن يعطش إلى الأبد... بل يصير فيه ينبوع ماء (ينبع) إلى حياة أبدية».

+ وفي موسى:

الذي أعطاهم الناموس ولكن عسر عليهم حمله فألقوه عنهم كما يشهد بذلك بطرس الرسول أمام مجمع الرسل: «قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بسمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون... فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ (وصايا الختان وغيره) لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع ١٥: ٧-١٠). هذا الذي لم يستطع الآباء حمله جاء المسيح ليكمّله كاملاً عنهم: «ما جئتُ لأُنقِضَ (الناموس) بل لأُكمِّلَ (الناموس)» (مت ٥: ١٧)، لا كغريب عن الناموس ولا عن واضع الناموس بل «مشهوداً له من الناموس والأنبياء» (رو ٣: ٢١)، «لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى لكنتم تصدّقونني.» (يو ٥: ٤٦)

+ السبت اليهودي:

ومرتين وهو يكسر سبت الناموس أمامهم في إنجيل يوحنا^(١) حتى ينقل عقولهم من سبت الراحة الجسدية إلى سبت الراحة العليا الأبدي وإلى واضع السبت ورب السبت أيضاً. ولما قاوموه مدّعين لأنفسهم الحفاظ على الناموس، قدم لهم الرد القانوني إذ استحضر شاهدين على صحة كسره للوصية: الله الآب، بالإضافة إلى نفسه باعتباره الإبن المرسل. وأضاف: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوه: ١٧)، مؤكداً صلاحية الشاهدين بالأعمال التي يعملها باسم الآب وعلى أساس أن لا الله الآب ولا هو توقفاً عن العمل في السبت ولا بعد السبت.

+ الفصح اليهودي:

أما ذبيحة الناموس العظمى «الفصح» التي كانت محور الصلاة والطقوس التي تشير إلى مركز الخلاص السرّي أي «خروف الفصح»، جعلها إنجيل يوحنا رسم افتتاح لعهد النعمة في إنجيله، وذلك حينما أشار المعمدان إلى المسيح قبل أن يبدأ عمله: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩). ويعود إنجيل يوحنا ليجعله هو نفسه رسم الختام لإنجيله، مشيراً إلى المسيح الحمل المذبوح على الصليب: «وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات... لأن هذا كان ليتم الكتاب (الناموس والأنبياء) القائل عَظْمٌ لَا يُكْسَرُ مِنْهُ.» (يو: ١٩: ٣٣ و٣٦)

وهكذا كان فصح العهد القديم ينتظر استعلان سرّه في المسيح.

+ الحية النحاسية:

وبسبب تمردهم أطلق الله عليهم الحيات المحرقة في البرية، ولما أدركوا خطيتهم رفع موسى الحية النحاسية على عصاته لكي كل من يرفع نظره إليها يُشفى ولا يموت. كانت الحية رمز الخطية، ولما لم يكن في مقدور موسى أن يرفع عنهم الخطية، مثل الخطية بالحية النحاسية والحية هي أصل الخطية وداؤها وكأنها ماتت. وهكذا تنبأ موسى بصورة عملية عن المسيح الذي سيقتل الخطية مع الحية بالجسد عندما يُرفع على الصليب ويفوز بالشیطان تحت رجليه ليسحق قوة رأسه المدبّرة للخطية: «إذ جرّد الריاسات والسلطين، أشهَرَهُمْ جَهَاراً ظَافِراً بِهِمْ فِيهِ (أي في الصليب)» (كو: ٢: ١٥). ولم يدفع ثمن ذلك سوى سحق عَقِبِهِ، أي الجسد الذي أقامه من الموت حتى كلُّ من نظر بالإيمان إلى المسيح مصلوباً نال الشفاء والخلاص والقيامة من الخطية والموت.

وهكذا حلَّ إنجيل يوحنا سِرّاً لغز الحية النحاسية التي كلُّ من نظر إليها يُشفى ولا يموت. وما لم

(١) في شفاء مريض بيت حمدا (يوه: ٩: ٩)، وفي شفاء المولود أعمى (يوه: ٩: ١٤).

يستطيعه موسى أكمله المسيح. «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو: ١٤ و ١٥)

+ المن السماوي:

ثم يسلط إنجيل يوحنا نور الإعلان ليكشف سر المن السماوي النازل من السماء، الذي أعال إسرائيل وأمدّهم بالحياة في قفر التيه أربعين سنة، فكان في ظاهره رعاية من السماء بإعجاز بالغ لشعب أعزّه الله وأكرمّه بأن يطعمه هكذا خبز السماء، وإذا بالإنجيل يستعلن فيه سر التجسد الإلهي للإبن الذي نزل من السماء ليعطي جسده على الأرض خبزاً للحياة كلُّ من يأكل منه لا يموت بل تكون له الحياة الأبدية: «آباؤنا أكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. ... أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣١-٣٥)

وهكذا بمنتهى الاختصار يكشف الإنجيل كيف أن اليهود أخطوا من قيمة المن وجعلوه مجرد خبز سقط عليهم - بنوع ممتاز - من السماء بدعاء موسى، وكيف أن المسيح يميّط اللثام عن عظمة هذا المن وسرّه الإلهي الغالي الخطير: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي...» (يو: ٦: ٣٢). فالمن كان عطية الآب السماوي حاملاً فيه سرّ بذل الإبن في جسد يفتدي عليه الإنسان في العالم كله لينال به وفيه الحياة الأبدية.

وهكذا يلاحظ القارئ أن كل ما كان امتيازاً محدوداً بالجسد لشعب إسرائيل، صار امتيازاً عاماً مطلقاً لكل الإنسان، وبالروح للحياة الأفضل أي الروحية الأبدية.

وعلى القارئ أن يلاحظ في هذه المقارنات كلها بين الناموس وموسى من جهة وبين المسيح من جهة أخرى، أن وظيفة إنجيل يوحنا كانت دائماً دائماً متركزة في إعلان طبيعة المسيح الإلهية الفائقة كأساس، وفي تكميله لكل خصائص الناموس وكل رجاء الآباء والأنبياء، وبالأكثر جداً في إعلان محبة الله الشديدة لإسرائيل وكيف توقفت لتمتد فتشمل العالم كله في شخص المسيح.

(٣) درايته بالنبوات وخاصة ما كان منها يشير إلى المسيح:

استخدم إنجيل يوحنا التعاليم المتأخرة للأنبياء الذين انشغلوا أو شغلهم الروح بوصف الملكوت والملك القادم، غير أن الإنجيل لم يدخل في التفاصيل ليشرح أعماق النبوة بل ترك ذلك للقارئ أو السامع بسبب الوضوح والضوء الساطع الذي ألقاه المسيح على كافة النبوات حتى أعماقها!

— من جهة الهيكل باعتباره قاعدة الملك وعرشه وكيف بدأ المَلِكُ بتطهير كرسي مملكته؛ ومن جهة «المعرفة» التي تغطي الأرض كما تغطي المياه البحر؛ ثم محاولة قلب العرش كما حاول أخيتوفل قلب كرسي داود؛ ثم وضع نبوة إشعياء النبي عن ختام أعمال المسيا موضع التطبيق الحرفي في نهاية حياة المسيح بصورة مبدعة.

+ فن جهة الهيكل :

قدّم إنجيل يوحنا جسد المسيح باعتباره الهيكل الجديد الذي يجمع كافة المؤمنين به : «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه... وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو: ٢: ١٩ و٢١) الذي صار يملأ السماء والأرض.

ولكن نَقَضَهُ للهيكل القديم سبقتة محاولة تطهير حتى يركب الجديد على صورة صحيحة من أنقاض القديم: «فصنع سوطاً من حبال وطرده الجميع من الهيكل. الغنم والبقر وكَبَّ دراهم الصيارف وقلَّب مواثدhem. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة. فتذكر تلاميذه أنه مكتوب، غَيْرُهُ بَيْتُكَ أَكَلْتَنِي.» (يو: ١٥-١٧)

+ ومن جهة المَلِكِ القادم :

— «فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاءه وكانوا يصرخون أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل. ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب. لا تخافي يا ابنة صهيون. هوذا مَلِكُكَ يَأْتِي جالساً على جحش أتان. وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً. ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه وأنهم صنعوا هذه له.» (يو: ١٢: ١٣-١٦)

سمة زمان الملك الآتي :

+ ستفيض المعرفة كمياه البحر :

«لأن الأرض تمتلئ من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر.» (حب ٢: ١٤)
«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي، فرفضتهم — يقول الرب — بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوني من صغيرهم إلى كبيرهم — يقول الرب — لأنني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد.» (إر ٣١: ٣١-٣٤)

وهذه هي الآية التي يقدمها إنجيل يوحنا ليعلن بها أن الأيام جاءت وصاحب العهد آتى، ووضع العهد، وسكب الروح القدس روح المعرفة هكذا، حيث يقول المسيح عن نفسه: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أقيم في اليوم الأخير. إنه مكتوب في الأنبياء (إرميا): ويكون الجميع متعلّمين من الله. فكل من سمع من الآب وتعلّم يُقبل إليّ.» (يو: ٦: ٤٤ و٤٥)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا هذا الوعد التاريخي المهيّب بالإله الآتى، كما ورد في سفر إرميا النبي، بتحقيقه في عمق الزمن في المسيح ومن فيه.

أما من جهة تحقيق فيض المعرفة كالمياه التي تغطي البحر فيقول: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب (حقوق) تجري من بطنه أنهار ماء حيّ. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه... فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي، آخرون قالوا هذا هو المسيح.» (يو: ٧: ٣٧-٤١)

محاولة قلب العرش على طريقة أختوفل:

كان إعلاناً فطناً وجيلاً للغاية أن يكشف إنجيل يوحنا عن العلاقة النبوية المبدعة بين دور الانقلاب الخائن الفاشل الذي حاول أختوفل أحد حكماء داود النبي القيام به ضد داود الملك والدور الأكثر خيانة والفاشل الذي قام به يهوذا أحد التلاميذ ضد مسيح الرب الملك الآتى على كرسي داود حسب النبوة. فيقول المسيح: «لست أقول عن جميعكم. أنا أعلم الذين اخترتهم. لكن ليم الكتاب (المزامير): الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبيه» (يو: ١٣: ١٨). لم يذكر أختوفل بالإسم، كما لم يذكر يهوذا بالإسم، لأن إنجيل يوحنا يتوسم في القارئ الدراية بالكتب والذكاء أيضاً. ولكن داود النبي قالها بوضوح سابقاً بنفس الكلمات: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع عليّ عقبه.» (مز: ٤١: ٩)

+ تقرير ختامي بفهم إشعيا النبي عن أعمال المسيا:

كان منظراً حزيناً غاية الحزن أسيفاً غاية الأسف حينما تطلع التلاميذ الأمناء جداً لمعلمهم وتأكدوا كيف انتهت إليه خدمته من الفشل والصدود والعقوق، ولم يُخرجهم من هذا الحزن والأسى والأسف إلا عودة إلى النبوات يقرأون كيف حكمت النبوة قديماً وسابقاً عما هو حاصل أمام أعينهم فارتدّت إليهم روحهم: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به. ليم قول إشعيا النبي الذي قاله يا رب من صدّق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدرُوا أن

يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم.» (يو ١٢ : ٣٧ - ٤٠)

ومما اخترناه للقارىء أعلاه - سواء ما جاء بفم المسيح أو ما جاء تعليقاً عليه - يتضح للقارىء قدرة إنجيل يوحنا الفذة في اختراق كل موقف من المواقف التي وقفها المسيح وردّها إلى أصولها وجذورها الأولى في النبوات والتوراة عموماً، باستعلان عميق ودراية فائقة، وذلك في حُبِّك ليس له نظير وبروح العهد القديم، ثم الإمتداد بها لإعلان تكميلها بالروح في ملء الزمن «جئت لأكمل»، كل ذلك في جمل قصيرة وكلمات بسيطة بلغت قمة الإعجاز الروحي حتى ينتهي القارىء حتماً إلى حقيقة هذا الإنجيل أنه كلمة الله بالحق.

الباب الثالث

المعايير الروحية التي يقوم عليها

إنجيل القديس يوحنا

المعيار في الماديات هو الكيل الذي نكيل به الشيء لنعرف مقداره وقيمته؛ وفي الروحيات هو محاولة لقياس الأبعاد الروحية التي تحيط بالمسيح بقدر ما أعلنها هو عن نفسه وعن الآب وعن كيفية التعامل معه. وإنجيل يوحنا يهتم بهذه المعايير لأنها تعطي أولاً القيمة الروحية الأساسية لمعرفة المسيح ثم تؤسس عليها مقدار ما يتوجب علينا عمله بالنسبة للمسيح على أساس هذا المعيار.

فالمسيح «الحق» هو؛ هذا معيار يقرر قيمة المسيح الروحية أو بالأصح الإلهية. وعلى أساس أن المسيح هو الحق، يقدم لنا الإنجيل ما يتوجب علينا عمله تجاه المسيح باعتباره أنه هو الحق، مثل أن نؤمن به إيماناً باتّناً و كلياً. لأنه إذا كان المسيح هو جوهر «الحق» أصبح الإيمان به هو الإيمان بالحق.

وكما أن الذي يتعامل بالمعايير المادية إذا هو غشّ فيها يحاكم بالقانون؛ كذلك في المعايير الروحية فإن كل من يخالف أصولها يُدان بحسب ما نطق به المسيح: «الكلام الذي تكلمت به هو يدينه.» (يو: ١٢: ٤٨)

بهذا نجد أن إنجيل يوحنا يقدم لنا في الحقيقة ناموساً كاملاً: أولاً استعلان معايير إلهية؛ ثانياً المعايير الإلهية أنشأت إلتزامات بشرية، ثالثاً والإلتزامات تخرجت منها قوانين وأحكام.

فحقيقة «الله نور» هي أولاً معيار، و«ليس فيه ظلمة البتة»، فهي معيار مطلق أي إلهي كامل.

وظهور هذا النور في المسيح أنشأ ثانياً إلتزاماً بالسير فيه كوصية أو أمر «سيروا ما دام لكم النور.» (يو: ١٢: ٣٥)

والوصية كإلتزام تخرج منها ثالثاً قانون: كل من لا يسير في النور يدركه الظلام، وكل من يعيش في الظلام يُدان: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو: ٣: ١٩)

وعلى القارئ أن يعين التفكير في هذا الأمر لأن إنجيل يوحنا هو في الحقيقة إنجيل تشريعي

قانوني بالدرجة الأولى، أنظر كيف انتهى بمحاكمة عُقدت أمام محكمة عليا لم يشهد التاريخ لها نظير، إذ انضمت السلطتان العُظميان: سلطة رئاسة الكهنوت اليهودي على سلطة الإمبراطورية الرومانية. فقراءة الإنجيل تحتاج إلى وعي قضائي، حتى إذا برز المعيار الروحي للإنسان؛ فعلى الضمير - حينئذٍ - أن يتيقظ للقانون الذي يتبعه حتماً ثم الدينونة.

وعلى القارئ أن يقيس نفسه ويحكم عليها بحسب الحكم الذي يتبع كسر الوصية، وإلا فلن يستفيد القارئ من استعلان المعايير الإلهية المتتابعة مثل: النور، الحق، الحياة، الحب، الشهادة، المجد... إلخ.

وبلاحظ القارئ أن الإنجيل لم يَبُوب هذه المعايير والأحكام ولم يعمل عمل المشرّع المتخصص، فلم يبرز القوانين والأحكام لتأخذ رنينها القضائي كموسى النبي؛ ولكنه يعمل عمل الشاهد فهو يقدم النواميس والأحكام كمن سمع ورأى والآن يشهد على صدق ما يقول، ويترك للقارئ أن يشهد أيضاً لنفسه أو عليها، وللكنيسة أن تضع المنهج.

والمعايير في إنجيل يوحنا إما تأتي كمتقابلات مثل:
الحق والشهادة، النور والمجد، الحياة والدينونة، الإيمان والمعرفة.
أو تأتي فرادى مثل «المحبة»، «الشركة = الوحدة أو الاتحاد».

الفصل الأول

الحق والشهادة

أ - الحق

«الحق» الكلمة المفضلة التي كانت على لسان المسيح، ولِمَ لا، وهي كانت لهج الأنبياء ومحور التردد في سفر المزامير، اقرأ مزمور ١١٩ وأنت تعرف ماذا كان «الحق» يعني عند داود النبي: «ليت طريقي تثبت في حفظ حقوقك...، يا رب علمني حقوقك...، أما عبدك فكان يهتم بحقوقك...، أنت اخترت لي طريق الحق...، ضَع لي يا رب ناموساً في طريق حقوقك...، لا تنزع من في قول الحق...، حقوقك كانت لي مزامير...، هذا صار لي لأنني طلبت حقوقك...، فبصلاحك علمني حقوقك...، خير لي أنك أذلتني حتى أتعلم حقوقك...، حقوقك لم أنس...، كل وصاياك هي حق...، بعيد هو الخلاص من الخطاة الذين لم يطلبوا حقوقك...، بدء كلامك حق...، تفيض شفاتي بالتسبيح إذا علمتني حقوقك...»، كل هذا في مزمور واحد.

لقد ورث إنجيل يوحنا «الحق» كتعبير استعلافي يحمله المسيح للتعبير عن طبيعة الله أكثر من باقي أسفار العهد الجديد.

ويلاحظ أن كلمة «الحق» في اللغة العبرية *ē'meth* ذات مفهوم يختلف قليلاً عن مفهوم «الحق» في اللغة اليونانية. أما «الحق» الذي جاء على لسان المسيح فهو ينتهي في معظم المواضع إلى المعنى العبري القديم كما جاء في العهد القديم وخاصة المزامير وهي تعني: الأمانة Faithfulness، والصدق Truthworthiness، وتفيد الديمومة Permanence وذلك من جهة الأخلاق واستقامتها، كما تفيد الثقة المؤكدة Sureness.

أما في اليونانية فتأتى بمعنى فلسفي وهو «الحقيقة» $\eta \alpha \lambda \eta \theta \epsilon \iota \alpha$ في المقابل لها وهو شبه الحقيقة أو ضدها وهو الغش والخداع Falsehood ، أو تأتى بمعنى Reality وهي الحقيقة الثابتة في مقابل المظهر Appearance .

والفرق بين المعنيين هو حاصل بين روح الشرق وروح الغرب، أو روح الأدب وروح العلم، أو روح الإنسان وروح الطبيعة، أو روح الضمير وروح العقل. وليس من العسير الوفاق بينها، فالروحانية الحديثة التي تغلغلت القيم الجوهرية العليا المحتفية في صميم المادة ألغت كثيراً من الفواصل والحواجز والأوهام التي كانت تملأها الفروق القاطعة في الذهنية القديمة بين المادة والروح أو بين المنظور وغير المنظور، فبعد تفجير الذرة والإنهاء بها إلى مجرد طاقة تنتهي في غير المنظور بدون شكل ولا لون ولا كيان، تكون المادة قد كشفت عن صورة مطلقة عجيبة في جوهرها تمتُّ إلى الله مباشرة.

والمسيح كخالق للعالم المادي، أي هذه الطاقة الهائلة التي أبرزها إلى الوجود المادي المتعدد الأشكال والألوان، ليس من الصعب أن يجمع في نفسه بين «الحق» العبري الروحي القديم $\epsilon' meth$ و«الحق» أليشيا $\eta \alpha \lambda \eta \theta \epsilon \iota \alpha$ الفلسفي اليوناني الفكري المطلق الذي ينشغل بجوهر الوجود المادي. فهو جوهر الحياة وليس شبهها ولا مظهرها، وهو الأصل «بكر كل خليفة» (كو: ١٥) وليس الصورة المخلوقة، وهو الروح بكل أعماقها وعلوها وكل مفاخرها ومجدها غير المنظور ولا المحدود، غير المدرك، غير المفهوم وغير المعقول.

ولكن هو نفسه صاحب الجسد الملموس والمنظور والمدرك المفهوم والمعقول جداً والمحجوب أيضاً. فقد جسّد المسيح «أليشيا» اليونان وصالحها مع « $\epsilon' meth$ » العبرانيين، فهو الذي صالح الشعب مع الشعوب، والذي صالح السمائيين مع الأرضيين، والنفس مع الجسد! وهو كما هو بحسب الحق اليهودي الصادق الأمين والكائن الذي كان والذي أتى ويأتي أيضاً، الذي أعطي كل سلطان بما في السموات وعلى الأرض معاً!!!

وكلمة «الحق» جاءت في إنجيل يوحنا للتعبير عن المسيحية عموماً كمعرفة شاملة تجمع في مسيحها كمال الأصول: «الله ... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في أبنة الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...» (عب ١: ٣-١)، فالمسيح لأنه كلمة الله صار استعلاناً كاملاً للألوهة؛ لأنه إن كان عمل الكلمة في الإنسان العادي هو الإعلان عما في عقل الإنسان أو الكشف عن ماهية الإنسان نفسه، فكلمة الله هو استعلان كامل لذات الله ولطبيعته التي لم تكن مُغلّنة قبلاً (يو: ١٨).

وكذلك هو استعلان كامل للحياة الأبدية لأنه قام من الموت غالباً سلطانه إلى الأبد (يو: ١١: ٢٥).

وهو أيضاً استعلان كامل للمحبة، لأنه بذل نفسه للموت عن الإنسان (يو: ١٦: ٣)، واستعلان كامل للحق لأنه لم يكن فيه غش (يو: ١٤: ٦)، واستعلان كامل للقداسة لأنه لم يعمل خطية واحدة!! (يو: ٨: ٤٦).

وحينما قال المسيح «أنا الحق» كان هذا أكمل استعلان لله في ذاته كإبن له، وذلك ليس بالفكر بل على مستوى الحياة والعمل. فلم يكن في المسيح قط ما يخل ما بين المعرفة المطلقة والعمل الكامل، أو بين الحياة الأبدية والمثل كمن مات وقام بإرادته، وهكذا صار «الحق» الذي حمله المسيح إلينا هبة عظيمة للإنسان الذي كان قد أعوزه وحدة المعرفة والعمل عوض ما كان يصرخ به القديس بولس الرسول: «لأنني لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل.» (رو: ٧: ١٥)

وكان التجسد في المسيح الذي حمله، وأعطانا به أعظم وأصدق تعبير عن «وحدة المعرفة والعمل» في «جوهر الحق الواحد».

وكانت القدرة الفائقة للمسيح التي جازها في ذاته في كيفية إعطاء ذاته للإنسان، هكذا بالموت عنا والقيامة لنا وبنا، هي التي منحتنا هذه الموهبة الإلهية أي وحدة «المعرفة والعمل» في جوهر الحق المسلّم إلينا كعطية قائمة بذاتها بواسطة الروح القدس «روح الحق» الذي يرشدكم إلى جميع الحق. (يو: ١٦: ١٣)

ولم يَعد «الحق» في جوهره الإلهي شيئاً بعيد المنال، بعد أن تجسد المسيح، بمعنى حضوره الإلهي المبارك الذي تنازل به الله بين الناس «الله ظهر في الجسد» (١ تي: ٣: ١٦) في شخص المسيح المبارك «وحلّ بيننا ورأينا مجده... مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صاراً.» (يو: ١٤-١٧)

وقد صار وتم لنا بالفعل والعمل بحسب لاهوت القديس يوحنا أن من يثبت في الحق يثبت في الله، وأن من تنفتح بصيرته ويعرف الحق يعرف الله في طبيعته المستعلنة في الآب والإبن: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يو: ٥: ٢٠)

وقد صار «الحق» هو العامل المهيمن على حياة الإنسان الجديد ومحور عمله أخذاً وعطاءً. والحق جوهر فعال إذا تملك الإنسان حرّره من كل قيد خاطيء: حرّره من العالم وأهوائه، حرّره من الجسد وإلحاحاته، حرّره من الذات ورغباتها، حرّره من الخطية وعبوديتها وشلّ حركة جذورها الضاربة في الطبيعة البشرية القديمة، حرّره من قصور العقل وخداع إدراكاته. لأن الحق يعطي رؤية صحيحة وأصيلة تخترق مظاهر الوجود جميعاً لتستقر في جوهرها صافية سالمة من كل غش وخداع المظاهر والأقنعة الخادعة التي للمادة. فالحق روح صافٍ «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١ يوه: ٦). وهو يحكم الأكوان بقانون لا تخرج المادة عن حتميته.

والرب يسوع المسيح ابن الله روح خالص في جسد منظور: «الله روح» (١ يوه: ٤)، ولكن لا يخرج جسده عن كمال معطيات الروح فيه، فالإتحاد كامل ومطلق بين الروح الإلهية والجسد البشري. لذلك فإنجيل يوحنا يعطي ابن الله المتجسد طابع الروح والحق بلا اهتزاز.

ومن روائع التعبيرات عن «الحق» الإلهي قول المسيح عن جسده ودمه: «جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ» (١ يوه: ٥٥). هذه من التعبيرات النادرة التي تسخر من الإدراك الفلسفي للحق كونه عند الفلاسفة فكراً مطلقاً وبجهداً. ولكن المسيح جاء ليعطي الإنسان أن يأكل الحق ويشربه بمعنى قبول روح الله ليستقر في أعماق هيكل الجسد.

هكذا دخل الله التاريخ البشري وفتح عليه أي على الله، وعلى مصراعيه...

وهكذا اقتحم «الحق» الزمان الإنساني الذي تعفن بالجهالة ليعطيه تجديداً وامتداداً في نور الله وفي الحياة الأبدية.

وهكذا حاز الإنسان بالنهاية بصيرة روحية نيرة يعرف بها الله معرفة الحب بل العشق الإلهي، فاستنار العقل البشري وأنار عتمة ليله الطويل وسطع نور الله في وجه يسوع المسيح من جديد على قلب الإنسان وروحه.

وكما أعطي الإنسان أن يأخذ الحق ويأكله أكلاً ويتمثله في جسده تمثيلاً فيقدسه وفي عقله فينيره، هكذا تحتم أن يُخرج الإنسان الحق من بطنه كأنهار ماء حي لأن هذا هو قانون الزرع والثمر، أو كما يقولون، حساب البيدر، فيقول الرب: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦)، تماماً كما أعطي لكم أن «سيروا (في النور) ما دام لكم النور.» (يو ١٢: ٣٥)

والحق في إنجيل يوحنا يقدر الإنسان «بالكلمة»: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي

كلمتكم به» (يوه١٥: ٣)، كذلك يقول طالباً من الآب: «قدّسهم في حقك، كلامك هو حق» (يوه١٧: ١٧)!!

وليس بالكلمة فقط نتقدس بل بدعاء اسم المسيح وحضوره نتقدس: «الذي صار لنا حكمة من الله وبرّاً وقداًسة وفداء.» (١كو١: ٣٠)

فندخول المسيح إلى العالم مصالحةً، وحضوره تقديس، وأن نلمسه نصير ملوكاً وكهنةً. أما حضور المسيح فينا فهو بصورة سرّية وسرائرية دائمة لا تنقطع طالما لنا هذه المشيئة: «فبهذه المشيئة نحن مقدّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب١٠: ١٠)؛ «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق (الله)، كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس — وكأنه لا يرى يسوع —: ما هو الحق؟» (يوه١٨: ٣٧ و٣٨)

والمسيح لم يجيء ليقيم حدود الحق بين الناس (لو١٢: ١٣)، ولكن ليعلن كمال الحق وملئه πλήρης، واستعلنه لتلاميذه كشهود للعالم كله: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يوه١٤: ١٤)، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يوه١٦: ١٦)، «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً.» (يوه١٧: ١٧)

وحينما قال: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يوه١٤: ٦) فقد كان ذلك قمة الاستعلان الذاتي. ثم يعود ويقرر أن الحق يحرر والإبن يحرر: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يوه٨: ٣٢)، «فإن حرّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يوه٨: ٣٦)، على أساس أن العبودية مصدرها الخطية، والخطية يبدها الحق كما أدانها المسيح بالجسد. لذلك أرسل المسيح روح الحق ليكمل عمل المسيح على الصليب لإعطاء الحرية لمن استعبدتهم الخطية.

والروح القدس يضطلع بإعلان الحق وإعلان المسيح معاً: «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق (قليلاً قليلاً)» (يوه١٦: ١٣)، «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم...» (يوه١٦: ١٤). هنا سر الملء أو الإمتلاء من الحق والمسيح. «والروح هو الذي يشهد (للمسيح فينا) لأن الروح هو الحق.» (١يوه٥: ٦)

وهكذا يعطي إنجيل يوحنا تقييماً متوازياً ومتداخلاً بين الحق والمسيح موضعاً أن الإمتلاء من معرفة المسيح هو إمتلاء من الروح القدس، وهو هو إمتلاء أو ملء «الحق» أو ملء الحرية أو ملء التّبيّن. «أما أنتم فلکم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء (تعرفون كل المعرفة — حسب النص اليوناني) لم أكتب إليكم لأنكم لستم تعلمون الحق بل لأنكم تعلمونه...» (١يوه٢: ٢٠ و٢١)

ويعود إنجيل يوحنا ويؤكد أن معرفة الحق ليست بالفكر، ونواله ليس كباقي المعارف، بل إن طريقه هو الخشوع والتقوى ومخافة الله والإحساس بالتوبة الصادقة، لأن طالب الحق هو طالب وجه الله. وهذا يتضح من هذا الحوار المحزن بين المسيح واليهود: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا... وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي. من منكم يبكتني على خطية؟ فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله.» (يو ٨: ٤٤-٤٨)

ثم يأخذ القديس يوحنا هذه المعادلة ويصيغها بكلمات من عنده في رسالته هكذا: «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١ يو ٤: ٦)

وبذلك يكشف القديس يوحنا على ضوء كلام الرب أن الروح القدس يزكّي الحق في قلوبنا لنسمع للحق أكثر فأكثر حتى يثبت فينا الحق ونتغير ونشهد له. وبالعكس فإن روح الشيطان أي روح الضلال يقاوم الحق (كما قاوم اليهود المسيح) ويرفضه ولا يعطي للإنسان فرصة أن يسمع له فينكره. أما علامة عمل الروح القدس أي روح الحق فينا فتكون دائماً بالإعتراف بالخطية والاستعداد للتوبة. أما إنكار ذلك فيكون دليلاً على خلوّ القلب من الحق الكاشف للنيات والضمائر ووجود روح الضلال بدلاً عنه: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.» (١ يو ١: ٨)

ثم يوضح القديس يوحنا في مواضع كثيرة أن الحق ليس مجرد معرفة فكرية لكنه قوة وفعل محرّك. ويركز ذلك في تصوير قدرة الحق — إذا سكن الضمير — على معونة الإنسان على تكميل الوصايا: «بهذا نعرف أننا قد عرفناه إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، وليس الحق فيه.» (١ يو ٢: ٣ و٤). كذلك: «وأما من يفعل الحق (الوصية) فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يو ٣: ٢١)

كذلك: «إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولنا نعمل الحق.» (١ يو ١: ٦). فالحق فعل وعمل!!

هنا يلزم أن ننبه أن «الحق» في ختام العصر الرسولي كان معياراً عملياً يتغلغل كل المضمون المسيحي والحياة والسلوك. وأن الرباط بين الإيمان والحق لا ينفصم وقانونه هو: «أن يسوع هو المسيح ابن الله الذي جاء في الجسد».

وكان هو المعيار الذي تقاس عليه حياة الكنيسة برمتها كأساس لكل قوانين الإيمان: «نعلم أننا نحن من الله... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يوح: ١٩ و ٢٠)

لذلك — والأمر كذلك — يتحتم أن يكون المعيار الأول الذي يعيشه إنجيل يوحنا ويقدمه للعالم هو «الحق»، وكان على الإنجيل بعد ذلك أن يقدم ويزكي «الشهادة» لهذا الحق بكل وسيلة ممكنة. وهنا يأتي دور الشهادة في إنجيل يوحنا.

ب — الشهادة ἡ μαρτυρία

جاءت الشهادة في إنجيل يوحنا متعددة المراحل والدرجات وبحسب ترتيبها تكون كالآتي:

شهادة الآب، شهادة الإبن (المسيح نفسه)، شهادة الأعمال، شهادة الأسفار، شهادة المعمدان، شهادة التلاميذ، شهادة الروح القدس الناطق والمضيء في القلوب.

١ — شهادة الآب:

هذا ما يعلنه المسيح بضمه ويسجله عنه القديس يوحنا. وهذه الشهادة تُعتبر خاصة جداً وسريّة للغاية كشفها المسيح ليعلن عن علاقته الصميمية أي الجوهرية بالآب.

«أنا لا أقبل شهادة من إنسان...، الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي μεμαρτύρηκε.» (يوه: ٣٤ و ٣٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي μαρτύρεῖ الآب الذي أرسلني.» (يوه: ٨: ١٨)

يلاحظ هنا أن كلمة «يشهد» بالنسبة للآب تأتي في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل في الصيغة الدائمة المستمرة والمستقرة، أي أنها قائمة دائمة حتى اليوم وإلى الأبد

μεμαρτύρηκε, μαρτύρεῖ

ويلاحظ أن المسيح يتكلم عن شهادة الآب ولا يقول شهادة «أبي»، لأن القصد الأساسي من شهادة الآب أن يُقبل الناس الإبن والآب معاً، لذلك فالشهادة وإن كانت تخص المسيح ولكنها مُستعلنة للناس ليكون الله بالنهاية أباً للجميع (الآب) من خلاله.

وإذا بلغ الإنسان إلى الشعور الصادق والحقيقي بأبوة الله فإنه يدرك السر الإلهي الأعظم (١) القائم في طبيعة الله بين الآب والإبن الوحيد. لأن مفاعيل السر القائم بين الأبوة والبُنوة في ذات الله تمتد لتشمل كياننا، فنحس بالتبني لله في المسيح كأعظم هبة نالها الإنسان من لدن الله بعد العبودية التي عاش فيها تحت سلطان الخطية والشیطان. هذا ندركه بسهولة من حوار المسيح مع اليهود الرافضين المرفوضين: «فقالوا له إننا لم نولد من زنى، لنا أب واحد وهو الله (بالوراثة المغشوشة)، فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قِبل الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني... أنتم من أب هو إبليس.» (يو ٨: ٤١-٤٤)

ويأخذ القديس يوحنا كلام المسيح هذا ويطبقه بصورة إيجابية غاية في العمق وذلك في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، من يؤمن بإبن الله فعنده الشهادة في نفسه» (١ يو ٥: ٩ و ١٠). أي أن شهادة الله للمسيح تحمل في قلوبنا بالسر الإلهي ونحس بها، وذلك إذا آمنا بأبوة الله للمسيح أي، كما يقول القديس يوحنا، إذا صدقنا الله فيما قاله عن بنوة المسيح له: «من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١ يو ٥: ١٠)

ويعود القديس يوحنا ليوضح كيف وبأي معنى يكون حصولنا على فعل شهادة الله في أنفسنا عن ابنه وذلك عندما تبدأ تسري الحياة الأبدية في كيانتنا الروحي: «وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة الأبدية هي في ابنه. من له الإبن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (١ يو ٥: ١١ و ١٢)

٢ - شهادة المسيح لنفسه:

«إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... أنتم حسب الجسد تدينون.» (يو ٨: ١٤ و ١٥)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» (يو ٨: ١٨)

وهنا تتطابق الشهادتان، التي من الآب له والتي من نفسه لنفسه، فهما من مصدر واحد ذات إرادة ومشیئة واحدة لكليهما. فشهادة المسيح لنفسه هي في الحقيقة شهادة الآب له لأنه أوضح أن

(١) لا شك أن العلاقة الكائنة بين الآب والإبن في الله هي «السر الإلهي الأعظم» المدخر لنا في كل صفحات إنجيل يوحنا، وإن معرفتنا لهذا السر تنشئ فينا حتماً الحياة الأبدية (يو ١٧: ٣)، بل ودخولاً في مجال هذه العلاقة أي في نعمة التبني لله التي هي أعظم نعمة أعطيت لبني البشر. وسنعود إلى شرح هذه الفكرة الأساسية في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة من هذا المدخل.

كل أعماله وأقواله التي يعمل والتي يقول تنبع دائماً من الآب الذي أرسله :

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحائز فيّ هو يعمل الأعمال.» (يو ١٤: ١٠)

لذلك نجد في شهادة المسيح لنفسه وثوقاً وتأكيذاً وشموخاً يفوق أي قامة بشرية أو ملائكية:
«الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا، إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات، وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء أبن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١١-١٣)

والمعمدان كرر هذه الحقيقة بقوة وصلابة: «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها. وَمَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو ٣: ٣٣-٣١)

وينوّه المسيح دائماً أنه يشهد لنفسه لأن في شهادته لنفسه شهادة للحق، لأنه هو «الحق»: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، وبسبب قوة وعلو الحق الذي فيه كان لا بد أن يشهد للعالم كله معتمداً على أن كل من يسمع للحق سيسمع له حتماً ويؤمن به وبالتالي يؤمن بالذي أرسله فتكون له الحياة الأبدية: «قد أثبت إلى العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع صوتي.» (يو ١٨: ٣٧)

٣ - أعمال المسيح تشهد له:

المسيح يقدم أعماله كشهادة فائقة للحق والألوهة التي فيه أعظم من كل شهادة يمكن أن يقدمها إنسان أو نبي أو حتى ملاك: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني، والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.» (يو ٥: ٣٦ و٣٧)

والأعمال التي يقدمها المسيح لتشهد له هي نفس أعمال الآب، فهي أعمال الله بلا نزاع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧)، الأمر الذي لم يطق سماعه اليهود وأرادوا أن يرموه لأنه عادّل نفسه بالله. والأمر الذي هيّج اليهود من هذه الشهادة لأعماله أنها بالفعل كانت تنطق بالحق الذي فيه وبالطبيعة الإلهية التي تعطيه هذه القوة وهذا السلطان المهيّب: «إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا!!!، أجابهم يسوع إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي، ... أنا والآب واحد.» (يو ١٠: ٢٤ و٢٥ و٣٠)

ولكي يجعل المسيح أعماله التي تشهد له تظل تشهد له إلى الأبد استودع تلاميذه والأتقياء من بعدهم في كل جيل أن يعملوا نفس هذه الأعمال: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتكم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن.» (يو ١٤: ١٢ و١٣)

ويوضح المسيح بكل تأكيد وبتكرار دائم أن أعماله تشهد له لأنها أعمال الله ولا يمكن أن يعملها أحد إلا الله: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤)؛ «...مهما عمل ذلك (الآب) فهذا عمله الإبن كذلك. لأن الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمل... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الإبن أيضاً يُحيي من يشاء» (يو ٥: ١٩-٢١)؛ «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال، صدقوني أني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو ١٤: ١٠ و١١)

٤ - شهادة الأسفار المقدسة:

كانت هذه أحد المصادر التي طالب المسيح أن يرجع اليهود المعاندون إليها، «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة» (يو ٥: ٣٩ و٤٠). «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى (أي الأسفار الخمسة) الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي.» (يو ٥: ٤٥-٤٧)

فإذا علمنا أن المسيح حدد دوره بالنسبة للعهد القديم هكذا: «ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت ٥: ١٧)، كما يقدم القديس يوحنا العهد الجديد بيسوع المسيح كما تتركب النعمة ويتركب الحق على الأسفار القديمة لتضيئها وتشرحها هكذا: «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار.» (يو ١: ١٧)

وهكذا يتضح من منهج إنجيل يوحنا بالنسبة لشهادة أسفار العهد القديم أنها كتبت لتبقى خالدة ولكن دورها الأول قد انتهى وهو دور التأديب كما يقول القديس بولس الرسول: «لكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مُغلّقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعلن. إذاً قد كان الناموس مسؤولاً بنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدّب» (غل ٣: ٢٣-٢٥)؛ «وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح.» (رو ٣: ٢١ و٢٢)

أي أن ليس بظهور المسيح يكون قد بطل العهد القديم بأسفاره، ولكن الحقيقة العظمى هي أنه بعد أن أكمل العهد القديم دوره كمؤدّب بدأ دوره كشاهد للمسيح، وبذلك ازداد كرامة وتقديراً، بقدر ما زاد هو المسيح كرامة وتقديراً بشهادته عنه.

٥ - شهادة يوحنا المعمدان:

لقد كان يوحنا المعمدان آخر نبي (بل وأعظم من نبي لأنه رأى العريس) يمثل العهد القديم. وكانت عليه مسؤولية محددة سبق وأن تنبأ بها إشعياء النبي وأدركها المعمدان بروحه عالمًا أنه هو المقصود لتمهيد الطريق أمام المسيا: «ماذا تقول عن نفسك؟ قال أنا صوت صاريخ في البرية قوّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي.» (يو: ١٢ و ٢٣)

ويلاحظ أن المعمدان كان ابن كاهن لذلك أرسل اليهود من أورشليم إليه بعثة لتقصّي الحقائق، أرسلوها من «كهنة ولاويين»، لأن الأمر كان جدّ خطير ويتعلق بالنظام الكهنوتي كله ومستقبل إسرائيل، وهذه أول مرة يُذكر في الأناجيل عمل محدود للاويين في رسالة المسيح.

ورسالة المعمدان كني كانت محصورة بحسب إنجيل يوحنا في الشهادة والشهادة فقط لإعلان شخصية المسيح الموجود في وسطهم: «كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا، هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته.» (يو: ١ و ٧)

كان يوحنا مثل شعاع من نور يسلطه الله في وسط ظلمات العهد القديم كله لينير لمصدر النور: «لم يكن هو النور بل ليشهد للنور... الحقيقي.» (يو: ١ و ٩)

كان نوره صناعياً مؤقتاً وليس حقيقياً أو جوهرياً: «كان هو السراج الموقد (بيد آخر)، المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة» (يو: ٣٥). كان المعمدان يسير ناظراً إلى خلفه باحثاً أمامه عن آخر سيأتي بعده ولكنه كان قبله وذلك ليشهد له ويسلمه كل مسيرة التاريخ والأنبياء ويرقد. «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي... الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه... وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ٣٠ و ٢٧ و ٣١ و ٣٤)

ولكن المسيح نفسه لم يكن ينتظر أو يترجى شهادة يوحنا له، لأن المسيح عنده الشهادة لنفسه كاملة ولا حاجة له لشهادة آخر من الناس، وإنما كانت شهادة يوحنا بتدبير خاص من الله لخلاص الشعب الجالس في الظلمة الذين كانوا في حاجة إلى هذه الشهادة حتى لا يخطئوا النور ولكنهم أخطأوه: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ولكني أقول هذا

ويوحنا المعمدان كان يعرف بالروح حدود رسالته ونهايتها، وعبر عن ذلك بكل أمانة: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أنني قلت لست أنا المسيح بل أني مرسل أمامه. من له العروس فهو العريس وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه يفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذا فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يوه: ٢٨ - ٣٠)

٦ - شهادة التلاميذ:

حالة واحدة فقط طلب فيها المسيح من تلاميذه والناس أن يشهدوا، وهي بعد أن يرتفع وليس أثناء وجوده في الخدمة على الأرض: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يوه: ٢٦ و ٢٧)

وقد أكمل القديس يوحنا بنفسه مع التلاميذ هذه الوصية بكل أمانة: «والذي عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (يوه: ٣٥)؛ «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق.» (يوه: ٢٤)

٧ - شهادة الروح القدس:

كانت كل شهادة تمت للمسيح في جميع الشهادات السابقة تعتمد على من يوصلها لآذان الناس المفتوحة ولعيونهم وقلوبهم المعدّة لاستقبال النور ولتن يفسرها لهم ويؤكد لها لهم، وإلا ما كان يمكن أن يدركوا المقصود منها، لأنها شهادة «للحق» ولكن في مظهر ضعف في أفواه أناس بينما جوهر الحق المطلوب الشهادة له هو هو الله، لذلك تحتم أن يكون الروح القدس هو الذي يضطلع بهذه المهمة لأنه «روح الحق» (يوه: ٢٦) الذي «يرشد إلى جميع الحق» (يوه: ١٦: ١٣) ويكون حاضراً في كل شهادة مشيراً ومرشداً ومفسراً ومقنعاً. لهذا كان أول إعلان للمسيح على يد يوحنا المعمدان قائماً على حضور وإعلان الروح القدس: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يوه: ٣١ و ٣٣ و ٣٤)

وهكذا فتح الروح القدس باب الشهادة العلنية للمسيح بصفته «الحق» المتجسد الآتي إلى العالم. هذه الحقيقة رسخت رسوخاً في قلب القديس يوحنا لذلك نجده يحددها مرة أخرى في رسالته

بقوله: «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق.» (١ يوح ٥: ٦)

ومنذ هذه المعمودية المباركة - التي استُعلن فيها المسيح بظهور وحلول الروح القدس - وحتى الآن والروح القدس يضطلع بمهمته العظمى وهي الشهادة لحق المسيح - باعتباره هو نفسه روح الحق - متكّلاً وناطقاً في قلوب المؤمنين وبأفواههم، وعاملاً في الفكر والقلب والروح في كل الكنيسة بالأسرار «ومتى جاء المعزّي الذي سأُرسله أنا إليكم... فهو يشهد لي.» (يو ١٥: ٢٦)

وهكذا تظهر الشهادة في إنجيل يوحنا كنسيج حيّ يملأ الإنجيل خيوطه في سبعة مستويات تبتدئ من الآب نفسه لتنتهي بالتلاميذ مدعّمة بالروح القدس طويلاً وعرضاً؛ ثم تظل هذه الشهادة بكل مستوياتها مستمرة بكل قوتها ودعمها داخل الكنيسة وفي كل العالم حتى اليوم كما كانت أيام المسيح تتلاقى مرة مع الإيمان المدعّن للحق فتنشئ نوراً واستنارة وخلصاً وفرحاً لا يُنطقُ به ومجيد؛ وتتلاقى مرات ومرات مع الجحود والإنكار فتنشئ دينونة العار والإزدراء عاراً أبدياً يظل لاصقاً بالإنسان حتى وإلى ما بعد مماته!!!

الفصل الثاني

النور والمجد

هذا هو المعيار الثاني في التدرج المنهجي لإنجيل يوحنا بعد الحق والشهادة. وهذان المعياران يقومان على التوازي والاتصال لأن الشهادة لا تكون إلا بعد استنارة؛ والحق يُستعلن في المجد.

أ - النور

إنجيل يوحنا ينتقل بسهولة بين النور الطبيعي والنور الحقيقي ليعطي للقارئ فرصة للتطبيق والموازنة: «قال لهم يسوع ،،النور،، (الحقيقي) معكم زماناً قليلاً بعد فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب.» (يو ١٢: ٣٥)

هنا ينتقل الإنجيل من إنسان يسير في الظلام ولا يعرف إلى أين يذهب، إلى إنسان يسير بعيداً عن المسيح (النور) فتداهمه الخطية ويستولي عليه الشيطان ويسقط في فخاخه. فهنا يكشف الإنجيل وظيفة النور الحقيقي وهي كيف يفضح الخطية ويددها.

وخطوة إيجابية أكثر حينما يقارن بين نور النهار الساطع ونور الحق الكاشف، حيث يتضح أن النور الحقيقي وظيفته هي أيضاً الإعلان وكشف الأسرار العليا المخفية: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم.» (يو ٩: ٤ و ٥)

وهنا يوضح الإنجيل أن النور الحقيقي (بالرغم من أنه لانهائي وغير محدود)، فهو يُعطى كفرصة محدودة جداً زمنياً: «النور معكم زماناً قليلاً بعد» (يو ١٢: ٣٥)، بل ويُعطى كفرصة قد لا تتكرر «ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو ١٢: ٣٦) مع مشابهة نور النهار بالمسيح نور

وكثير من الناس يشترق أن يعرف كيف يرى أو يؤمن بالمسيح كنور. والحقيقة أن الإيمان بالنور هو إدراك روحي صاف بوجود المسيح، وذلك بالوعي المسيحي الذي نلناه بالإيمان وبالروح القدس، لا على هيئة أو شكل محدود ولكن ككيان يحل في القلب فيملأه فرحاً ونعيماً وسروراً، وعلامته تكون استعلانات لحفايا أقوال المسيح ووصاياه وفهمها فهماً روحياً عميقاً ومؤثراً ومجدداً. وهذه الاستعلانات هي مجد ذاتها تكوّن فعل النور في القلب.

وحينما يقول الإنجيل أن المسيح هو «النور الحقيقي» (يو: ١: ٩) حيث يجيء النور بأل التعريف τὸ Φῶς τὸ ἀληθινόν، فإن هذا يعني أنه هو الوحيد الذي يستعلن الحقائق الإلهية: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨: ١٨)؛ فعمل المسيح الأساسي هو إلقاء نور الاستعلان في قلب الإنسان المؤمن لكي يدرك الحق كل الحق «أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو: ١٢: ٤٦)، حيث الظلمة هي جهالة الخطية وعمى الروح، والنور هو استعلان معرفة الله للقداسة، وحيث النور هو الذي يكشف الظلمة وأعمالها فيبددها «يضيء في الظلمة». (يو: ١: ٥)

لذلك فظهور النور هو حكم قضاء ضد الظلمة، ووضع الحد الفاصل بين الإنحياز للنور أو الإنحياز للظلمة، أي الاختيار الإجباري بين الإيمان ورفض الإيمان. واختيار الظلمة سببه حتماً الأعمال الشريرة: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو: ٣: ١٩). وهنا يطغى الشر فيدفع عامله أيضاً إلى بغضة النور «كل من يعمل السيئات يبغض النور» (يو: ٣: ٢٠). ولكن بغضة النور هنا لا تأتي كعامل إجباري ولكن بحسب خبث النفس التي لا تريد أن تفتضح: «ولا يأتي إلى النور لئلا توبّخ أعماله». (يو: ٣: ٢٠)

حينما يوصف الله بالنور، فلا يظن أحد أنه نور مرئي بالنظر أو الفكر، بل هو طبيعة الله غير المدركة بالعقل ولكنه مدرك بالروح وهو كلّي الإدراك في ذاته. فالله مدرك كامل يُدرك ولكن لا يُدرك كماله. والمسيح بصفته شعاع أو بهاء مجد الله فهو النور الذي جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله غير المدركة.

ولكن حينما قال القديس يوحنا في مقدمة إنجيله أن «النور الحقيقي» (يو: ١: ٩) كان آتياً إلى العالم، فهنا لا يقصد نور المعرفة أو الإدراك أو البصيرة الكاشفة — أو النور الباطني — ولكن نور الخليقة الجديدة نور الحياة الأبدية، النور المرسل من طبيعة الله لكشف طبيعة الله. وهذا النور غير

«النور» في قول الإنجيل «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، (يو: ١: ٩)، هنا النور هو نور العقل والفهم والمعرفة التي مُنحت للخلقة العاقلة التي تقبّلها الإنسان، بحسب شرح القديس كيرلس الكبير: [كما أن الكلمة هو الحياة في كل المخلوقات التي خلقت إذ تقبّلت الحياة منه، فهو أيضاً النور بالنسبة لحياة الإنسان الذي تقبّل منه المعرفة والفهم]^(١). [أما الظلمة فهي الطبيعة التي يعوزها الإستارة.]^(٢)

فجاء «الكلمة» إلى العالم في إنجيل يوحنا هو بداية عصر النور الجديد الذي يمكن أن يُدعى وحده نوراً حقاً. فهو «النور الحقيقي» (يو: ١: ٩) أي النور الجوهرى حيث استعلنت طبيعة الله وتقبّلها الإنسان الجديد بالروح ليؤهل لشركة النور بالإستعلان هنا بكشف الإيمان بالروح، وبالواقع هناك، في المجد.

ونور الإستعلان هو أرفع وأعلى من نور الإدراك والبصيرة أو الإستارة، لأن نور الإستعلان يختص بالأخريات أي بطبيعة الله، أي بالأمور الآتية غير المدركة بالعقل، التي نعيشها الآن كما في مرآة كما يقول القديس بولس الرسول (٢ كو: ٣: ١٨) كسبق تذوّق للمجد القادم.

وحينما يقول المسيح «أنا نور العالم» (يو: ٩: ٥) فالمعنى واضح للغاية إذ يعني أنه جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله — كآب وابن، والتجسد والخلاص لجميع الأمم — وذلك للناس الذين في العالم الذين يؤمنون به. وطبيعة الله كانت سرّاً محتوماً لم يُعرّف به أحد قط سابقاً كقول القديس بولس الرسول: «أنه بإعلان عرفني بالسر... بسرّ المسيح الذي في أجيال أخر لم يُعرّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والتجسد (الناس الذين في العالم)» (أف: ٣: ٣-٦). هنا الإعلان هو الكشف بالروح القدس.

فالمسيح هو بالحقيقة «نور» العالم لأنه سلّم للعالم سرّاً استعلان بنوّه لله وسر حب الله الآب للعالم، هذا الحب الذي كلّفه ذبح ابنه على الصليب، كذلك سلّم العالم سرّاً الأبوّة والبنوّة في الله وهو السر الذي انتهى بالإنسان إلى قبول الحياة الأبدية وإلى التبني أي الدخول في بنوة الله مع المسيح.

وهكذا بنور الإستعلان ليس فقط عرّفنا المسيح بطبيعة الله وحسب بل إنه بنور الإستعلان نلنا

¹ St. Cyril the Great, Comm. on the Gospel of St. John, Book 1, Ch. 5, p. 68,86,87.

² Ibid.

أيضاً نصيباً في ذات سر أبوة الله إذ صرنا له بنين وصار هو لنا أباً. فالنور الحقيقي أحدث في الإنسان استعلاناً أدى إلى تبني وميراث سماوي. فنور المسيح هو نور استعلان الأخرويات التي صارت من نصيبنا منذ الآن. أي أن عمل النور لم يقف إلى حد المعرفة لله «بنورك نرى نوراً» (مز ٣٦: ٩) فقط، بل جعلنا أيضاً شركاء في ذات النور، إذ صرنا بنور هذا الاستعلان أبناء: «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو ١٢: ٣٦)

والمسيح لما قال «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥) يقصد أن نسير باجتهاد في جذّة الحياة أو الحياة الجديدة في المسيح، أي القيامة، أي الخليقة الأخرى التي من فوق، لئلا يدركنا الظلام أي لئلا يطغى علينا مرة أخرى ظلام الإنسان العتيق والحياة القديمة المستعبدة لظلام الخطية وسلطان الظلمة!

لذلك فكما أن الحياة تنبعث من النور كذلك الموت يتبع الظلمة. لذلك يقول القديس يوحنا في رسالته «أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١ يو ١: ٥)، فهو الحياة المطلقة والقداسة المطلقة. وعلى هذا القياس يكون تلميح المسيح على نفسه أنه هو الحياة، أي ليس فيه ظلمة البتة بل هو نور كلي بقوله: «مَنْ مِنْكُمْ يُبْغِضُ عَلَى خَطِيئَةٍ.» (يو ٨: ٤٦)

والقديس يوحنا يستخرج لنا من هذا منهجاً عملياً كعلاقة حتمية مع النور: «إن قلنا أن لنا شركة معه (أي النور) وسلطنا في الظلمة (أي الخطية) نكذب ولسنا نعمل الحق.» (١ يو ١: ٦)

كذلك يربط القديس يوحنا بين النور والحب فهما طبيعة واحدة في الجوهر الإلهي: «الله نور» (١ يو ١: ٥)، «الله محبة» (١ يو ٤: ١٦)؛ وكذلك بين الظلمة والبغضة القاتلة وهاتان هما الصفتان اللتان اكتسبهما الشيطان بعصيان الله: «أيضاً وصية جديدة أكتب إليكم ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت (هزيمة الشيطان) والنور الحقيقي الآن يضيء (معرفة المسيح بالاستعلان)، مَنْ قال أنه في النور وهو يبغض أخاه (مَنْ يبغض أخاه فهو قاتل نفس — والشيطان كان قتالاً للناس منذ البدء) فهو إلى الآن في الظلمة (في حضن الشيطان)، مَنْ يحب أخاه فهو يثبت في النور وليس فيه عشرة. وأما مَنْ يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم إلى أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه.» (١ يو ٢: ٨-١١)

وهكذا يعلن إنجيل يوحنا عن المعيار الدقيق والخطير «للنور».

لقد استخدم إنجيل يوحنا كلمة «المجد» ومشتقاتها على الأساس العبري بحسب الترجمة السبعينية. و«المجد» في المفهوم اللاهوتي بحسب تعبير الإنجيل عامة يشمل المعاني الآتية: «العظمة الإلهية»، «القوة والقدرة الإلهية»، «بهاء الإشعاع اللاهوتي المدرك أو المنظور بالعقل». وهذه هي عموماً الحالة التي يتراءى فيها الوجود الإلهي سواء في العهد القديم أو الجديد في المسيح.

وحوادث المجد المنظورة المسجلة في الكتاب المقدس في العهد الجديد تكاد تكون في الحقيقة منظورة أيضاً بالعقل السامي أو الذهن الروحي وليس بالعين المجردة. فالمنظر الواحد يراه إنسان ولا يراه إنسان آخر معه كما في ظهور المسيح في السماء لبولس الرسول: «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً» (أع ٩: ٧). أو قول إنجيل يوحنا عند آية تحويل الماء خمرًا: «هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه» (يو: ١١)، هنا «أظهر مجده» لا تفيد رؤية عينية أو منظرًا يملأه النور والبهاء بل هو منظر معقول أظهر فيه المسيح نفسه أي استعلن كيانه الإلهي غير المنظور، إنما التقطه التلاميذ بالرؤيا العقلية السامية، وهي التي لها تأثير مباشر على الفكر والقلب للإيمان المباشر.

هذه الرؤيا العقلية واضحة جداً في تعرف نثنائيل على مجد المسيح: «ورأى يسوع نثنائيل مُقْبِلاً إليه فقال عنه: هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب نثنائيل وقال له يا معلّم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو: ١٧: ٤٧-٤٩)

إذن كيف آمن نثنائيل هكذا بهذه القوة والتلقائية السريعة؟ حينما أظهر المسيح نفسه لنثنائيل بالروح أنه يعرف أموره الخاصة الداخلية، انكشف في الحال عن فكره وروحه بأن واحد حقيقة المسيح دون أي تعليم أو رؤية عينية فأمن وشهد لمجد المسيح مستعلنًا طبيعته الإلهية التي بهرت روحه.

وليس فقط لنثنائيل الإسرائيلي حقاً الذي لا غش فيه أظهر المسيح مجده بل وأيضاً للسامرية الأُمّية الخاطئة المنبوذة! «يا سيد أرى أنك نبي!» (يو: ١٩)، «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت، أَلَعَلَّ هذا هو المسيح» (يو: ٢٩). وليس لمجرد أن المسيح قال لها كل ما فعلت آمنت، ولكن لأن المسيح أظهر نفسه لها كنور حقيقي كشف أعماق ظلمات كيانها فهزّتها هزّاً عنيفاً أطاح

بكل خزيها وماضيها فرأت فيه المخلص والفادي «للكل العالم».

وفي كل حالات الإيمان التي خضعت لحقيقة استعلان المسيح لذاته، كان المسيح يُستعلن فيها كنور حقيقي يزيح ظلمات الجهل والشك والحزن والألم والمرض بل والموت عن الإنسان، فيحضره أمامه وأمام الآب مطهراً بل ومقدساً وبلا لوم، فتكون استجابة الإيمان لفعل النور مدعنة وتلقائية وبشهادة. لهذا لا يخشى المسيح أن يقول في صلاته للآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٢)، لأن النور الإلهي الذي يضيفه المسيح على قلب الخاطئ وفكره وكل كيانه يُلبسه ويتغلغل كيانه فيصبح وكأنه حامل النور وشريك فيه: «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو ١٢: ٣٦)

وأن نواخي النور ونسير فيه أو نسير معه، فلا بد وأن يُشعل القلب بالحرارة الفائقة ويملاً كيانه الإنسان بهجة حتى ولو لم يدري: «وفيا هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معها ولكن أمسكت أعينها عن معرفته... فألزماه قائلين امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار. فدخل ليحكث معها. فلما اتكأ معها أخذ خبزاً وبارك وكسّر وناولهما. فانفتحت أعينها وعرفاه ثم اختفى عنها. فقال بعضها لبعض ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق...» (لو ٢٤: ١٥-٣٢). يلاحظ القارئ هنا أنه أخفى نفسه عنها فلم يعرفاه، ولكن قلبها كان ملتهباً فيها؛ لأن النور إن أمسك عن أن يفتح العين لترى ما لا يرى فلا بد أن يحرق القلب؛ لأن النور فعال في كل مجال لأنه مجد المسيح؛ فإذا لم تره العين الفائقة فلا بد أن يهتز له القلب اهتزازاً، لأنه كيف يغشانا مجد المسيح - بتفضل منه - ونبقى نحن كما نحن؟

وبالمقارنة مع الثلاثة الأناجيل والأسفار الأخرى في العهد الجديد نجد أن إنجيل يوحنا يمعن في إعلان مجد المسيح في حياته على الأرض بكثرة وفي مواقف عديدة، في حين أن الثلاثة الأناجيل وبقية الأسفار اقتصرت على الإعلان عن مجده بعد القيامة.

في سفر الأعمال يُقدّم المسيح مُتَجَدِّداً في القيامة: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً...» (أع ٥: ٣٠ و٣١).

والقديس بولس الرسول يقدم المسيح مُتَجَدِّداً في القيامة: «أقيم... بمجد الآب.» (رو ٦: ٤)

ثم يقدمه مُتَجَدِّداً في صعوده: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد تبرّر في الروح تراءى لملائكة كُوز به بين الأمم أُوْمِنَ به في العالم رُفِعَ في المجد.» (١ تي ٣: ١٦)

والقديس الشهيد إسثفانوس يقدمه لنا ممجداً عن يمين الآب في السماء: «وأما هو فمخصص إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله.» (أع ٧: ٥٥)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح ممجداً بعد اجتيازه الآلام أي بعد قيامته: «باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأجساد التي بعدها.» (١ بط ١: ١١)

كما يقدمه القديس بطرس الرسول حائزاً على مجد الآب بعد قيامته من الأموات: «أنتم الذين به تؤمنون بالله الذي أقامه من الأموات وأعطاء مجداً حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما في الله.» (١ بط ١: ٢١)

وسفر الرؤيا يقدم المجد للمسيح من فم الأربعة والعشرين قسيساً والمسيح جالس على عرشه: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وُخِلِقت.» (رؤ ٤: ١١)

ويقدمه سفر العبرانيين كممجد إلى الأبد بنفس الخاتمة التي تُقدَّم إلى الله: «ليكمثلكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الأبدين آمين.» (عب ١٣: ٢١)

والقديس بطرس الرسول يقدم هذه الخاتمة للتمجيد عينا: «إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله لكي يتمجد الله في كل شيء بيسوع المسيح الذي له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين.» (١ بط ٤: ١١)

كما يستخدم سفر الرؤيا خاتمة التمجيد نفسها: «قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليفة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض (الأموات) وما على البحر. كلُّ ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الأبدين.» (رؤ ٥: ١٢ و١٣)

والقديس بولس الرسول يقدم المجد للمسيح كصفة دائمة أو كأسم تعظيم: «لأن لو عرفوا لما صلُّوا رب المجد.» (١ كو ٢: ٨)

والقديس يعقوب الرسول يعطيه نفس اللقب التمجيدي: «يا إخوتي لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحابة.» (يع ٢: ١)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح في استعلان مجده الآتي كمصدر فرح: «بل كما اشتركتكم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين» (١ بط ٤: ١٣)؛ «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يُعلن...» (١ بط ٥: ١)

والقديس مرقس الرسول يقدم المسيح متكلماً عن نفسه في استعلان مجده العتيد هكذا: «وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد.» (مر ١٣: ٢٦)

كل هذه الشواهد توضح أن جميع هذه الأسفار اقتصرت على إعلان مجد المسيح بعد القيامة. أما ذكر مجد المسيح قبل القيامة في بقية الأناجيل فهي محدودة للغاية، وتتعلق بقصة ميلاده وتجليه، أو ذكر مجيئه الثاني الذي يُحسب أنه متعلق بالدهر الآتي أيضاً.

أما إنجيل يوحنا فينفرد دون جميع الأناجيل والأسفار في ذكر المسيح ممجداً في حياته على الأرض قبل الصليب وعليه! وهكذا يتبين للقارئ أن إنجيل يوحنا قد أصر على استعلان مجد المسيح معتبراً أن حياته على الأرض كانت كلها نوعاً من التجلي والرفعة: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

هذا هو المجد الذي رآه إشعياء بعين النبوة: «رأيت السيد جالساً على عرشٍ عالي ومرتفع ومجده τῆς δόξης αὐτοῦ يملأ كل البيت» (إش ٦: ١ — النسخة السبعينية). والقديس يوحنا يكشف سراً ما رآه إشعياء من عرش مرتفع ومجد مالى أنه هو المسيح المرتفع على صليبه الذي ملأ لا البيت فقط بل الأرض كلها والسماء: «قال هذا إشعياء حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو ١٢: ٤١)

وكان أول استعلان لمجده في عرس قانا الجليل: «وأظهر مجده فأمن به تلاميذه» (يو ٢: ١١). هذا في عرس قانا الجليل، مما جعل الكنيسة تعتبر سر الزواج على أعلى مستوى من التجلي فهو سر المسيح والكنيسة، كما يقرر ذلك القديس بولس الرسول. «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الإثنين جسداً واحداً. هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف ٥: ٣١ و٣٢)

ولكن ليس للتلاميذ فقط أعلن المسيح مجده أو هو مستعد أن يُعلن مجده بل وأيضاً لكل من يؤمن به، كان من كان. فهو يقول لمرثا: «ألم أقل لك إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠)، معتبراً أن بعض التجارب والضيقات تكون لمجد الله والمسيح بالرغم من ظاهرها البشع على مستوى شركة

الصليب، «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به.» (يو ١١: ٤)

أما للأخصاء فإن استعلان مجده يصاحبه عطية: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١٤ و١٦). هنا الرؤية تحتاج إلى إيمان واستعلان لحقيقة شخص المسيح.

وإنجيل يوحنا يعتبر أن أول ظهور علني لمجد المسيح على مستوى العالم هو الصليب: «لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو ٧: ٣٩). وهذا تؤكد الآيات:

— «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه...» (يو ١٢: ١٦)

— «فلما خرج (يهوذا) قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه.» (يو ١٣: ٣١)

— «وإن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده في ذاته ويمجده سريعاً.» (يو ١٣: ٣٢)

وهذا يعلن إنجيل يوحنا وبهم المسيح أن الصليب كان باب المجد: «أما كان ينبغي أن يتألم المسيح بهذا ويدخل إلى مجده.» (لو ٢٤: ٢٦)

هذا هو المدخل الذي دخل منه المسيح مكتسباً هذا المجد لحسابنا بعرق جبينه وبلعه الذي سُفك على الأرض، ذلك فوق مجده المذخر له عند الآب في ذاته. لذلك حقاً له أن يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو ١٧: ٢٢)

لقد وقعت حبة الحنطة وماتت، لذلك تحتم أن تعطي حياتها ومجدها لكثيرين: «قد أثت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بشمر كثير.» (يو ١٢: ٢٣ و٢٤)

هكذا ربط إنجيل يوحنا بين الموت والقيامة وبين الآلام والمجد. فقد انتزع من الموت قيامة ومجداً له وللإنسان عامة!

ثم ألا ترى يا صديقي القارئ كيف أن آلامنا وضيقاتنا واختناقتنا حتى الموت هي موقعة على مجد الله والمسيح ومنطقة على الصليب وما بعده تمام الإنطباق؟ إنه لأمر مذهل أن يكون الصليب والألم والموت مجداً لحساب الإنسان المظلوم المهان. وكأن إنجيل يوحنا يسلمنا سراً رؤية مجد المسيح في نور حبه الإلهي ومن خلال منظار الآلام والضيقات والدموع، وأي مجد؟ مجد الله!!!

وهذا انضرد هذا الإنجيل العجيب في التأكيد على استعلان مجد المسيح خلال كل حياته على الأرض لأنها كلها كانت آلاماً ومقاومة ومصادرة وخيانة، وليس في ذلك عجباً فإن كان الله قد تنازل ولبس جسداً فلا عجب أن يفوح المجد منه كلها تألم أو توجع؛ ثم أليست هذه هي راحة المسيح الذكية لله للذين يخلصون؟

الفصل الثالث

الحياة والدينونة

إن معياري «النور» و«المجد» اللذين هما النتيجة المباشرة لإستعلان الحق والشهادة، يؤديان بدورهما إلى معيارين آخرين هما: إمّا الحياة الأبدية أو الدينونة. وبمعنى أبسط. فإن الذي يؤمن بالحق، يشهد له بالضرورة؛ والذي يؤمن ويشهد، يفتح أمامه استعلان النور والمجد، فينال الحياة الأبدية. أما الذي لا يؤمن بالحق فهو لا يشهد له ولا يستطيع ولا يؤهل لإستعلان النور ولا لرؤيا المجد، وبالتالي لا ينال الحياة الأبدية بل يخضع للدينونة، لأنه يستحسن الظلام ولا يستحسن أن يبني الله في معرفته. «الذي يؤمن به (بالحق والنور) لا يُدانُ، والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو: ١٨ و ١٩)

وهذا معناه في إنجيل يوحنا أن الإيمان باسم ابن الله يعتق من الدينونة المباشرة، أما الإنعتاق من الدينونة فعناه الفعلي هو الدخول في الحياة الأبدية. وهذا يوضحه الإنجيل هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو: ٢٤). وهذا المعيار الذي وضعه المسيح في إنجيل يوحنا يسري في هذا الزمان وفي القيامة والذهر الآتي، وهذا أيضاً يوضحه الإنجيل هكذا: «...تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة، والحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (يو: ٢٨ و ٢٩)

هذا في اليوم الأخير، أما في الحاضر الزمني، فيقول أيضاً الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو: ٢٥). وهذا تم بالحرف الواحد في إقامة لعازر.

أ - الحياة في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «الحياة» في الإنجيل عامة وفي العهد الجديد خاصة هي الحياة غير القابلة للموت. فالموت في المسيحية عموماً ليس ظاهرة طبيعية قائمة بذاتها أو هي حالة ضرورية. فالموت هو عقوبة الخطية.

و«الحياة» تختص بالله. فإسم الله هو «الله الحي» وهو الذي وحده له عدم الموت «الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدْنَى منه، الذي لم يَرَهُ أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١٦: ٦)، وهو وحده الذي يُحيي ويُميت «...أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو٤: ١٧)

والحياة في الله والتي يعطيها الله بروحه هي وحدها التي تسمى حياة. ولكي نفرقها عن الحياة الجسدية التي مآلها للموت، فهي تسمى «الحياة الحقيقية» أو «الحياة الأبدية». وعلى هذا القياس يمكن أن تسمى الحياة التي يحيها الناس بالجسد أنها حياة الموت أو حتى «الموت» بالرغم من مظاهر القوة والحركة الطبيعية.

ولهذا فإن «الحياة الحقيقية» هي الحياة التي نكتسبها الآن لحساب ما بعد الموت، وهي التي يتحتم أن نحسب لها ألف حساب «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة» (١٦: ٤). ويلاحظ هنا في هذه الآية وفي بكور بحثنا أن القديس بولس الرسول يقرن الحياة الأبدية بالحاضر والمستقبل. لهذا «فالحياة» في الكتاب المقدس تعني الحياة الأبدية، ولا يلزم أن يضاف إليها أي تعريف آخر. «وإن أعشرك يدك فاقطعها خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم.» (مر٩: ٤٣)

و«الحياة» أو الحياة الأبدية لأنها تخلصت نهائياً من الموت، فهي بالنسبة للإنسان تعني «الخلاص».

والحياة الأبدية «تُورَث»: «ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية» (مر١٠: ١٧)، و«تُؤخذ»: «ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان... مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (مر١٠: ٣٠)، و«يُدخل إليها.» (مر٩: ٤٣)

«الحياة» في الحاضر:

١ - كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة:

إن كل الأسفار في العهد الجديد تتحدث عن «الحياة» في المستقبل. ولكن السؤال الملح: وما

والحقيقة أن الحياة الأبدية حادثة في الحاضر بكل تأكيد على أساس «الرجاء الحي» الذي نعيشه بالإيمان، حيث الرجاء يختص بالمستقبل، ولكن يُعاش ويمارس الآن في صميم الحاضر الزمني على أساس وعد الله الثابت: «مبارك الله أبوربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية، لرجاء حي، بقيامة يسوع المسيح من الأموات. ميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ، في السموات لأجلكم.» (١ بط ١: ٤ و ٣)

هذا الميلاد الثاني هو بعينه «الحياة الأبدية» مُعاشة بالإنسان الجديد، وذلك برجاء حي نمارسه بقوة قيامة المسيح، وعلى أساس ميراث «محفوظ» لنا في السموات. إذن فحاضرنا الروحي مُعانٍ ومقوّى ومسند بمستقبل حياة أبدية كُتبت وتسجلت وحُفِظت لنا في السموات بصورة أكيدة. «فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح فَمَنْ أنا. أقادر أن أمنع الله؟ فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين إذا أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة.» (أع ١١: ١٧ و ١٨)

ولكن الواقع والحقيقة هو أن الحياة الأبدية لا تظهر واضحة بصفاتها وإمكانياتها وقدراتها الهائلة في الحاضر، ولكن تبدو وكأنها عطية وهبة، في الخفاء تُعاش وتمارس «اهتموا بما فوق لا بما على الأرض لأنكم قد مُثّم وحياتكم مستترة، مع المسيح في الله، متى أظهر، المسيح حياتنا، فحينئذٍ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣: ٢-٤). وهذا يعني تماماً أننا نمارس الحياة الأبدية الآن في الخفاء بدون مظهر ولا مجد بانتظار الإعلان الكامل. والدليل القوي على اعتبار أن الحياة الأبدية يبدأ عملها وفعلها من الآن، قول بولس الرسول لتيموثاوس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت...» (١ تي ٦: ١٢). شيء وحيد يميز ممارستنا للحياة الأبدية الآن عنها في الحياة الأخرى في المستقبل كون الأخيرة ليس فيها كآبة ولا حزن ولا تنهد بل فرح كامل دائم. أما في الحاضر فتكتنفها الضيقات والآلام.

٢ - «الحياة» عند القديس بولس الرسول:

كان القديس بولس الرسول أول من اعتبر «الحياة الأبدية» كحاضر نعيشه ونمارسه ونفرح فيه، إذ اعتبر أن المسيح بقيامته من الموت صار آدم الثاني الذي به ومنه خرجت البشرية الجديدة، حيث المؤمنون به ينتسبون. «ولكن الآن قد قام المسيح وصار باكورة الراقدين... ولكن كل واحد في رتبته المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه» (١ كو ١٥: ٢٠ و ٢٣). «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهي صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩). «وهو

رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداعة بكر من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء. «
(كو ١: ١٨)

ولكن القديس بولس الرسول يرى أن الحياة الأبدية هي في المستقبل تكمل لما ابتدأ الآن
«وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي» (١ كو ١٥: ٤٩)، حيث يُحسم التجديد
الحادث الآن في سر، بتجديد مستعلن منظور. «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد
فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع
المسيح» (رو ٥: ١٧)، معتبراً أن الروح القدس الذي تأخذه في المعمودية هو عربون لما سيكمل في
المستقبل «نحن الذين لنا باكورة (عربون) الروح نحن أنفسنا أيضاً نثن في أنفسنا متوقعين التبري
فداء أجسادنا» (رو ٨: ٢٣)، «لأننا بالرجاء خلصنا، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء لأن ما
ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسن ننظره فإننا نتوقعه بالصبر»
(رو ٨: ٢٤ و ٢٥)، «الذي ختمنا أيضاً وأعطي عربون الروح في قلوبنا.» (٢ كو ١: ٢٢)

والروح القدس عند القديس بولس هو الذي يضطلع الآن بإعطاء «الحياة» في الله: «الذي
جعلنا كُفَاءً لأن نكون خُدَّام عهد جديد لا الحرف بل الروح. لأن الحرف (الناموس) يقتل ولكن
الروح يُحيي» (٢ كو ٣: ٦)، «لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام.»
(رو ٨: ٦)

+ وبالكلمة التي يركز بها القديس بولس، تهب رياح النعمة التي سماها رائحة المسيح التي في
الكلمة، لتُخبي من يسمعها ويؤمن بها «لأننا رائحة المسيح الذكية لله... رائحة حياة لحياة»
(٢ كو ٢: ١٥ و ١٦)، بل «والكلمة» الفعالة في المسيح سمّاها القديس بولس كلمة الحياة
«متمسكين بكلمة الحياة» (في ٢: ١٦)، وأيضاً سفر الأعمال يعطي — على لسان الملاك — لكلام
المسيح صفة الحياة المحيية «اذهبوا قفوا وكلّموا الشعب في الهيكل بجميع كلام هذه الحياة»
(أع ٥: ٢٠). وهذا ما تمسك به القديس يوحنا الرسول من فم المسيح نفسه: «الروح هو الذي
يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو ٦: ٦٣)

لذلك فالإنجيل في عرف القديس بولس الرسول، هو الذي حطم الموت وأثار الحياة والخلود أمام
وعي الإنسان وروحه «الذي خلّصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد
والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية. وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع
المسيح الذي أبطل الموت وأثار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.» (٢ تي ١: ٩ و ١٠)

+ كذلك فإن القديس بولس يؤمن ويمارس الحياة الأبدية في الحاضر بإحساس يقيني أن المسيح نفسه هو الذي يعطي هذه الحياة فيه التي يحياها «لأنني مُتُّ بالناموس للناموس لأحيا الله. مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ فأحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ١٩ و ٢٠)، «فإن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية وأما الروح فحياة بسبب البر.» (رو ٨: ١٠)

+ والحياة الأبدية هي المقابل الإيجابي لغفران الخطية لأن المقابل للخطية هو الموت. «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو ٨: ٢)

+ والحياة الأبدية تفعل وتزدهر في الإنسان، بقدر ما يموت الإنسان بالجسد عن الخطية كل يوم. «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.» (٢ كو ٤: ١٠)

+ كذلك فالحياة الأبدية تنمو وتزدهر فينا، بقدر ما يقع علينا من ضيق واضطهاد واختناق حتى الموت «لأننا نحن الأحياء (خلقة جديدة) نُسلم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢ كو ٤: ١١). وبالنهاية نظهر كمائتين بل ونكون كذلك بحسب الجسد وفي أعماق شعورنا وبالرغم من ذلك نحيا وتعمل فينا الحياة الأبدية بلا هوادة «كمائتين وها نحن نحيا» (٢ كو ٦: ٩)، وذلك بعد أن عدّد القديس بولس الرسول أنواع الآلام والضيقات والضربات والشدائد والضرورات والسجون والاضطرابات والأتعاب والأسهار والأصوام، بصيت رديء وهوان، كمضلين، كموذّبين، إنما في طهارة وصبر وعلم وأناة ولطف ومحبة بلا رياء في الروح القدس. إنه منهج متكامل يصحح ذاته ويوازن ذاته، والكفة الراجعة فيها المسيح دائماً ومعه وفيه الحياة الأبدية، وكأنما المسيح بحلوله في القلب يبتلع في جسده كل ما صادفنا ويصادفنا من جنون هذا العالم: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.» (في ١: ٢١)

+ ويبقى شرط ديمومة الحياة بروح المسيح التي تثمر فينا للخلاص هو أن ندوم في سلوك حسب ما يطلبه الروح ويوعز به إلينا: «إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح» (غل ٥: ٢٥). «ولكن إن كنتم بالروح تميّتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو ٨: ١٣ و ١٤). على أن مهما كانت آلام الزمان الحاضر فهي لا تُقاس بأعجاد الحياة الأبدية التي ستُستعلن فينا: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا.» (رو ٨: ١٨)

+ على أن أول أثمار الروح الكثيرة هي المحبة كعلامة صدق السلوك بالروح. «وأما ثمر الروح فهو محبة...» (غل ٥: ٢٢)

كذلك فالحياة الأبدية عند القديس بولس تشمل معاً «المستقبل والحاضر»، وهو لم يحاول أن يصلح أو يوفق بين الإثنين:

أ - **ففي المستقبل يؤكد:** «الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله، أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحياة الأبدية» (رو ٢: ٦ و٧)، «فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر (الآن) سيملكون (في المستقبل) في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو ٥: ١٧)، «حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو ٥: ٢١)

والذي يميّز الحياة الأبدية في المستقبل عن الحاضر الزمني عند القديس بولس هو حصولها في «مجد».

ب - **وفي الحاضر يؤكد:** «فدُفِئاً معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جذّة الحياة» (رو ٦: ٤)، «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن، أحياء، لله بيسوع المسيح ربنا» (رو ٦: ١١)، «ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله» (رو ٦: ١٣)، «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو ٨: ٢)

ج - **وأحياناً يجمع القديس بولس «الحاضر والمستقبل معاً»** تحت قوة روح الحياة وعمله «لأننا نعلم أنه إن نُقِصَ بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله، بيت غير مصنوع بيد أيدي... فإننا نحن الذين في الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة، ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح... فنثق ونُسَرُّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب. لذلك نحترس أيضاً، مستوطنين كنا أو متغربين، (الذي يستوطن الجسد - أي في الحياة الجسدية - هو نفسه متغرب عن السماء ولكن يحيا بالروح) أن نكون مرضيين عنده، لأنه لا بد أننا جميعاً نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢ كور ٥: ١ - ١٠)

ولكن القديس بولس يؤمن أن الذي يعيش بروح الله، يتقدم وينمو في استعلان الحياة الأبدية

ومعرفة ربنا يسوع المسيح، ليتغير من صورة إلى صورة أفضل، ومن مجد إلى مجد أوفر «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٨)، «لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً.» (٢ كو ٤: ١٦)

٣ - الحياة في إنجيل القديس يوحنا:

إن كان القديس بولس اقتنى أثر الحياة الأبدية في المسيح فوجدتها في القيامة من الأموات، فإن القديس يوحنا يقتنى أثر الحياة الأبدية في المسيح قبل التجسد وفي التجسد بل وفي الموت ذاته. فالمسيح بصفته كلمة الله $\lambda\acute{o}\gamma\omicron\varsigma$ ، والإبن الأزلي لله، فهو «الحياة» وله الحياة في ذاته:

— «فيه كانت الحياة...» (يو ١: ٤)

— «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته.» (يو ٥: ٢٦)

— «كما أرسلني الآب الحي، وأنا حيٌّ بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو ٦: ٥٧)

كذلك في رسائله نرى هذه الحقيقة التي يتشبه بها القديس يوحنا: أن الحياة الأبدية أظهرت بتجسد الكلمة:

— «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١ يو ١: ١ و٢)

— «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه، ومن له الإبن فله الحياة، ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (١ يو ٥: ١١ و١٢)

— «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يو ٥: ٢٠)

لأن ابن الله لما تجسد وصارت له نفس بشرية أسلمها للموت كفدية عن البشرية «أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو ١٠: ١١). ولكن بقيت حياته لم تنقطع ولم تتعطل بل ولم تتأثر بالموت!! «بعد قليل لا يراني العالم (بالموت) أيضاً (ثانياً) وأما أنتم فتروني إني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون.» (يو ١٤: ١٩). التأكيد هنا على «إني أنا حيٌّ» في الوقت الذي لا يراني العالم فيه بحدوث الموت. وليس حيٌّ فقط بل ومُحيي بكامل قوته في الإحياء.

وإذا كان إنجيل يوحنا يدعو المسيح «الحياة» فذلك لكونه يستعلن حياة الله في ذاته كآب كونه ابناً له ! مكثلاً مشورة الآب ورسالته ومعطياً وصايا الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية «وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية» (يو ١٢: ٥٠). بهذا يعطي المسيح عناصر الإيمان الحقيقي، لذلك يدعو نفسه علناً وبوضوح أنه هو الحياة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو ١١: ٢٥). كما يدعو نفسه «خبز الحياة» (يو ٦: ٥١) كونه يقيم أود الروح ويشبعها، كما ويعطي ماء الحياة (يو ٧: ٣٨) لأنه يهب الروح القدس الذي يروي العطاش إلى البر، ونور الحياة (يو ١: ٩) لأنه يقودنا في طريق الحياة الأبدية، ويجعلنا كمن يبصر ويشاهد بالإستعلان حقيقة الحياة الأبدية غير المنظورة ولا المُشاهدة. و«كلامه روح وحياة» (يو ٦: ٦٣) لأن الكلمة التي تخرج من فم تلمي المائتين بالخطية وعلى مستوى القبر.

الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا:

لأن الحياة الأبدية أظهرت واستُعلت بالمسيح وحده، لذلك فالإيمان به يمنح هذه الحياة: «لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣: ١٥)؛ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية» (يو ٦: ٤٧). بل إن إنجيل يوحنا كله مكتوب لغاية واحدة هي: - «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو ٢١: ٣١)

ويرفع القديس يوحنا المضادة الإيمانية للحصول على الحياة الأبدية في الحاضر والمستقبل إلى أعلى درجة حينما يقول: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي، ويؤمن، بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤). هنا الحاضر والمستقبل بالنسبة للحياة ملتزمان معاً وبآن واحد!

بل ويقتحم القديس يوحنا المستقبل ويستحضر منه الساعة الأخيرة ويجعلها ساعة اليوم الحاضر، بصورة سرية لا تخلو من عمق روحي هائل، باعتبار أن الكرازة بكلمة المسيح تحمل الحاضر والمستقبل بآن واحد. «تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥)، هذا يجري «الآن» في الحاضر على الخطاة فيتوبون ويقبلون الحياة الأبدية، ويجري في المستقبل على الأموات الذي في القبور حين يسمعون صوت ابن الله للقيامة والحياة الأبدية.

والسبب الفعّال في هذه المضادة أن المسيح هو القيامة حتى وقبل أن يموت كما قال لمرثا: «أنا

هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، أي أن المسيح يحمل روح القيامة والحياة في ذاته وهي التي غلب بها الموت. لذلك، فالذي يؤمن به يحيا حتى ولومات لأنه سيحصل على روح القيامة التي يغلب بها الموت، أو بالحري وعلى الوجه الأصح، إنه لن يموت، طالما روح القيامة فيه، فهو سيجوز الموت حياً إن جاز هذا التعبير: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولومات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» (يو ١١: ٢٥ و٢٦)

ولكي يؤكد المسيح سلطانه على إعطاء الحياة الأبدية الآن وكأنها الساعة الأخيرة قال وهو يصلي إلى الآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٢). هنا ولو أن المعنى منصب على مجد الدهر الآتي الذي هو من صميم عطايا المستقبل، إلا أنه يمنحه الآن بل وقد منحه! وهذا المجد الذي له والذي أعطاه لأخصائه في هذا الدهر، ممتد ليكمل في الدهر الآتي: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٤). لقد أخضع المسيح المستقبل للحاضر بسلطان عطيته للحياة الأبدية التي هي فوق الزمان، وجعل الاتصال بين الحاضر والمستقبل وكأنه طريق واحد دائم ومتصل لا ينقطع: «ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا (الآن) فلن يعطش إلى الأبد (كل المستقبل)، بل الماء الذي أعطيه (الآن) يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» (يو ٤: ١٤)

فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا تمسك بالزمن وتمتد به إلى الأبدية كونها لا حدود زمنية لها، فالحياة هنا هي حياة الله التي بلا حدود ولا قياس: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان (الآن) لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (يو ٦: ٢٧)

وينطىء من يقول إن إنجيل يوحنا أغفل انتظار الدهر الآتي أي الأخرويات = الإسخاتولوجي eschatology حينما جعل الحاضر يحمل قوة وبركات الدهر الآتي بالإيمان. ولكنها هي نظرة متعمقة في طبيعة المسيح «كحياة أبدية»، التي لا يمكن أن يحدّها الزمان أو يحجز قوتها وفعلها عن الذين قبلوا المسيح واتحدوا به وعاشوه.

كما وأن فعالية طبيعة المسيح كحياة أبدية جعلها تسري في الزمان كما تسري في الأبدية — كما أوردتها في قصة لعازر كمثال مصغر — ولا يفرق بينها إلا أنه في الزمان تسري جزئياً أو في سر، وفي الأبدية في علانية وفي الملء.

أما قانون الأخرويات من جهة الأعمال فأبقاه الإنجيل كتقليد الرسل والكنيسة كما هو «لا نتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا

الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوه: ٢٨ و ٢٩)؛ كذلك «كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يوه: ٤٠). فأما كيف تصالح هذا الفكر مع القول الذي يقوله الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه: ٢٤)، أي يكون قد تحظى الدينونة، فالإجابة نأخذها من القديس بولس الذي جمع الفكرين معاً في آية واحدة: «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (روا: ٨ و ٩). إذن، روح الحياة أي الروح القدس في المسيح إذ يمتنع من الخطية فإنه يمتنع من الدينونة أيضاً. فالقديس يوحنا والقديس بولس اتفقا أن «لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع». معنى ذلك لدى كل منها أن الذين هم في المسيح يسوع نالوا الحياة الأبدية منذ الآن، وقد جازوا الدينونة فعلاً الآن بلا حساب أو عقاب. أما السبب فقد أوضحه القديس بولس: «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» الذي شرحه إنجيل يوحنا أن الذي نال الحياة الأبدية معناه أنه انتقل من الموت إلى الحياة. فالقديس بولس سلط قوة الحياة الأبدية على الخطية، والقديس يوحنا سلط الحياة الأبدية على الموت ذاته. أما الذي أضافه القديس بولس الرسول كون ذلك ينطبق على «السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح»، فهذا ما شرحه القديس يوحنا: أن ذلك ينطبق على الذين «فعلوا الصالحات».

من ذلك يتبين أن رفع الدينونة الآن عن الذين آمنوا بالمسيح ونالوا روح الحياة سواء عند القديس بولس أو القديس يوحنا هو سبق استعلان الإسخاتولوجيا أي أمور الآخرة وليس إلغاء لها، فالكل سيقف أمام كرسي المسيح وأعمالهم تتبعهم.

العلاقة بين «الإيمان والمعجزات» في إنجيل يوحنا:

من الأشياء الملاحظة جداً في إنجيل يوحنا، أن كلمة «الإيمان» لم ترد فيه ولا مرة واحدة، وعوضاً عنها يأتي الفعل «يؤمن» ما يقرب من مائة مرة، مما يفيد أن إنجيل يوحنا لا يرى الإيمان إلا فاعلاً أي في حالة نشاط واجتهاد كقوة ذات عمل. المسيح عبّر عن ذلك حينما سأل مُقعد بيت حسدا: «أتريد أن تبرأ» (يوه: ٦) التي هي موضع «هل تؤمن»، بمعنى أن الإيمان هو إرادة ذات إصرار.

لذلك، في إنجيل يوحنا نشعر أن الإيمان بالمسيح هو أكثر من تصديق أن المسيح صانع

معجزات. وأن يؤمن بالمسيح يعني أن يُدرك — سواء من المعجزة أو من القول — أن المسيح هو المخلص ابن الله القادر على الإحياء من الموت. وإضافة على ذلك تسليم النفس له تسليمًا كليًا: «إن آمنيت ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠)؛ لأن المعجزة أو العمل في إنجيل يوحنا هو مجد ذاته عمل خلاصي أو مشير إلى الخلاص. فالإيمان به هو بمثابة الدخول فيه أو قبوله كفعل حياة أو كفاعل محيي «أتؤمن بابن الله؟... مَنْ هو يا سيد؟... الذي يتكلم معك هو هو... أؤمن يا سيد وسجد له.» (يو ٩: ٣٦-٣٨)

وبينا المعجزة أو العجبة هي في الثلاثة الأناجيل «عملٌ تعليميٌّ»، نجدُها في إنجيل يوحنا «عمل لاهوتيٌّ» مؤثِّر. لذلك فالمسيح لا يستسيغ إيمان الآيات والمعجزات: «ألا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو ٤: ٤٨)، ولكنه يطالب بإيمان الأعمال «إن لم تؤمنوا بي (بحسب التعليم) فآمنوا بالأعمال.» (يو ١٠: ٣٨)

المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا ورسائله:

في إنجيل يوحنا يلزمنا أن ندرك الوضع الذي حتم باستعلان الحياة الأبدية في الحاضر. فدخول المسيح إلى العالم أنشأ مجد ذاته أزمة إيمان خطيرة واجهها الإنسان ولا يزال: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو ٣: ١٨). لماذا؟ لأن الله ظهر في الجسد وصار واقعاً تاريخياً وبشراً ملموساً. هي فرصة الإنسان العظمى والأخيرة، فأبي عذر لمن لا يؤمن؟ خاصة وأن المسيح علّم بالكلمة، وكشف أسرار الله، وسلّط تعالىه على اللحظة التي يعيشها الإنسان، حرّة تماماً عن الماضي بناموسه الثقيل، ومفتوحة بلا مانع على المستقبل الأبدي. فصارت كلمة المسيح هدفاً وطريقاً معاً وبآن واحد. أما الوصية التي أخضع الإنسان تحتها فهي المحبة بالدرجة الأولى، أجل وصية. فالذي يثبت في المسيح يثبت في المحبة تلقائياً وبسرور: «اثبتوا فيّ وأنا فيكم.» (يو ١٥: ٤)

«كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي»؛ «إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته. كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم.» (يو ١٥: ٩-١١)

«هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم.» (يو ١٥: ١٢)

وليكن واضحاً أمام القارئ أن الثبوت في المحبة ينشئ فرحاً مزدوجاً: فرح المسيح، وفرحنا.

معنى هذا أن الحياة الأبدية تأسست في ناموس الله والمسيح على المحبة:

«أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله، ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.

بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا. أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً... إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبه قد تكملت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه...

ونحن قد عرفنا وصدّقنا المحبة التي لله فينا.

الله محبة. ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه،

بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين...

نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً... من يحب الله يحب أخاه أيضاً.» (١ يوحنا ٤: ٧-٢١)

هل محبة الله أولاً أم محبة الناس «بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا

وصاياه.» (١ يوحنا ٢: ٥)

في هذه الآيات يتدرج القديس يوحنا في رسالته وبلغته وتحت وحي الروح القدس مسجلاً ناموس المسيح في العهد الجديد الذي ينبع من حقيقتين:

أولاً: أن «الله محبة». هذه هي طبيعة الله العاملة في الخليقة كلها، وفي الإنسان خاصة. لأن المحبة هي التي أرسلت الابن ليكفر عن خطايانا بموته، ويعطي الحياة الأبدية التي فيه: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). هنا واضح أن الحياة الأبدية قائمة على المحبة. والمسيح ابن الله يشهد على ذلك ويوافق على ذبيحة نفسه بدافع المحبة لإعطاء هذه الحياة «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائي...» (يوحنا ١٥: ١٣ و١٤)

ثانياً: الحقيقة الثانية: إننا «نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوحنا ٤: ١٩). من هنا تنبع كل الوصايا وتنبع الطاعة كالتزام لكل الوصايا، وتنبع الحياة الأبدية. فالمحبة أعطت وصيتها، ومن ذا الذي يرفض الطاعة للمحبة؟

فالطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشأ التلمذة للمسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي (تلاميذ المحبة) إن كان لكم حب بعضاً لبعض.» (يوحنا ١٣: ٣٥)

بل والطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشئ حالة بُنوة لله ومعرفة لطبيعته (المحبة)، أي تلدنا من الله (من المحبة): «لأن المحبة هي من الله وكل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.» (١ يوحنا ٤: ٧)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية المسيح تفجر طاقات الحياة الأبدية «نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنَا قَدْ انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ لِأَنَّنا نَحِبُ الْإِخْوَةَ مَنْ لَا يَحِبُّ أَخَاهُ يَبْقَى فِي الْمَوْتِ. كُلُّ مَنْ يَبْغِضُ أَخَاهُ فَهُوَ قَاتِلُ نَفْسٍ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ قَاتِلِ نَفْسٍ لَيْسَ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ.» (١ يوحنا ٣: ١٤ و١٥)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية تنشئ فينا ثقة ورجاء يوم الدين، أي في الآخرة بسبب الثبوت في المسيح والحياة الأبدية: «بِهَذَا تَكْمَلَتْ الْمَحَبَّةُ فِينَا أَنْ يَكُونَ لَنَا ثِقَةٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ.» (١ يوحنا ٤: ١٧)

كذلك يوضح القديس يوحنا أنه إن كانت «الحياة الأبدية» تعلن عن ذاتها علناً وجهاً باحبة وكل أعمالها؛ فهي أيضاً تعلن عن ذاتها داخلياً في الضمير والقلب: «يَا أَوْلَادِي لَا نَحِبْ بِالْكَلَامِ وَلَا بِاللِّسَانِ بَلْ بِالْعَمَلِ وَالْحَقِّ... إِنْ لَمْ نَلْمِزْ قُلُوبَنَا (بسبب تقصير المحبة) فَاللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا وَيَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ... (لذلك) إِنْ لَمْ تَلْمِزْ قُلُوبَنَا (يكون) فَلَنَا ثِقَةٌ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ.» (١ يوحنا ٣: ٢١ و٢٠ و٢١)

الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله وتوصل المعرفة بأعماقه:

ربما يكون هذا آخر ما بلغه إنجيل يوحنا من أسرار الحياة الأبدية التي انسكبت في قلوبنا بالإيمان بالمسيح ابن الله: «هذه هي الحياة الأبدية، أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ» (يوحنا ١٧: ٣). والمعنى المقصود واضح أن الحياة الأبدية هي بحد ذاتها معرفة الآب والإبن، أي نابعة من كشف واستعلان الصلة السرية بين الآب والإبن! فهي معيار لاهوتي — أي أن الحياة الأبدية هي استعلان طبيعة الله وحقيقته فيما يختص بعمله نحونا (الآب أرسل الإبن) الذي انتهى بالفعل إلى انسكاب الحياة الأبدية في حياتنا وكياننا. وهذه «المعرفة» سبق أن سجلها القديس يوحنا في قوله في المقدمة «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، (يوحنا ١: ٤)، كذلك قوله «كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَنْيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ.» (يوحنا ١: ٩). وَأَنْ «مَنْ يَتَّبِعُنِي فَلَا يَمِشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورٌ الْحَيَاةِ» (يوحنا ٨: ١٢) أي النور الحي. هذا هو نور المعرفة اللاهوتية لإستعلان الله في طبيعته كآب وابن؛ والمنتهى بالفعل إلى بذل الإبن، وتكميل الفداء، ونوال الخلاص، وقبول الحياة الأبدية. ولا يزال «النور الحقيقي» الذي يعرفنا بالآب والإبن يبذل ظلمات العالم، ويستعلن طبيعة الله المُحِبَّةِ والفادية لحبي الله، والمؤهلين للخلاص حتى لمساكين الأرض «والمساكين يُبَشِّرُونَ» (متى ١١: ٥، لوقا ٢٢: ٧) لقبول الأبدية.

ب — الدينونة

κρίμα

في إنجيل يوحنا

الدينونة كمعيار توزن به الأفكار والأقوال والأعمال في إنجيل يوحنا تقف في مقابل الحياة الأبدية التي يفوز بها المؤمنون بابن الله، الآن في سر، وإلى الأبد في القيامة الأخيرة، وهي أيضاً المقابل المضاد للخلاص في بقية الأناجيل والرسائل. والدينونة هنا وضعناها في التقابل مع الحياة.

ولكن لا يفوتنا أن الدينونة تقف في إنجيل يوحنا كخلفية متجذرة في كل أصحاحاته، بل وفي الإنجيل نفسه ككل. فإنجيل يوحنا هو على ضوء كلمة الدينونة يُعتبر «قضية» يقف فيها المسيح ضد العالم، ورئيس هذا العالم، وأبناء هذا العالم. وما من آية يعملها المسيح إلا وترفع على العالم القضية، لنسمع من خلالها كل الألفاظ القانونية التي يمكن أن تدور في أي محكمة بين المحامي والقاضي والشهود. فكلمة «الحق»، و«الظلم»، و«الدينونة»، و«يحكم بحسب الظاهر»، و«يحكم حكماً عادلاً»، و«يشكوههم إلى موسى»، و«يشكوههم إلى الآب»، وهو «صادق» و«ليس فيه ظلم»، و«لماذا تطلبون أن تقتلوني»، و«أشهد لنفسي»، و«شهادتي حق»، و«على شاهدين أو ثلاثة يكون الحكم»، و«أنا لا أطلب شهادة»، و«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً»، و«هو كامل السن أسأله فهو يتكلم عن نفسه»، و«ماذا تقول عن نفسك»، و«شهد ولم ينكر». هذا عدا حديث المحاكمة، وهو ختام قضية إنجيل يوحنا أو قضية المسيح التي تُحكم فيها عليه، فأخذ نص الحكم وطبقه على الحاكم والحكام والشهود والعالم ورئيسه.

وبلاحظ كيف يطبق المسيح باستمرار ضدهم الأحكام التي يحكمون بها أو يحتكمون إليها، والشهود الذين يتخذونهم عوناً لهم يصيّرهم المسيح قضية يحكمون عليهم. إذ لما احتكموا لموسى إلى جانبهم في كسر السبت، صيّر المسيح موسى قاضياً عليهم، ولما التجأوا إلى إبراهيم ليحتموا به، صيّرهم المسيح شاهداً له ضدهم. وهكذا، وبينما يقف المسيح في كل إنجيل يوحنا متهماً يدافع عن نفسه فهو، في الحقيقة وعين الأمر، بدفاعه وشهادته عن نفسه يكون قد بلور القضية ضد سامعيه.

لهذا ينبغي على القارئ أن ينتبه في قراءة إنجيل يوحنا فهو «محكمة» و«قضاء» و«قضية». والقارئ لا يقف فيه متفرجاً فهو واقع تحت الشهادة الإلزامية، فإما يشهد للحق والنور والحياة فلا

يُدان، وإما يهرب من الشهادة أو ينكر فيقف منعزلاً عن الحق والنور والحياة، وهذه هي الدينونة!!

كان في أيام المسيح أن الذين يشتكون هم اليهود والمشتكون في حقهم هو المسيح، أما اليوم فالمشتكي هو العالم والمشتكون في حقهم هي المسيحية الحقّة التي لا يطبق العالم طرقها، والشاهد الوحيد هو الروح القدس الذي يشهد ضد العالم ويدينه. وعليك أن تسأل نفسك لتعرف الحكم: المسيح أم العالم؟

أما ماهية الدينونة؟ فهي بحد ذاتها الإعلان النهائي لحالة الإنسان بالنسبة لله، عندما يقف منفصلاً عن الله وحيداً نتيجة رفضه للإيمان بابن الله. وذلك في مقابل الإنسان الذي آمن بابن الله، وصار في سلام مع الله في ابنه يسوع المسيح، أي أنه لم يعد وحده ولا بعيداً عن الله ولا منفصلاً عنه: «أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الإثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة» (أف ٢: ١٣-١٥). «أنتم فيّ وأنا فيكم»، «أنا فيهم وأنتم فيّ ليكونوا مكتملين إلى واحد»، «لا أعود أسمىكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحبباء - لأنني أعلمتكم (معرفة الآب) بكل ما سمعته من أبي»، «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٣؛ ١٥: ١٥؛ ١٥: ٤)، وفي هذه الحالة تستحيل الدينونة «مَنْ سيشتكى على مختاري الله. الله هو الذي يبرّر. مَنْ هو الذي يدين. المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا؟» (رو ٨: ٣٣ و٣٤)

أما كيف ومتى تأتي الدينونة، فذلك عندما يرفض الإنسان هذه الدعوة التي يدعو المسيح إليها بالحاح: «تعالوا إلَيَّ» (مت ١١: ٢٨)، لكي ينال الإنسان المتعب والثقيل الأحمال، ليس الراحة فقط بل والحياة الأبدية ولا يأتي إلى دينونة. فإذا رفض الإنسان الالتصاق بالله «ليصير معه روحاً واحداً» (١ كو ٦: ١٧) في المسيح يسوع فهو يبقى بلا مخلص ولا شفيع بلغة القديس بولس الرسول: «كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنيبين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهد الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم» (أف ٢: ١٢)، أو بلغة إنجيل يوحنا فهو يبقى بلا حياة أبدية، أي يبقى في الموت أو الظلمة، أي في الخطية وعبوديتها وأبوتها: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو ٨: ٤٤)

وفي هذه الحالة عندما يظهر المسيح، سواء الآن بالكلمة، أو في الآخرة جهاراً في مجده ومجد أبيه - حينئذ وفي ملء نور المسيح سوف ينكشف وضع الإنسان الراضى محكوماً عليه من نفسه.

والدينونة يحسّها الإنسان الراضى في ضميره منذ الآن بإحساس الخوف، ولكن في الآخرة وعند

استعلان المسيح تكون الندامة مريعة واليأس قائماً دائماً. فالذي يبدأ الإنسان هنا يكمله هناك. وشهادة الضمير هذه يقررها القديس يوحنا هكذا: «بهذا نعرف أننا من الحق ونُسكن قلوبنا قدامه. لأنه إن لامثنا قلوبنا فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء!!... (ولكن) إن لم تلمثنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله.» (١ يوحنا ٣: ١٩-٢١)

ثم على أي أساس سيدين المسيح العالم وهو نفسه يقول: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم؟» (يوحنا ٣: ١٧)

هنا يكشف الإنجيل عن أن الدينونة تتم على أساس سابق لاختيار الإنسان، وليس مجرد منطق حكم يقع عليه. «هذه هي الدينونة: إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة، أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي إلى النور لئلا توبّخ أعماله. وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يوحنا ٣: ١٩-٢١)

بهذا يتبين أن الدينونة هي عملية اختيار من جهة الإنسان بمحض إرادته وتصميمه. والذي يشكل الحكم ويحدده هو كلام المسيح المقول والمُسجّل «الكلام الذي تكلمت به هو دينه» (يوحنا ١٢: ٤٨). والمسيح كونه «نور العالم» (يوحنا ٩: ٥) فهذا النور الفائق الفاحص والكاشف أستار القلوب والضمائر يفضح الأفكار والأقوال والأعمال وحتى النيات الخفية، على أن النور يبقى بلا ملامة. لأنه كما أن النور يزكي أعمال أبناء النور فهو في نفس الوقت يوبّخ أعمال الظلمة.

أي أن المسيح هو بآن واحد يبرر ويدين. فالكلمة التي قالها هي بحد ذاتها حكم عادل، من يقبلها يحيا بها ومن يرفضها يُدان بها، وتبقى الكلمة إيجابية بكل معنى، صالحة إلى أقصى حدود الصلاح.

وهذه المضادة الإيجابية تظهر بوضوح في آية تفتيح عيني المولود أعمى. فالأعمى تقبل الكلمة وآمن بها وبصاحبها فاكسب بصرًا وغنم الحياة الأبدية، والفريسيون رفضوا الآية بجملتها واحتقروا الكلمة وقائلها، فعميت قلوبهم وعشروا في النور «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذي لا يبصرون ويعمى الذي يبصرون» (يوحنا ٩: ٣٩). من هذا المثل يتضح كيف سيدين المسيح العالم. فالأعمى آمن به فأبصر فخلص، والمبصرون رفضوا فعميوا وأدينوا! والمسيح واقف بين الإثنين يعاملها معاً بقول واحد وإعلان واحد: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو، تموتون في خطاياكم» (يوحنا ٨: ٢٤). هذه هي الدينونة!! فالمسيح أكمل رسالته وأخذت

الكلمة مجراها وتسجلت على كل نفس وعلى كل العالم! وفيها يكمن القبول والرفض، الحياة والموت، الخلاص والدينونة بأن واحد! «مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلَامِي فَلَهُ مَنُ يَدِينُهُ. الْكَلَامُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.» (يو ١٢: ٤٨)

وإنجيل يوحنا يضع القيامة بشقيها على مستوى واحد: «قيامة الحياة» في مقابل «قيامة الدينونة.» (يو ٥: ٢٩)

وهكذا يقف معيار الدينونة وحكمها باستعداد لالتقاط مَنْ يخسر الحياة الأبدية. فالصوت الواحد المبارك يسمعه هذا فيقوم ويتبرر ويحيا إلى الأبد، ويسمعه ذاك فيقوم للدينونة والعار والحكم الأبدي. «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينوتي عادلة» (يو ٥: ٢٨-٣٠). والصوت هو هو لا يتغير.

وهكذا تظل الدينونة في إنجيل يوحنا معياراً خطراً مربوطاً ربطاً محكماً مع غاية الإنجيل كله، وهو الإيمان أن يسوع المسيح هو ابن الله الحي.

الفصل الرابع

الإيمان والمعرفة

أ - الإيمان في إنجيل القديس يوحنا

ليس من بين جميع ما وهب الله للإنسان ما يضاهي هبة الإيمان.

كما أنه لا يوجد في العالم قوة معاندة أو شريرة أو أي خسارة تستطيع أن تقف أمام قوة الإيمان المُعان بالصلاة. والمعروف بالتجربة أن الإيمان الثابت مع الصلاة ينقل الجبال. لذلك كان المسيح يتطلع دائماً إلى أي قدر من الإيمان في الإنسان حتى يستطيع أن يتم فيه معجزته. فإذا انعدم الإيمان توقفت المعجزة: «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت ١٣: ٥٨). وكان يسأل الذي يريد أن يشفى «أتؤمن؟»

ومن الصعب أن ندخل في تعريف ما هو الإيمان في إنجيل يوحنا، فنحن بصدد إيمان يكشف حتى أعماق الله ويورث الحياة الأبدية وشركة مع الآب والإبن. ويكفي أن الإيمان في إنجيل يوحنا يبلغ إلى رؤية الله في طبيعته «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). إذن فهو إيمان يتعلق بخصائص طبيعة الله وذاته!!

والإيمان في إنجيل يوحنا يتعلق بالمسيح أي يتوقف على مقدار استعلان المسيح لنفسه واستعلانه للآب واستعلان العلاقة الذاتية بين الآب والإبن. وهذا يتحتم أن يستقبله وعي روحي عالٍ من طرف الإنسان. فهو استعلان لغير المنظور ليصير حقيقة مُعاشة: «ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٤ و١٦). لذلك فالإيمان في إنجيل يوحنا يرتفع فوق مخصصات العقل البشري وقياساته الزمنية المحدودة، فهو من مخصصات الوعي الروحي: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). وما السجود إلا عبادة، وما العبادة إلا

إيمان وتعلّق شخصي!! هذا لا يتم إلا إذا أخذت الروح سيادة كاملة على الجسد: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦)، و«الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.» (١ كو ٢: ١٠)

وقوة الإيمان الفعّال تتركز على ركيزتين: الأولى: حرية الفكر والضمير من أي تأثير أو خوف أو استعباد؛ والثانية: اليقظة الروحية تجاه خداع الذات التي تتدخل لمصلحتها فتفسد الإنحياز للحق.

وكلمة «الإيمان» في أصلها العبري *he'emin* تعني الثقة والرجاء معاً، وهما الصفتان اللتان أخذ بهما القديس بولس الرسول: «الإيمان هو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى.» (عب ١١: ١)

وفي العهد الجديد تأخذ كلمة «الإيمان» معنى التصديق والإعتقاد والثقة.

وفي كتابات القديس يوحنا خارج سفر الرؤيا لا تأتي كلمة «الإيمان» كإسم إلا مرة واحدة (١ يو ٥: ٤)، وبعد ذلك تأتي في صيغة الفعل بكثرة تفوق كل ما جاء في جميع أسفار العهد الجديد. فقد وردت ٩٨ مرة في إنجيل القديس يوحنا في مقابل ١١ مرة في إنجيل القديس متى و١٤ مرة في إنجيل القديس مرقس، و٩ مرات في إنجيل القديس لوقا. وفي كتابات القديس بولس تأتي بصيغة الفعل ٥٤ مرة. وتفيد قبول الكلام وتصديقه قلبياً أي بالوعي الروحي وذلك بتصديق سلطان المسيح الناطق بالكلمة، أو في المواقف الأعلى بسبب وضوح الرؤية والبصيرة الداخلية في تمييز الأصالة الذاتية للمسيح كصاحب رسالة واستعلان من فوق كما يقول القديس يوحنا: ونحن «رأينا مجده» (يو ١: ١٤) وذلك بانفتاح الوعي، كذلك شهادة أهل السامرة: «إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم» (يو ٤: ٤٢)، وأيضاً شهادة نشايل: «أجاب نشايل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل» (يو ١: ٤٩)؛ وشهادة مرثا: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو ١١: ٢٦ و٢٧)

والإيمان وضعه المسيح كشرط أساسي لنوال الحياة الأبدية: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يو ٥: ٢٤). «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية.» (يو ٦: ٤٧)

والإيمان يحتاج حتماً إلى بصيرة داخلية أسماها المسيح في مواضع أخرى: «من له أذنان للسمع فليسمع» (مت ١٣: ٩ و٤٣). هنا السماع سماع قلبي يفتح مغاليق الروح نحو خالقها: «...فآمنوا

بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع» (يو: ٢١). هذا إيمان تصديق وخضوع لسلطان الكلمة الخارجة من فم المسيح لتخترق أعماق الوعي الروحي مباشرة. هنا العقل الجسدي يخضع لكلمة الله بدون مناقشة فيستوي العقل الروحي على عرش القلب.

والملاحظ أن الإيمان يرتبط بنوع البشارة، فنجد في الثلاثة الأناجيل الأولى أن كلمة «الإيمان» على فم المسيح تقع في اتجاه واحد هو الثقة الكاملة بالله.

أما في إنجيل يوحنا فيبدأ المسيح يسلم رسالته لقبول الإيمان به: «أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي» (يو: ١٤: ١)، والجزء الأول أي استخدام الإيمان بالله ليكون كخبرة أولى في التصديق اختبارها الإنسان وعاشها (الثلاثة الأناجيل) والجزء الثاني: «فأمنوا بي» المطلوب فيه قبول هبة وعطية المسيح بنفس التصديق للخلاص والسلام الداخلي المؤسسين على الراحة والتسليم لله نفسه وهو الجزء التكميلي للإيمان الذي جاء المسيح ليكمله: «سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو: ١٤: ٢٧)

ويتفق كل من القديس بولس الرسول والقديس يوحنا في تركيز الإيمان على المسيح. ولكن في إنجيل يوحنا يأخذ الإيمان بالمسيح أهميته القصوى بعناصره الأساسية:

١ - لأن المسيح استعلن للعالم بصفته «الكلمة الذاتى» كلمة الله بمعنى أنه هو الناطق الوحيد بسر الله الآب كاشفاً عن طبيعته: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨: ١). لذلك أصبح الإيمان بالمسيح كابن، هو الطريق الوحيد لمعرفة سر الله كآب ونوال عطاياه في المسيح.

٢ - لذلك كانت رسالة المسيح الأساسية في إنجيل يوحنا هي الإعلان عن أبوة الله بصفته الشخصية كابن وحيد، وذلك بالقول والعمل والآية، مقدماً الآب السماوي من عمق كيانه البنوي.

٣ - وكانت غاية المسيح أن يقدم للإنسان عامة كل مخصصاته البنوية لدى الآب ليُدخل البشرية إلى أقدس وأسمى مجالات الآب وهي «محبة» لترتقي الخليقة المفدية إلى درجتها الأعلى التي على رجائها عاش الإنسان ويعيش وهي درجة البنوية لله - أي التبني - بعد العبودية للخطية والشیطان.

٤ - يترتب على درجة التبني سقوط كل الأحكام والعقوبات المنصوص عنها في شرائع عهد العبودية السالف أي الإنعتاق من الدينونة لتحل بدلاً عنها مخصصات البنين وميراثهم السماوي

والحصول على بَرُّ الله المجاني بالمسيح يسوع، على أساس موت المسيح على الصليب كذبيحة، تلك التي قبلها الآب عن الخطاة، ثم قبول عطية الحياة الأبدية بقيامته من الأموات.

هذه هي عناصر الإيمان بالمسيح التي تُدخلنا في العهد الجديد مع الله، والتي على أساسها يقدم لنا المسيح ذاته لنؤمن به.

والإيمان المطلوب إزاء رسالة المسيح واستعلانه لطبيعة الله يتوقف على مدى انفتاح النفس البشرية في الداخل لقبول هذا الاستعلان الإلهي، وما يحتوي عليه من تجديد أو ميلاد بل خلق جديدة. وقد سئل المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله»، أجابهم المسيح في الحال: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.» (يو ٦: ٢٨ و ٢٩)

هنا الإيمان هو بمثابة قبول عمل الله وهذا يتطلب وعياً أخلاقياً يتناسب مع أهداف الإيمان السامية، كما يتطلب أن لا يعوّق الإيمان خداع نفسي للشك أو الهروب أو التأجيل أو وضع عراقيل وهمية.

وينبغي أن يفهم القارئ أن الإيمان عند القديس يوحنا محدد وقاطع «كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً.» (١ يو ٢: ٢٣)

وهذا ما يؤكد المسيح نفسه في إنجيل يوحنا: «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو ٣: ٣٦). وليس هذا تعسفاً أو جزافاً، لأن بالمسيح مغفرة الخطايا وبدونه لا غفران قط، والذي تحت عبودية الخطية هو واقع بإرادته تحت غضب الله، والذي يرفض الإبن يرفض ميراث البنين وبالتالي ليس له نصيب في الحياة الأبدية مع الله.

وأداة الإيمان المسيحي هي الوعي الروحي للنفس التي تسعى وتشغف بمستقبلها الأبدي، حيث يومض المسيح في أعماقها ومضات خاطفة كاشفة للحق الإلهي فتفهمه وتقبله وتشغل بجه اشتعالاً. وبمجرد أن تستقر النفس على الإيمان بالمسيح وتشغف به، يزداد عمل النور الإلهي فيها فتتمو في إدراك حقائق المسيح وتؤمن على استعلانات الإنجيل وتتحكم بحكمة الروح القدس: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦: ١٣)، وتزداد المعارف الروحية بدون معلم حيث تنمو حاسة الفطنة «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه (عطية الروح القدس) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد. بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق...» (١ يو ٢: ٢٧). والمسحة هي تقديس الروح القدس للنفس، حيث الروح هو معلم

ولكن لينتبه القارئ إلى موقع المعرفة من الإيمان لأن التقليد الروحي للكنيسة يضع الإيمان سبباً للمعرفة وليس العكس كما يظن الكثيرون، وهذا نستشفه من قول القديس بطرس الرسول في الإنجيل: «نحن قد آمننا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي.» (يو: ٦: ٦٩)

فالإيمان أولاً ثم المعرفة. فالإلهام يأتي أولاً ثم التفسير والشرح، الحق الإلهي يشرق أولاً في النفس كالبرق الخاطف يتبعه الفهم والإدراك والتوضيح. ثقة الإيمان تضع الأساس وعليه تُبنى المعرفة بأمان. ولكن تعود المعرفة لتزيد الإيمان وضوحاً وترسخه ترسيخاً فيصير ميراثاً أبدياً للإنسان.

على أن المعرفة إذا كانت بالروح فهي أعلى وزناً من الإيمان لأنه من المقطوع به أن المسيح يعرف الآب، ولا دخل للإيمان في هذا. فالإيمان لا يدخل في المعرفة المتبادلة بين الابن والآب. أما الإيمان فيبقى في رتبة البشر، وأما المعرفة فترتفع حتى إلى قمة مجد اللاهوت!

لذلك في الأبدية يتخلف الإيمان وتبقى المعرفة، لتزداد جداً وينكشف أمامها الحق في مجد يترقى من مجد إلى مجد: «لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل حينئذ يبطل ما هو بعض... الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت. أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة...» (١ كور: ١٣: ٩ و ١٢ و ١٣)

ومعروف أن وظيفة الروحانيين في الأبدية هي المعرفة لأن المعرفة عمل الروحانيين الأعظم. ونستشف هذا من قول المسيح عن نفسه: «الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأنني منه وهو أرسلني» (يو: ٧: ٢٨ و ٢٩)؛ «أبي هو الذي يمجدي الذي تقولون أنتم أنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فقلت إنني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً لكني أعرفه وأحفظ قوله» (يو: ٨: ٥٤ و ٥٥)؛ «أما أنا فأبني الراعي الصالح وأعرف خاصتي، وخاصتي تعرفني، كما أن الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب» (يو: ١٠: ١٤ و ١٥)؛ «أيا الآب البار إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتُك...» (يو: ١٧: ٢٥)

هنا معرفة المسيح للآب ومعرفة الآب للمسيح هي معرفة خصائص اللاهوت الفائقة التي سنشارك فيها حتماً في الحياة الأبدية: «وعرفتُهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو: ١٧: ٢٦). ولكن العجيب جداً هو قول الرب أن معرفة المسيح لخاصته ومعرفة خاصته له تكون مثل معرفة الآب للمسيح ومعرفة المسيح للآب. هذا عمق يفوق إدراكنا بل يفوق حتى تصورنا الآن!! وهذا الأمر يلوح عليه القديس يوحنا في رسالته: «أيا الأحباء الآن نحن

أولاد الله ولم يُظهِر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر (المسيح) نكون مثله، لأننا سنراه (معرفة الرؤيا) كما هو (في كيانه الإلهي).» (١ يوحنا ٣: ٢)

ولكن واضح أن هذه المعرفة الفائقة هناك تقف وحدها بدون الإيمان!! لأن الإيمان له عمل الحاضر أما في الأبدية فنحصد ثماره، والمعرفة هي ثمرة الإيمان الفاخرة. وبالتدقيق في مقابل استخدام إنجيل يوحنا للإيمان ومفاعيله الكثيرة نلاحظ أنه لم يَرِدْ فيه قط شيء عن «التوبة» μετανοια، وهذا بسبب الاتجاه اللاهوتي لقوة الإيمان التي ابتلعت التوبة. ومن جهة أخرى نجد أن «مفاعيل الإيمان» أنتجت في إنجيل يوحنا ثمرة حتمية وهي «المحبة»، كوجود «حي» فعال للإيمان في الممارسة المسيحية لا بد منه، حتى إن فعل الإيمان وفعل المحبة يكونان هما القوة المتحركة في علاقة الإنسان المسيحي بالرب التي ترفعه إلى الحياة الأبدية المُعاشة.

والقارئ المدقق لإنجيل يوحنا يصطدم بشكوى مكتومة وحزينة بل ومؤلة من طرف القديس يوحنا بسبب «عدم الإيمان» من قِبَل اليهود التي كانت تواجه كل عمل وكل قول للمسيح على مدى خدمته كلها. مما جعل الإيمان في المقابل يرتفع في إنجيل يوحنا إلى حالة «نعمة» تكون ممنوحة من الله رأساً! فالذين قبلوا المسيح وآمنوا به وتعلموا له هم أصلاً مدعوون من الآب بسبقٍ تعين أو سبِق اختيار: «لا يقدر أحد أن يُقبلَ إلَيَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أقيم في اليوم الأخير» (يوحنا ٦: ٤٤)؛ «كل ما يعطيني الآب فاللَّي يُقبل ومن يُقبل إلَيَّ لا أُخرجهُ خارجاً» (يوحنا ٦: ٣٧)؛ «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم كانوا لك، وأعطيتهم لي» (يوحنا ١٧: ٦)؛ «لستُ أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتني لأنهم لك» (يوحنا ١٧: ٩)؛ «الذين أعطيتني حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك» (يوحنا ١٧: ١٢)؛ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي...» (يوحنا ١٧: ٢٤)

ولكن في مقابل هذا الاختيار المُسبَق أو سبق التعيين من قِبَل الله الآب للمختارين وجذبهم إلى المسيح لينالوا بالإيمان به الخلاص المعد لهم من قبل إنشاء العالم، فإن إنجيل يوحنا يقطع بأن قبولهم للمسيح وإيمانهم به يظل هو عمل اختيارهم الحُر وبإرادة حرة لا إلزام ولا ضغط فيه!! مما يضع على الذين يرفضون الإيمان مسؤولية خطيرة تبلغ حد الخطيئة العظمى! «ولكن منكم قوم لا يؤمنون لأن يسوع من البدء علم مَنْ هم الذين لا يؤمنون وَمَنْ هو الذي يُسلمه» (يوحنا ٦: ٦٤)؛ «ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكَّت العالم على خطيئته... أما على خطيئته، فلأنهم لا يؤمنون بي...» (يوحنا ١٦: ٨ و٩)

وبلاحظ في قول الإنجيل: «كل ما يعطيني، الآب فاللَّي يُقبل»، (يوحنا ٦: ٣٧)، وكذلك

«إن لم يجتذبه الآب...» (يو ٦: ٤٤). إنه يشير إلى أن قوة الإنجذاب نحو المسيح والاستماع إليه وقوة الإيمان بالمسيح التي تنتهي بالاتحاد به هي قوة موهوبة من الله الآب تُطلب بالحاح. وهذا يوضحه الإنجيل في قول المسيح: «فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو ٨: ٤٦ و٤٧). ولكن لم يحاول القديس يوحنا أن يصالح بين سبق الاختيار من قِبل الله للذين يؤمنون بالمسيح بل واجتذابهم أيضاً إلى الإيمان وبين حرية اختيار الذين يُقبلون إلى المسيح ويؤمنون به بمحض إرادتهم. هذه المضادة حيّرت المفسرين والشارحين للإنجيل على مدى كل العصور.

والواقع أن سبق الاختيار يتوقف على علم الله المُسبق بإرادة الإنسان الصالحة والتالفة إن كان سيؤمن أو لا يؤمن. أما الذي سيؤمن فذخر له لدى الله نعمة الإنفتاح على المسيح وقوة الإيمان مكافأة حرة لإرادته الحسنة. وأما الذي لن يؤمن فقد خسر الإثنيين النعمة والإيمان بإرادته الحرة أيضاً.

وهنا يسأل القارئ هل الإنسان مخير أو مسير؟، الرد هو أن الإنسان مخير أن يختار الله أو العالم وبعد ذلك إن سار في الخير فالنعمة تقوده وتدبره وتمده بقوة إرادة أقوى لفعل الصلاح، أما إن سار في طريق العالم واتبع أهواء الجسد والشهوات فإنه يُساق بقوى الشر التي تدفعه دفعاً في طريق الباطل والضلال. فالإنسان يظل مسئولاً عن اختياره.

وعلى هذا أيضاً يؤكد إنجيل يوحنا أن هناك مسئولية خطيرة مُلقاة علينا لنؤسس منذ الآن إيماناً نشيطاً بالمعرفة التي لا تكتفي أبداً بل تطلب كل يوم المزيد لأن هذه الحياة هي التي ستكون موضوع مستقبلنا فوق. وبقيناً أن مسرة معرفة المسيح والآب التي نعيشها الآن بالإيمان هي أثمن وأجل ما يمكن أن نعمله ونقتنيه ليس لمستقبلنا فحسب بل ولحاضرنا.

وقد ألمح إنجيل يوحنا إلى بعض الأسباب التي تقف وراء عدم الإيمان وهي في معظمها أخلاقية: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعماهم كانت شريعة» (يو ٣: ١٩)؛ «كل من يعمل السيئات يُبغض النور» (يو ٣: ٢٠)؛ «كيف تقدر أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو ٥: ٤٤)؛ «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني... لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدر أن تسمعوا (تطيعوا) قولي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو ٨: ٤٢ و٤٣ و٤٤)

ب — معرفة الله في إنجيل يوحنا (١)

«هذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧: ٣). في إنجيل يوحنا لا يمكن الفصل بين الحياة الأبدية بمفهومها الناضج وبين المعرفة الإلهية في إدراكها الواقعي العملي. فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا هي الحياة مع الله، حياة لا علاقة لها بالزمن خالية من الموت وكل أسبابه ونتائجه، وهي حياة نابعة من طبيعة الله «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته» (يو ٥: ٢٦). فالحياة مع الله هي حياة مع الآب والابن وبالتالي تُعرَّف كاملٌ وممتدٌ في العلاقة بين الآب والابن.

لذلك فانفتاح الوعي الروحي للإنسان لتقبُّل انسكاب قوة الحياة الأبدية «بالميلاد الثاني» أو «بالخلقة الجديدة» أو «بالميلاد من فوق» أو «بجلول الروح القدس» يُدخله في معرفة الله الذاتية أي معرفة الآب والابن. أي أن معرفة الله بحسب الآية أعلاه: «أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»، هي في الحقيقة ليست معرفة من معارف الإنسان الطبيعية، بل معرفة استعلانية، أي فيها ينكشف للروح أمور مخفية ليست من اختصاص الحياة الأرضية.

ولكي ندرك المعنى العميق لهذه المعرفة الروحية الخاصة بالله في إنجيل يوحنا يلزمنا في البداية التفريق بين المعرفة في الفلسفة اليونانية والمعرفة في التوراة أي عند العبرانيين.

١ — معرفة الله في الفلسفة اليونانية:

وتختص بالتأمل في الحقيقة النهائية في جوهرها غير المتغير. وواضح أن هذه الحقيقة ثابتة Static ومطلقة أي مجردة وبلا حدود. وفيها يجاهد الفكر البشري في الإنطلاق نحو هذا الجوهر الثابت. فالفكر المحدود يتحرك ولكن الله مطلق ثابت، يتحرك إليه الإنسان إما بعقله بالتمرينات الفكرية وإما بجسده بالتمرينات الجسدية، أو بكليهما.

٢ — معرفة الله عند العبرانيين:

وهي الإعتراف بالله من جهة أعماله التي يعملها عامة وخاصة للشعب الذي أحبه ثم الخضوع لمطالبه. وهنا تكون معرفة الله هي تعامل مع الله بالممارسة الشخصية والجماعية وذلك في صميم الزمان. حيث الله يأتي ويفتقد الإنسان ويقرب به إليه.

وبالرغم من وضوح الفرق بين المعنى اليوناني والمعنى العبري في معرفة الله إلا أنه بمرور الزمن

¹ C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 151.

اختلط المعنيان وذلك بسبب ترجمة الأسفار العبرية للكتاب المقدس إلى اليونانية في النسخة السبعينية. لأن المترجم استخدم في ترجمة الكلمات العبرية ذات المعنى العبري الخاص كلمات يونانية لها معناها اليوناني الخاص جداً!! بحيث يستحيل على القارئ اليوناني للأسفار العبرية المترجمة أن يفهم المعنى العبري النقي وحده إذ حصل تزاوج بين المعاني. هذا بجوار عدم دراية المترجم اليهودي (الإثنان والسبعون شيخاً) بأصول الكلام العبري نفسه لطول المسافة الزمنية السحيقة بين زمن وضع هذه الأسفار وزمن ترجمتها، مما قد يورط المترجم في ترجمة منحرفة وإليك هذا المثل:

الأصل العبري الصحيح: هوشع ١٠: ١٢ «إزرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح احرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي ويعلمكم البر». لاحظ كلمة «يعلمكم البر» التي بمعنى تعليم عمل الصلاح.

الترجمة السبعينية: هوشع ١٠: ١٢ «ازرعوا لأنفسكم بالبر واحصدوا بحسب ثمر الحياة وأنثروا لأنفسكم نور المعرفة واطلبوا الرب حتى يأتيكم ثمر البر».

هنا في الترجمة السبعينية ضاعت من المترجم معرفة أصل الكلمة «يحرث» لأنها قريبة جداً من كلمة «مصباح» - فاستبدل كلمة «يحرث» بحسب تداعي المعنى من الكلمة التي بعدها (يعلم البر) فبدل «احرثوا لأنفسكم حرثاً» قال: «أنثروا نوراً» وهكذا دخل في صميم التوراة اصطلاح جديد وخطير للغاية لم يكن له وجود أصلاً في العبرية وهو «نور المعرفة» φῶς γνώσεως

ولكي يتأكد القارئ من الالتباس الذي وقع فيه هذا المترجم، نعود لكلمة «حرث حرثاً» لسفر آخر هو سفر إرميا حيث وردت فيه بحسب الترجمة السبعينية ولكن بمترجم آخر أكثر علماً ودراية بالأصول العبرية للكلمات، فنجدتها في الترجمة اليونانية طبق الأصل في المعنى مثل الأصل العبري تماماً:

الأصل العبري: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً، ولا تزرعوا في الأشواك».

الترجمة السبعينية: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا وسكان أورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً جديداً، ولا تزرعوا في الأشواك».

والذي حدث هو أن انتشار الترجمة اليونانية (النسخة السبعينية) لأسفار العهد القديم بين اليهود من أصل يوناني الذين كانوا يعيشون في وسط الجماعات الغنوسية (العارفين بالله على هرطقات متعددة) قد استخدموا هذه الإصطلاحات الدخيلة في آدابهم الدينية وهكذا تقاربت المعارف والمعاني بين اليهود التقليديين (الأرثوذكس) الدارسين على النسخة السبعينية وبين هرطقات الغنوسية

وهكذا بالتالي ورثت المسيحية عن اليهودية التقليدية أي عن أرثوذكس اليهود الذين تنصروا هذه المعارف والإصطلاحات التي هي أصلاً موجودة في الأدب اليوناني الصرف!

والذي يهمننا هنا هو اصطلاح «معرفة الله»، حيث صار هذا الإصطلاح متقارباً جداً في مفهومه بين المعهد القديم (الترجمة السبعينية) وبين هرطقة الغنوسية. وهذا هو سر بلبلة العلماء الناقدين في تعثرهم من جهة منابع التي استقى منها القديس يوحنا إنجيله معتقدين أنه أخذ عن الغنوسية وهذا غير صحيح بصورة قاطعة أثبتتها العلماء اللاهوتيون المدققون.

٣ - معرفة الله عند القديس يوحنا:

والقديس يوحنا يهودي إسرائيلي لم يدرس على السبعينية ولكنه كان على دراية واسعة وعميقة بتعاليم الربيين سواء على النسخة العبرية أو على النسخة السبعينية. ولأنه عاش وكتب ليهود الشتات في آسيا الصغرى وللأمم على السواء، فكان يعرف أنه يكتب لمواطني الثقافة اليونانية. ولذلك اضطر أن يستخدم هذا التعبير: «والعالم لم يعرفه» (يو: ١٠)، عندما قال عن «الكلمة» أنه كان في العالم. فالقديس يوحنا يقصد بعدم معرفة العالم للكلمة هنا معرفة اليونان المعرفة العقلية وليس المعرفة بالمعنى العبري أي على أساس التعامل والخضوع والطاعة كإله قريب.

وهذا الموقف وقفه أيضاً القديس بولس ولكنه طعمه بالمفهوم العبري فجاء على المستويين اليوناني الفكري والعبري العملي معاً حيناً قال: «وكما لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق» (رو: ١: ٢٨). فهنا يقرر القديس بولس الرسول (في رو: ١) أن هؤلاء الناس الفجار الذين يحجزون الحق بالإثم عمداً، والذين بالرغم من أن معرفة الله ظاهرة فيهم وأن الله أظهرها لهم إلا أنهم لما عرفوا الله لم يحمدوه أو يشكروه كإله، وبذلك استحسنوا لأنفسهم أن لا يُبْقُوا الله في معرفتهم، لذلك أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليعملوا ما لا يليق. هنا واضح أنهم أدركوا معرفة الله بعقولهم بالمعرفة اليونانية الفلسفية وأنكروه بأعمالهم بحسب المفهوم العبري، لذلك حجز الله عنهم حتى الذهن المستنير أو البصيرة النيرة ليتدادوا في الباطل الذي انحازوا إليه.

هكذا أدخل القديس بولس الرسول المعرفة اليونانية في الإطار الأخلاقي ففضحها وفضح قصورها وعجزها. وأما من حيث «معرفة الله» وعلاقتها بالحياة الأبدية كما جاءت في الأصحاح السابع عشر عدد ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي

أرسلته»، نجد أن المضمون العبري لمعرفة الله واضح وقائم وهو مطابق نصاً وحرافاً لما جاء في التوراة الموضحة على النسخة السبعينية هكذا:

النسخة العبرية القديمة: (هوشع ٦: ١-٣): «هو افترس فيشفينا ضرب فيجبرنا يحيينا بعد يومين وفي اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه. فلنتبع الرب».

النسخة السبعينية: (هوشع ٦: ٢ و٣): «سيضرب ويجبرنا، بعد يومين يشفينا وفي اليوم الثالث سنقوم ونحيا أمامه وسنعرفه، فلنتبع الرب لنعرف الرب».

والمعنى واضح أننا سنقوم من الأموات ونحيا في حضوره ويكون لنا معرفة به وسنتقدم في معرفة الرب. وهذا يعني ما يلي: أن نعرف الرب هو أن نحيا أمامه أي يكون لنا حياة أبدية معه. ونلاحظ أن الآية الواردة في نبوة هوشع هي معرفة وحياة المستقبل، ولكن في إنجيل يوحنا تأتي في الحاضر الدائم وهذا هو لاهوت إنجيل يوحنا الذي يعيش بالإستعلان واقع كل الأخريات في شخص المسيح ابن الله الكائن والذي كان والذي يأتي أيضاً.

من هذا نرى أن اللغة اليونانية حتمت بدخول معاني إضافية نراها واضحة في مقابل المعاني العبرية الصحيحة: «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني» (يو ١٧: ٢٥). هنا واضح أن المعرفة الأولى لا يقصد بها إلا مجرد التعرف والإدراك العقلي حسب مستوى العالم، والتي مصيرها الإخفاق حتماً. أما المعرفة الثانية فهي تحمل أضخم احتواء لمعاني المعرفة العبرية، لأن المسيح «الكلمة» و«الابن» هو المتكلم شارحاً معرفته للآب! وهكذا تقع اللغة اليونانية في عيب صارخ حينما استخدمت نفس الكلمة «يعرف» عند العالم وعند ابن الله على السواء بمستوى واحد!! هذا يفضح قصور اللغة اليونانية في ترجمة واستيعاب المعاني الأصيلة والحقيقة المتوارثة من العهد القديم وهي معاني لاهوتية، أي على مستوى إلهي، منطوقة بروح الله على فم الأنبياء وقائمة على أساس معايشة الله لشعبه في الضيق والسعة وفي الرضا والغضب، الأمر الذي لم تره ولم تسمع به أمة أو لغة ما على الأرض كلها.

وبذلك أصبح تحديد معنى معرفة الله يتوقف بالدرجة الأولى على موقعها من الحديث وعلى مستوى الشخص أو الشعب الذي يباشرها.

فحينما يتهم المسيح اليهود بعدم معرفتهم الله فهو يضع على رؤوسهم وزراً كل معاملاتهم السيئة لله وعصيانهم وتمردهم: «أجاب يسوع إن كنتُ أمجد نفسي فليس مجدي شيئاً أبي هو الذي يمجديني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه. وأما أنا فأعرفه وإن قلتُ إنني لست أعرفه أكون مثلكم

كاذباً، لكنني أعرفه وأحفظ قوله.» (يو: ٨: ٥٥ و ٥٤)

هنا يختبئ خلف الكلام معنى عميق، لأن شعب إسرائيل معروف أن الله تبناه، وأن الله جعل نفسه أباً لهم، ولكنهم لما رفضوه بأعمالهم وابتعدوا عن الحق والرحمة والعدل، رفضهم الله وأصبحوا ليسوا أولاداً بعد، وبذلك لا يمكن أن يدَّخروا معرفته مهما كانت غيرتهم ومهما كان علمهم وحفظهم لدقائق التاموس وللوصايا بالحرف والنقطة ومهما كانت درايتهم بكل أوصاف الله ومطالبه، لأنهم في حكم المسيح قد أصبحوا «من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو: ٨: ٤٤)

وأما المسيح فيعلن عن حق أنه ابن الله فهو يعرفه حتماً وبحسب أصول الكلمة العبرية التي تقوم على الصلة الفعلية بين الآب والإبن، أي صلة الإتحاد المطلق.

فإذا بلغت معرفة الإنسان لله المستوى العبري هذا بلغ الإتحاد بالنسبة للإنسان مفهومه اللاهوتي إنما على مستوى الإمتياز وليس مستوى الطبيعة، حيث يرتقي الإتحاد إلى الخبرة التصوفية اليونانية المنشأ، والخبرة النسكية العبرية الأصل، كما فهمها القديس بطرس الرسول: «قلتموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة... لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ بط: ١: ٤ و ٥)، وكما فهمها القديس بولس الرسول أيضاً: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو: ٨: ١٦ و ١٧). وورثة الله مع المسيح هي أعظم تعبير عملي عن الإتحاد أو حياة الشركة مع الله. أو بحسب القديس يوحنا: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكتملين إلى واحد.» (يو: ١٧: ٢٣)

٤ - تعرفون أني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$:

«قال لهم يسوع متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو: ٨: ٢٨) وبحسب الأصل اليوناني «تعرفون» ($\gamma\acute{\nu}\omega\sigma\epsilon\sigma\theta\epsilon$). هذه الآية عن معرفة الله ذات وزن عالي جداً، ندركه إذا عدنا للتقليد القديم بحسب إشعيا النبي «أنتم شهودي (يوجه كلامه إلى الأنبياء وبني الإنسان) يقول الرب وعبيدي الذي اخترته (المسيح) لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا، أني أنا هو. قبلي لم يُصوّر إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مخلص» (إش: ٤٣: ١٠ و ١١). لاحظ أن تعبير «أنا هو» باليونانية $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ هو «التعريف بذات الله» وهو اصطلاح موقوف على الذات الإلهية^(٢).

(٢) أهم المواضع التي جاءت فيها عبارة $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$:

— في الترجمة السبعينية لأسفار موسى الخمسة مثل: خر: ١٤، لا: ١١، لا: ٤٤ و ٤٥، لا: ١٩ إلى ٢٦ (٢٠ مرة)، تث: ٣٢: ٣٩.

— ولسفر إشعيا مثل: إش: ٤١: ١٠ و ٤٣: ١٠ و ٤٥: ٨ و ٤٦: ١٩ و ٤٦: ١٩ و ٤٧: ٨ و ٤٨: ١٢ و ٤٨: ١٢ و ٤٩: ١٢ و ٥١: ١٢.

إذا طبقنا آية إشعياء النبي على ما جاء في إنجيل القديس يوحنا يتضح الآتي:

— بالنسبة لشهادة الأخضاء: «وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء.» (يو: ١٥: ٢٧)

— بالنسبة لشهادة المسيح: «الحق الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا.» (يو: ٣: ١١)

— بالنسبة للإصطلاح «أنا هو»: نجد التطابق مع آية إشعياء حيث تأتي الكلمة الفريدة «تفهمون» لتجعل التطابق محكماً، إذ تجيء في السيفرين: «تفهمون إني أنا هو» كما هي بالحرف الواحد.

فالنطق الإلهي الذي جاء في إشعياء النبي يفيد المعرفة الأكيدة لله المدعّمة بالفهم، أن الله هو هو صاحب المجد الفريد والمخلص لشعبه؛ كما تجيء بنفس المعنى تماماً في إنجيل يوحنا أنه متى رُفِعَ المسيح بالقيامة والصعود تعيّن أنه ابن الله وأنه صاحب المجد الفريد والمخلص وليس غيره.

٥ — الفرق بين معرفة «التأله» ومعرفة «الإتحاد»:

يهمنا أن نوضح هنا أن المعرفة اليونانية الفلسفية التي تُمارَس بالتأمل في الحياة التصوفية إنما تقوم على التمرين العقلي والنفسي للإرتقاء فيما وراء الطبيعة، وهي ضمن ميراث التقليد الآبائي الكبادوكي والبيزنطي، وهي ترتقي بدرجات ملموسة بالإنسان حتى يبلغ بها إلى ما يسمى بالتأله Θέωσις Deification

أما المعرفة بحسب الخبرة العبرية التي انتقلت إلى المسيحية، فصارت «المعرفة» تقوم بالمعنى المسيحي على الإيمان العامل بالمحبة وبممارسة الفضيلة والتعفف التي يسميها القديس بولس الرسول «السلوك بالروح»، فهي قادرة أن تبلغ بالنعمة إلى «الإتحاد بالمسيح» التي يضع لها إنجيل يوحنا شرطين: «المحبة» و«حفظ الوصية»، حيث يثبت الإنسان في المسيح «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو: ١٥: ٤) على مستوى الكرم والأغصان. هذا الإتحاد بالمسيح وبالتالي بالله يدعمه سر الأكل والشرب من الجسد والدم فيصبح الإتحاد وكأنه موثق ومختوم بالروح والدم: «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ حَيَا بِي» (يو: ٦: ٥٧)، «...الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو: ٦: ٢٧). هنا مفهوم الوحدة أو الإتحاد بالله بلغ أعلى مستواه بتوسط المسيح على مستوى المعرفة والأكل السري!!

— وأما في إنجيل يوحنا فقد وردت على فم المسيح ٢٤ مرة:

٢٦: ٤ و ٢٠: ٣٥ و ٤١ و ٤٨ و ٥١: ٨ و ١٢ و ١٨ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٨ و ٥٨: ١٠ و ٧ و ٩ و ١١ و ١٤ و ٢٥: ١١ و ١٣: ١٩ و ١٤: ٦

١٥: ١ و ١٨: ٥ و ٦ و ٨.

٦ - معرفة «الحق» :

أصل مفهوم معرفة الحق (الأليشيا) هو الإدراك العقلي الميتافيزيقي أي ما وراء الطبيعة. باعتبار أن «الحق» هو الوجه الحقيقي في الموضوع Reality وهذا ميراث يوناني فلسفي صرف.

ولكن حينما استخدمه المسيح في إنجيل يوحنا، نرى أن شيئاً عجيباً قد دخل في مفهوم الإصطلاح اليوناني هذا، وجذبه ليتوافق مع الميراث العبري الأصل لمعرفة «الله» الذي هو «الحق». فحينما يقول المسيح لليهود: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو: ٨: ٣٢)، فهذا إصطلاح هلليني (يوناني فلسفي)، ومعناه أن التحرر أو الحرية يتوقف على إدراك الوجه الحقيقي Reality للموضوع، وهذا - بحد ذاته - كفيل بأن يحرر العقل من التزييف أي شبه الحق المخادع Pseudoreality. ولكن هذا ما لا يقصده المسيح، بل هو يقصد المعرفة القائمة على الأعمال والسلوك بالخضوع والطاعة لوصايا الله، أي على الأساس العبري القويم. وهذا كشفه المسيح بوضوح عندما عاد ليطبق الحق على نفسه قائلاً: «إن حررركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو: ٨: ٣٦)؛ وهكذا جعل معرفة الحق موازية ومنطقية على معرفة الخلاص من الخطية «مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ فَهُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيئَةِ وَالْعَبْدُ لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ (بَيْتِ الْحَقِّ أَيِ اللَّهِ) إِلَى الْأَبَدِ، أَمَّا الْإِبْنُ فَيَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ (أَيِ يَرِثُ الْحَقَّ)» (يو: ٨: ٣٤ و٣٥). ثم يعود ويكشف حالة اليهود الذين صاروا عبيد خطية وتبناهم إبليس. وذلك ليس عن عدم إدراك الحق بالعقل لأنهم يدركون الحق فعلاً وعقلاً وباقتدار، ولكنهم ضلوا عن معرفة «الحق» بأعمالهم وسلوكهم الشائن «أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ... أَنْتُمْ مِنْ أَبِ هُوَ إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس منذ البدء، وهو لم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق (الأليشيا) متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب (أي أن كل مَنْ يكذب يصبح ابنه بالتبعية)». (يو: ٨: ٤١-٤٤)

وهنا واضح أن إنجيل يوحنا استخدم «معرفة الحق» ليس بالمعنى الهلليني الفلسفي فقط، وإنما مزجه بالمعنى والمضمون المسيحي الدقيق وحسب التقليد العبري.

٧ - معرفة الله للإنسان :

لورجعنا إلى التراث العبري القديم نقرأ: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» (عاموس ٣: ٢)؛ كذلك: «أنا أعرف أفرايم وإسرائيل ليس مخفياً عني» (هوه: ٣)؛ وفي مثل آخر تبلغ معرفة الله للإنسان إلى أقصى حدود الود والمحبة: «ولم يقم بعدُ نبيُّ في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه» (تث: ٣٤: ١٠)؛ كذلك وفي مثل آخر تبلغ حدود معرفة الله للإنسان إلى درجة الاختيار المُسبق والمبادرة للتقديس من طرف واحد،

أي من طرف الله دون أي إستحقاق عملي ظاهر من جهة الإنسان: «وأنت يا رب عرفتني رأيتني واختبرت قلبي من جهتك» (إرميا ١٢ : ٣)؛ «فكانت كلمة الرب إليّ قائلاً قبلما صوّرتك في البطن عرفتُك، وقبلما خرجت من الرحم قدّستُك، جعلتُك نبياً للشعوب.» (إرميا ١ : ٥)

وسبّقُ معرفة الله للإنسان لا يتدخل في الإرادة الحرة التي تختار ما بين الخير والشر، بمعنى أنه سبّقُ معرفة أعمال وسلوك ونيات وإرادة. لأن ليس عند الله زمن ما يحجب العمل فلا يُرى إلا بعد حدوثه، بل الرب يرى الأعمال وكأنها معمولة قبل أن تُعمل «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (روا : ٤ : ١٧)!! لهذا يسبق أيضاً ويقدها في ذخيرة محبته التي صوّرت الكون قبل أن يتصور، والتي كتبت أسماءنا في كتاب الحياة الأبدية ليس قبل أن نولد فحسب، بل وقبل إنشاء العالم «اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه — في المحبة —» (أفسس ١ : ٤)، أو بحسب تعبير إنجيل يوحنا: «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك» (يو ١٧ : ٦). هنا «معرفة الله للناس» على أصول عبرية صافية جداً، وإن كان مظهرها قد يميل إلى المفهوم الهليني العقلي، لهذا يمكن أن نقول إن الإنجيل جمع بين المعنيين بلا أي خلل في القصد المبارك.

ولكي ندرك عمق التراث العبري المستخدم في إنجيل يوحنا ودقته وطريقة تطعيمه بالفكر الهليني، نأخذ هذا المثل وهو آية واحدة من سفر العدد نقرأها على النسخة العبرية القديمة، ثم نقرأها على النسخة السبعينية المترجمة إلى اليونانية، ومنها ندرك مقدار التحول الذي تم على أيدي المترجمين السريين اليهود الإثنيين والسبعين وقدرتهم على فهم التراث العبري وتقريبه إلى ذهن القارئ اليهودي اليوناني.

القراءة العبرية على التوراة: سفر العدد ١٦ : ٤ وه «فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غدا يعلن الرب مَنْ هو له، وَمَنْ المقدّس حتى يُقَرَّبَ إليه. فالذي يختاره يُقَرَّبَ إليه.»

القراءة على النسخة السبعينية: «ولما سمع موسى هذا سقط على وجهه وكلم قورح وكل جماعته قائلاً: إن الله قد افتقد (زار) وعرف الذين له، وَمَنْ هو المقدّس وقد قرَّبهم إلى نفسه، والذين اختارهم لنفسه قد قرَّبهم إلى نفسه.»

يلاحظ القارئ أن التغيير حدث بنوع من شرح للموقف المبهم الذي يحكي كيف سيختار الله مَنْ هم له.

وعلى القراءة السابقة وضع الربون التعليم الدقيق بمقتضى صميم قراءة الترجمة اليونانية وذلك بوضع المبادئ التي تقن كيفية معرفة الله لشعبه:

المبدأ الأول: الله يعرف الذين له،

المبدأ الثاني: الله قد اختارهم،

المبدأ الثالث: الله يقودهم (يقرّهم) إلى نفسه.

هذه المبادئ الثلاثة المسجلة عند الربين، تكشف لنا عن مفهوم التراث العبري في موضوع معرفة الله للناس، التي كان يستحيل على اليهودي اليوناني أن يفهم شيئاً من الآية الغامضة المختصرة التي جاءت في التوراة العبرية هكذا: «غداً يعلن الله الذين له».

فإذا عدنا إلى إنجيل يوحنا — بخصوص معرفة الله للناس — نجد هذه الثلاثة المبادئ مرعية بمنتهى الدقة:

المبدأ الأول: «أما أنا فإني الراعي الصالح وأعرف خاصّتي وخاصّتي تعرفني» (يو ١٠ : ١٤)؛ «لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه» (يو ٦ : ٦٤)؛ «لكن يسوع لم ياتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع» (يو ٢ : ٢٤)

المبدأ الثاني: «لست أقول عن جميعكم أنا أعلم الذين اختارتم» (يو ١٣ : ١٨)؛ «أليس أني أنا اخترتكم الإثني عشر وواحد منكم شيطان» (يو ٦ : ٧٠)

المبدأ الثالث: «لا يقدر أحد أن يُقبل إلّي إن لم يجتذبه (يُقرّبه) الآب» (يو ٦ : ٤٤)؛ «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلّي الجميع» (يو ١٢ : ٣٢)

بهذا يتضح لنا المبدأ الذي يسير عليه إنجيل يوحنا من جهة معرفة الله للناس، وهي نفس الأصول والمبادئ الثلاثة التي قامت عليها تعاليم التوراة المبنية على أساس نعمة الله الكاشفة أستار القلوب، والإختيار المُشَبَّق، والتقريب إلى الله، التي هي كلها من صميم خبرة الأنبياء العملية. وفي إنجيل يوحنا نجد أن الفاعل في هذه الثلاثة المبادئ: المعرفة، والإختيار، والتقريب، هو المسيح.

٨ - رؤية الله:

و«المعرفة» في مفهومها الإلهي الجديد في العهد الجديد تنحصر في شخص المسيح أساساً وتفرعاً. فالمسيح هو الوحيد الذي يعرف الله والآب: «الله لم يَرَهُ أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو ١ : ١٨)؛ «أنا أعرفه لأنني منه وهو أرسلني» (يو ٧ :

(٢٩)؛ «الآب يعرفني وأنا أعرف الآب.» (يو ١٠ : ١٥)

ونحن لا يمكن أن نعرف الله الآب إلا بواسطة المسيح، لأنه بدون الابن لا يمكن أن يُستعلن الآب: «لا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يُعلن له.» (متى ١١ : ٢٧)

فالمسيح، وخاصة في إنجيل يوحنا، هو المصدر الأساسي لمعرفة الله في ذاته، ولكن بالمسيح يسوع وفي المسيح يسوع، وإلا استحال التعرف على الله: «هذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧ : ٣). هنا إضافة «يسوع المسيح الذي أرسلته» التي يعتبرها كثير من الشراح النقيدين أنها زائدة ومضافة، هي في الحقيقة قلب الآية النابض ومفتاح سرها الوحيد. فإنه بالرب يسوع المسيح استُعلن الله الآب، الأمر الذي كان مغنياً مدى الدهور كلها وعلى جميع الآباء والأنبياء والقديسين في العهد القديم. فهو وحده الوسيط لمعرفة الآب: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ١٤ : ٧). بل ويفتح المسيح المجال للإنسان — ولأول مرة في تاريخ الإنسان — ليرى الله بواسطة يسوع المسيح: «الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو ١٤ : ٩)

هنا اقترنت «معرفة الله» بـ «رؤية الله»، هذا اصطلاح هلميني تصوُّفي، أي يوناني صرف. فالرؤيا *theoria* ليس لها مكان في التقوى اليهودية، والعهد القديم لم يذكرها إلا في حيز ضيق جداً وليس كخبرة عامة مفتوحة للإنسان، فرؤية الله ليست اختباراً روحياً أو دينياً. فاليهودية الأرثوذكسية التقليدية تقرر أن رؤية الله مستحيلة على الإنسان في هذه الحياة: «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣ : ٢٠). إنما هي من الموهوبات والبركات المحفوظة للإنسان في الدهر الآتي.

فن أين أتى بها إنجيل يوحنا وعلى أي أساس؟

إنجيل يوحنا يعيش الدهر الآتي من بادئ بدئه حتى نهايته! لما قالت مرثا للمسيح أنها تؤمن أن أخوها لعازر سيقوم في اليوم الأخير استنكر عليها المسيح ذلك، وهو واقف أمامها، قائلاً: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١ : ٢٥)!

فالدهر الآتي استُعلن في المسيح بصفته أنه هو الحياة الأبدية، فالحياة الأبدية ذاتها أظهرت في المسيح، بحسب القديس يوحنا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ يو ١ : ٢). على أن المعيار التقليدي للعهد القديم وهو «أن الله لا يراه الإنسان ويعيش» محفوظ: «الله لم يَرَهُ أَحَدٌ قط (ولكن) الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو

خبر» (يو: ١٨). إذن، لواحد فقط قد صارت وتمت رؤية الله: «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله هذا قد رأى الآب.» (يو: ٦: ٤٦)

إذن، فالمسيح والمسيح وحده هو الذي أُعطيت له معرفة الآب ورؤيته رؤية الذات للذات، والمثيل للمثيل!!! وهذه المعرفة التي هي بعينها رؤية الله قد وهبها لنا المسيح في ذاته «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو: ١٤: ٩). هذا هو جوهر الإيمان المسيحي: «فنادى يسوع وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو: ١٢: ٤٤ و٤٥). وهذا يقرره القديس يوحنا منذ بدء إنجيله: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لوحيده من الآب.» (يو: ١٤)

الفصل الخامس

الخطية والخلاص

أ — الخطية

«الخطية» عند القديس بولس الرسول:

لقد انتهى القديس بولس الرسول إلى هذا القرار اللاهوتي: «لأنه بأعمال الناموس، كلُّ ذي جسد لا يتبرَّر أمامه. لأنَّ بالناموس معرفة الخطية» (رو ٣: ٢٠)؛ مضافاً إليه: «فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يَقلِّ الناموس لا تَشْتِه» (رو ٧: ٧). لذلك فالخطية هي التعدي.

فالناموس عرَّفنا بـ «الخطية»، بل أوْجَدَها في الذهن والضمير وحددها وضخَّمها لتبدو خاطئة جداً، ثم أوْجَدَ لها العقوبات والموت. وفرض الناموس ذاته على الإنسان، وبذلك صار العالم كله سواء الذي هو في الناموس أو الذي بلا ناموس تحت قصاص من الله: «ونحن نعلم أن كل ما يقول الناموس فهو يكلم به الذين في الناموس، لكي يستند كل فم و(بالتالي) يصير العالم كله تحت قصاص من الله.» (رو ٣: ١٩)

«الخلاص» عند القديس بولس الرسول:

«وأما الآن فقد ظهر بَرُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس (موسى في التجلي والتوراة) والأنبياء (إيليا في التجلي، وبصفته أقوى الأنبياء، وبصفته الحاضر بروحه في يوحنا المعمدان)؛ بَرُّ الله بالإيمان يسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق (بين يهودي وأمي) إذ الجميع أخطأوا وأغْوَرَّهم مجد الله. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي يسوع المسيح الذي قدمه الله كفَّارة بالإيمان بدمه لإظهار بَرِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله.» (رو ٣: ٢١-٢٥)

«الخطية» في إنجيل القديس يوحنا:

إنجيل يوحنا يقسم الناس إلى:

— رُوحِيون مولودون «من فوق»، «من الله»، يستمدون حياتهم وأفعالهم من الروح من فوق أي من الله:

ἐκ τοῦ Θεοῦ (يو: ٨: ٤٧) = ἐκ τῶν ἄνω (يو: ٨: ٢٣)

— أرضيون «من الأرض» يستمدون حياتهم وشهواتهم من العالم أي «من أسفل»:

ἐκ τοῦ κόσμου (يو: ٨: ٢٣ ؛ ١٩: ١٥) = ἐκ τῶν κάτω (يو: ٨: ٢٣)

«فقال لهم أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم أما أنا فليست من هذا العالم. فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم.» (يو: ٨: ٢٣ و ٢٤)

ثم عاد الإنجيل يوضح هذا المبدأ أكثر «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو: ٣: ٣١)

وهكذا فالمسيح يحاصر الخطية ليس في ذاتها ولكن في الإنتاء إلى مصدرها، جاعلاً إرادة الإنتاء هي التي تحصر الخاطيء وتصبغه بالخطية.

والإنتاء بالنسبة للإنسان يكون إما إلى فوق إلى السماء، إلى الروح، إلى الله؛ أو إلى أسفل، إلى الأرض، إلى الجسد، إلى الشيطان.

وهذا التقسيم يوضحه الإنجيل أنه ينطبق أيضاً على التلاميذ «أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم، لأنهم ليسوا من العالم كما أنا لست من العالم.» (يو: ١٧: ١٤)

وهكذا فإرادة الإنسان في نوع الإنتاء هي التي تفتح للخطية لتدخل أو تغلق في وجهها الباب.

وهذا الإنتاء عينه هو الذي يقرر ويحدد نوع التعامل مع الله، وبالتالي نوع السلطان المعطى من الله للرسول ثم للكنيسة، من جهة التعامل مع الخطية. فإذا أظهر الخاطيء انتاءه بالإعتراف وشهادة الضمير وبالفعل أنه أبغض الخطية ولم يَعد ينتمي إلى مصادرها، فإنه ينال الجِلِّ منها أو الفِكَاك عنها أو المغفرة لها (والمغفرة كلمة عبرانية الأصل تفيد معنى التغطية أو النسيان)، وإلا فإنها تُربط ويُقفل عليها وتُمسك:

إنجيل القديس يوحنا: «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياهم تُغفر له وَمَنْ أُمسكتم خطاياهم أُمسكت.» (يو: ٢٠: ٢٢ و ٢٣)

إنجيل القديس متى: «وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكلُّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات.» (مت ١٦ : ١٩)

ومعروف أن هذا السلطان هو أصلاً سلطان المسيح نفسه الذي تنبأ عنه إشعياء النبي:
— «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه فيفتح وليس مَنْ يغلق، ويُغلق وليس مَنْ يفتح.»
(إش ٢٢ : ٢٢)

هذا السلطان أعطاه المسيح للكنيسة، وما بيت داود إلا الملكوت عينه.

والفتح والغلق أوضحه المسيح أنه بخصوص حق الدخول إلى الحظيرة، أي الكنيسة، أي الملكوت:

— «الحق الحق أقول لكم: إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف لهذا يفتح البواب... أنا هو الباب...» (يو ١٠ : ١-٣ و ٩)

لذلك يعود القديس يوحنا في رسالته ويجعل الإنتماء أشد انحصاراً وأقوى وضوحاً: «أيها الأولاد لا يضلُّكم أحد، مَنْ يفعل البر فهو بارٌّ كما أن ذاك بارٌّ. مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطيء. لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس. كلُّ مَنْ هو مولود من الله لا يفعل الخطية لأن زرعته (بذرة الحياة الجديدة) يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله.» (١ يو ٣ : ٧-٩)

أولاً يُلاحظ أن كلمة «مولود من الله» تفيد في النص اليوناني حالة الديمومة والاستمرار، فهو وُلد (بالمعمودية وبالروح) ولا يزال قائماً في حالة الولادة من الله كإبن بالتبني بالنعمة. وهنا إشارة إلى الإنتماء الكلي والدائم إلى فوق والسماء والروح والله. أي لا يزال يتبع قيادة الروح وتأثيره. ويعلق العلامة أثيناغوراس^(١) على هذه الديمومة قائلاً: [هم المسيحيون الذين صار عندهم الإحساس بالله أنه هو المثل والمستوى الأعلى للحياة].

أما المعنى أن «المولود من الله لا يستطيع أن يخطيء»، فهو يعود مباشرة إلى المعيار اللاهوتي لإنجيل يوحنا في أن ابن الله والشيطان نقيضان يستحيل بأي صورة أن يتفقا أو يتقابلا، وبالتالي أبناء الله المولودون من الله في المسيح وبالروح القدس يستحيل أن يتفقا أو يتقابلا مع الخطية التي

¹ Leg. pro. Christ c. 31, cited by Westcott: The Epistle of St. John, p. 107.

هي عمل الشيطان، طالما أن ولادتهم من الله حية وعاملة ومتصلة. حيث يستحيل عليهم عمل الخطية بصورة طبيعية نابعة من كيانهم الروحي، ولكن تأتي بصورة عارضة غريبة مدسوسة. حيث لا تمس الخطية كيان الإنسان الجديد أو جوهره الروحي. «نعلم أن كل مَنْ وُلِدَ من الله لا يخطيء، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يحسه.» (١ يوح ٥: ١٨)

هنا تأتي مواجهة المسيح لليهود باعتبارهم منتمين للشيطان لأنهم أضمرُوا قتل المسيح بإصرار وبشهوة شيطانية: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب.» (١ يوح ٨: ٤٤)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا بين الخطية والشيطان مصدرها الأول، حيث يرى في عمل الخطية ليس انتماءً فقط للشيطان بل خضوعاً له، حيث يفقد الإنسان حرية الاختيار فيصير عبداً للخطية مُساقاً بالقوة الشريرة: «الحق الحق أقول لكم: إن كلَّ مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية.» (١ يوح ٨: ٣٤)

لذلك حرص الإنجيل أن يوضح أن المسيح في هذا المجال عينه لم يعمل خطية واحدة!! «مَنْ منكم يبغتي على خطية؟» (١ يوح ٨: ٤٦) هذا هو مستوى المسيح القدوس ابن الله؛ إذن فهو حرٌّ من الخطية لذلك فهو قادر أن يبرّر ويحرر من الخطية: «فإن حررّكم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (١ يوح ٨: ٣٦)

والمسيح لا يتعامل مع الخطية وحدها بل ومع مصدرها. فالمسيح أساساً ليس مديناً للشيطان بشيء قط: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء.» (١ يوح ٤: ٣٠)؛ لذلك استطاع أن يدحره ويدينه: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (١ يوح ١٢: ٣١)

ب — الخلاص

الخلاص في إنجيل يوحنا:

واضح أن الأساس المبني عليه إنجيل يوحنا هو «مجيء ابن الله» من «فوق» من عند الآب حاملاً رسالة الخلاص العظمى التي أعدّها الله لخلاص العالم، وفي الحال ومنذ بدء الإنجيل أعلن عن هذه الرسالة التي حملها الإبن الوحيد: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (١ يوح ٣: ١٦)

وكان أول تعليم عن الخلاص قُدِّمه المسيح هو الكشف عن أن خلاص الإنسان سيكون من نفس الباب والطريق الذي جاء منه المخلص، مخاطباً به الناموس ممثلاً في معلمه نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله... المولود من الروح هو روح. لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق.» (يو ٣: ٣-٧)

وهكذا فتح المسيح الباب للخاطئ لينتمي إلى فوق، وأعد له الطريق بالفداء بالجسد على الصليب ثم القيامة ثم الصعود لينتقل انتفاء الإنسان نهائياً من أسفل إلى فوق، من الأرض إلى السماء ليصير مع المسيح كالمسيح: «(هؤلاء) ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم... بل (أسأل أن) تحفظهم من الشرير» (يو ١٧: ١٤ و١٥)، أما بعد العالم: «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو ١٧: ٢٤)

لقد أحكم المسيح طريقة الخلاص ووثّقها بالروح القدس وختمها بختم الآب، عندما وهب الذين يؤمنون به أن يصيروا أولاد الله ليكونوا في حمى القدير إلى الأبد: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو ١: ١٢)، «خرافي... لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي.» (يو ١٠: ٢٧-٢٩)

وهكذا نقل الله الإنسان هذه النقلة الخلاصية العظمى، بدم ابنه، من عبودية العالم والخطية والشيطان إلى أولاده الأخصاء المحبوبين. وهكذا نقلهم من اللعنة الأولى إلى بَرِّ الله الأبدي.

+ فبالميلاد من الماء والروح في إنجيل يوحنا تم للإنسان خلقة روحية جديدة، بها حصل الإنسان على شهادة ميلاد سماوي موثقة بالروح القدس ومختومة بختم الآب وعليها صورة الابن.

+ وبالإفخارستيا - في إنجيل يوحنا - عَصَّدَ المسيح الإنسان المولود من فوق - بخبز وخرم - طعام السماء خبز الحياة، قوام الطبيعة الجديدة للإنسان الجديد. وهو في نفس الوقت (ترياق عدم الموت) عند الآباء antidote أي دواء عدم الموت. «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (يو ٦: ٥٠). [يُعطى لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه - القديس].

+ وتقنين العبادة في إنجيل يوحنا «بالروح والحق»: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). هذا بمثابة سلاح المؤمن للخلاص للمحاربة ضد

+ والغلبة عند القديس يوحنا ضد العالم هي في سِرِّ الإيمان بالله: «لأن كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماناً، من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١ يوه: ٤ و٥)

فالإيمان بابن الله هو تذكرة سفر مختومة عليها الختم الملكي نخرج بها من العالم غير مديونين له بشيء: «الذي يؤمن به لا يُدان.» (يو٣: ١٨)

+ في إنجيل يوحنا يقدم لنا المسيح نفسه نوراً للطريق كقوة داخلية بالكلمة الحية التي هي زاد الطريق، طريق الخلود المنير المؤدي إلى الحياة الأبدية.

+ وعند القديس يوحنا، كلُّنا خطاة تحت الاعتراف: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١ يوه: ٨ و٩)؛ «إن قلنا أننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا» (١ يوه: ١٠)؛ «وادم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١ يوه: ٧)

فالاعتراف بالخطية عند القديس يوحنا هو التطهير الدائم.

+ وأخيراً يمنح إنجيل يوحنا الذين يعترفون باسم المسيح متقبّلين الإضطهاد والألم والموت، وسام الزمالة في آلام الصليب ومعه فيزا للإقامة الدائمة مع الرب وكرتاً أخضراً للمواطنة السماوية الدائمة:

— «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي...» (يو١٥: ١٨ و٢٠ و٢١)
— «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو١٧: ٢٤)

الفصل السادس

المحبة والاتحاد بالآب والإبن

أ — المحبة في إنجيل يوحنا

المحبة ἡ ἀγάπη

فعل المحبة ἀγαπῶ, τὸ ἀγαπᾶν

فعل المحبة أو الصداقة φιλῶ, τὸ φιλεῖν

المحبة، المحبوب، الحبيب:

هناك فرق بين «الأغابي» ἡ ἀγάπη و«الفيلين» τὸ φιλεῖν في اليونانية. فالمحبة «أغابي» هي محبة قوية، وفيها إحساس بالوقار والتعقل. و«الفيلين» هي محبة أقوى وأكثر تقرباً.

وقد وردت هاتان اللفظتان للمحبة في نهاية إنجيل يوحنا (٢١ : ١٥ و ١٧) حينما بادر المسيح بسؤال بطرس مرتين: «يا سمعان بن يونا أتحبني ἀγαπᾶν أكثر من هؤلاء؟»، ولكن بطرس يصمم في رده أنه يحبه حباً أقوى وأكثر (من هؤلاء) (φιλεῖν).

وعاد المسيح لثالث مرة يسأله، ولكن باستخدام فعل المحبة الذي استخدمه بطرس نفسه φιλεῖν وكأنه يراجع على التصادي في التعبير عن حبه! وحينئذ حزن بطرس لأنه سأله ثلاث مرات وكأنه يُذكّره بالإنكار ثلاث مرات يوم المحاكمة!

ولكن يقول بعض الشراح أن العكس هو الصحيح حيث «الأغابي» أعلى قدراً في التعبير عن الفيلين. وأن ردّ القديس بطرس كان في انضاع إذ احتشم أن يستخدم الأغابي لعلوها عن قدره بالنسبة للمسيح. وهذا هو الأصح في نظر معظم علماء اللغة خصوصاً وأن إنجيل يوحنا قد أعلن أن «الله محبة» ἀγάπη (١ يوحنا ٤ : ٨)؛ وأن الله أحب (ἐγάπησεν من فعل : ἀγαπᾶν) العالم هكذا

(يو ٣: ١٦) أي بهذا المقدار العالي جداً؛ وأن يوحنا نفسه هو التلميذ الذي كان يحبه (ἀγάπα) يسوع (يو ١٣: ٢٣).

والحبة (الأغابي) في لاهوت إنجيل يوحنا هي حبة تلقائية غير واجبة أو ملزمة، أي موهوبة دائماً؛ وهي فريدة وهي خالقة أو خلّاقة، بمعنى أنها تخلق حبة أيضاً. وهي أصلاً تفيض من الله لأنها من طبيعته ثم لا تعود إليه فارغة، بل تعبّد طريقاً لحاملها للوصول إلى الله للإلتصاق به ونوال المزيد منه لمحبة الآخرين بسخاء يفوق طبيعة البشر، والتي بدورها تؤثر في أقسى القلوب. وهي إذا سكنت القلب أنشأت فيه الحيرة والقلق إلى أن تنجح في التعبير عن نفسها بالعمل. وهذه الطبيعة للمحبة مأخوذة عن الله نفسه، فحبة الله لم تستطع أن تنغلق على نفسها فيه فانطلقت في ميعادها المحتم لتعبّر عن ذاتها في الله «هكذا أحب الله العالم حتى بذل...» (يو ٣: ١٦)

كذلك هي التي في المسيح قد ساقته بقوتها التي لا تهدأ ولا تكفّ حتى أوصلته إلى الصليب لتكميل الفدية؛ بل هي التي أقامته من الموت إلى الحياة لأنها لا تعيش في الموت؛ بل هي ذاتها الحياة وجوهرها، والتي انطلقت من قيامته لتفيض قوة قيامة لكل من احتواها وملكها: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١ يو ٣: ١٤). وهكذا فهي التي توصّل إلى الموت: «ليس لأحد حبّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣)، وهي نفسها التي تقيم من الموت إلى الحياة!!

ولكن ينبغي أن نحترس أثناء التفريق بين «الأغابي» و«الفيلين» لأن كلا منها يتبادل المواقع محل الآخر في إنجيل يوحنا: فالآب يحب الابن (ἀγαπᾷν) (يو ٣: ٣٥)؛ وأيضاً الآب يحب الابن (φιλεῖν) (يو ٥: ٢٠)، مع الملاحظة أن الأغابي والفيلين هما الإثنان من أصل واحد عبري «أحب» «'āhabh»، وكلاهما يُستخدم في الحالات الصالحة وفي الحالات الرديئة المنحطة ولا حكم لأدب اللغة فيها. فإنسان يحب الله (ἀγαπᾷν) (١ يو ٤: ٢١)، وإنسان آخر يحب الظلمة (ἀγαπᾷν) (يو ٣: ١٩).

وإنجيل يوحنا بمجملته يُطلق عليه إنجيل المحبة، وكاتبه هو التلميذ الذي يحبه يسوع أو يوحنا الحبيب حسب التقليد الكنسي الموروث، وآخر وصية قدمها القديس يوحنا لشعبه في كنيسة أفسس: «أيها الأولاد أحبوا بعضكم بعضاً»، وأعمق آية كتبها القديس يوحنا في حياته هي «الله محبة».

القديس بولس الرسول يقدم المحبة على الإيمان في الوزن الروحي، ويقول إنه لو كان له إيمان

ينقل الجبال وليس له محبة فهو عديم النفع؛ وأنه لو كانت له معرفة كل الأسرار وكل علم ولكن بدون محبة فهو كلاً شيئاً، ثم يعود القديس بولس الرسول ويصالح الإيمان بالمحبة ليجعل منها ناموس المسيح الجديد ليحل محل ناموس العمل بحسب ناموس موسى. «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥ : ٦). وهكذا يؤمن القديس بولس الرسول إنجيل المسيح من الإنحراف، فلا العمل وحده ولا الإيمان وحده ولا المحبة وحدها بل: «الإيمان العامل بالمحبة»!!! كثالوث متحد يجمع كل وصايا الإنجيل.

أما القديس يوحنا فعنده أن غياب المحبة يعني غياب الله لأن الله محبة. وأخطر ما يهدد المعرفة أو العلم هو فقدان عنصر المحبة الباذلة: «كل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. وَمَنْ لَا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (١ يوحنا ٤ : ٧ و٨). فأساس معرفة الله عند القديس يوحنا هو انفتاح القلب بوعي روحي لتقبل محبة الله والرد عليها، على شكل تكليف بأعمال وإنجازات: «يا سمعان بن يونا أحبني... ارفع غنمي.» (يوحنا ٢١ : ١٦)

فالمحبة في الفكر الإلهي هي «فعل بذل». «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد...» (يوحنا ٣ : ١٦)، «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يوحنا ١٥ : ١٣)

وهذا ترجمه القديس بولس الرسول لنفسه بشعور صادق مؤثر للغاية: «أحبنى وأسلم نفسه لأجلي.» (غل ٢ : ٢٠)

ويصيفها المسيح في سر الألوهة هكذا: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي...» (يوحنا ١٠ : ١٧)

والله سباق محبة، صاحب مبادرة في الحب منذ الدهر وليس أحد في الوجود إلا ومدينٌ لله بالمحبة: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١ يوحنا ٤ : ١٩)

وأكثر ما يأسر قلب الإنسان حينما يتوب ويعي حقيقة عمل الله معه هو إحساسه بالمحبة الإلهية التي اشتراه بها المسيح على الصليب. هذا السر يدركه الخطاة الذين غالوا جداً في خطاياهم وفاجأهم المسيح وهم في الوحل، حينئذ لا يهناً قلبهم المشتعل والمتمثل بدين الحب إلا أن يقدم المشيل: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١ يوحنا ٣ : ١٦)

والقديس يوحنا، كخبير في الحب الإلهي، يعرف أن الحب هو «الحق» = أليثيا ἡ ἀλήθεια

في التعامل مع الله. فحب الله ينبغي أن يؤمن عليه ضد كل غش أو خداع أو كذب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل و، الحق،... ونسكن قلوبنا قدامه» (١ يوحنا ٣: ١٨ و١٩). وكان القديس يوحنا يريدنا أن نعتبر الله واقفاً أمامنا يفحص محبتنا على قياس الحق ويلزمنا أن نقيس محبتنا على محبته!

والمسيح في إنجيل يوحنا يقرر أن دخولنا في محبة الآب يلغي عبوديتنا، باعتبار أن المقابل للعبد في إنجيل يوحنا ليس الإبن فقط بل والمحبوب! «لا أعود أسميكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحبباء لأنني أعلمتكم بكل (الحب) ما سمعته من أبي.» (يوحنا ١٥: ١٥)

ب — الإتحاد بالله

أو وحدة الشركة مع الآب والإبن في إنجيل القديس يوحنا

حينما قال المسيح: «أنا والآب واحد» (يوحنا ١٠: ٣٠)، كان هذا تعبيراً ضمناً عن قوة الوحدة الإلهية القائمة في الطبيعة الإلهية والفعالة في الكون كله، حتى أصبح الكون قائماً على تآلف العناصر وشدة اتحادها، خاصة في مكونات ذراتها. هذه الوحدة أو هذا الإتحاد البالغ منتهى القوة والارتباط هي التي تعطي للعناصر أشكالها وألوانها وللطبيعة صفاتها ومظاهرها — ويكفي أن نعلم أنه حينما نجح الإنسان في فك وتحطيم هذا التآلف وهذه الوحدة الجبارة في «الذرة»، أنتج القنبلة الذرية، فإن كانت قوة الفك بهذا المقدار فإذا تكون قوة التجمع؟؟

ثم إن قوة هذه الوحدة القائمة في الذرة يرتقي مفعولها في الإنسان الطبيعي لتؤلف بين الإنسان والإنسان، ثم ترتقي لتؤلف بين الإنسان والله! فإن كان العالم الطبيعي قائماً ومتأسساً على قوة الوحدة أو الإتحاد أو التآلف، فالعالم الإنساني الأكثر ارتقاءً لا يزال أيضاً يقوم ويتأسس على قوة هذه الوحدة التي تؤلف بين الأفكار والعواطف والعادات والقلوب. كذلك فالعالم الروحي الأكثر ارتقاءً هو يقوم أيضاً ويتأسس على قوة هذه الوحدة المنبعثة من الله، وهي لا تزال تعمل في الإنسان حتى يبلغ الإنسان منتهى قصد الله من نحوه أي حينما يدخل الإنسان في شركة الحياة مع الله، حيث يكون الله صاحب المبادرة في هذا الجذب والتهديب والتقديس لبلوغ هذه الوحدة فيه أو معه، هذه الوحدة التي كانت عند المسيح محور عمله، وأساس إرساليته، ومنتهى رجائه، وصلواته! «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فني وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يوحنا ١٧: ٢١)

لينتبه القارىء! فليس من فراغ نحن نطلب الاتحاد مع الله أو هو تعالى أو طلب ليس من حقنا بل هذا هو عمل الله بالأساس، وهو قد صار من صميم حق الإنسان حينما فداه المسيح وقَدَّسه وأَقَلَّه للاتحاد به. فالوحدة، أو الاتحاد مع الله، هي جوهر رسالة المسيح ومحور تعليمه وعلة موته ورجاء قيامته ومشغولية شفاعته الآن لدى الآب عن ضعفنا.

اسمع القديس يوحنا كيف يبدأ رسائله بهذا الهدف الواحد والقصد الأساسي وعلة شهادته وغاية كرازته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا (مع الرسل)، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا (الخبر السار) لكي يكون فرحكم كاملاً» (١ يوحنا: ١ و٣ و٤). وهكذا لن يكمل فرح الإنسان ويدوم له إلا إذا بلغ هذه الشركة التي بلغها الرسل وعاشوها وكرزوا بها! بل هي أيضاً تأمين حفظ الإنسان من جذب العالم الشديد وإغراء الشيطان المحتال. لأن بها يمسك الإنسان بالله، بل ويمسك الله بالإنسان فلا يستطيع أن يخطفه أحد: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية (من حياتي) ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (كل قوة شريرة) ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد.» (يوحنا: ١٠: ٢٧-٣٠)

القديس بولس الرسول يرى أن سر الاتحاد بينه وبين الآب والإبن هو المستعلن بالحب - حب الله الجاذب - الذي لا تقوى على حل رباطه أية قوة مهما بلغ عتوها في السماء والأرض: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُزِّي أم خطر أم سيف؟... في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا! فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلية ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.» (روما: ٨: ٣٥-٣٩)

هكذا يوضح القديس بولس الرسول، كما القديس يوحنا الرسول أيضاً، أن سر قوة الاتحاد أو الوحدة مع الله قادم إلينا ومنسكب علينا وفعل فينا من قبل الله نفسه. فالحب هو حب الآب في المسيح نحونا: «ليكون فيهم الحب الذي أحببني به» (يوحنا: ١٧: ٢٦)، فهو حب غالب وقهار.

ثم لكي نثبت للمقارىء أن هذه الوحدة التي نبتغيها أي الاتحاد مع الآب والإبن هي عمل المسيح وشغله الشاغل نقدم هذه الآيات المختارة:

- «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا اثبتوا في محبتي.» (يوحنا: ١٥: ٩)
- «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أنني أنا حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته.»

(يو ١٥ : ١٠)

— « كل ما للآب هولي لهذا قلت إنه (أي إن الروح القدس) يأخذ مما لي ويخبركم. »

(يو ١٦ : ١٥)

— « الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت. » (يو ١٦ :

٢٧)

— « الكلام الذي أعطيتني، قد أعطيتهم. » (يو ١٧ : ٨)

— « كل ما هولي فهولك. وما هولك فهولي وأنا ممجد فيهم. » (يو ١٧ : ١٠)

— « أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن. »

(يو ١٧ : ١١)

— « لست أسأل من أجل هؤلاء (التلاميذ) فقط بل من أجل كل الذين يؤمنون بي بكلامهم،

ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا. »

(يو ١٧ : ٢٠ و ٢١)

— « وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. » (يو ١٧ : ٢٢)

— « أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد. » (يو ١٧ : ٢٣)

ربما يقتنع القارئ الآن أن الاتحاد بالله أو شركة الوحدة مع الآب والإبن هي محور إنجيل يوحنا وقضية الخلاص والحياة الأبدية التي جاء المسيح ليعلمها باسم الآب. وآخر آية استشهدنا بها «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد» هي خلاصة هذا السر الخطير الذي استعلنه إنجيل يوحنا للعالم، أي أن الجوهر الإلهي الذي يجمع الآب بالإبن في ذات واحدة هو هو القوة التي تجمعنا فيها بالنعمة. وهو نفسه السر المكتوم منذ الدهور الذي أعلنَ لرسله القديسين بالروح حسب قول القديس بولس الرسول: «إنه بإعلان عرّفني بالسر... الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدر أن تفهموا دراتي بسر المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرّف به بنو البشر كما أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث (ميراث المسيح الإبن في الآب) والجسد (جسد المسيح الواحد ونحن أعضاء فيه) ونوال مواعده (الحياة الأبدية مع الله) في المسيح بالإنجيل. » (أف ٣ : ٣-٦)

والإنسان — أنا وأنت وكل من يؤمن ويحب الرب يسوع المسيح — مدعو في هذا السر المعلن بالمسيح والقائم في المسيح لحسابنا، لكي يكون شريكاً في مجد المسيح وفي المحبة الإلهية التي هي صفة الوحدة ومجالها الفعال في الآب بالإبن. فجوهر الوحدة الإلهية وقوة الحب الإلهي المذخر في الآب والإبن أصبحت فعّالة فينا بالمسيح.

أما مجمل صلاة المسيح للآب فيما يختص بهذه الوحدة التي تجمعنا في المسيح والآب فهي كالآتي:

أ - أن تنفتح بصيرة الإنسان ليعرف هذا السر القائم بين الآب والإبن، لأنه بهذه المعرفة الإلهية توّث الحياة الأبدية التي هي في حقيقتها شركة حياة مع الله.

ب - أن تنسكب قوة المحبة التي بين الآب والإبن في قلوب الذين أحبوا المسيح والآب لتستعلن بها أسس الوحدة أو الشركة مع الله.

ج - أن يحفظ الآب في اسمه كل الذين يؤمنون بالمسيح. أي يحفظهم من العالم ومن الشرير ويقدهم في الحق بكلمته ليصيروا من خاصته ويؤهلوا للإتحاد به.

د - أن تشمل المؤمنين باسم الآب والمسيح وحدة داخلية تربطهم بالآب والإبن، على أساس أن حلول المسيح فيهم يؤهلهم للإتحاد بالآب كما أن الآب حائل في المسيح. وبهذا ينتقل الإنسان نقلته العظمى ليعيش مع الله في وحدة غير منفصلة بعد.

على أن لا ننسى أن سر إتحاد الإنسان بالله قائم أساساً على القوة الإلهية التي جعلت «الكلمة صار جسداً». فإتحاد اللاهوت بالناسوت في وحدة غير منفصلة هو هو الذي صار أساس الإتحاد في الاتجاه العكسي، أي إتحاد الإنسان بالله. غير أن الأول إن كان تنازلاً إلهياً لم يفقد فيه الإبن شيئاً من لاهوته، فالثاني إرتقاء بشري يتحتم أن يفقد فيه الإنسان العبد إنسانيته العتيق لينال امتياز التبني لله!

الباب الرابع

المفاهيم اللاهوتية الأساسية

في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول

النظرة اللاهوتية إلى المسيح وعلاقته بالله الآب

ألقاب المسيح كما جاءت في الأصحاح الأول وما بعد ذلك:

إذا تمعنا في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا فإننا نندهش من عدد الألقاب التي وضعها القديس يوحنا في هذا الحيز الصغير من الإنجيل. ولكن إذا أدخلنا في الاعتبار الاتجاه المسيحي واللاهوتي الذي هو مقصد الإنجيل الأساسي، وفحصناها من جهة ترتيبها وصلتها ببعض وخلفيتها، حينئذ نزداد عجباً من عمق هذا الإنجيل.

وهي كما جاءت وبحسب ترتيبها كالاتي مرقمة بالأعداد في الأصحاح الأول:

«الكلمة» في الأعداد ١ و ١٤ .

«إله» في العدد ١ .

«الحياة والنور» في الأعداد ٤ و ٥ و ٩ .

«الوحيد» ὁ μονογενής في الأعداد ١٤ و ١٨ .

«الإبن الوحيد» في العدد ١٨ .

«حَمَلَ الله» في الأعداد ٢٩ و ٣٦ .

«ابن الله» في الأعداد ٣٤ و ٤٩ .

«المسيّا» في العدد ٤١ .

«ملك إسرائيل» في العدد ٤٩ .

«ابن الإنسان» في العدد ٥١ .

وبالإضافة إلى هذه الألقاب يوجد أوصاف أخرى يمكن إلى حد ما اعتبارها ألقاباً، وفي نفس

الوقت هي تشير إلى وظيفة من وظائف المسيا الهامة، مثل:

«الذي يأتي بعدي» في الأعداد ١٥ و ٢٧ و ٣٠.

«الذي هو قبل المعمدان» في الأعداد ١٥ و ٣٠.

«الذي هو في حضن الآب» في العدد ١٨.

«الذي يعقد بالروح القدس» في العدد ٣٣.

أما بقية الألقاب والصفات التي تقوم بوظيفة لاهوتية أو ليتورجية والتي تُحسب أيضاً كلقب في باقي الإنجيل وقد وردت معانيها في مواضعها في الشرح، فيمكن تلخيصها كالآتي:

«المعلم والسيد»	في يو ١٣: ١٣	لقب تأكيد من فم المسيح نفسه.
«ربي وإلهي»	في يو ٢٠: ٢٨	اعتراف استعلائي بالروح من توما.
«مخلص العالم»	في يو ٤: ٤٢	اعتراف أهل السامرة وهو اعتراف عام هام.
«المسيح ابن الله الحي»	في يو ٦: ٦٩	لقب مسياني خالٍ من المعنى السياسي أو المادي.
«إني أنا هو εγω εμι»	في يو ٨: ٢٤	ومواضع أخرى كثيرة إشارة إلى لاهوته وبنوته لله.
«الإبن»	في يو ٥: ١٩	أي أنه الإبن، وأن الله أبوه، وأنه كائن قبل إبراهيم.
«خبز الحياة»	في يو ٦: ٣٤ و ٤٨	لقب ليتورجي وروحي.
«الخبز النازل من السماء»	في يو ٦: ٥١	لقب ليتورجي استعلائي للمسيح في العهد القديم.
«نور العالم»	في يو ٨: ١٢	لقب استعلائي.
«الراعي الصالح»	في يو ١٠: ١١ و ١٤	لقب كنسي.
«الباب»	في يو ١٠: ٧	لقب لاهوتي خلاصي.
«الطريق»	في يو ١٤: ٦	لقب لاهوتي خلاصي.
«القيامة والحياة»	في يو ١١: ٢٥	لقب أخروي «إسكاتولوجي».
«الكرمة الحقيقية»	في يو ١٥: ١	لقب سرانري يحمل شكل الكنيسة، وواقعها وشعب الله والمسيح.

ولكن بالعودة إلى ألقاب الأصحاح الأول نجد أنه ليس جزافاً اهتم القديس يوحنا أن يكّس هذه الألقاب في هذه المقدمة لإنجيله، فهي تكشف عن غرض ذي أهمية، ويكاد أن يكون لكل لقب سبب في موضعه. ففي آية: «(في البدء كان، الكلمة،)،» يفيد موضع لقب «الكلمة» سبق

الوجود والكيان للترفع بالمسيح عن مستوى المخلوقات؛ «والكلمة كان عند الله» يفيد موضعها نسبة المسيح لله، لأنه إذا لم يكن ينتسب إلى المخلوقات فلمن ينتسب؟ - ثم «وكان الكلمة الله» يفيد موضعها طبيعته. فإذا كان الكلمة ينتسب إلى الله فما هي طبيعته؟ لذلك فإن ورود «الكلمة»، كلقب للمسيح في الثلاثة المواضع يفيد التعريف بالمسيح قبل التجسد. ولكن ماذا كان عمله؟ هنا يستعلن الإنجيل علاقة «الكلمة» بالخلق، حيث يكشف عن جوهر الكلمة الفعّال في الخليقة «حياة ونور». ثم ينتقل من سبق الوجود إلى الوجود الظاهري: «والكلمة صار جسداً»، فهنا يكتمل استعلان «الكلمة» بالنسبة للإنسان «حلّ بيننا».

+ الوحيد ὁ μονογενής (١٤:١):

جاءت هنا للتوضيح بسبب ذكر «المجد» الخاص بالمسيح «الكلمة المتجسد»، فلأن كل الخلائق السماوية ذات مجد هنا أراد القديس يوحنا أن يخص «الكلمة المتجسد» بمجد خاص جداً ومرتفع للغاية فهو مجد «وحيد من الآب» حيث تترجم صفة «وحيد» في التراث العبري بالإبن أو بالمحبوب ἀγαπητός سواءً بسواء، أو حتى تفيد الإبن المحبوب. هكذا وردت في الترجمة السبعينية: «خذ ابنك حبيبك τὸν ἀγαπητόν» (مقابل «وحيدك» في الأصل العبري) الذي تحبه» (تك ٢٢:٢). فلقب «الوحيد» جاء هنا في هذا الموضع للتفريق والتمييز بينه وبين كافة الممجدات السماوية: «ورأينا مجده مجداً، وحيداً، من الآب»، فهو مجد خاص بالله استعلن في الكلمة لما تجسد!! حيث حرف «من» παρά في «من الآب» يُفضّل أن يضاف إلى «المجد» وليس إلى «الوحيد». أي «وحيد بمجد الآب» أو «وحيد بمجد من الآب»، لأن في هذا الموضع لم يتمرض الإنجيل بعد للعلاقة اللاهوتية بين الآب والإبن. وتؤكد ذلك هذه الآية: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي، الذي أعطيتني، لأنك أحببتني، قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤). ويتفق في هذا الشرح القديس كيرلس الكبير وكثير من العلماء المحدثين.

الإبن الوحيد ὁ μονογενής υἱός (١٨:١):

هنا يدخل القديس يوحنا في صميم العلاقة الداخلية في الله، حيث أن الله لم يَرَهُ أحد قط، ولكن هنا يظهر «الكلمة المتجسد» أنه لا يزال يحتفظ بكل مخصصاته في الله قبل التجسد ككلمة الله فهو الوحيد الذي رأى وخبر عن الله في ذاته «وما رآه وسمعه، به يشهد... ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق» (يو ٣: ٣٢ و٣٣)، حيث هنا في هذا الموضع يكون لقب «الإبن الوحيد» هو بقصد الإعلان عن ملء لاهوت الكلمة المتجسد على الأرض ليبدأ شهادته عن الله وقدرته الفريدة على استعلان حقائق الله. لذلك يُعتبر هذا اللقب بمثابة مِفْصَلٍ يربط المقدمة بجسم الإنجيل

أو يربط الكلمة قبل التجسد بالكلمة بعد التجسد. أما هذا اللقب بصفته العمومية على مستوى الإنجيل كله فهو، بحسب وظيفة إنجيل يوحنا اللاهوتية في تخصصه في استعلان طبيعة الآب السماوي، يركّز في توضيح طبيعة الابن فيذكره بصفة «الوحيد» «المونوجانيس»، ويخصص لها في الإنجيل أربعة مواضع ومرة أخرى في رسالته (يو: ١٤ و ١٨، ٣: ١٦ و ١٨؛ ١ يو: ٤: ٩).

وهو إن كان قد ذكرها في الأصحاح الأول مرتين، فهذا لكي يوضح مدى الأهمية والتأكيد المزمع به أن يلقي عليه الضوء في الإنجيل.

وتأكيد على صفة «الوحيد» هو لكي يؤمن مفهومها ضد ما يمكن أن يتطرق إلى لقب الابن من مفهومات تأملية هلينية أو مجازية فلسفية، فهو يقصد أنه ابن فريد من نوعه أو كما يُترجم «وحيد الجنس». فهي بُنُوَّة فريدة من نوعها لا تُقَارَن قط بأي مفهوم آخر للبُنُوَّة، وهي صفة جاءت بالدرجة الأولى لتخدم استعلان «الآب» باحتياط بالغ الحساسية لأنها تخص نفس القضية اللاهوتية التي انشغل بها المسيح جداً لترسيخ مفهوم «الوحدة مع الآب» القائمة على جوهر الحب «الذاتي» في طبيعة الله: «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)

وقد بلغ التأكيد في وحدة الابن مع الآب أن قال المسيح لليهود: «أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠)، وهذا أمر مريع ومرعب بالنسبة لليهود إذ يعبر عن وجهة نظرهم عن تجديف وتحرر من سلطان الله المطلق. وهذا قاله الرب في أمر شفاء المقعد مريض بيت حسدا يوم السبت، إذ كيف يُشفي يوم السبت؟ فلما أرادوا أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت أجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ٥: ١٧)، «معادلاً نفسه بالله» (يو: ٥: ١٨) حسب قول اليهود: «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك.» (يو: ٥: ١٩)

ويعلق على هذا الحوار أحد مشاهير علماء التلمود وهو الدكتور إزرائيل إبراهيم أن هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا) يحتفظ لنا بحوار أصيل (حسب الأصول التلمودية للربيين) نابع من تقليد أصيل لم يرد قط في الأناجيل الأخرى في ناحية من تعاليم يسوع^(١).

وهكذا يؤكّد المسيح أنه لم يعادل نفسه بالله بمعنى التحرر من سلطان الله، وهو لا يدّعي لنفسه سلطاناً منفصلاً عن الله أبيه، بل يؤكّد أنه يستمد سلطانه من سلطان الله معلناً أنه ليس ثائراً على

^١ Cambridge Bib. Essays p. 181; In Studies in Pharisaism.

سلطان الله ولا مجدفاً، بل هو ابن طائع للآب عن وحدة مشيئة وإرادة وحب وعمل، وكل ما يعمله فهو بإتحاد مطلق مع الآب. فالآب والإبن لا يمثلان وجودين إلهيين منفصلين، بل: «أنا والآب واحد». هذا كله ينطوي تحت اللقب «الوحيد»، فهو ابن وحيد الجنس مع الآب: فكلمة «مونوجانيس» تخص الآب كما تخص الإبن. فقول القديس يوحنا أن «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨)، يقصد بها أن هذا المؤهل الفريد والصلة الفريدة التي تربطه بالآب هي التي أعطته الحق، كل الحق، أن يخبر عن الله بما رآه وسمعه!!

«حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (١: ٢٩ و ٣٦):

لقب أضفاه يوحنا المعمدان على المسيح، وهو لقب فضحي بالدرجة الأولى، ذبائحي وليستورجي. ولكن المشكلة التي واجهت العلماء: كيف بلغ المعمدان إلى هذا التقرير، وما هو تفسيره؟ فنعتقد أنه واضح غاية الوضوح، فالمعمدان وهو يعلم أنه يفتح العهد الجديد وأنه يمثل آخر أنبياء العهد القديم: «ينبغي أن ذلك يزيد (يصير الكل) وأني أنا أنقص» (يو: ٣٠)، فهو يقدم المسيح كفصح العهد الجديد لا كحمل يُذبح كل سنة أو كل صباح، ولكنه «حمل الله» الذي يرفع «الخطية» جملة وتفصيلاً. فالمعمدان بقوله هذا يسدل الستار على عهد الذبائح، ويختم على زمان النبوة والأنبياء ويسلم الشهادة لصاحبها، ولأن الشمس أشرقت ف ينبغي أن يُطفاً المصباح.

وبلاحظ أن المعمدان لا يقول «الحمل» فقط، بل «حمل الله»، فالله وجد في المسيح خروفيه: «وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي. فقال هأنذا يا ابني. فقال هوذا النار والخطب، ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني.» (تك ٢٢: ٧ و ٨)

فقول المعمدان «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» صار هو اللقب الذي افتتح به إنجيل يوحنا رسالة المسيح الخلاصية أو بالحري درب الصليب! والمسيح هنا يظهر بمظهر العبد المتألم الطائع، والخروف المعد للذبيحة من قبل إنشاء العالم معاً!

+ «إبن الله» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٣٤ و ٤٩):

وهو اللقب الثاني الذي أضفاه المعمدان على المسيح (يو: ١: ٣٤). والعجيب أن تأتي بعض المخطوطات (قراءة القديس أمبروسيوس) بهذا اللقب كالاتي: «الإبن المختار» أو «مختار الله»^(٢). وهو نص اللقب الوارد عن المسيح بوضوح شديد في المزمور ٨٠: «يا إله الجنود ارجعن اطلع من السماء، وانظر وتمهد هذه الكرمة والفرس الذي غرسه يمينك والإبن الذي اخترته لنفسك.» (مز: ٨٠: ١٤ و ١٥)

² Schnackenburg, According to St. John, p. 305.

ونفس اللقب «الإبن المختار» هو الذي ورد أيضاً في نبوة إشعيا النبي (إش ٤٢ : ١-٤)، كما استشهد بها القديس متى الرسول في إنجيله : «هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرْتُ به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق.» (مت ١٢ : ١٨)

ويلاحظ أن هذا اللقب الذي أعطاه المعمدان للمسيح كما أعطاه أيضاً نثنائيل له، هو إعلان له رؤية مسيانية. فعروف أن المسياً سيأتي كواحد مثل موسى، أي كإبن من أبناء إسرائيل، ولكن أمام الواقع الاستعلافي والعين والبصيرة المفتوحتين، رأى المعمدان بالرؤية كما رأى نثنائيل بالإيمان، أن هذا هو المسيا ولكن ليس كإبن إسرائيل بل «إبن الله». فاللقب مُتَّسَب من الفكر المسياني. فهو في فهم المعمدان إعلان عن المسياً الحقيقي، وفي فهم نثنائيل إيمان بالمسيا وشهادة.

+ «المسياً» كما جاء في الأصحاح الأول (١ : ٤١) :

اللقب الذي أعطاه أندراوس للمسيح «وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح» (يو ١ : ٤١)، وهو لقب تحت البحث والفحص والدراسة :

«وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو ١ : ٤٥). وطالما بقي هو «يسوع بن يوسف» فهو لا يزال «مسياً» اليهود الذي يطلبه اليهود ليخلصهم من الرومان. وهو لا يزال يحتاج أن يرتفع إلى «يسوع ابن الله».

+ «ملك إسرائيل» (١ : ٤٩) :

هذا اللقب جاء على شفتي نثنائيل كرد حاسم وسريع للقب الذي منحه المسيح لنثنائيل «هذا إسرائيل حقاً لا غش فيه.» (يو ١ : ٤٧)

وهنا تحيط مجموعة الألقاب السالفة في الأصحاح الأول عند مرحلتها الختامية، حيث اللقب المشتق في نبوة إشعيا : «هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (إش ٤٤ : ٦). الذي يعود نثنائيل ويستعلن اللقب على مستوى المسيح الواقف أمامه : «أنت ابن الله».

+ «ابن الإنسان» كما جاء في الأصحاح الأول (١ : ٥١) :

أول لقب يعطيه المسيح لنفسه (يو ١ : ٥١) في إنجيل يوحنا، وفي الأصحاح الأول ! ليرفع به الغطاء عن إرسالته ويفتح به إنجيل أعماله، باعتباره السلم المنسوب بين الأرض والسماء. فإبن الإنسان جاء ليجعل الأرض تتصل بالسماء، ويجعل الإنسان يرى السماء مفتوحة، والملائكة تنزل أولاً حاملة رسالة وبشرى وخدمة العتيد أن يرثوا الخلاص، بعد أن كانت تطلع أولاً في حلم

يعقوب تحمل أخبار أحزان الإنسان (تك ٢٨: ١٢).

واللقب «ابن الإنسان»، بالنسبة لسلم السماء وحلم يعقوب إسرائيل، يحمل إشارة صريحة أن المسيح هو «إسرائيل الجديد»، أي أن لقب ابن الإنسان يحمل في طياته معنى ناس أو شعب الله المفدي في العهد الجديد. وقد اختاره المسيح بصفة ممتازة لأنه يخلو من الإحساس بالإنتماء إلى أي أمة أو شعب، كما يتناسب مع رسالة حمل «ضعف» الإنسان وأحزانه، فحينما يسمع أي إنسان هذا اللقب يشعر بانتماء المسيح إليه، كما يسمعه المحزون والضعيف الراح تحت ثقل الضعف البشري فيشعر بانتمائه إلى المسيح؛ أليس هو ابن الإنسان؟!!

وهذا اللقب جعله إنجيل القديس يوحنا ختام الأصحاح الأول، وهو أصحاح التعريف بالمسيح على مستوى العالم كله وعلى مستوى الأنشودة!!

المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١ - الكلمة. اللوغس λόγος

في إنجيل يوحنا

لماذا اللوغس في إنجيل يوحنا:

لقد اهتم القديس يوحنا أن يذكر علاقة اللوغس الكلمة بالله في الأزل لتدرك أزلية علاقة المسيح بالله.

واعتنى أن يذكر عمل الكلمة في الخلق المادي لكي ندرك أن الخليقة الجديدة الروحية التي أكملها المسيح هي تكميل متناسق مع عمله الأول.

كذلك أيضاً فالقديس يوحنا بدأ إنجيله بتوضيح اللوغس وعلاقته بالله وصفاته الإلهية قبل التجسد ليكون هو أساس معرفتنا له بعد التجسد بعد أن صار هو يسوع المسيح. فالذي عمله القديس يوحنا هو أنه استعلن سيرة الرب يسوع في السموات عند الله في الأزل حتى لا نتوه في سيرته المتواضعة على الأرض وحتى لا تصبح بشريته المهانة عشرة لإيماننا كما أنذر هو بنفسه: «وطوبى لمن لا يعثر في» (مت ١١: ٦). لذلك، فنحن حينما نؤمن باللوغس في وضعه قبل التجسد يكون ذلك في الواقع هو كمال إيماننا الصحيح بالمسيح، لذلك كان اعتناء القديس يوحنا أن يستهل إنجيله بهذه السيرة الإلهية للمسيح قبل التجسد.

اكتشاف اللوغس في داخل إنجيل يوحنا:

ولكن حينما نركز الفكر في سيرة المسيح التي نعيشها معه في إنجيل القديس يوحنا لا ندرك لأول وهلة أنه «كلمة الله»، ولكن الذي ندركه عن إيمان ويقين أنه هو «الله المتكلم». فإذا زحزحنا هذا المنطوق ناحية الفكر المطلق يكون هو «الله الكلمة». فنحن عرفنا من المسيح نفسه أنه قبل إبراهيم كان كائناً، وبالتالي فهو كذلك قبل آدم بل والخليقة كلها، في البدء في الأزل، إذن فهو

لذلك فإذا عكسنا الوضع يكون أننا حينما نؤمن بالمسيح من واقع كينونته الأزلية التي أعلنها صراحة في الإنجيل، فنحن نؤمن باللوغس الأزلي. لأن اللوغس عُرف فقط لما تجسد، إذ أن صفات المسيح الإلهية تشير إليه بقوة لا تجازى! فإذا قد علمنا أن في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، فإننا نعرف في الحال والتوأن اللوغس قبل التجسد كان هو «ملء اللاهوت» (كو ٢: ٩) دون جسد! ولما تجسد رأينا أنه مملوء نعمة وحقاً (يو ١: ١٧). ومن هذا نعرف بكل يقين أنه قبل التجسد، أي وهو اللوغس الأزلي، كان مملوءاً نعمة وحقاً.

ثم إن معاملات المسيح تجاه الإنسان عامة والخطيء المظلوم خاصة وتجاه العالم بالتالي، تكشف لنا بكل وضوح واستعلان عن علاقة اللوغس الأساسية تجاه العالم والإنسان وقضية خطية الإنسان وبؤسه وشقائه في الجسد منذ البدء!

لذلك فمن السهل أن نلمح في قصد اللوغس الأزلي نيّة التجسد وأنه كان بالفعل متجهاً إلى هذه الغاية على مدى كل العصور السالفة كلها، إنما بتدرج بطيء للغاية يفوت على قدرة الإنسان في الملاحظة، فهو تدرّج استعلائي قدّمه القديس يوحنا باختصار شديد، ولكن غير ملحوظ بسبب كفاءة فكر الإنسان المحدود. ولكن الحقيقة أنه كان متجهاً نحو الإنسان بصفته النور الذي يضيء الظلمة حاملاً في البدء ليس جسد البشرية بل همّها، واضعاً في النيّة والقصد حل هذا الثقل عينه أخيراً، أي الجسد الإنساني، ليحرره من ظلمة الخطية والشقاء والموت، إلى أن أكمل التجسد وصار «ابن الإنسان» نور العالم!

ونحن لا نتجه إلى شرح لوغس إنجيل يوحنا مبتدئين باللوغس الذي في العالم وهو لوغس الفلاسفة يهوداً كانوا أو يونانيين، ولكن نحن لا نعرف اللوغس إلا في يسوع المسيح وفي يسوع المسيح نستعلنه. فلا العالم ولا حتى المصنوعات الباهرة في العالم التي تنطق بلاهوت صانعها توصلنا إلى معرفة الله والحياة الأبدية والخلاص المعد للإنسان. ولكن الذي عرفناه بيقين المعرفة هو أن يسوع المسيح وحده هو الذي يعرفنا بالله أبيه وبالحياة الأبدية والخلاص. والذي يعرف الله في المسيح يسوع يدرك من هو اللوغس الذي به صنع الله العالمين!

إن سرّ ملء اللاهوت في المسيح بكل ما يحيطه من مفهوم فيما يخص قيام هذا اللاهوت قياماً ذاتياً وشخصياً في المسيح كأقنوم على مستوى أقنوم الآب ولكن متحداً به، إنما هو حقيقة اللوغس!!

هذا اللاهوت الذي في المسيح الكامل والمساوي للآب، الكائن في المسيح قبل كون العالم

والذي به خلق العالم والذي كانت فيه الحياة والنور الإلهي اللذين دخلا في تكوين خلقة الإنسان، هذا اللاهوت — لاهوت المسيح — هو اللوغُس الأزلي.

وإن سر ملء اللاهوت في المسيح وحقيقة وجود الكلمة اللوغُس الأزلي تكشفه هذه الآية الواحدة: «والكلمة صار جسداً» (يو: ١: ١٤). فهي التي ربطت بل استعلنت الوجودين وجود المسيح فيما قبل التجسد في شخص اللوغُس ووجود اللوغُس في الجسد في شخص يسوع المسيح. لذلك كان من الطبيعي بل من الحق أن نعرف اللوغُس في المسيح ومن المسيح، لأنه هو الذي أخبرنا عمّا كان قبل تجسده حينما كان في حضن الآب كابن وحينما خرج من حضن الآب خالقاً ثم مخلصاً لِمَا خلق.

ونستطيع أن نقول بحسب فكر القديس يوحنا إن أعظم آية عملها المسيح في حياته الممتدة في الأزلية هي تجسده، حيث صار اللوغُس الحامل لكل أسرار الله والخلقة وكل فكر الله الأزلي جسداً. لأن بهذه الآية المنظورة استعلن لنا المسيح كل أسرار الله وفكره منذ الأزل من ناحية خلقة العالم وخلاص الإنسان فأخذ العالم معناه الجديد «هكذا أحب الله العالم» (يو: ٣: ١٦) — وعرف الإنسان مكانه من الله — «أنا فيهم وأنت فيّ.» (يو: ١٧: ٢٣)

من أين أتى القديس يوحنا بكلمة «اللوغُس»:

القديس يوحنا قبل أن يكتب عن الكلمة — اللوغُس — في الأزلية كان قد ملأ قلبه وفكره من الرب يسوع فأدرك فيه كل غنى «كلمة الله» وقوتها وكل حكمة الله وفهمه، بل قاس وتحقق من كل وعود الله وتحققها. لقد أدرك فيه، ليس اللوغُس — كلمة الله — وحده، بل وعظمة يهوه «أنا هو». وابتهج قلبه كابتهاج قلب العذراء بالله مخلصها. لقد استعلن المسيح ذاته ليوحنا عن قرب، فأدرك يوحنا أنه هو الله متجسداً وأدرك سر أقنومه كابن قائم في حضن الآب. رأى قيامته من خلف صليبه، فأدرك فيه الألف والياء، البداية والنهاية، أدرك فيه اللوغُس في البدء، وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة في السموات. لما يتكلم القديس يوحنا عن اللوغُس فإن نظره لا يغيب عن المسيح ولا لحظة واحدة، ولما كان يصف أعمال المسيح وأقواله كان اللوغُس حاضراً في ذهنه لا يفارقه.

حينما بدأ القديس يوحنا بشخص في اللوغُس الأزلي في البدء، كان نور المسيح الذي يملأ ذهنه والمالء للعالم حاضراً. ولما رأى الحياة المنيرة للناس في اللوغُس كانت عينه قد امتلأت واستارت مسبقاً بالحياة الأبدية التي كانت في الآب واستعلنت في المسيح. وحينما قال عن اللوغُس أن فيه كانت الحياة، كان كلام المسيح يرنُّ في قلبه: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦: ٦٣)، بل وأيضاً كلمات القديس بطرس: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك»

(يو: ٦٨). وعندما قال: «والحياة كانت نور الناس» (يو: ١: ٩) كان يشير إلى قول المسيح: «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو: ٨: ١٢)

المسيح يعلن أنه هو الكلمة «اللوغُس»:

ولكن وإن لم يذكر إنجيل يوحنا الكلمة – اللوغُس – في غير المقدمة بصريح اللفظ أنه «الكلمة» أو كلمة الله، إلا أننا بالفحص المتأنني نستشف من كل حديث للمسيح عن نفسه أنه هو كلمة الله بلا أي عناء:

«أتكلم بهذا كما علّمني أبي» (يو: ٨: ٢٨)؛

«أنا أتكلم بما رأيت عند أبي» (يو: ٨: ٣٨)؛

«لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم» (يو: ١٢: ٤٩)؛

«فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم» (يو: ١٢: ٥٠)؛

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالّ فيّ هو يعمل الأعمال» (يو: ١٤: ١٠)؛

«لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم وهم قبلوا وعلموا يقيناً أنني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو: ١٧: ٨)؛

«أنا قد أعطيتهم كلامك.» (يو: ١٧: ١٤)

وعلى ذلك نطبق ونقول إن المسيح كان ينطق «بالكلمة» اللوغُس التي أعطاها له الله فأعطاها هو للناس لتعمل عملها في الخلق والتجديد. ولكن معروف أن المسيح لما كان يتكلم كان يتكلم بالحق، أو يتكلم الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ لا لأنه تعلم الحق بل لأنه هو الحق ذاته $\eta\ \alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$: «أنا هو... الحق» (يو: ١٤: ١٦)، تماماً كما نقول أنه كان يعطي الحياة لأنه هو الحياة: «أنا هو... الحياة» (يو: ١٤: ١٦). إذن، فكل ما هو «المسيح» هو «كلمته» اللوغُس! «فقال لهم يسوع أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به.» (يو: ٨: ٢٥)

أي أن المسيح لما كان يتكلم كان يستعلن ذاته أنه هو هو ما يتكلم به، لأنه لما كان يتكلم بالحق كان يستعلن الحق في ذاته. «فالكلمة» عند المسيح هي «ذاته». فالمسيح هو هو الكلمة – اللوغُس – الذي خرج من عند الآب وأرسله الآب ليعطينا كلام الآب. وأقوى صورة للكلام الذي كان يتكلم به المسيح هو «الحق». وقد جعل من هذه الكلمة «الحق» المعيار الأعلى الذي يصف به قوله: «الحق الحق أقول لكم...» فالكلمة عند المسيح هي الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$

والمسيح جاء خصيصاً ليستعلن الكلمة اللوغُس باعتبارها كلمة الله الحق المطلق. ويكون بذلك أنه من الخطأ أن نحسب أن كلام المسيح هو مجرد كلام منطوق به بل هو هو الحق ἀλήθεια مُستعلن في الكلام ومن الكلام. وهذا الحق ἡ ἀλήθεια الكائن في كلمة المسيح هو في الواقع تعبير حي عن فكر الله ومقاصده أو تعبير عن الله في ذاته أو هو اللوغُس.

هنا تظهر الضرورة الحتمية لتسمية المسيح بالكلمة، لأننا بالكلمة وحدها أدركنا فكر الله ومقاصده بل أدركنا حقيقة الله. فالكلمة اللوغُس هو الوسيط الحتمي الذي كان عليه أن يختزل الهوة بين الله الحق المطلق والإنسان الذي وإن كان غريباً عن الحق ولكنه يحمل صورته ويسمى نحوه.

ومن هنا أيضاً كان يتحتم على اللوغُس الكلمة الأزلي أن يخرج من عند الآب ويتجسد حتى يكلمنا الله مباشرة فيه بكلمة الله الحية الفعالة المحيية لإعادة الخلق روحياً، وذلك أكمله الكلمة المتجسد بإعطاء ذاته للإنسان كمصدر للحق والحياة والنور.

لقد ابتدأ العهد القديم «بكلمة الله» التي أرسلها الله لشعب مختار ومدرب (إسرائيل) على فم الأنبياء ليُعرفهم الحق. ولكنهم تمسكوا في فهمها وطاعتها فأخطأوا إلى المعرفة وإلى الله. لذلك تحتم أن يعطي الله للإنسان عامة «الكلمة ذاته» الذي هو الحق والحياة جوهرياً لا لكي يعرف الإنسان الله بل ليعطيهم ذاته، أي الله، يعطيهم الحق ἀλήθεια والحياة الأبدية: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو: ٥: ٢٤)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي.» (يو: ٦: ٥٧)

القديس يوحنا يسلّمنا سرّ معرفته باللوغُس:

مما سبق يتضح أن اللوغُس في إنجيل يوحنا يعسر فهمه إلا بعد أن يكون الإنسان قد استوعب كل كلام المسيح وتبع أعماله حتى النهاية حتى بعد بلوغه الذكوا العليا عندما عاد الابن راجعاً إلى الآب واستعاد مجده الأول، بعد أن أكمل رسالة حب الله من نحو العالم. لأن القاريء عندما يكون قد أكمل تتبّعه لمسيرة الابن على أرض الزمان ودخل معه دائرة الخلود في الأبدية حتى ولو من بعيد، حينئذ فقط يستطيع أن يستوعب فكر القديس يوحنا وهو يسرد مسيرة اللوغُس مبتدئاً من الأزلية حتى حظه لنا على أرض الواقع الزمني.

القديس يوحنا رأى المسيرتين على الأرض وفي السماء ورافقه فيها، لقد كان التلميذ الذي يحبه يسوع والوحيد الذي رافقه حتى الصليب. ثم هو وحده الذي اختير من بين التلاميذ والإنجيليين الذي

أخذ بالروح وعاین وشاهد ما یجری وراء أرضنا وزماننا؛ هناك فی دائرة الخلود فی صمیم الحياة ومقابل الحضرة الإلهیة: «یوحنا الذی شهد بكلمة الله وبشهادة یسوع المسیح بكل ما رآه... كنت فی الروح فی يوم الرب وسمعت ورأی صوتاً عظیماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والیاء الأول والآخر...» (رؤا: ١ و ٢ و ١٠ و ١١)

تقریر القدیس یوحنا عن اللوغس والمسیح هو تقریر مزدوج: شهادة واستعلان، أي سرد حقائق نظرها وعاینها ثم كشف مضمونها وأسرارها: «ثم رأیت السماء مفتوحة وإذا قرّس أبيض والجالس علیه یُدعى أمیناً وصادقاً وبالعدل یحكم ومحارب. وعیناه کلهیب نار وعلی رأسه تیجان كثیرة وله اسم مکتوب لیس أحد یعرفه إلا هو. وهو متسربل بثوب مغموس بدم ویدعى اسمه كلمة الله $\delta \lambda \acute{o} \gamma \omicron \varsigma \tau \omicron \upsilon \theta \epsilon \omicron \upsilon$ والأجناد الذین فی السماء كانوا یتبعونه.» (رؤا: ١١ - ١٤)

والقدیس یوحنا إنجیلی بالدرجة الأولى، فكل خبراته - عن كل أسرار المسیح والكلمة - یطرحها أمام الكنيسة لكي تشترك الجماعة فیما حصل علیه. ففی نهاية سرده لآیات المسیح فی إنجیله یقول: «وأما هذه فقد کُتبت لتؤمنوا أن یسوع هو المسیح ابن الله ولكی تكون لکم إذا آمنتم حياة باسمه.» (یو: ٢٠: ٣١)

وهو یزید هذا الإعلان وضوحاً وتأكيداً فی رسالته: «الذی رأیناه وسمعناه نخبرکم به لكي یكون لکم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه یسوع المسیح. ونكتب إلیکم هذا لكي یكون فرحکم كاملاً.» (١ یو: ١ و ٣ و ٤)

وفی مستهل رؤيته التي رآها بصورة ممتازة وفائقة لم یبلغها آخر یقول: «أنا یوحنا أخوكم وشریکم فی الضیقة وفی ملكوت یسوع المسیح وصبره، كنتُ فی الجزیرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة یسوع المسیح... وسمعت ورأی صوتاً... والذی تراه أكتب فی كتاب وأرسل إلی السبع الكنائس.» (رؤا: ٩ و ١٠ و ١١)

فالقديس یوحنا یكتب مقدمة إنجیله عن اللوغس مسجلاً كل ما رآه وعرفه وكل ما استعلن له، یكتبها باسم الكنيسة: «نحن» ویستودعها صدر الكنيسة علی مدى الدهور: «ورأینا مجده مجداً كما لوحید من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (یو: ١: ١٤)

رؤية القديس یوحنا للوغس:

+ اللوغس عند القديس یوحنا کائن فی البدء فی «الأرخی» $\alpha\rho\chi\eta$ أي قبل الزمن. فهو لا یمتُ للخلیقة بشيء ولا للعالم بالتالي. هذا هو یسوع المسیح قبل أن یتجسد، عند القديس یوحنا.

وهو حينما يرفع عن المسيح في شخص اللوغس أي انتهاء للعالم أو الخليقة فهو إنما يمهّد لموقع المسيح من العالم والخليقة كمخالق في البداية ثم مخلص وكقائض وديّان بالنهاية.

+ ذِكْرُ البدء «الأرخي» ἀρχή منسوباً للوغس استدعى في الحال تحديد علاقة اللوغس بالله لأن البدء خاص بالله وحده. فحدده يوحنا بقوله: «كان عند الله = πρὸς τὸν θεόν» وهي تفيد المكانة (لأن لفظ المكان يمتنع في الإلهيات). فكانت الكلمة اللوغس بالنسبة لله هي «عنده» أي في المقابل المتّجه على الدوام. وقد عرّفها القديس يوحنا على مستوى الاستعلان للذات الإلهية بأن «الآب يحب الإبن» (يو: ٣: ٣٥). فالإبن متّجه نحو الآب يجذبه حب الآب المستمر الأزلي والأبدي، عبّر عن ذلك المسيح: «أنا حيّ بالآب.» (يو: ٦: ٥٧)

ويقابل جذب الآب انجذاب الإبن بالحب أيضاً، فالإبن يحب الآب: «ليفهم العالم أنني أحب الآب.» (يو: ١٤: ٣١)

فما رآه القديس يوحنا في اللوغس هو «عند الله» في المطلقات فيما وراء الزمن، استعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر الشعوري الإنساني فقال إنها محبة أزلية مزدوجة بين المسيح الإبن والله الآب لا انفصام فيها!!

ورؤية القديس يوحنا للوغس في مكانته وهو عند الله كحالة وجود قائم بذاته ثابت وأزلي يستعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر اللاهوتي المسيحي أن المسيح قائم في الآب، والآب في الإبن: «ألست تؤمن أنني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو: ١٤: ١٠)

وبالتجسد صار المسيح يخاطب الآب «أنا فيهم وأنت فيّ» (يو: ١٧: ٢٣)، ومن جهة الأعمال التي كان يعملها المسيح: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال.» (يو: ١٤: ١٠)

كذلك فإن رؤية القديس يوحنا للكلمة اللوغس قائماً عند الآب منذ البدء أي أزلياً يعني أن قبل الكلمة لم يكن صمت أو سكوت في الله، فالله ناطق بالكلمة اللوغس ولم يوجد قط غير ناطق باللوغس، وهذا يستعلنه على مستوى الفكر المسيحي أن المسيح الإبن كائن دائم في حضن أبيه. لم يوجد الآب بدونه ولا وُجد بدون الآب: «أنا والآب واحد»، «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر.» (يو: ١٠: ٣٠، ١٨: ١)

ولكن الوجود الذاتي للكلمة اللوغس عند الله πρὸς τὸν θεόν ككيان قائم بذاته قد يُفهم خطأ أنه ثنائية في الله وأبيها السابق وأبيها اللاحق. لهذا عجل القديس يوحنا بتوضيح وحدانية الله بقوله وكان الكلمة الله، مسجّلاً للاهوت المسيحي امتناع الثنائية وبالتالي الرؤوسية أو التبعية في

الله. فليس في الله أول وثان أو أعظم وأقل. وهذا استعمله لنا على مستوى الإنجيل: «وكل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (١٧: ١٠)، «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (٣: ٣٥)

هنا الكلمة — اللوغس — والله لكل منها وجوده الذاتي غير أنها ذات واحدة. صحيح أن هذا اللغز يتضح حله بتفسير أن الآب والإبن ذات واحدة في الله، وكل من الآب والإبن له شخصه وذاته التي يتكلم بها. ولكن لنا أيضاً في «اسم الله» في العهد القديم توضيحاً صريحاً آخر: فاسم الله له كيان الله وعمل الله ولكن يعمل بمفرده كما يعمل الله بمفرده تماماً. «ها أنا مُرْسِلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق وليجيء بك إلى المكان الذي أعددتُه. احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه. لأنه لا يصفح عن ذنوبكم لأن اسمي فيه» (خر ٢٣: ٢٠ و ٢١). كذلك أيضاً في إشعياء: «هوذا اسم الرب يأتي من بعيد غضبه مشتملٌ والحريق عظيم. شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة. ونفخته كنهز غامر يبلغ إلى الرقبة لغرلة الأمم.» (إش ٣٠: ٢٧ و ٢٨)

هكذا الكلمة — اللوغس — يعمل عمل الله وهو قائم بمفرده في الله. واللوغس في العهد القديم هو المشار إليه بأنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ (٣): «أنا هو أنا هو الرب المتكلم بالصدق»

$\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \text{Κύριος}\ \delta\ \lambda\alpha\lambda\omega\nu\ \delta\iota\kappa\alpha\iota\omicron\sigma\upsilon\nu\eta\nu$ (إش ٤٥: ١٩ — السبعينية)

فكون اللوغس قائماً عند الله في التساوي اللاهوتي أي بذات الطبيعة الإلهية الواحدة، صَحَّ أن يقول: «وكان الكلمة الله» (يو ١: ١) — وهنا الله في اليونانية بدون ال التعريف — حيث الكلمة اللوغس هنا هو المبتدأ والخبر، هو الله، وهذا يعني أن الكلمة بطبيعة الله وليس بمعنى هو الله وإلا كان يلزم أن يُقال أن الله هو الكلمة. هنا نسبة الله — بدون ال التعريف — للكلمة اللوغس يعطيه حق «الطبيعة الإلهية» وليس «الذات الإلهية الكلية» وهكذا يظل «الله» محتفظاً بوحداية الطبيعة والذات (٤).

هذا يستعمله لنا القديس يوحنا على مستوى اللاهوت المسيحي أن الآب والإبن إله واحد — «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠) — وأنها متساويان في الكرامة والمجد «لكي يكرم الجميع الإبن كما يكرمون الآب، مَنْ لا يكرم الإبن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢٣). أما المجد الواحد: «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥)، حيث صار الإبن كما كان «ربي وإلهي» (يو ٢٠: ٢٨). «الذي رأي فقد رأى

(٣) أنظر الشرح تحت عنوان «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ صفحة ٢٢٠.

(٤) ذات الله واحدة وحدانية مطلقة وهي ذات كاملة آب وإبن وروح قدس.

+ ولكي يحرس القديس يوحنا التساوي الأتقنومي أو الشخصي بين الكلمة اللوغس والله أعطى الجملة الحارسة للوحدانية مرة أخرى « هذا كان في البدء عند الله. » (يو: ١: ٢)

« هذا » هنا تنصب على اللوغس، فبعد أن قال « وكان الكلمة الله » (يو: ١: ١)، عاد وضبط المعنى حتى لا ينحرف نحو الثنائية أو تعدد الله فقال: « هذا كان في البدء عند الله »، أي أن الله الكلمة كان عند الله. هذا التناقض paradox ينحل في الحال إذا فهمنا أن الكلمة اللوغس هو « الله متكلماً »، أو ناطقاً. حينئذ يكون « الله متكلماً » ليس غريباً عن الله، ولا ثانياً له، بل هو الاستعلان الذاتي لله. فالكلمة اللوغس هو المستعلن لذات الله. هذا أيضاً يعود القديس يوحنا ويستعمله في إنجيله على مستوى الإبن والآب. فالإبن هو المستعلن للآب. هنا يتحتم أن يكون الإبن من طبيعة الآب ويساويه حتى يستطيع أن يقدم استعلاناً كاملاً وتاماً له. ولكن يظل الإبن والآب هما الله الواحد. الإبن في ذات الله هو المستعلن والآب هو ذات الله المستعلن. « الله لم يره أحد قط. الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر. » (يو: ١٨: ١٨)

+ ولكن لسلا يظهر اللوغس وكأنه عمل استعلافي لله محصوراً في دائرة الزمن، أضاف القديس يوحنا مرة أخرى « في البدء »: « هذا كان في البدء عند الله » (يو: ١: ٢). وهذا بدوره يعود القديس يوحنا ويستعمله لنا في المسيح على مستوى الفكر اللاهوتي أن الإبن قائم مع الآب منذ الأزل، لا يمت للحدث الزمني: « أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم » (يو: ١٧: ٢٤)؛ « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن. » (يو: ٨: ٥٨)

فإن كان اللوغس هو الله — بدون « أل » التعريف — المستعلن لله كما سبق وقلنا، أصبح كوننا نسمع من اللوغس هو أننا نسمع الله رأساً. وبالتالي إذا تكلمنا عن اللوغس فنحن نكون نتكلم عن الله. لأن هذا الاستعلان الذي يقوم به اللوغس عن الله بالنسبة لنا هو مشيئة الله لخلاصنا الذي تم تدبيره عند الله منذ البدء وابتدأ اللوغس بتنفيذه قبل الزمن منذ البدء.

وربّ سائل يقول: وكيف يتم استعلان الله قبل الخلق وقبل الزمن ولحساب من يكون هذا الاستعلان؟ هنا لا يفوت على القارئ اللبيب أن القديس يوحنا بدأ يستعلن لنا اللوغس نفسه قبل الزمن وقبل الخلق لما قال: « في البدء كان الكلمة » ثم « والكلمة كان عند الله »... إلخ. هذا مجد ذاته استعلان لله ولللوغس قبل الزمن وقبل الخلق! فنحن وإن كنا لم نكن قد خلقنا بعد

ولكن الله بدأ يعمل لخلاصنا لأن الله هو الله لا يُستحدث عليه شيء، ولكن فعل الخلق هو الذي أوهمنا أن بدء علائقنا بالله تبدأ عند بدء الخلق.

ولكن الله استودع في الإنسان وعياً روحياً بالغ العمق يمتد حتى خارج حدود الزمن والخلق لنعرف به الله في ذاته وصفاته وأعماله. فعلى أساس هذا الوعي وقبل أن يوجد فينا، كان الله يرتب خلاصنا. وهذا طرف من استعلان اللوغس لله من نوحنا من جهة تدبير خلاصنا.

سؤال آخر يطرأ على الذهن: وماذا كان قبل تدبير خلاصنا؟

أمران خطيران للغاية يمنعان أن يكون في الله سكون أو عدم:

الأول: هو الوعي العميق الممتد الذي استودعه الله في الإنسان وقدرته الهائلة في الإمتداد ليخترق الزمن وفعل الخلق ذاته، فهو بذلك يتحدى العدم ويسخر من السكون.

والثاني: هو «في البدء كان الكلمة» أي بدء الاستعلان الإلهي بالفعل لحساب الإنسان قبل الزمن والخلق، في الأزل!!

معنى «الكلمة» اللوغس:

أما اسم «اللوغس» الذي تُرجم بـ «الكلمة» في اللغة العربية فهو في الحقيقة ذو صلة جذرية بوظيفة اللوغس ذاته بصفته «المستعلن» Revealer لله بمعنى أن عمله هو أن يجعل الله معروفاً. فهو جدير بأن يكون «الكلمة» لأن «الكلمة» وليدة «المطلق» باعتبارها «كلمة الله» في إحدى صورها. فهي أعلى من مثيلها البشري بلا حدود. فالكلمة عند الإنسان وليدة العقل، والعقل البشري محدود. لذلك فاللوغس أعلى من الفكر العقلي عند الإنسان.

كذلك فالكلمة اللوغس حينما قام بفعل الخلق فهذا «الفعل» أعلى من مثيله لدى الإنسان، فاللوغس كفعل هو أعلى من كل أفعال الإنسان. لأن فعل الإنسان محكوم تحت محدودية الخليفة؛ أما اللوغس كفعل فهو خلّاق ومُبدع من العدم لا يعتمد على القوة كطاقة مخلوقة. بل يعتمد على طاقة الله في الخلق والإبداع.

لذلك لا يصح أن نشبّه اللوغس «بالفكر» ولا «بالفعل» لأن مفهوم الإنسان للفكر والفعل يختلف عن مضمونها الإلهي في اللوغس كل الاختلاف. وهذا هو بعينه قصد القديس يوحنا من وضعه للكلمة «في البدء كان الكلمة»، أي قبل أن يوجد التفكير العقلي للإنسان وقبل الفعل المتولد من القوة المخلوقة عند الإنسان. ومن جهة هذا الأمر يستعلن لنا القديس يوحنا في شخص المسيح — على مستوى اللاهوت — بأن أقنوم المسيح استخدم «الفكر» واستخدم «الفعل»

(القوة) استخداماً. وذلك تحت سلطان «كلمته»: «كان يعلمهم كمن له سلطان» (مر ١: ٢٢)، «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو ٧: ٤٦)، «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجموني؟ أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجحك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠: ٣٢ و٣٣). العمل «بالكلمة» هنا أعلى من مستوى الفعل البشري. فالمسيح لم يكن إنسان العقل ولا إنسان الإلهام ولم يكن إنسان القوة الخارقة، بل إله العقل والقوة ورب الفكر والفعل حتى في أعلى صورها. أو بمعنى آخر إن فكر المسيح الذي كان يعلم به والطاقة الإلهية التي كان يعمل بها الأعمال لم تكن تنتمي للزمن أو للخليقة بل كانت إلهية وكائنة فيه كيان الأزل: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» (يو ٨: ٢٥)، «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو ٧: ١٦)، «لولا أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية.» (يو ١٥: ٢٤)

دحض القول بأن «اللوغس» مأخوذ من الفلاسفة:

القديس يوحنا لم يستلف اللوغس من اليونان، ولا استقرأه من أسفار الحكمة ولا تعلمه على يد الفنوسيين أو ورثه عن فيلوبل لوغس القديس يوحنا هو «المسيح» وقد أدركه القديس يوحنا من أقواله وتعليمه ثم استلمه بالرؤيا وتكلم عنه كما يتكلم الإنسان عن شخص يراه.

٢ - «المسيا» في إنجيل يوحنا

سبق أن قدمنا مفهوم لقب «المسيا» في إنجيل يوحنا في عرضنا لعلاقة هذا الإنجيل بالعهد القديم. (أنظر الباب الثاني - الفصل الثالث - ص ٨٩).

٣ - «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا

وبالتالي في اللاهوت المسيحي

لقد صار من أهم معالم إنجيل يوحنا العناية الكبيرة التي أعطاها للقب ابن الإنسان بصورة فريدة، فقد ورد في أكثر من أحد عشر موضعاً:

- «وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان.» (٥١:١)

- «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (١٢:٣)

- «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان.» (١٤:٣)

- «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته... وأعطاها سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان.» (٥:٢٦ و٢٧)

- «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (٢٧:٦)

- «فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (٥٣:٦)

- «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً...» (٦٢:٦)

- «فقال لهم يسوع: متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنني أنا هو ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي.» (٢٨:٨)

- «وأما يسوع فأجابها قائلاً: قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان.» (١٢:٢٣)

- «فأجابه الجميع نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟ من هو هذا ابن الإنسان.» (١٢:٣٤)

- «فلما خرج قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه، إن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده في ذاته ويمجده سريعاً.» (١٣:٣١ و٣٢)

والحقيقة المدهشة أن هذه النصوص تحمل تركيباً منسجماً ذا علاقة متصلة. فبالتحليل نجد الآتي:

(١) في الآيات (١٢:٣)، (٦٢:٦) نجد أن ابن الإنسان ينزل من السماء ويصعد ثانية.
(٢) وفي الآيات (١٤:٣)، (٢٨:٨)، (٣٤:١٢) نجد ارتفاع ابن الإنسان إشارة إلى رفعه على صليب المجد.

(٣) وفي الآيات (٢٣:١٢)، (٣١:١٣) نجد تمجيد ابن الإنسان.

فالثلاث المجموعات تصنع تركيباً متقابلاً ومتصلاً:

فالارتفاع والتمجيد في الآيات (مجموعة ٢) و (مجموعة ٣) متصلان اتصالاً وثيقاً، وساعة الارتفاع والتمجيد هي نفسها ساعة الصعود (كما في الآيات مجموعة ١)، وهي نفسها «الآن».

ثم بالتطبيق مع الخبز الحيّ النازل من السماء الذي هو شخص ابن الإنسان المعطي الحياة الأبدية، ومع خبز الإفخارستيا الذي يؤكل للحياة الأبدية وهو الخبز الذي يعطيه ابن الإنسان أيضاً نجد أن العلاقة وثيقة. فهو يمثل النزول والارتفاع.

فالكلام الوارد بخصوص ابن الإنسان ليس مجرد أوصاف حسب الظاهر، بل هي حقائق جوهرية متصلة تُعتبر مفتاحاً لفهم الإنجيل روحياً.

وحينما سأل المسيح سائلٌ من الجمع: «وَمَنْ هُوَ ابْنُ الْإِنْسَانِ» (يو ١٢: ٣٤)، فإن هذا في الواقع يحمل لفظة من الإنجيل عميقة ومُبْدعة فهو ينبه ذهن القارئ أنه هو هو «المسيح» الذي على أساسه وُضعت أو قيلت الآيات على ابن الإنسان بتعليم عميق مسترسل ومتوازٍ ومتصل. وبشيء من الذكاء نفهم أن كلاً من السائل والقديس يوحنا يضمّر من السؤال «مَنْ هُوَ ابْنُ الْإِنْسَانِ؟» توضيحاً لحقيقة شخص المسيح أنه المسيح. وهذا الحوار متصل أو منتهي بقول المسيح: «متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو *ἐγώ εἰμι*» (٢٨: ٨) أي أنه المسيح!!! ابن الله. أما الآن فهو المسيح في سرٍّ!!

فـ «ابن الإنسان» هو اللقب المختار الذي يختفي وراءه لقب «المسيح». ليظل محتجباً عند الرافضين كما كان الله في العهد القديم: «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص». (إش ٤٥: ١٥)

وحق لو أخذنا الآية المنفردة بذاتها التي جاءت في الأصحاح الأول (١: ٥١) التي تفيد أن ابن الإنسان على الأرض هو بآن واحد في السماء بمعنى أنه باتصال دائم مع الله، فهذه الآية تحمل

المضمون الإلهي نفسه من جهة النزول والصعود وتفيد أنه نزل ليكلّمنا عن ما هو في السماء كرسالة وبعدها يعود. وما نزول الملائكة وصعودها عليه إلاّ تعبيراً عملياً أو تكليلاً لعمل ابن الإنسان في الإتصال الدائم بين السماء والأرض. فابن الإنسان يعمل على الأرض وفي السماء بأن واحد. ولكن لينتبه القارئ فنحن نعلم مسبقاً الآن مضمون النزول والظهور والغاية منه. ولكن أثناء خدمة المسيح التي يتتبعها الإنجيل جاء هذا التعليم ليمهد في أذهان التلاميذ لحوادث الصلب والقيامة والصعود. فهو تعليم غاية في الأهمية للتلاميذ والمؤمنين به الذين كانوا يسمعون آنئذ. وأيضاً لكي ينبه أذهان تلاميذه أنه مزعم أن يتركهم ويختفي عنهم في مفهوم الارتفاع.

كذلك الآية التي تقول أن الدينونة أُعطيت له «لأنه ابن الإنسان» (٢٦: ٥) فهي في القراءة السرية بحسب إنجيل يوحنا تكون: لأنه هو «المسيح» المخلص والموعود به. فلأنه سيخلص الذين يؤمنون به فحتماً سيدين الذين لا يؤمنون، والإيمان به يتركز حسب قول المسيح نفسه في حالة الارتفاع التي سيُعلن فيها «ومتى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون (تعرفون) أني أنا هو».

وهكذا نجد أن نزول ابن الإنسان وارتفاعه يكوّنان معاً الهيكل التعليمي عن الخلاص والدينونة معاً مستغلّان في شخصه المنظور ومخفياً في اسمه الذي اختاره لنفسه. «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق (أرتفع) لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الموعود. ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة... وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين» (يو ١٦: ٧-١١)؛ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو ١٢: ٣١)؛ وقوله: «الآن» لا يفيد في لغة إنجيل يوحنا الآنيّة الزمنية بل رؤية المسيح النافذة التي تستحضر المستقبل في صميم الحاضر: «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو ٤: ١٧)

والفرق بين نظرة الأناجيل الثلاثة للقب ابن الإنسان بالنسبة للمسيح عنها في إنجيل يوحنا يتركز في كون هذا اللقب أخذ في هذه الأناجيل مأخذاً رؤيويّاً فقط على مستوى نبوة دانيال النبي، أي أنه لقب مستقبلي يستعلن فيه المسيح في مجيئه؛ ولذلك لم تشغل الأناجيل بابن الإنسان كحالة واقعة على الأرض في ملء الزمن مثلما ركز إنجيل يوحنا معتبراً أن المستقبل الزمني انفتح على الحاضر في شخص ابن الله المتجسد إذ نزل ابن الإنسان من السماء بالفعل ليفتح الملكوت الأبدي الذي تنبأ عنه دانيال. فابن الإنسان هو اللقب الأكثر مناسبة للمسيح في مجيئه (نزوله) وفي حياته على الأرض كما هو في ظهوره الآتي من السماء، بل وفي ملكوته الأبدي، أليس هو الذي أملى على دانيال الاسم؟

وقد استشهدت أسفار العهد الجديد على العموم بما جاء عن ابن الإنسان في العهد القديم:

+ مما ورد في المزمور ٨: ٤ و ٥: «فَمَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ أَوْ ابْنُ الْإِنْسَانِ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ. أَنْقَضَتْهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلَائِكَةِ (فِي مَظْهَرِهِ وَمَوْتِهِ) وَبِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ تَوَجَّهَتْ (فِي قِيَامَتِهِ)» — (الترجمة السبعينية).

+ وفي دانيال ٧: ١٣ و ١٤: «كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سَحَابِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الْأَيَّامِ فَقَرَّبُوهُ قَدَامَهُ، فَأَعْطِي سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لَتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ وَالْأَلْسِنَةِ، سُلْطَانَهُ سُلْطَانُ أَبَدِي مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لَا يَنْقَرُضُ.»^(٤)

وقد استخدم المسيح في إنجيل القديس مرقس صورة ابن الإنسان وهو آت على السحاب كما جاءت في نبوة دانيال: «أما هوفكان ساكتاً ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: أنت المسيح ابن المبارك. فقال يسوع: أنا هو، وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر ١٤: ٦١ و ٦٢)

وواضح جداً من كلام المسيح أعلاه أنه كان يفضل لقب ابن الإنسان على لقب المسيح. كذلك أيضاً في قوله: «فقال لهم: وأنتم مَنْ تقولون أني أنا. فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح. فأنهزمهم كي لا يقولوا لأحد عنه. وابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم...» (مر ٨: ٢٩-٣١)

وإنجيل يوحنا يبرز «ابن الإنسان» على مستوى «ابن الله» لا فرق على الإطلاق. فهو نزل من السماء ويصعد أيضاً وهو في كل المواضع متحد بالله وقائم فيه، فحتى أثناء وجوده على الأرض هو «ابن الإنسان الذي في السماء» (يو ٣: ١٣)، والمسيح يضع العلاقة بينه وبين الإنسان والآب كنموذج أعلى للعلاقة التي ينتهي إليها المؤمنون المختارون في اتحادهم بالله. وابن الإنسان هو النور الحقيقي والخبز الحقيقي والكرمة الحقيقية بمعنى أنه الحقيقة المطلقة لعناصر الحياة كلها. لذلك حينما يحمل المسيح في المؤمنين تصير لهم حقيقة الحياة أو الحياة الحقيقية، ويصيرون متحدين به كاتحاد الأغصان بالكرمة ذاتها. وهنا تظهر الكلية أو الشمولية التي يعنها المسيح من لقبه المختار ابن الإنسان، فهو يحمل البشرية المفديّة ويمثلها أمام الآب. فابن الإنسان نزل من السماء ليجمع في شخصه وفي جسده البشرية المختارة، ويصعد إلى السماء بهم ليرثوا ميراثه وينظروا مجده ويكونوا معه حيث يكون.

ولقب «ابن الإنسان» بالنسبة للاهوت المسيحي سواء في الأناجيل الثلاثة أو في رسائل بولس

(٤) المعتقد حسب التقليد وقانون الأسفار أن دانيال عاش في زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد.

الرسول أو في إنجيل يوحنا يحمل عقيدة لاهوتية مضمونها أن المسيح والمؤمنين يكونان جسداً واحداً إنساناً واحداً. يشرح ذلك القديس بولس الرسول على مستوى الجسد الواحد والمسيح رأس له: «الأمم شركاء في الميراث والجسد» (أف ٣: ٦)؛ «... لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح إلى أن ننهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف ٤: ١٢ و١٣)؛ «بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً...» (أف ٤: ١٥ و١٦)

وهذا يشرحه القديس متى على المستوى العملي هكذا: «لأني جُفت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فأويتموني عرياناً فكسوتهم مريضاً فزرتهموني محبوساً فأتيتم إليّ... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر ففعلتم» (مت ٢٥: ٣٥-٤٠)؛ وأيضاً في إنجيل متى: «مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي.» (مت ١٠: ٤٠)

أما إنجيل لوقا فيتفق أيضاً في هذه الوحدة: «الذي يسمع منكم يسمع مني والذي يرذلكم يرذلني.» (لو ١٠: ١٦)

ويأتي إنجيل يوحنا ويقدم نفس التقليد «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَنْ أُرسله يقبلني.» (يو ١٣: ٢٠)

هذه الرابطة أو الوحدة العملية بل والوجودية — أي بالإنحاد الجسدي — في شكلها وكيانها الكامل بين المسيح وشعبه هي قائمة ومكنونة في اللقب الذي اختاره المسيح لنفسه: «ابن الإنسان»!!

ونحن لو فحصنا بتدقيق ما جاء في نبوة دانيال نجد نفس الرابطة الكيانية بين ابن الإنسان «وقديسي العلي» إذ يذكرها دانيال النبي الواحد بدل الآخر في أخذ المملكة وامتلاكها هكذا: «... ابن الإنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه . فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض... وأما قديسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الأبد...» حتى جاء القديم الأيام وأُعطي الدين لقديسي العلي وبلغ الوقت فامتلك القديسون المملكة... والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تُعطى لشعب قديسي العلي . ملكوته (اله) تعود على شعب قديسي العلي) ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون...» (دا ٧: ١٣-٢٧)

هنا التقابل بل التطابق بين «ابن الإنسان» وبين «شعب قديسي العلي» شيء مذهل للعقل حتى أن دانيال كان معذوراً أن يقف منذهلاً أمام عظمة هذا السر، سر احتواء ابن الإنسان لشعب قديسي العلي: «أما أنا دانيال فأفكاري أفرعتني كثيراً وتغيّرت عليّ هيأتى وحفظت الأمر في قلبي» (دا ٧: ٢٨). وقديسو العلي عند دانيال هم شعب إسرائيل الجديد الذي يراه من خلف السنين.

وفي مزمور ٨٠، الذي تستشهد به أسفار العهد الجديد وتقليد الكنيسة حتى اليوم، يأتي ابن الإنسان، والكرمة، والإبن، والشعب، كلهم معاً والواحد بدل الآخر في تناسق ووجدة عجيبة الشكل (*)!! «كرمة من مصر نقلت... مدّت قضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها، (= أنا الكرمة وأنتم الأغصان - يوح ١٥: ٥)... يا إله الجنود ارجعنّ اطلّعي من السماء وانظروا تعهد هذه الكرمة، والفرس الذي غرسه يمينك والإبن الذي اخترته لنفسك... وعلى ابن الإنسان الذي اخترته لنفسك، فلا نرتد عنك. أحييتنا فندعو باسمك يا رب إله الجنود أُرْجِعْنَا. أنر بوجهك فنخلص.» (مز ٨٠)

وهكذا يقف مزمور ٨٠ الدعامة الأولى والأكثر أهمية في جميع أسفار الكتاب بل ويتقدم على نبوة دانيال أيضاً في توضيح لقب «ابن الإنسان» الوارد في إنجيل يوحنا (٦).

والنص الوارد في إنجيل يوحنا (١: ٥١) واضح فيه كل الوضوح أن المسيح يتكلم وحلم يعقوب إسرائيل ماثل في ذهنه بصورته وألفاظه وحركته: «السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان...» حيث يرد «ابن الإنسان» بدل «إسرائيل» في حلم يعقوب. فلو أدركنا أن اسم يعقوب إسرائيل يؤخذ دائماً أبداً كشخص يعقوب إسرائيل وكشعب إسرائيل دون أي تفريق، حينئذ نفهم السر وراء اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان ووضع موضع إسرائيل في حلم يعقوب إسرائيل، وأن الملائكة عوض أن تصعد وتنزل على يعقوب إسرائيل (٧) يرد في كلام المسيح أنها تنزل وتصعد على ابن الإنسان، لذلك فإن ذلك هو القصد المضمّر في اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان وأن ذلك يشمل بالضرورة شعب المسيح، إسرائيل الجديد، الإنسان الجديد أو الخليقة الجديدة.

(٥) راجع شرح ما جاء في مزمور ٨٠ في عرضنا لرمز الكرمة.

* C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 245.

(٧) يميل كل علماء الكتاب الآن بعد فحص التقليد اليهودي في شرح سلم يعقوب، إلى الأخذ بأن الملائكة تصعد وتنزل ليس على السلم بل على يعقوب إسرائيل، وبالتالي يكون إعلان المسيح عن نفسه كإبن الإنسان أن الملائكة تنزل وتصعد عليه مطابق لحلم يعقوب.

وبالتالي فإن السماء المفتوحة هي مختاري الله المفدين، والملائكة تنزل وتصعد على أولاد الله لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. لأن المسيح لم يكن قط محتاجاً لمعونة ملائكة. فإن كان ابن الإنسان قد تُوجَّ بقيامته من الأموات ملكاً لقديسي الله فهو «جعلنا ملوكاً وكهنة لله أبه» (رؤ ١: ٦)، لأننا قنا معه. فهو بحسب تعبير سفر الرؤيا «ملك الملوك» (١٧: ١٤)

وفي دائرة العهد القديم يُعتبر نزول الملائكة على يعقوب إسرائيل وصعودهم عليه نوعاً من التمجيد الخاص. لذلك ربط الحكماء الرُّبِّيُّون اليهود في تعليم «المِشْنَة» بين صعود ونزول الملائكة على يعقوب في سفر التكوين، وبين تمجيد الله الخاص بـيعقوب في إشعياء «وقال لي: أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجّد» (إش ٤٩: ٣) — أي أن الله يتمجّد فيه. وتعود النبوة في الآية التي بعدها لتضع في فم يعقوب كيف أنه تمجّد أيضاً — أي أن الله مجّده: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجّد في عيني الرب وإلهي يضير قوتي» (إش ٤٩: ٥). وهذا ما يردده المسيح في إنجيل يوحنا بالمثل وبمنتهى التطابق عندما يقول بصفته ابن الإنسان «الآن تمجّد ابن الإنسان، وتمجّد الله فيه» (١٣: ٣١). ثم بالعودة إلى لماذا يتمجّد الله في يعقوب ويتمجّد يعقوب في عيني الله نجد أن السبب واضح، إذ مذكور أنه سيجمع خراف بيت إسرائيل الضالة: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه (الشعب الضال) فينضم إليه إسرائيل فأتمجّد...». وهذا أيضاً ينطبق على المسيح بصفته ابن الإنسان بمنتهى الدقة والتطابق «إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزعم أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو ١١: ٥١ و٥٢)

وهنا يتضح أمران: الأول لماذا يموت المسيح؟ والثاني لماذا يتمجّد الله في المسيح ويتمجّد المسيح في الله؟ ويضيف الإنجيل إلى إرجاع أمة إسرائيل جُمع شمل أبناء الله في العالم.

وأيضاً بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد سبب عمل يعقوب لجمع شمل إسرائيل وخلاص كل الأمم وإرجاعهم إلى الله يعتمد على صفة الإستنارة الممتازة ليعقوب: «فقال قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردّ محفوظي إسرائيل. قد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض» (إش ٤٩: ٦). ثم يشرح إشعياء النبي عمل النور في يعقوب: «قائلاً للأشري اخرجوا. للذين في الظلام اظهروا» (إش ٤٩: ٩). وبالمثل يأخذ إنجيل يوحنا نفس المبادرة لابن الإنسان ليكون نوراً للذين يسرون وراءه: «أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو ١٢: ٤٦)؛ «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو ٨: ١٢)

ثم بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد أن إرسالية «عبدى إسرائيل» تتحمل إطعام الشعب السائر وراءه ورعايتهم على المرتفعات فلا يجوعون ولا يعطشون: «على الطرق يرفعون وفي كل الهضاب مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم» (إش ٤٩: ١٠ و ٩). وإذا فحصنا إنجيل يوحنا نجد المطابقة لا تزال دقيقة ومتسقة مع النبوة: «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى — من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية — أنا هو خبز الحياة. من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو ١٠: ٩؛ ٤: ١٤؛ ٦: ٣٥)

ولا يتوه عن بالنّا أن في النبوة يظهر العبد (يعقوب إسرائيل) مرة أنه «إسرائيل» كشعب، ومرة أخرى يُعرّف بأنه «إسرائيل» فرد كرسول من الله. وبمعنى استعلاني تكون الفردية الشخصية، والجماعية الشعبية ملتحمتان يستحيل التفريق بينهما لأنها من صميم الشخصية ومن صميم العمل والإرسالية معاً. وهذا هو نفسه التعريف بمفهوم وبمضمون «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا.

وعلى أساس هذا المعنى العميق الذي يحويه «ابن الإنسان»، أي الاتحاد والالتحام بين ابن الإنسان وبين شعبه المفدى = قديسي العلي = البشرية الجديدة، يمكن أن نفهم الآن المعنى العميق الذي يحتويه سر الإفخارستيا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦)، «الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٥٣)، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥٤). فما معنى هذا على ضوء مفهوم «ابن الإنسان»؟ واضح أن الاتحاد والالتحام «بابن الإنسان» هو رسالة المسيح، وهو هبته العظمى للقديسين، وهو صفته الذاتية والشخصية؛ لأن معنى «ابن الإنسان» يحمل حتماً الاتحاد بشعب الله، لذلك فأكل جسده وشرب دمه هو أعلى مفهوم جوهري منسبث من طبيعة المسيح وأعظم ضمان للاتحاد بابن الإنسان والحصول على الحياة الأبدية فيه، الأمر الذي من أجله نزل من السماء — تجسد — وصعد إلى السماء ليكمّله، أما في اليوم الأخير فسيستعلنه!! أي أن لقب «ابن الإنسان» يفسر رسالة المسيح كلها بل يكشف عن كل مقاصد الله فيه من نخونا! وربما نعثّر على أسرار ابن الإنسان أكثر في مضمون هذه الآية العجيبة «لأنه يولد لنا ولد ونُعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام.» (إش ٩: ٦)

٤ — «ابن الله»

ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

في إنجيل القديس يوحنا

لقب «الكلمة» كأساس لإستعلان بنوة المسيح لله:

حينما اففتح القديس يوحنا إنجيله بتسميته المسيح «الكلمة» = λόγος لم يكن هذا اللقب أول تسمية للمسيح تحمل تعليماً للكنيسة يفيد الصفة الوظيفية والتعبير اللاهوتي الخاص بالمسيح. كذلك فهذا اللقب لا يمتُّ إلى الحبك الشعري أو التصور البشري ولكنه حقيقة شخصية تقوم على الواقع بالدرجة الأولى.

ونحن هنا نقدم أربعة أمثلة من كتابات القديس بولس الرسول المعتبرة من المدونات الأولى للأسفار المقدسة في العهد الجديد: توضح فكر الكنيسة الأولى عن مَنْ هو المسيح بالنسبة للقب «الكلمة».

(١) ١ كور ١: ٢١-٢٤ :

«إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة... لأن اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة... وأما للمدعوين (أي المختارين) يهوداً و يونانيين فبالمسيح «قوة الله» و«حكمة الله».

فالمسيح هنا هو القوة الفعالة لله والحكمة المفكرة لله.

(٢) ١ كور ٨: ٦ :

«لكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به».

وهنا المسيح هو العامل أو الفاعل في الخلق. وأيضاً الوسيط بين الله والناس.

(٣) كولوسي ١: ١٥-١٧ :

«الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة. فإنه فيه تُخلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد تُخلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل».

المسيح صورة الله، هنا الصورة أو الأيقونة ليست مجرد طبعة طبق الأصل منظورة للأصل غير المنظور، بل استعلان ذاتي يستمد وجوده وذاته وحياته من الأصل ذاته، فهو ذات من ذات ووجود من وجود وحياة من حياة. الأول غير منظور والثاني منظور. فالتطابق مطلق وبالتالي فالتكامل مطلق.

(٤) عب ١: ٣ و ٢:

«الله... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...»
هنا واضح أن المسيح هو «كلمة الله» لنا، «وابن الله» و«فعل الله» الخالق. والخلقة هنا المُستندة للمسيح هي عالم الروح والسماء وعالم الأرض جميعاً. كذلك فالمسيح هنا هو المجد المنظور لمجد الله الآب غير المنظور والصورة أي الرسم المدرك لجوهر الله غير المدرك، والذي يحمل كل شيء أي يجمع ويحوي ويسيطر على كل ما في الوجود بقوته الناطقة، أي بتدبير قوته الفكرية.

هكذا نجد أن بلوغ القديس يوحنا إلى تسمية المسيح في وجوده السابق على التجسد «بالكلمة» في مفهومها المطلق غير المحدود كأساس لإستعلان بنوته لله بعد ذلك، إنما يمثل الخطوة الأخيرة في الطريق الذي عبر عليه الوحي الإلهي منذ البدء في تشخيص المسيح طبقاً لجوهره وأعماله وعلاقته الفريدة بالآب الذي انتهى بتجسده وتأنسه.

صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله:

وإذا درسنا محتويات إنجيل يوحنا فلن يكون من الصعب أن نبلغ إلى لقب «ابن الله» كلقب هو الأكثر مناسبة للمسيح، فجميع أقواله وأعماله تثبت بكل جرأة وتأكيد العلاقة الوثيقة والإتحاد الكامل مع أبيه. كما يؤكد هو ويشهد لنفسه أنه ابن الله (يو ١٠: ٣٦).

والعوامل التي تبرز شخص المسيح وتكشف عن لاهوته وبنوته الفريدة لله كثيرة:

١ - فمعرفة المسيح بكل الناس معرفة كاشفة لأفكارهم ونياتهم ومستقبل تصرفاتهم توضح حقيقة لاهوته. فهو قادر دائماً أن يقرأ ما في القلوب ويرد على الأفكار الحائرة دون سؤال:
+ «ورأى يسوع نشنايل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نشنايل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب

نشائيل وقال يا معلم أنت ابن الله.» (يو: ٤٧-٤٩)

+ «وآمن كثيرون باسمه... لكن يسوع لم يأتهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان في الإنسان.» (يو: ٢٣-٢٥)

+ «أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسناً قلتِ ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك، هذا قلتِ بالصدق. قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي.» (يو: ١٧-١٩)

+ «لكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم.» (يو: ٤٢)

+ «ولكن منكم قوم لا يؤمنون. لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يُسلمه.» (يو: ٦٤)

+ «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون.» (يو: ١٨: ٤)

٢ - بل ويعلم من هو ومتى كان!!:

+ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن *ἐγώ ειμι*» (يو: ٨: ٥٨). وترجمتها الدقيقة: «قبل أن يأتي إبراهيم إلى الوجود أنا كائن».

٣ - ويعلم مدى سلطانه وماذا وضع الله في يديه ومن أين أتى وإلى أين يذهب:

+ «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)

+ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو: ١٣: ٣)

+ «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب.» (يو: ٨: ١٤)

+ «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو: ١٦: ٢٨)

٤ - ويعلم ماذا سيعمل ومتى يكمل العمل:

+ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل فلما كان يمشي قال أنا عطشان.» (يو: ١٩: ٢٨)

٥ - وفي حضرته ليس التلاميذ فقط كانوا يخافونه بل وبيلاطس نفسه :

+ «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا.» (يو: ٦: ١٩)

+ «أجابه اليهود: لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله. فلما سمع

بيلاطس هذا القول ازداد خوفاً.» (يو: ١٩: ٨ و ٧)

٦ - وحينما استنار المعمدان بالروح استطاع أن يتعرف على من هو المسيح :

+ «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ١: ٣٤)

+ «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو: ٣: ٣١)

+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)

+ «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة أبدية بل يمكث عليه

غضب الله.» (يو: ٣: ٣٦)

على أن معنى «غضب الله» بالمفهوم الإيجابي الروحي في إنجيل يوحنا، هو الانفصال عن دائرة

حب الله والحياة معه المعلنه في ابنه.

كذلك عمومية رسالة المسيح في إنجيل يوحنا: برفع خطية العالم، خلاص العالم، دينونة العالم،

إنارة كل إنسان آت إلى العالم، رعاية حظائر أخرى غير حظيرة إسرائيل، وموته ليس عن أمة اليهود

فقط بل وليجمع أبناء الله المتفرقين، وقد رأى فيه السامريون عن خبرة أنه «مخلص العالم»

(يو: ٤: ٤٢)؛ هذه العمومية المطلقة سواء لخلاص العالم أو دينونة العالم توضح ارتفاع وعلو شخصية

المسيح فوق مستوى النبوة العادية بدون قياس.

وأعمال المسيح الإلهية المطابقة لعمل الله والصادرة من إرادة الآب تشهد لبنوته ومساواته للآب،

ووحدته معه. وهذا ما ركز عليه المسيح نفسه في شهادته لبنوته للآب.

«الآب» و«الإبن» في إنجيل القديس يوحنا:

وقد ورد في إنجيل يوحنا تعبير «الإبن» بصفته المطلقة بدون ذكر الآب كما ورد تعبير

«الآب» بدون ذكر الإبن، كما يتبادل لفظ «الآب» مع لفظ «الله» عند ذكر إرسال الإبن.

وكل منها - أي الآب والإبن - له أعمال وله صفات الألوهة متبادلة دون أي تمييز «بتساوٍ

مطلق» مما يستبعد أي ثنائية في الطبيعة. ثم يعود الإنجيل ويذكر الآب والإبن في توافق وحب

ومجد وكرامة وإرادة ومشية وفكر وقول وعمل واحد مما يؤكد «الوحدة» المطلقة في الذاتية.

ومن التساوي المطلق بين الآب والإبن مع تبادل الوجود والكيان، يوضح قيام شخصين

متعادلين أو كما تسميهم الكنيسة أقنومين: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو: ٨: ١٨)، «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ١٧). ثم من واقع إتحداهما إتحاداً مطلقاً: «أنا في الآب والآب فيّ» (يو: ١٤: ١٠)، و«أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠)، يتضح أنها ذات واحدة!!

فالآب والإبن لهما طبيعة واحدة أي جوهر إلهي واحد وهما ذات واحدة؛ بمعنى أن الذات الواحدة لله تحمل الأبوة والبُنة معاً. وهذا ليس غريباً عن واقع أي «ذات». فالذات البشرية هي بحد ذاتها أب وابن معاً لا يفرقهما إلا الزمن. فكل أب كان ابنًا، وكل ابن يمكن أن يصير أباً والذات هي هي. ولكن لا يوجد في ذات الله عامل الزمن فهو أب وابن دائماً ومنذ الأزل ولم يكن الله قط أباً بدون ابن ولا كان ابنًا بدون أب. فكيفانها واحد وكل واحد كائن في الآخر. وهذا هو سر الله أو سر اللاهوت الذي كان مخفياً عن عقل الإنسان وإدراكه إلى أن أعلنه الله بإرساله ابنه — متجسداً علناً — لتجديد خلقة الإنسان.

أولاً: الإبن: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

١: ١٤: «مجد كما لوحيده لأبيه» ὁ μονογενής.

٣: ١٦: «أحب الله العالم حتى بذل الإبن الوحيد» (بحسب الأصل اليوناني).

٣: ١٧: «لم يرسل الله الإبن إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (بحسب الأصل اليوناني).

٣: ٣٥: «الآب يحب ،، الإبن ،، وقد دفع كل شيء في يده».

٣: ٣٦: «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية».

٣: ٣٦: «الذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله».

٥: ١٩: «لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل».

٥: ١٩: «لأن مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الإبن كذلك».

٥: ٢٠: «لأن الآب يحب ،، الإبن ،، ويريه جميع ما هو يعمل».

٥: ٢١: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك ،، الإبن ،، أيضاً يحيي من يشاء».

٥: ٢٢: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للإبن».

٥: ٢٣: «لكي يكرم الجميع ،، الإبن ،، كما يكرمون الآب».

٥: ٢٣: «من لا يكرم ،، الإبن ،، لا يكرم الآب الذي أرسله».

٢٦:٥ : «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى ،،الإبن،،، أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» .

٤٠:٦ : «كل من يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير» .

٣٥:٨ : «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما ،،الإبن،،، فيبقى إلى الأبد» .

٣٦:٨ : «فإن حرركم ،،الإبن،،، فبالحقيقة تكونون أحراراً» .

١٤:١٣ : «مهما سألتكم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب ،،بالإبن،،» .

١٧:١ : «أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ،،ابنك،،، ليمجدك ،،ابنك،،، أيضاً» .

ويلاحظ أنه ورد في ١٦:٣ و١٧ أن الإبن منسوب «الله» بكل وضوح عوض «الآب»، كما في مواضع أخرى كثيرة: «الله... بذل الإبن» (١٦:٣)، «الله أرسل الإبن» (١٧:٣)، هنا تتراح كلمة «الآب» بعد ذلك في كل موضعها على «الله» بدون اهتزاز.

كذلك يلاحظ أن هذه الشواهد كلها تقريباً نطقها «المسيح» بنفسه، فأوضح أنه هو هو «الإبن» كما قال بوضوح: «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي» (يو٨:٣٨)

فإذا بحثنا في الشواهد الخاصة بالإبن التي وردت عليه نستخلص منها رسالة «الإبن» الخاصة به والتي تفوق قمة أي نبي بل وجميع الأنبياء والملائكة والرؤساء معاً، فليخصها في الآتي:

١ - إرسالية «الإبن» من «الله» أو «الآب» للعالم كله!! كرسالة خلاص نحو العالم؛ تتناسب مع العلاقة التي تربط الآب بالإبن، قام بها الإبن بصورة كاملة وفائقة.

٢ - انتقال محبة الله إلى العالم عن طريق محبة الآب للإبن.

٣ - قيام الإبن بأعمال خير وصلاح نحو العالم هي أصلاً أعمال الله الخاصة لم يكن ممكناً أن يقوم بها إلا الآب شخصياً.

٤ - تقديم الطاعة والمحبة والمجد لله الآب. قام بها الإبن نيابة عن العالم فكانت أعظم عمل تقبله الله الآب من البشرية؛ جاء على مستوى عظمته.

٥ - رفع حالة الإنسان عامة من حالة العبودية إلى حالة البنوة لله، كعمل يستحيل أن يقوم به إلا الإبن بمؤهلاته الخاصة جداً.

٦ - إيجاد علاقة حب صميمية بين البشرية والله الآب تسمح بأن يطلب الإنسان من الله مهما يشاء باسم ابنه فيستجيب الله بتوسط شفاعته الإبن عند الآب.

٧ - كل مخصصات الابن عند الآب من حب ومجد وحياة أبدية سلمه الابن للبشرية «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو ١٧: ٢٢)

ثانياً: «الآب»: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

أ - الآب الذي أرسلني:

٣٦: ٥ «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني.»
٣٧: ٥ «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.»
٤٤: ٦ «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه ،، الآب ،، الذي أرسلني.»
٥٧: ٦ «كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي.»
١٦: ٨ «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.»

١٨: ٨ «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي ،، الآب ،، الذي أرسلني.»
٣٦: ١٠ «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنني قلت إني ابن الله.»

٤٩: ١٢ «لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.»

٢٤: ١٤ «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل ،، للآب ،، الذي أرسلني.»
٢١: ٢٠ «فقال لهم يسوع أيضاً: سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.»

وضع لفظ «الله» بدل «الآب» في إرسال الابن:

١٧: ٣ «لأنه لم يرسل ،، الله ،، ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم.»
٣٤: ٣ «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.»
٢٩: ٦ «أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل ،، الله ،، أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.»
٤٢: ٨ «لأنني خرجت من قبلي الله وأتيت. لأنني لم آت من نفسي.»

المسيح يخاطب الآب في الصلاة بصفته الإله الحقيقي الذي أرسله:

١١: ٤١ و ٤٢: «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي... ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا أنك أرسلتني.»

٣: ١٧ «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.»

- ١٧:٨: «وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أَنِّي خرجت من عندك وآمنوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي» .
- ١٧:١٨: «كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتَهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ» .
- ١٧:٢١: «لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي» .
- ١٧:٢٣: «أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فَيَّ لِيَكُونُوا مَكْمَلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي» .
- ١٧:٢٥: «أَيُّهَا الْآبُ الْبَارِ إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ وَهَؤُلَاءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي» .

ب - الْآبُ يَعْطِي الْإِبْنَ :

- ١٧:١١: «أَيُّهَا الْآبُ الْقُدُّوسُ احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ ،، الَّذِي أَعْطَيْتَنِي ،، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ .»^(٨)
- ١٧:١٢: «حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي» .
- ١٧:٢٢: «وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتَهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَا نَحْنُ وَاحِدٌ» .
- ١٧:٢٤: «أَيُّهَا الْآبُ أُرِيدُ أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا» .
- ١٧:٨: «لَأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتَهُمْ» .
- ٥:٣٦: «وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوْحَنَّا لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الْآبُ لِأَتَكْمِلَهَا هَذِهِ الْأَعْمَالَ بَعِينَهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي» .
- ١٧:٤: «أَنَا مَجْدُكَ عَلَى الْأَرْضِ . الْعَمَلُ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتَهُ» .
- ٣:٣٥: «الْآبُ يَحِبُّ الْإِبْنَ وَقَدْ دَفَعَ (أَعْطَى) كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ» .
- ١٣:٣: «يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الْآبَ قَدْ دَفَعَ (أَعْطَى) كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ» .
- ٥:٢٦: «لَأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الْإِبْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ» .
- ٥:٢٢: «لَأَنَّ الْآبَ لَا يَدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدِّينُونَةِ لِلْإِبْنَ» .
- ٥:٢٧: «وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينُ أَيْضاً لِأَنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ» .
- ١٧:٢: «مَجْدُ ابْنِكَ لِيَمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيَعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ» .
- ٦:٣٧: «كُلُّ مَا يَعْطِينِي الْآبُ فَإِلَيَّ يُقْبَلُ وَمَنْ يُقْبَلُ إِلَيَّ لَا أَخْرُجُهُ خَارِجاً» .

(٨) بحسب الأبحاث ومراجعة المخطوطات الموثوق بها ثبت صحة «... اسمك الذي أعطيتني»، وليس «... الذين أعطيتني» .

أنظر: Schnackenburg, According to St. John, vol. 3, p. 179.

٦:٣٩: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمهُ في اليوم الأخير» .

١٠:٢٩: «أبي الذي أعطاني إياها (الخراف) هو أعظم من الكل» .

١٧:٦: «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم» .

١٧:٧: «والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك» .

١٨:٩: «ليتّم القول الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحداً» .

٦:٣٢-٣٥: «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء: لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم... أنا هو خبز الحياة...»

٥١: الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» .

وهذه هي أعظم عطية أعطاها الله الآب للعالم على أساس المحبة، أعطاه المسيح مبدولاً من أجل حياة العالم حتى لا يهلك كل من يؤمن به!

١٢:٤٩ و٥٠: «لأنني لم أتكلّم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلّم وأنا أعلم أن وصيته (تُختم بالصليب) هي حياة أبدية» .

١٤:٣١: «ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب هكذا أفعل» .

١٠:١٨: «ليس أحد يأخذها (أي نفسه) مني بل أضعها أنا من ذاتي (أموت بإرادتي). لي سلطان أن أضعها (أموت) ولي سلطان أن آخذها أيضاً (القيامة) هذه الوصية قبلتها من أبي!!» .

١٥:١٠: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته» .

١٨:١١: «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد. الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» .

وكانت هذه العطية هي لمجد المسيح وخلاص العالم.

ج - الآب يحب الابن:

كشّف سر عمق وحدة الآب مع الابن وانعكاسها على حياة المسيح على الأرض.

١٣:٣٥: «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده» .

٥:٢٠: «الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعملهُ وسيريه أعمالاً أعظم...» .

١٠:١٧: «لهذا يحبني الآب لأنني أضع نفسي لأخذها أيضاً» .

١٥:٩: « كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا » .

هذه الآيات والآيات الأخرى التي توضح الإتفاق بل الإنطباق الكلي بل الوحدة المشتركة في القول والعمل والسلوك حتى الموت، هذه كلها منبعها وحدة الجوهر أي الطبيعة مُضافاً إليها عمق الحب الإلهي المطلق بين الآب والإبن . هذا الذي رفع سيرة المسيح إلى مستوى الألوهة في كل شيء ولكنها ألوهة تفيض بالحب والحنان والإنعطاف الفائق نحو البشر . فهي قوة لاهوت مصبوبة في قالب من العواطف البشرية التي تسمو فوق قامة البشر . وهذا بالتالي ينطق بالعلاقة التي تربط المسيح بالله فهي فعلاً وبالضرورة علاقة ابن بآب، إنما على مستوى لاهوت . أو كيف يمكن أن يقول المسيح « قد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض » ؟ أو « كل شيء دُفع في يدي » ؟ أو أن كل الدينونة أُعطيت لي ؟ أو أنه يعطي الحياة الأبدية ويقيم من الموت الجسدي والروحي ؟ أو أن الآب يمجّده عند ذاته بالمجد الذي له قبل كون العالم ؟ أو أنه في الآب والآب فيه أو أنه يعرف كل ما عند الآب ؟ أو أن كل ما للآب هو له أو أنه هو والآب واحد ؟ لهذا قال المسيح عن حق أن مَنْ يعرفه يعرف الآب وَمَنْ يراه فقد رأى الآب !! وكانت هذه منتهى رسالته في استعلان الله .

د - الآب يشهد للإبن (١)، يضمن ويساند ويختّم:

٥:٣٧: « الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي » .

٨:١٨: « أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني » .

واضح من كل ما سلف من الآيات أن الآب أرسل الإبن فصار يضمن رسالته ويساندها وبخاصة فيما يضطلع به الإبن من استعلان حقيقة الله وعمل الخلاص الذي جاء ليكمّله . كما هو واضح أنه وقف وراء كل الأعمال والأقوال: « لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم » . (يو ١٢: ٤٩ و ٥٠)

كما أنه واضح أيضاً كيف يساند الآب كل مجهودات الإبن فهو الذي يجذب المهتئين للإيمان ليُقبلوا إليه (يو ٦: ٣٧ و ٤٤)؛ كما يساند بشهادته سواء العلنية من السماء بالصوت المسموع (يو ١٢: ٢٨) أو بالأعمال التي تبرز مجد الإبن (يو ٥: ٣٦) . وما شهادة المعمدان للمسيح التي كان لها أكبر الأثر في بدء الخدمة إلاّ تدخل مباشر من الآب . كما أن إرسال الروح القدس لتكميل الشهادة ولمواظرة عمل المسيح وتكميله وتمجيده ما هي إلاّ تدبير خاص من الآب . بل وأيضاً فإن

(١) أنظر الباب الثالث، الفصل الأول ص ١١٢ .

قبول واستجابة صلاة المؤمنين باسم المسيح هي مجد ذاتها تمجيد للآب وللإبن وتركبة فائقة لعمله :
 «ومهما سألتكم باسمي فذلك أفعله ليمجد الآب بالإبن» (يو ١٤: ١٣)؛ «في ذلك اليوم تطلبون
 باسمي. ولست أقول لكم: إني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد
 أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٦ و ٢٧)

ثالثاً: «أبي»: ورود الكلمة بصورتها التخصّصية في فم المسيح:
 كثيراً ما يدعو المسيح الله الآب أباً خاصاً له «أبي»:

- ١٦: ٢ : «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة».
- ١٧: ٥ : «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل».
- ٤٣: ٥ : «أنا قد أتيت باسم أبي».
- ٣٢: ٦ : «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء».
- ١٩: ٨ : «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً».
- ٢٨: ٨ : «أتكلم بهذا كما علّمني أبي».
- ٤٩: ٨ : «لكني أكرم أبي وأنتم تهينوني».
- ٥٤: ٨ : «أبي هو الذي يمجّدي».
- ١٨: ١٠ : «هذه الوصية قبلتها من أبي».
- ٢٥: ١٠ : «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي».
- ٢٩: ١٠ : «أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي».
- ٣٢: ١٠ : «أعمال كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي».
- ٣٧: ١٠ : «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي».
- ٢: ١٤ : «في بيت أبي منازل كثيرة».
- ٧: ١٤ : «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً».
- ٢٠: ١٤ : «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم».
- ٢١: ١٤ : «الذي يحبني يحبه أبي».
- ٢٣: ١٤ : «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي».
- ١: ١٥ : «أنا الكرامة الحقيقية وأبي الكرام».
- ٨: ١٥ : «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بشمر كثير فتكونون تلاميذي».
- ١٠: ١٥ : «كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته».

- ١٥:١٥ : «لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» .
 ١٥:٢٤ : «أبغضوني أنا وأبي» .
 ١٦:١٠ : «إني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً» .
 ٢٠:١٧ : «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» .

لم يجرؤ أحد غير المسيح أن يدعو الله أباً خاصاً له بهذا المعنى الفريد «أبي» . فنحن ندعو الله «أبانا» بمعنى أنه أب لجميعنا بالتساوي ، وأما أن يدعو أحد «أبي» فهذا يعني أن له بنوة فريدة من نوعها أي أنه «الإبن الوحيد» . ولم يفت على الفريسيين ما في هذه العبارة من خطورة إذ لما قال لهم المسيح «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» أرادوا أن يرموه بتهمة أنه «دعا الله أباً خاصاً له *πατέρα ἰδίου* جاعلاً نفسه مساوياً لله *ἴσον τῷ θεῷ*» (يوه: ١٨ - بحسب الأصل اليوناني) . فعبارة «أبي» في فم المسيح تعني أن المسيح يعتبر نفسه ابن الله الوحيد بل والمساوي أيضاً للآب ، بشهادة الفريسيين أنفسهم !

وبلاحظ أن في إنجيل يوحنا كله لا نجد أي ذكر لله بأنه أب لنا إلا مرة واحدة فقط في الآية الأخيرة التي ذكرناها ، وهي التي قالها الرب للمجدلية بعد القيامة «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» . فالقديس يوحنا يحتجز إعلان أبوة الله لنا إلى ما بعد القيامة (بخلاف الأناجيل الثلاثة الأولى - أنظر مثلاً مت ٦: ٣٢) . وفي هذا إشارة لاهوتية إلى أن بنوتنا نحن لله لم تتحقق بالفعل إلا بعد الصليب والقيامة ، أي بعد أن دفع ثمنها الإبن الوحيد . وفي نص هذه الآية «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» ما يفيد التبادل الخلاصي العجيب الذي تم بيننا وبين «ابن الله» . فالله أصلاً ليس أباً لنا بل هو أب للإبن الوحيد ، وأما لنا فهو إلهنا ونحن عبيد له ، كذلك الله لم يكن أصلاً إلهاً للإبن الوحيد بل أب مساوٍ في الكرامة والألوهة ، ولكن لما تجسد صار الله إلهاً للإبن الإنسان !!

فلما اشترك ابن الله في حال عبوديتنا ، أشركنا معه في بنوته ، فصار أبوه الخاص أباً لنا نحن أيضاً . «هو أخذ الذي لنا (حال عبوديتنا فصار الله إلهاً له) ، وأعطانا الذي له (البنوة لله فصار الله أباً لنا) فلنسبحه ونمجده ولنزيده علواً» !

لكن لينتبه القارئ ! فإن بنوتنا نحن لله لا يمكن أبداً أن تتساوى مع بنوة «ابن الله» الوحيد . فنحن أبناء بالتبني ، وأما هو فهو يتي الإبن الوحيد بحسب الطبيعة والجوهر . وإمعاناً في إبراز الفرق بين بنوتنا نحن لله وبنوة الإبن الوحيد ، يتبع القديس يوحنا قاعدة ثابتة في كل إنجيله ورسائله ولا يحيد عنها ولا مرة واحدة ، وهي أنه يدعونا نحن باستمرار «أولاد الله» *τὰ τέκνα τοῦ θεοῦ* ،

الطريق من الآب وإليه:

لقد افتتح الآب بنفسه الطريق من السماء إلى قلب الإنسان بإرساله الابن، كما افتتح الابن بموته على الصليب وارتفاعه الطريق من الإنسان إلى قلب الله. وبمنتهى رضى الآب أعد الابن منازل كثيرة في بيت الآب مهياً لاستقبال من سيأخذهم إلى هناك «ليكونوا حيث يكون هو»، «وليتبعوا الخروف أينما سار».

الآب هنا يأخذ على عاتقه تكريم محبي ابنه ويقبلهم ويحبهم «لا تضرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي... لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ١-٩)

في جميع هذه الآيات التي انتخبناها والتي تخص «الابن» والتي تخص «الآب» تتضح العروة الوثقى التي تربط الآب بالابن، وتُستعلن أعماق الصلة بينها التي تؤلف جوهر الديانة المسيحية ومنهجها وقوة الخلاص القائمة على هذه الصلة والنابعة منها والتي تصب فيها^(١٠). حيث محور المسيحية الأساسي وقلبها النابض وسرّها المعلن يتركز في صفة المسيح الجوهرية التي تجسد بها: أنه «ابن الله». فهي كلمة السر أو مفتاح الاستعلان الذي به ندخل إلى الله الآب وإلى مضمون الخلاص والحياة الأبدية وتجديد الإنسان. بل ونكتشف من هذه الصلة أسرار الحب الإلهي بين الآب والابن والعمل المشترك النابع من هذا الحب بائتلاف يفوق الوصف حباً في الإنسان وخلاصه وإعادته إلى كرامته الأولى.

ومن نجاح المسيح المذهل في طاعة الآب لتكميل إرادة الخلاص التي حملها إلى الأرض حتى الموت، وتكريمه وتمجيده للآب على الأرض وتكميله للعمل الذي أعطاه إياه، وفتح باب الخلاص الأبدي وإعلان بدء ملكوت الله بكل قدرة وسلطان، الذي نال عليه كل المجد «مجدت وأمجّد أيضاً» يتضح بأبلغ بيان أنه حقاً «ابن الله».

(١٠) أنظر هامش (١) ص ١١٣.

أما إرسال الروح القدس «روح الموعد القدوس» حسب وعد الإبن الذي تم علنا لتكميل الشهادة والرسالة التي اضطلع بها «ابن الله»، والذي لا يزال يعمل حتى اليوم وهذه الساعة في كل أنحاء العالم؛ فهو ختم صديق الله والمسيح الذي نتمسك به حتى الموت.

وبهذا صار «ابن الله» هو رأس مال الكنيسة وأساسها وجوهر لاهوتها وقوة خلاصها وفخر مسيحيتها.

وهكذا وفي ختام بحثنا عن «ابن الله»، وهي الصفة الجوهرية القائمة في الله التي استُعلنت في المسيح وكانت هي سر حياته وموته وقيامته والتي صارت أساساً للاهوت المسيحي، نجد أن هذه الصفة في إنجيل يوحنا مُعلنة بصورة عملية بعيداً عن مجادلات الفكر كحقيقة ينصبُّ عملها في خلاص الإنسان على أساس الفداء، أي الموت الذي جازه المسيح عن البشرية كلها وقيامته التي أنهى بها حكم الموت عن الإنسان.

وبذلك صار جوهر الإيمان المسيحي هو التجديد الروحي الكلي للمؤمن الذي صنعه المسيح بدمه وروحه ليؤهله للحياة الأبدية مع الله: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله»، «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله»، «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح.» (يو ٣: ٣ و ٥ و ٦)

— «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس.» (مت ٢٨: ١٩)

— «مَن آمَن واعتمد خلص.» (مر ١٦: ١٦)

ه — «أنا هو» = ἐγώ εἰμι

وهو لقب الكينونة الإلهية

ينفرد إنجيل يوحنا دون بقية الأناجيل في استخدام هذا اللقب كما هو في أسفار العهد القديم بصورة مكثفة، فقد ورد فيه هذا اللقب على لسان المسيح ٢٦ مرة في حين ورد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أربع مرات.

ويُعتبر هذا اللقب لقباً استعلائياً في إنجيل يوحنا، فهو يلفت النظر أن المتكلم هو نفس المتكلم في أسفار العهد القديم: «أنا هو الرب»، «أنا هو الرب الإله».

ويزيد إنجيل يوحنا في الإمعان للتأكيد على استعلان المسيح بهذا اللقب، بأن جعله اسماً شخصياً للمسيح في بعض المواضع، تماماً كما جاء كذلك في بعض مواضع العهد القديم للتعبير عن اسم الله. بل ويزيد على ذلك — ولكن بصورة استعلانية يكشف فيها مصدر الاسم — بأن يقول المسيح لله: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١١)؛ و«حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١٢). بمعنى أن اسم المسيح «أنا هو» الذي نادى به هو «اسم الله» الذي أعطاه الله للمسيح ليتكلم به معلناً أنه هو هو كلمة الله وأنه هو رسالة الله الشخصية، وهو حينما يتكلم فالله هو المتكلم.

وبسبب أهمية هذه الحقيقة ووضعها اللاهوتي الخطير، أوليناها عناية فائقة لما يضيفه هذا اللقب على المسيح في إنجيل يوحنا من قيمة استعلانية تفوق في وزنها كثيراً الإعتبارات الأخرى.

ولهذا رأينا أن نقدم مختصراً نبحت فيه أصول هذا اللقب ومعانيه. وقد رتبنا هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في أسفار العهد القديم.

ثانياً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة.

رابعاً (١١): فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

(١١) لم تُكتب كعنوان محدد، ولكن سنركز اهتمامنا في أثناء عرضنا لهذه الثلاثة فقط على فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

أولاً : لقب « أنا هو Eγώ εἰμι » في أسفار العهد القديم

جاء « أنا هو » في كلام الله خلال أسفار العهد القديم أول ما جاء ليعبر عن اسم الله، كما أعلمه إبراهيم أولاً ثم موسى ثم شعب إسرائيل، ولكن بالفاظ متغيرة سنأتي على ذكرها جميعاً.

واسم الله في الحقيقة ليس، كأي اسم مجرد، اسم عَلِمَ يُعرف به الإنسان من بين الناس، ولكن اسم الله جاء يحمل طبيعة الله وصفاته، وهي عناصر أساسية يتكون منها الاسم، وصارت هي نفسها عناصر الإيمان بالله نفسه. لذلك يتمتع معرفة الله إلا إذا آمن الإنسان بعناصر هذا الاسم الذي تحوطه الأسرار والهيبة والجلال.

فالذي يؤمن باسم الله هو الإنسان الذي عرف طبيعة الله وأدرك صفاته وبالتالي انصوى تحت سلطانه وخضع لمشيئة صفاته. من هذا نفهم لماذا كان « الاسم »، أي اسم الله، محل رهبة وخافة وحذر شديد. وتمثّلنا النسخة السبعينية لترجمة التوراة بالنص الأصلي والصحيح للآية لاويين ٢٤: ١٦: « كل من نطق باسم الرب موتاً يموت، كل جماعة إسرائيل ترجمه بالحجارة سواء كان دخيلاً أو مواطناً، يموت لأنه نطق باسم الرب ». ولكن الترجمة العربية أوردتها: « كل من جَدَّف ». إن اسم الله كان غير كلمة « الرب ». أما كلمة « الرب » فقد وُضعت مكانها تفادياً لنطق الاسم الذي كان عليه هذا التحذير، وسيأتي الكلام عليه.

اسم الله: يَهُوَه YHVH

نقرأها في سفر الخروج ٣: ١٥: « وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهُوَه (١٢) إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم ».

ويوه بحروفها اللاتينية YHVH (١٣) بدون تشكيل وردت بالإنجليزية Yahwah. ولكن في عصر النهضة حوالي سنة ١٦٠٠م عُدلت الكلمة فصارت تُكتب Jehova، غير أن الكلمة « يَهُوَه » بنطقها الأصلي ضاعت معالمها وطريقة نطقها من اللسان اليهودي، وذلك منذ حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بسبب إحجامهم عن كتابتها أصلاً في الأسفار، إذ بسبب الخوف والرهبة من هذا الاسم

(١٢) جاء في هامش الكتاب المقدس — طبعة بيروت — تفسيراً لهذه الكلمة هكذا: [يوه في العبرانية اسم علم للإله الحقيقي معناه « يكون » وقد تُرجم في هذه الترجمة بلفظة « رب »].

(١٣) أنظر: Oxford Dict. of Chr. Chur.: Yahwah

استبدلوه بالكلمة العبرية «أدوناي» التي في العربية «الرب»، وفي الإنجليزية Lord ، وفي اليونانية κύριος كما جاءت في النسخة السبعينية، وفي اللاتينية Dominus كما جاءت في القولجاتا، وفي الألمانية Herr ، وفي الفرنسية Seigneur .

أصل كلمة يهوه وعلاقتها بـ «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$:

أول ما جاءت كلمة «يهوه» كما سبق وقلنا كانت في سفر الخروج كتلقين من الله لموسى ليُعلم بها شعب إسرائيل. ولكن جذورها الأولى ظهرت في آية سابقة في نفس الأصحاح: «فقال موسى لله ها أنا آتى إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: **أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهِ**». وقال هكذا تقول لبني إسرائيل **أَهْيَهِ** أرسلني إليكم». (خر ٣: ١٣-١٤)

وفي هامش الكتاب المقدس - طبعة بيروت - يقدم المترجم تفسيراً عربياً للكلمة ويقول: ومعناه «**أَكُونُ الَّذِي أَكُونُ**». هذا يفسر لنا معنى اسم الله فهو يعني الكائن، لأن الأصل اليوناني لهذا الاسم «أهيه الذي أهيه» هو « $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \delta\ \omega\upsilon$ » وترجمتها بالإنجليزية «**I am the being**» أي «أنا الكينونة».

وقد وصلنا التفسير العبري لهذا الإصطلاح «**أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهِ**» إذ يقول أن معناها: «**I am who cause to be**»، أو «**I am he who cause to be**». وترجمته: «أنا الذي أقيم الكيان أو الوجود» أو «أنا هو الذي أقيم الكيان أو الوجود».

أما ظهور الله لإبراهيم فقد عرّف فيه نفسه لإبراهيم هكذا: «أنا الله القدير» (تك ١٧: ١). وجاءت بالعبرية: «إلوهيم شداي».

وقد أعلم الله موسى أنه سابقاً لم يكن يُعرف باسم يهوه «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي **يهوه**، فلم أعرف عندهم». (خر ٦: ٣ و ٢)

بدء تدهور النطق واختفاء الكلمة «يَهْوَه» وظهور «أنا هو»:

وبسبب التحذير الواضح من نطق اسم الله كما جاء في لاويين ٢٤: ١٦ - طبعاً في غير الصلوات والتلاوات فإنهم اكتفوا بالكلمة «أدوناي» بدلاً منها - بدأ الاسم «يهوه» ينحصر في الاستخدام الطقسي فقط، ثم بعد ذلك بدأ يزحف على المخطوطات كلها، فلكي يتحاشى القارئ نطق يهوه - (التي لا نعرف الآن لا نحن ولا اليهود في كل العالم نطقها الصحيح) - وضعوا عليها

تشكيلاً من عندهم هو نفسه التشكيل الذي تنطق به أدوناي ، وهو فتحة ثم ضمة ثم فتحة ، حتى إذا لمح القارئ هذا التشكيل على كلمة YHVH ينطق أدوناي بدلاً عنها .

وأخيراً وفي القرن الثالث اتفق اليهود على حذف كلمة «يهوه» من المخطوطات ، ووضع كلمة «أدوناي» عوضاً عنها مع البادئة «أنا هو» ، حيث «هو» تأتي من كلمة «ألهيه الذي هو ألهيه» أي الكائن ، وفي مفهومنا العربي تعني «الهوية» أي الكينونة الشخصية أو ما نسميه تحقيق الشخصية . فـ «أنا هو» تعني «أنا الكائن بذاتي» . لذلك فإن «هو» تحسب في العبري في هذا الموضع فعلاً وليس ضميراً ، لذلك تجيء في الإنجليزية I am . فبدل أن كانت تُقرأ «أنا يهوه» صارت «أنا هو أدوناي» ، «أنا هو الرب» . وكثيراً ما تأتي «أنا هو» بدون تعريف آخر ، فتكون هي التعبير الكامل عن «يهوه» أي اسم الله .

وهكذا بعد أن كان الاسم «يهوه» هو الاسم الوحيد ، بدأ يزاحمه الاسم «أدوناي» . فإزاء ورود «يهوه» ٦٧٠٠ مرة في كافة الأسفار في القرن العاشر قبل الميلاد ، ورد لفظ «أدوناي» ٤٥٠ مرة ، وكثيراً ما كان يُضاف «أدوناي» على «يهوه» للتفخيم : «السيد الرب» (١٤) . حتى جاء زمن النسخة السبعينية حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، فأُبدلت يهوه نهائياً بأدوناي = الرب ὁ κύριος .

ولكن بقيت «أنا هو» ἐγώ εἰμι هي التعبير المباشر للإسم «يَهْوَه» . وهي شديدة التأثير على السمع ، حيث تعني كما قلنا : «أنا هو الكائن بذاتي ، والمقيم لكل كيان» . ولا يزال هذا الإسم يهوه وعلاقته بـ «أنا هو» محل أبحاث .

أنا هو ἐγώ εἰμι :

وهي إما تجيء بمفردها لتعبّر عن الإسم الكامل لله . أو تجيء ومعها الأسماء الأخرى :

١ — «أنا هو» وبال يونانية ἐγώ εἰμι .

وبالعبرية «أني هو» ani hu = אֲנִי הוּא :

٢ — أو تجيء ومعها «الرب» وبال يونانية κύριος .
وبالعبرية «أدوناي» adonai .

٣ — أو تجيء ومعها «الرب الإله» وبال يونانية κύριος ὁ θεός .
وبالعبرية «أني أدوناي إيل» : el, elohim .

وبلاحظ أنها في العبرية لا تأخذ الفعل hu «هو» = «am» فهي «أني أدوناي». أما في اليونانية فهي إما تأتي بدون فعل أو بالفعل «am» = «ἐγώ εἰμι» أو «ἐγώ». علماً بأن إضافة «الرب»، و«الإله» أو «الرب الإله» مع «أنا هو» تعتمد على موضع اسم الله من الآية: هل يقولها الله للتعريف بنفسه أو للتأكيد على وجوده أو للتحذير. ولكن للأسف الشديد فإنه وبالرغم من الحساسية الشديدة من جهة الإضافة أو الحذف بالنسبة للفظ «أنا هو» للتعبير عن اسم الله، نجد النسخة العربية كثيراً ما تحذف «هو» من النص وتقول مباشرة «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله» في حين أنها تأتي في النص اليوناني في السبعينية «أنا هو». وهذا في الحقيقة يضيّع علينا في النسخة العربية مفهوم «أنا هو» بحد ذاته في الآية. لذلك التزمنا بالرجوع إلى النص اليوناني في السبعينية في إيراد الآيات بجوار النص العربي.

وسوف يندهش القارئ حينما يعلم أن اسم الله «أنا هو» سواء جاء هكذا مطلقاً بدون إضافات أو مع الإضافات مثل «أنا هو الرب» أو «أنا هو الرب الإله»، جاء في مجموع أسفار العهد القديم ١٠٦ مرات، في حين أنه جاء في إنجيل يوحنا ٢٦ مرة، وفي بقية الأناجيل الثلاثة أربع مرات. وهذا يعني بوضوح أن إنجيل يوحنا هو إنجيل استعلاني كُتب بالروح خصيصاً ليستعلن «أنا هو الله» في كل ما يختص بـ «أنا هو» من معاني وأهداف لاهوتية.

وقد ورد هذا النص «أنا هو» في سفر اللاويين ٢٤ مرة، وفي الأصحاح التاسع عشر بمفرده ورد اثنتي عشرة مرة. وهذا بالنسبة لكونه السفر المختص بالفرائض والوصايا الهامة جداً، والتي لا يزال معظمها يُعتبر من أرقى التوصيات الأخلاقية الموروثة في العالم المتحضر مما يعني أنها كانت فرائض تأسيسية للبشرية كلها، ولذلك دُعِمها بإسمه إزاء كل فريضة هامة منها.

كذلك ورد في سفر حزقيال ٣٢ مرة، وهو سفر الأخرويات والرؤى والنبوات عن أيام المسيا، لذلك جاءت «أنا هو» كضمان عهد وتوكيد وعيد.

أما سفر إشعياء ففي جزئه الأول ١-٤٠ المعروف بإشعياء الأول فلم يرد فيه ولا مرة واحدة. ولكن من أصحاح ٤١-٦١ جاء ١٩ مرة، وهو ما يسمى بسفر إشعياء الثاني، وكلها تختص بتعزية إسرائيل عمّا أصابها وبما سيُعَوِّض لها بالحب والبركات والمعرفة والنور في أواخر الأيام.

علماً بأننا أسقطنا من أمثلتنا كل الآيات التي لم يرد فيها «أنا هو» أي التي تقول «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله»، وذلك لسبب واحد هو أننا بصدد شرح «أنا هو» ومعناها وقيمتها في إنجيل يوحنا.

وقد حدث في أيام ما قبل المسيح بمدة أن زاد التدقيق في عدم ذكر اسم «يهوه» حتى في الطقوس، فما كان من الكهنة الذين كانوا يسبحون بمزمور ١١٧ وهم يدورون حول المذبح بأوصاننا أن استعاضوا بالإلهام عن يهوه في «أنا هو يهوه» بأن قالوها تلقائياً «أنا وهو» (١٥) بدل «أنا هو يهوه» أي بإضافة واو العطف. ومنذ ذلك الحين سرت في كل الليتورجيات وفسرها المفسرون بعد ذلك (رابي فنحاس Pinchas — منتصف القرن الثاني) بأنها تعني إسرائيل كشعب «أنا وإسرائيل». ولكن الواضح أنها تعبير سرّي عن الله. وواضح أيضاً أن المسيح استخدمها أو فكاً رموزها حينما كان يقول «أنا وأبي»، «ولست أنا وحدي»، «أنا والآب الذي أرسلني».

المواضع الأساسية التي جاءت فيها «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » في العهد القديم

لكي نخرج بفكرة عامة جامعة عن الإصطلاح المقدس «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » الذي جاء في العهد القديم معبراً عن شخص الله، يمكننا حصر المواضع والأسباب التي جاءت فيها «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » في المجموعات المختارة الآتية:

١ — المجموعة الأولى:

ويأتي «أنا هو» لتستعلن شخص الله وكأنها رد على سؤال مضر: مَنْ أنت؟ فالله هنا يبادر بتعريف نفسه.

أ — خر ٢: ١٣ و ١٤: «فإذا قالوا لي ما اسمه؟ فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذي أهيه». وقد جاءت في السبعينية $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \theta\ \delta\epsilon\upsilon$ ويفهمها العبرانيون أنها تعني إما: I am he who cause to be أو I am who cause to be وترجمتها «أنا هو الذي يقيم الوجود» أو «أنا الذي أقيم الوجود». ولكن النسخة الإنجليزية ترجمتها I am the being أي «أنا الوجود» أو «أنا الكينونة».

والكلمة المُحيّرة هنا هي $\delta\epsilon\upsilon$. ولكي نعطي فكرة عنها نقرأها في آية أخرى وردت فيها بمعنى القادر على كل شيء أو كلّي القدرة:

¹⁵ C.H. Dodd. op. cit. 95.

خر ٦: ٣: «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، بأني الإله القادر على كل شيء...» باليوناني θεός ὧν . وتُقرأ « ὧν » في النسخة العبرية = شَدَّاي ، وتُترجم بالإنجليزية هكذا God Almighty . وبهذا تكون الكلمة اليونانية « ὧν » قد ظهرت أول ما ظهرت في زمن إبراهيم أب الآباء ، وكانت تعني «شَدَّاي» أي القادر على كل شيء = omnipotent . وظلت هذه الصيغة بهذا المعنى قائمة ومستخدمة بكل لغة حتى هذا اليوم أي «كُلِّي القدرة» .

ب - تك ١٧ : ١ : «وظهر الله لإبراهيم وقال له : أنا الله القدير. سِرْ أمامي وكن كاملاً» .

هذا هو الموقف الذي أشارت إليه الآية السالفة ونفس النص أيضاً «أنا الله القدير» . وواضح أن الله هنا يعرّف نفسه لإبراهيم لأول مرة . فهي بداية تاريخ تعرّف البشرية على الله ، أو بالحرى أول استعلان الله لنفسه للبشرية على مستوى التاريخ . ويلاحظ أن الترجمة العربية أسقطت «هو» مع أنها موجودة في النسخة السبعينية « ἐγώ εἰμι ὁ θεός σου » «أنا هو إلهك» . ولكن في الأصل العبري جاءت : «أني إيل شَدَّاي» بدون «هو» ، لأن «هو» هي أصلاً مرتبطة بـ «يهوه» ، ويهوه هو الاسم الكلي القداسة الذي أعلن أول ما أعلن لموسى النبي (خر ٦: ٣) : «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، بأني الإله القادر، على كل شيء وأما بإسمي ، يَهْوَه ، فلم أعرف عندهم» .

وهكذا صار «أنا هو يهوه» هو الاسم الرسمي عند شعب إسرائيل منذ أيام موسى النبي : «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه - إله آبائكم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب - أرسلني إليكم ، هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكرى إلى دور فدور» . (خر ٣: ١٥)

ج - تك ٢٦ : ٢٤ : «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له : أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأني معك» .

وفي الترجمة السبعينية جاءت « ἐγώ εἰμι ὁ θεός Ἀβραάμ » ، ويلاحظ أن السبعينية جاء فيها «أنا هو إله إبراهيم» ، بينما جاءت في

الترجمة العربية بدون «هو»: «أنا إله إبراهيم». كما يلاحظ أيضاً أن التعريف بإسم «أنا هو» في هذه الآية جاء معتمداً على ما شرحه الله عن نفسه من المعاني سابقاً لإبراهيم بسبب قوله: «أنا إله أبيك».

د - خر ٧: ٥: «فيعرف المصريون أنني أنا الرب حيناً أمدُّ يدي على مصر وأُخرج بني إسرائيل من بينهم».

في السبعينية جاء فيها «أنا هو الرب» «ἐγώ εἰμι ὁ κύριος».

هـ - خر ١٤: ١٨: «فيعرف المصريون أنني أنا الرب حين أتمجد».

في السبعينية جاء فيها «أنا هو الرب» «ἐγώ εἰμι ὁ κύριος».

و - مز ٤٦: ١٠: «كفُّوا واعلموا أنني أنا هو الله» «ἐγώ εἰμι ὁ θεός».

٢ - المجموعة الثانية:

وتأتى الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمّن: مَنْ أنت؟ وماذا تريد؟ ومواضعها دائماً في إعطاء الوصايا العشر وفي فرائض سفر اللاويين، وخاصة عند الكلام عن القداسة والتقديس لإعطاء الوصايا ضغطاً وتأكيذاً أو رهبة ووقاراً.

أ - خر ٢٠: ٢ و ٣: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر... لا يكن لك آلهة أخرى أمامي». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهك».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ب - خر ٢٠: ٥: «لا تسجد لمن ولا تعبد من لأنني أنا الرب إلهك إله غيور». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهك».

ἐγώ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ج - لا ١١: ٤٤: «إني أنا الرب إلهكم فتقدسون وتكونون قديسين لأنني أنا قدوس». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεός ὑμῶν

د - لا ١٩: ١٢: «لا تحلفوا باسمي للكذب فتُدّس اسم إلهك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεός ὑμῶν

هـ - لا ١٩٤: ١٤ : «لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة. بل اخشَ إهلك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

٣ - المجموعة الثالثة:

وتأتى الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمرة: من أنت؟ وما هي قدراتك الذاتية؟ وهي التي تختص بتفرد الله في الألوهة والقدرة والخلاص:

أ - يوثيل ٢: ٢٧ : «وتعلمون أني أنا في وسط إسرائيل وأني أنا الرب إلهكم وليس غيري». وفي السبعينية تجيء: «أنا هو وأنا الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι, καὶ ἐγώ κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

ب - إش ٤٨: ١٢ و ١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته. أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر ويدي أسست الأرض وعميني نشرت السموات». وفي السبعينية: «أنا هو الأول وأنا هو إلى الدهر».

ἐγώ εἰμι πρῶτος καὶ ἐγώ εἰμι εἰς τὸν αἰῶνα.

ج - إش ٤١: ٤ : «أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو». وصحتها في السبعينية: «أنا الله الأول وإلى نهاية المستقبل أنا هو».

ἐγώ θεὸς πρῶτος, καὶ εἰς τὰ ἐπερχόμενα ἐγώ εἰμι

د - إر ٢٣: ٢٣ و ٢٤:

«أَلَعَلِّي إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد... أنا يقول الرب. أما أملاً أنا السموات والأرض؟ يقول الرب». في السبعينية: «أنا هو الله من قريب». ἐγώ εἰμι θεὸς ἐγγίζων

هـ - حز ٣٧: ٥ و ٦ : «هكذا قال السيد الرب هذه العظام هاأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون، وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».

في السبعينية: «أنا هو الرب». ἐγώ εἰμι κύριος

«فتعلمون أنني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون».

في السبعينية جاءت: «أنا هو الرب». ἐγώ εἰμι κύριος.

ز - ملا ١: ١٤: «لأنني أنا ملك عظيم قال رب الجنود واسمي مهيب بين الأمم». في السبعينية: «أنا هو، ملك عظيم».

διότι βασιλεὺς μέγας ἐγώ εἰμι.

٤ - المجموعة الرابعة:

وتأتي فيها الأوصاف المضافة لـ «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمرة: من أنت؟ وماذا نستطيع عمله لنا؟ وفيها يقدم الله نفسه كمحامي الذنوب، والمخلص، والشافي، والمُعزي، والراعي، ومعلم الطريق، والمتكلم بالحق والبر.

أ - إش ٤٣: ٢٥: «أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها». وجاءت في السبعينية ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι. التكرار هنا للتأكيد وللتحميل على «أنا هو» باعتبارها اسماً شخصياً، وهي شديدة الشبه بقول المسيح المتميز في إنجيل يوحنا: «الحق الحق أقول لكم».

ب - مز ٣٥: ٣: «قل لنفسي خلاصك أنا».

في السبعينية «أنا هو». σωτηρία σου ἐγώ εἰμι.

ج - خر ١٥: ٢٦: «إني أنا الرب شافيك».

وفي السبعينية «لأنني أنا هو الرب إلهك شافيك».

ἐγώ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου.

د - إش ٥١: ١٢: «أنا أنا هو مُعزّيكم». وفي السبعينية: «أنا هو أنا هو».

ἐγώ εἰμι, ἐγώ εἰμι ὁ παρακαλῶν σε.

هـ - حز ٣٤: ١٥: «أنا أراعي غنمي وأربضها يقول السيد الرب وسيعلمون أنني أنا هو الرب». جاءت في السبعينية:

ἐγώ βοσκήσω ... ἐγώ ἀναπαύσω ... ἐγώ εἰμι κύριος.

و - إش ٤٨: ١٧ : « هكذا يقول الرب ، فاديك ، قدوس إسرائيل :

أنا الرب إلهك معلمك لتنتفع ،

وأمشيك في طريق تسلك فيه » .

وفي السبعينية : « أنا هو إلهك علمتك كيف تجد الطريق الذي

تسلك فيه » . $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \delta\ \theta\epsilon\acute{o}\varsigma\ \sigma\omicron\upsilon.$

ز - إش ٤٥: ١٩ : « أنا أنا الرب متكلم بالصدق (الحق) ومُخبر بالإستقامة » .

في السبعينية جاءت : « أنا هو أنا هو » . $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$

ح - نث ٣٢: ٣٩ : « انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معي . أنا أُميت وأُحيي » .

في السبعينية : « انظروا انظروا إني أنا هو » (إلحاح للتحذير).

$\acute{\iota}\delta\epsilon\tau\epsilon\ \acute{\iota}\delta\epsilon\tau\epsilon\ \delta\tau\iota\ \epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota.$

ه - المجموعة الخامسة :

وهي التي فيها تجيء « أنا هو » في وضعها الخاص كإسم « الله » . فجرد النطق بها يشير إلى أن الله هو المتكلم ويدعو إلى الإيمان به .

أ - إش ٥٢: ٦ : « لذلك يعرف شعبي اسمي . لذلك في ذلك اليوم يعرفون أنني ، أنا

هو ، المتكلم هأنذا » . وفي السبعينية ترجمتها الصحيحة : « لذلك فإن

شعبي سيعرف اسمي في ذلك اليوم إني ، أنا هو ، المتكلم » .

$\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \alpha\upsilon\tau\acute{o}\varsigma\ \delta\ \lambda\alpha\lambda\omega\upsilon$

ب - إش ٤٣: ١٠ : « أنتم شهودي يقول الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي

وتفهموا إني أنا هو » . وفي السبعينية تجيء الترجمة هكذا : « أنتم شهودي

وأنا أيضاً أشهد يقول الرب الإله وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا

وتفهموا إني أنا هو » . $\delta\tau\iota\ \epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$

يلاحظ أن « أنا هو » التي جاءت في هذه الآيات هي المقابل للعبري « أَنِي هُ

» אֲנִי הוּא وهي المترجمة بالإنجليزية « I am » . حيث يتضح أن « هو » في « أنا هو »

ليست مجرد ضمير بل فعل كينونة أو هوية . وهي من وجهة النظر العبرية ذات صلة أساسية

ب « يهوه » الإسم المقدس الذي يتحاشى اليهود كتابته أو قراءته .

وهذه النماذج التي قدمناها هي محاولة لحصر المعاني والمواقف التي قيلت فيها أو قيلت بسببها. ولكن بالرغم من تنوع المواقف والمعاني، إلا أن «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ تربطها معاً في وحدة الشخص والكيان المتكلم، وإن كانت الأسفار الأولى جاءت مشحونة بـ «أنا هو» على مستوى التعريف بقدرات الله الفائقة لإستعلان صفات الله بالنسبة للشعب عامة، لكن نجد الأسفار الأخيرة أي النبوات تجيء «أنا هو» فيها مشحونة أيضاً بالوعود القادمة من جهة التعزيات والفداء والخلاص وخاصة في سفر إشعياء. وهذا ينقلنا بسهولة إلى إنجيل يوحنا.

ثانياً: «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا

إذا تأملنا في موقف الله بالنسبة لإبراهيم حينما بدأ يعلن نفسه له دون كل عشيرته وأهله، أو بالنسبة لموسى وهو يرعى غنمات يثرون حميه على جبل سيناء، أو حينما استقبل شعب إسرائيل في مصر الخبر من فم موسى أن الإله الذي يُدعى يَهُوَه يدعوهم للخروج من بلد قُذُور اللحم والبصل والكُرات؛ نجد أن المسيح في بداية خدمته واستعلانه لنفسه سواء لتلاميذه الأخصاء أو للشعب اليهودي ذاته واجه نفس المواقف والظروف.

فإن كان الله في القديم رأى أن يتبدى يُعرّف نفسه من مصدر القوة هكذا فعل المسيح: «أنتم من أسفل أما أنا هو، فمن فوق.» (يو: ٨: ٢٣)

ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμι

«أنا هو لست من هذا العالم.» (يو: ٨: ٢٣)

ἐγὼ οὐκ εἰμι ἐκ τοῦ κόσμου τούτου.

«قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو، (كائن) ἐγώ εἰμι.» (يو: ٨: ٥٨)

وإن كان الله قد أعلن لهم قوة «أنا هو» بأنه يميت ويحيي (تث ٣٢: ٣٩)، فالمسيح رأى أن يعلن لهم هذا أيضاً: «كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء»، و«أنا هو القيامة والحياة.» (يو: ٥: ٢١؛ ١١: ٢٥)

وإن كان الله لما أراد أن يعدهم بوعود طيبة للغاية عضّدها بـ «أنا هو» كنوع من ضمان العهد، هكذا أيضاً وبالتمام فعل المسيح «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الطريق والحق والحياة.» (يو: ٦: ٣٥؛ ٩: ٤؛ ١٠: ١١؛ ١٤: ٦)

وهكذا تجد أيها القارئ العزيز أن «أنا هو» الله العهد القديم بكل معناها وبكل ما يسندها من قوة إلهية وبكل ما يدعو إليها من ظروف غاية في الأهمية، صارت هي «أنا هو» المسيح في إنجيل يوحنا بكل انطباق. ولم يجد المسيح أي حذر أو ما يدعو للحذر في استخدامها بالرغم من سطوع شكلها ونبراتها في أسماع اليهود، حتى إنهم لما سمعوها واضحة من فم المسيح رفعوا الحجارة ليرجموه لأنهم لم يخطئوا معناها ولا القصد منها!!!

ولكن — وهذا بكل تأكيد — لم يستخدمها المسيح كَمَثَرٍ يريد أن يعلن أنه هو الله!!، بل

استخدمها بالفعل ليستعلن الله الذي فيه، وأن يعلن بكل قوة ويقين عن «أنا هو» الله الذي فيه «أنا في الآب والآب فيّ» (يو ١٤: ١٠)، والآب والإبن واحد «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، هكذا رسالة المسيح العظمى هي استعلان الله فيه كآب واستعلان لاهوته كابن متجسد لله.

فإن كان المسيح في موقف استعلاني لذات الله بالحقيقة، فاستخدامه لـ «أنا هو» هي ضرورة حتمها التجسد. بل هي استمرار لاستخدام الله لـ «أنا هو» في الأسفار المقدسة القديمة بلا أي اهتزاز أو نشاز ومن مصدر السلطة ذاتها.

والمسيح لم يغفل مصدر السلطة الذي به يتكلم. «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» (يو ١٤: ٢٤). فـ «أنا هو» المسيح هي من داخل «أنا هو» الله الذي أرسلني، فوعد «الفداء» و«العزاء» و«الخلاص» و«القيامة» و«الحياة» التي وعدها الله في العهد القديم، ها هوذا قد جاء لينفذها. «فأنا هو المسيح» تجمع الوعد والتنفيذ معاً! اسمعه وهو يقول في هذا الصدد: «أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦). إذن فـ «أنا هو» المسيح هي الموصّل الوحيد والكاشف لأعماق «أنا هو» الله: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ»؛ «أنا والآب واحد» (يو ١١: ١١؛ ١٠: ٣٠). نعم فـ «أنا هو» واحدة في الأسفار جميعاً قديمها وجديدتها.

ولكي نعطي للقارئ فكرة جلية عن «أنا هو» في إنجيل يوحنا جمعناها في مجموعات، كل منها ينضوي تحت رؤية واحدة وربما هدف واحد.

المجموعة الأولى:

وفيها «أنا هو» تأتي حرّة وبدون خبر أو أوصاف حيث يستعلن فيها المسيح ذاته فقط. لذلك فهي الاسم السري والخاص للمسيح بكل أصالة المعنى.

١ - يو ٤: ٢٦: «قال لها يسوع، أنا هو، الذي يكلمك». يقابلها في اليونانية *Eγώ ειμι*

٢ - يو ٦: ٢٠: «فقال لهم، أنا هو، لا تخافوا». يقابلها في اليونانية *Eγώ ειμι*

٣ - يو ٨: ٢٤: «لأنكم إن لم تؤمنوا، إني أنا هو، تموتون في خطاياكم». يقابلها في

اليونانية *εγώ ειμι*

٤ - يو ٨: ٢٨: «فقال لهم يسوع متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون، إني أنا هو». يقابلها في اليونانية *εγώ ειμι*

٥ - يو ٨: ٥٨: «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا (كائن)

هو». يقابلها في اليونانية *ἐγώ εἰμι*

٦ - يو ١٣: ١٩: «أقول لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون أني، أنا هو،».

يقابلها في اليونانية *ἐγώ εἰμι*

٧ - يو ١٨: ٥٤:

«من تطلبون؟ أجابه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو،».

يقابلها في اليونانية *Ἐγώ εἰμι*

٨ - يو ١٨: ٦: «فلما قال لهم إني، أنا هو، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض.»

يقابلها في اليونانية *Ἐγώ εἰμι*

٩ - يو ١٨: ٨: «أجاب يسوع قد قلت لكم أني، أنا هو،» يقابلها في اليونانية *ἐγώ εἰμι*

المسيح هنا في هذه التسعة الأمثلة يقدم نفسه فيها بالصفة المطلقة «أنا هو» (*ἐγώ εἰμι*) وهي تعريف حقيقي لشخصه على مستوى القدرات الفائقة التي لا يُسمع عنها إلا في أسفار العهد القديم، كما أن عُلوها وُسُموها مستمدان من قائلها في العهد القديم؛ ولكن هنا على مستوى تكميم الوعد! [رجاء الرجوع إلى كل مثل].

في المثل الأول: يعرف نفسه أنه هو المتكلم كما جاء في القديم «فتعرفون أني أنا هو المتكلم. هانذا» (إش ٥٢: ٦) التي جاءت في السبعينية:

ὅτι ἐγώ εἰμι αὐτός ὁ λαλῶν.

ويلاحظ تشابهها الشديد مع ما جاء في إنجيل يوحنا للسامرية: «أنا

هو المتكلم» *ἐγώ εἰμι ὁ λαλῶν σοι.*

وفي المثل الثاني: يعرف نفسه من مستوى الحال كسائر على المياه! (قارن أي ٩: ٨ الماشي على أعالي البحر).

وفي الثالث: يعرف نفسه أنه الوحيد الذي يغفر الخطايا! (قارن إش ٤٣: ٢٥ أنا هو الماحي ذنوبك).

وفي الرابع: يعرف نفسه من مستوى المجد الذي سيلغنه حتماً إن بالصليب أو بالقيامة.

وفي الخامس: إنه كان الكائن الأزلي قبل إبراهيم والأنبياء وكل كائن.

وفي السادس: أنه هو المتخطي الزمن والعارف بما سيكون.

وفي السابع: يظهر بشخصيته على حقيقتها وعلى مستوى قائلها في العهد القديم.

وهكذا في الثامن والتاسع. وفي هذين المثليين يُلمَّح الإنجيل على أنه إذا استحالَت المعرفة بالإقناع فلا مانع أن يُظهر لهم ذاته بحضرة الإلهية التي لما رأوها سقطوا على الأرض. كما ظهر الملاك لعمار بلعام وبعد ثلاث مرات يخلي فيها الحمار الطريق للملاك الذي يعترضه فيضربه بلعام بلا ذنب، أدرك بلعام ما أدركه الحمار بعد أن وبَّخه حيوان أعجمي فسقط على الأرض: «خرَّ ساجداً على وجهه» (اقرأ سفر العدد ٢٢: ٢٢-٣٥)، وتم القول «الثور يعرف قانيه والحمار يغلف صاحبه؛ أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم.» (إش ١: ٣)

ولكن يتبقى السؤال فإن كان المسيح له هذه القدرات الفائقة والتي من خلالها وعلى أساسها يقف كإنسان — وهو يسوع — ويقول «أنا هو»، فما هو قصد المسيح بالأساس؟ إلا أن يُظهر نفسه أنه حامل «لإسم الله» كما في أسفار العهد القديم، ليس اختطافاً بل عن نفس القدرات الشخصية الفائقة لله قديماً التي تكلم عنها الله أنه سيوظفها لخدمة الإنسان، وبقيت هكذا معلقة إلى أن جاء المسيح وأكملها.

لذلك فإن لجوء المسيح للتعبير عن شخصه بهذا الإسم «أنا هو» هو من أقوى وأقصر الاستعلانات التي استخدمها المسيح لإستعلان لاهوته المحتفي تحت ستار بشريته. ولما صرَّح المسيح أنه مع إمعانه في استخدام «أنا هو» إنما كان يستعلن اسم الآب أيضاً؛ صارت جميع الأقوال والأعمال التي عملها وقالها بالتركيز مع هذا الإسم «أنا هو» هي الوسيلة الفائقة والبارعة التي استعلن بها شخصه الإلهي وعلاقته المساوية لله الآب معاً. فقول المسيح «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » بملء معناها هو المقابل السري لقوله: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). ولكي يشرح ذلك قال مراراً إنه جاء بإسم الآب: «أنا قد أتيت بإسم أبي (أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$) ولستم تقبلونني. إن أتي آخر بإسم نفسه فذلك تقبلونه.» (يو ٥: ٤٣)

فالأمر الذي كان يعتبره اليهود أنه تجديف على اسم الله: «لسنا نرجحك من أجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠: ٣٣، ٨: ٥٩)؛ هو في الحقيقة إثبات أنه جاء بإسم الله «أنا هو» المعروف، وذلك بكل يقين، من أسفار العهد القديم ولم يجيء بإسم نفسه، وقد قدم لهم الدليل الواضح على ذلك أنه لا يطلب مجد نفسه بل مجد الذي أرسله.

ولما طالبوه بإلحاح أن يقول «من هو» وهل هو المسيح؟ أوضح تأكيداً لقوله أنه لم يأت بإسم نفسه حتى ولو كان هو المسيا!!!: «إني قلت لكم (إني أنا هو) ولستم تؤمنون، الأعمال التي أنا أعملها بإسم أبي — أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ — هي تشهد لي» (يو ١٠: ٢٥). فلما ربط المسيح بين الأعمال التي يعملها «باسم الآب» وبين قوله عن نفسه «أنا هو» قطع عليهم خط الرجعة

بالنسبة للتجديف، فهو ليس آخر بالنسبة لله، ولا هو يختطف اسمه طالما يعمل عمل الله ويمجد اسمه. لذلك فبكل جرأة وكل صدق وحق وإخلاص يخاطب المسيح الله قائلاً: «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو ١٧: ٦)، «وعرّفهم اسمك وسأعرفهم» (يو ١٧: ٢٦). وذلك طبعاً عن طريق الجمع بين عمل الله واسم الله «أنا هو».

وفي موضع آخر أيضاً يوضح أنه لا يختلس اسم الله لنفسه بل إن الله هو الذي أعطاه اسمه عن حق وجدارة وليس تنازلاً: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١١)، علماً بأن الترجمة العربية غير دقيقة بينا الأصل اليوناني يوضح ذلك بلا لبس (١٦): «حينما كنتُ معهم في العالم كنتُ أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (١٧) (يو ١٧: ١٢).

وفي موقف آخر أكثر حساسية صرّح المسيح لتلاميذه أن المجد الذي سيحوزه بالإرتفاع على الصليب هو بعينه مجد لإسم الآب: «أما يسوع فأجابها قائلاً قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣). وبعدها مباشرة خاطب الآب ليسمعه لأن الصوت الذي جاء من السماء كان لهم: «أيها الآب مجد اسمك (الذي فيّ). فجاء الصوت مجدّدتُ وأمجّدُ أيضاً.» (يو ١٢: ٢٨)

أما كيف مجدّ الله اسمه في المسيح، فهذا واضح، لأنه من بعد تلك الساعة أصبح اسم المسيح قوة مجيدة بحد ذاته وصار بموازاة اسم الله في المجد: «ومهما سألتُم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن» (يو ١٤: ١٣)، «إن سألتُم شيئاً باسمي فإني أفعله» (يو ١٤: ١٤). «لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي» (يو ١٥: ١٦). «وفي ذلك اليوم لا تسألوني شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم.» (يو ١٦: ٢٣)

وهكذا صار اسم المسيح «أنا هو» ذا قوة فعّالة ليس في الأرض فقط بل وفي السماء لدى الآب، فباسم المسيح طلب المسيح من الآب أن يرسل الروح القدس، فأرسل: «وأما المعزي (الباراكليت) الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.» (يو ١٤: ٢٦)

وهكذا نفهم أن اسم المسيح «أنا هو» قد صار بالموت والقيامة على مستوى قوة الروح القدس وعمله. لذلك نفهم قوة السر الكائن في الإيمان باسم المسيح ابن الله، ومدى الخسارة في عدم الإيمان

^{١٥} ἐν τῷ ὀνόματί σου ὃ δέδωκάς μοι.

^{١٦} Ibid.

به. «الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن به فقد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو: ٣: ١٨). أنظر كيف صارت «قوة الاسم» على مستوى غفران الخطايا.

وقد انتبه جميع الآباء الرسل القديسين إلى القوة الإلهية التي صارت كائنة في اسم المسيح وترجموه إلى معناه القديم الأول: «لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تحثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السموات ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع هو رب κύριος مجد الله الآب» (في ٢: ٨-١١). يلاحظ القارىء هنا أن اسم المسيح بدأ يأخذ ترجمته كما شرحناها في أسفار العهد القديم. فقد قام — شيخ الفريسيين سابقاً — بولس الرسول بترجمة «أنا هو» مباشرة إلى المقابل السريّ κύριος رب الذي استخدمه الربيون والفريسيون في أسفار العهد القديم عندما حوّلوا يهوه إلى κύριος أي «رب» ليتفادوا النطق بالإسم المقدس.

وأيضاً نجد شرحاً للإسم طريفاً للغاية إذ جاء من فم المسيح نفسه: في مت ٢٢: ٤١-٤٤: «وفيما كان الفريسيون مجتمعين سأهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح ابن من هو؟ فقالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً κύριον قائلاً قال الرب لربي κύριος τῷ κυρίῳ μου اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». فهنا باللغة اليهودية السريّة التي يفهمها الفريسيون تماماً: الله ربّ والمسيح ربّ في قوله: «قال الرب لربي».

أع ٢: ٣٦: «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً κύριον ومسيحاً χριστόν».

رو ١٠: ٩ و ١٢ و ١٣:

«لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع κύριον Ἰησοῦν وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلّصت... لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع ὁ γὰρ αὐτὸς κύριος πάντων غنياً لجميع الذين يدعون به لأن كل من يدعوباسم الرب τὸ ὄνομα κυρίου يخلص».

١ كو ٨: ٦: «لنا إله واحد الآب εἰς θεὸς ὁ πατήρ الذي منه جميع الأشياء ونحن له ورب واحد يسوع المسيح». εἰς κύριος Ἰησοῦς Χριστός.

١ كو ١٢: ٣: «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب KYRIOS IHESOUS إلا بالروح القدس».

أف ٤ : ٥ : «رب واحد $\epsilon\acute{\iota}\varsigma\ \kappa\acute{\upsilon}\rho\iota\omicron\varsigma$ وإيمان واحد ومعمودية واحدة» .

والآن إذا فحصنا الأمر بوعي مسيحي أصيل ، غير تاركين الوعي التقليدي اليهودي الأول ، الذي كشف لنا مكنوناته الإلهية شيخ الفريسيين المتقدم على أترابه جميعاً في العلم والمعرفة والأصول التفسيرية للتوراة ، فإذا نجد؟ نجد أن القديس بولس الرسول هو الذي اكتشف الأصول الأولى التي نبع منها اسم المسيح بحكم استعلان شخصه الإلهي المجيد . فهو الذي ترجم ليس اسم المسيح بل شخصه المهيّب بما يوازيه ويساويه في القديم فوجده بالعلم وبالروح معاً أنه هو هو $\delta\ \kappa\acute{\upsilon}\rho\iota\omicron\varsigma$ الرب في كل أسفار العهد القديم ، دون أن يلتفت إلى «أنا هو $\epsilon\gamma\acute{\omega}\ \epsilon\iota\mu\iota$ » ولا مرة واحدة لأنه لم يسمع المسيح قط متكلماً بالسر بل سمعه ممجّداً متكلماً من السماء وهالة النور تغطيه . ثم يجيء بعده القديس يوحنا الرسول فيكتشف في المسيح سر «اسمه» الذي يستخدمه باستمرار دون أن يلتفت إليه أحد $\epsilon\gamma\acute{\omega}\ \epsilon\iota\mu\iota$ «أنا هو» فيسلط عليه الأضواء ويركزها بشدة ويكرر إبرازه للوعي المسيحي الفاحص لعله يدرك الجذور ويكتشف الحق العجيب الذي يحتويه الاسم !

فإذا جمعنا وعي بولس المدعو سابقاً شاول العجيب مع وعي يوحنا المدعو بالحبيب ، ظهر لنا إنجيل يوحنا تحت أضواء الأسفار الإلهية القديمة اسماً وحقاً وعملاً .

فإذا عدنا إلى أسفار العهد القديم لنفحص متى وكيف توارد الإسمان معاً «إله ورب» كما أوردهما القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «إله واحد الأب... ورب واحد يسوع المسيح» (١ كو ٨ : ٦) ، نجد ذلك واضحاً في سفر الخروج ٦ : ٢ و ٣ «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء = $\theta\epsilon\omicron\varsigma\ \omega\upsilon$ وأما باسمي يهوه (رب كما جاءت في السبعينية) $\delta\nu\omicron\mu\acute{\alpha}\ \mu\omicron\upsilon\ \kappa\acute{\upsilon}\rho\iota\omicron\varsigma$ فلم أعرف عندهم» : اسمان إله ورب ، والمتكلم واحد !

لقد انكشف هذا الحق الإلهي مرة واحدة لتوما التلميذ الذي كان يحتاج في إيمانه إلى التأكيد بوضع الأصبع على جروح المسيح القائم من الموت ! فلما تأكد صرخ «ربي وإلهي» (يو ٢٠ : ٢٨) . إذن ، فبالقديس توما صبح وتأكد قول المسيح : «متى رفعت ابن الإنسان (أي تمجد) فحينئذ تعرفون إني أنا هو $\epsilon\gamma\acute{\omega}\ \epsilon\iota\mu\iota$ = ,, الرب الإله ,,» .

المجموعة الثانية :

وهي مجموعة «أنا هو» التي جاءت مع قول الرب : «حيث أكون أنا» أو حيث أتيت وإلى حيث أذهب . فإذا كانت «أنا هو $\epsilon\gamma\acute{\omega}\ \epsilon\iota\mu\iota$ » هي التعبير عن الكينونة الذاتية ، فمن الواضح إذن أنها تأتي متصلة بالكينونة المكانية ، حيث المكان بالنسبة للمسيح هو كما نعلم سمائي محض «ابن

الإنسان الذي نزل من السماء» و«ابن الإنسان الذي هوفى السماء».

١ - يو ٧: ٣٤ «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا هو εγω εμι επου لا تقدرون أن تأتوا.» (تكرر هذا القول في يو ٧: ٣٦)

٢ - يو ٨: ٢٣ «فقال لهم أنتم من أسفل أما أنا هوفن فوق.»

εγω εκ των ανω εμι

«أنتم من هذا العالم أما أنا هوفلست من هذا العالم».

εγω ουκ εμι εκ του κοσμου τουτου

٣ - يو ٨: ١٨ و ١٩: «أنا هو εγω εμι الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني. فقالوا له: أين هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا ولا أبي.»
«وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب.» (يو ٨: ١٤)

٤ - يو ١٢: ٢٦ «إن كان أحد يخدمني فليتبعني وحيث أكون,, أنا هو,,
εγω εμι επου هناك يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب.»

٥ - يو ١٤: ٣ «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً أتى أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون,, أنا هو,, εγω εμι επου تكونون أنتم أيضاً.»

٦ - يو ١٧: ٢٤ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون,, أنا هو,, εγω εμι επου.»

+ في «أنا هو» في المثل الأول يوضح المسيح استحالة وصول الإنسان إلى حيث يكون εγω εμι επου «حيث أكون أنا هو» لأن هذا المكان فائق عن مستوى إدراك أو وصول الإنسان. هنا يعلن التوافق الكلي بين «أنا هو» والمكان الذي سيذهب إليه. فهو يستعلن كيانه المطلق في وجوده الإلهي المطلق الخارج عن المكان المدرك للإنسان. والقصد الأساسي من هذا الإعلان الفائق أن الفرصة للإيمان به محدودة. بجوار تسجيل خطأ شنيع يرتكبه اليهود في رفض رسالته.

+ في المثل الثاني: يوضح المسيح مقر سكناه في الأعالي حتى ينبّه ذهنهم الكليل بواسطة

إشارتين شديدتى الوقع على الأذن «أنا هو» و«أنا من فوق». «فأنا هو» قول ذات الله، و«أنا من فوق» قول لا يقوله إلا الساكن في السموات الذي يقدمون له الخدمة والإكرام كل يوم. هذا الفهم لا يسقطه إلا الأذن التي تغرّبت عن الصوت الإلهي وعن مضمون العبادة.

+ في المثل الثالث: ترتبط «أنا هو» بالشهادة وترتبط الشهادة بمعرفة «من حيث أتى المسيح» و«إلى حيث سيذهب» «أنا هو الشاهد لنفسي وشهادتي حق لأني أعرف من حيث أتيت وإلى أين أذهب».

هنا حجّة المسيح القوية في رسالته الإلهية. فإن كانوا يرونه إنساناً يتكلم إلا أن كلامه يسفر عن ألوهية تتكلم بسلطان. فإن كان قوله: «أنا هو نور العالم» صار مصدر احتجاج الفريسيين لأنه بهذا يشهد لنفسه، فاحتجاج المسيح أنه يشهد للنور كالتزام لأنه كيف لا يشهد النور لنفسه، وإن شهد فهو حق، فإذا شهد الإنسان أي إنسان للحق فهو يشهد بقوة لأنه يعرف المصدر الذي يشهد له. فما بالك إذا كان النور أو الحق يشهد لنفسه وهو هو نفسه مصدر النور والحق. فالمسيح يعرف من أين أتى، هذه هي قوة إرساليته كنور وحق؛ ويعرف إلى أين يذهب، وهذا مصدر دينونة العالم. هكذا ارتبط اسم المسيح «أنا هو» بـ «حيث أكون» لحساب خلاص العالم.

+ في المثل الرابع: هنا النقلة الخلاصية التي جاء من أجلها المسيح ليكمل «حيث يكون خادمي» تساوي «حيث أكون أنا $\delta\pi\upsilon\epsilon\iota\mu\iota\ \epsilon\gamma\omega$ ». هذا هو السخاء الإلهي العجيب أن يجعل كينونته اللانهائية الذاتية والمكانية مفتوحة على الإنسان «فسيروا ما دام لكم النور». «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٢: ٣٥؛ ١٤: ٢١). هكذا صار الإيمان بالمسيح كخدمة في النور وحياة في حب بالنسبة للإنسان. لأن «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » صار جسداً فصرنا فيه لا نخدّم إلهيات بل في شركة طبيعته وأمجاده. وهكذا صار الإنسان يحيا من داخل «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ »، بل وصار «أنا هو» يحيا في الإنسان.

+ وفي المثل الخامس: عجيب قول الرب أنه سيذهب ويعد لهم مكاناً في اللامكان!! قصد الرب واضح، أنه ذاهب ليفتح بشريته طريقاً إلى الأقداس العليا يصلح أن يقتني أثره الإنسان وهو ممسك به ليدخل إلى المواضع السماوية، تلك التي يقف اللسان عاجزاً عن أوصافها. لقد تنازل الله ألياً تنازل عندما صار حيث نكون نحن، أي تجسد. والآن صار التنازل الأعظم أن نكون نحن حيث يكون هو. لقد قلنا أن «أنا هو» في الأسفار القديمة، أي الله، صار جسداً، فصار لنا بالحق مكان في «أنا هو». إنه حق اكتسبته البشرية بتجسد ابن الله. والآن تظهر المقاصد الحسنة والغاية الإلهية

العبريين السائدين في أيام المسيح الموروثين من واقع النبوات، عبارة عن رموز ترمز للتوراة والناموس وإسرائيل... إلخ. ولكن لما اتخذها المسيح لنفسه بصفته الإلهية «أنا هو» رفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية التي تُعاش، وهو لم يكن لها مفسراً بل مُستعلنًا لحقائق الله في ذاته بأعماله!

وعلى سبيل المثال، فالنور المعروف أنه كناية عن الله، لأنه قادهم في البرية على هيئة عمود من السحاب المضيء يضيء لهم طريق التيه نحو كنعان الأرضية. ظلّوا يعيّدون له باعتباره الرمز الذي يعيشون على ذكره فقط كل سنة مرة في عيد المظال فيضيئون المنارات في رواق النساء ليضيء أورشليم! في هذه اللحظة وقف المسيح وقال: «أنا هو نور العالم». هنا فكّ المسيح رمز النور عند إسرائيل، ليس كأنه نور لإسرائيل يضيء أورشليم، بل باعتباره نور العالم، وليس للتعديد السنوي، بل: «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو: ٨: ١٢)، أي نور يُعاش بالليل والنهار، في الأيام السوداء والبيضاء، في الظن (الترحال المضيء) أو الإقامة على السواء، نور للحياة وليس للعيد.

ولكن بأن يدعم المسيح كوّته النور بالاسم المقدس «أنا هو»، جعل النور طبيعة تشع من المسيح كصفة إلهية دخلت العالم جديداً في شخص يسوع. هنا الاسم الإلهي «أنا هو» صار فعلاً يضيء كيان الإنسان في العالم – فأين هذا من منارات رواق النساء يوم عيد المظال؟ أنظر كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استعلنه في ذاته!

ويعوزني الوقت والمجال الضيق الذي أتبع لي لأشرح كلمة «أنا هو» في إنجيل يوحنا، لأمرّ على هذه الأمثلة كلها مثلاً مثلاً، فهذا معناه أني سأكلّف بشرح إنجيل يوحنا كله من خلال «أنا هو».

ويكفي أن نقول أن المسيح لما استخدم هذه الرموز مدعّمة ومقوّاة بـ «أنا هو» فرفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية الدائمة في ذاته؛ لم يقصد استعلان ذاته أو استعلان الآب وحسب، بل كانت الغاية الأكثر عجباً وإدهاشاً لنا في هذه الأمثلة جميعاً هي توصيل هذه الحقائق الإلهية إلى الناس على المستوى المفهوم والمحسوس.

وبذلك فإن هذه الأسماء التي تقدست بالحق الإلهي، سواء «الراعي» أو «الخبز» أو «الكرمة»، لما تبثّها المسيح في «أنا هو» في إنجيل يوحنا، صارت منهج خلاص واستعلان أسرار المسيح التي هي بالمفهوم الغربي الكريستولوجيا أو منهج المسيحية العميق. إذ جعلت أعمال الخلاص منظورة في المسيح بصورة ساطعة ورموز رفع عنها الغطاء فإذا هي «أليشيا» حق وحياة بلا تحفظ. وبسهولة ظلّ المسيح يقودنا من خلال هذه الـ «أنا هو» من آية لآية حتى أقنعنا أن نأكل جسده ونشرب دمه، وأننا إن فعلنا ذلك صرنا أغصاناً حقيقية في كرم حقيقية عصيرها يحمل سر

وحينما قال: «أنا هو الباب»، اندهشنا كيف يكون هذا، ولما أكمل قوله أن «لا أحد يدخل إلى الآب إلا بي»، زال الإندهاش وجاء العجب بهذه البساطة المتناهية كيف يشرح المسيح منهج الخلاص بهذا القدر، ولكن بشيء من التعمق تزداد الرؤيا ويزداد العجب لأن «أنا هو» ليست مجرد «أنا» بل هي تعبير عن الكينونة والطبيعة الإلهية الكائنة بذاتها، فالباب هنا لما نُسب له «أنا هو» ارتفع من مجرد منظر مرسوم أو صورة أو حتى رمز، إلى حقيقة إلهية قائمة لو فقدها الإنسان ضاعت منه الحياة الأبدية!!

لقد صوّر لنا المسيح بهذه الصورة التي ضمها إلى طبيعته بقوله: «أنا هو» كل محيط الخلاص من كل نواحيه التي تحمل سر الحياة للإنسان من الراعي الصالح لخبز الحياة للكرمة الحقيقية؛ كل هذه الصور التي ملأت آفاق الليتورجيا في الكنيسة بل وكل فنونها المقدسة بل وملأت العالم.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة

الآن نجد من السهولة وبعد أن استوفينا «أنا هو $\epsilon\gamma\omega \epsilon\iota\mu\iota$ » في كل من العهدين القديم والجديد، أن نقدم مقارنة بسيطة ومختصرة بين «أنا هو» العهد القديم و«أنا هو» العهد الجديد لنرى مقدار التوازي البديع أحياناً ومقدار التقابل الملفت للنظر ثم مقدار التكميل المثير للدهشة والإيمان. ففي التوازي نرى «أنا هو» في مقابل «أنا هو» وكل منها يناظر الآخر في الدقة والموقف والمعنى وفي التقابل مقدار التشابه الذي يجعل «أنا هو» الجديد هو بعينه القديم، أما التكميل فنرى كيف «أنا هو» العهد القديم ظلت معلقة بلا تكميل تنتظر «أنا هو» الجديد الذي تتم وأكمل الوعد والعهد، فصار «أنا هو» الله في القديم أميناً وصادقاً فيما قال، وصار المسيح «أنا هو» الكلمة الذي أكمل الوعد بكل أمانة البذل وصدق العمل.

أنا هو

العهد القديم على فم الله

أنا هو

العهد الجديد على فم المسيح

خر ١٣: ١٤ و ١٤

«فإذا قالوا لي ما اسمه فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى أكون الذي أكون» (أنا هو) ومعناها في العبري واليوناني: أنا الكائن بذاتي.

يو ٨: ٥٣ و ٥٨

«أملك أعظم من أيونا إبراهيم الذي مات؟... من يجعل نفسك؟ الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن». الترجمة العربية ترجمت «أنا هو» مباشرة إلى أنا كائن.

خر ١٤: ١٨

«فيعرف المصريون ،،أني أنا هو،، حينما أتمجد». الترجمة العربية قدمت أنا الرب والأصل أنا هو.

يو ٨: ٢٨

«فتى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون ،،إني أنا هو،،». علماً بأن رفع المسيح على الصليب والقيامة هو التمجيد.

إش ٤٣: ١٠، تث ٣٢: ٣٩

«لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا إني أنا هو»، «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي أنا أُميت وأُحيي».

يو ٨: ٢٤

«لأنكم إن لم تؤمنوا إني أنا هو، تموتون في خطاياكم».

«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا هو إله إبراهيم أبيك لا تخف لأني معك» .
«وكان الظلام قد أقبل،... وهاج البحر... ونظروا يسوع ماشياً على البحر... فقال لهم: أنا هو لا تخافوا» .

اش ١٧: ٤٨:

يو ١٤: ١٤ و٤:

«أنا هو الرب إلهك معلمك... أمشيك في طريق تسلك فيه» .
«وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق والحق والحياة» .

حز ٣٤: ١٥ و٣٠:

يو ١٤: ١٠:

«أنا أرعى غنمي وأريضها يقول السيد الرب... فيعلمون أنني أنا هو الرب» .
«أنا هو الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني» .

حز ٣٧: ٦؛ حز ٣٧: ١٢-١٤:

يو ١١: ٢٥؛ يو ١١: ٤٣:

«أضع عليكم عصا داكيسكم لحما داسط عليكم جلدأ وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أنني أنا هو الرب» .
«قال له يسوع: أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولومات فسيحيا» .

«لعاذر هلم خارجاً» .

«ها أنذا أفتح قبورك وأصعدكم من قبورك يا شعبي... فتعلمون أنني أنا هو الرب عند فتحي قبورك وإصعادي إياكم من قبورك يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون» .

في سفر الرؤيا للقديس يوحنا

اش ٤٨: ١٢ و١٣:

رؤ ٨: ١؛ رؤ ١٧: ١٧ و١٨:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته أنا هو أنا الأول وأنا الآخر. ويدي أسست الأرض ويميني نشرت السموات» .
«أنا هو الألف والياء. البداية والنهاية يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» .

«أنا هو الأول والآخر والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الأبد» .

إش ٤١: ٤:

رؤ ٢١: ٦:

«مَنْ فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء. أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو».

«قد تَمَّ. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أُعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إر ١٧: ١٠:

رؤ ٢٣: ٢٣:

«أنا الرب فاحص القلب مُختبر الكَلَى لأُعطي كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله».

«فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكَلَى والقلوب وسأُعطي كل واحد منكم بحسب أعماله».

الفصل الثاني

الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

«الباراكليت»

في الترجمة العربية للإنجيل يوحنا لم يذكر المترجم اسم «الباراكليت» بهذا اللفظ المعربة حروفه. وهذا نقص معيب وتصرف من المترجم حيث ترجم معناها من اليونانية إلى معناها بالعربية وجعلها اسم صفة: «المعزي» παράκλητος

فإذا فحصنا كلمة «الروح» τὸ πνεῦμα نجدها تأتي في الإنجيل، في اللغة اليونانية الأصلية، لغوياً ومن جهة النحو - كإسم مجرد، أي اسم معنوي يفيد المعنى العام، ومحايد الجنس (لا مذكر ولا مؤنث) neuter. والكلمة تعني إما ريح أو رياح أو نفخة أو نفس أو ملاك أو روح إنسان، أو الروح القدس حيث وُضعت صفة «القدس» كصفة خاصة للتعبير عن روح الله «القدس»^(١).

أما لفظ «الباراكليت» فيأتي كإسم عَلم شخص مذكّر. لذلك يُعتبر إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي أعطى للروح القدس - لغوياً من جهة النحو - صفته الشخصية إذ نقله لغوياً من دائرة المجردات كقوة إلى ذات مُشخّصة. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد مهد بهذا اللقب لمفهوم الثالوث الأقدس^(٢).

ولكن بحسب الأبحاث اللغوية فإن العلماء لم يستقروا على ترجمة لهذا الإسم «الباراكليت» وقد اتفقوا جميعاً على ترك الإسم كما هو بالفاظه المنقولة عن اللفظ اليوناني، «الباراكليت»،

¹ Liddle and Scott Lex.

² Barrett. op. cit. p. 77.

وذلك بسبب تعدد معنى الكلمة باليونانية . وهذه هي المعاني التي تحويها هذه الكلمة :

١ - تأتي بمعنى المُعين = called to the side of ، أي بغرض المساعدة .

٢ - كما جاءت في الترجمة اللاتينية advocatus كإصطلاح شرعي يفيد معنى المستشار أو المحامي للدفاع الرسمي في المحكمة . وقد وجدها العالم وستكوت Westcott في كتابات الربيين تفيد هذا المعنى .

٣ - في رسالة برنابا (كُتبت ما بين عام ٧٠ - ١٠٠ م) علّق الكاتب على كلمة «الباراكليت» بمعنى المعزّي Consoler أو المريح Comforter وهي الصفة التي صارت شائعة عند الآباء اليونان . ويقول العلماء أنه بالرغم من الإحترام الفائق الذي يكنّه العلماء لرأي الآباء اليونان إلا أنه يبحث الكلمة وُجد أنها لا تفيد الإيجابية فقط أي العطاء الإيجابي مثل إعطاء العزاء أو الراحة ولكن يفيد فعلها أيضاً درء الخطر، أي منع السلبات، بمعنى «الدفاع»؛ فهو يشفع ويتوسل ويدافع عن شعب المسيح، والآيات التي توضح ذلك تكشف عن صدق هذا المعنى مثل: «فتي ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس» (مرقس ١٣: ١١). وهنا فإن الروح القدس يكون هو المتكلم فهو يأخذ وظيفة المحامي والمدافع والمعين أيضاً. وفي الآية المقابلة في هذا المعنى في إنجيل لوقا تجيء هكذا: «لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه» (لوقا ١٢: ١١). وهنا الروح القدس يأخذ وظيفة المعلم والناصح والمرشد في وقت الخطر.

وعمل الروح القدس بوجه عام في إنجيل يوحنا نجمله في النقاط الآتية:

١ - يُعتبر هو العامل الأساسي في فاعلية الأسرار (٣: ٥؛ ٦: ٦٣)، سواء المعمودية أو الإفخارستيا حيث بواسطة الروح القدس ينال المؤمن في الأسرار مواعيد الله ومواهبه وعطية الحياة الأبدية.

٢ - هو عماد الإقتراب من الله بالعبادة. فالعبادة لله في العهد الجديد هي «بالروح والحق» و«الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له... بالروح والحق» (يو: ٤: ٢٣ و٢٤). إذن، فليس بالوسائل المادية ولا الجسدية بل بالروح لأن الله روح.

٣ - هو أساس وقوة الخدمة في الكنيسة حيث تقف الإرسالية كعمل إلهي مساوٍ لإرسالية الآب للإبن: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس» (يو: ٢٠: ٢١ و٢٢). وهكذا الخدمة، فهي لا تقوم إلا بقوة الروح القدس.

٤ - مقارعة الروح القدس لروح العالم، فهو يوبخه ويكشف أعماله ويضعه تحت الدينونة. وطبعاً يكون ذلك من خلال شهادة الكنيسة.

٥ - الروح القدس هو الذي سيكشف الأمور الخاصة بالمستقبل أي كل ما يتعلق بالآخرة والأخرويات = الإسخاتولوجيا والحياة القادمة: «يخبركم بأمر آتية» (١٦: ١٣). أي سيكون له وظيفة الأنبياء في العهد القديم والتي تحققت في العهد الجديد. فهو سيعلن لنا ما هو آت، وما هو فوق، وهي الأمور التي أعدها الله لمحبيه. وإن كان عمله الآن هو أن يعرفنا كل الحق فهو يكشف لنا كيف سيعلن هذا الحق يوماً ما ليكون عوناً لمحبيه وعاراً على رافضيه؛ أي أنه سيكمل عمل المسيح.

وفي إنجيل يوحنا جاء التعريف بالروح القدس في مواضع خمسة:

التعريف الأول:

ويأتي على لسان يوحنا المعمدان: «وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليظهر لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ١٠: ٣١-٣٤)

هنا عمل الروح القدس كان أول عمل يتم من السماء على الأرض مباشرة لإعلان شخص يسوع المسيح أن هذا هو ابن الله. كما كان أول إعلان عن علاقة المعمودية بالروح القدس. ولو رجعنا إلى القديس مرقس في رواية عماد المسيح نجد المرادف هكذا: «وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه. وكان صوت من السموات. أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر: ١٠ و ١١). وهكذا يبدأ الروح القدس عمله في إعلان بنوة المسيح لله. ومن الروايتين يتضح أن عمل الروح القدس في عماد المسيح كان لإظهار، أو للإعلان عن شخص المسيح أنه ابن الله، كشهادة مسموعة لكل من المسيح والمعمدان. ويلاحظ أن هذه هي الوظيفة الأساسية للروح القدس: «هو يشهد لي.» (يو: ١٥: ٢٦)

أما كيف أن المسيح سيعمدكم بالروح القدس (يو: ١٠: ٣٣) حسب قول المعمدان، فهذا يتضح من حديث المسيح مع نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله... الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا.» (يو: ٣: ١١ و ١٢)

ولكن المسيح لم يعمد بالماء كما جاء على لسان القديس يوحنا الرسول: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه» (يو ٤: ٢)، أما الروح المعتمد فكان يهبه المسيح في كلماته: «أنتم الآن أنقياء، لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو ١٥: ٣) «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو ٦: ٦٣)

أما الروح القدس كشخص ذي عمل محدد في الخلاص فلم يبدأ عمله أثناء حياة المسيح: «من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه. لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد (أي لم يُصلب ويقوم بعد).» (يو ٧: ٣٨ و٣٩)

ولكن المسيح بعد القيامة مباشرة نفخ في تلاميذه قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢٢) (كمقدمة ليوم الخمسين)، وأعطاهم سلطان مغفرة الخطايا.

التعريف الثاني:

وقد جاء بلسان المسيح: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم معزياً آخر ليكنث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكنث معكم ويكون فيكم.» (يو ١٤: ١٦ و١٧)

هنا الروح القدس يأخذ وظيفة التعزية والشفاعة معاً في معنى الباراكليت تماماً عوض المسيح. كذلك يأخذ صفة إلهية خاصة بالمسيح نفسه أي «الحق». فإن كان المسيح هو «الحق» فالروح القدس هو «روح الحق». فكما أن «الحق» الذي في المسيح كان مرشداً للتلاميذ أنه ابن الله، كذلك فإن «روح الحق» سيصير مرشداً للتلاميذ للتعرف على الآب والإبن. كذلك كما أن المسيح وعد أنه سيكون فيهم: «أنا فيهم وأنت في» (يو ١٧: ٢٣)، كذلك عن الروح القدس، فقد وعد المسيح أنه سيكون «فيهم».

التعريف الثالث:

«بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.» (يو ١٤: ٢٥ و٢٦)

وهنا يعبّر المسيح تلاميذه وهو موجود معهم أنه بعد أن يتركهم فإن الآب سيرسل الروح القدس باسم المسيح كما أرسل المسيح باسم الآب، يعلمهم كما كان المسيح يعلمهم، وهنا يضيف كلمة «كل شيء» وهي الأشياء التي لم يستطيعوا معرفتها من المسيح بسبب عدم وجود

الروح القدس: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن» (يو ١٦: ١٢)، وهذه هي التي سيعلمها لهم بواسطة الروح القدس الذي سيأخذ مما له ويخبرهم! وقد تم هذا بصورة عظيمة في كتابة إنجيل يوحنا نفسه! وقول المسيح أن الآب سيرسل الروح القدس باسمه - أي باسم المسيح - يعني أنه سيضطلع بتكميل رسالة المسيح قولاً وعملاً، كما أتى المسيح باسم الآب ليكمل إرادة الآب قولاً وعملاً.

التعريف الرابع:

«ومتى جاء، المعزي، الذي سأرسله، أنا، إليكم من، الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق. فهو يشهد لي - وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو ١٥: ٢٦ و ٢٧)

هنا يبلغ الإعلان عن «شخص» (أقنوم) الروح القدس وطبيعته (جوهره) أقصى إعلان في أسفار العهد الجديد. وذلك من جهة علاقته بالآب والإبن حيث يبلغ الثالث المقدس أول ظهوره على فم المسيح في إنجيل يوحنا هكذا: «سأرسله أنا إليكم من الآب».

ويعود المسيح ويكشف عن كيفية خروج الروح القدس كأقنوم من عند الآب هكذا: «الذي من عند الآب ينبثق»: $\delta \text{ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται}$

هنا بحسب تحقيق العلماء المتخصصين تكون ἐκπορεύεται حينما تأتي وحدها تفيد الإنبثاق أو الخروج وحسب، فإذا أخذت الحرف ἐκ فهي تفيد الإنبثاق «من المنبع أي من الجوهر»، وقد جاءت بهذا التركيب في الآية: «وسيفت ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها» (رؤ ١٦: ١٦). أما الوضع الثاني أي الخروج أو الإنبثاق «كإرسال» فهي تحتاج حتماً إلى الحرف παρὰ أي من عند أو من جانب. وهي الجملة المعروفة والسائدة في خروج الإبن من عند الآب بمعنى الإرسال، مثل «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧). وهنا النص على انبثاق الروح القدس من عند الآب يقطع بخروج أو انبثاق الروح القدس من عند الآب «كإرسال» زمني. كما جاءت في الموضعين: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب» وبال يونانية:

$\delta \nu \epsilon \gamma \omega \text{ πέμψω ὑμῖν παρὰ τοῦ πατρὸς}$

«روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي»: وبال يونانية:

$\tau \omicron \nu \text{ πνεῦμα τῆς ἀληθείας ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται}$

لذلك عندما قرر الآباء في المجامع المسكونية مسوقين بالروح القدس نفسه، أن انبثاقه هو صدور

من المنبع وليس مجرد إرسال زمني، هذا من جهة طبيعته وعلاقته الذاتية الأزلية بالآب — قالوا هكذا:

ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب:

هكذا باليونانية: τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον τὸ ἐκ τοῦ πατρὸς ἐκπορευόμενον

لتفيد الإنبثاق الأزلي غير الزمني بحسب الجوهر. أي أنهم استخدموا ἐκ أي «خروج من» بدل الحرف παρά «خروج من عنده أو من جانبه أو من جواره». ونقلوا الفعل من وضعه في مضارع الصيغة الإخبارية الذي يمكن أن يفيد المستقبل ἐκπορεύεται إلى وضع المفعول به المضارع الدائم ἐκπορευόμενον ليفيد الإستمرار الكياني للروح القدس في انبثاقه من الآب^(٣).

والذي يهمننا في هذا المجال هو أن إرسال الروح القدس المرسل من عند الآب يفيد هنا عملية الشهادة للحق بصفته «روح الحق»، أي أن يشهد لحق المسيح فيما يخص حقيقة ارتفاعه أي صلبه كختام كل أعماله على الأرض الذي ارتفع به أيضاً إلى أعلى السموات. فهنا إرسالية الروح القدس هي للتوعية والدفاع معاً عن حقيقة صلب المسيح في محيط الناس. وفي نفس الوقت قصد المسيح قصداً من هذه الآية التعريف بالروح القدس وبصلته الأزلية بالآب والإبن فهو دائماً من الآب بالإبن.

كما يلاحظ أن المسيح هنا لم يقل «سأرسله لكم من عند أبي» بل «من عند الآب»، للتعبير عن أبوة الله العامة للناس، فالروح القدس مُرسل من الله الآب للناس تماماً كالإبن المرسل من الله الآب للعالم. وكما أن العالم لم يعرف «الكلمة»، كذلك الروح القدس «لا يعرفه العالم». (يو: ١٤: ١٧)

ومعنى أن الروح القدس يشهد للمسيح هو أنه ينطق داخل قلوبهم سواء للوعظ أو لكتابة الأناجيل والرسائل كما يقول قانون الإيمان: «الناطق في الأنبياء». وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس: «لأنه هو سينطق، لذلك أنتم حتماً ستكلمون، هو ينطق في قلوبكم وأنتم تتكلمون بأفواهكم، هو بالإلهام وأنتم بالكلمة» — شرح يوحنا ٩٣. (PL 35)

التعريف الخامس:

«لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن

³ Westcott op. cit. p. 224,225.

ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبيّنت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على برّ فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.» (يو ١٦: ٧-١١)

المسيح يكشف هنا بوضوح امتناع تلازم الخدمتين معاً: خدمة التجسد وخدمة عمل الروح القدس. فخدمة الإبن متجسداً تختص باستعلان وتمجيد الآب؛ وخدمة الروح القدس تختص باستعلان وتمجيد الإبن. وبالنسبة فخدمتان هما عمل واحد متصل لإستعلان طبيعة الله وعمله في الثالث الأقدس.

لذلك يشدد المسيح على أنه بالنسبة للتلاميذ فخير لهم أن ينطلق حتى يبدأ الروح القدس يكمل لهم استعلان كل الأمور أو، كما يقول المسيح، «كل شيء» و«كل الحق»، دون أن تنقطع شركتهم غير المنظورة مع المسيح الذي وعد أن يكون فيهم ومعهم كل الأيام.

على أن وظيفة الروح تظل بالنسبة للعالم في حدود عمل المبكّنت إزاء كل جحود وعدم إيمان ليظل فيه بصيص من الأمل في التوبة وذلك بواسطة الوعظ بالكلمة وشهادة الكنيسة للمسيح: «الروح يشهد لي وأنتم أيضاً تشهدون.» (يو ١٥: ٢٦ و٢٧)

التعريف السادس:

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية. ذاك يمجديني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو ١٦: ١٢-١٤)

هنا يصرّح المسيح أن كل التعاليم والإعلانات التي أكملها مع تلاميذه، سواء ما تخص الآب أو ما تخصه أو ما يخص علاقتهم بالملكوت والحياة الأبدية وأمر حياتهم اليومية، لم تغطها الثلاث السنين والنصف التي قضاها معهم، ليس بسبب قصر المدة بل بسبب عدم استطاعتهم استيعاب أعماق أسرار الروح، خاصة أخبار الصليب والجلد وسفك الدم — لوحيد من الآب المملوء نعمة وحقاً!! فإن مجرد تصوّر هذا الجمل فقط يقصم الظهر ويذهل العقل الطبيعي «من صدّق خبرنا؟ ولمن استعلن ذراع الرب» «واندهش منك كثيرون» (إش ٥٣: ١؛ ٥٢: ١٤)، أو كما يقول المسيح نفسه: «لا يستطيعون أن يحملوا الآن» (يو ١٦: ١٢)، حيث جاءت كلمة «تحملوا» βαρτάρειν بمعنى «الحمل الثقيل» وباللاتينية في الفولجاتا Portare. ولاحظ كلمة «الآن» فالمسيح كان يدرك فداحة تصوّر الصليب على التلاميذ، ولكنه بعد أن صلب ثم تمجد وارتفع وصار

أعلى من السموات، صار هذا الحمل خفيفاً هيناً، فصار حمل المسيح هذا عينه — أي الصليب — هو ناموس المسيح البديع: «احملوا نيري عليكم ... لأن نيري هينٌ وحملِي خفيف.» (متى ١١: ٢٩ و٣٠)

هذا الجِثْل حملهُ القديس بولس فاستلذَّ به أَيْماً لذة وسَّاء «ناموس المسيح»، وصار يبشر به: «احملوا بعضكم أثقال بعض (أي احملوا صليبان بعضكم بعضاً) وهكذا تمموا ناموس المسيح.» (غل ٢: ٦)

فالقيامة بروحها المبهج أفقدت الصليب ثقله وألغت مرارته وحزنه. وهذا كله صنعه الروح القدس، فهذه صَنَعَتُهُ!!

وهكذا بمجيء الروح القدس سوف تمتد خدمة الاستعلان وإدراك الحق الإلهي من جميع نواحيه وفي كل الأمور حتى إلى كمال استطاعة الوعي البشري، لأن البصيرة ستتمو والمعرفة ستزداد لحساب مجد المسيح والآب.

أما قوله: «ونخبركم بأُمُور آتية»، فتأتى في اللغة اليونانية معرفة بأداة التعريف τὰ ἐρχόμενα أي بأُمُور المستقبل المَعْدَّة من قِبَل الله للتنفيذ في وقتها. وهذا ينصب على كيفية نمو الكنيسة وتأسيسها وقيامها واكتمال هياتها مع مرور السنين لتمثيل «النظام الإلهي» عوض النظام اليهودي المتداعي، باعتبار الكنيسة هي الاستعلان الزمني للكونوت الله على الأرض، كونها خاضعة للتدبير الإلهي ومُسيَّرة بالروح القدس.

الفصل الثالث

الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

١ - الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا^(١)

الكنيسة في واقعها الإلهي نشأت في اللحظة التي قال فيها المسيح للتلاميذ: « كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تُغفر له. ومن أمسكتُم خطاياهم أُمسكت. » (يو ٢٠ : ٢١-٢٣)

هنا الكنيسة قامت وتأسست على الثالوث الأقدس الآب والإبن (المسيح) والروح القدس، تستمد رسالتها أو إرساليتها في العالم من الآب والإبن وبسلطان الروح القدس لغفران الخطايا.

ولو دققنا النظر، لوجدنا أن رسالة إنجيل يوحنا من أوله إلى آخره تهدف إلى ظهور الكنيسة المسيحية في مقابل اختفاء الكنيسة اليهودية التي رفضت وجودها بيدها. علماً بأن القديس يوحنا كان يكتب إنجيله ويشخص إلى الكنيسة التي أمامه وهي بنت سبعين سنة! وهي وسط أعنف تيارات الإضطهاد والضغط من كل جهة.

وقد استخدم القديس يوحنا في إنجيله بعض الرموز اللاهوتية للتعبير عن المضمون الكنسي والسرائري. فمن جهة الأسرار نجد أن الماء وال الميلاد الجديد يعبران عن المعمودية^(٢)، والخبز النازل من السماء الباقي للحياة الأبدية المبذول من أجل حياة العالم والمأكول بالروح، يعبران عن

(١) لم نشأ أن نُعثر القاريء بآراء النقاد ونقدتهم السليبي المير لإنجيل يوحنا بادعاء أنه أغفل الكنيسة كمفهوم لاهوتي وكشعب مختار وكجماعة ذات وجود سرائري ولاهوتي. ولكن اكتفينا بالرد.

(٢) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا».

الإفخارستيا^(٣)، والماء والدم النابعان من جنب المسيح يعبران عن سرّي الحياة الأبدية النابتين من المسيح، وهما المعمودية والإفخارستيا معاً، كسرّين متلازمين وحتميين^(٤)، وتحويل الماء خمرأ في عرس قانا بحضور المسيح يُعبّر عن تقديس سرّ الزبيحة^(٥)، ورفعهُ إلى مستوى بهجة التجديد بالحضور الإلهي عوض ثمرة الحزن الأول (تك ٣: ١٦ و١٧).

وأما من جهة الكنيسة نفسها فقد عبّر عنها إنجيل يوحنا على أنها شعب الله وأولاد الله، وذلك بالرموز المقروءة روحياً أيضاً:

أ – فيبدأ إنجيل يوحنا بتعريف شعب المسيح الجديد أي الكنيسة بصورة سرّيّة بأنه شعب عوض شعب، وخاصّة مقبولة عوض خاصّة مرفوضة: «جاء إلى خاصته (شعب اليهود) وخاصّته لم تقبله (الرفض الحتمي)». أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (شعباً جديداً بالتبني) أي المؤمنون باسمه (الإيمان الجديد بالإسم)، الذين وُلدوا ليس من دم (آدم الأول) ولا من مشيئة جسد (شهوة الزبيحة) ولا من مشيئة رجل (إرادة بشرية) بل من الله (ميلاداً روحياً سماوياً من فوق).» (يو ١: ١١-١٣)

ب – ووضع إنجيل يوحنا قاعدة العبادة للكنيسة في ناموس المسيح عوض ناموس العبادة الجسدي في العهد القديم «ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون (عوض السجود الشكلي بالجسد) يسجدون للآب بالروح والحق (بدافع الروح القدس وتدبيره وإلهامه للكنيسة). لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له (عنصر العبادة في الكنيسة يعبر عن تميم مشيئة وإلحاح من الله «طالب»). الله روح (تفوّق العبادة في الكنيسة عن كل تصوّرات العهد القديم الحسيّة) والذين يسجدون له فبالروح والحق (العبادة في الكنيسة مستمدة من طبيعة الله) ينبغي أن يسجدوا.» (يو ٤: ٢٣-٢٤)

ج – الفردية والجماعية في الكنيسة:

١ – في مثّل «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»: هنا ليس هذا الرمز سهلاً كما يترأى لأول وهلة، فأصل الرمز أو المثل مأخوذ من كرمة العهد القديم (مز ٨٠: ٨ و١٤). وفيها «أنا» هو ابن الإنسان

(٣) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٤) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٥) أنظر نفس الفصل المذكور.

متحداً بشعب الله^(٦). لذلك فبالرغم من حتمية الإيمان الفردي والثبوت الفردي للمسيحي في المسيح إلا أن المسيح هنا يجمع ويوحد الأغصان في نفسه: «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٥: ٤). فالكنيسة هنا موجودة ومُعلّنة بالفرد والجماعة في المسيح. والذي يحكم الثبوت الفردي في الكرمة واحتساب الفرد عضواً حياً ضمن الجماعة أي الكنيسة هو إثماره. فهنا قانون صلاحية الفرد وصحة الجماعة قائم كالسيف «كل غصن فيّ لا يأتي بشمريزعه (يُقطع)» (يو ١٥: ٢)، كما يقوم في الحال بجواره وفي مقابله قانون النمو والتوبة ليخفف من شدته ويستقطب حدوثه: «وكل ما يأتي بشمريزعه ليأتي بشمراً أكثر.» (يو ١٥: ٢)

ولكن الذي يتحتم الإنتباه إليه جداً هو حقيقة تأهيل العضو وكيفية اتصاله بالكنيسة. فالتأهيل والكيفية يضعها مثل الكرمة في وضع الإلتحام الطبيعي العضوي الحي القائم على التغذية الحية بعصارة الحياة القادمة من أصل الكرمة. فالعضوية في الكنيسة ليست عضوية نظام وتنظيم ودفع أموال وتقيد أساء في كشوفات أو اعتراف شفاهي أو عضوية فخرية، بل تغذية وإثمار «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو ١٥: ٥)

فإذا كانت الكرمة والأغصان هي الكنيسة، إذن فقد صحَّ القانون القائل أن: [خارج الكنيسة لا يوجد خلاص]، وأن الانفصال عن الكنيسة هو موت، لأنه يحمل حتماً الحرمان من كل وعد المسيح للكنيسة. لذلك فكلمة «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» ذات وزن عالٍ جداً على مستوى الكنيسة الحية.

وتَجَمُّع شمل المؤمنين في الكنيسة هو عمل سرّي من أعمال المسيح الفائقة نسمع صدهاء في صلاة المسيح للآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١). وهنا فإن عامل الحب الإلهي المتبادل هو العنصر الموحد للفرد في المسيح وفي الجماعة لإستعلان الكنيسة: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). فالفردية في الكنيسة قائمة على الإيمان الفردي، والجماعية في الكنيسة قائمة على المحبة؛ ولا غنى عنها كليهما، لأن الكنيسة في إنجيل يوحنا مبنية على الإيمان والمحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ بعضاً لبعض» (يو ١٣: ٣٥). بهذا يُحسب إنجيل يوحنا أنه بالدرجة الأولى إنجيل استعلان طبيعة الكنيسة الفائقة المستمدة من حضور المسيح الدائم وفعل محبته السري الذي يفوق العقل.

(٦) أنظر ما جاء في شرح لقب «ابن الإنسان» عن التحام الشخصية الفردية مع الجماعة الشعبية حيث تقدّم أيضاً شرحاً مفصلاً للمزمور الثمانين.

٢ - في مثل الراعي الصالح :

كذلك فإن الفردية المختفية في الجماعة، والجماعة المبنية على الفردية واضحة في مثل المسيح كراي صالح في قوله «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعيّة واحدة وراعٍ واحد» (يو ١٠: ١٦). هنا منتهى كمال استعلان سر الوحدة في الكنيسة المجموعة من خراف كثيرة ذات أوطان وألوان أخر. ومن هنا جاء الإصطلاح الكنسي المجيد كنيسة واحدة وحيدة جامعة رسولية. وهذه اللمحة للصفة الإلهية الجامعة للكنيسة كانت حاضرة في ذهن القديس يوحنا بوضوح حينما شرح نبوة قيافا رئيس الكهنة: «ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (اليهودي - الخراف العتيقة) ولا تهلك الأمة كلها - ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزعم أن يموت عن الأمة. وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (في العالم) إلى واحد.» (يو ١١: ٥٠-٥٢)

فالرعية والخراف والحظيرة كلها رموز تهدف لتحديد موقع الكنيسة من المسيح. فهي رعية المسيح وخراف المسيح وحظيرة المسيح (يو ١٠: ١٦). وهنا الصورة الجماعية للكنيسة تبدو ممتازة جداً كملكية شخصية للمسيح، فهو الراعي، والكنيسة هي الرعية، تعرف صوته وتتبعه حيث يقودها. هنا رباط الإلتزام الواحد بالآخر يبدو وكأنه بلا انفكاك. فعلى مستوى قول المسيح «أنا هو الراعي الصالح» تقف الكنيسة لترد قائلة: «وأنا هي الرعية - المدعوة والمختارة والمحبوبة - التي للراعي الصالح». فلا الراعي يبقى بلا رعية ولا الرعية تبقى بلا راعٍ. والإيمان هو الرباط الذي يربطها به: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو ٦: ٦٨ و٦٩). ويرد المسيح «الراعي» على ذلك بقوله: «أليس أني أنا اخترتكم أنتم الإثني عشر.» (يو ٦: ٧٠)

د - سر الكنيسة كعروس المسيح :

مثل العريس والعروس : على فم المعمدان جاء هذا التعبير الكنسي كاستعلان غاية في السمو لوظيفة المسيح بالنسبة للكنيسة وموقع يوحنا المعمدان من هذا السر: «قن له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذا فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣: ٢٩-٣٠). هنا استعلان السر القام في علاقة المسيح بالكنيسة علاقة عروس بعريس. في العهد القديم كان شعب إسرائيل محسوباً أنه مربوط بالله كزوجة، ولكن لما أخطأ شعب إسرائيل خطية تستوجب الطلاق، أعلن الله حالة طلاق رسمي لشعب إسرائيل كما قال الرب بضم إشعياء النبي: (هنا نقدم القراءة الصحيحة بحسب النسخة السبعينية): «هكذا قال الرب (يسأل) ما العلة التي يحملها كتاب طلاق أمكم؟

أو من هو الدائن الذي بعثكم له ؟ (ويقدم الله الجواب) هوذا من أجل آثامكم قد بُعث ومن أجل ذنوبكم طُلقتْ أمكم» (إش ٥٠ : ٢١). والآن نحن بصدد العروس الجديدة (الشعب والكنيسة الجديدة) التي جاء يوحنا المعمدان بروح إيليا لكي يعلن ويوثق عُزَّتْها. فالمعمدان هو الإشبين المرسل من عمق الماضي بروح إيليا الذي طالما تاق توقاً لرؤية هذا العريس من خلال حُجب ظلام الماضي. لذلك أيُّ فرح يكون للمعمدان إذ رأى وسمع صوت العريس ؟ في الواقع إن المتكلم هنا هو هو إيليا، نعم كم هي فرحتك يا إيليا، لقد انتظرتها انتظاراً وها هي تكملت لك. أما النقصان فليس للمعمدان ولا لإيليا بعد، ولكن لكنيسة البرية كنيسة العهد القديم في شكلها ومبناها. وأما الزيادة فهي ليست للمسيح، فكيف يزداد مَنْ «مِنْ هَلْهُ نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (١٦: ١) ؟ لأن المسيح هو استعلان الله الكامل، والله لا يزداد كمالاً، وإنما الذي ازداد ويزداد فهو العروس كنيسة المسيح التي سقاها دمه، العروس التي زُفَّتْ إليه يوم صليوته، حين غسلها بالماء وقدسها بالدم النابعين من جنبه المفتوح.

وسرُّ الكنيسة كعروس لمسيحها الذي اختارها وفداها وغسلها بالماء والدم واضح في سفر الرؤيا أيضاً: «لنفرح ونهتِلْ ونُعْطِله المجد لأن عُزَّس الخروف قد جاء وامرأته هيأت نفسها وأعطيت أن تلبس بزاً نقياً بهياً (كتان أبيض) لأن البز هو تبررات القديسين» (رؤ ١٩: ٧ و٨). فالقديس يوحنا إنما هو على يقين مما رأى وسمع. والكنيسة في سفر الرؤيا هي هي أورشليم الجديدة التي سيستعلن مجدها في مجيء المسيح:

— «وتكلّم معي قائلاً هلمّ فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله...» (رؤ ٢١: ٩ و١٠)

— «وأنا يوحنا رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيّأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم.» (رؤ ٢١: ٣ و٢)

فأين تكون أمامها أورشليم العتيقة قائلة الأنبياء وراجة المرسلين؟

وإذا ظهر المسيح مشتهى الأنبياء ورأته العين ولمسته اليد، فأين يقف المعمدان أو إيليا أو كل النبوات؟ وإذا «ظهرت الآية العظيمة في السماء امرأة متسربة بالشمس (المسيح) والقمر (يوحنا المعمدان) تحت رجلها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً (الرسول)» (رؤ ١٢: ١)، فأين تكون التي بكى عليها المسيح التي لم تعرف زمان افتقادها، التي صلبت مخلصها وجلست وحدها تبكي على زمان ترمُلها!!

هـ - سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح :

لقد أعطى القديس يوحنا أهمية كبيرة لحادثة خروج الماء والدم من جنب المسيح على الصليب، مع أن بقية الإنجيليين لم يهتموا ولا حتى بذكرها :

— « ولوقت خرج دمٌ وماء . والذي عاين شهد وشهادته حقٌ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم . » (يو ١٩ : ٣٥)

ثم عاد في رسالته الأولى إلى تأكيد أهمية هذه الحادثة :

— « هذا هو الذي أتى بماء ودم يسوع المسيح . لا بالماء فقط بل بالماء والدم . والروح هو الذي يشهد . » (١ يو ٥ : ٨)

ويتضح من هذا التركيز على هذه الحادثة أن لها أهمية لاهوتية أساسية في فكر القديس يوحنا . وقد اعتبر كثير من الآباء أن القديس يوحنا يريد أن يشير بذلك إلى خروج أسرار الكنيسة أي المعمودية (الماء) والإفخارستيا (الدم)، وبالتالي إلى خروج الكنيسة نفسها بصفاتها حواء الجديدة، من جنب المسيح النائم على الصليب، كما خرجت حواء الأولى من جنب آدم النائم (القديسون أغسطينوس وكيرلس الأورشليمي وذهي الفم وغيرهم حسب تحقيق العالم Lagrange) (٧).

وجدير بالملاحظة أننا نجد ما يوازي هذا الفكر عند القديس بولس الرسول إذ أنه في نهاية حديثه عن الكنيسة كمروس للمسيح قال :

« فإننا نحن جسده من لحمه ومن عظامه » (أف ٥ : ٣٠) . وواضح أن هذا الاقتباس مأخوذ من قول آدم في سفر التكوين عقب خروج حواء من جنبه حيث قال : « هذه الآن عظمٌ من عظمي ولحم من لحمي . » (تك ٢ : ٢٣)

و - الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والإبن :

الكنيسة تستمد جوهرها وكيانها الحقيقي من الوحدة الأزلية الكائنة بين الآب والإبن . يتضح ذلك من كلام الرب السري في صلاته الأخيرة (يو ١٧) :

+ « كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يو ١٧ : ٢١) ؛ حيث يظهر من ذلك أن الوحدة الأزلية بين الآب والإبن ليست فقط النموذج الأعلى (بقوله « كما » ...) لوحدة الكنيسة، بل هي فوق ذلك الوسط الإلهي المعروض علينا أن ندخل فيه : « ليكونوا واحداً فينا » ، لتحقيق داخله وحدتنا الكنسية . فالكنيسة بالأساس مغمورة في هذا الوسط الإلهي الذي هو الحب المتبادل بين الآب والإبن .

⁷ M.-J. Lagrange, Evangile selon saint Jean, Paris, 1925, p. 499.

+ «أنا فيهم» (بالتجسد) وأنت في (بملاقتي الجوهرية بك كابن وحيد لك، كائن فيك منذ الأزل) ليكونوا مكملين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني.» (يو ١٧: ٢٣)

عبارة «أنا فيهم» بدأت تتحقق لما صار الكلمة جسداً، فإن تجسد الكلمة هو جوهر تكوين الكنيسة، أي جوهر دخولنا في الوحدة مع الآب والإبن. فالكنيسة بالأساس هي امتداد لتجسد الكلمة أي لإتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح^(٨).

+ الكنيسة في جوهرها شركة مع الآب والإبن: ما سمعه القديس يوحنا من فم الرب في صلاته الأخيرة عن وحدة المؤمنين في الآب وفي الإبن، أعاد صياغته في رسالته الأولى مستخدماً عبارة «الشركة» *κοινωνία*، تلك الكلمة التي دخلت فيما بعد في التقليد المسيحي للتعبير عن «الشركة الكنسية»:

«نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا *κοινωνία* (الشركة الكنسية). وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (الشركة مع الآب والإبن هي الأساس الوحيد الذي تُبنى عليه الشركة الكنسية). ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً (هذه الوحدة مع الآب والإبن التي نحن مدعوون أن ندخل إليها في سر الكنيسة، والتي تفوق الزمن، هي سر الفرح الكامل).» (١ يو ١: ٤ و ٣) (٩)

ز - النظام وتدبير الخدمة في الكنيسة، في إنجيل يوحنا:

لم يضع لها إنجيل يوحنا مفردات كثيرة ولكن وضع لها قاعدته العريضة التي إن سارت عليها الكنيسة وسار عليها رؤساؤها عاشت وازدهرت، وإن تمردت عليها انحصرت وتضايقت: «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: أفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض لأني أعطيتكم مثلاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم

(٨) راجع شرح هذه النقطة بأكثر تفصيل في كتاب: «المنصرة» للمؤلف، (أعيد طبعه ضمن كتاب: «الروح القدس الرب الهبي» ص ١٣٥-١٨١)، حيث يقول: «لقد استُعلنت الكنيسة أول ما استُعلنت في تجسد الإبن؛ لأن إتحاد اللاهوت بالناسوت هو في الواقع أصل ومعنى وحقيقة الكنيسة (إجتماع الله بالناس). لذلك فظهور الله في جسد إنسان هو أول استعلان لطبيعة الكنيسة وتحقيق وجودها عملياً على الأرض... فإذا نظرنا إلى المسيح المولود من العذراء من جهة اللاهوت الكنسي لتيقنا أنه هو هو الكنيسة في معناها الإلهي المطلق» (ص ١٥٣). «إذن غاية التجسد الإلهي قد بلغت ذروتها يوم الخمسين حينما صار الكل في المسيح... لقد صار وكمل في العلية ما بُدئ به في بيت لحم. لقد وُلد المسيح في بيت لحم لتولد الكنيسة في العلية.» (ص ١٥٦)

(٩) راجع ما جاء في الباب الثالث - الفصل السادس من الوحدة والثلاث مع الله كمعيار درجة تأملي في إنجيل القديس يوحنا (ص ١٧٣ وما يليها).

أيضاً. الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مُرسله. إن علمتم هذا فطوبى لكم إن عملتموه» (يو ١٣ : ١٢-١٧). هذا هو قانون النظام في الكنيسة وقاعدة التدبير فيها.

ح - الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً

لمغفرة الخطايا والكرازة، في إنجيل القديس يوحنا:

— «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَنْ أُرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أُرسلني.» (يو ١٣ : ٢٠)

السيد المسيح هنا يتبنى عملية تعيين الرسل والمرسلين والإرساليات، ويرفع من قدر المرسل رفعاً إلهياً خطيراً، فالمرسل المسيحي يحمل اسم المسيح والآب، ورسالته أخطر مما يتصور الناس فهي على التوازي والتكامل مع إرسالية الآب للإبن. هذا هو المفهوم الإلهي للإرساليات في الكنيسة.

— «أنا أُرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.» (يو ٤ : ٣٨)

عمل المرسلين سبق المسيح وأسس منهجه وتولى تذليل مصاعبه، وزرع وسقى ونمى، وما بقي على المرسل إلا الحصاد. لقد تولى المسيح رفع كل أتعاب الخدمة وعشراتهما بعمله الروحي الحق، وضمن للعامل نجاحه وفرحه.

— «يا سمعان بن يونا أتخبرني أكثر من هؤلاء؟ قال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له ارفع خرافي.» (يو ٢١ : ١٥)

الرعاية في الكنيسة هي أمر تنصيب من قِبل راعي الرعاة الأعظم. ومؤهلات الراعي في الكنيسة التي تجعله متقدماً على خراف الرعية هي المحبة الأكثر: «أكثر من هؤلاء».

— «فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. كما أُرسلني الآب أُرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. مَنْ غفرتم خطاياهم تُغفر له. وَمَنْ أُمسكتم خطاياهم أُمسكت.» (يو ٢٠ : ٢١-٢٣)

المسيح يمنح المرسلين في الكنيسة سلامه الخاص لينحوه بدورهم، وروحه القدوس لمغفرة خطايا الشعب أو لحجب الغفران (للتأديب والتوبة).

هنا يضطلع الروح القدس بوظيفة الكنيسة: «وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدّركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٤ : ٢٦). «روح الحق الذي

لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ما كُتَّ معكم ويكون فيكم» (يو ١٤: ١٧). «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً...» (يو ١٥: ٢٦ و ٢٧). «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق...» ونخبركم بأمور آتية. ذاك يمجديني لأنه يأخذ مما لي ونخبركم.» (يو ١٦: ١٣ و ١٤)

وهكذا إذ تكون الكنيسة قد تكامل نضجها، في منظور إنجيل القديس يوحنا، تنطلق لتكرز بما رأت وسمعت ببشارة الفرح: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح – (بالروح القدس) – ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١ يو ١: ٣ و ٤)

ط – مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا:

– «وسور المدينة (الكنيسة) كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الخروف الإثني عشر.» (رؤ ٢١: ١٤)

الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا كما رآها في رؤياه مبنية على أساس الرسل. أما أسماؤهم المكتوبة على الأساس فهي تعبير قوي عن حضورهم الدائم بالروح في الكنيسة، ويمثله الآن التقليد الرسولي المدوّن في الأربعة الأناجيل، والشفاهي المسلّم للكنيسة في الأسرار وشرح الكلمة بالتسليم.

– «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذاً فيكم.» (١ يو ٢: ٢٤)

لقد آزرهم المسيح بالروح القدس حتى يتذكروا كل ما قاله لهم ويعلمهم كل الحق ويأخذوا للمسيح وينخبرهم بالأمور التي عسر عليهم فهمها في حينها حتى يشهدوا له: «أنتم تشهدون أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يو ١٥: ٢٧). هذه هي الميزة العظمى التي كانت لشهادة الرسل والتي عليها وبها قامت الكنيسة في كل العالم. ولقد حملت الكنيسة في كيانها هذه الشهادة كذخيرة لا يمكن أن تتكرر قط. فعندما نقول إن الكنيسة رسولية، فهذا يعني أنها تحمل الشهادة المدموغة بالروح القدس وختم المسيح.

ي – رؤية الكنيسة من الداخل:

«إصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليثب والعقيق، وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد. وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً (قسيساً) جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب.» (رؤ ٤: ١ – ٤)

القديس يوحنا صعد إلى السماويات ورأى، كما صعد موسى بالروح ورأى؛ هذا رأى شبه السماويات وظلّها، وذاك رأى السماويات عينها. أما موسى فصنع خيمة الاجتماع كما رآها بالروح؛ وأما القديس يوحنا فرتب نظام الكنيسة وترتيبها من الداخل لتكون صورة منظورة لما سيكون في السماء. وكان القديس يوحنا بالفعل يلبس ملابس رئيس الكهنة بيضاء وعليه صدره وربما إكليل^(١٠). ونعتقد أن الكنيسة تسلمت منه شكلها وترتيبها الداخلي وترتيب جلوس الأسقف وحوله الكهنة. ونستدل هذا من رسائل القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا، وذلك في رسائله الست التي كتبها سنة ١٠٧ إلى كنائس آسيا ومقدونيا وهو في طريقه إلى الإستشهاد في روما، حيث بحث أساقفة الكنائس - وحتى إلى بوليكاربوس نفسه أسقف سميرنا - على كيفية الاجتماع والجلوس داخل الكنيسة واحترام الأسقف: [حيث يكون الأسقف في موضع الله والكهنة في موضع جماعة الرسل]^(١١)، تماماً حسب الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في السماء حيث عرش الله يحيط به عروش الأربعة والعشرين شيخاً بملابسهم البيضاء وأكاليلهم.

وهكذا أيضاً نتأكد من بقية رسائل القديس إغناطيوس أن النظام والقانون الكنسيين وتدير الخدمة بدأت تأخذ كما لها الإلهي في أيام القديس يوحنا وبعده.

٢ - الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا

يقول العالم باريت في صفحة ٦٩ من كتابه شرح إنجيل القديس يوحنا: [في إنجيل القديس يوحنا توجد تعاليم عن الأسرار أكثر من بقية الأناجيل]. هذا رداً على النقاد الذين يقولون إن إنجيل يوحنا يخلو من الحديث عن الأسرار الكنسية.

وقد سبق أن قلنا في تعريفنا للكنيسة، أن الرموز الخاصة بالأسرار في إنجيل القديس يوحنا تحمل معاني خصبة للغاية «الميلاد من الروح»، «الماء الحي»، «الميلاد الثاني من فوق»، «تفتح عيني الأعمى»، و«الإغتسال في بركة سلوام»، مقعد بيت حسدا ذو الـ ٣٨ سنة على سرير الخطية. كلها أنوار مسلّطة على المعمودية تشرح كل لاهوتها. وكذلك وليمة الغذاء في حضرة الرب في معجزة الخمس الخبزات، والخبز النازل من السماء الذي من يأكله لا يموت، الشكر الإفخارستي عليه، والمسيح ناظر إلى أعلى، وتكسير الخبز (القسمة) والتوزيع، وجمع الكسر حتى

¹⁰ Euseb. Eccl. Hist. III,31; V,24.

¹¹ Ep. Magn VI, Tract. ii,iii cited by W.F. Hourd Christ. Acc. to St. John, p. 129.

لا يضيع شيء، «أكل الحق وشرب الحق». ثم الخمر في عرس قانا الجليل والكرمة، أنوار مسلطة كلها على سر الإفخارستيا. وحضور المسيح (كمريس حقيقي) في عرس قانا الجليل، والأم العذراء حاضرة أيضاً (الكنيسة)، أنوار مسلطة على سر الزيجة. ونفخ الروح القدس في وجه التلاميذ وإرسالهم للخدمة وإعطاؤهم سلطان غفران الخطايا، أضواء مسلطة على سرّي الكهنوت والإعتراف.

وفي هذه الرموز جميعاً يُبرز إنجيل يوحنا الصلة الجوهرية بين الأسرار والمسيح، فكلها تنبع منه وتبقى قائمة ودائمة فيه. وقد التزم السيد المسيح بالرموز في حديثه عن المعمودية (يو ٣) وعن الإفخارستيا (يو ٦)، ولم يشرح السر عملياً لأنه لم يكن يكلم الكنيسة آنئذ بل كان يتكلم إما مع معلم الناموس أو في المجمع في كفرناحوم.

وإنجيل يوحنا ينفرد دون بقية الأناجيل في شرح الغرض من هذه الأسرار وتوضيح لزومها وأهميتها المطلقة بالنسبة للحياة الأبدية، بل ويجعل من ممارستها حتمية خلاصية: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يو ٣: ٣)، «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو ٣: ٥). ولكن جاءت كلها بلغة سرية مستقبلية، فهو يتكلم مع اليهود ولكن يخاطب كنيسة الدهور: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٥٣). اليهود رفضوا هذا وبعض التلاميذ أيضاً، لأن الكلام لم يكن لهم.

وواضح أن اختصاص إنجيل يوحنا يتجاوز دائماً الممارسات الشكلية لأنه كان يتكلم مع غير المختصين بالشكل والأداء. فهو لم يصف طريقة ممارسة سر العمداء، ولا وصف طريقة ممارسة سر الإفخارستيا؛ ولكنه تجاوز الشكل والحركة إلى المضمون والجوهر. ويكفي أنه لم يذكر قط كلمة واحدة عن ميلاد المسيح أو نسبه أو بلده أو عماده. ولكنه أسهب في وصف تجسده الذي هو التعبير اللاهوتي عن الميلاد. ثم أسهب في وصف شهادة يوحنا المعمدان وما سمعه بالروح القدس وشهادة الله عن ابن الله وقت العمداء.

كذلك يختص إنجيل يوحنا بالتأكيد على دور الروح القدس في المعمودية، فبعد أن ذكر الميلاد من فوق والميلاد من الماء والروح، عاد ثالثة ليؤكد أنه ميلاد من الروح القدس: «هكذا كل من وُلد من الروح» (يو ٣: ٣ و ٧ و ٥ و ٨). كذلك في سر الإفخارستيا، فإنه بعد أن وضع أساس الإفخارستيا كأكل الجسد وشرب الدم، عاد وأكد أن للروح القدس الفعل الجوهرى في عملية السر بأكمله. «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد — كمجرد طعام بالفم — فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلتمكم به هو روح وحياة.» (يو ٦: ٦٣)

ويلاحظ أن «الجسد» في الإفخارستيا هو التعبير الكامل عن جسد المسيح الحي الذي مات وقام. ولا يمكن فصم الجسد عن الروح القدس الذي فيه باعتبار أنه جسد الابن الوحيد الحامل لروح الله، كذلك لا يمكن فصله عن الروح القدس الذي حلّ عليه واستقر فيه، فالذي يأكل الجسد يقبل الروح القدس الذي فيه. لذلك فالجسد محيي «لأنني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). وكذلك الدم فهو في المسيح قائم «بروح أزلي» (عب ٩: ١٤)، ومعروف في لاهوت العهد القديم أن «الحياة في الدم» (لا ١٧: ١٠ و ١٦). أما دم المسيح ففيه الحياة البشرية والحياة الأبدية معاً أو الحياة التي بلا فساد أو موت، فالذي يشربه يتحد به ويحيا إلى الأبد ولا يجوز عليه الموت. لذلك اعتبر الآباء القديسون أن الإفخارستيا هي antidote أو ترياق عدم الموت أو الدواء الذي يمنع الموت. وقد أجمل القديس يوحنا في رسالته الأولى عمل الروح مع الماء مع الدم كعمل واحد ذي شهادة «والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد.» (١ يو ٥: ٨)

ثم يعود القديس يوحنا ليؤكد على العمل السرائري في حياة المسيح بصورة عميقة للغاية. فبحسب الإنجيل عامة كتقليد رسولي، فإن حياة السيد المسيح تبدأ بالمعمودية والروح القدس وتختتم بالإفخارستيا، طقساً في الثلاثة الأناجيل، وتعليماً في إنجيل يوحنا، وتطبيقاً على الصليب في الأناجيل الأربعة. ويُعقَّب على هذا القديس يوحنا في رسالته بقوله عن المسيح ككل: «هذا هو الذي أتى بماء ودم يسوع المسيح، لا بالماء فقط (يوحنا المعمدان) بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١ يو ٥: ٦). لأن الروح القدس هو الذي شهد في المعمودية وهو أيضاً اضطلع بإقامة المسيح من الموت (رو ١: ٤)، معلناً بذلك أن دم الصليب كان للفداء.

+ وقد أكد القديس يوحنا ثلاث مرات على قيمة الاعتراف بالخطايا كسرٍّ من أسرار الغفران والشفاعة:

— «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١ يو ١: ٧)

— «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل (أمين بحسب الوعد وعادل بحسب القضاء) حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١ يو ١: ٨ و ٩)

— «إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا... وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١ يو ١: ١٠، ١ يو ٢: ٢ و ١)

+ كما يبرز القديس يوحنا الإيمان بالمسيح على أساس أنه سر خلاصي:

— « كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله. » (١ يوه : ١)

— « كلُّ من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا. » (١ يوه : ٤)

— « من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله. » (١ يوه : ٥)

الفصل الرابع

الرموز في إنجيل القديس يوحنا

(أو اللاهوت الرمزي)

الراعي الصالح ، الكرمة الحقيقية ، الخبز الحي ، الماء الحي ... إلخ .

يستخدم المسيح هذه الرموز في إنجيل يوحنا لتوضيح حقائق أبدية . وهذه هي إحدى خصائص إنجيل يوحنا .

١ - رمز الراعي الصالح :

في مثل «أنا هو الراعي الصالح» يقول الرب إنه هو باب الخراف أيضاً، ويستحيل بحسب المدلولات أن يكون الراعي هو الباب؛ فهذه رموز تهدف إلى حقيقة أخرى إلهية أو لاهوتية عالية جداً. فبعد أن يعرف المسيح نفسه بأنه هو الراعي وأنه هو باب الخراف وأنه «يعرف خاصته وخاصته تعرفه»، يرتفع مرة واحدة بالرمز ليدخله في دائرة الله ليكشف عن هويته هكذا: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب...» (يو ١٠: ١٥)، ثم من داخل الرمز يشير إلى رسالته حتى منتهائها بكلمة: «وأنا أضع نفسي عن الخراف» (يو ١٠: ١٥). فالمسيح يستخدم كلمة «الراعي» وكلمة «الباب» وكلمة «الخراف» كشفرة أو رمز لموضوع حقيقي على مستوى عمله الإلهي وهو: كيف سيخلص المؤمنون باسمه الذين عرفوه وعرفهم، وسوف يعطيهم الحياة الأبدية، وكيف ستكون الصلة بينه وبينهم؟

والمسيح لم يستخدم هذه الرموز كشيء جديد، بل هي بعينها رموز العهد القديم التي استخدمها الله مع شعبه. ففي العهد القديم معروف من المزامير أن «الرب راعٍ»، فيثوّه يرعى شعبه، وشعبه هو بمشابة خراف «الرعية»: «نحن شعبك وغنم رعايتك» (مز ٧٩: ١٣). والله نفسه هو «الراعي».

والنبوة تشير على أن الله سيأتي كراع له صفة القوة والبأس مع حنان وعطف: «هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه (ليس أجيراً) وعُملت معه. كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات.» (إش ٤٠ : ١٠ و ١١)

ولكن على مدى السنين اختار الله رعاة من المختارين من الشعب ليقوموا بالرعاية من تحته هو «كراعي الرعاة الأعظم». «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المرضعات أتى به ليرعى يعقوب شعبه وإسرائيل ميراثه، فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهاره يديه هداهم.» (مز ٧٨ : ٧٠-٧٢)

ولكن في السبي ابتداء الله يصرح على فم أنبيائه أنه سيعاقب الرعاة، وأنه فيما بعد سيرعى بنفسه ويقيم رعاة أيضاً. والإشارة واضحة على المسيح والرسل ثم الكنيسة: «ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي. أنتم بددتم غنمي وطردهتموها ولم تتعهدوها. ها أنذا أعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب. وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي... وأقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفقد يقول الرب.» (إر ٢٣ : ١-٤)

ولكن على مدى الأيام فسد الرعاة وأفسدوا الرعية جداً، ومن جهة هذا الأمر يصرخ حزقيال النبي: «وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبأ على رعاة إسرائيل، تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، ويل لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم، ألا يرعى الرعاة الغنم. تاكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم (أي نهوا الرعية). المريض لم تقووه والمجروح لم تغصبوه والمكسور لم تجبروه والمطروود لم تستردوه والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلطتم عليهم. فتشتت بلا راع وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتتت. ضلّت غنمي في كل الجبال وعلى كل تل عالٍ. وعلى كل وجه الأرض تشتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا على الرعاة وأطلب غنمي من يدهم وأكفّهم عن رعي الغنم. ... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها كما يفتقد الراعي قطيعه... أرفعها في رعي جيد... أنا أرفع غنمي وأربضها يقول السيد الرب.» (حز ٣٤ : ١-١٥)

ويقول المسيح: «إن كل الذين جاءوا قبلي (من الرعاة) هم سُراق ولصوص» (يو ١٠ : ٨)، والله نحاهم: «أكفّهم عن رعي الغنم». وجاء هو بنفسه يهوه بنفسه: «أنا أرفع غنمي يقول السيد الرب». وزاد المسيح بقوله: «أنا أضع نفسي عن الخراف»، وجعل هذا برهاناً لصلاحه: «أنا هو

والآن لو تأمل القارئ جيداً في نبوة حزقيال^(١) في قوله إن الله سيكفُّ الرعاة المفسدين عن رعي الغنم وأنه سيرعى بنفسه الغنم، فإنه لا يجد لهذا القول أي تنفيذ عملي في العهد القديم من بعد زمان حزقيال النبي. فلا الرب أوقف الرعاة عن الرعاية، ولا الرب قام بنفسه برعاية الشعب، بل على النقيض أهمل الأمة تماماً، وظلت كلمة الرب محبوسة بلا نبي ولا معلم إلى مجيء المسيح، ما عدا نبوات الأنبياء الصغار الذين جاءوا من بعد حزقيال وحَدَّوْا حَدَّوَهُ في نقد أعمال الرعاة.

وفجأة وبعد أربعمئة سنة من آخر نبي من الأنبياء الصغار، كلها صمتٌ، يأتي العهد الجديد ويقف المسيح فيقول: «أنا هو الراعي الصالح» (يو: ١٠: ١١)، ويؤكد: «أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي (من الرعاة) هم سُراق ولصوص» (يو: ١٠: ٧ و٨). وهكذا ومن هذا الصوت القوي ندرك أن يهوه يتكلم، فهذا صوت السيد الرب الذي نطق في حزقيال قديماً.

وبهذا ينكشف أمامنا سر قوله: «أنا هو الراعي الصالح»، أي أنه ليس مثل رعاة إسرائيل الذين سرقوا الشعب ونهبوه ومنتفوا صوفه وأكلوا لحمه وعصروا لبنه حتى الدم، بل هو «صالح». وفي موضع آخر صرَّح بغاية الوضوح أن ليس «صالحاً» إلا الله. وهكذا يصل بنا الرمز إلى استعلان شخص المسيح استعلاناً كاملاً.

وهذا هو أسلوب إنجيل يوحنا في استخدام الرمز، إذ يستعلن به الجديد المخفي في القديم، ويضرب به من بعيد ما فسد وساء، ويرفع به من قَرَبه الله ورفعه وعلاؤه.

٢ - رمز الكرمة:

وأيضاً إذا جئنا إلى رمز الكرمة في قول الرب: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو: ١٥: ٥)، والكرام يقط، كلُّ غصن فيه لا يثمر يقطعه والذي يثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر. فلونحننا جانباً شرح العلاقة الحية السرية بين الكرمة وأغصانها وبين عصير الكرمة ودم المسيح الذي يعطي حياة أبدية للأغصان الثابتة والمثمرة — لونحننا هذا جانباً لنسأل: لماذا اختار المسيح هذا الرمز بالذات؟

فإننا نجد هنا العودة إلى الوعود والتوسلات المقبولة التي قُدِّمت في العهد القديم عن الكرمة

(١) حزقيال النبي: كتب نبؤته قبل وبعد السبي، حوالي (٥٩٧-٥٨٦ ق.م.). وهو ثالث الأنبياء الكبار وآخرهم بعد إشعياء وإرميا.

ومضمونها. فنرى في مثل المسيح أنه يتم وعداً وعده الله على لسان داود بالروح، وعلى لسان إشعياء أيضاً نرى وعداً لم يتم قط في العهد القديم حتى نهايته إلى أن جاء المسيح ليعلن أن زمان تحقيق وعد الله ورجاءات الأنبياء بالروح قد تم في شخصه!!

نبوة إشعياء: كما يتغنى إشعياء بأغنية حزينة عن «الكرمة»، فالروح القدس ينطق على فمه نشيداً مُبْكياً عن كرمه (كانت محبوبة لله)، والكرمة هي الشعب، أي شعب إسرائيل قديماً الذي أعزّه جداً واعتنى به للغاية كما يعتني كرام صالح بكرمه. ثم يعطي الروح الكلمة للمسيح ليتكلم عن كرمه ويحثكم إلى شعبه شعب يهوذا (أي الكرمة ذاتها)، ويُفصح عن عزمه على كسر أسوارها أي رفع العناية الإلهية بها ثم هدمها، وقد هدمها بالفعل سنة ٧٠ م؛ ويوصي السماء أن لا تمطر عليها، أي يرفع نعمته ورحمته عنها. وفعلاً صار شعب إسرائيل ويهوذا مهاناً مردولاً في العالم كله. «لأنشيداً عن حبيب نشيد محبِّي (أي محبوبي my beloved) لكرمه: كان لحبيبي كرم على أكمة خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورق (سورق للأسف كلمة يونانية عن العبرية وضعت كما هي σωρήκ وترجمتها جيد أو مختار)، وبني برجاً في وسطه ونقّر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا، احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً. فالآن أعرفكم ماذا أصنع بكرمي. أنزع سياجه فيصير للرعي. أهدم جدرانَه فيصير للدّوس. وأجعله خراباً لا يُقضب ولا يُنقب فيطلع شكّ وحسك وأوصي الغيم أن لا يُمطر عليه مطراً. إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل وغرسُ لذّته رجال يهوذا. فانتظر حقاً، فإذا سَفَكُ دِمٍّ؛ وعدلاً، فإذا صراخ». (إش ٥: ١-٧)

تعقيب على نبوة إشعياء: ولكن ما جاء في المزمور ٨٠: ٨-١٧ يُعتبر تشفعاً واسترحاماً لما جاء في إشعياء النبي هنا. فنبوة إشعياء تنتهي بخراب الأمة وهجران الله لشعب إسرائيل وصبّ غضبه ونقمته عليه. ولكن المزمور ٨٠ الذي يتكلم عن كرمه داود، سبق فنظر إلى ما بعد الخراب والغضب والمهجران، وتطلع من بعيد إلى الكنيسة الجديدة - إسرائيل الجديد - الكرمة المحبوبة التي غرسها المسيح في جسده ومن جسده، ورواها بدمه وسيّج حولها بالروح القدس لتبقى إلى الأبد.

نبوة كرمه داود: «كرمة من مصر نَقَلْتُ^(٢). طردت أمماً وغرستها. هيأت قدامها فأصلت أصولها فلأت الأرض. غطى الجبال ظلّها، وأغصانها أرز الله. مدّت قضبانها إلى البحر، وإلى النهر

(٢) هنا الكرمة هي شعب إسرائيل الذي انحدر من فلسطين كفرع جاف أو عُثْلَة نحتاج إلى رعاية كثيفة لتنمو نمواً جيداً، أرسلها الله إلى مصر وشيّلت هناك في أرض الفراعنة لتشرب الحكمة، وترضع الفنون، وتهذب بأخلاق الفراعنة الأماجد، وتنمو وتزدهر على

فروعها. فلماذا هُذِئت جذرانها فيقطفها كل عابري الطريق. يُفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية. يا إله الجنود ارجعْ اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة، والفارس الذي غرسه يمينك، و«الإبن»، الذي اخترته لنفسك... لتكن يدك على رَجُل يمينك وعلى ابن آدم (أي ابن الإنسان) الذي اخترته لنفسك.» (مز ٨٠: ٨-١٧)

واضح هنا أن الرمز «الكرمة» يستعلن من داخله «أشخاصاً»؛ فيوجد «الإبن» الذي اخترته لنفسك، ويوجد «ابن الإنسان» الذي اخترته أيضاً لنفسك بجوار «الكرمة» في حد ذاتها التي ينصب مدلولها على شعب إسرائيل بكل وضوح. ولكن النبوة تجمع الكرمة (الشعب)، و«الإبن»، و«ابن الإنسان» في مفهوم واحد: كيف يكون ذلك؟ هذا أمر مستحيل حسب الشكل والمنطق^(٣).

ثم نأتي إلى الدعاء الملح، وهو مُقدَّم بالروح: «ارْجِعْ اطلع من السماء، وانظر وتعهد هذه الكرمة...، وهذا الإبن...، رَجُل يمينك...، وعلى ابن الإنسان...».

وهذا لم يتم في العهد القديم على الإطلاق، فالله بعد داود لم يفتقد هذا الشعب، و«الإبن» الذي هو المسيح لم يظهر، ولا عُرف مَنْ هو «رَجُل يمين الرب»، ولا مَنْ هو «ابن الإنسان».

ولكن يأتي المسيح ويقول: «أنا هو الكرمة الحقيقية» (يو ١٥: ١)، هنا وبكلمة الحقيقية αληθεια يرتفع إلى الطبيعة الإلهية. ويعود المسيح مباشرة ويميط اللثام عن علاقة هذه «الكرمة الحقيقية» (أي المسيح) بالله، فيقول: «وأبي الكرام» (يو ١٥: ١)، أي أنه «ابن الكرام». وهنا يرتفع بالرمز حتى يوصله بالله مباشرة. إذن، فالكرمة ليست مجرد شجرة بل هي «الإبن» - «ابن الكرام». ثم يعود مباشرة ويقول: «وأنتم الأغصان» (يو ١٥: ٥). إذن، فهو من نوع أو من جنس الأغصان؟؟ أي هو «ابن الإنسان». وهكذا وفي آية واحدة أخذ المسيح الرمز من العهد القديم: «الكرمة» واستعلن بها ذاته الإلهية، وعلاقته بالآب، ونجسده، مرة واحدة، أليس هذا عجباً؟؟ وليس هذا فقط، بل بقوله أنه ابن الكرام وابن الإنسان معاً يفيد اتحاد شعبه، فهو يستعلن الكنيسة من داخله، الكرمة الحقيقية الكاملة، «أنتم فيّ وأنا فيكم»، الكنيسة الجديدة التي نقلها من الأرض إلى السماء. لذلك أخذت الكنيسة مثل الكرمة هذا وجعلت منه تسبحة ترددها

= ضفاف النيل، حتى ضربت جذورها وصلحت للنقل فنقلها الله من مصر. وفي مصر أيضاً غرس كنيسة المحبوبة، كنيسة القبط، التي كانت معلمة المسكونة. فصر هي حقل الله الذي نبثه لنفسه.

(٣) راجع شرح لقب «ابن الإنسان» واتصاله بما جاء في المزمور ٨٠، ص ٢٠١.

على مدى الأجيال، فهذا اللحن يُقال في القداس الإلهي^(٤).

ولولا أن المسيح قال هذا المثل لظلت نبوة كرمة داود (في المزمور ٨٠، وفي نبوات إشعياء) متعطلة كوعد بلا تنفيذ، وكدعاء بلا استجابة. وهذا مستحيل في منهج الله والأنبياء.

٣ - رمز «الخبز النازل من السماء»:

«خبز السماء» لم يكن يُنظر إليه كرمز في العهد القديم، بل كحقيقة واقعة، ولكن في حدود الجسد، فهو خبز الشعب الجسدي «فقال لهم موسى: هو الخبز (المن) الذي أعطاكم الرب لتأكلوا» (خر ١٦: ١٥). وقد أسمّاه داود في المزمور بخبز السماء: «سألوا فأتاهم بالسّلوى وخبز السماء أشبعهم» (مز ١٠٥: ٤٠). كما أسمّاه المزمور أيضاً خبز الملائكة: «أكل الإنسان خبز الملائكة» (مز ٧٨: ٢٥).

ونحميا يدعوه خبزاً من السماء: «وأعطيتهم خبزاً من السماء لجوعهم وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم» (نح ٩: ١٥). هذا الخبز الذي عبّر عنه نحميا «خبز من السماء» - الذي هو نفس تعبير المسيح «أنا هو الخبز الحي النازل من السماء» (يو ٦: ٥١) - كان يفتقر حقاً إلى تصحيح، فإن «خبز من السماء» لا يمكن أن يكون لجوع الإنسان الجسدي. فالأرض مسئولة عن خبز الجسد، وعرق جبين الإنسان (ثمرة الخطية) هو الذي ينتج هذا الخبز.

فالمن الذي نزل من السماء كان خبزاً، نعم، ولكن على مستوى النبوة لما هو آت. فאלله سبق فأنبأ عن نزول «الخبز الحي الحقيقي»، خبز الحياة الأبدية، لإعالة شعبه ليس في قفر التيه في سيناء، بل في قفرتيه العالم.

والمسيح لما صنع معجزة الخمس الخبزات والسّمكتين حيث الخبز كان بديلاً للّمن، والسّمك بديلاً للسّلوى، كان يريد أن ينبّه ذهن إسرائيل وهم في قفر بيت صيدا الجليل أن بديل المن المادي قائم أمام أعينهم، إذ بثّ قوته الإلهية التي من السماء فجعل الخمس الخبزات تطعم خمسة آلاف رجل، أي رفع حدود العدد والرقم، ألغاه وأبطله ليمتد إلى مالا نهاية، إلى مئات ألوف ألوف، أو إلى العالم كله، بل ويفيض لملء الشعب.

(٤) [أيها الرب إله القوات، ارجع واطلع من السماء،

أنظر وتعهّد هذه الكرمة، أصلحها وثبّتها،

هذه التي غرستها يمينك.]

ويُعرف هذا اللحن في الطقس باسم «أسبسمس واطس».

وهكذا هو يمهّد لقولته الإلهية المستعلنة لشخصه وطبيعته: «أنا هو الخبز... النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يو: ٦: ٤١ و٣٣). فكما فتح عيني الأعشى المولود بلا عيني خالقاً له البصر من جديد ليرى نور العالم لكي يستطيع أن يقول بالحق كل الحق: «أنا هو نور العالم» (يو: ٩: ٥)، ويكون صادقاً؛ كذلك بثّ قوّته السمائية في الخبز ليشبع الألوف لكي يستطيع أن يقول: «أنا هو خبز الحياة... النازل من السماء» (يو: ٦: ٣٥ و٣٣). إن سِرَّ الشَّعْب الذي بثّه في الخبز بلا حدود هو هو قوته الإلهية التي أعلنها لهم في وضعها الروحي الأصيل، كسِرَّ شُعب الروح والحياة، الذي أسماه: «الطعام الباقي للحياة الأبدية»؛ في مقابل المُنَّ أو الخمس الخبزات، أي «الطعام البائد»، إلا إذا اكتشف فيه الإنسان سِرَّ الرمز.

فالمسيح صَحَّح الوضع القديم في سيناء إذ جعل «خبز السماء» هذا أو «خبز من السماء» (ثمرة محبة الله) ليس لإشباع الجوع الجسدي للإنسان، بل لإشباع جوعه الروحي. وهو لا يؤكل بالفم، وإنما يؤكل بالروح، فخبز السماء هو زاد السماء وليس زاداً للأرض. فلا يُعقل أبداً أن الله يعطي خبزاً من عنده من السماء لأوْدِ الجسد ليأكله الإنسان ويموت، حاشا. فهذا كان رمزاً أرضياً للآتي. وهو ككل رموز العهد القديم يظل في حدوده المادية شبه الحقيقية ينتظر مَنْ يحققه على مستوى «الحقيقة ἀλήθεια». إلى أن جاء المسيح وقال: «أنا هو الخبز الحقيقي»: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء» (يو: ٦: ٣٢)، «أنا هو خبز الحياة» (يو: ٦: ٣٥). فالمن لم يكن خبزاً حقيقياً، بل شبه الحقيقة كباقي كل رموز وصور العهد القديم: «شبه السمويات وظلّها.» (عب ٨: ٥)

— كان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يجوع أيضاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يجوع إلى الأبد: «أنا هو خبز الحياة، مَنْ يُقْبَل إليّ فلا يجوع، وَمَنْ يُؤْمِن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣٥)

— وكان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يموت أيضاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يموت: «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المُنَّ (خبز السماء الرمزي) في البرية وماتوا. هذا هو الخبز (الحقيقي) النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو: ٦: ٤٨ — ٥٠)

— كان «الرمز» القديم مأكلاً زائلاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ رمز الأكل من الخبز فهو مأكلاً حقيقياً باقياً إلى الأبد: «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي... جسدي مأكلاً حقاً ἀληθῆς.» (يو: ٦: ٥١ و٥٥)

— كان «الرمز» القديم في صورة مادية ميته، ينتن إذا تُرك لليوم الثاني، أما الخبز الحقيقي الذي فكّ الرمز فهو حيّ ومحبي: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو: ٦: ٥١)

— كان «الرمز» القديم أَكْلُهُ يُنشِئ شهوة: «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب... كما زنى أناس منهم...» (١ كو: ١٠: ٧ و٨). أما الخبز الحقيقي فيبطل الشهوة وينشئ تقوى: «مَنْ يَأْكُل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه.» (يو: ٦: ٥٦)

— كان «الرمز» القديم لامتداد الحياة الأرضية للإنسان العتيق، أما الخبز الحقيقي فهو طعام الحياة الأبدية لقوام الإنسان الجديد: «مَنْ يَأْكُلني فهو يحيا بي» (يو: ٦: ٥٧)، كما «أنا حيّ بالأب» (يو: ٦: ٥٧)!!

والآن، فلينظر القارئ كيف اقتحم المسيح هذا الرمز: «خبز من السماء (المُنْ)» ليكشف قصوره في القديم وعدم توافقه على الإطلاق مع طبيعة الإنسان، إذ هو «مَنْ السماء»، ولكنه لم يشبع ولم يُغني عن جوع بل أنشأ شهوة بل خطية بل موتاً. لهذا كان أمراً حتمياً، وبالضرورة، أن يتبنى المسيح هذا «الرمز»؛ ليستعلن فيه طبيعته السماوية، ونزوله الحقيقي من السماء، ومصدره الإلهي، وفعله المحيي الخلاق في طبيعة الإنسان. الأمر الذي من أجله أنزل الله المُنْ من السماء في القديم، ليكون عربوناً لعطية الله العظمى بتجسد ابنه المسيح يسوع الذي جاء ليعطي الإنسان الجديد خلقته الروحية الثانية، ويقيم أودّها من جسده الإلهي لتحيا ولا تموت، ولتؤهلّ لحياة الأبد.

لقد سلّم المسيح لكنيسته الأولى هذا الرمز المستعلن بالروح في جسده للأكل وفي دمه للشرب، لتظل تُطعم بها أولاد الله المخلوقين جديداً حسب صورة خالقهم، لا أربعين سنة كخبز الدموع والمشقة والتيه الذي ينتظر راحة في أرض كنعان وقحها، ولكن إلى نهاية كل الدهور كطعام الحق والفرح والتهلل وبهجة القيامة، لحياة ممتدة في المسيح إلى أن يجيء.

٤ — رمز الماء النابع من جنب الصخرة:

أولاً: رمز المياه في القديم:

أ — الوجه السلبي للمياه: كانت المياه في وجهها السلبي غيفة في الفكر اليهودي، فياه الفيضان تمثل غضب الله على عالم الأشرار أرضاً وزرعاً وأحياءً وذلك سواء في الفيضان أو في انطباق مياه البحر الأحمر على الأعداء المتعقبين للشعب الهارب من مصر فقتلتهم؛ أما هم فالمياه خدمتهم وسهّلت طريقهم «شقّ البحر فعبرهم ونصب المياه كنتد» (مز: ٧٨: ١٣). «وانتهر بحر سوف فيبس وسيترهم في اللجج كالبرية. وخلّصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو، وغطت المياه

ولكن في هذا الوجه السلبي للمياه الخفيفة كان الله صاحب سلطان على المياه يطأها بقدمه. «أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت. ارتعدت أيضاً اللجج» (مز ٧٧ : ١٦). «في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تعرف» (مز ٧٧ : ١٩). هكذا سار المسيح فوق المياه؛ كما أن المياه وهي عدو، فتحت طريقاً لأرجل الكهنة وبعدهم الشعب ليعبروا نهر الأردن (يش ٣ : ٨ و ١٤)؛ وكذلك إيليا وأليشع من بعده (٢ مل ٢ : ٨).

وفي التقليد اليهودي بحسب إشعياء النبي، فالمياه تمثل في وجهها السلبي القوى الشريرة، فتمثل بالتنين الحية القديمة، بينما سلطان الله يطأها: «استيقظي استيقظي، البسي قوة يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القِدم كما في الأدوار (الدهور) القديمة، ألسيت أنت القاطعة رَهَبَ الطاعة التنين. ألسيت أنت هي المنشئة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفدين. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم وعلى رؤوسهم فرح أبدي.» (إش ٥١ : ٩ - ١١)

ب - الوجه الإيجابي للمياه:

١ - المياه النابعة من جنب الصخرة:

وهذا الوجه الإيجابي للمياه له شأن عظيم في التقليد والأدب اليهودي وعند الرابين. فالصخرة التي نبعت منها المياه في برية سيناء لم تكن صخرة عادية بل هي جزء مقدس من الأرض أخرج الماء من الأعماق، وهذه المياه، في عُرف هذا التقليد، هي المسئولة عن إبطال كل فيضان على الأرض، فهي التي أوقفت غضب الله!! فلم تعد المياه تُميت وتمسح الحياة من على وجه الأرض! بل وإن المياه النابعة من جنب هذه الصخرة إنما تسري في عروق تتخلل كل الأرض في كل أنحاء العالم! وهذه المياه هي المسئولة عن خصوبة الأرض، وهي تنبع من الصخرة استجابة للصلاة والطقوس التي تقدم على رمز الصخرة المقدسة (كانت تقدم فوق مذبح المحرقة في الهيكل من جرة فضية تُملأ من مياه بركة سلوام، وتُفرغ على المذبح المعتبر أنه هو الصخرة بضربها على المذبح فتشق ويخرج منها الماء الذي يفيض على المذبح - وذلك في طقس عيد المظال)، حيث من هذا المكان سوف ينبع نهر الفردوس في الدهر الآتي وهو نهر الخلاص لري المخلصين^(*). لقد اهتم المسيح أن يحضر هذا العيد ويستعلن نفسه - في هذه اللحظة التي تنكسر فيها الجرة ويخرج منها الماء - وذلك ليلغي هذا الطقس، ويعلم أن هو الصخرة وأن ماءها هو الروح الذي سيعطيه، الذي هو نهر الفردوس لري المخلصين بلا نزاع.

^{*}Theological Dict. of the N.T., Vol. VIII, p. 320.

أما الجزء الآخر في الوجه الإيجابي للمياه، فهو مياه التطهير: وبالإضافة إلى مسألة الغسيل والتنظيف، فالمياه كانت تدخل في مفهوم التقديس، في ترحيض الجسم في المناسبات المقدسة وخاصة عند الترائي والوقوف أمام الله أو في هيكله (لا ١١-١٥). ويُشترط في مياه التطهير للتقديس أن تكون مياهاً جارية أي مياهاً حية: «ويأمر الكاهن أن يُذبح العصفور الواحد في إناء خزفٍ على ماء حي (من مصدر مياه جارية). أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبح على الماء الحي، وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء» (لا ١٤: ٥-٧). وواضح هنا الفداء بالماء والدم، وواضح أيضاً أن الدم هو من عصفور «مذبح حي»، إشارة بليغة لدم الصليب وللماء والدم اللذين خرجا من جنب المخلص الذي طهرنا من برص الخطية!!

وعلى هذا المنوال يتم التطهير بالماء في الناموس على أشكال متعددة، ولكن مضمونها كله يجمعه المزمور هكذا: «طهرني بالزوفا فأظهر. اغسلني فأبيض أكثر من الثلج... استر وجهك عن خطاياي وامنح كل آثامي» (مز ٥١: ٧-٩). هنا تلميح اسكاتولوجي - أي أخروي - للتطهير بالروح وبماء إلهي من نوع يقدمه الله.

هذا الأمر يوضحه حزقيال النبي بغاية الوضوح: «وأرشد عليكم ماء طاهراً فتطهرون، من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أظهركم. وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم» (حز ٣٦: ٢٥ و ٢٦). ويلاحظ هنا أهمية اقتران الماء الطاهر (الإلهي) مع الروح الجديد: «وأجعل روحي في داخلكم» (حز ٣٦: ٢٧)، مع التجديد ممثلاً في القلب. فالله هنا سوف يطهر شعبه بماء طاهر من عنده، وبروحه الخاص في داخلهم - الأمر الذي لم يحدث قط في العهد القديم - والذي دفع الله أن يعطي هذا العهد الجديد وهذا الوعد والموعود، هو عدم نفع ماء تطهير الناموس والطقوس!

وإشعياء النبي يوضح أن مثل هذا التطهير الإلهي بهذا الماء الطاهر وهذا الروح إنما هو وعد إلهي سيتم في حينه - ولم يتم قط على مدى كل العهد القديم: «ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يُترك في أورشليم (مشيراً إلى ما سيحدث بعد خراب سنة ٧٠ م) يُسمّى قدوساً: (بولس الرسول يسمي المسيحيين بالقدسين في...)، كلٌّ من كُتب للحياة في أورشليم. إذا غسل السيد قَدْرَبَنَات صهيون ونقى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وروح الإحراق.» (إش ٤: ٣ و ٤)

طقس غسل الأيدي ومعناه اللاهوتي: «إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إهلك

تحتلّكها واقعاً في الحقل لا يُعلم من قَتَله... يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العِجْلة (البقرة) المكسورة العُنُق في الوادي، ويصرّحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيُغفر لهم الدم»^(٦) (تث ٢١: ١-٨). وهذا أصل وسبب غسل الأيدي قبل كل صلاة. «حين تبسطون أيديكم أشتري عيني عنكم. وإن كثرت الصلاة لا أسمع. أيديكم مملّاة دماً. اغتسلوا. تنقّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفّوا عن فعل الشر.» (إش ١: ١٥ و١٦)

«اغسل يدي في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب» (مز ٢٦: ٦)؛ بمعنى أنه يعلن براءته من كل خطية وإثم.

وقد صار طقس غسل الأيدي قبل الإقتراب من الصلاة والوقوف أمام الله طقساً كهنوتياً هاماً لدى المتنسكين أيضاً فكان يُعمل به لدى الربيين والأسينيين. ثم تطور عند اليهود وصار طقساً إلزامياً لدى كل اليهود أي كل الشعب قبل الأكل.

وكان الاعتقاد السائد الراسخ والسائد لدى الربيين اليهود أن الماء لا يُطهّر بذاته لذلك كان يلزم تكرار التطهير. وهذا هو تعليم الربيين أيام المسيح: [في كل حياتك (إعلم) أن الميت لا يندس وأن الماء لا يظهر ولكنها وصايا ملك الملوك.]^(٧)

وكان إيمان الأسينيين اليهود السائد هو [الله سوف يقوم بالتطهير النهائي وسوف ينزع روح الحق مثل غسيل الماء]، معتمدين على نبوة حزقيال النبي: «وأرث عليكم ماء طاهراً فتطهرون من كل نجاستكم... وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم... وأجعل روحي في داخلكم.» (حز ٣٦: ٢٥-٢٧)

ومعروف أن المسيح رفض مبدأ تطهير اليدين قبل الأكل لا من جهة الغسيل للنظافة ولكن بمعنى التطهير الطقسي، لأن المسيح كان يطلب نقاوة القلب لا نقاوة اليدين. «ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيديهم دفسة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم

(٦) في إنجيل القديس متى يذكر أن بيلاطس أجرى هذا العمل: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار. أبصروا أنتم» (مت ٢٧: ٢٤). وللأسف الشديد أخذ الشعب على مسؤوليته هذا الدم: «فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا» (مت ٢٧: ٢٥). وليتهم ما قالوا أبداً أبداً.

⁷ Theological Dict. of the N.T., op. cit., p. 321.

باعتناء لا يأكلون... ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيدي غير مفسولة. فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المراثين كما هو مكتوب: هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فابتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس.» (مر ٧: ٢-٧)

من هذا يتضح أن التطهير بالماء في مفهومه الميكانيكي، كمجرد غسيل لتتيم تعاليم الناس، يُخلى وصايا الله من مضمونها الروحي.

٣ - الله مصدر المياه الحية:

— «شعبي عمل شرين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشقة لا تضبط ماء.» (إر ٢: ١٣)

— «يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نوراً.» (مز ٣٦: ٩ و ٨)

إذن فلا بد أن يكون هناك عطش إلى الله:

— «يا الله إلهي أنت. إليك أبُكر. عطشت إليك نفسي.» (مز ٦٣: ١)

— «كما يشتهق الإيل (الغزال) إلى جداول المياه هكذا تشتهق نفسي إليك يا الله.» (مز ٤٢: ١)

— «عطشت نفسي إلى الله إلى الإله الحي. متى أجيء وأترأى قدام الله.» (مز ٤٢: ٢)

— «هوذا أيام تأتي يقول السيد الرب أرسل جوعاً في الأرض (٤٠٠ سنة من آخر الأنبياء إلى

السيد المسيح) لا جوعاً للخبز ولا عطشاً للماء بل لاستماع كلمات الرب.» (عا ٨: ١١)

— «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكُلُوا، هلموا اشتروا

بلا فضة وبلا ثمن خيراً ولبناً.» (إش ٥٥: ١)

— «لأنني أسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي

على ذُرِّيَّتِكَ.» (إش ٤٤: ٣)

ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد:

هذه النبوات كلها لم تتحقق في العهد القديم، وهي نبوات يتحتم بالضرورة أن تتحقق ليكون

الله صادقاً في كل مواعيده وتعهدهاته. كذلك فإن الصفات التي أوردتها النبوات عن الله أنه يعطي

الماء ويروي العطشان ويطهر ويغسل بماء طاهر، هذه كلها كان لا بد أن تتم وتُسْتَقْلَن. إنجيل

القديس يوحنا أخذ على عاتقه أن يسجل للمسيح كل الأعمال التي تعهد الله قديماً أن يكملها بنفسه في وقتها وزمانها المحدد؛ هذه أكملها المسيح وأعلنها وحققها بنفسه، كما جاءت تماماً حسب قول المسيح «ليتم الكتاب.» (يو ١٣: ١٨ ولو ٢٤: ٤٤)

+ فالماء، كعدوٍ عنيد يهدد بالموت، وطأه المسيح بقدميه وسار عليه كما على اليابس. ولما اتحد الماء مع الريح العاصف ليهيج البحر ويهدد بالموت، انتهر الرب الريح والبحر معاً، فهدأت الرياح وصامت البحر. وكان المسيح يواجه تيناً حياً ينتهره، فيسمع التينين ويرضخ. وهكذا حقق الله نبوة إشعياء التي يستصرخ الله فيها أن يستعيد الله عمله كما كان في القديم ويهتف بذراع الرب أن استيقظي: «استيقظي استيقظي إلسي قوة يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم... ألسيت أنت هي المنشئة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفدين» (إش ٥١: ١٠ و ٩). ومن هو «ذراع الرب» الذي يستصرخه إشعياء لكي يُستعلن، إلا يسوع المسيح الآتي في ملء الأيام، الذي ليس القوة وتمنطق بها، وسار على وجه الماء العاصف، وأخرس الريح، والبحر أبكمه؟

— «وهاج البحر من ريح عظيمة تهب... ونظروا يسوع ماشياً على البحر.» (يو ٦: ١٨ و ١٩)
— «يا معلم أما يهملك أننا نهلك. فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكت. ابكم. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم... فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض من هو هذا، فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه.» (مر ٤: ٣٨-٤١)

سؤالهم هذا له مدلوله، فالله وحده الذي له سلطان إسكات عجيج البحار وانتهار الريح:
— «المهديء عجيج البحار عجيج أمواجها.» (مز ٦٥: ٧)
— «يا رب إله الجنود مَنْ مِثْلَكَ قوي؟ ... أنت متسلط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكنها.» (مز ٨٩: ٨ و ٩)

— «هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق. أمراً هاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه. يصعدون إلى السموات يهبطون إلى الأعماق. ذابت أنفسهم بالشقاء... يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلعت. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم ومن شدائدهم يخلصهم. يهدىء العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا فيهدىء إلى المرفأ الذي يريدونه.» (مز ١٠٧: ٢٣-٣٠)

هكذا تم بالحرف الواحد للتلاميذ يوم عبروا بحيرة طبرية. وهكذا آمنوا أن قوة الله ورحمته ومعونته

هي في المسيح في فمه وصوته الذي أسكت البحر وأبثكم الرياح، ونجّاهم من الهلاك.

+ أما الوجه الإيجابي للماء، فالصخرة نفسها التي ضربها موسى بعصاه فخرج الماء منها، كانت هي المسيح، في وضعها السري، أي ما كانت الصخرة بمثابة الذي خرج من جنبها بضربة عصا موسى (خر ١٧: ٦) إلا رمزاً ملموساً للمسيح الذي طمّن في جنبه بالحربة فخرج منه دم وماء لخلاص العالم: «لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح» (١ كو ١٠: ٤).

ولكن العجيب حقاً أن يذكر القديس بولس أن الماء الذي كان يخرج من الصخرة في سيناء كان شراباً روحياً. «وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً (المن) وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح.» (١ كو ١٠: ٤ و ٣)

فلينتبه القارئ إلى سر الرمز قديماً، فالصخرة كانت روحية والماء كان شراباً روحياً، ولكن بسبب عدم إيمان الشعب وضعف رؤيته وكثرة تدمره على الله أخفى عن عيونهم حقيقة الصخرة وحقيقة مائها. فهل إلى الأبد يبقى هذا السر الإلهي مكتوماً؟ فإن كان قد جاء الزمان الذي تفتحت فيه قلوب وعيون وأسماع الإنسان بقبول الإيمان وتصديق الحق وطاعة الله وانسكاب الروح القدس، لذلك كان من المحتم أن يعلن المسيح عن نفسه أنه كان هو الطعام الروحي الذي أكلوه في هيئة المنّ ولم يعرفوه، وهو هو الشراب الروحي الذي شربوه وارتووا من الصخرة في برية سيناء الذي تدمروا عليه. أما هؤلاء القوم، شعب إسرائيل — فلم ينتفعوا بما أكلوا وبما شربوا، إذ يقول القديس بولس الرسول: «لكن بأكثرتهم لم يُسرَّ الله لأنهم طُرحوا في القفر... وهذه الأمور حدثت مثلاً لنا.» (١ كو ١٠: ٦ و ٥)

لذلك فالمسيح — وهو حاضر في عيد المظال، في اليوم العظيم منه وهم يحتفلون فيه بخروج الماء من الصخرة في سيناء بكسر جرّة فضية مملوءة ماءً من بركة سلوام على مذبح المحرقة المحتسب أنه هو الصخرة — وقف ونادى وكأنه يقول أنا هو الصخرة وأنا هو ينبوع الماء الحي: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي.» (يو ٧: ٣٧ و ٣٨)

هذا، ولو أضفنا إليه ما يقوله المسيح للسامرية بنوع خاص، لأدركنا تفوّق واقع المسيح عن مضمون النبوة: «كل من يشرب من هذا الماء (بثريعتوب وماء بركات الآباء) يعطش أيضاً،

ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» (يو: ٤: ١٣ و ١٤)

واضح من قول الرب أن ماء بثر يعقوب لم يغني السامرية عن فعل الخطية مع أنه ماء الآباء الذي يحمل ذكراهم وبركاتهم، ولكن الماء الذي يعطيه المسيح يطفى الشهوة ويبطل فعل الخطية فلا يعود الإنسان يعطش إلى حياة الدنيا حياة الخطية أو التعلق بهذا العالم؛ على أساس أن هناك فرقاً جوهرياً بين هذا الماء وذلك: فماء بثر يعقوب هو أصلاً مادة أرضية لحاجة الجسد أما «ماء الحياة» الذي يعطيه المسيح فهو ليس ماءً مادياً أرضياً بل هو كلمة الله وفعله — روح وحياة — حينما يستقبلها الإنسان بقلبه وروحه بواسطة الروح القدس الذي يحولها في قلب الإنسان إلى شهادة وكراسة وإلى صلاة وعبادة، فلا يعود الإنسان يعطش بعد إلى أمور العالم وخطاياها، لأن ينبوع الروح القدس يظل يفيض من قلبه تعزيات وأفراحاً يتعزى بها ويفرح ويعزى الآخرين ويُفرح قلوبهم أيضاً.

يلاحظ القارئ أن تعبيرات المسيح عن عطيته الروحية وقدرته على فك رموز العهد القديم في شخصه تفوق تعبيرات النبوات التي جاءت عنه جميعاً وتزيد عليها أضعافاً. فإنسان العهد الجديد الذي آمن بالمسيح والتصق بالرب كالغصن الملتصق في أصل الكرمة لا يرتوي من المسيح والروح فقط حسب كل رجاء ودعاء الأنبياء بل ينبع منه الروح أيضاً ويفيض ارتواءً للآخرين. هذا لم يخطر على بال النبي في تصوراتهِ وتوسلاتهِ القديمة للعهد الجديد.

كذلك فإن الماء الحقيقي الذي يعطيه المسيح دعاء بماء «الحياة» أو «الحقيقي»، لأنه ليس فقط يغسل ويطهر البدن ويروي العطش، بل أيضاً يجدد الداخل ويخلق الإنسان حياة أسمى. والشرب من الماء الذي يعطيه المسيح هو عملية الإيمان بالمسيح، فهو استقاء وارتواء بالروح كأرض عطشانة فاضت عليها المياه، حيث تتقبل الطبيعة البشرية الجافة المتعفنة وشبه الميتة روح المسيح، فتحي وتنتعش وتزهر وتعطي أثمارها للخلاص.

٥ — رمز الخبز والماء معاً:

«الخبز الحي والماء الحي»، «المأكل الحق والمشرب الحق».

الصلة الكامنة بين الحقيقي وغير الحقيقي:

نحن لا نشتهي الخبز من أجل الأكل ولا نشتهي الماء من أجل الشرب، كذلك نحن لا نشتهي الأكل والشرب في ذاتها ولا حتى من أجل الشبع والارتواء، ولكن هناك علّة نفسانية خفية هامة

للفتنة وراء الأكل والشرب هي :

أولاً: الخوف من الجوع والعطش وبالتالي من الموت .

ثانياً: رغبة ملحة ومستميتة في الحياة . فنحن في الحقيقة نشتهي الحياة شهوة غلاّبة كما نخاف خوفاً طبيعياً جباناً من الموت . لذلك نأكل ونشرب بنهم أحياناً . ولكن لسان حالنا ، ونحن نكرر الأكل ونكرر الشرب بلا هوادة ، هو أننا نرغب أشد الرغبة في دوام الحياة أو الحياة الدائمة ، وهذا مستحيل ، لأن دوام الحياة هو الحياة الأبدية ، والحياة الأبدية يستحيل بلوغها عن طريق الأكل والشرب اللذين مآلهما للفناء .

إذن ، هنا في شهوة الأكل من الخبز البائد يكمن خداع بصر لا بد أن نتحول عنه ، فنطلب ونشتهي الخبز الحقيقي والماء الحقيقي . المسيح وحده عنده خبز الحياة الأبدية وشراب الحياة الأبدية — الذي يأكله ويشربه يحيا ولا يموت — ولكن هذا الخبز وهذا الشراب هو في الحقيقة كلمته التي هي روح وحياة ، فهو لا يتم عن طريق الجسد بل عن طريق الروح ، أي يؤكل ويُشرب بالروح ، ليس لملء البطن بل لملء قامة الإنسان الروحية ، ليؤهل أن يكون إنساناً جديداً كاملاً لائقاً للحياة الأبدية .

هذا الخبز الحي والماء الحي إذ هما «روح» و«حياة» ، هما أيضاً للأكل الدائم والشرب الدائم مرات ومرات : «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» . (١ كور ١١ : ٢٦)

إذن ، فأكمل خبز الحياة وشرب ماء الحياة لا ينتهيان عند حدٍّ أيضاً . ولكن كل مرة نأكل من طعام الحق ونشرب من شراب الحق نزداد في الحق وفي الحياة ، وليس كأكل خبز الجسد وشرب ماء الجسد اللذين ينتهيان كل مرة إلى جوع ونقصان ، وربما إلى مرض أو إلى موت .

والمسيح يقول إنه يعطي خبز الحياة وماء الحياة دائماً وباستمرار : «من يُقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» . (يوحنا : ٣٥) ، كما تقول الحكمة : «الذي يأكلني يجوع إليّ والذي يشرب مني يعود إليّ عطشاً» . (ابن سيراخ ٢٤ : ٢١) . لأنه بمجرد أن يذوق الإنسان هذا الطعام وهذا الشراب فلن يطلب شبعاً من آخر ، لأن استعلان الحياة الأبدية التي في المسيح هي بحد ذاتها شبعٌ فوق شبع وارتواءٌ فوق ارتواء لا ينتهيان . فالإنسان جائع أصلاً وبالأساس إلى الحياة مع الله ، ولن يسدّ جوعه إلا الله : «من يأكلني فهو يحيا بي» (يوحنا : ٥٧) . القديس بولس الرسول أكل وشبع فقال : «لي الحياة هي المسيح» (في ١ : ٢١) . وما معجزة الخمس الخبزات إلا وسيلة إيضاح !! تم تطبيقها على الصليب .

وإشعياء النبي يصدّق بنبوته على قول المسيح هكذا: «لا يجوعون ولا يعطشون... لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه (الحقيقية) يوردهم» (إش ٤٩: ١٠). إشعياء يتكلم عن خبز الحياة الذي كل من يأكله لا يجوع إلى شيء غيره، وماء الحياة الذي كل من يشرب منه يعود إليه وحده. فهو ليس ماءً بعد، بل هو الروح، وهو ينبوع الخلاص. كما تنبأ إشعياء أيضاً: «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب (من موت)، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص.» (إش ١٢: ٣ و٢)

وإنجيل القديس يوحنا يُلحّ على القارئ أن لا يخطأ خطأ السامرية، إذ ظنت أن المياه الحية الحقيقية التي يعطيها المسيح ستستقي منها وهي في الحرام، وتسقي زوجها الذي هو ليس زوجها، أو أن هذه المياه ستغنيها عن عطش الجسد والحاجة إلى الماء الطبيعي، وتريحها من عناء الذهاب إلى البئر كل يوم وثقل الدلو وبُطء البكرة التي هذّت ذراعها، هذا خداع بصر؛ يسقط فيه كل يوم معظمنا وأعظمنا حينما يطلبون المسيح وعطاياه — وفي وسطهم حرام — ليزدادوا راحة جسدية أو شبعاً من مال أو عيال أو نجاح أو مكاسب، أو هرباً من حزن أو اضطهاد أو موت! لأن هذا معناه أننا أخطأنا الرؤيا كما أخطأت السامرية.

واستعلان سر المعمودية من كلام المسيح واضح في حديثه عن الماء. فقله: «إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. مَنْ آمَن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو ٣٧ و٣٨)، لم يَفُتْ على القديس يوحنا أن يعلن فيه سر المعمودية الكامن وراء الكلمات، فعقّب على كلام المسيح بقوله: «قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد.» (يو ٧: ٣٩)

هنا يلزم بكل احتراس فهم أن الروح القدس في المعمودية مرتبط ارتباطاً كلياً بموت المسيح، أي بالدم المسفوك على الصليب. لذلك فإن الروح القدس لم يُعطَ إلا بعد أن أتم المسيح الفداء بالدم. لهذا يضغط القديس يوحنا بشدة على حقيقة خروج دم وماء من جنب المسيح المطعون (يو ١٩: ٣٤)، إشارة بليغة إلى ارتباط المعمودية بالدم وبالإفخارستيا، وبالتالي بموت المسيح!! حيث يتقدس الجسد بالماء الطاهر أي المتقدّس، والروح أو النفس أو القلب يتقدس بالدم والروح القدس. ولهذا أيضاً فإن المسيح لم يعط «ماء الحياة» إلا بعد قيامته، وذلك بإرسال الروح القدس يوم الخمسين، حيث بدأ الرسل العماد بالماء والروح القدس باسم الثالوث: «ومتى جاء المعزّي الذي سأُرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يو ١٥: ٢٦ و٢٧). هذه الشهادة للمسيح من الروح القدس

والرسل معاً بدأت واستمرت بالعمودية (الماء) وبالإفخارستيا (الدم). لهذا كان ولا يزال من طقس المعمدين الأساسي هو تناول الجسد والدم بعد العماد مباشرة. أما الآن فيحل الاعتراف الذي هو بمثابة ختم التوبة، والتوبة هي المعمودية الثانية المتكررة قبل كل تناول من الجسد والدم. حتى الكاهن نفسه يتحتم عليه أن يستبرئ ذمته ويغسل يديه قبل أن يقترب من الجسد والدم.

إذن، فالمعطش هو للحياة الأبدية، والشرب هو الإيمان بالمسيح وقبول الروح القدس، والأنهار الحية النابعة من داخل المؤمن هي هي الروح القدس بمفاعيله الخلاصية من كرازة وشهادة. إذن، فمعطية المسيح للذي يقبل — أي يؤمن به — هي الروح القدس — الذي يعتمد به — الذي يسكن قلبه ويبقى معه إلى الأبد، وهو الذي يحييه أي يُدخله الحياة، الحياة الأبدية. هذا هو الماء الحي. فالروح القدس يأخذ في الأسفار المقدسة صفات الماء الطبيعي ولكن فعله يكون روحياً. لذلك، فالمعمودية بالروح القدس تسمى اغتسالاً للنفس، في التقليد الكتابي والكنسي والليتورجي. ويُقال عن الروح القدس أنه «ينسكب» مع أن الإنسكاب صفة الماء: «بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا يسوع المسيح مخلصنا» (تي ٣: ٦ و٥). وهو نفس الاصطلاح الذي استخدمه يوثيل النبي: «ويكون بعد ذلك إني أسكب روحي على كل بشر... وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام» (يوثيل ٢: ٢٨ و٢٩). وحتى اسم «النهر» يستعيره الأنبياء للتدليل على الروح القدس: «ومن نهر نعمتك تسقيهم» (مز ٣٦: ٨)، مع أن السقي هو من عمل الماء.

نعود إلى ما قلناه أن إنجيل القديس يوحنا يحتم أن معمودية الماء تشمل في مضمونها الإلهي السري دم المسيح (أي موته). من جهة هذا يصرّح القديس يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «هذا هو الذي أتى بجاءٍ ودم، يسوع المسيح؛ لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة «الآب والكلمة والروح القدس»، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة «الروح والماء والدم»، والثلاثة هم في الواحد» (١ يوه ٥: ٦-٨). علماً بأن المسيح نفسه — بحسب اللاهوت الآبائي — هو الذي يعتمد كما هو واضح في هذه الآية: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مُطَهَّراً إياها بغسل الماء بالكلمة» (أف ٥: ٢٥ و٢٦). حيث «بالكلمة» يعني الدعاء بمنطوق دستور أو قانون الإيمان الخاص بالعماد، و«دعاء» الاسم حيث الاسم — اسم المسيح — يجعل المعمودية صبغة. وهذا الطقس يلغي جميع طقوس الغسولات والتطهيرات في العهد القديم؛ وحيث المعمودية لا تُكرَّر قط لأنها ليست اغتسالاً بالمعنى المادي بل هي ختم، وصبغة، وتقديس.

والأمر الهام الذي ينبغي ملاحظته أن ماء المعمودية يعتبره بعض المعلمين أنه مادة المعمودية الساذجة، ولكن الروح القدس هو الفعّال في المعتمد في سر المعمودية. غير أن القديس كيرلس الكبير ينبه أن الماء يتقدس بالروح القدس ويكون له فعل روحي إلهي: [إذ كما أن الإنسان مركّب في طبيعته وليس بسيطاً، وهو مركّب من جسد محسوس ونفس عاقلة، لذلك فهو محتاج شفاء مزدوجاً ليبلغ ميلاده الجديد لكلا العنصرين فيه، أي الجسد والنفس. لأن بالروح تتقدس روح الإنسان؛ وبالماء الذي يُقدّس يُقدّس الجسد. لأن الماء إذا وُضع في إبريق على النار فإنه بلامسته للنار يتقبل في طبيعته فعل تأثير النار. هكذا يفعل الروح القدس، فإن الماء المحسوس تتغير طبيعته trans-elemented أو يتغير معدنه إلى تأثير إلهي غير منطوق به فيقدّس كل من يقترب إليه]^(٨). من هنا كان ترتيب الكنيسة الأولى من جهة تصريف ماء المعمودية في نهر جار وليس في البالوعات^(٩).

ويشترك مع القديس كيرلس الإسكندري الكبير الآباء الأوائل، فهو تقليد منذ ما قبل القرن الثاني وبعده:

فالقديس إغناطيوس الأنطاكي المعروف بصلته بالقديس يوحنا الرسول يقول في رسالته إلى أفسس: [إنه وُلد واعتمد ليُطهّر (يقدّس) *καθαρίσω* الماء بالآمه] (أفسس ١٨: ٢).

كذلك العلامة ترتليانوس يقول نفس الشيء: [المخلّص نفسه اعتمد لكي يقدّس sanctify كل مياه التجديد]^(١٠).

ومن بعد القرن الثاني ابتدأ يوضع دعاء خاص بالإسم *epiclesis* على الماء للتقديس، وقد ذكر ذلك كل من القديسين كبريانوس وإيرينيئوس، كما ذكره العلامة أوريجانوس من قبل (في تفسيره يو: ٣: ٥). وهو مذكور أيضاً في مؤلف العلامة هيبوليتس «في التقليد الرسولي» (٦: ٢١).

والعلامة ترتليانوس يذكر في كتابه عن المعمودية: [الروح بحسب جوهره السماوي ينزل على الماء بواسطة الدعاء إلى الله ويمنح الماء قوة التقديس.]^(١١)



(٨) شرح إنجيل القديس يوحنا ٦: ٣-٨ ص ١٦٨ و ص ١٦٩ = Lib. of Fathers of the H.C. Church, vol. 1.

(٩) لم نحاول أن نشرح سر العماد أو طقسه لأن ليس المجال هنا بجاهل، إذ اكتفينا بالعبور مجرد عبور على رمز «الماء» في العهد القديم وفك رموزه في العهد الجديد.

¹⁰ Adv. Judaeos 8.

¹¹ Tert. Bapt. 4, cf. 8.

والذي يهمننا من هذه الرموز جميعاً، التي اخترنا الأمثلة الهامة منها، هو توضيح أن كل الرموز التي وقفت وتصلبت عند حدودها الأرضية في الواقع المنظور في العهد القديم، حينما تبثها المسيح استعملها كحقائق للحياة الأبدية، فصارت لُبّ الإنجيل، ثم تبثها الكنيسة باعتبارها جسد المسيح المستعلن في هاته الرموز، واستحضرت فيها الجسد الحقيقي بالروح والكلمة، وصارت سرّها الإلهي ككرمة حقيقية تلد أغصاناً جُدداً، وتُرضعهم من عصيرها للحياة: فالخبز، بدعاء الإسم عليه، يُستعلن فيه سر الجسد المأكول كطعام الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ ، والخمر يُستعلن فيه سر الدم الإلهي كذلك كشراب الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ ، أو شراب الروح.

والماء أيضاً، بدعاء الإسم عليه، يحل الروح القدس عليه، فيتقدّس ويولد حياة جديدة كخليقة روحية. هذا كله نابغ من أن المسيح تبنى هذه الرموز، فاستعلن فيها حياة جديدة للإنسان من كل نوع.

والمسيح لما صنع بداية معجزاته، أعلن بغاية القوة والوضوح عن سر التحول هذا الذي هو هو صميم وقلب رسالته، وذلك حينما حوّل ستة أجران ماء التطهير إلى خمر جيد، و«الجيد» في المفهوم الإنجيلي يرقى إلى «الروحي». والتحول هنا هو تحوّل في صميم طبيعة الناموس والمادة.

ثم انتقالاً من تحويله الخمس الخبزات والسمكتين إلى طعام يشبع الآلاف بلا حدود، يصبح التحول هنا واقعاً في صميم الحدود التي تنحصر فيها المادة، فهو قام بفكّ هذه الحدود لتقبل «اللانهاية» في صميم طبيعتها، واللانهاية صفة الروح اللامحدود. ثم لما أمسك الخبزة في يده وقسمها وقال: «خذوا كُلُّوا جسدي المكسور عنكم»، قام بإجراء تحوّل هو قمة التحول الفائق من المادة الميتة التي هي الخبز إلى الجسد الحي الحي بالروح الذي فيه، فهذه الحقيقة القيامة. كذلك لما أمسك الكأس الذي به الخمر الممزوج بالماء وقال: «هذا هو دمي، خذوا اشربوا منه كلكم»، فإنه قام هنا بعملية تحوّل من خمر إلى دم هي مثل لتحوّل الخبز إلى جسد أي من مادة ميتة إلى روح، لأن الروح في الدم — حسب إيمان الكتاب (لا ١٧: ١١).

وبالنهاية، كما قال للعازر الميت المنتن: «قم»، فقام وعاش ودبّت فيه الحياة، محوّل الموت إلى قيامة؛ هكذا سلّم الإنسان طريق التحول كله من القديم إلى الجديد، من أسفل إلى فوق، من أرضي إلى سمائي، من موت إلى حياة، حيث انتهى بالتحول إلى صميم خِلقة الإنسان من خليقة أولى عتيقة ميتة إلى خليقة أخرى روحية سماوية مُعلّنة لميراث الحياة مع الله. وكل هذا التحوّل يتم بمجرد دعاء «الإسم» الذي هو هو حالة «حضور إلهي سري».

وإن إنجيل القديس يوحنا غني بصورة عميقة للغاية في الكشف عن سر الحضور الإلهي، هذا الذي بدأ منذ قال: «والكلمة صار جسداً، وحلّ بيننا، ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو: ١٤ و ١٦)! هنا الأبدى غير الزمني صار زمنياً، ظهر كحادثة، عاش بيننا وعشناه ولمسته أيدينا ورأته عيوننا. وهو هو الحق والحياة عينا!! الأليشيا ἀλήθεια .

وإنجيل القديس يوحنا كله يستضيء بهذه الحقيقة الأساسية: «الكلمة صار جسداً»، وبالتالي فإن المادة صارت متجلية بحلول اللاهوت فيها؛ وهكذا صارت الرموز المادية القديمة متجلية بحلول الحق الإلهي «الأليشيا» فيها. فاللاهوت الرمزي الذي يتبعه القديس يوحنا في إنجيله، يحمل الطابع الأساسي لهذا الإنجيل كله الذي هو حلول اللاهوت في المادة المنظورة! حتى خرجت المادة المنظورة من حدودها الميتة وصارت حاملة للحق الأزلي «الأليشيا»!

لقد استطاع المسيح أن يمجّد المظهر الإنساني ويكرم المادة التي يتعامل معها الإنسان لحسابه، ويفك لغز الرموز وسرّها ويستعلن فيها لاهوته والخلاص الذي يمارسه، ويطعم الإنسان ويسقيه بالأليشيا، بل ويُلْبِسُه الروح الإلهي عوض ثوب الخطية. لذلك دُعي الإنسان في العهد الجديد باللابس الروح = «ابنصفماتوفورس» بل واللابس المسيح = «خريستوفورس»، بل واللابس الإله = «ثيئوفورس».

المعجزات (الآيات) في إنجيل القديس يوحنا

σημεῖον	«آية» باليونانية
ἔργον	«عمل» باليونانية
τεράς	«معجزة» باليونانية
δύναμις	«قوة» باليونانية

في كل أسفار العهد الجديد نقابل هذه الإصطلاحات للتعبير عن المعجزات التي صنعها الرب، فكل معجزة تحوي ثلاثة مفاعيل أو ثلاثة مؤثرات:
الأول: الدهشة، التي تترك الناس في تعجب وانذهال.

الثاني: القوة، وجمعها قوات، وهذا تعبير عن سلطان الله المؤثر على أي جزء من الإنسان ليصلحه ويعيد له القوة والعمل، سواء العقل، أو البدن، أو النفس، أو القلب الكسير.

الثالث: الإشارة إلى عمل الله ووجوده «ملكوت الله»، سواء في الطبيعة أو في الرحمة والمحبة الموجهة للإنسان.

معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى:

إنها حقيقة واضحة أن الثلاثة الأناجيل جعلت «استعلان» ملكوت الله — «ومجيئه» — هما الهدف اللاهوتي الذي تتحرك نحوه كل المعجزات. وملكوت الله يعني «حكم الله» كمفهوم أخروي (اسخاتولوجي)، ويفيد عمل الله الفائق لخلاص الإنسان وغلبة الشر وتأسيس النظام الإلهي الجديد أي العهد الجديد. وليس ذلك بمجرد الرجاء أو التمني في الأفق البعيد — كشأن النبوات، وإنما كحقيقة واقعة منظورة ولموسة. فكانت القوات المعمولة، أي المعجزات، بمثابة

الإشارة والدليل على افتتاح عهد مجيء ملكوت الله بقوة بواسطة المسيح — أي المسيح — الذي فيه تُستعلن قوة الله الحي حسب النبوات.

وقد كانت هذه القوات، إما بالمعجزات وخاصة الأشفية كطرد لروح السقم، باعتبار الأمراض استبداداً من جانب قوى الطبيعة بضعف الإنسان؛ أو بتمزيق قوة الشياطين التي كانت قد استبدت بالإنسان، وقد صار ذلك كله إعلاناً عن غلبة الشر وانهزامه.

إذن، كانت القوات المعمولة بواسطة المسيح في الأناجيل الثلاثة هي بمثابة ظهور ملكوت الله أو حكم الله بالفعل!! وذلك كجزء لا يتجزأ من رسالة المسيح: «ولكن إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (لو ١١: ٢٠؛ مت ١٢: ٢٨)؛ «واشفوا المرضى... وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله.» (لو ١٠: ٩؛ مت ١٠: ٧ و٨)

وفي نفس الوقت، كان يصاحب المعجزات ويسندھا الأمثال التي فاه بها الرب يسوع المسيح عن مجيء ونمو ملكوت الله.

كذلك، ومن وجهة أخرى، كان لهذه المعجزات مغزى آخر أشار إليه المسيح في الثلاثة الأناجيل، كقوات خارقة تعلن عن تكميل النبوات التي تخص مجيء الزمان وظهور المسيا وتتميم وعد الله. وذلك واضح غاية الوضوح من قول الرب لتلميذي المعمدان اللذين جاءا بسؤال من معلمهم: «هل هو الآتي أم ننتظر آخر؟»؛ «فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما. إن العُمى يُبصرون والعرج يمشون والبُرص يطهرون والصُم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ» (لو ٧: ٢٢-٢٣). وهذا الرد يسترجع ما قاله إشعياء النبي عن ظهور ملكوت الله والمسيا سمعاً وبصراً: «ويسمع في ذلك اليوم الصمُّ أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العُمى» (إش ٢٩: ١٨)؛ «حينئذٍ تتفقق عيون العُمى، وآذان الصمِّ تتفتح» (إش ٣٥: ٥)؛ «روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأُبشّر المساكين، أرسلني لأعصِب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعِثْق وللمأسورين بالإطلاق» (إش ٦١: ١). الأمر الذي طَوَّب المسيح فيه عيون تلاميذه وآذانهم لأنها سمعت ورأت ملكوت الله بقوة قولاً وعملاً!!

الآيات في إنجيل القديس يوحنا: آية = σημεῖον وآيات = σημεῖα

وقد اختص إنجيل يوحنا بـ «الآيات» للتعبير والإشارة والإعلان عن سر وجود الله، أي حضوره، وسر محبته للإنسان في المعجزات التي كان يعملها المسيح. وقد وردت هذه الكلمة ١٧ مرة في إنجيل يوحنا، وهي تأتي بمعنى «المعجزة» و«القوات»، وهما اللفظان اللذان اختارتها الأناجيل

الثلاثة. أما إنجيل يوحنا فقد امتنع عن استخدامهما بمعناها الوارد في الثلاثة الأناجيل للإعلان عن مجيء ملكوت الله — كما قلنا — واستبدل الكلمة «معجزة» بالكلمة «آية» للإعلان عن مجد الله وعن عمله الخلاصي.

وواضح أن القديس يوحنا تحاشى في إنجيله أن يقدم «المسيّا» بصورة القوة الزمنية كملك بالمفهوم السياسي حسب ترقّب اليهود الخاطيء؛ إذ اعتبر جميع المعجزات التي صنعها المسيح أنها مجرد آيات تشير إلى أن المسيح هو ابن الله! على أساس أن هذه «الأعمال» هي أعمال يعملها الله الآب الحالّ فيه، توضيحاً وإعلاناً عن أن الآب يعمل الأعمال بالإبن. الآب «هشئة» والإبن «فعل»، الآب «فكر»، والإبن «نطق». فالآب والإبن هما واحد يعملان عملاً واحداً.

وقد ركز إنجيل القديس يوحنا على كلمة «الآية» للعمل الذي يعملها المسيح على أساس أن العمل إنما يشير إشارة خفية إلى، أو يعلن إعلاناً صامتاً عن معاني روحية أو حقيقة إلهية أكبر من المعجزة بحد ذاتها.

وفي العهد القديم الذي يستند إليه إنجيل يوحنا، فإن الآية التي كان يعملها النبي، فبجوار أنها كانت حَدَثاً هاماً يحدث في الحال فهي كانت أيضاً وفي واقع الأمر تعني شيئاً سيحدث في المستقبل، ولكنه يكون قد بدأ بالفعل في التدبير الإلهي!

فالآية، التي هي بالعبرية oth «عوت»، هي عمل رمزي تحمل مُشَبَّهاً صورة لما هو آتٍ وتمهداً بتحقيقه كعربون يقطع بالتتميم في حينه ولا بد!! فثلاً في سفر إرميا حينما أخذ إرميا النبي حسب قول الرب الجرة الفخارية وكسرها في وادي ابن هنوم (إر ١٩: ١-٣)، لم يكن ذلك مجرد عمل درامي يوضح كيف سيكون خراب أورشليم كتخطيم الجُرّة الفخارية، ولكن كان يُحَسَّب في الواقع الروحي والإلهي أنه جزء لا يتجزأ من العملية ولكنه غير مرئي، «لأنه متمم أمر وقاض بالبر. لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو ٩: ٢٨). فالعمل النبوي ولو أنه يشير إلى حَدَثٍ قادم، إلا أنه يُحَسَّب من جهة الله أنه قد تم.

إنجيل يوحنا يمتد بهذا المفهوم النبوي للمعجزة كآية تحدث في الزمن المنظور، لتشير إلى حدث أو حقيقة قد تمت بالروح في غير المنظور، كبداية لعهد كامل وشامل قد بدأ بالفعل، وليس يُنْتَظَرُ في المستقبل. فالأعمى منذ ولادته صُنعت فيه معجزة خَلَقَ عَيْنٍ جديدة يرى بها نور العالم، إشارة تقول وتنادي وتشهد وتحكي أن «النور الإلهي الحقيقي» قد دخل بالفعل والقول إلى العالم!! وأن المسيح — الذي كأنه أخذ من نوره وأعطى للأعمى — هو النور الحقيقي الصانع المعجزة، وهو الخالق

بالضرورة فيما كان — الخلق القديم — وهو الخالق الآن، إنما الآن خِلْقَة جديدة أعمق وأبعد من العين التي ترى نور العالم. لأن الأعمى بعد أن قَبِلَ نور عينيه ليرى العالم، تعرّف على المسيح وآمن أنه ابن الله، فتعرّف على الله في المسيح، وهذا هو «النور الحقيقي». وهذا النور الحقيقي قد بدأ وجوده وبدأ فعله في الإنسان العائش في ظلمة العالم المادية والروحية، وسوف يستمر وجوده وفعله إلى الأبد: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» (يو: ٩: ٥)، «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

وهكذا يرى معي القارئ أن هذه الوسيلة في التعليم هي أقوى وأعمق الوسائل طُرّاً في تعليم الحقائق الروحية التي تختص بالله وتعلن عنه وعن وجوده وعمله، وهذا ما شهد به نيقوديموس معلم الناموس: «فقال (نيقوديموس) له: يا معلّم نعلم أنك قد أتيت من الله «معلّماً» لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعملها إن لم يكن الله معه.» (يو: ٣: ٢)

كذلك، فإن إطعام المسيح للجموع الحاشدة في مكان قفر حتى شبعوا وفاض عنهم اثنتي عشرة قفة مملوءة كِسْراً، من الخمس الخبزات والسمكتين، إنما هو بمثابة عمل إلهي غير منظور قد ابتدأ فعله في العالم في ذلك اليوم وسيظل قاعلاً وفائضاً إلى نهاية الدهور، ولكن ليس على مستوى الظاهر، بل كأن المسيح كان يقسم فعلاً من جسده ولحمه ويُطعم هؤلاء الجائعين. لذلك شرح هذا العمل هكذا: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا — ابن الإنسان — الله الآب قد ختمه (ليكون هو الخبز الحي السماوي)» (يو: ٦: ٢٧) [حيث كلمة «ختمه» تعود على «ابن الإنسان» ولا تعود على «الطعام» وذلك بحسب التحليل اللغوي للكلمات اليونانية للآية.]؛ «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو: ٦: ٣٥)؛ «الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو: ٦: ٥١)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو: ٦: ٥٧)؛ وهذه هي الحياة الأبدية.

فالمعجزة الباهرة من خارجها لا تفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو: ٦: ٦٣)، ولكن الآية التي فيها، هي استعلان روحي لعمل خطير للغاية لفعل جديد لا يمتُّ للجسد أو العالم، بل هو عمل وفعل الله حياة متصلة بالله.

القديس يوحنا يؤكد على هذه الحقيقة ويشير إليها مراراً حتى ينتبه القارئ والسامع. ففي معجزة قانا الجليل عندما حوّل المسيح الماء خمراً، أردف خبر المعجزة بقوله أنها كانت «آية»: «هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه» (يو: ٢: ١١). وكلمة «أظهر مجده» تعني «استعلن وجوده» أو «استعلن حضوره الإلهي»، وهذا المعنى الذي عبّر عنه القديس

يوحنا من قبل بقوله عن كلمة الله «وحلّ بيننا، ورأينا مجده» (يو ١: ١٤). هذا الحلّ أو استعمال الحضور هو هو المجد بعينه. وهذه الآية يقول عنها الإنجيل أنها «بداية الآيات»، أي بدء استعمال حضور الله، الذي كان على مستوى تحويل الماء رمز التطهير إلى خمر رمز الفداء بالدم. والمسيح أكمل استعمال هذا التحويل بآخر آيات التحويل عندما أمسك كأس «الخمر الممزوج بالماء» بيده وقال: هذا هو «دمي»، «خذوا اشربوا منه كلكم». إذ أصبح في يد الإنسان وفي فمه «سر التحوّل نفسه»، الذي به يتحول الإنسان من القديم الجسدي إلى الجديد الروحي.

والقديس يوحنا يعتبر أن إنجيله إنما هو سجلٌ يحوي آيات ذكرها باختيارٍ خاص من ضمن ألوف آيات أخرى، حتى إنّ كل من قبلها ويؤمن ينال الحياة: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه». (يو ٢٠: ٣٠-٣١)

مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا: لم يُكثر المسيح من استعمال كلمة «آيات»، ولكنه استخدم في موضعها ومعناها كلمة «أعمال» εἵργα التي جاءت ١٨ مرة ليصف بها «أعمال الآب»، أو الأعمال التي أعطاه الآب أن يعملها؛ بل واستخدمها أيضاً لشرح كل رسالته: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤). والمسيح، بهذا الإصطلاح، إنما يشير إلى أعمال الله في العهد القديم سواء في الخلق أو في التمهيد للخلاص. وبذلك يجمع المسيح بين أعمال الله في العهد القديم وأعماله في العهد الجديد، وصرّح بذلك قائلاً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧). ولكن القديس يوحنا هو الذي يعبر عن هذه الأعمال بأنها آيات، مشيراً بذلك إلى نفس الآيات أيضاً التي أجراها الله في القديم، خاصة في مصر في أعمال الخروج التي تشكل الخلفية الذهنية في الإنجيل. فالمعجزات كانت في القديم في حقيقتها آيات تشير إلى ما هو سيصير حادثاً مع المسيح.

إذن، تسمية أعمال المسيح بالمعجزات هو عودة إلى الوراء، ولكن تسميتها بالأعمال هو امتداد صحيح لأعمال الله، وتسميتها من جهة القديس يوحنا بالآيات هو إشارة إلى أن عمل المسيح قد أكمل القصد من معجزات القديم. فمعجزة الخمس الخبزات هي، في حقيقتها الإستعلانية، ليست معجزة بل آية تشير إلى أن معجزة الميّ في سيناء قد استعلنها المسيح في نفسه كخبز حي نازل من السماء باعتبار أن العهد الجديد المشار إليه في القديم قد جاء واستعلن.

وبمعنى توضيحي، فإن ملكوت الله الذي كان العهد القديم يشير إلى مجيئه وظهوره في ملء الزمان قد جاء وظهر في المسيح وبه.

إذن، عدم ذكر كلمة «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا — إلا مرة واحدة مع نيقوديموس (يو ٣: ٥) — لا يشكل أي نقص في إنجيل يوحنا، فالإنجيل يعبر عن مجيء ملكوت الله بالآيات التي يصنعها المسيح، كأعمال حقيقية يعملها الآب به، مفتتحاً بها عصر الخلاص واستعلان دخول الله في تاريخ الإنسان، فهي ليست معجزات بعد ولا حتى آيات بالنسبة للمسيح نفسه بل هي أعمال ممتدة للآب وله!! وهذه الأعمال لم تعد تعبر عن مجيء ملكوت الله بل عن مجد الله المنظور، وعن الخلاص والحق والحياة في صميم الواقع الزمني. وهكذا، فإن ما تعتبره الثلاثة الأناجيل في المعجزات التي كان يعملها المسيح أنها إعلان عن ملكوت الله، يعتبرها إنجيل يوحنا هي نفسها، ولكن تحت اسم «أعمال»، أنها هي ملكوت الله تحت اسم «الحياة الأبدية» وأنها قد أظهرت.

«الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا: عمل = $\epsilon\rho\gamma\omega\nu$ ؛ أعمال = $\epsilon\rho\gamma\alpha$

لقد صمم إنجيل يوحنا أن يسمي المعجزات أو الآيات التي كان يعملها المسيح «أعمال»؛ وهي نفس الكلمة التي تُطلق على أعمالنا العادية سواء كانت شراً أو خيراً. وكان قصد المسيح والإنجيل من ذلك هو لكي يرد المعجزات إلى وضعها الصحيح عند الله والمسيح، فهي ليست معجزات، لا بالنسبة لله ولا بالنسبة للمسيح. بل إن كل الأمور الفائقة التصور والإدراك عندنا، هي أعمال الله العادية التي باشرها المسيح كابن الله! فإصرار الإنجيل على اعتبار أن المعجزات هي مجرد أعمال، يهدف مباشرة إلى التعريف بالمسيح أنه ليس مجرد إنسان كما يدل مظهره، ولكنه أيضاً إله حسب حقيقته وجوهه. فأعمال المسيح هي أعمال الله، وأعمال الله كلها معجزات في نظرنا وتفكيرنا.

لذلك يصير المسيح أيضاً من وجه آخر بأن هذه الأعمال هي أعمال الله وهي «بالآب معمولة»، والآب الحال فيه هو يعمل الأعمال (يو ١٤: ١٠)، والله لا يقصد أن يعمل أعمالاً إعجازية مخصصة لتظهر لنا باهرة وأخاذة حتى نؤمن بالمسيح الذي يعملها، ولكن العكس صحيح، فالمسيح يصير على أنها مجرد أعمال الله التي يعملها منذ البدء في الخلق، وأنه إنما يكمل أعمال الخليفة التي بدأها مع الآب: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧)، وأنه يستمر في تكميلها، إنما على المستوى الروحي التجديدي، أي لتجديد خلقة الإنسان وإصلاح ما فسد فيها.

وحيثما اعترض اليهود على شفاء المسيح للإنسان المشلول المقعد منذ ٣٨ سنة في يوم سبت، كان رد المسيح عن هذه الآية أنه يتمم ويصحح ويقيم من الموت الخليفة التي خلقها مع الآب. وواضح من قوله للمقعد بعد أن شفاه: «فلا تخطيء أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو ٥: ١٤)، أن الرجل هو

الذي أفسد خلقته بإرادته، بعمله الشر، والمسيح إنما رفع عنه لعنة الخطية المفسدة فصار صحيحاً. وقوله: «لا تخطيء أيضاً»، معناه أنه صار الآن بلا خطيئة، أي خلقة جديدة، فكلمة المسيح مجددة ولها قوة الخلق والإحياء والتجديد.

لذلك، كان المسيح يعترض على الذين يطلبون منه عمل المعجزات لكي يؤمنوا به: «لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو ٤: ٤٨). فهو يعملها من ذاته لأنها عمله الذي جاء ليعمله، والآب أرسله لكي يعمل أعمال الآب. ويكفي أن يروه يعمل الأعمال التي لم يعملها أحد قبله ليدركوا أنه ابن الله. فإذا أصرُّوا على طلب معجزة، فعني ذلك أنهم لم يؤمنوا به أنه ابن الله بل مجرد إنسان صانع معجزات مذهشة فيكرموه لذاته؛ مع أنه جاء ليشهد بهذه الأعمال للآب الذي أرسله. فالذي يؤمن بالأعمال، فهو يمجّد الآب الذي أرسله، وبالتالي يمجّده لأنه يعمل أعمال الله. لذلك كان المسيح يكرر قوله لليهود: «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٨).

والقديس يوحنا لم يذكر حادثة التجلي كأنها عمل فريد أو آية فريدة في حياة المسيح، لأنه رأى في أعمال المسيح كلها والتي كان يعملها ويعلم بها كل يوم أنها «تجلي» بأقصى معناه: وهو إظهار مجده وإعلان نوره. لذلك كان تعليق القديس يوحنا على معجزة قانا الجليل أنه بها «أظهر مجده»، أي بالمعنى اللغوي اليوناني والروحي واللاهوتي أنه «تجلّى»، فإظهار المجد هو إظهار أو استعلان وجوده الإلهي. وقول المسيح في صلاته للآب: «أنا أظهرت اسمك للناس، أنا مَجِّدتك على الأرض» (يو ١٧: ٦ و٤) يُعني أنه أظهر وجوده وحلوله فيه على الأرض، وهذا منتهى «التجلي» لله في المسيح.

كذلك في تفتيح عيني أعمى مولود بلا عيين، فإن هذا عمل الله. فإذا عمله المسيح فهو يقوم بعمل الله المختص بصميم خلقة الإنسان. لذلك لما سأله تلاميذه عن هذا الأعمى: «من أخطأ هذا أم أبواه» (يو ٩: ٢)، كان رد المسيح: «لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه، ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني» (يو ٩: ٣-٤). عمل المسيح في تفتيح عيني الأعمى هو آية وليس معجزة، هو عمل من صميم اختصاص عمل المسيح والله معاً، وهذا هو استعلان شخص المسيح أنه ابن الله الذي أرسله الله إلى العالم ليعمل أعمال الله ليتعرف الناس على الابن من خلال عمل الآب. وهذه هي رسالة محبة الله للعالم أنه أرسل ابنه ليعلن عن محبة الله نحو الإنسان التي استُعلنت في أوج قوتها بالفداء. وهذا ما قرره المسيح في نهاية إرساليته وهو على عتبة الصليب: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... ليكون فيهم الحب الذي أحبيتني به وأكون أنا فيهم»

(يو ١٧: ٢٦). وهذه كانت شهوة المسيح الأساسية وشغله الشاغل الذي كان ينسيه الطعام والشراب: «طعامي أن أصنع مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤: ٣٤)

وفي نهاية «الأعمال» نلفت نظر القارئ أن كلمة «أعمال» = $\epsilon\rho\gamma\alpha$ — $\epsilon\rho\gamma\omega\nu$ «هو اللفظ الذي اختاره المسيح، ولم يستخدم كلمة «آية» إلا مرتين في غير وضعها كأعمال. لذلك فكلمة «أعمال» في إنجيل يوحنا وعلى فهم المسيح هي جزء لا يتجزأ من المنهج اللاهوتي في الإنجيل باعتبار أن المسيح بالأعمال (التي نسميها نحن بالمعجزات والآيات) إنما يمارس عمله الإلهي الذاتي مع الآب. على أن كل عمل إلهي هو في الحقيقة يحمل في طياته استعلاناً أي آية تشير إلى طبيعة المسيح الإلهية. فالآية تأتي كإشارة داخل «العمل»، فالعمل هو الأساس في الاستعلان، والآية مستخرجة منه.

الفصل السادس

الشخصيات الواردة في إنجيل القديس يوحنا

وهي نماذج للبشرية المتجاوبة أو الراضية للنور

في إنجيل القديس يوحنا يلمح القارئ حركة مدّ عام إلى الأمام، صعوداً وهبوطاً، تسير جنباً إلى جنب مع حركة استعلان المسيح كابن الله في امتدادها وتدرّجها في الاستعلان.

فجميع الشخصيات التي احتكت بالمسيح إما تزداد هبوطاً إلى أسفل؛ أو تزداد ارتفاعاً إلى الأعلى، إما تتماهى في المقاومة والعناد وعدم الإيمان؛ وإما تتماهى في القبول والإذعان والإيمان. هذه الحقيقة وليدة التأثير المباشر بحركة استعلان حقيقة المسيح كنور الآب. فالنور يكشف ذوي البصيرة ويزيدهم إبصاراً، كذلك وبنفس المقدار يفضح الكارهين للنور ويُفقدون الرؤيا: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون.» (يو: ٩: ٣٩)

أولاً: الراضون: «جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله»:

الشعب اليهودي ينقسم في إنجيل القديس يوحنا إلى قسمين رئيسيين، يسميها الإنجيل «الجموع»، و«اليهود».

أ - الجموع: ὁ ὄχλος

وهم يمثلون التجمعات العامة للسكان اليهود الذين يظهرون في مسرح الحياة اليومية في الإنجيل، وأغلبهم من منطقة الجليل. وهم شديدو الإنفعال، وليس لهم سياسة محددة ولا يشتون على رأيهم، يتجمعون بسرعة لكل بادرة تطرأ في عيظهم. وهم الذين استقبلوا المسيح استقبالاً حافلاً عند نزوله إلى منطقتهم، أي الجليل، بعد رؤيتهم المعجزات التي صنعها المسيح في أورشليم (يو: ٤٥)، وهم الذين كانوا يتبعونه في جموع غفيرة: «خمس آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد» (مت: ١٤: ٢١)،

وكانوا يزحفون خلفه حتى إلى الجبال، وعلى مدى اليوم كله، حتى بلا طعام!! وعلى القارىء أن يتصور هذا الحشد الهائل يسير وراء المعلم دون أي اعتبار لتعب أو جوع أو زمن: في إنجيل القديس متى نقرأ: «الموضع خلاء والوقت قد مضى» (مت ١٤: ١٥)، وإنجيل القديس مرقس يقول: «فابتدأ يعلمهم كثيراً، وبعد ساعات كثيرة تقدّم تلاميذه...» (مر ٦: ٣٤ و ٣٥)، وفي إنجيل القديس لوقا: «فابتدأ النهار يميل» (لو ٩: ١٢). هذا المنظر يكشف لنا عن أمرين: الأول طباع أهل الجليل، والثاني شدة تأثير المسيح في قلوب الناس، فإنه على قدر امتداد النور، على قدر ما كان امتداد حركة الشعب.

أما إيمان أهل الجليل فصار ملتبهاً بعد سماعهم للمسيح هذه الساعات الطوال، حتى إنهم بعد أن رأوا معجزة الخمس الخبزات والسمكتين لم يحتملوا التسويف فيما أضمره بل تحركوا ليختطفوه ويجعلوه ملكاً بالقوة (يو ٦: ١٥).

كانوا يتركون بيوتهم ومدنهم ويزحفون وراءه صعوداً إلى أورشليم في كل المناسبات، ويذكرهم الإنجيل بكلمة «جوع كثيرة» مثل عيثة «الخمسة الآلاف». ويلاحظ القارىء أن الجليليين هم الذين تبعوا المسيح إلى أورشليم ومعهم سعف النخيل وزفؤه في موكب ملكي ارتجت له أورشليم المدينة، وبالأخص لما انضم إليهم سكان أورشليم الذين كانوا قد زاروا بالأمس بيت عنيا لتعزية مرثا ومريم ورأوا معجزة قيامة لعازر: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.» (مت ٢١: ١٠-١١)

كما، وللأسف، هم أيضاً الجليليون الذين دفعهم رؤساء الكهنة والشيوخ ليصرخوا أمام بيلاطس: «أصلبه أصلبه»: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا الجموع...» (مت ٢٧: ٢٠). وهذا المشهد الأخير المبكي حقاً يوضح مدى خطية رؤساء الكهنة والشيوخ في تضليل هذا الشعب الطيب المتحمس الذي كان على أتم استعداد للإيمان والشهادة! وهل ننسى أن معظم التلاميذ الإثني عشر كانوا من الجليل؟...

ب - اليهود:

وهؤلاء يأتون في المقابل للجموع في إنجيل يوحنا. فكما أن كلمة «الجموع» اصطلاح يعبر عن أخلاق أهل الجليل، كذلك كلمة «اليهود» فهي اصطلاح يعبر عن أخلاق وسلوك أهل أورشليم العاصمة: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟» (يو ١٩: ١٩) وكما أن «الجموع» موطنهم الجليل، كذلك «اليهود» فإن موطنهم إقليم اليهودية، وهو القسم الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم.

ولكن بينما «الجموع» كانوا يمثلون جماعة، أكثر مما يمثلون اتجاهاً فكرياً، إذ ليست لهم مبادئ معينة، نجد اليهود يتمسكون جداً بآمال الأمة وانتظار الشعب لمسيحاً الملك القومي لسيادة اليهود على العالم، فهم يمثلون أصدق تمثيل العنصرية اليهودية المتعصبة بالطبيعة.

بدأ اليهود مصادمتهم مع المسيح في أول معجزة تمت في سبت: «إنه سبت». لا يحل لك أن تحمل سريرك» (يوه: ١٠). وأنها رسالة تعصبهم، التي أنهموا بها في الحقيقة على أنفسهم، حينما وقفوا يحرسون السبت بتكسير أرجل المحكوم عليهم ليُثبوا على حياتهم قبل حلول السبت: «فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويُرفعوا.» (يوه: ١٩: ٣١)

وبينما كانت «الجموع» تقف تسمع التعاليم بانفعال وإعجاب وقبول: «فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز» (يوه: ٦: ٣٤)، نجد اليهود يعترضون ويشوشون ويتذمرون: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء» (يوه: ٦: ٤١). وحتى إذا ما رأوا بعضاً من زملائهم اليهود وقد قبلوا التعليم بفرح كانوا ينازعونهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل.» (يوه: ٦: ٥٢)

وإذا وقفت «الجموع» تصغي، كانت تخاف أن تُظهر مشاعرهما ومدى إيمانها بالتعليم خوفاً من «اليهود»: «وكان في»، الجموع،، مناجاة كثيرة من نحوه، بعضهم يقولون إنه صالح، وآخرون يقولون لا بل يُضل الشعب. ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود.» (يوه: ١٢-١٣)

وحتى إذا اقتنع اليهود وآمنوا بالفعل، كانوا يقدمون التحفظات على الكلام والاستفسارات الإستنكارية التي تنتهي بهم إلى النكوص: «فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به: إنكم إن بُنِّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم، أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً؟» (يوه: ٨: ٣١-٣٣) وهكذا انتهى بهم الموقف إلى الرفض الكامل: «لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي، أنتم من أب هو إبليس.» (يوه: ٨: ٤٣ و٤٤)

ومن أجل غيرتهم على الناموس كانوا مستعدين أن يرموا المسيح: «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يوه: ١٠: ٣١)

واليهود كانوا في الحقيقة هم العنصر الغالب في التقرير النهائي بضرورة صلب المسيح، لأن قيافا

نفسه لم يستطع أن يقرر ذلك إلا بعد أن أشار إلى اليهود لكي يتحركوا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو ١٨: ١٤)

واليهود هم الذين وقفوا وقفة إصرار أمام بيلاطس ليُضدِر حكمه بالصلب: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً (هذا كذب فقد قتلوا استفانوس فيما بعد).» (يو ١٨: ٣١)

والمسيح نفسه كان يعرف تماماً أنهم العنصر الأساسي في صلبه: «لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود» (يو ١٨: ٣٦)؛ «خرج (بيلاطس) أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه علة واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحداً في الفصح، أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضاً جميعهم قائلين ليس هذا بل باراباس. وكان باراباس لصاً.» (يو ١٨: ٣٨-٤٠)

والقديس يوحنا لا يتعامل في إنجيله على اليهود، ولكنه بعد أن مرّت به هذه السنين الطوال، فإنّه ينظر نظرة حزن وأسى متأملاً كيف أن المسيح كان يترجى لـ «إسرائيل» الخلاص، ويرى فيهم من الصفاء والصدق ما يصلح أن يكون لهم دور في الخلاص. اسمعه وهو يسجّل للمسيح قوله عن نشنايل: «هوذا إسرائيلي حقاً، لا غشّ فيه» (يو ١: ٤٧)، فهنا «إسرائيل» واقعة في ضمير المسيح موقع الحق بحسب ما كان يترجى. أو اسمعه وهو يسجل للمعمدان قوله: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهِر لإسرائيل لذلك جئت أعمّد بالماء» (يو ١: ٣١)، هنا «إسرائيل» صاحبة الحق الأول في التعرف على مسيحها!! وذلك بحسب ما كان يظن ويترجى المعمدان بل والمسيح نفسه: «لأن الخلاص هو من اليهود.» (يو ٤: ٢٢)

وإنجيل القديس يوحنا يهتم بصورة عامة أن يجعل خدمة المسيح على خلفية يهودية، فكل عمل وكل قول يجعله يتحرك على خلفية يهودية والأمثلة كثيرة:

فإن معجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرس قانا الجليل أجراها على خلفية يهودية: «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود.» (يو ٦: ٢)

ومعجزة الخمس الخبزات وحديث الجليل المطوّل في الأصحاح السادس يجريان على خلفية من اليهود مع أنه كان في الجليل: «فصعد يسوع إلى الجبل وجلس هناك مع تلاميذه، وكان الفصح عيد اليهود.» (يو ٦: ٣-٤)

ومعجزة ابن خادم الملك التي صنعها وهو في الجليل، هذه أيضاً صنعها على خلفية من اليهودية

واليهود: «هذا إذ سمع أن يسوع قد جاء،، من اليهودية،، إلى الجليل انطلق إليه وسأله...» (يو: ٤٧)؛ «هذه أيضاً آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من،، اليهودية،، إلى الجليل.» (يو: ٤٤)

وحتى لما جاء إلى الجليل ليقم فيها، أقام فيها على خلفية من اليهودية واليهود: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يُرَد أن يتردد في اليهودية لأن،، اليهود،، كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو: ٧)

ولما ترك المسيح الجليل وصعد إلى أورشليم، كان ذلك أيضاً على خلفية من،، اليهود،،: «وبعد هذا كان عيد،، لليهود،، فصعد يسوع إلى أورشليم.» (يو: ٥)

ولما بشر المرأة السامرية بالخلاص وقبلت الإيمان، بشرها على أساس اليهود: «لأن الخلاص هو من،، اليهود،،.» (يو: ٢٢)

هذا الإصرار في جعل اليهود واليهودية خلفية عامة لخدمة المسيح المطوّلة، يوضح عقيدة القديس يوحنا الراسخة أن اليهود كانوا أصحاب الحق الأول في خدمة المسيح وفي الخلاص لولا أنهم لم يقبلوه.

بل ولا يزال القديس يوحنا يلحّ على هذه الحقيقة — إنما بصورة سرية ورمزية أيضاً — حتى آخر لحظة على الصليب حينما التفت المسيح إلى أمه وقال، آخر ما قال، للتلميذ الذي كان يسوع يحبه: «هوذا أمك» (يو: ١٩: ٢٧)؛ القديس يوحنا يسجلها باهتمام وكأنها الوصية الأخيرة للكنيسة ممثلة في القديس يوحنا — آخر رسول للمسيح وآخر تلميذ — أن تبقى الأمة اليهودية (أم المسيح)، ممثلة في جميع أسفارها وذخائر أنبيائها وروحانياتها، قائمة كأم للكنيسة ترضع لبنها العتيق المعتقد. كما أن وصية المسيح لأمه «هوذا ابنتك» (يو: ١٩: ٢٦) أن تبقى الكنيسة (التلميذ الذي كان يسوع يحبه) في حضن الأم العتيقة لا تنفصل عنها.

وقد صار ذلك بالفعل، إذ احتضنت الكنيسة العهد القديم وصارت تغتذي من كنوزه حتى اليوم.

واليهود ينقسمون عامة إلى شيعتين: شيعة الفريسيين، وشيعة الصدوقيين. أما الصدوقيون فلم يذكرهم القديس يوحنا بالإسم ولكنه يذكر خصائصهم تحت اسم رؤساء الكهنة، زمرة حنان وقيافا، الرؤساء المغامرون الذين يختلفون على طول الخط مع زمرة الفريسيين الغيورين على الدين. على أن الفريقين — الصدوقيين والفريسيين — يظهرون في مظهر الاتحاد ويعملون معاً داخل المجمع

الكبير: «سمع الفريسيون الجمع يتتاجون بهذا من نحوه (أي المسيح) فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُذاماً ليمسكوه» (يو: ٧: ٣٢). «فجاء الخُذام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين...» (يو: ٧: ٤٥)؛ «فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجعاً وقالوا ماذا نصنع...» (يو: ١١: ٤٧)؛ «وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدرُوا أمراً...» (يو: ١١: ٥٧)؛ «فأخذ يهوذا الجند وخُداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح.» (يو: ١٨: ٣)

وهم يجتمعون ضماناً لتوحيد كلمتهم ككتلة متعاونة شكلاً، ولكن غير منسجمة في الداخل. ويأتى رؤساء الكهنة في المركز الأول من جهة القسوة واستخدام العنف، ولكن ما يستفز رؤساء الكهنة (الصدوقيين) هو الإستشعار بأي خطر نحو نظامهم الكهنوتي. أما الفريسيون، وهم الممثلون الشرعيون لليهود، فكان ما يستفزهم هو الإخلال بالناموس، وهم الذين أرسلوا بعثة تقضي الحقائق عن خدمة المعمدان (يو: ١: ٢٤)؛ وأيضاً ما ترمى لأسماعهم عن أن الرب يعمّد، إذ اعتبروا ذلك أمراً خطيراً بالنسبة لسلطانهم، بل إن هذا وحده كان كفيلاً أن يعجّل بالصدام والصليب، لذلك نسمع: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يُصيّر ويعمّد تلاميذ أكثر من يوحنا — مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه — ترك اليهودية ومضى أيضاً إلى الجليل» (يو: ٤: ١-٣)، لأن الساعة لم تكن قد جاءت بعد.

والفريسيون يحتقرون اليهود غير المتعلمين ويرفضون آراءهم: «فأجابهم الفريسيون ألعكم أنتم أيضاً قد ضللتُم. أعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يو: ٧: ٤٧-٤٩). والذي كان يستفز كبرياء الفريسيين بشدة، تفرد المسيح بسلطانه الذي كان يعلم به: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً» (يو: ٨: ١٣). كما أدانوا معجزات المسيح الباهرة ليس لسبب إلا لأنها عُملت في سبت (يو: ٩: ١٦).

والفريسيون هم الذين أخذوا على عاتقهم حرمان وطرد أتباع المسيح: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج الجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو: ١٢: ٤٢ و٤٣)

ولكن في ختام صداماتهم المتوالية بلغهم الإعياء، وأصيبوا بخيبة أمل من جراء نجاح المسيح واكتساحه الميدان رغماً عن محاصراتهم: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو: ١٢: ١٩). ومن بعدها تنحّوا وتركوا أمر تدبير خطة قتل المسيح لرؤساء الكهنة وحدهم، إذ لم يُعَدّ الإنجيل يذكرهم بعد ذلك مع رؤساء الكهنة. وهذا يظهر من قول بيلاطس للمسيح: «أألي أنا يهودي؟ أمثك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ»

(يو ١٨: ٣٥)؛ «فلما رآه رؤساء الكهنة والخُدام صرخوا قائلين أصلبه أصلبه» (يو ١٩: ٦). ولكي ينهوا قسراً من قضية المسيح، ضغطوا على بيلاطس وأخرجوه، فجحدوا إيمانهم بالله علناً وكفروا بيهوه الملك العظيم الذي رعاهم وتبناهم هذا الدهر كله: «ليس لنا ملك إلا قيصر.» (يو ١٩: ١٥)

وعلى العموم، فإن الصراع العنيف الذي لم يكف أبداً في إنجيل يوحنا بين اليهود والمسيح والذي تحمّله المسيح حتى أقصاه، كان يمثل ولا يزال صراع العالم مع الكنيسة الذي لم يهدأ ولا يوماً واحداً ولن يهدأ: «أنا قد أعطيتهم كلامك؛ والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم، كما أنا لست من العالم. لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يو ١٧: ١٤ و١٥). وقد صدق الذي قاله القديس بولس الرسول: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجّد أيضاً معه» (رو ٨: ١٧). ولكن يقولها إنجيل يوحنا بصورة الواقع الحاضر: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو ١٧: ٢٢)

ومن جهة الأخلاق أو السلوك الفردي وخط الرفض العريض، أي عدم الإيمان الذي أظهره اليهود والرومان في أثناء آلام الرب وصلبه، نجد ثلاثة عوامل شخصية تحكّمت في ثلاث نفوس انحطّت مقاديرها فأصابها العمى والضعف والأنانية:

+ أما العمى فبلغ أقصاه عند رئيس الكهنة الذي جلب الخراب على أمته إذ حكم على دم بريء!!

+ وأما الضعف فكان في الوالي الروماني الذي انقطع عزمه، وامتنع حزمه، وأهان كبرياء القضاء الروماني: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم!!» (يو ١٨: ٣١)؛ «وقال لهم: أنا لست أجد فيه علّة واحدة!!!» (يو ١٨: ٣٨)

+ وأما الأنانية فكانت في التلميذ الذي خان المحبة وأسلم معلمه.

ثلاثة أشخاص، ولكنهم، في الحقيقة كما يقدمهم لنا إنجيل يوحنا، هم ثلاثة عناصر مرذولة تمثل لا الرفض فقط، بل والعداوة تجاه الإيمان: «اليهود»، و«الأمم»، و«التلميذ».

+++ فقيافا يمسك عليه الإنجيل تصريحه الخطير الذي يكشف الإتجاه النفسي عند اليهود عموماً، ويمثلهم الرؤساء والمسؤولون حينما يصيبهم العمى فيضخّوا بمستقبل الرسالة في سبيل الحفاظ على حطام الدنيا: «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» (يو ١١: ٥٠ و٥١). هكذا بلغ العمى أن تُقتل البراءة ويُزهِق الحق لتبقى الأرض ويبقى الكيان! وعند هذه

المشورة توقفت العناية الإلهية عن مسار الكهنوت اليهودي، ورُفِقت اليد العالية عن حماية الأمة، وأنطفأ مصباح الله في هيكل اليهود إلى الأبد.

فإن كانت الأمة اليهودية قد بدأت مع إبراهيم حينما قَدَّم ابنه اسحق ذبيحة لله حيث كان هذا قمة الإيمان الذي بنيت عليه الأمة؛ فقد انتهت وانتهى إيمانها مع رئيس الكهنة قيافا عندما قَدَّم ابن الله ذبيحة على مذبح الرومان.

+++ والأهم ويمثلهم بيلاطس. وتعليقنا عليه هو هذه الآية من القديس بولس الرسول: «فإن كان لكم محاكم في أمور هذه الحياة فأجلسوا المحقِّرين في الكنيسة قضاة. لتخجيلكم أقول. أهكذا ليس بينكم حكيم ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته. لكن الأخ يحاكم الأخ، وذلك عند غير المؤمنين. فالآن فيكم عيب مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض. لماذا لا تُظلمون بالحرى. لماذا لا تُسلَّبون بالحرى. لكن أنتم تُظلمون وتُسَلَّبون، وذلك للإخوة. أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟» (١ كور: ٦: ١-٩)

+++ أما يهوذا التلميذ الذي سرق الصندوق، فليس عجباً إن هو باع النور. والذي أحب المال كان سهلاً عليه أن يدوس المحبة. ولكن يهوذا كان تلميذاً، وكان داخل الجماعة، وكان مؤتمناً على سر الكنيسة الصغيرة أي الإثني عشر، لذلك استطاع أن يسلم معلمه في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. فكانت خطيته أعظم: «الذي أسلمني إليك له خطية أعظم.» (يو: ١٩: ١١)

يهوذا — بحسب إنجيل يوحنا — مثل دور أختيتوفل الذي كان مشيراً لداود يجلس على مائدته ويأكل أفضل خبزه، هذا لما دخله الشيطان خان سيده داود مسيح الرب، وأشار على ابنه (ابن داود) أبشالوم أن يقتل أباه داود ليجلس ملكاً عوضاً عنه، ولما خابت مشورة أختيتوفل بموت أبشالوم ذهب وخنق نفسه، هذا ما فعله يهوذا! ولهذا قال الرب: «لكن ليتم الكتاب، الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه» (يو: ١٣: ١٨). أما الكتاب الذي أشار إليه الرب فهو المزمور ٤١: ٩: «رجل سلامتي الذي وثقتُ به، أكل خبزي، رفع عليّ عقبه».

ثانياً: المؤمنون:

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو: ١٢)

وكما يقدم إنجيل يوحنا الأشخاص الرافضين في مدُّ متهاوٍ إلى أسفل، حتى بلغ بهم الرفض وعدم الإيمان مبلغ تسليم الرب والمعلم للقتل ويبيد تلميذ من الإثني عشر، هكذا يقدم الإنجيل المدَّ الإيمانى

الصاعد في النور إلى أعلى الدرجات. وهكذا نأتى إلى الأشخاص الذين سمعوا وقبلوا وآمنوا وتحمسوا وصاروا من التابعين.

وإذا أردنا أن نلقى نظرة على التلاميذ الذين تسابقوا في الصعود على سلّم الإيمان، ينبغي أن نترك الرسل الذين ذكرتهم الأناجيل الثلاثة الأولى؛ كبطرس وأولاد زبدي وأمهم، والشخصيات الحبيبة التي رافقت طفولة المسيح ولازمته حتى النهاية، والنسوة التقيات اللائي أخذن على أنفسهن متابعة المسيح في اليهودية والجليل وأورشليم حتى الصليب والصرف عليه من أموالهن الخاصة؛ لنأتى إلى الشخصيات التي لم تذكرها الأناجيل الثلاثة، وكيف يُبرز سجاياهم عن وعي روحي ونفساني عميق، إذ يضعهم القديس يوحنا في تيار الإنجيل فتتسق حركتهم الإيمانية مع حركة المذّ صعوداً في استعلان المسيح.

ويضع القديس يوحنا في افتتاحية طريق التعرف على الرب، «نثائيل»، كزهرة تفتحت مبكراً لتعطر طريق الشهادة الخلو: «أجاب نثائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يو: ١: ٤٩). ويلتزمه على الطريق في خطواته الأولى «أندراوس»، الذي ظهر كمن كان يدرس باجتهاد متى يأتى المسيح، «قد وجدنا مسيحاً» (يو: ١: ٤١). وكذلك «فيلبس»، واحد من زمرة الباحثين باهتمام من أين يأتى المسيح: «فيلبس وجد نثائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو: ١: ٤٥). وفيلبس هذا هو القديس والرسول الذي يقول أقدم التقليد الموروث عن العلامة اكليمنطس الإسكندري^١ إنه هو التلميذ الذي سأل الرب أن يذهب ويدفن أباه، فتلقى هذا الرد الحاسم: «اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم» (مت: ٨: ٢٢)، فترك وتبع وكان من الراجحين!...

كما يقدم لنا شخصية «توما» باعتباره إمام الشكّاكين في المنهج المسيحي، ولكنه شكّ من أجل مزيد من الإيمان، فأنتهى به شكّه إلى صرخة استعلان لم يبلغها أحد قبله: «ربي وإلهي». (يو: ٢٠: ٢٨)

والقديس يوحنا يمهّد في إنجيله تمهيداً رائعاً لموكب الخطاة، تقوده أُمّية أو نصف يهودية، هي سامرية مكروهة مع كل السامريين، ولكن المسيح جاء من أجل المكروهين، فقد قيل عنه هو نفسه في الأنبياء: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه للمُهان النفس، لمكروه الأُمّة، لعبد المتسلطين...» (إش: ٤٩: ٧). كانت مكروهة ولكن أحبها المسيح ليتم في هذه السامرية العجيبة قول

^١ Clement of Alexandria, Stromata III.4 ch 25.

هوشع النبي «سأدعو التي ليست محبوبة محبوبة» (روا: ٢٥: ٩، هو: ٢٣: ٢ في الترجمة السبعينية)، ويتم في هذا الشعب السامري العجيب: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي» (روا: ٢٥: ٩، هو: ٢٣: ٢). كانت السامرية رائدة التائبين بل والمبشرين، فخلصت، وخلصت مدينة!!

وبعدها تأتي تلك التي كرمها الإنجيل بل والدنيا كلها: «المجدلية». ومن ذا الذي لا يعرف المجدلية؟ التي هي «مادلين» — باللغة الفرنسية؟ هذه التي استأسرت بعطف المسيح بعد أن كانت أسيرة لسبعة شياطين، فحفظت الجميل حتى الصليب والقبر وأيضاً القيامة. فكانت أول من نطق المسيح باسمها: «يا مريم»، كأول كلمة بعد أنين الصليب وغصة الموت وصمت القبر!!

وإنجيل يوحنا لا يقدم روايات عن شخصيات، بل سهام من نور انطلقت تتقدم طريق النور الحقيقي وتتبعه شهادة تلو شهادة شيء يخطف الأبصار، منها من كان يسير بسرعة الضوء «أنت ابن الله» (يو: ١٠: ٣٤ و٤٩؛ ١١: ٢٧). ومنها من كان يتدحرج كطفل يمسك بتلابيب أمه يسير الهوينا، ولكنه ملتصق بالنور: «توما»: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو: ١١: ١٦). ومنها من كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى بإيمان زاحف كأنه يحجر وراءه ثقلاً: «نيقوديموس» معلم إسرائيل، الذي جاء إلى المسيح مع صبح البشارة، وانتهى إليه في غسق الكرازة، لينزل الجسد من فوق الصليب ويستودعه القبر في إيمان ذاهل لا يعرف متى أتاه وكيف يعلنه!

وفي تصوير القديس يوحنا، نرى من خلف نيقوديموس، السامرية تظهر وهي الإنسنة اللاهية أو التي يلهوها الناس، والتي بعد مناوشة لم تستغرق بعض الساعة ختمت هوصباها بجذية الرجال، وتركت جرّتها التي هي بمثابة صنّعتها — ماء العطش — رهن إيمان اليقين الذي استبدّ بها، وكان لسان حالها: «لا خطية بعد الآن» و«لا» لكل أهل مدينتها ما دام «مسيّاً» الآتي قد أتى!! فلا عودة لبثريعقوب؛ ونبع الحياة قد صار في أعماقها. ومثلما قالت وعملت، هكذا قال كل أهل مدينتها وعملوا؛ وسرق السامريون الخلاص من اليهود إذ شهدوا: «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم.» (يو: ٤: ٤٢)

ولكن ليس جزافاً أن يضع القديس يوحنا صورة السامرية في مقابل صورة نيقوديموس، فهذا النقيض البالغ حد المبالغة نراه في سباق الإيمان في إنجيل يوحنا: ف قمة العلم في وجه قة الجهالة: يهودي هو معلم إسرائيل فريسي حامي أكاديمية التوراة وقداسة الناموس، عضو مجلس السندريم الأعلى، علّم في أورشليم العاصمة المقدسة، وعلى مشارف هيكل الله يأتيه خلصة في ظلام الليل يسأل عن كُنه المسيح؛ والصورة الأخرى: امرأة سامرية جاهلة، فتيلة مدخنة، ودخانها يعمي العيون السليمة، لا نبض فيها يُنبئ بأي حياة، فقد استهلكتها الخطية واللامبالاة، قابلها أو هي قابلته على

مشارف هيكَل جِرْزِيم المَكْرُس لعبادة منشقة حيث يسجدون لِمَا لَا يعلمون، تأتيه في وضوح النهار وقت الظهيرة والشمس ساطعة والكل غَادٍ ورائح يطلب البثر!! يسألها المسيح ليشرب، وهي تُغْرِض عن السماع، وتستنكر السؤال، وتجفل من الحديث. والرب يتودد إليها، يُظهِر قُفْره وَيُخْفِي غِنَاه: «الذي افتقر من أجلنا وهو غني» (٢ كو ٨: ٩)، لأنه لم يكن عطشاناً إلى مائها، ولكنه كان جائعاً حقاً لمشيشة الآب التي من أجلها نزل فقيراً متغرباً إلى عالم الخطاة والخطية، حتى أوصَلته قدماء المتعبتان إلى البثر وإلى السامرية.

حديث نيقوديموس بدأ مزخرفاً بالتودد: «يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه» (يو ٣: ٢)، ولكنه كان محشواً بالتنكر والإستنكار: «كيف يمكن؟؟» (يو ٣: ٤)؛ «أَلَعَلَّه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية؟؟» (يو ٣: ٤)؛ «كيف يمكن أن يكون هذا؟؟» (يو ٣: ٩). كان نيقوديموس عصيّ الإيمان، لأن بُرِّعَ الناموس أخفى عنه نور وجه المسيح! فلما أعْيِي المسيح من رُدِّه وصَدَّه، تركه ثلاث سنوات ونصف!...

وحديث السامرية بدأ بشبه عراك، كقطة قد استفزتها المباغلة فأخرجت أظافرها. وقد بدأت السامرية بالتنكر والإستنكار: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟» (يو ٤: ٩). ثلاثة استنكارات في جملة واحدة، فالشرب من يد السامريين نجاسة كأكل لحم الخنازير، واليهودي لا يعامل السامريين أصلاً، والرجل لا يليق به أن يكلم امرأة!! وسرعان سرعان ما نظرت إليه ملياً لتقول له: «يا سيد أرى أنك نبي» (يو ٤: ١٩). ولكنه استصغر نظرتها، وكثَّف لها نور استعلانها، فارتفعت بسرعة النور الذي اخترق قلبها. وظلت تتساءل في هواجس أفكارها عما سمعته وهي صغيرة عن «مسيّا» آتٍ يستطيع أن يرد على كل سؤال ويحل كل مشاكل الإنسان — ومشاكلها كثيرة — أَلَعَلَّه يكون هو «المسيّا»؟ وأخيراً رمت بدلوها وهي هيّابة تقول وكأنها تسأل أو تتمنى: «أنا أعلم أن مسيّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فتي جاء ذاك يخبرنا بكل شيء» (يو ٤: ٢٥). فسمعت منه «أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » (يو ٤: ٢٦). وهكذا، وفي أقل ما يمكن أن يسمح به الزمن لاستعلان حقيقة المسيح، بلغت هذه السامرية في سهولة عجيبة إلى قمة الإيمان: «هذا هو المسيح.» (يو ٤: ٢٩)

نماذج أخرى للإيمان الزاحف في إنجيل القديس يوحنا:
إيمان فيلبس:

قلنا إن فيلبس، كما يقول التقليد، هو التلميذ الذي لما دعاه المسيح طلب مهلة لكي يدفن أباه،

فبادره المسيح بأن يُعدّل مسار إيمانه فيترك الموتى يدفنون موتاهم ويهتم هو بإتباع المسيح، أي الحياة. هذا في بكور تعرفه على المسيح وعلى معنى الإيمان، فتوكل فيلبس على مَنْ يُحيي الموتى، وانتقل من الموت إلى الحياة وكان من التابعين. ولكن بقايا إيمان الموتى كان لا يزال لاصقاً فيه، هذا كان يعلمه المسيح ويعلمه القديس يوحنا. وكان على المسيح أن يزيل بقايا رائحة الموت من إيمان فيلبس. إلى أن جاءت معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، وأبصر المسيح الجمع الحاشد من حوله وكانوا قد قضوا ساعات طويلة في الإستماع إلى وعظ المسيح وجاعوا والمكان كان قفراً؛ فابتدر المسيح فيلبس يسأله: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» (يو: ٦: ٥). يقول القديس يوحنا: «إنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزعم أن يفعل» (يو: ٦: ٦). ويكاد هذا القول يحكي عن كيف كان إيمان فيلبس موضع امتحان في نظر التلاميذ، أو على الأقل في نظر يوحنا. وما حسبه المسيح ويوحنا كان صحيحاً إذ جاء رد فيلبس خالياً من الإيمان جملة وتفصيلاً، إذ بعد تقدير عدد الرجال والنساء والأولاد وحساب ما يكفيهم من طعام وبعد عملية حسابية تقوم على الجمع والضرب والقسمة، أجاب فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً» (يو: ٦: ٧). هذا هو إيمان الحسابات وهو قرين إيمان دفن الموتى.

لم يكن جزافاً أن يسرد القديس يوحنا هذه الرواية، فهو هنا يضع الحد الفاصل بين إيمان وإيمان، إيمان المنطق والعقل والواقع والحسابات، وإيمان المسيح الذي يقيم الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، إيمان الخمسة الآلاف رجل والخمس الخبزات لا تقبل القسمة على الإطلاق، فالقديس يوحنا يعرض لنا نموذج ما ينبغي أن يكون عليه إيمان الذين يتبعون المسيح. ووقف فيلبس يوزع مع الموزعين من الخمس الخبزات ومن السمكتين ما أشبع الخمسة الآلاف رجل ومن معهم من النساء والأولاد، ثم انطلق مع التلاميذ يجمع الكسرة المتبقية ما ملأ اثنتي عشرة قفة مملوءة!!

كان درساً لمن يجوع في حضرة المسيح، يتعلم منه من يريد أن يتعلم أن مع المسيح «شبع سرور ويمينه ملائمة خيرات» (راجع مز: ١٦: ١١). وكان درساً لفيلبس أن يحجد حساباته والأرقام، طالما هو يتبع من دفع له كل سلطان ما في السموات وما على الأرض.

ولكن إيمان فيلبس كان لا يزال ينبض فيه عرق الموتى. وكان المسيح على استعداد لإستثناؤه أيضاً. فلما طرح المسيح في أواخر كرازته مشروع تسليم تلاميذه الطريق إلى الآب الذي عبّده بالكلمة والروح والحياة وهو مزعم أن يدشّنه بجسده، انفجر فيلبس دون باقي التلاميذ يسأل سؤاله الذي ينضج بنسيان كل تعاليم المسيح — وكأنه لم يسمع منه قط علاقته بالآب أن الفكر فكره والقول

قوله والعمل عمله والمشية مشيئته والحب حبه والحياة حياته؟ فإذا يتبقى لفيلبس أن يسأل: «يا سيد أرنا الآب وكفانا» (يو ١٤: ٨)؟ هذه لما سمعها المسيح أخذ يراجع مع فيلبس الدروس من أولها متحسراً على زمان طويل قضاه فيلبس يسمع ولا يفهم وينظر ولا يرى ويسير مع السائرين دون أن يعرف الهدف. أجابه المسيح باختصار: «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟؟؟» (يو ١٤: ٩) وأردف بعد وقفة حزن ليعطي الحقيقة الإلهية النهائية لشخصه وعمله ورسالته: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). وعاد يستنكر على فيلبس وعلى كل مؤمن وتابع مثل هذا السؤال الذي يعني عدم الإيمان: «فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ أأنت تؤمن أنني أنا في الآب والآب فيّ» (يو ١٤: ٩-١٠). وبهذا القول يكون المسيح قد راجع مع فيلبس وكل إنسان، في كل زمان ومكان، ما هو الإيمان المسيحي وكيف يتخلص من أعمال الموقى ومنطق حسابات الدنيا ويرى المسيح صورة منظورة لله الآب غير المنظور.

إيمان توما:

كان إيمان توما ينقصه الرجاء الحي، وهذا العيب الخطير إذا أصاب الإيمان يجعله يحتاج إلى «العيان»، أي لا يثق إلا بما يرى ويسمع ويفهم. لأن الإيمان الصحيح غير المُعَاب هو: «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عب ١١: ١)، كما يقول القديس بولس الرسول، أي أن نثق أننا ننال ما نترجاه مثلاً، أو نؤمن بالله غير المنظور أو ننتظر قيامة الأموات.

وإيمان توما ظهر ضعفه أولاً عندما كان المسيح موجوداً في بيت عبّرة أو بيت عنيا عبر الأردن (شرق الأردن) - ومعروف في التقليد اليهودي أن المسيح كان له خمسة تلاميذ من عبر الأردن وكان توما واحداً منهم. وجاءه رسول من عند مرثا ومريم يخبره أن لعازر مريض، فقال المسيح بعد أن عرف أنه مات: «لنذهب إلى هناك» أي إلى اليهودية، وكان اليهود هناك متربصين به يريدون أن يقتلوه، فجزع توما من فكرة الذهاب إلى اليهودية ولكنه سلّم نفسه للموت على أنه ليس رجاء في الحياة إن هم ذهبوا إلى اليهودية، فقال واليأس بنحيم على قوله: «فقال توما الذي يُقال له التوأم للتلاميذ رفقاؤه لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو ١١: ١٦). واضح من هذا القول أن توما يحب المسيح ويؤمن به ويتبعه من كل قلبه، ولكنه كان قد قرر أن إتياع المسيح ليس وراءه إلا الآلام والموت، ولكن لا مانع من الإتياع.

وعلى نفس المنوال كان المسيح قد لاحظ اضطراب التلاميذ، وأولهم في هذا كان توما، عندما أحسوا من كلام الرب أنه ينوي تركهم وأن هناك موتاً ينتظره: «لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي» (يو ١٤: ١). واضح أن المسيح يراجعهم في مستوى إيمانهم به إذ لم يكونوا قد وثقوا

بعد أنه «ابن الله» والإيمان به ينبغي أن يكون على مستوى الإيمان بالله. ثم أضاف: «في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتِي أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو ١٤: ٢-٤). وهنا يمهد المسيح في أذهان التلاميذ لقبول أخبار انطلاقه إلى الآب عبر الصليب، وتدشينه الطريق إلى الأقداس العليا بدمه، مفتتحاً الباب لعودة الإنسان إلى كرامته الأولى للحياة في حضرة الله. ولكن توما لم يفهم شيئاً: «قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق» (يو ١٤: ٥). لا هو فهم أين يذهب المسيح — وكان المسيح لم يكن له رسالة إلا تعزية توما والبقاء بجواره إلى الأبد، ولا هو فهم معنى الطريق المؤدي إلى السماء وكأنه سيعيش على الأرض مخلداً، ولا هو فهم معنى الصليب! وفي جملة مختصرة للغاية أراد المسيح من توما أن يمسك به وكفاه كالطفل الذي يضج من صعوبة السير مع أمه ولا يعلم إلى أين تسير، فتقول له: «امسك في ثوبي واتبعني وكفى»: «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦). فإن كان المسيح هو الطريق فلماذا تنعي هم الطريق؟

وفجأة أخذ المعلم منه ورآه وقد احتواه القبر، إلى هنا توقف إيمان توما. فلما قام المسيح من بين الأموات وبلغته الأخبار — وغالباً كان توما متغيّباً عبر الأردن في مدينته؛ فلم يصدقها. ولما تواترت الأخبار أكثر فأكثر، حضر توما إلى اورشليم وقابل التلاميذ ولكنه لم يتزحزح عن إيمان الصليب والجروح والموت والقبر: «فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب. فقال لهم إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع أصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن» (يو ٢٠: ٢٥). إيمانٌ تعوزه الرؤيا ويعوزه تصديق الشهادة، هو هو إيمان الموت وكفى وهو الذي تعوزه الحياة. لكن الحياة، وهي المسيح، قد أظهرت في إيمان القديس يوحنا الرسول وهي تحت الرؤيا والعيان، لذلك لم يمانع المسيح المّقام أن يظهر لتوما خصيصاً، وليس في الحقيقة لتوما ولكن لكل من بلغ في إيمانه شك توما وأعوزه اليقين؛ ولكي تبقى شهادة توما صكاً محفوظاً في خزانة الإنجيل يُغني عن وضع الأصبع في أثر المسامير واليد في الجنب المفتوح!! «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديّ وهات يدك، وضّعها في جنبِي، ولا تكون غير مؤمن بل مؤمناً.» (يو ٢٠: ٢٧)

ولأول وآخر مرة في تاريخ الإيمان بل في تاريخ الإنسان يتحسس إنسانُ القيامة بإصبعه ويده. إيمان توما بلغ هنا النهاية، بل بلغ الذروة: «أجاب توما وقال له ربي وإلهي» (يو ٢٠: ٢٨). لكن صبر الرب على شكوك توما بلغ أيضاً النهاية والذروة، فلم يعد يطبق هذا المنهج جملة وتفصيلاً: «قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩). لقد حصر الرب

الطوبى أي البركة والسعادة في الإيمان الذي لا يطلب العيان.

وليستبه القارئ إنجيل القديس يوحنا ليس منشغلاً في تصوير شخصياته ولا كشف سير أعمالهم وحياتهم، ولكنه يقصد من هذا العرض المتعدد القامات لرجال الإيمان ونسائه أن يُبرز شخص المسيح، مجد ذاته، كيف يلقى ضوءه فيغير من فكر الإنسان وسلوكه من قامة إلى قامة ومن مجد إلى مجد. هذا هو شغل إنجيل القديس يوحنا الشاغل.

الفصل السابع

الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

إنجيل القديس يوحنا لا يستقيم فهمه أو شرحه على مستوى كل تعليم بمفرده أو كل آية بمفردها، أو حتى كل أصحاح بمفرده، دون الالتفات إلى الرباط السري الذي يربط الحديث بالمعجزة والمعجزة بمعجزة أخرى، سواء جاءت قبلها أو جاءت بعدها. فهناك ارتباط دقيق وعميق يربط بين حديث وآخر وبين معجزة وأخرى، بل وبين بدايته ونهايته. هذا الارتباط الذي يسري في كل الإنجيل يلح على القارئ حتى يكتشفه. وبمجرد أن يكتشفه يعتبر أنه حصل على مفتاح الإنجيل الذي يدرك به مسار الروح في كل كلماته وأصحاحاته، ويبدأ بحس بحركة الروح تنتقل إلى قلبه وفكره وتضيء ذهنه. وهذا هو الاستعلان في إنجيل يوحنا، وهو من عمل الروح القدس الذي أوحى بالإنجيل وأملأه، وهذا ما ينشده كاتب الإنجيل أقصى ما ينشده!

هذا مع العلم أن كل آية تخدم موضعها تماماً، لتعطي المضمون الذي يقصده الحديث كجزء قائم بذاته، ليكون خطوة في كشف أو استعلان الحق والغرض الذي يهدف إليه الإنجيل. إلا أن كل آية بما يتصل بها من حديث وتعليم هي، في حقيقتها الكبرى، مرتبطة بآيات أخرى لتعطي في النهاية الصورة الكاملة المتدرجة للإستعلان الذي يهدف إليه الإنجيل.

ويكفي لكي نلفت نظر القارئ إلى هذه الحقيقة أن نقول إن الموضوع الرئيسي الذي يهدف إليه الإنجيل هو: «لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣١)؛ وأن بداية التعليم الذي بدأ به إنجيل يوحنا هو «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو ٣: ٧)؛ وينتهي بمعجزة القيامة من الأموات!

وهكذا فإن إنجيل يوحنا يحوي منهجاً تفصيلياً يخضع لحساسية متناهية من حيث ترتيب وتدرج المبادئ الأساسية بحيث لا يحتمل على الإطلاق أي تغيير في مواضع الآيات والتعاليم وإلا تختل الوحدة القوية التي يبرزها الفكر الخلاق الذي وضعها!!

وعلى سبيل المثال نقدم آية تفتيح عيني الأعمى:

إذ نجد أن الإنجيل قبل أن يسرد قصة تفتيح عيني المولود أعمى مباشرة، يقدم المسيح معلناً عن نفسه أنه نور العالم: «أنا هو نور العالم» (يو: ٩: ٥)؛ فيبدو الكلام صعباً يحتاج إلى ما يبرهنه ويصدق عليه، لأن المتكلم الواقف أمامهم هو مجرد إنسان بحسب مظهره، وهم يعرفونه ويعرفون أسرته ومدينته، فكيف يُقبل أن يكون هو نور العالم؟ وكيف؟ ولكن بعد خطوات وبدون تقديم أو تعليق يقدم الإنجيل معجزة شفاء المولود أعمى ويرى الناس أن الأعمى صار بصيراً وبالتالي كيف تحولت الظلمة عنده إلى نور. ولكن للأسف، فالتناس ينشغلون بمعجزة الشفاء — بجد ذاتها — التي تمت في السبت، كما انشغلوا في قوله: «أنا هو نور العالم» كمقولة بجد ذاتها دون أن يربطوا ما قال بما عمل حتى يدركوا من يكون هذا الذي يعطي الأعمى نور العالم؟ لذلك فاتهم تطبيق القول على العمل ليروا أن العمل ينطق بجد ذاته بصدق ما قال، وهذا ما أخذه المسيح على اليهود، ويا ليت لا يأخذه أيضاً على القاريء. لأنه بمجرد الإحساس بالارتباط بين كلام المسيح وعمله، تتكون لدى القاريء حاسة انفتاح البصيرة لإدراك سر المسيح.

وأيضاً حتى وبعد أن سرد الإنجيل المعجزة، لم يكتفِ الإنجيل بذلك. بل لكي يلفت الإنجيل فكر القاريء إلى الغاية من التعليم والغاية من المعجزة، عاد يحكي عن كيف قابل المسيح هذا الأعمى عينه، وكيف عرض عليه الإيمان به كابن الله؛ فنجد الأعمى بلا أي تردد على الإطلاق يؤمن في الحال ويسجد. وهكذا يكشف الإنجيل عن معجزة أخرى يودُّها ويتمناها للقاريء، وهي انفتاح بصيرة الأعمى روحياً وإدراكه سر المسيح، فنال الحياة الأبدية بعد أن نال نور العالم. الأعمى البصير ربط بين ما تم له وبين هذا الذي فتح عينيه، فقبله في الحال بصفته التي أعلن بها عن نفسه وزاد عليها أن سجد له متعبداً!!

وهكذا، فإن ربط التعليم بالمعجزة ينشئ الإيمان. ثم بالتعليم والآية والإيمان يشير الإنجيل في صمت مهيب إلى صدق بدء الشهادة التي يشهد بها القديس يوحنا للمسيح أن «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو: ١: ٩). وبذلك يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح التاسع بما جاء في الأصحاح الأول، دون أي لفت نظر أو شرح، ليعطي القاريء فرصة لكي يدخل هذا المجال ويعيشه.

وعلى غط المثال السابق وبنفس العمق، يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح الثالث بما جاء في الأصحاح الرابع دون أي تعليق أو لفت نظر. ففي الأصحاح الثالث يفتح المشهد فجأة عن فريسي كبير معلم للناموس يأتي إلى المسيح في الظلام ليسأل عن الرسالة، فلا يردُّ المسيح عليه في

موضوع سؤاله، بل يداومه بحقيقة تقطع عليه خط الرجعة في حوارهِ الذي يريده، وتقلب كيان تفكيره، إذ تُنهي من دائرة معرفته كل مذكرات علمه وتعليمه؛ إذ قال له المسيح مباشرة لا يمكن لإنسان أن يرى أو يدخل ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد!! ولما اعترض واستنكر ووضع العقبات، بادره المسيح كما بادرنا معه: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا» (يو: ١٠: ٣)، لكي ينتبه ذهننا أن العهد القديم انتهى بعلميه، لأنه هوذا معلم إسرائيل لا يعرف. إذن، فقد انتهت المعرفة من القائمين على المعرفة. وأخيراً يتركه المسيح بعد أن وضع أساساً جديداً ومتيناً للعهد الجديد. وهنا يصمت الإنجيل.

وبعدها يدخل الإنجيل إلى الأصحاح الرابع ليقدم لنا المرأة السامرية، امرأة خائفة بلا اسم، ليست يهودية ولا أُمّية، ولا تعلم أي علم، هذه اختارها السيد المسيح ليطبق عليها درس نيقوديموس. ومن خلال مناقشة قصيرة عن ماء بئر يعقوب — ماء بركات الآباء — الغاطس في قاع البئر وشحّه والمُعطش أيضاً، كناية عن تراث الماضي وعدم نفعه، يكلمها المسيح عن الماء الحي. فبسرعة مذهشة طلبته ولكن في غير استعداد، فاستدرجها المسيح لتعترف بما فيها وبخطاياها، فاعترفت ولم تنكر، وكانت صادقة، فسكب عليها الماء الحي أي الروح. فاعترفت من الماء، وكانت أول من شهد عن المسيح من غير اليهود. وهنا يصمت الإنجيل أيضاً، ليترك القارئ يفكر ويفهم أن نصف الأُمّية قد وُلدت من جديد من الماء والروح على يدي المسيح؛ من حيث تعذرت ولادة معلم الناموس! ولكن صمت الإنجيل هناك عند نيقوديموس وهنا عند السامرية هو التعليم الروحي عند إنجيل يوحنا، لأن فيه دعوة سرّية للقارئ ليرى ويقرر كيف خسر نيقوديموس العرض وكيف ربحته السامرية، وعلى أية شروط!!

ولكن لا ينتهي الربط بين هذين الأصحاحين بعد. إذ أننا لو عُودنا إلى الأصحاح الأول نجد أصل وشرح الأساس اللاهوتي والإيماني الذي فرّق أو الذي ربط بين نيقوديموس والسامرية!! أي بين الأصحاحين الثالث والرابع بجملتهما: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله.» (يو: ١٢ و ١٣)

هذا هو إنجيل يوحنا، يشرح بإسهاب، ويقدم المعجزة ببساطة، ويترك للقارئ فرصة ليستعلن المسيح.

وعلى مدى الإنجيل يحاول الكاتب أن ينبه ذهن القارئ بالرباط العميق الهادف، الذي يربط بين الحوادث والأقوال والمعجزات، وذلك بأن يذكر القارئ بالمواقف السابقة التي يكون قد عبرها

بأصحاحات كثيرة حتى يلتحم ذهن الإنسان بسر الإنجيل وينمو الإستعلان في قلبه .

فمثلاً في الأصحاح الأول عدد ٣٠ يعطي الإنجيل فرصة ليوحنا المعمدان أن يشهد للمسيح قائلاً: «هذا هو الذي قلت عنه: يأتي بعدي رجل صار قدامي (في الرتبة) لأنه كان قبلي (أزلي)». وبعد ذلك في الأصحاح الثالث عدد ٢٦ يعتمد الإنجيل على ذاكرة القارئ فيما قرأ في الأصحاح الأول عن هذه الشهادة: «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن (المسيح) الذي أنت قد شهدت له هو يعمّد» .

وبالمثل يذكر الإنجيل في الأصحاح الأول كلام الفريسيين ليوحنا المعمدان هكذا: «فسأله وقالوا له فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح»؟ وبعد ثلاثة أصحاحات يعود الإنجيل ويستخدم ذاكرة القارئ فيما قرأ؛ حينما يواجه يوحنا المعمدان الفريسيين: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أنني قلت لست أنا المسيح.» (يو: ٣: ٢٨)

ثم يعود الإنجيل في الأصحاح الخامس يستخدم هاتين الواقعتين معاً حينما يقول بضم المسيح مخاطباً الفريسيين: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق.» (يو: ٥: ٣٣)

وأيضاً يقول المسيح في الأصحاح السابع مخاطباً اليهود: «ستطلبوني ولا تجدوني وحيث أكون أنا لا تقدرّون أنتم أن تأتوا» (يو: ٧: ٣٤). ويعود المسيح في الأصحاح الثالث عشر يعقب على هذا القول مخاطباً تلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبوني، وكما قلت لليهود، حيث أذهب أنا لا تقدرّون أنتم أن تأتوا.» (يو: ١٣: ٣٣)

أما من حيث التدرج في الإستعلان مع الترابط الشديد في الأقوال والمعجزات فنعطي هذا المثل:

نقرأ في الأصحاح الخامس: «كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو: ٥: ٢٦). وذلك توضيحاً للآية التي أتت قبلها هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون.» (يو: ٥: ٢٥)

ثم في الأصحاح الحادي عشر إذ يقترب من المعجزة – الآية – التي نوى أن يصنعها، يصرّح بأكثر وضوح وهو في طريقه لقبر لعازر الميت مشيراً إلى المعجزة أنها قيامة حقيقية من الموت بإعطاء الحياة: «أنا هو القيامة والحياة» (يو: ١١: ٢٥). ثم أمام قبر لعازر الميت يقول لمراثا: «إن آمنت ترين مجد الله» (يو: ١١: ٤٠)، مشيراً إلى أن إقامة الميت من القبر وإعطاءه الحياة هو تمجيد لله الآب الذي أعطاه هذا السلطان. وأخيراً يخاطب الميت كما يخاطب حياً: «لعازر هلم خارجاً»

(يو ١١: ٤٣)، فيقوم لعازر من بين الأموات، ويثبت المسيح أنه حقاً هو القيامة والحياة، ليطبقها على نفسه على الصليب وما بعده.

والآن إذا عدنا إلى الأصحاح الأول نجد الأساس اللاهوتي الذي بُنيت عليه كل هذه الأقوال وهذه المعجزات: «كان الكلمة الله... فيه كانت الحياة» (يو ١: ١ و٤). هذه في الواقع هي المسحة الروحية التي كُتِبَ بها إنجيل يوحنا.

فإذا عاد القارئ إلى هذه الآيات وغيرها وراجعها في مواضعها بتدقيق وبحث عن المقابل والمكمل، يدرك شدة تداخل المواقف في الإنجيل واعتماد بعضها على بعض بصورة رتيبة دقيقة مركبة الواحدة فوق الأخرى، في امتداد مع ارتفاع متواصل في الاستعلان لخدمة بناء فكر وإيمان القارئ على أساس قوي لا يهتز.

هذا في الواقع قليل من كثير مما يفوق طاقة أي مؤلف بشري مهما كانت قدراته، وهذا بحمد ذاته عجيبة في حد ذاتها وآية تهون بجوارها أي معجزة مهما كانت باهرة. فالروح واضح في الرباط الذي يربط بين القول والمعجزة، والمعجزة والمعجزة، والأصحاح والأصحاح، والبداية والنهاية.

هذا مع ملاحظة أن البؤرة التي تتجمع فيها جميع هذه الأضواء المتسلطة من جميع الآيات وجميع التعاليم وجميع الرموز إنما هي شخص المسيح نفسه^(١) باعتباره الكلمة المتجسد، أي باعتبار شخصه الإلهي الظاهر في جسد إنسان! فكل ما في إنجيل يوحنا، سواء كان حادثة أو آية أو تعليماً أو رمزاً، إنما يهدف إلى إلقاء ضوء جديد على هذه الحقيقة العظمى المعلنة من بدء الأصحاح الأول: أن المسيح هو الكلمة وقد صار جسداً وحلَّ بيننا — ثم يُعتبر بالتالي دعوة سرية للقارئ ليؤمن به أنه ابن الله فينال منه الحياة الأبدية!

(١) راجع ما جاء في نهاية فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «المعجزات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «الشخصيات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي المقارنة بين «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا والثلاثة أناجيل الأخرى.

الباب الخامس

علاقة إنجيل القديس يوحنا

بأسفار العهد الجديد

لم نشأ أن نضع المقارنات بين إنجيل يوحنا وبقية أسفار العهد الجديد من الرسائل وأناجيل ورؤيا، إلا بعد أن نكون قد قدّمنا عرضاً شاملاً لمحتويات إنجيل يوحنا نفسه. لذلك جاء هذا الباب متأخراً من جهة الترتيب المنهجي في الدراسة، ولكنه جاء في صميم موضعه من جهة المادة والعرض اللازمين لعمل المقارنات.

الفصل الأول

الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

توجد علاقة صميمية بين رسائل القديس يوحنا وإنجيله مما لا يدعُ هناك أي شك في نسبة إنجيل يوحنا لنفس كاتب الرسائل. علماً بأن الرسالة الأولى تأتي غفلاً من أسماء، أما الثانية والثالثة فتأتيان باسم الشيخ أو الكاهن πρεσβύτερος ولكن كلها تحمل الطابع الرسولي.

والرسائل تأتي بمفهومها الوعظي كشرح لدستور الإنجيل القائم على الحوادث التاريخية من آيات وتعاليم، وقد سُجِّل كلُّ منها في أوانه وموضعه.

والرسالة الأولى بالذات تصور ما جاء في الإنجيل إنما في أسلوب شرحي ووعظي، ولكن بالرغم من التشابه المتوازي في الفكر والتركيب بين الرسالة والإنجيل إلا أنه يبقى بعض الاختلافات في الاتجاهات العامة:

أ — ففي الرسائل نجد النظرية التعليمية قائمة على إبراز بشرية المسيح، بينما نجد في الإنجيل أن الاتجاه كله متجه ناحية إظهار مجده الإلهي. فالثقل التعليمي في الرسائل واقع كله على أن المسيا — أي المسيح — رجاء الأمم هو هو «يسوع»: «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (يو ٤: ٢ و ٣)، مما جعل كاتب الرسالة ينشغل في إثبات إنسانية المسيح الكاملة ويسوق التيار التاريخي في حياة المسيح إلى الروحانيات المثالية. وهذا يتمشى تماماً مع عمل الواعظ والمبشر، في مقابل عمل الإنجيلي الذي يقوم على الدعم التاريخي لتصديق الدعوة.

ب — كما يوجد فارق هام في النظرة إلى الأخرويات، أي الأمور الخاصة باليوم الأخير والقيامة والحياة الأبدية وما يتبع ذلك. فالإنجيل يمرُّ في تعليمه على مجيء الرب (٢٢: ٢١)، (٣: ١٤) كما يمرُّ على ذكر اليوم الأخير (٦: ٤٠ و ٤٤)، ويذكر الدينونة العتيدة (٥: ٢٨) كل هذه يلمسها لمساً رقيقاً

دون أن يركّز عليها أو يجعلها هدفاً خاصاً لتعليمه. بعكس ما جاء في الرسائل، فاستعلان المسيح (٢: ٢٨) وحضوره يبرزان كحقائق هامة ومحورية يركّز عليها وينتظر وقوعها تاريخياً وفي العالم. فإنه سيأتي تماماً كما أتى بالجسد: «لأنه قد دخل إلى العالم مُضلّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً (مستقبلاً) في الجسد» (٢ يوح ٧). «والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه حتى إذا أظهر يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (١ يوح ٢: ٢٨)

ج - كذلك هناك فارق واضح في موضوع الشفاعة *íλασμός* عند الآب، فهي في الرسالة واضحة ودقيقة دقة كاملة أكثر منها في الإنجيل، وكذلك الإعراف بالخطايا: - «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١ يوح ١: ٨ و٩) - «وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة *íλασμός* لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١ يوح ٢: ١ و٢)

د - كذلك في الرسالة الأولى يبرز القديس يوحنا موضوعاً جديداً وهو «المسحة» التي ينالها المسيحيون: «وأما أنتم فلکم مسحة من القدس وتعلمون كل شيء.» (١ يوح ٢: ٢٠)، «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً، كما علمتكم تثبتون فيه.» (١ يوح ٢: ٢٧)

والقديس يوحنا يذكرها في سفر الرؤيا أيضاً بصورة عملية عالية القدر ومجيدة للغاية: - «... ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض (ممسوح) الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة (ممسوحين بالروح القدس) لله أبيه له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (رؤ ١: ٦ و٥)

هـ - ومعروف في التقليد الكنسي والشرحي أن الرسالة هي من تأليف القديس يوحنا اللاهوتي، أما كلام الإنجيل فهو فوق أنه موحى به من الروح القدس حسب تقليد الكنيسة، فهو أيضاً كلام المسيح منقولاً، وله طابع الأصالة ومأخوذاً على أنه قاعدة أساسية وقضية إلهية مسلمة بسلطان إلهي.

ولكن الواضح أن القديس يوحنا أخذ كلام المسيح ومعجزاته وصاغها، لتكون صورة حية تشهد بواقعها الإلهي بما يصلح أن يكون إنجيلاً للإيمان يقوم على أساس التقليد الرسولي. وبناء على ذلك نجد القاعدة التاريخية في الإنجيل قد انكسرت في الرسائل ولم يعد لها التوقيع الزمني أو ملاسبات

الظروف بل انطلقت التعاليم حرة ومطلقة تصلح لكل تاريخ.

و - كذلك نجد كلام الرسائل مكشوفاً وواضحاً لا يحتاج إلى تأويل. أما كلام الإنجيل فله تيارات تحتية، محمول على الرمز يحتاج إلى شرح وتفسير كما هو واضح من المقارنة الآتية، حيث سيجد القارئ التوازي المدهش بين الإنجيل والرسائل، كما يتضح أن الرسائل كأنها الشرح والتفسير المطابق تماماً وأحياناً الرد أو الحل لسؤال كيف؟

الإنجيل

الرسائل

٣ : ١٦ « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية ».

١ يوحنا ٤ : ٩ « بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به ».

٨ : ١٢ « أنا هو نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة ».

١ يوحنا ١ : ٥-٧ « الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب وليسنا نعمل الحق. ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض ».

١٥ : ٢٣ « الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً ».

١ يوحنا ٢ : ٢٣ « من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالابن فله الآب أيضاً ».

٣ : ١١ « إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ».

١ يوحنا ٢ : ٢ « الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا ».

٥ : ٣٢-٣٤ « الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهد بها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ».

١ يوحنا ٥ : ٩ « إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه ».

٥ : ٢٤ «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» .

٥ : ٣٨ «ولست لكم كلمته ثابتة فيكم» . ١ يو ٢ : ١٤ «وكلمة الله ثابتة فيكم» .

٦ : ٥٦ «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» . ١ يو ٤ : ١٥ «من اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله» .

٨ : ٢٩ «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه» . ١ يو ٣ : ٢٢ «ومهما سألتنا تنال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضية أمامه» .

٨ : ٤٤ «ذاك كان قتالاً للناس من البدء» . ١ يو ٣ : ٨ «لأن إبليس من البدء يخطيء» .

٨ : ٤٦ «من منكم يبتغي علي خطية» . ١ يو ٣ : ٥ «ليس فيه خطية» .

٨ : ٤٧ «الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» . ١ يو ٤ : ٦ «نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا» .

١٠ : ١٥ «وأنا أضع نفسي عن الخراف» . ١ يو ٣ : ١٦ «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا» .

١٢ : ٣٥ «الذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب» . ١ يو ٢ : ١١ «من يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضي» .

١٣ : ٣٤ «وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً» . ١ يو ٣ : ٢٣ «وهذه هي وصيته أن تؤمن باسم ابنه يسوع المسيح ونحب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصية» .

١٥ : ١٠ «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي». ١ يوحنا ٤ : ١٦ «ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله
فينا. الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله
والله فيه».

١٥ : ١٨ «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد ١ يوحنا ٣ : ١٣ «لا تتعجبوا يا إخوتي إن كان العالم
أبغضني قبلكم».

١٦ : ٢٤ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا ١ يوحنا ٤ : ٤ «ونكتب إليكم هذا لكي يكون
فرحكم كاملاً».

١٦ : ٣٣ «ثقوا أنا قد غلبت العالم». ١ يوحنا ٥ : ٤ «هذه هي الغلبة التي تغلب العالم
إيماناً».

٢٠ : ٣١ «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع ١ يوحنا ٥ : ١٣ «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم
هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي
حياة باسمه».

كذلك نقدم على التوازي مجمل التعاليم التي قدمها القديس يوحنا في بداية إنجيله وهي من تأليفه
في مقابل ما جاء في رسالته الأولى:

الإنجيل

١ : ١ «في البدء كان الكلمة ...
وكان الكلمة الله».

الرسالة

١ : ١ «الذي كان من البدء ... من جهة كلمة
الحياة».

١ : ٢ «... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت
عند الآب».

١ : ٩ «كان النور الحقيقي ... آتياً إلى العالم». ٢ : ٨ «إن الظلمة قد مضت والنور الحقيقي الآن
يضيء».

١ : ١٢ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً ٣ : ١ و٢ «أنظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله... أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله» .

١ : ١٢ «... أي المؤمنون باسمه» . ٥ : ١٣ «أنتم المؤمنون باسم ابن الله» .

١ : ١٣ «الذين وُلِدُوا ... من الله» . ٥ : ١ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِدَ من الله» .

١ : ١٤ «والكلمة صار جسداً وحل بيننا» . ٤ : ٢ «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله» .

١ : ١٤ «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» . ١ : ١ «الذي رأيناه بعبودتنا الذي شاهدناه» .

١٨ : ١ «الله لم يَرَهُ أحد قط» . ٤ : ١٢ «الله لم ينظره أحد قط» .

هذا التطابق بين رسالة القديس يوحنا الأولى وبين إنجيله، بل وهذا الانضباط في المعنى البالغ لدقة والصحة، والذي نجده في رسالته التي كتبها مبكراً جداً عن إنجيله، يشهد بلا نزاع أنه كان يعمل كل تعاليم إنجيله بين ضلوعه قبل أن يضع إنجيله. كما يتضح لدى القارئ أننا أمام معلم رسولي عالي القدرة لم يَجِدْ عن الخط الرسولي في تعليمه أو في إنجيله، بل ارتفع به إلى القمة!!

الفصل الثاني

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

يلاحظ القارئ في إنجيل يوحنا ألفاظاً واصطلاحات تُستخدم في الأسفار الرؤيوية، وبالأخص سفر دانيال وكذلك سفر الرؤيا مثل:

١ - اسم «ابن الإنسان»، واسم «المسيح»، وهما الإسمان المحبوبان للذنان كانا دائماً على لسان المسيح.

٢ - كذلك تعبير «ملكوت الله»، و«ملكوت المسيح»، ويجمعهما بالنهاية في قوله: «ولكن الآن ليست مملكتي من هنا.» (يو ١٨: ٣٦)

٣ - كذلك يذكر إنجيل يوحنا «قيامه الأجساد من القبور» (يو ٥: ٢٨ و ١١: ٤٣)، وبعدها يذكر الدينونة (٥: ٢٩) سواء للذين فعلوا الصالحات أو للذين فعلوا السيئات. وهذا التعبير ورد بنفس التعبير في رؤيا دانيال ١٢: ٢٢. ثم يطوّر مفهوم القيامة ومفهوم الدينونة ويجعلها من أفعال الحاضر الزمني (يو ٥: ٢٤ و ٢٥ و ١١: ٢٤-٢٦ و ١٢: ٣١)؛ وهذا يوضح أن الخط الرؤيوي يغلب على روح الإنجيل.

٤ - كما يذكر الإنجيل أن «ابن الإنسان» هو الذي سيدبر، وهذا تعبير رؤيوي (يو ٥: ٢٧). هذا يمهّد الذهن لقبول العلاقة بين كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا.

ويُعتبر سفر الرؤيا من حيث المذهب التعليمي وسيطاً بين الثلاثة الأناجيل الأولى وإنجيل يوحنا، ويكوّن حلقة اتصال بينها.

والأفكار التي تضع الخطوط الأساسية في إنجيل يوحنا نجدها واردة بصورة ما في سفر الرؤيا، ولكنها صورة متطورة من تعاليم الرسل في عصرها الأول. وقد نشأت إثر الظروف القاسية التي

دخلت فيها الكنيسة بعد خراب اورشليم والمهيكل ووقوع الكنيسة في اضطهاد ظالم من روما، بعد أن أخذت بذنوب اليهود دون تفریق.

وبالرغم من ذلك، فإن سفر الرؤيا ينسجم عن قرب مع إنجيل يوحنا في التعاليم وترتيب الأفكار حتى أنه يُظهر سفر الرؤيا كأنه البذرة التي انطلق منها إنجيل يوحنا بطبيعة التقدم الذي تفرضه الحياة الروحية في الكنيسة.

نقاط التلاقي بين سفر الرؤيا وإنجيل القديس يوحنا:

إن نقاط التلاقي بين السفرين هي أكثر كثيراً مما يظن القارئ العادي لأول وهلة. فالفكرة الرئيسية فيها كليهما واحدة!!

١ - فكل منها يقدم صورة للصراع الهائل بين قوى الخير والصلاح وقوى الشر الهدامة. ولكن في إنجيل يوحنا يُصاغ هذا الصراع على أساس أخلاقي ومُدرّكات واضحة لاهوتية؛ أما في سفر الرؤيا فيقدم نفس الصراع إنما في مناظر وصور رمزية.

إنجيل يوحنا يصيغ القوى المتصارعة في مسمياتها المطلقة، كالنور والظلمة والحياة والموت والمحبة والبغضة والحرية والعبودية.

أما سفر الرؤيا فيقدمها في أشخاصها: الله والمسيح والملاكوت والكنيسة في مقابل الشيطان والوحش والنبي الكذاب.

ولكن الشخصية المركزية في كلا السفرين هي المسيح، الذي حينما يبلغ نصرته النهائية ينتهي التاريخ وتبلغ المناظر أوجَ كمالها. أما النصر فتتعدد على شخص المسيح أولاً ثم أعماله. ولكن هذه النصر الحقيقية تبدو دائماً في هيئة خذلان ظاهري: ألم، ذبح، دم، صليب، موت:

- «هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسّلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الحروف.» (رؤ ٧: ١٤)

- «وهم غلبوه بدم الحروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ ١٢: ١١)

- «ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض، الذي أحبنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه.» (رؤ ١: ٦و٥)

— «وستنظره كل عين والذين طعنوه وينوح عليه جميع قبائل الأرض. نعم آمين.»
(رؤيا: ٧)

— «لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك.» (رؤيا: ٩)

— «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.» (رؤيا: ١٢)

وفي كلا السفرين يكون ظهور مجد المسيح واستعلان قدرته وسلطانه من بعد امتحان وأزمة عنيفة ومحاكمة: «فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه (سفر خطايا العالم والقضايا المرفوعة من الشيطان ضد خطاة الأرض). فصرت أنا أبكي كثيراً لأنه لم يوجد أحد مستحقاً أن يفتح السفر ويقرأه ولا أن ينظر إليه. فقال لي واحد من الشيوخ: لا تَبْكِ، هوذا قد غَلَبَ (على الصليب) الأسد الذي من سبط يهوذا، أصل داود، ليفتح السفر ويفكّ ختمه السبعة.» (رؤيا: ٥: ٣-٥)

ويضطلع سفر الرؤيا بشرح تاريخي مثالي يحل فيه المجرى المأساوي لعدم الإيمان ومقاومة الحق حتى الموت، الذي يوازيه في إنجيل يوحنا مجمل الأصحاح الثامن، والذي ينتهي بالحقيقة السافرة لعدم إيمان اليهود ومقاومتهم وبغضتهم الشنيعة للمسيح حتى تدبير القتل: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذلك كان قتالاً للناس من البدء» (يو: ٨: ٤٤)؛ في مقابل سفر الرؤيا: «والتين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى وُلدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصاً من حديد واختُطف ولدها إلى الله وإلى عرشه.» (رؤيا: ١٢: ٥ و٤)

كذلك وبوضوح سافر: «أنا أعرف أعمالك وضيقك وفقرك مع أنك غني. وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤيا: ٩: ٢)

— «هأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، هأنذا أصيّرهم يأتون ويسجدون أمام رجلك ويعرفون أنني أنا أحببتك.» (رؤيا: ٩: ٣)

كذلك في كلا السفرين يعاني المؤمنون مرارة الإضطهاد والتشريد ولا منقذ، إلا بالتمسك بالإيمان وحفظ شهادة المسيح ووصاياه حتى الموت؛ ففي إنجيل يوحنا نقراً:

— «سُيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ، بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يَخْدُمُ اللَّهَ.»
(يو: ١٦: ٢)

— «إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يَبْغُضُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ... إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي
فَسَيُضْطَهَدُونَكُمْ.» (يو: ١٥: ١٨ و ٢٠)

— «اثْبُتُوا فِي مُحَبَّتِي. إِنْ حَفَظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مُحَبَّتِي.» (يو: ١٥: ٩ و ١٠)

— «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنْ حُزْنُكُمْ
يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ... فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمْ الْآنَ حُزْنٌ وَلَكِنْ سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ
فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ.» (يو: ١٦: ٢٠ و ٢٢)

وفي مقابل ذلك نقرأ في سفر الرؤيا:

— «فَغَضِبَ الثَّانِي عَلَى الْمَرْأَةِ (الْكَنِيسَةِ) وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْباً مَعَ بَاقِي نَسْلِهَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ
وَصَايَا اللَّهِ وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.» (رؤ: ١٢: ١٧)

— «هَنا صَبَرَ الْقُدِيسِينَ هَنا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللَّهِ وَإِيمَانَ يَسُوعَ.» (رؤ: ١٤: ١٢)

— «أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَتَعَبَكَ وَصَبْرَكَ وَأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَحْتَمِلَ الْأَشْرَارَ وَقَدْ جَرَّبْتَ
الْقَائِلِينَ أَنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلًا فَوَجَدْتَهُمْ كَاذِبِينَ وَقَدْ احْتَمَلْتَ، وَلَكِنَّ صَبْرًا، وَتَعَبْتَ مِنْ أَجْلِ
اسْمِي وَلَمْ تَكِلْ...»

لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به. هوذا إبليس مزعم أن يلقي بعضاً منكم في السجن
لكي تُجَرَّبُوا وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيقٌ... كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ... أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَأَيْنَ تَسْكُنُ حَيْثُ
كُرْسِي الشَّيْطَانِ وَأَنْتِ مَتَمَسِّكٌ بِاسْمِي وَلَمْ تَنْكُرِي إِيْمَانِي... مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ
الْحَلِيِّ وَأُعْطِيهِ حَصَاةَ بَيْضَاءَ وَعَلَى الْحَصَاةِ اسْمُ جَدِيدٍ.» (رؤ: ٢: ٢ و ٣ و ١٠ و ١٣ و ١٧)

٢ — وسفر الرؤيا كالإنجيل لا يغل فيهما القديس يوحنا الخصوصية التي لليهود الذين ابتدأ
منهم الخلاص للعالم كله «لأن الخلاص هو من اليهود» (يو: ٤: ٢٢). ولكن ينتهي بالخلاص لعمومية
العالم كله: «هوذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عين، والذين طعنوه (اليهود)، وينوح عليه جميع
قبائل الأرض» (رؤ: ١: ٧)؛ «فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة قد صارت ممالك العالم
لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الآبدين» (رؤ: ١١: ١٥)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء
الآن صار خلاص إلهنا وقدرته ومملكه وسلطان مسيحه.» (رؤ: ١٢: ١٠)

٣ - والملاحظ أن كلاً من إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا موثقٌ ومختومٌ بالشهادة، ليكونا على مستوى العمومية. وهي شهادة متعددة السلطة والسلطان، وعلى رأسها شهادة الرب يسوع نفسه لضمان خلاص كل من يتمسك بالمسيح والإنعتاق من غضب الله وهلاك الموت، الأمر الذي كفّله كلٌّ من الإنجيل وسفر الرؤيا بسخاء!

فتقرأ في مستهل سفر الرؤيا هكذا:

— «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبده ما لا بد أن يكون عن قريب وبيّنه مُرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا، الذي شهد بكلمة الله — وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه.» (رؤ١: ١ و٢)

— «كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.» (رؤ١: ٩)

— «اسجد لله، فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.» (رؤ١٩: ١٠)

أما إنجيل يوحنا فروح الشهادة فيه تغطي الإنجيل كله.

٤ - وفي سفر الرؤيا نرى أن التركيز على بشرية المسيح مع الشهادة «شهادة يسوع»، وهذا ما اختصره الإنجيل في الآية: «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٤)، يرتقي أيضاً إلى الاستعلان الصريح لبنوة المسيح لله: «هذا يقوله ابن الله» (رؤ٢: ١٨ — أنظر أيضاً رؤ٢: ٢٧ و٣: ٥). ثم من إعطائه «المجد والسلطان» للمسيح (رؤ٥: ١٣) على مستوى الله، جنباً إلى جنب مع «الجالس على العرش»، ينكشف شخص المسيح كما جاء في الإنجيل: «أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٣٠)

٥ - ومن روح سفر الرؤيا التي تتعلق بتجسد المسيح وظهوره الإنساني، تنبثق العلاقة القوية بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا والتي تقوم على تنازل الله وسكنائه مع الإنسان، كدليل مباشر على نجاح المسيح في أداء رسالة الفداء والمصالحة النهائية مع الله.

فكما نقرأ في إنجيل يوحنا: «أجاب يسوع وقال له إن أحببني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو١٤: ٢٣)؛ يرد عليه سفر الرؤيا بمطابقة فريدة: «هأنذا واقف على الباب وأقرع (القلوب المُحبّة) إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣: ٢٠)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم.» (رؤ٢١: ٣)

مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا:

بقدر ما يوجد بين السفرين من تطابق في الأفكار الهامة التي تحكم مسار المحتوى كله، إلا أنه توجد أيضاً مواضيع مواجهة عامة بين الإثنين نلخصها كالآتي:

١ - **موضوع المجيء الثاني:** في سفر الرؤيا نجد هو الموضوع الرئيسي، ولكن في إنجيل يوحنا لا يضعه في الوضع الرئيسي، بل يتلامس معه دون تركيز.

٢ - **الدينونة:** بقدر وضوح موضوع المجيء الثاني العلني في سفر الرؤيا، كذلك الدينونة، في حين أن إنجيل يوحنا يجعل من الدينونة عملاً روحياً حيث كل واحد يدين نفسه ويحاكمها على ضوء الإنجيل: «من ردني ولم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو ١٢: ٤٨). هذا بالنسبة لليوم الأخير، ولكن في مواضع أخرى يجعل الدينونة منفصلة عن الزمن: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو ٥: ٢٤)

أما في سفر الرؤيا فتأتي الدينونة واضحة: «ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء (انتهاء الزمن) ولم يوجد لهما موضع، ورأيت الأموات صفاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم. وسلم البحر الأموات الذين فيه وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيها ودينوا كل واحد بحسب أعماله.» (رؤ ١١: ١١-١٣)

٣ - **منظر الختام في سفر الرؤيا** سماء جديدة وأرض جديدة، أي تجديد العالم؛ في حين نجد إنجيل يوحنا يجعل الختام «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤: ٢). فلو انتبهنا لقول المسيح على الهيكل «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة...» (يو ٢: ١٦)، ثم قوله أيضاً على الهيكل: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو ٢: ١٩)، ثم التفسير الذي انتهى إليه التلاميذ لما قال المسيح: «وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو ٢: ٢١)، من هذا نستطيع أن نفهم أن «في بيت أبي منازل كثيرة» تعني الكنيسة السماوية، أي جسده، وحيث «المنازل» هي مقام كل عضو في جسد المسيح السري!

٤ - **النصرة والتغيير النهائي** في سفر الرؤيا نراها من الخارج، وبالقوة، وفي مضمون المستقبل الزمني ومصوّران بتصوير مادي، في حين يقدم إنجيل يوحنا النصر والتغيير اللذين يمارسهما المؤمن في الداخل بالروح وبتأثير روحي. وهما يتمان في الحاضر، حيث الحاضر الإلهي في المسيح هو استعلان

المستقبل بعينه، أي بمعنى آخر أن الخلاص والتغيير ونوال الحياة الأبدية كل هذا يتم منفصلاً عن الزمن.

٥ - الصراع بين الخير والشر: في سفر الرؤيا يمثل بمناظر عديدة، كمعركة مهولة بين المسيح وبين اليهودية الكاذبة، وعبادة الأوثان، والسلطة الرومانية الإمبراطورية المضطهدة، وكل حليف لها أو خليفة، كذلك وبالأكثر مع النبوة الكاذبة. في حين يقدمه إنجيل يوحنا على حقيقته كصدام خفي ولكن دائم بين النور والظلمة، وبين الحق والباطل، وبين البر والخطية.

٦ - أدوات الشر والباطل: في سفر الرؤيا وحوش وتنانين ذات مناظر مفزعة وكأنها أرواح متجسدة منظورة. في حين يقدمها الإنجيل في إطار روح التزييف، وتعاليم فاسدة، وشهوات الشر الداخلية.

٧ - أعمال الله: يقدمها سفر الرؤيا كحياة ملؤها الأحران والتعب، تتخللها الإنجازات والصراخ ليتدخل الله بالنقمة ويعطي النصر والسلام الدائم. في حين يقدم إنجيل يوحنا أعمال الله كلها متركزة في شخص المسيح، ومتعلقة به أساساً و كلياً، الذي عندما يفتقد قلب أحبائه بحضوره الإلهي يملأ الحياة فرحاً وسروراً ونعيماً في وسط أحران الدنيا دون أن يتأثروا بها.

٨ - شكل المسيحية وطبيعتها:

أ - إذا نظرناها في سفر الرؤيا بمنظار يهودي متنصر، أي من خلال جوزمانها، فإننا نرى الكنيسة بالخيال اليهودي الذي كان يشتهي أن يرى ويعيش زمن المسيا. فالكنيسة هي التكميل الضمني لنبوء العهد القديم، وخطوطها العريضة في العالم كمثال لإسرائيل الجديدة النموذجية الشاملة للعالم: «وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل سبط من بني إسرائيل...» (رؤ ٧: ٤)

وفيهما أورشليم الجديدة، وهيكلها الإلهي، عوض ما خربه الرومان: «مَنْ يَغْلِبْ، فَسَأَجْعَلُهُ عَمُوداً فِي هَيْكَلِ إِلَهِي وَلَا يَعُودُ يَخْرُجُ إِلَى خَارِجٍ (الطرد من المجمع)، وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلَهِي وَاسْمَ مَدِينَةِ إِلَهِي أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ إِلَهِي وَاسْمِي الْجَدِيدِ.» (رؤ ٣: ١٢)

— «لَمْ أَرَفِهَا هَيْكَلًا.» (رؤ ٢١: ٢٢)

أما العبادة فهي على مستوى الطهارة بالفكر اليهودي: «لأن خارجاً الكلاب (النجاسة) والسحرة والزناة والقتلة وعبيد الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً... ولا تكون لعنة في ما بعد.

وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه.» (رو ٢٢: ١٥ و ٣)

ب - فإذا رجعنا إلى إنجيل يوحنا ونظرنا إلى المسيحية فيه بنظر مسيحي صافٍ أي من خلال رؤية المؤمنين في زمان كتابة الإنجيل (سنة ١٠٠ م)، فالمسيحية يُنادى بها باعتبارها الحق المكمل الخالص؛ حيث تظهر اليهودية كعدوٍّ مقاوم لكلمة المسيح في العالم، كذلك تظهر معزولة عن المسيحية تماماً وخارجاً عنها، متعفئة، لا يُحسب لها حساب: «أجابوا (اليهود) وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع... أنتم من أب هو إبليس.» (يو ٨: ٣٩ و ٤٤)

٩ - النظرة إلى الله والتعبير عنه:

في سفر الرؤيا يُنظر إلى الله بنفس نظرة العهد القديم، فهو «القادر على كل شيء» (الكلي القدرة) «(رؤ ٨: ١)، «الكائن والذي كان» (رؤ ٨: ١ و ١٧: ١)، والذي يتمم دينونة عادلة على كل العالم (رؤ ١١: ١٨).

ولكن لا يذكر السفر شيئاً قط عن محبة الله، وإرساله لإبنه، ولكنه يذكر الروح والكنيسة: «الروح والعروس يقولان تعال» (رؤ ٢٢: ١٧).

في حين يستعلن إنجيل يوحنا الله في صفاته الجوهرية كآب وابن، ويستعلن عمل الله الآب فيما يخص محبته للعالم الخاطيء، كما يستعلن صلته السرية الدائمة بالعالم وغرضه من وجود العالم ونخطة الخلاص العظمى التي أضمرها الله منذ قبل إنشاء العالم. ويذكر الروح القدس بأسمائه وأعماله المتعددة.

١٠ - كما يوجد بين السفرين نقاط اختلاف واضحة في اللغة، سواء في الكلمات أو في الأسلوب. لذلك فالإختلاف بين وجهات النظر تزداد مع اختلاف اللغة.

ويلاحظ أن عدم انتظام الأسلوب في سفر الرؤيا لا يُنسب كثيراً للجهل باللغة، بقدر ما يُنسب إلى عدم التدقيق في اختيار الألفاظ. ويُعزى ذلك للغرائب والمفازع التي رآها القديس يوحنا، وفي نفس الوقت لا ننسى أن الكاتب يكتب بلغة غريبة عليه.

على أنه يمكن اعتبار إمكانية التغيير إلى الأفضل، إذا وضعنا في الحسبان فارق الزمن الطويل منذ بدأ الكاتب يخاطب القوم الذين يكتب بلغتهم؛ ونقصد الزمن من كتابة سفر الرؤيا إلى كتابة إنجيل يوحنا، بمعنى أن القديس يوحنا أتقن اللغة اليونانية بعد ما مكث في أفسس ما يزيد على ثلاثين سنة! لأن كتابة سفر الرؤيا تمت بحسب حسابات العلماء بعد خراب أورشليم والهيكل سنة

وبالرغم من أن كثيرين من العلماء يقطعون بعدم نسبة سفر الرؤيا للقديس يوحنا بصورة جازمة، يقف بعض من أشهر وألمع العلماء مثل «و. بوسيت» W. Bousset الذي كتب أعظم تفسير لسفر الرؤيا باللغة الألمانية، وكذلك «ر. ه. تشارلز» R.H. Charles الذي كتب مجلدين في حلقة I.C.C. للشرح باللغة الإنجليزية ويعتبر أكمل شرح ظهر في هذا الموضوع. وكلا المؤلفين يؤكدان أنه بالرغم من الاختلافات ذات القيمة في الأسلوب والمحتوى التي توحى باختلاف المؤلف في كل من الإنجيل وسفر الرؤيا، إلا أن التشابه بينهما في الجمل والتعاليم تُظهر أن هناك بالقطع علاقة كبيرة بين نفس كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا^(١).

ويقدم العالم الألماني المشهور «جوهانس فايز» نظريته التي تقول إن كتابة سفر الرؤيا والرسائل والإنجيل تمت من وسط حلقة خاصة بنفس الكتاب في نفس المكان ونفس الزمان تقريباً، ولها نفس التركيب الواحد!

هذه هي باختصار شديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا. ولكن هذه النقاط في الاختلاف والوفاق يمكن استقراء نتائج لها:

أ — فالاختلافات بين السفرين إنما تُعزى إلى اختلاف في ظروف كتابة كل منها. على أنه لا يوجد ثمة تناقض بينهما ما يمس شخصية الكاتب، أي أن الاختلاف ليس بالدرجة التي تنتهي بنا إلى القطع باختلاف شخصية الكاتبين. علماً بأن الكنيسة القبطية تؤمن أن كاتب سفر الرؤيا هو القديس الرسول يوحنا بن زبدي.

ب — بدراسة محتوى السفرين، يتضح أن كتابة سفر الرؤيا أقدم من كتابة إنجيل يوحنا، وهي أقل وضوحاً وأقل ترتيباً سواء في الفكر أو الأسلوب. ولكن موضوع سفر الرؤيا يحمل أفكاراً تقدمية عن زمن كتابة الأناجيل الثلاثة الأولى سواء في أسلوب الشرح أو الرموز الحية.

ومن المؤكد أن سفر الرؤيا كُتب بعد أن ختم القديس بولس الرسول رسائله، بل بعد استشهاد الحزين مع القديس بطرس الرسول.

كما نلاحظ أن سفر الرؤيا قريب من الرسالة إلى العبرانيين ورسالتى بطرس الرسول ورسالة يهوذا، التي فيها لا تزال المسيحية ماسكة بتلاميذ العهد القديم.

^١ Howard, W.F., op. cit., p. 14.

وأخيراً، وبينما نجد سفر الرؤيا يلجّ على سرعة مجيء الرب، كرسالتي بطرس الرسول، وذلك بسبب عنف الإضطهاد والضغط الذي كان واقعاً على الكنيسة آنئذ، نجد أن مجيء الرب في إنجيل يوحنا له معنى روحي واقعي في الحاضر المُعاش الآن. لهذا فإن إنجيل يوحنا يُعتبر أنه بمثابة الرّدّ الروحي على صراخ سفر الرؤيا. فإذ إنجيل يوحنا صَقَلَتْها السنين، وأضاءت لها الحوادث، فازدادت ثراءً وواقعية روحية بمرور الزمن.

وكان ضياع مركز الديانة اليهودية بتحطيم أورشليم والهيكل وتشريد اليهود، هو البداية الحاسمة المتألقة التي رَسَّخت أقدام المسيحية، وسار بها الروح على دروب العالم الواسع يرشد أقدام الرسل أينما ساروا إلى الحق كل الحق حسب الوعد.

وهكذا يقع سفر الرؤيا كحلقة ربط بين الأناجيل الثلاثة وإنجيل يوحنا، فتعاليم سفر الرؤيا عن المسيح وأعماله تُظهر نوع التقدم في الاستعلان الذي سار فيه السفر بعد الأناجيل الثلاثة. ومن الأوصاف الآتية يتضح للقارئ مدى التقدم في التعبير عن صفات المسيح وأعماله:

+ الأسد الغالب من سبط يهوذا، أصل وذُرِّيَّة داود، كوكب الصبح المنير: رؤ: ٥، رؤ: ٢٢: ١٦.

+ ذُبِح، مصلوب، مطعون، قام حيّاً من الأموات: رؤ: ١١: ٨ و ٩: ٥ و ١٧: ١ و ٥: ٥.

+ غسلنا بدمه من خطايانا، اشترانا بدمه لله: رؤ: ١: ٥ و ٩: ٥.

+ أعطانا الغلبة بدمه: رؤ: ١٢: ١١.

+ رُفِع في مجد وكرامة، وأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة: رؤ: ٥: ١٢.

+ شهادته هي روح النبوة: رؤ: ١٩: ١٠.

+ رئيس كهنة متمنطق على صدره: رؤ: ١٢: ١٢.

+ «ابن الله»، «كما أخذت أنا أيضاً من عند أبي» رؤ: ١٨: ٢ و ٢٧: ٢ و ٣: ٥.

+ ابن الإنسان: رؤ: ١٢: ١٢.

+ القدوس الحق: رؤ: ٣: ٧.

+ كلمة الله: رؤ: ١٩: ١٣.

+ ملك الملوك ورب الأرباب: رؤ: ١٧: ١٤.

+ الأجناد التي في السماوات يتبعونه (رب الجنود): رؤ: ١٩: ١٤.

+ الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: رؤ: ٨: ١ و ١٧: ١٧.

+ قائم مع الله في المجد والكرامة والسلطان: رؤ: ٥: ١٣.

+ صارت له مع الله كل ممالك العالم، وسيملك إلى أبد الأبدين: رؤ ١١: ١٥.

وهكذا يلاحظ القارئ أن سفر الرؤيا يعطي المسيح كل ألقاب الله في العهد القديم. وفي الوقت الذي تخلو فيه الثلاثة الأناجيل من أي ذكر للمسيح قبل تجسده، نجد سفر الرؤيا يعطي تلميحات بخصوص وجوده السابق للتجسد، فيصف المسيح:

١ - بالألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: ٨: ١ و ١٧: ١.

٢ - الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء: ٨: ١.

٣ - بداءة خلقة الله (العلة الأولى للخلق): ٣: ١٤.

٤ - كلمة الله: ١٩: ١٣.

وهذه هي الإرهاصات الأولى التي وُضعت خطوط إنجيل يوحنا على ضوءها. فالقديس يوحنا سمع بأذنه اسم ابن الله «الكلمة»، فلم يأخذها من غنوسيين أو غيرهم. وهكذا نتحسس بداية معرفة «اللوغس»، ولكن في غلاف من مفهومات وألقاب العهد القديم الخاصة بالله وحده. فإذا كان رسول ما قد استطاع أن يسمع ويرى «المعلم» الذي كان يتبعه كتلميذ بهذه الأوصاف كلها، ويُزید عليها أنه رأى القوات السماوية تعطيه الخضوع والولاء والعبادة والسجود وتتبعه، فلا يوجد أية صعوبة في فهم كيف ارتفع هذا الرسول والتلميذ الرائي - دون أن يأخذ الفكر البشري بالعنف بل في هودة وتودة روحية - ليرى الحقيقة في السر الأزلي الذي كان مخفياً، أي: «في البدء كان الكلمة... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده»!! (يو ١: ١ و ١٤)

وفي الختام، ومن دراسة الأناجيل الثلاثة وبعدها سفر الرؤيا ثم إنجيل يوحنا على التتابع، يظهر لنا بالتمام كيف استطاع الوحي الإلهي أن يرتفع بالفكر البشري تحت الظروف المواتية والمتتالية لكي يصل إلى إعلان ملء مجد المسيح ابن الله، ليس مرة واحدة ولكن خطوة خطوة، مستعيناً بتعاليم الأنبياء: «لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح وبمجده، بل قد كنا معانين عظمتة، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبتت التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن يتفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم.» (٢ بط ١: ١٦-١٩)

الفصل الثالث

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

ما هو الإنجيل وكيف نقرب إليه؟

«إنجيل» كلمة ليست عربية بل يونانية صرف: εὐαγγέλιον (إفانجيليُون)، وهي من

مقطعين:

الأول — εὖ يعني سار أو مفرح.

والثاني من كلمة ἀγγελία وتعني خبر أو رسالة أو بشارة. فباديء ذي بدء ينبغي أن نعلم أننا نتعامل مع إنجيل، أي مع الخبر السار أو البشارة المفرحة. فهو ليس مؤلف أدبي أو علمي أو تاريخي، بل رسالة خلاص مبهجة جاء بها المسيح معلناً عن كشف أو استعلان أو انفتاح طريق الخلود والحياة الأبدية وبدء زمان الأخرويات. «ما أجمل على الجبال قدمي المبشر المُخبر بالسلام، المبشر بالخير، المُخبر بالخلاص، εὐαγγελιζόμενος، القائل لصهيون: قد مَلَكَ إِلَهُكَ» (إش ٥٢: ٧). فالمبشر بالسلام وبالاخلاص يقول: قد مَلَكَ الإله!

ويسوع المسيح الذي في الأناجيل الثلاثة بَشَّرَ بإنجيل الله: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول قد كَمُلَ الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرا: ١٤ و ١٥). فالمسيح الذي بَشَّرَ بإنجيل «مُلْكُ الله»، استُعْلِنَ في النهاية أنه هو «إنجيل الله» كما يراه ويعلم به القديس بولس:

«بولس عبدٌ ليسوع المسيح، المدعوُّ رسولاً المُفَرَّزُ لإنجيل الله الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه...» (روا: ١ و ٢)

وكما تراه الكنيسة وتعيشه، فإنجيلها هو ربنا يسوع المسيح، الألف والياء فيه! فالمناداة بالكلمة الشفهية عن استعلان الخلاص الذي تم في المسيح وبه، التي قالها المسيح عن نفسه، كُتِبَتْ بعد

ذلك في كتاب هو الإنجيل، مسجلاً فيه كل ما قال المسيح وعمل، وبالدرجة الأولى موته وقيامته، حتى يقبله الناس ويؤمنوا به فيخلصوا.

فإذا أقدم العلم والعلماء ليفحصوا «الإنجيل» على مستوى كلماته وتراكيبه وحروفه وأسلوبه الأدبي فقط، دون أن ينتبهوا لمحتواه الروحي الأساسي، يكون العلم والعلماء قد عثروا عثرة بليغة تكاد تكون مميتة في فهم الإنجيليين وقصدتهم الذي كتبوا من أجله الأناجيل.

فهل أقدم الإنجيليون على تسجيل أناجيلهم بقصد سرد رواية حياة يسوع الناصري كسفر أخبار أيام وأقوال وأعمال فقط؟ هذا ما توهمه العلماء النقاد، وكان هو الباب الخاطيء الذي دخلوا منه فتاهوا وهم يبحثون عن صحة التواريخ وأوليات الكلام وأواخره، وأشكاله ومصادره، ومعقولة الحوادث وتصنيفها، وإخضاعها للمقابلات بين هذا الإنجيل وذاك.

وهكذا عندما بدأت المقارنات بين الأناجيل على المستوى التاريخي والحرفي واللفظي، ظهر في الحال إنجيل يوحنا أنه مخالف لبقية الأناجيل الثلاثة، فابتدأت تتسلط عليه أضواء النقد؛ واصطدموا حتماً، وبالضرورة، بالمفارقات والمتضادات بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل لأنهم سقطوا تحت مقتل الحرف: «الحرف يقتل» (٢ كو ٣: ٦)، وأما الروح فقلت من بين أيديهم وعقولهم المتصارعة مع الحق الإلهي المختبئ وراء الحرف المكتوب. وهكذا انطمست معالم التركيب الروحي العميق في الإنجيل أمام عقولهم، ليس في إنجيل يوحنا فحسب بل وكل الأناجيل.

تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى:

ليس من العسير على أي قارئ أن يلحظ الفارق في الرواية وإبراز شخصية المسيح، عندما يقرأ الأناجيل الثلاثة، ثم يدخل في قراءة إنجيل يوحنا.

فإنجيل يوحنا يوضح، بما لا يدعو إلى الشك، أن المسيحية فيه قد بلغت مرحلتها المتقدمة في الفكر، وأن الكنيسة دخلت دوراً حاسماً في التاريخ. فقد انقضى ما يقرب من ٥٠ سنة بين كتابة الأناجيل الثلاثة وكتابة إنجيل يوحنا^(١).

هذه النظرة من نحو الأناجيل، وتفوق إنجيل يوحنا عليها، أمر ثابت في التقليد الآبائي في شرح إنجيل يوحنا. وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[إن الأربعة الأناجيل، أو بالحري الأربعة الكتب التي للإنجيل الواحد؛ نرى فيها القديس

^١ Leon-Dufour, Xavier, The Gospel & History, p. 41.

يوحنا الرسول، ليس بعدم استحقاق من جهة معرفته الروحية يُمثل بالنسر الذي ارتفع بتعاليمه أعلى وأكثر سموًا من الثلاثة الأناجيل الأخرى. وارتفاعه بتعاليمه هذه (عظاته) رفع قلوبنا بالمثل. لأن الثلاثة الإنجيليين تمشوا مع الرب على مستوى الأرض كما مع إنسان، أما فيما يختص بلاهوته فلم يتكلموا إلا قليلاً. أما هذا الإنجيلي — يوحنا — فقد نأى عن الأرض والتمشي فيها، إذ أرعد علينا من عليّ منذ افتتاح حديثه، وحلّق مرتفعاً ليس فوق الأرض وكل دائرة الكون أرضاً وسهاً؛ بل وفوق جيوش الملائكة وكل طغيات القوات غير المنظورة، حتى أتى إلى مَنْ خلق العالمين. [٢]

وبالرغم من أن التقليد الكنسي يؤكد أن القديس يوحنا كان على دراية بالأناجيل الثلاثة وكتب إنجيله على هذا الأساس، إلا أن رأي العلماء المشهورين والمقتدرين في أبحاث الكتاب المقدس ومن دول كثيرة، استقر على أن إنجيل يوحنا مستقل تماماً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، بمعنى أنه لم يأخذ عن إنجيل آخر، وإن كان على دراية حتمية بالتقليد الرسولي الذي استخدمته الأناجيل الأربعة على السواء.

ومن العلماء المعتد بهم حديثاً مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ من الأناجيل الأخرى، مثل العالم المشهور Barrett C.K.، وخاصة من إنجيل مرقس، لأن هناك عدة حوادث وأحاديث جاءت بنفس ترتيبها هنا وهناك. ولكن انبرى له العالم Leon Morris (٣) سنة ١٩٧١م عميد جامعة ملبورن بأستراليا، وفنّد أقواله وبراهينه وأضعفت من حججه، ونقد جدولته الذي تعب فيه طويلاً، وأثبت صحة رأي العلماء القائلين باستقلال إنجيل يوحنا تماماً.

ونحن نرى — وبحسب التقليد القبطي الذي يقول أن القديس يوحنا هو كاتب سفر الرؤيا وإنجيله — أن انفراد إنجيل يوحنا عن باقي الأناجيل هو بسبب استلامه أموراً أكثر استعمالاً، خاصة فيما استلمه مباشرة من المسيح في الرؤيا. ومَنْ يدري ماذا أخذ بعد الرؤيا؟ وكان يجب أن يكون هذا واضحاً ومعلومًا عند الجميع.

ونحن لا نريد أن نقارن أيضاً أو نوفق بين الأربعة الأناجيل على مستوى الحرف، بل على مستوى الروح العميق.

² St. August., Hom. on Gosp. of St. John, tract. XXXVI.

³ Morris, Leon, The Gosp. accord. to St. John, p. 51.

ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل ، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا :

يأتي تشبيه ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل على شكل أمثلة من أمور الحياة الأرضية، فثلاً يُشَبَّه ملكوت السموات بحبة خردل، أو بشبكة ألقيت في البحر، أو بقمح زُرع وأخذ ينمو... إلخ. ثم ينتهي بنا إلى سؤال محير: وما هو ومن هو ملكوت الله؟

في إنجيل يوحنا يأتي بنفس التشبيه بعينه، ولكن ليس على «ملكوت الله» بل على «المسيح نفسه»!! فالمسيح يشَبَّه نفسه بأمور الحياة الأرضية: «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الكرمة»، أو يشَبَّه نفسه بحبة الحنطة، التي وقعت لتموت ثم تقوم وتنمو لتأتي بشمر كثير! (يو: ١٢: ٢٤). وواضح هنا أن إنجيل يوحنا يضع المسيح نفسه موضع ملكوت الله^(١) وهذا يشرح ما هو ملكوت الله الذي ركزت عليه الثلاثة الأناجيل!!

وهنا فهمنا أن ملكوت الله هو امتلاك الله للإنسان، ودخول الإنسان في مُلك الله، في شخص المسيح نفسه!!!

فتشبيه ملكوت الله بحبة خردل أخذت تنمو حتى صارت شجرة تتأوى فيها طيور السماء، هذا التشبيه وحده يحتاج إلى تفسير، فيأتي إنجيل يوحنا ويقول شارحاً ومُضيفاً الاستعلان المخفي في المثل، وهو المسيح نفسه! لأن حبة الخردل أو حبة الحنطة سيّان، يتحتم أن تقع لتموت أولاً ثم تقوم. وهنا يضع المسيح نفسه موضع هذه الحبة، فيُصلب ويموت ويُدفن في الأرض، ويقوم كشجرة كبيرة أو كنيسة، يملك عليها الله، أو كرمة حقيقية ذات أغصان تتأوى فيها طيور السماء أي أبناء الله، يأويهم المسيح في حضنه، أو كأعضاء في جسده يرعاهم ويعولهم!

هكذا يستطيع إنجيل يوحنا أن يعطي التفسير لكافة الأمثال التي جاءت في الثلاثة الأناجيل، على أساس أن التشبيه يقوم بالنسبة لشخص المسيح نفسه — فالمسيح أعطى بحياته وموته وقيامته ما يكفي لشرح كل ما يخص الإنسان في الحاضر والمستقبل. وليس من الصعب بعد أن فكّ القديس يوحنا في إنجيله الرمز في المثل، أن يعود القارئ ليشرح لنفسه كل أمثال المسيح.

بهذا يُعتبر إنجيل يوحنا — بسبب قوة الاستعلان الذاتي للمسيح فيه — شارحاً ومكملاً لكل ما جاء في الثلاثة الأناجيل مكوناً منها وحدة واحدة أو إنجيلاً واحداً. حتى إنه بدون إنجيل يوحنا، تبدو الثلاثة الأناجيل كسؤال يحتاج إلى حل!

(١) وهذا يتفق تماماً مع سمة إنجيل يوحنا في تسليط الضوء على شخص المسيح نفسه، في كل ما يتضمنه هذا الإنجيل من أحاديث وتعاليم ورموز ومعجزات. وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

المسيح في الأربعة الأناجيل :

الثلاثة الأناجيل الأولى أبرزت المسيح في صورته البشرية، أي أنها ركّزت على تأثس الإله، وطبعاً لم تُغفل لاهوته إذ هو مُعلن في معجزاته وقيامته.

فجاء إنجيل يوحنا وأبرز المسيح في صورته الإلهية، أي أنه ركّز على لاهوت المسيح ولم يُغفل الجسد أيضاً إذ أعلنه واضحاً: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا» (يو: ١٤: ١١)!!

ومن هذا الجدول البسيط الآتي لبعض المواقف يتبين، إلى حدّ ما، هذه المقابلة المكتملة لبعضها:

الثلاثة الأناجيل

[التركيز على الصورة البشرية]

إنجيل يوحنا

[التركيز على اللاهوت]

مت ١: ١ و ١٨: ١

،، ميلاد،، المسيح الجسدي:

+ «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود...».

+ «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا...».

يو ١: ١ و ١٤: ١

الميلاد الأزلي أو البنوة الأزلية على الأصح:

«في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله
وكان الكلمة الله» ... «والكلمة صار
جسداً».

لو ٢: ٥٢

«كان ،، يتقدم،، في الحكمة والقامة والنعمة
عند الله والناس».

يو ١: ١٤ و ١٦

«وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من
الآب مملوءاً نعمة وحقاً، ... ومن ملئه نحن جميعاً
أخذنا. ونعمة فوق نعمة».

مت ٩: ٢٧

معجزة الأعميين:

«تبعه أعميان يصرخان ويقولان: ارحنا يا ابن
داود».

يو ٧: ٣٥ و ٣٨-٣٩

معجزة المولود أعمى:

«فمضى واغتسل وأتى بصيراً... وقال له أتؤمن
«بإبن الله»... من هو يا سيد لأومن به؟... قد
رأيتك والذي يتكلم معك هو هو. فقال أومن يا
سيد، وسجد له».

كسر السبت والتشبيه بداود :

كسر السبت والتشبيه بالله الآب نفسه :

«فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل وياكلون. فالفريسيون ... قالوا ... لا يحل فعله في السبت. فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود... فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً».

«كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في السبت. فأجابهم يسوع أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل ... لم ينقض السبت فقط بل قال أيضاً أن الله أبوه معادلاً نفسه بالله».

مر ٦ : ١ : مت ١٣ : ٥٤

وطن المسيح الأرضي :

وطن المسيح السماوي :

«وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه تلاميذه».

«أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق؛ أنتم من هذا العالم أما أنا فليست من هذا العالم».

«ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجامعهم».

«الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر».

«خرجت من عند الآب، وقد أتيت إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب».

«ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

مت ٢٦ : ٣٦-٣٩

يو ١٧ : ١ و ٤ و ٥ و ١٨ : ٤

في مواجهة الصليب، مواجهة الجسد للموت :

في مواجهة الصليب، مواجهة اللاهوت للموت :

«اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك... وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت... اسهروا معي... وغرّ على وجهه وكان يصلي...».

«أيها الآب قد أتت الساعة. مجد ابنك نيمجدك ابنك أيضاً».

«أنا مجدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. والآن مجدني أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم».

«وخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه».

أمام بيلاطس : مجرد إنسان محتقر :
«إني لا أجد علة في هذا الإنسان» .
«فاحتقره هيرودس» .

أمام بيلاطس : ملك ومُلكه ليس من هذا العالم :
«ودعا يسوع وقال له أنت ملك اليهود؟...
أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم!...
فقال له بيلاطس أفأنت إذن ملك؟ ... أنت
تقول أني ملك . لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ
إلى العالم لأشهد للحق .

بعد القيامة : تحقيق صحة الجسد :

بعد القيامة : تحقيق لاهوت المسيح :

«قال لهم أعندكم ههنا طعام؟... فأخذ وأكل
قدامهم» .
«وأصعد إلى السماء» .
«أجاب توما وقال له : ربي وإلهي...» .
«إني أصعد إلى أبي» .

من هذه المقابلة، يتضح بأجلى بيان مقدار تركيز إنجيل يوحنا على استعلان لاهوت المسيح في جميع المواقف وعلى كافة المستويات، وكأنه يشرح الأناجيل الثلاثة قولاً على قول؛ هم يشهدون على تأنس الإله وكيف سلك كواحد من بني البشر، ويوحنا يشهد للاهوته الفائت كإله يسكن بين بني البشر^(٥). لهذا لم يكن في منهج القديس يوحنا أن يوقع حياة المسيح تاريخياً على دقائق الزمان وثوانيه، لأنه كان مشغولاً باستعلان الأزلية فيما يخص المسيح في لاهوته وفي علو مجده وأسراره، وبالنهاية انتهى إلى ما يقصده: «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله»!! (يو ٢٠: ٣١)

ولكي يأخذ القارئ فكرة خاطفة عن رؤية إنجيل يوحنا للمسيح اسمعه وهو يقول: «خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب»!! (يو ١٦: ٢٨)

فبالرغم من الخروج والمجيء والذهاب على مستوى الحركة الزمنية والمكانية، التي هي قصة

(٥) ويعلق على هذا العالم K.E. Schäfer بقلم شناكنبرج: [نحن نرى المسيح في إنجيل يوحنا من خلال شفافية واضحة، ... مثل الثلاثة الأناجيل أيضاً. والفكرة التي أعمت كثيرين من العلماء أن المسيح ظهر كإله فقط في إنجيل يوحنا وكأنسان فقط في الأناجيل الأخرى قد انتهت تماماً اليوم. وقد تأكدنا مرة أخرى أن المسيح الأناجيل الثلاثة حتى وفي إنجيل القديس مرقس هو أيضاً شخصية إلهية.] Cited by Schnack. op. cit. p. 14 n. 14.

الأناجيل الثلاثة المتحركة داخل إطار الزمن أي التاريخ، يبقى المسيح كما هو في إنجيل يوحنا: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يو: ١: ١٨)، «ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو: ٣: ١٣). وكأنما يتمجد الزمان إلى لحظة، ويتلاشى المكان من الرؤيا العينية، ليُستعلن المسيح ومكانته فوق الزمان والمكان – وبلغه سفر الرؤيا: «الكائن، والذي كان، والذي يأتي» (رؤ: ١: ٨)؛ «والحي، وكنتُ ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين.» (رؤ: ١: ١٨)

وهكذا نجد في الأناجيل الأربعة صورة للمسيح صحيحة متكاملة تماماً، ومن الأربعة الأناجيل يتكون منهج اللاهوت الكامل الذي دخلت فيه الكنيسة وعبرت به ثلاثة مجامع مهيبة وثلاثة قرون طويلة مع جهاد الإيمان الدامي، خرجت بعدها باستعلان وحدة الناسوت واللاهوت فصارت الكنيسة بلاهوتها التوحيدي ضامنة وحدة الأناجيل الأربعة، وصارت الأناجيل الأربعة ضامنة لكيان الكنيسة كمصدر لحياتها وبقائها.

ومن هنا وبالتالي، نرى التقليد الكنسي حارساً لصحة العقيدة ووحدة الأناجيل. فقد تسلمت الكنيسة القبطية من آباء الكنيسة العظام من بدء القديس اكليمنديس الإسكندري (١٥٠-٢١٥ م)، وهو تلميذ بنسنيوس مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية وقد خلفه عليها سنة ١٩٠ م، تسلمت منه هذا التسجيل الهام الذي وصلنا عن طريق كتاب: «تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري»:

[وفي ذلك الوقت كان يوحنا الرسول والإنجيلي الذي كان يسوع يحبه، لا يزال حياً في آسيا يدير كنائس ذلك الإقليم، إذ كان قد عاد من منفاه في الجزيرة بعد موت دوميتيان. واكليمنديس في كتابه المعنون: «كيف يتسنى للغني أن يخلص» يحدد الوقت (الذي عاد فيه يوحنا من منفاه) قائلاً: «لقد عاد من جزيرة بَطْمُس إلى أفسس بعد موت الطاغية» (أي دوميتيان سنة ٩٨ م).]^(٦)

[وأيضاً يقدم اكليمنديس تقليد الآباء الأولين عن ترتيب الأناجيل على الوجه التالي فيقول... وآخر الكل لما رأى يوحنا أن المظهر البشري τὰ σωματικόν قد استوفى في الأناجيل (الثلاثة)، لذلك أَلَفَ إنجيله الروحي πνευματικόν وذلك برجاء من أحبائه وباستنارة الروح القدس.]^(٧)

⁶ Euseb. E.H. III, 23,1,5,6.

⁷ Ibid. VI, 14,5-7.

باعتبار أن التلاميذ عبيد الرب وهو السيد الذي أرسلهم والذي غسل أرجلهم، ليكون هذا طقساً أبدياً للمرسلين، لا كبير فيهم ولا صغير. بل الكبير والسيد هو العبد والخادم.

والعجيب أن التقليد الذي يقدمه إنجيل لوقا ربط إتضاع الخدمة بعمل الإرسالية أيضاً؛ مما يوضح بلا شك أن المحور الأساسي الذي كان يقوم عليه تعليم الرب من جهة غسل الأرجل، كطقس إتضاع الخدام والمرسلين، مربوط أصلاً بالإرسالية.

٧ - يهوذا وليلة القبض:

لوقا ٢٢: ٣ «فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الإثني عشر».

يوحنا ١٣: ٢ «فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه».

لوقا ٢٢: ٥٣ «لكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة».

يوحنا ١٣: ٣٠ «فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً».

يوحنا ١٩: ١١ «لم يكن لك عليّ سلطان البتة».

يوحنا ٩: ٤ «يأتى ليلٌ حين لا يستطيع أحد أن يعمل...» (انتهاء عمل المسيح بظهور سلطان الظلمة).

يوحنا ١١: ١٠ «إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه» (سلطان الظلمة في غياب النور).

يوحنا ١٢: ٣٥ «فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (عدم الإيمان بالنور دخول في الظلمة).

لوقا ١٢: ٣٩ «اعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر...»

يوحنا ١٨: ٢ و٤ «وكان يهوذا مسلّمه (اللس الذي جاء لينقب دار المحبة) يعرف الموضع...»

«فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه (رب البيت الذي يعرف في أية ساعة سيأتي السارق...)».

٨ - إنكار بطرس: إنكار بطرس لثاني مرة ولثالث مرة ليس أمام جارية، كما جاء في إنجيل مرقس وإنجيل متى. وليس جزافاً أن يتفق إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا أن الإنكار الثاني والثالث كانا أمام رجل آخر وليس جارية.

يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل . ولما صار يوحنا يكتمل سَعْيَه جعل يقول مَنْ تظنون أَنِي أَنَا؟ لست أَنَا إِيَّاه . لكن هُوَذَا يَأْتِي بَعْدِي الَّذِي لست مستحقاً أَن أحلَّ حذاء قدميه . أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ بَنِي جَنَسِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ بَيْنَكُمْ يَتَّقُونَ اللَّهَ ، إِلَيْكُمْ أُرْسِلْتُ كَلِمَةً هَذَا الْخَلَّاصُ . لَأَنَّ السَّاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ وَرُؤَسَاءَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا هَذَا . وَأَقْوَالُ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُقْرَأُ كُلُّ سَبْتٍ تَمُمُوهَا إِذْ حَكَمُوا عَلَيْهِ . وَمَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا عِلَّةً وَاحِدَةً لِلْمَوْتِ طَلَبُوا مِنْ بِيلاطُسَ أَن يُقْتَلَ . وَلَمَّا تَمَمُوا كُلَّ مَا كُتِبَ عَنْهُ أَنْزَلُوهُ عَنِ الْخَشَبَةِ وَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِ . وَلَكِنْ اللَّهُ أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ . وَظَهَرَ أَيَّاماً كَثِيرَةً لِلَّذِينَ صَعَدُوا مَعَهُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى أُورُشَلِيمَ الَّذِينَ هُمْ شُهُودُهُ عِنْدَ الشَّعْبِ . وَنَحْنُ نُبَشِّرُكُمْ بِالْمَوْعِدِ الَّذِي صَارَ لآبَائِنَا .

ب — الأناجيل اهتمت بتاريخ المسيح قبل تاريخ ميلاده . فالقديس متى والقديس لوقا اهتمتا بذكر النسل الذي انحدر منه . فالأول أوصله إلى إبراهيم أب الآباء لأنه كتب لليهود ، والثاني أوصله إلى الله لأنه كتب للأمم أي كل العالم .

والقديس يوحنا تتبع ما قبل التاريخ ، ميلاده في السجلات السماوية عينا . وهكذا اشتركت الأناجيل في تسليط الضوء على ما قبل الميلاد أي التجسد ، كلٌّ من منظور رؤياه .

ج — المسار التاريخي المحقق والذي له القيمة الذاتية العظمى في الأناجيل الأربعة هو خط سير المسيح في كرازته من الجليل إلى أورشليم ، الذي يقدمه كل إنجيل من زاوية لاهوتية معينة تعطي له الصبغة التقليدية الحقيقية التي تقوم عليها رواية الإنجيل . هذا المسار عينه يقدمه إنجيل يوحنا مع تركيز شديد حسب وجهة نظر لاهوتية غاية في الحكمة وعمق المعنى والأصالة ، إذ يوضح في هذا المسار المرات العديدة التي صعد فيها إلى أورشليم لحضور كل الأعياد الرسمية ، التي إذا توقعت على الزمن أشارت إلى ثلاث سنوات كاملة في الخدمة ، وكانت هي الحَكَمُ الأعلى لحصر طول خدمة المسيح على الأرض . كما أوضحت ، من جهة أخرى ، القيمة الإلهية لبروز خدمة المسيح في أورشليم والهيكل التي سبق أن تركزت عليها كل النبوات بتكرار لا يمل .

د — طُبُوغرافية الأناجيل الأربعة موزعة بالتساوي على جميعها ما عدا إنجيل يوحنا ، إذ يقدم فوق التقليد الذي سارت عليه الثلاثة الأناجيل مواقع جديدة لمدن وقرى ومواقع وأسماء في فلسطين ذات أصالة وعراقة ، حقق مصداقية أسمائها ومواقعها بكل دقة علماء الآثار والبرديات الحديثة ، مما يشير إلى تقليد عريق ممتد قبل وبعد ما سجله الثلاثة الأناجيل . وهذا يجد ذاته أضاف إلى « الإنجيل » ، ككلٍّ ، مساحة جديدة لمعرفة أكثر وأدق تشمل التاريخ والجغرافيا وإضافات لحوادث وأعمال دخلت في حوزة الإنجيل ككل . ونلخصها في الآتي :

- ١ - بيت عُبْرَة عبر الأردن حيث كان المعمدان يعمد (٢٨:١)، (٤٠:١٠).
 - ٢ - بيت صيدا باعتبارها الجديد أنها وطن بطرس وأندراوس وفيلبس (٤٤:١).
 - ٣ - قانا الجليل حيث صنع الرب المعجزة الأولى (١:٢-١١)، كذلك معجزة شفاء خادم الملك (٤٦:٤-٥٤)، وباعتبارها وطن نشأته (٢:٢١).
 - ٤ - عين نون بقرب ساليم (٢٣:٣)، وهو موضع آخر من المواضع التي كان يعمد فيها المعمدان.
 - ٥ - بثر يعقوب في السامرة، وكذلك سوخار (٥:٤ و ١١ و ٣٩).
 - ٦ - بركة بيت حسدا والخمسة الأروقة في أورشليم (٢:٥).
 - ٧ - مدينة طبرية على بحيرة جنيسارت (١:٦ و ٢٣ و ٢١:١).
 - ٨ - بركة سلوام في أورشليم (٧:٩ و ١١).
 - ٩ - أفرام في بيرة (١١:٥٤).
 - ١٠ - جباثا أي الرصيف بقرب البريتوريم (١٧:١٩).
 - ١١ - قبر المسيح في بستان (٤١:١٩ و ٢٠:١٥).
- هـ - أضاف إنجيل يوحنا إلى خدمة المسيح في الثلاثة الأناجيل جزءاً هاماً للغاية لم يُذكر في الثلاثة الأناجيل، وهي خدمته المبكرة في اليهودية قبل ظهوره في الجليل، حيث يذكر فيها حوادث دقيقة غاية في الأهمية:
- ١ - البعثة الرسمية التي أرسلتها السلطات الدينية من أورشليم لاستجواب يوحنا المعمدان (يو: ١٩-٢٨).
 - ٢ - وصف يوحنا المعمدان لشخصه ورسالته وشهادته للمسيح (٢٩:١-٣٤).
 - ٣ - انضمام التلاميذ الأوائل للمسيح الذين انتقلوا من مدرسة يوحنا المعمدان ليلتحقوا بالمسيح، وذلك في (١:٣٥-٥١).
 - ٤ - ذكر المعجزة الأولى في عرس قانا الجليل وإظهار مجده (١:٢-١١).
 - ٥ - تطهير الهيكل في أورشليم في بداية خدمته (٢:٢-٢٢).
 - ٦ - الحديث مع نيقوديموس وتوضيح معنى المعمودية بالماء والروح ولزومها الحتمي (٣:١-١١).
 - ٧ - ممارسة التلاميذ لعمل العماد في اليهودية (٣:٢٢-٣٠).
 - ٨ - العودة إلى الجليل عبوراً بالسامرة (٤:١-٤٢).
 - ٩ - المعجزة الثانية في قانا الجليل (٤:٤٦-٥٤).

وهذه الأعمال كلها كانت تهدف إلى توضيح أسس الإيمان واستعلان المسيح بالكلمة والآية.

و - خطاب الوداع بعد العشاء بحجمه المطول الذي يشمل أسس العلاقات الوطيدة والحميمة مع أولاده ومحبيه، الذين أحبهم إلى المنتهى؛ حيث تتركز فيه كل الوصايا والنصائح التي جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. ويلاحظ أن مادة حديث الوداع في إنجيل يوحنا تأتي روحية أخروية مطروحة للإيمان والممارسة، مع وعد أكيد بإرسال الروح القدس، وهي تقابل في المكان من رواية الإنجيل عامة حديث المسيح الخاص لتلاميذه في الثلاثة الأناجيل الأخرى عن علامات الأزمنة الأخيرة (الأخرويات) في صورتها الزمنية الأرضية وتكوين صورة لمجتمع التلاميذ بعد انطلاق الرب.

ز - صلاة المسيح بنبرة رئيس كهنة أعظم يتشفع وكأنه قائم في الأقداس العليا بيهيته الملكية؛ وهي مزدوجة بصور لاهوتية للعلائق التي تربط الآب بالإبن وبالكنيسة.

ح - تحويل خط المعجزات في الثلاثة الأناجيل من الصورة الإعجازية، كحوادث خارقة للعادة يُستدلُّ منها ضمناً أن أصبح الله فيها، إلى آيات في إنجيل يوحنا تشير بالتعليم الذي يرافقها إلى شخص المسيح لإستعلان لاهوته وإرسالته مباشرة. فالهدف واحد ولكن عرض المعجزات وشرحها يختلف. والاختلاف ينتهي إلى ائتلاف في النهاية لخدمة معنى الإنجيل.

ط - أخيراً، الأسرار التي حددتها الأناجيل بصورتها الليتورجية العملية المصوّرة بالحركة أخذها إنجيل يوحنا كما هي دون الناحية العملية، وشرحها على المستوى اللاهوتي.

التقابل بين إنجيل القديس يوحنا ،
وكل من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا :

أولاً: التقابل بين إنجيل القديس يوحنا وإنجيل القديس مرقس: (١٠)
أ - التقابل في المواضع والتحركات :

إنجيل القديس مرقس

إنجيل القديس يوحنا

٨ : ٤ - ٨	عمل المعمدان وشهادته : ١٩ : ١ - ٣٦
١٤ : ١	مغادرة اليهودية والذهاب إلى الجليل : ٤ - ٣
٤٤ : ٣٤ - ٤٤	إطعام الجموع : ٦ : ١ - ١٣
٥٢ : ٤٥ - ٥٢	السير على الماء : ٦ : ١٦ - ٢١
٢٩ : ٨	إعتراف بطرس : ٦ : ٦٨ و ٦٩
٤٦ و ٣٢ و ١ : ١٠ و ٣٠ : ٩	مغادرة الجليل نحو أورشليم : ٧ : ١٠ - ١٤
٩ : ٣ - ١٤ و ١٠ : ١ - ١١	دخول أورشليم والدهن بالطيب : ١٢ : ١٢ - ١٥
	و ١٢ : ١ - ٨
٢٦ : ١٧ - ٢٦	العشاء الأخير والتنبؤ بالتسليم : ١٣ : ١ و ١٧ : ٢٦
٥٢ : ٤٣ - ٥٢	القبض : ١٨ : ١ - ١١
٨ : ١٦ - ٥٣ : ١٤	الآلام والقيامة : ١٨ : ١٢ - ٢٠ : ٢٩

ب - التقابل في الألفاظ التي باليونانية بصورة حرفية :

١ : ٢٧ : « هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي
الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » .
١ : ٧ : « وكان يكرز قائلاً : يأتي بعدي من هو أقوى
مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور
حذائه » .

¹⁰ Barrett, C.K., The Gospel Acc. to St. John, pp. 34,35,36.

«أنا أعمد بماء».

«أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس».

«رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه».

«وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه».

«فهذا هو الذي يعمدكم بالروح القدس».

«وكان صوت من السموات: أنت ابني الحبيب الذي سررت به».

«وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله».

«أجابه فيلبس: لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً».

«أعطوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له أنمضي ونبتاع خبزاً بمئتي دينار ونعطيهم ليأكلوا».

«هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان».

«كم رغبوا عندكم. اذهبوا وانظروا ولما علموا قالوا خمسة وسمكتان».

«إجعلوا الناس يتكئون وكان في المكان عشب كثير».

«فأمرهم أن يجعلوا الجمع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر».

«فجمعوا وملاؤا اثني عشر قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين».

«ثم رفعوا من الكسر اثني عشر قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل».

«فقال لهم: أنا هولا تخافوا».

«فللوقت كلمهم وقال لهم: ثقوا. أنا هولا تخافوا».

«فأجابه سمعان بطرس: ... ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

«وأنتم من تقولون إني أنا؟

فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح».

«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون: أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل.»

«فأخذت مريم مناً من طيب نارددين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها.»

«لماذا لم يُبَع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعْطى للفقراء.»

«لأن الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين.»

«ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم أن واحداً منكم سببني.»

«الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات.»

«ثم أن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله «فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. رئيس الكهنة فقطع أذنه». وكان اسم العبد ملخس».

«وكتب بيلاطس عنواناً ووضعه على الصليب «وكان عنوان علته مكتوباً ملك اليهود». وكان مكتوباً يسوع الناصري ملك اليهود».

وتعليق العالم شناكنبرج على هذا التوافق في المواضع والمواضع، وفي الحوادث والأحداث في كل من إنجيل القديس مرقس والقديس يوحنا، وأيضاً في التشابه الحرفي واللفظي في الآيات، يقول إنه يُحتمل جداً أن يكون القديس يوحنا قد اطلع مباشرة على أقوال مختصرة من إنجيل مرقس وأعاد صياغة الكلام، أو ربما يكون قد بلغه مجمل التقليد الذي ينسب للقديس مرقس بواسطة السماع فقط، أو ربما يكون هناك مصدر واحد مختصر أخذ منه الجميع، كلٌّ بقدر وعيه ولفته وأسلوبه، مما أنشأ بعض الاختلافات. ولكننا نظلم النصوص إذا قلنا إن القديس يوحنا كان عنده النص الحرفي لإنجيل مرقس. (١١)

ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا:

إن الصلة الوثيقة بين الإنجيلين تدعونا هنا لمزيد من الاهتمام أيضاً.

١ - السؤال الذي كان قد حير الشعب في البداية: هل يوحنا المعمدان هو المسيح؟

لوقا ٣: ١٥ «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح؟»

يو ١٩: ٢٠ «وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم ينكر وأقرّاني لست أنا المسيح».

٢ - صيد السمك الوفير: حيث يذكر لوقا وحده هذه الحادثة، ولكن في بدء الخدمة:

لوقا ٥: ١-١١ «يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك التي الشبكة، ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق».

يوحنا ١: ٢١-١٩ : «وفي تلك الليلة لم يحسكوا شيئاً. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ... فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرّون أن يجذبوها من كثرة السمك».

٣ - دهان الطيب: في إنجيل مرقس ومتى يوصف الدهان أنه للرأس، ولكن إنجيل لوقا يتفق هنا مع إنجيل يوحنا في نفس التقليد بالنسبة لدهن الرجلين:
لوقا ٧: ٣٦-٥٠ : «وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنه متكئ في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنها بالطيب».

يوحنا ١٢: ٣ : «فأخذت مريم مناً من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها».

٤ - أختنا بيت عنيا: خادمة مرثا؛ وقعود مريم.
لوقا ١٠: ٣٨-٤٢ : «وفيا هم سائرون، دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم، التي جلست عند قدمي يسوع، وكانت تسمع كلامه. وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة فوقفت، وقالت: يا رب أما تُبالي، فإن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني. فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها».

يوحنا ١٢: ٢ و٣ : «فصنعوا له هناك عشاء. وكانت مرثا تخدم، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه. فأخذت مريم مناً من طيب ناردين...»

٥ - دخول أورشليم: اتفاق كل من إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا في ذكر الهمّات بالمسيح «كملك»، وذكر الفريسيين فقط:

لوقا ١٩: ٣٨ و٣٩ : «مبارك الملك الآتي باسم الرب. سلام في السماء ومجد في الأعالي».

«وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم انتهر تلاميذك».

يوحنا ١٢: ١٣ و١٩ : «وكانوا يصرخون: أوصيّا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».

«فقال الفريسيون بعضهم لبعض: أنظروا إنكم لا تنفَعون شيئاً؛ هوذا

٦ - على العشاء الأخير: حيث يعطي إنجيل لوقا بعض الكلمات التي تكشف عن وجود حديث مطول لم يسجل (إلا في إنجيل يوحنا):

لوقا ٢٢: ٢٤-٢٨: «وكانت بينهم مشاجرة من منهم يُظن أنه يكون أكبر (بطرس أم يهوذا)» .

«وأما أنتم فليس هكذا. بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم» .

«لأن من هو الأكبر؟ الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ ولكن أنا بينكم كالذي يخدم» .

يوحنا ١٣: ٤-١٤: «وابتداً يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان مئزرأ بها. فجاء إلى سمعان بطرس...» .

قوله هنا فجاء إلى سمعان بطرس يكشف أن أحد التلاميذ سبق بطرس! هل هو يهوذا؟ غالباً. وهل المشاجرة على من يجلس بجوار الرب على العشاء كانت بينهما؟ غالباً. فلما صمم يهوذا أن يغسل أولاً، وغسل، وهذا لم يرق للمسيح، قال تعليمه عن من ينبغي أن يكون الأول، ومن السيد. وكذلك لم يعجب بطرس الذي أراد أن يُظهر بجاجة يهوذا، فلما جاء عليه الدور بعد يهوذا رفض أن يغسله المعلم لإظهار الالتزام بالإلتضاع تجاه المعلم والرب.

وبعد أن غسل الرب أرجلهم جاء دور التوبيخ: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم (كتلاميذ ومرسلين) أن يغسل بعضكم أرجل بعض...» هنا كلمة «أتفهمون» موجهة للمتشاجرين سواء ليلة العشاء أو في القرن العشرين، من رؤساء كراس وطوائف وملل. وهي توضح أنه إنما يقدم درساً عملياً لخطأ حدث وهو المشاجرة، والتي أمسك القديس يوحنا عن ذكرها حسب خط الفكر الإنجيلي السائر عليه أن لا يُظهر عيوب التلاميذ.

لوقا ٢٢: ٣٥: «حينما أرسلتكم بلا كيس ولا مزود هل أعوزكم شيء» .

يوحنا ١٣: ١٦: «الحق الحق أقول لكم أنه ليس ... رسول أعظم من مُرسله...» .

وواضح هنا أن خدمة غسل الأرجل ارتبطت بالإرسالية وطقس المرسلين. والمسيح أعطاهم مثلاً لخضوع بعضهم لبعض في عمل الإرسالية، إذ وهو الذي أرسلهم وسيرسلهم، غسل أرجلهم

لوقا ٢٢: ٥٨-٦٠: «وبعد قليل رآه آخر وقال: أنت منهم فقال بطرس: يا إنسان لست أنا».

«ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً بالحق هذا أيضاً كان معه لأنه جليلي أيضاً فقال بطرس: يا إنسان لست أعرف ما تقول».

يوحنا ١٨: ١٨ و ٢٥-٢٧:

«وكان العبيد والخدّام واقفين وهم قد أضرموا جراً لأنه كان برّذ...».

«وسمعان بطرس كان واقفاً يصطلي فقالوا له: ألسنت أنت أيضاً من تلاميذه. فأنكر ذلك وقال: لست أنا. قال واحد من عبيد رئيس الكهنة، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه: أما رأيتك أنا معه في البستان؛ فأنكر بطرس...».

٩ — المحاكمة أمام بيلاطس: ليس أمراً بسيطاً أن يقرر كل من الإنجيليين القديسين لوقا ويوحنا أن الوالي الروماني أعلن ثلاث مرات أن يسوع كان بريئاً، وأن الشعب (كما في الإنجيلين)، وليس الرؤساء، كانوا في موضع المسؤولية الظاهرة. كما يتضح من الإنجيلين أنه ليست هناك ملامة على الوالي الروماني، أكثر مما هو واضح في كل من إنجيل متى وإنجيل مرقس.

لوقا ٢٣: ٤ و ١٤ و ١٥ و ٢٠ و ٢٢:

«فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجمع: إني لا أجد علّة في هذا الإنسان».

«وقال لهم: قد قدمتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علّة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً».

«فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع...».

«فقال لهم ثالثة: فأأي شر عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علّة للموت».

«ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم: أنا لست أجد فيه علّة واحدة».

يوحنا ١٨: ٣٨:

«فخرج بيلاطس أيضاً خارجاً وقال لهم: أنا أخرجكم إليكم لتعلموا أنني

لست أجد فيه علّة واحدة».

«قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واصلبوه لأنني لست أجد فيه علّة».

١٠ - الآلام: هنا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا في كونها لم يذكر شرب الخل لإحداث تخدير لرفع المعاناة الشديدة والآلام. وذلك بعكس إنجيل متى وإنجيل مرقس.

١١ - إرسال الروح القدس:

لوقا ٢٤: ٤٩: «وها أنا أُرسل إليكم موعِد أبي. فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأَعالي.»

يوحنا ١٥: ٢٦: «ومتى جاء المعزّي (الباراكليت) الذي سأُرسله إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي.»

ويعلّق العالم شناكنبرج على هذا التوافق الشديد بين تقليد الإنجيل في إنجيل لوقا وفي إنجيل يوحنا، ويقول:

[ليس من السهل أن يتجاهل الإنسان هذا التوافق الذي يربط بين الإنجيلين في موضوع التقليد وتاريخه. ولكنه ليس بالدرجة التي تجعلنا نقرر أن القديس يوحنا كان أمامه إنجيل لوقا أو رجع إليه في تدوين إنجيله، كما يقول العالم باريت Barrett والعالم لي Lee، ولا حتى يجوز أن نتصور أن يوحنا قابل لوقا واستقى منه شيئاً من مراجعته، ثم استعادها بالذاكرة كما يقول كوميل Kümmel].

ولكن من المعقول أن نقول إن القديس لوقا رجع إلى المصادر التي لها دراية بما يعرفه القديس يوحنا أو إلى نفس القديس يوحنا، ولكن ليس العكس؛ خاصة وأن القديس لوقا أعلن في إنجيله أنه استقى معلوماته من الذين «كانوا معاً حينئذٍ ونُحَدِّثُهم للكلمة»؛ خاصة وأن رواية الميلاد بكل أسرارها ودقائقها تكشف ببيان عن أن القديسة العذراء مريم كانت وراء هذه البيانات السرية والخطيرة. ومعروف أن القديسة مريم كانت تعيش مع القديس يوحنا.

مجلد الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة علاقة إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى:

١ - كون القديس يوحنا اعتمد في تدوين إنجيله على نصوص الثلاثة الأناجيل، فهذا أمر غير محتمل.

٢ - التقابل الوارد بين إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس يوحنا في مواضع متعددة، يطرح احتمال إطلاع القديس يوحنا على نصوص أولى من التقليد الذي اعتمد عليه القديس مرقس في تدوين إنجيله.

٣ - التقابل الوارد بين إنجيل القديس لوقا وإنجيل القديس يوحنا، لا يوحى قطعاً باحتمال إطلاع القديس يوحنا على نصوص كتابية للقديس لوقا، ولكن التقابل بينها يشرحه وحدة التقليد الذي اعتمد عليه كلٌ منهما، وتقليد القديس يوحنا يبدو أسبق تاريخياً في بعض النواحي من تقليد بقية الأناجيل.

٤ - تقليد القديس يوحنا على وجه العموم يبدو فريداً، حرّاً، لا يعتمد على ما ورد في الإنجيل الثلاثة.

٥ - إنجيل القديس يوحنا لا يُصدر أحكاماً، لا ضمنياً ولا من قريب أو من بعيد، على ما ورد في الأناجيل الثلاثة.

٦ - كذلك فإنجيل يوحنا له أسلوبه المنفرد به وطريقته في عرض مواضيعه وحوادثه، ولا يظهر منه أي بادرة تثبت أنه يصحح ما ورد في الأناجيل الأخرى أو يحل محله.

٧ - كون إنجيل يوحنا على دراية بالتقليد سواء شفاهياً أو على هيئة نصوص متفرقة - والذي استقت منه الأناجيل الثلاثة موادها - أمر وارد، بل وواضح أن إنجيل يوحنا يفترض في قرائه وسامعيه أنهم على دراية بكل ما جاء في التقليد القديم والذي انتشر عن طريق الكرازة في كل الأنحاء، وصار معروفاً ومحفوظاً ومدرّساً لدى كل الخدام والوعاظ والمبشرين؛ سواء من دقائق سر العمداد أو سر الإفخارستيا أو خدمة الكنيسة، أي الليتورجيات أو قوانين الرسل من جهة السلوك ووصايا الإيمان. بل وإن الجميع يعرف عن معجزات المسيح أكثر مما أورده هو في إنجيله.

وكان للقديس يوحنا ملاحظات على أسس الإيمان والتعليم السائد في الكنائس عن حياة المسيح، وهي التي أنارت روحه حتى وجد أنه قد وُضع عليه، بل تحتم، أن يكتب إنجيله، حتى يجعل هذه الأسس عينها التي للإيمان أكثر عمقاً وتجذراً في الحق والحياة الأبدية، وأن تكون ذات معرفة لاهوتية مكشوفة وقوية بالرب.

٨ - من جهة الروايات التصويرية لحياة المسيح وتحركاته وأقواله وأمثاله الحيّة المبدعة التي تغطي كل أحوال الناس وحياتهم وأفكارهم وسلوكهم وهمومهم وآمالهم، فإن إنجيل يوحنا يبدو فيها مقسّطاً جداً عن الأناجيل الأخرى، بل ومختصراً وملتزماً وحذراً أشد الحذر عن بقية الأناجيل الثلاثة التي انطلقت على سجيّة الفكر تروي بلا حذر وبلا هدف محدد مسبقاً عمّا رأت وسمعت وتركت للقارئ أن يستخلص لنفسه ما ينفعه.

ولكن إنجيل يوحنا يعطي معلومات لاهوتية جد خطيرة وكثيرة، بل ووفيرة، أكثر من كل الأناجيل الثلاثة مجتمعة، أحكم القديس يوحنا حبكها بالروح على مستوى الرواية والتاريخ. ولكن أي رواية وأي تاريخ؟ رواية كسّهم من النور خاطف ومصوّب لقلب القارىء، لا يلوي يميناً أو يساراً حتى يصيب هدفه الذي وُضع الإنجيل كله من أجله: لاهوت المسيح! بل إن إنجيل يوحنا صاغ الروايات الأخرى صياغة في قالب لاهوتي، لا تُقرأ إلا على مستوى الرؤية الأعلى والهدف الأسمى، سواء حينما طرح رواية المعمدان وشهاداته، أو حينما عرض للآلام وأنيها ومعانيها، أو لقيمة الصليب ومجد المصلوب عليه في اليوم والساعة حيث وحين كان يُذبح الحروف تماماً!

٩ — إنجيل يوحنا يطرح أمام القارىء الباحث تقليداً رسولياً موازياً لما جاء في الثلاثة الأناجيل، يحمل رسوخاً في الأصالة وفي الأقدمية الزمنية، يضارع الثلاثة الأناجيل ويحملها على كتفيه. فهو يقدم خدمة المسيح في اليهودية قبل خدمة الجليل من الأصحاح الأول وحتى الثالث، وبعد الجليل من الأصحاح السابع حتى الحادي عشر، في حين اقتصرَت الأناجيل الثلاثة على خدمة المسيح في الجليل فقط وانشغلت بها حتى الصليب.

ويركّز إنجيل يوحنا على أعياد اليهود جميعاً في هيكل أورشليم حيث يحضرها المسيح جميعها، ويخصها بالمعاني الإلهية الجديدة التي أعطت للمهد الجديد جدّته. ففي عيد المظال تذكّار التيه والصخرة والماء، حين يحتفل اليهود بذكرى الماء، فيقف المسيح في الهيكل وينادي: «إن عطش أحد فليُقبل إليّ ويشرب. مَنْ آمَن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح...» (يو: ٧: ٣٧-٣٩). ولما جاء ميّعاد إيقاد المنارتين العظيمتين في بيت النساء — وهذا تذكّار لعمود النور الذي كان يرافقهم في ليل التيه — وقف المسيح قائلاً: «أنا هو نور العالم مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو: ٨: ١٢)

وفي عيد الفصح وفي بكور خدمته دخل الهيكل، «ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً...» (يو: ٢: ١٤)، «طرد... الغنم والبقر وكبّ دراهم الصيارف وقلب مواثدhem. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من ههنا» (يو: ٢: ١٥ و١٦). فقد انتهى عهد الذبائح جميعاً، والخلاص لم يَعدْ بذهب ولا فضة!!.

وهكذا تعقّب إنجيل يوحنا فصول القصة والرواية يستخلص منها الجوهر — πνευματικόν — بعد أن استنفذت الأناجيل الأخرى جمال المظهر — σωματικόν (١٢) — وهذا واضح غاية

(١٢) راجع ص ٢١ وهو اقتباس يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة لتقليد كليمنس الإسكندري عن الدافع لكتابة إنجيل يوحنا.

أ - قصة الخمس الخبزات (١٣) والسكتين، فبعد أن عرضتها الأناجيل الثلاثة في أسلوبها القصصي الإعجازي المبدع، أخذها إنجيل يوحنا كما هي ليعرض عليها شرح حقيقة الخبز الحي النازل من السماء، أساساً ومنطوقاً للإفخارستيا بكل أسرار لاهوتها ومفهومها الروحي!! وهكذا قدم إنجيل يوحنا التقليد الرسولي عينه مقروءاً على مستوى العقيدة والإيمان والحق والحياة. له صيغة القدم التي للتاريخ وجذوة الروح التي للحياة.

ب - في قصة تفتيح عيني الأعمى، التي جاءت مثيلاتها في الثلاثة الأناجيل كقصة إعجاز لرحمة الله على يدي المسيح، يأخذها القديس يوحنا ويوضح أن المولود أعمى إشارة إلى احتجاب نور المسيح عن المولودين من الرحم، ثم يقول المسيح للأعمى: اذهب اغتسل في بركة سلوام، حيث تأتي كلمة «اغتسل» بمعنى العماد في اللغة اليونانية، هنا تبدأ قصة الأعمى لتهدف إلى كشف سر المعمودية. ثم يقول الإنجيل أنه أتى بصيراً، ليشير إلى موهبة الإستنارة، ليدخل هذا الإصطلاح في علم لاهوت الأسرار في الكنيسة في وصف العماد.

ولكن إنجيل يوحنا لا يكتفي بالعماد فقط ليكون وحده فعل استنارة حقيقياً، لذلك يبحث عنه المسيح فيجده في الهيكل (عابداً) فيقول له: هل تؤمن يا بن الله؟ ويعرفه المسيح بنفسه فيؤمن، ثم يسجد سجوداً حقيقياً، وهكذا يضع الإنجيل الإيمان ختماً للمعمودية حتماً، والسجود فعلاً ملازماً ضرورياً.

فانظر، أيها القارئ، كيف يضع إنجيل يوحنا اللمسات الروحية واللاهوتية والإيمانية والعبادية في القصة التي وردت في الثلاثة الأناجيل كمجرد معجزة، ليشرع بها ومنها قانون الإيمان بالأسرار والعبادة للكنيسة على ممر الدهور.

ج - وإذا أخذنا حديث الرب مع نيقوديموس «معلم الناموس لإسرائيل»، نرى كيف يكمل إنجيل يوحنا توضيح قوة سر العماد في معناه اللاهوتي والخلاصي، كحتمية لا مناص منها لرؤية ملكوت السموات والدخول إليه، فالعماد هنا على مستوى «الميلاد الثاني» للإنسان ليصير الإنسان

(١٣) ولا تزال الكنيسة القبطية تحتفظ ضمن ممارستها للإفخارستيا بعدد «الخمس الخبزات» في تقديم الحمل، إشارة وتحقيقاً لسر الإفخارستيا في هذا الرقم الذي يشير إشارات مبدعة إلى مجيء المسيح من صلب الخمسة الأسفار لتوراة العهد القديم، وإلى مجيء المسيح بعد خمسة آلاف سنة من عناء بني آدم بعد خروج أبيهم آدم من لدن الله مطروداً، وإلى اكتمال أجيال غضب الله على بني العصاة «لا تسجد لمن ولا تعبدن لأنني أنا الرب إلهك إله غيور أفقتد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضتي» (خر ٢٠: ٥)، ففي المسيح وبه أشرق الجيل الخامس جيل الإحسان ومحبة الله.

بواسطته طفلاً مرة ثانية مبرراً بالروح، « كخليقة جديدة » بحد ذاتها، كما من آدم ثانٍ بفعل الروح القدس - روح الله، وليصير إنساناً روحياً بعد التراخي ليرث مُلك الحياة الأبدية مع الله. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد شرح الموقفين معاً (الحديث مع نيقوديموس ومعجزة المولود أعمى)، مُشتعلين فيها ومنها سر حضور المسيح كنور، وسر فعل المسيح الخلاصي كولادة، وسر الروح للخلقة، كل ذلك مكنوزاً ومختوماً عليه في سر المعمودية.

١٠ - إن كل اختلاف عثر عليه النقاد بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى هو اختلاف في الحرف، يحثمه الأسلوب الأدبي وقصد الراوي. ولكنه هو هو بعينه ائتلاف بالروح ما بعده ائتلاف، ولكن إذا قُرئ بالروح وليس على مسطرة التاريخ!

ويصور العالم شنا كنبرج صورة بديعة لإنجيل يوحنا بقوله:

[إن الموضوع الأساسي عند يوحنا الذي أخذه على نفسه بشجاعة وجراءة هو: أن يضع الحدود والمعالم الواضحة لشخصية المسيح المهيبة، الذي أتى بالخلاص واستعلن لنا آفاق الخلود؛ وأن يكشف عن بهاء مجد الكلمة اللوغمس من واقع حياته على الأرض وحلوله بيننا؛ وأن يوضح أهمية حوادث الخلاص الذي تمّ والدائم كما هو إلى الأبد، والذي كان قد اختزنه لنا الماضي؛ وأن يسجل لنا الكلمات التي قالها مرة ابن الله عندما دخل إلى العالم، لكي تُسمع بعد ذلك بلا انقطاع. وتبقى كما هي مُلحة تفرض ذاتها. وكان هاجس يوحنا الأوحى أن يُعرف يسوع بين الناس أنه هو المسيح الحاضر في جماعته، سواء في الكلمة الملقاة على الأسماع أو في العبادة أو الأسرار.

وكان اشتياق يوحنا الذي كان يبثّه بالروح القدس حسب وعد المسيح، أن يربط ويوثق زمن المسيح وأيامه بأيام الروح القدس (التي نعيهاها): «وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية؛ ذاك يمجّدي لأنه يأخذ مما لي ويخبركم... ويدّكركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٦: ١٣ و١٤ - ٢٦: ١٤)، لأن يوحنا كان يدرك أن الروح سوف يُعطي بكلمة المسيح (٦: ٦٣)، وفي الأسرار التي فيها يتحقق فعل الخلاص ويشمر (١٩: ٣٤ - ١ يوح ٦: ٥)، بواسطة الكنيسة التي حملت رسالة المسيح وتبثت فيه المتكلم والمبشر وسلطانه أيضاً لخلاص الإنسان (٢٠: ٢٢). [١٤]

¹⁴ Schnackenburg, op. cit., p.43.

الباب السادس

شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا

على مدى العصور

الفصل الأول

شرح إنجيل القديس يوحنا

عند آباء الكنيسة

تراث الشرق

شرح العلامة أوريجانوس:

هذا العملاق الإسكندري الذي أزهق التاريخ بسيرته وبلبل أفكارنا بعقيدته، كتب شرح إنجيل يوحنا بناءً على رجاء أحد أصدقائه المدعو أمبروسيوس. كتب الخمسة الأجزاء الأولى في الإسكندرية سنة ٢٢٥م^(١)، وذلك قبل رسامته كاهناً في قيصرية سنة ٢٢٨م. ثم جاءت الإضطرابات التي دخل فيها فتوقف العمل. الباقي من الشرح كتبه في المنفى ثم في قيصرية. ويقول يوسابيوس المؤرخ إن كل ما وصل إليه من شرح أوريجانوس لإنجيل يوحنا يقع في ٢٢ كتاباً. ويقول القديس جيروم إنها تقع في ٣٤ كتاباً. ويقول روفينوس إنها تقع في ٣٢ كتاباً. أما الواقع والحاضر بين أيدينا الآن فهي ثمانية كتب فقط، وهي تحوي أجزاءً من الشرح متفرقة حتى الأصحاح الثالث عشر من عدد ٢-٣٣. ويقدر العلماء أن ما كتبه يتجاوز الخمسين كتاباً^(٢).

ويقول العلامة «وستكوت» أسقف دورهام، إن شرح أوريجانوس يحوي أخطاءه وإبداعاته معاً وبأعلى قياس، وهو شرح مطوّل ولكن متقطع ينتحي ناحية التأمل والتخيّل، ولكن تربطه أفكار سامية ونبيلة ومضات من الحق.

ويُعتبر أوريجانوس، في مجال شرح الإنجيل، صاحب مدرسة جديدة في الأدب اللاهوتي. ويقول

¹ Euseb., Hist. Eccl. VI.24,1.

² Westcott, The Gospel according to Saint John, p. xcv.

العلامة شناكنبرج إن أوريجانوس كتب شرحه لإنجيل يوحنا بقصد تفنيد ومقاومة شرح الغنوسيين المزيّف لإنجيل يوحنا الذي كتبه أحد أئمتهم المدعو «هيراكليون»، وأن شرح أوريجانوس أصيل بحسب عقيدة الكنيسة (٣).

وقد استخرج أوريجانوس المعاني الروحية العميقة من آياته، ولكنه استخدم المجاز أو الإستعارة التمثيلية (أي مشبهاً شيئاً بشيء ليبلغ إلى معنى أعمق) إلى حد كبير. كان ملتصقاً دائماً في شرحه إما بالتقليد اليوناني أو اليهودي. وقد بلغ منتهى العمق في استعماله عظمة «كلمة» الله التي كانت محتبئة تحت ستار الحرف في العهد القديم وخاصة في حادثة «تطهير الهيكل» (الكتاب العاشر: المقطع ٢٣)، وفي المقابل في كيف بلغ «الكلمة» إلى قمة التواضع وذلة (العبد) في العهد الجديد في حادثة «غسل الأرجل» (الكتاب ٣٢: المقطع ٤)، مدثراً بثوب معفر بتراب الأرض.

وأوريجانوس لم يشأ في شرحه أن يلغي الحرف في المعنى، ولكنه حاول دائماً أن يتجاوزه فيقول: [إني أعتقد أن كل الأسفار حينما تبلغ إلى معناها الكامل والصحيح، فهي تبقى مجرد مدخل إلى معرفة الأسس البسيطة للإيمان. فكّر قليلاً في بثر يعقوب التي شرب منها الآباء وأبناؤهم يوماً ما، فهم الآن لا يشربون منها ولا أبناؤهم لأن لهم الآن مشرباً أفضل عما كان، لأن الماء الذي يعطيه المسيح الآن هو أسمى من المكتوب.] (كتاب ١٣: مقطع ٥)

وكان مفتاح الأمان والضمان للشرح الصادق الأمين عند أوريجانوس الذي يضبط الكلام ويتفوق عليه هو:

أولاً: سلطان كنيسة المسيح المقدسة (الكتاب ٥: مقطع ٨).

ثانياً: التعليم الرسولي فيما يختص بمعرفة الأسرار (الكتاب ١٠: مقطع ١٨).

أما نقطة الهجوم التي ركّز عليها أوريجانوس ضد الغنوسيين، فهي أنهم [وضعوا شرحاً جزافياً يتناسب مع أفكارهم وليس له شهادة من التقليد] — (كتاب ٢: مقطع ١٤ وكتاب ١٣: مقطع ١٧).

والمضمون العام لشرح العلامة أوريجانوس يهدف نحو ترسيخ الإيمان المسيحي عامة والإيمان بالأمور المستقبلية أي الأخرويات. أما أسفار العهد القديم التي يمثلها «بثر يعقوب»، [فهي إذا

(٣) توجد بعض التفسيرات في شرح أوريجانوس تُعتبر خارجة عن التقليد الصحيح والعقيدة.

فُهمت جيداً فإنها تؤدي إلى المسيح وتصبح حينئذ بالحق تنبع إلى حياة أبدية. [كتاب ٣ : مقطع ٦).] وكلمة المسيح الآن تقودنا إلى الفصح الثالث، حيث البصخة اليهودية هي الفصح الأول، وفصح المسيح الحمل الذي ذُبح لأجلنا هو الفصح الثاني. أما الفصح الثالث فهو الذي نعيّده معاً في ألفة الميَّدين مع ربوات ملائكة بلا عدد في الفصح الأكمل للخروج السعيد. [(الكتاب العاشر : مقطع ١٨).

واستخدام الإستعارة عند العلامة أوريجانوس، ولو أنها تبدو غريبة على أسماعنا (الكلام هنا للعلامة «شناكنبرج» وهو كاثوليكي غربي)، ولكن إذا استوعبنا هذه الطريقة وانتهينا إلى خلفيتها، نجد وراءها معرفة عميقة لكلمة الله التي تجسدت في اللوغس المتجسد ولكن بقيت هكذا محتجبة، حتى إنه لا يمكن تفريغ كل ما تحويه من الشرح.

+ + +

والخطوة التالية بعد العلامة أوريجانوس في شرح إنجيل القديس يوحنا تأخرت كثيراً: من سنة ٢٢٥م حتى سنة ٣٩١م أي أكثر من قرن ونصف، ولم تأت من الإسكندرية بل أتت على يد مدرسة أنطاكية وهي المنافسة لمدرسة الإسكندرية.

وكان هناك اختلاف في التراث الفكري بين الإسكندرية ويمثلها العلامة أوريجانوس، وبين أنطاكية ويمثلها القديس يوحنا ذهبي الفم^(٤).

أنطاكية تبحث في الأسفار المقدسة عن معناها المقدس الواضح.

الإسكندرية (وقيصرية وفيها أوريجانوس) تبحث في الأسفار المقدسة عن شخص المسيح.

أنطاكية تظعن في استخدام الإستعارات والتأملات كونها تهدم القيمة الواقعية للإنجيل كوثيقة تاريخية تمتُّ إلى الماضي وتحوله إلى تعابير من الخيال (كذا).

والإسكندرية تسخر من أنطاكية وتسمي كل من يتمسك بحرفية الكلمة أنه جسداني!

غير أنه لم يكن بين أنطاكية والإسكندرية صراع أو تعارض، بل بالعكس كان هناك اتفاق عريض مؤسس على أهمية التقليد في الشرح أهمية مطلقة.

على أن العلامة أوريجانوس كان يرمي بثقله نحو اكتشاف الصور البارعة للمسيح من خلال

⁴ Quasten, Patrology II, p. 122.

الإلهام الذي تحويه الكلمة بحد ذاتها، أكثر من انحصاره في حوادث الإنجيل. فكل سطر في الإنجيل مملوء بأسرار المسيح المذخرة والمدفونة خلف السطور.

ولكن أنطاكية انشغلت بالبحث عن صور المسيح في العهد القديم.

وما اختلاف الأسلوب في الشرح بين المدرستين إلا اختلاف في الفكر. فالإسكندرية مدرسة المثل Idealism والتأملات Speculation ، التي تستمد انتسابها من أفلاطون؛ أما أنطاكية فهي مدرسة الواقعية Realism (الحسية) والتجريبية Empiricism ، التي تستمد انتسابها من أرسطو. فالأولى تميل إلى التصوف؛ والثانية تميل إلى العقلانية.

وكان القديس يوحنا ذهبي الفم أشهر تلامذة مدرسة أنطاكية؛ وكان ثيودور المبسوتي أشهر متطرفيها!!

ولكن للأسف، فالعقلانية الأنطاكية انتهت بمدرستها إلى الهرطقة على يد لوسيان معلم أريوس.

وفي ختام الكلمة عن شرح إنجيل يوحنا للعلامة أوريجانوس، يتحتم أن نعترف أنه إذا كان القديس أثناسيوس قد حطم أريوس والأريوسية في مصر والعالم كله معتمداً على إنجيل يوحنا، فالعلامة أوريجانوس هو الذي حطم الغنوسية في مصر وأيضاً في العالم معتمداً أيضاً على إنجيل يوحنا^(٥).

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم:

القديس يوحنا ربيب المدرسة الأنطاكية بكل مذكراتها الفكرية. بليغ وحكيم لذلك دُعي بذهبي الفم.

قدّم ٨٨ عظة على إنجيل القديس يوحنا مسجلة كلها ومحفوظة في مجموعة الباترولوجيا جريكا أي الآباء الذين كتبوا باليونانية (PG 59). وهي عظات جاءت أقصر من عظاته على إنجيل القديس متى. ألقاها حوالي سنة ٣٩١ م. وكل عظة لم تكن تستغرق أكثر من ١٠-١٥ دقيقة. وكان يلقيها في الصباح. وأسلوبها جدلي لأنه كان يوجهها نحو الأريوسيين الذين كانوا يستخدمون الآيات التي تحقّر وتصغر من المسيح. لهذا بلور القديس ذهبي الفم نظرية التنازل συγκατάβασις بالنسبة لله ليصدّ بها تهجم الأريوسيين على بشرية المسيح وضعفه. ويقصد بها القديس ذهبي الفم كيف جسّد

⁵ Barrett, op. cit., p. 116.

الله كلمته في الإنجيل على هيئة الإنسان ولغته. وهذا التعبير اللاهوتي يقف مساوياً لتعبير العلامة أوريجانوس في استعمال معنى الكلمة في الأسفار، غير أن القديس ذهبي الفم لم يتبع الخط الروحي مثل العلامة أوريجانوس.

وكعيّنة من الشرح^(٦) اللاهوتي للقديس يوحنا ذهبي الفم نقدم بلسان المسيح المقطع الآتي:
[أنا الإله وابن الله بالحق، وأنا من جوهره البسيط المبارك، لست في حاجة أن يشهد لي أحد، وحتى إذا لم يشهد أحد فأنا لا أفقد شيئاً من جوهرى. ولكن لأني أهتم بخلاص الكثيرين قد نزلت إلى هذا الإقصاع حتى أطلب شهادة لي من إنسان.] (العبارة ٦)

ويعود يشرح هذا الموضوع مراراً وتكراراً هكذا:
[لأنه صار ابن بشر، الذي هو ابن الله ذاته، حتى يجعل بني الإنسان أولاد الله. لأن العالي إذا التأم مع الخطيئ فها لن يمس كرامته؛ في حين أنه يرفع الآخر من الخسيف، وهذا هو الحادث مع الرب. فهو لم يُنقص من طبيعته شيئاً بتنازله هذا Condensation، ولكنه رفعنا نحن الذين كنا في العار قعوداً، ومن الظلام جلوساً انتشلنا إلى نوره العجيب.] (العبارة الحادية عشر)

ومثل العلامة أوريجانوس، يعتبر القديس يوحنا ذهبي الفم أنه ليس للهرطقة المفسولين عن الكنيسة الحق في استخدام الأسفار المقدسة، لأن الأسفار تستمد حقها من حق الكنيسة.

ويقول العلامة «وستكوت» أن شرحه واستشهادته بالآيات واضح، شديد الحيوية وبلغ؛ ولكن القارئ إذ يؤخذ بأسلوبه، تفوته المعاني والاتجاهات السرية التي للإنجيل نفسه^(٧).

شرح القديس كيرلس الإسكندري:

هو واحد من أعظم قديسي الكنيسة الأولى، لذلك يدعى بالكبير. أُلّف شرحه لإنجيل يوحنا من بداية سنة ٤٢٥ م. ولم يكمل إلا سنة ٤٢٨ م. أسلوبه كما يصفه «كوستن»^(٨) أبعد من أن يكون جذاباً للقارئ، متداخلاً، وأحياناً يتجاوز الحد في التماذي في الشرح، مزخرف، جميل، ولكن محتوياته تكشف عن عمق الفكر وغنى في الآراء، مجادل واضح ذو حجّة، تأملاته ومحاكماته تكشف عن موهبته كمؤلف وتجعل من كتابه منابع لتاريخ العقيدة والعلم المسيحي بالدرجة الأولى.

^٦ Quasten, op. cit., III, p. 439.

^٧ Westcott, op. cit., p. xcv.

^٨ Quasten, Patrology III, p. 119.

وفي مقدمة شرحه نبّه أنه سيعطي عناية خاصة إلى المعنى العقيدي للنص، ودحض تعاليم الهرطقة. والقديس كيرلس يجهد في شرحه ليثبت أن الابن له جوهر الآب، وأن الآب والابن كلٌّ منهما له شخصه القائم.

وهو يقف معارضاً لمدرسة أنطاكية. وواضح أنه ألّف شرحه لإنجيل يوحنا قبل قيام نسطور، لذلك لم يذكر في كتابه شيئاً عن نسطور، كما لم يذكر الإصطلاح المحبب عنده «الشيثوتوكس» (والدة الإله) الذي نحته خصيصاً لمقاومة بدعة نسطور. كما يُعتبر شرحه لإنجيل يوحنا هو أول تأليفه في الشرح. وقد احتفظ لنا الزمن بكل شرحه للإنجيل في اثني عشر كتاباً كلها موجودة، ونسبتها للقديس كيرلس مُثبتة، ما عدا الكتابين السابع والثامن اللذين ضاعا ولم تصل لنا منها إلا أجزاء قليلة مشكوك في صدق نسبتها للقديس كيرلس^(٩).

ولكن بالرغم من ذلك يبقى هذا الشرح ذخيرة عقائدية آبائية. ويعبّر القديس كيرلس فيه عن أن لغة البشر عاجزة عن أن تستوفي الحق الإلهي فيه كما يجب؛ أو أن تكشف عن مقدار تنازل الكلمة في الأسفار كما يقتضي بالعدل.

أما رأينا الخاص في شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا، فهو كنز لاهوتي وروحي وكنسي وسرائري مليء بالدرر المخفية وراء الجدل العنيف ضد الهرطقة، وهو يحتاج إلى صبر كثير وكثير جداً لكي يستوعب القارئ كنوزه.

ويقول العالم «وستكوت» عن شرحه: أنه بشرح القديس كيرلس الكبير يكون قد انتهى عصر كبار شُراح الإنجيل للعصر الآبائي.

القديس أثناسيوس:

وفي مجال القيمة الشرحية لإنجيل يوحنا لا نستطيع أن ننسى القديس أثناسيوس، فهو وإن لم يصدر شرحاً لإنجيل يوحنا، ولكنه أقام لاهوته على «تجسد الكلمة»، وحارب حروب الرب ضد أريوس بسلاح إنجيل يوحنا، ووضع أساس الأرثوذكسية راسخاً معتمداً على هذا الإنجيل، فحوّل مجرى المسيحية في العالم: «العالم كله ضدك يا أثناسيوس»، وأجاب أثناسيوس ومعه إنجيل يوحنا: «وأنا ضد العالم».

⁹ Quasten, op. cit., III, p. 123.

تراث الغرب

شرح القديس أغسطينوس:

يقول قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن كتاباته وشروحاته هكذا: [إن أهمية القديس أغسطينوس تكمن في قدرته الفذة في فهمه للحق المسيحي... وبدون هذه الأهمية الفكرية (موهبة) وعمق الإدراك الروحي، كان لا يمكن أن يأخذ اللاهوت الغربي شكله المعروف لنا الآن.]^(١٠)

قدم القديس أغسطينوس شرحه لإنجيل يوحنا ضمن عظات — جاءت في مقالات سنة ٤١٤-٤١٦ م. ويقول عنها العالم «وستكوت»^(١١) إنه فيما كان القديس يوحنا ذهبي الفم ضعيفاً في بعض نواحي شرحه، برز القديس أغسطينوس فيها قوياً لا يُجَارَى. ولكن جهله باللغة اليونانية خانه كثيراً في تبني بعض المعاني غير الصحيحة للكلمات. ولكن ذكاءه الفذ جعله يدخل بالرغم من ذلك في المعنى الأصيل الذي يقصده الإنجيل، وبمَنْتهى الوعي والبصيرة التي ربما تفوت على شارح آخر عالم لغات متضلع في اليونانية. ولكن من الصعب جداً ترجمة شرحه الذي جاء باللاتينية ترجمة تصيب كل الأعماق التي انتهى إليها.

ويقول عنه «شناكنبرج»^(١٢) إن أسلوبه يخلو من المحاجة ويتجاوز المناوشات العقائدية. وشرحه في إنجيل يوحنا بلغ منتهى النضج اللاهوتي. فهو ينطلق مباشرة نحو التأمل بالآية دون التوقف على معاني الكلمات. ومثل نظرائه الآباء القديسين الأوائل، ركّز بصورة أساسية على اللاهوت، يعجبه بالآيات ويقدمه طعاماً للمسيحي يسند إيمانه في وسط فوضى الهرطقة. وعظاته هذه لا تزال محتفظة بحظوتها ومكانها الأثيل في الخدمات الكنسية لدى الغرب، شأنها شأن القديس يوحنا ذهبي الفم في الشرق.

¹⁰ Op. cit. p. 107.

¹¹ Op. cit. p. xcv.

¹² Schnackenburg, op. cit., p. 205.

الفصل الثاني

تتبع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا

في العصر الحديث

في ضوء عمليات النقد والدفاع

نقدّم للقارئ مختصراً للبحث الذي قام به العالم H.R. Reynolds في المقدمة التي كتبها لشرح إنجيل يوحنا في مجموعة Pulpit Commentary المجلد السابع عشر.

— منذ عصر ما بعد الرسل حتى نهاية القرن السابع عشر لم يرتفع صوت واحد ينتقد إنجيل يوحنا من حيث أصالة مؤلفه، القديس يوحنا اللاهوتي، ومادته، وعلاقته الصحيحة بالأنجيل الثلاثة الأخرى، ونخطه التاريخي.

— ولكن بدأ النقاش في التباين بين الأنجيل الثلاثة والإنجيل الرابع في أوائل القرن الثامن عشر افتتحه العالم «لُكليرك» Le Clerc (١) (١٦٥٧-١٧٣٦) مع العالم Lampe ، وعلى مدى قرن من الزمان استمر هذا النقاش الذي بلغ حد الصراع.

— ثم هدأت حدة هذا النقاش إلى أن أشعله العالم الإنجليزي «إيفانسون» Evanson (٢) (١٧٣١-١٨٠٥)، وذلك سنة ١٧٩٢. وللأسف، أنه بالرغم من تفاهة وزنه الروحي فقد كان أثره مسموماً في أوروبا. وقد قام في المقابل له في ألمانيا الناقد «إيكermann» Eckermann

(١) وهو أرمني الأصل، عالم لاهوتي، وأستاذ مادة الكتاب المقدس، وأستاذ فلسفة، منهج عقلي. وقد طعن في أصالة التوراة لنوسى النبي. وهو متحرر الفكر غير تقليدي. عدو القواعد التعليمية، أعطى للعقل حق نقد الإيمان.

(٢) وهو ضد الثالوث ولا يؤمن بلاهوت المسيح. ويُعتبر أول من أشعل الهجوم ضد إنجيل يوحنا، منكر أن يكون القديس يوحنا هو كاتبه. ولا يؤمن إلا بإنجيل القديس لوقا.

(١٧٩٦)، وبعده الناقد الأكثر خطورة «برتشneider (١٨٢٠)».

— وقام «برايستل» Priestel مع العالم «سمبسون» Simpson بالرد.

— ولكن دخل معركة النقد لاهوتي ألماني شديد الوطأة اسمه «هردر» Horder Gottesied (١٧٤٤—١٨٠٣)، معلناً أن القديس يوحنا إنما كان يتعامل في إنجيله مع «مسيح نموذجي» وليس «مسيح التاريخ — (هكذا)». وبذلك بدأت المدرسة الألمانية وترعمت النقد.

— فقامت مدرسة لاهوتيي روما بالرد، وتصدت لكل هذا النقد، وآزرها العالم الكاثوليكي «هوج» Leunord Hug (١٧٦٥—١٨٤٦)، وبعض العلماء اللوثريين وأهمهم الألماني المستشرق «أيشورن» Eichorn (١٧٥٢—١٨٢٧)، وهو أستاذ ضليع في الإنجيل واللغات الشرقية ومادة الفلسفة في جامعة جوتنبرج. وهو أول من أحيا علم المقارنات العلمية والبحث الدقيق لإثبات صحة الأناجيل من الكتابات الشرقية والمخطوطات القديمة الأخرى. وآزره في الرد العالم Koind .

— وبأعمال هؤلاء المدافعين توقفت حركة المقاومة.

— ولكن بعد ذلك بقليل انفجرت حدة النقد السلبي المتحرر على يد «برتشneider (٣) سنة ١٨٢٠. وقد تمادى في التفريق بين المسيح في إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى. وقد رد عليه كل من «أولهوزن» و«لوكة» Luke.

— وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مفتونة بمواهب «شلايرماخر» (١٧٦٨—١٨٣٤)، وهو لاهوتي ألماني عبّر عن «الإيمان بأنه الإحساس بالاعتماد الكلي على الله». وقد تأثر به كثيراً العالم المشهور «هارناك». وكان «شلايرماخر» معجباً بإنجيل يوحنا أشد ما يكون الإعجاب. وقد انبرى للنقد السلبي الموجّه لإنجيل يوحنا حتى أوقفه. وكان واسع التأثير بأسلوبه التقوي والتأملي. وقد تأثر به أيضاً العالم والمؤرخ الكنسي الليتورجي (اليهودي الأصل) «نياندر» وتنصّر على يديه وتعمّد. وهدأت حدة النقد ضد إنجيل يوحنا حتى سنة ١٨٣٥.

— ثم قام «شتراوس» (١٨٠٨—١٨٧٤)، وهو لاهوتي ألماني هاجم حياة المسيح وأنكر أن يكون القديس يوحنا الرسول هو صاحب إنجيل يوحنا. وكان له أسوأ الأثر على كل المدرسة اللاهوتية البروتستانتية في توبنجن، وازداد تأثيره حتى طرد منها. ولكن عاد «شتراوس» نفسه بتأثير

(٣) لاهوتي ألماني أشد من هاجم صحة الخط التاريخي في إنجيل يوحنا، وذلك سنة ١٨٢٠.

العالم اليهودي المتنصر الفذّ «نياندر» Neander (١٧٨٩-١٨٥٠) الذي حاججه حتى ردّه إلى الصواب. فعاد وصحّح إيمانه في الطبعة الثالثة من كتابه (١٨٣٨). ولكنه عاد إلى نقده ومهاجمته لإنجيل يوحنا في الطبعة الرابعة من كتابه سنة ١٨٤٠، محاولاً بذلك مهادنة مدرسة توبنجن Tübingen التي قامت في ذلك الوقت لمساندة «شتراوس» في نقده السلبي لإنجيل يوحنا، مدّعية أنه من وضع متأخر عن القرن الأول بمائة سنة، ولا علاقة له بالقديس يوحنا الرسول، وأنه من تأليف غنوسي.

وحينما ظهرت مؤلفات «فايس» C.H. Weisse سنة ١٨٤٠ الذي اعتبر أن إنجيل يوحنا ما هو إلا قصة خيالية مؤلفة غير واقعية، انبرى له العلامة «فورمان» Formann ونقد نظريته ودحضها بمقدرة عالية فأسكته. ولكن الأثر السلبي ما فتى يشتعل تحت التراب.

— وانضم إلى حركة النقد «بور» F.C. Baur (١٨٠٩-١٨٨٢). وهو لاهوتي ألماني فاق «شتراوس» في نقده، وهو مؤسس مدرسة توبنجن النقدية على أسس تاريخية. كما انضم إليه أيضاً «شويجلر» (١٨١٩-١٨٥٧)، و«زّلر» Zeller، مؤكّدين أن إنجيل يوحنا من وضع سنة ١٦٠.

— وازدادت حركة النقد بواسطة مدرسة توبنجن على يد «ألبرت توما» Albrecht Thoma (١٨٨٢)، و«هولتزمان» Holtzmann (١٨٨٥) اللذين جاهاً بأن تعاليم القديس يوحنا مأخوذة من رسائل القديس بولس الرسول.

— وفي أوج عصر المدرسة النقدية السللبية المتحررة التي يُعتبر أصحابها خارج دائرة الإيمان السليم، قامت مدرسة «الثقّاد المعتدلين»، كما سماهم التاريخ. وبالرغم من صدق النوايا لدى هؤلاء في الجري العلمي وراء الحقيقة التاريخية، كما يقولون، إلا أنهم أضروا بالإنجيل أكثر مما نفعوا، وأساءوا إلى حرارة الإيمان وقوة تماسك الكنيسة في كل أنحاء أوروبا وأمريكا دون أن يدروا، بسبب تنشيط ذهن الشباب في النقد وضياع هبة الإنجيل والإيمان المسيحي عامة؛ وإليهم يعود السبب في هبوط مستوى الإيمان واضمحلال التقوى وضياع الشباب وتخبّط رجال الدين وتمرد الإكليروس الكاثوليكي على النمط التقليدي والسلوك التقوي. لذلك فعليهم دينونة لا يعرف قسوتها إلا الديّان.

ويتزعم هذه المدرسة — غير بعض الذين سردنا أخبارهم — وعلى مدى السنين كل من: برونو Bruno Bauer، «فردناند» Ferdinand، «شفجلر» Schwegler، «يوليخر» Jülicher، «رفيل» Reville، وآخرهم تاريخياً وأكثرهم تأثيراً على العلماء الآخرين هو العالم الكاثوليكي

«لويزي» Loisy (١٨٤٧-١٩٤٠)، وهو «مودرنست» أي تقدمي، ناقد متحرر غير منضبط، كان يدرس إنجيل يوحنا على أساس أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، مؤكداً ذلك كحقيقة لا تُنقض. حتى ظهرت بردية رايلاند في صعيد مصر تؤكد في المقابل أن الإنجيل من وضع لا يتجاوز القرن الأول بأي حال، وكانت لكمة له. وكان إيمانه الكاثوليكي متزعزعا خاصة بعد أن درس على «رينان» الفيلسوف والمؤرخ (الملحد). وكان قد وصل إلى أستاذية كرسي الأسفار المقدسة بالرغم من ميوله نحو عقيدة الـ pantheism أي تأله الكون أي أن الكون والله أو الله والكون شيء واحد، وهي عقيدة هندية الأصل. وأخيراً انتهى إلى مجرد مدرس تاريخ في الكوليج دي فرانس. والعجيب أنه ما من شارح حديث لإنجيل يوحنا إلا ويتخذ شرح لويزي هذا مرجعاً له.

— وفي الوقت الذي تضافرت فيه العقول الجبّارة هُدم إنجيل يوحنا بالنقد السلبي غير البتاء، كانت هناك مجموعة من العلماء من مختلف الجنسيات يحدوهم روح الإيمان والتقوى والعلم أيضاً للدفاع عن صحة إنجيل يوحنا وأصالة مستواه الروحي، وحققوا أن كاتبه هو القديس يوحنا الرسول بن زبدي، وأن الخط التاريخي فيه أشد صحة مما كان يظن هؤلاء النقاد، وأن منهجه اللاهوتي والسرائري والكنسي فائق القيمة، وقد استخدم معظمهم المنهج التقليدي في البحث العلمي الدقيق. وأثبت معظمهم أن إنجيل القديس يوحنا من وضع نهاية القرن الأول سنة ١٠٠ م.، أو ربما أقل قليلاً. الأمر الذي أثبتت البرديات التي اكتشفت بعد ذلك بنصف قرن صحة وصدق أبحاثهم. ولكن لا تخلو هذه الأبحاث والشروحات من الهفّات التي يملها الفكر العلمي، فتقف ذات لون باهت يسهل فرزها إزاء ضوء الإيمان الأرثوذكسي الساطع.

وأهم هؤلاء العلماء بوجه عام ومختصر هم:

العالم الألماني «بليك» Bleck (١٧٩٣-١٨٥٩)، الألماني «دي وت» De Wette ، «رويز» Reuss ، «لوثاردت» Luthardt ، «جوديت» Godet ، «زهن» Zahn ، «شانز» Schanz ، «كناينبور» Knabenbaur ، «لبن» Lepin ، «جراندميزون» Grandmaison ، «تلمان» Tillmann ، «لاجرانج» Lagrange .

أما العلماء ذوو الشهرة العالمية القدامى والمحدثين الذين استطعنا الحصول على شرحهم لإنجيل يوحنا، واطّلعنا على أبحاثهم ودراساتهم، إما مباشرة أو عن طريق تعليقات لعلماء آخرين عنهم، فنأتي على ذكرهم هنا بشيء من التفصيل دون أن نستطرد في بقية المؤلفين العديدين ذوي الشهرة المحدودة في بلادهم والذين لم نغفل ذكرهم أثناء الدراسة والتعليق والشرح.

١ — اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية،

وشروحاتهم للإنجيل القديس يوحنا:

وهم المعتبرون البقية الباقية من المحافظين القدامى الذين يمثّون بشيء كثير إلى فكر الآباء القديسين الأوائل. والمعجيب أن معظمهم له سيرة في التقوى مشهود لها، ومؤلفاتهم تُعتبر أهم ما يمكن أن يتشقف به أي دارس للإنجيل دون خطر كثير.

وهم حسب ترتيب ظهور شروحاتهم للإنجيل يوحنا زمنياً كالآتي:

١ — هنجستنبرج: HENGSTENBERG, ERNEST WILHELM

(١٨٠٢—١٨٦٩)

لاهوتي ألماني درس على نياندر. أصدر شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٨٢١ على أسس دفاعية عن الإيمان والأخلاق والتقوى الشخصية. يستشهد فيه بالآباء القديسين الأوائل وعلى خلفية غزيرة من العهد القديم. ولكن المؤلف يخلو من الأبحاث العلمية للكلمات والمواضيع. وهو مؤلف قيم في مجلدين ضمن مجموعة «كلارك» للمكتبة الكاثوليكية اللاهوتية.

٢ — ثولوك: THOLUCK, F. AUGUST

(١٧٩٩—١٨٧٧)

درس على نياندر. لاهوتي ألماني تقي.

قاوم العقلانية في ألمانيا في جيله. أخرج شرح إنجيل يوحنا سنة ١٨٢٧ لتثبيت الإيمان وتقويم الأخلاق. له دراسات تقوية. كان ذا تأثير أخلاقي كبير على جيل الشباب، فكان راعياً من الدرجة الأولى.

٣ — هاير: MEYER, H. AUGUST WILHELM

(١٨٠٠—١٨٧٣)

عالم ألماني. كاهن زاول خدمته بنجاح. ضليع في اللاهوت. شرح الأناجيل كلها ومنها إنجيل يوحنا وسفر الأعمال ورسائل القديس بولس الرسول بين سنة ١٨٣٢—١٨٥٢. وهي تُمتدح من كافة العلماء والمؤلفين، فقد استوفى كل أصول الشرح الدقيق واهتم بمعاني الكلمات لأنه كان ضليعاً في اللغة اليونانية. أُعيد طبع مؤلفاته العديد من المرات، وخرجت باللغة الإنجليزية في عشرين مجلداً، ولا تزال تُطبع، وهي متداولة حتى اليوم.

٤ - بليك : BLEEK, FRUDRICH

(١٨٩٣-١٩٥٩)

لاهوتي ألماني محافظ، أستاذ شرح الإنجيل. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٤٠ على أصول تقليدية. محاجج ومدافع عن الأصول التقليدية مع أنه باحث ومحلل.

٥ - وستكوت : WESTCOTT, B.FOSS

(١٨٢٥-١٩٠١)

إنجليزي. أسقف دورهام. صديق العمر للعالم لايتفوت. مؤلف لتاريخ الأسفار المقدسة وقانونها، وشرح مقدمات الإنجيل. أستاذ لاهوت سابق في كمبردج. نقّح وصحّح الإنجيل باللغة اليونانية. أخرج شرحه القيم لإنجيل يوحنا ورسائله سنة ١٨٨١ بحسب الأصول اليونانية آية آية على مثال شرح المدرسة الإنجليزية. كرّس نفسه لمساعدة الإرساليات التبشيرية. ورعاية الطلبة روحياً في كمبردج ولا تزال هناك المؤسسة التي تحمل اسمه. ذاع صيته بسبب شرحه لإنجيل يوحنا، إذ اعتُبر لدى لاهوتيي كل إنجلترا وأوروبا بأجمعها أساساً لا غنى عنه لكل شرح مهما كان. تمسك بالناحية التقليدية، سواء للشرح أو للمعنى أو التاريخ أو صحة نسبة الإنجيل الرابع لكاتبه القديس يوحنا الرسول والتلميذ، وأفرد لذلك جزءاً كبيراً من كتابه يصح أن يكون كتاباً بمفرده. له بصيرة نافذة نحو عمق المعاني. واعتمد في بعض الأحيان على شروحات الآباء القديسين الأوائل. ورفع من رؤية المسيح الإله المتجسد.

٦ - هوسكنز : HOSKYN, SIR EDWYN CLEMENT

(١٨٨٤-١٩٣٧)

لاهوتي إنجليزي حديث محافظ تقي. عميد إحدى كليات كمبردج. اشتهر بسبب مؤلفه «مسيح الثلاثة الأناجيل»، الذي فيه حاجج وبرهن أن المدعو «يسوع التاريخ» لدى البروتستانت الأحرار ليس يسوع التاريخ في شيء ولا يمت للتاريخ. ودافع عن الأناجيل بشدة ضد مدارس النقد وهو عقائدي، موضوعي المبدأ. للأسف مات دون أن ينتهي من الورقات الأخيرة في مؤلفه اللاهوتي في شرح إنجيل يوحنا الذي بدأه سنة ١٩٢٣، والذي أكمله له F.N. Davey سنة ١٩٤٠.

وقد عارض وحاجج النقاد. مُثبتاً وحدة وأصالة إنجيل يوحنا. وأبرز المعنى والمعيار اللاهوتي فيه ككل. جمع بين أسلوب الآباء القديسين مستشهداً بهم، وبين البحث العلمي الحديث برصانته ودقته. وقد كان لهذا العالم تأثيره الروحي على كافة طلبة اللاهوت في جيله، وترك أثره اللاهوتي

٧ - دود: DODD, Charles Harold

(١٨٨٤-١٩٧٣)

إنجليزي لاهوتي متخصص لدراسة العهد الجديد، خادم إنجيل للكنيسة. أستاذ لاهوت في مانسفيلد وأكسفورد ومنشستر وكامبريدج.

تعيّن سنة ١٩٥٠ رئيس هيئة إعادة ترجمة الإنجيل. يتمسك بسلطان الإنجيل ويؤلف له، وبسلطان التقليد الرسولي والمناداة بالإنجيل. واهتم وكتب عن الأخرويات كما جاءت في العهد القديم، وبتحقيقها في كلمات المسيح من جهة مجيء ملكوت الله، وكيف تمت بالتجسد وأثرها على البشرية. كذلك كتب عن خط الخلاص في المسيحية كما أعلنه الله على مدى التاريخ الكتابي وتحقق بقيامة المسيح. كما قدّم لكتابه عن إنجيل يوحنا سنة ١٩٥٣، وأضاف إليه أبحاثاً أخرى سنة ١٩٦٣ فيما يختص بالخط التاريخي.

وقد جاهد هذا العالم المتحفظ بأقصى طاقته لكي يملأ الفجوات التي استحدثتها النقاد في إنجيل يوحنا من جهة الخط التاريخي فيه، ومنابع النصوص، ومدى أصالة النقل والتسجيل في حدود الإيمان، ولكنه تمشى مع العلم والعقل والمنطق إلى أقصى الحدود التي يسمح بها الإيمان، ولكنها خرجت به اضطراراً عن أصالة التقليد.

ويقرر هذا العالم في مقدمة كتابه للإنجيل هكذا: [لقد نحيت جانباً الأسئلة التي تختص بالنقد الخالص]، مما يفيد صدق إيمانه. كما كتب في خاتمة كتابه بحثاً مقتضباً للغاية عن الخط التاريخي لإنجيل يوحنا مدافعاً عنه قدر ما يحتمله «المنطق». كما أثبت هذا العالم المدقق [أن وراء إنجيل يوحنا تقليداً رسولياً أقدم في أجزائه من التقليد العام الذي يقف خلف الثلاثة الأناجيل الأخرى.] (٤)

٨ - باريت: C.K. Barrett

إنجليزي. لاهوتي. لغوي. أسقف دورهام. أصدر كتابه عن «شرح إنجيل القديس يوحنا» سنة ١٩٥٥ معتمداً على النص اليوناني. تشابك مع الفكر النقدي وظل يتأرجح بين إغراء الأخذ به والدفاع ضده. لذلك، فبالرغم من أصالة الشرح على النص اليوناني إلا أن الخلفية غير صلبة. وقد ظل مأخوذاً بآراء بولتمان Bultmann العالم الألماني الناقد الذي لا يؤمن بالمعجزات ولا بالخوارق،

⁴ C.H. Dodd: Hist. Trad. in the Fourth Gospel, p. 423.

ولكنه خالفه وقاومه في أمور كثيرة. وقد ردّ ردوداً قوية ومقنعة على نظرية إحلال بعض أجزاء في إنجيل يوحنا موضع الأخرى، وعلى نظرية دخول مؤلفين كثيرين للإنجيل غير كاتبه (أنظر كتابه ص ١٨ - ٢٠).

كما تحدى بولتمان في قوله إن القديس يوحنا فقد الرؤية الواضحة للكنيسة، لأن الكنيسة غير موجودة في إنجيل يوحنا في نظر بولتمان. فردّ عليه «باريت» في كتابه ص ٧٨ بقوله: [إن يوحنا كان أكثر وعياً من أي إنجيلي آخر بوجود الكنيسة]، مقدّماً صلاة المسيح من أجل كل من يؤمن بالمسيح في كل أنحاء العالم هكذا: [«ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو: ١٧: ٢٠). وعاد واستشهد بالمسيح في إنجيل يوحنا، حينما طُوب كل شعب المسيح الذين يؤمنون به دون أن يروا المسيح أو معجزاته: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو: ٢٠: ٢٩). بل وفي بداية إنجيل يوحنا رفع القديس يوحنا الكنيسة الجديدة لتحل محل المرفوضة: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، أما كل الذين قبلوه — أي المسيحيون — فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون بإسمه» (يو: ١١ و ١٢)، موضحاً أنهم ليسوا أولاد إبراهيم بعد بل أولاد الله] — أي المولودون له من الماء والروح.

٩ — راييموند براون: Raymond E. Brown = وينطق ريمون بالفرنسية.

أستاذ لاهوت أمريكي في ولاية بلتيمور. عالم كاثوليكي متحرر.

أصدر شرحه لإنجيل يوحنا في جزئين ضمن مجموعة «أنكور بايبل» Anchor Bible (١٩٦٦-١٩٧١). ويقول عن نفسه أنه حصّد ثمار أفضل الأبحاث والآراء التي خرجت لجميع المؤلفين كاثوليك وبروتستانت. عارضاً إياها ضمن آرائه الخاصة في عرض زاخر بالفكر. وهو، في مضمونه العام، تقليدي ومدافع عن أصالة الإنجيل وتقليده وتاريخه ضد جميع عناصر النقد لكافة النقاد مع هئات لا يخلو منها الفكر الحر منها كان.

١٠ — لايتفوت : Lightfoot

لكي لا يرتبك القارئ الباحث في هذا الاسم، يلزم أن نفرق بين ثلاثة بهذا الاسم كلهم إنجليز:

الأول : John Lightfoot

(١٦٠٢-١٦٧٥)

وهو يهودي ربي متنصر — كان علامة زمانه وأسدى أفضالاً في شرح نصوص العهد الجديد. وكان منجماً لذخائر المعرفة، لم يتفوق عليه أحد من بعده. وشغل مناصب رئاسية في جامعتي

الثاني : Joseph Barber Lightfoot

(١٨٢٨ - ١٨٨٩)

وهو أسقف دورهام - كان أستاذاً للاهوت . وأحد الذين راجعوا الإنجيل باليونانية - الإنجليزىة . وقد اهتم بأبحاث العهد الجديد . واشتغل في إخراج مجموعة أبحاث الآباء الرسولين وأظهر في ذلك مقدرة علمية عالية .

ومن جهة إنجيل يوحنا فقد اشترك مع العلامة اللاهوتي الألماني Zahn (١٨٣٨ - ١٩٣٣) (وهو أيضاً آبائي محافظ بارع ألف شرحاً لإنجيل القديس يوحنا سنة ١٩٠٨) . وقد اشترك الإثنان في مقالة ضد حانام يهودي يدعى «بار صليبي» ، أوضحا فيها أصالة إنجيل القديس يوحنا وسمو مستواه الروحي والتاريخي . وأثبتا أن تاريخ كتابة إنجيل يوحنا لا يتعدى سنة ١٠٠ م .

الثالث : Robert Henry Lightfoot

(١٨٨٣ - ١٩٥٣)

عميد إحدى كليات أكسفورد ، وكتب كتابه في شرح إنجيل القديس يوحنا ، ولكنه توفي قبل أن يصدره وأخرجه له C.F. Evans سنة ١٩٥٦ . ويتميز بالدقة والحرص الشديد في البحث والرد على النُّقَّاد الشكليين . له إيمان مسيحي عميق صامت . وكان له تأثير تقوي بليغ على طلبة أكسفورد في أيامه .

١١ - شناكنبرج : Schnackenburg Rudolf

(١٩١٤ -)

عالم كاثوليكي ألماني - أستاذ لاهوت في جامعة فورزبرج . أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٦٥ . هو شارح للأسفار المقدسة قدير ، متحفظ تقليدي ، يسير في خطه الفكري حسب أصول تعليم الكنيسة بدقة وحسب أصول العلم بمنتهى الدقة . قد قيَّضه الله والتاريخ ليرد على أصحاب التحرر الفكري في النقد السلبي والشك كأساس لكل شرحهم ، أمثال «بولتمان» الذي يقول عنه قاموس أكسفورد : «قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية» في صفحة ٢٠٦ بالحرف الواحد : [وفي كتابه «عن المسيح سنة ١٩٢٦» تمادى في نقده إلى الحد الذي قرر فيه تجاهل وإنكار العمل الفدائي للمسيح بل وتعاليمه الأخلاقية - وذلك بمنتهى النقد والشك معاً ووضع ثغرة بل فجوة بل جفوة بين الإيمان والتاريخ . ونادى بحتمية إخلاء أسفار العهد الجديد من (الخرافات Entmythologisierung) . وهو لا يعتبر أن الميلاد البتولي من العذراء للمسيح ليس وحده هو

الخرافة فحسب بل إن الإنجيل كله مبني على الخرافات]. هذا هو بولتمان المرجع الذي تهافت عليه جميع النقاد الذين شرحوا الإنجيل في أوروبا وأمريكا حتى اليوم.

نقول إن الله قيّض لنا هذا العالم القدير شناكنبرج ليكبح جاح هؤلاء النقاد الذين أترفوا الإيمان والكنيسة بإفراط.

وعن شناكنبرج يقول العلماء الذين باشروا أبحاثه:

[إن «مشكلة إنجيل يوحنا» التي أزعجت وكذّرت كل باحثي العهد الجديد إلى ما يقرب من مائتي سنة — قد أرسى هذا العالم حلولاً لها. وفوق الأسئلة المطروحة للبحث والفحص التي تخص إنجيل يوحنا مثل علاقته بالثلاثة الأناجيل الأخرى واختلاف تكوينه الكلامي من جهة الشكل والمصادر التي يعتمد عليها، كان ولا يزال الهم الأول — الذي أغفله جميع النقاد — هو رسالته الروحية كأساس للديانة. وهذا المجال عينه هو الذي اهتم به شناكنبرج في إنجيل يوحنا: «فهو شرح لاهوتي». وإن كان لم يضع ثقله على المشاكل اللفظية والكلامية أو المقارنات أو الأحوال التاريخية، إلا أنه عرض لها وخاض فيها بقدر ما يمكن أن تعطي معرفة أفضل لرسالة الخلاص المذاعة في هذا الإنجيل الذي أثبت أنه أغنى الأناجيل].

وشناكنبرج هو صاحب المبدأ القائل: [الذي يهمننا للغاية هو فصد كاتب الإنجيل وليست آراؤنا نحن فيما كان لازماً عليه كيف يدوّن إنجيله بحسب معاييرنا نحن عن التاريخ]^(٥). علماً بأن هذا العالم استشهد بجميع كتب الآباء القديسين الأوائل ولم يترك مرجعاً كنسياً واحداً إلا واستشهد به.

٢ — مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر:

(بحسب رؤية العالم شناكنبرج)

أولاً: المدرسة الألمانية النقدية:

وقد وضع بولتمان بضمته عليها، فهي لا تزال تحت تأثير شرحه لإنجيل يوحنا الذي أرجع أصوله إلى التعاليم الغنوسية، وجردّه من أسمى ما فيه بدعوى تنقيته من الخرافات، وعلى الأخص إلغاؤه لحقيقة الفداء. وقدم تحليله ببراعة العقل الذي أخذ بالعقول. وبحسب رأينا فإنه أحلّ حذق النقد بدل قناعة النعمة. ويعتبره العلماء المفتونون به أنه بلغ القمة في أسلوب الشرح اللاهوتي التقدمي.

⁵ Schnackenburg, op. cit., p. 24,25.

أما رأي المتحفظين والكنسيين من زملائه الألمان^(٦)، فهو أنه قد أصاب الذين يتبعونه بالغثيان بسبب تعقيداته في إرجاع أصول الإنجيل إلى عديد من الجذور اليونانية والغنوسية وحتى الإيرانية والوثنية!!، مما جعل حمل النقد الذي طال زمنه في هذا المجال فوق الإحتمال. وقد صبح بولتمان طريقة شرحه وتفسيره لبشارة القديس يوحنا بالوجودية، وأقام لاهوته على التطبيق الوجودي أي مواجهة لاهوت المسيح بالواقع العملي في الحاضر الزمني بالنسبة للإنسان. أما كيف يكون ذلك مع أنه جرّد اللاهوت من عمل النعمة والإعجاز وتدخّل الله الفائق، فهذا وإن كنا نندهش له، إلا أن هذا — رغماً عن أنفسنا — صار موضة العصر في شرح إنجيل يوحنا عند المدرسة الألمانية النقدية ومن يتبع رأيها وهم الأكثرون.

ثانياً: المدرسة الإنجليزية التقليدية:

وهي قائمة على أعمال رجال عظماء حقاً تبوأوا المراكز العليا في الكنيسة وفي العلم والتقوى بالدرجة الأولى. وأهم هذه الأعمال هي للعالم «هوسكنز» و«دودد» من الأنجليكان. وقد تبوّأت مركزاً سامياً بسبب التزامهم بالتقليد والآباء. وقد بقيت مدرستهم حيّة حتى هذا اليوم علماً بأنها استقت أصولها التقليدية الرزينة ممن سبقوهم مثل العالم «وستكوت» الذي لا يزال شرحه منذ ٨٠ عاماً متداولاً حتى اليوم. وقد نأت المدرسة الإنجليزية بنفسها حتى اليوم عن التحليل والنقد الحرفي.

وفي مواجهة المدرسة الألمانية الحديثة، قام العالم الإنجليزي التي الأسقف باريت C.K. Barrett وقدم شرحه اللاهوتي الدقيق القائم على أصول الشرح التقليدي عند الإنجليز وهو التعمق في النص والالتزام بمعنى الكلمات والآيات في مواضعها. ويُعتبر شرحه عملية موازنة رائعة وملفتة للأنظار بحسب رأي شناكنبرج الألماني. كذلك العالم اللاهوتي چون مارش عميد كلية مانسفيلد في أكسفورد الذي قدم شرحه سنة ١٩٦٨.

ثالثاً: المدرسة الألمانية التقليدية:

ويتزعمها فريقان متفقان: الفريق البروتستانتي وأهم علمائه:

Kümmel, T. Zahn, A. Schletter, F. Büchcel

والكاثوليك وأهمهم شناكنبرج. وهؤلاء يقفون الآن في مواجهة هذا التيار النقدي العنيف يصدونه بأقصى قدر من الدراسة والمعرفة والإتزان مع تمسكهم بالإيمان الصحيح والتقليد. ويسانداهم بالطبع الكاثوليك من أوروبا وأمريكا أمثال: Raymond E. Brown, Xavier Léon-Dufour, S.J. ولاجرانج Lagrange

^٦ Schnackenburg, op. cit., p. 211.

وعلى العموم فإن المدرسة الحديثة التقليدية انتحت ناحية الشرح اللاهوتي لإنجيل يوحنا متمسكة بالنص وبالمعنى الحرفي للكلمة والآية قبل كل شيء، لتُخرج الكنوز المختفية في هذا الإنجيل.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر الضئيل من عرض كتب الشرح لإنجيل يوحنا عند الغرب والتعرف على أهم شارحيها. والذي يريد أن يدرس إنجيل يوحنا لا يستثقل مشقة البحث. وطالما كان القارئ أو الباحث والشارح متسلحاً بالإيمان عن وعي مسيحي، فسوف يسخر له الروح معرفة الحق مهما اختفت وراء الأغلفة التي يصطنعها العقل البشري.

الفصل الثالث

النقد الموجّه لإنجيل القديس يوحنا

والرد عليه

كنا نود أن لا نشغل فكر القارئ القبطي، وهو بوجه عام صاحب فكر إيجابي وتقليدي، بهذا الموضوع المثير. ولكن إذ قد أقحم على الكنيسة في كل العالم وبالتالي على جميع المؤمنين، شاءوا أو أبوا، هذا الصراع الخاص بالخط التاريخي في إنجيل يوحنا؛ وذلك ليس من طرف معلم واحد أو مدرسة فكر معينة، بل من جميع مدارس اللاهوت في كافة أنحاء العالم حيث يتزعم هذا الفكر جماعات من ألمع أساتذة اللاهوت ومن جميع الطوائف في أوروبا وأمريكا على السواء؛ لذلك فإننا ونحن لا نريد أن يظل القارئ والدارس القبطي خالي الذهن من جهة هذا النقد، بل هذا الصراع الفكري العالمي، خاصة وأن كثيرين من شبابنا وربما بعض رجال الكهنوت يدرسون في هذه المعاهد أو ينقلون عنها؛

لذلك، حاولنا عرض خلاصة لنواحي هذه الدراسات النقدية، والرد عليها قدر الإمكان.

ويقدم لنا العالم اللاهوتي الأمريكي الكاثوليكي «رايموند إي براون» Raymond E. Brown ملخص هذه الانتقادات في مقدمة كتابه الحديث في إنجيل يوحنا في الجمل الآتية:

[في نهاية القرن السالف وفي السنين الأولى من القرن العشرين الحالي، دخلت مدارس المعرفة في حقبة من التطرف الشكّاك نحو هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا). وقد وضعوا تاريخاً لكتابته متأخراً للغاية، إذ جعلوه من إنتاج منتصف القرن الثاني الميلادي، كما ادّعوا أنه نتاج الفكر اليوناني، وجردوه نهائياً من أي قيمة تاريخية مدّعين أن لا علاقة له بيسوع الناصري إلا في القليل: وحتى النواة الصغيرة التي تمت للحقيقة التي اتخذها المؤلف أساساً لعمله هي في اعتقادهم منقولة من الثلاثة الأناجيل... ومن نافلة القول أن نذكر أن قلة من الناقدين هم الذين كانوا يعتقدون أن هذا الإنجيل يحمل مجرد ظل علاقة بيوحنا بن زبدي

الرسول والتلميذ. وإن بعضاً من هذه المواقف الشكّائية وبالأخص المتعلقة بكاتبه، والمصادر التي أخذ منها مادته لا تزال تتردد في تأليف بعض من ألمع العلماء حتى اليوم.

ولكن المكتشفات الأثرية والبردية من النصوص القديمة التي ظهرت أخيراً، وقد أصبح لها الأثر البالغ غير المرتقب؛ جعلتنا نتحدى، عن علم وأصالة فكرية، كل وجهات النظر النقدية التي كانت قد وُظِّدت أقدامها وأخذت طابع الرسوخ ظلماً. والآن، أدركنا كم كانت الأسس التي بُنيت عليها هذه التحاليل الشكّائية الضخمة أنها تافهة وقابلة للكسر. [١]

ولا يزال أمامنا الهجوم السافر الذي بلا أي أساس الذي قام به «كيرسوب ليك» Kirsopp Lake منذ أربعين سنة فقط، وها نحن نورده بالحرف الواحد:

[إنجيل يوحنا قد يحتوي على متناثرات قليلة من التقليد الحقيقي، ولكن على العموم هو قصة خيالية تعتمد على الوهم (كذا).] [٢]

وقد علق على قوله هذا أحد اللاهوتيين التقليديين المدافعين عن الإنجيل وهو العالم هنتر A.M. Hunter بقوله: [هذا الحكم لا نسمعه عادة إلا بخصوص كتب الهرطقة].

ولكن بعد ذلك ليس بكثير، بل وفي غضون ثلاثين سنة، ردّ عليه العالم الباحث دودد C.H. Dodd في بحثه الذي أخرجه عن: «التاريخ في إنجيل يوحنا» بقوله: [إن وراء إنجيل يوحنا تقليداً قديماً — أقدم من الثلاثة الأناجيل، ومستقلاً عنهم، هو جدير بالتقدير التام لخطورته، لأنه سيعيننا في التعرف على الحقائق التاريخية التي تخص الرب يسوع المسيح.] [٣]

كما ينتهي هذا العالم الأمريكي الكاثوليكي في بحثه لإنجيل يوحنا في طبعته الأخيرة سنة ١٩٨٤ إلى الحقيقة الآتية: [ونحن نؤمن أن إنجيل يوحنا يقوم على تقليد راسخ من الأقوال والأعمال للمسيح. وهذا التقليد في بعض نواحيه واضح أنه أصيل وأولي. كما نؤمن أن إنجيل يوحنا يعطينا معلومات تاريخية صحيحة عن المسيح لم يحتفظ بها أي من الأناجيل الثلاثة.] [٤]

¹ Brown, Raymond, p. XXI.

² Albert Schweizer Jubilee Book p. 431.

³ Dodd, C.H., The Hist. Trad. in the fourth Gospel, p. 433.

⁴ Brown, Raymond, op. cit., p. 41.

أولاً: المصادر المزعوم أنها أثرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله

وسنعرض أولاً إلى الإدعاءات التي تقول أن إنجيل يوحنا أخذ مادته من أصول غير مسيحية.

وبادىء ذي بدء نقول:

إن إنجيل يوحنا كُتب باللغة اليونانية، وفي مدينة أفسس إحدى مواطن الحضارة اليونانية. وقبل أن يدخلها القديس يوحنا الرسول بحوالي ٥٠٠ سنة، كان فيها الفيلسوف هيراكليتوس Heraclitus أول من استخدم لفظة «اللوغس» أي «الكلمة». لذلك يظن كثير من العلماء أن بعض أسفار العهد الجديد مدين نوعاً ما للفلسفة اليونانية، كما تمادى غيرهم من العلماء في اعتبار إنجيل يوحنا يردد أفكاراً لأفلاطون مثل قوله: «أنتم من أسفل أما أنا فن فوق.» (يو: ٨: ٢٣)

‘Υμεῖς ἐκ τῶν κάτω ἐστέ, ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμί·

كذلك «الخبز الطبيعي Natural»، و«الخبز الحقيقي Real».

غير أنه لا تقلقنا هذه التصورات؛ فالأفلاطونية كانت تملأ جو العالم آنئذ، وقد رشح منها كثير من الإصطلاحات في التعاليم العبرية.

كما أتى غيرهم من العلماء من قال إن إنجيل يوحنا أخذ عن «فيلو» الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح وللقديس يوحنا الرسول. ولكن لم يستطع أحد قط أن يبرهن هذا الزعم^(٥). فلقد ظل الفيلسوف اليهودي خامل الصيت حتى في أيام زمانه، بينما صار إنجيل يوحنا وهو تحت الفحص المجهرى نحو أئني سنة شامخ الرأس، يمسك بناصية عالم الروح والإيمان والحب والعبادة والتصوف المسيحي واللاهوت، في أعلى وأعمق مدركاته!!

١ - فلسفة هرْمِس وإنجيل يوحنا^(٦):

كثير من العلماء، ومنهم C.H. Dodd، غرّتهم المشابهة بين الكتابات التصوفية التي نشأت في مصر المسماة Hermetic writings، وكان لها أتباع روجيون وفلاسفة. ونحن لا نستخف بهذا التراث، ولكن التحقيقات أثبتت أنه من عصر متأخر عن زمن الإنجيل.

هذه الكتابات تأخذ اسمها من الإله المدعو Hermes Trismegistus، وهو اللقب اليوناني للإله المصري توت Thoth، وتعاليمه عبارة عن عدة رسائل أهمها الرسالة المدعوة Poimandres،

^٥ Hunter, A.M., Accord. to St. John, p. 33.

^٦ Ibid., p. 24.

وهي لجماعة الهرماتيين الذين كانوا يعيشون في مدينة الأقصر بصعيد مصر كجماعة إخوة روحيين fellowship حوالي القرن الثاني الميلادي^(٧). وكانت لهم مواهب روحية فائقة. وهم يُعتبرون الورثة الشرعيين لحكماء مصر وأسرارها. وفلسفتهم تخلط بين الأفلاطونية والرواقية الهلينية مع مواريث الشرق، سواء الهند أو مصر، لتخرج بتعاليم تصوفية عن الخلاص بالمعرفة.

وبالرغم من وجود بعض انطباقات بين هذه التعاليم وبين إنجيل يوحنا، إلا أن تاريخ هذه التعاليم لم يتحقق تزامنه مع إنجيل يوحنا. فهي لا تزال محصورة بين القرن الثاني والقرن الثالث بعد الميلاد. لذلك، فن المستحيل القول بأن إنجيل يوحنا اقتبس من اصطلاحاتها، بل ربما العكس. ولقد تأكد ذلك بعد ظهور بعض الآثار المكتشفة حديثاً، والتي توضح أن هذه الكتابات المنسوبة لهذه الجماعات أخذت وجودها باللغة اليونانية بعد القرن الثاني^(٨).

٢ — الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا: Gnostics

كان العالمان «رايتزنشتين» Reitzenstein و«بوسيه» Bousset أول من نادى بالتأثير الذي جرى على إنجيل يوحنا من الغنوسية وفلسفتها، وذلك في السنين الأولى من القرن العشرين. وقد تبثى نظرتها بشيء من الإصرار والتجدي كل من العالمين W.Bauer & Bultmann. وذلك في العصر الحديث.

والمسألة الغنوسية مسألة عويصة ومعقدة. وقد قرر العالم J. Munck^(٩) أن: [الغنوسية كمصطلح علمي لم يُقبل حتى الآن بوجه عام بتحديدات علمية مُتفق عليها]. وكل ما هو معروف منها الآن هو الثنائيات التي تقوم عليها كأساس لكل تعاليمها.

والغنوسية تؤمن بالوسائط المتعددة بين الله والإنسان، ومنها وسائط معادية. وهي تقول بأن النفس البشرية هي شرارة إلهية حبيسة المادة، وأن المعرفة وحدها كفيلة بأن تخلص النفس من الشرور وتوصلها إلى النور، وأن الذين يبلغون ذلك قليلون. وهي فلسفة معقدة على العموم، وكانت محدودة بين الذين يعرفونها.

وفلسفة الغنوسية تقوم، مثل جميع ديانات الفراعنة والشرق القديم، على فكرة أن الله سيخلص العالم بواسطة عملية موت وقيامة حيّة، وأن الداخلين في هذه الديانات عليهم أن يمارسوا طقوساً

⁷ Wagner, O.H., U.S.A. The Light of Egypt. T.H. Burgoyns, 1889, 2 Vols.

⁸ Hunter, A.M., idem.

⁹ CINTI (Current Issues in New Testament Interpretation), New York, 1962.

وأسراراً معينة تختلف باختلاف الديانة والعصر لكي يصيروا معدودين لهذا الإله، وأنهم سيقومون بعد الموت بقوى كوكبية تحفظهم من الموت. فالخلاص عند الغنوسيين لم يكن أكثر من تأملات وتعاريف ومسرات عقلية وممارسات تصوفية، كانت تقتحمها قوى سحرية ينهزم أمامها العقل.

وواضح أن المسيحية، وبخاصة إنجيل يوحنا، تقف كواقع تاريخي مشاهد، مشهوداً له وفعلاً بالروح؛ في مقابل هذه القصص الخرافية التي من نسج الخيال والتي لم تكن إلا إرهابات من الروح البشرية وهي تنزع إلى الخلاص، الذي كان قد أعدّه الله، وسبق وتنبأ عنه جميع الأنبياء القديسين منذ القدم، ولكن بصورة معتمة جداً.

وماذا حدث بظهور إنجيل يوحنا؟ لقد انحسرت كل هذه الديانات، وتلاشت كما تتلاشى الخرافة أمام الحقيقة، لأن إنجيل يوحنا — وإن كان قد استخدم بعض ألفاظ أو اصطلاحات الغنوسيين — فقد كان ذلك لأنه كان يكتب إلى الوسط الذي كانوا يعيشون فيه وأثروا عليه، بل وكان يكتب لهم هم أيضاً ولكثير من المسيحيين الذين كانوا قد انضموا إليهم. وأقوى تشبيه عملي يمكن أن نقدمه لهذه المقابلة بين المسيحية في إنجيل يوحنا والغنوسية، هو ما جاء في سفر الخروج بخصوص الحقيقي والسحري هكذا: «وَقَعَلًا هَكَذَا: طَرَحَ هَارُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا. فَدَعَا فِرْعَوْنَ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عِرَافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ، طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْعَصَى ثُعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَى هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عَصِيَّتَهُمْ.» (خر: ٧: ١٠-١٢)

وهكذا عاشت المسيحية وتنصّر الغنوسيون، وعاش إنجيل يوحنا وصار دستور الإيمان لكل مسيحيي العالم. واندثرت الغنوسية بكل تعاليمها وكتبها.

وإن كان إنجيل يوحنا قد تأثر كذلك ببعض الأفكار والعبارات اليونانية، فيقول العالم باريت (١٠): [وهل ننسى أن فلسطين كانت جزءاً من العالم اليوناني؟ وكلٌّ من العنصر الفلسطيني الحر واليوناني الحر أيضاً هو موجود في كافة أسفار العهد الجديد، ولا يمكن فصلهما، ولكنها ملتحمان معاً ومتفقان معاً في إبراز شخص يسوع المسيح. ولم يكن إنجيل يوحنا وحده الذي ظهر فيه العنصر اليوناني، فالعنصر اليوناني كان قد ضغط بشدة على المضمون والشكل للتراث اليهودي].

ولكن بظهور مخطوطات وبرديات نجع حمادي سنة ١٩٤٦ وهي مكتبة للغنوسيين، عُثِر فيها على إنجيلهم الأساسي إنجيل الحق، وإنجيل توما مترجماً بالقبطية عن اليونانية، وفيها شخصية المسيح

¹⁰ Barrett, op. cit., p. 32.

بأوصاف مزيفة تطابق تعاليمهم؛ بهذه المكتشفات أصبحت المقارنة سهلة وواضحة بين إنجيل يوحنا وهذه المزيّفات الهلينية الأصل، كما تأكد أن زمان انتشار هذه الفلسفة كان في القرن الثاني، أي بعد إنجيل يوحنا، وإن كان يُعتقد أن لها جذوراً وثنية أقدم. ويقول العلامة «و. ف. ألبرائت» W.F. Albright (١١) أن هؤلاء الغنوسيين الذين شغلوا بال آبائنا القديسين إيرينيئوس وهيبوليتس مدة في مواجهات ساخنة، هم في حقيقتهم أسوأ بكثير مما ظنّوهم، فالخط الوثني ظاهر في تعاليمهم. وإنجيل يوحنا يحمل ضمناً ما يصلح أن يكون قطعاً لخط الرجعة على جميع تعاليمهم. وكذا تعاليم الدوسيتيين الذين كانوا يدعون أنهم فرع من الغنوسية أيضاً. كل هؤلاء شجبهم إنجيل يوحنا دون مواجهة.

٣ - المانديون وإنجيل القديس يوحنا:

المانديون يُدعون أيضاً بالناصرين Nasareans أي «النصارى». وأصل تسميتهم Manda من كلمة «ماندا» التي تعني «المعرفة»، أي جماعة المعرفة. وهم قسم من الغنوسيين يتخذون القديس يوحنا المعمدان شقيقاً لهم ويعتبرون أنفسهم من أتباعه. وبعض من هذه الشيعة لا يزال يعيش إلى الآن في جنوب العراق. وعندما قام العلامة الألماني «ليدزباركي» Lidzbarky بترجمة كتبهم (١٩١٥-١٩٢٥)، وأهمها الجزأ أو الكنز Treasure وهو من القرن السابع، ظهر فيها بعض ألفاظ متشابهة مع إنجيل يوحنا مثل الحياة والنور والمجد ورموز الماء والخبز والراعي، وتعاليم عن فادٍ نزل من السماء إلى عالم الظلمة ليمارس الفداء لأتباعه قبل عودته إلى السماء. وفي الحال انتشرت حتى «الماندية» بين العلماء، إذ وجدت كل أدوات التشابه في التعليم مع إنجيل يوحنا. وأشد من أصابت هذه الحمى كان هو العلامة الألماني «بولتمان» للأسف، الذي ظن، بل أقدم على القول، أن هذه الشيعة أقدم من المسيحية؛ ولكنه لم يستطع أن يوفر لهذا الظن أي برهان. إذ أن كل ما يعرفنا عن هذه الشيعة إنما هو كتابات القرن السابع الميلادي، حيث لا يُذكر فيها القديس يوحنا المعمدان بإسمه الإنجيلي بل بإسمه العربي «يحيى» بن زكريا. والمعتقد أن هذه الشيعة فرع شارد من المسيحية، وأتباعها من أشد أعداء المسيحية. وكانوا يدعون أنفسهم «نصارى» وقت الغزو الإسلامي حتى ينهبوا وراء «أهل الكتاب». وكانت لهم صلة بجماعة الإيبونيين (١٢).

ومن أسرارهم تكرار المعمودية لمساعدة الروح على ترك الجسد بعد الموت. ولكن للأسف ليست أمامنا مراجع كافية لكشف الغطاء عن هذه الجماعة، لأن كل مراجعهم لا تزال باللغة الألمانية،

¹¹ Albright, W.F., The Background of the New Testament and its Eschatology, Cambridge University Press, 1965, p. 162.

¹² Hunter, A.M., op. cit., p. 23-33.

إلا مرجع مختصر للمؤرخ العلامة نياندر^(١٣) مترجم إلى الإنجليزية، وهو الذي أعطانا صورة مبسطة عن العلاقة القائمة بين «الإيبسيونيين» Ebionites والنصارى أي «المانديين» الذين كانوا يقدسون يوحنا المعمدان وينسبون إليه كل مواهب إيليا، لما كانوا يعتبرون أورشليم (قبل خرابها) أنها مدينة الله. وكانوا يعيشون على أمل عودة المسيح السريعة ليعيد لأورشليم أمجادها وملوكيتها لحكم الألف سنة (هكذا). وقد كان الإيبسيونيون بؤرة فساد بالنسبة للشعب المسيحي الذي تأثر بهم.

ويمدنا أوريجانوس^(١٤) — بصفة خاصة — ببعض الأخبار عن وجود بقايا لهم (في زمانه) في فلسطين. واستطاع أن يعرف أنهم قسمان: قسم يؤمن بميلاد المسيح الإلهي من العذراء، وقسم يرفض ذلك. كذلك يمدنا جيروم^(١٥) بمعلومات تفيد أن جماعة أخرى منهم كانت تعيش في «بيريه» بسوريا في القرن الرابع، وكانوا يُعرفون باسم «النصارى» Nazareth، وكانوا يقاومون العزوبة ويأمرون بالزواج، وهؤلاء هم الذين عُرفوا بعد ذلك بالماندية.

٤ — مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا:

وهي الكتابات التي اكتُشفت حديثاً في التلال المطلّة على البحر الميت. وأهم هذه المخطوطات هي: «منهج التلمذة» وهو كتاب قوانين الجماعة، و«العهد الدمشقي»، و«شرح على حبقوق»، و«دَرَج التطويات»، و«دَرَج الشهادات»، و«حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة». وهذه المخطوطات تحمل بقايا تعاليم حياة الأسينيين، وهم جماعة رهبان اليهود، وتعاليمهم يهودية تقدمية تقترب من تعاليم العهد الجديد، ومن إنجيل يوحنا بصفة خاصة. وتغطي هذه الكتابات حقبة زمنية تنحصر بين نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي. وربما يكون القديس يوحنا قد اطلع على شيء منها.

وأول عالم جمع بين تعاليم هؤلاء الأسينيين وبين إنجيل يوحنا، هو العالم K.G. Kuhn، وذلك سنة ١٩٥٠. وأهم هذه التعاليم، المتقابلات: أولاد النور وأبناء الظلمة، الخير والشر، الذين يعملون الحق علماً بأن الحق لا يُعمل بل يُعرف فقط في المنهج الفكري اليوناني. إذن، نحن في عمق تراث العهد القديم حيث يتركز تعليمهم: «كل مَنْ يعمل الحق يكره الخطأ»، و«كل مَنْ اختار الخطأ فهو يسلك في الشر ويخاف من الحق». هذه الإصطلاحات قريبة من لغة إنجيل يوحنا.

ولكن الروابط بين هذه الكتابات وبين إنجيل يوحنا تبدو ضعيفة. فزعماء النور وزعماء الظلمة

¹³ Neander, General Ch. Hist., vol. II, 13-34.

¹⁴ Origen, C. Cels., I, V, c. 61.

¹⁵ Hieronimos, Commentar in Jsai. I. IX. c. 20.

هي مخلوقات في تعاليم القمرانيين - فزعيم النور هو ملاك - ولكن في إنجيل يوحنا النور مشخّص في المسيح ابن الله؛ كذلك فإن معركة أبناء النور ضد أبناء الظلمة لن تنتهي إلا بالمعركة الفاصلة القادمة، وهي عقيدة يهودية عامة من حيث المبادئ العامة التي تحكم العالم. أما في إنجيل يوحنا فهذه المعركة انتهت على الصليب بالنصرة الأبدية لحساب النور وأبناء النور، وبالقيامة داس المسيح على رأس رئيس الظلام وكل جنوده. «الآن النور يضيء»!! «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو ١٢: ٣١)

وعندما قال القديس يوحنا في الأصحاح الأول أن «النور الحقيقي» كان آتياً إلى العالم لم يقصد نور المعرفة أو نور معرفة الناموس ولا نور الفكر، إنما نور الحياة الأبدية، نور استعلان الخليقة الجديدة «الجالسون في الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور» نور الحياة!! هذه هي الحياة الجديدة بالروح. هذا الفهم بعيد غاية البعد عن مفهومات وادي القمران بالنسبة للنور وأبناء النور وحرب أبناء النور!!

فإذا كان رد القمرانيين على السؤال كيف أصبح «ابناً للنور»؟ هو بأن أسلك بحرفية الناموس وأتلمذ لمعرفة التوراة! فإن ردّ إنجيل يوحنا هو أن أؤمن بالمسيح!! وبالاختصار، فالفارق الأعظم بين تعاليم وادي القمران وإنجيل يوحنا هو شخص يسوع المسيح ابن الله المتجسد. وهذا غائب عن فكر، بل وعن خيال عبّاد وادي القمران.

إن الضجّة الكبرى التي واكبت اكتشاف مخطوطات وادي القمران قد خمدت بعد التمعن فيما تعنيه الكلمات والمسمّيات والإصطلاحات. فهي وإن كانت متشابهة مع إنجيل يوحنا، ولكن مدلولها يختلف اختلافاً لا وفاق فيه على الإطلاق.

ه - فيلو العلّامة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا:

لقد وُلد العلّامة فيلوسنة ٢٠ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٤٩ ميلادية. وهو إسكندري المولد والوطن. وقد آل على نفسه أن يصالح العبرية والهللينية، ونحو هذه الغاية ركّز كل كتاباته الغزيرة، شارحاً وموضحاً المعاني الدفينة التي احتوتها نصوص العهد القديم بطريقة روحية فلسفية تجريدية لا تخلو من إبداع.

وقد امتد أثره امتداداً ضعيفاً لا يُذكر بين يهود الإسكندرية، ولكن بلغت تعاليمه، عن طريق الصدفة، إلى مدينة أفسس بآسيا الصغرى بنزوح أحد تلاميذه إلى هناك، وهو أبُلُوس المذكور في سفر أعمال الرسل (أع ١٨: ٢٤ و ٢٥): «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبُلُوس إسكندري الجنس رجلٌ فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب، وكان وهو حار بالروح يتكلم

ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط» .

وقد كان، في غالبية الأمر، تلميذاً لفيلو قبل أن ينتهي في علمه بأسفار العهد القديم إلى حقيقة الرب يسوع المسيح. وعن طريق أبُلُّوس هذا، عرفت أفسس شيئاً عن اللوغُس الذي اتَّخذه فيلو أساساً لشرح التوراة وعماداً لمذهبه اللاهوتي الفلسفي .

ولكن ليس هذا معناه أن أبُلُّوس أو فيلو أخصب إنجيل يوحنا بمعرفته الفلسفية، ولكن كل ما يمكن أن يُقال أن كل استفادة القديس يوحنا لا تخرج عمّا استفادته الكنيسة من أبُلُّوس قبل أن يعتمد ويقبل المسيح على يدي أكيلاب و بريسكلا . أو كما كان بولس الرسول وعاءً صالحاً لقبول معرفة الرب يسوع المسيح بسبب غيرته على معرفة الله والحق . أي أنه بسبب ما أضفاه فيلو من معرفة روحية بالأسفار المقدسة، وبعد ما أرساه القديس بولس الرسول أيضاً، فقد تهيأ لأهل أفسس استعداد صالح لقبول إنجيل يوحنا بمستواه اللاهوتي الفائق ..

وقد كان فيلو يهودياً مُخلصاً لميراثه يدين بالخضوع الكلي للتوراة، معطياً إياها السلطان المطلق . ولكنه كان يطرق الآيات بفكر قد تشبّع بالفلسفة الأفلاطونية الرواقية إلى الدرجة التي استطاع أن يحوّل فيها كل اصطلاح طقسي أو ناموسي في التوراة إلى إحساس روحي محض، كذلك يحوّل كل إحساس روحي إلى اصطلاح أفلاطوني رواقى . وكان يجني من عمله هذا تركية عظيمة للديانة اليهودية لدى العالم اليوناني .

ولكن هناك فرق شاسع بين مذهب فيلو الذي يرفع حقائق التوراة إلى المثال المطلق الأفلاطوني، وبين إنجيل يوحنا الذي يقدم المثال المطلق الإلهي في حالة متجسدة ملموسة ومنظورة .

فشلاً، نحن نجد في كلٍّ من إنجيل يوحنا وكتابات فيلو هذه الحقيقة: «(الله نور)» . أما فيلو فقد التقطها من المزمور «(الرب نوري وخلصي)» (مز ٢٧: ١)، فرفع هذه الحقيقة إلى فكر تأملي مجرد، قرر بعده أن «(الله نور)» ثم استرسل في هذا المعنى، ثم يستخرج بطريق المنطق ما يلي: [بما أن الله هو النور فهو يرى ذاته، وهو قادر أن يعلن عن ذاته . وبما أنه بالنور نرى النور (اقتباس من مزمور آخر)، فالله لا يمكن أن يُرى إلا بواسطة الله] . والذي يقرأ هذا، يظن أنها مطابقة إلى حد ما لما جاء في إنجيل يوحنا: «(أنا هو نور العالم)» ، «(مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة)» ، «(أنا أشهد لنفسي وشهادتي حق)» ، «(ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلا بي)» . ولكن بالرغم من المشابهة المعنوية إلا أن هناك خطأ فاصلاً يفصل كلام فيلو المصنّع عن كلام إنجيل يوحنا الصادر من منبع النور؛ كما تفصل العين الحاذقة الوردية الصناعية عن الوردة الطبيعية الحية . فيلو يتكلم عقلياً عمّا استطاع

أن يدركه بالتأمل، وإنجيل يوحنا يتكلم الله فيه عن نفسه كنور حقيقي أظهر ذاته للعالم، فاستنار؛ كما فتح عيني المولود أعمى فرأى نور العالم. فأية مطابقة هذه تلك التي يراها الثُّقَاد بين فيلو والإنجيل؟

كذلك فإن كُلاً من فيلو والإنجيل يقول إن: «الله ينبوع ماء حي»، وبهذا يمكن أن يقع الناقد في ضلالة الاقتباس، أي اقتباس الإنجيل من فيلو! ولكن فيلو قرأ آية إرميا النبي: «تركوني أنا ينبوع المياه الحية» (إر ٢: ١٣)، التي تُقرأ أيضاً «ينبوع الحياة». ثم تأمل فيلو في مفهوم الماء، وفي الحال قال إن الماء هو كلام التوراة، أي الحق أو الحكمة أو الحياة ذاتها، وانتهى بذلك فيلو إلى القول أن الله هو المصدر أو الصلة الأولى أو المثال الأول للحياة والحق والحكمة.

فَمَنْ يقرأ لفيلو هذا الكلام يتذكر قول الإنجيل: «مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤: ١٤). وهنا أيضاً يظهر الفارق الشاسع بين الإثنين، فالأول كرسام يرسم الماء على الحائط للعطشان، والثاني يقدم ماءً حقيقياً يروي العطشان ريثاً. وهنا المسيح إنما يحقق قول إرميا النبي، لأنه قد جاء ليكمل النبوة بالفعل والعمل. فإرميا كان يتنبأ عن المسيح، فإذا تكلم المسيح بما قال إرميا فهو إنما يتكلم عن نفسه بالحق، فهو صاحب العهد القديم بكل نبواته: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ ١٩: ١٠). ولكن إذا تكلم فيلو عما قاله إرميا، فهو، في حقيقة الأمر، يتكلم عن المسيح، ولكن دون أن يدري (١٦).

٦ - أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا:

الأسفار التي تتكلم عن «الحكمة» في العهد القديم إما من الأسفار المعتبرة من الأسفار القانونية الأولى مثل سفرَي الأمثال والجامعة، أو من تلك الأسفار المعتبرة أسفاراً قانونية ثانية مثل سفرَي الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ، أو من الأسفار غير القانونية ولكن المعتمدة لدى الباحثين مثل سفر أخنوخ.

ومن قراءة هذه الأسفار يتضح لنا أن إنجيل يوحنا كان في تقديمه للمسيح قبل التجسد بأنه هو «الكلمة» و«الإبن الوحيد» مُشَخَّصاً تشخيصاً كاملاً، أي بلغة اللاهوت كأقنوم إلهي قائم في الله ومع الله، كان ذلك بإلهام الروح القدس الفائق، بحيث لم تخرج أوصافه عن الخط النبوي الذي

¹⁶ - ICC, Bernard, pp. 93,94.

- Hoskyns, op. cit., p. 158.

- Dodd, C.H., op. cit., pp. 54-74.

كان قد سبق الروح وأعطى ظلالاً عنه في أسفار الحكمة . ولكن معرفة القديس يوحنا بـ «الكلمة» هي معرفة اختبارية مُعاشة ، ولم يستمدّها من دراسة أسفار الحكمة ولا أية كتب أخرى : «الذي رأيناه بعيوننا... ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة.» (١ يوحنا : ١)
ويتضح هذا التوافق من الجدول الآتي (١٧):

أسفار الحكمة	إنجيل يوحنا	
«الرب قناني (جعلني) أول طرقه» . «كنت عنده» .	أم ٨: ٢٢ أم ٨: ٣٠	١: ١ «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» .
«خالق الإنسان بحكمتك» . «كنت عنده صانعاً» . «الرب بالحكمة أسس الأرض» .	حكمة ٢: ٩ أم ٨: ٣٠ أم ٣: ١٩	٣: ١ «كل شيء به كان» .
«الحكمة صانعة كل شيء» .	حكمة ٢٢: ٧	
«مَنْ يجدني يجد الحياة» . «الحكمة ضياء النور الأزلي» .	أم ٨: ٣٥ حكمة ٢٦: ٧	٤: ١ «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» .
«إذا قيست بالنور تقدمت عليه» . «لأن النور يعقبه الليل أما الحكمة فلا يغلبها الشر» .	حكمة ٢٩: ٧ حكمة ٣٠: ٧	٥: ١ «والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» .

¹⁷ Hunter, op. cit., p. 33.

١٠:١ «كان في العالم» . سيراخ ٢٤:٢٥ «إني خرجت من فم العلي

بكرأ قبل كل خليفة .
وجعلت النور يشرق في
السموات على الدوام
وغشيت الأرض كلها
بالضباب» .

١٠:١ «والعالم لم يعرفه» . أم ١:٢٩ «رفضوا الحكمة» .

١١:١ «جاء إلى خاصته
وخاصته لم تقبله» .
أخنوخ ٢:٤٢ «ذهبت الحكمة لتجعل
مسكنها بين الناس فلم تجد
لها مكاناً» .

١٢:١ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً
أن يصيروا أولاد الله» .
حكمة ٧:٢٧ «تحل في النفوس القديسة
فتنشئ أحياء لله وأنبياء» .

١٤:١ «وحل بيننا» . سيراخ ٨:٢٤ «والذي صنعني عيّن مقر
مسكني وقال اسكنني في
يعقوب» .

«مجد ابن وحيد لأبيه» .
حكمة ٧:٢٢-٢٥ «فإن فيها روح الفهم،
القدس، ، المولود الوحيد،
بخار قوة الله، وصدور مجد
القدير الخالص» .

قدّم هذه المقابلة الجيدة الإختيار العالم رندل هـ ريس J. Rendel Harris (١٨)، وفيها يتضح
أمام القارئ مقدار القُرْبى الشديدة في الأسلوب والمعنى بين أسفار الحكمة وإنجيل يوحنا، وكيف أن

¹⁸ Harris, J. Rendel, The Origin of the Prologue to St. John, G 1917.

الحكمة يقدمها الوحي مشخّصة قائمة مع الله، وعند الله، وأمام الله. وكثيراً ما كان ينتقل كاتب سفر الحكمة من الحكمة إلى الله ومن الله إلى الحكمة، في العمل، دون أدنى تفريق أو خذرا! حيث تتقارب بصورة ملفتة للنظر أوصاف الحكمة وأوصاف الكلمة عند القديس يوحنا، وكلاهما يأتي مُعبّراً عن فكر الله، وعمل الله، وإرادة الله، لا على مستوى الفكر الخالص أو مجرد العمل، بل ككيان قائم بذاته متغلغل في الكون وفي الإنسان والخلقة.

والقديس بولس الرسول يلمح هذا ويعبّر عنه هكذا: «بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداً وفداء.» (١ كور: ١: ٣٠)

ولكن مهما كان التشابه والتقابل والتناسق بين الحكمة و«الكلمة» عند القديس يوحنا، إلا أن «الكلمة» يظل متميزاً بتفوق شخصي في وضوح بلغ عظمته وتفردّه حيناً بلغ حد الظهور العلني متجسداً!! «والكلمة صار جسداً» ومتأنساً «كإبن الإنسان»، ليستعلن في نفسه ومرة واحدة وإلى الأبد سراً أبوة الله التي اكتمل حنانها وحبها في شخص يسوع المسيح نحو العالم والإنسان الخاطيء!!

ثانياً: النقد الموجّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا

وهذا النقد بنوع خاص شغل العلماء المحافظين والتقليديين، وخاصة الأتقياء منهم، بل وأقضى مضاجعهم. وقد حاولوا جميعاً، كلٌ منهم حسب قامته في الإلهام والمعرفة، معاً، أن يرد على احتجاجات المؤرخين العلميين ويصدّ الشفرات التي فتحوها للنيل من الأصالة التاريخية لهذا الإنجيل؛ كما يقول العالم اللاهوتي التقليدي هوسكنز: [إن الدراسة الحديثة للإنجيل الرابع قد ألقت على الكنيسة مشكلة ضاغطة ألا وهي مشكلة التاريخ] (١٩). ثم يعود ويسخر من هؤلاء العلماء الملتزمين بالعلم التاريخي حيناً أرادوا أن يطبقوا علمهم على منهج إنجيل يوحنا بقوله:

[إن كاتب الإنجيل الرابع من ناحيته يضغط أكثر على قرائه بعمق لاهوتي متفتح نحو ما هو أكثر أهمية من مشكلة التاريخ، وما هو محير أيضاً — لأي فكر علمي — حيناً يطرح «جسد» يسوع ابن الإنسان للأكل، ودمه للشرب!! ثم يضغط أيضاً بضرورة أن يتذكر الناس كل ما قاله (٢٠) (يو: ١٤: ٢٦)؟

^{١٩} Hoskyns, op. cit., p. 58.

(٢٠) الاعتماد هنا لم يصبح على دقة الكاتب أو دقة التسجيل أو دقة التاريخ أو دقة الفهم، إنما على الروح القدس.

مرة أخرى نقول: جسد، دم، أكل، شرب، وضرورة تذكر كلامه؟؟ إنه صعب أن يتصور الإنسان مثل هذه اللغة التي تصعق الفكر، وبالأكثر حيننا نحاول أن ننظر من خلالها إلى العنصر التاريخي! ولكن وبإصرار أكثر لا يقنع كاتب الإنجيل أن يستقر فكر القارئ حتى على نوعية وأهمية التاريخ هنا، بل يعود ويزحزح الفكر: «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً!!» (يو: ٦٣: ٦٣)

إذن، على قياس الروح القدس وقيادته فقط تصبح كلمات المسيح ذات قيمة وقدر عال: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦٣: ٦٣). ولكن إذا لم يفهموا كلام المسيح فالعلة تكون هنا أن المسيح نفسه «ككلمة» = لوغُس قد فات عليهم هم إدراكه: «لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (كلمتي = لوغُس) τὸν λόγον τὸν ἐμὸν» (يو: ٨: ٤٣). والنتيجة بالضرورة أن كلمات المسيح تحتاج لفهمها إلى شرح خاص من الروح ومن الحق فقط! «وأما المُعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يو: ١٤: ٢٦)...

فإذا أخذت كلماته باعتبار أنها رواية تاريخية وحسب، فإنها تصبح تافهة للغاية وبلا معنى! «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته^(٢١)، يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلّم أنا به من نفسي.» (يو: ١٦ و ١٧)

نعم، هذه هي شهادة كاتب الإنجيل شهادة تنطلق كقطعنة خنجر في قلب العالم!! ذلك إن كان العالم هو العالم الذي أوجد نفسه بنفسه وأن له نظامه وحقه الطبيعيين (أي إن كان بلا تاريخ إلهي)، وهي أيضاً الشهادة التي يطرحها الإنجيل الرابع كقطعنة أيضاً في قلب التاريخ، إن كان التاريخ هو التاريخ الذي يحوي في طياته برهانه نفسه ومعناه الذي يقبل وحده التحليل والوصف.

بل لا نبتعد عن الصواب إذا ما قلنا أن المسيح نفسه كان مهتداً في وجوده — إن كان كما تصوره اليهود — قد ظهر على مسرح التاريخ «بتأكيد من ذاته وحسب» مبتدريين إياه بسؤال التحدي: «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو: ٨: ٥٣)، حيث إذا أزداد كلمة واحدة فيكون هذا هو التجديف! وهنا نقف ونلتفت إلى ما كان يدور في ذهن كاتب الإنجيل آنثذ، إذ علينا أن نتصور أي وعي للتاريخ وأي إحساس كان يتجاوب في قلبه حينئذ عن مشكلة التاريخ. هنا الكاتب كان بصدد مشكلة لا يمكن التهرب منها، فحقيقة موت وحياة يسوع الناصري تاريخياً كان يتحتم أن تدعمها معرفة بتعاليمه وأعماله وظروف موته بالقدر الذي

(٢١) أي مَنْ أراد في قلبه أن يعمل حسب مشيئة الله، تفتتح بصيرته ويعرف في الحال مصدر تعليم المسيح.

يكفي لكي يتجراً ويكتب، لا عجالة عن أصول الديانة المسيحية، ولكن إنجيلاً! [(٢٢)

وفي النهاية يقول هذا العالم المدافع عن الأصالة التاريخية لإنجيل يوحنا:

[ونحن نصرُّ على أن كاتب الإنجيل الرابع لم يضع بإنجيله ملحقاً تاريخياً لإضافة شيء على المعرفة التاريخية للكنيسة الأولى، بل إنه أعاد لها صياغة التاريخ الإنجيلي برُمَّته، وذلك بمقتضى تقارير ذات أصالة من واقع تعاليم المسيح وأعماله. وقد صنع الكاتب هذا ليس بسلطان شاهد عيان كرسول، بل بسلطان أعظم، كتلميذ كان يسوع نفسه يحبه، وقد ائتمنه وأسرَّ إليه بمعنى حياته وموته!... بهذا يكون الإنجيل الرابع قد أصبح هو الوثيقة التاريخية بالدرجة الأولى، أما الثلاثة الأناجيل الأخرى فهي، من بعده، وثائق أيضاً تاريخية لها أهميتها، ولكن ليس بينها من تناقض، وليس فيها ما يتعارض مع التاريخ بحسب قصد الإنجيل الأسمى.] (٢٣)

22 Ibid., pp. 58,59.

23 Ibid., pp. 67,68.

الرد على النقد التاريخي لإنجيل القديس يوحنا

١ - إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ:

إنجيل يوحنا له هدفه المحدد الذي يسعى إليه كاتبه القديس يوحنا منذ أول كلمة فيه ، ليكمّله بالروح حسب مشيئة الله المستعلنة له . تماماً كما نقرأ للقديس لوقا في مطلع إنجيله عن الهدف المحدد الذي أوحى به الروح القدس له ليكمّله حسب مشيئة الله المعلنة له . أما القديس لوقا فكان هدفه أن يستعرض تاريخ قصة الأمور المتيقنة عنده كما سلّمها له الذين كانوا معانين وخداماً « للكلمة » ، أي المسيح منذ البدء . ووعده الكاتب أن يكون ذلك بالتدقيق ليتأكد القارئ من صحة الكلام الذي سمعه سابقاً بالنقل الشفهي (لوقا : ١ - ٤) .

أما القديس يوحنا فهدفه المحدد له من الروح سجله في ختام إنجيله ، حينما أحس بالروح أن الذي كتبه فيه الكفاية ليحقق الهدف . وهدفه كان إيمان القارئ بشخص يسوع المسيح إيماناً يكفيه ليستعلن منه أن يسوع المسيح هو ابن الله ؛ لأن بهذا الإيمان ، كان القديس يوحنا متيقناً أن القارئ سوف ينال الحياة الأبدية « بإسم » المسيح (يو ٢٠ : ٣٠ و ٣١) . والقديس لوقا ، إن كان قد اعتمد في سرد رواية إنجيله على ما تسلمه من الذين عاينوا المسيح وخدموا الكلمة أي التلاميذ : « أنتم الذين تعبتُم معي في التجديد » ؛ فالقديس يوحنا كان هو الذي عاين الرب يسوع وخدم معه كتلميذ امتاز عن جميع التلاميذ الآخرين بأن يسوع كان « يحبه » . وهذه الكلمة « يحبه » تشير إشارة بليغة إلى ما وراءها : « الذي يحبني ، أحبه وأظهر له ذاتي » . وبالفعل نتيقن نحن من إنجيله أن الرب أعلن له « ذاته » . وكلمة « ذاته » - أي ذات المسيح - تفيد « مَنْ هو » ، وما هي « صلته بالله » ، وسر « عمله ورسالته » . وهذا هو بعينه ما سلّمه إلينا القديس يوحنا في إنجيله . وقد كان هذا هدفه من بدء الإنجيل حتى نهايته .

إذن ، فإنجيل يوحنا لم يأت قصة ولا مجرد سرد أخبار مسموعة أو منقولة كما هي عن المسيح ، ولكن استعلاناً لشاهد عيان مؤتمن لدى المسيح نفسه كتلميذ محبوب مفتوح العينين والسمع ، يشهد أن يسوع المسيح نفسه هو ابن الله . ولهذا الهدف اختار القديس يوحنا من بين الأقوال التي قالها الرب وسمعها هو والأعمال التي رآها هو ، ما يثبت للقارئ أن المسيح هو ابن الله . والقديس يوحنا لم يُلزم نفسه ولا ألزم القارئ - كما تعهّد القديس لوقا - أنه سيتبع الخط التاريخي بدقة لحياة السيد المسيح من البداية حتى النهاية ، كما قال القديس لوقا ، بل قال بكل وضوح إن : « آيات الخُر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب » (يو ٢٠ : ٣٠) . أي أنه تخلى عن الرتبة

التاريخية كما تخطى عن أن يكتب كل ما رأى وسمع، لأنه واحد من التلاميذ الذين صُنعت قدامهم هذه الآيات. ولكنه اختار ما يختص بهدفه فقط: «وأما هذه (الآيات) فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله؛ ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة بإسمه.» (يو ٢٠: ٣١)

٢ - تحرك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي:

وواضح من إنجيل يوحنا، كيف خضع والتزم بهذا الهدف بكل دقة، سواء في مجموعه ككل أو في أجزائه التي يقدمها الكاتب لتخدم قضية الإيمان بيسوع المسيح ابن الله، لينال القارئ والسامع حياة بإسمه. لذلك نلاحظ بشيء من الإندهاش روح الإلهام واضحة وكيف ينمو خط الإستعلان نمواً متزايداً متّزناً نحو هذه الغاية بكل انتباه كلما اقتربنا من النهاية. كما نلاحظ أن خط النمو الإستعلاني هذا يربط بإحكام بين الحوادث والأقوال، وينتقل بها جميعاً في قوة وانسجام وترابط، وكأن الأصحاحات حيّة تسير مع القارئ، لا يُترك منها كلمة واحدة، بل الكل يتحرك معاً صوب الهدف!

على أن هذا التوقيع للحوادث والأقوال توخى الالتزام بالخط التاريخي قدر ما يسمح به الحال، لأن حركة الإنجيل مرتبطة أساساً بهدف لاهوتي صميم. فالقارئ المتفتح الوعي والبصيرة يمكنه أن يلاحظ عدم غياب الخط التاريخي هذا من داخل الحركة الإستعلانية.

فمَوْضُ أن يبدأ الإنجيل بقصة ميلاد المسيح زمنياً على مستوى التاريخ المدني كبقية الأناجيل، قدّم لنا هذا الميلاد بعينه وما هو قبل الميلاد أيضاً، إنما على المستوى اللاهوتي. إذ قال أولاً: «في البدء كان الكلمة... وكان الكلمة الله» (يو ١: ١)، ثم «والكلمة صار جسداً وحل بيننا.» (يو ١: ١٤)

ومَوْضُ أن يقدم يوحنا المعمدان على مستوى التاريخ كعمد للمسيح، قدّمه كشاهد لاهوتي لبنوة المسيح لله «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣٤)، وأنه سيعمد بالروح القدس. وأضاف شهادة أخرى للمسيح تشير إلى نهاية عمله الخلاصي بالصليب حينما قال المعمدان: «هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩). وهكذا حملت الشهادة كل ما يختص بالمسيح لاهوتياً!!

وحياة السيد المسيح العلنية التي يقدمها إنجيل يوحنا تبتدىء في عمق الزمن وعمق الله معاً: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده، مَجْدَ وحيدٍ لأبيه، مملوءاً نعمة وحقاً» (يو ١: ١٤). وهكذا تفصح الآية أن «الكلمة» صار ابن الإنسان، وهو ابن الله، بأن واحد.

ثم أنهى إنجيل يوحنا حياة الرب العلنية بالموت، وباستعلان مجد الإبن معاً: «أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك.» (يو ١٧: ١)

والآن، فليُنظر القارئ ويحكم هل يمكن أن يكون تلاحم بين التاريخ واللاهوت أكثر من هذا تلاهماً؟ أو بين الزمن والأبدية؟

وبديهي أن يدرك القارئ أن ما كان يحتفظ به القديس يوحنا من الحضور الإلهي في ذهنه وتقييمه لدقائق حياة المسيح وربطها بالهدف، كان من المستحيل أن يتخلل عنه لحظة واحدة لكي ينتبه لمجرى التاريخ فيبحث، مثل القديس لوقا، عن أوغسطس قيصر روما في ذلك الزمان وعن كيرينيوس والي سوريا، أو يبحث مع القديس متى عن هيرودس ملك البلاد وخوفه على عرشه، أو يتبع منهج القديس مرقس في البحث عن حياة المعمدان الخاصة في البراري وليثسه وثر الإبل وأكله العسل والجراد. هذا كله كان، في الحقيقة، يخرج عن منهج الروح الذي كان يعمل في قلب يوحنا وفكره، فلم يكن يلمع في ذهنه إلا شخص يسوع المسيح المستعلن في بنوته الأزلية لله. ونحو هذا الهدف ركّز فكره وقلمه وذاكرته وروحه متحسناً قصاصات الورق أو الرق التي كان قد سجل عليها مذكراته منذ أيامه الأولى مع المعلم.

لهذا كان القديس يوحنا يكتب على خلفية حية تحمل صدق تاريخها معها دون بحث منه أو عناء. فلم تفقد هذه الخلفية ضياء الحق واللاهوت فيها. لذلك، فإنه في توقيعاته للحوادث، ومهما استطرد فيها، فإن القارئ يشعر أن القديس يوحنا وهو يكتب ويسجل أقوال الرب وأعماله لم يكن يعمل حساب النقاد والمتشككين، المعتبرين عالة على الإنجيل، بل نحاهم من رؤيته ومن إنجيله منذ البداية: «الذي لا يؤمن قد دِينَ» (يو ٣: ١٨). وكان يكتب عن الحق وقد التزم به، وكان يسجل عن «الحياة» فأنحصر فيها. فلا الطابع الرسولي المتميز بسلطانه، ولا الأمانة التاريخية، أصاب أي منها أدنى انحراف على مدى الكتاب كله، بالرغم من أنه كان عليه أن يصيغها بلغة اليونان بينما هي حاضرة في ذهنه برطانتها الآرامية (الآرامية هي لغته الوطنية).

٣ — مميزات القديس يوحنا التي أهّلته لإستعلان أسرار المسيح، وتدوين الإنجيل:

وهناك سؤال محير يطرح نفسه على فكر القارئ إذا هو انتحى ناحية الفحص العقلي أو الفهم المنطقي: وهو إلى أي مدى يستطيع رسول — مثل القديس يوحنا — أن يسترجع حياة المسيح، حتى وإن كان كشخص كان يعاشره بلا تحفظ، إذ كيف يسجل ما قاله المسيح وما عمله والمناقشات التي دارت بدقتها المتناهية والأحاديث المطوّلة وصلاته السرية الخاصة للآب كما سجلها في إنجيله؟

مع ما كانت تنطوي عليه هذه المناقشات والأحاديث من اتجاهات خفية في ذهن المسيح أو ذهن الجموع أو الأفراد المجادلين؟ هذا وبعد عدد عديد من السنين يزيد عن نصف قرن؟ علماً بأنها لم تسجل في الأناجيل الأخرى؟

وللرد على هذا السؤال البالغ الأهمية بالنسبة لحياة القارىء نقول:

إن كان «ابن الله - الكلمة» قد تجسد، أو بتعبير القديس بولس الرسول «الله ظهر في الجسد»، إذن فهنا استعلان فائق قد حدث بالفعل، وقد حدث ومعه مجاله الإستعلاني لفتح بصيرة الإنسان، وهذا ما حدث وما كان قائماً في ذهن القديس يوحنا، وقد حملته الروح مسئولية استعلان هذا الحدث الإلهي. والإستعلان في ذاته كمُّ روحي هائل لا يتناقص قط بمرور السنين، بل يزداد توهجاً ولمعاناً في الذهن، لأن من صميم طبيعة استعلان الله الإمتداد والإنتشار في كيان الإنسان إلى ما لا نهاية. بهذا يكون إنجيل يوحنا يُشكّل فيضاً إلهامياً من الإستعلانات المتتابعة المقترنة بالحوادث لكشف أخطر أسرار الله استعلاناً وهي «طبيعته الذاتية»، التي هي طبيعة المسيح؛ والتي استطاع القديس يوحنا بالجهد أن يصيغ لها حدوداً بالقلم، فاختر من ألوف الحوادث والأقوال والآيات ما يستطيع أن يقدمه ليغطي حياة المسيح كلها باختصار بالغ دون أن يخرج عن التقليد الرسولي المعروف والمذاع في الأناجيل آنذاك.

هذا الجهد الروحي المبذول، بالرغم من ضخامته، اعتبره القديس يوحنا قاصراً ومقتصراً في استيعاب كل أطراف حياة المسيح وكل ما قال وعمل، وعبر عن ذلك بتصوره أن العالم كله لا يسع الكتب أو المكتوب إن هي استوعبت حياة المسيح بدقائقها!!! «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب.» (يو ٢٠: ٣٠)

«وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.» (يو ٢١: ٢٥)

(أ) أما كيف سجل القديس يوحنا أحاديث المسيح، وبالأخص الصلاة الأخيرة في أصحاح ١٧ بعد العشاء الأخير بما تحتويه من أسرار وعمق لاهوتي ومخاطبة مباشرة للآب تُعتبر كلها أحاسيس وعواطف ذاتية (علماً بأن القديس يوحنا حسب ما نعرفه عنه من الأناجيل الأخرى لم يحتل وحده بالمسيح بعد العشاء الأخير، وأنه كان نائماً ولم يستطع أن يسهر في جثسيماني بحسب القديس لوقا، وكان المسيح بعيداً، وعلى بعد رمية حجر من القديس يوحنا، ومعه بطرس ويعقوب الثلاثة الذين اختارهم المسيح أن يكونوا بقربه وقت الصلاة التي قدمها بعرق يتصبب كالدم)؛ فتي وكيف عرف يوحنا دقائق هذه الصلاة؟

للإجابة نقّدم أولاً هذه الآيات :

١ - «قد كلمتكم بهذا بأمثال ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥). وهذا ما قاله المسيح للتلاميذ قبل صلاته المسجلة في الأصحاح ١٧ بدقائق ١٩

٢ - «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه.» (يو ١٦: ١٣ و ١٢)

وهذا قاله يسوع لتلاميذه قبل صلاته المسجلة في أصحاح ١٧ مباشرة.

٣ - «أيها الآب البار... عرّفْتهم اسمك، وسأعرّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به...» (يو ١٧: ٢٥ و ٢٦)

بخصوص الآية رقم (١):

والآن متى أتت هذه الساعة التي تكلم عنها المسيح التي كلمهم فيها عن الآب علانية؟

+ واضح، إذن، أن ما كتبه القديس يوحنا لا يقع تحت بند «الكلام بأمثال» - الأناجيل الثلاثة - بل هي إخبار عن الآب علانية، وهي التي تشمل كل تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا عن الآب، ومعها الصلاة في الأصحاح ١٧. هذه هي كلها الكلام عن الآب علانية، وهو من تعليم المسيح المباشر للقديس يوحنا بالروح القدس.

وهذه الساعة هي ما بعد القيامة، لأن «قد أتت الساعة» هي ساعة الصليب. ولكن «تأتي ساعة» هي بالضرورة ما بعد ساعة الصليب.

بخصوص الآيتين رقم (٢) و (٣):

كذلك ما هي الأمور التي لم يكونوا يستطيعون أن يحتملوها حتى قبل هذه الصلاة؟ وقالها هم بعد ذلك؟

ومتى عرّفهم المسيح بالمزيد عن اسم الآب بعد أن صُلب أمامهم؟

+ إذاً الأمور التي لم يكونوا يحتملوها والتي اضطلع بها الروح القدس بعد حلوله، والتعريف الإضافي الذي يختص باسم الآب، فهو ما اكتسبته الكنيسة بالروح القدس، سواء في إنجيل يوحنا أو على مدى القرون الأربعة الأولى، وهو الذي بواسطته دافعت عن إيمانها وانتشر وجودها في كل أنحاء العالم ولا يزال. إذن، كان يتحتم أن يتكلم المسيح علانية عن الآب، وبدون أمثال، في إنجيل يوحنا - الذي خلا من الأمثال بالفعل - حتى يكون الله صادقاً، وحتى نعرف الأمور التي لا

يحملها أي إنسان بدون نعمة الروح القدس .

(ب) كذلك السؤال الذي قد يطرحه الفاحص العقلاني : كيف ومتى عرف القديس يوحنا حديث السامرة مع المسيح ؟ علماً بأن التلاميذ كانوا قد ذهبوا لبيتاعوا طعاماً .

(ج) أو كيف ومثّن عرف القديس يوحنا الحديث الذي دار بين بيلاطس والمسيح ؟

نقول : إذا لم يكن المسيح هو الذي قصّ على يوحنا ما حدث ، وإذا لم تكن هي السامرة نفسها ، وإذا لم يكن بيلاطس ، الذي تنصّر وتعتمد بحسب التقليد ، هو الذي قصّ ما دار بينه وبين المسيح ، وإذا لم يكن القديس يوحنا موجوداً بالفعل دون بقية التلاميذ مع المسيح على بئر يعقوب ؛ فالرد قد يمتد أيضاً ليشمل معظم أحاديث المسيح ، وهو كالآتي :

معروف جيداً ومسجّل في سفر الرؤيا أن طبيعة القديس يوحنا طبيعة رؤيوية ، أي أن روحه حرة تستطيع في أي وقت أن تدخل في مجال الروح الخالص لترى حوادث في غاية من الدقة والتسلسل والخطورة ، وتسمع حديثاً حدث أو سيحدث سيّان ، بل وتسمع حواراً درامياً حزيناً بين أرواح الذين قُتلوا وبين المسيح . وأُعطي للقديس يوحنا أن يعي بالروح ويفهم ويتذكر ويسجل بعد ذلك كل ما سمع بالحرف الواحد ، وأن يصف ما رأى بمنتهى الدقة دون أن يزيد أو يُنقص ، رغماً عن أن ما رأى يفوق العقل والوصف . وكان محدّث القديس يوحنا مرة ملاكاً معيّنٌ للتفهم والتعريف ، ومرة كان المسيح نفسه وهو في مجده . كذلك ومن سفر الرؤيا عرفنا وتأكّدنا كيف أن المسيح كان يعرفه بالأمر ، مرة بالرموز ومرة بالعلّان جهاراً ، فتعلم يوحنا كيف يعبر وكيف يسجل . لذلك أصبح واضحاً أمامنا إمكانية استقبال القديس يوحنا لكل المعارف والمفاهيم ، سواء في ماضيها أو مستقبلها ، سيّان ، وذلك من مصادرها العليا بلا عناء ، سواء بإملاء ، أو إعلان الروح ، أو بإرشاد الملاك بكل ما تم على مستوى حياة المسيح ، بل ومن الأشخاص الذين تكلموا مع المسيح بأنفسهم ، لأن «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء .» (١ كور ١٤ : ٣٢)

وهل ينسى الفاحص العقلاني أن المسيح نفسه تحدث بنفسه حديثاً مطوّلاً في سفر الرؤيا — وذلك بعد قيامة المسيح وصعوده بما لا يقل عن ثلاثين سنة أو يزيد ؟ بل وأمر القديس يوحنا أن يكتب ما سمع ورأى في سفرٍ وأن يعلنه للناس : «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله لثري عبده ما لا بد أن يكون عن قريب ، ويثّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه .» (رؤ ١ : ٢و١)

فإن جاء سفر الرؤيا برموز وأمثال ، فقد أعطي ليوحنا أن يكتب إنجيلاً ليس برموز وأمثال ، بل

بما أخبره المسيح عن الآب علانية. ألم يُعِد المسيح بذلك؟ وهوذا قد حقق وعده.

كذلك لو فحصنا الأمر ذاته مع القديس بولس الرسول، نجد أنه بصرح بمنتهى الوضوح أنه لم يستلم إنجيله من إنسان، بل ولم يتعلمه من إنسان، بل قد استلمه وتعلمه من المسيح مباشرة بإعلان: «وأعرّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بَشَّرْتُ به إنه ليس بحسب إنسان، لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علَّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.» (غل ١: ١١ و١٢)

أليس هذا مثالا حيا وشهادة ناطقة يمكن أن ندرك بها كيفية كتابة الأناجيل؟ وسرد حوادثها وتسجيل كلماتها؟ لكي نطمئن تماماً أن كل ما لا نعرف مصدره، بالتحقيق أو بالمقارنة أو حتى بالعقل، فحتماً يكون مصدره الإعلان الفائق، لأننا نتعامل مع إنجيل الله وليس كتاب تاريخ. وليمكن في الحسبان أن القديس بولس لم ير المسيح بالجسد إطلاقاً. والقديس بولس الرسول كان يعرف تماماً أنه ليس له فقط أعطي إعلان الإنجيل، بل ولبقية الرسل، وخاصة الذين تعامل معهم، وهم بطرس ويعقوب ويوحنا المعتبرين أعمدة الكنيسة. «أنه بإعلان عرّفني بالسرّ — كما سبقْتُ فكتبتُ بالإيجاز — الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرّون أن تعرفوا درايقي بسر المسيح، الذي في أجيالٍ آخر لم يُعرّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرُسُلِه القديسين وأنبيائه بالروح» (أف ٣: ٣-٥). واضح إذن أن بني البشر عليهم أن يخضعوا لمعرفة إعلان يسوع المسيح فيما يخص إنجيله إن كانوا يريدون الإيمان به، لا أن يبحثوا عن مصدره الذي أعطي فقط لرسله وأنبيائه بالروح.

وفي النهاية هنا نقول ما يقوله التقليد الرسولي، أن مَنْ يريد أن يقرأ الإنجيل أو يفحصه، عليه أن يضع في اعتباره أنه يقرأ أو يفحص على أساس أنه يتبع قصد كاتب الإنجيل وما يريد أن يعلنه ويبشّره، باعتبار أن مادة الإنجيل هي تقرير يشمل البشارة ملتحمة بالتاريخ. وليس له أن يقرأ على أساس كيف كُتب، أو ما ينبغي أن يُكتب عليه إنجيله من معايير نضعها حسب قصدنا. لأن القصد الأول والأخير من القراءة أو البحث هو الوصول إلى الإيمان، والإيمان في البداية والنهاية هو تصديق ما فوق التاريخ، وتسليم الفكر والقلب والحياة كلها له — أي لله. علماً بأن القديس يوحنا الرسول يقدم لنا إنجيله أو المسيح من خلال إيمانه! وهذا لا يمنعنا من أن نستخدم كل أسلحة العلم لبلوغ اليقين لإيماننا، ولزبد من المعرفة والفهم، حيث يبقى العلم أو كل العلوم في موضع الخادم للحقيقة لا سيداً عليها.

ولكن أن نبحت عن الحبك التاريخي في صياغة عمق روحي هائل مثل هذا له هدفه الروحي الأوحد، فهذا مطلب تعسّفي مباحك.

٤ - إنجيل القديس يوحنا يختص بالناحية اللاهوتية معتمداً على

التقليد الرسولي العام:

لم يقل إنجيل يوحنا أنه الإنجيل الوحيد، بل هو كُتِبَ بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى كل ما يختص بالتاريخ المدني الروماني واليهودي، وبعد أن تتبعت التاريخ الأبائي حتى إبراهيم وآدم، واستوفت طوبوغرافية الأرض التي سار عليها المسيح وتنقّل بين ربوعها، وبعد أن رصدت السنين والشهور والأيام والليالي حتى استوفت الإطار الإنساني الذي يخص المسيح من كافة الوجوه. هكذا قال التقليد الأبائي الكنسي بأعلى صوته مؤكداً أن القديس يوحنا كتب إنجيله الروحي بإلحاح زملائه بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى ما يخص الأمور الظاهرة أي الجسدية التي للمسيح، والقديس يوحنا نفسه كتب على هذا الأساس.

ويقول التقليد الكنسي:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ، كتقليد، أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بالحقائق الجسدية - أي التي تخص الجسد - τὰ σωματικά - في تسجيلها وإذ ضُغِطَ عليه من قِبَل أحبائه، تحرك بالروح من قِبَلِ الله وكتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον .] (٢٤)

(إكليمندس الإسكندري)

(سنة ١٥٠ - ٢١٥)

ونحن لا يمكن أن نغفل شهادة الآباء القديسين الأوائل وأساقفة الكنائس العظمى، التي بها استطاع إنجيل يوحنا أن يقف أمام أعنف التيارات المعادية للإيمان، لأنه يحمل جوهر الإيمان بالمسيح ودقائق العناصر اللاهوتية التي أقامت الهيكل العام للإيمان المسيحي مع الأناجيل الثلاثة.

ولقد واجه المسيح نفسه مثل هذه الأفكار فقد سأل تلاميذه يوماً: «مَنْ يقول الناس إنني أنا؟» (مت ١٦: ١٣، مر ٨: ٢٧، لو ٩: ١٨). وكأن المسيح بهذا السؤال يسبق ويخاطب علماء اللاهوت في هذه الأيام الذين يطالبونه - كما طالبه اليهود «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو ٨: ٥٣) - بتحقيق ذاته تاريخياً في إنجيل يوحنا. فكان رد التلاميذ أن بعضهم يقول: «إنه إيليا». وهكذا تطوح التاريخ ألف سنة عن الواقع أمام عيونهم. لأن التقييم المباشر للإستعلان الباهر يلهي الذهن عن مفردات التاريخ. ولكن رسوخ الإستعلان الإلهي في ذهن القديس يوحنا وامتداده وغموه وانتشاره على مسافة زمنية كبيرة للغاية (نصف قرن ويزيد) مع نضوج الشيخوخة، كل هذا جعله قادراً حقاً أن يحيط

²⁴ Clement of Alex., cited by Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,7; cited by Westcott, op. cit., p. XXXV.

بحدود هذا الإعلان في اختصار مدهش، دون أن يتوه في شعاب التأملات أو غيبوبة الرؤى.

فالواقعية في إنجيل يوحنا قوية، والواقع هو دائماً ابن أمين للتاريخ. فالقديس يوحنا قبل أن يكتب إنجيله، كان يملك في مخازن قلبه الماضي وثائق تاريخية حدثت أمامه في الزمان والمكان تتعلق بهذه الإعلانات الإلهية، والتي هي على أعلى ما يمكن من الخطورة، إذ تختص بالكنيسة وحياة العالم وتطور البشرية، أوّتمن عليها هذا القديس بكل ذخائرها. وكان يجتثها كل يوم ويحكي عنها ويعط، فكان بريقها يزداد مع الأيام ويتوضح. وأخيراً، وبعد إلحاح أحبائه ورؤساء الكنائس السبع من حوله مع جميع أولاده صمّم أن يكتب، فكان الإنجيل. وهو عبارة عن وثائق تحمل مفرداتها ومحملها الإعلان الخاص بحياة وخلص العالم!! ولكن لأن مادة هذه الوثائق تختص بلاهوت الإبن ومستقبل البشرية والحياة الأبدية، فمن المعقول أن يتضاءل فيها العنصر التاريخي كعنصر حرّ منفرد بجوار الأغوار اللاهوتية. ولا تؤمّ على الكاتب؛ إذ كان يكفيه أن يكون أميناً للحادثة اللاهوتية أولاً وقبل كل شيء، فهي التي يهدف إليها.

وكما كان القديس يوحنا، كذلك كانت الكنيسة في القرن الأول والثاني. فقد اعتبر القديس يوحنا أن كل ما غاب في إنجيله هو مسجّل في التقليد الرسولي الذي يحفظه الناس كما هو في الأناجيل الثلاثة. لأن التقليد الشفاهي بتاريخه ودقائقه كان متواتراً ومحفوظاً في الكنيسة كلها آنئذ، بل وكان المادة الحية للوعاظ والأساقفة يكتبون ويعطون ويعلمون منه. فتعاليم القديس بولس الرسول كانت تملأ كل آسيا واليونان وروما. وبالإطلاع على رسائل القديس بوليکارپوس (استشهد سنة ١٥٥ م عن ٨٦ سنة) تلميذ يوحنا الرسول وأسقف أزمير، يتضح أن كل التقليد الرسولي في الثلاثة الأناجيل وتعاليم إنجيل يوحنا — دون النص — حاضرة في كتاباته!! وكذلك تعليم القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا؛ وأيضاً تعاليم القديس إيرينيئوس الذي صار أسقفاً على ليون بفرنسا، وهو تلميذ بوليکارپوس، فهو أصلاً مواطن أزميري (من سميرنا) (١٣٠ — ٢٠٠ م)، وهو المحسوب أنه أبو التقليد. إذن، فالقديس يوحنا كتب إنجيله معتمداً على أساس التقليد الرسولي بتاريخه ودقائقه. والمعروف والمتداول في كل الكنائس آنئذ، وليس كإنجيل منفرد. لذلك نجده لا يستطرد في المجال التاريخي.

والواقع أن مردّ هذا الصراع الفكري ضد الخط التاريخي لإنجيل يوحنا، هو بالأساس في فكر ووعي هؤلاء العلماء القدامى والمحدثين الذين طفقوا بالنقد المرير تجاه غياب العنصر التاريخي من إنجيل يوحنا؛ وذلك بسبب عدم القدرة الإيمانية في هؤلاء لرؤية الزمانيات ملتحمة مع الأبديات، سواء في شخص المسيح نفسه أو في أقواله وأعماله. وبما سبق وقلنا يتبين للقارئ زَيْفُ هذا النقد،

فالأنجيل عموماً وإنجيل يوحنا على وجه الخصوص، ليست وثائق تاريخية تُحاسب على صحة أو دقة التاريخ فيها، بل هي «وقائع روحية»، أو «حوادث إلهية» تمت في صميم الزمن، كما سبق وقلنا: فد «الله ظهر في الجسد» بحسب القديس بولس الرسول، أو «الكلمة صار جسداً» بحسب القديس يوحنا التلميذ والرسول، تماماً كما جاء في إنجيل لوقا «فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥). فسجل ميلاده محوّل من سجل سابق مركزه السماء بعيداً عن أيدي المؤرخين. أو كما قال القديس يوحنا في رسالته الأولى «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ يو ١: ٢). فالله دخل التاريخ الإنساني واقتحم الزمن، ليس بالرؤيا ولا في حلم ولا بصوت يسمعه القلب كما في العهد القديم، بل على واقع إنساني حيّ منظور وملموس، هو الرب يسوع المسيح. وهذه معجزة التجسّد، وهي معجزة الله والإنسان.

فالآن، لا يمكن فصل العنصر الإلهي الخالص عن العنصر الزمني الخالص، كما يقول ويؤكد علم اللاهوت عن اتحاد اللاهوت بالإناسوت في المسيح — الذي هو أساس التضادّ بين الزمنيّ والأبديّ — الذي صار توافقاً واتحاداً في المسيح. فهذا الاتحاد غير منقسم ولا منفصل، فن جهة اللاهوت لم يحدث له أي تغيير بعد التحامه بالإنسان وزمن الإنسان، سوى الظهور والإستعلان عن طريق الكلمة والمعجزة والآية. ولكن الزمن هو الذي انفتح على اللاهوت لما انفتح اللاهوت له، فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يخطر على قلب بشر. والإنسان والزمان أخذاً ما لم يكن لهما أصلاً. فالمسيح كإنسان سار على الماء، فأين الجاذبية الأرضية وأين رعبة الأعماق واللجج؟ كما غطّى اللاهوت ضعف الجسد وألغى سلطة الموت ومحنة الزمن، فالمسيح أقام لعازر من الموت بعد أن أتت، والمسيح نفسه قام من بين الأموات في اليوم الثالث: «فأين شوكتك يا موت؟ وأين غلبتك يا هاوية؟» (١ كو ١٥: ٥٥)، وأين أنت أيها التاريخ؟

— «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مُقَصَّر... والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه، لأن هيئة هذا العالم تزول، فأريد أن تكونوا بلا هم.» (١ كو ٧: ٢٩-٣٢)

هذا هو طغيان المستقبل على الحاضر الزمني في المسيحية. أو كما قال المسيح لتلميذ دعاه فأراد أن يدفن أباه أولاً: «دع الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب وناذ بملكوت الله» (لو ٩: ٦٠)، أو كما وضعها القديس متى: «اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم» (مت ٨: ٢٢). وهذا هو طغيان الروح والحياة الأبدية في المسيحية على أمور العالم الزائلة!!!

كل هذا صار لحساب الإنسان ليدخل ويمتد في الحياة الأخرى، الحياة الأبدية غير الزمنية. لذلك، فالذي يريد أن يقرأ الإنجيل، أيّ إنجيل، أو يدرسه؛ فإن لم يكن له الحاسة الإيمانية، أي

البصيرة الروحية المفتوحة على الله بحسب الوعي المسيحي التقليدي الصادق، فهو لن يدرك هذا الإلتحام الذي أكمله المسيح — الكلمة المتجسد — في نفسه، التحام الأبدى والزمني، الإلهي والإنساني معاً. أما الذي يريد أن يفصل العنصر الإنساني في المسيح عن العنصر اللاهوتي ليتضمن في «يسوع التاريخ»، أو يوقع حياة المسيح على الأصول التاريخية، سيفصل بين ما هو إنساني وما هو لاهوتي. مع أن المسيح لن يُعرف ولن يُستعلن إلا إلهاً متجسداً. لذلك فإن محاولة توقيع حياة المسيح على الزمن استرضاءً للعقل وعلم أصول التاريخ وإراحةً للمنطق، هي نكسة تشبه نكسة توما: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن.» (يو ٢٠: ٢٥)

إذن، فالذي يتحتم على كل لاهوتي أن يفهمه أن التاريخ والعنصر الزمني لدى الإنسان الجديد، أخذ طبيعة جديدة بعد الإيمان بتجسد ابن الله وموته وقيامته من بين الأموات وإرساله الروح القدس. فبعد أن كانت الحادثة الزمنية — كولادة إنسان مثلاً — تؤول بعد حدوثها بكل دقائقها وصحتها وفن تسجيلها إلى سجل الأموات وتصير إلى العدم، صار الآن تاريخ البشرية الجديدة أو الزمن الجديد الحي في الإنجيل يؤرخ للأحياء وليس للأموات، ويسجل في السموات: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠) — كإنسان يعتمد ويؤمن بالمسيح ويعيش بالتقوى والمحبة الأخوية — فهذا كما يقول القديس يوحنا (عن نفسه) «قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤، ١ يو ٣: ١٤)، وسيظل حياً «ولن يموت إلى الأبد» كما قال المسيح ووعد، وسيكتب اسمه في سفر الحياة، وإيمانه سيؤد إيماناً لآخرين، وهكذا إلى أبد الأبد. «لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملاموس... بل... وإلى وسط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رأس يتكلم أفضل من هابيل.» (عب ١٢: ١٨-٢٤)

كذلك، فإن كل ما لمس المسيح وتبناه من الإنسان وزمنيات الإنسان سواء بيده أو بالكلمة، فإنه تجلى وأخذ طبيعة جديدة أو خلقة جديدة أو خلقة ثانية: كالماء، والخمر، والخبز، والجسد، والدم، والأعمى، والمشلول، والكسيع، والميت، والقبر، حتى الموت نفسه تحول إلى حياة؛ فأين مطلب منطق التاريخ؟ وأين رقابة الزمن ومادته؟ وكيف تقرب هذه المواد عقلياً بعد تحولها؟؟ ونكاد نقول قول القديس بولس الرسول إن نظام الزمن وحتمية التاريخ، بقسوته وبهمومه وأحزانه وأوجاعه، كان مؤدبنا طوال أزمنة ما قبل المسيح؛ وبعد أن صرنا في المسيح، فلسنا بعد تحت رحمة أنظمة الزمن وحتميات ومنطق التاريخ، بل تحت رحمة الحياة الجديدة الأبدية ونعمة رب الحياة وتدبير الروح القدس.

لقد كان حقاً ما قاله الآباء والأنبياء بالروح عن زمن المسيح أنه «أواخر الأيام» أو «الأيام الأخيرة»، وأنه «ملء الزمن»، أو «ملء الدهور»؛ بمعنى أنه بمجيء المسيح يكون قد اكتمل «زمان العقوبة» للإنسان، وانتهى «تاريخ اللعنة» وحكم الموت، وابتدأ «زمان الحياة»، زمان الروح القدس الذي أعطى التاريخ الإنساني أبعاداً جديدة ومعنى جديداً وثوباً جديداً.

٥ - مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر،

ومقياس اللاهوت يتجه نحو الجوهر:

اللاهوتي الذي نوى أن يفحص ويُقيّم التاريخ الزمني في إنجيل يوحنا، يلزمه أن لا يغفل مقياس التاريخ الحقيقي اللاهوتي الذي تعيش به الكنيسة الحياة الأبدية وتحيا خلاصها فيه ألفي سنة، حتى أصبحت هي بحد ذاتها شهادة لصدق الإنجيل. وعليه أن يفرز بروحه ويتحسس بحسّه الإيمانى حركته، أي حركة التاريخ اللاهوتي وهدفه، ولا مانع أن يقارن بينه وبين التاريخ الزمني ليعرف ويُطبّق سرعة حركة الكنيسة الروحية والخلاصية بالنسبة لمسار العالم والزمن على مرّ السنين، فينقد الكنيسة وليس حق الإنجيل!!

إن وقوف العالم اللاهوتي الذي يحكم بالتاريخ ويحتكم له ضد حادثة من حوادث الإنجيل باعتبارها لم توفّ الشروط العلمية للحادثة الزمنية ولظهرها وقياسها الزمني بحسب العقل وعلم التاريخ الأصولي، إنما هو يحاول أن يطمس معالم تدخّل الله في الحادثة الزمنية، الذي هو جوهر الحادثة، أو كمّن يحاول أن يختزل المسيح إلى مجرد إنسان «يُدعى يسوع».

فالذي يقف أمام معجزة تحويل الماء إلى خمر بالنسبة إلى مفهومها الزمني كأن في ذلك ترفاً بحسب منظرها الخارجي، يفقد في الحال تقييم قوة التحويل الإلهية التي ابتدأ بها الله أعماله في المسيح وبالمسيح في جوهر المادة، ليبرهن أن العتيق قديم وشاخ، وأن الكل يُلزم أن يولد من جديد ليصير جديداً. وكأنه يقول للتلاميذ وكل العالم: هذا هو معنى وحقيقة رسالتي أن أُحوّل الماء إلى خمر، أُحوّل الميت إلى حياة والحياة إلى فرح، وأن ليس بالتطهير بالماء ينجو الإنسان من الدنس والخطية بل بشرب الروح والدم يخلص ويتقدس. ثم إذا هو نظر إلى كمية الخمر البالغة في حجمها أمراً فائقاً لحد التعقّل، إذ أن الستة الأجران ماءً تحولت بحجمها إلى خمر بما يساوي ١٢٨ جالوناً، فيرى في هذا الكم الهائل دعوة إلى عدم الإتران والإدمان.

فهذه الرؤيا النقدية تنحصر فقط في فكر الإنسان الناقد فتُفقد في الحال رؤيا المجد، لأنها تطمس معالم اليد العالية التي تدخلت في تشكيل هذا الرقم، والسرّ الذي يخفي وراء هذه الوفرة

والكثرة، وهو الإشارة الواضحة إلى التحول المقصود من بؤس الحاجة في القديم: «ليس لديهم خمر (فرح)»، إلى ملء البهجة والوفرة والمسرة الروحية بسبب حضور الله بتدخل العريس الحقيقي في حفلة عرس الإنسان. وكأن المسيح حينما قال للخدم: «استقوا الآن» ينبئه نظر اللاهوتي القدير أن يكمل من عنده قول الأنبياء «(من ينبوع الحياة مجاناً)» الذي يفيض بلا حدود.

وإذا لاحظ القارئ يجد أن التعظيم والمغالة الرقمية أمر مقصود في إنجيل يوحنا على وجه العموم. فالسامرية كان لها خمسة أزواج وحق الذي معها ليس زوجها (منتهى الفجور)!!، والأعمى أعمى منذ ولادته (منتهى الشقاء)!!، والمقعد له ٣٨ سنة (منتهى الذل)!!، والخمر المحوّل ١٢٨ جالوناً (منتهى الوفرة)!!، والخبز: خمس خبزات لخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال (منتهى السخاء)!!، ولعازر له أربعة أيام في القبر وقد أنتن (منتهى اليأس)!!، والإنجيل لم يختَر هذه الأرقام، ولكن الذي اختارها حقاً هو المسيح عن قصد ليُجري فيها عمله، وليستعمل فيها سلطانه على فك الحدود الضيقة والميتة والذليلة البائسة، والإنطلاق بقلب الإنسان وفكره المحدود إلى رَحْبٍ وفرح اللامحدود واللازمي!!

كذلك، إذا توقف اللاهوتي الذي يقيس الإنجيل والمسيح بمقياس الزمن وشروطه ومتطلباته إزاء حديث مطوّل، أو وصف معجزة الخمس الخبزات التي أطعم بها المسيح خمسة آلاف بكل دقائقها؛ فيرى فيها خروجاً عن حدود المنطق الزمني، مُستقصاً من القديس يوحنا كمؤرخ إنجيلي كيف يؤرخ لحادثة يزعم أنه رآها وذلك بعد خمسين سنة من حدوثها؛ فإن مثل هذا المؤرخ اللاهوتي يكون قد فقد عاملين أساسيين هما اللذان يسندان هذه الحادثة.

الأول: وهو الشرح الذي قدمه إنجيل يوحنا بفم المسيح عن سر هذا الخبز، وعن معنى الكثرة والوفرة فيه حينما قال أن هذا الخبز هو في الحقيقة جسده المقدس، وأنه مُزَمع أن يمزقه على الصليب ويطرحه على العالم كله، وليس على خمسة آلاف فقط، ليأكل منه الإنسان ويشبع ويفيض.

وهنا أيضاً عودة إلى سر التحول، فبعد أن كان الإنسان يأكل خبزه بعرق جبينه والآكلون يموتون بعد حين، صار الإنسان مُخَوّلاً أن يأكل من خبز السماء والآكل منه لا يموت، إذ هو خبز الحياة الأبدية. وهكذا تَمَّت النبوة «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة»، تخرج من فم الله» (تث ٨: ٣، مت ٤: ٤). وتَمَّت كما ذكرها الإنجيل في المسيح، هوذا: «الكلمة صار جسداً» (يو ١: ١٤)!! و«خذوا كلوا هذا هو جسدي» (مت ٢٦: ٢٦، مر ١٤: ٢٢). [خذوا كلوا منه كلكم لأن هذا هو جسدي] (القداس الإلهي). إذن، فمعجزة الخمس الخبزات تكون قد استوفت أسبابها واستُعلِن الحق المحتفي في مظهرها.

العامل الثاني: وهو الرواية: فإن كان القديس يوحنا يؤرخ لأعمال «الكلمة»، وهذا واضح منذ بدء إنجيله، فالأنجيل الأخرى أخذت على نفسها أن تضع اللمسات التاريخية، كُلُّ في مجاله بصدق وإحكام، وذلك في هذه القصة التي تحمل كل الموصفات التاريخية هكذا: «فمضوا في السفينة إلى موضع خلاء... فرآهم الجموع... فتراكضوا إلى هناك من جميع المدن مشاة... فتحنن عليهم... وبعد ساعات كثيرة... الموضع خلاء والوقت قد مضى... إصرفهم... ليبتاعوا لهم خبزاً... أعطوهم أنتم لئلا ياكلوا... كم رغباً عندكم... خمسة وسمكتان... فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكثون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاثكأوا صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين. فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك ثم كسّر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا إليهم. وقسّم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل.» (مر ٦: ٣٢-٤٤)

إذن، لا يمكن أن يحكم التاريخ على هيكل هذه القصة بالزيف، لأن مظهرها مطابق للتاريخ، كما لا يمكن أن يحكم التاريخ على المسيح في إنجيل يوحنا أنه خرج عن حدوده فيما عمل، لأن جوهر القصة مطابق لهدف لاهوتي أكمله المسيح في قلب التاريخ.

وحيثما يتوقف اللاهوتيون المدافعون عن التاريخ إزاء معجزة إقامة لعازر من الموت، يطرحون مشكلتين: الأولى: هل أو كيف نصدق أن المسيح أقام لعازر من الموت حقاً؟ والمشكلة الثانية: لماذا لم يذكر الإنجيليون الثلاثة هذه المعجزة أيضاً وهي هامة؟

والرد على المشكلة الأولى نقول: إن المسيح سبق وأعلن مراراً أنه سيقم الموتى الخطية وموتى القبور وسواء في إنجيل يوحنا «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتى ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يوه: ٢٥)، «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوه: ٢٨ و ٢٩)؛ وكذلك في الأنجيل الأخرى «أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العُمي يُبصرون والعُرَج يمشون والبُرص يطهرون والصُم يسمعون والموتى يقومون...» (مت ١١: ٢-٦، لو ٧: ٢٢)؛ فواضح هنا من كلمة «الموتى» التي أتت بالجمع، أن المسيح أقام عدة أموات وليس لعازر فقط. ويروي الإنجيليون أيضاً قصة إقامة ابن أرملة ناين، وابنة يائرس. بهذا تكون رواية إقامة لعازر من الموت مدعّمة من التاريخ المعترف به في الأنجيل الثلاثة الأخرى.

أما المشكلة الثانية: أن الأناجيل الأخرى لم تذكر حادثة إقامة لعازر من الموت؛ فمن متابعة خدمة المسيح نجد أن الثلاثة الأناجيل لم تذكر خدمة المسيح في اليهودية التي بدأت مع يوحنا المعمدان، والتي ذكرها إنجيل يوحنا فقط في الأصحاحات (١-٣)، (٧). ويذكر إنجيل يوحنا فقط دون باقي الأناجيل أنه دعا له خمسة تلاميذ من هناك. وهذا مسجل في كتاب «تلمود» اليهود^(٢٥).

ويلاحظ في رحلة المسيح إلى اليهودية قبل الصليب بأسبوعين تقريباً حينما وصله خبر مرض لعازر، أن إنجيل يوحنا لم يذكر وجود التلاميذ الإثني عشر، ويبدو واضحاً أن كثيراً من تلاميذه كانوا غائبين عن هذه الرحلة، ومنهم غالباً القديسين متى وبطرس، وهما اللذان تفرّع منها التقليد الرسولي في الأناجيل الثلاثة. وهذا قد يكون هو السبب الأساسي في عدم ذكر حادثة إقامة لعازر من الموت، واكتفى الإنجيليون الآخرون بذكر حادثتي إقامة ابن أرملة نايين وابنة يائرس كما رأوهما، واكتفى يوحنا بذكر إقامة لعازر من الموت.

واهتمام القديس يوحنا بذكر حادثة إقامة لعازر من الموت دون غيرها، فذلك يعود إلى أهمية لاهوتية رفعت القصة إلى أقصى خطورتها التاريخية، إذ التحمت بموت المسيح وقيامته لأنه، كما سبق وقلنا، فإن السبب الأساسي الذي من أجله اجتمع السندريم وقرر قتل المسيح مذكور في إنجيل مرقس وكذلك كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا، أنه تم بعد عملية تطهير الهيكل التي أجراها المسيح قبل الصلب بأسبوع واحد، ولكن إنجيل يوحنا ذكر عملية تطهير الهيكل في بداية خدمته مشيراً بذلك إلى سلطانه وإلى مفهوم رسالته في جملتها. أما السبب الأساسي الذي اجتمع السندريم من أجله فجعله بعد إقامة لعازر من الموت: «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه.» (يو ١١: ٥٣)

وبتحقيق أدق المؤرخين واللاهوتيين رُئي أن تاريخ تسلسل الأحداث والأسباب لقتل المسيح صحيحة في إنجيل يوحنا، ومدعّمة للتاريخ بدرجة كبيرة.

وهكذا نجد أن تركيز المدارس النقدية على معجزات المسيح في إنجيل يوحنا فاقدة للرؤية اللاهوتية، بل وللرؤية التاريخية الصحيحة المنسجمة مع الإنجيل.

وبهذا يثبت لنا أن الهيكل العام لإنجيل يوحنا مترابط، يسير بالحوادث والكلمات ككل متحرك نحو هدف لاهوتي خطير لا ينبغي إغفاله، بل يلزم تثبيت النظر إليه إذا أراد أي إنسان أن يفهم الإنجيل أو ينقده، فهو ينتهي إلى علاقة حية بين الله والإنسان كواقع لا يحتاج إلى برهان، لأن

²⁵ Hunter, A.M., op. cit., p. 58.

الكنيسة تعيشه في ملء صدقه وهي تتحرك نحوه عبر الزمان دون توقف، حتى تبلغ إليه ويبلغ فيها الإنسان إلى مكانته الأولى في حضن الله.

٦ - منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت:

قيمة التاريخ أو الزمن في إنجيل يوحنا هي «الإستعلان» الإلهي موقعاً على التاريخ والزمن خطوة خطوة، وبهذا يكون قد أصبح للتاريخ والزمن الإنساني قيمة إلهية جديدة، ويكون هناك بالنهاية استحالة أن يخضع الإستعلان الإلهي الذي هو جوهر الحادثة للزمن وللتاريخ البشري الذي هو مظهر الحادثة. فالإستعلان قد يختار خطوة متقدمة لاهوتياً على خطوة متأخرة زمنياً حسب قياس عمل الروح وإلهام النعمة وغاية الإستعلان. أي أن الزمن فيما يخص المسيح عليه أن يخضع للإستعلان ويقبل بالترتيب الإستعلاني الذي جاء في الإنجيل، ويراجع نفسه، فربما يُرغمه الإستعلان لجعل «الأحد» قبل «السبت» كما سجّل القديس يوحنا حادثة تطهير الهيكل في مستهل إنجيله وبداية الخدمة، أي قدمها ثلاث سنوات عن ما سجلته الأناجيل الأخرى في ختام الخدمة ونهاية الإنجيل قبل الصليب مباشرة، فاستحسن المؤرخون اللاهوتيون هذا العمل جداً مع أنه مخالف لمنطق التاريخ. لأن الترتيب الإستعلاني هو السيد والسائد، وقد جاء ليُعيد صياغة التاريخ الذي أفسده الإنسان أو الذي أفسد الإنسان، سيّان.

وهنا كان اعتراض المسيح العنيف على الذين آخذوه كيف يصنع معجزة شفاء لأعمى أو كسبح يوم السبت؟ لأن هذا العمل في مضمون الفكر الناموسي نقضٌ للتاريخ وإهانة لكرامة السبت الزماني وقداسته أما رد المسيح فكان بالإيجاب، أي: نعم أنا أنقض التاريخ بالرغم من الوصية حتى لا يسود الزمن على الله الذي هو واضعُه وخالقُه: فـ «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوه: ١٧)، بمعنى أن «عمل الله الإستعلاني» لا يخضع للتاريخ ولا رتبة الزمن: فـ «السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مر ٢: ٢٧). والإنسان خُلق قبل السبت، فإن كان السبت خُلق أو أقامه الله ليعخدم الإنسان، فكم يكون الزمن بالنسبة لأمر الله أو لإستعلان شخصه أو طبيعته؟؟ فـ «ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مت ١٢: ٨) أي خالقه، أي أعلى من السبت وأسبق وأبقى. فكلُّ ما كان يعملهُ المسيح هو قبل السبت، حتى ولو كان في السبت، بمعنى أن تدبير الله هو قبل الزمن وأزليُّ في أصله ومُنشئه، «لأنه متَّمُّ أمرٍ وقاضٍ بالبر، لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض.» (رو ٩: ٢٨)

وبهذا يكون تحليل قضايا إنجيل يوحنا من قِبَل اللاهوتيين النقيدين تاريخياً أي زمنياً، أمراً مشيناً للإيمان المسيحي وللمعنى الخلاص والإستعلان شخص يسوع المسيح والآب! وكان الأجدر والأصح أن

يُحلَّل الإستعلان على مستواه الخاص به، فيكون هو تاريخ الإنجيل الصحيح.

٧ - التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون قاعدة للإيمان:

التحليل التاريخي العلمي للحوادث، أي التاريخ الحر، يقيّم الحادثة على أساس العلة والمعلول، أي السبب والأثر، مع تقييم القيمة الظاهرية من الشيء أو الموضوع أو الإنسان بالنسبة لغيره من الحقائق التي على نفس مستواه سواء من جهة أي إنسان أو عمله.

وهذا النوع من التحليل التاريخي لا يستقيم تطبيقه على حوادث وأقوال المسيح وشخصه. بل لا يمكن ولا يصح، وليس من الحق أو العدل، لأن المسيح - بأقواله وأعماله - يحمل الحق في جوهره وليس في مظهره أو في مظهر أعماله. فالمسيح في مظهره «عَبْدٌ متألّم»؛ وفي جوهره إله ممجّد. وهذه كلها يستحيل قياسها على أشخاص آخرين أو أعمال لأشخاص آخرين. والمسيح يؤكّد ذلك: «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري لم تكن لهم خطية» (يوه١٥: ٢٤). فكل آيات المسيح وتعاليمه لا تقيّم ولا توصف بلغة التاريخ، لأنه لا توجد ثوابت أخرى يُقاس عليها لا من جهة شخصه ولا من جهة أعماله. فبالأولى، لا يُحكّم عليها من أحد بل هي تحكّم على كل أحد.

صحيح أن الثلاثة الإنجيليين وقّعوا حياة المسيح على التاريخ قدر ما استطاعوا، هذا حسب الظاهر، وهذا حسن. ولكن من أجل أن الأناجيل الثلاثة أخذتها الكنيسة هكذا على المستوى التاريخي كقصة متيقّنة عندها وجعلتها أساساً لإيمانها، نقول إنه بسبب هذا الأمر نفسه انطلق القديس يوحنا في آخر القرن الأول لتاريخ الكنيسة - حيناً رأى أن الكنيسة اكتفت بظاهر حياة المسيح ليكون هو إنجيلها وبشارتها بملكوت الله - انطلق مُساقاً من الروح القدس ليستعلن لاهوت المسيح من داخل حياة المسيح هذه وتعاليمه نفسها التي قدّمتها الأناجيل الأخرى في ظاهرها التاريخي. وهذا هو نص التقليد الكنسي الذي استلمته الكنيسة عن القديس إكليمندس الإسكندري الذي سجّله له يوسابيوس القيصري وأذاعه. يقول القديس إكليمندس:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ كتقليد أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حيناً رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بحقائق الظروف الخارجية τὰ σωματικά في تسجيلها، وإذ ضُفّط عليه من قِبَل أحبائه تحرك بالروح من قِبَل الله وكتب إنجيله الروحي = τὸ πνευματικὸν εὐαγγέλιον .] (٢٦)

²⁶ Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,5-7.

لذلك، فعلى مدى إنجيله كله أرسى القديس يوحنا كل مفردات المنهج اللاهوتي منطقاً بفهم المسيح، ومُنتخباً من تعاليمه وآياته ليعلم إيمان الكنيسة التي بُنيت عليه لاهوتها وعقيدها، والتي دافعت به عن كيانه مقابل الهراطقة الذين تضافروا على مدى أربعة قرون لهدمها، مستخدمين ضدها أسلحة المنطق والتاريخ والتعاليم المزيّفة.

٨ - صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن:

القديس يوحنا وهو يكتب عن «الحق» كان يعلم ماذا يكتب، ولمن يكتب، ولماذا يكتب. وعلماء اللغة أثبتوا أن لغة إنجيل يوحنا جاءت في معظمها في صيغة المستقبل، فقد كان يرى التاريخ أمامه بما سيأتيه الزمن، وعمل له ألف حساب. والمسيح كان يتكلم عن نفسه بالصيغة الحاضرة الدائمة «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، لأنه كان يرى نفسه في لاهوته ويتكلم عن الأزلية القائمة فيه: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨)، هي لغة تسمو فوق الزمن والتاريخ معاً. كما يعبر بالصيغة الدائمة القائمة عن علاقته الأزلية بالآب: «الآب يحب الإبن» (يو ٣: ٣٥؛ ٥: ٢٠). فإذا تكلم المسيح عن الإنسان الذي يؤمن به، فإنه يرفع عنه ثقل الزمن ويحصره معه في الأبدية بصورة غاية في الروعة والإعجاب: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩)، «من آمن بي ولومات فسيحيا.» (يو ١١: ٢٥)

وهكذا جاءت صيغ الماضي والحاضر والمستقبل في إنجيل يوحنا لا تخدم التطور الزمني كما جاءت في الأناجيل الأخرى، كأن تقول عن المسيح «وأما يسوع فكان يتقدّم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢: ٥٢)، بل كلها جاءت لتخدم تدرّج استعلان طبيعة المسيح بقدر استيعاب إيمان الناس: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦)، «مجدتُ وأمجد أيضاً» (يو ١٢: ٢٨). كما اتجهت أفعال الخلاص نحو الأخرويات، ولكن في صورتها الحاضرة: «إن آمنيت ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠). ولقد أُلححت الأناجيل الأخرى إلى هذه الحقيقة: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١: ١٤ و ١٥)؛ أين التاريخ هنا وأين الزمان؟ لقد وضعه الرب خلف ظهره: «قد كمل الزمان» - حتى يستطيع أن يبدأ الكرازة بالأزليات والأخرويات التي تدفقت وأشرقَت على الإنسان النائم الجالس في الظلمة وظلال الموت. فالمسيح لم يُبلغ الزمن، ولكن استعلن الملكوت من فوقه فأضاء ظلماته.

فإذا حاول اللاهوتيون أن يؤرّخوا «ليسوع التاريخ» كما يقولون، فإنهم يفصلونه عن لاهوته، ويُفسدون كرازته ويُخفون مجد الأخرويات وحضورها في الزمن.

وبلاحظ القارىء أن مجيء الروح القدس في ملء الزمن — في اليوم الخمسين لقيامة الرب — هو الذي كشف الأخرويات لروح الإنسان، وجعلها حاضرة في قلبه وروحه وعاملة فيه في حاضره الزمني. فالپاراكليت في إنجيل يوحنا منوط به استعلان الأخرويات وتذوقها، وهذه وظيفته بالأساس: «ونخبركم بأمر آتية» (يو ١٦: ١٣). وبهذا تجلّ الزمن في حاضره عند الإنسان بواسطة الروح القدس، وصار جزءاً لا يتجزأ من المستقبل الأبدي — والروح القدس لم يُلغِ الزمن، بل استعلن فيه الأبدي.

وهذا هو المعنى الخفي وراء قول المسيح: «الحق أقول لكم: إن من القيّام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» (مر ٩: ١)، والقديس يوحنا شهد بذلك: «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه... فإن الحياة أظهرت... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ يو ١: ١ و ٢)، مشيراً بذلك إلى مجيء الروح القدس ومعه ملء الملكوت وطبيعته. المستقبل هنا دخل في الحاضر الزمني.

وقول المسيح في إنجيل يوحنا: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩): هنا الرؤيا ليست للجسد مع أنها في الجسد. فهي ليست في السمات الزمنية للمسيح، وإلا فلن يروا فيه إلا إنساناً «مضروباً من الله ومذلواً» (إش ٥٣: ٤)، «مكروه الأمة وعُبد المتسلّطين» (إش ٤٩: ٧)، بل هي رؤيا الإيمان من خلال كلامه وأعماله واسمه المعلن دائماً: «أنا هو» (يهوه الكائن بذاته)، ومن خلال قيامته بعد موت الفداء الذي أكمله. هذه كلها أكملها في الجسد في وسط الزمان ولكن ليست بالجسد. لذلك يعترف اللاهوتيون الذين يؤرّخون «ليسوع التاريخ». فجسد المسيح لا يؤمن به في ذاته، بل في اللاهوت المستعلن فيه، فنرى فيه قوة الله وبرّه وقداسته وفداءه لنا، حيث تتركز كل آمال الإنسان وخلص البشرية الذي هو وعد الله للعالم: «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبرّتي... إذا لست بعد عبداً بل ابناً وإن كنت ابناً فوارث (أنت) لله بالمسيح.» (غل ٤: ٤ — ٧)

٩ — التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل:

والأمر الذي فأت على المؤرخين اللاهوتيين، الذين دخلوا في سباق النقد لإنجيل يوحنا كونه لم يأخذ الخط التاريخي أساساً لروايته، (مع أنه لم يقل أنه يكتب رواية، بل تحقيقاً لاهوتياً انتخبه من أقوال المسيح وتعاليمه التي بناها على معجزات جعلها آيات لصدق ما يقول ويعلم)، نقول أن الذي فاتهم هو: أن المؤرخ مهما توخى الدقة في بحثه وراء الحقائق نفعا للحقيقة — كما يقولون — فهو يبحث في الماضي، والماضي فقط! لأن التاريخ لا يبحث في الحاضر ولا المستقبل؛ ولكن الإنجيل

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوجي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلا مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كَانَ حَيًّا (الآن) وَآمَنَ بِي فَلَن يَمُوتَ،، إلى الأبد،،». لماذا؟ لأن المسيح وهو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنيّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرف الإنجيل إلا بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فمثلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!! المسيح أعطى الحلّ لهذه المحنة العظيمة التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطبّق على كل حاضر لكل إنسان آت إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطّى المسيح المعجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأثنيته، بل أدخل الماضي في نور استعلامه.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنى متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته – الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدّب الزمني – وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واشتعلن جنين «الخلاص والحق والحياة الأبدية» الذي كان مُصَوِّراً في أحشائه ولم يقوَ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجيّة دَنَّتْ إلى المولد، ولا قوّة على الولادة.» (إش ٣٧: ٣)

فالتجسّد جلّى التاريخ – أي غير هيأته – وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، فأفقد التاريخ الإنساني عتامة. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خطي السائرين فيه. «ومفديّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتهد» (إش ٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والاستعلان الذي حدث، أخذ يؤرّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعمه بالحياة: «ها ملكوت الله داخلكم». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوجي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلا مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كَانَ حَيًّا (الآن) وَآمَنَ بِي فَلَن يَمُوتَ،، إلى الأبد،،». لماذا؟ لأن المسيح وهو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنيّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرف الإنجيل إلا بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فمثلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!! المسيح أعطى الحلّ لهذه المحنة العظيمة التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطبّق على كل حاضر لكل إنسان آت إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطّى المسيح المعجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأنيته، بل أدخل الماضي في نور استعلامه.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنى متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته – الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدّب الزمني – وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واشتعلن جنين «الخلاص والحق والحياة الأبدية» الذي كان مُصَوِّراً في أحشائه ولم يقوَ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجيّة دَنَّتْ إلى المولد، ولا قوّة على الولادة.» (إش ٣٧: ٣)

فالتجسّد جلّى التاريخ – أي غير هيأته – وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، فأفقد التاريخ الإنساني عتامته. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خطي السائرين فيه. «ومفديّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتهد» (إش ٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والاستعلان الذي حدث، أخذ يؤرّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعمه بالحياة: «ها ملكوت الله داخلكم». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

لذلك، إذا تدخل العالم اللاهوتي ومعه مقياس الزمن الطبيعي — الذي ينظر دائماً إلى الوراء — ليقيس به قامة المسيح في الحوادث والأعمال المعمولة، فهو فوق أنه يخطيء فإنه يعطّل مسار التاريخ الحقيقي أو الإلهي المندفع إلى الأمام وإلى فوق، ويظلمه أشد الظلم. فالنقد «غير الحقيقي»، أي الذي يصطدم بالحق، يوقف حركة الكنيسة بإعثار أولاد الله، فيعرقل مسيرة الخلاص ويحمل دينونة تعثرها الذي تعانيه الآن في كل أوروبا وأمريكا.

— إنتهى الكتاب —

ويليه كتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

كتاب: شرح إنجيل القديس يوحنا - الجزء الأول
(من الأصحاح الأول حتى الأصحاح الثاني)
المؤلف: الأب متى المسكين .
الطبعة الأولى: ١٩٩٠ .
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون .
ص . ب . ٢٧٨٠ القاهرة .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٩٧٣ / ١٩٩٠ .
رقم الإيداع الدولي : 6 - 000 - 240 - 977 ISBN
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف .

ثمن النسخة ثلثا ثون جنياً

مقدمة الكتاب

سبق أن أصدرنا مقدمة عامة في كتاب قائم بذاته تحت اسم « المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا »، ويقع في ٤١٦ صفحة من القُطْع الكبير. وهو يشمل دراسة وتحليلاً للإنجيل كله في ستة أبواب يحتوي على ٢٦ فصلاً.

ولا غنى عن قراءة المدخل لفهم شرح إنجيل القديس يوحنا. بل ونوصي بأن يكون المدخل في متناول يد القارئ أثناء قراءته للشرح، لأن العودة إليه لفهم بعض الأمور المحالة إليه تفيد القارئ في استيعاب المعنى.

اعتراف بالفضل

لقد طُبع هذا الكتاب في مطبعة دير القديس أنبا مقار بوادي النطرون، وقام بالإشراف على مراحل طبع الكتاب بداية من النسخة الخطية وإعادة تنقيحها وإصلاح الأخطاء فيها، ومراجعة القواعد العربية ونحو الكلام، ومراجعة الآيات بالعربية، ثم اليونانية، وإعادة تبويب الكتاب وتنسيق فصوله؛ ثم إخراجها على آلة الجمع التصويري ودخوله تحت المونتاج (عملية القص واللصق وضبط مقاسات الصفحات وترقيمها)، بالإضافة إلى عمليات التصوير للوحات الواردة بالكتاب من تصوير وتحميض وتكبير وتصغير، ثم الحفر على اللوحات المحشنة للطباعة، ثم دخوله للطبع على آلة الطباعة الأوفست، ثم تطبيق أفرخ الورق المطبوعة كملازم، ثم تخطيط الملازم معاً والتجليد؛ كل هذا قام به الآباء الرهبان الأعزاء الأجلاء، بما استلزم من جهد وصبر ودقة وفن بلغ على أيديهم أقصى إتقانه.

ونحن إذ نذكر أسماءهم وهم في غنى عن الذكر والذكرى، فسيرتهم مكتوبة في السموات؛ ولكن يطيب لقلب الكاتب أن ينسب الفضل لأصحابه، فلولاهم ما خرج هذا الكتاب، وما استمتع القارئ بهذا الإخراج البديع.

(الآباء بحسب ترتيب أقدميتهم الرهبانية، ودور كل راهب في إخراج الكتاب)

الأب إرميا	مراجعة البروفات والقواعد العربية ونحو الكلام.
الأب يوحنا	نسخ النسخة الخطية ومراجعة البروفات وعمل فهرس الموضوعات.
الأب وديد	تنقيح النسخة الخطية ومراجعة الآيات باليونانية وإعادة تبويب الكتاب وتنسيق فصوله.
الأب باسيليوس	المراجعات الفنية في مراحل جمع وطبع الكتاب.
الأب ديمتري	نسخ النسخة الأولى عن المسودة التي بخط المؤلف.
الأب ويصا	عمل رتوش الأفلام وتصوير وتجهيز لوحات الطباعة المحشنة.
الأب برتي	جمع النص على آلة الجمع التصويري، وتقديم البروفة الأولى.
الأب لونجينوس	آلة الطباعة الأوفست — آلة تطبيق الملازم — آلة خياطة الملازم — آلة القص — التجليد.
الأب أخنوخ	جمع النص على آلة الجمع التصويري.
الأب سوريال	المونتاج وتصوير الأفلام، وعمل فهرس الآيات وفهرس أقوال الآباء.
الأب يسطس	جمع النص على آلة الجمع التصويري.
الأب دوماديوس	مضاهاة بروفات الجمع التصويري على الأصول المنسوخة للكتاب.
الأب إيفانيوس	المونتاج وتصوير الأفلام، وعمل فهرس الآيات وفهرس أقوال الآباء.
الأب داميانوس	تصوير الأفلام.

وأخيراً — نستودع هذا الكتاب بالمجهود المبذول فيه ليد القارئ، داعين له بالبركة، راجين الله أن يستخدمه لزيادة المعرفة والتقوى وتمجيد اسم الله القدوس.

الأربعاء ٢١ نوفمبر سنة ١٩٩٠

دير القديس أنبا مقار

نذكار رئيس الملائكة الجليل ميخائيل

ترتيب الأماكن التي تردد فيها المسيح أثناء الخدمة

ينفرد إنجيل القديس يوحنا بتوضيح المراحل المتعددة التي مرت بها خدمة الرب بين اليهودية والسامرة والجليل . فبينما نجد بقية الأناجيل تقتصر على ذكر المعمودية المسيح في اليهودية ، ثم انتقاله إلى الجليل حيث تدور معظم تعاليمه ومعجزاته ثم صعوده مرة واحدة فقط إلى أورشليم التي انتهت بصلبه ، نجد إنجيل يوحنا ينفرد بكشف انتقال الرب مرات متعددة بين اليهودية والسامرة والجليل ، وذلك على النحو التالي (١) :

أولاً :	في اليهودية أيام المعمدان : ١ : ٢٨ — ٥١ .
ثانياً :	في الجليل : ٢ : ١ — ١٢ .
ثالثاً :	في أورشليم واليهودية : ٢ : ١٣ — ٣ : ٣٦ .
رابعاً :	في السامرة : ٤ : ٤ — ٤٢ .
خامساً :	في الجليل : ٤ : ٤٣ — ٥٤ .
سادساً :	في أورشليم : ٥ : ١ — ٤٧ .
سابعاً :	في الجليل : ٦ : ١ — ٧١ .
ثامناً :	في أورشليم : ٧ : ١ — ١٠ : ٣٩ .
	أ — في عيد المظال : ٧ : ١ — ٨ : ٥٩ .
	ب — في عيد التجديد : ٩ : ١ — ١٠ : ٣٩ .
	(اعتزال مؤقت في عبر الأردن ١٠ : ٤٠ — ٤٢) .
تاسعاً :	في اليهودية في بيت عنيا : ١١ : ١ — ٥٣ .
	(اعتزال مؤقت في مدينة أفرام ١١ : ٥٤ — ٥٧) .
عاشراً :	من بيت عنيا إلى أورشليم : للمرة الأخيرة ١٢ : ١ — ١٩ : ٤٢ .
حادي عشر :	بعد القيامة في أورشليم : الأصحاح العشرون كله .
ثاني عشر :	بعد القيامة في الجليل : الأصحاح الحادي والعشرون كله .

(١) ارجع إلى المدخل ص ٣٠٠ — ٣٠١ ، حيث نجد السبب الذي جعل القديس يوحنا يتمسك بالتركيز على خدمة الرب في

المحتويات

مكان البشارة	الأصحاحات	تسلسل الموضوعات	الصفحة
	الأصحاح الأول وهو بمثابة مقدمة لإنجيل يوحنا		
		القسم الأول من المقدمة: استعلان الكلمة المتجسد: (١:١-١٨)	١٨
		القسم الثاني من المقدمة: الشهادة أن يسوع هو ابن الله: (١:١٩-٥١)	١٩
		١ - شهادة المعمدان وهي على عدة مراحل:	١٢٣
		أ - الجواب بالنفي: ١٩:١-٢٢	١٢٤
		ب - الجواب بالإيجاب: ٢٣:١-٢٨	١٢٩
		ج - الشهادة للمسيح: ٢٩:١-٣٤	١٣٤
أولاً: المسيح في اليهودية أيام المعمدان		د - المعمدان يبدأ يسلّم الوديعة: ٣٥:١-٣٧	١٣٦
		٢ - شهادة التلاميذ: المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه	١٤٩
		أ - شهادة أندراوس: ٤٠:١-٤٢	١٥٢
		ب - شهادة فيلبس: ٤٣:١-٤٦	١٥٤
		ج - شهادة ثنائيل: ٤٧:١-٥١	١٥٦
			١٥٩
	الجزء الأول: إنجيل التجديد		
		(١:٢ - ٤٢:٤)	١٦٤
ثانياً: في الجليل	الأصحاح الثاني	١ - معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل: (١:٢-١٢)	١٦٨
١٢:٢-١٢		○ أعمال المسيح الأولى في اليهودية	١٨٣
ثالثاً: في اليهودية		٢ - تطهير الهيكل: «السيد يأتي إلى هيكله بفتة»: (١٣:٢-٢٥)	١٨٤
٣٦:٣-١٣:٢		○ وقفة قصيرة	١٩٩
	الأصحاح الثالث	٣ - مع نيقوديموس ليلاً: ٣:١-٢١	٢٠٢
		أ - الحديث المباشر مع نيقوديموس: ٣:١-١٢	٢٠٤
		ب - الحديث غير المباشر مع نيقوديموس: ٣:١٣-٢١	٢٢٤
		٤ - المعمدان يكمل شهادته: ٣:٢٢-٣٦	٢٤٦
رابعاً: في السامرة	الأصحاح الرابع	٥ - في السامرة: ٤:٤-٤٢	٢٦٣
٤٢:٤-٤:٤		أ - الحديث مع السامرية: ٤:٤-٧:٢٦	٢٧٦
		ب - الحديث مع التلاميذ: ٤:٢٧-٣٨	٣٠٠
		ج - إيمان السامريين: ٤:٣٩-٤٢	٣١٠

الجزء الثاني: إنجيل قوة الكلمة

(٤٦:٤—٤٧:٥)

٣١٣

خامساً: في الجليل

٣١٤

□ شفاء ابن خادم الملك: ٤٦:٤—٥٤

٣٢٢

○ وقفة قصيرة

٤٣:٤—٥٤

سادساً:

الأصحاح

٣٢٤

□ شفاء مريض بركة بيت حسدا
والمصادمة الأولى مع اليهود: الأصحاح الخامس كله

الخامس

في أورشليم

٣٢٥

١ — شفاء مريض بركة بيت حسدا: ١:٥—١٨

١:٥—٤٧

٣٤٥

٢ — شرح مركز الابن من الله الآب: ١٩:٥—٣٠

٣٧٢

٣ — الشهادة للابن: ٣١:٥—٤٠

أ — من المعمدان: ٣٣:٥—٣٥

ب — من الآب: ٣٢:٥ و٣٧ و٣٨

ج — من الأعمال: ٣٦:٥

د — من الأسفار: ٣٩:٥—٤١

٣٨٢

٤ — أسباب عدم إيمان اليهود: ٤٢:٥—٤٧

الجزء الثالث: إنجيل الاستعلان

(١:٦—١٢:٥٠)

استعلان طبيعة المسيح المحيية وشخصه السماوي:

الأصحاح

سابعاً: في الجليل

٣٩٠

«أنا هو خبز الحياة»

السادس

١:٦—٧١

٣٩١

١ — معجزة إشباع الجموع: ١:٦—١٥

٣٩٣

أ — ظروف المعجزة: ١:٦—٤

٣٩٥

ب — التحضير للمعجزة: ٥:٦—١٠

٣٩٩

ج — إشباع الجموع: ١١:٦—١٣

٤٠٥

د — تأثير المعجزة: ١٤:٦—١٥

٤٠٨

٢ — السير على الماء: ١٦:٦—٢١

٤١٤

٣ — حديث الرب في مجمع كفرناحوم: ٢٦:٦—٥٨

٤١٥

تمهيد: ٢٢:٦—٢٥

٤١٦

أ — الجزء الأول من الحديث: ٢٦:٦—٤٠

٤٣٣

ب — الجزء الثاني من الحديث: ٤١:٦—٥١

٤٤٣

ج — الجزء الثالث من الحديث: ٥٢:٦—٥٨

٤٥٧

التعقيب على حديث الرب في مجمع كفرناحوم: ٥٩:٦—٧١

٤٧٤	استعلان طبيعة المسيح "الروحية" (الصخرة): [أنا هو الماء الحي]	الأصحاح السابع	ثامناً: في اورشليم أ - في عيد المظال ١:٧ - ٨:٥٩
٤٧٤	١ - ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال: ١:٧ - ١٣		
٤٨٤	٢ - محادثات في منتصف العيد: ١٤:٧ - ٣٦		
٤٨٥	أ - تعاليم موجهة لليهود: ١٤:٧ - ٢٤		
٤٩٠	ب - تعاليم موجهة إلى سكان اورشليم: ٢٥:٧ - ٣١		
٤٩٢	ج - تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين: ٣٢:٧ - ٣٦		
٤٩٧	٣ - محادثات اليوم الأخير من العيد: ٣٧:٧ - ٥٣		
	استعلان طبيعة المسيح "النورانية":	الأصحاح الثامن	
٥٠٨	«أنا هو نور العالم»		
٥٠٩	١ - المرأة الخاطئة: ١:٨ - ١١		
٥١٨	٢ - حوار المسيح مع اليهود: ١٢:٨ - ٥٩		
٥١٨	أ - «أنا هو نور العالم»: ١٢:٨ - ٢٠		
٥٣٢	ب - «أنا هو»: ٢١:٨ - ٢٩		
٥٤١	ج - «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»: ٣٠:٨ - ٥١		
٥٦٦	د - «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»: ٥٢:٨ - ٥٩		
٥٨٠	مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر		ثامناً: (تابع) في اورشليم ب - في عيد النجديد
٥٨٣	التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية: الأعمى المستتر	الأصحاح التاسع	٩:١ - ١٠:٣٩
٥٨٣	أ - آية تفتيح عيني المولود أعمى: ١:٩ - ٧		
٥٩٣	ب - الظلمة تطارد النور ولا تدركه والنور يدين الظلمة: ٨:٩ - ٤١		
	أولاً: استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا:	الأصحاح العاشر	
٦٠٦	«الراعي الصالح»		
٦٠٦	أ - «أنا هو باب الخراف»: ١:١٠ - ١٠		
٦١٦	ب - «أنا هو الراعي الصالح»: ١١:١٠ - ١٦		
٦١٦	١ - بذل نفس بنفس لإعطاء حياة: ١١:١٠ - ١٣		
٦٢١	٢ - الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه: ١٠:١٤		
٦٢٣	٣ - الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف: ١٠:١٥		
٦٢٤	٤ - الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة: ١٠:١٦		
٦٣٠	ثانياً: استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب: ١٧:١٠ - ٣٩		
٦٣٩	٥ الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله: ١٠:٢٩ و ٣٠		

٤٧٤	استعلان طبيعة المسيح "الروحية" (الصخرة): [أنا هو الماء الحي]	الأصحاح السابع	ثامناً: في اورشليم
٤٧٤	١ - ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال: ١٣-١٧:٧		أ - في عيد المظال
٤٨٤	٢ - محادثات في منتصف العيد: ١٤:٧-٣٦		١:٧ - ٨:٥٩
٤٨٥	أ - تعاليم موجهة لليهود: ١٤:٧-٢٤		
٤٩٠	ب - تعاليم موجهة إلى سكان اورشليم: ٢٥:٧-٣١		
٤٩٢	ج - تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين: ٣٢:٧-٣٦		
٤٩٧	٣ - محادثات اليوم الأخير من العيد: ٣٧:٧-٥٣		
	استعلان طبيعة المسيح "النورانية":	الأصحاح الثامن	
٥٠٨	«أنا هو نور العالم»		
٥٠٩	١ - المرأة الخاطئة: ١:٨-١١		
٥١٨	٢ - حوار المسيح مع اليهود: ١٢:٨-٥٩		
٥١٨	أ - «أنا هو نور العالم»: ١٢:٨-٢٠		
٥٣٢	ب - «أنا هو»: ٢١:٨-٢٩		
٥٤١	ج - «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»: ٣٠:٨-٥١		
٥٦٦	د - «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»: ٥٢:٨-٥٩		
٥٨٠	مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر		ثامناً: (تابع) في اورشليم ب - في عيد التجديد
٥٨٣	التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية: الأعمى المستنير	الأصحاح التاسع	
٥٨٣	أ - آية تفتيح عيني المولود أعمى: ١:٩-٧		١:٩ - ١٠:٣٩
٥٩٣	ب - الظلمة تطارد النور ولا تدركه والنور يدين الظلمة: ٨:٩-٤١		
	أولاً: استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا:	الأصحاح العاشر	
٦٠٦	«الراعي الصالح»		
٦٠٦	أ - «أنا هو باب الخراف»: ١:١٠-١٠		
٦١٦	ب - «أنا هو الراعي الصالح»: ١١:١٠-١٦		
٦١٦	١ - بذل نفس بنفس لإعطاء حياة: ١١:١٠-١٣		
٦٢١	٢ - الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه: ١٠:١٤		
٦٢٣	٣ - الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف: ١٠:١٥		
٦٢٤	٤ - الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة: ١٠:١٦		
٦٣٠	ثانياً: استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب: ١٧:١٠-٣٩		
٦٣٩	○ الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله: ١٠:٢٩ و ٣٠		

٦٥٠	□ ختام الأصحاح العاشر : ١٠ : ٤٠ - ٤٢	(اعتزال مؤقت في عبر الأردن) ٤٢ : ٤٠ - ٤٢
٦٥٤	الأصحاح	تاسعاً : في اليهودية
٦٥٤	الحادي عشر	في بيت عنيا
	استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت آية إقامة لعازر من الموت مقدمة عامة :	
٦٥٥	○ القصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت	
٦٥٧	○ العناصر التاريخية في الأناجيل الأخرى عن إقامة لعازر من الموت	
٦٥٩	○ العناصر التاريخية داخل القصة	
٦٥٩	○ القيمة اللاهوتية لآية إقامة لعازر من الموت	
	القصة :	
٦٦١	○ لعازر ومريم ومرثا وبيت عنيا : ١١ : ١ - ٢	
٦٦٢	○ الرسالة الخاصة : ١١ : ٣ - ١٦	
٦٧٤	○ المنظر في بيت عنيا : ١١ : ١٧ - ١٩	
٦٧٥	○ المسيح ومرثا : ١١ : ٢٠ - ٢٧	
٦٨٣	○ المسيح ومريم : ١١ : ٢٨ - ٣٢	
٦٨٤	○ إقامة لعازر : ١١ : ٣٣ - ٤٤	
٦٩٧	○ التعقيب على آية إقامة لعازر : ١١ : ٤٥ - ٥٣	
٧٠٨	○ ختام خدمة الرب : ١١ : ٥٤ - ٥٧	(اعتزال مؤقت في مدينة أفرام) ١١ : ٥٤ - ٥٧
٧٠٩	○ ما قبل الرحلة الأخيرة للفصح الأخير : ١١ : ٥٥ - ٥٧	
٧١٤	الأصحاح	عاشراً : من بيت
٧١٥	الثاني عشر	عنيا إلى
٧٢٣		أورشليم
	استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم	للمرة الأخيرة
٧٢٣	١ - بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت : ١٢ : ١ - ١١	١٢ : ١ - ١٩ : ٤٢
	٢ - دخول المسيح إلى أورشليم : ١٢ : ١٢ - ١٩	
	٣ - رد المسيح على طلب اليونانيين :	
	«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب إليَّ الجميع.» (١٢ : ٣٦ - ٣٧)	
٧٥٣	□ ختام لإنجيل الاستعلان : ١٢ : ٣٧ - ٤٣	
٧٥٩	□ ملخص لإنجيل الاستعلان : ١٢ : ٤٤ - ٥٠	

العشاء الأخير وأحاديث الوداع مع التلاميذ الأخصاء

٧٧٤	خدمة المحبة : غسل الأرجل	الأصحاح	عاشراً: في أورشليم
٧٧٥	بذل المحبة : ١: ١٣ — ٢٠	الثالث عشر	للمرة الأخيرة
٧٩٣	الرب يكشف سبقاً عن خيانة يهوذا: ١٣: ٢١ — ٣٠		
٧٩٩	أحاديث ما بعد العشاء : ١٣: ٣١ — ٣٣		
٨٠٤	وصية المحبة : ١٣: ٣٤ و ٣٥		
٨٠٨	الرب يحذّر بطرس من تجربة الإنكار : ١٣: ٣٦ — ٣٨		
٨١٤	+ حديث الوداع الأول: الحديث عن الآب والمضي إليه	الأصحاح	
٨١٤	تمهيد: جولة حول الأصحاح بأكمله	الرابع عشر	
٨١٥	المسيح يعزّي تلاميذه بالرجاء السماوي : ١٤: ١ — ٤		
٨٢٣	يعرّف نفسه بأنه الطريق والحق والحياة وأنه واحد مع الآب : ١٤: ٥ — ١٢		
٨٤١	يعدّهم بتأكيد استجابة الصلاة التي تُقدّم باسمه : ١٤: ١٣ — ١٤		
٨٤٤	يوصي بالمحبة والطاعة : ١٤: ١٥		
٨٤٤	الوعد بإرسال الروح القدس المعزي : ١٤: ١٦ — ٢٦		
٨٧٠	يترك سلامه لهم : ١٤: ٢٧ — ٣١		
٨٧٦	○ «لأن أبي أعظم مني.» (١٤: ٢٨)		
٨٨٢	○ «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون.» (١٤: ٢٨)		
٨٩٢	+ حديث الوداع الثاني: الوحدة العضوية مع المسيح	الأصحاح	
٨٩٣	○ مثل الكرمة : ١٥: ١ — ٤	الخامس عشر	
٩٠٥	○ الثبات في المحبة : ١٥: ٥ — ١٦		
٩٢٨	○ مضايقات العالم : ١٥: ١٧ — ٢٥		
٩٣٩	○ الباراكليت : ١٥: ٢٦ و ٢٧		
٩٤٦	+ حديث الوداع الثالث: الانطلاق والعودة:	الأصحاح	
٩٤٧	معاناة التلاميذ بعد انطلاق المسيح : ١٦: ١ — ١٥	السادس عشر	
٩٦٢	○ الوعد باستئناف الكلام فيما بعد : ١٦: ١٢		
٩٦٤	○ الروح القدس وعمله مع التلاميذ ليعدّهم للمستقبل : ١٦: ١٣ — ١٥		
٩٧٠	قد أوفت الساعة، الحزن الحتمي ينشأ، الفرح حتماً : ١٦: ١٦ — ٢٤		
٩٧٠	○ الزمن القليل : ١٦: ١٦		
٩٨٣	المسيح يختتم تعليمه، و يعبّد بالاستشارة، ويجريد من الخبر : ١٦: ٢٥ — ٢٨		

٩٩٢	شجاعة مفتعلة واندفاع في إيمان صحيح ، يفوق الإيمان الحاضر : ١٦ : ٢٩-٣٢
٩٩٥	في سلام ، وفي العالم ضيق : ١٦ : ٣٣
٩٩٨	● ملخص أحاديث الفراق
١٠٠٤	+ صلاة المسيح للآب
	مقدمة : مقارنة بين صلاة المسيح الأخيرة ،
١٠٠٤	في إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى
	تقسيم الصلاة :
١٠١٠	١ - القسم الأول : فيما يخص صلته بالآب : ١٧ : ١-٥
١٠٣٠	٢ - القسم الثاني : فيما يخص التلاميذ : ١٧ : ٦-١٩
١٠٣٠	(أ) كيف استعلن الآب وكيف قبلوه (٦-٨)
١٠٣٧	(ب) كيف كان يحفظ التلاميذ وقد حان وقت تركهم : (٩-١١)
١٠٤٥	(ج) العمل السابق والعمل اللاحق : (١٢ و ١٣)
١٠٤٨	(د) محنة التلاميذ في العالم : (١٤ و ١٥)
١٠٥٢	(هـ) المسألة المطلوبة من أجلهم : (١٦-١٩)
١٠٦٤	○ تذكرة
	٣ - القسم الثالث : المسيح والكنيسة :
١٠٦٧	○ المسيح يصلي من أجل الكنيسة : ١٧ : ٢٠-٢٦
١٠٦٨	+ موضوع الوحدة أو الاتحاد بالآب والابن في الأصحاح السابع عشر
	أولاً : الوحدة ، كما سبق وعلم بها المسيح لتلاميذه ،
١٠٦٨	قبل أن يجعلها موضوع صلاته لدى الآب
	ثانياً : العلاقة الوثيقة بين « المعرفة » ،
١٠٦٩	ووحدة الوجود المتبادل (الاتحاد) ، في إنجيل يوحنا
١٠٧١	ثالثاً : مستويات الوحدة التي يطلبها المسيح لتلاميذه والكنيسة
١٠٧٢	○ المستوى الأول للوحدة : « ليكون الجميع واحداً »
١٠٧٣	○ المستوى الثاني للوحدة : « ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا »
	حدود التشبيه بين الوحدة الإلهية القائمة بين الآب والابن ،
١٠٧٤	وبين الوحدة المطلوبة للكنيسة المتحدة لتحياها في الآب والابن
١٠٨١	○ المستوى الثالث للوحدة : « ليكونوا مكملين إلى واحد »
	+ الوحدة المسيحية أعظم شهادة لرسالة المسيح في العالم
١٠٨٥	وأوثق برهان لمحبة الآب الخالصة

١٠٩٦	الجزء الخامس : إنجيل الفداء		
	١٨ : ١ حتى آخر الإنجيل		
١٠٩٧	مقدمة : خصائص الأصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر	الأصحاحان	عاشراً :
١١٠١	الآلام والصليب ساعة بساعة	الثامن عشر والتاسع عشر	في أورشليم (تابع)
١١٠٣	أولاً : التسليم : ١٨ : ١ — ١١		
١١١٤	ثانياً : المحاكمة المزدوجة : ١٨ : ١٢ — ١٩ : ١٦ مقدمة :		
١١١٨	أ — المحاكمة الأولى : أمام المحكمة الكنسية : ١٨ : ١٢ — ٢٧		
١١٤٤	ب — المحاكمة الثانية : أمام المحكمة المدنية : ١٨ : ٢٨ — ١٩ : ١٦		
١١٤٦	١ — خارج دار الولاية : المطالبة بالإعدام والرد بالرفض : ١٨ : ٢٨ — ٣٢		
١١٥٦	٢ — داخل دار الولاية : الاعتراف الحسن : ١٨ : ٣٣ — ٣٧		
١١٦٥	٣ — خارج دار الولاية : الإعلان الأول عن براءة المسيح : ١٨ : ٣٨ — ٤٠		
١١٧٠	٤ — داخل دار الولاية : الجلد بدون حكم مسبق : ١٩ : ١ — ٣		
	٥ — خارج دار الولاية : الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح :		
١١٧٥	١٩ : ٤ — ٧		
١١٧٩	٦ — داخل دار الولاية : مصدر سلطان بيلاطس : ١٩ : ٨ — ١١		
١١٨٤	٧ — خارج دار الولاية : تهديد القاضي : ١٩ : ١٢ — ١٥		
١١٩١	ثالثاً : النهاية : ١٩ : ١٦ — ٤٢		
١١٩٢	١ — الصلب : ١٩ : ١٦ — ٢٢		
١٢٠٤	٢ — المرافقون للصليب : ١٩ : ٢٣ — ٢٧		
١٢١٣	٣ — النهاية — قد أكمل — الموت الإرادي : ١٩ : ٢٨ — ٣٠		
١٢١٩	٤ — طلبان يُقدَّمان إلى بيلاطس : ١٩ : ٣١ — ٤٢		
١٢١٩	الأول : طلب تكسير السيقان : ١٩ : ٣١ — ٣٧		
١٢٣٩	الثاني : طلب جسد يسوع : ١٩ : ٣٨ — ٤٢		
١٢٥٢	رابعاً : القيامة (الحياة الجديدة)	الأصحاح	حادي عشر :
	مقدمة :	العشرون	بعد القيامة
١٢٥٢	القيامة حدث يفوق التاريخ		
١٢٥٧	صفحة المجد في تاريخ الإنسان		
١٢٥٧	محتويات الأصحاح العشرين		
١٢٥٩	المنظر الأول : عند القبر : ٢٠ : ١ — ١٨		

١٢٥٩	١ - رؤية القبر مفتوحاً فارغاً: ١:٢٠-١٠		
١٢٦٩	٢ - المسيح يظهر للمجدلية: ١١:٢٠-١٨		
١٢٨٠	المنظر الثاني: في العلية والتلاميذ مجتمعين:		
١٢٨٠	١ - المسيح يظهر للتلاميذ في مساء الأحد: ١٩:٢٠-٢٣		
	٢ - المسيح يظهر للأحد عشر		
١٣٠٠	خصيصاً من أجل توما: ٢٤:٢٠-٢٩		
١٣١٠	القصد الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا: ٣٠:٢٠-٣١		
	الصورة الإنجيلية العامة لظهورات الرب والتسجيلات التي ازدحت بها		
١٣١٤	أسفار العهد الجديد عن عقيدة القيامة		
١٣٢٦	خامساً: صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية:	الأصحاح	ثاني عشر:
١٣٢٦	موضوع الأصحاح الحادي والعشرين في إنجيل يوحنا	الحادي والعشرون	بعد القيامة
١٣٢٩	القسم الأول: المسيح والتلاميذ: ١:٢١-١٤		في الجليل
١٣٤٣	القسم الثاني: المسيح والقديس بطرس: ١٥:٢١-١٩		
١٣٥٠	القسم الثالث: المسيح والقديس يوحنا: ٢٠:٢٣-٢١		
١٣٥٥	القديس يوحنا يشهد لإنجيله: ٢١:٢٤-٢٥		
١٣٥٩			الفهارس الموضوعية

الأصحاح الأول

مقدمة إنجيل القديس يوحنا

مقدمة إنجيل القديس يوحنا تشمل الأصحاح الأول برُمته .
وهي تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : (١ : ١ — ١٨)

استعلان يسوع المسيح في الأزلية بصفته « الكلمة » ، وفي الزمن « الكلمة المتجسد » ، والتدرج في الاستعلان من « الكلمة » في الأزل إلى « الكلمة صار جسداً » في شخص يسوع المسيح .

القسم الثاني : (١ : ١٩ — ٥١)

ويختص بالشهادة أن يسوع هو المسيح ابن الله ، ويشمل :

١ — شهادة القديس يوحنا المعمدان ، وهي على عدة مراحل :

أ — الجواب بالنفي ١ : ١٩ — ٢٢

ب — الجواب بالإيجاب ١ : ٢٣ — ٢٨

ج — الشهادة للمسيح ١ : ٢٩ — ٣٤

د — المعمدان يبدأ يسلم الودعة ١ : ٣٥ — ٣٧

٢ — شهادة التلاميذ — المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه ، وهم يشهدون له :

أ — شهادة أندراوس ١ : ٤٠ — ٤٢

ب — شهادة فيلبس ١ : ٤٣ — ٤٦

ج — شهادة ثنائيل ١ : ٤٧ — ٥١

القسم الأول من المقدمة

استعلان يسوع المسيح «الكلمة المتجسد»

١ : ١ - ١٨

في جو روحي متكاثف ومتعاضم في الإرتفاع يطير بنا القديس يوحنا محمولاً بالروح، شاخصاً نحو المسيح في الأزلية قبل أن يأخذ صورة الإنسان أو يتحدد اسم له أو شكل يمكن أن يستقر عليه الفكر أو العقل الناظر.

ويبدأ القديس يوحنا^(١) يصفه كمن يرى وكمن يعي ما يرى، بتأكيد يفوق كل ثقة بلغها فكر بشر. وبآيات قصيرة غاية القِصر، يوضح ما يرى، وكل آية رؤية بحد ذاتها لا يمكن تجاوزها بسهولة. فأياته تخطف البصر العقلي خطفاً وتُحبسه في المجال الذي تحدده كل آية. وبالكاد، عندما يتشبع الوعي بمضمونها العميق والمتسع المستد، يجذبه هذا الإنجيل الطائر ليطير به إلى آية أخرى أو رؤية أعلى متصلة بسابقتها أشد الاتصال. ولكن بسبب نورها الخاطف، فإنها تستحوذ على الوعي بأجمعه فتفقده العلة بسابقتها، فلا يعود يرى سواها. وهكذا تبدو الآيات الأولى من هذا الإنجيل وكأنها مراق يرقاها العقل الروحي بجهد شديد، ولا يبقى للذهن، من بعد أن يعبرها، سوى أكداًس من أنوار متشابهة يتمنى لو يُعطى فرصة ليميز منها بين نور ونور فلا يجد، ولما يحاول الإنسان المتأمل الدارس أن يمزج بينها ليحصل الفكر على صورة واحدة لها، يتلع في خضم أعماقها؛ شأنها في ذلك شأن اللامحدودات الإلهية حينما يشخص إليها وعي الإنسان الروحي فإنها تصطدم بمحدوديته، فيعود منها مبهوراً دون حيلة ما يمكن أن يسلمها للسان أو القلم!

(١) سنكتفي في ذكرنا لاسم القديس يوحنا الرسول والإنجيلي والتمنيذ المحبوب باسمه «يوحنا» مسوفاً بحرف «ي.»، «اختصاراً لكلمة «قديس»، كما سنكتفي في ذكرنا بقديس يوحنا المعمدان باسم «العمدان» تهيلاً للقارئ.

شيء واحد يخرج به قارىء الآيات الأولى من إنجيل يوحنا، أنه أمام استعلان لأعمق أسرار الله، حيث يأخذ هذا الإنجيل الطائر ويوقفه أمام الحق الأزلي وجهاً لوجه ثم يقول له : ماذا ترى ؟ قل لو استطعت !!

أما لسان حال الناظر متاً مهماً كان حاذفاً في الرؤيا، فهو يقول : نعم أرى ما ترى، بل وبيقين أحس بمن أرى، ولكن أن أصف ما أرى يتوقف العقل مني وينعقد اللسان في، فما بالك بالقلم ؟ هذا هو يسوع المسيح فيهما قبل التجسد. ثم يره ق. يوحنا بطبيعة البشر بل في طبيعة الله الكلية، وليس منفرداً بل قائماً مع الله في صفة ذاتية كلية وأزلية ؛ ليس إلهاً ثانياً ولكن واحداً مع الله في الألوهة لا يفارقه، كالكلية في العقل، فلا العقل يوجد بدونها ولا الكلمة توجد بدون العقل. ولكن لا شكل له ولا هيئة ولا أية صورة يمكن أن يلتقطها الفكر المتخيل أو العقل الذي يستند على القياس أو على الحواس. فأين القياس وأين الحواس من الله ومن المطلقات ؟ ولكن ق. يوحنا رأى بالعقل الروحي السامي، ووعى ما رأى بالوعي المسيحي الإيماني الذي أعطي أن يتخطى المحدودات والزمنيات والمتغيرات. رآه «الكلمة» بالاسم كما من واقع رؤياه السابقة : «يُدعى اسمه كلمة الله» (رؤ ١٩ : ١٣). كما رآه «الألف والياء» (الألفا والأوجا) بمفهوم الكلية الكونية كما سمعها من فم المسيح وهو يصف نفسه له في سفر الرؤيا : «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ ١ : ٨). وما تعني الألف والياء ؟ إلا الكلمة !!

إذن فهو «الكلمة الكلية المطلقة»، وليس حرفين أو كل الحروف بل كل ما تعبر عنه كل الكلمات في تشكيلاتها جميعاً من أفعال وأعمال ومعاني وأوصاف وتعبيرات خرجت وتخرج عن الله لتعبر عن الله وعن مشيئته، وتعلنه. فهو «الكلمة» في مضمونها الكلي، القادرة، أو على وجه الأصح القادر قدرة الله نفسه في استعلان الله. رآه خارجاً عن الزمن لأن الزمن هو أحد أعماله. ورآه قبل كل خلق لأن الخلق كلها فعل من أفعاله. رآه مع الله في البدء خالقاً لكل ذي بدء مخلوق، فهو البداية كطبيعة الله التي بلا بداية. وهو نهاية كل ذي نهاية لأنه النهاية التي بلا نهاية.

في المدركات الروحية الصافية هو الأول، الذي به تتصور المدركات فتدرك. وهو الذي لا يستقطبه إدراك لأنه فوق كل ما يبلغه الإدراك : لأن الله في كلمته مُدْرَك كامل يُدْرَك ولكن لا يُدْرَك كماله ! «فلما رأته سقطت عند رجله كميت فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً لي : لا تخف أنا

هو الأول والآخر.» (رؤ ١: ١٧)

لقد اتفق الآباء القديسون الذين قدموا شرحاً لإنجيل يوحنا — وخاصة ذهبي الفم وأغسطينوس — أن هذه المقدمة ليست من وضع بشر، فهي تحمل طابع الإملاء من الروح القدس.

والكنيسة القبطية تقرأ هذه المقدمة التي تتحدث عن «البدء» في كل صباح في صلاة باكر، لتستلهم من البدء الأزلي بدءاً مقدساً ليومها الروحي وتقدس بها الزمن.

أما الكنيسة الغربية فهي أكثر هياماً بهذه المقدمة، فهي تقرأها على المولودين الجدد وكأنها تلدهم بها مرة أخرى من الله وتنير أمامهم طريق الحياة والخلود. وتقرأها على المرضى ليستمدا منها الحياة ويسلطوا بها النور على الظلمة لبيدها. ويقرأونها كآخر مقطع في صلوات القديس ليحققوا بها «الكلمة صار جسداً»، ويرحبوا بالذي «حلّ بينهم»، ويتقبلوا منه «النعمة والحق»، وليأخذوا من «ملته» البركات. ومنهم من يكتبها في لفائف يربطونها حول أعناقهم، كما كان يصنع العبرانيون بالتوراة، ويربطونها على معصمهم وبين أعينهم!

وهذا كله يؤكد السمو الروحي المنبث في كلمات هذه المقدمة ويستدعي منا التعمق في استجلاء معانيها لاستقبال مزيد من الحياة والنور.

كثير من السراخ يرون في هذه المقدمة نوعاً من التقديم للإنجيل يعمل اختصاراً لمضامينه. وآخرون يرونها كخاتمة يلخص بها ق. يوحنا إنجيله. ونحن نرى أن هذه الآراء تنطبق على مفهوم التأليف المعتاد للكتب العادية. أما في إنجيل يوحنا — وهو إنجيل استعلائي برمته — فتأتي هذه المقدمة بروح الشهادة. فالقديس يوحنا يسجل لنا فيها بوحى من الروح القدس مضمون الآية: «الروح القدس يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو ١٥: ٢٦ و ٢٧). وهو يصرح بذلك في رسالته الأولى:

— «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه (بالمشاهدة الإيمانية = εθεασάμεθα) ولمسته أيدينا، من جهة «كلمة الحياة»؛ فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (١ يو ١: ١ و ٢)

ويلاحظ القارئ أن الآيات في هذه المقدمة تسمو فوق الشرح وتتجاوز قصد التقديم أو التلخيص، بل تأتي كحقائق مرصوفة، وكأنها قوانين أو بنود لعقيدة، وقد أخذتها الكنيسة على هذا الوضع مأخذاً جدياً. في كل العصور، وخاصة في العصور الأولى حينما جعلت من هذه القوانين والبنود أسلحة إيمان ودروع حاربت بها وانتصرت؛ ثم صاغت منها الكنيسة دستوراً لإيمانها.

وإن كانت مقدمة إنجيل يوحنا جاءت لتحاكي المقدمات الأخرى في الأسفار المقدسة مثل ما جاء في الأناجيل الثلاثة من حيث سيرة المسيح، إذ ركز كلٌّ من القديسين متى ولوقا على ميلاده بالجسد وعلى نسب هذا الميلاد الجسدي، حيث ذهب كل منهما يفتش عن المسيح في أعماق إسرائيل البعيدة والقريبة، واختص إنجيل مرقس بصوت المعداد الصارخ في البرية كبدية لسيرة المسيح وفاقاً لما جاء في إشعياء النبي؛ إلا أن مقدمة إنجيل يوحنا تغطت الميلاد الجسدي وتخطت سيره الخدمية وطارت فوق هامة التاريخ والزمان فيما وراء الآباء والأنبياء وإبراهيم وآدم والأرض والسماء وكل الخلائق والأكوان؛ لتتخط على حوض الله الأزلي في جراه لا يدايها جراحة نبي أو ملاك. وهناك وفي أعماق الله رأى ق. يوحنا وعاین «الكلمة» مصوراً فيه كل مشيئة الله من جهة الخلق والخلاص وحتى التجديد!!

ولكن لا تأتي مقدمة إنجيل يوحنا وكأنها بلا مثل أو شبهة، فمقدمة الرسالة الأولى ليوحنا الرسول نفسه (١) تحمل — بتاريخ سابق عن الإنجيل — نفس الطابع الشعري ونفس الامتداد في الأزلية ورؤية ما لا يرى، رؤية «الحياة الأبدية» عند الله، كأول إرهابية لأقنوم «الكلمة» في التعبير عن شخص المسيح!

كذلك تأتي مقدمة الرسالة إلى العبرانيين (٢) تحمل نفس طابع اللحن الشعري أيضاً بنفس الكثافة الروحية ونفس الإنطلاقة الجريئة لرؤية «المسيح» كآخر مرحلة للإعلان «الله متكلماً» في إنسان مُستعلن إياه «كابن الله» في ملء بهاء مجد الله، والصورة المنظورة لجوهر الله غير المنظور، والكلمة الذي تكلم فيه الله والذي له ميراث كل ما لله، الذي خلق به الله الدهور والذي يقيم العالم بكلمة قدسه، والذي بعد أن أكمل الظهور بالقداء جلس عن يمين العظمة في الأعالي.

كذلك في بفسية كتابات القديس بولس الرسول، يسمح نفس الرؤية الفائقة ونفس الإعلانات بنفس التوضعات الإلهامية التي تفوق مستويات البشر. ففي الرسالة إلى فيلبي (٤) تسجل لبولس الرسول نفس المعايير الأزلية للمسيح وهو قائم في صورة الله مع الله كأنه بالتعادل الجوهرى، ثم عاین سر المسيح في الأزلية كيف أجرى إخلاء لنفسه من صورة مجد الألوهة ليتسنى له أن يظهر في صورة اتضاع العبيد ويكون في شبه الناس. وبهذا الشكل المكاسب أكمل الإنضاج حتى موت الصليب، الذي أهله وهو في هيئة الإنسان أن يرفعه الله إلى رفعة المجد معه، لتعده كل خليفة في

(١) ١: ١-١٨

(٢) ١: ١-١٨

(٣) ١: ١-١٨

السما والارض على حقيقته كرب لحساب مجد الله الآب .

وبنفس الزخم الروحي والرؤية المتكاثفة المتعددة المناظر والصور يقدم بولس الرسول تسجيلاً لومضات إعلانية سريعة تخطف البصر العقلي في رسالته إلى كولوسي^(٥). ففي هذه الرسالة تبتدىء رؤيته لحقيقة سر المسيح باعتباره «منظور الله» أو «الله المنظور» فهو «أيقونة الله» — أي الصورة المتقنة لله غير المنظور، وبالتالي تستمد منه الخليفة كلها صورتها — كبرها — أي كحامل لأصل وجودها. فكل خليفة في السموات والأرض «فيه خلقت»، «وفيه تقوم»، كل ما يمكن أن نراه وكل ما لا يمكن أن نراه من أصحاب العروش السماوية والسيادات والراآت والسلطين، فهذه كلها خلقت بواسطته وخلقت من أجله. وهو سابق على جميعها في الوجود، وكلها معاً تتخذ منه قيامها وقوامها. والكنيسة المحسوبة جسده السري، هو رأس هذا الجسد. وهو البداية، وأول من قام من الأموات، ويبقى بذلك متقدماً في كل شيء. لأن «ملء الله» سر أن يحلّ فيه، والله سر أن يصالح به الكل لنفسه سواء في الأرض أو في السماء صانعاً السلام بدم صليبه.

وبتسبحة شعرية غاية في الإختصار يسجل بولس الرسول في رسالته الأولى لتيموثاوس^(٦) ومضة إلهامية مبهرة فيها كل مضمون سر المسيح، السر الذي أسماه «سر التقوى»، معبراً عن الإعلان الإلهي للمسيح هكذا:

«الله ظهر في الجسد... رُفع في المجد»!! (١ تي ٣: ١٦)

وسواء ق. يوحنا أو القديس بولس، فليس من فراغ يأتينا بالجديد وباليقين عن المسيح، فكل منهما أخذ في الرؤيا وارتفع في الأعالي وعاین منظر الرب وسمع كلمة من فمه. فنسمع عن ق. يوحنا هكذا: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبده ما لا بد أن يكون عن قريب وبيّنه مُرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا، الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه» (رؤ ١: ١ و ٢). أما عن ق. بولس فنقرأ هكذا عن القديس حنانيا وهو يخاطب شاول: «إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت» (أع ٢٢: ١٤ و ١٥)؛ «وأعرّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.» (غل ١: ١١ و ١٢)

(٥) كوا ١٥: ٢٠.

(٦) ١ تي ٣: ١٦.

١ : ١ « في البدء كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ ».

يفتتح ق. يوحنا إنجيله بهذه الآية ذات الثلاث وصلات، المتناسقة والموزونة على موسيقى الشعر العبري. وهي تعطينا صورة عن طابع إنجيل يوحنا بل وق. يوحنا نفسه. ويلاحظ أن في الثلاث الجُمْل يتكرر الفاعل (الاسم) «الكلمة»، كما يتكرر الفعل «كَانَ» الدالُّ على الكينونة وليس على الزمن، وتترابط الجمل بحرف عطف لتنضغط إلى أقل حيزٍ ممكن. ومن هذا التركيب القوي المقصود قصداً، يظهر مقدار الجهد الفكري الذي يبلغ أقصى حدود الإجهاد لإبراز أضخم المعاني التي يمكن أن يبلغها الإتساع الفكري البشري، وذلك للتعرف على أسس طبيعة «الكلمة»، في علاقته بالزمن، وفي كيانه الذاتي بالله، وفي جوهره الإلهي.

كان في البدء، كان مع الله، كان هو الله.

وعندما نستمر في قراءة الأصحاح الأول نجد أن هذه الثلاث الجُمْل التي تزدحم بها هذه الآية الأولى، جاءت لتردّ في النهاية وتوازن مع ثلاث جُمْل جاءت في الآية ١٤ لحظة التجسد: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا...».

فالكلمة الذي «كَانَ» (في كينونة دائمة أزلية خارج الزمن) — «صار» أي دخل الزمن، والكلمة الذي كان «الله» (أي في طبيعة الله) — «صار جسداً» أي في طبيعة الإنسان، والكلمة الذي كان «عند الله» (حال في الله) — «حلّ بيننا».

وبهذه الآية الأولى وما احتوته من استعلان كامل عن «الكلمة» يكون ق. يوحنا قد وضع أساس إنجيله، وبالتالي دستور الإيمان المسيحي، فيما يخص شخص المسيح باعتباره الكلمة المتجسد:

فالمسيح «الكلمة» لم يتخذ شخصيته بالميلاد الجسدي ولا حتى لحظة الخلق. أي أنه ليس مخلوقاً ولا مُحدثاً؛ بل كان في البدء قائماً منذ الأزل.

والمسيح «الكلمة» لا ينفرد بوجوده من دون الله؛ بل هو كائن في الله.

والمسيح «الكلمة» بظهوره في الجسد لم يكن مجرد إنسان أو نبي؛ بل وهو بطبيعة الله وجوهره، قد تجسّد.

وبهذه المؤهلات صار «اللكلمة» المتجسد، أي المسيح، القدرة والسلطان أن يستعلن كل حقائق الله.

« في البدء » :

يتجه ق. يوحنا بهذه اللفظة $\epsilon\nu \alpha\rho\chi\eta$ التي تنطق بالعبرية «براشيت» إلى الاسم التقليدي عند اليهود لسفر التكوين، الذي يتدّىء بهذه الكلمة «في البدء خلق الله». وهذا هو الأسلوب السري «المسْتَيْكِي» للقديس يوحنا. أما القصد فواضح، فهو سيتكلم بإنجيله عن الخليقة الجديدة. و«بدء» الخليقة الجديدة عند ق. يوحنا هو المسيح: «أنا هو... البداية والنهاية»، «أنا هو الأول والآخر»، «أنا هو الألف والياء» (رؤ ١: ٨ و ٢: ٨). وبحسب القديس كيرلس الكبير، فهو البدء الذي بلا بدء.

و«البدء» في إنجيل يوحنا ليس هو البدء في سفر التكوين، لأن بدء سفر التكوين هو الخلق — أي بدء الزمن — أما البدء في إنجيل يوحنا فهو ما قبل الخلق والزمن والتاريخ والإدراك. وليس قبل الخلق إلا الله!

ولكن ق. يوحنا لم يكتب في البدء كان «الله»، لأنه لم يكن بصدد الحديث أو الإعلان عن الله. بل قال في البدء كان «الكلمة» لأنه سيتكلم حالا عن الخلق الذي تم «بكلمة» الله. ولكن لن يتوقف عند الخلق — كسفر التكوين — بل سيتجاوزه حالا إلى الخلاص الذي تم بتجسد «الكلمة». من هنا كان همُّ ق. يوحنا أن يعرفنا «بالكلمة» قبل أن يتجسد، ليستعلن لنا قيمة وجلال التجسد، وبالتالي قيمة وجلال المسيح وعظمة وقوة الخلاص الذي تم. ولكن من أين أتى ق. يوحنا بمفهوم هذا البدء اللازمي، قبل الخليقة؟

قطعاً ذلك لم يكن من العهد القديم؛ فالعهد القديم، وإن سنجل لبدء الخلق، لكنه لم يتعرض لِمَا قبل الخلق. والعهد القديم اضطلع بعمل الكلمة ولم يضطلع بطبيعة الكلمة. ومّا تعرض للكلمة الله لم يتعرض لها بوصفها الأَقْنُومِي الذاتي المطلق بل كفعل قوة في حدود الحدث الزمّني. إذ كان «الكلمة» الذاتي المطلق غائباً غياباً كاملاً عن الوعي اليهودي. إشعياء النبي أحس بهذا الغياب إحساساً مؤلماً فقال: «حقاً أنت إله مُحْتَجِبٌ يا إله إسرائيل المخلص». (إش ٤٥: ١٥)

لذلك نحن نرى، وبالتأكيد، أن تأثير المسيح بجلال مقولاته كان هو المصدر الأساسي في تكوين فكر ق. يوحنا اللاهوتي، سواء من جهة أَقْنُومِي الكلمة الأزلي، أو من جهة مفهوم وجوده قبل الزمن «في البدء». وإنه من واقع استعلان المسيح لنفسه، استعلن ق. يوحنا الكلمة، فبرز آيتين ظاهرتين وبارزتين في أقوال المسيح يتضح أصل ومفهوم «البدء» اللازمي للكلمة في إنجيل يوحنا:

الآية الأولى: «والآن مجدني أنت أيها الأب عند ذاك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون

العالم. « (يو ١٧: ٥)

الآية الثانية: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧: ٢٤)

«كان الكلمة»:

«كان» هنا لا تدل على فعل زمني بل على الكينونة الدائمة وهي تخص الوجود اللازمي، وتستخدم للدلالة على الأمور المطلقة أي غير المخلوقة.

فعندما نقول: «في البدء كان الكلمة» يعني أن للكلمة كينونة أو كيانياً قائماً في البدء أي في الأزل. وهنا يتجه الفكر مباشرة إلى التعريف الذي عرف الله به نفسه لموسى لما سأله هذا عن اسمه، فكان الرد: «أهيه الذي أهيه»، وتفسيره حسب ما جاء في طبعة الكتاب المقدس (هامش سفلي) «أكون الذي أكون». والقصد من هذا التعبير واضح غاية الوضوح وهو «أنا الكائن بذاتي»، أو كما يترجمها الإنجليز: "I am the being" = أي أنا الكينونة.

ف «في البدء كان الكلمة» تعني أن الكلمة كائن منذ الأزل، وهذا يسلمنا مباشرة إلى القول إنه لم يكن بمفرده بل «كان عند الله». ويلاحظ هنا أنها جاءت «كان» وليس «كانت» لتناسب مؤنث الكلمة العربية لغوياً، وهذا قصور وخلل في الترجمة العربية لأن «الكلمة» أصلاً في اللغة العبرية مذكر = «قَوْل» = "Kol"، وترجمت باليونانية λόγος وهي مذكر أيضاً.

«الكلمة»: اللوغس^(٧).

«في البدء كان الكلمة»: هذا الإصطلاح العميق المختصر من أين أتى به ق. يوحنا؟ لقد لجأ الشراح في ذلك إلى عدة مصادر، ولكن من المصادر الواضحة أمامنا التي مهّدت لهذا القديس الرائي تسميته للمسيح «بالكلمة» مصدرين:

أولاً: سفر الرؤيا، إذ سمع بأذنيه ما يقوله الروح واصفاً المسيح وهو متجند للحرب، ركباً فرساً أيضاً، دلالة على المقاصد السلامية، وعلى رأسه تيجان كثيرة، رمزاً للنصرة المتعددة المكاسب لحساب الإنسان، وعيناه كلهيب نار تذيب القلوب الصخرية، «وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو، وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى اسمه "كلمة الله"» (رؤ ١٩: ١٢ و١٣)

وهنا يظهر أن اسم «الكلمة» متعاطف الشأن لدى السمائيين، فهو صفة المسيح المحاربة والديانة والمتسلطة والقائدة، لأنه يقول في بقية الآية: «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على

خيل بيضٍ لابسين بزاً أبيض وبقياً، ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعضاً من حديد وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شيء. وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك ورب الأرباب» (رؤ ١٩ : ١٤-١٦). وهذه الصورة تمثل واقع «الكلمة» لدى السمانيين، والثوب المغموس بالدم علامة أبدية لانتهاء وقهر العدو لأنها تذكّر الصليب. فهي شهادة لغلبيته على العالم «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦ : ٣٣) — «وهم غلبوه بدم الحروف وبكلمة شهادتهم» (رؤ ١٢ : ١١)

ولكن يلاحظ هنا أن اسم «كلمة الله» يعبر عن حالة خروج من الله وإرسال للإعلان عن مشيئة الله وتتميمها بقوة واقدار، فهو اسم «الكلمة» بعد أن اضطلع بالعمل والرسالة، لذلك جاء اسمه «كلمة الله».

أما اسم «الكلمة» فقط الذي كتبه ق. يوحنا في إنجيله بوحى الروح فهو يعبر عن ما قبل الخروج والإرسال والإعلان عن الله، أي اسمه الذاتي، وليس هو صفة عمل. وهو اسم مُحاط بالهيبة والجلال «وكان الكلمة الله». فهو اسم له كفاءة واستحقاق ذاتي لكل ملء اللاهوت خلواً من عمل أو رسالة.^(٨)

ثانياً: والمصدر الثاني الأكثر أثراً في تكوين الفكر اللاهوتي للقديس يوحنا بخصوص «الكلمة اللوغُس» هو تشديد المسيح بصورة متكررة أنه كلمة الله بصورة ذاتية وشخصية، وأن كلامه الذي يقوله هو «روح وحياة». وبالرجوع إلى الآيات في نصها اليوناني يظهر بوضوح أن المسيح يعتبر كل ما يقوله هو «اللوغُس»، وأنه هو اللوغُس أي «الكلمة».

وسنعيد كتابة الآيات في نصها اليوناني لنرى مدى وضوح حقيقة اللوغُس عند المسيح. لأن الترجمة العربية أخطأت وتجاوزت لفظ «اللوغُس» المفرد = «كلمة» وجعلته بالجمع «كلام». فاختفى المعنى.

علاقة اللوغُس بالمسيح من واقع كلامه:

+ «من يسمع (كلامي) كلمتي τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية.» (يو ٥ : ٢٤)

هنا المعنى ينصب على أن الذي يقبل اللوغُس المسيح ويؤمن بالله الذي أرسله يكون له الحياة

^٨ F. W. Hengstenberg, *Commentary on the Gosp. of St. John*, p. 13.

الأندية. ومعروف أن الذي يقبل « كلمة » أو لوغُس المسيح يعني أنه يقبل المسيح. هنا المسيح واللوغُس على التساوي.

+ « أنتم الآن أنقياء لسبب (الكلام) الكلمة = اللوغُس τὸν λόγον الذي كلمتكم به. » (يو: ١٥: ١٣)

الكلمة اللوغُس هنا مجرد سماعه ودعيه فإنه ينقي القلب، حيث المعنى يتمحور حول قبول المذبح نفسه والإيمان به.

+ « إن كان أحد يحفظ (كلامي) كلمتي τὸν ἐμὸν λόγον فلن يرى الموت إلى الأبد. » (يو: ٨: ٥١)

ومعروف أن الذي يؤمن بالمسيح هو الذي لن يرى الموت. فاللوغُس والمسيح هنا على التساوي.

+ « فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنكم إن ثبتتم في (كلامي) كلمتي ἐν τῷ λόγῳ τῷ ἐμῷ فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرككم. » (يو: ٨: ٣١ و ٣٢)

هنا الثبوت في كلمة المسيح أي اللوغُس يكشف عن التلمذة الحقيقية للمسيح أي أن التلمذة لكلمة المسيح هي التلمذة للمسيح بعينها.

ومعروف من آيات أخرى أن الثبوت في كلمة المسيح هو هو الثبوت في المسيح نفسه (يو: ١٥: ٧).

+ « (الكلام) الكلمة ὁ λόγος الذي تسمعه ليس لي بل للأب الذي أرسلني. » (يو: ١٤: ٢٤)

المسيح يوضح هنا أن كلمته أي اللوغُس ليس منفرداً من دون الله فهو اللوغُس الذي أرسله الله سواء شخصه أو كلمته واحد!!

+ « أنا قد أعطيتهم (كلامك) كلمتك τὸν λόγον σοι والعالم أبغضهم. » (يو: ١٧: ١٤)

معروف أن العالم أبغض المسيح وبالتالي أبغض الذين قبلوا كلمة الله أي اللوغُس. هنا المسيح ولوغُس الله على التساوي.

+ « (كلامك) كلمتك ὁ λόγος ὁ σός هو حق. » (يو: ١٧: ١٧)

ومعروف أن المسيح أعلن بكل قوة ووضوح « أنا هو... الحق » (يو: ١٤: ٦). وهنا اللوغُس والمسيح على التساوي المطلق. بل يمكن استخلاص أن المسيح هو اللوغُس مباشرة.

ومعروف أيضاً أن المسيح أعطى الحق أي اللوغُس في كلامه عموماً، أي أن حديثه كان يحوي سر «الكلمة»، سر «اللوغُس»، سر «المسيح». وهذا يتضح من الآية الآتية:

«لماذا لا تفهمون كلامي τὴν λαλίαν τὴν ἐμὴν لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا (قولي)» (١) كلمتي α. ἀκούειν τὸν λόγον τὸν ἐμὸν (يو: ١٣)

هنا واضح أن كلام المسيح شيء و«الكلمة» أي اللوغُس الكائن في كلام المسيح شيء آخر. فالكلمة اللوغُس هو سرُّ الله وهو المسيح وهو الحق المخفي في الكلام. فالذي يسمع صوت الله ويره، أي الحق، من وسط الكلام يفهم كل الكلام في الحال.

ومن هذه الآية نستخلص أن «الكلمة» اللوغُس هو محور كل تعاليم المسيح وهو القلب النابض في إنجيل يوحنا وعليه يقوم الإنجيل كله!! ولذلك، وإن كان يتهاً جميع الشراح أن ق. يوحنا لم يستخدم اصطلاح (اسم) «الكلمة» اللوغُس إلا في موضعين اثنين من مقدمة إنجيله في الأصحاح الأول، إلا أن الواقع والحقيقة أن اللوغُس هو محور إنجيل يوحنا وملخص لاهوته.

فكما أن كلمة الله اللوغُس، وبالعبرية «قَوْل إلهيم»، جاء في الأسفار المقدسة قديماً منطوقاً بفم الأنبياء وكان يعمل الحياة للذين يثبتون فيه، فقد جاء الكلمة اللوغُس بنفسه في شخص يسوع المسيح معلناً الحق ومعطياً الحياة. ولكن يظل هناك فارق بين الكلام المقول واللوغُس المحتوى داخله: «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. ثم تسمعوا صوته φωνήν فقط، ولا أبصرتم هيئت». وليست لكم كلمته τὸν λόγον αὐτοῦ ثابتة فيكم... ففتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة.» (يو: ٣٧-٣٩)

المسيح هنا يستعلن نفسه بمنتهى الخلق الإلهي أنه هو اللوغُس! فهو يوضح أن كلمة الله اللوغُس التي يفتشون عليها في الكتب (الأسفار) لكي تعطيه حياة أبدية أخطأوا إليها فأخطأوها، ولم ينتبهوا إليها حينما استعلنها المسيح في نفسه لما جاء بنفسه إليهم: «إني خاصته جاء»، فلم يأتوا هم إليه، مع أنه بصفته اللوغُس الذي يبحثون عنه قادر أن يعطيهم الحياة الأبدية!!

لذلك، فجوهر الإعلان في إنجيل يوحنا محكوم بمستوى السماع الروحي للكلمة «اللوغُس»، وهو الحق المثبت في كلام المسيح، على أن هذا «اللوغُس» هو سرُّ الإنجيل وسرُّ الله وسرُّ المسيح،

(٩) هنا تجيء كلمة «قولي» التي وضعناها بين قوسين لأنها لا تعيد معنى اللوغُس «الكلمة» باللغة العربية، وإنما توضح بالنطق العبري تكون صحيحة تماماً ونفيده معنى اللوغُس، لأن «اللوغُس» بالعبرانية ينطق (قول).

وهو لا يوجد جامداً أو ساكناً، بل على الدوام ينطق من بين السطور والكلمات، كوهضات من نور أو ذفقات حياة تنطلق بلا توقف.

وبهذا نرى أن اللوغس في إنجيل يوحنا لا يحتاج إلى شرح أو تعريف أو فهم، فهو هو المسيح، والروح واقف على استعداد يأخذ مما للمسيح «اللوغس» ويخبركم ἀνογγελεῖ ὑμῖν. والمسيح لا يعطي كلام الحق ليفهم، بل هو يعطي الحق ليعاش؛ ولا يعطي كلاماً يصلح للحياة بل يعطي الحياة. فهذا هو سر كلامه: «روح وحياة»، وهذا يوصلنا إلى مقدمة الإنجيل بكل هدوء، فالمسيح هو «الكلمة اللوغس».

فإن كان ق. يوحنا قد أعطى للمسيح اسم «الكلمة» اللوغس فهو فعل ذلك من واقع استعلان المسيح لنفسه من خلال تعليمه. على أن قدرة ق. يوحنا على استشفاف هذا الاسم وطرحه في مستهل إنجيله — ليس على أن «كلمة الله» — بل على أنه «الكلمة» اللوغس يُعتبر إلهاماً إلهياً وعلى مستوى المساهمة العظمى لللاهوت المسيحي، وهي جرأة يستحيل أن يأتيها عقل بشر؛ فهي جرأة من رأى وعاش أن «يسوع المسيح هو الكلمة»: «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق.» (يو ٢١: ٢٤)

وهذه المعلومة البسيطة في مظهرها صارت هي الحقيقة الإلهية العظمى في تاريخ معرفة الإنسان
الله!

«في البدء كان الكلمة»:

قلنا أن «في البدء» تفيد ما قبل الخلق، وبالتالي ما قبل الزمن، فتكون بالتحديد هي الأزلية. وقلنا أن «كان» لا تفيد فعل الزمن الماضي الناقص ولكن تفيد الكينونة الدائمة للمطلق. أي أن الكلمة اللوغس هو «كائن أزلي». فمن أين أتى ق. يوحنا بهذا التوصيف الخطير للمسيح؟

أمامنا مصدران واضحان استشف منهما ق. يوحنا وصف المسيح بالكينونة الأزلية:

الأول: قول المسيح صراحة لليهود: «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي وفرح. فقال له اليهود ليس لك خمسون سنة بعد أفرايت إبراهيم؟ قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو ٨: ٥٦-٥٨)

قول المسيح «أنا كائن» كشف عن كينونته اللازمنية الأزلية. لأنه لو كان قد قال: «أنا كنت»، لدخل المعنى في إطار الزمن وأصبح مجرد أسبقية زمنية، ولكن بقوله: «أنا كائن» = ὃν εἰμι أصبحت المقارنة بين إبراهيم والمسيح شاسعة جداً وبلا قياس، فهي مقارنة بين مخلوق

وغير مخلوق، بين زمني وأزلي. إذن، فهو كائن قبل كل الآباء والأنبياء وكل الخليقة.

هذا القول الذي قاله المسيح «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» انطبع في قلب ق. يوحنا وأخذ الأولوية على كل ما عداه من الأوصاف التي استعملها المسيح في ذاته.

الثاني: أما الموضع الثاني الذي عزز صورة المسيح في ذهن يوحنا وإيمانه بصفته الكائن الأزلي، فهو قوله المملوء سرًا وجلالاً ورهبةً: «إن لم تؤمنوا أنني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ تموتون في خطاياكم». (يو: ٨: ٢٤)

هنا نرجو القارئ الرجوع لشرح سر التسمية $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ في كتاب «المدخل لشرح إنجيل ق. يوحنا» ص ٢١٨-٢٤٦. ويكفي هنا أن نقول أن هذا هو نفسه اسم الله الشخصي الذي قاله لموسى في مستهل سفر الخروج ٣: ١٣ و ١٤:

«فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \acute{o}\ \acute{\omega}\nu$. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم».

وهذا الاسم صار توضيحه في هامش الكتاب المقدس هكذا: «أكون الذي أكون» وترجمتها بالإنجليزية **I am the being**، وتُفهم بالعربية «أنا الكائن بذاتي» = هذا هو اسم الله.

وبلاحظ في هذا الشرط الخطير الذي قدمه المسيح لليهود لكي تُغفر خطاياهم أنه يتحتم أن يؤمنوا بأنه يقدم لهم في منظوره الشخصي الله غير المنظور ذا الجلال والعظمة، وأن وجوده المنظور أمامهم يجمع كل الكيان اللامحدود والمحدود، المنظور وغير المنظور، وإلا فإنهم يموتون في خطاياهم^(١٠). لماذا؟ لأنه هو الذي سيحمل كفارة خطاياهم، ولأنه هو هو «الله ظهر في الجسد». (١ تي ٣: ١٦)

وفي رد المسيح التالي على اليهود يتضح أكثر تأكيد المسيح على استعلان شخصيته الأزلية: «فقالوا له من أنت؟ فقال لهم يسوع أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» (يو: ٨: ٢٥). ويشرحها القديس أغسطينوس باختصار هكذا: [صدّقوني أنني أنا البداية لأنني قلت لكم هذا].

كما يلاحظ أنه قبل أن يستعلن المسيح وجوده الأزلي بقوله «أنا هو» = «أنا هو الكائن بذاتي» في الآية ٨: ٢٤، قدم لهذا القول بالآية: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق؛ أنتم من هذا

¹⁰ Westcott, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 131.

العالم أما أنا فلست من هذا العالم» (يو ٨: ٢٣). هذا كله يعزز استعلانه لذاته أنه كائن بذاته منذ البدء.

لقد انطبع هذا الاستعلان أيضاً في ذهن ق. يوحنا وأدرك بيقين أن شخصية المسيح تحمل الكيان الإلهي الأزلي، وأنه يحمل اسم ذات الله بكل جلاله وأنه منه البدء وبلا بداية. لذلك استهل ق. يوحنا إنجيله بقوله: «في البدء كان الكلمة». وكان هذا حصيلة معرفته اليقينية بالمسيح عن قرب، إن لم يكن عن إملاء الروح نفسه.

«كان الكلمة»:

لماذا لم يكتب ق. يوحنا «كلمة الله» كما هي معروفة في جميع الأسفار القديمة؟

يلاحظ القارئ أن ق. يوحنا يقدم المسيح قبل التجسد، وقبل إبراهيم: «أنا كائن»، ويقدمه قبل «كل شيء به كان»، أي قبل الخليقة جميعها في الأرض وفي السموات، أي قبل الزمن: «في البدء» الأزلي. قبل التاريخ، قبل الفهم والإدراك عموماً. وذلك لأنه لم يكن بعد للكلمة إرسالية خارج الله، فهو يصفه في كيانه أو كينونته في الذات الإلهية وحسب. ولأنه — أي «الكلمة» — لم يبدأ في استعلان الله أو يخبر عن الله أو عما عند الله، إذ لم تكن توجد خليقة ما تسمع أو تفهم. لذلك فلا يجوز أن يوصف بأنه الكلمة المرسلّة أو كلمة الله الخارجة لتعمل لحساب الله. بل كان «الكلمة» مكثفياً بالوجود المطلق في الله.

+ وبمجرد أن بدأ الخلق، بدأ عمل الكلمة في العالم المخلوق يشهد لإرادة الله بالقوة التي فيه، وهذا يصفه ق. يوحنا بـ «النور». بدأ الكلمة عمله في العالم المخلوق كنور وحياة — وهذا هو الاستعلان الثاني «للكلمة».

+ وجاءت خلقة الإنسان على صورة الله، فهيماً وناطقاً وسامعاً، وهنا بدأ عمل «الكلمة» في الإنسان (العهد القديم بكل أسفاره) باعتباره «كلمة الله» المرسلّة المسموعة والمفهومة — وهذا هو الاستعلان الثالث «للكلمة».

+ وقد جاء كلمة الله إلى خاصّته، أي شعب إسرائيل، متكلماً في الأنبياء، فلما لم يقبلوه «تجسد الكلمة» — وهذا هو الاستعلان الرابع للكلمة — وذلك ليعلن ويخبر عن الله جهاًراً وعلانيةً دون وسيط — لا كلمة الله المجردة المرسلّة المسموعة والمفهومة فقط أي قوة غير مشخّصة — ولكن الله الكلمة الشخص المسموع والمنظور والملموس أيضاً. «الذي رأي فقد رأى الآب». (يو ١٤: ٩)

لذلك حينما قال ق. يوحنا «في البدء كان «الكلمة»»، فهو يقول عن شخص «الكلمة» اللوغس في ذاته وفي البدء، وليس في عمله بعد!، معرّفاً بـ «ال» ولكن ليس معرّفاً بعمل.

«والكلمة كان عند الله»:

كلمة «عند» $\pi\rho\acute{o}s$ ، كما يرى العلماء في اللغة وشرّاح الكتاب المقدس، لا تفيد مجرد الوجود معاً كإثنين يعيشان في شركة، ولا حتى تعني اتحاداً بالمفهوم العام، أو وجوداً مكانياً بأية علاقة كانت. ولكن هي تفيد علاقة متصلة، يشرحها المسيح نفسه في موضع آخر إنما بعد التجسد بقوله: «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك.» (يوه: ١٩)

وهذا يفيد في نظر العالم Westcott أن الوجود الشخصي للكلمة كان يتحقق في اتصال فعّال دائم وشركة كاملة مع الله، وهذه هي حقيقة «الكلمة» عند الله قبل أن يبدأ يستعلن الله.

وقد ورد هذا الاصطلاح: «عند $\pi\rho\acute{o}s$ » في موضع مماثل يُعتبر بحد ذاته أقدم وأوضح شرح لمعنى «والكلمة كان عند الله»، وذلك في الآية التي كتبها ق. يوحنا نفسه في رسالته الأولى عن الحياة الأبدية التي «كانت عند الآب» $\eta\nu\ \pi\rho\acute{o}s\ \tau\acute{o}n\ \pi\alpha\tau\acute{\epsilon}r\alpha$ و«أظهرت». وهنا يتضح أن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب كانت تحقق ذاتها في علائق الاتصال الداخلي بالله^(١١). وهذا هو بعينه الذي يعنيه الروح بقول الإنجيل: «والكلمة كان عند الله».

ويقول العالم شناكنبرج: [إن «عند = $\pi\rho\acute{o}s$ » لا تفيد هنا الحركة تجاه هدف ما بل إن $\pi\rho\acute{o}s$ تأتي مُعَادِلَةً وبالتبادل أحياناً مع $\pi\alpha\rho\acute{\alpha}\ \tau\omega\ \theta\epsilon\acute{o}$ كما قالها المسيح في صلاته: «والآن مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ = $\pi\alpha\rho\acute{\alpha}\ \sigma\epsilon\alpha\upsilon\tau\acute{o}$ بالمجد الذي كان لي عِنْدَكَ $\pi\alpha\rho\acute{\alpha}\ \sigma\omicron\iota$ قبل كَوْنِ الْعَالَمِ » (يوه: ١٧: ٥).]

ويقول شناكنبرج: [إن هذا المجد الذي كان له عند الآب هو هو اتصاله الوثيق بالله وهو قائم باتصال الحياة الأبدية المعطاة بالحب (يوه: ١٧: ٢٤). لذلك فإن في هذه المقدمة يتأكد أن كينونة اللوغس — بالأصل — هي وجود فعّال بالحب، له ملء حياة الله والمجد معه.]^(١٢)

^(١١) Westcott, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 3.

^(١٢) Schnackenburg, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 234.

ويشرحها القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: [إن الكلمة هو وجود شخصي جوهري οὐσία ἐνυπόστατος صادر προελθοῦσα بدون تألم ἀπαθῶς من الآب نفسه، فهذا كما سبق وأن أشرت هو اصطلاح «الكلمة». وأيضاً قوله «في البدء كان الكلمة» هذا يوضح أزليته. كذلك أيضاً «والكلمة كان عند الله»، يكون بذلك قد أعلن لنا أنه معه في الأزلية = His Co-eternity حتى إذا سمعتم أنه «في البدء كان الكلمة» لا تخطئون في تصوركم أن حياة الآب تختلف عنه (عن الكلمة) بأي مسافة زمنية أو أي امتداد، فيتحدد بذلك خطأ بدء خاص لابن الوحيد، ولذلك أردف يقول: «والكلمة كان عند الله». ولهذا فهو أزلي كالآب نفسه لأن «الآب» لم يكن أبداً بدون «الكلمة»، بل كان الله مع الله، كلٌّ في أقنومه الخاص ὑποστάσει.] (١٣)

ومن هذا الشرح لذهبي الفم نفهم أن «عند πρὸς» تساوي مفهوم «المعية الأزلية»، أي أن الكلمة كان مع الآب في الأزل دون افتراق.

ومن هذه الشروحات على قول ق. يوحنا: «والكلمة كان عند الله (الآب)»، فيما قبل الخلق وقبل حركة الكلمة في الإعلان عن الله سواء في الخليقة عامة أو في الإنسان؛ نرى أن لا الله ولا الكلمة كان في حاجة إلى خلقة العالم — وإنما الخلقة جاءت كإرادة حب: «هكذا أحب الله العالم..» (يو ٣: ١٦) — لأن كلاً منهما كان في اكتفاء كلي بالآخر، فحركة المجد المتصل، وشركة الفهم والإدراك المتبادل، وشركة الحياة المتصلة، وشركة الأزلية الدائمة، جعلت «الله والكلمة» كلاً واحداً كليّ المجد، مُدرِّكٌ كامل كليّ الحياة، وهو نفس مستوى الآب والابن كما سنرى — فيما بعد — كون طبيعة الحب المتفجرة والمتبادلة بين الأبوة والبنوة جعلت ذات الله المتكاملة كلية الاكتفاء وكلية الحب والكرامة والمجد.

«والكلمة كان عند الله» تعطينا تصوّراً أن الكلمة — اللوغس — قبل الخليقة يمثل القوة المُدرِّكة لكل مشيئة الله والقائمة الدائمة على أتم استعداد لتنفيذ هذه المشيئة.

أو يمكن أن نرى اللوغس قبل الخليقة أيضاً، القائم الدائم المؤمن على كل خطط الله الأزلية، وهو على أتم استعداد لإخراجها للوجود عندما يحين ميعادها.

كذلك يمكن — من قول بولس الرسول — أن نرى اللوغس قبل تأسيس العالم وهو قائم عند

الله، يحمل صوراً وقوائمَ بأسماء كل الذين اختارهم الله ليمارس دوره معهم وفيهم بكل وسائل التقديس، ليقفوا أمام الله يوماً ما بلا لوم حسب سخاء محبته: «مبارك الله أبوربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.» (أف ١: ٣ و٤)

بهذا يتضح أمامنا أنه حتى وقبل خلقه السموات والأرض وقبل كل الدهور — وقبل أن يُرسل ليعلمن مشيئة الله — كان «الكلمة» اللوغس عمل خاص من جهة الخلاص، واهتمام بالمفدين، وتبدير الخطط مع الله لتكميل مسرة حب الله: «حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته لنكون لمدح مجده، نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح.» (أف ١: ١١ و١٢)

وعلى أساس هذه الصلات الجوهرية والوثيقة بين (الكلمة — اللوغس) والله، والتي هي على مستوى الوحدة الخصبة ذات الفعلية، أصبح «الكلمة» اللوغس — حينما أرسل بعد ذلك ليعلمن الله ومشيئته — أن يقول: «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو ١: ١٨). هذه الآية تشرح — على المستوى الشخصي والعاطفي — مركز اللوغس عند الله. فهو وجود ملتحم ودائم ولكن متميز وشخصي.

«وكان الكلمة الله»:

هنا كلمة «الله» جاءت في الأصل اليوناني θεός غير معرفة بـ «ال» أو ، بعكس الجملة السابقة «والكلمة كان عند الله» ó θεός ، حيث كلمة الله معرفة بـ «ال». ففي الجملة الأولى «والكلمة كان عند الله»، نجد أن «الكلمة» λόγος معرفة بـ «ال» أو «الله» θεός معرف بـ «ال» أو توضيحاً أن لكل منهما وجوده الشخصي، وحيث «الله» المعروف بـ «ال» يحمل معنى الذات الكلية. أما في الجملة الثانية فالقصد من قوله: «وكان الكلمة الله» هو تعيين الجوهر أي طبيعة «الكلمة» أنها إلهية، ولا يُقصد تعريف الكلمة أنه هو الله من جهة الذات.

وهنا يُحذّر أن تُقرأ «الله» ó θεός معرفاً بـ «ال» في «وكان الكلمة الله» وإلا يكون لا فرق بين الكلمة والله، وبالتالي لا فرق بين الآب والابن، وهذه هي بدعة سابيلوس الذي قال أنها مجرد أسماء، في حين أن الإيمان المسيحي يقول أن الأقانيم في الله متميزة: فالآب ليس هو الابن ولا الابن هو الآب، وكل أقنوم له اختصاصه الإلهي. كذلك فالله ليس هو الكلمة والكلمة ليس هو الله (الكلي).

وهنا يقابلنا قصور مكشوف في اللغة العربية، فلا توجد كلمة «الله» بدون التعريف بـ «ال».

وقد يتراءى للبعض أنه يمكن أن يُقال «وكان الكلمة إلهاً»، وهذا أيضاً انحراف لأن الكلمة اللوغُس (أو الابن) ليس إلهاً «آخر» أو «ثان» غير الله الواحد، كما أن الله ليس فيه آلهة — بالمتنى أو الجمع — فالله إله واحد آب وابن وروحٌ قُدُس.

والمعنى يكون أن الكلمة اللوغُس ليس بمفرده الذات الكلية لله، ولكن الله والكلمة هو «الله». وكما نقول الله الابن والله الأب يمكن أن نقول «الله الكلمة» أو «الكلمة الله» لتعريف ماهية الكلمة، وذلك بقصد التفريق بين طبيعة الخليقة سواء في السماء أو الأرض أو الإنسان وبين طبيعة «الكلمة» اللوغُس. فالكلمة كان الله ولم يكن العالم أو الخليقة أو الإنسان. لأنه يجدر بنا هنا أن نوجّه نظر القارئ أن في أيام القديس يوحنا كانت هذه الثلاث البدع موجودة. فكان هناك من ينادي بأن [الكلمة اللوغُس هو العالم]، ومن يقول أنه [كان رئيس ملائكة]، ومن يقول أنه [كان إنساناً]. وبهذا يتضح جداً المعنى والقصد من قول القديس يوحنا: «وكان الكلمة الله».

وليُنْتَبَه القارئ، لأن طبيعة الله ليست كطبيعة أعلى المخلوقات مهما علّت وسمّت هذه المخلوقات، فطبيعة الملائكة والإنسان فيها المفرد والجمع، فيها الملاك وربوات الملائكة، وفيها الإنسان وملايين الناس. أما طبيعة الله فهي طبيعة مطلقة لا تقبل المفرد ولا المتشئ ولا الجمع العدديّين، فهي منزّهة عن العددية، طبيعة بسيطة غير مركبة، وهي واحدة لأنها وحيدة لواحد مطلق. والكلمة فيها متحد بالله اتحاداً مطلقاً، فالله والكلمة هو الله الواحد الأحد.

مقارنة بين كلمة الله وكلمة الإنسان:

+ «الكلمة» في الإنسان تصوّر شخصية الإنسان تصويراً جزئياً، وقد تخطىء فتبقى كلمة الإنسان شيئاً ويبقى الإنسان شيئاً آخر.

أما «كلمة الله» فهي صورة كاملة لله كمالاً مطلقاً، حيث التطابق بين الله وكلمته يفوق حدّ التساوي في المفهوم البشري، لأن التطابق في المطلق — أي الله — غير المحدود هو أعلى مفهوم للتساوي الذي هو الوحدة عينها، لأنه لا توجد ثنائية قط في المطلقات وبالضرورة في الله.

لذلك فالتطابق بين إرادة الله وفعل كلمته يبلغ من التساوي حد التطابق المطلق. فالكلمة يقول ويعمل بحسب مشيئة الله بالتمام والكمال، وهذا نسمعه في وصف المسيح لنفسه باستمرار: «لأنني لم أتكلم من نفسي، لكن الأب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم. وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية، فما أتكلم أنا به فكما قال لي الأب هكذا أتكلم»

(يو ١٢: ٤٩ و ٥٠). هذا من جهة الكلام، كذلك من جهة العمل: «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو ٥: ١٩). هنا تطابق كلي في القول والعمل، ومن هنا الوحدة المطلقة الكلية: «ألست تؤمن أنني أنا في الآب والآب فيّ، الكلام الذي أكلّمكم به لست أتكلّم به من نفسي، لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال.» (يو ١٤: ١٠)

+ وكلمة الإنسان مهما بلغت في تعبيرها عن حالة الإنسان ومداخله، فهي في طبيعتها مجرد ظاهرة أو مظهر مسموع أو مكتوب أو معمول لا يمثل طبيعة الإنسان تمثيلاً كلياً؛ ولكن كلمة الله — اللوغس — يحمل طبيعة الله ويعبر عن ذاته تعبيراً كلياً مطلقاً، فإذا خرج اللوغس من لدن الله فهو خروج غير زمني وغير محدود، وهو يظل قائماً في الله ويعمل خارج الله، فهو يمثل الحضرة الإلهية بكل طبيعتها وقوتها وجلالها، يحمل اسم الله وسلطانه كذات الله.

وهكذا فكون «كلمة الله» هو أقنوم (شخص) — عند الله وفي الله — بحد ذاته، فهذا امتياز لطبيعة الله الفائقة عن طبيعتنا. لذلك فالفارق يفوق تصوّرنا جداً لأنه ليس له مثل في طبيعتنا. وهذا أيضاً أحد كمالات الله وخصائصه واتساع قدراته التي تزيد كثيراً عن تصوّرنا.

+ كذلك، إذا كانت كلمة الإنسان كريمة عند نفسه وعزيزة لديه، وهو يطالب بكرامتها وحمية تنفيذها لأنها تعبر عن ذاته؛ فكيف تكون كلمة الله؟

وهذا نسمعه تماماً في تعاليم المسيح عن نفسه! باعتباره «الكلمة» والابن المرسل: «الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمل... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو ٢٠: ٢٣—٢٣)، «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو ١٢: ٤٤ و ٤٥)، «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ٩)

والآن، أنظر أيها القارئ، وأعدّ النظر على ضوء ما قلناه في قول ق. يوحنا: «وكان الكلمة الله»!

أما إذا تبادر إلى ذهنك: ولماذا بدأ الإنجيل بـ «الكلمة» ولم يبدأ بوصف «الابن»؟ فالجواب

هو أن ق. يوحنا يتتبع المسيح قبل التجسد وقبل الأنبياء وقبل الخليقة لجعلك تراه في حقيقة شخصه قبل الخلق وهو قائم في الأزلية عند الله، تمهيداً لاستعلان بنوته.

٢: ١ «هذا كان في البدء عند الله».

«هذا» هنا تكرر مقصود به «اللوغُس» في القول السابق: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله»، ليؤكد أمرين غاية في الأهمية بالنسبة لما هو مزعم أن يقوله عن الكلمة بالنسبة للخلق: الأمر الأول أن الكلمة أزلي، والثاني أن الكلمة هو من جوهر الله وطبيعته، ومؤكداً مرة أخرى أن «هذا كان في البدء عند الله» أي قبل أن يكون العالم وكافة المخلوقات.

وتأكيد ق. يوحنا على «عند الله» لثاني مرة لا يخلو من إشارة ذكية، أن هذه العلاقة القائمة الدائمة بين الكلمة والله هي بحد ذاتها سرٌّ من أسرار الخلق. كما أن التأكيد على أزلية الكلمة مع الله تقطع بالهوة السحيقة التي تفصل بين «الكلمة» وبين «الخلق المُحدث الزماني»، المخلوق بالكلمة.

وفي التعليق على قول الإنجيل: «هذا كان في البدء عند الله» يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم: [لقد أعاد ثانية القول «هذا كان في البدء عند الله» أي أزلي تماماً كالآب، لأن الآب لم يكن قط بدون الكلمة، بل كان الكلمة الله مع الله كلُّ شخصه ὁπρόστασις .] (١٤)

ونحن نرى أن العودة إلى «البدء عند الله» مرة أخرى هي حارس يحرس التعبير من الانحراف نحو الثنائية بين الكلمة والله.

٣: ١ «كلُّ شيءٍ به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ ممَّا كان».

«وقد جعلتُ أقوالي في فمك (اللوغُس)، وبطل يدي سترتُك لغيرِ السموات وتأسيس الأرض، ولتقول لصهيون أنتِ شعبي.» (إش ٥١: ١٦)

وهكذا ينحدر ق. يوحنا سريعاً من تحليقه فيما وراء الزمن في الأزلية، ومن الشخصيات الفائق

في كيان اللوغس عند الله الذي أوقفنا أمامه وفي مواجهته لحظة، لينزل بنا إلى واقعنا المادي إلى الخليفة بكافة أشكالها وأنواعها فيما يُرى وما لا يُرى.

ولا يخفى على الدارس للفكر اليهودي القديم أن يلمح في هذه الآية تقابل الوزن العبري بالإيجاب ثم السلب باتصال، ليغوص بنا في أعماق وأطراف المعنى، وليجمع بينهما فكر واحد متكامل محبوب لا يأتيه الشك من أي جانب: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»، حيث لا يزال التركيز هنا على الكلمة اللوغس باعتباره العامل الوحيد في الخلق. فكل الخليفة أخذت وجودها وكيانها المرئي وغير المرئي منه، ولا توجد خليفة قط يمكن أن تتخذ لها وجوداً بدونه.

وبينما يظل الكلمة أزلياً كما هو، أخذت منه الخليفة مبدأها الزمني، وارتبطت به ارتباط الوجود والكيان والحركة والدوام على مستوى الزمن، وظلّ هو حراً منها لا يحده زمان أو كيان.

+ هنا «كل شيء» πάντα يفيد كل شيء بمفرداته واحداً واحداً، وليس كل شيء كجمع كلي، وإلا كانت تُكتب τὰ πάντα، كما جاءت في رسالة بولس الرسول: «فإنه فيه خُلق الكل...» (كو١: ١٦). وبالتأكيد فإن «كل شيء» هنا يعود على تنوع الخلائق من روحية وبشرية ومادية، ليقطع خط الرجعة على بدع القائلين أن اللوغس هو العالم أو أنه كان ملاكاً أو كان مجرد إنسان.

+ «به كان»، والأصح بحسب الأصول والمعنى اليوناني «به صار». والمعنى المقصود هو «به خُلق»، لأن «كان» هنا كما جاءت في اللغة العربية توقعنا في خطأ وارتباك لأنها لم تجيء في اليونانية ἦν التي تفيد الكينونة، بل ἐγένετο وتعني «صار» أو «ظهر في الوجود»، أو «خُلق».

وبحسب العالم وستكوت^(١٥) فإن فعل «خُلق» يأتي على ثلاث صور من الأفعال:

الأول: يخلق κτίζειν. والثاني: يصنع ποιεῖν وذلك بالنسبة للمخالف.

والثالث: يصير γίνεσθαι

١ — والفعل الأول «يخلق» كما جاء في (كو١: ١٦ و١٧): «فإنه فيه خُلق ἐκτίσθη»

الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواءً كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به وله قد خُلق، الذي هو قبل كل شيء وفيه $\epsilon\nu\ \alpha\upsilon\tau\omega$ يقوم الكل $\text{συνέστηκεν} = (\text{hold together})$ ». وهنا يأخذ فعل «خَلَقَ» معنى وحقيقة التصميم والتخطيط والقصد من الشيء قبل صنعه في ذهن الخالق.

٢ — أما الفعل الثاني «صنع» كما جاء في إنجيل مرقس: «من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله $\epsilon\pi\omicron\iota\eta\sigma\epsilon\nu$ » (مر ١٠: ٦)، فهي تفيد النتيجة الفعلية أو الشيء الناتج من الخلق كصنعه. كما هو واضح جداً من قول بولس الرسول: «لأننا نحن عمله $\epsilon\sigma\mu\epsilon\nu\ \pi\omicron\iota\eta\mu\alpha$ = product (وترجمتها بالإنجليزية واضحة للغاية = for we are his workmanship) مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدّها...» (أف ٢: ١٠)

٣ — أما الفعل الثالث «يصير» $\epsilon\gamma\epsilon\nu\epsilon\tau\omicron$ الذي نحن بصددّه هنا، «كلُّ شيء به (كان) صار»، فهو يفيد القانون الخاص الذي بمقتضاه يتم ظهور الشيء حسب تدبير العناية الإلهية.

وأوضح مثل لذلك ما جاء في الفعلين المستخدمين في الآية ١: ١٤: «والكلمة صار $\epsilon\gamma\epsilon\nu\epsilon\tau\omicron$ جسداً»؛ وفي الآية ١: ١٧: «لأن الناموس بموسى أعطى أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صار $\epsilon\gamma\epsilon\nu\epsilon\tau\omicron$ ».

وهنا تنكشف قوة هذا الفعل كمعبّر عن كيفية الاستعلان عن النظام والتدبير الإلهيين وإظهارهما للوجود. بمعنى أنه قبل أن يخلق الله العالم بالكلمة كان هناك تدبير وخطة ونظام وقانون انتهت جميعاً إلى استعلان خطة العالم بوجوده، وانتهت إلى استعلان تجسد الكلمة، ثم انتهت إلى استعلان النعمة والحق في المسيح يسوع. وهذا هو المعنى النوعي والتحديد لفظ $\epsilon\gamma\epsilon\nu\epsilon\tau\omicron$

+ «به» = $\delta\iota\alpha$: الحرف اليوناني $\delta\iota\alpha$ لا يفيد المعنى باللغة العربية «به»، ولكن معنى آخر أعمق يمكن أن يُترجم «بواسطة» التي تأتي بالإنجليزية through him وليس by him التي هي $\upsilon\pi\omicron$.

لهذا فحرف $\delta\iota\ \alpha\upsilon\tau\omicron\upsilon$ يعطي معنى أكثر علاقة بين الكلمة اللوغس وبين الخليقة. أي أن كل شيء هو به وفيه بآن واحد، وليس به فقط، فالكلمة بعد أن خُلِقَ، ظل حافِظاً ومقيماً وماسكاً ومُدبِّراً للمخلوق. المسيح عبّر عن ذلك بقوله: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو ١٥: ٥)

والعلاقة الممتدة بين الخليقة والكلمة تتضح من كلام القديس بولس الرسول :

«فإن فيه خُلق الكل ... ἐν αὐτῷ ...

الكل به وله قد خُلق ... δι' αὐτοῦ ...

وفيه يقوم الكل ἐν αὐτῷ συνέστηκεν .» (كو١٦: ١٧)

أي أن الخليقة بواسطة خُلقت، وفيه هي مخلوقة وقائمة و متماسكة معاً.

هذا يوضحه ق. يوحنا بمنتهى الاختصار بقوله :

«وبغيره لم يكن شيء مما كان»، والترجمة الأصح : «وبغيره لم يَصِرْ شيء مما صار».

وكلمة «بغيره» تفيد «بعيداً عنه» أي : «بدونه» لا يصير لها وجود وكيان.

وبهذا تكون الخليقة قائمة تحت عاملين :

العامل الأول : الاعتماد الكلي على التوسط الإلهي بواسطة الكلمة.

العامل الثاني : الحضرة الإلهية الدائمة التي تقيم وتحفظ كيانها.

فالخليقة أولاً صارت إلى الوجود بواسطة الكلمة، ثم أخذت وتأخذ قيامها وتماسكها ودوامها معاً بالكلمة أيضاً.

هذا الأمر توضحه الرسالة إلى العبرانيين عندما يقول : «الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل φέρων τε كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب ١ : ٢ و ٣)؛ حيث «به» توضّح سر بقاء ودوام الخليقة كونها محمولة بقوة الكلمة. فهنا سر الخلق، وسر قيام الخلق، وسر دوام الخلق.

ويزيد القديس بولس الرسول هذا الوضع الأخير وضوحاً بقوله : «لأننا به نحيا، ونتحرك، ونوجد.» (أع ١٧ : ٢٨)

نفهم من هذا صحة قول بولس الرسول أن الله موجود وظاهر في الخليقة بصورة تجعل تجاهله دينونة على الإنسان — أي إنسان في العالم — «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدركةً بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر.» (رو ١ : ١٩ و ٢٠)

ثم وجود الخليقة في مجال العمل الإلهي بل والوجود الإلهي أيضاً، الذي منه تأخذ كيانها ووجودها وحياتها وحركتها وكل تدبيرها الذي تحكمه مئات بل ألوف بل ملايين الملايين من

القوانين والقياسات والضوابط والصفات الموروثة والمكتسبة والموهوبة، التي بلغ الإنسان إلى معرفتها والتي لم يبلغ إليها بعد والتي لن يبلغ إليها في هذا الدهر قط، والتي تتحكم في سير الكون بل الأكوان بسمائه ومجراته والأرض وما عليها من جوامد وأحياء نباتية وحيوانية والإنسان، ناهيك عن السماء الروحانية بكل أجنادها، هذه كلها لولا الضبط الإلهي الذي بالكلمة ما صارت وما سارت.

أما السؤال التقليدي الذي أثاره الإنسان في كل عصوره وعلى كل مستوياته الفلسفية والدينية: هل العالم مُخَدَّت أم أزلي؟

فيرد القديس أوغسطينوس على هذا بقوله أنه مُخَدَّت بالنسبة لواقعه الظاهري، ولكنه كان موجوداً عند الله كخطة ونظام قبل أن يكون ويظهر في الوجود. (١٦)

والقديس يوحنا باختياره فعل «صار» ἐγένετο لتوضيح خلقه الله لكل أشياء العالم واحدة واحدة بواسطة الكلمة، يقطع خط الرجعة على نظرية أفلاطون بأزلية العالم، كما يقطع خط الرجعة على نظرية كل من الغنوسيين وفيلو اليهودي بثنائية خلقه العالم بين شر وخير، وأيضاً ينتفي أن يكون لغير الكلمة اللوغس أي وساطة أخرى في الخلق، خاصة بتشديده على استحالة الخلقة بدون «الكلمة»، باستخدامه النفي للتأكيد «وبغيره لم يكن شيء مما كان».

كما ولينتبه القارئ كيف بدأ ق. يوحنا بوضع الأساس في حقيقة الخلق والخلقة بقوله: «والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». حتى إذا جاء إلى الخلق وقال أن «به» — أي بواسطة الكلمة — خلق الله العالم، لا يكون أمام القارئ أي فرصة ليظن أن الكلمة أقل من الله الخالق حينما يكون عمل «الكلمة» هو توسطي فقط أي «بواسطة» الكلمة. لأن المعنى في كُليته يكون بالنهاية: بواسطة الله خلق الله العالم.

والقديس ذهبي الفم يرى أن ذكر ق. يوحنا لخلق العالم هنا، لا يركّز بالدرجة الأولى على عمل الكلمة كما يركز على وحدة العمل الخلق مع الله إمعاناً في إظهار لاهوته وتفوقه فوق كل الخلائق. (١٧)

كما تنبري جملة النفي «وبغيره لم يكن شيء مما كان»، لتؤكد أن «توسط» الكلمة في الخلق أساسي بالدرجة الأولى، إذ بدونه يستحيل الخلق أو دوام الخليقة.

^{١٦} NPNF, 1st Ser., Vol. VII, p. 12.

^{١٧} Op. cit., Vol. V, p. 2.

والقديس بولس الرسول يرى بالروح وبالرؤية السماوية الفائقة علاقة المسيح بالخلقة الأولى، ما رآه ق. يوحنا بصورة محققة وكاملة، فلا يكتفي بأن يجعل عمل المسيح «الكلمة» توطئاً بمفهوم مستوى المساعدة الآلية لله، بل يرفع رؤيتنا لنرى الخلقة كلها حتى الروحانية كلها قائمة فيه تتخذ منه وجودها وحركتها وبقائها ودوامها: «فإنه فيه "ἐν" "خُلِقَ الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل "به" و"له" "εἰς" و"δὲ" قد نُحلق، الذي هو قبل كل شيء "وفيه" يقوم الكل.» (كو ١: ١٦ و ١٧)

وليلاحظ القارئ هذه الحروف الثلاثة: «فيه وبه وله» التي تحكم العلاقة بين الخلقة والخالق.

وسفر الرؤيا يعطينا صورة إضافية حيّة مبدعة تنطق بمستوى خضوع كافة الخلقة الروحانية بالنسبة للمسيح الخالق لها، فكافة الأجناد السماوية تتبعه: «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزاً أبيض ونقيّاً.» (رؤ ١٩: ١٤)

وهنا يجدر بنا أن نتأمل في هذه الخلقة كلها المتعددة الممالك: سمائية بجندها الروحاني وبنجومها وأقمارها وأفلاكها ومجراتها التي يتوه فيها عقل الإنسان، والأرض بجمادها ونباتها وحيوانها وإنسانها، كيف يتبناها الله جميعاً كأب ويدبرها الكلمة كراعٍ! أعظم ما فيها — والعظم في الخلقة فوق حدود تصور الإنسان — كأقل ما فيها، حتى العصفور له موضع في قلب الله ومكانة وعناية: «هكذا أحب الله العالم!...» (يو ٣: ١٦)

ثم اسمع ما يقوله المسيح كخبير في شئون خلقته: «أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم؟ وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت ١٠: ٢٩-٣١). ويزيد على هذا القول نفسه القديس لوقا في إنجيله من جهة هذه العصافير أيضاً ويقول: «واحدٌ منها ليس منسياً أمام الله!!» (لو ١٢: ٦)

أما من جهة الإنسان الذي خلقه الله على صورته كشبهه، فتقول الحكمة (الكلمة — اللوغس): «لما وضع للبحر حدّه، فلا تتعدى المياه تُخَمّه، لما رسم أسس الأرض، كنتُ عنده صانعاً وكنتُ كلَّ يوم لَدَنّه فَرِحَةً دائماً قَدَّامه، فَرِحَةً في مسكونة أرضيه ولَدَّاني مع بني آدم.» (أم ٨: ٢٩-٣١)

١:٤ «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس».

«تُجِيبُ الرَّبُّ إِلَهَكَ، وتسمعُ لصوتهِ، وتلتصقُ بهِ، لأنه هو حياتك...» (تث ٣٠: ٢٠)
 «لأن عندك ينبوع الحياة وبنورك نرى نوراً.»
 (مز ٣٦: ٩)

هنا يكشف ق. يوحنا عمقاً إلهياً من أعماق «الكلمة». فالكلمة فيه الحياة أصلاً وأساساً كما إحدى خصائص الجوهر الإلهي الأزلي. (١٨)

وقد كشف المسيح سرّها هكذا: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته (حياة ذاتية)، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته (أي حياة ذاتية غير مكتسبة).» (يو ٥: ٢٦)

وجوهر الحياة في الكلمة ليس كالحياة التي نعيشها ونعرفها، بل هي الحياة الأبدية التي من أنحص خصائصها أنها تُحيي، أي لها القدرة على خَلْقِ الحياة التي نعرفها ونعيش لونها من ألوانها في عمرنا الزمني على الأرض، والتي عرّفها المسيح بقوله: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء.» (يو ٥: ٢١)

وحينما يقول ق. يوحنا أن «فيه كانت الحياة»، فإنه يشرح بدقة وبصورة مباشرة ما جاء في الآية قبلها: «كلُّ شيءٍ به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان». إذن، سرُّ قوة الخلق لدى اللوغس الكلمة متمركز بصورة أساسية في امتلاك الكلمة لجوهر الحياة امتلاكاً ذاتياً.

وعلى القارئ أن يلاحظ أنه لم يقل: «فيه "حياة"» أي «حيٌّ» وحسب، بل «فيه "الحياة"» كينبوع: «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً.» (رؤ ٢١: ٦)

وحينما يقول ق. يوحنا أن «فيه كانت الحياة»، بعد قوله: «كلُّ شيءٍ به كان»، فهو يشير ضمناً إلى علّة الارتباط الجوهرية بين الخليقة والكلمة، بصورة دائمة، وأيضاً ارتباط الكلمة بالخليقة كمصدر الحياة فيها ولها وبصورة دائمة أيضاً، فهو قوام حياتها: «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد.» (أع ١٧: ٢٨)

وللأسف الشديد فنحن لا ندرك الآن من هذه الحياة إلا صورها الظاهرة المربوطة بالزمن، أما جوهرها غير المنظور وغير الزمني الذي هو لها الامتداد الأسمى، والأكثر بهاءً وجمالاً، الذي لا يشوبه حزن ولا كآبة ولا تنهد، والروحاني الصرف؛ فهو، وإن كنا نعيشه بالإيمان، إلا أنه محجوز عن فكرنا كما هو محجوز عن أعيننا، بانتظار استعلانه في الأبدية.

ولكن ما يقصده ق. يوحنا من قوله: «فيه كانت الحياة»، ليس هو الحياة التي هي قوام المخلوقات، لأن «حياة» المخلوقات هي الحياة المخلوقة، أما الحياة في الكلمة فهي «الحياة الخالقة» أي جوهر الحياة الفعال والتي نعرفها بـ «الحياة الأبدية»: «فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١ يوحنا ٢: ١)

٤ : ١ «والحياة كانت نور الناس» (١٩)

«الربُّ نوري وخلاصي.» (مز ٢٧: ١)

«قد جعلتُك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض.» (إش ٤٩: ٦)

بنفس تدرُّج مراحل الخلق في سفر التكوين، يضع ق. يوحنا الإنسان كختام لكل الخليقة. وفي الحال يربط خلقة الإنسان بالحياة الأبدية، الأساس الذي خُلِقَ عليه الإنسان إذ خلقه الله على صورته، وبالتالي ليبقى معه ويحيا أمامه إلى الأبد (٢٠)، وذلك بقوله: «والحياة كانت نور الناس». فالحياة الطبيعية الزمنية التي كانت لكل الخليقة والتي أخذ منها الإنسان نصيبه، أضاف الله عليها نصيباً ممتازاً عن فائق الخلائق، بأن وهبه نور الحياة الأبدية الذي به يدرك الله ويستمتع إليه ويتكلم معه.

ولكن هنا في الآية: «والحياة كانت نور الناس»، يختزل ق. يوحنا مرحلة الحياة الأرضية كلها ولا يستبقي من عطية الله في الخلق بالنسبة للإنسان إلا نور معرفته؛ الأمر الذي هو رسالة الكلمة اللوغُس بالدرجة الأولى، بل ورسالة إنجيل يوحنا برؤيته: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يوحنا ٣: ١٧)

(١٩) راجع ما جاء عن معيار «النور» في المدخل ص ١١٩-١٢٢.

(٢٠) وذلك بحسب مطلع قداس القديس باسيليوس حسب النص اليوناني: «يا الله العظيم الأبدى الذي خلق الإنسان على

الخلود»، وهي أصلاً مقتبسة من سفر الحكمة (٢: ٢٣): «فإن الله خلق الإنسان خالداً، وصنعه على صورة ذاته».

وإنجيل يوحنا هنا تزدحم فيه الأسرار. فالإنسان المدلل الذي خُلق في جنة عدن تحت ظلال شجرة الحياة التي كان مزمناً أن يأكل منها ويحيا إلى الأبد، لكنه حرم نفسه منها بإرادته، مع أنها عُرسَتْ له وهو خُلق لها؛ وهو الذي كانت تغطيه سحابة الحياة النيرة، تضيء فكره وروحه فيرى الله ويتحدث إليه، ولكنه أخطأ وغطى نفسه حتى لا يراه الله ولا يرى هو الله؛ ولكن الله عاد فتذكر وعده وتذكر حبه، فأرسل «الكلمة» في ملء الزمان، لا كشجرة حياة بل «خبز الحياة»، فأكل الإنسان منه وارتدت روح الله فيه وعاش إلى الأبد؛ وانفتحت عيناه وعان «نور الحياة» وعرف الحياة الأبدية.

وهكذا يشير ق. يوحنا في هذه الآية: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، إشارة قديرة بليغة إلى الأصول الأولى من جهة السر الذي كان مخفياً في كلمة الله عند الخلق من جهة نصيب الإنسان حسب مسرة قصد الله أن يحيا بحياة الله ويستتير بنوره: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، الأمر الذي تحقق في المسيح، وحققه المسيح جهاراً: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، «أنا نور العالم.» (يو ٩: ٥)

فالقديس يوحنا يكشف لنا في مقدمة إنجيله عن عطيَّتي الحياة والنور اللتين كانتا مخفيتين في اللوغس منذ الأزل، واللتين كشفهما لنا المسيح وحققهما وسكبهما علينا سكباً على مستوى المنظور والزمن، أو ربما على الوجه الأصح أن ما سكبه المسيح من ملئه علينا في أواخر الأيام من الحياة والنور، هما في الحقيقة من مذكرات الأزل، من ملء لاهوت «الكلمة»، حتى ندرك عظم النصيب الإلهي الذي صار لنا، وجلال وهيبة المسيح الذي جاءنا من عند الآب.

علاقة الحياة بالنور في هذه الآية:

نتكرر كلمة «الحياة» في إنجيل يوحنا أكثر من ثلاثين مرة، وجميعها يتجه معناه نحو الحياة الأبدية على أساس مفهوم الخلاص. ولكن ق. يوحنا حتى ورود هذه الآية ١ : ٤ لم يكن قد بلغ نقطة التجسد بعد، فالحياة التي كانت في «الكلمة»: «فيه كانت الحياة»، لا ينصبُّ معناها في هذه الآية نحو الخلاص كما يتسرع بعض الشراح في شرحهم. ولكنها هي الحياة التي تكلم عنها ق. يوحنا في رسالته الأولى: «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب» و(ثم) «أظهرت لنا». أما قوله: «والحياة كانت نور الناس»، فهنا أول فعل الامتداد للحياة الأبدية التي كانت عند الآب وفي اللوغس الكلمة لتواجه الإنسان وليتواجه بها الإنسان فيما قبل التجسد.

ثم إن الحياة الأبدية في حقيقتها هي «حياة الله»، ولا يقترب منها الإنسان، ولا هي

تقترب إليه، إلا بالاستعلان، بمعنى أن الكشف يكون عن طريق الاستنارة بالروح وليس برؤيا العين. ومن خصائص طبيعة الحياة الأبدية «النور» الإلهي، فالله طبيعته «النور»: «الله نور» (١ يوحنا ١: ٥)، «ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه». (١ تي ٦: ١٦)

وهنا كشف نوعين من النور: الأول جوهري وهو طبيعة الله، والثاني مخلوق: «ساكناً في نور لا يُدنى منه»، وهو الطاقة الأولى والعظمى التي انحدرت منها كل الطاقات والمجالات والمادة المخلوقة.

فرؤية النور الإلهي أو الدخول في مجاله لا يكون قط من خلال الطبيعة الجسدية للإنسان بل من خلال الروح، حينما تنشط من الداخل، أو حينما تفتحها القوة الإلهية المنيرة من الخارج. وفي كلا الحالتين يكون الجسد بكل ملكاته في حالة توقف مؤقت لاستقبال المعرفة. وفي هذا الوقت يرى الإنسان النور الإلهي رؤيا الروح، ويدركه بإدراك العقل الروحي، وحينئذ يختفي نور النهار ويضمحل نور الشمس، لأن نور الطبيعة الإلهية أعلى مجالاً وأسمى نوعاً بدرجة لا تُقاس.

— «وحدث لي بعد ما رجعت إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل أني حصلت في غيبة فرأيت...» (أع ٢٢: ١٧)

— «فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغتة (اقتحام) أبرق حولي من السماء نور عظيم، فسقطت على الأرض...» (أع ٢٢: ٦ و٧)

— «رأيت في نصف النهار... نوراً من السماء "أفضل" من لمعان "الشمس" قد أبرق حولي.» (أع ٢٦: ١٣)

وبلاحظ القاريء أن ظهور النور الإلهي الطاغى لشاول لم يكن عن استحقاق أو يدخل بأي حال من الأحوال في مضمون استعداد طبيعة شاول، لا بالصلاة ولا بالإيمان بالمسيح ولا بالحب ولا بالتصوف ولا على أي أساس بشري، بل هو اقتحام للطبيعة الجسدية من جهة واحدة بمقتضى تدبير الله.

وليكن معلوماً أن رؤية بولس لهذا النور الإلهي، ومعه الصوت الإلهي يعرف نفسه له أنه هو يسوع، هذه الرؤية بحد ذاتها أدخلت بولس الرسول في مجال معرفة المسيح والاتصال به والتعلم منه كل سني حياته. فمن خلال هذا النور الكاشف والمضيء للذهن الروحي تعلم بولس وعلم إنجيل الحياة الأبدية والخلاص:

— «وأعرّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرتُ به، أنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علّمته، بل بإعلان يسوع المسيح. فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأُتلفُها.» (غل ١: ١١-١٣)

ثم لاحظ أيها القارئ العزيز أن الحياة الأبدية التي دخل إليها بولس الرسول ظهرت له «كنور» بالنسبة للوعي الروحي، وأنشأت فيه وفي الحال استنارة فائقة لإدراك سر المسيح وسر الخلاص وسر لاهوت المسيح بكل أعماقه.

ثم لاحظ أن بولس الرسول اكتشف أن هذا النور، وهذه الحياة التي اندفقت فيه، هي بفعل وحضور يسوع المسيح المتكلم بنفسه من السماء: «من أنت يا سيد؟»، — «أنا يسوع الذي أنت تضطهده.» (أع ٩: ٥)

ومثل آخر يوضح معنى النور وعمله، وذلك في شهادة بطرس الرسول المفاجئة للمسيح: «فأجابه سمعان بطرس يا رب إلى من نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو ٦: ٦٨ و٦٩). وكان تعليق المسيح على قول ق. بطرس هذا كما جاء في إنجيل ق. متى: «فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحمًا ودمًا لم يُعلن لك لكن أبي الذي في السموات» (مت ١٦: ١٧). معنى هذا أن بطرس نال استنارة ذهنية ونور الله أضاء فكره وروحه ليتقبل استعلاناً مباشراً عن المسيح من الله، هذا هو النور الذي يتقبله الإنسان عندما يدخل من عتبة الحياة الأبدية.

والإنجيل بعد ذلك يشرح بقوة وبإفصاح مدهش عن هذه الحقيقة: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو ٨: ١٢)

فإذا سرنا في النور فنحن نكون في عمق الحياة مع الله ومعرفته.

وقد ارتبط النور بالمحبة في إنجيل يوحنا، وهذا ليس عجيباً. فالله محبة، والله نور أيضاً، وهكذا ارتبط النور بالصلاح وارتبطت الظلمة بالأعمال الشريرة وبالدينونة، بأن واحد: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣: ١٩)

وهذا يعني أن غياب النور عن الإنسان يكون باختياره، لأنه يرفض الحياة في النور أي في الحق والمحبة والقداسة. وغياب النور عن الإنسان معناه غياب الله، حيث يختفي الهدف الحقيقي للحياة،

بل وتفقد الحياة قيمتها العليا ومعناها ، فلا يعود الإنسان يرى نفسه ولا يعود يعرف لماذا يعيش .

١ : ٥ « والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه » .

هنا يضع ق . يوحنا ، ولأول مرة ، « النور » في مقابل « الظلمة » ، الوجود في مقابل العدم !

أما النور فقد عرّفه بعد ذلك أنه « النور الحقيقي » = τὸ φῶς τὸ ἀληθινόν ، وهكذا يتضح أنه طبيعة الله . لأن هناك فرقاً هائلاً بين النور المخلوق الذي هو قوة وطاقة وبين النور الخالق الذي هو حياة .

فإن كنا في الآية السابقة قد وجدنا الحياة الأبدية — التي في الكلمة — وقد دخلت في علاقة مباشرة مع الإنسان بعد الخليقة « كل شيء به كان » ، وهذه الحياة كانت هي مصدر النور للناس : « والحياة كانت نور الناس » ؛ فهنا في هذه الآية : « النور يضيء في الظلمة » يزيد المعنى السابق إيضاحاً من جهة مبادرة النور من تلقاء ذاته للقيام بعمله الجوهري أي « الإضاءة » ، بمعنى أن الكلمة لم يُلْقَ على الإنسان كل مهمة التعرف على النور أو الوصول إليه . فالنور الإلهي يضيء من ذاته ومن سخاء طبيعته الإلهية ، كما يصفه إشعياء النبي : « ويكون نور القمر كنور الشمس ، ونور الشمس يكون سبعة أضعاف كنور سبعة أيام في يوم يحجّر الرب كسّر شعبه ويشفي رضى ضربه » (إش ٢٦ : ٣٠) . وهو ما يصفه بولس الرسول في اختبار العجيب : « رأيت في نصف النهار في الطريق ، أيها الملك ، نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي . » (أع ٢٦ : ١٣)

وهنا نلتقط الفكرة المبدئية في علاقة النور بالخليقة ، فحقيقة « النور يضيء في الظلمة » في معناها الخصب تفيد نصرة الخلق على العدم ، كما تفيد نصرة الحق على الباطل ، أو معرفة الله على الجهالة ، وبالنهاية وعلى الواقع الملموس تجسد الكلمة ذاته فيما بعد . لأن هذا هو بالفعل دخول النور إلى العالم المظلم : « وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم ... » (يو ٣ : ١٩) . وبدخول النور إلى ظلمة العالم انقسم عالم الإنسان إلى إنسان النور وإنسان الظلمة . وإن كان إنسان الظلمة يعيش فساداً وتخريباً ، ولكن لن يتغلب غير الموجود على الموجود . فإنسان النور اكتسب وجوداً أزلياً ، أما الظلمة فتنتهي إلى العدم ولن يبقى إلا النور .

كذلك ففي هذه الآية يكون ق . يوحنا لا يزال منحصراً في الكلمة وعلاقته بالناس ، لأن

«الإضاءة» هي نور الاستعلان بالنسبة للخليقة ذات الإدراك الروحي عامة، وذلك قبل أن يحصر عمله مع خاصته أي مع شعب إسرائيل. فقلوه: «النور يضيء في الظلمة» يتجه إلى مطلق عمل «الكلمة» في الظلمة بالنسبة للإنسان عامة، دون تخصيص حقبة زمنية أو شعب معين أو أية ظروف خاصة. فالإشارة هنا إلى طبيعة عمل جوهر النور الإلهي في الكلمة تجاه طبيعة الإنسان الروحية كإنسان. وهذه الحقيقة أشار إليها القديس بولس الرسول هكذا: «لأن الأمم الذين ليس عندهم ناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس، فهؤلاء، إذ ليس لهم الناموس، هم ناموس لأنفسهم، الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة.» (رو ١٤: ١٥)

واضح من كلام القديس بولس أن النور الإلهي لم يحرم الأمم من الحصول على صورة منيرة لقوانين الله الأخلاقية التي تصلح أن تدينهم وتبكت ضمائرهم.

كذلك سبق أن استشهدنا بقول للقديس بولس الرسول على نفس المستوى باعتبار أن الله أظهر معرفته للناس عامة منذ الدهر: «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة (لاهوتية) تُرى منذ خلق العالم مُدركة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر.» (رو ١٩: ٢٠)

واضح، إذن، أن النور يضيء في الظلمة بصورة عامة منذ بدء الخلق، لأن هذا عمل يختص بصميم طبيعة الكلمة بالنسبة للناس، باعتبار أن الإنسان مخلوق مُدرك على صورة الله، والله مُدرك كامل، فالعلاقة بينه وبين الكلمة علاقة كيائية، حيث يستمد منه الإنسان كيانه وإحساسه بنفسه عامة، وإدراكه الروحي خاصة. لذلك تقول الآية: «حتى إنهم بلا عذر».

ما هي الظلمة:

عرفنا أن النور الحقيقي هو طبيعة الله و«الكلمة»، ومعلوم أن «الظلمة» بحسب معرفة الإنسان المادية والقياسية هي غياب النور ليس إلّا، أي لا توجد ظلمة — ككيان بحد ذاته — ولكن الظلمة تصير كيانياً بغياب النور. وهذا المقياس ينطبق على المعنى الروحي «للظلمة» بمفهومها الروحي إلى حد كبير. فإذا أخذنا «النور» مأخذاً شخصياً يكون «النور» هو الله من جهة طبيعته. وبالتالي تكون «الظلمة» هي الشخص الذي يخلو من طبيعة الله المضيئة والمنيرة (روحياً) خلواً تاماً سواء كان هذا شيطاناً أو إنساناً. وقد عرّفنا الإنجيل بكل يقين أن شخص الظلمة هو الشيطان. حيث يقدم لنا الإنجيل معرفة الله وكلمته أنه «المحيي» للإنسان جسدياً وروحياً، والشيطان أنه «قتال

للناس منذ البدء»، جسدياً وروحياً، وإن الله وكلمته أمين وصادق في كل ما يقول ويعمل، وأن الشيطان «كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨: ٤٤). ومن ذلك نرى أن الله نور حقاً وأن الشيطان ظلمة بالحقيقة، ويدعوه المسيح بـ «سلطان الظلمة»: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو ٢٢: ٥٣)، وهي ساعة تزوير حكم الموت للمسيح.

فإذا عرّفنا الظلمة بحد ذاتها خلواً من شخص، أي من جهة طبيعتها وعملها، تكون هي السالبة بكل معانيها وأعمالها:

فإن كان النور الحقيقي أي الله = هو «المحبة»، وهو «الرحمة»، و«السلام»، و«الحق»، و«الأمانة»؛ يكون الظلام أو الظلمة = هي اللاعبة وكل ما يتفرع منها، البغض والكراهية والحقد والحسد والنميمة والذم والقتل، إلخ.

وهي اللأرحمة وكل ما يتفرع منها، القسوة والنقمة والتعذيب، إلخ.

وهي اللأسلام وكل ما يتفرع منه، القلق والضيق والاضطراب والتشويش والخوف، إلخ.

وهي اللأحق وكل ما يتفرع منه، الغش والتزوير والتحريف والكذب، إلخ.

وهي اللأمانة وكل ما يتفرع منها، الخيانة والإختلاس والسرقة، إلخ.

فهذه كلها أعمال «الظلمة» التي تتخذ وجودها ونشاطها من غياب «النور».

لذلك عندما يقول ق. يوحنا إن: «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١ يو ١: ٥)، فهذا يعني خلو طبيعته المنيرة الخيرة من كل السالبة خلواً باتاً.

وعندما يقول إن الحياة الأبدية التي في «الكلمة» = «فيه كانت الحياة»، وهذه الحياة هي «نور الناس»، فهو يقصد بكل تأكيد أن حياة «الكلمة» في الناس هي مصدر كل الإيجابيات، فهي حضرة نور الله وصفاته داخل النفس البشرية حيث ينمو الحب وتزدهر الرحمة وينشر السلام ويتجدّر الحق وتثبت الأمانة. وذلك كله يتم على جهتين:

فمن جهة الخالق وكلمته، فإنه يتعهد صورته التي خلق لتبقى على صورة خالقها، ومن جهة الإنسان تنزع الصورة فيه بحسب طبيعتها لتحاكي أصلها وتعدّل عليه.

هذا كله بدأ منذ الخلق وسار في طريق الزمن، مرّةً يعلو ومرّةً يتخفض، من شعب لشعب ومن إنسان لإنسان، والله يعدّل طريقته بحسب اعوجاج الإنسان أو استقامته، من إعلان لإعلان، ومن تزكية لتزكية، ليلبغ قصده من الخلق يوم خَلَق. إلى أن «أظهرت الحياة الأبدية» — التي في الكلمة — التي كانت عند الآب في صميم جوهرها، وتجسّد النور بملء فعله كآخر مرحلة من خطة

الله الأزلية، ليأخذ الإنسان صورة خالقه ويدخل معه الحياة في حال التبني.

وقول ق. يوحنا أن «النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه»، هو تصوير بديع لحال الإنسان الذي أخفق كثيراً ومراراً في الإمساك بالنور أو التعرف عليه. فأول إخفاق شنيع ومريع كان في انحياز آدم وحواء إلى الظلمة وخروجهما من دائرة النور الفعّال. ثم على مدى كل الأزمنة القديمة وعلى مستوى الفهماء والحكماء والشعراء والفلاسفة الكبار، أخفق الإنسان أن يمسك بالنور أو يتحول إليه: «لأنهم لما عرفوا الله لم يمجّدوه أو يشكروه كإله بل حققوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى (تمثيل حجرية) والطيور والدواب (العجل) والزحافات.» (روا: ٢١: ٢٣—٢٣)

بل ويمعن بولس الرسول في إظهار مدى تسرّب النور الإلهي والحكمة الإلهية إلى حكماء العالم قديماً، وخاصة حكماء أثينا، وبالرغم من امتلاكهم لـ «حكمة الله»، فإنهم لم يخضعوا لنورها، وبالتالي لم يدركوا الله! «لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة (الصليب).» (١ كو: ١: ٢١)

وهذا ما يقصده ق. يوحنا في تصويره لمرحلة عمل «الكلمة» في العالم والناس فيما قبل ظهوره في العهد القديم على ألسنة الأنبياء، كـ «كلمة الله» وكنور، عندما اختار له أخصاء من شعب اختاره لنفسه للإعلان عن الله وعن قُرب.

الظلمة تتعقب النور:

يقول ق. يوحنا أن «النور يضيء» وهذا بحكم طبيعته الإلهية الخيرة، وهو يضيء على الجميع بلا استثناء كما يقول الإنجيل: «يشرق شمس على الأشرار والصالحين» (مت ٥: ٤٥). ولكن لكي يبين الله عظم صلاحه فإنه يركّز عمل نوره على الظلمة والجالسين في الظلمة.

ولقد تحدّد منذ الدهر بفهم أنبياء كثيرين أن المسيح سيكون «نوراً للأمم» بقدر ما سيكون «مجداً لشعبك إسرائيل» (لوا: ٢: ٣٢). لذلك أصبح من طبيعة النور الخلاصية أنه يتعقب الظلمة منذ الأزل: «للرب حرب مع عماليق من دُورٍ إلى دُور» (خر ١٧: ١٦). وهو يفتش عن الذين له في مسالك الأرض كلها: «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش ٩: ٢)

وتعقبُ النور للظلمة أنشأ بالتالي ترصُّداً وتعقباً مضاداً من جهة الظلمة تجاه النور، وذلك

بحسب قانون الأفعال والحركات، مادية كانت أو روحية، القائل بأن لكل فعل رد فعل، بمقتضى تدبير الله تجاه إبليس المدعو أيضاً «سلطان الظلمة»، حينما قال الله للحية التي كانت تنطق بفم إبليس: «وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق (يرصد τηρήσει) رأسك وأنت تسحقين (ترصدين τηρήσεις) عَقْبَهُ.» (تك ٣: ١٥)

وقول ق. يوحنا أن «الظلمة لم تدركه» هو وصف دقيق للعجز الذي ظهر به الشيطان في صراعه ضد مصدر النور بطول الزمن وعلى مدى الحياة.

فقد لخص سفر الرؤيا معركة المسيح مع إبليس والعالم هكذا: «فنظرتُ وإذا فرس أبيض والجالس عليه معه قوس وقد أُعطي إكليلاً وخرج غالباً ولكي يغلب.» (رؤ ٦: ٢)

وهنا غلبة النور على الظلمة تأتي على مرحلتين: الأولى في الفعل الماضي «خرج غالباً»، والثانية لأفعال قادمة «ولكي يغلب».

وحرب الظلمة، من اسمها تُعرف أنها حرب خداع وتزييف، لها صورة الحرب وهي ليست حرباً، ولها صورة الحق وهي الكذب بعينه.

بدأها الشيطان بحديث الحية مع الإنسان وهو في صورة الأضعف «حواء»: «أحقاً قال الله لا تأكلا من "كل" شجر الجنة؟» (تك ٣: ١). هذا أول تزييف للحق، فالله لم يقل هذا ولكن هذا مدخل التشكيك.

ثم يبني الشيطان على التشكيك فكرة لها صورة الصدق، وهي الكذب المسموم، والتجربة التي صدّقها الإنسان فمات بالفعل: «فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا...» (تك ٣: ٢-٤). فأكل الإنسان ومات. هذه الحرب، حرب الغواية والغش والخداع، قائمة بحسب بولس الرسول كما هي حتى اليوم: «ولكني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢ كو ١١: ٣)

ولكن أقوى مواجهة تمت بين النور والظلمة على مدى تاريخ الإنسان وعمره كانت مع المسيح: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء» (يو ١٤: ٣٠)، «من منكم يبكتني على خطية.» (يو ٨: ٤٦)

ولكن الشيطان استخدم سلطان الظلمة أكثر من حدوده ووثق في أدوات القتل التي يملكها من

شهود زور ورؤساء يبخرون للكذب وحرفية الناموس القاتلة وحناجر الشعب الجاهل وقاض جبان. وهكذا، فإنه وعلى الصليب رأى بولس الرسول كيف تم القبض على رؤساء الظلمة وكيف فضحوا وشَّهَر بهم: «إذ مح الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدًا لنا وقد رفعه من الوسط مستمرًا إتياء بالصليب. إذ جرَّد الرياسات والسلطين أشهرهم (فضحهم) جهارًا ظافراً بهم (قبض عليهم) فيه (أي في الصليب).» (كو ٢: ١٤ و ١٥)

ومن هذا، ولهذا، صار الصليب رعباً للشيطان وسلاحاً ضد كل أعمال الظلمة.

فإذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الأولى مع آدم وحواء، فهذه يلخصها لنا القديس الإلهي في مطلقه قائلاً: «والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس...». أما إذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الكبرى على الصليب، فهذه يلخصها الإنجيل بقوله: «فأجابهم بيلاطس قائلاً أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً.» (مر ١٥: ٩ و ١٠)

فالْحَسَدُ — وهو الصفة الأولى لمن فقد النعمة — كان عمل الظلمة تجاه الإنسان لحجز النور عنه ولإطفاء النور ذاته، ولكن قرار الإنجيل الأخير أن الظلمة لم تدرك قصدها!! ولن تدرك!!

١: ٦-٨ «كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله اسمه يُوحَنَّا. هذا جاء للشهادة للنور لكي يؤمن الكلُّ بواسطته، لم يكن هو النور بل ليشهد للنور».

لا يزال التسلسل الإعلاني عن الكلمة يسير في مجراه، من الأزلية عند الله، ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة في الناس، وإلى النور. وهنا يبدأ ق. يوحنا ليدخل «بالكلمة» إلى مجال التاريخ الإنجيلي.

والملاحظ أن الأناجيل بعد أن استوفت قصة ميلاد المسيح، بدأت على الفور تاريخ الإنجيل بذكر يوحنا المعمدان كبداية للخدمة العملية والكراسة. هذا ما سار عليه ق. يوحنا، إذ بعد أن استوفى استعلان وجود المسيح السابق على ميلاده أي تجسده، بدأ يؤرخ. ولكن أسلوب ق. يوحنا يرتفع دائماً بالتاريخ إلى ما هو فوق التاريخ. فإن كل كلمة ذكرها عن المعمدان وضعها في المقابل لما ذكره عن المسيح، ليجعل المقارنة تنطق بالوهية المسيح.

فـ «كان إنسان» يقابلها «وكان الكلمة الله.» (٢١)

(٢١) ومما يؤكد المفارقة المقصودة بين «كان إنسان»، و«كان الكلمة الله»، أن «كان الكلمة» جاءت في صيغة فعل

ثم «مُرْسَلٌ من الله» يأتي الفعل مبنياً للمجهول بصورة تجعل التركيز يقع على الإرسالية في حد ذاتها وعلى هدفها، فهي إرسالية إلهية ولكن المُرْسَل «إنسانُ اسمه يوحنا». والقديس يوحنا يركز على الإرسالية أنها من الله باعتبار أن هذه الإرسالية، وليس شخصه، هي التي تُعطي المعمدان أهميته.

«اسمه يوحنا» هنا لو رجعنا إلى إنجيل لوقا (١: ٥٩-٦٦) وقرأنا قصة تسمية يوحنا، نفهم لماذا ركز ق. يوحنا الإنجيلي على «الاسم»، من حيث القصد من التسمية، ثم معنى الاسم. فالقصد في قصة إنجيل لوقا مربوط بعلاقته بمجيء المسيح، والمعنى «الله يتحنن» يشير إلى تحنن الله بإرسال المخلص. فالتسمية والاسم بالنسبة للمعمدان يخدمان الإعلان عن المسيح الكلمة المتجسد. كذلك لا ننسى أن اسم كاتب الإنجيل هو يوحنا. فبالرغم من أن الأناجيل الثلاثة ذكرت المعمدان باسمه «يوحنا» مضافاً إليه لقبه الشهير جداً «المعمدان»، حتى يميزوه عن يوحنا الإنجيلي، إلا أن يوحنا نفسه لم يذكر لقب المعمدان مكتفياً بيوحنا، لأنه ليس ما يدعو للتمييز فهو كاتب الإنجيل. وهذا ما أخذه كثير من الشراح لإثبات أن كاتب الإنجيل الرابع هو يوحنا.

«هذا جاء للشهادة ليشهد للنور»:

«هذا» كحرف إشارة يفيد في أسلوب ق. يوحنا العودة إلى الشخص بكل صفاته المذكورة، حيث يجعل مجيئه لقصد محدد وهو «الشهادة للنور». وهذا هو محور كل ما سيجيء عن المعمدان في إنجيل يوحنا. ويلاحظ كيف يحرص ق. يوحنا عمل المعمدان في «الشهادة»، ثم كيف يعود ويؤكد حدود هذه الشهادة أيضاً، فهو جاء للشهادة فقط، وشهادته هي للنور فقط. فهو يركز على الشهادة وليس الشاهد نفسه.

وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال: ولماذا هذا التحديد والحصر والقصر؟؟

للرد نقول: إن عاملين أحدهما إيجابي والآخر سلبي كانا يتحكمان في الحديث عن المعمدان بالنسبة لإنجيل يوحنا وخاصة في زمن كتابته:

العامل الأول الإيجابي: هو أهمية شهادة المعمدان القصوى بالنسبة للإنجيل كونه ممثلاً للعهد القديم بأنبيائه والمعاصر للمسيح، علماً بأن الشهادة μαρτυρία تحتل في إنجيل يوحنا مركزاً هاماً

= الكينونة $\eta\upsilon$ بمعنى الوجود اللازمي (ارجع إلى شرح ذلك في الآية ١: ١ - ص ٢٦). وأما «كان إنسان» فقد جاءت $\epsilon\upsilon\epsilon\gamma\epsilon\iota\tau\omicron$ بمعنى «صار» وهو من مرادفات أفعال الخلق (ارجع إلى شرح ذلك في الآية ٣: ١ - ص ٣٩). وسنشرح مرة أخرى المفارقة الكبيرة بين فعل الكينونة $\epsilon\iota\mu\iota$ منسوباً للمسيح وفعل الصيرورة $\gamma\epsilon\upsilon\epsilon\sigma\theta\alpha\iota$ منسوباً للمخلوق (إبراهيم) في شرحنا لآية ٨: ٥٨.

(وتَرِد فيه ١٤ مرة، في حين ترد في إنجيل مرقس ٣ مرات، وفي إنجيل لوقا مرة واحدة، وتغيب عن إنجيل متى تماماً. كما يرد الفعل «يشهد» ٣٣ مرة في إنجيل يوحنا، ولا يرد نهائياً في إنجيل مرقس ويورد مرة واحدة في كل من إنجيلي متى ولوقا). وهكذا يستخدم إنجيل يوحنا الشهادة أكثر من أي سفر آخر في العهد الجديد.

وتوجد في إنجيل يوحنا سبعة أنواع من الشهادات للمسيح^(٢٢)، منها ثلاثة مختصة بالأقانيم الثلاثة:

شهادة الآب: ٣١:٥ و ٣٤ و ٣٧، ١٨:٨.

شهادة المسيح لنفسه: ١٤:٨ و ١٨، ٣:١١ و ٣٢، ١٨:٣٧.

شهادة الروح القدس: ١٥:٢٦، ١٦:١٤.

ثم شهادة الأعمال التي يعملها المسيح: ٥:٣٦، ١٠:٢٥، ١٤:١١، ١٥:٢٤.

ثم شهادة الأسفار المقدسة: ٥:٣٩ و ٤٦.

والشاهد السادس هو يوحنا المعمدان.

أما الشهادة السابعة فهي لمجموعة عديدة من الأشخاص منهم التلاميذ ١٥:٢٧، ١٩:٣٥، ٢١:٢٤، ثم السامرية في بكور الرسالة، وكذلك نثنائيل، وبطرس في الختام. كما لا ننسى شهادة توما الفائقة القدر، وشهادة الأعمى الذي صار بصيراً.

على أن الشهادة كما يقدمها ق. يوحنا في شخص المعمدان هي بمثابة وضع الرقبة تحت سيف القتال. فالذي يشهد للمسيح أنه ابن الله كان عليه أولاً أن يفرط في نفسه وفي الحياة، ولذلك تأتي شهادته تأكيداً «للحق» الذي كان عنده أعلى قيمة من الحياة. ويسلمنا ق. يوحنا إنجيله محمولاً على رقاب كثيرة أولهم المعمدان.

العامل الثاني وهو السلبي: لأنه قامت شيعة يهودية نصف مسيحية تتعصب للمعمدان كونه هو المسيح، نسمع عن بدايتها في إنجيل لوقا: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح...» (لو ٣: ١٥). ثم في سفر الأعمال: «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبثلوس إسكندري الجنس رجل فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب (الانبؤات عن المسيا)، وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا

(٢٢) راجع المدخل ص ١١٢-١١٨.

فقط» (أع ١٨ : ٢٤ و ٢٥)، كذلك : «بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم. قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس. فقال لهم فبماذا اعتمدتم، فقالوا بمعمودية يوحنا. فقال بولس إن يوحنا عمّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع. ولما وضع بولس يديه عليهم حلّ الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأون. وكان جميع الرجال نحو اثني عشر.» (أع ١٩ : ١-٧)

وفي ختام القرن الأول بلغت هذه الشيعة شأواً كبيراً بلبل الكرازة، هذا مما جعل ق. يوحنا يركز على كون المعمدان جاء للشهادة فقط ليشهد للنور ولم يكن هو النور، واستطرد في توضيح ذلك كلما جاء ذكر المعمدان.

«جاء للشهادة ليشهد للنور»:

على ضوء ما قيل عن المعمدان نفهم لماذا يقصر ق. يوحنا مجيء المعمدان للشهادة فقط، حتى إنه لا يذكر معمودية المسيح تحت يد المعمدان، وذلك عن قصد، لأنه يبدو أن هذه أخذت خطأ لتضيف من قدر عظمة المعمدان لا لتضيف من قدر تواضع الرب. كما أن ق. يوحنا يوضح في النهاية ومن فم المعمدان أنه حتى وإن كان قد أرسله الله ليعمد، فهذا لكي يظهر المسيح لإسرائيل.

ولا يتبادر إلى الذهن أن ق. يوحنا كان ينتقص من شخصية المعمدان في شيء، بل أعطاه صفات مكرمة «مُرْسَلٌ من الله» و«صديق العريس»، وسجّل له أعظم شهادة للمسيح جاءت على لسان إنسان: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١ : ٣٤)؛ «هوذا حمل الله.» (يو ١ : ٣٦)

«ليشهد للنور»:

شهادة المعمدان للنور في عُرْف ق. يوحنا لا تزال محصورة في مفهوم «نور الكلمة»، إذ لم يذكر التجسد بعد. فالمعمدان يحمل رسالتين:

الرسالة الأولى: تختص بالأنبياء، إذ لا ينبغي أن ننسى أنه حامل لروح إيليا عظيم الأنبياء الذي أغلق السموات وفتحها بكلمة، والوحيد من بين كافة الأنبياء الذي ارتفع حياً إلى السماء عياناً في مركبة نارية وخيول نارية. والمسيح يشهد للمعمدان أنه فعلاً كان إيليا، مرة تلميذاً ومرة تصريحاً: «بل ماذا خرجتم لتنظروا، أنبياء؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي. هذا هو الذي كُتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك. لأنني أقول لكم إنه بين

المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه . «
(لو ٧ : ٢٦-٢٨)

وهذا الملاك الذي يقول عنه المسيح هنا هو وارد في سفر ملاخي النبي آخر أسفار العهد القديم ،
ووارد على صورتين ، إحداهما هذه الصورة في (ملاخي ٣ : ١) ، والصورة الأخرى : «هأنذا أُرسل
إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف .» (ملاخي ٤ : ٥)

أما المرة الأخرى التي صرّح فيها المسيح أن المعمدان هو هو إيليا فجاءت هكذا : «ومن أيام
يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه . لأن جميع الأنبياء والناموس
إلى يوحنا تنبأوا . وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي ، من له أذانان للسمع
فليسمع .» (مت ١١ : ١٢-١٥)

ومرة أخرى أكثر وضوحاً : «وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة أن إيليا ينبغي أن يأتي
أولاً . فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء . ولكني أقول لكم إن إيليا قد
جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا . كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم . حينئذ
فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان .» (مت ١٧ : ١٠-١٣)

إذن ، فالمعمدان يتكلم ويشهد للنور بروح إيليا كمن يمثل العهد القديم بكل أنواره وأمجاده
وشجاعته . فلما انتقل ق . يوحنا الإنجيلي من إضاءة النور العامة للإنسان عامة «فيه كانت الحياة
والحياة كانت نور الناس» ، و«النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه» في مفهومها العام أيضاً ،
أراد أن يخطو أول خطوة في وصف إضاءة النور الخاصة والأكثر استعلاناً لشعب خاص ، وذلك
بواسطة الأنبياء ، فقدم ق . يوحنا شخص المعمدان كمن يمثل النبوة في مجملها وفي أشد لمعانها «نبي
وأعظم من نبي» ، «وليس من بين المولودين من النساء من هو أعظم منه» .

الرسالة الثانية للمعمدان تختص بأنه هو السابق الصابغ الذي جاء ليعدّ طريق الرب ، أي يمهد
للنور ، وليس الشاهد فقط بل والمشهد أيضاً . وهذا أعطاه أن يكون «أعظم من نبي» ، فهو صديق
العريس أو «اشبينه» ، له الكرامة الأولى في حفلة ظهور العريس . ولكن الخطأ المريع أن يُظنّ أنه
العريس ، وهو مجرد مصباح أضاء في آخر الليل في مطلع الفجر حتى خرجت الشمس من حجابها ،
وحينئذ جيئاً أن يُطفأ المصباح : «فرحي هذا قد كمل . ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص .»
(يو ٣ : ٢٩ و ٣٠)

« لكي يؤمن الكل بواسطته » :

هذه الجملة مرتبطة بسابقتها ومتوقفة عليها ، فهو جاء « ليشهد للنور » ، « ليؤمن الكل » . وهنا تكون الشهادة هي السبب المفروض لإيمان « الكل » ، حيث الشهادة ستتضح بعد ذلك أنها شهادة مَنْ رأى وسمع : « وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله . » (يوحنا : ٣٤)

و « الكل » هنا تمتد لتشمل الشعب المُرسَل إليه وكل من تبلغه الشهادة هذه على مدى الدهور ، لأن هذه كانت دائماً هي روح الأنبياء في رؤيتهم وشهادتهم للمسيح النور القادم : « نوراً للأمم ومجداً لشعب إسرائيل » . ولذلك يكون في كلمة « الكل » انفتاح الدعوة الجديدة على العالم أجمع بكل وضوح . ولكن للقديس يوحنا تلميح لا يخطيء في قوله « الكل » فهو يستثني « البعض » الذين آمنوا بالمعمدان كونه المسيح الآتي وكانوا قلة ضالة .

« لم يكن هو النور ، بل ليشهد للنور » :

لو لم يكن قد أخطأ الناس في تقييم المعمدان ما اضطر ق . يوحنا الإنجيلي أن يبرزه في هذه المقارنة الأليمة . ولكن أليس ق . يوحنا نفسه هو التلميذ السابق للمعمدان ؟ وعن شهادة المعمدان للنور الحقيقي نقل يوحنا تلمذته من المعمدان للمسيح ؟ (يوحنا : ٣٥-٣٩) . فالآن هو أقدر مَنْ يقيم نور المعمدان على نور المسيح .

وفي الحقيقة فإن النور لا يحتاج إلى شهادة بل رؤيا ، ولكن لأن الناس أصبحت لا ترى ، لزمت الشهادة . فشهادة المعمدان شهادة راءٍ بالدرجة الأولى . المعمدان رأى النور فانعكس النور عليه فاستضاء ، فأخطأ الناس الرؤيا وحسبوه هو النور ، ولكنه انعكاس النور ليس إلا : كمصباح استمد نوره من يد النور . والمصباح لا يضيء إلا في « موضع » مظلم في غياب النور ، شأنه شأن كل نبوة : « وعندنا الكلمة النبوية — وهي أثبت — التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم » (٢ بط ١ : ١٩) ، « أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس . أنا أصل وذرية داود كوكب الصبح المنير . » (رؤ ٢٢ : ١٦)

ولما فتح القديس زكريا الكاهن فمه ليتنبأ ساعة ميلاد المعمدان وصف هذا المنظر عينه : « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً : ... وأنت أيها الصبي نبي العلي تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعدّ طريقه . لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم . بأحشاء رحمة إنهنّ التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي

يهدي أقدامنا في طريق السلام.» (لو: ٦٧-٧٩)

٩:١ «كان النور الحقيقي الذي يُنير كلَّ إنسانٍ آتياً إلى العالم.»

عودة مرة أخرى إلى حركة النور الدائمة والمستمرة نحو التجسد: أولاً البدء والأزلية حيث «الكلمة»، ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة واستعلانها «نور الناس»، ثم إلى العمل الدائب ضد الظلمة في كل مجالاتها، ثم توقُّف للشهادة للنور والتعريف به باعتباره النور الوحيد الكامل والدائم والمستمر. ثم استعلان صفته هنا لأول مرة بأنه «النور الحقيقي».

والحقيقي αληθινόν هنا لا تفيد أكثر من أنه هو وحده الذي يكشف الحق الكلي، وأنه هو الحقيقي وغيره غير كامل وغير دائم وغير مستمر. وهذا الاصطلاح يُستخدم في إنجيل يوحنا كثيراً^(٢٣) مثل الخبز «الحقيقي» النازل من السماء، والكرمة «الحقيقية» حيث الآب هو الكرام!! والساجدون «الحقيقيون» الذين يسجدون لله بالروح والحق. و«أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو: ١٧: ٣). والحقيقي هو ما يمتُّ إلى «الحق» αληθεία.

فإن كان المعمدان «نوراً» فهو ليس «النور الحقيقي»، ولكنه نور على مستوى المصباح المنار غير الكامل وغير الدائم وغير المستمر.

وقوله «ينير كل إنسان» لها إفادة كبيرة مترامية الأطراف تعني أنه وهو النور الحقيقي الذي يكشف الله ويعلمه، وليس نوراً آخر ولا واسطة أخرى مهما كانت توصل إلى الله، فهو الواسطة والطريق الوحيد إلى الله. كلُّ من يأتي إلى هذا النور أو كل من أتى إلى هذا النور الحقيقي تنفتح بصيرته ويستعلن الله فيه، أي يرى نفسه أمام الله، أي أمام خالقه وناخ روحه في أنفه، أي يتعرَّف على مصدر وجوده وحياته. وليس ذلك فقط بل كلُّ من يدخل في هذا النور الحقيقي، أو يدخل هذا النور الحقيقي إليه، فإنه يرى العالم نفسه رؤية أخرى غير مظهر العالم، يراه في الله ويرى الله فيه ويدرك لاهوته بالمصنوعات التي فيه كما يقول بولس الرسول، أي يرى أصل العالم كما يرى أصل وجوده كإنسان.

وهكذا بالمقابل، يكون الإنسان الذي لا يأتي إلى النور لأن أعماله شريرة، فإنه لا يرى نفسه

أمام الله ولا يرى الله في العالم ، أي لا يرى الله جملة وتفصيلاً ، فيحيا فاقداً رؤية حقيقة نفسه ، أي يرى نفسه في الظلام .

ومن هنا نفهم ، تجاوزاً ، أن للنور عملاً سلبياً . فهو إذا رفضه إنسان انعمت عيناه . وهذا معنى القول : « أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم » (يوحنا : ١٢ : ٤٠) . وهنا يظهر بوضوح قول المسيح للفريسيين : « لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون . » (يوحنا : ٣٩)

« الذي ينير كل إنسان » :

لقد سبق ق . يوحنا وأوضح أن « الحياة كانت نور الناس » . فالحياة الأبدية التي النور جوهرها ، هذا النور الذي يُعتبر عمله الأول والأعظم هو الإنفتاح على وعي الإنسان لقبول الحقائق الإلهية ، هذه الحياة الأبدية التي كانت في « الكلمة عند الله » والتي صارت عاملة في الخليقة — كان عملها في الإنسان هو سَكَب النور لتدريب وعي الإنسان . ولكن عاد القديس وقال إن الظلمة قد طغت على الإنسان فمنعته من إدراك كُنه هذا النور وحقيقته ؛ الأمر الذي دعا الله أن يجعل لـ « الكلمة » و « النور » وسيطاً مساعداً هم الأنبياء . ولكنه ينبه أيضاً أن الأنبياء ، الذين جاء المعمدان ليمثلهم بروح إيليا وقوته ، لم يكونوا هم النور بل مجرد شهود له ، مجرد مصابيح مضاءة . ونحن نعلم أيضاً أن شهادتهم لم تُقبل ! مما دعا الله أن يجعل « النور » يأخذ طريقه الأخير نحو الإنسان على مستوى التجسد . فالنور الذي ينير كل إنسان بلغ قوته العظمى في المسيح « أنا هو نور العالم . » (يوحنا : ١٢)

وقول ق . يوحنا أن « النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان » ، هنا يصف النور الحقيقي من واقع عمله الأساسي وليس من واقع النتائج ، فالنتيجة دائماً جاءت لا تساوي عمل النور وقوته . فالإنسان دائماً وعلى جميع الأحوال لا يعوزه هذا النور في الإحساس به في القلب والضمير وفي الخليقة من حوله وفي الحياة التي تعجُّ بآيات الله الناطقة بنوره ووجوده ؛ ولكن أيضاً فالإنسان دائماً وعلى جميع الأحوال لم يرتفع لمستوى حب الله وعنايته وفاعلية النور الإلهي العامل فيه ومن حوله . وهذا بالذات كان السبب الذي جعل الله يزيد من استعلان ذاته ويقترّب أكثر فأكثر من الإنسان على مدى التاريخ .

ونلاحظ أن حالة الإستمرار التي أتت بها صيغة الفعل « الذي ينير » تكررت كثيراً في مواضع أخرى مما يكشف عن ديمومة في مقاصد الله منذ البدء ، للإستمرار في الإتصال بالإنسان بكافة

الطرق، فنحن نسمع المسيح يقول: «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (يو: ٦: ٥٠). وهذا نفسه وإن كان يشير إلى التجسد، وكأنه نزول دائم ليمد الإنسان بالحياة الدائمة حتى لا يموت الإنسان، فكم بالحري النور النازل باستمرار: «أنا هو نور العالم» (يو: ١٢: ٨)، والحياة النازلة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو: ١٤: ٦)، والحب النازل: «هكذا أحب الله العالم» (يو: ٣: ١٦). هذا يكشف عن تنازل الله المستمر نحو الإنسان حتى «صار جسداً»!!

ثم عودة مرة أخرى هنا لتركيز ق. يوحنا على «كل إنسان»، فإن كان يبدو أمراً صعباً فهم كيفية استنارة «كل إنسان» بـ «الكلمة» عملياً؛ ولكن لينتبه القارئ كيف سيتم هذا رغماً عن كل إنسان، عندما يتجسد الكلمة آخذاً طبيعة كل إنسان أو كل البشرية لنفسه، لا ليضيئها، وحسب، بل لتتحد بالنور اتحاداً أزلياً!! جاعلاً النور بذلك حقاً مشروعاً لكل إنسان بلا تمييز، كل من يؤمن! لأن الإنسان هو من خلقة النور ولأن النور هو أصل خلقة الإنسان!! لذلك حق للمسيح أن يقول: «أنا هو نور العالم» لأنه هو خالقه. كما يحق أن يقال بكل تأكيد أن «العالم به وله قد خلِق» (كو: ١: ١٦). فالكلمة خلقت العالم ليتجلى فيه، ولينتهي العالم إليه!!

«كان آتياً إلى العالم»:

تقرأها بعض المصادر على أساس أنها صفة «لكل إنسان»، أي «كل إنسان آتٍ إلى العالم»؛ ولكن الأصح عند معظم الثقة أنها خبر للنور الحقيقي: «كان النور الحقيقي آتياً إلى العالم». ومما يرجح هذه القراءة أنه بعد ذلك أتى فعلاً إلى العالم بالتجسد!!

١٠: ١ «كان في العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم».

يلزم أن ننسب إلى الرؤية المتسعة لمفهوم ق. يوحنا عن الكلمة وعلاقته بالعالم، وذلك بالتفريق بين «كل شيء به كان» ويعني العالم بكل ما فيه، وبين «النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه»، وهنا الظلمة هي ظلمة العالم والإضاءة هي استعلان الله لكل من له إدراك في العالم أي الإنسان، فالعالم هنا هو عالم الإنسان. أما قوله: «كان النور الحقيقي آتياً إلى العالم»، فهنا انتقال أساسي من عمل الكلمة على مستوى الخلق والإضاءة إلى عمل الكلمة بالحضور الشخصي للإعلان عن الله.

ومن هنا نفهم قوله «كان في العالم»، بمعنى أنه كان عاملاً بالإضاءة أي بالاستعلان

الإدراكي لكل من له إدراك، كما نفهم «وَكُنَّ الْعَالَمُ بِهِ» بمعنى الخلق ودوام الخلق متصله بخالقها، أما النتيجة الدائمة أو رد فعل العالم، وباستمرار، فهو «لَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ». وهنا «لَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ» لا يعني عدم المعرفة بالاستضاءة العامة، ولكن عدم التعرف الشخصي عليه وعدم الاستجابة له أخلاقياً، وبالتالي الوقوف في الظلمة ومع الظلمة ضد الله، لأن عدم الإذعان للنور هو التحرر من سلطانه، وكأن لا خالق له، بل وكأنه هو خالق ذاته أو موجود من تلقاء ذاته، وهذه هي نظرة الملحد تامة ونظرة اللاأدريين ومؤلهي العالم.

وهنا يتضح أيضاً عمق التفسير الروحي لثنائية وجود النور والظلمة في لاهوت ق. يوحنا. فالظلمة في العالم أو في الإنسان ليس الله صانعها، بل الإنسان وحده مسئول عن صنعها بنفسه بالسير في الخطية والشر. فالظلمة ليست كالنور، فهي ليس لها أصل وجودي كالنور، بل هي من إفرازات التاريخ والسلوك الإنساني. وبكل اختصار تكون الظلمة هي غياب النور، ويكون عمل النور في الإنسان هو العودة إلى الله، أي الخلاص، وعمل الظلمة بالمقابل هو الدينونة، أي الحرمان من الله. وهكذا أيضاً ينقسم العالم في لاهوت ق. يوحنا إلى عالم قابل للنور والخلاص، وهو العالم الذي أحبه الله، وعالم رافض للنور وواقع تحت الرفض والدينونة. وهذا هو الذي حدا بالكلمة أو جعله يتخذ الخطوة الأكثر استعلاناً وهي: المجيء الشخصي.

١١:١ «إِلَى خَاصَّتِيهِ جَاءَ وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ».

التدرج السابق في الاستعلان كان يشير بهذه النتيجة الحتمية. فالعالم من آدم حتى إبراهيم ثم موسى لم يُعْذَمِ النور الإلهي، ولم يمتنع عنه صوت الله، ولم يمتنع على الإنسان أن يدعوا باسم الرب. فنحن نسمع مبكراً جداً في أيام شيث بن آدم أن في أيامه ابتداء الإنسان أن يدعوا باسم الرب: «وَلشِيثُ أَيْضاً وُلِدَ ابْنُ فِدْعَا اسْمُهُ أَنْوَشُ. حِينَئِذٍ ابْتَدَى أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ» (تك ٤: ٢٦). معنى هذا أن الإنسان كان في هذا الزمان السحيق يعرف الله معرفة شخصية وبالاسم!!

ثم بعد ذلك الزمان بعدة مئات من السنين نسمع بشخصية قديسة على المستوى العملي ارتفع بمعرفة الله والمناداة باسمه إلى مستوى السيرة السماوية والمسيرة العاشقة مع الله، بنوع يفوق تصورنا وكأنها زمالة أو أخوية: «وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللَّهِ وَلَمْ يَجِدْ لِأَنَّ اللَّهَ أَخَذَهُ.» (تك ٥: ٢٤)

كذلك وبعد ذلك بأزمة نوح الذي أظلمت الدنيا في أيامه وانحصر النور الإلهي عن وعي الإنسان وضميره، وبحسب تعبير الوحي المقدس: «وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ

ظلماً... إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» (تك ١١: ١١ و ١٢). ولكن من بين هؤلاء وُجد نوح البار: «وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله وسار نوح مع الله» (تك ٦: ٩). وهكذا وفي وسط الظلام الدامس لم يعدم «الكلمة» إنساناً يشهد للنور ويعيشه فيصبح شفيعاً لمزيد من استمراره ولمزيد من استعلانته وأخيراً «جاء إلى خاصته».

«إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله»:

من نشيد موسى النبي الذي قاله للوداع قبل موته نفهم أن الله قَسَمَ شعوب الأرض — وجعلها تحت حراسات ربما بعض الملائكة (٢٤) — أما شعب إسرائيل فكان من نصيب الرب يرعاه بنفسه، أو بحسب تعبيره للأنبياء: «اقتناه لنفسه خاصة»: «حينما قَسَمَ العليُّ للأمم، حين فرَّق بني آدم، نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل (أي كثيرة). إن قِسَمَ الرب هو شعبه، يعقوب جبل نصيبه. وجده في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب. أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه. كما يحرك النسر عشه وعلى فراخه يرقُ ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي.» (تث ٣٢: ٨ — ١٢)

ويلزم التفريق بين كلمة «خاصته» الأولى εἰς τὰ ἴδια لأنها جاءت بصيغة المحايد (neuter)، أي ليس مذكر ولا مؤنث، أي لا تفيد معنى الإنسان، وهنا ينصبُّ المعنى على الأرض والوطن وعلى البيت، أي بيته وبلده. والمعنى ينحصر في نهاية الأيَّام وليس منذ إبراهيم أو موسى، بل في ملء الزمان، أي مجيء المسيح. أما كلمة «خاصته» الثانية فجاءت بالمذكر الجمع للعاقل οἱ ἴδιοι وهنا ينصبُّ المعنى على الشعب ككل، أي شعبه. وكذلك فإن المعنى ينصبُّ هنا على مجيء المسيا.

وهكذا تفيد هذه الآية أن مجيء الكلمة انحصر انحصاراً هذه المرّة في رقعة أرض خاصة وفي شعب مختار خاص دون بقية الأراضي والشعوب، وكأنهما «بيت الله وأهله».

وإليك أيها القارئ من الآيات البيّنات ما يوضح ذلك:

— «ترنّمي وافرحي يا بنت صهيون لأنني هأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب (وحلّ بيننا). فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم ويكونون لي شعباً، فأسكن في وسطك فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني إليك. والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة ويختار أورشليم

(٢٤) يُفهم من كلام دانيال النبي بعد السبي، أن الرئيس الموكل على شعب إسرائيل صار هو الملك ميخائيل (دا ١٠: ١٣).

بعد. » (زك ١٠: ١٢-١٢)

ولكن ليس معنى ذلك أن الشعب المرفوض سابقاً سيمتلك الأرض التي اختارها الرب ليسكن فيها — في نهاية الأيام — بل تنص النبوة على أنه بالرغم من أن الرب سيأتي إلى الأرض، خاصّته، ويسكن فيها، إلا أن الشعب سيُطَوَّح به بعيداً في الأمم بسبب رفضه:

— «لا تفرح يا إسرائيل طرباً كالشعوب لأنك قد زנית عن إلهك... لا يسكنون في أرض الرب بل يرجع أفرايم إلى مصر ويأكلون النجس في أشور.» (هو ٩: ١-٣)

والسبب يذكره بوضوح إرميا النبي: «وأُتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها. فأُتِيتُمْ وَنَجَّسْتُمْ أَرْضِي وَجَعَلْتُمْ مِيرَاثِي رَجْساً» (إر ٧: ٢). والأساس الذي بمقتضاه سكن شعب إسرائيل فلسطين هو أن هذه الأرض ملكٌ للرب وهم غرباء ونزلاء فيها، ليس فيها حق بيع أو شراء!!:

— «والأرض لا تُباع البتة، لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي.» (لا ٢٥: ٢٣)

أما شعب إسرائيل فاعتبرهم الرب خاصّته، أي أهله وشعبه وعبيده الخصوصيين، وكأنه اشتراهم لنفسه، فهم ليسوا أحراراً في أنفسهم:

— «لأن بني إسرائيل لي عبيد، هم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر، أنا الرب إلهكم.» (لا ٢٥: ٥٥)

— «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصّة من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض، وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خر ١٩: ٦ و٥)

— «لأنك أنت شعبٌ مقدّس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس لأنكم أكثر من سائر الشعوب، (ولكن) التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم وحِفْظِهِ الْقِسْمِ الَّذِي أَقْسَمَ لِآبَائِكُمْ...» (تث ٧: ٦ و٧)

— «أنتم أولاد للرب إلهكم،... لأنك شعب مقدّس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.» (تث ١٤: ١ و٢)

— « وواعدك الربُّ اليوم أن تكون له شعباً خاصاً ، كما قال لك ، وتحفظ جميع وصاياہ ، وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها ، في الثناء والاسم والبهاء ، وأن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك . كما قال . » (تث ٢٦ : ١٨ و ١٩)

ولكن للأسف لم يحتفظ إسرائيل بلقبه ولا باسمه ولا بحب الله له ، ولا كرم اختياره له ولا حافظ على عهده ، بل ارتد عن إلهه : « وأعطوا الفقرا لا الوجه » (إر ٧ : ٢٤) . والقول في ذلك كثير جداً يملأ كل أسفار العهد القديم . ولكن أبشع أوصاف الإرتداد جاءت من فم موسى نفسه ، أي من بكور مسيرة الشعب خلف الله ، ويا للفضيحة :

— « أنصتي أيتها السموات فأتكلم ، ولتسمع الأرض أقوال فمي . يهطل كالمطر تعليمي ويقطر كالثدي كلامي ، كالظل على الكلا وكالوابل على العشب ... ، أفنتد له الذين ليسوا أولاده عيهم ... جيلٌ أعوج ملتو . الرب تكافنون بهذا يا شعباً غيباً غير حكيم ؟ أليس هو أباك ومقتنيك ، ثم عملك وأنشاك ؟ ... فرأى الرب وردل من الغيظ بنيه وبناته . وقال أحجب وجهي عنهم ... جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم ... إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم (غياب نور الكلمة) . » (تث ٣٢ : ١ إلخ)

واضح أن أعمال الشعب الشريرة وأخصها الزنا وعبادة الأصنام التي أغرم بها الشعب ، وأحياناً كثيرة كان ذلك بقيادة ملوكهم ، هذه الأعمال الشريرة حجب وجه الله عنهم . وهذا معناه المباشر توقّف عمل « نور الكلمة » وحجز المعرفة والرأي الصواب والفهم والمشورة الحسنة عنهم ، وذلك حتى لا يلوّثوا اسم الله وكرامته ويخلطوا بين عمل الشر وعمل الله . وهذا بدوره مما حدا بالله ، أو جعله يتقدم خطوة أكثر في الاستعلان عن نفسه بمجيء « الكلمة » مجيئاً منظوراً ، حتى يتسنى لله أن يتكلم مع خاصّته مباشرة دون وسيط أو نبي : « الله بعد ما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه ... » (عب ١ : ١ و ٢)

ولكن كان لا يزال غضب الله على الشعب ، الذي فسد بقيادة رؤسائه ، قائماً . بمعنى أنه كان قد حجب وجهه عنهم وانقطع عنهم عمل « نور الكلمة » كما سبق ، فكان من الصعب على الشعب المنغمس في الشر مع رؤسائه ومعلميه أن يتعرّف على المسيح الذي أتى ، أي « الكلمة » الذي جاء بنفسه . وهذا يصفه ق . يوحنا في إنجيله في أصحاح ١٢ ، ولكن بصورة جمع فيها انقطاع النور الإلهي منذ القديم عن الشعب المرتد عن الله مع عدم إيمانهم بالمسيح ، أي « الكلمة » عندما ظهر ، أي المسيح الذي جاء إليهم ، هكذا :

— « ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به ، ليتم قول إشعياء النبي

الذي قاله: يا رب من صدق خبرنا ولن استعلنت ذراع الرب (المسيح). لهذا لم يقدرُوا أن يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً، قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو ١٢: ٣٧-٤١)

والآن إلى إشعياء لندرس هذا الوضع الخطير:

— «في سنة وفاة عُزْرِيَا الملك رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السِّرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة. باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجله وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض. فاهتزت أساسات القُتُب من صوت الصارخ وامتلا البيت دخاناً. فقلت ويل لي إني قد هلكْتُ لأنني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأت الملك رب الجنود. فطار إليّ واحد من السِّرافيم وبيده جمرَةٌ قد أخذها بمِلْقَطٍ من على المذبح، ومسَّ بها فمي وقال إن هذه قد مَسَّتْ شفتيك فانتزع إثمك وكفَّر عن خطيئتك. ثم سمعت صوت السيد قائلاً مَنْ أُرْسِلُ وَمَنْ يذهب من أجلنا. فقلت هاأنذا أُرْسِلُني. فقال: اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا. غَلَّظَ قلب هذا الشعب وثَقَّلَ أذنيه وَأَطْمَسَ عينيه لئلا يُبَصِّرَ بعينه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى.» (إش ٦: ١-١٠)

يلاحظ القارئ أن رسالة إشعياء النبي بدأت برؤية «يهوه»، كما يُعبّر عنه بالملك رب الجنود، وهو هو «الكلمة»، أي المسيح بحسب المظهر، ولكن في ملء مجده الذي اعتبره إشعياء أنه هو يهوه «الله». لذلك قال ويل لي لأنني رأيت الله، فسوف أموت، ولكن حدثت عملية تطهير لتجعل لإشعياء النبي قوة أو قدرة على رؤية «مجد الله» دون أن يموت. واستلم إشعياء الرسالة من «يهوه» الذي هو «الكلمة المتراخي في مجده». وهذه الرسالة هي بعينها نص النبوة عما سيحدث عند ظهور المسيا، أي الكلمة، بشخصه، أي المسيح. فإنهم لن يصدقوه ولن يتعرفوا عليه. ثم شرح «يهوه»، أي «الكلمة الجالس على عرش مجده»، شرح لإشعياء سرَّ عدم إيمان هذا الشعب، ومضمون هذا السرِّ وهو أنه بسبب سيرة هذا الشعب الفاسدة بقيادة رؤسائه الفاسدين، وبسبب عدم إيمانهم بالله، وارتدادهم كل الأجيال السالفة عن عبادة الله، وإمعانهم في عمل الشرور وأقبحها الزنا وعبادة الأصنام، فإن الله قد حجب وجهه عنهم، بمعنى أنه قطع عنهم «نور الكلمة»، فامتنعت عنهم المعرفة وانطمست البصيرة وانحجبت رؤية الحق، وهذا قد صنعه الله منذ القدم واستمر في عقوبته عن قصد؛ حتى إذا ظهر المسيا «الكلمة» لا يتعرفون عليه فلا يرجعوا إليه، فلا يُشَفَّوْا، وذلك حتى لا يستمروا في الجمع بين الإفتخار بالله والإمعان في الشر فيلوثون رسالة

المسيح.

ويلاحظ أن الذي رآه إشعياء أنه «يهوه» الملك رب الجنود قال عنه ق. يوحنا أنه هو هو المسيح: «قال هذا إشعياء عندما رأى مجده (مجد المسيح) وتكلم عنه.» (يو ١٢: ٤١)

الآن فهمنا معنى «جاء إلى خاصته»، أي جاء إلى وطنه وبيته، وإلى «خاصته» — أي إلى شعبه الأخصاء جداً دون جميع شعوب العالم، فلم يقبلوه. والأمر المذهل والمفزع أن الرفض كان عنيفاً إجماعياً، رؤساء كهنة وكتبة وفريسيين ورؤساء شعب وكل الشعب المضلل وحتى بعض التلاميذ، بلا أي تعقل بل بلا أي سبب: «وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي، لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو ١٥: ٢٤ و ٢٥)

أما المكتوب في الناموس الذي يشير إليه المسيح فهو مز ٣٥: ١٩ ومز ٦٩: ٤:

— «لا يشمت بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامز بالعين الذين يبغضوني بلا سبب.» (مز ٣٥: ١٩)

— «أكثر من شعر رأسي الذين يبغضوني بلا سبب...، اعتز... أعدائي ظلماً. حينئذٍ رددتُ الذي لم أخطئه.» (مز ٦٩: ٤)

لقد احتار بيلاطس فيهم حينما أخذ يتلفت يمينا ويساراً يستجدي من يساعده في إطلاق سراحه، سواء من الرؤساء أو حتى من الشعب الذي التجأ إليه متوسلاً أن يختاره عوض باراباس، ولكن بح صوتيه بلا نتيجة فحكم على أساس كلمتهم: «دمه علينا وعلى أولادنا!!» (مت ٢٧: ٢٥) وكأنما قد حوَّصر النور إذ «لم يعرفه العالم». وهوذا الآن حتى خاصته أبغضوه ولم يقبلوه، الذين أعدَّهم خصيصاً بنفسه لنفسه منذ الدهر إعداداً متعدد النواحي، وأغدق عليهم إغداقاً ليس له من مزيد، في الأرض والمطر والزرع والضرع والبركات، مع العلم والمعرفة والمشورة، وكلمهم بالأنبياء مبكراً ومؤخراً، وجهَّزهم أحسن تجهيز إذ قدَّسهم وقَدَّس أرضهم وأقام مقدَّسه في وسطهم، وبعد كل ذلك ليس فقط لم يقبلوه بل وأبغضوه، وبلا سبب، أو ربما بسبب أنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

«جاء ἦλθεν»:

هنا نجد أن «الكلمة» يتخطى كل حدود العمل من على بُعد، ويأتي بنفسه مجيئاً محدداً واضح المعالم مرئياً ومسموعاً مشاهداً وملموساً، مجيئاً توج به كل طرق استعلاناته الأولى جميعاً سواء في العالم ككل أو حتى إسرائيل بكل تاريخها القديم. ولكنه مجيء كان في مرحلته الأولى إلى

خاصته: «لم أرسلُ إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.» (مت ١٥: ٢٤)

ولكن هذا المجيء لما بلغ أقصاه في الاستعلان لخاصته، كما بلغ أقصاه في الرفض، وانتهى الاستعلان وانتهى الرفض على أيدي خاصته بالصلب، استعلن هو هو بذاته — أي هذا المجيء المقدس والمبارك — على مستوى العالم كله والبشرية جمعاء وذلك لما «الكلمة صار جسداً».

وبذلك يتضح تماماً من تدرُّج ق. يوحنا في الكشف عن تدرُّج الاستعلان الذي مارسه «الكلمة» في ذاته بالتجسد أنه تم بالفعل على مرحلتين أو على وجهين:

المرحلة الأولى أو الوجه الأول: باعتباره «المسيح» قمة الاستعلان أو الاستعلانات التي أتمها مع شعبه المقدس إسرائيل لكشف خطة الفداء لشعبه والخلاص حسب وعده.

والمرحلة الثانية أو الوجه الثاني: باعتباره «الكلمة صار جسداً»، «كنور للأهم»، وفداءً وخلاصاً إلى أقصى الأرض.

في المرحلة الأولى واجه من خاصته نكوصاً شعبياً منقطع النظر كسيد مرفوض، مع الصليب، وسقوط الأمة!

وفي المرحلة الثانية قبل قبولاً فردياً كربِّ لمجد الآب، امتد، ولا يزال يمتد، إلى أقصى الأرض وأقصى الزمن.

لأنه لو يلاحظ القارئ، يكتشف أن الكنيسة المسيحية لم ترث الكنيس اليهودي بناموسه وبقوانينه وتراثه، ولا قامت الكنيسة المسيحية على أنقاض الهيكل المهدوم، لأن الكنيسة المسيحية هي «الهيكل الجديد»، «المسيح نفسه» مُشتهى كل الدهور: «فنحن من لحمه ومن عظامه» (أف ٥: ٣٠)، «وبَيْتُهُ نحن.» (عب ٣: ٦)

١٢: ١ «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ. أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ.»

لقد جاء إلى خاصته كوطن فلم يجد له مكاناً، وجاء إلى خاصته كأُمَّة فلم تقبله، ولكن كان لا بد من شهود، فالله لا يترك نفسه بلا شاهد. فإزاء رفض الأمة تقدم أفراد، وبصفتهم الشخصية آمنوا به وقبلوه، لا كيهود بل كمسيحيين!! طردوا من المجمع والهيكل كوثنيين، ليفتحوا الطريق

أمام كل الأمم!! فقدوا البنيوية لموسى وإبراهيم، فصاروا محسوبين على مستوى شعوب الدنيا، فأعطاهم الله وأعطى معهم كل شعوب الدنيا حق البنيوية منه وله رأساً، ليكونوا رؤوساً لشعب جديد: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة» (مت ١٦: ١٨)، «شعب اقتناء» = (انتساب لله) (١ بط ٢: ٩)، «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١: ٤)، بامتياز حق التبني لله مباشرة يولدون له، من رحم نعمته، مقدسين، ومختومين بختم روح الله كأعضاء أحياء في جسد ابنه كما «من لحمه ومن عظامه» (أف ٥: ٣٠)، عوض ختان اللحم وتسجيل الاسم في سجلات المولودين من دم إبراهيم.

إن الإمتياز الكبير المجاني الذي أعطاه الله في البدء لإسرائيل في حدود الخصوصية المنحصرة في جنس وشعب محدد: «فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر» (خر ٤: ٢٢)، «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني» (هو ١١: ١)، هذا الإمتياز الكبير المفريد والمجاني الذي افتتح الله به عهد علاقة حبه مع الإنسان ممثلاً في إسرائيل، أطلقه الآن بلا قيود جنسية أو شعوبية للمؤمنين أفراداً، لأن عهد الله ووعوده كلها بلا ندامة (رو ١١: ٢٩). وهكذا صار الرسل الأولون النموذج الجديد والكامل للابن الجديد البكر، عوض إسرائيل الأمة التي لم تَصُنْ عهد البنية ولا عهد البكورية. اسمع القديس يعقوب يقول: «شاء فولدنا بـ "كلمة الحق" لكي نكون باكورة من خلائقه.» (يع ١: ١٨)

«أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله»:

كان شعب إسرائيل يفتخر على السلطان الذي له كشعب مختار من الله على أساس محبة الله لأبائهم الأوائل إبراهيم وإسحق ويعقوب. وكان هذا السلطان يكتسبه الفرد بالولادة من أب يهودي وأم يهودية، فيرث نصيبه في محبة الله لأبائه. ولكن السلطان الذي أعطاه الله لكل من يقبل المسيح هو سلطان شخصي لا يُورَث ولا يُورَث بحسب الجسد، بل هو إعطاء حق إقامة علاقة بنوية مباشرة مع الله على مستوى علاقة الله مع إسرائيل نفسه وأكثر. لأن إسرائيل أخذ صفة «الابن» كلقب، أما من يقبل يسوع المسيح باعتباره المسيح الموعود فإنه يأخذ حق البنيوية من الله رأساً، لأنه آمن بالوعد وحكم بصدق الله وأمانته: «الذي يأتي من السماء (المسيح) هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها، وَمَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو ٣: ٣١-٣٣)

وليلاحظ القارئ أن الآية لا تقول: «أما الذين قبلوه يصيرون أولاد الله» مباشرة، بل تقول «أعطاهم سلطاناً أن يصيروا...»، بمعنى أن قبولهم للنور أي للمسيح حسب الإيمان بالوعد، يضعهم

أولاً موضع البتين — أبناء النور — ليصيروا بعد ذلك أولاداً بالحق بمزيد من إيمانهم بالمسيح. وعندنا آية أخرى مطابقة جاءت بالروح على لسان بطرس الرسول توضح أن معرفة المسيح الكاملة تعطي سلطاناً، حسب قدرة الله، ليصير بها مَنْ يقبلها شريكاً في الطبيعة الإلهية: «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى (بواسطة) بمعرفة (يسوع المسيح) الذي دعانا إلى مجده وفضيلته $\text{idí}\alpha\ \delta\acute{o}\xi\eta\ \text{kai}\ \acute{\alpha}\rho\epsilon\tau\eta$ اللذين بهما قد وهبت لنا المواعيد العظمى والشمينة لكي نصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢بط ١: ٣ و٤)

نفهم من هذا أن عدم قبول خاصته له (للنور) حرّمهم في الحال من (النور)، أي من سلطان البنوّة الممنوح لهم كهبة ولقب «إسرائيل البكر»، مما أنشأ حتماً وبالضرورة للذين عرفوه وقبلوه حقاً في المواعيد العظمى والشمينة أن يصيروا «أولاد الله».

ولكن لا يزال أمام الذين قبلوا — النور — المسيح كأفراد من خاصّته أن يتعرّفوا أكثر على المسيا الذي قبلوه، فأمامهم مرتفع من الإيمان يتحتم أن يتسلّفوه: إيمان الصليب وما بعد الصليب، لذلك نحن هنا لا نزال في درجة استعلان ما قبل «الكلمة صار جسداً» مباشرة.

«أولاد الله» $\text{t}\acute{\epsilon}\text{k}\nu\alpha$ = «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو ١٢: ٣٦):

ق. يوحنا لا يستخدم كلمة «ابن $\text{u}\acute{\iota}\omicron\varsigma$ » إلا للمسيح فقط، كما يلاحظ أيضاً في أسلوب ق. يوحنا أنه لم يستخدم المفرد من «الأولاد» قط، وكأنما في تفكير ق. يوحنا أن التبني هو «شركة طبيعة» تتضح أكثر عنده في قوله: «الذين وُلدوا» بالجمع، وكأنما يمين في التفريق بين بَنُوّة شعب إسرائيل وبنوّة شعب المسيح، فالأولى بالميراث الجسدي والثانية بالميلاد الروحي.

«المؤمنون باسمه»:

ق. يوحنا يتقدم في فعل التقدم في الاستعلان من النور إلى المسيا إلى ابن الله ثم إلى رد الفعل الإيجابي من «القبول» إلى «الإيمان».

وكلمة «المؤمنون» هنا $\text{to}\acute{\iota}\varsigma\ \mu\iota\sigma\tau\epsilon\acute{\upsilon}\omicron\upsilon\sigma\iota\nu$ جاءت بحالة قائمة دائمة كرد فعل دائم لاستعلان المسيا أنه ابن الله برسوخ وتأكيد على أساس فريد من المعرفة والوعي للاستعلان الجديد، يقابلها تماماً قول ق. يوحنا في رسالته: «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله» (١ يو ٥: ١٣)، وكأنما يود أن يقول لنا: آه لو عرفتم قيمة الإيمان بابن الله فإنكم سوف تمسكون بالإيمان باسم ابن الله حتى الموت لأنكم ستحيون.

هذه الحالة نسمعها في بكور ظهور المسيا بوضوح من فم نثنائيل، أول الخاصة الذين قبلوه ثم آمنوا به: «يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو: ١: ٤٩)

«باسمه»:

«الاسم» في لاهوت ق. يوحنا، وبالتالي في لاهوت الكنيسة الأولى وكبار لاهوتيينها، هو المُعَبَّرُ عن الشخص في حالة وجود وتجلي. فالذي يؤمن «باسم» ابن الله لا يعني ذلك أن نبحث عن ما هو اسمه، بل يعني أن هذا الإيمان: إيمان ثابت مع تعلق شخصي فيه ثقة وأمانة واتكال، بل فيه بهجة وفرح، لأنه يعبر عن حالة تجلي وحضور إلهي. فاسم الله من الوجهة الفعلية التصوفية هو الحضرة الذاتية الإلهية عندما ينادي فيها المؤمن الله، كحاضر، ويتكلم معه وهو أمامه. وهذا نجده واضحاً وثابتاً في قول الرب للتلاميذ قبل الصعود: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت: ٢٨: ١٩)

فالاسم هنا يعني الدعاء للحضور والتجلي والمشاركة، بمعنى أن التعميد باسم الثالوث هو مباشرة الثالوث بالتعميد بناءً على الدعاء بالاسم. وكذلك في الإفخارستيا وفي كل سر من أسرار الكنيسة، فإنه يجري بالدعاء بالاسم لحضور الله وتتميم السر.

ومعروف أن النطق باسم الله أو باسم ابن الله له قوة وسلطان الحضور الإلهي تماماً. وهذا نسمعه من التلاميذ: «فرجع السبعون بفرح قائلين يا رب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك.» (لو: ١٠: ١٧)

كذلك فالدعاء بالاسم انتقل إلى مناداة القديسين بأسمائهم، لا لكي يسمعو بل لكي يحضروا، فالدعاء باسم القديس هو تكليف حُبِّي متواضع للحضور للمعونة. «ادعُ الآن. فهل لك من مجيب. وإلى أي القديسين تلتفت» (أي: ٥: ١). فالدعاء بالاسم هو استدعاء.

وفي قول ق. يوحنا «المؤمنون باسمه» معنى التعرف على يسوع أنه هو المسيح، وهذه هي الدرجة الحرجة في إيمان الإنسان اليهودي. فالذي قبل يسوع على أنه هو المسيح يكون قد انتقل من العهد القديم إلى العهد الجديد، وهذا بحد ذاته هو الذي يعبر عنه بالميلاد الجديد أو الخليقة الجديدة في المسيح، لأن التعرف على المسيح أنه ابن الله هو تحصيل حاصل. لأن المعروف في الفكر اليهودي المتقدم والذي ينتظر الخلاص بالروح أن المسيا هو ابن الله. وهذا الأمر واضح من أول نطق إيماني لنثنائيل، كما سبق وذكرنا. وهذا يعبر عنه ق. يوحنا بغاية الوضوح في رسالته الأولى بقوله: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله.» (١ يو: ٥: ١)

١٣:١ «الذين وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ ، بَلْ مِنْ اللَّهِ» .

ق. يوحنا بدأ يرافق الاستعلان بالرد العملي من جهة الإنسان اليهودي — وليست الأمة اليهودية — ليوضح القيمة العظمى لاستعلان كلمة الله عندما جاء إلى خاصته — على مستوى المسيا — فقبله بعض الشخصيات اليهودية. فالاستعلان واكبه إيمان، والإيمان رافقه ميلاد جديد للإنسان، جديد على عقل الإنسان غاية الجدّة. وكان إيمان هؤلاء الأشخاص الأفراد اليهود هو باكورة الخليقة الجديدة الذين حَمَرُوا عَجِينَ الأُمَمِ كله. هذا ما صرّح به القديس يعقوب الرسول معبراً عن نفسه وزملائه الرسل: «شَاءَ فَوَلَدْنَا بِـ"كَلِمَةِ الْحَقِّ" لَكِي نَكُونَ بَاكُورَةَ مِنْ خَلَائِقِهِ» . (يع ١: ١٨)

ولينتبه القارئ، لأن مفهوم الميلاد من الله، أو قول يعقوب الرسول: «وَلَدْنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ»، أو قوله: «بَاكُورَةَ مِنْ خَلَائِقِهِ (الجديدة)»، هذه كلها تعبير عن «الحياة الأبدية» مع الله، وهذا هو ملخص اللاهوت بل خلاصة إنجيل يوحنا الذي بَلُورَهُ في ختام الأصحاح العشرين بهذه الكلمات عينها: «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَلَكِي تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ» . (يو ٢٠: ٣١)

«وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ» :

لأول مرة بالنسبة للإنسان العادي يُسمع عن ميلاد لا تتدخل فيه أي من العناصر الطبيعية (الدماء). نعم، لأن النتيجة ليست لحساب حياة طبيعية، والمولود ليس لحساب هذا العالم الطبيعي.

كما نجد في هذا الميلاد غياباً كاملاً للغرائز الطبيعية (مشيئة جسد)، لذلك فالمولود هنا ليس خاضعاً جبرياً لسطوتها. كما يغيب عن هذا الميلاد (مشيئة الإنسان)، وبالتالي فتوجيه الحياة الجديدة بأفعالها لا تنبع من مشيئة بشرية.

هذا هو مجمل الثلاثة المعايير السلبية: «ليس . ولا . ولا» . ولونلاحظ، نجد أن ق. يوحنا لم يضع هذه المعايير المنفية جزافاً، بل هو يتدرج بها من الأسفل إلى الأعلى. فالمعيار المنفي الأول هو المصدر الطبيعي للحياة الطبيعية «الدم»، والثاني هو المحرك الطبيعي للحياة المخلوقة «مشيئة الجسد»، والثالث هو جماع الشخصية الإنسانية التي تُصَرَّفُ أمور الحياة الطبيعية «مشيئة رجل» .

ومن السهل فهم العناصر الثلاثة الأخلاقية التي تتخلص منها الحياة الجديدة بهذا الميلاد الجديد:

العنصر الأول: عدم اعتماد الحياة الجديدة على توريث الحياة من السلف، وتحررها من الغرائز والشهوة. واستقلالها عن قدرة الإنسان. فما أعجبها حياة!!

«ليس من دم»:

الترجمة الحرفية الصحيحة: «ليس من دماء»، لأن «دم» جاءت بالجمع في اللغتين اليونانية واللاتينية: *ex sanguinibus = ἐξ αἱμάτων*. فهنا خرجت الترجمة العربية عن النص فأساءت إلى المعنى كما يقصده ق. يوحنا.

و«الدم» بالجمع يُقصد بها دم الأب ودم الأم، كما يرى القديس أغسطينوس. وجمعها يفيد معنى كافة العناصر الطبيعية التي يتكون منها الجسد من ذكر وأنثى.

كما أننا نعرف لغة ق. يوحنا السرية لماذا يتحاشى قول «الدم» بالمفرد، فهذا هو افتخار اليهود، إنه كبرياء الجنس، فاليهودي مولود من «دم» يهودي — تعبيراً عن الجنس المختار — موروث من إبراهيم وإسحق ويعقوب، كما يتحاشى ق. يوحنا المفرد في قوله: «مولودين ليس من دم» (كما جاء في الترجمة العربية) «لأننا مولودون بالحقيقة من «دم» هو دم يسوع المسيح: الميلاد الذي لم يُستعلن بعد، لأن هذا مخصّص لدرجة الاستعلان القادمة للكلمة حينما صار جسداً — وتخصّب جسده على الصليب بهذا الدم غفراناً لكل العالم — أما الآن فتحن محصورون في «الكلمة» المستعلن بالميّ، وفي الميّا، أي يسوع المسيح، لليهود فيما قبل الصليب، أي ليس بعد مكان للدم.

«ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل»:

هنا يحصر ق. يوحنا معنى الميلاد الروحي للإنسان، أو الخليقة الجديدة، أو معنى أولاد الله أو الميلاد من الله، في أنه ينأى كليةً عن ما يتعلّق بالخليقة الحيوانية عامة والخليقة البشرية خاصة. فهو ميلاد خليقة أخرى للإنسان من فوق، فيها يصير الله أباً جديداً عظيماً للإنسان الذي به تُلغى عملياً القيمة المتبقية للإنسان اليهودي من «الأبوة»: «لنا إبراهيم أباً» (مت ٩: ٣) التي يسعى الإنسان أن ينضوي تحتها: «لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات.» (مت ٩: ٢٣)

«بل من الله» :

«الولادة من الله» عقيدة متكاملة راسخة عند ق. يوحنا، يلدُّ لنا أن نستعرضها أمام القارىء :
١ — «وأما هذه فقد كُتبت (إنجيل يوحنا بأكمله) لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة (ميلاداً جديداً) باسمه.» (يو ٢٠: ٣١)

٢ — «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله.» (١ يوه ٩)

٣ — «أنظروا أية محبة أعطانا الله حتى ندعى أولاد الله... أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله.» (١ يوه ٣: ٢١)

٤ — «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.» (١ يوه ٤: ٧)

٥ — «إن علمتم أنه بار (المسيح) هو، فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه.» (١ يوه ٢: ٢٩)

٦ — «نعلم أن كل مَنْ وُلد من الله لا يخطئ بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمتنه.» (١ يوه ٥: ٨)

٧ — «كل من هو مولود من الله لا يفعل الخطية، لأن زرع الله (زرع الله) يثبت فيه، ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله.» (١ يوه ٣: ٩).

من بين هذه الآيات السبع نجد الآية رقم (٢) هي الآية المتحركة فيها جميعاً، وهي رأس مبدأ الميلاد من الله. لأن يسوع المسيح، كما في الآية رقم (١) هو ابن الله، والرسالة التي جاء ليكملها هي أن يرفعنا معه وفيه إلى حالة التبني لله.

فالذي يؤمن بأن يسوع هو المسيح فهو يكون قد قَبِلَ بالتالي الرسالة أي أن يكون أحد أولاد الله.

كذلك فإن البعلة الأساسية التي على أساسها نصير أولاداً له، لا تعتمد على شيء حسن فينا، ولكن إلحاح محبته لنا، وهو مضمون الآية رقم (٣). وكذلك الآية يو ٣: ١٦ : «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية».

كذلك فإن الوصية الأولى والعظمى هي المحبة لله والقريب لأنها الرُّدُّ الوحيد اللائق لمحبته لنا.

فإذا نجح الإنسان في تكميل هذه الوصية، فإنه حتماً يكون قد وُلد من الله، لأن الله «محب» ، ويستحيل لأحد أن يستمد المحبة الإلهية إلا من الله مصدرها، وهذا هو مضمون الآية رقم (٤).

كذلك فإن ناموس المسيح الذي جاء ليؤسسه هو ناموس البر الإلهي، أي السلوك بمقتضى الرحمة والحق معاً، والعدل والسلام معاً، وهذا مستحيل أن يأتيه إنسان ما إلا إذا أخذ قوة هذا البر من المسيح لأنه «بار» و«يبرر كثيرين»، وهذا مضمون الآية رقم (٥).

كذلك إن كان المسيح قد حلّ بالإيمان في القلب، وثبت الإنسان في الروح القدس، فقد تسَلَّح ضد الشيطان والخطية من جهة الغواية والفعل معاً، وأصبح متحصناً ضده، وهذا مضمون الآية رقم (٦).

وهذه الآية يقابلها من جهة العقيدة عند ق. بولس مطابقة، إنما على الوجه الإيجابي البديع: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني، الذي به نصرخ (عند الضيقة) يا أبنا الآب، الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله.» (رو٨: ١٤-١٦)

كذلك نعلم أن ليس إنسان لا يخطيء، وأن المسيح وحده بلا خطية، وجاء ليكسر شوكة الخطية المميتة، وقد رفعها بالفعل، وخلّص الإنسان من ناموسها القاتل. لذلك إن كان إنسان ما قد قبل المسيح وآمن به وحلّ المسيح بالإيمان في قلبه وقبل الروح القدس، فلا يمكن أن هذا الإنسان يخطيء خطية للموت وهذا مضمون الآية رقم (٧).

وقول ق. يوحنا هنا: «لأن زرع الله sperma ثابت فيه» قول خطير في الواقع، نفهم منه أن الذين يستقبلون روح الأبوة داخلهم فإنها تخصبهم وتصيرهم أولاداً لله، وأن الله يصير أباهم، ليس بالاسم ولا بالمجاز، بل بالقوة الوالدة للروح، الأمر الذي هو أقوى ألف مرة من الولادة التي أخذوها بالجسد وانحدروا منها بواسطة زرع البشر الفاني. لأن الإنسان حينما تسكنه بذرة الروح لأبوة الله، تصير فيه قوة خالقة تخلقه جديداً، وتنميه لينمو حسب صورة خالقه في البر والقداسة والحق. وبحق وقوة أبوة الله التي تسكن الإنسان، لا يُعدُّ الله بالنسبة للإنسان حاملاً عصا التأديب بعد، بل فاتحاً أذرع الحب ليضم خليقته التي تاهت عنه ثم عادت تحمل جمال صورته.

ولا يُعدُّ الإنسان بالنسبة لله خليفة عاصية متمردة بل أبناء حضنه، يضمهم إليه ويقبلهم قبله الآب الذي عثر على ابنه الضال فوقع على عنقه وقبله تقبلاً. لأن الإنسان لم يُعدُّ متغرباً عن الله، بل بواسطة ابنه الوحيد المحبوب الذي أخذ جسداً لنفسه صار الإنسان على مستوى مَعَزَة الابن الوحيد ووريثاً معه لكل حب الآب.

وفي ختام الآية التي نحن بصددھا من الإنجيل، أي الآية ١ : ١٣، يلزمنا أن ننبّه أنه إزاء الرفض الشعبي للأمة اليهودية لاستعلان الكلمة في شخص يسوع باعتباره المسيح الآتي، واجهنا هذه المرة أفراداً من خاصته، تلاميذ ورسلاً وكهنة ورؤساء من الشعب، قبلوه وآمنوا باسمه أنه هو ابن الله الآتي إلى العالم، والتصقوا به فصاروا أولاد الله عوض بني إسرائيل، وأهل بيت الله عوض أعضاء في السنهدريم، واستناروا بنوره وصاروا رسلاً له للعالم، فكانوا منفذاً للنور للجالسين في الظلمة وظلال الموت، المقيدين بالذل والحديد. أما العالم — أي الأمم — فلم يكونوا على موعد مع الله بانتظار المسيح كاليهود، فلهؤلاء استعلن «المسيح الكلمة» نفسه استعلانه الأخير والأعظم للعالم كله، لا كابن داود بل «ابن الإنسان»!! «الله ظهر في الجسد.» (١ تي ٣ : ٦)

١٤ : ١ «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.»

تقسيم هذه الآية :

(أ) والكلمة صار جسداً.

(ب) وحلّ بيننا.

(ج) ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب.

(د) مملوءاً نعمة وحقاً.

نتذكر الاستعلان السالف الذي أكمله «الكلمة» أنه كان على مستوى تكميل وعد سابق بفهم كل الأنبياء، أكمله بالمجيء الفعلي في ملء الزمن : «إلى خاصته جاء». وكان مجيئه استعلاناً محصوراً في شعب هو خاصته وفي أرض هي من خاصته. ولكن الآن يستعلن «الكلمة» ذاته على غير موعد وعلى مستوى البشرية كلها والعالم أجمع.

وهكذا نكاد نصفق بأيدينا لهذا الإنجيلي البديع ذي البصيرة الحادة والرؤيا المترامية الأطراف، الذي واكب الكلمة في درجات استعلانه من الأزلية قبل الزمن، عبوراً بالخلقة والحياة والنور الذي لم ينحصر عن الإنسان قط منذ أن خلق، إلى الآباء والأنبياء والشعب المختار والحياة الأبدية المكنوزة في الكتب لمن يفتش عنها، إلى المعمدان يشهد للنور، إلى الرفض والمصادرة حتى منتهاها، إلى الاستعلان الأخير الذي نعيشه في ملء نوره وبهائه، كل ذلك أيها القارئ العزيز في أربع عشرة آية لم تأخذ من إنجيله أكثر من نصف صفحة!!

أ — «والكلمة صار جسداً» :

«الواو» هنا καὶ تتبع المسلسل الذي جاء في أول الأصحاح ، فهو عودٌ على ذي بدء . ومن ذلك نلمح وبسهولة في قوله : «والكلمة صار جسداً» تكملة مفاجئة للآية الأولى بكل أحكام ، ونقرأها معاً هكذا : «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله والكلمة صار جسداً» .

وهنا آخر مرة نسمع فيها ق . يوحنا يذكر «الكلمة» ، إذ يدخل بها إنجيل الخلاص لنرى الكلمة في شخص المسيح .

هنا يتفضل الله وينزل بنفسه إلى عالمه الذي خلق ، لا كزائر روحي بشبه ملاك أو رئيس ملائكة ، ولا كضيف غريب يباغت الإنسان في عقر داره ، بل نزل كإنسان ليعيش مع الإنسان كإنسان ، وليتكلم مع الإنسان بعد أن أخفقت كل الوسائل في توصيل كلمته إليه . جاء في «الجسد» ليتحدث مع كل ذي جسد : «إذ أعطيت سلطاناً على كل جسد πάσης σαρκός ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته .» (يو ١٧ : ٢)

نعم قد جاء الله بنفسه في الكلمة المتجسد ومعه الحياة الأبدية والنور الحقيقي في الجسد مخفيين في الجسد ولكن منظوران بالرؤيا الإيمانية النفاذة التي تنفذ خلال الظواهر والحجب والظلال والأقنعة لتقع على الحقيقة مباشرة = رؤية مفتوحة على الإيمان ἐθεασάμεθα . لذلك كل من كان له عين ترى وأذن تسمع ، رأى مجده وسمع صوت الله فيه فعاش : «أما رأيتم يسوع المسيح ربنا .» (١ كو ٩ : ١)

لذلك بقدر ما كان الله الكلمة المتجسد نوراً وحياةً أبديةً لمن وقعت عينه — ἐθεασάμεθα — على اللاهوت الذي فيه ، بقدر ما كان الكلمة المتجسد عشرة للعين التي توقفت عند حجاب الجسد ، فاختفى عنها الله والحياة والنور معاً . «طوبى لمن لا يعثر فيَّ .» (مت ١١ : ٦)

وكأنما سر التجسد هو الظل المرافق «للكلمة» منذ البدء ! فـ «سير» التجسد الإلهي فوق أنه يحتضن كل ما عداه من أسرار الاستعلانات السابقة — للكلمة — ويكملها ، فهو — أي «سير» التجسد — يحمله معه في وجوده المطلق منذ البدء وفي كيانه الإلهي «وكان الكلمة الله» ، منظوياً تحت حب الله للعالم !!

وهكذا وبسهولة أيضاً نلمح في «الكلمة» احتضان الأزلية للزمن وانعطاف الله على الإنسان !

فيسرُّ المصالحة العظمى التي جاء ليصنعها الكلمة بين العالم والله: «أي إن الله كان في المسيح مُصَالِحاً العالمَ لنفسه» (٢ كوه ٥: ١٩)، هذه المصالحة كانت دوافعها وأدواتها كائنة فيه منذ الأزل!

انظر معي أيها القارئ العزيز وتمغن كيف أن «الكلمة» يختصن الأزلية والزمان معاً «في البدء كان الكلمة»، «والكلمة صار...»،

وكيف ينعطف اللاهوت على الإنسان: «والكلمة كان عند الله»، و«حلَّ بيننا»: فالزمن خرج من رَحْمِ الأزلية، وحبُّ الله للإنسان كان كامناً في حضنه الأزلي. ثم انظر كيف يجمع «الكلمة» في نفسه الله والإنسان: «وكان الكلمة الله» و«الكلمة صار جسداً».

ثم انظر كيف نجح الكلمة أخيراً نجاحاً منقطع النظير في استعلان ذاته واستعلان الله فيه: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمةً وحقاً».

«والكلمة صار جسداً»: هنا، وهنا أخيراً، استغرق. يوحنا بعد تخليقه طائراً وراء الكلمة في الأزلية محدقاً في الله ليراه عنده قائماً، وفي الخليقة هناك خالقاً، وفي الحياة نوراً مرفوضاً ومقبولاً، وكنا نحن نلهث وراء يوحنا ما عسى أن يكون «الكلمة» هذا، وما هيئته أو صورته، حتى انقطعت أنفاسنا؛ وأخيراً حظَّ هذا النسر الجسور المتمرس في التحديق في نور الله، حظَّ بـ«الكلمة» على «جسد» إنسان فعرفنا في الحال أنه «يسوع المسيح».

«مناجاة»

أيها الكلمة والفعل الأزلي، الكائن الذاتي، الله منطوقاً لنا بالكلمة والله مُستعلنًا لنا بالفعل، الفاعل بكل قدرات الله ومشيبته في الخلق والتدبير، القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، الملتحم جوهرياً وذاتياً بـ «أنا» الله بالحب المطلق، وصاحب الاسم الإلهي معه «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\iota\ \epsilon\iota\mu\iota$ ، المنطلق من كيان الله لاستعلان الله بلا انقطاع، الحامل للكلية الإلهية بغير تجزؤ، والعامل بسلطان الله بلا نقصان مع الله كإرادة وفعل معاً، كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الوجود، غير المُنحصِر في ذاته وغير المحدود وغير المبتدىء.

فأنت البداية التي بلا بداية، والنهاية التي بلا نهاية — التي ينتهي عندها كل ذي نهاية، غير المتغير، والمتغيرات كلها فعلٌ من أفعالك.

الزمان منك أخذ حركته ودورانه ليحكي عن عظمة سكونك الفعال وتعاليك عن كل ظلّ دوران، وإليك ينتهي وعندك يهدأ من كل حركاته، فأنت السكون الضابط لكل حركة.

أما المكان الذي تثله روائع الأكوان كخيمة أقمّت أعمدتها في وسط الوجود المطلق، فهي تحكي بوجودها المحدود عن جبرؤوت الله ووجودك غير المحدود ولا منظور. فكل الأكوان بما تحوي من بدائع المخلوقات المعروفة وغير المعروفة، هي صفحة منبسطة تعكس ظرفاً من بهاء مجد الله فيك غير المدرك. فأنت الكلمة الله الذي هو وحده بالفعل والكلمة استعلن عظمة الله غير المدرك ولا معروف والذي لن يُدرك ولن يُعرف إلا فيك.

فهذا البدء الزماني والمكاني السحيق في القدم، هو بكلياته وجُزئياته فعلٌ حَدَثٌ من أفعال أزليتك، خرج إلى الوجود كما صَوَّرَتْهُ قدرة الله ومشيبته فيك.

أيها الكلمة الله الذاتي الذي كنت محتجباً في الله، مع أنك أنت الحامل لاستعلان الله، لقد استعلنت نور الله الذي كان سيظل محتجباً لولا هذا العالم الذي خلقت، الذي حمل إلينا رسالة ناطقة من خلف آياته الجبارة، تحكي عن الإرادة العظمى التي أرادته، وحكمة الفعل الإلهي الذي به خُلق.

فالمصنوعات فيه تحكي عن لاهوت الصانع، فكل الأفلاك والمجرات والعوالم التي يضحج بها الفضاء بقوانين تحركها وتقلبها، وانضباطها الخاضع لسلطان الدقة الهندسية

الفائقة، تحكي لنا عن ما هي الإرادة الإلهية التي أرادت والفعل الإلهي الذي خَلَقَ، تحكي عنك أيها الكلمة ذو الحكمة والقوة والسلطان والمجد والجلال العامل لحساب استعلان الله، تحكي عن حب الله القائم في العالم لحساب العالم، فانبثَّ فيه قانون المحبة والتآلف الذي يحكم حركتها جميعاً من جاد ونبات وحيوان وإنسان. **فكل ذرّة**، بحركتها الباطنية المنسجمة والمنضبطة في تآلف فائق القدر والوصف، تحكي عن التآلف بين الإرادة والفعل في ذات الله الذي خَلَقَ. أما القوة الذرية المربعة التي ظهرت عند انشطارها فهي تحكي عن القوة الإلهية التي جمعت وضبطت.

وهذا **الإنسان** الذي خَلَقْتَ، حسب قصد محبة الله التي تعمل كل شيء حسب رأي مشيئته في المحبة، خَلَقْتَهُ بامتياز الإدراك والنطق والحب، ليدركك ويدرك فيك الله المُدْرِكُ الكامل الذي يُدْرِك ولا يُدْرِك كماله، ويحبك ويقيس حب الله فيك؛ وصوّرته ليكون في النهاية على صورة خالقه ليستمتع بالحياة الأبدية ويحيا الخلود وينأى عن العجز والفساد. هناك قبل كون العالم وأنت قائم في مجدك مع الله، عندما نويت أنت في أزلتك أن تحمل صورته البائسة التي انحطَّ إليها، لترفعه أنت إلى صورتك في ملء الزمان وعند انتهاء أزمنة شقاء الإنسان، خَلَعْتَ ثوب مجدك الظاهري لتقوى على حمل اتضاعنا وخساسة طبيعتنا، وأتيت إلينا على الأرض وصرت جسداً، وأنت الكلمة الذي لا تسعك السموات. وهكذا لما أخذت هيئة بنوّتنا، تعرّفنا عليك حالاً أنك أنت أنت ابن الله الذي منك انبثقت كل بنوّة، فأنت الحامل للبنوّة الإلهية جوهرّاً وذاتاً، التي كل بنوّة في العالم المخلوق هي صورة منك.

وهكذا وأنت أصل كل بُنوّة، لما حملت صورة بنوّتنا اكتشفنا فيك الأصل؛ وتعرّفنا عليك أنت الابن الوحيد لأبيه. وأدركنا بالروح مقصدك الحميد، أنك لبست صورة بنوّتنا لترفعها إلى مستوى جوهر بنوّتك. وتجعل الصورة التي ماتت تحيا من جديد، وتنطق باسم الله «يا أبّا الآب».

أيها الرب يسوع المسيح الكلمة ابن الله الذاتي، كلي الكرامة والمجد مع الله أبيك، الآن عرفناك أنك أنت أنت الكلمة الذي كان، والكائن في البدء ومنذ الأزل عند الله.

فبعد ما أكملت استعلان الله بالخلق الناطق بلاهوت الله في كل المصنوعات التي خَلَقْتَ، التي تحكي عن جبرؤوت خالقها، تجسدت بشبه خليقتك التي خَلَقْتَ، مع أنك أنت لا تزال قِوَام الخلائق طُرّاً، فكلها تتخذ وجودها ودوامها بتدبير حكمتك، فأنت حياة ونور كل أحد.

أنت «الكلمة» الذي كان، والمستعلن لنا «ابن الله» الآن،

هكذا نؤمن وهكذا نعرف، أنك بعد أن أكملت استعلان الله بالكلمة، جئت إلينا لتكمل استعلان الله بالجسد. ولكننا من خلال اتضاع بشرتك أدركنا وتيقننا من مجد ألوهيتك ومجد الآب الذي أعلنه ببنتك. فإن كانت الخليقة هي لغتك، فقد أعطانا الروح فك شفرتها، فأدركنا أن نور بصائرنا الذي به نراك هو رجع لشعاع نورك، وحياتنا وميض من حياتك. وحتى الحب الذي يقوم حياتنا وأجناسنا وأسرننا وأفرادنا كقانون يتغلغل كل ذي جسد، هو هو حب الآب فيك الذي منه سكبت هذا الحب في خليقتك لما خلقت. فإن كان قانون الحب عندنا هو علة حياتنا الذي يجمع كل جنس ويضم كل أسرة ويوحد الذكر بالأنثى والابن مع أبيه وأمه، فما ذلك إلا أنك أنت أحببتنا قبل أن تخلقنا وأحببتنا قبل أن تفديننا، فصار الحب هو علة وجودنا وخلاصنا، الذي يحكي بقوة عن الحب الذي فيك من نحونا ونحو أبيك، الذي هو من طبيعتك.

ولم تكتف أن يبقى حبك حبيس الخليقة التي خلقت، بل أفضت من روحك القدوس، سر الحب الأقدس، على أرواحنا فتخطينا حدود الخلائق، وارتقينا بالحب فوق طبيعتنا، والتصقنا بالله فيك، لنبقى معه فيك روحاً في روح، لأن «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١ كور ١٣: ١٧)، فبلغنا غاية الحب وبلغنا الرؤية العظمى، لأن «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، وصرنا من «أهل بيت الله» (أف ٢: ١٩).

وهكذا بعد أن كنا عاراً في خليقتك، صرنا بالحب شركاء بمجدك، نأخذ منه ونعطيك. وهكذا أكملت استعلان الله فينا لما سكبت فينا أبوة الله المنسكبة فيك، فاستعلننا الله أباً لنا وورثتنا ما هو ليس لنا...

لما أراد الله أن يكمل حديثه معنا ليعرفنا بحبته ويكشف لنا عن أحشاء رحمته بعد أن كلّم الآباء بالأنبياء، كلّمنا فيك، فتكلمت معنا بضم أبيك، أنت الكلمة والابن والله الناطق بسر الوجود. فتجسدت لتكون أقرب إلينا من أنفسنا، فنسمعك سمع الأذن ونراك رؤيا العين، وكابن الإنسان وأنت ابن الله تكلمت مع الإنسان، فكان الصوت صوت إنسان والمتكلم هو الله!!

ولما لبست صورة الترابي بعد أن أخليت ذاتك، لم تستطع أن تخفي ذاتك لأن حضرتك الإلهية كشفت سر اتضاعك، وكان صوت أبيك سباقاً لتعريفنا بك: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا.» (مت ١٧: ٥)

والروح القدس لم يطق قعوداً في السماء بل أخذ جناحي حمامة وطار وحط عليك، فرآه

المعمدان لما استقر عليك، فعرفك ونادى وشهد هذا هو ابن الله. بل وإن روح البُوءة التي فيك استعلنت مجد بُنوتك للعيون المفتوحة، فرأوا فيك مجد الابن الوحيد وشهدوا له، ومن ملء لاهوتك أخذ تلاميذك وامتلاؤا نعمةً وحقاً.

سَجَلت بأعمالك شهادة لاهوتك، وأعلنت بالكلمة سِرَّ بُنوتك الفريدة لأبيك، ففيك استعلن الآب حالما استعلنت البُوءة، وكلاهما كان الصفة الجوهرية التي كانت محتجبة، والقائمة في ذات الله: البُوءة مع الأُبوءة، وهكذا استكملت استعلان الأُبوءة التي لك خاصة، في الله أبيك والتي نقلت عطفها إلينا وحبها فينا كما هو فيك.

الله لم يره أحد قط، هكذا قلت، ولهذا جئت لتخبرنا أنت وحدك بالخبر اليقين وبما رأيت وعايَنت وسمعت، فعليك أنت الكلمة وُضع كل حِمل استعلان الله منذ البدء.

أنت الابن المحبوب الذي استودعك الله أبوك ملء سِرِّ حبه الأبوي، لهذا لم يستأمن أن يرسل سواك إلينا في ختام عهد تأديبنا، لتبَلِّغنا حُبَّكَ كعريس، وتنقل لنا حب أبيك كما هو فيك، وتنقلنا إلى حال العروس في بيت أبيك، وتمنحنا رتبة البنين لله كامتياز — في قوة ونعمة بُنوتك الذاتية لأبيك — بعد أن فديتنا بحياتك ودم صليبك، لنتِث معك وفيك ميراث البنين، بعد أن كنا عبيداً وكان مقامنا خارج السياجات.

أيها الكلمة الأزلي ذا القوة والجلال، يا مسيح الصليب والقبر والقيامة، يا ابن الله المحبوب لأبيه، الجالس عن يمين العظمة في الأعالي، والمكَلَّل بالمجد والكرامة، ما الخليفة كلها في السماء وعلى الأرض بكل أفرادها ومكوّناتها، والإنسان على رأسها، إلا انعكاسُ فعائٍ لحب الآب لك ولحبك لأبيك القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، هذا الحب الماسك بأطراف العالم الذي لولاه لانقرط عِقْدُه، بل إن العالم كله والإنسان على رأسه إن هو إلا استعلان في صميم الزمان لسِرِّ الحب الذي كان عند الله في الأزل من نحو العالم والإنسان، الذي كان يكمن فيه سِرُّ خلاص الإنسان، وباستعلان حب الله في الإنسان واستعلان الأُبوءة والبُوءة للإنسان صار الإنسان هو الصورة المجسّدة الضئيلة التي تحكي عن سر اكتفاء الله في ذاته.

أنت «مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ، وَمَعَكَ لَا أُرِيدُ شَيْئاً عَلَى الْأَرْضِ.» (مز ٧٣: ٢٥)

لك نقدم الشكر مع التسبيح والسجود والمجد الدائم لك مع أبيك الصالح والروح القدس الله الواحد أبينا وسيّد كل أحد.

«والكلمة صار جسداً» = καὶ ὁ λόγος σὰρξ ἐγένετο (Gr.)

Verbum caro factum est (Vulg.)

«صار» هنا ἐγένετο لا تفيد التغيير كما لا تفيد أن الكلمة توقّف عن أن يكون الكلمة. لأن «الكلمة» بدء كلّ ذي بدء، له جوهر الله وطبيعته، لذلك فهو غير قابل للتغيير وغير قابل للتحويل. ولكن القول «صار» يفيد اتخاذه درجة في الاستعلان تتناسب مع ضعف إدراكنا، لأن عجز الأنبياء في توصيل «الكلمة» للناس وفشل الناس في إدراك «الكلمة» جعلنا الكلمة يأخذ حالة أكثر اقتراباً لإدراكنا، حتى يتم فيها استعلاناً أكثر لله.

كذلك نجد أن قوله: «صار» هنا تتصل بمفهوم عميق مع «صار» التي جاءت في الآية ١: ٢: «كل شيء به صار»، إذ نلمح أن ق. يوحنا يكاد يقول أن الكلمة هو أصل ومركز الخليقة القديمة والخليقة الجديدة، فالأولى «به صارت» والثانية «فيه صارت» و«صار هو رأساً لها»، وكأن ق. يوحنا يود أن يقول أنه صار إلى الذي به صار. ومن هنا جاء القول «بِكُر كل خليقة» (كو: ١٥)، لأنه هو أيضاً أول قيامة الأموات!!

كذلك فإن «الجسد» الذي صار إليه وفيه لا يعبر عن جزء من الإنسان، ولكنه تعبير لاهوتي عن طبيعة الإنسان ككل، جسداً ونفساً وروحاً.

وكلمة «الجسد» هي تعبير سائد في العهد القديم يعبر عن البشرية ككل، ونسمع ذلك في قول يوشع النبي (في الترجمة السبعينية): «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل جسد...» ἐπὶ πᾶσαν σάρκα، التي جاءت في الترجمة العربية «على كل بشر» (يوشع ٢: ٢٨)

والمعنى أن «الكلمة» الذي «كان في البدء، وكان عند الله، وكان الله»، صار إنساناً كاملاً له كل ما للطبيعة البشرية من صفات — ما عدا الخطية وحدها — وهو هو الكلمة، كما كان قبل التجسد هكذا بقي كما هو بعد التجسد.

وق. يوحنا — عن حكمة روحية وبصيرة لاهوتية — اختار كلمة «صار»، ولم يقل «أخذ جسداً»، كما يخطئ بعض اللاهوتيين، فهو لم «يأخذ» وإلا كان من المحتمل أن «يترك»؛ كذلك لم يقل «حلّ في الجسد» مجرد حلول وإلا احتمل الإخلاء والترك؛ بل قال «صار» بحيث يستحيل أن يتراجع فيما صار إليه لأن الصيرورة هنا شملت كيانه كله!

وحينما قال صار «جسداً»، فهو بحكمة اختار كلمة «جسد»، فهو لا يقصد أنه صار إنساناً

ما مجرد واحد من الناس. ولكنه يقصد أنه صار «بشراً» له «ملء الطبيعة البشرية كلها». لذلك نسمع المسيح يعطي نفسه اسم «ابن الإنسان» ليعبر عن البشرية كلها القائمة فيه. وفعلاً قد عبّر بحياته على الأرض تعبيراً كاملاً عن الطبيعة البشرية بكل ضعفها وأعوارها دون خطأ أو خطية، دون أن يتنازل لحظة واحدة ولا طرفة عين عن كونه «الكلمة» الله أو «الله الكلمة». وبهذا استطاع أن يرفع الطبيعة البشرية التي صار فيها إلى منتهى الكمال: «لأجلهم أقّس أنا ذاتي» (يو ١٧: ١٩). لأن القصد من التجسد هو إعلان أن «يسوع» هو المسيح «الكلمة» الأزلي: «كلّ روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله» (١ يو ٤: ٢)، حيث كلمة «جاء في الجسد» تضيف إلى مفهوم «صار جسداً» الأولى مفهوم الديمومة في التجسد الكامل دون أي تغيير. لأن «صار جسداً» وحدها تفيد الحقيقة أنه صار بطبيعة الإنسان كاملة، أما قوله: «جاء في الجسد» فتفيد التواجد في هذه الحقيقة، والإستمرار فيها.

أما تأكيد التجسد أو أن الجسد الذي صار به هو جسد بشري داخل في مسلسل البشرية، فهذا يقرره بولس الرسول في رسالته إلى رومية: «بولس عبد ليسوع المسيح... الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد.» (رو ١: ٣-١)

واختصار هذه الآية هو كالآتي: «يسوع، المسيا، ابن الله، تجسّد!!» ثم إن التأكيد على أن البشرية التي صار بها هي بشرية حقيقية متألّمة وقابلة للموت، فهذا يصفه أيضاً بولس الرسول: «فالله، إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد.» (رو ٨: ٣)

أما قوله: «شبه جسد الخطية» فهو ليفرقه من «جسد الخطية»، فجسد المسيح يحمل كل مكونات جسد الخطية ما عدا الخطية، لأن بشرية المسيح وُجدت — لحظة ما وُجدت — متحدة بلاهوته!! فلم يكن ممكناً أن تدهم — الجسد — عناصر الخطية، بل ولأن جسد المسيح كان خالياً خلوّاً تاماً من عنصر الخطية، استطاع بلاهوته أن يدين — أي يحكم ويعاقب ويفرز الخطية بالجسد عندما حمل عقوبتها عليه وهو بريء منها. فالصليب والموت كانا أقصى فضيحة للخطية وأعظم تنويع لجسد الإنسان بالنصرة عليها: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس.» (عب ٢: ١٤)

ولكن السؤال الكبير المحيّر: كيف أمكن «لكلمة الله» أو «الله الكلمة» وهو في ملء لاهوته

ومجده أن «يصير جسداً»، ويوجد في الهيئة كإنسان؟ بمعنى أن مجد اللاهوت حينما يحلّ حلولاً ذاتياً ودائماً في جسد إنسان — علماً بأنه كان أكثر من حلول إذ هو اتحاد وضرورة — فإنه يمنع الجسد من أن يظهر بصورته الطبيعية، فبهاء مجد الله يصعق العين الترابية، وهوذا المثل أمامنا عملياً وواضحاً، فالمسيح نفسه لما استعلن لبولس الرسول بعد القيامة وهو في مجده لم يحتمله لا بولس ولا الذين معه: «رأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أشرق حولي وحول الذاهبين معي. فلما سقطنا جميعاً على الأرض سمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية شاول شاول لماذا تضطهذي... فقلت أنا "من أنت يا سيد" فقال "أنا يسوع الذي أنت تضطهده..."» (أع ٢٦: ١٣-١٥)

ولكن الذي نعرفه تماماً أن يسوع المسيح حينما كان يعيش على الأرض، لم يكن له هذا النور الذي هو أشد لمعاناً من نور الشمس وقت الظهيرة!

هنا يقول بولس الرسول أنه لكي يحلّ ملء اللاهوت في الجسد ويتحد به، لزمه أولاً أن يتخلى عن مجده الإلهي المنظور: «الذي كان في صورة الله لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه ἀλλὰ ἐαυτὸν ἐκένωσεν آخذاً صورة (هيئة) μορφῇν عبد صائراً في شبه الناس» (في ٢: ٦ و ٧). وهذا هو الذي عبّر عنه اللاهوتيون باسم «الإخلاء» (الكينوسيس) = κένωσις باعتباره عملاً يتبع قدرة الله على كل شيء التي بها يقدر أن يخلي ذاته — في الظاهر — عن مجده.

ولكن هذا الإخلاء لم يُنقص من كل خصائص اللاهوت التي حلّت بها الكلمة في «الجسد» واتحد به، إذ يقول بولس الرسول: «فإنه فيه حلّ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه!!» (كو ٢: ٩)

من هذا نستطيع أن ندرك مدى عمق وضخامة المعنى في قول ق. يوحنا، وبمتهى الاختصار: «والكلمة صار جسداً»، فهنا قد بلغ استعلان الكلمة أوج قوته وعمقه وفعله لأن «جسد الكلمة» هذا، الذي هو جسد يسوع المسيح، أصبح أعلى قوة إلهية حصل عليها الإنسان ليدرك الله بها وفيها ويقترّب إليه.

فجسد الكلمة — أي جسد يسوع المسيح — صار هو الطريق المفتوح أمام الإنسان إلى الأقداس العليا في السماء: «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده...» (عب ١٠: ١٩ و ٢٠). لأننا سبق أن قلنا أن يسوع المسيح

«دان الخطية بالجسد»، فبالصليب أي بموت الجسد عن الخطية صار «الجسد» معبراً سرياً إلى الأبعاد العليا.

ثم إن هذا «الجسد» — جسد الكلمة يسوع المسيح ابن الله — الذي قدّمه الله نفسه ذبيحة خطية على مذبح خطية العالم كـ «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» [فاشتمّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة] (٢٥)، فأصبح لحمه يؤكل بالسِرِّ، أي بالروح للتقديس. وهذا نسمعه من فم الرب قديماً متمماً بالفعل كنبة ونموذج لذبيحة المسيح على الصليب يوم الفصح :
— «تكون لكم شاة (حلاً) صحيحة ذكر ابن سنة... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر (نيسان)، ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية، ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير، على أعشاب مرة يأكلونه... هو فصح للرب.» (خر ١٢ : ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١١)

هذا هو المسيح فصحنا، فقد قبضوا عليه وتحفظوا عليه حتى اليوم الرابع عشر — بحسب إنجيل يوحنا — واشترك كل جمهور جماعة شعب إسرائيل في ذبحه على الصليب «حسب الطقس»، وأهرقوا دمه على الصليب وعلى الأرض، على خلفية من نار الآلام ومرارة التعذيب، فكان هو «الفصح الحقيقي» الذي تم على اسمه أول فصح في مصر: «وتكون جثتاها على شارع المدينة العظيمة التي تدعى روحياً سدوم، ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً» (رؤ ١١ : ٨). هذا هو فصحنا الحقيقي المذبح لنا : «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد دُبح لأجلنا.» (١ كو ٥ : ٧)

وكما أن الذين أكلوا الفصح الأول عبر عليهم الهلاك ولم يقتحمهم حسب وعد الله لكل من أطاع وأكل لحم الفصح واختبأ وراء الدم، والذين لم يأكلوا ولم يتحصنوا بالدم أهلكهم المهلك؛ هكذا صار الأكل والشرب من فصحنا الجديد حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

الفصح القديم كان بالرمز لنموذج جسدي، أما فصحنا الجديد فبالحق على مستوى الروح :
«جسدي مأكّل حقّ ودمي مشرب حقّ... فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو ٦ : ٥٥ و ٥٧)

والإنذار الأول بالهلاك لمن لم يشترك في الفصح بقي هو كما هو :

— «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير.» (يو ٦ : ٥٤)

— «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو ٦ : ٥٣)

(٢٥) لمن يقال في أسبوع الآلام، وعلى مدار السنة، في ثينوتوكية الأحاد، وفي صلاة يقولها الكاهن سرّاً أثناء دورة البخور.

ثم هذا هو بعينه «الجسد» الذي «صار للكلمة» .
وهو الجسد الذي بذله عن حياة العالم على الصليب .

وهو الجسد الذي هو بالحقيقة «خبز السماء» ، «حبة الخنطة» التي سقطت من السماء على أرض الشقاء فماتت ، ثم قامت واستقامت ، وأتت بغلة وفيرة ملأت أهراء الحياة .

وهكذا يكون بـ «الكلمة صار جسداً» قد صار تأسيس طريق الخلاص للدخول إلى الأقداس العليا ، وتأسيس سر الاتحاد الجديد — بالإفخارستيا . فجسد الكلمة ، أي «يسوع» المسيح ابن الله ، صار خبز الحياة الذي يأكل منه الإنسان ولا يموت . فهنا اتحاد ذو شقين :

الأول : اتحاد على مستوى الطبيعة الإلهية : «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى... للذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي نصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١ : ٣ و ٤) ؛ «لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله .» (أف ٣ : ١٩)

والثاني على مستوى الذات ، أي شخصي : «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣ : ١٧) ؛ «مع المسيح صُلِبْتُ فأحيا ، لا أنا ، بل المسيح يحيا فيّ . فما أحياء الآن في الجسد ، فإنما أحياء في الإيمان ، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢ : ٢٠) ؛ «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً .» (يو ١٤ : ٢٣)

فكل هذه النعم والمواعيد العظمى والثمينة ، وهذا الخلاص العجيب ، وهذا الحب الإلهي الذي جعل هياكل أجسادنا وأرواحنا منزلاً مريحاً لسكنى الآب والمسيح والروح القدس لتغيير طبيعتنا وتقديسها ، وهذه الشركة والزمانة والمؤازرة في الحياة الحاضرة مع شخص الكلمة يسوع المسيح ابن الله ؛ كل هذا تم لما انتهى «الكلمة» إلى قراره الأخير : «أن يصير جسداً» .

والآن يلزمنا أن نعود لنصدق في المعاني اللاهوتية التي يتضمنها «التجسد» حتى نتجنب الإنزلاقات التي وقع فيها أئمة الهرطقة الذين خرجوا عن حدود الإيمان الصحيح بالتجسد :

١ — البشرية التي «صار» إليها وبها الكلمة — أي التجسد — هي بشرية كاملة وصحيحة للإنسان الكامل . وهذا ما وقع فيه أبوليناريوس الذي قال بأن البشرية التي أخذها المسيح لنفسه لم تكن كاملة . فهو أخذ جسداً ولكن هذا الجسد لم يكن جسماً كاملاً كما لإنسان عادي .

٢ — البشرية التي صار بها المسيح كانت بشرية حقيقية ودائمة . وهذا ما وقع فيه جماعة الغنوسيين (المعارفين) الذين قالوا أن الكلمة أخذ جسداً حسب الظاهر فقط ولمدة قصيرة وبقي غريباً عن نفسه . فالكلمة عندهم صار جسداً ولكنه لم يلبس هذا الجسد . كما ضلّ الدوسيتيون

الذين قالوا إن الجسد كان خيالاً أو شبهاً فقط. ولم يكن حقيقياً.

٣ - إن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اتحدتا بالتجسد اتحاداً كلياً وكاملاً وصارتا واحداً. ولكن هذا الاتحاد لم يغيّر شيئاً من كلتا الطبيعتين، كلٌّ في مجاله، فهو «إله متأنس» وليس إلهاً وإنساناً وكأنه ازدواج للشخصية. فلم يأت عملاً إلهياً دون أن يكون الجسد شريكاً فيه، ولم يعمل عملاً جسدياً دون أن يكون اللاهوت شريكاً فيه. فلما أقام لعازر من الموت، أقامه بقوة لاهوته وبصوت فمه معاً.

ولما مات، مات بالجسد، واللاهوت فيه لم يفارقه حياً وميتاً، لذلك لم يفسد الجسد ولذلك قام!! ولذلك أيضاً كان موته نصرة للجسد والروح معاً وكان فداءً وخلصاً! فإذا لم يكن اللاهوت ملازماً وشريكاً في الآلام والموت لاستحالت الآلام أن تكون آلاماً خلاصية والموت موتاً فداءً. فالله فدانا بالجسد، والدم كان دمماً إلهياً. «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزي قدّم نفسه لله.» (عب ٩: ١٤)

ولما قال: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، قالها على أساس لاهوت القيامة الكائن في الجسد المتحد به؛ فلما قام، قام بقوة لاهوته وبالجسد. ولما بكى، كان ذلك أعظم تعبير عن شركة اللاهوت (الله) في أحزان الإنسان موضحاً بالجسد: «في كل ضيقهم تضايق...» (إش ٦٣: ٩)

وهكذا لم يأت المسيح عملاً إلاً واللاهوت له فيه كما للناسوت. لأن بعد الاتحاد لا يمكن أن تعمل أي طبيعة منهما بانفراد عن الأخرى، لأن شخص المسيح، أي أقنومه، واحد هو الذي جمع الطبيعتين ووحدتهما في واحدة ذاتية، فيستحيل عليه أن يكون له مشيئتان ولا إرادتان ولا قولان ولا نظرتان قبالة موضوع واحد. فجاءت أعماله كلها تنطق بوحدة بشرية كاملة ناضجة نفساً وجسداً وروحاً، مع لاهوت كامل فعال على مستوى الله قوة وسلطاناً ومجداً.

وهذا كله واضح لا يحتاج إلى مجادلة في قول ق. يوحنا «والكلمة صار جسداً». و«صار» هنا تنص وتؤكد على عملية توحيد سرّي فائق للغاية أتاها الكلمة مع الجسد في ذاته ليعيش فيه إلى الأبد ويعمل به كل أعمال الخلاص، بل ويمجد به الله والآب، بل ويعيش به في مجده الذي كان له قبل إنشاء العالم، فكلمة «صار» أصبحت هي مركز الوحي اللاهوتي الصحيح. لأنه وإن كانت كلمة «صار» في قوله «والكلمة صار جسداً» تحمل في طياتها عمليات إلهية سرية خطيرة في معزل عن قدرة فكر الإنسان، وهيئات للإنسان أن يبلغ مداها؛ إلا أن شيئاً واحداً يتحتم علينا

أن لا نفوته، وهو أنه إذا لم يكن قد صالح الله «الكلمة بالجسد» لما «صار الكلمة جسداً»، لما أمكن أن يصلح الكلمة المتجسد الله بالإنسان! أو كيف يصلح الآب الكلي القداسة بالإنسان الذي بلغ الحضيض في الخطية والنجاسة؟

وإن كان المسيح الكلمة المتجسد قد وقف يتشفع ويخامي ويطلب لدى الله الآب عن الإنسان الخاطيء، مُطالباً الله أن يجعله واحداً في الآب والابن: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو ١٧: ٢١)، لأن رسالة المسيح «الكلمة المتجسد» تتركز وتتخلص في هذا المطلب الواحد الأخير أن الإنسان يصير واحداً مع الآب والابن؛ فكيف يُتصور أن يكون الكلمة قد أخفق في أن يوحد اللاهوت بالناسوت إلى واحد في نفسه؟

وعندما قال المسيح: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣)، فهل لم يكن يحسب حساب الناسوت الذي له؟ وكيف يُعقل أن نصير نحن واحداً في المسيح، وواحداً في الآب مع المسيح، ونبلع إلى «الشركة في الطبيعة الإلهية»، إذا تصورنا أن المسيح نفسه قد أخفق أن يُصير اللاهوت والناسوت واحداً فيه؟!

إذن، فإيمان الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هو إيمان إنجيلي بالدرجة الأولى، ولاهوتها هو من عمق أعماق لاهوت إنجيل يوحنا؛ عندما تقول أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية صارتا واحداً بالاتحاد في أقنوم الكلمة المتجسد وليس اثنين بعد الاتحاد، وأن المسيح كانت له بالتالي حتماً وبالضرورة مشيئة واحدة وإرادة واحدة.

هذا الأمر اختلط على أوطاخي إذ اعتبر أن اتحاد الطبيعتين أنشأ طبيعة ثالثة، واحدة، كانت فيها الطبيعة البشرية منسحبة وكأن لا وجود لها. فسمّاه اللاهوتيون Monophysite وألصقوا هذا الإصطلاح بالكنيسة القبطية، وهي من الأوطاخية ومن هذا الافتراء براء!!

فعندنا «الكلمة صار جسداً» تعني أن كلاً من الكلمة والجسد صارا واحداً، يعملان معاً بانسجام فائق، نتيجة اتحاد كامل، إذ وُحد بينهما المسيح في ذاته ليعملا عملاً واحداً بمشيئة واحدة وإرادة واحدة ورأي واحد هي مشيئته وإرادته الذاتية الواحدة التي يستمدّها من الآب. وفي وحدة الطبيعة والذات التي عاش بها المسيح ويعيش بها حتى الآن وإلى الأبد مع الله، سيظهر بها كما كان يعيش فيها على الأرض: «ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.»

٤ - إن بشرية المسيح كانت عامة وليست بشرية فردية. فهو كان، ونادى بأنه «ابن الإنسان» أكثر مما عُرف أنه من الناصرة أو الجليل أو ابن داود. كما كانت بشريته كاملة تسمو فوق اعتبارات الجنس ذكراً أو أنثى. وهذا واضح ومُضمّن في قول ق. يوحنا «صار جسداً» ولم يقل صار إنساناً - وهذه لفظة بديعة - حتى يشمل كل ما للإنسان دون أن يستثني شيئاً منه.

٥ - قولنا أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اجتمعتا واتحدتا إلى واحد في شخص «الكلمة»، أي يسوع المسيح، ثم قولنا أن المسيح وُحدهما إلى واحد في ذاته، وبناءً على ذلك كانت له مشيئة واحدة وإرادة واحدة، هذا يقطع خط الرجعة على كل أشكال «النيسطورية» التي قالت أنه كان له شخصية إلهية بجوار شخصية بشرية كل منهما تعمل عملها الخاص بها. وذلك نشأ بضرورة الحال لما اعتبروا أن الطبيعتين اللاهوتية والبشرية لم تأتيا فيه إلى اتحاد ووحدة!! فعندهم كل طبيعة برزت بشخصية تحمل خواصها. وهذا تقسيم شنيع في شخص المسيح الواحد. علماً بأن «الكلمة الذي كان في البدء، وكان عند الله، وكان الله، والكلمة صار جسداً»؛ نقول أن شخص الكلمة أو أقنومه لما صار جسداً لم يأخذ شخصية جديدة عما كان له، ولم يغيّر شخصيته الإلهية، بل نسمع المسيح - أي الكلمة المتجسد - يقول بقوة وجلال «أنا هو»: «أنا هو الحق والحياة والنور»!!! «وقبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، و«إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو: ٨: ٢٤)، «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو: ٣: ١٣)

٦ - إن الطبيعة البشرية التي صار فيها الكلمة تأثرت تأثيراً مباشراً باللاهوت، فبعد أن كانت تحت لعنة الموت رفع عنها الكلمة هذه اللعنة بلاهوته لحظة صار فيها، وفي هذا يقول القديس كيرلس الكبير: [لأنه كان من الضروري عندما صار الجسد جسداً له أن يشترك في عدم الموت الذي له - أي الذي للكلمة.] (٢٦)

٧ - كذلك فالطبيعة البشرية التي صارت للكلمة وصار الكلمة لها لما أخذت قوة عدم الموت أخذت فيها قوة القيامة من الأموات. لذلك قام الجسد من الموت دون أن يُمسك فيه.

وهكذا فإن قول ق. يوحنا «والكلمة صار جسداً» فتح أمام اللاهوتين كل كنوز اللاهوت التي كانت محبأة لحساب «الجسد» الكلي أي البشرية عامة. لأن التجسد كان في حقيقته تنازلاً

²⁶ Cyril of Alexandria, *op. cit.*, p. 109.

إلهياً سخيّاً إلينا، حاملاً على ذراعيه كل ما يمكن أن يعطيه الله للإنسان مما كان هو محتاجاً إليه أو مما كانت محسوبة له أصلاً في الخليقة الأولى وفقدتها بالخطية وبالبعد عنه.

هذه العطايا الإلهية السخية، حمّل الله أصولها ونمذجها الكامل لجسده أي بشريته، التي صيّر لها وصيّر نفسه لها كعيّنة لما هو مزعم أن يصنعه في جسد البشرية. ولو أدركنا هذه الحقيقة لأدركنا سر لاهوت بولس الرسول كله، بل وسر إنجيل يوحنا وبقية الأناجيل وكل أقوال المسيح:

أ — فبولس الرسول فهم «الكلمة صار جسداً» بأن ملء اللاهوت حلّ في جسد الكلمة «فإنه فيه يحلّ كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو ٢: ٩). فيتمسك بذلك بولس الرسول بالحرف الواحد، كما أصبح حقاً لنا أن نعتلىء منه أو فيه: «لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩)، «وأنتم مملوؤون فيه» (كو ٢: ١٠). أو حسب تعبير ق. يوحنا «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة.» (يو ١: ١٦)

ب — ولأن لعنة الموت رُفعت عن «جسد الكلمة» وحل محلها قوة القيامة وملء الحياة الأبدية نتيجة الاتحاد الإلهي، كذلك أصبح لنا هذا الحق عينه:

«مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فسيحياً، وكل مَنْ كَانَ حَيّاً وَآمَنَ بِي فَلَن يَمُوتَ إِلَى الأَبَد.» (يو ١١: ٢٥ و ٢٦)

«مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَةٌ وَلَا يَأْتِي إِلَى دِينُونَةٍ بَلْ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاة.» (يو ٥: ٢٤)

«مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِر.» (يو ٦: ٥٤)

وهنا قوة ومركز الإفخارستيا المنقطع النظير، المترتب أصلاً على أن «الكلمة صار جسداً»، إذ أن «الجسد» بمفهوم «اللحم» و«الدم» في الكلمة أي «جسد الكلمة» صار فيه وصار له كل ما للكلمة من قوة إلهية مذكّرة فيه وعاملة به للشفاء من الموت، لذلك سمّاه الآباء «ترياق» (دواء) عدم الموت؛ بل ولا إعطاء الحياة الأبدية، بل ولأخذ قوة القيامة ونور الخلود، لأنه «جسد الكلمة» أو إن جاز القول «جسد الله» أو «جسد الحياة الأبدية» أو «جسد النور»!! فانظر أيها القارئ وتعمّن كيف يأكل ويشرب الإنسان بالسرّ «جسداً» مُدْخِراً فيه كل كنوز الله هذه مجاناً.

ب — « وحلّ بيننا » :

كلمة « حلّ » تأتي في اليونانية ἐσκήνωσεν . وأصل الكلمة مأخوذ من كلمة الخيمة σκηνή . وهكذا فهي تشير إلى السكنى أو الحلول كما يضرب الإنسان خيمة على الأرض .

ثم تأتي كلمة « بيننا » ἐν ἡμῖν لتزيد معنى الإقامة في خيمة وسط شعبه ، إشارة إلى الحياة التي سيحياها على الأرض . فهي لا تعني السكنى فقط بل الإقامة والمعيشة . والحياة في الجسد كما في خيمة هو تراث فكري يهودي نسمع عنه من بطرس الرسول « عالمًا أن خلع مسكني (الأصح خيمتي σκηνώματός μου) قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً . » (يو ١٨ : ٢١ و ١٩ ، ٢ بط ١ : ١٤) . وكذلك عند بولس الرسول « لأننا نعلم أنه إن نُقِضَ بيت خيمتنا σκηνούς الأرضي (الجسد) قلنا في السموات بناءً من الله بيتٌ غيرُ مصنوع بيدٍ أبدئي . » (٢ كو ٥ : ١)

ولكن قصد ق . يوحنا الأساسي من ذكر هذا التعبير — أي الحلول في الخيمة — هو رفع أبصارنا إلى ما صنع « يهو » الرب قديماً عندما حلّ في خيمة الاجتماع وسط شعب إسرائيل .

— « ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملاً بهاء الرب المسكن σκηνή » ، فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع . » (خر ٤٠ : ٣٤ و ٣٥)

— « لأنني لم أسكن في بيت منذ يومٍ أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن ἐν σκηνῇ . » (٢ صم ٧ : ٦)

وبهذا يكون ق . يوحنا قد ربط بين حلول يهو قديماً في خيمة الاجتماع وسط الشعب حيث ملأ بهاءه المسكن ، وبين حلول الكلمة في خيمة جسده الذي لم يستطع أن يخفي بها مجده عن أصحاب العيون المفتوحة « ورأينا مجده » ، بالرغم من الإخلاء الظاهري الذي أجراه في ذاته ومن اتضاع هيئة جسده .

والعجيب أن الروح لا يتركنا بلا توضيح ، فالنبوات لم تترك حتى هذا الحلول والسكنى في آخر الأيام دون إشارة ، فنسمع عنه من زكريا النبي « ترغبي وافرحي يا بنت صهيون لأنني هأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب . » (زك ٢ : ١٠)
هذا من جهة الحلول « في وسطنا » .

كما يعطينا حزقيال النبي صورة أخرى للحلول « من فوق » : « ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم إلهًا ويكونون لي شعباً . » (حز ٣٧ : ٢٧)

ولا نستغرب قوله : « مسكني "فوقهم" » ، فهذا في الواقع كان موضع سُكنى يهوه الرب العظيم داخل خيمة الاجتماع فوق «الغطاء» على التابوت . وغطاء التابوت هذا له شأن عظيم جداً سواء في اللاهوت العبري القديم — وكان اسمه عندهم «الشاكيناه» ، وهو «السكن» أي «موضع السكنى» ، وطبعاً دون ذكر اسم «الله» احتراماً وتوقيراً — أو في اللاهوت الطقسي في الكنيسة القبطية (الإيلاستيريون) (٢٧) . «وصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف ، وصنع كرويين (الشاروبيم) من ذهب... وكان الكرويان باسطين أجنحتهما إلى فوق مُظللين بأجنحتهما فوق الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الآخر» (خر ٣٧ : ٦-٩) . وقد حدّد الله مكان تواجده على هذا الغطاء هكذا :

— «وقال الرب لموسى كلّم هارون أخاك أن لا يدخل كل وقت إلى القدس داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت لتلايموت ، لأنني في السحاب أترأى على الغطاء .» (لا ١٦ : ٢)

— «وأنا أجمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء» من بين الكرويين ، اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل .» (خر ٢٥ : ٢٢ — الترجمة البيروتية)

— أما الترجمة السبعينية : «وسأعلن لك نفسي γνωσθήσομαί σοι من هناك وأتكلم معك من فوق الغطاء = ἱλαστηρίου من بين الكرويين اللذين فوق تابوت الشهادة بكل الأشياء التي أكلفك بها بخصوص بني إسرائيل» .

وفي العبري تُترجم «الإيلاستيريون» بـ «الكابورة» kappôreth ، ويترجمها بعض العلماء بكرسي الرحمة ، إشارة إلى مركز المسيح الشفاعي ؛ ولكن معظم العلماء المدققين يربطون معناها بالكفارة وليس بالشفاعة ، لأن المعنى الجذري في العبرية يقوم على الذبيحة ، فهو معنى ذبائحي ينسجم مع الكفارة وليس الشفاعة . لأن رئيس الكهنة يدخل مرة واحدة في السنة في يوم الكفارة إلى قدس الأقداس لينضح من ذبيحة الخطية على الكبورة أي غطاء التابوت أي الإيلاستيريون . وبولس الرسول يقطع بأن المسيح قد صار هو الإيلاستيريون وقد تحضّب بدم نفسه فصار الكبورة الإلهية والكفارة الدائمة (رو ٣ : ٢٥) .

من هذا يتضح أن عبادة يهوه قديماً ارتبطت بخيمة الاجتماع وحلوله فيها وكان مركز خيمة الاجتماع الأقدس هو التابوت ، وأقدس ما في التابوت هو غطاؤه حيث يسكن يهوه بصفة دائمة ،

(٢٧) على القارىء الرجوع إلى تسابيح شهر كيهك حيث يتكرر ذكر «الإيلاستيريون» مئات المرات باهتمام كبير للغاية . وهو نفس الاهتمام والمركز الذي كان يحتله الشاكيناه لدى العبرانيين .

كما يفهم من الآيات السابقة.

وفي اللاهوت العبري، يُعتبر الغطاء هذا أو الشاكيناه هو موضع «سكن» يهوه المقدس الدائم سواء في ترحاله قديماً أو إقامته الدائمة في الهيكل. وقد قدّس العبرانيون اسم الشاكيناه «(السكن)» وجعلوه عوض اسم الله أو «الحضرة الإلهية»، فجاءت الترجمة العبرية للآية: «ويجعلون لي مقدساً (هيكلًا) لأسكن في وسطهم» (خر ٢٥: ٨) في الترجوم هكذا: «وسأجعل الشاكيناه تسكن في وسطهم»^(٢٨). لذلك فإن قول ق. يوحنا «وسكن بيننا» كان يهدف بقوة إلى لفت أنظارنا إلى الحضرة الإلهية أو موضع سكناه في القديم.

وقد التقط آباء الكنيسة القبطية الأوائل هذا الوضع الفائق والممتاز لغطاء التابوت = الشاكيناه (السكن)، وجعلوه تعبيراً عن التجسد، وجعلوا العذراء القديسة مريم هي الغطاء الذهب الذي حلّ عليه الله، أو سكنت فيه الحضرة الإلهية.

غير أن بولس الرسول استخدم لفظة «الغطاء» *ἱλαστήριον* بمعنى الكفارة في الآية: «الذي قدّمه الله كفارة *ἱλαστήριον* بالإيمان بدمه» (رو ٣: ٢٥)، وهي الكلمة العبرية الأصل «كُبُورَة» المسماة أيضاً «كرسي الرحمة».

من هنا جاءت النبوة «ويكون مسكني "فوقهم" وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً» (حز ٣٧: ٢٧). فإنجيل لوقا يسجل لنا كيفية مدخل الكلمة إلى الجسد الذي حلّ فيه هكذا «الروح القدس "يحلّ عليك" وقوة العليّ "تظللُك"، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥). فهنا واضح أنه بدأ سكناه هكذا «يحلّ عليك»، وبدأ مجد الله وقوته تحيّم «فوق» جسد البشرية الممثل في العذراء القديسة الثيوتوكس.

ويحلّو لنا أن نكمّل بأن ترحال يهوه قديماً «ساكناً» وسط شعبه، من خيمة إلى خيمة ومن موضع إلى موضع مع الشعب التائه أربعين سنة، وفي العبور الإعجازي للأردن، حيث التابوت كان يتقدم المسيرة، ثم الإقامة الساخطة في وسط شعب متمرّد غليظ الرقبة الذي أعطوه القفا دون الوجه جزاء ترحاله المضني معهم هذه السنين كلها، أخيراً وأخيراً جداً استقر في «جسد الإنسان: الشاكيناه الحقيقي والحضرة الحقيقية لله»، التي وثّق أعمدتها في السماء وعلى الأرض: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣)

²⁸ Raymond E. Brown, *op. cit.*, vol. I, p. 33.

لنعيش فينا ومعنا دائماً وإلى الأبد «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨ : ٢٠)

ج - «ورأينا مجده» (٢٩):

واضح أن «حلّ بيننا» بمفهومها المنطبق على سكنى الحضرة الإلهية في الجسد على مستوى خيمة الاجتماع لا بد أن يرافقها استعلان المجد. وهنا يقدم ق. يوحنا شهادته كواحد من الذين رأوا هذا المجد.

وكلمة «رأينا» εθεασάμεθα باللغة اليونانية تتبع مجموعة الرؤية غير العضوية التي ليست بالعين بل بالإيمان للاستعلان. فكلمة «يرى» باليونانية عند ق. يوحنا وردت على ستة تركيبات تختلف في اللفظ بعضها عن بعض، بينما هي تأتي في الترجمة العربية بتركيب واحد: «يرى»، أما في اليونانية فهي:

ὁρᾶν, ἰδεῖν, ὁψεσθαι, βλέπειν, θεᾶσθαι & θεωρεῖν

وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات كلٌ منها له موضع خاص للتعبير عن نوع من الرؤيا الخاصة. ولفظة εθεασάμεθα هنا تتبع الرؤيا الخاصة بالاستعلان، سواء بخصوص حادثة أو لشخص المسيح نفسه الذي يستعلن ذاته من خلال كلماته وأعماله. وهذا النوع من الرؤيا لا يتبع الرؤيا الروحية التي للروحانيين، التي يروا بها ما لا يُرى، ولكنها هنا رؤية الإيمان البسيط الذي يستعلن الحق بمقدار ما يعلن الحق ذاته. وهذا كان سلوك المسيح العجيب، الذي كان يعمل ويتكلم مُعلنًا الحق الذي فيه، الذي كلٌّ مَنْ كان عنده حاسة الإيمان كان يقبله ويؤمن، لأنه كان يرى الحق الذي فيه. وهذا النوع من الإيمان أو رؤية الإيمان لا يحتاج في الحقيقة للرؤية العينية وهو الذي نص عليه المسيح بقوله لتوما: «لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوْا» (يو ٢٠: ٢٩). هذه الطوبى المذخرة في رؤية الإيمان بلا عيان هي التي بقيت لنا حتى اليوم كما يقول بطرس الرسول: «الذي وإن لم تروه تحبونه، ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (١ بط ١: ٨)

هنا يتحتم علينا، أيها القارئ العزيز، أن نوضح قيمة رؤية الإيمان غير العيني εθεασάμεθα، إذ أنه أصلاً قام على رؤية علنية منظورة ومحسوسة إذ كانت تخص الكلمة المتجسد، هذه الرؤية العلنية التي ارتفعت عندهم إلى رؤية غير مُعتمدة على النظر والسمع، هذه هي الرؤية

الإيمانية الصرف، التي سلّمها الرسل للكنيسة، فصارت هي أساس الإيمان القويم غير المعتمد على المشاهدة ورؤيا العين، ولكن بقي الرسل هم أساس هذا الإيمان الوحيد. لذلك نحن نؤمن بالرسولية الكنسية عن حق وأصالة وضرورة حتمتها رؤيتهم $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ القائمة على الرؤية العينية والمشاهدة واللمس التي اختصّوا بها وحدهم دون جميع من رأوا الرب. لهذا صار الإيمان الرسولي المؤسس على $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ هو ذخيرة الكنيسة، التي عليها نعيش، وبها نمسك كمنّ يمسك بالحياة الأبدية.

وهذا الأساس الرسولي الإيماني القائم على الرؤية الإيمانية غير العينية $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ يضعه ق. يوحنا الرسول موضع الشهادة الرسولية، لكي يُعتمد بختم رسولي: «ونحن قد نظرنا $\tau\epsilon\theta\epsilon\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصاً للعالم» (١ يوحنا ١٤: ١)، «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة...» (١ يوحنا ١: ١). لذلك نستطيع بكل يقين أن نقول أن الإيمان غير العيني القائم على الرؤيا الصادقة هو إيمان تاريخي بالدرجة الأولى، له جذر تاريخي عاينه الرسل وعاشوه، لأن الله ظهر في الجسد وفي التاريخ. لهذا فكل من بلغ بالحقيقة إلى رؤية الرسل هذه $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ لابن الله يكون قد بلغ الرؤية الأمثل بكل تأكيد، أي يكون قد واجه معجزة التجسد ووضع يده على الجسد ورأى وشاهد ولمس، وذلك من خلال إيمان الرسل وشهادتهم. لذلك لم تصبح معجزة التجسد حبيسة تاريخ جيل الرسل. لقد استطاع الرسل بالرؤيا غير العينية $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ أن يجعلوا معجزة التجسد معجزة كل جيل. لقد أخرجوها من حيزها التاريخي إلى ما هو فوق التاريخ وبعده.

ولعل أقوى المواضع التي ذكر فيها كيف شوهد المجد علناً وعياناً هو حادثة التجلي، ولو أن ق. يوحنا لم يذكرها مع أنه كان أحد ثلاثة شهود لها، وقد سجّل هذه الحادثة كل من الأنجيل الثلاثة: «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب. وصعد إلى جبل ليصلي. وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضاً لامعاً. وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا، اللذان ظهرا بمجد، وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم. وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تشقلوا بالنوم. فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه. وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن نكون ههنا، فلنصنع ثلاث مظال $\sigma\kappa\eta\nu\alpha\varsigma$ لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة. وهو لا يعلم ما يقول. وفيما هو يقول ذلك كانت سحابة فضللتهم فخافوا عندما دخلوا في السحابة. وصار صوت من السحابة قائلاً: هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا.» (لو ٩: ٢٨-٣٥)

وفي هذا الحادث نلتقط عدة أمور تهمنا في شرح الآية التي نحن بصددتها:

١ - «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب».

٢ - «صارت هيثة وجهه متغيرة» يقول عنها القديس متى في إنجيله: «وتغيرت هيثته μετεμορφώθη (تجلى)، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور.» (مت ١٧: ٢)

٣ - «موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد».

٤ - «فلما استيقظوا رأوا مجده».

٥ - «فلنصنع ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة».

٦ - «كانت سحابة فضلتهم». يقول عنها القديس متى الإنجيلي أنها «سحابة نيرة».

٧ - «وصار صوت من السحابة قائلاً هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا».

ونحن إذا عدنا إلى الحادثة المماثلة في العهد القديم مع موسى، نجد الآتي: «فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل وحلّ مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب... وكان منظر مجد الرب كنار آكلة...» (خر ٢٤: ١٥ و١٦ و١٧)

ففي هذا المنظر وكل مناظر استعلان مجد يهوه الله في العهد القديم نجد أنه بمجرد اقتراب الله من الشعب، أو بالأكثر من موسى وهارون، أو اقتراب موسى وهارون أمام الله، كان يصاحب ذلك ظهور واستعلان مجد الله! فإن كان الأمر هكذا في القديم فكم وكم بالحري بعدما اقترب الله ثم اقترب ثم تواجه مع الإنسان داخل الإنسان كيف لا يستعلن مجده فيه!

وإن حادثة التجلي تجمع الظهورين معاً والمجدين معاً: مجد الآب في السحابة النيرة التي ظللتهم مع صوته الآتي من المجد الأسنى، مع مجد الابن ونور الكلمة يغطي «الجسد» فيجعل الوجه يضيء كالشمس.

ثم علينا أن نعود إلى ذاكرة القديس بطرس لنسمع منه ما يتذكره عن حادثة التجلي هذه بعينها:

— «لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنّا معاً عاينين عظمته. لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررتُ به. ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء إذ كنّا معه في الجبل المقدس.» (٢ بط ١: ١٦-١٨)

واضح من هذه الشواهد أن ق. يوحنا حينما قال : «ونحن» ، فهو يقصد الخاصة جداً من تلاميذه وهم الثلاثة الذين كان قد انتخبهم من الاثني عشر ليُظلمهم على سِرِّ مجده هذا، كما أظَّلَعَ موسى سابقاً على الجبل في سيناء، حيث تقول النبوة أنه «سيراه كل بشر» (إش ٤٠ : ٥)

وقد يظهر تعارض في قول النبوة قديماً على فم إشعياء النبي بخصوص هذه الرؤية وهذا المجد : «عزُّوا عزُّوا شعبي يقول إلهكم . طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل ، أن إثمها قد عُفِيَ عنه أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها . صوتٌ صارخ في البرية أعدُّوا طريق الرب ، قوِّموا في القفر سبيلاً لإلهنا . كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المموج مستقيماً والعراقيب سهلاً . فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر معاً لأن فم الرب تكلم .» (إش ٤٠ : ١-٥)

ولكن كان دأب الأنبياء أن يختصروا الزمن اختصاراً ، فآلاف السنين تصير غداً أو سريعاً ، لأن الرؤيا تكون في وهج شدتها متجمعة معاً وليست موزعة على السنين والأجيال . وقد تم بالفعل الجزء الأول من الإعلان عن مجد الرب ، ورآه الأخصَّاء والمقرَّبون والمختارون والمقدِّون ، فمجدُّوا صاحب المجد . أما الجزء الثاني من الإعلان عن مجد الرب فهو مؤجَّل للجزء الباقي من البشرية حينما يرونه في مجيئه الثاني ، في ملء مجده ومجد أبيه مع ملائكته (مت ٢٤ : ٣٠ ، رؤ ١ : ٧) .

وقوله : «رأينا» ، فهو يتكلم عن رؤيا غير عادية كانت تحت سحابة نيرة ، أي في الحضرة الإلهية ، التي تطابق حضور «يهوه» قديماً على جبل سيناء ، في السحابة التي ظللته . وهنا إشارة سرِّية إلى التعرف على شخصية المسيح . وحضور موسى وإيليا في التجلي بمجد هو إشارة ضمنية إلى قوله : «مشهوداً له من الناموس (موسى) والأنبياء (إيليا)» (رو ٣ : ٢١) . وكلمة «بمجد» بالنسبة لموسى وإيليا تفيد ارتفاع كرامة الناموس والأنبياء في أشخاص مُمثِّلِيهما موسى وإيليا .

وقوله : «رأينا مجده» ، فهو يقصد مجد «الكلمة بعد أن صار جسداً» أي يسوع المسيح . وقد اتضح من تسجيلات حادثة التجلي أنه فعلاً تغيرت هيئته الجسدية ولمع وجهه كالشمس وابتضت حتى ثيابه كالنور . ويصف القديس بطرس هذا المجد الذي رآه على الجبل أنه عاين عظمته ، أي جلاله μεγαλειότητος وقدرته δύναμιν ، وأنه أخذ من الآب كرامة τιμήν ومجداً δόξαν : «مجداً كما لوحد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» .

هنا فإن تكرار كلمة «المجد» هو بقصد التركيز ولفت الانتباه لكي لا نتوه في تواضع «الجسد» أو في مضمون الإخلاء . فالمجد مُعلنٌ ومنظور للعيون التي لا يلزمها الإخلاء والتي

أدركت حقيقة «الكلمة» اللوغُس، مهما تنازل وأخذ منظراً: «هكذا مُفسّداً أكثر من الرجل» حسب قول إشعياء النبي (١٤: ٥٢). لأن خطيئتنا هي التي حَتَمَت على العين الضعيفة أن تراه «لا منظر (له) فنشتهيه» (٢: ٥٣)

أو ليس «الكلمة» اللوغُس هو صوت الله ونداؤه، وهو قوله وأمره، فكيف نسمع صوت الله من فم اللوغُس ولا نحس بالمجد المحاط به، هذا إذا أحسنّا الرؤيا؟ لأنه حتى اليهود العاديون لمحووا في كلامه مجد الله وسلطانه «لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مت ٢٩: ٧)!! أو بمعنى متقدم قليلاً عن الآية، إن المجد الذي رأوا ما هو إلا حب الآب منطبعاً عليه فلم يستطع أن يخفيه، واستطاعوا هم أن يستشفّوه من فيض النعمة التي كانت عليه والحق الخارج منه الذي يهز كيان الإنسان الروحي.

وهذا المجد الذي رأوه فيه الذي هو حب الآب المنطبع عليه هو هو الذي جعل من الذين قبلوه أولاداً لله، أي أن هذا الحب نفسه أو المجد نفسه لما آمنوا به أدخلهم في مجاله فصاروا أولاد الله أي الحائزين على الحب الأبوي.

ونلاحظ أنه بظهور الكلمة في الجسد صار استعلان المجد الذي فيه. وقول ق. يوحنا أن هذا المجد لمحوه وتيقّنوا منه أنه مجد ابن وحيد لأبيه أو بالحري هو مجد الآب للابن الوحيد، هذا يوضح لنا سرّاً من أخطر الأسرار، أن استعلان المجد في الكلمة المتجسد كشف في الحال سير الآب والابن فيه، فبالرغم من أنه ظهر كابن، ولكن المجد كان مجد الآب في الابن. ولهذا أيضاً صار كل من يرى الابن برؤية الإيمان *θεωσαμένθα* فإنه يرى الآب بالضرورة، لأن مجد اللاهوت في الابن يشمل معه مجد الآب بأن واحد بدون شرح ولا توضيح: «الذي رأيته فقد رأى الآب». (يو ١٤: ٩)

ق. يوحنا يجمع هنا جملة ما رآه وسمعه واختبره مع الخاصة من التلاميذ ويؤكد ذلك بقوله: «ونحن».

فهو سمع بنفسه الرب يسوع المسيح يخاطب الآب عن مجده الخاص له عند الآب (يو ١٧: ٥ و ٢٤)، بل وسمع الآب يوافق بأنه «مجد وسيمجد أيضاً» (يو ١٢: ٢٨)، بل وسمع ورأى هذا المجد في حادثة التجلي المذكورة سابقاً، بل شاهد وعان وشهد لأعمال الرب يسوع المسيح التي تنطق جميعها بمجده وأوضحها عرس قانا الجليل ومعجزة تحويل الماء خراً التي بها أظهر المسيح مجده لتلاميذه فآمنوا به. هذا ولا ننسى المجد الذي عايشه ق. يوحنا مع كوكب الصبح المنير يسوع المسيح

نفسه في سفر الرؤيا: «ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها.» (رؤا: ١٦)

«مجداً كما لوحيده من الآب»:

هنا يُقصد بحرف كما = ὡς أن المجد الذي ظهر به الكلمة المتجسد هو المناسب والمطابق فقط لابن الله، الذي له وحده يليق كل مجد الله «الآب كالابن».

«وحيده من الآب» = μονογενοῦς = «مونوجانيس» والكلمة من مقطعين μόνος = واحد (Single) — γένος = نوع (Kind). وهذا الوصف بالنسبة للكلمة المتجسد هو استعلان الحب الأبوي لله وهو من أعظم وأعز الاستعلانات التي عرفها الإنسان عن الله.

و«المونوجانيس» كأعظم وأعز استعلان للحب الإلهي فاز به العالم لما بلغ ملء أحزانه وأعوزه مجد الله، إذ انشقت السماء بالفعل وأرسل الله محبوبه ليدبر العالم ويرعى الإنسان: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد (المونوجانيس) لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو: ٣: ١٦). لاحظ الارتباط بين «أحب» و«الابن الوحيد».

وإذا أردت أن تعرف أيها القارئ العزيز قيمة هذا المحبوب الوحيد عند الله، اسمع ما يقوله: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد (المونوجانيس)» (يو: ٣: ١٨)، وقوله: «الآب نفسه يحبك لأنكم قد أحببتموني.» (يو: ١٦: ٢٦)

وق. يوحنا يصادق على هذا ويزيد: «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد (المونوجانيس) إلى العالم لكي نحيا به» (١ يو: ٤: ٩). أي أن المونوجانيس عند ق. يوحنا هو أعظم حدث من أحداث الحب الإلهي الذي استعلن لنا في يسوع المسيح.

وحيثما يقول ق. يوحنا أن المونوجانيس كائن في الحضيض الأبوي فهو يضع المحبة في موضعها، ويشير إلينا من أين انفتح لنا ينبوع هذا الحب. وإن كان هذا هو الموضع الذي خصَّصه الآب للمونوجانيس، إذن فأي موضع يليق به عند الإنسان ليضعه فيه إلا القلب!!؟

هذا الوصف ليس من عند ق. يوحنا بل هو نفس الصفة التي أعطاهها صوت الله الآتي من السماء، أو كما يقول ق. بطرس: من المجد الأسنى، والذي سمعه ق. بطرس بنفسه هكذا: «هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به» (٢ بط: ١: ١٧). فالمونوجانيس تفيد أنه ابن حبيب وموضع مسرة أبيه الفريدة الذي لا يُشاركه فيها آخر قط. وهذا الإصطلاح في الاستخدام يأتي للمذكر والمؤنث على السواء وقد جاء في مواضع كثيرة.

وكلمة المونوجانيس بحسب تحقيق العلماء^(٣٠) لا تحمل معنى الولادة أو المولود^(٣١) وأدلتهم في ذلك ورود هذا الوصف في حالات يتعذر بل يمتنع فيها معنى الولادة أو المولود مثل :

١ - في وصف إسحق ابن إبراهيم من فم الله نفسه : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له يا إبراهيم ، فقال هاءنذا . فقال خذ ابنك وحيدك — μονογενής — الذي تحبه إسحق ، واذهب إلى أرض المريا وأضيئه هناك محرقة... » (تك ٢٢ : ١ و ٢) .
والمعروف أن إبراهيم وُلد له ابنان وليس ابناً واحداً ، فهو ليس وحيداً . ولكن كان إسحق هو « الابن الوحيد المحبوب عند أبيه » ، وهذا هو المونوجانيس ضبطاً وربطاً .

٢ - كما ورد هذا الوصف العادي على ابن أرملة ناين : « إذا ميت محمول ابن وحيد μονογενής لأمه وهي أرملة » (لو ٧ : ١٢) . ومن هنا تأتي كلمة « مونوجانيس » باعتبارها « قيمة » عالية وغالية جداً عند هذه الأرملة .

٣ - « وإذا رجل اسمه يائرس... لأنه كان له بنت وحيدة μονογενής . » (لو ٨ : ٤١ و ٤٢)

٤ - « ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته . وإذا بابنته خارجةً للقاءه بدفوف ورقص وهي وحيدة μονογενής . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها » (قض ١١ : ٣٤) . وهنا أيضاً المونوجانيس تأتي كصفة تحمل قيمة عالية للغاية .

٥ - وقد جاءت في معانٍ كثيرة لا علاقة لها بالبنوة ولا بالميلاد ، ولكن أتت في معنى الوحيد المحبوب للغاية بالنسبة للإنسان وهي نفسه : « نفسي وحيدتي » : « ...يا قوتي أسرع إلى نصرتي . أنقذ من السيف نفسي من يد الكلب وحيدتي μονογενή μου » (مز ٢٢ : ١٩ و ٢٠ ، ٣٥ : ١٧)

٦ - وجاءت بمعنى أنا وحدي : « الصفات إني وارحني لأنني وَحْدُ μονογενής ومسكين أنا . » (مز ٢٥ : ١٦)

وقد جاءت هذه الكلمة μονογενής في اللغة العبرية في مواضع كثيرة بمعنى المحبوب فقط ἀγαπητός وهي قريبة من كلمة المخبوط .

ولكن كانت نظرة آباء ما قبل نيقية منحصرة نوعاً ما في معنى « الولودة » وهذا لا تحتمله الكلمة .

³⁰ Westcott, *op. cit.*, p. 12.

³¹ Leon Morris, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 105.

« كما لوحيد من الآب » :

هنا يبدأ ق. يوحنا يضع أساس استعلان الكلمة بعد التجسد والتأنس، فهو يكشف عن درجة بنوة الكلمة لله حيث « الكلمة هو الابن » في الذات الإلهية والله هو الآب. وق. يوحنا يعلن عن اكتشافه للابن عن طريق المجد الذي استعلن في الكلمة لما تجسد، تماماً كما أعلنت الأناجيل بضم الملاك عن الحبل الإلهي للابن بالميلاد الإعجازي الفائق من العذراء مريم وبشارة الملاك العلية بذلك : « الروح القدس يحلُّ عليك، وقوة العلي تظللُك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله. » (لو : ٣٥)

وقد أعاد المسيح نفسه صياغة نطق الملاك هذا بتأكيد قائلاً : « فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدُّف لأنني قلت إني ابن الله. » (يو : ١٠ : ٣٦)

وكما استعلن للقديس بولس بالقيامة من الأموات بمجد الآب : « وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات. » (رو : ١ : ٣، ٤ : ٦)

وكما تيقن القديس لوقا الإنجيلي بإعلان من المسيح نفسه أنه سيأتي كابن الله في مجده ومجد أبيه : « متى جاء بمجده ومجد الآب والملائكة القديسين. » (لو : ٢٦ : ٢٦)

وهكذا نرى هذه الاستعلانات كلها متدرجة من جهة يقينية استعلان درجة البنوة لله هكذا :

أولاً : بالميلاد : دُعي ابن الله بضم الملاك.

ثانياً : بالقيامة : تعيَّن ابن الله بالقوة من جهة روح القداسة.

ثالثاً : بالمعاشة والمعاناة : رأيناه ابن الله — مع ق. يوحنا.

رابعاً : بوعد المسيح نفسه أنه يأتي ثانياً كابن الله في مجده ومجد أبيه.

خامساً : بتصريح المسيح نفسه.

« من الآب » : παρά πατρός

وقول ق. يوحنا « من الآب » يشير ويركّز على « نسبة المجد والبنوة بين الآب والابن »، كما تفيد أيضاً « الإرسالية » = ابن وحيد مُرْسَل من الآب : « أنا أعرفه لأنني "منه" وهو "أرسلني". » (يو : ٧ : ٢٩)

وقول ق. يوحنا : « كما لوحيد من الآب » تفيد بحسب لاهوت ق. يوحنا، وهو اللاهوت

الذي استرعى انتباه آباء الكنيسة الأوائل، أنها تفيد علاقة يبدو فيها الابن مرتبطاً في وجوده بالآب ارتباطاً ذاتياً وجوهرياً، فهو ليس فقط ابن للآب بل ومُرْسَلٌ منه رسالة يؤديها بحتمية (الطاعة) (٣٢). وحتى المجد الذي للابن فهو ليس مجرد مجد الابن بل مجد ابن وحيد من الآب.

والقديس بطرس يوضح هذه النسبة بغاية الدقة هكذا: «لأنه 'أخذ من الله'، كرامة ومجداً» (٢بط ١: ١٧). إذن فهو «مجد من الآب» للابن، وبهذا ينكشف لنا المعنى المخفي وراء قول ق. يوحنا: «مجداً كما لوحد من الآب». ولا ينبغي أن يفوتنا أن كلمة «وحيد لأبيه» تفيد معنى الفرادة في الحب حيث يستحوذ الابن على كل حب الآب. هذا نسمعه من الله بغاية الوضوح والتركيز «ابني الحبيب»، أي أن «مجد ابن وحيد لأبيه» تعني بكل العمق استعلان «مجد الحب الأبوي» في المسيح للتلاميذ، وبالتالي للكنيسة، لأن كل مجد الابن ورثته الكنيسة لأنها جسده المملوء نعمة وحقاً.

وهكذا فإنه بحب الآب للابن تم الخلق، وتم الفداء، وتأسست الكنيسة! لأن بحب الآب للابن «كان كل شيء» في الخليقة الجديدة مثل القديمة، وبدون حب الابن للآب لم يكن شيء مما كان، وهكذا أحب الله العالم فقدها بحياة ابنه: «بذل ابنه الوحيد». (يو ٣: ١٦)

فالعلاقة بين الآب والابن علاقة (٣٣) تشمل وتتغلغل كل ما للابن حتى أنه لا يوجد الابن منفرداً بصفة لاهوتية خاصة به على الإطلاق إلا كونه ابناً.

ومن الملفت للنظر أن الله الآب بالنسبة للمسيح الابن في إنجيل يوحنا مذكور ١٣٧ مرة (٣٤)، في حين أن إنجيل متى مذكور فيه ٦٤ مرة فقط، وإنجيل لوقا ٥٦ مرة، وإنجيل مرقس ١٨ مرة.

هذا يلزم أن ينسب ذهننا أن إنجيل يوحنا يتخصص في توضيح علاقة الآب بالابن والابن بالآب، أو بتعبير أصح يركّز على استعلان سر الأبوة والبُنوّة في عملية الخلاص والفداء والتبني.

لذلك فبعد الأصحاح الأول الذي كرّسه لاستعلان «الكلمة» باعتباره الشخصية المحتجبة في الله: «حقاً أنت إله مُحتَجِبٌ يا إله إسرائيل المخلص» (إش ٤٥: ١٥)؛ نجد ق. يوحنا بعد تجسد

³² Barrett, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 139.

(٣٣) راجع المدخل ص ٢١٦.

(٣٤) راجع المدخل ص ٢١٠-٢١٥.

الكلمة يركّز على المسيح كابن الله حتى نهاية الإنجيل، كاشفاً دور الآب كأساس لعمل الابن الخلاصي.

د - «مملوءاً نعمة وحقاً»:

بعد أن خلّق ق. يوحنا في ذكرياته السالفة عن الأجداد التي رآها واستعلنها في الابن الوحيد ووقعت عينه ويده عليها في المسيح، الذي اكتشف فيه سر الحياة الأبدية ومجد البنية الوحيدة للآب؛ يعود بنا إلى ذكرياته عن «الكلمة» في شخص يسوع المسيح كما اختبره في حياته الخاصة والعامة وسلوكه مع الأحياء والأعداء. وأعطى هذه الشهادة أنه كان مملوءاً نعمة وحقاً... فالنعمة والحق هي الصفات الإلهية المتجسدة «للكلمة» المتجسد.

هي أصلاً صفات الله الكائنة فيه، ولكن بتجسد الكلمة استعلنت هذه الصفات لأنها صارت في موضع العطاء، وتجهزت لتصير هبة تُمنح للناس: «وتعرفون الحق والحق يحرككم... فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو: ٨: ٣٢ و٣٦)

«النعمة»: χάρις

لم تُستخدم في إنجيل يوحنا إلا هنا وفي الآية ١٧ من هذا الأصحاح فقط. وأما الحق فهو الصفة الإلهية التي تجيء في القمة بالنسبة للكلمة المتجسد، والتي أعلن عنها المسيح جهاراً: «أنا هو الطريق والحق والحياة.» (يو: ١٤: ٦)

وهاتان الصفتان هما المقابل في العهد الجديد اللتان تعامل بهما الله معنا في شخص يسوع المسيح، كما كان يتعامل بهما يهوذا قديماً: «فنزل الرب في السحاب. فوقف عنده (موسى) هناك ونادى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه ونادى: الربُّ الربُّ إلهٌ رحيم ورءوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان إلى أوف، غافر الإثم والمعصية والخطية، ولكنه لن يُبريء إِبْرَاءً» (خر: ٣: ٥-٧). فيهوه «رحيم» ولكنه «لن يبريء».

لذلك فالنعمة والحق في العهد الجديد هما المقابل الحقيقي للناموس والدينونة كما وضعهما ق. يوحنا نفسه في الآية ١٧ القادمة.

والنعمة في مفهوم ق. يوحنا إذا كانت في مقابل الناموس فهي عملية الفداء والخلاص بكل مشتملاتها ونتائجها، وبالأخص جداً في أنه جعلنا أولاداً وأحباءً بل وأحراراً بعد أن كنا عبيداً تحت سطوة الناموس بمقتضى سلطان الخطية المُدِلِّ. بل وتشمل النعمة حتماً كلَّ نِعَمِ الله χάριτες

من مواهب؛ بل وبالأكثر جداً اتصالنا بالآب واتحادنا بالابن. أي أن النعمة عند ق. يوحنا هي هي التجسد الذي أجراه الكلمة في نفسه، فهي بالتالي شخص يسوع المسيح نفسه بالدرجة الأولى. لأن فيه وبه نلنا كل النعمة بل كل النعم. لذلك هكذا ظهر الكلمة لما تجسد أنه مملوء نعمة وحقاً، أي كله نعمة وكله حق، على مستوى العطاء.

فنعمة الآب لنا هي أنه بذل ابنه الوحيد من أجلنا ليكون لنا حياة أبدية باسمه، ثم ولدنا لنفسه لما قبلنا ابنه بالإيمان في قلوبنا وحياتنا. الآب ولدنا لنفسه باتصال وليس بالمجاز أو التصور. لأن نعمة الآب لنا هي انعطاف ذاتي والتحام سرّي. فكلمة «مولودين من الله» هي من الجدّة والحقيقة العملية الروحية على مستوى أعلى من «الميلاد من الدم ومشية الجسد ومشية الرجل»، أي أنها بقوة فعل سرّي فائق يسري في كياننا الروحي فيغيّره ليكون على صورة خالقه كما ينمو الولد ويتشكل على صورة والده. «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعاً (زرع الله) sperma يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله.» (١ يوحنا ٣: ٩)

ونعمة الآب هي مكّلة لنعمة الابن لنا الذي تنازل وأخذ جسداً لذاته ليهيئنا بالتقديس الذي أجراه لنا، لنكون مؤهلين لتبني الآب لنا.

«الحق» ἀλήθεια (٣٥):

الحق بالنسبة للقديس يوحنا ليس هو الصدق الذي هو عكس الكذب، بل الحقيقة Reality في مقابل الشبه أو الظل.

فكل أعمال ومعاملات الله قديماً كانت شبه السماويات وظلّها، «إذ يوجد الكهنة الذين يُقدّمون قرابين حسب الناموس، الذين يخدمون شبه السمويات وظلّها كما أوحى إلى موسى وهو مزعم أن يصنع المسكن» (عب ٨: ٥). وكل رؤية الله مهما سمّت كانت ليس أكثر من «شبهه الله يعاين» كما جاء على لسان الله: «فقال (الرب) اسمعاً كلامي: إن كان منكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلّمه. أما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فمأ إلى فم وعياناً أتكلّم معه لا بالألغاز، وشبهه الرب يعاين.» (عد ١٢: ٦-٨)

ولكن الآن، وباستعلان الله في الكلمة المتجسد أي شخص يسوع المسيح، ليس بعد كلام الله في حلم ولا بالألغاز بل «كلّمنا ... في ابنه»، «الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة»

(عب ١ : ٢ ؛ يوح ٦ : ٦٣)، ولا بالشَّبه نعاين الله بل بالحق بـ «الأليثيا» : «الذي رأي فقد رأى الآب (الله)»، «أنا هو... الحق...» (يو ١٤ : ٩ و ٦)

فـ «الحق» هنا عند ق. يوحنا هو استعلان الله في ذاته استعلاناً حقيقياً كاملاً كأب تبتَّانا، وعرفناه أباً ووالداً لنا، ليس بولادة مجازية أو كمنحة ولكن باتصال وفعل سرِّي : «كلُّ من يحب فقد وُلد من الله» (١ يوح ٤ : ٧)، وكابن أخذ جسدنا ومات عنا وفداناً.

فعندما يقول ق. يوحنا أنه مملوء نعمة وحقاً فهو يعني أنه بالقياس وبقدر ما يستطيع الإنسان أن يقيس ويستوعب فهو الاستعلان الكلي لكل ملء الله سواء من جهة نعمته أو من جهة ذاته. والكلام كله منصبٌ على «الكلمة صار جسداً».

ولكي ندرك صلة «الحق الأليثيا» باستعلان الابن عند ق. يوحنا نسمع من المسيح بوضوح قوله بأن «الحق» و«الابن» واحد هكذا : «إن ثبتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو ٨ : ٣١)، «فإن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو ٨ : ٣٦)

ويُلاحظ هنا أن «معرفة الابن» معرفة ثابتة توصَّل إلى «معرفة الحق»، ومعرفة الحق أو الابن كليهما تحرر. والمعرفة هنا ليست بنت الفهم والدراسة بل حصيلة رؤيا واستعلان. فالذي يستعلن «الابن» ويدركه في ذاته يستعلن «الحق». أو بمعنى أكثر وضوحاً الذي يستعلن الله «كأب وابن» يبلغ إلى منتهى الحق، لأنه يلد ابناً حُرّاً لله! هذا كلُّ ما نترجاه من النعمة وكل ما نطلبه من الحق، وهذا قد صار لنا لما صار الكلمة جسداً.

١٥: ١ «يوحنا شهد له ونادى قائلاً هذا هو الذي قلتُ عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي لأنه كان قبلي».

هنا ق. يوحنا الإنجيلي يقدم هذه الجملة الإعتراضية بعد وصفه لأعجاد الكلمة المتجسد، مشيراً ومعلنًا عن دخول الكلمة المتجسد إلى بدء عمله، الذي لما باشره كشف في الحال عن شخصية المسيا «الكلمة المتجسد»، أنه وإن كان قد جاء متأخراً عن المعمدان إلا أن وظيفته أعلنت جهاراً أنه كائن قبله، ليس من جهة الوقت أو الزمن بل الوجود والكيان: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو ٨: ٥٨)

وق. يوحنا يقدم هذه الشهادة من فم المعمدان نفسه ليثبت بها للكلمة المتجسد التقدم المطلق: «لأنه كان قبلي»، ليس في العمل وحسب، بل وفي الوجود والكيان السابق على المعمدان؛ الذي وإن كان المعمدان قد سبق المسيح فهذا لكي يعلن عنه ويعدّ الطريق له، وليس ليتقدم عليه في الكرامة.

وتأتي شهادة المعمدان في الفعل المضارع μαρτυρεῖ = يشهد (باستمرار)، لتوضح دوام الحقيقة التي يشهد عنها، بخصوص الشخص المرتقب والمترجى ظهوره وطبعاً هو «المسيّا».

وحينما يقول: «نادى»، فهذه في الأصل تعبير عن الصراخ κέκραγεν المملكت للنظر والذي يكون بالصوت العالي تعبيراً عن خطورة وأهمية من يشير إليه، كما تفيد بصورة خفية أنها الصرخة التي أطلقها ومات عندما ماتت الصرخة، ولم تعد تتبع التاريخ بل صارت معلومة حية قائمة أبد الدهر. كذلك فإن صراخ الشهادة κράζειν هو التصوير الإنجيلي لعمل الإلهام الروحي الذي يتدفق مرة واحدة في الإنسان فيطلقه بانفعال: «وامتلأت أليصابات من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك» (لو ١: ٤١ و٤٢). وهذا ما يقصده ق. يوحنا في تسجيله لشهادة المعمدان أنها كانت بنطق إلهي.

وغرض إنجيل ق. يوحنا من وضع هذه الشهادة هنا هكذا هو لحساب المؤمن الذي سيأتي عبر الزمان، الذي هو أنا وأنت أيها القارئ العزيز، ليأخذ من هذه الشهادة الهامة جداً، باعتبارها ختم آخر أنبياء العهد القديم على صدق مجيء المسيا بالجسد في ملء الزمن حسب توقعات كل الأنبياء والآباء والتاريخ اليهودي كله، وأنه وإن جاء في ملء التاريخ إلا أنه كان قائماً قبل التاريخ.

وقد اكتفى الإنجيليون الثلاثة في ذلك بقولهم وبصفة عامة: «يأتي بعدي من هو أقوى مني»؛ ثم في تقييمهم لارتفاع كرامة المسيح بالنسبة للمعمدان سجلوا ما قاله بنفسه:

— «لست أهلاً أن أحمل حذاءه.» (مت ٣: ١١)

— «لست أهلاً أن أنحني وأحلّ سيور حذائه.» (مر ١: ٧)

— «لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه.» (لو ٣: ١٦)

أما ق. يوحنا فقد حدّد شخصية المعمدان بالنسبة للمسيح، فالمسيح كائن قبل المعمدان. كذلك فعمل المسيح سابق على عمل المعمدان. هذا هو معنى «كان قبلي»: كائناً وعاملاً.

وشهادة المعمدان التي يقدمها ق. يوحنا هنا تخدم قضية طبيعة وشخصية الكلمة المتجسد تأكيداً أن التجسد أبقي على لاهوت وأزلية الكلمة كما كان. فكأن مجمل قول ق. يوحنا هو أن الكلمة لما صار جسداً بقي كما هو إذ رأينا مجده واستعلنّا فيه أنه مجدّ وحيد لأبيه مملوء نعمة وحقاً، والمعمدان شهد لسمو طبيعته الفائقة ولأسبقيته عليه بلا حدود.

١٦: ١ «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة.»

القراءة الصحيحة باللغة اليونانية حسب آباء الإسكندرية تقول: «وبسبب هذا = ὅτι نحن جميعاً أخذنا من ملئه، ونعمة فوق نعمة.»

وهذه الآية ولو أنها معتمدة على الآية ١٤ قبل السابقة، «(ونحن) رأينا مجده... مملوءاً نعمة وحقاً»، إلا أن هذه الآية هنا تؤكد حقيقة الآية ١٤ عملياً بسبب أخذنا من عطاياه. وهكذا يأتي فعل «أخذنا» تأكيداً وتصديقاً لفعل «رأينا». هذا يزيده التركيب اللغوي اليوناني قوة وإيضاحاً بسبب أن فعل «أخذنا» ἐλάβομεν الذي يعني أكثر من «أخذنا»، خاصة حينما يأتي بعد شهادة أو معتمداً عليها، إذ يفيد معنى الأخذ على مستوى المَسْك أو القبض أو الاستحواذ سواء فعلاً أو فهماً، وحينئذ ترسخ معنى الإيمان اليقيني أو ملء الإيمان؛ حيث «الأخذ أو القبض على» تفيد الفهم والإيمان والقبول والاستحقاق معاً.

وينكشف هذا المعنى حينما نسمع العكس في قول المسيح: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (يأخذه) λαβεῖν لأنه لا يراه ولا يعرفه» (يو ١٤: ١٧). أي أن الأخذ على مستوى القبول يعتمد على رؤيا وتأمل وملاحظة واستحقاق، وإلا يمتنع. ولهذا السبب بالذات، أي لأنهم رأوا مجده رؤية التحقق، لذلك أو «لهذا السبب» أخذوا نعمة فوق نعمة.

ولقد ظن بعض آباء العصر الأول مثل أوريجانوس وهيراكليدس وغيرهما، الذين اضطلعوا بشرح إنجيل يوحنا أن هذه الآية هي تكملة لحديث المعمدان وشهادته، ولكن تسلسل الكلام والمعنى يمنع ذلك، بالإضافة إلى أن قول ق. يوحنا «نحن جميعاً» ليس أسلوب المعمدان، ولا هو من حقه أن يقول ذلك، لأنه جاء كصوت واحد صارخ يعدُّ الطريق وليس ليمتلىء. فالتكلم هنا هوق. يوحنا الإنجيلي — كما يقول كلُّ من القديسين ذهبي الفم وأغسطينوس وكيرلس الكبير. فبعد أن قدم شهادته مع التلاميذ في قوله: «ونحن» رأينا مجده، يقدم لنا شهادة الكنيسة معه: «ونحن جميعاً أخذنا».

وبهذا تكون هذه الآية هي أول إشارة إلى علاقة الكلمة المتجسد المملوء نعمة وحقاً بالكنيسة التي أخذت من ملئه. وتسلسل الكلام يكون هكذا: «ونحن التلاميذ رأينا مجده مجد وحيد لأبيه، وعرفنا وتيقنا أنه مملوء نعمة وحقاً، وبسبب هذا نحن جميعاً — أي الكنيسة كلها — أخذت من ملئه».

الإشارة هنا بليغة وتشير إلى فيض الحب الذي يتفجر من الكلمة المتجسد على هيئة نعيم وعطايا متلاحقة الواحدة تمسك بالأخرى. فكل نعمة تؤدي إلى نعمة أكثر. ثم انظر كيف يركز ق. يوحنا على «جميعاً»، وكأنه لم يترك أحداً في الكنيسة دون أن يغدق عليه نعمة ولو لم يدر.

ملئه πλήρωμα :

متصلة بسابقتها «مملوء» πλήρης وهي تشير إلى الكثرة والفيض، كما تجيء في اللاتينية Plenitudo (كما وردت في نسخة الـ Vulgate).

فإذا علمنا أن πλήρωμα هي صيغة الحال المأخوذ من أصل الفعل πληροῦν الذي معناه يكمل (To make complete)، إذن، فالكلمة تعني كمال الملء أو منتهى الملء. وهذا ما يقصده القديس بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سرّ (الآب) أن يحلَّ «كلُّ» الملء» = πᾶν τὸ πλήρωμα (كو ١: ١٩). والملء هنا تعبير لاهوتي يختص بطبيعة الله، فهو الوحيد الملء الكلي والمالئ الكل. ومن روح إنجيل يوحنا يأتي عمل الملء على أساس الحياة الأبدية. فمن ملء الحياة الأبدية يملأ «الله الكلمة» الفرد أو الكنيسة، بالحياة الأبدية.

وفي الحقيقة، وبمنظرة واحدة ثابتة، نرى أن ملء اللوغس المتجسد الآتي إلينا من جهته هو، هو ملء الحياة والمجد وحب الآب، ولكن من الجهة الأخرى بالنسبة لنا فهو الخلاص الكلي بكل مشتملاته من موت وقيامة وفداء وتبرير وصعود وحياة أبدية ومجد وشركة في الطبيعة الإلهية، بكل

ما يتبع ذلك من مواهب ضرورية وعطايا امتياز وتبني وحب إلهي فائق :
 — «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله، لأنه ليس بكَيْلٍ يعطي الله الروح.»
 (يو: ٣: ٣٥)

— «كما أرسلني الآب الحَيُّ وأنا حيُّ بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو: ٦: ٥٧)

وكلمة «الملء» πληρωμα محبوبة جداً عند ق. بولس، فهي تملأ قلبه بالإحساس الغامر بفيض النعمة في المسيح يسوع بصورة طاغية. فقد وردت عنده خمس مرات في رسالتي أفسس وكولوسي. وهذه الكلمة بالذات تُعتبر هنا وصلة ذات اعتبار كبير بين لاهوت ق. بولس ولاهوت ق. يوحنا، وبالأخص التي جاءت في الرسالة إلى كولوسي:

— «لأنه فيه سُرَّ أن يملأ كل الملء، وأن يُصالح به الكل لنفسه، عاملاً الصلح بدم صليبه، بواسطته، سواءً كان ما على الأرض أم ما في السموات.» (كو: ١٩: ٢٠)

— «فإنه فيه يملأ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه.» (كو: ٩: ١٠)

— «وأخضع كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف: ١: ٢٢ و ٢٣)

— «...وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف: ٣: ١٩)

— «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف: ٤: ١٣)

بولس الرسول يرى ملء المسيح هو ملء الله، وأن الإيمان بالمسيح والدخول في محبته الفائقة المعرفة هو الطريق للأخذ من هذا الملء حتى الملء الكامل الذي للمسيح، وذلك عندما يتحد المؤمنون في وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله. وكل واحد يأخذ من هذا الملء قدر ما تؤهله رؤية إيمانه لمجد المسيح وحبّه، وأيضاً قدر ما تؤهله صلته في الكنيسة كعضو في جسدها. لأنه للكنيسة المتحدة فقط أعطي ملء المسيح كل الملء، على أساس شدة الحب الذي يجمع أعضائها ليصير لها ما للرأس بالضرورة الحتمية؛ لأن مجد الرأس هو للجسد، وفخر الجسد هو للرأس.

ق. يوحنا في هذه الآية يقول قول ق. بولس تماماً، إنما باختصار شعري بليغ، كما يُجمل هذا المبدأ اللاهوتي في صلاة المسيح قائلاً للآب القول المستجاب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو: ١٧: ٢٢)، هذا هو المجد الذي أخذ من ملئه ق.

يوحنا وأخذت الكنيسة معه.

وهنا لا يفوتنا لمحة لاهوتية نخرج بها من هذا المضمار — في القول عن الملء — من جهة نصيب التجسد من هذا الملء الذي يؤكد ويرسخه بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سرٌّ أن يحلَّ كلُّ الملء»، و«فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً»، والذي يردُّ عليه ق. يوحنا بقوله: «والكلمة صار جسداً... مملوءاً نعمة وحقاً». هنا ظفر «الجسد» بالملء الإلهي، ملء اللاهوت، فدخلته البشرية من أوسع أبوابه لأنه جسد «الكلمة»، الذي انفرش عليه اللاهوت، فمدَّد أطرافه ووسَّع تُخمه وأبعاده حتى وسَّع ما لللاهوت من ملء. هنا دخلت الكنيسة التي هي جسده إلى اللانهاية، لا باستحياء، بل بجراءة الذي خلقها وفداها ورفعها من التراب إلى السماء.

«...أخذنا، ونعمة فوق نعمة»:

«أخذنا» تأتي هنا بدون مفعول به، «من ملئه نحن جميعاً أخذنا». لأن الملء ليس مجزئاً، هو فعلاً عطايا ونعم كثيرة وبلا حصر أو على الأصح «بلا كيل». ولكن الملء يُوزَّع ليعود فيجتمع، فهو ملء واحد، ولا بد حتماً بعد أن يتوزع لكل واحد حسب حاجته وبمسرة الله، أن يصير وينتهي إلى واحد، «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح». (أف ٤: ١٣)

«ونعمة فوق نعمة»: χάριν ἀντὶ χάριτος

في هذه الآية ذهب الشراح كل مذهب، فمنهم من قال — وهم بعض آباء الكنيسة ومنهم ذهبى الفم وكيرلس الكبير — أن نعمة مقابل نعمة تعني نعمة العهد الجديد مقابل نعمة العهد القديم، أي الناموس، ولكن قولهم مردود عليه في الآية ١٧ التي جعلت الناموس هو المقابل للنعمة وتمدني عنها: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صاراً».

وبولس الرسول يضع الناموس مضاداً للنعمة، وليس مساوياً لها أو حتى بديلاً عنها: (رو ١٤—١٦).

ولكن علماء الشرح المدققين^(٣٦) اتفقوا حديثاً على أن ἀντὶ تفيد الملاحقة والمتابعة التي لا تنتهي لعطايا النعم المتجددة دائماً وإلى الأبد من لدن الرب يسوع المسيح:

[Une grâce répondent à sa grâce]^(٣٧)

³⁶ Schnackenburg, op. cit., p. 275.

³⁷ P. Jouën: *Recherches de Sciences Rel.* 22 (1932) 206.

أي أن كل نعمة تأتي تنادي نعمة أخرى فتزد عليها تلك وتأتي .

فكل نعمة يقابلها نعمة أعمق وأعلى ، ونعمة الرب لا تقف ولا تُحد : «لأنه ليس بكَيْلٍ يعطي الله الروح .» (يو ٣: ٣٤)

القديس أغسطينوس في عظته الثالثة على الأصحاح الأول لإنجيل يوحنا يشرحها مطوِّلاً بما يفيد أن من ملئه نحن أخذنا ، هذا مجمل الأخذ ، ثم أضاف الإنجيل : «ونعمة فوق نعمة» ، فمثلاً الإيمان نعمة و يقابل الإيمان نعمة أخرى وهي الحياة الأبدية ، وهكذا .

فإذا عاد القارئ بذاكرته إلى ما قلناه^(٣٨) بخصوص طابع إنجيل يوحنا الاستعلاني والمتدرج في استعلانته للمسيح والآب ، نجد في هذا القول : «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» ما يفيد أيضاً الامتداد الاستعلاني للمسيح حتى وإلى الأبد . لأن تلاحق النعم وتلاحق الامتلاء من ملئه — أي من ملء النعمة والحق — هو أساساً وبالدرجة الأولى يخدم قضية استعلان حقيقة المسيح الذي لا نهاية لملئه . وفي المنهج الروحي العملي معروف أن كل نعمة يحصل عليها الإنسان إنما ترفعه إلى نعمة أخرى أعلى ، لأن النعمة هي بحد ذاتها قوة رافعة ، لذلك نسمع القول أن «من يضع نفسه يرتفع» (مت ٢٣: ١٢ ، لو ١٤: ١١ ، ١٨: ١٤) ، وما ذلك إلا لأن الإِتضاع نعمة ، فنعمة الإِتضاع ترفع إلى نعمة المجد . وقد يتهاً أحياناً للإنسان الروحي الذي يمارس الحب الإلهي أنه بلغ المنتهى من النعم والسعادة ، ويكاد يقول : كفى ، هنا قد بلغت النهاية . ولكن إذ بالنعمة ترفعه إلى مستوى أعلى فينظر ورائه وكأنه لم يكن سابقاً قد بلغ شيئاً!! ، وهكذا فلينتبه القارئ أننا أمام قديس إنجيلي متمرس يتكلم من أعماق يعيشها وبكلمات قليلة يسلمها لمن يسير على دَرَبِهِ .

وكما سُرَّ الآب «أن يحمل في المسيح كل ملء اللاهوت جسدياً» ، كذلك سُرَّ المسيح بنفس القدر والسخاء والحب أن يَصُبَّ كل ملء نعم اللاهوت الذي له في الكنيسة التي هي جسده ، لتمتلىء إلى كل ملء نعم الله ، لأنها تأسست على دم الحب وشربت منه الروح الأزلي الذي لن يكفَّ أن يأخذ مما للمسيح و يَصُبُّ فيها صَبّاً حتى تمتلىء إلى كل ملء الله . فلا تستغربن ، أيها القارئ ، قول ق . يوحنا : «ونعمة فوق نعمة» ، لأن المنعم صمم أن «المجد الذي لي أنا أعطيتهم» ، بل ونفدَّ بالفعل السري حالة حلول واتحاد وعطاء نعم بلا حد ولا عدَّ للذين آمنوا وتبعوا وشهدوا له في كل عصر : «أنا فيهم وأنت في» (يو ١٧: ٢٣) . لذلك فسريان النعمة لن

(٣٨) أنظر كتاب المدخل ص ٦٦-٧١ .

يكفّ، طالما كان الاتحاد مفتوحاً.

وشهادة ق. يوحنا هنا خاصة بإضافة «جميعاً»، و«نحن جميعاً»، هي ليست شهادة فقط، بل واعتراف، بل وصلاة شكر بلسان الكنيسة كلها ولسان القارىء.

فهي تسبحة اعتراف بفضل المسيح يسوع الدائم والأبدي، فلا يوجد مكان أو زمان في الكنيسة يخلو من نعمته، ولا دخل إليه أحد وخرج فارغاً؛ فمراحمه لا تزال تتجدد كل صباح، وفي الفجر تتساقط نعمته كالطلّ على الكلا، من يبكر إليه يجده، ومن يسهر إليه يتعشى معه. هو هو وحده وليس آخر يعطي ولا حدود لعطائه، ونحن جميعاً جميعاً نأخذ بلا عدّ ولا مكيال.

١٧:١ «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صارا».

هنا يدفع ق. يوحنا الاستعلان إلى أقصاه فيبرز الاسم الذي ملأ خياله منذ أن بدأ يكتب إنجيله. هنا برز ختم الرسالة حيث يقرأ بغاية الوضوح اسم صاحبها: «يسوع المسيح».

وهذا هو آخر درجات استعلان مؤهلات «الكلمة»، وقد وضعه في مقابل الناموس أي التوراة جملة بل والعهد القديم برُمته، موضحاً أن الناموس أي التوراة لم تأتِ لا بنعمة ولا بحق، لا بسبب قصور فيها فهي «كلمة الله» بالدرجة الأولى، ولكن كان القصور في الشعب برؤسائه وكهنته الذين لم يلتصقوا بالله ليدركوا النور الذي فيها، ممّا حدا بالله أن يأتي بنفسه و يلتصق بالإنسان ويسكب فيه من روحه النعمة والحق.

فإذا عُذنا بالذاكرة إلى مخطط استعلاناته لشخص يسوع المسيح السابقة نجدها هكذا:

- ١ — «الكلمة في البدء» أي الأزلية.
- ٢ — «الكلمة» عند الله.
- ٣ — «الكلمة الله».
- ٤ — «الكلمة» كخالق: «كل شيء به كان».
- ٥ — «الكلمة» كحياة: «فيه كانت الحياة».
- ٦ — «الكلمة» نورة: «والحياة كانت نور الناس».
- ٧ — «الكلمة» ضد الظلمة: «والنور أضاء في الظلمة».
- ٨ — «الكلمة» آتياً إلى العالم: «كان في العالم» كنور.
- ٩ — «الكلمة» أتى إلى خاصته: كلمة الله في الأنبياء — «المسيّا».

١٠ — «الكلمة» «صار جسداً».

١١ — «الكلمة» في هيكله الجديد: «حلّ (سكن) بيننا».

١٢ — استعلان الكلمة المتجسد أنه «ابن الله» مملوء نعمة وحقاً.

١٣ — استعلان الكلمة كملء الكنيسة: نحن جميعاً مملوؤون فيه.

١٤ — استعلان الكلمة في شخص «يسوع المسيح» والعهد الجديد والإعلان عن انتهاء

عهد الناموس: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً».

تأتي هذه الآية موازية للآية السابقة ومرتبة عليها. فظهور النعمة والحق بالملء الإلهي الكلي هو إيدان بانتهاء عصر الناموس، عصر العقوبة والظل. وظهور شخص يسوع المسيح الذي تفسيره اللاهوتي من الآيات السابقة هو «يسوع» = الكلمة المتجسد، «المسيح» = المسياً الآتي، هو إيدان حتمي بانتهاء عصر موسى.

فكون الله قد بدأ «يكلمنا في المسياً ابنه»، فهذا معناه أن عهد «الكلمة في موسى والأنبياء» انتهى، والآن قد صار يكلمنا الله بلا وسيط! ليس على أساس القانون والعصا بل بالنعمة والحق.

فعهد المسيح أو المسيحية مبنيٌّ على النعمة، النعمة تغطّي حياة المسيحي منذ أن يعتمد وحتى يلتحق بوطنه السمائي. ولكن ليست النعمة عطية واحدة على وتيرة واحدة، بل هي نعمة بانية وممتدة لملء حياة المسيحي: «نعمة فوق نعمة». والنعمة ليست وحدها تبني وليست وحدها توصل، بل النعمة في المسيحية مؤسسة على الحق، ليس على الشكل ولا الخارج أو الشبه أو الزائل، بل هي نعمة الله الموصلة إلى الله.

ولكي يتأكد القارئ أن «اسم يسوع المسيح» كان يملأ فكر ق. يوحنا ويُملّي عليه كل استعلاناته بتدرجها المدهش هذا، نقدم هاتين الآيتين:

— «وهذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ٣)

— «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو ٢٠: ٣٠ و٣١)

هذا وإن اسم «يسوع» يحتل أكبر مساحة إنجيلية على الإطلاق عند ق. يوحنا، فقد ورد ٢٣٧ مرة في حين أنه ورد في إنجيل ق. متى ١٥٠ مرة وإنجيل ق. مرقس ٨١ مرة وإنجيل ق. لوقا ٨٩ مرة.

ولقد انتحى كثير من الشراح نحو كشف المفارقة بين الناموس والنعمة، أي العهد القديم والجديد، أو موسى والمسيح. ولكن في الحقيقة نحن نسترشد بقول المسيح نفسه ما جئت لأنقض بل لأكمل: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل.» (مت ٥: ١٧)

ولكي نوضح مدى التكميل أو مدى الكمال في ناموس المسيح بالنسبة لناموس موسى، نقدم للقارئ هذه الوصية الجديدة لعهد ناموس النعمة: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً.» (مت ٥: ٣٨ و ٣٩)

إذن، إذا أردنا أن نعمل مقارنة بين عهد الناموس وعهد النعمة، فهذه المقارنة لن تخرج عن قول المسيح أنها مقارنة بين الناقص والكامل الذي أكمله المسيح على الصليب بموته الفدائي: «قد أكمل» (يو ١٩: ٣٠)، فكان هو سر النعمة كلها.

فكل ما كان ناقصاً في ناموس موسى، أكمله المسيح في نفسه ثم أعطاه لنا مجاناً. وهذه هي النعمة كل النعمة. أو بأكثر دقة ووضوح فإن المقارنة بين الناموس والنعمة هي في حقيقتها مقارنة بين الجسد والروح!

ولكن نقص الناموس لم يكن بسبب موسى ولا من الله الذي أعطاه، فالمسيح يقول بهذا الصدد: «ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (مت ٥: ١٧ و ١٨). ولكن الناقص كان ناقصاً بسبب الذين أعطي لهم. والمسيح يقول بهذا الصدد: «فتقدم الفريسيون وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليحربوه. فأجاب وقال لهم: بماذا أوصاكم موسى؟ فقالوا: موسى أذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق. فأجاب يسوع وقال لهم: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية. ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.» (مر ١٠: ٢-٩)

و بولس الرسول يؤكد ذلك تأكيداً واضحاً أن الخطية كانت قد ملكت الإنسان واستعبدته حتى صيرت له الصالح موتاً: «لأن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية خدعتني بها وقتلتني، إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة. فهل صار لي الصالح موتاً؟ حاشاً، بل الخطية، لكي تظهر خطية مُثبِتة لي بالصالح موتاً، لكي تصير الخطية خاطئة جداً بالوصية» (رو ١١: ١٣-١١). وهذا هو سرُّ الإثم الكائن في العالم الذي دُوِّخ الإنسان. أي أن علة ضعف الناموس وعجزه عن أن ينشئ شيئاً صالحاً للإنسان هي الخطية التي كانت قد ملكت وسادت وقتلت!! وهذه العلة — أي الخطية — التي ألغت قوة الناموس ومسخت روحانيته وجعلته غير صالح، مع أنه صالح، هي التي ألغاه المسيح، وقتلها في جسده. وهذا ما يوضحه بولس الرسول أيما توضيح:

— «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد (الناموس) بل حسب الروح (النعمة) لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد اعتقني من ناموس الخطية والموت. لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان (الإنسان) ضعيفاً بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية (أي بدون خطية) ولأجل الخطية (التي عطلت عمل الناموس)، دان الخطية في الجسد (الصليب) لكي يتم حكم الناموس فينا (ونأخذ صك براءة ممضي باسم المسيح ومختوم بالدم) نحن السالكين ليس حسب الجسد (الناموس) بل حسب الروح (الإنجيل)». (رو ٨: ١-٤)

فعوض الخطية أعطى المسيح النعمة!! وعوض حكم الناموس بموت الخاطئ، أعطى المسيح برّه الشخصي لتبرير الخاطئ، ليحيا إلى الأبد ولا يموت أبداً.

وبينما كان الناموس وكل وصايا وفرائض وعبادة الناموس بالجسد هي شبه السمويات وظلُّها، إذ بالمسيح يجعل الوصية والعبادة بالروح والحق هي السمويات عينها التي جاء منها، وهي طبيعة الله وحياته التي جاء ليخبر بها.

١٨: ١ «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر».

هذه هي آخر آية في منظومة مقدمة إنجيل يوحنا. وهي بمثابة الرتاج أو صمام الأمن الذي يغلق في وجه كل محاولة كانت أو ستكون، إن هي وقفت لتناطح صاحب هذا الاسم الأخير المستعلن — يسوع المسيح — في كونه الوحيد بصفته الابن المحبوب لله، الذي استطاع ويستطيع إلى الأبد أن يخبر عن الله أبيه الخبر اليقين والبشارة المفرحة. فليست هذه الآية تقع كسابقتها في مواجهة موسى أو

غيره من الأنبياء، بل وكل ادّعاء يجيء ليتحدث ويخبر عن الله: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتُم هيئته» (يو: ٣٧: ٥). ولكن كان همُّ ق. يوحنا ليس إسكات أصوات ادّعاء المتكلمين بضم الله في زمانه أو غير زمانه، بل كان همُّه بالأساس إرساء قاعدة حق إنجيل يسوع المسيح ابن الله، على أساس أن يسوع المسيح ابن الله هو الاستعلان الكامل والوحيد لله، الذي به نرى الله، وفيه نرى الآب، ومنه نعرف كل ما عند الآب:

+ «وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم.» (يو: ٢٦: ٨)

+ «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله.» (يو: ٨: ٤٠)

+ «أعمالاً كثيرة حسنة أريْتُكم من عند أبي.» (يو: ١٠: ٣٢)

+ «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه.» (يو: ١٤: ٧)

+ «لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي.» (يو: ١٥: ١٥)

+ «لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية.» (يو: ١٦: ٢٥)

فجميع طرق الاستعلان السالفة لم تكن كافية لتبلغ الإنسان حقيقة الله؛ وبواسطتها جميعاً أخفق الإنسان أن يرى الله أو يسمع صوته. أما في الابن الوحيد الكائن في حضن الآب فقد استعلن الله، مرئياً ومسموعاً:

+ «الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو: ١٤: ٩)

+ «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني.» (يو: ١٤: ٢٤)

والآية بحد ذاتها تضع الله في السمو المطلق وتقع الإنسان الذي انطلق يفحص الله أن يعود إلى بيته ودائرة محدوديته. كما تقع الإنسان القلموح الذي يتحرق اشتياقاً وحباً لله أن يلتجئ إلى الابن المتجسد ليُشبع منه وفيه كل اشتياقاته وحبّه، فالابن المتجسد هو الابن المحبوب الحامل ليس فقط لمعرفة الآب بل لكل حبه. فـ «المونوجانيس» كصفة الابن يجمع صفتين جوهريتين لله: البُنُوَّة الفريدة، والحب الفريد.

فلو انتبهنا إلى الآية السالفة (١٧) باعتبارها الآية الفاصلة بين العهد القديم والعهد الجديد سواء من جهة طبيعته أو صاحبه: «الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صار»، نجد أنها ينقصها المزيد من التوضيح. وهذا هو الذي تكمله الآية التي نحن بصدددها. فموسى وكل الشخصيات العظيمة والمقرّبة إلى الله على مدى العهد القديم كله لم يحظ أحد منها برؤية الله رؤية حقيقية، وإنما كان كله بالشبه، وبالتالي تكون كذلك كل توصيات ووصايا العهد القديم هي حتماً «شبه السماويات وظلّها»، وحتى الإنسان نفسه، كل إنسان، فهو مخلوق أصلاً على شبه الله

وصورته. ولكن الآن وفي المسيح ليس الأمر كذلك، فهو الصورة الحقيقية لله، بل هو «الحق» في ذاته وفي كل أقواله:

— «فقال (موسى) أرني مجدك. فقال أجيز كل جودتي قدامك وأناادي باسم الرب قدامك. وأترأف على مَنْ أترأف وأرحم مَنْ أرحم. وقال لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش.» (خر ٣٣ : ١٨-٢٠)

هذا في مقابل صاحب العهد الجديد ومؤسسه يسوع المسيح الابن الوحيد، فهو ليس كذلك بل هو وكما أشارت الآية السابقة ملء النعمة والحق:

«(ابن) وحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً». و«الابن الوحيد (الإله) الذي هو في حضن الآب هو خبّر».

فهو الابن الحقيقي والفريد لله، الذي ليس فقط رأى الله ويعرفه بل هو قائم فيه في موضع الحزن أو على الأصح في حالة الحزن أي العمق الخفي والخاص والسري جداً، المستريح والفعال في الله الذي لا يحتله إلا «الابن الحبيب الذي سُرت به» *μονογενής*.

«في حضن الآب»:

يلاحظ أنها لم تحيء *ἐν τῷ κόλπῳ* ولكن *εἰς τὸν κόλπον*. وهذا في التعبير اليوناني الدقيق يفيد ليس «في حضن الآب» بل «في داخل حضن الآب». وحتى هذا الوجود في الداخل ليس جامداً غير متحرك، بل هو وجود «متداخل» أي دائم الاتجاه نحو الحزن الأبوي^(٣٩). وبهذا يصبح هذا التعبير مشابهاً للتعبير الأول في الآية الأولى *πρὸς τὸν θεόν* «عند الله»، فهو وجود قائم متداخل ممتد في الله، وبذلك يكون التشديد في المعنى متركّزاً نحو كيفية الصلة الذاتية «الابن بالآب»، فهي صلة تداخل وتضام كلي ومطلق، لأن الابن والآب هما الواحد المطلق.

وبهذا التعبير اللاهوتي الدقيق يمتنع تصوّر الثنائية بين الآب والابن، لأنه حتى بعدما أرسل الابن في مهمة الخلاص العظمى حسب مسرة الآب وحيه للعالم والإنسان، ظل الابن هو كما هو قائماً في الآب ومتجهاً نحوه بتداخل كلي ومطلق، فهو كان على الأرض وفي السماء، في جسد

^{٣٩} J. De La Potterie (*Biblica* XLIII 1962, pp. 366-387) (365):

[Tourné vers le sein du Père, comme pour décrire le Fils, éternellement concient de recevoir de ce sein toute sa vie, tout son être.]

[«المتجه نحو حضن الآب»، وكأنه بهذه العبارة يريد أن يصف الابن بإحساسه الأزلي أنه يتقبل من هذا الحزن

حياته كلها بل وكيانه كله!]

إنسان، وهو هو في الآب دون أدنى مفارقة ذاتية «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس في عظاته على إنجيل يوحنا:

[لقد أضيف الإنسان إليه، أما الله فلم يُفقد منه، لقد أحلى نفسه ليس بأنه فقد شيئاً مما له، ولكن بأخذه لنفسه ما لم يكن له.] (٤٠)

من موضع هذا الحزن، أو على الأصح من واقع هذه الحالة، نخبرنا الابن عن الله كأبيه، أو بالحرى يكشف لنا عن حقيقة طبيعة ذات الله.

وينبغي التعبير عن ذلك هنا في الآية باللغة اليونانية بترجمتها الصحيحة عن أقدم المخطوطات، وهو الوضع الذي أخذ به معظم الآباء، هكذا:

μονογενὴς θεὸς ὁ ὢν εἰς τὸν κόλπον τοῦ πατρὸς بذاته في حضن الآب». وهي الصفات الكاملة التي كانت تنقص ألقاب المسيح في الآية السالفة: «أما النعمة والحق فيسوع المسيح صاراً»؛ وهو تعبير يتجه مباشرة نحو العلاقة الشخصية بين الآب والابن، وتفيد أن الابن كائن بالحب في الآب، والمسيح عبّر عن هذه العلاقة أصدق تعبير بقوله:

— «لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.» (يو ٨: ١٦)

— «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه.» (يو ٨: ٢٩)

— «وتتركوني وحدي، وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو ١٦: ٣٢)

— «أنا في الآب والآب فيّ.» (يو ١٤: ١٠)

وهذا هو التعبير الشخصي المعبر عن علاقة الكينونة التي تربط الآب بالابن، مقابل التعبير الفكري الذي صور علاقة الكلمة بالله على مستوى العمل والخلق، «والكلمة كان عند الله». فإذا أردنا أن نقارن بين التعبيرين فإنه يكون هكذا: فكما أن الكلمة تكون دائماً في حضن العقل، أو كما يكون الفعل مخفياً في الإرادة، هكذا الابن في حضن الآب.

وهذا الاستعلان يخدم قضية الإنجيل كله. لأنه بالتالي يكون «كل ما يقول ويعمل ويشرح»

عن الله «أبيه»، هو الحق الواحد والوحيد لأنه يختبرنا بما يرى ويعرف.

ويجيء الفعل «يختبر» ἐξηγήσατο = يحمل هذه المعاني مجتمعة، فهو يختبر بالإنجيل الذي يشرح ويفسر ما خفي عن الله ويعلم ويوضح.

ومعروف أن اللغات الحديثة أخذت هذه الكلمة ἐξηγήσατο دون أي تحريف لتجعل منها نفس المعنى أي الشرح والتفسير والتوضيح للأمور المخفية (علم التفسير = exegesis). وفي الحقيقة إن المعنى لهذه الكلمة يتسحب على المسيح نفسه بكل ارتياح، فهو بذاته وبحياته وتجسده هو هو ἐξήγησις الآب. فالمسيح هو «الله المعلن»، «والله هو من أعلنه المسيح» في ذاته وأقواله وأعماله. بل إن المسيح في عُرف الآباء القديسين هو «الإنجيل» لأنه هو «الخبر المفرح»، أليس هو «الكلمة»؟

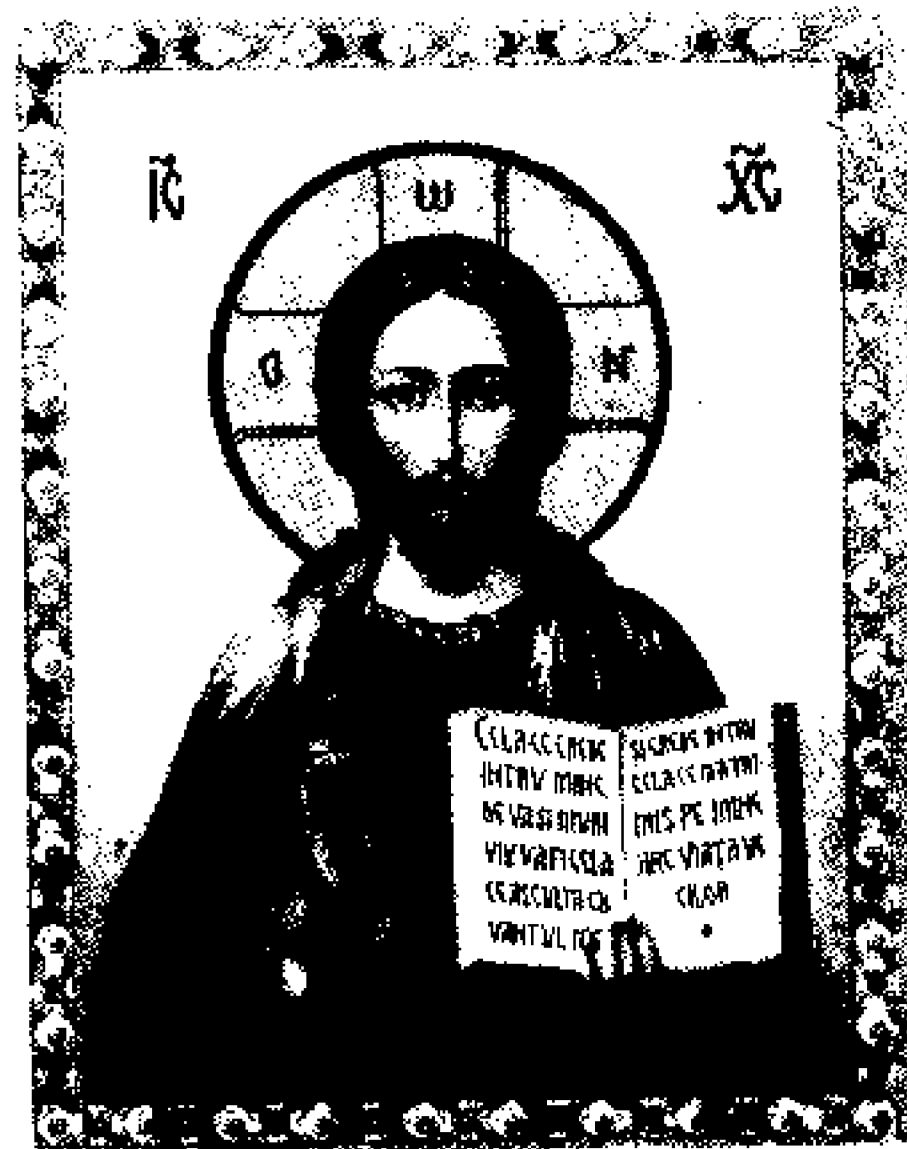
وبهذه الكلمة يسلم ق. يوحنا فكر القارئ إلى بداية رواية الإنجيل مباشرة في الآية القادمة بثقة وبكل هدوء. فانظر، أيها القارئ، وتعجب لهذه الدقة المتناهية وهذا الحبك اللفظي والمعنوي، هذا ليس حرفاً بل هو روح!!

كما يلاحظ أنه عن قصد ودراية يقدم لنا ق. يوحنا هذه الآية الأخيرة واصفاً صاحب العهد الجديد بل وصاحب الإنجيل بهذه الصفات، فهو يقصد التأكيد على أن كل ما سيحيى — في هذا الإنجيل — على لسان المسيح هو «الحق»، فهو أولاً «كلمة الله»، وهو «المملوء نعمة وحقاً»، وهو «الابن الإله القائم في حضن الآب»، هذه هي مؤهلات الذي أتى بالإنجيل. وهو يختبرنا، نحن البشر، خبر القُرْبَى، والسُّكْنَى في البيت الواحد. فهو يكلمنا ليس بالرؤيا ولا بالحلم، «فالكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا»، فهو وهو كونه «كلمة الله» يكلمنا «بالجسد» كإنسان وهو الله.

وفي ختام هذه المقدمة يمكن أن نضع أمام القارئ أهم وأخطر الكلمات التي جمعها وكثسها ق. يوحنا في المقدمة، والتي ستقوم عليها كل رواية الإنجيل باعتبارها أساس لاهوت إنجيل يوحنا:

الحياة، النور، الظلمة، الشهادة، العالم، المجد، ابن الله الوحيد، الحق، يُقبل، يؤمن، اسمه، يولد من الله.

أما الكلمات الهامة جداً التي جاءت في المقدمة فقط واختفت من باقي الإنجيل فهي «الكلمة»، «النعمة»، «الملء»، لأنها بعد التجسد أخذت صورة الفعل والعمل. فالكلمة صار متكلماً، والنعمة صارت عطية، والملء صار توزيعاً.



القسم الثاني من المقدمة

الشهادة μαρτυρία

١:١٩-٥١

وهي تختص بالشهادة أن يسوع هو المسيح ابن الله . وهي تشمل :

١ - شهادة القديس يوحنا المعمدان - وهي تمثل شهادة الوحي النبوي بالإلهام . وقد جاءت على عدة مراحل :

أ - الجواب بالنفي : ١:١٩-٢٢ .

ب - الجواب بالإيجاب : ١:٢٣-٢٨ .

ج - الشهادة للمسيح : ١:٢٩-٣٤ .

د - المعمدان يبدأ يسلم الوديعة : ١:٣٥-٣٧ .

٢ - شهادة التلاميذ - وهي شهادة الرؤية الإيمانية « وقد رأينا مجده » ἰθυσάμεθα وهي تشمل :

أ - شهادة أندراوس : ١:٤٠-٤٢ .

ب - شهادة فيلبس : ١:٤٣-٤٦ .

ج - شهادة ثنائيل : ١:٤٧-٥١ .

١ — شهادة القديس يوحنا المعمدان:

لقد سبق للقديس يوحنا أن أورد المعمدان كشاهد مرتين:

الأولى: ١: ٧ كشاهد للنور: «هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته». وهذه الشهادة لا تدخل في سياق التاريخ، بل وُضعت كمعيار شخصي للمعمدان تحدد حجم شخصه وعمله.

والثانية: ١: ١٥: «يوحنا (المعمدان) شهد له ونادى قائلاً هذا هو الذي قلتُ عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي (١: ٢٧) لأنه كان قبلي».

وهي منسوبة لشهادة قادمة ١: ٢٧، التقطها ق. يوحنا وقَدَّمها عن موضعها لتخدم واقعية «الكلمة صار جسداً»، أي أن الكلمة دخل التاريخ في حيز محدد جاء ترتيبه بعد المعمدان: «يأتي بعدي»؛ ولكن، بسرعة، يستدرك المعمدان هذه المعلومة الزمنية بإعطاء معلومة غير زمنية عن الكلمة الذي صار جسداً بأنه كان قبله، ليس زمنياً، بل كيانياً، بما يفيد تجاوز البشرية ككل. وهذه الشهادة سجلها ق. يوحنا الرسول ليؤكد بها ضمناً تدنّي رتبة المعمدان عن رتبة المسيح: «صار قدامي لأنه كان قبلي».

وهنا في ١: ١٩ يبدأ ق. يوحنا إنجيله تاريخياً على مستوى الوقائع اليومية، مبتدئاً بالمعمدان حسب التقليد الرسولي الذي استلمته الكنيسة وتسجّل لها في سفر الأعمال: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج: "هذه المعمودية يوحنا" إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا.» (أع ١: ٢١-٢٢)

وهكذا يحصر التقليد الرسولي في سفر الأعمال — بفم بطرس الرسول — زمان ظهور المسيح وعمله، أي إنجيل البشارة ابتداءً من المعمدان.

والقديس بطرس يؤكد ذلك مرة أخرى وفي سفر الأعمال أيضاً: «أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرّز بها يوحنا — يسوع الذي من الناصرة كيف مسح الله بالروح القدس والقوة.» (أع ١٠: ٣٧-٣٨)

وواضح أيضاً من شهادة بولس الرسول أنه استلم هذا التقليد الرسولي وعلم به كما هو: «فقام بولس وأشار بيده وقال: ... أقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل.» (أع ١٣: ١٦ و٢٣ و٢٤)

وهذا هو النص الذي ابتدأ ق. مرقس به إنجيله : «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك . صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الرب، اصنعوا سُبُلَه مستقيمة . كان يوحنا يُعمّد في البرية ويكرز بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا .» (مر ١ : ١-٤)

أما ق. يوحنا فلم يلتفت إلى شخصية المعمدان في حد ذاته، مثلما سارت عليه الأناجيل، من حيث ميلاده وحياته في البرية ولبسه وأكله وشربه والظروف التي أحاطت به جميعاً، كذلك موقفه مع هيرودس رئيس رُبْع الجليل وهيروديا والسجن والسيف، والأمور التي انتهت بموت المعمدان. كما لم يذكر ق. يوحنا خدمة المعمدان الفريدة من نوعها في أخذ اعترافات الشعب وقبول توبتهم قبل التعميد، الذي كان في اعتبار الإنجيليين — وخاصة ق. متى — نقطة انطلاق لخدمة المسيح، إذ اعتبر أن عماد المسيح بعمودية التوبة على يد المعمدان هو عملية استقطاب عظمى ينوب فيها المسيح عن كل الشعب تائباً : «هذا هو ابني الحبيب الذي سُرتُّ به»، وذلك عوض إسرائيل الابن الذي أخطأ وزاغ وأعوزه الخلاص. ولكن حتى هذا الزخم الروحي في التقليد الإنجيلي تحاشاه ق. يوحنا، لأنه كان مهتماً في مستهل إنجيله بكشف العلاقة بين المعمدان كمجرد إنسان مُرْسَل من الله، وصوت صارخ يشهد للمسيح، وبين المسيح كنور حقيقي يضيء لكل إنسان.

أما بعمودية التوبة التي هي وظيفة المعمدان، فيراها ق. يوحنا أن هدفها الوحيد هو استعلان المسيح^(٤١) : «في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه»، وذلك على مستويين :

المستوى الأول : أن بدء عمل المعمدان بإعلان بعمودية التوبة للشعب هو، بحساب الساعة السماوية، إيدانٌ بافتتاح عهد المسيا أي المسيح، وذلك بعلامة سماوية لقّنها الروح للمعمدان، حتى إذا رآها يشهد في الحال لصاحب العهد الذي من أجله جاء ليفتح الطريق أمامه .

المستوى الثاني : أن بخدمة التوبة والتعميد بالماء و«مغفرة خطايا» تفتح بصيرة الشعب فينتهيأ لقبول المسيا : «ليؤمن الكل بواسطته». وهذا هو ما قصده إشعياء وردّده المعمدان من «إعداد الطريق قدامه» (راجع لو ١ : ٧٦ و٧٧).

هدف إنجيل يوحنا كان منصباً على تجميع الشهادات الموثوق بها للمسيح. لذلك نجده يهتم جداً في بدء ذكر المعمدان (١ : ٦) أنه كان مُرْسَلاً من الله ليشهد : «كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله

(٤١) ارجع إلى كتاب أعياد الظهور الإلهي للمؤلف (طبعة ١٩٨٠)، وعلى الأخص إلى مقالة «عيد الغطاس رؤية وشهادة»، (ص ٢٦٩-٢٧٨) — وهي أصلاً عظة عيد الغطاس سنة ١٩٧٧.

اسمه يوحنا هذا جاء للشهادة». كما يعتني ق. يوحنا أن يجعل شهادة المعمدان القائمة على رؤيته للروح القدس، وهو يستقر على المسيح وسماعه الصوت الآتي من السماء، أن تشهد لبُثُوثه لله — ليست شهادة ذاتية تركز على موهبة طبيعية أو إهام خاص بالمعمدان — ولكن تركز على توجيه إلهي وإعطاء علامة سماوية خطيرة يلتزم بها المعمدان للاستعلان، وذلك ضماناً لصدق الشهادة ودقّتها: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظْهَر لإسرائيل، لذلك جئت أعمّد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمّد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس، وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ١: ٣١ و ٣٣ و ٣٤)

١٩: ١ «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت.»

لأول مرة يذكر ق. يوحنا اللاويين! فالمسألة مسألة **تطهير**، وهي الأمور الخاصة بهم وخدمهم. أما الكهنة، فالأمر بالنسبة لهم جدّ خطير، لأن هناك إجراء طقسي عام على مستوى الشعب: اعتراف وتوبة وتعميد، أمر لم يحدث من قبل في تاريخ شعب إسرائيل وهو من صميم اختصاص الكهنة.

أما كلمة «اليهود» فهي تعبير عن الهيئة العامة الرئاسية للشعب أي السنهدريم. فقد شكّل لجنة لتقصّي الحقائق. إنه تكليف من الناموس، هو قانون يرتكز على وصية: «وأما النبي الذي يطفئ فيتكلم باسمي كلاماً لم أُوصِه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلّت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصِرْ، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تَخَفْ منه.» (تث ١٨: ٢٠-٢٢)

وهذه الوصية أعطهاها الله — أي جاءت في التوراة — بعد ذكر الوعد بمجيء «النبي» من وسط شعب إسرائيل مثل موسى، ويقصد «المسيّا»: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك، مثلي، له تسمعون.» (تث ١٨: ١٥)

ماذا حدث؟

ق. يوحنا يعتمد هنا اعتماداً كلياً على رواية الأناجيل فيما يخص الأمور التي واكبت قيام المعمدان بوظيفته «كمُرْسَل من الله» لأخذ اعترافات الشعب والتعميد وقبول التوبة.

لم يكن من السهل أن يتحرك السنهدريم ويرسل هذه اللجنة للفحص، إلا بعد أن بلغت حركة المعمدان أقصاها بعماد المسيح وإعطاء الشهادة العلنية أن: «هذا هو ابن الله»، و«حَمَلَ الله الذي يرفع خطية العالم». أمرُ أصحاب الرؤساء على كل مستوياتهم بالذهول والإضطراب والقلق. هل جاء المسيا؟ وكيف لم يَرِ أولاً على الهيكل والسنهدريم؟ ويتعرف عليه الرؤساء أولاً ويخضع لموجبات الناموس؟

— «فأجابهم الفريسيون: أعلِّمكم أنتم أيضاً ضللتُم، أعلِّم أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون.» (يو: ٧: ٤٧-٤٩)

الأخبار ترد للرؤساء كل يوم: جوع الشعب الحاشدة تتسابق لعبور الأردن لرؤيته والإستماع إليه، شخص مديد القامة نحيف، متمنطق بالجلد، وجهه كالنار، نبيُّ الهيئة، جهوري الصوت، يوبِّخ الفريسيين، وهم أمراء التعليم؛ يعنّفهم أعنف توبيخ، يدعوهم أولاد الثعابين، ومعهم ومثلهم الصدّوقيون، يهددهم ويهدد رؤساءهم بالقطع، كشجرة لا تصنع ثمراً جيداً مأواها النار!

أورشليم واليهودية وجميع الكور وما حول الأردن، جماعات جماعات، تزحف بلا توقف تبكي وتنوح معترفةً بخطاياها، تتسابق لتعتمد تحت يده. هو لا يكفُّ عن فضح خطاياها، كلّ فئة بعارها، وكل وظيفة بعثراتها، وهي ترتعد تحت تهديد قضاء الله الخارج من فمه كالسيف. لقد هطلت السماء، بعد أن توقف غيث الله أربعمئة سنة لم يسمع فيها أحدٌ صوت نبي.

أما تقليد الأناجيل الأخرى فيعطي صورة لعماد المسيح تحت يد يوحنا المعمدان: المسيح قادم، المعمدان يلمحه فيخفّض صوته وترتخي يداه، يخرج من الماء ويقف أمامه خاشعاً، المسيح يدعوهُ لمتابعة عمله، المعمدان يتنحّى ويطلب أن ينعكس الوضع، المسيح يدرك أنه مولود تحت الناموس، يطلب: «ينبغي أن نكمّل كل برٍّ» ليكفي احتياج كل العالم، المعمدان يُجري الطقس والعهد ينتقل من يد ليد ومن الماء إلى الروح، السماء تنفتح، الروح القدس ينحدر «ليستقر» عليه واستقر ليفطيه، صوت الآب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». المعمدان يؤمن ويشهد على مرأى ومسمع من تلاميذه، وينقص لينطفئ، لأن النور الحقيقي جاء. ولكن إنجيل يوحنا لا يذكر عماد المسيح.

«وهذه هي شهادة يوحنا»: ἡ μαρτυρία :

الشهادة للمسيح عند ق. يوحنا تُعتبر ذات قيمة إيمانية عظيمة، نظراً لأن الكلمة المتجسد ابن الله لم يكشف لاهوته بصورة علنية ولا طرح طبيعته ومجده للمارة، بل اختزنها للعين المؤمنة لترى

وتشهد وتبلغ القصد. لذلك اعتنى ق. يوحنا ليقدم في بداية إنجيله شهادات قوية وقوية من أشخاص موثوق بهم تحت عهده كتلميذ محبوب مختار ومؤتمن، يسجل لهم كمن سمع وعان بنفسه. أليس هو تلميذ المعمدان أصلاً؟

«حين أرسل إليه اليهود من أورشليم كهنة ولاويين»:

يلاحظ القارئ مقدار الحبك القانوني بل القضائي الذي خرجت من تحت يده هذه الشهادة، فليس عبثاً أن يدقق ق. يوحنا في نوع اللجنة القضائية وتشكيلها القانوني من الطبقتين الموكل إليهما من الله فحص وبحث وخدمة قضايا الشعب: «كهنة ولاويين» (٤٢). وهي مفودة من قِبل محكمة اليهود - الرئيسية في أورشليم - السنهدريم (٧١ عضواً). وليس ذلك فقط بل عاد ق. يوحنا في معرض الإنجيل ليكرر أن شهادة المعمدان معتمدة لدى المسيح نفسه أنها حق!

«الذي يشهد لي هو آخر (المعمدان) وأنا أعلم أن شهادته التي يشهد بها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق» (يوه: ٣٢ و ٣٣). وكل هذا التوثيق الذي يوثق به ق. يوحنا شهادة المعمدان، إنما هو ليقبل القارئ هذه الشهادة لتكون عنصراً لإيمان لا يتزعزع. ومرة أخرى ننبه ذهن القارئ إلى مدى أهمية القول إننا نؤمن بكنيسة واحدة «رسولية». فبالرسل ومن خلال الرسل استعلن المسيح نفسه لهم، وشاهدوه وشهدوا له، واعتمدنا نحن على مشاهدتهم وشهادتهم.

«ليسألوه مَنْ أنت»:

هنا يلد لنا أن نكرر ما قاله ق. يوحنا سابقاً عن المعمدان: «كان إنسانٌ مُرسلٌ من الله اسمه يوحنا». ولكن من الأمور البديعة الملفتة للنظر التطابق المحبوك بين ما قاله ق. يوحنا وما جاء أصلاً في ملاخي النبي عنه: «هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي» (ملا ٣: ١). فالذي قاله الله عن نفسه «هأنذا أرسل»، حوَّله ق. يوحنا كما هو إلى صاحب الإرسالية «مُرسلٌ من الله». ثم حدث التصويب المباشر نحو المسيح أنه هو هو الله «يهوه» العهد القديم المتكلم في فم الأنبياء. وهذا يتضح من قول الله: «أنا (الله) أرسلُ ملاكي "أمامي"»، حيث «أمامي» صارت «أمام المسيح».

(٤٢) اللاويون المذكورون هنا هم الكتبة والناموسيون في الأناجيل الأخرى، وهم من السبط المقدس ولكن ليسوا من عائلة هرون بالذات.

أ - الجواب بالنفي:

كانت التعليمات المعطاة لأعضاء لجنة تقصي الحقائق المرسلّة من السنهدريم هي التحقق الشخصي من المعمدان بأسئلة محددة يتحتم أن يجاب عليها واحدةً فواحدةً، حتى يتحققوا من شخصيته «هل هو المسيّا»؟ وهذا أهم سؤال، لأن الذي شاع آنذ أنه هو المسيّا وقد جاء. لذلك وُضع السؤال قاطعاً مانعاً. «مَن أنت؟»، هذا في البداية.

والذي ضخم في أسماع السنهدريم خطورة قيام هذا النبي هو تجرّؤه على توبيخ الفريسيين أنفسهم بعنف بالغ وهم أئمة الأمة علماء وتعليماً، والصدّوقيين وهم طبقة الكهنوت، مطالباً إياهم بالتوبة وأن لا يتكلموا على برّ أنفسهم أو نسبهم: «يا أولاد الأفاعي مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً.» (مت ٣ : ٧-٩)

ولم يفت على المسيح هذا الشموخ النبوي الذي لم يبلغه نبي، فقال عنه أنه أعظم من نبي: كونه شاهد النور وشهد له، وكونه لم يجفل أمام علماء الأمة ومعلميها، بل ولم يحفل بكاهن أو لاوي!!

٢٠ : ١ «فاعترف ولم ينكر وأقرّ أنني لست أنا المسيح».

رفض المعمدان رفضاً قاطعاً أن يعرف نفسه على قياس أية شخصية سابقة مرصودة في عالم رؤى اليهود: لا المسيّا ولا إيليا ولا النبي ولا أي آخر. لأنه يعلم تماماً أنه جاء ليحمل شهادة لمن هو أقوى منه، الذي يأتي بعده وهو لا يعرفه الآن — فإن أردتم أن تعرفوا من أنا، فأنا صوت صارخ! يعدّ الطريق لقادم.

«اعترف ولم ينكر»:

يبدو النفي هنا أنه للتأكيد. فالمعمدان عُرف لدى الكثيرين أنه المسيّا، والأخطر أن بعضاً من تلاميذه تمسكوا بهذا الإدّعاء وكونوا شيعة تتجده باعتباره المسيّا. (٤٣)

فسؤال لجنة الفحص وتقصي الحقائق لم يُسأل من فراغ، فهي تواجهه بسؤال حرج للغاية، لأن

(٤٣) نظر المدخل ص ٣٨٥؛ وشرح الآيات ١ : ٥-٨ ص ٥٦ و ٥٧.

التلاميذ الذين يتبعونه والشعب الواقف والسامع كان قد أخذ بهيبته وظنوه فعلاً مسيحياً :

— « وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح... » (لوقا ١٥ : ٣)

— « ولما صار يوحنا (المعمدان) يكمل سعيه ، جعل يقول : مَنْ تظنون أنني أنا ؟ لست أنا إياه

لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه . » (أع ١٣ : ٢٥)

هكذا أسرع المعمدان ولم يتنكر لحقيقته مؤكداً ، والتأكيد هنا بسبب الإشاعات التي ملأت اليهودية وأورشليم ، أنني لست أنا المسيح . والجملة المنفية هنا ذات تركيب يوناني خاص $\epsilon\gamma\omega\ \sigma\upsilon\kappa\ \epsilon\iota\mu\iota$ تزيد معنى التصحيح في ذهن السامع وليس كمجرد رد على سؤال ؛ بمعنى : أنا لست أنا المسيح ، فالمسيح في وسطكم ولستم تعرفونه ! وكأنه يرد على أفكارهم وليس على مجرد سؤالهم .

وليلاحظ القارئ أن المعمدان استخدم النفي على كل الأسئلة ، « لست أنا » ، فهنا « أنا » منفية $\sigma\upsilon\kappa\ \epsilon\iota\mu\iota$ ، تاركاً للمسيح فقط $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ « أنا هو » ، أو « أنا القادر على كل شيء » .

٢١ : ١ « فسألوه إذاً ماذا . إيليا أنت ، فقال لست أنا . أأنت ، فأجاب لا » .

« إذاً ماذا » ؟

هنا يتضح للغاية حيرة اللجنة التي تفحص وتتحقق ، لأنهم جاءوا وهم متأكدون أنه سيعلم أنه مسيحياً حسب كل ما سمعوه وحسب سلطان التعليم والتوبيخ الذي في فمه ، بل وحسب جرأته في إجراء التعميد وأخذ اعترافات الشعب وقبول توبتهم ، حتى الفريسيين والصدوقيين ورجال الجيش !

ويلاحظ القارئ أن اللجنة كانت تتوق أن تسمع منه أنه مسيحياً ، لأن الجو الذي ملأ ربوع فلسطين كان جواً ماسيانياً على أعلى درجة ، لأنه بدأ بالحقيقة والفعل حسب وعد كل الأنبياء وبالأكثر ملاخي النبي (٤ : ٥) ، وحسب لغة الملاك لذكريا الكاهن (لوقا ١٧ : ١) أبو المعمدان ، بل وحسب نبوة ذكريا الكاهن نفسه . فهذه الحوادث سرعان ما طار خبرها ليملاً ربوع أورشليم والبلاد . ولكن لم يكن للمعمدان أي حق في هذا الإدعاء قط ، فهو من سبط كهنوتي ، أما المسحياً فهو معروف أنه يأتي من نسل داود سبط يهوذا .

إذاً ماذا ؟ بالأكثر جداً وبحسب الواقع فهوذا المعمدان قد جاء بقوة إيليا وروحه .

« إيليا أنت ؟ فقال لست أنا » :

إذا لم يكن المعمدان هو المسحياً ، فيلزم أن يكون هو الآتي قبل يوم الرب العظيم حسب نبوة

ملاخي. وهنا تعارض واضح أن يقول: «لست أنا». لأن كل الأناجيل الثلاثة تقول إنه إيليا، ومن فم المسيح:

— «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع.» (مت ١١: ١٤)

— «ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم.» (مت ١٧: ١٢)

وهذا التصريح كرهه القديس مرقس في إنجيله (٩: ١٣). وهذه الإعتمادات كلها قائمة على نبوات واضحة (٤٤):

ملاخي ٣: ١ (٥٠ قبل الميلاد):

«ها أنا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي. ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرون به، هوذا يأتي، قال رب الجنود.»

ملاخي ٤: ٥:

«ها أنا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم المخوف، فيردّ قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعني!»

إشعيا ٤٠: ١-٥ (دُعِي للنبوة حوالي ٦٠٠ قبل الميلاد):

«عزّوا عزّوا شعبي، يقول إلهكم، طيّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفي عنه... صوت صارخ في البرية أعدّوا طريق الرب قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وطاء يرتفع، وكل جبل ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً، فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر معاً، لأن فم الرب تكلم.»

لقد احتار جميع الشّراح لإنجيل يوحنا في هذا التعارض، لأن شخصية إيليا مهيأة من كل الوجوه بحسب تقارير الأنبياء في العهد القديم أن تكون هي الشخصية المسيّانية الأولى قبل المسيح، فهو رُفِعَ إلى السماء حيّاً (٢ مل ١١: ٢) باستعداد المجيء، وهو الذي ربط السماء فلم تمطر ثلاث سنوات، ثم هو الذي صُلّيَ فهطلت الأمطار؛ إمعاناً في تعريفنا بشخصيته أنه أعطي أن يتعامل مع

(٤٤) في محاورات القديس يوستينوس مع تريفو اليهودي يوضح أن التراث اليهودي يقول إن السيّا سيظل غير معروف، وحتى هو نفسه سيظل غير عارف لنفسه ولا قوة له، حتى يأتي إيليا ليُمسّحه ويجعله معروفاً عند الجميع.

الله مباشرة. وملاخي النبي يكشف الستار عن شخصية إيليا أنها مُعدّة ليوم الرب العظيم، لردّ القلوب على القلوب أي إعداد طريق الحب الإلهي الذي سينسكب من السماء على كل بشر.

ولكن نحن لا نرى أيّ تعارض إذا تمسكنا بأسلوب ق. يوحنا السري، فالسؤال المباشر للمعمدان: «هل هو المسيح»، كان يعني في ذهن اللجنة الفاحصة أن المعمدان هو شخص المسيح، وعلى السؤال كان الرد القاطع: «أنا لست المسيح». ثم يجيء السؤال الثاني على نفس النمط: «هل أنت هو إيليا»؟ هنا في الحقيقة المعمدان يعلم تماماً أنه يوحنا المعمدان فقط، هكذا وُلد وهكذا تُسمّى وهكذا عاش وهكذا دُعي بالروح ليؤدي رسالة الشهادة. أما النبوات التي قالت إن إيليا يأتي فقد أساء فهمها اليهود بأن إيليا سيظهر بالجسد كإيليا «إيليا أنت»؟ طبعاً لا، أنا يوحنا بن زكريا.

ولكن المعمدان كان يعلم بالروح الذي فيه أنه أخذ من الله قوة إيليا وبأس روحه، وقد مارس القوة في توبيخ معلّمي إسرائيل ورؤسائه، ومارس بأس الروح في معاملته لهيرودس. لهذا كان المعمدان يحمل مؤهلات إيليا، ولكن ليس شخصه ولا جسده؛ لذلك لما أُعطي الفرصة أن يتكلم إيجابياً قال: «أنا صوت صارخ في البرية...». وهي نبوة إشعياء النبي عن مجيء عهد المسيح، عهد «عزاء أورشليم». فهو هنا يصرّح ويعلن ويشهد أنه القادم لإعداد طريق الرب وأنه وإن كان ليس المسيح فهو المتقدّم عليه وظيفياً: «يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ سيور حذائه». وكأنما يقول صراحةً للذي يريد أن يفهم ويؤمن: «نعم أنا الذي قيل عنه إيليا يأتي، ولكني أنا يوحنا».

لأنه في كل شرح للعهدين القديم والجديد معروف أن نبوة ملاخي هي التوضيح الدقيق لنبوة إشعياء، أي أن الصوت الصارخ في البرية هو صوت بروح إيليا وقوته!!

إذن، فإجابة يوحنا وإن كانت بالسلب، فهي حسب أسلوب ق. يوحنا فرصة ليؤمنوا من خلالها — إذا أرادوا — أن هوذا عهد المسيح قد أتى، وهوذا إيليا أمامكم بروحه وقوته، ولكنه لم يسلمهم نفسه ليهزأوا بها، لأنه كمعلمه كان يعرف ما في صدورهم!! لقد أخفى الحقيقة الروحية عن الذين لن يصدقوها وأبقى لهم الجسد!

ثم أليس هذا هو نفس رد المسيح على الثلاثة التلاميذ الأخضاء بطرس ويعقوب ويوحنا، بعد أن أمضوا معه ساعة من ساعات أجماد المجد الأسنى على الجبل المقدس، ورأوا إيليا وموسى في حالة تجلي أيضاً وقد حضرا وتكلما معه، تعبيراً عن التحام العهد القديم بناموسه وأنبيائه بالجديد، وأن

بالتجلي والإستعلان يُدرك المسيح على ضوء الناموس والأنبياء. أما التلاميذ فظنوا أن إيليا لا بد وأن يبقى كما رأوه ليعتدّ للرب حسب وعد النبوة، وأن موسى سيبقى حتماً ليشهد للرب؛ لذلك أسرع بطرس وهو لا يدري ما يقول — لأنه يقول بالروح — أن تُصنع ثلاث مظال واحدة للرب وأخرى لموسى والثالثة لإيليا، هكذا كان منظر العهد الجديد منظوراً في مُخيلة بطرس. لذلك لما ذهبت السحابة (الحضرة الإلهية) ونظروا المسيح وحده تحسّروا. وفيما هم نازلون من الجبل سأله تلاميذه — إن كان إيليا هكذا تركهم واختفى — «فلماذا يقول الكتبة (اللاويون) أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟» (مت ١٧: ١٠)، فكانت إجابة الرب أن إيليا جاء بالروح والقوة في شخص المعمدان ولم ينتبهوا إليه أو يدركوه لأنهم كانوا يعتقدون أنه سيأتي بشخصه وجسده القديم، لذلك أهانوه وقتلوه، نفس الأمر الذي سيقترفونه بجنونهم معي: «فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويردّ كل شيء. ولكنني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا؛ كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.» (مت ١٧: ١١-١٣)

«النبى أنت؟ فأجاب لا»!

ليلاحظ القارئ الإقتضاب التنازلي في النفي، الأسلوب الذي استخدمه المعمدان وكأنه نوع من التحدي. وهذا يظهر في اليونانية بوضوح أيضاً:

١ — لست أنا $\epsilon\gamma\omega\ \sigma\upsilon\kappa\ \epsilon\iota\mu\acute{\iota}$ وتُترجم «أنا لست هو».

٢ — لست أنا $\sigma\upsilon\kappa\ \epsilon\iota\mu\acute{\iota}$.

٣ — لا $\sigma\upsilon$.

شخصية «النبى» هذا لم تكن معروفة لا في أذهانهم ولا في أذهان الشعب. وهي ربما تكون الشخصية التي قال عنها الله (تث ١٨: ١٨): «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»، وهي إحدى النبوات التي تصوّر شخصية المسيا.

وكان رد المعمدان بالنفي، مع ملاحظة أن كلمة «النبى» جاءت معرّفة بـ «أل». فالسؤال لم يردّ «هل أنت نبى؟» وإلا كان الرد معروفاً مسبقاً، فهو كان محسوباً أنه نبى لدى كل الشعب، والمسيح نفسه أمّن على هذا وزاد عليه «وأعظم من نبى».

٢٢: ١ «فقالوا له: مَنْ أَنْتَ لنعطي جواباً للذين أرسلونا، ماذا تقول عن نفسك؟»

ب - الجواب بالإيجاب:

٢٣:١ «قال: أنا صوتُ صارخٍ في البرية قَوْمُوا طريقَ الرب، كما قال إشعياء النبي».

عجيبٌ هو تعبير إشعياء النبي عن الصابغ السابق يوحنا المعمدان هذا، لقد وضعه قبل أن يجيء بستمائة سنة. فهذا التعبير «صوتُ صارخٍ» يخلو من تحقيق الذات بل يفقدها في مسار عملها كالصراخ الذي ما يفتأ إلا ويتلاشى ولا يوجد له وجود. اسمع ما يقوله المعمدان عن نفسه تحقيقاً لهذا الوصف الذي أعطاه إتياء إشعياء النبي: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص»!! وكأنما صراخ الشهادة أضيف إلى المسيح لتتلاشى قوته من الصراخ الشاهد!

لقد تبارى جميع الإنجيليين ليسجلوا له نبوة إشعياء بأكملها خاصة القديس لوقا - حياً وكرامة! أما هو - المعمدان - فاكفى لنفسه بجملتين منها. وهل يحتاج أعضاء لجنة الفحص وتقضي الحقائق الموقرون إلى التعريف بما آلت إليه حال البلاد في عهدهم وما يحتاجه هذا الحال من إصلاح ليناسب الملك الآتي؟

٢٤:١ و٢٥ «وكان المُرسَلُون من الفريسيين. فسألوه وقالوا له: فما بالك تعتمد إن كنت أنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟»

المعنى هنا عميق وخبيث جداً، فهو نوع من الإصطلياد للإدانة. فالتعميد بالنسبة للفكر اليهودي لا يجوز إلا للأجانب الذين يريدون الانضمام للشعب المختار - لأن الأمم أنجاس مناكيد. فكيف يجزئ هذا الإنسان، الذي هو ليس المسيح وليس إيليا وليس النبي، أن يعتمد الأمة المقدسة، والشعب المبارك المختار وكأنه نجس يحتاج إلى التطهير أو غريب عن الله يحتاج إلى التبني؟ إنها إساءة لقداسة الأمة ولكرامة اليهود والرؤساء والسلطات!!

كذلك كان أخوف ما يخافه الرؤساء أن تكون هذه المعمودية مسيانية الهدف، أي خلاصية من قِبَلِ الله، ويجريها إنسان لا يمتُّ للهيئات الكهنوتية والفريسية، فيكون معناه أنهم قد غرلوا. لذلك تركز سؤاهاهم أخيراً في معنى عماده: «لماذا تعتمد؟»

٢٦:١ و٢٧ «أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمد بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه، هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قدامي، الذي لست بمستحق أن أحلَّ سيور حذائه».

وكانني بالمعمدان يقول:

أنا أعمد بماء ومعموديتي ليست كمعمودية المسيّا، فمهما كان مظهرها الجماعي، فهي أيضاً

تمهيد أو إظهار لعمل أعظم هو وشيك أن يقوم به صاحبه القائم في وسطكم . فإن كنتم لستم تعرفونه (وهي خطية اليهود المتكررة على مدى الإنجيل كله) ، لكني أنا أعرفه وأنا بالنسبة له لست أكثر من عبدٍ يحمل له حذاءه ، يخلعه من قدميه : يفك سيوره ، وحتى هذا يكون فوق استحقاقي ومقامي . فعملي كوني أعمد ليس أكثر من عمل خادم يمهد لعمل سيده ليظهره . إذن ، فمعموديتي وخدمتي ينبغي أن لا تقلقكم . ألم يقل إشعيا تمهيداً لعصر المسيا : « اغتسلوا ، تنقوا ، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ، كفوا عن فعل الشر؟ » (إش ١ : ١٦)

وليمتبه القارئ أن المتكلم بهذه الكلمات الإنسحاقية أمام لجنة تقضي الحقائق هو في حقيقته — التي يعرفها المسيح — نبي وأعظم من نبي ، ولم يقم من بين مولودي النساء أعظم منه .

فهل ننسى قامة إيليا الذي أربع قلب ملك ، والذي فلق الأردن بردائه ، وأغلق السماء بكلمة وفتحها بصلاة؟ ومن جهة قوته حتى من جهة الجسد ، دخل سباقاً مع أقوى فرسان إسرائيل في مركبة ملكية فسبق!!

هذا هو روح المعمدان الآن ، مضافاً إليه النور الذي انطبع على وجهه لما تطلع في وجه عريس البشرية ، والسماء مفتوحة ، والروح القدس حائلاً عليه والآب ينادي : « ابني الحبيب الذي به شررت!! »

نحن نمسك القلم عن الإسهاب في دور يوحنا المعمدان في الكرازة وكيف ألهب قلب الشعب من جهة النسك والتقوى ومحافة الله والتوبة عن المعاصي ، لأن هذا الدور لم يشأ ق . يوحنا أن يخوض فيه لئلا تختلط الكرازة في الظل مع الكرازة في النور ، فالمعمدان عند ق . يوحنا لم يجيء ليكرز بل ليشهد .

لذلك وقف أعضاء اللجنة في حيرة من أمرهم ، فقد ذاب قلبهم من هيبة الواقف أمامهم وانسحاق المتكلم في آن واحد ، ولعلمهم انسحبوا من الكبير إلى الصغير كما فعل المشتكون على تلك المرأة البائسة (يو ٨ : ٩)!

ولا يذكر ق . يوحنا ماذا تم من جهة لجنة الفحص ، ولكن الواضح أنها انسحبت دون أي لفست نظر ، فلم تجد في المعمدان ما يقلقها ، هذا بالإضافة إلى أن المعمدان ، وهو كان معروفاً عند الشعب أنه « نبي » ، دخل هذا في الاعتبار لدى اللجنة لأن الرؤساء غير الواثقين من كفاءتهم يخافون الشعب دائماً . كما أن الأنبياء وهم دائماً مرسلون من الله رأساً لم يكونوا في حاجة أبداً أن

يتملقوا الرؤساء أو الشعب، بل على العكس كانت رسالتهم توبيخ الرؤساء وإيقاظ الشعب.

٢٨:١ «هذا كان في بيت عُبْرَة، في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمّد».

أسلوب ق. يوحنا يتميز بهذا الهدوء المفاجيء، فبعد صخب العرض المثير لأسئلة اللجنة المحرجة للمعمدان والتي أثارت القارىء بلا شك، يقطع الحديث فجأة ويذكر جملة غرضية تُنهي المنظر وتُنسي القارىء حرارة المصادمة:

«بيت عُبْرَة»:

واضح من الإسم فعلاً أنها عبر الأردن وكان اسمها «بيت عنيا» في معظم المخطوطات وأهمها. وهذا الإسم بيت عبرة أو عباراه أو بارة مذكور في قس ٧: ٢٤ (أنظر هامش الكتاب المقدس) — ونحن نستفيد من ذكر هذا المكان لأننا نعلم أن المعمدان بدأ كرازته في اليهودية أي على الشاطئ الغربي للأردن: «وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية» (مت ٣: ١). ولكن يبدو أنه بدأ العماد عُبْر الأردن في هذا المكان: «ومضى (يسوع) أيضاً إلى عُبْر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمّد فيه أولاً ومكث هناك.» (يو ١٠: ٤٠)

وهذا يعطينا توضيحاً أن عملية استجواب المعمدان تمت بعد مدة طويلة من بدء كرازته وحتى بعد بدء ممارسته للتعيميد. وفي قوله: «في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه»، يشير هنا إلى المسيح، وليس بالضرورة أنه كان واقفاً فعلاً في هذا الوقت ولكن يقصد أنه قائم بينكم. وفي قوله: «لستم تعرفونه»، بالرغم من الصورة المهيبة جداً التي أعطاها له في قوله أنه ليس مستحقاً أن يحل سيور حذائه، يشير المعمدان إلى جهلهم الفاضح بوجود المسيح، سواء عن عمى قلب أو تجاهل، وفي كلتا الحالتين يصرف أنظارهم عن شخصه هو ليهتموا بمن يستحق الإهتمام!...

مكان البشارة:

أولاً: اليهودية

(١: ٢٩-٥١)

ج — الشهادة للمسيح ابن الله:

١: ٢٩-٣٤:

كان ردُّ فعل حضور اللجنة واستجواب المعمدان وسط الجمع الحاشد، وعودة اللجنة دون اتخاذ أي إجراء، أن زاد حماس الشعب وارتفعت معنويات تلاميذ يوحنا بالنسبة لمعلمهم.

ولكن ظهر من الحديث أمرٌ أذهل تلاميذ المعمدان: مَنْ هذا الذي لا يستحق معلمهم أن يحل سيور حذائه؟ واضح أن اللفظة والتطلع لمعرفة «الأقوى» بلغت ذروتها، ولم يعد خافياً أن المعمدان عمد المسيح ربما دون أن يلاحظ ذلك أحد.

ولكن بعد إخراج أعضاء اللجنة للمعمدان واضطراره للإعلان عن هذا الرجل الذي أتى بعده وهو «قبله»، الذي وإن كان يعمّد فهو يعمّد لحسابه ليُستعلن له وللشعب؛ كان يتحتم أن يعلن عنه بسرعة ليغطي موقفه. لأن من ردود المعمدان يتضح أنه لم يجيء إلا ليعد طريقه — إن كرازة أو تعميداً — فلم يكن الشعب وحده في لهفة أن يعرف المسيح أو تلاميذ المعمدان أيضاً، بل والمعمدان أنفسهم كان وهوميارس تعميده للناس قلقاً يشرئب برأسه ويتلفت يمينا ويساراً لعله يراه فيُخلي ورديته ويعود من حيث أتى. ولكن هذه المرة ليس على مركبته العتيقة وفرسانه النارية الطائرة!!

٢٩:١ «وفي الغد نظريوحنا يسوع مُقبلاً إليه، فقال: هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم».

كل الظروف توحى إلينا أن المسيح كان خارجاً للتو من التجربة مع إبليس. لأننا نعلم من الأناجيل الأخرى أنه بعد التجربة دخل الخدمة وبدأ الكرازة، وهنا في هذه الآية واضح أن المسيح جاء عن قصد، إذ أن خدمته حُرِّي بها أن تبدأ بشهادة وإعلان، كان هو في غير حاجة إليها، ولكن كان الشعب يحتاجها بكل تأكيد، وكانت لحظة تسليم وتسلم: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص». هذا ليس بلسان المعمدان وحده، بل بلسان جميع الأنبياء والعهد القديم بكل مشتملاته.

ويضيف ذهبي الفم أن مجيء المسيح ثانياً للمعمدان بعد عماده كان خصيصاً ليعلنه ويُظهره لإسرائيل:

[لأنه لهذا جاء ليعطي يوحنا المعمدان فرصة لكي يعلن رؤيته (رأيه) ثانية أيضاً لأنه بقوله هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم فإنه يمنع كل شك.] (٤٥)

«هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم»:

كانت ومضة إلهامية نطق فيها المعمدان نطقه الخالد «هذا هو حمل الله...»، شهادة من فوق الواقع والزمن لا تعتمد قط على معرفة لا سابقة ولا لاحقة، ولا تستمدّها من خلفية ذبائح أو

طقوس — كما تاه معظم الشراح — فالمعمدان ليس مشرعاً ولا هو دارس للتشريع، ولا هو جاء ليعيد للشرعية سطوتها المتهالكة ولا مجدها الداوي. ولكن المعمدان كانت وظيفته تدور حول الخطية، هو يعرفها، ويعرف استحالة غسلها بالماء. كان يعلم أنه يغسل بالماء ولا فائدة ولا قيمة إلا مع الذي سيغسل بالروح القدس، فلما رآه كانت الخطية شغله الشاغل الذي ملأ ذهنه، رآه كَحَمَلٍ بلا عيب، بلا خطية! ورآه والروح القدس مستقر على رأسه، ليشير الإشارة الإلهية: أن بهذا يكون العماد، وبهذا يكون الخلاص!!

ولكن أَوَّاه، لقد لمح في عينيه الحزینتين صورة الصليب، وبالنظر المعقول رآه خروفاً قائماً كأنه مذبوح، فلما هتف المعمدان: «هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم» كان ينطق بما يرى! المعمدان رأى ذلك بيقين، ولكنها كانت رؤيا، أما نحن فأخذنا منه أخذاً ودُقنا كيف يرفع الخطية!!

وهوذا العالم وقد صار له موضعٌ في السماء وأمام عرش الله يهتف: «... أمام الخروف وهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً هي صلوات القديسين وهم يترنمون ترنيمة جديدة. قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختمه لأنك دُبِحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة.» (رؤ ٥ : ٨ و ٩)

والسؤال الذي نلقيه على القارئ: لو لم يجيء الحَمَلُ هذا فماذا كان حال العالم اليوم؟ ولكن لا ننسى أن كل ما كان، وكل ما هو كائن من نعم وبركات ومُثَلٍ عليا أخلاقية وروحية في العالم لن تساوي تماماً ثمن الدم المدفوع. لذلك، فحتماً حتماً لا يزال أمام العالم بقية من نعم ومجد وسلام أكثر مما كان!!! لأن الدم لا يزال يتدفق من الخروف القائم كأنه مذبوح!!

المعمدان نبي يستمد أقواله بالإلهام من مصادرها العليا دون سبق إعداد أو معرفة، كالرائي في سفر الرؤيا لما رأى المسيح برؤيا الخلاص كخروف قائم كأنه مذبوح، فلا العين رأت خروفاً ولا المسيح تحول إلى ذبيحة منظورة، ولكن هذه كلها يسميها الصوفيون (The Mystics) رؤيا «التورية»، أي بالنظر المعقول الذي لا يمتُّ للواقع المادي بشيء.

فلما قال المعمدان: هوذا «حَمَلُ الله»، لم يكن قد رأى المسيح حَمَلاً ولكنه رأى مجمل الفداء كله في لمحة ذهنية خاطفة، ورأى الخلاص شاملاً كافياً للعالم، بل ورأى العالم فيه مفدياً، ورأى الخطية بثقلها الدهري ترتفع من فوق كاهل العالم المحني تحتها هذه الدهور كلها، لتوضع فوق المسيح الحَمَلُ، فلا توجد. هذا هو الحَمَلُ الذي سأل عنه إسحق عندما لمح السكين والخطب في يد

إبراهيم أبيه، وهذا هو الحمل الذي تحمله إبراهيم «الله يَبْرِي له» الحمل للمحرقة يا ابني» (تك ٢٢: ٨). نعم لقد رآه الله لنفسه قبل الدهور، وأعدّه بترتيب تسجل في سجلات الملائكة وكل الروحانيين، فباتوا يَعُدُّون الأيام لمجيئه ويُعَدُّون أنفسهم لظهوره. وإن كان في هذا اليوم قد مرَّ على الأرض ولم يلمحه إلاَّ الحاملُ لروح إيليا، فالسمااء عَيَّدت له بطقس «السجود»، اشتركت فيه كل خوارس الملائكة: «ومتى أدخل البكر إلى العالم يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١: ٦)

وإن كان المعمدان الناطق بالروح القدس والناظر بروح إيليا قد لمح «الحمل» وهو رافع خطية العالم، فما ذلك إلا أن الحمل ذاته كان حاملاً على جسده منظر خطايا كل العالم متزاحة فوقه: «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحة وقرباناً لم تُرَدَّ ولكن هيأت لي جسداً» (عب ١٠: ٥). فكان هو الذبيحة الحقيقية لذبائح الرموز كلها، والحمل الحقيقي الذي لا ينبغي قط أن نبحث عن اسم له بين حملان الرموز، لأنه توجد حملان كثيرة ذات مناظر حسنة للغاية: حمل إسحق المذبوح تحت يد أبيه (تك ٢٢: ١٠)، وحملان موسى المتعددة المناظر والمنافع، وحمل إشعياء المساق صامتاً إلى الذبح (إش ٥٣: ٦ و٧)، وحمل إرميا الذي تُعدُّ من ورائه أفكار للهلاك (إر ١٩: ١١) (٤٦)، وحمل بطرس الرسول الذي بلا عيب (١ بط ١: ١٩)، وحمل بولس المكني عنه بالفصح الذي ذُبح (١ كو ٥: ٧)، وحمل سفر الرؤيا القائم كأنه مذبوح وهو الغالب (رؤ ٥: ٦). حملان حسنة كثيرة ولكن ليست كحمل المعمدان ذي الإسم المهيب العجيب: «حمل الله». اسم يَجُبُّ الأسماء جميعاً ويجمع في نفسه قوة الذبائح جميعاً ويفوقها تفوقاً، يكملها على الأرض ويبقى هو هو حمل الله الرافع خطية العالم حتى ملء كل الدهور.

ولا تنس، أيها الباحث المدقق، أن تعريف المسيح بـ «الحمل الرافع خطية العالم» جاء قبل البدء بخدمة الصليب، فهذا التعبير، يُعتبر أقوى وأكبر نبوة عن الفداء الذي سيتم قبل أن يبدأ بلحظات أو قبل الصليب بثلاث سنوات.

ولكن، لو تذكر الحديث الذي تم بين موسى و«إيليا»، وإيليا بالذات مع المسيح على مسمع من التلاميذ على جبل التجلي، وهو حديث مأساوي: «وإذا رجلان يتكلمان معه هما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد وتكلمتا عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم» (لو ٩: ٣١).

(٤٦) الآية المترجمة باللغة العربية لا تحمل المعنى الصحيح فهي مترجمة «خروف داخن»، ولكنها في الترجمة اليونانية الأصلية عن العبرية هي خروف بلا شراي خروف بلا عيب أو خروف طيب هكذا: $\epsilon\gamma\omega\ \delta\epsilon\ \omega\varsigma\ \alpha\rho\nu\acute{\iota}\omega\nu\ \alpha\kappa\alpha\kappa\omega\nu$

٣٠ و ٣١)؛ فهذا هو إيليا يظهر في ملء المجد، ولكن كان حديثه وهمُّه في الخروج العتيد أن يكمله المسيح في أورشليم أي حمله للصليب وخروجه خارج أورشليم ليُصلَّب. ثم علينا أن نتذكر دائماً أن القديس يوحنا المعمدان كان يحيا ويتحرك بروح إيليا، ومعنى أكثر شمولية كان المعمدان شخصاً رؤيويّاً يرى ما لا يُرى.

حتماً احتوت رؤية المعمدان الحَمَل وهو رافع خطية العالم كلّ مضمون المأساة ولكن دون مفردات، فهل تُرفع الخطية بلا ثمن؟ وهل توضع الخطية على الحَمَل دون مساعدة السكين؟ وهل يتحمل حَمَل واحد خطية العالم كله، إن لم يكن هذا العالم بجملته محمولاً أصلاً على كتفيه، والخطية في العالم هي جزؤه الأثقل حملاً؟؟

وبقدر ما تتعدد أسماء خطية العالم بقدر ما يمكن أن تتعدد «وظيفة الحَمَل»، فهو حمل «المحرقة» و«الخطية» و«الإثم»، ولأن العالم وقع تحت أسر الخطية أرضاً صار الحَمَل للعالم «فِضْحاً» أيضاً. فمن العبث أن نسأل المعمدان ماذا كان يرى في ذبيحة الحمل؟ هل محرقة؟ أم فصحاء؟ كل ما يعرفه المعمدان عن يقين أنه فكّ سيور حذائه، وغَسَله بالماء، وأقرَّره من بين الشعب ليكون جاهزاً قبل الرابع عشر (من نيسان) بثلاثة أيام سنين، حسب طقس تقويم الأنبياء، لأن يوم النبي هو بسنة، حسب دانيال.

وليس من الخارج فقط جهَّزه الصابغ السابق لهذا اليوم، بل وحَمَله من الداخل كلّ ذنوب التائبين الذين اعترفوا وتابوا واعتمدوا على يديه: «هذا جاء للشهادة ليشهد للنور ليؤمن الكل بواسطته.» (يو: ١: ٧)

ولكن أليس أيضاً في اسم «الحَمَل» الإلهي ما يُفصح عن وداعة الله ولطفه وحنانه؟ فهو فوق أنه اسم ذبيح؛ فهو اسم الوداعة القادر على الصفح والغفران حسب غنى لطفه كإله وإمهاله وطول أناته، علماً بأن لطف حمل الله يقتاد إلى التوبة ولا يحسبُ للإنسان خطية!

كذلك يلزمنا أن ننتبه إلى الإيجاز الهائل والتركيز المعن في الإختزال في أسلوب المعمدان في هذه الآية. فهو لم يذكر أنواع الخطايا، بل أوجزها في كلمة «الخطية» لكي تحمل المعنى الكلي للخطايا أو «ناموس الخطية الكامل الكائن في أعضائي» حسب تعبير بولس الرسول (رو: ٧: ٢٣). ولكن أيضاً «خطية العالم» لا تزال تحمل أوزاراً أخرى للعالم الثائر على الله، الجاحد لمحبيته، الراضل ليداه الممدودة طول الدهور.

ولم يذكر المعمدان نوع الذبيحة ، بالتالي ، التي سيؤديها الحمل ، ولكنه ركّز تركيزاً في قوتها في كلمة : «يرفع» التي تشمل كل معنى الكفارة والغفران بل والصفح ، بما ينصبُّ على معنى رفع الأثر أيضاً .

يرفع : الذي يرفع = ὁ αἰρων :

جاءت في المضارع بمعنى الذي يرفع ويظل يرفع خطية العالم . وهي الكلمة التي استخدمها ق . يوحنا نفسه في رسالته الأولى ٣ : ٥ «وتعلمون أن ذاك أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية» . وهذا التعبير «يرفع خطية العالم» هو تعبير عميق وجليل للغاية أخذته الكنيسة كما هو وأدخلته في ليتورجياتها (تسبحة الملائكة في صلاة باكر بالأجبية^(١٧)) ، والقسمه السرياني) فصار تعبيراً ليتورجياً جليلاً القدر خاصة عند الغرب ، حيث يقولون قبل تناول مباشرة :
[Agnus Dei qui tollis peccata mundi, miserere nobis] .

[يا حمل الله الرافع خطية العالم ، ارحمنا] .

ولم يذكر المعمدان أيَّ إنسان أو الشعب الذي يشمله عمل الحمل ، بل جمع شمل كل الناس والشعوب معاً في كلمة «العالم» دون أن يحدد ماضياً له أو مستقبلاً ، لكي ينضوي تحت لواء عمل الحمل كل إنسان — كان مَنْ كان — في كل العالم .

٣٠ : ١ «هذا هو الذي قلتُ عنه : يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي» .

المعمدان يكرر هذا الوصف وكأنه يوثق بين الواقع الذي مثله والنبوة التي تحدّد موقعه «هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي...» (ملا ٣ : ١) . ثم يرجع على «الآتي بعده» ليصحح الوضع من جهة الأسبقية في الوجود والكرامة «كان قبلي» «πρῶτός μου» .

والحقيقة التي كانت تشغل بال المعمدان هي الدور الذي وُضِع عليه أن يؤديه ، فقد كان صعباً على نفسه للغاية أن يأتي إليه مَنْ هو أعظم منه ليعتمد منه ، وليس ليعتمد منه فقط ، بل ويأتي نائباً نائباً عن الشعب معترفاً بخطايا أمته وهو ليس فيه خطية ولا شبه شر!! «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلاً : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ ، فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ ، حينئذ سمح

(١٧) جدير بالذكر أن تسبحة الملائكة في الأجبية التي يقال فيها : [يا حمل الله يا حامل خطية العالم ، ارحمنا] هي أقدم نسايح الكنيسة المسيحية . وهي لا تزال تقال بكاملها حتى الآن في كل من الطقس القبطي والبيزنطي واللاتيني .

له .» (مت ٣ : ١٣-١٥)

هذا من واقع إنجيل القديس متى ، حيث يتضح أن المعمدان كان يعرف المسيح وكان يعرف حتماً كل ما لابس ميلاده الإعجازي ، فكان يعرف أنه أفضل منه بالروح . هذا بحسب ما يفهم من مضمون رواية إنجيل القديس متى . لهذا حاول أن يمنع لكي لا يُخجل تواضعه و يضع يده على مَنْ هو أفضل منه . ولكن من رواية إنجيل القديس يوحنا نكمل الصورة أنه بالرغم من أنه كان يعرفه بالجسد ، إلا أنه لم يكن يعرف قط أن هذا هو هو المسيح وأنه هو هو ابن الله .

هذا الإجراء وما لابسهُ — أي تعميد الرب — لم يأت على ذكره ق . يوحنا ، لأن الوصف بهذا التحديد يجعل المعمودية المسيح تُفهم وكأنها دور أساسي في عملية الخلاص ، والحقيقة التي أبرزها إنجيل يوحنا هي أن عماد المسيح لم يكن إلا وسيلة لاستعلان المسيح والتعرّف عليه كما سيجيء على لسان المعمدان في الآيات القادمة .

والتقليد الرسولي والكنسي عامةً ، بل ومفردات اللاهوت الخلاصي ، لا تشير قط أن المسيح اعتمد على يد المعمدان عن الخطاة ، أو اعترف بالخطايا عن الخطاة ، أو تاب عن الخطاة ، بمعنى أن المعمودية يوحنا لا تدخل قط في مفردات الخلاص الذي أكمله المسيح عن الخطاة . بل إن من الأمور الثابتة إنجيلياً ولاهوتياً أن عمل المعمدان برُمته لا يدخل دائرة التجديد في تأسيس ملكوت الله .

وفي هذا يقول ذهبي الفم :

[في الحقيقة ، إن المسيح غير محتاج للمعمودية لا التي كانت له (على يد المعمدان) ولا معمودية الآخرين الذين (عمدهم المعمدان) . بل بالأحرى فإن «المعمودية» ذاتها كانت في حاجة إلى قوة المسيح لأن الشيء الذي كان ينقص الكل هو التقديس النهائي الذي كان يحتاجه كل مَنْ يعتمد ، ألا وهو الروح القدس الذي أعطاه المسيح لما جاء]^(٤٨) .

فالمعمدان لم يُحسب مع التلاميذ الاثني عشر ولا السبعين «فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر .» (مت ١٩ : ٢٨)

«الحق أقول لكم : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه .» (مت ١١ : ١١)

⁴⁸ Op. cit., p. 60.

٣١:١ «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهِرَ لإسرائيل ، لذلك جئتُ أعمّد بالماء».

«وأنا لم أكن أعرفه»:

قد تعني هذه الجملة أنه لم يكن يعرفه «كمسيّا» ، وربما كان يعرف يسوع كأحد أقربائه . ولو أن الآية في إنجيل القديس لوقا توضح أنه تغرّب كل أيام حياته في البرية حتى يوم بدء خدمته : «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل .» (لوقا : ١ : ٨٠)

«لكن ليُظهِرَ (المسيح) لإسرائيل لذلك جئتُ أعمّد بالماء»:

والقديس ذهبي الفم يقول إنه صرّح بذلك لينفي أن علاقة القرابة به أو الصداقة ذات علاقة بتعميد المسيح .^(٤٩)

واضح جداً أن المعمدان تلقى ليس فقط حدود رسالته ، أي التعميد بالماء كواسطة للتوبة ونَحْمٍ لها بعد الإعراف والندم وذلك إعداداً لقلوب الآباء والأبناء قبل مجيء «الرب» ؛ بل وأيضاً فإن إجراء التعميد هو بحد ذاته وبصورة أساسية سيكون واسطة لإعلان شخصية المسيّا لكل إسرائيل ، أي للأمة ، حسب الوعد النبوي . وقد أمدّنا القديس يوستين الشهيد برواية من فم تريفو اليهودي تُعتبر ميراثاً يهودياً مُسلماً فيما يخص ظهور المسيا :

[أما المسيّا عندما يولد ، فهو يوجد في مكان ما يبقى مجهولاً ، وحتى هو نفسه لا يعرف نفسه (خطأ = «ينبغي أن أكون فيما لأبي») ، ولا تكون له قوة حتى يأتي إيليا ويمسحه (خطأ = يعمّده) وبهذا يُظهِره للجميع ...]^(٥٠)

ومن هذا التسبؤ في التراث اليهودي ، يتضح أن كل ما يخص مجيء المسيّا كانت معرفته قد سرّت بين الشعب كإحدى الوسائل الهامة لتسهيل التعرف عليه .

وفي هذه الآية يكون المعمدان قد ردّ الرد المقنع لكل من تسوّل نفسه أن يرى في عماد المسيح تحت يد المعمدان نوعاً من التكريس أو المسحة كما يخطيء الفكر اليهودي ، أو يرى في المعمدان نوعاً من التفوق على المسيح بأي نوع . ذلك أن عِلّة عماد المسيح ، بل عِلّة كل وظيفة المعمدان كعمّدد ، هي لكي يُظهِرَ «المسيّا» لإسرائيل ، وليعرف الجميع أن يسوع الذي من ناصرة الجليل هو المسيّا الآتي .

⁴⁹ Op. cit., Hom. XVII, p. 59.

⁵⁰ Justin and Trypho. C.8. ANF vol. 1, p. 199.

١ : ٣٢ و ٣٣ « وشهد يوحنا (المعمدان) قائلاً : إني قد رأيتُ الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقرَّ عليه . وأنا لم أكن أعرفه ، لكن الذي أرسلني لأُعَمِّدَ بالماء ذاك قال لي : الذي ترى الروح نازلاً ومستقرّاً عليه فهذا هو الذي سيعمِّد بالروح القدس » .

الآية الأولى على لسان الرسول ق . يوحنا وقد سمعها بأذنيه منه رأساً ، لذلك أوردَها هنا في البداية تأكيداً لما سيرويه عن لسان المعمدان نفسه . وفي شهادة الرسول يتذكر أنه وصف الروح القدس الذي نزل من السماء واستقر عليه بأنه كان « مثل حمامة » ، وهذا هو التقليد الرسولي كما وصفه الإنجيليون الثلاثة .

والذي يلفت أنظارنا هو قول المعمدان : « إني قد رأيتُ الروح $\tau\epsilon\theta\acute{\epsilon}\alpha\mu\alpha\iota$ الروح » . هنا كلمة « الرؤيا » تأتي بمعنى المشاهدة فوق العادة أي الرؤيا الإيمانية . هنا وهنا فقط تكمن القدرة السرية الموهوبة للمعمدان مُسبقاً منذ أن كان في بطن أمه لكشف سر المسيح ! وحضور الروح القدس هنا هو الحضرة الإلهية التي من خلالها وهب للمعمدان الرؤية الإيمانية التي بها اكتشف سر المسيح ابن الله . فكانت نعمة « رؤية » الروح $\tau\epsilon\theta\acute{\epsilon}\alpha\mu\alpha\iota$ هي التي أوصلته لنعمة رؤية المسيح والإيمان أنه هو المسيا ابن الله .

ويخطيء مَنْ يعتبر حلول الروح القدس هو حلول أقنومي أو أن المسيح امتلأ بالروح وقتئذ . فالمسيح هو الكلمة المتجسد ابن الله قبل أن يعتمد كما هو بعد أن اعتمد ، واحد مع الآب والروح القدس بالإنحداد ، جوهر واحد للآب والابن والروح القدس .

علماً بأن كلمة : « ومستقرّاً عليه » هي جزء من العلامة أو جزء آخر من الدليل ، لكي يتأكد به المعمدان أن مَنْ تستقر عليه الحمامة تماماً هو هو يكون .

كذلك لا يقول اللاهوت إن المسيح صار مسيحاً بعد العماد ، بل هو المسيح يوم أن حُبِلَ به في البطن ، فهو مُمسوح من الله ملكاً للدهور كلها ورئيس كهنة الخيرات العتيدة لحظة أن قَبِلَ الإرسالية ، لحظة أن أُخْلِ ذاته ليأخذ شكل العبد و يصير في الهيئة كإنسان وهو الله .

أي أن المسحة التي أخذها على الأردن هي مسحة بدء الخدمة كإشارة من الروح فقط وليست للملء أو الإرسالية ، فالإرسالية تمت قبل التجسد ، والملء فيه لحظة حُبِلَ به في البطن حين قدَّسه الله وأرسله إلى العالم . وللتأكيد نعود فنقول إن الحلول والملء والتقديس والمسح هذه كلها تمت بالتجسد وليس بالعماد . والعماد أظهرها وأعلنها وأطلقها للعمل .

فالذي تم على الأردن هو عملية التكريس العلني التي هي بمثابة استعلان بدء حياة المسيح المخصصة للصليب؛ انتقل بعدها المسيح من الحياة العادية التي كان يظهر فيها كأنه إنسان عادي — نجار الناصرة — إلى حياة الصليب العلنية حيث يظهر فيها لاهوته بانفتاح السماء وإعلان الآب عن حقيقته المخفية أنه ابنه الحبيب. والروح القدس النازل عليه للتعين والإشارة كَشَفَ في الحال للمعمدان — بالعين الإيمانية — أنه ابن الله المملوء من الروح القدس والمزمع أن يعمّد بالروح القدس.

فهذه المسحة التي تمت بصوت الآب من السماء وحضور الروح القدس والمعمدان كشاهد، كانت هي بدء الإرسالية العملية بصورتها العلنية وبشهادة الشهود في السماء والأرض، لم يأخذ المسيح فيها مؤهلات جديدة للخدمة فهو الكامل وملء الذي يملأ الكل. ولكن هذه المسحة استعلنت علناً بِنُوتِهِ للآب واحتيازه ملء حب الآب وملء الروح القدس. فهي كانت لحظة تنصيب للخدمة وليست إعداداً أو تكميلاً. وهذه اللحظة عينها قال عنها المسيح بعدئذ «من أجلهم أنا أقُدّس ذاتي». ويلاحظ أنه لم يقل «أقدس جسدي»، فالجسد مقدس باتحاد اللاهوت، منذ كان في البطن، تَقْدِيساً كلياً وكاملاً لا يحتاج قط إلى تكميل أو تقديس آخر في المعمودية، وإلاّ أصبنا حقيقة اتحاد اللاهوت بالناسوت إصابة خطيرة وبلغية — ولكن قوله هو: «أَقْدَسُ ذاتي»، وتفيد «أَقْدَسُ ذاتي بإرادتي»، بمعنى أكرّس حياتي منذ لحظة المسحة للإرسالية تكريساً كلياً لحساب الفداء وذبيحة الصليب التي فيها وبها وحدها نتقدس نحن.

من هذا يتضح قوله: «من أجلهم أنا أقُدّس ذاتي»، أي من أجلهم أخصّص حياتي للموت عنهم، ولا تفيد أبداً أنه لم يكن مقدّساً قبل أن يحصر حياته العملية في خدمة الصليب وحده، بل كان مقدّساً بل قدوساً من البطن: «فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللوك فلذلك أيضاً القُدّوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لوقا: ١: ٣٥). هذه شهادة الملاك من السماء. لذلك فحياته كلها كانت مقدسة وهو ولد لحساب الصليب.

ولكننا نعلم من الإنجيل أنه مارس حياته العملية ثلاثين سنة وكان نجاراً في الناصرة، ولكن بعد لحظة المسحة أي التكريس للخدمة في الأردن انحصرت حياته في الصليب. هذا هو بدء «من أجلهم أقُدّس ذاتي»، وفيها استعلن لاهوته وبنوته للآب، وبالتالي وبالضرورة استعلن ملؤه من الروح القدس لما حَلَّ عليه الروح القدس، مشيراً إليه، فكانت مسحة استعلان، فظهر للناس وخاصة للتلاميذ في هذا الملء، فهو لم يمتلئ من الروح القدس في الأردن بل بالحرّي استعلن ملؤه من الروح القدس كما استعلنت بنوته للآب تماماً وبالتساوي. فالابن له الروح القدس خاصة

كالآب؛ وهو لا يأخذه بل يعطيه.

نفهم من هذا أن قول القديس لوقا في إنجيله: «أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس» أنه رجع من الأردن وقد استعلن ملؤه من الروح القدس^(٥١). لأننا بالمثل لا نستطيع أن نقول أنه 'رجع من الأردن وهو ابن الله' كأنه أخذ البتوة الإلهية في العماد؟ فكما أن المسيح كان ابن الله قبل العماد وبعد العماد، هكذا يتحتم أنه كان ممتلئاً من الروح القدس قبل العماد وبعد العماد. ولا يجوز لاهوتياً أن يُقال أن المسيح امتلأ من الروح القدس مرتين كبطرس أو بولس.

والمعمدان دائماً يكرر «وأنا لم أكن أعرفه»، ولكن ليس المعمدان وحسب، بل إن المسيح فعلاً كان مخفياً عن أقرب المقرّبين إليه: «لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (يو ٧: ٥). فالمسيح باعتباره المسيح الآتي، ابن الله، عُرف لحظة حلول الروح القدس عليه من السماء كإشارة عليا ونداء الصوت من المجد الأسنى: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت ٣: ١٧). فهذه اللحظة دخوله إلى العالم مُخلّصاً وفادياً، لحظة الخدمة التي بدأت بالعدّ التنازلي حتى نقطة الصفر حينما قال: «قد أكمل» (يو ١٩: ٣٠)، وأسلم الروح على الصليب!

ومرة أخرى يتضح لنا دور المعمدان الرئيسي في استعلان شخص المسيح يسوع المسيح ابن الله، وهذا هو محور الأصحاح الأول في إنجيل ق. يوحنا بل وفي الإنجيل كله. فمن الخطأ الظن أنه بحسب إنجيل ق. يوحنا كان للمعمدان دور ما في الخلاص أو في ملكوت الله، لأن هذا كله هو عمل المسيح وحده. كذلك نفهم أن المعمدان أخذ وعداً إلهياً مباشراً مُسبقاً من مصدر لم يصرح به، ولكنه هو هو الله وليس آخر وهو الآب الذي يشهد دائماً للابن، أن في أثناء التعميد فإن الذي يرى الروح نازلاً ومستقراً عليه يكون هو المسيح الآتي: «الذي سيعمّد بالروح القدس». ولم يُشر المعمدان إلى أن المسيح أخذ الروح القدس، ولا المسيح نفسه أشار إلى مثل هذا.

ومرة أخرى نُصحح ما جاء في شرح كثير من كتب الشرح، فإن عماد المسيح واستقرار الروح القدس عليه بهيئة حمامة لم يكن أبداً لتأهيل المسيح للتعميد بالروح القدس أو لتوال الروح القدس أصلاً^(٥٢)، وإنما كان لاستعلان المسيح وإظهاره لإسرائيل.

بل ويقول ذهبي الفهم إن المعمدان نفسه لم يكن في حاجة شخصية للتعميد أكثر من أنه

(٥١) «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً».

بواسطة الإغتسال يُعدُّ الآخرين للإيمان بالمسيح :

[هو (المعمدان) لم يكن، إذن، بحاجة إلى المعمودية (بالماء)، ولا هذا الإغتسال كان له هدف أكثر من أن يعدَّ الآخرين جميعاً كطريق للإيمان بالمسيح، لأن المعمدان لم يقل — بالنسبة للعماد — «حتى لكي أظَّهر الذين يعتمدون» أو «حتى لكي أخلَّصهم من خطاياهم»، ولكن قال «لكي أظَّهره لإسرائيل» .] (٥٣)

٣٤: ١ «وأنا قد رأيتُ وشَهِدْتُ أن هذا هو ابنُ الله» .

الرواية هنا تبلغ قمة استعلانها، فيسوع الذي جاء يكرز ويعمّد بالروح القدس بعد المعمدان هو المسيح ابن الله . وهذه الشهادة العملية من فم المعمدان تأتي بعد رؤية عينية إيمانية عالية بسبق إعلان روحي، وبإلهام مُسبق، وبعلامة معينة من السماء لا يأتيها الباطل من أي جانب . فهي علامة من صُنع الروح القدس وعمله، وهو روح الحق . ويكون ق . يوحنا قد وضع هنا شهادته التي جاءت في ختام المقدمة في آية (١٧ و ١٨) كآخر استعلان «للكلمة» ، في مقابل شهادة المعمدان العملية كأول استعلان من داخل الإنجيل ، أو في الحقيقة في أول الإنجيل على مستوى الكرازة .

«ابن الله» ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ :

ورد هذا الوصف المهيّب في سفر دانيال : «فأجاب (نبوخذ نصّر) وقال ها أنا أنظر أربعة رجال محلولين يمشون في وسط النار وما بهم ضرر، ومنظر الرابع شبيه (بابن الآلهة) — خطأ في الترجمة والأصل السبعيني عن العبري الأصلي يُقرأ: ابن الله υἱὸς Θεοῦ .» (دا: ٣: ٢٥) . لقد مهّد المعمدان لإعلان هذا اللقب أو الوصف «ابن الله» للمسيح أعظم تمهيد بثلاثة أقوال هامة :

القول الأول :

«أنا لستُ أهلاً أن أخلَّ سيور حذائه» . فهذا التعبير لا يصح ولا يحق أن يقال عن إنسان أي إنسان مهما كان ! «فهذا هو ابن الله» ليس من فم المعمدان بل من أعماق إيمانه وقلبه .

أما القول الثاني :

إنه «سيعمّد بالروح القدس» فهذه كانت الإشارة البليغة أنه «ابن الله» . فلم يحدث قط

⁵³ Chrysostome, *op. cit.*, p. 59.

ولن يحدث قط أن عمّد إنساناً ما بالروح القدس، فمنذ أن ظهر ابن الله حتى هذه الساعة فالذي يعمّد بالروح القدس هو ابن الله، وهو بنفسه الذي يعمّد على يد كلّ من كانت له صلاحية التعميد كاهناً كان أو أسقفاً أو رئيس أساقفة؛ فخادم السريخدم، ولكن الذي يعمّد بالروح القدس هو المسيح ابنُ الله بنفسه. فالروح القدس هو الأقنوم المساوي للآب والابن، فلا يعطيه إلا الابنُ بمشورة الآب.

أما القول الثالث:

نوع العلامة التي أعطاه الله للمعمدان لكي يعرف بها هذا الشخص المهيّب الإلهي، فهي علامة ليست من بين كل ما في الأرض وما في السموات من خليفة كانت. فلم تكن العلامة ملاكاً ولا رئيس ملائكة بل العلامة هي «روح الله» نفسه. ولكي تستطيع عينا المعمدان رؤية روح الله الذي لا يُرى جاءه الروح بهيئة حمامة نازلة من السماء من موضع الروح لتربط في وعي المعمدان بين المُشار إليه وبين موطنه الأصلي، ثم وسيلة الإشارة.

المعمدان يعلم تماماً بروحه وفكره وكل كيانه أنه جاء يمهّد الطريق لظهور «الله»، لهذا كان في ردوده أمام اللجنة واثقاً في نفسه، أنه في نفسه ليس شيئاً بالمرّة أمام ذاك الذي جاء ليعلن عنه. وحينما يقول إنجيل ق. يوحنا إن المعمدان رأى وشهد وقال بالروح إن هذا هو «ابن الله»، فهو يقصد الابن الحقيقي للآب الحقيقي، الله الواحد بذاته وجوهره.

وكما قال ق. يوحنا «ونحن رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» عن رؤية إيمانية كاشفة أدرك فيها المجد الحالّ على الكلمة المتجسد الرب يسوع أنه ليس مجداً خلواً من أبوة، إذ رأى المجد مجد آب لابن، ومجد ابن في آب، فكان المجد الحالّ عليه وفيه، كان ينطق في وعي ق. يوحنا أن هذا هو الحب الأبوي المنسكب على الابن يتلأأ كنور في نور.

هكذا المعمدان رأى هو أيضاً برؤية الإيمان في حضور الروح القدس، والسماء مفتوحة، والروح يشير بإشارات بليغة، بعضها منظور والآخر ناطق في قلب المعمدان: أن هذا هو الابن الحبيب لأبيه له اسمعوا؛ فكيف لا يسمع ولا ينطق بما رأى وسمع.

إن هذه الومضات الإلهامية كثيرة في الإنجيل، انظروا بطرس الرسول كيف انفتح وعيه فجأة في حضرة المسيح واستقبل إعلاناً نطقه الله الآب نفسه في قلبه، فهتف به لسانه: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، ففرح به المسيح وأراد أن يشجعه أكثر، فكشف له كيف ومن أين جاءته هذه الشهادة العليا: «فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا، إنّ لحماً ودماً لم يعلن لك

ولكن أبي الذي في السموات.» (مت ١٦: ١٧)

نثنائيل التلميذ الجديد الطيب اكتشف في المسيح صفته الجوهرية الإلهية بإلهام، كالبرق، وبمنتهى السرعة والجرأة والثقة، حينما أعطاه المسيح إشارة صغيرة أصابت كبده وفي الصميم: «أجاب نثنائيل وقال له يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو ١: ٤٩)

مرثا التي اهتمت بأمر كثيرة جداً في المعلم، وهي في سحق حزنها ومرارة نفسها، لما نظرت إلى الرب نظرة عتاب كيف ترك أخاها ليبتلعه الموت وتركها فريسة الألم بلا رجاء، أعاد إليها الرب النظرة بومضة من إشعاع مجده الذاتي — فرأته كما هو — واستنطقها الإيمان فنطقت. «أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو ١١: ٢٦ و ٢٧)

وذلك الأعمى الفصيح أول مُدافع عن المسيح في تاريخ المسيحية والإنجيل، لما وجده المسيح أحبه وأراد أن يُسعده بالنور السماوي فعرفه بابن الله؛ فقال له الأعمى البصير مَنْ هو يا سيد؟ فقال: الذي يكلمك، ونظر إليه، فتفقدت النظرة إلى أعماق وعيه المسيحي. فهتف أوْمن وسجد!!

وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير عمود الدين:

[وكأنا المطوّب (يوحنا) الإنجيلي يبدو أنه يقول بكثير من الثقة — مع المعمدان — هذا هو ابن الله الواحد الوحيد بطبعه (جوهر الله) وريث كل ما يخص الآب *ιδιότητος*. ونحن أيضاً الذين قد تشكّلنا أبناءً له بالتبني وبواسطته دُعينا بالنعمة إلى كرامة البُنُوَّة. لأنه كما أن من الله الآب تُسمّيت كل أبوة *πατρία* مما في السموات والأرض بكونه أباً بالحقيقة أصلاً ومنذ البدء، هكذا كلُّ بُنُوَّة هي أيضاً من «الابن» كونه هو وحده حقاً وأصلاً هو الابن من جوهر ذات الله.] (٥٤)

د — المعمدان يبدأ يسلم الوديعة:

١: ٣٥-٣٧ «وفي الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه. فنظر إلى يسوع ماشياً فقال: هوذا حمل الله. فسمعه التلميذان يتكلم، فتبعوا يسوع.» (٥٥)

بحسب تقديرات العلماء المدققين يقع هذا الغد الذي يتكلم عنه ق. يوحنا في مستهل الاعتدال

^{٥٤} Cyril, *op. cit.*, p. 147.

(٥٥) راجع كتيب «لقد وجدنا يسوع»، للمؤلف.

الرسمي قبل الفصح الأول للمسيح، أي قبل ١٤ نيسان (أبريل) بقليل. وهذا الميعاد يشير إليه القديس اكلمنس (في عظته الأولى ١: ١٦). كما يلاحظ القارىء أننا هنا في نهاية خدمة المعمدان وفي بداية خدمة الرب، وهذا واقع في «اليهودية» أي في الجنوب، ولم يكن الرب قد انطلق بعد إلى الجليل في «إسرائيل» في الشمال.

وغني عن البيان أن فلسطين تنقسم إلى مملكتين: مملكة اليهودية في الجنوب ومملكة إسرائيل في الشمال، وأن عاصمة اليهودية هي أورشليم وهي عاصمة كل البلاد. لذلك فإن إنجيل يوحنا هو الوحيد الذي يذكر بداية خدمة الرب في اليهودية قبل خدمة الجليل سواء في أول الخدمة أو في نهايتها. لذلك فهو الوحيد الذي يذكر بداية اختيار تلاميذه الأوائل من اليهودية، وهو أيضاً الوحيد الذي يذكر معجزة لعازر التي تمت في اليهودية، كما أنه هو الوحيد الذي يذكر خدمة المسيح في أورشليم (اليهودية) على مدى ثلاثة أعياد للفصح وأعياد أخرى إضافية. وذلك معروف لأن ق. يوحنا بن زبدي هو أول تلميذ التصق به منذ أول لحظة خدمة المسيح إذ كان أولاً تلميذاً للمعمدان ثم انتقل إلى تلمذة المسيح.

«وفي الغد أيضاً كان يوحنا (المعمدان) واقفاً هو واثنان من تلاميذه». لاحظ أن ق. يوحنا لا يلقي الكلام جزافاً، فهو يذكر بالذات اثنين من تلاميذه دون أن يذكر اسميهما. فأولاً يذكر اثنين لأنه يقدم للقارىء شهادة، وكل شهادة لا تصح إذا لم تكن على يد اثنين «وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق» (يو ٨: ١٧). أما ثانياً، فلا يذكر اسميهما لأنه هو واحد منهما ولا يريد أبداً أن يذكر اسمه. أما اسم الثاني فيذكره فيما بعد في الآية (٤٠) «كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الإثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه (المسيح)».

أما كيف عرفنا أن الأول هو ق. يوحنا بن زبدي فلأنه يقص لنا حادثة كيف انتقلا من تلمذة المعمدان إلى المسيح بدقة لا يمكن أن تكون منقولة عن آخر بل هي رواية شاهد عيان.

ولا ينبغي للقارىء أن يرتبك إذا قرأ في الأناجيل الأخرى طريقة أخرى لدعوة التلاميذ؛ لأن في الحقيقة أنهما دعوتان: الأولى وهي التي اهتم بها ق. يوحنا جداً هي «دعوة للتلمذة» والرفقة مع المسيح، أما الدعوة الثانية فواضح أنها قاطعة ويرافقها أن كل واحد ترك كل شيء حتى بيته وأولاده وتبع المسيح فهي «دعوة الرسولية»، ومعروف أنه كان للمسيح تلاميذ كثيرون، وكثير منهم من اليهودية ولكن كان له اثنا عشر رسولاً فقط، اختارهم من بين تلاميذه، ولكن واحداً منهم سقط.

«فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله فسمعه التلميذان يتكلم فتبعاً يسوع» :

التكرار هنا ذو معنى آخر، فذكر «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» في الآية السابقة (٢٩) كان نطقاً استعلانياً يخص المسيح نفسه والعالم؛ أما هنا «هوذا حمل الله» (٣٦) تفيد التعليم والشهادة لتلميذه الخصوصيين اللذين كانا معه، فهو كان يكلمهم عن المسيح، وفجأة نظر المسيح ماشياً فأشار نحوه وكان حديثه «فسمعه التلميذان يتكلم» هو نفس الحديث الذي يكرره دائماً: أنا أعمّد بالماء ولكن هذا يعمّد بالروح القدس، هذا هو العريس وأنا لست إلا صديقاً للعريس، هذا ينبغي أن يزيد وأني أنا أنقص. أي كان حديثاً يتعلق بصميم خدمته وهي إعداد الطريق للرب وإرشاد تلاميذه لمن هو أقوى منه، أما هنا فهو يكشف ضمناً عن خلاصهما وفدائهما المُذخّرهما في هذا الحمل الإلهي!!

ولا يفوتنا هنا أن نلقي ضوءاً على عظمة هذا الإنسان المدعو من الله الذي اسمه يوحنا (المعمدان)، إذ ليس من الهيئن أبداً أن يقول معلمٌ لتلاميذه أن معلماً آخر هو أعظم مني، أو إن هم تركوه ليلتحقوا بمن هو أعظم منه فإنه يبقى فرحاً: «فرحي الآن قد كمل»!!! ولكن كان المعمدان حقاً أعظم من نبي، وكان المسيح حقاً أعظم من المعمدان!!!

وهذا واضح من الآية المقتضبة جداً التي قالها ق. يوحنا: «فسمعه التلميذان يتكلم فتبعاً يسوع»، وكأنه يقول: فأطاع التلميذان نصيحة معلمهم وإرشاده وللحال تبعاً يسوع. وفي هذا القول البسيط تتصوّر أكبر حركة في التاريخ اليهودي والمسيحي معاً وهي حركة انبثاق الكنيسة الجديدة من جسم الكنيسة العتيقة كنيسة البرية المتغربّة في قفار الأرض.

هذه الحركة الإلهية التدبير والتنفيذ نجح المعمدان في تمريرها من بين يديه كعملاق يحتضن الخيمة العتيقة، خيمة داود، بعُمدها الساقطة وسقفها الذي أكله الزمن، ويسلمها لمن يطويها ويخلقها جديدة من جسده، وعُمدها تمس الأرض وسجوفها^(٥٦) السماء بعينها.

(٥٦) السجف وجمعها سجوف = الحجاب وجمعها حُجب.

٢ - شهادة التلاميذ:

المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه وهم يشهدون له:

٣٨:١ «فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما: ماذا تطلبان؟ فقالا: ربي، الذي تفسره يا معلم، أين تمكث؟»

الآية باليونانية تبدأ بـ «لكن»، وبهذا يصير تصوير هذه الحركة بأدق وأجمل مما هي في صورتها العربية. فهي تعني أن المسيح كان ماراً في طريقه وأن التلميذين قررا السير وراءه، فسارا يَسْتَرْقَانِ الخُطى تَهِيئاً ووقاراً، «ولكن» الرب أدرك مقصدهما فأراد أن يفتح أمامهما الباب، إن للحوار أو الدخول، فالتفت إلى خلف، وهنا توقفت أرجلهما أو أبطأتا اضطراراً، لما نظر إليهما وهما هكذا يسترقان الخُطى بحذر وهيبة خلفه - فابتسم ولا شك - قائلاً بترحاب: «عاوزين إيه؟» ماذا تريدان؟ لم يقل قنْ تريدان، لأنه يعلم مقصدهما، ولكنه قصد بسؤاله هذا أن يسهل عليهما الإفصاح عن عزمهما.

وبهذا النطق: «ماذا تطلبان؟» ثم «تعاليا وانظرا»، سجّل ق. يوحنا أول كلمات نطقها الرب في إنجيله.

٣٩:١ «فقال لهما تعاليا وانظرا».

«تعالوا وانظروا أعمال الله إنه رهيب في أعماله
نحو بني الإنسان.» (مز ٦٦: ٦ - السبعينية)

ولو أننا وضعنا السؤال مع الجواب: «أين تمكث، تعاليا وانظرا»، لنشأ لدينا معيار عملي للإيمان. فالسؤال موجّه من التلميذ الباحث عن الله (أين أنت؟)، والجواب هو دعوة من الله للدخول في الرؤيا (تعال وانظر!).

ولا يخفى عن القارئ أنه بالرغم من أن هذا المعيار للإيمان يبدو غريباً على الأسماع نوعاً ما في هذه الأيام، ولكنه هو المعيار الأبدي منذ البدء والوحيد الذي يعيش عليه أولاد الله في كل العصور حتى اليوم.

الكنيسة لا تزال، بضم يوحنا الرسول وفم جميع التلاميذ الأتقياء الذين طلبوه فوجدوه، وراؤه فعرفوه، تنادي: تعالوا وانظروا. بل المسيح بنفسه لا يقول تعالوا وانظروا فحسب، بل وأيضاً:

«جسّوني وانظروا»، من يأكلني يحيا بي. واسألوا توما بل اسألوا أصبعه ماذا رأيت وماذا عاينت؟
توما وضع أصبعه على أعمال الله الرهيبة فصرخ: ربي وإلهي.

الكنيسة ذائخة بأعمال الله الرهيبة. المسيح استودعها كل أعماله المجيدة: «كلُّ مَجْدِ ابْنَةِ
الملك من الداخل، مزيّنة بأنواع كثيرة»، «أعمال مجيدة قد قيلت عنك يا مدينة الله».

وأن تكون «مع المسيح» مثلما انتهى تلميذا المعمدان أندراوس ويوحنا بل «ومكثا عنده»،
فهذه هي شهوة أتقياء الله، ونقول — وهذا عجب أيضاً — أنها بالمقابل رغبة المسيح الملّحة جداً!!

— «أيها الأب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني (ومكثوا معه هنا) يكونون معي حيث أكون أنا
لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧: ٢٤)

وجواب المسيح: «تعاليا وانظرا»!! هو أن مقصدهما الحقيقي وشهوة قلبهما الصادقة لا يمكن
أن تتم لهما إلا «معه» حيث يمكن أن «يرياه» فيعرفاه، فيصير لهما «كل ما يريدان»، كل
شهوة قلبيهما وأكثر.

وكلمة «تعاليا» ἐρχεσθε تأتي بالفعل المضارع الأمر الذي يفيد المجيء إلى المسيح ليس
بصفة عرضية ولكن بصفة مستمرة. ونتيجة ذلك هي «ستنظران» ὄψεσθε التي تفيد فعلاً
رؤيويّاً حقيقياً بمعنى: حينما تأتون إليّ فإنكم ترونني على حقيقتي ويتم لكم كل شيء.

أما لماذا كان المسيح سخيّاً معهما بهذا المعنى؟ فلأنهما قدما مُسبقاً «فعل إيمان» بأن
«تبعاه».

ولا بد، يا عزيزي القارئ، أن فعل الإيمان إذا كان هكذا صادقاً ومتحرّكاً، أن يتبعه فعل
رؤيا.

«فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم وكان نحو الساعة العاشرة»:

كان هذا يوماً من أيام ابن الإنسان لم يتَّسَّه ق. يوحنا طول حياته، ولن تنساه الكنيسة ما
عاشت، فهذا هو أول يوم لها في بيت يسوع = الذي عرّفته الكنيسة في سرّها «باليوطا ١٠» (٥٧)
ورقمه لها يوحنا الحبيب حتى تفهم السر لتحتفظ به لأولادها الذين يحفظون السر!

(٥٧) شرح عدد ١٠ في الطقس الكنسي، وهو المقابل العددي لأول حرف من اسم المسيح 1 «إيسوس» = Ἰησοῦς

وقصة الإنجيل، يا إخوة، عجيبة وهي مملوءة أسراراً، سرّاً في مقابل سر، أو سرّاً فوق سر! فيوم الكنيسة الأول في حياة الرب قضاء التلاميذ في بيت يسوع كما قيل الآن، وقد كان أن ردّ المسيح للكنيسة الزيارة في آخر يوم له بأن زار التلاميذ في بيوتهم وهم مجتمعون: «ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم» (يو ٢٠: ١٩). في يومها الأول كانت الكنيسة في القمط خارجة من اغتسال الماء، وفي يومها الأخير مع الرب قبلت الروح القدس لما نفخه في التلاميذ فأخذت ملء قامتها.

أ — شهادة أندراوس :

١ : ٤٠ و ٤١ و ٤٢ «كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الاثنى اللذين سمعا يوحنا وتبعاه.

هذا وجد أولاً أخاه سمعان فقال له : قد وجدنا مسيّا، الذي تفسره المسيح .
فجاء به إلى يسوع فنظر إليه يسوع وقال :
أنت سمعان بن يونا أنت تدعى صفاً الذي تفسره بطرس».

لقد أثمرت زيارة أندراوس للمسيح، فلقد تيقن أنه المسيا. وللحال (أول شيء عمله بعد الزيارة) بحث عن أخيه سمعان وأخبره بالخبر المفرح : «قد وجدنا المسيا». ولا ننسى أن أندراوس تَلَمَّذَ أولاً على المعمدان النبي الناسك المُرسَل من الله لإظهار المسيا والشهادة له، فهو قادر أن يقنع أخاه أنه حقاً قد وَجَدَ المسيا.

ويلاحظ أنه يجمع بين نفسه وواحد آخر «قد وجدنا»، هنا يذكر ق. يوحنا نفسه دون أن يذكر اسمه!! ويعطينا العالم هنجستنبرج^(٥٨) شرحاً آخر لكلمة : «هذا وجد أولاً أخاه سمعان»، إذ يرى أن كلمة «أولاً» جاءت لتفيد أن التلميذين أندراوس والآخر (يوحنا) ذهبا لبحثا كل واحد عن أخيه ليُحضّره : أندراوس يبحث عن سمعان أخيه، ويوحنا يبحث عن يعقوب أخيه، ولكن أندراوس وجد أولاً أخاه، وهذا الشرح مقبول وقد أخذ به بعض علماء التفسير ويقوم هذا التفسير على أساس أن ق. يوحنا يرفض دائماً أن يذكر اسمه أو اسم أخيه يعقوب.

«أنت تدعى صفاً — بطرس» :

ليس كل التلاميذ أخذوا أسماء جديدة، والله منذ إبراهيم يعطي من يحملهم مسؤوليات جساماً

⁵⁸ Op. cit., p. 95,96.

أسماء جديدة. ويُلاحظ أن هذه المسئوليات ذات طابع أخروي وتتعلق بالتجديد المزمع أن يكون: فإبراهيم أخذ لأن فيه تتبارك كل الأمم. يعقوب دُعي إسرائيل أي الناظر الله وقد وصفه الله بـ «ابني البكر» كرمز للآتي الذي هو وحده الناظر الله والابن الوحيد. موسى لم يأخذ ولم يُسمح له أن يدخل أرض الميعاد لأنه ارتبط بالناموس، والناموس زمانيٌّ وعَتَق وشاخ وأعطى مكانه للنعمة والحق.

سمعان بطرس أخذ، لأن «على هذه الصخرة ابني كنيسة». يوحنا مع أخيه يعقوب أخذوا «بَوَانَرَجِس»^(٥٩) لأن يوحنا دَوَّى صوته بعد البرق (المسيح) دَوَّياً يتساوى مع حجم النور بصورة ليس لها نظير ولا يزال يدَوِّي.

والملاحظ أن في إنجيل ق. يوحنا فقط أُعطي الاسم الجديد لـ «سمعان» بعد أن فحصه الرب بنظرة عميقة، حيث لا يُذكر في الأناجيل الأخرى إلا باسمه الكامل سمعان المدعو بطرس أو سمعان بطرس دون ذكر كيف ولماذا أُعطي هذا الاسم. ومرة أخرى نقول إن هذا بسبب عدم تعرُّض الأناجيل الأخرى لخدمة المسيح الأولى في اليهودية.

كذلك من الأمور المفرحة لفكر الباحث أن يجد أن هذه الأسماء التي ظهرت معاً في الأصحاح الأول لإنجيل ق. يوحنا كبداية لحركة التلمذة: أندراوس و بطرس و يوحنا و يعقوب، نجد هذه الأسماء أيضاً معاً وهي نفسها كانت بداية حركة الدعوة للرسولية، بحيث إذا لم ينتبه القارئ إلى ما تم في إنجيل ق. يوحنا بالنسبة لدعوة هذه الأسماء للتلمذة، و يقرأ ملابسات دعوة المسيح لهذه الأسماء لتتبعه لخدمة الرسولية، يرتبك ويحس بأنها تخرج عن الواقع المألوف، إذ لمَّا دعاهم المسيح كما هو مدوَّن في إنجيل ق. متى استجابوا فوراً وتركوا الشباك والصيد والعائلة بجملتها وانضموا إلى المسيح فجأة وبلا تحفُّظ.

ولكن الأمر له تهيد وتعليم وتدريب سابق:

«وإذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين سمعان الذي يُقال له بطرس»^(٥٩) وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر فإنهما كانا صيادين. فقال لهما هلمَّ ورائي فأجعلكما صيادَي الناس. **فللوقت تركا الشباك وتبعاه!!** ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدي و يوحنا أخاه في السفينة مع زبدي أبيهما يُصلِحان شباكهما فدعاهما، **فللوقت تركا**

(٥٩) في النطق التقليدي مفردتها بونرجس أي صاحب أو ابن الرعد فأتى المثنى «بوا» أي صاحبا أو ابنا النرجس أي الرعد.

السفينة وأبائها وتبعاه. « (مت ٤ : ١٨-٢٢)

هذه التلقائية السريعة من جهة هؤلاء الأربعة وتركهم كل شيء وأتباعهم الرب نهائياً، يصعب جداً بل يتعذر فهمها أو قبولها كما هي، ولكن بعد أن قدّم لنا ق. يوحنا حركة التلمذة الأولى على مستوى التعارف أولاً ثم الصداقة والألفة الشديدة وتغيير بعض الأسماء والتلمذة، أصبحت دعوة هؤلاء للرسولية بوضعها الحاسم كما جاءت في إنجيل ق. متى مفهومة بل وجديرة بالإعجاب؛ فالقرار كانوا في الحقيقة قد اتخذوه مع أنفسهم للإتباع الرب تماماً ولم يكن ينقصهم إلا لحظة الدعوة التي استقبلوها بحماس حاسم.

ب - شهادة فيلبس :

١ : ٤٣ و ٤٤ «وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل. فوجد فيلبس، فقال له: اتبعني. وكان فيلبس من بيت صيدا، من مدينة أندراوس وبطرس».

من هذه الآية وفي زمانها، انتقل المسيح من خدمة اليهودية التي انحصرت في اختيار بعض تلاميذ له، وربما في بعض أعمال أخرى، إلى خدمة الجليل التي بدأ بها الإنجيليون الثلاثة أناجيلهم.

ويبدو أن ملاقة فيلبس تمت أيضاً على الضفة الشرقية من الأردن^(٦٠)، قبل أن يرتحل المسيح منها متجهاً نحو الشمال. ويلاحظ أن ق. يوحنا يذكر، بعد ذكر الملاقة مباشرة، أن فيلبس هو من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس، وكأنه يربط بين الملاقة والدعوة السريعة المقتضية وبين أندراوس وبطرس. بمعنى أن فيلبس كان رفيقاً للأخوين، وكان يعلم كل شيء عن المسيح، وربما كان قد تم التعارف معه، بل ويرجع العالم وستكوت أن فيلبس كان تلميذاً للمعمدان أيضاً.

ويلاحظ أن في اللغة اليونانية نجيء كلمة «من» بيت صيدا بحرف ἀπό، والتي تفيد بلد الإقامة والمعيشة، ثم «من» بحرف ἐκ وتفيد مدينة أندراوس وبطرس أي «من كفرناحوم» (مر ٢١ : ٢٩) وهي مدينة الميلاد.

⁶⁰ ICC, Bernard, *op. cit.*, p. 61.

ويقول التقليد أن فيلبس هو الشخص الذي لما دعاه المسيح اعتذر طالباً أن يدفن أباه أولاً، فكانت إجابة المسيح: «اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم.» (مت ٨: ٢٢)

[بخصوص إيمان فيلبس انظر المدخل ص ٣٠٧-٣٠٩].

١: ٤٥ «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة.» (٦١)

يبدو أن كل من أتته الدعوة واستقبلها بفرح الروح، تحولت فيه إلى بشارة وكراسة. «ونثنائيل» اسم عبري يعني الله أعطى أو «عطية الله» = عطا الله. والمقابل اليوناني لها هو الاسم «ثيودور» بنفس المعنى — «تادرس». وقد عرّفه ق. يوحنا في (٢: ٢١) أنه من «قانا الجليل». ومن تسلسل الآيات والأصحاحات حيث وردت «قانا الجليل» مباشرة بعد هذا الكلام في أصحاح ٢: ١، يظهر أن فيلبس وجد نثنائيل في قانا نفسها.

أما مَنْ هو نثنائيل؟ فلم نسمع عنه في الأناجيل الثلاثة مع أنه أصبح رسولاً. بعض العلماء مثل «زاهن» Zahn ووستكوت (٦٢) رأوا أن التصاق اسم فيلبس مع نثنائيل في البداية تحوّل إلى التصاق فيلبس مع برثلماوس في تعداد الرسل، بالإضافة إلى أن الستة التلاميذ الذين التصقوا بالرب في البداية وآخرهم نثنائيل، ذكروا بعد ذلك معاً وآخرهم برثلماوس بدل نثنائيل: «وجعل لسمعان اسم بطرس، ويعقوب بن زبدي ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أي ابني الرعد، وأندراوس، وفيلبس، وبرثلماوس...» (مر ٣: ١٦-١٩)

ومن قول فيلبس «وجدنا» بالجمع، يتضح أنه كان ضمن التلاميذ الأوائل الذين تعرفوا على الرب بعد كلام المعمدان عنه.

«الذي كتب عنه موسى» (تث ١٨: ١٥):

كانت الأسفار المقدسة بين أيديهم يفحصونها ليل نهار مع المترقبين خلاص إسرائيل؛ وطالما توقفوا معاً عند إشارات ومَضَتْ أمام قلوبهم بالروح عن المسيا الذي يترقبون ظهوره، إذ كان يُلهب قلوبهم: «أنا أحب الذين يحبونني والذين يبكرون إليّ يجدونني» (أم ٨: ١٧)؛ «لأنكم لو كنتم

(٦١) لقد شرح المؤلف حديث الرب مع نثنائيل شرحاً روحياً فيما سبق في كتاب: «الإيمان بالمسيح»، ص ١٠٨-١١٠ من الطبعة الأولى.

تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني .» (يو ٥ : ٤٦)

«يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة (٦٣)» :

لقد أبقى ق. يوحنا معرفة فيلبس في حيّزها البشري بالنسبة للمسيح كما كانت على لسان فيلبس. ولكن واضح غاية الوضوح أنه تعريف أفضى إلى تعريف آخر في قلب فيلبس لم يسعفه الفكر أن يظهره آنثذ فاستبدل الكلام بالرؤيا «تعال وانظر».

٤٦ : ١ «فقال له نثنائيل : أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟ فقال له فيلبس : تعال وانظر».

كان الذين يترقبون ظهور المسيّا، يربطون بين عظمة المسيّا وعظمة المدينة التي سيظهر فيها وقُدسيتها وشهرتها وأشهر الأنبياء الذين ظهوروا فيها، ولكن نثنائيل صُدم لما سمع اسم الناصرة، خاصّة وأن اسم الناصرة بالعبرية مأخوذ من اسم فرع الشجرة غير الطبيعي الذي يخرج من أسفل الجرع (أصل) الشجرة ويسمى بالعربي «نسر»، وهو قريب النطق من العبري «نتسير» المأخوذ منه كلمة الناصرة.

«ويخرج قضيب من جذع (خطأ والصح جذر πίλης) يشي، وينبت غصن (نتسير / نسر) من أصوله πίλης، ويحلّ عليه روح الرب...» (إش ١١ : ١)

فاسم الناصرة خامل في الطبيعة كما هو خامل في الأسفار تماماً. فنثنائيل يتكلم عن وعي ودراية. ولكن ألم يأخذ المسيّا شكل العبد «محتقر ومخذول» (إش ٥٣ : ٣) ؟ وهو على كلّ دُعي «ناصرياً»، ولكنه وُلد في بيت لحم اليهودية.

أما الذين يقولون إن «الجليل» أيضاً هو خامل الذكر ولم يخرج منه نبي «أجابوا وقالوا له : ألعلك أنت أيضاً من الجليل فتش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل» (يو ٧ : ٥٢)؛ فهذا غير صحيح وعن غير دراية يتكلمون. فكل من يونان النبي وعزّيّا النبي وناحوم النبي وربما إيليا النبي أيضاً وأليشع النبي وعاموس النبي كانوا جليليين وكانوا أجلاء. والجليل كانت أرضها مقدسة وسماؤها مفتوحة ! أما ردّ فيلبس العملي فهو : «تعال وانظر»، حسب خبرته الشخصية وما سمعه من كل الذين رأوه أنه ليس من رأى كمن سمع، فرؤية المسيح إن كانت عن جدّ وإخلاص فهي تكفي لكي يترك الإنسان كل شيء ويتبعه.

ج - شهادة نثنائيل :

٤٧:١ «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه».

ومن هو إسرائيل غير الحق؟ والذي كان فيه الغش؟ لأن يعقوب الذي تغيّر اسمه فيما بعد إلى إسرائيل أخذ بركة البكورية بالغش إذ غش أخاه وغش أباه. فقد لبس جلد معزى ليدوم ملمسه خشناً لإسحق أبيه الذي كان قد فقد بصره — ليظهر كأنه عيسو الابن البكر الذي كان أشعراً، وذلك لكي يصلي عليه أبوه ويعطيه البركة الأخيرة، وكأنه ابنه البكر، وهو ليس كذلك. وفعلاً سرق البركة وعاش بها وجازت عليه بالفعل لأن هكذا دعاء الوالدين الأخير يكون نافذاً.

«فدخل إلى أبيه وقال يا أبي، فقال هأنذا من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك... فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فحشّه، فقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدي عيسو (جلد المعزى)... فباركه، وقال له: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو.» (تك ٢٧: ١٨-٢٤)

ولكن هذه الحركة لم ترض الرب، وتغيّر اسمه فيما بعد إلى إسرائيل، ولكن ظلت هذه الوصمة لاصقة به كل أيام حياته وأولاده من بعده!

والآن نحن بصدد إسرائيل العهد الجديد أشخاصاً وشعباً، أي إسرائيل الحقيقي αληθινός. فكان لما ظهر نثنائيل أمام المسيح أن رأى فيه شخصيةً ملتهبة صادقة تطلب البركة عن حق وليس عن غش. فبعين المسيح الفاحصة رآه «إسرائيلي حقاً» بمعنى أنه يطلب وجه الله عن حق في بحثه عن شخص المسيّا، ورآه أن لا غش فيه بمعنى أنه رأى استقامة نفسه وقلبه كأفضل ما كان عليه إسرائيل لما رأى حلمه والسلام المنصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك ٢٨: ١٠-١٥).

٤٨:١ «فقال له: من أين تعرفني. أجاب يسوع وقال له: قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك».

لقد أخذ نثنائيل بترحاب المسيح واهتزت أعماقه لما أعطاه علامة كشفت له سرّاً من أسرارهِ لا يعرفه أحد غيره، فأدرك سلطان المسيح على «معرفة ما في الإنسان». وهكذا ليس فقط أثبت المسيح أنه يعرفه بل وأنه رآه فأحس نثنائيل أن ليس شيء ما مخفياً عن عينيه، لهذا فإن كان فيلبس يقول له عن يسوع الناصرة أنه المسيّا بحسب الناموس والأنبياء فهو قد تيقّن بنفسه أنه ابن الله كما قال عنه المعمدان.

٤٩:١ «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل».

كان إعلان المعمدان الذي هتف به ونادى أن هذا هو ابن الله قد ملأ أسماع الناس وأخذ صدهاء تُردّده قلوب الأتقياء الذين يترقبون الخلاص بفارغ الصبر. فلما بدرت من المسيح بادرة صغيرة ألح فيها لنثنائيل عن شخصه حتى انهمر عليه إحساس الخلاص كالسيل.

فهوذا ابن الله حسب وعد الدهور على لسان المعمدان، وهوذا المُلْك يُردّ لإسرائيل في ابن الله هذا القادر المقتدر. إنها ومضة إلهامية كشفت له الأطراف المترامية لملك المسيا الموعود ولكن بغير وضوح.

٥٠:١ «أجاب يسوع وقال له: هل آمنت لأنني قلت لك إني رأيتك تحت التينة، سوف ترى أعظم من هذا».

الرؤية التي يقصدها المسيح هنا هي رؤية أمور تختص بالمسيح يدرك منها حقيقة المسيح أكثر أو أعظم مما رأى الآن. لأن دائماً أبدأ الأمور الأعظم في الإنجيل هي أمور الله. والمقارنة هنا دقيقة وسريّة، فهي مقارنة بين مستوى ما رأى المسيح من نثنائيل وهو مخفي تحت التينة — لأن الكلمة اليونانية «تحت» تشير إلى نوع من الحفية ὑποκάτω — وما سيراه نثنائيل من المسيح وهو مخفي تحت الجسد!! فالثانية أعظم بلا قياس وهذا ستبرهنه الآية القادمة. ووعد المسيح هذا لنثنائيل هو مرتب على ملاحظة المسيح الأولى لنثنائيل أنه إسرائيلي حقاً لا غش فيه من جهة سعيه للتعرف على الله سعياً يسنده الحق والصدق معاً، كما هو مرتب على سرعة إيمان نثنائيل الملفتة للنظر. وهذا قد أصبح قانوناً في أمور البحث عن الله والسعي المخلص الخالص في معرفته.

٥١:١ «وقال له: الحق الحق أقول لكم (من الآن) ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان».

«الحق الحق أقول لكم»:

هذا الإصطلاح بصورته المزدوجة لا يَرِدُ إلّا في العهد الجديد ولا يَرِدُ إلّا في إنجيل يوحنا الذي لا تَرِدُ فيه مفردة كما هي في باقي الأناجيل.

«(من الآن)»:

شبه الجملة الزمانية هذه لا نجدّها في الأصل اليوناني ولا في التراجم الأخرى. ويقول عنها العالم الكتابي واللغوي «وستكوت» أن أفضل المراجع ذات القيمة العالية لا تأخذ بها؛ لأن

وجودها يخل بالمعنى و يغيّر مفهومه اللاهوتي .

فإذا أخذنا بها يكون المعنى : أن منذ بدء الخدمة فقط يبدأ ابن الإنسان ليكون الصلة بين السماء والأرض . ولكن الأصح لاهوتياً أن لا نأخذ بها بحسب أكثرية المخطوطات الأصلية التي لا ترد فيها .

ويكون المعنى أن بتجسد الابن ، أي لما الكلمة صار جسداً ، صارت الصلة بين السماء والأرض واردة دائماً في شخص ابن الإنسان . لأن من المقطوع به لاهوتياً أن الابن المتجسد ، بسبب كون «الجسد» متحداً اتحاداً كلياً وكاملاً باللاهوت ، صار هو الواسطة لدخول الإنسان إلى الله أي قدس الأقداس . «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً (سُلماً) كرّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده...» (عب ١٠: ١٩) . لذلك أيضاً قال : «أنا هو الطريق .» (يو ١٤: ٦)

وواضح أن ق . يوحنا يسجل هنا مبدأ لاهوتياً عاماً . كذلك لا يقدمه بصيغة المفرد حسب مجرى الحديث مع نثنائيل بل يطلقه عاماً للجميع «الحق الحق أقول لكم» بهذه الصيغة التوكيدية التي تأتي دائماً قبل كل مبدأ استعلاني .

«السماء مفتوحة» :

السماء المفتوحة رآها يعقوب إسرائيل هكذا : «ما هذا إلا بيت الله (على الأرض) وهذا باب السماء (فوق) .» (تك ٢٨: ١٧)

لم يرَ السماء مفتوحة إلا إسطفانوس الشماس الشهيد ، ورأى فعلاً ابن الإنسان جالساً عن يمين الله ، ومن بعده رآها بولس الرسول ورأى وجه يسوع يُطلُّ منها بأكثر من الشمس لمعاناً . أما ق . يوحنا فدخل في الرؤيا وعاش فيها يجوسُ ويسجّل مناظرها .

ولكن القصد من قول المسيح هنا أننا نرى السماء مفتوحة ، هو افتتاح مغاليق رحمة الله على الإنسان واستعلان رضى الآب السماوي بسبب تجسد الابن . فالسماء انفتحت بواسطة التجسد لحساب الإنسان .

وقد عبّر المسيح عن ذلك بأجلى وضوح أنه هو «الباب» ، وما الباب إلا باب السماء .

أما منظر الملائكة يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان ، فهو أنه وإن كان قد حدث هذا بصورة ضئيلة جداً سواء عند ميلاده أو عماده أو أثناء الصوم ، إلا أنه لم يرها أحد : «وصارت الملائكة

تخدمه» (مر ١: ١٣)؛ كما نجد ذكر الملائكة في القيامة وهي تخدم وتحرس القبر (لو ٢٠: ١٢)؛ كما نسمع عنها في القداس الإلهي، في أثنائه وبعد انتهائه: «يا ملاك هذه الصاعدة...؟» (القداس الإلهي)؛ كما ذكر المسيح نفسه إمكانية إحضاره جيشاً من الملائكة لو أراد: «أتظن أنني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي ليقدّم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة.» (مت ٢٦: ٥٣)

ولكن المقصود من منظر الملائكة هو الأجداد والنعم التي رافقت التجسد والتي من أهمها انفتاح بصيرة كل الذين شاهدوا المسيح وشهدوا له ممجّداً، والذين خدموا تجسده بانفتاح بصائرهم وأرواحهم، ووعظوا وشرحوا أجداد تجسده، كما يقول القديس أغسطينوس. ولكن تظل الملائكة عندنا هي هي كما رآها المسيح تماماً تنزل وتطلع مستندة على كلمته، محمّلة بعطايا ومشورات الآب والمسيح لخدمة العتيد أن يرثوا الخلاص (عب ٢: ١٤).

أما القصد النهائي من هذا القول بخصوص انفتاح السماء والملائكة تصعد وتنزل على ابن الإنسان حيث لم يُذكر السلم، فإن قول المسيح هذا هو عودة بقلوب وأذهان التلاميذ ومن يأتي بعدهم إلى رؤية يعقوب إسرائيل كرأس لشعب الله قديماً، باعتبار أنه وهو رأس الكنيسة شعب الله الجديد جاء ليحقق وعد الله فيها، وقد حققها: «ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض.» (تك ٢٨: ١٢-١٥)

ولم يذكر المسيح السلم الذي رآه يعقوب، وذلك عن قصد لأنه هو السلم، هذا المنصوب على الأرض ورأسه يس السماء!! «ابن الإنسان» وبالعبيرية «بارأنوش» «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣)، الذي أوصل الأرض بالسماء، وربط السمايين بالأرضيين، وافتتح بجسده طريقاً صاعداً إلى الأقداس العليا دشّنه بدمه يوم الجلجثة، به نصعد وكأننا صرنا بأجنحة، وعليه تنحدر إلينا الملائكة وأرواح الأبرار المكتملة في المجد، وعلى أكتافها نعم وبركات مخنومة بدم الحمل ورضى الله.

وهكذا تحقق حلم يعقوب، وكل ما كان رؤى عند الأنبياء، صار حقائق نحيّاها كل يوم.

سوف نقسم إنجيل ق. يوحنا إلى خمسة أجزاء، هي في الواقع خمسة بشارات أي خمسة أناجيل :

الجزء الأول :	إنجيل التجديد	١:٢ — ٤:٥٠ .
الجزء الثاني :	إنجيل قوة الكلمة	٤:٤٦ — ٥:٤٧ .
الجزء الثالث :	إنجيل الاستعلان	١:٦ — ١٢:٥٠ .
الجزء الرابع :	إنجيل المحبة	١:١٣ — ١٧:٢٦ .
الجزء الخامس :	إنجيل الفداء	١:١٨ — إلى آخر الإنجيل .

الجزء الأول : إنجيل التجديد

١:٢ — ٤:٥

« قيل لكم في القديم... أما أنا فأقول لكم. »

(مت ٢١:٥ — ٤٣)

« أنتم الذين تبعتموني في التجديد. » (مت ١٩: ٢٨)

الانتقال من القديم إلى الجديد :

ويقابله في الأناجيل الأخرى « قد سمعتم أنه قيل للقديس... أما أنا فأقول لكم » (مت ٢١:٥). ولكن ما قدمته الأناجيل الأخرى بالتعليم يقدمه إنجيل يوحنا من داخل المعجزة وشرحها والاستعلان المترتب عليها.

وفي كل جزء من أجزاء « إنجيل التجديد » سيجد القارئ مقابلة واضحة ومستمرة بين القديم وبين الجديد الذي جاء الرب يسوع ليؤسسه، ثم سيتضح نتيجة لذلك استعلان معين لشخص الرب، وذلك على النحو التالي :

١ — معجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرس قانا الجليل :

١:٢ — ١٢

القديم : ماء التطهير الناموسي .

الجديد : الخمر = الدم والحياة الجديدة .

الاستعلان : العريس الحقيقي يقدم دمه المسفوك لإسعاد البشرية .

٢ — تطهير الهيكل :

١٣:٢ — ٢٢

القديم : هيكل اورشليم المبني بالحجارة في ست وأربعين سنة .

الجديد : « هيكل جسده » المقيم من الموت : « وفي ثلاثة أيام أقيمه » .

القديم : ذبائح الحيوانات — بقر وغنم وحمم .

الجديد : ذبيحة جسده « انقضوا هذا الهيكل... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده » .

القديم : التجارة بالدين : الصيارف والدراهم .

الجديد : « لا تجعلوا بيت أبي (الكنيسة) بيت تجارة » .

الاستعلان: المسيح ابن الله: بيت «أبي».

٣ — مع نيقوديموس ليلاً:

١٢:٣ — ١٣

أ — الحديث المباشر مع نيقوديموس

القديم: ملكوت الله بالمعرفة، والمفاتيح مع الفريسيين «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا».

الجديد: ملكوت الله بالميلاد الثاني من فوق، من الماء والروح.

الاستعلان: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

٢١:٣ — ١٣

ب — الحديث غير المباشر مع نيقوديموس

القديم: الحياة النحاسية المرفوعة على خشبة، والمريض الناظر إليها يُشفى من عضة الحية.
الجديد: «هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

الاستعلان: موت ابن الله على الصليب لإعطاء الفداء للحياة.

القديم: ظلمة الأعمال الشريرة — بغضة النور — الدينونة.

الجديد: الإقبال إلى النور بأفعال الحق المعمولة بالله.

الاستعلان: «النور جاء إلى العالم».

٣٦:٣ — ٢٢

٤ — تكميل شهادة المعمدان

القديم: «الذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم».
الجديد: «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص».
الاستعلان: المسيح العريس الحقيقي: «من له العروس فهو العريس».

٤٢:٤ — ٤

٥ — في السامرة

٢٦:٤ — ٧

أ — الحديث مع السامرية:

القديم: بثر — بركات وذكريات الآباء الجسدية — ذات الماء المعطش.

الجديد: المسيح ينبوع الحياة الأبدية، والذي يشرب منه لا يعطش أبداً.

القديم: السجود في جبل أورشليم لليهود وجرزيم للسامريين الذين يسجدون لما لا يعلمون.

الجديد: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون بالروح والحق للآب» .

القديم: «أنا أعلم أن مسيًّا يأتي... ذاك يخبرنا بكل شيء» .
الجديد والاستعلان: «أنا هو» .

ب — الحديث مع التلاميذ: ٤: ٢٧ — ٣٨

القديم: «يا معلم كُلْ» .

الجديد: «لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم؛ طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عمله» .

القديم: الأنبياء الذين زرعوا بالدموع .

الجديد: التلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا فيه .

الاستعلان:

ج — إيمان السامريين: المسيح هو «مخلص العالم» ٤: ٣٩ — ٤٢

الأصحاح الثاني

الأصحاح الثاني

مكان البشارة:

ثانياً: في الجليل

(١٢: ١-٢)

١ - معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل (*)

(«من له العروس فهو العريس.» (يو ٣: ٢٩))

القديس: ماء التطهير الناموسي.

الجديد: الخمر = الدم والحياة الجديدة.

الاستعلان: العريس الحقيقي يقدم دمه المسفوك لإسعاد البشرية.

لم يكن جزافاً أن يبدأ المسيح ظهوره العلني في «حفلة عرس» و يصنع أولى آياته في تحويل «الماء إلى خمر»، فهو يبدأ الخدمة العلنية وإنجيل آياته هكذا:

«وفي اليوم الثالث كان عُرسٌ في قانا «الجليل» وكانت أمُّ يسوع هناك.» (يو ٢: ١)

فإذا علمنا أن بدء خدمة المسيح في إنجيل مرقس هكذا: «جاء يسوع إلى «الجليل» يكرز ببشارة ملكوت الله» (مر ١: ١٤)، وإنجيل القديس متى أيضاً مثله: «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله.» (مت ٤: ١٧)؛

كذلك إذا رجعنا إلى مفهوم ملكوت الله نجده حسب التقليد الإنجيلي الرسولي هكذا: «يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه...» (مت ٢٢: ٢-١٤)؛ وأيضاً: «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن لاستقبال العريس...» (مت ٢٥: ١-١٣)؛

ثم لو دققنا؛ نكتشف أن المسيح نفسه يصوّر كل فترة وجوده على الأرض في وسط أولاده وتلاميذه ومحبيه بحفلة عرس ممتدة: «فجاءوا وقالوا لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم. ما دام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون في تلك الأيام.» (مر ٢: ١٨-٢٠)

(*) يُقرأ هذا الفصل (١٢: ١-١١) في عيد عرس قانا الجليل (١٣ طوبة) وهو اليوم الثالث بعد عيد الغطاس كما يقول الإنجيل: «وفي اليوم الثالث». ويُعتبر هذا العيد اليوم الأخير من أعياد الظهور الإلهي «التيثوفانيا»: «وأظهر مجده فأمن به تلاميذه».

وهكذا نستطيع أن نأخذ صورة مؤكدة عن ما يبدو عليه المسيح في نظر نفسه: المسيح يرى نفسه عريساً، أينما سار وأينما حلّ، حتى وهو في حفلة عُرسٍ لآخر، عريساً يبدأ يَدشن ملكوته!

ق. يوحنا استحال عليه تحقيق الرمز بحرفيته على الواقع بأن يصوّر المسيح كعريس في عُرس قانا الجليل، فاكتمى أن يُدعى المسيح إلى عُرس «الجليل» كعريس حقيقي ولكن غير ظاهر إلاً لأخصّائه، ولم يظهر إلاً عندما قيل: «ليس لديهم خمر». قد فرغ الفرح من إسرائيل...!!، «ليس لديهم خمر» وماذا يبقى من العرس إذا لم يكن لهم خمر^(١)؟ إنه الرمز الحقيقي لسر الشركة مع الله أو الانفتاح على الملكوت!! والخمر هو التعبير اللاهوتي عن بهجة الخلاص في الأزمنة الماسيانية!! وفي الوعي المسيحي اللاهوتي هو كأس الخلاص بعينه «اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت ٢٦: ٢٧ و٢٨)

وإن كان قد حدث فجأة أن فرغ الخمر في عرس قانا الجليل، ولكن عند ق. يوحنا كان هذا أمراً تحثّمه النبوات، لأن بهجة الخلاص قد انقطعت بالفعل من العهد القديم. ولم يكتشف أحد أن خمر العرس في عُرس الناموس قد انقطع إلاً أمّ يسوع التي أصبحت تحسّ بوجود الله أينما ذهبت من عدم وجوده. وفي هذا يقول النبي تعبيراً عن أواخر أيام العهد القديم: «اصحوا أيها السكارى، وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على العصير، لأنه قد انقطع عن أفواهكم.» (يو ١: ٥)

وق. يوحنا يقدم «الأُمّ» باعتبارها أول من اكتشف أن «ليس لهم خمر»! والخمر تعبير عن سر الشركة مع الله — كما قلنا — ولدائتها لدى العريسين، ولدى العهدين، أي لدى عريس الناموس لأنه يبدو أنه كان أحد أقربائها، ولدى عريس الملكوت الحقيقي لأنه ابن لها بالحق، تقدمت بملتمسها: «ليس لهم خمر»، ومع الطلب نظرة استعطاف من «أُمّ إسرائيل القديم بالتمثيل»^(٢) و«أُمّ إسرائيل الجديد باللحم والدم». وكأنها تقول له: اعلن عن وجودك!! فكان أن حوّل عريس الملكوت ماءهم الذي للتطهير إلى «خمر على طقس عشاء الرب». هكذا شربها تلاميذه وأحبائه «الذين تبعوه في التجديد». وهكذا وبها أظهر مجده لهم، فانفتحت

(١) يقول الربيون اليهود: [لا مرةً إلا مع الخمر] (Pes. 109a) عن العالم ليون موريس: «شرح إنجيل يوحنا»، ص ١٧٩.

(٢) يقول أحد الشراح الذي أخذ عنه كثيرون إن المسيح لما قال للقديس يوحنا وهو على الصليب: «هذه أُمّك»، فإنه كان يرمز إلى العذراء على أنها هي «إسرائيل»، أي العهد القديم، وبتوع من التوصية والوصاية أن تتمهد الكنيسة الشعب اليهودي بترائه كأنه أُمّ لها، كما كان شعب إسرائيل أُمّاً للمسيح. ثم قال لوالدته: «يا امرأة هذا ابنك»، لكي يبنه إسرائيل وكل الشعب اليهودي بترائه أن الكنيسة هي بنت العهد القديم. وقد سبق الإشارة إلى ذلك في المدخل ص ٣٠١.

أعينهم لما شربوا ورأوا هالة مجده فأمنوا. لقد عرفوه كما عرفه تلميذا عمواس وقت كسر الخبز؛ لأنه في اثنين يُستعلن السر، وقت رفع الكأس ووقت كسر الخبز، أينما كان المسيح على عشاء!!، فما بالك والمسيح يضيف إليها لمسة فصحية: «إن ساعتني لم تأت بعد»، ولكن أمه استقدمتها له!!

لقد ملأت الخمر أجرائهم وفاضت، وفي هذا يقول يوثيل النبي نفسه لما نظر بالروح عودة العريس إلى عروسه: «فتملاً البيادر حنطة وتفيض حياض المعاصر خمرًا وزيتًا» (يو ٢: ٢٤). أما إشعياء النبي فشعر بالفرح الذي ملأ قلوب الداعين والمدعوين، وعبر عنه من وراء الأزمنة: «وكفرح العريس بالمعروس يفرح بك إلهك» (إش ٦٢: ٥). أما بنو العرس القديم ففرحوا «بالشراب» البائد لأنهم شربوا منه فوجدوه جيداً؛ وأما بنو الملكوت فأدركوا سر حضور الله فيه، وبالتالي سر الخمر وسر الآية، وآمنوا بالمسيح؛ ولكن ظلَّ سرُّ العريس مكتوماً حتى يوم الصليب، ويوم استعلن كيف فدى العريس عروسه واشتراها بدمه الذي استودع سره في خمر الكرمة الذي يملأ كل أجران العالم.

القصة:

١:٢ «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك».

نحن في نهاية الرحلة التي بدأها الرب من بيت «عبارا» عبر الأردن على الشاطئ الشرقي، وكان معه في بداية الرحلة التلميذان الجديدان أندراوس ويوحنا اللذان انضم إليهما سمعان بطرس ويعقوب، ثم في بداية المسيرة انضم فيلبس ثم ثثنائيل، أربعة باسم يهودي واثنان باسم يوناني، وهذا ليس جزافاً في إنجيل يوحنا. والمسافة طويلة يقدرها العالم وستكوت^(٣) باختباره الشخصي بحوالي ٦٠ ميلاً، ليبلغ الناصرة أولاً ثم قانا الجليل، وكله من على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

اليوم الثالث:

العدد هنا يبدأ من الآية ١: ٤٣: «وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلبس...»، ولكن كثيرين من الشراح الذين تستهويهم الأعداد وتأويلها يقولون إن اليوم الثالث هو القيامة التي بها استعلن المسيح ذاته. ولأنه هنا في هذه الآية يقص قصة استعلان، فقد صدّرها بهذا الرقم للفت الانتباه.

³ Op. cit., p. 36.

عُرس في قانا الجليل:

العُرس عند اليهود يستمر أسبوعاً على الأقل ويبدأ في المساء. ومعروف في التقاليد اليهودية أنه إذا كانت العروس عذراء يكون زواجها يوم الأربعاء، وإلا يكون زواجها يوم الخميس. «فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة. وكان في المساء (في الظلام) أنه أخذ ليثة (بدل راحيل) ابنته وأتى بها إليه فدخل عليها... وفي الصباح إذا هي ليثة فقال للابان ما هذا الذي صنعت بي أليس براحيل خدمت عندك؟ فلماذا خدعتني. فقال لابان... أكمل أسبوع هذه، فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة...» (تك ٢٩: ٢٢-٢٧)

كذلك في قصة زواج شمشون من المرأة الفلسطينية نقراً:

«ونزل أبواه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان... فقال لهم شمشون لأحاجيتكم أحجية فإذا حللتموها لي في سبعة أيام الوليمة...» (قض ١٤: ١١ و١٢)

قانا الجليل:

«قانا» دائماً تُذكر باسم «الجليل» للتفريق بينها وبين قانا أخرى كانت في منطقة سوريا. وهي المكان المعروف الآن بـ «خربة» قانا، وهي على بعد ٩ أميال شمال الناصرة.

«أم يسوع»:

لم يذكر اسمها ق. يوحنا قط في كل إنجيله وحتى عندما ذكر اسم يوسف (١: ٤٥) لم يذكر اسمها، فهذا هو المنهج الفكري والروحي العجيب الذي اختطه هذا الإنجيلي: لا اسمه ولا اسم أمّه ولا اسم العذراء مريم. ولكن ليس من الهيّن على ق. يوحنا أن يذكر «أم يسوع» إلا إذا كان الدور الذي ستقوم به في غاية الأهمية ويحوطه السر من كل جانب.

وفي نظرنا^(١) أن العذراء القديسة مريم في هذه القصة تقف كنيّة تتوسط بين عهدين وتتوسط بين عريسين، وتتطلب المستحيل من ابنها فيعطيا!

وواضح من ملايسات القصة أنها لم تكن مدعوة بقدر ما كانت داعية وصاحبة أمر في البيت. فيبدو أن هذا الزواج كان يمتُّ إليها بصلة أكثر من أنها كبيرة، إذ ما أن وصل المسيح إلى البيت بعد الرحلة المضنية إلّا ووجد منها الرسالة أنها سبقتة إلى العرس، وهي في انتظاره. فاستجاب في الحال، بالرغم من أن الرحلة كانت مضنية للغاية.

(١) انظر كتاب: «العذراء القديسة مريم التيوتوكس (والدة الإله)» للمؤلف، طبعة ثانية ١٩٧٩، ص ٨٧-٨٩.

٢ : ٢ «وَدُعِيَ أَيْضاً يَسُوعُ وَتِلَامِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ».

عجيب حقاً أن يُدعى عريس — وهو في أوج عُرسه — إلى حفلة عُرس. إنها مضادة Paradox. يمكن أن تكون جزءاً من إنجيل. وإذا قِيلَها الإنجيل هكذا بمستواها الظاهري هذا، لخرج الإنجيل عن حقيقة مستواه، إذ كيف يتسع درب الصليب لحفلة عُرس؟؟ ولولا أن المسيح يعلم ما سيصنع هناك لامتنع، بل لأنه كان قد سبق ودبّر كيف يُظهر مجده في هذا العرس على أساس الصليب وفي مستواه، لذلك قَبِلَ الدعوة، وأصرَّ أن يأخذ تلاميذه أيضاً لأنهم الوجه الآخر من حفلة عُرسه الخاصة. أليس هو القائل «من أجلهم أقُدّس أنا ذاتي» (يو ١٧ : ١٩) بمعنى أكرّس نفسي للصليب من أجلهم؟

٣ : ٢ «وَلَمَّا فَرَّغَتِ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ : لَيْسَ لَهَا خَمْرٌ».

هذا هو المحور الذي تدور حوله القصة. وهذا هو السبب الذي اجتذب المسيح إلى العرس، وهذا هو الدور الذي كشفت فيه الأم عن دورها الشفاعي الكبير.

ماذا حدث؟ يقول القائلون وهم على صواب — إن هم أخذوا بمظاهر القصة — أن حضور المسيح وتلاميذه وأحبائه، وهم كثرة، أخلَّ بترتيبات رئيس المتكأ؛ فاستُفِذَ الموجود من الخمر حتى فرغت فجأة. ولكن إن أخذنا بجوهر الإنجيل وأسلوب ق. يوحنا ومقاصده البعيدة الهدف والرؤيا، فحضور المسيح أيضاً هو الذي كشف رداءة الخمر وأفرغها من مضمونها. فهل ممكن أن يكون على مائدة عشاء الرب خمر غير جيدة؟ أو كأس غير كأس الرب؟ الخمر في حضرة الرب وفي يده هي الرمز الكامل والحقيقي للشركة مع الله.

أليس من أجل ذلك دعت أمه ليصحّح، ليس «نقص الخمر»، بل «نقص وجود الله وحضوره»؟

«لَيْسَ لَهَا خَمْرٌ» :

هذا التعبير مستيكى، أي سرّي، بالدرجة الأولى، يعني ليس لهم فرح ولا سرور حقيقي بالله، إن الأم العذراء القديسة مريم نذيرة الرب والتي تقدست بالروح القدس نفساً وجسداً وروحاً يستحيل أن تعني إلا هذا، العذراء القديسة التي عرفت أن تقول: «تعظم نفسي الرب وتبتهج بروحي بالله مخلصي» (لوقا ١ : ٤٦)، تعرف إن كان من خمر الناس تبتهج الروح أم من خمر الله، فحينما قالت «ليس لهم خمر» كان ذلك بمثابة مُلْتَمَس عاجل وسرّي أن يمارس عمله كإله.

والظروف كلها حسب الظاهر كانت مواتية، فخمرهم فعلاً نفدت، والنفوس الحاضرة قلقة وملتهبة شوقاً تريد أن ترى من يسوع عملاً، بعد كل الأخبار المذهلة والمتزاحة التي ملأت البلاد كلها عما قاله المعمدان وعما شاهده وشهد به، وخاصة حينما أعلن أن المسيح هو العريس وأما هو فصديق العريس! كانت عين العذراء وقلبها على عمل إعجازي مثل ما عمل المسيح تماماً. وكما انتهت العذراء، غَمِلَ المسيح، وزاد، لأن حب العريس أقوى من حب العروس. ولكن عتاب المسيح الوحيد للعذراء الأم أنها عَجَلَتْ بالصليب!! ونحن لا زلنا في صفِّها «لم تأتِ ساعتِي بعد»!!

٢: ٤ «فقال لها يسوع ما لي ولكِ يا امرأة لم تأتِ ساعتِي بعد».

الإشارة هنا خفية ترمي إلى أن الرب لا يعمل إلا بحسب مشيئة الآب، وأن العمل الذي تطلبه «الأم» يدخل في تحديد ساعة الصليب!! والمعنى الآن سهل فهو يقصد أن بدء العمل بأول آية يستعلن شخصه حتماً؛ وبهذا يكون قد حدّد بالضرورة بدء العدّ التنازلي للصليب، لأن عمل الرب وهو منصبُّ كله ومحصور في عمل الفداء والخلاص، كان محسوباً عليه من أعدائه، أي ضده. فكأنما الأم بطلبها صنع الآية، وهي الأولى، نبّهت وأعطت الأعداء الإشارة للبدء، فحددت دون أن تقصد ساعة الصليب. ولم يكن المسيح يشاء أبداً أن تكون أمّه هي التي تقف هكذا على بداية درب الصليب!

أما قوله لأمه: «يا امرأة» فهذا اللقب لا يُفهم على مستوى لغة ق. يوحنا إلا إذا قارناه بما خاطبها به الرب عندما أتت الساعة وهو على نهاية درب الصليب! : «يا امرأة هوذا ابنك». وهكذا يشير الرب بلفظه السرية التي يجيد ق. يوحنا فهمها وتسجيلها كيف كانت أمّه القديسة العذراء مريم تمثل «المرأة» وهي تفتح وتختتم معه — كآدم الثاني — سكة الصليب، وكشريكة أحزان وكمن يجوز في نفسها سيف!! حسب نبوة سمعان الشيخ الجليل.

٢: ٥ «قالت أمّه للخدام (=الذين كانوا يخدمون) مهما قال لكم فافعلوه».

هي وحدها التي فهمت كل شيء من ردِّ ابنها، الذي احتار فيه كل شارحي الكتاب، فبالرغم من صورته الجافة حسب الظاهر إلا أنها اعتبرته يحمل علامات الرضى والتنفيذ. فأوصت الخدام بطاعة كل ما يقول، وكلمة «الخدام» هنا تأخذ معنى خدمة الطقوس والأسرار، وهي

عجيبة حقاً في موضعها^(٥)؛ فهي تزيد من معنى الوجود السري للمسيح كعريس ومن مستوى الخمر السرائري.

فالكلمة العادية والطبيعية للخدام حسب تحقيق العلماء هي إما $\deltaούλοι$ أو $ὑπηρέται$ ، ولكن ق. يوحنا يصر في هذا الموقف، أمام حضرة المسيح ووجود أمه العذراء القديسة مريم وشركة التلاميذ القديسين، أن يختار الخدمة توزيع الخمر الذي يُعتبر وكأنه من يد المسيح، لفظة «الذياكونيين» ليزيد من ترجيح فعل سرائري حادث.

٦:٢ «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة».

الستة الأجران للتطهير لستة أيام الأسبوع، لأن السابع وهو السبت ليس فيه خروج ولا دخول ولا عمل ما فليس له تطهيرات. وكان كل جرن يُخصّص ليومه، أما سعتها الكبيرة فلأن التطهيرات كانت قد فاقت عن الحد، فليس اليدان فقط بل والقدمان والأوعية هي التي تتطهر، وقبل وبعد الأكل، حتى الكراسي وشِلَّت الجلوس والأسيرة: «لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعثناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ، ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس (أكواب الماء والخمر) وأباريق وآنية نحاس (الحلل) وأسيرة.» (مر٣: ٤ و٥)

وهذه الأواني الفخارية الكبيرة الحجم لا تزال تُستخدم في نفس المناطق المذكورة، ويوجد منها أحجام أكبر في الأديرة إلى الآن.

مَظَرين أو ثلاثة:

هذا المقياس يساوي في جملة الأجران الستة حوالي ١٣٤ جالوناً. علماً بأن الجالون يساوي ٤.٥ لتر.

٧:٢ «قال لهم يسوع املاؤا الأجران ماء. فملأوها إلى فوق».

هنا المسيح يأخذ موقف الذي يُجري السر أو الآية سيان، وكونه يأمر الذياكونيين بملء الأجران ماءً فهو يحضر بنفسه كيفية العمل ومادة السر مع أخصاء الخدمة. واستجابة الخدام الفورية لملء

(٥) الذياكونيون هم الشماسة خدام هيكل الرب.

١٣٤ جالوناً من الماء، أي ما يزيد عن ٣٠ صفيحة ماء، أخذ وقتاً وجهداً ليس بقليل، لأن الأجران كلها كانت قد فرغت من الماء بسبب عدد المدعوين الكبير. كل هذا جعل المنظر مثيراً ومُلفتاً جداً للأنظار، وهذا بحد ذاته تحضير ليس بقليل بالنسبة لأداء المعجزة.

والملاحظ أن الخدم ملأوا الأجران حتى حافتها العليا $\epsilon\omega\varsigma \alpha\upsilon\omega$. هكذا يصنع المسيح دائماً: فهو «الملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف ١: ٢٣)، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦). وهذا الملء حتى الحافة يمثل في الحقيقة مع الكثرة الهائلة في الكمية المتحولة إلى خمر، مستوى عطية المسيح الروحية: «لأنه ليس يَكِيلُ يعطي الله الروح» (يو ٣: ٣٤)؛ و«القادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف ٣: ٢٠)، يعطي دائماً «بحسب غنى مجده» (أف ٣: ١٦)، وبحسب «غنى المسيح الذي لا يُسْتَقْصَى...» (أف ٣: ٨).

هذه الصورة الفائضة لعمل النعمة في عطية المسيح هي المعيار المنصوص عنه للعهد الماسياني، أي العهد الجديد، عهد الخلاص، عهد الفيض والملء.

لذلك لزم هنا، بالدرجة الأولى، مع هذه الكثرة أن ينتزع المسيح من رئيس المتكأ الشهادة بنوع جودة الخمر الذي ينفي عنه صورته المادية المؤدية للخلاعة والسكر. فالكثرة والفيض والملء هنا إنما تعمل لحساب فرح الروح وبهجة حضور الله. الأمر الذي طلبته العذراء وتمنته أن يكون فكان. والكثرة مع الملء والفيض في هذه الآية توازي تماماً ما حدث في آية الخمس الخبزات والسمكتين، والكثرة في صيد السمك الأخير حتى كادت الشباك تتخرق.

أما التماادي في وصف الملء والسعة والأعداد فهي الصفة الملازمة لآيات إنجيل يوحنا، فهدم الهيكل الذي تم بناؤه في ٤٦ سنة يتم في ثلاثة أيام، والأعمى مولود من بطن أمه أعمى، والمشلول له ٣٨ سنة في مرضه، والخمس الخبزات والسمكتان أشبعت خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال، ولعازر قام بعد أربعة أيام في القبر، فاختيار التماادي هو جزء من اختيار الآية.

٨:٢ «ثم قال لهم استقوا الآن وقدّموا لرئيس المتكأ، فقدّموا».

«الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً.» (٢ كوه ١٧)

«استقُوا الآن»: Ἀντλήσατε

هذه الكلمة أحدثت ضجة في عقول الشراح — وأكثرهم العلامة وستكوت — فهي تعني في

الأصل اللغوي «اسحبوا». فما كان من هذا العالم والذين تشيّعوا له أن ظن أنهم يسحبون من النهر أو البئر أو من مصدر آخر، لأن كلمة «اسحبوا» لا تصلح إلا للرفع بالجرذل أو بآنية بحبل من البئر أو خلافة. وقد فات على هؤلاء العلماء المتمدنين أن الأجران الحجرية الكبيرة ذات فوهة واسعة وليس لها أي وسيلة لرفع الماء منها إلا بسحبها بالكوز ذي اليد المعروفة، سواء كان من النحاس وهذا هو غالب الأمر جداً، أو من الفخار، والكلمة ἀντλήσατε باليونانية هي نفس الكلمة بالعربية الدارجة «يَنْظِلُ»، و«نَظَلَ» الماء أي أخذه من مصدر عميق بالكوز أيضاً وليس فيها أي لبس أو إبهام.

رئيس المتكأ: ἀρχιτρίκλινος

وأيضاً هذه الكلمة لم تفهم عند علماء الغرب، لأنها عادة شرقية أن يخدم و يضبط الحفلة بأكملها رجل يتبرع بذلك ويكون غالباً من أهل العرس، ويكون مرموق الكرامة، وهو يصنع ذلك تكريماً منه وتنازلاً لأهل العرس. ولذلك تكون له الكرامة الأولى في الحفل، وكلمته تكون نافذة على الجميع. لأن في حفلات العرس عند الشرقيين غالباً ما يخرج الشباب عن حدودهم إما بالتهليل أو بالشرب الكثير أو بالتذمر، وهذا يحتاج إلى قدرة عالية جداً من الضبط. فبحسب الأصول الشرقية، أوعز المسيح للخدم أن يقدموا من الخمر لهذه الشخصية، أي لرئيس المتكأ، فقدّموا.

وقد يحدث أن يكون رئيس المتكأ أحد رؤساء الدين الذي يُجري طقوس الزواج، وقد يبقى في العرس كمدعو فوق العادة وهنا تكون له كرامة مضاعفة.

وكان يهم المسيح جداً أن يشرب رئيس المتكأ من الخمر الجديدة، وذلك أولاً: حسب طقس العشاء. فالمسيح هنا اعتبر نفسه رب الأسرة أو العريس الإلهي، وأن كل المدعوين وأهل البيت بمثابة أولاده أو مدعوّيه. وكان الطقس يحتم أن المسيح يذوق و يعطي لأكبر الموجودين وبعد ذلك يدور الدور حتى الأصغر، وهذا هو طقس العشاء العادي عند اليهود. أما السبب الثاني فلأن ينتزع منه المسيح الشهادة لنوع الخمر الإلهي الذي صنعه المسيح بنفسه أو على الأصح من نفسه. لأن كل آية كان يصنعها المسيح كانت تحتاج إلى قوة إلهية تخرج منه. «لما سَمِعَتْ يسوع جاءت في الجمع من وراء ومَسَّتْ ثوبه. لأنها قالت إن مَسَسْتُ ولو ثيابه شُفِيتُ. فللوقت جفَّ ينبوع دمها وعلمت في جسمها أنها قد برئت من الداء. فللوقت التفت يسوع بين الجمع شاعراً في نفسه بالقوة التي خرجت منه وقال من لَمَس ثيابي...» (مر ٥: ٢٧-٣٠)

كان الخمر الجديد الذي صنعه يسوع يحمل قوة إلهية — فالكرمة الحقيقية تعطي من عصيرها خمرًا حقيقياً. هذه القوة ظهرت عند رئيس المتكأ تحت إحساس الجودة ليس إلا، وعند كثيرين ظهرت مُبهِجَةً للغاية كبهجة حضور الله في القلب، وعند التلاميذ فتحت أعينهم وعانوا حضور الله ومجد المسيح فأمنوا. وهذا شأن كل سِرِّ الله حتى اليوم.

١٠:٢-١٠ «فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، فدعى رئيس المتكأ العريس وقال له كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكرُوا فحينئذ الدون أما أنت فقد أَبْقَيْتَ الخمر الجيدة إلى الآن».

يلزم أن نستدرك القول إن أجران الماء التي للتطهير إنما موضعها يكون في الفَسْحَة في مدخل البيت وليس داخله. والأجران لم تتحرك من مكانها أثناء صُنع الآية، فهي ثقيلة جداً بالإضافة إلى أن حجمها يمنع أن تكون داخل البيت. لذلك حينما صنع المسيح آية تحويل الماء إلى خمر، صنعها بعيداً عن أهل العرس والمدعوين الذين في الداخل. لذلك قُدِّمت لهم الخمر وهم لا يدرون من أين أتت. وهذا أيضاً يُضاف إلى أن سر التحول لا يعرف أحد كيف أتى.

والإشارة الروحية أو السرية واضحة أن آية تحويل القديم إلى جديد، أي ماء التطهير إلى خمر عشاء، صُنعت خارج حدود الناموس. وبالرغم من واقعها المنظور والمحسوس إلا أن لا الرئيس المكلف بضبط حدود الناموس ولا العريس — عريس الناموس — كانا على دراية بها أو بصانعها الذي هو «العريس الحقيقي»، ولكن «الخدام» وهم في الناموس الطبقة المترسبة من المجتمع التي تكتسب لقمته بعرق جبينها، كانوا يعلمون: «فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو: ٤٥ و ٤٦)، والإنجيل اهتم بوضعهم كشهود.

«ومتى سكرُوا فحينئذ الدون»:

الكلام هنا لا يقع على الحاضرين، فلم يسكر أحد بعد، ولكن في حدود المثل الشائع يتكلم هنا رئيس المتكأ. وفي الحقيقة الكلام هنا يرمي إلى أبعاد تفوق في الواقع اليهودي الذي صار حاله كحال «مَنْ سكرُوا فحينئذ الدون»، وفي هذا يقول إشعياء النبي: «ولكن هؤلاء أيضاً ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبي ترتجعا بالمسكر، ابتلعتهما الخمر، تاهوا من المسكر، ضلوا في الرؤيا، قلقا في القضاء. فإن جميع الموائد امتلأت قَيْئاً وقذراً ليس مكان. لِمَنْ يُعَلِّمُ معرفة ولن يُفهم

تعليماً...» (إش ٢٨: ٧-٩). نعم فليس — من واقع الحال — أردأ من هذا خمر ولا أردأ من هذا حال.

«أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن»:

«الخمر الجيدة»: καλὸν οἶνον

كلمة «جيدة» καλὸν هنا التي تُترجم أيضاً في إنجيل يوحنا «حسن» و«صالح». فإذا قرأناها إنجيلياً وبإحساس العهد الجديد وخاصة أعمال المسيح، فهي قريبة ونسبية لكلمة «الحق» ἀλήθεια. فهي نفس الكلمة المستخدمة في «أنا هو الراعي الصالح ἐγὼ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός» (يو ١٠: ١١)، وهي أيضاً المستخدمة في قوله: «أعمالاً كثيرة حسنة (= ἔργα καλὰ) أريتكم من عند أبي.» (يو ١٠: ٣٢)

والسؤال هنا: هل يمكن أن تُقبل صفة «جيدة» بهذا الوضع والإحساس الإنجيلي على أنها خمر جيدة للمذاق والشرب الجسدي؟ أم أنها خمر لها علاقة جيدة بالكرمة الحقيقية؟ نحن في الواقع نرى أن «الخمر الجيدة» هي المحور الذي تدور حوله الآية، فهي آية تحويل الماء الساذج لغسل الجسد إلى خمر العهد الجديد «الجيدة»، أي الروحية، لتفريقها عن الخمر العادية. ولكن بنو العرس صنفان: صنف شرب الخمر الجيدة فأنحصرت جودتها عندهم في مذاقها وحسب فأعجبته، كما أعجب الذين أكلوا من الخمس الخبزات وسعوا وراء المسيح يطلبون المزيد من الخبز البائد؛ أما بنو الملكوت وهم الصنف الذي يرافق العريس الحقيقي، فلما شربوها انفتحت أعينهم^(٦) وتبلى العريس في أعينهم وقلوبهم وإيمانهم فعرفوه أنه هو المسيح الحمل ابن الله كما رآه المعمدان.

عرس قانا الجليل والكنيسة:

الكنيسة منذ ما قبل القرن الرابع وهي تعيد للميلاد والغطاس وعرس قانا الجليل عيداً واحداً متصلاً، وأسمته «عيد الظهور الإلهي»، باعتبار أن ما تم في الميلاد بظهور الله في الجسد أي «الكلمة صار جسداً» — بشهادة الملائكة — هو الذي نظره المعمدان والتلاميذ في الأردن حيث استعلن بشهادة الروح القدس والآب من السماء أنه ابن الله، وأنه هو العريس، والمعمدان صديق العريس رأى وفرح، وهو الذي تم في عرس قانا الجليل حينما أظهر المسيح ذاته أنه ابن الله بتحويل ماء التطهير الذي للناموس إلى خمر العهد الجديد الذي يحمل سر القداء والخلاص — وسر

(٦) و«الخمر الجيدة» تشير خفياً إلى أنها خمر غير عادية أو خمر «جديدة»، وهي أيضاً تشير إشارة خفية، ولكن يلحها الملهمون، إلى خمر الروح، خمر الشركة مع الله التي سيشربها المسيح معنا في ملكوته: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي.» (مت ٢٦: ٢٩)

العريس الحقيقي — بشهادة أم المسيح والتلاميذ.

١١:٢ «هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل ، وأظهر مجده ، فأمن به تلاميذه».

واضح السبب أن هذه هي بداية الآيات التي صنعها يسوع ، لأنها آية «استعلان» بالأساس ؛ فهي أحد الأعمدة الثلاثة التي تقيم عليها الكنيسة عيد الظهور الإلهي «الإيفانيا» . وهي لا يوجد لها مثيل أو مشابه في معجزات الثلاثة الأناجيل الأخرى .

وقوله هنا : «أظهر مجده فأمن به تلاميذه» هي في التحقيق الأول والعملي لقول ق . يوحنا في المقدمة : «ونحن رأينا مجده» ، ولهذا فلا ينبغي أن نأخذ هذه القصة بوجهها البسيط مجرد معجزة في عرس ريفي .

فالقصة في عمقها تعكس صورة لـ «وليمة المسيا» وتأخذ ضوءها الإنجيلي من عشاء عرس الخروف في الرؤيا (١٩: ٧-٩) . لم تنحدر القصة في مفرداتها لتعطي لوناً إفخارستياً (٧) تتعلق به الكنيسة لتكتمل به خمس خبزات وليمة المسيا في الجبل : هناك الخبز وهنا الخمر . هكذا استوقفت هذه القصة أفكار قراء الإنجيل من آبائنا الأوائل . وكأنما المسيح ظهر في القصتين كملك يصادق يعضد الكنيسة بخبز وخمر إلى أن يأتي الوقت ليكشف عن سرهما فيه .

وقفة قصيرة

١٢:٢ «وبعد هذا انحدر إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وأقاموا هناك أياماً ليست كثيرة» . (٨)

لا يذكر هنا ق . يوحنا أين كان يعيش المسيح مع أمه وإخوته قبل ذلك ، كذلك لم يذكر يوسف خطيب مريم والمحسوب خطأً أنه كان أباه ، كذلك لم يذكر أخواته . وهنا لزم التوضيح ليكون القارئ متتبعا خطوات تنقل المسيح مع أمه المذكورة هنا .

أولاً: معروف أنه بعد عودة يوسف ومريم والصبي يسوع من مصر، أن يوسف خاف أن يعود

(٧) إرجع إلى مقالة «عرس قانا الجليل» في كتاب: «أعياد الظهور الإلهي» ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠ ، ص ٣١١-٣٢٢ ، وعلى الخصوص ص ٣١٨ .

(٨) توضح المخطوطة الإسكندرانية المشهورة مع مخطوطات أخرى هامة أن المسيح وحده هو الذي لم يبق في كفرناحوم إلا مدة قليلة إذ تقول «وأقام» بدل «وأقاموا» . ويعول عليها علماء كثيرون أن الأسرة انتقلت في هذا الوقت انتقالاً نهائياً إلى كفرناحوم .

إلى اليهودية (مملكة الجنوب وعاصمتها أورشليم)، فذهب إلى الجليل: «وإذ أوحى إليه في حلم، انصرف إلى نواحي الجليل وأتى وسكن في مدينة يُقال لها ناصرة.» (مت ٢: ٢٢ و ٢٣)

ثانياً: عاش المسيح في طاعة أبيه وأمه. وفي سن الثانية عشرة وضحت عليه الدعوة والرسالة حينما قال لأمه عندما عاتبته على تركه للرفقة وبقائه في الهيكل في أورشليم عند عودتهم من الفصح: «لماذا فعلت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معدّين. فقال لهما لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي، فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما. ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما.» (لو ٢: ٤٩-٥١)

ثالثاً: لما بلغ سن الثلاثين سنة، وكان قد تربى مع يوسف الذي كانت صناعته التجارة (مت ١٣: ٥٥)، وكان المسيح أيضاً قد تعلم مهنة التجارة، واستلم العمل موضع يوسف فكان هو نجار الناصرة. وهذا واضح في قول أهل الناصرة: «أليس هذا هو النجار ابن مريم.» (مر ٦: ٣)

سمع المسيح بظهور المعمدان في اليهودية فانهدر من الجليل، وبالذات من الناصرة، إلى يوحنا: «وفي تلك الأيام جاء يسوع من "ناصرة الجليل" واعتمد من يوحنا في الأردن.» (مر ١: ٩)

رابعاً: بعد العماد وشهادة يوحنا انطلق المسيح في رحلته من بيت عبّارة حيث كان المعمدان يُعمّد إلى الجليل، فبلغها في ثلاثة أيام مع تلاميذه الستة كما شرحنا في الآية يو ١: ١١. ولما بلغ الناصرة وجد الدعوة من أمه لحضور عرس قانا الجليل حيث سبقته إلى هناك.

وتقول الآية أنه بعد العرس، انهدر المسيح مع أمه وإخوته وتلاميذه إلى كفرناحوم، ولم يذكر يوسف. وبذلك يُحسب أنه كان قد انتقل. كذلك لم تُذكر أخوات المسيح — وهنّ من أولاد يوسف بالطبع من زواج سابق حسب التقليد — لأنهن كنّ على ما يُظن قد تزوّجن.

وتقول الآية أنهم بقوا في كفرناحوم أياماً ليست كثيرة، مما يتضح أنهم رجعوا إلى الناصرة بعد مدة.

خامساً: ويمدنا القديس مرقس بمعلومة واضحة أن المسيح بعد ذلك انتقل والأسرة ما عدا الأخوات انتقالاً نهائياً إلى كفرناحوم: «وترك الناصرة وأتى وسكن في كفرناحوم التي عند البحر» (٩). (مت ٤: ١٣)

إرميا ٢٥: ٣٠ «الرب من العلاء يزجر ومن مسكن قدسه (الهيكل) يطلق صوته».

ولكن أيضاً لا تغيب «الجليل» عن روح النبوة فقد سلّطها إشعياء أيضاً على كل المناطق التي خدم فيها الرب:

— «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق. كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالي يُكرّم الأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش ٩: ١ و٢)

لذلك كان من الأمور المتيقنة لدى المنتظرين القداء لإسرائيل أن يظهر المسيح في أورشليم وفي اليهودية أول ما يظهر. وهو بالفعل ظهر أولاً في اليهودية على نهر الأردن مع السابق الصابغ، واستعلن أنه ابن الله وحمل الله الذي جاء ليرفع خطية العالم، هناك في بيت عبارة عبر الأردن. هذا فوق أنه وُلد في بيت لحم اليهودية حسب النبوات أيضاً.

٢ — تطهير الهيكل

(٢: ١٣-٢٥)

«ويأتي بغتة إلى هيكله السيد»

(ملاخي ٣: ١)

مكان البشارة:

ثالثاً: في اليهودية

هذه الحادثة هي الجزء الثاني من «إنجيل التجديد»، وسنجد فيها المقابلة مستمرة بين القديم والجديد.

القديم: هيكل أورشليم المبني بالحجارة في ستّ وأربعين سنة.
الجديد: «هيكل جسده» المقام من الموت «وفي ثلاثة أيام أقيمه».

القديم: ذبائح الحيوانات — بقر وغنم وحمم.

الجديد: ذبيحة جسده: «انقضوا هذا الهيكل... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده».

القديم: التجارة بالدين — الصيارف والدراهم.

الجديد: «لا تجعلوا بيت أبي (الكنيسة) بيت تجارة».

الاستعلان: المسيح ابن الله: «بيت "أبي"».

يشرح ملاخي النبي هذه الحادثة في سفره بالروح رابطاً ربطاً محكماً بين مجيء المعمدان (وعمداد

المسيح)، ثم ظهور الرب في الهيكل بصورة تنطق بها الأناجيل نطقاً على مستوى الواقع الذي تم.

— «هأنذا أُرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي، ويأتي بغثة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود، ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره، لأنه مثل نار المَحْص ومثل أشنان القَصَّار، فيجلس مَحْصاً ومنقياً للفضة فينقي بني لاوي (الكهنة)، ويصفّيهم كالذهب والفضة، ليكونوا مقربين للرب مقدمة بالبر، فتكون مقدمة يهوذا وأورشليم مَرْضِيَّة للرب كما في أيام القَدَم وكما في السنين القديمة.» (ملاخي ٣: ١-٤)

— «هوذا الرجل "الفصنُ اسمه" (يدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسیه ويكون كاهناً على كرسیه...» (زك ٦: ١٢ و ١٣)

١٤:٢ و ١٣ «وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم. ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرأ وغنماً وحماماً، والصيارف جُلوساً».

فصح اليهود:

ليس تبرؤاً من اليهود وليس امتهاناً لفصحهم كتب ق. يوحنا «فصح اليهود» ولكن أولاً لتمييزه عن الفصح المسيحي، لأنه يكتب في وقت كان قد استتب فيه التعميد للفصح في الكنيسة. وقد ظل ق. يوحنا هو الوحيد من أساقفة كراسي المسكونة آنئذ الذي يعيده في زمانه المحدد أي الرابع عشر من شهر نيسان، لأن صوت المعمدان الصارخ أن هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم لم يفارق أذني ق. يوحنا، وكأن الرابع عشر من نيسان خلق من أجل حمل الله وليس من أجل ذبيحة إسرائيل. وقد انعقد لواء تعيين زمان الفصح في العالم بعدئذ على كرسي الإسكندرية كل سنة بمنشور يوزعه على كراسي العالم.

«فصعد يسوع إلى أورشليم»:

لم تكن بطبيعة الحال هذه أول زيارة له لأورشليم، فقد اعتاد دخولها والحياة فيها منذ أن كان صبياً. وكان يُظن أن له أقرباء في أورشليم ومنزلاً ينزلون فيه. ولكن هنا هي الزيارة الأولى التي يدخلها كمن يفتقد مدينته وشعبه الخاص، دخلها وهو يحمل على كتفيه الرئاسة ومسئوليتها، لا بقصد القصاص والمحاكمة كما يتها من النصوص، ولكن كمن يريد أن يجمع أولاده في حضنه: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك

كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا.» (مت ٢٣: ٣٧)

وواضح من النص بعد ذلك أنه أخذ يجول في المدينة ويصنع آياتٍ، إذ في الآية (٢٣) بعد ذلك يقول الكتاب: «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه، إذ رأوا الآيات التي صنع.» فهي كانت زيارة تاريخية نبوية ظهر فيها المسيح باعتباره المسيحًا، رآها الآباء والأنبياء من خلف حُجُب الزمان وحبوُّها، وبفارغ الصبر ترقبها البنون: «لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» (إش ٢: ٣). أما بقية الآية فهي من صميم اختصاصنا نحن الأمم: «فيقضي بين الأمم ويُثِيف لشعوب كثيرين» (إش ٢: ٤). أما البقية الأخيرة من الآية فتخص أولادنا والآتين من بعدنا: «فيطبعون سيوفهم محاريثَ ورماحهم مَتَاجِلَ. لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»!!

ويلزمنا هنا أن نقف وقفة قصيرة لكي نوضح أن حادثة تطهير الهيكل ذكرها الإنجيليون الثلاثة في نهاية خدمة المسيح. أما هنا في إنجيل يوحنا فتُذكر في بداية خدمته. وهذا الاختلاف ظاهري، بالرغم من أنه دوَّخ العلماء وقسمهم على بعض بين مَنْ يتشيع للتطهير في نهاية الخدمة ومَنْ يتشيع له في بداية الخدمة، وكأنما هناك خلل في الأناجيل. ولكن لو تمعنا الأسباب، لبطل الخلاف. فالأناجيل الثلاثة اكتفت بخدمة المسيح في الجليل، ولم تذكر للمسيح زيارة لأورشليم ودخوله الهيكل إلا مرة واحدة التي ذهب إليها وُصِّلَ فظهر لأول وهلة في الأذهان أن زيارة أورشليم مربوطة بزيارة تطهير الهيكل، مربوطة بصلب الرب، ثم ترشخ في الأذهان صورته في الهيكل كمسيحاً الدينونة.

ولكن يأتي إنجيل ق. يوحنا ويضيف على التقليد الرسولي تقليداً رسولياً آخر يكشف عن خدمة الرب في أورشليم واليهودية قبل خدمة الجليل وبعد خدمة الجليل، ويحدد زيارات الرب لأورشليم والهيكل في زيارته المبكرة الأولى، فظهر للأذهان أن زيارته لأورشليم وتطهيره للهيكل في بداية الخدمة مربوطة باستعلان ذاته وبداية عمل رسالته للتطهير والإصلاح. فظهر بصورة مسيحية التطهير، السيد الذي جاء إلى هيكله فجأة.

ولقد أراحت الكنائس التقليدية نفسها وقبلت بالزيارتين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية اقتنعت أخيراً أنها زيارة واحدة ولكن لم تحددتها. (١١)

¹¹ Schnackenburg, *op. cit.*, p. 354.

«ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرأ وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً»:

الهيكل : ἱερόν

يلزم للقارئ أن يفرق بين الهيكل ، ككل ، الذي يأتي في اليوناني باسم (Hieron) ἱερόν وهو يحتوي على الأروقة ، وأولها ناحية الخارج هو رواق الأمم ، وله حاجز يمنع الدخول إلى الداخل ومكتوب عليه بكل اللغات تحذير بالموت للمخالف ! أما الجزء الداخلي المخصص للعبادة والصلاة فيسمى ناووس (Naos) ναός . ولكن للأسف يأتي الاسمان في اللغة العربية باسم «الهيكل» ، وهذا يهين التعبير اللاهوتي أن جسد المسيح هو الهيكل الحقيقي المخصص للعبادة كما سيجيء في الآية (٢٣) بعد ذلك . لأن الهيكل (المقدس) ναός الداخلي هو الذي قيل عنه أنه هو الذي يمثل جسد الرب ، وبالتالي كياننا نحن في المسيح .

وهكذا يلاحظ القارئ أن المسيح في الآية (١٣) يدخل الهيكل ἱερόν ويطرد الباعة ، وفي الآية (٢٣) يقول انقضوا هذا الهيكل ναός . ولأن الفارق بينهما كبير للذي يتحسس المعاني ويستعمقها ، نقدم للقارئ أيضاً المواضع التي أتت فيها كلمة «هيكل» بمعنى «الأروقة» ، والمواضع التي جاءت فيها كلمة «هيكل» بمعنى «القدس المقدس» ليتذوق الفارق بينهما في مواضعه :

«الهيكل» بمعنى «الأروقة» ἱερόν «الهيكل» بمعنى «القدس» ναός

مت ١:٤	«ثم أخذه إبليس وأوقفه على جناح الهيكل» .	مت ٢٣:٢٣	«من حلف بالهيكل فليس بشيء... الهيكل الذي يقدس الذهب» .
مت ٦:١٢	«ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل» .	مت ٢٣:٣٥	«دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح» .
مت ١:٢٤	«ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل» .	مت ٢٧:٥	«فطرح الفضة في الهيكل وانصرف وخنق نفسه» .
لو ٣٧:٢	«وهي أرملة لا تفارق الهيكل» . (واضح أنها في رواق النساء) .		(لاحظ أن يهوذا دخل إلى الكهنة في مكان خدمتهم داخل القدس وهذه بحد ذاتها مصيبة إذ تكشف نوع العلاقة المشبوهة بينه وبين رئيس الكهنة) .
لو ٤٦:٢	«وجداه (يسوع) في الهيكل وسط المعلمين» . (واضح أنه رواق سليمان) .		
يو ٢٣:١٠	«وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان فاحتاط به اليهود» .	مت ٢٧:٥١	«وإذا حجاب الهيكل قد انشق» .

وبهذا نكون قد وصلنا إلى معنى الهيكل الذي دخله يسوع حيث وجد الذين يبيعون ويشتررون الذبائح وذلك في رواق الأمم.

ولأول وهلة يتبادر إلى الذهن: ماذا أزعج المسيح من هذا المنظر؟ واضح أن الرواق رواق الأمم الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها: «بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب» (إش ٥٦: ٧)، لينظروا هيكل يهوه إله اليهود، وربما ليتعلموا شيئاً عن هذه العبادة المقدسة التي ذاع صيتها في العالم كله. ولكن هذا السوق التجاري المكتظ بالحيوانات وروثها وروائحها لم يجعل للهيكل هيبة ولا مكاناً للداخلين من الأمم؛ علماً بأن رسالة المسيح هي للأمم بالدرجة الأولى ولكن عبر اليهود. وهذه السوق التجارية الضخمة هي التي سمح بها قيافا رئيس الكهنة الرسمي، ولكن كانت تُدار لحساب بيت حنان رئيس الكهنة المخلوع. (١٢)

«ووجد الذين يبيعون بقرأً وغنماً وحاماً والصيارف جلوساً»:

هذه هي الذبائح الكبرى والصغرى في الناموس، كل مجموعة على حدة، مع بائعيها المحترفين وهي مخصصة للبيع بالنسبة للغرباء الذين يأتون من خارج البلاد وليست لهم دراية بالأسواق الخارجية. فهذه السوق تضمن لهم ذبائح بلا لوم على أن يدفعوا مزيداً من الثمن. ولكن هذه كلها في عُرف الناموس نجاسات لا تقبلها الشريعة ومُحرّم وجودها في بيت الله.

أما الصيارف = κερματιστής فقد أتت في هذه الآية بهذا الاسم لتفيد الصيارف الذين يستبدلون المبالغ الكبيرة بالمبالغ الصغيرة، ولكن في الآية القادمة (١٥) أتت كلمة «الصيارف» بمدلول يوناني آخر κολλυβιστών وهي تفيد الصيارف الذين يغيّرون العملة الأجنبية بعملة الهيكل. لأنه كان ممنوعاً التداول بأي عملة عليها صورة قيصر أو أية إشارة تفيد الآلهة الأجنبية وهي عملة جميع البلاد. بالإضافة إلى أن تغيير العملة يكون نظير فرق، كذلك فإنهم يقطعون من المبالغ «النصف شيكل» وهي ضريبة كل يهودي من خارج البلاد نظير دخوله الهيكل.

(١٢) «حنان» هو رئيس لكهنة اليهود من سنة ٦ بعد الميلاد إلى ١٥ بعد الميلاد. وفي آخر سنة له عزله الوالي الروماني فاليريوس جراتس وخلفه نسيبه المدعو قيافا (زوج ابنته). ولكن حنان ظل يمارس سلطته بجبروت طاع، وهو الذي حاكم المسيح أولاً وحاكم الرسل بعد ذلك (أع ٤: ٦). Westcott, see note on Mark xi.16.

١٦:١٥ و ١٦ «فصنع سوطاً من حبال وطرده الجميع من الهيكل الغنم والبقر وكتب دراهم الصيارف وقلب مواثدهم وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة».

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة. لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمّات وبدم عجول وخرفان ونيسوس ما أَسْرُ. حينما تأتون لتظهروا أمامي، من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟ ... البهخور هو مكرهة لي. رأس الشهر والسبت ونداء المحفل. لست أطيع الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بَغَضَتْهَا نفسي، صارت عليّ ثِقْلاً، مَلِلْتُ حَمْلَهَا. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملائنة دماً. اغتسلوا، تنقّوا، اغزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كُفُّوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، افضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة.»

(إش ١: ١٠-١٧)

يُعتبر عمل المسيح هنا أول حركة تطهير يقوم بها. وصدق هنا قول بطرس الرسول الذي نقله عن الأنبياء: «لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله.» (١ بط ٤: ١٧)

وهنا لفظة طقسية وروحية عالية القدر لا نريد أن نفوتها، لأن هذا الوقت الذي فيه دخل المسيح الهيكل للتطهير هو عشية الفصح، بداية رفع الخمير من البيوت، رمز بداية حياة طاهرة جديدة لسنة جديدة، وللتعبيد سبعة أيام عيد الفطير. فالمسيح أراد، إنما من روح المناسبة وضرورتها، أن يُعيد للأمة طهارتها ونقاوتها، أو بالحرّي أراد أن يدق ساعة التجديد عالياً لبداية أزمنة تجديد العالم كله.

لم يكن سوطاً بالمعنى الصحيح، وإنما مجموعة من حبال ملفوفة أخذها من أيدي تجار البهائم. لها شكل وليس لها فعل، فهي رمز السلطان وليس لتأديب الأشرار. ويلاحظ أنه كان للمسيح هيئة مخيفة ومرعبة، أليس هو المسيح كما جاء عند صليبه: «فقال لهم إني أنا هو، فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض» (يو ١٨: ٦)؟! مع أنهم كانوا جنوداً رومانيين قلبهم كقلب أسد، مع خُدام رؤساء الكهنة.

ولك، أيها القارىء، أن تتصور مدى الرعب والإزعاج اللذين حلّا بكل أصحاب هذا السوق ومدى إدعائهم لصورة العنف الزائد هنا، وهذا يتضمن أيضاً إحساس الجميع بالخطأ المريع والخطية التي كانوا يقتربونها في حق بيت الله. وكان المنظر والعمل ليس مجرد تطهير وحسب بل إعلان ظهور المسيح لذوي العيون المفتوحة!

والذي يلفت نظر قارىء إنجيل يوحنا هو أنه طرد الغنم والبقر جميعاً، فالمعنى الصارخ أنه قد انقضى عهد الذبائح، والهيكل بدون الذبائح لا وجود له بحسب الطقس لأنه فرائض إجبارية على الكهنة وعلى الشعب أيضاً، إذ منصوص في الناموس أن لا تتراءى أمام الله ويدك فارغة! «لا يظهروا أمامي فارغين» (خر ٢٣: ١٥)؛ «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين» (تث ١٦: ١٦). وبهذا يكون المسيح قد أفرغ الهيكل من مضمونه كهيكل ذبائح وعطايا: — «يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل (جرزيم) ولا في أورشليم يسجدون للآب.» (يو ٤: ٢١)

وواضح من كلام الرب بعد ذلك أنه استعاض عن كل الذبائح وما إليها «بالصلاة»: «بيتي بيت الصلاة يُدعى».

والذي يلفت النظر الترتيب العكسي للذبائح الذي أورده ق. يوحنا هنا، حيث ذكر الغنم قبل البقر «الغنم والبقر ثم الحمام»، وكلمة «جميعاً». هذا الترتيب يسترجع إلى الذهن في الحال المزمور ٨: ٧: «الغنم والبقر جميعاً وطيور السماء». هذا المزمور ماسياني بالدرجة الأولى فهو مختص بـ «ابن الإنسان»، الذي أنقصه قليلاً عن الملائكة (طبعاً بسبب الموت) «ويعبد وبهاء كَلَلته» بسبب القيامة. وهو نفس المزمور الذي تكلم عنه إنجيل متى على لسان المسيح قائلاً: «أما قرأتكم قط من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً» (مت ٢١: ١٦، مز ٨: ٢)، الأمر الذي حدث في نفس الهيكل: «والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون أوصنا لابن داود.» (مت ٢١: ١٥)

كما ينبغي أن نلفت النظر إلى أن هذه السوق التجارية المليئة بالأوزار كان مقرها في رواق الأمم حيث يمكن الدخول لبائعي الحيوانات والمتعهدين بأكلها وشربها، وهم غالباً من طبقة الفلسطينيين الوطنيين أي الكنعانيين أصلاً الذين أعطي لهم أن يمارسوا الأعمال التي تُحسب أنها نجسة عند اليهود. وهنا تظهر نبوة زكريا النبي واضحة:

«وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت رب الجنود.» (زك ١٤: ٢١)

ومعروف أن الكنعانيين كانوا تجار غش : « الكنعاني في يده موازين الغش . » (هو ١٢ : ٧)

وهكذا تكون قد كملت الصورة التي رآها إرميا النبي من وراء الدهور ووصفها وصف رؤية العين :

— « هل صار هذا البيت الذي دُعِيَ باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم ؟ هاأنذا أيضاً قد رأيت يقول الرب . » (إر ٧ : ١١)

وهي النبوة التي أخذت بها الأناجيل : مت ٢١ : ١٣ ومر ١١ : ١٧ ولو ١٩ : ٤٦ ، ونقلت النبوة على لسان المسيح . أما في إنجيل يوحنا فقد اقتصر كلام الرب على قوله : « لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة . »

بيت تجارة : οἶκον ἐμπορίου

يقابلها في اللاتيني negotiationis وتعني مكان حركة مقايضات وهكذا صار الهيكل ليس هيكل الله بل احتله أصحاب المهن والمصالح الخاصة وفقد هدوء الصلاة .

وقد قالها المسيح في بكور حياته : « ينبغي أن أكون فيما لأبي » (لو ٢ : ٤٩) ، حينما مكث في الهيكل مع المعلمين . أما الإشارة إلى أن « بيت أبي بيت الصلاة يدعى » ، فهي مأخوذة من إشعيا النبي كواقع الحال على أحسن حال :

— « آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرّحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب . » (إش ٥٦ : ٧)
وهي طرف النبوة التي جاءت على لسان المسيح في لو ١٩ : ٤٦ .

ولكن لغة المسيح انقلبت على هؤلاء المخالفين المتشبهين بخلفهم ، فبدل « بيتي » و « بيت أبي » و « بيت الصلاة » قال لهم أخيراً وعلى هذا الهيكل والبيت عينه : « هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » !! (مت ٢٣ : ٣٨)

هنا يكون المسيح قد أجرى عملاً نبوياً وماسيانياً بالدرجة الأولى تشهد له كل هذه النبوات التي قيلت ، والقصد الأساسي أن يعلن المسيح نفسه لهم أنه هو « السيد الذي تطلبونه » وأنه هو هو « ملاك العهد الجديد الذي يُسرّون به » . وهنا تحيء كلمة « ملاك » في النبوة بالنسبة للعهد الجديد في توازن مع العهد الأول الذي استلموه بيد ملاك حسب تقليدهم : « أنتم الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه » (أع ٧ : ٥٣) ، وأيضاً : « لأنه إن كانت الكلمة (التوراة) التي تكلم

بها ملائكة قد صارت ثابتة وكل تعدد ومعصية نال مجازاة عادلة فكيف نتجوا نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتداء الرب بالتكلم به.» (عب ٢: ٢ و ٣)

ولكن كان نصيب عمله في الهيكل مثل كل آية عملها وكل تعليم، حيث كان يقابله البعض من الخاصة بالفرح والإيمان، و يبنون عليه ما قيل من الأنبياء فيتثبت أكثر، والبعض الآخر يقابله بالصمت والمصادرة وطلب المزيد من البرهان. وسوف نرى أنه بسبب هذا العمل الذي عمله المسيح في الهيكل بدأت عمليات التربص بالمسيح لقتله، لأن رؤساء الكهنة رأوا في ذلك خطراً داهماً على مجال رزقهم.

١٧: ٢ «فتذكر تلاميذه أنه مكتوب غيرتك أكلتني».

هذا هو الإيمان، إيمان التلاميذ المقابل لعدم إيمان اليهود. طبعاً تذكر التلاميذ هنا يعود إلى ما بعد القيامة، والذي يؤكد هذا المعنى الآية التي ستجيء بعدها (٢٢). وماذا تذكر التلاميذ؟ تذكروا كلام الأنبياء لما تحققوا أن المسيح هو حقاً الذي تكلم عنه الأنبياء. والإشارة هنا إلى المزمور ٦٩: ٩، وهو مزمور مليء بالتنبؤات عن آلام المسيح خطوة خطوة، وهو الذي تستخدمه الكنيسة في أسبوع الآلام. ومن قراءة المزمور الذي لمع في ذهن التلاميذ بالروح نعلم أنهم رأوا في المسيح ليس من هو صاحب البيت فقط والذي من أجله يحتمل الهوان بل ومن أجل أمانته للبيت — أي للذين يعبدون بالحق — «من أجلك احتملت العار... تعبيرات معيّريك وقعت عليّ» (مز ٦٩: ٧ و ٩)، فإنه يعرض نفسه للآلام.

ولا يخلو هذا المزمور من غمز ولمز إلى عدم نفع الذبائح، فيأتي حيكاً على ما صنعه الرب في هذا اليوم: «أسبح اسم الله بتسبيح وأعظمه بحمد، فيستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف.» (مز ٦٩: ٣٠ و ٣١)

وهذا المزمور مليء حقاً بالإشارات النبوية التي تمت بحروفها، فمنه أخذ المسيح قوله: «لكي تنم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم أبغضوني بلا سبب» (يو ١٥: ٢٥). وجاءت في نفس المزمور: «أكثر من شعر رأسي الذين أبغضوني بلا سبب.» (مز ٦٩: ٤)

كذلك قوله: «أنا عطشان»، «وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً» (يو ١٩: ٢٨ و ٢٩). وجاءت في المزمور: «وفي عطشي يسقونني خلاً» (مز ٦٩: ٢١)، «يبس حلقي» (مز ٦٩: ٣). ولكن كما أن داود صاحب المزمور الذي يثنأنيته النبوي — أنهى المزمور بتسبيح اسم الله وتمجيده «يرى ذلك

الودعاء فيفرحون وتحيا قلوبكم يا طالبي الله... تُسَبِّحُه السموات والأرض والبحار وكل ما يدب فيها...» (مز ٦٩: ٣٢ و ٣٤)، كذلك انتهت آلام المسيح التي احتملها، بسبب غيرته هذه، بتسبيح القيامة.

١٨:٢ «فأجاب اليهود وقالوا له أيّة آية نرىنا حتى تفعل هذا».

هي أولاً محاولة لإظهار أنفسهم أنهم هم أصحاب السلطة ولكن بنوع من الحياء! وثانياً هي نوع من الدفاع عن عدم إيمانهم، لذلك لم يحتج اليهود ولا أصحاب السوق ولا المنتفعون لأن العمل يشهد أنه عمل الله. والخطأ الذي ارتكبه لا يحتمل الدفاع أو المماحكة. وخزي حنان في ذلك اليوم كان فوق ما يتصور أحد وكل ما يمكن أن يقوله اللص — العظيم في عين نفسه — للمسكري الذي قبض عليه وهو متلبس بالجريمة هو أن يطلب من العسكري أن يثبت شخصيته أن له الحق في القبض عليه. ولكن المسيح ليس في موقع الدفاع ولا استجاب لهم بما كانوا يطلبون. بل أنبأهم، ولكن بأسلوب الأحجية، بالعقاب الحتمي الذي سيقع عليهم نظير عدم قبولهم لدعوته للتطهير، بالإضافة إلى التنكّر له وهو صاحب البيت. وبلغه الأنبياء في العهد القديم يقول قائل... فماذا يصنع بهم؟ بأخذ بيته منهم وهدمه حتى التراب وقيم لنفسه ما هو أفضل منه ثم يبددهم في أقصى الأرض. ولا يكون هو الذي هدمه عليهم، بل هم الذين هدموه على أنفسهم:

١٩:٢ «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه».

«هوذا الرجل الغصن اسمه (يدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال...» (زك ٦: ١٢ و ١٣)

«انقضوا هذا الهيكل»:

كلمة «ينقض» تجيء في اليوناني λύσατε بمعنى «يقلّ» أو «يحل» وتصلح للهدم أو القتل. المسيح يتكلم عن هيكل جسده، وقد ثبت أن هيكل جسده هو الكنيسة وهي نحن أعضاؤه، والكنيسة — الشعب الجديد — هي التي أخذت موضع الهيكل — الشعب اليهودي الرافض للمسيح — وورثت كل معانيه الروحية وأهمها وأعظمها وأخطرها وجود الله وحلوله فيها.

المسيح هنا يقول لهم مسبقاً ما هم مزعمون أن يعملوه بالفعل، فهو تحصيل حاصل، اقتلوا أو إذا

قتلتهم جسدي سيان، ففي ثلاثة أيام سأقيمه من الموت ليصير هو هيكل الله الذي يجمع أبناء الله من العالم كله، هذه هي معجزتي. المسيح لم يتكلم قط عن هيكلهم بل عن هيكله، الذي سيحل محل هيكلهم الذي سيزول (سَيُنْقَضُ) عندما يقتلونه (ينقضونه).

ولسان حال المسيح يقول: لحظة أن تقتلونني ستقتلون أنفسكم وتهدمون هيكلكم، أما أنا فسأقوم وأقيم جسدي هيكلي جديداً، وأما أنتم وهيكلكم فستزولون.

المسيح هنا يعطيهم آية بالفعل وهي «في ثلاثة أيام أقيمه» التي وضعها بصيغة أخرى في إنجيل آخر هكذا:

«جيل شرير فاسق يلمس آية فلا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي.» (مت ١٦: ٤)

فكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا سيكون المسيح في باطن الأرض ويقوم بعدها. فما ستهدمونه سأصنع فيه آيتي وأقيمه في ثلاثة أيام، ولكنكم بذلك ستهدمون أنفسكم وهيكلكم ولن تقوموا.

ولم تمر على رؤساء الكهنة والفريسيين هذه الكلمات دون أن يُعوا حقيقتها، فهم في النهاية تذكروا كلامه ووضعوا النقط على الحروف، فأدركوا فعلاً أنه قد يقوم في اليوم الثالث: «وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهوحي إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فَمُرْ بَضِطُ الْقَبْرَ...» (مت ٢٧: ٦٢ و٦٣ و٦٤)

أمر مستحيل أن يقول المسيح إنه يهدم هيكل أورشليم لبني غيره في ثلاثة أيام كما قدم اليهود اتهامهم في محاكمة يسوع أمام بيلاطس كعلة من علل طلب صلبه. فهو القائل للسامرية: «أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب.» (يو ٤: ٢٠ و٢١)

فالمسيح هنا لا يتحدى اليهود المفتخرين بهيكلهم بل ينذرهم بالخراب الذي سيحقق بهيكلهم بسبب أنهم: أولاً لم يقبلوا عمله كَمَنْ يطالب بتطهير الهيكل «بيت أبي» فيتعرفوا عليه، وثانياً بالنتيجة الحتمية في استمرارهم لرفضه وإنكارهم وعدم إيمانهم به الذي سينتهي بخراب هيكلهم. «كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا، هوذا بينكم يترك لكم خراباً.» (مت ٢٣: ٣٧ و٣٨؛ انظر مت ٢٤: ٢).

و يلزمنا توضيح الأمر لاهوتياً، فالهيكل القديم كانت قوته وقداسته وأهميته في حضور الله فيه. والآن وقد تجسد الكلمة وظهر الله في الجسد وحل فيه ملء اللاهوت صار جسد المسيح هو الهيكل

بالدرجة الأولى أي الهيكل الحقيقي، ولم يعد للهيكل القديم وجود إلا بصفته الظل الوشيك الاختفاء.

فبتجسد الكلمة، أي بميلاد المسيح، بدأ العدُّ التنازلي لانتهاه عصر الهياكل المبنية باليد، أي هياكل الظل، لأن الهيكل القديم كما أراه الله لموسى كان شبه السمويات وظلها، والآن قد جاء رب السموات ونورها. وبدخول المسيح داخل الهيكل — لتطهيره — كانت الفرصة الوحيدة لليهود، لو كانوا قد قبلوه لأعطى للهيكل القديم معناه الجديد وتقديسه الحقيقي الكامل، أن الله حل في هيكله — فلا بأس أن يبقى — طالما الله فيه ولكن لما رفضوه أصبح تطهيره فاقد القيمة، وخروج المسيح منه إيذاناً بعدم نفعه، والحكم بقتل المسيح كان بمثابة الحكم بهدم الهيكل، لأن الهيكل القديم بميلاد المسيح أصبح يستمد معناه ووجوده من الهيكل الجديد أي جسد المسيح لأن الله حائل فيه. لهذا قال المسيح في موضع آخر عن نفسه: «ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل.» (مت ١٢: ٦)

وإذا حللنا نفسية رؤساء اليهود هنا على العموم في طلبهم آية من المسيح حتى يؤمنوا برسالته وسلطانه أنه من الله، لوجدنا أن هذه هي في الحقيقة حال كل نفس لا تريد أن تجازف بمركزها وسلطانها وراحتها؛ فهي تطلب آية ومزيماً من الآية لتتخطى خوفها وعجزها وقصورها عن المجازفة؛ ولكن الإيمان بمجازفة بالدرجة الأولى. لذلك فالإيمان صعب جداً على الرؤساء والعظماء وذوي العيش الرغد الهانئ.

أما لنا نحن فهذا أيضاً حادث، فالمسيح لا يعطي آية ولا علامة ولا كلمة واحدة لكي تبدأ عملاً إيمانياً لأن هذا سيحرمك من مجازفة الإيمان التي هي عضده وقوته. أو كيف ولماذا يعطي الله الأكاليل لأصحاب الإيمان؟

٢٠: ٢ «فقال اليهود في سبِّ وأربعين سنة بُني هذا الهيكل ναόν أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه».

لقد بُدئ في بناء الهيكل في خريف سنة ٢٠ ق.م. على يد هيرودس الكبير، في السنة الثامنة عشرة من ولايته واكتمل بناؤه سنة ٦٤ ميلادية على يد هيرودس أغريباس الثاني بحسب يوسفوس المؤرخ اليهودي. (١٣)

¹³ Jos. (B.J.), I.21 (16).1 = Ant. XV.11 (14.1).

أما رقم الستة والأربعون سنة فهي في زمان زيارة المسيح للهيكل . وذلك في ربيع سنة ٢٧ م احتمالاً! واليهود هنا وهم محصورون في أفكارهم التي تدور بين الحرف والرقم لم يستطيعوا أن يدركوا مضمون الآية التي قدمها لهم أن في ثلاثة أيام يقيمه *ἐγερῆται* وليس يبنيه . والعجيب أنهم يكررون نفس لفظة «يقيمه» التي قالها المسيح دون أن يتمعنوا مقصدها . لأن المسيح لم يقصد أن الهيكل من حيث العبادة وسكنى الله يمكن أن يُنقَضَ، وإِذَا سِنْفَكَ وَيُنْحَلُ ليُخْرَجَ منه هيكل العبادة الجديدة: الكنيسة، بنوع من التجلي والقيامة . حيث الحرف يصير روحاً والحجارة المنحوتة بالأزميل تصير حجارة حية منحوتة بالروح القدس . وغسل التطهير يصير غسل الميلاد والحلقة الجديدة . ودم الذبائح يصير دم المسيح بروح أزلي .

٢١:٢ «أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» .

لم تكن هذه الشهادة وليدة ساعتها ولكن ق . يوحنا في الآية القادمة (٢٢) يوضح أن هذه هي حصيلة القيامة والإستضاءة الروحية التي نالوها بالروح القدس التي انعكست قليلاً قليلاً على جميع حياته وأقواله السابقة له، فتحققوها على الواقع وعلى النبوات . لأن في هذه الآية وحدها يكمن كل تعاليم المسيح، فهي قلب اللاهوت المسيحي النابض . فجسد المسيح في اللاهوت المسيحي يمتد ليشمل شخصه ككل كما جاء في الأصحاح الأول، والكلمة صار جسداً .

+ والجسد هو ملء الروح القدس وملء اللاهوت وكل كنوز الحكمة والمعرفة .

+ الآب الحال فيّ يعمل الأعمال والأقوال والمشئة .

+ والجسد هو فصح العالم والذبيحة التي رفعت خطية العالم، فهو حمل الله .

+ وهو خبز الحياة النازل من السماء ليأكل منه الإنسان ولا يموت، ويقوم في اليوم الأخير، فهو المأكل الحق والمشرب الحق .

+ وهو المؤمنون مجتمعين، وهو رأس الكنيسة، والكرمة الحقيقية، والمؤمنون كأغصان مثمرة .

+ وهو أورشليم الجديدة المزينة، وهيكل الله الجديد!!

والبديع في قول ق . يوحنا هنا أنه ينقل لنا صورة حية لذكرياته وما سجلته أذناه وقلبه الذي كان يخزن الكلام والمعرفة التي كانت تنمو على مستوى نفس الدرجات التي سجلها لنا في إنجيله آية وراء آية وأصحاحاً وراء أصحاح، إلى أن أشرق عليها روح القيامة فأخذت الآيات والأصحاحات وضوحها الإلهي وعمقها الروحي ونورها النفاذ وبرهانها الساطع وقوتها للبشارة .

ولكن بقيت بعض أقوال المسيح مدة طويلة وهي لا تزال تحت التحقيق أثناء حياة التلاميذ أنفسهم مثل سقوط أورشليم بالحرب التي دارت حولها حسب قول الرب وخراب الهيكل، فهذه تمت سنة ٧٠م أي بعد قيامته بحوالي أربعين سنة. بل ولا تزال حتى يومنا هذا بعض أقوال المسيح تمر تحت التنفيذ وتنتظر استعلانها.

٢٢:٢ «فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا فأمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع».

سيان أن يُقال «قام من الأموات» حيث يكون هو الذي قام أو أُقيم من الأموات بواسطة الله.

١ — المواضع التي ذكر فيها أنه قام من الأموات تعبيراً عن استعلان قوته للقيامة والإقامة من الموت هي:

مرقس ٨: ٣١: «إن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم» *μετὰ τρεῖς ἡμέρας ἀναστῆναι* ، مرقس ٩: ٩، لوقا ٧: ٢٤.

٢ — أما المواضع التي ذكر فيها أن الله أقامه من الأموات تعبيراً عن الموت وكأنه رقاد والله أيقظه:

أع ٣: ١٥: «ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات»

١١: ٨ ؛ ٩: ١٠ ، ١ كو ١٥: ١٥ ... إلخ).
١٠: ٤ ؛ ٣٠: ٥ ؛ ١٠: ١٠ ؛ ٤٠: ١٣ ؛ ٣٠: ٣٧ ، رو ٤: ٢٤ ؛

«تذكر تلاميذه... فأمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله»:

هذا يوضح مدى قوة الاستعلان الذي حدث للتلاميذ بعد القيامة حيث تكشفت أمامهم جميع أقوال الرب حتى الكلمات ومعانيها بصورة جزئية مضيئة قبل أن يدونوها، ولكن الاستعلان امتد وشمل ما جاء في الأسفار جميعاً والنبوات خاصة بالنسبة لكل كلمة وكل موقف، مما جعلهم يزدادون في الإيمان بالاثنتين أي بالأسفار والكلمات التي قالها المسيح. لأنك لا تتصور، يا قارئ العزيز، مدى الانبهار الذهني والروحي الذي يتغلغل أعماق الإنسان عندما يطابق قولاً من أقوال المسيح أو عملاً من أعماله على نبوة سبق وأن صاغت نفس الكلام أو العمل بنفس وصفه وظروفه،

لأن النبوة إلهام ونطق بالروح، وكلام المسيح روح وحياة، فعندما ينطبق الإلهام على الروح تنشأ قوة مؤثرة للتصديق بوعي إيماني لا يفارق الإنسان. فتبدو النبوة باهرة منيرة ويبدو كلام المسيح نوراً ورسالةً وحقاً.

نحن لا ننسى قول الكتاب عن المسيح بعد القيامة كيف اجتمع مع تلاميذه وفتح ذهنهم ليفهموا الكتب:

— «هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم، أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير. حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب.» (لو ٢٤: ٤٤ و٤٥)

هذه هي قوة الاستعلان أساس تدوين الأناجيل، وهذه هي القوة التي انطلق بها التلاميذ إلى كل أنحاء العالم ليكرزوا ببشارة الملكوت مدعمين أقوالهم بالأسفار وبنطق لا يُعاند. ولم تعد الكنيسة في كل جيل من يهبهم الله هذه القوة التي ظهرت على أشدها في عصر النهضة والإرساليات التي بلغت أقصى المسكونة. وكم نحن الآن في أشد العوز لهذه القوة.



وقفة قصيرة في نهاية تطهير الهيكل

ليس جزافاً أن يقدم لنا ق. يوحنا حادثة تطهير الهيكل في بداية خدمة المسيح العلنية وفي أورشليم وفي الهيكل بالذات. فهي الأساس الذي جاء المسيح ليبني عليه العهد الجديد عهد الخلاص والتجديد للإنسان القائم على سر الموت والحياة: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه». هذا الموت وهذه القيامة تمهما المسيح، ولكن باشتراك اليهود الفعلي في عملية الموت أي القتل «انقضوا». هذه الجريمة التي اقترفوها لم تكن وليدة الساعة أبداً، بل هي حصيلة ونتيجة حتمية لحياة طويلة ممتدة لهؤلاء الرؤساء وهذا الشعب في عصيان الله والتعدي على كل وصاياه وتعاليمه. ولو جمعنا الآيات التي تصف هذا العصيان والتمرد على الله لخرج كتاب بحجم الأسفار والنبوات إلا قليلاً!

وليست هي مجرد جهالة عابرة بل متعمدة، إذ ترك المعلمون والربُّون وكل طبقات ذوي المعرفة والدراسة والكتابة للتوراة — تركوا التمسك بكلمات الله المنيرة وأهملوا الأعمال التي هي من صميم عمل الروح التي رُمز لها «بختان القلب»؛ كما قالها موسى النبي؛ وهو تعبير عن ختم الروح القدس «روحك القدوس لا تنزعه مني»، «وقلباً جديداً اخلقه فيّ»، «وغسيل الروح»، «اغسلني كثيراً»، «ومن خطيئي تطهرني»، «نقّ قلبي وكليتي»؛ وغيرها مئات وألوف من أعمال الروح القادرة فعلاً أن تجدد الشعب وتجعل معلميه على أعلى درجة من الإستنارة فلا يتعثرون في معرفة ما؛ أقول تركوا منهج الروح والحق والتجديد والإلتصاق بالله، وتمسكوا بالذبائح يبيعونها للشعب بالحرام ويقدمونها لله كعملية استرضاء تماماً على مستوى الأصنام.

فالمسيح هنا وفي هيكل قدسه يعرض عليهم في هذا اليوم إما تطهيراً وإما هدماً. والعجيب أن في الاثنين — أي في التطهير وفي الهدم — يتلقى جسده الثمن، ففي التطهير يحمل في جسده كل خطاياهم، وفي الهدم يسلمه للموت. ولكنهم رفضوا التطهير وقبلوا بالقتل!

٢٣:٢ «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع».

كان هذا هو أول عيد للفصح يحضره المسيح في أورشليم. والعمل الكبير الذي عمله عشية العيد بتطهير الهيكل لفت إليه الأنظار، وصار اسم المسيح على كل لسان. ووقوف رؤساء الكهنة حيارى إزاء العمل الذي عمله في الهيكل دون قبول أو رفض جعل المعيّدين من كافة الطبقات تتهاافت على رؤياه وسماعه. وكانت الفرصة مواتية لعمل معجزات كثيرة أبهرت الرائيين وجعلتهم دون تعمق أو تحقق يؤمنون باسم المسيح الآتي دون أن يتعرفوا على شخص المسيح الذي هو أكثر من مسيّا، لذلك كان إيمانهم بالاسم دون الشخص. كان هذا الإيمان في عُرف المسيح «إيمان الآيات»، وهو تقريباً مرفوض لأنه كما سبق وقاله في مثل آخر: «والمزروع على الأماكن المحجرة (قلوب ناشفة) هو الذي يسمع الكلمة وحالاً يقبلها بفرح، ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر.» (مت ١٣ : ٢٠ و ٢١)

ويلاحظ القارئ أن ق. يوحنا هنا مهتم بتقديم عيّنات من الأعمال التجديدية، وليس بصدد ذكر آيات ومعجزات إلاّ بقدر ما هي عمل تجديدي من القديم إلى الجديد، كما رأيناه في عرس قانا الجليل وفي الهيكل. وهو يمهّد هنا للدخول في حوار خطير مع معلم كبير من معلمي إسرائيل بهذا الصدد. هو الآخر رأى الآيات في العيد وتحقق منها وكان يبدو عليه أنه مال ناحية الإيمان بالمسيح ولكن معرفته حجزته عن الحق!!

٢٤:٢ «لكن يسوع لم يأتهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع، ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان، لأنه علم ما كان في الإنسان».

كثيرون بالطبع تحمسوا حماساً منقطع النظير، وأرادوا أن يرفعوه إلى المستوى الذي وقف عنده تفكيرهم كنسبي أو زعيم! وحتى كمسيّا. ولكن المسيح كان يرى أنهم يريدون أن يعملوا شيئاً لأنفسهم هم، أو بالخري أن يعملوا لأنفسهم شيئاً على حسابه، فلم تفت على المسيح نياتهم فلم يأتهم على نفسه، وغاب عنهم بالطريقة التي اعتادها.

كثيرون تباروا لكي يقتنوه بصدق نياتهم، وكثيرون شهدوا لكثيرين أنهم صادقون في حماسهم ولكنه لم يكن محتاجاً أن يشهد له أحد عن الإنسان، وما كان في الإنسان، «... فاحص القلوب والكلى الله البار...» (مز ٧: ٩). «فستعرف جميع الكنائس أنني أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله.» (رؤ ٢: ٢٣)

الأصحاح الثالث

الأصحاح الثالث

مكان البشارة
لا زلنا في الجليل

(تابع «إنجيل التجديد»)

٣ — مع نيقوديموس ليلاً (*)
(٣: ١-٢١)

هذا هو الحديث الأول للمسيح من أحد عشر حديثاً سجلها ق. يوحنا في إنجيله، جاءت معظمها موجهة إلى الرؤساء.

من الأصحاح الثاني خرجنا بحصيلة كبيرة، فمن تطهير الهيكل انتهينا إلى أن المسيح عرض عليهم مضمون رسالته: التطهير أو الهدم (سر الموت والقيامة)، فرفضوا التطهير وقبلوا بالقتل. وهنا ندخل إلى الأصحاح الثالث لتواجه مع واحد من أكبر معلمي إسرائيل، والمسيح يشرح له على مستوى الفعل والعمل نفس السر = سر التجديد بالهدم والبناء — الذي أعلن عنه في الهيكل — بالنسبة للأمة كلها. ولكن — هنا — في مضمون تجديد الفرد هدم العتيق وميلاد الجديد للدخول في هيكل الله الجديد، ملكوت الله.

وعلى وجه الملاحظة، نرى أن من هنا يبدأ إنجيل يوحنا مسيرته بالتوازي مع الأناجيل الأخرى التي تبدأ بالمناداة بملكوت السموات، ولكن على مستوى التوبة: «من ذلك الزمن ابتداء يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤: ١٧). ولكن هناك «ملكوت السموات» وهنا «ملكوت الله»، وسيان.

والتوبة كما جاءت في الأناجيل الثلاثة الأولى التي تُدعى باليونانية «ميطانيا»، التي تفسيرها «تغيير» أو «تجديد الذهن»: «*μετανοείτε* توبوا» — هي في إنجيل يوحنا موت وقيامة في مضمون سر «الميلاد الثاني»، وهي «المعمودية بالماء والروح القدس»، حيث في الماء يكون الدفن أو سر الموت، وبالروح تكون القيامة لحياة جديدة. والمعمودية هي درجة متقدمة على

(*) يُقرأ هذا الفصل (يو ٣: ١-١٣) في قداس الجمعة السادسة من الصوم الكبير وهي التي تسبق مباشرة «أحد التناصير» أي أحد المعمودية، وذلك بسبب ما جاء فيه عن «الميلاد من الماء والروح».

التوبة: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» (أع ٢: ٣٨). التوبة رنينها في النفس سهل، مجرد تغيير فكر وأسلوب وحياة، صحيح هي تحتاج إلى حزم وحسم وتصميم ومثابرة، ولكن المعمودية خطيرة، تتطلب الموت عن حياة قديمة كشرط أساسي لقبول حياة جديدة مُعانة بالروح القدس. هي حقاً وبالحقيقة هدمٌ وبناءٌ، والهدم صعب للغاية!!!

هنا يصطدم نيقوديموس بحقيقة المسيحية، فيجفل ويصمت، و يظل يتحایل على نفسه ثلاث سنوات حتى غلبها وقيل بالهدم، فكان الموت وكانت القيامة له وعلى يديه!

نيقوديموس يمثل في إنجيل يوحنا شخصية فريدة وممتازة، فهو قمة النخبة المختارة من إسرائيل التوراة والناموس والتلمود والمِشناه وكل علوم الفريسيين بفروعها، الذي جاء إلى المسيح يحمل معه رجاء الأمة اليهودية، وقلق ذوي الحساسية منها الذين يترجون إصلاحاً على مستوى الإمتداد دون أي مساس بالقديم. كان يرى في المسيح «رابي» أي معلم يهودي محترف الناموس والتوراة. صحيح أنه كان من ضمن الكثيرين الذين آمنوا باسم المسيح الذين ذكرهم ق. يوحنا: «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع» (يو ٢: ٢٤). وهذا واضح من قول نيقوديموس في افتتاح حديثه مع المسيح «يا معلم (رابي)، نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه.» (يو ٣: ٢)

ولكنه جاء بعقلية ومؤهلات فريسي لا يؤمن بالتجديد، ولكن يؤمن بالقداسة التي يحصل عليها الإنسان بالممارسة قليلاً قليلاً، يكون الإنسان فيها صاحب الجهد والمبادرة، وأما الله فيرى ويجازي بالمكافأة.

و يقول المؤرخ اليهودي يوسفوس:

[إن المنهج الفريسي يعلم أن الإنسان في مقدوره أن يعمل البر أو لا يعمل، وإن إرادة الإنسان مسئولة عن صنع الحق أو الباطل — وهم يُغلفون أنفسهم بقداسة كلها من صنع أنفسهم.] (١)

من هذا نحن نستطيع أن نستشف ماذا كان يرجو نيقوديموس أن يسمعه من «رابي» يسوع

المسيح!! فبحسب منهجه الفريسي كان ينتظر أن يتعلم من المسيح ممارسات فائقة على ما تعلمه، يستطيع أن ينمي بها مواهبه ويزداد في برّه الشخصي وقداسته، وبذلك يكون مستحقاً أن يكون مواطناً لملكوت السموات التي سمع عنها من فم الرب. وقولنا هذا ليس جزافاً، فالمعروف لدى الفريسيين المدققين أن المسياً حينما يأتي سيكون معلماً للبر: «هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب، رئيساً وموصياً للشعوب» (إش ٥٥: ٤)، بل سؤال الذي ركض وراء يسوع جاثياً يوضح أيضاً ذلك: «أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية.» (مر ١٠: ١٧)

كل هذه الأنظار والمشاعر كانت تجري في مخيلة نيقوديموس وهو يسترق الخطى ليلاً نحو البيت الذي كان يخلو إليه المسيح بعد عشاء النهار الطويل، وهو غالباً البيت الذي تملكه عائلة ق. يوحنا. وقد استقبله المسيح بالترحاب وفتح له قلبه، ولكن المسيح عرف فكر نيقوديموس — كما يقول ق. يوحنا عن قصد وقبل أن يدخل في قصة نيقوديموس مباشرة: «لأنه علم ما كان في الإنسان.» (يو ٢٥: ٢٥)

أ — الحديث المباشر مع نيقوديموس: (١٢: ٣-١٢)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: ملكوت الله بالعلم والممارسات، والمفاتيح مع الفريسيين: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا».

الجديد: ملكوت الله بالميلاد الثاني من فوق من الماء والروح.

الاستعلان: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

١ : ٣ «كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيس لليهود».

هذا الاسم لم يذكره أحد من الإنجيليين.

كان رئيساً لليهود: ἄρχων τῶν Ἰουδαίων

هذا يعني أنه عضو في المجلس الأعلى للأمة، أي السنهدريم. وكذلك جاء في الآية ١٠ أنه: «معلم إسرائيل»، وهي تقابل «دكتور في القانون» أي في التاموس اليهودي. وباللغة الكنسية عندنا هي «أرخن»، ولكن الأرخن عندنا هو للشعب وليس لرجال الدين، وهي مأخوذة أصلاً من النظام الشعبي اليهودي «رؤساء الشعب» ἄρχοντες τοῦ λαοῦ (أع ٤: ٨).

٢:٣ «هذا جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلم نعلم أنك أتيت من الله معلماً، لأنه ليس أحدٌ يقدرُ أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه».

«جاء ليلاً»:

لقد تركت في ذهن ق. يوحنا هذه الزيارة «في ظلام الليل» أثراً لا يمحي، فقد ذكرها له ثلاث مرات في كل مرة يذكر اسمه، وكأنها أصبحت صفة أو لقباً؛ هذا في الحقيقة يكشف عن شعور ق. يوحنا بمدى الحذر أو الخوف الذي اتَّصف به نيقوديموس. ففي وسط مجمع السنهدريم تقدم نيقوديموس مدافعاً، ولكن بحذر شديد: «قال لهم نيقوديموس — الذي جاء إليه ليلاً — وهو واحد منهم» (يو ٧: ٥٠)، وأيضاً بعد إنزال جسد الرب من على الصليب جاء نيقوديموس بحذر أيضاً، ولكن بالتقابل كان التلاميذ قد تركوا المسيح وهربوا!! «وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حاملٌ مزيجٍ مُرٍّ وعودٍ نحو مائة مناً» (يو ١٩: ٣٩). مع أنه جاء إليه ليلاً أول مرة، جاء وهو مؤمن باسم المسيح أي «المسيّا»، ولكن دون علاقة شخصية أو إيمان شخصي فهو إيمان بالاسم، وفي المرة الثانية التي دافع فيها عن المسيح داخل السنهدريم دافع بحذر دون إظهار أي تعاطف مع المسيح، وعند أول مواجهة من الزملاء صمت؛ أما في المرة الأخيرة، وقد صار تلميذاً بالفعل للرب، إلا أنه أيضاً جاء مع يوسف الذي من الرامة: «ولكن خفيةً لسبب الخوف من اليهود.» (١٩: ٣٨)

هذا الحذر والخوف يوضح بكل جلاء أن الإيمان بالمسيح لم يبلغ بعد إلى الإيمان «الحَي» بابن الله كمخلَّص حقيقي، حيث يجد الإنسان في المسيح دواءً لخبانة الضمير، الدواء الذي يحوِّله من جبان رعديد كبطرس إلى شجاع صنديد كبطرس أيضاً: «أنا لست أعرف هذا الرجل». هذا الكلام قاله بطرس عن المسيح!!! أمام جارية!!!، «حينئذ امتلأ بطرس من الروح القدس وقال لهم: يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل إن كنا نُفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان سقيم بماذا شُفي هذا، ليكون معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات...» (أع ٤: ٨-١٠). وهذا الكلام قاله أيضاً بطرس بعد أن قبل الإيمان الحي بابن الله!!!

ولكن أسلوب ق. يوحنا يُعجب له، فهو يقول ويردد القول أنه جاء ليلاً ولا يمكن أن يفرط ويقول كلمة واحدة على جُبْن الرجل أو إيمانه، ولكن الذي يعرف أسلوب ق. يوحنا يعرف أنه قال هذا عن الرجل وقال أكثر!! فقله أنه جاء ليلاً وتكراره لذكر الليل كفيل بحسب أسلوبه أن نفهم منه أنه إيمان الظلام، بمعنى أنه لم يعثر بعد على «أقنوم النور»، وأنه لا يزال بعيداً عن الحب وما

يخويه الحب من الإخلاص والثقة والأمانة وعدم الخوف، هذا هو تفسير «الليل» عند ق. يوحنا: «فذاك (يهوذا) لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً.» (يو ١٣: ٣٠)

«يا معلّم ῥαββί نعلم أنك أتيت من الله معلّمًا»:

هذا الاعتراف بالمسيح، كونه مُعلِّماً، من شخص مثل نيقوديموس هو تقييم كبير للإنسان لم يؤمن بالمسيح بعد كابن الله. وكلمة «رابي» تعني أكثر من معلم باللغة العربية لأنها من جذر كلمة يهودية تعني كبير أو عظيم، وهي على ثلاث درجات: «راب» و«رابي» و«رابون»، و«رابون» هي أعلاها. هذا اللقب مستحدث منذ أيام مدرسة شماي وهاليل. ونيقوديموس يعطيه هذا اللقب بالرغم من أنه ليس من خريجي مدارسهم: «فتعجب اليهود قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم» (يو ٧: ١٥)، إلا أنه رأى بحسب قياسات علمه أنه كان مستنيراً بالمعرفة الإلهية، وأنه جاء من الله. وهذا تعبير عبري قديم يُقِيم به الأشخاص الموهوبون. وهو بأسلوب مؤدب خفي يُشرك زملاءه علماء الناموس الذين استمعوا إلى المسيح في رأيه هذا بقوله: «نعلم» بالجمع. وبتعبير مَنْ هو مأخوذ بتعاليم المسيح، يصرّح بحرارة أن تعليمه من الله مباشرة: «أتيت من الله معلّمًا»، وهو نفس التعبير الذي يكرره المسيح عن تعليمه: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو ٧: ١٦). وهذا يتضمن بالفعل أنه مُرْسَل. ولكن خطأ نيقوديموس أنه يُقَصِّر ملامح التفوق الإلهي عند المسيح في حدود «معلم» فقط διδάσκαλος التي تأتي في اللاتينية "magister"، حتى ولو كان موهوباً.

«لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»:

وهنا يكمن الخطأ الثاني لنيقوديموس، أنه اعتبر عمل الآيات أنه هو الدليل أن المسيح هو رجل الله. ومعروف أن الرابينين الأتقياء كانوا يجتريحون المعجزات ليثبتوا تقواهم وليبرهنوا على صحة تعاليمهم^(٢). وهكذا ربط نيقوديموس آيات المسيح بحالة التقوى التي حصل عليها المسيح، على مستوى الرابينين الأتقياء.

«إن لم يكن الله معه»:

هذا اصطلاح عبري كتابي مذكور بكثرة في العهد القديم: «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبيك، لا تخف لأنني معك» (تك ٢٦: ٢٤). وهذا الكلام لإسحق ابن إبراهيم. وكذلك: «فظهر له ملاك الرب وقال له: الرب معك يا جبار البأس» (قض ٦: ١٢)،

² See Fiebig, *Judische Wundergeschichten*, 19f. (healing through prayer) cited by Schnackenburg, p.

وهذا الكلام لجدعون. وواضح من الإصطلاح أن الذي يكون الله معه، لا يزيد عن كونه مُعَاناً من الله لإتيان أمر يطلبه الله. إلى هنا توقف إيمان نيقوديموس بالنسبة للمسيح والآيات التي رآها والتعليم الذي سمعه منه. ومنه ترى أنه كان يعيش في جو عالم الفريسيين والربيين، وأنه لم يخرج بإيمانه خارج الدراسات التي تلقاها.

٣: ٣ «أجاب يسوع وقال له الحقَّ الحقَّ أقولُ لك: إن كان أحدٌ لا يولد من فوق! لا يقدرُ أن يرى ملكوتَ الله».

يلاحظ القارئ اللبيب أن المسيح هنا لا يجاوب على كلام نيقوديموس بل أجاب على أفكاره، وهنا أيضاً يلزم أن نلفت نظر القارئ أن يتمعن لماذا قبل أن يدخل ق. يوحنا في سرد قصة نيقوديموس، قال عن المسيح وهو يقصد ما يقول «لأنه علم ما كان في الإنسان».

وهكذا وباختصار بالغ يقول ق. يوحنا «أجاب يسوع»، فهو يجيب على استفسار نيقوديموس كاشفاً أمام القارئ كيف أن المسيح علم ما كان يجول في فكر هذا الفريسي، وكيف بحذق المعلم الإلهي يقود السائل المتخفي وراء الألفاظ المتمقة إلى الحقيقة التي يسعى إليها. فنيقوديموس لم يرتق بتفكيره ولا إلى لحظة لكي يدرك مَنْ هو المسيح الذي يتكلم معه على حقيقته، ولكن كان يدور ويلف عسى أن ينال منه معرفة تنفعه وليس إيماناً يعيشه. وكان كل همّه أن يزداد معرفة على المعرفة التي عنده والتي يعتز بها أيّما اعتزاز! وإذ بالرب يردّ على أفكاره موضحاً أنه ليس عنده، ولا هو على استعداد، أن يقول أو يعمل شيئاً على ذي قديم، ولكن عمله أن يخلق جديداً، يخلق بدءاً جديداً!! فملكوت الله التي يتمناها نيقوديموس لا يمكن أن يراها، بمعنى أن يعرفها معرفة الرؤيا، إلا إذا وُلد جديداً.

«الحق الحق»:

هذه البادئة في الكلام عند المسيح تفيد التوكيد أول ما تفيد، ثم نهىء ذهن السامع والقارئ ليستعد لقبول معرفة جديدة وصعبة نوعاً ما أو أمراً قد أشكل على الدنيا معرفته سابقاً، وهو بصدد حل هذا الإشكال حلاً نهائياً وجذرياً. فهي بادئة تفيد في الغالب فكراً جديداً يحمل تعليماً إلهياً يمتد بفكر الإنسان خطوة إلى الأمام وإلى أعلى، وسيكررها المسيح مرتين في هذا الأصحاح.

«يولد من فوق» γεννηθῆναι ἄνωθεν^(٣):

«من فوق» ἄνωθεν تُترجم أيضاً «من جديد، ثانية»، وقد اختلفت المخطوطات القديمة في ترجمتها. فالترجمة اللاتينية denuo renatus (أي يولد ثانية)، والترجمة القبطية، والترجمة السريانية، أخذت بالولادة «الثانية — من جديد» وقد تمشى مع هذه الترجمة كل من الشهيد يوستين^(٤)، واكلمندس الإسكندري^(٥)، وترتوليان^(٦)، وكذلك أغسطين وجيروم ومعظم الكتاب المحدثين.

وبعض الشُّراح ارتأوا أن يتركوا ذلك لحرية المترجم طالما هي تحتل أكثر من ترجمة أصيلة مثل العالم «باريت» Barrett. ولكن إذا عدنا لإنجيل ق. يوحنا نفسه وفحصنا اتجاهه الذي يرجحه في المواضع التي ذكرت فيها هذه الكلمة ἄνωθεν (٣: ٣؛ ١٩: ١١ و ٢٣) وتعاليمه عن الولادة من الله (١: ١٣، ١ يوحنا ٢: ٢٩؛ ٣: ٩؛ ٤: ٧؛ ٥: ١)، نتحقق أن المعنى المرجح هو «الميلاد من فوق» مُعْتَبِراً أنها حادث يبدأ وينشأ من السماء ويتم للإنسان بقوى إلهية تفوق فهم وفحص وضبط الإنسان. ولكن لا ننسى أن فهمها على أساس الميلاد الثاني هو من صميم الكتاب المقدس أيضاً في هذه المواضع (١ بط ٣: ١ و ٢٣، تيطس ٣: ٥).

ولكن الملاحظ أن نيقوديموس فهمها أنها ولادة ثانية — من جديد، لهذا تبادر إلى ذهنه فوراً كيف يدخل بطن أمه من جديد!!

«لا يقدر أن يرى ملكوت الله»:

ما يقصده المسيح أنه بهذه الولادة من فوق، أي الفائقة على قدرات الإنسان، يدخل الإنسان في اتصال بالوجود الجديد الفوقاني — أي ملكوت الله — وذلك بكل يقين عن طريق قدرات جديدة ومواهب جديدة. وبدون هذا الدخول في محيط الوجود الجديد — الولادة من فوق — لا يستطيع أن يرى، أي يتعرف على هذا الملكوت!

وواضح الكلام أننا في آدم خرجنا من حضرة الله مطرودين وحُرمنا من رؤيته، فبإمكاناتنا الجسدية التي ورثناها من آدم وقع علينا الحكم الذي وقع على آدم وهو الخروج من دائرة الله وعدم رؤيته. لذلك فلنكي نعود ونرى الله، مجرد رؤية، يلزم أن نولد ولادة أخرى ليست من آدم وهي

³ Schnackenburg, *op. cit.*, p. 367.

⁴ Apol., 61,4.

⁵ Protrept., IX,82.

⁶ De Bapt., XIII.

حتماً وبالضرورة، يلزم أن تكون من فوق، من الله!! حتى بهذه الإمكانيات الجديدة نعود ونرى الله.

«لا يقدر» οὐ δύναται :

أي لا يضبط قوة على الاتصال بملكوت الله سواء كان بالرؤية أو حتى التمتع بالتأمل، والسبب هو العجز الروحي الناتج من الفساد الأخلاقي الذي جعل الجسد لا يقوى على اللحاق بمطالب الروح ومستواها؛ لأن رؤية الإنسان الطبيعي — الجسدي — محصورة في حدود الطبيعة — الجسديات — فإذا أراد الإنسان أن يرى ما فوق الطبيعة — الروحيات — فلا بد له من المثل — الميلاد الروحي — أي ما فوق الطبيعة داخله — «ملكوت الله داخلكم» — ليتواجه المثل مع المثل. هذا هو عمل الله الفائت في روح الإنسان ليمنحه ما هو منه خاصة ليراه أو يحيا معه.

والذي يلزم أن نتنبه إليه هنا هو القول القاطع المانع الذي وضعه الرب بالنسبة لمحاولة التطلع إلى ملكوته «لا يقدر»، بمعنى أنه محال على الإنسان أن يرى الله هنا أو هناك دون أن ينال من الله هنا المؤهلات الإلهية التي تجعله يراه كما هو: «أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله (الميلاد من فوق) ولم يُظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو.» (١ يوحنا ٣: ٢)

«ملكوت الله»: [راجع «المدخل»، ص ٣٣٨]

يذكرها ق. يوحنا في إنجيله مرتين فقط وهما اللتان جاءتتا متتابعتين في هذه الآية والآية (٥)، وقد استعاض عن هذا الإصطلاح بإصطلاح آخر وهو الحياة الأبدية على مدى إنجيله ورسائله. وقد جاء كثيراً اسم «ملكوت الله» في الأناجيل الأخرى، وأيضاً باسم «ملكوت السموات».

والاسم أصلاً عبراني مستخدم في العهد القديم. وهو يعبر في الأدب العبري عن «امتلاك الله»، أو «تدبير وإدارة الله»، والله هو الملك الأزلي والأبدي: «الرب قد ملك فلتبتهج الأرض... العدل والحق قاعدة كرسیه» (مز ٩٧: ١ و٢)، «الرب قد ملك، ترتعد الشعوب» (مز ٩٩: ١). وكان من المفروض أن تكون مملكة الله على الأرض منظورة وواضحة، ولكن لأن «الشعوب — الأمم» لا تعبده، لذلك اقتصر على إسرائيل. فإسرائيل — كانت — هي مملكة الله المنظورة على الأرض «الرب عظيم في صهيون». ولكن لا يزال الله ينتظر خضوع الشعوب وذلك «في يوم الرب».

ولكن نشأ في الفكر العبري إحساس طاغ بأن «ملكوت الله» له معنى روحي أعمق من مظاهر العبادة والمعاملات الطبيعية، وأنه «ملكوت غير منظور» في عمق هذه الحياة التي نحياها؛

ثم ظهر في أيام المسيح إحساس آخر بأن «ملكوت الله» له معنى «آخرى» أي eschatological، أي لن يتكشف إلا في غيبة النظام الحاضر للعالم.

أما في العهد الجديد وبالمعنى المسيحي، فقد انبرى ملكوت الله ليأخذ الصدارة في كل تعاليم المسيح ووصاياه وأمثاله كغاية عظمى للإنسان في كل حياته وجهاده ومسعاها. لقد كان أول مَنْ نادى به بهذا المعنى هو المعمدان (مت ٣: ٢)، وكرز به المسيح أول ما كرز (مت ٤: ١٧).

وقد صفَّى المسيح ونقَّى معنى الملكوت على المستويين الديني والأخلاقي، وحدَّد الصفات التي يتطلبها الله لداخلي ملكوته ومنها الآتي:

- + التخلي عن كل ضروريات الحياة إذا تعارضت مع الملكوت حتى الأسرة (لو ١٨: ٢٩).
- + الاستغناء عن أعز ما للجسد إذا تعارض مع الملكوت، حتى العين واليد والرجل (مر ٩: ٤٧).
- + السهر والمثابرة وربط القلب والفكر بهذه الغاية العظمى (مت ٢٥: ١-١٣).
- + الحرمان المؤكد لذوي البر الذاتي الذين يُرْكُون أنفسهم (مت ٨: ١١).
- + استحالة دخول الأغنياء المتكلمين على أموالهم (مر ١٠: ٢٣).
- + الملكوت من نصيب المتواضعين والذين لهم روح الطفولة (مت ٥: ٣، مر ١٠: ١٥، يو ٣: ٣-٥).

وفي كل مثل من الأمثلة التي قدّمها المسيح عن ملكوت الله كان يتصحح ويتحدد ويتجلى ويتضح معناه أكثر فأكثر.

وقفة قصيرة

وفي التعليم المسيحي، وبمقتضى الفهم اللاهوتي لملكوت الله، يمكن وضعه تحت ثلاثة بنود متكاملة:

الملكوت في المستقبل، الملكوت في الحاضر، الكنيسة باعتبارها الملكوت.

الملكوت في المستقبل:

لقد أفصح المسيح في تعاليمه عن هذا البعد للملكوت، وهو البعد المستقبلي، بمعنى انتظار استعلان ملكوت الله بصورة لم نرها من قبل، ولم يتعرض لها هو سابقاً في حديثه عن الملكوت. وهو الذي أمر تلاميذه — وبالتالي نحن أيضاً — أن نطلبه كل يوم «ليأت ملكوتك»

(مت ١٠: ١٠). وقد ألمح لهذا البعد الملكوتي في المستقبل بمثل العشر العذارى والعريس الذي يأتي فجأة! أو الزرع الذي ينمو، أو الزوان في وسط الزرع الصالح الذي ينتظر الحصاد ليفصل الزوان من الحنطة.

وقد ترسّخ هذا البعد الملكوتي في ذهن الكنيسة منذ البدء وهي تنتظر استعلانة بفارغ الصبر، وربطته ربطاً لاهوتياً محكماً لمجيئه الثاني وجعلت هذا الترقّب جزءاً من قانون إيمانها مع الدينونة والحياة الأبدية، وميعادها حددته بقيامة الأجساد.

ولا يزال الفكر الأرثوذكسي على إصراره وإلحاحه بانتظار مجيء ملكوت الله واستعلانة مهما تأخر.

الملكوت في الحاضر:

في تعليم المسيح، يشير الرب إلى «حقيقة» أي جوهر هذا الملكوت كحالة فائقة ذات اتصال بالله، أنها قائمة في الحاضر الزمني ولكنها حقيقة مخفية ككنز في حقل وجده إنسان فباع كل شيء واشتراه.

فالرب حينما بدأ يكرز، جعل الملكوت في متناول اليد: «قد اقترب ἤγγικεν» (مت ٣: ٢؛ ٤: ١٧). وحينما كان يشفي، كان بحسب تعبيره أن هذا الشفاء تم بأصبع الله، وهذا معناه أنه قد «أقبل عليكم ملكوت الله» (مت ١٢: ٢٨). وحينما حاول البعض أن يأخذوا صورة عن مجيء ملكوت الله قال لهم: «ملكوت الله داخلكم» ἐντὸς ὑμῶν (لو ١٧: ٢١). والذي أضعف تأكيدات المسيح التي تملأ الأناجيل بأن ملكوت الله هو قوة الله في الحاضر الزمني، انشغال الكنيسة الأولى بانتظار مجيء الملكوت قريباً جداً وبأنه على وشك الظهور يوماً بعد يوم.

ولكن بقيت تأكيدات المسيح بملكوت الحاضر الزمني كأساس راسخ لإعادة فكر الكنيسة وربطه بالحاضر، بقول الوحي أنه «جعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ ١: ٦ و٩؛ ٥: ١٠)، وقول الوحي: «نقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو ١: ١٣)، والتي منها يظهر أن ملكوت الله هو حقيقة واقعة امتلكتها الكنيسة: «ليس أكلاً وشرباً بل هوبرٌ وسلام وفرح في الروح القدس.» (رو ١٤: ١٧)

ولكن هذه النظرة في التعليم الأرثوذكسي لا تلغي ولا تُغني عن انتظار الملكوت الآتي بقوة ومجد، حيث يتلاشى الشر الذي يقاوم ظهوره.

فالملكوت في الحاضر هو ملكوت الخلاص الذي ظهر وأعلن وقد تم وأكمل، وعلينا أن نستنفذ

قوته وبركاته. والملكوت الآتي هو ملكوت الحياة والميراث في المجد العتيق.

الكنيسة باعتبارها ملكوت الله:

كان القديس أغسطينوس أول من اعتبر المختارين في الكنيسة الآن المعيّنين للحياة الأبدية أنهم يمثلون ملكوت الله أو ملكوت المسيح، في مقابل الأشرار الذين تحويهم الكنيسة أيضاً باعتبارهم «مملكة الشيطان». ومرة أخرى وضع المختارين كأنهم: «مدينة الله» = (Civita Dei) في مواجهة الأشرار: «مدينة الأرض» = (Civitas terrena). ولكي نحصل على صورة صحيحة للكنيسة كملكوت الله، يلزم أن نعود إلى العهد القديم حينما كان الله يملك على شعب إسرائيل، فكانت إسرائيل بهيكلها الذي كان يحلُّ فيه الله بصورة منظورة هي ملكوت الله المنظور على الأرض، ولكن كان لإسرائيل ولهيكلها صورة أخرى غير منظورة، صورة روحية حيث كان الله يحيا بالفعل بالروح في قلوب آبائها وأنبيائها وقديسيها، بل كان يملك حقاً على قلوب أتقيائها الذين تركوا لنا سيرهم المرتفعة في القداسة وطاعة الله المذهلة والحب الإلهي المتدفق في قلوبهم. وهذه الأسفار الشعرية، كسفر الأمثال والجامعة والمزامير وغيرها تحكي عن ملكوت الله الخفي غير المنظور الذي كانت تحياه إسرائيل تحت حكم الله وتدبيره.

كل هذا انتهى شكلاً وموضوعاً برفض إسرائيل أن يملك عليها الله: «ليس لنا ملك إلا قيصر». بل وامتدت أيديهم إلى قاديهم وملكهم فقتلوه «خذ خذ خذ... أصلب ملككم» (يو: ١٩: ١٥). أما الذين قبلوه منهم وترجّوا أن يملك عليهم ويفديهم فصنع منهم شعبه الجديد، الكنيسة التي خلقت بتجسد الكلمة وتدنّست بدم صليبه وامتلاّت بملء الله يوم الخمسين. وسرعان ما انضمَّ إليها كل الذين كُتبت أسماؤهم في سفر الحياة المعينين للحياة الأبدية منذ البدء، فصار فيها من الآباء والأنبياء والشهداء والقديسين ما يفوق الأولين، وعوض لوعي العهد ذوي الأربعة الأوجه، صارت الأربعة الأناجيل المكتوبة حقاً وفعلاً بأصبع الله، وبقية الأسفار الحية التي تشهد كيف قام الملكوت وامتد وكيف جلس الله على عرش القلوب وحكم.

وإن كانت الكنيسة لا يُعطي شكلها الأرضي المنظور صورة جيدة للملكوت الله بسبب معاصر الإنسان، إلا أن الله العامل فيها بالأسرار غير المنظورة أقام من الكنيسة سماءً جديدة. فهو يلد فيها لنفسه كل يوم أوفاً من خلانقه الروحانية بشكل خالقها وعلى صورته — بالحق — في القداسة والبر، يُلبسهم بيديه ثياب الروحانيين ويطعمهم من جسده ويسقيهم من دمه ويتعهدهم برحمته حتى يصلح كل واحد منهم أن يكون عضواً في جسده، شريكاً في آلامه هنا، وهناك شريك مجده في ملكه الأبدى. وهكذا فإن ملكوت الله يُستعلن الآن في الكنيسة بالآلام، وهناك بالمجد.

٤ : ٣ « قال له نيقوديموس : كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ ، ألعلة يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد » .

الحقيقة هنا أن نيقوديموس لا يدعي الجهالة ولا يتوقع بالسخرية على عقيدة الميلاد الثاني ، بل هو بكل صدق وأمانة يصور مدى الصعوبة البالغة ، التي تبلغ مدى الإستحالة ، كَوْن الإنسان ينجح في أن يحصل على بداية حياة جديدة بميلاد جديد . وهذا التصوير — غير المبالغ فيه — أن الميلاد الثاني يساوي دخول شيخ في بطن أمه ثانية ويولد ، هو محاولة منه ليدفع المسيح « كمعلم بالحق » أن يشرح له كيف يكون هكذا أو ما هي الوسيلة التي بها يمكن للإنسان أن يولد ثانية ؟ ولهذا ردَّ عليه المسيح ردًّا مباشراً على فكره هكذا .

وليلاحظ القارئ أنه كما أن المسيح ابتدره بقوله : « إن لم يولد الإنسان ثانية (أو من فوق) » ، هكذا كان ردُّ نيقوديموس صحيحاً ومناسباً : « كيف يولد » ؟ وأضاف من عنده تصوُّره عن استحالة الأمر .

وليتمهل القارئ على هذا الفريسي العاتي ، ليدرك أعماق إجابته . وعليك أن تتصور معه إنساناً ذا ماضٍ طويل وعريض في التكيف بالعالم والناس والتعود على عادات وأفكار وسلوك مدى ستين سنة مثلاً ، كيف يتخطاها ، كيف ينساها ، كيف يجعلها كأنها لم تكن ليبدأ من جديد وكأنه ما عاش هذه السنين ، كيف ؟

ثم صبراً جيلاً ، وفرضاً أنه أمكن أن يمحو هذا محواً وكأنه لم يكن ؛ ولكن كيف تبقى له « نفسه » هي التي سيبدأ بها ، لأن النفس معجونة بصور الحياة منذ أن يعرف الإنسان نفسه ، بل انطباع الأيام وحوادث الدهر تحتزنها النفس أكثر مما تحتزنها الجسد ألف مرة !!! لاحظ أن نيقوديموس يتكلم من عمق أعماق نفسه ومن طول حياته وخبراته التي ما جاء إلى المسيح إلا لكي يعدل فيها ويصحح ، ولكن أن يلغيها كلها فهذا أمر جد خطير وغير وارد .

ثم لا تسخر من رد نيقوديموس كونه يصور نفسه وهو يدخل بطن أمه ، فهذا هو الجزء الأقل في المشكلة ، لأن الجزء الأكبر هو « النفس » ، نفسها ، كيف يعطيها بدءاً جديداً . فإذا استحال على الشيخ دخول بطن أمه ليولد من جديد ، فالإستحالة الأكبر أن يدخل داخل نفسه ليغيي ما صنعه السنين وما خطه الدهر فيها . وبهذا يكون نيقوديموس قد صور — دون أن يدري — القيمة الفائقة للميلاد من فوق مع ما يحويه من غفران ومصالحة .

٥:٣ «أجاب يسوع الحقَّ الحقَّ أقولُ لك: إن كان أحدٌ لا يولدُ من الماءِ والروح لا يقدر أن يدخلَ ملكوتَ الله».

سؤال نيقوديموس هو كيف يولد؟ هل من بطن أمه؟ هنا إجابة المسيح جاءت مباشرة على السؤال، فالميلاد ليس جسدياً بل هو ميلاد روحاني للنفس، ووسائله ليست لحمية لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله: من الماء والروح. هو ميلاد غير منظور، سماوي.

والمسيح يستخدم حرف «من» الذي ترجمه ق. يوحنا في إنجيله باليونانية ἐκ أو ἐκτὸς ويفيد من داخل، أي يدخل الإنسان الماء ويغشاه الروح ويقوم أو يخرج مولوداً جديداً. هنا الروح هو العنصر السماوي الأساسي المختص «بفوق»، المعتبر كينبوع أو مصدر الحياة العليا، وهنا تتركز النقلة الكبرى الجديدة للإنسان. والآن لماذا الماء؟ فالروح معروف أنه عامل الخلق والتجديد، وما هو دور الماء؟ وحتماً الماء هنا ليس هو ماء المعمدان، بل ماء المسيح الذي مضمونه السري والسرائري هو روح هو سماوي؛ لأننا نعلم تماماً في مفهوم الماء حتى في أوائل معرفة الإنسان والخلق أنه يوجد نوعان من المياه: مياه فوق الجَلَد (السماء) ومياه تحت الجَلَد وهو البحار والأنهار: «وقال الله ليكن جَلَد firmament = στερέωμα (أي سماء) في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجَلَد وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجَلَد، وكان كذلك. ودعا الله الجَلَد سماءً.» (تك ١ : ٦-٨)

فالمياه التي حوَّها المسيح في عرس قانا، حوَّها من مياه تخدم الأغراض الوقتية إلى خمر يخدم الأغراض الروحانية، أي نقل مفهوم مياه تطهّر الجسد إلى مياه تختص بالروح. كذلك في مياه بئر يعقوب نرى المياه التي تخدم الأغراض الجسدية التي أعطاها الإنجيل صورة الأغراض الحيوانية الخالصة إذ أضاف على الذين شربوا منها بعد يعقوب وبنيه الماشية أيضاً، إمعاناً في أنها مياه أرضية محضة ليس فيها ما يختص بالبركة ولا بالروح. ولكن هنا يرفع المسيح من مستوى المياه إلى ما فوق الجَلَد أي ليست مياه أرضية، وهذا يتم بحلول الروح القدس عليها وتقديسها. فتصير مصدراً لانبعاث حياة جديدة ليست أرضية بل روحانية.

معروف أن المعمودية ثلاث خطوات أو مراحل: الأولى اعتراف بالخطايا، الخطوة الثانية قبول الغفران، الثالثة تغطيس في الماء. هنا تكمل المعمودية كختم توبة. فالتغطيس في الماء هو بمثابة قبول أو الدخول في الموت عن الحياة السالفة، حيث الماء هنا هو بعنصره الأصلي الأرضي أولاً للموت ثم بعنصره الروحي التقديسي السماوي للتقديس، ثم الخروج من الماء استعداداً لحياة

جديدة. هنا تكون قد انتهت المعمودية الماء ليبدأ عمل الروح القدس وهو إعطاء حياة جديدة للنفس كنسمة حياة من فم الله، تؤهلها للدخول في الحياة الأبدية، أي ملكوت الله، والترائي أمامه. هذا بالإضافة إلى أن بصلاة التقديس على الماء يتقدس الماء ويقدس الجسد حسب قول القديس كيرلس الكبير:

[لأنه بما أن الإنسان مكوّن من جسد ونفس عاقلة، فإنه يحتاج إلى عمليتي شفاء ليصير له ميلاد جديد، لأنه بالروح يتقدس روح الإنسان وبالماء الذي تقدس يتقدس الجسد. لأن الماء بعمل الروح يتحول معدنه إلى مؤثر إلهي غير منطوق به و يقدس كل من يحل فوقهم.]^(٧)

إذن، الميلاد من الماء والروح هو عملية موت عن حياة جسدية سالفة، وتقديس، ثم قبول حياة جديدة مخلوقة بالروح القدس، لتؤهل النفس للحياة مع الله في ملكوته. وليس أبدأ أن المعمودية الماء هي عملية تختص بالخارج أو أنها عملية خارجية ظاهرية، بل هي الأساس العميق الذي عليه يعمل الروح القدس في الخلق، لأنه يستحيل أن الفاسد يلبس عدم فساد. فلا بد أن تجري أولاً عملية الموت الإرادي وبمؤازرة النعمة أيضاً — وذلك في المعمودية^(٨) — عن حياة جسدية سالفة، بالنية الكاملة والضمير الطاهر؛ وهكذا يمكن التقديس حتى يتمكن الروح القدس بعدها أن يخلق في النفس حياة جديدة بالروح.

وبالنسبة لنيقوديموس، فالميلاد من الماء والروح، أمر ليس غريباً ولا جديداً على مسامع نيقوديموس، فكل الذين اعتمدوا على يد يوحنا المعمدان سمعوا من المعمدان أن المسيح سيعمدهم بالروح القدس، وأن معموديته إنما هي التمهيد الإلهي — حسب إرسالية الله له — لكي يهيبء العمل لمعمودية المسيح بالروح القدس. فقول المسيح أن تولدوا من الماء والروح هو زين مسموع في كل أنحاء اليهودية.

ولكن للأسف فإن الفريسيين رفضوا المعمودية يوحنا: «وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لو ٧: ٣٠). وهكذا قطعوا على أنفسهم فرصة عمل الروح القدس بالتالي.

^٧ Cyril the Great, *op. cit.*, Vol. 1. Book II, ch. III.

(٨) هنا الموت ليس موتاً ظاهرياً بل موتٌ يأخذ حقيقته من موت المسيح، لأن المسيح مات موتاً حقيقياً عن كل من يؤمن به، فأصبح موت المسيح الحقيقي هو العامل في المعمودية لحصولنا على موت حقيقي عن حياة سالفة لقبول حياة جديدة من عمل الروح القدس، هي من حياة المسيح.

ومعروف أنه بعد قيامة المسيح صارت المعمودية الماء والروح تتمان معاً في جرن المعمودية: «لا بأعمال في برّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغسل الميلاد الثاني، وتجديد الروح القدس.» (تيطس ٣: ٥)

وهكذا أصبح الميلاد الثاني من الماء والروح بالسر هو نفسه الميلاد من الله بالوعد.

وأخيراً يلزمنا أن نعي تماماً أن المسيح حينما قال هنا بالولادة من الماء والروح إنما يقولها بصورة نبوية إلى حدّ ما، فالمعمودية الروح القدس لم تكن قد بدأت بعد. حتى أن المسيح لم يذكر كلمة «المعمودية» لأن تركيزه كان على الخلقة الجديدة بالروح كنتيجة.

«يدخل ملكوت الله»:

هنا انتقل المسيح من حالة الرؤية الفكرية أو التعرف على ماهية هذا الملكوت، إلى الدخول فيه، وهو اصطلاح قريب جداً لذهن نيقوديموس، لأن الدخول إلى أرض الموعد: كنعان الأرضية، كصورة مصغرة توضيحية، كانت ماثلة أمام نيقوديموس؛ فكما هو مواطن في أرض الميعاد؛ مطلوب منه أن يكون مواطناً في ملكوت الله. وكما كان للدخول إلى أرض الموعد شروط جسدية (الختانة)؛ هكذا للدخول إلى ملكوت الله شروط روحية (المعمودية).

٦:٣ «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح».

في البداية نود لو يلاحظ القارئ أننا لا زلنا مع فكر إنجيل ق. يوحنا الهادف إلى توضيح استعلان رسالة المسيح، وبالتالي استعلان المسيح من وراء استعلان رسالته. فالقارئ يذكر الآية الأولى: تحويل الماء إلى خمر، وهذا التحويل يشمل تحويل العبادة من الغُسلات والتطهيرات بالماء إلى شرب الروح وكأس الخلاص، وفي تطهير الهيكل وضع لنا عملية تحويل الهيكل — مركز العبادة — من صناعة يد إنسان في ٤٦ سنة إلى هيكل جسد المسيح بالقيامة من الأموات، حيث صار جسد المسيح هو الكنيسة مركز العبادة بالروح والحق؛ والآن في حديث نيقوديموس دخلنا في مفهوم تحويل الإنسان نفسه من حياة قديمة حسب الجسد إلى حياة جديدة حسب الروح، بالميلاد الثاني من فوق.

والمسيح هنا في هذه الآية يقطع خط الرجعة على نيقوديموس حتى لا يفكر إطلاقاً في الخلط بين خلقة الجسد الآدمية القديمة وخلقة الروح الجديدة. فلا يوجد تطور من الجسد إلى الروح، ولا امتداد، ولا تطعيم، ولا تخطي الحدود بالمعرفة، أو بالتقوى، أو بأي عمل يستطيع الإنسان أن يأتيه

بقوته أو إرادته أو حتى بمواهبه! فالمولود من الجسد يبقى جسدياً — حسب أصله — والمولود من الروح لم يَعدْ إنساناً جسدياً بعد، بل روحاً أو روحياً — حسب أصله أيضاً.

فالجسد هنا هو العنصر البشري، والروح هو العنصر الإلهي الفائق. ولا يقصد المسيح هنا بالجسدي والروحي: «جسد هو، هو روح» الاتجاه المعتاد بالتعبير عن الجسد «بالمادي»، ولكن الاتجاه في الحقيقة أعمق وأجل، فهو يقصد الانتهاء إلى «لا شيء» بالنسبة لنهاية الميلاد من الجسد، وبلوغ «الوجود الحقيقي» بالميلاد من الروح، الوجود مع الله للبقاء والخلود، فالمولود من الجسد غريب ونزير على الأرض، وزائل، سواء أدرك ذلك في نفسه، أو تلاهى وتعامى عن حقيقة عُربته وزواله.

أما المولود من الروح فقد دخل المعجزة الإلهية ليدرك وجوده الحقيقي، ويتيقن أنه صار غير مهتدّ بالزوال، ويحسُّ أنه استوطن السماء بالفعل، ويمارس كل يوم وجوده برجاء حي يتجدد باستمرار.

وكل مَنْ تأمل في وجوده وحياته وأعماله يدرك حقيقة نفسه إن كان يعيش على لا شيء أو يعيش على رجاء الوجود مع الله، وحينئذ يقيّم الميلاد من الروح ويسعى نحوه بكل عزمه وتصميمه.

وكما أن الولادة من الجسد تعطي الإنسان صفات جسدية خاصة منها الميل لإشباع رغبات الجسد، هكذا الميلاد من الروح يعطي النفس صفات روحية أهمها الالتصاق بالله خالقها وإمكانية النزوع إليه من كل الفكر والنفس والقدرة!

وبالتالي كما أن الولادة من الجسد تهيبء الإنسان للحياة بالجسد في هذا العالم، هكذا الميلاد من الروح — من فوق — يهبء الإنسان للحياة — فوق — في ملكوت الله: «إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق» (كو٣: ١). ولأن الإنسان أصلاً هو مخلوق من جسد — ونفس عاقلة روحية — أصبحت حاجة الإنسان المولود من الجسد يقابلها بالضرورة حاجة الميلاد من الروح، كما أن تعلق الإنسان بالحياة على الأرض يقابله تعلق الإنسان بالحياة فوق بالروح.

إنه نزوع طبيعي^(١) في الإنسان، بحسب حركة الروح الذي فيه، التي نفخها الله في أنفه، أن يتطلع إلى الخلود والإمتداد في الحياة إلى ما هو أعظم وأعلى وأرقى دائماً، وحنين الإنسان إلى الله

(١) إرجع إلى شرح هذا النزوع الطبيعي الذي سبق أن دعاه المؤلف «غريزة العودة إلى الله» في مقال: «اختيار الله في حياة الراهب»، مجلة مرقس فبراير ١٩٧٥، ص ٦٥٥.

والسماء والقداسة لم ينطفىء منه قط مهما تكدست الخطية فوق رأسه . الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله والصورة تنزع إلى التقرب من أصلها ، كما أن الله يحن دائماً إلى صورته و يودّها بقربه . ولو دققنا الرؤية أو تعمقنا الإنسان ، ولو أنصفنا في تقييمه ، لوجدناه روحاً لا جسداً ، الإنسان الذي يحيا بجسده يحيا غريباً عن نفسه النزاعة نحو الروح والله ! الإنسان يشقى بجسده بسبب وجود روحه الرقيقة عليه التي تستصغر دائماً من أعماله وأفكاره وميوله حينما تتطلع إلى خالقها .

الإنسان لا يستمتع وجوده الحقيقي الذي يشاق إليه ويتمناه ، أو حتى الذي يجهله ، ولكن الروح لا تجهل ما لها . فالإنسان يتأوّه ولا يعلم ماذا يريد ، فقط هو غير راض عما هو فيه ، الأفضل دائماً دائماً غائب عنه ، مهما أجهد ذاته للحاق به ، وكل ما يحصل عليه يبقى ليس هو الذي له . فالميلاد الروحاني الجديد للإنسان هو معجزته التي يعيش على رجائها ، مهما كانت مخفية عنه وغائبة عن وعيه . إنه حالما يحصل عليها ، يصير هو الإنسان الذي يريده ، هو نفسه تماماً ، وليس أقل ولا أنملة . ميلاد الإنسان روحياً من فوق هو بداية الوجود الحقيقي له الذي هو له حقاً ، حيث تستقر نفسه على مركزها الثابت الأصل الذي ليس على أرض الزعازع والأوهام بل فوق . الإنسان المولود من فوق يتشبث بالأبدية فلا يعود الزمن يقلقه ولا توافه الأعمال .

ثم ألا ترى ، عزيزي القارئ ، أن الإنسان ليس حراً أن يختار بين أن يعيش بالجسد أو بالروح ؟ لأنه إن لم يعيش بالروح ، فهو لا يعيش أصلاً وأبداً . أنظر إلى نيقوديموس الذي جاء يطلب الأفضل وهو معلم إسرائيل الأعلى ، فاكشف أنه حقاً وفعلاً لا يعيش !!

يقولون إن الإنسان حرٌّ ، يختار مصيره بنفسه ، هذا غش وخداع ، فمصير الإنسان هو الذي يقنع الإنسان أن يتخلى عن حرّيته !! ومصير الإنسان تحدده ماهيته ، يحدده كيانه ، يحدده أصله الذي انحدر منه والذي فقدّه على الطريق ، فصار بدونه كلاً شيئاً ، فإن هو أصرّ على حرّيته صار إلى لا شيئاً . إن نداء الأم التي تاه ابنها يسمعه الولد وهو على بعد فراسخ وأميال ، والإنسان يسمع في أعماقه نداء الله مهما بُعد عن الله وطال بعباده .

المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح ، الجسد لن يوصلنا إلى الله ! إن الجسد لا يطبق الله : «عبد الجسد عداوة لله» !! فلنكن يقبل الإنسان معجزة الميلاد الثاني من فوق يلزمه حتماً أن يُخضع الجسد لمعجزة الموت : أن يكفّ الجسد عن أن يحيا لنفسه ويكفّ عن أن يقود مسيرة الحياة : «وكان يُقتاد بالروح .» (لوقا : ١)

٧:٣ «لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق».

هذه الآية مرتبة على سابقتها، أي إذا كان المولود من الجسد يبقى جسداً والمولود من الروح يصير روحاً، إذن، لا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق! هذا إذا كنت تريد أن تصير رجلاً روحياً وتأهّل للحياة في ملكوت الله. أو بمعنى أكثر وضوحاً إذا كنت قد جئت إليّ لتتعلم كيف تحيا كما ينبغي لإنسان يريد أن يدخل ملكوت الله، فلن تنفعك الأعمال الجسدية كلها، مهما كانت، فهي من الجسد وتؤول إلى الجسد، ولكن يلزم أن تصير إنساناً روحياً تحيا بالروح وليس بالجسد: «فلا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق».

٨:٣ «الريح نهبٌ حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كلُّ مَنْ وُلد من الروح».

في اللغة العربية يصير كلام المسيح هنا — الذي يبرهن به على عدم قدرة الإنسان على ملاحقة عمل الروح القدس ومعرفة كيفية عمله — يصير فهمه صعباً نوعاً ما، لأنه في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل واللغة العبرية وهي اللغة الأصلية التي تكلم بها المسيح — يأتي اسم «الروح» مطابقاً لاسم «الريح» حرفياً، بل حتى كلمة «يهب» الريح تأتي من أصل كلمة الريح.

ولكن القصد العام من كلام المسيح يمكن تشبيهه بشجرة هادئة وفجأة تجد أغصانها تتحرك وأوراقها تصفق وتسمع صوت الريح يتخللها بوضوح فتعرف أن الشجرة استهدفت لعمل الريح، ولكن لا تعرف من أين أتى الريح ولا إلى أين سيذهب، هكذا كلُّ مَنْ وُلد من الروح، تظهر عليه علامات عمل الروح القدس بغاية الوضوح والقوة، في كلامه، في تصرفه، في فهمه، في حبه، في صبره، في اتضاعه، في شجاعته، في حكمته، في رؤيته للأمور الروحية وأمور العالم الحاضر. وباختصار تجده إنساناً آخر غير الذي كنت تعرفه، فتعرف بكل يقين أنه استهدف لعمل الروح القدس بالميلاد من فوق.

ولكن ليس قصد المسيح أن يوضح أن الميلاد الثاني من فوق يمكن شرحه تماماً، فهذا يبقى سرّاً لا يمكن أن يعرفه إلا الذي أخذه، ولكن شرح المسيح هو توضيحي يعتمد على المقارنة التي تبقى في حدود الجسديات. فالرياح لا تخرج عن كونها قوة طبيعية مادية: «كما أنك لا تعلم طريق الريح... كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع». (جا ١١: ٥)

٩:٣ «أجاب نيقوديموس وقال كيف يمكن أن يكون هذا = γενέσθαι» .

«اذهب وقُلْ لهذا الشعب: اسمعوا سمعاً ولا تفهموا
وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا. غلظ قلب هذا الشعب وثقل
أذنيه واطمس عينيه، لئلا يُبصر بعينه ويسمع بأذنيه
ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى» !!! (إش ٦: ١٠ و ٩)

«إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل
ملء الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل» .
(رو ١١: ١٥ و ٦)

السؤال يطلب توضيحاً، لأن الكلمة «كيف يكون هذا» هي باليونانية: «كيف هذا يصير أو
يتسم»، فالسؤال هو عن عملية الولادة الثانية كيف تكون. وفي الحقيقة إنه أمر غير محتمل من هذا
المعلم أن يسأل هذا السؤال، لأن المسيح أوضح له أن هذا العمل فائق وهو من اختصاص حركة
الروح القدس أي حسب قوانين عمل الله تجاه الإنسان؛ أي بمنتهى الوضوح والصراحة أدخل المسيح
عملية الميلاد الثاني من فوق ومن الماء والروح في دائرة اختصاصه هو، أي في محيط معرفته وعلمه
فيما يخص عمل الله.

١٠:٣ «أجاب يسوع وقال له: أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» .

مراجعة بل مساءلة أليمة، يوجهها المسيح بل الله لمعلم التوراة والقيّم على إثارة شعب الله، لا
يوجهها لنيقوديموس بل لكل معلّم إسرائيل وفرّيسيّ وكثّبتّه في شخص نيقوديموس. ألم يتكلم الله
على فم كل أنبيائه ومختاريه عن عمل الروح في الإنسان وتغييره كلية حتى إنه يصير شخصاً آخر؟

+ «فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبّله وقال... يحل عليك روح الرب فتنبأ
معه وتتحول إلى رجل آخر... وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه
قلباً آخر!! وأنت جميع هذه الآيات في ذلك اليوم، ولما جاءوا إلى هناك إلى جبعة، إذا بزمرة من
الأنبياء لقيته. فحلّ عليه روح الله فتنبأ في وسطهم» . (١ صم ١٠: ١ و ١٦ و ٩ و ١٠)

وهل يكون عمل الروح للتجديد وتغيير الإنسان أكثر من هذا؟

+ «فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه وسط إخوته وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم
فصاعداً» . (١ صم ١٦: ١٣)

وهل هذا ليس على مستوى ميلاد ثانٍ للإنسان ليحيا بالروح كل أيامه؟

+ ومن جهة الخلق الجديد في الإنسان ألم نسمع من داود النبي نفسه — عندما أخطأ إلى الله — كيف صرخ: «قلباً نقياً خلقت فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي» (مز ٥١: ١٠)؛ أليس هذا خلقاً جديداً وبعد التجديد أيضاً! لأنه رأى أن صومه وصلاته وعبادته وتسابيحته لن تغنيه عن التجديد والخلق الجديد؟

+ ثم ألم يتكلم حزقيال النبي معلماً وشارحاً عن ما سيتم بالحرف الواحد في أيام المسيّا الذي وقف نيقوديموس أمامه ولم يتذكر كلمة واحدة مما قال: «وأعطيهم قلباً واحداً، وأجعل في داخلكم روحاً جديداً، وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم». (حز ١١: ١٩)

أليس هذا ميلاداً جماعياً كولدّة شعب بمواهب روحية واحدة؟

+ ثم ألم يحذّر حزقيال النبي أيضاً الذين يتوانون عن مثل هذا التجديد الذي سيمنحه الله في وقته: «اطرحوا عنكم كل معاصيكم التي عصيتم بها (التوبة) واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل» (حز ١٨: ٣١). فبدل أن يركض معلمو التوراة والناموس وفي مقدمتهم نيقوديموس لينالوا القلب الجديد والروح الجديد، جاء يسأل بلسانهم «كيف يكون هذا؟»

+ ثم ها هوذا أيضاً حزقيال يجمع عمل الماء مع عمل الروح باعتبار ذلك سر قوة التجديد الذي سيرسله الله لهم على يدي المسيّا: «وأرشد عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم، وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة في داخلكم». (حز ٣٦: ٢٥ و ٢٦)

+ ثم هوذا حزقيال أيضاً ينال من الله أمراً صريحاً بأن «يتنبأ للروح أن يهب»، وهو بالحرف الواحد نفس الإصطلاح الذي استعمله الرب يسوع: «الريح تهبُّ حيث تشاء...»، حتى صار معلم إسرائيل بلا عذر أن يجهل كيف يكون هذا: «فقال لي تنبأ للروح يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلمَّ يا روح من الرياح الأربع، وهبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً. ثم قال لي: يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: هاأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم

من قبوركم يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون.» (حز ٣٧: ٩-١٤)

+ ثم من جهة العهد الجديد الذي وعد به الله، وكيف سيتولى الله بنفسه تعليم الشعب بأن يلقن قلوبهم علم معرفته فلا يحتاجون إلى معلم بعد بل يكون الله هو «المعلم»: «ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، ليس كالعهد (الأول)... أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم - يقول الرب - لأنني أصفح عن إثمتهم ولا أذكر خطيتهم بعد» (إر ٣١: ٣١-٣٤).
أليس هذا هو عهد التجديد وميلاد الإنسان الجديد وعلم الله الجديد؟

+ ثم كيف أن الله يلد أولاداً و يلد مدينة و يلد شعباً ويمخض بهم بالروح و يلد لهم؟ كان إشعياء في ذلك واضحاً غاية الوضوح: «بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق، لأنني هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فابتهج بأورشليم وأفرح بشعبي... مَنْ سمع مثل هذا. من رأى مثل هذه: هل تمخض بلاد في يوم واحد، أو تولد أمة دفعة واحدة؟ فقد مخضت صهيون، بل وَلَدَتْ بنيتها. هل أنا أُمخض ولا أولد يقول الرب.» (إش ٦٥: ١٨ و ١٩؛ ٦٦: ٨ و ٩)

+ وعن عمل الروح القدس جهاراً وانسكابه بلا كيل، يقول يوثيل النبي: «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاماً ويرى شبابكم رؤى؛ وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام.» (يوثيل ٢: ٢٨ و ٢٩)

فماذا إذا؟ أليس هذا دليلاً على أن معلمي الشعب تركوا تعاليم الله الحية المبهجة وتعزياته التي بلا عدد، نسوها وأهملوها، ففقدوا حاسة الرؤية العقلية والروحية لما انشغلوا بالقوانين الحرفية والوصايا الجسدية. فلما جاء العصر الموعود وتحققت كل وعود الله وظهر المسيح الذي يطلبونه وانسكب الروح، لم يعرفوه. وأمام تحقيق أجل مواعيد الله وهي خلق الإنسان خلقاً روحياً جديداً بقلب جديد وروح جديد، وقف نيقوديموس يسأل كيف يكون هذا؟؟ بدل أن يقول ها أنذا!!!

١١: ٣ «الحق الحق أقول لك: إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا».

هنا الآية امتداد للسؤال الاستنكاري الذي طرحه الرب على نيقوديموس موبخاً: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟»

هنا يقول الرب : أما أنا فأعلم ، و يعلم معي و يشهد عليك كل الذين تنبأوا عن هذه الأيام ، وعن عمل الله الذي وعد به والذي هو غريب في عينيك . والمسيح لما يتكلم يتكلم عن مصدر المعرفة والرؤية ، ولما يشهد يشهد ومعه الآب الذي أرسله . وإن جاءت الكلمات في هذه الآية بالجمع فهي بسبب تعذر القول بالشهادة بالمفرد ، فالشهادة الشرعية لا بد أن تكون لأكثر من واحد ، لذلك جمع الشهادة والعلم معاً : « نعلم ونشهد » .

وقد جاءت هذه الآية نفسها مرة أخرى ، وفي هذا الأصحاح أيضاً ، عن المسيح ولكن بمنطوق الشخص الثالث الغائب : « ما رآه وسمعه به يشهد ، وشهادته ليس أحد يقبلها . » (يوحنا : ٣ : ٣٢) . أما قولنا أن الآب يشهد معه ، فهذا يؤكد أيضاً بعد ذلك قول الآية : « وَمَنْ قَبِلَ شهادته ، فَقَدْ خَتَمَ أَنْ اللَّهَ صَادِقٌ . » (يوحنا : ٣ : ٣٣)

ولكن تمشياً مع فكر نيقوديموس الأرضي والمحدود ، فمن الممكن أن يكون الرب قد تماشى معه على مستوى رؤيته . فالرب يتكلم و بجواره تلاميذه الذين كانوا سابقاً أيضاً تلاميذ المعمدان ، هؤلاء رأوا وعلموا يقيناً ما هو الميلاد من الماء وما هو عمل الروح القدس في الماء ومع الماء . فالمسيح يتكلم ومعه مَنْ يعلم وَمَنْ رأى ويشهد . وإن كان هذا الفكر لا يلزمنا نحن الذين نعلم مَنْ هو الذي يعرف بالحق ، وَمَنْ هو الذي رأى بالحق !!

١٢ : ٣ « إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ الْأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمْ السَّمَوِّيَّاتِ . »

« أنا الرب إلهك الذي أسس السموات وخلق الأرض الذي يداي صورت كل جند السموات ولكني لم أظهرها لك حتى لا تذهب وراءها . » (هو ١٣ : ٤ - حسب الترجمة السبعينية)

الأرضيات هنا ، بحسب لغة ق . يوحنا وحسبما تكون الكلمات صادرة من فم المسيح وتشبيهاته ، فهي تعني الأمور الروحية كالميلاد الثاني إنما مشروحة على المستوى الجسدي بأمثال أرضية « كالرياح التي تهب » ، أو الجسد « كالحبز المكسور » ، أو الدم « كالخمر المزوج في الكأس » ؛ فإذا لم يستطع اليهود أن يؤمنوا بالروحيات بالرغم من تجسيدها على مستوى فهم الأرضيات فكيف يؤمنون بها لو استعلنها لهم على مستوى جوهرها السمائي والإلهي ؟

واضح جداً أن عجز معلم إسرائيل هذا المرموق الذي جاء ليمثل أعلى طبقة متعلمة في إسرائيل ،

أقول إن عجزه في ملاحقة شرح الرب للميلاد الثاني للإنسان من الماء والروح بالرغم من أن الرب أعطاه مثلاً موازياً من الأمور الأرضية، هذا العجز جعل الرب يقتصد جداً في التعمق في شرح الأمور الروحية التي تتبع حتماً الميلاد الجديد والتي تختص بصورة الإنسان ومؤهلاته وكفاءته في رؤية الله والدخول إلى الملكوت، بل وجعله يكف عن الإسترسال في أمور السماء نفسها، وهذا أمر يحز في نفوسنا. هذا التعجيز عينه واجهه بولس الرسول عند الإسترسال في أسرار الروح للكورنثيين: «وأنا أيها الإخوة لم أستطع أن أكلمكم كروحيين بل كجسديين، كأطفال في المسيح سقيتكم لبناً لا طعاماً لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون بل الآن أيضاً لا تستطيعون» (١ كور ٣: ١ و٢). ويرد على هذا الكلام سفر العبرانيين: «لأن كل من يتناول اللبن هو عديم الخبرة في كلام البر لأنه طفل وأما الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس (الروحية) مدربة على التمييز بين الخير والشر» (عب ٥: ١٣ و١٤). وطبعاً فإن ما يقصده الرب من قوله «الأرضيات» هو النصيب الذي يتلقاه أولاد الله من الروح هنا على الأرض، مشروحاً بأمثلة أرضية مثل الميلاد من الماء والروح، وهو يختص بالسلوك والحياة هنا. السماويات هي النصيب المعد لأولاد الله في السماء، وهو الجزء الأعظم والأكمل للخلاص الذي بُدئ به هنا. لأن الميلاد الثاني وإن كان يحدث الآن في هذا الزمان وعلى الأرض، ولكنه أصلاً وبالنهاية هو لحساب الملكوت والحياة مع الله.

وكلام الرب لا يفيد أنه لن يتكلم أو يُعلّم عن السماويات عامة، بل الكلام موجّه للفريسيين الذين عجزوا عن اللحاق ببداية المسيرة الروحانية بالميلاد (من الماء والروح). فكيف سيقبلون مثلاً الأكل من الجسد والدم الإلهيين، أو «أنا والآب واحد»، أو الفداء بدم ابن الله، أو القيامة من الأموات، أو الصعود والجلوس عن يمين الآب؟

ب — الحديث غير المباشر مع نيقوديموس (٣: ١٣-٢١):

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: الحية النحاسية المرفوعة على خشبة، والمريض الناظر إليها يُشفى من عضه الحية.

الجديد: «هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

الاستعلان: موت ابن الله على الصليب.

القديم: ظلمة الأعمال الشريرة — بُغضة النور — الدينونة.

الجديد: الإقبال إلى النور بأفعال الحق المعمولة بالله.

الاستعلان: «النور جاء إلى العالم».

١٣:٣ «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

يقول بعض من الشراح إن الكلام مع نيقوديموس قد انتهى عند الآية السابقة (١٢)، ولكن معظم الشراح قالوا بانتهاء الحديث مع نيقوديموس عند الآية (١٥). وربما يكون بعض الآباء قد أخذوا بهذا الفكر، ولكن لا يوجد قط ما يبرر هذا وذاك. فكلام المسيح واضح ومُسترسل، بل ومتحمس لكي يعطي نيقوديموس أقصى ما يمكن من عناصر التجديد والحياة الأبدية التي جاء من أجلها.

ويلزم هنا أن ننبه ذهن القارئ لبداية حديث نيقوديموس بقوله: «يا معلم نعلم أنك أتيت من الله "فَعَلَمًا"...». هنا في الواقع يقسم نيقوديموس نظريته للمسيح إلى جزئين: الأول: شخص المسيح، والجزء الثاني: رسالته.

وعلى هذا القياس، كان ردُّ المسيح المسترسل الطويل. فبدء كل ذي بدء هو أن المسيح لم يجيء معلماً يعلم بعلم أفضل، بل جاء ليعطي حياة أفضل — من فوق حيث أتى — فهو لا يعلم علم الملكوت بل يلد من روحه، من السماء، أبناءً جددًا للملكوت. أما من جهة شخصه أنه أتى من الله مُعَلِّمًا فقد ردَّ المسيح أنه نزل من السماء — بعمل سيشرحه حالاً — (الارتفاع على الصليب والبذل والحياة الأبدية)، وسيصعد إلى السماء، ليبقى هناك. لأنه هو من هناك! وهكذا يستمر المسيح.

كذلك ينبغي أيضاً أن ننتبه، لأن الميلاد الذي جاء المسيح ليعطيه «من فوق»، هذا الذي صَغَبَ على نيقوديموس فهمه وتفسيره، سيبدأ المسيح ليوضح له سهولة الميلاد من فوق كونه هو «من فوق»، وكون ارتفاعه (على الصليب) سيعطي الحياة الأبدية التي هي عنصر الحياة في الميلاد من فوق. هذا ينبغي الالتفات إلى الترابط بين عناصر الحديث، لأنها غاية في العمق.

تبتدىء الآية هنا بحرف «و» kai وهي تصل الكلام بالسابق مع إعطاء فكر جديد يفوق في قوته ما ذكر سابقاً. فالمعنى في جملة يكون هكذا: ولو أنه يوجد مَنْ لا يصدق أمور السماء، ولكن الذي يتكلم هنا عن أمور السماء هو مَنْ نزل من السماء، ابن الإنسان (بالتجسد) وهو أصلاً في السماء! إلا أنه لن يمكث على الأرض كثيراً فهو سيصعد إلى السماء كما كان. والكلام يحوي

معاني أخرى داخل مضمون هذا النزول والصعود وهي أسرار السماء، ويلزم أن نفتح لقبولها كما أنه يلزم أن نفتح أعين قلوبنا لإدراك مَنْ هو هذا: «ابن الإنسان» الذي نزل من السماء لتعرف عليه شخصياً لأنه سيوضح نفسه بأعماله.

«ليس أحد صعد إلى السماء»:

«صعد» ἀναβέβηκεν هنا الفعل في المضارع التام الذي يفيد الحدوث المكتمل والمستمر إلى الآن (perfect). ولذلك أضاف «ابن الإنسان الذي في السماء (الآن)»، ويلزم هنا أن نذكر ما سبق أن قاله ق. يوحنا: «الله لم يَرَهُ أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خَبِيرٌ».

والمعنى أنه ليس إنسان قط استطاع أن يرتفع إلى مناطق الحق العليا ليتحقق منها، ولا أحد أيضاً أعطيت له أسرار السموات إلا «ابن الإنسان» الذي يحمل في كيانه البشرية كلها ويمثلها تمثيلاً. فهو وحده عنده معرفة الحق المطلق بجملتها، ليس كَمَنْ يستقبلها أو يتعلمها، بل هي تنبع فيه كَمَنْ يمتلكها. وهو لما صعد إلى السماء، لا يكون كَمَنْ يرتفع، أو يُرفع، فهو يحمل مجد الصعود في ذاته، لأنه هو على الأرض ليس كَمَنْ يقيم أو يستوطن بل كزائر نزل من السماء لمهمة ورسالة — بالتجسد، فالسما هي وطنه. لذلك فأمر السماء كلها هي معرفته الخاصة، وليس كأنه يتعرف عليها كشيء ليس له، فهي صورة من حياته جاء ليورثها لنا. وهنا فعل «الصعود» تم مرة واحدة مكتملة الفعل.

«نزل من السماء»:

«نزل» καταβάς وهو فعل في زمن الماضي البسيط aorist. ويلزم أن ننتبه أن قوله «نزل من السماء» هو التعبير الذي يتجسم لنا في قوله: «والكلمة صار جسداً» حيث جاء الفعل صار ἐγένετο أيضاً في زمن aorist كتعبير عن صحة حدوث التجسد في صميم الزمن. غير أن زمن الـ aorist لا ينفي استمرارية النزول، ولذلك جاء نفس الفعل في آية أخرى في زمن المضارع المستمر καταβαίνων الذي يفيد دوام النزول، لأن التجسد أو النزول فعل حدث καταβάς ولا يزال حادثاً καταβαίνων وقائماً إلى الأبد.

«لأن خبز الله هو النازل καταβαίνων من السماء، الواهب حياة للعالم» (يو: ٦: ٣٣) — يلاحظ هنا أن النزول في حالة الدوام — وموطن صاحب هذا الجسد هو السماء أصلاً: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء».

وكأنما الرسالة الأصلية للمسيح التي نزل إليها من السماء هي ليعطينا جسده — على الدوام — خبزاً حقيقياً لنحيا به — على الدوام. أما الذين يُعْرِضُونَ عن هذا الخبز الحقيقي المحيي ويرفضونه، فحجتهم هي هذه: «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه فكيف يقول هذا إنني نزلت من السماء» (يو ٦: ٤٢)، «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناأكله؟» (يو ٦: ٥٢). هذه هي عشرة «إتضاع» المسيح!! «وطوبى لمن لا يعثر فيَّ.» (يو ٦: ٤٢)

وليلاحظ القارئ أن «النزول من السماء» هو اصطلاح خاص بالله في العهد القديم: «... ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» (خر ١٩: ١١)، «فأنزل أنا وأتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب.» (عدد ١١: ١٧)

وتُعتبر الآية التي نحن بصدددها: «... إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان، الذي هو في السماء» شرحاً مبسطاً غاية التبسيط للتجسد على أساس آيات العهد القديم التي ذكر فيها «نزول الله» ولكن استُبدل فيها «ابن الإنسان» بدل كلمة «الله» بسبب «ظهور الله في الجسد» (١ تي ٣: ١٦). فإذا علمنا أن الذي «نزل من السماء» هو ابن الله حينئذ تتضح الآية: «لأنني نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني.» (يو ٦: ٣٨)

والآن إذا انتبهنا إلى مفهوم «النزول من السماء» بصورته العامة، نرى أن نزول ابن الإنسان في هذه الآية التي نحن بصدددها (١٣) لا يختص فقط باستعلان أسرار السماء بل توصيل رسالة الخلاص والحياة الأبدية، أو باللغة التي تناسب نيقوديموس إعطاء الدخول إلى ملكوت الله.

كما يُلاحظ أن هذه الآية (١٣)، لو دققنا في مشتملاتها من حيث رسالة النزول ورسالة الصعود، نجد أنها تجمع كل أعمال المسيح: التجسد — وأعمال الفداء والخلاص حتى الصعود. لذلك لا نستغرب أن الآية التي تأتي بعدها مباشرة (١٤) تتكلم عن أول فعل من أفعال الخلاص وهو الصليب، ولكن في صورة «ارتفاع». تعبيراً عن المجد الذي سيليه حتماً وذلك باستخدام رمز الحية.

٣: ١٥ و ١٤ «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان» (١) لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

هنا بداية عمل ابن الإنسان، شرحها المسيح على مستوى فكر نيقوديموس معلم إسرائيل:

ويمكن شرح الموضوع هكذا: قصة سقوط الإنسان بدأت بالحية التي استطاعت أن تسرب الخطية القاتلة للإنسان. وقد أفلح الناموس (التوراة) على يد موسى (عدد ٢١: ٧) أن يصوّر بالرمز الخلاص المزمع أن يتم للإنسان المسموم بشوكة الموت، أي الخطية التي هي من صنع الحية. فانتهاز موسى فرصة انتشار الحيات المحرقة أي التي تتلَمَّظ بلونها الضارب إلى الحمرة كالنار المحرقة — التي ترمز إلى جهنم — التي بدأت تفتك بالشعب غليظ الرقبة جزاء تمرده على الله مرة ثانية كأبيهم آدم. فأقام موسى بمشورة الله الذي يصوّر أشباه السمويات وظلها، تمثال حية نحاسية حمراء وأقامها على عود من الخشب عالياً في وسط الشعب؛ وأمر أن كل من تلدغه حية، عليه فقط أن ينظر إلى الحية بإيمان فيُشفى.

فالحية، كرمز، هي حاملة الموت؛ ولكن تمثال الحية النحاسية، هو حية ميّنة، سُمّها مقتول. هكذا اختار الله أن تكون الحية النحاسية هي رمز المسيح الذي أخذ خطية الإنسان ككل في جسده ومات بها، فقتل الخطية بالجسد. لهذا يُقال أن المسيح أمات الموت!! ودان الخطية بالجسد، أي حَكَمَ عليها حكماً مؤبداً بالعدم حينما مات بها ثم قام. وبقيامته أعطانا الصليب الذي صُلب

(١٠) لقد راجعنا الآباء في ما قالوه عن الحية النحاسية غير أننا لم نعثر على كبد الحقيقة.

فالقديس يوستين في حوار مع تريفو عندما سأله تريفو اليهودي عن هذا الرمز كان جوابه: [أنا لا أستطيع أن أعطي جواباً في هذا لأنني طالما سألت معلّمي فلم يعطوني جواباً شافياً] (Dial., ch. 94, ANF, Vol. I, p. 246).

القديس أمبروسيوس يقول: [إن حيّتي هي حية صالحة لأنه لا يخرج سم من فمها بل الدواء الشافي] (في شرحه على المزمور ١٤٣ عظة ٦ مقطع ١٥).

يقول أوريجانوس: [إن الحية النحاسية هي الشبه للمخلص، ولكنه لم يكن هو الحية لكنه كان يمثلها] (عظة ١١ على حزقيال مقطع ٣).

القديس غريغوريوس النيسي يشرح ذلك مطولاً فيقول: [إن الناموس يوضح لنا أن المنظور على الصليب كان على شبه الحية، ولكن لم يكن حية كما يقول بولس الرسول: «في شبه جسد الخطية» (رو ٨: ٣) لأن الحية الحقيقية هي الخطية، والذي يلجأ للخطية يأخذ طبيعة الحية. فالإنسان أخلي من الخطية بواسطة الذي أخذ شكل الخطية وصار على شكلها وهو الذي تغير بشبه الحية] (De Vita Moysis, PG 44,413,415). وقد حذا حذوه ذهبي الغم وثيوفيلس الأنطاكي.

ويقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرص نفس الفكرة تقريباً وأضاف: [إن الحية كانت تمثل المسيح. فاليهود حينما عاملوا المسيح كأنه حية، فقد أصابهم سم الحية أي الشيطان. وحينئذ جاء الشفاء للذين عصّتهم الحية حينما رُفعت الحية]

(Haer. XXXVII, ch. 7, pp. 273 f)

القديس أغسطينوس يقول: [إن رفع الحية هو موت المسيح] (Aug., De pecc. mer. et rem., I, 32).

عليه كصكّ ينص حكم إعدام الخطية، وموت الموت حتى نُشهره أمام الضمير، وفي يوم الدينونة العتيد. فالآن، الذي ينظر إلى الصليب والجسد عليه ميتاً، مؤمناً بما صنع المسيح بالخطية، فهو يحيا «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر» (١ بط ٢: ٢٤). (١١)

فلكي نفهم كل سر رفع الحية النحاسية في البرية، يلزم أولاً فهم الحقيقة التي قام عليها هذا الرمز قديماً. أي أن موت المسيح على الصليب وما تم بسببه من الخلاص والحياة من موت محقق — هو الذي يشرح معنى رفع الحية النحاسية في البرية. أي أنه يلزم قراءة الآية من الآخر كالآتي: «ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان — كما رفع موسى الحية في البرية»، لأنه بدون سر الحياة التي تمت بموت المسيح على الصليب، يبقى مثل الحية النحاسية المرفوعة في البرية لغزاً يستحيل حله.

«هكذا "ينبغي" "أن يرفع" ابن الإنسان»:

: so must = οὕτως δεῖ

كلمة «ينبغي» ضعيفة في تعبيرها عن المقصود في الأصل اليوناني، فكان الواجب أن تكون الترجمة «يتحتم» must. ولماذا يتحتم؟

في الحقيقة إن استخدام كلمة «ابن الإنسان» هنا هي تعبير مكشوف عن التجسد، فيلزم للقارئ أن ينتبه دائماً حينما يقابل كلمة «ابن الإنسان» (١٢) أن يترجمها في ذهنه إلى ما تم في التجسد، وخاصة اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح. فلأن ابن الله «تجسد»، أي صار «ابناً للإنسان»، فهنا سرُّ الضرورة الحتمية أن يتألم أي يرتفع على الصليب؛ لأنه لم يتجسد إلا لكي يتألم بالجسد ويموت ليتم الخلاص للإنسان: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة»!! (يو ١٢: ٢٧) ولكن لأن الجسد متحد باللاهوت، فبمقتضى لاهوت ابن الإنسان أصبح من المحتم وبالضرورة أن يقوم ابن الإنسان ويرتفع، أي يصعد إلى السماء حيث كان!

ولكن لأن أسلوب ق. يوحنا في التسجيل عميق غاية العمق ومتسع غاية الإتساع، وكل ذلك في اختصار بالغ الشَّع، استخدم هنا بلسان المسيح «الارتفاع» لكي يشمل الارتفاع على الصليب في ألم، ثم بالتالي الارتفاع أي الصعود إلى السماء في مجد.

(١١) أنظر ما جاء عن الحية النحاسية في المدخل ص ٩٨.

(١٢) راجع المدخل ص ١٩٦—٢٠٣.

والآن إذا عُذْنَا لقراءة الآية مرة أخرى من الأول: «وكما رفع موسى الحية في البرية...» يظهر المعنى القوي المقصود وهو أنه كما حدث الشفاء للذين عضَّتْهم الحية في البرية عندما رفع موسى الحية النحاسية، «هكذا يتحتم أن يُرفع ابن الإنسان» ليحدث الشفاء من الخطية والموت الذي من صُنْع الحية القديمة.

لاحظ أن في «الرفع» ὑψωθήναι سواء كان للحية النحاسية أو المسيح يكمن سر الخلاص.

«لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية»:

لا زلنا ننظر، بالتوازي، شعب إسرائيل في البرية وهو منطرح على الأرض جثثاً هالكة من سُم الحية، ولكن كلُّ مَنْ أطاع وآمن ونظر إلى تمثال الحية النحاسية عاش.

المنظر هنا يعود و يصوّر المسيح مرفوعاً — في لغز — لأن ميعاد الصليب لم يَجِنْ بعد، والكلام لنيقوديموس، فكلُّ مَنْ يرفع قلبه بالإيمان إليه ينجو من الهلاك الأكثر من هلاك سُم الحية المحرقة، الذي يورد الجسد إلى العطب، لأن هلاك عدم الإيمان بالمسيح يغلق على الإنسان في حضن الحية القديمة (إبليس) التي تمتص منه رحيق الحياة أولاً بأول، ولا ينتظر بعد الموت إلا الموت، حيث نشيد الهاوية: «إِذَا رَجَوْتُ الهاوية بيتاً لي وفي الظلام مهَّدْتُ فراشي، وقلتُ للقبر أنت أبي وللدود أنت أُمِّي وأُختي، فأين إذاً آمالي، آمالي مَنْ يعاينها؟ تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معاً في التراب.» (أيوب ١٧ : ١٣-١٦)

«تكون له الحياة الأبدية»:

الذي كان ينظر إلى الحية النحاسية كان يقوم ويحيا، تماماً وهكذا مَنْ بالإيمان ينظر إلى المسيح $\epsilon\theta\epsilon\alpha\sigma\acute{\alpha}\mu\epsilon\theta\alpha$ تدبُّ فيه عناصر الخلود، وتنسحب منه قوى الموت والفساد فلا يسود عليه الموت بعد، لأنه بعد الموت تكون له الحياة الأبدية!!

ويلد لنا أن نتأمل في أسلوب الآية البديع في قوله «تكون له» الحياة الأبدية، وليس مجرد «يحيا إلى الأبد» وكأن الحياة الأبدية لم تُعْذِمْ أو حَسَنَة من حسنات الله عليه، بل تصبح الحياة الأبدية له وكأنه يمتلكها، فتحلُّ كل بركاتها عليه. وبأسلوب القديس بولس الرسول لا يمتلكها فقط بل «يرثها»!!

١٦:٣ «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

نلاحظ أن في الآيتين المتلاحقتين تتكرر نفس الكلمات «لا يهلك كل من يؤمن به». هذا هو التشديد الذي أتت من أجله الآية الثانية، فالتركيز فيهما هو على الإيمان. الكلام موجه لنيقوديموس، ليس العمل بالناموس هو الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية ولا التعليم ولا الآيات بل «الإيمان». والمسيح إذ أعطى مثل ورمز الحية النحاسية، يعطي أبسط صورة للإيمان بكلمة وعد الله على يد موسى أن من ينظر إلى الحية النحاسية المرفوعة يُشفى؛ ثم يطبق على ابن الإنسان، ليرتفع بالإيمان من مجرد كلمة وعد إلى استعلان أول وأبسط صورة للفداء: «ابن الإنسان» مرفوعاً عن الأرض بمعنى الموت، ثم يكمل الاستعلان إلى أقصاه أن ابن الإنسان المرفوع عن الأرض هو في حقيقته ابن الله المبذول للموت.

كان منظر الحية النحاسية معلقة على عود مرتفع في وسط إسرائيل منظراً عجيباً وغريباً، ليس على الشعب الموجوع من الحية فقط بل وعلى جميع علماء اليهود والربيين. فهذه الحادثة أو المعجزة لم يستطع الفكر اليهودي أن يلاحقها.

فكم بالحري مثيلتها أن «يُرفع ابن الإنسان» ليكون منظراً للناس (ميتاً على خشبة)، حتى كل من ينظر ويؤمن، ينجو من الهلاك الأبدي ويأخذ نصيباً في الحياة الأبدية. صحيح أنه منظر معروض للإيمان، والإيمان لا يعتمد على المنظور. ولكن ما هو جوهر هذا المظهر؟

هنا يتحتم «الارتفاع» فوق هذا الرمز القديم، ونتجه إلى السماء لكي نكتشف السر والجوهر عند الله:

«لأنه هكذا أحب الله العالم» — سر محبة الله للعالم:

«لأنه» γάρ، «لأن» يأتي بعدها جملة مسببة تفيد رداً على كل ما سبق وأشكل فهمه. المسيح هنا يعطي العلة والسبب في قوله «ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان»، «كما رُفعت الحية على العصاة في البرية»، بل ويعطي العلة والسبب في ورود نفس هذه الحادثة قديماً باعتبارها عملاً نبوياً بالتمثيل، فكَّ المسيح رموزه في مفهوم الصليب. ويمتد الجواب أيضاً ليعطي العلة والسبب بل والمعنى في قول المجدان: «هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩)!! أما العلة والسبب فهي أن «الله أحب العالم»!!!

موسى رفع الحية النحاسية في البرية، لا لكي يُشفى، بالنظر إليها، الشعب الموجوع من عضة الحية فقط، بل لتكون تصويراً نبوياً بالغ الدقة والتمثيل للعالم كيف يُشفى بالنظر إلى المسيح المصلوب الذي امتصَّ سُم الحية، فأفرغ الحية من سمها وأبطل مفعول السم بجسده القائم من الموت حياً.

المسيح هنا يربط ربطاً غاية في الإختزال والقوة بين حب الله للشعب الذي اقتناه لنفسه وحبّه للعالم أجمع بكل أمه، بقوله: «كما رفع موسى الحية»، هكذا «ينبغي أو يتحتم أن يُرفع ابن الإنسان». والمقارنة بين الحُبَّين، حب الله لإسرائيل وحب الله للعالم، تبدو شاسعة البون جداً. فأي نسبة هذه بين التفريط في قطعة نحاس مطروقة على شبه حية ميتة، وبين التفريط والبذل للموت لابن الإنسان الذي هو في الحقيقة الابن الوحيد لله على الصليب!! أو بين شفاء من عضة حية لمتابعة حياة على الأرض، وبين شفاء من موت الخطية لقبول حياة أبدية!!

فلو عرفنا أن «حب الله» يخص طبيعته الأزلية، لأدركنا أن الأمور التي جرى عملها في القديم من جهة رفع الحية النحاسية ثم فك رموزها برفع ابن الإنسان على الصليب التي بدأ المسيح هنا يطرحها في وعي الإنسان، قد سبق وتم تجهيزها في المشورة العليا الأزلية!

مركز العالم عند الله:

لقد كانت التوراة كلها بكل أسفارها شريحة غاية الشح من جهة ذكر أو حتى تلميح عن محبة الله للعالم. فالأمم في الأسفار منبوذون، بل ولم يفرق أي قول نبوي بين الأمم والأصنام؛ فوضعهم كان موضعاً واحداً دائماً، وامتد هذا التقسيم عند اليهود حتى رأوا الأمم «كلاباً» أو في مصافهم. في حين نسمع أن الله سبق «فوعده» إبراهيم أبا الجنس اليهودي عامة أن في نسله (بذرتَه) تتبارك كل الأمم! من هذا نفهم أن الأمم كانوا ذوي ذكر وحب مكتوم عند الله، وإنما من وراء اليهود الشعب المختار.

ثم إذ نخطو خطوة أخرى، نرى من ثنايا هذا الوعد أن الشعب اليهودي إنما اختير ليكون خيرة جيدة يُلقَى فيها الله ببذرة الإيمان والتقوى والعبادة والإخلاص لله، مع محبة خاصة حتى تتخمر الخميرة بفضائل معرفة يهوه وحبّه، ثم يعود ويزعها على كل الأرض لتخمر العجين كله. أو بصورة أوضح أن الله اختار وأحب شعب إسرائيل في إبراهيم من أجل بركة العالم كله!

فلما بدأت تفسد الخميرة — إلا الجزء اليسير منها — فتح الله الباب للأمم لثرت ميراث الله في قطعة الخميرة النموذجية التي نجحت وصلحت. وحينئذ صار من العدل وَقَفَّ كل الصلات الممتازة والعطايا السخية والعناية الفائقة المحصورة في شعب إسرائيل؛ ليتيسر نقلها إلى الأمم بصورة أعم

وأشمل، وعلى مستوى العَلَن والروح لا الجسد. هذا أوضحه الإنجيل من فم الرب عند قوله: «وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكَمَّل أزمته الأمم» (لوقا ٢١: ٢٤). ثم أوضحها بولس الرسول بالروح: «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء، أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم، وهكذا سيخلص جميع إسرائيل... من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم وأما من جهة الاختيار فهم أحياء من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (روما ١١: ٢٥-٢٩)

كل هذا يوضح أن الله كان يحب العالم، ولكنه لم يستطع أن يمارس حبه في عالم كان يعبد المخلوق دون الخالق. ولكن لما نضجت الشعوب وبدأت تفرغ باب الله انفتحت أحشاء رحمة الله وانكشف سره المخفي الذي كان محجوراً عن أعين الشعب المدلل.

إبراهيم وابنه الوحيد المحبوب المقدم ذبيحة؛ وسر بركة الأمم:

وإذا عدنا إلى قصة إبراهيم وكيف قدم «ابنه الوحيد اسحق الذي يحبه» بنية تقدمته ذبيحة طاعة لصوت الله، نرى الصورة الأصلية لحب الله نحو العالم المدخر في قلب الله منذ الدهور الذي «كان كائناً قبل أن يكون إبراهيم».

فقبل أن يطلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة، وعده على أساس تقواه أن يكون أباً للأمم كثيرة: «أما أنا فهذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون» (تك ١٧: ٤-٦). وبعد أن أطاع إبراهيم ودخل التجربة ونجح وقدم ابنه فعلاً وفي يده السكين، أن ناداه الله: «وقال بذاتي أقسمت يقول الرب أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك كثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي.» (تك ٢٢: ١٦-١٨)

واضح، إذن، أن الله أحب العالم في إبراهيم قبل أن يكون شعب إسرائيل. ولكن لماذا طلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه وحيدته الذي يحبه إسحق ذبيحة؟؟

لقد كان في هذه القصة أول وأعظم نموذج أو آية نبوية أو رمز (١٣) فيه إفصاح عن نية الله

(١٣) أعلم أن الرموز هي أفعال تتم بالشكل لحساب التكميل بالجواهر والفعل، فهي جزء لا يتجزأ من الواقع العملي، ارجع للمدخل صفحة ٢٨٧-٢٨٨. وارجع أيضاً إلى شرحنا للقب $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ حيث نبين «كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استلحه في ذاته» (المدخل صفحة ٢٤٢).

في خلاص العالم بتقديم ابنه وحيدته الذي يحبه على الصليب. ففي هذه القصة تذكرة دائمة، لليهود خاصة، لكي يدركوا نيته من نحو العالم، قبل أن يوجد اليهود، حتى إذا جاء دور التنفيذ يكونون على بيّنة، وقدمها أيضاً للعالم عامة ولكل الأمم مُسجلة في الأسفار بغاية الوضوح، لكي يطلعوا على نيّة الله منذ القديم من جهة نصيبهم المعدّ المذخر لهم في مخازن مراحم الله، حتى إذا جاء الميعاد لا يقولون لماذا كنت قد نسيتنا هذا الدهر كله!

ولكن لمن قدّم إبراهيم ذبيحته، ومن أجل مَنْ كان هذا كله؟

واضح أن الله وضع هذا النموذج العالي السريّة لينفذه إبراهيم في ابنه وحيدته إسحق أبي الشعب الإسرائيلي كله من أجل الأمم!!! لأن أجر إبراهيم عن هذه الطاعة العظمى لم يأخذه إبراهيم لنفسه، فهو لم يرَ الأمم ولا درى ببركاتهما، بل أخذه العالم بسببه أو عوضاً عنه!! وقد نفذه إبراهيم بالنية أعظم وأكمل تنفيذ، فأكمل التاريخ صورة هذا التدبير الإلهي بأن صار شعب إسرائيل ضحية لتدخل الأمم مجال حب الله عوضاً عنهم. ولكن بقي الفعل أو التنفيذ الفعلي، هذه الدهور السالفة كلها، ليُلقي أخيراً على ابن الله الوحيد لكشف سر هذا الحب:

«حتى بذل ابنه الوحيد»:

يلاحظ في الآية السابقة أن الذي «رُفِع» هو ابن الإنسان، وهنا في هذه الآية الذي «بُذِل» في مضمون الإرسال هو «الابن»، وهكذا يتدرّج المسيح من «رفع الحية» إلى «رفع ابن الإنسان» إلى إرسالية «الابن الوحيد»، تدرّجاً من أسفل إلى أعلى.

هنا أول استعلان عن «أبوة الله» في إنجيل ق. يوحنا بعد المقدمة. ويلاحظ القارئ أن التركيز هنا على «الله كأب» بالرغم من أن البذل واقع على الابن كما حدث في إبراهيم وابنه إسحق!! فعملية الخلاص تبدأ من الله وليس المسيح، والجهد الشعوري وآثار «البذل» بل والتضحية الإلهية واقعة على الآب أكثر مما هي واقعة على الابن: «الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!» (رو٨: ٣٢). وإن كان الآب لم يشفق على ابنه، فهو في الحقيقة وعين الأمر لم يشفق على نفسه؛ فالابن قائم في الآب قياماً كلياً لا يمكن أن يحدث له شيء بدون شركة الآب. إن طاعة إسحق لأبيه لما حمل «الخطب على ظهره» (الصليب) وقُدّده على المذبح الذي بناه إبراهيم أعطيا لإبراهيم أبيه الكرامة المضاعفة في عين الله، مع أن الضحية كانت في إسحق، إلا أن قوة الذبيحة وطاعتها تركزت بصفة أساسية لحساب إبراهيم الأب!! بل إن قوة الذبيحة التي قدّمها «إبراهيم» بالنيّة كأب هي التي عادت بالبركة على كل شعوب الأرض! هكذا فكل الذي صنعه المسيح وُضِع في المسيح هو لحساب الآب.

من هنا نفهم لماذا أَلَحَّ المسيح في إنجيل ق. يوحنا أن يعطي كل الكرامة وكل المجد مع كل المشيئة وكل العمل، وكل القول، للآب بل وحتى الكأس: «الكأس التي أعطانيها الآب ألا أشربها» (يو ١٨: ١١)، وكأنها كأس الآب!

لذلك من اللائق جداً أن ننتبه إلى أن الخلاص كله الذي أكمله المسيح في هذا البذل الذي تحمّله الابن هو بالأساس «عملية حب قائمة في قلب الله ومنتبهة إليه»، ولكي نُقيّم هذا الحب الأبوي لله من نحو العالم، يكفي أن نقيس مقدار البذل ونوعه، فهو ليس مسألة فكر أو مجرد مشيئة أو تنازل من جهة الله في تحمّل أي تضحية من جهة الكرامة، بل إن البذل عملية مسّت طبيعة الله وجرحت مشاعر الأبوة الإلهية في عمق ذات الله كأب يبذل ابنه للعبودية والمذلة والموت!! إذ تغرب ابن الله الوحيد، القائم في حضن الآب، على الأرض في الجسد الذي قَبِلَ فيه المهانة والاحتقار والظلم والاضطهاد والبُغضة ثم الملاحقة للقتل حتى الذبح على الصليب، والآب تحمّل عمق الفعل ونتائجه. وهذا واضح من قول المسيح: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤). هذا هو قياس درجة حب الله من نحو العالم. وليس بين درجة حب الله من نحو العالم ودرجة البذل التي عاناها الله في ابنه أي مبالغة بل هي موازية في الحجم والقدر، فالبذل مساوٍ لدرجة الحب تماماً.

فالحب تَسَاوَى مع البذل، والبذل جاء متساوياً مع الحب. وهذا الارتفاع الصارخ والباهظ في الثمن المدفوع جاء مساوياً للنتيجة المطلوبة وهي خلاص العالم وفداء وتبني الإنسان!!

وهنا يتبلور السر الخطير وينطق نطقاً أن الفداء بالابن الوحيد، أنشأ — ولا بد أن يُنشأ — بُنْوة فريدة للإنسان!

فالله كان لا يمكن أن يقرّط في ابنه ولا يشفق عليه، إلا إذا كان الثمن والهدف مساويين تماماً للبذل! فببُنْوة الإنسان لله التي آلت للإنسان بموت الابن الوحيد كريمة وكريمة جداً في عين الله الآب.

وبالنهاية نجد أن محبة الله للعالم تعادلت مع بذل الابن الوحيد على الصليب تمام التعادل، وبذل الابن الوحيد على الصليب تعادل تماماً مع منح الإنسان درجة البُنْوة لله حبّاً وصُلحاً وسلاماً ومسرّةً.

إذن، كم بالحري ينبغي أن تكون هذه الهبة، هبة التبني، كريمة وعزيزة وفائقة القدر عندنا؟

«لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية»:

هنا يضع المسيح قوة «حب» الله الآب الذي أنشأ قوة «بذل» عالية القدر والقيمة — اشترك فيها الآب والابن معاً — لتساوي في فعلها «رفع الهلاك» عن الإنسان.

أما بالنسبة لقياس حالة الهلاك التي يزرع تحتها كل إنسان في العالم فذلك يمكن قياسه؛ فمن جهة الإنسان نجد الخطية قد ملكت على الإنسان غرائزه وسلوكه، فأفقدته الحركة نحو الحق والبر والتعفف، وورثته العجز في الرؤية، فغاب الله القدوس وارتضى الإنسان بالموت كنهاية لشقائه على الأرض.

أما من طرف الله فقد وقفت الخطية من الإنسان موقفاً معادياً من الله، فصارت كحجاب عازل ليس فقط يحرم الإنسان من الاتصال المباشر بالله، بل ومنعت الله من أن يسكب حبه على الإنسان الذي خلقه على صورته ليعيش معه ويستمتع بالحياة الأبدية خلواً من حزن أو كآبة أو تنهد في نوره العجيب.

فكان لا بد أن تُرفع الخطية من الوسط بكل آثارها المخربة والمهلكة من جهة الإنسان وفي نظر الله معاً، لكي يسكب الله حبه من جديد.

أما من جهة الإنسان: فتحتم أن يولد من جديد، يولد ثانية من الله كما جبله الله يوم جبله في المرة الأولى، إنما هذه المرة ليس بمجرد نفخة بل باتحاده بروح الله، خلقة جديدة بكل مواهبها السماوية.

أما من جهة الله: فبأن تنفتح أحضان مراحم الله الأبدية بلا مانع ليصنع بابنه خلاصاً أبدياً وليسكب محبته، كل محبته الأبوية في قلب الإنسان ومعها الحياة الأبدية بعمل روح الله القدوس.

وبالنهاية نرى في هذا الفصل عوامل الأساس الراسخ الذي أرساه الله لتكميل خلاص العالم:

العامل الأول فيها، وهو الأمر الذي قضى به الله قضاءً، وانتهى ولن يتراجع عنه، ولا يمكن التراجع عنه، هو أنه أعلن عن حبه عملياً «هكذا أحب الله العالم» بتقديم حياة ابنه على الصليب من أجل كل إنسان.

العامل الثاني إرسال روحه القدوس «الريح تهب حيث تشاء» كوعد ثابت من جهة الله لا يفارق الإنسان، بل يسقيه الروح والمحبة والحياة، والامتداد بوعي الإنسان لفحص أعماق الله

والإغتذاء من نعمته. وقد أكمل الله وعده هذا بعد أن أكمل الابن الوحيد أساسيات الخلاص والفداء.

والعامل الثالث لتكميل هذا الخلاص والإطلاق هذه المحبة لتعمل عملها بلا مانع في طبيعة الإنسان لتخلقها من جديد، لزم إيمان الإنسان «كل من يؤمن به...». ولكن الإيمان المطلوب ليس بالفكر ولا بالجهد والقياس، ولكن «الإيمان بحب الله وتصديق وعده» الذي هو مستعد على مستوى القَسَم الذي أقسم به لإبراهيم، بأن يستقبل الخاطئ يوم يعود إليه ربما هكذا: 'بذاتي أقسمت يقول الرب - "بذل ابنه" - لأنك آمنت بابني الذي بذلته على الصليب من أجلك فإني أباركك بركة... وأجعلك فيه ابناً لي لأجل أنك صدّقت حبي!' في هذا يقول حزقيال النبي: «حيّ أنا، يقول السيد الرب، إني لا أَسْرُبُ موت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حز ٣٣: ١١). وهكذا ليس على الله عمل أكثر من المحبة التي تحققت بموت ابنه عن كل خطاة الأرض، كما ليس على الإنسان عمل أقل من الإيمان بهذا الحب وهذا البذل ليقبل الحياة ويحيا.

المفردات اللغوية للآية:

«أحبَّ»: ἠγάπησεν

أقوى صياغة باللغة اليونانية للتعبير عن المحبة^(١٤)، وقد جاءت المحبة هنا مُشَدَّدة بأكثر من معناها حينما أضاف إليها «هكذا» أو «بهذا القدر أحب الله». وللعلم، فإن ق. يوحنا استخدم «أحب» «أغابي» في إنجيله ٣٦ مرة، وهذا يكشف عن ضرورتها الملحة في التعبير عن لاهوت ق. يوحنا أو بالحري علاقة الله بالناس. وهذا واضح غاية الوضوح في أنه جعل «المحبة» توازي في فعلها التجسد والموت معاً. «هكذا أحب... حتى بذل...» ولكن هذا الحب بهذا القدر والتكثيف والفعل الممتد، سواء في التجسد بكل أصالته وجماله، أو في الموت بكل هيئته وجلاله، لا يُدرك قوته حقاً أو يُستعلن عمقه وطوله وعرضه وارتفاعه إلا في الذي يؤمن بالابن، فينال هذا العطاء بكل سخائه ويعيش هذه الحقيقة الإلهية، وحينئذ يتحقق فعلاً أن الله محبة.

«بَذَلَ»: ἔδωκεν

في الحقيقة الترجمة العربية هنا غنيّة، فقد جاءت بالمعنى ووقت حق امتداده ليشمل «الإرسال» إلى العالم بالتجسد، كما يشمل تقدمته مبذولاً على الصليب.

ومما يحقق لنا هذا المعنى المتسع للكلمة، كيف استخدمها بولس الرسول لتوفي نفس المعنى هكذا: «الذي لم يُشفق على ابنه بل بذله = παρέδωκεν لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!!» (رو٨: ٣٢)

«ابنه الوحيد»: τὸν μονογενῆ

«ابنه الوحيد» جاءت هنا لتزيد من معنى فداحة البذل وقوة الحب معاً. ولا تخلو هذه الكلمة «ابنه الوحيد» من تلميح غاية في الرقة والحساسية إلى المساوي الأقل والضعيف — ومع الفارق — عند إبراهيم بالنسبة لإسحق!

«لكي لا يهلك»: μὴ ἀπόληται

هذه الكلمة تُعتبر من خصائص اللغة عند ق. يوحنا، وهي إما تأتي غير متعدية (بمعنى يهلك) أو متعدية على مفعول به (بمعنى يُهلك)، وقد يكون في هذه الحالة المفعول به هو نفس الفاعل بمعنى أن الإنسان (يُهلك ذاته)، وحينما تأتي غير متعدية قد يكون المعنى الضياع أو فقدان «اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء μὴ τι ἀπόληται» (يو٦: ١٢)، أو قد يكون المعنى «الهلاك»، كما جاءت هنا: «لكي لا يهلك» (يو٣: ١٦)، أو قد يكون المعنى «الزوال والإبادة»: «اعملوا لا للطعام البائد ἀπολλυμένην بل للطعام الباقي للحياة الأبدية.» (يو٦: ٢٧)

وواضح أن الهلاك أو الفناء أو الإبادة هي نصيب الشيء أو الشخص الذي ينفصل عن الله ويبقى متمركزاً في نفسه.

«الحياة الأبدية»: ζωὴν αἰώνιον

في غير إنجيل ق. يوحنا تعني حياة الدهر الآتي بحسب مفهومها اليهودي الرباني التقليدي، ولكن عند ق. يوحنا تميل أكثر إلى معنى الحياة التي بلا نهاية أو الحياة مع الله «كعطية حاضرة» الآن من الله، وهي تقابل ملكوت الله في الأناجيل الأخرى. وملكوت الله أيضاً عند ق. يوحنا، ولو أنها عطية الدهر الآتي، ولكن المسيح بدأها الآن وصارت حقيقة مُعاشة في المسيح. (١٥)

(١٥) أنظر المدخل صفحة ١٣٦—١٣٨ بخصوص الحياة الأبدية المُعاشة منذ الآن بحسب مفهوم ق. يوحنا.

وانظر أيضاً شرح الآية يو٣: ٣ بخصوص الترادف بين معنى الملكوت والحياة الأبدية في إنجيل يوحنا (صفحة ٢٠٧ من هذا الكتاب).

١٧:٣ «لأنه لم يُرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم».

«قد شَمَّر الرب عن ذراع قُدسِه أمام عيون كل الأمم
فترى كل أطراف الأرض خلاص إهنّا.»
(إش ٥٢: ١٠)

يلاحظ القارئ ازدواج الفكر السلبي ثم الإيجابي. ففي السالفة «... جاء لكي لا يهلك، بل يكون له الحياة». وهنا «لا يدين بل ليخلص». هذا أسلوب ق. يوحنا وهو نوع من التحديد القاطع للمعنى، كما سيحيي في الآيات القادمة أيضاً الإيجابي ثم السلبي: «الذي يؤمن لا يدان والذي لا يؤمن فقد دين».

كما سيحيي أيضاً في الآية بعد القادمة: «أحب الظلمة أكثر من النور، كل من يعمل السيئات يبغض النور وكل من يفعل الحق يُقبل إلى النور».

كانت كل تحقيقات الربيين عن نبوات مجيء المسيّا تفيد أنه سيعلي من شأن الأمة و يدين الشعوب و يسحق الأمم و يبيدها، وكان روح هذا التعليم بالذات أحد العشرات والمعوقات التي وقفت حائلاً دون قبول المسيح، وكان نيقوديموس أحد الأئمة الذين تشبعوا بهذه الروح العدائية نحو أمم العالم و يقابلها روح التعالي والفخار بالعنصرية اليهودية والإعتداد الشنيع بالفريسية وإتقان التعليم بالحرف. هنا يصحح المسيح و يوضح أن هدف المسيّا الأساسي هو الخلاص لكل أمم العالم وليس الدينونة. وإن تحتمت الدينونة، فلا تكون هدفاً لمجيء المسيّا قط، وإنما جزاءً للذين انعمت بصائرهم وانسدّت آذانهم وصاروا من سواقط الخلاص، وهذا وذاك لليهودي قبل الأممي!!

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن الحكم بالدينونة والموت والهلاك هو القانون الذي يرزح أصلاً تحته كل بني آدم، لأن الكل وُلد بالخطية والكل أخطأ وزاغ. والمسيّا جاء ليرفع الخطية، وبالتالي قانون الموت واللعنة، فالذي يرفضه يحكم على نفسه بالبقاء تحت الخطية واللعنة!!! بل ويكمل، برفض المسيح، مكيال خطايا.

والذي يفحص فكر إنجيل يوحنا يشعر كأنه يدافع عن شيء ويرفع الملامة عن الله! نعم، فقد حدثت الكارثة وسقطت أورشليم واندكتت حتى التراب وتخرّب الهيكل وحُرق عن آخره. هذه هي الخلفية التي يكتب ق. يوحنا على ضوءها إنجيله. فهو يستमित ليبري الله من كل ما حدث، الذي بدا وكأنه نقمة مروعة حلّت بالمعاندين، فالعلامات بحسب النبوات كانت واضحة في سلوك

كل الطبقات المتعلّمة مع كل أعضاء المجمع مع غالبية الشعب، إن لم نقل كله في رفض صوت الكلمة، إلا أفراداً يعدون بالعشرات وحسب.

ق. يوحنا يكتب إنجيله الآن ونحن في نهاية القرن الأول، وأورشليم سقطت بهيكلها سنة ٧٠م، أي مضى الآن ثلاثون سنة تقريباً، وقد تشتت الشعب وخربت البلاد وانتهى اليهود إلى الصفر، لذلك يقول إن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، أي لم يكن خراب أورشليم وتهدّم الهيكل وحرّقه على مستوى الدينونة. لأن رسالة الابن الوحيد هي تنفيذ وصية الحب الأبوي من نحو العالم للخلاص حتى لا يهلك أحد، كل من يؤمن. أما ما حدث لأورشليم والهيكل وللأمة اليهودية، فهو النصيب الذي حدّده المسؤولون مع الشعب لأنفسهم؛ لقد حكموا بأنفسهم على أنفسهم بانتهاء زمان الحب لما رفضوا الابن الحبيب، وحكموا على الهيكل بالهدم لما هدموا هيكل ابن الإنسان بالرغم من تحذيره لهم. لقد سَعَوْا في الظلمة ضد النور، فأدركتهم الظلمة وانتهى لهم زمن النور. أما الذين كانت أعمالهم صالحة، فهؤلاء أحبوا النور وتقبّلوا رسالة الحب: «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به.» (١ يوحنا ٤: ٩)

وواضح أن إنجيل ق. يوحنا يضع الحب في رأس قائمة هذه الآيات، حتى يرفع من الدينونة رائحة البُغْضَةِ الإلهية؛ فالذين خلصوا بنداء المحبة ظهر فيهم فعل المحبة، والذين رفضوا نداء المحبة دخلوا تحت الحرمان منها بإرادتهم. فالدينونة أصبحت حرماناً من محبة الله وليست غضباً منسكباً عليهم. (١٦)

والقصد كله الذي يريد أن يخلص إليه الإنجيل هو أن المحبة أصل الدينونة والمتسببة فيها، لأنه لولا المحبة ما كان خلاص ولولا الخلاص ما كانت دينونة. وهذا هو سلاح المحبة الرهيب ذو الحدين.

١٨:٣ «الذي يؤمن به لا يُدان؛ والذي لا يؤمن به قد دِينَ، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد».

يلاحظ اختلاف الفعلين «لا يُدان» و«قد دِينَ». فالذي يؤمن، يكون قد خرج من دائرة

(١٦) يمكن للقارئ الذي يطلب شرحاً مزيداً لهذه النقطة أن يرجع لكتاب: «الحدود المتسعة للإيمان بالله» للمؤلف، ص ٥٢

الدينونة أصلاً وكُلاً لأنه صار « في المسيح ». أما الذي لم يؤمن فقد خرج من دائرة المسيح والخلاص وصار في الوجه المعادي . لأن عدم الإيمان باسم ابن الله هو عدم الإيمان بالله وبالخلاص الذي تم باسمه . ويلاحظ أن كلمة « الوحيد » جاءت هنا للتذكير بالمحبة ، فهو الابن الوحيد لأنه المحبوب ، فهنا يكون عدم الإيمان قد بلغ إلى مجافاة محبة الله ، بل وتعدى عدم الإيمان بالمحبة إلى عدم التصديق ، وكأنه يجعل الله كاذباً . فمجيء ابن الله برسالة حب الآب الذي أنهى على حالة الركود التي كان يعيشها العالم ، قد قسمه في الحال إلى مؤمن مُستقبلٍ لرسالة المحبة ، وغير مؤمن رافضٍ لرسالة المحبة ؛ وبالتالي إلى مخلصٍ وغير قابلٍ للخلاص ، وغريبٍ عن روح الله أي قائم في الموت بعيداً عن الله !

والدينونة على هذا هي من عمل رفض الإيمان وليست من عمل الله . ولكن الأصل والأساس هو الإيمان الذي جاء به المسيح للحياة : « الحق الحق أقول لكم إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة . » (يوحنا ٥ : ٢٤)

ولكن إنجيل ق . يوحنا لا يقطع خط الرجعة على من يرفض الإيمان ، بل طالما هو رافض للإيمان فهو واقع تحت الدينونة لأنه هو نفسه الذي يصنع لنفسه الدينونة برفضه ؛ ولكن إذا رجع وقَبِلَ الإيمان ، يكون قد خرج من الطوق الحديدي الذي وضعه بنفسه في رقبته : « لأنكم إنَّ لم تؤمنوا أنني أنا هو تموتون في خطاياكم » (يوحنا ٨ : ٢٤) ، « ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور . » (يوحنا ١٢ : ٣٦)

فالمسيح باقٍ كما هو ، وصوته قائم يدعو للخلاص ، وكلمة الإيمان في فمك إنَّ نطقها ربحت نفسك والحياة . فالمناداة بالدينونة في إنجيل ق . يوحنا نشأت بسبب الكرازة بالخلاص وليست لتهديد أو وعيد للذين لا يؤمنون ، والإنجيل أصلاً موضوع لغير المؤمنين ليكونوا مؤمنين . ولكن نبرات التحذير هي التي تطفئ على الكارز خوفاً على حياة الإنسان . لذلك فالمطالبة بسرعة القطع إما مع النور أو الظلمة ، هو اختيار بين الحياة أو الموت ، ليس للتخويف بل للترغيب ، لأن صوت الله منذ القديم يقول : « قد جعلتُ قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة ، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك . » (تث ٣٠ : ١٩)

١٩ : ٣ « وهذه هي الدينونة إنَّ النور قد جاء إلى العالم وأحبَّ الناسُ الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة » .

هنا يربط ق . يوحنا « الدينونة بالنور » . ولكي تظهر الدينونة بمعناها الأسهل نقول إنها

القضاء. فالقضاء لا يمكن أن ينعقد لواؤه إلا بوجود أداة التمييز بين الخطأ والصواب للحكم بالعقاب أو البراءة. ونحن هنا بصدد الروحيات، فالقضاء أداته الوحيدة هي النور الإلهي الذي يفرّق بين أعمال الظلمة وأعمال النور.

فيقول ق. يوحنا أنه بمجيء النور إلى العالم وجب القضاء وتحتم، لأن العالم به الشر أصلاً وبه الخير أيضاً؛ فكل من ينحاز إلى النور فهذا يوضح أنه أحب النور. والذي يرفض النور معناه أنه أحب الظلمة أكثر من النور. والنور هنا في هذه الحالة هو أداة التفريق والتمييز، وفي نفس الوقت هو القاضي. من هنا جاء الإلتباس أن الذي يبغض النور ويقع عليه العقاب يبدو كأن هناك عداوة أو نقمة بين القاضي وهو المسيح وبين الرافض للنور. ولكن لرفع هذا الإلتباس نقول إن القاضي يحكم بمقتضى قانون ولا يحكم حكماً كأنه من عنده، ولكن الحكم أو الدينونة منشأها النور كأداة أو قانون، وليس القاضي نفسه، فالقاضي يحكم بما يحكم به النور أو قانون النور، وقانون النور مطلق أزلي وليس وضعياً أو مجرد اجتهاد أو تفكير شخصي.

بدخول النور، وهو المسيح، ومعه الحق الإلهي إلى العالم انقسم العالم إلى مُحِبِّي النور ومُحِبِّي الظلمة وبدأ في الحال روح القضاء يأخذ عمله.

والذي يجعل القضاء يطالب بحقه من الآن هو التقرير النهائي الذي اتّخذته الذين رفضوا النور، لأنهم «أحبوا» ἠγάπησαν، وهذا فعل في اللغة اليونانية aorist يفيد القرار القاطع المنتهى منه في محبة الظلمة، والخطورة الكبيرة هنا هي أن هذا الحب الذي ينتمي إلى نوع من العشق أو الارتباط هو ليس فقط حباً لأعمال الظلمة من سرقة وزنى وفجور وكذب وعداوة، بل إن هذه الأعمال تمتد لتتعاقد مع أقنوم الظلمة — رئيس هذا العالم — وهو القوة المشخّصة المحرّضة على أعمال الشرور. من هنا جاء القضاء كعمل لا مناص منه لكبح جاح القوة الشريرة والحد من تجبرها. فالنور وراءه شخص ابن الله والظلمة وراءها إبليس، لذلك فمبغضو النور ليسوا محايدين بل منحازين للظلمة ضد النور، فنشاطهم سلبي بالنسبة للنور، لهذا يتدخل القضاء للفرز والعزل والمحاصرة.

ومعروف بالقطع أن الشيطان كرئيس لهذا العالم المحرّض على كل الشرور قد دُيّن: «لأن رئيس هذا العالم قد دُيّن» (يو ١٦: ١١). أي إن دينونة الشيطان وخروج حكم القضاء عليه تم يوم صلبوت المسيح، لذلك فإن الذين يرفضون النور هم بنوع ما ينحازون إلى رئيس هذا العالم، وبالتالي يقعون تحت الدينونة والرفض: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم

خارجاً.» (يو ١٢: ٣١)

«لأن أعمالهم كانت شريرة»:

دور الأعمال هنا محدود، فالأعمال الشريرة لا تمنع الإنسان أن يطلب الخلاص منها ويرتمي تحت أرجل المخلص لينجو. فالأشرار الذين تترغوا في كل أصناف الشرور خرج منهم قديسون، يُتشفع بهم. ولكن المفهوم من الأعمال الشريرة هنا أنها عطلت كثيرين عن الخلاص. لأن تمادي الإنسان في أعمال الشر وانغماسه فيها يولّد عادات وارتباطات ومجاملات تنازع الإنسان في إرادته وتسكر عليه حرّيته في التخلص منها أو حتى الاقتراب من مصادر النور، ثم تؤثر تأثيراً مستمراً على الآخرين.

٢٠: ٣ «لأن كلّ من يعمل السيئات يُبغضُ النورَ ولا يأتي إلى النورِ لئلا توبّخ أعماله».

«يعمل السيئات»: φαῦλα

هنا كلمة «سيئات» تختلف عن الكلمة مثلتها التي جاءت في الآية السابقة «أعمال شريرة» πονηρά التي تفيد الضلوع في الخطية. أما السيئات فهي التي تعني «أعمال بظالة» (Bad) أي أعمال خسيصة وحقيرة. وهي بدء الدخول في أعمال الظلمة غير المشمرة، التي قد يستهين بها الإنسان لأنها ليست خطايا ثقيلة ولكن خطورتها هي في أنها تجعله يهرب من النور ويبغض الدعوة إليه، خشية أن توبّخ أعماله من أحبائه وأصدقائه الذين يخلصون إليه: «إني كل من أحبّه أو يبغّه وأؤدبه. فكُنْ غيوراً وتُبْ» (رؤ ١٩: ٣). «لأن الأمور الحادثة منهم سرّاً ذكرها أيضاً قبيح، ولكن الكلّ إذا توبّخ يظهِرُ بالنور، لأن كلّ ما أظهِر (اعترف به) فهو نور، لذلك يقول: "استيقظ أيها النائم وقُمْ مِنَ الأموات فيضيء لك المسيح"» (أف ٥: ١٢-١٤). هنا الكلام كله موجّه نحو أصحاب العادات السيئة التي تتصل بالحياة الداخلية للإنسان والتي يحاول أن يخفيها.

لاحظ أن المتكلم هنا هو المسيح كاشف أستار القلوب، وهو يحدث اليهود والرؤساء والمعلمين ومدّعي الفضيلة الذين انغمسوا في السيئات، وكانت النتيجة أنهم احتجّوا جزعين من كلام المسيح، متأففين من تسليط النور عليهم، وبالنهاية صاروا هاربين ورافضين.

فَمَنْ يرفض المسيح، تقف وراءه إما السيرة السيئة والانغماس في الخطية، أو كبرياء الأخلاق والذات.

إذن، فرفض المسيح والهروب من النور ليس مسألة اختيار فقط، بل إن العوامل النفسية المبنية على السلوك الإرادي السييء هي صاحبة الكلمة فيه وعليه.

٢١:٣ «وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة».

فِعْلُ الْحَق : τὴν ἀλήθειαν

هو في المقابل لـ «يعمل السيئات». هناك فعل السيئات بالجمع؛ وهنا عمل «الحق» بالمفرد الذي يحوي في صدقه وثبته كل ما صيته حسنٌ ونافعٌ.

ولكن الذي يسترعي انتباهنا هو الإصطلاح الجديد «عمل الحق»، فهل الحق يُعمل؟ (١٧) هنا الحق أصلاً هو فكر ورؤية روحية وانكشاف بصيرة، ولكن هذا يحتاج إلى تحقيق وعمل، فإذا نفذت الفكرة السامية أو الإلهام الروحي الصادق الموحى به، فهو يصير عمل الحق.

والآن تقف هذه الآية في مقابل الآية السالفة لتوضح أن في وسط ظلام ليل الشرور والسيئات، يعيش أيضاً الحق والنور، وإزاء الهاربين من النور بسبب ما ثقلوا به أجسادهم وأرواحهم من أعمال الظلمة، يوجد أيضاً المهللون للنور والهاتفون للحق الذين تثقلت أرواحهم بمحبة المسيح والحق، يسرعون ليقدموا برهان حبهم بأعمالهم، وليكشفوا أفكارهم ونياتهم في النور لتزداد نوراً، ويمجدون الله الذي أنقذهم من سلطان الظلمة.

والمنظر لا يزال هو بعينه، فالمسيح يخاطب الذين عشروا فيه وهربوا والذين سقوا إليه فرحين مستبشرين سواء بسواء، موضحاً أن أعمالهم في الخفاء كانت هي المسئولة عن جزعهم منه أو قبولهم إليه.

«بالله معمولة»:

إن مجرد عرض أعمال البر خطر، وكشف خفايا السلوك بالتقوى أخطر؛ لأن ذلك يؤول بالضرورة إلى الوقوع في خطية البر الذاتي والاعتداد بالنفس والتفاخر. ولكن يوجد عرض للأعمال الخيرة وسردٌ للمسيرة التقية، مضمون النفع ومؤمنٌ عليه ضد الانزلاق في البر الذاتي وهو تمجيد الله كونه هو صاحب العمل وصاحب السيرة، حيث يقتنع السامع أن «الله هو العامل فيكم أن

(١٧) قد شرحنا في المدخل كيف أن «الحق» بالمفهوم العبري يختص بالأخلاق واستقامتها (ص ١٠٦)، وكذلك «المعرفة» في المفهوم العبري هي تعامل مع الله (ص ١٥٣).

تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة.» (في ٢: ١٣)

«اذهب إلى بيتك وإلى أهلِكَ وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك.» (مر ٤: ١٩)

هنا لا يفوتنا قول المسيح أنه «لا يقدر أحد أن يُقبلَ إليَّ (الحق)، إن لم يجتذبه الآب (أولاً)» (يو ٦: ٤٤). فالمجيء إلى النور يتحمل النور شيئاً من المسئولية فيه، فالنور محبوب جداً عند أصحاب العيون الصحيحة ومكروه للغاية عند ذوي العيون المريضة، فلا يتجذب إلى النور إلا من كان أهلاً له. هنا «عمل الحق» من جهة «وبالله معمول» من جهة أخرى تفيد الانجذاب المتبادل. فسيرُ النعمة يسري في أولاد النعمة. والحكمة تنادي أولادها وتبرر من بنيتها، والحق يطلب محبيه. والله هو دائماً صاحب المبادرة ولكنه دائماً يتنازل عن دوره الأول: «قد ذكرتُ لكِ غيرَ صباك، محبة خطبتكِ، ذهابكِ ورائي في البرية.» (إر ٢: ٢)

[انتهى حديث نيقوديموس والتعقيب عليه.]



مكان البشارة:
لا زلنا في اليهودية

(تابع «إنجيل التجديد»)

٤ — المعمدان يكمل شهادته
كآخر صوت للعهد القديم يُسمع في الإنجيل
(٣: ٢٢-٣٦)

هذا هو الجزء الرابع من «إنجيل التجديد» وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: «الذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم» .
الجديد: «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» .

الاستعلان: المسيح العريس الحقيقي: «مَنْ له العروس فهو العريس» .

٢٢: ٣ «وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يُعمّد» .

«وبعد هذا»: μετὰ ταῦτα

وَصَلَةُ يَضْعُمُهَا ق. يوحنا دائماً في سرد روايته لينقل القارئ من حديث لحديث، ومع نقلة الحديث نقلة في المكان والزمان، لا يفصح عنها عن قصد، لأنها لا تدخل — في اعتباره — في صلب الرواية.

نعلم أن المسيح كان في أورشليم حيث تمّ الحديث الأخير مع نيقوديموس الذي انقطع وغاب فجأة، حسب عادة ق. يوحنا حينما يرى أن أهم جزء في الحديث قد استوعب، وحيث يسترسل بعد ذلك في التعقيب، إن بواسطة المسيح مباشرة أو عن لسانه. وهنا نأتي إلى أرض اليهودية شرق جبال أورشليم على ضفاف نهر الأردن، حيث مكث المسيح مدة — لا يُفصح عنها — مع تلاميذه.

«وكان يُعمّد»:

هذه الجملة القصيرة غريبة علينا نوعاً ما، فالمسيح معروف عنه أنه لم يُعمّد: «مع أن يسوع

نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه» (٢: ٤). ولكن يبدو أن المسيح كان يكرز بالتوبة حسب ما جاء في إنجيل القديس مرقس (١٥: ١).

وقد علقّ على ذلك كلٌّ من القديس ذهبي الفم والقديس أغسطينوس بأنها لا تُحسب معمودية سرّائية بحسب الفكر المسيحي^(١٨). ولكن الواضح من هذه الآية وما بعدها هو أن ق. يوحنا يمهّد بها لحديث المعمدان الأخير لتكميل شهادته للمسيح.

٢٣: ٣ «وكان يوحنا أيضاً يُعمّد في عين نونٍ بقربٍ سالمٍ لأنه كان هناك مياهٌ كثيرةٌ وكانوا يأتون ويعتمدون».

لا يزال المعمدان يمارس وظيفته في الإعداد بالتوبة للملكوت الله كسابقٍ يُعدُّ الطريق للآتي بعده. ولكن يبدو أن هذه المرة لم يتلاقَ مع المسيح بل ظلّ في مكانه. ولكن لماذا ترك مكانه المختار الأول «عبر الأردن»؟ يرد على هذا السؤال العالم «أولمستد Olmstead» بأن المعمدان ترك أرضَ عبْر الأردن التي تتبع هيرودس أنتيباس وجاء إلى منطقة أخرى فيها المياه كثيرة، بسبب العداوة التي نشأت بين المعمدان وهيرودس بعد أن وبّخه (علناً) على سيرته بالنسبة لزوجته أخيه.^(١٩)

«عين نون»:

تبارى الشراح في التعليق على هذا الاسم، فمنهم من أنكر وجوده بالمرة لأنه لم يعثر عليه جغرافياً، ومنهم من شدّد عليه جداً باعتباره المركز الأساسي لخدمة المعمدان وإقامته مع تلاميذه، والذي صار فيما بعد موطن جماعة المنتمين للقديس يوحنا المعمدان. ويشرح ذلك العالم «بُولتمان» مضيفاً إلى ذلك أن عين نون تفيد معنى رمزياً وهو «النبع القريب من الخلاص»: لأنه بقرب «سالم» وسالم يُفسّر بـ «الخلاص».^(٢٠)

وعلى كل حال فإن هذه المنطقة تقع غرب نهر الأردن في البراري الواقعة على ضفافه. وهذه المنطقة على الحدود بين اليهودية والسامرة بقرب مدينة «بيت شان» شرق نابلس الحالية.^(٢١)

¹⁸ Chrysostome, *On John*, Hom. 29.1; Augustine, *Ep.* 44.10.

¹⁹ Olmstead, cited by Schnackenburg, *op. cit.*, p. 412 note 7.

²⁰ Bultmann, *op. cit.*, p. 170 note 9.

²¹ Westcott, *op. cit.*, p. 58.

نابلس واسمها نيابوليس Neapolis أي المدينة الجديدة عوض «شكيم» القديمة.

وكان لا يزال الشعب يتدفق على المعمدان للتوبة وسماع كلماته، ولكن يبدو أن في هذا التعبير نوعاً من المقارنة بين العدد الكبير الذين كانوا يأتون إلى المسيح، وبين الذين كانوا يأتون للمعمدان؛ وقد ظهر تناقص عدد الذين كانوا يأتون إلى المعمدان في تعبيرين هامين جاءوا بعد ذلك:

الأول: تقرير لتلاميذ المعمدان في الآية ٢٦ القادمة: «فجاءوا إلى المعمدان وقالوا له: يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يُعمّد، والجميع يأتون إليه».

والتعبير الثاني جاء على فم المعمدان نفسه كتحصيل حاصل وبحكم الواقع: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (٣: ٣٠)

ولكن على أي حال كان همُّ ق. يوحنا هو تسجيل الشهادة الأخيرة والأعظم من فم المعمدان فيما يخص المسيح، هذه الشهادة التي رفعت المعمدان في تاريخ المسيحية إلى المستوى اللائق كنبيٍّ وأعظم من نبي!!!

٢٤: ٣ «لأنه لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن».

تُعتبر هذه الآية ذات وزن تاريخي عالٍ للغاية، لأن ق. يوحنا يضعها وهو يعرف ما وراءها من التقليد المسجل في الأناجيل الأخرى. إذ أن هذه الحقيقة، أي «وضع يوحنا في السجن وموته بعد ذلك»، تُعتبر نقطة البدء لخدمة المسيح في الجليل كما سجلها ق. مرقس وأخذ عنه بقية الإنجيليين: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله. ويقول قد كَمَل الزمان.» (مر: ١٤ و ١٥)

ولكن هنا ق. يوحنا يكشف عن تقليد رسولي أقدم حيث يوضح أنه حتى وقبل أن يوضع المعمدان في السجن كان المسيح يخدم؛ وليس في الجليل بل في أورشليم بالدرجة الأولى وفي اليهودية، وهي الفترة التي أغفلها التقليد عند الإنجيليين الثلاثة. من هنا تظهر أهمية إنجيل يوحنا من جهة سرد وقائع حياة المسيح على مستوى التاريخ الدقيق والحوادث، وما يتبعها من تعاليم.

وذكرُ ق. يوحنا لهذه الواقعة بالذات: «لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن»، دون أن يكون لها سبب واضح، يكشف بوضوح أن ق. يوحنا يعرف التقليد الذي كتب منه القديس مرقس، ويلمّح إلى أنه يورد هنا إضافة هامة عليه أغفلتها الأناجيل الأخرى. كذلك يلزمنا أن ننتبه جداً إلى هدف ق. يوحنا الأساسي من سرده خدمة المسيح في أورشليم واليهودية قبل الجليل؛ لأن الأناجيل الأخرى اهتمت بأعمال المسيح ومعجزاته بالدرجة الأولى والتي تركزت بصورة ما في

الجليل، أما ق. يوحنا فقد اهتم إلى أقصى حد باستعلان شخصية المسيح المسيانية من تعليمه أكثر من معجزاته. وقد رأينا إحدى صور هذه التعاليم الباهرة في حديثه مع نيقوديموس في اورشليم التي تختص بأساس الخلاص والتجديد والملكوت.

٢٦:٢٥ و ٢٦ «وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير. فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يُعمّد، والجميع يأتون إليه».

«وحيث»: οὐ

جاءت في أول الآية في الأصل اليوناني. وقد فات على المترجم العربي هذا الظرف الزماني «حيث» وأسقطه من الترجمة مع أنه يحمل ثقل كل المعنى في الآيات القادمة كلها بلا مبالغة. فالقديس يوحنا، وهو مختزل لغوي بالدرجة الأولى، أراد أن ينبه القارئ بأقل كلام ممكن أن تواجد المسيح في مقابل المعمدان وهما يمارسان نفس العمل وهو «العماد»، أنشأ منافسة اضطرارية بين تلاميذ المعمدان والمُعَمِّدين من اليهود؛ لأنه حتماً حدث اختلاف في وجهة نظر التعميد، فعمودية يوحنا ذات لون إعدادي فقط لعمودية المسيح بالروح القدس، وحتى ولو أن المسيح لم يُعمّد بالروح القدس ولكن يفهم تماماً من حديثه السابق مع نيقوديموس أن المعمودية في نظر المسيح هي خلقة جديدة وميلاد ثانٍ من فوق وليست غسلاً وتطهيراً. هذا المعنى كله أضمره ق. يوحنا في الظرف الزماني «حيث» المستخدم ليس على المستوى الزماني ولكن بمعنى: «وعلى هذا نشأ الآتي»، وهو مدخل يرتب الكلام على ما قبله.

«حدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير»:

نحن لا ننسى كيف ركّز ق. يوحنا على مسألة التطهير أولاً في عرس قانا الجليل، كيف حوّل المسيح ماء التطهير إلى خمر جيد (حقيقي)، مشيراً إلى التحول المزمع والذي يتحتم أن يكون لكل طقوس ووصايا التطهيرات بكافة أنواعها؛ علماً بأن الستة الأجران تغطي تطهيرات الأسبوع بكامله؛ وبعدها مباشرة: «اهدموا هذا الهيكل»، بعد أن أخرج منه كل ذبائحه الكبيرة والصغيرة، مشيراً إلى انتهاء عصر الذبائح وكل نظام العبادة القائم عليها. ثم انتقل إلى نيقوديموس معلم الناموس والممثل لكل دقائق الإيمان اليهودي الذي انتهى الحديث معه على أساس حتمية الميلاد الثاني من فوق كأساس للإيمان والعبادة وكشرط أول لدخول ملكوت الله؛ كاشفاً له سر عمودية العهد الجديد. وبهذا يكون المسيح قد أكمل الصورة لعملية إحلال الجديد عوض القديم.

ولكن يبقى آخر مرحلة من الإنتفاضة اليهودية لإعادة الحياة إلى القديم التي أخذت طريقها خلسة من خلال الإنسان المُرسَل من الله — يوحنا — لإعداد الطريق للآتي، إذ تضحّم عمل المعمدان من خلال حماس تلاميذه على أنه هو الطريق الموعود، فأخذوا يصوّرون للآتين المعمودية يوحنا أن هذا هو التطهير الذي سيُحيي إسرائيل.

وترامت إلى أسماع المسيح ما يُقال وما يُشاع، فجاء بقرب المعمدان يباشر تعليمه من جهة المعمودية من فوق، وكأنه تكميل لدرس المسيح لنيقوديموس، وفي الحال هرع الناس «الجميع» إلى المسيح يسمعون ويعتمدون؛ مع أنه لم يكن يُعمّد بل تلاميذه، وتأثر الناس واستنارت أذهانهم من جهة حتمية الميلاد الجديد من فوق، وبالتالي عدم نفع التطهير بالماء، فضجّ تلاميذ المعمدان وذهبوا في حماس وتحذّ يستثيرون معلمهم.

٢٦:٣ «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له: يا معلّم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له، هو يُعمّد والجميع يأتون إليه».

واضح للغاية أن تلاميذ المعمدان لم يتأثروا قط بتداء المعمدان من جهة الأقوى الآتي بعده الذي لا يستحق أن يحمل حذاءه، ولا تأثروا من شهادة المعمدان بحسب رؤية وسماع الروح القدس وهو يشهد للمسيح الذي اعتمد من يدي معلمهم، كما لم يتأثروا قط من شخص المسيح ذاته. وكتلاميذ لمعلّم مرموق، أخذوا يحاصرون معلمهم حتى يدافع عن نفسه.

فابتدأوا يشيرون إلى المسيح بـ «هوذا الذي كان معك»، معبرين بذلك عن اعتقادهم بالتساوي بين المعلّمين. ثم بدأوا يذكّرونه بالإحسان الذي صنعه في المسيح، إذ شهد له كما يشهد القاضي العادل بالحق. وهذا أيضاً يعبر عن اعتقادهم بأفضلية المعمدان وكأنه يشهد لأحد تلاميذه. ولكنهم أبقوا على نقطة الإنزعاج التي ملأت نفوسهم إلى آخر الحديث أو الشكوى، إذ قالوا أخيراً: «هو يُعمّد والجميع يأتون إليه»، معبرين بذلك عن أمرين: الأول أن المسيح بدأ يظهر في أعينهم كمنافس أو متعدّ على وظيفة معلمهم «هو يُعمّد»؛ والأمر الثاني وهو الأخطر: أن «الجميع يأتون إليه»، بمعنى أن وظيفة معلمهم صارت مهدّدة. وواضح في ذلك التهويل الحاقد والغاضب والمثير.

وإذا قارنّا هذا التقرير بما قيل عنه في نفس الموضوع بعد ذلك، يظهر التهويل وتلفيق ما يُنسب للمسيح: «وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها!!» (٣: ٣٢)؛ وكانوا يعتقدون أن هذا وحده كفيل أن يحرك ساكن معلمهم. وفي الحقيقة، وبحسب أسلوب إنجيل يوحنا، فقد أخذ

هؤلاء التلاميذ — المتعصبون لمعلمهم — موقف الفريسيين الحاقدين لما واجهوا نفس الموقف: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو ١٢: ١٩). كان هذا التقرير المسموم كفيلاً بأن يزعج المعمدان ويهيج غضبه لو لم يكن مرسلًا من الله وروح الله هو الذي يقود نفسه ووجهها مع لمسات رقيقة من روح الإلتضاع.

وكان يمكن أن نفسّر هذا التقرير بصورة عكسية تماماً إما يحتمله بأن يكون بشارة سارة ومفرحة للمعمدان من تلاميذه عن الذي شهد له، أنه هوذا قد صار ناجحاً والجميع يأتون إليه! وهذا أيضاً ما يتمشى مع كرازة المعمدان بالنسبة للمسيح الآتي، لولا أننا نعرف تماماً أن هؤلاء التلاميذ كَوّنوا شيعة تشيّعت لمعلمهم وقاومت المسيحية بعنف وبقيت إلى عدة قرون، وكانت في أوج نشاطها أيام كتابة ق. يوحنا لإنجيله. (٢٢)

٢٧: ٣ «أجاب يوحنا وقال: لا يقدرُ إنسانُ أن يأخذَ شيئاً إن لم يكن قد أُعطيَ من السماء».

في إجابة المعمدان نلمح ثلاثة مبادئ هامة يردُّ بها على غير التلاميذ الغاضبة:

أولاً: يضع المعمدان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الاستعلان النبوي بصفة عامة (الآية ٢٧).
ثانياً: يطبّق المبدأ الإلهامي على عمله الذي كُلف به، سواء فيما شهد به سابقاً (الآية ٢٨) أو ما يشهد به لاحقاً (الآية ٢٩).
ثالثاً: استنباط النتيجة الحتمية للتطبيق الأمين (الآية ٣٠).

وهو يبدأ الحديث لا رداً على تلاميذه، ولكن كتوعية عامة ترفع من مستوى تفكيرهم كمعلومة عامة وأساسية، مفادها أن أي معلم صادق لا يأخذ إلا ما منحتّه السماء له. وهذا يشرح بهدوء وبساطة أساس العلاقة التي تربطه بالمسيح كسابقٍ يعدُّ له الطريق. فسواء هو أو المسيح، فلا يأتي بشيء إلا كما استلمه من مخازن النعم (السماء). هذا الرد يضع حدّاً لتفكير التلاميذ ويُنهي على روح المنافسة التي عصفت بهم. كما أن هذا الرد بعينه يوضح أن ما اشتكى منه تلاميذه قد وقع منه موقع الإستحسان بل وصار له كإكليل فرح.

ويُلاحَظ أن المعمدان وضع المسيح موضع نفسه على المستوى من جهة الأخذ والعطاء، فيقول:

«أنا لا أدّعي لنفسي سلطة لم آخذها، أما هو الذي تتكلمون عنه فلا يمارس سلطة ويكون لها اعتبارها إذا لم يكن قد تلقّاها من الله.»

هنا المعمدان ينفي أن يكون لإرادة الإنسان عمل يُحاسَبُ عليه إن كان هو قد أعطى في حدود ما أخذ.

٢٨:٣ «أنتم أنفسكم تشهدون لي أنني قلتُ لستُ أنا المسيح بل إني مُرسلُ أُمّامة.»

هنا المعمدان يطبّق المبدأ الذي قاله على شهادته الأولى التي شهد بها على نفسه بالنسبة للعمل الذي يقوم به وبالنسبة للشخص المنوط به هذا العمل الكبير: «فلو تذكّرتُم ما قلتُ سابقاً تدركون كم أنتم مخطئون فيما تظنون وفيما تقولون، ألم أقل لست أنا المسيح؟ فحينما أعلنتُ عن رسالتي قلتُ إنها وقتية ومحدودة، ولم أدّعي لنفسي المكانة الأعلى ولا بكلمة واحدة حتى تأخذوها حُجّة لِمَا تفكّرون، أنتم شهود لي وعلى أنفسكم.»

«لست أنا المسيح»:

هنا يعلن المعمدان عن هويّة من تكلم عنه التلاميذ بلفظة «هوذا»، و«هو»، و«شهدتُ له»، و«يأتون إليه». وتكلم عنه المعمدان «كإنسان» و«رجل صار قدامي».

الآن يُعلن المعمدان عن اسمه وهويّته: «المسيح» بكل يقين وتعيين. نعم، ولكي يُعلن لإسرائيل، أرسلتُ أُمّامة، لا كأني سابق بل كمن يعدُّ ويفسح الطريق لمن هو أعلى.

٢٩:٣ «مَن له العروسُ فهو العريسُ. وأما صديقُ العريسِ الذي يقفُ ويسمعه فيفرحُ فرحاً من أجلِ صوتِ العريسِ. إذا فرحي هذا قد كَمَلَ.»

بينما تكلم المعمدان عن نفسه بوضوح وعلانية، إلا أنه لما جاء للمسيح سواء من جهة شخصه أو عمله نجده بدأ يستخدم الأسلوب السري. ولكن كلماته جاءت مُعكِمة تردُّ رداً صحيحاً محبوباً، على مستوى فكر التوراة والأنبياء. فأسفار العهد القديم — وخاصة الأنبياء — لا تكفُّ من البداية وحتى النهاية عن وصف يهوه بالنسبة لإسرائيل كعريس وعروس:

هوشع ٢: ١٩-٢١: «وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم، أخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب. ويكون في ذلك اليوم

أني أستجيب، يقول الرب، أستجيب السموات وهي تستجيب الأرض». .
 حزقيال ١٦: ٨: «فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب، فَبَسَطْتُ ذيلي عليك،
 وسترت عورتك، وحلفت لك، ودخلت معك، في عهد، يقول السيد
 الرب، فصرت لي» .

فالآن لا يصف المعمدان المسيح بـ«العريس» مباشرة، بل جعلها للسامع بديهية وعلى السامع
 أن يقرر. فمن ذا الذي له العروس؟ ثم من هي العروس بالتحديد؟

ق. يوحنا الإنجيلي قدير في تقديم الصور الرمزية في حُبِّك قصصي نادر المثال، كل صورة تخدم
 موقعها بأصالة وواقعية، ولكن الصورة تهدف إلى عمل أعلى بكثير من واقعها القصصي. المعمدان
 هنا صورة للنبي المخلص المجتهد العظيم حقاً، بشهادة المسيح، ولكن لا يخرج عن كونه مولود
 النساء، خدم موقعه كصوت صارخ في برية العالم فأسمع العالمين، ومهد للآتي بعده بتقواه ونُسكه
 وصدقته وشجاعته؛ ثم بكرازته بحرارة التوبة وغسل الجسد. ولكن ق. يوحنا الإنجيلي يلتقط له
 صورة أعلى كممثل لأنبياء العهد القديم جميعاً، جاء بروح إيليا ليتكلم ويشهد باسم الأنبياء جميعاً
 عن حق وجدارة.

ثم يروي ق. يوحنا أن المعمدان، بصفته العليا هذه، أنيط به غير إعداد الطريق، أو من ضمن
 ضروريات إعداد الطريق، إعداد العروس التي اتسخت جداً، ليس كأعداد إيليا في القديم
 بالتوبيخ والعنف والإنذار وقفل السماء وحجز المطر عن إنسان إسرائيل وحيوانه، بل بغسل الجسد
 والضمير بالماء والنصيحة والإعتراف والتوبة وإعداد الآباء والأبناء حتى تُردُّ قلوبهم بعضهم لبعض،
 لكي تتلقى الأرض بركة الآتي باسم الرب. وها هو الآن قد أكمل المهمة على أقصى صورة
 سمحت له بها العروس المتبلدة من كثرة السنين وكثرة الإثم — وقد جاء بها ممسكاً بيدها ومن
 وراء الحدود الفاصلة بين القديم والجديد يسلمها للعريس الذي تطوَّع ليغسلها بدمه.

تقول الآية، أو يقول المعمدان، إنه كصديق العريس لا يرى العريس بل يسمعه فقط، وكفاه
 هذا، فدور «النبوة» لا يزيد عن كونه صديق العريس، كما وأن الحدود والسدود التي تفصل ليل
 النبوة عن صُبْح المسيَّا، العريس، جدُّ قاسية وعاتية وليست لها عيون تنظر بها بل آذان تتحسس بها
 الأصوات الآتية من بعيد وفي الظلام: «هذا جاء لا يأكل ولا يشرب»، وهذا «جاء يأكل
 ويشرب»، هذا «يصوم تلاميذه»، وهذا «تلاميذه لا يصومون»، لأنهم يعيدون لعرسه القادم،
 «هذا من الأرض يتكلم وهذا من السماء». فالفواصل جدُّ كبيرة، فكرية وزمنية وشخصية

وروحية، فيكفي للنبي الحاذق أن يتعرف على صوت المسيّا، وكفى النبوة كرامة أن تصادق العريس. أما وبعد أن يسمع النبي صوت من تنبأ عنه — الأمر الذي لم يحدث قط في تاريخ النبوة والأنبياء — فهذا حَدَثٌ جَلَلٌ أُعْطِيَ للمعمدان دون جميع الأنبياء؛ لأن بأذن المعمدان تسمع جميع أنبياء الله في كل الدهور السالفة صوت العريس الذي طالما وصفوه بغير رؤيا وتسمّعه في ظلام الأحلام بغير صوت. فقد صدق المعمدان حين قال: «فرحي الآن قد كمل»، فهو فرح جميع الأنبياء والآباء الذين نظروا المواعيد من بعيد وحيّوها وماتوا على رجاء هذا اليوم. فالمعمدان إنما يتكلم بروح إيليا وفم كل الأنبياء. وهل للنبي فرح يرجوه أكثر من أن يحقق الله له نبوته وفي حياته؟ كان المعمدان صوتاً صارخاً، ردّد صوت المسيح صداه فسمعتهما الآجال والأجيال.

٣ : ٣٠ «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص».

تأتي «ينبغي» بصورة ضعيفة، فهي في أصلها اليوناني يتحتم must، لأن هذا يتعلق بالقانون الإلهي. نعم فقد انتهى دور الأنبياء والنبوة بظهور الذي تركزت فيه كل النبوات. فإذا خرجت الشمس لزم إطفاء المصابيح. أو هو غروب نجم على أحسن الأحوال لشروق شمس على أقلها!! وهذا القول هو النبوة الأخيرة ليوحنا المعمدان عن بزوغ فجر العصر الماسياني الذي طالما حلم به الآباء والأنبياء. فالمعمدان وإن كان يتكلم عن نفسه كصورة أدّت مهمتها بأمانة، إلا أن ق. يوحنا الإنجيلي يرتفع بهذه الصورة ليرى فيها آخر صوت يسمعه الإنجيل، ليس للأنبياء وحسب بل وللعهد القديم قاطبة.

فقد انقضى عهد الظلمة وأشرق نور الحياة. وإن ظهر المعمدان بهذه الكلمات على مستوى الإلتضاع حقاً، فإنما هو إلتضاع من حكم الواقع أو، كما يقولون، تحصيل الحاصل.

وبشهادة المعمدان هذه أمام تلاميذه، يكون قد صَادَقَ المسيح في تعليمه ضمناً عن المعمودية الأفضل التي من فوق، التي شرحها لنيقوديموس بإسهاب وعكّرت مزاج التلاميذ النّسّاك، والناسك يصبح دائماً متضايقاً في نفسه إذا غاب عنه عمل الروح. بل ويكون المعمدان قد صادق نفسه عندما قال سابقاً: «أنا أعمّد بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي... فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس» (يو: ١ : ٢٦ و ٢٧ و ٣٣). وإن ذهب «الجميع» — كما يقول تلاميذه — للمسيح ليعتمدوا، هو الصحيح، وهو بعينه ما يقوله أن «من له العروس فهو العريس». فليس «الجميع» فقط ينبغي أن يعتمدوا له بل والعالم كله، «لأنه هكذا أحب الله العالم» عوض إسرائيل!

٣١:٣ «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع».

يشترك كافة الشُّراح في الرأي ما عدا العالم «هوسكنز» والعالم «هنجستنبرج» بأن حديث المعمدان وشهادته تنتهيان عند الآية (٣٠)، بعد ذلك ينقسم العلماء إلى من يقول أن الباقي على لسان المسيح، وإلى من يقول أنه بقلم يوحنا الرسول، ولكن الآباء الأوائل ذهبوا إلى الفهم وأغسطينوس وغيرهما لا يرون هذا الرأي الأخير بل يعتبرون أن شهادة المعمدان مستمرة حتى نهاية الأصحاح — وسنأخذ برأيهم؛ لأن الكلام لا يخلو من لمسات حية هي من روح المعمدان، باعتبار أن المعمدان انكشفت له السماء وعرف صوت الروح القدس وسمع شهادة الآب من نحو الابن.

غير أن شرح الكلام لو كان على لسان المسيح شيء، وشرحه من قلم يوحنا الرسول شيء، وشرحه بفكر المعمدان شيء آخر تماماً، وسيكون أضعفهم (٢٣) بلا نزاع، لأن المسألة مسألة استعمال، ولم يُعط للمعمدان أن يستعلن المسيح إلا كونه الآتي، لأن المعمدان محكوم بفكر العهد القديم.

«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع»:

يلاحظ أن الفعل في المضارع المستمر فهو مجيء أو إرسال دائم ومستمر. و«من فوق» هي نفس الوصف الذي أعطاه المسيح للميلاد من فوق $\alpha\upsilon\theta\epsilon\upsilon$ ، وقد فسرهما المعمدان ثانياً بقوله: «الذي يأتي من السماء». الإشارة هنا إلى المسيح الذي يتكلم عنه المعمدان؛ وهو يتكلم عن خبرة، لأنه أخذ تعليمات واضحة وصريحة من الله أن الذي يرى الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه يكون هو الذي يعتمد بالروح القدس. وبالفعل رأى وشهد أنه ابن الله، فليس أكبر من ذلك دليلاً ليقول المعمدان أن المسيح من فوق من السماء، هذا يوضح أن المعمدان يعلم تماماً من أين أتى المسيح.

فإذا كان المسيح هو من فوق، من السماء، فهو بحكم علو مكانته وطبيعته يكون الأعلى أي فوق الجميع بلا نزاع، كرامة ومجداً وعلماً وتأثيراً. وفي الحال يلتفت المعمدان إلى نفسه، وبالتالي إلى كل معلّم من هذه الأرض، حاصراً كل معرفته، كإنسان من الأرض وعلى مستوى الأرض، في أن فعلها وأثرها محدودان، وهذا يوضح بالتالي أن المعمدان مقتنع أن رسالته محدودة بمحدوديته. وهذا

(٢٣) حينما نتعرض لشرح هذه الآيات من مستوى فكر المعمدان ستكون محاصرين في أضيق مستوى المعرفة عن سر المسيح، لأن المعمدان تحددت وظيفته وكذلك مواهبه في الإعداد له وليس استعماله.

صدقٌ منتهى الصدق، خاصة فيما تعنيه المعمودية الماء فقط. وذلك على مستوى «المولود من الجسد جسداً هو، والمولود من الروح هو روح».

٣: ٣٢ «وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها».

كانت شهادة المعمدان عن نفسه أنه ليس هو المسيح، وعن المسيح أنه الذي سيعمّد بالروح القدس، بمفهوم التغيير الجذري لحياة الناس لتكون لحساب الله والحياة الأبدية، وأنه هو الحمل الذي يرفع خطية العالم، باعتبار رسالته الفدائية للخلاص لمغفرة الخطايا. وأنه هو العريس الحقيقي للشعب أو للأمة الذي انتظرته كل الأجيال السالفة. ولكن هنا تمت شهادة المعمدان إلى آفاق أخرى لأول مرة بطرقها، وهي إجتهدية، إذ أنه يتكلم عن شهادة المسيح لنفسه ولرسالته. وهي بالنسبة للمعمدان حقيقة بديهية، فلأن المسيح من فوق من السماء فهو جاء ليشهد بما يعرفه سمعاً ورؤية — وهو قطعاً أعلى مما يعرفه كل من على الأرض — لذلك إذ أن هذه الشهادة تفوق المعرفة الطبيعية للناس، إذ هي تختص بالمعارف السماوية، لذلك «ليس أحد يقبلها»؛ ولو أن ذلك ليس بالأمر المقطوع به لأن بعض الناس قبلها. والمعمدان اعتبر نفسه أحد الذين قبلوها، وهو الآن يشهد بذلك.

المعمدان هنا لا يتكلم عن الجموع التي التفت حول المسيح، فهذه الظاهرة تُخفي حقيقة هو يعلمها وقد فهمها قبل غيره: أن جوهر رسالة المسيح قائم على أساس أنه «ابن الله»، وأنه مُقَدِّمٌ على تجديد كل شيء بالروح القدس، وخاصة بتقديم نفسه عوض الذبائح بصفته حمل الله الذي وحده يرفع خطية العالم؛ فعلى أساس هذه الحقائق سيقاوم ولا أحد يريد أن يستجيب لرسالته التي أخذها من فوق. وأوضح دليل على ذلك، الهزة التي اهتزها هو من الأعماق وكادت تعصف به، والتي أعلن عنها الإنجيل أنه في يوم محنته أرسل اثنين من تلاميذه يسأل المسيح نفسه: «أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» والتي كان ردّها باختصار: «طوبى لمن لا يعثر في» (مت ١١: ٦-٦). والمعمدان يعود إلى أعماق نفسه المضيئة بروح الحق والنبوة، فيرى أن المسيح بحد ذاته هو الحامل لشهادة الله ولما رأى وسمع عند الله كما قال هو عن نفسه: «أنا أتكلّم بما رأيت عند أبي... وأنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعته من الله» (يو ٨: ٣٨ و ٤٠)، هو أنه أقصى ما يستطيع أن يعبر به الإنسان عن قبوله للحق وضمان تعهده بالشهادة بذلك.

وإن كان المعمدان لم يكمل فيما يخص نصيب الذين لا يقبلون شهادة الله هذه، فالقديس يوحنا نفسه يقدّمها في رسالته: «لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها الله عن ابنه. من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. من لا يصدق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي

قد شهد بها الله عن ابنه .» (١ يوح ٥ : ٩ و ١٠)

٣٣ : ٣ « ومن قَبْلَ شَهِادَتِهِ ، فقد خَتَمَ أن الله صادق .»

خَتَمَ = ἐσφράγισεν

المرّة الأخرى التي نسمع فيها عن « الختم » فيما يخص الله هي الآية : « اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح) الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد خَتَمَهُ » (يوح ٦ : ٢٧) . فإذا كان الله قد خَتَمَ المسيح أو جسد المسيح ، فهذا يعني أنه حامل للخلود وعدم الموت إزاء الطعام البائد الذي خَتَمَهُ العالم والإنسان . فهنا في آية المعمدان يكون الذي قَبْلَ المسيح كمن قَبْلَ صدق خِثَمَ الله وخَتَمَ هو أيضاً على صدق الله . ومعروف أن المعمدين بالروح القدس والماء يأخذون مثل هذا الختم السري الإلهي من الروح القدس : « الذي فيه أيضاً أنتم ، إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم ، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم ، خُتِمْتُمْ بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا » (أف ١ : ١٣ و ١٤) . ويقول العالم الكبير لايتفوت Lightfoot إن هناك قولاً نبيلاً عند الربيين اليهود يقول : [إن ختم الله هو الحق] ، بمعنى إن كل ما هو من الله مختوم بختم الحق .

وبذلك ، فإن كلّ مَنْ يقبل المسيح يكون كَمَنْ قَبْلَ كل الحق من الله . ففيه تكمل كل مواعيد الله الصادقة الحقيقية غير الكاذبة : « الذي أُرْسَلَنِي هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم . » (يوح ٨ : ٢٦)

٣٤ : ٣ « لأن الذي أُرْسَلَهُ الله يتكلّم بكلام الله . لأنه ليس بِكَيْلٍ يعطي الله الروح .»

إن برهان صدق الله مختوم به على كل ما يقول المسيح ويعمل ، والله أُرْسَلَهُ محملاً برسالة روحية تفيض بآيات وكلام الحياة : « يارب إلى من نذهب . كلام الحياة الأبدية عندك » (يوح ٦ : ٦٨) . وبكفي لأي إنسان أن يعرف أن كل ما قاله المسيح ونطق به هو هو « كلام الله » نصاً وروحاً . ولكن ليس كأجزاء ، إنما كرسالة كلية كاملة هي رسالة الله .

لكل الأنبياء كان الله يعطي الروح بمقياسٍ ومكيالٍ ἐκ μέτρου مجزئاً ومقسطاً تقسيطاً على قدر ما يحمل روح النبي وعلى قدر ما يتحمل السامع واحتمالات الظرف . أما للمسيح فبلا كيل ولا قسط يعطي الله الروح ، بل إلى كل ملء الروح والله . لأن قياس ملء المسيح هو قياس الله .

ومقياس ملء الآب والابن هو الحب.

٣: ٣٥ «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده».

في إنجيل متى سمع المعمدان صوت الله: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.» (مت ١٧: ٣)

المعمدان ليس غريباً عن حقيقة الآب والابن. لقد كان أول من أعلن عن هذا السر في العهد الجديد قاطبة، وأول من شهد له: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣٤)؛ بل وأول من وثق وثيقة منظورة من الآب للابن وقت العماد حينما حلّ الروح القدس على هيئة حمامة استقرت فوق المسيح. فعلم للحال وللتوأن هذا هو الذي سيعمّد بالروح القدس، وأنه قد استؤمن على كل ما للآب.

«كل شيء» : πάντα

دُفع له الحياة الأبدية بكل أسرارها والدينونة في المقابل، دُفع له سلطانه الخاص مع اسمه الخاص، دُفع له كل النعمة وكل الحق، أعطاه كل ما له وبلا حدود.

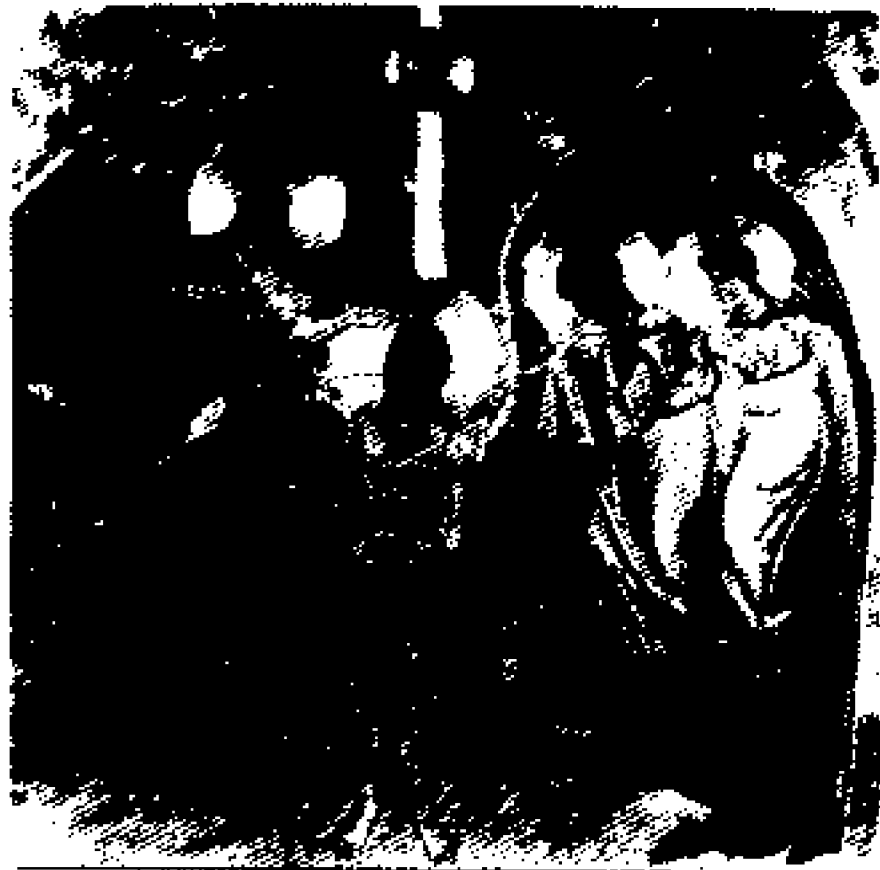
٣: ٣٦ «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله».

المعمدان أُعطي له بصورة فريدة أن يطلع على الصورة النبوية للمسيح كما كانت في ذهن موسى في التوراة، وفي نفس الوقت يرى ويسمع شهادة الله عن ابنه؛ ثم يتقابل مع المسيح وجهاً لوجه فيتحقق من كل ما سمع ورأى. ففي توراة موسى كانت صورة المسيح، باعتباره النبي الآتي، تحمل معها تهديداً واضحاً بالقطع من الحياة لكل من لا يسمع لصوت هذا النبي الآتي: «فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من إخوانكم له تسمعون في كل ما يكلمكم به، ويكون أن النفس التي لا تسمع لذلك النبي تُباد من الشعب» (أع ٣: ٢٢ و ٢٣). وقد تحقق المعمدان أول من تحقق من شخصية ذلك النبي المُقام أنه «ابن الله»، وأنه موضوع مسرة الله، فتيقن أن الإيمان به هو حياة وأن رفضه هو عودة الإنسان تحت قانون غضب الله على الذين لا يطيعون. لأن بحسب منطق المعمدان يكون أن الذين يؤمنون به يجعلون الله صادقاً، والذين لا يؤمنون يجعلون الله كاذباً لأنهم لا يؤمنون بشهادة الله عن ابنه. فهنا تنشأ الخصومة بين الإنسان

والله، فعدم الإيمان بالابن هو بنوع ما تعدُّ على صدق الله بما يحتمل العداوة ضد الحق. هنا يُدخل الإنسان نفسه كمقاوم لتدبير الله ومعطل لعمله: «شاول شاول لماذا تضطهدني... صعبٌ عليك أن ترفض مناخس.» (أع ٩: ٤ و ٥)

تعقيب على شهادة المعمدان

نحن مدينون إلى علاقة ق. يوحنا الرسول الصميمة بالمعمدان، فهو كان من تلاميذه المتقدمين قبل أن ينضم إلى تلمذة المسيح، فبسبب هذه العلاقة التي تربطه بالمعمدان وتلاميذه، وهم زملاء ق. يوحنا القدامى، استطاع أن يتعرف على أدق وأكثر الحركات سرّاً التي جرت بين تلاميذ المعمدان واليهود من ناحية، وبين هؤلاء التلاميذ والمعمدان من جهة أخرى؛ لأن كل أقوال المعمدان التي تسجلت في إنجيل يوحنا في هذا الأصحاح هي من التعاليم السريّة الخاصة التي باح بها المعمدان لتلاميذه ليضعهم في الموضع الصحيح بالنسبة لرسالة المسيح وشخصه. ولكن للأسف لم يكن هؤلاء التلاميذ المعمدانين على مستوى نور معلمهم ورسالته؛ إذ قد استهوتهم رسالة النسك الدقيقة والصارمة التي اختطها لهم معلمهم: «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون» (مر ١٨: ٣). وتنادوا فيها بعد موته وكوّنوا لأنفسهم شيعة رفعت من المعمدان ونسكه وتعاليمه ونصّبت نفسها عدواً لرسالة المسيح.



الأصحاح الرابع

الأصحاح الرابع

هذا الأصحاح يشمل موضوعين أساسيين :

الأول : خدمة المسيح في السامرة ٤ : ١ — ٤٢ (*) وهو الجزء الخامس والأخير من «إنجيل التجديد» .

والثاني : شفاء ابن خادم الملك ٤ : ٤٣ — ٥٤ وهو أول جزء من «إنجيل قوة الكلمة» .

(*) يُقرأ إنجيل السامرة في الأحد الرابع من الصوم الكبير المسمى بأحد السامرة أو أحد النصف، وذلك على اعتبار أنه يقدم لنا حادثة توبة مثالية، فهو مناسب لموسم الصوم الكبير. وتكرر قراءته في الأحد الثالث من الخمسين المقدسة، وذلك بسبب ما جاء فيه عن «ماء الحياة الأبدية»، فهو مناسب للخمسين المقدسة موسم القيامة والحياة الأبدية. وأخيراً يُقرأ مرة ثالثة في مساء عيد حلول الروح القدس في صلاة السجدة، وذلك لما جاء فيه عن السجود بالروح والحق.

مكان البشارة

رابعاً — في السامرة

(٤ : ٤ - ٤٢)

(تابع «إنجيل التجديد»)

٥ — خدمة المسيح في السامرة

تقديم:

الحديث الذي ينقله لنا ق. يوحنا في هذا الأصحاح يُعتبر من الأحاديث الهامة والنادرة، لأنه حديث شخصي جداً ومطول مع فرد، امرأة، وقليلًا ما تحدث المسيح عن خصوصيات إنسان وانتهى به إلى الإيمان بمثل هذه السرعة والرتابة والتدرج المبهر في الاستعلان عن ذاته. وعلى القارئ أن يربط بين مثل هذه الأحاديث النادرة وبين الغاية النهائية التي وضعها هذا الإنجيلي الملهم بالنسبة للقارئ مباشرة: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو: ٢٠: ٣١)

كانت العلاقات بين اليهود وأهل السامرة على مستوى من التعالي من جهة اليهود، والبغضة والعداوة من جهة السامريين، ربما كانت هي الواقع الذي جعل المسيح يركب هذا الصعب ويدلّله لحساب محبة الآب نحو العالم، ونحو الملكوت المعدّ للبعيد، لأننا نسمع في سفر الأعمال عن تشتت بعض التلاميذ وذهابهم إلى السامرة بعد حادثة قتل إسطفانوس على يدي شاول (بولس الرسول فيما بعد) وحدث «اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل.» (أع: ٨: ١)

وهكذا صارت السامرة، مكروهة الأمة اليهودية، ملجأً أميناً لأول المسيحيين بفضل زيارة المسيح لهذا البلد وزرع بذرة الملكوت هناك. كذلك نسمع عن بعثة رسمية بقيادة فيلبس، أحد الشمامسة، قام بها في السامرة: «فانحدر فيلبس إلى مدينة من السامرة وكان يكرز لهم بالمسيح. وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها. لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم، وكثيرون من المفلوجين والعرج شُفوا. فكان فرح عظيم في تلك المدينة» (أع: ٨: ٥-٨). بل ودخلت السامرة رسمياً في إِبَارَشِيَّة أورشليم تحت تدبير الرسل وعنايتهم الخاصة: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم

الرب يسوع. حينئذ وضع الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس. « (أع ٨ : ١٤-١٧)

وهكذا كانت السامرة ذات موضع أثير عند ق. يوحنا. وكم نشكر الله الذي أهّل هذا الرسول القديس أن يكتب لنا سر قصة السامرة من البدء. فهو الوحيد الذي ألقى ضوء الإنجيل على هذا الشعب كاشفاً سر بدء نمو بذرة «حبة الخردل» التي ألقاها المسيح في قلب امرأة نصف أممية، فنبت حالاً الملكوت وتمهدت لأرجل بشارة الرسل، ليُغرس الروح القدس في قلوب شعب اختاره الرب بعد أن نبذه اليهود والتاريخ.

وموضع قصة السامرة في تسلسل إنجيل ق. يوحنا محكم شديد الإحكام، يتبع مخططاً روحياً غاية في الإلهام. فالقارئ يذكر كيف افتقد الرب أول ما افتقد الشعب اليهودي الذي يعيّد في حفلة عرس، وهناك أظهر العريس الحقيقي نفسه لشعب إسرائيل الذي كان قد فرغ منه خمر الحب والفرح والملكوت. فعالجه المسيح بأن حول تطهير الماء الذي لا ينفع ولا يشفع بخمر الحياة الجديدة الجيدة. ثم يذكر كيف افتقد الرب هيكله، وقام في وجه النظام الكهنوتي الذي ترك الحق والرحمة وانشغل بذبيحة البقر والغنم والحمام وتحويل الصلاة إلى مصدر رزق ولو بغير حلال؛ فأطلق سراح البقر والغنم ورفع الحمام من هناك ناقضاً التطهير بالذبائح، ومشيراً إلى ذبيحته الوحيدة، التي أضمرها لإقامة هيكل جديد عوض القديم.

وبعدها يذكر القارئ أنه تقابل مع الناموس مُمثلاً في شخص معلم إسرائيل نيقوديموس، الذي يمثل السنهدريم وكل طبقة المعلمين، وكيف قلب له نظام التعليم من أساسه، جاعلاً ملكوت الله رهن ولادة الإنسان من فوق من الماء والروح، حتى ولو كان قد شاخ في العلم والتعليم. وبعدها اصطنع مقابلة سريعة — دون تقابل — لخدمة المعمدان، قبل أن يختمها المعمدان بالسجن، ليوضح لتلاميذه المتعصبين للنسك والتطهير كأنه الباب الجديد للخلاص، مع أن زمن التطهيرات كان قد انتهى عندما انفتح الباب الوحيد للخلاص، ولا أحد قط يستطيع أن يغلقه أو يقلده.

وهكذا بعد أن تمت مقابلة الشعب في عُرس، ومقابلة الكهنوت في هيكله، ومقابلة الناموس في معلمه، ومقابلة المعمودية «بالماء فقط» في عجزها النسكي؛ كان عليه أن يعطي لفتة لشعب غريب كان قد تجاوَز في كل الأزمنة السالفة، مع إسرائيل شعب النور والمعرفة، فما عثم إلا أن ازداد عتامة، وتخبّط بين أسفار موسى وأصول العبادة وبين هيكل اورشليم وهيكل جرزيم.

ما هي السامرة ومن هم السامريون؟

أما السامرة نفسها فكانت جزءاً لا يتجزأ من أرض فلسطين التي كانت مقسمة خاصة بعد

العودة من السبي — وإلى الآن — إلى اليهودية والسامرة وإسرائيل (الجليل). وكانت مساحتها بحسب إدرزهايم^(١) العالم اليهودي المنتصر — تبلغ ٤٧ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وأربعين ميلاً من الشرق للغرب، تحدها أرض اليهودية في الجنوب ونهر الأردن من الشرق، ومن الغرب سهل شارون (الذي كان يتبع اليهودية أيضاً)، ومن الشمال الجليل عند سهل يزرعيل. أي أنها ورثت أرض منسى وأفرايم سبطي إسرائيل ليوسف.

وأرض السامرة أجمل وأخصب من أرض اليهودية. ولكن في أيام المسيح تقلصت وصارت لا تحتوي إلا على بعض مدن قليلة بجوار عاصمتها السامرة. والسامرة كعاصمة لإسرائيل مملكة الشمال بناها الملك عُمرى حوالي سنة ٩٢٥ ق.م^(٢)؛ وكان اسمها شَمرون نسبة لصاحبها شامير (وانقلبت الشين سين حسب النطق العربي فصارت سامرة) الذي كان يملك الجبل كله وهو باسمه جبل شَمرون: «في السنة الواحدة والثلاثين لآسا ملك يهوذا، ملك عُمرى على إسرائيل اثنتي عشرة سنة واشترى جبل السامرة (شَمرون) من شامير صاحب جبل السامرة.» (١ مل ١٦ : ٢٣ — ٢٥)

والسامرة دخلت في حرب طاحنة وخربت ثم عُمرت مرات ومرات، وكان يتبادل غزوها واحتلالها كلٌّ من مصر وسوريا مبتدئاً من زمن الملك شِيثَق سنة ٩١٨ ق.م، وهذه أول غزوة قامت بها مصر، وهي التي فيها أخلى فلسطين والهيكل من كل الذهب والتحف التي خلفها سليمان الملك. وفي إحدى غزوات آشور سُبي شعبها على يد الملك شلمناصر الثالث (أو سرجون) وذلك سنة ٧٢١ ق.م أيام عُزَيا الملك، الذي خان العهد مع آشور والتجأ إلى مصر للمعونة. وكانت النتيجة أن خربت البلاد عن آخرها، وسُبي كل شعب مملكة إسرائيل في الشمال (سماريا)، وانمحي تاريخ إسرائيل منذ ذلك الوقت كمملكة في العالم.

ومدينة السامرة في أيام المسيح كانت بقرب المدينة شكيم التي عاش فيها الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب. والتي تخربت سنة ١٢٨ ق.م على يد يوحنا هركانوس، والتي بُني عوضاً عنها على بعد ميل ونصف مدينة أخرى، وصار اسمها نابلس (وأصلها نيابوليس Neapolis أي المدينة الجديدة). وشكيم عاصمة السامرة سابقاً كانت إحدى مدن الملجأ الست في كل أرض الأسباط.

^١ Edersheim, A., *The Life and Time of Jesus the Messiah*.

^٢ Marsh, John, *The Gospel of St. John*, p. 208.

But the Cambridge Bible Commentary gives other dates p. 70-71.

هنا الأطللس التوضيحي يقول إن الملك عُمرى ملك من سنة ٨٧٦ — ٨٦٩ ق.م، وإن الملك شِيثَق قام بغزوة سنة ٩١٨ ق.م، وإن شلمناصر الثالث كان عصره من سنة ٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م.

أما السامريون، وأصلاً كانوا يُدْعَوْنَ «كُثِيم» (Kuthim)، فهم بقايا العشرة الأسباط الذين رُحِّلُوا إلى بلاد السبي على يد الملك الغازي شلمنصر (أو بحسب أبحاث كتابات الآثار: سرجون) سنة ٧٢١ ق.م، والذين تزوجوا من الوثنيين الذين أرسلوا من آشور ليحلُّوا محل أهل البلاد، كذلك مع أهل الأرض القدامى، ولكن الدم اليهودي كان هو الغالب.

وأصل العداوة المُرَّة التي نشأت بين اليهود واليهودية وأهل السامرة وأرضها، كان هو عملية الإصلاح التي قام بها نحميا وعزرا الكاهن في تصفية الدم اليهودي، وطرد كل من تزوج من السامرة، وعدم السماح لأهل السامرة بالرغم من الإلحاح الشديد أن يُسمح لهم بالمساعدة في بناء الهيكل أو أن ينضموا إلى اليهودية وعبادة أورشليم أو يلتحقوا بالسندريم، مما نتج عنه شعورٌ بالبغضة لم ينطفئ أواره حتى اليوم. وذهبت العداوة إلى درجة القنص وقتل كل يهودي يعبر السامرة. ولكن هذه العداوة كانت تزداد وتُخَفُّ من جيل إلى آخر.

ولكن عبادة السامريين كانت مبتورة بسبب قلة التعليم، مع أنهم كانوا يعيِّدون للفتح بذبح الخروف و يقيمون الشعائر والعبادة بدقة تفوق اليهود، وكذلك بحسب أسفار موسى الخمسة فقط التي احتفظوا منها بنسخة غاية في القدم يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٤٠٠ ق.م (٣) أيام نحميا وعزرا الكاهن، والتي تُعتبر أحد مصادر البحث الهامة في المقارنات بين الآيات. وكانوا يؤمنون بالقيامة، غير أن اليهود أنكروا عليهم هذا الإيمان وكانوا يعتبرونهم هراطقة. ولكن في أيام الحاخام شمعون بن غملائيل معلم إسرائيل العظيم قرر أنهم يُحسَبون إسرائيليين، وأن أرضهم ليست نجسة ولا طعامهم، بعكس رابي «يهودا» المحسوب أنه قديس عند شيعة فكان يتشدد وينعتهم بالوثنيين. وطبعاً الأساس في ذلك هو روح العداوة التي لا تعرف للحق حدوداً.

كانت عبادة السامريين تُقام في هيكلهم على جبل جرزيم الذي أُقيم سنة ٤٠٩ ق.م، وقد حدث في هذه الأيام أن رئيس كهنة اليهود الكبير المدعو ياددوا Jaddua امتنع من أن يسمح لأخيه المدعو منشى أن يتزوج بنت سنبَلَط السامري وأرغمه على الفرار من اليهودية. فذهب هذا الأخير وأقام نفسه رئيس كهنة لهيكل جرزيم عند السامريين. وهكذا صار جبل جرزيم مركز عبادة رسمياً، وصارت كل مراسيم العبادة تحمل صورة طبق الأصل من العبادة اليهودية. ولكن لما انضم السامريون إلى السوريين الذين غزوا المكابيين، وذلك سنة ١٣٠ ق.م، قام يوحنا هركانوس بهدم هيكلهم ولم يُنَّ بعد ذلك. كذلك مدينة السامرة التي بعد أن خربت بكاملها بُنيت من جديد على

يد هيرودس وصارت من أجمل المدن، وأسمائها سِبَسْطِيَّة على شرف أغسْطُس قيصر، كما أُعيد بناء شكيم وسُمِّيت على شرف العائلة المالكة في روما «فلافيا نيابوليس» وهي نابلس الحالية. (١)

وقد ظهر عطف المسيح على السامرة والسامريين في عدة مواضع غير الذي نحن بصددده الآن:

١ — في الموضع الذي ظَهَرَ فيه العشرة البرص: «فواحد منهم لما رأى أنه شفي رجع يمجِّد الله بصوت عظيم وخرَّ على وجهه عند رجله شاكرًا له، وكان سامريًا. فأجاب يسوع وقال: أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة؟ ألم يوجد من يرجع ليعطي مجداً لله غير هذا الغريب الجنس؟» (لو: ١٧: ١٥-١٨). وهنا يدعوه المسيح غريب الجنس بحسب تسمية اليهود للسامريين، ولكنه ضمناً امتدحه وامتدح جنسه أكثر من اليهود. وفي هذا المثل مقارنة مكتومة بين أخلاق اليهود وروحهم البتعدة عن الله حتى وفي عدم ردهم على صنع الخير لهم، وبين السامريين المعترفين بفضل الله وبصوت عظيم.

٢ — الموضع الآخر وهو أعظم وأجلُّ تكريم قدَّمه المسيح للسامرة والسامريين، إذ أعطى مثلاً صار فيه السامري الصالح لقباً جليلاً ذا شأن عظيم في الحياة المسيحية. هذا المثل قاله المسيح ردّاً على سؤال متبجّج ليهودي يسأل: «من هو قريبي؟»، في الوصية التي تقول: «تحب قريبك مثل نفسك» (لا: ١٩: ١٨). فأعطى المسيح مثلاً لاذعاً قدّم فيه أن كاهناً لم يتحرك لينقذ إنساناً يهودياً نازلاً من أورشليم متجهاً نحو أريحا مُعرّى ومجروحاً ومضروباً ملقّى بين حيٍّ وميت على الطريق. ولا أيضاً تحرك لهذا المنظر يهوديٌّ لاويٌّ أي من خدام الهيكل. «ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحسّن، فتقدم وضمّد جراحاته، وصبَّ عليها زيتاً وخرّاً وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق واعتنى به، وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتنِ به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك. فأَيُّ هؤلاء الثلاثة تُرى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص؟» (لو: ١٠: ٣٣-٣٦).

٣ — أما الموضع الأخير فقد وضع فيه المسيح في عنق الكنيسة لتكمل ما صنعه هو: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع ١: ٨)



(١) للمريد من التعرف على السامرة والسامريين نرجو الرجوع إلى كتاب العلامة إدزرهايم:

Edersheim, A., "The Life and Time of Jesus the Messiah", Part Two, p. 430-34.

والآن إلى ما يتضمنه حديث المسيح في السامرة واستجابة أهلها:

١ — يقدم لنا ق. يوحنا عرضاً لإيمان أهل السامرة النصف أميين، فإذا هو الإيمان الحاضر المستجيب المعلن عن نفسه ببراءة ويقين وصحة: «أنت مخلص العالم»، ومن كل قلوبهم، إزاء: أولاً: أهل أورشليم مركز العبادة والمتعبدين بإيمانهم السطحي الهزيل المتهافت على الآية والمعجزة.

وثانياً: إيمان معلم إسرائيل التائه الحائر ممثّل صفوة العلماء والمتعلمين، مع رد فعل الفريسيين على تعاليم المسيح المملوء شكاً وخبثاً ومصادرة.

وهكذا يقدم لنا ق. يوحنا هذه الإستراحة الإيمانية بين هؤلاء من غير اليهود، على طريق الكرازة لليهود المملوء تعسفاً وضيقاً وجحوداً.

٢ — يعلو بنا ق. يوحنا في هذه الوقفات القليلة مع السامريين إلى أقصى استعلان بلغة المسيح عن نفسه. فمع السامرية استدرج إيمانها حتى بلغت به المسيا، فوافقها معلناً «أنا هو».

أما درجات الاستعلان البارزة فما أوضحها في هذه الكلمات المتلاحقة:

— «أنت يهودي وأنا امرأة سامرية».

— «يا سيد κύριε».

— «لا دلو لك والبئر عميقة أملك أعظم من أينما يعقوب؟».

— «أعطني هذا الماء لكي لا أعطش».

— «يا سيد أرى أنك نبي».

— «أنا أعلم أن مسيا يأتي = (أنا هو)».

ومع السامريين الذين عاشهم عدة أيام آكلأ وشارباً من خبزهم ومائهم ملاطفاً متحنناً، حتى بلغ بهم الإيمان أن رأوه بيقين الرؤيا والشهادة: «أنت مخلص العالم».

٣ — قرب نهاية قصة السامرة يفتح المسيح سجل الإرساليات المزمع أن يكون، وذلك لأول مرة في إنجيله هكذا، وفي بكور أعماله متكلماً عن المرسلين، وزرع الدموع، وحصاد الفرح، وكأنه يدرّب أولاده كما يدرّب النسر فراخه على التحليق والصيد. وقد كان بالفعل أن تمت أول إرسالية نقرأ عنها في أصحاح ٨ أعمال الرسل على يد فيلبس أحد الشمامسة السبعة، تلاها إرسالية ترغّمها القديس بطرس، ولكن كان ق. يوحنا روحها الذي شغف بأهلها أيّما شغف، بعد أن امتنع من

المعلم روح المسامحة واللطف والحب والتحنن على الرافضين والمرفوضين سواء، وهكذا خلق ق. يوحنا ثوبه اليهودي الأول المطرز بالعلياء والكبرياء ولبس مسوح المسيح:

— «وأرسل أمام وجهه رسلاً فذهبوا قريةً للسامريين حتى يعدُّوا له، فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم — فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا رب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً. فالتفت وانتهرهما وقال: لستما تعلمان من أي روح أتتما، لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص». (لو: ٩: ٥٢-٥٦)

وهكذا يشاء الله أن يكون ق. يوحنا أول من يضع يده على رؤوسهم ويستنزل لهم الروح القدس فيحلُّ عليهم و يصيرون من التابعين.

٤ — في هذه الرحلة المشوقة في أرض السامرة أعلن المسيح ولأول مرة عن الماء الحي الذي يعطيه، وأن كلَّ من يشرب منه لا يعطش أبداً، وعن العبادة بالروح والحق وأن الله روح وهو يطلب الساجدين له بالروح والحق، وعن هيكل العبادة الذي حَيَّرَ الناس بألوانه وأشكاله، بأن وضع أول أساس لأورشليم السماوية على الأرض حيث لا هيكل أورشليم ولا هيكل جرزيم: «وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله... ولم أَر فيها هيكلًا لأن الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها». (رؤ: ٢١: ١٠ و ٢٢)



الشرح :

٣ و ١ و ٢ : « فلما عَلِمَ الرَّبُّ أَنَّ الْفَرِيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تَلَامِيذَهُ أَكْثَرَ مِنْ يَوْحَنَّا، مَعَ أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلَامِيذُهُ، تَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى الْجَلِيلِ » .

« فلما » : Ὡς οὖν

إذا جاءت في بداية الكلام، فهي دائماً تحمل نوع الارتباط وتُحْمَلُ الآية على ما قبلها . فهنا « فلما » تعني : « وحينئذ عندما » علم الرب . وهنا التحميل يحجيء مرتكراً على ما حدث من تلاميذ المعمدان والإثارة التي أحدثوها، خاصة عندما أشاعوا أن « الجميع » يأتون إلى المسيح وأن المسيح يُعَمِّدُ تلاميذه أكثر من يوحنا ؛ هذا الخبر ترامي لأسماع الفريسيين وغالباً فإنهم أعدوا العُدَّةَ للمصادرة . هذا علمه المسيح قبل وقته، فأخذ الاحتياط تجنباً للمصادمة — قبل ميعاد الساعة — مع الفريسيين المحسوبين أنهم أعداء الإيمان .

ويوضح ق . يوحنا أن الإشاعة حملت مضموناً كاذباً أن المسيح يعمّد، فصحيحها ق . يوحنا قائلاً : « مع أن يسوع نفسه لم يكن يُعَمِّدُ بَلْ تَلَامِيذُهُ » . وهذا توضيح لا بد منه، لأن المعمودية لم تكن قد أخذت وضعها المسيحي كسرٍّ يختص بملكوت السموات، بمعنى أنها لم تكن مُدْعَمَةً بالروح القدس بعد، فقد كانت مجرد إعداد لمعمودية قادمة . هذا بالإضافة إلى أن سر المعمودية في المسيحية يشمل أساساً مضمون موت المسيح وقيامته، وهذا لم يكن قد تم بعد .

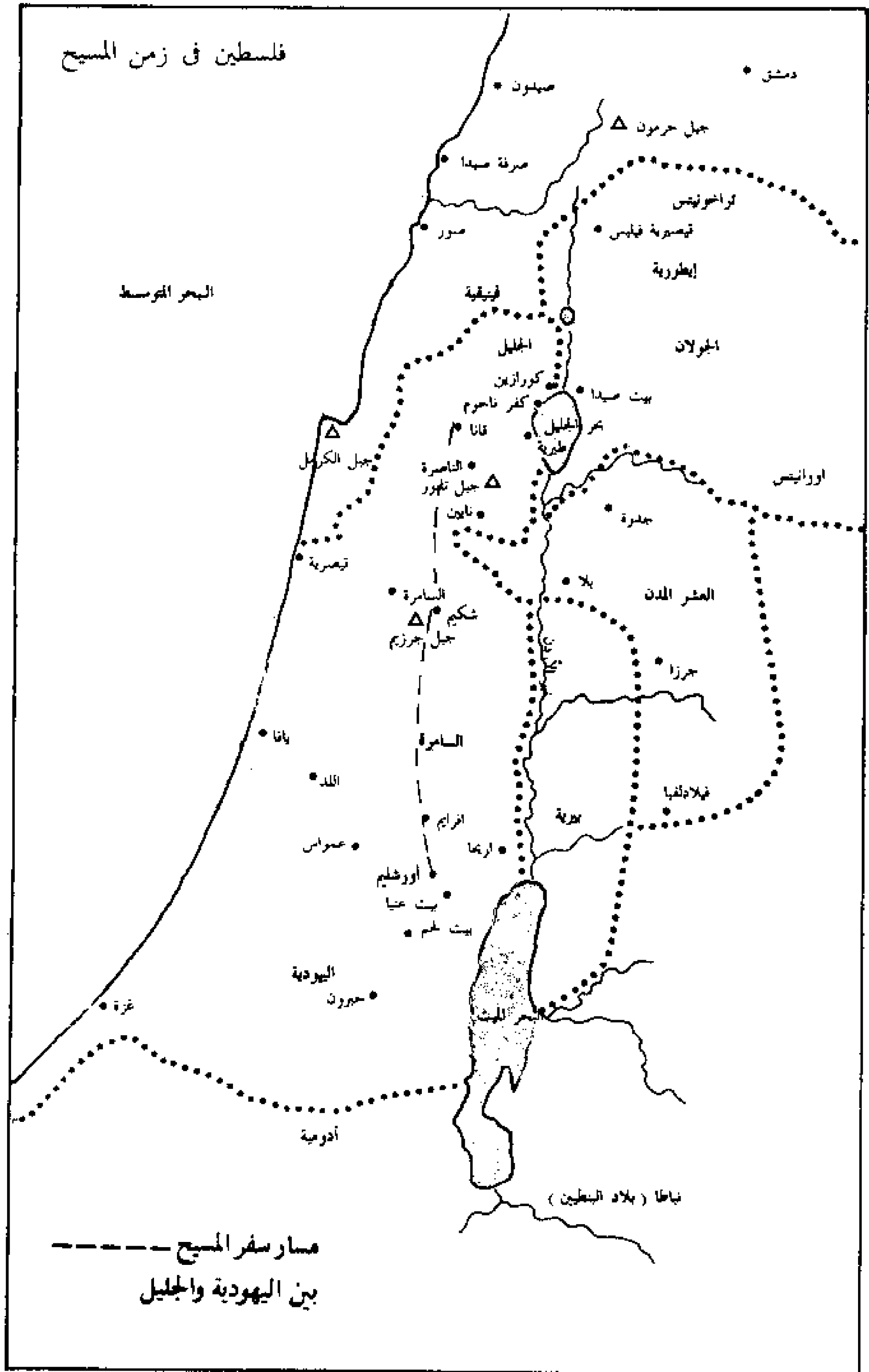
« ترك اليهودية » (ينسحب) : ἀφίημι

وقرر المسيح أن ينسحب — وجاءت في العربية « ترك » — ينسحب من عمله في اليهودية ويمضي أيضاً إلى الجليل . و« ينسحب » هي الترجمة الدقيقة لما يعنيه الفعل اليوناني ἀφίημι في هذا الموضع . ولكنها لم ترد في الترجمات العربية للعهد الجديد وهي تفيد : « ترك الأمر على ما هو عليه ليلبلغ نهايته من نفسه » .

« ومضى أيضاً إلى الجليل » :

« أيضاً » هنا منسوبة إلى القول السابق في ١ : ٤٣ : « وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل » . وكانت هذه هي المرة الأولى، أما هنا فهي المرة الثانية . والسري أن ق . يوحنا يضع هنا « أيضاً » هو سِرٌّ خطير للغاية، لأنه يود أن يؤكد التفريق بين زيارتين تمّتا للجليل : الأولى بعد

فلسطين في زمن المسيح



خدمته في اليهودية أول مرة؛ والثانية وهي هذه، بعد خدمته في اليهودية لثاني مرة، الأمر الذي أغفله الإنجيليون الثلاثة وجعلوا خدمته في الجليل قائمة بذاتها دون الإشارة إلى خدمته في اليهودية.

٤ : ٤ «وكان لا بد له أن يجتاز السامرة».

«وكان لا بد له εδει» تفيد نوعاً من الاستعجال أو — وهو الأصح — نوعاً من الالتزام. لذلك نرى المسيح يتخذ طريقه من داخل السامرة مع أنه طريق شاق وحارٌّ (صيفاً)، بالإضافة إلى أنه محظور نوعاً ما بسبب تكرُّه اليهود من الإختلاط والسير في أرض السامرة واحتمال تعدي أهل السامرة على المارِّين أحياناً. أما الطريق الآخر الأسهل فكان من غرب الأردن ينطلق شمالاً حتى إلى الناصرة. وإن كان يبدو للباحث العادي أن هذا الاختيار هو وليد الحاجة إلى الإسراع في مغادرة اليهودية، ولكن الحقيقة التي كان يعلمها المسيح هي أنه كان ملتزماً بمهمة، فقد كان عطشاناً إلى ماء السامرة كمعطشه على الصليب من أجل الخطاة. وكان طريق اليهودية إلى الجليل عبر السامرة يستغرق ثلاثة أيام، بحسب يوسفوس المؤرخ اليهودي.

٥ : ٤ «فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار، بقرب الضَّيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه».

سوخار:

الآن تسمى «عسكر». وقد بُحث عن هذا الاسم فوجد في أخبار أيام السامرة في المخطوطات، ومكتوب اسمها إسكار Yskar في مدونات القرن الثاني عشر^(٥)، وهي تقع تحت سفح جبل عيبال وهو جبل اللعنات، وفي مقابله تماماً جبل جِرْزِيم جبل البركات، وبين السفحين تقع مدينة شكيم التي كانت عاصمة مملكة إسرائيل بالقرب من مدينة السامرة التي تحوّل اسمها أيام هيرودس الملك إلى سِبَسْطِيَّة نسبة إلى أغسطس قيصر [حيث أغسطس^(٦) باللاتيني يقابلها سبستوس Σεβαστός باليونانية]، ولكنها في أيام المسيح لم تكن قد أخذت صورتها واسمها بالكامل^(٦).

— «وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة

^٥ Conder. in "Palest. Exploration report", 1877, p. 150, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 67.

(*) أوغسطس أو أغسطس تعني صاحب السما أو الرفعة، وكذلك سباسطوس.

^٦ Cambridge Bible Commentary, p. 52.

أنظر الصورة الفوتوغرافية والخريطة.

على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال. » (تث ١١: ٢٩)
 — « وأوصى موسى الشعب في ذلك اليوم قائلاً: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكي يباركوا الشعب حين تعبرون الأردن: شمعون ولاوي ويهوذا ويساكر ويوسف وبنيامين. وهؤلاء يقفون على جبل عيبال لللعنة. رأوبين وجاد وأشير وزبولون ودان ونفتالي. » (تث ٢٧: ١١-١٣)

« الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه »:

في بركة يعقوب إسرائيل الأخيرة وهو على سريرته في مصر (تك ٤٨: ٢٠-٢٢)، وهو واضح يديه على أفرايم ومنسى، وهب يوسف هذا المكان أي هذه الضيعة المذكورة في تك ٣٣: ١٧-٢٠. وكانت كلمات يعقوب هكذا: « وباركهما في ذلك اليوم قائلاً: بك يُبارك إسرائيل قائلاً يجعلك الله كأفرايم ومنسى، مقدماً أفرايم على منسى. وقال إسرائيل ليوسف: ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم. وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق إخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي. » (تك ٤٨: ٢٠-٢٢)

وهناك في سفر يشوع يتضح صحة هذه الدعوى: « وعظام يوسف التي أصعدها بنو إسرائيل من مصر دفنوها في شكيم في منطقة الحقل التي اشتراها يعقوب من بني حور أبي "شكيم" بمائة قسيطة فصارت لبني يوسف ملكاً » (يش ٢٤: ٣٢). ولا يزال قبر يوسف هناك بجوار هذا البئر حتى اليوم.

فإذا علمنا أن سبطي أفرايم ومنسى كان نصيبهما من أرض كنعان منطقة السامرة الآن بعينها، تكون دعوى السامريين بانتسابهم ليعقوب صحيحة، وأنهم وارثون بركة يعقوب في أفرايم ومنسى صحيحة أيضاً. ولكن واقعهم الروحي والإلهي كان متدهوراً للغاية. كذلك يتضح من كلام السامرية للمسيح بعد ذلك: « ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه »، تأكيداً لميراث الأرض والبركة.

٦: ٤ « وكانت هناك بئر يعقوب. فإذا كان يسوع قد تبع من السفر جلس هكذا على البئر، وكان نحو الساعة السادسة. »

« ليس مثل الله يا يشورون، يركب السماء في معونتك والغمام في عظمته، الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية من تحت. فطرد من قدامك العدو وقال أهيك. فيسكن

إسرائيل آمناً وحده. تكون عين يعقوب إلى أرض حنطة
وخر، وسماؤه تقطر ندى.» (تث ٣٣ : ٢٦-٢٨)

«بشر يعقوب»:

هذه البئر موجودة حتى الآن تحت عناية الجهات الرسمية المحفوظة بالآثار. وكان عمقها في الأصل نحو ١٠٦ أقدام، ومياهها ترشح إليها من الأرض حولها فهي شحيحة نوعاً ما. وقد نزل في هذه البئر الرحالة اللفتنانان أندرسون في مايو سنة ١٨٦٦ فوجد عمقها ٧٥ قدماً — ونصف قطرها ٧ قدم — ولكنها كانت مطموسة وليس بها ماء، وكانت مُعَشَّاة بحجارة غشيمة ولكن متماسكة. (٧)

والذي حير العلماء هو لماذا هذه البئر شحيحة المياه مع أن حواليتها ينابيع غزيرة في شكيم وكل الدائرة؟ وكان الردُّ هو أن يعقوب وهو متغرب هناك وقد اشترى قطعة الأرض هذه، أراد أولاً أن يكون له مصدر مياه خاصة به هو وبنوه ومواشيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان حفر بئر في الأرض يعتبر آنئذ وضع يد ملكية يثبت ملكيته للأرض الواقع فيها البئر: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام (بين النهرين)، ونزل أمام المدينة. وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حور أبي شكيم بمئة قسيطة. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل (إيل مفرد إلهيم) إله إسرائيل.» (تك ٣٣ : ١٨-٢٠)

«تعب يسوع من السفر»:

تعب يسوع من وعناء السفر، أليس هو ابن الإنسان؟ أليس من أجل هذا تجشَّم رحلة النزول من حضن الآب ليشارك الإنسان شقاءه وأتاعبه وأسفاره؟ ولكنه جيد أن يتعب يسوع مجرباً مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها، لكي يستطيع أن يعين المجترِّبين والتعابى. ولكن لعلَّ تعب من رحلة السفر الطويلة مع الشعب الذي أعطاه القفا دون الوجه: «مددت يديّ طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم.» (رو ١٠ : ٢١)

«جلس هكذا على البئر وكان نحو الساعة السادسة»:

«هكذا: οὕτως» تفيد أنه جلس بدون ترتيب المكان الذي يجلس عليه من شدة التعب — أو بمعنى متعباً هكذا — وطبعاً كان جلوسه على الحجارة المرصوفة حول البئر. والبئر كان يبعد عن سوخار حوالي كيلومتر ونصف. وكان الوقت منتصف الظهيرة فأضاف الجوب حرارته على تعب الطريق جفاف الريق!!

⁷ Warren's Recovery of Jerusalem, pp. 464ff, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 68.

وهل هي من مصادفات الحديث والرواية ؟ أو أن هناك علاقة بين هذه القصة ومأساة الصليب، ففي الاثنین نقرأ عن التعب والعطش ونحو الساعة السادسة من النهار. بل والأدهش أن نقرأ في الروایتین أن التلاميذ تركوه وحده!!

«البئر»:

يورد ق. يوحنا في هذه الرواية لفظين متباعدين يعبران عن البئر:

الأول: πηγή

ويعني ينبوع ماء، وفي أصوله اللغوية سواء باليوناني أو العبري أو العربي، يكون بمعنى «عين» بالعربي. وبالعبري «ayn» وهو ينبوع الطبيعي الذي لم تنقره يد إنسان وماؤه جارٍ أي حيٌّ. وهذا اللفظ التعبيري يذكره ق. يوحنا إذا كان ملازماً للرب سواء جلس عليه أو أعطى هو منه ماءً حياً: «يصير فيه ينبوع πηγή ماءً ينبع إلى حياة أبدية.» (١٤: ٤)

الثاني: φρέαρ

وهو البئر المحفور باليد أو مصنوع كخزان، ويكون غالباً عميقاً ومياهه شحيحة وراكدة. واللفظة بالعربية مثل العبرية «Béer» والعجيب أن هذا اللفظ التعبيري يذكره ق. يوحنا عندما يكون ملازماً للسامرة: «يا سيّد لا دُلّوك والبئر φρέαρ عميقة» (١١: ٤)، وأيضاً عندما قالت: «ألعك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر φρέαρ وشرب منها هو وبنوه ومواشيه» (١٢: ٤).

وهكذا يكشف لنا ق. يوحنا عن منهجه الروحي، ويبيّنه بالحديث بشاً كمّن يطوّع الألفاظ لفكره اللاهوتي، وكأنه يريد أن يردد الآية: «شعبي عمل شرّاً. تركوني أنا ينبوع πηγήν المياه الحيّة لينتقروا لأنفسهم آباراً (خزانات) λάκκους مُشَقَّة لا تضبط ماءً.» (إر ٢: ١٣)

أليس في هذا التصوير البديع باللعب بالألفاظ ما يكشف عن رؤية كاتب الإنجيل أن بئر يعقوب هو هو المسيح ينبوع الحياة: «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً... مَنْ يسمع فليقلّ تعال، وَمَنْ يعطش فليأت، وَمَنْ يُرِدْ فليأخذ ماء حياة مجاناً.» (رؤ ٢١: ٦؛ ٢٢: ١٧)

أما «الساعة السادسة»: فليست الساعات عند ق. يوحنا بلا حساب. أليست هي عينها

ساعة الخلاص التي قال فيها «أنا عطشان»؟ إنه دائماً على ميعاد مع الخطاة في منتصف النهار قبل أن يأتي ليدين في نصف الليل.

أ - حديث الرب مع السامرية: (٤: ٧-٢٦)

وتظهر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: بشر بركات وذكرى الآباء الجسدية، ذات الماء المُعطش.

الجديد: المسيح ينبوع الحياة الأبدية، والذي يشرب منه لا يعطش أبداً.

القديم: السجود في جبل أورشليم لليهود، وجريزيم للسامريين الذين يسجدون لما لا يعلمون.

الجديد: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون بالروح والحق «لآب»».

القديم: «أنا أعلم أن مسيئاً يأتي... ذاك يخبرنا بكل شيء».

الجديد والاستعلان: «أنا هو»!

٤: ٧ و٨ «فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماءً، فقال لها يسوع: أعطيني لأشرب، لأن تلاميذه كانوا قد قَضَوْا إلى المدينة لبيتاعُوا طعاماً».

واضح أنه لو كان المسيح مع تلاميذه لما طلب ماءً من امرأة. ولكن يتساءل الشراح لماذا تأتي امرأة لتستقي من بئر عميقة وحواليها عيون ماء كثيرة في المنطقة؟ كما يتساءلون لماذا تأتي وقت الظهيرة وهو ليس ميعاد استقاء؟ فالرد على ذلك بسيط ولكنه مُحَرِّج. فالمرأة ذات سمعة سيئة، فهي اختارت وقتاً لا يكون فيه أحدٌ من نسوة المدينة يستقي، كما أنها اختارت البئر الأقرب إلى قريتها. فالبئر تبعد عن سوخار حوالي نصف ميل. ولكن ق. يوحنا لم يلتفت إلى هذه التفرعات التي تُلهي القارئ عن لبِّ الحوار ونتائجه، وهذا هو أسلوب ق. يوحنا أن لا يتدخل في معرض القصة إلا إذا التزم اللفظ بالتوضيح.

ولكن ماذا يوحي إلينا هذا المنظر؟ امرأة تستقي من بئر في منتصف النهار، والامرأة كجنس يُنظر إليه بخفة عند الحكماء في أعين أنفسهم: «وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٤: ٢٧)، ثم عند اليهود بازدراء وامتهان. فليست صنعة المرأة السقي من الآبار إن كانت امرأة ذات بيت

وخدم. ولكن هنا نرى الرب يكسر حاجز الجنس القائم بين الرجل والمرأة، وحاجز العداوة القائم بين الإنسان والإنسان، لأننا سنسمع حالاً أن اليهود لا يعاملون السامريين. ولكن أيضاً يكسر حاجز الطبقات ما بين ذي حيثة وغير ذي حيثة. فالمنظر أمامنا خصب يوحى بأن الجالس على البئر يمثل السمو غير الموجود في البشر. فإن قال: «أعطيني لأشرب»، فهو سؤال للأخذ، يخفي النية في العطاء. وهذا شأن الله دائماً: «يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طريقي». (أم ٢٣: ٢٦)

السامرية فرغ ماؤها في منتصف النهار، مثل عرس قانا الذي فرغ خمره. فإن كان اليهود قد أعوزهم سرُّ الفرح، فالسامريون أعوزهم سرُّ الحياة.

ليس مصادفةً أن تأتي امرأة سامرية لتستقي والمسيح جالس على بئر يعقوب. ليس هذا من صُنع القَدَر بل من صُنع: مَنْ يصنع «أمرأً مقضياً به على الأرض» (رو ٩: ٢٨). فقد ساق الروح هذه المرأة التي هي خير من يمثل البشرية المُهانة التي خارج السياجات، لتصنع هذه المقابلة التي تم تدبيرها منذ الأزل. امرأة مُهانة من شعب ذليل، ليس غريباً عليها أن تتقابل مع مَنْ لَبَسَ الغُربة وأخذ شكل العبد المهان: «قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردَّ محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض. هكذا قال الرب قادي إسرائيل قَدْوُسُهُ لِلْمُهَانِ النَّفْسِ، لَمَكْرُوهِ الْأُمَةِ، لِعَبْدِ الْمُسَلِّطِينَ» (إش ٤٩: ٦ و٧). لقد سُجِّلَت هذه المقابلة ليس في سفر إشعياء أول ما سُجِّلَت، بل في سجل الأزل، لحساب مَنْ لبس ابن الله من أجلهم شكل العبد المهان!!

«أعطيني لأشرب»:

القول ينضح بالمفارقة الصارخة. ينبوع ماء الحياة يطلب أن يشرب من ماء بئر مُعْطِشٍ ومن يد امرأة جفَّت منها ماءُ الحياء؟ ولكن دائماً أبدأ تقف مفارقات الله مع الإنسان لحساب الإنسان. وهو دائماً يحتاج إلينا ليعطينا. ولكن قول الرب محسوب حسابه، وليحسب معي القارئ كلمات الرب للمرأة السامرية وهذه هي أولها: فسوف يجدها سبع كلمات بكل ميزان العَدِّ والتصنيف وليس زيادة ولا نقصان. فالكلمات الرب دائماً محسوبة ومُقْتَنَّة: انظر العَشْر الوصايا، وانظر السبعة التطويبات، والسبعة التوسلات في الصلاة الربانية، والسبعة الأمثال في إنجيل متى ١٣: ٣، والسبع الكلمات الأخيرة له على الصليب؛ تجد أن أقوال الرب تأتي مُحْكَمَةً الوزن والعَدِّ.

«لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً»:

من ملابسات القصة يبدو بترجيح شديد أن الرب أرسل تلاميذه ليبقى وحده. ولكن من المحتمل جداً أن ق. يوحنا بقي وحده معه. وكانت هذه مشيئة الرب وألحَّ عليها، لأنه ليس من المعقول بأي حال من الأحوال أن التلاميذ جميعهم يذهبون ليبتاعوا طعاماً ويتركون الرب وحده على طريق السامرة. هذا أمر غير محتمل ولا مقبول من مسلسل القصة. فهم في أرض غريبة وأيضاً مُعادية^(٨). إذن، فكان هذا بناءً على إلحاح المعلم حتى يخلو بخروفه الضال الذي طالما فتش عنه. أما ق. يوحنا فربما هو الذي ألحَّ على البقاء معه واستجاب له الرب لأنه لا يغيّر شيئاً من الإحساس بوحدة المعلم. فكان هذا لحساب تسجيل هذه القصة المملوءة تعليماً وتجديداً. أما سكوت ق. يوحنا عن هذا التوضيح فهو أسلوبه المفضل في روايته.

٩:٤ «فقالت له المرأة السامرية: كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية».

أمر غير مرتقب، وغريب عليها كل الغرابة، أن يتكلم رجلٌ مع امرأة و يهودي مع سامرية، و يطلب يشرب ماءً من إناء سامري منجس! وفوق هذا ما بال العداوة المحتدمة التي بيننا؟

ولكن ليس هذا كله الذي كان في حُسان هذه المرأة ولكن الأخطر من الكل الذي قفز إلى مقدمة تفكيرها أنها أحست بقداسة الجالس على البئر ورأت الخطر محققاً بها، فاستنفرت فيها الخطيئة قواها لتصدُّ الهجوم قبل أن يقع، وتسد على النور مساره الذي كان قد اخترق قلبها عنوة... قابلت رقة الرب بجفاء مصطنع وصوّبت الكلمات في وقاحة متعمدة، وكأنها تراجع تعدي رجلٍ على حياء امرأة، أو ترد عنها خدشاً لعفتها المزعومة: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية!»^(٩) ولكن هيهات! فالعين الإلهية لا ترتج، والقداسة لا تهادن، وسهم النور يستحيل أن تصدّه جحافل الظلمة. فالنور يضيء باقتدار، والظلمة مهما تحصّنت وشاكت فهي لا تقوى على صدّه. فالخاطيء يبادر النور بلطمة، ولكنه يكون كمن يلاطم الهواء يسقط بعدها صريعاً له. وعاد الرب يلحُّ في دعواه والرب لا يُغلب أبداً، وكأنه المحتاج يلوح بالعطاء، ويتمادي في شرح صدق دعواه، يتودد لها لكي يبدد الإحراج عنها وهو يخفي شباكه وراء كلماته... هو يطرح اللطف

(٨) يقص يوسفوس المؤرخ عن صدامات دامية حدثت بين السامريين واليهود سنة ٥٢ م. Ant. XX.118-136.

(٩) لاحظ أن التلاميذ أنفسهم اندهشوا لما رأوا معلمهم يتكلم مع امرأة: «وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٤: ٢٧). وهذا يحد ذاته يُظهر الفارق الهائل بين فكر المعلم وتلاميذه.

وهي تبرز الحراب : «اليهود لا يعاملون السامريين» . ثم بدأت الحواجز تنهار...

١٠ : ٤ «أجاب يسوع وقال لها : لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حياً» .

— عطية الله δωρεάν إش ٦ : ٩ «أعطينا ابناً» υἱὸς ἐδόθη ἡμῖν
 يو ١٦ : ٣ «هكذا أحب الله العالم حتى أعطى» ἔδωκεν
 ابنه الوحيد» .

— ماء حياً ὕδωρ ζῶν يو ٤ : ١ «فيه كانت الحياة» ζωή
 رؤ ١٧ : ٧ «لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم
 و يقتادهم إلى ينابيع ماء حية» .
 ἐπὶ ζῶης πηγῶς ὑδάτων
 رؤ ١ : ٢٢ «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة ὕδατος ζῶης
 لامعاً كبلّور خارجاً من عرش الله والخروف» .
 إش ٣ : ١٢ «فَتَسْتَقُونَ مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص» .
 ὕδωρ μετ' εὐφροσύνης ἐκ τῶν πηγῶν τοῦ σωτηρίου.
 إش ٣ : ٤٤ «أسكب (أعطي) ماءً على العطشان
 أسكب روحي على نسلك» .
 ὅτι ἐγὼ δώσω ὕδωρ... ἐπιθήσω τὸ πνεῦμά μου.
 يؤ ٢٨ : ٢ «أسكب روحي على كل بشر» .
 ἐκχεῶ ἀπὸ τοῦ πνεύματός μου.

المسيح يبدأ قوله بكلمة : «لو كنت تعلمين» ؛ هو لا يتمنى لها أن تنكشف بصيرتها وتشتعلن الشخص الجالس أمامها، بل بالفعل يفتح أمامها الباب و ينبه ذهنها أن تحسن الرؤيا، ويوحى إليها أن تطلب منه عطية، وهذا هو مفتاح الصلة الحقيقية التي بها تنشأ العلاقة القوية بين الله والإنسان .

وفعلًا نجح المسيح في هذا الإيحاء العجيب، وفعلًا طلبت، وإن جاء الطلب غير صحيح فقد عدّله لها حتى بلغت المستوى ! كذلك فإن المسيح ينبهها أنها محتاجة أن تعلم «من هو» ولا تعثر في منظره هكذا، المتعب والمجهّد والعطشان ! وكأنه يقول لها : «التفتي جيداً لأنني افتقرت وأنا غني كما أنا، ولكنني افتقرت لأغنيكم، فلا تتعثري في منظر بشريتي هكذا، بل ارفعي بصرك لتري

حقيقتي. “ وهذا قد تم بالحرف الواحد وفي أقل ما يمكن من الزمن!

في الحقيقة المسيح هنا بقوله «لو كنت تعلمين ”عطية الله“» إنما يقدم نفسه للبشرية الخاطئة كما قصد أبوه الصالح تماماً: «هكذا أحب الله العالم حتى ”أعطى“ ἔδωκεν ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة». ثم يعود ويربط هذه العطية، وهي نفسه، بالماء ثم بالحياة، ولكن في صورة الماء الحي أي الجاري، ومن هنا التبس على السامرية الأمر. وهذا أسلوب ق. يوحنا في استخدام اللفظ الذي يرمي إلى معنيين: الأول عادي ومادي، والثاني روحي وإلهي!!

والماء الحي الذي في عُرف العهد القديم هو مجرد ماء جارٍ من نهر أو خلافة، هو في العهد الجديد «الماء المُحيي» كعطية الله للإنسان على مستوى ماء الشرب الذي يُحيي الجسد بالأساس وبدونه يموت الإنسان. فالماء الحي عند المسيح هو «الحياة الأبدية نفسها». ولكن منظوره ومفهومه على أساس الحياة الجسدية التي يستمدّها الجسد من الماء. أما الماء الطبيعي، إذا نال قوة روحية بالصلاة، فإنه يُعتبر ماءً للتقديس، وهو قادر أن يعطي الحياة الأبدية بالمعمودية بسبب قوة الحياة التي حلّت فيه بالصلاة.

كذلك وحينما نسمع في المزمور قول داود النبي: «عطيشتُ إليك نفسي» (مز ٦٣: ١)، فهو صراخ في طلب الحياة كصراخ العطشان إلى الماء طلباً للحياة. وهنا يكون الله هو بمثابة الماء الحي أو ماء الحياة أو الماء المحيي!! ولكنه هنا يسمى بالماء الحقيقي ἀληθινόν لتفرّقه عن الماء الزائل.

ولو رجعنا بنظرة خاطفة إلى الوراء، لرأينا الماء عنصراً أساسياً في التغير للتحوّل من القديم إلى الجديد في تعاليم المسيح الماضية. ففي عُرس قانا وجدنا الماء يتحوّل خمراً، ومع نيقوديموس الإنسان يتحوّل إلى خليفة جديدة «بالماء والروح»، ومع معمودية المعمدان يلزم الماء الروح القدس وإلاّ بطل مفعوله. وهنا يقدم المسيح “نفسه كينبوع ماء حي” يفيض على من يعطش إليه ويطلب. وكان الماء في كل هذه المواقف هو الماء الحي الذي يعني بالنهاية «الأليثيا» أو الله نفسه.

ويلزمنا جداً أن نرتفع بالحوار في شكله الفردي، لا كأن المسيح سيعطي السامرية وحدها، ولكن علينا أن ننظره من أفق أوسع يشمل كل مَنْ كان على مستوى السامرية: «إنسان صنع عشاءً عظيماً ودعا كثيرين وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين تعالوا لأن كل شيء قد أُعِدَّ، فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده اخرج عاجلاً

إلى شوارع المدينة وأزقتها وأذيل إلى هنا المساكين والجُدَع والعُرَج والعُمي... اخرج إلى الطرق والسيارات وأزفهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي.» (لو ١٤ : ١٦-٢٣)

لو أدركنا أن حقيقة ينبوع الماء الحي تخص الله القدير في العهد القديم كما هو واضح من الآية عن ينبوع الماء الحي بكل وضوح: «أيها الرب رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يخزون. الحائدون عني في التراب يُكتبون لأنهم تركوا الرب ينبوع المياه الحية πηγήν ζωῆς, τὸν κύριον إشفني يا رب فأشفي... لأنك أنت تسبيحتي» (إر ١٧ : ١٣ و ١٤)، لأدركنا في الحال أن المسيح هنا في هذه الآية إنما يستعلن نفسه من خلال الماء الحي بكل يقين.

وإن أردت أيها القارئ أن تعرف صحة هذه العقيدة اللاهوتية أن المسيح هو الرب القدير ينبوع المياه الحية الذي يشفي كل جراح البشرية ويخلص الذين في الحضيض، فانتظر إلى نهاية هذه القصة لترى كيف نضح الرب عليها بالماء الحي فشُفِيَتْ وكيف سكب عليها من روحه فخلصت وقامت واستقامت، وتأهلت البشرية العاهرة أن تأخذ رتبة البنين وتصير تلميذاً ومعلماً!!

٤ : ١١ «قالت المرأة يا سيد κύριε ، Lord ، لا دُلُوك والبئر عميقة. فمن أين لك الماء الحي».

أخيراً رضيت العاصية أن تدخل الحوار!... فالعرض سخى غاية السخاء ولكنه غير معقول البتة؛ وهكذا دائماً عطية الله. وأنتى للخطيء أن يدرك حقيقة العطاء الإلهي وهو مرتبك بعطايا العالم، والفرق بين العطاءين لا يُقاس ولا يحُدُّ؟ هكذا أصرت النفس المنطوية على عجزها التي لم تدق بعد عطاء الله، ولسان حالها: وهل تَطْر السماء ذهباً؟ «أتحيا هذه العظام»؟ (حز ٣ : ٣٧)، «هكذا قال السيد الرب هذه العظام ها أنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون.» (حز ٣٧ : ٥)

«يا سيد لا دُلُوك والبئر عميقة»:

هكذا تغيرت صورة المسيح عند السامرية من «أنت يهودي» إلى «يا سيد κύριε». وهكذا ينجح المسيح دائماً في أن يغيّر، لا صورته، بل صورة مَنْ يسمع إليه فيراه أكثر على حقيقته. ولكن الخطيء يضع العراقيل دائماً في وجه من يحاول خلاصه!!

«يا سيد لا دُلُوك والبئر عميقة»؛ لقد استقرت الخطيئة في القاع وهيئات أن تصل إليها، ولكن خيطاً رفيعاً من الأمل يستقر خلف «يا سيد». أليس في هذه الكلمة ما يعني أنه صار

صاحب السيادة على نفسها؟ صحيح أنها تتمسك بنظرة المستحيل، ولكن لعل «السيد» عنده شيء؟

«فمن أين لك الماء الحي»:

لقد عجزت أن ترى في الأفق حللاً، فإذا كان ليس له دلو ليستقي من بئر فكيف يعطي هذا ماءً جارياً وكأنه من ينبوع؟ هكذا تضع النفس لها قيوداً وتقفّل على نفسها بالقدر لترضى بعجزها وتقطع الطريق على المحاولة، ولكن عند الرب حلولٌ تفوق القدر والمقدّرات، وتتعدى كل الإمكانيات والتصورات: «والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف ٣: ٢٠)

١٢: ٤ «أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ آبِنَا يَعْقُوبَ الَّذِي أُعْطَانَا الْبَرْ وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ».

عودة سريعة إلى الخلف ليتحصن الخاطيء في ماضيه ليراه حسناً وأفضل على كل حال من القفز نحو المجهول، هكذا تشبث نيقوديموس بشيخوخته ورأى فيها استحالة الدخول في ضيق البطن ليولد من جديد؛ بل هكذا رأى رؤساء الكهنة والفريسيون أن الهيكل بوضعه أفضل من تعديل يودي بحياة الأمة؛ بل وهكذا رأى تلاميذ المعمدان أن معمودية الماء أفضل من التغيير نحو معمودية الروح.

إن أصعب ما يلاقيه الخاطيء هو كيف يقفز نحو المجهول، ولكن هذا هو مطلب الإيمان الأول.

هكذا تعود السامرية تتشبث ببركات الآباء وبظوظم البشر الذي ورثوه عن يعقوب، وكأنه يُغني عن كل جديد! فمياهه الشحيحة الراكدة هي أفضل من الماء الحي.

يلاحظ هنا أن الإنجيل يورد كلمة «وشرب منها هو وبنوه ومواشيهم»، وهذا للإيمان في تحديد وظيفة الماء، باعتباره ماءً جسدياً أو حيوانياً محضاً في مقابل ما سيكشف عنه بخصوص «الماء الحي» الذي هو الماء المختص بالحياة الجديدة السماوية، التي طالما تغنى بها الرّبّيون اليهود أنها هي التوراة. فالتوراة (الناموس) في تأملاتهم هي الماء الحقيقي التي تُجلي العين وتُثير البصيرة، والتي صحّح معناها المسيح بأنها هي الحياة الأبدية التي تنبع في روح الإنسان بالروح القدس: «لأن الناموس (التوراة) بموسى أُعطي. أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صاراً» (يو ١: ١٧). فمياه الرّبّيين لم تخرج عن كونها مياه الحرف لتطهير الجسد، أما مياه الرب يسوع

فهي مياه الروح للحياة الأبدية.

«إن كنت لا أرى معه دلواً ولا حبلاً»، أو «إن لم أضع إصبعي في أثر المسامير»! (يو: ٢٠: ٢٥). ولكنها تبحث في المستحيلات على كل حال، لأن في تقليد اليهود في التلمود وعند السامريين، أن يعقوب وهو عاطش مع بنيه ومواشيه وقف وصلى على البئر ونادى باسم الرب، ففاض منه ماءٌ حيٌّ أي جارٍ، وظل هكذا نابعاً والمياه تجري منه عشرين سنة، ولكن منذ ذلك الزمان لم نسمع أن هذا البئر فاض ماؤه — فالسامريون يدعون أنهم من نسل أولاد يوسف ابن يعقوب، أفرايم ومَنَسَّى الذين امتلكوا السامرة.

«فهل أنت أعظم من أبينا يعقوب؟»

وهنا يُلْذِّقُ للقديس يوحنا أن يُبْرِزَ هذا التساؤل كتساؤل اليهود: «أأنت أعظم من أبينا إبراهيم... مَنْ تجعلُ نفسك؟» (يو: ٨: ٥٣). وذلك لينبه ذهن القارئ أن: نعم «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو: ٨: ٥٨). أما هنا فيرد المسيح بطريقة أخرى ولو أنه لا يمانع أن يدخل هذا السباق فهو: «ههنا أعظم من الهيكل» (مت: ١٢: ٦)، و«ابن الإنسان هو رب السبت» (مت: ١٢: ٧)، و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو: ٨: ٥٨)، و«هوذا أعظم من سليمان ههنا» (مت: ١٢: ٤٢)، و«هوذا أعظم من يونان ههنا» (مت: ١٢: ٤١). ولكنه هنا بهدوء سيأخذ بيدها وعينها حتى ترى فيه من هو أعظم من أبيها يعقوب!!

٤: ١٣ و ١٤ «أجاب يسوع وقال لها: كلُّ مَنْ يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية».

إش ٤٩: ١٠ «لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حرٌّ ولا شمسٌ، لأن الذي يرحمهم يُهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم».

رؤ ١٦: ٧ «لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيءٌ من الحر. لأن الخروف في وسط العرش يرحاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حيّة».

رؤ ٢١: ٦ «أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إش ٥٥: ١ «أيها العطاش جيعاً هلموا إلى المياه».

يو ٦: ٣٥ «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يُقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

يلزمنا هنا في البداية أن نوضح الفرق بين «هذا الماء» ماء يعقوب؛ و«الماء الذي أعطيه أنا» (١٠)؛ والفرق بين «يعطش أيضاً»؛ و«لن يعطش إلى الأبد». فالمسيح هنا يستخدم الماء موضوع الحوار استخداماً من واقع حال الإنسان فيما يخص جسده، وفيما يخص روحه؛ فيما يخص حياته على الأرض، وفيما يخص حياته الأبدية. فالجسد يعطش ويعطش ويعود إلى الماء كل مرة، فهو لا يرتوي أبداً أبداً؛ ولكن الروح تعطش، فإذا ارتوت فلن تعطش أبداً لأنها ترتوي من ماء الحياة الأبدية؛ أو الماء الحي أو الماء الحقيقي، الذي هو الحياة الأبدية نفسها: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ٣)

المسيح يضع إصبعه على نفسه ويشير إلى ذاته، «والماء الذي أعطيه» هو عطية الاستعلان التي إذا سكبتها على قلب الإنسان ووعيه فإنه يتعرف على حقيقة المسيح، فيدخل مجال الحق الإلهي وينتمي بروحه إلى السماويات؛ ومن كل ما هو سام يشبع ويرتع ويمتلئ ويرتوي، فلا تعود الأشياء التي في الدنيا موضع عطش أو تلهّف أو متعة روح.

المسيح يضرب على الوتر الحساس ليرنّ صوته في أعماق النفس المتعبة التي نهبتها الشهوات والملذّات والجري وراء سراب الغرور والمتعة، التي كلما شربت منها النفس ازدادت عطشاً إليها دون أن يدري الإنسان أنها تمتص رحيق حياته ونضارته وإرادته وكرامته، وأخيراً تتركه صريعاً للندم واليأس وخيبة الأمل. هذه هي «يعطش أيضاً».

«لن يعطش إلى الأبد»:

إنها قولة صدق ذات رنين حي تردده ألوف ألوف وربوات ربوات الأرواح القديسة في السماء بآمين.

إنها مقولة تتجلى في حياة مَنْ يُقبل ويشرب كل يوم، ولكنها سوف تبلغ أوج تجليها في المجد الأعلى، ومنتهى تحقيقها في ملكوت ابن الله: «لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم» (إش ٤٩: ١٠). هذا يراه إشعياء من وراء الدهور، ينطقه بروح الله، فتردّ عليه أرواح الأبرار التي تكملت في المجد: «لأن الخروف الذي في

وسط العرش يرعاهم.» (رؤ ٧: ١٦)

هو هو المسيح المتكلم، «ينبوع الحياة الأبدية»، هنا «بالاستعلان» وهناك بالرؤيا والمشاهدة والعيان.

كل من أذمَّنَ على شرب المياه المُعطِشة هنا، يتمنى في يوم من الأيام لو لم يولد حينما يبلغ به العمر أرذله؛ أما الذي ذاق الحياة في المسيح يسوع فهو كل يوم يولد جديداً.

كل من ضيَّع العمر في ملذات هذا الدهر وضَيَّقت عليه الدنيا بعد ذلك، يتمنى لو يموت؛ أما الذي استعلن المسيح واستنشق الحياة الأبدية فيه، فهو يحيا كل يوم حياة جديدة ولن يموت أبداً.

«بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية».

إش ١٢: ٣ و ٢ «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه

يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فتستقون
مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص».

نش ٤: ١٢ «أختي العروس جثَّة مُغلقة، عين مقفلة، ينبوع
مختوم».

«الماء الذي أعطيه» هو نعمة الاستعلان بالروح القدس، وبالاستعلان يتجلى المسيح في قلب الإنسان، فيشعر بالخلاص كقوة تجرف حياته كلها كنهر جارف لا يستطيع أن يحجزه، فينطق لسانه بالفرح والتهليل ويظل ينبع بفيضان. ويعيش باطمئنان في بهجة الخلاص، يشرب منها ويعبُّ عباً كل يوم، و يفيض على كل مَنْ يتعرف عليه، ويظل يفيض إلى أن يلتحم بالحياة الأبدية، وحينئذ ينجلي الخلاص في أكمل مفاعيله ومباهجه إلى أبد الدهور.

وهذا يعني أن الماء الذي يعطيه المسيح الآن يتحول فيه إلى خلاص في الحاضر يمتد إلى أبد الآبدين.

وبقدر ما يحتاج الخلاص هنا إلى مزيد من الشرب أي الاستعلان، بقدر ما في النهاية يصير في الإنسان قوة تزدد من تلقاء ذاتها حيث يصبح المسيح في القلب هو نفسه ينبوع الخلاص الذي لا يجف.

فـ «المياه الحية»، وقد أسماها المسيح «عطية الله»، حينما تستقر في نفس الإنسان تصبح قوة

حية فاعلة بذاتها تسكن هيكل الإنسان الروحي وتعمل فيه ، تُحييه وتُهدّبه وتُجدده . مثلها مثل عطية «الحياة» التي ينالها الإنسان من «أكل الجسد» الذي هو العطية الكبرى : «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيشْرَب دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ .» (يو ٦ : ٥٤)

ومثلها مثل «كلمة الله» : «كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَحْدَاثُ لَأَنْتُمْ أَقْوِيَاءُ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ .» (١ يو ٢ : ١٤)

ومثلها مثل «الحق» : «مَنْ أَجَلَ الْحَقِّ الَّذِي يَثْبِتُ فِيْنَا وَسَيَكُونُ مَعَنَا إِلَى الْأَبَدِ .» (٢ يو ٢)

ومثلها مثل «روح الحق» : «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أَنْتُمْ فتعرفونه لأنه ما كَثَّ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ .» (يو ١٤ : ١٧)

ومثلها مثل «قَسْحَةُ النِّعْمَةِ» : «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ وَلَا حَاجَةَ بِكُمْ أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هَذِهِ الْمَسْحَةُ عَيْنَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهِيَ حَقٌّ وَلَيْسَتْ كَذِباً كَمَا عَلَّمْتُمْكُمْ تَثْبِتُونَ فِيهِ .» (١ يو ٢ : ٢٧)

ومثلها مثل «بذرة الله Sperma of God» : «كُلُّ مَنْ هُوَ مَوْلُودٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَفْعَلُ خَطِيئَةً (طوعاً) ، لِأَن زَرْعَهُ (زَرَعَ اللَّهُ) يَثْبِتُ فِيهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْطِئَ لِأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللَّهِ .» (١ يو ٣ : ٩)

هكذا «المياه الحية» ، روح الاستعلان ومعرفة الله ، فإنها تسكن وتنبع فيه بلا توقف كالمياه الجارية وبلا نهاية ، وتفيض قوة وراء قوة بلا نقصان بل بزيادة ، حتى كما يقول بولس الرسول إلى «ملء الله» .

وهكذا فإن نفس الإنسان التي تم فيها تجلي المسيح بالاستعلان ، أي شربت من ينبوع الخلاص ، تصبح بذاتها ينبوع خلاص ، كما يخاطبها سليمان النبي في نشيد الأنشاد : «أُنَحِّي الْعُرُوسَ جَنَّةً مُغْلَقَةً ، عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ» (نش ٤ : ١٢) ، بمعنى أن مواردها في الداخل وليس لها حاجة من الخارج : «يَنْبُوعٌ جَنَائِثٍ ، بِشَرْمِيَاءٍ حَيَّةٍ ، وَسَيُولُ مِنْ لَبْنَانٍ» (نش ٤ : ١٥) . وسفر الرؤيا يكشف لنا عن مصدر الإندفاع ومنبع الفيضان الحر الدائم في داخل النفس هكذا : «وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لَامِعًا كَبَلُورٍ خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللَّهِ وَالْخُرُوفِ .» (رؤ ٢٢ : ١)

وقانون الارتواء من روح الله هو الامتلاء للزمان الحاضر والفيض الدائم، ثم الحياة الأبدية التي نلناها هنا نصعد بها إلى فوق حيث مصدرها: «وإن مَضَيْتُ وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وأأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو ١٤: ٣)

١٥: ٤ «قالت له المرأة: يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي.»

لقد نجح هذا السيد البديع، فهذا استجابت السامرية إلى قول الرب: «... لطلبتِ أنتِ منه فأعطاكِ ماءً حياً». هذه أولى علامات العودة، عودة النفس إلى خالقها تلغى بطلبات كطفل يطلب على قدر تفكيره!!

كانت المرأة صادقة صدق الطفولة وهي تطبق كلام الرب: «مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش»، فقالت هي: «أعطني هذا الماء لكي لا أعطش». وأكملت من عندها: «حتى لا آتي إلى هنا وأستقي».

لقد استهوتها فكرة الماء الذي كل مَنْ يشرب منه لا يعطش، وأضافت بالضرورة ولا يتعب ويجيء ليستقي، لقد هدّتها مشوار كل يوم حاملة جَرَّتْها فارغة وملآنة؛ وكلّ ذراعها من قُرْد الحبل وثَّيْه ورفع الجرة بثقلها، الحبل بذراع والجرة بذراع، حتى ضاقت ذرعاً! ولكن لو كان هذا هو كل همّ الإنسان، وحتى مثله مائة ألف مرة لما غلب الله من تحننه وبذل ابنه على الصليب من أجل الإنسان.

ولكن في قولها: «حتى لا آتي إلى هنا وأستقي»، فيه معنى الاغتناء ليس لما هو لذاتها فحسب، بل للذين تخدمهم أيضاً، وإلا على مَ سيعيش مَنْ تخدمهم؟ وهنا يلتقط الرب الخيط من فمها ويطلب أن يرى مَنْ تخدمهم.

١٦: ٤ «قال لها يسوع: اذهبي واذهبي زوجك وتعالني إلى هنا.»

نعم يجب أن يأتي مَنْ تخدمه، وهو بالتقدير المبدئي زوجها، لأن العطية بحسب نظرها هي، تعني زوجها أيضاً. ولكن الرب الذي قرأ فكرها وضع هذا الطلب محكاً لصدق قبولها العرض بأخذ العطية، وبالأكثر اختباراً لمدى صحة إيمانها بالكلام ومستوى يقظة ضميرها. الرب هنا يركّز على السامرية نفسها وليس على زوجها أو أهلها، لأنه بتوبتها وإيمانها هي، سيُقبل الجميع، فهو هنا

مستمر في إعدادها هي للعطية، ولأنه يستطيع أن يغفر الخطية فهو يستطيع أن يراها ويحاصرها بالضرورة. والآن وقد صارت خطيتها هي العقبة الوحيدة في وجه نوال العطية، لذا كان يتحتم كشفها والإعتراف بها تمهيداً لرفعها لتصبح على مستوى العطية. وحينئذ كما قال المسيح نفسه حينما تشرب هي من الماء الحي فإنه سينبع منها و يفيض على الزوج وعلى المدينة كلها. المسيح هنا يعرف الجواب مُسبقاً: «ليس لي زوج»، عار المرأة الأعظم، لذلك يضع المسيح إصبعه على الجرح، ومشرطه على الورم، ولكن برقة فائقة كمن يستخدم المخدر حتى لا يشعر المريض بالألم. لقد تدرج معها وهو يسندها حتى تقوى على نطق ما لا يُنطق. وهكذا بلغ بها إلى نقطة اليقظة العظمى للضمير.

١٧: ٤ و ١٨ «أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسناً قلت ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي لك الآن ليس هو زوجك. هذا قلت بالصدق».

إجابة مقتضبة يلفها الحزن في مسحة من الألم كما من سهم يخترق القلب. هي رجفة الضمير الذي يجاهد كي يغلب انهياره، ويتلمس القوة من العين المسلطة عليه!

كان رد المسيح الفوري هو قبول الإعتراف أحسن قبول: «حسناً قلت». وهكذا جاء السند الذي كانت تحتاجه لتغلب انهيارها. وهكذا يسند المسيح «المُعَيَّ بكلمة» (إش ٥٠: ٤)، «أسندني فأخلص» (مز ١١٩: ١١٧). ليس العمل الذي وراء اعترافها هو الحسن، بل الحسن جداً أن تعترف به، فقول الحق عندما يشهد به الإنسان على خطاياها يُحَسَّب حقاً.

وعندئذ رفع المسيح النقاب عن شخصيته قليلاً وأخذ يسرد لها قصة حياتها كما في مرآة.

لأنه كان لها خمسة أزواج والذي لها الآن ليس زوجاً، ونحن لا نريد أن نخوض في ما لم يُخَضَّ فيه المسيح، ولكن شيئاً واحداً كان واضحاً من كلام المسيح أن وراء حياتها مأساة من الخيانات واستباحة الحرام اعترفت به السامرية ليس للمسيح فقط، فهو يعرف كل شيء ولا يحتاج إلى تفصيلات، ولكنها اعترفت هي بنفسها لأهل مدينتها أيضاً؛ وإن أعظم الإعتراف ما جاء علناً: «وقالت للناس... إنساناً قال لي كل ما فعلت!!» (يو ٤: ٢٩)

حينما يستيقظ الضمير لا يعود يبالي بما يُقال عنه، بل يكون كل همّه أن يقول هو عن نفسه، لا يعود ماضيه مخفياً وراءه، بل يصير مكشوفاً أمامه: «وخطيتي أمامي دائماً» (مز ٥١: ٣). والجرح

الذي كان يخفيه يرفع عنه العصابة ويستعرضه لمن هو قادر أن يشفيه .

والمسيح في كشفه هنا لبقية سر مأساة السامرة إنما يكشف لها عن قدرته على محوها، وكأنه يكمل عنها اعتراف ما لم تقو على الاعتراف به، ليستعيد لها صحة نفسها لتستضيء عيناها وتراه على حقيقته .

١٩:٤ «قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي» .

لقد أخصت الرؤيا θεωρῶ . فكلمة «أرى» هنا لا تفيد الانطباع السريع بل قمة استعلان متدرج يبلغه المتصوفون حينما يُحدّقون بعقلهم في الله طويلاً، وتسمى هذه الدرجة عند المتصوفين بالتّورية — أي الرؤيا العقلية .

من الصعب علينا جداً أن نحس بما أحسته هذه المرأة عندما واجهها المسيح بكشف حياتها المخفية . إنه مزيج من الرهبة والرغبة مع قناعة بهيبة الجالس أمامها، وكأن حياتها كلها صارت مكشوفة أمام عينيه . ولكن عقلها ارتفع سريعاً لترى فيه إنساناً ذا اتصال بالله يستمد منه قوته وسلطانه .

حينما أفرغت المرأة خطيئتها استضاءت عيناها، وتأهلت لترى المسيح الرؤية الأولى على صحة، وإنما في غير اكتمالها : «فتطلع وقال أبصر الناس كأشجار يمشون . ثم وضع يديه أيضاً على عينيه وجعله يتطلع ، فعاد صحيحاً ، وأبصر كل إنسان جلياً» (مر ٨ : ٢٤ و ٢٥) . هذه أول مفاعيل عطية الماء الحي التي استقرت في أعماقها؛ وهذه أول حركة للإيمان يتحرك به قلبها .

لقد تدرجت في رؤيتها للمسيح من «أنت يهودي» إلى «يا سيد» إلى «أرى أنك نبي» . وهكذا تنجلي العين حينما يغتسل الجسد والنفس، والإعتراف بالخطية يرفع ثقلها عن القلب والضمير كما يرفع عقابها عن النفس . وهذه هي «عطية الله» التي وعدها المسيح بها، وهكذا علمت المرأة بالحق من الذي يقول لها أعطيني لأشرب . وهكذا أيضاً اكتشفت المرأة غنى المسيح من خلف فقره المصطنع، وعطش من له ينبوع الماء الحي .

ولم تكن رؤيتها أنه نبي لتقرير حق الواقع وحسب، بل لأنها ربطت بين امتياز الإلهي كصاحب صلة بالله وبين حالها الفاضح فرأت فيه المنقذ . ولكن إلى من من الآلهة سيذهب بها هذا النبي؟ إله إسرائيل وأورشليم وجبل صهيون، أم إله السامريين وجبل جرزيم؟ إنها تود أن تعرف

إلى مَنْ تقدم توبتها وذبيحة خطيتها.

٢٠ : ٤ «آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هَذَا الْجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسَجَدَ فِيهِ».

من يصدق أن هذه النفس العفنة تنقلب بهذه السرعة إلى تائبة تبحث عن مكان للصلاة وتدقق في صحة المكان لتضمن توبة مقبولة؟ أمر لا يشغل بال إلا كبار اللاهوتيين.

لأن صحة أورشليم لتكون المكان الوحيد والفريد للعبادة والصلاة هي أعوص المشاكل أمام دارسي الناموس، وقد استطاع اليهود أن يزحزحوا هذا النير من على أعناق الشعب بأن قالوا بصحة المجامع المحلية لكل بلد.

أما هذا الإشكال اللاهوتي بالنسبة للسامريين فقد ظل كما هو، أعوص مما هو لليهودي ألف مرة، لأن أورشليم وهيكلها محظوران على السامري؟ فكيف الفكاك من القيود التي وضعها الإنسان في عنق نفسه؟؟

على كل حال هذا هو نبيّ مؤتمن، وهو من اليهود ولكن في غير تعصب، وقد أصبح قريباً منا عاطفياً علينا، فهو وحده القادر أن يحل معضلتنا، هل نتبع آباءنا القديسين البطارقة الأوائل الذين سجدوا في هذا الجبل أم أن أورشليم وحدها مكان العبادة؟ على كل حال كان هذا السؤال يحمل في طياته شكاً في صلاحية جرّيزيم!!

فالمعروف أن يعقوب أبا الأسباط عبّد الله في هذا المكان: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام، ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حور أبي شكيم بمائة قسيطة، وأقام هناك مذبحاً، ودعاه إيل إله إسرائيل.» (تك ٣٣ : ١٨-٢٠)

في هذا الجبل: جرّيزيم Gerizim

المقصود هو جبل جرّيزيم الذي تقع البئر تحت سفحه مباشرة، وتقول التقاليد أن إبراهيم أبا الآباء أصلح مذبحاً هناك بنية تقديم إسحق ابنه حسب أمر الرب. وعلى هذا الجبل أيضاً تقابل مع ملكي صادق الذي باركه هناك. كما أن جرّيزيم هو الجبل الذي أمر موسى أن يقف عليه ستة من أهم الأسباط لتقول البركات على من يعمل بالناموس (تث ٢٧ : ١٢). وفي تورا السامريين مكتوب

أن المذبح الذي أقيم للعبادة الأولى كان على جرزيم وليس على عيبال (تث ٢٧ : ٤-٨).
والسامرية الآن تضع التقليد السامري المؤكد في مواجهة التعليم اليهودي غير المستند على وثائق!

و يُعتَقَد أن الذي بنى المذبح على جبل جرزيم هو أخورئيس كهنة أورشليم، حينما طرده أخوه من أورشليم بسبب زواجه من بنت سنبلط حاكم السامرة، وهو فارسي الأصل. فحينما طرده أخوه ذهب وبنى هذا الهيكل على جبل جرزيم وقام هو كرئيس كهنة بإقامة العبادة حسب الأصول اليهودية بمنتهى الدقة (نح ١٣ : ٢٨). كذلك فإن يوسفوس المؤرخ اليهودي^(١١) يقول في تاريخه إن السامريين طلبوا من الإسكندر الأكبر الإذن ببناء الهيكل، فسمح لهم. ويضيف يوسفوس على تاريخ نحميا بأن أعطى اسم «منشئ» على أنه كان رئيس كهنة هيكل جرزيم وكان نسبياً لسنبلط حاكم السامرة الفارسي^(١٢). ويبدو من هذا التقرير أن تصريح الإسكندر الأكبر لم يكن للبناء بل ربما لإعادة بنائه، لأن الفرق بين زمن نحميا وزمن الإسكندر مائة سنة.

وقد هدم يوحنا هركانوس أحد المكابيين هذا الهيكل سنة ١٢٨ ق.م ولكن ظل السامريون يعبدون في نفس المكان و يقيمون الفصح والصلاة في مواعيدها. ويتجهون نحوه بالصلاة كقبلة إذا كانوا بعيدين عنه!

٢١ : ٤ «قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا امْرَأَةً صَدَّقْنِي إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لَا فِي هَذَا الْجَبَلِ وَلَا فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ».

«تأتي ساعة» :

هذه هي البشارة بالعهد الجديد، وهذه الساعة قريبة «تأتي»، وهي ساعة المسيح بلا شك، لأن بصلب المسيح ألغيت الذبائح وألغيت المذابح وألغيت الهياكل، إذ قد صار هو الذبيحة الأوحد للخلاص على المذبح الناطق السماوي في هيكل الله غير المصنوع بالأيادي حينما تكون العبادة والسجود لأب الجميع.

«تسجدون للآب» :

نقلة حاذقة وخطيرة من «آباؤنا» بالصورة المحصورة التعصبية إلى «الآب» الواحد الكلي للجميع. فعوض الانتماء التعصبي للبشر هوذا الانتماء لله الآب الحر المنفتح على كل بني البشر.

¹¹ Ant. XI,321-4.

¹² Ant. XI,302f.

وعوض العبادتين المتنافرتين المتعاديتين، هذه عبادة الواحد الأحد، وعوض الهيكلين المتصارعين بينهما هوذا الهيكل الواحد بيت الآب السماوي الذي يجمع الأولاد جميعاً دون نزيل أو غريب. وكأنما بجلوس المسيح على بثر يعقوب وفي أرض السامرة يعلن نفسه أنه يعقوب الجديد، إسرائيل البشرية كلها، ينبوع الحقيقي لماء الحياة الذي يجمع القريبين والبعيدين في ذاته ويضمهم إلى هيكل جسده، الآن بالحب والاستعلان، وبعد قليل بالدم على الصليب. «وتأتي ساعة» هي بعينها ساعة الفجر الآن التي تشير إلى ساعة الصليب السادسة، حين تُحل مشكلة السامرة والسامريين، وحين ترتفع العبادة فوق مستوى الأماكن والبلاد والجبال لتصبح بالروح، والروح ليس لها وطن على الأرض بل موطنها السماء.

ولا ننسى أن في أول كلمة «صدقيني» يا امرأة» ما يكفيها من اليقين والعزاء، عوض امتهان اليهود لهم والتعالي عليهم، يكفيها أن يكون «الآب» هو قبلة السجود، وهو قابل الساجدين له.

٢٢ : ٤ «أنتم تسجدون لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ؛ أما نحنُ فنسجدُ لما نَعْلَمُ، لأنَّ الخلاصَ هو من اليهود».

«تسجدون لما لستم تعلمون» :

المسيح هنا يستدرك ما قد يُفهم من تساوي أورشليم بجرزيم بانتهاء عصرهما معاً بحلول الساعة. فإن كانت العبادة في هيكل أورشليم ستبطل، وكذلك بالتالي وبالأولى في جبل جرزيم، فليس هذا معناه أن عبادة اليهود خاطئة، ولكنها في سبيلها إلى الارتفاع فوق ذاتها لتبلغ الكمال في الله، أما عبادة جرزيم فهي وإن كانت عبادة مُقدّمة في صورتها إلى الله ولكن الله نفسه غير معروف لدى السامريين. ومعلوم أن السامريين لا يؤمنون بالأنبياء جميعاً؛ في حين أن الأنبياء عند اليهود هم الذين تكلم الله بواسطتهم معلناً عن ذاته، وبالتالي كان اليهود ذوي معرفة صحيحة بالله، وبالتالي أيضاً أصبح السامريون محرومين من معرفة الله الصحيحة. فالناموس وحده بدون إلهام وتعليم سماوي ونبوة لا يخلّص لأنه حرف والحرف وحده — أي القانون — يقتل إذا كان بدون مَنْ يرحم ويُشفق.

هنا المسيح لا يدافع عن اليهود ولا اليهودية، ولكنه يدافع عن الحق المُعلن لليهود فقط دون أقطار العالم أجمع، ويدافع عن مصدر الخلاص الآتي، بل الحاضر، أمام السامرية، المتكلم باسم الحق والخلاص، وهو نفسه المخلص الآتي الذي أتى! كما أن المسيح هنا لا يهاجم السامريين ولا

عبادتهم ولا معبودهم ، بل يشفق على عبادتهم التي تذهب سدى بسبب غياب الحقيقة منها وفقدان «استعلان الله» على حقيقته بفقدان وسطاء الاستعلان والإلهام وهم الأنبياء . لأن تسلسل الأنبياء انتهى بمجيء من تنبأوا عنه وهو المخلص ؛ فصيح تنبؤهم وصحت نبواتهم . لذلك قال المسيح بكل يقين : «إن الخلاص هو من اليهود» ؛ لأن الخلاص ابتداء بالاستعلان عنه ووصفه الأنبياء وكأنه حاضر ، ورآه الآباء القديسون ونظروه من بعيد وحيوه وماتوا على رجاء . وهوذا ساعة الخلاص قد دقت دقاتها على صوت المعدان وأصبحت حاضرة بحضور صاحبها .

٢٣ : ٤ «ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» .

«ولكن» : ἀλλὰ

هنا يبدأ الكلام بـ «لكن» ، وهي تعود على ما فات ، أي على اختلاف العبادة باختلاف الحق فيها ، وكأن المسيح يريد أن يقول : لنترك «الآن» الخلافات ، لأن «الآن» أنت الساعة التي أصبح مفهوم السجود الحقيقي فيها يقوم على أساسين جديدين :

الأساس الأول : الساجدون أنفسهم إذ يتحتم أن يكونوا حقيقيين ἀληθινοί . و«الحقيقي» في إنجيل يوحنا وعند المسيح هو «الأليشيا» ، و«الأليشيا» هي الله أو الانتماء الصادق لله ، ويعني أن الساجدين يتحتم أن يكونوا لله عائشين ، ليكونوا لله ساجدين ، بمعنى أن يكونوا قد أفرزوا أنفسهم من العالم وتقدسوا لله ، أي تخصصوا بالمعمودية وما تفرضه المعمودية في حياتهم وأفكارهم وأعمالهم فيما يخص الحق : «المولود من الروح هو روح» .

الأساس الثاني : أن يكون سجودهم لله الآب أب الجميع ، وليس آبا لشعب دون شعب ، أو أمة دون أمة ، أو جنس دون جنس ، ويكون سجودهم للآب «بالروح والحق» ἐν πνεύματι καὶ ἀληθείᾳ

وهنا المسيح يرمي عصفورين بحجر واحد ، فالعبادة بالروح يهاجم بها عبادة إسرائيل التي هي عبادة بالحرف ، وهذه العبادة لم تعد مقبولة عند الله لأنها لم تعد بذى أثر ولا فائدة . والعبادة بالحق يهاجم بها عبادة السامريين فهي عبادة مزيفة أخذت الشكل دون الجوهر والاسم دون الحقيقة . وهي منذ البدء بلا فائدة : «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون» .

ولكن كيف تكون عبادة الإنسان «الآن» بالروح والحق؟

«الآن» يقصد بها المسيح حضوره الشخصي الذي جعل الساعة حاضرة دائمة بحضوره، فالأبدية فيه مُعلنة في عمق الحاضر الزمني. فـ «الآن» بوجود المسيح — الابن النازل من حضن الآب — هي الأبدية المستعلنة والحاضرة في الزمن، وهي كل المستقبل الروحي للإنسان.

+ والمسيح جعل، بالتجسد، الإتصال بين البشرية والله أمراً حادثاً حدوثاً حقيقياً وإلى الأزل ومفتوحاً على الجميع. وبهذا انفتح أمام الإنسان مجال الإتصال الروحي بالله سواء بالصلاة أو السجود بمعنى أن السجود بالروح صار متوفراً للإنسان في المسيح.

+ كذلك فالمسيح — الابن الوحيد — هو الاستعلان الكامل لله بالنسبة للإنسان كل مَنْ يؤمن. إذن، أصبح الإنسان يعبد مَنْ يعرفه معرفة حقيقية وهذا هو السجود بالحق بكل معنى: «وهذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ٣)

ولكن يُلاحظ أن المسيح لم يتمجد بعد، ولم يحل الروح القدس بعد. لذلك، فالعبادة بالروح والحق التي قال عنها المسيح آنثذ هي عبادة المستقبل — بينما العبادة في الهيكل لا تزال قائمة — ولكن لأنه قد تم التجسد والمسيح حاضر «الآن»، إذن فالساعة موجودة ولكن لم يتم استعلانها الكلي بعد.

«السجود» لله هو عملية اتصال. يستحيل الإتصال بالله بواسطة العنصر الجسدي في الإنسان الذي هو منتبذ إلى الحياة الأرضية.

«الله روح»، وقد وضع في الإنسان عنصراً روحياً يقيم كيانه، وهو متفوق على الجسد، ووضع هذا العنصر أي «الروح» ليكون أداة اتصال بالله: «وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتُحفظ رُوحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح» (١ تس ٥: ٢٣). وروح الإنسان في وضعه الصحيح خاضع لروح الله: «الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو ٦: ٦٣). إذن، فمجال العبادة قد أصبح في المسيح هو المجال الأسمى الذي يتلاقى فيه الله والإنسان، أي أن زمان العبادة تحت توصيات وتعليمات جسدية قد انتهى: «أشكر إلهي يسوع المسيح... فإن الله الذي أعْبُدُه بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم.» (رو ٨: ٩و٨)

«لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين لهُ» (بالروح والحق).

«لأن»: *kai gar*

بإدانة تجعل الآتي من الكلام يؤكد ويضمن ويسهل ما فات من الكلام.

فالعبد بالروح والحق، وإن بدت بالنسبة للإنسان مطلباً أعلى من إمكانياته، إلا أن هذا أمر متيسر. لأن *kai gar* الله يسعى من جهته طالباً وجاذباً مثل هؤلاء الذين يسعون للسجود له بهذه الشروط، فلأن الله روح فهو يطلب الساجدين بالروح، ولأنه هو الحق فهو يطلب الساجدين بالحق. فالله من جهته عامل مشجع وجاذب ومسهل لكل الساعين للعبادة والسجود بالروح والحق؛ لأن هذه هي مسرة طبيعته.

٢٤:٤ «الله رُوحٌ. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا».

المسيح يرتفع بمفهوم الله ليرتفع بمفهوم الاتصال به. فـ «الله روح» بمعنى أنه لا يدخل في كيانه أي شيء من قياسات العالم المنظور لا الزمان ولا المكان ولا المحدودية، وأهم تركيز هنا هو على المكان، لا أورشليم ولا جرزيم. وقد سبق وقلنا إن الله وضع في الإنسان عنصراً روحياً وهو الروح ليقيم كيانه كمخلوق روحي، ليتسنى له الاتصال بالله والوجود في حضرته دون النظر إلى الزمان أو المكان أو الشكل أو اللغة. لذلك فالعبادة والسجود لله لكي تكون منظورة من الله ولكي يراها ويسمعها ويستجيب لها، يلزم أن تكون من طبيعته بالروح والحق غير ملتزمة لا بزمان ولا بمكان لا بيهود ولا بسامريين. وهنا كلمة «ينبغي» تعني «يلزم إلزاماً» و«يتحتم تحميماً»، أي لا يمكن أن تُقبل عبادة وسجود إلا إذا ارتفعت لمستوى الروح والحق، بمعنى أن لا ترتبط قط لا بإمكانة ولا بأزمته ولا بأجناس ما.

وبمنظرة سريعة إلى الخلف، نستطيع أن نحصل على محور التجديد في إنجيل يوحنا في الأمثلة السابقة. فالخمر الجيد — في قانا، والهيكل الجديد — في أورشليم، والماء والروح والميلاد من فوق عند نيقوديموس، والتعميد بالروح القدس على ضوء المعمدان، والماء الحي والعبادة بالروح والحق للسامرية؛ هذه كلها عناصر الانتقال من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح، أي عناصر التجديد والخلقة الجديدة التي يرشخ المسيح مفاهيمها بالتدرج. كما أن هذه العناصر جميعها، الخمر والهيكل والميلاد الفوقاني والتعميد بالروح والسجود بالروح والحق، هي المقابل الروحي الحق والمطلق الذي لا تحده حدود بشرية أيًا كانت تجاه اليهودية وكل العبادات الأخرى

للإنسان. هذه هي صورة العهد الجديد للإنسان عادة، التي صارت في محيط «تأتي ساعة وهي الآن».

والعجيب حقاً أن هنا هذه العناصر أو الرموز الحية: الخمر الجديد، الهيكل الجديد، الإنسان الجديد، العبادة بالروح والحق، تتركز في شخص المسيح نفسه: «أنا هو الذي يُكلمك»! علينا الآن أن نجسّد هذه المعاني المطلقة «بالروح» و«الحق»، حتى نفهم كيف يكون السجود بالروح والحق على مستوى حياتنا اليومية وعبادتنا. فالسجود بحد ذاته هو «بالجسد شكلاً» فإذا بقي السجود بشكله الجسدي والعددي فقط فهو لا يُحسب أنه سجود بالروح. ولكن إذا انطلق الإنسان من داخل السجود الجسدي بروحه بإحساس الوجود في حضرة الله، يُحسب سجوداً بالروح. والسجود بالروح له مواصفات روحية تثبت حقيقته. فإن روح الإنسان في حضرة الله تكون خاشعة غاية الخشوع، منضبطة، غير مشتتة، مطروحة أمام الله، مكشوفة بكل عيوبها وأخطائها، كما تكون الروح في حالة استقبال أكثر من كونها متكلمة وذات مطالب، شديدة التركيز والحساسية لاستماع تعليمات الله وتوبيخ الروح، أو تقبل التشجيعات الخفية أو الرد على أسئلة روحية للبنیان.

كذلك السجود بالروح لا يمنع أن يلتزم بالمواعيد والعدد وأصول السجود. ولكن إذا اكتفى الإنسان بالإتقان الشكلي فلن ينتفع شيئاً، وذلك يظهر بوضوح حينما يُنهي الإنسان سجوده وعبادته ويخرج كما دخل وذهنه مشغول بأموره الخاصة أو العامة. فعلاقة السجود بالروح هي أن يخرج الإنسان من حضرة الله مفعماً بمشاعر الرضى والراحة والفرح مهما كانت أموره محزنة. فالحزن والضيق والألم والشكوى كل هذه يتحتم أن ننفذها عنا قبل الدخول في حضرة الله للسجود. حالة خروجنا من السجود يكشف هل كنا حقاً في حضرة الله، وهل حصل إتصال فعلي أم لا. السجود بالروح في حضرة الله ليس هو واجباً، بل ضرورة روحية كالأكل والشرب والدواء والعلاج تماماً بالنسبة للجسد. إذا لم نمارس السجود بالروح، فالروح تجفّ ويتعطل عملها، فتتقلقل رؤية الإنسان ولا يحس بوجود الله، وقليلًا قليلًا ينكمش الإيمان ويفقد الإنسان حرارة الروح وتبدأ المثل العليا تهتز أمامه، ويزحف الشك على إيمانه، ويفقد الإحساس بصدق الإنجيل والله، ويشك في الحياة الأبدية، لأن أداة الإتصال بالله قد أصبحت عاطلة، أي الروح الموضوعة في الإنسان لهذا الأمر.

يلزم أن يفهم الإنسان أن الله وضع فيه الروح كأداة إتصال بالله، فإذا لم تُستخدم تُنزع مواهبها من الإنسان، وروح الإنسان الأمينة والنشطة والملتصقة بالله على الدوام تصير مكان سُكنى الروح القدس ومرافقته، فإذا أهمل الإنسان السجود بالروح، لا يعود يحظى بزيارة الروح القدس والنعمة. والخطية تترصده، فتشتت الرؤية: «روحك القدوس (يا رب) لا تنزعه مني»

(مز ٥١: ١١). فإن كان الله قد وضع الروح في الإنسان رغبةً منه أن يتصل بواسطتها مع الإنسان، إذن أصبح السجود بالروح جزءاً لا يتجزأ من كيان الإنسان بالنسبة لحياته مع الله. لأنه كما أُعطي الإنسان الشهية للأكل، كذلك أُعطي الروح للعبادة والسجود والصلاة. فإذا كان الإنسان يعرض نفسه للموت إذا لم يأكل، هكذا فهو معرض للموت إذا لم يسجد بالروح. غير أن الموت الروحي لا يشعر به الجسد، والنفس المستهترّة لا تعيره اهتماماً. ولكن في نهاية عمر الإنسان يستيقظ ضميره فيرى عظم الخسارة بل المصيبة التي اكتسبها لنفسه بإهمال الإتصال بالله الذي سيذهب ليتراعى أمامه. لذلك فالمرجو أن يختبر الإنسان نفسه بعد كل سجود هل كان بالروح أم لا، وهل اتصل بالله فعلاً أم لا.

٢٥: ٤ «قالت له المرأة: أنا أعلم أن مسياً — الذي يُقال له المسيح — يأتي. فمتى جاء ذاك يُخبرنا بكلّ شيء؟».

هنا عنصران في صميم الواقع في هذا الحوار، يسيران جنباً إلى جنب. الأول أن السامرية بدأت تحس بقرب المسيح منها وبدأ الإشعاع الروحي الشخصي يطفئ على الحديث، وهذا أمر في غاية الأهمية، لأن الإنسان إذا ابتدأ يفتح على الله قليلاً، فإن الله يفتح عليه كثيراً. وهكذا تدخل السامرية، دون أن تدري، في المجال الروحي للمسيح، وهذا هو الذي جعلها تلقائياً تمتد بفكرها نحو النبي الموعود الذي سجلته توراتهم في سفر التثنية الذي وعد به موسى.

أما العنصر الثاني فهو تسلسل الحديث، فقد انتهت السامرية إلى القول بأن اليهودي الواقف أمامها، وهو السيد، هونبي. ولكن في تصريحه الأخير عن العبادة بالروح والحق التي ستكون لا في أورشليم ولا في جرزيم جعلها تنطلق في تفكيرها من نحوه، إنه يتكلم بأبعد من إمكانيات نبي، فالنبي الواقف أمامها لو كان يهودياً فهو حتماً سيُزكّي أورشليم فوق جرزيم، ولكنه لا يفعل ما يتحتم على النبي اليهودي أن يعمل، فمن يكون؟ وقفت السامرية أمام المسيح حائرة. أيمن أن يكون هذا هو مسياً الذي طالما سمعوا عنه وانتظروه؟ لم تستطع أن تقطع بالأمر، لأن الرؤيا غير كافية أمامها. وهذا أمر في غاية الأهمية أيضاً، لأن أي شك من نحو الله يجعل صورة الله تهتز فوراً. لهذا اتخذت على الفور مبادرة من شأنها أن تكشف الحقيقة وتقطع بالأمر، فألقت بسؤالها أمامه، وهو ليس سؤالاً بل تساؤلاً، والرد عليه كفيلاً إما بأن يقطع الشك باليقين إن قال نعم، وإلا فعليها أن تنطوي مرة أخرى على نفسها بانتظار مسياً — هذا الذي يستطيع وحده أن يُعرفها بالحقيقة وبكل شيء. والله دائماً يرحب جداً أن يدخل أي اختبار. وقصة جدعون أحد قضاة بني إسرائيل يتضح

فيها هذا المبدأ. ففي أول مقابلة مع ملاك الله الذي أمره أن يخرج ويحارب الأعداء، قدّم جدعون أول اختبار لصحة شخصيته وصحة كلامه وهو أن يبقى في مكانه في بيدر الحقل حتى يعود إليه بجدي يذبحه له ذبيحة تكريم، فوافق. وثاني اختبار قدّمه لصحة وعد الرب أن يكون الرب معهم في الحرب أن قدّم اختباره الثاني بصورة جزّة صوف وضعها في الظلّ بالليل، وفي أول يوم اشترط على الرب أن يملأ الظلّ — أي الندى — الجزّة ولا يمس الأرض حولها، فوافق الرب وصنع ما طلب جدعون. وفي ثاني يوم غيّر الاختبار أن ينزل الظلّ حول الجزّة ولا يمس الجزّة نفسها، وكان أن فعل الرب ما طلب. فتأكد جدعون وحارب وغلب. وكان الرب عند حسن ظن جدعون!

«أنا أعلم أن مسيّا — الذي يقال له المسيح — يأتي. فمتى جاء ذلك نخبرنا بكل شيء»:

يقول «شناكنبرج» في بحثه عن عقيدة السامريين فيما يختص بالمسيا هكذا:

[انتظار العهد الماسياني عند السامريين — كما تقول به هذه المرأة — يأتي مطابقاً لما نقرأه من المصادر المحفوظة عن السامريين. فالمسيّا كان اسمه عندهم «تا. إب»، ومعناها قريب من اللغة العربية أي «الآيب» بمعنى الآتي أو الراجع وذلك بحسب التوراة (تث ١٨: ١٨). فهو محسوب عندهم أنه النبي الذي سيظهر في آخر الأيام خليفة لموسى النبي. ولأهمية هذا النص من التوراة عند السامريين فقد جعلهم على رجاء مستمر. ومما جعله أمراً هاماً جداً عندهم أن في توراتهم تسجّل هذا الوعد بعد العشر الوصايا. وهذا المعنى «تا. إب» في مفهومهم هو قائد سياسي، فهو سيعيد مملكة إسرائيل (السامرة) مثل مسيّا اليهود على مستوى مملكة داود. غير أنه بسبب اتصاله بموسى، فقد تحتم أن يكون من سبط لاوي. إذن، فكونه هو كاهناً فهو سيعيد لهم العبادة الحقّة، أما دوره كنبي مُستعلن للحقائق وكمعلم فهو أمر منتظر ومترقّب بحسب مفهوم النبوة (تث ١٨: ١٨).

وفي كتابهم المسمّى (ممارمركا) — وهو من القرن الثالث الميلادي — في الفصل الرابع والمقطع ١٢ يقول: إنه سيعلم الحق! ويوسفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للقديس يوحنا يسجل ويؤكد في تاريخه أن السامريين لهم رجاء بمجيء المسيا. ويحقق العلماء في صحة مجيء كلمة «مسيّا» بدون «أل» التعريف في قول السامرية... ليكون مطابقاً لاسم المسيا عندهم وهو بدون «أل» التعريف. وعندما قالت السامرية: «الذي يُقال له المسيح» فهي تترجم اسمه عندهم باسمه عند اليهود. [١٣]

¹³ Schnackenburg, *op. cit.*, p. 441.

٢٦: ٤ «قال لها يسوع "أنا هو" الذي أكلمك» ! ἐγώ εἰμι, ὁ λαλῶν σοι

توقع المرأة لهذه الحقيقة، هو الذي دفع المسيح لإعلانها. لم يكن المسيح قادراً، بعد، أن يحجز عنها هذه الحقيقة حينما بلغتها وتوقفت عند حدودها عاجزة تطلب وقد يدها لكي يُدخلها إلى النور أو يُدخل النور إليها. لقد أدركت تماماً أن وراء هذا الإنسان شيئاً أعظم من نبي ولكنها تعثرت في أمرين: الأول أنه يهودي، والثاني هذا الجسد المتعب العطشان. إن عثرة التجسد تقف الحاجز الأخير للإيمان الذي إذا تخطاه الإنسان بلغ إلى رؤية الله. والله وضع هذا الحجاب الحاجز بين الإنسان لاختبار هذا الإيمان، فهو الحاجز، وهو نفسه الطريق الموصل إلى السماء إلى قدس الأقداس: «طريقاً كرّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده.» (عب ١٠: ٢٠)

يلاحظ في الترجمة العربية (١٤) أنها أخفت «أنا هو» ἐγώ εἰμι دون معرفة. فهنا يقع هذا الاصطلاح كاسم شخصي لـ «يهوه» (١٥) كما تنطقه جميع أسفار العهد القديم. فالمسيح يُبرز شخصيته ليس كالمسيّا الذي تنتظره هي أو اليهود عموماً، كمن يرثُ المُلْك أو يُعلّم التوراة عن صحة أو يبني هياكل ويصحح عبادات، بل هو «يهوه» الذي يصنع كل شيء جديداً. نطقه المسيح وهو مغطى بالسرية التي لا يفكّها إلا من يبحث عنه !!

هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يعلن فيها المسيح عن شخصيته المسيّانية قبل المحاكمة، يقابلها في إنجيل مرقس فقط موقفٌ مماثل: «لأن من سقاكم كأس ماء باسمي لأنكم للمسيح فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره.» (مر ٩: ٤١)

وعلى القارئ أن يلاحظ أسلوب المسيح في إنجيل يوحنا في الإعلان عن نفسه، فمع نيقوديموس ابتداءً من «الريح التي تهب حيث تشاء»، مع صورة سرية للماء لقيام أولاد الله مولودين جدداً من فوق؛ ومع السامرية ابتداءً من الماء الذي «من يشربه لا يعطش أبداً»، الصورة السرية للمياه التي تولد منها النفوس الجدد أيضاً.

أما نيقوديموس فتعثر، شأنه شأن معلّم الحرف في العهد القديم: «لأن الأجنّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة» (إش ٣٧: ٣)؛ وأما السامرية فطلبت بشغف وشربت بثقهم، ورأت المسيّا، وتعلمذت وصارت طليعة الأمم.

(١٤) جاءت هذه الآية في طبعة بيروت: «أنا الذي أكلمك هو».

(١٥) أنظر شرح «أنا هو» كاسم شخصي ليهوه في المدخل ص ٢١٨-٢٤٦ وعلى الخصوص ص ٢٢١.

لقد سقط عن السامرية ثوبها المنجّس بقدر الخطية، حينما انفتحت عينها ملياً ورأت المسيح أمامها مُستعلنًا. فقد ولّت منها في الحال شياطين الظلمة، ولَفَّها نور المسيح. إذ لَمَّا يسقط عن النفس ثوبها المنجّس، تتولى الملائكة إلباسها ثياب النور، وهي الثياب المزخرفة عند زكريا النبي: «وكان يهوشع لابساً ثياباً قدرة وواقفاً قدام الملاك فأجاب وكَلَّم الواقفين قدامه قائلاً: انزعوا عنه الثياب القدرة. وقال انظر قد أذهبتُ عنك إثمك وألبسك ثياباً مزخرفة... وملاك الرب واقف» (زك ٣: ٣-٥). نعم لقد لبست الأمم فرحتها يوم لبست السامرية ثيابها المزخرفة.

ب - حديث الرب مع التلاميذ: (٢٧: ٤-٣٨)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: «يا معلّم كُلّ».

الجديد: «لي طعام لا كل لستم تعرفونه أنتم. طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عمله».

القديم: الأنبياء الذين زرعوا بالدموع.

الجديد: التلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا فيه.

٢٧: ٤ «وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة ولكن لم يقل أحدُ ماذا تطلُب أو لماذا تنكلمُ معها».

+ إحدى بركات الخدمة اليومية في المجامع:

[أشكرك أنت الرب الذي لم تخلقني امرأة].

+ إنذار الحكماء اليهود:

[الرجل لا يتكلم مع امرأة في مكان عام حتى ولو كانت زوجته].

+ قول للربانيين اليهود:

[إنه خير لكلمات التوراة أن تحرق من أن تُلقى على مسامع امرأة].

+ [سأل جليلي امرأة يهودية في الطريق أين الطريق إلى لدة؟]

أجابت أيها الجليلي الأحق ألم تسمع أنه ليس للرجل أن يتكلم مع امرأة في الطريق وأنت تسأل الطريق إلى لدة؟].

رابي يوسا (١٦)

+ [أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة

يكون هذا بمثابة أنه يعلمها الدعارة؟؟؟].

رايبي إلغازار^(١٧)

+ بولس الرسول :

[ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحداً في

المسيح يسوع] (غل ٣: ٢٨).

عند هذا الحد من الحوار الذي انتهى باستعلان المسيح لذاته ، وصل التلاميذ ، ومن بعيد رأوا المعلم والسامرية فتعجبوا متحشمين أن يتكلموا ، لأن من عادة حكماء اليهود والرايين والمعلمين عموماً أن لا يتحدثوا مع امرأة في الطريق مهما كان الأمر.

ولكن هذا التعجب بعد ذاته يكشف أن التلاميذ كانوا لا يزالون بعيدين جداً عن فكر المسيح والمسيحية . وهذا يوضح مدى التغير الهائل الذي حدث للمجتمع اليهودي بالنسبة للمرأة بالذات ، لما آمن بالمسيح واعتمد لوصاياه وقَبِلَ استعلان الحق الإلهي ، الذي أضاء ذهن الإنسان وحياته .

ويقول العالم «ليون موريس» في كتابه لشرح إنجيل يوحنا في هذا الموضع إنه حتى إلى الآن حينما يُلقى السؤال في المجتمع اليهودي عن وضع المرأة يقال لهم : [إذا كنا الآن نحس أن المرأة قد حازت على أفضل التغيير في وضعها ، فهذا في المجتمع المسيحي وليس بحسب الرؤية اليهودية القديمة] .^(١٨)

«ولكن لم يقل أحدٌ ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها» :

هذان السؤالان اللذان لم يخرجنا إلى حيز الوجود ، يوضحان العلاقة القائمة بين المعلم والتلاميذ كيف كانت تقوم على أساس الإحترام الشديد والوقار والخشية . وهذا فعلاً أحد الآداب اليهودية التي ورثتها المسيحية وظهرت في الحياة الرهبانية القائمة دائماً على المعلم والتلميذ ، ولكن للأسف لم تَدُم ، فعصرنا الذي نعيشه الآن انقلبت فيه المُثُل والأوضاع ، وضاع الميراث والتراث بل ضاع منهج الحياة والحياء .

¹⁷ Ibid.

¹⁸ Ibid.

٢٨: ٤ «فتركت المرأة جَرَّتَها ومضت إلى المدينة وقالت للناس».

استجابة المرأة هذه المرة ليس بالقول بل بالعمل. لم تَقُلْ: ماذا ستعمل وإلى أين تذهب، ولكنها تركت جَرَّتَها تأكيداً أنها لا بد حاضرة وأنها ستأتي أمراً هاماً!

عادت المرأة إلى أهل مدينتها في غير ثوبها المنجّس بالقدر الذي به عرفوها، ولكن بثوبها الجديد المزركش بالنور صُنِعَ يد النعمة وتطريز ملائكة، وافتهم وبُشِّرَى الخلاص على فمها.

إنه أمرٌ لا يستطيع العقل أن يلاحقه، كيف أن هذه السنين كلها التي عاشتها هذه النفس في وحل الخطية تُغتسل في ساعة وأقل؟ لك يا عزيزي القارئ أن تحكم في نور هذه «التوبة العاجلة جداً» مدى تضاهاة الخطية بطولها وعرضها وعمقها وخطوطها التي ترسّخت في الشعور واللاشعور وقيدت الغرائز واستعبدت الأعضاء وكل الجسد!!

كيف انحَلَّت وبادت هذه كلها في مواجهة النور وفعل النعمة!! انظر إلى جبروت الوقوف في حضرة الرب وماذا يصنع الحوار الصريح مع القادر على كل شيء! انظر الآن وتمعن في معنى التجديد، ومعنى الميلاد من فوق، ومعنى التحول من القديم إلى الجديد، ليس عادات وغرائز وحسب، بل قيم وتقاليد وقيود من حديد! تَفَكَّرْ الآن كيف يُخلق الإنسان من جديد من فوق، كيف يغتسل بل يتقدّس بل يلبس النور كثوب.

وما أخفق معلّم الناموس في فهمه، مارسته السامرية في أعلى صورته. ألا ترى معي هنا لماذا بكل صدق وحق أخذ الله الملكوت من اليهود وسلّمه للأمم؟ وكيف كانت السامرية باكورة ثماره؟

ذهبت السامرية إلى البئر بالجرّة على رأسها والدموع على خدّيتها تبكي حظها ولا مَنْ يُعزّي، فالشماتة خلفها!! وعادت إلى المدينة والفرحة تملأ قلبها، إكليل القداسة فوق رأسها وإنجيل البشارة على قدميها: «ومفديّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون (العليا) بترنم، وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم، ويهرب الحزن والتهد». (إش ٣٥: ١٠)

٢٩: ٤ «وقالت للناس هلمّوا انظروا إنساناً قال لي كلّ ما فعلت. أعلّ هذا هو المسيح».

لم تَدْعُ زوجها بل دعت الناس، كل الناس! تركت جَرَّتَها، نسيت صنعتها، لم تُعَدْ تذكر بيتها ولا ماضيها، أهملت الجسد!

المسيح وحده ملأ فكرها، ملأ قلبها. دخلت مياهه أعماقها ففاضت أنهار ماء حي. لا بد أن يصير للناس كل ما صار لي.

هلموا هلموا: «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا... اسمعوا فتحيا أنفسكم.» (إش ٥٥: ١ و ٣)

«إنساناً قال لي كل ما فعلت»:

إن المبالغة التي تتكلم بها هي صادقة: «كل ما فعلت»، مع أن المسيح راجعها في أمر الخمسة والموجود معها الآن! ولكن المسيح فتح وعيها فاسترجعت كل ما فعلت وكأنها قالت، كأنها اعترفت به واحدة فواحدة. هكذا يستيقظ وعي الإنسان عندما يتوب. وبعدها تُمحي ذكرياته وتلاشي سيئاته وتترك له زلأته ولا يعود يذكر هو ولا يذكر له الناس ولا الله شيئاً واحداً مما فعل...

ولكن واحسرتاه على الذي كتم خطاياهم وختم على خزيه وعار صباه، فهذه كلها تعود وتستيقظ معه في حضرة الديان، بعضها يجري أمامه، وبعضها يجري خلفه، وكأنه واقف وسط أعدائه.

«ألعلّ هذا هو المسيح»:

إنها تعلم تمام العلم اليقين أنه مسيّا بلا نزاع، هو قال لها: «أنا هو». لقد دخلت الكلمة أعماقها، لقد صار المسيح مصوراً في قلبها وضميرها، لقد غطى كل صورة عداها، ومسح كل وجه سواه. لقد صار المسيح عريس حياتها الذي استعاد بتوليبتها وأنعش أمل الحياة والوجود والخلود في أعماق أعماقها... ولكنها لم تُرِدْ أن تستيقظ حكم المدينة عليه لئلا يناقضوها فيما قالت وفيما اعتقدت. تركت لهم الحكم، ولكن دفعتهم للمجيء لينالوا ويحكموا بأنفسهم ما حكمت و يعتقدوا ما اعتقدت، وقد كان!!!

٤ : ٣٠ «فخرجوا من المدينة وأتوا إليه».

الكل يجري ويتراكم... إشعياء يراهم وينذهل من رؤياهم: «ها أمة لا تعرفها تدعوها، وأمة لم تعرفك تركض إليك... لأنه قد مجّدك!» (إش ٥٥: ٥)

لقد سمعوا نداءها واستجابوا لحرارة دعوتها وصدق مشاعرهم. لقد وثقوا من صدق قولها، فأين هذه من صاحبة السيرة الأولى التي كان يحتقرها كل ناظر ولا يابه بقولها أحداً! التي كانت تمشي

تتلصص الطرق التي فرغت من عابريها وتختار الأوقات التي لا يسير فيها أحد لتسير وحدها منظوية على خزيها!

٣١-٣٣ «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين: يا معلم كل. فقال لهم: أنا لي طعام لا أكل لستم تعرفونه أنتم. فقال التلاميذ بعضهم لبعض: أعلّ أحداً أنه بشيء ليأكل.»

كان المعلم عطشاناً لماء السامرية ولكن ليس جوعاناً لطعام التلاميذ. كان عطشه للماء يخفي وراءه عطشاً لخلاص السامرية والسامريين. والجوع إلى طعام المشيئة الأبوية أخفى هنا جوع الجسد، ليس عن تعالٍ فهو ابن الإنسان، ولكن عن أفضلية. والتلاميذ هنا عادوا فأخذوا دور السامرية، هو قال لها عن الماء الحي الذي من يشربه لا يعطش أبداً، وهي ظنته ماء لراحة الجسد؛ وهو هنا يقول عن طعام يأكله بالحب الإلهي لتكميل مسرة الآب وهم ظنوه طعاماً أكله خلصة من يد عابر سبيل!!

٣٤: ٤ «قال لهم يسوع: طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتّم عملة.»

المسيح تجتاحه الرغبة الإلهية لخلاص الناس بعنف يغطي كل أعواز الجسد! هنا يستعلن سر الحركة الإلهية في نفس وجسد المسيح كيف تحل محل كل رغبات وشهوات وحاجة الجسد والنفس معاً!

إن الأصوام العالية القدر والقدرة التي مارسها الرب سواء في الأربعين على الجبل وحده أو غيرها هي لرفع الجسد والنفس البشرية لتتصادق مع الرغبات الإلهية المقدسة التي للاهوت!! هنا حالة مصغرة من هذه الحالات التي كانت تعلن عن وجودها إزاء المهمات الكبرى! هنا مطالب اللاهوت تُغطّي على مطالب الجسد، وتدعو الجسد للتآلف معها ليشبع من المشيئة المقدسة ويقنع بمجد الرسالة! هنا الجسد يستجيب بكل حرارته وقوته فتلتهمه نار الجذوة الإلهية فلا يبقى فيه إلاّ إرادة موحدة لتكميل الرسالة حتى كمالها. وكأن المسيح يريد أن يقول لهم جئت لأعطي نفسي طعاماً لحياة الناس فوق أن آكل طعام الناس لأحيا. حياتي ليست من طعام الجسد بل من حياة الآب: «كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو: ٦: ٥٧)

لا ننسى أبداً أن جسد المسيح تعيّن أصلاً وأساساً ليكون ذبيحة وليس لمجاراة أعوازه!! والذبيحة بدأت يوم أن خرج إلى العالم ينادي بالخلاص، الخلاص المعقود لواؤه على ذبيحة الجسد!! الذبيحة لم تبدأ وتنتهي عند الصليب، بل تراءى المسيح في إنجيله مذبحاً بالنية من اليهود كل يوم!! أما هو فلم يشفق على الجسد، بل بسرور كان يقدمه للآب كل يوم في الأتعاب والإضطهادات والجوع والعطش ذبيحة مسرة!! «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقرباناً لم تُردّ ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قلت هاأنذا أجيء، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله.» (عب ١٠ : ٥-٧)

إن العمل الحاسم الحازم الذي أخذه الرب في نفسه وعلى نفسه أنه قدّس المشيئة كلية لعمل الفداء!! «لأجلهم أقّّس أنا ذاتي» (يو ١٧ : ١٩)! لقد أفرغ المسيح كل عافية الجسد حتى آخر قطرة إلى أن قالها وهو مرتاح «قد أكمل» (يو ١٩ : ٣٠). ليس أنه كان يسعى متسرعاً أن يشرب الكأس، بل بتمهّل فائق الوصف والقدرة، وبتغييرات جذرية في تنوع الخدمة وتغيير الاتجاه في المسير وتغيير الأماكن للخدمة وللتوقف عن العمل، ثم الإستئناف. كان يتحاشى الصدام المبكر مع القاتلين، حتى إلى درجة استخدام القدرة الفائقة في إخفاء وجوده، حتى يكمل كل العمل الذي كان يستلمه من الآب يوماً بيوم... لقد قالها أيضاً وهو مرتاح: «أنا مجدّتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧ : ٤)!!! ولكن أي تكميل؟ تكميل الآلام بالآلام: «لأنه لاقَ بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام.» (عب ٢ : ١٠)

نعم، وقد صار هذا التكميل المتقن لحساب كل البشرية ويزيد: «وإذ كُمل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي.» (عب ٥ : ٩)

فإذا كان تصميم المسيح الحاسم شديداً لهذا الحد في تكميل مشيئة الآب الذي أرسله وتتميم عمله، لذلك كان همه الطاعني أن يتفدّ الخطة المرسومة بكل اعتناء، حتى صارت إرادة المسيح ومشيئته مبتلعة تماماً في مشيئة الآب من نحو العمل الموضوع أمامه. لذلك لا نتعجب أن يُسقط في الطريق كل اهتمامات الجسد ومشينات الناس والأهل: «فأجاب وقال (للقائل له): مَنْ هي أُمي وَمَنْ هم إخوتي. ثم مدّ يده نحو تلاميذه وقال ها أُمي وإخوتي. لأن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأُمي.» (مت ١٢ : ٤٨-٥٠)

٣٥ : ٤ «أما تقولون إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد. ها أنا أقول لكم ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضَّت للحصاد».

كان تقاطر أهل السامرة في جموع متلاحمة لابسين ثيابهم التقليدية البيضاء كأنهم حقل قمح نضج للحصاد، فللحال اتخذ المسيح «كمثل» لعمل الملكوت المتسع بالنسبة للأزمة القادمة بعد: «العمل وتكميل الخلاص بالآلام»، الذي هو بحسب تشبيه المسيح سقوط حبة الحنطة في الأرض لتموت ثم تخرج من جديد حقلًا من القمح للحصاد.

في هذه القصة، قصة السامرية، تستطيع الأذن الحساسة أن تتبين أنها موقَّعة على أنغام الصليبوت.

+ درجة درجة تبتدىء النعمة واضحة بمنظر المسيح «متعب من السفر»؛ وكأنه سفر الخدمة المجهد الطويل الذي انتهى بالضرب والجلد وضُفِرَ إكليل الشوك.

+ وهنا تبتدىء النعمة تعلو قليلاً حينما تقول القصة حرفياً أنها «كان نحو الساعة السادسة»!! بلغة ساعة الصليب تماماً.

+ ثم تزداد النعمة صراخاً حينما يقول المسيح: «أعطيني لأشرب»؛ «أنا عطشان» بلغة الصليب تماماً.

+ ثم النعمة تزداد لتصير صراخاً مدوّياً حينما يقول المسيح «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عملَه»؛ يقابلها على نفس السلم «قد اكْمِل».

+ ثم تهبط النعمة حزينة ممزوجة برجاء حيّ حينما يقول المسيح: «الماء الذي أنا أعطيه»؛ لترد عليها أنغام الصليب «وخرج منه دم وماء».

+ ثم عَوْدٌ على ذي بَدْءٍ: «لأن تلاميذه كانوا قد مضوا» (وتركوه وحده)... لتتقابل في انسجام مع نعمة «تأتي ساعة وقد أتت الآن تفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي.» (يو ١٦: ٣٢)

+ ثم عودة أكثر إلى خلف لنسمع: «انظروا الحقول (القمح) قد ابيضَّت للحصاد...»؛ واسمع نعمة «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض ونُمتْ فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بشمر كثير.» (يو ١٢: ٢٤)

+ ثم اسمع نعمة القوة عندما انتهى الرب مع السامرية إلى ما انتهى إليه ، حينما تساءلت عن المسيح فقال لها : «أنا هو الذي اكلمك»؛

+ وعلى جانب الصليب وبنفس القوة ، وحينما تساءل بيلاطس : «أفأنت إذاً ملك» ، أجاب يسوع : «أنت تقول إني ملك لهذا قد وُلدت أنا» .

+ ثم اسمع كودة الختام العالية جداً والسريعة جداً بصوت أهل السامرة يعلنون بلا تحفظ : «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم»؛

+ واسمع النعمة المقابلة بنفس الرثم من قائد حرس المائة : «حقاً كان هذا الإنسان ابن الله» .

ليس من اللازم أن هذا التوافق كان في ذهن ق. يوحنا ، ولكن الروح لا يخطأ حينما يؤلف بين أقوال وأقوال قارناً الروحيات بالروحيات .

ولكن نستشف من هذه المقابلة أن قصة السامرية هي لقطة من منظر الصلبوت ، معها في الحال جانب من بدء الخدمة وافتتاح الإرساليات . فالمسيح يتكلم عن الحصاد . والحصاد في إنجيل المسيح له ميعادان محددان لا ثالث لهما : الحصاد الأول حصاد المؤمنين بالكراسة ، وهذا بدأ بعد القيامة ولن ينتهي إلا يوم القيامة ، حيث الحصاد الثاني للدينونة !!

أما الأول : «الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده .» (مت ٩ : ٣٧ و٣٨)

أما الثاني : «وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة : أرسل منجلك واحصد ، لأنه قد جاءت الساعة للحصاد ، إذ قد يبس حصيد الأرض ! فألقى الجالس على السحابة مثجله على الأرض فحصدت الأرض .» (رؤ ١٤ : ١٥ و١٦)

وأصل قصة الأربعة الأشهر والحصاد والحقول المبيضة التي حيرت جميع الشراح هي حسب ظننا كالآتي :

كان التلاميذ يتكلمون مع بعضهم وأمامهم حقول القمح مخضرة على سفوح جبل جرزيم ، أنحصب بقاع إسرائيل ، والزرع له في الأرض شهران وكانوا يتناجون أن بعد أربعة أشهر يكون

الحصاد. لأن القمح يستمر في الأرض ستة شهور كاملة حتى يُحصد: من منتصف أكتوبر إلى منتصف أبريل. علماً بأن منتصف أبريل أي وقت الحصاد المبكر هو هو زمن الصليب بالضبط. لذلك هنا كلمة «أربعة أشهر» من فم المسيح و«ثم يأتي الحصاد» إشارة واضحة جداً لتكميل عمله رسمياً على الصليب: «قد أكمل»!!

وهنا الربط واضح بين قول المسيح: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» وبين الأربعة الأشهر والحصاد في حديث المسيح الذي جاء بعده مباشرة!! هنا ليس تداعي الألفاظ ولا هو تداعي الأفكار، بل الحُبْك في إنجيل يوحنا.

بقية المعنى يتمشى معنا هكذا: أنتم تقولون أن بعد أربعة أشهر يكون الحصاد، وأنا أقول لكم ها هو الحصاد أمامكم والحقول أمامكم ابيضَّت للحصاد، فالسامريون كانوا يتقاطرون بشياهم البيضاء مسرعين نحو المسيح بقيادة مَنْ آمَنت وكانت أول الكارزين: «ارفعي عينيك حواليك وانظري. كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حيُّ أنا يقول الرب أنكِ تلبسين كلهم كُحْلِي، وتتمنطقين بهم كعروس.» (إش ٤٩: ١٨)

هذا في الحقيقة منظر مبكر جداً جداً عن مياعده، لأننا لسنا في زمان الحصاد لنفوس المؤمنين بالمسيح الذين يتقاطرون إليه بهذه الלהفة!! ولكن هذا ما حدث بسبب شدة التأثير الذي حدث للسامرية بسبب استعلان المسيح لنفسه استعلاناً كاملاً بقوة لاهوته: «أنا هو»، الذي لم يحدث قط وكأنه استعلان ما بعد القيامة. فكانت كرازة المسيح للسامرية على مستوى استعلان كامل لمسيح القيامة والخلاص والحياة الأبدية. وكان تأثير السامرية على السامريين من نفس النوع، لأن أمامهم امرأة خاطئة تحولت إلى قديسة، فكان هذا كفيلاً بصدق استعلان المسيح فيها!! فكان هذا الحقل البشري القادم لقبول الإيمان نموذجاً مبدعاً وكاملاً للحصاد القادم!!

٤: ٣٦ و ٣٧ «والحاصد يأخذ أجره ويجمع ثمرًا للحياة الأبدية لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنه في هذا يصدق القول إنَّ واحداً يزرع وآخر يحصد.»

لاحظ أن الحاصد هنا لم يتعب، إنه يتلقى نفوساً آمَنت جاهزة للحياة الأبدية. ولكن عجيب هو الرب، فقد جعل للحاصد أجره لأنه يجمع مع المسيح وللمسيح حصيداً لن يتبدد. وفي الحقيقة إن الكلام هنا عميق وسرِّي للغاية، يلزمنا أن نَسْتَبِق الكلام لنقرأ في الأصحاح السادس عن «عمل الله»: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أَرْسَلَهُ» (يو ٦: ٢٩). وبعد، يظهر من

الكلام بغاية الوضوح أن «عمل الله» هو بمثابة الأكل من المنّ الحقيقي الخبز الذي أرسله الله!!!
«أنا هو خبز الحياة» - «مَنْ يَأْكُلْنِي يَحْيَا بِي»!

ثم لو رجعنا قليلاً في نفس الموضوع نجد المسيح يقول : «اعملوا لا للطعام البائد (الخبز اليومي) بل للطعام الباقي (الخبز الحي) للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو ٦: ٢٧). «ختمه» هنا تعود ليس على الطعام، لأن هذا الفعل جاء واقعاً على شخص مذكر في اللغة - وهو المسيح - وليس على الطعام (المؤنث في اللغة اليونانية). فالطعام الباقي للحياة الأبدية الذي الآب ختمه هو المسيح، والعمل نفسه لحساب المسيح! «اعملوا للطعام». فهنا «الحاصد ثمر الحياة الأبدية» هو «عامل للطعام الباقي للحياة الأبدية»!! بمعنى أن الخادم أو المرسل طعامه هو الآخر أن يعمل للحياة الأبدية، يأكل المسيح ويطعم الناس من أطايبه!! هذه هي أجرة المرسل والكارز والخادم للكلمة أيّاً كان!!

«لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنه في هذا يصدق القول أن واحداً يزرع وآخر يحصد» :
واضح أن المسيح يقصد هنا كل الذين تعبوا في كلمة الله منذ أن جاءت كلمة الله وكان لها من يحملها ويتكلم بها ويزرعها في قلوب الناس على كل الأجيال السالفة. لأننا نسمع عن مثل هؤلاء الذين خلّصوا نفوساً منذ القديم سمعاً مبهرأ : «والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردّوا كثيرين إلى البر كالكوكب إلى أبد الدهور» (دا ١٢: ٣). هؤلاء هم الذين زرعوا الكلمة في قلوب سامعيهم ومضوا. ليس أنهم أشخاص الماضي الذي يُنسى، ولا هم تعبوا وانتهى تعبهم إلى نسيان، حاشا لرب الحصاد ديان الأرض كلها أن لا يصنع عدلاً؛ فهؤلاء يعيدّون الآن عيد الأبدية في عُرس فرح الخروف، هاتفين بالمجد إلى أبد الأبد مع ربوات هم محفل ملائكة! هناك يتلاقى الزارع والحاصد معاً وعلى «رؤوسهم فرح أبدي».

٣٨: ٤ «أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم».

لكي يستقيم الشرح يلزم أن نفهم ما هو تعب الزارع وما هو تعب الحاصد. كذلك ما هو فرح هذا وما هو فرح ذاك. أما تعب الزارع فليس من الجهد المبذول والتعب المضني وسفك الدم، لأن هذا اشترك فيه الأنبياء تماماً على مستوى الرسل : «وآخرون عُذّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل. وآخرون تجربوا في هُزء وجلد، ثم في قيود أيضاً وحبس. رُجموا نُشروا جُربوا ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلّين، وهم لم يكن العالم

مستحقاً لهم. تانهين في براري وجبال ومغائر وشقوق الأرض. فهؤلاء كلهم، مشهوداً لهم بالإيمان، لم ينالوا الموعد إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكْمَلُوا بدوننا» (عب ١١ : ٣٥-٤٠). أما عَيْنة آلام وتعب وعذاب وقتل واستشهاد الحاصدين فهو بكل تأكيد مماثل بالحرف الواحد!

إذن، ففرق التعب الوحيد أن هؤلاء الآباء والأنبياء القديسين القدامى جاهدوا دون رؤية: «من بعيد نظروها»!! (عب ١١ : ١٣). لم يذوقوا الخلاص، ولا عرفوا الحب الفادي، ولا سمعوا صوت العريس، ولا فرحوا بالرب في ملء استعلان مجده، ولا تشددوا هكذا بالروح القدس المعزّي؛ فكان تعبهم مريراً ومرارتهم بلا حلاوة. أما الرسل ومَنْ بعدهم من المرسلين والكارزين فلا يُحسب تعبهم الجسدي قط بجوار الفرح والعزاء والقوة والمجد الذي كانوا يعيشونه. إن أعظم مَنْ تعب وتألّم فيهم كان بولس الرسول، وكان أبهج شيء عنده أن يكمل نقائص شدائد المسيح في جسده. اسمعه في آخر قول له: «جاهدتُ الجهاد الحسن... وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر» (٢ تي ٤ : ٧ و٨). لذلك كان المسيح نفسه يغبطهم: «والتفت إلى تلاميذه على انفراد وقال: طوبى للعيون التي تنظر ما تنظرونه لأنني أقول لكم إن أنبياء كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (لو ١٠ : ٢٣ و٢٤). واضح، إذن، أن تعب التلاميذ والمرسلين عموماً عادله بهجة الخلاص وفرح الروح وزمالة المجد مع المسيح، فما عاد يُحسبُ تعباً بل فرحاً: «الآن أفرح في آلامي لأجلكم» (كو ١ : ٢٤)، «ودعوا الرسل وجلدوهم وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع ٥ : ٤٠ و٤١). إذن، صَحَّ قول المسيح أن آخرين تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.

ج- إيمان السامريين: (٤ : ٣٩-٤٢)

الاستعلان: «هذا هو مخلص العالم».

٤ : ٣٩-٤١ «فآمنَ به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة التي كانت تشهد أنه قال لي كل ما فعلت. فلما جاء إليه السامريون سألوهُ أن يمكثَ عندهم، فمكثَ هناك يومين. فآمنَ به أكثرُ جداً بسبب كلامه».

أمامنا نوعان من الإيمان: إيمان عن طريق الشهادة: «فآمن كثيرون بسبب كلام المرأة»، وإيمان مباشر عن طريق الاستعلان بالكلمة: «فآمن به أكثرُ جداً بسبب كلامه». والذي يسترعي

انتباهنا هنا هذا الإستعداد المتوفر جداً عند السامريين سواء للإيمان عن طريق مجرد الشهادة، أو بالأكثر عن طريق الكلمة المباشرة.

والذي يسترعي الانتباه في إيمان هذا الشعب السامري، أنهم لم يطلبوا آيات أو عجائب، بل كان إيمانهم مبنياً على القناعة الروحية وصدق الاستعلان من خلال الكلمة.

إن ق. يوحنا اهتم بأن يضع هذا المثل الإيماني عن السامريين في مقابل المثل له عند اليهود، ليوضح كيف أن استعلان المسيح يمتد أكثر وبسرعة واستجابة تلقائية عند غير اليهود. وهكذا انفتح باب الأمم للإيمان على مصراعيه — مبتدئاً من السامرة — ونحن.

ولكن يُلاحظ أن المسيح مكث هناك يومين. الرقم هنا مثير للدهشة فهو ليس ثلاثة أيام كالعادة. المعنى الدفين هنا أن إيمان السامرة جاء قبل الميعاد، جاء ناقص النضج، ينقصه الإيمان بالقيامة.

٤: ٤٢ «وقالوا للمرأة: إنا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن؛ لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم».

لقد أحب الرب السامريين — أعداء اليهود — لكونهم منبوذين وخارج السياجات. لقد أكمل الله فيهم مثله المشهور عن الرجل الغني الذي صنع عشاءً عظيماً وأرسل عبده يدعو المدعوين: «وأرسل "عبده" في ساعة العشاء ليقول للمدعوين (اليهود، أبناء الملكوت): تعالوا... فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقّتها وأدخِلْ إلى هنا المساكين والجُدْع والفرج والعُمني (مساكين اليهود الذين صنع معهم آياته). فقال العبد: يا سيد قد صار كما أمرت، ويوجد أيضاً مكان. فقال السيد أخرج إلى الطرق والسيجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي.» (لو ١٤: ١٦ — ٢٣)

في الحقيقة كان مسلك المسيح مع السامرية نوعاً من الإلزام المقبول. لقد عرض عليها الخلاص وأقنعها بضرورته فقبلته تحت اقتناع طائغ شبه التزام!! وهذا من حق الأمم، لأن الخلاص غريب عنهم. أما اليهود: «فالخلاص من اليهود»، يعرفونه وهم مدعوون له!! فلما رفضوه، قال الغني: «لأنني أقول لكم إنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشاءي.» (لو ١٤: ٢٤)

وليلاحظ القارئ مسلك المسيح الذي جعلهم يهتفون به مخلصاً للعالم!! فأولاً لم يَنَحْزْ لمكان

العبادة عند اليهود في أورشليم ضد عبادة السامريين في جِريزيم، إلا أنه تمسك «بالحق والروح في العبادة». إذن، فهو يصح أن يكون حكماً عادلاً لكل دين!! ثم إنه لم يفرق بين جنس وجنس! إذن فهو يصح أن يكون كبيراً على كل الأجناس!! ثم إنه ذهب إلى عقر دارهم المنجس عند اليهود، وأكل من أكلهم الممنوع، وشرب من شربهم المحرم. إذن فهو يصح أن يكون حبيباً لكل الناس والمنبوذين بالدرجة الأولى. ثم إنه خلّص أخطى خطاة مدينتهم ثم كلّمهم بكلمة الخلاص عينها فآمنوا بها وخلصوا! فكيف لا يكون هذا المسيحاً مخلص العالم؟

اللقب الذي أعطاه السامريون للمسيح هو أعلى استعلان لاهوتي للمسيح في الإنجيل! وقد جاء عن شدة تأثرهم به باقتناع، وشدة عوزهم إليه بلهفة، ثم إحساسهم بالعزلة المُرّة عن اليهود التي يحسّها العالم كله والتي رفعها عنهم، فلماذا لا يرفعها عن العالم كله؟ وتم قول هوشع النبي: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة، ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي أنه هناك يُدْعَوْنَ أبناء الله الحي». (وردت في رومية ٩ : ٢٥ و٢٦)

أما السامرية فظلت أغنية الكارزين. ويذكر لنا التقليد أن الكنيسة الأولى قننتها كقديسة تحت اسم St. Photina القديسة فوتينا (فوتنة باللسان العربي) والاسم باليوناني Φωτίνα أي المضيئة. وتعيّد لها الكنيسة الغربية في ٢٠ مارس. (١٩)



¹⁹ ICC, Bernard, vol. 1, p. 136.

الجزء الثاني: إنجيل قوة الكلمة

[٤٦:٤ – ٤٧:٥]

«إنجيل قوة الكلمة» يشمل معجزتين أجراها المسيح بمجرد النطق بالكلمة ثم عَقَّب على المعجزة الثانية بتوضيح قوة الكلمة:

+ المعجزة الأولى: شفاء ابن خادم الملك — وقد تمت في الجليل (٤٦:٤ — ٥٤):
«فآمن الرجل بالكلمة».

+ والمعجزة الثانية: شفاء مريض بركة بيت حسدا وقد تمت في أورشليم. وبها يبدأ الأصحاح الخامس، وقد تمت أيضاً بمجرد كلمة من المسيح: «قُمْ احمل سريرك وامش».

وقد عَقَّب عليها الرب في بقية الأصحاح الخامس بتوضيح قوة الكلمة المحيية: «مَنْ يَسْمَع كَلَامِي... قد انتقل من الموت إلى الحياة»... «يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ».
ثم كشف سبب عدم إيمان اليهود، لأن «ليست لكم كلمته ثابتة فيكم».

+ +
+

مكان البشارة:
خامساً — في الجليل
(٤ : ٤٣ — ٥٤)

شفاء ابن خادم الملك

الترحيب بالمسيح في الجليل ، وصُنع آية واحدة في قانا الجليل ذات طابع جديد:

٤ : ٤٣ و ٤٤ «وبعد اليومين خرج من هناك ومضى إلى الجليل . لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه» .

«فيا رب الجنود القاضي العدل فاحص الكلى والقلب ،
دعني أرى انتقامك منهم لأنني لك كشفت دعواي .
لذلك هكذا قال الرب عن أهل عناثوث الذين يطلبون
نفسك قائلين لا تتبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا !! لذلك
هكذا قال رب الجنود: هاأنذا أعاقبهم ، يموت الشبان
بالسيف ويموت بنوهم وبناتهم بالجوع .»

(إر ١١ : ٢٠ — ٢٢)

لقد حفر المسيح الزارع السماوي في أرض السامرة وألقى بذار الكلمة ، ولما اطمأن إلى حفظ
الوديعة بعد يومين غادر أرض السامرة وانطلق إلى الجليل . وكما يقول القديس كيرلس الكبير (٢٠) :
[عبر في منتصف الطريق إلى الناصرة فأعطاهما ظهره . وانطلق إلى الجليل الأعلى — لأنها لم
تقبله في السابق — وقال عليها مثله المشهور : «ليس لنبي كرامة في وطنه» ؛ ليس لأنه
يسعى إلى كرامة الكرازة ولكن لأن عمل الخدمة لا يثمر في أرض يمتنع عليها شرب الماء ،
والآية يصعب إثباتها في قلب بلا أمانة] .

وهنا يلّمح المسيح إلى العلاقة بين تكريم الله ورضاه : «أكرم الذين يكرموني والذين
يحتقرونني يضغرون» (أم ٢ : ٣٠) . ولم يصنع آيات في كفرناحوم لأنهم لم يكونوا يؤمنون به .

٤٥:٤ «فلما جاءَ إلى الجليل، قَبِلَهُ الْجَلِيلِيُّونَ، إِذْ كَانُوا قَدْ عَاينُوا كُلَّ مَا فَعَلَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي الْعِيدِ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَيْضاً جَاءُوا إِلَى الْعِيدِ».

حتى هذا القبول من الجليليين يضعه ق. يوحنا موضع الهزال والتفاهة، إنما بلغته المملوءة سرّاً، عندما أضاف إلى ترحابهم السبب فيه: ليس من أجل شخص المسيح ولكن لأنهم عاينوا آياته. فرق شاسع بين تقرير ق. يوحنا عن إيمان السامريين الذي ترسخ في قلوبهم دون آية واحدة: «نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم»، وبين إيمان الجليليين الذي هو بلا إيمان، القائم على رؤية الآيات وحسب. وصحّ في السامريين قول إشعياء النبي: «أصغيتُ إلى الذين لم يسألوا. وُجِدْتُ من الذين لم يطلبوني. قلتُ هأنذا هأنذا لأُمَّة لم تُسمَّ باسمي» (إش ٦٥: ١). أما عن اليهود ف: «بسطتُ يديّ طولَ النهار إلى شعبٍ متمرّد» (إش ٦٥: ٢، رو ١٠: ٢١). ويلزم أن ينتبه القارىء، فمستقبلاً سوف يرفض الجليليون المسيح أيضاً في الأصحاح السادس والعدد ٦٦.

٤٦:٤ «فجاءَ يسوعُ أيضاً إلى قانا الجليل حيثُ صَنَعَ الْمَاءَ خَمِراً. وَكَانَ خَادِمٌ لِلْمَلِكِ ابْنُهُ مَرِيضٌ فِي كَفَرْنَاهُومَ».

كلمة «أيضاً» تعني ثانية، فالمسيح يسعى ثانياً إلى من يقبله أولاً. لقد تأثر به أهل قانا وأحبوه عندما صنع عندهم معجزته الأولى في تحويل الماء خمراً جيداً، فأحبهم هو أيضاً وها هوذا يعود إليهم وعلى استعداد لعمل المزيد.

«خادم للملك ابنه مريض»:

أما الملك فبحسب تحقيق العلماء هو هيرودس أنتيباس رئيس ربع على الجليل، وكان معروفاً في الشعب باسم «الملك». وكثير من العلماء يقولون إن هذا الخادم هو «خوزي» (المذكور في إنجيل لوقا ٨: ٣) أو ربما «مناين» (المذكور في سفر الأعمال ١٣: ١). وخوزي هو زوج يُونَنَ المرأة التي كانت تتبع المسيح مع النساء اللاتي كُنَّ يَخْدُمَنَهُ من أمواهن الخاصة.

٤٧:٤ «هَذَا إِذْ سَمِعَ أَنَّ يَسُوعَ قَدْ جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ، انْطَلَقَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ وَيَشْفِي ابْنَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مُشْرِفاً عَلَى الْمَوْتِ».

«وسأله أن ينزل»:

يلاحظ أن كفرناحوم واقعة على شاطئ البحيرة (بحر الجليل). أما «قانا» فهي عنى هضبة

أعلى كثيراً من مستوى البحر. والذي يهنا هنا هو دقة الوصف الذي يعطيه ق. يوحنا لطبيعة المكان وطبيعة الحركة، مما يوضح بلا مواربة أنه مواطن عاش في هذه المناطق ودرسها وانطبعت في ذاكرته، كما أنه يسجل كلمات هذا الضابط الملكي حرقياً كما فاه بها، وكأنها مسجلة عنده. على أن المسافة بين كفرناحوم وقانا الجليل تبلغ بحسب تحقيق يوسفوس المؤرخ اليهودي حوالي ١٦ ميلاً، قطعها هذا الضابط الملكي راكباً على الأرجح.

٤٨:٤ «فقال له يسوع لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب؟»

المسيح هنا يستحث الإيمان بدون آية، الإيمان بالكلمة. فالإيمان بالكلمة يستقر في القلب حيث تنمو الكلمة ويثمر، أما إيمان الآية فيستقر في العقل حيث القياس والمقابلة والشك والنسيان.

والمعجيب حقاً أن في نفس هذه القصة بل وفي صميم هذه الآية آمن الضابط الملكي «بالكلمة»، فكانت «الحياة» هي الجائزة الممنوحة له في الحال. لذلك نلاحظ أنه في توبيخ المسيح، دائماً دائماً يكمن الباب المستور والعطية المخفية والحل المفرح والعزاء المقيم لو التفت الإنسان وقبّل التوبيخ طالباً النور: «أومن يا سيد فأعزّ عدم إيماني.» (مر ٩: ٢٤)

«آيات وعجائب»: σημεία καὶ τέρατα

المعجبة هي الآية على المستوى المذهل للعقل، الذي يثير إما التعجب الشديد أو الإعجاب الأشد.

ويلاحظ أن مجيء هذين اللفظين معاً يقتصر على موضعهما هنا في إنجيل يوحنا. أما بالنسبة لأسفار العهد الجديد وأسفار العهد القديم فورودهما معاً موجود وبصورة مكثفة. والمقصود هنا هو الإعتماد على الرؤية العينية أو المظهر الباهر الشكلي للآية والمعجزة. ولكن يوجد إيمان صحيح قائم على الآية ولكن ليس القائم على الرؤية العينية، بل على المعنى والإحساس الباطني بالوعي والفطنة المسيحية، كآية تحويل الماء خراً في عرس قانا الجليل التي على أثرها آمن به تلاميذه.

٤٩:٤ «قال له خادمُ الملك: يا سيد انزل قبل أن يموت ابني.»

لقد فرغ صبر الأب، والجزع على ابنه جعله ينسى آداب الحديث مع من جاء يطلب منه الحياة!! فلم يكن قد أدرك بعد — مثل مرثا — أن سلطانه يتجاوز القبر والموت، وأن كلمته من على بُعد تُحيي وتقيم من الموت.

ق. يوحنا يلقينا مرة واحدة في قلب القصة الملتهب! أب ملهوف على ابنه المريض وقد بلغ حافة الموت. والابن عزيز أعز من النفس لدى الأب الحنون. وها الأمل قد انقطع من جهة كل علاج ممكن، وقد أطل الموت بظله الكئيب والمفرع مصمماً على قطع شريان الحياة لمن تحبه نفس الأب.

لاحظ أن ق. يوحنا لم يهتم بمن هو هذا الخادم، أممي هو أو يهودي، لم يعط جواباً، كما لم يهتم باسم الابن وعمره، يكفي أن ليس في الوجود أعز من الابن. ولكن الذي يثير انتباه ق. يوحنا، ويود أيضاً أن يثير انتباهنا إليه، هو الزمن وسلطانه بأيامه وساعاته ودقائقه على قلب ضعيف الإيمان: إنه الفرع.

وق. يوحنا يترجم لنا أثر تباطؤ المسيح في الاستجابة كما يودها الضابط الملكي الذي لم يتعود قط إلا أن يأمر فيطاع، وكيف أنشأ هذا التباطؤ في نفس هذا الضابط قلقاً مريعاً إزاء تصوّره الموت وهو يزحف نحو فريسته.

ثم يترجم لنا القلق الذي انتاب هذا الضابط إلى إلحاح، فهو يتجنب الدخول في بحث كيفية الإيمان دون أن تحدث المعجزة، وهو جاء يطلب المعجزة وليس الإيمان!! ولم يكن المسيح في تصوّره إلا صانع معجزات، هذه مهنته!! وهذه نظرة أهل زماننا إلى القديسين أيضاً، فهم أصحاب كرامات وحسب، يُطلب منهم عمل المعجزات وإلا فكيف يُدعَوْنَ قديسين؟ لا «ينظرون إلى سيرتهم» كما قال الكتاب (عب ١٣: ٧)، ولكن ينتظرون معوناتهم وحسب!

شيء واحد يلحُ على ذهن الضابط الملكي كيف يقنع صانع المعجزات هذا بالنزول فوراً لاتقاذ حياة ابنه!

٤ : ٥٠ «قال له يسوع اذهب ابشك حيّاً! فأمن الرجل بالكلمة التي قالها له يسوع وذهب».

أمام الرب كانت ثلاثة عوامل تحثه أن يقول كلمته:

الأول: ثقة الرجل وتعبه في السفر ٢٥ كيلومتراً حتى التقى به، فهو لم يُرد أن يخيب ظنه.

الثاني: الابن المريض، وها قضية الفصل بين الموت والحياة أُلقيت بين يديه، فكيف لا يفصل لحساب الحياة وهو ربّها!!

ثالثاً: الإلحاح الذي يطوّبه الرب جداً: صلُّوا صلُّوا ولا تملُّوا، الذي ضرب عليه مَثَل الأرملة المظلومة أمام قاضي الظلم وكيف أن إلحاحها غلبَ ظلم القاضي. فكيف لا يُغلب وهو قاضي العدل!!

«اذهب ابْنُكَ حَيٌّ»:

[أقمّت الطبيعة بالكلمة [القداس الإلهي.

[مُنقِذُ حياتنا من الفساد [القداس الإلهي.

قوله لا يقولها إلا الله. ولقد عظمها الضابط الملكي أيما تعظيم، وكأنه تلقّاها من قائده الأعلى، وكأنني به يضرب الكعبين ويرفع يده بالتحية وكأنه أمام ملك. لقد أخذ الكلمة كما هي وكأنها تأشيرة واجبة التنفيذ في الحال. انحنى الضابط أمام الرب كجندي ملتزم بالطاعة وانسحب من أمامه ومعه الكنز الذي استؤمن على استيعابه وما بقي أمامه إلا التحقيق. كانت الخطورة مُخدّقة به على طول الطريق، لأنه كان قد «آمن بالكلمة» دون صاحبها. إلى ذلك الحين لم يكن المسيح عنده موجوداً بشخصه، بل اكتفى بالكلمة منه، يحققها دون أن يتحقق بعد من شخصه، شأنه شأن من يُكرّم الإنجيل وينحني أمامه ويُقبّله ويضعه على رأسه ويستودعه خزانة من ذهب، ثم ويُقبّل كل يد تخدمه، أما صاحب الإنجيل والكلمة فغائب عنه، لا يعلم منه إلا اسمه.

٤: ٥١ و ٥٢ «وفيما هو نازلُ استقبله عبيدُهُ وأخبروه قائلين إنّ ابْنَكَ حَيٌّ. فاستخبرهُم عن الساعة التي فيها أخذ يتّعافى، فقالوا له أمس في الساعة السابعة تركتُه الحَيّ».

كان هذا السؤال هو الاختبار الفاصل في قلب هذا الضابط الملكي الذي أضمر كيف سيقيم المسيح به، فإن كان الولد قد شُفي في الساعة التي فيها نطق المسيح كلمته، يَكُنْ هو المخلص حقاً، وبه يؤمن حتماً، وإلا فلا إيمان البتة! ولكن بيني وبينك أيها القارئ العزيز أبهذا يُقيم الخالدُ الأبدِيُّ؟ أنُعادلُ القديرَ بمنافعنا الخاصة؟ أنساوي ربّ الحياة بشفاء جسد؟ ولكن لا مانع لدى المسيح: «فالذي يُقبِلُ إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو: ٦: ٣٧)، «وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (مت ١٢: ٢٠)! أليس هو الراعي الصالح الذي يسعى وراء الحروف الضال، والذي له خراف أخر ينبغي أن يأتي بها من خلف السياجات؟ ألم يأت بالسامرية حالاً، وقد ضمّ شعباً في يوم واحد؟!

٥٣ : ٤ «ففهم الأب أنه في "تلك الساعة" التي قال له فيها يسوع إن ابنك حيّ؛ فأمن هو وبنته كله».

«فأمن هو وبنته كله» :

لقد أفرخت «الكلمة» الحيّة التي خبأها في قلبه وهو مسرع نحو بيته . لقد انفتح الكنز وخرجت منه الحياة ومعها الإيمان المؤدي إلى الحياة الأفضل ! هنا، ولأول مرة، نسمع مبكراً عن إيمان عائلي برؤته . وأهل البيت بالنسبة للضابط الملكي يضم أفراداً وحاشية وخداماً كثيرين، صورة طبق الأصل من السامرية التي قادت مدينة إلى الإيمان بالمسيح . لذلك فإن وضع قصة شفاء ابن الضابط الملكي بعد قصة السامرية يدخل في محطّط إنجيل ق . يوحنا تحت عنوان : «السامرة في مقابل اليهودية»، و«الأمن في مقابل الجليل» . والتفسير للاثنتين هو القبول إزاء الرفض .

هنا تلح علينا المقارنة المبدعة التي يشير إليها ق . يوحنا دون أن يعلن عنها . فالانطباق مبدع حقاً : وهي قصة إيليا النبي مع أرملة صرّفة صيدا الأُمّية التي ألح إليها الرب في إنجيل لوقا (٢٥ : ٤) . كيف أقام ابنها من الموت حيّاً : «فسمع الرب صوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاشر . فأخذ إيليا الولد ونزل من العلية إلى البيت ودفعه لأمه وقال إيليا : انظري ابنك حيّ؛ فقالت المرأة لإيليا : "هذا الوقت علمتُ أنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حقٌ" .» (١ مل ١٧ : ٢٢-٢٤)

وللاحظ القارئ أن الكلمات التي قالها إيليا والتي قالتها المرأة تتجاوب حرفياً مع ما تم بين المسيح والضابط الملكي . ولكن تمتاز قصة الضابط الملكي بأن المسيح أقام الولد حيّاً بكلمة وعلى بُعد ١٦ ميلاً . وحينما يدقق القارئ في قصة خادم الملك القصيرة هذه، يندهش كيف تراحت فيها المعايير اللاهوتية والكلمات ذات الوزن العالي عند إنجيل يوحنا : «الأب» - «الابن» - «الموت» - «الحياة» - «الكلمة» - «الإيمان» . وكيف اقترنت «الحياة بالموت» فصُرع الموت، و«الإيمان بالكلمة» فانتهى إلى «الإيمان بالمسيح» . ثم انظر كيف يبرز ق . يوحنا التكرار في كلام المسيح «ابنك حيّ، فأمن»، «ابنك حيّ»، «ابنك حيّ، فأمن»، لينتهي بنا إلى هذا المعيار المسيحي الأعظم : الإيمان سرّ الحياة .

كذلك يهمنا أن نوضح كيف يتخذ ق . يوحنا من هذه الآية القائمة على هذا المعيار، وهو أن الإيمان عنصر الحياة الذي يقيم من الموت، يتخذها أساساً لتعليمه . فبعد أن قدّم الفعل العملي الصامت بالآية، يبتدئ في الأصحاح القادم مباشرة يبنى عليه تعليمه، وذلك في الحوار العنيف

الذي دار مع اليهود حول قدرة المسيح وسلطانه على إعطاء الحياة بالمساواة مع الله : « كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء » (يوه : ٢١). كذلك يتخذ المسيح من إيمان الضابط الملكي « بالكلمة » الذي أوصله بالفعل إلى الحياة بالنسبة لابنه أساساً لتعليمه : « من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية. » (يوه : ٢٤)

نفهم من هذا أن معجزات الشفاء في إنجيل يوحنا، إنما يعرضها بحساب معين يقوم على أساس التعليم المبني عليها. فهدف المعجزة عند إنجيل يوحنا هو استعلان المسيح وليس فقط عمل رحمة.

٥٤ : ٤ « هذه أيضاً آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من اليهودية إلى الجليل. »

هي محاولة من ق. يوحنا لتنبيه أذهاننا إلى الترابط الشديد بين الآيتين اللتين صنعهما الرب في قانا الجليل. ففي بداية القصة يشير إلى الآية الأولى : « فجاء يسوع أيضاً إلى قانا الجليل حيث صنع الماء خمرًا ». وهنا يكرر الإشارة : « هذه آية ثانية ». والهدف المشترك بين الآيتين هو « إظهار مجده » كما في الأولى أمام تلاميذه؛ هكذا في الثانية أمام حشد من بيت الضابط الذي يُعتقد أنه أممي « فأمن هو وبيته كله ». هنا الاستعلان يأخذ صورة متقدمة في الثانية عن الأولى. وهكذا يسير إنجيل يوحنا في هذا النمط من الاستعلان المتدرج.

والملاحظ أيضاً أن الآيتين تشتركان في سمات أساسية بالنسبة لإنجيل يوحنا وهي لحظات الحرج البالغ. في الآية الأولى فروع الخمر في وسط حفل العرس. في الآية الثانية : ابنه « كان مُشرفاً على الموت »، « قبل أن يموت ابني ». ثم ردُّ الفعل السخي جداً : ستة أجران ملائمة خمرًا (١٣٤ جالون = ٦٠٠ لترًا تقريباً) في الآية الأولى، وفي الثانية : « اذهب ابنك حي ».



الأصحاح الخامس

وقفة قصيرة

المرحلة التي تميزت بالصدام السافر مع الفريسيين
من الأصحاح الخامس حتى الثاني عشر:

على مدى الأصحاحات السالفة أكمل المسيح تقديم نفسه لكل فئات اليهود:
في أورشليم: للفريسيين والرؤساء.
في اليهودية: للشعب المتعصب.
في السامرة: للشعب المنبوذ.
وفي الجليل: للشعب الساذج فلاحين وصيادين.

وبذلك يكون قد استوفى عناصر الإيمان المناسب لهذه الفئات المتباينة كلٌّ على مستوى ثقافته وإدراكه.

ومن الآن يبدأ الصدام الذي بدأت بذاره مبكرة في اليهودية أو أورشليم، ويستمر إلى أن ينتهي بالآلام. وسوف نواجه في الأحاديث والمناقشات التي سنعتبر عليها نماذج من الإيمان، ونماذج من الرفض، على التوازي؛ حيث بالكلمات الموجهة والأعمال ذات الأهداف، استعلن المسيح أفكار اليهود المناهضة والتي جاءت بلا تعقل ولا فهم. أما أشدها عنفاً على المستوى المأساوي غير المعقول، فكان في أورشليم. وكانت المناسبات المختارة هي الأعياد الرسمية للأمة. وقد تبلورت هذه الصدامات على ثلاثة محاور لثلاث آيات خارقة صنعها المسيح.

- الأولى: شفاء المريض المقعد منذ ثماني وثلاثين سنة في بيت حسدا: الأصحاح الخامس.
- الثانية: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أمه: الأصحاح التاسع.
- الثالثة: إقامة لعازر من الموت: الأصحاح الحادي عشر.

ولكن يتخلل هذه المجموعة المترابطة، الأصحاح السادس — الذي تتم حوادثه في الجليل، وهو يبدو لكثيرين من الشراح وكأنه في غير موضعه، وكان ينبغي — في نظرهم — أن يكون موضع الأصحاح الخامس. ولكن تبويب ق. يوحنا، في الحقيقة يعتمد لا على التسلسل الجغرافي ولا

التاريخي، ولكن على طبيعة التعاليم والحوادث من جهة استعلان الرب لذاته، واستعلان أفكار قلوب اليهود. لهذا فإن الأصحاح السادس نجده يتبع فعلاً مجموعة الصدمات واستعلان المسيح لشخصه كابن الله. كما يكشف الشعب بل والتلاميذ الذين كانوا على غير المستوى، سواء للتلمذة أو للأمانة، إذ تركوا المسيح ولم يعودوا يسرون وراءه. لذلك استحسن ق. يوحنا أن يضمّه إلى أعمال الرب التي أكملها في أورشليم بالرغم من أن حوادثه جرت في الجليل.

وهذه المجموعة من الصدمات التي تقع من الأصحاح الخامس حتى الأصحاح الثاني عشر تنقسم من جهة عنف الصدام إلى قسمين:

الأول: مجرد بادرة لريح الصدمات، وتستغرق الأصحاحين الخامس والسادس.

الثاني: الصدام في أوج عنفه، ويستغرق من الأصحاح السابع حتى نهاية الثاني عشر.

مكان البشارة
سادساً — في أورشليم
(١:٥-٤٧)

الأصحاح الخامس

شفاء مريض بركة بيت حسدا
والمصادمة الأولى مع اليهود

الأصحاح الخامس يُعتبر تكميلاً لإنجيل «قوة الكلمة» الذي ابتدأ في الأصحاح الرابع بمعجزة شفاء ابن خادم الملك ٤: ٤٦-٥٤.

والأصحاح الخامس ينقسم إلى أربعة أقسام واضحة:
القسم الأول: سرّد لتفاصيل الآية التي صنعها المسيح، أعداد من ١-١٨، وتنتهي بمحاولة قتل المسيح.

القسم الثاني: شرح تفصيلي لمركز الابن من الله الآب وماهية الابن في ذاته، أعداد من ١٩-٣٠.

القسم الثالث: الشهادة للابن، أولاً من المعمدان، ثانياً من الآب، ثالثاً من الأعمال، رابعاً من الأسفار: ٣١-٤١.

القسم الرابع: أسباب عدم إيمان اليهود: ٤٢-٤٧.

على أن ما ورد في القسمين الثاني والثالث، أي شرح ماهية الابن وعلاقته بالآب، ثم الشهادة للابن على كل المستويات كما وردت في هذا الأصحاح، فهو يُعتبر الأساس الذي يبنى عليه إنجيل يوحنا كل تعاليم المسيح.

والمسيح يخاطب في هذا الأصحاح أعلى مستوى لفئات الأمة، والإشارة ستجيء عنهم واضحة هكذا: «ها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً. أعلل الرؤساء عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً.» (يو: ٧: ٢٦)

القسم الأول من الأصحاح الخامس

(١٨-١)

معجزة شفاء مريض بركة بيت حسدا (*)
وحوار مع الفريسيين ينتهي بمحاولة قتل المسيح

٥ : ١ «وبعد هذا كان عيدٌ لليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم».

«بعد هذا» : μετὰ ταῦτα

وتعني في اليونانية «بعد نفس هذه الأمور كحوادث»، وبها يقصد ق. يوحنا الانتقال من مجموعة حوادث إلى مجموعة أخرى من الحوادث (أنظر ٢٢: ٣ و ١: ٦)، وهذا الاصطلاح غير μετὰ τοῦτο التي تفيد مجرد التسلسل الزمني أي «بعد هذا الزمن» (أنظر ١٢: ٢ و ٧: ١١).

«كان عيدٌ لليهود» :

تأتي «عيد» بدون «ال» التعريف، أي ليس هو عيد الفصح، بل أحد الأعياد الأخرى، ويعتقد كل من القديس كيرلس^(١) والقديس ذهبي الفم^(٢) أنه عيد الخمسين. فإذا أخذنا بهذا التقرير يكون المسيح قد زار السامرة في بكور الصيف (مايو) بعد الفصح الذي أمضاه في أورشليم، كما يفيد أنه مكث في الجليل فترة قصيرة. ويقول العالم شناكنبرج أن الأخذ بهذا الرأي صائب، إذ يجعل التسلسل التاريخي في إنجيل يوحنا صحيحاً؛ حيث يأتي عيد المظال بعده في الأصحاح السابع، وعيد التجديد في الأصحاح العاشر، والفصح الأخير في الأصحاحين ١١ و ١٢. وهذا بعكس ما يقول كثير من الشراح الآخرين أن هذا العيد كان عيد المظال وذلك بسبب أن كلمة «عيد لليهود» جاءت بدون تعريف، وهذا ينطبق فقط على عيد المظال بحسب تحقيقات العهد القديم. وصعود المسيح لأورشليم في عيد الخمسين ولو أنه أحد الواجبات اليهودية الملزمة للزيارة، لأن الأعياد الملزمة للحضور إلى أورشليم ثلاثة: الفصح والخمسين والمظال؛ إلا أن المسيح كان يتخذ من الأعياد عموماً فرصاً لمحاكاة الرؤساء والفريسيين، وللاتصال بجماهير الحجاج الآتين من كل أركان البلاد.

وعيد الخمسين من الأعياد الهامة التي يحتفل بها اليهود لتذكارة استلام موسى للناموس على جبل

(*) يُقرأ هذا الفصل (يوه: ١-١٨) في الأحد الخامس من الصوم الكبير المعروف بـ «أحد الخلع»، وذلك لأنه يمثل حالة شفاء تصحبها توبة: «ها أنت قد برئت. فلا تخطيء أيضاً لتلا يكون لك أشر».

^١ St. Cyril the Great, *op. cit.*, p. 237.

^٢ Chrysostom, *op. cit.*, Hom. 36, p. 125.

سيناء. ومن هنا يجيء في هذا الأصحاح تلميح المسيح بعد ذلك — في نقاشه مع الفريسيين — بخصوص كتب موسى أي التاموس: «يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني، لأنه هو كتب عني، فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك (أي التوراة وهي محور تذكّار هذا العيد) فكيف تصدقون كلامي» (يوه: ٤٥—٤٧). هنا يجعل المسيح كلامه على مستوى التوراة.

على أن كثيراً من الشراح ومن الآباء أيضاً يصرّ على أنه كان عيد الفصح الثاني الذي حضره المسيح والذي بالحساب الدقيق يقع سنة ٢٨ ميلادية. ودليلهم على ذلك ما ذكر في الأصحاح السادس أن عيد الفصح كان قريباً (٤: ٦). على أن عيد الفصح الأول الذي حضره المسيح، ذكر في الأصحاح الثاني عدد ١٣، وقد وقع سنة ٢٧ ميلادية. أما الفصح الأخير الذي صلب فيه الرب (يو ١١ و ١٢) فوقع في سنة ٢٩ ميلادية. وبذلك يكون الرب قد حضر ثلاثة أعياد فصحية أثناء خدمته، صلب في ثالثها، وبذلك تكون مدة خدمته حسب توقيعات إنجيل يوحنا وحسب التقليد القبطي ثلاث سنوات ونصف. (٣)

«فصعد يسوع إلى اورشليم»:

هنا يلمح ق. يوحنا أن المسيح لم يشأ أن يأخذ تلاميذه بل صعد وحده، وكلمة «صعد» — كما جاءت في الأصل اليوناني — تفيد الذهاب الرسمي للعيد كالمعتاد حسب التاموس. و يبدو أن الرب شاء أن يصعد وحده حتى لا يظهر أيضاً بصورة مثيرة، بل دخل المدينة متخفياً منعاً للإثارة التي بدأت تأخذ وضعها العنيف. ويظهر هذا من التسجيل الواضح للقديس يوحنا: «أما الذي شفي فلم يكن يعلم من هو، لأن يسوع اعتزل إذ كان في الموضع جمع». (١٣: ٥)

٢: ٥ «وفي اورشليم عند باب الضأن بركة يُقال لها بالعبرانية بيت حسداً (بتسدا) لها خمسة أروقة».

«باب الضأن»:

هذا الباب هو في سور مدينة اورشليم من ناحية الشرق وكان قريباً من الهيكل (أنظر نح ٣: ١). وفي سفر نحemia يذكر أن بناء هذا الباب كان من نصيب الكهنة. و يبدو أنه كان ذا صلة خاصة بالذبائح التي تدخل منه للهيكل.

^١ See: ICC, *op. cit.*, ciii; Lightfoot, *op. cit.*, p. 148.

بركة بيت حسدا:

أبحاث كثيرة أجراها العلماء حول هذا الاسم: من «بيت زاتا» (بيت الزيتون)، إلى «بيت صيدا» محوَّرة، إلى «بيت إزدا» Bet Esda «بيت الفيضان». كما وُجد اسمها منقوشاً في درج من النحاس في حفريات وادي قمران مكتوباً هكذا: Bet Esdatayin، ويعني «بيت إزد المجوز» (أي ذو العينين). بمعنى أن البركة لها حوضان يفيض فيهما الماء. ولكن أصح القراءات جميعاً ما جاء في النسخة الإسكندرانية اسم «بيت حسدا» Bet hesda وتعني «بيت الرحمة» بسبب الأشفية التي كانت تُجرى فيها.

والعجيب أن النقاد سلطوا نقدهم على إنجيل يوحنا بخصوص هذه البركة بهذا الاسم معتقدين أن ق. يوحنا اخترع هذا الاسم لهذه البركة — إذ كانت قد اندثرت معالمها. ولكن في هذا القرن تم اكتشاف هذه البركة بجوار كنيسة القديسة حنة بواسطة رهبان الآباء البيض. ولما أكملوا حفرياتهم ظهرت البركة ولها بالفعل خمسة أروقة (أنظر الصورة). والبركة مساحتها كبيرة، فهي بعرض ١٦٥ — ٢٢٠ قدماً وطول ٣١٥ قدماً، مقسومة من نصفها بحاجز جعلها بركتين: واحدة شمالية والأخرى جنوبية، ولها على جوانبها الأربعة صفوف أعمدة، وكذلك على الحاجز الذي يقسمها. وبذلك ظهرت الخمسة الأروقة، ولها منزل مدرج كسلالم.

وقول ق. يوحنا أن هذه البركة يُقال لها «بالعبرانية» بيت حسدا، يقصد «باللغة الأرامية الدارجة» بين الشعب (العائد من السبي). كما يلاحظ أن هذا الاسم يفيد مبنى أكثر منه نبع ماء، لأن الخمسة الأروقة جعلت منه مصحّة يؤمّها المئات. وقد قام ببنائها بعض الخيرين؛ ويُقال أن هيرودس الكبير هو الذي أقامها. وقد ظلّت هذه المصحّة قائمة حتى إلى ما قبل خراب أورشليم سنة ٧٠ م.

٥ : ٣ «في هذه كان مضطجعاً جهورٌ كثيرٌ من مرضى وعُمي وعُرج وعُثم يتوقعون تحريك الماء».

«العُثم»: ἑρῶν

وهم مرضى بأنواع الشلل. وقد ذكر نوع مرضهم في آخر قائمة المرضى لأن مريض هذه القصة واحد منهم. وهو المرض الذي أعيا الطب والدواء على حد سواء حتى اليوم.

«تحريك الماء»:

عودة مرة أخرى إلى «الماء» الذي يرافقنا منذ عرس قانا الجليل عبر نيقوديموس والسامرية، وهنا أيضاً.

و«تحريك الماء» هي جملة فيها محاولة لمحاكاة الماء الجاري أو الماء الحي الذي تمناه المريض ولم يبلغه قط. وفي هذا تعبيرٍ مستيكّي (سرّي) يشير إلى المسيح «الماء الحي» الذي وافاه هذا المريض السعيد فشفاه.

٥ : ٤ «لأن ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه».

هذه الآية لم توجد في معظم المخطوطات الهامة ولكنها موجودة في بعض منها، وقد ذكرها بعض الآباء ومنهم ذهبي الفم^(٤) معتبراً أن [البركة والماء هنا هما سبق تصوير للعمودية، لكي يعطي اليهود صورة مُشبّهة لما ستأتي به المعمودية في المسيح. وتحريك الماء بواسطة الملاك هو تمهيد تصويري لما سيعمله الروح القدس ربّ الملائكة.] وشرح ذهبي الفم هنا يتبع إلى حد ما الخط السرّي المستيكّي الذي ينهجه ق. يوحنا.

«بركة»: κολυμβήθρα

وهي نفس الكلمة الطقسية المستخدمة للتعبير عن جرن المعمودية. ولو أنها مشتقة من أصل κολυμβάω أي يسبح أو يعوم. وقول ق. يوحنا أن «ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء»، يعطينا تقريراً إنجيلياً عن تدخل سمائي إعجازي في العهد القديم لشفاء الأمراض الميثوس منها بنوع من الرحمة الإلهية، وذلك بحسب ترجمة اسمها «بيت حسدا». وهذا ليس غريباً لا على ق. يوحنا ولا على العهد القديم برمته. فالقديس يوحنا رأى في رؤياه هذا الملاك عينه واسمه «ملاك الماء»: «وسمعت ملاك المياه يقول عادل أنت أيها الكائن والذي كان والذي يكون لأنك حكمت هكذا». (رؤ ١٦: ٥)

أما قوة الحياة والشفاء التي جعلها الله في الماء فهي تراث إلهي يملأ العهد القديم، ونحن لا ننسى الصخرة التي تفجرت ماءً تحت عصا موسى في سفر الخروج، وكان الماء للحياة والشفاء، لأن

⁴ Op. cit., p. 126.

«الصخرة كانت المسيح» (١ كو ١٠: ٤)، وإذا لم يذكر سفر الخروج حالات شفاء للماء إلا أن الماء كان له هذه الطبيعة والقوة، فلم نسمع بأن أحداً كان يمرض قط بطول الأربعين سنة: «ثيابك لم تَبْلَ عليك، ورجلك لم تتورم هذه الأربعين سنة.» (تث ٨: ٤)

كذلك لا نجهل الشفاء الذي أجراه أليشع النبي لنعمان السرياني بالإغتسال في مياه الأردن، الأمر الذي طهره من داء البرص الوبيل. والمسيح أيضاً ألح إلى سر الله في ماء بركة سلوام بالذات، حينما أمر الأعمى الذي صنع له من ريقه مقلة من طين، أن يغتسل في بركة سلوام فأتى بصيراً. والشفاء والصحة في بركة سلوام وغيرها هو إرهاب من إرهابات عمل الروح القدس في سر المعمودية الذي استعلنه المسيح في مُقْعَد بيت حسدا. بل ولا تزال بعض سراديب روما (٥) تشير إلى المعمودية برسم هذا المُقْعَد ذي الثماني والثلاثين سنة الذابل الساق، وهو يسير بقوة حاملاً سريرته على ظهره، تعبيراً فنياً مبدعاً عن «سر المعمودية»، باعتبار أن المعمودية تعيد مشلول الخطية صحيح الروح معافي حاملاً شهادة حياته المائتة السابقة على ظهره، على أساس أن المسيح هو الماء الحي الذي يعطي الحياة ويقوم من الموت عوض ماء بركة بيت حسدا الذي عزَّ على مريضها، فامتنع عليه أن يُشفى. وهذه إشارة ضمنية رائعة إلى عجز العهد القديم بمائه — وعلى كل صورة — أن يُطهر أو يشفي أو يُروى.

ومعروف أن ثلاث قراءات من الإنجيل كانت تُقرأ على المعمدين الجدد في الكنيسة الأولى: الحديث مع نيقوديموس، وقصة المقعد، وتفتيح عيني الأعمى (٦).

٥: ٥-٦ «وكان هناك إنسان به مرض ثمانٍ وثلاثين سنة. هذا رآه يسوع مُضْطَجِعاً وعَلِمَ أن له زمناً كثيراً، فقال له: أتريد أن تبرا؟».

ثمانٍ وثلاثون سنة في المرض. هنا استحالة أن يكون هو الشلل المعروف، سواء النصفي أو الكلبي، لأن المعروف في الطب أن مريضه يكون محدود الحياة بمدة قليلة. فهو ربما كان نوعاً من المرض الذي يُقْعَد المريض عن الحركة. ولكن لا يفوتنا أسلوب ق. يوحنا في اختيار الآيات ذات اللون الصارخ ليقدمها كنموذج لتفوق المسيح الإلهي، فالأعمى «منذ ولادته»، والميت له «أربعة أيام في القبر»، وهذا المريض له «ثمانٍ وثلاثين سنة» في مرضه، فالآية هنا مختارة من وسط مئات وربما ألوف كنموذج للقوة الفائقة.

^٥ *Atlas of the Early Christian World*, trans. & ed. by Mary F. Hedlund & H.H. Rowley, London, 1958, p. 42.

^٦ Brown, Raymond E., *op. cit.*, p. 211.

«أتريد أن تبرأ؟»:

اختار الرب هذا المُقَدَّ لِتُجْرِي فِيهِ آيَةُ الشِّفَاءِ الْمَجَانِي دُونَ أَنْ يُطْلَبَ، هُنَا أُسْلُوبُ ق. يوحنا السَّرِّي، فَهُوَ يَرْمِي إِلَى أَعْدٍ مِنَ الْمُقَدَّ وَمِنْ الْآيَةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا. لَأَنَّا نَعْلَمُ مِنْ أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ أَنَّ شِفَاءَ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ — وَهُمَا آيَتَا الْأَصْحَاحِينَ الْخَامِسَ وَالتَّاسِعَ — سَيَكُونُ عَلَامَةً بِجِيءِ الْمَسِيحِ وَافْتِتَاحِ عَهْدِ النِّعْمَةِ وَالْخِلَاصِ. فَاشْعِيَاءُ النَّبِيِّ يَسْبِقُ وَيَصِفُ الْمَنْظَرَ بِعَيْنِهِ: «هُوَ يَأْتِي وَيَخْلِّصُكُمْ، حِينَئِذٍ تَنْفُخُ عَيُونُ الْعَمِيِّ وَأَذَانُ الصُّمِّ تَنْفُتِحُ، حِينَئِذٍ يَقْفُزُ الْأَعْرَجُ (الْمَشْلُولُ) كَالْأَيْلِ (كَالْغَزَالِ) وَيَتَرَنَّمُ لِسَانَ الْأَخْرَسِ، لِأَنَّهُ قَدْ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِيَةِ مِيَاهُ وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ.» (إش ٣٥: ٤-٦)

«وَيَسْمَعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الصُّمُّ أَقْوَالَ السَّفَرِ، وَتَنْظُرُ مِنَ الْقَتَامِ وَالظُّلْمَةِ عَيُونُ الْعَمِيِّ، وَيَزْدَادُ الْبَائِسُونَ فَرَحًا بِالرَّبِّ، وَيَهْتَفُ مَسَاكِينُ النَّاسِ بِقُدُوسِ إِسْرَائِيلِ.» (إش ٢٩: ١٨ و ١٩)

أَمَّا إِرْمِيَا النَّبِيُّ فَيَصِفُ الْمَنْظَرَ بِاتِّفَاقٍ: «سَبِّحُوا وَقُولُوا: خَلِّصْ يَا رَبُّ شَعْبَكَ بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلِ... بَيْنَهُمُ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ... جَمْعٌ عَظِيمٌ يَرْجِعُ إِلَى هُنَا.» (إر ٣١: ٧ و ٨)

وِدَاوُدُ النَّبِيُّ يَشْتَرِكُ فِي الرُّؤْيَا: «الرَّبُّ يُطْلِقُ الْأَسْرَى، الرَّبُّ يَفْتَحُ أَعْيُنَ الْعُمِيِّ، الرَّبُّ يَقُومُ الْمُنْحَنِينَ...» (مز ١٤٦: ٧ و ٨)

وَهَكَذَا يَقِفُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ وَرَاءِ الْأَزْمَةِ وَالْدَهْوَرِ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى يَوْمٍ مَرِيضٍ بِرُكَّةِ بَيْتِ حَسَدَا، وَالْأَعْمَى الْمَوْلُودُ هَكَذَا مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، مَعَ كُلِّ الْآيَاتِ الْآخَرَى الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ق. يوحنا بِلَفْتِهِ السَّرِيَّةِ: «هَذَا الْيَوْمَ قَدْ أَتَى وَمَنْ لَهُ أَذْنَانٌ لِلْسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!»

«أتريد أن تبرأ؟»

«هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فَلَا تَخْطِئْ أَيْضًا لئَلَّا يَكُونَ لَكَ أَشْرٌ.» (١٤: ٥)

كَشَفَ الْقَدِيسُ بُولُسُ الرُّسُولُ عَنْ أخطرِ مُشْكَلَةٍ أَدْبِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ بَلْ وَرُوحِيَّةٍ تَوَاجِهَ الْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ عِنْدَمَا تَعَرَّضُ لِعَمَلِ الْإِرَادَةِ فِي صِرَاعِهَا مَعَ الْخَطِيئَةِ قَائِلًا: «لَأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ، بَلْ مَا أَبْغُضُهُ فَأَيَّاهُ أَفْعَلُ... فَالْآنَ لَسْتُ بَعْدَ أَفْعَلِ ذَلِكَ أَنَا بَلْ الْخَطِيئَةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ... لِأَنَّ الْإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْخُشْيَ فَلَسْتُ أَجِدُ. لَأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَأَيَّاهُ أَفْعَلُ.» (راجع روم ٧: ١٤-٢٥)

فَهُنَا يَسْتَعْرِضُ لَنَا بُولُسُ الرُّسُولُ الْإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ فِي عِرَاكِهِ الدَّاخِلِيِّ مَعَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، بَعْدَ أَنْ

تعرف على ناموس الله من جهة الحق والباطل . فبولس اكتشف في داخله ناموسين : ناموس الخطية المسيطر على الجسد بأعضائه ، وناموس الخير والصلاح المسيطر على ذهنه (عقله الروحي) ؛ ووجد في الصراع القائم بينهما الإرادة مغلوبة ، والخطية غالبة ، وبالتالي فالذهن الروحي مكسور ومُهان ، والأعضاء متمردة تستمرىء الإثم رغماً عن الإرادة الراضية!!

ولكن بولس الرسول اكتشف أيضاً في المسيح يسوع ناموساً ثالثاً أعلى وأكثر قوة وسيطرة هو «ناموس روح الحياة»، أي قوة وفعل الروح القدس الموهوب للإنسان مجاناً بالإيمان الذي يأخذه الإنسان حالما يؤمن بالمسيح ويصدق مواعيده، ويخضع لوصاياه، معترفاً بخطاياها واثقاً من غفرانها المجاني بالدم بدون نقاش أو شرح أو تحفظ : «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت». وفي الحال تيقن أن «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (راجع روم ٧ و ٨)

ولكن الخطر الأكبر قائم بالنسبة للإنسان الذي فقد «إرادة الخير والصلاح»، فهو يفعل الخطية راضياً دون احتجاج من الضمير أو رفض من الإرادة، وبالتالي يكون الذهن الروحي قد انطمست فيه معالم ناموس الله من جهة الخير والشر، فلم يعد عقله منشغلاً بما يُرضي الله أو بما يهينه .

هنا يأتي المعنى العميق وراء سؤال الرب لمريض الثماني والثلاثين سنة : «أتريد أن تبرأ؟» - بمعنى : هل لا زالت لك إرادة الشفاء والحياة الأفضل ؟ لقد علم الرب أن هذه الفترة الزمنية الطويلة في ذلة المرض والكساح قد حطمت نفس هذا الإنسان ، والخطورة هنا تكمن في فقدان الإرادة نحو استعادة الحياة، حتى وإن كان قد بذل جهداً جسدياً عنيفاً ومستمرّاً ربما كل يوم مرّة أو مرتين للنزول في البركة، والتي باءت كلها بالفشل . والرب هنا لا يسأل عن إرادة الغريزة نحو صحة الحياة التي يستوي فيها الإنسان والحيوان حتى وإلى آخر لحظة من عمره، وإنما يسأل عن إرادة استعادة الحياة التي بلا خطية، لأن بُرء الجسد متوقف على البرء من الخطية . وهذا القصد الإلهي في كلام الرب واضح من انتهار الرب له لَمَّا لاقاه بعد ذلك : «ها أنت قد برئت فلا تخطيء أيضاً (أي ثانية) لئلا يكون لك أشْر.» (١٤ : ٥)

بهذا المعنى يكون الرب قد وضع النقاط على الحروف لتظهر كل قصة هذا الإنسان قبل مرضه وفي مرضه ، حتى تبقى إلى الأبد عبرة لكل إنسان! ... فقد عاش هذا الإنسان في اقتراف الخطيئة مما كان سبباً في ضياع صحته حتى آلت إلى ما آلت إليه من الضمور والشلل ! لقد انصاع وراء شهوة

الخطيئة فاستعبدته وحطّمته. والرب لما رآه تحنن عليه من تلقاء ذاته إذ لمح فيه بقايا إرادة، فبادره بسؤاله: «أتريد أن تبرأ؟» ليستنفر فيه الرجاء الذي استبدت به محاولات الثماني والثلاثين سنة البائسة، ولكي يستنهض فيه الإرادة نحو الحياة الأفضل. ويلاحظ القارئ أن الرب لم يسأله عن إيمانه، فالإيمان يُنَحِّث عنه بعد أن نستوثق من وجود الإرادة. لأن الإيمان فعل إرادة. فالرب يستنفر الإرادة في الإنسان — إرادة الإيمان بالحياة — ليرسي فوقها قوة الحياة الأفضل.

فانظر، أيها القارئ، كيف أن الرب لا ييأس من خلاص الخطاة، هو يطلبهم ويستنهض إرادتهم. فكيف ييأس الخاطيء من رحمة رب الحياة؟ وق. يوحنا يقدم مريض الثماني والثلاثين سنة نموذجاً لإرادة الحياة بالنسبة للخاطيء لم تنطفئ منه جذوة الحياة. ويقدم المسيح في منظرٍ مَنْ قِيلَ عنه: «قصة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء.» (مت ١٢: ٢٠)

هذا مما جعل الآباء القدامى وكثيراً من العلماء المحدثين يرون في قصة هذا المريض إشارة إلى شعب إسرائيل الذي أقام في التيه «ثمانى وثلاثين سنة»، ثم عاش تحت «الخمس» الأسفار التي للتوراة يترجى حياة وشفاء، فلم يجد: «... الآن قوموا واعبروا وادي زارّد، فعبروا وادي زارّد. والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زارّد كانت ثمانى وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل... ويُدّ الرب أيضاً كانت عليهم لإبادتهم من وسط المحلة حتى قُتُوا.» (تث ١٣: ١٥-١٥)

ولكن ليعذرني القارئ إذا قلت إن هذا إسراف في التأويل يُخرج الرواية عن أصالتها التلقائية كما رواها ق. يوحنا ويُضعف من معناها الروحي.

٧: ٥ «أجابه المريض يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرّك الماء بل بينما أنا آت ينزل قدامي آخر.»

كان ردّاً من واقع الحال، وكأنني به يريد أن يقول: «أما الإرادة فهي حاضرة عندي يا سيد ولكن أن أجد قوة على التنفيذ فلست أجد»!!! وهو ردّ صائب غاية الصواب استدّرّ حنان الرب، ولكن خيبة أمل المريض لم تكن في إرادته التي استخدمها مئات المرات، ولكن في بني الإنسان الذين لم يُؤتُوا الرحمة، فهلاً ترحم أنت؟ «الأخ لن يفدي الإنسان فداءً.» (مز ٤٩: ٧)

ولكن بالرغم من صحة الرد وصحة التعليل، إلا أن القضية تحولت في نظر المقعد من قضية حياة في الخطيئة ضد نفسه والله، إلى خطأ الناس وخطية الآخرين. وهذه طبيعة الخطيئة تخفي

نفسها عن مصدرها الحقيقي لتظهر وكأن صاحبها منها براء!! وهكذا تبلغ النفس البشرية تزييفها للحق، الأمر الذي يطوّح بها بعيداً عن الله وعن رحمته.

لقد وقع «أيوب» البار في هذا التزييف لما آتته بلواه، فنسبها إلى الله، وأخذ يعاتبه «يكثر جروحي بلا سبب» (أي ٩: ١٧) (هكذا!!) و«كغافل عن الرحمة» و«قد نسي حسنات أيوب الكثيرة في غابر الأزمان» (أيوب أصحاب ٣١)! وماذا كان رد القدير، الذي عيناه تحترقان أستار الظلام وأمسُ مكشوف أمامه كالיום؟ قال له قولته المشهورة: «تستذنبني لكي تبرر أنت؟» (أي ٤٠: ٨). ولكن وبالنهاية قِيلَ الرب ذنب أيوب على نفسه وبرّه وأبراه!! أليس هو الفادي الذي حل عارنا؟ وهل تغيّر الرب أبداً؟

«يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة»:

لقد استدر عطف السيد. أليس هو القائل على فم إشعياء النبي: «فرأى أنه ليس إنسان، وتخيّر من أنه ليس شفيح» (إش ٥٩: ١٦)، فحَتَّتْ أحشاؤه، «فخلّصت ذراعه لنفسه، وبرّه هو عضده، فلبس البرّ كدرع وخوذة الخلاص على رأسه» (إش ٥٩: ١٧). ونظر إلى المُقْعَد وكأنه ينظر إلى الشعب بأكمله أو الإنسان ككل!! وقال قولته وكأن ظهره مسنود على الصليب: «قم احمل سريرك واقش».

٩و٨: ٥ «قال له يسوع قُم احمل سريرك واقش. فحالاً برئ الإنسان وحلّ سريرَه ومَشَى. وكان في ذلك اليوم سبتٌ».

ألم يقل ق. يوحنا في بدء روايته: «فصعد يسوع إلى أورشليم»؟ إذن، فقد أتى الفادي إلى صهيون. هكذا رآه إشعياء من وراء الدهور: «ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب يقول الرب... قومي استنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك» (إش ٥٩: ٢٠ و٦٠: ١). فليست بركة بيت جشدا (بيت الرحمة) ذات الخمسة الأروقة لتُترجَمَ بعد، ولا المياه التي تحرّكها الملائكة، بل ينبوع الرحمة الدائمة والفائضة مجانياً بلا وسيط وبلا شروط! هي كلمة صدرت منه فأحييت العاجز، وشددت أوصال جسده المنحلّ، وحركت عضلاته الضامرة، دبّت فيها قوة الله فأحييتها بأقوى مما كانت. وظهّرهُ الذي انحنى تحت عبء السنين الطوال قام واستقام، وحمل ثقل سريرَه كظهر شاب يستعرض قواه! لقد صار ماضيه الحزين كقصة وشهادة. وهذا حال كل من صدّق وآمن بكلمة المسيح. لم يقل ق. يوحنا أن المُقْعَد آمن بالكلمة، ولا حتى عرف مَنْ هو الذي يكلمه!! لكنها «الكلمة» التي خرجت من فم المسيح «الكلمة».

فلينتبه القارئ إلى قوة «الكلمة» في حد ذاتها، إنها تنتهر الخطية فتلاشيها، وتنتهر المرض فتلغي سطوته. لقد قال المسيح: إن «الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣). فإن كانت كلمة المسيح هكذا بهذه القوة فكيف لا نُسكِثُها قلوبنا؟ وما الذي يقف دون أن تعمل عملها فينا؟ لقد أصابت المُقْعَد وهو منطرح على سريرته، فلماذا لا تصيبنا ونحن منطرحون تحت صليبه؟ و«كلمة» المسيح تعمل عملها ولا تحتاج إلا لمن «يسمعها» و يكون محتاجاً إليها.

لقد استخدم المسيح هذا الإجراء الفريد من نوعه في شفاء المُقْعَد، الذي لم يكن يعي مَنْ هو الذي يكلمه، في إثبات صحة وصدق استعلانه لنفسه: «تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥). فالمُقْعَد نموذج «لموتى الخطية» الذين يعيشون موتهم وهم يريدون الحياة، الذي حالما سمع صوت المسيح قام وحمل سريرته ومشى.

فانظر، أيها القارئ، كيف يقدم ق. يوحنا عناصر قصة شفاء المقعد بكل دقة وترتيب وحكمة مذهلة لتكون هي نفسها عناصر الحوار اللاهوتي العميق الذي أجراه المسيح مع اليهود بعد ذلك كونه «يعطي الحياة لمن يشاء» (قارن يو ٥: ٢١)، وأن كل من يسمع مجرد صوته يحيا ولو كان من سكان القبور (قارن يو ٥: ٢٨).

وبالنهاية هي ليست مجرد قصة شفاء أو معجزة باهرة من معجزات المسيح، بل هي قصة عمل الفداء مصوّرة بعمقها.

ولويلاحظ القارئ، يجد أن ق. يوحنا على غير العادة لا يذكر أنها آية؛ كذلك نجد الرب في هذه القصة صاحب مبادرة إذ أعطى الشفاء كأمر: «قُمْ، احمل، امشِ». فخضع له المريض كمن يخضع لفعل دخل كيانه وجدد حاله دون أن يكون له أية استجابة واعية مُسَبَّقة؛ وأنه شُفي في الحال دون إجراءات ثانوية كالغسل في البركة أو خلافه. كذلك فلم يشترط عليه الرب أي شرط، وهذه هي طبيعة الفداء بكل جلاء، مجانية مطلقة، من طرف واحد وهو الله في شخص يسوع المسيح.

نحن كلنا هذا المُقْعَد، إذا أردنا أن نفهم الفداء ونعيه، وإذا تكررنا أن نقبله طواعية! فنحن تقبّلنا هذا الفداء ونحن بعد خطاة مطروحو الجسد تحت ذلّة جبروت الخطية ولا حراك لنا؛ وفعل الفداء سرى فينا ولم يعد لنا — إن كنا نفهم — إلا أن نحمل سريرنا ونذهب نبشر بالذي صنع

معنا هذا الفضل الفائق. ولا نعود نخطيء بل نحدث بفضل الذي دعانا إلى الحياة في نوره العجيب.

٥ : ١٠ و ١١ «فقال اليهودي للذي شفي: إنه سبت، لا يحلُّ لك أن تحملَ سريرك. أجابهم: إن الذي أبرأني هو قال لي احملْ سريرك وامش.»

وفي الحقيقة إن المسيح لم يصنع هذه الآية بالرغم من أنه «سبت»، بل لأنه «سبت». لأن هذا الاختيار هو جزء من خطة استعلان المسيح لنفسه باعتباره «ربَّ السبت» حسبما قال مرة (مر ٢٨: ٢ ولوق ٥: ٦)؛ ولكونه جاء ليعطي «سبتاً» جديداً، أي راحة «جديدة» عوض الراحة الجسدية القديمة (عب ٤: ١٠).

أما إجابة المقعد فتتم عن تقدير لمن قال له قُمْ ... واحمل ... وامش، أكثر من تقديره لموضوع السبت، لقد دُهِلَ الْمُقْعَدُ؛ أَبْعَدَ أن أفنى عمره في الكساح الذي هو فيه وجاء مَنْ شفاه، يُطالَبُ بذنب شفاؤه وحملِ سريرهِ وسيره على رجلَيْهِ صحيحة؟ إن هذه المغالطة المناقضة للواقع ظهرت في قلب ذلك المريض صارخة مستغيثة! لمن أسمع، ولمن أطيع؟ للناموس الذي عجز عن أن يشفي عجزي؟ أو لذلك الإنسان الذي شفاني وقواني ودعاني للمسير على قدمي؟ لقد قصد المسيح ذلك قصداً، أن يضع هذه الموازنة بصورتها العملية ليس في نظر المُقْعَد وحده — وهو صاحب الحق الأول في المقارنة والموازنة بين الناموس وذلك الإنسان!! — بل وفي نظر البشرية كلها!!

وليستبه القارئ، فإن المسيح هنا لا يقدم ناموساً يُحفظ، ولا قانوناً يُحكم بمقتضاه، ولا نظاماً يُدرَس؛ بل قدم نفسه للمُقْعَد في «كلمة» قالها فكانت له للشفاء والحياة.

٥ : ١٢ «فسألوهُ: مَنْ هو الإنسان الذي قال لك احملْ سريرك وامش.»

لاحظ هنا أنهم لا يستفسرون عن الذي شفاه لأنهم يعرفونه تمام المعرفة؛ ولكنهم يسخرون من قول الرجل إذ يضعون «هذا الإنسان» في مقابل سبت «الله وناموسه».

ثم انظر كيف يتجاهل هؤلاء الفريسيون عمل الآية المذهلة، التي لو كانت قد حدثت في أيامنا هذه لرجَّحت العالم كله، ولا يرون في كل ما صار للمُقْعَد إلا كونه يحمل سريرَه في يوم الراحة، وينظرون إلى ذلك بمنظار مرعب، إذ يرون في ذلك استحقاقه للموت!! رجأ!!

[إذا حدث أن حمل أي إنسان أي شيء من مكان عام إلى بيته الخاص في السبت ويكون

ذلك عمداً فإنه يكون مستحقاً للموت رجاً. [٧]

إنهم يبحثون عن الموت في كل ما هو حياة، وصحَّ فيهم قول المسيح أنهم: «يُصفُّون عن البعوضة و يبلعون الجمل». (مت ٢٣: ٢٤)

١٣: ٥ «أما الذي شُفي فلم يكن يعلم مَنْ هو، لأن يسوع اعتزل، إذ كان في الموضع جمع».

لم يكن من طبيعة المسيح أن يلفت أنظار الناس إليه، فهو ينتخب الذين يتكلم معهم، وينتخب الوقت المناسب، والمكان اللائق، والظرف الذي ينطلق منه تعليمه.

١٤: ٥ «بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل، وقال له: ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضاً ثلاثاً يكون لك أشر».

ليعلم القارئ أن قدرة المسيح على الشفاء وإعطاء صحة الحياة قائمة أصلاً ومتأسسة على سِرِّ الفداء وقدرته على مغفرة الخطية، الذي دفع ثمنه بسفك دمه على الصليب. والمسيح كان يعمل ويتكلم على أساس أنه مصلوب، لأن الصليب أمر قد تقرَّر منذ الأزل، فلم يُعُدَّ المسيح خاضعاً لتصريف الفعل «يصلب» كما مضى، وحاضر، ومستقبل. فالمسيح مصلوب في الفكر التوراتي أو الطقوس الموسوي منذ أن ذُبح خروف الفصح الأول: «وتكون جثتاها على شارع المدينة العظيمة التي تُدعى روحياً سدوم ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً». (رؤ ١١: ٨)

وبحسب فكر بولس الرسول، فالصليب هو قصد الله الذي قصده في المسيح منذ الدهور: «لي أنا أصغر جميع القديسين أعطيت هذه النعمة، أن أبشِّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأنير الجميع في ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور، في الله خالق الجميع بيسوع المسيح؛ لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا». (أف ٣: ٨-١١)

وعند بطرس الرسول، هو معروف قبل تأسيس العالم: «بل بدم كريم كما من حَمَلٍ بلا عيب ولا دنس، دم المسيح، معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أظهر في الأزمنة الأخيرة

⁷ Sabb. a., quoted by Wünsche; cited by Westcott, *op. cit.*, p. 83.

من أجلكم.» (١ بط ١ : ١٩ و ٢٠)

فقدرة المسيح على الشفاء والإقامة من الموت نابعة من قوة ذبيحة نفسه القائمة والدائمة فيه، والتي قدّمها على الصليب، في الوقت المعين، عن كل خطاة الأرض، من أول الزمان وإلى آخر كل زمان.

بهذه القوة والقدرة الذبائحية والفدائية التي فيه، أُعطي مُقْعَد بيت جسدنا الشفاء والحياة الجديدة، على أساس أن كل خطاياه وعاره السابق حمله المسيح عنه في جسده بانتظار يوم الصليب. لذلك لا نسمع أن المسيح قد دان هذا المقعد، ولكن فقط، ولكي يضمن له هذه الحياة التي أعطاها له كي تبقى له بلا دينونة، أمره بل آزره بنصيحة تكاد تكون دعاءً: أن لا يخطيء أيضاً أي ثانية، وذلك حينما وجده في الهيكل، لئلا يسقط عنه العفو الذي أعطاه لخلاصه المجاني. كما أن المسيح لم يشأ أن يظل هذا المريض الذي نال نعمة الشفاء جاهلاً بمن شفاه، فأعلن نفسه له ليعطيه فرصة الإيمان بالمسيح وقتما اكتمل انتباه وعيه المسيحي.

ثم قول المسيح: «لا تخطيء أيضاً»، فيه إيماة إلى أن علّة مرضه الذي طال واستطال هي الخطية، فالخطية هي علة الإنسان الأولى التي أوجبت عليه الموت. والمرض مهما كان، فهو جزء من الموت الذي ورثه الإنسان من رأس جنسنا آدم الأول، ولكن يقابله الآن الحياة التي ورثناها من المسيح الذي وَلَدْنَا ثانية بالروح لله، والذي صار رأس الجسد أي الكنيسة، والذي حوّل الموت إلى حياة بالإيمان به، وحوّل المرض من تأديب وعقاب إلى علّة لتمجيد الله!! : «يا معلم مَنْ أخطأ هذا (الأعمى) أم أبواه حتى وُلِدَ أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه» (يو ٩ : ٢ و ٣)؛ «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به.» (يو ١١ : ٤)

وهكذا كل مرض مهما كان ومهما أصاب، فهو لمجد الله، إذا حوّلناه إلى شكر حقيقي واحتملناه بصبر، فيتمجد الله فينا بسبب هذا المرض عينه!! لذلك لم يَفُتْ على ق. يوحنا أن يكمل قائلاً:

«بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل»:

واضح أن المُقْعَد اتجه مباشرة إلى الهيكل — ربما حاملاً سريرَه — وهذا هو الذي أثار حوله العاصفة، ولكن القصد واضح أنه أراد أن يقدم الشكر لله! مما يلفت نظرنا أنه كان على شيء من التقوى، فالفتيلة المدخنة ما فتئت تدخن حتى اشتعلت!

١٥ : ٥ « فمضى الإنسان وأخبر اليهود أن يسوع هو الذي أبرأه ».

واضح أن المُقنع وجد في المسيح مَنْ يستطيع أن يتحمل عنه تهمة حمل السرير، فأُسرع في تبرئة نفسه، لا خيانة لَمَنْ شفاه، بل اعترافاً من واقع الحال. ثم أن المسيح لم يُؤصِّه أن لا يقول لأحد، حتى يُحسب أنه أخلَّ بالوصية، بل ذهب لِيُري نفسه للكهنة اعترافاً بفضل الله وَمَنْ شفاه.

المصادمة الأولى مع اليهود:

المسيح يعلن عن لاهوته وشخصيته الماسيانية في أعماق ما بلغه إنجيل ق. يوحنا، بطرحه أعظم قضية لاهوتية لتحل الصدارة في الإيمان المسيحي، وذلك في خطوات متلاحقة وبتنظيم متدرج منسجم من الاستعلانات التي تكشف عن طبيعة الآب والابن والوحدة الفعلية القائمة بينهما.

والموقف الذي يقفه المسيح هنا أمام اليهود يتسم بالشجاعة البالغة القوة والاتزان، وهو يكشف عن ألوهيته أمام أعدائه المتربصين به، دون حذر، وهو يعلم تمام العلم أنه بذلك يخطب الموت ويستدعيه، ولكنه بآني واحد يُرسي أساس الإيمان المسيحي برُمته! أما سامعوه فكانوا — ويتحتم أن يكونوا — إما واحد يصدِّق القول تصديق الإيمان فيقبل المسيح ربّاً وإلهاً، وإما واحد يصرُّ بأسنانه إذ يراه مجتهداً ومستحقَّ الموت بلا رحمة. ولم يقف المسيح من قبل مثل هذا الموقف الحرج الذي فيه يتقاسم سامعوه الحب الطاغي والكراهية المرة بلا توسط! وبالفعل كان هذا الدفاع اللاهوتي المنقطع النظير هو هو بعينه أدلة الإتهام التي قدمته إلى الصليب! كما صار هو بعينه دستور الحب والإيمان عند ملايين الملايين من بني الإنسان!

خطوات الاستعلان:

١ — « أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل. » (آية ١٧)

٢ — « كما أن الآب يقيم الأموات و يُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء. » (آية ٢١)

٣ — « الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن. » (آية ٢٢)

٤ — « لكي يكرم الجميع الابن، كما يكرمون الآب. » (آية ٢٣)

٥ — « مَنْ يسمع كلامي و يؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. » (آية ٢٤)

٦ — « تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسمعون يحيون. »

(آية ٢٥)

٧ — « لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في

ذاته .» (آية ٢٦)

٨ — «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان.» (آية ٢٧)

٩ — «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (آيات ٢٨ و ٢٩)

ويلاحظ أن هذه الحقائق الأساسية في لاهوت المسيح، المقدمة هنا كدستور عمل، هي التي انبثقت منها كل تعاليمه التي قدّمها قبل أو بعد ذلك، سواء كونه خبز الحياة، أو الماء الحي، أو نور الحياة، أو الراعي الصالح، أو الكرمة الحقيقية، أو القيامة والحياة.

١٦:٥ «ولهذا كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت.»

«الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته.» (مز ٣٧: ٣٢)

«ولهذا» = διὰ τοῦτο

أي «بسبب ما عمله يسوع في السبت»، ولكن تأتي كلمة «عمل» في اليونانية ἐποίει بمعنى «بسبب ما تعود أن يعمل»، أي بصيغة التكرار والدوام من جهة كسر الناموس علناً وبإصرار وباستمرار، إذ كان يكاد لا يعمل آياته إلا في السبت.

وهذه في الحقيقة أول مرة يعلن فيها اليهود عن عداوتهم بالفعل، بنية القتل. وهذا يعود إلى المغالاة التي فاقت كل الحدود في حفظ السبت، حتى بلغت إلى الحد الذي تساءل فيه كبار الربيين عن مدى خضوع الله نفسه لهذه الوصية! ونخبرنا العالم دودد^(٨) في شرحه لإنجيل يوحنا أنه قد جرى بالفعل حوار بين أشهر أربعة ربيين يهود وهم غمالاتيل الثاني و يشوع بن حنانيا وإلغازر ابن عزاريا ورابي عقيبا، أثناء وجودهم معاً في روما سنة ٩٥ م، أي في زمن كتابة إنجيل يوحنا، وقد انتهى بهم الحوار إلى تقرير أن [الله يحفظ الوصية لأنه لا يعمل خارج حدود مسكنه أي السماء والأرض، ولا يسير مسافة أطول من قامته، لذلك فعمل الله هو في الحدود المسموحة!] أنظر وتعجب!!

من هنا كان رد المسيح عليهم، لأنه إذ كان يعلم مدى جنونهم في إخضاع الله للوصية قال لهم: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، فالله ليس تحت تحكم الزمان والمكان والحركة فهذه

^٨ Dodd, C.H., *op. cit.*, p. 320.

كلها نواميس زائلة .

١٧:٥ «فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» .

بمعنى أن الله لم يتوقف عن عمله قط، فهو لا يزال يعمل وإلاً تتوقف الحياة. فالله لم يخلق الخليقة بواسطة اللوغس الابن ثم تركها تعمل من تلقاء ذاتها كما يقول الذين لا يؤمنون بالله والخلق! وإلاً تختل موازين الانضباط والتناسق والاستمرارية، فالله يحكم ويدين الخليقة بقوانين دائمة لا تخضع لفكر الإنسان.

والمسيح يضع نفسه مع الله الآب كمستول عن الخليقة، وخاصة فيما يخصه من جهة قيامها ودوامها، وبالأكثر من جهة فدائها وخلاصها وتجديدها وتكميلها: «الله... كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي، وهو بهاء مجده ورسمُ جوهره، وحاملُ كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي.» (عب ١: ١-٣)

كذلك يقول بولس الرسول في سفر العبرانيين صراحة كيف أسس الابن الأرض والسماوات، وكيف أنها تتغير وفي النهاية يتلاشى شكلها المادي المنظور، أما المسيح الابن فلن يتغير ولا يتبدل: «وأما عن الابن (فيقول:) كرسيك يا الله (الابن) إلى دهر الدهور قضيب الإستقامة قضيب مُلكِكَ، أحببت البرّ وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك. وأنت يا رب في البدء أسست الأرض، والسماوات هي عمل يديك، هي تبيد ولكن أنت تبقى، وكلها كثوب تبلى وكرداء تطويها فتتغير. ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى.» (عب ١: ٨-١٢)

ثم يعود القديس بولس في رسالة أفسس ليوضح مركز المسيح من جهة الخليقة كلها في السماء وعلى الأرض، كيف أن تدبير الله منذ الأزل جعلها تتمحور في المسيح، وتنجمع، وتتحد بواسطته في انسجام يفوق تصور الإنسان: «إذ عرفنا بسرّ مشيئته، حسب مسرته التي قصدتها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السماوات وما على الأرض في ذاك (المسيح).» (أف ١: ٩ و ١٠)

بهذا يتضح لنا قول المسيح: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فالخليقة كلها في السماء والأرض لا تزال في دور الخلق والتجديد والترقي، وفق مشيئة الله وتدبيره مع المسيح الابن، لغاية

ستظهر في النهاية حينما يُخضع الله كل شيء لسلطان المسيح الابن: «لأنه يجب أن يملك، حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدو يُبطل هو الموت.» (١ كو ١٥: ٢٥ و ٢٦)

وربوبة المسيح فوق الخليقة وكل نواميسها واضحة من قول المسيح: «ثم قال لهم: السبت إنما جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت، إذاً ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً.» (مر ٢: ٢٧ و ٢٨)

فالمسيح، بعمله الأشفية وصُنع الرحمة في يوم السبت، كان يقوم في الحقيقة بعملية تكميلية للخلق مساوية في مضمونها الإلهي للخلق ذاته. فالذي يجعل الأعمى المولود هكذا يصبح له عينا والميت المدفون وله أربعة أيام يقوم، إنما يعمل عملاً من صميم جوهر الخلق والخالق، مما يثبت أن أعمال الخلق لم تنته في نظر الله في اليوم السابع!

أما سبت المسيح الحقيقي فكان بعد أن أكمل أعمال الفداء وخلص الإنسان على الصليب «قد أكمل» (يو ١٩: ٣٠)؛ أما بحسب الجسد فقد استراح في القبر: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً» (يو ١٩: ٣١)، وأما بحسب الروح فبعد أن أكمل المسيح آلامه دخل إلى راحته العليا أي مجده: «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده؟» (لو ٢٤: ٢٦)

ودخول المسيح إلى مجده هو بحد ذاته الراحة العظمى التي يحكي عنها سفر العبرانيين هكذا: «لأن الذي دخل راحته استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله، من أعماله، فلنجهتهد أن ندخل تلك الراحة.» (عب ٤: ١٠ و ١١)

وهنا يُلاحظ التوازي بين قول المسيح: «أبني يعمل حتى الآن وأنا أعمل» وبين «استراح هو أيضاً من أعماله كما الله من أعماله». فالعمل على التوازي، والراحة على التوازي بين الآب والابن كلٌّ في مجاله، ومجال الاثنين هو تكميل مجال واحد! لذلك يستطرد سفر العبرانيين ويقول إن راحتنا، أي سبتنا، هو «راحة» المسيح وسبته وقد أكملت مرة واحدة وإلى الأبد، «إذاً بقيت راحة لشعب الله» (عب ٤: ٩)، ويقصد هنا راحة جديدة غير راحة السبت، وهي الشركة في سبت المسيح أي موته لبلوغ القيامة التي هي غاية ونهاية كل الأعمال؛ والراحة التي تمت فيها ذبيحة المسيح وقبولها لدى الآب فتتم المصالحة بين الإنسان والله.

من هذا نفهم الآن لماذا كانت وصية السبت هامة وصارمة وخطيرة بهذا المقدار في الناموس القديم وكان ثمن التعدي هو الموت حتماً!! ليس لأنها كانت ذات مدلول أو نفع خلاصي بأي

وجه من الوجوه، بل لأنها كانت تشير بالرمز إلى سبت العهد الجديد، سبت الله الأبدي، الذي كان ثمنه موت ابن الله أيضاً في القبر كنهاية لكل أعمال الناموس، الذي أبطل بموت المسيح الفدائي. اسمع ما يقوله سفر العبرانيين كيف انتهى هذا الناموس بكل وصاياه من سبت وخلافه: «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال، إذ الشعب أخذ الناموس عليه (على أساس الكهنوت اللاوي)، ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر (الرب يسوع) على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هارون؟ لأنه إن تغيّر الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيّر للناموس أيضاً» (عب ٧: ١١ و ١٢)، «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ الناموس لم يكمل شيئاً.» (عب ٧: ١٨ و ١٩)

ثم يعود سفر العبرانيين ويتكلم بعد ذلك عن راحة الله في سبت الله الأبدي الذي أكمله المسيح بموته، والذي به فتح الباب لدخول الإنسان في هذه الراحة عينها أي الحياة الأبدية.

يبدأ بولس الرسول الحوار في رسالته للعبرانيين بوصف بني إسرائيل وهم في التيه وقد أغضبوا الله بقلة إيمانهم بقوله هكذا: «... حتى أقسمت في غضبي لن يدخلوا راحتي، انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحي... ولَمَنْ أَقَسَمَ لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا؟ فنرى أنهم لم يقدرُوا أن يدخلوا لعدم الإيمان. فلنخف أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يرى أحد منكم أنه قد خاب منه... لأننا نحن المؤمنين ندخل الراحة... مع كون الأعمال قد أكملت منذ تأسيس العالم. لأنه قال في موضع عن السابع هكذا: واستراح الله في اليوم السابع من جميع أعماله. وفي هذا (هنا) أيضاً (يقول) لن يدخلوا راحتي؟... إذا بقيت راحة لشعب الله! لأن الذي (المسيح) دخل راحته (السبت الأبدي) استراح هو أيضاً من أعماله كما الله من أعماله. فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة لئلا يسقط أحد في عبدة العصيان هذه عينها.» (عب ٣: ١١ و ١٢ و ١٨ و ١٩)، (٤: ١ و ٣ و ٤ و ٥ و ٩ و ١٠ و ١١).

واضح، إذًا، أن سَبَتَنَا الأبدي الذي يقوم على إيماننا بالمسيح بموته وقيامته، قد ألغى وإلى الأبد سبت الناموس الرمزي الذي كان شبهاً للسموات وظلها.

ولكن يُلاحظ أن المسيح في قوله: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، لا يجعل عمله منفصلاً عن عمل الله بل متآزراً معه، كما يفهم تماماً أن المسيح ينفي نفياً باتاً أن يكون خاضعاً تحت «أعمال الله»، وبالتالي تحت فكرة استراحة الله، بل أعلى منها وقوَّاماً عليها، وهذا هو الذي أثار حفيظة اليهود أيما إثارة.

١٨:٥ «فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه. لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه مُعادلاً نفسه بالله».

لقد فهم اليهود كل ما ضمَّنه المسيح في قوله المختصر جداً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فهو أولاً وقبل كل شيء قد ألغى سلطة الناموس وأبطل الاعتراف بوصية السبت علناً وبإصرار! معتمداً على ادعائه الصلة المطلقة بالله!

«إن الله أبوه»: πατέρα ἰδίου τὸν θεόν

الكلمة الخطيرة في هذه الآية هي ἰδίου التي تفيد الملكية الشخصية أي أن الله أبوه الشخصي الذاتي. وهنا يصبح المسيح ابن الله ومعادلاً له، ولقد وقعت على أسماع اليهود كالصاعقة، فهذا عين التجديف إن نظروه كإنسان. وهنا تكون مصيبتهم هم وتجديفهم هم وليس المسيح. وبالتالي اعتبروا أنه يدّعي أن عمله (وهو إنسان) يساوي عمل الله، وبذلك يكون قد كسر وصية السبت بمعنى أنه حلَّها أي فكَّ رباطها وناموسها، وبالتالي أبطل الخضوع لناموسها.

وفي الحقيقة هذه كانت بالفعل نظرة المسيح، ونحن لا ننسى قوله: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو: ١٩: ٢٩)، «أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو: ٢١: ٢١). أي أنه ليس السبت فقط بل والعبادة الهيكلية بكل مشتملاتها وطقوسها وناموسها وكهنوتها وأعيادها وسبوتها بالتالي، وقد جعل «هيكل جسده» بمفهوم ذبيحته أي موته وقيامته، بكل أعضائه الجدد أي الكنيسة، هي الهيكل الجديد.

ولو أحسنَّا الرؤية من جهة سر العداوة المرة التي تراكمت في قلوب هؤلاء اليهود غير المؤمنين به والمعاندين له نجدُها في عدم فهمهم وعدم قبولهم من قريب أو بعيد كونه يقول عن نفسه إنه ابن الله الذاتي ἰδίου. ولقد ضجُّوا من هذا التعبير، وأخيراً صارحوه عن سبب محاولتهم قتله قائلين: «وأنت إنسان، تجعل نفسك إلهاً» (يو: ١٠: ٣٣). ولكن لو أحسنوا الرؤية لرأوه العكس: «وهو إله، جعل نفسه إنساناً»!!

ولقد صرَّ هؤلاء اليهود عداوتهم في قلوبهم من نحو قوله أنه «ابن الله»، حتى أفصحوا عنها بمرارة كعلَّة طلبهم لصلبه أمام بيلاطس: «فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلِّبه اصلِّبه». قال لهم بيلاطس خذوه أنتم واصلبوه لأنني لست أجد فيه علة. أجابه اليهود: لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابنَ الله. (يو: ١٩: ٧ و٦)

ثم يا لحذق هذا القديس يوحنا الرسول كيف يَصوِّرُ لنا عشرة اليهود بقوة وعنف وجلاء لتكون لنا هي نفسها أساساً للإيمان الوثائق الوثيق!! «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو: ١٨: ٣)

والذي دخل في روح اليهود وطمس معالم رؤية الحق وسماعه، تَصَوَّرُهم أن المسيح وهو إنسان يجعل نفسه إلهاً، ثم بادعائه أن الله أبوه يجعل نفسه «إلهاً مقابل إله»، وهو الله، وبذلك يكون في نظرهم إلهاً ثانياً. ومن هذه النقطة بالذات بدأ المسيح شرحه وتوضيحه لمعنى الابن بالنسبة للآب في الله الواحد! وذلك في كل الحوار القادم (من آية ١٩ إلى ٢٣).



القسم الثاني من الأصحاح الخامس

شرح تفصيلي لمركز الابن من الله الآب

وماهية الابن في ذاته

(٣٠ - ١٩ : ٥)

يتميز الجزء الأول من الإجابة الشاملة التي أجاب بها الرب على اعتراضات اليهود أنها تتخصص في توضيح طبيعة الابن وامتيازاته وتنقسم إلى قسمين :

قسم يختص بالعلاقات مع الآب ويستمر من الآية ١٩ إلى الآية ٢٣ .
والقسم الآخر يختص بالعلاقات مع الناس من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٩ .

أما في العلاقات مع الآب، فيوضح أنه سواء كان في العمل أو في الكرامة، فالابن مطابق للآب تماماً، وذلك لكي ينظر الناس في عمل الابن عمل الآب، فأعمال الابن تستعلن عمل الآب غير المنظور عن قرب ورؤية^(٩). وحتى يكون بتكريمهم الابن المنظور لهم يكرمون الآب غير المنظور. ويوضح المسيح ذلك بأربعة أدلة على أساس أنه يستحيل على الابن أن يعمل من ذاته شيئاً بدون الآب، وكل دليل يقدمه يبدأ بحرف «لأن» γάρ.

- (أ) «لأن» مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعملُه الابن كذلك (١٩).
- (ب) «لأن» الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعملُه وسيريه أعمالاً أعظم من هذه (إقامة المقعد) لتعجبوا أنتم (٢٠).
- (ج) «لأنه» كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء (٢١).
- (د) «لأن» الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن.

«وبناءً على ذلك»:

«لكي ἵνα يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله» ! (٢٢ و ٢٣)

(٩) وسوف نرى هذا التطابق في الرؤيا: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). وفي السمع أيضاً؛ فالذي يسمع الابن يسمع الآب (يو ١٢: ٤٩ و ١٤: ١٠).

١٩:٥ «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر «الابن» أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل، لأن مهما عمِلَ ذاك فهذا يعملُه الابن كذلك».

يُلاحظ هنا أن كلمة «الابن» تأتي بمفردها، وقد وردت هنا في الآيات من ١٩—٢٦ ثماني مرات، في حين أنها أتت في كل الإنجيل قبل ذلك وبعد ذلك عشر مرات فقط (١)، هذا يجعلنا نفهم أن الإنجيل يركّز جداً في هذه الآيات على القاعدة الإيمانية التي سيسهب بعد ذلك في شرحها.

وفي البداية ينبغي أن نلاحظ أن هذا الحوار جرى مع أشخاص قلائل مدربين في المعرفة، فريسيين محنّكين. وهذا يظهر من الاختصار الذي نهجه المسيح في تقريره للحقائق وارتفاعه إلى مستواها المطلق، الأمر الذي يحتاج إلى فهم وعمق.

ثم نلاحظ ثانياً، أن المسيح تحاشى أن يتكلم بضمير المتكلم «أنا»، كما لم يذكر الصفات التي اعتاد أن يلقب بها نفسه «كابن الإنسان»، أو حتى «ابن الله». ولكنه يقتصر هنا على التوصيف المطلق «للابن» بالنسبة إلى «الآب» على مستوى المفهوم البشري للآب والابن، وذلك لكي لا يصدم تفكيرهم في البداية، بل يأخذهم أولاً على المستوى المطلق للأمر ثم يتدرج بهم للتطبيق، فيُظهر شخصه بوضوح في الآية (٢٤): «الذي يسمع كلامي τὸν λόγον μου» ثم في الآية (٣٠) «أنا» ἐγώ.

فابتدأ هكذا: أن «الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً»!

هذه حقيقة مسلمٌ بها؛ ثم إن الابن ينظر إلى ما يعملُه الآب ويعمل مثله تماماً إذا كان الابن مطيعاً ومخلصاً ومحباً للآب! هذه حقيقة أيضاً مسلمٌ بها تماماً. إذن فالمسيح يتكلم عن «أبوة» صادقة عاملة «وبُتوة» صادقة عاملة. وهذا يتضمن بالضرورة أن إرادة الابن تكون منبثقة من إرادة الآب طالما العمل متطابق. ويقول ذهبي الفم أن [«لا يعمل من نفسه شيئاً» ليس قولٌ من يلغي سلطانه بل إعلاناً عن التساوي المطلق غير المتغير عن الآب في القوة والمشيئة.] (١)

«ما ينظر الآب يعمل»:

يلاحظ أن المسيح يستخدم هنا في هذه الآية فعل «ينظر» في صيغة المضارع وهو

(١٠) راجع المدخل ص ٢٠٨ و ٢٠٩، حيث ستجد أن كلمة الابن ὁ υἱός وردت بصفته المطلقة في كل من الآيات التالية:

يو: ١٦: ٣ و ١٧ و ٣٦ و ٣٥ مرتان — [يوح: ١٩: ٥ مرتان و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ مرتان و ٢٦] — يوح: ٤٠: ٦ و ٨ و ٣٥ و ٣٦ و ١٤: ١٣ و

١٧: ١.

¹¹ Chrysostom, *op. cit.*, p. 136.

باليونانية βλέπει ، وهذا يفيد صلة الآب بالابن حال تجسده . كما سيجيء الفعل أيضاً في المضارع في الآية (٣٠) أنه يدين « كما أسمع أدين » . أما حينما يستخدم المسيح الفعل الماضي فهو يشير إلى ما رآه وسمعه عند الآب قبل تجسده كقوله : « أنا أتكلم بما رأيْتُ عند أبي » (يوحنا : ٣٨) ، وكذلك : « وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم » (يوحنا : ٢٦) . وهذا تأكيد ضمنى لإثبات سبق وجود المسيح قبل تجسده .

كذلك قول المسيح : « الأعمال التي أعطاني الآب لأأكملها ... الآب قد أرسلني » (يوحنا : ٣٦) ، ففعل « أعطاني » وفعل « أرسلني » تفيد وجوده السابق على تجسده . كذلك أيضاً قوله : « لأنني خرجت من قِبل الله وأتيت . لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني . » (يوحنا : ٤٢)

والمُلاحظ أن فعل « أرسلني » الذي يفيد ما قبل التجسد يأتي معه فعل « ما سمعت » ، أو « ما رأيْتُ » ، أو « ما أتكلم » ، كما في الآيات يوحنا : ٣ : ١١ - ١٣ ؛ ٣ : ٣١ و ٣٢ ؛ ٨ : ٢٦ و ٣٨ ؛ ١٢ : ٤٩ ؛ ١٥ : ١٥ ؛ ٣٦ : ٥ ؛ ١٦ : ٧ ؛ ١٤ : ٢٤ .

ولكن من كل الإفادات التي أفاد بها المسيح عن سبق وجوده مع الآب أو « عند الله » لم يستخدمها المسيح ليستعلن شخصه ، أو يزيد من هيئته ، ولكن استخدمها ليفيد صدق كلامه وصدق رؤيته وأهميته إرساليته للعالم . وهذا يتضح جداً في قوله : « الحق الحق أقول لك : إننا إنما نتكلم بما نعلم ؟ ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا . إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات . وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء . » (يوحنا : ١١ - ١٣)

فكلمة المسيح هي من واقع رؤيا وسماع الآب ، هي شهادة مهداة للإنسان للتصديق الفوري والإيمان بلا فحص ، هي الآب منظوراً ومتكلماً ومُشاهداً في روح الابن . الذي يصدق كلمة المسيح تدخله الكلمة كروح للحياة ، وهو يدخل الكلمة كمن يدخل الملكوت أو الحياة الأبدية . الذي يسمع صوت المسيح ويستودعه أمانة قلبه ويحيطه بالتجلة والكرامة والمجد يسمع صوت الآب ، بل يقبل الآب ، كابن عثر على أبيه . كلمة المسيح لا تحتاج إلى شرح ولكن تحتاج إلى إيمان فهي تشرح نفسها لمن تدخل قلبه ، يكفي أن يقول عنها المسيح إنها « روح وحياة . » (يوحنا : ٦٣)

هنا المسيح يقصد بغاية الوضوح أن يقول لليهود أن الأعمال التي يعملها يستحيل اعتبارها منفصلة عن أعمال الآب ، فهو لا يكسر السبت على مسئوليته دون الله ؛ كذلك الإرادة ، فإن وحدة العمل تحتم وحدة الإرادة . وهنا يبرز جوهر القضية وأساس العثرة عندهم ، كون المسيح أصبح يُنظر

عندهم إلهاً ثانياً. فهو هنا يبرهن أن كلاً من العمل والإرادة ليس منفصلاً عن الله ولا يعمل عملاً بدون الله، فالابن يعمل عمل الآب، والآب يعمل بالابن، والعمل واحد!! فالوحدة الإلهية مصونة مائة بالمائة. ولقد تسحب هذا الحق الإلهي بنوع ما على الذين يؤمنون بالمسيح أيضاً، فالمسيحي الحقيقي الذي آمن بالمسيح، والمسيح حلّ بالإيمان في قلبه، يعمل حسب المسيح ويفكر حسب المسيح ويشاء حسب المسيح. إنها نعمة الابن حلت على الذين يحبون الله: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في ٢: ١٣)!!؟ لذلك يستطيع أن يقول كما قال بولس الرسول: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ.» (غل ٢: ٢٠)

وقد زاد المسيح هذا التأكيد بقوة لا تُجَارَى بقوله في الآية (٣٠) القادمة: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً — كما أسمع (من الآب) أدين ودينونتي عادلة — لأنني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني»، «لا يقدر الابن أن يعمل... إلا ما ينظر.» (١٩: ٥)

هنا التحديد قاطع مانع من جهة العمل وعدم القدرة على العمل، وهذا يحد ذاته ينبغي أن يسترعي انتباهنا جداً. فعدم قدرة الابن أن يعمل إلا ما ينظر الآب عمله، يُظهر هنا أن التطابق كلي، ومن هنا يأتي جوهر الوحدة المطلق. والتأمين هنا ضد الثنائية بالغ الحذر. والقضية واضحة وسهلة، فالابن جاء ليستعلن عمل الآب وإرادة الآب ومحبة الآب، فالعمل الذي يعمل به هو عمل الآب: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال» (يو ١٤: ١٠)، وكذلك الإرادة: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤: ٣٤)

ومرة أخرى يقول المسيح: «الابن لا يقدر أن يعمل»... هذا ليس تحديداً لسلطان الابن ولا لقدرة الابن ولا لطبيعة الابن ولا انتقاصاً من قدرة الابن عن قدرة الآب، ولكن هو حَسْمٌ لقضية الثنائية التي شغلت بال الفريسيين والناس. فالمسيح يستطيع كل شيء إلا شيئاً واحداً لا يستطيعه، وهو أن يكون شيئاً غير الله إرادة وعملاً!! لأنه أصلاً جاء ليستعلن لنا الله الآب بطبيعة الله الذي فيه، فيستحيل أن يعمل عملاً خارجاً عن إرادة الله وعمله!! هذا يكون ضد رسالته وضد طبيعته وهذا محال عليه أن يأتيه.

ويلاحظ القارئ هنا كيف يربط المسيح ربطاً — لا ينفذ إليه الباطل قط — بين الابن المنظور والمتجسد على الأرض وبين الآب غير المنظور في السماء، فهذا جوهر الإعلان الإلهي. فعمل المسيح الأساسي كمستعلن لأبيه، مُحَكَّم غاية الإحكام حتى لا ينفذ إليه الفكر ناحية الفصل، وإلا يكون السقوط في الثنائية المحرمة والمحرومة.

«لأن «مهما» عمل ذاك (الآب) فهذا عمله الابن كذلك» = ««مهما» عمل الآب عمله الابن كذلك»:

في «مهما» تكمن قوة الابن المطلقة، هنا التطابق لا يكتفي بالحدود المعقولة أو المنظورة بين الآب والابن، ولكن تتسع وتتسع لتبلغ اللانهاية: ««مهما» — غير المدركة للإنسان. أي أن الوحدة القائمة بين الآب والابن مؤمنة ضد تفكير عقل الإنسان وقياساته، فوحدانية الله الله، فهي فائقة، وليس للإنسان إلا أن يصدّقها ويهتف بعظمة قوتها وجلال مجدها.

والمسيح في هذه الآية يرتفع فوق كبرياء الفريسيين بشموخ يفوق مستوى ما اعتادوا أن يسمعوه أو يتعلموه، فقد وقف أمامهم يتكلم بصوت الله وهم يتأملون ويتصورون ما يقول؛ وأما شخصه الإلهي على حقيقته، فهم قط ما رأوه ولا تصوره. تَبّاً للعيون التي تنظر ولا تنظر والآذان التي تسمع ولا تسمع!

«الحق الحق أقول لكم»:

ولا يفوتنا مطلع كلام المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، والتي يقولها ثلاث مرات في هذا الحوار الممتد، وهي بمثابة القَسَم الإلهي في العهد القديم: «بذاتي أقسمتُ يقول الرب» (تك ٢٢: ١٦)، وهي تفيد دائماً الكشف عن حقيقة جديدة مقدسة مؤكدة تأكيداً، وهامة للغاية كانت مخفية عن الإنسان و يعلنها المسيح كجزء من عمله الاستعلانى لله الآب، ويلزم أن تسجّل في قلب الإنسان لتكون موضع تصديق مطلق؛ وبذلك تُكوّن ركناً ركيناً في الإيمان المسيحي. وهذه الآية التي جاءت بعدها هي العنصر الأول فيها.

٢٠: ٥ «لأن الآب يحبّ الابن ويريه جميع ما هو بعمله وسيره أعمالاً أعظم من هذه لتعجبوا أنتم».

«يحب»: (φιλέω/φιλεῖ) (*)

هنا يأتي الفعل في المضارع المستمر، فالآب يحب الابن حباً دائماً لم ولن ينقطع، أي هو حب الإتحاد أو على الأصح الوحدة الكلية.

كما يُلاحظ أن فعل «يريه» (δείκνυσιν) يأتي أيضاً على مستوى فعل المحبة أي في المضارع الدائم. والمعروف أن جوهر المحبة عطاء، وهنا عطاء المحبة هو العمل الذي يريه الآب للابن،

(*) أنظر المدخل ص ١٧٠-١٧٦.

وعمل المحبة عند الآب والابن هو آية، هو معجزة، هو حياة أبدية، في صورة أقوال وأعمال!

المسيح يكشف أساس التطابق في العمل بين الابن والآب: وكلمة «المحبة» (φιλεῖν) المستخدمة هنا لا تفيد التوفير والمشاعر المنعكسة من التعارف المعبر عنها في مواضع أخرى بالأغابي ἀγαπᾶν، فهذه تنبع من حكم الفكر والخبرة الشخصية، بعكس الـ «فيلين» (φιλεῖν) فهي محبة الكيان والطبيعة. وهذه توضح العلاقة الذاتية بين شخص الآب والابن. وهكذا بالابن ومن خلال الابن تستعلن محبة الله الآب التي للابن، التي صارت لنا، في صورة الأعمال التي يعملها الابن، فهي كلها أعمال المحبة الخالصة. والابن حينما يعمل أعمال الآب فهو يردُّ على حب الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عمله» (يو: ٤: ٣٤). فالأعمال التي يعملها المسيح هي بعد ذاتها استعلان دائم لمحبة الله. لذلك تأتي كل أعمال المسيح وهي تنضوع(*) برائحة حب الآب، سواء مع هذا المقعد أو الأعمى المولود هكذا أو كل الآيات التي أجراها يسوع، فالحب الإلهي هو غايتها وعلتها معاً، لذلك صَحَّ قول المسيح في صلاته للآب: «أنا مَجَّدُكَ على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو: ١٧: ٤)

هنا يستعلن المسيح سر المحبة في الله كعنصر قائم في الذات الإلهية بين الآب والابن، وسر حب الآب للابن، فقد أُعطي المسيح الامتياز الأعظم لاستعلان الآب أقصى ما يكون الاستعلان. فالتطابق في العمل والإرادة بين الآب والابن نابع من التحام الحب، وليس التعالي أو الامتياز. فالحب الإلهي القائم في الذات الإلهية هو سر وحدة العمل والفكر والإرادة. ولكن لأن الابن الآن قد تجسد آخذاً صورة الإنسان، أصبح من واقع الحال البشري أن يتكلم المسيح قائلاً إن الآب «يُريه» كل ما هو يعمل، وأصبح أيضاً من واقع التقدم البشري الخاضع للزمان أن يتكلم المسيح ويقول «وسُيُريه» أعمالاً أعظم، لأن التدرج في الاستعلان خاصة من مستوى الماديات إلى الروحيات يناسب الإنسان. أما الأعمال التي هي أعظم من معجزة شفاء المقعد، مثل إعطاء الحياة بالخلص أي الحياة الأبدية بالقيامة من الأموات — وبالتالي الدينونة — فهي الأعظم. لأن الأمور الأقل هي للجسد والأعظم هي للروح: «فقال له سيده: نِعَمًا أيها العبد الصالح والأمين. كُنْتُ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك.» (مت: ٢٥: ٢١)

«لكي تتعجبوا أنتم»:

مع أن المسيح لا يميل إلى إثبات العجائب ليتعجب الناس، لأن الإيمان الذي يسعى أن يعطيه

(*) أي تتحرك وتنتشر برائحة حب الآب.

المسيح يعطيه كمطية: «لأنكم بالنعمة مخَلَّصون "بالإيمان" وذلك ليس منكم هو عطية الله» (أف ٢: ٨)، ويعطيه نتيجة الثقة واليقين الذي يستقر في قلب مَنْ يسمع الكلمة طائِعاً ببساطة قلب وليس بتمعجب الذهن؛ ولكنه هنا يتكلم إلى الفريسيين بنوع خاص، كنوع من غير المؤمنين المعاندين، لذلك يؤكد ويشدد على نوعيتهم الخاصة بقوله: «أنتُمْ» "ὐμεῖς" إضافة إلى صيغة المخاطب. ولماذا؟ لأنهم لا يخضعون لمنطق الإيمان الروحي ولا يتقبلون عمل الابن في شفاء المقعد، فأصبح لا بد أن يريهم أعمالاً أعظم لكي يُخضع أذهانهم العاتية، حتى إذا ما أنكروها أيضاً يكونون كَمَنْ عميت أبصارهم وانسَدَّت آذانهم ودخلوا تحت الدينونة بإرادتهم. لأنهم إذا لم يقبلوا الابن وقد عمل أمامهم أعمال الآب يكونون قد رفضوا الآب: «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني.» (يو ٥: ٣٦)

٢١: ٥ «لأنه كما أن الآب يقيمُ الأموات ويُحيي، كذلك الابنُ أيضاً يُحيي من يشاء.»

لقد شفى أمامهم المقعد، وكان هذا واضحاً جداً أنه إنما يعطي نموذجاً مبسطاً لسلطانه الفائق على المرض الميثوس منه، الذي يعتبر الشفاء منه نوعاً من تجديد الحياة. فلأنهم لم يؤمنوا، لزم أن يكشف عن مدى قوة هذا السلطان الذي له بالإقامة من الموت وإعطاء الحياة؛ العمل الذي هو من اختصاص الله وحده.

وبقوله: «كذلك الابن»، ينقل إلى أذهانهم صورة الآب الذي فيه، المساوية للآب في كل شيء، ليس على المستوى المحدود في آية أو معجزة ولكن على المستوى الكلي لكل الناس وفي كل الظروف والأحوال: «يُحيي من يشاء». فسلطان الابن على الأموات والأحياء سلطان مطلق، فهو الذي «يُحيي»، والأموات عنده تحت سلطانه كالأحياء يأمرهم فيأتمرون ويدعوهم للحياة فيلبثون. نعم، فليس أمام غير المؤمنين إلا أن يتعجبوا، وتمعُّبُهم سيديتهم في اليوم الأخير: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج ... الذين عملوا السيئات (أُبْقَضُوا النور ولم يؤمنوا بالنور) إلى قيامة الدينونة.» (يو ٥: ٢٨ و ٢٩)

والمسيح يكلم هنا الفريسيين الحافظين لمواد دستور إيمانهم، وهو ينقل لهم صورة طبق الأصل من إحدى صلواتهم المسماة بالبراكوت وهي البركة الثانية من البركات الثماني عشرة: (شيمون عسر)

[أنت أيها الرب المقتدر إلى الأبد. أنت الذي تُحيي الموتى. وأنت القوي للخلاص، أنت الذي تسند الأحياء برحمتك، وأنت الذي بحنانك العظيم تقيم الموتى وتحييهم. أنت الذي

تصنع الصلاح من نحو الراقدين في التراب. أنت صادق في وعدك بقيامة الأموات. مبارك أنت أيها الرب يا من تقيم الأموات. [١٢]

٥ : ٢٢ «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة لابن».

الذي يعطي الحياة لا بد أن يحكم فيها وعليها، والذي يقيم الموتى له أن يحاسبهم، هذه حتمية الامتياز الذي أعطي لابن. والمسيح يكلم الفريسيين العارفين بالناموس: «فألذي يخطيء يموت» (قارن حز ١٨ : ٢٠). إذن، فألذي يقيم من الموت هو الذي يغفر الخطايا، والذي يغفر يدين، لأن الذي يُحيي يُميت أيضاً!!

والآب إذ أعطى الدينونة لابن، فليس معنى ذلك أنه لا يدين بل أنه يدين بالابن. فكما خلق العالم به، كذلك به أيضاً يدين العالم. فالآب لا يدين أحداً بدون الابن، لأنه أعطاه أن يُحيي من يشاء وهذا يستلزم أن يدين.

أما قول المسيح أنه قد أعطى «كل» الدينونة، فمعناه أنه قد تولى الحكم هنا وهناك، على الأرض وفي السماء. أما هنا فعلى قياس ما أظهر النور واستعلن الآب: «لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو ١٥ : ١٥)، «أنا هو نور العالم» (يو ٨ : ١٢)؛ فألذي يتبع ويسمع وينفتح بالروح ويقبل الاستعلان، فقد جاز الدينونة، ويكون قد انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، فيدخل في الحقيقة العظمى وينهمر عليه فرح الله الآب. والذي يحجب النور عن عينيه بيديه يدخل الظلمة برجليه، والذي يسد الصوت إلى أذنيه، فقد دين وحرّم نفسه من رؤية الله والحياة.

أما دينونة السماء فستكون: إما بأكاليل المجد: «قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السمي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليل البر الذي يُقْبَهُ لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل، وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (٢ تي ٤ : ٧ و ٨)؛ وإما: «أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم؟ تَبَاعَدُوا عني يا جميع فاعلي الظلم هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.» (لو ١٣ : ٢٧ و ٢٨)

¹² Westcott, *op. cit.*, p. 86.

٢٣:٥ «لكني يُكرم الجميع الابن كما يُكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله».

المسيح هنا يعلن صراحة ولأول مرة عن لاهوته المساوي للآب بلا موارد، مع أنه شخصياً لا يطلب الكرامة لنفسه: «مجداً من الناس لست أقبل» (يوه: ٤١). ولكنه يطلب مجد الآب: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (يوه: ١٨)، ولكن كيف يمجّد الناس الآب وهم يرفضون بل ويهينون الابن؟ «لكني أكرم أبي وأنتم تهينوني. أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين» (يوه: ٨: ٤٩ و٥٠). فالواقع الإلهي هو أن الآب أرسل ابنه لكي يستعلن حقيقة الله الآب والحياة الأبدية التي عنده! التي فيها وبها الخلاص، لذلك أصبح الابن حاملاً بالضرورة كرامة الآب ومجده: «أنا مَجْدُكَ على الأرض» (يوه: ١٧: ٤). لذلك يتحتم لكي يمجّد الناس الآب أن يمجّدوا الابن، هذا من جهة شخص الابن في ذاته، وإضافة إلى ذلك فإن الابن يمثل شخص الآب الذي أرسله، فالذي لا يمجّد الابن — المسيح — لا يكرم الآب الذي أرسله. والمسألة في عمق معناها ليست مسألة مُرسِل ومُرْسَل، بل مسألة الوحدة القائمة بينهما!!

هذا يعني أن المسيح يطالب بمجد الآب سواء في شخصه كابن الآب أو بصفته كمُرْسَل من الآب ويمثله بذاته! لذلك فعدم تكريم الابن هو كذلك بالنسبة للآب. والذي يزدري بالمسيح يزدري بالله الآب وعقابه أشر: «من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رافة. فكم عقاباً أشرّ تظنون أنه يُحسب مستحقاً من داس ابن الله وحَيِّب دم العهد الذي قُدّس به دنساً وازدري بروح النعمة ... مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي.» (عب ١٠: ٢٨-٣١)

وتحقيقاً لبنوة المسيح للآب قام المسيح بشفاء الناس وإعطائهم الحياة على أساس غفران الخطايا، الأمر الذي هو من صميم اختصاص الله الآب: «ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك.» (مت ٩: ٦)

وتحقيقاً لكون المسيح مُرسلاً من الآب، فقد باشر أعمال الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عمله» (يوه: ٤: ٣٤). ولكن إذ أعطى الله الابن سلطاناً لكي يشفي ويحيي ويقيم من الموت، تحتم أن يعطيه أيضاً سلطاناً لكي يدين، لأن غفران الخطايا هو الجزء الأعظم من سلطان القاضي أو الديان. وحينما تقول الآية التي نحن بصدددها وفي مستهلها: «لكني»، فهي تعني «وبناءً على ذلك»، أي بناءً على كل ما سلف، بمعنى بناءً على أن الابن يعمل عمل

الآب، وبناءً على أن الآب يحب الابن ويريه كل ما يعمل، وبناءً على أن الابن يقيم الأموات ويعطي حياة، وبناءً على أن الآب أعطى كل الدينونة للابن؛ بناءً على ذلك كله، تحتم أن يكرم الناس الابن كما يكرمون الآب، وإلا فالمهانة وعدم الإكرام تصبح موجّهة للآب الذي أعطاه كل هذا والذي أرسله أيضاً.

ولكن واضح تصميم الآب أنه لكي يكون للابن الكرامة والمجد المساويين للآب في كل شيء، أعطاه كل الدينونة لتخضع له كل خليقة ما في السموات وما على الأرض. هنا حقّ للمسيح أن يقول: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، وأن يخاطب الآب: «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي وأنا ممجّد فيهم» (يو ١٧: ١٠)؛ وكذلك، وعن حق وعن يقين واستحقاق، أن يدعى المسيح ابن الله، وأن يدعو المسيح الله الآب «أبي».

ولكن يخطئ الناس وإلى يومنا هذا في أنهم يفهمون أن المجد قد صار كله للابن، لذلك لم تعد الغالبية من المؤمنين يقدمون المجد والكرامة إلا للمسيح ولا يُذكر مجد الآب إلا في الجمل الرسمية من الصلوات المحفوظة. لذلك وجب هنا أن ننبه أن المسيح جاء ليستعلن الآب، حتى تكون صلتنا بالآب أكثر وضوحاً وتغلغلاً في الفكر والقلب بالعبادة الشخصية. والحقيقة التي يتحتم أن يفهمها كل مؤمن أنه كلما ازدادت صلتنا بالمسيح ازداد حضور الآب في القلب بصورة عملية؛ فإذا ضعفت صورة الله الآب في الوعي، فهذا معناه أن الوعي المسيحي ناقص جداً والإيمان يحتاج إلى مراجعة شديدة: «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم أنني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني.» (يو ١٦: ٢٦ و ٢٧)

ومن صميم الإيمان الحي الموصل للحياة بالفعل أن يكون إيماننا بالآب هو الموصل لإيماننا بالمسيح، لأن المسيح هو عطية الله الآب لنا: «لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب» (يو ٤: ١٠)، ثم أن المسيح سبق وأعلن أنه: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني» (يو ٦: ٤٤)، وأن كافة التلاميذ المخلصين للمسيح هم عطية الله الآب للمسيح: «كانوا لك وأعطيتهم لي» (يو ١٧: ٦). فحتى الشكر الذي نقدمه يتحتم أن نقدمه دواماً للآب في اسم المسيح (أف ٥: ٢٠، كو ٣: ١٧)، علماً بأن جوهر الإيمان والعبادة ينص أن المجد والكرامة — τιμή — متساوية تماماً بين الآب والابن والروح القدس، لذلك تحتم أن تكون العلاقة الشخصية الحية والعملية مع الحب المتبادل للثالوث الأقدس متساوية.

٢٤:٥ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنَّ مَنْ يسمعُ كلامي ويؤمنُ بالذي أرسلني، فلهُ حياةٌ أبديةٌ، ولا يأتي إلى دينونةٍ، بل قد انتقلَ من الموتِ إلى الحياةِ».

مرة أخرى يستعلن المسيح الوحدة الترابطية بين الآب والابن إنما بصورة غير ملحوظة، إذ يعتبر أن الخلاص لا يتم للإنسان إلا بالآب والابن. فالإيمان الذي يربط بينهما يؤدي إلى الحياة الأبدية ويعتق من الموت الحقيقي وليس موت الجسد.

ونعود سريعاً إلى قول المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، التي هي الإعلان الرسمي الإلهي على مستوى القَسَم، والذي يتصدَّر حقيقة جديدة كانت مخفية وقد صار إعلانها علناً لتكون ركناً أساسياً في الإيمان المسيحي.

وهنا يلزم، أيها القارئ العزيز، أن ننتبه غاية الانتباه، إنما في خشوع وخضوع كلي لسلطان الكلمة، لأن وراءها أعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان على الأرض. وأقدم لك هذه الخطوات لكي تصل إلى سرِّ هذه الآية:

١ — مطلوب بساطة قلب وفكري يشبه فكر الأطفال لقراءة وفهم أقوال المسيح وهذا القول بالذات!

٢ — مطلوب تصديق قلبي وفكري بهدوء وتركيز في المعنى الذي تحويه الكلمات في أقوال المسيح.

٣ — مطلوب معرفة أن هذه الآية تحمل وصية ضمنية أي ما يشبه الأمر الإلهي، وكل وصية أو أمر إلهي يُقبل فوراً بدون أسئلة جانبية أو طلب زيادة وضوح أو شرح. فالأمر يحمل قوته في قبوله كما هو بدون فحص. وحالما يقبل الإنسان الأمر، يبدأ الأمر يفسّر نفسه ويلقّن الإنسان كيف يمكن تكميله والحصول على كل ضماناته. هذا ينطبق على كل وصايا المسيح.

والأمر، أي الوصية، في هذه الآية: «(إنَّ مَنْ يسمعُ كلامي ويؤمنُ بالذي أرسلني)، يمكن وضعه كالآتي: «اسمع صوتي وآمن بالذي أرسلني».

٤ — كل وصية للمسيح تحمل معها «وعداً»، بمعنى أن كل وصية تحمل معها عطية سخية تفوق العقل، لأن كل وعود المسيح هي فائقة جداً على الطبيعة. لا يمكن أن يعطي المسيح أمراً أي وصية دون أن يصرّح ضمناً بالوعد والعطية السخية التي تتبعها حتماً. وكل وعود المسيح مطلوب تصديقها بالقلب بشدة كما هي.

والوعد الذي في هذه الوصية هو: «له حياة أبدية»، وأنه «لا يأتي إلى دينونة»، أي ينعثق من الدينونة بمغفرة خطاياه، سواء في الحاضر في الضمير أو في المستقبل في الدينونة العامة، بل قد انتقل من الموت الحقيقي (غير الجسدي أي موت الخطية) إلى الحياة (الحقيقية). هذا يتم بالتصديق الإيماني.

والآن مطلوب أن تقرأ الآية مرة أخرى بكل هدوء وعلى المهل وتطبق الشروط السالفة. والنتيجة ستكون في حالة النجاح في التطبيق أن يحصل الإنسان على الإحساس بأن سر الآية قد انفتح على النفس، وأن الإنسان دخل في الكلمات والكلمات دخلت في الإنسان وصار الإنسان في مواجهة المسيح والآب والحياة الأبدية!

أما بعد ذلك فيلزم تكميل الإيمان بدراسة الكلمة ومعرفة دقائق الإيمان وممارسة العبادة كما تفرضها الكنيسة بتدقيق.

«مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي»:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه.» (تث ١٨ : ١٨ و ١٩)

«يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذنًا لأسمع كالمُتعلِّمين، السيد الرب فتح لي أذنًا وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد.» (إش ٥٠ : ٥)

السمع هنا ليس سمع الأذن الموصل إلى العقل للفهم المنطقي فحسب، بل يتضمن دخول الكلام — وهو روح — من الأذن إلى القلب ليحركه، لأن الكلمة فيها حياة. إذا تحرك القلب تحت وطأة سماع الكلمة يكون سماعاً صادقاً حقيقياً قال عنه المسيح في سفر الرؤيا: «مَنْ لَهُ أذن فليسمع ما يقوله الروح» (رؤ ٧ : ٢). هنا يطلب المسيح أذنًا روحية تسمع بالروح! وفي إنجيل القديس متى يقول: «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا (يوحنا المعمدان) المزمع أن يأتي. مَنْ لَهُ أذنان للسمع فليسمع» (مت ١١ : ١٤ و ١٥). هنا يطلب الأذن التي تقبل الحقيقة وما وراءها، لأنه إن كان المعمدان هو إيليا إذن فيسوع هو المسيح الآتي!! والمسيح يطلب الأذن التي تسمع الروح وتفهم القصد وتؤمن بالوعد!!

«يسمع كلمتي»: ὁ τὸν λόγον μου ἀκούων

«كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو: ٦٨)

«وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن... الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو: ٤٧: ٤٨)

هنا جدير بنا أن نفرق بين «يسمع صوتي» التي ستأتي في الآية القادمة (٢٥)، و«يسمع كلمتي» في الآية (٢٤). والفرق بينهما كبير، فصوت المسيح قوة روحية حينما يستقبله القلب المشتاق له، ترن فيه رنة الحياة وتهتز أوتاره بل جذرائه، كمن يستقبل رب الحياة. أما الكلمة فهي إنجيل الخلاص، والصوت كائن في الكلمة وفي كل آية. الكلمة تمنح حقيقة ومعنى روحياً ووعداً وتأكيداً، وهي قادرة أن تغير وتجدد وتلد من جديد، أما الصوت فهو صوت شخص ابن الله الذي يعلن عن وجوده ومعه الحب والحياة والعطف والحنان، وكأن الإنسان بلغ الملكوت: «خرافي تسمع صوتي.» (يو: ١٠: ٢٧)

ثم يلزمنا هنا أن نصحح الترجمة العربية، فهي ليست «يسمع كلامي» بل «يسمع كلمتي» (اللوعس)، ومعناها الكلي: «يقبلني باعتباري "الكلمة" المتجسد، الابن الوحيد المحبوب ناطقاً بصوت الآب واسمه.»

ومعروف أن المسيح بمجرد أن قال كلمته، فقد انقسم العالم إلى من يسمع وإلى من لا يسمع، إلى مؤمن وإلى رافض، الذي يسمع يؤمن والذي يؤمن «لا يأتي إلى دينونة». وهذا اصطلاح يهودي معناه البسيط أنه لا يُطلبُ حضوره أمام القاضي أو الديان، بمعنى المعافاة المطلقة أو البراءة بدون محاكمة.

«ويؤمن بالذي أرسلني»:

المسيح هنا يعتمد على كل ما استعلنه عن الآب. فهو يطالب كل من يعرف الآب كما استعلنه المسيح، أن يؤمن به، بمعنى أن يؤمن بما نقل الابن عنه من قول أو وعد. فمثلاً نقل المسيح عن الآب هكذا: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو: ٣: ١٦). المطلوب هنا تصديق كلام الآب تصديقاً ينفذ في العقل ويخترق القلب ويملاؤه، فيؤمن بصدق الآب وصدق وعده: أنه أحبنا بالفعل وأنه أرسل ابنه بالفعل فدية لكل من يؤمن، فلا يهلك بل ينال الحياة الأبدية.

وكوننا نؤمن أن الآب كان صادقاً وأرسل ابنه ليفدنا، هذا بحد ذاته هو الإيمان بالآب،

ويجعل الآب له علاقة مباشرة بنا: «الآب نفسه يحبكم لأنكم أحببتموني وآمنتُم أنني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧)، «وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أنني خرجتُ من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني.» (يو ١٧: ٨)

انظر أيها القارئ كيف أن الإيمان بوعد الآب وصدق كلمته هو النصف المكمل للإيمان بالمسيح المؤدي للحياة الأبدية والانعقاد من الدينونة.

«له حياة أبدية»:

المسيح لا يسوّف، فالمعنى ينصبُّ على الحاضر $\epsilon\chi\epsilon\iota$ = له الآن وكل أوان، لأن الحياة الأبدية غير مرتبطة بالزمن. الحياة الأبدية مثل كل عطايا الله الروحية هي فائقة على الطبيعة، هي فوق الزمان، هي لنا إذا أخذناها الآن، فتبقى معنا إلى الأبد.

«انتقل من الموت إلى الحياة»:

لينتبه القارئ ولا يرفع الأفعال هنا إلى المستقبل، فهي قد تمت!! «(يكون قد انتقل)» هنا المسيح يصوّر حالة مقضياً بها، حكماً نافذ المفعول، وكأنه قد صار! بمعنى أن المؤمن الذي انتهى في نفسه من قضية سماع كلمة المسيح واخترقت أذنه الروحية واستقرت في القلب وأصبحت حقيقة إيمانية، وصدّق كلام الآب وآمن به، فإنه يشعر في قلبه شعور الإيمان اليقيني أنه قد غُفرت خطاياها، وأنه قد سقطت عنه كل الدينونة، وكفّت عنه صراخ الضمير المشتكي واللائم الدائم، وبحس أنه انتقل من حالة ظلمة قلبية محيطة إلى نور الله، وفرح يدوم مع شكر لا يهدأ «كل حين على كل شيء.» (أف ٥: ٢٠)

وإنجيل يوحنا قدير في أن يستحضر الفعل الأخروي الذي كنا ننتظره وكأنه سيحدث بعد الموت، يحضره في الآنيّة الزمنية: الآن وفي هذه الساعة: «تأتي ساعة وهي الآن» حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥). ولكن مطلوب الأذن الروحية الآن!

المسيح في إنجيل يوحنا يُلهمنا استعلاناً جديداً عن الموت والحياة!! فالموت الجسدي القديم والرغبة المحيطة به قد انتهيا إلى الأبد وحل محلّهما الموت الأخطر: وهو موت الخطية الذي كان منسياً أو مخفياً. و«الحياة» القديمة التي كنا ننتظرها خطأ بعد الموت فلا نكاد نذكرها أو نفهمها أو نحسها، استعلنها المسيح في الحاضر إذ أسقط عنها الزمن الكاذب فظهرت بقوة أكثر من قوة الحياة بالجسد: «فإن الحياة أٌظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب

وأظهرت لنا... ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١ يوحنا : ١ و ٢)

بهذا المعنى الاستعلاني الجديد الذي يقدمه المسيح في هذه الآية، نفهم كيف يؤكد المسيح أن من يسمع كلامه ويؤمن بالذي أرسله يكون قد انتقل من الموت إلى الحياة، إنه اختبار الحاضر: «تأتي ساعة وهي الآن»!! والانتقال من الموت إلى الحياة، بمعنى سقوط الدينونة وشروق فجر الحياة الأبدية، من شأنه أن يجعل الإنسان يشعر بكيانه في المسيح والآب ولا يعود يعيش لنفسه!! فالذي آمن به الإنسان وصدقه يُحسّه ويراه ويحبه ويعيشه!!!

ولكن كون الإنسان قبل الآب والابن في كيانه وعاش الحياة الأبدية بنوع ما الآن، لا يعني أنه لا يوجد موت للجسد أو أن هذه هي كل الحياة الأبدية. فالذي نختبره ونأخذه بالإيمان الآن تأخذه — كما يقول بولس الرسول — كعربون، والعربون دائماً يكون نسبةً ضئيلةً إذا قارنناه بالحصيلة الكلية: «نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح، الذي فيه أيضاً أنتم إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتِمتم بروح الموعد القدوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء المُقْتَنَى لمدّج مجده.» (أف ١ : ١٢-١٤)

وعلى العموم فالمسيح في هذه الآيات لا يقدم تعليماً بقدر ما يطرح عملاً؛ فهو يحفّز السامع والقارئ ليأخذ قراره، إنه نفس موقفه تجاه اليهود، يطرحه على الإنسان على مدى الدهور. إنه لا يعلمهم بل يتحداهم، يطرح الحياة والموت أمامهم، فإما يقبلون الحياة فيه، وإما يقتلونه قَتَبَقُوا في الموت إلى الأبد.

٢٥ : ٥ «الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حينَ يسمعُ الأمواتُ صوتَ ابنِ الله والسامعونَ يحيَونَ!».

«تأتي ساعة، وهي الآن»:

على القارئ أن ينتبه إلى الفارق الكبير بين قول الرب في هذه الآية «تأتي ساعة وهي الآن»، وبين قوله في الآية القادمة «تأتي ساعة» بدون «الآن». فالأولى تشير إلى الواقع الحاضر وهو الواقع الروحي، فهي ساعة الخلاص والوقت المقبول الذي تكلم عنه إشعياء النبي (إش ٤٩ : ٨؛ ٦١ : ٢). أما الثانية التي أتت بدون «الآن»، فهي تشير إلى المستقبل في نهاية الزمان وهي ساعة الدينونة.

القيامة بالروح قادمة كما تنتظرها الأجيال والآن هي حاضرة. المسيح يؤكد ما يؤمن به الجميع

أن استعلان القيامة القادمة في نهاية الزمان هي أمر حتمي بحسب رجاء اليهود، ولكن الجديد الذي لم يكن يتوقعه أحد هو استعلان المسيح لبدء عمل هذه القوة القادرة على الإقامة من الموت الآن، وهي بعينها قوة الحياة الأبدية! هذه القوة التي تحيي الموتى قائمة وكائنة في الكلمة التي ينطقها المسيح. والكلمة التي ينطقها المسيح هي استعلان الآب والحياة الأبدية التي كانت عنده، وها هو المسيح يستعلنها بالكلمة المنطوقة والآية المعمولة: «والسامعون يحيون»!

هنا ينقل المسيح كل التراث اليهودي عن المستقبل الذهبي البعيد والمجهول والذي فيه تسود إسرائيل على العالمين والذي عبّر عنه الأنبياء «بذلك اليوم»، وعن الآمال العريضة المذخرة فيه، ينقله فجأة إلى هذه الساعة الآن: «فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة "اسمعي" كلمة الرب»، «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام، هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون... وتعلمون أنني أنا الرب»، «ثم قال لي يا ابن آدم (ابن الإنسان) هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا، وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا (بسبب الخطية وغياب الله)؛ لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون... ويكون لجميعهم راج واحد.» (حزقيال ٣٧)

واضح هنا أن الأتني و يبس العظام وانقطاع الرجاء على لسان النبي بالروح يعبر أقوى تعبير عن حالة إسرائيل الروحية أيام المسيح.

أما قول الله على لسان حزقيال: «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب»، فهي هي قول الرب بعينه: «تأتي ساعة حين يسمع الأموات صوت ابن الله».

وكلمة «الأموات» هنا يلزم أن نفهمها على أنها موتى الخطية أو عدم الإيمان بالمسيح، لأن موتى الجسد سيذكركم المسيح بالتحقيق مع صفة مضاعفة ليفرقهم عن موتى الخطية بقوله: «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج...»، والفرق في الذين يسمعون بين الآيتين، هو أن سامعي صوت المسيح في الآية التي نحن بصدددها هم موتى الخطية ولا يذكر هنا «جميع»، لأن فيهم من يسمع ويستجيب وفيهم من لا يسمع ولا يستجيب، حيث تأتي كلمة «السمع» في اللغة اليونانية بمعنى السمع والقبول؛ أما موتى الآية القادمة فيذكر فيها «الجميع» لأن جميع الموتى سوف يقومون للدينونة بلا تفريق.

لقد سبق وأعلن المسيح في الأصحاح الرابع عن مجيء هذه الساعة المنتظرة منذ الدهور، ساعة ما بعد الزمن، ساعة الأخرويات، أي أزمنة الحياة الأبدية التي ليست أزمنة الجسديات، حينما قال:

«تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له» (يو ٤: ٢٣). هنا يصف المسيح جوهر العبادة اللائقة بالله، لأن الله روح والساجدون له يتحتم أن يسجدوا له بالروح. الآن نفهم سرَّ هذه الآية التي مرت علينا، فمعناها ينحصر في أنه لا عبادة مقبولة أو منظورة أو مسموعة من الله إلا عبادة القائمين من الأموات الذين انتقلوا من الموت إلى الحياة، أي الذين سمعوا صوت ابن الله، بمعنى قبوله ليجلس الابن على عرش القلب ويدبر ويسود، والذين آمنوا بالذي أرسله أي آمنوا بالآب كونه أرسل ابنه مبدولاً على الصليب حتى لا يهلك كلُّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. فالإيمان بالآب مُشْتَعَلٌ عمله وقوته في إرساله الابن. والذين أقامهم المسيح من الموت «الآن» هم الذين غُفِرَتْ خطاياهم، فسقطت عنهم الدينونة وانتقلوا من الموت إلى الحياة، فدخلوا في بَرِّ المسيح ليتبرأوا أمام الله كأبناء بلا لوم. والقديس بولس يتكلم عن موتى الخطية بوضوح: «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا.... ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح.» (أف ٢: ١ و ٥)

هؤلاء هم الساجدون بالروح الذين يطلبهم الله ودفع ثمن حياتهم الجديدة ببذل ابنه الوحيد. أما كيف يسجدون «بالروح» فهذا عرفته الكنيسة جيداً في يوم الخمسين ومارسته بقوة، حتى إن صلاة التلاميذ كانت تزعزع المكان: «ولما صلُّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه وامتلاً الجميع من الروح القدس.» (أع ٤: ٣١)

لقد تحقق قول الرب ولا يزال من جهة الساجدين بالروح ومن جهة الذين يسمعون بالروح! «فتأتي ساعة وهي الآن»، ولا زالت إلى «الآن» حاضرة في عمق الزمن وهي ليست من الزمن في شيء!

ثم عودة إلى «الحق الحق أقول لكم» التي استهل بها المسيح هذه الآية. فالحقيقة الإيمانية الجديدة التي يعلنها المسيح والمحسوبة أنها ركن ركين في الإيمان المسيحي، هي أن الإنسان الذي مات بالخطية وانطفأت جذوة روحه تحت سلطانها المهلك، مدعو للحياة من جديد. كلمة المسيح فيها حياته وهذه هي «القيامة الأولى» التي عبر عنها الروح في سفر الرؤيا: «مُبَارَكٌ وَمُقَدَّسٌ مَنْ لَهُ نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ ٢٠: ٦)

«يسمع صوت ابن الله»:

أنظر المقارنة بين «يسمع كلامي» و«يسمع صوتي» في شرح الآية السابقة (ص ٣٥٦ و ٣٥٧).

«ابن الله»:

هذه واحدة من ثلاث مرات في إنجيل يوحنا يذكر المسيح فيها أنه «ابن الله» بوضوح وعلانية، أما المرتان الأخريان فهما: في آية (٣٦: ١٠)، آية (٤: ١١). وهذه الصفة الجوهرية يتمسك بها ق. يوحنا سواء من فم المسيح أو من البراهين العملية والاستعلانية التي تيقن منها، وجعل من هذه الصفة ركيزة الإيمان الأولى لإنجيله: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله.» (يو ٢١: ٣١)

٢٦: ٥ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك "أعطى" الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته».

الكلام هنا هو في صميم الطبيعة الإلهية. والمسيح يحدد موقعه من هذه الطبيعة بالنسبة للآب. ولكن لا يمكن الكلام عن الطبيعة الإلهية دون التعبير عن الذات الإلهية.

الطبيعة الإلهية يشترك فيها الآب والابن على السواء. فالطبيعة الإلهية للآب هي نفسها الطبيعة الإلهية للابن. «والحياة» هي من صميم خواص الطبيعة الإلهية.

ولكن الحياة في الله ليست ممنوحة ولكن هي خاصية الذات الإلهية، فكيان الله حي بذاته. «أنا الكائن بذاتي $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\alpha\mu\iota$ ». والذات الإلهية واحدة، هي آب وابن كل منهما قائم في الذات الإلهية الواحدة. فالآب له بالضرورة الحتمية حياة في ذاته الإلهية، والابن بنفس الضرورة الحتمية له حياة في ذاته الإلهية.

الآية هنا لا تفيد على الإطلاق أن الآب «أعطى» حياة للابن في ذاته، هذا مُحال؛ ولكن الآب أعطى الابن «أن يكون» له حياة في ذاته كما الآب له حياة في ذاته، أي أن هذا هو حال كيان الأبوة والبُنة!

فإذا كانت طبيعة الحياة الذاتية هي في الابن كما في الآب، فلماذا أضاف المسيح القول أن الآب أعطى الابن أن يكون له هذا؟ واضح أن السبب هو التمييز بين الآب والابن في الذات الإلهية.

وإليك قول ذهبي الفم في هذا الموضوع:

[أترى كيف أن المسيح يعلن التعادل الكامل بينهما إلا في نقطة واحدة وهي أنه: واحد هو الآب، وواحد هو الابن. لأن بقوله «قد أعطى» يوضح هذا التمايز، ولكنه يعلن أن كل

شيء ما عدا هذا متساو تماماً. وعليه فمن الواضح أن الابن يعمل كل شيء بسلطان وقوة مثل الآب تماماً. وأن الابن لا يأخذ قوة من أي مصدر كان لأنه له حياة كما الآب له حياة. [١٣]

٥ : ٢٧ «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان».

في كل الامتيازات المذكورة في التسع الخطوات التي أعلن المسيح فيها لاهوته (أنظر صفحة ٣٣٨)، يقف هذا الامتياز وحده ليختص ببشرية المسيح. فهنا امتياز الدينونة أخذه المسيح باعتباره «ابن إنسان» حسب القراءة اليونانية الصحيحة *υἱὸς ἀνθρώπου* بدون التعريف بـ «ال» = *τοῦ*. وذلك يعني أن المسيح يتبوأ مركز الدينونة العالي ليس بصفته ممثلاً للبشرية، وإلا لزم أن يكون «ابن الإنسان»، ولكن المذكور هنا هو «ابن إنسان»، فرفع «ال» التعريف توضح أن اصطلاح «ابن الإنسان» لا يفيد شخص المسيح بل الجنس أي أنه يدين كإنسان! وهذا المعنى يحمل منتهى العدالة الإلهية إذ جعل الديان الذي يقضي لبني الإنسان هو «ابن الإنسان»، أي من جنس مَنْ يقضي لهم: هذا ما يقرره بولس الرسول في سفر العبرانيين بوضوح: «من ثمَّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيماً ورئيس كهنة أميناً فيما لله حتى يُكفِّر خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجرِّبين... لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مُجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية. فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه (نجد نعمة للمعونة في وقت الحاجة)» (عب ٢: ١٧ و ١٨؛ ٤: ١٥ و ١٦). لذلك أصبح من خصائص المسيح العجيبة التي تميزه كقاضٍ للبشرية أنه يشفع في المذنبين! «وأما هذا فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول (بصفته مُقدِّم أقدس وأعظم ذبيحة حية على عرش الله)، فمن ثمَّ يقدر أن يخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين يشفع فيهم» (عب ٧: ٢٤ و ٢٥). أي أن ديان الناس هو بعينه محامي البشرية الأول. وقد جمع بولس الرسول هاتين الوظيفتين معاً هكذا: «من هو الذي يدين؟ المسيح، الذي مات بل بالحري قام أيضاً الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا» (رو ٨: ٣٤ — ترجمة مصححة عن اليونانية).

إذن، خطير حقاً أن نفقد لأنفسنا وظيفة الشفاعة هذه برفضنا المسيح الشفيع فلا يبقى لنا منه إلا الدينونة!!

واستخدام المسيح للفظ «ابن إنسان» هنا ينبهنا مباشرة إلى نبوة دانيال : «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام (الآب) فقرَّبوه قدامه فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا ٧: ١٣ و ١٤). وبولس الرسول أدخل في اللاهوت صفة المسيح «(الإنسان) بقوله : «فإنه إذ الموت بإنسان بإنسان أيضاً قيامة الأموات» (١ كو ١٥: ٢١)؛ موضحاً بذلك الجنس البشري الذي يتجنس به المسيح ليكمل به عمل الفداء!

وهكذا يتضح لنا أن في قول المسيح : «وأعطاه أن يدين أيضاً لأنه ابن إنسان»، تلميحاً واضحاً لنبوة دانيال التي يحاول المسيح فيها أن ينبه ذهن اليهود إليها لينتبهوا إلى شخصه، ولكن شكراً لله، فالذي عثر فيه اليهود صار لنا دليل حياة ومِرْسة إيمان.

٢٨: ٥ و ٢٩ «لا تتعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة».

لقد طرح المسيح أمامهم في الآية (٢٥) درجة أولى من درجات السمع والحياة : «تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون». هنا سماع صوت المسيح، والإنسان لا يزال يعيش، ولو أنه ميت بالخطية في الحقيقة! وهنا السماع هو في درجته الاختيارية، كذلك الحياة التي ينالها من جراء غفران الخطية هي حياة جديدة في صميم الحياة القديمة، حياة حقيقية بالروح في صميم حياة الجسد الزائلة.

ففي هذه القوة التي للرب في إقامة موتى الخطية لقبول حياة أبدية، يقول الرب : «لا تتعجبوا، لأنه تأتي الساعة الأخيرة — ليست الآن — تأتي في وقتها المحدد، فيسمع جميع الموتى (موتى القبور)». هنا قيامتان، لأنه في الحقيقة لو قمشنا مع لاهوت ق. يوحنا وفهمه للموت والحياة والقيامة، يكون موتى القبور هم إما الذين فاتهم القيامة الأولى — التوبة والغفران والمعمودية — ولم يسمعوا لصوت المسيح ولا اقتنعوا بنداثة للتوبة ولا رجعوا عن سيرة الخطية، بل استمروا في غيَّهم في طريق الموت الروحي وضاع عليهم زمن الخلاص، واحتوت أجسادهم القبور؛ هؤلاء يسمعون صوت المسيح — ليس المخلص بعد — بل الدِّئان، وهو الصوت الذي يدعوهم لتقديم حساب الحياة ويطالبهم بثمن دمه الذي سفكه من أجلهم فازدروا به، ويطالبهم بشمر الإنجيل

الذي طرحه أمامهم بين أيديهم، فطرحوه تحت أرجلهم وداسوا على الكلمة وأهانوا الروح. هؤلاء لهم قيامة واحدة أو صحوة يصحونها على الضمير المعذب حيث يواجهون الدينونة بل وقيمون فيها؛ أما القيامة الأخرى، فهي للذين أحبوا النور وكانت أعمالهم بالله معمولة، فهؤلاء لهم القيامة الثانية في ملكوت ابن الله حيث ميراث المجد. والمسيح يخاطب اليهود أن هنا لهم أن يتعجبوا كما يشاءون، لأن ما سبق وقاله بخصوص القيامة الروحية الأولى لموتى الخطية، لهم أن يقبلوا به أو لا يقبلوا، أما إقامته الجبرية لكل ذي جسد فهو أمر حتمي سوف يخضعون له صاغرين.

ولو يلاحظ القارئ أن الرب سبق وطرح أمام نيقوديموس دعوته نفسها: «لا تتعجب أنني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو ٣: ٧). فلماذا قال له: «لا تتعجب أنه ينبغي أن تولد من جديد»، وهؤلاء قال: لا تتعجبوا أنكم سوف تقومون لدينونة عتيدة. فسماع الأذن اليهودية المنغمسة في الماديات والدنيويات صعب عليها أن تقبل التجديد لتحيا للروح. وأصعب من ذلك أن تصدق أنها ستدان: والكلام لنا أيضاً...

فعلوا الصالحات وعملوا السيئات:

هو التعبير العملي عن الإيمان وعدم الإيمان، قبول النور ورفض النور، محبة الحق وبغضة الحق، فالذي آمن بالمسيح قد صار له عمل صالح بالدرجة الأولى: «فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله. أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يو ٦: ٢٨ و ٢٩). لأن الذي آمن بالمسيح يعني على المستوى الإيماني الحقيقي أنه قد صار يعيش للمسيح والمسيح يحيا فيه، وصار الروح القدس يعمل معه أعمال الله الصالحة. ويستحيل لأحد أن يؤمن بالمسيح ولا يكون له عمل صالح.

أما الذي لا يؤمن، فلا يملك الصالح — الله — الذي يعمل — أو يعمل لحسابه — ولا يعرف ما هو الصلاح الذي يطلبه. والشجرة تُعرف من ثمارها (مت ٧: ١٩ و ٢٠). ولولا تلاحظ تجد أن المسيح في الآية ٢٥ والآية ٢٨ أوضح أنه صاحب دينونتين: الأولى — دينونة خلاص — للضمير ليحييه ويُقيمه من موت الخطية، والدينونة الثانية للحكم على مَنْ قَبِلَ وَمَنْ رَفَضَ. فالذي قَبِلَ دينونة الضمير الأولى ينجو من الدينونة الدائمة اللائمة لأنه يكون قد قَبِلَ الحياة الأبدية ويعيشها. والذي رفض دينونة الضمير يكون قد ضاعت عليه فرصة التوبة وفرصة الحياة أيضاً، ولا تبقى له إلا دينونة الندم.

الإيمان والأعمال : كما تقدمه الكنيسة سواء بتعليم القديس يوحنا الرسول،
أو بتعاليم الرسل الآخرين.

١ — **توجد دينونة « للإيمان » قاطعة :** « الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن به قد دِينَ
لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. » (يو ٣: ١٨)

ويشرحها ق. يوحنا في رسالته هكذا: « إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن
هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه. مَنْ يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. مَنْ لا
يصدق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه. وهذه هي
الشهادة (قوة الشهادة وصدقها) أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه. مَنْ له
الابن، فله الحياة؛ وَمَنْ ليس له ابن الله، فليست له الحياة. » (١ يو ٥: ٩-١٢)

وهذا يعني به ق. يوحنا أن الإيمان بالمسيح له شهادة حاضرة، وهي الحياة الأبدية التي تكون
قد انسكبت في قلب مَنْ آمَنَ بالمسيح، وصار يحيا في ملء نعمة الروح. فمَنْ له هذه الحياة تكون له
الشهادة في نفسه ومن الآخرين، أنه مؤمن حقاً بالمسيح، ويكون هذا بحد ذاته برهان رفيع الدينونة
عنه إلى الأبد. وذلك بعكس مَنْ ليس له إيمان ولا شهادة. فإن الدينونة تظل تلاحقه الآن بسبب
عدم الإيمان، وفي النهاية بسبب سوء الأعمال!!

٢ — **وتوجد دينونة « للأعمال » قاطعة :**

— « ونحن نعلم أن دينونة الله هي حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه. أَقْتَظُنُّ هذا أيها
الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله. أم تستهين بغنى
لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك
وقلبك غير التائب تَذْخَرُ لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة، الذي
سيجازي كل واحد حسب «أعماله». أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد
والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية. وأما الذين هم من أهل التحزُّب ولا يطاوعون للحق بل
يطاوعون للإثم، فسخط وغضب، شدة وضيق على كل نفس إنسان يفعل الشر... ومجد
وكرامة وسلام لكل مَنْ يفعل الصلاح. » (رو ٢: ٢-١٠)

— و يعود القديس بولس الرسول يؤكد حتمية وقوفنا أمام الديان :

«لأنه لا بد أننا جميعاً نُظْهَرُ أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما
صنع خيراً كان أم شراً. » (٢ كو ٥: ١٠)

— بطرس الرسول أيضاً يشترك في هذا التأكيد عينه :
 «الذين سوف يعطون حساباً للذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات.»
 (١ بط ٤ : ٥)

— وبولس الرسول يحدد الدينونة بيوم معين يصفه للوثنيين ببساطة هكذا :
 «فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل . لأنه أقام يوماً
 هو فيه مزعم أن يدين المسكونة بالعدل برجل (إنسان) قد عيّنه مُقَدِّماً للجميع إيماناً إذ أقامه من
 الأموات.» (أع ١٧ : ٣١ و ٣٠)

— ويحدد بولس الرسول هذا اليوم الذي للدينونة بيوم ظهور المسيح هكذا :
 «أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند
 ظهوره وملكوته...» (٢ تي ٤ : ١)

— علماً بأن عقيدة الإيمان بدينونة الأعمال مع القيامة هي راسخة في إيمان الكنيسة منذ أيام
 الرسل :
 «قيامة الأموات والدينونة الأبديّة.» (عب ٦ : ٢)

— كما استقر الإيمان الأول في الكنيسة بأن المسيح كـ «رَبِّ» هو الذي سيضطلع بالدينونة
 وذلك من فم المسيح نفسه :

«هذا أقامه الله في اليوم الثالث ؛ وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق
 الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات . وأوصانا أن نكرز
 للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله دَيَّاناً للأحياء والأموات.» (أع ١٠ : ٤٠ — ٤٢)

وق. يوحنا يقدم نفس التعاليم موضحاً دينونة الأحياء بأنها فرصة التوبة وإعطاء الحياة الأبديّة
 المعتبرة القيامة الأولى في الآية (٥ : ٢٥)، وموضحاً دينونة الأموات معبراً عنها «بالذين في القبور» .
 إنها الدينونة التي بلا خلاص ولا توبة حيث الحكم الأخير، فهي قيامة يتميز فيها الذين قبلوا الحياة
 الأبديّة بالإيمان عن الذين ضاعت عليهم فرصة الحياة برفضهم للإيمان.

وقد مهد ق. يوحنا لسلطان المسيح على الأحياء والأموات في الآية (٢١) بقوله : «لأنه كما أن
 الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء.» . هنا سلطان المسيح واضح في
 قوة القيامة من الأموات التي تلازمها الدينونة، وفي قوة إعطاء الحياة لِمَنْ يشاء التي تختص بدعوة

أموات الخطية للقيامة الأولى لنوال الحياة الأبدية من الآن.

على أن ق. يوحنا يزيد رسالة المسيح الأساسية وضوحاً بالنسبة للمختارين سواء في حياتهم الآن أو في قيامتهم من الموت هكذا: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيم في اليوم الأخير. لأن هذه مشيئة الذي أرسلني أن كل مَنْ يرى الابن $\theta\epsilon\omega\rho\omega\nu$ (رؤية إيمان بالروح) ويؤمن به تكون له حياة أبدية (من الآن) وأنا أقيم في اليوم الأخير.» (يو: ٦: ٣٩ و ٤٠)

ويزيد المسيح نفسه تأكيداً لقوة الحياة والقيامة التي ينالها مَنْ يؤمن به، وذلك بفاعلية سر التناول من جسده ودمه الذي يرشخ فيه قوة الحياة والقيامة من الأموات — وهو المسمى عند الآباء «ترياق عدم الموت» — هكذا:

«مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير.» (يو: ٦: ٥٤)

لهذا ربطت الكنيسة بحسم بين سر الإفخارستيا (المؤسس على الموت والقيامة) وسر غفران الخطايا، باعتبار أن غفران الخطايا هو التمهيد الحتمي للانعتاق من الدينونة وبالتالي لنوال الحياة الأبدية في القيامة.

وإن كان ق. يوحنا لم يحدد «قيامة الأجساد» بالنص إلا أنه لَمَح لها بقوله: «الذين في القبور» حيث القبور $\mu\eta\tau\epsilon\acute{o}\iota\varsigma$ تعني «غرفة حفظ الجسد» في المنطق اللغوي للكلمة، وقد اختارها ق. يوحنا عن الكلمة الأخرى $\tau\acute{\alpha}\varphi\omicron\varsigma$ التي تعني «مكان سكنى الموتى»، وهو تعبير غير واقعي وغير روحي. ولكن الأجساد سواء في مفهوم القديس بولس أو القديس يوحنا ليست مادية وإن كانت على صورتها:

«هكذا أيضاً قيامة الأموات يُزرع في فساد، ويُقام في عدم فساد؛ يُزرع في هوان، ويُقام في مجد؛ يُزرع في ضعف، ويُقام في قوة؛ يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيواني، ويوجد جسم روحاني.» (١ كو ١٥: ٤٢-٤٤)

ولكن واضح وبالنهاية أن ق. يوحنا صبَّ كل اهتمامه في كل هذه الآيات على قدرة المسيح الحالية في إعطاء حياة أبدية لموتى الخطية؛ ولهذا أسَّس عن قصد واهتمام بالغ سر الجسد والدم ليسند فعل إيمانهم بهذا العمل السري الفائق عن التعبير. لذلك، وفي ختام هذه الآيات، نود لو نلفت النظر لخطورة التأكد من رسوخ فعل الإيمان بالمسيح الذي يكون له شهادة في الإنسان حسب

تعبير ق. يوحنا، وهذه الشهادة هي في الإحساس بالحياة الأبدية وفعلها الفائق لجعل الحياة تسمو فوق الطبيعة البشرية ولها برهانها الصادق: نصرة وفرح دائم مع شهادة.

ولا يندفع الإنسان المسيحي بأن له إيماناً بالمسيح وهو لا يعيش هذه الحياة، لأنه سيندفع حتماً وبالتالي بأن له أعمالاً صالحة تظهر في عينه أنها صالحة وهي ليست كذلك في عين الله. ويكفي ليقظة الضمير أن نضع هذه الآية أمام كل قارئ ليكتفت إلى نفسه:

«أنا عارف أعمالك، أن لك اسماً أنك حي وأنت ميت. كُن ساهراً وشَدِّد ما بقي الذي هو عنيد أن يموت لأنني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله. فاذا كر كيف أخذت، وسمعت، واحفظ وتُبْ فإنني إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك» (رؤ ٣ : ١-٣). وهذا نموذج من دينونة المسيح للضمير في الحياة الحاضرة. وطوبى لمن يقع تحت هذا الصوت...

٥ : ٣٠ «أنا لا أقدرُ أن أفعلَ من نفسي شيئاً. كما أسمعُ أدينُ. ودينونتي عادلةٌ، لأنني لا أطلبُ مشيئتي، بل مشيئةَ الآب الذي أرسلني».

«أنا لا أقدرُ أن أفعلَ من نفسي شيئاً» :

المسيح ينتقل هنا من التكلم بصيغة «الابن» في الآيات السالفة إلى التكلم بصفته الأنا «ἐγώ».

نرجو الرجوع لشرح الآية (١٩) لأن فيها الإفادة كاملة عن عمق هذا المعنى ومغزاه اللاهوتي (راجع ص ٣٤٥-٣٤٩).

«كما أسمعُ أدينُ» :

إذا لم نحسن فهم معنى هذا القول سينحرف بنا المعنى إلى مفهوم خاطيء سقط فيه كثيرون ممن تعرضوا لشرح هذه الآية — قدامى ومُحدَثين — إذ قالوا باعتماد الابن اعتماداً كاملاً على الآب. ولكن واقع التساوي المطلق بين الابن والآب لا يجيز قول الاعتماد. فالحقيقة أن الآب يدين والابن ينفذ الدينونة، والعلاقة بين الفعل غير المنظور لنا عند الآب — يدين — والفعل المُنفَّذ المنظور لنا عند الابن كمنفَّذ للدينونة هما فعل واحد ليس بينهما أعلى وأدنى، أو واحد منهما أصلي والثاني مقلد، أو الأول أمر والثاني طاعة عمياء. ولكن الفارق الوحيد هو أن الأول غير منظور، عند الآب؛ والثاني أصبح منظوراً بالابن. ويلزمنا أن نزيد الأمر هنا وضوحاً، فكل فعل وفكر ومشية وتدبير عند الآب يقوم الابن أولاً باستعلانه للمنظور، ثانياً بتنفيذه عملياً في واقع

الإنسان. وبين الفعل وتنفيذه والفكر واستعلانه والمشئنة وتكميلها والتدبير وإخراجه لحيز الوجود المنظور تساوي كامل ومطلق في القوة والحكمة والمعرفة. لذلك لا يصح ولا يجوز أن نقول إن الابن يعتمد في عمله أو كلامه أو تعليمه على الآب، وإلاّ لزم أن نقول بالتالي أن الآب يعتمد على الابن بنفس المقدار، لأنه إن كان الابن يعتمد على الآب في معرفته لكيفية العمل والقول، فالآب يعتمد على الابن في كيفية التنفيذ الدقيق الكامل. ولكن الأصح أن لا نقول بالاعتماد أحدهما على الآخر، بل نقول بالاتفاق المطلق والتساوي المطلق بين عمل الآب وعمل الابن، فالمشيئة واحدة والعمل واحد والفكر واحد والكلمة واحدة عند الآب والابن، ولكنها غير منظورة لنا عند الآب ومنظورة لنا بالابن. فالابن يرى ما عند الآب وينفذ أمامنا ما يراه. والابن يسمع ما عند الآب ويقول لنا ما يسمعه. والابن يعرف مشيئة الآب ويكمل المشيئة كما هي.

وهنا يتحتم أن نفهم أن «القدرة» على تنفيذ كل ما عند الآب تنفيذاً كاملاً تماماً يستلزم نفس «القدرة» التي عند الآب، وإلا ما استطاع المسيح أن يُخرج إلى حيز الوجود والعمل كل ما يريده الآب ويشاءه!! وهذه هي رسالة الابن — بحسب قدرته المساوية للآب — أن يعرفنا بالآب ويستعلن لنا كل ما عند الآب، لأنه لا توجد خليقة كائنة ما كانت، سواء رؤساء ملائكة أو ملائكة أو أنبياء، يستطيعون أن يعرفوا أو يروا الله كما هو، أو يدركوا مشيئته كما هي، أو يسمعوا صوته، أو يفهموا حكمته، سوى الابن الوحيد. لذلك يقول المسيح نفسه: «الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر.» (يو: ١٨)

«دينونتي عادلة»:

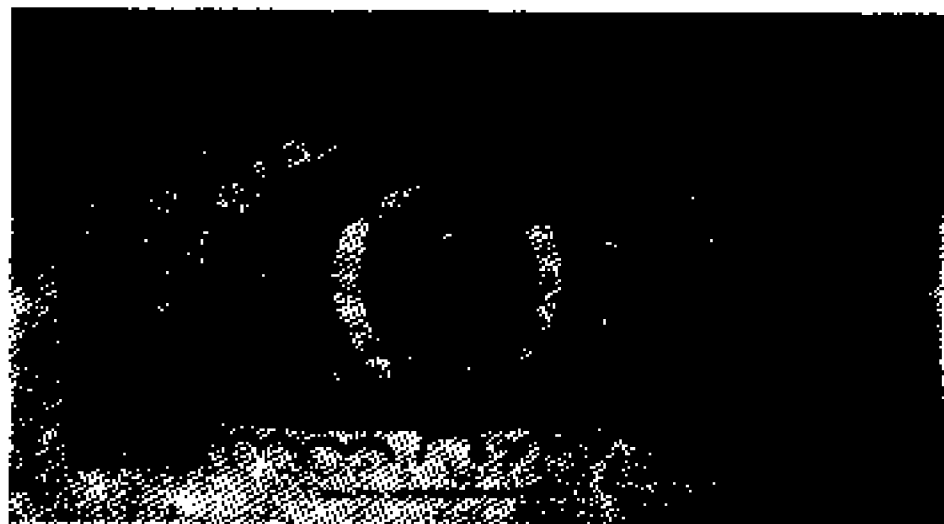
قالوا إن العدالة هنا يستمدّها المسيح من الله. ولكن لو صحَّ هذا لفقدنا وظيفة المسيح في حد ذاتها. لأنه إن كان الله هو الذي سيدين بدون المسيح فمن سيخلص؟ المسيح هنا له دور فعّال في الدينونة، ليس معنا بل مع الله أبيه أولاً. فقد تبوأ مركزاً جديداً أمام الله الديّان من واقع تجسده وموته الكفاري، وهو دور الشفيع! وشفاعة المسيح ليست كلامية بل كدافع ديون! فقد استطاع المسيح بتقديم ذبيحة نفسه من أجل الخطاة أن يطالب باستحقاق براءة موكله بمقتضى الدم المسفوك المتكلم والمُطالب بأقصى حدود الرحمة أمام قضاء الله على العصاة. والآب ارتضى بالمسيح مُصّالِحاً، وقد وكّله رسمياً أن يصالِح له العالم بدم صليبه. فبعد المداولة، يسمع المسيح من الآب الحكم وينطقه. ولكن ما أعدّها دينونة، تلك التي تعتمد في نُطقها على شفاعة الدم المسفوك.

«لأنني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني»:

مشيئة المسيح هي، كلياً وجزئياً، أن يصنع مشيئة الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو: ٤: ٣٤). وأما ما هي مشيئة الآب فهي هكذا: «هذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أثلف منه شيئاً، بل أقيم في اليوم الأخير. لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير» (يو: ٦: ٣٩ و٤٠). فإن كانت مشيئة الآب هكذا تنسجم انسجاماً بديعاً مع إرادة الابن الذي أخذ على عاتقه تنفيذها بكل قدرته وقوته، ثم إن كانت مشيئة الآب هكذا يحفظ أولاده من الشرير وهذا كان هو عمل الابن الوحيد، فقد تطابقت مشيئة الآب على عمل الابن، والنتيجة هي ارتفاع عدالة الدينونة بعمل الابن.

ولكن هذه العدالة المُعتمدة أساساً على شفاعته دم المسيح، هي بدورها شديدة الوطأة على الرافضين. صحيح أن اليهود الذين يخاطبهم المسيح هنا كان فكرهم خالياً من موضوع الدم والشفاعة، ولكن لم يكن فكر المسيح يخلو منه ولا فكر كاتب الإنجيل. فدينونة المسيح العتيدة تستمد قوتها بل رحمتها من قضية الصليب وهكذا الموت التعسفي الذي جازه وحيثيات الحكم الذي اتخذته المسيح أساساً لتبرئة الخطاة:

— «مَنْ سِيَشْتَكِي عَلَيَّ مَخْتَارِي اللَّهَ؟ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْرِّرُ، مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ الْمَسِيحُ الَّذِي مَاتَ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضاً، الَّذِي هُوَ أَيْضاً عَنْ يَمِينِ اللَّهِ — (تعاذل القضية) — الَّذِي أَيْضاً يَشْفَعُ فِينَا.» (رو: ٨: ٣٣ و٣٤)



القسم الثالث من الأصحاح الخامس

الشهادة للابن : من المعمدان، من الآب، من الأعمال، من الأسفار
(٥ : ٣١ - ٤١)

المسيح يدعم مركزه الإلهي كديان بالشهادة أمام اليهود،
والقديس يوحنا ينتفع من وراء ذلك بتدعيم الإيمان بالمسيح لدى المؤمنين.

٥ : ٣١ «إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً».

يُلاحظ في إنجيل يوحنا أن الشهادة تأتي دائماً مدعّمة بالدينونة. لقد كانت الآيات السالفة
مركزة على محور الدينونة. والآن ينتقل المسيح من استعلان عمله كديان إلى تدعيم هذا العمل
الإلهي بالشهادة. وبإدء ذي بدء، فالمسيح كما سنرى لا يقبل الشهادة من إنسان (٥ : ٣٤) تماماً
كما أنه لا يقبل مجدداً من إنسان (٥ : ٤١).

هذا له معنى لدى المسيح، سواء طرحه أمام اليهود أو طرحناه نحن على مستوى اللاهوت، لأن
الذي يعتمد على شهادة الناس يحتاج إلى الناس ويعتمد عليهم، وهذا لا يستقيم عند المسيح ولا
يستقيم لاهوتياً.

ولكن أيضاً إن كان المسيح يشهد لنفسه أمام اليهود، فهو يضع نفسه تحت معايير أحكامهم
بالقبول أو الرفض، فيظهر كمن يبحث عن أو يطلب استحسانهم أو موافقتهم، وكأنه يطلب مجدداً
من الناس لنفسه.

لذلك، فلنكون المسيح حراً من الناس — وهو بالحق كذلك — رفض أيضاً أن يشهد
لنفسه أمامهم، مع أن له الحق أن يشهد لنفسه (٨ : ١٤) وقد أعطى المبرر لذلك في حينه.

وهكذا رفض المسيح أن يقبل شهادة من أحد، كما رفض أن يشهد لنفسه، ولم يحسب مجدداً
من الناس أمراً يهمه!

أما قول المسيح « إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً »، فهذا يعني به أنها ليست حقاً لدى اليهود وحسب معاييرهم، ناموسية كانت أو عُرفية. لأننا نعلم بحسب الحق أن شهادة المسيح هي الحق بعينه.

ولكن المسيح هنا يقطع خط الرجعة على المتشككين والرافضين، فلا يعطيهم فرصة للمعارضة. ولا يسمح لهم أن يظنوا عنه أنه يطلب أن يتمجد في أعينهم! أي في عين بشر. وهنا يظهر بوضوح حذر المسيح من أن يجعل خط استعلان الإلهي سواء للآب أو لنفسه أن يتداخل فيما هو بشري. فالحق الإلهي كالمجد الإلهي، ليس في عوز ما إلى ما هو بشري قط.

ولكي نتأكد من هذا الأسلوب الإلهي الذي يسير عليه المسيح، يمكن أن نسمعه وهو يؤكد ذلك من وجهة نظره الحرة هكذا: « فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً » — (بحسب العرف والناموس اليهودي الإنساني) — فكان رد المسيح مُفجماً هكذا: « أجاب يسوع وقال لهم وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب » (٨ : ١٣ و ١٤). هنا المسيح يقول ما معناه: وإن كنتُ أرفض أن أشهد لنفسي بحسب معيار العالم الذي ينظر إلى مَنْ يشهد لنفسه على أنه يطلب مجد نفسه، إلا أنني أشهد لنفسي ولكن ليس بحسب معيار العالم الذي لا يعرفني ولا يعرف المجد الذي أتيت منه ولا المجد الذي أنا ذاهب إليه، بل أشهد لنفسي بحسب معرفتي لذاتي من أين أنا وإلى أين أنا!!

٥ : ٣٢ «الذي يشهد لي هو آخرُ وأنا أعلمُ أنَّ شهادتَهُ التي يشهدُها لي هي حقٌ».

لقد أخطأ مَنْ قال إن المسيح يتكلم هنا عن شهادة يوحنا المعمدان. فشهادة المعمدان — كما سيذكرها المسيح بعد ذلك — وصفها المسيح بأنها كانت مؤقتة وجاءت وكأنها مجاملة أو لتسوية الوضع أمام الفريسيين الذين ساءلوه. في حين أن المسيح يتكلم هنا عن الشهادة التي تقيم حجته أنه الديّان!! والتي عليها يبني المسيح أصالة وجوده ورسالته وتعاليمه! وسيجيء ذكرها بالتفصيل بعد ذلك سواء في الآية (٣٧) أو في الأصحاح ١٨ : ١٨.

كذلك يُلاحظ أن الفعل «يشهد» يجيء في زمن المضارع الدائم (ὁ μαρτυρῶν - μαρτυρεῖ)، وهذا لا يستقيم إطلاقاً في حالة شهادة إنسان مثل المعمدان، ولكن يطابق الشهادة من الله.

«وأنا أعلم» :

هنا يأتي الفعل οἶδα الذي يفيد المعرفة الكاملة والمطلقة وهي تختلف عن المعرفة التي تأتي بالبحث والاختبار ἐγνώκα والتي جاءت بعد ذلك في الآية (٤٢) : «ولكني قد عَرَفْتُكُمْ أَنْ لَيْسَتْ لَكُمْ حُبَّةُ اللَّهِ فِي أَنْفُسِكُمْ» .

و يُلاحظ أن قول المسيح هنا يشير إشارة سرّية بليغة إلى علاقة المسيح بالآب كونها شخصية وكاملة ومطلقة، وكونها إحدى الثوابت العميقة التي يحياها المسيح في داخله .

«إن شهادته التي يشهدها لي هي حق» :

تأتي بنوع من التعيين والتخصيص، والتي تفيد الإستمرارية ذات الوضوح والبرهان الداخلي والتأكيد الشخصي لدى المسيح . ثم قوله «إنها حق» يفيد المعرفة الفائقة بـ «الأليثيا»، وهو الحق الثابت الإلهي . ويلزم هنا أن نمتد أكثر لنسمعه يقول عن الآب بالنسبة لليهود أنهم «لا يعرفونه» سواء في الآيات ٥ : ٣٧ و ٣٨ أو في الأصحاح ٨ : ١٩ .

هنا نتضح معرفة المسيح بالآب أنها فوق الناموس والأنبياء والإجتهد بكل صنوفه، كما يتضح في نفس الوقت علّة عدم قبول اليهود للمسيح وهي الحجاب الكثيف الذي يحجز اليهود عن التعرف على الابن بسبب تغرّبهم عن الله الآب، أي تمسّكهم بالحرف، فَعَيَّيْتُ أَعْيْنَهُمْ عَنْ «الكلمة» بمفهومها وواقعها الحي . وهذا ما أشار إليه المسيح بعد ذلك بقوله : «وليس لكم كلمته ثابتة فيكم» . (٣٨ : ٥)

٥ : ٣٣ و ٣٤ «أنتم أرسلتُم إلى يوحنا (المعمدان) فشَهِدَ للحق . وأنا لا أقبلُ شهادةً من إنسانٍ، ولكني أقولُ هذا لتخلُّصوا أنتم» .

يلاحظ القارئ المقارنة بين «أنتم» و «أنا» . «أنتم» كان يهتمكم أن تسمعوا شهادة من إنسان، أما «أنا» فلا أقبل شهادة من إنسان ! ولكني أقول ذلك لكي أذكركم بما علمتموه وسمعتموه منه، لأنه قال لكم الحق وشهد له أمامكم، لعلكم تخلصون .

ويظهر جِدُّق ق . يوحنا الباهر هنا في أنه ذكر شهادة المعمدان مباشرة في هذه الآية بعد أن ذكر شهادة الآب «آخر» — (غير نفسه) — في الآية السابقة . وهذا لكي يقطع خط الرّجعة على مَنْ يفكر أن المسيح بقوله : «آخر» كان يقصد المعمدان . ولكن للأسف لم ينتبه كثير جداً من الشراح لهذه اللفظة .

والسبب الذي أغوى الشُّراح في الخلط بين الـ «آخر» وهو الآب وبين شهادة المعمدان، هو أن المسيح أُلح لشهادة الآب بلغة خاصة وسرية إلى حد ما. لأن كلمة «آخر» هي في الحقيقة تكملة لـ «أنا» أي أنها شهادة اثنين «أنا والآخر». والعجيب أن يظن الشراح أن الآخر هو المعمدان! فهل المعمدان يمكن جمعه مع «أنا» المسيح لتكون شهادة واحدة حسب الحق؟

«أنتم أرسلتم... فشهد» :

يلاحظ هنا في الوضع التاريخي للشهادة التي أعطاها ق. يوحنا، أنها جاءت في الماضي بكل ملابساتها؛ صحيح أنه شهد للحق، وهذا كان يلزم أن يؤول إلى إيمان اليهود بالمسيح ليخلصوا. ولكن شهادته انتهت، ونُسِيَ المعمدان، ونُسيت شهادته، وذلك بالنسبة للفريسيين الذين يبحثون عن الحق عبثاً. شهادة المعمدان بصفته المُرسَل من الله للشهادة كانت بحسب الحق تماماً، وهذا يوضح أن اليهود عثروا ليس فيمن شهد له المعمدان بالحق، أي المسيح، ولكنهم أيضاً عثروا في الله الذي أرسل المعمدان ليشهد للحق، وبالضرورة عثروا في الحق ذاته، فصارت شهادة المعمدان ضدهم: «جميع الشعب إذ سمعوا والعشارون برّروا الله، معتمدين بعمودية يوحنا. وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه.» (لو ٧ : ٢٩ و ٣٠)

٥ : ٣٥ «كان هو السراج الموقد المُنير وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة».

«كان» فعل ماضٍ أي «ليس هو الآن»، ربما في السجن أو قد مات، ولكن على كل حال قد توقف عن الإشتعال والإنارة. «لم يكن هو النور» على كل حال «بل جاء ليشهد للنور»، فالمصباح يُوقد لكي ينير، ولكنه لا ينير من ذاته. والمصباح يستهلك ذاته، فالنور الذي يعطيه وقتي وإلى زمن محدود.

«وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة» :

هنا الكلام سرّي للغاية، فالمسيح يراجع اليهود لأنهم ظنوا المعمدان أنه المسيا، وهكذا برزت الإرادة البشرية الخاطئة محاولة أن تُلزم الإرادة الإلهية أن يكون هو المسيا، وقد هلّلوا له، مفتعلين البهجة للخلاص الكاذب «ساعة»، في حين أن بهجة الخلاص «أبدية». وهكذا تبدو الإشارة هنا سرّية حزينة وخطيرة للغاية بخصوص سجن المعمدان وموته السريع جداً، أليس خطأهم الشنيع في التعرف على النور الحقيقي وجعلهم المعمدان نوراً عيوض كونه شاهداً للنور هو الذي أسرع بإنهاء رسالة المعمدان؟ أرادوا، بعناد قلبهم وزيف رؤياهم، أن يبتهجوا بنوره ساعة ففقدوه إلى الأبد؟ لقد شهد المعمدان نفسه أن نور مصباحه يلزم أن ينقص ليزداد النور الحقيقي، ولكنهم أرادوا أن

يشعلوه بزيادة فانطفأ بين أيديهم!! وعوض أن يؤمنوا بشهادته ليخلصوا، عشروا في نوره فانعمت بصائرهم عن الحق الذي شهد له .

٣٦: ٥ «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا لأن الأعمال التي أعطاني الآب لا أكملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» .

الأعمال عند المسيح يضمها في أعلى وأقصى اهتماماته، فهي برهان إرساليته والأساس الذي يبني عليه رسالته :

- + «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي» (يو ١٠: ٢٥)
- + «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي» (يو ١٠: ٣٢)
- + «إن كنت لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي . ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا فيه» (يو ٣٧ و ٣٨)
- + «الآب الحال في هو يعمل الأعمال . صدقوني إني في الآب والآب في، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» (يو ١٠ و ١١)
- + «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤)
- + «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتم عمله» (يو ٤: ٣٤)
- + «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤)

فالأعمال عند المسيح في الواقع تغطي حياته على الأرض كمستعلن لله الآب . وكلها تصب في اتجاهين متقابلين : الدينونة، وإعطاء الحياة؛ وهما محور رسالته بكل ما تشمله من تعليم وصنع آيات أي بالقول والفعل، وهذه هي بعينها شهادته التي يشهد بها على الدوام . وهذه هي التي يقول عنها أن له شهادة أعظم من يوحنا .

فالعمل عند المسيح شهادة متواصلة، يشهد بها وتشهد له، فهي الحق والحق شهادة بحد ذاته! لذلك فكل كلمة وكل فعل في المسيح يحمل عنصراً إيمانياً لأنه يحمل الحق . فإذا توافق مع الفكر، اهتز له القلب في الحال وتجلّى المسيح بالإيمان . من هنا كان اهتمام المسيح بتكميل الأعمال التي أعطاه الآب بالغ الحد، لأنها كما قلنا تشهد له أبلغ شهادة ليس في آذان الناس بقدر ما في قلوبهم . لذلك صَحَّ القول : «مَنْ قَبِلَ شهادته (أي آمن بالقول والعمل) فقد ختم أن الله صادق» (يو ٣: ٣٣)

وهذا عجيب جداً وجدير بنا أن نلتفت إليه ، فإيماننا بالمسيح هو بعينه تصديق الله ، بمعنى أنه يمجّد الله أيضاً : « هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه ، مَنْ يؤمن بابن الله فعنده الشهادة في نفسه . مَنْ لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه . » (١ يوح : ٥ : ٩ و ١٠)

هنا أيضاً جدير بنا أن نلتفت إلى قوة الكلام ، فالذي يؤمن بابن الله يصبح وله شهادة في قلبه مدموغة بصدق الله ولا يعود في حاجة أن يطلب مزيداً من شهادة أو مزيداً من تأكيد . فالإيمان بالمسيح يحمل تأكيده فيه لأنه هو شهادة صدق الله . وهل ممكن أن يكون فوق شهادة صدق الله شهادة تصديق أيضاً ؟

والمسيح يؤكد لنا ذلك بقوة وفي سرٍّ ، لكل مَنْ يفتح قلبه ليفهم : « أجابهم يسوع وقال تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني . إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (مشيئة الله) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلّم أنا من نفسي . مَنْ يتكلّم (ويعمل) من نفسه يطلب مجد نفسه وأما مَنْ يطلب مجد الذي أرسله فهو "صادق" وليس فيه ظلم . » (يوح : ١٦ : ١٨ — ١٧)

«الأعمال التي أعطاني الآب لا أكملها» :

+ «الأعمال التي أعطاني δέδωκεν الآب . » (يوح : ٣٦)

ق . يوحنا يختص بالتشديد على «العطاء» في علاقة الآب بالابن (١٤) :

+ «الآب يحب الابن وقد دفع δέδωκεن كل شيء في يده . » (يوح : ٣ : ٣٥)

+ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع έδωκεν كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي ... » (يوح : ١٣ : ٣)

+ «الآب لا يدين أحداً ، بل قد أعطى كل الدينونة للابن . » (يوح : ٥ : ٢٢)

+ «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان . » (يوح : ٥ : ٢٧)

+ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته . » (يوح : ٥ : ٢٦)

+ «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني ، أن كل ما أعطاني (المختارون) لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير . » (يوح : ٦ : ٣٩)

- + «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل مَنْ أَعْظِيته.» (يو ١٧: ٢)
- + «العمل الذي أَعْظَيْتَنِي لأعمل قد أَكْمَلْتُهُ.» (يو ١٧: ٤)
- + «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أَعْظَيْتَنِي من العالم. كانوا لك، وأَعْظَيْتَهُمْ لِي.» (يو ١٧: ٦)
- + «كنت أحفظهم في اسمك الذين أَعْظَيْتَنِي.» (يو ١٧: ١٢)
- + «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أَعْظَيْتَنِي يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أَعْظَيْتَنِي لأنك أَحْبَبْتَنِي قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧: ٢٤)
- + «الآب الذي أَرْسَلَنِي هو أَعْطَانِي وصية ماذا أقول وبماذا أَتَكَلَّم.» (يو ١٢: ٤٩)

لكي نفهم مستوى فعل العطاء بين الآب والابن يلزم أن نفهم أن العطاء من الآب إلى الابن هو بالأساس للإستعلان ثم للتكميل (١٥).

فعملُ الآب يعطيه الآب للابن، يُخْرِجه إلى حيز الوجود. لذلك فعمل الابن هو استعلان بالفكر والفعل لنفس عمل الآب على مستوى التنفيذ. فكل شيء وكل عمل وكل مشيئة هي عند الآب غير منظورة، والآب يعطيها للابن لِيُظْهِرَهَا، أو يعطي الابن أن يُظْهِرَهَا ويُعلنها على مستوى الفعل والواقع المنظور.

لذلك، فالأعمال عند الآب والابن هي واحدة، غير منظورة عند الآب ومنظورة بالابن. من هذا نفهم أن «العطاء» في الله من الآب للابن لا يفيد الأخذ بالنسبة للابن بمفهومه السالبي، كما لا يفيد التكليف بنوع الأمر من الأعلى للأقل بل هو للتكميل فالابن يكمل عمل الآب.

واضح هنا الهدف من إعطاء الآب الأعمال للابن، حيث كلمة «يُكْمِّلُهَا» هنا تفيد التكميل حتى النهاية أو حتى الكمال *τελειώσω*. إذن، فليس مجرد التكميل ولا مجرد النهاية، بل المعنى يتضمن بلوغ النهاية الحقيقية، فالعمل ليس للتكميل بل للكمال! أي يكْمِّلُهَا كمالاً وليس تكميلاً. وهذا الأسلوب العجيب الذي اختص به ق. يوحنا يجعلنا نرى الأعمال التي يعملها الابن دائماً في مستوى «الكمال المسيحي» «العمل الذي أَعْظَيْتَنِي لأعمل قد أَكْمَلْتُهُ (كمالاً) *τελειώσας*.» (يو ١٧: ٤)

— «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمّلين (كمالاً) *τετελειωμένοι* إلى واحد.» (يو ١٧:

— «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كَمَلَ (كَمَالاً) τετέλεσται ، فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان .» (يو ١٩ : ٢٨)

ويشترك القديس بولس في سفر العبرانيين في هذا الأسلوب من جهة الكمال المسيحي : «لأنه لاقَ بذلك الذي من أجله الكلُّ وبه الكلُّ، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكْمَلَ رئيس خلاصهم بالآلام» (عب ٢ : ١٠). هنا يرتفع مفهوم الآلام إلى مستوى بلوغ الكمال !
— «وإذ كَمَلَ، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي .» (عب ٥ : ٩)

٣٧ : ٥ و ٣٨ «والآب نفسه الذي أرسلني هو يشهد — (قد شهد) (١٦) — لي . لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته ثابتة فيكم لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به .»

المسيح ينتقل من شهادة الأعمال التي يعملها، وهي نفسها أعمال الآب، إلى شهادة الآب نفسه بصورة مباشرة : «لأنني لستُ وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو ٨ : ١٦). وهو يعود ويكرر ذلك في نفس الأصحاح بقوله : «الذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو ٨ : ٢٩). لذلك فمن المستحيل أن نتصور الابن وحده بدون الآب بأي حال من الأحوال .

لذلك حينما يشهد الابن لنفسه، تكون شهادة الآب مع شهادته حتماً : «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي μαρτυρεῖ الآب الذي أرسلني» (يو ٨ : ١٨). هكذا تأتي شهادة الآب في الأصحاح الثامن في صيغة الفعل المضارع الدائم .

أما شهادة الآب في الآية التي نحن بصددتها فقد جاءت بالفعل الماضي (٣٧ : ٥) = μεμαρτύρηκεν ، وهي الشهادة الذي شهد بها الله على فم الأنبياء كما جاءت في الأسفار المقدسة، والتي انتهت بشهادة المعمدان، والتي على أساسها ذكر المسيح «كلمة الله» — في الأسفار — موبخاً اليهود أنهم لم يثبتوا فيها : «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم» (يو ٥ : ٣٨)، كذلك عاد فذكر الأسفار بوضوح في الأصحاح العاشر قائلاً إنها تشهد له (١٠ : ٣٥).

(١٦) الترجمة العربية هنا يلزم أن تُصحَّح : فهي في اليونانية جاءت في الماضي التام : «قد شهد» μεμαρτύρηκεν .

٣٧:٥ و٣٨ «لم تسمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ وَلَا أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ. وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ، لِأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تَوَافُونَ بِهِ».

المسيح يبدأ هنا يستعلن ذاته على أنه هو هو صوت الآب وهَيْئَتُهُ، وكلمته أيضاً، ولكن ليس بالعيان بل بالإيمان؛ ليس برؤية العين وسماع الأذن التي انحسرت في الماديات، وإنما بالعين الروحية التي يمكن أن ترى الله في المسيح، والأذن الروحية المفتوحة على صوت الله في المسيح الذي هو الوعي المسيحي. فاليهود إذ رفضوا المسيح، رفضوا صوت الله، وانحجب عنهم الله واختفى من محيط حياتهم لما عجزوا أن يتحققوا من المسيح. أما كلمته — التي بَشَّها في الأسفار — فضاعت من متناول إدراكهم.

المسيح يوضح هنا أن قبول «إرسالية المسيح» هو بعينه الانفتاح على صوت الله وكلمة الله وهَيْأَتُهُ، وإرسالية المسيح مثبتة وواضحة في الأسفار المقدسة، والمسيح هو نفسه كلمة الله في الأسفار. فلو كانوا أخلصوا للأسفار المقدسة وثبتوا في كلمة الله، لكان من السهل عليهم أن يؤمنوا بالمسيح. والتأكيد هنا على الشهادة، شهادة الله للمسيح التي أكملها لهم في الأسفار المقدسة.

٣٩:٥ «فَتَشُوا الْكُتُبَ لِأَنَّكُمْ تَظُنُونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي».

هنا بلغ المسيح نهاية التوضيح. فاللوم عليهم شديد، لأنهم وهم متخصصون في البحث في الأسفار المقدسة وشرحها وتأويلها، كيف بعد هذه السنين كلها من البحث والتفتيش لم يفتح ذهنهم على سر الحياة الأبدية الكائنة في الأسفار ليدركوا منها الأمور المختصة بالمسيح؟ فالشهادة التي تقدمها الأسفار للمسيح غزيرة وواضحة: «ثم ابتداء من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو ٢٤: ٢٧). فالأسفار المقدسة هي بحد ذاتها استعلان كامل للمسيح، وهي لم تترك شيئاً من حياته وأعماله وموته وقيامته والخلاص الذي أكمله بالفداء بذبيحة نفسه إلا وتعرضت له في أكثر من موضع. إن شهادة الأسفار للمسيح تكاد تكون صورة كاملة طبق الأصل من حياته وأعماله:

— «لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقْبِلاً من السماء إذ كُنَّا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أُثْبِتَتْ، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مُظْلَم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم. عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة

إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس.» (٢ بط ١ : ١٧-٢١)

و يعود القديس بطرس لموضوع البحث والتفتيش في الكتب وفي الزمان عن المسيح هكذا:
— «الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم،
باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يبدئ عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق
(بالنبوة)، فشهد بالآلام التي للمسيح والأعجاد التي بعدها.» (١ بط ١ : ١٠ و ١١)

«فتشوا»: ερευνάτε

في المعنى اليوناني تدل على الفحص الدقيق الشديد المثابر للأسفار، الذي يتجه ناحية التأويل
والتفسير الروحي والسري للمدراش. وللتدليل على هذا المعنى نأتي بقول للعلامة الفريسي اليهودي
هلسليل: [قد اعتاد هلسليل القول: مزيد من التوراة، مزيد من النار!! من اقتنى كلمات التوراة،
اقتنى لنفسه حياة الدهر الآتي] (١٧). ويتمادى العشق القلبي والفكري بكلمات التوراة عندهم
حتى قالوا: [إن التعرف على الله في التوراة، حتى ولو لم يكن مصحوباً بتوبة، يجعلها تعطي غفراناً
للخطايا] (١٨). طبعاً خطأ لأن التعرف على الله يأتي ومعه التوبة.

المسيح لا يقول لهم «فتشوا»، لكي يبدأوا و يفتشوا؛ بل هو يراجع عليهم مهنتهم في المعرفة
وجهادهم في الدراسة التي كلها باءت بالفشل. لقد ظنوا أن في الحرف — الناموس — حياة
فاشتبكوا مع الموت — (كسر السبت) — وما قاموا ولا استقاموا. ولم تأت مراجعة الرب لهم من
فراغ، لقد واجههم بالعلّة القائلة التي قتلت فيهم حاسة الكلمة والحياة والروح: «ليست لكم محبة
الله في أنفسكم» (٥ : ٤٢). وليس هذا فقط بل: «وتقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي
من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (٥ : ٤٤)

والمسيح يضمن اتهامه حقيقة مخفية غاية في الأهمية وهي: إن كونهم قد أخفقوا أن يسمعوا
صوت المسيح يعني أنهم أخفقوا في أن يسمعوا صوت الله في الأسفار!! وهذا عودة مرة أخرى للآية
(٢٤): «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية.»
اليهود كانوا يبحثون عن الحياة الأبدية بواسطة تفتيشهم للأسفار. كانوا يجرون وراء صوت الله! وها
هوذا صوت الله في فم المسيح؛ ولكنهم لأنهم لم يكونوا على مستوى صوت الله في الأسفار لم
يجدوه، فعمشوا في صوت المسيح ولم يتبينوه!

¹⁷ Westcott, *op. cit.*, p. 91.

¹⁸ Ibid.

٤٠ : ٥ «ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة»!

المسيح هنا ينبههم، وكأنه يقول لهم انتبهوا، شهادة الله لي في الأسفار لا تزال قائمة أمامكم، انتبهوا، أنا هو صوت الله!! لا تفوتوا الفرصة على أنفسكم، تعالوا لأن عندي حياة لكم!! الحياة الأبدية التي تفتشون عليها في الأسفار هي معي، هي فيّ، هي أنا: «فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١ يوحنا ٢ : ٢)

«ولا تريدون... لتكون لكم حياة»:

إنها أخطر جريئة يقتربها الإنسان ضد نفسه! حينما يشعر بالدعوة للعودة إلى الله، ويكون باب الحياة قد فُتح أمامه، والصوت يدعوهُ مُلخاً في الدعوة، مُشْفِئاً، مُشجِعاً، مُتوسلاً!! فتقف الإرادة لتُسَدَّ منفذ الحياة، مُتعلّلة بعلى كلها الضلال والموت بعينه!!

٤١ : ٥ «مجداً من الناس لست أقبّل».

تتمشى الشهادة مع المجد في إنجيل ق. يوحنا سلباً وإيجاباً. المسيح لا يقبل شهادة من الناس لذلك لا يقبل المجد أيضاً من الناس. لأن كلاً الوصفين يستلزم الإعتماد على الإنسان والخضوع لمعايير البشر.

المسيح يطرح هذه الآية أمام اليهود تأميناً لهم حتى يأتوا إليه. فهو لا يطلب المجد لنفسه ولا يقبله من أحد، ولكن يطلبهم هم ليُقبلوا إليه. المسيح يكرر بأسلوب آخر ما سبق أن قاله «وأنا لا أقبّل شهادة من إنسان. ولكني أقول هذا لتخلصوا أنتم.» (يوحنا ٣٤ : ٥)



القسم الرابع من الأصحاح الخامس

أسباب عدم إيمان اليهود

(٤٢: ٥ - ٤٧)

٤٢: ٥ «ولكني قد عرفتكم أن لست لكم محبة الله في أنفسكم».

تسلسل الأفكار يأتي هكذا: المسيح لا يقبل المجد من الناس، لأن مجد المسيح الوحيد هو مع الآب وفيه. ولا أحد يستطيع أن يأتي إلى المسيح إن لم يجتذبه الآب أولاً، اليهود «لا يريدون» أن يأتوا إلى المسيح، لأن الآب لا يجتذبهم، والآب لا يجتذبهم لأنهم لست لهم محبة الله في أنفسهم. لو كانوا أحبوا الله، لجاءوا إلى المسيح بإرادتهم. لذلك، فرفضهم للمسيح علامة على أنهم في عداوة مع الله. لقد أصابهم المسيح هنا في مقتل!!!

«عرفتكم»: ἔγνωνκα

عن اختبار و يقين، المسيح هنا يستعلن مخبات قلوبهم، المخفية ليس عن عين الله بل عن أعينهم هم!! فالفاقد لمحبة الله لا يعلم أين يسير، لأن الظلمة قد أعمت عينيه!!

«في أنفسكم»:

المحبة موجودة حتماً في أفواههم وفي محفوظاتهم ونصوص إيمانهم، فهي أولى الوصايا. ولكن المسيح فحص أنفسهم فلم يجدها!! وإذا غابت المحبة عن القلب، سكنت البغضة: «وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي. لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو ١٥: ٢٤ و ٢٥)

٤٣: ٥ «أنا قد أثبت باسم أبي، ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه، فذلك تقبلونه».

تغرب اليهود عن محبة الله أفقدهم القدرة على التعرف على المسيح لما جاء باسم الآب، مع أن «قوة الاسم» عاملة في المسيح، ولها برهانها القوي في تعاليم المسيح وأعماله. كيف تغاضى

اليهود عن ذلك؟ هذا في الحقيقة محير لعقولنا للغاية! هذا بالإضافة إلى التحذير المخيف الذي أُنذر به الله الذين لا يطيعون المسيح الآتي والمتكلم باسم الله: «وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ "بِاسْمِي" أَنَا أَطَالِبُهُ» (تث ١٨: ١٩). ولكن فقدان حب الله أفقدهم كل ما هو لله، فلم يَبْقَ لهم إلا ما هو لأنفسهم. لذلك، إن جاءهم مَنْ يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ نَفْسِهِ، رَأَوْا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ فَيَقْبَلُونَهُ.

٤٤: ٥ «كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَوْمِنُوا، وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ».

«كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَوْمِنُوا»:

الإيمان في أبسط وأقوى صورته هو «تمجيد الله» بالقول والعمل؛ ثمر الإيمان الفاعل هو التسبيح بمجد الله على الدوام. إذا انشغل المؤمن بتمجيد الآخرين ضعفت قوة تسبيح الله من قلبه. والذي انشغل بتسبيح مجد الناس عجز لسانه عن النطق بمجد الله.

فإذا كان انشغال الإنسان بتمجيد الناس هكذا يحط من قدرته على عمل واجبات الإيمان نحو الله، فكم بالحري إذا انشغل إنسان بطلب المجد لنفسه؟

وإذا كان طلب الإنسان المجد لنفسه هكذا يحطه عن أداء واجبات الإيمان من نحو الله، فكم أيضاً يكون لو استهان ولم يطلب ولم يُعْطِ المجد الذي للإله الواحد؟ ثم أليست هذه هي العلة التي أنهت على مجد إسرائيل وبني إسرائيل وأتت بالخراب على الهيكل والمدينة والشعب والأمة؟ وأطاحت بالميراث والتراث؟ وعلى الناس أن يختاروا بين مجد الله ومجد أنفسهم!

٤٥: ٥ «لَا تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الْآبِ. يَوْجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ».

المسيح يُحيل قضية اليهود على محكمة الاختصاص: أي الناموس بقيادة موسى، لأن وظيفة الابن تبقى كمُصالح وشفيع لدى الآب فقط عن الذين يؤمنون به؛ أما مَنْ أخطأ في الناموس وتعدى ولم يُعْطِ الكرامة لَمْ يَلْهُ الكرامة، فبالناموس يُدان. وإن كنتم تلاميذ موسى — حسب ما تقولون — فموسى يُطالب. والمسيح هنا يوقعهم في تناقض مُشين، لأنهم بتصرفهم المُعادي للمسيح وتمسكهم بناموس موسى بآن واحد، يُظهرون ويكشفون تناقضهم. فموسى كتب عن المسيح فكيف

يعادونه، إن كانوا يؤمنون بموسى وإله موسى حقاً؟

٤٦: ٥ و ٤٧ «لأنكم لو كنتم تصدقون موسى، لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي».

موقف خطير للغاية، فالفريسيون يتصرفون كقضاة للناموس موسى، ويطالبون بالتطبيق الحرفي للناموس، الذي بلغوا به إلى المطالبة بموت المسيح بسبب كسر وصية السبت. والمسيح واقف على قمة الناموس بصفته النبي الذي سيقمه الله بدل موسى رأساً برأس: «نبياً» «مثلي». وهذا الذي عليه يتعقد لواء المرحلة الأخرى للناموس، وهي مرحلة الانتقال من الحرف للروح، بوصايا وتعاليم وذبيحة أعظم، وبكلام آخر يضعه الله في فمه، يبدو كلامه حينئذ وكأنه مخالف للناموس الأول؛ لذلك احتاط الله وسبق وحكم ضد من يتمرد على هذا النبي الآخر، فكل من يسمع ولم يقطع، يقع في الحال تحت حكم الله وليس الناموس «أنا أطلبه»: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون!... أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه.» (تث ١٨ : ١٥ - ١٩)

والآن يقدم المسيح دعواه ضد حَفَظَةِ الناموس والقَوَّامين على شرفه. وكأني به يقول لهم وأمام موسى: هوذا أنا الذي مثل موسى أتيت بحسب وعد الناموس، وهوذا باسم الله أتكلم وبوصية الله أوصي، فإن سمعتم لي كنتم تلاميذ موسى عن حق، وأبناء الله الحي؛ وإن لم تسمعوا فأنتم تحت الحكم، وموسى والناموس يشهدان ضدكم!



الأصحاح السادس

الجزء الثالث : إنجيل الاستعلان

استعلان طبيعة المسيح وشخصه

استعلان الآب والابن

ويشمل الأصحاحات من السادس حتى الثاني عشر

الأصحاح السادس : استعلان طبيعة المسيح "المُخَيَّة" وشخصه السماوي.

«أنا هو خبز الحياة.» (٤٨:٦)

○ «هذا هو الخبزُ النازلُ من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (٥٠:٦)

○ «مَنْ يَأْكُلْنِي فهو يحيا بي.» (٥٧:٦)

○ «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.» (٥١:٦)

الأصحاح السابع : استعلان طبيعة المسيح "الروحية" (الصخرة).

[أنا هو الماء الحي].

○ «إِنْ عطش أحدٌ فليُقبلْ إليَّ ويشرب.» (٣٧:٧)

○ «مَنْ آمَنَ بي ... تجري من بطنه أنهار ماء حي.» (٣٨:٧)

○ «قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مُزِمِّعين أن يُقبلوه.» (٣٩:٧)

الأصحاح الثامن : استعلان طبيعة المسيح "النورانية" المحررة الأزلية.

«أنا هو نور العالم.» (١٢:٨)

○ «من يَثْبَغْنِي، فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة.» (١٢:٨)

○ «إِنْ حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (٣٦:٨)

○ «قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن.» (٥٨:٨)

الأصحاح التاسع: التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية.

«ما دمتُ في العالم، فأنا نور العالم.» (٥: ٩)

○ «أتؤمن بابن الله... قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو.» (٣٥: ٩—٣٧)

○ «لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يبصرون ويَعْمَى الذين

يُبصرون.» (٣٩: ٩)

الأصحاح العاشر: أ — استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا:

«أنا هو الراعي الصالح.» (١١: ١٠)

○ «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (١١: ١٠)

○ «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية.» (٢٧: ١٠ و٢٨)

ب — استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب:

○ «لأنني قلتُ إني ابن الله...» (١٠: ٣٦)

○ «أنا والآب واحد.» (١٠: ٣٠)

الأصحاح الحادي عشر: استعلان قوة المسيح المُحيية والمُقيمة من الموت.

«أنا هو القيامة والحياة.» (١١: ٢٥)

○ «من آمن بي ولومات فسيحيا.» (١١: ٢٥)

○ «لَعَاذِرْ هَلَمْ خَارِجاً.» (١١: ٤٣)

الأصحاح الثاني عشر حتى عدد ٣٦:

استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم.

○ «أَوْصَتًا مَبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ مَلِكِ إِسْرَائِيل.» (١٢: ١٣)

○ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً.» (١٢: ٣١)

ختام لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٣٧—٤٣).

ملخص لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٤٤—٥٠).

مكان البشارة
سابعاً - في الجليل
(١:٦-٧١)

الأصحاح السادس استعلان طبيعة المسيح المُحيية وشخصه السماوي «أنا هو خبز الحياة»^(١)

ويشمل هذا الأصحاح:

- ١ - المعجزة التي سيجعلها المسيح آية تعليمه: إشباع الجموع (١:٦-١٥).
 - ٢ - الآية الملازمة لإشباع الجموع: السير على الماء (١٦:٦-٢١).
 - ٣ - حديث الرب في مجمع كفرناحوم عن جسده كخبز الحياة الأبدية، موسى طلب فأرسل الله المن من السماء لإعالة الشعب في البرية، المسيح هو نفسه الخبز الحي الذي نزل من السماء ليأكله الإنسان فيحيا إلى الأبد (٢١:٦-٧١).
- يلزم لنا من بداية هذا الأصحاح حتى نهاية الإنجيل أن ننتبه لما سيعلنه المسيح عن نفسه، فالمعجزات كلها عبارة عن آيات أو إشارات توضح مَنْ هو المسيح. فالتركيز ليس على المعجزة ولا حتى على تأثيرها من جهة إيمان الناس، ولكن على ما تشير إليه من جهة مَنْ هو المسيح.^(٢)
- لذلك سنواجه في هذا الأصحاح قول المسيح عن نفسه: «أنا هو» والتي تأتي في الأصل كاسم شخصي لله: «أنا الكائن بذاتي» *ἐγώ εἰμι*، أي أنها أصلاً تتعلق بطبيعة وكيان الله، وقد استخدمها المسيح بتأكيد وإصرار، وسوف تتكرر في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة^(٣)، وتأتي هنا «أنا هو خبز الحياة».

(١) تُقرأ أجزاء من هذا الأصحاح في كل من عشية وباكر وقداس الأحد الثاني من الخمسين المقدسة (وهو أول أحد في الخمسين المقدسة بعد أحد توما)، وذلك بسبب أن الإفخارستيا هي سر الحياة الأبدية وعربون القيامة: «فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير». ولنفس هذا السبب تُكرر قراءة أجزاء من هذا الأصحاح في مناسبات عديدة من الخمسين المقدسة (عشية الثلاثاء الأول وعشية السبت الأول وقداس السبت الثاني وقداس الجمعة الثانية وقداس السبت الثالث وعشية الأحد الرابع من الخمسين المقدسة). وبالإضافة لذلك تُقرأ أيضاً فصول من هذا الأصحاح في الصوم الكبير (قداس الخميس السادس والأربعاء السابع)، وذلك على اعتبار أن الصوم الكبير هو الموسم الذي نشاق فيه إلى خبز الحياة بدلاً من الطعام البائد. ولنفس السبب وكاستعداد للدخول في الصوم الكبير تتلى فصول من هذا الأصحاح في الأربعة الآحاد التي تسبق مباشرة الصوم الكبير (وهي الأحد الرابع من طوبة والأحد الأول والثاني والثالث من أمشير).

(٢) راجع المدخل ص ٢٩٠-٢٩٣.

(٣) راجع المدخل ص ٢٣١-٢٤٣.

١ — معجزة إشباع الجموع

(١٥:٦-١)

«هكذا قال الرب في وقت القبول استجبتك وفي يوم الخلاص أعنتك فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب... قائلاً للأسرى اخرجوا للذين في الظلام اظهروا. على الطرق يرعون وفي كل المضارب مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم.» (إش ٤٩: ٨-١٠)

ملاحظات هامة:

لاحظ أن المسيح انتقل من الخدمة في أورشليم، وذهب إلى الجليل حيث أجرى هذه المعجزة. وتعتبر هذه الحادثة أنها الوحيدة في خدمة المسيح العامة التي تُذكر في الأربعة الأناجيل بدون استثناء، قبل زيارة المسيح الأخيرة لأورشليم ليُصلب هناك: (مت ١٤: ١٣-٢١، مر ٦: ٣٠-٤٤، لو ٩: ١٠-١٧، يو ٦: ١-١٥). وهذا مما ينبه فكر القارئ إلى الأهمية القصوى لهذه القصة وما سيبني الإنجيل عليها من مبادئ لاهوتية.

ق. يوحنا يتفرد هنا ببعض بيانات هامة في سرد هذه القصة؛ فقبل أن يبدأها، ينبه القارئ أن فصيح (البصخة) اليهود كان قريباً. هنا أسلوب ق. يوحنا السرائري أو اللاهوتي يظهر بوضوح لأن «الفصح» بالمفهوم المسيحي هو تقديم جسد المسيح ذبيحة، أي أصل وأساس الإفخارستيا، الخبز الذي نكسره كل يوم على المذبح. إذن، فهو يسبق القصة بفتح الأذهان أنه بصدد ربط الخبز المكسور — الذي شكر عليه الرب وبارك وبثّه قوة روحية من عنده فأشبع به الخمسة الآلاف من خمس الخبزات — ربطه بالإفخارستيا أي جسد المسيح المكسور لإشباع العالم بالروح للحياة الأبدية. (٤)

(٤) توجد في سراديب روما رسومات حائطية توضح مائدة إفخارستية وعليها خمس خبزات وسمكتين إشارة إلى أن معجزة إشباع الجموع أخذتها الكنيسة الأولى على أنها ذات هدف إفخارستي.

كذلك وُجد في مدينة هيرابوليس Hierapolis بأسيا الصغرى شاهد على قبر أبركيوس Abrecius مكتوب عليه IXΘΥΣ وهو اسم السمكة باليونانية حيث أوائل الحروف تُقرأ: «يسوع المسيح ابن الله مخلّص»، مع إشارة إلى خبز وكأس الإفخارستيا. أنظر:

Raymond E. Brown, op. cit., Vol. I, p. 247.

علماً بأن ربط الخبز الجديد الحي النازل من السماء بالفصح يتوازي مع ربط «الفصح» بنزول «المن» في طقوس الفصح اليهودي، وهذا ما سيركز عليه المسيح في حوارهِ مع اليهود.

كذلك فالرواية في إنجيل يوحنا أكثر توضيحاً من بقية الأناجيل، فهي ذات ملامح حيّة ودقيقة، تشير بلا أي تحفظ أن الراوي كان واحداً من الموجودين سواء أثناء المعجزة الأولى أي إشباع الجموع، أو الثانية وهي السير على الماء. فهو الوحيد الذي يذكر أنهم جذّفوا نحو خمس وعشرين غلوة أو ثلاثين. فتقدير المسافة هنا تقدير شخصي يتوخى الدقّة؛ مما يعطي الرواية إحساساً حياً بواقعية واعية وذاكرة حديدية، أو قلّ هي تذكير من الروح القدس.

كذلك فمن الصعب أن لا نلتفت إلى الغاية التي يهدف إليها ق. يوحنا من ربط معجزة إشباع الجموع من الخبز مع معجزة السير على الماء(*) واختفاء المسيح عن الذين أرادوا أن يجعلوه ملكاً. فهو أولاً بصدد تقديم المسيح في موازنة مع موسى حيث «المن» يترادف مع السير في البحر الأحمر، ليوضح أن عهد الشعب والمسرة المادية المحلية كميراث أرض تفيض لبناً وعسلًا قد انتهى، ونحن بصدد عهد الروح لشبّع وسرور الروح للإنسان عامة لميراث الحياة الأبدية وفيض الروح القدس. وثانياً، الانتقال بالفكر اليهودي من انتظار مسيّا اليهود المحدود الذي سيعيد الملك لإسرائيل، ويحرر الأمة ويخلّصها من عبودية الرومان، ويعطي المنّ من السماء، ويحطم الأمم كموسى الجديد؛ إلى حقيقة المسيح الإلهية في العهد الجديد والخلاص العام من الخطية وتحرير الإنسان — كل إنسان — من عبودية الشيطان إلى حرية أولاد الله.

القصة:

- (أ) ظروف المعجزة (١-٤).
- (ب) التحضير للمعجزة (٥-١٠).
- (ج) إشباع الجموع (١١-١٣).
- (د) تأثير المعجزة (١٤-١٥).

(٥) كان في التقليد اليهودي عند الربيين أن المسيا سيأتي من البحر، أي ماشياً على الماء. فهنا معجزة سير المسيح على الماء آتياً إلى تلاميذه في الظلام تنبيه من قتل المسيح لأذهان اليهود أنه المسيا دون أن يعلن ذلك.

أ - ظروف المعجزة : (١ - ٤).

٢١:٦ «بعد هذا مَضَى يسوع إلى غَبرِ بحرِ الجليل وهو بحرُ طبرية. وتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى».

«بعد هذا» التي ابتدأ بها ق. يوحنا الآية متصلة بآخر آية (٢)، أي بعد أن أجرى آيات شفاء لأمراض كثيرة في منطقة الجليل، التي اختصّها بأكثر وقت من خدمته. بعد هذا عبر في قارب كبير - أي سفينة صيد ذات الحجم الكبير - (تَسَعُ ثلاثة عشر شخصاً) هو وتلاميذه. وقد عبر البحيرة من ناحية الغرب، أي من كفرناحوم (عدد ٢٤) التي كان يخدم فيها، وهي مقر إقامته مع التلاميذ، متجهين إلى ناحية الشمال الشرقي عبر بحر الجليل وهو بحر طبرية.

بحر طبرية :

لا يُذكر اسم بحر الجليل بهذا الاسم إلا في إنجيل ق. يوحنا، وهو الاسم الحكومي أو الرسمي لبحر الجليل بعد إقامة طبرية العاصمة (غير المقدسة) التي أقامها هيرودس رئيس ربع الجليل شرق بحر الجليل وذلك سنة ٢٦ م.

والقديس لوقا الإنجيلي يذكر اسم المدينة التي ذهب إليها الرب هو وتلاميذه (طلباً للراحة) أنها بيت صيدا شرقاً. وهي ليست بيت صيدا التي في غرب البحيرة بل بيت صيدا أخرى منسوبة ليولياس الذي أقامها باسمه، «فأخذهم وانصرف منفرداً إلى موضع خلاء لمدينة تسمى بيت صيدا». (لوقا : ١٠)

وهذه المدينة تسمى الآن «التل». وهي في أقصى الشمال الشرقي للبحيرة - وتقع في منطقة الجولان. أما مكان عمل المعجزة فيبعد عنها بحوالي ميل واحد (ويسمى الآن «البطيحة»)، وبه عشب أخضر للرعي يزدهر وقت الفصح فعلاً^(٦). أما المسافة - على الأرض - بين هذا المكان الذي سعى إليه الرب للراحة وبين كفرناحوم التي أتت منها الجموع جرياً وراء الرب فهي حوالي تسعة أميال، أي نحو ساعتين مشياً على الأقدام، وكانت الجموع في غاية الحماس والفرح بسبب الآيات الكثيرة التي صنعها الرب، وكان معظمها لشفاء مرضاهم.

^٦ See: ICC, *op. cit.* Vol. 1, p. 171.

٤٥ : ٦ «فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ (تَلٍّ) وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تَلَامِيذِهِ. وَكَانَ الْفَصْحُ عِيدُ الْيَهُودِ قَرِيباً».

المسيح هنا وحده على التل مع تلاميذه والشعب كله تحت التل يرى ويسمع. القديس يوحنا يود أن يُدخلنا معه في هذا المنظر ليستحضر في ذهننا نفس منظر موسى النبي على الجبل، بعد أن أكمل الفصح الأول ومسح عار العبودية عن الشعب المذلول، وعَبَّرَ إلى سيناء يتنسم رائحة الحرية، وكان الشعب كله واقفاً ليسمع ويرى ويرتعب: «وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، واسجدوا من بعيد، ويقرب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه.» (خر ٢٤ : ١ و٢)

وعلى القارئ أن يتذكر دائماً أن حلول عيد الفصح عند اليهود كان يوقظ فيهم مشاعر الحرية التي فقدوها تحت عبودية الرومان، وكانوا يتحرّقون شوقاً إلى المخلص الذي تكلم عنه موسى ليعيد إليهم الحرية ويخلصهم من نير الرومان. فكانت حساسيتهم مرهفة للغاية، يصورها هنا ق. يوحنا أروع تصوير بكلمات مختصرة للغاية، نتمنى أن لا تفوت على مشاعر القارئ. إذ أن كل كلمة تحمل كمّاً من المشاعر يصعب سردها. ولكن إذا وضعنا الكلمات الأساسية بجوار بعضها حينئذ ينكشف سِرُّ الإنجيل:

«صعد يسوع على الجبل» — «عيد الفصح» — «أكلوا وشبعوا» — «هذا هو بالحقبة النبي» — «علم يسوع أنهم مزعمون أن يختطفوه ليجعلوه ملكاً».

إذن، فالإنجيل يضعنا داخل مشهد من المشاهد الحية التي عاشها الرب وسط شعب أخفق في الرؤيا، إذ انتهى إلى قرار حاسم أن المسيح نبيٌّ، وكان عليه حتماً أن يصحح ويكشف عن حقيقة نفسه أنه ليس موسى جديداً بل هو هو الرب الإله، وأنه ليس موسى الذي عليه أن يذبح الفصح للشعب بل هو هو الفصح نفسه، الحروف المذبوح الذي يتحتم أن يؤكل لحمه، ولكن لأنه هو حَمَلُ الله الذي دمه بروح أزلي، فكان — بخلاف الفصح الأرضي — يلزم أن يُشرب دمه أيضاً!!

وإن كان فصح مصر الأول عهد خلاص من عبودية مصر، فالمسيح فصح خلاص أبدي لحياة أبدية.

فالرب صعد إلى الجبل وقلبه مملوء بهذه الرؤيا. ألم يسمع المسيح بأذنيه ما قاله يوحنا المعمدان عنه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١ : ٢٩)؟ ثم ألم يضع المسيح في نفسه أنه

الراعي الصالح الذي يضع نفسه عن الخراف ؟ والآن هوذا الخراف اجتمعت حوله على سطح التل كما يصفها إنجيل القديس مرقس (٦: ٣٤) : « فلما خرج يسوع ، رأى جمعاً كثيراً ، فتحنن عليهم ، إذ كانوا كخراف لا راعي لها فابتدأ يعلمهم كثيراً » . وبدأ الرب يقسم الخبز و يعطي وكأنه يقطع من لحمه ودمه ليُطعم الخراف الجائعة . أكل الشعب وشبع ولم يدرِ ماذا أكل ، إذ حسب اليهود أنهم أكلوا خبز الأرض ، ولكن كان الرب وحده يعلم ماذا أعطى وماذا سيُعطي .

ب - التحضير للمعجزة : (٥ - ١٠) .

٦: ٥ - ٧ « فرفع يسوع عينيه ، ونظر أن جمعاً كثيراً مُقْبِلٌ إليه . فقال لفيلبس : مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خبزاً لِيَأْكُلَ هؤلاء ؟ وإنما قال هذا لِيَمْتَحِنَهُ - لأنه هو عَليمٌ ما هو مُزِمٌّ أن يفعل . أجابه فيلبس : لا يكفيهم خبزٌ بمِئَتَي دينارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ شيئاً يسيراً » .

ق . يوحنا يهتم هنا بحوار المسيح مع فيلبس ، ومنذ بداية الإنجيل وق . يوحنا يركّز على شخصية فيلبس (٧) ، فهو التلميذ الذي لم يأت إلى المسيح ، بل المسيح هو الذي ذهب إليه في البداية ليدعوه (يو ١٠ : ٤٣) ، وهو الذي في النهاية بعد زمانٍ طويل مع المسيح هذه مدته ، ودون جميع التلاميذ ، يسأل الرب : « يا سيد أرنا الآب » ، مما أدهش الرب فردّ عليه لائماً : « قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس » (يو ١٤ : ٨ و ٩) . وهنا وفي هذا الأصحاح ، بادره الرب بالسؤال : « من أين نبتاع خبزاً لِيَأْكُلَ هذا الجمع ؟ » ، فلم يكتفِ فيلبس بصعوبة السؤال من جهة « من أين نبتاع الخبز » ، إذ أضاف إلى السؤال صعوبة أخرى هي الأهم عنده إذ « بكم يتكلّف هذا الخبز » . الرب هنا يريد أن يكشف وضع فيلبس بالنسبة للرسالة .

فيلبس يتبع الرب ، ولكن بحساباته الخاصة وفي أضيق حدود الإيمان الشكلي ، الرب اختاره لمميزات خاصة في أخلاقه المستقيمة وطيبة قلبه وقدرته في اتباع الرب ، ولكن لم تكن له حرارة الإيمان بالرب ، وبطولة المغامرة لتحقيق متطلبات الإيمان الحيّ ؛ وكان على الرب أن يكشف له ، بل يكشف لنا ، بل يكشفنا معه ، أن هذا الإيمان الهزيل ، بل الميت ، لا يوافق الإيمان المسيحي الحي القائم على قدرة الرب الفائقة . وكأن معجزة إشباع الخمسة الآلاف من خمس الخبزات ، مقصودة قصداً لتحطيم حسابات الأرقام والتحفظات التي يضعها العقل القاصر ، والحكمة الإنسانية

الكاذبة، في طريق أتباع الرب إلى الصليب، ثم إلى المجد والحياة الأبدية. فأما الحسابات والأرقام مع العقل، ومعها الشُّع والعوزان في الأخذ أو العطاء؛ وإما الإيمان بالمستحيل مع الله ومع الشُّع الفائض والسخاء في التوزيع والحياة الأفضل. (٨)

وليس جزافاً أن يسترعي انتباه ق. يوحنا إهتمام المسيح الشديد بفيلبس لامتحان قلبه قبل البدء بالمعجزة. فالمقصود هو القارىء والكنيسة كلها، لكي يُمتحن الإنسان قبل البدء بالمعجزة فيكون على مستوى الإيمان بالمسيح كرتب وإله، وهو يقرأ ويتأمل ليحصل على نصيبه هو أيضاً من شبع الحياة، بل ومن الفائض أيضاً.

وليُنْتَبه القارىء جداً أن المسيح جاء، ليس ليسة الأعواز، بل ليملاً ويفيض، فهو القائل: «... أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» (يو: ١٠: ١٠)، حيث الترجمة «أفضل» هنا قاصرة جداً، لأن معناها الحرفي بحسب اللغة اليونانية: حياة الكثرة والفيض والسمو اللانهائي:

περισσόν ، life of abundance, excellence and preeminence

وهذه الأوصاف تليق فقط بالحياة الأبدية. فنحن مدعوون، ليس فقط لأن نؤمن به كرتب وإله في ذاته، بل وأن نؤمن أن في يديه شُبَّع سرور: «تُعَرِّفُنِي سُبُل الحياة، أمامك شُبَّع سرور، وفي يمينك نَعَم إلى الأبد» (مز: ١١٦: ١١). فمن أهم وأعظم أوصاف الحياة الأبدية التي يعطيها الله لمتقيهِ، الفيض في الحب والسرور والسلام والشُّع حتى الملء في الأخذ والعطاء. ومن أوصاف الله الملازمة له أنه «غني في المراحم» (أنظر أف ٢: ٤)، بل وغني جداً.

«فرح يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مُقْبِلٌ إليه، فقال لفيلبس: من أين نبتاع خبزاً لياكل هؤلاء. وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو عليم ما هو مُزْمَع أن يفعل»:

لقد كانت صفة المسيح الأولى مع تلاميذه أنه «المعلم»، ولقد كانت وسيلة الرب للإرتقاء بإيمان تلاميذه هي التلقين والتعليم والامتحان. فبالرغم من أنه كان يعلم ما هو مزمع أن يفعله، ولكنه وضع فيلبس أمام السؤال الخرج للامتحان: «من أين نبتاع خبزاً لياكل هؤلاء»؟ وتركه يُقَدِّر دون أن يوعز إليه بالحل. ولقد اكتشف فيلبس بعد أن أكمل الرب المعجزة مقدار القصور المريع الذي وقع فيه، إذ تحطمت كل حساباته. وهذه هي نفسها الامتحانات التي يضعها المسيح أمام كنيسته وتلاميذه كل يوم، ولا تزال مشكلة الحصول على «المثني دينار» هي المشكلة الوحيدة أمام حسابات عدم الإيمان، لأنه بحسب أصول حسابات عدم الإيمان يكون الوضع الإقتصادي

(٨) يلاحظ أن الأصل المشتق منه كلمة «فَضِّلْتُ» عنهم من الكسر περισσεύω (يو: ١٢: ١٣) هو نفس الأصل

المرتب منه كلمة: «أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» (يو: ١٠: ١٠).

والمادي هو الحل الأساسي لانتعاش المشاريع والذي ينتهي بها دائماً إلى الإفلاس الروحي. فنحن الآن نقرأ على كل مؤسسة الإعلان الحزين بمقتضى حسابات عدم الإيمان «مطلوب مئتي دينار لإشباع الجموع»، ويُجمع مليون جنيه، ولا تزال الجموع جائعة للحق.

هنا السؤال الساخر الذي على فم كل إنسان ناقد: وهل السماء تمطر ذهباً؟ وهو نفس القول الساخر الذي وجهه الشيطان للمسيح، والذي واجهه الرب وهو في أشد محنة الجوع الحقيقي: «قُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (مت ٤: ٣). هذا في الواقع معناه الروحي هو محاولة تقييد عمل الله بفرض حلولنا العاجزة بحسب أصول حسابات عدم الإيمان. وعليه، يتحتم أن ندرك أن الإيمان وحده هو الذي يخلق الحلول لأصعب المشاكل، بل يخلق المواعيد: «بالإيمان قَدَّمَ إبراهيم إسحق وهو مُجَرَّبٌ، قَدَّمَ الذي قَبْلَ المواعيد وحيداً». (عب ١١: ١٧)

٦: ٨ و ٩ «قال له واحدٌ من تلاميذه وهو أندراؤس أخو سيمعان بُطْرُسَ، هنا غلامٌ معه خَمْسَةُ^(١) أرغفة شعير وسمكتان. ولكن ما هذا ليمثل هؤلاء؟».

مرة أخرى يُلقي علينا الإنجيل درساً ثميناً في إحترام الإمكانات الضعيفة والمواهب الصغيرة. من يستطيع أن يصدق أن هذا الغلام الصغير المجهول الهوية يتدخل تدخلاً مباشراً في تكميل معجزة كبيرة بهذا الحد؟ لم تكن تدري أمه حينما دسّت في مخلاته هذه الأرغفة الشعير الخمسة والسمكتين على عجل، حينما ألحّ عليها للسماح له باللحاق بالمعلم مع الأهل والصحاب؛ ويا لفرحة الأم حينما أتاها ولدها في المساء يجري ويطفر ويلهث يقص عليها، وهو مقطوع الأنفاس، قصة أرغفتها الخمسة والسمكتين، التي أمسكها الرب بيديه، وباركها فأشبعت آلاف الرجال والنساء والأطفال، والأم تسمع وهي ذاهلة لا تريد أن تصدق. ومن يصدق أن مشاعر الأمومة الحانية نحو حبيبها الصغير تتحول هكذا إلى بركات فائضة في يدي الرب خلال «خمس أرغفة شعير وسمكتين».

خبز الشعير أرخص من خبز القمح وهو غذاء الفقراء، وهذا تمادٍ في إظهار ضعف عطايانا التي يمكن أن يباركها الله لتصير لملء الشبع والغنى، أما السمكتان فبحسب تحقيقات علماء الكتاب المقدس — كائنا مملّحتين^(١٠)، وهي عادة أهل السواحل في الإحتفاظ بفائض أسماكهم. وقد أتت

(٩) لمعرفة المعنى السري وراء عدد الخمسة أرغفة، ارجع إلى المدخل ص ٣٥٨ هامش رقم ١٣.

(١٠) لا تزال عادة تذكّار أكل هذه الأسماك المملحة تمارس يوم شم النسيم حينما تجتمع الجموع معاً في اليوم التالي لعيد الفصح (القيامة) عند الأقباط.

الكلمة اليونانية ὄψαριον لتفيد أنها من نوع الأسماك الصغيرة التي نسميها في اللغة الدارجة «بساريا».

«ولكن ما هذا لمثل هؤلاء» :

هذه مقارنة حسابات تؤدي إلى الطرق المسدودة والأبواب المغلقة. وهي مقارنة أعوازنا واحتياجاتنا بالنسبة لأرصدة إيماننا، وهي دائماً بالناقص، والفشل مصيرها المحتم. ولكن كم مثبات وألوف الأشخاص اعتمدوا على حسابات الخمس الخبزات والسمكتين، وهي حسابات الإيمان الذي يصرف من مخازن الله السرية، المملوءة دائماً حتى الفيض، فأقاموا مثبات وألوف من مشاريع البر للفقراء والأيتام والمُعوزين، قامت ونجحت وآوت الملايين على ممر العصور وكان دليلها الإقتصادي الوحيد الخمس الخبزات والسمكتين.

إذن، فلنتذكر على الدوام هذه المعادلة الإيمانية أن خمسة فقط مضروبة في الإيمان تساوي خمسة آلاف زائد اثنتي عشرة قفة.

١٠:٦ «فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون. وكان في المكان عُشْبٌ كثيرٌ. فأتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف».

يلاحظ القارئ هنا أن الرب أمر التلاميذ أن ينظموا الجموع إعداداً للأكل. فمن الناحية العامة قال لهم أن «اجعلوا الناس»، وهنا تُستخدم كلمة ἀνθρώπους لتفيد الرجال والنساء والأطفال عامة. ثم أمر أن يجلس الرجال بترتيب، وهنا تُستخدم كلمة ἄνδρες وهي تعني الرجال فقط، حيث تذكر الأناجيل الأخرى أن الرب أمر أن يكونوا مجموعات، مئة مئة وخمسين خمسين: «فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاتكأوا صفوفاً صفوفاً، مئة مئة وخمسين خمسين.» (مر ٦: ٣٩ و ٤٠)

ويُلاحظ أن النساء والأطفال لم يُحسبوا ضمن العدد وذلك حسب عادة اليهود — لأنهم يستثنون النساء والأولاد من التعداد — وكذلك لأن عددهم يبدو أنه كان صغيراً.

كما يلاحظ القارئ وضوح فكرة الاهتمام بالنظام والترتيب «رفاقاً رفاقاً» التي تأتي باليونانية συμπόσια συμπόσια، ثم الصفوف تتكون من مجموعات مجموعات πρᾶσαι πρᾶσαι، وهذا الوصف لا يأتي إلا في وصف الحدائق بنظام مجموعات الزهور كل مجموعة معاً. فانظر أيها القارئ وتأمل. وسبق أن نبهنا أن ظهور العشب الأخضر يناسب بالفعل

زمن قرب الفصح وهو نهاية شهر الربيع (أبريل) بعد الشهور المطيرة، وكأن الأناجيل اتفقت معاً لتقدم لنا صورة مبدعة نَمَّقَتها روح المسيح الجمالية، مما أبهرت عيون التلاميذ، وجعلت هذه المعجزة مرسومة بدقة في أذهانهم.

كما أن الأناجيل ذكرت العشب الأخضر بتوضيح مما يزيد الرواية واقعية، أن الراوي شاهد عيان، وهو يستحضر لأذهاننا وصف المزمور للمسيح الراعي للخراف: «الرب راعيَّ فلا يُغوزني شيء، في مراعي خضر يربطني إلى مياه الراحة يورطني.» (مز ٢٣ : ١-٢)

وفي الحقيقة نستطيع أن نستشف من وصف ق. يوحنا وبقية الأناجيل صورة ما كان يجري في قلب المسيح. فالمشهد يعود بنا إلى سفر الخروج ويستحضر إلى ذهننا منظر شعب إسرائيل بعد أن رأى الله على الجبل، كيف جلسوا على السفح وأكلوا وشربوا في حضرة الله: «ثم صعد موسى... ورأوا إله إسرائيل (بحسب ما تراءى لهم) وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا.» (خر ٢٤ : ٩-١١)

فهذا الذي حدث في سفر الخروج ما هو إلا نبوة إفخارستية من الدرجة الأولى، حققها المسيح على المستوى السري الملموس، حيث اجتمع فيها للإنسان رؤية الله والأكل والشرب في حضرته، وهو نفس ما يصرخ به الشماس على المذبح في بداية القداس الإحتفالي:

[أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبة وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق لتنظروا المذبح، وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه...]

(القداس الإلهي: «خدمة الشماس والألحان»، صفحة ٨٢ و٨٣)

ج - إشباع الجموع: (١١-١٣).

١١:٦ «وأخذ يسوع الأرغفة وشكَّر ووزَّع على التلاميذ والتلاميذ أعطوا المتكئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا».

وأخيراً أخذ يسوع الخمسة الأرغفة على يديه وشكر. وهكذا بدأت قصة البركة العظمى في حياة الإنسان. وهنا تَمَّت عملية التحوُّل السري العجيب؛ فالمادة الميتة أخصبت بروح الحياة، فتحول المحدود إلى اللامحدود، والقليل إلى الكثير الفائض بلا حدود، والخبز البائد إلى عِيْنة لخبز حي يحمل سِرَّ الله، يتكاثر دون أن يخضع لأية معادلة أو نسبة يعقلها أو يفهمها الإنسان. لقد تحولت كل لقمة

في يد الرب إلى نعمة، يأكلها الجاهل فيحس بالشبع ولا يعرف من أين أتاه الشبع فيطلب المزيد، ويأكلها المؤمن فتتفتح عيناه ويمسك باليد التي ألقت في قلبه بالنور. هي خبزة شعير في فم الجائع المتلهف لملء البطن، وهي جوهرة ثمينة عليها ختم الآب في عين الجائع لروح الله. هي لقمة سائغة لذينة في فم الأحمق، وهي نفسها للحكيم جرة نار تحرق الخطية وتزيل العار عن الذي تنجست شفتاه. هي لقمة لسد جوع الجسد أكلها الجليليون فشبعوا، وهي السر الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه (١ بط ١: ١٢)، بل والأنبياء والملوك اشتهاوا مجرد أن يَرَوْها فلم يروا (لو ١٠: ٢٤).

وليستبه القارىء، فحينما يقول الإنجيل إن المسيح «شكر» — أي شكر الآب — فهو يُشرك الآب في البركة ويثبت أنه — «خبز» — بحسب مشيئة الآب. وهذا هو «ختم الآب». ولهذا أيضاً لا يتم فعل السر في الإفخارستيا إلا بالدعاء باسم الآب والابن والروح القدس.

وتأتي كلمة «شكر» بلفظها السرائري: εὐχαριστήσας (من إفخارستية) في إنجيل ق. يوحنا فقط، وهي الفعل المسيحي المقابل للفظ اليهودي Berakah أي «بارك»، الذي استخدم في الأناجيل الأخرى.

ولكن يلاحظ القراء الذين يشتغلون بمفاهيم إجراء سر الإفخارستيا، أن بعد الشكر يلزم فعل «كَسَرَ»، وهي اللفظة الملازمة دائماً وحتماً لفعل الإفخارستيا. «وبارك وقسم» كما جاءت في الأناجيل الأخرى، «وباركه وقسمه، وأعطاه...» (القداس الإلهي).

ولكن ق. يوحنا يلتزم بمفهوم عجيب حقاً بالنسبة للفصح الحقيقي الذي ذُبح من أجلنا، أي جسد يسوع على الصليب. إذ اهتم ق. يوحنا جداً أن يذكر أن ذبيحة المسيح العظمى لم يُكسَر لها عظم: «وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات ... لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل عظم لا يُكسر منه» (يو ١٩: ٣٣ و٣٦). لذلك، وبالرغم من أن الأناجيل الأخرى اهتمت أن تذكر الفعل الإفخارستي الملازم للبركة وهو «كَسَرَ»، الخبز، توضيحاً أن الرب أجرى فعلاً إفخارستياً للخمس الخبزات؛ نجد ق. يوحنا — وبالعكس المؤلف — لا يذكر الكسر بالمرّة إمعاناً منه لمطابقة أكثر حرفية بين الفعل الإفخارستي الذي أجره على الخمس الخبزات وبين الفعل الإفخارستي الذي تم في جسده الذي لم يُكسر على الصليب!

فانظر أيها القارىء وتأمل في قدرة ق. يوحنا للربط المذهل بين الآية التي أجزاها المسيح وبين تطبيقها الذي تم على الصليب. وكأنه يود أن يقول إن الخبز الحي النازل من السماء، الذي هو جسده، الذي قدّمه على الصليب عن حياة العالم كله، لا يتجزأ ولا يُكسر بل يُعطى ككل:

«من يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧). وهذا المفهوم يلزمنا نحن أيضاً، فنحن حينما نتناول من سر الذبيحة المُقدَّمة على المذبح؛ إنما نتناول، ليس كسرة خبز، بل المسيح كله. كما نلاحظ أن كلمة «شكر» و«ورع» على التلاميذ تأتي بنفس الوضع الإفخارستي كما جاء في سر العشاء الأخير.

١٢: ٦ و ١٣ «فلما شبعوا (امتأوا)، قال لتلاميذه: اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء. فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين».

يُلاحظ في التفسير اللفظي أن كلمة «شبعوا» تُرجمت هكذا إلى العربية خطأ، لأن أصلها اليوناني ἐνεπλήσθησαν معناه «امتأوا». وهذا الفعل يأتي ليس فقط لكي يفيد الشبع من الجوع بل ليفيد «الملء»، حيث يمتد المعنى — عند ق. يوحنا — إلى الناحية الكلية أي الملء النفسي والروحي بالراحة والسرور. أما كلمة «الشبع» من الجوع فقط فقد أوردها ق. يوحنا في كلام المسيح للتعبير العكسي عند الذين لم يدركوا السر: «الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» (يو ٦: ٢٦)؛ حيث «شبعتم» باللغة اليونانية ἐχορτάσθητε. والمعنى المقصود واضح، أن الرب أعطاهم أن يذوقوا خبز الإفخارستيا ليمتلئوا حياة «ونعمة» وسروراً وتفتح أعينهم فيدركوا سر الرب، ولكنهم أغفلوا ما ذاقوه من نعمة وسعادة وجَروا وراء شهوة بطونهم وجهالة عقولهم وطلبوا منه بعد كل ذلك أن يصنع لهم آية، كأن يُخدير لهم مناً من السماء مثل موسى ليأكلوا ويشبعوا مجاناً. هذا هو أسلوب ق. يوحنا في استخدام الألفاظ للتعبير عن المعاني العميقة التي تحتاج إلى تعمق وفحص دقيق. أما الأناجيل الأخرى فاكتفت بكلمة «الشبع» بمعنى ملء البطن فقط: ἐχορτάσθησαν (مت ١٤: ٢٠ ومر ٦: ٤٢ ولو ٩: ١٧).

ومما يزيد هذا التفسير يقيناً، أنه بالرغم من أن إنجيل القديس مرقس ذكر أن التلاميذ جمعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة «مملوءة» حيث جاءت كلمة «مملوءة» باللفظ اليوناني πλήρεις، نجد أن ق. يوحنا لم يشأ أن يذكر كلمة «مملوءة» بالنسبة للقفف، فكلمة «الملء» كانت عند ق. يوحنا ذات عمق كبير ولم يستخدمها قبل ذلك إلا في معنى «ملء المسيح»، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦).

وفي وصف الإفخارستيا في «الديداخي» (١١) تأتي أيضاً كلمة «الملء» بالنسبة للأكل من الإفخارستيا هكذا:

[فإذا امتلأتم μετὰ δὲ τὸ ἐμπλησθῆναι (أي شبعتم) أعطوا شكراً هكذا ...]

وأما كلمة «الكِسر» κλάσματα فلم تَرِدْ في كتب العهد الجديد إلا في قصة إشباع الجموع في الأربعة الأناجيل. وفي العهد القديم أنت مرتين ولكن ليس بنفس المعنى إذ أنت في صيغة «فتات»: «لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز» (حز ١٣: ١٩)، وكذلك في سفر القضاة جاءت بالمفرد: «أسند قلبك بكسرة خبز» (قض ١٩: ٥). وقد دخلت بصيغة الفعل في طقس الإفخارستيا بصورة ملازمة لـ «بَارَكْ وَكَسِرْ»، وعند القديس بولس: «الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح.» (١ كو ١٠: ١٦)

أما كلمة «قفّة» فتأتي في اليونانية بنفس اللفظ κόφινος ويُظن أنها كانت تُستخدم مع الجموع لملء القليقة لإطعام الدواب التي كان يركبها الناس. أما كلمة «سَلّ» التي جاءت في نفس الوضع بالنسبة لمعجزة إشباع الأربعة الآلاف فجاءت باليونانية σκυρίς، وقد وردت هي نفسها في سفر الأعمال (٩: ٢٥)، وتحت كلمة «زنبيل» (٢ كو ١١: ٣٣)، وكانت تَسَعُ رجلاً جالساً فيها. ومن هذا يتضح لنا حجم القفّة في ذلك الوقت.

وبلاحظ أن إنجيل ق. يوحنا هو الوحيد الذي ذكر أن الرب بنفسه هو الذي أمر التلاميذ أن يجمعوا الكِسر الفاضلة، وأضاف إضافة ذات قيمة إفخارستية عالية للغاية حينما ذكر السبب: «لكي لا يضيع شيء».

وهنا يلزم أن ننتبه أن المسيح ركّز على الخبز وحده دون السمك، لكي تُجمع كل كِسرته، ثم أردف أن ذلك لكي «لا يضيع منه شيء». هذه الجملة ذاتها نسمعها من فم الرب بعد ذلك على مستوى النفوس المؤمنة: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني «لا تُتلف منه شيئاً» بل أقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٣٩). إذن، فقول الرب بالنسبة للكِسر الفاضلة «لكي لا يضيع منها شيء»، إشارة بليغة أن الخبز الذي باركه «إفخارستياس» قد تحول إلى خبز إفخارستي مقدس، فلا ينبغي أن يتلف منه شيء، وهو يرمي من بعيد لتصوير المؤمنين الآكلين من جسده. علماً بأن كلمة «لا يضيع» وكلمة «لا يتلف» المترادفتين في اللغة العربية، جاءتا في

الأصل اليوناني بتركيب واحد بمعنى « ينحل » : μή τι ἀπόληται, μή ἀπολέσω. وفي شرح المسيح لمعنى الخبز الحي ذكر الخبز الذي يتلف أو يضيع بكلمة « البائد » وهي نفس الكلمة اليونانية ἀπολλυμένην .

كذلك فإن اهتمام الرب بأن يجمع التلاميذ الكسر الفاضلة وإعطاء السبب لذلك لكي « لا يضيع منه شيء »، إشارة أخرى ذات هدف بعيد وعميق . فهو يقارن بين الخبز الإفخارستي، أي « خبز الشكر » السري في العهد الجديد، وبين « المن » الذي أكله الشعب في البرية بالضيق، والذي كان لا يُفْضَل منه شيء، إذ كان على قدر حاجتهم اليومية فقط : « ولما كالوا بالغير (عُشر القفة) لم يُفْضَل المُكَثَّر، والمُقلَّل لم يُنْقِص . كانوا قد التقطوا كل واحد على حسب أَكْلِهِ » (خر ١٦ : ١٨) . كذلك، فكان إذا طمع أحد في إبقاء شيء منه، فإنه كان يتلف و ينتن : « لكنهم لم يسمعوا لموسى، بل أَبْقَى منه أَنَاسٌ إِلَى الصَّبَاح فتولَّد فيه دُوْدٌ وَأَثْنٌ فسخط عليهم موسى . » (خر ١٦ : ٢٠)

وواضح الآن من قول الرب باهتمام أن تُجمع الكسر الفاضلة لكي لا يضيع منها شيء، أن هذا في الحقيقة إشارة إلى أن هذا الخبز الإفخارستي المقدس ليس خبز القوَر والحاجة فقط بل خبز الزيادة والفضلة والكثرة : « أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أَفْضَل (زيادة) » (يو ١٠ : ١٠)، كما هو أيضاً إشارة إلى أنه ليس للضياع والتلف، بل هو خبز ينبغي أن يبقى، بمعنى أن الذي يأكله بعين مفتوحة وقلب مؤمن لا تضيع حياته ولا تتلف بل تبقى وتحيا . وهذه المعاني العميقة سيعود الرب ويشرحها بدقة على مستوى « الخبز الحي » النازل من السماء الذي يعطيه هو، أي جسده، في مقارنة واضحة مع المن الذي أكله آباؤهم وماتوا . ولكن ما أشهى المعاني المستترة في هذا الإنجيل العجيب !!!

و يلاحظ القارئ أن من هذه الإشارة التي اهتم بها الرب : أن يجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع منها شيء، أخذت الكنيسة منذ البدء نفس هذا الاهتمام وطبَّقته على كسر الخبز السري أي جسد الرب في سر الإفخارستيا، حيث يجتهد الكاهن والشماس معاً أن يجمعوا الفتات المتبقية — في الصينية — بعد توزيع الجسد، و يلتقطها الكاهن باهتمام حتى لا يضيع منها شيء .

كما أن جمع الكسر المتفرقة معاً في اثنتي عشرة قفة لا يزال يحمل معنى روحياً متسعاً . فقد اتخذته الكنيسة في طقس الإفخارستيا ليشير إلى جمع شمل المتفرقين من أبناء الله، بل ووضعت الكنيسة في الطقس الإفخارستي دعاءها الرسمي على هذا المعنى بالذات، وذلك في ترتيب طقس

ليتورجية «الديداخي»، التي يُظن أنها من وضع الرسل أنفسهم:

[أما بخصوص «المكسور» (أي الخبز المكسور) κλάσμα فقولوا هكذا: نشكرك يا أبانا ... كما كان هذا «المكسور» (أي الخبز المكسور) مبعثراً فوق التلال — (قمحاً) — ثم جُمع معاً وصار واحداً، هكذا اجعل كنيستك تجتمع معاً من أقاصي الأرض إلى ملكوتك.] (١٢)

ومع الفحص والتدقيق، نجد أن نفس الكلمات بلفظها اليوناني التي جاءت هنا في هذه الإفخارستيا، جاءت في معجزة كسر الخمس الخبزات وجمع الكِسر التي فضلت. وهذه الكلمات هي: «كِسر الخبز» κλάσματα ، و«شكر» εὐχαριστήσας ، «على الجبل» ὄρος ، «اجمعوا» و«تجمعت معاً» συνηγάγετε . فإذا أضفنا إليها ما ذكر في إنجيل ق. يوحنا عن محاولة جعل المسيح قليلاً بعد معجزة الخمس الخبزات مباشرة، تكون قد تطابقت أيضاً كلمة «ملكوتك» الواردة في الديداخي — مع «المسيح كملك». (١٣)

وبالنهاية نستطيع أن نقول إن رواية إطعام الجموع من الخمس الخبزات بكل تفاصيلها جاءت بوضع إفخارستي غاية في العمق الروحي، أخذته الكنيسة حتى بكلماته وحروفه، إلى درجة أن الكنيسة في العصور الأولى كانت تفضل أن يكون الخبز الإفخارستي من الشعير! (١٤)

أما التدقيق في كون الكسر قد جُمعت في اثنتي عشرة قفة، فهذا إشارة واضحة إلى جمع أبناء الله المتفرقين في كنيسة الرسل الاثني عشر المتحدة، في شخص يسوع.

كذلك لا يفوتني أنا كاتب هذه السطور أن أحكي للقارئ أن في أيامي وجدتُ تدقيقاً زائداً عن الحد في البيوت في جمع كِسر أو فتافيت الخبز بوجه خاص بعد الأكل باهتمام بالغ، بإحساس جعلني شديد الانتباه والسؤال دائماً في ذهني، لماذا هذه المبالغة في جمع الكِسر أو فتافيت الخبز خاصة؟ وإني رأيت بعيني أن أمي كانت تجمع الكِسر وتقبلها قبل أن تضعها في سلة الخبز بعد الأكل. وأخيراً أدركتُ أن التراث القبطي لا يزال مطبوعاً بقصة الخمس الخبزات، وأن البيت القبطي كان وربما لا يزال يعايش إنجيل يوحنا، بل المسيح.

(١٢) الديداخي ٩: ٤٠٣. أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس» للمؤلف، طبعة ١٩٧٧، ص ٣٠٠.

¹³ Brown, Raymond E., *op. cit.*, Vol. 1, p. 248.

¹⁴ Ibid, p. 248, citing J. McHugh, *VD* 39 (1961), 222-39.

د - تأثير المعجزة: (١٤-١٥).

١٥:١٤ و ١٤:١٥ «فلما رأى الناس الآية التي صنَّعها يسوع قالوا إنَّ هذا هو بالحقيقة النبيُّ الآتي إلى العالم. وأما يسوع فإذ عَلِمَ أنهم مُزِمِّعونَ أن يَأْتُوا ويَخْتِطِفُوهُ ليجعلُوهُ مَلِكاً انصَرَفَ أيضاً إلى الجَبَلِ وحدَهُ».

وهنا نأتي، أيها القارئ العزيز، إلى أخطر ما في قصة إشباع الجموع من سلبية وجهالة وخروج عن خط الإيمان الصحيح بالنسبة لحقيقة المسيح المخلص والفادي.

واضح من بداية القصة حينما ذكر الإنجيل: «وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرضى» (يو: ٦: ٢)، أن هؤلاء الذين تبعوا الرب كانوا مأخوذين بالمعجزات التي تمت لمرضاهم وربما كان فيهم نفس المرضى الذين شفاهم الرب. فلما جاءت معجزة إشباعهم في القفر وصل بهم الحماس إلى أقصاه، ولكنه لم يكن حماساً روحياً في أهدافه بل جسدياً وسياسياً في مرماه، خاصة إذا أضفنا هذا الحماس الجسدي للشعب الإعجازي المبهري إلى الإحساس بالضيق من العبودية المرة، التي كانوا يعانونها تحت حكم الرومان عامةً وحكم هيرودس ملك الجليل خاصةً، بعدما أُقْدِمَ على قتل يوحنا المعمدان في السجن، علماً بأن يوحنا المعمدان كان نبياً محبوباً لدى الناس.

والآن، لقد رأى المتحمسون من الجليليين صورة تنطبق على النبي الذي ينتظرونه مثل موسى يمكن أن يشبعهم خبزاً ويحررهم من العبودية حسب تحقيقات الربيين: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون.» (تش: ١٨: ١٥)

ولكن الرب أجرى معجزة إشباع هؤلاء الخمسة الآلاف مع نساء وأولاد لأنه كان لا يمكن أن يصرفهم جائعين، لأن الراعي لا يُعَذِّب خرافه. فالرب عندما كان يُجري معجزة — أي معجزة — لم يكن يقصد المعجزة بحد ذاتها، ولم تكن المعجزة بالنسبة له، فهذا عمله. فعمل المسيح هو عمل الله، وأعمال الله كلها معجزات عند الإنسان ولكن ليس عند الله (١٥). كل عمل من أعمال الله التي كان يجريها المسيح كان يحمل إشارةً أو شهادةً أو برهاناً لله الذي في المسيح.

فعندما أخذ المسيح الخبزات الخمس على يديه وشكر، صار الخبز حاملاً سِرَّ الله وقوته، صار

خبزاً الله ولكن في سر، فلم يُعَدْ خبز الشقاء والعوز والجوع الذي تُعَدُّ خبزاته بالأرقام، بل خبز الراحة والسعة والشبع والزيادة بسبب قوة الله المحيية. فالزيادة التي حدثت في الخمس الخبزات هي من فعل الروح، والمسيح كان يدرك ذلك، وكان رد الفعل الذي ينتظره هو أن الناس الذين أكلوا من بركة وقوة الله، أن يمجّدوا الله ويدركوا سِرَّ الله الفائض في المسيح فيؤمنوا بالمسيح بصفته التي أعلنها عن نفسه ويصدقوه أنه ابن الله.

ولكن خطأ الناس دائماً هو أنهم يستخلصون من بركات الله الخاصة لهم مزيداً من التعالي على الآخرين، مغالاة في التعظيم بعقائدهم، وفرصة لطلب النعمة على أعدائهم. على هذا الأساس أراد بعض المتحمسين من الخمسة الآلاف أن يتخلصوا من واقع جوعهم وعوزهم وأمراضهم وعبوديتهم تحت أرجل الرومان واستبداد هيرودس بأن يصنعوا من المسيح مخلصاً ومُنقِصاً لهم حسب فكر قلوبهم، وينصبوه ملكاً لأنفسهم بالشكل الذي يستحسنوه. وقد وضعوا في قلوبهم أنه إذا رفض، فعليهم أن يختطفوه عنوة ويجعلوه ملكاً بالقوة، الشيء الذي لم يُسمع به قط على مدى كل تاريخ. شعب يعبد الله بالحق!

طبعاً، ردُّ الفعل عند القاريء هو أن هذه جهالة، ولكن المحزن أن العالم لا يزال يطلب ذلك، بل وكثير من الحكومات والكنائس والعقائد والمتدينين يصلُّون ويطلبون ويلحون على الله والمسيح أن يكون ملكاً عليهم وحدهم، ليردَّ عنهم ظلم الآخرين، وينصرهم على الأقوياء والمستبدين! فالحروب الصليبية باسم المسيح كان شعارها الصليب مرسوماً على البيارق والسيوف، لقد نصبوا المسيح بالفعل ملكاً محارباً بالسيف والرمح ليقتل ويحطم المغيرين والأعداء. كذلك أيضاً كانت محاكم التفتيش والقتل وإشعال النار في المؤمنين غير الخاضعين لسلطان البابوات (آنذاك)، كان كل هذا يجري باسم المسيح الذي نصبه خلفاء أباطرة الرومان ملكاً لأنفسهم على روما وحدها ليخضع العالم تحت أرجلهم؛ بل ولا يزال حتى اليوم كل كنيسة وكل عقيدة تطلب وتلع وتؤكد على المسيح أن يلتزم بنصرتها كملك عليها، بالدفاع عنها، والانتقام من أعدائها. ولو كان ممكناً أن يظهر المسيح لهم لاختطفوه ولأرادوا أن يجعلوه ملكاً عليهم وحدهم وبالقوة.

لهذا كان قلب المسيح ثقيلاً وحزيناً على هؤلاء الجليليين الذين تاهوا عن الله وعن خلاصهم الحقيقي، وفقدوا الرؤية الصحيحة للمسيح كمخلص وفادٍ. ولم يكن أمام المسيح بعد أن صنع المعجزة إلا أن يختفي فجأة عنهم «وينصرف وحده»!

ولا يزال المسيح إلى الآن يرفض أن يكون ملكاً عنصرياً أو عقائدياً على شعب ما أو على عقيدة

ما، أو يكون واسطة لتسهيل الحياة الطبيعية، أو ضامناً لمسرات الناس الأرضية، فد«المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب» (في ١١: ٢). وآيات المسيح كلها هي لمجد الآب الذي لن يتأتى إلا بحب الناس بعضهم للبعض، والعفو عن الخطيء المذنب. وإن قول المسيح: «أنا مَجِّدتك على الأرض» (يو ١٧: ٤)، يعني أنه أعطى نفسه ذبيحة حب لكل الناس، والمسيح هو مسيح العالم كله لحساب الآب السماوي.



٢ - الآية الملازمة لإشباع الجموع

السير على الماء^(١٦)

(٢١-١٦:٦)

«أَبْصَرْتُكَ المِياه يا الله، أَبْصَرْتُكَ المِياه فَفَزَعْتُ، ارتعدت
أيضاً اللَّجَج ... في البحر طَرِيقُكَ وَسُبُلُكَ في المِياه الكثيرة
وَأَثَارُكَ لَمْ تُعْرِفْ.» (مز ١٦: ٧٧ و ١٩)
«البَاسِطُ السَّمَوَاتِ وَحَدُّهُ وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ.»
(أيوب ٩: ٨)

٢١-١٦:٦ «ولما كان المساء نزل تلاميذه إلى البحر. فدخلوا السفينة وكانوا يذهبون إلى
عبر البحر إلى كفرناحوم. وكان الظلام قد أقبل، ولم يكن يسوع قد أتى
إليهم. وهاج البحر من ريح عظيمة تهب. فلما كانوا قد جددفوا نحو خمس
وعشرين أو ثلاثين غلوة σταδίου نظروا يسوع ماشياً على البحر مُقْتَرِباً من
السفينة؛ فخافوا. فقال لهم: أنا ههنا ولا تخافوا. فرضوا أن يقبلوه في السفينة،
وللوقت صارت السفينة إلى الأرض التي كانوا ذاهبين إليها.»

«أنت متسلط على كبرياء البحر عند ارتفاع لججه أنت
تسكنها.» (مز ٨٩: ٩)

لقد اشترك مع إنجيل ق. يوحنا، في رواية هذه المعجزة الملازمة لمعجزة إشباع الجموع، كل من
إنجيل القديس متى (٢٢: ١٤)، وإنجيل القديس مرقس (٤٥: ٦)، ولكن بأوصاف تختلف
اختلافات طفيفة.

فبينما يسرد ق. يوحنا هذه المعجزة باختصار شديد، نقرأ في إنجيل القديس مرقس أن المسيح
«أُلْزِمَ تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوا إلى العبر، إلى بيت صيدا (الجليل)، حتى يكون قد
صرف الجمع. وبعدهما ودّعهم مضى إلى الجبل ليصلي» (مر ٦: ٤٥ و ٤٦). بهذا تكمل الصورة التي
أعطاهها ق. يوحنا في إنجيله حيث يتضح من كلمة «أُلْزِمَ» تلاميذه، عند القديس مرقس، أن

الرب استخدم سلطانه أمام إلحاح التلاميذ في البقاء معه خوفاً عليه من المتحمسين الذين أرادوا أن يختطفوه، ولكن الرب هو الرب، لا يحتاج إلى آخر. كذلك نفهم من كلمة «ويسبقوا» إلى «العبث»، أن الرب وعدهم بالمجيء إليهم. ولكن كيف سيتقابل معهم؟ لم توضح الأناجيل ذلك، وربما كان الاتفاق أن يسيروا بالسفينة بحذاء الشاطئ الشمالي للبحيرة، حيث يقابلهم سائراً على الشاطئ. لذلك نقرأ في إنجيل ق. يوحنا: «وكان الظلام قد أقبل، ولم يكن يسوع قد أتى إليهم.» (١٧: ٦)

ويلاحظ أن الرب ألزم تلاميذه على ركوب السفينة في المساء $\delta\psi\iota\alpha$ ، ف«المساء» هنا لا تفيد المقصود من كلمة «أبسيا» اليونانية، فكلمة «أبسيا» في اليونانية تفيد «الغروب» أي آخر ساعات النهار ولكن قبل ظلام الليل. فالتلاميذ ركبوا السفينة في الغروب. وعندما حلَّ الظلام — وهذا هو بدء الليل الذي يكون بعد الغروب بحوالي ساعة — يقول إنجيل ق. يوحنا أن بدخول الليل لم يكن يسوع قد أتى إليهم بعد، فانقطع أملهم من رؤيته سائراً على الشاطئ.

وق. يوحنا هنا لا يورد كلمة «الظلام» إلا ووراءها معنى غياب النور أي المسيح، وهكذا ينسج ق. يوحنا من الألفاظ معاني أعمق من مجرد شكلها ومعناها البسيط. ومعنى مجيء الظلام بأسلوب ق. يوحنا يكون غياب النور أو الإيمان أي عدم مجيء المسيح، وهذا يحمل معه حدوث تجربة خطيرة، فيقول مباشرة: «وهاج البحر من ريح عظيمة تهب»، حيث التجربة هنا تصنعها الطبيعة سواء الرياح أو الأمواج بإيعاز من رئيس سلطان الهواء — القوة المعادية — كما يقول القديس بولس (أف ٢: ٢). وهكذا يكون غياب المسيح قد كشف عن حضور المجرب. ومن سياق القصة — كما جاء في إنجيل القديس مرقس: «ولما صار المساء كانت السفينة في وسط البحر، وهو على البر وحده، ورآهم معدّبين في الجذف، لأن الرياح كانت ضدهم» (١٧: ٦ و٤٨). نفهم من ذلك أن الرياح كانت شمالية غربية، واتجاه السفينة كان نحو الشمال الغربي وهذا اتجاه موقع كفرناحوم. والنتيجة أن الرياح والأمواج قذفت بالسفينة إلى عمق البحيرة بعيداً جداً عن الشاطئ. فإذا عرفنا أن أقصى عرض للبحيرة (١٧) كان نحو أربعين غلوة $\sigma\tau\acute{\alpha}\delta\iota\omicron\nu$ بالقياس الروماني، والغلوة أو الستاديون تساوي حوالي ٢٠٠ متراً، أي أن عرض البحيرة حوالي ٨ كيلومترات. وق. يوحنا يذكر أنهم جذفوا نحو خمس وعشرين أو ثلاثين غلوة أي ما بين خمسة

(١٧) الآن طول بحيرة الجليل ٢١ كيلومتراً وعرضها ١٢ كيلومتراً. ولكن بحسب القياسات في زمن يوسفوس (القرن الأول للميلاد) كان عرض البحيرة ٤٠ ستاديون أي ٨ كيلومترات، وطولها ١٤٠ ستاديون أي ٢٧ كيلومتراً. علماً بأن الستاديون $\sigma\tau\acute{\alpha}\delta\iota\omicron\nu$ يساوي ٦٠٠ قدم.

إلى ستة كيلومترات بعيداً عن الشاطئ. ويضيف القديس مرقس أن ذلك استغرق منهم وقتاً طويلاً حيث أصبحوا في الهزيع الرابع: «ونحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً على البحر» (مر ٦: ٤٨). والهزيع الرابع يقابل الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وهذا معناه أنهم ظلوا يجذفون معذبين من الرياح والأمواج التي ضدهم نحو عشر ساعات متواصلة بلا راحة!!

وهكذا أيضاً، وبالمعنى الروحي العميق، يجيء المسيح في الهزيع الرابع من الليل للمعذبين الذين ينتظرونه بفروغ الصبر. وداود النبي، وكأنه كان على الشاطئ الآخر وراء الدهور السالفة يرصد بالنبوة هذا المنظر المأساوي العجيب، وكيف سيجيء الرب حتماً في الميعاد للخلاص المرسوم يقول:

— «النازلون إلى البحر في السفن، العاملون عملاً في المياه الكثيرة، هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق، أمرفأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه، يصعدون إلى السموات، يهبطون إلى الأعماق؛ ذابت أنفسهم بالشقاء. يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلغت. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم، ومن شدائدهم يخلصهم. يُهْدِي العاصفة، فتسكن، وتسكت أمواجه. فيفرحون لأنهم هدأوا. فيهديهم إلى المرفأ الذي يريدونه. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم.» (مز ١٠٧: ٢٣-٣١)

إن قول ق. يوحنا أنهم «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا فقال لهم "أنا هو" لا تخافوا»، يحمل مقارنة على التوازي بين موسى والمسيح تأتي في موضع الإعجاز والإعجاب، لأن موسى بعد أكل خروف الفصح مباشرة انطلق بالشعب إلى البحر الأحمر ليشقه ويسير وسط أمواجه بإعجاز يُتَعَجَّب منه.

وبالعودة إلى قصة الخمس الخبزات وما رادفها من ذكر الفصح، يأتي مباشرة ذكْرُ المسيح ماشياً على البحر المضطرب ليعطي تكملة المقارنة مع موسى، الذي لكي يعبر البحر الأحمر مع الشعب أمره الرب أن يَفْلِقَ المياه ليسير على اليابس في العمق، أما الرب فسار هنا وهو يتهادى على سطح المياه: أَبْصَرْتُهُ المياه فَفَزَعْتُ!! «أبصرتك المياه يا الله أبصرتك المياه ففزعت ارتعدت أيضاً للبحر... في البحر طريقك وسُبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تُعْرِف» (مز ٧٧: ١٦ و١٩). أما كيف فزعت المياه وارتعدت للبحر، فهذا يصفه القديس مرقس في اختصار شديد: «فصعد إليهم إلى السفينة فسكنت الرياح، فبهتوا وتعجبوا في أنفسهم جداً إلى الغاية.» (مر ٦: ٥١)

أما سلطانه على الرياح والأمواج فيصفه القديس مرقس في موضع آخر هكذا: «فحدث نوء

ريح عظيم، فكانت الأمواج تضرب إلى السفينة حتى صارت تمتلئ. وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يَهْمُك أنَّا نهلك؟ فقام وانتهر الريح وقال للبحر: أَسْكُتْ، إِنَّكُمْ. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم. وقال لهم ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا إيمان لكم. فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض: من هو هذا فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه. (مر ٤ : ٣٧ - ٤١)

«فرضوا أن يقبلوه (بأخذه) في السفينة»:

الآن يلزم أن نصصح الترجمة العربية للآية: «فرضوا أن يقبلوه في السفينة...» والتي جاءت في الترجمة الإنجليزية بصورة أفضل: and willingly received. هنا فعل إرادة ومشية وليس «رضاً». وقد جاء الفعل في اليونانية في زمن الماضي المتصل كحالة مستديمة، بمعنى أنه كانت لهم إرادة بتلَّهَّف أن يدخل السفينة ἡθέλον οὖν λαβεῖν، وقد جاءت في الترجمة اللاتينية: voluerunt accipere لتفيد الشعور المتلَّهَّف بالإرادة لاستقبال الرب. والذي يُزيد هذا المعنى تأكيداً، ما جاء في إنجيل القديس مرقس: «وأناهم ماشياً على البحر وأراد أن يتجاوزهم...» ونحن نفهم من هذا أن الرب كان سائراً على الأمواج بمحاذاة لهم، ولم يكن له قصد أن يدخل السفينة، مكتفياً بأن يُظهر نفسه لهم ليبثِّد خوفهم، ولكن على العكس، فقد ازداد خوفهم من أن يكون الذي يرونه خيلاً فطمأنهم بصوته وبالجملة المعهودة: «أنا هو» (Eγώ εἰμι لا تخافوا). و«أنا هو»، التي سجلها هنا ق. يوحنا، تأتي برنينها اللاهوتي المعبر عن شخص الله، فالمسيح أراد أن يعلن عن حضوره الإلهي لتلاميذه في هذه المناسبة. فلما اطمأنوا أنه الرب، أظهروا إرادتهم أن يأخذوه معهم في السفينة. وكلمة «فرضوا أن يقبلوه» بلغة ق. يوحنا السرائرية تفيد قبول الإيمان بعد نفور الخوف الذي يأتي من عدم الإيمان: «كيف لا إيمان لكم» (مر ٤ : ٤٠). كذلك حينما تدخل بطرس ليختبر حقيقة أنه الرب، (كما ورد في إنجيل متى): «وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا. فللوقت كلمهم يسوع قائلاً: تشجعوا — أنا هو — لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال: يا سيد، إن كُنْتُ أَنْتَ هُوَ فَمُرَّنِي أَنْ آتِي إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ.» (مت ١٤ : ٢٥ - ٢٨).

يتضح من هذا أكثر أن الرب كان ماشياً بمحاذاة السفينة، كما يتضح أن بطرس أراد أن يسير نحوه ليسير معه.

كذلك فإن قول إنجيل القديس مرقس: «فأراد أن يتجاوزهم»، لا يأتي بدون معنى أو أهمية لاهوتية، فهذا هو وضع الله حينما كان يتراءى للإنسان قديماً، مثلما تراءى لموسى؛ حينما اجتاز

الرب، أي تجاوزه، ليرى موسى خلقه ولا يرى وجهه : « فقال (موسى) : أرني مجدك . فقال (الله) : أجيّز كل جودتي قدامك، وأنادي باسم الرب (أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$) قدامك، وأترأف على من أترأف وأرحم من أرحم . وقال : لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش . وقال الرب : هوذا عندي مكان فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي، أني أضعك في نُقْرة من الصخرة، وأشترك بيدي حتى أجتاز، ثم أرفع يدي فتتظروا رائي . وأما وجهي فلا يُرى . » (خر ٣٣ : ١٨ - ٢٣)

وهكذا نرى الرب يسير بجوار موسى ويجتاز أمامه، حيث يقول الوحي الإلهي هنا بضرورة أن يجتاز الرب حتى يمكن للإنسان التعرف عليه .

كذلك نرى نفس الوضع مع إيليا حينما تراءى له الله بعد أن اجتاز أمامه « فقال (الرب) : اخرج وقف على الجبل أمام الرب، وإذا بالرب عابراً (مجتازاً)، وريحٌ عظيمةٌ وشديدةٌ قد شَقَّتْ الجبال وكَثُرَتِ الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح . وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة . وبعد الزلزلة نارٌ ولم يكن الرب في النار . وبعد النار صوتٌ منخفضٌ خفيفٌ . فلما سمع إيليا، لَفَّ وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة، وإذا بصوت إليه يقول : مالك ههنا يا إيليا . » (١ مل ١٩ : ١١ - ١٣)

وهنا أيضاً نرى عبور الرب (اجتيازه) أمام إيليا ضرورة إلهية يشترطها الوحي، حتى يمكن التعرف عليه بعد ذلك من صوته .

وهذا ما حدث تماماً في قصة سير الرب على المياه بجوار السفينة واجتيازه : « وأراد أن يتجاوزهم »، ثم إذ صرخوا كان صوته إليهم : « «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ لا تخافوا » . هكذا استعلن المسيح ذاته لهم كَرَبٍّ وإله، وليس كخيال، فتعرّفوا عليه، فأرادوا في الحال أن يأخذوه في السفينة . هنا يضيف القديس مرقس : « فصعد إليهم في السفينة » . وهذا أيضاً ردٌّ مباشر على كثير من العلماء الذين أرادوا أن يقلّلوا من معجزة السير على البحر، إذ قالوا أن قول الإنجيل : « ماشياً على البحر »، يفيد أنه كان يسير على شاطئ البحيرة وليس على الماء . فبشيء من البصيرة والدقة العلمية نكتشف زيف تحليلهم للكلمات، إذ يقول القديس مرقس إنه صعد إليهم في السفينة، فلو كان المسيح سائراً على الشاطئ لكان القول : « ونزل » إليهم في السفينة، لأن الشاطئ أعلى من مستوى البحر والسفينة . ولكنه يقول إنه صعد إليهم في السفينة، لأن مستوى الموج الذي كان يسير عليه منخفضٌ عن مستوى السفينة .

كذلك يضيف القديس مرقس «فسكنت الريح». نعم، فدخل الرب إلى سفينتنا المضطربة، يتبعه حتماً سكونٌ وهدوءٌ. وهنا يتضح القصد الإنجيلي أن الرب هو قاهرٌ قُوى الموت وسلطانه.

٢١:٦ «وللوقتِ صارت السفينةُ إلى الأرضِ التي كانوا ذاهبينَ إليها».

هنا يضيف ق. يوحنا معجزة أخرى على نفس مستوى السير على الماء، تتوافق تماماً مع سلطان الرب على إخضاع عنف الريح ولجج البحر. فالذي أضافته الرياح العاصفة من مشقة على الرحلة، وما كسحته الأمواج من مسافة زائدة، رفعه الرب من حساب الرحلة؛ فللحال وجدوا أنفسهم على الشاطئ. وهنا تطابق لنص ق. يوحنا على النص النبوي في المزمور الذي صَوَّرَ هذه الرحلة من وراء الأزمنة، أمرٌ يتعجب له: «يُهْدِي العاصفة فتسكنُ، وتسكت أمواجها. فيفرحون، لأنهم هَدَّأُوا، فيَهْدِيهم إلى المرفأ الذي يريدونه» (مز ١٠٧ : ٢٩ و٣٠). (١٨)

وبلغة ق. يوحنا، فإنهم حالما قبلوه بإرادة فرحة، بلغوا شاطئ الأمان. إنها صورة حية لنهاية تجربة بحر الحياة الصاخب، ومعاندة القوى الشريرة التي تقف معاندة إلى أن يدخل الرب سفينة العبور، لتصير للحال في ميناء الراحة الأبدي.

هنا نكتفي بالشرح القليل الذي قدمناه من خلال السطور أثناء تحليلنا للنصوص الواردة في القصة. لأن الشرح الكامل سوف يقدمه المسيح بنفسه وبإسهاب في مجمع كفرناحوم في اليوم الثاني من وصول السفينة إلى كفرناحوم.



(١٨) [ألا إني سائح طالب دار السما موطني، لا بد أن تنتهي غربي وأمضي إلى موطني].

٣ - حديث الرب في مجمع كفرناحوم عن جسده الحي كخبز الحياة الأبدية (١٩)

هذا الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام مطوّلة، وكل قسم يبدأ بمبادرة من اليهود:

أ - الجزء الأول من الحديث (٦: ٢٦-٤٠): ويبدأ بالسؤال البسيط: «ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له: يا معلم متى صرت هنا؟»

ب - الجزء الثاني من الحديث (٦: ٤١-٥١): ويبدأ بتنمر بسؤال استنكاري: «فكان اليهود يتنمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، وقالوا: أليس هذا هو يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه...».

ج - الجزء الثالث من الحديث (٦: ٥٢-٥٨): ويبدأ إثر منازعة فيما بينهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل؟»

وكانت الحقائق التي جاءت رداً على هذه الأسئلة الثلاثة، كفاية لكل حديث، كالاتي:

الجزء الأول من الحديث: اختص باستعلان الحياة الأبدية المخفية في جسد المسيح: «أنا هو خبز الحياة».

الجزء الثاني من الحديث: اختص بعلاقة الابن بالآب: «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب»؛ «لا يقدر أحد أن يُقْبَلَ إِلَيَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني...»

الجزء الثالث من الحديث: اختص بالحصول على المسيح الكلمة المتجسد بأكل جسده وشرب دمه: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية... فمن يأكلني فهو يحيا بي».

التمهيد لحديث الرب : (٦: ٢٢-٢٥).

٢٥-٢٢: ٦ «وفي الغد لما رأى الجمع الذين كانوا واقفين في غبر البحر أنه لم تكن هناك سفينة أخرى سوى واحدة، وهي تلك التي دخلها تلاميذه، وأن يسوع لم يدخل السفينة مع تلاميذه بل مضى تلاميذه وحدهم؛ غير أنه جاءت سفن من طبرية إلى قرب الموضع الذي أكلوا فيه الخبز إذ شكر الرب. فلما رأى الجمع أن يسوع ليس هو هناك ولا تلاميذه، دخلوا هم أيضاً السفن وجاءوا إلى كفرناحوم يطلبون يسوع. ولما وجدوه في غبر البحر قالوا له: يا معلم متى صرت هنا».

من هذه الرواية يتضح لنا أن الجمع كانت تراقب المسيح مراقبة شديدة لعلهم يستطيعون أن ينجحوا في محاصرته وإقناعه أن يُنصّبوه ملكاً، حسب الرواية السابقة. وقد لاحظ الجمع، وخاصة المتحمسون منهم، أن التلاميذ مضوا وحدهم، وأما الرب فبقي على الجبل وحده وأنهم في الصباح لم يجدوه.

«غير أنه جاءت سفن من طبرية إلى قرب الموضع الذي أكلوا فيه الخبز τὸν ἄρτον إذ شكر الرب»:

هذا تعبير إفخارستي واضح: «الذي شكر عليه الرب» أي الذي باركه أو قدّسه الرب بصلاة الشكر أو الإفخارستيا.

ويلاحظ هنا أن مجيء السفن إلى هذا الموضع ليس طبيعياً، فالمكان ليس به مرفأ. ولكن إذا لاحظنا أن الريح العاصف الشديد كان يهب من الشمال الغربي، لأدركنا في الحال أن الرياح اكتسحت سفناً (بدون «ال» التعريف أي عرضاً)، إلى هذه الناحية الشرقية، فانتهزها الرجال المتحمسون وركبوا هذه السفن إلى كفرناحوم بحثاً عن المعلم. وبهذا أيضاً ندرك أن هؤلاء الرجال كانوا في غاية الحماس ومتأثرين غاية التأثير من عجيبة الخبز الذي أكلوا وفاض عنهم. ومما زاد من حماسهم، اكتشافهم عند عثورهم عليه في كفرناحوم أن المسيح لم يركب أي سفينة، ولا بد أنه شاع خبر عبوره البحيرة سائراً على الماء، فأهاج آمالهم في مملكة الأحلام التي كانوا يحلمون بها. وسؤالهم له: «متى (أو كيف على وجه الأصح) صرت هنا؟»، هو محاولة ملحة منهم ليكشف لهم المعلم عن سرّ قدرته المتعظّمة في نظرهم علانية، ولكن للأسف فإن كل هذا الحماس والسعي والأمل الذي اعتمل في نفوسهم بخصوص المسيح، لم يخرج عن المحيط المادي والسياسي الذي كانوا يحلمون به على مستوى ما كان يعيش فيه آباؤهم مع موسى.

وهنا يبدأ المسيح يصحح مفهوماتهم عن قدراته الفائقة ومصدرها وغايتها، و يصحح المقارنة الخاطئة بينه وبين موسى، و يضع أسس العلاقة الصحيحة التي تربطه بالإنسان على نور العلاقة التي تربطه بالآب السماوي.

أ - الجزء الأول من الحديث: (٦: ٢٦-٤٠).

« أجابهم يسوع وقال: الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم. اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه. فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله. فقالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية، كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا.

فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. فقالوا له: يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً، ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون، كلُّ ما يعطيني الآب فالإيُّ يُقبل، ومن يُقبل إليّ لا أُخرجه خارجاً؛ لأنني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني؛ وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير، لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن و يؤمن به، تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

٦: ٢٦ و ٢٧ « أجابهم يسوع وقال: الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم، اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه».

كان رد المسيح على سؤالهم عنه رداً كاشفاً حاسماً مبكّثاً، ومعناه أنكم لستم تطلبونني بل تطلبون عطايائي. لما أكلتم من الخبز لم تروا فيه آية بل طعاماً للشبع، كما لم تروا في كل الأشفية التي صنعتها أمامكم أية إشارة أو آية إلى من صنعها، بل ربحاً وراحة للجسد تطمعون في المزيد منه وتطلبون الأكثر والأعجب؛ حيث يلاحظ هنا أن قول الإنجيل: «ليس لأنكم رأيتم آيات» يفيد «رؤية الإيمان» وهي غائبة عنهم.

ويلاحظ القارىء أن المسيح نفسه لم يكن يرى في الآيات التي يصنعها للناس من أشفية وغيرها مجرد أعمال رحمة أو محبة أو عطف، بل فعل إثارة لعقولهم وقلوبهم، حتى يدركوا ويؤمنوا بحقيقة شخصه، لكي بالإيمان به تكون لهم الحياة الأفضل والنعمة الدائمة الأبدية والشعب الحقيقي لأرواحهم وليس لأجسادهم. وهذا نفهمه بوضوح من تبكيته لهم: «اعملوا لا للطعام البائد — الخبز للشعب الجسدي — بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح نفسه) الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه».

ليتذكر القارىء قول الرب أثناء جمع الكسر في الاثنتي عشرة قفة: «لكي لا يضيع منه شيء» (آية ١٢). هنا كلمة «يضيع» هي نفسها التي جاءت هنا بمعنى «يبيد» أو «البائد»، إشارة من الرب أن الخبز الذي كسره ووزعه عليهم ينبغي أن لا يضيع فهو ليس من نوع الخبز البائد، بمعنى أن فيه سر الديمومة والحياة، إن بلغوا سِرَّ القوة التي كانت فيه — بالإيمان بالمسيح — الذي باركه وقَدَّسه وأعطاه.

وهنا نرى أن الرب يشير إلى أن كل أعماله وآياته التي صنع قد تُؤخذ وتُفهم وتُؤكل على أنها بائدة، أي مادية أرضية، إذا لم يؤخذ المسيح الذي فيها بالإيمان. كما أنها قد تُؤخذ وتُفهم على أنها باقية وحيّة وأبدية إذا أخذ المسيح القائم فيها بالسر.

وهنا يستهدف ق. يوحنا القارىء والسامع، فهو يروي رواية المسيح مع الجليليين واليهود ليس كتاريخ أو قصة، بل كفعل إشارة وآية موجهة لقلب القارىء والسامع. وعطايا المسيح — أي عطايا — يستحيل أن تعمل للحياة الأبدية أو يكون لها نفع روحي إذا لم يكن المسيح هو قصدها الكلي ومنتهى غايتها. فالذي يطلب من المسيح أن يُشفى، لن ينتفع من شفاؤه شيئاً إذا لم تكن الصحة المعطاة المتمثلة هي آية بحد ذاتها تعمل لحساب المسيح، وإلا يكون شفاؤه كملء بطن الجليليين من الخمس الخبزات التي لإفخارستيا المسيح، ليس إلا.

يُلاحظ هنا كلمة «يعطيكم» ابن الإنسان، فالكلمة باليونانية δώσει هي عطية للحياة الأبدية، وهي من نفس أصل الكلمة التي رأيناها في قصة السامرية: «لو كنت تعلمين عطية الله τὴν δωρεάν τοῦ θεοῦ» (يو: ٤: ١٠)، فهي هناك «عطية المياه» الحية للحياة الأبدية، وهنا «عطية الطعام — أي الخبز الحي» للحياة الأبدية.

وهنا يُضمّر النص الإنجيلي فعل الروح القدس المحيي، إن كان في الماء للمعمودية للميلاد الثاني، وإن كان في الخبز أي الجسد للإفخارستيا كطعام الحياة الدائمة.

أما كلمة «خَتَمَهُ» ἐσφράγισεν فهي هنا واقعة على المسيح، وليس على «الطعام» βρώσιν لأنها تأتي واقعة على اسم مذكر عاقل وليس على مؤنث حيث كلمة «طعام» في اليونانية مؤنثة، وهي تأتي في كتابات العهد الجديد لتفيد فعل الروح القدس في الميلاد الثاني أي ختم المعمودية (أف ١: ١٣ و ٢ كو ١: ٢٢)؛ أما هنا وهي تخص المسيح فتفيد ختم التقديس: «الذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم» (يو ١٠: ٣٦). ختم التقديس الذي تم بواسطة الآب سواء في الميلاد: «فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥)، «لأن الذي حُبِّلَ به فيها هو من الروح القدس» (مت ١: ٢٠)، أو في المعمودية: «الذي ترى الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي سيعمّد بالروح القدس». وأنا قد رأيتُ وشهدتُ أن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣٣-٣٤)، أو في القيامة: «وتعيّن ابنُ الله بقوة من جهة روح القدس بالقيامة من الأموات.» (رو ١: ٤)

كما تأتي «خَتَمُهُ» في قول الإنجيل: «لأن "هذا" الله الآب قد ختمه» بمعنى إضافي أن الله الآب قد «شهد له بنفسه». [كما نقول في أحاديثنا أنا مستعد أن أختتم وأبصم على هذا أنه حق، حيث يفيد قولنا هذا شهادة للتصديق]. وهذا المعنى تكرر كثيراً في إنجيل ق. يوحنا (أنظر يو ٣: ٣٣). ولكن المعنى الثاني أن الآب يشهد له يأتي مترتباً على المعنى الأول أن: «الآب قدّسه».

كما يُلاحظ أنه للمرة الأولى والوحيدة في كل الأناجيل يأتي التعبير عن الله بـ «الله الآب» من فم المسيح بالمعنى العام، لأن المعتاد أن يقول المسيح إما أبي أو الآب، ولكن أن يأتي الله بالصيغة الأبوية العامة من فم المسيح، فهذا ليفيد أنه ليس ختماً خاصاً بالمسيح نفسه ولكن ختماً خاصاً بالإنسان ككل، فهو ختم أبوة الله على جسد الابن الوحيد، الكلمة المتجسد، ليصير الله به أباً لكل من يقبله (و يتناول منه).

٢٨: ٦ «فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله».

سؤال مستمد من قول الرب السابق: «"اعملوا" ... للطعام الباقي للحياة الأبدية».

كان هؤلاء الجليليون يريدون أن يأخذوا، يأخذوا شعباً جسدياً وراحة وكبرياء وسلطة، ليتحرروا بالجسد، فأرادوا وتحمسوا لأن يستخدموا الرب لتكميل شهواتهم بأن يجعلوه ملكاً. والمسيح الآن يردّهم إلى الوضع الصحيح الذي يوصلهم إلى أكثر مما كانوا يريدون و يشتهون، ولكن ليس

لحساب الجسد الفاني، والطعام البائذ، والعبودية السياسية، والعالم الذي وُضع بجملته في يد الشرير؛ ولكن لحساب الروح والحياة الأبدية. والمسيح، كملك سماوي، يعطي عطايا للمجد، وذلك بأن يعملوا ويعطوا ويبدلوا ويخسروا كل شيء لامتلاك المسيح كملك على قلوبهم لمجد الله. وشتان بين شهوة الأخذ وشهوة العطاء. فالأولى دائماً لحساب الجسد البائذ، والثانية لحساب الجسد المُقام في مجد.

وأما سؤالهم للمسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، فهو سؤال يبدو صحيحاً في مظهره، ولكنه يضمن إصراراً على استخدام القدرة المظهرية، من عبادة وطقس، والفكر أو التدبير المادي كوسيلة للعمل، فالسؤال يكون صحيحاً إن هم قالوا: ما هو عمل الله لنعمله مباشرة؛ ولكنهم وضعوا قوة أنفسهم قبل قوة عمل الله: «ماذا نفعل حتى نعمل».

هذا هو انطباع الفكر اليهودي العام، وهذا يتضح من رد المسيح المصحح الكاشف أن عمل الله لا يحتاج إلى فعل إنسان بل إلى إيمان: «هذا هو عمل الله، أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، هذا هو عمل الله، وهو العمل الوحيد الذي يطلبه الله لكي ينالوا الطعام الباقي للحياة الأبدية ولكي يحيا إلى الأبد.

٢٩: ٦ «أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عملُ الله أن تؤمنُوا بالذي هو أرسلَهُ».

الرب هنا يكشف سر قصورهم في فهم كل الآيات التي عملها أمامهم، وفي فهم جوهر معجزة الخمس الخبزات التي فجرت شهوتهم للعودة إلى القوة والمُلْك. فلأنهم أخفقوا في أن يرتفعوا بالآيات من مجرد الانتفاع بها إلى الإيمان البسيط السهل بالذي صنعها، لذلك ضاع عليهم الانتفاع بعمل الله لخلاصهم ولنوال الحياة الأبدية.

والمسيح الآن يردُّهم إلى الوضع الصحيح بالنسبة له وللآيات التي صنعها، وبالنسبة لآمالهم في فهم المُلْك والحرية والخلاص. فد «عمل» الله الذي عمله — و يلاحظ القارئ أن كلمة العمل هنا جاءت بالمفرد الفريد — هو أنه أرسل لهم مَنْ سيخلصهم ويحررهم ويُسبِّعهم ويُفرحهم ويُحييهم من الموت، وهو العمل الأعظم من كل الأعمال التي عملها لهم الله في السابق، والعمل الوحيد الذي يحوي كل الأعمال الأخرى ويكملها ويستعلن الله فيها، سواء عمل الخلق أو بركات الآباء أو التوراة أو الناموس أو الأنبياء، فإذا آمنوا به يكونون قد آمنوا بكل أعمال الله وتمموها، وختموا أن الله صادق: «وَمَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق، لأن الذي أرسله الله

يتكلم بكلام الله.» (يو: ٣٣-٣٤)

وإذ يتكلم هنا إنجيل يوحنا بصدد الخبز الباقي للحياة الأبدية وكيفية الحصول عليه عملياً بالنسبة لسؤال الجليليين: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، لا يمكن أن يتوه عن ذهننا قول المسيح بنفسه عن نفسه وعن هذا الطعام عينه أنه هو هو عمل مشيئة الآب!! وقد حدث سابقاً حينما سأله التلاميذ أن يأكل وهم حول بثر يعقوب: «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين يا معلم كل. فقال لهم أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم ... طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو: ٤: ٣١-٣٤). هنا يكمن جوهر معنى الطعام في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، لأنه إن كان المسيح قد عمل مشيئة الله الآب الذي أرسله، واعتبر هذا العمل بمثابة طعامه السري الأسمى الذي يغتذي عليه، فكم وكم يكون الإيمان بالمسيح؟ ألا يكون هو الطعام الذي فيه عمل كل مشيئة الآب والابن معاً؟! وماذا كان طعام المسيح السري إلا تكميل كل مسرة ومشيئة الآب من نحو خلاص العالم الذي أحبه بتقديم جسده على الصليب؟ فإذا كان طعام المسيح السري هو تقديم جسده على الصليب، إذن فقد صار جسده طعامنا السري الذي فيه تكميل كل مشيئة ومسرة وحب الآب والابن معاً من نحو خلاصنا وحياتنا. ويلاحظ أن في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا»، جاءت كلمة «تؤمنوا» بالقرءة اليونانية المصححة على النسخ الأكثر صحة، فبدل كلمة πιστεύετε تُقرأ πιστεύετε (٢٠)، وقد جاءت كفعل دائم مستمر الذي يفيد معنى «الشركة والارتباط السري الدائم».

٦: ٣١ و٣٠ «فقالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك. ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خُبْزاً من السماء ليأكلوا».

يلاحظ هنا أن الجليليين الذين رأوا معجزة الخمس الخبزات وأكلوا وشبعوا واعتبروها حافزاً لهم مناسباً جداً لكي يُنصّبوا المسيح ملكاً، اعتماداً على أنها معجزة مكافئة لمعجزة موسى والمن ذات رنين واضح وشديد أن المسيح حتماً هو النبي؛ عادوا يضيفون على طلبهم آية من السماء، أو بالأحرى إنزال المنّ من السماء. وهنا نرى دخول عنصر جديد على فكر هؤلاء الجليليين شكّهم فيما انتهوا إليه سابقاً، من أنه بمقتضى معجزة الخمس الخبزات والسمكتين يستحق أن يكون ملكاً؛ وهذا كان من تأثير دخول عناصر متعلّمة فريسية أخرى في النقاش، مما يفيد أيضاً أن تكلمة الحديث هنا يدور في مجمع اليهود في كفرناحوم.

هنا ينبغي أن نرجع إلى الفكر اليهودي المعتمد — في زمن المسيح — الذي استقى منه اليهود هذا الطلب من المسيح بانزال المن من السماء لإثبات أنه المسيح الذي ينتظرونه. فالمعروف أن هذا الفكر الذي كان ينادي به المتعلمون من اليهود يرجع إلى الكتابات الرؤيوية التي كانت سائدة — بتحقيق العلماء — في ذلك الزمن، مثل رؤية باروخ التي جاء فيها:

[إنه سيأتي زمان فيه تفتح مخازن المن، وينزل المن من السماء، وسيأكلون منه في هذه السنين (زمن ملوكية المسيح على الأرض)، لأن هؤلاء هم الذين سينتهي إليهم كمال الزمان.] (٢١)

كذلك كان شائعاً قول للربيين يقول: [إن الذي فدى في السابق، أنزل لهم المن. كذلك فادينا في الأيام الأخيرة سيُنزل لنا المن، كما هو مكتوب في المزمور: «تكون حَفَنَةُ بُرٍّ (قمح) في الأرض في رؤوس الجبال» (مز ٧٢: ١٦).] في حين أن نزول المن من السماء كان مجرد رمز لنزول الكلمة المتجسد. ومعروف أن الرمز لا يُحيي، والرمز أيضاً لا يتكرر، فكان المن رمزاً لما سيأتي. وأوضح تعبير لذلك أن نزول المن من السماء توقف عندما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان وأكلوا من ثمر الحنطة، لأن الوقت آنذاك كان في الربيع. وثمر الحنطة (الخبز) كان واضحاً أنه إشارة إلى كلمة الله. فالمن — كرمز — توقف لما أكلوا من الحنطة التي هي الخبز. وها هو المسيح يقدم جسده الإلهي باعتباره أنه هو الخبز الحقيقي. فإن كان العهد القديم كان قائماً بالمن؛ فالعهد الجديد قائم بالخبز الحقيقي، والحقيقي يلغي الرمز. والعهد القديم وإن كان قائماً بالناموس كخمسة أسفار موسى؛ فالعهد الجديد قائم بكلمة الله الحية.

وقد أصبح من المُسلّمات في تعاليم الربيين في ذلك الوقت أن عودة نزول المن من السماء ستكون هي العلامة المميزة والثابتة التي ستلازم مجيء المسيا، والتي أصبح اليهود يترقبونها بفارغ الصبر. وهكذا كان طلب اليهود من المسيح أن يُجري آية نزول المن من السماء، لازمة لكي يُثبت بها صدق دعوته. علماً بأن التعبير عن المن بأنه الخبز السمائي كان أمراً مألوفاً لدى اليهود، كما ورد في المزامير: «أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مَتّاً لِلأكل وَبُرّاً (قمح) السماء أعطاهم. أَكَلَ الإنسانُ خبز الملائكة، أُرْسِلَ عَلَيْهِم زَاداً للشعب» (مز ٧٨: ٢٤ و ٢٥). كما أن واقع قول المسيح لهم: «اعملوا ... للطعام (الخبز) الباقي للحياة الأبدية»، كان حافزاً لهم ليطلبوا مزيداً، من واقع النص.

هذا مما حدا بالمسيح أن يصحح لهم مفهوم معنى المنّ و يصحح لهم مَنْ هو الذي أنزل المنّ من السماء. كما صحح لهم مفهوم استخدام الخبز السمائي.

٦: ٣٢ و ٣٣ «فقال لهم يسوع: الحقّ الحقّ أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يُعطيكُم الخبز الحقيقي من السماء، لأنّ خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم».

المسيح هنا يصحح بأن المنّ لم يكن إلا رمزاً فقط للخبز السمائي، لقد جاء من السماء فعلاً والله هو الذي أرسله عليهم، وليس موسى، ولكنه كان رمزاً للحقيقي الذي هو «مأكلاً حقاً»، فلم يكن المنّ خبزاً جوهرياً $\alpha\rho\tau\omicron\varsigma\ \alpha\lambda\eta\theta\iota\nu\omicron\varsigma$. أما الخبز الذي يتكلم عنه المسيح فهو خبز جوهري، أي حقيقي يختص بطبيعة الله والعبادة الحقّة الذي سبق المسيح وعرفها للسامرية هكذا: «ولكن تأتي ساعة وهي الآن (ساعة المسيح) حين الساجدون "الحقيقيون" يسجدون للآب "بالروح والحق."» (يو: ٤: ٢٣)

هنا الخبز الذي يتكلم عنه المسيح هو خبز حقيقي من الله ومُقدّم إلى الله، وبقوله «النازل» كفعل دائم النزول، يشير إلى طبيعته الفائقة غير الزمنية. فالمنّ مهما كان على مستوى المعجزة باعتباره نزل من السماء، إلا أنه كرمز فقط لا يختص بطبيعة الله ولكن بطبيعة الإنسان المادية؛ ولذلك فإنه إذا تُرك، كان ينتنّ ويضربه الدود شأن جثة الإنسان التي تغتذي منه، فهو «خبزٌ بائد»: «الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة، والله سيبيد هذا وتلك.» (١ كو: ١٣: ١)

المسيح هنا يهتم، في الواقع، بتصحيح نظرة اليهود ومفهومهم لحقيقة طبيعة الأخريات، أو الزمن الماسياني الذي كانوا يترقبونه؛ فقد أخطأت كل التعاليم اليهودية في هذا الأمر وربطته بالخيرات المادية والسلام المادي الجسدي، وقد تسرّب إلى بعض الآفاق المسيحية في العصور الأولى هذا التعليم اليهودي الخاطيء والفاسد، والذي اعتُبر أنه هرطقة، أي تعليم غريب غير إلهي، وظلت هذه الهرطقة لاصقة في بعض الشيع المسيحية حتى اليوم سواء في مفهوم عصر الألف سنة أو في مفهوم القيامة والحياة الجديدة بأنها حياة جسدية تماماً.

والمسيح يشدّد جداً في ردّه على السامرية أن هذا العصر قد حضر وصار بالفعل منذ «الآن»، ولم يعد مستقبلاً آخر للإنسان، إذ بمجيء المسيح قد بدأت الساعة. كما يشدّد أيضاً على أن العبادة الحقيقية لهذا العصر ليست في أورشليم ولا في مجامع من حجارة أو طوب أو على تلال مرتفعة أو

جبال، ولا هي سجد مظهري بالجسد: «قال لها يسوع يا امرأة صدّقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للآب.» (يو: ٤١: ٢١)

والعصر الروحي الجديد الذي وصفه بأنه «تأتي ساعة وهي الآن»، لا ينتمي بعد للمظاهر الجسدية سواء في العبادة أو عطايا الله جميعاً، بل الكل يتعلق بالروح لأنه عصر الحضور الإلهي، وكل ما يتعلق به يتناسب مع طبيعة الله، أي يكون بالروح والحق.

فلما تكلم مع السامرية فيما يختص بالماء، رفعه في مفهوم السامرية من ماء الجسد الذي يسدّ العطش الجسدي، إلى الماء الروحي، الذي يروي الإنسان بصورة دائمة للحياة الأبدية. ويلاحظ أن عطية الماء من الصخرة والمن من السماء تجيء دائماً مجتمعة في تذكّار عطايا الله الإعجازية في القديم. كما جاء في سفر نحميا: «وأعطيتهم خبزاً من السماء لجوعهم، وأخرجت لهم ماءً من الصخرة لعطشهم.» (نح: ٩: ١٥)

وهنا يلزمنا أن ننتبه كيف ربط أيضاً ق. يوحنا في إنجيله على التوالي وعلى نفس المستوى بين الماء الحي في قصة السامرية والخبز الحي في قصة إشباع الجمع، لكن ليس كأنهما عطايا للشعب والإرتواء الجسدي لامتداد الحياة الجسدية المحدودة، بل كعطية واحدة سرية مُستعلنة في شخص المسيح لنوال الحياة الأبدية مع الله بلا حدود: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣٥)

المسيح يتكلم هنا عن الخبز بالنسبة للعصر الماسياني على أنه:

خبز ليس لإشباع الجسد، بل خبز حقيقي، أي جوهري، لإشباع الروح للحياة الأبدية. فهو خبز لا يختص بالجسد المادي، لأن الجسد بالمفهوم المادي لا يفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً.» (يو: ٦: ٦٣)

هذا المعنى ينقلنا إلى مفهوم أن هذا الخبز يستحيل أن يأتي أو يكون بواسطة إنسان، لأنه خبز روحي جوهري يختص بطبيعة الله،

فهو خبز الله الحقيقي الذي يتحتم أن يكون خبزاً سمائياً، لا أرضياً، بالمعنى الحقيقي. وأن يكون موهوباً من الله ليس على المستوى الزماني كأنه يختص بزمان ما يأتي في المستقبل. بل خبز حقيقي ἀληθινός يختص بالأبدية القائمة في الله باستعلانه في الحاضر الدائم إلى أبد الأبد: «تأتي ساعة وهي الآن.»

وأن يكون خبزاً غير محدود بالزمن كالمن الذي دام فقط أربعين سنة وانقطع لعدم الحاجة إليه،

بل هو خبز دائم الفعل والعمل،

غير محدود لشعب كما كان المن في القديم، بل خبز خاص بالعالم كله: «لأن خبز الله — (أي الخبز الذي هو من طبيعة الله) — هو النازل من السماء (أي ليس من طبيعة الأرض) الواهب حياة للعالم (حياة سمائية من نفس طبيعة مصدره السمائي)» (يو: ٦: ٣٣)، حيث الإشارة هنا بدأت تتركز في شخص سمائي وليس في شيء أرضي.

فالمسيح يشير خفياً هنا إلى نفسه، وإن كان لا يتعجل الاستعلان عن نفسه أنه هو الخبز الحي الحقيقي النازل من السماء، مما جعلهم يظنون أن هذا الخبز هو شيء يمكن أن يُعطى لهم فيربحهم من زراعة وحصاد وطحين وعجين وخبيز وتخزين.

ولكن يمكن أن نتمقق مع القارئ، إذا أطال أناته علينا، لنشرح له معنى أعمق لمفهوم التوراة كخبز وطعام عند الروحانيين المتأملين من متصوفي اليهود وكبار الربيين على مستوى «فيلو» اليهودي وغيره الذين أخذوا عن سفر الحكمة قوله:

«الحكمة بنّت بيتها، نَحَتْ أعمدتها السبعة، ذبحت ذبَحَها، مَزَجَتْ خمرها، أيضاً رَتَبَتْ مائدتها، أرسلت جواربها تنادي على ظهور أعالي المدينة: مَنْ هو جاهل فَلْيَجْمَلْ إلى هنا، والناقص الفهم قالت له: هَلُمُّوا كُلُّوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مَزَجْتُها. اتركوا الجهالات فَتَحَيُّوا، وسيروا في طريق الفهم.» (أمثال ٩: ١-٦)

فقد اعتبروا التوراة، أي الناموس، أنه الغذاء الروحي والخبز المتحصّل من القراءة والهديز المتواصل فيهما. علماً بأن ق. يوحنا كان متيقظاً منذ مطلع إنجيله إلى هذا الاتجاه، وقد أطاح بهذه النظرية في آية واحدة: «لأن الناموس بموسى أعطي، أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً» (يو: ١٧: ١). وهنا وضع الإنجيل الحد الفاصل بين طبيعة الناموس وهدفه، وبين طبيعة النعمة والحق. فالأول (أي الناموس) كان لتهديب الحياة بالسلوك البشري في خوف الله، والثاني كان لقبول حياة الغبطة بالروح والشركة في الحق، أي قبول طبيعة الله.

وقد امتد «فيلو» العالم المتصوف اليهودي بمفهوم الخبز الروحي إلى المن أيضاً، معتبراً أن المن هو رمز للتوراة وتعبير عن «الحكمة»، كما جاء في سفر الأمثال.

وهنا يشير المسيح إلى أن المن لم يكن إلا رمزاً والرمز لا يُحيي؛ ولم يكن هو الخبز الحقيقي الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية، وبالتالي فإن المن باعتباره خبز التوراة عند حكماء اليهود لم يؤدّ ولن يؤدي إلى الحكمة الحقّة ولا إلى معرفة الله الحقيقية.

ولكن بينما كان المسيح يضع أسس الحكمة الحقيقية و يشرح معنى الخبز الحقيقي، توطئةً للدخول في مفهوم ذبيحة الحكمة العظمى، بتقديم جسده وليمة على مائدة الحياة الأبدية؛ هبط فكر اليهود إلى مستوى السامرية عندما سمعت بالماء الحي فطلبت له لكي يُغنيها عن عطش وجهد وعن جذب هذا العالم الشديد، فسألوه:

٦: ٣٤ «فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز».

وتشديد سؤال اليهود على أن يكون عطاء هذا الخبز كل حين لا يجيء من فكرهم، بل لأن المسيح أكدّ وشدّد على أن خبز الله هو «النازل من السماء»، حيث جاءت كلمة «النازل» كفعل دائم السريان في الصيغة الدائمة المستمرة. فظنوه أنه ينزل كل يوم. وفي الواقع لا نرى في سؤالهم هنا: «يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز» أي انحراف في محيط فهمهم أنه خبز ينزل إليهم من السماء فيعطيتهم حياة دائمة. غير أن اعتراضهم الشديد على هذا الخبز ظهر بوضوح حينما كشف المسيح عن سر هذا الخبز أنه هو جسده الذي سيبدله عن حياة العالم. بعكس السامرية التي سألت نفس السؤال ببساطة: «يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي» (يو: ٤: ١٥)، ثم علمت أن هذا الماء ليس ماءً للشرب بل هو دعوة لسيرة مقدسة وطاهرة فيها ترتوي من حب الله والمسيح، أو بمعنى آخر، هو توبة؛ فلم تعترض، بل اعترفت وتابت وتطهرت، وقبِلَتْ المسيح مخلصاً، بل وبشّرت، وكأنما يريدنا الإنجيل أن نعرف أن الخطيئة (السامرة) لما لم يتمسك ببرّه واعترف بخطيته خلّص، والبار — (اليهود) — في عين نفسه هلك.

٦: ٣٥ «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يُقْبِلْ إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

لَمَّا سَأَلَتِ السَّامِرِيَّةُ الْمَسِيحَ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ مَائِهِ الْحَيِّ لِكَيْ لَا تَعْطَشَ، أَعْطَاهَا نَفْسَهُ فَقَبِلَتْهُ.

وعلى نفس المستوى لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ الْيَهُودُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ خَبْزِ اللَّهِ الْحَقِيقِيِّ، أَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ: «... يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز، قال لهم: أنا هو خبز الحياة من يُقْبِلْ إليّ فلا يجوع»، فلو كانوا قد قبلوا منه عطية نفسه، لما جاعوا. العطية جاهزة أمامهم والخبز حاضر: «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الحق»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الكرم الحقيقي»، «أنا هو القيامة»، «أنا هو الحياة»... فهل يمكن أن يكون التعريف بنفسه أكثر من هذا؟! لو فتشوا الكتب لوجدوه، إنه هو الحياة الأبدية: خبزاً وماءً؛

فهو يخاطب اليهود أصحاب التوراة وميراث الأنبياء بطوله وعرضه، فهوذا الذي يغطي هذه النبوات كلها بالنسبة للحياة الأبدية يقول لهم علانية: «أنا هو»، «أنا هو» خبز الحياة وماؤها. اسمع ما تقوله التوراة وهي ترمز إلى المسيح:

+ «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يدهُ ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد.» (تك ٣: ٢٢)

+ «وشجرة الحياة في وسط الجنة.» (تك ٢: ٩)

+ «مَنْ يَغْلِبْ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسْطِ فَرْدَوْسِ اللَّهِ.» (رؤ ٢: ٧)

+ «طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة ... هي شجرة حياة لمسكيتها والتمسك بها مغبوط.» (أم ٣: ١٣ و١٨)

+ «ثمر الصديق شجرة حياة.» (أم ١١: ٣٠)

+ «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس (الأنجيل الأربعة).» (تك ٢: ١٠)

+ «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلّور، خارجاً من عرش الله والخروف ... وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة.» (رؤ ٢٢: ١ و٢)

+ «يروون من دَسَمِ بَيْتِكَ، ومن نهر نَعْمِكَ تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة وبنورك نرى نوراً.» (مز ٣٦: ٨ و٩)

+ «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية، أنا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّاناً.» (رؤ ٢١: ٦)

والرب في قوله لليهود: «أنا هو خبز الحياة، مَنْ يُقْبَلْ إِلَيَّ فَلَا يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلَا يَعْطَشُ أَبَداً»، يجمع الأكل والشرب معاً، فهو الطعام السمائي الكلي والكافي، الذي عاد ووصفه كسِرَّ الإفخارستيا الأبدية، الذي هنا نأكله ونشربه بالسر وهناك نشبع ونرتوي منه بالحق إلى الأبد.

أنظر أيها القارئ في قوله «أبدأ»: «لا يعطش أبداً»، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» ... «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو ٦: ٥٤ و٥٣)

فهو شجرة الحياة الوحيد المستعلن هناك بالحق، وهنا بالسر المكتوم. ولكن المسيح سواء هنا أو هناك هو ما كُلُّ حَقٍّ ومَشْرَبٌ حَقٌّ، منه نستمد قوة الحياة ونورها وفرحها ومسرَّتُها الآن، و«الآن»

عند المسيح مربوط «بالأبد»، لأنه في المسيح المستقبل حاضِر كله وممتدُّ بلا تغيير فيه ولا ظل دوران. فما نراه هنا في مرآة نراه هناك هو هو وجهاً لوجه.

إسمعه وهو يقول للسامرية الثائبة: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو: ٤: ١٤). ثم اذكر كيف ارتوت هذه الثائبة المباركة من ماء الحياة وأرَوَّتْ آخَرِينَ. وتأمل أيها القارئ في قوله: «من يُقْبِلُ إِلَيَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش...»، فهو لا يُخيب رجاء من يُقْبِلُ إليه لأن في يمينه شِبع سرور: «أمامك شِبعُ سرور. في يمينك نِعمٌ إلى الأبد» (مز: ١٦: ١١). وإشعياء النبي يقول: «يقودك الرب على الدوام ويشبع في الجُدُوب نفسك، ويُنشِط عظامك، فتصير كجَنَّةٍ رِيًّا وكنبع مياهٍ لا تنقطع مياهه.» (إش: ٥٨: ١١)

فالمسيح يقدم نفسه لليهود ولنا كطعام حقيقي «مأكلاً حقاً» يدوم هنا وفي السموات، ولا ينقطع قط. فالشبع من المسيح هو شبع إلهي سمائي لا يؤول إلى جوع دنيوي قط. والارتواء من المسيح هو ارتواء الروح بالروح. فحينئذٍ ينبوع المسيح ينبوع سمائي إلهي ينسكب بجملته في أحشاء الإنسان لينبع فيه ومنه، هذا وعد المسيح وعمل الروح الذي يجري الآن أمام عيوننا، وطوبى لمن يرى ويسمع.

هذا الكلام حلوا كشهد العسل، ولكن هناك فرق بين من يشتهي عطايا المسيح ومن يشتهي المسيح نفسه. فالجليليون كانوا كالسامرية، لمَّا سمعوا هذا الكلام الحلوا الذي يقطر عسلاً قالوا له: هات منه يا سيد، ولقبوه بالسيد تملقاً لعلهم يفوزون بعطاياه، ولكن كاشف الكلّى والقلوب أدرك أنهم يقبلون عطياه ولا يقبلونه هو، ويؤمنون بمنفعة مواهبه ولا يؤمنون به هو. فلما قال: «أنا هو» ازدروا به وبعطياه. فوضع لهم الشرط كالمشرط: عطايي لمن يُقْبِلُ إِلَيَّ، وغَتَايَ لمن يؤمن بي.

٣٦: ٦ «ولكني قلتُ لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون».

الكلام هنا تكملة للقول: «أنا هو خبز الحياة»، ورداً على قولهم: «أعطنا في كل حين هذا الخبز»، لقد أخطأوا الرؤية وتزَيَّفَتْ لهم الحقيقة، بل الحق الناصع، بسبب تركيزهم الكلي على شهواتهم ومنافعهم وآمالهم الدنيوية الكاذبة. فخبز الحياة الذي قدمه المسيح لهم هو شخصه، ولكنهم تجاوزوه وأرادوا آية المن النازل من السماء، لأن ذلك كان يُرضي شهواتهم.

فهنا يواجه المسيح رؤيتهم المزيفة ويحاول أن يرددهم للحقيقة مرة أخرى : « ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون ». الإشارة هنا إلى آية سابقة هي : « الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آياتي، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم » (يو ٦ : ٢٦)، لقد رأوا الآية واضحة أمامهم عندما بارك الخبز وأطعمهم : خمسة آلاف من خمس خبزات، فكان شخصه هو محور الآية لأنهم رأوه كمُعطي خبز الشبع، كصاحب بركة السماء، هذه البركة التي رأوها بل أكلوها، ولكنهم آمنوا بالخبز الذي ملأ بطونهم ولم يؤمنوا بالبركة ولا بمصدرها. لماذا؟

هنا يشرح لهم المسيح سبب عدم إيمانهم وهو أنهم مرفوضون من الله الآب، فلو كانوا مقبولين لدى الله الآب لكان الآب قد سلمهم للابن، ولكانوا أقبلوا على الابن بمسرة إرادتهم، ولكن الابن قد أدخلهم في النور وصاروا أبناء الله. أما لماذا رفضهم الله؟ فالمسيح يشير بكل وضوح إلى آية سابقة وهي : « هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله » (يو ٦ : ٢٩)، عندما يعمل عمل الله. فالمسيح عمل أمامهم وتحت بصرهم عمل الله، مبرهنًا أنه هو الذي أرسله الله لهم؛ ولكن :

« قد رأيتموني ولستم تؤمنون » :

بالإضافة إلى رؤية المسيح صانعاً معجزات، وهذا بحد ذاته هو عمل الله الذي ينبغي أن يؤدي إلى التعرف على المسيح شخصياً كمُرسل من الله وابن له، يركز المسيح هنا وفي مرات أخرى أيضاً على التعرف عليه شخصياً بدون آيات. هذا نعرفه بوضوح من قوله لفيلبس : « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس، الذي رأيته فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أننا الآب » (يو ١٤ : ٩). وهذا يشير إلى أن شخص الرب كان يحمل سمات إلهية لا تخفى عن العيون المفتوحة التي طوّبها الرب : « فإني الحق أقول لكم إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهاوا أن يَرَوْا ما أنتم ترون ولم يَرَوْا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا » (مت ١٣ : ١٧). الرؤيا هنا والسمع حاستان مفتوحتان على الإيمان. فالحواس البشرية جُعِلت لا لتخدم الجسد فقط، بل هي متصلة بالروح إذا تهذبت بالكلمة الإلهية وخضعت لهاتف الخير وإيجاء الروح.

ولكن شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة تُتلف حواس الإنسان وتُخضعها لتخدم ملذات الإنسان، فيُصاب بالعمى والصمم الروحيين.

فالرب يتعجب جداً من فيلبس كيف فات عليه الإحساس بالحقيقة الإلهية الكائنة في المسيح، كما يتعجب جداً من اليهود هنا الذين لم يؤمنوا به، حتى بعد أن رأوه متكلماً بكلام الله وعاملاً أعمال الله.

ولكن المسيح يشدد أولاً على سهولة وإمكانية الإيمان به بدون رؤية آيات وأعمال ولكنهم أخطأوا رؤيته لأنهم أخطأوا إلى الله: «فقالوا له أين هو أبوك؟ أجاب يسوع لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً.» (يو: ٨: ١٩)

ثم يتنازل المسيح إلى واجب الإيمان به إذا تكلم كلام الله: «فإن كنتُ أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو: ٨: ٤٦ و ٤٧)؛ «لولم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عُذْر في خطيتهم.» (يو: ١٥: ٢٢)

ثم يتنازل المسيح أكثر ويرى أنه من الواجب بل ومن الضرورة أن يؤمنوا به لأنه يعمل أعمال الله: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي، ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي (شخصياً) فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو: ٣٧ و ٣٨)

أي أن الإيمان بالمسيح مفتوح في الدرجة الأولى برؤيا بدون قول أو عمل، وإلا فالدرجة الثانية بالقول وبالعمل، فإن انغلق الإيمان وانحجب المسيح حتى بعد الرؤيا والقول والعمل، فهذه علامة غضب الله.

٣٧: ٦ «كلُّ ما يعطيني الآب فإلَيَّ يُقْبَلُ. وَمَنْ يُقْبَلْ إِلَيَّ، لَا أُخْرِجُهُ خَارِجاً.»

يلاحظ القارئ هنا أن الآية تبتدىء بـ «كلُّ»، أي أن عطية الله الآب للمسيح تأتي بالجمع، ولكن الذين يُقْبَلُونَ إلى المسيح من هذا الجمع يأتون واحداً واحداً بالمفرد، حسب جذب الآب لكل واحد في وقته وترتيبه؛ فطريق المسيح ضيق لا يَتَسَّعُ في المسير إلا واحداً فواحداً — فالأخ لا يستطيع أن يفدي أخاه (راجع مز: ٤٩: ٧). فعلاقتنا بالمسيح فردية كعريس وعروس، ولكن العجب أن المفدين حينما يتكامل كلُّ واحد منهم في المسيح، يجمعهم المسيح معاً بِسَّيِّ الرُّوح الواحد ليصيروا مرة أخرى واحداً في المسيح، كعذراء مخطوبة لرجل واحد، كعريس وعروس، مع أنه لا حَضْرَ لها من الكثرة، كنيسة لا عيب فيها، عروساً متسرِّبة بصلوات القديسين وعِظْرهم، نازلةً من السماء مزينة بكل فضائل المسيح.

وإذا أراد القارئ أن يتعمق هذا المعنى ويتذوق هذه المقارنة، فليسمع ما يقوله وما يسبِّح به بولس الرسول، إذ يرى أن كلَّ المفدين والمختارين كانوا مجموعين معاً ككلِّ، كجسد واحد في المسيح الذي يجمعهم في كيانه الإلهي قبل أن يتجسد، قبل أن يكون زمان بَعْدُ ولا عالم: «مبارك

الله أبوربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح . كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة . » (أف ١ : ٣ و ٤)

فعطية الآب للمسيح : « كلُّ ما يعطيني الآب » هي كلٌّ ومجموع ، ومن الكل يُقْبَلُ إلى المسيح كلُّ فرد لينال التبني الموضوع لنا على أساس قبول موت الرب وقيامته ، حسب الخطة المرسومة منذ الأزل : « إذ سبق فعيَّنَّا — بلا حدود — للتبني — (لنأخذه) بيسوع المسيح ، لنفسه حسب مسرة مشيئته . » (أف ١ : ٥)

وهنا تتقابل مشيئة الله مع مشيئة المسيح في سيمفونية الطاعة والبذل ، بصورة رفعت البشرية إلى مستوى الحياة الأبدية مع الله .

— «مَجَّد ابْنَكَ لِيَمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً، إِذْ أُعْطِيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى "كُلِّ" جَسَدٍ (الدعوة عامة) ليعطي حياة أبدية "لكلِّ مَنْ" أُعْطِيْتَهُ . » (يو ١٧ : ١ و ٢)

— «أبي الذي أعطاني إياها — وأنا أعطيتها حياة أبدية . » (يو ١٠ : ٢٩ و ٢٨)

وهذا هو منتهى سر الاتفاق في العمل الإلهي بين الآب والابن .

والمسيح يقرر حقيقة غاية في السخاء المدفوع ثمنه دمًا : « ومن يُقْبَلُ إِلَيَّ لَا أُخْرِجُهُ خَارِجاً » . هنا اللغة العربية عاجزة عن أن توفي للمسيح حق التشديد الشديد على وعده هذا ، فحرف النفي البسيط « لا » يحییء في اليونانية بصورة مشددة للغاية οὐ μὴ الذي جاءت ترجمته في الإنجليزية : **I will in no wise** الذي قد نترجمه إلى : "يستحيل بأي حال" .

فتصوّر، أيها القارئ، هذا الوعد الذي يحییء كأنه عَهْدٌ بأن الرب يستحيل بأي حال أن يُخْرِجَ مَنْ يُقْبَلُ إِلَيْهِ ، مما يجعل كلامه لليهود هنا مؤكّداً أنهم لم يأتوا إليه ، بل وبصراحة مضمرة ، أنهم مرفوضون من الله ومطرودون من لَدُنْهِ ، لأنهم لم يُقْبَلُوا إلى المسيح ولا حتى قبلوه .

أما كلمة «خارجاً» في قوله «أُخْرِجُهُ خَارِجاً» ، فهي كلمة قاسية جداً ومُرّة للغاية ، وتظهر مرارتها في قوله : «الآن دينونة هذا العالم ، الآن يُطْرَحُ رئيس هذا العالم خارجاً . » (يو ١٢ : ٣١)

والآن ، أيها القارئ العزيز ، ينبغي أن نسأل هل أَقْبَلْتُ إلى المسيح بالحق قولاً وعملاً ؟ إذا كان ذلك فأنت ضمن عطية الآب — غير المحدودة بعدد أو زمن أو قانون ما . فالعالم كله ، لو يشاء ، مدعوٌّ إلى حضن الآب — فأنت للمسيح مُعَيَّنٌ ومُخْتَارٌ للحياة الأبدية . وإن لم يكن ذلك

بعد، فأمامك الدعوة مفتوحة، ألقِ بنفسك على مشيئة الله لتشعر بجذب الآب لك وتكتشف فيه محبة المسيح وسرّه.

٦: ٣٨ و ٣٩ «لأنني قد نزلتُ من السماء ليس لأعملَ مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني. وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كلَّ ما أعطاني لا أثلفُ منه شيئاً بل أقيمُهُ في اليوم الأخير».

الكلام هنا مكمل لقول المسيح أن: «مَنْ يُقْبَلْ إِلَيَّ، لا أخرجُه خارجاً، "لأنني" قد نزلت من السماء ليس لأعملَ مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني». الكلام هنا يُزيد التأكيد على شدة اهتمام المسيح في تأدية رسالته بالنسبة للذين أعطاهم الآب له ليهبهم الحياة الأبدية.

وهكذا بقدر ما أُعطيَ المسيح سلطاناً على كل جسد ليعطيه الحياة الأبدية (يو ١٧: ٢)، بقدر ما أخذ على نفسه الحفاظ على كل نفس تأتي إليه أن لا تتلف أو تضيع. وهذا الضمان يظل قائماً حتى اليوم الأخير الذي فيه تنال النفس نصيبها في القيامة العظمى، هذا التأكيد يكرره المسيح كثيراً بسبب ضعف إيمان الإنسان بالمستقبل: «لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (إبراهيم وموسى والأنبياء)، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد.» (يو ١٠: ٢٦-٣٠)

هذا وصف تصويري مُبدع لحقيقة العناية الإلهية في قوتها الهائلة والشاملة لحفظ الكون كله بكل أجزائه، ثم العناية الخاصة جداً بالنفوس البشرية التي التجأت إلى المسيح في ضعفها المتناهي مستندة إلى معونته أمام قُوى الشر الهائلة، التي تبدو في طغيانها وكأنها قادرة أن تبتلع البشرية كلها: «ولا يخطفها أحد من يدي» التي لها قوة يد الآب. فالمسيح هو الابن الوحيد المُرسَل من الآب، والذي نزل من السماء لتأدية هذه الرسالة بكل دقة وقوة وسلطان حتى اليوم الأخير، الذي فيه تُستعلن خطة الخلاص العُظمى بكل أمجادها، وتلتحم قُوى الحياة الأبدية التي نالها الآن — بالسر في الحاضر — بقُوى الحياة الأبدية المستعلنة في الله، والتي سنشارك فيها إلى كل ملء الله!

وقد لاحظ بعض علماء الكتاب المقدس أن الآيات المتابعة ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ لا تختص بحديث الخبز السماوي موضوع الجدل الذي انشغل به الجليليون، ولكن الحقيقة أن الجليليين في سؤالهم المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، هذا السؤال هو الذي ردَّ عليه المسيح أن:

«عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، ثم ابتداءً ينتقل من التركيز على موضوع الخبز الحبي إلى موضوع رسالته العامة أولاً بصفته أنه هو «عمل الله» المطروح للإيمان به، ثم ابتداءً يشرح ما هو عمل الله في المسيح من إرسالته وتتميم مشيئة الآب الذي أرسله، ثم ما هي هذه المشيئة التي التزم بها المسيح أشد الالتزام.

٤٠: ٦ «لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن ويؤمن به، تكون له حياة أبدية، وأنا أقيم في اليوم الأخير».

واضح هنا أن المسيح يشرح الإجابة على نفس سؤال الجليليين له: ما هو عمل الله الذي يمكن أن نفعل؟ كما أنه هو إعادة توضيح لرد المسيح: هذا هو عمل الله: أن تؤمنوا بالذي هو أرسله: أي تصدقوه!!

والإضافة التي أضافها المسيح جديداً في هذه الآية هي كيفية الإيمان به: «كل من يرى الابن»، كذلك، الإيمان به: «تكون له الحياة الأبدية (منذ الآن)»، ويكمل فعل هذه الحياة، واستعلانها بتجلي الجسد الروحاني في اليوم الأخير: «وأنا أقيم في اليوم الأخير»، وهذه الآية تأتي لتوضيح وتأكيد آية سابقة بنفس المعنى: «ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون» (يو: ٣٦). فالإضافة الجديدة توضح لهم أن عدم الإيمان به، أي عدم تصديقه بعد أن رأوه يعمل مشيئة الله وسمعوه يتكلم بكلام الله وأكلوا البركة الإلهية من يديه، معناه أنهم رفضوا مشيئة الله، وحرموا أنفسهم من الحياة الأبدية.

«كل من يرى الابن»:

كلمة «يرى» هنا لا تمت إلى النظر الطبيعي بالعين ولكنها رؤية بالقلب والفكر الروحي المدرب بالكلمة. وتأتي باليونانية θεωρῶν واضحة جداً لتفيد هذا المعنى. وهي تمت إلى معنى التأمل الذي نسميه في التدريب التصوفي «التأورية»، وفيها يرتقي الفكر إلى رؤية الحقائق الإلهية حيث يستنير الفكر بالنور الإلهي الداخلي. وهذا المعنى يوضحه المسيح مرة أخرى في آية تالية: «الذي يراني θεωρῶن يرى الذي أرسلني. أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمشي في الظلمة.» (يو: ١٢: ٤٥ و٤٦)

التدرج في هذه الآية هام للغاية، فالرؤية توصل إلى النور، أي التأمل القلبي والذهني في

المسيح وأقواله وأعماله بعمق وتمن، والذي يكشف بسهولة الله الذي في المسيح والذي هو أرسله، فيرى الإنسان الحق الإلهي ويصدق به ويدخل في الاستنارة الإلهية المحيية.

هذه ليست عملية معقدة ولا تعتمد على أي مجهود بشري، بل إن مجرد قبول المسيح والإيمان به يصل بهذه العملية إلى أقصاها بدون حساب زمني: «بنورك (يارب) نرى نوراً... لأن عندك ينبوع الحياة.» (مز ٣٦: ٩)

فمن الرؤيا إلى النور إلى الحياة، هذه هي القاعدة الإلهية في المسيح بالإيمان: «بعد قليل لا يراني θεωρεῖ العالم أيضاً (ستنحجب حقيقة المسيح عن العالم بواسطة عشرة الموت على الصليب) وأما أنتم فتروني θεωρεῖτε إني أنا حي فأنتم ستحيون.» (يو ١٤: ١٩)

ب - الجزء الثاني من الحديث: (٤١: ٥١).

٤١: ٦ و ٤٢ «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، وقالوا ليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه. فكيف يقول هذا إني نزلت من السماء.»

هنا ابتدأ العنصر اليهودي المتعلم يظهر في الحوار، مما يفيد أن الحديث كان فعلاً داخل مجمع كفرناحوم. والتذمر طبيعة لم تفارق بني إسرائيل منذ أن خرجوا من مصر، وكان الله يعاقبهم على تدميرهم، ولكنهم كانوا دائماً يعودون إلى هذا الداء الوبيل الذي أودى بحياتهم كأمة. وكان موضوع تدميرهم هنا قول الرب: «أنا هو الخبز الذي نزل من السماء»، وهو مجمل ما قاله المسيح عن نفسه في ثلاث آيات سابقة (٣٣ و ٣٥ و ٣٨): «خبز الله هو النازل من السماء»، «أنا هو خبز الحياة»، «لأنني قد نزلت من السماء».

وواضح أن وضع المسيح البشري المعروف لديهم وقف عشرة في قبول لاهوته، وهذا هو سر التجسد بكامله. ولم يكن معروفاً على المستوى العام ميلاد المسيح البتولي من عذراء، ولكن حتى ولو لم يكن معلوماً شيء عن سر ميلاد المسيح البتولي، فكلام الرب كان يكفي جداً أن يشير إلى ذلك السر بدون أي صعوبة أو نقاش. لذلك نرى ق. يوحنا في إنجيله يتحاشى الخوض في أنساب المسيح ويتخطى كل روايات الميلاد مكتفياً باستعلان لاهوت المسيح من فم المسيح نفسه، استعلاناً لا يترك أي مجال للتحقيق البشري أو لشهادة الشهود.

وعلى هذا الأساس تماماً كان ردُّ المسيح عليهم :

«فأجاب يسوع وقال لهم لا تَتَذَمَّرُوا فيما بينكم . لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقْبِلَ إِلَيَّ ،
إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الْآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي ، وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ . إِنَّهُ مَكْتُوبٌ
فِي الْأَنْبِيَاءِ وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنْ اللَّهِ . فَكُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الْآبِ وَتَعَلَّمَ
يُقْبِلُ إِلَيَّ . لَيْسَ أَنَّ أَحَدًا رَأَى الْآبَ إِلَّا الَّذِي مِنَ اللَّهِ . هَذَا قَدْ رَأَى الْآبَ .
الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ .» (٤٧ : ٦-١٣)

يجيب الرب على موضوع تذمُّرهم ، وهو قوله عن نزوله من السماء ، بأنه لا يأتي إليَّ أحدٌ
بالفحص ومعرفة الأنساب ، أما الذي تعلم من الله فهذا يأتي إليَّ ، لأن الله هو أبي الذي أرسلني
وهو يجتذب إليَّ كلَّ الذين فتحوا عيونهم وقلوبهم لقبول مشيئة الآب ، لأن مشيئة الآب هي
رسالتي وعملي .

وهنا يستشهد المسيح بكلام إرميا النبي : «بل هذا هو العهد الذي أَقْطَعُهُ مع بيت إسرائيل
بعد تلك الأيام ، يقول الرب ، أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ ، وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً
وهم يكونون لي شعباً ، ولا يَعْلَمُونَ بَعْدُ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ قَائِلِينَ : اعْرِفُوا
الرَّبَّ ، لِأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ سَيَعْرِفُونَنِي مِنْ صَغِيرِهِمْ إِلَى كَبِيرِهِمْ ، يَقُولُ الرَّبُّ .» (إر ٣١ : ٣٣ و٣٤)

المسيح هنا نقل العلم واحتكار المعرفة من أئمة اليهود — خاصة الفريسيين ، وهم الذين كانوا
يتزعمون دائماً معارضة المسيح ومصادرة أقواله وإثارة الشعب ضد تعاليمه — كما هو حادث في هذا
الموضوع أمامنا — نقله إلى عامة الشعب مباشرة وبلا تعليم ، وهنا إشارة قوية جداً إلى عمل الروح
القدس . المسيح يستشهد بهذه النبوة التي تقول إن العهد الجديد الذي سيقطعه الرب مع بني
إسرائيل لن يجعل الشريعة محتكرة للتعليم العقلي والتلقين الشفاهي ، بل سيجعلها مكتوبة بأصبعه —
أي بالروح القدس — في ألواح قلوبهم اللحمية حيث لا يعود أحدٌ يحتكر لنفسه التعليم . ولا يعلم
الواحد الآخر معرفة الرب ، لأنهم كلهم من صغيرهم إلى كبيرهم سيعرفون الرب ، لأنهم سيكونون
متعلمين من الله . والمسيح هنا يركز على كلمة «كل» ، فلا صغير في العلم ، ولا كبير في التعليم ،
بل الجميع بلا تفریق : «كُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الْآبِ وَتَعَلَّمَ يَقْبِلُ إِلَيَّ» بدون وسيط أو معلّم أو رابي .

فالمسيح يتكلم عن ظهور هذا العهد الذي قطعه الله على نفسه ، وأكَّده بالأنبياء ، وها هو قد
أرسل ابنه لتنفيذه على أساس أن كلمة الله سيكتبها الآب في قلوبهم : «لكن ماذا يقول ؟ الكلمة

قريبة منك في فمك وفي قلبك، أي كلمة الإيمان التي نكرز بها» (رو ١٠: ٨). كل من يسمع لها ويصدقها فإنه يصبح متعلماً بدون معلم، ويجتذبه الآب إلى المسيح لينال به الوعد بالحياة الأبدية: «كل من سمع من الآب وتعلّم يُقبَلُ إليّ». وتلاميذ الرب كانوا أول برهان صادق لقيام ذلك العهد.

والمسيح يضع نفسه كمعلّم لـ «معرفة الله» هذه، ولكن ليس كمن يعلم عن كتاب مكتوب أو معلّم مشهور، بل كمن رأى الله في جوهرة وفي سرّه الأعظم كأب له سمع منه وتعلم: «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب.» (يو ٦: ٤٦)

لذلك كان المسيح — الكلمة — هو الوحيد الذي يتكلم بكلام الله: «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله» (يو ٣: ٣٤). فمن يسمع من المسيح فهو يسمع من الله رأساً، فمن سمع وتعلم يُقبَلُ إلى المسيح، مُدْعِناً مؤمناً أنه بالحقيقة ابن الله. والعلامة ديديموس الضريز^(٢٢) يضع بطرس الرسول في إيمانه واعترافه مثلاً لذلك، والقديس أغسطينوس^(٢٣) أيضاً يقول بهذا المعنى.

وسنرى المسيح في موضع آخر قادم كيف يكشف لليهود أنهم لا يسمعون له أو يسمعون منه ولكنهم يسمعون من إبليس: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم "من أب" هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا...» (يو ٨: ٤٣ و٤٤). هنا يكشف الرب سراً من رفض المسيح وقاومه.

٦: ٤٥ و٤٦ «كلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الْآبِ وَتَعَلَّمَ، يُقْبَلُ إِلَيَّ. (لأن) لَيْسَ أَنَّ أَحَدًا رَأَى الْآبَ إِلَّا الَّذِي مِنْ اللَّهِ. هَذَا قَدْ رَأَى الْآبَ.»

هنا يقدم المسيح لليهود نقلة كبيرة وتحولاً جذرياً من عهد موسى الذي يُقال أنه رأى الله، ومن عهد الأنبياء الذين تكلموا عن رؤيا وسمِع من الله، أنهم في الحقيقة لم يروا الله في ذاته، في طبيعته الإلهية وجوهرة، بل يقول سفر العبرانيين أنه كلمهم «بأنواع وطرق كثيرة» (عب ١: ١). فهم إنما رأوا شبه الرب كقول الله الصريح: «فنزل الرب في عمود سحاب ووقف في باب الخيمة ودعا هرون ومريم (اللتين كانا قد تكلمتا ضد موسى بسبب زواجه من امرأة حبشية) فخرجا كلاهما. فقال: اسمعا كلامي. إن كان منكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمة.

²² Schnackenburg, *op. cit.*, p. 451.

²³ Tract. on John, xxvi, 8.

وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمينٌ في كل بيتي. فمأ إلى فمٍ وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز، وشبهة الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى؟» (عدد ١٢: ٥-٨). وكلمة الإنجيل واضحة: «الله لم يَرَهُ أحد قط.» (يو ١٨: ١٨)

أما الرب يسوع فيقول عن نفسه علناً وجهاراً إنه رأى الله، ومنه خرج، لأنه من طبيعته وجوهره، لذلك فقد رآه في ذاته، حيث الرؤيا هنا رؤية الذات للذات. فالآب والابن ذات واحدة.

«ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب»:

فالرؤيا هنا رؤيا ذاتية، ليس بالعين ولا بالتأمل بل رؤية تطابق المثل على المثل، فالابن يرى الآب كما يرى الآب الابن، لأن وحدة الذات والجوهر والطبيعة جعلت المعرفة بينهما واحدة: «ليس أحدٌ يعرف الابن إلا الآب. ولا أحد يعرف الآب إلا الابن» (مت ١١: ٢٧). والمشية والكلمة واحدة والعمل واحد، لذلك قال لفيلبس: «الذي رآني فقد رأى الآب» في كل شيء (يو ١٤: ٩). هذا عبّر عنه المسيح في قوله للآب: «كل ما هولي فهو لك وما هولاك فهو لي» (يو ١٧: ١٠). ثم في موضع آخر قادم يتجمع كل ذلك في قول واحد: «أنا والآب واحد.» (يو ١٠: ٣٠)

وبناء على أنه هو الوحيد الذي رأى الله الآب وخبر، أصبح الإيمان بشخصه وبكلمته وعمله ضرورة حتمية، لأن الله الآب يتكلم ويعمل به: «الله بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء.» (عب ١: ١ و٢)

والمسيح ينتهي من قوله أنه الوحيد الذي رأى الآب، إلى حتمية الإيمان به لنوال الحياة الأبدية.

٤٧: ٦ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية.»

لماذا؟ لأن هذه هي رسالته — الحياة الأبدية — التي أرسله الآب إلى العالم ليكملها، وقد أكملها، وأعطاه، بسفك دمه فدية عن العالم كله، لكل من يؤمن به. وهذا هو تسلسل الكلام: المسيح هو الوحيد الذي رأى الآب، لأنه هو الوحيد «الذي من الله» (παρὰ τοῦ θεοῦ) (يو ٦: ٤٦)، لذلك إن سمعوا له وآمنوا به يكونون قد سمعوا الآب، وبالتالي ينالون القصد من رسالته، ورسالته هي أن ينالوا الحياة الأبدية.

ثم يتبدى الإنجيل بعد ذلك في توضيح كيف يؤمنون به لينالوا الحياة الأبدية. وعلى مستوى أن لا حياة بدون أكل وشرب وتنفس، هكذا سيعطيهم أن يأكلوه ويشربوه ويتنفسوا روحه القدوس. هذا هو موضوع حديث المسيح حتى نهاية الأصحاح.

٥١ : ٤٨ - ٥١ «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم».

يبدو لأول وهلة أن الكلام هنا مكرّر ومُعَاد. ولكن كل كلمة وكل آية تأخذ وضعها وترتيبها بإحكام.

«أنا هو خبز الحياة»:

هذه الآية تأتي كشرح توضيحي للآيات السابقة: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي، فله حياة أبدية». أي أن المسيح اعتبر نفسه خبزاً لنوال الحياة الأبدية، حيث كل من المسيح والخبز الذي يعطيه يَهَبُ الحياة الأبدية، لأن الحياة الأبدية فيه. فالمسيح فيه الحياة ويعطي الحياة، لأن المسيح حيٌ ومحْيِي: «لأنني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). وخبز الحياة هو كذلك خبز حي، فهو يعطي الحياة لأنه خبز الله، لأنه جسد المسيح. فالتطابق الذي يجعله المسيح بين كيانه الحي «أنا هو» المحيي، وبين كيان الخبز الحي «الجسد» المحيي هو تطابقٌ كُلِّي؛ لذلك يعود المسيح بعد ذلك ويوضح هذا التطابق هكذا: «أنا هو الخبز الحي». وهنا يكمن سر التجسد العجيب الرهيب على مستوى إتحاد الكيان الإلهي «أنا هو» بـ«الجسد» البشري المولود من الروح القدس إتحاداً سرّياً كاملاً أبدياً.

والخيرة التي يقع فيها العقل الذي لم يقبل سر التجسد تكون حيرة حقيقية، إذ كيف يمكن للمسيح وهو إنسان أن يكون خبزاً — والخبز معروف أنه يؤكل لقوام الحياة الجسدية؛ أما للذين قبلوا سر التجسد، أي بالإيمان بالمسيح الكلمة المتجسد، يصير من السهل عليهم أن يدركوا سر الإفخارستيا في قول الرب: «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي». فهذا هو غاية التجسد، فالمسيح تجسد ليعطي جسده الحي للعالم ليكون بذرة الخليقة الجديدة. هذه الحقيقة سرية للغاية والذي يقبلها إنما يقبلها بالإيمان. والمسيح عرض الإيمان به على اليهود لينكشف لهم السر فرفضوه:

«إن كلَّ مَنْ يرى الابنَ ويؤمن به، تكون له الحياة الأبدية؛ ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون». فقبول المسيح، أي المجيء إليه والإيمان به أولاً، كفيل بأن يكشف كل أسرار المسيح والحياة الأبدية. ولكن الخطأ الذي ارتكبه اليهود، والذي لا يزال يرتكبه العالم، أن الناس يريدون أن يعرفوا سر المسيح قبل أن يأتوا إليه ويؤمنوا به، وهذا مستحيل.

والآن فالنصيحة العظمى التي نقدمها للناس جميعاً هي أن يأتوا إليه بلا فحص وأن يقبلوه ويؤمنوا به لتتفتح عيونهم وقلوبهم ويدركوا سر المسيح والله بكل يقين، وسر الحياة الأبدية.

والمسيح في قوله إنه «يعطي جسده» يصير فاعلاً: «أنا هو»، ومفعولاً به: «جسدي» بأن واحد!! فالمسيح كائن في الله وفي الجسد معاً بأن واحد، لذلك حينما يبذل جسده فهو يعطي نفسه في هذا الجسد ليصير الأكل من الجسد إتحاداً به وبالله الآب، وقوة هذا الإتحاد هي الحياة الأبدية.

«الخبز الذي أنا أعطيه هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم»:

والخبز الحي هو جسد المسيح الذي سيذبح بإرادته، الذي فيه الحياة الأبدية غير القابلة للموت، ليكون ذبيحة إلهية حية حياة أبدية، لكي كلَّ مَنْ يأكل منها يحيا فيه وفي الله الآب، على أنه يستحيل على أحد أن يأكل منه أكلاً حقيقياً إلا إذا كان قد آمن حقاً بالمسيح. لأن الأكل الحق من الجسد الحق لا يكون إلا بالإيمان الحق، فهنا ليس مجرد الأكل يُحيي، ولكن الأكل بالروح والحق هو الذي يحيي.

٥٠ - ٤٨ : ٦ «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنَّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء (حقاً) لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت».

وهنا يأتي الرد على اليهود بالمقارنة مع المنَّ الذي نزل من السماء. فيقول المسيح: «آباؤكم أكلوا المنَّ في البرية وماتوا ἀπέθανον» والترجمة اليونانية الحرفية: «وقد صاروا هائتين أو أمواتاً»، وبهذا لا تأتي هنا بمعنى الموت الطبيعي بل صاروا أمواتاً أو هائتين روحياً. وهذا يؤكد المقابل في الآية القادمة: «هذا هو الخبز... يأكل منه الإنسان ولا يموت». علماً بأننا نأكل من خبز الحياة (الإفخارستيا) ونموت جسدياً. فهنا «لا يموت» تأتي بمعنى عدم الموت الروحي؛ وفي المقابل من جهة المنَّ، فإن كلَّ مَنْ أكل المنَّ مات - أي مات روحياً. وهذا كان عقاباً لعدم الإيمان والتذمر وعمل الشرور والزنا. فالعيب كان فيهم، وليس بسبب عيب في المن كطعام من السماء. كما يوضح ذلك بولس الرسول في سفر العبرانيين: «ولمَنْ أَقْسَمَ لَنْ يدخلوا راحته إلا

للذين لم يطيعوا. فترى أنهم لم يقدرُوا أن يدخلوا لعدم الإيمان» (عب ٣: ١٨ و ١٩). علماً بأن كلمة «راحته» رفعها بولس الرسول من راحة أرض كنعان إلى راحة الله الخاصة: «فلنجتهد (بالإيمان) أن ندخل (نحن) تلك الراحة لئلا يسقط أحد (منا) في عِبْرَةِ العصيان هذه عينها» (عب ٤: ١١). إذن، فالذين أكلوا المن الذي نزل من السماء لم يُسْعِفهم أكلهم من المن، وذلك بسبب خطيتهم، فحُرموا من دخول السماء.

«آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا»:

لينتبه الدارس للكلمة إلى القصد الذي يهدف إليه المسيح هنا^(٢٤)، فهو لا يلغي المضمون الروحي والسمائي للمن، بل على العكس، فالقصد الذي يهدف إليه المسيح هو أنه بالرغم من أنهم أكلوا المن إلا أنهم ماتوا. لأننا نعلم علم اليقين أن الوحي المقدس على فم بولس الرسول أوضح أن المن كان طعاماً روحياً كما كان الماء الخارج من الصخرة شرباً روحياً، أي بالمفهوم الكتابي أن الطعام، أي المن والماء، أي الصخرة، كانت رمزاً للمسيح. ولكن الطعام الروحي والشراب الروحي لم ينفعا آكليه وشاربيه بسبب عدم الإيمان، والتذمر على الله وشهوة الشرور والزنا:

— «وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً، وجميعهم شربوا شرباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح. لكن بأكثرهم لم يُسرَّ الله لأنهم طرَحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثلاً لنا، حتى لا نكون نحن مشتتهين شروراً كما اشتهى أولئك... جلس الشعب للأكل والشرب (الروحي) ثم قاموا للعب. ولا نزن كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً، ولا نُجرب المسيح كما جرب أيضاً أناس منهم فأهلكتهم الحيات، ولا تتذمروا كما تذر أيضاً أناس منهم فأهلكهم المُهلك.» (١ كو ١٠: ٣-١٠)

وبالتطبيق، يقول المسيح ويشدد على الإيمان به قبل أن يخوض في مفهوم الأكل والشرب من خبز الحياة الذي يعطيه، الذي هو جسده الذي سيبدله على الصليب من أجل حياة العالم. فهذا الخبز الحي النازل من السماء حقاً هو أيضاً لن يفيدهم شيئاً إذا لم يؤمنوا به. المسيح جمع الإيمان

(٢٤) مع مزيد من الأسف والحزن فقد وقع علماء الكتاب المقدس في خطأ فهم كلام المسيح عن المن: «آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا»، بأن المن كان طعاماً جسدياً بلا قيمة روحية، لذلك كل من أكله مات وطرَح جسده في القفر. في حين أن هذا هو الواقع أيضاً في أكل جسد المسيح، أي الإفخارستيا، نحن نأكل الجسد المقدس ونموت أيضاً وطرَح أجسادنا في القبور. فكلمة «ماتوا» نُهت خطأ وعلى القاريء الانتباه إلى هذا الشرح.

به والأكل منه كفعل روحي واحد. فالذي يؤمن به يأكل حياة أبدية، والذي لا يؤمن به يأكل دينونة.

وواضح أن هؤلاء اليهود المحاججين لم يؤمنوا به بل وتذمروا عليه، على نفس مستوى ما عمل آباؤهم في البرية مع الله. هذا هو الذي جعل المسيح يركّز على صفة الأكل من الخبز الحي الجديد، أي جسده والشرب من دمه بعد ذلك.

لذلك جعل المسيح الإيمان به وسماع كلمته وطاعته وعدم التذمر شرطاً أولاً وأساسياً لكي «يأكل منه الإنسان ولا يموت». وهذا نجده واضحاً جداً في الآيات التي سبقت الإعلان عن أن الخبز الحي الجديد هو جسده المبدول لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. وهنا نعيد قول المسيح الذي جعله شرطاً للدخول في مفهوم الأكل من جسده: «وقال لهم لا تتذمروا... كل من سمع من الآب وتعلم "يُقبِلُ إليَّ"... من يؤمن بي فله حياة أبدية... أنا هو خبز الحياة».

وهذا يعود علينا بالتوضيح أن الإيمان بالمسيح وقبوله مع الشكر الدائم، شرط أساسي لاستعلان الروح في الإفخارستيا ونوال الحياة الأبدية.

يلاحظ القارئ أن جسد الرب الذي يعطيه، أو الذي بذله عن حياة الإنسان، قدّمه أصلاً وأساساً لكي يرفع الخطية ويلغيها ويكفر عنها ويمسح دينونتها ويزيل آثارها المدمرة في جسد الإنسان وعقله وروحه. ثم نظرة واحدة سليمة إلى حال الإنسان قبل المسيح توضح لنا لماذا أعطانا جسده هذا. فالخطية أفرغت الإنسان من مضمونه ككيان مخلوق بيد الله على صورة الله وفيه نفخة روح الله!! الخطية أعمت عين الإنسان، وسدّت أذنيه عن رؤية الحق والنور والله وسماع صوته الحيي. الخطية استبدّت بالإنسان، وسادت عليه، واستعبدته لكل ما هو إثم ونجاسة وعار، وجعلته يتآخى مع الحيوان بل مع الشيطان، وأوردته مهالك الموت، فصار جسده المضيء بنور الله تلفّه الظلمة. وعوض نفخة الله المحيية المبهجة، صارت تتردد في جنباته رياح الموت وعواصف الرعب والخوف ممن له سلطان الموت أي إبليس. الكل أخطأ وزاغ وأعوزه مجد الله، ليس من يعمل الصلاح، ليس ولا واحد!! (راجع روم ٢٣: ٣ ومزم ١٤: ٣). والجوع إلى الله والحق جعل الإنسان يتلمس الله في السماء والأرض والحجر والشجر.

الله تحسن على صورته ولم يشأ إطلاقاً أن يفسد جماله فيها، أو أن يسحب روحه منها، أو تسود ظلمة الخطية على نور بهاء معرفته، أو تبقى غنى نعمته عاجزة عن أن تُشبع جوع الإنسان.

لهذا تجسد ابن الله ليطعمنا من جسده، ليردّ جوعنا إلى شبع حقيقي من الله، ويسقينا من دمه لتسري روحه فينا مرة أخرى للحياة من بعد موت. وهكذا، ولكي يقيمنا الله من الموت والعدم، أعطانا نفسه لتأكله، لكي يستبدل جسدنا بجسده ودمنا بدمه، وهكذا لا نعود نحيا نحن للموت بل هو يحيا فينا للحياة، فنحن الآن «أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥ : ٣٠)

فلو ارتفعنا هنا بمستوى الخبز والمنّ والأكل إلى المستوى الروحي الذي أراد بعض الربيين أن يرتفعوا إليه، باعتبار المنّ أنه هو التوراة أي الناموس؛ نجد المقارنة أصبحت أكثر صحة وأقوى بياناً. فالخبز الحي، أي جسد المسيح المبذول أي المذبح من أجل حياة العالم، هو المقابل للتوراة أو الناموس، مؤسساً على النعمة المجانية (البذل) للخلاص والحياة. أما التوراة أو الناموس فهو مؤسس على معرفة ناموس الخطية وحكم الموت للمخالف. فالأول جاء للحياة في مقابل الثاني الذي كان للدينونة والموت. فالذي أكل من خبز المن، مات بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفارة، في مقابل أن الذي يأكل من الجسد الحي يحيا ولا يموت بسبب نعمة التبرير المجانية ورفع الخطية المميتة.

فإن كان المن الذي نزل من السماء بواسطة موسى، الذي هو رمز للناموس، قد أكله آباؤهم وماتوا روحياً بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفارة، فلم يدخلوا راحة الله؛ فالمقارنة أصبحت أيضاً بين موسى: «لأن الناموس بموسى أعطي»؛ وبين المسيح: «أما النعمة والحق فبیسوع المسيح صاراً». وهذا ليس على مستوى الأفضلية بين المسيح وموسى، بل على مستوى السببية لأن كلاً من ناموس موسى والمن لم ينتفع به إسرائيل بسبب التعدي، لهذا جاء المسيح ورفع التعدي، بل ووهب عوض التعدي نعمة، ليعطي الحياة مجاناً بجسده المبذول عن حياة العالم؛ نأكله فنعيش!!

وعلى القارئ أن ينتبه إلى تسلسل المعاني وترابطها في إنجيل ق. يوحنا التي جاءت هكذا:

(أ) أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء.

(ب) خبز الله، هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم.

(ج) أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.

(د) أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء.

(هـ) الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي.

(و) الذي أبذله من أجل حياة العالم.

ويلاحظ القارئ أن الآيات (أ) ، (ب) هي وصف المشورة الإلهية كتقرير حقيقة يراد تسميمها. فالخبز الحقيقي هو خبز الله ، أي أنه يمتُّ إلى طبيعة الله ، فكلمة الحقيقي ἀληθινός هي صفة لا تطلق على الماديات ، لأنها صفة الله وصفة المسيح : «أنا هو... الحق» (يو ١٤: ٦). وهذا الخبز الحقيقي ، الذي هو خبز الله ، موطنه الدائم «من السماء». ولكن مشورة الله تقررت أن هذا الخبز يأخذ حالة نزول من السماء لإعطاء حياة أبدية للعالم. وهنا «نازل» هو تقرير حال لم يدخل في حيز الفعل.

ثم تأتي الآية (ج) حيث يكشف فيها المسيح عن صفة هذا الخبز أنه هو هو نفسه : «خبز الحياة» - أي الخاص «بالحياة الأبدية» الذي وُضع له أن ينزل من السماء (حال) - لكي يأكل منه الإنسان كغذاء روحي دائم فلا يذوق الموت الروحي.

ثم تأتي الآية (د) ويضيف فيها المسيح صفة ذاتية جوهرية لهذا الخبز وهو أنه خبز «حي» = ζῶν ، أي أن جوهره حياة. ثم يُدخل المسيح هذا الخبز الحقيقي ، أي خبز الله الذي موطنه السماء والمعيّن له النزول من السماء ، يُدخله في حالة الحركة الفعلية في صميم الزمن : «الذي نزل». وهنا يعلن عن سر التجسد الذي تم في صميم حركة الزمان وصار فعلاً ماضياً.

ثم تأتي الآية (هـ) وفيها يكشف أكثر عن صلة هذا الخبز بنفسه ، أنه جسده ، وهنا يجعل الخبز يعبر عن نفسه وعن جسده معاً.

ثم تأتي الآية (و) وفيها يكشف عن نية مبيّنة عند المسيح ومقرّرة ، أن هذا الخبز ، أي جسده ، هو معدّ الآن لحالة بذل أو ذبح إرادي.

وإلى هنا يكون المسيح قد أعدّ الفكر للدخول في سر المسيح الأعظم ، وهو الفداء بالموت أي الصليب ، بعد أن أمّن على الجسد من الموت الروحي ، عندما قرر أنه «خبز حي» وأنه «حيّ بالآب» حياة أبدية لا يرقى إليها الموت المادي. فالموت على الصليب أنشأ غلبة على الموت ، وقد استُعلنت الحياة الأبدية التي فيه.

كما يكون قد أعدّ الفكر لختمية الأكل من هذا الجسد ليحيا به الإنسان إلى الأبد ، أي لنوال الحياة الأبدية التي فيه.

أما الأكل من هذا الجسد فقد أحدث الصدمة الأخيرة لعقول اليهود ، والذي بدأ الرب يؤكدّه دون أن يشرحه ، متجاوزاً جهلهم هكذا :

ج - الجزء الثالث من الحديث : (٥٢:٦-٥٨).

٥٢:٦ «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لأكل».

كان تدمير اليهود سابقاً ينصبُّ على شخصيته كيف يقول : «أنا هو خبز الحياة الذي نزل من السماء... أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه، فكيف يقول هذا إني نزلت من السماء؟» (يو: ٦: ٤١ و٤٢). وهنا كان ردُّ المسيح يتعلق باستعلان شخصه وعلاقته بالآب والسماء : (٦: ٤٣-٤٧).

أما هنا فيتحول السؤال إلى : «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لأكل؟»

والمخاصمة فيما بينهم تأتي بمفهوم الانقسام وحدة الاختلاف. فكلمة «خصام» أتت باليونانية ἐμάχοντο على مستوى المحاربة بالرأي والكلمة. فبعضهم فهمها على مستوى الروح وقبيلها، والآخر فهمها على مستوى الجسد الطبيعي، فرفضها بشدة.

وللأسف فإن هذه الخصومة وهذا الانقسام قائمان حتى اليوم بين الكنائس، على نفس أساس الانقسام في الفهم، بين الارتفاع إلى المستوى الروحي السرائري وبين النزول إلى المستوى المادي الطبيعي. ولا نريد أن نخوض هنا في صحة العقائد من عدمها، ولكن سنلتزم في الشرح بالدقة وأمانة وروحانية الكلمة التي يقولها الرب؛ متذكرين دائماً أبداً، فيما يختص بأصول العلاقة بالمسيح، أنها تقوم على أساس أن قبول إعلان الرب عن نفسه والإيمان به والخضوع لسلطانه الإلهي، يؤدي إلى استعلان أسرارهِ باستنارة الروح. وهذا ما حاوله المسيح مع اليهود: أن يقبلوه أولاً، إن كان بالكلمة أو بالآية أو بالعمل، لكي يستعلن لهم حقيقته، ولكنهم أصروا على : «كيف» و«لماذا» و«من أعطاك هذا السلطان» و«أين هو أبوك؟»، فظلوا محبوسين في ظلمة الشك أبداً تحت سلطان العقل والمعقول : «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لأكل؟»

أما ردود المسيح، فقد ظن علماء الكتاب أنها لم تعباً قط بتشككات اليهود، وأنه لم يتنازل ولا بكلمة واحدة ليردَّ على أسئلتهم، أو يشرح لهم كيف سيقدر أن يعطيهم جسده، أو ما معنى أن يأكلوه. هذه في الحقيقة نظرة غير صحيحة، فالرب اعتنى جداً بالرد دائماً؛ إنما كعادته، كانت ردوده تحتاج إلى مَنْ يكشف عن عمق معناها والأسرار التي تحويها، ليعرف أنها فعلاً ردود كاملة وصحيحة عن كيف سيعطي جسده وكيف سيأكلونه. وإلا فما كان جيداً ولا لائقاً من المسيح أن يبدأ ردهً بجملته الرهيبة التي تزيد الحق حقاً بقوله :

٥٣:٦ «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم».

الرب يقول مخاطباً اليهود، وليس اليهود فقط، بل والتلاميذ، وليس الاثنا عشر فقط بل ومخاطب السبعين الآخرين أيضاً حسب التقليد. أما «كيف يقدر»، وهو الجزء الأول من السؤال المحير لعقول اليهود، فيرد المسيح عليه هكذا: بأن تأكلوا جسده وتشربوا دمه. فإذا كان الجسد يؤكل وحده، فهذا يعني أنه سينفصل عنه الدم؛ فهنا الإشارة صارخة إلى عملية الصليب العنيفة التي سيجوزها على أيديهم. فاليهود هم أنفسهم الذين، بتقديمه للموت على الصليب، سيجعلونه «قادراً» أن يعطيهم جسده للأكل ودمه للشرب. هذا هو الرد على: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده...»

أما الجزء الثاني من سؤالهم المحير: «كيف يعطينا جسده "لنأكل"»، فكان ردُّ المسيح عليه أنه ليس الجسد وحده الذي سيؤكل، بل والدم يُشرب أيضاً. فالعثرة التي صدمت عقولهم من حيث استحالة أكل الجسد البشري، حوّلها المسيح إلى استحالة أشد، استحالة، بشرب الدم البشري! وحينئذ يصبح لا مفرّ من فهم آخر للأكل والشرب بالنسبة للجسد والدم، فهنا مفهوم ذبائح ربيع المستوى تعايشوا معه مئات السنين، والإشارة واضحة إلى ذبح إسحق بأمر الله الذي طلب من إبراهيم أن يقدمه ذبيحة له جسداً ودماً.

فإن كان اليهود قد أضمرُوا صلبه، فالرب يسوع قبل ذلك برضى الطاعة للآب كإسحق لأبيه، أما شرب الدم فهو مُحَرَّمٌ بأمر الله بالنسبة للذبائح الحيوانية، والسبب أعلنه الوحي هكذا: لأن الدم فيه الروح وهو أيضاً رباط النفس بالجسد:

«لحمًا بحياته دمه لا تأكلوه.» (تك ٩: ٤)

«لكن احترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس فلا تأكل النفس مع اللحم.» (تث ١٢: ٢٣)

فإعلان المسيح هنا عن شرب دمه يرتفع أولاً بمفهوم ذبيحته عن الذبائح الأخرى، ويرتفع ثانياً بمفهوم شرب دمه إلى مفهوم شرب غير جسدي وقبول روح الحياة في دم المسيح للتقديس، وهكذا يتم الارتباط بنفسه ارتباطاً أبدياً:

— «لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المُنجسين يُقدس إلى طهارة

الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله بلا عيب يُطهر ضماثكم من أعمالٍ ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب ٩ : ١٣ و ١٤)

أي أن حياة المسيح الأبدية التي في دمه تنتقل إلى مَنْ يشرب دمه بالإيمان. وهذا ما شدد عليه المسيح كنتيجة حتمية لمن يشرب دمه: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة (أبدية) فيكم.»

أما كلمة الاحتقار التي وجهوها للمسيح: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لتأكل»، فرد عليها المسيح أن «هذا» الذي احتقروه هو «ابن الإنسان» الذي أشار إليه دانيال في رؤياه أنه هو الذي سيكون عليه رجاء اليهود الذين ترجوه وانتظروه:

— «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سُحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى قديم الأيام، فقرّبوه قُدّامه (ذبيحة)، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دانيال ٧ : ١٣ و ١٤)

وقول المسيح واضح: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه...». وهكذا يردُّ المسيح على احتقارهم بأن أظهر لهم عما هم، أنهم مزعمون أن يذبحوا من تَرْجّوه منذ آبائهم وانتظروه بفارغ الصبر، وأن الذي احتقروه هو هو الذي ستتعبّد له كل الشعوب.

وهنا يلزمنا أن ننبه القارئ أن يحترس من شرح بعض علماء الكتاب المقدس الذين رأوا في كلمة «ابن الإنسان» هنا بالذات، أي من جهة أكل جسد ابن الإنسان وشرب دمه، أن المعنى يشير إلى أن الرب يقدم ويبذل بشريته his humanity. وهذا أمر مؤسف ومُحزن للغاية، فهذه النظرية هي بعينها نظرية فصل طبيعة المسيح إلى طبيعتين فصلاً واضحاً صارخاً لا تؤمن به الأرثوذكسية اللاخليدونية القبطية. لأن المسيح أشار مراراً وبوضوح أنه سيبذل نفسه وليس جسده وحده أو بشريته. فهو سيبذل نفسه في جسده، ولا يمكن أن «أنا هو» ينفصل عن جسده، ولا يمكن أن تنفصل نفسه عن الله أبيه بحسب إيمان الكنيسة أن «لاهوته لم ينفصل قط لا عن نفسه ولا عن جسده» (القداس الإلهي). فالمسيح متحد بالآب وبالجسد إتحاداً ليس فيه انفصال، لذلك يقول الكتاب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه...» (يو ٣ : ١٦)، ولم يقل حتى بذل جسد ابنه.

فلينتبه القارئ بل وكل عالم وباحث وشارح بل وكل لاهوتي، أن ذبيحة الصليب هي

المسيح ككل، والذي قدم هذه الذبيحة هو الآب والابن معاً؛ الآب بسبب حبه للعالم، والابن بسبب حبه للآب. فهي ذبيحة حب فيها كل حب الآب وكل حب الابن وطاعته، مظهرها جسد إنسان مصلوب على الصليب، وجوهرها حب إلهي مذبوح. أما قوة الصليب والذبيحة التي عليه فلا تكمن في الجسد الظاهر للعيان، لأنه حسب قول المسيح: «الجسد لا يفيد شيئاً» (يو: ٦: ٦٣)، بل قوة الذبيحة التي أنشأت خلاصاً وفداءً ومصالحة، فهي تكمن بالدرجة الأولى في الروح والنفس — ثم الجسد — بكل كيانه الإلهي البشري معاً. فالمسيح، ككل، هو الذي تحمّل العار والخزي؛ أي أن الابن في ملء كيانه الإلهي يُرضي الآب، لكي يخلص الإنسان من اللعنة، أما الموت الذي مات به المسيح على الصليب، فكان يستحيل أن يقع على الجسد وحده لينشئ قوة خلاص، إلا إذا قبله الابن بكل إرادته ومشيئته الإلهيتين، لأن جسد المسيح وإن كان قد قبل الموت، إلا أنه كان غير مستحق للموت! والموت تمّ للجسد بسبب قبول ورضى الآب أولاً: «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو: ٢٢: ٤٢)، وبسبب قبول ورضى الابن: «لأجل هذا أتيت أنا» (الابن في ملء اللاهوت) إلى هذه الساعة. «(يو: ١٢: ٢٧)

إذن، فالموت على الصليب الذي تم للمسيح، اشترك فيه الآب والابن اشتراكاً فعلياً.

لذلك، فنحن حينما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فنحن نأكل «الكلمة المتجسد»، نأكل المسيح ككل: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو: ٦: ٥٧)، نأكل كل حب الآب من نحننا، ممثلاً في مشيئته التي تمت في ذبح الابن، ونأكل كل حب المسيح ممثلاً في منتهى طاعة الابن للآب حتى الموت، لتكتمل خلاص الإنسان. وهذا بعينه هو انفتاح سر الاتحاد الدائم بين الآب والابن علينا الذي نناله في هذا السر، وبهذا ندخل في صميم الحياة الخاصة التي بين الآب والابن التي هي هي الحياة الأبدية.

وعلى القارئ والباحث أن ينتبه دائماً أبداً، أن المسيح حينما يتكلم، فكلامه لا يؤخذ على المستوى العادي الطبيعي: «الكلام الذي أكلكم به هو روح وحياة.» (يو: ٦: ٦٣)

ثم عاد المسيح ونقل الإشارة من النبوة عن ابن الإنسان إلى الواقع الحي أمامهم، أي إلى نفسه. المسيح هنا يستحضر الأخرى إلى اليهودية المترجأة إلى الحاضر الزمني في شخصه. فاستعلن نفسه أنه هو هو «ابن الإنسان» رجاء الدهور الذي قبل عن رضى أن يكون ذبيحتهم بسبب المسرة الموضوعة أمامه في طاعة الآب وفي حُبّه للخطاة:

٥٤:٦ «مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ».

أي أن يكون له حياة لا تزول من الآن وتُستعلن في اليوم الأخير، وتتمجد بالقيامة إلى الأبد. وهكذا يصبح أكل الجسد وشرب الدم هو تحقيق مجد الأخرويات التي ترقبها اليهود على أساس أن الجسد والدم هما طعام الحياة الأبدية النازل من السماء لحياة ممجدة لا تزول إلى أن يجيء الرب: «كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء» (القديس الإلهي).

وهنا يُلاحظ أن كلمة «يأكل» لم تأت في وضعها العادي φαγεῖν، بل جاءت في اليونانية τρώγειν بمعنى الأكل الدائم المسرور والذي لا ينتهي بزمان معين، وكذلك الشرب بمعنى الشركة الدائمة بالفعل والكلمة والروح على أساس الإفخارستيا في مفهومها الفائق.

ويُلاحظ هنا أن الرب لا يدخل في الحاجة ولا النقاش بعقلية اليهود السلبية، ولكنه احتفظ دائماً دائماً بخط الإيجابية الواقعية في استعلان نفسه بالنسبة للآب وللإنسان على محور واحد وهو ذبيحة نفسه.

٥٥:٦ «لَأَنْ جَسَدِي مَا كَلَّ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ».

هذه هي الإضافة الجديدة التي يشرح بها المسيح حقيقة أكل جسده وشرب دمه. فهنا لا يزال المسيح يخاطب اليهود الذين اعتقدوا أن المن هو خبز سماوي كعلامة مطلوبة في الأيام الأخيرة للتحقق أن مسيرة الله مع شعبه في البرية ستستأنف ثانية لافتتاح عصر المجد لإسرائيل.

فهو يقول هنا أن جسده هو الطعام «الحقيقي»، ودمه هو الشراب «الحقيقي»، وليس المن أو ما يشبه المن ولا ماء الصخرة أو ما يشبهها. وهذا هو المعنى الأبسط والأضعف الذي يخاطب به عقول اليهود. ولكن المعنى الأعمق والأهم هو بالنسبة لمستوى حديث المسيح الذي يهدف به إلى استعلان الحق فيما يخص شخصه بالنسبة لعلاقته بالآب وبالإنسان.

فكلمة «الحق» (٢٥) التي أتت مرتين في مأكل الجسد وشرب الدم هي استعلان لجوهر الجسد ولجوهر الدم. وكلمة «الحق» جاءت في اليونانية في بعض المخطوطات ἀληθής «الحق»،

والمخطوطات الأخرى $\alpha\lambda\eta\theta\omega\varsigma$ «حقاً». فالأولى أي «الحق» $\alpha\lambda\eta\theta\eta\varsigma$ تأتي بمعنى الواقع الحقيقي «ضد الظاهر» أو بالمفهوم اللاهوتي facts، والثانية أي «حقاً» $\alpha\lambda\eta\theta\omega\varsigma$ تأتي بالمفهوم اللاهوتي «ضد المزيف» أي أصلي genuine وتهدف إلى معنى أنه مأكّل يختص بحاجة الإنسان «الحقيقية» وليس للحاجة العارضة كالجوع. والحاجة الحقيقية للإنسان هي لروحه.

وهكذا يتحقق فعلاً أن قول المسيح يهدف إلى إقناع اليهود أن جسده ودمه $\alpha\lambda\eta\theta\omega\varsigma$ أي للحاجة الحقيقية بالنسبة لإسرائيل — أي الحياة الأبدية — وليس لحاجة ملء البطن أو المسرة بعمل إعجازي — لحياة المجد الدنيوي — كما تجيء كلمة $\alpha\lambda\eta\theta\eta\varsigma$ للمعنى الأعمق كما فهمها وسجلها الإنجيل، أن الأكل من الجسد ليس كما تصوروا أنه أكل قطعة لحم جسد إنسان عادي وأن الشرب من الدم ليس هو شرب ملء الفم من الدم المادي حسب ظاهر المعنى، وظاهر اللحم والدم، بل هو أكل روحي بالحق وبالجوهر، أي أكل الجسد كله بملء الكلمة فيه. «والكلمة صار جسداً» (يو: ١٤)، أي «أكل سر التجسد بأكمله»، هذا هو جوهر الجسد، وشرب الدم هو شرب أو احتواء كل دم ذبيحة المسيح على الصليب أي «شرب سر الفداء»، «بشرب كل حياة المسيح التي في دمه». هذا هو المأكّل الحق للجسد والشرب الحق للدم، لأن الحق لا يتجزأ قط وهو يختص بالإلهيات.

ولا ننسى أن كلام المسيح دائماً يبدأ هو روح وحياة. ولكن لا ننسى أيضاً أن كلام المسيح كان مسموعاً بالأذن اللحمية ونحن الآن نقرأه بالحروف المكتوبة، وقول المسيح أن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا، وأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له، فهنا الروح والحق في السجود لا يلغيان السجود الجسدي بل يرفعانه إلى مستوى الروح والحق. هكذا أيضاً في أكل الجسد وشرب الدم فإنه يجري على المستوى الجسدي المحسوس المنظور في سر الإفخارستيا بالخبز والخمر، لأن المسيح المأكول محسوس ومنظور، ولكن المأخوذ منه للحياة الأبدية هو الروح والحق على مستوى «أنا هو الحق».

ولكن حتى هذه الآية لم يُفصح المسيح عن إجراء سر الإفخارستيا بالخبز والخمر لأن مياعده لم يحضر بعد. فالمسيح هنا يضع الأساس الذي سيبنى عليه يوم الخميس سرّه الخالد، ثم يتم هذا السر بالفعل يوم الجمعة. على أن ق. يوحنا لم يطرق جميع الأسرار على مستواها الطقسي المادي، بل استعلنها جميعاً على المستوى الإلهي الروحي. فقد ذكر الميلاد الثاني من الماء والروح، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن إجراء سر العماد؛ وذكر الجسد والدم والأكل والشرب منهما، ولم يذكر كلمة واحدة عن كيفية إجراء سر الإفخارستيا بالخبز والخمر؛ وذكر التجسد الإلهي بعمق لا

يُجَارَى وعن حياة الكلمة قبل التجسد، ولم يكتب كلمة واحدة عن ولادة المسيح العجيبة أو سر بتولية العذراء مريم ولا حتى اسمها مع أنها عاشت معه زمناً طويلاً في بيته.

هذا هو ق. يوحنا وهذا هو إنجيله، فهو دائماً أبداً يتكلم عما لم يتكلم عنه بقية الإنجيليين، وشُغْلُه الشاغل هو استعلان الحق الإلهي في حياة المسيح وكل أعماله وأقواله.

٥٦:٦ «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ».

هنا ينتقل المسيح بعقول اليهود نقلة كبيرة وهامة للغاية، فالأكل من المن السماوي لم يغير شيئاً من طبيعة آبائهم، فقد ماتوا «روحياً» بمفهوم أنهم حُرموا من الدخول إلى راحة الله بسبب عدم الإيمان، وبالأكثر بسبب العصيان والتذمر على الله والتمرد، بل واستخدام الأكل للذة الجسد وشهوة النفس: «كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل (من المن) والشرب (من ماء الصخرة)، ثم قاموا للعب، ولا نزن كما زنى أناس منهم...» (١ كو ١٠: ٨ و ٧). واضح أن الأكل من المن والشرب من ماء الصخرة مع أنه كان «طعاماً روحياً وشراباً روحياً» (١ كو ١٠: ٤ و ٣)، إلا أنه لم يغير من طبيعتهم شيئاً، بل تحول لهم الأكل والشرب إلى لعب وزنا.

هنا يعطي المسيح المقارنة بين أكل وشرب يشرموتاً لأنه لم يتغلغل جوهر الروح والنفس، وبين خبز الحياة الذي يعطيه المسيح بجسده ودمه لينشئ حياة أبدية؛ فجسده مأكلاً حقاً أي جوهرياً، أي إلهياً، وفي نفس الوقت هو جسد ذاتي أي يختص بشخص المسيح ابن الله. فالذي يأكل منه، أو على الأصح يأكله، فالجسد يصير فيه ويبقى فيه كما هو، جسد ابن الله الوحيد بصفاته الحية.

ويلاحظ القارئ أن كلمة «يثبت» كما جاءت بالعربية هي في اللغة اليونانية يبقى μένει وهو نفس الفعل المشتق منه كلمة «الباقي»: «الخبز "الباقي" للحياة الأبدية μένουσαν» في الآية ٢٧.

وكذلك الدم، فالذي يشرب منه أو على الأصح يشربه، يصير الدم فيه ويبقى فيه دم ابن الله الوحيد المذبح بصفاته، بالروح الأزلي الذي فيه ونفس المسيح الحية الخالدة.

ويعني كلياً، يكون كل «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي»، أصبح أنا كلياً فيه وأبقى فيه بجسدي، أي بسر تجسدي، وبدمي، أي بسر فدائي بحياتي وموتي وقيامتي، فيصير موتي فيه لموته

أي فدائه، وحياتي لحياته الأبدية، وتصير قيامتي لقيامته في ملء المجد.

وهكذا يتم القول بالحرف الواحد: «يثبت فيّ وأنا فيه». هذا الثبوت هنا عجيب حقاً وسريّ للغاية. فهو ثبوت الجسد الإلهي بالجسد (الروحي) للإنسان وثبوت الروح الأزلي بروح الإنسان، وهذا هو الذي ينشئ فينا القيامة. إنه التحام حي، شخص بشخص، ينشئ اتحاداً ووحدة. وهذا هو ما حدّا ببولس الرسول أن يقول: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه وعظامه.» (أف ٥ : ٣٠)

والعجيب أيضاً في سر الثبوت هذا أنه مُتبادَل لتأمين الاتحاد، خوفاً من ضعف الإنسان وانفلاته. فنحن لا نثبت فيه بإمكانياتنا الضعيفة وإيماننا الأضعف فقط، وإلا فالإنفكاك وشيك الحدوث لا محالة، لذلك أمّنه المسيح بنفسه أيّما تأمين: «يثبت فيّ وأنا فيه». ولاحظ هنا، أيها القارئ العزيز، أن الثبوت جاء هنا فردياً لكل من يأكل ويشرب بإيمان، واحداً واحداً. إنها علاقة فردية أنشأها المسيح بموته عن كل نفس، لأنها علاقة حب، بل عِشْق متبادل، ملأت قلب المسيح نحو النفس البشرية كعريس وعروس. ولكن لا يخطيء الفاهم والشارح، فالحب سبب، والبذل ثم الثبوت والاتحاد نتيجة: «هكذا أحب... حتى بذل» «ليس لأحد "حب" أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه "لأجل أحبائه"» (يو ١٥ : ١٣)؛ «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأظهر له ذاتي. في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم.» (يو ١٤ : ٢١ و ٢٠)

إذن لا يخطيء أحد ويفهم أن الأكل من الجسد والشرب من الدم أنه فريضة، أو هو طقس فرضه المسيح كما فرض موسى الناموس كقانون، بل هو فعل محبة وثمره عِشْق متبادل بين النفس والمسيح المذبح كعريس من أجلها. لذلك يصرّح المسيح لليهود بمواجهة صعبة ومُرّة: إنهم محرومون من خبزه الحي، من جسده ودمه، لأنهم رفضوه كابن الله الحبيب: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني.» (يو ٨ : ٤٢)

أما بالنسبة للربط بين الآيات، فبمعكس ما يرى كثير من علماء الكتاب المقدس بأن الآيات مكررة وغير مترابطة، نجد هنا نحن مترابطة أشد الارتباط لو أخذنا بالعمق الروحي الذي هو من خصائص هذا الإنجيل، فقله: «لأن جسدي مأكّل حقّ ودمي مشرّب حقّ»، فهو هنا ينقل الأكل والشرب من الجسد والدم إلى مستوى «الحق»، أي مستوى «أنا هو»، أي بالمفهوم اللاهوتي، إلى مستوى الجوهر الذاتي، أي بتوضيح أكثر إلى مستوى «أنا» = الذات الإلهية للابن + «هو» كيان الابن أي جوهره أو طبيعته.

لذلك فالتسلسل يأتي هنا بمنتهى القوة والعمق حينما يقول بعد ذلك : « مَنْ يَأْكُلْ جَسْدي ويشرب دمي يثبت "فِيَّ"، و"أنا" فيه ». « فالحق » في الآية السابقة يُفَسَّر في الآية التي بعدها بـ « أنا ».

وإلى هنا لم ينحرف المسيح بنظره أو توجيه كلماته بعيداً عن اليهود الذين يحاججونه، كما يرى علماء الكتاب المقدس، ولكن المسيح كان، بأن واحد، ينظر إلى تلاميذه وإلينا وإلى الأجيال كلها إلى منتهى الدهور، لذلك تجيء كلمات المسيح دائماً ذات أبعاد متسعة لا تغيب عن القلوب المتسعة.

٥٧:٦ « كما أُرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ وَأنا حَيٌّ بِالآبِ (كذلك)، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي ».

وهنا ختام التنقل بالفكر اليهودي إلى نهايته وغايته العظمى. فلقد تدرج المسيح تدرجاً غاية في الدقة والاستعلان:

- من الخبز الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان،
- إلى « خبز الله النازل من السماء »،
- إلى « أنا هو خبز الحياة »،
- إلى « أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء »،
- إلى « الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم »،
- إلى « إنْ لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم »،
- إلى « مَنْ يَأْكُلْ جَسْدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيمُه في اليوم الأخير »،
- إلى « جَسْدي ما أَكُلُّ حقٍّ ودَمي مشرَّب حقٍّ »،
- إلى « مَنْ يَأْكُلْ جَسْدي ويشرب دمي يثبت فِيَّ وأنا فيه »؛
- إلى هذه الآية الأخيرة التي نحن بصددِها: « مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي ».

هنا في هذه الآية الأخيرة، يعلن المسيح وجوده الكلي ككلّ as a whole — « يحيا بي » — في إفخارستيا الجسد والدم، كحياة نحيّاها في حياته.

« كما أُرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ وَأنا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي »:

« أُرْسَلَنِي الآب »:

الإرسالية هنا تستهدف الإعلان عن « التجسد »، ولكنها تتضمن معنىً ضمناً ذا أهمية، وهو

وحدة التناسق بين الآب والابن على أساس وحدة الكرامة، وليس كسيد وعبد: «لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو ٥: ٢٣)

وهنا يضع المسيح إرساليته في الموازنة المتوازنة «كما ...، ... كذلك» التي يلجأ إليها المسيح لجعل علاقته بالآب مثلاً يُحتذى ويُمتلك لنا: مثل «كما أرسلتني إلى العالم، (كذلك) أرسلتهم أنا إلى العالم» (يو ١٧: ١٨)، «كما أحببني الآب، كذلك أحببتكم أنا» (يو ١٥: ٩)؛ «... كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك (كذلك) ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو ١٧: ٢١)

وق. يوحنا يستخدم نفس أسلوب المسيح في رسالته: «مَنْ قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سَلَكَ ذاك (تجاه الآب) هكذا يسلك هو أيضاً.» (١ يو ٢: ٦)

فإذا كانت الإرسالية تستهدف معنى التجسد والشهادة والاستعلان للآب، فالمسيح يضعها ضمن الأشياء الموهوبة لنا عندما «نأكله» في سر الإفخارستيا. فعندما نأكله، نحيا بحياته بكل مخصصاتها مثل: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب، (كذلك) أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني.» (يو ١٥: ١٤ و ١٥)

والمسيح نقل لنا في شخصه بجسده ودمه علاقته بالآب وعلاقة الآب به.

«الآب الحي»:

صفة من الصفات الجوهرية أي الطبيعية لله التي طالما وُصف بها الله في العهد القديم: «لأنه مَنْ هو مِنْ جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش.» (تث ٥: ٢٦)

أما كلمة «الحي» فهي ليست صفة شخصية فقط وإنما صفة جوهرية — كما قلنا — يعبر عنها المزمور: «عندك ينبوع الحياة.» (مز ٣٦: ٩)

«وأنا حيٌّ بالآب»:

هنا اللغة العربية قاصرة عن أداء المعنى الوارد في الأصل اليوناني $\delta\iota\alpha\ \tau\acute{o}\nu\ \pi\alpha\tau\acute{\epsilon}\rho\alpha$ والتي تعني «بسبب»: «Because» or «on account of» والتي لا يمكن فهمها في اللغة اليونانية على أن الآب علة أو آلة لحياة المسيح، إذ كان يتحتم أن تعني $\delta\iota\alpha\ \tau\omicron\upsilon\ \pi\alpha\tau\rho\acute{o}\varsigma$.

والتعبير «أنا حيٌّ بالآب» تعبير لاهوتي مبسّط معناه أن الابن لا يحيا وحده، ولكن حياة الآب هي حياة الابن.

فإذا أكلنا الجسد والدم، فنحن لا نعود نحيا وحدنا، بل نحيا حياة المسيح النابعة من نفس ينبوع الآب. وهكذا يتم الرباط الإلهي بين الإنسان والله الآب بحياة المسيح التي تناولها ونحيا بها من الإفخارستيا، أي الجسد والدم.

ونلاحظ أن المسيح سبق وأعلن أن له حياة أبدية في ذاته، وكلمة «في ذاته» تعني في صميم طبيعته وجوهره: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يوه: ٢٦). فهنا الحياة الذاتية للآب والابن واحدة، لأن الحياة الأبدية هي من جوهر الطبيعة الإلهية. ولكي تكون العلاقة بين الآب والابن واضحة في ذهن القارئ، فليفهم أن الابن يستمد من الآب بنوّته فقط، وهذه العلاقة ليست مستحدثة قط، أي لم يكن هناك زمن ما لم يكن في الذات الإلهية بنوّة، بل البنوّة والأبوة قائمتان أزلياً في ذات الله الأزلية. فالأبوة صفة جوهرية في الله، والبنوّة مثلها تماماً صفة جوهرية في الله. أما الطبيعة — أي الجوهر — فواحد، فطبيعة الآب هي طبيعة الابن، وحياة الآب هي حياة الابن، لأن الحياة ليست صفة ذاتية بل جوهرية. فالمسيح هو الحياة الأبدية من جهة طبيعته، وهذا يعلنه ق. يوحنا في بداية رسالته الأولى هكذا:

«فإن الحياة اُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.» (١ يوا: ٢)

أما المسيح فقد كرر مراراً وتكراراً أنه هو الحياة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يوه: ١٤: ٦)، «أنا هو القيامة والحياة.» (يوه: ١١: ٢٥)

فهنا قول المسيح «أنا حيٌّ بالآب» يفيد إتحاد الأبوة بالبنوّة في حياة واحدة غير منفصلة، يكشفها المسيح ويعلنها بالقول والعمل. أما هنا في هذه الآية فهو يسلمها لمن يأكل جسده ويشرب دمه لأنه يحيا به: «من يأكلني فهو يحيا بي»، وبالتالي يحيا بالآب، لأن المسيح حيٌّ بالآب.

ويعني آخر أيضاً: فلأن «الآب حيٌّ»، فيتحتّم بالضرورة أن يكون الابن حياً، لأن الابن بالآب قائم ويكون وحيًا، وكما أن الابن (المسيح بالتجسد) حيٌّ فيتحتّم بالضرورة أن من يأكل المسيح يصير حياً، لأن الإنسان بتناوله الجسد والدم يصير ويقوم ويدوم في المسيح وبالمسيح.

وقد أعلنها المسيح في موضع قادم: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩)، ويصفها ق. يوحنا في نهاية رسالته الأولى بمنتهى الوضوح والقوة: «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية. وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لتعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يوه ١: ١١ و ١٢ و ٢٠)

أما إذا أردنا أن نفهم القصد والغاية العظمى من أكل جسد المسيح وشرب دمه كما كل حقٍّ ومشرب حقٍّ، هذا الذي عبّر عنه المسيح أخيراً: «من يأكلني فهو يحيا بي»، فعلينا أن نعود إلى فكر بولس الرسول الذي عبّر عنه تعبيراً واقعياً غاية في العمق والتصوير اللاهوتي لمفهوم كيف يتحول جسد المسيح فينا إلى جسد كلي وشامل — جسد سري — نصير فيه أعضاء بل نصير من نفس مادته الروحية الفائقة: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥: ٣٠)

فانظر، أيها القارئ، وافهم أن الإفخارستيا، أي الأكل والشرب من جسد المسيح ودمه بالروح والحق والشكر، هي المدخل الحسي والروحي واللاهوتي بآن واحد للدخول في جسد المسيح السري، بل للاتحاد به أيضاً، بل للثبوت الأبدي، بل للحياة الأبدية والتمجيد الدائم.

وهنا بعد أن استعلن المسيح وجوده الذاتي الكلي كحياة في الجسد والدم، وبعد أن استعلن الثبوت المتبادل بين المسيح والإنسان من خلال الجسد والدم؛ كشف الرب الاستعلان الأخير بأن الإنسان أصبح له نصيبٌ مع الله الآب، أي ثبوت حياة الإنسان — بالتالي — بالله الآب أيضاً من خلال المسيح الحي في الإنسان، بالجسد والدم، أي من خلال الإفخارستيا في مضمون ذبيحة المسيح.

وهكذا يصل المسيح بالفكر اليهودي إلى أساس العهد الجديد بدم المسيح، كعهد دم بروج أزي يربط الإنسان بالله الحي!!

هذا العهد الجديد استعلنه المسيح وسجله بالقول والكلمة يوم الخميس: «هذا هو جسدي ... هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين» (مر ١٤: ٢٢ و ٢٤). ثم حققه على مستوى ذبح الجسد وسفك الدم الفعلي يوم الجمعة.

وهكذا يضع المسيح الفكر اليهودي أمام عهد جديد بفصح جديد، ليس بالمنّ ولا بلحم خروف مذبوح، ولكن بذبيحة نفسه التي هم مزعمون ومضرون تقديمها، ليصير جسده ودمه هما عهد الله الجديد مع شعبه.

والمسيح يوضح بذلك لليهود أن المن الجديد الذي يطلبونه يستلزم عهداً جديداً سبق الرب وأعلن عنه بضم أنبيائه :

— «لأنه يقول لهم لائماً هوذا أيام تأتي، يقول الرب، حين أكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أُمسكتُ بيدهم لأخرجهم من أرض مصر، لأنهم لم يشبّوا في عهدي وأنا أهملتهم، يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجعلُ نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم، وأنا أكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.» (عب ٨ : ٨—١٠)

وهكذا يقدم المسيح جسده ودمه لليهود المزمعين أن يذبحوه، كمنّ جديد وفصح جديد معاً — للحياة وليس للموت بعد — حيث يصير دمه وثيقة عهد الله الجديد مع شعبه ؛ وهذا يعبر عنه بطرس الرسول في رسالته الثانية هكذا :

— «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة (الأبدية) والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وهبَ لنا المواعيد (العهد) العظمى والثمين، لكي نصبروا بها شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢ بط ١ : ٣—٤)

فحياة الآب والابن المتحدة، وهي صميم الطبيعة الإلهية، سلّمها لنا المسيح في الجسد والدم، لنشارك فيها فنحيا بالله وبالتقوى.

٥٨ : ٦ «هذا هو الخبز الذي نزل من السماء، ليس كما أكل آباؤكم المنّ وماتوا. مَنْ يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد.»

وعودة المسيح على ذي بدء لنفس الآية التي انطلق منها لشرح لليهود معنى الخبز الحقيقي النازل من السماء، هذا الذي يطلبونه بخداع البصر كأنه المنّ القديم، هذا الرجوع والذي يختم به المسيح شرحه المطول، يثبت أن نظر المسيح المثبت على اليهود المحاججين كما هو لم ينحرف، فهم كانوا من البداية إلى النهاية الهدف الذي سلّط عليه كل إعلاناته. ولكن للأسف لم تكن لهم أذن تسمع، ولا عيون تبصر، فأباؤهم أكلوا المنّ وماتوا، وهم اشتهاوا أن يأكلوه، فما أكلوه، وما عاشوا.

فكان كلام المسيح على آذانهم كلغز بقي بلا حلّ، أو بحسب قول المسيح نفسه : «لکم قد أعطيت أن تعرفوا أسرار ملكوت الله، وأما للباقيين فبأمثال حتى إنهم مبصرين لا يُبصرون وسامعين لا يفهمون» (لوقا ٨: ١٠). وليستمعن القارئ ملياً في كلمة «أسرار ملكوت الله»، لأنها هي موضوع حديثه في الجسد والدم، كما يلاحظ أن أسرار ملكوت الله تعبر على العيون فلا تراها وعلى الآذان فلا تسمعها لأن سر الرب لمُتَّقِه (أو الخائفه) (مز ٢٥: ١٤). والذي يصدّق أقوال الله وهي كلها تحمل سر الله، فالله يعلن له أسرارهِ فيفهمها ويُسرُّ بها : «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥)، وهذا تم بالحرف الواحد في عشاء الخميس، وفي يوم الخميس.

«هذا هو الخبز» :

في هذه الكلمة الصغيرة «هذا هو» يعبر الرب بشريط أقواله كلها من «الخبز النازل من السماء» إلى «مَنْ يأكلني يحيا بي»، والتي انتهى بها إلى، والتي تحوي في داخلها، سر موت الرب وقيامته. فالأكل يحمل، بقوة، معنى الذبيحة المذبوحة. «ويحيا بي» يحمل معنى القيامة والحياة. والاثنان معاً يحملان الشراكة الكاملة السرية في فعل وقوة الفداء والخلاص؛ كما يطرحان، مُسبقاً، سر الإفخارستيا الذي سيأتيه الرب في وقته.

كما يلاحظ القارئ أن كلمة «هذا هو» تحيي لتشير إشارة مباشرة ومنطبقة انطباقاً سرياً على قول المسيح «أنا هو». لأن الخبز النازل من السماء أصبح واقعاً حياً ملموساً مشخّصاً في المتكلم، أي ابن الله الكلمة المتجسد الذي دُبِح فعلاً وقام وهو حي.



التعقيب على حديث الرب في مجمع كفرناحوم

(٧١ : ٥٩ - ٦)

٥٩ : ٦ «قالَ هذا في المجمع وهو يعلمُ في كفرناحوم».

ق. يوحنا هو المتكلم الآن، وهو يميّن المكان الذي تم فيه حديث المسيح الذي سبق أن سجّله، أي في المجمع، ولم يكن ذلك أثناء العبادة ولكن في وقت التعليم. ومن الأمور التي تبهج القارئ أن بقايا آثار مجمع كفرناحوم هذا لا تزال قائمة بصورة حية جميلة في فلسطين، في الموضع المعروف بـ «تل حوم» (أنظر الصورة)، حيث وجد العالم ولّسن أثناء حفرياته حجراً كبيراً محفوراً عليه صورة وعاء المن. (٢٦)

والمعروف أن درس نزول المن كان ضمن خدمة الصباح في مجامع اليهود. والدروس في المجمع كانت تُقام في أيام السبت والاثنين والخميس.

٦ : ٦٠ - ٦٣ «فقال كثيرون من تلاميذه، إذ سمعوا، إنّ هذا الكلام صعب. مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَ. فَعَلِمَ يَسُوعُ فِي نَفْسِهِ أَنْ تَلَامِيذَهُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَى هَذَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَهَذَا يُغَيِّرُكُمْ؟ فَإِنْ رَأَيْتُمْ ابْنَ الْإِنْسَانِ صَاعِداً إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلًا. الرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي أَمَّا الْجَسَدُ فَلَا يُفِيدُ شَيْئًا. الْكَلَامُ الَّذِي أَكَلِمَكُم بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحْيَةٌ».

«الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أَكَلِمَكُم بِهِ هو روح وحيّة»:

المسيح يلجّ على العقل البشري أن لا يهبط بالإلهيات إلى مستوى التراب، ولقد كرر ذلك في كل حديث، ولكن ليس بنفس الهدف.

فأولاً مع نيقوديموس، كان الهدف هو الميلاد الجديد للإنسان من فوق وبالروح، ولما عجز عن إدراك «الميلاد الثاني» الروحي للإنسان، اضطّر المسيح أن يقول له: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو ٣ : ٦). أما كيف يتم ذلك؟ فمن المستحيل على العقل البشري متابعته، كما لو أردت أن تتبّع ريحاً تهبّ، فأنت لا تعرف لا من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كلُّ مَنْ وُلِدَ من الروح، فأنت ترى فيه الواقع المتغير أي الإنسان الروحي الجديد

²⁶ Warren's recovery of Jerusalem, p. 344. Cited by: Westcott, *op. cit.*, p. 108.

بالعقل الروحي الجديد، فتندهش، ولكن يتعذر عليك الفحص.

وثانياً مع المرأة السامرية، كان الهدف أن يسقيها الماء الحي أي الروح القدس، ولما تفكرت أنه ماء جسدي وعجزت عن إدراك شُرب الماء الحي، طلب منها أن تتوب عن خطاياها التي كانت سر المعجز، فلما تابت شربت من الماء الحي. ولكن كيف شربته؟ لا نعلم، الذي نعلمه أنها صارت مُبشِّرة بالخلاص، وقادرة أن تسقي الآخرين، لأن نبع المياه الحية اندفق في أحشائها.

وثالثاً مع الجليليين، أراد أن يُطعمهم من خبز الحياة النازل من فوق، فحسبوه مَنّاً، وعجزوا عن فهم خبز الحياة. طلب منهم أن يؤمنوا به أولاً حتى يدركوا سر جسده المذبح وسر دمه المسفوك اللذين هما خبز الحياة الأبدية، فلما عثروا — حتى تلاميذه عثروا — في كيفية أكل الجسد وشُرب الدم، عاد مرة أخرى يقول إن كلامه على مستوى الروح وليس على مستوى الجسد. فهو أكلٌ حقٌّ وشُربٌ حقٌّ، أي أكل جسدٍ روحيٍّ سماويٍّ، وشُرب دمٍ روحيٍّ سماويٍّ — وليس أكل جسدٍ إنسانٍ وشُرب دم إنسانٍ — بل هو أكل الكلمة في الجسد وشُرب الروح في الدم. أما كيف يكون ذلك؟ فهذا ما لا يمكن أن يلاحقه العقل، تماماً كما لا يمكن أن يلاحق كيف صار الكلمة جسداً. هكذا وبنفس السرية يصير الإنسان بالأكل من الجسد والشُرب من الدم إنساناً روحياً يتغذى بالروح وسر الكلمة، الكلمة الذي كان منذ البدء عند الله، الفقَّال في الخليقة، فلكي يكمل فعله في الخليقة البشرية، أخذ جسداً؛ وبدون هذا الجسد لم يكن ممكناً أن تبلغنا كلمة الله كفعل خلاص. فكلمة الله في ذاتها مُخلَّصة، ولكنها لم تخلَّص بالفعل إلا بالجسد والدم على مستوى الذبح وسفك الدم.

فاللاهوتيون وأصحاب الفكر القائل أن الأكل والشرب هما على مستوى الإيمان بالكلمة المقروءة والمبشَّر بها فقط، وليس بالخبز والخمر المتحوّلين، يتجاوزون سر التجسد كفعل حدث، و يتخطَّون عملية الذبح وسفك الدم كفعل حدث، هذه التي بها أدركنا سِرَّ الكلمة ابن الله!!! أي أن الأكل من جسد المسيح والشرب من دم المسيح يستحيل أن يكون نظرياً تأملياً تصوفياً بالفكر أو حتى بالإيمان فقط. إن الأكل من الجسد والشرب من الدم هما شركة في فعل مأسوي عنيف، شركة في ألمٍ وغُصَّةٍ وموتٍ وقيامة، وليس شركة في مبدأ إيماني يؤخذ بالفهم. فالله لم يخلَّص العالم بالكلمة المنطوقة، بل بالكلمة المتجسدة المذبوحة.

إن قول الرب: «الكلام الذي اكلمكم به هو روح وحياة»، لا معنى له ولا قوة إلا بفعل الموت والقيامة. «فالروح والحياة» لم يُستعلنا لنا، ولن يُستعلنا فينا إلا بشركة فعلية في الموت

هذا عينه، وفي القيامة هذه عينها، وهذا لن يتم فينا إلا بأكل الجسد الذي فيه سرُّ الموت وشرب الدم الذي فيه سرُّ الحياة.

لذلك، وبالنهاية، يكون استعلان الحياة الأبدية هو بالكلمة الحية، وفي الفعل المحيي معاً، بلا تعارض أو تمييز.

أما سرُّ الإفخارستيا الذي أسسه الرب في عشاء الخميس بالخبز والخمر، اللذين بثَّ فيهما سرُّ جسده ودمه، أي سرَّ تجسُّده وذبحه، فقد جاء بعد أن أكمل المسيح استعلان الموت والقيامة في نفسه، مقدِّماً جسده ودمه عطيةً حبٍّ مُسبقة لأحبائه كخبز الحياة الأبدية، كحقيقة مطلقة لا بد أن تؤخذ أولاً بحد ذاتها قبل أن تُطبَّق على مادة سر الإفخارستيا. فالمسيح قدم الحقيقة المطلقة أولاً، ثم بعد ذلك أخضعها للممارسة العملية. فالإفخارستيا حقيقة مطلقة بقوة سر المسيح للممارسة عملياً.

وفي سر الإفخارستيا تتحد الكلمة المطلقة بالفعل المنظور:

[... كلُّ مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتي وتعرفون بقيامتي] (القداس الإلهي).

الأكل ينشئ بشارة، والشرب ينشئ اعترافاً، وهكذا نشترك في حياة المسيح وموته بالسر والكلمة معاً، بالحقيقة المطلقة والفعل المنظور.

وليُلاحظ القارئ أن المسيح لم يردَّ على نيقوديموس حينما سأله: «كيف يمكن أن يكون هذا» (يو ٣: ٩)، عن الميلاد من الروح — كما أنه لم يرد على اليهود عندما سألوا: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل»، لأن المسيح قصر استعلان الفعل السرائري، سواء في المعمودية أو الإفخارستيا فقط على الذين آمنوا بالكلمة. وكل ما استطاع المسيح أن يُزيده شرحاً هو قوله إن الكلام الذي يقوله «روح وحياة»، لأن الجسد، أي المادة، لا يفيد شيئاً بحد ذاته، ولكن الروح والحياة اللذين في الجسد والدم يفيدان في كل شيء //

وق. يوحنا تحاشى ذكر الطقس ليوفي الحقيقة الروحية المطلقة فهمها وعملها أولاً، وهو بذلك يحرس الطقس من أن يُبتر فيكون بشكله المادي نهايةً بحد ذاته، فتسقط الكنيسة في أحد خطأين: الخطأ الأول أن تحسب المادة فعَّالة بحد ذاتها، والخطأ الثاني أن ينحصر سر الإفخارستيا في أن يكون مجرد رمز.

وللقديس أغسطينوس شرح يفيد هذا المعنى إذ يقول :

[وهكذا يريد المسيح أن يُفهم هذا الأكل وهذا الشرب على أنهما واسطة للشركة في جسده وأعضائه التي هي الكنيسة... فالسرُّ في الإفخارستيا هو الوحدة في المسيح القائمة بين الجسد والدم اللذين يُقَدَّمان على مائدة الرب يومياً في بعض الكنائس وعلى فترات معينة في كنائس أخرى، واللذين يتناولهما البعض للحياة والبعض الآخر للهلاك. أما السرُّ نفسه فهو موضوع لحياة كل الناس وليس لهلاك أحد بالمرة لكل من يتناوله] (عظه ١٦: ١٥ على إنجيل يوحنا).

[هكذا فإن معنى أن يأكل الإنسان من الجسد وأن يشرب من الدم، هو أن يثبت في المسيح والمسيح يثبت فيه؛ وبالتالي فإن كل من لا يثبت في المسيح والمسيح لا يثبت فيه، فهو بلا شك لم يأكل جسده ولا شرب دمه، بل إنه في الحقيقة أكل وشرب من سر عظيم بهذا المقدار لدينونة نفسه] (عظه ١٦: ١٨ على إنجيل يوحنا).

وهكذا جمع القديس أغسطينوس بين الحقائق المطلقة التي شرحها الرب وبين عمل السر في الإفخارستيا، وجعل الحقائق المطلقة حارساً لصحة السر وعمله.

وهنا نسمع أن كثيرين من تلاميذه قالوا: «هذا الكلام صعب من يقدر أن يسمعه»، لتذكر دائماً قول النبوة عند ميلاد المسيح على فم سمعان الشيخ: «ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاومُ». (لوقا ٢: ٣٤)

لقد سقط هؤلاء الكثيرون من تلاميذه عن مستوى الروح والحياة. وكلمة «كثيرون» توضح النسبة بينهم وبين الاثني عشر، أي بين الذين يسقطون والذين يقومون في المسيح يسوع على مستوى الإيمان وتصديق الرب، وهي دائماً نسبة محزنة. وهي ليست محزنة لأنها على المستوى العام فقط بل وعلى المستوى الخاص جداً، إذ هي قائمة بين المدعوين أيضاً: «هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخريين. لأن كثيرين يُدْعَوْنَ وقليلين يُنْتَخَبُونَ». (متى ٢٠: ١٦)

لماذا؟؟؟ لأن الكثيرين يحكِّمون العقل والمنطق، والقليلون هم الذين يطيعون الإيمان والكلمة ببساطة قلب، والعقل بطبيعته يحكم حسب مقاييس العالم، ويبدأ بفرح كاذب وينتهي بالحزن والتشاؤم (متى ٢٢: ١٣ و١٤)، أما القلب فيعيش بمقياس الروح، ويبدأ بالتسليم الهادئ وينتهي إلى الفرح والابتهاج: «وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب». (أع ٢: ٤٦ و٤٧)

« هذا الكلام صعب » :

كلمة « صعب » تأتي في اليونانية بمعنى « التصلب » σκληρός من σκέλλω أي « يجف » أو « ينشف » ، وهذه الكلمة يفهمها الأطباء ، إذ هي تُستخدم لوصف الأوعية الدموية حينما تُصاب بالتصلب وعدم الليونة فتمنع مسيرة الدم فيها . فلو أضفنا إليها الكلمة التي جاءت بعدها : « من يقدر أن يسمعه ἀκούει » ، فهذا يكمل المعنى بأن كلام المسيح لم يدخل مجاري أسماعهم ، لأن آذانهم الروحية مسدودة ولم تنفتح بكل الكلام الروحي الذي قاله المسيح ، والكلمة صارت ثقيلة على آذانهم وغير مقبولة ، والنتيجة أنهم بدأوا يتذمرون ، لأن : « مَنْ ليس معي فهو عليَّ » (مت ١٢ : ٣٠) ، لأن الأذن الطبيعية احتكرت العقل وامتألت بمتطلبات الدنيا . أما صعوبة الكلمة التي انسدت آذانهم عن قبولها ، فهي على مستويين مرتفعين :

الأول الذي سقطوا من دونه وهو : كيف أن « يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه » يكون قد نزل من السماء ؟

والثاني : « كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل » ودمه لنشرب ؟

لهذا كان ردُّ المسيح على الصعوبة الأولى هكذا : ماذا سيكون موقفكم حينما ترون ابن الإنسان صاعداً إلى السماء حيث كان أولاً ومن حيث نزل ؟

والمستوى الثاني الذي سقطوا منه وعثروا فيه كان ردُّه عليه أن الجسد المأكول ليس لحمًا بشرياً ، بل جسداً إلهياً حقيقياً يؤكل بالحق أي بالروح (في الصورة التي سيعطيها ، أي الخبز) ، والدم ليس دماً بشرياً بل هو دم بروح أزلي يُشرب بالروح (في الصورة التي يعطيها ، أي الكأس) ، لأن أكل الجسد بالجسد لا يفيد شيئاً ، ولكن الأكل الروحي للجسد بالروح يُغيي مر

وقد عَقَّبَ المسيح على ما قاله فيما يخص الأكل والشرب ، بأنه على مستوى الروح والحياة و يوصل إليهما ، وهما كأساس للروح يُبَنَّى عليه القلب ويرتفع ، أما العقل أو الجسد فلا يستطيع أن يبلغ إليهما .

و يلاحظ القارئ أن المستوى الأول الذي أنشأ صعوبة عند التلاميذ المزيَّفين يختص بنزول المسيح من السماء ، وهذا يفيد التجسد الإلهي ، وهو حجر الأساس في بناء الإيمان . أما المستوى الثاني الذي أعثرهم والذي يختص بالأكل من الجسد والشرب من الدم ، فيفيد الفداء والخلاص ، وهو جوهر الإيمان وتاجه .

«فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً»:

هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها إنجيل ق. يوحنا «صعود» الرب باللفظ الواضح، إذ لم يذكر إنجيل ق. يوحنا صعود الرب إلا بعد قيامته، حينما قال للمجدلية: «... اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إنني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.» (يو ٢٠: ١٧)

أما إغفال ذكره حادثة الصعود ذاتها في الرواية، بعد القيامة فلأن الأناجيل الأخرى استوفت شرحها كرواية. بينما اهتم ق. يوحنا بالآيات والإعلانات التي لم تذكرها الأناجيل الأخرى، واستوفى الشرح اللاهوتي للصعود مراراً وتكراراً في قول المسيح إنه نزل من السماء، والذي نزل سيععد حتماً:

«وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

«أنا معكم زماناً يسيراً بعد ثم أمضي إلى الذي أرسلني.» (يو ٧: ٣٣)
«أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب...» (يو ١٣: ١)

«أنا أمضي لأعد لكم مكاناً.» (يو ١٤: ٢)
«وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق.» (يو ١٤: ٤)
«لأنني ماضٍ إلى أبي.» (يو ١٤: ١٢)
«سمعتهم أنني قلت لكم أنا أذهب ثم آتي إليكم.» (يو ١٤: ٢٨)
«وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني ... إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتاكم المُرزي.» (يو ١٦: ٥ و٧)
«... فلأنني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً.» (يو ١٦: ١٠)
«خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو ١٦: ٢٨)

«ولست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك.» (يو ١٧: ١١)

«وأما الآن فأني آتي إليك.» (يو ١٧: ١٣)

هنا يعطينا إنجيل ق. يوحنا رؤية لاهوتية عميقة ومبدعة عن «معنى» الصعود «وقوته».

فمعنى الصعود لاهوتياً:

هو أن النزول، أي التجسد، رسالة مؤقتة (زماناً قليلاً) انتهت تماماً بالصليب، وهي خاصة

بابن الله المتجسد وحده: «ليس أحد صعد ... إلا الذي نزل» (يو ٣: ١٣). والصعود تكميل للنزول.

أما الإقامة الدائمة فهي في السماء: «ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

والنزول تحقيق فعلي وعملي مُبدع من جهة الله في مشاركة الإنسان: «حلّ بيننا» (يو ١: ١٤)؛ «اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.» (مت ١: ٢٣)

أما قوة الصعود:

فهي في ارتباطه بإرسال الروح القدس الذي حل محل المسيح وكَمَّل عمله، وكان الشرط الوحيد والأساسي لإرسال الروح القدس هو صعود المسيح، إذ أن صعود المسيح كان جزءاً أساسياً لتكميل الخلاص. علماً بأن الصعود كان قوة روحية هائلة فكَّت أسرَ المقيدين بالروح: «سبي سبياً وأعطى الناس عطايا» (أف ٤: ٨)، كما أنه بالصعود تم إعداد مكان لنا في أقداًس الله العليا: «دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً» (عب ٦: ٢٠ و ٩: ١٢)، بل وفتح طريقاً ملكياً صاعداً إلى السماء: «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو ١٤: ٤)، «طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب، أي جسده.» (عب ١٠: ٢٠)

لذلك، فقوة الصعود أصبحت هبة لنا، حتى أننا نحسب بالإيمان أنه أضعفنا معه وأجلسنا معه في السماويات (أف ٢: ٦)، والذي يقرأ الأصحاحين الأول والثاني من سفر الأعمال يشعر بقوة الصعود وكيف ألهبت قلوب التلاميذ لينطلقوا في الصلاة استعداداً لقبول الروح القدس لبدء كرازة العالم!!

وأخيراً، فإن صعود الرب أثبت لاهوت المسيح، أولاً لأن الرب كان يُعَلَّم بالصعود وتحدث عنه، كالنزول تماماً، أي أنه كان عنده جزءاً أساسياً في خطة الخلاص، وثانياً صعوده بالجسد بعد الموت والقيامة استعلن به مجده الإلهي وأثبت به أن نزوله وتجسده كان حقيقة خلاصية. وصعوده بقوة لاهوته وسلطانه تميّز عن صعود إيليا بأن قيل عن إيليا أنه «أُصعد بواسطة الرب»، وبأن ذلك تم في مركبة أرسلت إليه لتحمل ثقله البشري أو ثقل خطاياهم، وأن هذه المركبة كانت نارية للتطهير ليؤهل للدخول في عالم الأرواح المبررة (٢ مل ٢: ١-١١).

كذلك، فإن صعود المسيح إلى فوق كان إشارة إلى البركة العظمى التي وهبها للعالم، كما كان إشارة مبدعة إلى أنه جعل أعداءه تحت قدميه. كما كان صعوده، بحسب تعليمات الملائكة للتلاميذ، إشارة وآية عظمى أنه كما صعد هكذا سوف يأتي أيضاً في مجده ومجد أبيه (لو ٩: ٢٦)؛

ونحن بهذا ننتظر مجيئه بفارغ الصبر في رجاء حار صادق، «نعم ... آمين تعال أيها الرب يسوع.»
(رؤ ٢٢: ٢٠)

٦٦-٦٤: ٦ «ولكن منكم قوم لا يؤمنون — لأن يسوع من البدء عليم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يُسلمه — فقال: لهذا قلت لكم إنه لا يقدر أحد أن يأتي إلي إن لم يُعْظَ من أبي. من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معي.»

المسيح يوجه الكلام هنا إلى مجموعة كبيرة من تلاميذه (٢٧) ربما السبعين الذين كان منهم القديسان مرقس ولوقا، ويفرزهم بعينه الفاحصة كاشفاً الذين لا يؤمنون به أمام ضمائرهم. لأن تذمرهم السابق وعدم إيمانهم كانا في داخل قلوبهم وغير مُعلَّنين. ولكن من العسير أن يخادع الإنسان الله. فالمسيح هنا يعلن لاهوته من خلال درايته بالقلوب وما تخفيه. فلما واجههم المسيح بحقيقة ضمائرهم، لم يستطيعوا أن يستمرّوا في مسيرتهم الكاذبة مع الرب، فكشفوا نيّتهم بأن تركوه علناً، ولم يعودوا يسرون معه، بل رجعوا إلى الوراء وساروا في طريقهم. وما ألعنها مسيرة! «وكما لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض.» (روا: ٢٨)

والمسيح هنا يعود فيكرر أمام تلاميذه عامة أنه لا يجمع تلاميذه جزافاً؛ ولا أحد يأتي إليه من ذاته، بل إن كان المسيح يختار أحداً فإنه يختار الذي دعاه الآب، وإن كان أحد يأتي إليه فهو الذي يجذبه الآب. لذلك فالمسيح غير آسف على المفقود وغير خائف على الموجود. فالمفقود ليس من نصيبه أصلاً، والموجود لا يستطيع أحد أن يخطفه من يده لأنه أخذه من يد الآب!

وبسبب علم المسيح بالذي له وبالذي ليس له، لم يكن يمالئ ولم يكن يهادن، ولا يترجى ولا يسترضي، فكانت كلمته دائماً أمّضى من كل سيف ذي حدين، تدخل إلى مفارق النفس والروح، وتميّز أفكار القلب ونياته (عب ٤: ١٢).

«من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يسرون معه.»
يا حسرة البشرية كلها على هؤلاء التلاميذ. كيف صاروا عاراً على مسيرة الحب والوفاء.

(٢٧) يقول هيبوليتس الإسكندري أن القديس مرقس والقديس لوقا كانا من السبعين رسولاً:

اسمع ما قيل عن حب المسيح لتلاميذه: «... إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى.» (يو ١٣: ١)

الآن نحن نعلم أن الرب كان يتكلم معهم من مصدر الحق الإلهي، كان يدعوهم إلى شركته في الآب أن يكونوا واحداً معه في مسيرة الحياة الأبدية، كان يعرض عليهم سر أكله وشربه بالروح لإتحاد أبدي، كان يكشف لهم عمق أسرار الله ليكونوا، لا علماء ولا خبراء فيها فحسب، بل وشركاء، شركاء لا في معرفته بل شركاء في الطبيعة الإلهية بكل مذكراتها ومواهبها لبني الإنسان. لم يكن يفرض نفسه للأكل والشرب من مستوى الأسياد والعظماء حينما يدعون العبيد لحرية مقيدة، بأن يأكلوا معهم على مائدتهم تكريماً لهم،

بل كان يدعوهم من المستوى الأقل، من مركز الخدم والعبيد، «... آخذاً صورة عبد» (في ٢: ٧)، ويدعوهم ليكونوا شركاء معه في مجد الألوهة: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٢). أعطى مجده في اتضاع العبيد، في وداعة الخدام، في دموع التوسل: «قام عن العشاء وخلع ثيابه (ثياب الكرامة) وأخذ منشفة وأثرر بها (على وسطه كعبد) ثم صبّ (بيده) ماءً في مغسل (طشت)، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها (أيضاً) بالمنشفة التي كان متزراً بها... فلما كان قد غسل أرجلهم... قال لهم: أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأنني أنا كذلك، فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض.» (يو ١٣: ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤)

ولكن التلاميذ لم يستحسنوا كلام المسيح وقرروا أن يقطعوا علاقتهم به، وعادوا إلى الورا إلى سيرتهم الأولى وفضلوها على مسيرته، لأنها أصبحت ثقيلة على قلوبهم، وصارت تكلفهم خسارة أرباحهم المعنوية والمادية:

بعضهم كانت علة دوافعهم كرامة وعادات وتقاليد،

وآخرون كانت دوافعهم مالية وأرباحاً من الحرام والممنوعات،

وآخرون كانت غير ذلك، وآخرون وآخرون، هذه الدوافع كانت مخفية في قاع القلب تنتهز

العلل والمسوغات التي تبرّر الترك. فمالهم والتواضع والمحبة، وما لهم والتوبة المكلفة، وما لهم للدخول في أسرار الله ومواهب الروح، وما لهم وتكاليف القداسة وريح الحلال الضيق! لقد ظنوه في البداية غنيمة يفتنمون من ورائها المزيد من الأرباح والكرامات والجلوس عن اليمين واليسار في ملكه الذي توهموه وجاهدوا من أجله. وهوذا الآن يعرض عليهم موته وذبيحته وتقسيم جسده وشرب

دمه، فهل هذا هو ما يخرجون به من الغنيمة؟

وبعد عِشْرَةٍ قصيرة كان هذا الفراق الحزين والمؤلم على قلب المعلم، لم يتركهم بل هم الذين تركوه، حتى يهوذا لم يطرده الرب بل احتمله بصبر فائق حتى آخر الطريق وإلى أن طرد نفسه، فقد قال الرب مرة: «ومن يُقْبَلُ إِلَيَّ لا أخرجُه خارجاً» (يو: ٦: ٣٧). ولكن إن كان ترك المسيح هكذا يبدو سهلاً هيناً، فالخسارة فادحة عليهم وعلى أولادهم وإلى الأبد.

«ومن تلك الساعة»:

وما أشقاها ساعة! إنها ساعة بؤس في يوم رفض، لا تزال تتكرر وتُذكر حتى هذه الساعة. إنها ساعة لعنة في تاريخ المؤمنين الذين يبيعون الرب والإيمان بلا ثمن أو بثمان بخس، وبخس للغاية.

٦: ٦٧ و٦٨ «فقال يسوع للاثني عشر: أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تَرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟ أَجَابَهُ سِمْعَانُ بطرس: يَا رَبُّ إِلَى مَن نَذْهَبُ، كَلَامُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ».

السؤال هنا الذي يسأله المسيح للاثني عشر هو سؤال استنكاري، يستفز به حرية الرأي والإرادة فيهم. ومعلوم أن الرد عليه سيكون بالنفي، مما يفيد أن الرب يسأله لطرح الحرية أمام الاختيار حتى يستوثق كل واحد فيهم من موقفه وأمام نفسه، لأنه، في الواقع وعين الأمر، كان يوجد بينهم مَنْ هو مهياًً للسقوط، ومن هو ساقط بالفعل، فبطرس لولا مساندة الرب له في اللحظة الحرجة لهوى وصار كنجم سقط، أما يهوذا حامل الصندوق — أو بلغة الزمن الحاضر: مدير الإدارة المالية أو أمين الخزانة لزمرة التلاميذ — فكان يسرق أولاً بأول ما يقع في الصندوق، والذي يسرق يبيع دائماً بأرخص الثمن، فقد باع معلمه بحصيلة يوم أو يومين.

«يا رب إلى مَن نَذْهَبُ، كَلَامُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ»:

في الحقيقة، كان ردُّ بطرس ليس تماماً رداً على سؤال المسيح، بل كان هو الرد الحاسم القاسم على جحود التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسرون معهم ولا مع معلمهم. وكأننا رأهم داود النبي من وراء الزمن وتكلم بلسانهم: «هذا كله جاء علينا وما نسيناك ولا خُفْنَا في عهدك، لم يرتد قلبنا إلى وراء ولا مالت خطوتنا عن طريقك.» (مز: ٤٤: ١٧ و١٨)

لقد كانت شهادة بطرس أقوى شهادة نطق بها التلاميذ، وقد جاءت متوافقة مع فكر المسيح، ولو أنها لا تدخل إلى عمقه. فقد جاءت بما يتناسب مع حاجتهم، فقد رأوا في المسيح كنز الحياة

الأبدية الذي لا يفرغ؛ وليس مجرد الكلمات أو الحديث في ذاته؛ ولكنه الكلام المؤدي إلى الحياة الأبدية الذي شعرت به قلوبهم ووثقوا منه بعقولهم، فنطقت به أفواههم.

ويُلاحظ أن رد بطرس بهذه الآية: «كلام الحياة الأبدية عندك»، هو مستمد من قول المسيح: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»، «من يسمع كلامي... فله الحياة الأبدية» (يو: ٦٣: ٥ و ٢٤)، كما هو رد مفحم على التلاميذ الذين خانهم إيمانهم واعتبروا أن كلام المسيح صعب. كما هو أيضاً ردٌّ يؤمّن به بطرس تأميناً مباشراً على ما أعلنه الرب أنه «خبز الحياة» المعطي الحياة الأبدية، كما هو «ماء الحياة» ونورها.

وعلى هذا الأساس: «إلى من نذهب»، إن كان هو الوحيد الذي يقود إلى الحياة الأبدية، فهنا إشارة موبّخة ومستهيئة برجوع بعض التلاميذ إلى الوراء، كما هي إشارة إلى فكر الجليليين الذين يطلبون نبياً يكون على مستوى موسى ويعطيهم المن من السماء.

وهكذا يضع بطرس المقارنة المستحيلة بين المسيح وبين أي آخر: فكلام المسيح في نظر بطرس يشهد للمسيح أنه هو هو وليس آخر الذي ينبغي أن «يذهب إليه» أو بلغة المسيح: «يأتي إليّ»، الذي في موضع آخر يترجمه بطرس الرسول هكذا: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (لو: ١٨: ٢٨)، وبهذه الآية كان بطرس الرسول يمهّد لبقية اعترافه:

٦: ٦٩ «ونحن قد آمنا وعَرَفْنَا أَنَّكَ (قدوس الله) أنت المسيح ابنُ الله الحيّ».

بطرس لا يزال يتكلم بلسان التلاميذ، لأنه كان أكثرهم اندفاعاً وحرارة، ولو أنه ليس أكثرهم إيماناً أو محبة للمسيح. ويُلاحظ أن بطرس يضع الإيمان والمعرفة في موضعهما الصحيح، فالإيمان باعتباره تصديق الله ببساطة قلب بدون محاورة العقل يأتي أولاً، ومنه يستمد السلوك طبيعته المتواضعة والأمانة. كما يستضيء العقل الروحي بنور المعرفة فيبلغ به الإيمان حدَّ العمل كشهادة، وحدَّ الرؤيا العقلية فيتواجه مع الحق الإلهي، وهنا يبلغ الإيمان اليقين.

ولم يكن هذا المبدأ الإيماني عند بطرس مجرد فكر عارض بل نسمعه بعد ذلك بسنين كثيرة يشرح هذا المبدأ عينه في رسالته الثانية: «ولهذا عينه، وأنتم باذلون كل اجتهداء، قدّموا في إيمانكم فضيلة (عمل) وفي الفضيلة معرفة (رؤية مستنيرة)». «(٢ بط ١: ٥)

والرب يسوع يؤمّن على هذا بقوله: «وهم قبلوا (آمنوا) وعلموا يقيناً (بالسلوك والفكر) أنني

«خرجت من عندك» (يو ١٧: ٨). وبولس الرسول يؤكد ذلك جاعلاً القلب مخزناً للإيمان والضم مخرجاً للمعرفة والشهادة: «لأن القلب يؤمن به للبر، والفم يُعترف به للخلاص.» (رو ١٠: ١٠)

هذا المبدأ يتنكر له كثير من علماء الكتاب المقدس، مع أنه هو المفتاح السري الذي إذا استهان به الإنسان شقَّ عليه الإيمان البسيط الفعَّال وسقط عن المعرفة الصحيحة المستنيرة بالروح. علماً بأنه قد تجيء كلمة «المعرفة» قبل كلمة «الإيمان» في بعض مواضع الإنجيل، وهذا لا يقلل من أهمية اشتراكهما معاً في بلوغ الحق الإلهي، فلا معرفة بدون إيمان ولا إيمان بدون معرفة.

وقول بطرس: «أنت المسيح، ابن الله الحي»، هي شهادة ذات وزن عالٍ، لأنها تجيء بعد خيانة الجزء الأكبر من التلاميذ، كما تجيء بعد أن أعلن المسيح عن هدف مجيئه، وهو الموت الذي يُعتبر في نظر بطرس إخفاقاً شديداً للرجاء الذي وضعه بطرس والتلاميذ أن يكون المسيح ملكاً يحكم ويسود ويعطيهم نصيبهم في الحكم. فهذه الشهادة لا تأتي مجاملة ولا من أجل رجاء كاذب، بل عن يقين. ومضمون هذه الشهادة هو أن التلاميذ قبلوا المسيح وآمنوا به وتبعوه بإخلاص، فعلموا بالخبرة والواقع أنه هو المسيح ابن الله، أو قدوس الله، كما جاءت في بعض المخطوطات، و«قدوس الله» تأتي في فم المسيح كأساس للتعرف عليه: «فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنني قلت إنني ابن الله؟» (يو ١٠: ٣٦)

وتأتي الصفتان معاً في فم الملاك المبشر: «فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحلُّ عليك وقوة العلي تظللُك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله.» (لو ١: ٣٥)

ف«قدوس الله» هي صفة المسيح الأولى التي يمكن أن تُبنى عليها كل الصفات الإلهية الأخرى، من جهة إرساله إلى العالم أو كشف سر تجسده أو كشف سر بنوته لله.

ويلاحظ أن المسيح تخاطب الله بـ «الآب القدوس» (يو ١٧: ١١). فهنا، إذ يلقب بطرسُ المسيح بـ «قدوس الله» يضعه في موضع المساواة في الكرامة والقداسة مع الآب من حيث الطبيعة الواحدة للآب وللمسيح (القداسة).

وفي سفر الرؤيا يلقبه الوحي: «هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح بيت داود...» (رؤ ٣: ٧)، وكلمة «قدوس» هي مدخل إلى طبيعة الله واستعلان الصلة بصميم هذه الطبيعة. فتسمية «قدوس الله» للمسيح هي تأكيد لطبيعة المسيح المُعلَّنة لطبيعة الله، واستعلان لصلة

المسيح بالله كواحد معه. وصفة هذه القدوسية في المسيح هي فريدة لشخصه التي جاء ليعطيها لتلاميذه والمؤمنين به بذبيحة نفسه، ليشاركوا بجسده ودمه في هذه القداسة.

ومرة أخرى يردُّ بطرس على المستوى الإلهي العميق الذي يتكلم منه المسيح، فبطرس حينما قال: «أنت هو» فهو يجيب إجابة مباشرة على قول المسيح: «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ ، وهي اسم ذات الله، فالمسيح يقولها ليستعلن بها نفسه والآب، بهذا المعنى يكون كلام بطرس صحيحاً وواقعياً؛ حينما قال: «نحن قد آمنّا "وعرفنا"»، فهنا كلمة "عرفنا" التي تجيء باليونانية: $\epsilon\gamma\nu\omega\kappa\alpha\mu\epsilon\nu$ تتضمن معرفة الاستعلان وكشف الحقيقة التي أظهرها بطرس.

وعلى كل حال، فإن شهادة بطرس الرسول توضح الثقة المطلقة والأمانة والتبعية للمسيح، هذا ما أراد أن يعلنه بطرس للمسيح، مؤكداً أن كل كلامه عن الحياة الأبدية قد صار هو أكلهم وشربهم بالفعل. وهكذا ألقيت النار على الأرض لكي تحرق وتبخر، تحرق الأفكار والنيات التي تغتذي على الظلمة فترتد، وتبخر وتبهج القلوب التي تسعى نحو النور فتنتد.

٧٠: ٦ و٧١ «أجابهم يسوع: أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطاناً. قال عن يهوذا سيمعان الإسخريوطي لأن هذا كان مزماً أن يُسلَّمهُ وهو واحد من الاثني عشر».

وحتى بعد رجوع كثيرين من التلاميذ إلى الورا فلا يزال في حظيرة الاثني عشر ذئبٌ، ليس مرتدّاً إلى الورا فحسب بل وجاحد وخائن أيضاً، إذ وهو يمارس التلمذة مع التلاميذ كان يمارس وظيفة الجاسوس للذي يدبّر عملية التسليم. أمر مؤلم وفظيع. فلولا طبيعة قلب الرب وعطفه على التلاميذ بلا استثناء لأفرز هذا الخائن منذ اللحظة الأولى، فالتلاميذ كانوا متيقظين له واكتشفوا ممارسته لسرقة الصندوق أولاً بأول، فكانوا يعصّون على نواجذهم^(٢٨)، ولكن لم يجروا أحد أن يفتح المسيح بحقيقة هذا التلميذ الخائن، ولا المسيح نفسه شاء أن يفصح سرّه وسريته، بالرغم من أنه كان يعلم منذ البدء مَنْ سَيُسَلَّمُهُ!!

فبعد ما أعلن بطرس بحماس وشجاعة عن إيمان الجماعة وثقة الاثني عشر، لم يتسَّق الرب وراء هذه الشهادة، لأنها لم تكن تخص إلا أحد عشر فقط! فأراد أن يصحح الشهادة، لا من

(٢٨) النواجذ أي الضروس، وهذا تعبير عن الصبر.

حيث مضمونها، ولكن من حيث مَنْ يحملها ويمثلها منهم!

وحينما قال الرب ردًا على اعتراف بطرس: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر»، لم يقصد العدد في مفرداته ولكن كان يصوّر إسرائيل الجديد في بطن الكنيسة، فالتصوير كامل من حيث مضمون العهد، والعهد لا يقوم على الأفراد، لذلك لما سقط الخائن ومات بيد نفسه لم يفرق شيئاً، إذ انتخب التلاميذ من يلحم العدد على أصله، ف«الاثني عشر» عدد لا يحوي عدداً، بل يحوي كنيسة ذات رأس واحد لجسد واحد. ولكن الألم الذي كان يعتصر قلب المسيح، وهو يشير إلى خائن من وسط تلاميذه الأخصاء، كان واضحاً في كلماته: «أليس إني اخترتكم»، فهو يشير بحزن شديد إلى براءة قلبه وضميره، وإلى حبه الشامل الكامل الذي لا يتوقف في عمله وقصده ذلك كله أمام خائن وهو يستمع. لقد اختار يهوذا ليُظهر فيه منتهى حبه المجاني الذي يقوم على عدم انحيازه للصالح دون الطالح: «أو ما يَجِلُّ لي أن أفعل ما أريد بما لي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح.» (مت ٢٠: ١٥)

المسيح حينما أطاع الله الآب حتى إلى الموت، موت الصليب، كان يُظهر في طاعته صفة البنوة الفريدة. ولكن حينما احتمل المسيح خيانة يهوذا كل يوم حتى الذبح، كان يُظهر في احتماله صبر الله على الخطاة.

أعمال كثيرة عملها المسيح في الظاهر والخفاء استعلن فيها صفات الألوهة والتبّل البشري معاً، التي كانت تلتحم في انسجام بديع، ولكن احتماله ليهوذا سنين طويلة حتى إلى يوم العشاء، وهو يعلم أنه سيسلمه كان من روائع صفات الكلمة المتجسد!!

ولكن طول أناة المسيح على التلميذ الخائن كانت تذخر له غضباً يوم الغضب واستعلان دينونة عادلة، دون أن يغضب المسيح أو يندم أو يدين.

«والذي سلّمني إليك له خطية أعظم.» (يو ١٩: ١١)

«أما أنا فلستُ أدين أحداً.» (يو ٨: ١٥)

«وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم. من ردّني ولم يقبل كلامي فله من يدينه، الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو ١٢: ٤٧ و ٤٨)

«وواحد منكم شيطان»: = واحد من الأخصاء التابعين.

لو كان يهوذا قد ارتد إلى الوراء مع المرتدين ومعه الصندوق، لكان هذا له أكثر شرفاً وأقل

نقمة!!

ولكنه استمرراً بساطة روح التلاميذ وطيبة قلب المعلم!! وسار في موكب القديسين حاملاً عاره داخل صندوق!! «وكان الصندوق معه وكان يحمل ما يُلقَى فيه.» (يو ١٢: ٦)

كان عمل الشيطان منذ بدء خدمة المسيح أن يرد المسيح إلى الوراء: «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي» (مت ٤: ٩)، «فقال له يسوع اذهب يا شيطان» (مت ٤: ١٠)، فذهب الشيطان مدحوراً.

ولكن يهوذا باغراء الفضة خراً وسجداً، فدخله الشيطان وصال به وجال، وتبع المعلم مع التابعين، وحبك الخطة مع رؤساء الكهنة وقضاة روما ... «فبعد اللقمة دخله الشيطان. فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة.» (يو ١٣: ٢٧)

كان يسوع يرى يهوذا في اتفاق وترد مع الشيطان، ملتصقاً به على الدوام، فلم يشأ أن يفرق بين عمل هذا وعمل ذاك، لأنهما صاراً واحداً، فكان من حق المسيح أن يسمي يهوذا بالشيطان.

وحتى بطرس نفسه لما أراد أن يُثني المسيح عن مشيئة الآب في قبول الصليب، الذي من أجله كان قد جاء، نظر الرب فرأى بطرس ملتصقاً بالشيطان وقد تبخرت منه ادعاءات الإيمان، فلم يتردد الرب أن يخاطب الشيطان فيه: «فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان أنت ممثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦: ٢٢ و ٢٣). ولكن بطرس — بالكاد — فلت من قبضة الشيطان بسبب «بقية» إيمان: «ولكنني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو ٢٢: ٣٢). ولكن يهوذا لم يكن له إيمان البقية.

ولكن تبقى إشارة المسيح الحزينة «واحد منكم»، ذات مغزى، لم يعين الرب من هو هذا الواحد الذي سيخون، فكان على كل واحد يتبع الرب في كل زمان ومكان أن يفحص نفسه! وخاصة حاملي الصناديق!!

وهكذا ينتهي أصحاب خبز الحياة الذي سيُبدل عن حياة العالم، بالإشارة إلى الموت المزمع أن يكون، والإشارة أيضاً إلى أن هذا الموت هو بسبب عدم الإيمان الذي حتماً ينتهي إلى خيانة!!

الأصحاح السابع

مكان البشارة
ثامناً — في أورشليم
في عيد المظال
(١:٧ — ٨:٥٩)

الأصحاح السابع

استعلان طبيعة المسيح «الروحية» (الصخرة) [أنا هو الماء الحي]

- ١ — ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال (١:٧ — ١٣).
- ٢ — محادثات في منتصف العيد (٧:١٤ — ٣٦).
- ٣ — محادثات اليوم الأخير من العيد (٧:٣٧ — ٥٢).

١ — ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال: (١:٧ — ١٣).

١:٧ «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يرذ أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه».

لقد لخص ق. يوحنا في مقدمة إنجيله نصيب الخدمة التي قام بها الرب نحو شعبه: «جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله» (يو: ١١)، ونراها:

في اليهودية: «لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه».

وفي الجليل: سنقرأ حالاً: «ولما كان إخوته قد صعدوا حينئذ صعد هو أيضاً إلى العيد، لا ظاهراً، بل كأنه في الخفاء» (يو: ٧: ١٠).

وهكذا ترك الرب الجليل لآخر مرة وفي الخفاء. فبعد أن أشبع الخمسة الآلاف وأجرى الآيات الكثيرة هناك، رفضوه وصادروا أقواله، وتركه كثيرون من تلاميذه ولم يعودوا يسيرون معه.

أما في أورشليم: فسترى كيف أن أعنف رفض له كان ينتظره هناك، مع التهديد بالقتل بصورة متلاحقة وشديدة حتى انتهى بالصليب.

ونقرأ على التوالي في هذا الأصحاح السابع وما يليه (الثامن) هكذا:

٧: ١٣: «ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود».

٧: ١٩: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني».

٧: ٢٥: «فقال قوم من أهل أورشليم أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه».

٧: ٣٠: «فطلبوا أن يمسكوه».

٧: ٣٢: «فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدّاماً ليمسكوه».

٧: ٤٤: «وكان قومٌ منهم يريدون أن يمسكوه».

٨: ٣٧: «أنا عالمٌ أنكم ذُرِّيَّة إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني».

٨: ٤٠: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعته من الله».

٨: ٥٠: «فرفعوا حجارة ليرجموه».

وصدق فيه قول إشعياء النبي: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قَدْوُسُهُ لِلْمُهَانِ النفس، لمكروه الأُمّة، لعبُد المتسلّطين... في وقت القبول استجبْتُك. وفي يوم الخلاص أعنتك... وأجعلك عهداً للشعب...» (إش ٤٩: ٧ و٨)

ويهمنا أن نوضح من قول ق. يوحنا في هذه الآية أن المسيح كان يتردد في اليهودية قبل مجيئه إلى الجليل، وهذا يمثل الجزء الأول من خدمته التي أغفلها الإنجيليون الثلاثة.

٧: ٢: «وكان عيد اليهود عيد المظال قريباً».

«في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب. في اليوم الأول محفلٌ مقدّس... سبعة أيام تقربون وقوداً للرب. في اليوم الثامن يكون لكم محفل مقدّس تقربون وقوداً للرب إنه اعتكاف (راحة)». (لا ٢٣: ٣٤-٣٦)

يقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن عيد المظال هو أكبر وأقدس أعياد اليهود^(١) وأكثرهم مسرةً

^١ Jos., *Antiq.* VII, 4.1.

للشعب. وكان يقع في شهر تشرى اليهودي، سابع شهور التقويم العبري، وكان العيد يستغرق سبعة أيام مع يوم أخير للراحة ويُسمى اليوم العظيم من العيد (١٥-٢٢)، وهذا الشهر يوافق شهر سبتمبر-أكتوبر بالتقويم الغربي، وهو آخر الأعياد للسنة المقدسة^(٢). ويخرج اليهود في هذا العيد إلى العراء ويعيشون في مظال σκηναί يصنعونها من أغصان الأشجار تذكّاراً لمعيشة اليهود ٤٠ سنة في البرية بعد خروجهم من مصر (عدد ٢٩ : ١٢-٣٨).

وهذا العيد بالذات كان يُنظر إليه أنه مرتبط برجاء آخر الأيام وأمجاد وخبرات منتظرة. ولكن في أيام المسيح كانت قد أضيفت طقوس أخرى تذكارية تعليمية. ففي كل يوم كان رئيس الكهنة يخرج بملابسه الرسمية مع جوقه اللاويين، ومعهم قِدْرٌ من الذهب يملأونها ماءً من بركة سلوام، ويدخل بها رئيس الكهنة ويصبّها على المذبح، وتُضْرَف في وادي قدرون، في مجرى من الفضة، وذلك تذكّاراً للصخرة التي أخرجت الماء وسقت شعب إسرائيل في البرية^(٣). ويرد اللاويون عليه بالآلات الموسيقية نشيد هالليل الكبير وتسابيح صهيون، ويرددون مقطعاً من إشعياء النبي (١٢ : ٢ و ٣ و ٦) : «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فَتَسْتَقُونَ مَبَاهاً بفرح من ينابيع الخلاص... صَوْتِي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن قدوس إسرائيل عظيم في وسطك». [وهو نفس النشيد الذي تستخدمه الكنيسة القبطية في أيام أسبوع الآلام باعتبار أن المسيح أخرج خارج أورشليم حاملاً صليبه، فالكنيسة تعيّد لهذا الخروج : «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدّس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب. فلنخرج إذاً إليه خارج المحلة حاملين عاره» (عب ١٣ : ١٢ و ١٣). وهو نفس الخروج الذي تكلم عنه موسى وإيليا حينما ظهرا مع الرب في التجلي : «وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا. اللذان ظهرا بمجدٍ وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يُكْمَله في أُورشليم... وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع : يا معلم جيد أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة» (لو ٩ : ٣٠-٣٣). وهكذا واضح أن خروج المسيح خارج الباب الذي يعني آلامه ثم صليبه، مرتبط في ذهن العهد القديم بالمظال وهو عيد الخروج خارج أبواب البيوت في أُورشليم والإقامة في المظال، الذي هو تذكّار الخروج في البرية والحياة في العراء، تمهيداً لدخول أرض الميعاد.]

(٢) ويلاحظ أن الأعياد الرئيسية لليهود لها علاقة كبيرة بالأرض والزرع :

فعيد الفصح هو بداية الحصاد والباكورات ؛

وعيد الخمسين هو كمال الحصاد ؛

وعيد المظال جمع حصاد العنب والزيتون والشكر على بركات السنة كلها.

(٣) راجع المدخل ص ٢٧٦.

وقد اتخذ الرب ذلك المشهد أساساً لتعليمه: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو: ٣٧ و ٣٨)، وهذا ردًا على هتاف اللاويين بالنسبة لنشيد الصخرة التي أخرجت الماء.

كذلك، كان من طقوس ذلك العيد أنه في أول يوم فيه كان يُبدأ بإضاءة المنارة الذهبية الكبرى ذات الثماني الشُعَب والأربع المنارات الأخرى التي كانت توضع في رواق النساء. وكانت أنوارها تنعكس على كل البيوت في أورشليم ويتلألأ ضوءها في سماء أورشليم كلها حتى جبل الزيتون. وكانت تُضاء شُعْبَةٌ في كل يوم، حتى اليوم الأخير الثامن حيث تُضاء الشُعْبَةُ الأخيرة وذلك تذكراً لعمود النور الذي كان يقود شعب إسرائيل بالليل في البرية. وقد استخدم الرب هذا المنظر أيضاً لتقديم تعليمه بالمقابل: «ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو: ٨: ١٢)

وكان منظر المسيح وهو يعلم بصفته «الصخرة الحقيقية» و«النور الحقيقي» في وسط الشعب وهو مبشر في عراء أورشليم في مظالهُ σκηναί، وكأنه في التيه متبذراً، يصوره إنجيل يوحنا وكأن: «الكلمة صار جسداً وحل بيننا ἐσκήνωσεν» يلاقي الشعب التائه المهموم الذي لم يصل بعد إلى راحته ولا ظفر بوعد ميراثه... وقد جاءهم الرب بملء تحقيق وعد الدهور، ومعه راحة الله إلى الأبد، ومفتاح بيت داود ذي المنازل الكثيرة (يو: ١٤: ٢) يفتح ولا أحد يُغلق: «وكرسيه كالشمس أمامي. مثل القمر يُثَبَّتُ إلى الدهر. والشاهد في السماء أمينٌ. سلاه.» (مز: ٨٩: ٣٦ و ٣٧)

وأمام الذبائح الكثيرة التي يمتاز بها هذا العيد دون جميع الأعياد، وقف المسيح يقول لليهود: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني؟» (يو: ١٩: ٧)؛ وكأنه يسلم بالأمر الواقع باعتباره الذبيحة العتيدة ولكن يطلب التفسير من جهة سلوكهم.

وقد التقط الكتبة والفريسيون امرأة في العيد أمسكوها وهي تخطيء. وبإباءٍ وشتم قالوا للمسيح إن موسى في الناموس أمر أن مثل هذه تُرجم. ونسي هؤلاء الأئمة والعظماء أن آباءهم الذين يفتخرون بشرف النسب إليهم، فعلوا فِعَلَتُها وهم في البرية متبذرين على شكل حالهم في هذا العيد بالذات. ولعل ق. يوحنا ذكر هذه القصة في هذا العيد لهذه المناسبة: «جلس الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للعب... كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً» (١ كو ١٠ : ٧ و ٨). وأخيراً وبعد تحقيق للضمير أجراه المسيح بهدوء ثبت أن كل المشتكين عليها كانوا خطاة. أما المسيح فرأى فيها صورة لحال شعبه، فتحنن وعفا عنها وعنه، ودفع ثمن خطيئتها دمه!!! هذا كله كان في عيد المظال.

٧ : ٣ - ٥ «فقال له إخوته انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضاً أعمالك التي تعمل. لأنه ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية. إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم. لأن إخوته أيضاً لم يكوّنوا يؤمنون به».

«فقال له إخوته»:

هؤلاء الإخوة هم بحسب تسجيل القديس متى (١٣ : ٥٥) : يعقوب و يوسي وسمعان و يهوذا. وهم بحسب تحقیقات العالم Lightfoot^(٤) بالمقارنة مع إنجيل مرقس (٣ : ٢١ و ٣١) أن هؤلاء الإخوة هم أولاد يوسف خطيب مريم من زواج سابق، وباعتبارهم أكبر سنّاً قدموا هذه النصيحة كأنهم يرشدون الرب. ويلاحظ أن إنجيل يوحنا يفصلهم عن التلاميذ وعن الرسل. مع ملاحظة أن عدم انسجامهم شعورياً مع المسيح والإفصاح عن عدم إيمانهم به يضعهم في وضع حرج واستفهام على ضوء الاعتراف الجريء الواضح الذي قدمه بطرس الرسول منذ قليل (يو ٦ : ٦٨ و ٦٩). وهم بنصيحتهم هذه، أي الذهاب لليهودية (أورشليم)، يقدمون في الواقع انتقاداً ضمنياً للمسيح أنه تخلف عن عيد الفصح السالف، وعن غيابه عن أورشليم الذي طال لمدة ستة شهور. والآن هي فرصة في هذا العيد لكي يرى الجموع المزدحمة كلها في أورشليم في هذه المناسبة أعماله ومعجزاته، حيث يجتمع كل تلاميذه الكثيرين الذين تبعوه في اليهودية : «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصير ويعتمد تلاميذ أكثر من يوحنا...» (يو ٤ : ١)، بل وكان أيضاً له من بين أعضاء السنهدريم من يتودّدون إليه سرّاً مثل نيقوديموس (يو ٣ : ١)، وهؤلاء في نظر إخوته يمكن أن يكونوا غزوة^(٥) له إذا رأوا أعماله الجديدة.

^٤ Lightfoot, J.B., *op. cit.*, Excursus II. Cited by Westcott, *op. cit.*, p. 116.

والقديس إبيفانيوس أسقف قبرص (٤٠٣ م) يؤيد هذا الرأي.

(٥) أي بشدّون أثره.

٧ : ٤ - ٧ «لأنه ليس أحدٌ يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية. إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم. لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به. فقال لهم يسوع إنَّ وقتي لم يَخْضُرْ بعدُ. وأما وقتكم ففي كلِّ حينٍ حاضِرٌ. لا يقدرُ العالمُ أن يبغضَكم ولكنه يُبغِضُني أنا لأنني أشهدُ عليه أن أعماله شريرةٌ».

يبدو هنا الكلام الذي قاله إخوة الرب وكأنه غير واضح، لكن رد المسيح عليه يُظهر كل خفاياه. فالذي يوضح المعنى ثلاث جمل:

الأولى: قالها ق. يوحنا وهي: «لأنَّ إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به».

والثانية: قالها الرب: «وقتي لم يحضر بعد».

والثالثة: «لا يقدر العالم أن يبغضكم».

بهذا نفهم أن إخوة الرب أرادوا أن يدفعوه للظهور في أورشليم في العيد. ولكنهم يضعون نصيحتهم في قالب من النقد الشديد غير اللائق؛ إذ لاحظوا أنه بقي في الجليل وحوها مختفياً لمدة ستة أشهر، لم يذهب لأورشليم ولم يحضر أعيادها طول هذه المدة، فاعتبروا ذلك أنه جبن أو خوف من الظهور العلني بسبب أن اليهود هددوه بالقتل في أورشليم آخر مرة. ووجه النقد والتعير عندهم هو أنه يدَّعي أن أعماله يعملها على المستوى العلني العام، فكيف يختفي ويعمل أعماله في القرى فقط، «إنَّ كنت تعمل ... فأظهر نفسك للعالم». وهكذا تظهر هذه النصيحة التي فيها حثٌّ ودفعٌ للظهور أن فيها تعبيراً وشماتة، ولا تأتي من مصدر صادق، بل لأنهم لم يكونوا يؤمنون به. أي لم يدركوا هذه السنين كلها رسالته الإلهية أو يشعروا بشخصه الفائق. وهذا يكشف عمى قلوبهم بل ويكشف ضمناً استحالة أن يكونوا إخوته من الأم، لأن موقفهم يكشف انعدام الروح الأخوية والأسرية تماماً. وردُّ المسيح عليهم بالرفض يوضح موقفه ويفضح موقفهم.

أما دفاعه عن أسلوب اختفائه هذه المدة في الجليل فهو لأنه يتحاشى استباق الحوادث والزمن، لأنه يعلم أن ساعة الصليب — وهي نفسها ساعة الظهور العلني للعالم — يتلقى ميعادها من الآب رأساً: «لم تأت بعد». فأى إثارة زائدة للرؤساء في أورشليم — إذا ظهر علناً بتحدٍّ — قد تخلق مشاكل تُعطل خطة التسليم الهادئ التي دبرها الآب السماوي والتي يعلمها مُسَبِّقاً ويريدها في حينها. «وقتي لم يَخْضُرْ بعد». ولكن شهادتي ضد العالم وأعماله الشريرة باقية كما هي، وبالتالي لا يزال أمامه عمل وشهادة وتعليم. أما وقتهم فحاضر كل حين — يستطيعون أن يذهبوا إلى أورشليم حينما يشاءون كزائرين، أما المسيح فلا يذهب هذه المرة إلا ليُضَلَّب!!

أما موقف إخوته المفضوح فيردُّ عليه بطريق غير مباشر، «لا يقدر العالم أن يُبغضكم»^(٦)... لأنه سبق وأن شهد على العالم «أن أعماله شريرة». وهذا يفيد أن العالم لا يُبغضهم لأن أعمالهم متوافقة مع العالم. ولهذا فقط لم يكونوا يؤمنون به، لأنهم كانوا يطلبون ما للعالم، ولا هو كان يؤمن بهم، وهذا واضح غاية الوضوح على الصليب، إذ سلَّم أمُّه القديسة العذراء مريم ليوحنا تلميذه، ولم يُسلمها هؤلاء الإخوة المزعمين الحقودين. ولا يفوت علينا أن يوحنا هنا بالذات كان يعلم بسلوكهم ونياتهم. وفي الوقت الذي يفصح فيه المسيح نيَّتهم وأعمالهم، يعلن أنه لم ولن يُهادِن العالم ولا الشر الذي في أعمالهم:

«ولكنه يبغضني أنا لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة»:

هنا يتضح أن أهل العالم لا يحتملون التبكيث، و يواجهون كشف الخطايا بالهجوم والبُغضة وإن لزم فبالقتل.

وبلاحظ القارئ أن انتقاد أعمال الرب سهل، ويسقط فيه كل من لم يحتفظ في قلبه بصورة صادقة للإيمان بالرب، بالضبط كما يسهل انتقاد الله في أعماله في الخليقة، بسبب قِصر النظر وعدم شمول الإدراك البشري لقدرة وقوة الله غير المحدودة واللانهاية.

وقد سقط يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الاثني عشر في نفس السقطة التي هوى فيها إخوة الرب - حتى في الليلة الأخيرة قبل التسليم - وذلك بانتقاد أقوال الرب وأعماله، ولكن ليس بسبب عدم الإيمان وإنما بسبب ما أضمره يهوذا من انتظار عبة العالم، وهذا بسبب عدم الثبوت في كلام الرب ومحبه: «قال له يهوذا ليس الإسخريوطي يا سيد ماذا حدث حتى إنك مزعم أن تُظهر ذاتك لنا وليس للعالم» (يو ١٤: ٢٢). والعجيب أن الرب لم يرد مباشرة على يهوذا موضحاً هذا الأمر، لأن الرب علم أن علة سؤاله لا ترجع إلى طلب المعرفة بل محبة العالم، وهذا بالتالي يرجع لعدم ثبوته في الرب، لا في كلامه ولا في محبه: «أجابه الرب إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه تأتي وعنده تصنع منزلاً.» (يو ١٤: ٢٣)

وهكذا يشترك الجليليون مع التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء، مع إخوة الرب، وحتى مع يهوذا ليس الإسخريوطي في خداع البصر الذي وقعوا فيه جميعاً، بسبب انتظارهم اليهودي التقليدي الكاذب لمجد دنيوي في شخص ملوكية المسيَّا، فلما أدركوا أن نهاية رسالة المسيح هي موت وذبح

(٦) العالم هنا عند إنجيل يوحنا هو العالم بدون الله، عالم بدون نعمة وبلا نور وبلا حياة أبدية.

وجسد ودم، انقلبوا ناقدين وناقمين وعلى الأقل جداً غير فاهمين...

ولكن هذا الموقف من إخوة الرب لم يمنع أن يصبح يعقوب أخو الرب واحداً من الرسل فيما بعد، ولا أن يكون يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الإثني عشر المؤمنين. وهذان الاثنان بالذات يبدو أن خبرتهما المؤلة أنشأت إيماناً ساخناً حاراً بعد استعلان مجد الرب بالقيامة، فكتب كل منهما رسالته. ولكن يبدو من الرسالتين مدى تأثير الشخصية بالتقليد والقوالب اليهودية القديمة إلى حد ما، مما يكشف عن سر عشرتهم الأولى.

١٠: ٧-٨ «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد. أنا لستُ أصدُ بعدُ إلى هذا العيد لأن وقتي لم يُكْمَل بعدُ. قال لهم هذا ومكث في الجليل. ولما كان إخوته قد صعدوا (...) حيثُ صعد هو أيضاً (إلى العيد) (٧) لا ظاهراً بل كأنه في الخفاء».

بالرغم من تضارب أفكار علماء الكتاب المقدس في هذه الآيات إلا أن المعنى واضح أمامنا كل الوضوح. فإخوة الرب لم يكن قصدهم من ذهاب المسيح للعيد إلا للظهور العلني أمام العالم وعمل الآيات جهاراً ليجمع حوله التلاميذ وذلك لعلّة في النفس. ورد المسيح واضح: «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد» بالقصد الذي ترونه من مشاركة المعيّدين في الاحتفالات وأفراح هذا العيد، حيث كانوا يذهبون في جماعات كبيرة، وهذا يشير إلى أن رفض المسيح يكاد يكون لهم هم ولصحبته ولأفكارهم وليس للذهاب إلى العيد.

أولاً: ورود كلمة «بعد»: «أنا لا أصد بعد إلى هذا العيد»، معناها واضح وهو: «أنا لا أصد الآن». وهذا توضحه بقية الرواية هكذا: «فلما صعدوا صعد هو أيضاً». إذن، فعدم صعوده لم يقصد منه النفي الكامل للصعود بل النفي للظرف الزماني الآن وبصحبته، لأنه صعد بعد ذلك بمفرده. وبالرغم من ورود الكلمتين مترادفتين «صعدوا ... وصعد أيضاً»، إلا أن الزمن بينهما كبير وسيظهر ذلك من الشرح.

ثانياً: أما المسيح فهو لا يصعد أصلاً إلى العيد ليعيد أو يشارك في التعيد، إلا أنه صعد إلى اورشليم في هذا العيد ليكمل عملاً آخر غير العيد.

(٧) توجد مخطوطات كثيرة لم ترد فيها هذه الإضافة بل وردت هكذا: «ولما كان إخوته قد صعدوا إلى العيد حيثُ...».

أنظر: The Pulpit Commentary, p. 307.

ثالثاً: إن صعودهم كان في جماعة، أي صعود علني ترافقه التسابيح والزممر والطبل وأغصان النخيل، وهذا غير الصعود الذي كان يُضمّره الرب أن لا يكون علنياً بل في الخفاء، ودون أن يأخذ تلاميذه معه، لأنه كان لا يريد إثارة الأوساط الرئاسية في أورشليم، كما أنه لم يكن مثل بقية المعيّدين، بل صعد إلى أورشليم ليكمل رسالته ويسلم حياته. فهو لم يصعد للعيد ليقدّم ذبائح بل صعد ليقدّم ذبيحة نفسه. هذا هو المعنى بل المعاني المستترة وراء الكلمات التي تبدو متضاربة شكلاً فقط: «اصعدوا (إلى العيد) أنتم، أنا لا أصعد بعد إلى هذا العيد ولما صعدوا صعد هو أيضاً».

رابعاً: نفهم من الأناجيل الأخرى أن الرب لم يصعد مباشرة إلى أورشليم كما جاء في إنجيل القديس متى (١٩: ١): «ولما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الأردن»، أي عَبَرَ في إقليم بيريّة. وكذلك كما جاء في إنجيل القديس مرقس (١٠: ١): «وقام من هناك وجاء إلى تخوم اليهودية من عَبَر الأردن فاجتمع إليه جموع أيضاً، وكعادته كان أيضاً يعلمهم». وهذا يؤكد كلام الرب أنه فعلاً لم يكن مقصده أورشليم مباشرة لحضور العيد، إذ أمضى مدة طويلة في عبوره الأردن في إقليم بيريّة، ثم منها عبر ثانية إلى تخوم اليهودية ثم إلى أورشليم. وهذا يتوافق جداً مع إنجيل ق. يوحنا في موضع متقدم: «فطلبوا أيضاً أن يمسه فخرج من أيديهم ومضى أيضاً إلى عبر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يُعمّد فيه أولاً ومكث هناك» (يو ١٠: ٣٩ و٤٠). وفي نهاية رحلته حطّ الرحال في قرية بيت عنيا بجوار أورشليم لزيارة خاتمة لمرثا ومريم وأخيهم لعازر (قبل معجزة إقامته من الموت): «وفيما هم سائرون دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها وكانت لهذه أخت تُدعى مريم التي جلست عند قدميّ يسوع وكانت تسمع كلامه» (لو ١٠: ٣٨ و٣٩). ومن قرية بيت عنيا دخل إلى أورشليم في منتصف العيد.

١٤: ١١-٧ «فكان اليهود يطلبونه في العيد ويقولون أين ذاك. فكان في الجُمُوع مناجاة كثيرة من نحوه. بعضهم يقولون إنه صالح. وآخرون يقولون لا بل يُضلّ الشعب. ولكن لم يكن أحد يتكلّم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود. ولما كان العيد قد انتصف صعد يسوع إلى الهيكل وكان يُعلّم».

واضح من هذا الكلام أن المسيح كان غائباً في الأيام الأولى من العيد: «أين ذاك»، وواضح جداً أنه لم يظهر إلا في منتصف العيد: «ولما كان العيد قد انتصف صعد يسوع».

«فكان «اليهود» يطلبونه في العيد ويقولون «أين ذاك»»:

كلمة «اليهود» هنا تشمل المُعَادِينَ له والأصدقاء، والمُعَادُونَ هم الرؤساء والفريسيون الذين قاوموه بشدة، كما جاء في الأصحاح الخامس، وكان رده عليهم موبِّخاً عنيفاً فبلغت الخصومة أقصاها: «كيف تقدرُونَ أن تؤمنُوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه. لا تظنُوا أنني أشكوكم إلى الآب. يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم.» (يوه: ٤٤ و ٤٥)

وهؤلاء كانوا يبحثون عنه في كل الجماعات القادمة من الجليل — على مستوى مباحث أمن الدولة — ولم يجدوه. وهكذا صحَّ فكر المسيح وقوله لإخوته: «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد» (يوه: ٧: ٨)، لأنه تخلف عن الركب حتى لا يعطي أعداءه فرصة لتدبير المكائد.

«أين ذاك»:

تأتي كلمة «ذاك» ἐκεῖνος في قالب الإحتقار والحقد والتنمر، كما جاءت كلمة «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل» (يوه: ٦: ٥٢)، بمعنى الازدراء والتجاهل. وهذا يكشف مقدار ما بلغه الصدام من التربُّص به وانتظاره مدة ستة شهور منذ ترك أورشليم، لأن ضغينتهم لم تهدأ.

«وكان في الجموع مناجاة كثيرة من نحوه. بعضهم يقولون إنه صالح. وآخرون يقولون «لا» بل يضلُّ الشعب»:

كلمة «مناجاة» ترجمة ركيكة للأصل اليوناني γογγυσμός والتي تأتي بمعنى لَغْظ وهي باللاتينية murmur (ويعرفها الأطباء كوصف لدقات القلب غير المنتظمة). واللفظ هو بالنسبة للشعب أصوات غير منسجمة أو متضاربة بين من يقول أنه صالح ἀγαθός أي طيب ومستقيم ولا عيب فيه، وهي صفة من صفات الله: «ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله» (مت ١٩: ١٧)، أوردها إنجيل يوحنا عن عَمْد ليعلن بها الاتجاه الإيماني الصحيح؛ والآخر ينفي الصلاح عنه على أساس سياسي وناموسي: لأنه «يُضِلُّ الشعب»، سواء من جهة السبت أو من جهة إدعاء أنه المسيح. وهي نفس العلة التي قدمها رؤساء الكهنة ضده ليُضَلَب (لو ٢٣: ٢ و ١٤). ولكن بالرغم من ذلك لم يستطع الرؤساء هؤلاء أن يحركوا الشعب ضده، لأنه كان قد اكتسب ثقتهم: «وقالوا ليس في العيد لئلا يكون شغبٌ في الشعب.» (مت ٢٦: ٥)

«لسبب الخوف من اليهود»:

اليهود هنا تتضح صفتهم، فهم ولاية الشعب سواء فريسيين أو كتبة أو كهنة. فبالرغم من أنهم لم يصدرُوا حكمهم عليه بعد، ولكن نياتهم كانت معروفة للشعب، لذلك كان الذين يساندونه بالرأي والفعل لا يجروون أن يُظهروا ذلك جهاراً.

٢ - محادثات في منتصف عيد المظال: (٧: ١٤ - ٣٦).

تنقسم هذه التعاليم إلى ثلاثة أقسام بحسب الأشخاص الذين يسألون والرد عليهم.

أ - تعاليم موجّهة لليهود: (٧: ١٤ - ٢٤).

ب - تعاليم موجّهة إلى سكان أورشليم: (٧: ٢٥ - ٣١).

ج - تعاليم موجّهة إلى الخُدام المُرسَلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة: (٧: ٣٢ - ٣٦).

٧: ١٤ - ١٨ «ولما كان العيدُ قد انتصفَ صعد يسوع إلى الهيكل وكان يُعَلِّم. فتعجّب اليهودُ قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلَّم. أجابَهُم يسوع وقال تعلّمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحدٌ أن يعملَ مشيئتهُ يعرفَ التعليمَ هل هو من الله أم أتكلّمُ أنا من نفسي. مَنْ يتكلّمُ مِنْ نَفْسِهِ يطلُبُ مجدَ نفسه. وأما مَنْ يطلُبُ مجدَ الذي أرسلَهُ فهو صادقٌ وليس فيه ظلم».

انتصاف العيد، أي في اليوم الرابع من بدايته، وواضح هنا بالتأكيد أن المسيح لم يحضر العيد من أوله بالفعل. كما أن ظهوره في منتصف العيد بعد أن أجهد الرؤساء أنفسهم في البحث عنه، يوضح ظهوره المفاجيء لهم. وهذا يقصده المسيح ويدرّكه ق. يوحنا جيداً ويحاول أن يُبرزه بصورة نبويّة، فهذا تحقيق فعلي لقول ملاخي النبي: «هأنذا أرسل ملاكي فيهييء الطريق أمامي. ويأتي "بغثة" إلى هيكله السيد الذي تطلبونه... وَمَنْ يَحْتَمِلُ يَوْمَ مجيئه وَمَنْ يَثْبِتْ عِنْدَ ظَهْرِهِ لَأَنَّهُ مِثْلُ نَارٍ.» (مل ٣: ١ و٢)

والعجيب حقاً أن زكريا النبي يصف ذلك اليوم الذي فيه يتغير كل شيء بمجيء الرب أنه يكون عيد المظال بعينه!! «وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ الْبَاقِي مِنْ "جَمِيعِ الْأُمَمِ" الَّذِينَ جَاءُوا عَلَى أورشليم يصعدون من سنة إلى سنة ليسجدوا للملك رب الجنود وليعيّدوا عيد المظال» (زك ١٤: ١٦). وحينما قدّم إخوة الرب النصيحة — دون أن يقصدوا الحق — كانت نبوة دهرية دون أن يدركوها أو يحترموها: «أظهر ذاتك "للعالم"»، وتأتي مُحكمة على نبوة زكريا السابقة أن ذلك يكون في

عيد المظال . وهي رنين مبدع مسموع للنبوّة التي قدمها سمعان الشيخ : «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعدته قدام وجه "جميع الشعوب"» (يهود الشتات من كافة أقطار وشعوب الأرض) نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل .» (لوقا : ٢٩ و ٣٠)

ولاحظ أن الرب في هذا العيد وقف وقال : «أنا هو نور العالم» كما سيأتي (٨ : ١٢) . كما سيتكلم في هذا الأصحاح أيضاً عن الحياة والنور، فيأتي الكلام موقعاً توقيعاً صادقاً على ما جاء في مقدمة الإنجيل : «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس .» (يو : ١ : ٤)

أ - تعاليم موجهة لليهود : (٧ : ١٤ - ٢٤) .

وتنحصر في :

مصدر رسالته (١٦ - ١٨) ؛

في دحض الشرح الخاطيء للناموس (٧ - ١٩) ؛

و ضد روح وتاريخ الناموس (٢٠ - ٢٤) .

مصدر رسالته :

٧ : ١٥ «فتعجب اليهود قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم» .

«كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم» :

واضح هنا أن الكتب تعني الأسفار المقدسة ، وكلمة «يتعلم» تفيد التلمذة للربيين ودراسة اللغة ، ولكن المقصود طريقة التعليم بسلطان والشرح والحوار وضرب الأمثال والإقناع ! فهي التي أذهلت كل من سمعه حتى أعداءه . فنقرأ في كل من إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا : «ولوقت دخل المجمع في السبت وصار يُعَلِّم . فبهتوا من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة .» (مر : ١ : ٢١ و ٢٢ ، قارن متى ٧ : ٨)

«ولما كان السبت ابتداء يُعَلِّم في المجمع . وكثيرون إذ سمعوا ، بهتوا قائلين : من أين لهذا هذه . وما هذه الحكمة التي أُعطيت له ...» (مر : ٦ : ٢ ، قارن متى ١٣ : ٥٤)

«وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه .» (لوقا : ٤ : ٢٢)

ولكن أصعب من كل ما يمكن تصوُّره في التعليم اليهودي هو الدخول في دقائق الناموس وشرحه . وهذا هو ما أراد ق . يوحنا تقديمه من جهة قدرة المسيح الفائقة على ذلك ، و يقصد بذلك قصداً أن يكشف المصدر الإلهي في المسيح .

ومعروف أن أي ناموسي لا تُقبل شهادته أو شرحه للناموس إلا إذا أعلن عن الشخص الذي تلقى عنه المعلومة المطروحة للكلام ، والذي يتحتم أن يكون « ربِّي » أي معلم سنهدريمي رسمي ومُعترف به . ويلاحظ القارئ أن الرب يسوع استخدم نفس الأسلوب الناموسي رداً على اندهاش الذين سمعوا تعليمه ، والذي لا بد أنه كان تعليماً عن الناموس :

١٦:٧ « أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني » .

« تعليمي ليس لي (ليس مني) بل للذي أرسلني » :

أي مستمد من الله رأساً . فالكلام والتعاليم التي أقولها منسوبة ، ليس لمعلم ولا لربِّي أو ناموسي ، بل منسوبة إلى صاحبها وهو الآب الذي أرسلني ! هذا رد قاطع ومفجِّم .

١٧:٧ « إن شاء أحد أن يعمل مشيئة يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلّم أنا من نفسي » .

هنا المسيح يطرح أمام سامعيه الوسيلة للتحقق من المصدر الإلهي لتعليمه ، ليتأكد أنه تعليم الله وليس تعليم « ربِّي » أو حتى تعليم المسيح . فهو يقول أن الطريقة الوحيدة هي طريقة عملية أخلاقية توافقية . فإذا استطاع إنسان أن يتوافق مع مشيئة الله ، أي أن يكون فكره وسلوكه بحسب مشيئة الله ، فإنه يدرك في الحال ما أقوله أنا إن كان هو كلام الله ، وإن كان يوضح مشيئة الله ، أم أتكلّم أنا من نفسي . وبمعنى آخر أيضاً ، فإن الإنسان الذي يؤمن حقاً أن المسيح قد أتى من الآب يكون هو الإنسان الذي شاء ويشاء أن يعمل ويعرف مشيئة الآب . وهذا هو الأسلوب المحبب للمسيح وهو الأسلوب العملي جداً والبسيط للغاية المطروح أمام كل إنسان دائماً أبداً : ونبسطه أمام القارئ في أربع كلمات :

آمن بالرب ، تستعلن أسرارهِ ؛

تعالَ يسوع ، تكتشف الله ؛

اخضع لمشيئته ، تدرك مشيئته .

والعكس مستحيل المستحيل . فالفحص والدراسة والتحليل لا توصل إلى الحقيقة الإلهية الكائنة في أقوال المسيح وتعاليمه . فلو كان المسيح يتكلم من نفسه و يعلم من نفسه وبسلطانه الشخصي ، لكان من الممكن إخضاع كل أقواله وتعاليمه للفحص العقلي والنقد لكشف محتواها حسب الثوابت الأدبية . ولكن الحقيقة المذهلة أن كل كلام المسيح ، وكل تعاليمه ، ليست له ولا منه ولكنها من الله الآب والله الآب ؛ وأصبح التسليم لها حتمية روحية كلية .

١٨:٧ «مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ ؛ وَأَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ ، فَهُوَ صَادِقٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظَلَمٌ» .

المسيح هنا يثبت أنه مرتبط بالمصدر الذي يقول و يعلم لحسابه . فلو كان تعليمه هو حصيلة فكره ودراسته الخاصة ، لكان يطلب ثمنه شهرة أو مجداً لنفسه . ولكن الآن لا يطلب لنفسه شيئاً ، لا شهرة ولا مجداً ولا أتباعاً خاصة ، ولكنه يطلب مجد الله أبيه الذي أرسله فقط . إذن ، فلأنه أخرج نفسه من التأثير الشخصي في عملية التعليم وأصبح التعليم كله خاصاً بالله ، يكون التعليم إلهياً مائة بالمائة ، وحقاً وصدقاً وليس فيه أي ابتزاز ، ويكون المسيح صادقاً وعادلاً في كل ما يقول ، وليس ظالماً كما يفترضون .

نفهم من هذا بالنسبة لأنفسنا ، أن طلب المجد الشخصي والسعي إليه يشبتان تزييف التعليم وابتزاز مجد الآخر وهو الله . كذلك فإن صدق التعليم الإلهي وصدق المعلم الذي من الله يتوقفان على لمن يطلب المعلم المجد : لنفسه أم لله ؟ والرب سبق ووبخ الفريسيين ، وهم معلمو الشعب : «كَيْفَ تَقْدُرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ؟» (يوه : ٤٤) . الرب هنا أخرج الفريسيين ليس من دائرة التعليم الصحيح فحسب ، بل ومن دائرة الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله يتوقف بالدرجة الأولى على تمجيد الله .

والرب هنا في الآية : «مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ» ، يطبّق نفس المبدأ على نفسه على غلط ما وجّهه إلى الفريسيين . ثم يعود يوجه التعليم الصحيح إلى غايته الصحيحة : «أَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَهُوَ صَادِقٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظَلَمٌ (أي عادل)» .

ويلاحظ الدارس المدقق أن هذا المبدأ ينطبق تماماً على قول القديس بولس : «لكنه أخلى نفسه» (في ٢: ٧) . فالمسيح أخلى نفسه من المجد وطلب المجد : «مَجْدًا مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبِلُ» (يوه : ٤١) ، بل ومن الكرامة أيضاً كما رأيناه في غسل أرجل تلاميذه كعبد : «أَجَابَ يَسُوعُ : أَنَا

ليس بي شيطانٌ لكني أكرمُ أبي وأنتم تُهينونني. أنا لستُ أطلبُ مجدي، يوجدُ مَنْ يطلبُ و يُدينُ» (يو: ٨: ٤٩ و ٥٠). وذلك كله لحساب مجد وكرامة الآب الذي أرسله!! والنتيجة أن الآب ردَّ له المجد مجدين، إذ ردَّ عليه الآب بصوت مسموع من السماء علناً: «مَجَّدْتُ وَامَجَّدُ أيضاً» (يو: ٢٨: ١٢). فالذي أخلى نفسه من المجد، عاد إليه المجد مضاعفاً: مجدٌ في الأرض ومجدٌ في السماء! ولكن الذي يطلب و يأخذ مجداً من الناس وهو أصلاً لحساب مجد الله، فإنه بتعبير الإنجيل ظالمٌ ومبتز. اسمع ما يقول الرب بشأنه: «لا تظنوا أنني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم.» (يو: ٥: ٤٥)

١٩: ٧ «أليسَ موسى قد أعطاكمُ النَّامُوسَ وليسَ أحدٌ منكم يعملُ النَّامُوسَ. لماذا تطلبون أن تقتلوني؟».

المسيح هنا ينقل التعليم نقلة خطيرة، فهو يهاجم الفريسيين على أرضهم المزعومة وفي بيتهم الذي جعلوه مغارة لصوص: يهاجمهم في أمانتهم للناموس بل وفي معرفتهم له بل وفي عملهم به. ويهاجمهم داخل الهيكل وليس في الخفاء أو في زاوية!! ولكن على أي أساس يهاجمهم؟

الكلام هنا متصل اتصالاً وثيقاً بما قبله، وليس كما يظن خطأ علماء الكتاب أنه متصل بالأصحاح الخامس، حيث يدَّعون أنه نقل وتغيير في ترتيب الأصحاحات. لقد قال الرب في الآيات السابقة: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحدٌ أن يعمل مشيئته، يعرف التعليم هل هو مِن الله أم أتكلَّم أنا مِن نفسي» (يو: ٧: ١٦ و ١٧). فهو يبنّي على هذا الكلام أنهم لا يعملون مشيئة الآب لأنهم لم يعرفوا تعليم المسيح أنه من الله. هذا أولاً، أما ثانياً، فلأنهم على خلاف ناموس موسى وقواعده وأصوله يريدون أن يقتلوه، مع أنه جاء ليُكَمِّلَ الناموس. وهكذا بينما هم يتهمونه بكسر السبت بدون حق، ها هو الآن يقيم عليهم الدعوى أنهم لا يكسرون الناموس فحسب، بل و يعملون ضده بمحاولة قتله مع أنه يعمل مشيئة الله.

ويلاحظ القارئ أن في الأصحاح الخامس ينتهي المسيح إلى إقامة الدعوى ضدهم أيضاً على أساس الناموس، ويجعل الناموس نفسه قاضياً ودياناً وشاكياً ضدهم، على أساس أنهم لا يقرأون الناموس قراءة صحيحة واعية، وإلاَّ كانوا قد عرفوا منها أنها تشهد له، إذ قال لهم: «فتشوا الكتب» (يو: ٥: ٣٩)، وأيضاً على أساس أنه ليس لهم محبة الله فيهم، لأنه وهو ابن محبة الله رفضوه ولم يقبلوه مع أنه جاء باسم أبيه ولم يجيء إليهم باسم نفسه!! ثم أضاف على الدعوى ضدهم في الأصحاح الخامس شكوى ثقيلة للغاية، إذ اتهمهم بأن ليس لهم إيمان بالله، لأن مجد الله أنكروه

وطلبوا مجد أنفسهم و بدأوا يطلبون مجد الناس بعضهم من بعض .

أما هنا ، في الأصحاح السابع ، فالدعوى قائمة عليهم على أساس التعليم نفسه وذلك بشهادتهم هم : « كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ؟ » ، فبالرغم من اعترافهم بمعرفته المدهشة بالكتب ، وقدرته ذات السلطان في التعليم وليس كالكتبة والفريسيين — وطبعاً هذا يعود على أن تعليم الكتبة والفريسيين قائمٌ على ناموس موسى ، أما تعليم المسيح فهو من المصدر الأعلى من الناموس أي الله نفسه ، كما أن تعليم المسيح جاء ليكمل كل تعاليم سابقة ويصححها — فبالرغم من اعترافهم هذا إلا أنهم بسبب أن المسيح لا يثبُت إلى مدارسهم ومُعلِّمهم ، اعتبروه أنه يُضلُّ الشعب ، مع أن تعليمه من الله . ولو كانوا « يعملون الناموس » ، أو بمعنى آخر لو كانوا يقيسون التعليم الذي يُعلِّم به المسيح على الناموس ، لأدركوا مصدر التعليم أنه من الله . ولكنهم لأنهم « لا يعملون الناموس » ، خرجوا عن مقياس الناموس ، فأنعمت بصيرتهم وطلبوا أن يقتلوا الذي جاء ليكمل لهم الناموس !

٧ : ٢٠ - ٢٤ « أجاب الجمع وقالوا بك شيطان ، مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَقْتُلَكَ ؟ أجاب يسوع وقال لهم عملاً واحداً عَمِلْتُ فَتَعَجَّبُونَ جميعاً ، لهذا أعطاكم موسى الختان — ليس أنه مِنْ موسى بل من الآباء — ففي السَّبْتِ تَخْتِنُونَ الإنسان . فإن كَانَ الإنسانُ يَقْبَلُ الختانَ في السَّبْتِ لئلا يُنْقَضَ ناموسُ موسى أفتسخطون عليّ لأنني شَفَيْتُ إنساناً كُلَّهُ في السَّبْتِ . لا تَحْكُمُوا حسبَ الظاهرِ بل احْكُمُوا حُكْماً عَادِلاً . »

حينما تُعْمَى بصيرة الإنسان ، يرى الأبيض أسوداً . فعكس الرؤيا الصحيحة للمسيح أنه ابن الله ، رأوه وكأن به شيطان . والدليل على أن البصيرة قد انعمت عند هؤلاء ، أنهم كانوا قد رأوا بأعينهم كيف شفى مريض بيت حسدا المشلول وتعجبوا جميعهم من هذه الآية . إذن ، فكان ينبغي أن تُقَيِّم هذه الآية تقييماً صحيحاً ، فهي عَمِلْتُ في السبت ، فكان ينبغي أن تُنسب لبركات الله في السبت كما تُنسب لبركات الناموس ، هذا هو الحكم الصحيح . والرب أعطاهم جواز عمل الختان في يوم السبت (الختان يُعْمَل إلزاماً في اليوم الثامن من الولادة — فاحتمال وقوعه في سبت أمر وارد دائماً — فالختنان يُعْمَل أصلاً من أجل الصحة — أي الطهارة — وكلمة الشفاء الواردة باليونانية تفيد الصحة الجسدية *ὕγιη* التي تُنطق *Hygie* والتي جاءت منها الكلمة الإنجليزية *Hygiene* أي الصحة العامة ، فإذا تطهر الإنسان في اليوم الثامن أصبح صحيحاً ومقبولاً في جماعة بني إسرائيل) .

فإن كان الختان يُعمل أصلاً من أجل صحة الإنسان، فكم وكم بالحري أن يشفى المسيح إنساناً كسيحاً مشلولاً ليصير صحيحاً، ليس في عضو واحد بل في كل أعضاء جسمه؟ وهنا يظهر المسيح أنه يعمل فعلاً مكتملاً للناموس، إذ جعل الإنسان كله طاهراً. وهذا في الحقيقة جزء لا يتجزأ من عملية الفداء، فلا ننسى إطلاقاً قول إشعياء النبي أننا بجلداته شُفينا وأنه حمل أمراضنا وأسقمانا عليه (إش ٥٣: ٥ و٥٤). فعملية الشفاء الروحي التي أجراها المسيح لنا أجراها من رصيد آلامه ودمه.

كما يظهر المسيح أنه يكرم السبت ويكمل بركاته، بأن عمل فيه أعمالاً لمجد الله وتكريم الإنسان. ويكفي كرامة لهذه السبوت أن جعل السبت يوماً من أيام ابن الإنسان، بسبب أعمال الشفاء التي أكملها فيه.

ثم يعود المسيح لائماً هؤلاء، سواء كانوا فريسيين أو من العامة قائلاً: «لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً». هنا لفتة من لفتات المسيح الخطيرة، إذ اعتبر أن الأعمال الطقسية والمراسيم والقوانين تحمل صورتين للحق الإلهي، صورة ظاهرية تُرى بالعين وصورة جوهرية حقيقية تُقاس على برِّ الله أو حقِّ الله. فالصورة الظاهرية نسبها المسيح للعين κατ' ὄψιν والصورة الجوهرية نسبها للحق أو البر δικάϊαν κρίσιν. والخلط بينهما أو الاكتفاء بالظاهر، كفيل بأن يُضَيَّع حق الله ويطمس معالم البرِّ الإلهي. والنتيجة أنهم من أجل حفظ رسوم يوم السبت، رفضوا رب السبت وقرروا قتله.

ب - تعاليم موجهة إلى سكان أورشليم: (٧: ٢٥-٣١).

٧: ٢٥-٢٧ «فقال قوم من أهل أورشليم أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه. وما هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً. أعلَّ الرؤساء عَرَفُوا يقيناً أنَّ هذا هو المسيح حقاً. ولكنَّ هذا نعلم من أين هو. وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو».

يلزمنا هنا أن نفرق بين الأوساط التي يتكلم معها المسيح^(٨): اليهود ويمثلهم دائماً الفريسيون، والجموع وهم أهل الجليل وعامة الشعب، وأهل أورشليم وهم سكان العاصمة ولهم دائماً دراية

(٨) راجع المدخل ص ٢٩٨.

بأحوال الرؤساء وسياساتهم ولكن لم يكونوا موافقين دائماً على أعمالهم.

وهنا يبرز هذا العنصر الذي كان واقفاً يراقب الحوار الذي استظهر فيه المسيح على خصومه من اليهود والجموع، الذين، في الحال، انحازوا لجانب المسيح نوعاً ما، وبدأوا يستنتجون من صمت اليهود أن خططهم لقتله غير لائقة. وتقدموا في استنتاجهم خطوة أخرى: أعل الرؤساء يتيقنون من صدق رسالته أنه المسيح؟

ولكن العقبة التي وقفت إزاء تفكيرهم وتقريرهم عن صحة رسالة المسيح والتيقن من شخصه، هي أن المتداول بين عامة الشعب، متعلمين وغير متعلمين، وخاصة في الأوساط التي تمارس حضور التعليم في الهيكل والمجامع، كان أن المسيح حينما يأتي لا يعرف أحد من أين يأتي؛ وذلك من واقع الكتابات الرؤيوية^(١). ولكن كان معروفاً عن المسيح أنه من الجليل، ومن الناصرة، وأنه مولود في بيت لحم، وأن أباه (؟) وأمه معروفان لديهم وحتى إخوته وأخواته (؟).

وأيضاً يرد المسيح على ما كان يدور في قلوب هؤلاء الأورشليميين وقد عرفه بإحساسه الإلهي:

«فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً تعرفوني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأنني منه وهو أرسلني. فطلبوا أن يمسكوه. ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. فآمن به كثيرون من الجمع وقالوا أعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا».

لقد أدرك المسيح بإحساسه الإلهي ما كان يدور في قلوبهم، ووافق على أنهم يعرفونه ويعرفون من أين أتى، ولكن معرفتهم للأسف كانت أيضاً حسب الظاهر. والظاهر لا يحل محل الحق والجوهر، وإنما يشير إليه إشارة بليغة؛ فكونه «من الناصرة» إشارة ليست بسيطة، بل هي نبوية، وتفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وكونه مولوداً في بيت لحم، هذه أيضاً إشارة نبوية تفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وهكذا نرى أنه حتى الظاهر عجزوا عن أن يسيروا على هذاه ليدخلوا إلى الحقيقة المخفية تحته. لذلك جاهر المسيح بصوت عالٍ — لأن كلمة «نادى» تأتي باليونانية ἐκράξεν وتفيد «الصراخ» أو «المناداة بصوت عالٍ»؛ وقال: «من نفسي لم آت، بل

(١) راجع المدخل ص ٩١. هذه الكتب المسماة أبوكريفا العهد القديم التي تعرض لهذا الموضوع هي سفر أخوخ ٦: ٤٨ وسفر

الذي أرسلني هو حقُّ الذي أنتم لستم تعرفونه». وهكذا بدأ المسيح يستعلن لهم ما هو تحت الظاهر، أي من أين أتى ومن هو: أمور تمَّتْ إلى الحق الذي يفوق معرفتهم الناموسية، ويلزم أن يتقبَّلوها لتكمل معرفتهم. فد «الحق» الذي أرسل المسيح لا يعرفه إلا المسيح، والمسيح يعرفه لأنه منه، أي أنه هو نفسه من الحق. والكلام كان واضحاً بالنسبة للسامعين إذ أدركوا أنه يتكلم عن الله، وأنه هو من الله، وأن الله هو الذي أرسله؛ لأنه قد سبق وأوضح ذلك مراراً. ولكن الجديد في الموضوع هو أن المسيح بذلك قد أحرَس الذين يتماحكون بقولهم إن المسيح لما يأتي لا يعرف أحد من أين يأتي ولا مَنْ هو. فهو الآن يقول لهم جهاراً وفي الهيكل إنني أتيت من عند الله — من حيث لا يعرفون — وليس من الأرض أو البحر، وأنه هو ابن الله، وليس كما يظنون أنه ابن يوسف.

ولما فهموا أنهم في نظره لا يعرفون الله ولا يعرفون حتى الكتب، اغتاضوا وتحركوا و«طلبوا أن يمسخوه»، لأن انفعالهم كان على مستوى القهوس الناموسي. ويكمل الإنجيل أنهم لم يستطيعوا أن يلقوا عليه اليد لأن ذلك كان فوق طاقتهم الهزيلة، ولأنه ينبغي أنه هو الذي يسلم ذاته حسب التدبير الإلهي عندما تأتي الساعة!...

ولكن في الجانب الآخر كان قوم يسمعون ويميزون بين الحق والكذب وبين النور والظلمة. قوم رأوا في كل آية عملها المسيح برهاناً صادقاً على دعوته، ثم رأوا في العدد الم هول من الآيات المعمولة تأكيداً على صدق دعوته. ويمكن أن ندعوهم مؤمني الآيات: «ألعلَّ المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». ونفهم من قولهم هذا أنهم كانوا يطبِّقون، في أفكارهم، بين المسيَّا الذي سمعوا عنه وعن أوصافه من المعلمين وبين يسوع الواقف أمامهم ووراء هذه الآيات كلها!...

ج — تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة:
(٧: ٣٢-٣٦).

٧: ٣٢-٣٦ «سَمِعَ الْفَرِيسِيُّونَ الْجَمْعَ يَتَنَاجَوْنَ بِهَذَا مِنْ نَحْوِهِ، فَأَرْسَلَ الْفَرِيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ خَدَّاماً لِيُمْسِكُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً بَسِيراً بَعْدُ ثُمَّ أَفْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. سَتَطْلُبُونَنِي وَلَا تَجِدُونَنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا. فَقَالَ الْيَهُودُ فِيمَا بَيْنَهُمْ: إِلَى أَيْنَ هَذَا مُزْمَعٌ أَنْ يَذْهَبَ حَتَّى لَا

نَجِدُهُ نَحْنُ. أَلَعَلَّةُ مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى شَتَاتِ الْيُونَانِيِّينَ وَيُعَلِّمَ الْيُونَانِيِّينَ. مَا هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَ سَتَقْلُبُونَنِي وَلَا تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا».

الآن نحن ندخل المرحلة الثالثة من المحادثة:

كان حديث الشعب عن المسيح يلتقط أولاً بأول و يُبلَّغ به مجمع السنهدريم الذي يضم كل الطبقات الدينية المسئولة، من فريسيين ورؤساء كهنة عاملين وغير عاملين. فبمجرد أن بلغ السنهدريم خبر إنحياز قطاع من الشعب لتعاليم المسيح، تشكلت لجنة في الحال، وأرسلت مجموعة من الخدم — وهم ضباط يأترون بأمر السنهدريم — لهم صفة رسمية تحوّل لهم القبض على الأشخاص.

رؤساء الكهنة:

وهذه الفئة تتشكل من الرؤساء السابقين: حنّان، والرئيس الحالي قيافا، ومن يساعده من أبنائهم: أليعازار بن حنّان، وسمعان بن قمحيت، وإسماعيل بن قايي، وكذلك أعضاء آخر من العائلات الرئاسية^(١٠)، علماً بأن لقب رؤساء الكهنة لا يمثّل للوظيفة الدينية بقدر ما يعني العمل السياسي — كما نسمع ذلك في سفر الأعمال: «وحدث في الغد أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتمعوا إلى أورشليم مع حنّان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة» (أع ٤: ٦ و ٥). وهذه التشكيلة هي صورة للسنهدريم *συνέδριον*، وهو الهيئة العليا لمحكمة القضاء العالي، ومركزها أورشليم، والتي تشكلت لأداء عملها أثناء حكم الرومان وكان عليها تصريف الأمور، ولكن لم يكن في سلطتها إصدار حكم الموت على أحد. وكان من سياسة الرومان أن يساندوا سلطة السنهدريم.

والسنهدريم^(١١): كان يتكون من ثلاث طبقات:

الأولى: رؤساء الكهنة العاملين وكل رؤساء الكهنة السابقين وبعض أبنائهم، وهي الهيئة الأرستقراطية في أورشليم، وكان مركز عملهم ورزقهم من الهيكل، ولم يكن لهم صلة كبيرة بالمجامع المحلية. وكانوا يلعبون بمصير الأمة اليهودية تحت ستار السلطة الدينية.

الثانية: الصدّوقيون وكانوا يتسمون بالكهنة *πρεσβύτεροι* أو الشيوخ. ولم يكونوا كهنة

¹⁰ Derenbourg, *Hist. de Palest.*, pp. 230f.

¹¹ ICC, Bernard, *op. cit.*, p. 277-8.

بالمعنى الديني ولكنهم كانوا دائماً ملتصقين برؤساء الكهنة، وهم صفة قضائية. والكهنة ورؤساء الكهنة كانوا في عدااء وصدام خفي مستمر مع الطبقة الثالثة.

الثالثة: وهم «الفريسيون» أو «الكتبة»، وهم ما يمكن أن نسميهم طبقة المحامين ويُسمَّون باليونانية «الكتبة» γραμματεὺς، أو «الناموسيون» νομικός (ولم يذكرهم بهذا الاسم ق. يوحنا في إنجيله)، وكانوا يُذكرون تحت اسم «الفريسيين». وهؤلاء كانت لهم دراية دقيقة وواسعة بالناموس اليهودي والتقاليد المتعلقة به. وكانت وظيفتهم متابعة تطبيق الشريعة بتزمت يفوق حد الوصف. وكانت تدخلاتهم وسلطانهم متزايدين على المجامع المحلية وليس الهيكل؛ أي لم يكن لهم تدخل في مراسيم العبادة، وإنما الحفاظ على التقاليد وتعاليمها. لذلك كان صدامهم مع المسيح متواصلاً، وكانوا يندشون وسط الشعب ليديروا الحوار والأسئلة والإعتراضات، وكانوا يبلغون السهديم في الحال بأي انحراف عن أفكارهم المقفولة. وقد ورد ذكرهم تحت اسم الفريسيين: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً (لم يُحسنوا إحكام التضييق عليه وعلى تعاليمه) هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو ١٢: ١٩)

وقد انضم هؤلاء مع الصدوقيين (الكهنة) في عملية القبض على المسيح ومحاكمته، تحت اسم الفريسيين: «فأخذ يهوذا الجند وخذاماً (ضباط) من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاءوا إلى هناك بمشاعل...» (يو ١٨: ٣)

«فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة»:

فالمحركون الأساسيون في هذه العملية هم الفريسيون. ولكن بدون أمر رسمي من رؤساء الكهنة لا يمكن تنفيذ أي حكم في السهديم. لذلك نجد أن أية حركة نحو تطبيق أية عملية يلزم أن يشترك فيها رؤساء الكهنة مع الفريسيين، كما يجيء في (٧: ٤٥، ١١: ٥٧)، حيث يكونان معاً السلطة المنفذة للسهديم.

«فقال لهم يسوع أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني»:

المسيح هنا أمام ضباط السهديم الذين معهم أمر للقبض عليه، يخاطبهم الرب بصفته أنهم هم الذين سيقبضون عليه فعلاً بعد قليل (يوم الخميس). فما معنى التسرع «وهو» ليس معه أمر (من الآب) بالتسليم؟

الخدام الضباط وجدوا أنفسهم أمام سلطة ذات مستوى أرقى وأعلى لم يواجهوها من قبل، شلت

أيديهم وجمّدت أرجلهم. لم يكن سهلاً على أنفسهم ولا على وظائفهم أن يعودوا بدونه، ولكن كان سهلاً عليهم أن يفقدوا «هذه» و«تلك» ولا يمدّوا أيديهم عليه!!! لم يكن الخوف وحده الذي أرغّبهم من الاقتراب إليه، ولكن كلامه كان فيه روح وحياة أنعشت نفوسهم المجذبة، ورفعت من أرواحهم فوق السنهدريم والقوانين والوظائف والحياة والموت. فعادوا فرحين لأنهم لم يقبضوا عليه، وليكن ما يكون...

أما الزمان اليسير الذي حسبه الرب وقاسه: فكان ستة شهور ليأتي الفصح الأخير وليكمل الزمان ويُذبح المسيح فصحنًا...

«ثم أمضي إلى الذي أرسلني»:

كلمة «أمضي» هنا، وهي بمعنى مجرد الذهاب، تأتي مترادفة مع كلمتين بنفس المعنى ولكن بشرح آخر: «وإن مضيتُ وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم إلَيَّ...» (يو: ١٤: ٣). والكلمة الثالثة: «إن ذهبتُ أرسله إليكم» (يو: ١٦: ٧). ويهنا هنا أن نشرح الفرق بين هذه الثلاثة الأفعال المترادفة.

فالأولى: «أمضي إلى الذي أرسلني» (٣٣: ٧). هنا المضي $\epsilon\pi\alpha\gamma\omega$ تفيد عملاً شخصياً بمعنى «الإنسحاب». وقد أتت أيضاً في يو: ٨: ١٤: «وأعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب» $\epsilon\pi\alpha\gamma\omega$. وفي الآية ١٣: ٣: «وأنه من عند الله خرج وإلى الله بمضي». وفي الآية ١٤: ٤: «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق». وفي الآية ١٦: ٥: «وأما الآن فأنا ها هنا إلى الذي أرسلني». ويلاحظ هنا أن معنى المضي في اللغة اليونانية هو مجرد إنسحاب شخصي يفيد معناه فقط.

والثانية: وقد أتت في الآية ١٤: ٣: «وإن مضيتُ وأعددت لكم مكاناً...» $\pi\omicron\tau\epsilon\upsilon\omicron\mu\alpha\iota$. وفي الآية ٧: ٣٥: «أله مزعم أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويُعلم هناك». وفي الآية ١٦: ٧: «ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم». وهنا ينصبُّ معنى «الذهاب» باللغة اليونانية على القصد منه، فهو ذهاب ومضيٌّ له عمل وهدف. فيظهر الذهاب أنه مكمل لإرسالية لها غاية.

والثالثة: وقد أتت في ١٦: ٧: «إنه خير لكم أن أنطلق» $\alpha\pi\epsilon\rho\chi\omicron\mu\alpha\iota$. وفي الآية ٦: ٦٨: «يا رب إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية عندك». وهنا الذهاب يأتي باللغة اليونانية بمعنى الفراق فقط. ومجرد الفراق هو الذي تشدد عليه الآية بالرغم من أن الفراق نفسه قد يُنشئ شيئاً آخر.

وقد اعتنينا بتوضيح هذه الفروقات لسبب واحد، وهو أن اللغة العربية تقف عاجزة في مواقف كثيرة عن أن تعبّر عن المعنى بكلمة واحدة، فتأتي الكلمة غير كافية إطلاقاً لشرح المعنى كما رأينا. فالذهاب قد يكون لعمل ما، وقد يكون إنسحاباً، وقد يكون مجرد ذهاب فرقة.

«أمضي إلى الذي أرسلني»:

لا يزال المسيح هنا يخاطب الذين أرسلهم السنهدريم، وهو يتكلم بنفس المشاعر التي تجول في قلوبهم فهو مُرْسَل كما هم مُرْسَلُونَ، هم مرسلون من السنهدريم وهو مُرْسَلٌ من الله. والكلام واضح لهم ومؤثر للغاية. رسالتهم قبض ودينونة وعنف، هم كرهوها أشد الكره، ولولا أكل العيش لتركوها. ورسالته وضحت أمامهم أنها للحب والسلام والفرح والشفاء والشكر. لقد خجلوا جداً من أنفسهم وعادوا يتحدثون بفضل الذي سمعوه.

«ستطلبوني ولا تجدوني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»:

بمجرد سماع هذه الآية يتوارد إلى الذهن قول الرب: «اطلبوا تجدوا» (مت ٧: ٧). ولكن هنا للأسف سيطلبون ولا يجدون، ليس لفوات الوقت، ولكن لفوات الفهم والإدراك والتعرف على المُرْسَل والراسل. فهي فرصة حرجة للغاية لا تتكرر ولن تتكرر بالنسبة للذين رأوه وأنكروه، للذين سمعوه ورفضوه، للذين تحدث إليهم وابتسم في وجههم وأفاض من حبه عليهم، وفي النهاية رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسировن لا معه ولا خلفه. هؤلاء سيطلبونه بعد، ولكن لن يجدوه لأنه يكون قد أنهى رسالة النظر والسمع واللمس، ودخل في مجال مجد التجلي الأبدي حيث لا يُرى بعد بالعين بل بالإيمان... سيذهب المسيح كعريس إلى خدره الأبدي السري، ويُغلق الباب حينما تغرب شمس يوم الإفتقاد: «كم مرة أردت أن أجمع أولادك... ولم تريدوا» (لوقا ١٣: ٣٤). فإلى الذين قبلوه يقول: «تعالوا إليّ»؛ وإلى الذين رفضوه يقول: «اذهبوا عني». إنها لحظات في عمر الإنسان تقرر مصيره الأبدي والذين تفوتهم ساعة الخلاص المعروضة دائماً «الآن»، يطلبونها بعد فلا يجدونها.

«... أله مزعم أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويُعلّم اليونانيين»:

لقد بع صوت المسيح إزاء آذان مسدودة. لقد سبق وردّ في الآيات السابقة على «من أين أتى»، «ومن هو» التي كانت علّة التعرف عليه، وهم علموا أنه يقول عن الله مصدر كيانه ومصدر مجيئه. وهوذا الآن يكمل القول أنه ذاهب إلى الذي أرسله، ولكن إلى هناك لا يستطيع أحد أن يتبعه، وهو إن كان معهم الآن فهو إلى زمان قليل للغاية... ولكن طاشت عقولهم في جغرافية الأرض وإلى أماكن التمشي فيها واستقرت في مواضع اليونانيين. أليس أنه مولود في الناصرة أو بيت لحم وأبوه وأمه عندنا... فعساه قد قرر أن يغيّر المواضع والأوطان، إن كان قد عزّ عليه العودة

إلى الجليل. إلى هذا الحد الضيق الغريب انتهت أفكارهم وتأملاتهم وانتهى ذكاؤهم الأحمق. ولكن شيئاً واحداً صادقاً ظل لاصقاً بعقولهم هو أنه ذاهبٌ، لا خوفاً منهم، ولكن رغبة في التعليم، فهو لا يزال في مخيلتهم أنه هو هو «المعلم»، حيث يعلم هناك شتات اليهود. ولهذا الأمر ارتاحت جداً عقول ضباط السنهدريم، فهو وإن كان سيكون نوراً للأمم هناك فهو لا يزال يطلب مجد إسرائيل. على قدر هذا تنبأوا وهم لا يدرون... ولكن بقي السؤال محيراً لعقولهم: ما هذا القول الذي قال، ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرُونَ أنتم أن تأتوا؟ وكان على المسيح أن يضع هذا في قلبه ليوضحه لنا شيئاً فشيئاً.

٣ - محادثات اليوم الأخير من العيد: (٧: ٣٧-٥٣).

٣٩: ٣٧-٣٩ «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحدٌ فليقبل إليّ ويشرب. مَنْ آمَنَ بي كما قال الكتابُ تجري مِنْ بطنِهِ أنهارٌ ماءً حياً. قالَ هذا عن الروح الذي كان المؤمنونَ بِهِ مزمعينَ أن يَقْبَلُوهُ، لأنَّ يسوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ». (١٢)

«وفي اليوم الأخير العظيم من العيد»:

كان العيد سبعة أيام يعيشونها في مظال من فروع الشجر التي تمثل التيه أربعين سنة في المظال في البرية (أنظر شرح الآية ٧: ٢)، أما اليوم الثامن فكان يُعاملُ كأيام السبت، فكانت له كرامة السبت، لذلك سُمِّيَ باليوم الكبير أو العظيم، ويمثل عندهم في الذكرى يوم الوصول إلى أرض كنعان. والآن في زماننا هذا يعيد اليهود له عيداً خاصاً يُسمونه «الهنوكة» أو عيد الأنوار، وهو يلي عيد الشكر عند الأمريكان. ويُعيدون له بإضاءة المنارة ذات الشُعَبِ الثماني، حيث تبقى الشعبة الثامنة لتُثار في هذا اليوم.

وفي كل يوم من الأيام السبعة — حسب ما سبق ووصفنا — كان رئيس الكهنة يذهب باحتفال خاص إلى بركة سلوام ويملاً جرة من الذهب ماءً يصبُّها على مذبح النحاس وقت ذبيحة الصباح، حيث تجري المياه في مجرى خاص من الفضة لتصبَّ في وادي قدرون. وأثناء ذلك يسبحون تسبحة إشعياء النبي مع المزامير (أنظر شرح الآية يو ٧: ٢).

(١٢) هذا الفصل (٧: ٣٧-٥٣) يُقرأ في صلاة عشية عيد الخمسين.

وأيضاً في قداس الجمعة السابعة من الخمسين وهي السابقة مباشرة لعيد الخمسين.

أما في اليوم الثامن فتتوقف هذه العملية حيث يُمنع العمل فيه . وقد وجد الرب أن هذه هي المناسبة الوحيدة حيث وقف — ويبدو أنه وقف على مكان عالٍ — ونادى قائلاً :

«إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ» :

إن طقس حمل الماء وصبه على المذبح كان يُمثل خروج الماء من الصخرة في البرية التي شرب منها الشعب (١٣). وبولس الرسول رأى أن هذه الصخرة التي كانت تتبعهم هي المسيح . ولم يكن استدلاله على ذلك من عنده، ولكنه أدرك ذلك بالروح، من موقف الرب في هذا اليوم الثامن بالذات من العيد ليقول، عِوَضَ ماء الصخرة: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ ويشرب». وطبعاً، سبقت السامرية أهل أورشليم في شربها من هذا الماء الحي عوض ماء بشر سوخار.

كما سبق أن علّم المسيح بذلك في يو: ٦: ٣٥ في المناسبة التي أوضح فيها أنه هو المنّ الحقيقي، خبز الحياة، جسده الذي سيبدله من أجل حياة العالم، ليأكل المؤمنون ولا يموتون بل يحيون إلى الأبد: «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلا يجوع، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فلا يعطش أبداً»، أي أنه هو المنّ، وهو الصخرة في برية العالم، للأكل الحقيقي والشرب الحقيقي. لقد أخذ على عاتقه أن يعولنا في برية هذا العالم حتى نصل إلى الوطن السماوي الدائم بخبزه السري للغاية ومائه السري لأقصى غاية. فالإرتواء منه للقلب العطش لا يبقى إرتواءً وحسب ولكنه يحوّل الصخر إلى نهر، فيصير ينبوع إرتواءٍ للآخرين. شيء يفوق عقل العطشان!! أما السر في ذلك فلأن الإيمان بالمسيح، الذي هو مصدر الإرتواء، يأتي بالإتحاد بالرب. فالرب، حينما نشرب من ملئه، يصير فينا كما هو ينبوع إرتواءٍ للآخرين. نفتح فمنا والروح يتكلم، ونتكلم والروح يعلم، ونعلم والروح يعلم، ونعمّد والمسيح يخلق إنساناً جديداً على صورة خالقه في القداسة والمجد. لقد ذهب زمان الحبل بالأنين والولادة بالتوجع. فبطن الإنسان، عوض أن كانت مقرّ الخطيئة والموت، صارت عرشاً لله والروح. وعوض أن كانت تحبل بالخطيئة وتلد بالألم والدموع، صارت تحبل بالروح لتجري منها أنهار ماء وينابيع الفرح للحياة... والإنسان الذي كان يأكل من تراب الأرض بعرق جبينه ويمزج لقمته بدموعه، صار يأكل خبز الله النازل من السماء ويغمس لقمته في دم ابن الله.

«مَنْ آمَنَ بِي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» :

الكتاب هنا يعود بالسامع والقارئ إلى قصة الصخرة في البرية التي عليها سيبنى المسيح كنيسة ويخلق منها الإنسان الجديد على صورته، وهي نفس قراءات مراسيم الهيكل في عيد المظال.

إذ يقرأون فصلاً من سفر الخروج: «ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب» (خر ١٧: ٦). وهكذا لم تعد الصخرة صخرة، بل ينبوع سقي!

كما يقرأون فصلاً من سفر العدد: «ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، فخرج ماءً غزير، فشربت الجماعة ومواشيها» (عد ٢٠: ١١)، وهنا الصخرة لم تعد صخرة، بل نهراً يفيض.

ثم يقرأون فصلاً من سفر التثنية: «الذي أخرج لك الماء من الصخرة الصوان» (تث ٨: ١٥)؛ ومن سفر الزمير: «المحول الصخرة إلى جداول مياه، الصوان إلى ينابيع مياه» (مز ١١٤: ٨)، وهنا الصخرة تتحول إلى جداول وينابيع.

وهكذا فليس مثل الخطيء الذي نشفت روحه وجفت مشاعره نحو الله إلا الصخرة الصوان.

وليس الذي آمن بالمسيح إلا هذه الصخرة عينها، حينما يمسيها روح الله لتخرج منها أنهار وينابيع وجداول. وسر الماء والإرتواء يظل هو المسيح وحده!...

وهكذا يستعلن المسيح نفسه في الصخرة، ثم يستعلن عمله في النفس البشرية، مؤكداً أنه هو وحده الذي فيه ومنه الروح والحياة قديماً وجديداً.

«قالَ هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه. لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مجّد بعد»:

هنا يتدخل ق. يوحنا لكي — من خبرته الخاصة ومن مجرى الأيام والحوادث — يشرح ما التبس في قول المسيح في حينه، إذ كيف تخرج من بطن الإنسان، إذا آمن بالمسيح، أنهار ماء حي والكتاب لم يذكر شيئاً مثل هذا بالنسبة للماء؟ فهذا ظلٌّ في الحقيقة أحجية ولغزاً، إلى أن حلَّ الروح القدس بعد الصليب والقيامة وانسكب على التلاميذ، فشعروا كيف ينسكب الروح عليهم كالماء ويفيض الروح من قلوبهم وأفواههم كأنهار.

وهنا يتضح قول إشعياء: «لأنني أسكب ماءً على العطشان، وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك.» (إش ٤٤: ٣)

ونبوة يوثيل: «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم،

ويعلم شيوخكم أحلاماً، ويرى شبابكم رؤى، وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام» (يوئيل ٢ : ٢٨ و ٢٩)؛ حيث «السكب» صفة تختص بالماء. وهو هنا يصف بها عطية الروح القدس.

وإشعيا النبي يصف الماء الذي نبع من الصخرة على هذا المستوى من عمل الروح: «قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب ولم يعطشوا في القفار التي سيرهم فيها. أجرى لهم من الصخرة ماءً وشق الصخرة ففاضت المياه» (إش ٤٨ : ٢٠ و ٢١). وهكذا، كما فاضت المياه من بطن الصخرة، هكذا فاض الروح القدس من بطن الذين شربوا من نعمة المسيح، ولم يتوقف فيضانهم، فصار كنهر جارٍ، جرى هذه السنين كلها ولم يتوقف حتى جرفنا تياره نحن أيضاً في أواخر الدهور.

«لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مجّد بعد»:

نعلم أن انسكاب الروح القدس هو عطية الآب حسب وعد الآب (أع ١ : ٤)، حتى إن الروح القدس سُمّي «روح الموعد» (أف ١ : ١٣). وقد ارتبط موعد انسكاب الروح بصعود المسيح وانطلاقه إلى الآب: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المُرّي» (يو ١٦ : ٧)، فطالما بقي المسيح على الأرض على المستوى الزمني تعطل انسكاب الروح.

أما تمجيد المسيح فهو اصطلاح وضعه ق. يوحنا ليشمل النصر على الصليب والموت والنصرة على العالم وتكميل العمل الخلاصي الذي آل إلى المجد.

أما مجد الصليب والموت فواضح من قول الرب: «الآن تمجّد ابن الإنسان» (يو ١٣ : ٣١)، عند أول خطوة في تقرير الموت على الصليب، لحظة خيانة يهوذا.

وأما النصر على العالم فواضحة من قول المسيح: «الآن دينونة هذا العالم الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو ١٢ : ٣١)، وذلك في لحظة سماع صوت الآب: «مجدت وأمجّد أيضاً.» (يو ١٢ : ٢٨)

وأما عن تكميل العمل الخلاصي فواضح من قول الرب في صلاته للآب: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم.» (يو ١٧ : ٤ و ٥)

أما مجد الصعود والعودة إلى الآب، فواضح من قول الرب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني.» (يو ١٧ : ٢٤)

فكل خطوات ودرجات المجد جمعها ق. يوحنا في قول واحد: «لم يكن قد مُجَّد بعد». وهذا يقيِّم لاهوتياً على أعلى مستوى، إذ نرى أعمال المسيح متحدة في وحدة المجد الواحد. فالقديس يوحنا، بهذا القول الواحد الذي تبرهنه جميع أقوال الرب، يجعل أعمال المسيح الاستعلانية في الموت والقيامة والصعود وحدة مطلقة في المجد ليس فيها ما هو أقل من المجد، الذي تُصوِّره آلامه وتذللاته: «ظُلِمَ أما هو فتذلل» (إش ٥٣: ٧)، وقبوله الموت كخاطيء، وما هو ممجَّد الذي تصوِّره القيامة، وما هو على مستوى المجد الأسنى في أعلى السموات. بل إن ق. يوحنا يقرر، في واقعية مذهلة، أن جميع صور الآلام والصليب تقف في قوة مجدها وكرامتها على مستوى مجد الجلوس عن يمين الآب سواءً بسواء.

ولتوضيح ق. يوحنا لكلام المسيح وزن عال جداً، فكلام المسيح: «من آمن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي»، هو في ذاته وعد معطل، لأن المسيح لم يكن قد صُلب وقام وانطلق إلى الآب، ولم يكن قد انسكب الروح القدس بعد؛ مما جعل وعد المسيح غير المحقق موضع سؤال محير، لولا تدخُّل ق. يوحنا بالشرح. فهو تدخُّل إلهامي أنقذ حيرتنا، لأن التلاميذ على سبيل المثال ظلوا عطاشى وبلا أنهار تفيض منهم حتى وإلى ما بعد القيامة. ولكن هناك، في يوم الخمسين، بدأ قول المسيح يتحقق ويفهم.

وق. يوحنا يتدخل، لا لشرح ما غمض من كلام المسيح، بل ليثبت صدق قول الرب بالدرجة الأولى.

«الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد»:

وهذا القول في ذاته أيضاً مُحير، لأن في الأصل اليوناني في معظم المخطوطات لا توجد كلمة «أُعطي» فهي مُضافة. فكيف أن الروح لم يكن بعد، مع أن الروح عاملٌ في الخليقة وفي التجسد وفي كلام الرب وأقواله وجميع أعماله؟ الحقيقة هنا تختص بنا نحن، بالبشرية التي لم تكن مُهيأة بعد أن تتقبَّل الروح القدس وعطاياه إلا بعد أن دخل المسيح إلى الأقداس العليا فوجد لنا فداءً أبدياً^(١٤). فالبشرية انتقلت نُقْلًا متلاحقة في شخص المسيح وبشريته من تجسُّد، لموت، لقيامة، لصعود، وهي تترقى معه وفيه، ولكنها لم تبلغ كمال استحقاقها لتكون في شركة حقيقية مقدسة مع الله والمسيح إلا بعد أن تراءى المسيح أمام الآب، وهو لا بَشْ بشرتنا، وجروحه فيه كَحَمَلٍ أكملت ذبيحته، فكُمِّلَ بذلك فداء الإنسان وتصالُّحه مع الآب. لذلك ظل الروح القدس معطلاً

عن انسكابه على الإنسان، حتى أكمل المسيح في نفسه المصالحة النهائية مع الآب، واستعاد الابن كل مجد الله كابن، فانفتح الطريق المُغلق والمحروس بلهب نار الشاروبيم إلى قلب الآب ونعمته، فصار دخولنا إلى الآب بلا مانع. عندئذ انسكب الروح القدس ليعطينا كل ما اكتسبه المسيح لحسابنا: «يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو ١٦: ١٤)

وبذلك يلزمنا أن نفهم أن علاقة تمجيد المسيح بمجيء الروح لا تتعلق بشخص المسيح في حد ذاته، وهي لا تنصب على طبيعة المسيح بالتالي وكأنه كان ينقصها المجد، بقدر ما تنصب على طبيعتنا نحن. فتعذر مجيء الروح القدس قبل أن يُكَمَّل المسيح مجده أمر يختص بطبيعتنا نحن بالدرجة الأولى؛ إذ قبل أن يكمل المسيح أعمال الخلاص من نحونا — التي هي أعمال تمجيده — لم نكن نحن مؤهلين لمجيء الروح القدس.

٧: ٤٠-٤٤ «فكثيرون من الجمع لما سَمِعُوا هذا الكلامَ قالوا: هذا بالحقيقة هو النبي. آخرون قالوا: هذا هو المسيح. وآخرون قالوا: أَلَعَلَّ المسيح من الجليل يأتي؛ أَلَمْ يَقُلْ الكتابُ إنه من نسل داودَ ومن بيت لحم القرية التي كان داودُ فيها يأتي المسيح. فحدث انشقاقٌ في الجمع لسببه. وكان قوم منهم يريدون أن يُمسكوه ولكن لم يُلْقِ أَحَدٌ عليه الأيدي.»

انقسم السامعون إلى ثلاثة أقسام:

فالبعض رأوا في المسيح تحقيق نبوة موسى كما جاءت في سفر التثنية (١٨: ١٥)، وبذلك تحقق لهم الرجاء على مستوى الأمة للخلاص السياسي. وللأسف، فإن المسيح لا يمثل هذا الرجاء الدنيوي، فهو حقاً جاء على مستوى النبوة، كما شرح ذلك بإسهاب بطرس الرسول في خطابه في سفر الأعمال في الأصحاح الثالث (٢٠-٢٦) — ونرجو القارئ الرجوع إليه — ولكن ليس لرّد الأمة من عبوديتها للرومان أو لإنزال المن من السماء، ولكن «لرّد كل واحد منكم عن شروره»؛ فهو خلاص فردي وروحي وليس خلاص أمة وسياسة.

أما البعض الآخر فوجد فيه المسيّا، ودليله الآيات التي صنعها أمامهم. فهو مسيّا المعجزات في نظرهم الذي يمثل القوة الخارقة لمزيد من البركات الدنيوية والجسدية. وللأسف أيضاً فإن المسيح لم يَجِء ليصنع آيات، بل لتكون آياته وأعماله كلها آية تشير إلى شخصه كابن الله وإلى طبيعته الإلهية التي منحها للإنسان عامة: ليرفعه إلى خليفة جديدة جديدة بالموطن السماوي.

أما البعض الثالث فقد وقفت أمامه العثرات والعقبات التي فرضتها تعاليم الربيين أمامهم، فجعلتهم يتركون كل ما قاله وعمله المسيح جانبا ليبحثوا عن مولده وموطنه. وق. يوحنا يسجل لهم نتائج فحوصاتهم، إذ رأوا أنه لا ينبغي أن يأتي المسيح من الجليل بل يتحتم أن يأتي من بيت لحم كأقوال الأنبياء. وهنا يهدف ق. يوحنا من تسجيله الحرفي لأقوالهم هذه إلى هدفين:

الأول: وهو الأبسط في نظره، أنهم يجهلون تاريخ المسيح — لأنه وُلد فعلاً في بيت لحم — وجاهلون في تأكيداتهم — لأنهم يبحثون عن الظاهر.

أما الهدف الثاني: وهو الأعظم والأخطر، فإن ق. يوحنا يرى أنه حتى ولو صحّت أبحاثهم أنه ولد في بيت لحم فإن ميلاده في بيت لحم لا يشير ولا يؤكد من أين جاء المسيح على مستوى الإرسالية وعلى مستوى الوطن الحقيقي وعلى مستوى الطبيعة التي جاء بها: «تعرفوني وتعرفون من أين أنا، ولكن من نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه» (يو ٧: ٢٨). وهذه هي المبادئ الأساسية التي نهج عليها ق. يوحنا في إنجيله فلم يذكر قصة ميلاده أصلاً، لأنه اهتم بموطنه السمائي.

٧: ٤٥ — ٥٣ «فجاء الخُدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به. أجاب الخُدام: لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان. فأجابهم الفريسيون: أعلكم أنتم أيضاً قد ضللتهم، أعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به، ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون. فقال لهم نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم: أعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل. أجابوا وقالوا له: أعلك أنت أيضاً من الجليل. فتش وانظر. إنه لم يَقم نبي من الجليل. فمضى كل واحد إلى بيته.

٨: ١ أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون».

عادت حملة الضباط (البوليس) إلى السنهدريم المنعقد بحضور بعض الفريسيين المختارين ورؤساء الكهنة دون أن ينفذوا أمر المجمع بالقبض عليه. وكان السبب المباشر أنهم فعلاً لم يستطيعوا ذلك.

أولاً، لأنهم شعروا بقوة الرب الطاغية التي حلت أوصالهم، فلم يستطيعوا الإقدام على القبض عليه.

ثانياً، لأن الرأي الشعبي أمامهم كان معظمه منحازاً للمسيح، وكان من الخطورة أن يُقدّموا

على هذا العمل .

أما العذر الذي قدّموه فكان في حقيقته تحدياً لأوامر السنهدريم ، لأن معناه أن هذا ليس إنساناً عادياً يليق به القبض عليه !! و يلاحظ القارئ التأكيد على نفي الوضع العادي للإنسان بالنسبة للمسيح في الكلام : « لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان » . فقرة الكلام هنا منصّبة على هذا الإنسان أنه ليس إنساناً مثله ، وثانياً على الكلام الذي سمعوه أن ليس كلامٌ قط سُمع من إنسان مثل هذا الكلام !! وهذا في الواقع يسجله ق . يوحنا ليكشف الرأي الرسمي لبوليس السنهدريم الذي يعتمد في تقريره على صدق الحالة أمامه والذي يحمل معنى حقيقة المسيح في شخصه : « ليس إنساناً » وفي كلامه « ليس كلاماً قط لإنسان » .

أما رد الفريسيين الذين أخذوا المبادرة في الكلام وليس رؤساء الكهنة ، وذلك طبعاً بسبب توترهم الأعمى الذي يوقعهم دائماً في الخطأ حتى ضد القانون والناموس الذي يدعون حمايته ، فكان قولهم :

« أعلّمكم أنتم أيضاً ضلّتم » :

هنا الإتهام الموجه للضباط يصيب هدفين : الأول ، أنهم خالفوا أوامر السنهدريم الصريحة بالقبض عليه دون فحص . والثاني ، أنهم انحازوا إلى صفّه وأيدوا صحة كلامه ، وبالتالي عدم صحة الأمر بالقبض عليه . ولم يكن أمام الفريسيين المتسرعين في الإتهام وفي إصدار الأوامر إلا أن يقدموا برهاناً واهياً جداً للدفاع عن أنفسهم أمام إصرار الضباط على عدم صحة قرار القبض عليه ألا وهو أن يلوذوا بتقديم أعذار واهية أن أحداً من الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به . وواضح أن هذا العذر يخرج عن مستوى مسئولية الضباط ولا يدخل في اختصاصات هيئة البوليس .

ولكن شعور الفريسيين بالكراهية والحقد ضد المسيح جعلهم ينقلبون على الشعب الذي انحاز إلى المسيح والذي سبّب فشل مهمة الضباط في القبض على المسيح ، فخرج السخط من أفواههم باللعنات على الشعب المسالم .

« ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون » :

ومعروف أن طبقة المتعلمين من الكتبة والفريسيين والناموسيين ، وهم المتشددون بحرفية الناموس والمترفّعون بعلمهم ، ومعهم الصدّوقيون (كهنة ورؤساء كهنة) وهم الطبقة الأرستقراطية المترفّعة بوظائفهم (الإلهية) ، كانوا جميعاً ينظرون إلى الشعب المسالم غير المتعلم بنظرة الإحتقار الشديد باعتبارهم « مساكين الأرض » ، كغتم تُساق بالعصي ، يُشرب لبنها ويُتَنَف صوفها وتُسام

كما تُسام البهيمة لهوى صاحبها . كما كان الشعب الذي لا يدرس الناموس ويمارسه بحرفيته — في نظرهم — ملمعون ، وذلك حسب حرفية أحكام الناموس والعمل به . وطبعاً العيبُ عيْبُهُم ، لأن نقص التعليم والجهالة ليست هي خطية الجاهل بل خطية المتعلم . ويكفي للتدليل على ذلك تعليم الربيين عن عدم استحقاق المرأة نهائياً لنوال أي تعليم عن الناموس^(١٥) . أما هذا العذر الذي قدّمه هؤلاء الفريسيون بأن أحد الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به ، وهذه اللعنات التي صبّها هؤلاء الفريسيون على الشعب ، لم ترق لأحد الأعضاء الحاضرين لأنه كان يؤمن بالمسيح ، ولكن خفيةً ، وهو نيقوديموس «معلم إسرائيل» (يو ٣ : ١٠) ، الذي زار المسيح ليلاً . ويبدو أنه كان يتودد إلى المسيح ، وكان صديقاً للقديس يوحنا ، وقد اعترف للمسيح وكثيرون معه بأنه «من الله» : «يا معلم نعلم أنك أتيت من الله» (يو ٣ : ٢) . لذلك انتهز نيقوديموس هذه الفرصة للرد على هؤلاء الفريسيين ردّاً أردعهم في الحقيقة ، إذ أوضح لهم بطريق غير مباشر أنهم هم الذين لا يعملون بالناموس ، أو بالحري — وبحسب أسلوب ق . يوحنا — هم المستحقون اللعنة وليس الشعب الذي انحاز للمسيح .

«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل» :

وبهذا القول يكون نيقوديموس قد انحاز للضباط الرافضين لصحة قرار القبض ، وبطريق غير مباشر ساند المسيح إنما بالطريق القانوني .

٧ : ٥٢ و ٥٣ «أجابوا وقالوا له : أعلّك أنت أيضاً من الجليل . فتش وانظر . إنه لم يَقُمْ

نبيٌّ من الجليل . فمضى كلُّ واحدٍ إلى بيته .

٨ : ١ أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون» .

لم يستمعوا للنصيحة القانونية حسب الناموس ، بل حثّهم غضبهم أن ينقلبوا على نيقوديموس أيضاً فأسندوا إليه جهالة الجليليين (الفلاحين) ، وعن طريق خفي ألحقوا به عاراً أن يكون من أتباع المسيح لأنه يحاول الدفاع عن واحد منهم . وهذا يوضح مدى الشطط الذي اندفعوا فيه . ثم زوّروا الحقيقة حينما قالوا : «لم يَقُمْ نبي من الجليل» . وكأنهم أقاموا أنفسهم حُكَّاماً على العناية الإلهية يربطونها حينما أوحيشما شاءوا ؛ علماً بأن نبياً مرموقاً ، وهو يونان ، كان من «جثّ حافر»

(١٥) يذكر المعلم المشهور رابي إلغازر هذا القانون المستقر عند معلمي الناموس :

[أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة يكون بمثابة أنه يعلمها الدعارة] .

أنظر أيها القارئ وتعجب وتألم !! ارجع لكتاب : «شرح إنجيل يوحنا» ، للعالم ليون موريس Leon Morris ، ص ٢٨٤ .

بالجليل، فهو من سبط زبولون وهم سكان الجليل الأصليون (٢ مل ١٤ : ٢٥). ولكن — بلغة ق. يوحنا وأسلوبه — حتى ولو لم يكن قد قام نبي من الجليل، فهذا لا يمتُّ إلى قضية ابن الله في شيء، وهو الذي نزل من السماء وبقي هناك «ابن الإنسان الذي هو في السماء». وما كان الجليل ولا كانت اليهودية إلا «موطناً لقدميه».



مدينة على بحر الجليل

الأصحاح الثامن

الأصحاح الثامن

استعلان طبيعة المسيح «النورانية» «أنا هو نور العالم»

ويشمل هذا الأصحاح :

- ١ — المرأة الخاطئة : (٨ : ٢ — ١١).
- ٢ — حوار المسيح مع اليهود :
 - أ — «أنا هو نور العالم» : (٨ : ١٢ — ٢٠).
 - ب — «أنا هو» : (٨ : ٢١ — ٢٩).
 - ج — «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» : (٨ : ٣٠ — ٥١).
 - د — المسيح وإبراهيم : «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» : (٨ : ٥٢ — ٥٩).

مكان البشارة

ثامناً (تابع):

في أورشليم

في عيد المظال

الأصحاح الثامن ١ - المرأة الخاطئة

(٨: ٢-١١)

يفتح ق. يوحنا الأصحاح الثامن بحادثة المرأة التي أمسكت وهي تُخطيء، و يبدو أن القصة في ظاهرها لا تتمشى مع سياق أحاديث المسيح في الهيكل، ويعترض العلماء على وضع هذه القصة هنا في هذا الموضع من إنجيل يوحنا، كما يعترض البعض الآخر على خروج هذه القصة - من حيث صياغة الكلمات اليونانية والظروف المحيطة بالحديث - عن أسلوب ق. يوحنا، وخاصة لورود اسم «الكتبة» مع الفريسيين، وهو لقب لم يستخدمه ق. يوحنا في إنجيله قط، وكذلك ورود «جبل الزيتون» وذكر الرب أنه كان يعلم وهو «جالس» ... إلخ.

ولقد انقسم الآباء الأوائل ما بين مؤكّد لصحة الرواية ولورودها في مكانها الصحيح أمثال: القديسين «جيروم» و«أغسطين» و«أمبروسيوس» وكثير من آباء الكنيسة الغربية، على أساس ورود القصة بوضعها في نسخة الفولجاتا، وهي النسخة اللاتينية التي تقول إنها وُجِدَتْ في كثير من المخطوطات اليونانية وأنها تُقرأ في عيد القديسة بيلاجية في ٨ أكتوبر من كل عام.

ويكشف هؤلاء الآباء عن سبب غياب هذه القصة في المخطوطات الأخرى، وهو خوف الآباء الأوائل من استخدام هذه القصة كمشجّع للانحلال الخلقي مما حدا بهم إلى حذفها من نسخ بعض المخطوطات (أغسطين، «ضد بيلاجيوس»، ٢: ١٧).

وقد وُجِدَتْ هذه القصة في المخطوطات الأكثر قدماً وهي النسخة الممفيسية: Memphitic version والنسخة الحبشية والنسخ الأرمنية. ويقرر العالم جرايزباخ Greisbach أنه وجدها بحالها في مائة مخطوطة، ويعود العالم ألفورد Alford ويقول إنه وجدها في ثلثمائة مخطوطة وخاصة النسخ اللاتينية، وهي التي لجأ إليها في الشرح كل من أمبروسيوس وأغسطين وجيروم.

و يلاحظ الباحث أن الآباء الشرقيين كانوا هم الأكثر تحفظاً وامتناعاً، بل وحضاً للإمتناع عن الخوض في شرح هذه القصة أو الرجوع إليها أو حتى ذكرها بالمرّة، بل وقد لجأ البعض إلى جحد صحة هذه القصة برُمّتها سواء بسبب اعتراضات خارجية في القصة أو اعتراضات جوهرية أخلاقية. والذين جحدوا هذه القصة أو صمتوا إزاءها هم: أوريجانوس و يوحنا ذهبي الفم وكبريانوس. ومعروف أن أوريجانوس كان مُحارِباً جنسياً إلى الدرجة التي فيها خصي نفسه بنفسه، لذلك فإن حذفها من شرحه لإنجيل يوحنا له ما يبرّره من ظروفه الخاصة. و يوحنا ذهبي الفم كان مضطهداً على مستوى اضطهاد المعمدان بسبب التعليق على خطية الزنا، لذلك فإن حذف هذه القصة من تفسيراته يتمشى مع ظروف حياته وخدمته أيضاً.

ولكن الذي يقطع بصحة هذه القصة وورودها بحالها في الإنجيل هو ورودها في كتاب تعاليم الرسل Apost. Const. (٢: ٢٤)، وذلك في سياق صحة وضرورة قبول عودة الخطاة التائبين إلى الكنيسة، الأمر الذي كان بعض المتعصبين وضّيقي العقل يعلّمون ضدّ ذلك، مما كان يمكن أن يؤدي إلى تفكّك الكنيسة كلها. وقد أورد كتاب «تعاليم الرسل» القصة بكلماتها. (١)

المرأة الخاطئة:

٨ : ١-٦ «أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون. ثم حضر أيضاً إلى الهيكل في الصُّبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلمهم. وقَدَّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زناً. ولما أقاموها في الوسط، قالوا له يا مُعَلِّم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرْجَم. فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليَجْزَّبُوهُ لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه».

«جبل الزيتون»:

ذهاب المسيح إلى جبل الزيتون كان أمراً معتاداً وذلك للصلاة هناك. وقد كان هذا محور قصة التسليم. وقد تعرف يهوذا على المكان بسبب اعتياد الرب قضاء الليالي مُصلّياً هناك: «وكان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبعث في الجبل الذي يُدعى جبل الزيتون، وكان كل الشعب ييگرون إليه في الهيكل ليسمعه» (لوقا ٢١: ٣٧ و٣٨). علماً بأن بيت عنيا التي كان يلجأ إليها الرب للراحة في بيت مريم ومرثا كانت خلف تلك التلال من جهة الشرق. وكان بستان

^١ Reynolds, H.R., *op. cit.*, pp. 312-316.

جثسيماني على منحدرات الجبل المواجهة لأورشليم.

وأما مجيئه إلى الهيكل في «الصباح الباكر» $\delta\rho\theta\rho\upsilon$ أي «مبكراً»، فهي كلمة سقط معناها في الترجمة العربية — فهذا كان اعتياد الرب في الخدمة.

وجلس الرب أثناء التعليم هو من اعتياد كبار المعلمين، إذا كانت التعاليم تمتد إلى أوقات طويلة.

وذكرُ كلمة «الكتبة» مع «الفريسيين» ليس أصلاً من استخدام ق. يوحنا وهي تخصيص للجماعة المدققة، ويُكْنَى عن الاثنين في إنجيل يوحنا عادة بـ «اليهود». وقد اعتنى هؤلاء المكثِّرون أن يزعموا الجمع الملتقِّ حول المعلم بهذه القضية الخاصة بهذه المرأة كحيلة مدبِّرة، والتي غالباً كانت جاهزة ومحجوزة لرفعها للجهات القضائية المختصة، ولكنهم أحضروها في الصباح للشوشرة ولاستخدامها كوسيلة ليستخلصوا من المسيح حكماً منافياً للناموس يكون نواة للشكوى عليه. والقضية بالصورة التي قدموها للمسيح ناقصة ومبتورة. فالفاعل الأصلي مع المرأة غير موجود، والشهود غير موجودين، وهم الذين يلزم أن يكونوا اثنين على الأقل، مع زوج المرأة إذا كانت متزوجة.

وأحكام الناموس بمقتضى هذه الحالات هي كالآتي:

«إذا زنا رجل مع امرأة: فإذا زنا مع امرأة قريبه فإنه يُقتل، الزاني والزانية» (لا ٢٠: ١٠)، وهما حالتان متساويتان غير أن الحالة الثانية تعتبر «فعل فاضح».

«إذا وُجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجةً بعلٍ يُقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة.» (تث ٢٢: ٢٢)

«إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجلٍ فوجدوها رجلٌ في المدينة واضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذلَّ امرأةً صاحبه.» (تث ٢٢: ٢٣ و٢٤)

«ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده. وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً. ليس على الفتاة خطية للموت.» (تث ٢٢: ٢٥ و٢٦)

«إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجدوا، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلَّها. لا يقدر أن

يُطْلَقُهَا كُلَّ أَيَّامِهِ .» (تث ٢٢ : ٢٨ و ٢٩)

وقد أورد هؤلاء المنكِّدون سنداً قانونياً لا يمكن أن يفلت منه القاضي بأي حال من الأحوال، وهو حدوث القبض على الزانية « في ذات الفعل ἐπ' αὐτοφώρῳ » والذي يُسمَّى في القضاء : In ipso furto ، وبالعربية : « حالة تلبس ».

وهكذا قدَّم هؤلاء المنكِّدون هذه القضية على حالها وتركوا للمسيح أن يختار الحكم القضائي في مقابل اختيارهم هم الرجم بحسب الناموس.

وفي الحقيقة حاول كثير من العلماء إقصاء هذه القصة برُمَّتِها من إنجيل يوحنا لعدم توافقها مع أسلوب الإنجيل، علماً بأن ق. يوحنا أوردتها كمعادته كآية مخفية غاية في الأهمية والخطورة، إذ يُبرز هنا ق. يوحنا الصورة الحقيقية التي كانت في ذهن الكتبة والفريسيين عن مستوى المسيح التشريعي والقضائي؛ ومن ناحية أخرى يُبرز المسيح باعتباره المشرِّع الجديد الذي بحكمه وقضائه سيلغي حالاً وفي جملة واحدة غير مباشرة كل شريعة موسى القضائية القائمة على البيئنة والملابسات، والتي أهملت تماماً حكم الضمير، والباعث الأخلاقي، وتقوى الشهود ونزاهة القاضي!! وإني في الحقيقة لأتعجب كل العجب كيف يحدث هذا الهجوم المكثف من بعض الآباء والعلماء على هذه القصة التي قضت بعجز التشريع والقضاء الموسوي واستحدثت للقضاء المسيحي مستوى عالٍ من الاستنارة الروحية والأخلاقية وتقديس حق الحياة للخاطئ؟

وعلى القارئ أن يتبصَّر معي في مطلب هؤلاء المتعطشين لسفك الدم، المطالبين بحياة امرأة هي إنسان له حق الحياة كما لهم. واعتمادهم الوحيد في هذا السلوك الدموي اللاإنساني هو ناموس موسى! ولم يكفِهم هذا المطلب القاتل الذي بيَّتوا له هذه المرأة التي وقعت في أيديهم، بل استخدموه أسوأ استخدام لتلفيق تهمة قتل أخرى أضمروها وأحكموا التمهيد لها لاصطياد المسيح ذاته ...

وليلاحظ القارئ، إذا تبصَّر في نيَّة هؤلاء القتلة، مقدار إحكام الفخ الذي وضعوه للمعلم لأنه :

إن حَكَمَ المسيح بحسب الناموس القائم على الحرف والدينونة، فقُتلت المرأة أمام عينيه وبحُكْمٍ منه، يكون قد انحرف انحرفاً هائلاً عن مستوى الحب والرحمة والفداء الذي جاء ليرفعه عالياً كـمـعيار للحياة الجديدة بكل مقوماتها، سواء من جهة الأخلاق العامة أو السلوك أو الخدمة أو التشريع أو القضاء. فالمسيح رفع الرحمة فوق العدل، وجعل المحبة ينبوعاً والمصبَّ، وأسس عمل

التوبة ليحتوي كل بأس الإنسان.

وإن هو حَكَمَ بمقتضى الحب والرحمة، يكون قد تجاهل الناموس بنفس الجهالة التي في قلوب هؤلاء الأدعياء التي يرونها أنها هي هي الناموس الأقدس القائم — في أذهانهم — على الحرف القاتل، ويكون المسيح بذلك مستحقاً للقتل!! علماً أنهم يضعونه هنا في مأزق، لأنه سبق وقال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكملَه!! (مت ٥: ١٧)

والذي يلزم أن ننتبه إليه في هذا المضممار التشريعي والقضائي الذي أقحم فيه المسيح، أن المسيح سبق أن قال، وسيعيد القول: «إني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم» (يو ٣: ١٧)، (٤٧: ١٢)؛ وبالمعنى الأبسط أنه جاء ليُبْرِئَ الخاطيء لا ليقتله، وهو سيبرئه على حساب نفسه، إذ سيدفع هو ثمن خطيته من دمه. فإن كنا سنسمع منه حالاً حكم براءة مُذْهِل لهذه المرأة الخاطئة المختارة: «أنا لا أدِينُكَ، اذهبي ولا تخطئي أيضاً!!»، فهذا حكم قائم على دفع غرامة فادحة: حياة بحياة ونفس بنفس. لقد فداها المسيح قبل أن يعطيها البراءة — لقد حكم على نفسه بالقتل ليرثها!! — إنه قاضٍ، نعم قاضٍ، ولكنه محام بآن واحد، وليس محامياً فقط بل وأب، بل وحبیب يكره الخطية ولكنه يحب الخطاة.

٩-٦: ٨ «وأما يسوع فانهنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض. ولما استمروا يسألونه، انتصب، وقال لهم: مَنْ كان منكم بلا خطية فليترمها أولاً بحجر. ثم انهنى أيضاً إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم فلما سمعوا، وكانت ضمائرهم تبكتهم، خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين، وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط!»

أمام حماس هؤلاء النكدئين المتربصين للقتل والإيقاع بالمسيح، انهنى الرب في هدوء وبدا كمن يكتب على الأرض بأصبعه وكأنه غير مُبالٍ بتحمسهم. وقد اصطنع الرب هذا الموقف ليقُلِّلَ من غلوائهم، ويمهد للدخول داخل ضمائرهم. ولكنهم استمروا يطالبونه بالجواب وبالالحاح، فما كان منه إلا أن انتصب فجأة ليستحضر انتباههم وبادرهم بالحكم: فهو موافق على ناموس موسى تماماً، لأنه لم يأت لينقضه، ولكنه جاء ليكمل ما نقص فيه وفيهم، ليصير «ناموس الكمال» وليس ناموس موسى بعد. فلكي يُرْجَمَ الخاطيء بحسب نص ناموس موسى يلزم أن يكون مَنْ ينطق بالحكم، وَمَنْ ينفذ الحكم، لم يأت الخطيئة، وإلا يكون هو الأوجب بالرجم والموت: «مَنْ كان منكم بلا خطية فليترمها أولاً بحجر».

فلما واجههم بالحق الذي في روح الناموس واشترط على من ينفذ الناموس أن يكون على مستوى الناموس، وهذا حق وعدل لا يختلف عليه اثنان، خرجوا من ساحة المحكمة التي أقاموها بأنفسهم، الواحد بعد الآخر، لأن ضمائرهم كانت تبكتهم. لأنه من ذا الذي يستطيع أن يتصور أن خاطئاً يتحمل دم خاطيء أمام الله؟ لقد أصابتهم الرعدة أمام عيني المسيح التي اخترقت ضمائرهم، بل عظامهم، وكان تأثير كلام المسيح على الشيوخ شديد الوطأة لأنهم لم يكونوا أفضل من قضاة سوسنة في سفر دانيال^(٢). لقد تخلّوا عن فريستهم بين يديه، بل وتركوه هو أيضاً بعد أن بيّنوا أن يكون هو فريستهم الأخرى.

١١ : ١٠ و ١١ «فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة قال لها: يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد. فقالت: لا أحد يا سيد. فقال لها يسوع: ولا أنا أدبتك. اذهبي ولا تُخطئي أيضاً».

«أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد. فقالت: لا أحد يا سيد»:
لقد خسر هؤلاء المشتكون قضيتهم واستقالوا كقضاة وتركوا منصتهم. فالمشتكون صاروا تحت الشكوى عينها والقضاة فقدوا صلاحيتهم، لأنهم صاروا تحت الدينونة. فإذا وضع أن الناموس هكذا أصبح بلا قضاة في إسرائيل فقد بطل الناموس!!

وهكذا عرّى المسيح كلاً من الناموس والناموسيين، فالناموس صارم وأساسه «رفع الشر» أي إبطال الخطية، ولكن وضع أنه لا يوجد مَنْ يستطيع أن يحكم به لأنه لا يوجد مَنْ هو بلا خطية حتى يستطيع أن يرفع الشر من إسرائيل أو يبطل الخطية!

إذن، الناموس — بحد كلماته — يحكم على الخاطيء ويدين الخطية، ولكن لا يستطيع أن يبطل الخطية. وهذا أول عمل استعلاني عمله المسيح إزاء الناموس، لقد استعلن عجزه باستعلان عجز كل مَنْ يحكم ويدين به، لأنه إذا حكم أي فاض على الخاطيء أو أدانه، وهو نفسه خاطيء، يحكم ويدين نفسه بأن واحد. هذا القانون المسيحي يذكره القديس بولس — شيخ الفريسيين — الذي يعلم ما هو الصحيح في الناموس حقاً: «لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان، كل مَنْ يدين، لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الذي تدين تفعل

(٢) ارجع لقصة سوسنة في كتاب: «الأسفار القانونية الثانية»، حيث تجدها في آخر سفر دانيال النبي — وثقراً هذه القصة ضمن قراءات سحر سبت النور في نهاية أسبوع الآلام.

تلك الأمور بعينها ... أفتظنُّ هذا، أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها، أنك تنجو من دينونة الله. » (رو١ : ٣١)

كما كشف المسيح نقص الناموس الخطير في كونه يحكم بحسب الظاهر والمنظور، ويتجاهل عن عَمْدٍ ما في الباطن والضمير، وذلك إزاء حكم المسيح الذي اعتمد اعتماداً قوياً على حكم الضمير، والذي ثبت أنه قادر أن يلغي حكماً بالإعدام ثابتاً على يد شهود عيان.

وهكذا حينما وقف المشتكون — والحجارة في أيديهم في لهفة لتنفيذ حكم الموت في هذه النفس الخاطئة — أيقظ المسيح ضمائرهم، فرأوا فجأة أنهم واقعون في نفس الفعل الذي يدينونه، فآلقوا الحجارة من أيديهم، وخرجوا من ساحة قضاء الناموس، وتركوا الخاطئة للمسيح!! بل وتركوا المسيح أيضاً، إذ ذابت نفوسهم فيهم.

ويقول في هذا القديس أغسطين:

[وبقي اثنان: المرأة التعمة (بل السعيدة) في مواجهة الرحمة المتجسدة.]^(٣)

وبذلك أصبح المسيح — وبموافقة القوامين على الناموس — أنه هو وحده القادر أن يحكم على الخاطيء ويدين بمقتضى الناموس لأنه هو وحده والوحيد الذي بلا خطية! ولكن لكي تظهر رسالة المسيح واضحة كل الوضوح قال: «ولا أنا أدِينُكَ». ولماذا لا يدين؟ وأين الناموس؟

لقد أدان المسيح نفسه وأكمل حكم الناموس في نفسه عنا وعن هذه الخاطئة، وتقبل عن كل خطاة الأرض حكم الموت؛ فأصبح الوحيد الذي له حق التبرئة، فهو يبرئ الخاطيء والفاجر، لأنه دفع دمه ثمناً لخطية الخاطيء وفجر الفاجر، كان مَنْ كان. لهذا يقول بولس الرسول: «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرّر الفاجر فإيمانه يُحسب له برّاً». (رو٤ : ٥)

وهنا يقول القديس أغسطين أيضاً:

[لأنك فيّ، أصبحت بلا خطية.]^(٤)

[وبقول المسيح «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» فقد أدان الخطيئة ولكن برّاً الخاطيء.]^(٥)

³ Tract. 33.5. *op. cit.*, p. 198.

⁴ Ibid.

⁵ Ibid., p. 199.

وحينما مات المسيح على الصليب عن الخطاة، أكمل كل مطالب الناموس وأحكامه ضد كل الخطاة. فحفظ للناموس كرامته، وأرسل كلُّ محافظ قضاياه للحفظ في دار مخازن رحمة الله. وبذلك يكون المسيح قد أنشأ بموته ناموساً آخر فوق ناموس موسى. فناموس موسى يحكم ويدرّس على أساس ثبوت الخطية، فالخطية هي قوة الناموس حيث تتنوع قوانين الناموس على أساس تنوع الخطية. فجاء المسيح ورفع الخطية بكل أنواعها بموته، وأبطلها بكل أشكالها نهائياً بذبيحة نفسه، فصار ناموس موسى بلا قوة، وتعطلت كل بنوده وقوانينه ونحى قضاته. ألم يحدث هذا فعلاً أمام المسيح حينما خرج القضاة المشتكون بمقتضى الناموس؟ أما تنحى القضاة؟ فانخفضت هامة الناموس وارتفعت هامة المسيح! فتجلّت محبة الله ورحمته في قوة ذبيحة المسيح. فإن كانت قوة ناموس موسى هي الخطية لحكم الموت، فقد صارت قوة ناموس المسيح هي النعمة للبراءة. وهكذا حكمت النعمة في المسيح عوض النعمة في الناموس. وعلى هذا الأساس قال المسيح للمرأة المرتجفة تحت نقمة الناموس، «ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً».

وللقارىء أن يتعجب كيف خرج المسيح من هذه القضية الشائكة المميتة وقد برأ المرأة، وأدان المشتكين، وزكّى ناموس موسى، واحتفظ له بكرامته، وأخيراً أرسى قواعد ناموس النعمة والحياة.

«اذهبي ولا تخطئي أيضاً»:

كلمة «اذهبي» بالمفرد، هي نفسها تأتي بالجمع ««اذهبوا» بسلام»، والتي تُقال في نهاية الليتورجيا أي الصلاة العامة أو الإفخارستيا؛ وتسمى «Missa» وهي الإذن للمصلّين بالخروج من حضرة الله ممثّلين بالبركة. وهذه الكلمة تحمل بالفعل قوة إلهية للحفظ والرعاية من لدن الله القدير وكأن المسيح يدعوها بالحفظ. ويكفي توضيحاً لذلك أن نتذكر أن هذه المرأة الخاطئة قد انتقلت من حكم الموت إلى حكم الحياة، ومن لعنة الناموس إلى رحمة المسيح.

كما يُلاحظ أنه قبل أن يقول لها المسيح: «لا تخطئي أيضاً»، قال لها «اذهبي»، ممثلة بقوة براءة أو تبرير من عنده، هي لا تستحقها بسبب أعمالها، ولكن استحققتها بسبب حضورها إليه، أو بالحري مثلها في حضرته، والمثل في حضرة الله نعمة عظمى؛ حتى وإن كان على غير دعوة أو ميعاد كالسامرية أو هذه الخاطئة أو كبولس الرسول نفسه!! يكفي أنها انتظرت منه رحمة، فوجدتها مضافاً إليها نعمة.

إن معظم الشراح والعلماء والآباء الأوائل لم ينصفوا هذه المرأة الخاطئة، ولكن كيف؟ ولماذا؟

نحن جميعاً سنمثل أمام كرسي المسيح على هذا الحال نفسه، وليس مَنْ يستحق أن يتركى قط بسبب أعماله، ولكن إن كنا ننتظر رحمة فسنجدها، وإن كنا نرجو منه حياة فسنحيا.

«لا تخطئي أيضاً»:

أي لا تعودى إلى سيرتك الأولى، هي دعوة للتوبة. ولكن الذي يدعو إلى التوبة هنا هو المسيح ويوجهها شخصياً منه إليها، فهي دعوة مدعّمة بالقوة، وكأنه يعرض نفسه كسند خفي لجهادها ويَعِدّها سرّاً بالمؤازرة. إنه يستحث فيها إرادتها الحرة، ولكنه هو نفسه يشاء ذلك منها، أي أنه يضم مشيئته إلى مشيئتها، فأى رجاء ملأ قلب هذه الخاطئة في هذه الساعة. إنه في الحقيقة رجاء يمتد إلينا وإلى كل خاطيء يلقي نفسه بلا شفقة بين يدي المسيح، كما ألقى هؤلاء الكتبة الأفظاظ هذه المرأة الخاطئة، بل السعيدة، في يدي المسيح.

وفي نهاية قصة المرأة الخاطئة التي اعترضت حديث المسيح في عيد المظال، وفرّقت بين حديثه عن «الماء الحي» و«نور العالم»، نود أن نوجه نظر الباحث أن كلام المسيح بخصوص المرأة الخاطئة كان بحد ذاته تعليماً هاماً للغاية عن ناموس موسى ومقارنته العملية بناموس المسيح. أي أن قصة المرأة الخاطئة قدمها ق. يوحنا في مكانها الصحيح.



٢ - حوار المسيح مع اليهود

(١٢: ٨-٥٩)

أ - الجزء الأول من الحوار

«أنا هو نور العالم»

(١٢: ٨-٢٠)

«الشعبُ السالكُ في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون

في أرض ظلال الموت أُشرق عليهم نورٌ.» (إش ٩: ٢)

«الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثّقين بالذل والحديد

... أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطّع قيودهم.»

(مز ١٠٧: ١٠ و ١٤)

١٢: ٨ «ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً: أنا هو نورُ العالم. مَنْ يتبعني فلا يحشي في الظلمة بل يكون له نورُ الحياة.»

نحن لا نزال في عيد المظال.

عود على ذي بدء:

لقد توقّف حديث المسيح الذي قدمه في الهيكل للشعب وهو في «الخزانة» عند قوله: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيشرب. من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حيّ» (يو ٧: ٣٧ و ٣٨). توقف الحديث لشرح ق. يوحنا عن معنى هذه الآية بالنسبة لانسكاب الروح القدس، ثم تلا ذلك وصف انقسام الشعب بين مؤيّد ومعارض، ثم أتت حملة الضباط التي أرسلها رؤساء الكهنة والفريسيون للقبض عليه، ثم التحقيق مع أعضاء الحملة بسبب عدم القبض عليه. وينتهي الأصحاح السابع بانقسام أعضاء السنهدريم على أنفسهم، ثم انفضاض السنهدريم، وذهاب كل واحد إلى بيته.

ثم يبتدىء الأصحاح الثامن بحضور المسيح مبكراً من جبل الزيتون، واستئناف التعليم في الهيكل بحضور الشعب، ثم محاولة الكتبة والفريسيين الشوشرة على التعليم بإحضار المرأة الخاطئة، وتنتهي قصتها أيضاً بخروج الكتبة والفريسيين منهزمين واحداً فواحداً، وتخرج الخاطئة منتصرة.

ثم يستأنف المسيح تعليمه من بعد «الماء الحي» إلى «نور العالم».

«ثم كلّمهم يسوع أيضاً...»:

هنا يرتبط الحديث بالآية: «من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي». (٣٨:٧)

ونحن هنا، من جهة مجرى الحوادث المترادفة، أمام حقيقة طقس آخر هو طقس «النور» في عيد المظال الذي كان يجري بإيقاد أربع منارات مرتفعة جداً داخل الهيكل، كل منها لها أربعة صحنون على الظهر، يصلون إليها لإشعالها بواسطة سُلّم، وفي كل صحن فتيلة مشتعلة مصنوعة من القماش الذي يستخدمه الكهنة كأحزمة لربط الوسط^(٦). وكانت توضع في بيت النساء في رواق النساء، حيث كان المسيح يعلم. كذلك نحن الآن أيضاً في آخر أيام العيد وهو اليوم الثامن.

والإحتفال الطقسي بإيقاد النور في رواق النساء — في الخزانة التي في الهيكل، وفي كل المظال التي كانوا يعيشون فيها في هذه الأيام — كان تذكّراً لعمود النور الذي أرسله الله لهم، يقودهم في برية التيه أثناء الليل (خر ١٣: ٢١). وهنا أيضاً يرى المسيح المناسبة لكي يستعلن لهم نفسه أنه هو النور الحقيقي الذي جاء لينير العالم.

«أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»:

أما عمود النور الذي قادهم في البرية في ليل تيههم وقتياً فكان قد انقطع لعدم الحاجة إليه، وأما المسيح فهو النور الذي جاء لينير العالم دائماً وإلى الأبد.

وحينما يعلن المسيح أنه «نور العالم»، فهذا تعبير عن روح رسالته وفعلها: إنه «الكاشف والمُعلن عن الله في العالم المظلم»؛ إنه إعلان عن تحقيق كل مواعيد الله السابقة متركزة فيه شخصياً. كما أنه دعوة عامة لليهود والعالم كله أن ينتبه إلى هذا الشروق الإلهي. إنها دعوة موازية لدعوته السابقة في الأصحاح السابع: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ» (يو ٣٧: ٧). أما هنا فهي: «إِنْ أَعُوزَ الْعَالَمُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ فِي مَا سَبَقَ، فَهَا الْآنَ الْمَعْرِفَةُ تَغْطِي كُلَّ الْأَرْضِ؛ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تشرح كُلَّ وَجُودٍ كَانَ مَا كَانَ، فِي حَضْرَةِ وَجُودِ اللَّهِ!!»

فحينما يقول المسيح: «أنا هو نور العالم»، فهو يعني، بحسب اللغة اليونانية: «أنا هو النور

للعالم»، الذي شرحه المسيح بعدها مباشرة في آية موازية: «بل يكون له "نور الحياة"»، فهو النور للعالم، النور المعطي للحياة!! والتي لخصها ق. يوحنا شارحاً بقوله في مقدمة إنجيله: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو: ١: ٩)، حيث الحياة في المسيح تكون بعينها هي نور الناس، أو نور العالم!! «فالنور» بالمعنى الإلهي هو «الحياة في عالم الله». ودخول النور إلى عالم الإنسان حوِّله إلى عالم الله، ليحيا فيه الإنسان.

ثم لينتبه القارئ جداً، فقول المسيح: «أنا هو نور العالم» لا يعني به النور المختص بمشاكل الإنسان تجاه العالم، بل النور المختص بالإنسان نفسه تجاه الله!! لأن مشكلة الإنسان العظمى في العالم هي نفسه، هي معرفته لذاته على ضوء معرفته لله. وحينما يقول المسيح: «أنا هو نور العالم»، فهو يكشف بصورة مفاجئة وقوية مدى اقتحام الذات الإلهية للعالم، هذه القوة التي لا يشرحها إلا التجسد. فهو وحده الذي يرفع الغموض منها، لأن قائلها هو الإنسان يسوع المسيح بحسب الفكر البشري.

لذلك لكي يرفع المسيح مفهوم «أنا هو نور العالم» من المستوى الرمزي أو التصوري، الذي قد يقع فيه السامع أو القارئ، دَعَّمه في الحال بالفعل العملي والاختباري الذي يعلن مدى الحق الإلهي فيه، فيقول: «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة»، حيث يتحول «النور» إلى «حياة»، أي إلى عمل وسلوك يشهد بمدى الحق في هذا النور!! هنا النور يصير «كخبز الحياة» الذي مَنْ يأكله يحيا به إلى الأبد، أي يحيا بالمسيح، والماء الحي الذي مَنْ يشربه تخرج من بطنه أنهار ماء الحياة، أي يكرز بالمسيح الذي يحيا فيه؛ هكذا النور كلُّ مَنْ يقبله، أي يؤمن به، يصير له «نور الحياة»، أي المسيح نفسه يحيا فيه.

هكذا، فالخبز الحي والماء الحي ونور الحياة هو هو شخص المسيح، عندما يؤمن به الإنسان يصير خبزه الجديد وماءه الجديد ونوره الجديد في حياته الجديدة.

والمسيح هو الخبز الحي ومُعطي هذا الخبز، والماء الحي ومُعطي هذا الماء، ونور الحياة ومُعطي هذا النور. هنا لينتبه القارئ، لأن معنى هذا أن كل استعلانات المسيح يستحيل فهمها أو قبولها أو الإيمان بها أو الحياة فيها بدون المسيح نفسه. فهي ليست مُدْرَكَات يمكن أن تُفهم وتُنسى، بل هي واقع حياة في حياة. فبقدر ما نؤمن بالمسيح، نأخذ، وبقدر ما نأخذ، نقرب، وبقدر ما نقرب، نفهم ونذكر ونستعلن ونكرز!!

لقد دخل النور «الحقيقي» إلى العالم ملتحقاً بجسد إنسان، وهو أصلاً «اللابس (الملتحف) النور كثوب» (مز ١٠٤: ٢)، جاء لينير البشرية من داخل كيائها، فصارت حياة الإنسان نوراً بعد أن كان يتخبط في ظلمة العالم. لقد استنارت حياة الإنسان بالنور الإلهي، فأنارت، وصارت أنواراً في العالم: «أنتم نور العالم» (مت ٥: ١٤). ولا يزال المسيح هو عمود النور الذي يسير بالبشرية المستنيرة به وبالله، في طريقها الضيق الخارج، داخل ليل برية العالم المظلم، يقودنا خطوة بعد خطوة. والذي يتبع النور لا يشعر بليل العالم، ولن تدركه الظلمة، هذه حقيقة يدركها كل من استنار بالمسيح والتصق به: «الرب نوري وخلاصي ممن أخاف» (مز ٢٧: ١)، هذا نشيد داود الذي سار وراء الرب وتسبحته في فمه، وتهليل الخلاص في قلبه.

وحينما نظرق هذا الفكر من الوجهة اللاهوتية يتضح لنا عمقه، فالطبيعة البشرية بالنسبة للنور الإلهي مظلمة — خاطئة، ضيقة، يدبُّ فيها الموت — وشعاع الله لم يكن ينفذ إليها، ولكن حينما استعلن لنا الرب الطبيعة الإلهية التي فيه، وصيرنا شركاء فيها، نفذ النور الإلهي إلى أعماقنا، فأدركنا طبيعة الله وأسراره، واستنارت عقولنا وقلوبنا بفكره ومشيته وكلماته. لأن طبيعتنا العمياء الخرساء، بالنسبة لشخص ذات الله، استهدفت لعمل روح الله القدوس، فدخلها النور، ودخلتها الحياة الإلهية، فتغيرت وتجددت، وصار لها أذنٌ تسمع ما لم تكن تسمع، وعينٌ ترى ما لم تكن ترى، وقلبٌ يستطلع بالروح حتى أعماق الله: «ورأينا مجده» (يو ١: ١٤)، وروح تحيا مع الله: «من التصق بالرب فهو روح واحد.» (١ كو ٦: ١٧)

«أنا هو نور العالم»: Εγώ εἰμι τὸ φῶς τοῦ κόσμου

هذا القول يستحيل أن ينطقه إلا الله وحده: «وقال لي أكتب، فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة. ثم قال لي قد تم. أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية. أنا أعطى العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً ... والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئاً فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها. وتمشي شعوب المُخَلَّصِينَ بنورها ... لأن ليلاً لا يكون هناك.» (رؤ ٢١: ٢٣ و ٢٤ و ٢٥)

ويلزم أن نرجع إلى مقدمة إنجيل يوحنا، لنرى كيف قدّم الإنجيلُ المسيحَ باعتباره «الكلمة» و«النور الحقيقي» و«الحياة الأبدية»، ثم كيف يشهد ق. يوحنا ضمن شهادة التلاميذ: «و(نحن) رأينا مجده».

فالكلمة، وهو بهاء ونور مجد الآب والحامل للحياة الأبدية، تجسد، فاستُعلنَ فيه نور الآب،

وَأَسْتُغْلِنْتُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الْآبِ مَخْفِيَةً عَنْ حَيَاةِ هَذَا الْعَالَمِ . وَالنُّورُ لَمَّا أَضَاءَ فِي قُلُوبِ التَّلَامِيذِ ، كَانَ هُوَ التَّجَلِّيُ بَعِيْنَهُ حَيْثُ رَأَوْا مَجْدَهُ ، فَالنُّورُ وَالْمَجْدُ مَعاً لَا يَفْتَرِقَانِ . وَالْمَجْدُ هُوَ التَّعْبِيرُ الْبَشَرِيُّ لِرُؤْيَا الْحُضُورِ الْإِلَهِيِّ أَوْ الْكِيَانِ الْإِلَهِيِّ فِي الْمَسِيحِ : «أَنَا هُوَ» . لِذَلِكَ ، فَالنُّورُ الْإِلَهِيُّ فِي الْمَسِيحِ : «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» ، الَّذِي صَارَ بِتَجَسُّدِهِ ، هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ طَبِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي اسْتُعْلِنَتْ لِلْإِنْسَانِ فِي تَجَسُّدِ الْكَلِمَةِ ، خَصِيصاً لِإِعْلَانِ عَهْدِ الْخَلَاصِ لِلْإِنْسَانِ . وَبِمَعْنَى آخَرٍ يَكُونُ النُّورُ الْإِلَهِيُّ الْمُغْلَنُ فِي الْمَسِيحِ وَالَّذِي يَشْهَدُ لَهُ الْمَسِيحُ «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» ، هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ حَقِيقَةِ فِعْلِ الْخَلَاصِ الَّذِي يُفْهَمُ أَنَّهُ انْمَتَأَقٌ مِنْ ظِلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ وَتَفَاهَةِ مَجْدِهِ . وَإِشْعِيَاءُ النَّبِيُّ يَصِفُ هَذَا الْإِشْرَاقَ الْعَجِيبَ فِي مَلَأِ الزَّمَنِ بِالنِّسْبَةِ لِكَنِيسَةِ اللَّهِ هَكَذَا : «قَوْمِي اسْتَنِيرِي لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكَ وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكَ ، لِأَنَّهُ هِيَ الظُّلْمَةُ تَغْطِي الْأَرْضَ (الْوُثْنِيَّةُ) ، وَالظُّلَامُ الدَّامِسُ الْأُمَمَ (الْحَطْبِيَّةُ) . أَمَّا عَلَيْكَ فَيُشْرَقُ الرَّبُّ (أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ) وَمَجْدُهُ عَلَيْكَ يُرَى . فَتَسِيرُ الْأُمَمُ فِي نُورِكَ ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكَ .» (إش ٦٠ : ١-٣)

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ يَرَى إِشْعِيَاءُ النُّورَ الْإِلَهِيَّ الْمُتَجَلِّيَّ بِالْمَجْدِ فِي كَنِيسَتِهِ يَلْتَحِمُ بِالْخَلَاصِ التَّحَاماً ، وَبِاعْتِبَارِهِ الْغَايَةَ الْعُظْمَى فِي خَطَّتِهِ الْإِلَهِيَّةِ ، يَقُولُ إِشْعِيَاءُ : «تَسْمِينَ أَسْوَارِكَ خَلَاصاً وَأَبْوَابِكَ تَسْبِيحاً . لَا تَكُونُ لَكَ بَعْدُ الشَّمْسُ نُوراً فِي النَّهَارِ وَلَا الْقَمَرُ نِيرَ لَكَ مَضِيئاً ، بَلِ الرَّبُّ يَكُونُ لَكَ نُوراً أَبَدِيّاً وَإِلْهَكَ زِينَتِكَ (أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ) . لَا تَغِيبُ بَعْدُ شَمْسُكَ وَقَمَرُكَ لَا يَنْقُصُ ، لِأَنَّ الرَّبَّ يَكُونُ لَكَ نُوراً أَبَدِيّاً ، وَتَكْمُلُ أَيَّامُ تَوْجِيحِكَ ، وَشَعْبُكَ كُلُّهُمْ أَبْرَارٌ .» (إش ٦٠ : ١٨-٢١)

وَيَطِيبُ هَذَا النَّبِيُّ الْقَدِيسُ أَنْ يَمْزِجَ النُّورَ بِالْخَلَاصِ بِالتَّسْبِيحِ بِزِينَةِ النَّفْسِ ، أَيِ التَّجَلِّيِ الرُّوحِيِّ .

لَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ إِشْعِيَاءُ النَّبِيُّ : «أَنَا الرَّبُّ ، قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبَرِّ ، فَأُمْسِكْ بِيَدِكَ وَأَحْفَظْكَ وَأَجْعَلْكَ عَهْداً لِلشَّعْبِ ، وَنُوراً لِلْأُمَمِ ، لِتَفْتَحَ عَيْنَ الْعَمِيِّ ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأسُورِينَ ، مِنْ بَيْتِ السَّجْنِ ، الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ .» (إش ٤٢ : ٦ و ٧)

وَلْيَلَاظِ الْقَارِئُ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَ أَنْ قَالَ : «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» ، فَتَحَّ عَيْنِي الْأَعْمَى بِالْفِعْلِ !... كَذَلِكَ يَقُولُ إِشْعِيَاءُ ، وَكَأَنَّهُ يَحْكِي مَا يَرَى مِنْ وَرَاءِ الزَّمَانِ ، كَيْفَ أَهْنِ النُّورُ وَحَاقَلَتِ الظُّلْمَةُ عِبْثاً إِطْفَاءً ، وَلَكِنَّهُ انْتَصَرَ ، وَصَارَ خَلَاصاً لِأَقْصَى الْأَرْضِ ، وَاسْتَنَارَتْ بِهِ الشُّعُوبُ ، وَتَحَرَّرَتْ مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ ، وَصَارَتْ الْكَلِمَةُ غِذَاءً لِلرُّوحِ وَمَاءً لِلْحَيَاةِ كَيْنُوعُ أَبَدِي : «قَدْ جَعَلْتُكَ نُوراً لِلْأُمَمِ لِتَكُونَ خَلَاصِي إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ . هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ فَادِي إِسْرَائِيلَ ، قَدْ دَوَسَهُ لِلْمَهَانِ النَّفْسُ ، لِمَكْرُوهِ

الأمة، لعبيد المتسلطين ... قائلاً للأسرى: اخرجوا، للذين في الظلام: اظهروا ... لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حرٌّ ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم ...» (إش ٤٩: ٦ و ٧ و ٩ و ١٠)

وهنا يجمع إشعياء النبي النور، وتفتيح العيون، وخبز الحياة، والماء الحي، والينابيع.

«نور الحياة»:

وكذلك ملاخي النبي: «ولكن أيها المتقون "اسمي" تُشرقُ شمسُ البر والشفاء في أجنحتها.» (مل ٤: ٢)

وما يهمنا هنا في هذه النبوة الأخيرة: أن الله سيعطي اسمه مقروناً بإشراق النور، وبالحياة التي فيه، التي بلا أسقام، كناية عن الخليقة الجديدة التي تتنفس بالروح، وسوف يرى القارئ أن الرب سيكشف عن اسم الله الذي يتكلم به، بعد أن قال: «أنا هو نور العالم»، وكيف أعطى الشفاء بالفعل للمولود أعمى، فأصبح له «نور الحياة» على المستوى المحسوس. ونبوة ملاخي تعطى المقارنة صحيحة وعملية؛ كما أن الشمس هي للعالم حياة الجسد وتجديده وشفائه، كذلك الرب هو شمس الروح وبرّها ونورها وطهارتها.

وقد حاول الربيون تفسير النور كما جاء في العهد القديم، كما في المزامير: «الرب نوري... ممن أخاف» (مز ٢٧: ١)، بأنه هو الناموس، لأن الناموس يوضح السلوك في الحياة كالنور في الظلمة. وهذا لم يغيّب عن سماع الرب وفكره، فهو يصحح ويعلن نفسه أنه «نور الحياة»، و«الطريق» أيضاً، و«الباب»، وأن من يتبعه، لا تُدركه الظلمة ولا يُدركه ليل.

وحينما يوضع الناموس في مواجهة المسيح، يكون المسيح هو كمال الناموس. وكما قال الربيون إن «الهيكَل» هو «النور»، قال المسيح انقضوه وأنا أقيم في ثلاثة أيام، هيكلاً يملأ لا الأرض فقط، بل والسماء، نوراً ومجداً، كناية عن الخليقة الجديدة بجسده.

وق. يوحنا في رؤياه رأى منظر هذا الهيكل الجديد بالفعل، والرب سِرَّاجُه، وشعوب المخلصين تمشي في نوره (رؤ ٢١: ٢٣ و ٢٤).

إن استعلان الطبيعة الإلهية في المسيح كان بقصد أساسي، وهو أن تمتد قوى هذه الطبيعة وتستخلل الإنسان ككيان مخلوق أصلاً على صورة الله. وتعاليم المسيح وكلماته كانت انبعثاً

وامتداداً لهذه القُوى الإلهية التي في طبيعة المسيح: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦: ٦٣)، ونور أيضاً بالضرورة، وخاصة حينما كان يتكلم المسيح عن نفسه وعن طبيعته «أنا هو»: «نور العالم». هذه هي انبعاثات الطبيعة الإلهية في كلمات، وكأن الكلمات شعاع هذا النور، إذا أصاب قلباً مفتوحاً تخلله وأضاءه. هذا هو قول المسيح: «مَنْ يَتَّبِعْنِي فَلَا يَمِشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». وهكذا فإن نور العالم يتضح أنه «نور الحياة».

وما معنى «يكون له نور الحياة»؟ أليس أن نور الحياة يكون قد استقر فيه — «المسيح يحيا في» (غل ٢: ٢٠)، وصار ملكاً له؟ ثم ما معنى أن تمتلك نور الحياة الذي في المسيح؟ أليست هذه هي الشركة في أعلى وأعمق معناها، حيث يجمعنا فيه وإليه شعاع نوره وقوة حياته المنبعثة من تعاليمه وكلماته وروحه؟ وأليس هذا هو بعينه الذي يقوله المسيح في صلاته للآب: «أنا فيهم وأنت في» (يو: ١٧: ٢٣)؟ هذا هو منبع النور وقصبة. أما قوته فقد أوضحها المسيح على المستوى العملي: «أنتم الآن أنقياء (مضيئون) لسبب الكلام الذي كلمتكم به. اثبتوا في وأنا فيكم» (يو: ١٥: ٤٣). «إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ (نور)، تثبتون في محبتي، كما أنني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبتت في محبته» (يو: ١٥: ١٠). أما رفع هذا المستوى العملي إلى المستوى الرؤيوي فقد هتف به داود: «بنورك نرى نوراً» (مز ٣٦: ٩). فنور المسيح واسطة لمُعَايَنَةِ نور الآب، أي واسطة لرؤيا واتحاد. لذلك فنور المسيح أو المسيح كنور، هو شاهد للمسيح، سواء كان بالكلمة أو العمل.

فالنور أصلاً كطبيعة بحد ذاتها لا يحتاج إلى شاهد — أي إلى مَنْ يشهد له — بل يحتاج إلى مُشَاهِدٍ، أي إلى مَنْ يرى ويفرح، لأن النور يكون دائماً شاهداً لنفسه.

٨: ١٣ و ١٤ «فقال له الفريسيون: أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنتُ أشهدُ لنفسي فشهادتي حقٌ ἀληθής، لأنني أعلمُ من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ. وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهبُ».

موضوع الشهادة والدينونة بالنسبة للمسيح أمرٌ خطير للغاية، فهو يلتحم التحاماً مُحْكَمًا مع طبيعة المسيح الكلمة المتجسد، الابن المُرسَل.

فالمسيح بطرق هذا الموضوع من ناحيتين: من ناحية مصدرها أي «الكلمة» أي «الابن»؛ ومن ناحية التجسد أي «ابن الإنسان». وهنا يلزم بل يتحتم التعارض فتظهر المصادرة paradox: فهو من جهة ليس له أن يدين لأنه جاء «كمُرسَلٍ» ليُخَلِّصَ فقط، كما أنه ليس له أن يشهد

لنفسه ، لأنه لم يأت ليعمل مشيئته أو يتكلم من نفسه . هذا من وجهة نظر ابن الإنسان .

وفي نفس الوقت أيضاً ، له أن يدين لأن الآب أعطى له كل الدينونة ، لأنه وإن كان هو ابن الإنسان بالتجسد فهو لم يتغير كونه الابن الوحيد وهو والآب واحد ، فهو يعرف كمرسل من أين أتى وإلى أين يذهب ليجلس عن يمين الآب .

كذلك له أن يشهد لنفسه ، وشهادته تكون هي الحق ، لأنه لا يطلب من شهادته القول الذي يقوله أو العمل الذي يعمل بمجداً لنفسه ، إنما هو يستعلن الآب كغاية ونهاية لكل قوله وعمله ، لذلك تأتي شهادته حقاً ملء الحق ، لأنه يطلب مجد الآب .

والمسيح يدرك جداً هذه الحقيقة ويضغط عليها ضغطاً بقوله : « وإن كنتُ أشهد لنفسي » وهي تجيء باليونانية : « *kāv* » وتعني « حتى ولو » ، موضحاً بها أنه بنوع من التنازل قال سابقاً : « إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً » (يوه : ٣١) ، فهو يستدرك هنا هذا القول السابق بقوله : « وإن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق » للتأكيد على أن شهادتي لنفسي تبقى هي الأصح وهي الحق ، بحسب الاستعلان الصحيح لشخصي الذي وإن كنتم لا تدركونه أنتم (٧) ولكني أنا أدركه ، فأنا أعرف من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ باعتباري الابن و « الكلمة » ، حيث أن الابن يشهد له أبوه حتماً ، فشهادة الابن لنفسه هي شهادة مزدوجة : شهادته لنفسه وشهادة أبيه له . كذلك فهو باعتباره « الكلمة » الذي يستعلن الآب لا يقبل شهادة إنسان ، وإلا ما كان هو « كلمة الله » ، ف « الكلمة » لأنه كلمة الله وقد جاء ليشهد لله تكون شهادته هي بعينها شهادة الله ، فهي الحق عين الحق .

ويلاحظ القارئ — إثباتاً لقولنا هذا — أنه في حالة قول المسيح : « إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً » (يوه : ٣١) تجيء « أنا » في اليونانية مخففة *égō* في وضعها الشخصي كإنسان *égō ēv marturō* . ولكن في قوله : « أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني » (يوه : ١٨) ، تأتي « أنا هو » في اليونانية بثقلها الإلهي *égō eimi* .

وهكذا ، وبالنهاية ، فإن « شهادة » المسيح و « دينونة » المسيح على السواء إذا نُظِرَتْ من وجهة نظر بشرية كالتي نظر بها الفريسيون للمسيح ، فهي فعلاً ليست حسب الحق ولا هي

(٧) معلوم أن العالم يعرف خاصته ، والمسيح ليس من هذا العالم . وهكذا يظل المسيح غريباً عن هذا العالم ؛ وكل من ينتمي إلى هذا العالم لن يعرف حقيقة المسيح من أين أتى وإلى أين يذهب .

تُحَسَّبُ شهادة أو دينونة. ولكن يوم أن نعرف من أين جاء المسيح وإلى أين يذهب — أي نعرف حقيقة المسيح الإلهية كواحد مع الآب — حينئذ سنعرف أن شهادته حقٌّ ودينونته حقٌّ.

وهكذا نرى في هذا الاعتراض على شهادة المسيح لنفسه عجز الفريسيين عن اللحاق بفكر المسيح وطبيعته الإلهية الناطقة فيه. فالمسيح يقول: «أنا هو نور العالم» على أساس عملي قد قام بإثباته بالبرهان والدليل القاطع، بالكلمة القوية الحية الفعّالة، وبالفعل الإعجازي. وهذه بحد ذاتها هي القوى المنبعثة من طبيعته الإلهية المنيرة، أو هذا هو النور الذي يشير بكل هدوء وبساطة إلى مصدره وهو الله الآب. والنور يشهد لنفسه لا محالة بمجرد ظهوره، حيث يكشف عن مصدره ويستعلن هدفه بأن واحد. لذلك يستحيل إخفاء النور الإلهي، فبمجرد أن ظهر النور الإلهي متجسداً، بدأ فعله يسري في القلوب والعقول ليستعلن ماهيته وليستعلن مصدره: «و(نحن) رأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب.» (يو: ١٤)

وشهادة المسيح باعتباره النور الإلهي حقٌّ منتهى الحق، لأنه وإن كان يشهد لنفسه فهو يشهد بأن واحد إلى مصدره أي الله الآب — الذي منه أتى — فهو في الحقيقة «حقٌّ من الحق»، أو كما كان يقول المسيح دائماً: «الحق الحق أقول لكم...». لأنه حقٌّ مرتين: حق له وفيه، وحق الآب الذي هو منه!!

فقول الفريسيين: «أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقاً»، هو تماماً مثل قول الأعمى للنور: «أنت الظلمة»، أو مثل محاولة عابثة لإطفاء الشمس. هنا العيب ليس في النور على الإطلاق، ولكن العيب في غياب العين الروحية والعقل المميز للحق حتى يمكن أن يرى النور فيقول للنور: «أنت نور بالحقيقة».

هنا اعتراض لا بد من توضيحه، إذ ما ذنب هؤلاء الفريسيين والرؤساء الذين ليست لهم عيون تبصر ولا آذان تسمع؟ هذا أجاب عنه المسيح مراراً وتكراراً: إن آمنتم بي ترون الروح، وتسمعون للحق وتدركون الحياة، وتعلمون من أين أتيت وإلى أين أذهب، وإذا لم تؤمنوا بي فعبثاً تحاولون إذ تظل عيونكم تبصر النور ولا تراه إلا ظلمة، وآذانكم تسمع الحق ولا تميزه إلا باطلاً، وتجهلون من أين أتيت وإلى أين أذهب، لأنكم تبحثون عن أنساب الجسد. أما مسوغات الإيمان بي فهي الأعمال التي عملتها بينكم ولم يعملها أحدٌ غيري قط. فإن عَسَرَ عليكم الإيمان بي متكلماً وموضحاً، فآمنوا بالأعمال التي تنطق بأنها بالله معمولة!

أما قولكم أن شهادتي لنفسي ليست حقاً، فهذا دليل قاطع أن عيونكم لا ترى النور وآذانكم لا تسمعون الحق؛ ولهذا لا تعرفون من أين أتيت وإلى أين أذهب، وهذا لا ينفي الحقيقة، فعدم رؤية النور ليست كفيلة بأن تلغي وجوده. ويكفي للنور أن يعرف أن مصدره هو الله، ورسالته هي أن ينير العالم، وأنه هو هو قائم في الله وممتد إليه، وحينئذ حق له أن يقول: «أنا هو» نور العالم! !

١٦:٨ «أنتم حسب الجسد تدينون. أما أنا فليست أدين أحداً. وإن كنتُ أنا أدين، فدينونتي حق، لأنني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني».

«أنتم حسب الجسد تدينون»:

هنا يستطرد المسيح من مجرد الشهادة لنفسه التي ينفون حقيقتها إلى هدف هؤلاء الفريسيين من هذا النفي. فقولهم: «شهادتك "ليست حقاً"»، هو في الحقيقة اتهام مباشر له بالإدعاء والتزيف والكذب. فهم بذلك أقاموا أنفسهم «دَيَّانين» للحق، بالرغم من أنه ليست لهم معرفة صحيحة به. فالرب هنا يكشف من أين انخدعوا، وكيف أن دينونتهم هي الباطلة، وليس الحق الذي يشهد به هو. فيقول لهم: «أنتم حسب الجسد تدينون»، ذلك لأن ليست لهم معرفة روحية. أي أن اعتمادهم هو فقط على المقاييس البشرية من رؤية جسدية ودراسة أنساب ووطن وفهم جسدي وتعاليم حرفية على مستوى الجسد؛ وكأنه يقول لهم: أنتم تحاولون أن تقيسوا الروحيات بالجسديات وتحكموا على الإلهيات بالمعرفة القائمة على الحرف، فعثرتم في الله الآب الذي أرسلني، وعثرتم في أنا الذي جئت لأخرجكم من الظلمة إلى النور.

«أما أنا فليست أدين أحداً»:

أنا لا أدينكم على هذا، ولا أحكم عليكم في ذلك، ولا أدين أحداً غيركم بالمرة. لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص (الذين في) العالم.

أما الدليل على صحة قوله هذا فهو أنه لم يَدِنْ المرأة الخاطئة التي أمسكوها في ذات الفعل، والتي يقضي الناموس برجمها، بل دعاها للتوبة وآزرها بقوة من عنده دون أن يلغي الناموس.

١٦:٨ «وإن كنتُ أنا أدين، فدينونتي حق، لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني».

المسيح هنا يعلن لهم أن هناك دينونة أخرى خطيرة ليست حسب الظاهر، وليست حسب

الجسد، بل حسب فكر الآب وموازين الله، وهي التي «أعطيت كلها للابن». هذه الدينونة هي حسب الحق ἀληθινή، وهي التي ستُدانُ بها الخطية والعالم والشيطان^(٨)، أي دينونة كل الذين ليس فيهم الحق.

هذه يقول عنها المسيح: «وإن كنتُ أنا أدينُ فدينونتي حقٌّ، لأنني لستُ وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني». أما من جهة الدينونة عامة، فالمسيح وعد أنه لن يدينهم على ما قالوه وتفكروا به من جهته — إن كان على مستوى الجهل والجهالة والحكم حسب الظاهر والجسد: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣: ٣٤)، ولكن إن كانت مقاومتهم لشهادته وعدم الإيمان به ليس عن جهل أو جهالة وليس مجرد حكم حسب الظاهر والجسد، بل كان مقاومة عن معرفة وانصياعاً وراء «الحسد» لأنهم: «كانوا قد أسلموه حسداً» (مر ١٠: ١٠)، حفاظاً على مراكزهم ومجدهم الكاذب، فهم يكونون قد انحازوا إلى هذا العالم ورئيس هذا العالم وإلى الباطل، ويكونون قد وقعوا تحت «دينونة الحق»: «لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم» (يو ١٩: ١١)!! لأن جوهر «دينونة الحق» هو الفصل بين الحق والباطل — وبالتالي وبالضرورة — إسكات صوت الباطل.

«لأنني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني»:

ثم انتقل المسيح من الدينونة إلى الشهادة مرة أخرى لينفي عن نفسه، عندما قال: «أنا هو نور العالم»، أنه يطلب ما لنفسه أو يسعى لمجد نفسه. فأوضح لهم أن شهادته هذه ليست من ذاته أو لمجد نفسه، بل مستمدة من شهادة الله الآب له، وعلى ذلك فهذه الشهادة التي يشهد لها هي شهادة اثنين: هو والآب. وبذلك تكون صحيحة حسب مقاييس حرفية الناموس الذي يفهمونه.

(٨) أ — أما دينونة الخطية فهي عمل الآب والابن وقد أوضحها بولس الرسول: «فأله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد. لكي يتم حكم الناموس فينا.» (رو ٨: ٣ و٤)

ب — أما دينونة العالم فهي أيضاً عمل الآب والابن: «الآن نفسي قد اضطربت وماذا أقول. أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة. أيها الآب مجد اسمك. فجاء صوت من السماء مجتدٌ وأمجد أيضاً... أجاب يسوع... الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً.» (يو ١٢: ٢٧ و٢٨ و٣٠ و٣١)

ج — وأما دينونة الشيطان رئيس هذا العالم فهي أيضاً من عمل الآب والابن: «ولكن إن ذهبتُ أرسله (الروح القدس) إليكم، ومنى جاء ذاك يبكثُ العالم على خطية وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطية، فلأنهم لا يؤمنون بي؛ وأما على برٍّ، فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً؛ وأما على دينونة، فلأن رئيس هذا العالم قد دِينَ.» (يو ١٦: ٧-١١)

١٨ و ١٧ : « وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حقٌ. «أنا هو» الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني».

يلاحظ هنا تأكيد المسيح لشخصيته الإلهية «أنا هو» — $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ — وهي تمهيد لشهادة واحدة: الآب والابن.

« وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حقٌ (*) » :

هنا يعلن المسيح مقدار الهوة التي تفصله — كصاحب العهد الجديد — عن «ناموس اليهود»، أي عن روح الأحكام التي صار يحكم بها الفريسيون بحسب الجسد فلوثوا روحانية العهد القديم.

لذلك فالمسيح عندما يقول هنا «ناموسكم»، فذلك لا يُحَسَّبُ قليلاً من قيمة الناموس أو إلغاءً له، ولكنه يتكلم عن الناموس بحسب تفسيرهم الجسدي الذي رأيناه أنه أنشأ في فكرهم دينونة الحق والله نفسه. أما ناموس موسى الصحيح، فيعلن ويصرخ من جهة المسيح الذي سيأتي، بدينونة من يرفضه: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه» (تث ١٨: ١٩). فلو عاملهم المسيح حسب ناموس موسى الصحيح لقطعهم، ولكننا رأيناه لا يدينهم بالرغم من أنهم انحرفوا عن متطلبات الناموس وفهمه الصحيح: «لا تظنوا أنني أشكوكم إلى الآب يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسى (الناموس) لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تُصدّقون كتب ذلك فكيف تصدقون كلامي.» (يوه ٥: ٤٥-٤٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» :

ويلاحظ القارئ أن قول المسيح في الآية السالفة: «لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»، ثم يكرر «أنا والآب الذي أرسلني»، ثم إذ يضيف عليها: «إن شهادة رجلين حقٌ»، يوضح بأبرز تعبير عن «الوحدة» الذاتية القائمة بينه وبين الآب. بل ومن تطابق الشهادتين، شهادته عن نفسه وشهادة الآب عنه، تبرز وحدة المشيئة والفكر.

والذي نخرج به من شرح المسيح أن استعلان المسيح لذاته والآب هو حقيقة، بل حقٌ مطلقٌ، لا يحتاج أن يكون له شهادة من بشر تؤيده. والتجاء المسيح للناموس: «إن شهادة رجلين حقٌ»، هو احتقار لتفكير اليهود، وإخضاع لمنطق الناموس ليعلم الحق وليس ليؤيده. أما دليل جهلهم للحق وجهالتهم بالناموس فتظهر في سؤاها الآتي :

(*) تث ١٧: ٦.

١٩:٨ «فقالوا له: أين هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتُموني لعرفتُم أبي أيضاً».

يُلاحظ أن الفريسيين لا يسألون عن من هو أبوك؟ لأنهم أدركوا باليقين أنه يتكلم عن الله، ولكنهم في استهانة بهذه العلاقة يحاولون أن ينفوا عن المسيح قدرة هذا «الآب» على الشهادة لحساب المسيح، مدركين أنه يتعذر على المسيح أن يستحضر شهادة شفوية أو كتابية من هذا الآب.

أما إجابة المسيح ففيها أُلَمِيَّةٌ وحكمة عميقة، إذ واجههم بالغباء الذي وقعوا فيه حينما قالوا: «أين هو أبوك؟» لأنه كان يلزم التعرف بهذا الآب قبل أن يُسأل عن مكان وجوده: فكأنه يقول لهم: كان يلزم أولاً أن تتعرفوا على أبي قبل أن تسألوني أين هو. فيقوله: «لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتُموني لعرفتُم أبي أيضاً»، يجيب عليهم إجابة مستترة هي نفس الإجابة التي أجاب بها فيلبس حينما سأله: «أَرِنَا الآب وَكَفَانَا» (يو ١٤: ٨)؛ لأنهم لو كانوا قد عرفوا المسيح، لعرفوا الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وكلمته هي الكلمة المنطوقة من الآب، والعمل الذي يعملُه معمول بتدبير الآب، وكذلك المشيئة هي مشيئة الآب. ولكن لأنهم عثروا في المسيح ولم يَرَوْا منه إلا بشرِيَّته، انحجب عنهم لاهوته، لذلك غابت عنهم صلته بالآب، وبالتالي لم يدركوا من هو أبوه ولا أين هو أبوه.

كذلك لو كان اليهود على علم صحيح بالله «يهوه»، ولهم صلة حقيقية به، لأدركوا المسيح، لأنه ابنه والحامل لصفاته. وفي هذا تعبير مرّ لليهودية على وجه العموم التي استؤمِنت أصلاً على معرفة الله دون بقية الشعوب، ولكنها برفضها للمسيح، أثبتت أنها متغرّبة تماماً عن الله.

ومن حيث منهج الحوار، واضح أن اليهود برفضهم شهادة المسيح عن نفسه التي هي شهادة الآب حتماً وبالضرورة، فإن عيونهم وآذانهم انسَدَّت عن إدراك الله. هم سَدُّوها بأعمالهم وأخلاقهم، والله سَدَّها لهم، لأنهم لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله في معرفتهم. وبهذا تَلَفَّت أدوات المعرفة الحقيقية عندهم — «لو عرفتُموني لعرفتُم أبي أيضاً» — وبالتالي تعذرت الطاعة لصوت الله لغياب الصوت ذاته!! وهكذا بلغ الاستعداد عندهم لادراك الاستعلان الذي جاء به المسيح إلى الصفر. فانتهى بهم الأمر إلى رفض المسيح لأنهم لم يعرفوه، أو بالحرى لأنهم لم يتعرفوا عليه. وهكذا ذهبت دقائق الإنذار المتوالية التي أطلقها الله شديدة ومتكررة في آذانهم: «تأتي ساعة وهي الآن»، «الآن»، «الآن» حتى انتهى الأوان! وصدر الحكم ووقعوا تحت الدينونة: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وابتغضوني

أنا وأبي، لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.»
(يو ١٥ : ٢٤-٢٥)

٢٠ : ٨ «هذا الكلامُ قالَهُ يسوعُ في الخزانةِ وهو يُعلِّمُ في الهيكلِ. ولم يُمسِكهُ أحدٌ لأنَّ ساعتهُ لم تكن قد جاءت بعدُ».

وضع الآن المكان الذي التجأ إليه المسيح لإجراء هذه التعاليم، وهو المكان المخصَّص لوضع خزائن جمع الأموال. وهو داخل رواق النساء المكان المحبب جداً للشعب حيث كانت توقد المنارات الأربع في عيد المظال. وقد اختار الرب هذا المكان بالذات داخل الهيكل لأنه قريب، بل في مواجهة المكان المخصَّص لانعقاد السنهدريم والذي يجتمع فيه اليهود عادة، وهذا المكان هو المسمَّى «جازت» Gazith، ويقع بين رواق النساء والرواق الداخلي. وهذا يوضح أن المسيح كان يلقي تعليمه على مسمع من أعضاء السنهدريم. وقد أشار إليه المسيح أثناء محاكمته: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: أنا كلَّمتُ العالمَ علانية. أنا علَّمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود (الفريسيون) دائماً وفي الخفاء لم أتكلَّم بشيء.»
(يو ١٨ : ١٩ و ٢٠)

وعلى المفهوم الميستيكي الذي يرمي إليه ق. يوحنا، يكون قد صدر الحكم النهائي على اليهود من داخل هيكلهم، وعلى خلفية ناموسهم، وفي حضرة سنهدريمهم: أن ليست لهم معرفة بالله.

وليس عبثاً ولا هو لِمَما أن يذكر ق. يوحنا أن هذا الحكم صدر في هذا الموضع ومن هذا المنبر الرسمي، فهو إنما قصد قصداً أن يوثق الحكم ويسجله للتاريخ وللعالَم وللإنسان ككل، فليس اليهود فقط، مَنْ حَصَرَهُم هذا النطق، بل وكل مَنْ يدَّعي بادِّعاء اليهود وينتهي إلى ما انتهوا إليه.

«ولم يمسكه أحد لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعدُ»:

مراراً وتكراراً انتهى اليهود إلى الأمر بإلقاء القبض عليه، ورُتِّبَت كل الأمور، ولكن في آخر لحظة يلغِيها المسيح بحق الفيتو الإلهي، لأن حكم الإنسان على الله هو محض افتراء لا يرقى أبداً إلى التنفيذ، فضَلَبُ المسيح لم يكن بأي حال من الأحوال بحسب مشيئة إنسان بل بحسب ضرورة رآها الله وحدَّد ساعتهَا، ولأن ساعة التسليم الإرادي لم تكن قد جاءت بعد، فهكذا تتفرق الأجهزة والأيدي المتربِّصة في مرارة وسخط يندهش لها رؤساء الكهنة الذين لم يستطيعوا أن يخفوا سخطهم من هذا الأمر أثناء المحاكمة.

ب - الجزء الثاني من الحوار

«أنا هو»

(٢٩-٢١:٨)

٢٤-٢١:٨ «قال لهم يسوع أيضاً: أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيتكم. حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألهه يقتل نفسه، حتى يقول حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال لهم: أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم. فقلت لكم: إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أنني أنا هو تموتون في خطاياكم».

«أفعالهم لا تدفعهم يرجعون إلى إلههم، لأن روح الزنا في باطنهم، وهم لا يعرفون الرب. وقد أدلت عظمة إسرائيل في وجهه، فيتعثر إسرائيل وأفرايم في إثمهما، ويتعثر يهوذا أيضاً معهما. يذهبون بغنمهم وبقرهم (ذبائح) ليطلبوا الرب ولا يجدونه، قد تنحى عنهم. قد غدروا بالرب.» (هو٥: ٤-٧)

مفتاح فهم هذه الآيات كلمة «أيضاً» والتي تأتي باليونانية: οὐν πάλιν = «ومن أجل ذلك»، أي أن هناك سبباً متكرراً يتكلم من أجله المسيح. ويلاحظ القارئ أن في الأصحاح السابع عدد ٣٣ و٣٤ قال المسيح هذا الكلام نفسه تقريباً، وفي نفس الموقف لما جاءت حملة ضباط الهيكل للقبض عليه، وهنا أحسَّ المسيح أن نيَّتهم متجهة أيضاً للقبض عليه مرة ثانية، لذلك وبسبب وضوح نيَّتهم للقتل، بدأ المسيح هنا يحذرتأكيد وجدّية أنهم هم الخاسرون في هذه القضية، خسارة لن تُعوّض لأنها ستكون لهم للموت الأبدي، لأن خطيتهم ستبقى في عنقهم ولن تغفر لهم.

«تموتون في خطاياكم»:

يُلاحظ أن الخطية هنا هي خطية رفض المسيح: «والذي لا يؤمن بالابن ... يمكث عليه غضب

الله.» (يو٣: ٣٦)

«ستطلبونني» :

ولكن للأسف ستبحثون عني على الأرض وأنا سأكون في السموات، لذلك عبثاً تبحثون، ولن تجدونني لأنكم محبوسون في النظرة الجسدية الأرضية، ويا ليتكم كنتم تبحثون عني بصلاح نية، ولكنكم في حقدكم اليائس وعناد مقاومكم لمشيئة الله، لن تكون خيبة أملككم هيئة أو يمكن تعويضها، بل ستكون حكماً مؤبداً بالموت في خطيتكم. أما هذه الخطية فسوف يكشف عنها المسيح بعد ذلك بوضوح.

«حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» :

يلاحظ أن المسيح هنا يركز على الفارق الشاسع بين «أنا» *ἐγώ* و«أنتم» *ὕμεῖς*. هذا هو أساس وجوه الانفصال الذي لا يمكن تلاحه مرة أخرى كما هو حادث وسهل الآن بالجسد، الأمر الذي سيوضحه المسيح في آية قادمة.

٢٢:٨ «فقال اليهود: أَلَمْ يَقتُلْ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولَ حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا».

اليهود هنا هم الفريسيون المتربصون، الذين سبق أن قالوا، ردًا على تحذيره أنه سيمضي ولا يقدر أن يأتوا إليه، إنه ربما يكون قد فكّر أن يمضي إلى شتات اليونانيين ليُعلم هناك (٣٥:٧). ولكن هنا نجد أن ردّهم يشتدّ فيه التهجم والخساسة مع مرارة الحقد، ربما لشعورهم أن المسيح يتعالى عليهم وترفّع عن مستواهم. كما يكشف ردّهم: إنه ربما «يقتل نفسه»، مقدار ضيق العقل والتفكير المسدود، إذ بحثوا في أنفسهم كيف لا يستطيعون أن يذهبوا إليه؟ باعتبار أن إمكانياتهم في نظرهم تفوق إمكانياته؟ فرأوا أن هناك مكاناً واحداً لا يستطيعون الذهاب إليه، وهو جهنّم، حيث تستقر أرواح الذين يقتلون أنفسهم (حسب مذهب اليهود). كل ذلك تفكروا فيه في ضمائرهم، ولكن المسيح علّم بما يُضمرون وبما يُفكّرون.

٢٣:٨ و٢٤ «فقال لهم: أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فلمست من هذا العالم. فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أنني أنا هو *ἐγώ εἰμι* تموتون في خطاياكم».

المسيح هنا يشرح السبب الذي سيحتم بعدم قدرتهم على تتبّع المسيح. ويوضحه على أساس اختلاف الطبيعة واختلاف الوجود بين ما هو أرضي وما هو سماوي، هذا الاختلاف الذي هو أيضاً

السبب في قصور فهمهم .

هذا الاختلاف في الطبيعة سبق أن شرحه لهم الرب بصورة أخرى : «لأنني أعلم من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهبُ... أنتم حسب الجسد...» (٨ : ١٤ و ١٥). هنا يكون عدم معرفتهم لطبيعة المسيح ومن أين جاء، هو الذي سبب عدم معرفة المسيح؛ وأما عدم معرفتهم إلى أين يذهب فقد أضاع عليهم معرفة رسالته ومعرفة الذي أرسله .

هنا المسيح يوضح أكثر جداً من أي شرح آخر من أين هو وما هي طبيعته :
«أنتم من أسفل» ἐκ τῶν κάτω ، أي من الطبيعة الترابية، من الأرض، من المحدود الزمني المنتهي إلى الموت، من تحت الباطل والزيف والأقنعة الزائلة .
«أما أنا فمن فوق» ἐκ τῶν ὀψω أي من الطبيعة الخالقة، من السماء، من اللامحدود الأزلي، من الخالد الأبدى، من الحق القائم بذاته والدائم بكيانه .
«أنتم من هذا العالم»، المتغير والزائل المحكوم بالقوى الطبيعية، والذي أخضع للباطل، ويسوده الشر، ويغطيه الظل ويعبث به الدوران !
«أما أنا فلست من هذا العالم»، أتيت إليه مُرسلاً، وأتركه وأذهب من حيث أتيت؛ دخلته لأخلصه، وأقديه، وأحييه، وأنيره، ثم أنطلق مفتحاً الطريق المؤدي إلى السماء لمن استطاعوا أن يخلّوه — كما غلبته «بدم الخروف وبكلمة شهادتهم» (رؤ ١٢ : ١١). هنا ردُّ يُخرس ظنهم الآثم أنه يذهب إلى الجحيم بقتله لنفسه .

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن طبيعة المسيح هي «من فوق» ولم تنزل أبداً «إلى أسفل». فنزوله إلينا كان فقط من أجلنا، وأما هو من حيث طبيعته فهو لم يزل «من فوق»، وهو لم يزل موجوداً فوق في السماء حتى أثناء وجوده معنا على الأرض : «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣ : ١٣). فنزوله كان فقط من أجل أن يجذبنا معه إلى فوق ويرفعنا معه حتى إلى الآب (*)، كما قال هو نفسه في مناسبة أخرى : «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يو ١٢ : ٣٢)، حيث هذا الجذب السري يعتمد أساساً على كون طبيعته طبيعة إلهية «من فوق» وإلى فوق، فإن تم الاتحاد بينه وبيننا نحن الذين «من أسفل» فلا بد أن يجذبنا معه إلى فوق .

(*) «رفع قديسيه معه إلى العلاء وأعطاهم قرباناً لأبيه» (صلاة القسمة لعيد القيامة والخميس المقدسة).

هنا تظهر للغاية أهمية الاتحاد بالمسيح. لأن الخطايا التي عُملت هي في الواقع شهوات ورغبات أرضية ارتبطت بها النفس وصارت تُشكّل ثِقْلاً أرضياً شديداً جداً، يستحيل معه أن نرتفع إلى السماء، إن لم تتغلب عليها جاذبية المسيح. فالارتفاع إلى فوق مع المسيح مَذْخَرٌ للذين أحبوا المسيح وعاشوا معه وصادقوه واتحدوا به. فإن لم تكن عائشين معه في شركة حقيقية — وليس مجرد شركة فكرية أو عقائدية — يستحيل أن نرتفع معه إلى فوق، لأن طبيعتنا تُوقِننا من جديد إلى الأرض.

وأما هو فطبيعته سماوية «من فوق» ولها القدرة على الرفع إلى فوق، بل إن هذه القدرة على الرفع هي قدرة مطلقة. وأما ثقلنا فهو غير مطلق ولكنه محدود، حتى إذا اعتبرنا ثقل البشرية كلها مجتمعة، فهي في مجموعها لا تخرج عن كونها خليقة محدودة — وخطايانا مهما كثرت هي أيضاً محدودة — وأما هو فله طبيعة إلهية مطلقة، ولذلك فقدّره على الجذب «إلى فوق» تفوق بلا قياس ثقل البشرية الذي يجتذبنا إلى أسفل.

من أجل ذلك، فالإتحاد بالمسيح في غاية الأهمية لأنه الوسيلة الوحيدة التي بها نرتفع معه إلى فوق، بكل هدوء وبكل سلام، لأنه هو الذي يجذبنا ويرفعنا ولسنا نحن من ذواتنا.

وبهذا المعنى أيضاً قال: «أنا أمضي لأُعدّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأُعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وأُخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو ١٤: ٢-٤). «أُخذكم إليّ» لأنكم بدوني لا تستطيعون أنتم أن تأتوا إلى فوق لأنكم أنتم بحسب طبيعتكم «من أسفل». ولذلك: «كما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا أقول لكم أنتم الآن» (يو ١٣: ٣٣). ولما اعترض بطرس قائلاً: «لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟»، أوضح الرب أنه طالما الخطية كائنة فيه — وهي التي ستقوده إلى الإنكار — فهو لا يستطيع أن يتبع الرب ولا أن ينجذب إليه «إلى فوق». «ولكنك ستتبعني أخيراً» (يو ١٣: ٣٦)، أي متى طَهَرْتُكَ من خطيتك التي تثقلك الآن وتجذبك إلى أسفل.

فالأماكن النورانية الفوقانية التي لها الارتفاع المَهول تحتاج إلى خفة كبيرة للوصول إليها، فلن نبلغها إلا بعد أن يرفع الرب عنا أثقالنا، ويعلمنا كيف نصعد معه إلى فوق ثم إلى فوق وإلى أبد الأبد.

هذه هي في الحقيقة شهوة المسيح الأزلية التي من أجلها احتمل كل شيء، والتي طلبها من أجلنا بإلحاح من الآب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧: ٢٤)

هذا هو نصيبنا المفتخر فوق. ولكنه يُصنع هنا في الزمان الحاضر. فإن مُثْنَا قبل أن نحصل على هذا الاتحاد وقبل أن نحقق هذه الصلات الحية بالمسيح، فكما يقول لليهود: «ستطلبونني وتموتون في خطيتكم» (يو: ٨: ٢١)، حيث الخطية هنا بالمفرد وهي خطية رفض المسيح وعدم التجاوب معه.

لذلك يجب أن ننتبه جداً أن في قول المسيح: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق» دعوة سرية وتنبيهاً لأذهاننا لضرورة تكوين علاقة حية به حتى نتغير ونتجدد، فنعرفه على حقيقته ونأخذه، وإذا ما أخذناه يحملنا معه إلى فوق!

أما إن تقاضينا عن الدعوة وأهملناها، فإننا نصير كاليهود الذين رفضوه ونبقى بعيدين عنه.

ولذلك، يوضح المسيح مدى الهوة التي بينه، والتي تختبئ وراء كيانه الإلهي غير المنظور والمتغرب زماناً يسيراً بعد، وبينهم كبشر يهود عندما رفضوه ليتقوا على الأرض التي استوطنوها. ويُعقّب المسيح مستزيداً قوله توضيحاً: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم». لأن مجيئي لم تدركوه، وخلاصي لم تقبلوه، وفدائي أهتموه. لهذا بقيت لكم خطاياكم مربوطة في أعناقكم.

«لأنكم إن لم تؤمنوا أنني أنا هو، تموتون في خطاياكم»:

والمسيح هنا يتلخّص في استعلان شخصه الإلهي أقصى المدى، حينما يقول: «إن لم تؤمنوا أنني أنا هو». وأنا هو *ἐγώ εἰμι*، كما قلنا مراراً، هو «اسم الله» الشخصي، أي الذاتي الذي عُرف به^(٩)، ويُنطق بالعبرية «Ani ho» (تث ٣٢: ٣٩، إش ٤٣: ١٠). وقد لُقّب المسيح نفسه بهذا الاسم، ليس اختطافاً، بل إن الآب أعطاه اسمه ليعلنه ويتكلم به: «أنا أظهرت اسمك للناس» (يو: ١٧: ٦)، «عرّفتهم اسمك وسأعرّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو: ١٧: ٢٦). ومعنى كلام المسيح: أنه إذا لم يؤمنوا باسمه «أنا هو»، أي يؤمنوا به باعتباره حامل اسم الله والمتكلم عنه لكي يحمل خطاياهم ويقديهم، فسيموتون في خطاياهم.

ويلاحظ القارئ في هذه الآيات أننا الآن في اليوم الأخير من العيد، والكلُّ يتهيأ لأن يمضي إلى بلده ووطنه وأهله. فمن هذا المنطلق والإحساس قال لهم المسيح: «أنا أمضي وستطلبونني» (أي لن يكون معهم في عيد المظال القادم)، ولن يستطيعوا أن يذهبوا وراءه بعد ذلك، وسيموتون في خطاياهم بسبب عدم إيمانهم ورفضهم له. كذلك كما لاحظنا في تسجيل ق. يوحنا لكلام الفريسيين السابق عندما قالوا عنه: «ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلم

(٩) راجع المدخل ص ٢١٨-٢٤٦، وعلى الأخص ص ٢٢٢ و ٢٢٩.

اليونانيين» (يو: ٧: ٣٥)، فإن ق. يوحنا يُثبِّئ من بعيد إلى مستقبل الكنيسة وكرازتها في العالم اليوناني، كذلك هنا يُثبِّئ بقول الفريسيين: «ألعه يقتل نفسه»، بما سيتم فعلاً على مستوى تسليم ذاته ليذبح بإرادته، وذلك في أسلوب سرّي مُبدِع.

كذلك نلاحظ في قول المسيح: «أنا من فوق»، «أنا لست من هذا العالم»، أنه لتوجيه الذهن إلى الآب الذي جاء من عنده، ثم في قوله: «أنتم من أسفل»، «أنتم من هذا العالم»، أنه ليوّجه ذهنهم إلى أب الآباء الذي منه انحدروا، أي إبراهيم، وهو يستخدم هذا المعنى بعد قليل حينما يقول: «قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن»، مشيراً إلى أزليته. ويعتد بنفس المعنى ليعلم أن الذين أضمرّوا قتله، فقدوا أبوة إبراهيم، فصاروا من أب هو إبليس.

ولكن اليهود أصابهم الدوار حينما سمعوا المسيح يقول بوضوح عن نفسه: «أنا هو» *ἐγώ εἰμι*، فاستدرجوه: «من أنت؟»

٢٥: ٨ «فقالوا له: مَنْ أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما اكلمكم أيضاً به».

«فقالوا له: من أنت؟»:

واضح أن الفريسيين يسألون، ولكن ليس على أساس من صحة الضمير والنية، فهم يطالبونه أن يوضح شخصيته لا لكي يؤمنوا به ولكن ليجدوا علة أخطر يسكونها عليه، خاصة وهو يستخدم اسم الله «أنا هو»: «آني هو - بالعبرية Ani ho» والتي تُرجمت في السبعينية بـ «أنا هو الكائن بذاتي». وحتى ولو كانت لهم أقل نية لمزيد من معرفة شخصه، بعد كل الذي قاله لهم، لكان سؤالهم يتحدد في طلب المزيد، ولكنهم هنا يطالبونه بإعلان محدد: «مَنْ أنت؟». وهو نفس السؤال الذي سأله ليوحنا المعمدان، فالمعمدان ردّ عليهم رداً واضحاً يتناسب مع نيتهم فقال: أنا لست المسيح. ولست إيليا. ولست النبي (الذي تنبأ عنه موسى). أي كان الرد بالسلب الكامل من جهة الأسماء الكبيرة، ثم حدد شخصه بعمله قائلاً: «أنا صوت صاريخ». ثم أشار إلى المسيح الذي ينتظرونه: «ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه». أما رد المسيح هنا فهو إيجابي، من نحو الإعلان عن شخصه والإعلان عن عمله.

«أنا من البدء ما اكلمكم أيضاً به»:

المسيح هنا يشير إلى شخصه [«أنا»]، وشخصه لا بد وأن يكون قد ظهر من الإعلانات العديدة التي تكلم بها عن نفسه: إنه هو «نور العالم»، و«الخبز النازل من السماء»، و«ينبوع

الماء الحي»، وأن كلامه على وجه العموم «روح وحياة». أما كلمة «من البدء»، فهي في أسلوب ق. يوحنا إشارة إلى أن شخصه المتحدث لم يُستحدث في العالم، بل هو ممتد في الأزل: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله»، ولكن استعلانه ابتداء منذ بدأ المسيح يتكلم عن نفسه ورسالته: فكلية في البداية «من البدء» تعود على الكلام مباشرة «أنا ... ما أكلمكم به»، ثم تعود على شخص المسيح بطريق غير مباشر بالتالي. فكلام المسيح لا يُقصد به أن يعلن هؤلاء المقاومين أنه «البدء» ἀρχή أو أنه «في البدء» أو «من البدء»، لأن هذه الاصطلاحات اللاهوتية تحتم وجود ظرف يوناني معين مثل: ἐξ ἀρχῆς أو ἀπ' ἀρχῆς، ولكن المستخدم في هذه الآية هو τὴν ἀρχὴν، ومعها لم يجيء الكلام — أكلمكم — من أصل «الكلمة اللوغس» λόγος حتى كان يتبادر إلى الذهن «في البدء كان الكلمة»؛ بل جاء الكلام بمعنى «الحديث» λαλεῖν وليس λέγειν، وفي الفعل المضارع أيضاً. لذلك فكلية «بالبداية» لا تعود على شخص المسيح، ولكن تعود على الحديث نفسه. أي أن المسيح منذ البداية أعلن عن شخصه في أحاديثه — وكان ينبغي أن يُعرف من كلامه — ولكن حديثه منذ البداية عن نفسه يحمل معنى يمتد بالضرورة الحتمية ليطفي وجوده أيضاً، الذي هو منذ البداية. أليس هو القائل بعد ذلك مباشرة: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، و«إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح» (٨: ٥٨ و ٥٦)؟

لذلك فردّ المسيح: «أنا من البدء ما أكلمكم به»، يفيد أن شخصه من البدء قد استعلن بواسطة حديثه. والملاحظ دائماً في كل ردود المسيح على المقاومين أنه لا يرد رداً مباشراً على السؤال، ولكنه كان يجيب إجابة تغطي أسئلتهم المخادعة، وتجب على عدم فهمهم له، وتعطي معلومات جديدة وصحيحة عن حقيقة شخصه. لذلك يكمل المسيح رده عليهم بما يفيد نقص فهمهم مع مكرهم وخداعهم، أي جهلهم ولؤمهم معاً.

٢٦ و ٢٧ : ٨ «إن لي أشياء كثيرة أتكلّم وأحكمُ بها من نحوكم. لكن الذي أرسلني هو حقٌّ، وأنا ما سمعته منه فهذا أقولُه للعالم. ولم يفهموا أنه كان يقولُ لهم عن الآب».

واضح هنا من استطراد المسيح، أن رده: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» لا يغطي اتساع جهلهم وعمق لؤمهم، وأن عنده «كلامٌ» و«حكمٌ»، كلام يغطي جهلهم وحكم يحكم به على خداعهم ولؤمهم. ثم يستطرد المسيح، إنه مهما أشاعوا من الكذب والتضليل بين الشعب، فهو يكفيه أنه يعلن الحق الذي سمعه من الآب، ليس لهم بل للعالم كله. ويقول ق. يوحنا مُعلقاً،

إنهم لم يفهموا أنه كان يتكلم عن الآب عندما قال : «الذي أرسلني " هو حق"» .

٢٨: ٢٩ «فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أنني أنا هو، ولست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلّم بهذا كما علّمني أبي. والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأنني في كلّ حين أفعل ما يُرضيه». (١١)

وكأنما المسيح قطع كل الأمل في أن يتعرف عليه خاصته، أي اليهود، أو يُقبلوا إليه : «إلى خاصّته جاء وخاصّته لم تقبله» (يو: ١١). فلم يبقَ أمامهم إلا أن يعودوا ويدركوا، إنما بعد فوات الأوان، بعد أن يفعلوا به فعلتهم، حينما تأتي ساعتهم متوافقة مع ساعة سلطان الظلمة، ويتم رفعه على الصليب، وحينئذ تتجلى حقيقة أنه : «أنا هو»، الذي هو الاسم الجليل والكريم والمُرعب الذي ليهوه، الذي حمله المسيح وأعلنه باعتداد نائباً عن الآب الذي أعطاه كل ما يقول ويعمل. أما من نفسه فلم يعمل شيئاً، بل في كل شيء لمرضاة ومشية الآب الحالّ فيه، والذي لم يتركه لأيديهم قط. وهنا ليس من الضرورة أن تكون إشارة المسيح إلى كونهم سيعرفونه، في الصّلب أو بعد الصليب، بل هي إشارة غير مربوطة بالزمن بل بالعمل، فالعمل الذي عملوه سيُنقش على عقولهم وقلوبهم، ولن يُنسى الآن قط، لأن السماء والأرض ما تزال تردد ما فعلوه إلى أن يُستعلن في مجده مجروح الجانب، وحينئذ «ستنظره كل عين والذين طعنوه وينوحون عليه» (راجع رؤ: ١: ٧) نوح الندم بلا ندم، حينما يُستعلن، لا مسيئاً إسرائيل بعد، بل ديّان العدل!

«متى رفعتم ابن الإنسان» :

هنا المسيح يستخدم الاصطلاح المحبّب إليه، والمعروف في التقليد العبراني، والذي يشير إلى الصليب والقيامة معاً، فهو ارتفاع ورفعة، هوان ومجد، فعلان مترافقان ومتضامنان. وقد استخدم هذا التعبير في العهد القديم بنفس هذا المعنى. فنقرأ عن ارتفاع المجد: «في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك». (تك ٤٠: ١٣)

أما عن الرفع للهوان والموت فنقرأ: «في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك و يُعلّقك على خشبة» (تك ٤٠: ١٩). وهكذا حينما تتعارض مشيئة الخطاة مع مشيئة الله، فلا بد من

(١٠) يُقرأ هذا الفصل (٢٨: ٤٢) في عشية عيد الصليب (١٧ توت و ١٠ برمهاث) لما جاء فيه من إشارة إلى رفع المسيح على الصليب واستعلان لاهوته : «متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنني أنا هو» .

الصليب ولا بد من المجد. وحينما يصلبون ابن الإنسان، حينئذ سيدركون أنه ابن الله.

«بل أتكلّم بهذا كما علّمني أبي»:

المسيح هنا يشير إلى كل تعاليمه، وإلى شرح مركزه بالنسبة لله الآب، وإلى قوله «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$. هذه كلها هي نطق الآب فيه، وهي حق كل الحق، وليس فقط أن كل قول وعلم وعمل هو من الآب وإلى الآب، بل والآب نفسه المتكلم والعامل فيه وبه، هو «كائن معه». فالكلمة قبل التجسد كان عند الله كائناً معه، ابناً في حضن أبيه، وبعد التجسد صار الآب عند الابن كائناً معه. لأن الابن المتجسد لم يفارق الآب قط، ولم يفارق الآب الابن، فجوهر الألوهة يجمعهما، ويجمعهما جوهر الحب المتبادل أيضاً وبالتساوي، والحب بعد التجسد صار من جهة الآب مُعلنًا بالإرسالية، الآب أحبّ الابن وأرسله. أما من جهة الابن فاستعلن الحب فيه بالطاعة المطلقة للآب. طاعة مذعنة حتى إلى أداء الموت، ولكن لم تكن قط طاعة مَذَلَّة أو إذلال، بل طاعة رضئى وإرضاء، طاعة حب واسترضاء، طاعة تحيطها المسرة من كل جانب. طاعة قوتها العمل الجاد واحتمال المخاطر، وليست بمشاعر بشرية تتوقف عند الخطر: «ولم يتركني الآب وحدي، لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه».



ج - الجزء الثالث من الحوار

«إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»

(٨ : ٣٠ - ٥١)

٨ : ٣٠ - ٣٢ «وبينما هو يتكلم بهذا، آمن به كثيرون. فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به: إنكم إن تَبْشُم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي. وتعرفون الحق والحق يُحرركم».

في هاتين الآيتين يلزم التفريق بين مضمونهما، وهو الإيمان. فالترجمة العربية قاصرة جداً، حيث جاء الإيمان في الآية الأولى بشكله اليقيني مثل الإيمان في الآية الثانية تماماً دون تفريق، مما يفوت على القارئ المعنى الحقيقي. أما في الأصل اليوناني فيأتي «الإيمان» في الآية الأولى بشكله اليقيني πιστεύειν eis وتأتي ترجمتها الصحيحة «يؤمن به» وفي اللغة الإنجليزية believe in him. أما «الإيمان» في الآية الثانية فيأتي باللغة اليونانية πιστεύειν τινι بدون تأكيد، بمعنى «يصدق» فقط، وبالإنجليزية believe him، وبهذا يستقيم المعنى والشرح. فعندما سمع اليهود كلام المسيح المقنع اقتنعوا، إذ رأوا فيه ملامح المسيّا، فأظهروا أو تظاهروا أنهم يؤمنون؛ ولكن المسيح عرف ما في ضمائرهم ونيّاتهم، إذ كان ذلك مجرد تصديق للأقوال فقط التي جاءت على هواهم لبلوغ غاية أمانهم الوطنية، وليس إيمان التعرف على حقيقة المسيح المخلص والالتصاق به. فكان في نيتهم أن يُجاروه حتى يتأكدوا أنه «المسيّا» الذي سيعيد المجد لإسرائيل ويحررهم من الرومان، أي مسيّا السياسة ودنيا اليهود. وكان في قلبهم أنه إذا ظهر أنه ليس هو المسيّا الذي ينتظرونه، يكون مدّعياً ومستحقّ الموت. لذلك بادروهم المسيح بأقوال كشفت في الحال أن إيمانهم هو مجرد تصديق أقوال جاءت على هواهم، بانتظار ما يستجد من الأمر، وليس اتّباعه أو الالتصاق به على أساس الإيمان به ومعرفة الحق.

«فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به (أي صدّقوه) إنكم إن تَبْشُم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي»:

فالمسألة ليست تصديق كلام «ولكن ثبوت فيه»، بمعنى اتّباعه واتّخاذه منهجاً وطريقاً، وحينئذ يكونون من التابعين، أي تلاميذ مبادئ وطريقٍ وحقٍّ وحياةٍ، وهكذا يتحررون من المعرفة

الخاطئة لمعلمين دُخلاء: «وتعرفون الحق، والحق يحرككم».

هنا يضع المسيح موضوع تحرّره من عبودية الرومان الذي كان يشغل بالهم، والذي هو منتهى آمالهم وإيمانهم في المسيا المنتظر، الذي سيحرّرهم بالسيف، موضعاً حرجاً للغاية؛ إذ يكشف لهم أن عبوديتهم للرومان هيئة وبسيطة بجوار عبوديتهم للجهل والخرافات التي طمست معالم الحق الإلهي في قلوبهم، وأن المسيح جاء ليحرّره من الجهالة، وليس ليحرّره على مستوى السياسة. وفي الأصل اليوناني يجعل المسيح «الثبوت» ليس ثبوت فكر مع فكر بل ثبوت أشخاص: «أنتم»، «إن (أنتم) (ὅτι) تثبتم في كلامي»، والنتيجة أنهم هم يصيرون تلاميذ. فالمسيح يردّ تفكيرهم وآمالهم وظنونهم من أحوال دنياهم وهمومهم وأفكارهم السياسية، إلى أحوالهم القلبية الداخلية وحياتهم هم مع الله. فإذا صاروا تلاميذ للمسيح فإنهم يتعلمون للحق، يعرفونه ويسيرون بمقتضاه، فيتحركون من سيرتهم الداخلية التي أبعدتهم عن الله وزيّفت لهم خصائص المسيح. وقد سبق المسيح وقال: «إن لم تؤمنوا أنني أنا هو تموتون في خطاياكم» (٢٤: ٨). وهنا يكمل التلمذة الصحيحة: «إن (أنتم) تثبتم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي»، ثم يعطي النتيجة للإيمان الصحيح والتلمذة الصحيحة وهي: «تعرفون الحق، والحق يحرككم». هنا يلمح المسيح إلى الصلة الجوهرية بين «التلمذة له» — أي التسليم المطلق للمسيح — و«المعرفة»، و«الحق»، و«الحرية»، فهذه الأصول الثلاثة «المعرفة، والحق، والحرية» تنبع منه هو، وبالتالي تنصب فيهم بالطاعة وتسليم الحياة. فهو الذي جاء أساساً:

أولاً: ليعرّف الناس بالله الآب، وبالحياة الأبدية، فالآب مصدر المعرفة الحقيقية: «عرّفتم اسمك وسأعرّفهم» (يو ١٧: ٢٦). واختصارها أن الابن استعلن الآب، وهذا هو جوهر المعرفة: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧: ٣). واختصارها أن معرفة الإيمان بالآب والابن هي هي الحياة الأبدية.

وثانياً: ليعرّف الناس الحق: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، واختصارها أن المسيح هو الطريق، أي الوسيلة العملية الوحيدة لمعرفة الحق، لأنه هو الوحيد الذي حمل اللاهوت وأعلنه جسدياً، أي الوحيد الذي أعلن الحق الإلهي المطلق منظوراً ومسموعاً ومعمولاً، والحق هو جوهر الحريات.

وثالثاً: الحرية: بموته فكّ أسر الإنسان من عبودية الخطية، فأصبحت مشيئة الإنسان حسب مشيئة الله، لأن المحدود الزمني، وهو الإنسان، أصبح متوافقاً مع المطلق الأبدي وهو الله. وهي أقصى غاية الحرية التي يمكن أن يبلغها المخلوق.

و يلاحظ أن التلمذة الصحيحة تقوم على المعرفة الصحيحة للحق، ولكن لا يمكن أن تُحسب التلمذة صحيحة إلا إذا اختبر ثبوتها ورسوخها وعدم تزعزعها. وهذا كان محور تأكيد المسيح التعليمي من جهة التلمذة له: «أثبتوا فيّ»، «أثبتوا في محبتي». إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي. كما أنني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته. (يو ١٥: ١٠ و ١٤ و ١٥)

من هذا يتضح أن "ثبوت الإنسان في كلام المسيح" الذي يطالب به المسيح هنا اليهود، هو الطريق الوحيد المؤدي إلى بقية الآية: «وتعرفون الحق والحق يحرككم». فالثبوت في كلام المسيح يفتح البصيرة والذهن ويستعلن «الحق».

كذلك يكون «الحق» هنا ليس هو الحق الفلسفي الفكري، الذي ينتهي عند العقل لمعرفة حقيقة الأشياء وجوهرها وتمييزها من مظاهر الأشياء؛ بل «الحق» الروحي الذي يؤدي إلى الحياة في الله ومعه، الحق الذي يحرر المشيئة من التعلق بالباطل والأوهام والخطية، وهو «حق»، السلوك والعمل والحب والبذل.

هنا يلزم أن نضع «المسيح» موضع «الحق» لكي ينكشف لنا بساطة التعبير: «تعرفون الحق والحق يحرككم»، وهو ما فعله المسيح بعد ذلك في آية قادمة (٨: ٣٦). وهذا أيضاً ما علّم به ق. يوحنا في رسالته الأولى بوضوح: «لم أكتب إليكم لأنكم لستم تعلمون "الحق"، بل لأنكم تعلمونه، وأن كل كذب ليس من الحق. مَنْ هو الكذاب، إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح، هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الأب والابن.» (١ يو ٢: ٢١ و ٢٢)

هنا المسيح «كحق» تكون معرفته ليست من على بُعد كمعرفة التأمل في الأمور الخارجة عن الإنسان، بل معرفة المسيح هي قبوله شخصياً والخضوع له بالفكر والمشيئة والقلب، لاستقبال روحه وحياته ومشيبته وحبه وعلاقته السرية بالأب!! وبالتالي نوال الفداء والخلاص والتبرير والشفاعة والمجد والتبني، وهذا هو قمة بلوغ الحق والحرية. لذلك يستحيل بلوغ الحرية — للحياة بها — إلا بمعرفة الحق، ويستحيل معرفة الحق — للحياة به — إلا بالمسيح. هذا هو جوهر الإيمان المسيحي، فالإيمان بالمسيح ليس نطقاً ولا فكراً ولا فهماً، بل قبول المسيح ذاته. فالإيمان المسيحي، فعل حار، خبرة ساخنة تشعل القلب، ترفع الهم، تريح النفس، تبرئ الضمير، وهذه هي الحرية: «حرية مجد أولاد الله.» (رو ٨: ٢١)

٨ : ٣٣ «أجابوه: إنما ذُرِّيَّة إبراهيم، ولم نُستَعْبَد لأحد قط. كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً».

لقد استثار المسيح في هؤلاء اليهود — الذين أظهروا في البداية قبولاً لكلام المسيح — أفكارهم الدفينة المترسبة عبر الأجيال والدهور، القائمة على الغُلُو في الوطنية السياسية المصبوغة من الخارج بالعبادة، والموضوع عليها شعار يَهُوَه، لتصبح السياسة المقدسة التي لا يستطيع أن يمَسَّها أحد. فكيف لهذا المعلم أن ينفي عنهم الحرية وهم قد أخذوا السيادة على العالم بكل شعوبه وأممه، بوعد وتعهُّد من الله لأبيهم إبراهيم! وإن كانت بلادهم وأرضهم اجتاحتها جيوش أعداء على مر السنين، مصريين وبابليين وأشوريين ورومان، فكما جاءوا هكذا رحلوا دون أن يمسوا ميراثهم أو تراثهم أو عوائدهم أو عبادتهم. لقد خرج اليهود من نيرِ الأشرِ مراراً وهم أحرار كما كانوا، بوعد أبيهم إبراهيم. فكيف يَعِدُّهم هذا بالحرية وهم في حريتهم قائمون؟

نظرة عامة في الحوار في الأصحاح الثامن: (٨ : ٣١-٥٩).

في هذا الحوار بين المسيح واليهود الذين أظهروا في البداية قبولاً لكلام المسيح، واضح هنا المقارنة المفتوحة بين:

التمسك بافتقاد الله في القديم، وافتقاد الله الجديد الذي أُكْمِلَ في المسيح؛ وبين النظرة الخلفية للتاريخ، والنظرة الأمامية التي للروح.

بين مظاهر الأمور الإلهية؛ وبين جوهر الفعل الأخلاقي.

بين المعالجة الزمنية للحياة الأرضية؛ وبين الخُلُق الجديد بالروح للحياة الأبدية.

والمقارنة التي في هذا الحوار تُعْتَبَرُ أَكْمَلَ في مشتملاتها من الحوار السابق كله، لأن هنا يبدأ الحوار من إبراهيم أب الآباء كممثل لليهود، بينما كان موسى الممثل لليهود في الحوار السابق.

ومن معارضة اليهود لكلام المسيح يتبين الخط الذهبي للمفهوم اليهودي الذي كان المسيح يخاطبه:

(أ) ٨ : ٣٣ «إننا ذُرِّيَّة إبراهيم، ولم نُستَعْبَد لأحد قط،

كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً».

٨ : ٣٩ «أبونا هو إبراهيم».

٨ : ٤١ «إننا لم نولد من زناً، لنا أب واحد وهو الله».

- (ب) ٨: ٤٨ «إِنَّكَ سَامِرِيُّ وَبِكَ شَيْطَانٌ» .
 ٨: ٥٣ «أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ ... مِنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ» .
 ٨: ٥٧ «أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ» .

أ — وهنا نجد أن الثلاث الإجابات الأولى تختص :

أولاً: بفكر اليهود عن المواعيد الروحية لميراث حسب الجسد.
 وثانياً: بفكر اليهود عن القرابة الجسدية كمحلل للإفتخار بأعمال الآخرين.
 وثالثاً: باتخاذ العناية الإلهية للتمجيد الذاتي، كدرع يخفي فساد السيرة.

ب — أما الثلاث الإجابات الأخيرة فهي ردود على :

إدانتهم للمسيح، والحكم القاطع ضده من جهة مظهر سلوكه ضدهم.
 ثم من جهة مصدر سلطانه كما تراءى لهم،
 ثم من جهة ادعائه بالوجود السابق لوجوده (الألوهة المستترة).

وبهذا التحليل نستطيع أن ندخل إلى فهم وهدف هذا الحوار. فالمسيح بدأ الحوار بالوعد بإعطاء الحرية للذين أرادوا أن يؤمنوا به، إنَّهم ثبتوا في تعليمه، ولكنهم رفضوا الكلام من أساسه باعتبارهم أحراراً (عدد ٣٣). وكان ردُّ المسيح أن حريتهم التي يزعمونها ليست حرية، لأن الذي يخطيء يصير عبداً للخطية، فالخطية تسلب الإرادة وتسلب الاختيار. فحريتهم يلوّثها عصيان أخلاقي، فهي حرية ليست روحية أو بحسب الحق والبر (٣٣-٣٦).

وأضاف المسيح أن الاحتفاظ بميراث الآباء الديني بينما هو لا يحمل معه السلوك والأخلاق بمقتضى الآباء، ينتفي أن يدعى ميراثاً دينياً!! (٣٧-٤٢).

كذلك قال لهم إن إخفاقهم في الاستماع إليه، إنما يرجع لعدم قبولهم للحق وهذا ينبع من طغيان عنصر الشرف فيهم (٤٣-٤٧).

وإن كان المسيح يحكم عليهم، فحكمه عن حق (٤٨-٥٠).
 والكلمة التي يتكلم بها، هي بحدِّ ذاتها مُحْيِيَّة (٥١-٥٣).
 وإن الحرية التي يدعو إليها، أعلى من الحرية التي ورثوها من إبراهيم، لأنه كائن قبل أن يكون إبراهيم (٥٤-٥٨).

٨: ٣٤-٣٦ «أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إنَّ كلَّ من يعملُ الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة. والعبدُ لا يبقى في البيتِ إلى الأبد. أما الابنُ فيبقى إلى الأبد. فإن حرَّركم الابنُ (ابن الله)، فبالحقيقة تكونون أحراراً».

لينتبه القارئ إلى أن تكرار النطق «بالحق» بالنسبة للمسيح، يشير إلى حقيقة ثابتة تمتُّ إلى طبيعة المسيح وعمله، فهو هنا يقرر ماهية «الحرية الحقيقية»، حيث ينسبها إلى القداسة الفردية كعلاقة وثيقة مع الله، إزاء زعمهم أن الحرية هي معيار وضع الأمة سياسياً، الأمر الذي دمر مستقبلهم الخلاصي. لأن الذي يفعل الخطيَّة فهو يحيا حياة الإثم والتعدي، إذ يرتبط بالعالم ويفقد حريته ثم نفسه، ويكون قد فقد حرية البنين وصار عبداً للخطيَّة، لأن إبليس يكون قد تسيطر على إرادته وتولى قيادته: «كلُّ مَنْ يفعل الخطيَّة يفعل التعدي أيضاً، والخطيَّة هي التعدي. وتعلمون أن ذاك أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطيَّة. كلُّ من يثبت فيه لا يخطيء» (١ يوح ٣: ٤ و ٥ و ٦)، «مَنْ يفعل الخطيَّة فهو من إبليس، لأن إبليس من البدء يخطيء. لأجل هذا أظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس.» (١ يوح ٣: ٨)

والمسيح هنا يتعقب الحرية ليوصلها إلى القداسة ثم إلى الله.

و يتعقب الخطيَّة ويوصلها إلى العبودية ثم إلى إبليس.

وهكذا فكل من يحيا حياة الإثم والتعدي، يكون قد فقد حرية البنين بالنسبة لله. ولا سبيل إلى إعادة حرية البنين له إلا بواسطة ابن الله، وذلك لأنه الوحيد الذي يرفع الخطيَّة ويقدّس، فيرفع يد إبليس عن المأسور، ويحرره ويعيده إلى حق البنين، وبالتالي يعيده إلى ميراث بيت الله، بمعنى الشركة في ميراث الابن.

وهكذا فإنه عوض أن كان الإنسان يفعل الخطيَّة، أصبح يفعل الحق: «وأما مَنْ يفعل الحق، فيُقبَل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (١ يوح ٣: ٢١). والمسيح يقَدِّم نفسه لهم كابن الله، الذي جاء ليحرّرهم، بمعنى ينقلهم من عمل الخطيَّة إلى عمل البر: «إن علمتم أنه بارٌّ هو، فاعلموا أنَّ كلَّ مَنْ يصنع البر مولود منه.» (١ يوح ٢: ٢٩)

وهكذا يوضح المسيح لليهود أمراً هاماً للغاية بالنسبة إلى هدف حياتهم الكلي: «يبقى في البيت إلى الأبد»، وسلوكهم المربوط بهذا الهدف. فالخطيَّة تتسبب في فقدان هدف الحياة، أما هدف الحياة فهو العلاقة مع الله. وبولس الرسول يضع هذه المقارنة وجهاً لوجه: «أنتم عبيدٌ للذي تطيعونه، إمَّا للخطيَّة للموت أو للطاعة (للمسيح) للبر. فشكراً لله أنكم كنتم عبيداً للخطيَّة،

ولكنكم أظفتم من القلب صورة التعليم التي تسلمتموها، وإذ أُعْتِقْتُمْ من الخطية صرتم عبيداً للبرِّ (أحراراً)» (رو ٦ : ١٦-١٨)؛

«لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحراراً من البر. فأثي ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تَشْتَحُون بها الآن؟ لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الآن، إذ أُعْتِقْتُمْ من الخطية وصرتم عبيداً لله — أبناء — فلكم ثمركم للقداسة، والنهية حياة أبدية.» (رو ٦ : ٢٠-٢٢)

فانظر أيها القارئ العزيز، كم كانت تحمل كلمة المسيح من العمق الروحي واللاهوتي والخلاصي بأن واحد، حينما قال لهم: «إِنْ حَرَّرَكُم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً»، وليست الحرية الكاذبة التي كانوا يفتخرون بها، وهم في الحقيقة كانوا عبيداً يعيشون في بيت الله اختلاسا، وكان طردهم وشيكاً، أما الابن (المسيح) فيبقى إلى الأبد كما يقول عنه بولس الرسول في سفر العبرانيين: «وموسى كان أميناً في كل بيته كخادم شهادة للعتيد أن يُتَكَلَّم به (أي المسيح)، وأما المسيح فكان ابن على بيته. وبيته نحن، إن تمسكنا بثقة الرجاء وافتخاره ثابتة إلى النهاية.» (عب ٣ : ٦ و ٥)

ثم انظر أيضاً مدى الضلالة التي يقع فيها الإنسان الشارد عن الحق والله، حينما يقول (أنا حرٌّ أفعُل ما أشاء!)؛ أو حينما يقولون (إن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً!)؛ أو حينما يفتخروا أصحاب الأوطان بحرية أوطانهم، وهم يكونون وللأسف عبيداً للعالم الحاضر، وأشرى الخطية ومشورات الشيطان.

فالحرية الحقيقية إنما هي علاقة مع الله تنشئ حرية من ربط الخطية، وحرية النفس من الإنحرافات المريضة حتى ولو كانت الأرجل في المِقطرة أو الأوطان تحت الإحتلال والسُّخرة. وهذا ما تكفل به المسيح على أعلى مستوى وأكمل وجه.

٨ : ٣٧ - ٤٠ «أنا عالمٌ أنكم دُرَّةُ إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلونني لأن كلامي لا مَوْضِعَ له فيكم. أنا أَتَكَلَّمُ بما رأيتُ عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم. أجابوا وقالوا له: أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنكم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونني، وأنا إنسانٌ قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله، هذا لم يَعْمَلْهُ إبراهيم.»

الرب هنا ينفي عن هؤلاء اليهود المعاندين أن يكونوا أولاد إبراهيم، إذ اكتفى أنهم ذُرِّيَّة له

وحشِب، لأنهم إن كانوا أبناء إبراهيم فكيف يسلكون هكذا تجاه المسيح الذي اشتبه إبراهيم نفسه أن يرى يومه (يوم المسيح) فرأى وفرح (يو: ٨: ٥٦)؟ أليس أن هؤلاء الذين يدعون أنهم أبناء إبراهيم، وأنهم على مستوى الوعد، قد آتَمَت بصيرتهم الروحية، وانسَدَّت آذانهم عن سماع كلماته، وأثبتوا بذلك أنهم ليسوا أبناء الوعد بل غرباء بل أعداء؟

وواضح مقدار ضعف حجة اليهود، بل مقدار ضياعهم وجهلهم أن يقولوا إننا أولاد إبراهيم، كمصدرهم الوحيد للافتخار، ولا يذكرون مدى انتمائهم للناموس أو ميراثهم الأخلاقي والتَّقْوَى من الآباء أو معرفتهم الممتازة بالتوراة. وهذا واضح لأنهم بددوا ميراث تقوى آبائهم، ولم يبقَ لهم منه إلا تاريخ ميت يتمسحون فيه وهم غرباء عنه. وواضح من كلام المسيح، أن اليهود كانوا غير أمناء لتاريخهم، غير أمناء على مواعيد الله لإبراهيم ولكل أنبيائهم، وقد تضحَّمت عدم أمانتهم إلى أحط صورة في محاولة قتل المسيح للتخلص من تبكيته لهم، وهو يحاول إصلاحهم. إنهم يخافون الحق ويحاولون إسكاته.

لقد جاء المسيح «الابن» الحقيقي لله ليحقق وعد الله لإبراهيم ويكمل كل الموعود به، وها هم يريدون أن يقتلوه! هو يتودد ويتكلم، وهم يترَبَّصون ليقتلوه؛ هو يتكلم بما سمعه من الآب من نحوهم للحياة، وهم يتحركون لينفذوا خطة القتل كما رسمها أبوهم وسَلَّمها إليهم للتنفيذ. الرب يَجْهَدُ نفسه لِيَبْلُغَهُم سر الحياة، وهم يَجْهَدون أنفسهم ليرتبوا خطة الصلب. فالقاتل — الذي نوى القتل — لا يسمع، وإن سمع لا يصفى، وإن أصفى لا يعي، وإن وعى نسي ما وعى. فكلام المسيح الذي للحياة لم يكن له موضع قط في قلوبهم، لأن قلوبهم كانت مملوءة حسداً وحقداً. ويكفي للتدليل على ذلك من قول الرب: «لكنكم تطلبون أن تقتلونني»، فهذا هو هدفهم وهذا هو فكرهم وسميهم وقد صمُّوا آذانهم عما عداه. وفي هذا يتم التشبيه بين العبد الخائن لعهد صاحب البيت — الوشيك الطرد، وبين الابن صاحب البيت — الوشيك أن يقدم نفسه فدية عن أهل البيت الأمناء.

فالمسيح جاء ومعه خطة الآب للخلاص التي سيتممها بموته. وهم استلموا خطة القتل كما رسمها لهم أبوهم الذي هو أبو كل كذاب وقاتل. المسيح يحاول أن يكتسب ثقتهم ليسلمهم وديعة الحياة التي جاء بها من عند أبيه. وهم بالاختفاء وراء إبراهيم يحاولون بالكذب أن يُخفوا عنه ضربة الموت التي رسمها الشيطان القتال منذ البدء.

الرب يلفت نظرهم أنه يعلم كل شيء، و يؤكد لهم أن عمل الشيطان لا يتطابق مع صلاح إبراهيم.

وهم بانصياعهم وراء الشيطان جحدوا ميراثهم، وهو وشيك أن يُنزع منهم بالعدل.

وأخيراً يتنازل المسيح معهم و يُحدد قضيته معهم أمام قضاة الناس، و يطرح القضية على مستوى عدل قضاة الأرض:

فإن كان إنسانٌ — وليس ابن الله نفسه — تكلم بمجرد كلام هو «الحق» فكيف تكون أجرته الموت؟ هذه تُحسب شناعة في حق قضاء العدل على مستوى الناس؟
فكم وكم إن كان هذا الإنسان هو هو ابن الله؟

وإبراهيم أبوهم لم يكن على هذا المستوى من فهم القضاء. لقد وقف إبراهيم أمام الله يوماً يحاججه في أمر حرق سدوم وعمورة و يراجعه في قضائه: «أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟» (تك ١٨: ٢٥)، وذلك خوفاً على الأبرار الذين فيها. وذلك حينما أعلمه الله أن هذين البلدين المنكوبين سيحرقهما الرب وسيزيلهما من الوجود. فإبراهيم حاجج الله نفسه، وهو ديان كل الأرض، حاججه في بنود حكمه خوفاً أن يؤخذ البار مع الأثيم، فكيف بلغ القضاء في قلوب هذا النسل الضال المضلّ المدعي البتوة لإبراهيم، أن يقتل البار و يترك الأثيم!! اصطب المسيح وأطلق لنا باراباس: «خذ هذا (المسيح) وأطلق لنا باراباس... اصلبه اصلبه.» (لو ٢٣: ١٨ و ٢١)

٤١: ٨ «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له إنا لم نولد من زناً. لنا أب واحد وهو الله».

ولكن كلام المسيح كان بالفعل ليس له موضع فيهم، فلم يفهم هؤلاء القتلة قول المسيح حينما قال لهم: «إنكم تعملون ما رأيتموه عند أبيكم». وهذا الآن يوضحها لهم أكثر، أنهم يعملون «أعمال أبيهم». وواضح أن حقدهم وحسدكم وبغضتهم الشديدة له هي في الواقع أعمال إبليس، وبالأكثر نيّة القتل المبيّنة ضده، ومحاولة اغتصاب البتوة لله: «لنا أب واحد وهو الله». هذا على غير صحة وبغير ذي حق، لأنهم لا يقبلون كلام الله بضم المسيح ولا أعمال الله بيده، ولا حتى كانوا أمناء لوصايا الله بحسب الناموس والآباء. فالآن، لأن عبادتهم لله مزيفة، فحتماً يصبح ادعائهم للأبوة الله مزيفاً، هنا يتحتم بحسب قول النبيّين إشعياء وإرميا، أن تُقيّم بنوتهم أنها من زناً، لأن إبليس يكون هو الذي حبل بهم وتبّأهم.

وهكذا عندما أخذوا يدافعون عن بنوتهم الشرعية لإبراهيم، في حين أن المسيح كان يقصد أنهم أبناء إبليس، وأنهم صاروا بالفعل أولاد زنا وليسوا أولاد إبراهيم أو أولاد الله كما يدعون. وهاك قول النبي: «وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء، وزنت هناك (عبادة الأصنام) ... فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها. لم تخف الخائنة يهوذا، أختها، بل مضت وزنت هي أيضاً ... نجست الأرض وزنت مع الحجر (أصنام الحجر) ومع الشجر (أصنام الخشب) ... لم ترجع ... يهوذا بكل قلبها بل بالكذب يقول الرب.» (إر ٣: ٦-١٠)

ويوضح إشعياء النبي أن الرب، بعد أن اعتبر حبه لإسرائيل ويهوذا كحب عريس لعروس، عاد وطلّقها بسبب الآثام والذنوب التي اقترفوها، بمعنى أنه باع الشعب للأمم: «هكذا قال الرب: أين كتاب طلاق أمكم التي طلّقتها ... من أجل آثامكم قد بُعِثْتُمْ ومن أجل ذنوبكم طُلِّقْتُمْ أمكم» (إش ٥٠: ١ و٢). إذن، فلم يَعدْ إبراهيم أباً لهم، ولا عاد الله يعاملهم كبنين!

هذه اللغة كان يعرفها جيداً هؤلاء اليهود المعاندون للمسيح حينما قالوا له: «إننا لم نُؤَلَد من زناً. لنا أب واحد وهو الله» (يو ٨: ٤١). ولكن، للأسف، كان كلامهم بالكذب لأن الله قالها مرة على لسان كل من إرميا النبي وإشعياء النبي: «إني طُلِّقْتُ أُمَّكُمْ». فأصبحوا أولاد زنا بالفعل أي أولاد عبادة الشيطان، وإبراهيم يتبرأ منهم، وليس إبراهيم فقط بل والله والمسيح أيضاً.

ويلزم هنا أن نفهم من كلام المسيح أن «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد» (يو ٨: ٣٥)، أن المسيح يطرح قضية الحرية كفعل حياة مستقبلي يحدده سلوك الحاضر. والمسيح يقصد الحياة الأبدية التي جاء ليفتح عهدها الجديد بموته وقيامته. فابن الخطية الذي يمثله هؤلاء اليهود هو على مستوى العبد الذي ليس له حق في ميراث البيت؛ أما الذي يؤمن «بالابن» فينعتق من عبودية الخطية، ويكون قد سجل لنفسه التبرير في الحاضر، وحق الحياة الأبدية عبر المستقبل وإلى الأبد في ميراث الابن لله!

٨: ٤٢-٤٤ «فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت. لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس من البدء، ولم يثبت في الحق لأنه

ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب، فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب».

المسيح هنا ينقض قولهم من جهة أن الله هو أبوهم الروحي، فبحسب إشعياء النبي وإرميا النبي تكون كل إسرائيل ويهوذا مُظْلَقَتَيْن، وها قد باعهما الله بالفعل ليكونا تحت الاحتلال والتشتت بسبب شرورهما — فمن أين يكون الله أباً هؤلاء اليهود المعاندين الذين يرفضون ابنه؟ وق. يوحنا يرفع هذه القضية إلى حكم الأمور المسلّم بها: «كلُّ مَنْ يُؤْمِنُ أَنْ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحَ، فَقَدْ وُلِدَ مِنْ اللَّهِ.» (١ يوحنا ٥: ١)

«لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني»:

واضح أن المسيح يتكلم هنا كابن الله الوحيد المحبوب. فكيف لا يتعرفون على أخيهم البكر، ثم كيف لا يحبونه؟ إلا لأنهم ليسوا أبناء الله كما يدّعون؛ ولأنهم زادوا على عدم تعرفهم على المسيح وعدم محبتهم له كابن الله أنهم طلبوا أن يقتلوه كيّنة وبرهان أكيد أنهم ليسوا أبناء، بل أعداء لله وللأبن الوحيد، بل وقّلة، وليس قّلة وحسب بل وفيهم شهوة القتل كهواة ومحترفين يتلقّنون فن العداوة والقتل من أستاذ عتيق. ولا يوجد أصل أو مبدأ أو أب للقتل والقاتل إلا القتال المحترف منذ البدء، هو الذي بخداعه أوقع حواء ثم آدم في خطية العصيان، بذلك دخل الموت إلى العالم، وهو إبليس. فهم بالضرورة أبناء لهذا الأب.

«لأنني خرجت من (ἐκ) قِبَلِ اللَّهِ وأُتيت»:

المعنى هنا يفيد التجسد، وقد استخدم الأساقفة المجتمعون في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م هذا الاصطلاح لإثبات البنية الإلهية للمسيح^(١١). واللغة العربية هنا ركيكة ولا تفيد المعنى الصحيح. وفي الأصل اليوناني لا يوجد «من قِبَلِ اللَّهِ» بل «من الله» مباشرة «ἐκ τοῦ θεοῦ». جوهر من جوهر، طبيعة من طبيعة وبالتالي يلزم حذف «قِبَلِ» من النسخة العربية لتصير «من الله» لتوضيح المعنى اللاهوتي الصحيح.

واللغة اليونانية^(١٢) دقيقة دقة خطيرة بالنسبة للبحث اللاهوتي في حروفها، حينما تُضاف إلى الأفعال، ف«الخروج من» تأتي على ثلاثة أوضاع بالنسبة للحرف المضاف، فهو إما:

(١١) «إله حق من إله حق» = θεὸν ἀληθινὸν ἐκ θεοῦ ἀληθινοῦ

¹² Westcott, *op. cit.*, p. 136.

(١) خروج الابتعاد أو تغرب الشخص $\epsilon\chi\epsilon\lambda\theta\epsilon\iota\nu \acute{\alpha}\pi\omicron$ = away from

(٢) خروج بجانب — أي زمالة الشخصية $\epsilon\chi\epsilon\lambda\theta\epsilon\iota\nu \pi\alpha\rho\acute{\alpha}$ = from the side of

(٣) خروج من داخل مع بقاء في الداخل لتفيد بقاء جوهر الله في جوهر الابن المتجسد. $\epsilon\chi\epsilon\lambda\theta\epsilon\iota\nu \epsilon\kappa$

وهذه كلها للتعبير عن التجسد جوهرياً وذاتياً:

(١) $\acute{\alpha}\pi\omicron$:

أما الخروج والابتعاد فهو التعبير الضعيف عن مجيء المسيح من الله، وهذا الاصطلاح استخدمه التلاميذ للتعبير عن فهمهم (الخاطئ نوعاً ما) لقول المسيح «خرجت من عند»، وقد جاءت هكذا: «الآن نعلم أنك عالم بكل شيء ولست تحتاج أن يسألك أحد لهذا نؤمن أنك من الله خرجت» (يو ١٦: ٣٠). وهذا على قدر فهم التلاميذ أن خروجه يفيد مجيئه إلى الأرض، وهذا يستلزم تركه للسماء وابتعاده المكاني عن الله: $\acute{\alpha}\pi\omicron$ وهذا أيضاً هو فهم ق. يوحنا عن خروج يسوع من عند الله كتغرب ثم عودة $\acute{\alpha}\pi\omicron$: «... يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو ١٣: ٣)

(٢) $\pi\alpha\rho\acute{\alpha}$:

وتفيد خروج وبقاء بجانب، كزمالة، وهو تعبير المسيح ولكن من وجهة نظر التلاميذ للمسيح وليس من وجهة نظره لنفسه! «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتُم أنني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧). فهو على قدر فهمهم يعبر ويردد عما آمنوا به من نحوه، الذي لم يكن قد بلغ بعد الفهم اللاهوتي الكامل.

(٣) $\epsilon\kappa$:

وهي الأخيرة، أي الخروج من الداخل $\epsilon\kappa$ جاءت واضحة جداً في الآية: «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم» (يو ١٦: ٢٨)، حسب القراءة الصحيحة باليونانية في النسخ الدقيقة، وهذا هو تعبير المسيح عن نفسه.

كما يلاحظ أن الفعلين: من الله «خرجت» و«أتيت» هما في اليونانية مضافان إلى «من» $\epsilon\kappa$ بمعنى من الله خرجت ومن الله أتيت. وهما يفيدان في المعنى اللاهوتي أغواراً عميقة للغاية، إذ يكون المعنى أن الابن هو من الله في وجوده وكيانه ومجده قبل الميلاد بالجسد، والباقي مع الله وفي الله بالرغم من خروجه وظهوره واستعلانه كابن الله المتجسد. وأيضاً هو من الله في مجيئه إلى

العالم وتجسده، وبقائه مع الله وفي الله بالرغم من ظهوره في الجسد كيسوع المسيح.

وبهذا يكون المسيح، وكذلك ق. يوحنا في تسجيله لقول المسيح قد جمع كل اللاهوت في هذه الجملة المضغوطة ضغطاً: «من الله خرجت ومن الله أتيت». وقد شرحها المسيح شرحاً إضافياً ليكون على مستوى هؤلاء اليهود بقوله:

«لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني»:

بمعنى أنني أمثل الآب تمثيلاً ذاتياً و كلياً في كل ما أقول وأعمل، بل وأمثله بشخصي كنائب عنه دون أن يكون العمل لشخصي، أي لمجد نفسي.

«تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني.» (يو: ٧: ١٦)

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً.» (يو: ٥: ٣٠)

«من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.» (يو: ٧: ١٨)

كما سيوضحه في الآية: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال.» (يو: ١٤: ١٠)

هذا يوضحه المسيح لليهود ليبرهن لهم عن حقيقة طبيعته الإلهية، ووجوده بينهم كمرسل من الله وكتمثيل شخصي له، موضحاً بذلك مقدار ما سقطوا فيه، ليس من نحوه بقدر ما هو من نحو الله الذي أرسله والذي يدعون أنه أبوهم!

«لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي»:

وتصححها: «لماذا لا تفهمون حديثي (لغتي) لأنكم لا تسمعون كلمتي». المقارنة هنا بين «الفهم والسمع»، تجاه «الكلام والقول».

فالفهم أو الإدراك γινώσκετε، يختص بالحديث λαλιάν.

والسمع بالروح ἀκούειν، أي الكشف، يختص بالكلمة λόγον.

هنا يقدم الرب طبقتين من كلامه: الطبقة الأولى هي متابعة حديث الرب بالفهم السريع والإدراك؛ والطبقة الثانية الأعلى هي التعمق لكشف طبيعة الكلمة.

أما الطبقة الثانية، فهي في المقدمة وهي الهامة جداً والخطيرة، فإذا لم يكن للإنسان أذنٌ روحية تسمع كلمة الله فتكشف طبيعتها الإلهية، يستحيل عليه أن يفهم ما يتحدث به المسيح ويقول، لأنه كلام روحي يحتاج إلى أذن خاصة روحية: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح

للكنائس» (رؤ ٢: ٧)، أما من ليس له الوعي فسيرى المسيح مجرد إنسان يتكلم. والمسيح لا يتكلم كإنسان، بل كإله، فهو يقول: «أنا هو نور العالم»، و«أنا هو الطريق والحق والحياة»، و«أنا والآب واحد» (يو ٨: ١٢، ١٤: ٦، ١٠: ٣٠). فكيف يفهم الناس قول المسيح هذا إذا اعتبروه مجرد إنسان؟ إنه سيكون كمجذوف، ولكن إن كان للسامع أذن روحية كاشفة، تكشف طبيعة «الكلمة» القائلة والمقولة، فحتماً سيتعرف عليها أنها إلهية وأن صاحبها إلهي هو: «لأنني لم أتكلم من نفسي» (يو ١٢: ٤٩). وهنا ذات المسيح هي الذات المنظورة للناس، والمتكلم فيه هو الله. فحينئذ — وعلى أقل تقدير — سيفهمون ما يتحدث به المسيح على أنه رسالة الله لهم، وأن حديثه يحمل الصدق والحق والقوة والروح والحياة، وهو كما هو أمام أعينهم، فقال، يشفي ويقيم من الموت، لأن كلمة الله خالقة ومُحيية.

لذلك، فليفهم القارئ أنه يستحيل على أي إنسان مهما بلغ من قوة الذكاء والفهم والتمحيص، أن يفهم الإنجيل أو يدرك ما يقوله المسيح، إذا لم تكن له أذن روحية يسمع بها طبقة رنين كلمة الله، وتحس بحركة الحياة التي فيها وتميَّزها عن كل ما عداها من كلمات الإنسان. فالأذن التي تستطيع أن تلتقط الموجة الروحية، وتحس بالحياة والحق لكلمة الله، هي وحدها التي تستطيع أن تفهم ما يقوله المسيح والروح.

أما كيفية قبول الأذن الروحية لكلمة الله وتفهمها، فلا يأتي بالتمرين أو التلقين أو الدراسة، بل بقبول الرب يسوع نفسه «الكلمة» أولاً، والدخول معه في شركة الحياة الجديدة. فهو الذي يرفع مستوى قلب الإنسان وروحه لمستوى الكلمة، أي لمستواه في المعرفة. ومستواه في المعرفة بعد التجسد لم يَعد في السماء، بل في قلبنا وفمنا: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٩)، «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلَّمْتُكم به.» (يو ١٥: ٣)

ولكن، ليفهم القارئ أن لكل إنسان أذنًا روحية؛ وهي إما تفتح بالإرادة والشوق والإيمان والحب لكلمة الله فتكشف طبيعتها، وإما تنقل بالإرادة المدفوعة بالبغضة والتعالي والتجديف، فلا تعود تسمع، ولا يعود الإنسان قادراً أن يفهم أو يفعل للكلمة.

وإرميا النبي يخاطبهم من جهة الجهل وعدم الفهم:

«اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعْيُنٌ ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون» (إر ٥: ٢١). فالجهل هو انحطاط مستوى الكشف لطبيعة كلمة الله، والجهل يؤدي حتماً إلى عدم الفهم. وقد نسب إرميا النبي الجهل إلى العمى الروحي، ونسب عدم الفهم إلى الصمم

الروحي. ولذلك أيضاً كان يطيب للمسيح أن يفتح أعين العمى، ويفتح آذان الصم، ليس كمعجزات شفاء لهذا الشعب، ولكن كآيات لعمل كلمة الله في طبيعة الإنسان الخاطيء.

ثم يوضح إشعياء النبي العوامل التي أدت إلى عمى عيونهم وانسداد آذانهم: «قد أعمى عيونهم، وأغلظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم» (يو ١٢ : ٤٠). لذلك يصرخ أيضاً إشعياء النبي: «يا رب من صدق خبرنا، ولمن استغليت ذراع الرب. لهذا لم يقدرُوا أن يؤمنوا» (يو ١٢ : ٣٨ و ٣٩). ولكن من الذي سدَّ آذانهم وأغلظ قلوبهم وأعمى عيونهم؟ هنا الضمير الفاعل هو العدو الشيطان، الذي سلّموا أنفسهم له، — حقداً وبغضة وعداوة لله بلا سبب!! — والذي وجّه إليه المسيح سهمه الخاطف، ففضحه، وفضح إرادتهم: «أنتم من أب هو إبليس».

«أنتم من أب هو إبليس...»:

لم يكن المسيح في هذا القرار المرعب مهاجماً أو متعدّياً على مشاعر اليهود، بقدر ما كان مدافعاً عن الله الذي يريدون أن ينسبوا إليه أنفسهم وتعدّياتهم بقولهم إن الله هو أبوهم. فقرار قتل الابن الوحيد الذي للآب قد كتبه في ضمائرهم، وهم يبحثون الآن فقط عن علة مناسبة لتنفيذه. الرب هنا، وبقوله هذا، يفصل بين قداسة أبوة الله، وبين هؤلاء القتلّة. وفي نفس الوقت كشف عن شخصية الأب المحرك لهؤلاء اليهود المدّعين. لأن المسيح بقوله: «أنتم من أب هو إبليس...»، يكون قد رفع الستار عن حربهم الخفية التي يشنونها ضد الله والمسيح تحت اسم الناموس وأبوة الله للشعب المختار، وقد جعل المواجهة صريحة ومكشوفة بينه وبينهم، أو بين الله الذي يتكلم باسمه، وبين الشيطان الذي ينطق فيهم.

وإن كان المسيح هنا في إنجيل يوحنا قد كشف عن شخصيات هذه الحرب المريرة بينه وبين الشيطان مواجهة وبصراحة، نجد المسيح يصيغ هذه الحرب في تشكيلات رمزية غاية في الإبداع في الأناجيل الأخرى: «فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت، والزرعان هو بنو الشرير، والعدو الذي زرعه هو إبليس.» (مت ١٣ : ٣٧-٣٩)

«وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتلاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. مني تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب»:

من أعجب الأمور وأكثرها ألماً وحزناً للنفس، أن يكون للشيطان القدرة الغريبة لتسليم شهواته

الشخصية للذين يخضعون له كأب، ويسرون في طريقه كمعلم، لأن شهوة الشيطان تنبع من عداوة شخصية لله، ولابنه يسوع المسيح، ولكل من يتبعه ويطيعه. والإنسان ضعيف جداً وأصغر من أن يتقمص شهوة الشيطان هذه ويقف لكي يعادي الرب يسوع، سواء بفكره أو قلمه أو عمله. ولكن الذين تبثّاهم الشيطان ألبسهم تاجه وأعطاهم صولجانه، وكانوا عظماء في عين العالم وعلى مدى التاريخ، وكانوا ذوي صيت وبطولات؛ ولكن التاريخ للعالم شيء، والتاريخ للملكوت الله شيء آخر.

«... شهوات أبيكم تريدون = θέλετε» :

«تريدون» تأتي باليونانية في صيغة الإصرار المُنتهى منه، وهذه في الحقيقة صفة غريبة يتقمصها الشخص الشارد في شرّه، حتى ليتعجب الناس من قوة الإصرار وشدة الاستمرار في تميم ما صمم عليه، في حين أن الشخص يكون في طبيعته الأصلية بسيطاً ووديعاً ومُسَالِماً حُلُو الأخلاق ومُطِيعاً، ولكن إذا استماله الشيطان وتبناه صار شرساً متنمرّاً، لا يلين ولا يحيد عن مقصده، ولا يهدأ حتى يتم كل ما أفرزه الشيطان في فكره، حتى وبدون وعي؛ فالشيطان يتقمصه. لذلك فإن قول المسيح: «شهوات أبيكم تريدون أن تعملوا»، جاءت في صورة واقعية تصوّر حقيقة ما كان يجري في قلوبهم تصويراً يُذهل العقل، من حقْدٍ مجاني وغضب وسرعة الانفعال للقتل ومهاجمة كلامية شرسة وعناد لا يهدأ.

وإن هذا هو في الواقع منهج كل الذين تركوا المسيح وأبغضوا الكلمة، إذ أصبحت فيهم عداوة لا تهدأ من جهة الحق ومهاجته والإزدراء بالإيمان.

«ذاك كان قتلاً للناس ἀνθρωποκτόνος منذ البدء» :

منذ أن أطلق المسيح هذه الصفة على الشيطان وأصبحت اسماً للشيطان في العهد الجديد، وهي موجودة في تعاليم الرسل^(١٢) : ὁ ἀνθρωποκτόνος ὄφεις وترجمتها: «الحية القتالة للناس» ويختصرها سفر الرؤيا بتسمية «الحية القديمة» (رؤ ١٢: ٩؛ ٢٠: ٢)، سواء بسبب إدخال الموت على الإنسان - آدم - المخلوق أصلاً على غير فساد، أو إشعال الحقد والكراهية في قلب قايين، وإقحام إرادة القتل فيه ليقتل أخاه هابيل. ولماذا قتله؟ يقول الكتاب: «لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.» (١ يوح ٣: ١٢)

¹² Apost. Constit. VIII.vii.5.

ولذلك، وعلى هذا الأساس، نبّه الكتاب أن «كلّ من يبغض أخاه فهو قاتل نفس» (١ يو ٣: ١٥)، لأن الرب يعلم أن صاحب مشورة وقوة البغضة هو نفسه صاحب مشورة القتل. والخطية الأولى تحوي في بطنها الخطية الثانية، التي لا بد أن تلدها إن آجلاً أو عاجلاً، إن بالنيّة أو بالفعل. ويصف ق. يوحنا هذه الخطية هكذا: «لأن هذا هو الخبر الذي سمعتموه من البدء أن يحب بعضنا بعضاً. ليس كما كان قايين من الشرير وذبح أخاه، ولماذا ذبحه؟ لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.» (١ يو ٣: ١١ و١٢)

وتسلسل الخطية حتى إلى القتل تحيي في تقليد القديس: «والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس»، وهذا مأخوذ من سفر الحكمة (٢: ٢٣ و٢٤). وهكذا تبثّ الشيطان خطية القتل والقاتل معاً، والذي يهمننا جداً في هذا المجال هو كلمة «حسد الشيطان»، فالحسد هو الذي دفع الشيطان لإسقاط آدم. وإسقاط آدم تم على مرحلتين: الأولى «غواية» ثم «فعل» تعدي، والنتيجة موت. وكان في ظن الشيطان أن الموت سُنهي على مستقبل آدم، ويظل ساقطاً إلى الأبد كما هو حال الشيطان نفسه: «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم (بسبب الحسد وطلب ما هو أعظم)، حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» (يهوذا ٦). ولكن آدم مخلوق على الترقّي والنمو وبلوغ صورة الله في القداسة والحق. فدبّر الله له الخلاص بالتوبة ودم المسيح. أما الشيطان وملائكته فخلقوا على مراكز ورياسات محددة ومساكن لا يتعدّونها. وكل تعدّ لهم هو سقوط ليس له توبة أو قيامة: «لأنه إن كان الله لم يُشفق على ملائكة قد أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلّمهم محروسين للقضاء...» (٢ بط ٢: ٤)

«ولم يثبت في الحق»:

الأصل اليوناني يفيد أنه «لم يقف» بمعنى لم «يُدْم» ἔστηκεν بحسب القراءات الصحيحة^(١٤). أي لم يضع قدماً، أو يرسخ. هذا الأمر يهمننا للغاية، لأن فيه يوضع المسيح مسألة حساسة بالنسبة لطبيعة الله في الخلقة على مستوى اللاهوت. فالشيطان لم يُدْم في الحق، أو لم يثبت في الحق، يعني أنه كان في موقف رئاسي (رياسة)، أو موضع أو مسكن "مسئولية" (بحسب رسالة القديس يهوذا) على مستوى الحق، ولكنه تخلى عنه طمعاً أو حسداً فيما هو أعظم فحسب له ذلك خطية؛ الأمر الذي يشرحه بطرس الرسول: «الله لم يشفق على ملائكة قد

(١٤) ἔστηκεν مشتقة من الفعل ἵστημι = يقف أو يضع قدماً أو يدوم. وأما ἔστηκεν التي قرئت في نسخ أخرى، فهي مشتقة من الفعل στήκω = يثبت.

أخطأوا...»، وهذا يفيد أن الله لم يخلق الشيطان على الشر أو الفساد أو الخطية، بل خلقه على مستوى الرئاسة. ولكنه تعدى وأخطأ وسقط، والله لم يشفق عليه.

«لأنه ليس فيه حق»:

هذه الجملة مربوطة بالسابقة فهو لم يثبت في الحق، بسبب أنه ليس فيه حق. ولكن المعنى هنا لا يتضح لنا إلا إذا فهمنا كلمة «يثبت» حرفياً، حيث تعني «لم يضع قدماً» في الحق، أي «لم يرسخ» في الحق. بمعنى أن الله أعطاه رئاسة على مستوى الحق، وكان عليه أن يثبت، أو يرسخ، أو يضع قدمه، أو يخطو خطوة في الحق، ليكون ويدوم على مستوى الرئاسة التي أعطاه الله، لكنه أخفق. وإخفاق الشيطان في أن يثبت في الحق أو الرئاسة الموضوعة له، سببه أنه ليس فيه حق، بمعنى أنه ليس فيه أي شيء من «الأليشيا» التي في الله والمسيح، وكان عليه أن يكتسبها بحفظه وثباته في الرئاسة والموضع الذي وُضِعَ فيه، فلما لم يحفظ رئاسته ولم يثبت في الحق، كان سقوطه بلا شفاء ولا رجاء. ولما فقد الحق، صار كذاباً وأبا الكذب كله وكلّ الكذابين. وما هو الكذب إلا فقدان الحق؟ ومن هو الكذاب إلا الذي ينكر الحق؟

هنا علينا، أيها القارئ العزيز، أن نتذكر كيف غرس الشيطان الكذب في شعور آدم وحواء، وفي اللاشعور أيضاً، حينما قال لحواء في حوارهِ الخادع الماكر المميت، رداً على قول حواء: «أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلَا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا؛ فقالت الحية للمرأة لن تموتا» (تك ٣: ٤). وهذا هو منطق الشيطان في نفي الحق وإخفائه تحت ستار المعقول والمرجح، والواقع والأكثر فائدة، والأسهل والألذ، والأسرع أيضاً. فالشيطان أبرَزَ العصيان، ونفى الموت وأخفاه عن حواء تحت ستار المعرفة: «بل الله عالمٌ أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.» (تك ٣: ٥)

ولينتبه القارئ أن في نفي الموت عن الذي يعصي أوامر الله يكون بالتالي قد نفى الدينونة، بل ونفى الخطية، بل ونفى قيمة الخلاص، بل ونفى المخلص، وأخيراً نفى الحياة، حيث لا يبقى لمن يتبع الشيطان إلا أن يخلق نفسه!!

«متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب»:

في هذا الوصف يهمننا كلمتان: الأولى «الكذب»، والثانية «يتكلم "بما له"». فالكذب يجيء في اليونانية ψεύδος وتعني الرِّيق، أي ما هو ليس حقاً أو صحيحاً، وهنا يتضح لنا أن الكذب أو الزيف أو ما هو ليس حقاً أو صحيحاً ليس جوهرأ في حد ذاته، أي ليس شيئاً معروفاً

أو محدد الوجود، بل هو نفي الشيء أو نفي الوجود، فعندما يقول إنسان قولاً حقاً و يأتي آخر و يصدّقه على هذا القول، فهو يقول «الحق»؛ ولكن إذا جاء إنسان آخر ونفى هذا القول، فهو كاذب لأنه نفي الحقيقة. وإذا كان هناك شيء معروف كظهور الشمس مثلاً و يقول إنسان أن الشمس غير ظاهرة، فهو يكذب لأنه ينفي وجود الموجود. وهكذا فإن الحق يعتمد على طبيعته الموجودة، أما الكذب فليس له طبيعة بالمرة بل يعتمد على نفي الحق أو نفي ما هو صحيح.

وهذا هو التحليل الصحيح لطبيعة الشيطان وسلوكه وكلامه في تعريف الرب له أنه «يتكلم بالكذب، لأنه يتكلم بما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب». لأن الشيطان بحسب خلقته لم تكن له طبيعة الحق ولا طبيعة الكذب، بل خلق ووضّع في رئاسة محددة له، كان المفروض أنه إذا أطاع بحسب حرّيته المحددة له، أن يثبت في رئاسته، وبالتالي يثبت في أمر الله، أي يثبت في الحق. ولكنه رفض الأمر بحسب حرّيته المحددة له، وتعالى، فسقط من رئاسته، وسقطت طبيعته من موضع الحق نهائياً، فأصبح اعتماده قائماً على ذاته وليس على الله، أي الحق.

وهكذا أصبح الشيطان بمقتضى سلوكه وبمحض حرّيته وإرادته ضد الحق، لأنه فاقد. وصارت طبيعته تتغذى من مقاومة الحق، فتشكّلت أفكاره وإيماءاته وكلماته بحسب طبيعته، أي ضد الحق: وهذا ما يعرفه الرب بأنه متى تكلم، فإنه يتكلم بما له، أي ليس من الله ولا من مصدر حق، بل من ذاته، أي يتكلم بحسب طبيعته التي اكتسبها لنفسه والتي لم تُعطَ له، وهي طبيعة طفيلية تقوم على نفي الحق ومقاومته، وهي بذلك طبيعة كاذبة مزيفة، ينحصر نشاطها كله في مقاومة الحق ونفيه. وصحيح أن نفي الحق هو لا شيء في ذاته، وهو السالبة وهو اللاوجود واللاصحيح واللاقيمة له على الإطلاق؛ ولكنه في مقاومته للحق والوجود وكل القيم الصحيحة، اكتسب له وجوداً سلبياً قائماً على نفي وجود الحق. فهو يقوم على مدى احتمال صاحب مشيئة «الحق»، أي الله، له ولعمله السلبي، فهو وجود مُهدّد بالفناء. لأنه في اللحظة التي يعلن فيها الحق المطلق أي الله عن إدانته للشيطان بمقتضى الحق، فإنه ينتهي من الوجود لأنه ليس له حق الوجود الذاتي.

هذا على مستوى الله، أما على مستوى الإنسان، فهو بنفس القياس ولكن بدرجة محدودة. فالشيطان يقدم مشورته السالبة التي تقوم على الكذب والتزييف، فإذا رفضها الإنسان بمقتضى وصايا الحق التي يعيش بها، تلاشى الشيطان من الوجود في محيط العمل الفردي لمدة تتحدد بصلابة الإنسان في الحق.

ولكن إذا قَبِلَ الإنسان مشورة الشيطان وأفكاره المزيفة والمعروف أنها ضد الحق مائة بالمائة، فإنه يكون قد أُوْجِدَ للشيطان محلاً ومسكناً ووجوداً، وهذا منتهى أمل الشيطان وغاية سَعْيِهِ أن يكون له وجودٌ مزيفٌ في ذات الإنسان، فهذا يوسّع من دائرة تخريبه ومقاومته للحق، مما يُشبع وجوده ووجوده. أما إذا اتقن الإنسان حيل الشيطان وتزييفه بشغف وحنق، وبرع في مقاومته للحق، فإن الإنسان يكون قد أخذ دور الشيطان بالكامل، ويكون الشيطان قد تبني الإنسان وأحبه ووهبه طبيعته بكل فنون التزييف ومقاومة الحق. وهذا هو الدور الذي اتخذهُ اليهود لأنفسهم تجاه المسيح، وهذا ما أعلنهُ المسيح عنهم أنه قد صارت لهم طبيعة الشيطان في الكذب ومقاومة الحق: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا»! ويكون الشيطان بذلك قد صار بالفعل أباً للكذب والتزييف في العالم وأباً لكل كذاب ...

أيها القارئ العزيز، احذر الكذب بكل أنواعه فهو صناعة الشيطان، وهي صناعة لا تبني بل تهدم، ولا تدوم بل تفسى. واحذر تزييف الحق أو الحقيقة في الأشياء والأقوال والأعمال، مهما كانت صغيرة، ومهما كان لها صورة المنفعة الوقتية، لأنها من طبيعة الشيطان التي مآلها الدينونة والفناء. الزم الحق بكل قوة وبكل إصرار، لأنه انتصار للحق والوجود والحياة ضد الفناء، وانتصار لله ضد الشيطان، فانظر كيف أعطانا الله الفرص في الحياة لكي نَنصُرَ الحق، فننتصر ضد قوى الشر والظلام، ونبقى ونحيا وندوم.

٨: ٤٥ و ٤٦ «وأما أنا فلأني أقولُ الحق، لستم تؤمنون بي. مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خُطِيئَةٍ؟».

المسيح يبدأ قوله بـ «أنا»، وكأنه يعطي المقابل لإبليس الذي تبأهم وأصبح ينطق فيهم كأولاد طاعة للشر وأسائذة لمقاومة الحق. المسيح هنا هو النقيض «لأبيهم»، والمناقض لهم ولأفكارهم. لو كان المسيح يتكلم بالكذب (وحاشاه)، لصدّقوه، لأنه يتكلم بما لهم ولأبيهم وللعالم الذي أحبه وعَبَدوه؛ ولكن «أنا أنا» فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي». التقابل هنا صارخ بين «هم» و«الكذب» من جهة، و«أنا» و«الحق» من جهة أخرى.

والآن يتضح لنا لماذا لا يؤمنون بالمسيح، مع أن المسيح يقول الحق؟! ذلك لأن طبيعتهم التي تساوت في سلوكها مع حيل الشيطان وتزييفه للحق، أصبحت ضد الحق — أينما كان — فأصبح إيمانها بالحق أو بالمسيح أمر مستحيل عليهم.

ثم أخيراً، وفي كلمة واحدة استعلنها لنا المسيح، فإن كلَّ مَنْ هو ليس ابن الحق، هو ابن إبليس بالضرورة.

«مَنْ مِنْكُمْ يَبْكَتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ؟» :

المسيح هنا يجمع كل أنواع الكذب ومقاومة الحق في كلمة واحدة هي «الخطيئة»، والتي ينصبُّ معناها على مَنْ يتعدَّى الحقَّ، بحسب قياس نص قانون الله، أي الوصية. والخطيئة لا تشمل العمل فقط بل والنية أيضاً. كما أن الخطيئة مربوطة بالمشاعر والعواطف والسلوك، لذلك يستحيل أن تعيش الخطيئة في الإنسان دون أن تعلن عن نفسها، ومن هنا يمكن معرفة الخاطيء بأدلة كثيرة.

ويلاحظ هنا أن المسيح يُبلور الجزء الأول من الآية: «لأنني أقول الحق» في مفهوم عملي واضح بقوله: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْكَتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ؟»، بمعنى أن المسيح يقول الحق ويعمله؛ وبهذه الكلمة: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْكَتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ»، يضع قياس الحكم على أن ما يقوله هو حق، فإذا لم يعثروا له على خطيئة، أصبح الحكم عليهم لازماً بأنهم يقاومون الحق. كما أصبح الحكم على المسيح بأنه من الله حتماً لأنه بلا خطيئة، في مقابل اضطراري أنهم من إبليس لأن ليس فيهم حق، ولكن ليس معنى هذا أن المسيح يعطي حقاً لليهود أو لأي إنسان أن يقيس عليه سلوكه أو يحكم على شخصه بأي حال من الأحوال، ولكن الذي طرحه المسيح دائماً ليكون قياساً هو «كلمته». فالكلمة طرحها المسيح للفحص لتُدرِك منها أنه هو من الله وابن الله؛ وهنا يقول المسيح لليهود: «وأما أنا فلأنني "أقول" الحق»، وهكذا يطرح المسيح قوله للفحص قياساً على سلوكه الذي يتحدى به فكر الإنسان الفاحص. وكأنه يقولها صراحة: «أنا بلا خطيئة»، «فكل ما أقوله هو الحق»، وهكذا وبالضرورة فإن كلَّ مَنْ لا يؤمن يُدان، بل وكلَّ مَنْ لا يؤمن، فهو ليس من الله.

«يَبْكَتُنِي» :

وتأتي في اليونانية ἐλέγχει، وهذه الكلمة بحد ذاتها هي اصطلاح قانوني يفيد الفحص المضاد من محامي الخصم، وهو نوع من «إقامة الدليل الضد»، وهي تقوم على إثبات الخطأ بالدليل المدعم، إما بشهادة الشهود، أو بالوثائق الدامغة، أو بمهارة المحقق في جعل المتهم يعترف ضد نفسه. وقد أورد إنجيل يوحنا هذا الاصطلاح في ٨: ١٦ عن الروح القدس أنه «يَبْكَتُ العالم على خطيئة...».

والمسيح بقوله: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْكَتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ»، يكون قد كشف كشفاً واضحاً عن المستوى الذي تعيش به بشريته، فهو مستوى يفوق قامة البشر حيث يستحيل أن يوجد إنسان بلا خطيئة.

وبهذا يكون هذا النص هو استعلان للمستوى الإلهي الذي كان يعيشه المسيح في بشرته، وهو المعروف في اللاهوت: أن المسيح «بلا خطية» $\chi\omega\rho\iota\varsigma\ \delta\mu\alpha\rho\tau\iota\alpha\varsigma$: «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا «بلا خطية.»» (عب ٤: ١٥)

«فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟» :

والمسيح يقصد، بقوله هذا، أنه إذا لم يبكتني أحد على خطية الكذب والتزيف، إذن، فأنا لا أكذب ولا أزيّف الحق، أي إنني أقول الحق، فإن كنت أقول الحق، فلماذا لم تستجبوا للحق فـ «تؤمنوا بي» : حيث تجيء «تؤمنون» هنا خالية من الحرف «بي» أي بمعنى «تصدقونني» $\pi\iota\sigma\tau\epsilon\upsilon\epsilon\tau\epsilon\ \mu\omicron\iota$ في الأصل اليوناني.

٤٧: ٨ «الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله».

هنا المسيح يذهب إلى جذور القضية، مرة أخرى، أي إلى المصدّرين اللذين ينحدر منهما الحق والكذب، وهما الله والشيطان. فهو يسأل ثم يجيب: «لماذا لستم تؤمنون بي؟»؟ الجواب: لأنني أقول الحق — كلمة الله — لأنني من الله. وأنتم تقولون الكذب وتضمرون القتل — لأنكم من إبليس — والذي من الله (ابن الله) هو وحده الذي يسمع كلام الله — ويقوله ويعمله — ويستطيع أن يقوله باسم الله لسمعه الناس — الذين من الله — فيؤمنون أنه من الله. هذا يوضحه ق. يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال» (١ يوحنا ٤: ٦). أما الذي من إبليس فهو يسمع من إبليس ويقول الكذب الذي يسمعه من إبليس ويضمّر القتل، حتى لا يؤمن الناس بالحق ويصدقوا الكذب. والذي يسمع الكذب لا يسمع الحق لأنه ليس من الله.

ومرة أخرى نقول أن كلمة «يسمع» هنا تأتي في معناها الروحي، فهو سماع القلب — الذي يلزمه التنفيذ — أي السماع والطاعة معاً: «فقال له بيلاطس: أفأنت إذا ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إنني ملك. لهذا قد وُلدتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق، كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي.» (يوحنا ١٨: ٣٧)

وأيضاً نود أن نؤكد أن السماع الروحي للحق يتبعه الطاعة حتماً، كعمل أو فعل تنفيذي — مؤازر من الله بقوة خاصة — على مستوى الروح أيضاً. ولكي ندرك هذا الأمر الخطير، فلنتأمل معاً في قول الرب: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن

الله، والسامعون يحبون» (يوه: ٢٥). هنا الطاعة تأتي كفعل تنفيذي حتمي، كنعمة، يَشْرِي في الميت روحياً فيقيمه الصوت المُحيي من موت الخطية. وهنا أيضاً يلزمنا أن ننتبه أن فعل الطاعة التنفيذي الذي يَشْرِي في الميت روحياً، أي الميت بسبب الخطية، لا يحتاج منه إلى جهد لأنه **فِعْلُ إحياءٍ من موت، هو من صنع الله**، حيث الموت هو اللإرادة والسكون القاتل، تماماً كما سمع لعازر صوت ابن الله وهو ميت منتن في القبر، فقام. المطلوب فقط هو «السمع» أي السماح للصوت المحيي أن يَشْرِي في الروح وذلك بعدم إقامة العوائق أمامه، سواء من الشكوك، أو الادعاء بعدم الاستحقاق، أو التملُّص لعدم المناسبة الزمنية، أو من الهروب وتسويق العمر باطلاً، أو الانشغال الأحق بالتلذذ بالخطية، بل بتصميم وبقطة وإرادة مدعنة للصوت الإلهي المحيي، يعمل عمله بالاستعداد، والامتثال لتأثيره، في صمت الخضوع المريح: «قلبي مستعد يا الله قلبي مستعد» (مز ٥٧: ٧ حسب السبعينية). ولكن إن أثبتنا على الخطية في القلب، فلن نسمع الله، ولن يسمع لنا الله: «إن راعيتُ إثماً في قلبي، لا يستمع لي الرب.» (مز ٦٦: ١٨)

أما هؤلاء اليهود المعاندون، فكانت لهم آذان حكيمة تستطيع أن تميز بين الحق والباطل، لكنهم فقدوا إرادة الصلاح، فسدُّوا آذانهم لكي لا تسمع صوت الله عن دراية وإرادة: «مثل الصلِّ الأصمِّ (بإرادته) يسدُّ أذنه (لكي) لا يستمع إلى صوت الحوَّة الراقيس رُقى حكيم» (مز ٥٨: ٤ و٥). هذا كان حال هؤلاء اليهود في عيني الرب تماماً، وهم أدركوا بالفعل أن المسيح قد كشف عوارهم، وسدَّ عليهم منافذ الهروب من مواجهة الحقيقة المُرَّة في حلقهم، فأثبتوا بسلوكهم أنهم ليسوا من الله كما سبق وواجههم، إنهم لا يؤمنون بالله، لأنهم استحوذوا على مجد الله لأنفسهم كمعلمين. كما أنهم لا يحبون الله، لأنهم أبغضوا مَنْ أحبه الله وأرسله إلى العالم. لهذا كله، قال لهم، «أنتم من أب هو إبليس»، مما هيَّج سُخطهم:

٨ : ٤٨ - ٥٠ «فأجاب اليهود وقالوا له: أَلَسْنَا نقولُ حسناً إنك سامريٌّ وبك شيطانٌ؟
أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطانٌ لكني الكَرِمْ أبي وأنتم تُهَيُّونَنِي. أنا لستُ أطلبُ مجدي، بوجدُ مَنْ يَطلبُ ويدينُ».

لم يتزحزح هؤلاء اليهود عن موقفهم المعاند، فهم فقدوا، ليس فقط القدرة على السماع من الله، بل وقطعوا خط الرجعة على أنفسهم إذ بدأوا يهينون الله في شخص مَنْ يتكلم باسمه.

«سامريٌّ»:

هذا الوصف قالوه ليشفي حقدهم على المسيح لأنه قال لهم: «أنتم لستم أولاد إبراهيم»، وهو

ما اعتبروه تجريداً من وطنيتهم. فهذا هو الاتهام الأول والأساسي الذي يقول به السامريون ضد اليهود. ومعنى الكلام الموجّه للمسيح، أنك بهذا الكلام تكون قد تبثّيت فكر السامريين ضدنا وضد مملكتنا وميراثنا. ومعلوم مدى العداوة التي يكنّها اليهود نحو السامريين، فهم ضمناً ينفّسون عن عداوتهم للمسيح بهذا الوصف.

أما قولهم: «وبك شيطان»، فهو إفلاس من وجود اتهام حاضر في ذهنهم. فلا هم استطاعوا أن يبكّثوه على كذب، ولا استطاعوا أن يقلّلوا من سلطانه في الكلام باسم الله، أو الرد على الآيات التي يعملها. فكما تسجّل في بقية الأناجيل، فإن مُتَنَفِّسهم الوحيد ضد هذه النماذج الفائقة التي يقدمها بالقول والعمل للتدليل على سلطان بنوته لله، كان أن يتهموه بأن أعماله وأقواله إنما هي بعمل الشيطان: «ببعزبول رئيس الشياطين يُخرج الشياطين» (لوقا ١١: ١٥). وهذا خداع منهم ومراوغة لكي يضلّلوا أنفسهم والشعب معهم حتى لا يؤمنوا به. وهنا هم يكررون نفس الاتهام ليفلتوا من الحكم عليهم بأنهم يعملون أعمال إبليس. وذلك بتدبير خطة قتله، ليتخلّصوا من سلطان الحق المسلّط على رقابهم.

«أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطان»:

المسيح ترك اتهامهم له بأنه سامريّ لأنه لا يريد أن يدخل في نقاش الأنساب والأجناس، ولأن نفي الاتهام في حد ذاته لا يغيّر من حقيقة الأمر أنهم بالفعل لم يعودوا أولاداً لإبراهيم ولا شعب الله المختار، وأنه لن ينفعهم هيكل سليمان العظيم الذي لن يبقى فيه حجرٌ على حجرٍ لا يُنقّض! إنما احتفظ المسيح لنفسه بالرد على الاتهام الثاني لأهميته، بل ولخطورته في نظره لأنه يمسّ كرامة أبيه، ولهذا استحال عليه أن يصمت تجاهه.

«لكني أكرم أبي وأنتم تهينوني»:

المسيح هنا يُوقّع اليهود في خطيئة لا تُغتفر. فكما سبق وجاء في الأناجيل الأخرى، فإن رد المسيح على نفس الاتهام أنه: «برئيس الشياطين يُخرج الشياطين» (متى ٩: ٣٤)، و«أن معه روحاً نجساً» (مر ٣: ٣٠)، اعتبر ذلك خطيئة مباشرة ضد الروح القدس، لأنه إنما كان بروح الله يُخْرِجُ الشياطين؛ فإنّ هُم نسبوا إلى رئيس الشياطين عمل الروح القدس، يكونون قد جَدَّفوا على الروح القدس: «الحق أقول لكم: إن جميع الخطايا تُغْفَرُ لبني البشر، والتجاديف التي يجدفونها، ولكن مَنْ جَدَّفَ على الروح القدس، فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية. لأنهم قالوا إن معه روحاً نجساً.» (مر ٣: ٢٨-٣٠)

وهنا في إنجيل يوحنا اعتبر المسيح قولهم : « بك شيطان » هو إهانة ؛ وأنها وإن كانت موجهة منهم له شخصياً، إلا أنها قيلت له بسبب أنه يُكرم الآب، فهنا الإهانة موجهة بالأصل وبالأساس إلى الآب الذي جاء ليُكرمه، وهم يهينونه بسبب ذلك. ولكي ينفي المسيح عن نفسه أنه يدينهم بسبب إهانتهم له، يكرر أنه لا يطلب مجد نفسه، ولكن الذي يطلب بالمجد هو الله الذي أهانوه، والذي سيدين مَنْ أهانَه. وبهذا ينتهي المسيح من تكييف إهانتهم له بقولهم « بك شيطان »، بأن هذه الإهانة هي موجهة ضد الله، وثمنها دينونة حتمية.

٥١ : ٨ « الحق الحق أقول لكم : إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد ».

حينما يكرر المسيح قول « الحق » فهو إنما يبدأ استعلاناً جديداً عن نفسه.

فإزاء الدينونة الرهيبة التي يقع فيها مَنْ يهين الابن الذي جاء ليكرم الآب، يوجد في المقابل وَعْدٌ أبديٌّ بأنَّ مَنْ يحفظ كلمة المسيح τὸν λόγον، أي تعاليمه في مجموعها الكلي، فإنه لن يرى الموت إلى الأبد. هنا كلمة « يحفظ » لا تحيى بمعنى الحراسة، بل بمعنى الاستيعاب والملاحظة والطاعة. كما تحيى كلمة « يرى الموت » ليس بمعنى النظر، بل بمعنى التأمل المستديم (ثيوريا θεωρεῖν) في مواجهة الموت، وهي تحيى هنا للمرة الأولى والوحيدة في جميع كتب العهد الجديد، وتفيد المعنى العكسي للموت. أي أنَّ مَنْ يحفظ ويطيع تعاليم المسيح في مجموعها — علماً بأن كلام المسيح هو روح وحياة — فلن يكون للموت سلطان مرعب على النفس أو تأثير مخيف ودائم إلى الأبد : « لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين، خوفاً من الموت، كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية » (عب ٢ : ١٤ و ١٥)، بل استمتاع برؤية وممارسة الحياة الدائمة إلى الأبد. والمعنى الكلي أن الحياة تسود بفرحها على الموت بصورته المخيفة والمستمرة إلى الأبد حتى ولومات الإنسان بالجسد. وباختصار شديد يقول المسيح إنَّ مَنْ يهين الابن يسود عليه الموت بالدينونة والخوف من الموت إلى الأبد، وَمَنْ يحفظ ويستوعب تعاليمه تسود عليه الحياة الأبدية.

د - الجزء الرابع من الحوار

المسيح وإبراهيم

«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»

(٨ : ٥٢ - ٥٩)

٨ : ٥٢ و ٥٣ «فقال له اليهود : الآن علمنا أن بك شيطاناً . قد مات إبراهيم والأنبياء ، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد . أأنت أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات والأنبياء ماتوا . من تجعل نفسك ؟» .

اليهود المعاندون يقولون : «الآن "علمنا"» . هذا هو العلم الكاذب بأصوله وفروعه . وماذا علموا ، وماذا تأكدوا من علمهم ؟ أن المسيح أيضاً وللمرة الثانية به شيطان ؟ هذا يكشف عن مدى صدق المسيح ودقته في وصف هؤلاء : إنهم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيهم يعملون . وفي نفس الوقت لم يرد المسيح الإهانة ، فصّدق قول بطرس الرسول : «الذي إذ شتم لم يكن يشتّم عوضاً ، وإذا تألم لم يكن يهتدّد ، بل كان يُسلم لمن يقضي بعدل .» (١ بط ٢ : ٢٣)

«قد مات إبراهيم والأنبياء» :

المعنى هنا مخفي بسبب شدة الاختصار ، والمراد من هذا القول أن الله كلم إبراهيم وهو أبو الآباء ، وكلّم الأنبياء وكانوا أمناء على كلمة الله وحفظوها ، وبالرغم من ذلك ماتوا كلهم ، ولم تقو كلمة الله على منع الموت عنهم .

«وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد» :

لم تكفيك أن تكون كإبراهيم أو أحد الأنبياء بأن لا تذوق أنت الموت إن كنت حفظت كلام الله ، بل تزيد وتقول إن كان أحد آخر يحفظ كلامك أنت فإنه لا يذوق الموت إلى الأبد ؟

هنا الخطأ المتعمّد الذي وقع فيه اليهود في تحويل كلمة «يرى الموت» θεωρεῖν θάνατον في كلام المسيح إلى «يذوق الموت» γεύεσθαι θανάτου . نجد أن هذا الاصطلاح عام ، فالمسيح نفسه ذاق الموت : «ولكن الذي وُضِعَ قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكلاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب ٢ : ٩) ، كذلك هذا الاصطلاح معروف لدى التقليد اليهودي في التلمود ، أي أنه كان على السنة اليهود . وقد اختار

هؤلاء اليهود هذا الاصطلاح «يذوق الموت» بدل الاصطلاح الذي وضعه المسيح لأول مرة في العهد الجديد وهو «يرى الموت» بمعنى «يتأمل و يتصور الموت»، بمعنى يعيش الخوف الدائم منه، فهذا الاصطلاح «يذوق الموت» يجيء في الواقع ليعلم اللاهوت في أعماقه، فالمسيح ذاق الموت مرة، ولكنه لم يتأمله أو يراه أو يعيش الخوف منه ولا إلى لحظة. كذلك كل مَنْ يؤمن بالمسيح، فإنه ينتقل من الموت إلى الحياة، أي يحيا إلى الأبد، ولا يعود «يتأمل الموت» بفزعه والخوف منه: «لكي يبيد بالموت (الذي ماته على الصليب) ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين، خوفاً من الموت، كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية» (عب ٢ : ١٤ و ١٥). هذا الخوف من الموت الذي كان يجعلنا كعبيد للخوف كل أيام حياتنا هو هو الذي يقصده المسيح بخصوص الذين يحفظون كلامه: «لن يرى الموت إلى الأبد».

«أملك أعظم من أبنا إبراهيم الذي مات والأنبياء ماتوا. مَنْ تَجْعَلُ نفسك؟»:

لا تزال الهوة التي تفصل قول المسيح عن قول اليهود سحيقة، كما كانت أيضاً في نظر السامرية: «أملك أعظم من أبنا يعقوب؟» (يو ٤ : ١٢). فالمسيح يتكلم عن موت الخطية الأبدي والحياة الأبدية، وهم يتكلمون عن الموت الزمني المحتم بحسب حياة الجسد. هو يتكلم عن الوجود الإلهي الفائق على الزمن، وهم يتكلمون عن الوجود التاريخي — المنظور تحت العدم. هو يتكلم عن نفسه كابن الله الأزلي، وهم يرونه ابن الناصرة، مواطن جليلي، غير مثقف.

«مَنْ تَجْعَلُ نفسك؟»:

سؤال على مستوى فكر اليهود المحدود، فهو يستنكر مقدماً أي احتمال أنه أعظم من إبراهيم. مَنْ تَجْعَلُ نفسك بالنسبة لإبراهيم والأنبياء، تعبيراً عن حتمية الموت للإنسان مهما كان؟ سؤال لا يجيب عليه المسيح إجابة مباشرة، لأن ذلك سيكون على مستوى لاهوتي يفوق فكرهم الضيق. لذلك يبدأ المسيح يفحص الاعتراضات الجانبية، فسؤالهم: «مَنْ تَجْعَلُ نفسك؟»، يُستشعر منه أن المسيح يمجّد ذاته أكثر من الآباء والأنبياء. وهنا يتحتم الرد على ذلك لئلا يُمسَّ مجد الآب وتُجرَّح طاعته لمن أرسله:

٨ : ٥٤ و ٥٥ «أجاب يسوع: إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نفسي، فليس مجدي شيئاً. أبي هو الذي يمجِّدني، الذي تقولون أنتم إنه إلهكم، ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه. وإن قلتُ إنني لستُ أعرفه أكونُ مثلكم كاذباً. لكني أعرفه وأحفظ قوله».

المسيح هنا يستعلن حقيقة لاهوتية، ولكن على مستوى فكر اليهود، وهي ما يسمى بالإخلاء

κένωσις، وهو ما يقول عنه بولس الرسول: «لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد» (في ٢: ٧). فبعد التجسد يظهر ابن الله في هيئة بشرية ليس لها مظهر الألوهة، أي «المجد»، ولكنه احتفظ بطبيعة الألوهة في القوة والعمل. فمن جهة بشريته يقول المسيح لليهود إنه ليس له مجد شخصي (كإنسان)، فإذا اعتبروا كلامه «إن كان أحد يحفظ كلمتي (لوعس) فلن يرى الموت إلى الأبد» أنه تمجيد لنفسه، يكونون قد أخطأوا، إذ ليس له مجد شخصي، أو أن مجده ليس شيئاً موجوداً في الاعتبار قط؛ ولكن الذي يمجده حقاً هو أبوه، ليس كأنه سيضيف إليه شيئاً للتكريم، وإنما يسترد منه المجد الذي سبق أن تخلّى عنه حتى يستطيع أن يتجسد و يصير في هيئة عبد: «والآن مَجِّدْنِي أَنْتِ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ، بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ» (يو ١٧: ٥)، و«عند ذاتك» في هذه الآية تعني أن مجد الابن هو مجد ذات الله. هذا الذي نصرخ به في الذُّكْصَا الكبرى: «المجد للآب والابن والروح القدس».

«... الذي تقولون أنتم إنه إلهكم»:

هنا يوضح المسيح الفرق الجوهرى بين أبوة الله للمسيح، وبين علاقة الله باليهود. فأبوة الله للمسيح قائمة على أساس بُنُوَّة المسيح لله، فالأبوة هي أبوة في ذات الله، والبُنُوَّة هي بُنُوَّة في ذات الله، أي أن الله أب وابن ذات واحدة غير مفترقة. ومن ذلك يتضح سر قول المسيح إن الله أبوه الشخصي «الذاتى». وفي نفس الوقت يدعى اليهود أن الله هو إلههم، ولكن هذه النسبة بين الله وبينهم مقطوعة، بسبب عدم معرفتهم الله معرفة شخصية، والتي من أوضح مظاهرها رَفْضُهُم للمسيح الذي يحمل أقوى استعلان لذات الله. فهو فوق أنه ابن ذات الله، فهو يعمل أعمال الله! «إن كنتُ لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي؛ ولكن إن كنتُ أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو ١٠: ٣٧ و ٣٨)

«الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه»:

هنا معرفة المسيح للآب التي يسلط عليها الضوء هي معرفة الجوهر للجوهر، معرفة الطبيعة للطبيعة، معرفة الذات للذات، معرفة المثل للمثل. هنا معرفة الابن للآب تساوي معرفة الآب للابن، أي معرفة تمام الانطباق!! فإذا دخلنا على هذه المعرفة اللاهوتية بالعقل أو الفكر أو التحليل، نتوه ونضل؛ ولكن قد أعطي لنا أن ندخلها من باب الحب والطاعة والإرادة، أي بالصفات التي نشابه فيها الله. فنحن نحس بمعرفة المسيح لله من خلال حب الله الآب — المطلق — للمسيح الابن، ومن خلال طاعة الابن المطلقة للآب.

ثم نحن نقيس هذه المعرفة الإلهية أيضاً بمقياس الإرادة والمشيئة، فنشعر من خلال بذل الله الآب لابنه بمقدار إرادة الآب الفائقة جداً على الوصف، التي تنازلت حتى إلى بذل الابن إلى أقصى حد من المذلة والهوان بالموت على الصليب. وهذه الإرادة الأبوية التي فرطت في مجد الابن وكرامته جاءت على نفس الإرادة التي أحب بها الله عالم الخطاة، بمعنى أن الله أحب العالم ففرط في ابنه وبذله ليخلصهم — أي أنا وأنت — وسعى لخلاصهم وحياتهم، وأعطاهم نصيباً خاصاً في مجده وكرامته الشخصية!!!

والآن نستطيع أن نفهم، ولو قليلاً من معرفة المسيح، سواء للآب أو لنا التي يصفها بولس الرسول هكذا: «ليحمل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومُتأسِّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله.» (أف ٣: ١٧-١٩)

والمسيح يقول لليهود إنهم يقولون عن الله أنه إلههم، وهم لا يعرفونه، لأنهم لو عرفوه حقاً لما صلبوا ابن محبته. ثم يقول: «أما أنا فأعرفه»، ومن أعظم مظاهر هذه «المعرفة» وأقوى الأدلة على صدقها وعمقها اللانهائي، طاعة المسيح حتى الموت، موت الصليب. هنا جعل المسيح قياس المعرفة على المستوى العملي المطلق. فاليهود لم يعرفوا الآب، فصلبوا ابنه بجهالة وإصرار. والمسيح أظهر معرفته الخاصة بالله الآب، بأن حفظ كلمته، وأطاع مشيئة الآب طاعة مطلقة تحدى بها جهالة اليهود والعالم، ورضي بأن يصلبوه ليكمل بموته مصالحته العالم بالآب.

وهكذا يكون ادعاء اليهود أنهم يعرفون الله هو ادعاء كاذب، يفضحه ما عملوه بابنه على الصليب. والمسيح يقول إنه يستحيل عليه أن يجاريهم في هذه المعرفة التي هي منتهى عدم المعرفة... فلو كان قد تمشى معهم — في مستوى توقيدهم الحرفي للناموس وتكريمهم لموسى، والمثل، وتعظيمهم لميراث وعد الآباء عن إبراهيم — لما صُلب، ولكان احتفظ بمجد نفسه ومجد إسرائيل الكاذب، ولأصبح كاذباً مثلهم في ادعاء المعرفة والعمل ضدها في نفس الوقت. لأن معرفة الله هي التي تختص بخلاص العالم، والتي تبدأ من الصليب وتكمل بالقيامة من الأموات، وافتتاح الطريق إلى الحياة الأبدية!! «أيها الآب البار، إن العالم لم يعرفك (فأكمل صلب الابن). أما أنا فعرفتُك (ببرهان صليبي)، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني (وكانوا شهود صليبي)، وعرفتُهم اسمك، وسأُعَرِّفُهم (بقيامتي)، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو ١٧:

٥٦:٨ «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح».

يفتح المسيح هذا الإعلان بكلمة «أبوكم»، باعتبار أن المسيح «ابن الله»؛ وهكذا يرتفع المسيح بمستوى رؤيته لنفسه بالنسبة لإبراهيم. فإبراهيم أبوهم بحسب مستواهم الجسدي، أما إبراهيم نفسه فهو لا يزيد عن كونه شاهداً للمسيح من وراء الزمن؛ وهذه دائماً هي نظرة إنجيل يوحنا لكل الآباء والأنبياء والناموس والمزامير بالنسبة للمسيح.

«تهلل»:

تأتي باليونانية ἡγαλλιάσατο وتعني الإبتهاج الروحي أو السرور المفرط. وقد تحير جميع علماء الكتاب المقدس قديماً وحديثاً بالنسبة لشرح هذه الكلمة، وانتحوا نواحي شتى خرجت بهم عن المعنى المقصود. وصعوبة هذه الكلمة لا تأتي في معناها بل في عملها، فالسرور المفرط في الاختبار التصوفي هو نفسه حالة رؤيا واختبار. وقد جاءت هذه الكلمة التي تفيد هذا الاختبار على لسان القديسة العذراء مريم في نبوتها وهي عند أليصابات، حينما تكلمت عن مستقبل المسيح، وهي حامل به لأيام قليلة في بطنها: «فقالت مريم: تعظم نفسي الرب وتبتهج روحى بالله مخلصي» (لوقا: ٤٦ و٤٧)، وهنا مريم تتكلم وهي في حالة ابتهاج ἡγαλλίασε، أي رؤيا واختبار يختص بوعده الله لإبراهيم!! فالعجيب حقاً أن يأتي الاصطلاح (الإبتهاج — السرور المفرط) على فم المسيح: «أبوكم إبراهيم تهلل ἡγαλλιάσατο»، كما جاء على لسان القديسة العذراء مريم ἡγαλλίασε وفي نفس الموضوع، إذ أكملت قولها: «عضد إسرائيل فتاه، ليذكر رحمة، كما كلم آبائنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد.» (لوقا: ٥٤ و٥٥)

كذلك نأتي إلى كلمة «بأن يرى» ἵνα ἴδῃ على نفس الصعوبة وأشد. وقد خرج كل الشارحين والمترجمين لإنجيل يوحنا عن المعنى الصحيح لهذا التركيب اللغوي، لأنهم حرفوا هذا الاصطلاح لكي يناسب الكلمة السابقة تهلل. إذ وجدوا أن الترجمة الصحيحة الحرفية لها «تهلل لكي» غير موافقة فجعلوها «تهلل بأن»، فطوّحوا بالمعنى كله بعيداً عن المفهوم الصحيح لهذا الاختبار الروحي التصوفي. فالترجمة الصحيحة الحرفية، والتي توافق المعنى تماماً بحسب الاختبار الروحي هي: «تهلل لكي»، وهذا يعني بحسب الاختبار الروحي لكلمة «تهلل»، أن إبراهيم دخل في هذا الاختبار الروحي: «لكي يرى، فرأى وفرح».

والصعوبة الأكثر التي واجهت الدارسين لإنجيل يوحنا هي: متى وكيف رأى إبراهيم يوم الرب فرأى وفرح؟ فريق قال: إن ذلك حدث في ميلاد إسحق، وإن ضحك إبراهيم وسارة هو هذا

«التهليل». وفريق آخر قال : عندما أقدّم إبراهيم على ذبح إسحق فمنعه الملاك ثم أبصر خروفاً قدّمه عوض إسحق. وفريق آخر قال : وقت عتمة الليل أثناء تقديم قطع الذبيحة. وفريق قال : إن ذلك حدث على مرحلتين : مرحلة السؤال والطلبه أثناء حياة إبراهيم، ومرحلة الرؤيا والفرح تمت بعد الصّلب أثناء نزول المسيح إلى الجحيم لفكّ أرواح المأسورين.

ولكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس نجد أن العذراء القديسة مريم قد حددت وعد الله لإبراهيم هكذا :

«فقالت مريم : تعظّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى اتضاع أمتي... عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمة، كما كلّم آبائنا. لإبراهيم ونسله إلى الأبد.» (لو : ١ : ٤٦ و ٤٧ و ٥٥ و ٥٥)

وهنا الرد على السؤال هل رأى إبراهيم يوم الرب؟ حيث جاء الرد على لسان العذراء أن الذي في بطنها هو وعد الله لإبراهيم.

ولكي نتحقق كيف تمت الرؤيا أثناء كلام الله مع إبراهيم نقرأ الآتي :

أ — في الرسالة إلى غلاطية : «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله (باليونانية σπέρμα وبالقبطية xpoꝥ) ، لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين، بل كأنه عن واحد، وفي نسلك (مفرد)، الذي هو المسيح.» (غل ٣ : ١٦)

ب — كذلك نقرأ في سفر الأعمال : «أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آبائنا قائلاً لإبراهيم : وبني نسلك (مفرد) تبارك جميع قبائل الأرض. إليكم أولاً إذ أقام الله فتاه يسوع، أرسله يبارككم برّد كلّ واحد منكم عن شروره.» (أع ٣ : ٢٥ و ٢٦)

ج — ثم نقرأ في سفر العبرانيين : «فإنه لما وعد الله إبراهيم إذ لم يكن له أعظم يُقسّم به، أقسم بنفسه قائلاً : إني لأباركك بركة وأكثرتك تكثيراً. وهكذا إذ تأتى نال الموعد.» (عب ٦ : ١٣-١٥)

د — كذلك نقرأ في سفر العبرانيين : «بالإيمان قدم إبراهيم إسحق وهو مجرّب. قدّم الذي قبل المواعيد وحيداً، الذي قيل له : إنه بإسحق يُدعى لك نسل (مفرد). إذ حَسِبَ أن الله قادرٌ على الإقامة من الأموات أيضاً، الذين منهم أخذه أيضاً في مثال.» (عب ١١ : ١٧-١٩)

وهنا تأكيد الوحي الإلهي على أن فعل إرادة الذبح عند إبراهيم كان مشفوعاً بإيمان قدرة الله بالإقامة من الأموات، وهذا هو جوهر الرواية كلها.

ومن مجموع هذه الآيات أ، ب، ج، د، يتضح لنا أن الإشارة الأساسية التي تخصُّ المسيح في حديث الله مع إبراهيم جاءت بعد أن قدّم إبراهيم ابنه وحيدَهُ إسحق بنية ذبحه، طاعة لأمر الله، والتي جاءت في سفر التكوين الأصحاح الثاني والعشرون.

ففي الآية أ — النسل الموعود به بالمفرد: هو المسيح.

وفي الآية ب — النسل الذي به تتبارك جميع قبائل الأرض: هو يسوع.

وفي الآية ج — الله أقسم بذاته ليؤكد ضمان الوعد بالنسل. وقد تم بالفعل إذ نال عربون الوعد في إسحق.

وفي الآية د — ثم إبراهيم يقَدِّم ابنه إسحق الذي فيه تم عربون الوعد، يقَدِّمه ذبيحةً بإيمان أن الله قادر أن يقيمه من الموت. وبذلك تمت كل مفردات رؤية إبراهيم للمسيح، وهذا نقرأه بوضوح في سفر التكوين:

+ «وقال (الله): إبراهيم إبراهيم فقال: هأنذا. فقال لا تمُدَّ يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً، لأنني الآن علمتُ أنك خائفٌ الله. فلم تُمسِكْ ابنك وحيدَكَ عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبشٌ وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَه يِرْأَه (الرب يُرى). حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى.» (تك ٢٢ : ١١-١٤)

وهكذا عندما نفَّذ إبراهيم وصية الله في ابنه بإيمان أن الله قادرٌ على الإقامة من الأموات (تماماً كما نفَّذ المسيح وصية الله في نفسه مقدِّماً نفسه على الصليب بإيمان القيامة من الأموات) ... عند هذا تقف الرواية في سفر التكوين فجأة، ويتم الإعلان عن حدوث رؤية بصمت الوحي عن كشف تفاصيلها إلى أن يعلنها المسيح بنفسه: «أبوكم إبراهيم تهلل لكي يرى يومي فرأى وفرح».

ومما سبق يتضح لنا تفاصيل معنى "يرى يومي"، فقد رأى إبراهيم الموت (الصليب) والقيامة معاً. رأى صورة الذبيحة بفعلها الكفَّاري لمسرة الله، ورأى القيامة في بهجة فعلها الخلاصي. ورأى كيف سيتم أن تتبارك قبائل الأرض في نسله «أي بالمسيح». ثم نكرر القول أن رؤية الرب تتم فقط للذين حفظوا كلمته من خلال السرور المفرط، أي التهليل الخلاصي. لذلك يقول المسيح: «تهلل لكي يرى يومي، فرأى وفرح».

٥٩-٥٧:٨ «فقال له اليهود: ليس لك خمسون سنة بعد. أقرأيت إبراهيم؟ قال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن. فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم، ومضى هكذا».

ق. يوحنا يصمم على تسجيل هذه المفارقة للحقيقة من جهة سنّه، فالمسيح لم يكن يتعدى في عمره الثلاث والثلاثين سنة، ولكن يبدو أن هيئة المسيح كانت في عيون هؤلاء اليهود تفوق سنّه. ثم يسجل عليهم المفارقة الثانية، التي هي نوع من تزييف الكلام وتحويل الأبدى إلى زمني: «أقرأيت إبراهيم؟». المسيح لم يقل هذا، بل قال ما هو أعظم وأخطر من هذا. فقد قال إن إبراهيم هو الذي رأى يومي، كتعبير عن تكميل المواعيد في شخص المسيح! ولكنهم لما أرادوا أن يحرفوا الكلام ويهبطوا به إلى مستوى تواريخ الميلاد، واجههم المسيح باستعلان أقوى عن أزلية وجوده: «الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن».

بهذا يكون المسيح قد أقرّ بقولهم أن إبراهيم مات، ومات كل الأنبياء، ولكنه — أي المسيح — كان قبل كل هؤلاء حياً ومُعطي الحياة. وأقرّ أن أباهم هو إبراهيم كما كانوا يفتخرون، ولكنه — أي المسيح — هو فخر إبراهيم ورجاؤه الذي تتم به بركة جميع قبائل الأرض. إبراهيم كان أرامياً تائهاً، آواه الرب في أرض غريبة، والمسيح هو ابن الله الذي نزل من السماء ليرد غربة إبراهيم ونسله إلى الوطن السماوي.

كان المسيح هذا وأكثر ألف مرة من هذا، وكان يدرك المفارقة التي لا تُحَدُّ بينه وبين إبراهيم. لذلك لم يكن أمام المسيح إلا أسلوبه الإلهي العالي ليحطم به كبرياء اليهود المتعاليين بالأنساب والألقاب: «الحق الحق أقول لكم...». أما المفارقة فلم يجعلها المسيح بين إبراهيم وبين شخصه، بل رفعها مرة واحدة وباستعلان متناهٍ ليلبغ بها جوهر كيانه الإلهي فقال: «قبل أن يكون $\gamma\epsilon\nu\acute{\epsilon}\sigma\theta\alpha\iota$ (يصير أو يُخلق) إبراهيم $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ أنا هو». و«أنا هو» هو اسم يهوه نفسه = أنا الكائن (١٥) الذي يكون.

ويلاحظ القارئ أن المسيح رفض أن يجعل المفارقة زمنية بأن يقول «قبل إبراهيم كنت أنا»، بل وضعها على مستوى المطلق الأزلي اللازمي: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، لكي

(١٥) أنظر خروج ١٤:٣ النص اليوناني.

وقد تم شرح معناها اللاهوتي في المدخل ص ٢١٨-٢٤٦، وبقابلها في العبري Ani ho.

يجعل المفارقة صارخة بين المخلوق والخالق، الزمني والأبدي. والتي على مستواها قال المسيح مرة لتلاميذه: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). فنحن من ملء حياته الأبدية نأخذ حياة بل نأخذ ملئاً. فآية مقارنة يمكن أن توضع بين الحياة والموت؟ أو بين المحيي والميت؟

ولم يكن صعباً على هؤلاء اليهود أن يدركوا أنه يتكلم عن لاهوته، أو كما عبّروا هم مرة، أنه يجعل نفسه مساوياً لله. إنه تجديف... فليحيا الناموس وليمت المسيح: «فرفعوا حجارة ليرجموه». كانت الحجارة جاهزة في جيوبهم (١٦) ورفعوها بالفعل بأعلى أذرعهم، ولكن أذرعهم وقفت بلا قوة على الرجم؛ إذ لم يروه؛ سقطت الحجارة من أيديهم واختفى هو عن أعينهم مع أنه جاز في وسطهم.

ولكي يعن ق. يوحنا في إحكام ربط الأقوال بالأعمال، ثم ربط الأقوال والأعمال بالنبوءات، يسجل في الختام جملة ذات مغزى سرّي للغاية، إذ يقول: «أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا». هذا تعبير حزين وموجع، له إحساس نبوي صادق. فاختفاء المسيح عنهم، وهو في وسطهم، يرمز لعمى بصيرتهم (إش ٦: ١٠)، وخروجه من الهيكل (مت ٢٣: ٣٨) يرمز إلى التخلي عن الأمة اليهودية بأجمعها، وإن كثروا الصلاة فلن يعود يسمع بعد!! أما أنه اجتاز في وسطهم ومضى، فهي صورة لختام رسالته: «إلى خاصّته جاء وخاصّته لم تقبله.» (يو ١: ١١)

إبراهيم والنسل والأولاد بمفهوم كلام المسيح:

ولكن لا يفوتنا هنا أن نبين أن كلام المسيح عن إبراهيم لا ينتقص من إبراهيم، ولكنه يحذف حق البنوة لإبراهيم بالقوة. فإبراهيم لم يأخذ مكانته أمام الله، إلا بعد أن أكمل الوصية: «سِرْ أَمَامِي، وَكُن كَامِلاً، فَأَجْعَلْ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَأَكْثَرَ كَثِيراً جداً» (تك ١٧: ١ و٢). فالعهد الذي أقامه الله مع إبراهيم تأسس على السلوك بالكمال. فإبراهيم لم يُخَلِّ بالعهد، ولكن أولاد إبراهيم لم يسلكوا بالكمال، فنقضوا العهد من أساسه، فكيف سيصيرون بركة لكل الأمم، وهم صاروا لعنة لأنفسهم؟ حسبوا البركة ميراثاً يُنهب بالقوة، مع أنها رسالة ومسئولية! ولكي يصونَ الرب هذا الميراث الروحي ويفضح الناهبين ويوقظ الحالمين، ضرب الرب في إنجيل لوقا مَثَلَ إبراهيم ولعازر والبنين الشاردين، والمثل ينتهي بهذا المشهد الحزين: «فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودُفِنَ. فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى

(١٦) الهيكل لم يكن قد أكمل بناؤه بعد، والحجارة متراكمة بين أركانه.

إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأنني مُعَذَّب في هذا اللهب. فقال إبراهيم يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلى. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرُونَ ولا الذين من هناك يجتازُونَ إلينا. فقال أسألك إذاً يا أبت أن تُرسلهُ إلى بيت أبي. لأن لي خمسة إخوة. حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء. ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحدٌ من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحدٌ من الأموات يُصدقون.» (لو ١٦ : ٢٢-٣١)

ويوحنا المعمدان بنظرة نبوية ثاقبة، رأى من بعيد خطورة العثرة التي وقفت أمام شعبه لتكون حجر عثرة في الإيمان بالمسيح، فبصوته الصارخ نبّه الطالبين التوبة أن الإتكال على نسب إبراهيم لن يشفع فيهم أمام الله: «فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى المعمديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأنني أقول لكم إن الله قادرٌ أن يُقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتلقى في النار. أنا أُعَمِّدكم بماءٍ للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لستُ أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار. الذي رفشه في يده وسينقي بيدرهُ ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ.» (مت ٣ : ٧-١٢)

المسيح في إنجيل متى وضع التبن فوق البنية الجسدية، بل وجعل الغرباء أهلاً لصحبة إبراهيم في وليمة الأبدية، والأبناء المنتفخون يُطْرَدُونَ: «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشرق والمغرب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيُطْرَحُونَ إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصريُّ الأسنان.» (مت ٨ : ١١ و١٢)

وإلى اليهود المتمسكين بأبوة إبراهيم فوق وصايا الله أعطى هذا المعيار الجديد بالذات في السلوك بالروح أمام الله: «لا تدعُوا لكم أباً على الأرض (المقصود هنا إبراهيم أبو اليهود) لأن أباكم واحد الذي في السموات.» (مت ٢٣ : ٩)

وعلى أساس التحديد الإلهي لقيمة النسب لإبراهيم الذي وضعه المسيح بتعاليمه، انطلق بولس الرسول ليؤكد — بالروح أيضاً — أن وعد الله وعهده لم يكونا مع أولاد إبراهيم بل مع — واحد —

نسل إبراهيم. وكلمة «نسل» بالعربية خاطئة ومُضَلِّلَةٌ فهي في اليونانية σπέρμα أي «النُطْفَة» أو البذرة الحية من صُلْبِهِ (الصُّلب هو المركز الجنسي في أسفل الظهر)، وتأتي بالقبطية **χροσ** أي البذرة بكل وضوح. وشرح بولس الرسول أن هذا لا يفيد النسل — ككثرة — على وجه العموم أو الإطلاق، بل بذرة واحدة، تنتهي عندها ذُرِّيَّة إبراهيم موضحاً أنها تعني المسيح، ففي المسيح وحده تتبارك الأمم: «وأما المواعيد فقلت في إبراهيم وفي نَسْلِهِ. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين (من الأولاد) بل كأنه عن واحد: وفي نسلك sperm = σπέρματι الذي هو المسيح» (غل ٣: ١٦)، وينتهي بولس الرسول في شرحه لهذا الموضوع الخطير بقول يطابق تعاليم المسيح: «إن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.» (غل ٣: ٢٩).

والمسيح سبق وأوضح مفهوم الحرية والأحرار على المستوى الروحي، ليقابل المفهوم الخاطيء للحرية على المستوى السياسي الذي يدعيه اليهود، أنه — أي مفهوم الحرية — ضمن ميراث أولاد إبراهيم. إذ أدخل المسيح عنصر الخطيئة كأساس للعبودية. أما الحرية فهي الأساس للخلاص من الخطيئة.

وهذا يعني أن ميراث البنين لإبراهيم لا يكفي أن يجعل أولاد إبراهيم أحراراً، بل هم عبيد إن فعلوا الخطيئة، وأحراراً إن خلَّصهم المسيح من الخطيئة.

وينوّه المسيح من بعيد على ابني إبراهيم (إسماعيل ابن الجارية وإسحق ابن الحرة) قائلاً إن «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما الابن فيبقى إلى الأبد» (يو ٨: ٣٥). وبولس الرسول يلتقط هذا المعنى ويزيده وضوحاً وتطبيقاً، مشيراً إلى أن هاجر الجارية هي الرمز لجبل سيناء (غل ٤: ٢٥) الذي وُلد فيه الناموس الوالد للعبودية: «لأن بدون الناموس الخطيئة ميتة. أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً، ولكن لما جاءت الوصية، عاشت الخطيئة (بالوصية)، فمُتُّ أنا (بحكم الوصية)» (رو ٧: ٥ و٨). وبهذا الحكم يكون الناموس — هاجر — آيلاً للزوال، أي الطرد من البيت (الله)، لأنه ابن الجارية، لأنه والد العبودية.

أما سارة الحرة فهي باقية رمز «الموعد» نظير إسحق المستعلن في المسيح. والناموس الوالد للعبودية يقابله أورشليم الأرضية الواقعة تحت العبودية هي وبنيتها.

وأما الموعد بسارة الحرة وإسحق (المكَّمَّل بالمسيح)، فيقابله أورشليم العليا، وهي (الكنيسة) حُرَّة التي هي أمُّنا جميعاً (أم المفدين من الخطيئة): «لكن ماذا يقول الكتاب اطرده الجارية وابنها

لأنه لا يرثُ ابن الجارية (الناموس) مع ابن الحرة (المقديين)» (غل ٤ : ٣٠)؛ «إذاً أيها الإخوة
لسنا أولاد جارية (عبودية الناموس)، بل أولاد الحرة (حرية المسيح بالفداء من الخطية)»
(غل ٤ : ٣١)؛ «فاثبتوا إذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية
(الناموس).» (غل ٥ : ١)

وهكذا، بحذق روحي مذهش ومهارة فائقة بمنطق فريسي متنصّر، يردُّ بولس كل اليهود
الرافضين للمسيح إلى هاجر كأولاد للجارية، كعبيد الخطية المحكوم عليهم من الناموس —
وهم المتمسكون به — بالطرد من البيت والحرمان من الميراث.

أما الذين قبلوا المسيح وتحرروا من نير الخطية الذي بالناموس فردَّهم إلى سارة وإسحق
كأولاد شرعيين لميراث إبراهيم في الله: «إن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم،
وحسب الموعد ورثة.» (غل ٣ : ٢٩)



الأصحاح التاسع

مكان البشارة
ثامناً (تابع) :
في أورشليم
في عيد التجديد
(٩ : ١ - ١٠ : ٣٩)

مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر

نحن الآن في الشتاء، وقد انقضى ثلاثة أشهر على موسم عيد المظال الذي احتفل به اليهود من ١٥-٢٢ من شهر تشرى الموافق سبتمبر / أكتوبر. وقد اختص الأصحاح السابع ومعظم الأصحاح الثامن بتعاليم المسيح ومحاوراته مع اليهود، والمناسبة لطقوس وقراءات هذا الموسم. ولم يذكر الإنجيل أن المسيح غادر أورشليم، بل ظلَّ يعلم فيها وفيما حواليتها. حتى جاء موسم عيد التجديد ٢٥ كيشلو الموافق ديسمبر والذي يستمر لمدة سبعة أيام، وابتدأ المسيح يعطي تعاليمه المناسبة لاحتفالات هذا العيد.

عيد التجديد:

يبدأ ذكر عيد التجديد في الأصحاح العاشر عدد ٢٢. ويلاحظ أن ق. يوحنا بعد أن يسرد القصة وتعاليمها، يعلق عليها إما من الوجهة الروحية أو التاريخية أو المكانية، وهنا يأتي التعليق تاريخياً ومكانياً، أي أن التعاليم والحوادث التي حدثت على مدى الأصحاحين التاسع والعاشر وحتى العدد ٢٢ كانت في زمن عيد التجديد وفي الهيكل.

«وكان عيد التجديد في أورشليم وكان شتاءً، وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان.» (يو: ١٠: ٢٢ و٢٣)

وقد احتار علماء الكتاب المقدس في تفسير «وكان عيد التجديد» ἐγένετο δέ، والتي جاءت في مخطوطات أخرى منها الطيبية القبطية Thebaic، والأرمنية Armenian: ἐγένετο τότε وقد أخذ العالم وستكوت بالنسخة الطيبية وترجمتها: «وفي ذلك الحين» كان عيد التجديد»، مما يفيد أن هذا التوقيت يختص بكل ما سبق سرده، بعكس ما أخذه العلماء الآخرون ἐγένετο δέ على أنها: «وكان قد صار» أي أن التوقيت يختص بما سيحيي من الكلام.

ونحن نأخذ برأي وستكوت، لأنه واضح فيه الصحة والدقة، فإن تعاليم المسيح التي قَدَّمها ق. يوحنا في الأصحاحين التاسع والعاشر تختص بالفعل بطقوس عيد التجديد ومعناه.

وعيد التجديد يأتي ذكره في سفر المكابيين الثاني ١ : ٩، وهو خاص بذكرى انتصارات المكابيين لمدة ثلاث سنوات (١٦٧-١٦٤ ق. م)، وفيه يذكر طرد يهوذا المكابي للسوريين الذين نجَّسوا مذبح المحرقة بإقامة صنم بعل «شاميم»، الذي اعتُبر أنه «رجسة الخراب» التي تكلم عنها دانيال النبي (٢٧: ٩)، والتي ذكرها المسيح في إنجيل القديس متى ٢٤ : ١٥ على أنها ستتكرر لتكون علامة خراب الهيكل وأورشليم، وقد تمت هذه بالفعل في أيام الرومان سنة ٧٠ م. وقد بنى يهوذا المكابي المذبح من جديد ودُشِّن الهيكل كله في يوم ٢٥ من شهر كسلو (١ مكأ : ٤١-٦١)، وصار يُعَيَّد كل سنة لتذكُّر تجديد المذبح والهيكل.

والاسم اليهودي لعيد التجديد هو «حَنُوكَا» والتي تعني التدشين (أي المسح بالزيت = حَنُك بالتعبير العربي العامي)، وبال يونانية ἑγκαίνια أي التجديد.

وكان اليهود يسمُّون هذا العيد بعيد الأنوار، وعيد مظال (مِظْلَّة) شهر كسلو، معتبرين أن تجديد الهيكل هو إعادة عودتهم تحت مظلة = خيمة الله، أو عودة حلول الله في وسطهم، كما في أول خيمة في البرية وفي تدشين هيكل سليمان حينما حلَّ الله ببهائه وملاً الخيمة أو الهيكل. وهذا في الحقيقة كان رمز قرب مجيء الرب بالفعل وحلوله في وسط إسرائيل = «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت ١ : ٢٣)، ولكن ليس لكي يبني ويدشِّن خيمة من جلدٍ أو هيكلًا من حجر وتحف، ولكن ليدشِّن جسده هيكلًا سماوياً يجمع فيه وإليه كل مفديي الله ومختاريه منذ أول الدهور وإلى آخر الزمان. وقد أقام هيكله هذا لا في أورشليم ولا في جِريزيم، ولكن على جبل صهيون الحقيقي، في مدينة الله، أورشليم العليا المزينة بقديسيها من أرواح مكَّملة بالمجد، وربوات هم محفل ملائكة (عب ١٢ : ٢٢ و ٢٣) وكنيسة حية على الأرض تصل أخبار كرازتها إلى السماء أولاً بأول : «لكي يُعرَف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة...» (أف ٣ : ١٠)

أما العلاقة بين تعاليم الرب التي جاءت في هذين الأصحاحين وبين طقوس هذا العيد ومعناه، فكانت تتركز في الربط بين آمال اليهود الملتهبة التي تثيرها ذكرى انتصارات المكابيين وتخليص الأمة اليهودية من أعدائها، وبين موضوع الخلاص الذي ينادي به المسيح كقائد النور والخلاص الأبدي الذي خلَّص خرافه ودشِّن هيكله بدمه، وحيث كان يملأ الهيكل أصداء ترانيم العيد التي

تذكر جميع مواقف نجاة وخلاص الشعب في السابق، ودعاء وصلاة من أجل خلاص في الحاضر.

وبينما كانت تُضاء جميع الأنوار في الهيكل، لأن هذا العيد كان يُدعى عيد الأنوار، وقف المسيح كالعادة يقول: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» (يو ٩: ٥). وحينما كان يُفتح باب الخراف في الهيكل لتدخل خراف العيد للذبائح اليومية، وقف المسيح يقول: «أنا هو باب الخراف» للهيكل الجديد، «كما هو مكتوب إننا من أجلك نُثَمَّت كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح.» (رو ٨: ٣٦)



الأصحاح التاسع

التطابق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية

الأعمى المستنير^(١)

[وهبت النظر للعميان] (القداس الغريغوري).

[يا من فتح أعين العميان افتح عيون قلوبنا] (القداس الكيرلسي).

أ - آية تفتيح عيني المولود أعمى : (٩ : ١ - ٧).

٩ : ١ - ٣ « وفيما هو مجتاز، رأى إنساناً أعمى منذ ولادته. فسأله تلاميذه قائلين : يا معلّم من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلِدَ أعمى؟ أجاب يسوع : لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه ».

« من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلِدَ أعمى » :

سؤال يحير العالم كله قديماً وحديثاً. ولكن إذا أخذنا بالعناصر الأساسية في موضوع الخطية والألم والعقاب، ربما نصل إلى أن حلّ السؤال ليس هيئاً. فهو سؤال مبتور، له أصول وفروع، وبداية واحدة ونهايات لا حصر لها.

البداية هي الخطية التي دخلت عالم الإنسان ودخل معها العقاب والألم والموت. أما الأصول التي ترتبت على دخول الخطية فمنها الطبيعي مثل :

١ - أن الإنسان فقد وضعه الروحي وعِشْرَتَه مع الله، التي كانت تحجب عنه عوامل الطبيعة المؤذية التي وقع فريسة لها : من مؤذيات حيوانية وحشرية وطفيليات وبكتريا وفيروسات لا حصر لها، بالإضافة إلى المؤذيات النفسية من تجوّر الإنسان والظروف المحيطة.

٢ - عوامل الزمن الذي يتعاهد مع المؤذيات الأخرى في سرعة شيخوخة خلايا الإنسان،

(١) إنجيل المولود أعمى يُقرأ مرتين في السنة :

— في الأحد السادس من الصوم الكبير، وهو أحد التناصير أي المعمودية، وهذا دليل على ارتباط هذا الإنجيل بالمعمودية في تقليد الكنيسة الأولى.

— وفي الأحد الرابع من شهر طوبة بعد عيد الغطاس، وهذا أيضاً بسبب ارتباط هذا الفصل بالمعمودية.

لترجيح كفة الهدم على كفة البناء في فيسيولوجيا أعضاء الإنسان، حتى يقع صريعاً للمرض والشيخوخة ثم الموت.

٣ - عوامل المعيشة، إما في بذل الجهد الزائد للحصول على لقمة العيش، حيث يبلغ الجهد فوق طاقة احتمال أجهزته العصبية والنفسية، فيمرض الإنسان و يتألم ويموت. وإما بعدم بذل الجهد اللازم، فيجوع الإنسان، ويتألم، ويمرض، ويموت. وإما لا جهد بالمرة، فتتلف أجهزة الإنسان ويمرض ويتألم ويموت.

٤ - عوامل كونية يتأثر بها الإنسان أشد التأثر، مثل البراكين والزلازل والحرائق الطبيعية والأوبئة والحروب والجفاف والحرارة والبرودة والمجاعات بأسبابها الكثيرة، ويستحيل على العالم أن يوجد بدونها، فهي لوازم كونية تجذده بأكثر مما تضره. فإن كان الإنسان قد وقع تحتها لأنه خرج بحريته من حضرة الله الحافظة له، فالله لا يلام في ذلك؛ إلا أن هذه الآلام الطبيعية جزء لا يتجزأ من تاريخ تطور حياة الإنسان إلى أفضل.

ولكن هناك أنواع من الآلام يجربها الإنسان على نفسه وعلى غيره ويتحمل عواقبها وأضرارها الشديدة: كأن يأكل ما يضره سواء في الكم أو النوع، أو يشرب ما يؤذيه كالخمر وغيرها، أو يتعاطى المخدرات بأنواعها، أو يعاشر المرضى بأمراض جنسية، فتجرب عليه أنواعاً من الأمراض والآلام، لا قبل له بها، بل وتتسبب في توريث نسله أنواعاً من العاهات لا حصر لها. فالسيدات الحوامل إن كنَّ تعاطين هذه المؤذيات وَلَدْنَ أطفالاً مشوهين بكل أنواع التشوهات الجسدية، ومنها العمى والخرس والصمم والشلل، الذي أصيب به ملايين البشر.

ولكن هناك أنواع مماثلة تماماً لمثل هذه التشوهات يولد بها الأطفال، ولم يكن الإنسان سبباً فيها سواء من جهة الأب أو الأم، حيث تكون التوليفات الجينية في خلايا الجنين فاقدة لعناصرها السليمة المطلوبة، وهذه تُحسب كإخفاقات في قوانين البيولوجيا الوراثية. وهذه تُحذف من مسؤولية الإنسان لتُضاف لحساب مسؤولية الله، مثل حالة هذا الإنسان المولود أعمى الذي لم يسأل المسيح ولا سأل التلاميذ أن يُشفى، بل إن المسيح تقدم من نفسه لشفائه إذ حمل مسؤولية عمى هذا الأعمى. لهذا قال لتلاميذه: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه»، أو بوضوح أكثر: ليظهر نموذج عمل الله فيه!!

ولكن لا يزال السؤال المحير: ما ذنب هذا الأعمى وغيره من الذين وُلدوا مشوهين لأي سبب كان؟ لماذا يتألمون ويُعانون من الحزن والأسى والحرمان، مما يجرح نفوسهم ويعصر مشاعرهم،

و يلزمهم الأنين واجترار المرارة كل أيام حياتهم؟؟

لقد قلنا إن السبب المباشر لهذه التشوهات هو إخفاق في قانون التحام الجينات والمواريث، وقلنا إن الله يتحمل مسئولية هذه الإخفاقات؛ وبالفعل فإننا نجد أن الطبيعة تتبرع من جهتها بعملية تعويض تساوي النقص الذي هي متسببة فيه، كما يتبرع الله من جهته بعملية تعويض تفوق النقص وكل ما ينتج عنه من الآلام مئات المرات!!

تعويض الطبيعة:

قبل كل شيء يلزم أن نعرف أنه لا يوجد في الخليقة أو المخلوقات جميعاً قانون لا يقبل الخطأ، فالخطأ في قانون الطبيعة هو قانون. لأنه لا يوجد الكمال المطلق إلا في الله. وكل قاعدة لها استثناء، والاستثناء يُثبت القاعدة. ولكن لكي تحمي الطبيعة نفسها من امتداد الخطأ، فإنها تقوم بتعويضه لكي تتلافى طغيانه، ولكي تُثبت القاعدة. فإذا وُلد مخلوق ناقصاً في تكويناته العضوية لسبب طبيعي، فإن القوة الشاملة المخصصة لأعضائه تتوزع على باقي أعضائه، فتزداد باقي أعضائه كفاءة عن معدلها الطبيعي. فلو أخذنا مولوداً فاقد البصر، فإن حواسه الأربعة الباقية تزداد كفاءتها لتصبح كفاءة الأربع الحواس تساوي كفاءة خمس حواس عادية. ولكن قد تحتاج هذه الزيادة إلى تمرين أو تشجيع أو صبر لكي يظهر إمتيازها. وهكذا إذا فقد حاستين أو ثلاثاً، أو حتى أربعاً!! كما سمعنا عن الأنسة هيلين كيلر الواعظة والمبشرة العالمية التي كانت لا تملك من الحواس جميعاً سوى حاسة اللمس.

ولكن ليس هذا هو باب التعويض الوحيد في الطبيعة. فالطبيعة سبق وأن احتاطت لمثل هذه النقصانات في كيان الأفراد، بأن أضافت إلى باقي المجتمع الحيواني والإنساني، بوجه خاص وفائق، امتيازات إضافية للأصحاء تفوق حاجتهم. فالأم الصحيحة بوجه عام استودعتها الطبيعة من الحنو والعطف والصبر والاحتمال، وكل مواهب الأمومة بوجه عام، ما يفوق حاجة تربية أولادها مهما بلغوا من الكثرة. فتوجد أمهات ممتازات في أمومتهم تستطعن، إذا شئن، تربية مائة طفل أو مائتين أو ربما ألفاً من الأطفال. كل هذا منحه الطبيعة لأولئك، احتياطاً لتلافي عجز أمهات أخريات، أو تيسم أولادهن، أو تشوه أولاد آخرين. ومثل الأم كذلك الأب، إذ يوجد آباء لهم مواهب فائقة للغاية. فإذا جمعنا المواهب الممتازة والفائقة عن الحاجة في الطبيعة، لوجدناها في جملتها على أقل تقدير تساوي العجز المتولد من إخفاقات قوانينها!!

وبهذا يمكن تبرئة الطبيعة من أخطاء قوانينها، على أساس قانون التعويض الاحتياطي. وأصبح

على الإنسان المعوق بأي تشويه أن يطالب الطبيعة بحقه الكامل، على أساس التعويض فيما بقي له من أعضاء وإمكانات، وذلك بالجهد والمجاهدة، والتمرين والمِرَاس، والصبر، وروح الإنتصار. كما أصبح على المجتمع الإنساني أن يفرز مواهبه الممتازة والزائدة لخدمة وتعويض أعضائه المحرومين، سواء بالعلم الحديث، أو فنون التأهيل التي بلغت آفاقاً مذهلة بواسطة التكنولوجيا الحديثة. والأمثلة الناجحة في تطبيق هذا المبدأ تملأ الأقطار وتبرهن على صحة هذا الكلام.

تعويض الله:

في البدء يلزم أن نفهم أن الحياة هبة من الله مُعْطِيهَا، والهبة لا تُصبح حقاً لمن أُعْطِيَتْ له. فهي هبة، وتظل هبة، إلى أن تعود إلى الله واهبها. وبالتالي فإن كل أجهزة هذه الحياة من صحة جسدية ونفسية بكل أعضاء وحواس الإنسان، هي كذلك هبة؛ أي أنها ليست حقاً من حقوق الإنسان، إذا أخذها بالكامل؛ أما إذا نقص شيء منها، فهذا ليس سلباً لحق من حقوقه. لذلك أصبح على الكامل أن يشكر فيما وهب له وإلا يُؤخذ منه، كما أصبح على الذي افتقد شيئاً من أعضائه أن يشكر على ما أخذ وإلا يُفقد ما بقي.

هذا بالنسبة للإنسان تجاه الله. أما بالنسبة لله تجاه الإنسان، فالله هو بمثابة الوالد للإنسان ولا يزال يحمل همّه، يُرَضِّعُه الحياة قطرة قطرة، كما ترضع الأم طفلها ليعيش. والله يحس بأحاسيس الإنسان، وليس ذلك فقط بل ويشارك الإنسان في أحاسيسه: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلّصهم.» (إش ٦٣: ٩)

فإذا كان الأب أو الأم يعتني بولده أو تعتني بولدها المعوق والضعيف أكثر من السليم المُعافى، فهذا هو امتداد لصفة الله، وصَدَى عمل طبيعته في الإنسان. هنا يصعب علينا سرد مراحم الله وحنانه ولطفه وإحسانه على الضعفاء والمعوقين، كما يصعب علينا تحديد أنواع مراحمه، وأنواع ألوان حنانه لكل إنسان حسب حالته واحتياجه، يكفي أن نؤكد من واقع آية إشعياء السالفة وغيرها أن ملاكاً خاصاً مُرسلاً من الله يُعِينُ هؤلاء الضعفاء والمتضايقين في كل ضيقهم: «(في الضيق دعوتُ فَنَجِّيتُكَ)» (مز ٨١: ٧)، «(معاً أنا في الضيق، أُنْقِذُهُ وَأُجَدِّدُهُ.)» (مز ٩١: ١٥)

والسؤال هو: هل الأفضل للإنسان أن يكون الله بنفسه هو العامل عَوَضَ العضو الناقص في الإنسان، أم تكون الأعضاء كلها بدون الله؟ ثم بعد هذا، هل يمكن أن نوازن بين حزن الأعمى على فقدان بصره، وبين فرحه بحضور الله في حياته ينيرها ويهبها بصيرة تفوق كل أعوازه؟ وأيضاً

بعد هذا كله، يتحتم علينا وعلى كل معوّق أو مشلول أو ضعيف أو مَنْ فَقَدَ قليلاً أو كثيراً من مقوّمات الحياة الحاضرة بسنينها القليلة والشحيحة، أن يعلم أن حياة أخرى مفتوحة أمامنا بكل مباهج الروح، في ملء كمال حضور الله، وبعثى نعمته المتفاضلة، ليس فيها حزن ولا كآبة ولا تنهّد فيما بعد.

لذلك، فحينما تقدّم الرب من تلقاء نفسه ليشفي المولود أعمى، ثم بعد ذلك يُعدّ له مقابلة في الهيكل حيث يدعو للإيمان بابن الله، فيؤمن، ويسجد له، فما هذا إلا آية ونموذج رائع لموقف الله — في النهاية — من المعوّق أيّما كان.

٩: ٣-٥ «أجاب يسوع: لا هذا خطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه. ينبغي أن أعمل أعمال الله الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دُمْتُ في العالم فأنا نور العالم».

الرب هنا جعل حالة هذا الإنسان المعوّق وأمثاله فرصة لكي تظهر أعمال الله فيه، وما عمله المسيح له هو نموذج لأعمال الله من نحوهؤلاء؛ عطفت وعبة فعالة، وتبّني هذا النقص وتحمل تعويضه بصورة عملية مذهلة. وإن كانت الوسيلة هي بحدّ ذاتها معجزة، ولكنها في جوهرها إعادة تصحيح ما أخفقت فيه قوانين الطبيعة والتوريث الجيني والتحام الأصول من الأب والأم. هنا الخالق يصحح ويُعيد نواقص الخلقة، ولكن المسيح يقّدّم هذه المعجزة — في الجسد — كآية لمعجزة أعلى — في الروح — فالرب لم ينزل من السماء لتصحيح نواقص خلقة الإنسان الجسدية، وإنما قدّم تفتيح عيني الأعمى لرؤية العالم كآية لتفتيح قلب الإنسان لرؤية الله. فما دام المسيح في العالم فهو حتماً يعطي من ذاته ما يختص بحياة الإنسان في العالم. فالمسيح هو «النور» بكل مفهومه وعمله على كل مستوياته. فإن كان «النور الحقيقي» الذي يضيء الأبدية قد نزل إلى العالم، فهو حتماً يكون نور العالم أيضاً، أي لا بد أن يحقق ذاته في حياة الإنسان في العالم، ويعطي البرهان أنه «النور» على مستوى الرؤية في العالم. وهذا تم بالحرف الواحد في الأعمى الذي أصبح يرى نور العالم، إذ أثبت المسيح نفسه وكيانه الإلهي الخفي بإعطاء هبة النور المنظور، وتحقّق أن المسيح هو حقاً «نور العالم» حينما نزل إلى العالم. فإن كان بتفتيحه عيني الأعمى قد برهن على أنه واهب النور للعالم، فحتماً وبالضرورة يكون هو «النور الحقيقي».

فإذا دققنا النظر، وجدنا أن معجزة تفتيح عيني الأعمى هي أصلاً وبالأساس لا تخص الأعمى، ولكن الرب استخدمها لعمل عملية توضيحية Demonstration أثبت فيها بالنهاية أنه

«الكلمة» الخالق الواهب للنور للعالم. وقد جاء للعالم ليكمل عمل الآب في الخليقة، بإعطاء أو خلق عيون روحية جديدة للإنسان، يرى بها الله ونور الحياة الأبدية، وذلك بالفداء الذي أكمله للإنسان بذبيحة نفسه، رافعاً حجاب الظلمة الذي كان يحجز رؤية الإنسان لله.

وهكذا ينتقل المسيح بواسطة عملية تفتيح عيني الأعمى من الرحمة المنظورة المقدمة من الله نحو المستعوقين المتألمين الجالسين في ظلمة العالم، إلى عمل رحمة الآب — بواسطة المسيح الذي أرسله خصيصاً — من نحو الخطاة الجالسين في الظلمة وظلال الموت.

«ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار»:

قصة تفتيح عيني الأعمى المولود هكذا كانت نموذجاً دفع به أمام المسيح لكي يُظهر فيه أعمال الله الآب، أي يُظهر مجد الله الآب، الذي وُضع للمسيح أن يشتعلنه ويتمجد به — تماماً كموت لعازر. فالآلام المولود أعمى كانت على مستوى مرض لعازر الذي أدّى إلى الموت، وهذا وذاك: «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليعتقد ابن الله به» (يو ١١: ٤). فتمجيد الله واستعلان مجد المسيح هو أساس المعجزتين! وعلى مستوى ما تم في عرس قانا الجليل: «وأظهر مجده فأمن به تلاميذه». (يو ١١: ٢)

كانت حياة المسيح في العالم هي نهار الإنسان الذي أشرق في الظلمة. ومنذ أن خرج آدم مطروداً من الفردوس، والليل يغطي العالم، والظلمة تلف البشرية من كل جانب، وطال ليل الإنسان جداً... إلى أن نادى مناد من السماء: «إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مُخلص هو المسيح الرب» (لو ١١: ٢). لقد ظل المسيح يعمل طول هذا النهار أعمالاً كثيرة حتى أكملها، قبل أن تغرب شمس يوم الصليب. كانت هي فرصة الإنسان منذ خمسة آلاف سنة ويزيد، وفرصة الله، بأن واحد منذ ملايين السنين. كان هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، وكان يوم خلاص، وساعة قبول. أما الإنسان فقد ضيّع ساعات هذا النهار التاريخي الجميل في مناقشات وحقائق، أكملها بذبح النور على مذبح الظلمة؛ هكذا تهيأ لمجانين الأرض. أما الله فقد غطى كل ساعات هذا النهار بأعمال وأقوال مضيئة ومُحيية، لا يزال العالم يرددها ويتمنّئها، ولن يتسع عمر الإنسان، مهما طال، أن يبلغ أعماقها أو نهايتها التي لم يُسمع بمثلاً قط، واختتمها بذبيحة المحبة. لقد أتى الليل فجأة، واختتم المسيح أعماله على الصليب، ورفّع في مجد، وظل الإنسان يشتهي يوماً من أيام ابن الإنسان!!

«يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل» (٢):

نحن لا نزال نستمتع بنهار المسيح، فالأعمال التي عمل حيةً فينا، تعمل وتتكلم. والكلمات التي قال نُحيي قلوبنا كل يوم وتُشَدَّد. ومراحه تتجدد علينا كل صباح بإشراق نعمته في قلوبنا، فتُجَدِّد فينا نهار المسيح بكل نوره وبهجته، فنعمل ونعمل. ولكن، حتماً، سيأتي ليلنا نحن، حين لا يَدُّ تتحرك، ولا رِجْلُ تمشي، ولا عَيْنٌ تنظر، ولا أُذُنٌ تسمع، ولا لسانٌ يتكلم، ولا عمل يُعمل.

فنهـار المسيح حياتنا، فيه نعمل عمله ونكمله، وحينئذ يأتي ليلنا نحن حيث لا عمل، بل مجازاة في نور المسيح الأبدى. وإن كان نهار المسيح بداً قصيراً جداً، فنهار حياتنا أقصر، يستغرقه ملعب الصبوة، فيضيع إشراق صباحه في لَهْوٍ بلا معنى. وما أن يَفِيْقَ الإنسان ليدرك هدف مساره، حين تنضج خبرات الرجولة فيه، حتى تداهم الشيخوخة بخباها، فيُضَيِّع ما جمع، ويقف في الغسق يودّع حياة ما أن بدأت حتى انتهت، لا يُحْمَلُ منها إلا زائد الصلاة وزِقُّ الدموع، لسَفَرٍ طويل في سِرْدَابِ الظلمة المُعْتِمِ، إلى أن يُشرق عليه نهار اليوم الجديد.

يا إخوة، إن نهارنا قصير، والعمل أمامنا جسيم، فافْتَدُوا الوقت لأن الأيام شريرة، وما أشقانا بأنفسنا إن لم تَغْتَنِي بالرب.

«ما دمتُ في العالم، فأنا نورُ العالم»:

هذه الآية يصعب شرحها إلا إذا رجعنا إلى النص اليوناني، لأنه فريد في نوعه. فهو يحذف ضمير المتكلم «أنا»، كما يحذف «ال» أداة التعريف في «النور»:

ὅταν ἐν τῷ κόσμῳ ὦ, φῶς εἰμι τοῦ κόσμου.

وترجمتها الحرفية: «طالما كنتُ في العالم فنوره أكون». وحذف «أنا» له أهمية كبيرة في المعنى، إذ أصبح التركيز في الآية ليس على شخص المسيح بمعنى استعلانه «أنا»، ولكن على عمل المسيح «أكون» نوره. كذلك في حذف أداة التعريف في «النور»، يصبح تركيز المعنى ليس على «النور» المطلق في كيانه وعمله، ولكن على نور جزئي معرفٍ بالعالم، أي أن التركيز على عمل المسيح كنورٍ في العالم.

وهكذا يصبح المعنى الكلي للآية ملتزماً بالتركيب اللغوي لها. وتصير الآية تختص بعمل المسيح كنورٍ العالم، في فترة وجوده الزمني في العالم. وهذا المعنى يزداد وضوحاً ودقة، إذا علمنا أن بعد

(٢) ارجع إلى المدخل ص ١١٩-١٢٢: «مقياس النور في إنجيل يوحنا».

وانظر أيضاً ما سيأتي عند شرح الآية (يو ١١: ١٠ و ١٠: ٢٥). وأيضاً (يو ١٢: ٢٥).

قول المسيح ذلك أجرى معجزة تفتيح عيني الأعمى مباشرة! وهكذا ينصبُّ المعنى بمقتضى الآية في كيف يمكن أن نفهم أن المسيح، على المستوى العملي، هو للإنسان «نور الحياة»، وأنه للأعمى «أضياء في الظلمة»، وأنه لليهود «والظلمة لم تدركه». وهذا كله هو عمل المسيح في العالم. صحيح أن الشمس تضيء العالم، ولكن لا قدرة لها أن ترسل أشعتها داخل مُقَلَّة الأعمى أو قلب الجاهل!! وهكذا يظل الإنسان «يحيا الظلمة» في الداخل والخارج، وهو تحت الشمس يسير. أما المسيح فهو النور الذي ينفذ إلى أعماق الظلمة، فيبذرها «فيحيا الإنسان النور»، وتصير حياته أكثر ضياءً من نور الشمس، لأنه يستمد النور من المصدر الذي تستمد منه الشمس نورها: «أنتم نور العالم... فليضيء نوركم هكذا قدام الناس...» (مت ٥ : ١٤ و ١٦)، «والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد (السماء)، والذين ردُّوا كثيرين إلى البرِّ كالكوكب إلى أبد الدهور.» (٣ : ١٢ د)

٧ و ٦ : ٩ «قال هذا وتقلَّ على الأرض وصنَّع من التفل طيناً وطلَّى بالطين عيني الأعمى. وقال له: اذهب اغتسل في بركة سلوام، الذي تفسيره مُرْسَلٌ "Sent". فمضى واغتسل وأتى بصيراً».

الآية في مضمونها الإلهي تشير إلى عملية خَلْق أو على وجه الأصح عملية «خِلْقَة تصحيحية». فكلُّ عمليات الشفاء التي أجراها المسيح تدخل تحت بَثْد «الشفاء من المرض»، أما تفتيح عيني الأعمى المولود بدون مُقَلَّتَي العين فهي ليست شفاءً. فنحن هنا لسنا أمام طبيب البشرية الأعظم يسوع، بل نحن بصدد عملية خَلْق، وأمام خالق.

والتركيز الأساسي في لغة الآية واقعٌ على كلمة «الطين»، لأن المقصود هو نقل عقولنا إلى سفر التكوين وكيف خَلَقَ الله الإنسان من «تراب الأرض». وفي مواضع كثيرة يذكر الوحي الإلهي «التراب»؛ الذي صيَّره الله طيناً قبل أن يُشكِّل الإنسان:

+ «يداك كوْنَتانِي وصنعتانِي، كُلِّي جِيعاً، أَقْتَبِلُني (بغضبك)، اذكر أنك جَبَلْتَنِي كالطين، أَفْتَعِيْدُنِي إلى التراب.» (أي ١٠ : ٨ و ٩)

+ «روحُ الله صَنَعَنِي ونَسَمَة القدير أحيَتْني... أنا أيضاً من الطين تَقَرَّصت.» (أي ٣٣ : ٦ و ٤)

+ «والآن يا ربُّ أنت أبونا، نحن الطين، وأنت جَابِلُنَا وكلنا عمل يديك.» (إش ٦٤ : ٨)

لقد وُلِدَ الأعمى بدون عَيْنين، وكان الطين الذي جُبِلَ منه تنقصه الصياغة. إذ لما شَكَّلَ الأعمى في بَطْنِ أمه سُهيَّ على الطبيعة أن تمَّذَّه بمُقَلَّتَيْن. لقد أخفق قانون التوريث والتوليد في أن

يعطي صورة الكمال حسب الرسم. والمَرْجَعُ لوضعه، فهو يصحح ما نُقِصَ من صورته. وكان عجنة الطين عادت إلى يَدِ خالقها الأول يشكّل لها من ذات الطين عَيْنين.

والملاحظ أن جميع الآيات التي فيها فَتَحَ المسيحُ أعينَ العُمي، لم يكن فيها أعمى واحد وُلِدَ من بطن أمه ناقص المَقْلَتَيْنِ، فاكتفى المسيحُ بأن يمسح العينين المكفوفتين بريقه فانفتحتا ورأتا النور: «فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية وتفل في عينيه، ووضع يديه عليه، وسأله هل أبصرَ شيئاً، فتطَلَّع وقال: أبصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضاً على عينيه وجعله يتطلع، فعاد صحيحاً، وأبصر كلَّ إنسان جلياً.» (مر ٨: ٢٣-٢٥)

أما هذا الأعمى المولود ناقص الخلقة، فالمسيح وقف منه موقف الخالق وجَبَلَ له من الطين ما نُقِصَ لجُبلته. وانصاع الطين ليدِ النور الإلهي الخالق، فاستنار.

والآن نأتي إلى استخدام الريق أو اللُثاب («تَقَلَّ على الأرض»)، فإذا علمنا أن لُثاب الإنسان يحوي من الميكروبات ما يكفي لإمراض أي عين سليمة، وأمامنا الآن أن لعاب المسيح استرجع عيناً سليمة بكامل صحتها، أدركنا سر الحياة والصحة الكائنة في جسم الرب ولُعابه بنوع خاص. فالرب نقل إلى الأعمى الفاقِدَ مُقْلَتَيْهِ «سر الحياة الجسدية السليمة والكمال»، لتصحيح الصورة الجسدية المشوَّهة، لينطبق المثلُّ على المثل، وليعود الإنسان بمثل الصورة الجسدية الكاملة للمسيح. فلو رَجِعْنَا إلى تقليد الآباء القديسين في فهم كيف خلق الله الإنسان في البدء من التراب، الذي حوَّله الرب الإله إلى طين، لأدركنا مدى انطباق ذلك على عمل المسيح بالنسبة للأعمى: «اذكر أنك جَبَلْتَنِي كالطين، أَفْتُعِيدُنِي إلى التراب؟ ألم تُصَبِّني كاللَّبَنِ وخَشَرْتَنِي كالجُبْنِ، كَسَوْتَنِي جِلْدًا ولَحْمًا فَتَسْجُتَنِي بعظام وعَصَبٍ، مَنَحْتَنِي حَيَاةً وَرَحْمَةً وَحَفِظْتَ عَنَايَتَكَ روحي. لكنك كَتَمْتَ هذه في قلبك. علمتُ أن هذا عندك.» (أي ١٠: ٩-١٣)

فأيوب هنا يكشف كيفية ما تم في عملية الخلقة من درجات، التي أخفاها الله في قلبه، ولكنه أَغْلَمَهَا لأَيُوب. ومنها نفهم أن عملية الخلق قمت على نمط نُمو الجنين في رَحِمِ الأم، حسب الصورة والمثال الذي كان في فكر الله. والآن كان أمام المسيح، الأعمى الفاقِدَ مُقْلَتَيْهِ، وكان هو المثال الكامل والصحيح. فالمسيح أخذ من المثال سر الكمال، ووضعه في الصورة لكي يقبل الأعمى سِرَّ النورِ العاملِ في جسم الإنسان الترابي، الذي كان يَنْقُصُ خِلْقَتَهُ.

«وقال له: اذهب اغتسل في بركة سلوام — الذي تفسيره مُرْسَل — فمضى واغتسل، وأتى بصيراً»:

قصة بركة سلوام قصة تحوّلت إلى قضية ضد ق. يوحنا وإنجيله على مدى مائة عام من النقد المرير. فهذه البركة رُدمت منذ زمان بعيد جداً، وضاعت معالمها كلية، فاتخذها الثّقاد تَكْأَةً لنقد صحة الإنجيل بجملته، معتبرين أن ق. يوحنا لا يعرف جغرافية الأرض التي يكتب عنها، وإنما يؤلف أسماء ومسمّيات من عنده. علماً بأن القديس جيروم (إيرونيْموس) رآها رؤيا العين وكتب عنها في شرحه لسفر إشعياء (٦: ٨). وفي حفريات أواخر القرن الثامن عشر اكتُشِفَت البركة واكتُشِفَت القناة: «وبقية أمور حزقيّا وكل جبروته وكيف عمل البركة والقناة وأدخل الماء إلى المدينة أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك يهوذا» (٢ مل ٢٠: ٢٠)، هذه القناة التي تحت الأرض التي تسحب المياه من النبع العالي المسمّى الآن نَبْع مَرِيم (*). وقد حُفِرَت هذه البركة بقصد توصيل المياه داخل أسوار أورشليم منذ زمن بعيد ربما منذ أيام سليمان. وقد ذكرها إشعياء النبي تحت اسم «مِيَاهُ شِيلُوهُ، أو شِيلُون» (إش ٦: ٨). ومعنى الكلمة بالأرامي «مُرْسَل»، لأنها ليست مياه نابعة من مكانها، بل منحدرّة ومُرْسَلَةٌ إليها من نبع آخر أعلى. لذلك سمّاها إشعياء النبي مياه شيلوه، أي مياه مُرْسَلَةٌ، أي مياه جارية، لأنها كانت ترتفع وتنخفض مرتين في اليوم. وهي مياه عذبة جيدة للشرب وكانت تسقي حدائق الملك في وادي قدرون، قبل أن يلتحم في وادي يهوشافاط. ويلاحظ أن الاسم العربي لبركة «سلوام» هو «سِلْوَان». وجدران هذه البركة ملتحمة في الجدار الجنوبي للمدينة. والمكان الآن قد تحقق منه علماء الآثار أنه الحافة الجنوبية لجبل صهيون ومدينة داود.

وكانت بركة سلوام ذات اتصال وثيق بخدمات الهيكل، لأن مياهها اعتُبرت مياهاً مقدسة، وكانت تُحتسب أنها مثيلة بالمياه التي نَبَعَت من الصخرة في سيناء، لذلك كانت تُستخدم في طقوس عيد المظال على أساس هذا المعنى.

وعندما أمر الرب المولود أعمى أن يذهب و يغتسل في بركة سلوام، كان وراء هذه الإرسالية معانٍ، فالإغتسال بالمياه المقدسة في المفهوم الإنجيلي هو بحثٌ ذاته المعمودية (٣). ومعروف في العهد الجديد أن اسم المعمودية السريّ أو الروحي هو «الاستنارة» (٤)، فالمعمودية هي سر الاستنارة.

(*) أنظر الصورة.

(٣) لذلك يُقرأ إنجيل المولود أعمى في أحد التناصير (أحد المعمودية وهو الأحد السادس من الصوم الكبير).

(٤) ارجع إلى المدخل ص ٣٥٨.

وواضح أن هذا الضرير المحفوظ «أُرْسِلَ» أعمى، وعاد بصيراً، أرسل يتخبط في الظلام، وعاد في ضياء وملء «نور العالم». وكان ذلك يوم سبت!!

ب — الظلمة تطارد النور ولا تدركه، والنور يدين الظلمة:

١٢: ٨-٩ «فالجيران والذين كانوا يرونهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى، قالوا: أليس هذا هو الذي كان يجلسُ ويستعطي، آخرون قالوا: هذا هو، وآخرون إنه يُشَبِّهُهُ. وأما هو فقال: إني أنا هو^(٥). فقالوا له: كيف انفتحت عيناك. أجاب ذاك وقال: إنسانٌ يُقالُ له يسوعُ صنعَ طيناً وطلَى عينيَّ وقالَ لي اذهب إلى بركةِ سلوآم واغتسل. فمضيتُ واغتسلتُ فأبصرتُ. فقالوا له: أين ذاك. قال: لا أعلمُ».

لقد صار الأعمى آيةً بحدّ ذاته. لقد كان معروفاً لدى كافة جيرانه، لأنه كان يجلس في مكان عام مكشوف ويستعطي تحت أيدي الناس. والآن أصبح وجوده فوق العادة وفوق رؤية جميع الناس. وحينئذ بدأ البعض يُشكِّك في حقيقة الآية التي تمت فيه، ولكن كيف يمكن إخفاء الشمس، أو تُخفى الخليقة الجديدة التي وهبها المسيح كياناً من كيانه ووجوداً فعلياً من وجوده!؟

حينما صدّق الناس في رؤيتهم، قالوا: «إنه هو»، وحينما عميت بصيرتهم قالوا: لا «ليس هو». وينبري إنجيل يوحنا في إبراز معالم المسيح في الأعمى الذي يُبصر، فيجعله ينطق «أنا هو».

والقديس يوحنا يرمي بالمعاني إلى بعيد!!... أليس هو الأعمى الذي يحمل ريق المسيح ولمسات يديه؟ والآن، آن الأوان لينطق بلسانه، ويكشف عن أثر لمساته؟؟؟ أليس هو الخالق لعينه، والنور الواهب له نور الحياة؟ ألم يدخل الأعمى بذلك في زُمرّة الأغصان التي استمدت عصارتها من حياة الكرمة، ويصحّ فيه القول: أنتم نور العالم؟

صحيح أن الإمتحان — الذي دخل فيه صاحب العينين المخلوقتين جديداً — صعبٌ للغاية، لكنه لم يخطيء الرؤيا على كل حال: «إنسانٌ يُقالُ له يسوع». هنا الترجمة العربية معيبة، ينقصها التشديد والتعريف، وصحتها باليونانية: «الإنسان الذي يُقالُ له يسوع». فالأعمى يرى

(٥) «أنا هو» جاءت باليونانية ἔγω εἰμι، وإنجيل يوحنا يشير بهذا اللقب العالي إلى الإنسان الجديد أو الخلفة الجديدة في المسيح، باعتبار المعمودية والشهادة وحكم الجمع ضده: فهو قد ليس المسيح، والمسيح بضمه يتكلم.

هنا المسيح في وضع يفوق كل الناس الذين رأوه وعطفوا عليه... لقد قدم شهادة للمسيح تتساوى فقط مع لهفة السائلين، واحتفظ لنفسه في قلبه بشهادة أعلى بالنسبة لهذا الإنسان الفائق يسوع «إنه نبي». ولكنه قالها، عندما لزم التحدي!! وإنه «من الله»، عندما لزم الانحياز. ولما سأله: «أين هو»، ردّد ما يقولونه في ضمائهم: لا أعلم من أين هو، ولا أين هو!! كل الذي يعلمه الأعمى المُبصر عن يسوع، أنه هو صاحب الآية التي يحملها الآن في جسده!!

٩: ١٣-١٥ «فأتوا إلى الفريسيين بالذي كان قبلاً أعمى، وكان سبّت حين صنع يسوع الطين، وفتح عينيه. فسأله الفريسيون أيضاً: كيف أبصر. فقال لهم: وضع طيناً على عيني، واغتسلت، فأنا أبصر».

كلمة «الفريسيين» هنا نفهمها على أنها هيئة صغرى متفرعة من هيئة السنهدريم، لأن السنهدريم يُكنى عنه في إنجيل يوحنا بـ «الفريسيين ورؤساء الكهنة». وكان يوجد في أورشليم هيئتان متفرعتان من السنهدريم، كل هيئة منهما عددها ٢٣ عضواً، وكان لها حق المحاكمة والقطع من الجماعة (شعب إسرائيل) في القضايا الصغرى، وقد كُني عنها أحياناً بـ «اليهود» في مواضع من الإنجيل. وكان يوجد في كل المدن الكبرى هيئة مماثلة.

أما نوع التعدي على قانون حفظ السبت، فيراه الفريسيون حسب تحريجاتهم المنصوص عنها في كتاب الجمارا "Jeros. Gemara 14": «إنه تُحسب خطية لكل من يضع دواءً داخل العين». هذا بالإضافة إلى أن عجن الطين بالماء يوم السبت محسوب أيضاً أنه خطية "Sabbath 24:3"، وكذلك استخدام الريق أو اللعاب لعلاج العين هو أيضاً تعدّ. وبذلك يكون المسيح قد كسر السبت من عدة نواح. (١)

ولكن الرب، بحسب رؤيته الإلهية أن السبت لا يمنع الآب من أن يعمل، وهو يعمل عمل الآب بصفته ربّ السبت، أي الذي يقدّم له الاحترام والعبادة، لذلك، أقدم على شفاء الأعمى، العمل الذي أثبت به قطعاً صدق قوله وفكره أنه «ربّ لمجد الله الآب». (في ٢: ١١)

لقد تجاهل الرب قوانين الفريسيين، بل ونصّ الناموس أحياناً كثيرة، باعتبار أن حياة الإنسان وروحَه أعلى قيمة وأكثر أهمية من السبت وناموسه.

^١ Lightfoot, R.H., *op. cit.*, on John.

أما سؤال الفريسيين للأعمى البصير «كيف أبصر»، فكان ينصبُّ على العملية التي أجراها له المسيح من حيث خطواتها فقط، التي يرونها أنها مخالفة لقوانين حفظ السبت؛ أي لم يكن لهم أية رغبة في فحص نتيجة الآية. لا يهتمُّم أنه يرى الآن وقد كان مولوداً أعمى، ولكن الذي يهتمُّم جداً هو كيف انكسر السبت في عملية شفائه، وهذا هو معنى الانحراف بالناموس نحو الحرف، والحرف يقتل أو قتال، كما عزموا على قتل المسيح؛ أما الروح فيُحيي. فالناموس حرف، وكلامُ المسيح روح ونور وحياة.

عجيب حقاً أن يقف علماء وقضاة الناموس موقفَ القتلة، دفاعاً عن الناموس؛ ويقف الأعمى موقفَ النور والحق والحياة، دفاعاً عن المسيح.

وفي إجابة الأعمى البصير للفريسيين: «وضع طيناً على عيني، واغتسلت، فأنا أبصر»، نوعٌ من الحِذْقِ الماهر الماكر. لقد أسقط الأعمى عملية عجن الطين بالريق، وهي العملية الأولى الممنوعة في ناموس السبت، ثم أسقط عملية الذهاب إلى بركة سلوام التي فيها مسيرةٌ ربما تكون مُناقِضةً لأحكام السبت. وعلى العموم، فإن ردَّ الأعمى البصير فيه شعور واضح بالضيق، فقد اختصر القصة إلى مستوى التحدي. وسنرى في الآية ٢٧ كيف انفجر فيهم هذا البصير الذي كان أعمى ساخراً: «قد قلتُ لكم ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً، ألكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ.» (يو: ٩: ٢٧)

لقد أحس هذا الموهوب أنه صار تلميذاً للذي يدافع عنه ولو لم يره بعد، وهذا عجب. أما الذين رأوه وسمعوه وشاهدوا آياته ومعجزاته فأنكروا واستعلوا أن يكونوا له تلاميذ — ذاك الذي هو ربُّ المجد!...

أنظر، أيها القارئ، إلى أي مدى أعمى التعصُّب للقانون والحرف عيونَ القضاة، فأروا اليوطا (أصغر حروف الهجاء)، أي حرفية الناموس، أكبر من الألفا والأوميغا معاً [«أنا هو الألف والياء.»] (رؤ: ٨: ٨)

١٦: ٩ «فقال قومٌ من الفريسيين: هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت. آخرون قالوا: كيف يقدرُ إنسانٌ خاطيءٌ أن يعملَ مثل هذه الآيات. وكان بينهم انشقاقٌ.»

الانقسام الذي طالما سمعناه في ختام كل تعليم إلى الآن، ولكن كان في السابق انقساماً بين

الجموع ثم انقساماً بين اليهود. ولكن الانقسام هنا هذه المرة بين القضاة في المحكمة الجزئية. وهو انقسام بين قضاة متمسكين بالقانون وحرفيته Legalism، وقضاة منطقيين متمسكين بالواقع وتفسيره المتسع. فالقانونيون رفعوا السبب فوق كل منطق وواقع، واعتبروا المسيح مُدْمِناً على كسر السبب حتى إلى سبع مرات: «لا يحفظ السبب». والمنطقيون حَكَمُوا الواقع وتفسيره في شرح معنى ومدى اعتبار أن كسر السبب خطية، بالنسبة لرجل أظهرت أعماله وآياته مدى إمكانية تبرير كسره للسبب. وهذا يُعْتَبَر تقدماً كبيراً في عقلية الفريسيين، فكان الإنشقاق (٧). فتأجل الحكم في القضية لإعادة الفحص.

٩: ١٧-٢٣ «قالوا أيضاً (ثانية) للأعمى: ماذا تقول أنت عنه من حيث إنه فتَحَ عَيْنَيْكَ. فقال إنه نبي. فلم يُصَدِّق اليهود عنه أنه كان أعمى فأبصر، حتى دَعَوْا أَبَوَيْ الذي أَبْصَرَ. فسألوهما قائلين: أهذا ابنكما الذي تقولان إنه وَلَدَ أعمى؟ فكيف يُبْصِرُ الآن؟ أجابهم أبواه وقالا: نعلم أن هذا ابنا وأنه وَلَدَ أعمى. وأما كيف يُبْصِرُ الآن فلا نعلم، أو مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فلا نعلم. هو كَامِلُ السِّنِّ، أسألوه فهو يَنْكَلِمُ عن نفسه. قال أبواه هذا لأنهما كانا يَخَافَانِ من اليهود، لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا أنه إن اعترف أحدٌ بأنه المسيح يُخْرِجُ مِنَ المجمع. لذلك قال أبواه إنه كَامِلُ السِّنِّ أسألوه».

شهادة الأعمى الذي صار بصيراً تأكيداً للنور الذي دخل أعماقه قبل أن يدخل مُقَلَّةَ عينيه. لقد أحسَّ ذلك الموهوب وأحسَّ من أين أتى، لم يَقُلْ إن الذي أبتَرَأني رجلٌ صالح أو طبيب، ولكنه تعرَّفَ عليه أنه من الله ونبيُّ هو على أقل تقدير، بسبب القوة الإلهية التي هزَّتْ كيانَ خِلْقَتِهِ بأجمعها. فالعين ليست عضواً مفرداً قائماً بذاته، بل نسيج متصل بنسيج الجسم كله، ومركزها في أهم مواقع المخ، وأعصابها منتشرة في أنحاء شتى. هذه الأنسجة وهذه الأعصاب جميعاً، بل هذا المخ، والجسد كله، اهتز كيانه اهتزازاً بدخول هذا الضيف الإلهي الغائب ليملأ الكيان المخلوق وَيُكَمِّله كمالاً!! إن أول ما رآه هذا الأعمى، رأى قوة الله التي أنارت قلبه قبل أن تنير عينيه، وظل متشوقاً أن يُطَبِّق هذه الرؤيا على الوجه النبوي الذي أبراه، حتى رآه وتعرف عليه أنه ابن الله ورب الأنبياء، وسَجَدَ له متعبداً. لم يُلقِ الأعمى المبصر أي اعتبار لمقصد هؤلاء الفريسيين لما سألوه، وتجاوز انقسامهم وشكوكهم، بل وتجاوز علمهم وتعليمهم، بل تجاوز وعدهم ووعدهم،

(٧) هذا الإنشقاق كان بين مدرستين من مدارس الفريسيين.

ارجع إلى المدخل ص ٨٣ و ٨٤.

وقال قوله بشموخ الإيمان الذي لا يهاب العقاب : «إنه نبي» .

ولم يكن أمام الفريسيين إلا أن يلجأوا إلى أولياء أمره، عسى يُخضعونهم لإرهابهم . فلما قَلَّتْ الأبوان مِنْ أيديهم، إذ أحاطهم هذان إلى حامل المعجزة مرة أخرى، إذ هو كامل السن، بعد أن أَقْرُوا أنه هو هو الذي ولدوه أعمى، فعادوا إلى الأعمى مرة أخرى وقد بَيَّنَّوا له النية بالقَطْع من الجماعة، والحرمان من حقوق إسرائيل .

٢٥: ٢٤ «فَدَعَوْا ثَانِيَةً الْإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ: أَعْطِ مَجْدًا لِلَّهِ، نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ خَاطِئٌ. فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: أَخَاطِئُ هُوَ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئًا وَاحِدًا أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالْآنَ أَبْصِرُ».

لقد ظن بعض علماء الكتاب المقدس أن كلمة «أعطِ مجداً لله»، هي مجرد إجراء قانوني يُلْزَمُ المتهم بالاعتراف بالحق خوفاً من الله . ولكنه في الحقيقة هو أيضاً إجراء ديني بجوار أنه إجراء قانوني، ومؤداه أنه مُزْمَعُ إصدار حكم ضده بأن يُقَطَّع من الجماعة أو يُحْكَمَ عليه بالموت، كما حدث في قصة عاخان بن كرمي (يش ٧: ١٩). فَطَلَبُهم هذا منه أن يعطي مجداً لله هو كشهادة يشهدها لله قبل أن يموت أو يُقَطَّع، وذلك حتى يحتفظ لنفسه بحق الرحمة في الدهر الآتي^(٨)، بعد أن يكون قد حُرِمَ من كل حقوق الحياة كواحدٍ من شعب الله في الحاضر. وكان هذا الإجراء يكشف ضمناً للمتهم عن مدى خطورة شهادته التي سيَشْهدها، فكان هذا الإجراء يستخدمونه بالدرجة الثانية، بنوع من الدهاء، للتهديد ليرغب قلبُ المتهم، حتى يبتلع شهادته السابقة «أنه نبي» ويغيّر من أسلوب عناده. كما كان تفكير هؤلاء الفريسيين المتعاهدين ضد هذا الشاهد الخطير، هو محاولة زحزحة اعترافه بالمسيح كنبى أو المسيا، وذلك بإعطاء «المجد لله» دون سواه. لذلك أَرَدُوا أمرهم هذا بتقرير رسمي عن حُكْمهم كهيئة رسمية بالنسبة للمسيح: «أنه إنسان خاطئ»^(٩)، حتى يلتزم بتغيير شهادته السابقة «إنه نبي»^(١٠)، عن إجبار واضطرار دون اختيار...

أليس هذا هو الإرهاب الديني بنصّه وبقينه؟! ... تَبَأً للقانون إذا سُلِّمَ لقضاة جلادين، ويا لضيعة الحق، إذا وُضِعَ تحت رحمة الجهلة المنافقين!

ألم يأتِ المسيح من أجل ذلك، من أجل أن يُبْطِلَ صراع الحق مع الحرية؟ «تعرفون الحق»

(٨) تقول المشنا: [إنهم وهم رافعون الحجر، وهم على بُعد عشرة أذرع يأمرونه بأن يعترف، وذلك بقولهم: «أعطِ مجداً لله»، وذلك بقصد أنه إذا مات، يكون قد اعترف وأعطى المجد لله، فيكون له نصيب في الدهر الآتي] (ارجع إلى المدخل ص ٨٤).

والحقُّ يحرركم»؟ ومن أجل أن يرفع الإنسان يده الثقيلة عن القضاء في شئون الله ليصير القضاء بمقتضى كلمة الله وحدها: «أما أنا فلستُ أدين أحداً ... الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو: ٨: ١٥ و ١٢: ٤٨)

«أخاطيء هو لست أعلم، إنما أعلم شيئاً واحداً، أنني كنت أعمى والآن أبصر»:
عسير جداً على الإنسان أن يطفىء الشمس بنفخة فمه، أو يرفس السيف (أو مناخس) برجليه. وهكذا عميت بصائر هؤلاء الفريسيين حتى إنهم يحاولون أن يستنطقوا أعمى وُلِدَ أعمى، وعاش أعمى حتى بلغ سن البلوغ، أن يجحد من خَلَقَ له عينين يرى بهما النور والناس والدنيا والجمال؟ أمور كان قد كُتِبَ عليه أن يُحرَمَ منها حتى إلى القبر؟ وهكذا حقاً تعلَّم الفريسيون علم اللاهوت وغوامض الناموس أن يقولوا للنور أنت ظلام؟

وهل الحقُّ والحياةُ والمعرفة والنور والله جُعِلَت هكذا مقيدة بقيود معرفتهم وحدهم، فإذا وُجِدَت هذه بعينها ونصها وصميمها خارج علمهم ومعرفتهم، كانت هي الباطل والخطية؟؟
ما أبأس الإنسان إذا ظن أنه صار بعلمه قيماً على أمور الله، وبسلطانه وصياً على وصاياه، ومتولياً من دون الله شئون الله.

أليس من أجل هذا نادى الرب بصوته العالي: أنا لا أعمل من نفسي، أنا لا أتكلم من نفسي، أنا لست أصنع مشيئتي، أنا لا أطلب مجد نفسي، أنا لا أدين أحداً ... ثم رأى الرب تعالي الفريسيين بعلمهم ومعرفتهم، وأن تعاليهم هذا أسقط الله من قلوب الناس: «تهلل يسوع بالروح وقال: أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء (الهاخامات) والفهماء، وأعلنتها للأطفال، نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» (لو: ١٠: ٢١)

وهكذا، ولهذا، أخفى الله علم معرفته الحقيقية عن الحكماء عند أنفسهم والناس. وهذه هي بعينها رؤية القديسة مريم العذراء الصبية القديسة والنبية المختارة: «صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ، شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكَرِ قُلُوبِهِمْ، أَنْزَلَ الْأَعْزَاءَ عَنِ الْكُرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَضَعِينَ، أَشْبَعَ الْجِيَاعَ (إلى الله) خَيْرَاتٍ وَصَرَّفَ الْأَغْنِيَاءَ فَارْغِينَ.» (لو: ١: ٥١-٥٣)

وهكذا وقف الشحاذ الأعمى الذي كان بالأمس يستعطي حسنة، وقف بين الهاخامات يجحد معرفتهم، وينفي صحة منطقهم، ويتجاهل بأس سلطان علمهم، "علمكم الذي يقول أنه خاطيء، هذا لست أعلم"، أما الذي أعلمه علم اليقين، علم الحق والواقع الملموس والمنظور، علم النور الذي هو أَصْدَقُ لي من الشمس، أنني كنتُ أعمى والآن أبصر. خلقتني الله بلا عينين، وهذا

الذي تقولون عنه أنه خاطيء هو الذي خلق لي عينيّن صحيحتين ، فاحكموا أنتم مَنْ يكون هذا! ...
أما أنه خلق لي العينيّن يوم سبت ، فمبارك هذا السبت ، ومبارك العمل الذي عمل لي فيه .

٢٨-٢٦:٩ «فقالوا له أيضاً ماذا صَنَعَ بك؟ كيف فتحَ عينيك؟ أجابهم: قد قلتُ لكم ولم تسمَعُوا. لماذا تريدون أن تسمَعُوا أيضاً. أعلّكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟ فشتموه وقالوا (له): أنت تلميذُ ذاك، وأما نحنُ فإننا تلاميذُ موسى» .

وعودة مرة أخرى إلى استجواب مُضاد، لعلهم يظفرون بمعلومة تهدم شهادته وتوقعه مُرغماً في إدانة المسيح ... ماذا صنع بك؟ لعله يكون قد استخدم طريقة شيطانية أو استعان بقوى غير منظورة؟ ولكن الشاب كان قد طفع به الكَيْلُ، وتضايقت نفسه من محاولة الضغط عليه لكي يُقَرِّط في حقِّ مَنْ أَحْسَنَ إليه، فما كان منه إلا أن استخدم أسلوب المراجعة والهجوم والتضييق عليهم: لقد قلت لكم ولم تسمعوا، فلماذا المحاورَة؟ على ما تلوون؟ لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟

وهنا بلغت السخرية منهم أقصى حدودها: أعلّكم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟ وهنا نجح هذا البصير الأُمِّي في تغيير دقة الحديث والحوار كله، بل وأسقطهم في حيرة من أنفسهم جعلتهم يقضون منه موقف الدفاع، إنما في إحساس بالمهانة جعلتهم يشتمونه!! ولا نعلم بماذا شتموه، وإنما أضافوا إلى الشتيمة إصاق تهمة الخروج عن الناموس: «أنت تلميذُ ذاك»، باعتبار أن هناك فاصلاً عقائدياً يفصل بين المسيح وموسى: «أما نحنُ فإننا تلاميذُ موسى». وهذا الاتهام هو الذي على أساسه أخرجوه خارج الجماعة. ولكنه في الحقيقة خرج بشهادة محفوظة له في السموات أنه «تلميذُ ذاك»!!

٣٤-٢٩:٩ «نحن نعلمُ أن موسى كلّمه الله، وأما هذا فما نعلمُ من أين هو. أجاب الرجلُ وقالَ لهم: إنّ في هذا عَجَباً، إنكم لستم تعلمون من أين هو، وقد فتحَ عينيّ، ونعلمُ أن الله لا يسمعُ للخطاة. ولكن إن كان أحدٌ يتَّقِي الله ويفعلُ مشيئته فلهذا يسمعُ. منذُ الدهر لم يُسمعُ أن أحداً فَتَحَ عينيّ مولودٍ أعمى، لو لم يكن هذا من الله لم يقدرُ أن يفعلَ شيئاً. أجابوا وقالوا له: في الخطايا وُلدتَ أنتَ بجمليتك وأنت تعلمنا. فأخرجوه خارجاً» .

لا تزال عقول الفريسيين مشتبكة في المقارنة بين "أنت" و"نحن"، وبين التلمذة لذلك

ولموسى، ثم بين موسى وذاك، مما يكشف عن تشكك في عقولهم وتشكيك لعقول الآخرين. والذي زاد الهوة والحقد أن مصدر السلطان الذي يستمد منه المسيح رسالته، لا يمر بسلطانهم ولا بعلمهم ولا بمدارسهم، وهذا هو أصل المرارة التي كانت تطفح بها أقوالهم. لقد وظّدوا كيانهم وسلطانهم على أساس أنهم تلاميذ موسى، وموسى استمد سلطانه من الله، إذن، فسلطانهم هو سلطان موسى، إنهم بفهم موسى يتكلمون كأنهم من الله. والمسيح يهدم نظريتهم بكل أصولها وفروعها، وذلك ببراهين وآيات. هنا جاء الشك في قلوبهم، وكثير منهم آمن وانحاز للمسيح، إن سراً أو جهراً. أما الباقون، فأصبح عليهم التشكيك والهدم أو القتل لثلا يضيع سلطانهم. وهذا الأعمى الذي أبصر، صار يمثل أخطر تهديد لهم ولنظرياتهم، لأنه شاهد علني، بل شاهد علم، أن "ذاك" — أي المسيح — هو في نظر الأعمى البصير في موقف الخالق. بل والأعمى البصير أدرك ضعف موقفهم منه ومن المسيح، فاستغل ذلك منهم أقوى استغلال، وبدأ يشدد النكير عليهم؛ وبنفس منطقهم، أخذ يسخر منهم في أسلوب استهجائي لاذع: «(إنّ في هذا عجباً إنكم...)». لقد وّضعهم في موضع ذوي التفكير الداعي للتعجب والاستهجان: «(إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عيني)». فالذي يفتح عيون العمي هو، عند جميع الأنبياء الذين تعلمتم عليهم، مسيّا، ومسيّا وحده، لأنه «منذ الدهر لم يُسمع أن أحداً فتح عيني مولود أعمى». حتى موسى الذي به يفتخرون لم يفتح عين أعمى واحد!

فإذا أنكرتم «أنه نبي» وإذا تجاهلتم أنه مسيّا، فلا ينبغي أن تنكروا تقواه، وأنه يصنع مشيئة الله، وأنه من الله. فلا يستقيم قط قولكم أنه إنسان خاطيء، لأن الله، إذ فتح عيني على يديه، يكون قد سمع له، والله لا يسمع للخطاة!!

لقد أوقعهم الأعمى، الذي أبصر، في نفس الفخ الذي نصبوه له؛ وبنفس منطقهم ببساطة وهدوء قاتل لكبريائهم. فإزاء قولهم: «نحن نعلم — ἡμεῖς οἶδαμεν — أن هذا الإنسان خاطيء»، حيث قصرُوا علمهم على أنفسهم فقط «نحن» (الفريسيين)، أجابهم بنفس منطقهم، إنما على أساس علم أعم وأشمل يعرفه الجميع وبلا استثناء، ولا يمكن أن يجهله أحد أو يحاك فيه إنسان، وذلك بقوله: «οἶδαμεν» «معلوم لدى الجميع» أو «وكلنا نعلم». أما علمهم المحصور في عقولهم فينتهي عند «أن هذا الإنسان خاطيء»، وذلك بحسب قياس جزئي على قانون أو ناموس كثير السبب. وأما علم الجميع، فهو يقوم على أساس صفة مُطلَقة من صفات الله، وهي بديهية، لا يحاك فيها إنسان قط: «(إن الله لا يسمع للخطاة [إن راعيتُ إثماً في قلبي لا يستمع لي الرب] (مز ٦٦: ١٨)) وهذا الإنسان قد فتح عيني».

وكالعادة حينما استبدت بهم الحيرة، وعجزوا عن التمشي مع منطقته، بدأوا يهينونه : « في الخطايا وُلدت أنت بجملتك، وأنت تُعلمنا ».

ولقد وقع الفريسيون في المحذور، فقد نَسَبوا عَمَاهُ إلى خطيته وخطية أبيه وأمه، فلو لم يكن الله قد وهبه النظر وفتح عينيه بالفعل لكانت إهانةً من أشنع الإهانات التي يمكن أن تسمعها أذن بشر. ولكن الآن وقد وهبه الرب النظر الصحيح جسداً وروحاً — فقد ثبت أنه لا أخطأ هو ولا أبواه. وهكذا ارتدَّت الإهانة عليهم مضاعفة، دون أن تصيب هذا الموهوب ولا أبويه ولا قيد شعرة! ومن هذه الإهانة المقصودة، والتي لم تُصِب هدفها، يتضح مدى المرارة والحقد والاحتقار الذي ملأ قلوبهم نحو هذا الأعمى المُثَقِّم عليه بالنظر، لأنه وقف موقف الشاهد للمسيح. كما نستشفُّ من ردود هذا الإنسان المبارك، مقدار الافتخار بالله والتمسك بكرامة المسيح وتمجيده، وعدم الانصياع إلى تهديد الفريسيين حتى إلى الطرد، مع أنه لم يكن قد رآه بعد!... ولكن كان همُّ المسيح أن يَهَبَهُ النور الأعظم، فسعى وراءه حتى وَجَّده.

٣٨-٣٥: ٩ «فسمع يسوع أنهم أخرجوه خارجاً، فوجَّده وقال له: أتؤمنُ بابنِ الله. أجاب ذاك وقال: مَنْ هو يا سيد لاؤمين به؟ فقال له يسوع: قد رأيته، والذي يتكلَّم معك هو هو. فقال: أؤمنُ يا سيد. وسَجَد له».

من روح هذه الآية ندرك أن الرب هو الذي سعى مرة أخرى ليتقابل معه. لأن كلمة «فوجده» يَسْبِقُهَا حتماً أنه كان يطلبه. لأن الفريسيين أخرجوه خارجاً، أي خارج حظيرتهم التي وضعوا أنفسهم عليها حُرَّاساً لا رعاة. وحتى أبواه خشيوا من إيوائه، خوفاً من أن يلحقهم الطرد. أما الراعي الصالح فكان يسعى خلف الغنمة التي غَنِمَهَا لحساب الآب، حتى يكْمُلَ عمل الآب فيها. فلما «وجده»، وجده وعلى فمه فرح الشهادة، أما نفسه فكان عليها سمات الرب: الإهانة والطرد. وحالاً فتح له باب الحياة الأبدية على سِعته، وطلب منه إبراز تذكرة الدخول: «أتؤمنُ بابنِ الله»؟ فأبْرَزَهَا الأعمى البصير بكل شجاعة وفرح، لأنه كان قد دفع ثمنها بالكامل على باب المسلخة^(٩) عند جِباة المكوس^(١٠).

كان يظننه أولاً أنه نبي ولكن لما علم أن الواقف أمامه والذي يرى وجهه ويتكلم معه هو هو

(٩) المسلخة أي مصلحة الضرائب.

(١٠) المكوس، أي الجمارك، ومنها كلمة المكس بالإسكندرية وكان مكان الجمرك.

ابن الله صاحب الملكوت، والحامل لمفاتيح باب الحياة، خراً أمامه ساجداً؛ فللحال انفتحت بصيرته ورأى صاحب النور، لأن «بنورك (يا رب) نرى نوراً.» (مز ٣٦: ٩)

٤١: ٩ - ٣٩: ٩ «فقال يسوع: لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يُبصر الذين لا يُبصرون وَيَعْمَى الذين يُبصرون. فسمعَ هذا الذين كانوا معه من الفريسيين، وقالوا له: أعلّسنا نحن أيضاً عمياناً. قال لهم يسوع: لو كنتم عُمياناً لَمَا كانت لكم خطية، ولكن الآن تقولون إننا نُبصرُ فخطيتُكم باقية.»

كان المنظر مهيباً أخذاً، عندما خَرَّ الأعمى البصير عند قدمي الرب ساجداً في انفعال التعبد الصادق، وحول الرب تلاميذه والفريسيون المناكفون ينظرون ويتعجبون؛ ومن واقع هذا المشهد الشاهد لحقيقة النور الذي جاء إلى العالم، فانفتحت له أعين العُمى بهتاف الشهادة والإيمان، والفاضح لموقف مدّعي الإبصار الذين يحاولون بكل جهد إطفاء النور أو إخفاءه لئلا يظهر خزي عُماهم، نادى حاملُ النور: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم!!»

ولكن المسيح لا يُشدّد النكير على الفريسيين، لأنه ما ذنب النور أنه يفضح الظلام؟ إن هذا حتماً هو عمله حتى ولو لم يَشَأْ، وإذا شاء فهذا حقٌّ له لأنه طبيعته، وهذا هو الحق الذي يشاؤه الله أيضاً.

«حتى يبصرَ الذي لا يُبصرون وَيَعْمَى الذين يُبصرون»:

هذه الآية هي من واقع سجود الأعمى البصير، والشهادة للمسيح، والإعلان عن إيمانه بسجود وعبادة؛ كذلك هي من واقع مقاومة الفريسيين للمسيح، ورفضهم آية تفتيح عيني الأعمى، ورفضهم الإيمان بالمسيح معاً.

وهكذا نرى أن الأعمى قَبِلَ النورَين: نور الجسد ونورَ الله، فأبصر واستنار معاً!!

كما نرى هؤلاء الفريسيين المبصرين ومُدّعي البصيرة يرفضون آية النور في الجسد، وشهادة نور الله معاً!! فأنحجب عنهم النور بإرادتهم، فلأنهم استحسِنوا أن لا يُبتقوا النور في معرفتهم عَمَتهم الظلمة وأعمَتهم. هؤلاء الذين قال عنهم المسيح: «أَحَبَّ الناس الظلمة أكثرَ من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو ٣: ١٩)، وَوَصَفهم الربُّ بأنهم «عميان قادة عميان» (مت ١٥: ١٤)، وفي الحفرة حتماً ساقطون.

لما ذاق الأعمى النور وأحبه، سعى النور وراءه فأدرك مصدره، ومن هوة الظلام الدامس انتقل إلى إشراق نور الله الكامل، هذا هو وعد الله بالمسيح يسوع لكل الجالسين في الظلمة وظلال الموت يُشْرِقُ عليهم النور، طالما سَعَوْا إليه وَقَبِلُوهُ وَأَحْبَوْهُ وَمَدَحُوهُ. ومن الفقر المدقع والجلوس على عتبات البيوت جائعاً يستعطي خبزاً، انتقل الأعمى إلى عتبة بيت الله كتلميذ، يوزع شعباً من غنى نعمته على الداخلين، وهذا هو وعد الله بالمسيح يسوع الذي نطقت به العذراء القديسة مريم النبية، والمسيح لا يزال في بطنها: «سَتَتِ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ، أَنْزَلَ الْأَعْزَاءَ عَنِ الْكُرَاسِيِّ، وَرَفَعَ الْمُتَضَعِينَ، أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَبِرَاتٍ، وَصَرَفَ الْأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ.» (لوقا: ١٤: ٥١-٥٣)

هذه النبوة التي تحققت ولا تزال تتحقق، وسيتم كمال تحقيقها، تقوم على أساس رفض الله المطلق للمستكبرين بأفكار قلوبهم، والمعتزين بوظائفهم ومناصبهم، والمعتمدين على قوتهم وغناهم، في مقابل المتضعين والمساكين والمعتازين؛ لأن: «المستعلي عند الناس، هو رَجَسٌ قدام الله.» (لوقا: ١٦: ١٥)

ولكن المصيبة الكبرى والطامة العظمى ليست في مجرد الكبرياء بالأفكار الذاتية، ولا في التعظم بالوظائف والمناصب، ولا في الاعتماد على القوة والمال والعزوة، ولكن أمَّ المصائب كلها هي في عدم الانتباه وفُتْدَان الشعور بأن هذه أمور باطلة ومكروهة، وأنها ضد الله، وسبب خراب الإنسان، التي شرحها الرب للفريسيين المتمسكين بها دون أن يدروا: «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية، ولكن الآن تقولون أننا نُبْصِرُ فخطيتكم باقية»، والذي سيأتي تفسيره.

ولكن لا انتصح الفريسيون في زمانهم ولا انتصح الفريسيون في كل زمان. فالفريسية المتمجرفة، بغناها الكاذب، لا تزال قملاً أرجاء العالم، والتي أرهقت روح الرب أكثر مما أرهقته الفريسية الأولى؛ أي الذين تحصنوا واستغنوا بالمال والعلم والتقوى الكاذبة، وجلسوا على كرسي المسيح و«يقولون ولا يفعلون» (متى ٢٣: ٣). هؤلاء رأهم ق. يوحنا الإنجيلي في رؤياه والمسيح يكاد يتقيأهم ويخاطبهم: «أنا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقِيَّأَكَ مِنْ فَمِي، لَأَنْكَ تَقُولُ إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ، وَقَدْ اسْتَفْنَيْتُ، وَلَا حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ، وَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِيُّ وَالْبَائِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَغُرْيَانٌ.» (رؤيا: ١٦ و١٧)

وبهذا تستركي عدم المعرفة في مقابل المعرفة التي بلا عمل. والكلام في ذلك كثير، والنصيحة لم تنقطع من فم الرب لمثل هؤلاء لو استطاعوا أن يستغنوا عن غناهم وهيهات: «أشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَباً مُصَفًّى بِالنَّارِ (الإيمان المحض بالتجربة) لكي تستغني (بالحق)، وثياباً بيضاء

(مبيضة بالآلام ودم الشهادة) لكي تلبس، فلا يظهر خِزْيُ عُزَيْتِكَ (نجاستك)، وكُتْل عَيْنِكَ بِكُتْلِ (القُداسة التي بدونها لا يعاين أحدُ الله) لكي تُبْصِرَ (النور).» (رؤ ٣: ١٨)

«فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين وقالوا له: أعلنا نحن أيضاً عُميان. قال لهم يسوع: لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية.»

سؤال الفريسيين خارج من نفوس مستكبرة بفكر قلوبها باعتبارهم: «قادة للعميان ونور للذين في الظلمة» (راجع رؤ ٢: ١٩). وردُّ المسيح مُرْعِبٌ، فهو نُظْقُ الدينونة التي ينطق بها النور الحقيقي.

ولكي ندرك عمق المعنى المدفون في هذه الآية، علينا أن نتصور أن الظلمة وقفت تتكلم أمام الشمس. فقالت الظلمة: أنا هو النور، فماذا تقول الشمس؟ تقول: مبارك عليك نورك أيتها الظلمة، وتصمم الشمس أن لا تشرق عليها. ولكن إن قالت الظلمة: أنا ظلمة أغيثني أيتها الشمس، فإن الشمس تقول: مرحباً هذا نوري وهذا إشراقي. هذا الحوار يصوره إشعياء النبي بهذه الآية: «قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك. لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم» (إش ٦٠: ١ و٢). ومعنى الكلام أن الرب يسوع لم يتجسد لتنفيذ إرسالية الخلاص إلا بعد أن صارت الظلمة على كل الأرض، ظلمة المعرفة والسلوك والأخلاق، أي ظلمة الخطية.

وهنا تأتي آية الرب بكل إحكام: «وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣: ١٩)

فالذي يعمي الناس عن النور هي الأعمال الشريرة، أي الخطية. فإذا تبجَّح الناس وقالوا نحن نبصر، ونحن نور للذين في الظلمة، مع أن أعمالهم شريرة؛ فهذا معناه أنهم بالحقيقة عُميان، وخطيتهم هي التي زيفت عليهم النور كأنه ظلمة، والظلمة كأنها نور! وطالما أصرُّوا على أنهم يبصرون، وهم لا يبصرون، فهذا معناه أن خطيتهم أعمَّتْ أعينهم، وهي باقية لهم.

الأصحاح العاشر

الأصحاح العاشر

أولاً: استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا

«الراعي الصالح» (١)

(١٠: ١ - ١٦)

نحن لا زلنا في موسم عيد التجديد. والحديث هنا هو امتداد للأصحاح التاسع، وهو يختص بالعلاقة التي تربط المسيح بخاصته الذين يؤمنون به. وهذا على أساس أن الأعمى الذي أبصر وشهد للمسيح، وصار من المؤمنين، أخرجوه خارج الجماعة، أي خارج حظيرة إسرائيل، وذلك باعتبار أنهم هم حُرَّاس الحظيرة ورعاة الخراف.

أ - «أنا هو باب الخراف»: (١٠: ١ - ١٠).

١٠: ١ - ٦ «الحق الحق أقول لكم: إنَّ الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف، بل يطلع من موضع آخر، فذاك سارق ولصّ. وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف. لهذا يفتح البواب، والخراف تسمع صوته، فيدعو خرافه الخاصة بأسماء، ويُخرجها. ومتى أخرج خرافه الخاصة، يذهب أمامها، والخراف تتبعه، لأنها تعرف صوته. وأما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه، لأنها لا تعرف صوت الغرباء. هذا المثل قاله لهم يسوع. وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلمهم به».

كان طرد الأعمى - الذي أعطاه المسيح موهبة النظر - بإجراء حكم الطرد ضده، وحرمانه من حقوق شعب إسرائيل، وإخراجه خارج حظيرة إسرائيل دون أي سبب قانوني، من أخطر الأعمال المضادة لله التي عملها الفريسيون بصفتهم رعاة الشعب وحُرَّاس إسرائيل. وللحال رفع المسيح هذا الإجراء الشاذ الذي يُنافي الحق والعدل والرحمة إلى التطبيق العملي، الذي سبق أن تنبأ

(١) إنجيل الراعي الصالح (يو ١٠: ١ - ١٦) يُقرأ كلما احتفلت الكنيسة بتذكار أحد البطارقة أو الأساقفة القديسين، مثل يوم ٣ أبيب تذكارة نياحة القديس كيرلس الكبير والأيام المُحالة إليه (٢٠ مناسبة في كل سنة)، ومثل ١٧ هاتور تذكارة نياحة القديس يوحنا ذهبي الفم والأيام المُحالة إليه (١٨ مناسبة في كل سنة).

به الأنبياء إرميا وحزقيال وزكريا، والذي يلزم أن نوضحه للقارىء ليدرك أبعاد المعاني التي يرمي إليها المسيح (٢):

إرميا النبي (٢٣: ١-٤):

«ويلٌ للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بدّدتم غنمي وطردهتموها ولم تتعهدوها، هأنذا أعاقبكم على شرّ أعمالكم يقول الرب ... وأقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد، ولا ترتعد، ولا تُفقد، يقول الرب».

حزقيال النبي (أصحاح ٣٤):

«يا ابن آدم (ابن الإنسان) تنبأ على رعاة إسرائيل، تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، ويلٌ لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم. ألا يرعى الرعاة الغنم. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم. المريض لم تُقوّه، والمجروح لم تُعصبوه، والمكسور لم تجبروه، والمطرود لم تستردوه، والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبغضب تسلّطتم عليهم، فتشتت بلا راعٍ ... على كل وجه الأرض، تشتت غنمي، ولم يكن من يسأل أو يفتش ...

فلذلك، أيها الرعاة، اسمعوا كلام الرب، هكذا قال السيد الرب: هأنذا على الرعاة، وأطلب غنمي من يدهم وأكفّهم عن رعي الغنم ...

هأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها، كما يفتقد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المشتتة (عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا = في وسطنا). هكذا أفتقد غنمي وأخلصها ... في يوم القيم والضباب ...

أرعاها في مرعى جيد ... في مراعي حسني وفي مرعى دسم ...
أنا أرعى غنمي وأزبئها، يقول السيد الرب، وأطلب الضالّ، وأسترّد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح، وأبید السمين والقوي، وأرعاها بعدل ...

وأقيم عليها راعياً واحداً، فيرعاها عبدي داود (المسيّا)، هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً. وأنا الربّ أكون لهم إلهاً، وعبدي داود رئيساً في وسطهم. أنا الربّ تكلمت، وأقطع معهم عهد سلام، وأنزع الوحوش الرديئة من الأرض، فيسكنون في البرية مطمئنين ...

وأنتم يا غنمي، غنم مرعاي، أنفاس أنتم. أنا إلهكم يقول السيد الرب».

زكريا النبي (أصحاح ١١):

«هكذا قال الرب إلهي: ارفع غنم الذبح — الذين يذبحهم مالكوهم ولا يائثمون، وبائعوهم يقولون: مبارك الرب قد استغنيت، ورعاتهم لا يشفقون عليهم ...

فرعيتُ غنم الذبح — (وهم) أذلُّ الغنم — ... وأبدتُ الرعاة الثلاثة (الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة) في شهر واحد (الزمن من بعد صلب المسيح حتى حرب السبعين التي أحرق فيها الهيكل وخربت أورشليم وبطلت العبادة). وضافت نفسي بهم وكرهتني أيضاً أنفسهم ... فقلت لهم: إن حسنَ في أعينكم، فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا، فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: ألقها إلى الفخاري، الثمن الكريم الذي تمنوني به. فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخاري في بيت الرب».

ولكي أسهل على القارئ التقاط الآيات الهامة بالنسبة للمسيح، طبعنا الآيات التي اتخذها المسيح لنفسه بالبنط الثقيل، فليهتم القارئ بقراءتها عدة مرات. ولكن لكي أركز هذه النبوات الثلاث في رؤية واحدة اخترت للقارئ هذه الآيات:

يا ابن الإنسان تنبأ على رعاة إسرائيل.

الضالُّ لم تطلبوه، والمطروود لم تستردوه، بل بشدة وبعنف تسلطتم عليهم ... تذبحون السمين ولا ترعون الغنم!

هأنذا على الرعاة، أكفهم عن رعي الغنم.

أنا أرفع غنمي وأربضها، يقول السيد الرب، أسأل عن غنمي وأفتقدُها وأخلصها ... كراعٍ في وسط غنمه!

أرعاها في مرعى جيد، في مراعي حسن، وفي مرعى دسم.

أقيم عليها راعياً واحداً، عبدي داود، هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً.

فرعيتُ غنم الذبح، وهم أذلُّ الغنم، وأبدتُ الرعاة.

وضافت نفسي بهم، وكرهتني أيضاً أنفسهم.

فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة، الثمن الكريم الذي تمنوني به.

وبالعودة إلى ما قاله الرب يسوع، نجد أنه ألقى «المثل» على المستوى العام (من عدد

(٥-١)، ولم يطبِّقه على نفسه بشيء بل ألقى الكلام كمثل، وذلك ليمهّد أمام أذهان الفريسيين حقيقة استعلانٍ جديد عن نفسه، وذلك بالنسبة لهم على أساس رعاية الشعب بمستوى رعاية الخراف، وباعتبار إسرائيل حظيرة واحدة، مستمداً ذلك من النبوات السابقة لعلمهم بتذكرون، وذلك على أساس المعاني الآتية بالترتيب:

١ - الحظيرة ...

٢ - باب الحظيرة، بالنسبة للراعي نفسه وليس الخراف.

٣ - راعي الخراف، كصاحب يدخل من الباب، وليس كسارق ولصّ يطلع من موضع آخر.

٤ - البواب، يفتح ويغلق.

٥ - الخراف، تسمع صوت الراعي وتتبعه.

٦ - الغريب، تهرب منه الخراف ولا تتبعه.

ولأن المعاني تأتي في المثل مُكثِّفة وذات أهداف بعيدة، فلم يفهمه الفريسيون. وعلينا هنا أن نشرحه على مستواه العام.

١ - فالحظيرة، هي إسرائيل القديمة كأمة بيت إسرائيل، يقابلها الكنيسة وأهل بيت الله ورعية القديسين.

٢ - والباب، أي باب الحظيرة، هو في الحقيقة باب بيت الله. وباب بيت الله هو تعبير يعقوب إسرائيل نفسه: «ورأى حُلماً، وإذا سُلِّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهوذا الرب واقف عليها، فقال: أنا الربُّ إله إبراهيم أبيك وإله إسحق ... فاستيقظ يعقوب من نومه وقال: حقاً إنّ الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال: ما أُرهب هذا المكان، ما هذا إلا بيتُ الله، وهذا باب السماء» (تك ٢٨ : ١٢-١٧)؛ حيث المعنى الإلهي لكلمة «الباب» هي الحضرة المنظورة والمسموعة لله. وقد عاد المسيح يؤكد هذا التعبير بقوله لئنثنايل: «الحق الحق أقول لكم من الآن تَرَوْنَ السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١ : ٥١). فالمسيح هنا هو الحضرة المنظورة لله على هيئة السلم، أو (الطريق) الموصِّل إلى السماء، والباب المفتوح في السماء الموصِّل للآب. وهذا الباب المفتوح في السماء رآه يوحنا في رؤياه: «بعد هذا نظرتُ، وإذا بابٌ مفتوح في السماء.» (رؤ ٤ : ١)

٣ - راعي الخراف، الذي ليس هو سارقاً ولا لصاً، يُعرَف من كونه يدخل إلى الحظيرة من

الباب، أي من التعليم الصحيح عن الآب الذي لا يعلمه أحد إلا المسيح، فهو الباب السماوي والوحيد الذي يوصل إلى الله - وأي تعليم آخر عن الآب هو مسروق ولا يوصل إلى الله مهما كان.

ونلاحظ أن جميع الأنبياء أشاروا إلى المسيح (الباب)، وبهذا كانت تعاليمهم صحيحة عن الله، فكانوا رعاةً صادقين، وأكثرهم صحة وقوة في نبوته هو يوحنا المعمدان، لأنه رآه وأشار إليه، وشهد له، واعترف بأنه لم يأت إلا ليعلن المسيح لإسرائيل كشاهد عيان سماوي. وهو الوحيد الذي رآه كما هو «ابن الله»، لذلك قال المسيح عنه إنه «أفضل من نبي.» (لوقا ٢٦: ٧)

٤ - البواب، هو مسيّا، الذي سيسلمه الله مفتاح بيت داود: «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس من يُغلق، ويُغلق وليس من يفتح» (إش ٢٢: ٢٢). فالمسيح الباب، هو الإيمان بابن الله، المدخل الوحيد إلى الآب.

والمسيح البواب، هو المسيح الديّان، الذي يمنح ويمنع، يفتح ويُغلق، وذلك بمقتضى الإيمان والتعليم الصحيح.

٥ - الخراف، بحسب نبوة حزقيال هم أناس الله: «وأنتم يا غنمي، غنم مرعائي، أناس أنتم»، أي أخصاء الله. والراعي الذي يدخل إلى الحظيرة من الباب، يدعو خرافه الخاصة بأسماء، وهي تسمع صوته، ويُخرجها، ويسير أمامها، وهي تتبعه.

هذا التعبير الرقيق العاطفي، هو لتوضيح الفرق بين العلاقة بين رعاة إسرائيل الذين تحدث حزقيال بشدة وعنّف عن تسلّطهم عليهم، وبين العلاقة الفردية الخاصة المطلوبة بين الراعي الحقيقي والرعية المحبوبة والتي عبّر عنها المسيح هكذا: «ها أنا أعطيك سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء. ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كُتبت في السموات.» (لوقا ١٩: ٢٠)

أما كونه يدعوها ويُخرجها، فهذه هي الدعوة العظمى للإنطلاق إلى ملكوته. وأما كونه يسير أمامها وهي تتبعه، فهذا عكس الرعاية الطبيعية تماماً، لأن الراعي في البرية يسير خلف الغنم. ولكن هنا المسيح، كراعي الرعاية الأعظم، سار أمامنا وافتتح الطريق إلى السماء، ودخل «كسابق» من أجلنا، فوجد لنا فداءً أبدياً. (راجع عب ٦: ٢٠؛ ٩: ١٢)

٦ - الراعي الغريب، وهو الراعي الذي لم يدخل من الباب، وهو غير السارق واللص، ولكنه هو الذي لم يُرسله الله: «ليس عليه حُلَّة العُرس» (راجع مت ٢٢: ١١)، أي ليس له

التعليم الصحيح، الذي يوصل الخراف إلى صاحبها.

التطبيق:

لَمَّا لَمْ يَفْهَمُ الْفَرِيسِيُّونَ الْمَثْلَ الَّذِي قَالَ، بَدَأَ يُطَبِّقُ الْمَثْلَ عَلَى نَفْسِهِ هَكَذَا:

«فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا بَابُ الْخَرَافِ، جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلَصُوصٌ، وَلَكِنَّ الْخَرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. أَنَا هُوَ الْبَابُ، إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. السَّارِقُ لَا يَأْتِي إِلَّا لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ، وَيُهْلِكَ. وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لَتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةً، وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ».

بعد أن رسم الرب الشرط الأساسي للراعي الحقيقي ومؤهلاته، ثم نوعية عمله، وذلك بناءً على رَسْمِ الوحي على فم الأنبياء، بدأ يطبق ذلك على نفسه، حتى يستعلن لهم وللعالم أنه جاء — كما هو مكتوب عنه — ليكمل عمل الله ويتمم مقاصده.

«أنا باب الخراف»:

لا يقول هنا «باب الحظيرة»، بل «باب الخراف» بصورتها المفردة. لقد انتقل الرب من كنيسة أُمَّة، إلى كنيسة أفراد؛ من عهده مع شعب إلى عهده مع النفس. لأن ليس المطلوب بعدُ قائداً كموسى، أو قائداً كيشوع، ليفدي أُمَّة من عبودية الأمم، أو ليملك أسباطاً ميراث الأراضي، بل قائداً يفدي النفس من عبودية الخطية ويُقَرِّبها إلى الآب ليملكها ميراث السماء.

«الباب» هنا ليس لحفظ أنظمة وحدود وتدابير ووصايا تختص بهيئة الشعب العامة أو بشكل الحكومة أو بقوانين ترابط الأفراد، بل الباب هو الإيمان بابن الله. هذا هو باب الحياة لتدخل به ومنه النفس البشرية، لتجد حياة «سماوية» مع الآب، وهذا هو المرعى الدسم الحقيقي.

فالمسيح أعلن نفسه أنه ابن الله، هذا هو الباب الحقيقي الموصِّل إلى السماء: «الحقُّ الحقُّ أقول لكم، من الآن ترون السماءَ مفتوحةً، وملائكةُ الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو: ١: ٥١)، السماء المفتوحة يعني «الباب».

وبهذه المعاني، يتبين أنه يستحيل أن يكون للآب أو للسماء إلا هذا الباب الوحيد، كما رآه يوحنا في رؤياه: «بعد هذا نظرتُ وإذا بابٌ مفتوحٌ في السماء» (رؤ: ١: ٢٠). وبهذا يكون قد ألغى

الحارس القديم الذي يمنع من الدخول إلى السماء: «الكروبيم وهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تك ٣: ٢٤)، حتى لا «يمدّ (الإنسان) يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل، ويحيا إلى الأبد» (تك ٣: ٢٢)؛ وحلّ محله باب مفتوح في السماء مسنود عليه رأس سُلّم موصل بين الأرض والسماء، سُلّم أمان عليه ألوف وربوات الملائكة يحرسون ويخدمون الداخلين في باب السماء ليجدوا المرعى الدسم والحياة الأفضل. وواضح أن المسيح هو الباب السماوي المفتوح، وهو هو السُلّم المرتكز على الأرض ورأسه في السماء: «لأنه هكذا يُقدّم لكم بيسعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى.» (٢ بط ١: ١١)

«جميع الذين أتوا قبلي هم سُراق ولصوص ولكن الخراف لم تسمع لهم»:

الحق كل الحق للمسيح أن يقول هذا، والكلام هنا منصبّ أولاً، على كل الذين جاءوا وادّعوا أنهم قادرون بتعليمهم على تخليص إسرائيل ومُصالحته مع الله، معتمدين على حساب نبوات الأنبياء فيما يختص برجاء إسرائيل كأمة. لهذا، فقد اتخذوا اسم ومؤهلات المسيا اختطافاً وزيّفوا عمله. فبدل أن يكونوا طريقاً وباباً للحياة، بتعليمهم الصحيح عن الله والحياة الأبدية، صاروا طريقاً لسفك الدماء بالثورات والحروب، وباباً للهلاك والموت. وبذلك خُسيبوا في نظر المسيح: أنهم سرقوا الاسم وتلصصوا على النبوات والتعليم.

وثانياً، كذلك فإن أولئك الفريسيين الذي تجاهلوا هذا الباب السماوي الوحيد المفتوح، والموصل إلى الله والسماء، والمُستغلن بالآيات والمعجزات والأعمال والتعليم الصحيح، وادّعوا أنهم هم وتعاليمهم وتقاليدهم ومدارسهم الطريق الوحيد والباب الوحيد لمعرفة الله والخلاص، اعتبرهم المسيح سُراق اسم وطريق، ولصوص نبوات وعهود ومواعيد: «والخراف لم تسمع لهم».

كان الشعب قد تزيّفت عليه التعاليم الصحيحة، وتزيّفت عليه الطريق والحق والحياة: «كان شعبي خرافاً ضالة قد أضلّتهم رُعاتهم. على الجبال أثاروهم، ساروا من جبل إلى أكمة، نسوا مَرَبَضَهُمْ» (إر ٥٠: ٦). وبالرغم من ذلك، وحينما بدأ الرب يسوع يعلم ويتكلم، انتبه الشعب في الحال، وأدركوا أن كلام الكتبة والفريسيين كلام ميت ومزيّف: «فبهتوا من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مر ١: ٢٢). بل شهد له من أعدائه أمام السنهدريم، بأنه لم يتكلم إنساناً قط مثله: «أجاب الخدام لم يتكلم قط إنساناً هكذا مثل هذا الإنسان.» (يو ٧: ٤٦)

والخراف قسّمها الإنجيل إلى «خراف خاصة»، و«خراف ضالة».

فالخراف الخاصة هي التي لها أذن للسمع، فتسمع لراعيها، لأنه يتكلم بكلام الله. ولا تسمع لصوت الغرباء عن الله أو السُّراق واللصوص، الذين سرقوا وظيفة الراعي والمعلم، وهم ليسوا رعاة ولا معلمين، وتلصَّصوا على أقوال الأنبياء والقديسين، وهم غرباء عنهم وعن روحهم ومنهجهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، لأنكم تأكلون بيوت الأرمال وليلةً تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم.» (مت ٢٣: ١٤)

وقد شهد المعمدان للفرق بين صوت المسيح وكلامه، وبين صوت الآخرين وكلامهم: «الذي يأتي من فوق، هو فوق الجميع؛ والذي من الأرض، هو أرضي، ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع؛ وما رآه وسمعه، به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها. ومن قبلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق. لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.» (يو ٣: ٣٤-٣١)

وهذا يؤكد ق. يوحنا في رسالته الأولى: «هم من العالم، من أجل ذلك يتكلمون من العالم والعالم يسمع لهم؛ نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا؛ ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١ يو ٤: ٦ و٥)

١٠: ٩-١٠ «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد، فَيَخْلُص، ويدخل، ويخرج، ويجد مرعى. السارق لا يأتي إلا ليسرق، ويدبح، ويهلك. وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل.»

هنا يقول الرب: «أنا هو الباب»، بمضمونه العام، أي بالنسبة للرعاة والخراف، بدل «أنا هو باب الخراف»، بمضمونه المنسوب للخراف فقط. لأنه سبق وقال إن: «الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف». فالباب هنا يجمع بين الإيمان بابن الله، حيث يكون هو المدخل الوحيد للخراف، وبين التعليم الصحيح الذي يدخل منه الرعاة. لذلك يقول: «إن دخل بي أحد»، و«أحد» تعني كل واحد، حيث الكل يُغَوِّزُه الخلاص، والدخول لازم للجميع ليكون مع رعية القديسين وأهل بيت الله: «هذا الباب للرب والصدِّيقون يدخلون فيه» (مز ١١٨: ٢٠). وفي مثل العذارى العشر: «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى» (مت ٢٥: ١)، واضح أن الباب الذي أُغلق بعد أن دخل منه الخمس العذارى الحكيمات المستضيئات بزيتهن خلف العريس، هو باب الخلاص الذي لا يعني إلا المخلص نفسه. فغلق الباب في ملكوت السموات يعني انتهاء عمل الخلاص؛ أما الخروج فهو الدعوة العظمى — سواء للرعاة أو الخراف — للانطلاق إلى المراعي الحقّة

الساوية التي يُربض فيها راعي الرعاة الأعظم خرافه ورعاته من كل الحظائر.

وواضح أنه ليس لنا دخول مع رعية القديسين إلى الآب السماوي، إلا بالمسيح: «لأنَّ به لنا كِلَيْتَنَا (الأمم واليهود) قدوماً في روح واحد إلى الآب. فَلَسْتُمْ، إِذَا، بعد غُرْبَاءَ وَنُزُلًا، بل رَعِيَّةٌ مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف ٢: ١٨ و ١٩)

كذلك، فبواسطة هذا الباب، أي الإيمان بآبَن الله، يصير لنا الدخول في غِنَى الله والإقامة فيها والتَّسَنُّمُ بها. كما يُرْبِضُ الراعي غنمه في المرعى الدسم وهو في وسطها: «الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله.» (رو ٥: ٢)

والآن، فالراعي أو المعلم الذي ليس في قدرته أن يُرْبِضَ غنماته في مرعى الإيمان الدسم لتَشْبَع من نعمة الله وتقِيم فيها على الدوام، ثم لا يقوى بعد ذلك على أن يُحضرها بالروح إلى الآب لتنضم مع القديسين وأهل بيت الله، ماذا يكون؟ وماذا يكون غرضه؟ إلا أن يكون هو السارق لوظيفته ليست له وبعثك نفوساً لم يُستأمن عليها، ولصاً يخطف ليزيح كل ما يقدر أن يخطفه أو يذبحه، «تأكلون الشحم (مال الشعب) وتلبسون الصوف (التنعم) وتذبحون السمين (الفنى) ولا تَرْعَوْنَ الغنم» (حز ٣: ٣٤). هنا استغلال الوظيفة، واستغلال النفوس الضعيفة، هو اختطاف وسرقة الله. والويل لمن يقف ضد السارق لوظيفته ليست له، فهو إن لم يقتل الجسد، فسيضطهد حتى إلى هلاك النفس. وهو حتى وإن لم يضطهد أحداً، فهو لأنه لا يرعى أحداً بل يرعى نفسه، فستهلك الغنم من عدم المعرفة ومن الجوع إلى كلمة الله

«السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك»:

العجيب هنا أن المسيح يصوِّر نفس الصورة التي رآها زكريا النبي منذ مئات السنين: «غَنَم الذَّبْح الذين يذبحهم مالكوهم ولا يَأْتُمُونَ (لا يشعرون أن هذا إثم)، وبائعوهم يقولون مبارك الرب، قد استغنييت. ورعاتهم لا يُشْفِقُونَ عليهم.» (زك ١١ : ٤ و ٥)

بل وحتى إذا علَّم السارقُ المقتصبُ، الذي لم يدخل من باب المسيح، فإنه يعلم تعليماً لا يُشْبَع ولا يُغْنِي عن جوع، بل ويتلف حاسة القداسة عند سامعيه، ويطمس معالم الروح، ويقود النفس إلى هلاكها. «فدعاهم يسوع وقال لهم: أنتم تعلمون أن الذين يُحسبون رؤساء الأمم يسودونهم، وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل مَنْ أَرَادَ أن يصير فيكم عظيماً، يكون لكم خادماً. وَمَنْ أَرَادَ أن يصير فيكم أولاً، يكون للجميع عبداً. لأن ابن الإنسان

أيضاً لم يأت ليُخدم، بل ليُخدمَ، بل ليُبذل نفسه فِدْيَةً عن كثيرين.» (مر ١٠ : ٤٢-٤٥)

وأخيراً، نستطيع أن نلمح بسهولة صورة الشيطان من خلال سرد مثل المسيح عن السارق الذي يرعى وهو ليس راعياً، بل دخل خلسةً كلَّص يتلصَّص على الخدمة، يهدم ما بناء الأماناء ويلوِّث التعليم الصحيح، ويشكك في كل ما تعلمته الرعية، وأخيراً يبذر بذور الفرقة والانقسام، فتقوم جماعة على جماعة، وينشغل الكلُّ في الخصام والاتهام، فتتوقف حركة النمو والبناء؛ وأخيراً تتبدد الجهود وتسود العداوة وتهرب النعمة وتحلُّ النقمة. عن هؤلاء وعن الشيطان الذي يعمل بهم، يقول بولس الرسول: «لأن مثل هؤلاء هم رُسُلُ كَذَبَةٍ، فَعَلَّةٌ مَآكِرُونَ، مَغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ إِلَى شِبْهِ رُسُلِ الْمَسِيحِ. وَلَا عَجَبَ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلَائِكِ نَوْرٍ، فَلَيْسَ عَظِيماً، إِنْ كَانَ خُدَامُهُ أَيْضاً يَغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ كَخُدَّامِ لِلْبَرِّ.» (٢ كو ١١ : ١٣-١٥)

«أما أنا فقد أتيتُ لتكونَ لهم حياة، وليكونَ لهم أَفْضَلُ» :

هنا المسيح يقدم لخرافه حياتين: «لتكونَ لهم حياة، وليكونَ لهم أَفْضَلُ»، في مقابل ما يعملُه السارقون «ذَبْحٌ وَهَلَاكٌ». فِعْوَضَ «الذَّبْحِ»، يقدم المسيح «حياة» : «النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو ٥ : ٢) = «لتكونَ لهم حياة». وِعِوَضَ «الهلاك» يقدم المسيح «الأفضل من الحياة» : «يكونَ لهم أَفْضَلُ»، والمقصود هو ملكوت الله.

فهو ينجِّي من الذَّبْحِ بأن يعطي الحياة، وينجي من الهلاك بأن يعطي وعد الحياة الأبدية : «لتكونَ لهم حياة وليكونَ لهم أَفْضَلُ»، كما جاءت في اليونانية περισσὸν ἔχωσιν بمعنى «يأخذون الحياة ويأخذونها بفيض أو بغزارة» وهي صفة الملكوت. وهذا يفيد أن الحياة التي يعطيها المسيح هي بنفسها تنبع إلى حياة أبدية، فالمسيح لا يعطي حياة جسدية تموت بموت الجسد. والمعنى بالنهاية، أنه يعطي هنا حياة لها شِبَعُ السرور، بالروح والنعمة، وهي نفسها تبلغ إلى الملء هناك في الحياة الأبدية.

وهكذا وضع المسيح المقارنة بين الرعاية في صورتها المزيفة وصورتها الأصلية في أحدٍ وأُخْرِجَ صورة لها، إذ جعلها مقارنة بين حياة وموت، وبين خلاص وهلاك! وبالنهاية بين راجٍ صالح ولصٍّ سارق.

ب - «أنا هو الراعي الصالح» : (١٠ : ١١ - ١٦).

١٠ : ١١ - ١٣ «أنا هو الرَّاعِي الصَّالِحُ، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً، الذي ليست الخراف له، فيرى الذئب مُقْبِلاً ويترك الخراف ويهرب. فيخطف الذئب الخراف ويبددُها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يُبالي بالخراف». .

نلاحظ في تحليل الآيات السابقة، أن الرب يقدم نفسه في الآيات (١ - ١٠) باعتباره الباب، حيث الباب إما أن يكون هو التعليم الصحيح عن الآب الذي يدخل منه الرعاة المستأمنون على الخراف من قِبل راعي الرعاة الأعظم، وإما أن يكون هو الإيمان الذي تدخل به ومنه الخراف وتخرج. وبذلك يكون المثل قد انتهى عند العدد ٦ : «هذا المثل قاله لهم يسوع، وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يُكلِّمهم به». ثم أكمل المسيح شرح المثل لهم من عدد ٧ - ١٠.

ثم ابتداءً من عدد ١١ يكمل المسيح شرح وتوضيح استعلائه لنفسه - من داخل المثل حيث لا يزال المثل مستمراً - فبالإضافة إلى : «أنا هو الباب»، يقول : «أنا هو الراعي الصالح»، حيث يوضح الرب معنى الراعي الصالح ومؤهلاته :

- ١ - الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف (١٠ : ١١ - ١٣).
- ٢ - الراعي الصالح يعرف خرافه الخاصة وخرافه تعرفه (١٠ : ١٤).
- ٣ - الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف (١٠ : ١٥).
- ٤ - الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة، بل يجمع خرافاً أخرى، لتكون له رعية واحدة وليست لحظيرة واحدة (١٠ : ١٦).

١ - بذل نفس بنفس لإعطاء حياة :

يبدأ الرب استعلائه عن نفسه بأنه الراعي الصالح، بقوله : «أنا هو». وهنا تقع $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\lambda\mu\iota$ في موضع التعريف أو الاستعلان، وكأنها الرد على سؤال : «ومن أنت بالنسبة للآخرين». فهنا الرب يعرّف نفسه على أساس النسبة التي بين الراعي الصالح والأجير - حيث يقصد بالأجير كل طبقة الكهنوت والكتبة والفريسيين.

وكما هو معلوم أن $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\lambda\mu\iota$ هو التعريف الخاص جداً باسم الله (أنظر المدخل ص ٢١٨ - ٢٤٦). وكان المسيح يقول لهم : «أنا - الحامل لاسم الله - هو الراعي». ويلزمنا هنا أن نوضح أنه قد سئل الرب فعلاً عن مَنْ هو بالنسبة لكل مَنْ جاءوا ويحيثون باسم المسيح. ولكن

تأجل السؤال في هذا الأصحاح حتى عدد ٢٤ : « فاحتاط به اليهود وقالوا له : إلى متى تعلق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا ».

فقول المسيح « أنا هو »، فيه — بحد ذاته — كشف لا يُستهان به عن مَنْ هو بالنسبة لله نفسه. ولكن بسبب ضعف الأذن وعمى البصيرة، اضطر الرب أن يعرف نفسه بالنسبة للآخرين أيضاً الذين أخذوا وظيفته خلصة — أو بالإيجاز (أي بالأجرة) —، والمتكلمون معه هم عيئة من هؤلاء الأجراء، الذين يعتبرون أنفسهم رعاة الشعب : فـ « أنا هو الراعي الصالح » تجيء في مقابل : أنتم رعاة مستأجرون.

وكلمة « الصالح » لا تفيد معنى الصلاح، وهي تجيء في اليونانية καλός . فهي لا تفيد صلاح الله كطبيعة. وبحسب أسلوب إنجيل يوحنا كان يلزم أن تجيء « الحقيقي » ἀληθινός . ولكن وظيفة الراعي هي وظيفة مؤقتة مستمدة من التشبيه بالبشر، وتجيء داخل مثل، فهي ليس لها وجود دائم في المطلق الإلهي كالخبز الحقيقي والنور الحقيقي، ولكنها صفة لله منسوبة للبشر، وهي تنتهي (أي الرعاية) بانتهاء الدينونة، لذلك فـ « الحقيقي » لا تتمشى مع الراعي.

كذلك كان من المنتظر أيضاً أن تجيء الصفة بالكلمة المعروفة بـ « الصالح » فيما يخص الله، وهي αγαθός . ولكن صلاح الله هو طبيعته المطلقة فيه. أما الرعاية فلأنها صفة منسوبة للبشر، بسبب جهلهم وعوزهم، فهي وظيفة تطلبها الحاجة، لذلك جاءت كلمة καλός التي تفيد « الحسن »، وهي صفة عمل وليست صفة شخص، كما هي في الآية : « فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة » (مت ٥ : ١٦). لذلك، فبسبب قصور كلمة « حسن » (صالح) καλός عن أن تفيد صلاح المسيح الشخصي (الداخلي)، وضع لها الرب تكملة لتغطي معنى صلاح العمل، فقال : « والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ».

وهنا يلزم أن نعود إلى مستوى « صلاح الرعاية » في تاريخ إسرائيل، لنرى موقع المسيح منهم. فالله سبق أن أقام موسى راعياً : « أضعدهم من البحر مع راعي غنمه » (إش ٦٣ : ١١)، « هذيت شمبك كالغنم بيد موسى وهارون » (مز ٧٧ : ٢٠). كما أقام داود أيضاً : « اختار داود عبده، وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المُرْضِيعَات أتى به ليرعى يعقوب، شعبه، وإسرائيل، ميراثه. » (مز ٧٨ : ٧٠ و٧١)

ولكن هؤلاء الرعاة جميعاً لم يزيدوا عن أنهم كانوا بدورهم خرافاً، كان الله يرعاهم، ويهدي

لهم رعيتههم. فداود يعترف بذلك: «الرب راعيّ فلا يعوزني شيء. في مراعي خُضِرَ يُزْبِضُنِي، إلى مياه الراحة يوردني، يردُّ نفسي، يَهْدِينِي إلى سُبُل البرِّ من أجل اسمه» (مز ٢٣ : ١-٣). ولا يمكن أن ننسى أن داود، كراعٍ، رعى رعية الله حسناً، ولكنه افترس نعمة من قطيعه.

وموسى، الذي ضُربت به الأمثال في القيادة والأمانة، نجده يقف مرة واحدة عن القيادة والمسئولية ويطلب — مُستَصِرْحاً — أن يُغْفِيه الله: «فقال موسى للرب: لماذا أسأت إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثِقْلَ جميع هذا الشعب عليّ. أَلَعَلِّي حَبِلْتُ بجميع هذا الشعب؟ أَوَلَعَلِّي وَلَدْتُهُ حتى تقول لي اخبئله في حضنك، كما يحمل المربي الرضيع إلى الأرض التي حلفت لآبائه... لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب، لأنه ثَقِيلٌ عليّ. فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ بِي هَكَذَا فاقْتُلْنِي قَتْلًا إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنِكَ، فلا أرى بَلِيَّتِي» (عد ١١ : ١١-١٥). وبسبب هذه العثرة التي عثرها موسى عَيْنَ الله — مُضْطَرّاً — سبعين شيخاً يشاركون في القيادة والمسئولية، الأمر الذي لم يكن في أصل تدبير الله، وهذا هو منشأ السنهدريم الذي اجتمع ضد المسيح وقتله! ...

فبالنسبة هؤلاء الرعاة — قادة وحكاماً — وهم أفضل الرعاة في تاريخ البشرية، يقول المسيح ويعلن نفسه: «أنا هو الراعي الصالح». ويكتمل معنى الرعاية والصلاح بقوله: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».

ويلاحظ أن المسيح لم يقدّم نفسه للموت عَرَضاً، بل نزل من السماء خصيصاً من أجل ذلك، بل إنه تجسد ووُلد ليموت: «أيها الآب نجّني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو ١٢ : ٢٧)، ليس عن خرافٍ حظيرة إسرائيل وحسب، بل وعن الخراف الأخرى من جميع أنحاء العالم وفي كل الأجيال.

على أن كل راعٍ — سواء كان قائداً أو حاكماً أو كاهناً أو أيّاً مَن كان — إذا مات دفاعاً عن خرافه فهو لن يمنحها من حياته شيئاً، بل وعلى أقصى تقدير يحفظها حيةً، أما الراعي الصالح فهو يبذل نفسه ليعطي حياته لكل مَن يؤمن به، فهو بذل نفسه بنفس، أو بكل النفوس على وجه الأصح. وهذا هو الخلاص في أعلى مفهوم له وقمة معناه. فالخلاص ليس خلاصاً من ذنب أو موت وحسب، بل للفداء وإعطاء حياة: «أما أنا فقد أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل».

فبذل يسوع «لحياته» ليعطيها لأخصائه، يرفع من مفهوم «الراعي» بكل أبعاده البشرية، حتى يكاد يلغى معنى الراعي بالمفهوم البشري ويجعله الإله الفادي. لأنه هكذا انتهت وظيفة

المسيح المنظور - كراي - على الأرض بالموت، ليُظهرَ بحقيقة الإله. وزكريا النبي يرى هذه الصورة ويصفها بدقة عجيبة: «استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رَجُلٍ رَفَّقَتِي، يقول رب الجنود. أضرب الراعي فتشتت الغنم...» (زك ١٣: ٧). ويعود المسيح ويُحيي هذه النبوة وينطقها على نفسه: «حينئذٍ قال لهم يسوع: كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب أنني أضرب الراعي فتبدّد خراف الرعية. ولكن بعد قيامي أشبّحكم إلى الجليل» (مت ٢٦: ٣١ و٣٢). وهكذا ينتهي موت الراعي إلى قيامته واستعلان لاهوته.

والملاحظ أن كلمة «تشتت» أو «تبدّد» الرعية أو الغنم، التي هي مقصد الشيطان الأول في موت المسيح، أي الراعي، والتي تأتي باليونانية διασκορπίζειν في نبوة زكريا كما استشهد بها المسيح في إنجيل متى، هي نفس الكلمة التي يستخدمها إنجيل يوحنا في نبوة رئيس الكهنة التي تتضمن أن موت الراعي سينشئ بالتالي تجمع المتفرقين أو المتبددين مرة أخرى: «تنبأ أن يسوع مُزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يو ١١: ٥١ و٥٢) حيث جاءت كلمة «المتفرقين» على نفس أصل الكلمة διεσκορπισμένα.

بهذا ينتهي خط هذه النبوة العجيبة بأن «موت الراعي» الذي يُقصد منه تبدّد الرعية، أنشأ بذاته تجمع المتبددين من الرعية إلى واحد!! بهذا الإحساس النبويّ الفريد، كان يسوع يتكلم حينما قال: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف»، لأنه عالمٌ أنّ بموته، تتجمع الخراف إليه لتصير رعية واحدة لراعٍ واحد. لهذا قلنا ونقول إن وظيفة الراعي التي أخذها المسيح لنفسه، إنما استعارها استعارةً ليقارن بها نفسه بالآخرين الذين أرادوا أن يتشبهوا به، ليُظهرَ مدى الفارق المستحيل تصويره. فرعاية المسيح لخرافه في المثل الذي قاله - لمجرد المثل - إن هي إلاّ عملية موتٍ وخلص بالدرجة الأولى وبالأساس - فهي ليست مثلاً! فإن كانت هذه هي الرعاية الصالحة فمرحباً بالراعي الصالح، بل برئيس الرعاة الأعظم - الإله الذي تجسد واتخذ صورة الراعي، بل والحمل المذبح ليذبح عوض خرافه، إن صحَّ الكلام والتعبير:

«وأما الذي هو أجبرٌ وليس راعياً، الذي ليست الخراف له، فيرى الذئب مقبلاً، ويترك الخراف ويهرب، فيخطف الذئب الخراف ويدّدها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف»:

المقارنة هنا تتركز في العلاقة بين الخراف والراعي، والراعي والخراف، علاقة مشتركة تكشف الصاحب من الأجير. فصاحب الخراف يرعى خرافه، لأنه يمتلكها ويحبها، ويطلب صلاحها، فهو صالح لأنه يطلب لها الصلاح. أما الأجير فهو قد توظّف، ليرعى الخراف من أجل نفسه. فأولاً هو

يطلب الأجرة ثمناً للرعاية. وثانياً وبصورة شاملة، هو يطلب تأمين حياته. فهو يرعى الخراف لكي يرتزق، ويرتزق لكي يؤمن معيشته هو. فالمنطق على هذا الوضع يجعله غير مستعد أن يموت من أجل الخراف. والذي يفضح هذا الموقف هو حدوث خطر مفاجيء، الذي يمثله ظهور الذئب. والذئب هنا لا يرصده المسيح أنه الشيطان، بل أي ضيقة أو اضطهاد يفرضه العالم. فهو في الحال يهرب، لأنه يبالي أولاً وآخرأ بحياته، ولا يبالي بالخراف. وهكذا يجد الذئب الفرصة ليفتك بالخراف ويبدها. وهنا تصوير أليم لتفكك الجماعة، وفقدان الأفراد، عند انهزام الراعي، واكتشاف عدم كفاءته.

والرب هنا لا يهدف إلى فضح فئة معينة، لأنه يشرح حقيقة لا يمكن تعديلها أو تصحيحها، فالأجير لا يمكن تحويله إلى صاحب، ولكن الرب هنا يستعلن نفسه أنه الراعي الوحيد والفريد في نوعه — لأنه الابن الوحيد — ولن يكون له مثيل، لأنه «صاحب الخراف»، بمعنى الامتلاك الكلي. وبالتطبيق لا يوجد إنسان، ولن يوجد قط، مَنْ يمكن أن يمتلك أرواح ونفوس البشر، إلاً خالقها ومخلصها الرب يسوع. فالرب هنا يضع هذه المقارنة بين الصاحب والأجير، لكي يستعلن نوعية رعايته للنفوس التي تفوق قامات الملوك والآباء والأنبياء والكهنة والخدام، في كل زمان ومكان. لذلك جاءت النبوة واضحة: «وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها — «عبدى داود» — هو يرعاها وهو يكون لها راعياً.» (حز ٣٤: ٢٣)

والراعي الواحد هو الذي يكلف آخرين للرعاية من تحته، وهؤلاء لا يكونون بعد غُرباء ولا أجراء، بل مستأمنين ومختارين حسب قلب الله: «وأقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب» (إر ٢٣: ٤)، لأنها تحت رعاية الراعي الأعظم بالدرجة الأولى: «وأعطيكُم رعاةً حسب قلبي، فيرعونكم بالمعرفة والفهم» (إر ٣: ١٥). هؤلاء الرعاة ليسوا أجراء بعد، لأنهم يَرْعَوْنَ بالمعرفة والفهم وليس للمال والمنفعة، ولا هم غُرباء أيضاً ولا نُزلاء، بل هم رعية مع القديسين وأهل بيت الله، فهم أبناء للراعي الصالح وليسوا عبيداً، لا يعملون لحسابهم بل حُبّاً في الذي فداهم، وهم أيضاً شُرَكَاء للراعي، وشهود، سواء في موته أو في مجده، مستعدين أن يَفْدُوا الرعية بأرواحهم، لأن مستوى حبهم هو حسب قلب الله. هذا واضح في قول الرب لبطرس: «يا سمعان بن يونا أتجنّبي ... ارعَ غنمي» (يو ٢١: ١٦). وهذه هي إستجابة بطرس ومنهج رعايته: «أطلبُ إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلن، ارعُوا رعيّة الله، التي بينكم، نُظَّاراً لا عن اضطراب بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، ولا كَمَنٌ يسود على الأنصبّة بل صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيسُ الرعاة تنالون

إكليل المجد الذي لا يَبُلُّ . » (١ بط ٥ : ١ - ٤)

وليُنتبه كل قارىء وكل راجع ، فالرعية هي رعية الله من الألف للياء ، أما الراعي هنا فيتحتم أن يكون مثلاً أعلى للرعية بشبه المسيح ، وإلا فليمتنع . والربح القبيح ممنوع ، والتجبر والسيادة علامة فساد ، والأجرة ليست مالاً ، بل إكليل لا يفنى ، من فوق ، وليس هنا بالذهب الفاني ، وحساب الوكالة سيُنشر علناً عند ظهور رئيس الرعاة .

« والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف » :

هو لا يبالي كما تأتي باليونانية = οὐ μέλει αὐτῷ بمعنى « لا يعتني » ، لأن الخراف ليست له . ولكن شكراً لله ولرئيس الرعاة الأعظم ، لأنه ، وإن كان الرعاة الأجراء لا يعتنون بالرعية ، فالله يعتني وسيظل يعتني بكل من يصرخ إليه ، كما يقول بطرس الرسول الذي تعيّن راعياً من فم الرب : « مُلْقِينَ كُلَّ هَمِّكُمْ عَلَيْهِ لَأنَّهُ هُوَ يَعْتَنِي بِكُمْ . » αὐτῷ μέλει περὶ ὑμῶν (١ بط ٥ : ٧)

٢ - الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه :

١٥ و ١٤ : ١ « أما أنا فأناي الراعي الصالح ، وأعرف خاصتي ، وخاصتي تعرفني ، كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب » .

لأول وهلة قد يظن القارىء أن الرب يضع مقارنة متساوية بين معرفته لخاصته ومعرفة خاصته له ، بالمقارنة مع معرفة الآب له ومعرفته للآب . ولكن بحسب الفكر السائد في إنجيل يوحنا ، نعرف أن الرب دائماً يجعل العلاقة بين الآب وبينه مصداقاً يستمد منه كل عمله وفكره في العالم ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لعلاقته بخاصته : « أنا حيٌّ بالآب ، فمن يأكلني فهو يحيا بي » (يوحنا ٦ : ٥٧) ؛ كذلك : « في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي ، وأنتم فيّ وأنا فيكم » (يوحنا ١٤ : ٢٠) ؛ كذلك : « إن حفظتم وصاياي ، تثبتون في محبتي ، كما أنني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبتت في محبته » (يوحنا ١٥ : ١٠) ؛

كذلك : « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ ، وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا . » (يوحنا ١٧ : ٢١)

معنى هذا أن المسيح كاهن الله نزل من السماء ومعه ذخيرة من العلاقة الفعّالة التي تجمعهم وتربطه بأبيه ، يريد أن يجعلها هي نفسها فعّالة في علاقته بالذين أحبوه وآمنوا به ، حتى نصير نحن

أيضاً مربوطين ومجموعين فيه وفي الآب بآن واحد. فالقياس في العلاقات بينه وبين الآب ينطبق على علاقته بنا، مع حفظ الفارق الوحيد، وهو أن العلاقة بين الآب والابن، وبين الابن والآب هي علاقة صفات جوهرية وشخصية (أقنومية) مطلقة Absolute، بمعنى أنها بلا حدود ولا فواصل ولا فوارق على وجه الإطلاق؛ أما العلاقة معنا فهي مطلقة من طرف واحد فقط، أي من جهة المسيح والآب، فهو يحبنا حباً بلا حدود ولا قيود، ولكن نحن نحبه حباً له حدود وقيود. وكذلك في المعرفة، فهو يعرفنا بمعرفة مطلقة، أي أنه لا يخفى عليه شيء قط من أمورنا، أما نحن فنعرفه معرفة محدودة بحدود قدرتنا الهزيلة، ومقيّدة بسبب ضعف إدراكنا للحق الإلهي. لذلك يقول: «أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني»، فذلك يتضمن الحقيقة السابقة أن معرفته لنا مطلقة ومعرفتنا له مقيّدة. ولكن شكراً لله، فهذه المعرفة على وجه العموم قابلة للنمو والتكامل كل حين وإلى أبد الأبد: «انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح.» (٢ بط ٣: ١٨)

كما أن هذه المعرفة تشمل في طبيّاتها الحب والمشاعر الرقيقة للغاية، من جهته هي غنية بالعطاء، ومن جهتنا هي مفتوحة للأخذ كيفما شئنا وكيفما شاء الله. ألا يكفي أنه أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له؟؟

وهل توجد معرفة أغنى وأعمق من معرفة تعطي كل الذي لها حتى أعماق الله، وتمتص كل ما لنا من جهالات؟؟؟

وإن الصورة المبدعة التي يصوّرها الروح للمسيح كراخ يحمل على منكبيه (لوه ١٥: ٥) حملاً صغيراً أجهده السير في الطريق الوعر، يحتضنه في احتمال وصبر واشفاق يفوق الوصف، هي صورة عاطفية نبيلة تصوّر مقدار معرفة المسيح لكل شئون ضعفنا. ثم ألسنت أنت وأنا هو هذا الحمل الضعيف الذي لم يعد يقوى على السير فوق الصخور؟؟

ولأن المسيح يمدّنا بالمعرفة المستمدة من معرفته لله ومعرفة الله له على أساس الحب المطلق بينهما، استطاع بولس الرسول أن يقول بجرأة وتأکید: «وأما الآن إذ عرفتم الله، بل بالحرى عرفتكم من الله...» (غل ٤: ٩)

أما كون هذه المعرفة قائمة على أساس المحبة، فهذا يؤكد بولس الرسول أيضاً: «ولكن إن كان أحد يحب الله فهذا معروف عنده» (١ كو ٨: ٣). ويزيد هذا التأكيد ق. يوحنا من قول المسيح نفسه: «وعرفتكم اسمك وسأعرفهم» (أيضاً)، ليكون فيهم الحب الذي أحببته به وأكون أنا فيهم.» (يو ١٧: ٢٦)

والآن، يا قارئ العزيز، إن كانت تنقصك معرفة المسيح بعد، فهذا لأنك لم تحبه كما ينبغي، ولم تسعد بحبه كما يرتضي. فلا كتاب ولا مدرسة ولا وعظ ولا أي شيء من أمور العلم والمعرفة، يمكن أن يزيدك معرفة بالمسيح ويزيد معرفة المسيح لك، بقدر أن تحبه وأن تكون محبوباً عنده.

٣ - الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف :

١٥: ١٠ «وأنا أضع نفسي عن الخراف».

هنا وضع النفس للموت، هو غاية ونهاية للتجسد. وهذا أيضاً بالنسبة للمحب الحقيقي ممكن جداً، ولائقٌ للغاية بالنسبة لحب المسيح الإلهي.

عاملان أساسيان كانا يعملان في «وضع» المسيح لنفسه، أي في موته من أجل خاصته الذين في العالم كله : الأول الحب، والثاني الطاعة. فالحب كان يملأ كل كيان المسيح «الإلهي البشري». كما أن الحب من نحو الآب أنتج طاعة مُذِعَّة لمشيئة الآب من أجل خلاص العالم، جعل الموت الفدائي موضع سرور: «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب». (عب ١٢: ٢)

أما الحب من نحونا فكان مملوءاً مشاعر عميقة وقوية، لا يمكن لأي عقل بشري أو قلم كاتب أن يصفها، عبّر عنها بولس الرسول هكذا: «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأشّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعُمق والمُلُو، وتعرفوا محبة المسيح "الفائقة المعرفة" لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله». (أف ٣: ١٧-١٩)

أنظر أيها القارئ وتمنّ الكلام جيداً: إن المسيح إذ حلّ في القلب بالحب، انطلقت المعرفة بلا قيود، لتدرك محبة المسيح لنا إدراكاً يفوق كل قوى العقل الطبيعي، إلى أن يبلغ الإنسان إلى ملء الله أو الامتلاء بالله. فالمحبة والمعرفة هما مفتاحا سر الملء من الإلهيات، والمحبة هي الأساس. ويكفي أن نلّمح للقارئ أن حالة الحب الإلهي الناضج، أي المسنود بالمعرفة، يسمّى عند المتصوفين بـ «الشهادة»، أي أنها حالة رؤيا واستشهاد، فالشهادة مشاهدة تُنتج بذلاً، أي موتاً إرادياً عذباً. أما عند المسيح، فالحب يساوي الفداء تماماً. فالفداء الذي صنعه، استوفى الحب الذي كان يملأ قلبه. وعلى القارئ أن يستجلي السر المدفون في هذه الآية: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد

أحبَّ "خاصته الذين في العالم" أحبَّهم إلى المنتهى...» (يو ١٣ : ١)

هذا التصوُّر الفريد من نوعه، أي تصوُّر الحب الذي يؤدي إلى الموت طواعيةً، سبق أن رآه زكريا النبي بكلِّ دقائقه، إذ رأى من وراء الزمن هذه المعركة الأخيرة والمريرة بين المسيح الراعي الصالح وهو يحتاج رعاية إسرائيل الفاشين، كهنةً وكتبهً وفريسيين، إلى أن أغثت نفسه فيه، حتى تقيَّأهم، وأبادهم من خطة الخلاص التي أزمع أن يكملها لحساب الخراف المذلولة والمسحوقة. ونظر من بعيد، فرأى رؤساء الكهنة وهم يزنون الثلاثين من الفضة ويُسَلِّمونها ليهودا، كمندوب فوق العادة عن قتل المعلم :

«فرعيتُ غنم الذبح، لكنهم أدَّلُ الغنم... وأبدتُ الرعاة الثلاثة في شهر واحد^(٣)، وضاعت نفسي بهم وكريهتني أيضاً أنفسهم... فقلتُ لهم إن حَسُنَ في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا. فوزَّئوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: ألقها إلى الفخَّاري — الثمن الكريم الذي ثَمَّنوني به» (زك ١١ : ٧ و ٨ و ١٢ و ١٣). وقد تم: «حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يُدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم. فجعلوا له ثلاثين من الفضة. ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه... حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا، أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحلُّ أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخَّاري.» (مت ٢٦ : ١٤-١٦؛ مت ٢٧ : ٣-٧) وهكذا مات الراعي الصالح على يد الرعاة الخونة واللصوص؛ ولكن كان موته حياة الخراف.

٤ - الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة:

١٦ : ١ «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً، فتسمع صوتي وتكون رعيَّة واحدة وراع واحد».^(٤)

يلاحظ القارئ الصلة الجوهرية بين «أنا أضع نفسي عن الخراف» وبين «لي خراف أخر

(٣) في حساب النبوات يُحسب أسبوع الأيام بسبع سنوات، فالثلاثين يوماً هي الثلاثين سنة التي انقضت بعد موت المسيح وقيامته إلى أن تم خراب أورشليم وحرق الهيكل وإبادة النظام الكهنوتي لليهود برعاته الثلاثة.

(٤) راجع شرحنا لهذه الآية في مفهوم الكنيسة في إنجيل يوحنا — المدخل ص ٢٥٨.

ليست من هذه الحظيرة ينبغي (مستقبلاً) أن آتي بتلك أيضاً». . فموت المسيح هو الذي سيوسّع من دائرة الرعية: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أُجذبُ إلىَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢). فالمسيح لا يُقصرُ رعايته الصالحة على حظيرة إسرائيل، سواء في فلسطين أو خارجها. وهذا هو نص نبوة رئيس الكهنة، التي قالها دون أن يدري مضمونها: «ولم يُقَلْ هذا من نفسه، بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، تنبأ أن يسوع مزعمٌ أن يموت عن الأمة؛ وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو ١١: ٥١ و٥٢)

ولقد مهّد ق. يوحنا لهذه الحقيقة في مطلع إنجيله: «كان النور الحقيقي، الذي ينير كل إنسان، آتياً إلى العالم» (يو ١: ٩). وقد أَلَمَحَ المسيح إلى ذلك في قصة قائد المائة في إنجيل متى: «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشرق والمغرب و يتكثرون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيُطْرَحون إلى الظلمة الخارجية.» (مت ٨: ١١ و١٢)

ويلاحظ أنه بالنسبة للخراف الأخرى، لا يذكر الرب كلمة «حظيرة» أو «حظائر»، فهي خراف متفرقة في جميع أنحاء ممالك الأرض، لا تؤخذهم عبادة سابقة، ولا يجمعهم ناموس ولا أرض.

«ينبغي أن آتي بتلك أيضاً»:

هنا يبدأ العمل بالنسبة للخراف الأخرى بأن «يأتي» بها وليس «يجمعها»، فالرب يأتي بها إلى الآب أولاً بعمل دمه المسفوك عنها، وحينما يجمعها ويؤخذها بالروح مع الآب، يجمعها ويؤخذها معاً. فالوحدة المسيحية أو الوحدة الإيمانية أو الكنسية، يستحيل أن تتم في دائرة المجهود الإنساني، بل يتحتم وبالضرورة أن يتحد كل واحد وكل جماعة أو كنيسة بالله أولاً، بعمل الروح، وبعد ذلك يمكن وينبغي أن يتحد الكل معاً، حتى تصبح رعية واحدة لراع واحد. والراعي الواحد يبقى دائماً وإلى الأبد هو الرب يسوع دون سواه، لأنه هو المصالح وليس آخر، وهو الوحيد الذي يجمع لأنه يجمع في شخصه، وليس في المبادئ أو القوانين، ثم هو الوحيد الذي يؤخذ بعمل روحه القدوس الذي يرفع الفوارق من كل نوع، سواء كانت فوارق لون أو جنس أو فكر أو ثقافة أو تقليد. ويكون معيار الواحد هو معيار الكل: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ.» (غل ٢: ٢٠)

«فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد»:

السمع هنا لا يزال يتعلق بالمثل، أي الخراف وصوت الراعي. فهي لا تتبع إلا إذا ميّزت

صوت الراعي وتعرّفت عليه. أما بالنسبة للرب وأخصّائه، فسماع صوته خبرة روحية ذات قيمة ومدلولات غنية يصعب على الفكر والقلم أن يجمعها في سطور.

فالإنسان خُلِقَ وله حاسة تمييز صوت الله، وهذا نسميه «السمع»، فالله كان يتكلم مع آدم وحواء، وكانا يسمعان صوت الله. وقبل الخطيئة كان السمع يلازمه الطاعة، ولما أخطأ لم يفقدا تمييز صوت الله: «فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت. فقال: سمعتُ صوتك في الجنة فخشيتُ لأني عريان، فاخبتُ» (تك ٣: ٩ و ١٠). وهكذا تحوّل السمع من «سمع وطاعة» إلى «سمع وخوف»، وهكذا ظل الإنسان الخاطيء يلازمه الخوف عند سماع صوت الله، إلى أن تعلّم كيف يتوب ويعود إلى الله. فصار صوت الله للتائب للبهجة والخلاص عوض الخشية والخوف. وتُعتبر خبرة التائب إلى الله من جهة سماع صوت الله وتمييزه، الركيزة الأولى والعظمى في كل خبرات الإنسان على مدى حياته كلها، والتي على أساسها يبدأ يتعلم الفهم والحكمة، ويتدرب على قبول صوت المشورة الإلهية، وينمو في تمييز صوت الله من درجة إلى درجة. فدرجة سماع صوت الله تتغير في شدتها ورقّتها ولطفها وحنانها وحُبّها وقربها من مستوى العبد الخاضع، إلى الابن، إلى الخادم الأمين، إلى النبي، إلى الملك، إلى الكاهن، إلى العروس، وكل درجة لها مسؤوليتها. وهي تتعدد بتعدد الأشخاص، ولكن قد يحوزها إنسان واحد على مدى خبرات حياته.

ولكن أعجب درجات صوت الله، عموماً، هي درجة صوت المسيح التي تخترق كل الحاجز والمستحيلات. فالميت يسمعها ويستجيب لها ويقوم، سواء من موت الجسد كأليعازر، أو موت الخطيئة مثلي ومثلك، أو في اليوم الأخير حيث يكون صوت المسيح هو للقيامة العتيدة التي يتحرك لها كل مخلوق، الأموات والأحياء جميعاً بلا استثناء لقيامة الدينونة. ويعوزني الوقت والأذن التي تسمع لنتكلم عن صوت المسيح مع النفس التي دخلت معه بالتوبة في عهد حب أبدي، كيف يملأها فرحاً ونعيماً وسروراً، يفيض عليها من دسم السماء ويشرق عليها بالمراحم كل صباح، يزيئها بكل زينة الروح ويقودها في مراعي خضر، كما في المزمور (مز ٢٣).

لقد جمع المسيح له رعية من كل لسان وشعب وأمة — لأنه ذُبح واشتراها جميعاً — ألوف ألوف وربوات ربوات مغتسلين بالدم، يقدمون له الخدمة ويسيّقون من نبع الحكمة. صوته بالفرح لا ينقطع عن التسبيح، يدوم على وجه كل الأرض بدوام مجرى الشمس!... وهكذا صارت بالحق رعية واحدة لراع واحد، تسمع صوته، وتُسمعه صوته، شهادة أبدية لصالح راعيها... أما إسرائيل فثقلت أذنه عن السمع، وتم فيهم القول: «إنه حسناً كلّم الروح القدس آبائنا بإشعياء النبي قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقُلْ ستسمعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً ولا تبصرون. لأن قلب

هذا الشعب قد غُلُظَ، وبآذانهم سمعوا ثقيلًا، وأعينهم أغمضوها، لئلا يبصروا بأعينهم و يسمعوا بآذانهم و يفهموا بقلوبهم، و يرجعوا فأشفيهم. فليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أُرسِلَ إلى الأمم وهم سيسمعون.» (أع ٢٨ : ٢٥-٢٨)

«رعية واحدة وراع واحد» :

قول الرب هنا مطابق حرفياً لنبوة حزقيال النبي : «وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعها، عبدي داود هو يرعها، وهو يكون لها راعياً» (حز ٣٤ : ٢٣). وهكذا، فإن ما كان منذ الأزل وما صوّره حزقيال بالرؤيا من وراء الزمن، تحقق في عمق التاريخ في شخص يسوع المسيح، الراعي الواحد.

و يلاحظ أن الرب لم يذكر أنها تصير حظيرة واحدة، وكأنها أمة أو شعب محدد بحدود وقيود، وهذا يُحتسب في المفهوم الكنسي غاية في الأهمية. فلا عودة إلى حظيرة إسرائيل، ولا شراكة في نظام تلك الحظيرة كأنه انضمام أو تهوّد، ولكن هو اكتساب للأصل فقط، وليس الفروع، بمعنى اكتساب لكل مواعيد الله للآباء والأنبياء التي تحققت في شخص المسيح. فمن خلال المسيح وحده نستقي من نبع العهد القديم، فهو الأصل الذي تصوّر عليه العهد القديم كله بكل أمجاده : «أنا يسوع أرسلتُ ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس، أنا أصلٌ وذُرِّيَّة داود، كوكب الصبح المنير.» (رؤ ٢٢ : ١٦)

وعلى هذا الأصل بُنيت الكنائس، ولم يقل هنا «كنيسة» بل «كنائس»، كنائس شعوب وكنائس دهور وأحقاب — ولا سيادة لكنيسة على كنيسة!! عن هذا الأصل الواحد الغني بالله والدسم بالنعمة يقول بولس الرسول : «وإن كانت الباكورة مقدسة فكذلك العجين. وإن كان الأصل مقدساً (المسيح) فكذلك الأغصان. فإن كان قد قُطع بعض الأغصان وأنت زيتونة برية طُغِمْتَ فيها فصرت شريكاً في أصل الزيتون ودسمها... من أجل عدم الإيمان قُطِعَتْ وأنت بالإيمان ثبَّت. لا تستكبر بل خَف.» (رو ١١ : ١٦-٢٠)

فالمسيح هو الأصل «أصل داود»، أي أصل الوظيفة التي تعيّن عليها داود كملك ورئيس وراع ونبي للشعب. وكلمة «أصل» تَجِيء باليونانية «جذر» $\rho\acute{\iota}\zeta\alpha$ ، فإن كان جذر داود هو المسيح، فالمعنى أن داود كان يستمد من المسيح كل كيانه.

كذلك فالمسيح هو أصل ذرية داود، حيث «ذرية» تَجِيء باليونانية $\tau\acute{o} \gamma\acute{e}\nu\omicron\varsigma$ وتفيد معنى الجنس أو غصن ينبت من الأصل shoot. فالمسيح هو الأصل الذي قام عليه داود وهو وذريته، أي

امتداده. هذا هو "الشَّذَّاي" (القدير)، "الأدوناي" (الرب)، "يهوه" (الله)، رب إبراهيم، وراعي إسرائيل وداود، المَسِيَّا، ملك الدهور إلى الأبد.

وهنا لو نظرنا إلى المسيح كراعٍ واحد أي وحيد، فباعتباره أصل داود فهو وحده الذي يملك مراعي العهد القديم؛ وباعتباره هو ذُرِّيَّة داود، فعليه تقوم الرعاية إلى الأبد. والآن إذ طُغِمَتْ الكنائس على هذا الأصل، صارت تمتلك في المسيح وحده كل مراعي العهد القديم وامتدادها فيه إلى الأبد.

على هذا الأساس قامت العلاقات بين الأمم واليهود، لا على أساس ناموس وتعاليم ووصايا بحدِّ ذاتها، بل على أساس المسيح نفسه — كفكر وخلص وفداء وحياة — فكل ناموس في القديم يعترف بالمسيح ربًّا وإلهًا فهو عهد جديد، وكل تعاليم أو وصايا في العهد القديم تشهد للمسيح أنه رب وإله، فهي تعاليم ووصايا العهد الجديد.

وباختصار، نلقي شعاعاً من نور يوضِّح هذا القانون الإلهي: فإن إسرائيل في القديم كانت حياتها، وكان كيانه كله وبقاؤها متعلقاً بعلاقتها بالله — يهوه —، والآن قد استعلن يهوه في المسيح. فكلُّ مَنْ لم يؤمن ويعترف بالمسيح من شعب إسرائيل، يكون قد فقد علاقته بالتالي مع الله يهوه. وكلُّ مَنْ آمن بالمسيح من الأمم بأنه هو «يهوه» المَسِيَّا الله الآتي بالجسد والمستعلن للعالم — «الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦)، يكون قد اكتسب بالتالي كل ميراث العهد القديم في شخص يسوع المسيح.

فالمسيحية ليست امتداداً لليهودية، ولكن المسيحية هي استعلان الله في شخص يسوع المسيح، لتكميل مقاصد الله وخطته الأزلية من أجل خلاص العالم الذي كانت إسرائيل مرحلة بدائية من مراحل الأولى، والتي انتهت برفضها المسيح.

«رعية واحدة»:

كان هناك نزاع قديم بدأ منذ القرون الوسطى في الكنيسة الغربية — وقد تعدل فيما بعد — من جهة تغيير قراءة «رعية» ποιμήν إلى حظيرة αὐλή، بقصد جعل بابا روما هو «الراعي الواحد»، وكنيسة روما هي «الحظيرة» الواحدة للراعي الواحد، وللأسف فهذا بعينه هو الرجوع إلى الفكر اليهودي العنصري، حيث إسرائيل هي الحظيرة الأوحداً ولا حظائر غيرها قط، فالأمم كلاب لا غنم!!

ولكنها جاءت في النسخة اليونانية وفي النسخ السريانية والمصرية هكذا: «رعية واحدة وراع واحد» = $\mu\acute{\iota}\alpha\ \pi\acute{o}\iota\mu\eta\nu\ \epsilon\iota\varsigma\ \pi\acute{o}\iota\mu\eta\nu$.

ولكن الفولجاتا اللاتينية حصل فيها تعديل لتناسب الفكر البابوي الروماني^(٥)، وذلك في بداية سنة ١٥٨٢م، وجعلوها قراءة مقدسة؟ غير قابلة للتغيير: «حظيرة واحدة لراع واحد» $unum\ ovile\ unus\ pastor$. وللأسف أخذت عنها بعض الطبقات الأخرى. وكانت هذه القراءة المغلوطة سبباً في التأثير على فكر الكنيسة الرومانية إلى يومنا هذا.

والسؤال الذي بلا جواب هو: إن كانت الخراف الأخر التي سيجمعها المسيح من كل الشعوب والأمم لم تنشأ من أصل الحظيرة اليهودية في قليل أو كثير: «خراف أخر ليست من هذه الحظيرة»، ولم يرتب لها الرب أن تنضم إلى الحظيرة اليهودية لتأخذ مبدأها من هناك، فقد قال: «ينبغي أن آتي بها»، ولم يقل أنه يجمعها إلى الحظيرة، بل جعلها رعية لا يجمعها إلا شخصه المبارك في حظيرته السمائية، فكيف يمكن أو كيف يتصور أحد أن يقوم في الرعية (من الخراف الأخر) من يدعي هذا الحق، حق أن تتبعه الخراف الأخرى أو تأخذ مبدأها ومنشأها منه؟ ثم فوق هذا وذاك هل «الراعي الواحد» الذي جمع الخراف استقال وسلم وظيفته لآخر؟ أم أنه يقيم رعاة كيفما يشاء ولا يميزهم عنده إلا حسب الوكالة؟ ثم كلمة راع «واحد»، هل كلمة «الواحد» هنا عددية أم أنها قرينة الابن «الوحيد» بل ونابعة من الله «الواحد»؟! فالراعي الواحد هنا ليس إنساناً هو كأحد الخراف، بل هو بكل المعايير إله! «وأنتم يا غنمي غنم مرعاي الناس أنتم، أنا إلهكم يقول السيد الرب.» (حز ٣٤: ٣١)

وكانه بالمثل الذي قاله المسيح، يريد الوحي الإلهي أن يصور لنا المسيح بصورة شاملة وعجيبة، فهو الباب، وهو البواب، وهو الحظيرة الجديدة — إسرائيل الجديد — التي بلا حدود، وهو الراعي، والخراف هي من لحمه ومن عظامه!!! فالوحدة الشخصية معه القائمة على الخلاص الفردي وهبها المسيح لكل من يؤمن به ويأكله. وهذه الصورة الفردية الوجدانية لعلاقة الراعي الصالح بالرعية، أنهت على عهد احتكار الرعاة للغنم إلى الأبد.

^٥ Westcott, *op. cit.*, pp. 155, 162.

ثانياً : استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب

(١٠ : ١٧ - ٣٩)

○ «أنا والآب واحد.» (١٠ : ٣٠)

○ «لأنني قلت إني ابن الله.» (١٠ : ٣٦)

١٠ : ١٧ و ١٨ «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لأخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي.» (١)

هنا يلتفت المسيح نحو الآب ليقدم له ذبيحته، التي هي في الواقع ذبيحة حب، لتجد عند الآب ما يساويها. وإن كان هو يقدمها بحرية إرادته، إلا أنها أيضاً مُقدّمة في الطاعة المطلقة للآب، لأنها في الأصل هي استجابة لوصية الآب.

ولكن لكي يُبرز المسيح العنصر الإلهي في تقديم نفسه ذبيحة حسب الطاعة لوصية الآب، عاد وأوضح أنه لا يقدم نفسه جزافاً، كمن يضيعها أو يفقدها برجاء التعويض، ولكنه قدّمها قصداً ليتغبر بها الموت بكل أهواله وآلامه، وهو عالم أنه سيقبّلها من الموت بسلطانه وبتأكيد الآب. فالذبيحة ليست ذبيحة للموت وحسب، بل هي ذبيحة «موت وقيامة» بحسب مضمون وصية الآب، أو بحسب اتفاق الآب والابن معاً، كخطة أزلية. لأن الابن وضع عليه أن يخوض الموت بالجسد من أجل افتتاح طريق القيامة من الأموات ليقم من الموت كل ذي جسد.

هنا لا ينبغي أن يغيب عن بالنا صورة المثل الذي وضعه المسيح من جهة الراعي والخراف والمرعى. فهنا يبلغ المسيح بنفسه حدّ التفوق المطلق على مفهوم الراعي والرعية والمرعى. فالراعي في مفهوم المسيح هو القادر بإرادته وسلطانه وحده أن يموت من أجل الخراف، ويقوم من الأموات، ليقم الرعية من الموت ويعطيها المرعى الذي بتذوقه لا تذوق الموت أبداً... هذا هو راعي الخلاص الأبدي.

(١) يُقرأ هذا الفصل في الساعة الأولى من ليلة الخميس من البصخة المقدسة لِمَا جاء فيه من تصميم المسيح على بذل ذاته بمنتهى حريته طاعة للآب.

بهذا ينتقل المسيح — من داخل المثل الذي قاله — من صورة الراعي إلى حقيقة الألفية أنه المخلص القادر أن يذهب وراء خروفيه الضال حتى إلى أعماق الموت والهاوية، ليقيمه حياً، وليجيا أمامه إلى الأبد. ولتأكيد معنى اهتمام هذا الراعي العجيب بكل خروف على حدة يقول بولس الرسول: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة — يسوع — نراه مُكَلِّلاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت لكي يذوق — بنعمة الله — الموت لأجل "كل واحد"». (عب ٢: ٩)

إن الموت الذي كان يمثله الذئب، والذي كان يُرعب قلب الراعي والخراف معاً، لا يوجد له مكان في قلب المسيح. لقد افترس المسيح الموت والذئب معاً، وأعطى خرافه صكّ الخلاص من موت، ووهبهم حقّ الحياة الأبدية: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية». (عب ٢: ١٤ و ١٥)

١٨: ١٠ «ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي، لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً، هذه الوصية قَبِلْتُهَا من أبي».

عجيب حقاً أن يضع المسيح هذه المعادلة الصعبة في صورتها البسيطة المتناهية في البساطة. فهو يستعلن لنا سلطانه المطلق على الموت والحياة معاً، ثم يضع هذا السلطان في توافق مطلق أيضاً مع الآب. هنا جوهر اللاهوت حيٍّ ومتألّئ أمام عيوننا وقلوبنا. فالابن متساوٍ مع الآب في المفاعيل الذاتية للجوهر الإلهي، أي السلطان والقوة والمجد، لأن الآب والابن واحد في هذا الجوهر الإلهي المطلق، فكل ما للآب هو للابن، وما هو للابن هو للآب، ليس على وجه التساوي بالمفهوم الحسابي الذي يفهم الثنائية في الجوهر، بل على وجه الوحدة المطلقة التي تلغي الثنائية في جوهر الله.

على ضوء هذه الحقيقة اللاهوتية، يقول المسيح ويعلم عن سلطانه الفائق بالتالي على كل بشر وكل سلطان بني البشر: «ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي...». المسيح هنا يتحدى كل قوى الظلام وكل قوى البشر المتعاهدة مع الظلام، المسيح يضع «أنا» *ἐγώ* إزاء أي أحد *οὐδείς*.

المسيح هنا يجعل موته «أضع حياتي» فعلاً إلهياً، يفوق أي تطاول شيطاني أو بشري. وقد عزّز المسيح تأكيده هذا في مواقف عدة: «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه، وقال لهم:

مَنْ تطلبون، أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: «أنا هو» (يو ١٨ : ٥٤). وحينما جازف بيلاطس ليعلن سلطانه أمام المسيح بموته أو بإطلاقه، أنكر عليه المسيح هذا السلطان واستعلن هو سلطانه السامي الذي له أن يلغي أي سلطان آخر: «أما تكلمني؟ ألسنتك تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟ أجاب يسوع: لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو ١٩ : ١٠ و ١١). وبهذا القول استعلن المسيح حريته المطلقة في اختيار الموت حسب مشورة الآب الأزلية. لذلك لم يكن صعباً عليه ولا ثقيلاً أن يحمل صليب العار والموت على كتفه: «فيخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع...» (يو ١٩ : ١٧). وفي اللحظة الحاسمة لاقترب الموت، استقبله المسيح كَمَنْ ينتظره وعلى رأسه إكليل الحياة والمجد: «فلما أخذ يسوع الخلّ قال قد أكمل، ونكّس رأسه، وأسلم الروح» (يو ١٩ : ٣٠). قالها وهو فاتح ذراعيه يُسلم الروح في يد الآب إلى حين...

«لي سلطان» أن أضعها ولي «سلطان» أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي: لم يكن كافياً لعقول السامعين أن يعلن المسيح عن سلطانه في «أن أضعها من ذاتي»، لذلك أردف هذا السلطان — أي سلطان الموت الإرادي الذي يمكن أن يكون على مستوى البشر — بسلطان آخر ليس في طاقة البشر قط، وهو سلطان الإقامة من الموت! هنا يعزّز المسيح موته كفعل إرادة إلهي غير منظور بفعل إرادة إلهي منظور ومحسوس، وهو القيامة، ليستعلن موته أنه فعل فداء وخلص، وليبرئ موته من مفهوم الاضطراب أو الانهزام لقوى الظلام.

فقول الرب: «لي سلطان أن آخذها أيضاً» — الأمر الذي حقّقه بالفعل — يستعلن فيه سلطانه على الموت، بمعنى أنه يأخذ الموت لنفسه عندما يشاء ويلقيه عنه كما يشاء. وهذا بعينه هو «سلطان عدم الموت» القائم والدائم في طبيعة الابن وجوهرة الإلهي.

وإذا تعمقنا قليلاً في هذه الطبيعة الفائقة التي فيها يتساوى سلطان حرية الموت، مع سلطان حرية القيامة من الموت، لأدركنا أن فعل الموت والقيامة هما حاضران معاً، كحدث واحد، في تدبير المسيح بدون اهتزاز ولا افتراق. هذا السلطان على الموت والقيامة من الموت قبله المسيح من الآب، كوصية للتنفيذ لينفذه في ذاته لتكميل تدبير خطة الآب لخلص العالم. ومن هذا «السلطان» عينه على الموت والإقامة من الموت — الذي نفّذه المسيح الكلمة المتجسد في ذاته، حسب وصية الآب من أجل الإنسان، صار بالتالي للمسيح نفس «هذا السلطان» على إعطاء عبور الموت والقيامة — أي الميلاد الجديد السماوي — لكل مَنْ يؤمن به، «وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطاناً» أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا... من الله» (يو ١ :

١٢ و ١٣). أي أنه نفَّذ هذا «السلطان» في نفسه ليعطيه للآخرين، إنما من خلال إخضاعه الموت والقيامة لنفسه أولاً!!

«فسلطان» المسيح على إعطاء الحياة الأبدية للإنسان يستمدّه من طبيعته، ومن وصية الآب، ومن فعل ذبيحته التي جاز بها الموت وظفر بالحياة بالقيامة من الموت: «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً، إذ أعطيتُ «سلطاناً» على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل مَنْ أعطيته.» (يو ١٧ : ١ و ٢)

أما بعد قيامته من الأموات، بعد أن داس الموت وأبطل سلطانه وأخضع كل سلاطين الظلمة تحت قدميه، أعلن لتلاميذه عن سلطانه المطلق هكذا: «فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إليّ كل «سلطان» في السماء وعلى الأرض.» (مت ٢٨ : ١٨)

ولكن لم يكن المسيح أبداً بدون هذا السلطان حتى قبل موته وقيامته، لأن هذا السلطان في طبيعته — فقد أعلن بالقول والفعل عن سلطانه على مغفرة الخطايا (مت ٩ : ٦) وسلطانه على الدينونة (يو ٥ : ٢٧) وسلطانه على إعطاء الحياة (يو ١٧ : ٢) وسلطانه على القيامة من الموت (يو ١٠ : ١٨). لذلك، فإعلانه عن سلطانه المطلق في السماء وعلى الأرض لتلاميذه بعد القيامة (مت ٢٨ : ١٨)، لم يكن إلاً استعلاناً وتحقيقاً فعلياً لما كان وما هو موجود ولكل ما سمعوه ورأوه من أقواله وأعماله، ولإعطائهم هذا «السلطان باسمه» على مغفرة الخطايا وإجراء المعمودية لقبول الميلاد الجديد.

وهنا يلزمنا أن نصالح بين الزمني والأبدي في أفعال المسيح من جهة موته وقيامته. فكلُّ ما صار إليه المسيح تحت الزمن والناموس، كان قائماً في العلم والمشئة والإرادة الإلهية قبل إنشاء العالم. فكلُّ النبوات أعلنت ما سيكون قبل أن يكون، خاصة عن موته الخلاصي وقيامته المُخَيِّبة. اسمع ما يقوله بولس الرسول حينما رفع عينيه فرأى ما هو قائم في نص الخطة الأزلية من جهة أسمائنا المكتوبة بين المخلصين قبل تأسيس العالم؟! «مبارك الله أبوربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.» (أف ١ : ٣ و ٤)

أما ق. يوحنا فقد اطلع على السفر المكتوب فيه أسماء الخراف الناطقة المعيّنين للحياة الأبدية: «فسيسجد له (للوحيش) جميع الساكنين على الأرض، الذين ليست أسمائهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذُبِح.» (رؤ ١٣ : ٨)

كذلك، حينما خاطب المسيح الآب، فإنما كان يخاطبه كابن ليُشيعنا نحن عن سرِّ علاقته الأزلية بالآب، التي لم تتغير ولم تنقص ولم تزد إلا بما استلزمته مظاهر التجسد التي قبلها الابن لحسابنا. فالمجد والحب وكل شيء بين الآب والابن انجسبت قليلاً بالتجسد، لتعود كما كانت بالقيامة من الأموات: «والآن مَجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْن العالم» (يو ١٧: ٥)، «كلُّ ما هولي فهو لك، وما هولاك فهو لي...» (يو ١٧: ١٠)، «... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤). والمسيح ألمح إلى ذلك في لفتة سريعة، إنما ذات عمق لانتهائي بقوله: «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيثُ كان أولاً...» (يو ٦: ٦٢). هنا يكشف المسيح عن سر كينونته الدائمة والأزلية مع الآب منذ البدء، عابراً على فعل تجسده وموته وقيامته على أنها إرسالية زمنية عابرة لغزبة على الأرض، أكمل واجباتها حسب الوصية دون أن تحتجز أو تنتقص شيئاً من كيانه.

وسفر الرؤيا يعلن ذلك في اختصار شديد ورتابة مبدعة: «نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي...» (رؤ ١: ٤)، «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء...» (رؤ ١: ٨).

وهكذا يتبين لنا من كل هذه الأقوال والنبوات، أن أعمال الله تقطع فراسخ الزمن في ومضة البرق وتطوي الأماكن والأجيال والخلائق وكل ما كان وما سيكون، في كلمة: «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية». والمسيح جاء ليكمل بالفعل الزمني ما كان كائناً وكاملاً في الحق الأبدي. أو باختصار أشد: إن كل أعمال الكلمة الابن المتجسد كانت جاهزة وحاضرة، بل ومكملة أيضاً، لحظة مجيئه وظهوره، وذلك واضح في قوله: «لي سلطان...». وإن هذا السلطان هو «وصية قبلتها من أبي» وهي قائمة بالنبوة في انتظاره، «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحة وقرباناً لم تُرَدِّ ولكن هيأت لي جسداً... ثم قلت هأنذا أجيء»، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله...» (عب ١٠: ٥ و٧).

٢١: ١٩ - ٢١ «فحدث أيضاً انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام. فقال كثيرون منهم: به شيطانٌ وهو يهذي، لماذا تسمعون له؟ آخرون قالوا: ليس هذا كلام مَنْ به شيطانٌ. ألعنَّ شيطاناً يقدر أن يفتح أعين العميان؟».

وكما هي العادة، فبعد كل تعليم يقدمه المسيح، ينقسم السامعون إلى مُناقِضٍ فاقد الاتزان في النقد، وإلى مُدافِعٍ خائف متراجع عن إعلان إيمانه. كما أن الانقسام — كما رأينا سابقاً — إما

يكون بين الجموع، وهو تعبير عن عامة الشعب غير المتعلم: «فحدث انشقاق في الجمع لسببه. وكان قوم منهم يريدون أن يمسخوه، ولكن لم يُلْقَ أحدٌ عليه الأيادي» (يو: ٧: ٤٣ و٤٤)؛ وإما يكون بين الفريسيين، وهي طبقة المتعلمين وحَفَظَةِ الناموس: «فقال قوم من الفريسيين: هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت، آخرون قالوا: كيف يقدر إنسان خاطيء أن يعمل مثل هذه الآيات؟ وكان بينهم انشقاق» (يو: ٩: ١٦)؛ وإما أن يكون بين اليهود، وهو تعبير عام يشمل المتعلمين وغالباً من سكان أورشليم، كما جاء في الآية التي نحن بصدددها.

وهذا الحكم المتهوّر على تعاليم المسيح: «به شيطان وهو يهذي»، يوضح تغرّب الأذن والقلب عند هؤلاء السامعين عن مستوى إدراك صوت الله وفهم مقاصده الإلهية. ونحن لا نستكثر عليهم هذه الجهالة والحماقة، فالتعاليم التي أسسوا عليها فكرهم وإيمانهم بلغت حدّاً من التفاهة، وذلك بالخصوص في صفات التخریجات الخرافية للوصايا والإنشغال بالأمور السياسية والدينيوية، حتى انطمست معالم الحكمة من قلوبهم فعميت بصائرهم عن رؤية الحق المُستعلن لهم في المسيح قولاً وعملاً.

ولا تزال هذه الخطورة محدقة بالإيمان المسيحي حتى اليوم عندما يترك الرعاة جوهر الإيمان، والتمسك بمبادئ الفداء والخلاص، والدعوة إلى التوبة وتسليم الحياة في سيرة القداسة والطهارة، وينشغلون بالأمور الأخرى.

١٠: ٢٢-٢٤ «وكان عيد التجديد في أورشليم وكان شتاءً. وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان. فاحتاط به اليهود وقالوا له إلى متى تعلّق أنفسنا؟ إن كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا».

من جهة ما هو عيد التجديد، نرجو الرجوع للشرح في أول الأصحاح التاسع. أما من جهة المناسبة، فقد كان من أسلوب ق. يوحنا أن يذكر مناسبة الحديث، إما في بدء الكلام أو في نهايته. فحديث الراعي الصالح كان هو حديث عيد التجديد في أورشليم. كما يذكر ق. يوحنا أيضاً أن المسيح كان يتمشى في رواق سليمان لأن الوقت كان شتاءً — وموسم أمطار ثقيلة — فكان الهيكل ورواق سليمان ملجأً للمعلم من البرد والمطر. ولو حسبنا التاريخ لوجدنا أن عيد التجديد الواقع في هذه السنة كان في ٢٥ من شهر كسلو اليهودي لسنة ٢٩م ويقابل الآن ١٩ ديسمبر.

أما المناسبة الأساسية التي تربط سؤال اليهود للمسيح بهذا العيد، فهو الرجاء الملهب الذي

تشير ذكريات هذا العيد في قلوب اليهود من جهة الخلاص السياسي من المستعمر والعبودية للسلطة الرومانية، كما عمل الله على يدي يهوذا المكابي وهزَمَ السوريين وطردهم من البلاد. والآن، قد ظنوا أن على يدي المسيح أيضاً يتم الخلاص من عبودية الرومان، فكان هذا الإلحاح على المسيح لكي يكشف لهم عن شخصه، لأن أحاديث المسيح كلها كانت تمس الخلاص ولكن بنوع لم يفهموه، فتعلقت نفوسهم بين القبول والرفض. فأجابهم المسيح وكشف لهم، لا عن شخصه بل عن شخصهم، وكيف أنهم أخطأوا الرؤية والفهم، فهو هو المسيح ولكن ليس لهم، وهم اليهود ولكن ليسوا يهود الموعد.

«فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا؟»:

هذا الوصف لا يمتُّ إلى شدة التعلق أو عن رغبة مُلحة للسمع، ولكن هي محاولة للضغط والإرهاب، فسؤال اليهود كان على مستوى التحقيق والإلزام النهائي بكشف السر عن شخصيته؛ لأن المعروف عن المسيح أنه كان دائماً يبدأ يتكلم بالأمثال مع الذين ليسوا من خاصته، مما أرهق فكرهم الضيق، فوجدوها الآن فرصة سانحة في هذا العيد أن يُلزموه بالإفصاح العلني عن شخصه. فهذا هو عيد الأنوار، وهو يقول: إنه هو «نور العالم» (٩: ٥). وهذا عيد الحرية، وهو يقول: «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (٨: ٣٦). وهذا هو عيد تطهير الهيكل، وهو سبق أن تولى تطهيره بنفسه (٢: ١٣-١٧). فلماذا إذن لا يحمل راية القائد المحرر؟

والآن على القارئ أن يتصور مدى تعلق أنفسهم فعلاً بكل كلام المسيح، ولكن لشدة الأسف كان ذلك على المستوى السياسي والوطني. كانوا على أتم استعداد لإعلان الثورة وحمله على الأعناق، وتقديم أجسادهم للذبح والحريق بلا أي تردد، ولكن وللأسف لم يكونوا مستعدين للتوبة عن خطاياهم أو إعلان تجديد حياتهم! أليس هذا حال الكثيرين من المتحمسين للكنيسة والدين حتى إلى سفك الدم، وهم غرباء عن الإنجيل، وغير مستعدين لقبول كلمة التوبة أو الخلاص؟

١٠: ٢٥ و ٢٦ «أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي. ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم».

«إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي»:

لم يكن كلام المسيح لهم إلا اختباراً لإيمانهم. المسيح يتكلم بكلام هو بحد ذاته نور وحق

وحياة؛ إذن فهو دينونة مريعة للذين يرفضون بلا عذر، ولكن إن قالوا إنَّ الكلام صعبٌ عليهم، فهذا الأعمال تشهد لصدق القول وتحكم بصدق الدينونة. إذن، الكلام والأعمال هي بحثٌ ذاتها تتكلم أن المسيح هو من عند الآب، وباسمه كل ما يقول ويعمل. إذن، فلا داعي أن «يقول جهرًا» إنه المسيح، هذا متروك لهم أن يقولوه ويشهدوا له ويؤمنوا به: أليسوا هم معلمي إسرائيل؟ كيف لا يعرفون مسيح الكتب والأنبياء؟ لو كان رجاءهم صحيحاً لعرفوا المسيح، ولكن رجاءهم مزيفٌ هو، ومعرفتهم غاشة صنعتها أهواؤهم ونسجها كبرياؤهم.

١٠: ٢٦ - ٣٠ «ولكنكم لستم تؤمنون، لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم. خرافي نسمع صَوْتِي وأنا أعرفها فتبني. وأنا أعطيتها حياةً أبديةً ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحدٌ من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحدٌ أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد».

المسيح هنا يكشف السبب الأساسي لإخفاقهم في معرفته وبالتالي عدم إيمانهم. وما هو السبب الرئيسي في عدم إيمانهم؟ يقول الرب: إن خرافه تسمع صوته فتجري إليه، وهو أيضاً يعرف خرافه ويسير أمامها وهي تتبعه، وما معنى هذا؟

معناه، أن للإنسان أذناً روحية مُنحت له ووُضعت في تركيب كيانه ليسمع بها صوت الله. هذه الأذن الروحية إما تنشغل بصوت الله، وتتمرن على تمييزه فتتعرف عليه بسهولة، وتطيع مشوراته بدون حذر أو خوف أو شكوك، فتسير أمام الله بالكمال الروحي الذي يرضيه، «سر أمامي وكُن كاملاً» (تك ١٧: ١)؛ وإما تنشغل بمشاغل الدنيا وتلهي بها، إلى الدرجة التي تطمس معالم صوت الله، فلا يعود الإنسان ينشغل بصوت الله، بل يجد صعوبة في طاعته، وتتربى عنده حاسة العقل الشكّاك على قياس المعارف والمنطق الدنيوي الناقص، فيشكُّ في كل إجابات الخير التي تصطدم بها أذناه، فيلقاها جانباً ريثما يتحقق منها، وهيئات إن تحقق، فإنها تتلاشى ولا تعود...

هؤلاء اليهود سلّموا آذانهم لمجد الدنيا، وإعلاء شأن أرض الوطن، ومحبة المال - أصل كل الشرور (١ تي ٦: ١٠) - والتمسك بالحرف القاتل، وفهم ميراث الآباء الروحي على أنه تركة تؤول من تلقاء ذاتها لأبناء الجسد؛ كل هذا أضعفت حاسة سماع صوت الله في الأذن الروحية وازداد طنين العالم المادي فيها حتى أثلّفها... فلما ظهر الله بالجسد وتكلم معهم وجهاً لوجه أشد مما كلم الله موسى في القديم، لم يسمعه على قياس أذن الآباء والأنبياء في القديم. ولما سمعوه لم

يفهموه، لأن قياس العطايا والمواهب الإلهية تلوّثت عندهم بالتراب تلوّثاً شديداً، ولم يعودوا يميّزون بين السماويات والأرضيات. ولما سمعوه ولم يفهموه، لم يأتوا باللوم على أنفسهم، بل شتموه وأهانوه ورفعوا أيديهم عليه ليقتلوه مرات كثيرة. فقامت ضدهم القضية وتثبتت الدينونة عليهم؛ لأن منهم مَنْ سَمِعَ الصوت، وتعرّف على الله، وأطاع، وتبع، هؤلاء هم بالحق أبناء الميراث وحقّة الآباء والأنبياء، هؤلاء كانوا معروفين لله والمسيح منذ البدء منذ إنشاء العالم، أسماؤهم مكتوبة كنقش الحجارة على كفّ الله الأب منذ الدهر، هؤلاء هم بنو الله الحي، أبناء الملكوت، أهل بيت الله، خراف اليمين، أصدقاء العريس، ومدعوو العرس السماوي، ورثة العهد الأبدي، وأصحاب صهيون الجديدة: «وقالت صهيون: قد تَرَكَني الرب، وسيدي نسيتني. هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء يَنْسِينَ وأنا لا أنساكِ. هوذا على كَفِّي نقشتُكِ. أسواركِ أمامي دائماً.» (إش ٤٩ : ١٤-١٦)

هؤلاء قد تثبّت لهم الحياة الأبدية كميراث، كما بقسم إلهي، ليس لأنهم عرفوا الرب وكأنهم اكتشفوه، بل لأنهم لما لم يريدوا أن يعرفوا سواه، أدركوا أنهم معروفون عنده، وبقي هو نصيبهم كما هو!! «نصيبى هو الرب قالت نفسي» (مرا ٣ : ٢٤)، «إلى مَنْ نذهب كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو ٦ : ٦٨)

هؤلاء لم يحبّوا الرب كأنهم أصحاب فضل، ولكن لأنهم لما «لم يحبوا حياتهم حتى الموت» (رؤ ١٢ : ١١)، انسكب روح الحياة وحبّ الله في قلوبهم، فصاروا أحياء، أحياء، ومحبوبين.

هؤلاء يقول الرب عنهم إنهم خراف الحياة الأبدية، فهي لن تهلك إلى الأبد، ليس لأنه حصّنها ضد الهلاك، ولكن لأنها تحصّنت بالرب ضد نفسها، فلا يهلك النفس إلا نفسها... وهل الخراف الناطقة بالروح التي سمعت صوت الله وظفرت بالمسيرة خلف الراعي الصالح تخشى موارد الهلاك؟ «أيضاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي» (مز ٢٣ : ٤). وهل يستطيع الذئب أن يخطف نفساً أمسك بها الرب يسوع؟ فإن يُمسك الرب نفساً هو هو على المستوى اللاهوتي أن يتحد بها؛ وعلى المستوى الإنجيلي هي تصوير من «أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف ٥ : ٣٠). وبعد هذا هل يمكن أن يخطفها أحد من يده؟

الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله :

١٠ : ٢٩ و ٣٠ «أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد».

المعنى سهل لو تتبعنا تداعي المعاني السابقة، فالفريسيون يدعون السيادة على الشعب، بصفتهم رعاة استلموا الرعاية من آباؤهم بمقتضى تلمذتهم لموسى والناموس الذي استلمه موسى بيد ملائكة. لكن المسيح يستعلن المصدر الذي استلم منه الرعاية، وبالتالي الخراف، فليس هو الآباء ولا موسى ولا الناموس من يد ملائكة، بل من الله مباشرة بصفته أباه «أبي»، والله بصفته أباً ربنا يسوع المسيح هو أعظم من الكل، أعظم من الآباء جميعاً ومن موسى ومن الملائكة ومن كل ما في السموات أو الأرض. والخراف المختارة هي في الحقيقة ملك الله وحده. والله، وإن كان قد استأمن الآباء والأنبياء والملوك قديماً — على خرافه، إلا أنهم كانوا كلهم عبيداً أخطأوا، وزلوا جميعاً على مستوى الخراف ذاتها. أما المسيح فقد أعطاه الآب الخراف عن جدارة بصفته الابن المحبوب القدوس والممجد والمساوي للآب. فانتقلت الخراف من يد الآب إلى يد الابن كما من المشيل إلى المشيل: «كانوا لك وأعطيتهم لي» (يو ١٧: ٦). انتقلت من يد المالك إلى الفادي، ولو تمنى القاريء، لوجد أن الفادي والمالك واحد، لأن الفادي فدى خراف الآب الضالة بحياته، وإذا فداها بحياته يكون قد امتلكها، ولكنه بالنهاية امتلكها لحساب المالك: «وبعد ذلك... متى سلم المُلِك لله الآب...» (١ كو ١٥: ٢٤). «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتهم لي... وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي...» (يو ١٧: ٦ و ١٠)

«ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي» :

الذين فداهم المسيح، قدسهم بالروح القدس، ثم قدّمهم للآب بالتالي لينالوا تقديس الآب كما نالوا تقديس الابن والروح القدس: «لأن به (بالمسيح) لنا كلينا (اليهود والأمم) قدوماً في روح واحد إلى الآب» (أف ٢: ١٨). ثم يكمل بولس الرسول ليوضح منتهى مشيئة الله من جهة مختاريه هكذا: «فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاً، بل رعية (خراف) مع القديسين وأهل بيت الله» (أف ٢: ١٩). فالذين كانوا ممسوكين بيد المسيح (متحدين)، ولم يستطيع أحد أن يخطفهم من يد المسيح لأنه وضع حياته ثمناً لحياة كل خروف، وصاروا أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه، هؤلاء صاروا بالتالي في يد الآب محفوظين مع القديسين، محتومين رعية الله الآب، محسوبين أهلاً في بيت الله. أما الذين هم في يد الآب فلم يعد يقدر أحد أن يخطفهم، ولا حتى الشيطان يستطيع أن يمسخهم، لأن روح الله صار هو بذرة الحياة التي يحيونها في الله كأبناء، أي صاروا متحدين

بالآب كما هم متحدون بالابن والروح القدس .

فالقديس يوحنا مهَّد لهذا المعنى، من قبل، بقوله : «أما كلُّ الذين قَبِلوه (قَبِلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً (الروح القدس) أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه (المسيح)، الذين وُلِدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله» (يو : ١٢ و ١٣).
ويكمل ق. يوحنا مفهوم «المولود من الله» هكذا : «كلُّ مَنْ هو مولودٌ من الله لا يفعل خطية، لأن زَرْعَه — sperma — (بذرة حياة الله) يَثْبُتُ فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولودٌ من الله...» (١ يو : ٣ : ٩)

ولكن، إذ يظهر من هذا أن هناك وعداً من الله بالحفظ الكامل والنهائي للذين قَبِلوا المسيح وصاروا أولاد الله، يتحتم علينا أن نفرِّق بين تأكيدات وعود الله النابعة والتمشيئة مع قدراته السرمديّة اللانهائية من جهة، وبين ضعف الإنسان وتغيُّرات مشيئاته من جهة أخرى. فإذا سقط الإنسان من حياته الروحية في مرحلة من مراحل نمّوه وتكامله، فهذا ليس قصوراً في عمل النعمة الإلهية، ولا هو بسبب طغيان الشر فوق ما يحتمل الإنسان، ولكن السبب والعلة إنما هما في عدم استخدام الإنسان لعوامل النعمة المتعددة والموضوعة لخدمته، واستهائه بخديعة الخطية، فالإنسان يستحيل أن يُحَفِّظَ ضد نفسه رغم مشيئته!!!

إذن، لماذا أعطى الله لنا هذه التأكيدات، وكأنها أسوار تحميها حياةٌ كلية وكاملة؟ السبب في ذلك غاية في العجب وغاية في القوة: وهو أنَّ من يتمسك بهذه التأكيدات الإلهية تمسكاً قوياً بكل قلبه وفكره وقوته ومن كل نفسه، يفوز بعملها الكامل بلا نقصان، والقصص في ذلك كثيرة. لهذا يعطي ق. يوحنا تكميلاً لمفهوم الميلاد من الله وعمل بذرة sperma الله في كيان الإنسان إيجابياً من قِبَل استجابة الإنسان هكذا : «نعلم أنَّ كل مَنْ وُلِدَ من الله لا يخطيء، بل المولود من الله "يحفظ نفسه"، والشرير لا يعيش» (١ يو : ٥ : ١٨). هنا «بذرة "sperma الله"» أثمرت قوة في الإنسان، يحفظ بها نفسه ضد إغراءات الخطية وسطوة الشر والشرير، إلى الدرجة التي فيها — في هذه القوة — لا يستطيع الشيطان أن يقترب إليه!! وهذا ما نسمعه كثيراً وكثيراً جداً في تاريخ حياة القديسين في كل جيل وفي كل أمة.

وهذا الكلام الذي يقوله الرب يسوع عن الأمان والعناية والرعاية معاً والحفظ في يد الله، هذه التي يطرحها كوثيقة من الآب نفسه ويضمنها المسيح بحياته للذين يتبعونه ويعيشون تحت رعايته، سبق أن عبَّر عنها الروح في العهد القديم كوعْد سيكون وقد كان : «أنتم شهودي يقول الرب،

وعبدي، الذي اخترته، لكي تعرفوا وتؤمنوا بي، وتفهموا أنني أنا هو، قلمي لم يُصوّر إلهٌ وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مُخلّص. أنا أُخْبِرْتُ وَخَلَّصْتُ وَأُعَلِّمْتُ وليس بينكم غريب، وأنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله. أيضاً من اليوم أنا هو ولا مُنْقَذَ من يدي، أفعل ومن يردُّ» (إش ٤٣ : ١٠-١٣). وتوضيح ذلك، أن كلّ الذين هم تحت رعاية المسيح، هم بالتالي تحت حماية الله نفسه كوعد... لأن حماية الله الفائقة المتساوية مع قدراته، تضمّنها الآن علاقة المسيح بالآب.

١٠ : ٣٠-٣٣ «أنا والآب واحد، فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه، أجابهم يسوع : أعمالاً كثيرة حسنة أريْتُكم من عند أبي بسبب أيّ عملٍ منها ترجُمونني؟ أجابه اليهود قائلين : لسنا نرجمُكَ لأجلِ عملٍ حسنٍ بل لأجلِ تجديف، فإنّك وأنت إنسانٌ تجعلُ نفسك إلهاً».

كثير من المفسرين غير المستقيمي الفكر أرادوا أن يُضعفوا من فهم هذه الآية على أنها لا تختص بلاهوت المسيح ومساواته لله الآب. ولكن ردّ فعل هذه الآية على أسمع وأفهام اليهود، وهم أقدر العلماء قاطبة في فهم وتحديد مفهوم الله، هو الذي يؤكد المعنى الذي قصده الرب يسوع : «أنت تجدف»، «وأنت إنسان»، «أنت تجعل نفسك إلهاً». ولكن المسيح لا يجدف، ولا يجعل نفسه غير نفسه، فهو إله، وليس ذلك فقط، فقوّل المسيح : «أنا والآب واحد»، يفوق ما تصوّره اليهود أيضاً. فهو عندما قال : «أنا والآب واحد»، لا يقصد أن يعرف نفسه أنه إله وحسب، بل أراد أن يعرف ماهية نفسه بالنسبة لماهية الآب، حيث الـ «ماهية» هي الطبيعة، فالمسيح والآب طبيعة واحدة، ولكن لم يذكر المسيح كلمة الطبيعة ولكنه كان يعبر عنها في كل أحاديثه.

فالمسيح احتوى معنى الطبيعة الواحدة — أي الجوهر، أي الكيان اللاهوتي — الذي له كما هو للآب في معنى الفداء الواحد الذي أكمله المسيح بالعمل مع الآب، بالمشيئة، بالنسبة للخراف. ففوة الفداء غير منقسمة ولا متوزعة بالتساوي بين الآب والمسيح، بل هي قوة واحدة لله مشيئة وعملاً. كذلك الحب الواحد كقوة فعالة، لم يتنازل عنها الآب للابن من نحو الخراف، ولم تنقسم أو تتوزع أعمال الحب الواحد بين الآب والمسيح، بل المسيح أكمله تماماً ولا يزال يكمله مع الآب. فمحبة الله واحدة من نحو الأخصاء — الخراف — والآب يعبر عنها تعبيراً كلياً كما يعبر عنها المسيح تعبيراً كلياً. وهذا كان واضحاً تمام الوضوح، دون أي مفارقة أو تمييز بين الحفظ في يد المسيح والحفظ في يد الآب. فلا استطاعة لأحدٍ ما أن يخطفها من يد المسيح، كما لا استطاعة

لأحد ما أن يخطفها من يد الآب. وهنا تعبير ضمني عن وحدة القوة الإلهية مع وحدة الحب الإلهي من نحو الخراف للآب كما للمسيح.

فإذا انتقلنا من وحدة قوى الجوهر الإلهي — وهي القدرة اللاتناهية والحب الأبدي للآب والابن — إلى الأبوة والبُنة وهي صفة الجوهر الإلهي، نجد أن الآب والابن هما ذات واحدة (مع الروح القدس)، وشخصية معنوية واحدة (الله)، وكيان إلهي واحد: «أنا هو»، أزلّي لا بداية ولا نهاية له.

فقول المسيح: «أنا والآب واحد»، آية مائعة للخلط في الجوهر الإلهي، وهي محملة بكل المعاني الإلهية، لأنها تشمل مفهوم وحدة قوى الجوهر، أي الطبيعة، ووحدة الذات أي الصفة الجوهرية، حيث لا يتبقى للتمييز بين الآب والابن إلا صفة الأبوة والبُنة. فالآب ليس ابناً والابن ليس آباً، والأبوة والبُنة هما في الذات الواحدة لله. والذي يجعل هذه الآية معياراً لاهوتياً غنياً نستقي منه أعمق وأخصب، بل وأعزّ المكاسب الروحية والخلاصية، هو أن الذي يقولها هو «المسيح»، الابن متجسداً — أي الحامل جسد إنسان، فالتجسد هنا داخل في الاعتبار، أي داخل في التكوين المعنوي لقول المسيح: «أنا والآب واحد».

فإذا نسبنا أن البشرية المقدّية، أي الأخصاء الذين يؤمنون ويحبون ويعيون في الرب، هم داخلون ومتحدون «بالجسد السري» الذي للمسيح، لأدركنا كم تكون هذه الآية ذات اعتبار خطير وضمنان وثيق لحياتنا الأبدية ورجائنا العتيد في المجد، كأبناء وورثة مع المسيح في الله، كقول بولس الرسول.

وفي النهاية، يلزم أن نشبه أن كل تماحك لإضعاف مفهوم هذه الآية: «أنا والآب واحد»، كأن ينسبها البعض إلى واحدة أدبية أخلاقية أو روحية، يلزم أن نعترف في وجهه بشرح اليهود لهذه الآية، وهم المتعصبون لمفهوم لاهوت الله إلى أقصى حدود التعصب حتى إلى الرجم: «لسنا نرجحك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً»، علماً بأن المسيح لم ينفي هذا المعنى الذي فهموه، الذي هو نفس القصد الذي قصده هو، بل زاده تأكيداً!!

ولا يفوتنا أن نعرف هنا، أن المسيح يكشف عن وحدة لاهوته مع الآب ليرفع من مستوى مفهومنا لمقدار الحفظ والأمان اللذين يتمتع بهما المؤمنون المتمسكون بالرب، فهما قائمان بضمان وحدة الابن والآب معاً. وهذا بحد ذاته هو قوة الله وقوة الرجاء في الخلاص الذي أكمله المسيح لنا.

٣٦-٣٤ : «أجابهم يسوع: أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلتُ إنكم آلهة. إن قال آلهة لأؤلئك الذي صارت إليهم كلمة الله، ولا يمكن أن يُنقَضَ المكتوب، فالذي قدسَهُ الأب وأرسلَهُ إلى العالم، أقولون له إنك تجدف لأنني قلتُ إنني ابنُ الله.»

المسيح يستشهد بالمزمور الثاني والثمانين: «الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي... أنا قلتُ إنكم آلهة وبنو العلي كلكم». فالوحي الإلهي هنا يُعطي صفة الآلهة للمجمع الذي يجتمع على أساس الحكم بكلمة الله. فالذي أُعطي كلمة الله ليعيش وليحكم بها كمدعو من الله، هو في الناموس اليهودي (ناموسكم) محسوب بصفة إله من نحو الناس من أجل كلمة الله: «ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضاً» (عب ٥: ٤). وصفة إله أُطلقت أيضاً على موسى لأن الله وضع كلمته في فمه يكلم بها هرون كأنها من الله: «وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً.» (خر ٤: ١٦)

المسيح هنا يشير إشارة بالغة الخطورة إلى القيمة الإلهية للناموس، كعهد الله مع الإنسان، الذي لم يُنقض بالرغم من أن هؤلاء الناس (القضاة) الذين دُعوا آلهة نقضوا الناموس وأهانوا الكلمة وأتعبوا قلب الله: «الله قائم... في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار... لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشّون. تزعزع كل أسس (الحق) الأرض. أنا قلتُ إنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون. قم، يا الله، دُنْ الأرض، لأنك أنت تمتلك كل الأمم.» (مز ٨٢: ١-٨)

والإشارة هنا بليغة، تهدف إلى رفض هؤلاء القضاة الظلمة وإلى إسقاطهم من رتبتهم العالية، وهو تعبير عن نقض العهد القديم بقوله: «لكن مثل الناس تموتون»، بمعنى فقدان الصفة الإلهية التي كانت تؤهلهم للإتحاد بالله وبالتالي ميراث الحياة الأبدية؛ بل ويزيد على ذلك أن سقوطهم سيكون كبسقوط الشيطان: «وكأحد الرؤساء تسقطون». وبنهاية سقوط حكمهم وقضائهم بالناموس، ينتهي العهد القديم، فيقوم الله ليدين ويملك على الأمم، والإشارة هنا للمسيح.

كذلك يلزم أن ننتبه إلى بقية الآية التي اختارها المسيح من المزمور: «أنا قلتُ إنكم آلهة»، لأن باقي الكلام «وبنو العلي كلكم»، وهذا يأتي حيكاً محكماً على تطبيق المسيح الكلام على نفسه: «أقولون له إنك تجدف، لأنني قلتُ إنني ابن الله؟» فالتطبيق هنا يتم على جزئين: الجزء الأول: «أنا قلتُ "إنكم آلهة"»، حيث التطبيق يأتي ردّاً على ادّعائهم أن كون المسيح

إلهاً يُعتبر تجديفاً، في حين أن كل الذين صارت إليهم كلمة الله يُدْعَوْنَ في الناموس آلهة.

والتطبيق الثاني يأتي كتغطية إيجابية على قول المسيح أنه «ابن الله»، فلا عجب في ذلك إذا كان كل من صارت إليهم كلمة الله دُعُوا في الناموس بني العلي، وأبناء الله.

وقصد المسيح من طرح هذا الاقتباس من الناموس، وخاصة عند قوله: «ولا يمكن أن يُنقض المكتوب»، هو أن الناموس سَبَقَ ومَهَّدَ بالحق للأذهان إمكانية دعوة الإنسان في شخص يسوع المسيح لحمل صفة اللاهوت، كما أن هذه الدعوة نفسها أعطت الإنسان في شخص يسوع المسيح إمكانية أن يكون هو ابن الله. هذا من جهة الفكر الناموسي. ولكن المسيح الآن يرتفع من هذا الفرض إلى الواقع، ويقدم نفسه كإله وابن الله بالفعل، مبرهنًا على صدق ذلك بأنه إن كان مجرد الذين صارت إليهم كلمة الله ليحكموا بها أو ليحكم هو (الكلمة) بهم، هكذا دُعُوا آلهة وبني العلي، فكم يكون بالحري الذي هو «الكلمة» ذاتها، الذي إذ أخذ جسداً قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم، ليستعلن الله الآب، وليعطي الناس كلمة الله؟ فهل يُحسب مجدفًا إن قال: «أنا ابن الله»؟ أو إن قال: «أنا والآب واحد»؟

وفي الحقيقة، إن المقارنة هنا غير معقولة وغير متكافئة، ويقدمها المسيح تهكمًا من عقولهم، لأنه إذا أردنا أن نوضح هذه المقارنة على حقيقتها تكون كالاتي: «كلمة الله»، وهو المسيح قبل التجسد، عندما أعطى رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أن يحكموا بمقتضى إلهامه بحسب الحق، وهم لم يحكموا أبداً بالحق، دُعُوا آلهة وبني العلي، وهم لم يكونوا من القداسة في شيء. ولما جاء «كلمة الله» ذاته متجسداً، وهو المسيح، مقدساً ومرسلًا من الآب، وقال إنه ابن الله، قالوا له أنت تجدف. علماً بأن كلمة «قدَّسه» تفيد التخصيص لعمل الله في العالم، والذي يتمحور حول خلاص الإنسان.

وعلينا أن ننتبه إلى العلاقة بين قول المسيح: «إني ابن الله»، وقوله السابق: «أنا والآب واحد»، وقول اليهود له: «وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً»، فهذه الإعلانات الثلاثة يقوم علم اللاهوت، فيما يختص بالمسيح في العهد الجديد، بكل امتداده من نحو الإنسان من جهة الاتحاد بالله والتبني.

فقول المسيح: «إني ابن الله»، هو تكميل لاهوتي مُحَكَّم لقوله السابق: «أنا والآب واحد». هنا يكمل الإعلان أن الله آب وابن معاً، في وحدة ذاتية مطلقة لا تقربها الثنائية إطلاقاً، لا في

الجوهر ولا في الذاتية. كما أن شرح اليهود لمضمون معنى «أنا والآب واحد» بأن المسيح وهو إنسان (جعل) نفسه إلهاً — وموافقة المسيح على ذلك — يضيف «سر التجسد» داخل وحدة الآب والابن، وبالتالي يُدخل البشرية في سرّ الله. وهنا كمال السر وكمال العجب.

ولكن العجيب حقاً أن تكون هذه الصورة اللاهوتية موجودة كاملة في العهد القديم بالذات: هذا المزمور الذي اختاره المسيح ليستعلن فيه نظرة الناموس كله من نحو لاهوته وبنوّته الفريدة، وبالتالي من نحو إتحاد الإنسان به؛ فقلوه: «أنا قلت إنكم آلهة»، هذه عملية مثيلة لعملية الخلق ومكمّلة لها: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك ١: ٢٦). ومن الاثنين يتضح أصالة تدبير الله من حيث قبول الإنسان للإتحاد بالله والحياة معه، ليس خلسة، بل بقدر ما تنطبق الصورة على الأصل، لأنها لهذا خلقت ولهذا عاشت، وإن ماتت فلكي تقوم وتزداد أصالة.

هذا هو روح الناموس وخلاصته، فالناموس في العهد القديم ليس كما يراه اليهود: أنه دعوة لإفراز الله بعيداً عن الإنسان بُعداً مطلقاً، وتوحيده توحيداً مطلقاً، ضمناً لعدم مساسه بنجاسات فكر الإنسان؛ ولكن الناموس في حقيقته، وكما كشفه المسيح، على العكس تماماً، فالعهد القديم وكل الناموس يقوم على تقريب الإنسان إلى الله تقريباً شديداً جداً: «نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا». ويظهر ذلك أكثر في محاولة الله من جهته لرفع الفوارق والحواجر التي تحرم الإنسان من الدخول في دائرة اختصاصات الله الخاصة جداً: «أنا قلت: إنكم آلهة».

هنا الله يمنح نفسه للإنسان بمقولة نافذة الفعل والمفعول تتخطى كل عجز الإنسان، لتلبّسه تاج الألوهة بلا قيد ولا شرط، وعلى الإنسان أن يأخذ منه قدر ما يحتمل وقدر ما تطمع نفسه في سخاء حب الله، حيث أعطى المسيح لنا الصورة الأعلى والأعظم والمطلقة بلا حدود لكيف يحلّ الله في الإنسان: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال» (يو ١٤: ١٠)، «فإن فيه يحلّ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو ٢: ٩ و ١٠). ثم أليس في المسيح ربّي الإنسان إلهاً، أو على وجه الأصح ربّي الله في صورة الإنسان «الذي وُضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكملاً بالمجد والكرامة» (عب ٢: ٩)؟ إذن، لم يكن عبثاً أن يقول الناموس «أنا قلت إنكم آلهة»، فالإشارة هادفة رأساً إلى المسيح، ومنه إلينا، فالوحي الإلهي هنا يخاطب الناس في المسيح!

ثم في قول الناموس: «وبنو العليّ كلكم»، تظهر نتيجة عطاء الله لنفسه، كيف يشدّ الإنسان ليرفعه من العبودية إلى التبني، فالذي يأخذه الإنسان من الله كفيلاً — بعد ذاته — أن يمنحه حقّ التبني. ولكن، وبطريق غير مباشر، يظهر الابن كوسيط لهذا التبني والتقرب إلى الآب. فالمسيح

الذي أخذ الآب لنفسه أخذاً كلياً ومطلقاً، كابن وحيد لأبيه، أُعطي أن يعطي لأحبائه قدر ما يشاء من ميراثه البتوي لأبيه. «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح.» (رو١٦ : ٨ و١٧)

ولكن الناموس في العهد القديم قد أخفق في أن يعطي الناس الألوهة والبنوة للعلي التي نطق بها الله، التي كان يلزم أيضاً أن يرافقها عدم الموت، كما يقول المزمور: «ولكنكم مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون». هنا يكشف الناموس عن عجزه، لأن الناموس في كلياته وجزئياته لم يكن إلا شبه السماويات وظلها... كذلك لم يكن إلا ليمهد للحق الإلهي النازل من السماويات، النور الحقيقي الذي ليس فيه ظل دوران، الذي له ملء الحياة، القائم والمقيم من الأموات، الواهب التبني لبني العلي، بضمان بنوته الإلهية القائمة في ذات الله منذ الأزل. لذلك، فإنه بالمسيح وحده يكمل الناموس، وفيه يتحقق وعد الله ويطفر الإنسان بكل المواعيد الصادقة والأمانة.

١٠ : ٣٧ و ٣٨ «إن كنتُ لستُ أعملُ أعمالَ أبي فلا تؤمِنُوا بي. ولكن إن كنتُ أعملُ، فإن لم تؤمِنُوا بي، فأمِنُوا بالأعمالِ لكي تَعرِفُوا وتُؤمِنُوا أن الآبَ فيَّ وأنا فيه.»

الرب هنا ينتقل من الإقناع الفكري إلى الإقناع العملي، فيجعل أعماله التي يعملها بالآب هي القاعدة التي يبني عليها كيفية إدراك لاهوته. فهو يبدأ ببرهان العمل، وينتهي بنتيجة أنه هو والآب واحد؛ وهذا على أساس أن يكون ماثلاً على الدوام في الأذهان أنه «مُرْسَلٌ» من الآب ليعمل أعمال الآب!! الأمر الذي أشار إليه: «فالذي قدَّسه الآب وأرسلَهُ إلى العالم...». الرب هنا يعتمد إمكانية رفض الإيمان بأقواله إذا لم تكن له أعمال الله الآب. وفي هذه الحالة يمكن رَفْضُ أقواله — باعتبار أنها غير صحيحة فرضاً — ولكن يتحتم أن يؤمنوا بأن الأعمال صحيحة، لأنها واضحة أمامهم وتشهد أنها بالله معمولة. وهنا لا يطلب المسيح — مبدئياً — أن يؤمنوا به شخصياً بل أن يقبلوا صحة أعماله، وهي حسب النص اليوناني واضحة، حيث تأتي بمعنى: «إن كنتم لا تصدقونني، فصدقوا الأعمال». وهي تأتي مُطابِقةً لآية سابقة: «لو كنتم تُصدِّقون موسى، لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني» (يوه : ٤٦)، وهي تأتي باللغة الإنجليزية واضحة بسبب الفرق بين «صدَّقْني» = believe me، وبين «آمِنْ بي» = believe in me. فالمسيح يركّز أساساً على الأعمال، ويطلب أن يقبلوها في حدِّ ذاتها، فإذا قبلوها، فهي نفسها

تحمل الشهادة له ، لأنها عُمِلت على أساس أنها آية تشير إلى أن الذي قام بتفتيح العين هو أعظم وأهم من العين ذاتها بلا نزاع .

فالمسيح له الحق منتهى الحق أن يجعل الآيات التي عملها علّةً وسبباً مُلْزِماً لليهود أن يؤمنوا به ، لأنها تفوق عمل أي بشر : « صدّقوني أني في الآب والآب فيّ ، وإلاّ فصّدّقوني لسبب الأعمال نفسها » (يو ١٤ : ١١) ، ولكن إذا تمادّوا في المقاومة ولم يصدقوا الأعمال أيضاً ، فهذا يصير لهم سبب دينونة : « لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري لم تكن لهم خطية ، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي . » (يو ١٥ : ٢٤)

« فآمنوا بالأعمال ، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا في الآب » :

الرب هنا يستخدم الأعمال للإقناع الفكري ثم للإيمان القلبي ، وذلك بالنسبة للذين رفضوا استعلانته بالكلمة . وهنا يواجهنا في هذه الآية أربعة أفعال ، كل فعل منها له أبعاده ويؤدي إلى الآخر حتى تبلغ الحقيقة الإلهية :

الفعل الأول : هو الأعمال التي عملها الرب ، وهو الفعل الذي يحوي في أعماقه حقيقة صانعه . فأبعاد عمل الرب تحوي بالأساس عمل الآب وعمل الابن ، ويلزم الإحساس بهما من داخل العمل ، أي من قوة المعجزة المصنوعة . فتفتيح عين الأعمى هو بالأساس عمل الله ، ما من ذلك شك على الإطلاق . والذي قام بالعمل هو المسيح علانية .

الفعل الثاني : هو تصديق العمل « آمنوا بالأعمال » ، وفعل التصديق مستمد من صحة العمل المعمول . فالأعمى وُلد أعمى بشهادة أبويه ، وهو الآن يبصر ، فالتصديق أصبح حتمياً . ولكن التصديق بالآية المعمولة معناه مواجهة لتصديق صانع الآية من داخل الآية ، أي مواجهة الله صاحب المشيئة والمسيح صاحب العمل الذي يعمل بحسب مشيئة الآب .

الفعل الثالث : هو « لكي تعرفوا » . الفعل « تعرفوا » هنا جاء في اليونانية γινώτε وأمامها ἵνα « لكي » . المعرفة في هذا الفعل ليست معرفة سطحية عابرة ، بل معرفة تؤدي إلى ما هو أكثر من معرفة ، فالفعل هنا جاء بالمفهوم المدخّل ، أي معرفة تنتهي إلى معرفة . فإذا انتبهنا لقول المسيح : « فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا » ، ندرك في الحال ماذا يريد المسيح . فتصديق الأعمال يؤدي حتماً « لكي ἵνα » إلى معرفة مستقرة ومتعمقة أو مستغرقة في الآية ، لكشف قوتها وفهم مقاصدها وأهدافها ، وتستمر هذه المعرفة تأخذ مجراها من كشف إلى كشف لكي تبلغ :

الفعل الرابع: «**تؤمنوا** πιστεύετε ». وفي الحقيقة جاء هذا النص هكذا في معظم المخطوطات اليونانية، فأضاعت عمق المعنى، ولكن في بعض الترجمات اللاتينية القديمة وبعض المخطوطات اليونانية ذات الحروف الكبيرة "uncials" جاءت γινώσκητε بمعنى الإدراك النهائي أو الاستقرار في المعرفة، وهذا مما جعل المخطوطات اليونانية تحوّلها إلى «**تؤمنوا**» الذي هو الاستقرار الأخير في المعرفة، أو «**إيمان المعرفة**».

ولكن ما هو موضوع المعرفة المؤدية إلى الإيمان؟ هنا المسيح يستعلن نفسه: «**إن الآب فيّ وأنا في الآب**»، كفاية ونهاية وكل مقصد الأعمال التي يعملها. والاستعلان — كالعادة — لا يأتي بصورة شخصية مفردة، بل بالنسبة للآب؛ ولا يأتي كمعلومة ليس لها برهان، بل ببرهان وقوة الآيات، فد «**الآب فيّ**» لأن العمل الإعجازي هو أصلاً عمل الله مائة بالمائة. وهذا بالتأكيد هو مسئولية «**المعرفة**» الفاحصة المستفرقة في الآية. و«**أنا في الآب**» لأنني أنا الوحيد الذي عملت أعمالاً مثل هذه: «**أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري**». (يو ١٥: ٢٤)

لذلك، أصبحت أعمال المسيح في حقيقتها استعلاناً ناطقاً لسرّ وحدة العلاقة بين المسيح والله الآب. لهذا جعل المسيح الإيمان بأعماله هو المدخل لمعرفة مَنْ هو، بالنسبة لليهود المتشكّكين الذين قالوا له: «إلى متى تُعلّق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح فقلّ لنا جهرًا».

ولكننا نرى أن المسيح أعلن نفسه بواسطة الكلمة فقط لتلاميذه الذين تركوا كل شيء وتبعوه، وليس بواسطة الأعمال، لأن «**سِرّ الرب لخائفيه**» (مز ٢٥: ١٤): «**أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلّمتمكم به**» (يو ١٥: ٣)، «**الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم، وهم قبلوا وعلموا يقيناً أنني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني**». (يو ١٧: ٨)

فألرب يسوع المسيح مُستعلنٌ بالكلمة بالنسبة لأحبائه: «**الله... كلّمنا... في ابنه**» (عب ١: ١). والذين يقبلون الكلمة في قلب صالح، هم الذين لهم آذان روحية للسمع، تدخلها الحياة الأبدية مع صوت ابن الله: «**الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو ٥: ٢٤). والذي ليست له أذن مفتوحة لسماع «**الكلمة**»، هيئات أن يؤمن: «**لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي**» (يو ٨: ٤٣)، «**الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من الله**» (يو ٨: ٤٧). أما الذي يطلب آية فهو الجليل الشرير، الذي لا يتبقى له إلا خبر القيامة (راجع لوقا ١١: ٢٩).

وأخيراً، فلينتبه القارئ، لأن المسيح هو «الكلمة». هكذا جاء، وهكذا تجسد، وهكذا استُغِلن، وهذا هو إنجيل يوحنا كله. فالذي يمتلك الأذن الروحية، هو الذي له الطوبى، والقادر أن يتعرف على المسيح «الكلمة» ويُقْبَل إليه: «قال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوْا.» (يو: ٢٠: ٢٩)

ولكن، فلينتبه القارئ أيضاً، فلا تعارض إطلاقاً بين «الكلمة» و«الآية»، فالآية هي كلمة معمولية، أو هي فعل. والفعل هو الكلمة فعالة. وليس أدلّ على ذلك من الترجمة الفرنسية لمطلع إنجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة»، حيث تأتي: «في البدء كان الفعل...»: "Au commencement était le Verbe".

ويلاحظ هنا أن اليهود يطلبون «الكلمة»: «قُلْ لنا إن كنت أنت المسيح»، ولكن حينما «يتكلم» المسيح ويعلن نفسه أنه هو المنّ (الخبز) الحقيقي النازل من السماء، يطلبون منه «آية»: «آية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟» (٦: ٣٠). وفي هذا يتعجب عليهم ذهبي الفم بقوله: [حينما تصرخ الأعمال عالية يطلبون منه قولاً؛ وحينما يعلم بالكلمة، فحينئذ ينسحبون و يطلبون الأعمال. وهكذا يقفون الموقف المعاكس] (على الآية ٣٠ من الأصحاح العاشر).

وفي رأي المسيح، فإن الأعمال تكفي كشهادة لليهود للإيمان به، وأما المؤمنون، فالكلمة تكفي لتكون لهم قاعدة للإيمان، ولا ينبغي أن يطلبوا معها آية ليزداد إيمانهم أو يشبت.

٣٩: ١٠ «فطلبوا أيضاً أن يُمسِكوه فخرج من أيديهم».

عجبي على هؤلاء اليهود! كم مرة حاولوا هذه المحاولة الفاشلة، ولكن إلحاحهم على التخلص منه يعكس مدى الضيق الذي ألّم بهم بسبب الحق الظاهر في حياته وأعماله، والذي يوثّق ويدين حياتهم وأعمالهم. ولكن العجب الأكثر هو محاولتهم «أن يمسكوه»، مع أنه كان في التور يقول لهم إن لا أحد يقدر أن يخطف خروفاً واحداً من يده. فبرهنوا على أنهم فعلاً يسمعون ولا يفهمون!! فهل استطاع الذئب الذي لم يقوَ على خطف الخروف من يد الراعي أن يضع يده على الراعي ويخطفه؟ لذلك يسخر منهم ق. يوحنا ويصف كيف انشلت أيديهم، وخرج الرب ويدهم قابضة على الريح... مقارنة تحكي في صورة ساخرة بين أيديهم التي لم تقوَ على الإمساك به، ويده التي تمسك ولا أحد يخطف البتة. وأخيراً، صورة ملكية ذات جلال ووقار لله الآب وهو ممسك أيضاً بالابن، يقوده ويحفظه ولا يخطفه أحد ساعة الخطر: «أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك

بيدك، وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي لتُخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة.» (إش ٤٢ : ٧ و ٦)

ختام الأصحاح العاشر: اعتزال مؤقت في عبر الأردن: (١٠ : ٤٠ - ٤٢).

١٠ : ٤٠ - ٤٢ «ومضى أيضاً إلى عَبْرِ الْأُرْدُنْ إلى المكان الذي كان يُوحَنَّا يعمِّدُ فيه أولاً، ومكثَ هناك. فأتى إليه كثيرون وقالوا: إن يوحنا لم يفعل آيةً واحدة. ولكن كلُّ ما قاله يوحنا عن هذا كان حقاً. فأمنَ كثيرون به هناك.»

هنا اهتم إنجيل يوحنا - في ختام روايته - أن يكمل عامل الأعمال في استعلان الرب والإيمان به، بعامل آخر اهتم به إنجيل يوحنا منذ أول مَظْلَعِه، وهو شهادة المعمدان التي لا زالت راسخة في أذهان الناس وأفواههم.

«كلُّ ما قاله يوحنا عن هذا (المسيح) كان حقاً»:

والتشديد هنا على «كل» وعلى «حقاً» من قِبَل الراوي وهو ق. يوحنا، ينبع أيضاً من شهادة ق. يوحنا ورؤيته وخبرته الشخصية. وهذه الشهادة تُعْتَبَر في جملتها، سواء من شعب عَبْرِ الْأُرْدُنْ وهو بعيد عن مراكز العداوة للمسيح، أو من ق. يوحنا، تأتي كتاج على قمة رواية إنجيل يوحنا. كما أراد الإنجيل أن يضع في مقابل رفض أورشليم واليهودية الإيمان به، قبول أهل عَبْرِ الْأُرْدُنْ له والإيمان به. وبسبب ازدياد تهديد رؤساء الكهنة والفريسيين له، ترك اليهودية وانطلق إلى عَبْرِ الْأُرْدُنْ، وهي «بلاد بيرية» التي ذكرها إنجيل متى ١٩ : ١، وإنجيل مرقس ١٠ : ١.

ويفيد إنجيل القديس مرقس أن الجموع تقاطرت من كل الجهات تستمع إليه (١٠ : ١)، وذلك بسبب شهادة المعمدان عن المسيح، والتي كانت لا تزال تملأ أسماعهم وقلوبهم. على أن عدم قدرة المعمدان على إثبات الآيات، أضافت أهمية كبيرة للمسيح، لأن الآيات التي صنعها أوضحت لهم شدة المفارقة بين «النبي» و«المسيا». وهذا بحّد ذاته يراه إنجيل يوحنا سبباً مباشراً لإيمان «الكثيرين به». وهذا أيضاً هو ما يراه المسيح نفسه داعياً للإيمان به: «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملوها أحدٌ غيري، لم تكن لهم خطية» (يو ١٥ : ٢٤). ومن هنا تتضح الحكمة الإلهية أولاً في تقييد عمل الآيات عند المعمدان إذ لم يكن لها داخ على الإطلاق؛ وثانياً في كثرة الآيات التي صنعها يسوع لتكون شاهداً له بحّد ذاتها: «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي.» (يو ١٠ : ٢٥)

وبإشارة غاية في الحكمة والإحكام، وتَنَمُّ عن نعمة زاهرة وإلهام، يختم ق. يوحنا خدمة الرب بأن ينتهي في التسجيل لها بالإشارة إلى حيث ابتداء أولاً: «المكان الذي كان يوحنا يعمّد فيه أولاً»، وهو عينه المكان الذي فيه أخضع الرب نفسه للعمودية تحت يد المعمدان ليبدأ خدمته بالصوم والتجربة. وق. يوحنا يتجاوز هنا — بأسلوبه السري — مجرد الانتهاء من خدمة الرب إلى جوهر قوتها وغايتها — وهو الصليب — لأنه بقوله: «حيث كان يوحنا يعمّد أولاً»، فهو يذكّر — بغير تذكرة — قول المعمدان عن مضمون وجوهر خدمة الرب هذه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩ و٣٦). وهكذا ينتهي ق. يوحنا إلى الصليب من حيث ابتداء به أولاً.

وليس ذلك فقط كل ما يحويه أسلوب ق. يوحنا السري البديع من ذكره هذا المكان: حيث ابتداء المعمدان وابتداء الرب، بل وحيث ابتداء هو نفسه، أي ق. يوحنا، لأن هذا المكان يحمل الذكرى العطرة لمقابلته للرب هناك والانتقال من تلمذة المعمدان إلى تلمذة المسيح. فهذا المكان هو أيضاً الذي وُلِدَتْ فيه الشهادة للرب والإيمان به.

«فأتى إليه كثيرون وقالوا إن يوحنا لم يفعل آية واحدة»:

هنا يتضح لنا كيف أن الناس البسطاء كانوا يُعَوِّلون على عمل الآيات في تزكية الرب، وطالما لم يتدخل رؤساء الكهنة والفريسيون، كان الإيمان بالمسيح سهلاً عليهم للغاية. ولكن تسجيل ق. يوحنا الإنجيلي لهذا القول كان في الحقيقة ذا اتجاهين:

الاتجاه الأول: كان ليرفع مستوى حرارة المقارنة بين المسيح والمعمدان إلى أقصاها، وذلك لكي يضع المعمدان أخيراً في حجمه الصحيح بالنسبة للرب.

أما الاتجاه الثاني: وهو الذي يأتي دائماً بصورة سرية وبديعة، فهو لتمهيد ذهن القارئ لاستقبال آخر وأعظم آية صنعها المسيح، والتي كان يعتبرها ق. يوحنا ذات مضمون لاهوتي وفريد للغاية، وهي آية إقامة لعازر من الموت، التي مهّد بها الرب لاستعلان سلطانه على الموت، والحياة بالقيامة من الأموات، المزمع أن يتمثلها بجسده.

كذلك لنا في هذه الآية: «ومضى أيضاً إلى عَبْرِ الأُردن، إلى المكان الذي كان يوحنا يعمّد فيه أولاً، ومكث هناك»، لنا في هذه الآية رأي خاص. فالمسيح هنا ذهب بمفرده، أو ربما مع ق. يوحنا الرسول، ولم يكن تلاميذه الآخرون معه، وهذا واضح غاية الوضوح. ولكن كان له في عَبْرِ الأُردن تلاميذٌ قدامى يُقال أن عددهم كان خمسة بحسب رواية بعض الرايين اليهود في التلمود^(٧)، وكان منهم توما، هؤلاء هم الذين رافقوه من بيت عنيا عَبْرِ الأُردن إلى بيت عنيا،

⁷ A.M.Hunter, *The Gospel according to St. John*, p. 34.

لعازر ومرثا ومريم، حيث أقام المسيح لعازر من الموت. فلم يكن حاضراً هذه الآية من الإنجيليين إلا ق. يوحنا. لذلك فهو الوحيد الذي سجّلها كشاهد عيان، ولهذا سقطت هذه الآية من روايات الأناجيل الثلاثة الأخرى، كما سقطت معها حوادث خدمة الرب في عبر الأردن لهذه المدة.



الأصحاح الأول الخلاص الخلاص عشر

مكان البشارة
تاسعاً — في اليهودية
في بيت عنيا
(١١: ٥٣ —)

الأصحاح الحادي عشر

استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت

«أنا هو القيامة والحياة»

آية إقامة لعازر من الموت (١)

[أَقَمْتُ المَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ، أَقَمْتُ الطَّبِيعَةَ بِالكَلِمَةِ].
(القديس الغريغوري القبطي).

مقدمة عامة:

إقامة لعازر من الموت آية اختص بها إنجيل يوحنا بمفرده دون بقية الأناجيل الأخرى. ولكن الأناجيل الثلاثة تقدم ما يمكن اعتباره المقومات الأساسية للتركيب الإعجازي والتاريخي لهذه الآية:

فإنجيل القديس مرقس في الأصحاح الخامس (٢١—٤٣) يقدم الموازي الإعجازي وهو إقامة ابنة يائرس من الموت.

وإنجيل القديس لوقا في الأصحاح السابع (١١—١٧) يقدم المثل الإعجازي أيضاً وهو إقامة ابن أرملة ناين.

وامتناع إنجيل ق. يوحنا عن ذكر هاتين الآيتين إنما ينبع من التقليد الذي يقوم على أساسه تدوين الإنجيل الرابع بجملة، وبعد ما يقرب من نصف قرن من تدوين أسفار العهد الجديد بأناجيله الثلاثة ورسائله، وهو تقديم آيات أخرى جديدة مختارة بنوع خاص، تكون على نفس

(١) إنجيل إقامة لعازر يُقرأ مرتين في السنة:

— في سبت لعازر قبل أسبوع الآلام مباشرة.

— وفي الأحد الرابع من شهر أبيب.

المستوى الإعجازي العالي، ولكن ذات اعتبار هام من جهة تدعيم الإيمان، وليس لمجرد السرد التاريخي، لتغطية سني حياة المسيح في الخدمة (٢). وهذا واضح غاية الوضوح من المنهج العام الذي اختطه ق. يوحنا في كتابة إنجيله ودوّنه بنفسه في ختام الإنجيل: «وآيات أُخَر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣٠ و٣١)؛ مما يؤكد لنا أن الأناجيل الثلاثة، بل والأربعة لم تستوفِ السرد الكامل لجميع الآيات التي صنعها الرب الأمر الذي لم يَفُتْ على إنجيل ق. يوحنا أن يسجله أيضاً: «وأشياء أُخَر كثيرة صنعها يسوع، إن كُتبت واحدة فواحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة أمين.» (يو ٢١: ٢٥)

كذلك لو لاحظنا الخط الفكري لإنجيل يوحنا في تدوينه للآيات الأخرى، نجده ينتقي الآيات ذات العناصر الخارقة لحدود الطبيعة والعقل لتخدم الغرض الأساسي من جهة الإيمان، مثل شفاء مريض بيت حسدا المشلول لثمانتي وثلاثين سنة (يوه: ٥)، وشفاء المولود أعمى من بطن أمه (يوه: ٩)، وفي الآية التي نحن بصددنا إقامة لعازر من الموت — وأي موت؟ بعد أربعة أيام في القبر، وهذا هو العنصر الأساسي في الآية. وهكذا نرى أن آية إقامة لعازر من الموت تأتي في إنجيل يوحنا، وفي منهج كاتبه، متوافقة تماماً مع مستوى الآيات الأخرى فيه.

الفصل الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت:

ينبغي أن نستبعد من إنجيل يوحنا ومن منهج كاتبه فكرة أنه يعرض لنا المسيح كصانع معجزات على أعلى مستوى؛ هذا خطأ. ولكنه، ومنذ مطلع إنجيله يود أن يعرض لنا — وخاصة في هذه الآية — أن المسيح عنده الحياة الأبدية، وأن القيامة من الموت في حوزته وتحت سلطانه. ولكي يُلَفِّتَ نظر إيماننا أنه حقاً صاحب سلطان على الموت في أعنف سطوته، ترك لعازر لأربعة أيام في القبر حتى استبد الموت بجسده، ومزّق أوصال لحمه، وجمّد دمه، وأنتن. وهنا صورة مصفّرة ولكنها ذات ملامح متكاملة لقيامة الأجساد في اليوم الأخير. إذن، فإقامة لعازر من الموت هكذا بعد أربعة أيام في القبر، يُحضِرنا المسيح ويوقفنا أمام القيامة في اليوم الأخير؛ وعلى الوجه الأصح، يُحضِرنا ويوقفنا أمامه باعتبار أنه هو هو القيامة وهو هو الحياة؛ الأمر الذي التبس على مرثا وصحّحه لها المسيح: «قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير، قال لها يسوع أنا هو $\epsilon\gamma\omega \epsilon\iota\mu\iota$ القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٤ و٢٥). هنا يظهر القصد الرئيسي من آية

(٢) راجع المدخل ص ٦٢ و٦٣: الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا كما يراه ق. يوحنا نفسه، وأيضاً ص ٢٩٠—٢٩٣: الآيات في إنجيل ق. يوحنا.

إقامة لعازر من الموت. فالقيامة والحياة هما في المسيح، وعلينا أن نواجههما الآن وليس في اليوم الأخير، ولا حتى في يوم مماتنا، بل الآن لأن الآن هو في حوزتنا أما اليوم الأخير و يوم مماتنا فليسا في حوزتنا. و«الآن» في إنجيل يوحنا يعني «الآن»، والانتقال من الموت ونَتْنِ الموت إلى ملء الحياة هو أيضاً «الآن»: «الحق الحق أقول لكم إنَّ من يسمع كلامي و يؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه: ٢٤). ولكي يؤكد بل يزيد صحة مفهوم «الآن» يضيف المسيح مباشرة: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون (التائبون) يحيون.» (يوه: ٢٥)

والمسيح يطبّق قوله من جهة سماع صوته «الآن» في القلب وقبول العفو من الدينونة، بالتوبة والاعتراف والحصول على الانتقال من الموت الأبدي بالخطية إلى الحياة الأبدية، يطبّقه على ما سيحدث تماماً في اليوم الأخير، إذ عاد وقال نفس الكلمات، مع حذف كلمة «الآن»: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة (وهي ليست الآن) فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوه: ٢٨ و ٢٩). هنا ينطبق سماع الخطاة صوت ابن الله الآن، على سماع الأموات صوته في اليوم الأخير من جهة القيامة من الموت تمام الإنطباق، مما يؤكد، حتماً وبالضرورة، أن القيامة والحياة الأبدية يعملان فينا منذ الآن كالיום الأخير تماماً. وهذا أيضاً هو نفس جوهر تعليم المسيح من جهة أكل الجسد وشرب الدم، الذي يأتي بالتساوي في مقابل سماع صوت ابن الله الآن بالتوبة، وقبول الانتقال من الموت إلى الحياة، وفي اليوم الأخير، استجابة لنداء الدينونة الأخيرة للقيامة العامة: «مَنْ يَأْكُلْ جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيمُه في اليوم الأخير.» (يوه: ٥٤)

هذا المفهوم الإيماني هو جوهر القضية في آية إقامة لعازر من الموت. ولكن المسيح امتد بهذا الإيمان، ليزيده توضيحاً من وضع لعازر هكذا: «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمَنَ بي، ولو مات، فسيحيا» (يوه: ١١: ٢٥). ثم بعد ذلك قال: «لعازر قُمْ»، فقام. والقصد هنا إعطاء النموذج التطبيقي لقدرة المسيح على الإقامة من الموت الجسدي، ليوضح نفس مستوى قدرته على الإقامة من موت الخطية، لكي يبرهن المسيح على أن قوة القيامة والحياة فيه هي واحدة بالنسبة للخطاة، ببرهان إقامة لعازر من الموت بعد أن أُنْتِن. هذا من جهة قدرة المسيح، أما من جهة المسيح ذاته فواضح أنه وهو أمام قبر لعازر يبكي، ثم وهو يأمر الميت المنتن في القبر لأربعة أيام — ليقوم ويهبه الحياة، يكون قد حقق في شخصه ما هو للإنسان وما هو لله بأن واحد — دون

أي قصور أو نشار! وأنه حقاً «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨) فيما لنفسه، وأنه هو دَيَّان الأحياء والأموات.

العناصر التاريخية في الأناجيل الأخرى عن إقامة لعازر من الموت:

لقد رأينا أنه، وإن كان إنجيل يوحنا قد انفرد بهذه الآية، إلا أنها ليست غريبة عن مثيلاتها في الأناجيل الأخرى. والآن إذا دققنا وجدنا أن عناصر قصة هذه الآية بعينها قد وردت في الأناجيل الأخرى هكذا:

أ — مثل الرجل الغني و«لعازر» في إنجيل لوقا (١٦ : ١٩ — ٣١):

ليس التشابه هنا مجرد ورود اسم «لعازر» الذي مات وانتقل إلى حضن إبراهيم، بل الكيفية التي انتهى بها المثل عندما طلب الغني الذي مات من إبراهيم أن يرسل لعازر — أي يقيمه من الموت ويرسله إلى بيت أبيه، ليشهد لهم بالقيامة والدينونة — فقال له إبراهيم: «إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات بصدّقون.» (لو ١٦: ٣١)

واضح هنا أن ما سمعه القديس لوقا وسجّله في إنجيله عن «مثل» الغني ولعازر، هو الذي رآه ق. يوحنا وسجّله في إنجيله كشاهد عيان. فالمعجزة واحدة، القديس لوقا سجّل جانبها التصوّري التعليمي — بحسب مثل المسيح — عن الدينونة والقيامة والإيمان والتوبة؛ والقديس يوحنا سجّل وقائعها، ليعلّق بحسب الرؤية الواقعية على أن المسيح هو صاحب الدينونة والقيامة، وأساس التوبة والإيمان. فتسجيل الآيات في الأناجيل يعتمد على الغرض الذي من أجله اختار كل إنجيلي آياته. وكملاحظة عامة، نجد أن الآيات التي صنعها المسيح في أورشليم وما حولها لم يسجلها الإنجيليون الثلاثة، بينما اهتم ق. يوحنا بتسجيلها أقصى اهتمام.

القصد التصوّري النهائي في ختام مثل لعازر والغني في إنجيل لوقا، يقدمه إنجيل يوحنا مطبّقاً تطبيقاً عملياً؛ فلعازر الفقير قام من الأموات فعلاً، ولكن لم يصدّق قيامته إخوة الغني الجشع، وهم الفريسيون، لأنهم لم يسمعوا لموسى والأنبياء، ولا صدّقوا مَنْ أقام لعازر من الأموات أمام عيونهم، ولا خافوا من الدينونة.

أما صحة قصة لعازر في إنجيل يوحنا، كونها آية قد حدثت — أو يمكن أن تحدث بالفعل، فهذا يتضح من قول المسيح لتلميذَي المعمدان اللذين جاءا ليستفسرا من المسيح عن المسيح هل هو الآتي أم ينتظرون آخر؟ فكان ردُّ المسيح عليهما: «فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما، أن العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبُرص يُطهّرون، والصُمّ يسمعون،

والموتى يقومون، والمساكين يُبشرون.» (لوقا: ٢٢)

ب — «مرثا ومريم» في إنجيل لوقا:

مَنْ يقرأ إنجيل لوقا (١٠ : ٣٨ — ٤٢)، يسمع عن مرثا ومريم التي جلست عند قدمي الرب لأنها اختارت النصيب الصالح، وهما نفس الأختان المذكورتان في إنجيل يوحنا (١١). والمسيح هو في الإنجيلين ضيف الشرف.

ج — مريم بصفتها المرأة التي دهنت الرب بالطيب:

وتشترك الأناجيل الأربعة — في تقليد واحد — وهو توصيف «مريم» بالمرأة التي دهنت المسيح بطيب ناردين غالي الثمن — كانت قد حفظته عندها — ولم تعلم أنه كان بمثابة تكفين الجسد حسب قول الرب، وذلك في بيت سمعان الأبرص — الفريسي. وهذا التقليد مُحقق، لأنه وإن كانت الأناجيل الثلاثة لم تذكر مريم بالاسم بل ذكرتها باعتبارها المرأة التي دهنت المسيح بالطيب، إلا أن إنجيل يوحنا انفرد عنهم جميعاً بأن ذكرها بالاسم، مما يوضح أن تقليد ق. يوحنا في إنجيله هو الأكثر مطابقة (أنظر يوا: ١١: ٢؛ ١٢: ١ — ٨؛ مر: ١٤: ٣ — ٩؛ مت: ٢٦: ٦ — ١٣؛ لوقا: ٣٦ — ٣٩).

بهذا نرى أن التقليد الإنجيلي التاريخي العام يقف خلف مفردات قصة قيامة لعازر من الموت في إنجيل يوحنا، ليعطيها صحتها التقليدية والتاريخية معاً.

وآية إقامة لعازر من الموت هي بحسب ترتيبها في إنجيل يوحنا تكون هي الآية السابعة والأخيرة:

الآية الأولى: تحويل الماء إلى خمر — الأصحاح الثاني.

الآية الثانية: شفاء ابن خدام الملك — الأصحاح الرابع.

الآية الثالثة: شفاء مشلول بيت حسدا بعد ٣٨ سنة — الأصحاح الخامس.

الآية الرابعة: إشباع الجموع من خمس خبزات وسمكتين — الأصحاح السادس.

الآية الخامسة: السير على الماء واسكات الريح والموج — الأصحاح السادس.

الآية السادسة: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أمه — الأصحاح التاسع.

الآية السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام في القبر — الأصحاح الحادي عشر.

ويلاحظ الباحث أن كلاً من الآية الأولى والأخيرة صنعهما الرب في الوسط العائلي، وبقصد

أظهر مجده (١١: ٢): «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابنُ الله به»،
 «ألم أقل لك إن آمنيتَ ترين مجد الله؟» (يو ١١: ٤ و ٤٠) ولتشديد الإيمان: «وأنا أفرح
 لأجلكم إني لم أكن هناك لتؤمنوا. ولكن لنذهب إليه.» (يو ١١: ١٥)

العناصر التاريخية داخل القصة:

الملاحم الزائدة الحساسة الواردة في قصة إقامة لعازر من الموت، والتي تشير إلى حضور ق. يوحنا كشاهد عيان شديد الملاحظة دقيق التدوين، هي بحدّ ذاتها تزيد ثقل كفة الصدق التاريخي للرواية وهي:

- إبراز العلاقات الحميمة بين عائلة لعازر والمسيح (١١: ٥).
- تأخر المسيح عن الذهاب لبيت عنيا يومين عن قصد (١١: ٦).
- موقع قرية بيت عنيا بدقة (١١: ١٨).
- حضور اليهود (١١: ١٩).
- الرسالة السرية (١١: ٢٨).
- لقب المسيح المحبوب «المعلم» (١١: ٢٨).
- صمت يسوع (١١: ٣٠).
- انزعاج الرب لبكاء اليهود مع مريم (١١: ٣٣).
- سجود مريم أمام المسيح (١١: ٣٢).
- إظهار عواطف المسيح البشرية بحرية دون أي حذر (١١: ٣٣ و ٣٥ و ٣٨).
- وصف هيئة لعازر عند ظهوره (١١: ٤٤).

القيمة اللاهوتية لآية إقامة لعازر من الموت:

لقد أصاب ق. يوحنا كثيراً في جعل آية لعازر ختاماً للآيات التي صنعها يسوع ولتعاليمه العامة جميعاً. فهو بهذه الآية، يجيب على جميع الأسئلة والاستفسارات التي كانت تتتابع وراء الحقائق التي أبرزها الإنجيل دون برهان أو توضيح: فالآن يتضح كيف أن المسيح هو «الكلمة» التي يسمعها الميت فيقوم من الأموات، وهو الله المتكلم الذي يُحيي من يشاء، وهو الذي يمكن أن يخلق كل شيء من العدم أو الموت؛ وكيف أن فيه الحياة، وأن الحياة هي نور الناس، وكيف أن النور أضاء في الظلمة، ثم كيف يولد الإنسان من جديد؟ وكيف أن الأموات يسمعون صوت المسيح ابن الله؟ وكيف يستطيع المسيح أن يعطي حياة للعالم؟ وكيف يمكن أن يقوم الأموات

بالجسد؟ بل كيف سيقوم المسيح من الموت بسلطانه وحده تحقيقاً لقوله: «لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو: ١٠: ١٨)؟ وكيف أن المسيح يبطل الموت و يقهر سلطانه؟ وأخيراً كيف يكون المسيح بالنسبة للعالم هو فعلاً الألف والياء البداية والنهاية؟

كل هذه الأسئلة يرد عليها كلٌّ مَنْ يتعمق في هذه المعجزة التي صنعها الرب يسوع المسيح جهاراً أمام تلاميذه واليهود. وما عليك، أيها القارئ العزيز، إلا أن تسير مع مفردات هذه المعجزة كأحد المشاهدين، وتتأمل الرب وهو واقف أمام قبر لعازر ومريم وأختها تبيكان، ومعهما اليهود والمُعَزُّون يَبْكُون، وصوت ابن الله — الكلمة — يدوي فجأة ليخترق ظلام القبر والهاوية وحُجُبِ العالم الآخر غير المنظور، كما يخترق النور حُجُبِ الظلام ويهتكها جميعاً، ويُصرِّخ الموت في داره ليقوم لعازر!! الهاوية انشقت وخرجت منها روح لعازر، والمادة الميتة والمنتنة في القبر تقبلت رعشة الحياة، فوَلِدَ لعازر من رَجَمِ الحياة مرة أخرى، ووطيء الموت وقام من جديد!

كان المسيح — كما هو الإنسان المحبوب — واقفاً على باب القبر، وكلمته باعتباره ابن الله تزلزل أركان الهاوية بسلطانها الإلهي، لترتعب لها سلاطين الظلمة والموت، فينفك من أسرها أسيرُ محبة المسيح: «سبي سبياً، وأعطى الناس عطايا» (أف ٤: ٨)، ويخرج لعازر إلى الحياة بقوة الكلمة المحيية.

ثم — يا قارئ العزيز — مَنْ هو لعازر الحقيقي إلا أنا وأنت الملفوف برُبُط الخطية التي أقعدته عن حركة الروح وأسكنته صمت القبور إزاء تسابيح صهيون والأرواح المكتملة في المجد مع كل ملائكة الله؟ آذاننا إليك، يا ابن الله، بانتظار كلمة الحياة، «الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحُسنى فلست أجد» (رو: ٧: ١٨). أَلَسْتُ أنا مِيتُكَ؟ لست لي مريم ولا مرثا ليبكوا عليّ! وليس لي رسول يحمل رسالتي سرّاً إليك إلا روحك القدوس — لا تتأخر كثيراً وتعال، نعم تعال سريعاً، قبل أن تعكّر نتانتي صَفْوَ محبتك، قُلْ لِمَنْ دحرج الحجر عن قبرك أن يدحرجه عني، قُلْ كلمتك وأوعِزْ إلى ملائكتك أن «حلّوه ودعوه يذهب...» (٣)

(٣) السلام للعازر الذي أقامه بعد أربعة أيام

أقم قلبي يا ربي يسوع الذي قتلته الشرير (مرد إنجيل سبت لعازر).

القصة :

لعازر ومريم ومرثا وبيت عنيا : (١١ : ١ - ٢) .

١ : ١١ « وكان إنسانٌ مريضاً وهو لعازرُ من بَيْتِ عَنِيَا من قريةٍ مريم ومرثا أختها » .

شخصية لعازر غير واردة إلا في إنجيل يوحنا . و يبدو أن صداقته للمسيح ومحبة المسيح له كانت عائلية ، فلم يكن يتبع المسيح في ترحاله ، ولكن كان المسيح يحط ترحاله في بيته ليجد راحة هناك . ولهذا يبدو أنه لم يكن معروفاً لدى بقية التلاميذ . لذلك نجد ق . يوحنا يضيف إليه صفة أخرى معروفة أو معلومة ثابتة تجعله معروفاً ، وهي أنه من بيت عنيا وأنه أخو مريم ومرثا أختها . واسم لعازر هو مختصر « أليعازر » ، ومعناه الحرفي « إيلي عزار » ، أي الله قد آزر أو أعان .

وقرية بيت عنيا هي قرية من أورشليم على مسافة ١٥ غلوة ، أي ما يساوي تقريباً ٢ كيلومتراً على الجهة الشرقية لجبل الزيتون ، وهي المسافة المسموح بها للسفر يوم السبت عند اليهود ، والقرية الآن مسمّاة « ألعازاريا » نسبة لآية إقامة المسيح للعازر هناك . ويلاحظ أنه توجد قرية أخرى مسمّاة بهذا الاسم عبر الأردن والتي يُقال لها في بعض المخطوطات « بيت عبارا » (يوحنا : ١ : ٢٨) . وبيت عنيا تعني بالعبرية « بيت العناء » . وقد ذكرها سفر نحميا تحت اسم « عننية » (نحميا : ١١ : ٣٢) .

« مريم ومرثا أختها » :

بحسب الشهرة الإنجيلية ، تأتي مريم قبل مرثا ، ولكن مرثا هي الأخت الكبرى . وهذان الاسمان كانا معروفين لدى الوسط الإنجيلي بين التلاميذ ، وذكرهما القديس لوقا (١٠ : ٣٨) في موضوع المحبة للمسيح باعتبارها هي الحاجة الوحيدة التي نحتاجها حقاً في هذه الدنيا . ولكن إنجيل القديس مرقس ومتى يُعرفان مريم بأنها « امرأة معها قارورة طيب » (مت : ٢٦ : ٧) ، ولكنهما عادا فسجلاها ذكراها إلى الأبد في كل أنحاء الدنيا « الحق أقول لكم : حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم ، يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكراً لها . » (مت : ٢٦ : ١٣)

ولكن ق . يوحنا يختص الأختين بكثير من التعريف والعناية والملاحظة ، مما يؤكد معرفته الشخصية لهما وللعازر أخيهما ، وذلك بسبب تأثره الشديد بالمعجزة التي تمت لأخيهما .

١١ : ٢ «وكانت مريم - التي كان لعازرُ أخوها مريضاً - هي التي دهنت الربَّ بطيبٍ ومَسَحَتْ رجله بشعرها».

هنا تعريف مريم أنها هي التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجله بشعرها؛ وهذا العمل جاء بنصه في الأصحاح القادم (١٢ : ٣ و ٢).

«الطيب» وجاء باليونانية μύρον ويعني العطر المستخرج من النباتات ذات الروائح الذكية، وكان يُستخدم إما نقياً وهو المعبَّر عنه بطيب «خالص» πιστική، أو مخلوطاً بالزيت. وكان زيت الزيتون هو الزيت الوحيد المستخدم في صناعة الميرون ويُسمى ἔλαιον، وكان يُستخدم أيضاً في دهن أعضاء الجسم وخاصة الرجلين بعد السفر الطويل.

والرب في قصة سمعان الفريسي (لو ٧ : ٤٦) يفرِّق بين الدهن «بالزيت» العادي والدهن بالميرون، وهو الزيت المعطَّر أو العِطر الخالص: «بزيت لم تدهن رأسي وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي». والدهن بالزيت العادي يُعبَّر عنه في القديم باليونانية بالفعل ἀλείφω.

أما المسح بالزيت المقدس في العهد القديم فيسمى χρίω، والعمل نفسه أي «المسحة» χρίειν، وهما مُشتَقَّات من χριστός. أما المسحة في أسفار العهد الجديد فهي عمل يتم بالروح القدس سرّاً ويسمى χρίσμα. والكنيسة القبطية تستخدم الميرون وزيت الغلالين وزيت الزيتون البسيط مع صلوات لحضور الروح القدس في أنواع الخِدم المقدسة المتعددة.

الرسالة الخاصة:

١١ : ٣ «فأرسلت الأختانِ إليهِ قائلتين: يا سيدُ هوذا الذي تحبُّه مريضٌ».

رسالة مختصرة تحمل معناها في مبناها، كمعلومة مقدَّمة إلى طبيب حاذق، تذكر الأعراض دون التدخل في شئون العلاج. وهذه هي من أروع الرسائل التي تُقدم إلى الله كصلاة، وهي نفس النموذج الذي قدمته القديسة مريم العذراء إلى الرب من أجل إسعاد ضيوف حفل زفاف عرس قانا الجليل. أما الطبيب فمُلَزَم بالعلاج، لأن الثمن مدفوع مقدماً وهو الحب المتبادل. وعن نوع هذه الطلبات المقدمة في الصلاة إلى المسيح والآب، يقول ق. يوحنا أنها معتمدة حال النطق بها، ولا يُعوز المتوسل إلا انتظار التحقيق، وأيضاً يسجل ق. يوحنا هذه المعلومة الإلهية باختصار غاية في الروعة وغاية في اليقين: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا، وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا، نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه.» (١ يوه :

(١٥ و ١٤)

والذي يلفت نظرنا في هذه الآية هو قول الأختين «الذي تحبه» حيث تأتي في اليونانية $\delta\upsilon\ \phi\iota\lambda\epsilon\iota\varsigma$. وهنا المعنى ينصبُّ على محبة روحية خالصة تعبيراً عن مودة العلاقات الشخصية والصداقة الشديدة الطبيعية، علماً بأنه لا يوجد في اليونانية كلمة «صديق»، وهذه الكلمة يحل محلها $\phi\acute{\iota}\lambda\omicron\varsigma$ أي محب. وتأتي هذه الكلمة في إنجيل يوحنا ثلاث عشرة مرة، تعبيراً عن محبة الله الآب للابن، وعن محبة الله للذين يحبون ابنه، ومحبة المسيح لتلاميذه، ومحبة التلاميذ نحو المسيح. وتغيب هذه الكلمة من جميع رسائل يوحنا. أما محبة الأغابي $\alpha\gamma\alpha\pi\acute{\alpha}\nu$ فتنبُ عن الثقة والتوقير والإعجاب، وهي محبة المشاعر، وتأتي نتيجة اختبار واختيار أخلاقي وحكم عقلي.

١١ : ٤ «فلما سمِعَ يسوعُ قالَ: هذا المرضُ ليسَ للموتِ، بل لأجلِ مجدِ الله ليتمجِّدَ ابنُ الله به.»

هنا رد فعل المسيح مطابق تماماً لرد الفعل على سؤال التلاميذ بالنسبة للمولود أعمى «لتظهر أعمال الله فيه» (يو ٩ : ٣)!! وهذا هو رد الله دائماً — ومنذ القديم — على كل نقص أو عوز أو ألم أو ضيق أو فقدان أو خسارة أو موت بالنسبة لأولاده. فهو أولاً وقبل كل شيء «في كل ضيقهم تضايق، وملاك حضرته خلّصهم» (إش ٦٣ : ٩)، وثانياً: «اذبح لله حداً وأوفِ العليّ نذورَكَ. واذْغني في يوم الضيق أثَقِذَكَ فتمجِّدني» (مز ٥٠ : ١٤ و ١٥)، وثالثاً: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل.» (٢ كو ١٢ : ٩)

و يلاحظ في الاصطلاح اليوناني:

$\text{o}\ddot{\upsilon}\kappa\ \acute{\epsilon}\sigma\tau\iota\nu\ \pi\rho\acute{o}\varsigma\ \theta\acute{\alpha}\nu\alpha\tau\omicron\nu\ \alpha\lambda\lambda\acute{\iota}\ \acute{\upsilon}\pi\acute{\epsilon}\rho\ \tau\eta\varsigma\ \delta\acute{o}\xi\eta\varsigma\ \tau\omicron\upsilon\ \theta\epsilon\omicron\upsilon.$

أن المعنى لا يفيد «من أجل مجد الله» ولكن $\acute{\upsilon}\pi\acute{\epsilon}\rho$ يفيد معنى $\acute{\iota}\nu\alpha$ التي تعني «لكي». فهنا قصد الله حاضراً، وليس مصادفة، فانه يقصد إعلان مجده بواسطة يسوع المسيح، بقصد أن يتمجد يسوع أيضاً، وبالنهاية لكي نرى ونؤمن. فالمرض لا يتجه $\pi\rho\acute{o}\varsigma$ نحو الموت في قصد الله، ولكنه مقصود لإعلان مجد الله بالمسيح. ولكن لا يزال المعنى يمتد ليشمل استعلان مجد الله في المسيح نفسه، الذي سيمجده الله على نفس النمط بالقيامة من الموت.

كان هذا الرد على الرسالة المُرْسَلَة من الأختين بمثابة تأشيرة في أسفل التذكرة الطبية مؤدّاهَا: [لا داعي للقلق، انتظروا مجد الله].

الرد مثير للإيمان، ومؤكّد للرجاء، ومستجيب للمحبة. وهذا هو رد الله دائماً، أقوى من أقوى رسالة تصل إلينا من خلال يأسنا ودموعنا واضمحلال رجائنا. وها نحن الآن عالمون تماماً أن الرب آنثذ كان عالماً تماماً بأنه قد مات فعلاً. لأنه حينما وصل الرب بيت عنيا كان لعازر له أربعة أيام في القبر، والرحلة من عبر الأردن إلى بيت عنيا تستغرق يوماً واحداً، فإذا أُضيف إليها يومان تأخرهما الرب، يكون لعازر - وقت أن بُلِّغ الرسول رسالته - قد مات وله يوم كامل في القبر. وهكذا فإن ما يراه الرب غير ما نرى نحن، دوافعنا ليست واقعّة، ولو تركنا تقديراتنا لحساباته لجاءت النتائج جدّ مخالفة لظنوننا.

فالموت عندنا هو الموت، مهما أُعطيت له من المسمّيات الملطّفة، فهو قاسٍ أقسى ما تكون القسوة على مشاعر الإنسان وأفكاره وحساباته. فهو يحطم الآمال، ويُنتهي على الرجاء، ويخنق المحبة، ويكفي أن يصفه الروح على فم بولس الرسول أنه «آخر عدو» يتواجه معه الإنسان قبل الرحيل. ولكن كل هذه الأوصاف تتصفى كلها في مِصفاء رؤية الله وقدراته وإمكانيته، ليأخذ الموت عنده صفة الرقّاد لا غير، حيث تكون اليقظة منه حتمية، ومعها بهجة القيامة لحياة ملؤها الحياة. وهذا الذي يراه الله لأحبائه، رآه المسيح وأجراه كنموذج أبقاه لنا على الأرض في قصة لعازر المحبوب، حتى لا يستبدّ بنا يأس الموت أبداً، فوراء آخر عدو، أعظم حبيب لنا. ذلك يُرَدِّدنا التراب، وهذا يُؤلِّجنا السماء.

حينما ترصّد الموت للعازر وأراد أن يسخر من رباط المحبة التي تربطه بالمسيح، ونوى أن يتعالى بقوته وسطوته فوق سلطان رب الحياة، ويشير الإنزعاج والرغبة في قلوب النسوة، ويطيح بهيبة المسيح أمام التلاميذ والمحبين، ويكفي للتدليل على ذلك قول اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت» (يو ١١: ٣٧)؛ حينئذ أدرك ذلك كله المسيح من على بُعْدٍ، فأرخصى الحبل للعدو ليصنع بفريسته كل ما أراد! وعقد الرب العزم أن يتمجد في لعازر من أجل نفسه والمحبين، فيستعلن للعالم قوة القيامة والحياة التي فيه، ويطفر بالموت في مَعْقِلِهِ، ويشق الهاوية، ويحطم قيود الموت، ليفكّ النفس علناً، ويقم الجسد بالكلمة، ويُخْرِجَ لعازر وسط هتاف «المجد لله».

١١: ٥-٧ «وكان يسوع يحبّ مرثا وأختها ولعازر، فلما سمِعَ أنه مريض مكثَ حينئذٍ في الموضع الذي كان فيه يوقين. ثم بعد ذلك قال لتلاميذه: لنذهب إلى اليهودية أيضاً».

محبة المسيح لهذه العائلة تأتي بالكلمة أغابي «ἀγάπη» التي تنم عن الاختيار والأفضلية

الأخلاقية. وبهذا نفهم من هذه الكلمة، أن هذه العائلة اختارها المسيح لدخوله وخروجه بعد فحص ومراقبة، فارتاح إلى أفرادها جميعاً، فأحبهم جميعاً. وبالملاحظة نجد أن الفعل الذي استخدمته الأختان للتعبير عن محبة المسيح للعاذر، جاء من الأصل φιλέω تعبيراً عن المودة الروحية أو الصداقة الخاصة والطبيعية. أما الكلمة التي عبّر بها ق. يوحنا عن محبة المسيح للعائلة كلها فجاءت عن الأصل ἀγαπᾶν، التي تعني أن المحبة تأتي بعد فحص عقلي ومعرفة وتقدير وحكم شخصي.

وهكذا، لك أيها القارئ العزيز، أن تدرك مقدار الدقة التي يسجل بها ق. يوحنا إنجيله، وليس الدقة فحسب، بل ومقدار المطابقة الشديدة للإحكام بين مشاعر كل شخص والكلام المسجل عنه، كلاً على حدة، جملة جملة.

ولكن هذه الآية يصعب فهمها بحسب ترتيب الكلام الذي كُتبت به، إذ يفهم منها القارئ لأول وهلة أن المسيح تأخر يومين خصيصاً وعن قصد لكي يصنع معجزة لعاذر لأنه كان يحبه. ولكن بحسب الحساب الذي سبق أن أجريناه، فإنه حينما بلغ المسيح خبر مرض لعاذر، كان لعاذر في الحقيقة قد مات ودُفِنَ ليوم كامل، فلو كان قد تحرك في الحال لكان قد بلغ بيت عنيا ولعاذر في القبر وله يومان، من هذا يتضح لنا أن تأخر الرب لم يكن عن قصد.

لذلك فإن ترتيب الكلام ينبغي أن يكون هكذا: [فلما سمع يسوع أن لعاذر مريض قال لتلاميذه بعد أن مكث يومين في الموضع الذي كان فيه، لنذهب إلى اليهودية أيضاً، لأن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعاذر].

أما حبه لمرثا فكان بحكم أنها كانت — كما يبدو — كبيرة العائلة، فكانت هي دائماً صاحبة الضيافة، وكانت شديدة العناية بخدمة الرب، وهذا يتضح في إنجيل القديس لوقا « وفيما هم سائرون دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم، التي جلست عند قدمي يسوع، وكانت تسمع كلامه، وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة. » (لو: ١٠ : ٣٨-٤٠)

وأما محبة المسيح لمريم، فكانت بسبب كونها شديدة الإلتباه، تسمع كلامه بوعي وباتضاع، كتلميذة تركت كل شيء لتتبعه روحياً. وهذا العطاء النفسي والروحي يتضح أشد الوضوح من احتفاظها بكمية كبيرة من عطر الناردين النقي الكثير الثمن، لتضمخ به جسد المسيح المتعب، والذي حسبه لها المسيح بصفة التكفين.

أما حب المسيح للعازر، فكان بشهادة الأختين حباً شخصياً $\delta\upsilon\ \phi\iota\lambda\epsilon\iota\varsigma$.

أما الموضع الذي مكث فيه الرب يومين فكان — إقليم بيريه — كما جاء في نهاية الأصحاح السابق، على جبال موآب.

أما لماذا مكث اليومين وهو يعلم أن البيت الذي يحبه قد اشتعل حزناً وغماً وعويلًا كثيراً، وهو بنيتة أن يرفع عنهم هذا الكرب الشديد، وقد عقد العزم على إقامة لعازر من الموت منذ أن بلغه الخبر، بدليل قوله: «هذا المرض ليس للموت... لكنني أذهب لأوقفه... وكان يسوع يقول عن موته... فقال لهم يسوع علانية لعازر مات...»، سؤال لا يجيب عليه إلا سؤال آخر — أثار حيرة التلاميذ إلى حدّ الغضب — لماذا مكث المسيح نائماً في مؤخرة السفينة والرياح والأمواج تعصف بها حتى إلى حدّ الغرق؟ «وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلّم أما يهّمك أننا نهلك» (مر٤: ٣٨). هنا ينبغي علينا أن لا ننسى أن المسيح كان يتصرف بين أحبائه وأعدائه كإنسان وإله معاً. فهو كان نائماً فعلاً ولكن حضرته الإلهية قائمة؛ كذلك كان المسيح بعيداً عن بيت عنيا على سفر يوم كامل، ولكنه كان حاضراً في بيت محبيه، وغيابه بالجسد لا يمنع عمله كإله. فهو الذي شفى ابن خادم الملك من الموت، وهو بعيد على سفر يوم كامل، بكلمة!

ولكن الرب أعلن لتلاميذه أن غيابه عن بيت عنيا، هو الذي آل إلى كل الحوادث التي صارت من مرض شديد وموت: «وأنا أفرح لأجلكم أنني لم أكن هناك، لتؤمنوا...»، وهذا تماماً كما تصوّرتة مرثا: «لو كنت ههنا لم يمت أخي». وهذا بحث ذاته صار فرصة جديدة لتلاميذه ليروا فيها الرب وهو يقيم لعازر من الموت، فيؤمنوا بالقيامة والحياة في المسيح. وهذا بعينه ما سيحدث بالرغم من الإرتباك والحزن اللذين أصابا الأسرة المحبوبة، إلا أنه سيؤول إلى إيمان تلاميذه ومحبيه.

وهكذا وبمنظرة متسعة، نرى أن تأخر الرب يومين عبر الأردن لم يغيّر في الموقف إلى أسوأ بل ربما إلى أفضل. لهذا لم نر الرب في عجلة للعودة، كمن تؤثر فيه الحوادث لاتخاذ عمل أو تحرك انفعالي تمليه عليه الظروف أو الحوادث. بل كان الرب يتحرك — ولا يزال — بحسب رؤيته الشاملة وسبق معرفته للأمور والحوادث. فعمل الله ينبع من مسرة مشيئته، ليخضع كل شيء لإرادته. لهذا فكل صمت من قبل الله إزاء إلحاحات توسلاتنا، إنما يخفي غرضاً أسمى!...

١١: ٧ و٨ «ثم بعد ذلك قال لتلاميذه: لنذهب إلى اليهودية أيضاً. قال له التلاميذ: يا مُعلِّمُ، الآنَ كانَ اليهودُ يطلبونَ أن يرجوكَ، وتذهبُ أيضاً إلى هناك؟».

يلاحظ أن الرب لم يقل لنذهب إلى بيت عنيا، بل إلى اليهودية — فعين الرب قد بدأت تثبت على الصليب وعلى أورشليم —، ومشيراً بذلك إلى أن الأرض التي هم ذاهبون إليها أرض عداوة. وكأنه هو الذي نبّه ذهن التلاميذ إلى الخطر المخبئ في هذه الرحلة. علماً بأنهم كانوا في بيريه قد لقوا حفاوة وإيماناً عند الكثيرين. فلما تنبه التلاميذ، عادوا هم وذكّروه بما قد انتهى إليه هؤلاء الأعداء من تقرير رَجْمِهِ، وكأنهم يلوّحون إليه بخطورة هذا القرار على حياته.

١١: ٩ و١٠ «أجاب يسوع أليست ساعاتُ النهارِ اثنتي عشرة. إن كان أحدٌ يمشي في النهارِ لا يعثُرُ، لأنه ينظرُ نورَ هذا العالمِ، ولكن إن كان أحدٌ يمشي في الليلِ، يعثُرُ، لأن النورَ ليسَ فيه».

وعلى مستوى أسلوب ق. يوحنا في فهمه وتسجيله لأقوال المسيح فالرد هنا يحمل معنيين: معنى ظاهر مؤداه أن على الإنسان أن يعمل طالما أن النهار قائم بنوره وساعاته، فقد وُضع على الإنسان أن يعمل ليغطي ساعات النهار الاثنتي عشرة جميعاً. والعمل هو على نمط المسيرة، فالسائر في النور وفي النهار لا يعثر، أما إذا جازف وسار في عتمة الليل، أي في غياب النور، فالعشرة واردة. وهذا بعينه يراه المسيح أنه مأخوذ في الاعتبار بالنسبة له كما هو للتلاميذ.

ولكن المعنى الخفي متجه رأساً نحو الصليب. فتخويف التلاميذ له غير لائق، ولا هو وارد في حساباته، فنهاره بالنسبة للعالم لا يزال قائماً ولا يزال هو نوره، فساعته لم تتحدد بعد، وساعة أعدائه لا تزال على بُعْدٍ، وهي التي تمثل ظلمة هذا العالم بكل كثافتها وثقلها: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو ٢٢: ٥٣). فهو إذن لا يزال يسير في وقته المحدد، ولم يدخل بُعْدٌ في منطقة ليل العالم بعثراته وإعثاره. وقد أوضح المسيح ذلك لهم فيما بعد بأكثر وضوح: «فقال لهم يسوع: النور معكم زماناً قليلاً بُعْدُ، فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥). أما بالنسبة للمسيح، فقد سبق وأن أوضح ذلك أيضاً فيما يخص عمله: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم»^(٤) (يو ٩: ٤ و٥)، مشيراً بذلك إلى ظلمة العالم القادمة، التي تمثل بالنسبة للمسيح الآلام والموت.

(٤) راجع شرح هذه الآية في موضعها (يو ٩: ٥).

وبالنهاية نلتقط إشارة خفية من وراء هذه الآية، تفيد أن المسيح يريد أن يُظمّن التلاميذ أن يستبعدوا الموت أو العثرات طالما هم معه، لأنه هو نور العالم، وذلك بالنسبة لرحلته القادمة. فإن كانوا قد امتلكوا النور فكيف يخافون؟ لأن الخوف يكون حينما لا يكون «النور فيهم» (٥)، ولم يَقُل: «النور حولهم». وهنا ينكشف قصد المسيح من النور والظلمة والنهار والليل. فنهار الإنسان هو المسيح في القلب والفكر، وغياب المسيح من القلب (النور ليس فيهم) هو هو ليل الإنسان، الذي حتماً يكون متوازياً مع الخوف والموت، ومنفتحاً عليه. وإن كان الموت وارداً بالنسبة للمسيح — طالما أن وراء ساعات النهار الاثنتي عشرة ليلاً قادماً — إلا أن الظلمة لن تدرك النور أبداً. ولكن التلميذ الذي تعود أن يضع إصبعه في كل ثغرة، أدرك بحساسيته الحسابية الشكاكة، أن الخطورة لا بد مُخِدة بهم من جراء هذه الرحلة. وله رأي في ذلك سنقدمه في حينه.

١١: ١٣-١٣ «قال هذا، وبعد ذلك قال لهم: لعازرُ حبيبنا قد نامَ، لكني أذهب لأوقِظَه. فقال تلاميذه: يا سيد إن كان قد نامَ فهو يُشْفَى. وكان يسوع يقولُ عن موته، وهم ظنوا أنه يقولُ عن رقادِ النوم».

الرب هنا يعبر عن العلاقة الروحية التي لا تزال قائمة بينه وبين لعازر، ويضمُّ التلاميذ معه فيها، وهي علاقة الصداقة الروحية " φίλος " لأن كلمة «حبيبنا» هنا تأتي في معنى الصداقة أكثر منها في الحب، وهي نفس الكلمة الواردة على فم المعمدان: «أما صديق " φίλος " العريس» (يو: ٣: ٢٩). كذلك هو نفس الاصطلاح الوارد في الآيات ١٣ و ١٤ و ١٥ من الأصحاح ١٥: «ليس لأحد حبُّ ἀγάπην أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه φίλων، ... أنتم أحبائي φίλοι إن فعلتم ما أوصيكم به. لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد سَمَّيتُكم أحبباءً φίλους...». وهكذا نرى كيف أن اللغة اليونانية تجعل الصداقة الروحية على مستوى المحبة بنوع ما. ونرى أيضاً كيف قصّرت اللغة العربية في التقاط هذه الفوارق الجوهرية في التعبيرات الروحية.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح أبقى على العلاقة الروحية التي على مستوى صداقة المحبة، كما هي، بعد موت لعازر؛ ما يشير أن نفس لعازر ظلت تتمتع بهذه الصداقة والمحبة الروحية في الموت،

(٥) الترجمة العربية للآية: «إن كان أحد يمشي في الليل بعثر، لأن النور ليس فيه» غير واضحة لأن كلمة «فيه» يمكن أن تعود على «الليل» أو على «الذي يمشي». ولكن في الأصل اليوناني «فيه» جاءت بالضمير المذكر ἐν αὐτῷ الذي لا يمكن أن يعود على «الليل» (مؤنث) بل يعود بكل وضوح على «الذي يمشي» (مذكر).

ليس مع المسيح فقط بل ومع التلاميذ. وهذه هي حال النفس في العالم الآخر بالنسبة لأكلفة الجماعة هنا وهناك. «لعاذر حبيبنا قد نام، لكنني أذهب لأوقظه.»

هذا الاصطلاح الجديد (تقريباً) الذي وضعه الرب للتعبير عن الموت بأنه مجرد «نوم»، هو نموذج لمعيار تفكير الرب وتعبيره عن الروحيات، ويتضح منه كيف يسعى المسيح لرفع مستوى الفكر البشري للتلامس مع الواقع الروحي الفائق على الطبيعة، وقد صار هو التعبير الطقسي الرسمي في الكنيسة في كل صلواتها ولكن بإضافة هامة: «فلان رقد في الرب»^(٦) تعبيراً عن «موت القيامة». لأنه طالما كان الموت في الإيمان بالمسيح، فإنه يكون مؤدياً إلى قيامة وحياة. لذلك، فهو مجرد رقاد — حتى وإن طال زمنه — لأن الزمن غير محسوب بالنسبة للحياة بعد الموت. [ليس موت لعبيدك، بل هو انتقال] (القديس القبطي — أوشية الراقدين).

ولكن تأتي في العهد القديم: «رقد وانضم إلى آبائه» (أع ١٣: ٣٦ راجع ١ مل ٢: ١٠) بمعنى الموت المقيم. وإن كان يحتاج بعض النقاد أن هذا الاصطلاح كان مستخدماً عند الربيين وعند غير اليهود أيضاً؛ ولكن أن يقوله المسيح وينطقه بروحه، فقد صار ذا معنى غير كل ما كانت تعنيه الفئات الأخرى من يهودية ووثنية، خاصة وأن الرب أكمل ما يقول بالفعل. إقامة لعازر من الموت كانت بمثابة اليقظة الجسدية العظمى للإنسان، والتي لم يكن لها مثيل ولا مُشابه لرجل أنتن جسده في القبر لأربعة أيام، بعد لعنة الموت الدائم التي حلت عليه، توطئة ليقظة القيامة الروحية العتيدة أن تكون، وقد صارت بقيامة الرب من الموت.

فالمسيح الآن له هذا القدوم العظيم والمبارك، لإيقاظ النفوس التي غرقت في بحر الخطيئة وأخرجت نتن رائحتها ليترككم الأنوف: يأتيها المُبشِّر بشاري الخلاص من ليلاها الطويل: «يقول، استيقظ أيها النائم، وقم من الأموات، فيضيء لك المسيح» (أف ٥: ١٤)، حيث يتلقفه صوت صاحب الرؤيا: «مبارك ومقدس "قن" له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (موت الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ ٢٠: ٦)

هذه هي القيامة الأولى الروحية — الشخصية والفردية — من موت الخطية القاتل، التي هي بمثابة جواز الدخول إلى الأجداد العليا عند استعلان القيامة الأخيرة العامة العتيدة أن تكون على كل العالم. وكما أن نوم الجسد هو محدّد بالساعات؛ هكذا نوم الموت فهو حتماً إلى ميعاد، وكما أن

النفس تأخذ خبرة الأحلام، إن بأفراح أو بأحزان هي شبه الحقيقة أثناء نوم الجسد؛ هكذا قد أعطي للنفس أن تأخذ خبرة الأفراح والأحزان الحقيقية — كسبق تذوق للقيامة العامة — أثناء نوم الموت الطويل إلى أن تحين القيامة العامة لتعيش أفرانها أو أحزانها الأبدية.

وانصوت الذي أيقظ لعازر من نوم موت الأربعة الأيام، هو نفس الصوت الذي يسمعه جميع الذين في القبور، «فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو ٥: ٢٩). والصوت هو صوت الله، ينطقه الابن بالسلطان الذي أعطي له أن يضع النفس ويأخذها أيضاً. وواهب الحياة هو وحده الذي يستطيع أن يعيدها بأقوى وأشمل صورة، إذا تعذى عليها الموت إلى حين. فالموت دائماً إلى زمن، والحياة دائماً إلى الأبد!... «لأنني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). وكلمة الله التي نطقت هذا هي حياة وفعالة...

١١ : ١٢ - ١٤ «فقال تلاميذه يا سيد إن كان قد نام، فهو يُشفى. وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم يسوع حينئذ علانية: لعازر مات».

ينزمننا هنا الرجوع إلى اللغة اليونانية لنذكر سبب هذا الالتباس عند التلاميذ. فكلمة نام κοιμάομαι في اليونانية تأتي بصيغتين:

الصيغة الأولى بمعنى رقاد الراحة κοιμήσις، وتفيد بالتالي إمكانية الرقاد الثقيل بالمرض، كالحمى مثلاً، أو الموت، كما جاءت في مواضع كثيرة جداً في العهد الجديد؛ بل وتفيد أيضاً بصيغة التورية مكان رقاد راحة الموت، وهي الصيغة التي أخذتها اللغات الأخرى من الأصل اليوناني — κοιμητήριον — ولكن نطقها كالأتي «cemetery» حيث قلبوا k إلى c، وهي مكان القبور وأصلاً نوم الراحة الطويل.

أما الصيغة الثانية فهي «النوم» بمعنى فقدان الوعي أو الشعور الوقتي، والذي يوضحه جداً تركيب هذه الصيغة ὕπνου، حيث مقطع νου يعني العقل، ὑπο = ὑπο يعني تحت أو دون. ولكن لم تأت كلمة ὕπνου قط بمعنى الموت، في حين أن كلمة κοιμάσθαι تأتي لتفيد معنى الموت في العهد الجديد (٧)، وقد تأتي أيضاً بمعنى النوم كراحة.

فالتلاميذ اعتبروا قول الرب أن لعازر κεκοίμηται رقد رقاد المرض كالحمى مثلاً. وهكذا،

فلا داعي أن يرتحل الرب والتلاميذ معه هذه الرحلة الخطرة التي تحمل في طياتها شبح الموت للمعلم ولهم، فالذي رقد للمرض فهو يُشْفَى. ولكن «يُشْفَى» σωθήσεται جاءت في اليونانية بلغة التلاميذ بقصد «يتعافى» أو يعود صحيحاً، وهذا هو المعنى الذي أخذت به في اللغة الإنجليزية he will get well؛ ولكن بالمعنى الأكثر شمولاً فهي تأتي بمعنى «يخلّص» (سوتيس باليونانية). وهنا تنفذ اللغة السرية لإنجيل يوحنا لتبلغ — دون أن يقصد التلاميذ — إلى معنى الخلاص الحقيقي بالقيامة.

ثم يعود إنجيل يوحنا ليفسر أن التلاميذ ظنوا أن المسيح يتكلم عن «رقاد النوم»، أو راحة النوم، على وجه الأصح، وهنا ضمَّ الإنجيل الرقاد إلى النوم الخفيف κοιμήσεως τοῦ ὕπνου، حيث استبعد التلاميذ رقاد الموت. وتضيف الآيات: لكن «كان يسوع يقول عن موته περί τοῦ θανάτου»، وهنا يكشف ق. يوحنا بوضوح عن لغة المسيح الفائقة للطبيعة ولل فکر العادي حينما قال عن الموت أنه نوم.

١١: ١٤-١٦ «فقال لهم يسوع حينئذٍ علانيةً: لعازرُ مات، وأنا أفرحُ لأجليكم أني لم أكنُ هناك لتؤمنوا؛ ولكن لنذهب إليه. فقال توما، الذي يقال له التوأم، للتلاميذ رفقاءهِ: لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه».

قول ق. يوحنا هنا أن المسيح عاد وأبدأ يتكلم «علانية» أي بدون تورية. والتورية التي تكلم بها الرب سابقاً هي أسلوبه الخفي — الرمزي — والفائق عن الطبيعة والفكر المادي، الذي يصيب المعنى الروحي أكثر مما يفيد المعنى الظاهري العادي. فقول الرب سابقاً: «لعازر... نام لكني أذهب لأوقظه» أرتبك التلاميذ، لأنه استخدم كلمة النوم التي تفيد إما معنى الموت أو معنى الرقاد للراحة، مع كلمة اليقظة «ἐξυπνίσω» التي تفيد الاستيقاظ من النوم العادي. ولكن هنا كلمة «علانية» παρησία تفيد الوضوح وبلا خوف، حيث تخلى الرب — مؤقتاً — عن المعنى الروحي من رقاد النوم بما يفيد إمكان اليقظة أو القيامة منه. علماً بأن الفعل المستخدم في «لعازر قد نام κεκοίμηται وأنا أذهب لأوقظه» جاء في زمن المضارع التام perfect وهو يفيد حالة دوام النوم التي تحتمل التوقف واليقظة، أما الفعل المستخدم هنا «لعازر مات» ἀπέθανεν فقد جاء في زمن الماضي البسيط aorist وهو يفيد الوصول إلى نقطة تغير مفاجيء قاطعة.

وذكر استخدام المسيح لهذه التورية لا يقتصر على إنجيل يوحنا، ففي إنجيل القديس مرقس في

الأصحاح الخامس عدد ٣٩، نجد المسيح يستخدم نفس الأسلوب في نفس الموقف وبنفس المعنى: «فدخل وقال لهم لماذا تضحون وتبكون، لم تَمُتْ الصبية ولكنها نائمة. فضحكوا عليه...»، لأنها كانت ميتة ولزمن ليس بقصير. وهذا الأسلوب السائد في إنجيل يوحنا يتناسب مع مستوى الإنجيل في تقديم الرب بصفته المُستعلن لله: Revealer of God.

وحيثما يسبق المسيح و يتكلم عن أمور قادمة، لا يقدم نفسه كمن يتنبأ عن بُعد زمني، ولكن يقدم نفسه ككاشف ومُستعلن للحقائق، باعتبارها واقعة وكائنة في معرفته، و يعلنها قبل حدوثها الزمني، حتى إذا حدثت أدرك منها التلاميذ قدرته الإلهية كمُستعلن لله ذاته: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون أنني أنا هو» (يو ١٣: ١٩). وقد كرّر نفس القول في ١٤: ٢٩، وكذلك بالأكثر عن آلامه التي ظل يكشف عن مجيئها الحتمي وقبولها بسرور: «لكني قد كلّمتكم بهذا، حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنني أنا قلته لكم» (يو ١٦: ٤). وقد لاحظ التلاميذ ذلك بالفعل، واقتنعوا بأنّ سَبَقَ إعلانات الرب هي لتثبيت إيمانهم: «الآن نعلم أنك عالم بكل شيء، ولست تحتاج أن يسألك أحد، لهذا تؤمن أنك من الله خَرَجْتَ» (يو ١٦: ٣٠). ويلاحظ أن الإيمان الذي كان يهدف إليه المسيح من إعلانه المسبق ليُثبِت به تلاميذه، ليس مجرد إيمان بقدرته على الشفاء والإقامة من الموت بعد ذاتها، ولكن الإيمان به هو: «حتى تؤمنوا أنني أنا هو» ابن الله والمُرسل من الله. والقصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت التي كانت موضوع فرح المسيح لأجل التلاميذ، هو ليُثبِت إيمانهم من جهة قدرته على إقامة نفسه هو من الموت الحتمي القادم، وبالتالي سلطانه الأعظم في القيامة العامة والدينونة وإعطاء حياة للعالم. وأما الآن، فإعطاء النصر في الضيقات: «في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبتُ العالم.» (يو ١٦: ٣٣)

«وأنا أفرح لأجلكم أنني لم أكن هناك، لتؤمنوا، ولكن لنذهب إليه»:

معروف قطعاً أن الموت لا يجرؤ أن يتسحب على حبيب للمسيح وفي حضرته، فإن كان المسيح قد أبى أن يموت لعازر، حتى في غيبته، وصمم على إقامته من الموت فكم بالحري في وجوده؟

هذه قضية مُسلّم بها، قالها الأعداء من اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»، كما قالتها أخت الميت: «فقلت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يَمُت أخي». وهذا حقاً وبالْحَقِيقَة، لأنه في حضرة رئيس الحياة يختشي الموت أن يفرد جناحيه. ولقد سبق للمسيح أن شلَّ حركة الموت في جميع السقماء الذين أتوا إليه، وهم مشرفون على الموت؛ واستخلص من برائته كل فرائسه.

أما فرح المسيح من أجل الذهاب إلى بيت الحزن في بيت عنيا، فهو كفرح حضوره إلى بيت الضريح في قانا الجليل، تماماً وبلا تمييز. في هذه أعلن مجده، فأمن به تلاميذه (يو: ١١: ٢)؛ وفي تلك سيُعلن أيضاً مجده، ليؤمن به تلاميذه. فرحُ المسيح هو دائماً إيماننا، وهو يسعى إليه دائماً، ليُظهر مجده من وراء أحزاننا وأفراحنا على السواء.

كانت هذه بداية آياته التي صنعها أمام تلاميذه؛ وتلك ختام آياته وإنجيله الذي سلّمه إليهم. سلسلة من الآيات ينتقل فيها كل من آمن بالمسيح من مجد إلى مجد، وكما المجد ليس له نهاية كذا الإيمان يكون. وهذا هو بعينه المعيار الروحي البديع الذي يقوم عليه إنجيل يوحنا: فرح المسيح، الذي لا يُحدّ، في إيماننا الذي ينمو من وراء كل آياته التي صنع.

«ولكن لنذهب إليه»:

لا يقول الرب نذهب هناك، بل نذهب إليه. لعازر الميت والمنتن لا يزال حيّاً أمام المسيح، والرب يُحضره حيّاً في مُخيّلة التلاميذ. الجسد لا يهم ولا يفيد شيئاً، فلعازر هو هو، قبل أن يموت وبعد أن مات، هذه هي حقيقة الذين يؤمنون بالمسيح: «مَنْ آمَنَ بِي وَلَو مَاتَ فسيحيا» (يو: ١١: ٢٥). هذا هو أساس «الرجاء» الكائن في الإيمان: «ليس هو (الله) إله أموات بل إله أحياء.» (لو: ٢٠: ٣٨)

١٦: ١١ «فقال توما، الذي يقال له التوأم، للتلاميذ رفقاءه: لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه».

كان سهلاً على توما أن يموت، استجابة لمحبة المسيح؛ ولكن كان صعباً عليه أن يؤمن بالقيامة من الموت!

كان سهلاً عليه أن يقدم الذي يملكه بالفعل، وهو المحبة؛ واستحال عليه أن يقدم ما ليس عنده وهو الإيمان. توما كان يسير وإصبعه يسبق عقله، وعقله يسبق قلبه.

ولكن العجيب حقاً أن تلقائية الاستجابة عند توما لقول المسيح: «لكي تؤمنوا (بقيامة لعازر)»، جاءت لتكون: «لنموت معه»، عوض أن نحيا معه!! ولكن كم صار هذا التلميذ الشكّاك مؤمناً قوياً بعد رؤيته المسيح قائماً من الأموات بلّمس إصبعه، فصار مبشراً ورسولاً لأكبر بلاد العالم عدداً آنثذ وهي الهند، لأنه صار رسولاً لها.

بقي أن ننسبه ذهن القارىء بخصوص إصرار الإنجيل على تعريف اسم توما «الذي يقال له التوام». ذلك هو بسبب أن «توما» بالعبرية تعني التوام، وقد ترجمت كلمة «توما» إلى اليونانية بالكلمة «ديديموس». لهذا يحاول الإنجيل دائماً التعريف بأصل الاصطلاح اليوناني، لأنه وإن كان عبرانياً وطنياً ولغة، إلا أنه يكتب للأمم.

«المنظر في بيت عنيا»:

١٩: ١١-١٧ «فلما أتى يسوع، وَجَدَ أنه قد صار له أربعة أيام في القبر. وكانت بيتُ عنيا قريبةً من أورشليمَ نحوَ خمسَ عشرةَ غلوةً. وكان كثيرونَ من اليهودِ قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما».

حينما وصل المسيح مع تلاميذه إلى بيت عنيا، «وجد» ما كان يترقبه، أو ما كان يعرفه تماماً: ليس أن لعازر قد مات فقط، بل وله أربعة أيام في القبر. وذكُر عدد الأيام في القبر، هو لتأكيد انحلال الجسد انحلالاً يؤدي إلى تهرؤ هيئة الجسم والوجه وفساده. والإمعان في ذكر الأربعة الأيام في القبر لثاني مرة في الآية: «يا سيد قد أثُن، لأن له أربعة أيام (في القبر)»، هو لوضع الرمز اللاهوتي في المقابلة بين ربة انحلال الجسد وثنائه، إزاء الفرحة بمجد الله التي ينتقل إليها المؤمن الذي يشاهد القيامة من الموت ويشهد لها. كما أن هذه الآية تتوازي في العمق اللاهوتي مع آية تفتيح عيني الأعمى المولود أعمى، الذي انتقل من الظلام الدامس في عالمه المظلم إلى إشراق النور بكلمة المسيح.

كما أن القصد من ذكر عدد الأيام، هو استبعاد دخول الروح في الجسد استبعاداً مطلقاً. لأنه بحسب إيمان اليهود وتقليدهم الموروث من جهة الميت، فإن الروح تبقى في الأرض ثلاثة أيام تتردد فيها على القبر وتحاول الدخول في الجسد، ولكن بعد تغيره وانحلاله وفساده — وذلك بعد ثلاثة أيام — تشمئز الروح ولا تعود إلى الجسد مرة أخرى، حيث تذهب وتنضم إلى بقية أرواح الموتى. هذا التقليد اليهودي سجّله الرابي اليهودي «بار كَبَّاراً» سنة ٢٠٠ م تقريباً، وكذلك رابي «ليفى» سنة ٣٠٠ م تقريباً^(٨). وهذا التقليد القديم هو الذي تأخذ به الكنيسة القبطية منذ القديم، حيث تقيم صلاة خاصة لروح الميت في اليوم الثالث في المنزل الذي تُوفّي فيه، بقصد مساعدة الروح لانطلاقها إلى مكان راحتها.

* Schnackenburg, Rudolf, *The Gospel accord. to St. John*, Vol. II, pp. 228, 515.

أما بقية التقليد القديم الذي يذكره التلمود بالنسبة للميت فهو كالآتي :

[ثلاثة أيام للبكاء على الميت. ثم سبعة أيام نواح (تراتيل حزينة). ثم ثلاثين يوماً حداداً يُمتنع فيها قصُّ الشعر ولبس الملابس الثمينة].^(٩)

إذن، فمجيء اليهود من أورشليم لتعزية مرثا ومريم — لمدة سبعة أيام حسب طقس اليهود كأعلى تعبيرات المحبة التي لا يمكن لليهودي أن يفرط فيها — لا تأتي في القصة مصادفة، بل هي الوصلة الملتهبة التي تفجرت في أورشليم بسرعة بعد قيامة لعازر من الموت، حيث بلغ الخبر للرؤساء المتربصين، فطار صوابهم. وتشكل الصليب في أفق جنونهم في الحال.

ومجيء هؤلاء اليهود لم يكن بقصد التلصص على أخبار الرب، ولكن بانفعال صادق لما رآوه سابقاً من الآيات في أورشليم، وبالأخص الآية الأخيرة التي تم فيها تفتيح عيني الأعمى بحضورهم. وهذا واضح من قولهم عندما رأوا المسيح يبكي: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى، أن يجعل هذا أيضاً لا يموت».

المسيح ومرثا: (٢٠-٢٧).

١١ : ٢٠ «فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته. وأما مريم فاستمرت «جالسة» في البيت».

رد فعل خبر مجيء «المعلم» المحبوب يسوع بالنسبة لمرثا ومريم، هو مطابق لما جاء عنهما في إنجيل لوقا ١٠ : ٣٨ من جهة طبيعة كل واحدة. فمرثا خرجت في الحال لاستقباله، فهي كانت ربة البيت ذات الإحساس بالواجب وصاحبة الضيافة بنشاط والخدمة الكثيرة. ولا ننسى كيف رأت في نفسها الكفاءة أن تُلَفِّتَ نظر المعلم أن يزجر مريم أختها لتساعدتها، وكأنها ذات إدارة وإمارة. ولم تر أنه كان من الواجب عليها أن تدعو أختها قبل أن تسرع للخروج. لذلك ظلت مريم جالسة في البيت وسط المعزين، ولم تعلم بخروج أختها^(١٠)، علماً بأن طبيعة مريم كانت هادئة مُدْعِنَة، ليست كثيرة الحركة، تتقن الجلوس تحت أقدام مَنْ يُعَلِّمها، ولكن كانت قد

^٩ Leon Morris, *op. cit.*, p. 547.

(١٠) «جلوس مريم» وسط المعزين يذكره ق. يوحنا بعناية لأن هذا هو طقس العزاء بالنسبة للميت. وبذكر العلامة اليهودي المنتصر إدرزهم هذا الترتيب كالآتي: [حالما يخرج جسد الميت من البيت للدفن، فإن كل المقاعد في البيت سواء كراسي أو دكك أو مساند (أي شلت) تُقلب (معكوسة أرجلها إلى فوق). والمعزّون يجلسون على الأرض مباشرة أو على مقاعد واطنة بدون ظهر]. ويلاحظ أن هذا التقليد اليهودي القديم بقي كما هو بالضبط في أصول الطقس الكنسي في الكنيسة القبطية، وذلك في الإحتفال بأسبوع الآلام، وخاصة يوم الجمعة الحزينة، كما هو جارٍ تماماً في الأديرة.

«أحبت الرب كثيراً» في صمت بالغ يشهد عليه الناردين الخالص الكثير الثمن .

٢٤ : ١١ «فقلت مرثا ليسوع : يا سيد لو كُنتَ ههنا لم يَمُتْ أخي ، لكني الآن أيضاً أعلمُ أن كلَّ ما تطلبُ من الله يعطيك الله إِيَّاهُ . قال لها يسوع : سيقومُ أخوك . قالت له مرثا : أنا أعلمُ أنه سيقومُ في القيامةِ في اليومِ الأخيرِ» .

مرثا تطرح انفعالها أمام الرب في صورة إيمانية بسيطة ، مع حسرة على حاجة فلتت من يديها ومن يد الزمن . ولكن عادت تتعلق برجاء . والرجاء دائماً يبدأ يغطي قصور ما لم يحققه الزمن ، رجاءً يستند ، لا على الإيمان الشخصي فقط ، بل وعلى العلم بقدرة المسيح — «أنا أعلم» — ، مرثا ألقت بكل ما تبقى لها من أمل على وعد المسيح : «مَنْ آمَنَ بي ولو مات فسيحيا» ، مستندة على يقينها أن ظَلَبَ المسيح مستجاب لدى الله . وهنا تكرر مرثا حضور الله إزاء طلب المسيح مرتين : «أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه» ، وذلك تأكيداً للعلاقة التي تربط المسيح بالله .

ثم ، لا بد أن أحد التلاميذ أسرَّ إليها بقول المسيح لهم : «أنا أذهب لاؤقفه» . لذلك اشتد يقينها بأن شيئاً عظيماً سيحدث على يدي المسيح ، فبدأت تستحث الرب على ذلك ، مؤكدة له أنها على يقين أن «كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه» . لقد انطلق إيمانها مع هذه الكلمات ، يخلق بقوة الرجاء في قوة الحياة التي يمكن أن يَهَبها المسيح ، ولكن كيف ؟ لم تجرؤ مرثا أن تطلب علانية ما يعزُّ على أي إنسان ظَلَبه . ولكن المحبة التي كانت تتأجج في قلبها كانت تضيء أمامها المجهول ، وأن لا شيء مستحيل لدى الرب .

«وكلُّ» οσα التي قالتها مرثا من عمق أعماق قلبها كفيلة بأن تغطي كل شيء حتى القيامة من الموت : «أنا أعلم أن "كل" ما تطلب...» . و«كل» تترجم بالإنجليزية : whatsoever أي «مهما» .

«قال لها يسوع : سيقوم أخوك . قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير» :

المسيح يتكلم عن القيامة كقوة إلهية فيه ، سيستعلنها في شخصه كحقيقة حاضرة لا يحصرها زمان ولا تحدُّها أية قوة في العالم ، وسيمارسها تجاه الموت ليُلغي وجوده علناً ، ويُظهر الحياة كقوة غالبية ومنتصرة من داخل الموت .

والغاية من قول المسيح هذه الحقيقة : «سيقوم أخوك» ، هو ليعلمن لمرثا أن الموت ليس هو العدو

الذي ينتصر فوق الحياة، إذ توجد القيامة التي تُبطله، يقولها هنا المسيح كخبر، قبل أن يكمله كفعل، ليصير هذا هو معيارنا الجديد بالمسيح يسوع تجاه الموت: «سيقوم أخوك». وفعلاً فإن مرثا أخذت قول المسيح كتعليم وفلسفة، وليس كفعل سيتم تجاه الميت. فوافقت عليه وشرحته حسب تقديرها الإيماني، كحقيقة عامة معروفة، وليس كفعل شخصي: «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير».

وبهذا تكون مرثا قد أخذت قول المسيح على مستوى التعزية ليس إلّا، وذلك حسب أصول المجاملة في حالة الموت. وعززته باستذكار التعليم اليهودي من جهة قيامة الأجساد، الذي كان الفريسيون يعلمون به ضد الصّادّوقيين الذين لم يكونوا يؤمنون بالقيامة على وجه الإطلاق (مر ١٢: ١٨، أع ٢٣: ٨). وهذا التعليم اللاهوتي اليهودي ظهر بوضوح منذ القرن الثاني قبل الميلاد: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدية.» (دا ١٢: ٢)

وقد دخلت هذه الحقيقة الإيمانية كجزء في العبادة الرسمية اليومية حيث تُقال في البركة الثانية ضمن الثماني عشرة بركة:

[أنت الجبار إلى الأبد يا رب، أنت الذي تحيي الموتى] (١١).

ولكنها كانت حقيقة مفهومة من جهة الأمور الأخروية، ولا تدخل قط في مفهوم إمكانية القيامة في الحاضر، الأمر الذي حقّقه المسيح لنفسه وللآخرين.

وهكذا أراد إنجيل يوحنا أن يضع في مقابلة ومواجهة: قانون الإيمان اليهودي، تجاه قانون الإيمان المسيحي، من جهة التعليم بالقيامة. فالأول يرى القيامة مجرد مقولة إيمانية في أمور آخر الزمان، والثاني يراها حقيقة خلاصية حاضرة الآن وكل يوم، في المسيح، وبالمسيح. وهذا هو ردّ المسيح الاستعلاني.

١١: ٢٥-٢٧ «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. "مَنْ" آمَنَ بي، ولو مات، فسيحيا. و"كُلُّ مَنْ" كان حياً وآمنَ بي، فلن يموتَ إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نَعَمْ يا سيّد، أنا قد آمنْتُ أنك أنت المسيح ابنُ الله الآتي إلى العالم».

رد المسيح لا يُخطئ من قول مرثا واعترافها بالإيمان اليهودي. ولكن التصحيح هو أن القيامة

ليست تعليمياً ولكن حقيقة، ليست للمستقبل بل هي للحاضر، ليست لجماعة (قيامه جماعية) ولكن لكل فرد من واقع فردية حياته، ليست نعمة يتحصّل عليها المسيح من (الله) كطلب مرثا، بل هي كيان المسيح نفسه «أنا هو» حينما يتصل بنا، سواء الآن وكل أوان أو المستقبل.

وينبغي الآن أن نفرّق بين أقوال المسيح السابقة عن: «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ التي يُنسب فيها إلى لاهوته تشبيهات بنور العالم والطريق والكرمة وباب الخراف والراعي الصالح وخبز الحياة، هذه كلها تصورات لفظية تصوّر عمل المسيح لقيادة الإنسان وتقويته وبنائه روحياً، وضمنان صلته بالحياة الأبدية. أما هنا فقوله: «أنا هو القيامة» ، ليس تشبيهاً ولا تصويراً، ولكن استعلان حقيقة كائنه فيه، وهي من صميم كيانه وطبيعته، تلك التي كان يُظنّ — كما كانت مرثا أيضاً تظن — أن فاعليتها متوقفة على اليوم الأخير، وأن قوة هذه الإقامة من الموت هي من عمل الله. ولكن هنا يستعلن المسيح أنها من عمله هو، وأنها ليست عمله الخاص وحسب، بل هي طبيعته: «أنا هو القيامة». المسيح هنا يستعلن نفسه، أو كما سبق وقال: «أنا الشاهد لنفسي» (يو: ٨: ١٨). هنا «فعل» الإقامة من الموت المستقبلي ينسبه المسيح إلى حاضر طبيعته الإلهية، أو على الوجه الأصح، إلى لاهوته القائم الآن فيه وإلى الأبد، وليس هو مجرد «فعل إقامة»، بل «مصدر» القيامة: «أنا هو القيامة (ذاتها)» (١٢). وهكذا وبهذا يكون قد أضاف المسيح إلى كل أقواله السابقة عن «وأنا أقيمه في اليوم الأخير»: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير» (يو: ٦: ٣٩ و٤٠ و٤٤) إضافة جديدة في غاية الأهمية وهي عمله في الحاضر أيضاً للإقامة من الموت، وبالتالي إعطاء الحياة الأبدية الآن في الحاضر: «أنا هو القيامة والحياة».

وبالتوازي مع الإقامة من الموت الآن، وإعطاء الحياة الآن، يؤكد المسيح في إنجيل يوحنا أنه أيضاً يباشر الدينونة والإعفاء من الدينونة الآن أيضاً، أو على وجه أصح منذ الآن: «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو: ٥: ٢٤)

والمسيح لا ينفي هنا الدينونة في اليوم الأخير، ولا القيامة في اليوم الأخير، ولا استعلان الحياة الأبدية في اليوم الأخير، ولكن يضيف ويكمل الإيمان اليهودي بالقيامة في اليوم الأخير بالإيمان

(١٢) بخصوص أن القيامة هي من صميم كيان المسيح وطبيعته وليست مجرد عمل يقوم به، فإن القديس كيرلس الكبير يدعو المسيح بعبارة تكررت مئات المرات في كتاباته هي: $\eta\ \kappa\alpha\tau\alpha\ \phi\acute{\upsilon}\sigma\iota\nu\ \zeta\omega\eta$ ، أي: «الذي هو بطبيعته الحياة».

المسيحي، أن القيامة والدينونة والحياة تبدأ من الآن، وذلك في المسيح وبالاتحاد معه. وكان المسيح يخاطب الذين يبكون وينوحون على ميتهم الذي يكون قد آمن بالمسيح وأحبه وعاش في حضرته، هكذا:

[لا تبكوا ولا تحزنوا بل ثقوا وآمنوا أن أخاكم حيٌّ الآن، وهو معي، لقد «انتقل من الموت إلى الحياة» — «لأنه قد أحب الإخوة» (راجع ١ يوحنا ٣: ١٤) — وهو يستمتع بالحياة الأبدية بلا حزن ولا كآبة ولا تنهد في النور الأبدي، لقد قام أخوكم بالروح، ولكن الجسد هو الذي استُهدِفَ وحده للفساد والفناء — الجسد لا يفيد شيئاً، الروح هو المؤهل للحياة الأبدية. الله روح وهو طالب الساجدين له بالروح والحق. لا تهتموا بعد بما هو على الأرض، «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض. لأنكم قد مُثِّم، وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهِرَ المسيح حياتنا، فحينئذٍ تُظهِرُونَ أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣: ١-٤).]

و«أنا هو» القيامة قبل «الحياة»، لأن المسيح سيبدأ من الموت ليعلن الحياة. ولكن لا بد من الاثنين معاً، لأن القيامة والحياة استعلان واحد وهو شخصه. فهو لم يقل أن القيامة عمل يُحضره لنا أو يقودنا إليه أو يبعثنا به، ولكنه يقول: «أنا هو القيامة». والقيامة التي يعلنها المسيح أنها كيانه الخاص: «أنا هو»، لا يعلنها لنعرفها فيه بمجرد معرفة، بل إنه يعلنها باعتبارها لنا ومن أجلنا. هي كائنة أصلاً في صميم لاهوته، لأنه هو الحياة ذاتها (١٣) التي ليس فيها الموت. ولكن لأنه تجسد وأخذ بشرية الفرد الكاملة التي يمكن أن يموت بها، صارت القيامة كائنة في ناسوته أيضاً، لذلك إن مات فهو حتماً يقوم، وهكذا حقق المسيح للبشرية فردية الإنسان الدائمة والقائمة والحية إلى الأبد. ولكن قبل أن يموت، باشر إقامة لعازر من الموت، لنذكر أن القيامة كائنة فيه، بل هي كيانه الذي نوى أن يمنحنا إياه، بالاتصال بنا أو باتحادنا به، فنقوم به وفيه، أو نصير به قائمين. ويصير كل فرد مؤمن ومتحد به، حياً به؛ أو أن المسيح يصير حياة كل أحد: «أحيا لا أنا بل المسيح بحيا في» (غل ٢: ٢٠)، «... احسبوا أنفسكم... أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا.» (رو ١١: ٦)

لذلك، كان الإيمان بالمسيح غلبة للموت وقيامة في الحياة، لأن الإيمان بالمسيح الذي هو الاتحاد بالمسيح، هو اتحاد بالقيامة والحياة: «مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسَلَنِي، فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَلَا

(١٣) القديس أثناسيوس الرسولي يدعو المسيح ἡ αὐτοζωή أي: «الذي هو بذاته الحياة» أو «الحياة بذاتها» (أنظر كتاب: «تجسد الكلمة»، للقديس أثناسيوس الرسولي، ٤: ٢١).

يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه : ٢٤)، «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يوه : ٥٧). المسيح هنا يعطي ذاته بكيانها القائم والحي. لذلك نستطيع أن نفهم قوله : «مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فسيحيا»، و«مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَن يَمُوتَ إِلَى الأَبَد». فلأنه هو القيامة = فَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، فهو حتى ولو مات موت الجسد، فهو سيحيا ثانية، الآن أو في القيامة.

ولأنه هو الحياة = فَمَنْ كَانَ حَيًّا بِالرُّوحِ، أي مؤمناً به، فهو لن يذوق الموت الروحي إلى الأبد، لأن الحياة الأبدية التي فيه قائمة وستجلى حتماً.

وواضح أن هذا القول يشمل فئتين :

فئة الذين آمنوا وماتوا، ويهدف إلى لعازر كمثال ؛ وفئة الذين هم أحياء وآمنوا فتألوا عطية الحياة الأبدية، ويهدف إلى مرثا على سبيل المثال أيضاً. فالأول سيحيا بالرغم من أنه مات، وذلك بسبب إيمان لعازر وحبه للمسيح. والثاني، وهو مرثا، فلن تذوق الموت (الروحي)، لأنها نالت الحياة الأبدية بالإيمان بالمسيح، الإيمان الذي أعلنته واضحاً : «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».

كما يلاحظ أن في المثل الأول : «الذي مات وقام»، يكون المسيح له هو «القيامة والحياة»، حيث تأتي القيامة قبل الحياة لأنها سببها وعلتها : «أنا هو القيامة والحياة».

أما في المثل الثاني، مثل الذي وُهب الإيمان وهو الآن يتمتع بمواهب الحياة الأبدية و يأكل الجسد ويشرب الدم بمعنى الشركة القائمة والاتحاد الكائن مع المسيح، يكون المسيح له هو «الحياة والقيامة» حيث تأتي الحياة قبل القيامة، وحيث تكون الحياة الأبدية هي سبب وعلّة القيامة : «كُلُّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (يوه : ٤٠)، «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (يوه : ٥٤). بمعنى أننا الآن نتمتع بالحياة الأبدية التي من فوق، والتي نلناها بالإيمان بالمسيح وبفعل الروح القدس، للاتحاد به بشركة تناول جسده ودمه، وهذه الحياة الأبدية التي من فوق هي قوة القيامة التي في كياننا منذ الآن، وهي التي سنعبر بها الموت وكأنه لم يكن !! «لأنه ليس موتٌ لعبيدك بل هو انتقالٌ» (أوشية الراقيدين).

وباختصار شديد يكون المسيح [حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا] — القداس الإلهي القبطي (أوشية الإنجيل) : «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو ٣ : ٤)

ولكن علينا أن نلمح أن محور قيامتنا وحياتنا الأبدية هو الإيمان، فالإيمان هو الحياة الأبدية. ليس الإيمان بالقيامة في حد ذاتها، بل الإيمان بالمسيح أنه هو حقاً وبالحقيقة قيامتنا وحياتنا، لذلك يكون الموت قد أصبح طريقاً للحياة لا غير!! «مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فسيحياً». ولأن الحياة الأبدية قوة ذات كفاءة إلهية قادرة أن تصرع الموت — أينما كان — وتلغي وجوده، لذلك: «مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلن يموت إلى الأبد»، «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ» (يو: ٦: ٥١)، «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (يو: ٦: ٥٤)، «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي، فَلن يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ» (يو: ٨: ٥١)، «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته». (يو: ١٧: ٣)

هكذا يستعلن المسيح ذاته بالنسبة لنا، أنه حقاً القيامة والحياة، وأن الموت لا يزيد عن كونه نعاساً مؤقتاً، لا يلغي الحياة الأبدية التي صارت في كيانتنا الروحي. فهبة الحياة الأبدية التي ننالها بالإيمان بالمسيح وبالميلاد من الروح القدس من فوق، هي بحد ذاتها إلغاء صريح وواضح لعقوبة الموت التي دخلت إلى العالم بالخطية. فإذا فقد الموت عامل العقوبة واللعنة، أصبح الموت لا يزيد عن كونه راحة للجسد الذي أشقاه العالم، أو أصبح كالنوم أو النعاس حسب ما وصفه المسيح، حيث الإنسان (الصالح) لا يفقد بالموت إلا عوامل الفناء فقط التي دخلت عليه!!

المسيح أراد أن يرفع إيمان مرثا، لتفهم وتتذوق طعم الحياة الأبدية الحقيقية الآن بالإيمان بالمسيح، فيصفر سلطان الموت في عينيها، وتدرك أن القيامة صارت الآن بالمسيح حقيقة قائمة حاضرة فينا بالروح، بقوة الإيمان الذي يوحدنا بالمسيح وعلكنا ما لطبيعته، وأن القيامة ليست هي رجاء المستقبل. وهذا بدا واضحاً من إجابة مرثا على سؤال المسيح: «أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا؟» قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنتُ أنك أنت المسيح ابنُ الله الآتي إلى العالم».

ويلاحظ هنا، أن سؤال الرب واضح في اللغة اليونانية، أنه لا يعني «هل توافقين على هذا»: $\tauούτῳ πιστεύεις$ ؛ بل: «هل هذا هو إيمانك — أتؤمنين بهذا؟» $\piιστεύεις τούτο$. وهكذا استنفر المسيح إيمان مرثا الخاص، لمواجهة المعجزة قبل أن يباشرها، واستحضر مرثا في مواجهة القيامة أو الإقامة من الموت العتيد أن يكمله في الحال، كفعل قائم في المسيح الآن في الحاضر، يقبله لعازر بالروح ويستقبله بالإيمان الذي له — والذي لا يفنى ولا يضمحل بالموت — كحق من حقوق مَنْ أحب المسيح والتصق به، ليقوم من الأموات ويشهد للقيامة وللحياة التي في المسيح والتي صارت أيضاً فيه وله: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ، حِينَ

يسمع الأصوات صوت ابن الله والسامعون يحيون!!!» (يو ٥: ٢٥)

لقد عبّرت مرثا عن إيمانها بالمسيح مباشرة، دون أن تذكر الموت أو القيامة، وهو تعبير ليس ابن وقته، بل يبدو أنه كان محفوظاً في قلبها، وهو نفس إيمان المعمدان أن المسيح هو ابن الله الآتي إلى العالم، وهو إيمان نثنائيل، وإيمان الأعمى المفتوح العينين والقلب، وإيمان بطرس نيابة عن التلاميذ وعن نفسه، الإيمان الذي بدأ يشرق على العالم بتؤدة ويقين، والذي كان العالم يتلهف عليه ويتطلع بشوق نحوه، باعتباره رجاء الدهور الذي سينقذنا من الموت، الذي سبق أن رآه الأنبياء بالروح، المسيح الآتي للخلاص، وها هو ذا قد أتى: «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم» (يو ١١: ٢٧). المسيح الآتي إلى العالم، رجاء الأنبياء بل وأكثر من رجاء الأنبياء، لأنه ابن الله الذي يُقيمنا من الموت، ويهبنا الحياة، ويصالحنا مع أبيه. لأن «الإيمان بالمسيح» ليس معلومة قائمة بذاتها، بل الإيمان بالمسيح يُنشئ خلاصاً، يُنشئ علاقة، يُنشئ شركة معه، يُنشئ اتحاداً فيه، يُنشئ قبول القيامة التي في المسيح والحياة الأبدية، التي فتحها علينا وعلى الآب، لتسري في كياننا كأعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان، لأن بها يبدأ الإنسان كالأول يعيش مع الله، هنا كما هناك وإلى الأبد.

كلمة «ابن الله» التي أضافتها مرثا إلى اسم «المسيح»، ترفع المسيح فوق كل رجاء اليهود والآباء والأنبياء وتوضح أيّ انفتاح قد صار لنا مع الله.

لقد نطقت مرثا أعظم وأصدق قانون إيمان يطلبه الله والمسيح والإنجيل والأنبياء. انظر إلى ختام رواية ق. يوحنا التي يُتَلَوَّر فيها كل الإنجيل وكل حياة المسيح وأعماله وآياته هكذا: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح (المسيّا) ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣٠ و٣١). هذه الخلاصة الإيمانية المسيّانية للإنجيل هي بذاتها التي عبّرت عنها مرثا، تعبيراً تسنده المحبة القوية، والعشرة الصادقة، والأمانة، والخدمة، في أحلك ساعات تجربتها ومرارة نفسها!!

انظر، أيها القارئ العزيز، واعلم وتعلّم، أننا لسنا بقوانين ومفردات كثيرة للإيمان نعيش، بقدر ما يكون لنا حياة صادقة باسمه لا تُزغزعها أعنف التجارب، حينئذ يصير إيماننا بابن الله حقيقة حيّة فينا!

المسيح ومريم : (٢٨-٣٢)

٣٢-٢٨: ١١ «ولما قالت هذا مضت، ودعت مريم أختها سرّاً قائلة: المعلم قد حضر وهو يدعوك. أما تلك فلما سمعت، قامت سريعاً وجاءت إليه. ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية، بل كان في المكان الذي لاقته فيه مرثا. ثم إن اليهود الذين كانوا معها في البيت يعزونها لما رأوا مريم قامت عاجلاً وخرجت تبغوها قائلين: إنها تذهب إلى القبر لتبكي هناك. فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع، ورأته، خرّت عند رجله قائلة له: يا سيّد، لو كنت ههنا لم يمُت أخي».

عجيبٌ ق. يوحنا في سرده للرواية، فهو يعلّق من عنده تعليقات تجعل القصة حيّة ناطقة.

«ولما قالت هذا مضت»:

يقصد أنها قالت كل ما عندها، كل ما تملك من الإيمان الذي ارتفع فوق الموقف كله، لقد استجابت لاستعلان المسيح، وردّت عليه بما ملأ قلبها راحة وسلاماً. وبقدر ما ارتاحت مرثا ودخل قلبها مناطق النور والرجاء، فإنها دعت أختها لتغترف من مراحم الرب وتعزياته، وكلمة «سرّاً» تتجه ناحية اليهود الذين جاءوا من أورشليم حتى لا يعكروا صفو اللقاء بفكرهم المريض.

ولقب «المعلم» الذي احترفه التلاميذ بحكم تلمذتهم، اختطفته الأختان، إذ اعتبرتا نفسيهما من التابعين، حتى وإن كانتا قد قَبَعَتَا في عقر دارهما. فقد أثَقَتَا فن السماع والحب. ودعوة المعلم لمريم أكيدة، فهو يعلم مقدار الحزن والأسى الذي يعتصر قلبها. وكما سقى مرثا من ماء الحياة فارتوت، وانطفأت نار قلبها، هكذا أراد أن يسقي هذه الأخرى العزاء بعيداً عن عقول المرائين. لقد صدق الرب حينما ألَمَحَ عن نفسه بقدرة التعزية وسلطان العزاء، حينما وعدهم بإرسال الباراقليط المُعْزِي قائلاً: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم معزياً آخر ليُمكث معكم إلى الأبد» (يو: ١٤: ١٦)؛ باعتبار أنه هو المعزي الأول!!

مريم لما سمعت، «قامت سريعاً»، وجاءت إلى المعلم حيث لاقى مرثا، لأنه لم يشأ أن يدخل القرية مباشرة. ولكن خروج مريم السريع نبّه اليهود خطأ أنها ذاهبة لتبكي في القبر، فتبعوها، فكانت مقابلة الرب لمريم في وسط جمع اليهود. ولم تستطع مريم، بانفعالها البادي عليها من جراء هيبة الرب، إلا أن تخرّ عند رجله ساجدة، الأمر الذي فات على مرثا، لكنها احتفظت بتكريم الرب بمشاعر قلبها الخفية. ولكن كان الفكر الطاغى على قلب مريم، هو نفس ما فُكِّرَت

فيه مرثاً وقالته للرب: «يا سيد، لو كُنْتُ ههنا لم يمُت أخي». أمل مفقود، ولكن كان وراءه نوعٌ من التوسل يملأ قلبها، فالمحبة تصدق كل شيء، وترجو كل شيء، ولا تسقط أبداً، حتى وإن وقف العقل حائلاً دون النطق. لم تُسِفها الكلمات أكثر من ذلك، فقدّمت أعز وأقوى ما تملك المرأة: دموعها!!

إقامة لعازر: (٣٣-٤٤)

٣٥:١١ «فلما رآها يسوع تبكي، واليهود الذين جاءوا معها يَبْكُونَ، انزعَجَ بالروح، واضطرب. وقال: أين وَضَعْتُمُوهُ. قالوا له: يا سيّد، تَعَالِ وانظُر. بَكَى يسوع».

مريم تبكي، واليهود يَبْكُونَ، والمسيح يبكي:

هنا تنفرد اللغة اليونانية بتعبيرات البكاء، التي تُفَرِّق فيها بين بكاء مريم واليهود وبين بكاء المسيح، في هذا الموقف بالذات. فبكاء مريم واليهود عبّرت عنه اللغة اليونانية بالكلمة *κλαίουσιν*، وهي تفيد المعنى العربي «بكاء بالصوت المسموع للتعبير الظاهري عن الحزن»، وهو كمهنة عند النسوة له أصول. أما كلمة «بكي يسوع» فتأتي *ἐδάκρυσεν* وهي بمعنى «أدمعت عيناه بدون صوت». وتأتي كتأثير مباشر عَفْوَئِي للحزن غير المنضبط، في صمت.

انزعج بالروح:

وتأتي باليونانية *ἐνεβριμήσατο τῷ πνεύματι* وتفيد الانفعال الانعكاسي للمنظر الذي أمامه (تأثر)، وهي لا تفيد الانزعاج كما تحيىء في الترجمة العربية، ولكن تفيد التأثر بعدم الرضا، وهي نفس الكلمة التي جاءت في المواقف الآتية بمعنى الانتهاز:

— «فانفتحت أعينهما، فانتهرهما يسوع قائلاً: انظرا لا تعلم أحد.» (مت ٩: ٣٠)

— كذلك: «فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص، وظهر، فانتهره، وأرسله للوقت.»

(مر ١: ٤٢ و ٤٣)

— وتأتي بمعنى التأنيب: «لأنه كان يمكن أن يُباع هذا بأكثر من ثلثمئة دينار، ويُعطى

للفقراء. وكانوا يؤنبونها.» (مر ١٤: ٥)

وهكذا يَظْهَر أن هذا الاصطلاح «انزعج»، كما جاء في الترجمة العربية، يفيد مجرد التأثر ولا

يفيد الحزن.

أما كلمة «بالروح»، فهي تفيد أن الرب تحرك أو تأثر بالروح إزاء منظر البكاء في عدم ارتياح، وتحرك روحياً ليصنع أمراً (إقامة لعازر) يوقف به هذا العويل والنواح.

فقد يؤخذ هذا الانزعاج الروحي على أنه استنفار الروح للقيام بالمهمة الخطيرة، وهي إقامة الميت إلى الحياة. ونحن نعلم أن هذا العمل يستلزم خروج قوة هائلة من المسيح، كما حدث في نازقة الدم: «فقال يسوع قد لمسني واحد، لأنني علمتُ أن قوة قد خرجت مني.» (لو ٨: ٤٦)

ويلاحظ أن الكلمة اليونانية ἐνεβριμήσατο التي تُرجمت هنا «انزعج»، جاءت بالترجمة «انتهر»، في إثر المعجزات ذات الثقل العالي التي استلزمت انفعالاً روحياً من الرب لا يُستهان به، وهي معجزة شفاء الأبرص (مر ١: ٤٣)، وشفاء الأعمى (مت ٩: ٣٠)، وإقامة لعازر (يو ١١: ٣٣ و ٣٨). لذلك لا ينبغي أن نستخف بما تستلزمه المعجزة من الضغط الروحي العالي الواقع على جسد المسيح الذي جعله يهتز ويئن وتدمع عيناه في مواقع كثيرة.

«واضطرب»:

وهذا طبعاً نتيجة ما تحمله جسده من أحزان واضطراب الآخرين، تلك التي أخذها على نفسه في تعاطف ومشاركة ومحض إرادته، فجاءت كلمة «واضطرب» ἐτάραξεν ἑαυτόν للتعبير عن ذلك، والتي تفيد حرفياً «جعل نفسه تضطرب» = stir up، وتفيد أيضاً الارتجاف والقشعريرة.

وبذلك تكون الأصول النفسية والروحية التي استهدفها المسيح في جسده للانزعاج والاضطراب، هي عملية طوعية إرادية، اعتبرها الله أبوه، واعتبرها هو، واعتبرها علم اللاهوت بناء على ذلك وبناء على سبق النبوة عنها، أنها جزء لا يتجزأ من عملية الخلاص الكبرى التي جاء المسيح وتجسد من أجلها، فهو لم يحمل خطايانا على نفسه فقط، بل وحمل أحزاننا وأوجاعنا واضطرابنا وموتنا، ويصفها إشعياء النبي بقوة بالغة العمق في قوله:

«رجل أوجاع ومُختبر الحزن».

«لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مضروباً من الله ومذلواً».

«وهو مجروح لأجل معاصينا. مسحوق لأجل آثامنا...»

«والرب وضع عليه إثم جميعنا».

«أما الرب فسرَّ بأن يسحقه بالحزن.» (إش ٥٣)

إذن، فانزعاج المسيح بالروح واضطرابه، بل وبكأوه، هذا كله وهو يمثل ضعف الإنسان عامة،

حمل المسيح نفسه به، وثقل روحه تحت عبئه، وأخذه وتبثاه، واشترك فيه كمقدمة ومؤخرة للموت ذاته الذي أخذه لنفسه وهو غريب عن هذا كله، بل وإن الله الآب سرَّ بهذه المشاركة الحزينة والأليمة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من «ذبيحة الإثم» التي قدَّمها المسيح — (عن خطية الإنسان) — قدَّمها بجسده ونفسه وروحه !!!

ويلزم هنا أن نوضح أن ق. يوحنا، في إنجيله، مميَّز بين النفس والروح للمسيح في شركة الألم والموت:

«لما قال يسوع هذا، اضطرب بالروح πνεῦμα، وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني.» (يو ١٣: ٢١)

«فلما أخذ يسوع الخلَّ قال: قد اكْمِل. ونكَّس رأسه وأسلم الروح.» (يو ١٩: ٣٠)

«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه ψυχή عن الخراف.» (يو ١٠: ١١)

«الآن نفسي قد اضطربت، وماذا أقول، أيها الآب نَجِّنِي من هذه الساعة ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة.» (يو ١٢: ٢٧)

والآن يلزم أن نفهم أن آية إقامة لعازر من الموت، مع كل ما لابسها من مشاعر وعواطف وأحزان واضطراب وانزعاج، لا يمكن اعتبارها أنها حادثة قائمة بذاتها تمثل ظروفها فقط، بل هي نموذج، وصورة واقعية توضح صلة المسيح، وليس صلة المسيح فقط، بل وصلة الله بموتنا وقيامتنا، وما يُلبس موتنا من جميع النواحي البشرية كما حدث في قصة لعازر، ويكفي أن نسمع عن الله أنه «في كل ضيقهم تضايق...» (إش ٦٣: ٩). المسيح يكرِّر حضوره، ويمارس إظهار مشاعره وعواطفه من جهة كل إنسان في الكنيسة يتألم أو يموت لحسابه: «إن عشنا فللرب نعيش، وإن مُتْنَا فللرب نموت» (رو ٨: ١٤). ونحن أيضاً نمارس إيمان قيامتنا في كل ميت يموت لنا، وبهذا الإيمان بالقيامة نرى مجد الله: «إن آمنتِ ترين مجد الله».

إذن، إقامة لعازر من الموت هي منهج إيماني للكنيسة. لقد رفع إنجيل يوحنا «إقامة لعازر من الموت» من حادثة إلى آية لاستعلان مجد الله، لتدخل في الكنيسة كآية لكل من يموت، ولكل من يموت له أحد.

«وقال: أين وضعتموه. قالوا: يا سيِّدُ تعال وانظر. بكى يسوع»:

لأول مرة يذكر الإنجيل عن الرب أنه يستفسر، أي يطلب معرفة عن شيء. ولكن يبدو في الحقيقة أنه يعلن بذلك عن نيته في إقامة لعازر من الموت، وليس مجرد معرفة المكان. وهذا أيضاً

بدوره هو رد الفعل المباشر في إظهار تأثيره ومشاركته لعواطف الباكين، باعتبار أن الرب لا يشارك بالعواطف أو الكلمات وحسب، بل وبالعمل المباشر.

«بكى يسوع»^(١٤):

الكلمة اليونانية *ἐδάκρυσεν* ، ويقابلها باللغة اللاتينية في الفولجاتا *Lacrimatus est* ، وهي المرة الوحيدة في كل أسفار العهد الجديد التي ذكرت فيها هذه الكلمة ولا تفيد أكثر من أن: «أدمع يسوع»، أي سالت دموعه. وهي تُعتبر أصغر آية وردت في الإنجيل. ولكن قد ذكر أن المسيح بكى بكاء الحزن بصوت مسموع: *ἐκλαυσεν* في إنجيل القديس لوقا: «وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة، وبكى عليها» (لو ١٩: ٤١). ولكن كان هذا البكاء على هلاك شعب، وكنيسة، وليس على صديق.

دموع يسوع هنا هي صورة لأحزان الرب على مصير الإنسان — ككل — الذي جلبه على نفسه بالخطية. وق. يوحنا أسهب في تصوير بشرية المسيح الكاملة وذلك بالأنواع التي تعبر عن الإنسانية التي فيه:

التعب: «فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البثر.» (يو ٤: ٦)

العطش: «فقال لها يسوع أعطيني لأشرب.» (يو ٤: ٧)

«... قال أنا عطشان.» (يو ١٩: ٢٨)

المحبة: «... وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه.» (يو ٢: ٢٠)

كما جاءت تعبيرات أخرى مكتملة في الأناجيل الأخرى:

الجوع: «فبعدهما صام أربعين نهراً وأربعين ليلة، جاع أخيراً.» (مت ٤: ٢)

التهليل: «وفي تلك الساعة، تهلل يسوع بالروح، وقال: أحمداً أيها الآب...» (لو ١٠: ٢١)

الغضب: «فتنظر حوله إليهم بغضب، حزناً على غلاظة قلوبهم...» (مر ٣: ٥)

الحزن: «فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت...» (مت ٢٦: ٣٨)

لذلك كان من المستحيل على المسيح الذي تعب وعطش وجاع وأحب وفرح وغضب وحزن

(١٤) [والرب قد بكى لما رأى الإنسان المخلوق على صورته الخاصة منساقاً للفساد، وذلك حتى يبكائه يضع حداً للدموعنا.

فإنه لهذه الغاية أيضاً قد مات حتى يخلصنا من الموت!]

(القديس كيرلس الكبير في تفسير يو ١١: ٣٥).

حزناً ثقیلاً حتى الموت، أن لا يبكي وتدمع عيناه، ليس مع الإنسان وحسب بل وعلى الإنسان أيضاً. فالذي ارتضى أن يقبل غُصَّة الموت من أجلنا، كيف لا يترك عيناه تنهمر منها الدموع علينا، والذي ارتضى أن يحمل خطايانا في جسده على الصليب، كيف يمتنع عن أن يذرف الدمع علينا حينما يحل البكاء؟ لقد أحلَّ لنفسه البكاء علينا، ولكنه أبى أن يبكي عليه أحد: «يا بنات اورشليم لا تبكين عليَّ، بل ابكين على أنفسكنَّ وعلى أولادكنَّ.» (لوقا ٢٣: ٢٨)

يقول اللاهوتيون أن بكاء المسيح أكبر شهادة على كمال ناسوت المسيح، ونحن نقول أيضاً أن بكاء يسوع هو أكبر شهادة على استعلان كمال مشاعر قلب الله! ... إن دموع يسوع هي حيات الباقوت التي سقطت علينا من جوهر الله الأزلي، لنصنع منها عقوداً للبهاء والجمال وللتباهي بها لدى الملائكة والرؤساء التي لا تملك أن تبكي.

وكما أبطل المسيح الموت بموته، فلم يُعَدِّ الموت للعار والعقاب، بل للقيامة والحياة؛ كذلك فالمسيح ببكائه مسح الدمع من العيون، فلم تَعُدِّ دموعنا لليأس والقنوط، ولكن للحب والعزاء، كدموعه... «يبلغ الموت إلى الأبد، ويمسح السيد الرب الدموع عن كل الوجوه، وينزع عار شعبه عن كل الأرض، لأن الرب قد تكلم.» (إش ٢٥: ٨)

ويا لفخرنا بدموع الرب هذه، فبعد أن مُسِحَتْ دموعنا، وقفت هذه الدموع عينها تشهد أن «ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفائنا، بل مُجَرَّبٌ في كل شيء مثلنا بلا خطية، فإذ لنا رئيس كهنة عظيم قد اجتاز السموات، يسوع ابن الله، فلنتمسك بالإقرار.» (عب ٤: ١٥ و ١٤)

١١: ٣٦ و ٣٧ «فقال اليهود: انظروا كيف كان يُحِبُّه. وقال بعضُ منهم: ألم يَقْدِر هذا الذي فَتَحَ عَيْنَي الأعمى، أن يَجْعَلَ هذا أيضاً لا يَمُوتُ.»

هنا أراد ق. يوحنا أن يسجل الوجه الخاطيء لمعنى دموع المسيح، إذ حسبها هؤلاء اليهود أنها دموع جسدية — سقطت عن ضعف — لأنها نابعة من صداقة مفقودة. والعجيب في أسلوب ق. يوحنا السرِّي للغاية أنه يورد بعد قول اليهود هذا، ومباشرة، الرد الذي يصحح هذه النظرة الخاطئة لدموع الرب. إذ يرى اليهود أيضاً — بعضُ منهم — أن الذي فتح عيني الأعمى، هو قادر بالتالي أن يمنع الموت؛ فالذي يعطي النور يهب الحياة، والذي يعطي النور كيف يبكي على الظلام؟

وعلى العموم كانت تعليقات اليهود هنا، ودائماً، تنمُّ عن فقدان القدرة على مجازاة الرب في

استعلاناته، فلم يستطيعوا ولا مرة واحدة أن يلتقطوا المعنى الروحي في أقوال الرب ولا حتى في آياته. ورد فعلهم هنا لدموع الرب، هو مماثل لرد الفعل الذي أخذته الصوت الذي جاء من السماء استجابة لنداء المسيح: «أيها الأب مجّد اسمك، فجاء صوت من السماء "مَجَّدت وأمجّد" أيضاً. فالجمع الذي كان واقفاً وسمع، قال: قد حدث رعد وآخرون قالوا قد كلّمه ملاك. أجاب يسوع وقال: ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو ١٢: ٢٨-٣٠). هكذا، ولهذا، بكى يسوع، ليس من أجل نفسه، ولكن من أجل الذين «لم يعرفوا بعد ما هو لسلامهم». (راجع لو ١٩: ٤١)

١١: ٣٨ و ٣٩ «فانزعج يسوع أيضاً في نفسه، وجاء إلى القبر. وكان مغارة وقد وُضِعَ عليه حَجَرٌ. قال يسوع: اَرْفَعُوا الْحَجَرَ. قالت له مرثا أخت الميت: يا سيّد قد أنثَنَ لأنّ له أربعة أيام».

لا يزال المسيح في حالة الاستنفار العليا، والجسد واقع تحت استعداد خروج أكبر قوة خرجت من المسيح لإتيان معجزة. إقامة الميت من القبر - والجسد قد انحل وتهرأ وأنثَن - تحتاج إلى عملية تخليق وتخلق ليعود اللحم المنحل والفساد إلى لعازر الأول الكامل والصحيح المتعافى. المسيح هنا - يا إخوة - هو «الكلمة» الخالق، وهو نفسه «المخلّص» من برائن الموت، وهو هو «الديّان» الذي تسمع الموتى صوته في القبور، وهو أخيراً «القيامة والحياة»، أقصى قوة في السماء والأرض يحتاجها الميت المنتن ليقوم ويحيا ويعيش ويتكلم مرة أخرى. أيّ جسد هذا - الذي للمسيح - الذي تحمّل خروج هذه القوى المتعظمة التي للخالق الديّان والمخلّص المحيي!!

سار المسيح إلى القبر في تودة، وجسده يرتجف من ثقل هذه القوى التي توج في داخله تنتظر الكلمة الأخيرة لتخرج منه، لتصارع قوات الظلام في ظلمة الهاوية، وتحطّم مصاريع الجحيم، وتفتك قيود الموت، لتُطْلِق سبي الروح: «أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم. لأنه كسّر مصاريع نحاس وقطّع عوارض حديد.» (مز ١٠٧: ١٤-١٦)

كان القبر عبارة عن مغارة، إما منحوتة في الجبل أو طبيعية، إما على مستوى الواقف أو منخفضة عنه حيث يوضع الحجر على فم القبر وليس أمامه، وتُغلق الفتحة بحجر كبير، يمكن لأكثر من واحد إما أن يرفعه أو يدخرجه ليقلل باب المغارة، لتحفظ الأجساد من تعدي الوحوش.

«قال يسوع: "ارفعوا الحجر"؛ قالت له مرثا أخت الميت: "يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام"»:

«ارفعوا الحجر»: هذا كان أمر المسيح لليهود الواقفين، وذلك ليشاركوا في التمهيد للمعجزة كشهود عيان، كما أمرهم بعد ذلك أن يحلّوا الميت من أربطة الكفن، لكي تكون شهادتهم بلمس اليد أيضاً. وهذه يعتني ق. يوحنا في تسجيلها، لأنها جزء لا يتجزأ من برهان صدق الآية. ويجيء تعليق مرثا باحتجاجها أن رائحة الميت ستواجه الذين يرفعون الحجر، لتكمل الشهادة العينية والملموسة والمحسوسة بالشّم أن لعازر مات وله أربعة أيام في القبر، حتى لا يكون منفذ للمتشككين.

أما على المستوى الروحي السري، فرفع الحجر قبل المعجزة عمل حتمي بالنسبة لنصيب خدام الرب وجهد الكنيسة الذي يمهد بالتعليم والتوضيح، لتتدخل قوة الرب بالروح القدس ليوقظ النفوس من موت الخطية لتقوم وتتقبل الحياة الأبدية.

أما تعليق مرثا من جهة نتن رائحة الميت، فيجيب بصفاتها أخت الميت. وهي تمثل صوت النفس المتألّمة في صراخها إلى الرب من جهة نتن أعمال الجسد وعفن نجاسته، حينما تتوسل ليقبّل الرب سيرة الجسد من وحل الخطية إلى قداسة وبرّ المسيح: «أنقذ من السيف نفسي، من يد الكلب وحيدتي.» (مز ٢٢: ٢٠)

«قد أنتن لأن له أربعة أيام»:

لعازر المحبوب هنا هو «الإنسان»، «آدم» الذي ينضوي تحت شخصه واسمه كل بني البشر، وقد انقضى عليه بالفعل أربعة آلاف سنة — وذلك بحساب الله، فيوم الله ألف سنة، وألف سنة كيوم أمس الذي عبّر — منذ أن قبِلَ في جسده الخطية وحُكِمَ الموت معاً، ولوثت رائحته الأرض وأفسدتها. وهوذا الرب مزعج أن يرفع عنه الخطية وحكم الموت معاً، ويزكّي رائحته برائحته لدى الله والملائكة، وتتولى مريم الإعلان عنها بالناردين الخالص الكثير الثمن، الذي ملأ رائحته الدنيا كلها حيث بُشِّرَ بالإنجيل. ولا يفوتنا هنا أن نُلَمِّح أن المسيح جعل رحلته تقودها المحبة، بقوله «لعازر "حبيبنا"»، و«حبيبنا» جاءت بلفظ الجمع، «قد نام وأنا أذهب لأوقظه»، وبهذا قد ألمح إلى محبة الآب من نحو الإنسان عامة التي هي سرُّ رحلته العظمى لخلاص العالم: «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به.» (يو ٣: ١٦)

١١: ٤٠ «قَالَ هَا يَسُوعُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ آمَنَيْتَ، تَرَيْنَ مَجْدَ اللَّهِ».

هوذا الرب يعلن عن عمل الله إزاء فساد الإنسان، فعوض نتن الموت ينبثق مجد الله، والإيمان وحده هو الذي يرى ذلك ويحققه. فبدون الإيمان يستشري الموت وتفوح نثانة الجسد وتسود عتمة القبر ويأس الإنسان. وبالإيمان تُستعلن القيامة، ويشرق النور، وتفوح رائحة المسيح الزكية لله، وقيم الفرح في الذين يخلصون!

أما «رؤية المجد» التي تُخصّص فيها ق. يوحنا وشهد لها: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب» (يو: ١٤: ١٤)، فهي في نُصرة القيامة على الموت. وهذا هو الذي سبق وأعلن عنه المسيح، كمعيار عام تُقاس به قصة لعازر في جلته: «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابنُ الله به». أما المجد الذي يقصده المسيح، فهو ليس في مجرد قيامة لعازر، بل في استعلان المسيح أنه ابن الله الغالب لسلطان الموت ومُثَقِّدنا من الفساد!!

١١: ٤١ و٤٢ «فَرَفَعُوا الْحَجَرَ، حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعاً. وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقٍ وَقَالَ: أَيُّهَا الْآبُ أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي. وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي، وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي».

يبدو أن الحجر الموضوع على فم القبر كان مواجهاً مباشرة للميت، بمعنى أن المفارقة كانت ضيقة يحتل الجسد كل مساحتها، فظهر جسد لعازر الملفوف بالأكفان «حيث كان الميت موضوعاً»، ولا بد أن فاحت معه رائحته حسبما قدّرت مرثا، مما يفيد أنها تعلم أن الجسد لن يتأثر بالحنوط والعقاقير التي تحفظه، أو تعطيه رائحة مقبولة لسبب انحلاله. وأمام هذا المشهد الذي يمثل الإنسان ومصيره الحزين والكئيب، الذي هو نهاية كل أحد، حيث تتجلى اللعنة بكل مؤثراتها على الميت وأهل الميت وعلى الأرض التي احتوته، وقف رب القيامة وفي يده مفتاح الحياة. هذا هو المسيح، في الهيئة كإنسان يبكي بكاءً مع الباكين، وأمام الموت صاحب «كلمة الله» التي لا ترتدّ فارغة (إش: ٥٥: ١١). «برٌّ» من الله، و«قداسة»، و«فداء»، «الذي صار لنا حكمة من الله وبرّاً وقداسة وفداء» (١ كو: ١: ٣٠). وهو «الابن المحبوب»، الذي يتكلم مع أبيه جهاراً بخصوص المشيئة الواحدة، والعمل الواحد، والمجد الواحد والاسم الواحد «ἐγὼ εἰμι». والآب يسمع، وليس فقط يسمع، بل ويمجّد أيضاً: «مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً»، وتسمع البشرية والأرض والسماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ له اسمعوا.» (مت: ١٧: ٥)

ونحن نعلم أن المسيح حينما خاطب الآب قبل الصليب — وهو على أبواب المحنة العظمى — لم يخاطبه فقط كإنسان يطلب أن تُرفع عنه هذه الكأس، بل وكابن الله يطلب ما له : «والآن مَجِّدْنِي أَنْتَ، أيها الآب، عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم .» (يو ١٧ : ٥)

وحينما طلب المسيح من الآب المجد الذي له في ذات الآب، طلبه «بالمثل»، لأن مجد الآب هو مجد الابن : «كل ما هولي فهو لك، وما هو لك فهو لي» (يو ١٧ : ١٠). هذه الكلمة لم يجرؤ، ولن يجرؤ، إنسان أو نبي أو ملاك أن يقولها.

أما عن هذا المجد المتساوي أو الواحد، فهذا ما أعلنه المسيح فيما يختص بإقامة لعازر من الموت، من جهة المجد المتحصّل من المعجزة، فإن كان الله سيتمجد حتماً بإقامة لعازر من الموت، فهذا المجد عينه سيستقر لحساب الابن بالضرورة : «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابنُ الله به». ويلاحظ هنا أن مجد الابن ليس مُضافاً لمجد الآب، بل مجد الآب هو نفسه لمجد الابن.

«ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أشكرك أيها الآب، لأنك سمعتَ لي. وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي» :

كان يتحتم على المسيح، وهو بصدد استعلان مجد الله الآب من جهة قوة القيامة من الموت المزمع أن يظهر في الحال، أن يتكلم مع الآب وذلك :

أولاً : حتى يعلم الجمع أن العمل المزمع أن يتم بأمر المسيح، هو عمل الله الآب، لكي يؤمنَ الجمعُ الواقف، ولكي يدرك الأعداء والمتشككون أنه سيتم بقوة الله، وليس بعمل السحر أو بقوة الشيطان.

وثانياً : لكي لا ينسبَ المسيح عمل القيامة أو المجد المتحصّل منها لنفسه، من دون الله. لهذا ظهر المسيح وكأنه يصلي. ولكن صلاة المسيح هذه خلت خلواً تاماً من أي طلب، فهي للشكر فقط، وكأنها صلاة تسييح واستجابة. فقد ظهر فيها توافق المشيئة بصورة مُسَبَّقة وعلنية : «أنك سمعت لي، وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي» — مما يكشف سرّ المحبة والمشيئة الواحدة بين الآب والابن، سرّ الوحدة : فالابن على الأرض يسأل بفهم الإنسان، والآب في السماء يستجيب دائماً وبلا تحفُّظ ولا استثناء. فهي استجابة مطلقة بسبب تطابق المشيئة تطابقاً مطلقاً : «في كل حين تسمع لي». وهذا بحد ذاته كان مسرة للمسيح وموضع شكره، لأنه يكشف للمسامعين والناظرين علاقة الآب بالابن. فالابن المُرسَلُ في صورة الإنسان، يسوع المسيح، يسمع لمشورة الآب

و يطيعها طاعة مطلقة. وحينما يطلب من الآب من أجل الإنسان وباسم الإنسان، يستجيب الآب استجابة مطلقة، لأنه يفعل كل حين ما يرضيه. هذا «التوافق» المطلق بين الطلب والاستجابة لحساب الإنسان يَشْتَعْلَن فيها المسيح، بكل يقين، أنه مُرْسَلٌ من الآب، وهو ابن الله بالضرورة.

ثالثاً: يلزمنا أن ننتبه جداً أن صلاة المسيح هذه هي لحسابنا، وهي بفمنا^(١٥)، والمسيح يقدّمها للآب بدالة بنويته، التي سلّمنا سر نعمتها وسر قوتها وخصوبتها؛ لكي في دالة بنوة المسيح للآب هذه عينها، نتقدم نحن أيضاً كبنيين لله بالتبني يسوع المسيح، ونسأل ونطلب بحسب روح الله الذي يَهْدُب مشيئتنا ويقويها، لتكون بحسب مشيئة الآب والابن تُسْتَجَابَ كل طلباتنا لدى الله — كل ما طلبنا ونطلب.

هذا الأمر خطير في الحقيقة، لأنها عطية فائقة، سلّمها لنا المسيح لنكْمُلَ بها عمله، وليس لنتمجد بها نحن. هذا السرُّ يدخل دخولاً عملياً في مسئوليتنا لتكميل عملية الخلاص التي وُهِبَت لنا بموت الرب وقيامته. فالصلاة هي قوة منبعثة من العمل الفدائي، الذي أعطي لنا أن نكْمُلَه في أنفسنا وفي الآخرين، وهي سرُّ فعل الخلاص الذي يفتحم القلوب القاسية، لتبشر كلمة المسيح فاعليّتها داخل النفس، لتخلّصها من براثن الخطية والشيطان. فالصلاة هي الموهبة العامة التي أعطيت للجميع: «لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح» (أف ٤: ١٢). فالصلاة المستجابة هي أيضاً من سمات العهد الجديد، المميّزة لأولاد الله. ثم أخيراً، هي المنفذ الذي وعد به الرب أخصّاءه وأحباءه، تجاه الضيقات والمحن والتجارب، التي تحتم علينا أن نواجهها في العالم الحاضر: «ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجربون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ، لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ كو ١٠: ١٣). وهذا هو الوعد الذي قطعه الرب على نفسه:

+ «ومهما سألتكم باسمي، فذلك أفعله، لئتمجد الآب بالابن. إن سألتكم شيئاً باسمي، فإني

(١٥) يقول في ذلك القديس أنثاسيوس:

[إن كل صلاة صلاها المخلص، إنما قد صلاها بالنيابة عن طبيعة الإنسان] (تفسير مزمو ٦٨).

ويشارك معه القديس كيرلس الكبير قائلاً:

[إنه يفعل ذلك (الصلاة) بالنيابة عنا، وطلبتنا نحن هي التي صارت فيه].

(الكنز في الثالوث — PG 75,388).

[فإننا نحن الذين كُنّا فيه نصلي بصراخ شديد ودموع، ونطلب أن يُبطل سلطان الموت، وأن تتقوى الحياة الموهوبة قديماً لطبيعتنا].

(عن الإيمان القويم PG 76,1392).

أفعله.» (يو ١٤: ١٣ و ١٤)

وواضح هنا أن الرب يكمل نفس صلاته وسؤاله عنا لدى الآب بواسطة صلواتنا!! فصلواتنا داخلية، بالنعمة التي لنا في المسيح، دخولاً لاهوتياً — أي في سر علاقة الابن بالآب — في صلاة المسيح. ولأن علاقة الابن بالآب لا تحتل الرفض ولا الإهمال على وجه الإطلاق، لذلك فالمسيح يؤكد — بسبب هذه العلاقة السريّة بينه وبين الآب — أنه «مهما سألتكم باسمي، فذلك أفعله»!!

+ «إن ثبتم فيّ وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم.» (يو ١٥: ٧)

واضح هنا أيضاً أن الرب يرفع من نوعية صلواتنا من مستوى السؤال الذي ينتظر الجواب، إلى صلاة الشكر بسبب الاستجابة المؤكدة: «تطلبون... فيكون لكم»، وهي نفس نوعية صلاة المسيح لدى الآب، حيث المسيح ألقى «السؤال» من لدن الآب من جهة قيامة لعازر — ووضع مكانه «الشكر» لثقتّه في الاستجابة الحتمية.

+ «وفي ذلك اليوم لا تسألوني شيئاً. الحق الحق أقول لكم: إن كلّ ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم.» (يو ١٦: ٢٣)

+ «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتُم أني من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٦ و ٢٧)

وهذه هي آخر درجة في نوعية الصلاة. فهي لا تعود تحتاج أن يتدخل المسيح بدالة بُنوّته لدى الآب ليرفع صلواتنا إلى الآب، بل المسيح يسلمنا دالة بُنوّته عينها مع محبة الآب له، لنطلب بمقتضاها ومن داخلها وكأننا بفم الابن نتكلم مع الآب، ونشكر. فكما يستجيب الآب للابن، يستجيب لنا، حيث اسم يسوع المسيح فقط يقدّمنا للآب في شخصه: «الذي به، لنا جراءة وقدمو بايمانه (إلى الآب) عن ثقة.» (أف ٣: ١٢)

+ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا، تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً.» (يو ١٦: ٢٤)

هنا، أولاً، يستحثنا المسيح أن نسأل باسمه، وذلك الإحاث يكشف عن لزومية السؤال والأخذ بالنسبة لنا وحياتنا وبالنسبة لخلاص الآخرين. وهذا العمل (أي السؤال) هام بالنسبة للمسيح نفسه، فهو استمرار لاستعلان قوة وفاعلية اسم المسيح في العالم، لتكميل عمل الخلاص الذي بدأه، كما هو هام لازدياد ونمو اختبارنا لقوة المسيح وفاعلية اسمه.

وثانياً: يرى المسيح أن وراء السؤال باسمه واستجابة الآب للسؤال، استعلاناً لمحبة الله لنا: «الآب نفسه يحبكم»، وذلك نتيجة لثقتنا وإيماننا وحبنا للمسيح: «لأنكم قد أحببتموني، وآمنتُم أنني من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٧)

واستعلان محبة الآب لنا، هي مصدر «الفرح الكامل». وليس سرّاً أن نقول، بحسب خبرة النعمة، أن الفرح الروحي الكامل هو الإعلان الحسي عن حضور الله، أو الحياة في حضرته، التي هي منتهى قصد الإنسان.

وق. يوحنا يشهد من خبرته العملية على صدق هذا الكلام، بقوله: «ومهما سألتنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه (يَثْبُتُ كلامي فيكم)، ونعمل الأعمال المَرْضِيَّةَ أمامه» (١ يو ٣: ٢٢)، «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته، يسمع لنا. وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا، يسمع لنا، نعلم أن لنا الطَّلِبَات التي طلبناها منه.» (١ يو ٥: ١٤ و ١٥)

١١: ٤٢ و ٤٣ «... ولكن لأجل هذا الجَمِيع الواقِف قلتُ، لِيُؤْمِنُوا أنك أرسلتني. ولا قال هذا صَرخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: لِعَاذَرُ هَلُمَّ خَارِجاً».

بعد أن هبَّ المسيح عقول الجمع والتلاميذ ومرثا ومريم لقبول المعجزة، ورفع حرارة قلوبهم وإيمانهم إلى أعلى درجة في الإيمان، حتى صار الجميع يثقون أن لعازر سيقوم مائة بالمائة: «لأنك في كل حين تسمع لي»، وبعد أن اطمئن المسيح أن الجميع قد تعلّق قلوبهم بالله الآب كصانع للمعجزة «القيامة»، ورأى الجميع المسيح وهو رافع يديه نحو السماء وسمعه وهو يتحدث مع الله الآب؛ شعر الجميع بالصلة السرية بين المسيح والآب والدالة والتوافق بينهما، فأدرك أن ما سيعمله المسيح هو عمل الآب، وأن العمل الوشيك أن يعملهُ المسيح بسلطان فائق هو لمجد الله الآب ليتمجد به المسيح: «صرخ بصوت عظيم لعازر هَلُمَّ خَارِجاً».

واضح أن الرب يتعامل هنا مع قوة أخرى عنيدة، يأمرها بقوة واقتدار وجلال عظيم: «صوت لرب بالقوة، صوت الرب بالجلال... صوت الرب يقدهح لهُبَّ نار، صوت الرب يزلزل البرية.» (مز ٢٩: ٤ و ٧ و ٨)

نعم، سمعت الهاوية فتزلزلت وأخلت قوات الجحيم أسيرها: «استجب لي سريعاً، اقترب إلى نفسي، فكّها، بسبب أعدائي أفدني.» (مز ٦٩: ١٧ و ١٨)

هنا صورة حية ناطقة لما يصفه بولس الرسول فيما سيكون حتماً : «لأن الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله، سوف ينزل من السماء، والأموات في المسيح سيقومون أولاً.» (١ تس ٤: ١٦)

وصراخ المسيح «بصوت عظيم»، يلمح به ق. يوحنا إلى أن «نوم» لعازر كان عميقاً للغاية، ويتوافق مع كلمة الرب أنا أذهب «لأوقظه». وهكذا يستصغر الإنجيل من قدر الموت أمام رب الحياة. ولكن، وفي الحقيقة أيضاً، فإن صراخ الرب بصوت عظيم يكاد يرعب السامع والناظر وحتى القارئ، لأننا تعودنا أن نسمع عن الرب أنه «لا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته» (مت ١٢: ١٩)، فهنا وفي يقيني أن قوة هائلة خرجت من الرب لم يستطع جسد المسيح إلا أن ينوء تحتها مُغلناً عنها بهذا الصراخ العظيم. فهذه بعينها قوة الحياة التي تفوق قوة الخلق، لأنها تتعامل مع نفس مقيّدة بقيود الجحيم، ومع جثة منتنة عبثت بها كل عوامل الانحلال. والعقل يقف حائراً وقد أخذه الدهول، لأن النفس والجسد استجابا في الحال، وعادا إلى الحياة برجع صدى صوت المسيح.

١١ : ٤٤ «فَخَرَجَ الْمَيِّتُ، وَبَدَأَهُ وَرِجْلَاهُ مَرْبُوطَاتٍ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ.»

خروج لعازر الميت من القبر بأقمطته، صورةٌ مرعبة حقاً لا يستطيع أن يلاحقها الخيال دون أن يُضارب الفكر بالدوار. فالإنسان تأخى مع الموت وصورة الموتى، ولم يتأخى بعد مع القيامة وصورة الخارجين من القبور. فالقيامة وإن كان اسمها حلو للغاية بالمفهوم الروحي، إلا أن تصوُّرها بالجسد مرعب لأقصى حدٍّ. وهذا ما عاناه التلاميذ عند قيامة المسيح في أول الأمر: «وقف يسوع في وسطهم وقال لهم: سلام لكم. فجزعوا وخافوا، وظنوا أنهم نظروا روحاً. فقال لهم: ها بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم» (لو ٢٤: ٣٦-٣٨)؛ لأن قيامة الجسد لم تكن تخطر على بال.

أما خروج الميت وهو مربوط، فلا داعي أن يُربك الفكر، لأن عادة اليهود في تكفين الميت أخذوها عن المصريين الفراعنة، حيث يُلفُّ كل ذراع بمفرده وكلُّ رجل بمفردها، بحيث يمكن تصوُّر لعازر وهو يقوم ويقف ويمشي ويخرج.

وبالنهاية، فإن منظر لعازر خارجاً من القبر يبسط لنا معنى القيامة، ويوضح لنا القوة المذخرة في المسيح التي قام بها من الموت.

٤٤:١١ «... فقال لهم يسوع: حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ».

عجيب المسيح في حاسته الحاضرة دائماً لاحتواء الدهول والرغبة التي كانت تعقب معجزاته. فهنا لا يمكن أن نتصور مدى الفزع والرغبة والخوف الذي أصاب الجميع حينما رأوا لعازر خارجاً من القبر، لذلك بادروهم المسيح في الحال بأمر يستعيد به حركتهم ويطبّع به شعورهم تجاه الأمر الواقع أمامهم: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ». هذا حدث أيضاً في المواقف الأخرى المماثلة: «فقال: أيها الشاب لك أقول قُمْ، فجلس الميت وابتدأ يتكلم — فدفعه إلى أمه» (لو٧: ١٥)، «ونادى قائلاً: يا صبيّة قومي. فرجعت روحها وقامت في الحال — فأمر أن تُعطى لتأكل» (لو٨: ٥٥).

هذا، يا إخوة، ما حدث، وما حدث أمر لم يحدث له مثيل قط: ميت يقوم من القبر بعد أربعة أيام، وقد أَثْنَى وتَحَلَّل جسده. ولكن الذي نعرفه جيداً، أن آيات أخرى كثيرة حدثت لم يُكشف عنها ولم يذكرها هذا الإنجيلي الرائي الفريد في روحه وأسلوبه، ولا نعلم يا إخوة ما الذي منعه عن ذكرها غير أن نموذج قيامة لعازر يجعلنا نؤمن أن المسيح هو ابن الله الحي دَيَّان الأحياء والأموات، ونتيقن أن قيامتنا حقيقة واقعة، ونحن بانتظار صوت المسيح «الآن» وكل يوم!

التعقيب على آية إقامة لعازر: (١١: ٤٥-٥٣).

١١: ٤٥ و٤٦ «فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به. وأما قومٌ منهم، فمَضَوْا إلى الفريسيين وقالوا لهم عمّا فعل يسوع».

واضح هنا أن اليهود الذين جاءوا للتعزية كان بعض منهم أصدقاء أوفياء رأوا وآمنوا بالمسيح، وكأنا الصوت الذي سمعه لعازر في القبر سمعوه، وقوة الحياة التي سَرَتْ في أوصال الميت فأقامته، سَرَتْ فيهم وأقامتهم، وذاقوا الحياة في المسيح، فأمنوا به كَرَبَتِ القيامة والحياة الآتي إلى العالم، وهذا منتهى قصد المسيح والآب الذي أرسله. أما البعض الآخر من اليهود فلم تكن لهم آذان روحية تسمع ولا عيون روحية تبصر، وهؤلاء هم الذين قال عنهم المسيح على لسان إبراهيم في قصة لعازر والغني: «فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء. ولا إن قام واحد من الأموات يُصَدِّقُونَ» (لو١٦: ٣١)، لأن غيرتهم كانت منحصرة في الأرضيات، فكانت إقامة المسيح للعازر من الموت تمثل عندهم ضياع هيبة السنهدريم والرؤساء والكهنة والكتبة والفريسيين جميعاً، وكلٌّ من ارتزق من الهيكل وتمسك بالأرض والميراث والتراث التي ينادي بها المتعصبون للأمة وقضاياها. فذهبوا في الحال ليخبروا رؤساءهم بما حدث ويخبروا عن الذين آمنوا.

١١ : ٤٧ و ٤٨ «فَجَمَعَ رؤساء الكهنة والفريسيون مجتمعاً، وقالوا: ماذا نَصْنَعُ فَإِنْ هَذَا الإنسانُ يعملُ آياتٍ كثيرةً. إن تركناه هكذا، يُؤْمِنُ الجميعُ بِهِ، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعتنا وأممنا».

يلاحظ هنا أن رؤساء الكهنة بدأوا يتحركون بسرعة، عن خوف وحقد معاً، لأن رؤساء الكهنة هم الصدوقيون الذين لا يؤمنون بالقيامة، فكانت إقامة لعازر من الأموات تمثل بالنسبة لهم وللبادئهم هزيمة بالضربة القاضية، لذلك أصبح التخلص من المسيح بمثابة قضيتهم الأولى وخلصهم الوحيد.

وفي هذه المرة لم يرسل رؤساء الكهنة ولا الفريسيون مَنْ يحقق في صدق هذه الآية، لأنها كانت ثابتة بشهود وفوق الشبهات.

أما الفريسيون المجتمعون معهم، فلم تؤثر فيهم هذه الآية — أي القيامة من الموت — كثيراً لأنهم كانوا يؤمنون بالقيامة. ولكن عداوتهم للمسيح كان نابعاً من تعارض تعاليم المسيح مع مصالح ومستقبل مهنتهم، وبالأكثر تعارض مع سلوكهم وأخلاقهم. غير أن بعضاً منهم كانوا قد آمنوا بالمسيح، ولكن بسبب الخوف أخفقوا أنفسهم. ولذلك لا نعود نسمع كثيراً عن تحرك الفريسيين في كل الأصحاحات القادمة، بل كانت القيادة والحركة دائماً لرؤساء الكهنة ولا يُسمع عن الفريسيين إلا داخل السنهدريم لأنهم أعضاء بالضرورة. وفي النهاية تخلى الفريسيون عن المقاومة، وتمثلت العداوة للمسيح في رؤساء الكهنة وحدهم، وكانت عداوة حتى الموت. وهذا الاتجاه واضح أيضاً في الأناجيل الأخرى.

وهكذا نرى من تركّز حركة قيادة المقاومة في رؤساء الكهنة، وذلك بصفتهم فئة الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة، أن آية إقامة لعازر من الموت كانت السبب الأخير والمباشر الذي بُلِّغَ في أذهان رؤساء الكهنة حتمية سرعة موت المسيح الذي سبق وقرروه عدة مرات.

ونحن نقرأ ما كان يدور في أذهان الفريسيين ورؤساء الكهنة منذ البداية عن ضرورة موت الرب هكذا:

+ «فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله.» (يوه: ١٧ و ١٨)

- + بعد التعليم عن أكل الجسد وشرب الدم: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يُرَدُّ أن يتردد في اليهودية، لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو: ٧: ١)
- + بعد تعليمه في الهيكل وتوبيخه للفريسيين: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني.» (يو: ٧: ١٩)
- + «فقال قوم من أهل أورشليم: أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه.» (يو: ٧: ٢٥)
- + «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعته من الله. هذا لم يعملهُ إبراهيم.» (يو: ٨: ٤٠)
- + «فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم، ومضى هكذا.» (يو: ٨: ٥٩)
- + «... أنا والآب واحد. فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يو: ١٠: ٣٠ و ٣١)
- ثم جاءت أخبار آية إقامة لعازر من الموت التي جعلتهم يعتقدون مجعاً في الحال، لينظروا بجدية في أمر قتله:

«ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به.»:

كان فكر رؤساء الكهنة والفريسيين قد انشغل منذ البداية بالآيات التي كان يصنعها المسيح. وكان القلق والخوف يتزايدان بتزايد الآيات. وكانت العوامل التي تثير هذا الخوف والقلق تنبع من ثلاثة أسباب، هي بحسب أهميتها لهم كالآتي:

الأول: الخوف على مراكزهم، بصفته رؤساء وقضاة الأمة، وفي نفس الوقت لم يتحسّن عليهم الرب بأي مواهب أو مميزات روحية تحفظ لهم حق هذه الرئاسة والكرامة، في مقابل الآيات التي كان يصنعها المسيح والتي بدأت تتزايد ويتزايد معها المؤمنون به.

الثاني: خلاصة تعاليم المسيح كانت تتجه نحو الحياة الروحية واستيطان السماء وإضعاف التقاليد وبخاصة حفظ السبت، مما تراءى لهم أن هذا يخلخل تمسك الشعب وخاصة الغيورين منهم بميراثهم الأرضي والآبائي والناموسي. وهذا يسهّل على المستعمر الروماني الاستيلاء على الأرض والحكم معاً. وبذلك تتلاشى عناصر الأمة اليهودية التي تقوم على الأرض والناموس. وهذا كان يؤرقهم للغاية.

ثالثاً شخصية المسيح كانت قد بدأت تأخذ ملامحها الإلهية، ويتزايد العنصر الإلهي فيها بزيادة الآيات التي كانت تنطق كلها بأنه ليس مجرد نبي، وتصريح المسيح بأنه ابن الله (يو: ١٠: ٣٦)،

وأنه هو والله الآب واحد (يو ١٠ : ٣٠). وهذه كانت تتعارض تعارضاً جذرياً مع مفهوم وحدانية الله عندهم. وكانت كلمات المسيح تطيح بعقولهم وتتركهم شبه مجانين. فكان المسيح يمثل عندهم حد التجديف الأعلى الذي يستوجب الموت.

وهكذا، كلما كان المسيح يتزايد قوة بالآيات التي يصنع؛ كانوا هم يتزايدون ضعفاً بسبب عدم قدرتهم على عمل أي شيء يجتذب نظر الشعب و يوقف معركة الإيمان به. فكانت حيرتهم فوق العقل: «ماذا نصنع؟».

وهكذا شغل المسيح في قلوبهم حركة ضياع تراءت لهم أنها مصيرية، خاصة حينما رأوا أن أعداد الذين يؤمنون به تتزايد بصورة رهيبة: «إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به».

«فيأتي الرومانيون يأخذون موضعنا وأمتنا»:

وهكذا كانت سرعة الحسم في أخذ قرار متعجل جاهل مملوء أخطاء شيئاً خارجاً عن نطاق العقل. وقد اتجه قرار مجمع السنهدريم نحو «الخوف السياسي» أكثر منه نحو الخوف على الناموس والأنبياء والتقليد والمبادئ الإلهية، مما يوضح مدى انحراف الرؤساء عن جوهر رسالتهم وعبادتهم.

وهذا الاتجاه السياسي في التفكير بالنسبة لقضية المسيح المطروحة في المجمع، يفيد أن عنصر الصدوقيين كان هو السائد والمحرك للمجمع وليس العنصر الفريسي ذي الاتجاه التعليمي.

و يقرر العلامة الألماني شناكنبرج R. Schnackenburg في كتابه: «حكم الله والملوكوت» (في الصفحات ٥٧-٦٢)، موقف الفريسيين الشديد التمسك بالتوراة الذي — في اعتقادهم — هو الطريق الوحيد الذي يمهد لمجيء المسيا وبداية حكم الله. كما يصفهم العلامة الألماني W. Foerster بأنهم، أي الفريسيين، حاولوا باستمرار، أولاً في أيام بومبي Pompey والوالي الروماني، أن يعفوا أنفسهم من شئون الحكم على ידי الهاشمونيين والهيروديين بعدهم لكي يتفرغوا و يكرسوا أنفسهم تكريساً كلياً لخدمة الناموس، راضين بالحكم الروماني الذي تولى شئون التنظيم الخارجي.

و يقرر العلامة الألماني شناكنبرج أيضاً أن موقف الفريسيين هذا ظهر بوضوح عند معارضتهم ومقاومتهم للثورة المسلحة ضد الرومان عند قيام الحرب اليهودية، كما يقرر العلامة يوسفوس المؤرخ اليهودي (Bell 11-411-24). (١٦)

^{١٦} Schnackenburg, *op. cit.*, p. 519.

«بأخذون موضعنا» :

الموضع هنا باليونانية τόπος لا يعني الأرض ولا المدينة المقدسة كما يظن بعض العلماء، ولكنه الاسم الطقسي للهيكل المقدس — الذي ينبغي أن يُسجد فيه وحده — كما جاء في يوحنا ٢٠ : «تقولون أن في أورشليم الموضع τόπος الذي ينبغي أن يُسجد فيه». ولا يزال هذا الاصطلاح يُستخدم حتى الآن في الكنيسة القبطية في القُداس، وفي كل الصلوات عند البداية، في صلاة الشكر: «كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا وعن سائر شعبك وعن موضعك المقدس هذا».

ومعروف أن الهيكل المقدس في أورشليم كان هو رمز الوجود والحياة بالنسبة لليهود، أكثر من أورشليم ذاتها ومن كل الأرض. والعجيب حقاً أن قتلهم للمسيح بسبب خوفهم من ضياع الهيكل، سبق المسيح وأعلن إزاءه أن موته سيكون سبباً مباشراً لهدم الهيكل وقيام الهيكل الجديد (جسده) عوضاً عنه: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه». (يوحنا ١٩ : ٢٠)

«بأخذون... أقمنا» εθνος :

ويقصد بها الأمة اليهودية — (الجنس اليهودي) — بمفهوم فقدان «الحرية الدينية» التي كان الرومان قد سمحوا بها لليهود. وهذه هي بعينها — أي الحرية الدينية السياسية — التي وقفت حجر عثرة في تقبلهم الحرية التي في المسيح، التي تنقذهم من عبودية الخطية وعبودية المجد الدنيوي. ولكنهم فقدوا هذه وتلك: «أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر» (يوحنا ١٩ : ١٥)؛ «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يوحنا ١٢ : ٤٣). ومعروف أنه بعد صلب المسيح بأربعين سنة، أي في سنة ٧٠ م، دخل الجيش الروماني وهدم وأحرق الهيكل، وأسر الشعب اليهودي.

١١ : ٤٩ و ٥٠ «فقال لهم واحدٌ منهم وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، أنتم لستم تعرفون شيئاً. ولا تفكّرون أنه خيرٌ لنا أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ عن الشعب ولا تهلكَ الأمة كلها».

«قيافا» :

في الأصحاح الثامن عشر من إنجيل يوحنا نقرأ أن رئيس الكهنة الذي حوكم المسيح أمامه هو حنان ثم قيافا: «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى "حنان" أولاً، لأنه كان حَمًا قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة». (يوحنا ١٨ : ١٢ و ١٣)

وفي إنجيل لوقا نقراً : « في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا » (لوقا : ٣ : ٢) ، أي أن كلا من حنان وقيافا كان يباشر وظيفة رئيس كهنة في ذات الوقت .

وفي سفر الأعمال نقراً : « وحدث في الغد أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتمعوا إلى أورشليم مع حنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة . » (أع : ٤ : ٥ و ٦)

هذه الشبكة المتشابكة من رؤساء الكهنة ، يحلُّ لنا لغزها العلامة والمؤرخ اليهودي يوسفوس^(١٧) حيث يقول إن فاليروس جراتوس أسقط حنان رئيس الكهنة من وظيفته سنة ١٤ م ، بعد أن كان قد شغلها سبع سنوات . ولكن ظلَّ تأثير حنان قوياً بسبب شخصيته ، حتى إن الشعب ظلَّ يعتبره رئيساً رسمياً للكهنة بالرغم من إقالته . وظلَّت رئاسة الكهنوت الرسمية يتداولها أفراد عائلة حنان بالتتابع ، فشغلها إشماعيل ، ثم أليازار ابنه ، ثم سمعان ابن أليازار ، وأخيراً شغلها يوسف قيافا ، وهو الذي يذكره ق . يوحنا في إنجيله أن حنان حماه ، موضحاً بذلك رئيس الكهنة الرسمي ورئيس الكهنة بالتدخل ، وهو حنان ، المعروف عنه أنه كان جريئاً وغير مستقيم .

وقد شغل قيافا رئاسة الكهنوت من سنة ٢٥ حتى سنة ٣٦ م ، أي طوال مدة خدمة الرب يسوع ، وكان معروفاً بالجهل والقسوة وأنه أرستقراطي النزعة كما يصفه يوسفوس .

اجتمع السنهدريم مع رؤساء الكهنة والفريسيين ، ونُظرت قضية المسيح ، وكانت أمامهم معقّدة أشد التعقيد ، فلم يكن الرأي متفقاً على شيء ، وظلَّ النقاش مستمراً بصورة عابسة و يائسة . وهذا واضح كل الوضوح من الإشارة الواردة في محضر الجلسة : « أنتم لستم تعرفون شيئاً » . وهذا يعني أن المجلس كله كان في حالة إرتباك ، وهذا معروف ضمناً لأن الصراع التقليدي بين الصّدّوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة وبين الفريسيين الذين يؤمنون بها وارد قطعاً ، لأن المجلس انعقد على أساس المعلومات الواردة بخصوص آية إقامة لعازر من الموت . ولكن مجلس اليهود لا يُعَدُّم الحيل والمناورات . فقد انبرى « واحد منهم » وكأنه أشجعهم ، وهو قيافا ، ليُشعّف المجلس برأيه ، وكان محسوباً أنه الرأس المسئولة عن سياسة الأمة ، لذلك كان يتكلم بلسان رجل دولة للأمة كلها . ولكنه — وللأسف — كان معروفاً أنه أكثرهم جهلاً .

¹⁷ Josephus, *Ant.*, XVIII, 2-2 and 4-3.

« كان رئيساً للكهنة في تلك السنة »:

ق. يوحنا هو المتكلم. وكلام ق. يوحنا لا يؤخذ بسهولة، فكلمة « في تلك السنة » لا تعني أن التعيين بالنسبة لرؤساء الكهنة كان يجري سنوياً، فهذا ليس صحيحاً. فقيافا استمر في رئاسته (٢٥-٣٦ م) حتى أسقطه الوالي فيتلوس بعد سقوط بيلاطس بقليل. والمعروف أن رئيس الكهنة يُعَيَّن لمدى الحياة، ولكن المعنى السري (mystical أي الروحي غير الحرفي) يهدف إلى أن « هذه السنة » لا تعني الضبط التاريخي ولكنها منسوبة إلى « حياة المسيح »، فهي سنة المسيح أي « سنة الرب المقبولة » (إش ٦١: ٢) حسب النبوات. وقيافا كان هو رئيس الكهنة لهذه السنة التي في لاهوت ق. يوحنا هي سنة النهاية والبداية، الموت والقيامة، وحيث النهاية بالنسبة للقديم، وحكم الموت بالنسبة إلى حبرية هذا الكاهن حسب كلامه، حيث ماتت (هلكت) أمة وقامت الأمم: « خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها ».

هذا القول الذي قاله قيافا اعتبرته الكنيسة الأولى أقوى تعبير نبوي نطقه رئيس كهنة العهد القديم — دون أن يدري — عن مفهوم الفداء الذي تم بموت المسيح. وهذا في الواقع هو صدى تعبير المسيح نفسه، لأن « ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليخدم بل ليخدم، وليبدّل نفسه فدية عن كثيرين. » (مر ١٠: ٤٥)

وكلام قيافا صار حقيقة واقعة، لأنه بموت المسيح صار الخلاص لشعب الله الحقيقي، وهو إسرائيل الجديد. غير أن قيافا كان يرى و يؤمن ويخطط أن يموت المسيح لتخلص منه الأمة. ولكن الذي حدث أنه مات لتخلص به، وليس لتخلص منه. وكان سبب الإقدام على قتل المسيح عند قيافا هو إحكام إغلاق حدود الأمة اليهودية على نفسها، لمنع تدخل الرومان — الذين كانوا في ذلك الوقت يمثلون جميع الأمم — ولكن في المقابل كان السبب الأساسي عند المسيح في قبوله الموت، هو كسر هذه الحدود بالذات التي كانت تطوق الأمة اليهودية عن الرومان واليونان وباقي الأمم، والتي كانت تمنع عنهم معرفة الله وقبول الخلاص.

لذلك، فإن قرار مجلس السنهدريم الذي كان يمثل في الحقيقة خلاصة « الناموس » على أيدي أئمة العلماء القيمين عليه؛ والذي يتلخص في ضرورة بل وصلاح عملية قتل المسيح الذي ثبت أنه هو هو رجاء وكمال الناموس... كان هذا القرار هو القرار النهائي ضد صلاحية الناموس!

وأبسط الحلول التي كان قيافا يتقنها كرجل دين ودولة في فنون السياسة الكهنوتية، هي القتل لتخلص من أي ما يعكر صفو الجو الكهنوتي. وسفر الأعمال يذكر استمرار هذه السياسة: « فقام

رئيس الكهنة وجميع الذين معه الذين هم شيعة الصدوقيين وامتلاؤا غيرة. فألقوا أيديهم على الرسل ووضعوهم في حبس العامة.» (أع ٥ : ١٧ و ١٨)

«أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون» :

هكذا ظهر قيافا كصاحب الحكمة وسط أعضاء السنهدريم الذين لا يعرفون شيئاً من دبلوماسية الأمة ولا يفكرون جيداً لمصلحتها، حيث يلزم أن يُسفك دم البريء من أجل صالح الأمة هكذا!! هذا ما انتهى إليه ناموس موسى على يد قيافا ومجمع السنهدريم، لذلك كانت بحق «هي السنة الأخيرة» بحساب صلاحية الناموس والكهنوت القيم عليه.

أما يسوع، ففي رأي قيافا، كان لا ينبغي أن يُذكر اسمه بعد، بل يكفي أن يكون مجرد «إنسان واحد». ووقتُ المجلس ليس يتسع بعد لرأي الفريسيين، الذي كان على ما يبدو هو إعادة فحص سلطان المسيح وبأي سلطان كان يفعل الآيات، ولماذا أقبل الشعب على الإيمان به، وكيفية تحديد نشاطه. فقد كان قول قيافا: «أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون»، هو الرد الحاسم الذي أشككت الفريسيين وأنهى على المداولة بأكملها. وجاء مشروع القرار مع مسبباته في جملة واحدة: «أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها».

ونحن لو أردنا أن نعرف ماذا كان يتداوله الفريسيون قبل هذا القرار وبعده، نجده هكذا: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تتفنون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو ١٢ : ١٩)

واضح من القرار قدرة قيافا على إلباس الحق ثوب الزور، وتعليل القتل بأنه عين الخلاص للحياة.

ثم يلتقط ق. يوحنا هذا القرار ويقلبه رأساً على عقب لتظهر فيه النبوة واضحة. فبحسب نظرية قيافا، كانت النتيجة شؤماً على الأمة، لأن الرومان أخذوا موضعهم وحرقوه وأهلكوا الأمة وشتتوا الشعب. فحكمة قيافا، كانت هي حكمة الشيطان بعينها بالنسبة لمصير اليهود كيهود. وإن أبدع تصوير يحقق هذه العملية، هو المثل الذي قاله المسيح قبل موته مباشرة عن الكرامين الأردباء: «ولكن أولئك الكرامين قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث هلّموا نقتله فيكون لنا الميراث، فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم. فماذا يفعل صاحب الكرم؟ يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم إلى آخرين... عرفوا أنه قال المثل عليهم...» (مر ١٢ : ٨ و ٩ و ١٢)

٥١ : ٥٢ « ولم يَقل (قيافا) هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، تنبأ أن يسوع مُزمِع أن يموت عن الأمة. وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ».

وق. يوحنا يشير إلى قول المسيح : « وأنا أضع نفسي عن الخراف (خراف بيت إسرائيل). ولي خراف آخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي، وتكون رعية واحدة وراع واحد » (يو ١٥ : ١٦)، على أن « أبناء الله » المتفرقين الذين في عُرِف قيافا هم يهود الشتات، يعتبرهم ق. يوحنا هم أولاد الله المعيّنين للحياة الأبدية (يو ١٢ : ١٢).

« إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ » :

كان رئيس الكهنة يُمثل الرئاسة الإلهية لليهود، فهو الذي يسأل الله عن الشعب، ومن فمه تُطلب الشريعة، وقوله هو القول الملهم من الله في الأمور التي يعسر فهمها أو يحوطها الشك، وهذا نقرأه في (خر ٢٨ : ٣٠)، وفي (لا ٨ : ٨)، وفي سفر العدد عند تكريس يشوع قائداً للشعب : « فقال الرب لموسى : خذ يشوع بن نون، رجلاً فيه روحٌ وضع يدك عليه... وأوقفه قدام إيلعازار الكاهن... فيقف أمام إيلعازار الكاهن فيسأل له بقضاء الأوريم أمام الرب... » (عد ٢٧ : ١٨ — ٢١). وهذا كان معناه أن رئيس الكهنة يسأل الرب عن كل ما يريد أن يعرفه قائد الشعب.

وفي الإنجيل يوجد ما يفيد مثل هذه النبوات التي خرجت من أفواه أصحابها بعكس ما كانوا يقصدون أو يتمنون، مثل بيلاطس حينما قال لرؤساء الكهنة : « هوذا ملككم » (يو ١٩ : ١٤)، أو حينما قال رؤساء الكهنة : « دمه علينا وعلى أولادنا » (مت ٢٧ : ٢٥)، أو حينما خاطبوا المسيح المصلوب : « خلّص آخرين أما نفسه فما يقدر أن يخلصها. » (مت ٢٧ : ٤٢) وفي أقوال فيلو الفيلسوف اليهودي المعاصر للقديس يوحنا، ما يفيد أن رئيس الكهنة كان يُخَسَّبُ كنبى. (١٨)

على هذا الأساس، يرى ق. يوحنا أن ما نطق به قيافا، كان نبوة حقيقية من الله دون أن يقصد أو يعلم، أو على وجه الأصح، بعكس ما كان يفكر فيه، ربما مثل بلعام بن بعور الذي كان كلما أراد أن يلحن إسرائيل كانت تأتيه النبوة ليباركه ويمدحه. ومعروف في العهد القديم أن نبوة الأعداء تكون أحياناً منظومة بفم الله.

«تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد»:

هنا يتدخل ق. يوحنا ليوسّع دائرة النبوة، أو بالحري ليكملها، لأن موت المسيح لم يقتصر سببه ولا اقتصر نتيجته على الأمة اليهودية من جهة الخلاص بل امتد ليشمل الأمم، لأن من آمن بين الأمم مع من آمن من شعب إسرائيل أصبحوا يمثلون إسرائيل الحقيقية: «وأبناء الغريب الذين يقترون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً... آتي بهم إلى جبل قُدسي وأفرّحهم في بيت صلاتي، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب. يقول السيد الرب جامع منفيي إسرائيل...» (إش ٥٦: ٦ و ٧ و ٨). هذا حينما يصير هيكل الرب الجديد هو جسد المسيح الذي سيجمع كل الشعوب: «ويرفع رايةً للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.» (إش ١١: ١٢)

ومن أبدع ما صور الآباء الرسل عن جمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ما تقوله الديدأخي (تعاليم الرسل) في الإفخارستيا التي هي جسد المسيح:

[وفيما يخص «الكِسر»^(١٩) κλάσμα : نحن نقدم الشكر εὐχαριστεῖν إليك يا أبانا... فكما أن كِسر الخبز هذه التي كانت مشتتة على الجبال (حقول القمح) ولكنها جُمعت συνάγειν (تفيد معنى المجمع أي الكنيسة)، وصارت واحداً (خبزة واحدة، وجسد واحد)، هكذا الكنيسة فلتجتمع من أربعة أطراف الأرض إلى ملكوتك.]^(٢٠)

وهذا التصوير الإفخارستي اللاهوتي، هو قائم على أساس قول المسيح في معجزة الخمس الخبزات والسمكتين: «اجمعوا συναγάγετε الكِسر κλάσματα المتبقية لكي لا تضيع (تهلك ἀπόληται = (يو ١٢: ٦)، بالإضافة إلى قول ق. يوحنا في إنجيله أعلاه: «ليجمع συναγάγη أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (١١: ٥٢)

وهكذا يمكن أن يتأكد القارئ من لاهوت إنجيل يوحنا القائم على أساس نبوي إفخارستي كنسي غاية في الإحكام.

(١٩) «الكِسر» هنا في الحقيقة هي «القربانة» بعد إجراء عملية التقسيم أو القسمة عليها، فصارت «كِسراً»، وهي العملية الهامة جداً في الإفخارستيا التي يتم فيها حلول الرب واستعلانته، وهي أيضاً محور عملية الشكر أو البركة — ثم يعود الكاهن ويجمع هذه الكسر في الصينية لتعود على هيئة القربانة الواحدة — الخبزة الواحدة (الجسد الواحد بعد أن تمزق على الصليب) جمعت ثم صارت جسداً حياً صحيحاً واحداً بالقيامة، مُعدّاً للأكل الروحي.

(٢٠) الديدأخي ٣: ٩ — ٤ ارجع إلى كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص ٣٠٠.

وقد أخذ المجمع بنطق رئيس الكهنة باعتباره القول الفصل، وكأنه من الله. وهكذا صدر حكم الموت بالموافقة العامة. وهكذا كان رد الجميل؛ بحكم الموت على مَنْ أقام الميت، وأعطى الحياة للناس؛ إنها مهزلة الإنسان.

و يلاحظ أن قيافا استخدم كلمة «الشعب λαός»، ولكن ق. يوحنا لما ذكرها غيَّرها إلى ἔθνος. وفي هذا معنى روحي عميق. لأن المسيح مات بالفعل عن الشعب كالنبوة «خراف بيت إسرائيل الضالة»، حيث كلمة «الشعب» في التوراة تفيد شعب الله، فهي تحوي معنى العلاقة بين الناس والله التي كانت قائمة في شعب إسرائيل فقط، والتي مات المسيح ليصححها ويعيدها إلى أوج قوتها في مفهوم الكنيسة، وهي تفيد الآن شعب الله في العالم كله. أما كلمة «الأمة» التي ذكرها ق. يوحنا بدل كلمة الشعب، فقَصَدَ بها ق. يوحنا المعنى المدني، لأن إسرائيل، كشعب، لما رفض المسيح وأكمل جريمته بقتل الراعي، فَقَدَ صفته كشعب الله، وَقَدَ صلته الفريدة بالله «كالشعب المختار»، وأصبح أُمَّة مثل باقي الأمم، تمهيداً لضمَّ الأمة اليهودية إلى باقي الأمم دون تمييز... «وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (خراف أخر ليست من هذه الخطيئة) إلى واحد (لتكون رعية واحدة وراع واحد)».

فانظر، أيها القارئ، إلى أي حدَّ بلغت دقة التعبير اللاهوتي عند ق. يوحنا. وهذا المعنى نفسه عبَّر عنه ق. يوحنا في رسالته الأولى هكذا:

«وهو كفَّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم.» (١ يو ٢: ٢). كما عبَّر عنه أيضاً في افتتاح إنجيله: «وكلُّ الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو ١: ١٢)

١١: ٥٣ «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه».

ما كان في كل المرات السابقة رغبة ملحة للقضاء على المسيح، أصبح الآن بعد قرار هذا المجمع خطة داخلية في حكم التنفيذ، ولا يبقى إلا انتهاء الفرصة المناسبة.

ونعلم من رواية القديس لوقا في إنجيله، أن بعضاً من أعضاء السنهدريم، وهم قِلَّةٌ مثل يوسف الرامي، كان غير موافق على قرارهم: «وإذا رجل اسمه يوسف، وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً، هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم، وهو من الرامة مدينة اليهود...» (لو ٢٣: ٥٠ و٥١)

ختام خدمة الرب :

٥٤:١١ «فلم يَكُنْ يسوعُ أيضاً يمشي بين اليهودِ علانيةً، بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية، إلى مدينة يُقال لها "أفرايم"، ومكث هناك مع تلاميذه».

واليك، أيها القارئ العزيز، صورة نبوية مؤثرة تستحوذ على كل مشاعر الإنسان وعواطفه، تصف المسيح وهو يُعطي ظهره لأورشليم والهيكل والشعب والأمة اليهودية كلها، وينسحب حزيناً منكسراً باكياً على هذه الأمة التي لم تعرف ما هو لسلامها؛ يصفها إرميا النبي: «يا ليت رأسي ماء، وعيني ينبوع دموع، فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي» (٢١). يا ليت لي في البرية مبيت مسافرين، فأترك شعبي، وانطلق من عندهم، لأنهم جميعاً زناة، جماعة خائنين. يمدُّون ألسنتهم كقسيّهم. للكذب لا للحق، قووا في الأرض، لأنهم خرجوا من شرٍّ إلى شرٍّ وإيتاي لم يعرفوا، يقول الرب. احترزوا كل واحد من صاحبه (٢٢) (يهودا)، وعلى كل أخ لا تتكلموا (٢٣)، لأن كل أخ يعقب عقباً وكل صاحب يسعى في الوشاية. ويختل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق. علّموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الإفتراء (٢٤).» (إر ١: ١-٥)

مدينة أفرايم :

يقول العلامة وستكوت Westcott أن هذه المدينة ذُكرت في أخبار الأيام الثاني مع مدينة بيت إيل تحت كلمة «عَفْرُونَ» (٢ أي ١٣: ١٩). ويقول العلامة روبنسن Robinson في قاموسه: (Bib. Res. II, 127)، وكذلك العلامة ستانلي Stanley في كتابه («سيناء وفلسطين» ص ٢١٠) أن بين حدود بنيامين وأفرايم يوجد تلٌ هرمي الشكل على أعلاه قرية على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم اسمها الطيبة، هي مدينة أفرايم القديمة. وهي نفس المدينة التي كانت تسمى «عَفْرَةَ» أو «عَفْرُونَ» بمعنى عضرية. وقد غيَّرها السلطان صلاح الدين إلى اسم الطيبة. والقديس جيروم والمؤرخ يوسابيوس يحدّدانها على الطريق الموصّل من أورشليم إلى شكيم شرقاً على بعد اثني عشر ميلاً = عشرون كيلومتراً من أورشليم.

(٢١) «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك ولكن الآن قد أخفي عن عينيك.» (لوقا ١٩: ٤١ و٤٢)

(٢٢) «فللوقت تقدم (يهودا) إلى يسوع وقال له: سلام يا سيدي، وقبله. فقال له يسوع: يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه.» (مت ٢٦: ٤٩ و٥٠)

(٢٣) «هوذا تأتي ساعة، وقد أنت الآن، تنفرون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوني وحدي.» (يو ١٦: ٣٢)

(٢٤) «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه فلم يجدوا، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا.» (مت ٢٦: ٥٩ و٦٠)

ما قبل الرحلة الأخيرة للفصح الأخير:

٥٥: ١١ «وكان فِضْحُ اليهودِ قريباً، فصَعِدَ كثيرونَ من الكُورِ إلى أُورُشليمَ قبل الفصح ليَطَهِّروا أنفُسَهُم».

«فصح اليهود»:

هذا هو الفصح الثالث الذي يذكره ق. يوحنا في إنجيله. ففي الفصح الأول كان المسيح حاضراً ومُشارِكاً (يو: ١٣: ٢)، أما في الفصح الثاني (يو: ٦: ٤)، فلم يذكر ق. يوحنا أن المسيح حضر الإحتفال به، بل على ما يبدو كان المسيح وقتها في الجليل.

«وكان فصح اليهود قريباً»:

هذه الكلمة «قريباً» لا ينبغي أن تعبر علينا بسهولة، فمعناها أن ساعات المسيح والصليب صارت معدودة، والقلب يستقبل هذه الكلمة بانفعال يهز كيانه الجسد قبل الروح. فبالرغم من أن آلام المسيح وموته انتهت بهجة القيامة، ولكن مهما كانت بهجة القيامة فيستحيل أن تقلل من مسحة الحزن المفرط الذي نعيشه في آلام المسيح.

«فصعد كثيرون من الكور إلى أُورُشليم»:

بحسب المؤرخين ذوي الخبرة في تاريخ وعوائد اليهود، كان يتراوح عدد الحجاج بين خمسة وثمانين ألفاً ومائة وخمسة وعشرين ألفاً. وذلك بحسب تقدير العالم اليهودي المتنصر يواكيم إرميا. فإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد سكان أُورُشليم الأصليين، وكان يقرب من الخمسة والعشرين ألفاً، كان مجموع المعيّدين لا يقل عن مائة ألف. ولكن يوسيفوس^(٢٥) المؤرخ اليهودي المعاصر لخراب أُورُشليم (٧٠ م) يعطي رقماً غير عادي، إذ يقول إن الحجاج في الفصح كانت جملتهم لا تقل عن مليونين ونصف حاج. وهذا الرقم مأخوذ من التسجيلات الرومانية المعروفة بدقتها.

«ليَطَهِّروا أنفُسَهُم»:

بحسب أصول الناموس، كان ممنوعاً على المنجّسين أن يحضروا مراسيم عيد الفصح، لأن نظام ذبح خروف الفصح يستلزم من الشخص أن يمرّ برواق الكهنة، وهذا كان يستلزم شروطاً دقيقة من جهة الطهارة: «وليعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته في اليوم الرابع عشر من الشهر الأول، بين

²⁵ Josephus, War, VI-IX, p. 422-25.

العشاءين تعملونه في وقته... لكن كان قوم قد تنجسوا لإنسان ميت فلم يحلّ لهم أن يعملوا الفصح في ذلك اليوم.» (عد ١٠ : ٦ و ٢)

ولكن حدث تساهل بعد ذلك في هذا الأمر «لأن كثيرين من الشعب، كثيرين من أفرايم ومَنَشَّى و يَسَّاكر وزبولون لم يتطهّروا بل أكلوا الفصح ليس كما هو مكتوب. إلا أن حزقيا صلّى عنهم قائلاً: الرب الصالح يكفّر عن كل مَنْ هَيَّأ قلبه لطلب الله الرب إله آبائه وليس كطهارة القدس. فسمع الرب لحزقيا وشفى الشعب» (٢ أي ٣٠ : ١٨ - ٢٠). وكانت عدم طهارة أولئك، راجعة لاختلاطهم بالأمم.

ويقول المؤرخ يوسيفوس أن أهل الكور كانوا يسبقون بالذهاب قبل الفصح ليتطهروا في أورشليم. وهذا ما حاول أن عمله بولس الرسول (بعد أن اعتمد للمسيح)، فدفع ثمن هذه الرجعة إلى اليهودية أهوالاً أوقفته عن الخدمة: «حينئذ أخذ بولس الرجال في الغد، وتطهّر معهم، ودخل الهيكل مُخْبِراً بكمال أيام التطهير، إلى أن يقرب عن كل واحد منهم القربان. ولما قاربت الأيام السبعة أن تتم، رآه اليهود الذين من آسيا في الهيكل، فأهاجوا كلّ الجمع وألقوا عليه الأيادي» (أع ٢١ : ٢٤ - ٢٧). وظل بولس يعاني من هذا التصرف إلى أن استشهد!!!

ولكن حسب ما عوّدنا ق. يوحنا، فهو لا يسرد رواية تاريخية قط، إلّا وفي ثناياها معلومة روحية، وإشارة ذات قيمة لاهوتية. والقارىء يتذكر كيف بدأ ق. يوحنا إنجيله بأن سرد لنا آية تحويل الماء إلى خمر، حيث استُخدمت الأجران الستة للتطهير، فحوّلا المسيح إلى أجران خمر، مفتتحاً إنجيله بمعنى الانتقال من التطهير بالماء إلى التطهير بالدم لنوال الحياة الأبدية، باعتبار الخمر في إنجيل يوحنا هو مادة الإفخارستيا ذات الاعتبار التقديسي بالروح القدس، ومنتهياً بالآية إلى أن الرب أظهرَ فيها مجده لتلاميذه، فأمنوا به. وها نحن قادمون هنا إلى الفصح الأخير، أو على وجه الأصح لاهوتياً وبحسب إنجيل يوحنا، الفصح الأول والأساسي في العهد الجديد، حيث يعطي المسيح دمه للعالم كله «للتطهير» ومغفرة الخطايا، واستعلان مجد المسيح، لحساب الآب.

من هنا كان التلميح بالقول: «ليطهّروا أنفسهم». وبعدها مباشرة يذكر ق. يوحنا اسم «يسوع» بلفته التي لا تفوت على القارىء اللبيب: «قبل الفصح "ليطهّروا" أنفسهم، فكانوا يطلبون "يسوع"».

١١: ٥٦ و ٥٧ «فكانوا يطلبون يسوع ويقولون فيما بينهم وهم واقفون في الهيكل، ماذا تظنون، هل هو لا يأتي إلى العيد؟ وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمراً أنه إن عَرَفَ أحدُ أين هو فليبدلْ عليه لكي يُمسِكُوهُ».

أولاً: هذه الملهفة على رؤية المسيح وسماعه توضّح إلى أيّ مدى تعلّق به الشعب سواء من أورشليم أو الأرياف، الأمر الذي سنراه بوضوح في دخوله أورشليم يوم أحد السعف.

وثانياً: هذا التردد والشك بل وربما البلبلة التي أصابت الحجاج الآتين من الكور ومن أورشليم للتطهير، فيما إذا كان المسيح سيظهر في العيد أم لا، مردّها إلى الجزء الثاني من الآية، لأن رؤساء الكهنة والفريسيين كانوا قد أعلنوا في وسط الشعب عن قرارهم بموت المسيح، بل واستخدام الشعب للقبض عليه أو التخابر عن مكان وجوده. وكان المعقول لديهم أن المسيح لا يُظهر ذاته خوفاً من أو تلافياً للقبض عليه. ولكن الرب خيّب ظنهم وظنّ كل ما هو معقول لديهم. فالمسيح الذي أقام لعازر من الموت، كيف يخشى الموت أو كل ما يؤدي إلى الموت، ولكن فوق كل هذا، فهو قادم إلى أورشليم، ليصنع آية مجده ليحوّل الموت إلى حياة، وظلمة العالم إلى نور، ويفكّ المأسورين بالخطية، ويُصالح الإنسان بالله. والحقيقة أن السنهدريم هو الذي كان يخشاه.



الأصحاح الثاني عشر

مكان البشارة:
عاشراً - من بيت عنيا
إلى أورشليم
للمرة الأخيرة

الأصحاح الثاني عشر

استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم

ويشمل هذا الأصحاح:

١ - بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت: (١٢: ١-١١).

٢ - دخول المسيح إلى أورشليم: (١٢: ١٢-١٩).

٣ - رد المسيح على طلب اليونانيين:

«إن ارتفعتُ عن الأرض أُجذب إليَّ الجميع.» (١٢: ٢٠-٣٦).

ثم ينتهي إنجيل الاستعلان بالآية ١٢: ٣٦: «ثم مضى واختفى عنهم».

وينتهي الأصحاح الثاني عشر بالجزئين التاليين:

- ختام لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٣٧-٤٣).

- ملخص لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٤٤-٥٠).

١ - بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت (١)

لم يُسمع قط أن يُكفَّن الجسد قبل الموت، ولكن هذا هو جسد يسوع الذي لن يرى فساداً: «لن تَدْعَ قدوسك يرى فساداً» (أع ١٣: ٣٥). وهكذا ظل جسد المسيح معطراً بناردين خالص تفوح منه رائحة محبة الإنسان لابن الإنسان، والتي لم يستطع القبر أن يمحوها فبقيت إلى أن قام من الموت، وتجلَّى في ملء لاهوته، وفاحت منه رائحة لاهوته الذكية التي وهبها للإنسان بالتالي عوض ناردين مريم، ليَتَعبَر بها كلُّ إنسان الموت وتُرفع عنه رائحة فساد الخطية، فيتقدم بهذه الرائحة عينها إلى الله، فيشتُمُّ الله فينا رائحة ذبيحة المسيح: «لأننا رائحة المسيح الذكيَّة لله ... رائحة حياة للحياة». (٢ كو ٢: ١٥ و ١٦)

١ : ١٢ «ثم قبل الفصح بستة أيام، أتى يسوع إلى بيت عنيا حيث كان لِعَاظَرُ المَيْتِ الذي أقامه من الأموات».

«قبل الفصح بستة أيام»:

الفصح يقع في ١٤ نيسان، فالمسيح وصل إلى بيت عنيا قادماً من «أفرايم» - حيث كان معتكفاً - يوم ٨ نيسان، وهذا يقع يوم الجمعة قبل الغروب مباشرة، فاحتسب السبت واستراح السبت وحضر وليمة العشاء بعد غروب السبت وهذا يوافق أن مرثا كانت تخدم، لأنه لا يحلُّ الخدمة يوم السبت.

أما من حيث «الستة الأيام»، فأسلوب ق. يوحنا يرمي نحو الإشارة إلى ستة أيام الخليقة القديمة، حيث اليوم السابع استراحة ليُجعل منها ستة أيام الخليقة الجديدة، وفي السبت استراح المسيح (الله) في القبر، وقام يوم الأحد ليعلن بدء الحياة الأبدية غير الزمنية.

ولودققنا، نجد أن ق. يوحنا يفتح إنجيله «بالأسبوع» المقدس ويختتمه «بالأسبوع» المقدس. إذ نقرأ في بدء الإنجيل:

«هذا كان في بيت عنبرة (بيت عنيا شرق الأردن)، في عبر الأردن حيث كان يوحنا يُعمِّد»

(١) يُقرأ هذا الفصل في مساء سبت لعازر (عشية أحد الشعانين) تطبيقاً لقول الإنجيل: «قبل الفصح بستة أيام»، وتكرر قراءته في يوم الأربعاء من البصخة المقدسة (الساعة السادسة) لِمَا جاء فيه عن يهوذا الإسخريوطي.

(يو: ٢٨). هذا أول يوم.

ثم «وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩)، هذا اليوم الثاني.

ثم «وفي الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه (يوحنا واحد منهما) فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله» (يو: ٣٥ و ٣٦)، هذا ثالث يوم.

ثم «في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلبس ...» (يو: ٤٣)، هذا رابع يوم.

ثم «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ...» (يو: ٢: ١)، هذا هو اليوم السابع!!!!

ثم ليس جزافاً أن يختار الرب بيت عنيا قبل الفصح ليعتزل هناك، لأنه من المعروف في طقس ذبح خروف الفصح أن يُعزل الخروف قبل الفصح بخمسة أيام بعيداً عن الحظيرة. وهكذا يُوقع المسيح حياته على نغمات الفصح بشيء من الإبداع الطقسي، وكما كان يجري على الخروف عملية تكريس استعداداً لتقديمه بعد خمسة أيام، هكذا سلّم المسيح جسده لأيدي محبيه ليمسحوه بالطيب والدموع بعد وصوله بيوم، وذلك مساء السبت بعد الغروب وبعد الوليمة:

«... في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة ... شاة صحيحة ذكراً ابن سنة ... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية.» (خر: ١٢ : ٣-٦)

«لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات.» (عب: ٧: ٢٦)

٢: ١٢ «فصنعوا له هناك عشاء. وكانت مرثا تخدم، وأما لعازر فكان أحد المُتَكِنين معه».

أراد كثير من الشراح أن يجمعوا بين ما جاء في إنجيل ق. يوحنا وما جاء في الأناجيل الثلاثة الأخرى، عن قصة العشاء في بيت عنيا، وافترضوا أن بيت سمعان الأبرص الوارد في إنجيل ق. متى (٦: ٢٦)، وفي إنجيل القديس مرقس (١٤: ٣)، غير بيت مرثا ومريم ولعازر، بدليل أن لعازر كان مدعوً كضيف، على أن مرثا أيضاً حضرت لتخدم في الوليمة في بيت سمعان الأبرص، إيفاءً للدين الذي صنعه الرب لأخيها لعازر. كذلك فمريم انتهزت الفرصة وأحضرت ناردینھا لتطيب رجلي الرب اللتين كانت هي تجلس بجوارهما تستمع لكلمات الحياة، وأن سمعان الأبرص

هو أحد العشرة البرص الذين شفاهم الرب .

ولكن من رأينا أن قصة إنجيل يوحنا ذات طابع سري ولاهوتي خاص يستلزم منا أن نأخذها كما هي بحد ذاتها .

ومرة أخرى يقدم لنا ق . يوحنا مرثا ومريم : الأولى تخدم ، والثانية تتأمل وتحب . وليكن في علمك ، يا قارئ العزيز ، أن حياة التصوف بجملتها في المسيحية تأخذ منهجها وأسلوبها وفلسفتها من «مريم» ، كما تأخذ حياة الخدمة أسلوبها ومنهجها وفلسفتها من «مرثا» ، وما أبدع قول كتاب بستان الرهبان حينما حسم الخلاف القديم بين المتصوفين (التأمل) والثناك (التمرّن بضبط الجسد والخدمة) ، محاولاً أن يجمع بين خدمة مرثا وتأمل مريم بقوله إن «مريم بمرثا مُدِيحَتٌ» ، فلولا شكوى مرثا لما مدح المسيح مريم !

ثم إن إصرار ق . يوحنا على ذكر لعازر متكثراً مع المسيح ، هو في الحقيقة لفظة لا تخلو من عمق ؛ فالمسيح يبدو ، بينما لعازر بجواره ، كمن هو قابضٌ على زمام الموت والهاوية تحت قدميه . فكان منظره كمنظر القيامة والحياة التي تتحدى قرار السهدير .

١٢ : ٣ «فأخذت مريم قنّاً من طيب ناردّين ، خالص ، كثير الثمن ، ودَقَنْتْ قَدَمَي يَسُوعَ ، وَمَسَحَتْ قَدَمِيهِ بِشَعْرِهَا . فَامْتَلَأَ الْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطَّيِّبِ» .

«الْمَنُّ» هو الرطل الروماني ويساوي ثلثمائة وسبعة وعشرين جراماً وربع الجرام ، أي ما يساوي ثلث اللتر .

«ناردّين خالص» :

في مفهوم العقاقير يعني أنه نقي أي غير مُضَافٍ إليه شموع أو راتنجيات التي تعطيه قوام المرهم أو الدهان ، فهو خلاصة أو أكسير حرّ .

والناردّين هو الزيت الطيار المستخرج من الجذور وشعيرات الساق لنبات Spikenard ، وينمو في شمال الهند في الجهات الجبلية العالية . وكان ثمن الرطل الروماني منه حوالي ثلثمائة دينار ، علماً بأن الدينار هو أجرة العامل في اليوم في ذلك الزمان . فإذا حولناه إلى لغة زماننا الحاضر يكون ثمن الرطل منه ما يقرب من ٣٠٠ × ٥ = ١,٥٠٠ جنيهاً مصرياً ، بحساب أن أجرة العامل العادي هي خمسة جنيهاً في اليوم .

«ودھنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها، فامتلاً البيت من رائحة الطيب» :

في إنجيل القديس متى نقرأ أن امرأة تقدمت إليه (دون ذكر اسمها) ومعها قارورة طيب كثير الشمن، حيث سكبته على رأسه وهو متكئ (٢٦: ٦). وفي إنجيل القديس مرقس: «جاءت امرأة معها قارورة طيب ناردين خالص كثير الشمن، فكسرت القارورة وسكبته على رأسه.» (١٤: ٣) وفي إنجيل ق. يوحنا يقتصر الوصف على «ذهن قدمي يسوع».

فلو أخذنا بهذا الوصف المزدوج معاً، يمكننا أن نستخلص القصد الذي يهدف إليه الوحي على فم هؤلاء الإنجيليين القديسين وذلك حينما نرجع إلى العهد القديم: «... والكاهن الأعظم بين إخوته الذي صُبَّ على رأسه دهن المسحة ... لأن إكليل دهن مسحة إله عليه. أنا الرب.» (٢١ لا: ١٠ و ١٢)

وفي ذلك يتأمل العلامة والمتصوّف فيلو اليهودي المعاصر للقديس يوحنا: [إن رأس اللوغس (الكلمة) بصفته الكاهن الأعظم يُمسَحُ بالزيت، بمعنى إظهار جوهره المتألق بالنور البهي].

وكان فيلو اليهودي يرى ما يمكن أن نراه نحن أيضاً، أن دهن المسيح بالناردين، وإن جاء على يدي امرأة امتلاً قلبها حباً وإيماناً بالمسيح، إلا أن الفعل في حد ذاته كان بإيجاء من الله الآب. وهنا سرُّ جزع يوحنا في إحجامه عن ذكر دهن رأس الرب، لأنه فوق متناول الإنسان. ويعوّض أن يذكر ق. يوحنا دهن رأس الرب بيدي امرأة، عاد وصحّح الوضع، أنها هي التي مسحت قدميه بشعر رأسها، وهكذا تكرمت مريم وأكرمت بني جنسها إذ توجت رأس المرأة بإكليل الطيب المنحدر من جسد المسيح.

ويقيناً أن رطلاً من عطر فاخر نقي قد اندفق على ثياب الرب وقميصه أيضاً، وصح قول سليمان في نشيده الإلهي حيث تخاطب النفس البشرية ربّها: «ما دام "الملك" في مجلسه، أفاح نارديني رائحته.» (نش ١: ١٢)

وقد تمهد المعنى الإلهي لهتاف ثاني يوم أي يوم الأحد: «مبارك الآتي باسم الرب "ملك" إسرائيل.» (١٢: ١٣)

هذه المعاني البديعة لا تخرج قط عن قصد الوحي الإلهي، فكل حركة في إنجيل ق. يوحنا محسوبة بالحساب اللاهوتي. ولكي يتأكد القارئ أننا نستخلص الدرر من أعماق نهر الروح،

فليسمع ما يقوله ق. يوحنا بعدما استفاق التلاميذ من عتمة الحوادث المتتابعة، إن في دهن الجسد، أو في هتاف يوم الأحد: «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً، ولكن لما تمجد يسوع، حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه، وأنهم صنعوا هذه له.» (يو ١٢: ١٦)

ولكن، وللأسف، لم يذكر لنا ق. يوحنا «هذه المكتوبة عنه» ولكننا على كل حال نطوف على كل الزهور نلتقط من رحيق «المكتوبات» ليزوق القارئ والسامع مجرد الذوق!

«وامتلاً البيت من رائحة الطيب»:

لقد استرعى انتباه ق. يوحنا، كشاهد عيان، جمال الرائحة وهي تُعَبِّقُ كل البيت، و يقيناً فإن هذا كان هو نفسه شعور الرب، فصمم المسيح أنه كما ملأت مريم عليه البيت برائحة ناردونها الفاخر، أن يملأ الكنيسة كلها وإلى آخر الدهور برائحة محبة واسم هذه المرأة التي أنابت نفسها عن بشرية الأجيال كلها، لكي تقدم إليه بسخاء فقرها عمل المحبة في يوم المحبة.

وجدير بالذكر أن هذا الإنجيل (يو ١٢: ١-٨) هو أول قراءة تُقرأ في أسبوع الآلام (عشية أحد الشعانين)، وكأن الكنيسة بذلك تريد أن تقدم لنا في بداية هذا الأسبوع مثال المحبة التي سكبتها هذه المرأة على قدمي الرب «للتكفين»، كنموذج أعلى للمحبة التي يجب أن نقدمها للمسيح إزاء آلامه المحيية من أجلنا.

١٢ : ٤-٦ «فقال واحدٌ من تلاميذه، وهو يهوذا سيمعان الإسخريوطي المُرْمِعُ أن يسلمه. لماذا لم يُبْعَ هذا الطيب بثلاثمائة دينارٍ ويُعطى للفقراء. قال هذا، ليس لأنه كان يُبالي بالفقراء، بل لأنه كان سارقاً، وكان الصندوق عنده وكان يَحْمِلُ ما يُلْقَى فيه.»

معذرة، أيها القارئ العزيز، فقد كنا نحلق معاً في سماء الحب والسخاء، ورائحة المسيح الذكية، ومسحة الآب على رأس ابن الإنسان؛ وإذ بنا فجأة وعلى غير انتظار نقع في نقع الطين ونتوحد في حمأة الغباء. فيعوض الوجه المشرق الوديع المتواضع الذي لهذه الأخت الممدوحة، وهي في ملء سعادتها، فَرِحَةً مستبشرة أنها صنعت للرب شيئاً كانت قد عَبَّأت له طاقات حبها ومالها، يظهر في المشهد وبسرعة وجه قبيح غاضب، غاضب على إسراف «عمل المحبة»، وفي حقه رأى أنه «كان يمكن أن يُبَاعَ»! ... كل شيء كان عنده يمكن أن يُبَاعَ إن لم يكن بثلاثمائة (٢)

(٢) يقول إنجيل مرقس ١٤: ٥: «أكثر من ثلاثمائة دينار». كذلك فإن إنجيل يوحنا يتفق مع إنجيل مرقس: «ثلاثمائة

فبثلاثين !!!

ولكن مهما أعطينا من نظرة ناقدة نحو هذا التلميذ الذي باع سيده، فلن نستطيع أن نبليغ أعماقه لأنه كان كالهواية. ويكفي أن نحصر، فيما حصره ق. يوحنا عنه من جهة أخلاقه، أنه سارق يلتقط ما يُلقَى في الصندوق.

فالذي يخون مال الله، سهلٌ عليه أن يبيع المسيح. ولكن الذي يسترعي انتباهنا، أن المسيح ترك الصندوق معه ولم يمانع من أن يسرق منه كما يشاء، ولا هو مَانَع حتى أن يبيعه (أي يبيع المسيح): «ما أنت تعمل، فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣: ٢٧)، وآخر كلمة قالها له الرب عندما تقدم ليسلمه: «يا صاحب لماذا جئت!!» (مت ٢٦: ٥٠).

يا إخوة، الرب لا يحصّن تلاميذه أو خدامه من السرقة، والاختباء وراء صندوق الفقراء، ولكن يا ويلهم عندما يستيقظ ضميرهم.

والآن قد وضع الإنجيل هذه المفارقة أمام أعيننا، بين امرأة مُجِبَّة من كل قلبها، باذلة بكل مالها، مؤمنة حقاً، ولها شهادة من المسيح؛ وبين تلميذ من الاثني عشر الأخصاء التابعين، طماع، جشع، سارق لمال الله، خائن باع المسيح بثمن بخس. وهذه المفارقة ليست مصادفة ولا هي مجرد قصة في الإنجيل، ولكنها تقسيم قائم في كنيسة الله يمارسه مَنْ أحبوا المسيح من كل القلب حسب الوصية و«النموذج»، وَمَنْ يسلبون المسيح ويبيعونه «كالمثال» حباً في المال.

١٢: ٧ و٨ «فقال يسوع اتركوها. إنها ليوم تكفيني قد حَفِظَتْهُ. لأن الفقراء معكم في كل حين. وأما أنا فلست معكم في كل حين».

الإشارة هنا منطلقة سراً نحو الحائن الذي انتهت عِشْرَتُهُ وخُطَّتْهُ إلى موت المسيح — غمداً —، مع لفتة سريعة نحو مريم التي — ودون أن تدري — أكرمت وعظمت موته بأعز ما ملكت حياتها. فالأول طعن الجسد طعنة الموت؛ والثانية تلقفت الجسد بعطرها ومسحته بشعرها.

لقد بدأت مريم ما أكمله يوسف ونيقوديموس، فالأولى كفنت الجسد حياً برطل واحد من الطيب، والآخرون كفنوه ميتاً بمائة رطل، ولكن ذكر عمل الأولى من فهم المسيح بالجميل والعرفان والشكر والذكرى الأبدية، أما عمل الآخرين فلم يذكره إلا التاريخ.

يا إخوة، إن تكريم الأحياء خالداً خلود الروح، أما تكريم الأموات فهو سريع الزوال لا يقوى على حفظه وعي الإنسان!

«ليوم تكفيني قد حفظته»:

وتأتي هذه الجملة باللاتينية هكذا: *ut in die sepulture mae servet illud*، حيث «تكفيني» تعني «يوم القبر». مريم أجهدت نفسها في حصولها على هذا العطر الكثير الثمن، ولا نعلم كم قتّرت على نفسها حتى اكتمل عندها ثمنه، ثم حفظته عندها دون أن تدري أنه كان ليوم القبر.

وإنجيل القديس مرقس يشرحها بالتفصيل: «أما يسوع فقال: اتركوها لماذا تُزعجونها، قد عملت بي عملاً حسناً، لأن الفقراء معكم في كل حين، ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً. وأما أنا فلست معكم في كل حين. عملت ما عندها. قد سبقت ودهنت بالطيب جسدي للتكفين. الحق أقول لكم حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكّراً لها.» (مر ١٤: ٦-٩)

«الفقراء معكم في كل حين»:

المسيح هنا يستعيد على أذهان التلاميذ كلام الناموس: «لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً: افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك» (تث ١٥: ١١). ومن الجانب الآخر السري في كلام المسيح، والذي سبق أن استعملته، أن المسيح نفسه هو موجود في الفقراء، فالمساكين والفقراء يمثلون شخص المسيح: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبني فعلتم.» (مت ٢٥: ٤٠)

والمعنى واضح أن إمكانية خدمة المسيح ومحبة الشخصية قائمة بصورة دائمة في خدمة ومحبة الفقراء؛ حتى بعد أن يختفي المسيح عن أعينهم عائداً إلى حيث كان.

١٢: ٩-١١ «فعلّم جمع كثير من اليهود أنه هناك. فجاءوا، ليس لأجل يسوع فقط، بل لينظروا أيضاً لعازر الذي أقامه من الأموات. فتشاوّر رؤساء الكهنة ليقتلوا لعازراً أيضاً. لأن كثيرين من اليهود كانوا بسببه يذهبون ويؤمنون بيسوع.»

ق. يوحنا يضع أمام القارئ المقارنة المخزية بين حاسة الشعب العامة التي لا تخطيء،

وسياسة الرؤساء التي دائماً تضلل البسطاء ... فالحُجَّاج بدأوا يتقاطرون من أورشليم إلى بيت عنيا، منذ أن أقام المسيح لعازر من الأموات، وازدادوا الآن عندما علموا أن الرب هناك، وهكذا تشكّل أمام الرؤساء خطر وجود لعازر كبيّنة لا تُدحض على قوة المسيح وتفوّقه. وهكذا أُضيف إلى قرار قتل المسيح قتل لعازر أيضاً: «لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس.» (لوقا ٢٣: ٣١)



٢ - دخول المسيح إلى أورشليم

(عدد ١٤ إلى عدد ١٩)

أحد السعف، بدء أسبوع الآلام حسب الطقس (٣)

١٢ : ١٢ و ١٣ «وفي الغد سَمِعَ الجمعُ الكثيرُ الذي جاءَ إلى العيدِ، أن يسوعَ آتٍ إلى أورشليمَ، فأخذوا سُعُوفَ النَّخْلِ وخرجوا للقاءهِ، وكانوا يَصْرُخُونَ أَوْصَانًا، مباركُ الآتي باسمِ الربِّ قَلْبُكَ إِسْرَائِيلَ».

كان حفلُ العشاء، بعد غروب شمس السبت، وهكذا حُسِبَ الأحد أنه «الغد» بحساب النهار. والذي حدث أن اليهود الذين حضروا حفل العشاء الذي عُمل في بيت عنيا، عادوا إلى أورشليم وأشاعوا النبأ السار، أن يسوع قادم إلى أورشليم. وحالما سمع «الجمع» - وهنا كلمة «الجمع» كما سبق وأن عرفنا يُقصدُ بها أهل الجليل، وهم أصدق أصدقاء الرب - هؤلاء احتشدوا في صورة موكب عظيم. ولكي نأخذ صورة عن قرب لهذا المشهد - الصاحب الرائع - نقرأ في الأناجيل الأخرى:

«فذهب التلميذان، وقَعَلَا كما أمرهما يسوع. وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما. والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق، وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: أَوْصَانًا لابن داود. مباركُ الآتي باسم الرب. أَوْصَانًا في الأعالي. ولما دخل أورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: مَنْ هَذَا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبيُّ الذي مِنْ ناصرة الجليل.» (مت ٢١ : ٦-١١)

وهكذا تحققت كل مخاوف رؤساء الكهنة والفريسيين، ووقفوا ينظرون خائفين، وحاقدين، وفاقدين كل قدرة على تحجيم الموقف.

ويضيف القديس لوقا إضافات ذات أهمية بالغة في تصوير الموقف، وفي توضيح رغبة الفريسيين وفقدانهم السيطرة على الجماهير:

«ولما قرب عند منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويُسَبِّحُونَ الله بصوت

عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا. قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الرب. سلام في السماء، ومجد في الأعالي. وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم، انتهر تلاميذك، فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكنت هؤلاء، فالحجارة تصرخ. وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة وبكى عليها. قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضاً، حتى في يومك هذا، ما هو لسلامك (أي المسيح المخلص). ولكن الآن قد أخفي عن عينيك (حتى يتم الصلب). (وبناءً على ذلك) فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بميثرسة، ويخذلوك بك، ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً على حجر لأنك لم تعرفي زمان افتقادك.» (لوقا: ١٩: ٣٧-٤٤)

يفهم من إنجيل القديس متى، أن الرب أرسل تلميذين ليستحضرا جحشاً (ابن أتان) ليركب عليه، ومن إنجيل القديس لوقا أن الرب كان راضياً بهتاف التلاميذ، ورفض رجاء الفريسيين أن ينتهر التلاميذ. هذا معناه أن الرب كان راضياً بهذا الموكب وهذا الهتاف الذي يتضمن الهتاف بملك إسرائيل، وهذا الاستقبال الملكي بكل ملابساته. فلو تذكرنا موقفاً سابقاً للرب يوم صنع معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، إذ كان رفضه حاسماً لمثل هذا الاتجاه كله، لأنه أولاً، لم تكن ساعة استعلان ملكه قد حانت بعد؛ وثانياً لأنهم ظنوه ملكاً سياسياً: «وأما يسوع فاذا علم أنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده.» (يوحنا: ٦: ١٥)

لو علمنا هذا، لأدركنا أن الرب هنا يستعلن حضور ساعة ملوكيته إلهياً على إسرائيل: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يوحنا: ١٢: ٣٢). فالموكب الملكي الذي ارتفعت له المدينة، لم يكن في نظر الرب واعتباره إلاً موكب الصليب: «أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إنني ملك. لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم.» (يوحنا: ١٨: ٣٧)

ويلاحظ أن ق. يوحنا هو الوحيد الذي أضاف إلى جل الهتاف جملة «ملك إسرائيل»، إمعاناً في توضيح المعاني الخفية في مفهوم دخوله أورشليم كاستعلان لملوكيته التي ليست من هذا العالم.

«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاءه»:

كان المعروف أن الملوك والقادة حينما يعودون من مواقع الحرب كانوا يُستقبلون بسعف النخل وهذا نقرأه في ١ مك ١٣: ٥١ و ٢ مك ١٤: ٤:

«ودخلها في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني في السنة المئة والحادية والسبعين بالحمد وبالسعف والكثارات والصنوج والعيدان والتسابيح والأناشيد لانحطام العدو الشديد من

إسرائيل .» (١ مكاب ١٣ : ٥١)

«فأتى ديمتريوس الملك في السنة المئة والحادية والخمسين، وأهدى إليه إكليلاً من ذهب وسعفةً وأغصاناً من زيتون مما يختص بالهيكل وبقي في ذلك اليوم ساكتاً.» (٢ مكاب ١٤ : ٤)

وتوجد عملات مسكوكة أيام سمعان المكابي سنة ١٤١ - ١٣٥ ق.م. وعليها سعف النخل رمز النصر.

وفي سفر الرؤيا نجد موكب أحد الخوص يتكرر بكل بهائه في منظر المسيح آت وهو مُتَجَلٍّ بخلاصه لتستقبله كل شعوب الأرض :

«بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يُعَدَّهُ من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف، متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل، وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: الخلاص (= أوصيًا) لآلهنا الجالس على العرش وللخروف.» (رؤ ٧ : ٩ و ١٠)

وتصوير دخول الرب بهذا الوصف المتضمن معنى النصر، كان بمثابة اللطمة الأخيرة على وجه أعداء المسيح من رؤساء الكهنة والفريسيين، والتي عجلت جداً بعملية الصليب، الذي هو في الحقيقة التعبير الإلهي الأخير والأبدي لنصرة المسيح، ليس على الناس بل من أجل الناس.

كما كانت سعوف النخل تُستخدَم في أعياد المظالِّ والتجديد. والنخلة شجرة محبوبة كونها ترتفع شامخة نحو السماء، فارشة أغصانها مثل التاج، كأذرع تتوسل، خضراء على الدوام، تزهر وتثمر إلى مئات السنين. لذلك ترنم بها صاحب المزمور كصورة للصديق: «الصديق كالنخلة يزهر ... مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا.» (مز ٩٢ : ١٢ و ١٣)

وقد استخدم سليمان الملك النخلة في نشيد الأنشاد ليعبر بها عن النفس المحبوبة للمسيح: «ما أجلك وما أحلاك أيتها الحبيبة ... قامتك هذه شبيهة بالنخلة ... قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها.» (نش ٧ : ٦ - ٨)

وللكنييسة القبطية شغف بها يفوق الوصف. ففي يوم أحد السعف، أو أحد الخوص الذي نحن بصددده، يتبارى كل بيت وبلا استثناء في اقتناء عدة أغصان منها، ويستمررون السبت مساءً (عشية الأحد) في جَذْل الخوص بأشكال ومناظر غاية في الإبداع، والحاذقون في جدها يملأونها

بالزهور والورود، ويصنعون في الجريدة جيوباً يضعون فيها «قربانة» ويحتفظون بها في البيوت على مدار السنة. و يقوم بعض الكهنة — وهذا خطأ فاحش — بتكريسها بماء طقس "لقان الموتى" الذي يجريه الكهنة تحشُّباً لمن يموت في أسبوع الآلام، حيث يُمنع إجراء الصلوات على الميت، ويُكتفى برشه بماء اللقان الخاص بالموتى. كما يتبارى الباعة بالنداء على الخوص المجدول على شكل قلوب: «قلبك يا مسيحي، قلبك». وأصبح الخوص في هذا اليوم يشكّل أجمل مظاهر الفرح، ليس عند الصغار فقط بل والكبار أيضاً. وقلَّ مَنْ يدخل الكنيسة وليس في يده سعة يعود بها إلى بيته يحتفظ بها للتذكّار والبركة. وقد احتفظت الكنيسة القبطية بهذا التراث منذ العصور الأولى.

«أوصنا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» :

هو ترديد لمقاطع المزمور ١١٧ (حسب الترجمة السبعينية) وخاصة الآية ٢٥ :

«احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته ...»

«قوتي وتسبحتي هو الرب وقد صار لي خلاصاً ...»

«افتحوا لي أبواب البر لأدخل فيها ...»

«هذا هو باب الرب والصدّيقون يدخلون فيه ...»

«الحجر الذي رذّله البناؤون صار رأساً للزاوية ...»

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه ...»

«آه يا رب خلص (أوصنا). آه يا رب أنقذ. مبارك الآتي باسم الرب» ،

«باركناكم من بيت الرب ...»

«الرب هو الله ...»

ومن الآية **«أوصنا مبارك الآتي باسم الرب»** يُبدأ في نشيد أحد الخوص الحن

«إفلوجيمينوس» ، مع إضافة «أوصنا لابن داود. أوصانا في الأعالي. أوصنا لملك إسرائيل» .

ويُستخدم من المزمور الآية: **«قوتي وتسبحتي هو الرب وقد صار لي خلاصاً»** في الكنيسة

القبطية مئات المرات طوال ساعات الليل والنهار ليوم الجمعة الكبيرة في أسبوع الآلام، كمقطع

ترديدي. كما تستخدم الآية: **«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنبتهج ونفرح فيه»** في كل

أيام الأحاد عند تقديم الذبيحة.

وهذا المزمور يبدو أنه أُلّف ليكون تسبحة لتدشين الهيكل الثاني، وربما عند وضع حجر أساسه :

«الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية.» (مز ١١٨: ٢٢)

والطقس اليهودي الحالي يستخدم هذا المزمور بعناية فائقة ويحتل في العبادة مركزاً أساسياً، وذلك في عيد ظهور الهلال كل شهر.

وأما الآن، فقد تحولت النبوة وتحول الطقس بجملته إلى حقيقة واقعة تاريخية، استعلن فيها كل المعنى والقصد الإلهي من المزمور والطقس، إذ صار هذا المزمور كله موقعاً على حياة المسيح آية آية، بصورة إعجازية.

وكلمة: «أَوْصِنَا» أصلها الأرامي هُوشِيعْنَا، ومعناها: «من فضلك خلّصنا»، وقد أصبحت صلاة لطلب المعونة وخاصة أيام عيد المظال ولطلب المطر. ولكنها أصبحت هتافاً للتحية والتكريم كما جاءت في ٢ صم ٤: ١٤ :

«وكلمت المرأة التقوية الملك، وخرّت على وجهها إلى الأرض، وسجدت، وقالت: هوشعنا (أعِن) أيها الملك.»

والسبب في أن الإنجيل لم يترجمها إلى اللغة العربية (أو أي لغة أخرى) بل بقيت بلفظها الأرامي تقريباً، هو أنها تثبتت كاصطلاح للمديح. ولكن الكنيسة تصرف فيها وجعلتها مقطعاً للصلاة أيضاً.

أما كلمة: «مبارك الآتي باسم الرب»، فكان يقولها الكهنة واللاويون ترحيباً بالحُجاج الآتين إلى الهيكل من الأماكن البعيدة، وهذا الرب يأتي إلى هيكله بغتة (ملا ٣: ١)، ليس حاجاً، بل كصاحب البيت، كابن على بيته، وبيته نحن (عب ٣: ٦) الحاجون إليه.

ولكن في التعبير المسيحي: «الذي كان والذي يأتي» (رؤ ١: ٨) ὁ ἐρχόμενος مأخوذ على أنه تعبير عن لقب الرب يسوع «الآتي إلى العالم» (يو ١: ٩) من عند الآب:

«أنت هو المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو ١١: ٢٧)

«أنا أتيتُ باسم أبي، ولستم تقبلونني، إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه» (يو ٥: ٤٣).

أما اسم أبيه فهو ἑγώ εἰμι الذي طالما استخدمه المسيح ليعلن عن نفسه أنه والآب واحد.

«وعرّفْتُهُم اسمك» (يو ١٧: ٢٦)، «كنت أحفظهم في اسمك» (يو ١٧: ١٢)، «إن لم تؤمنوا إني أنا هو ἑγώ εἰμι تموتون في خطاياكم.» (يو ٨: ٢٤)

«ملك إسرائيل» :

ليست واردة في النص النبوي في المزمور، ولكنها واردة في نص نبوي آخر مأخوذ من نبوة صفنيا النبي والذي سيأتي ذكره في شرح الآية (١٥).

١٢ : ١٤ و ١٥ «ووجد يسوع جحشاً، فجلس عليه، كما هو مكتوب: لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا مَلِكَ يَأْتِي جَالِئاً عَلَى جَحشِ أَتَانٍ».

«جحشاً» أي «حماراً» والكلمة الأرامية حيمور Hemor واليونانية هيپوزيجيون hypozygion ὑποζύγιον (زك ٩ : ٩)، ومعناه «حيوان للحمل»، أي لحمل الأثقال. والحمار (أو الأتان) δνος وتصفيره δνέριον وجحش ابن أتان πῶλον δνου. ولقد أخذ ق. يوحنا الكلمة من أصلها المكتوب في سفر زكريا «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هوذا مَلِكَ يَأْتِي إِلَيْكَ. هو عادك ومنصور، وديع، وراكب على حمار، وعلى جحش ابن أتان.» (زك ٩ : ٩)

ومعروف أن في الأدب النبوي اليهودي، وخاصة ما يأتي منه بالأشعار، يأتي تكرار الكلام لتحسين النغم والوزن ولتوضيح المعنى. وهنا يتضح في هذه الآية عملية التكرار، أولاً في «يا ابنة صهيون» ثم «يا بنت أورشليم»، ثم عاد يكرر «راكباً على حمار» ثم أراد أن يوضح أنه حمار صغير «ابن أتان»، فأخطأ النساخ وبعدهم المترجمون وكتبوها «على حمار» وعلى «جحش ابن أتان» بإضافة الواو فجاء المعنى مغلوطاً، وكأنه جالس على حمار وعلى جحش معاً. والصحيح أنه حمار صغير أي جحش.

ولكن كلمة «صغير» πῶλος لا تستخدم للتعبير عن صغار الحمير فقط بل وصغار الخيل أيضاً، فلزم أن تُمَيِّز كلمة «صغير»، فجاءت «صغير» (جحش بالعربية) مضافة إلى أنثى الحمار أي الأتان. فصار المعنى الصحيح هكذا: حمار صغير ابن أتان. ولكن كما فهم النساخ للترجمة السبعينية، هكذا نقل عنها القديس متى في إنجيله كما هي، واضطر أن يعدّل المعاني والألفاظ لتصير بالمشثى، أي حمار وجحش ابن أتان معاً، فجاءت هكذا: «فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها، فخلّاهما وأتاني بهما. وإن قال لكما أحد شيئاً، فقولا: الرب محتاج إليهما، فللوقت يرسلهما. فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون، هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان. فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع، وأتيا بالأتان والجحش، ووضعاً عليهما ثيابهما فجلس عليهما.» (مت ٢١ : ٢-٧)

هذا الخطأ بالنقل غير المقصود، تلافاه كلٌّ من القديسين مرقس ولوقا و يوحنا، حيث ذكروا أنه جحش واحد فقط. ويزيد كلٌّ من القديس مرقس والقديس لوقا كلمة: «جحشاً لم يجلس عليه أحد من الناس» (مر ١١: ٢، لو ١٩: ٣٠) كما جاءت في النسخة السبعينية: «جحشاً صغيراً πῶλον νέον.» (زك ٩: ٩)

«جالساً»:

لم يشأ ق. يوحنا أن ينقل الكلمة الأصلية التي جاءت في النبوة، أنه «يأتي راكباً» بل جعلها «يأتي جالساً» [«فجلس عليه»] كما يليق بالمسيح كملك.

«لا تخافي يا ابنة صهيون»:

جاءت في أصل نبوة زكريا: «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم». وفي إنجيل القديس متى اختزلها وصارت «قولوا لابنة صهيون»، أما ق. يوحنا فيبدو أنه أضاف على نص زكريا النبي نصاً آخر من نبوة صَفْتِيَا النبي:

«لا تخافي يا صهيون... الرب إلهك في وسطك جَبَّارٌ يُخَلِّص... ملك إسرائيل، الرب في وسطك» (صف ٣: ١٦ و ١٧ و ١٥). وواضح جداً أن ق. يوحنا أخذ هذا التعبير «ملك إسرائيل» في تسبحة الهتاف: «أوصنا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».

وكلمة «لا تخافي»، المضافة إلى ركوبه على جحش رمز التواضع والوداعة والمسكنة، والتي استرعت انتباه ق. يوحنا فالتقطها من نبوة صَفْتِيَا، توضح أنه ليس ملكاً للنقمة من الأعداء يهوداً ورومانيين، بل للسلام: «لا تخافي». فدخول المسيح إلى أورشليم بهذه الصورة السلامية، هو الذي عبّر عنه التلاميذ في إنجيل القديس لوقا: «سلام في السماء، ومجد في الأعالي.» (لو ١٩: ٣٨)

فهذا الموكب المتواضع، بقدر ما أُنْهَجَ التلاميذ والأخصاء العارفين بمقاصد المسيح السلامية، بقدر ما ألهب قلوب الطالبين للخلاص من الرومان وسيادة اليهود على الأمم، وظنوا أنه بمثابة إعلان بقيام ثورة، مما أربع قلوب الفريسيين.

ولكن بقية نبوة زكريا كانت هي وحدها التي استقرت في قلب الرب ومقاصده:

«هوذا ملكك يأتي إليك، هو عادل، ومنصور، وديع، وراكب على حمار (بل) على جحش ابن أتان. وأقطع المركبة (مركبة الحرب) من أفرايم، والفرس من أورشليم (جيوش الحرب)، وتقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام للأمم...» (زك ٩: ٩ و ١٠)

ولكن حتى التلاميذ لم يفهموا ما هو حادث أمامهم، فاشتركوا في الموكب وهلّلوا مع المهللين، وظلّوا غير مُدركين للقيم الحقيقية التي تقوم عليها الحوادث التي كانت تجري أمامهم.

١٦: ١٢ «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً. ولكن لما تمجّد يسوع، حينئذٍ تذكّروا أن هذه كانت مكتوبة عنه، وأنهم صَنَعُوا هذه له».

يقول القديس كيرلس الكبير الإسكندري في تعليقه على هذه الآية:

[إن ق. يوحنا الإنجيلي لم يخجل من أن يعترف بجهل التلاميذ، ثم عاد فأظهر معرفتهم؛ لأنه لم يكن يضع في اعتباره احترام الناس، ولكنه كان يدعوا لمجد الروح].

والحقيقة أن ق. يوحنا أراد أن يكشف عن مدى الخطأ الذي وقعت فيه كل الفئات، على وجه العموم، بالنسبة لدخول المسيح أورشليم ليكمل عمله الخاص ويختتمه.

أولاً: فرؤساء الكهنة والفريسيون، رأوا ذلك أنه بمثابة إعلان ملكيته ببرهان هتاف تلاميذه، فكان ذلك مأخذهم الحاسم لاستخلاص سبب حكم الصلب من فم بيلاطس: «كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقك هذا، فلست مُحِباً لقيصر. كلُّ مَنْ يجعل نفسه ملكاً، يقاوم قيصر.» (يو: ١٩: ١٢)

ثانياً: اليهود والجمعوع الذين احتشدوا لتحيته بصفته المسيح الآتي لإعلان بدء مملكة داود، لتخليص إسرائيل من أيدي الرومان.

ثالثاً: التلاميذ، وقد لخص ق. يوحنا موقفهم بأنهم لم يفهموا هذه الأمور. وقد توضّح لهم أن كل ما عملوه، تلقائياً، كان موضوعاً في خطة الله لاستعلان أعماله من جهة الخلاص المعلن.

أما تعليق المسيح على هذا الموكب وهذا الاستقبال فجاء في نفس الأصحاح: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة ليتمجّد ابن الإنسان. الحق أقول لكم، إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ، فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت، تأتي بشمر كثير.» (يو: ١٢: ٢٣ و٢٤)

وهذا هو عين موقف الكنيسة الآن من الاحتفال بأحد الخوص. إذ تشترك فيه وتهتف للمسيح

باعتباره قادماً للصليب^(٤)، لكي يعلن من عليه انتصاره الحقيقي على الموت والخطية، من أجل خلاص العالم واستعلان حقيقة شخصه كملك المجد.

١٢: ١٧ و ١٨ «وكان الجمعُ الذي معه يشهدُ أنه دَعَا لعازرَ من القبرِ وأقامه من الأمواتِ. لهذا أيضاً لاقاهُ الجمعُ، لأنهم سَمِعُوا أنه كان قد صَنَعَ هذه الآيةَ».

يلاحظ القارئ أن ق. يوحنا يضع في إنجيله السبب الواضح جداً والمباشر للاحتفال المهيّب الذي لاقاه به الشعب يوم أحد السعف كاستقبال الملوك، كل الشعب على كافة طبقاته، ليس الجليليون فقط الذين رافقوه في رحلته بل واليهود عامة حتى من سكان أورشليم ذاتها، وهذا على غير العادة، وذلك بسبب معجزة إقامة لعازر من الموت، وهي الآية التي صنعها الرب قبل مجيئه مباشرة إلى أورشليم:

«فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به.» (يو ١١: ٤٥)
«لهذا أيضاً لاقاه الجمع، لأنهم سمعوا أنه كان قد صنع هذه الآية.» (يو ١٢: ١٨)

في حين أن الأناجيل الثلاثة الأخرى للقديس مرقس والقديس متى والقديس لوقا لم توضح لماذا لاقاه الشعب بالسعف والهتاف في دخوله أورشليم، بل ذكروا حادثة دخوله أورشليم مقطوعة عما قبلها وعما بعدها.

كذلك يوضح هنا ق. يوحنا أن إقامة لعازر من الموت كانت هي السبب المباشر والقوي الذي جعل رؤساء الكهنة والفريسيين يجمعون مجتمعهم الأخير والخطير ويتخذون قرارهم بالقتل المسبب: «فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجعاً، وقالوا: ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة؟ إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا... إنه خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب...» (يو ١١: ٤٥-٥٠). «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يو ١١: ٥٣)؛ بل ويؤكد ق. يوحنا أن آية إقامة لعازر من الموت هي التي أنهت على كل أمل الفريسيين في محاولة محاصرته سلمياً، واستسلموا لقرار القتل:

(٤) لذلك يقول مزموّر عشية أحد الثمانين: «رتبوا عيداً في الواصلين إلى قرون المذبح»، على اعتبار ذراعي الصليب هما قرون المذبح الحقيقي وأحد الثمانين هو «العيد» الموصل إلى الصليب.

١٩:١٢ «فَقَالَ الْفَرِيسِيُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. انظُرُوا، إِنَّكُمْ لَا تَنْفَعُونَ شَيْئاً، هَذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ».

هذه آخر مقارنة يعقدها الإنجيل بين المؤمنين والرافضين، بين أبناء النور وأبناء الظلمة والموت؛ بين الجمع الذي شاهد وآمن وشهد بحماس، وبين الفريسيين الذين رفضوا، وأخيراً شهدوا لئأسهم. وفي كلام اليأس الذي عبّروا به عن عدم نفعهم، وعن ذهاب العالم وراء يسوع، كانت آخر نبوة من فم الأعداء عما سيكون حتماً: «هَذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ»، وإنهم لن ينفعوا شيئاً وأبداً.



٣ - رد المسيح على طلب اليونانيين

«إن ارتفعت عن الأرض، أُجذب إليَّ الجميع» (*)

١٢ : ٢٠ - ٢٢ «وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد. فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل، وسألوه قائلين: يا سيّد نريد أن نرى يسوع. فأتى فيلبس وقال لأندراؤس، ثم قال أندراؤس وفيلبس ليسوع».

وهكذا يصوّر لنا ق. يوحنا الوجه المقابل من الغرب للمجوس الذين أتوا من المشرق، أولئك أتوا لتحية «المولود ملك اليهود» (مت ٢ : ٢)؛ وهؤلاء لتحية «المصلوب ملك اليهود»، لكي يجمع المسيح في حياته ومماته الشرق بالغرب، وليحمل له الكل الشهادة والعبادة والسجود والتمجيد.

المجوس قالوا: «أتينا لنسجد له»، واليونانيين «صعدوا ليسجدوا في العيد»، والاثنان كانا طلائع «الخراف الأخر التي ليست من هذه الحظيرة»، جاءوا ليفتتحوا عصر الأمم. ولكن كانت بعثة شرف الشرق مبكرة للغاية إذ سجلت نفسها في نفس سجل الميلاد، لتحفظ حقها بأولوية الانضمام لرعية القديسين وأهل بيت الله، وهذه سمة النشاط في أهل الشرق. أما بعثة الغرب فتأخرت للغاية، ولكنها لحقت الساعة الحادية عشرة، فأخذوا وعداً — من خلف الباب — بنصيبهم الكامل من الثمر الكثير: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أُجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢ : ٣٢). ولكن هذا كله يتم بعد أن تقع حبة الخنطة وتموت أولاً، لكي تملأ حقول الغرب كلها، مبشرين وقديسين ومعلمين وعلماء!!

كان صوت هؤلاء اليونانيين الأتقياء، بالنسبة لصخب هذا الموكب الزاخر، يبدو في المظهر خافتاً وغير مُلْفِت للنظر إزاء هتاف الآلاف. ولكن في مقدّرات الأمم وسجلات أبحاد المؤمنين، كان صوت هؤلاء اليونانيين كالرعد كما في بلاد الغرب، كصوت مياه كثيرة، كصوت الله نفسه

(٥) يُقرأ هذا الفصل في مساء أحد الشعانين (الساعة الأولى من ليلة الاثنين)، لأن هذا هو الوقت المحدد الذي دار فيه هذا الحديث بعد دخول الرب أورشليم، ثم أيضاً لأن فيه دعوة صريحة من الرب لأن نشاركه في آلامه: «إن كان أحد يخدمني فليتبني». وكان الكنيسة تبنيها بهذه القراءة في بداية أسبوع الآلام أن لا نقف موقف المتفرجين، بل أن ندخل في شركة سرية مع الرب أثناء آلامه.

كما يُقرأ هذا الفصل أيضاً في باكر عيدي الصليب لما جاء فيه من إشارة إلى رفع الرب على الصليب وتأثير ذلك على الجميع: «إن ارتفعت عن الأرض، أُجذب إليَّ الجميع».

الذي تراءى لبولس في الحلم على هيئة الرجل المكدوني (يوناني) يطلب المعونة (أع ١٦ : ٩)؛ أو بلغة أحد الخوص : «هوشَعْنَا خَلَصْنَا»!...

١٢ : ٢٣ و ٢٤ «وأما يسوع فأجابتهما قائلاً: قد أتت الساعة لئتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة الخنطة في الأرض وتمت، فهي تبقى وتُحْدِثها. ولكن إن ماتت، تأتي بثمر كثير».

«قد أتت الساعة»:

الرب يعلن انتهاء الخدمة العامة في الرواقات الخارجية، وبدء خدمته الخاصة أمام أبيه في قدس الأقداس، كرئيس كهنة ينضح بدمه سرّاً على العالم من فوق الصليب. الزمن بعد ليس زمن رؤية وحديث مع الناس، ولكنها الآن ساعة معصرة الدم، وينبغي أن أدوسها وحدي: «قد دُسْتُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد» (إش ٦٣ : ٣). لذلك حينما سمع باليونانيين (الشعوب)، علم أن المعصرة قد أعدت.

على طول خدمة الرب، سمعنا منه أن ساعته لم تأت بعد، وحينئذ لم يقوَ عليه أعداؤه، لا بالتهديد ولا بالوعيد، ولا حتى برفع الحجارة، ولا رفع الأيدي، إذ كان يعبر من وسطهم دون أن يروه وأيديهم قابضة على الهواء. ولكن هذه ساعتهم وسلطان الظلمة (لو ٢٢ : ٥٣)، وقد أحنى رأسه للصليب وعلى الصليب برضاه، لأنه كان يرى السرور الموضوع أمامه (عب ١٢ : ٢)، والمجد الذي كان ينتظره. لأنه بالصليب غلب الموت، وقام مكللاً بالمجد، وظهر «يسوع قائماً عن يمين الله». (أع ٧ : ٥٥)

إذن، فكانت هي الساعة التي ينتظرها للعودة إلى الآب. ولكن كان عليه أن يضع نفسه أولاً لكي يأخذها ثانياً، يضعها في هوانٍ و يأخذها في مجد، والموت والقيامة متشابكان تشابكاً مستتراً، لا يفهم الواحد بدون الآخر، ولكن الموت كان فريضة على الواحد (يسوع)، أما القيامة فصارت عطاءً للجميع.

«حبة الخنطة»:

يلاحظ القارئ أن إجابة المسيح على سؤال اليونانيين بخصوص رؤيته والتمتع به وبالتالي التلمذة له - تأتي على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: التشبيه بالطبيعة، وهو سقوط حبة الخنطة، وأن موتها الظاهري هو الذي يحوّلها

إلى ثمر كثير.

المستوى الثاني: التطبيق على مستوى النفس، على أساس إهانة الذات عن وفي هذا العالم، فهو الذي يُقيمها ويُحييها إلى حياة أبدية، حيث العالم هنا هو بمثابة الأرض بالنسبة لحبة الخنطة.

المستوى الثالث: الالتصاق بالنموذج الإلهي، فالمسيح مات بإرادته وقام. فإذا اتبعناه تماماً، نصير مثله، ونأخذ تجربته، فنموت معه ونقوم معه، إذ نأخذ قوة موته وقوة حياته: «وهم غلبوه (أي غلبوا المشتكي علينا) بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ ١٢: ١١)

والنتيجة التي نخرج بها من طرح هذه المستويات الثلاثة هي:
أولاً: أن المسيح سيموت ليعبر إلى اليونانيين وإلى العالم كله، بل وإلى ملء السموات والأرض.

ثانياً: ليس مجرد رؤية المسيح وسماعه يحوّلنا إلى تلاميذ، بل يتحتم من جانبنا أن نكون مثل حبة الخنطة نموت عن ذاتنا التي نحدّثنا وتربطنا بالأرض والعالم، وذلك حتى نرى المسيح والحياة.
ثالثاً: موت المسيح وقيامته سيكون النموذج الفعّال الذي إذا التصقنا به وخدمناه، نأخذ قوته ونشترك في نتائجه، وهذا متوفر لدى كل إنسان في العالم.

وبهذه الثلاثة المستويات، نبلغ إلى تلمذة المسيح وشركة حياته. فبدل أن يأتوا إليه ليروه، يمكنهم أن يعيشوا معه دون أن يأتوا إليه.

أولاً: التشبيه بالطبيعة:

حبة الخنطة المهيأة للدفن في الأرض هي الواحد (يسوع)، بكل معنى الوحدة في العزلة عن الكل. هذا كان عمق أعماق شعور المسيح الذي كان يعتصره ويهزُّ كل كيانه: «نفسي قد اضطربت» (يو ١٢: ٢٧)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت» (مت ٢٦: ٣٨)، «أيها الآب نجني من هذه الساعة» (يو ١٢: ٢٧)، «وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (لو ٢٢: ٤٤). ولولا شعوره الدائم بحلول الآب فيه، لسمعنا أكثر وأكثر، ولكنه كان يعود سريعاً لأعماقه، فيرى راحته في الآب: «وأنا لست وحدي، لأن الآب معي.» (يو ١٦: ٣٢)

ولكن كما أن حبة الخنطة تغلب وحدتها بموتها ودفنها في الأرض فتصير كثيراً، هكذا رأى

المسيح «يسوع» في موته عبوراً من وحدته أي فرادته التي عانى منها، إذ لم يفهمه أحد ولم يسمعه أحد، وإلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، وحتى إخوته لم يكونوا يؤمنون به (يو ٧: ٥)، ورئيس الكهنة مزق ثيابه لأنه لم يفهم كلامه، وتلاميذه خانوه وواحد منهم باعه، والمتقدم فيهم أنكره والباقيون تركوه وهربوا؛ ثم تَمَّت معجزة حبة القمح التي دُفنت في الأرض، إذ خرجت منها السنبلتة تحمل ثمراً كثيراً، كله من جسم حبة الحنطة، «من لحمه ومن عظامه» (أف ٥: ٣٠)، «وجيش عظيم جداً جداً» (حز ٣٧: ١٠)، «فقال لي تنبأ للروح "تنبأ يا ابن آدم"، وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع وهبَّ على هؤلاء القتل ليحيوا. فتنبأتُ كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فَحَيُّوا، وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً» (حز ٣٧: ١٠ و ٩). «بعد هذا نظرت، وإذا جَمْعٌ كثيرٌ لم يستطع أحد أن يَعدَّه، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل.» (رؤ ٧: ٩)

انتقل المسيح من وحدته إلى كُليته، من فرادته إلى مُطلقه، من انحصاره في فلسطين إلى ملئه للسماء والأرض: «صعد فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» (أف ٤: ١٠). بموته عبَّر المسيح إلى كل إنسان كان أو سيكون، وعَوَّض أن كان على كل إنسان أن يَقبُر إليه، صار هو الذي يَقبُر إلى الكل في كل مكان وزمان. عَوَّض أن نذهب إليه ونقرع، صار هو الذي يقف على كل باب ويقرع: «هأنذا واقف على الباب، وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه، وأتمشى معه وهو معي.» (رؤ ٣: ٢٠)

بموت المسيح ودفنه، استُعِلَّت القيامة والروح والحياة الأبدية التي فيه، والتي طرحها الروح القدس مع الرياح الأربع على قتل الشعوب يهوداً ويونانيين، فدخل فيهم روح المسيح فَحَيُّوا، وقاموا، جيشٌ عظيمٌ جداً جداً.

وهكذا كان ردُّ الرب على سؤال اليونانيين، متضمناً رسالته الإلهية المحيية لهم من داخل آلامه وموته ومجده الذي حانت ساعته. فكان المسيح يخاطبهم: أتركوني الآن وحدي، لأدوس معصرتي، لأنضج دمي عليكم فتحيون. سأطرح روحي عليكم، وحياتي، وكلمتي، ورسالتي، لتصيروا شعبي.

+ «ولكي يبيِّن غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدّها للمجد، التي أيضاً دعانا نحن إِيَّاهَا، ليس من اليهود فقط، بل من الأمم أيضاً. كما يقول في هوشع أيضاً: سأدعو الذي ليس

شعبي شعبي، والتي ليست محبوبة محبوبة. ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه (رواق الأمم) لستم شعبي، أنه هناك يُدْعَوْنَ أبناء الله الحي. « (رو : ٢٣-٢٦)

ثانياً: التطبيق على مستوى النفس:

٢٥: ١٢ «من يحب نفسه يهلكها، ومن يُبغِض نفسه في هذا العالم، يحفظها إلى حياة أبدية».

هنا التطبيق على المستوى الأعلى، إذ نحن لسنا بصدد موت طبيعي ولا أرض طبيعية ولا حياة طبيعية ولا ثمر طبيعي، ولكن التطبيق على الطبيعة فقط نقلنا إلى المستوى الروحي الأعلى.

وهذا هو قانون الحياة المسيحية، فكل ارتقاء إلى مستوى أعلى يحتاج أو يتم على أساس خسارة المستوى الأقل: «إن كنتم قد سمعتموه، وعُلمتم فيه، كما هو حق في يسوع (الموت الطبيعي بالجسد)، أن تخلعوا (الموت أو الإماتة للنفس)، من جهة التصرف السابق، الإنسان العتيق الفاسد (أهواء وشهوات النفس) بحسب شهوات الفروور، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله (الحياة الأعلى) في البرّ وقداسة الحق» (أف ٤ : ٢١-٢٣). وهذا هو عين مثل حبة الحنطة، وإنما على المستوى الأعلى. ويشرحه القديس بولس الرسول عملياً: «لكن ما كان لي ربحاً (فريسيٍّ ومعلِّم إسرائيل)، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إنني أحسب كل شيء أيضاً خسارة، من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح» (في ٣ : ٧ و٨). وواضح هنا أن الربح الروحي هو على أساس الخسارة المادية والمعنوية، والخسارة أصابت الذات والربح هو الحصول على المسيح عوض الذات: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ». « (غل ٢ : ٢٠)

وهكذا، فإن التضحية بما هو أقل، مهما كان شهياً ومرغوباً ومرحاً لعظمة الذات، يفتح الطريق إلى بلوغ ما هو أعظم بكثير بالنسبة لروح الإنسان وحياته الأبدية.

كذلك، فإن بذل الذات وإخضاعها لمطالب الحياة الروحية، يُعوّض بالربح الذي يفوق البذل، وهو ربح المسيح؛ فالمسيح يحل محل الذات. كذلك أيضاً، فإن قبول الموت الإرادي، أي الإماتة، والإماتة تصيب كل ما هو قابل للفناء، يفتح باب الحياة الأبدية خطوة بخطوة.

وباختصار، فإن الذي يلتصق بما هو فاني، يفنى معه؛ وكل من يلتصق بالحياة يمتلئ بها.

وهكذا كل طَّماع يأخذ ويحترن ويضيف إلى ذاته من مسرات الدنيا وأعجادهَا، يُحطَّم ويُهْلِكُ ذاته، بمعنى أنه يجعلها بلا قيمة بالنسبة للوجود الروحي ومسراته. وكل جاحد لمُشتهيات ومسرات وأعجَاد الذات، تصبح ذاته نفسها هي السُّلَم الذي يصعد به إلى السماء.

هنا المسيح على ضوء سؤال اليونانيين الذين يطلبون المجيء إليه لرؤيته، يحيب ويوضح كيفية المجيء إليه؛ فرؤية المسيح ليست بالسهولة التي يراها هؤلاء اليونانيون، أو يراها الحجاج الذين يذهبون إلى أورشليم أو الهيكل أو الجبل المقدس ليروا الله ويجتمعوا إليه: «قال لها يسوع: يا امرأة صدِّقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق.» (يو: ٤: ٢١ و٢٣)

ولكي يكون السجود لله بالروح، يتحتم أن يسبقه إخضاع وإماتة عن العالم للجسد.

وحبة الخنطة هي هنا النفس، والأرض هي هنا العالم، والثمر هو هنا الحياة الأبدية.

والملاحظ في هذه الآية أن المسيح يضع المحبة الخاطئة في مقابل البغضة الممدوحة بالنسبة للذات. ولورجعنا إلى المحبة الخاطئة في الإنجيل نجد أنها محصورة في الخمسة الاتجاهات أو المجالات التي تؤدي إلى الهلاك:

- | | | |
|------------------|------------------|---------------------------|
| ١ — محبة الظلمة. | ٢ — محبة العالم. | ٣ — محبة المجد بين الناس. |
| ٤ — محبة الجسد. | ٥ — محبة المال. | |

وهذه الخمسة هي المداخل المتوازية لمملكة الشر أو الشيطان. والإنحياز لأي اتجاه أو مجال من هذه المجالات يُظهرُ عدم رغبة في محبة المسيح والله.

١ — والظلمة، هي الضدُّ لـ «نور» الكلمة: «وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو: ٣: ١٩)

٢ — والعالم، هو الضدُّ للمسيح والله: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو: ١٨: ٣٦)، «محبة العالم عداوة لله.» (يع: ٤: ٤)

٣ — ومجد الناس، هو الضدُّ لمجد الله: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض. والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (يو: ٥: ٤٤)

٤ — والجسد، هو ضدُّ لله: «لأن اهتمام الجسد هو موت ... هو عداوة لله.» (رو: ٨: ٦ و٧)

٥ - والمال، هو ضد الإيمان بالله: «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلُّوا عن الإيمان.» (١ تي ٦: ١٠)

فإن كان موت المسيح حتمياً، للحصول لنا على القيامة والحياة الأبدية، فلا مفر من أن يكون الموت الإرادي حتمياً لنا (شركة الموت مع المسيح)، لنحصل ونشترك في القيامة والحياة الأبدية.

٢٦: ١٢ «إن كان أحد يخدمني فليتبغني. وحيث أكون أنا، هناك أيضاً يكون خادمي، وإن كان أحد يخدمني يُكرِّمه الآب.»

لو أننا وضحنا هذا المثل، سهَّل علينا التفسير، والمثل الأمثل هنا هو التلاميذ الذين ساروا على درب المعلم: «يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه» (مت ١٠: ٢٥). هؤلاء خدموا المسيح، حيثما سار بهم المسيح في مشارق الأرض ومغاربها، وهؤلاء كرَّمهم الآب السماوي أيما تكريم:

+ «فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم، الذين تبغثُموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر... وكل من ترك... مِنْ أَجْلِ اسْمِي، يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية.» (مت ١٩: ٢٧-٢٩)

وعن الذين أحبوا وصمموا أن يخدموا المسيح، قدَّم المسيح عنهم صلاة خاصة للآب:

+ «أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي، حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني...» (يو ١٧: ٢٤)

الملاحظ هنا في طلب المسيح من الآب: «يكونون معي حيث أكون أنا»، أنها ليست هي نفس الطلبة التي طلبها من التلاميذ: «حيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي»، لأن طلبه المسيح من الآب هي النتيجة: «لينظروا مجدي»، أما طلبه المسيح من التلاميذ فهي المنهج، أي شركة الآلام والموت: «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣)، «يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه» (مت ١٠: ٢٥). والذي يتبع المسيح، يتحتم أن يحمل صليبه حتى يستطيع أن يتبعه، ولكن الذي يتبع المسيح حاملاً الصليب، فهو حتماً سيبلغ القيامة والحياة والمجد. فخدمة المسيح، هي بحد ذاتها تبدأ بالموت وتنتهي بالمجد، أي بتكريم الآب، كالمسيح وفي المسيح. ولكن لا كرامة من الآب لإنسان ما بدون المسيح، كما أنه لا كرامة مع المسيح بدون الصليب!! من أجل

هذا يقول بولس الرسول عن خبرة و يقين : «لأن لي الحياة هي المسيح ، والموت هو ربح .»
(في ١ : ٢١)

٢٧ : ١٢ «الآن نفسي قد اضطربت . وماذا أقول . أيها الآب نجني من هذه الساعة . ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة .»

الحديث عن الموت والحياة حديث ، والمذاقة مرعبة . والمبادئ العامة تعبّر عليها العقل بخفة ، ولكن الإختبار الشخصي محنة .

وما أبهج الحديث عن الخلاص والمجد هلولياً !! ولكن لا يأتي الخلاص إلا بهمة النفس وذوق الحنظل . وبكفي ، يا قارئ العزيز ، أن تسمع من فم المسيح — الذي أقام لعازر بكلمة — وهو يئن هكذا : «نفسى قد اضطربت» ، «أيها الآب نجني» . فالخلاص لم يكسبه لنا المسيح سهلاً : «لأنه لاقَ بذاك ... أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام .» (عب ٢ : ١٠)

«نفسى» = ψυχή وباللاتينية anima :

نفس المسيح هي المركز الذي يتجمع فيه ملء الحياة البشرية ، وقاعدة المشاعر الإنسانية . أما الروح πνεύμα وباللاتينية spiritus . فهي ، في المسيح ، قاعدة التأثيرات الروحية ، استقبالاً وانعكاساً ؛ استقبالاً بالحديث مع الله ، وانعكاساً للتعبير والتأثير .

والنفس في المسيح جاءت بهذه الصور :

«الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف .» (يو ١٠ : ١١)

«ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم ، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين .» (مت ٢٠ : ٢٨)

«نفسى حزينة جداً حتى الموت .» (مت ٢٦ : ٣٨)

«لأنك لن تترك نفسي في الهاوية .» (مز ١٠ : ١٦ وأع ٢ : ٢٧)

أما الروح فجاءت في :

«ونكس رأسه وأسلم الروح .» (يو ١٩ : ٣٠)

«يا أبته ، في يديك أستودع روحي .» (لو ٢٣ : ٤٦)

والموت في المسيح تم هكذا :

١ — بانفصال النفس عن الجسد ، ولكن اللاهوت بقوة القيامة التي له لم ينفصل قط ، لا

عن النفس التي باشرت نزولها إلى عالم الأرواح المحبوسة، ولا عن الجسد الذي بقي مسجى في القبر ميتاً ينتظر عودة النفس.

٢ - وب تسليم الروح ليد الآب.

وموقع هذه الآية: «الآن نفسي قد اضطربت» بالنسبة للآيات السابقة مهم للغاية. لأن المسيح، رداً على طلب اليونانيين، طرح ثلاثة افتراضات يتحتم أن تتم أولاً، حتى يستطيع لا اليونانيون فقط بل وكل الناس أن يروه ويتعرفوا عليه ويقبلوه ويتحدوا به!

أولاً: أن يموت هو، هنا أعطى لصورة موته وقيامته المثل من الطبيعة في حبة الحنطة.

ثانياً: أن يموت الإنسان بإرادته (الإماتة) عن الذات ومتعلقاتها المادية والديوية.

ثالثاً: أن يكون الإنسان مستعداً لأن يخدم المسيح بأن يتبعه أينما سار، للآلام، ثم الموت، وبالتالي القيامة والمجد.

وأخيراً جاءت هذه الآية لتتنزل بهذه النظرية كلها، بفروضها الثلاثة، إلى مستوى التجربة العملية الواقعة حالياً «الآن»، لكي يكشف المسيح لتلاميذه واليونانيين وكل العالم، أن الموت الذي جازّه لم يكن سهلاً، ولا كأنه بدون مجاهدة، فكشف عن رغبة الموت التي بدأت تُذاهم نفسه البشرية، عندما قرر، وانتهى من قراره، قبول الموت، وجاءت ساعته فعلاً.

وهذا أوضحه ق. يوحنا من عنده، بصورة تكشف عن قدرة هذا القديس في فهم حركات النفس داخل المجال الإلهي بصورة مبدعة: «قال هذا مشيراً إلى آية ميتة كان مُزمعاً أن يموت» (يو ١٢: ٣٣). ق. يوحنا هنا يرى أن كلام المسيح هو كشف عن حقيقة وعنق وطريقة الموت الذي سيواجهه. فالنفس البشرية — وهي قاعدة المشاعر ومجتمع ملء الحياة البشرية فيه — بدأت تنوء تحت ثقل قبوله الدخول في تجربة الموت. وهذه هي غُصة الموت!! التي هي بعينها المعروضة علينا دائماً حينما نقرر ونباشر عملية الإماتة عن العالم، بقمع النفس، وبغضة ميولها وشهواتها التي تبدو لها كأنها حيوية بنوع من خداع البصر.

«نفسى قد اضطربت»:

«اضطربت» باليونانية τετάρηκται وباللاتينية Turbata، والاضطراب لا يعني الخوف (وقد جاءت أيضاً في يو ١١: ٣٣ ويو ١٣: ٢١)، بل هو انفعال عاطفي شديد داخل النفس.

ق. يوحنا هنا يقدّم نفس الوصف الذي قدمه الإنجيليون الثلاثة عن المجاهدة التي عاناها

الرب في جثسيماني. ولكن لاهوت المسيح، عند ق. يوحنا، يستحيل أن يتداعى أمام سطوة الموت، حتى وإن تداعت النفس البشرية فيه نحو الاضطراب، بل يقدم ق. يوحنا لاهوت المسيح دائماً دائماً منتصراً وساحقاً للعدو. لذلك يسجل ق. يوحنا القول المقابل لهذا الاضطراب النفسي من الموت من جهة الرب، بالربعة والانحدار اللذين أصابا الشيطان بالمقابل: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً.» (يو ١٢: ٣١)

«وماذا أقول؟»:

يعتقد بعض الشُّراح أنه سؤال استنكاري، الرَّدُّ عليه جاء بكلمة «لا» في الكلمة «ولكن». ولكن الحقيقة أن المسيح هنا لا يسأل أحداً، ولكنه ينبّه السامع ليدرك عنف الانفعال الناتج عن اضطراب النفس إزاء التجربة. فهو ليس موتاً عادياً، بل أعنف موت ماته إنسان في الوجود. فهو ليس حكم موت واقع عليه، بل صراع مع الموت ذاته ومع من له سلطان الموت (عب ٢: ١٤)، والذي سينتهي بموت الموت ذاته، واستعلان الغلبة على الموت بالقيامة التي ستُضافُ إلى حقوق الإنسان. نعم، سيموت المسيح بكل معنى الموت، ولكن في المقابل سيندحر الشيطان، وتنكسر شوكة أو سيف الخطية في يده. علماً بأن ما جاء بعد سؤال: «وماذا أقول»، لم يكن بالسلب بل بالإيجاب، فهو يطلب، والطلب استجيب بالفعل.

«أيها الآب نجني من هذه الساعة»:

والجواب جاء من الآب بعد ذلك: «مَجَّدْتُ وأَمَجَّدُ أيضاً». هذه صلاة وتوسُّل لدى الآب، ليس لإلغاء هذه الساعة من حياة المسيح، لأنه من أجلها جاء، ولكنه يطلب النجاة من التجربة الآتية عليه فيها، بمعنى أن يُخْرِجَه منها سالماً ومنتصراً.

والتعبير اليوناني أكثر توضيحاً؛ فهو يطلب الخروج خارج هذه الساعة سالماً $\sigma\omega\sigma\acute{o}\nu\ \mu\epsilon\ \acute{\epsilon}\kappa$ وهنا $\acute{\epsilon}\kappa$ تفيد خارجاً (وليس من $\acute{\alpha}\pi\acute{o}$)، وباللاتينية تبيِّن بأكثر وضوح أيضاً $salvica\ me$ ex hora hac، أي الخلاص خارج، أو الخروج من، وليس الخلاص من:

not deliverance from , but deliverance out of.

وق. يوحنا يهتم بأقصى اهتمام أن لا يجرح اللاهوت من أي جانب. فالموضع الذي جاء في الأناجيل الأخرى عن هذه الصلاة بصورة مسترسلة مثل: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك. فأجز عني هذه الكأس» (مر ١٤: ٣٦)، يدق فيها ق. يوحنا ليشرحها على مستوى «النجاة منها»، أي الخروج من التجربة بصورة تمجِّد الآب: «أيها الآب مجد اسمك»، وليس

إلغاءها بأي حال من الأحوال . ثم يؤكد المسيح طاعته للآب بقبوله التجربة : « لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة » . فليست الساعة بعد ذاتها التي يطلب المسيح الخلاص منها بل التجربة ، وهي تجربة الصراع الرهيب مع الموت « لأجل هذا » . فهو جاء « لأجل هذا الصراع » ، وهو يطلب أن يخرج من هذا الصراع سالماً بصورة تمجد اسم الآب .

هذا واضح في قول سفر العبرانيين : « الذي في أيام جسده ، إذ قدّم بصراخ شديد ودموع ، طلبات وتضرعات (في جثسيماني) للقادر أن يخلصه من الموت ، وسمِعَ له من أجل تقواه . » (عب ٥: ٧)

إذاً ، فالمسيح كان مُحِقّاً في توسله : « نَجِّنِي من هذه الساعة » أي نَجِّنِي من تجربة الصراع مع الموت ، بأن أخرج منها منتصراً . التي جاءت هنا في سفر العبرانيين « أن يخلصه من الموت » والنتيجة جاءت كما توقع المسيح وكما طلب ، « وسمِعَ له » !!

١٢ : ٢٨ - ٣٠ « أبها الآب مجد اسمك . فجاء صوت من السماء مجدّ وأمجّد أيضاً . فالجمع الذي كان واقفاً وسمِعَ ، قال قد حَدَثَ رَعْدٌ . وآخرون قالوا : قد كلّمَهُ ملاكٌ . أجاب يسوع وقال : ليس من أجلي صارَ هذا الصوت بل من أجلكم . »

« أبها الآب مجد اسمك » :

وهنا ينبغي أن ننتبه لثلاث يفوت منا المعنى ، فاسم الآب « أنا هو » $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ ، قد أُعطي للمسيح أن يعمل به ، ويستعلن نفسه فيه ، ويُبرهن به أنه والآب واحد ، كيان واحد ؛ و « أنا هو » $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ يعني « أنا الكائن بذاتي » ، قد صار كاسم المسيح .

فالمسيح هنا يطلب من الآب أن يمجّد اسمه الذي منحه للمسيح ، بأن يُمجّد الآب نفسه في المسيح ، وبالمسيح . وذلك بأن يمجّد المسيح من خلال تجربة الموت ، فيقوم منتصراً على الموت ، وبهذا يتمجد اسم الآب في المسيح . وحينئذ يدرك الناس من قيامة المسيح من الموت أن الاسم الإلهي ، « أنا هو » ، قد صار اسم المسيح لمجد الآب حقاً ، وأن « المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب » (في ٢ : ١١) ، وهذا ما سبق أن نبّه عليه المسيح لندركه في حينه .

« فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان (الصليب وبعده القيامة)، فحينئذ تفهمون أنني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » (يو: ٨: ٢٨). « لأنكم إن لم تؤمنوا أنني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ تموتون في خطاياكم » (يو: ٨: ٢٤)، أي « أنني أنا حامل لاسم الآب ».

أي أن القيامة من الموت ستكون بمثابة إعلان مجد الله في المسيح، على أساس غلبة المسيح على الموت والخطية، وبالتالي تكميل التكفير عن الخطايا وغفرانها لحساب الإنسان، الأمر الذي من أجله جاء إلى العالم وجاء إلى هذه الساعة.

واضح إذاً كل الوضوح، أن المسيح يطلب الخروج من الموت وليس إلغائه، والخروج بصورة تمجد «اسم الآب» الذي عليه. وهذا هو الرد على السؤال الذي سبق أن سألته: «والآن ماذا أقول (أطلب)؟» نعم هذا هو الذي يطلبه.

وفي هذا نرى أن المسيح لم يفصل بين آلامه التي عثر عنها بأن نفسه قد اضطربت، وبين هدفه الذي هو الصراع مع الموت: «من أجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة». أي أن المسيح أوضح أن آلامه جاءت جزءاً من عمله: «من أجل هذا أتيتُ». كما لم يفصل المسيح في رؤيته وإحساسه وانفعاله بين الموت والمجد، أي القيامة، لذلك كانت «الساعة» تحمل له إحساس الألم والموت والقيامة بصورة مترابطة، حرص المسيح أن تكون هكذا عند الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (يو: ١٨: ١١). وردُّ الآب على سؤال: «متجد اسمك»، جاء كموافقة كاملة من الآب لقبول الابن الكأس التي أعطاه الآب ليشربها، مع وعدٍ باستمرار تمجيد عمل المسيح حتى النهاية: «متجدت وأمتجد أيضاً».

«فجاء صوت من السماء: متجدت وأمتجد أيضاً»:

يلاحظ قارئ إنجيل يوحنا أن حادثة «التجلي» لم يذكرها هذا الإنجيل كحادثة قائمة بذاتها. ولكنه هنا يكشف بهذا الصوت العلني الآتي من السماء، والذي سمعه كل التلاميذ والجمع واليونانيون، عن تصميم الآب على استمرار رفع اسمه — في المسيح — إلى مستوى المجد؛ سواء في الماضي الذي يشمل كل حياة المسيح منذ أن أعلن عن ميلاده بيد ملاك، ثم بواسطة جمهور من جنود الملائكة، ثم بالملائكة التي جاءت لتخدمه في تجربة صومه الأربعين يوماً وغلبته على الشيطان، وبعد ذلك بالآيات المستمرة وآخرها إقامة لعازر من الموت، والتي سجلها المسيح على أنها «لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به» (يو: ١١: ٤)، على أن المجد مُتبادَل.

ثم يضيف الآب أنه «يَجْعَدُ أيضاً» في زمن المستقبل بمعنى الاستمرار. والمعنى يشمل «الساعة» بكل مشتملاتها حتى النهاية، وما بعد الساعة من قيامة. ففي حادثة التجلي ناداه الآب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا» (مر ٩: ٧)، وتكلم معه موسى وإيليا عن الخروج المُزْمَع أن يكمله في أورشليم (لو ٩: ٣١)؛ وهنا، وقد أصبح بالفعل ميعاد خروجه على الأبواب، فهوذا صوت الآب من السماء يؤكد استمرار تمجيده لاسمه في المسيح على طول المدى، وعلى مستوى العالم أجمع.

لم يكن هذا الصوت لتقوية المسيح، أو استجابة شخصية له، لأن المسيح سبق وأعلن بصوت مسموع وفي خطابه للآب: «وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمعُ لي» (يو ١١: ٤٢). بل إن هذا الصوت العلني، والشديد كالرعد، قد كان لیسْمعه جميع الواقفين — وليس المسيح — ومَقَّادُه هو إعلان الآب لقبوله طاعة الابن وخضوعه، وموافقته على دخول التجربة مع وعْدِ علني بالمجد! وهذا يدخل حتماً في «الشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه» (١ يو ٥: ١٠). تماماً كما جاء صوت الآب من السماء في التجلي لیسْمعه التلاميذ، وليس المسيح: «هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا» (لو ٩: ٣٥). لأن الموت الذي سيكمله المسيح هو لأجلهم، ولأجل العالم كله.

لهذا أسرع المسيح لكي يصحح ما فهمه الجمع خطأ، أن ملاكاً قد كلّمه، وقال لهم: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم»، فهو شهادة علنية مسموعة من الآب للمسيح، وموافقة علنية أمام الجميع بقبول طاعة الابن للدخول في مواجهة العدو من داخل الموت. وبذلك يُعتبر موت المسيح تكليفاً من الآب السماوي، ووعداً علنياً أيضاً بالمجد المتبادل، الآب بالابن والابن بالآب، بالقيامة العتيدة أن يكملها المسيح بسلطانه وتدير الآب.

ولكن المسيح، بسماعه صوت الآب من السماء بالموافقة النهائية وقرار المجد من داخل الموت، تهلّل، وأدرك في الحال انهزام الشيطان وسقوط مملكته من السماء.

١٢: ٣١ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً».

يلاحظ أن المسيح لم يقل «الدينونة» بصورتها النهائية، بل «دينونة» بدون تعريف، كدينونة أولى بالنسبة لدينونات قادمة، كلٌ في ميعادها. ولكن هنا دينونة حاسمة أيضاً وذات مفعول خطير، لأن آلام المسيح التي بدأ يدخلها، يقع وزرها على نظام العالم القضائي من جهة العدالة المذبوحة، والتي يمسك زمامها الشيطان، ويُحرّكها ضد الأتقياء والضعفاء، لذلك تُعَبَّرُ هذه الدينونة الأولى

للعالم بجزء جُزْم القضاة والرؤساء، وتجريماً لروحهم التي يمتلكها الحق والكراهية لكل ما هو حق وعدل. وهذه هي الدينونة التي ألح إليها الروح القدس على فم سمعان الشيخ، الرجل البار الذي تكلم بروح النبوة للقديسة مريم، والمسيح كان ما زال رضيعاً في حضنها:

«وباركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضِعَ "لسقوط" وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاوَمُ» (لو ٢: ٣٤)، حيث بدأ هنا السقوط الفعلي لرأس الحية المدبرة لهلاك الإنسان منذ البدء.

«هذا العالم»:

لم يُفرَّق المسيح بين عالم اليهود أو اليونانيين، فهو عالم الشر المستحوز على الرؤوس والرؤساء بلا تفریق، فشرُّ اليونانيين، وإن كان قد بلغ حد السَفِّ والمُجون، فهو لا يزيد بأي حال عن شرِّ اليهود الذين قاوموا الله والروح القدس ودبحوا ابن صاحب الكرم، لتؤول الكرامة لهم من دون الله.

«الآن دينونة ... الآن يُطْرَحُ»:

تكرار كلمة «الآن» يوضح الحد الحاسم بين المذِّ والجَزْرِ، هذَّ العالم الكاذب اللاهي عن الله والحق، وهذَّ الشيطان في استغلال النفوس الخاضعة له، وتجذُر القوة الإلهية الرادعة للآثنين.

وهنا يقف الزمن عند كلمة الآن — وهي التي عرفها المسيح هكذا: «قد أتت الساعة» — وهي الفاصلة بين مرحلة الظلمة القائمة التي نَحِيَّتْ على العالم بتضامن الشيطان، وبين مرحلة انبثاق النور العتيد أن يَشْطَعَ على العالم وشيكاً، بقيامة المسيح.

«الآن يُطْرَحُ رئيس هذا العالم خارجاً»:

«رئيس هذا العالم» هو الآن في مواجهة علنية أمام «رئيس الحياة»!! صاحب الموت رفع قرنه على حامل جوهر الحياة!

«أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يؤْهَبَ لكم رجل قاتل، ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك.» (أع ٣: ١٤ و١٥) وهكذا لم يَقْوِ سلطان الموت في يد الشيطان على سلطان الحياة في جسد المسيح.

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد، بالموت، ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس.» (عب ٢: ١٤)

«يُطْرَحُ خَارِجاً»:

وقد جاءت في اليونانية بصيغة المستقبل «سَيُطْرَحُ». الطرح هو السقوط أو الإسقاط إلى أسفل بعنف نتيجة لكمة قاضية، أخرجت الشيطان من دائرة نفوذه وخارج حلقة مصارعيه، والتي كسب فيها سابقاً كل الجولات ضد الإنسان، ولكن هنا: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» (يو ١٤: ٣٠)، وهكذا خسر كل جولاته مع المسيح.

ومعروف من الكتاب أن «العالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١ يو ٥: ١٩)، فكانت دائرة نفوذ الشيطان تشمل العالم كله، ولكن بصورة مستورة. كلما طُرح رئيس هذا العالم في معركة ضد المسيح، تعرّى القائمون بتنفيذ مشوراته، ووقعوا تحت نور المسيح الكاشف، ودينّت كل أعمالهم. وها الآن قد عُرف لدى كل المسكونة، بكل شعوبها وأجيالها، فضيحة رؤساء إسرائيل وقضاته، في مدى تزييفهم للحق والعدل والإيمان في معاملة المسيح، كما تعرّى قضاة روما أمام ضمير العالم فيما صنعه بيلاطس بالمسيح ضد المنطق والعدل والقانون. وهكذا لم يُعَدِّ الشيطان ولا أعوانه مخفيين: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢ كو ٢: ١١)

وهكذا، ومنذ صلب المسيح وقيامته، قد نُصِبَتْ على الأرض محكمة الله العليا من داخل ضمير الإنسان المستنير بنور المسيح — أي كل المؤمنين — لمحاكمة كل أعمال الشيطان وأعوانه، «كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء، وكلمة الله ثابتة فيكم، وقد غلبتم الشرير» (١ يو ٢: ١٤)، «لأن كل مَنْ وُلِدَ من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا.» (١ يو ٥: ٤)

«الآن صار خلاص إلهنا وقدرته ومُلْكُه وسلطان مسيحه. لأنه قد طُرِحَ المشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهائياً ولبلاً. وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ ١٢: ١٠ و ١١)

وهكذا فقد العالم وجوده وإغراءه بالنسبة للمؤمنين بالمسيح، وفقد الشيطان سلطانه على أولاد الله، كما فقد الموت فاعليته على حياة الذين وُلِدُوا جديداً من الله؛ وهذا هو المفهوم الواقعي والجوهرى لمعنى دينونة العالم وطُرح رئيسه خارجاً، تمهيداً لانحلال هيئة هذا العالم انحلالاً نهائياً من دائرة حياة المؤمنين، بالانتقال إلى ملكوت الله وتلاشي الشيطان تلاشياً كلياً من الوجود، بالنسبة لحياة المؤمنين، وذلك بدخولهم تحت سلطان المسيح والله، بل وتلاشي الموت من كيان المفدين، بدخولهم نهائياً في دائرة الحياة الأبدية مع الله.

١٢ : ٣٢ و ٣٣ «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أُجذبُ إلىَّ الجميعُ. قالَ هذا مشيراً إلى آتية مَيتةٍ كان مُزمِعاً أن يَمُوتَ».

هذه هي غاية المسيح التي من أجلها قَبِلَ أن يدخل إلى «ساعة» الصراع مع «هذا العالم» ومع رئيس هذا العالم، الذي طرحه أرضاً ليرتفع هو عن الأرض إلى أعلى لأنه ماذا بعد أن يكون قد دان «عالم الشر» وفضح مداخل الظلمة والشر فيه، وحكم عليه، وأعلن الحق عالياً فوق الكذب والخداع، إلّا افتتاح عالم النور ونقل مركز الجذب من الأرض إلى السماء؟ ثم ماذا بعد أن يكون قد طرح رئيس هذا العالم من دائرة نفوذه وسلطانه المتعالي فوق أفق الإنسان، وبعد أن حَقَّقه إلى أسفل تحت موطئ قدميه، إلّا أن يرفع الإنسان فوق هامة الشيطان ليتسامى بروحه إلى حيث المسيح؟

لأن المسيح، بموته مرتفعاً على الصليب، رفع الإنسان معه من داخل الموت إلى القيامة والحياة، فتحرر الإنسان من جَذْبِ الأرض المستمر والمستبدّ المؤدي إلى الموت الأبدي. ولأن المسيح، بموته، قد ظفر بالشيطان على الصليب وفضحه وأشهره جهاراً، صار الصليب هو مركز الجذب الأقوى والأعلى للإنسان. وهذا هو المعنى المباشر الذي يتضمنه موت المسيح «مرتفعاً» على الصليب، مرتفعاً عن الأرض، ومرتفعاً فوق هامة الشيطان.

وقد سبق أن ركّز إنجيل يوحنا على معنى ارتفاع المسيح بالموت على الصليب بقوله: «وكما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يُرْفَعَ ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يَؤْمَنُ بِهِ، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٤). حيث «رَفَعَ ابن الإنسان» هنا يتضمن القيامة بالموت أو الحياة من داخل الموت. فالحية النحاسية المرفوعة بواسطة موسى، كان مجرد النظر إليها يُخَيِّبُ من الموت أولئك الذين عَضَّتْهم الحية وسكبت سُمَّها في أجسادهم.

والتطبيق هو أن المسيح أُلغِيَ على الصليب ففَعَلَ الحية، أي الشيطان، وأبطل الموت المتحصّل منها؛ إذ عَوَّضَ سُمَّ الحية المميتة، أعطانا دمه ترياق الحياة الأبدية. فكلُّ مَنْ نظَرَ، نظرة الإيمان، إلى المسيح مرفوعاً على الصليب، تبطل فيه قوة الخطية التي هي سُمُّ الموت أو شوكتة القاتلة: «لأنه هكذا أحبَّ الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد (على الصليب)، لكي لا يهلكَ كلُّ مَنْ يَؤْمَنُ بِهِ، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣: ١٦)

كذلك يعود إنجيل يوحنا في موضع آخر ليركّز أيضاً على ارتفاع المسيح — على الصليب —

كونه يتضمن أيضاً استعلان حقيقة المسيح : «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أنني أنا هو» (يو: ٨: ٢٨)، لأنه بصلب المسيح استُغْلِنَتْ قيامته «وتعيَّن ابنُ الله، بقوة، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو: ١: ٤)

وهكذا يصرُّ إنجيل يوحنا دائماً على أن لا يفصل الموت عن القيامة عن المجد، ويجعل مفهوم «الارتفاع» على الصليب هو «ارتفاع» القيامة أيضاً، بل «ارتفاع» الصعود!

لذلك فقول المسيح هنا: «وأنا إن ارتفعتُ ... أجدب إلى الجميع»، يشير إلى الموت على الصليب وما يتبعه بالضرورة من قيامة وصعود ومجد، والذي يتضمن جُذْب المؤمنين واتحادهم بجسده.

«ارتفعت "عن الأرض"» ἐκ τῆς γῆς وتفيد ليس الارتفاع فوق الأرض بالمعنى الموضعي فقط، بل وبالمعنى الروحي، فهو ارتفاع عن مستوى الفكر الأرضي والجذب الأرضي، الذي يتضمن، ليس معنى الصلب فقط بل والقيامة بمفهومها الروحي العالي.

«أجدب إلى»:

المعنى هنا يتضمن شيئاً من العنف بسبب الجذب المضاد من الأرض ومن العدو، وهذا المعنى يوضحه الروح القدس في العهد القديم: «كنت أجدبهم بحبال البشر، برُبُط المحبة، وكنت لهم كَمَنْ يرفع النير عن أعناقهم، ومددتُ إليه مطعماً إياه.» (هوشع ١١: ٤) وعملية الجذب هي عملية روحية بحتة، تدخل في وظيفة الروح القدس مباشرة.

«الجميع»:

وتأتي بدون تخصيص، فهو «الكل»، حتى ما في السموات والأرض: «وأنَّ يُصَالِح به «الكل» لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات.» (كو: ١: ٢٠)

ولكن ليس الكل كمجموع كلي، ولكن «الكل» بالمعنى الفردي واحداً واحداً: «ولكن الذي وُضِع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكلاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد.» (عب ٢: ٩)

وعملية الجذب لا تقتصر على التقريب إلى المسيح، بل وتمتد إلى داخل المسيح، كعملية تجميع

في شخص المسيح، في جسده السري يملأ السماء والأرض: «لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السموات وما على الأرض، في ذلك.» (أف ١: ١٠)

١٢: ٣٤ «فأجابته الجمع: نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان. من هو هذا ابن الإنسان؟»

الصعوبة التي واجهت الجمع في فهم معنى «ارتفاع ابن الإنسان»، مزدوجة. فمعروف من نبوة دانيال وبقية النبوات أن ابن الإنسان قُربوه إلى عتيق الأيام: «فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا ٧: ١٣ و١٤). هذا لو كان ابن الإنسان بصفته العامة التي هم لا يفهمونها أصلاً، لأن المسياً هو ابن داود، وليس ابن الإنسان. وابن داود سيأخذ مملكة أبيه ليحكم إلى الأبد: «أقسم الرب ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (مز ١١٠: ٤)، «قطعت عهداً مع مختاري. حلفت لداود عبدي، إلى الدهر أثبت نسلك، وأبني إلى دور فدور كرسيك. سلاه» (مز ٨٩: ٣ و٤)، «لنموّ رياسته وللسلام لا نهاية، على كرسي داود وعلى مملكته، ليشبّتها ويعصدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» (إش ٩: ٧)، «ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد، وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد.» (حز ٣٧: ٢٥)

وهذه النبوات الخاصة بالمسياً كابن داود كانت محفوظة في قلوب اليهود، حفظاً يتجدد كل صباح وكل مساء، بانتظار تحقيق الوعد. لذلك كانت كلمات الرب يسوع توزن في أذهانهم عليها كلمة كلمة، بل وحرفاً حرفاً، بطريقة يستحيل معها مصالحة الحرف الناموسي مع الروح الذي يتكلم به المسيح؛ حيث الكهنوت كهنوت سماوي، وحيث المملكة هي الملكوت السماوي، وحيث كرسي داود هو العرش السماوي والرئاسة هي من واقع أنه «رئيس الحياة وملك الدهور» غير الزمنية.

ولكنهم فهموا، على كل حال، أن الارتفاع يعني الموت والانقطاع عن الوجود في الأرض، ولكن كان معنى الصليب غير مفهوم، وكان على كل حال مُشبّطاً لعزائمهم، إذ كانوا ينتظرون المسياً بوضعه السياسي، مما أوقف حماسهم في الترحاب بالمسيح والإنحياز له.

١٢: ٣٥ و ٣٦ «فقال لهم يسوع النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا، ما دام لكم النور، لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام، لا يعلم إلى أين يذهب. ما دام لكم النور، آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور. تكلم يسوع بهذا ثم مضى، واختفى عنهم».^(٦)

هذه هي آخر نصيحة يقدمها المسيح لليهود، على وجه الإطلاق، وهي نصيحته أيضاً لكل متشكك أو مُرتبك من جهة من هو المسيح. وتتلخص في أن انتهِز الفرصة القليلة التي أمامك، وبالقدر الضئيل الذي يملأ فكرك وقلبك، عن صحة وصلاحية المسيح في أن يقودك ولو خطوة واحدة إلى الأمام، تقدّم، تقدّم ولا تقف أو تتقهقر، فالخطوة الواحدة الإيجابية كفيلة أن تدفعك إلى الأمام وباستمرار، لأن المسيح واثق من أنه هو نور العالم، وهو قادر أن يقود ويجذب ويدفع ويكشف أمام الإنسان حقيقة الحياة.

فما دام هاتف الخير مسموعاً، اتبع، وما دام بصيص النور يسيراً، سِرْ لأنك إن استسلمت للخير تصير ابناً للخير، وإن سلّمت للنور قلبك ورجليك، صرت ابناً للنور وقائداً لغيرك. وكل صوت يأتيك من الخلف لِيُشَكِّكَ في النور، فهو صوت الظالم وأبي الظلمة، وهو حتماً للضلال والتضليل.

وكعادة المسيح دائماً، فهو لم يُجِبْ على سؤالهم، بل قطع طريق الشك عليهم بإلقاء شعاع من النور على فكرهم حتى لا يعثروا فيه، لو آمنوا. أما آماهم في مسيّا يبقى معهم إلى الأبد، فاحتزلها المسيح إلى «زمان قليل بعد». وحينما قال لهم: «سيروا في النور ما دام لكم النور»، فهو يذكّرهم بعمود النور الذي قاد آباءهم في سيناء وأضاء لهم ظلمة القفر، لو يتذكرون!...

«ثم مضى واختفى عنهم»:

الكلام هنا، بحسب أسلوب ق. يوحنا الخفي، يحمل معنى اختفاء النور، ويوحى بغشيان الظلمة لمقولهم التي لم تَجِ النور، ولا هي سارت على هداه. هذا هو الحيك القصصي للقديس يوحنا، لأن هنا يختم هذا القديس على كل تعاليم المسيح. فكما كانت آية إقامة لعازر من الموت

(٦) يُقرأ هذا الفصل (يو ١٢: ٣٥-٥٠) في قداس الأحد الرابع من الخمسين المقدسة، وذلك بعد انتصاف الخمسين المقدسة، واقتراب عيد الصعود الذي فيه يُرفع العريس عنا، وفي ذلك دعوة صريحة من الكنيسة لأن ننزع من نور المسيح قبل أن يُرفع عنا: «النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام».

آخر آياته لاستعلان حقيقة شخصه كونه « القيامة والحياة »، وهي منتهى قصد الإنسان، فهنا كذلك يعطي ق. يوحنا آخر كلمة للمسيح من جهة استعلان شخصه « كنور الحياة »، وهو منتهى رجاء الإنسان وآخر تعاليم المسيح. وقد تحقّق قول المسيح هذا عملياً، فعندما صلبوه اظلمّت الدنيا، وصارت ظلمة على الأرض كلها، تعبيراً عن اختفاء النور عندما أنكروه. وهم لم يدروا أنهم قتلوا رجاءهم لما قتلوه، فلا حصلوا على مسيّا يبقى لهم إلى الأبد، ولا انتفعوا بالزمان القليل بعد!



خَتَامُ لِإِنْجِيلِ الْاسْتِعْلَانِ

(١٢ : ٣٧ - ٤٣)

١٢ : ٣٧ - ٤١ «ومع أنه كَانَ قد صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتِ هَذَا عَدُّهَا، لم يُؤْمِنُوا بِهِ. لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشْعِيَاءَ النَّبِيِّ الَّذِي قَالَ: يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا؟ وَلِمَنْ اسْتُغْلِلَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ وَلِهَذَا لم يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا. لِأَنِّ إِشْعِيَاءَ قَالَ أَيْضاً: قد أَغْمَى عُيُونَهُمْ، وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ، لئَلَا يُبْصِرُوا بَعْيُونَهُمْ، وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ».

إن عدم إيمان اليهود لا بد أن يسترعي كل من يطلع على الإنجيل، سواء من جهة الآيات أو الأعمال والتعاليم. والقديس يوحنا يضع نفسه الآن، وفي ختام سرده للآيات والتعاليم، كمن ينظر إلى رسالة الخلاص التي أكملها المسيح ككل، فهو يندهش من عدم إيمان اليهود، بل والمسيح نفسه اندهش من عدم إيمانهم، بل وحتى إشعيا النبي لم يصدق ما يقول. والحقيقة كذلك، فإنه لا يوجد شعب في العالم قاوم رسالة الخلاص، كما قاومها اليهود في شخص المسيح نفسه، مع أنهم خاصته!!

ويعود ق. يوحنا إلى العهد القديم، عهد النبوات والأضواء، التي أرسلها الله من بعيد سابقاً ليظهر بها ويمهد لما سيكون؛ حتى إذا كان، سهل الإيمان.

ونبوات إشعيا فيها ما يكفي، سواء بالنسبة للمسيح من هو، وما هو عمله، أو بالنسبة لليهود، عن ما هو ردُّ الفعل عندهم.

والنسبة في الواقع تصوّر ما سيكون، ولكن لا تتحكم في مجريات الأمور، ولا تعفي المجرم من إجرامه، أو الخطأ من خطيته، فسبق العلم عند الله لا يؤثر في حرية وإرادة من سيعمل، ولا تقلل من العقوبة المحتمة عليه. ولكن القصد الإلهي في الإعلان السابق عما سيكون، فوق أنه يمهد به الطريق والأذهان لقلوب المؤمنين، فهو يوضح مدى الإحاطة التي يشملها تدبير الله، ومدى العناية الإلهية التي تسبق وتعدُّ المتكلم والسامع معاً، الآية، وصانعها، ورأيها معاً؛ قلب المؤمن وقلب الرافض معاً. لأن الله يشمل بكيانه كل كيان، فهو يحيط بالبداية والنهاية لكل ما كان وما

سيكون، وهو سابق للزمن، وكائنٌ بعد أن ينتهي الزمن. فالكل واقع في بؤرة رؤيته، ومشيبته تُهيمن بالنهاية على كل مشيئات خلّاقه.

وهنا نأتي إلى لاهوت ق. يوحنا، فهو حينما يلجأ إلى نبوة إشعياء فإنما يود أن يقول أنه بقدر ما كان يعمل المسيح بحسب تدبير الآب قولاً وعملاً، بقدر ما كان اليهود المعاندون يزدادون عدم إيمان. ولكن حتى عنادهم ورفضهم هذا، كان واقعاً تحت سُبْق المعرفة، ولم يخرج عن التدبير. فكل ما قالوه وعملوه، سبق أن كشفه إشعياء، ليدرك به ق. يوحنا، ونذكر نحن معه، أن العناية الإلهية تحيط بقصة الإنجيل. ولكن عدم إيمان اليهود لم يوقف تدبير الله للخلاص، بل دخل فيه كعنصر مكمل؛ فعدم إيمانهم وعنف رفضهم لم يَزِدْ عن أن يكون عشرة لهم وحدهم. فالصليب صار عشرة لليهود، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يكونوا عشرة للصليب.

«آيات هذا عددها»:

من كلام ق. يوحنا، يتبين لنا أنه كان مُلماً بآيات كثيرة جداً عملها الرب يسوع، ولكنه اكتفى بذكر بعض منها، وهي سبعة على وجه التحديد، رآها كافية لنؤمن على ضوئها أن المسيح هو ابن الله:

الأولى: تحويل الماء إلى خمر - الأصحاح الثاني.

الثانية: شفاء ابن خادم الملك - الأصحاح الرابع.

الثالثة: شفاء مقعد بيت حسدا - الأصحاح الخامس.

الرابعة: إشباع الجموع من الخمس الخبزات - الأصحاح السادس.

الخامسة: السير على الماء - الأصحاح السادس.

السادسة: شفاء المولود أعمى - الأصحاح التاسع.

السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام - الأصحاح الحادي عشر.

وفي ختام الكل آية قيامته من الأموات، مع علامات وآيات في السماء والأرض والبحر، لم يقصد بها المسيح أن يؤثر على إيمان الناس، ولكن لتُعلن فقط عن رسالته.

«ليتم قول إشعياء»:

«ليتم» وتأتي في اليونانية بمعنى «ليكمل للملء» *ἵνα πληρωθῇ*. هنا لا يأتي يوحنا بالنبوة ليعلّل بها تصرف بيت إسرائيل من نحو المسيح رجائهم، ولكن النبوة أتت لتغطي الفراغ المخيف الذي يتركه تصرف اليهود، في تفكير أي إنسان، من نحو معاملتهم للمسيح باعتباره أنه

طابعهم وسلوكهم منذ القديم، وهذا لا غرابة فيه، فهو استمرارٌ لتكميل مكياهم (مت ٢٣ : ٣٢).

«مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا؟ وَلَنْ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟» :

هذه آية إشعياء النبي (٥٣ : ١)، وهنا يجمع ق. يوحنا تعاليم الرب يسوع مع الآيات التي صنعها معاً، و«الخبر» هو التعليم بالكلمة ومقصده هو الإيمان، و«ذراع الرب» كناية عن القوات التي صنعها المسيح، وجاءت على مستوى الآيات أي بصفة إشارات تشير إلى لاهوت صانعها. والاثنان معاً كانا شهادة الله المنطوقة والمعمولة بواسطة ابنه. والاثنان أيضاً رُفُضاً، فالخبر لم يُصَدَّق، والآية لم تُفْهَمْ باعتبارها استعلاناً للمجد الإلهي لصاحبها.

«لَهَذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا» :

هنا يتعرض ق. يوحنا إلى استحالة أخلاقية عند اليهود، موروثة عبر تذرّات بلا عدد أعلنوها في وجه الله، منذ أن كانوا في مصر، ثم في خروجهم من مصر، وفي وجه موسى. وكلُّ قاضٍ ونبيٍّ أتى بعد ذلك لم ينجُ من هياجهم ومقاومتهم : «قد تركوا عهدك، ونقضوا ميثاقك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيتُ أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها» (١ مل ١٩ : ١٠). هذا كان صراخ إيليا، ويردُّ عليه القديس استفانوس الشهيد الأول : «يا قَسَاةَ الرِّقَابِ وَغَيْرِ الْمُخْتُونِينَ بِالْقُلُوبِ وَالْآذَانِ، أَنْتُمْ دَائِماً تَقَاوِمُونَ الرُّوحَ الْقُدُسَ. كَمَا كَانَ آبَاؤُكُمْ، كَذَلِكَ أَنْتُمْ. أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَضْطَهْدَهُ آبَاؤُكُمْ؟ وَقَدْ قَتَلُوا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَنْبَأُوا بِمَجِيءِ الْبَارِ الَّذِي أَنْتُمْ الْآنَ صِرْتُمْ مُسَلِّمِيهِ وَقَاتِلِيهِ، الَّذِينَ أَخَذْتُمْ النَّامُوسَ بِتَرْتِيبِ مَلَائِكَةٍ وَلَمْ تَحْفَظُوهُ.» (أع ٧ : ٥١-٥٣)

لهذا لم يستطيعوا أن يؤمنوا!! يَرْكُةٌ ثَقِيلَةٌ جَدًّا مِنْ مَقَاوِمَةٍ وَرَفُضِ اسْتِعْلَانَاتِ اللَّهِ عَلَى مَدَى الدَّهْوَرِ، عَيُونٌ أَعْمَاهَا عَدَمُ اسْتِعْدَادِهَا لِلرُّؤْيَا، وَأَذَانٌ أَصَمُّهَا تَكَرَّرَ رَفْضُهَا لَصَوْتِ اللَّهِ، وَقُلُوبٌ مَنَعَتْهَا قَسَاوَتُهَا عَنِ النَّدَمِ أَوِ التَّوْبَةِ!!

«لَأَنَّ إِشْعِيَاءَ قَالَ أَيْضاً: قَدْ أَعْمَى عَيُونُهُمْ، وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ، لئَلَّا يَبْصُرُوا بِعَيُونِهِمْ، وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ» :

النص هنا من إشعياء (٩ : ١٠ و ١٠)، ولكنه بالفحص، استقر العلماء أنه غير منقول لا من النسخة السبعينية ولا من النسخة العبرانية الماسورتيك Masoretic، والتي لجأ إليها كُتَّابُ الأسفار الأخرى.

فأما النسخة السبعينية: والتي يتبعها كل من إنجيل متى وكاتب سفر الأعمال فهي ترد

كالآتي :

« فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون . ومُبْصِرِينَ تُبْصِرُونَ ولا تنظرون . لأن قلب هذا الشعب قد غُلِظَ ، وآذانهم قد ثقلت سماعها ، وغمضوا عيونهم ، لئلا يبصروا بعيونهم ، و يسمعوا بآذانهم ، و يفهموا بقلوبهم ، و يرجعوا فأشفيهم . » (مت ١٣ : ١٤ و ١٥)

أما إنجيل القديس مرقس (١٢ : ٤) فجاءت فيه كالآتي :

« لكي يُبْصِرُوا مبصرين ولا ينظروا ، و يسمعوا سامعين ولا يفهموا ، لئلا يرجعوا فتُغْفَرَ لهم خطاياهم . »

والاختصار والتصرف هنا واضحان ، ويرى العلماء أن النص يقترب من النسخة العبرية الماسورتيك .

النسخة العبرية الماسورتيك : « اجعل قلب هذا الشعب غليظاً ، وثقل آذانهم ، وأغمض عيونهم ، لئلا ينظروا بعيونهم ، و يسمعوا بآذانهم ، و يفهموا بقلوبهم ، فيعودوا و يُشْفَوْا » .

أما في سفر الأعمال ، فإن كاتبه يتبع النسخة السبعينية حرفياً تقريباً (أع ٢٨ : ٢٥-٢٧) :

« حسناً كلّم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي قائلاً : اذهب إلى هذا الشعب وقُلْ ستسمعون سمعاً ولا تفهمون ، وستنظرون نظراً ولا تُبصرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غُلِظَ ، وبآذانهم سمعوا ثقيلاً ، وأعينهم أغمضوها ، لئلا يبصروا بأعينهم و يسمعوا بآذانهم و يفهموا بقلوبهم ، و يرجعوا فأشفيهم » .

أما إنجيل ق . يوحنا فيبدو النص حراً لا يتبع السبعينية . وقد حوّل ما جاء في النسخة العبرية بصيغة الأمر الموجّه للنبي ، إلى تأكيد مخيف بعمل يضطلع به الله نفسه . فبدل «إغمض عيونهم» كأمر صادر للنبي ، في النسخة العبرية ، يأتي «غمضوا عيونهم» ، كعمل قاموا به في أنفسهم ؛ وما جاء في السبعينية جعله ق . يوحنا «قد أعمى عيونهم» τῆτύφλωκεν ، حيث الله هنا هو الذي يصنع بهم هذا كردّ فعل لمصيانهم ، «وأغلظ قلوبهم» ... لئلا يرجعوا فأشفيهم .

و يلاحظ هنا أن ق . يوحنا أنهى النص على أساس أن المسيح هو الذي يشفيهم ، وبذلك انتقل بالنبوة إلى الواقع بالنسبة للتاريخ الذي أكمل على يديه ! ومعناها : أني أعطيتكم فرصة لتروا وتشعروا بحقيقتي بكل الطرق فلم تستجيبوا ، بل عاندتم ، وقاومتهم ، وأسأتم إليّ بلا سبب ؛ ها أنا أطمس عيونكم ، وأسدّ قلوبكم ، وأقطع الرجعة عليكم فلا تعودون بعد .

ونحن نخرج من الأوضاع المختلفة التي جاءت بها هذه النبوة بفكر واحد، وهو أن أخلاق الشعب اليهودي وسلوكه مع الله أدّيا إلى انفلاق أعينهم عن رؤية استعلانات الله، وأصابا آذانهم بالشغل، فلم تُعَدِّ تميز صوت الله أو تسمعه أصلاً. وانتهى الأمر بهم إلى أن قلوبهم فقدت الإحساسات والمشاعر التي يمكن أن تتفاعل مع محبة الله، وانتهى الأمر بأن حجز الله صوته عنهم. وَيَضُدُّ ق فِيهِم الْقَوْلُ: هذا ما جنّاه عليّ جهلي، وما جئني عليّ أحد. ولكن ليس من الهين مقاومة الله، لأن إمكانية التغيير والتوبة، مفتاحها في يد القدير، فإذا تمادى الإنسان أو الشعب في معاندة الله، «أغلق الله عليهم في العصيان» (راجع روم ١١: ٣٢). وهنا يبدو الله وكأنه هو الذي أغمض عيونهم وسدّ آذانهم وقسّى قلوبهم، بينما في الحقيقة أنهم هم الذين بعصيانهم المستمر حرّضوا الله أن يغلق عليهم فيما أغلقوا هم على أنفسهم من جهالة وحماسة. فسيان أن يُقال أنهم أغمضوا عيونهم، أو أن الله أغمض عيونهم. فالذي لا يريد أن يرى الله أو يسمعه لا يستطيع الله أن يُظهِر له ذاته أو يتكلم معه: «لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي.» (يو ٨: ٤٣)

وهكذا انقلبت عدم الرغبة المستمرة في السماع لكلمة الله إلى عدم قدرة: «لا تقدرون أن تسمعوا».

١٢: ٤١ «قال إشعياء هذا، حين رأى مجده وتكلّم عنه».

ق. يوحنا هنا ينقل عن نسخة «الترجموم»، أو النسخة الأرامية. وهي التي جاء فيها نص (إش ٦: ١) بدل «رأيت السيد (أدوناي) جالساً...»، جاء «رأيت مجد السيد (أدوناي)»...». لأنه بحسب ق. يوحنا — وبالتالي بحسب فكر المسيح — أن: «الله لم يَرَهُ أحد قط» (يو ١: ١٨). وهذا هو التقليد القديم (الأرامي). وبهذا يكون ق. يوحنا بقوله: «قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلّم عنه»، قد فسر النبوة أيضاً على أساس أن إشعياء رأى «مجد المسيح» وتكلّم عنه، باعتبار أن إشعياء كان يتنبأ عن المسيح وعن استعلان مجده، وأنه رأى المسيح على أنه هو «أدوناي». وفي نفس أصحاب إشعياء ٦: ٥ يقول: «لأن عينيّ قد رأتا الملك رب الجنود». وفي الترجمة الأرامية أي «الترجموم» تأتي هكذا: «لأن عينيّ رأتا شاكيناه الرب»، حيث الشاكيناه هي الحضرة المنيرة أو نور الله. وهو التعبير عن المسيح أيضاً باعتباره «نور الرب»، «بهاء — شعاع — مجده ورسم جوهريه.» (عب ١: ٣)

١٢: ٤٢ و ٤٣ «ولكن مع ذلك آمنَ به كثيرونَ من الرؤساءِ أيضاً، غَيَّرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ، لَثَلَا يَصِيرُوا خَارِجَ الْمَجْمَعِ. لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ، أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ».

هنا يورد ق. يوحنا نوعاً من الإيمان يساوي عدمه، وهو الإيمان الفاقدا الاعتراف أو الشهادة. وهذا إيمان مصاب بإصابة مرضية قاتلة، فهو يؤدي إلى الإنكار، وهو أشد من عدم الإيمان.

أما السبب الذي جعل الإيمان فاقداً الاعتراف والشهادة، فهو الخوف. والخوف بالنسبة للخطايا التي تحرم الإنسان من القيامة والحياة، يأتي في المقدمة كأخطر معوق: «وأما الخائفون، وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة، فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني» (رؤ ٢١: ٨). ووضع الخوف هنا لا يُغْتَفَر، فهو ليس خوفاً على الحياة أو خوفاً من الآلام والتعذيب، بل الخوف لثلا يفقدوا كرامتهم ومجدهم الدنيويين، كأعضاء في مجمع اليهود!! الأمر الذي فضحه ق. يوحنا: «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله»؛ وبهذا يكونون قد وضعوا الله في مركز أحظ من مركزهم. وهذا وصفه المسيح هكذا: «كيف تقدرون أن تؤمنوا، وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (يو ٥: ٤٤)

ولكن هذا لا يمنع أن كثيرين آمنوا واعترفوا، والرسالة إلى العبرانيين هي رسالة مكتوبة إلى رؤساء وكهنة قبلوا الإيمان واعترفوا به:

— «من ثمَّ، أيها الإخوة القديسون، شركاء الدعوة السماوية، لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع.» (عب ٣: ١) ومكتوب أيضاً:

— وكان «جمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان.» (أع ٦: ٧)

دير القديس أنبا مقار

شرح

إخيارك لقدس يوحنا

الجزء الثاني

من الإصحاح الثالث عشر إلى الإصحاح الحادي والعشرين

الأب متى المسكين

ملخص لإنجيل الاستعلان

(١٢ : ٤٤-٥٠)

بعد أن ختم إنجيل يوحنا على أقوال المسيح، وبعد أن سجّل في يوميات المسيح أنه «مضى واختفى عنهم» (يو ١٢: ٣٦)، عاد وسجّل بعضاً من أقوال المسيح أتت بصورة جديدة غير مكررة، وبتلخيص جميل ومركّز للمبادئ العامة: النور، والدينونة، والحياة. ويختص جزؤها الأول بالمؤمنين وعلاقتهم مع المسيح، وبالتالي مع الآب، والجزء الآخر يختص بغير المؤمنين، وكيفية وقوع الدينونة عليهم.

١٢ : ٤٤ و ٤٥ «فنادى يسوع وقال: الذي يؤمن بي، ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني».

«فنادى»:

وتأتي في اليونانية «صرخ» = ἔκραξεν، والمعنى ليس مجرد مناداة، فالمسيح هنا ليس في موقف تعليم بين الناس.

وكلمة «يصرخ» κράζειν في العهد الجديد عامة تفيد الانفعال العاطفي في صورة نُطق. وقد جاءت في مواضع متغيرة لمواقف وأشخاص متباينة جداً.

فصراخ الجمع المنفعلة بالفرح هو κράζειν : «والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون ἔκραζον قائلين أوصنا» (مر ١١: ٩)؛ وصراخ الجمع الغاضبة هو κράζειν : «فصرخوا أيضاً ἔκραξαν أصلبه» (مر ١٥: ١٣)؛ وكذلك الصراخ لطلب المعونة : «ابتدأ يصرخ κράζειν ويقول يا يسوع ابن داود ارحمني» (مر ١٠: ٤٧)؛ كما جاءت أيضاً بخصوص يوحنا المعمدان : «يوحنا شهد له ونادى (صرخ) κέκραυε» (يو ١: ١٥). ولكن ق. يوحنا حصر كلمة κράζειν في معنى الإعلان دون الانفعال أو مجرد الصراخ^(٧).

لم ترد مثل هذه الأقوال سابقاً في تعاليم المسيح، فهي صياغة جديدة لمجمل أقوال المسيح.

ترتيب الأماكن التي تردد فيها المسيح أثناء الخدمة

ينفرد إنجيل القديس يوحنا بتوضيح المراحل المتعددة التي مرت بها خدمة الرب بين اليهودية والسامرة والجليل . فبينما نجد بقية الأناجيل تقتصر على ذكر معمودية المسيح في اليهودية ، ثم انتقاله إلى الجليل حيث تدور معظم تعاليمه ومعجزاته ثم صعوده مرة واحدة فقط إلى اورشليم التي انتهت بصلبه ، نجد إنجيل يوحنا ينفرد بكشف انتقال الرب مرات متعددة بين اليهودية والسامرة والجليل ، وذلك على النحو التالي (١) :

أولاً :	في اليهودية أيام المعمدان : ١ : ٢٨ — ٥١ .
ثانياً :	في الجليل : ٢ : ١ — ١٢ .
ثالثاً :	في اورشليم واليهودية : ٢ : ١٣ — ٣ : ٣٦ .
رابعاً :	في السامرة : ٤ : ٤ — ٤٢ .
خامساً :	في الجليل : ٤ : ٤٣ — ٥٤ .
سادساً :	في اورشليم : ٥ : ١ — ٤٧ .
سابعاً :	في الجليل : ٦ : ١ — ٧١ .
ثامناً :	في اورشليم : ٧ : ١ — ١٠ : ٣٩ .
	أ — في عيد المظال : ٧ : ١ — ٨ : ٥٩ .
	ب — في عيد التجديد : ٩ : ١ — ١٠ : ٣٩ .
	(اعتزال مؤقت في عبر الأردن ١٠ : ٤٠ — ٤٢) .
تاسعاً :	في اليهودية في بيت عنيا : ١١ : ١ — ٥٣ .
	(اعتزال مؤقت في مدينة أفرام ١١ : ٥٤ — ٥٧) .
عاشراً :	من بيت عنيا إلى اورشليم : للمرة الأخيرة ١٢ : ١ — ١٩ : ٤٢ .
حادي عشر :	بعد القيامة في اورشليم : الأصحاح العشرون كله .
ثاني عشر :	بعد القيامة في الجليل : الأصحاح الحادي والعشرون كله .

(١) ارجع إلى المدخل ص ٣٠٠ — ٣٠١ ، حيث نجد السبب الذي جعل القديس يوحنا يهتم بالتركيز على خدمة الرب في اليهودية .

والمسيح، في هاتين الآيتين، يربط ربطاً وثيقاً — مع التأكيد — بين الآب وبين كل مَنْ يؤمن به، وكذلك بين الآب وبين كل مَنْ يراه رؤية الاستعلان الإيماني — كابن الله — وليس رؤية العين.

وهدف المسيح من ذلك عدم الفصل بين اختبار الإيمان به واختبار الإيمان بالآب، باعتبار أن ذات الآب وذات الابن ذات واحدة وجوهر إلهي واحد. فالإيمان بالمسيح هو الإيمان بالله، لأن الابن والآب واحد: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، وهذا هو الإيمان المسيحي، فالمسيح والآب ذات واحدة، ولاهوت واحد، آب وابن معاً، وإنما شخصان هما أو أقنومان.

علماً بأن اختفاء المسيح باستمرار وراء مَنْ أرسله، قولاً وعملاً، هو محاولة جد خطيرة للاحتفاظ بوحداية الفكر والمشيئة والعمل والقول بين الابن المرسل والآب المُرسل، لأن هذا هو صميم جوهر اللاهوت، فلا ثنائية في الله قط.

٤٦: ١٢ «أنا قد جئت نوراً إلى العالم، حتى كل مَنْ يؤمن بي، لا يَمُوتُ في الظلمة».

أن يعرف الإنسان حقيقة الله، فهذا هو النور. فالله نور، بمعنى «الحق المُدرك الكامل»، وكل إدراك لله هو إدراك للحق، وإدراك جزئي للكمال، لأن الحق في الله لا يُدرك كماله، فهو فائق على كل الإدراكات. لذلك، مَنْ يستنير بمعرفة الله، يظل كلما يمتدُّ في نوره يمتدُّ في معرفته، ومعرفة كل شيء إلى مالا نهاية.

والمسيح جاء ليستعلن ذات الله المخفية، ويستعلنها في ذاته هو، أي في شخصه، لأنه ابن الله الوحيد الحامل لكل حقيقة الله في ذاته؛ لذلك، فبتجسده دخل نور الله إلى العالم، فصار نور الله — أو حق الله — مُسْتَعْلَناً ومُدْرَكاً للإنسان. علماً بأن معرفة حقيقة الله في ذاته، وهي اكتشاف ذات الله كآب وابن، هي النور الحقيقي^(٨)، أو الحق المنير الذي لا يمكن أخذه أو إدراكه كمعلومة أو كمعرفة قائمة بذاتها منفصلة عن ذات الله، هذا أمر مستحيل. فكل معرفة حقيقية عن الله بدون الاتصال الفعلي بالله، هي معرفة الظل، وليست معرفة النور. ولكن المسيح أعطانا معرفة الآب في ذاته هو: «الذي رأيته فقد رأي الآب» و«أنا والآب واحد» (يو ١٤: ٩، ١٠: ٣٠)؛ وذلك بالاتصال والاتحاد الروحي بشخصه: «بنورك ترى نوراً» (مز ٣٦: ٩)، «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١ كور ٦: ١٧).

(٨) راجع المدخل ص ١٢٠ و ١٢١.

المحتويات

الصفحة	تسلسل الموضوعات	الأصحاحات	مكان البشارة
١٨	الأصحاح الأول وهو بمثابة مقدمة لإنجيل يوحنا		
١٩	القسم الأول من المقدمة: استعمال الكلمة المتجسد: (١:١-١٨)		
١٢٣	القسم الثاني من المقدمة: الشهادة أن يسوع هو ابن الله: (١:١٩-٥١)		
١٢٤	١ - شهادة المعمدان وهي على عدة مراحل:		
١٢٩	أ - الجواب بالنفي: ١:١٩-٢٢		
١٣٤	ب - الجواب بالإيجاب: ١:٢٣-٢٨		
١٣٦	ج - الشهادة للمسيح: ١:٢٩-٣٤		أولاً: المسيح في
١٤٩	د - المعمدان يبدأ يسلّم الوديعة: ١:٣٥-٣٧		اليهودية أمام
١٥٢	٢ - شهادة التلاميذ: المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه		المعمدان
١٥٤	أ - شهادة أندراوس: ١:٤٠-٤٢		١:٢٩-٥١
١٥٦	ب - شهادة فيلبس: ١:٤٣-٤٦		
١٥٩	ج - شهادة ثنائيل: ١:٤٧-٥١		
١٦٤	الجزء الأول: إنجيل التجديد (١:٢ - ٤:٤٢)		
١٦٨	١ - معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل: (١:٢-١٢)	الأصحاح الثاني	ثانياً: في الجليل
١٨٣	○ أعمان المسيح الأولى في اليهودية		١:٢-١٢
١٨٤	٢ - تطهير الهيكل: «السيد يأتي إلى هيكله بفتة»: (١:٢٣-٢٥)		ثالثاً: في اليهودية
١٩٩	○ وقفة قصيرة		١:٢٣-٣٦
٢٠٢	٣ - مع نيقوديموس ليلاً: ١:٣-٢١	الأصحاح الثالث	
٢٠٤	أ - الحديث المباشر مع نيقوديموس: ١:٣-١٢		
٢٢٤	ب - الحديث غير المباشر مع نيقوديموس: ١:٣-٢١		
٢٤٦	٤ - المعمدان يكمل شهادته: ٣:٢٢-٣٦		
٢٦٣	٥ - في السامرة: ٤:٤-٤٢	الأصحاح الرابع	رابعاً: في السامرة
٢٧٦	أ - الحديث مع السامرية: ٤:٧-٢٦		٤:٤-٤٢
٣٠٠	ب - الحديث مع التلاميذ: ٤:٢٧-٣٨		
٣١٠	ج - إيمان السامريين: ٤:٣٩-٤٢		

وهكذا جعل المسيح الطريق إلى الله عَبَّرَ نفسه التي وضعها على المستوى الإفخارستي هكذا: «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يو ٦: ٥٧). فالمسيح هو نور العالم، وذلك لحساب الله، بمعنى أن حياته وكلماته هي الاستعلان الدائم لله. على أن الوصول النهائي إلى الله نبلغه، إِنَّ بَلَّغْنَا مستوى الاتحاد بالمسيح: «لأن الله الذي قال أن يشرق نورٌ من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا لإزالة معرفة مجد الله في وجه (شخص πρόσωπον) يسوع المسيح.» (٢ كو ٤: ٦)

ومعروف أن الله ليس فيه ظلمة البتة، بمعنى أن الله حقٌ مطلقٌ، والحق هو الضدُّ للباطل، والباطل هو كل ما يتغير إلى زوال. لذلك، فكل مَنْ يُؤْمِنُ بالمسيح، أي يتحد به بالروح، يعيش بالحق، ولا يطبق حتى شبه الباطل، إنه يتغير إلى النور، ولا يتغير قط إلى الباطل: «وهذا هو الخبر الذي سمعناه منه، ونخبركم به، أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إِنَّ قُلْنَا إن لنا شركة معه، وسلكنا في الظلمة، نكذب، ولستنا نعمل الحق.» (١ يو ١: ٦ و٥)

٤٧: ١٢ «وإن سَمِعَ أَحَدٌ كلامي، ولم يُؤْمِن، فأنا لا أدِينُهُ. لأنِّي لم آتِ لأدينَ العالمَ بل لأُخَلِّصَ العالمَ.»

اتفق معظم علماء الكتاب المقدس، بل وعلماء المخطوطات، أن القراءة الصحيحة لهذه الآية هي كالآتي: «إن سمع أحد كلامي، ولم يحفظه guard φυλάξῃ»^(٩)، لأن السمع لكلام المسيح جاء هنا إيجابياً، بمعنى أنه سماعٌ وفهمٌ. فالمفروض أن يأتي بعده إما حفظٌ أو إهمالٌ، إما قبولٌ أو ردُّلٌ.

والآن، وبعد أن أوضح المسيح أنه جاء نوراً للعالم حتى كل مَنْ يُؤْمِنُ به لا يمكث في الظلمة، يعود ويأتي باللوم على مَنْ لا يحفظ كلامه، إذ هو كلام الله وهو روح وحياة؛ وهو، بحسب القديس بولس الرسول، السيف ذو الحدين، الذي يخترق ويمَيِّزُ أفكار القلب ونِيَّاتِهِ، حتى إلى مفارق النفس والروح، فهو ميزان القلوب والأفكار. فكلام المسيح، بحد ذاته، لأنه نور، فهو يحمل قوة الكشف والإدانة؛ فكل مَنْ لا يحفظه، سيقع تحت كشف النور، لذلك فهو حتماً سيدين نفسه على ضوء الكلمة اللوغُس λόγος التي سمعها ورفضها.

⁹ See The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 148.

الجزء الثاني: إنجيل قوة الكلمة

(٤٦:٤—٤٧:٥)

٣١٣			
٣١٤	□ شفاء ابن خادم الملك: ٤٦:٤—٥٤	خامساً: في الجليل	
٣٢٢	○ وقفة قصيرة	٥٤:٤—٤٣:٤	
	□ شفاء مريض بركة بيت حسدا	سادساً:	
٣٢٤	والمصادمة الأولى مع اليهود: الأصحاح الخامس كله	الأصحاح الخامس	في أورشليم
٣٢٥	١ — شفاء مريض بركة بيت حسدا: ١٨—١:٥		٤٧—١:٥
٣٤٥	٢ — شرح مركز الابن من الله الآب: ٣٠—١٩:٥		
٣٧٢	٣ — الشهادة للابن: ٤٠—٣١:٥		
	أ — من المعمدان: ٣٥—٣٣:٥		
	ب — من الآب: ٣٨ و ٣٧ و ٣٢:٥		
	ج — من الأعمال: ٣٦:٥		
	د — من الأسفار: ٤١—٣٩:٥		
٣٨٣	٤ — أسباب عدم إيمان اليهود: ٤٧—٤٢:٥		

الجزء الثالث: إنجيل الاستعلان

(٥٠:١٢—١:٦)

استعلان طبيعة المسيح المحيية وشخصه السماوي:
«أنا هو خبز الحياة»

٣٨٨			
٣٩٠		الأصحاح السادس	سابعاً: في الجليل
٣٩١	١ — معجزة إشباع الجموع: ١٥—١:٦		٧١—١:٦
٣٩٣	أ — ظروف المعجزة: ٤—١:٦		
٣٩٥	ب — التحضير للمعجزة: ١٠—٥:٦		
٣٩٩	ج — إشباع الجموع: ١٣—١١:٦		
٤٠٥	د — تأثير المعجزة: ١٥—١٤:٦		
٤٠٨	٢ — السير على الماء: ٢١—١٦:٦		
٤١٤	٣ — حديث الرب في مجمع كفرناحوم: ٥٨—٢٦:٦		
٤١٥	تمهيد: ٢٥—٢٢:٦		
٤١٦	أ — الجزء الأول من الحديث: ٤٠—٢٦:٦		
٤٣٣	ب — الجزء الثاني من الحديث: ٥١—٤١:٦		
٤٤٣	ج — الجزء الثالث من الحديث: ٥٨—٥٢:٦		
٤٥٧	التعقيب على حديث الرب في مجمع كفرناحوم: ٧١—٥٩:٦		

ولكن المسيح وعد أنه لن يدين — بمعنى يعاقب — مَنْ لا يحفظ كلامه، ولكن الكلام نفسه سيدينه، لأن عمله الأساسي بالنسبة للعالم هو عمل الخلاص والحياة والإنارة وليس الدينونة.

قد يلاحظ القارئ التقليدي الملم بعقيدة الكنيسة، أن قانون الإيمان ينص صراحة وبوضوح على أن المسيح سيأتي في مُلكه «ليدين الأحياء والأموات»، وهنا يبدو أنه توجد مناقضة بينه وبين هذه الآية ومثيلاتها (يو: ٨: ١٥ ؛ يو: ٣: ١٧). ولكن لكي نزيل هذا التعارض، يلزمنا أن نعيد فهم كلمة «يدين» (krivw)، فهي لا تعني الحكم بالعقاب أو إيقاع غير المؤمنين تحت التأديب أو التفريم، بل تعني مجرد التمييز أو التفريق to discriminate، أي التمييز بين المستحق وغير المستحق للحياة الأبدية، وهذا يتم بفعل النور. فالمسيح بصفته نور العالم ونور الحياة، فقد جاء ليميز بين أبناء النور الذين قبلوا النور، وأبناء الظلمة الذين رفضوا النور. والمسيح نور وحياة معاً، لذلك يكرر المسيح باستمرار أنه جاء إلى العالم، كنور وحياة، لتخليص العالم من الظلمة، وليس ليحكم على العالم. ولكن لأن المسيح نور، والعالم ظلمة، فبالضرورة ودون قصد منه، فضح الظلمة لأنه دان أي هبّز النور عن الظلمة، والظلمة لم تطفئ.

وهذا واضح جداً في فهم بولس الرسول لمعنى الدينونة بالنسبة للظلمة والنور: «لأنكم كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنورٌ في الرب. اسلكوا كأولاد نور... ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحق وببُخوها... ولكن الكل إذا توبخ، يُظهرُ بالنور، لأن كل ما أظهر، فهو نور. لذلك يقول: استيقظ أيها النائم، وقُمْ من الأموات، فيضيء لك المسيح.» (أف ٥: ٨ — ١٤)

المسيح هنا هو المضيء والمنير في مواضع العالم المظلمة، وهو بالتالي الموبّخ والمميّز بين أعمال الظلمة وأعمال النور، بين النائم الميت وبين اليقظ الحي.

هذا هو عمل المسيح، كديان العالم، وديان الأحياء والأموات. بمعنى أنه عندما يضيء على النائم والميت بالخطيئة، العائش في الظلمة، يدينه في الحال ويوبّخه، فيبتدىء النائم في الخطيئة والميت بسُمّها يميز بين الظلمة التي يعيشها وبين نور المسيح، فيستيقظ و يضيء له المسيح فيحيا، لأن المسيح هو النور المحيي: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس».

فالمسيح جاء نوراً للعالم، وفي الحال صار نور المسيح (الكلام والتعليم) بمثابة دينونة للعالم، ليس على أساس القضاء السلبي والمهدم، بل على أساس التمييز والتفريق الإيجابي بين ما هو للنور وما هو للظلمة:

٤٧٤	استعلان طبيعة المسيح "الروحية" (الصخرة): [أنا هو الماء الحي]	الأصحاح السابع	ثامناً: في أورشليم
٤٧٤	١ — ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال: ١٣-١:٧		أ — في عيد المظال
٤٨٤	٢ — محادثات في منتصف العيد: ٣٦-١٤:٧		٥٩:٨ — ١:٧
٤٨٥	أ — تعاليم موجهة لليهود: ٢٤-١٤:٧		
٤٩٠	ب — تعاليم موجهة إلى سكان أورشليم: ٣١-٢٥:٧		
٤٩٢	ج — تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين: ٣٦-٣٢:٧		
٤٩٧	٣ — محادثات اليوم الأخير من العيد: ٥٣-٣٧:٧		
	استعلان طبيعة المسيح "النورانية":	الأصحاح الثامن	
٥٠٨	«أنا هو نور العالم»		
٥٠٩	١ — المرأة الخاطئة: ١١-١:٨		
٥١٨	٢ — حوار المسيح مع اليهود: ٥٩-١٢:٨		
٥١٨	أ — «أنا هو نور العالم»: ٢٠-١٢:٨		
٥٣٢	ب — «أنا هو»: ٢٩-٢١:٨		
٥٤١	ج — «إن حررركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»: ٥١-٣٠:٨		
٥٦٦	د — «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»: ٥٩-٥٢:٨		
٥٨٠	مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر		ثامناً: (تابع) في أورشليم ب — في عيد التجديد
٥٨٣	التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية: الأعمى المستنير	الأصحاح التاسع	٣٩:١٠ — ١:٩
٥٨٣	أ — آية تفتيح عيني المولود أعمى: ٧-١:٩		
٥٩٣	ب — الظلمة تطارد النور ولا تدركه والنور يدين الظلمة: ٤١-٨:٩		
	أولاً: استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا:	الأصحاح العاشر	
٦٠٦	«الراعي الصالح»		
٦٠٦	أ — «أنا هو باب الخراف»: ١٠-١:١٠		
٦١٦	ب — «أنا هو الراعي الصالح»: ١٦-١١:١٠		
٦١٦	١ — بذل نفس بنفس لإعطاء حياة: ١٣-١١:١٠		
٦٢١	٢ — الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه: ١٤:١٠		
٦٢٣	٣ — الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف: ١٥:١٠		
٦٢٤	٤ — الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة: ١٦:١٠		
٦٣٠	ثانياً: استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب: ٣٩-١٧:١٠		
٦٣٩	٥ الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله: ٣٠ و ٢٩:١٠		

« فقال يسوع لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون (محبو النور) ويعمى الذين يبصرون (مبغضو النور). » (يو: ٩: ٣٩)

وقد شرح ق. يوحنا معنى الدينونة وفعالها بوضوح في قوله: « وهذه هي الدينونة، أن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل مَنْ يعمل السيئات، يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله. وأما مَنْ يفعل الحق فيقبل إلى النور، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة. » (يو: ٣: ١٩-٢١)

إذن، فالدينونة التي صارت بمجيء المسيح، كنور، ليست هدامة أو سلبية، بل إيجابية مطلقة وخالقة وعيية، ولكنها مميزة تميزاً حاداً وقاطعاً بين الحق والباطل، بين الخير والشر. وهكذا أصبح نور المسيح، أي « كلامه »، دياناً للأحياء والأموات. فبالنسبة للأحياء، فالدينونة (أي النور، أي كلام المسيح) تستعلن استحقاقهم للحياة، وفي نفس الوقت تفرز الأموات الرافضين للمجيء إلى النور، فيدركون من أنفسهم أنهم غير مستحقين للحياة: « فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين، وقالوا له: أعلنا نحن أيضاً عمياناً » (يو: ٩: ٤١). فإن كانت الدينونة قائمة منذ الآن، فهي ستعلن بصورة شاملة في اليوم الأخير.

١٢: ٤٨-٥٠ « مَنْ رَدَّلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلَامِي، فَلَهُ مِنْ يَدِيئَةٍ. الْكَلَامُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِيئَةٌ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ. لِأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنِ الْآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً مَاذَا أَقُولُ، وَمَاذَا أَتَكَلَّمُ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّةَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ، فَكَمَا قَالَ لِي الْآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ. »

رَدَّلُ المسيح هو درجة أحظ من الدرجة السابقة، فليس هنا عدم سماع لكلمة المسيح وحسب بل رفض وعدم قبول، وهذا ناتج من رَدَّلِ شخص المسيح، حيث الرَدَّل هنا يحمل معنى الإزدراء، وهي خطية عامدة متعمدة، تدخل تحت السلوك الأخلاقي الرديء الذي هو أشر من عدم الإيمان ومضاف إليه.

هنا كلمة المسيح بالمفرد « اللوغس λόγος » يفرزها المسيح لتقوم بحد ذاتها بالشهادة والإدانة ضد مَنْ لم يقبلها، وبالأكثر والأخطر ضدَّ مَنْ يرذل أو يزدري بشخص المسيح. فكلمة المسيح بقدر ما تقدَّس، وتطهر، وتُحيى، وتليد من جديد وتحرر؛ فهي لها جانبها الخطر، لأن الذي يُحيى بسلطان كلمته، هو بسلطان كلمته أيضاً يُميت؛ والكلمة التي لها قوة الخلاص لها بالضرورة قوة

٦٥٠	□ ختام الأصحاح العاشر : ١٠ : ٤٠-٤٢	(اعتزال مؤقت في عبر الأردن) ٤٠ : ٤٠-٤٢
٦٥٤	استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت	الأصحاح
٦٥٤	آية إقامة لعازر من الموت	الحادي عشر
	مقدمة عامة :	
٦٥٥	○ القصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت	
٦٥٧	○ العناصر التاريخية في الأناجيل الأخرى عن إقامة لعازر من الموت	
٦٥٩	○ العناصر التاريخية داخل القصة	
٦٥٩	○ القيمة اللاهوتية لآية إقامة لعازر من الموت	
	القصة :	
٦٦١	○ لعازر ومريم ومرثا وبيت عنيا : ١١ : ١-٢	
٦٦٢	○ الرسالة الخاصة : ١١ : ٣-١٦	
٦٧٤	○ المنظر في بيت عنيا : ١١ : ١٧-١٩	
٦٧٥	○ المسيح ومرثا : ١١ : ٢٠-٢٧	
٦٨٣	○ المسيح ومريم : ١١ : ٢٨-٣٢	
٦٨٤	○ إقامة لعازر : ١١ : ٣٣-٤٤	
٦٩٧	○ التعقيب على آية إقامة لعازر : ١١ : ٤٥-٥٣	
٧٠٨	○ ختام خدمة الرب : ١١ : ٥٤-٥٧	(اعتزال مؤقت في مدينة أفرام) ١١ : ٥٤-٥٧
٧٠٩	○ ما قبل الرحلة الأخيرة للفصح الأخير : ١١ : ٥٥-٥٧	
٧١٤	استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم	الأصحاح
٧١٥	١ - بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت : ١٢ : ١-١١	الثاني عشر
٧٢٣	٢ - دخول المسيح إلى أورشليم : ١٢ : ١٢-١٩	
	٣ - رد المسيح على طلب اليونانيين :	
٧٣٣	«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع.» (١٢ : ٢٠-٣٦)	عاشراً : من بيت عنيا إلى أورشليم للمرة الأخيرة ١٢ : ١-١٩ : ٤٢
٧٥٣	□ ختام لإنجيل الاستعلان : ١٢ : ٣٧-٤٣	
٧٥٩	□ ملخص لإنجيل الاستعلان : ١٢ : ٤٤-٥٠	

الدينونة (١٠).

وكلمة المسيح، التي هي الآن وعلى طول المدى تذكّر وتُبكّث، في النهاية ستحكم حتماً وتدين «في اليوم الأخير». وهذا التحذير الأخير الذي يعلنه الرب لسامعيه، هو ما جاء بالنص في سفر التثنية كنسوة عن المسيح: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطلبه.» (تث ١٨ : ١٨ و ١٩)

ويلاحظ هنا، في نبوة موسى عن المسيح، أنه لا يدين، بل الآب هو الذي يدين: «أنا أطلبه». كما يُلاحظ التكرار فيما يخص الكلام:

فأولاً: «الآب يضع كلامه في فمه»،

وثانياً: «يتكلم بكل ما أوصيه به»،

ثالثاً: «الذي لا يسمع لكلامي»،

رابعاً: «الذي يتكلم به باسمي».

ويكاد هذا التكرار يطابق التكرار الذي أعلنه المسيح:

أولاً: «إن سمع أحد كلامي ولم يؤمن...».

ثانياً: «مَنْ رَدَّنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلَامِي...».

ثالثاً: «الكلام الذي تكلمتُ به، هو يدينه في اليوم الأخير».

رابعاً: «لأنني لم أتكلم من نفسي».

خامساً: «الآب الذي أرسلني أعطاني وصية ماذا أقول وماذا أتكلم».

سادساً: «وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية».

سابعاً: «فما أتكلم أنا به، فكما قال لي الآب، هكذا أتكلم».

الجزء الرابع : إنجيل المحبة

(١ : ١٣ - ٢٦ : ١٧)

العشاء الأخير وأحاديث الوداع مع التلاميذ الأخصاء

٧٧٤	خدمة المحبة : غسل الأرجل	الأصحاح	عاشراً : في اورشليم
٧٧٥	بذل المحبة : ١٣ : ١ - ٢٠	الثالث عشر	للمرة الأخيرة
٧٩٣	الرب يكشف مسبقاً عن خيانة يهوذا : ١٣ : ٢١ - ٣٠		
٧٩٩	أحاديث ما بعد العشاء : ١٣ : ٣١ - ٣٣		
٨٠٤	وصية المحبة : ١٣ : ٣٤ و ٣٥		
٨٠٨	الرب يحذّر بطرس من تجربة الإنكار : ١٣ : ٣٦ - ٣٨		
٨١٤	+ حديث الوداع الأول : الحديث عن الآب والمضى إليه	الأصحاح	
٨١٤	تمهيد : جولة حول الأصحاح بأكمله	الرابع عشر	
٨١٥	المسيح يعزّي تلاميذه بالرجاء السماوي : ١٤ : ١ - ٤		
٨٢٣	يعرف نفسه بأنه الطريق والحق والحياة وأنه واحد مع الآب : ١٤ : ٥ - ١٢		
٨٤١	يُعدهم بتأكيد استجابة الصلاة التي تُقدّم باسمه : ١٤ : ١٣ - ١٤		
٨٤٤	يوصي بالمحبة والطاعة : ١٤ : ١٥		
٨٤٤	الوعد بإرسال الروح القدس المعزي : ١٤ : ١٦ - ٢٦		
٨٧٠	يترك سلامه لهم : ١٤ : ٢٧ - ٢٩		
٨٧٦	○ «لأن أبي أعظم مني.» (١٤ : ٢٨)		
٨٨٢	○ «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون.» (١٤ : ٢٨)		
٨٩٢	+ حديث الوداع الثاني : الوحدة العضوية مع المسيح	الأصحاح	
٨٩٣	○ مثل الكرمة : ١٥ : ١ - ٤	الخامس عشر	
٩٠٥	○ الثبات في المحبة : ١٥ : ٥ - ١٦		
٩٢٨	○ مضايقات العالم : ١٥ : ١٧ - ٢٥		
٩٣٩	○ الباراكليت : ١٥ : ٢٦ و ٢٧		
٩٤٦	+ حديث الوداع الثالث : الانطلاق والعودة :	الأصحاح	
٩٤٧	معاناة التلاميذ بعد انطلاق المسيح : ١٦ : ١ - ١٥	السادس عشر	
٩٦٢	○ الوعد باستئناف الكلام فيما بعد : ١٦ : ١٢		
٩٦٤	○ الروح القدس وعمله مع التلاميذ ليعدهم للمستقبل : ١٦ : ١٣ - ١٥		
٩٧٠	قد أزفت الساعة، الحزن الحتمي ينشأ الفرح حتماً : ١٦ : ١٦ - ٢٤		
٩٧٠	○ الزمن القليل : ١٦ : ١٦		
٩٨٣	المسيح يختتم تعليمه، ويعدّ بالاستنارة، ويمزج من الخبر : ١٦ : ٢٥ - ٢٨		

كلام المسيح

كلام موسى

«إن سمع أحد كلامي...»

«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من

إخوتك مثلي له تسمعون.» (تث ١٨: ١٥)

«فما أتكلم أنا به، فكما قال لي الآب هكذا

«الإنسان الذي لا يسمع لكلامي (أنا)

الذي يتكلم به (هو) باسمي.»

أتكلم.»

«أنا أطلبه» (تث ١٨: ١٩) [كلام الله

«من رذلني ولم يقبل كلامي، فله من يدينه.

يدينه — «ممرأ إلهيم» — بحسب الترجوم

الكلام (ὁ λόγος) الذي تكلمتُ به هو يدينه.»

النسخة الأرامية].

«وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما

«الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا

أوصيه به.» (تث ١٨: ١٨)

أقول وبماذا أتكلم.»

«أنا أشهد عليكم بها اليوم، لكي توصوا بها

«وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية.»

أولادكم ... لأنها هي حياتكم.» (تث ٣٢:

٤٦ و٤٧)

كما يلاحظ الباحث أن الوارد في سفر التثنية (النسخة السبعينية) من جهة «أنا أطلب»،

أي «أنا أنتقم»، أي الدينونة التي يضطلع بها الآب، جاءت في نسخة الترجوم (الأرامية) أن

الذي سينتقم ليس «أنا» بل «كلام الله»: «ممرأ إلهيم». وهو المطابق لما قاله المسيح في

إنجيل يوحنا: «الكلام الذي تكلمتُ به (وهو كلام الآب) هو يدينه في اليوم الأخير». وما

جاء في التوراة مُطابقاً لما قاله المسيح يدعو للدهشة، لأن الله كرّر مراراً أن كلام التوراة أي كلامه

سيكون شاهداً عليهم (أي سيدينهم):

«خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهداً

عليكم. لأنني أنا عارف قمرّدكم ورقابكم الصلبة. هوذا، وأنا بعدُ حيٌّ معكم، اليوم، قد صرتم

تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي.» (تث ٣١: ٢٦ و٢٧)

كما يلاحظ الباحث أن الله كلم موسى بهذا الكلام وأوصاه أن يقول لبني إسرائيل قبل

موته مباشرة وبعد أن أكمل كتابة التوراة: «وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي

تموت ... فالآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد، وعلم بني إسرائيل إياه، ضعه في أفواههم ...

فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي

تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم،

٩٩٢	شجاعة مفتعلة واندفاع في إيمان صحيح، يفوق الإيمان الحاضر: ٢٩: ١٦-٣٢	
٩٩٥	فني سلام، وفي العالم ضيق: ١٦: ٣٣	
٩٩٨	● ملخص أحاديث الفراق	٧٧٤
		٧٧٥
١٠٠٤	الأصحاح + صلاة المسيح للآب	٧٩٣
	مقدمة: مقارنة بين صلاة المسيح الأخيرة،	٧٩٩
١٠٠٤	في إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى	٨٠٤
	تقسيم الصلاة:	٨٠٨
١٠١٠	١ - القسم الأول: فيما يخص صلته بالآب: ١٧: ١-٥	٨١٤
١٠٣٠	٢ - القسم الثاني: فيما يخص التلاميذ: ١٧: ٦-١٩	٨١٤
١٠٣٠	(أ) كيف استعلن الآب وكيف قبلوه (٦-٨)	٨١٥
١٠٣٧	(ب) كيف كان يحفظ التلاميذ وقد حان وقت تركهم: (٩-١١)	٨٢٣
١٠٤٥	(ج) العمل السابق والعمل اللاحق: (١٢ و ١٣)	٨٤١
١٠٤٨	(د) محنة التلاميذ في العالم: (١٤ و ١٥)	٨٤٤
١٠٥٢	(هـ) المسألة المطلوبة من أجلهم: (١٦-١٩)	٨٤٤
١٠٦٤	○ تذكرة	٨٧٠
	٣ - القسم الثالث: المسيح والكنيسة:	٨٧٦
١٠٦٧	○ المسيح يصلي من أجل الكنيسة: ١٧: ٢٠-٢٦	٨٨٢
١٠٦٨	+ موضوع الوحدة أو الاتحاد بالآب والابن في الأصحاح السابع عشر	٨٩٢
	أولاً: الوحدة، كما سبق وعلم بها المسيح لتلاميذه،	٨٩٣
١٠٦٨	قبل أن يجعلها موضوع صلاته لدى الآب	٩٠٥
	ثانياً: العلاقة الوثيقة بين «المعرفة»،	٩٢٨
١٠٦٩	ووحدة الوجود المتبادل (الاتحاد)، في إنجيل يوحنا	٩٣٩
١٠٧١	ثالثاً: مستويات الوحدة التي يطلبها المسيح لتلاميذه والكنيسة	٩٤٦
١٠٧٢	○ المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً»	٩٤٧
١٠٧٣	○ المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»	٩٦٢
	حدود التشبيه بين الوحدة الإلهية القائمة بين الآب والابن،	٩٦٤
١٠٧٤	وبين الوحدة المطلوبة للكنيسة المتحدة لتحياها في الآب والابن	٩٧٠
١٠٨١	○ المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مكملين إلى واحد»	٩٧٠
	+ الوحدة المسيحية أعظم شهادة لرسالة المسيح في العالم	٩٨٣
١٠٨٥	وأوثق برهان لمحبة الآب الخالصة	

ليكون هناك شاهداً عليكم.» (تث ٣١ : ١٤ و ١٩ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦)

فإذا عدنا إلى كلام المسيح في إنجيل يوحنا بخصوص سماع كلامه وحفظه، وأنه «كلام الآب»، «ووصية الآب»، وأن الكلام الذي قاله هو شاهد عليهم وسيدينهم في اليوم الأخير، نجد التطابق الشديد، ليس في نص الكلام فقط، بل وفي المناسبة، لأن المسيح قال هذا في نهاية خدمته، وقبل أن يموت مباشرة، إذ نقرأ بعد هذا الكلام مباشرة: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت ...» (يو ١٣ : ١).

من هذا يتضح، بأبلغ بيان، أن اختيار ق. يوحنا هذا الموضع المناسب لكلام المسيح في نهاية الأصحاح الثاني عشر - أي قبل موته مباشرة - جزء أساسي وهام جداً من خطة تنسيق الإنجيل، وليس كما طلع علينا الثُّقَاد أن هذا الكلام غير مناسب وليس له موضع في هذا الأصحاح، وعلى حدّ قولهم أنه إضافة غريبة من وضع كاتب آخر غير ق. يوحنا!! وأنه جاء غير مناسب في نهاية سرد حياة المسيح؛ ولكن ورود هذه الوصية على فم المسيح، في نهاية سرد ق. يوحنا لحياة المسيح، تحييء مُحْكَمَةً غاية في الحكمة والإحكام، ومتوازية تماماً مع ما جاء في نهاية سيرة موسى النبي وقبل موته مباشرة وعن المسيح أيضاً، وهذا بحسب رأي إعجاز يضع صياغة إنجيل يوحنا على مستوى الإلهام الرفيع الذي يهز القلوب ويبهرها.

والذي يسترعي انتباهنا أيضاً هنا، في ختام خدمة المسيح، تكرار كلمة «الكلام» سبع مرات في ثلاث آيات، مع توضيح أن كلمة «الكلام» باللغة العربية في هذه الآية: «الكلام الذي تكلمتُ به، هو يدينه في اليوم الأخير»، لم تأت بصيغة الجمع بل بصيغة المفرد «الكلمة»: اللوغُس δ λόγος فالذي سيدين هو «الكلمة» اللوغُس.

نستخلص من هذا أنه، كما بدأ إنجيل ق. يوحنا بـ «الكلمة» في البدء، انتهى بـ «الكلمة» في النهاية كديان. ولكي يتضح ذلك أمام ذهن القارئ، نورد أول آية يفتح بها ق. يوحنا إنجيله، وآخر كلمة يُنتهي بها سرد روايته:

1. ἐν ἀρχῇ ἦν ὁ λόγος «في البدء كان الكلمة»

2. ὁ λόγος ὃν ἐλάλησα ἐκεῖνος κρινεῖ αὐτὸν ἐν τῇ ἐσχάτῃ ἡμέρᾳ

«الكلام (الكلمة) الذي تكلمتُ به هو يدينه في اليوم الأخير.»

هذه هي أيضاً لفظة من اللفظات التي تجعلنا على قناعة أن وراء قلم ق. يوحنا، روحاً يشهد ويُعلي ويُبدع!

- ١٢٥٩ ١ - رؤية القبر مفتوحاً فارغاً: ١:٢٠ - ١٠
- ١٢٦٩ ٢ - المسيح يظهر للمجدلية: ١١:٢٠ - ١٨
- ١٢٨٠ المنظر الثاني: في العلية والتلاميذ مجتمعين:
- ١٢٨٠ ١ - المسيح يظهر للتلاميذ في مساء الأحد: ١٩:٢٠ - ٢٣
- ٢ - المسيح يظهر للأحد عشر
- ١٣٠٠ خصيصاً من أجل نوما: ٢٤:٢٠ - ٢٩
- ١٣١٠ القصد الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا: ٣٠:٢٠ و ٣١

الصورة الإنجيلية العامة لظهورات الرب والتسجيلات التي ازدحمت بها
أسفار العهد الجديد عن عقيدة القيامة

- ١٣٢٦ ثاني عشر: الأصحاح خامساً: صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية:
- ١٣٢٦ الحادي والعشرون موضوع الأصحاح الحادي والعشرين في إنجيل يوحنا
- ١٣٢٩ في الجليل القسم الأول: المسيح والتلاميذ: ١:٢١ - ١٤
- ١٣٤٣ القسم الثاني: المسيح والقديس بطرس: ١٥:٢١ - ١٩
- ١٣٥٠ القسم الثالث: المسيح والقديس يوحنا: ٢١:٢٠ - ٢٣
- ١٣٥٥ القديس يوحنا يشهد لإنجيله: ٢١:٢٤ - ٢٥

الجزء الرابع: إنجيل المحبة

العشاء الأخير وأحاديث الوداع

مع التلاميذ الأخصاء

من الأصحاح الثالث عشر إلى الأصحاح السابع عشر

في هذه الأصحاحات، يرتفع ق. يوحنا في تسجيلاته إلى أعلى خصائص أسلوبه الروحي في التعبير عن المحبة، حيث لا يتخللها ما يجرح المحبة ويدميتها إلا التنويه عن خيانة يهوذا، أحد المحبوبين الذي باع المحبة وذبحها.

ويمكن تقسيم ما جاء في هذه الأصحاحات إلى:

- ١ — آخر أعمال المحبة وتاجها، وجُرحها القاتل: (الأصحاح ١٣).
- ٢ — الأحاديث الأخيرة، والمواعيد السخية: (الأصحاحات ١٤ و ١٥ و ١٦).
- ٣ — صلاة التكريس، والوجه متجه نحو السماء: (الأصحاح ١٧).

وأهم محتويات هذه الأجزاء هي:

عشاء المحبة: (١٣: ١-٢٠)

- «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى،
- قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه ...
- فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ...
- ليس رسول أعظم من مُرسِله».

فرز الخائن: «فغمس اللقمة وأعطاه لليهوذا» (١٣: ٢٦).

الوصية الجديدة: وصية المحبة (يو ١٣: ٣٤ و ٣٥).

التحذير لبطرس: (١٣: ٣٦-٣٨).

حديث الوداع الأول: الذهاب والعودة: (الأصحاح ١٤).

- «أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً ... (ثم) آتي أيضاً وأخذكم إليّ» .
- «أنا هو الطريق، والحق، والحياة» .
- «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي» .
- «الذي رآني، فقد رأى الآب» .
- «أنا في الآب، والآب فيّ» .
- «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي» .
- «أنا أطلب من الآب، فيعطيكُم معزياً آخر، ليملك معكم إلى الأبد» .
- «لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم» .
- «إليه فأني وعنده نصنع منزلاً» .
- «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم» .

حديث الوداع الثاني: الوحدة العضوية مع المسيح: (الأصحاح ١٥).

- «أنا الكرمة الحقيقية، وأبي الكرام» .
- «أنا الكرمة، وأنتم الأغصان» .
- «كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي» .
- «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم» .
- «أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به» .
- «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم» .
- «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» .

حديث الوداع الثالث: الانطلاق والعودة: (الأصحاح ١٦).

- «إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزي» .
- «ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» .
- «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» .
- «سأراكم أيضاً (ثانية)، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم» .
- «كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم» .

- «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية».
- «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني».
- «تأتي ساعة تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي وأنا لست وحدي لأن الآب معي».

ختم أحاديث الوداع: (١٦: ٣٣).

- «كَلَّمْتُكُمْ بهذا ليكون لكم فيَّ سلام
- في العالم سيكون لكم ضيق
- لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم».

صلاة المسيح التي غيّرت مجرى الدهور: (الأصحاح ١٧).

- صلاة المسيح رفعت الإنسان إلى أعلى من رتبته الأولى: (١٧: ٢١ و ٢٣ و ٢٤).
- صلاة المسيح سلّمت الإنسان المقتدى صكّ الحياة الأبدية: (١٧: ٢).
- صلاة المسيح فتحت معرفته وقدّسته لاستيعاب طبيعة الله في ذاته: (١٧: ٣ و ١٧ و ٢٦).
- صلاة المسيح استعلنت وحدة أبوة وبنوة الله في ذاته: (١٧: ٥ و ١٠ و ٢١).
- صلاة المسيح أَدْخَلَت الإنسان الجديد في الوجود الإلهي الفائق، ليفقد أنانيته وتفتّته إلى الأبد: (١٧: ٢١ و ٢٣).
- صلاة المسيح اتّعمّنت عليه بحب الآب، بواسطة الابن الوحيد، ليعيش فيه التبني: (١٧: ٢٣ و ٢٦).



مكان البشارة
عاشراً - في أورشليم
للمرة الأخيرة

الأصحاح الثالث عشر خدمة المحبة: غسل الأرجل

أ - الرب يقوم عن العشاء، ليغسل أرجل تلاميذه، لتكريسهم للخدمة، كنموذج لِمَا ينبغي أن تكون عليه المحبة بين المُرسَلين، وما هو الاتضاع، كسر الكمال للكرامة والرسالة (١٣: ١-٢٠).

ب - الرب يكشف مُسبقاً عن خيانة يهوذا. و يعطي يوحنا علامة خاصة ليتعرف عليه (١٣: ٢١-٣٣).

ج - الوصية الجديدة: المحبة (١٣: ٣٤ و ٣٥).

د - الرب يحذر بطرس من تجربة الانكار التي سيسقط فيها (١٣: ٣٦-٣٨).



بذل المحبة

(١٣ : ١ - ٢٠)

في صميم سر العشاء، ومن جوهر لاهوت الإفخارستيا، يقدم إنجيل يوحنا سرّده التاريخي الفريد لطقس «غسل الأرجل»، كنموذج حي لكراسة المحبة، في جو روحي مُشبع بالعواطف، والرواية تمتاز بالدقة الحركية والحيوية الناطقة، وتسودها شفوية المسيح الحساسة والرقيقة والحجولة في إشارته نحو التلميذ الخائن الذي اندسّ وسط الأطهار. كما يظهر القديس بطرس، بملاحة المتدفقة حيوية، سواء في اندفاعه أو في إحجامه.

ورواية غسل الأرجل تنقسم إلى قسمين: قسم يورد عملية غسل الأرجل بملاحظات (١١ - ٢)، والقسم الآخر يورد الدرس المتحصّل منها (١٢ - ٢٠).

١٣ : ١ «وأما يسوع، قبل عيد الفصح، وهو عالمٌ أن ساعته قد جاءت ليستقل من هذا العالم إلى الآب؛ إذ كان قد أحبّ خاصّة الذين في العالم، أحبّهم إلى المنتهى...».

قبل الفصح:

الحديث عن زمن العشاء الأخير الذي حدده إنجيل يوحنا قبل الفصح أي قبل ١٤ نيسان، وهو يختلف في ذلك عن الثلاثة الأناجيل الأخرى التي حددته بوقت الفصح نفسه، أي أن عشاء الفصح كان في ١٤ نيسان.

ولكن سواء إنجيل يوحنا أو الأناجيل الثلاثة الأخرى، فكلٌ منها كان يجتهد لإثبات أن الفصح اليهودي قد أكمل وإلى الأبد، سواء بهذا العشاء الأخير الذي ذبّح فيه المسيح نفسه بالنية، أو بذبح المسيح فعلاً على الصليب على أيدي اليهود، عوّض خروف الفصح.

ومن جهة ق. يوحنا، فقد أكّد أن الفصح الحقيقي - الذي كانت كل أعياد الفصح السابقة رمزاً له - قد أكمل وإلى الأبد بذبح «تحملي الله»، يسوع المسيح، على الصليب لرفع خطايا العالم؛ وذلك في نفس ميعاد ذبح خروف الفصح في ١٤ نيسان، ليُصبح المسيح فصح الدهور

كلها: «الخروف القائم في السماء كأنه مذبح». وهذه الصورة الفصحية الدائمة للمسيح في السماء، باعتباره خروف الفصح الأبدى، ملأت كل رؤيا ق. يوحنا حيث ظهر المسيح بصورته الفصحية هذه، كخروف الفصح، ما يقرب من خمس عشرة مرة!!

وحتى الكنيسة المعتبرة جسده، ظهرت في الرؤيا كامرأة «الخروف» التي جُبلت من ضلعه، بل «من لحمه وعظامه»، بل من دم صليبه، ورآها ق. يوحنا متهيئة ومُرَتَّنة بصلوات وتبرُّرات القديسين، وأنها وشيكة الظهور معه: «لنفرح ونتهلل ونُغَطِّهِ المجد، لأن عُزْسَ الخروف (استعلان الملكوت الأخير) قد جاء، وامراته هيأت نفسها، وأعطيت أن تلبس بَرًّا (كتان أبيض وهو لباس خدمة الكهنوت) نقيًّا بهيًّا، لأن البَرَّ هو تبرُّرات القديسين.» (رؤ ١٩ : ٨ و ٧)

والمعجيب جداً أن الكنيسة المجيدة المحبوبة والمعشوقة لدى عريسها «الخروف» الفصحى، الذي دُبِعَ من أجلها فاشتراها بدمه وَوَلَدَها من روحه يوم ١٤ نيسان، هي نفسها التي رآها ق. يوحنا في رؤياه بصورة أورشليم الجديدة عينها، مدينة الملك العظيم — وَظَنَ القديسين — بأسوارها الكريمة وأبوابها اللؤلؤية: «تُسَمَّيْنِ أسواركِ خلاصاً وأبوابكِ تسييحاً» (إش ٦٠ : ١٨)؛ «ثم جاء إليَّ واحد من السبعة الملائكة... وتكلم معي قائلاً: هَلُمَّ فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ، وأراني المدينة العظيمة، أورشليم المقدسة، نازلة من السماء من عند الله. (لها) مجدُّ الله... ولم أَرِ فيها هيكلًا، لأن الرب... والخروف هيكلها... والخروف سراجها... ولن يدخلها شيء دنس، ولا ما يصنع رجساً وكذباً، إلا المكتوبين في سفر حياة الخروف!!» (رؤ ٢١ : ٩ و ١٠ و ١١ و ٢٣ و ٢٢ و ٢٧)

لقد تجلّى المسيح في سفر الرؤيا، ليأخذ أقصى صورة للفداء والخلاص الذي أكمله على الصليب — في ١٤ نيسان — أمام عيني التلميذ المحبوب، ليظهر في سفر الرؤيا بشكل خروف الفصح، كأعمق تعبير عن بذل المحبة الدائم والخالد والأبدى، وكصفة ثابتة أزلية للمسيح «الفادي».

«وهو عالمٌ أن ساعته قد جاءت، لينتقل من هذا العالم إلى الآب»:

ق. يوحنا يتكلم عن «عِلْم» المسيح، ليس كأنه وليد الظروف والحوادث، بل هو العلم الفائق على الزمن وحوادثه، فهو العلم الكلّي Omniscience الذي يرى ويفحص كل الدهور، وما وراء الدهور، كلَّ ما للإنسان، وكلَّ ما لله بآن واحد. لذلك تأتي الكلمة كحال دائم «هو عالم» εἰδώς بصورة العلم المطلق. وأمام الحوادث القادمة، يقف عِلْمُ المسيح المُشَبَّق، لا

كمحرّك للحوادث، بل كمصوّر للآلام القادمة في نفسه ليعطيها مزيداً من الواقعية، وقد استخدم المسيح علّمه بآلامه المُزْمَع أن تكون^(١)، ليستعلن لاهوته، ويكشف عن صدق حُبّه لأخصّائه، الذي هو مزعم أن يتركهم في العالم ليمضي هو إلى الآب. ثم طرح آلامه المزمعة وراء ظهره، ليتفرغ لتغزية أحبائه وممارسة عمل محبته.

«ساعته قد جاءت»:

قبل أن «تأتي ساعته»، لم يكن لأحد عليه سلطان. وطالما رفع أعداؤه الأيدي بالحجارة، ولكن أن يكملوا مشيئتهم فهذا مستحيل، ولكن الآن «أتت الساعة»، فانفك قيد سلطانهم الأثيم، وانطلقت حرّيتهم الشريرة، ليصنعوا كل ما شاءوا: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة!» (لو ٢٢: ٥٣)

وهكذا يبدو مجيء الساعة وكأنها حتمية، ولكن الحتمية الزمنية لا تخضع إلا لمشئته الله: «لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو ٩: ٢٨). وقضاء الله وحتمياته ذو غايات وأهداف. فحتمية الله لا بد وأن تنشئ حتمية، فحتمية الساعة (الموت) كان وراءها بالضرورة حتمية القيامة: «لأنهم لم يكونوا، بقُد، يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات.» (يو ٢٠: ٩)

والترجمة العربية «ينبغي» يلزم هنا أن تكون «حتماً» $\delta\epsilon\iota = \text{must}$. فالقيامة بالنسبة للمسيح المُشجى في القبر ليست هي أمراً لايقاً وحسب، بل هي أمر حتمي بأقصى ما تكون الحتمية.

في إنجيل القديس لوقا نجد المسيح يسير نحو هذه «الساعة» متجهاً إليها بكل مشيئته: «وحين تمت الأيام لارتفاعه، ثبّت وجهه لينطلق إلى اورشليم» (لو ٩: ٥١). فهو لم يكن عالماً بها وحسب، بل وكان يريدّها، بل جاء من أجلها: «لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو ١٢: ٢٧). كان المسيح يتجاوز مرارتها بسهولة لأنه كان يتطلع إلى غايتها السعيدة: «لينتقل إلى الآب»، «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مُستهيئاً بالخزي.» (عب ١٢: ٢)

لم يقلق المسيح من مجيء «الساعة»، فقد غطى حُبّه لأخصّائه كلّ مرارة ما قبلها. وحُبّه للآب غطى ما بعدها، أما الساعة نفسها فكانت فرصته العظمى ليكشف حُبّاً: «ليس لأحد حب

(١) بخصوص رؤية المسيح لآلامه المزمعة أنظر كتاب: «مع المسيح في آلامه حتى الصليب»، للمؤلف، طبعة ١٩٨٧،

أعظم من هذا» (يو ١٥: ١٣)، حيث سيرى العالم سلطانه الفريد، كيف سيضع نفسه من أجل مَنْ أحبهم إلى المنتهى، وكيف سيأخذها مستهزئاً بالموت وظلام القبر وظلم القاتلين. وحينئذ ستصبح «الساعة» بكل آلامها سجل مجد في السماء وسجل شرف في الأرض، يتوق ملوك ورؤساء وأنبياء كثيرون لو يفوزوا بوضع إمضائهم على صفحاته، شهوداً أو شهداء، ليُحَسَّبوا من أبناء هذه «الساعة».

فالآن، لو نظرنا إلى هذه «الساعة» وما تحمله من معانٍ ومفاعيل وعواطف مزدهجة، لوجدنا أنها لحظة القيمة في حياة المسيح، فهي ساعة العودة إلى الآب، إلى الحصن الأبدي، حيث المجد القائم من قبل إنشاء العالم، وهي ساعة ختام مسيرة الحب بين الرفاق، الحب إلى المنتهى أو الذي بلا نهاية، وهي ساعة الضربة القاضية لذخِر سلطان الموت والخطية لخلاص الإنسان، الساعة التي رأتها كل الأجيال السالفة بالرؤى والأحلام، نظروها من بعيد وحيوها (عب ١١: ١٣). وقد سلَّح الآب ابنه بكل سلطانه الخاص: «قد دَفَع كل شيء إلى يديه» (يو ١٣: ٣)، حتى اسمه الخاص، ليجوز هذه الساعة ضد كل قوى الأعداء المتصافرة، ليخرج منها غالباً لحسابنا، ولكي يغلب دائماً: «وقد أعطي إكليلاً، وخرج غالباً ولكي يغلب»^(٢) (رؤ ٢: ٢). فهي ساعة النصر والمجد للإنسان، كل إنسان.

«إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى»:

ق. يوحنا هو المتكلم، وهو خير مَنْ يتكلم عن حب الرب لخاصته الذين اختارهم من العالم. ولكن الحب هنا يُشْتَغَلَن بروح يوحنا وروح المسيح على مستوى «المنتهى»، أي نهاية قدرة المسيح على العطاء، عطاء الذات، وقدرة الأجيّة على الأخذ. فهو حب الشركة، شركة الروح مع الروح، وهي الشركة التي استعلنها بل استكملها على العشاء. فيوحنا يتكلم الآن بعد أن أدرك، وقاس، وذاق طعم الدم في كأس الخلاص، وقوة الجسد المُقام في الخبزة المكسورة في تلك الليلة الخالدة، التي فيها أذاب حُبّه، كل حبه، مع روحه في كأس!!

— «لأن حُبَّكَ أَطْيَبُ من الخمر... نبتهج ونفرح بك. نذكر حبك أكثر من الخمر، بالحق

يحبونك.» (نش ١: ٢ و ٤)

(٢) في بعض الأيقونات القبطية العتيقة، وُجد تحت المسيح المصلوب حرف اتشيم القبطي Ⲫ، وقد تحير علماء الأيقونات سنين طويلة في معنى هذا الحرف، إلى أن فكَّ لُغَزَه العالم المرحوم يسي عبد المسيح، إذ تعرّف عليه أنه الحرف الأول من كلمة «الغالب» **πῖβρο**، وهو لُقب المسيح في سفر الرؤيا.

لقد اختفى طعم الخمر وبقي حبه مع روحه، فكيف لا يقول يوحنا «أحبهم إلى المنتهى»؟
— «اشربوا واسكروا أيها الأحباء.» (نش ١: ٥)

٢: ١٣ «فحين كان العشاء، وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخر يوطي أن يُسلّمه».

لا يستطيع الإنسان أن يحيط بهذا المنظر وما احتواه، كيف جمع أقدس الحب مع أشنع الخيانة وعلى مائدة واحدة، حتى في أقدس ليلة من ليالي الحياة على الأرض، والله قائم على مائدة حبه، ممثلاً بابنه وسط أخير مختاريه، يبثهم حبه، يسقيهم من روحه، ويطعمهم من لحمه، كيف يندس هكذا الشيطان، بعد أن وجد له مسكناً في إنسان؟

أي قلب هذا الذي ليهوذا ابن سمعان الإسخر يوطي؟ هل قُذ من حديد بارد، حتى يتقمصه هكذا الشيطان المارد؟ ألم يأخذ نصيبه الكامل من الحب المنسكب من قلب الله كبقية المختارين، كيف بدّده، بل كيف مرّقه وداسه برجليه، والتفت ليفتك بالقلب الذي أحبه؟ ولكن هذه هي الخطيئة، وهذا هو الإنسان حينما يغويه الشيطان! «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلّوا عن الإيمان، وطمعوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.» (١ تي ٦: ١٠)

إنها زيارتان مشثومتان استضاف فيهما يهوذا صديقه المهلك، الأولى ألقى في قلبه المشورة، فقبلها، وهان عليه أن يسلم من أحبه؛ والثانية جاءه ساكناً كصاحب بيت لينفذ معه الخطوة.

لهفي على قلب يوحنا الملهب حباً وريقة، كيف استطاع وهو يتأمل يهوذا، أن يحتمل جرأته وفجوره وهو يجلس بجوار الرب يصطنع التلمذة ويتصنع المودة بلسانه الألين من الزيت وهو نُصّال^(٣)؟ أي دموع كنمها هذا الحبيب؟ وأي غصّة أصابت حلقه فمنعته من الصراخ؟

ولكن إن كان مثل هذا قد جرى ليوحنا، فماذا كان يجري في قلب المخلص؟ وهو لا يرى فقط النُصّال الذي يخفيه يهوذا، بل كان يحسّه في جنبه بل في قلبه! ولكن العجيب في الرب — وهو صانع العجائب كلها — أن قلبه لم يهتز بالبغضة إزاء يهوذا ولا قيد شعرة، ألا يُشرق الرب شمسَه على الأبرار والأشرار؟ بل ظل يلاطفه، ويلمس اللقمة ويعطيها له بيده كما يحنو الأب

(٣) «كلامه ألين من الدهن وهو نصّال. فلو كان العدو غيرني إذا لاحتملت. ولو أن مبغض عظم عليّ الكلام لاختمت منه» (مزمور ١٨: ٥٤ و١٠ حسب الترجمة القبطية، ويُقال في باكر خيس العهد).

على صغيره بما لم يصنعه مع الآخرين، وحتى حينما جاءه بقبلة التسليم بادره الرب بنداء الصداقة: «يا صاحب لماذا جئت؟» (مت ٢٦: ٥٠). وهذه هي قدرة الرب التي لا يبلغها عقل بشر، كيف يعزل، في حبه، الخطيئة عن خطيئته. فمعركته الأولى والأخيرة هي مع الخطيئة، وليس مع الخطيئة، ولكنه نقي يوم مولده، فتمناه لو لم يولد، لأنه علم كيف سيخون نفسه رافضاً الحياة التي أخذ!!

غسل الأرجل = Pedilavium :

١٣: ١٣ «يسوع، وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه، وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي، قام عن العشاء وخلع ثيابه، وأخذ منشفة، واتزر بها».

«وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه»:

ق. يوحنا هو المتكلم، وكأنه بلسان المسيح، يمهد لصورة العبد الخديم التي استعارها لنفسه منحنيًا على أرجل تلاميذه. فيوحنا يحاول أن يرفع ذهن القارئ، ليدرك من أي مركز علوي يتنازل المسيح وهو قابض بيديه على أعنة كل ما في السموات والأرض من سلطان، وهو يستخدم هاتين اليدين في غسل أرجل تلاميذه. ويشدد يوحنا، هنا، على كلمة «يديه»، لأنها مركز الأعجوبة الإلهية، فهي قابضة على مصائر العالمين استطاعت أن تتعامل مع وسخ الأقدام بأن واحد.

إبهتي أيتها السموات وفرحي يا أرض الإنسان! فالذي جاء من العلاء ليغسل قدركم بني آدم، ليس فقط إلى مواضع القلب الداخلية بل إلى وسخ السيرة والمسيرة!

ويجيء سفر العبرانيين ليكمل هذه العجوبة، فبعد أن نزل وتنازل هكذا، يقول سفر العبرانيين: «بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي، صائراً أعظم من الملائكة...» (عب ١: ١٣)

«وأنه من عند الله خرج، وإلى الله يمضي»:

ولكنه كما لم يخرج ببهاء مجده، إذ استلزم منه التجسد أن يُخلّي ذاته من عظمة لاهوته فتسر بل باتضاع قائمة الأرضيين، هكذا وفي طريق العودة استكثر على نفسه أن يعود ببهاء البشريين، بل ذهب وجروحه في يديه وجنبه مفتوح، حتى إذا تعذر علينا أن نتمثل بإخلاء الألوهة في نزوله، لا يتعذر علينا أن نتمثل باتضاع بشريته في صعوده. ومن ذا الذي يتأمل في إخلاء ألوهته

ولا يسهت؛ إنها معجزة الله!! ولكن أن نتأمل في إخلاء حتى بشريته فهذا أمر يُذهل؛ إنها معجزة ابن الإنسان!!

ولكن إن كان قانون الخروج من عند الله يخص ابن الله وحده وهي معجزته، فالمضي إلى الله قد صار قانون الإنسان وهي معجزتنا. فبالأولى: «ظهر الله في الجسد» (١ تي ٣: ٤) وهو أمر يفوق طاقة تصورنا؛ ولكن بالثانية: «نُظِّهَر نحن معه» (راجع كو ٣: ٤)، وهي بالإيمان في حدود رؤيتنا.

وهكذا، بحسب تدبير نعمة الله وحكمته الفائقة بالإخلاء، اقتحم ابن الله الطريق إلينا، خرج من عند الله وحيداً فريداً وسط تهليل السمايين، ليعود إليه باتضاع العبيد محملاً بأبناء كثيرين، مفتتحاً الطريق وسط تهليل الأرضيين والسمايين حتى إلى قلب الله!! وصادقة هي الكلمة التي قالها: «أنا هو الطريق» (يو ١٤: ٦)، إنَّ في مجيئه إلينا من عند الله ما يساير ذهابه بنا إليه!!

«والى الله يمضي»:

هنا بيت القصيد، فبسبب هذا المضي إلى الله، وهو عالم أنه سترك تلاميذه لخدمة هذا طوطها وهذا عرضها: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت ٢٨: ١٩)، رتب المسيح إعداد تلاميذه لهذه الخدمة بإجراء تقديسي يحمل الرمز والحقيقة معاً، وهو غسل أرجلهم بيديه لتقديسها وإعدادها لمسيرة التبشير عبر جميع الأمم، ثم دَعَّمهم بقوله: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أُرْسِلُهُ، يقبلني...» (يو ١٣: ٢٠)

وكأنني بالرسل المبشرين الأطهار، كلما أعياهم المشي وكُلَّت أقدامهم عن المسير، جلسوا يتحسسون لمسات أصابع المسيح التي مرت على أقدامهم، فيجددون قوة، ثم يرفعون أعينهم إلى فوق فيجدونه ناظراً عليهم!

وليس عبثاً، أيها القارئ العزيز، أن نجد في الإنجيل هاتين الآيتين ملتصقتين معاً: «يسوع وهو عالم... أنه إلى الله يمضي، قام عن العشاء وخلع ثيابه...»

وَعَسَلُ الأرجل، الذي أجراه المسيح، قَصَرَهُ على تلاميذه من جهة الإرسالية لتبشير الأمم: «أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي» (لو ٢٢: ٢٨). لذلك لم يُجَرَّب بعد ذلك في الكنيسة إلا من وجهة اتضاع المحبة، وتذكراً سنوياً لخدمة غسل أرجل الرسل.

«قام عن العشاء» :

إذن، لم يكن غسل الأرجل استعداداً للعشاء كإجراء يستلزمه سر الإفخارستيا، بل هو إجراء قائم بذاته، فهو مواز لقوة العشاء وملتحم به، لم يصنعه المسيح قبل العشاء ولا بعد العشاء. فبعد غسل الأرجل، جلسوا مرة أخرى وأكملوا العشاء. ومن شرح الرب لإجراء غسل الأرجل ومن ملابس امتناع بطرس في البداية، نفهم أنه كما كان للعشاء — كشركة مع الرب — فرصة لتوزيع الأنصبه في ملكوت الله، هكذا فإن لقوة غسل الأرجل — كشركة مع الرب — فرصة لنوال ذات النصيب : «إن كنت لا أغسلُك، فليس لك معي نصيب.» (يو ١٣ : ٨)

إذن، فغسل الأرجل قد صار سرّاً ملتحمًا بسر الإفخارستيا. فإن كان سر الإفخارستيا يقوم على سر بذل الجسد والدم على الصليب، أي هو شركة في موت الرب وقيامته، فسرُّ غسل الأرجل يقوم على سر انحناء الأكبر للأصغر بشبه العبد لسيده، فهو سرُّ «أخذ شكل العبد» (راجع في ٧ : ٢)، أحد أسرار المسيح الجوهرية. الأول سرائري يُجرى بالطقس، حيث يصير التحول من خبز وخر إلى جسد ودم؛ والثاني سرِّي يُجرى بخلع الكرامة، وبالاثتزار بالاتضاع، بشبه المسيح. الأول صورته عشاء، وجوهره شركة مع المسيح في موته وقيامته؛ والثاني صورته غسل أرجل، وجوهره شركة مع قامة برِّ المسيح في اتضاع الألوهة؛ حيث يأخذ كلٌّ من الإفخارستيا وغسل الأرجل كلاهما صورة «السرِّ» وقوته، من منطلق لاهوت المسيح المتحد بناسوته، فكلا السرَّين إلهي وبشري بأن واحد.

لذلك، فاتضاع المسيح لا يُحتسب عملاً بشرياً مجرداً، بل هو عمل إلهي في جوهره، بشري في مظهره، خلاصي المفعول والهدف. لذلك نسمع المسيح يقول للمعمدان، الذي جفَل وارتعب أن يضع يده على رأس المسيح لتكميل العماد : «اسمع الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ» (مت ١٥ : ٣)، برٌّ ماذا؟ برُّ الاتضاع (*)!! أما المعمدان فيكمل برَّ الطاعة لصوت الله؛ وأما المسيح فليكمل برَّ الاتضاع الإلهي ومسحة المعمودية معاً، كعمل يهبي لسر الصليب، وكما اقترنت المعمودية ببر الاتضاع توطئة لسر الصليب، هكذا اقترنت الإفخارستيا أيضاً في سرِّي العشاء وغسل الأرجل، لأنهما الصليب بعينه. فاتضاع المسيح الخلاصي كان هو كل حياة المسيح الذي تُوج بالصليب.

(*) راجع مقال : «برُّ الاتضاع» في كتاب : «أعياد الظهور الإلهي»، للمؤلف، الطبعة الأولى ١٩٨٠، ص ٢٦٣—٢٦٨.

«وخلع ثيابه، وأخذ منشفة، واتزر بها» :

الثياب هنا هي «ثياب العشاء»، وهي أفخر ما يلبس الداعي أو المدعو لحفل العشاء الفصحى؛ وهي غالباً ما تكون مخصصة على مستوى كرامة الداعي والمدعوين. ولا يغيب عن بالنا أن المسيح عالمٌ بأنه العشاء الأخير، ومن رواية الصليب ندرك أنه كان لباساً خاصاً جداً تعارك عليه جنود الرومان، وأخيراً اقترعوا عليه.

ونقرأ في المثل الذي وصفه المسيح عن حفل عشاء العُرس: «فلما دخل الملك لينظر المتكئين، رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس. فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا، وليس عليك لباس العُرس». (مت ٢٢ : ١١ و١٢)

من هذا نستشف قيمة الثياب التي يرتديها الإنسان لحضور حفل عشاء. فخلع المسيح لثيابه، أي ليس فقط الثوب المطرز غالباً والمفتوح من أمام، بل وما تحته لأن الكلمة اليونانية لم تأت بالمفرد لتخصيص «الروب» الخارجي *ἱμάτιον* فقط، بل جاءت بالجمع *ἱμάτια*.

وهذا الإجراء — أي خلع الثياب — يُحتسب خارجاً عن اللياقة بالنسبة لكرامة أي إنسان وسط جماعة، لأنه سيظهر بالملابس الداخلية فقط، هذا الأمر لا يدركه علماء الكتاب الغربيون، فهذا الخلع هو من شأن الخدم والعبيد: أن يقف العبد بالقميص واللباس الداخلي يغسل أرجل أسياده! ولكن المسيح قصد ذلك قصداً ليرأى أمامهم كعبد وبصورة لا تُكسى. كان يمكن للمسيح أن يغسل أرجل تلاميذه، دون أن يخلع ثيابه، ولكنه أصر على أن «يأخذ شكل العبد» (في ٧: ٢)، لأنها في عُرف اللاهوت هي «درجة» دون درجة «شكل الإنسان»^(١).

ومعروف رسمياً لدى قوانين العصور الأولى، وفي صميم القانون الروماني، أن «العبد» فاقد لحقوقه الإنسانية، يُباع، و يُشترى، و يُرتهن، و يُعاقب، و يُقتل بيد صاحبه أو سيده، دون مؤاخذه.

والمسيح في تجسده، «أخذ شكل العبد»، لا اتضاعاً فحسب، بل ونزولاً إلى الدرجة الحقيقية التي نزل إليها الإنسان بالخطية. فالإنسان لم يَعدُ حُرّاً أمام الله، أو حتى أمام الشيطان، وبالأكثر أمام الخطية. فقد استُعبد الإنسان فعلاً تحت سلطان الخطيئة القاتل وتحت سيادة الشيطان المستبد

(١) «كان منظره كذا مُفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم... لا صورة له ولا جمال فنظر إليه... محترقاً ومغلول». (إش ٥٢: ١٤ و ٥٣: ٣)

المهلك، وهذا هو واقع طبيعة الإنسان التي نزل إليها المسيح. فالمسيح لمّا تراءى أمام تلاميذه خُلواً من ثياب كرامة الإنسان، فهو كان على حقيقة ما نزل إليه وليس مجرد تراءى. ولم يكن مجرد «شكل العبد» بل وظيفته!! وهي هي الوظيفة التي سيرتفع فيها وبها إلى قمة المجد، إلى ما فوق شكل الإنسان وطبيعته، حيث نُستدعى نحن لكي نتغير عن «شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (في ٣: ٢١)، أي من عبودية الخطية إلى حرية مجد أولاد الله.

ولا ننسى أننا على مائدة الفصح، والفصح الأول في القديم هو فصح مصر، فصح الخروج من عبودية فرعون، حيث كان كل من وقف حوله ليتناول منه كان عبداً. وكان من شأن هذا الفصح الأول، أو من أعماق أسرارهِ، أنه أَكَلَةُ التحرير، وطعام الفكّك والقوة، التي عبرت بهم أهوال الخروج وعبور البحر والبرية والتيه أربعين سنة، حتى أوصلتهم أرض الوعد والميعاد. ودمه، أي دم الخروف، بقدر ما كان كفّارة للعبيد وأماناً لهم وسلاماً، كان رغبة على المستعبدين وهلاكاً للمستعبدين.

والمسيح هنا، أمام الفصح، يعود بالبشرية في نفسه — ممثلاً للبشرية كلها، إلى وضعها الحقيقي كمبيد مُستعبدين، وليعود بذهن التلاميذ إلى حال آبائهم المُبَاعين عبيداً تحت الشجرة. فإلى تحت الصفر، هكذا نزل المسيح، حتى لا يغيّب عبد واحد عن التحرير وحرية الخلاص.

«وأخذ منشفة، وأثّر بها»:

هذا طقس العبيد المتضعين، بحسب قول العلامة اليهودي المنتصر إدرزيم، وتأتي كلمة «اثّر» باليونانية διέξωσεν، كما وردت في موضع آخر عن بطرس حينما كان عُريّاناً وعلم أنه الرب: «فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب. فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب، أثّر بثوبه، لأنه كان عريّاناً وألقى نفسه في البحر.» (يو ٢١: ٧)

وبذلك يظهر لنا أن كلمة «اثّر بالمنشفة» تفيد معنى رَبط المنشفة حول الوسط، على أن يكون جزءٌ كبيرٌ منها حُرّاً للتنشيف به، وهذا هو السائد في طقس غسل الأرجل يوم خميس العهد في الكنيسة القبطية.

١٣: ٥ «ثم صبّ ماءً في مِغْسَلٍ، وابتدأ يغسلُ أرجُلَ التلاميذ ويَمْسَحُها بِالْمِنْشَفَةِ، التي كان مُثَرّاً بها».

واضح أن الرب قام بعملية غسل الأرجل بكل جزئياتها، وكان ق. يوحنا دقيق الملاحظة

للفاية في تسجيل الحركات وكأنها حية ناطقة. فالرب هنا أمسك بالإبريق الذي به الماء، وصبّ الماء في «المغسل»، الذي يجيء في الترجمة القبطية «لقان» ΛΑΚΑΝΗ، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه واحداً بعد واحد.

المنظر هنا يفوق قدرة أي إنسان أن يمسك بطرفيه، فهذا هو ابن الله المنحدر من المجد الأسنى، من أعلى السموات، منحنيّاً على أرجل ملوثة غلّاها الوسخ والتراب، منشغلاً في غسيلها. ولكن، أليس هذا هو بمقتضى الطبيعة التي نزل إليها: أخذ شكل العبد؟ ثم أليس هذا هو عمل المسيح وصميم رسالته، أن يستعلن ما هو عمل المحبة الإلهية في أقصى حدودها؟

هنا يستعلن المسيح حدود محبة الله وموضوع انشغالها ومسرّتها. ماذا؟ غسل رجلي الإنسان! إلى هذا الحد بلغ المسيح في استجلاء «المنتهى»، ألم يُقَلَّ أنه أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى «المنتهى»؟ نعم هذا «منتهى اتضاع المحبة»، وهل بعد ذلك يمكن أن يكون شيء؟ صعب على الإنسان أن يغسل إنساناً، وعسير غاية العسر أن يغسل رجلي خادمه، ومستحيل أن يغسل رجلي عبده له. نعم، هذه هي طبيعة الإنسان، لا يستطيع أن ينزل دون ذاته، ولكن الله ليس كذلك!! اسمعه وهو يقول في سفر حزقيال النبي، مخاطباً أورشليم، أو بالحري الشعب الذي لوثته الخطية، والمزمع أن يسلّ منه الكنيسة: «فَحَمَمْتُكَ بِالماء، وَغَسَلْتُ عَنْكَ دُمَاءَكَ، وَمَسَحْتُكَ بِالزيت.» (حز ١٦: ٩)

وهكذا جاء المسيح ليتمم وعد الله. لهذا، فعمل المسيح يُحسب عمل الألوهة وفي صميم الفداء ليلاد الكنيسة.

١٣: ٦ و٧ «فجاء إلى سمعان بطرس، فقالَ لَهُ ذاك: يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلِيَّ؟ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الْآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ، وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ.»

لا نعلم إن كان الرب قد غسل أرجل تلاميذه حسب ترتيبهم في الجلوس على المائدة، وإن كان ق يوحنا ذهبى الفم يرى أنه ابتداءً بيهودا، الذي لم يمانع. أما القديس أغسطينوس فيرى أن الرب ابتداءً بالقديس بطرس الذي أبدى احتجاجه بانفعال واستنكار لأنه نظر إلى الإجراء وكأنه امتهان للمسيّد والمعلّم أن يغسل رجلي تلميذ. ومن جهة أخرى لم يرَ في عمل المسيح سوى مجرد اغتسال، لذلك أحجم عن أن يمدّ رجليه.

وردُ المسيح هنا هام للغاية، لأنه يكشف أبعاداً عميقة لمفهوم غسل الأرجل، ربما تكون تائهة حتى الآن: «لست تعلمُ أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد»، وهو نفس ما حدث في تطهير الهيكل: «فلما قام من الأموات تذكّر تلاميذه أنه قال هذا، فأمنوا بالكتاب، والكلام الذي قاله يسوع» (يو: ٢١: ٢١). أي أن الأمر يتعدى مجرد غسل أرجل بالنسبة للتلاميذ، أو مجرد اتضاع من جهة الرب، ولكن يتعدى إلى شيء؟؟ ما هو؟؟

١٣: ٨ «قَالَ لَهُ بطرسُ لَنْ تَغِيْلَ رِجْلَيَّ أَبْدًا. أَجَابَهُ يَسُوعُ: إِنْ كُنْتُ لَا أَغْسِلُكَ، فَلَيْسَ لَكَ مَعِيَ نَصِيبٌ».

إزدياد تصميم بطرس هنا على الرفض القاطع والأبدي قائم على جهل مُطبق بأهداف المسيح العامة، وعدم فهم المعيار السري لغسل الأرجل بصورة خاصة، مما جعل المسيح يوح قليلاً بالسراً، موضحاً مدى الخطورة في التسرع برفض غسل رجليه، فهو يعني الحرمان من نصيبه مع الرب!!

وهنا يبدأ مفهوم غسل الأرجل يتجلى نوعاً ما. فهو، من جهة بطرس، ليس عملَ غسلٍ وحسب، بل هو عمل تأهيلي لنوال نصيب مع الرب؛ أما من جهة المسيح، فهو مهمة سماوية تتعلق بتصميم خدمة الخلاص العام، كاختصاص هو مكلف من الآب بأدائه.

ولكن يتعذر على بطرس الآن فهم كُنه فاعليته، طالما المسيح واقف أمامه يخدم كعبد، وبطرس لم يأخذ بعد قوة من الأعالي لبده إرساليته وفهم رسالته، ولكن بعد ما قام المسيح من الأموات واستعلن لاهوته ونفخ المسيح في وجههم الروح القدس قائلاً: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا» (يو: ٢٠: ٢١)، وكلفهم بخدمة البشارة، أدرك بطرس، وبطرس بالذات، مع التلاميذ أنهم نالوا بغسل أرجلهم تقدساً مُسبقاً بيد الرب الإله إعداداً وتجهيزاً لبشارة الإنجيل.

إسمع بولس الرسول وهو يعبر عن ذلك: «حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام» (أف: ٦: ١٥)، أي لابسين في أرجلكم قوة ونعمة استعداد البشارة بإنجيل السلام.

هنا تظهر الصلة الجوهرية بين الإفخارستيا (العشاء السري) وبين غسل أرجل التلاميذ بيد المسيح. وهذا يبدو واضحاً وأكيداً من قول القديس بولس (١ كو: ١١: ٢٦) الذي أدخلته الكنيسة في صميم ليتورجيتها في الإفخارستيا: «لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء» (القداس الباسيلي).

فالتقديس الذي ناله التلاميذ بيد المسيح في غسل الأرجل، هو لحفظ أرجلهم في طريق السلام للبشارة. فالإنجيل صار نصيب الكنيسة كلها للبشارة الدائمة، تجددته وتقويه، وتدفعه قوة تناول من الجسد والدم المتواترة والمتجددة: «كل مرة».

والذي أخذه المسيح من يد الله والملائكة، سلمه بيده وبالروح القدس: «لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك. وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك». (لو: ١٠ و ١١)

ومعروف في أدب الإنجيل الكرازي أن الله هو الذي يتولى هداية أقدام المبشرين بالإنجيل: «ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، لكي يَهْدِي أقدامنا في طريق السلام» (لو: ٧٩). وهكذا تبدو أقدام المبشرين وكأنها ذات امتياز وكرامة وقداسة وبركة، وهي تحتاج فعلاً إلى تقديس خاص: «وكيف يكرزون إن لم يُرْسَلُوا، كما هو مكتوب: ما أجل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات». (رو: ١٠: ١٥)

والآن واضح معنى قول الرب لبطرس: «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب». فما هو النصيب؟

النصيب هنا μέρος الذي يعني جزءاً من الشركة الخاصة، فهي لا تعني ميراث التبني العام لله الآب الذي هو بغسل المعمودية ومسح الدم، ولكن نصيباً شخصياً مع المسيح، وهي تنطبق على قول الرب انطباقاً أكيداً: «لأن من هو أكبر، الذي يتكلم أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكلم؟ ولكنني أنا بينكم كالذي يخدم (غسل الأرجل). أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي. وأنا أجعل لكم، كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر». (لو: ٢٢: ٢٧-٣٠)

أي أن تقديس أرجل التلاميذ لاستعداد التبشير بإنجيل السلام، سيعطيهم حق نوال أنصبة في الدهر الآتي الخاصة جداً مع المسيح، وشركة في دينونة الكنيسة بصورتها القديمة والجديدة، والمعبر عنها بالأسباط الاثني عشر.

١٣ : ٩ - ١١ « قَالَ لَهُ سَمْعَانُ بَطْرُسُ : يَا سَيِّدُ لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقْظْ ، بَلْ أَيْضاً يَدَيَّ وَرَأْسِي .
قَالَ لَهُ يَسُوعُ . الَّذِي قَدْ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَّا إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ (٥) ، بَلْ
هُوَ طَاهِرٌ كَثَّةً . وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ . لِأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَةً ،
لِذَلِكَ قَالَ : لَنْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ » .

هنا وَضَحَ أن غَسْلَ الأَرْجُلِ لَا يَمِثُّ إِلَى المعمودية . وماذا يَحْتَاجُهُ الطاهر بعد أن يَتَقَدَّسَ
بالمعمودية ومَسْحَةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ مَعَهَا ؟ إِلَّا إِلَى التَّقْدِيسِ الْخَاصِّ لِلخِدْمَةِ الْخَاصَّةِ ، أَيِ الْبَشَارَةِ .
هنا إِلَى الْآنَ لَمْ يَلْمَحْ بَطْرُسُ بَعْدَ مَا هُوَ الْقَصْدُ مِنْ غَسْلِ رِجْلَيْهِ ؟ إِذْ اعْتَبَرَهُ امْتِيَازاً بِلَا ثَمَنِ ،
رَبْمَا يَزْدَادُ لَوْ أَزْدَادَ جِسْمَهُ غَسِلاً ، يَدَاهُ وَرَأْسَهُ .

هَذِهِ هِيَ عَقْلِيَّةُ الْيَهُودِ التَّطْهِيرِيَّةِ ، وَلَكِنْ ، وَبَعْدَ أَنْ أَدْرَكْنَا مَعْنَى غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ كإِعْدَادٍ
وَتَقْدِيسٍ لَخِدْمَةِ الْبَشَارَةِ الرِّسُولِيَّةِ الْبَاهِظَةِ الثَّمَنِ ، وَالتِّي أَوْرَثَتْهُمَ فِيمَا بَعْدَ السَّجُونِ وَالْمَقَاصِلِ وَقُبُورِ
الشَّهَدَاءِ ، نَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ نَفْهَمَ قَوْلَ الْمَسِيحِ تَمَاماً أَنَّهُمْ كَانُوا أَطْهَاراً بِحَمِيمِ الْمَعْمُودِيَّةِ وَالرُّوحِ ، وَلَمْ
يَكُنْ يُغَوِّزُهُمْ إِلَّا تَقْدِيسُ الْأَرْجُلِ فَقْظْ ، لِإِزَالَةِ وَسَخِ طُرُقِ الْعَالَمِ ، بِفَسِيلِ النِّعْمَةِ عَلَى يَدَيِ الْمَسِيحِ ،
لِنِيقَالِهِمْ تَقْدِيساً خَاصّاً لِلسَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْخَلَاصِ الْأَبَدِيِّ .

وَلَكِنْ كَيْفَ تُظَهَّرُ الْمَعْمُودِيَّةُ مِنْ أَضْمَرِ بَيْعِ الرَّبِّ ؟ أَوْ كَيْفَ تَتَقَدَّسُ أَقْدَامُ مَنْ سَمَى فِي طَرِيقِ
الْبَاطِلِ وَالْخِيَانَةِ لِتَسْلِيمِ الْمَسِيحِ لِلْمَوْتِ ؟ « هُوَذَا الَّذِي يَسْلُمُنِي قَدْ اقْتَرَبَ » (مَر٤ : ١٤) . لِذَلِكَ
قَالَ : « لَنْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ » !

لَقَدْ اعْتَمَدَ يَهُودَا كَالْتَّلَامِيذِ وَلَمْ يَتَطَهَّرْ ، وَغَسَلَ الْمَسِيحُ رِجْلَيْهِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَقَدَّسْ ! لِذَلِكَ حُرِّمَ
يَهُودَا مِنْ خِدْمَةِ التَّبَشِيرِ ، بَلْ حُرِّمَ مِنْ نَصِيْبِهِ مَعَ الْمَسِيحِ جَمَلَةٌ وَتَفْصِيلاً ، بَلْ حُرِّمَ مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسُهَا .
فَالطَّقِسْ لَا يَغَيِّرُ الْقُلُوبَ ، وَلَكِنْ يَخْتَمُ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ كُنُوزٍ .

(٥) لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ حَاقِلٍ كَثِيرٍ مِنْ أُنْمَةِ الشَّرَاحِ أَنْ يَحْذِفُوا هَذِهِ الْجُمْلَةَ : « إِلَّا إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ » ، حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ عَقْدَةٍ فَهَمَّ
« غَسْلُ الْأَرْجُلِ » بِجُمْلَتِهِ ، لِأَنَّهُمْ يَرْوُّنَ الْمَوْضُوعَ كُلَّهُ إِشَارَةً إِلَى الْمَعْمُودِيَّةِ وَحَسْبِ . وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَطْلُعَ الْقَارِئُ عَلَى شَرْحِ مَضْمُونِ هَذَا
السَّرِّ ، يَرَى مَقْدَارَ النِّشْوَةِ وَالْخُبَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُ بِالْإِنْجِيلِ وَالْكَنِيسَةِ كُلِّهَا مِنْ حَذْفِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ . كَذَلِكَ قَدْ انْتَحَى شَرْاحُ إِنْجِيلِ
يُوحَنَّا فِي فَهْمِ سَرِّ غَسْلِ الْأَرْجُلِ مَنَاحِي مُتَعَدِّدَةً ، كُلُّهَا خَارِجُ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ وَالْوَحِيدِ .

فَهِيَ لَا تَمِثُّ إِلَى الْمَعْمُودِيَّةِ بَعْلَةً ، وَلَكِنَّهَا إِجْرَاءُ تَقْدِيسِيٍّ إِضَافِيٍّ بَعْدَ الْمَعْمُودِيَّةِ ، وَبَعْدَ التَّطْهِيرِ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، وَبَعْدَ الْإِفْخَارِسْتِيَا
أَيْضاً ، وَهَذَا وَاضِحٌ غَايَةُ الْوَضُوحِ مِنْ قَوْلِ الْمَسِيحِ أَنَّ الَّذِي اغْتَسَلَ (اعْتَمَدَ) لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَّا إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ ، أَيِ طَقْسِ التَّقْدِيسِ
لِلْبَشَارَةِ وَقَوْنِهَا .

أَيُّ أَنَّ غَسْلَ الْأَرْجُلِ عَمَلٌ أَسَاسِيٌّ زِيَادَةً عَلَى الْمَعْمُودِيَّةِ .

ولكي يتأكد القارىء من اتجاه المسيح السري في غسل أرجل تلاميذه، من جهة إعدادهم للإرسالية لخدمة الإنجيل، أكد المسيح مرتين على موضوع إرساليتهم وهو يشرح لهم معنى غسل أرجلهم: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مُرسِله» (يو ١٣: ١٦)؛ «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله، يقبلني؛ والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني.» (يو ١٣: ٢٠)

١٣: ١٢-١٥ «فلما كان قد غَسَلَ أرجلهم، وأخذ ثِيَابَهُ، واثكأ أيضاً، قال لهم: أنفهمون ما قد صَنَعْتُ بكم؟ أنتم تدعونني مُعَلِّماً وَسَيِّداً، وَحَسَناً تَقُولُونَ، لَأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ أَنَا السَيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أرجلكم، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أرجلَ بَعْضٍ. لَأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً، حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ، تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً».

اتجاه المسيح التعليمي فيما يخص غسل الأرجل دقيق للغاية، ويحتاج إلى حصر الفهم لإدراك المقاصد العميقة والبعيدة منه. فالأمر جَدَّ خطير بالنسبة للكنيسة بل الكنائس^(٦).

واضح من كل ما سبق أن فَسَّرناه وشرحناه، أن غَسَلَ الأرجل هو إجراء خاص: «أنا السيِّدُ والمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أرجلكم»، اختَصَّ به، ليس جميع التلاميذ، بل الاثنا عشر فقط (وكلُّ سيِّدٍ ومُعَلِّمٍ)، حيث سقط منهم يهوذا ليحل محله آخر، ربما بولس الرسول. لأن عددهم قد تسجل في سجلات السماء وأسمائهم كُتبت فوق كراسيهم الاثني عشر، وأنه ليس هو اغتسال المعمودية العام لكل المؤمنين، بل هو اغتسالٌ لأرجل التلاميذ الاثني عشر، كطقس تقديس وإعداد للإرسالية.

على هذا الأساس نرى المسيح يعطي الموجبات الحتمية: «يجب عليكم»، الخاصة بطقس غسل الأرجل، لكي يكون قِيَامُ الإرسالية وقوتها من منطلق الاتضاع والمحبة وخدمة الأكبر (السيِّدُ والمُعَلِّمُ) للأصغر. فالاثنا عشر نالوا التقديس الخاص بالإرسالية بغسل الأرجل بالتساوي، ولما أراد القديس بطرس، بمعنى التواضع، أن يحتج إنما من منطلق الشعور بالولاية أو التحدث باسم بقية

(٦) أكثر من أدرك على مدى تاريخ الكنيسة الطويل أهمية غسل الأرجل كإعداد للخدام والمرسلين هو القديس أثناسيوس الرسولي، إذ رُتِبَ أن تُقام ثلاث مرات في السنة أغابي خاصة بين الأسقف وكهنته، على أن يقوم الأسقف بنفسه بغسل أرجلهم. (راجع كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص ٣٣٢-٣٣٤).

التلاميذ بصفته الأول أو الأكبر، زجره المسيح محذراً إياه بشدة بالحرمان من نصيب التلاميذ، فأنصاع كالبقية.

ثم بدأ المسيح يشرح هذا الطقس الخطير، طقس غسل الأرجل، أو طقس الإرسالية والبشارة والخدمة بمضمونه السري، بأنه يقوم أساساً على المحبة، التي هي الأساس الأول الذي عليه اجتمع شملهم في هذا العشاء: «إذ كان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى... حين كان العشاء» (١٣: ٢١). ومن عمق أعماق المحبة المذبوحة على العشاء، قام المسيح، وهو لم يستكمل العشاء، ليكرِّس التلاميذ للإرسالية العظمى التي عيَّنَها لهم من قبل الدهور، في طقس تواضعي مهيب، إذ جلس كخادم بل كعبد في موطئ أقدام تلاميذه لغسل أرجلهم واحداً فواحداً، ولم يذكر الإنجيل أنه قدَّسهم بحسب الترتيب، لأن هذا يتنافى قطعاً مع روح هذا الطقس بجملته؛ وهذا لكي يرفع طقس خدمة الكرازة إلى أقصى حدود التواضع التي يمكن أن يتصورها إنسان، حتى لا يعود في محيط البشارة كلها كبيراً أو صغيراً، ولا عظيمٌ أو حقير. وقد أعطى نفسه مثلاً، فهو السيّد والمعلم، وقد انحنى على أرجلهم يغسلها ويُشَفِّها بأمانة خدمة العبيد، لكي يرتدع الكبير فيما بعد وينحني للصغير حتى إلى غسل الأرجل أو تقبيلها!... لأن العامل في خدمة الكبير هو العامل في خدمة الصغير، وهو الروح القدس والمسيح نفسه، لأنه قال «أنا هو الطريق» (١٤: ٦)، فطريق البشارة هو الذي يحملنا ولسنا نحن الذين نحمل همَّ الطريق.

١٣: ١٦ و ١٧ «الحقُّ الحقُّ أقولُ لكم: إنه ليس عبدٌ أعظمُ من سيِّده ولا رسولٌ أعظمُ من مُرْسِله. إن عَلِمْتُمْ هذا، فَطُوبَى لَكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ».

هنا يضع المسيح نفسه كمثال للسيد الذي اتضع لعبيده المُرسَلين، فأصبح من غير المعقول روحياً وإلهياً أن يتعظَّم العبدُ (المُرسلُ) بأي حال من الأحوال على عبدٍ (مُرسل) آخر، لأن المسيح وهو السيد لم يتعظَّم على عبيده المزمع أن يُرسلهم، بل عكس الأمر عكساً شديداً، إذ صار السيد، وهو الراسل، عبداً؛ والعبد، وهو المُرسَل، سيِّداً! هذا هو روح الإنجيل والبشارة، بل هذا هو روح الله.

ثم عاد المسيح ليطبق مرة أخرى مثل السيد والعبد على الراسل والمُرسل، كَمَنْ يضع النقط على الحروف لينطق «سر غسل الأرجل» نطقاً مُبيناً أنه طقس الرسل والمُرسلين. فقال إنه ليس رسول أعظم من مُرْسِله. والمُرْسِل هنا هو المسيح دائماً وإلى الأبد، والرسول هو التلميذ، والكارز،

والأسقف، والبطريرك. فلا يتعظم رسول لأنه على كل حال وعلى أي حال هو عبث، والذي أرسله هو المسيح، وهو الذي يرسل كل رسول آخر. فلا يتعظم رسول على رسول، وإلا يكون قد تعظم على المسيح الذي أرسله، وتعالى على الرسالة ذاتها.

ثم أوجب «العلم والعمل» بهذا: «إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا، فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمَلْتُمُوهُ»، إلى أن يحين زمان الإرسالية والملء من الروح القدس، حينما يستعلنون بالروح (يَعْلَمُونَ) ما جرى لهم في هذا السر، حيث يكون عليهم حينئذ أن «يعملوه»، أي يرسلوا بعضهم بعضاً بروح هذا الإلتضاع عينه. وحينئذ تحل عليهم «الطوبى» μακάριοι، أي يصيروا مكاريين أي طوباويين.

والحقيقة أن «غسل الأرجل» في الكنيسة أخذ بمفهوم التواضع وحسب، وحوصر في إجراء الطقس شكلياً، وقد اهتمت الكنيسة القبطية في كل عصورها إلى ما قبل عصرنا هذا، بهذا الطقس بالنسبة للكاهن، فكان يتحتم عليه بمقتضى طقس «تحفي (تعري) القدمين أثناء الخدمة» أن يغسل، أي يَرْتَحِضَ قدميه قبل الدخول إلى الهيكل لإجراء طقس سر الإفخارستيا بنوع من الإلزام، وكذلك قبل قراءة الإنجيل. وقد رأيت بعيني في بكور رهبانيتي (عام ١٩٤٨) الميرحضة بجوار كل هيكل، والمخصصة لغسل قدمي الكاهن.

فيما عدا ذلك تُبَت طقس غسل الأرجل في يوم خميس العهد قبل القداس (قبل تقديم الحمل)، كما أيضاً في عيد الرسل قبل القداس. وهذا دليل على إدراك الكنيسة القبطية للعلاقة الصميمية بين غسل الأرجل وإرسالية المرسلين.

١٨: ١٣ «لست أقول عن جميعكم، أنا أعلم الذين اخترتهم. لكن ليت الكتاب: الذي يأكل معي الخبز، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ».

أسرع الرب ورفع وعده ووصيته عن رأس يهوذا، ثم حدّد إرساليته بالمختارين فقط الذين سبق وأعلن عن عددهم مستثياً منهم مَنْ تَقَمَّصه الشيطان واستولى على شخصيته واسمه: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر، وواحد منكم شيطان». قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مُزْمِعاً أن يسلمه، وهو واحد من الاثني عشر. (يو: ٦٠ و٧١)

أما عن السؤال: كيف اختار الرب يهوذا بين الاثني عشر وقد ظهر أنه «شيطان»؟ فللرد على ذلك نقول: إن اختيار الرب هو اختيار الله لا يقوم قط على سَبْق العلم، وإلا ينعدم مفهوم الحرية والإرادة عند الإنسان، كما ينعدم مفهوم الجزاء والاجتهاد.

ولكن الاختيار لدى المسيح كان يقوم على اللياقة الفردية للعمل المطلوب أدائه، بهذا تتوطد أسس العدل الإلهي؛ ثم يُترك لكل فرد أن يسلك بمقدار مقوماته الشخصية، من مواريث، واجتهاد في التعلم وإرادة، واختيار، وحرية، وبالأكثر جداً مقدار الالتصاق بالرب وطاعة وصاياه، التي تأتي كإكليل على رأس كل المقومات؛ على أن كل نقص في المقومات الشخصية للفرد، يمكن أن يعوّضه الله بآلاف الأضعاف إن هو كان أميناً ومُحبّاً وخائفاً من اسمه القدوس: «لأن قوتي في الضعف تُكَمَّلُ.» (٢ كو ١٢: ٩)

واضح، إذاً، أن يهوذا بدأ لائقاً كتلميذ، وربما كان أكبرهم سناً وأكثرهم خبرة بأمور الحياة وشئون المال ورجال الدين. فَجَرَقَهُ تيار المال وحب الفضة والتودد للرؤساء، حتى أوقعه في خطايا السرقة، ونقل الأخبار للرؤساء، وحب الرئاسة، وأخيراً سقط في يد الشيطان فابتلعه.

«الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه»:

هذا جزء من المزمور ٤١ من النسخة العبرية، أما بقية الكلام فيكشف عن فكر الرب الذي سيستطرد فيه: «أيضاً رجل سلامتي، الذي وثقت به، آكل خبزي، رفع عليّ عَقْبَهُ. أما أنت، يا رب، فارحمي، وأقمني (Raise me up)» (مز ٤١: ١٠ و ٩). وعلى ضوء المزمور، يستطرد الرب ويقول:

١٩: ١٣ «أقول لكم الآن قَبْلَ أن يكونَ — تسليم يهوذا والصليب — حتى متى كانَ — القيامة — تَؤْمِنُونَ أَنِي أنا هو».

الرب هنا يشير إلى قيامته التي ستكون، وحينئذ سيفهم تلاميذه، فعلاً، أن خيانة يهوذا العنيفة التي بلا رحمة ولا لياقة («رفع عليّ عَقْبَهُ» = رَفَسَنِي)، تمت كما قالها الله على لسان دواود عن المسيح، فتبين لهم أن الرب هو حقاً «أنا هو» $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$.

ثم قول المسيح هذا: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أنني أنا هو»، نجده مطابقاً لقول الله على لسان حزقيال النبي: «إذا جاء هذا تعلمون أنني أنا السيد (يهوه) الرب.» (حز ٢٤: ٢٤)

وكذلك ما جاء في إشعياء النبي: «أنتم شهودي، يقول الرب، وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا أنني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$. قبلي لم يُصوّر إله وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب

وليس غيري مخلص» (إش ٤٣ : ١٠ و ١١). هكذا نجد الحوادث بكل ملابساتها تتوقع بدقة وبكلماتها بحسب ما سبق الروح وتنبأ.

٢٠ : ١٣ «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسلة، يقبلني، والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني».

قد بدا هذا الكلام، عند غالبية شراح الكتاب، غريباً وغير متوافق مع تسلسل الكلام، حتى قال معظمهم بأن هذه الآية دخيلة، وهذا بسبب انحراف تفكيرهم عن المعنى الحقيقي «لغسل الأرجل». ولكن بعد ما أوضحنا أن هذا الطقس هو روحي وسري، وهو خاص جداً بالإرسالية للتبشير بالإنجيل، يُصبح المعنى والموقع لهذه الآية غاية في الإحكام. فهي تأتي في ختام التوجيهات الخاصة بالمُرسلين أو الرسل، وهي هنا تخص المُرسل إليهم، فكل جماعة أو مدينة أو شعب يقبل رسول البشارة، أي العامل بإنجيل الكلمة، فكأنه قبل المسيح نفسه. وبالتالي فإن كل من قبل المسيح المبشّره على لسان الرسل، يكون قد قبل الله الأب نفسه. وإن كان يبدو هذا الكلام خاصاً بالشعوب والأمم، ولكنه في الحقيقة تشجيع، أيما تشجيع، للتلاميذ الذين سيخرجون بالبشارة، لأنه يعطيهم حقّ التكلم باسم المسيح وقوته بكل جرأة، كما يعطيهم الشعور بالسلام وسط ضيقات الكرازة، و كأنما يعيشون تحت سَمِيعِهِ وَبَصَرِهِ.

و كأنما لم يكن على التلاميذ حينما تتعب أرجلهم من المشي، وتتسلخ أقدامهم من وعورة طرق البشارة، إلا أن يفكروا في يدي الرب اللتين غسَلتا أرجلهم، ويتحسسون أصابع المسيح التي مرّت فوق أقدامهم، حتى يجددوا قوة لمزيد من السير ومزيد من الكرازة.

٢١ : ١٣ «لما قال يسوع هذا، اضطرب بالروح، وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم، إن واحداً منكم سيُسَلِّمُنِي».

المسيح هنا ناظر ما لا يُنظر، والروح ترى بالروح ما وراء الحجب والضماير ما لا يمكن لقلم بشر أن يعبر عنه، يكفي أن يكون انفعال يوحنا قد بلغ هذا الإحساس، فاضطراب من يقبض على أعنة مقادير كل شيء «الأب دفع كل شيء في يديه»، أمر يوضح عمق المأساة التي سيتحمّلها وحده. كان عزيزاً على نفسه جداً، أن واحداً ممن أحبه إلى المنتهى، يجازيه هكذا عوض حلاوة الحب عُلِقَ العداوة.

اضطراب المسيح بالروح هو ما طفا على السطح من مصارعة النور مع الظلمة، كيف لا ترتعب لها السماء؟ فما بالك بالطبيعة البشرية التي تعان مع الشيطان ومركزها جسد ابن الإنسان؟

الباطل رفع قرنه على «الحق»، واستغل الجسد ليسدد فيه الطعنات، فكيف لا يهتز؟

لما انبرى الشيطان ظاهراً للمسيح على جبل التجربة صرعه المسيح، وطوّح به خلفه؛ ولكن ماذا والشيطان الآن مُتَخَفٌ في تلميذ، بل في ذئب، يلبس رداء المحبة وينتحل صفة السفير لدى أصحاب الهيكل؟

كلمات المحبة كانت تتساقط من فم الرب، والنفس تتلقى ضربات الغدر، كيف لا يتداعى لها الجسد؟

يد المسيح امتدت بلقمة البركة، ويد يهوذا تتحسس موضع الطعنة، كيف لا تَجْفَلُ الروح؟

قوى الموت وأدواته تُطَبَّقُ على الحياة، محصورة في جسد تحاصرها من الداخل والخارج، ورائحة الدم تهبُّ من بعيد، فتفتح شهية الشيطان ليضرب مخالبه، فتترنح النفس، كمصفور واجِف في قبضة صقّر.

تهلل الشيطان لما اضطرب المسيح بالروح، ولكن أخفى عنه أن المسيح إنما يسير بقدميه نحو الصليب: «ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل؟» (لوقا ١٢: ٥٠). كانت ضربات الشيطان بيد يهوذا أعظم مأساة واجهتها البشرية تحت نور الشمس، قابلتها ضربة المسيح على الصليب لقوات الظلمة، كأعظم نعمة انسكبت على بني الإنسان.

٢٢: ١٣ «فكان التلاميذ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَهُمْ مُخْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يشير فيها المسيح إلى التلميذ الذي سيُسَلِّمه، ولكن هذه المرة كان إعلان المسيح بصاحبه صوت متهدِّج حزين مهيب، عبّر عنه ق. يوحنا بالكلمة اليونانية ἐταράχθη وهي تفيد اضطراب الحزن العميق، وقد أضاف إليها ق. يوحنا τῷ πνεύματι أي «بالروح» ليوضح حفظ الاتزان للجسد والعقل.

ولكن أتى تصريح المسيح كالصاعقة المباغتة على نفوس التلاميذ، فلم يستطع الإنجيليون الثلاثة أن يعطوا صورة واقعية ملموسة لهذا المشهد الحزين، مثل ق. يوحنا. ربما لأنه كان يشعر

بنفس شعور المسيح وكان ملتصقاً بحضنه، إذ يقول إن التلاميذ أخذتهم الحيرة وهم ينظرون بعضهم لبعض، فالأمر جدّ خطير، فهذا ذئب داخل الحظيرة!... لقد عمّ الجميع الصمت والغم والحُم، إلا واحداً.

١٣: ٢٣ و٢٤ «وكان متّكئاً في حِضْنِ يَسُوعَ، واحدٌ من تلاميذه كان يسوع يُحِبُّه. فأوماً إليه سِمْعَانُ بطرسُ أن يسألَ مَنْ عَمَسَ أن يكون الذي قال عنه».

من حركة بطرس يتبين لنا ترتيب التلاميذ. فكان المتبع في جلوس الأسرة أن الابن الأكبر يجلس عن يمين رب البيت، ثم بالتدريج يجلس باقي الأسرة حتى تنتهي بالصغير ليجلس في حِضْنِ رب البيت على شماله، أقرب مكان إلى قلبه. وبطرس لأنه لم يكن بجوار المسيح، إذ جلس بحسب ترتيب الكبر في السن بعد يهوذا، اضطر أن يتحاشى الكلام المسموع في مخاطبته ليوحنا، فأوماً إليه، أي أعطاه إشارة بالعين وهزّ الرأس، مما يفيد أن يهوذا هو الذي كان على يمين الرب مباشرة بصفته الأكبر سناً، ويليه بطرس. وهذا يفيد سبب لماذا حدث شجار بين التلاميذ مَنْ منهم أكبر (لو ٢٢: ٢٤) لكي يجلس عن يمين الرب، وغالباً كان الشجار بين بطرس ويهوذا. فبطرس يشعر بالقيادة والأولية، ولكن يهوذا كان يعتمد على سيّئه وحيارته للصندوق، وبلغة العصر، أنه سكرتير الجماعة.

١٣: ٢٥ و٢٦ «فأتى ذاك على صدر يسوع، وقال له: يا سيّد مَنْ هو؟ أجاب يسوع: هو ذاك الذي أغمسُ أنا اللّقمَةَ وأُعطيهِ. فغمس اللّقمَةَ وأعطاه لليهوذا سِمْعَانَ الإسخريوطي».

كان من السهل على ق. يوحنا أن يقترب من صدر المسيح ويُسرُّ إليه بسؤاله. والمسيح أيضاً أعطاه إشارة كيف يعرف مُسلّمه، ثم أليس هذا عجباً أن يتحاشى المسيح حتى إلى هذه اللحظة أن يجرح إحساسات يهوذا؟ ثم ألا ترى معي، يا قارئ العزيز، أن رقة المسيح كانت فائقة الوصف؟

«فغمس اللّقمَةَ وأعطاه لليهوذا»:

عجبي أيضاً أن يكون هذا هو الأسلوب الذي ارتآه دَيَّانُ الأحياء والأموات في التعريف بالخطيئة، بل بالخطيئة، بل بالقاتل؛ فتغميس لقمّة (أو قطعة لحم) في صحن به مزيج من عصير الفواكه المزوجة بالنبيذ (أو الخل عند الفقراء) هو تقليد فصحي كان يكرّم به رب البيت دائماً

الابن الأكبر!

فانظروا، يا إخوة، كيف يحوّل المسيح صيغة الإتهام من منطوق كلمات جارحة إلى حركة احترام وتضييف ومودة!

أما عن مزيج الخلّ والفواكه والتغميس فيه تحية بالمكرّمين فنقرأ عنه في سفر راعوث: «فقالت (راعوث لبوعز): ليتني أجد نعمة في عينيك، يا سيدي، لأنك قد عزّيتني، وطيّبت قلب جاريتك، وأنا لست كواحدة من جواريك. فقال لها بوعز عند وقت الأكل تقدمي إلى ههنا وكُلّي من الخبز، واغمسي لقمّتك في الخلّ.» (راعوث ٢: ١٣ و ١٤)

٢٩: ٢٧-٢٩ «فَبَعْدَ اللَّقْمَةِ دَخَلَ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ. وَأَمَّا هَذَا، فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ. لِأَن قَوْمًا إِذْ كَانَ الصَّنَدُوقُ مَعَ يَهُوذَا ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْعِيدِ. أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ.»

«فبعد اللقمة دخله الشيطان»:

المعنى هنا عميق وكثيف، والأفكار فيه مزدحمة. ولكي ندرك ما تعنيه، علينا أن نعود إلى الآية التي استعارها المسيح من سفر المزامير بلغة المسيح الخاصة: «الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ غيّبه». وفي النسخة السبعينية تأتي هكذا: «أَكِلْ خُبْزِي رَفَعَ عَلَيَّ غَيِّبَهُ».

المسيح شكّل الآية، لتحمل معنى خبز الإفخارستيا وأثناء أكل خبز الإفخارستيا. فهو كأنه يصف حالة يهوذا وهو يتناول مع الرب ومن يده أثناء سر الشركة. وهكذا يتضح لنا أن يهوذا تجرأ وتناول من الخبز السري، ومن يد الرب يسوع نفسه، بدون استحقاق، بل وبنية الخيانة والغدر.

— «إِذَا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هَذَا الْخُبْزِ، أَوْ شَرَبَ كَأْسَ الرَّبِّ بِدُونِ اسْتِحْقَاقٍ، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ.» (١ كو ١١: ٢٧)

والنتيجة الحتمية يعرفها بولس الرسول:

— «فَكُم عِقَابًا أَشْرُ نَظَنُونَ أَنَّهُ يُحَسَّبُ مُسْتَحَقًّا، مَنْ دَاسَ ابْنَ اللَّهِ، وَحَسِبَ دَمَ الْعَهْدِ الَّذِي قُدِّسَ بِهِ دَنَسًا، وَازْدَرَى بِرُوحِ النِّعْمَةِ. فَإِنَّا نَعْرِفُ الَّذِي قَالَ: لِي الْإِنْتِقَامُ، أَنَا أَجَازِي، يَقُولُ الرَّبُّ. وَأَيْضًا، الرَّبُّ يَدِينُ شَعْبَهُ. مُخِيفٌ هُوَ الْوَقُوعُ فِي يَدَيِ اللَّهِ الْحَيِّ.» (عب ١٠: ٢٩-٣١)

وهكذا تمت في يهوذا النبوة المذكورة عنه بالذات : «بذل محبتي بخاصموني، أما أنا فصلاة. وضعوا عليّ شراً بَدَلَ خيراً، وبُغْضاً بَدَلَ حُبِّي. فَأَقِمِ أَنْتِ عَلَيْهِ شَرِيرًا، وَلِيَقِفْ شَيْطَانٌ عَنْ يَمِينِهِ.» (مز ١٠٩ : ٤-٦)

وليس مستغرباً على العين المفتوحة التي للقديس يوحنا الذي طالما قرأ ما في قلب الرب وفهم ما في فكره، أن يرى الشيطان وهو يقتحم نفس يهوذا وعقله، و يتملك أسارير وجهه وحركاته!

«فقال له يسوع: ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة»:

ظاهر الكلام لطيف وطيب، وفيه الثقة ممتدة، هكذا ظن التلاميذ، وحتى ق. يوحنا لم يعرف ما وراء هذا الكلام الطيب: «فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به». ولكن يبدو أن يهوذا بدأ يشعر بالقلق، وأحس أن الوجوه بدأت كلها تصوّب نظراتها نحوه، ولم يستطع التلاميذ أن يضبطوا مشاعر الاستنكار، أما يهوذا فلما ضاقَ به الأمر، وجّه إيماءة نحو الرب رغبة في الخروج، فعاجله الرب بالموافقة السريعة مع جملة مؤدبة رقيقة لتغطية موقفه المفضوح، ولكنها كانت تحمل إليه رسالة مَنْ هو عارف بكل حركاته، وإنما بأسلوب مَنْ يستهين بكل مخططاته.

موافقة الرب على خروج يهوذا ليصنع ما يريد، هي موافقة على الصليب، وكأنما المسيح لا يريد أن تبدأ المأساة بدون موافقة، فهو وحده الذي له السلطان أن «يضعها»، أي تسليم نفسه للموت.

وبهذا أكّد الرب أن الحوادث لا تُفرضُ عليه، فهو فوق أنه «كان عالماً بكل شيء»، كان يرتفع أيضاً فوق كل شيء، فوق مخططات الشرير، بإرادته، فيطأها بقدميه. فهو لم يكن يُساق في عربة الشيطان كفريسة مكبّلة، ولكنه كان يسبقها برؤيته ويتبعها بإرادته: «مَنْ تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مُسَلِّمُهُ أيضاً واقفاً معهم.» (يو ١٨ : ٤ و ٥)

«... إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج إليه للعيد»:

هذه الآية في إنجيل يوحنا توضح، غرضاً، أن هذا العشاء السري الذي أُسس فيه الرب سر الإفخارستيا ليس هو عشاء الفصح، بل يسبقه بأربع وعشرين ساعة، لأنه لو كان هذا عشاء الفصح، لاستحال القول بشراء حاجة العيد، علماً بأنه بالرغم من أن عشاء الخميس الذي أُسس فيه المسيح سر الإفخارستيا لم يكن هو عشاء الفصح، إلا أن المسيح أعطاه كل صفات ومميزات الفصح. غير أن بعض الشراح المقتدرين لا يأخذون بهذا الاعتراض.

١٣ : ٣٠ «فَذاكَ لَمَّا أَخَذَ اللَّثْمَةَ، خَرَجَ لِلَوَفِّ، وَكَانَ لَيْلاً».

واحدٌ في حضن يسوع، والآخر في الظلمة الخارجية؛ ق. يوحنا في حضن يسوع كالأبن في حضن الآب: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد... كما أننا نحن واحد» (يو ١٧: ٢٢ و ٢٣)، ويهوذا في حضن الشيطان: «هذه ساعتكم وسلطانُ الظلمة.» (لو ٢٢: ٥٣)

«خرج للوقت وكان ليلاً»:

كلام ق. يوحنا هنا يحمل الأسلوب السري والتبرات اللاهوتية، فبدخول الشيطان في يهوذا بدأت ساعة الظلمة. وبمغادرة يهوذا للمسيح، خرج من دائرة النور إلى «الظلمة الخارجية». لقد سبق المسيح أن حذّر من مثل هذه المخاطرة: «ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يَعمُر، لأن النور ليس فيه» (يو ١١: ١٠)، وواضح غاية الوضوح أن يهوذا أحب الظلمة: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣: ١٩)

لقد بدأ العدُّ التنازلي للساعة الأخيرة. وبدأ شَبَعُ الموت يخيم على اللحظات الأخيرة للعشاء الأخير، لتبتدئ بعدها، ولأول مرة، التسيّحات للفصح بنغمات حزينة!...



أحاديث ما بعد العشاء (٧)

لقد اجتهد علماء الكتاب لتبويب أو عتوتة حديث المسيح فيما بعد العشاء، وهو يقع من الأصحاح ١٣: ٣١ إلى نهاية الأصحاح السابع عشر. ولكن أحاديث الرب لا يحدها باب ولا يحتويها عنوان، فهي أحاديث تفوق التحديدات الذهنية، لأنها روح وحياة؛ جاءت مسترسلة من أقدس قلب ابن الله المجروح، تنطلق لتثير خفايا المجهول في ذهن التلاميذ. ويجمل أقواله جاءت لتشرح حتمية الفراق وأفراحه، ومهمته العظمى في السماء وثماره، وعمله على الأرض وآثاره، مع وصايا ثمينة ووعد صادقة، وعلى قمتها إرسال الروح القدس لعزاء الدهور كلها وتكميل عمل الابن، مع شرح سر سريان دم الكرم في عروق الإنسان، وكيفية تهذيب الأغصان، ونقله العبيد إلى أحباء، مع أخبار كثيرة ستسوقها الأيام يكون فيها مشقة واضطهاد وقتل وعناء، مع عتاب مُر من جهة الذين أبغضوه بلا سبب، وراحة وسلام من جهة الذين سيشهدون له مع الروح.

ولما رأهم والحزن يعتصر قلوبهم من أجل الفراق، وعدهم برؤيا خاصة وفرح وشيك، ولكنه أنبأهم عن هروبهم المزمع أن يقتربوه، وفرقة مشينة تُلَمُّ بهم، ثم بقاءه وحيداً ليدوس المعصرة وحده. ثم، وعلى مرأى ومسمع منهم، رفع ناظرته نحو الآب، وصلى صلاة طويلة، أطول صلاة، كان فيها كل سر اللاهوت، وبقيت لنا مطبوعة في قلب يوحنا.

١٣: ٣١ و ٣٢ «فلما خرج، قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه، إن كان الله قد تمجد فيه، فإن الله سيمجده في ذاته، ويمجده سريعاً».

«الآن تمجد... وتمجد... قد تمجد»:

الآن: بخروج يهوذا بدأ تزامن الحشم في موت الرب، مع حشم الرب في تقديم ذبيحة نفسه، بتقديم الكأس قائلاً: «هذا دمي».

(٧) تُقرأ هذه الأحاديث في الكنيسة مساء خيس العهد (الساعة الأولى من ليلة الجمعة)، وتسمى بحسب الطقس «فصول البارافليب»، لما فيها من كلام مَرُّ، ومن وعود متكررة بإرسال البارافليب. وهي عبارة عن أربعة فصول: الثلاثة الأولى أحاديث الوداع (الأول من يوحنا ١٣: ٣٣ إلى يوحنا ١٤: ٢٥، والثاني من يوحنا ١٤: ٢٦ إلى يوحنا ١٥: ٢٥، والثالث من يوحنا ١٥: ٢٦ إلى يوحنا ١٦: ٣٣). والفصل الرابع هو صلاة الرب (يوحنا ١٧ كله).

على أن رنين «المجد» المتكرر ثلاثاً في هذه الآية، يذكرنا في الحال ببداية التقديس في سر الإفخارستيا: مجدداً وإكراماً، إكراماً ومجدداً للثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس. إنها تسبحة الذُّكْصَا الأبدية، الذُّكْصَا التي ملأت السماء، وفاضت على كل بني الفداء.

ولا يغيب عن بالنا أن المسيح قال هذه الآية والكأس في يديه لم يوزع بعد. وإن كان ق. يوحنا لم يذكر ذلك لأسباب وضعتها الكنيسة في أيامه من جهة عدم إذاعة أسرار الكنيسة، إلا أن المجال والكلام ينطق بقدسية ورهبة سر الإفخارستيا القائم بكل تأكيد. ونحن لا يمكننا أن نفهم سر تمجيد المسيح لنفسه: «الآن تمجد ابن الإنسان» إلا بسبب سقوط ظل الموت عليه، وفي يده الكأس المصوّر فيها الصليب، وقد رفعها عالياً في يده، عندما انتهى من ذبح نفسه بسكين إرادته. فالمسيح، بئطقه: «هذا هو دمي للعهد الجديد، الذي يُشفك من أجل كثيرين» (مر ١٤: ٢٤)، كان قد أكمل الصليب، وانتهى من تقديم ذبيحته للآب.

فإن كانت الأناجيل الثلاثة الأخرى اهتمت بتسجيل تقديم جسده ودمه للتلاميذ، فالقديس يوحنا اهتم بتسجيل تقديم الجسد والدم للآب. وعوض التمجيدات للآب والابن والروح القدس على مواد السر، استعلن المسيح «هذا المجد» عينه لحظة حدوثه «الآن»، الذي مجده الله به، إذ تقبل ذبيحة نفسه، الذي أيضاً تمجد الله فيه وبسببه. وهذا المجد الذي ناله ابن الإنسان على الأرض يوم الخميس، كان بلوغ منتهاه وشيكاً يوم الجمعة بعودة ابن الإنسان لذات الله: «سيمجده في ذاته سريعاً»، ليجلس إلى الأبد عن يمين الآب حاملاً البشرية فيه.

وعلى القارئ أن يلاحظ أن المسيح يتكلم هنا، ليس كـ «ابن الله» بل كـ «ابن الإنسان»، لأنه يتكلم والكأس في يده كخروف مذبوح، لذلك يتكلم عن «الآب» بصفته «الله» بالنسبة له كـ «ابن الإنسان».

وعليّنا أن نتذكر قول المسيح سابقاً: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة، ليتمجد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣)، وقول ق. يوحنا، معلقاً على موت الرب: «لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد تمجد بعد.» (يو ٧: ٣٩)

أما كون الله قد تمجد في ابن الإنسان، وتمجد بسببه وأيضاً سيمجده سريعاً، فهذا يعلنه المسيح بوضوح: «أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْن العالم» (يو ١٧: ٤ و ٥). على أنه

بعد عودة الابن إلى الآب، سيبقى الابن مصدر تمجيد دائم للآب: «لأنني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتكم باسمي، فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن» (يو ١٤ : ١٢ و ١٣). أما عن كيف سيتمجد الله ابن الإنسان سريعاً، فهذا رآه القديس إسطفانوس رؤيا العين: «وأما هو فشحّص إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس، فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله.» (أع ٧ : ٥٥)

على أن مجد المسيح السابق واللاحق ومجد الآب، لا يُدرَكَان، بحسب الأصول اللاهوتية، منفصلين، لا زمانياً ولا كيانياً، فهما مجد واحد لله. ولكن بسبب توقيع اللاهوت على الزمن أو ظهور الله بالجسد في صميم الزمان والمكان والعمل، أصبح على الإنسان أن يدرك هذا المجد موزعاً في مراحل.

فمن وجهة النظر اللاهوتية، يكون مجد المسيح واحداً سواء على الصليب، أو في القبر، أو في القيامة، أو في الصعود، أو في الجلوس عن يمين الآب؛ والنظرة لأي حالة مجد في هذه تشمل المجد في كل حالاته: «لكي تبحثوا، باسم يسوع، كل ركة مئة في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض.» (في ٢ : ١٠)

«بمَجْدِهِ فِي ذَاتِهِ $\epsilon\nu\ \epsilon\alpha\upsilon\tau\omicron\varsigma$ » :

الاصطلاح هنا لاهوتي، وهو يفيد وحدة الاتحاد الذاتي، أي وحدة الكيان، باعتبار أن الآب والابن كيان واحد، ذات واحدة لأقنومين، لأنهما جوهر إلهي واحد، أو طبيعة واحدة إلهية للآب والابن.

كما يُلاحظ أن «في ذاته» $\epsilon\nu\ \epsilon\alpha\upsilon\tau\omicron\varsigma$ تأتي مطابقة ومتبادلة مع: «خرجت من عند الآب» $\epsilon\gamma\ \alpha\upsilon\tau\omicron\upsilon$ ، فهو كيان واحد يخرج منه ويعود إليه، دون انقسام الكيان، لأنه كيان إلهي للآب والابن غير محدود ولا متجزئ.

١٣ : ٣٣ «يا أولادي أنا معكم زمناً قليلاً بعد. ستطلبونني، وكما قلت لليهود، حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. أقول لكم أنتم الآن.»

من واقع الإفخارستيا، وحيث انتهى المسيح، بالنية، من تقديم نفسه ذبيحة فداء عن العالم، ووزع جسده ودمه على التلاميذ، ومن واقع خروج يهوذا ليعدّ خطة التسليم بموافقة المسيح بعد إحساسه بقبول الذبيحة لدى الآب والردّ عليه بحصوله على المجد، ابتداء بحس أيضاً بانسحابه

الإرادي من العالم، فابتدأ المسيح يوجّه إلى تلاميذه حديث الوداع الأخير.

لاحظ أن موت المسيح على الصليب بالجسد لا يعني أن بشرية المسيح وحدها هي التي واجهت الموت على الصليب، بل إن المسيح واجه الصليب والموت ككُلٍّ لا يتجزأ، بلاهوته وناسوته معاً. إذ لم يظفر بقوات الظلمة و يفضّحهم و يشهرهم جهاراً بجسده الميت، بل بلاهوته، الذي اقتحم مجالات الموت والجحيم، وصرع سلطان الموت وصاحب سلطان الموت. وبهذا صار موت المسيح هو قوة نصرته و خلاصه ومجده، لأنه عمل إلهي وبشري معاً، وبأن واحد صار موت المسيح عملاً بلا حدود، يشمل و يغطي كلّ مَنْ يؤمن و يدخل في مجال فعله الإلهي الكفاري العام.

لذلك، فنحن الذين نؤمن بالطبيعة الواحدة من الطبيعتين بعد الاتحاد، لا نوافق على أن المسيح جاز الموت بطبيعة واحدة بشرية، بل إن المسيح عندما جاز الموت قامت كل طبيعة بعملها الخاص بها. الجسد تقبل طعنة الموت وفارقت النفس الجسد، أما اللاهوت فلم يفارق النفس ولم يفارق الجسد فلم يفسد، واضطلع اللاهوت مع النفس بمواجهة طبيعة الموت، فشجب الموت وأخرجه من دائرة الإنسان والله، فأصبح الموت لا يفصل الإنسان عن الله في المسيح؛ ثم واجه الشيطان الذي له سلطان الموت فجزّده من سلطانه وسلّم سلطان الحياة لروح الله، أي الروح القدس، الذي له الآن سلطان القيامة من الموت مع قوة قيامة المسيح واستحقاقها.

وبمنظرة الانسحاب من العالم، تَسَاوَى لديه الأعداء والأحباء. فهؤلاء وهؤلاء لن يروه، ولو طلبوه لن يجدوه. لذلك، كما قال لليهود (٣٤: ٧) على بُعْدٍ من الميعاد، يقول لتلاميذه الآن عن قُرْبٍ، والصليب قد لاح في الأفق.

والظرف الزمني «الآن» vñv قد يفيد الزمان حسب الظاهر، ولكن بالعمق الروحي يفيد استعلان نهاية التدبير الإلهي لغياب المعلم عن التلاميذ وبقاء التلاميذ وحدهم. هذا الشعور كان طاعياً على المسيح، كما على التلاميذ ربما بنفس القياس، «لن أترككم يتامى»، غير أن المسيح يعلم أنه سيعود ليراهم.

«ستطلبونني» :

إن كانوا سيطلبونه في الحزن، فلن يجدوه، ولن يستطيعوا أن يأتوا إليه، ولكن حينما يعود هو إليهم ويراهم — بعد القيامة — أي يفتقدتهم، فلن يعودوا يطلبونه بعد لأنه سيكون معهم كل حين: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠)، ليس فقط بالحضرة الإلهية

الشخصية المعزّية والمفرحة من خلال تمهيدات الروح القدس وإعلاناته، بل وأيضاً في شركة الإفخارستيا حيث :

١ - يتحد موت المسيح بإماتتنا، «قوة بقوة»، قوة إلهية قوامها غلبة المسيح على العالم (الشهوات) وعلى قوات الظلمة التي ظفربها على الصليب، أي بموته، بقوة إرادتنا لإخضاع الجسد وقمع شهواته.

٢ - ونتحد قيامة المسيح بتجديد حياتنا، قوة بقوة أيضاً، قوة إلهية قوامها غلبة الموت، بقوة توبتنا لنوال جدّة حياة يوماً بيوم.



المحبة

١٣ : ٣٥ و ٣٤ « وَصِيَّةٌ جَدِيدَةٌ أَنَا أُعْطِيكُمْ ، أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا . بِهَذَا يُعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلَامِيذِي إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضًا لِبَعْضٍ » .

يتبادر إلى الذهن عند غالبية الناس أن « المحبة وصية » أو هي وصية المسيح ، ولكن ، في الحقيقة ، تركيب الجملة باللغة اليونانية يكشف المعنى كالاتي : « أَنَا أُعْطِيكُمْ وَصِيَّةً جَدِيدَةً ، لَكِي (Iva) تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ » ، والتركيز في معنى الآية يأتي على الكلمة « جديدة » بالنسبة للوصية بخصوص المحبة ، وذلك في مقابلها القديم الحرفي والجسدي بالنسبة للعهد القديم : « تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ » (لاويين ١٩ : ١٨) ؛ حيث ينبغي أن نبحث عن معنى « جِدَّة » الوصية ، أو الجديد في هذه الوصية على أساس الواقع الجديد الذي أنشأه المسيح من جهة الدوافع والمحيط الذي تعمل فيه المحبة في العهد الجديد .

فالآن ، قد استعلن المسيح آفاقاً للمحبة جديدة فعلاً لم تكن معروفة في العهد القديم ، ولا يمكن الإحاطة بها أو بلوغ كما لها . وأولها وأعظمها « محبة الآب لابن » ، ثم « محبة الله للعالم » ، التي أنشأت حركة جديدة تحركت لها السموات كلها والأرض ، وهي « تجسد الابن » ، هتف لها السماويون والأرضيون مجدداً في السماء وسلاماً على الأرض ، ثم أنشأت محبة الله نحو العالم : « بذل الابن متجسداً » : « لأنه هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، بَلْ تَكُونَ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ . » (يوحنا ٣ : ١٦)

وهكذا بلغ استعلان محبة الله للإنسان قمته العظمى في موت الابن على الصليب . وموت المسيح أكمله حُبّاً في الإنسان الخاطيء : « الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي » (غل ٢ : ٢٠) ، الذي أنشأ بدوره التزامات (غفراناً وتكفيراً وخلاصاً) من جهة الله نحو جميع الخطاة التائبين الذين يؤمنون بابنه . كذلك أدخل المسيح قوة جديدة في محيط الإنسان تعمل فيه ، هي قوة الحب الإلهي الفاعلة بالروح القدس ، الذي هو « أقنوم أو شخص المحبة » .

إذن ، الوصية القديمة المنطوقة والمكتوبة كأمر بالنسبة « لمحبة القريب » تغيرت تغيراً جذرياً ، إذ أصبحت قوة تعمل داخل العالم وداخل الإنسان .

على أن قوة المحبة المنسكبة داخل قلب الإنسان بالروح، هي نابعة من مصدرها الأساسي وهو حب الله الذي استعلنه المسيح ببذل ذاته وموته على الصليب. أي أن قوة المحبة التي أصبحت في العهد الجديد تعمل في قلب الإنسان، هي قوة محبة باذلة، أو قوة بذل المحبة المنبعثة من موت المسيح.

أي أن المحبة لم تعد فرضاً وواجباً يُفرض على الإنسان من خارج، بل قوة تعمل طواعية وبسرور لا مناص من الإعلان عنها، والتنفيس عن طاقتها بأعمال بذل الذات «على نموذج محبة المسيح». فالمسيح، بسبب حبه للآب وحبه لنا، لم يستطع إلا أن يموت عنا، أي يُضَلَب!!! «ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو ١٥: ١٣)

هذا صنعه المسيح، ولكنه صنعه من أجل كل العالم، أحبائه وأعداءه، خطاة ومنبوذين، ومن واقع حبه هذا وامتداداً له بعدئذ بالروح القدس أعطى التلاميذ وصيته الجديدة: «وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم»، لا كأنها فَرَضَ بعد أو واجب أو تكليف، بل انتباهة، ليكتشفوا ما قد وهبه لهم بالفعل وسكن فيهم بالسر بالجسد والدم الذي أعطاهم وبسرّ غُسل أرجلهم.

ونحن نعلم أن التلاميذ أقاموا هذه الوصية، وقاموا بها، وعاشوها، وعاشوا عليها، في بادئ الأمر وبعد الصعود مباشرة، وما اجتماعهم يوم الخمسين إلا صورة ناطقة بشمار الوصية الجديدة، فقد جمعهم حب المسيح على الصلاة والصوم وإقامة سر الشركة والعبادة الحارة، حتى حلّ عليهم الروح القدس بكل ارتياح، فاستعلن المسيح فيهم، وصاروا شهوداً مع الروح القدس للمسيح كالوصية، وظلت بعد ذلك المحبة الأخوية بينهم هي شهادة بحد ذاتها، وعليها قام الإنجيل وقامت الكنيسة. وظل ق. يوحنا يعظ بهذه الوصية وحدها في شيخوخته حتى مات^(٨)، مما يؤكد تأثره الشديد بوصية المسيح فعلاً.

وبالانتباه لوصية المسيح بخصوص المحبة نجد أنه قدّمها على صورتين:
الصورة الأولى، خاصة بالتلاميذ، كغسل الأرجل: «كما أحببتكم أنا، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً»؛ بالتطابق مع: «لأنني أعطيتكم مثلاً، حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً... فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض.»

وهذا في الحقيقة لبنيان الكنيسة، أولاً في صورتها الرسولية الأولى: «بهذا يعرف العالم أنكم تلاميذي»؛ أما وصية المحبة في صورتها العامة الخاصة بالمؤمنين عامة، فقد أطلقها بلا قيد ولا شرط لتكون حياة لكل إنسان ومنهج لكل مسيحي: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك؛ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات.» (مت ٥ : ٤٣-٤٥)

كذلك غُسلُ الأرجل، وضع أساساً لتكريس التلاميذ للبشارة ومسيرة الإنجيل في كل أنحاء العالم، كما احتفظ به الرسل كطقس اتضاع لمارسه الكنيسة بالنسبة للشعب عامة، والتقطه الرهبان الأوائل وأدخلوه كعمل محبة وطقس اتضاع دائم يمارسونه مع كل زائر أو متردد، وبعد أسفارهم الطويلة، لبعضهم البعض.

ثم إن الوصية القديمة كانت المحبة فيها تختص بالقرب، أي بني جنس اليهود فقط، أي لحساب التاريخ والجنس اليهودي، ولكن المسيح أعطى حبه في وصيته الجديدة على أساس مهمته العظمى الخالدة ورسالته الأبدية في العالم بكل أجناسه، لذلك لما سأله: «مَنْ هو قريبي؟»، أعطى جواباً في قصة، حَظَمَ فيه هذا القيد الحديدي الذي وضعت الوصية القديمة في عنق المحبة، حينما جعلها لا تعمل إلا بين يهودي ويهودي وحسب، ولكن قالت القصة أن قريب اليهودي هو السامري!!! (لو ١٠ : ٣٦ و ٣٧)، ومن هذا المنطلق سبق وفادى بحدود وصيته الجديدة: «أحبوا أعداءكم.» (مت ٥ : ٤٤)

كما أنه بطقس غسل الأرجل، جعل المحبة المسيحية والرسولية تنزل إلى مستوى خدمة الأرجل.

والآن نأتي إلى الظروف التي أحاطت بإعطاء المسيح وصيته الأخيرة والجديدة لتلاميذه، فأولاً نحن على مائدة عشاء الرب الذي أسس فيه سر الإفخارستيا بتقديم جسده ودمه للأكل والشرب من خلال التزام ذبيحة الصليب التي جاء ليكملها في نفسه، وقبيلها منه الآب. فهنا بذل الذات في أقصى صورة يمكن أن يُقدَّم فيها الحب، حيث أصبح الحب الإلهي المذبوح من أجل كثيرين هو أساس العهد الجديد: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُشَفِّكُ من أجل كثيرين» (مر ١٤ : ٢٤)، «كما أحببتكم أنا (هكذا حتى الموت)، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً.» (يو ١٣ : ٣٤)

غرض الوصية الجديدة بالنسبة للمحبة:

ولكي يتضح بأجلى بيان أن المحبة ليست هي كل الوصية الجديدة، ولا يمكن أن تستنفذ كل

أبعادها، عاد المسيح ووضع للوصية غاية فوق المحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي»، وغاية هذه أيضاً هي استعلان المسيح نفسه للعالم من خلال حب التلاميذ بعضهم لبعض، ولأن محبة التلاميذ بعضهم لبعض لا يمكن أن تأخذ صورتها الإيمانية وقوتها الكرازية إلا بوجود المسيح، كقول القديس بولس الرسول: «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة...» (أف ٣: ١٧ و ١٨)

وهكذا يتضح لنا الترابط المتزامن بين قبول المسيح وفاعلية الحب في القلب، فإنه بعد أن تناول التلاميذ من الجسد والدم، وهما قوة العهد الجديد واللذان يمثلان الحضرة الإلهية عملياً: «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يو ٦: ٥٧)، أعطى المسيح الوصية الجديدة. أي أنه بمجرد أن حلّ المسيح بالإيمان في القلب، وتأسست وتأصلت فيه المحبة؛ أصبح الإعلان عن المسيح تحصيل حاصل، من جراء أفعال المحبة الباذلة في الحياة المسيحية. إلى هذا الحد أخذ ق. يوحنا هذه الحقيقة، وجعلها معياراً للخلاص والحياة الأبدية: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١ يو ٣: ١٤)، وهكذا انتشر اصطلاح محبة الإخوة *φιλadelphía* (فيلادلفيا) في الغرب، ويقابله في الشرق وفي الكنيسة القبطية بالذات «الأغابي» بصورة أوسع وأعمق وأكثر روحانية، حيث يجتمع الشعب العلماني كله في الكنيسة، وتقام الموائد، ويحضرها الأسقف ويصلي ويبارك، ويفرح الشعب، ويأكل في حضرة الرب. فقد صارت الأغابي تعني «شركة المحبة»، وصار لها طقس ووجود كنسي. وبعد أن دعمتها الرهبنة كأعلى نموذج للأغابي الإنجيلية، فقد صارت شركة حياة تخصصت لعمل المحبة، والعبادة، والتأمل، والبذل والخدمة، وتقديم الأمثلة المسيحية من قديسين وقديسات، ملأوا صفحات السنكسار واحتلوا الصفوف الأولى في السماوات.

وهكذا، فالمحبة إذا سكنت في القلب بإيمان المسيح وأخذت طريقها عملياً نحو الآخرين، وخاصة بين التلاميذ على مستوى الصليب، فحتماً يُستغلن المسيح. ومعروف أن من مفاعيل المحبة الإلهية قيام الوحدة الروحية على المستوى السري الإلهي، لأن طبيعة المحبة الإلهية فوق أنها تجمع، فهي توحد:

+ «ليكون فيهم الحب الذي أحببته به، وأكون أنا فيهم.» (يو ١٧: ٢٦)

+ «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً

فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يو ١٧: ٢١)

+ «أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحييتهم

كما أحببته.» (يو ١٧: ٢٣)

هذه، في الحقيقة، هي أعماق الوصية الجديدة التي هي ناموس المسيح الجديد: المحبة: وهي بحد ذاتها "إيفانيا" إلهية بظهور واستعلان المسيح، «ابن محبته». الوحدة: موضوع المحبة الإلهية، وهي أيضاً بحد ذاتها "إيفانيا" الآب والابن فينا.

وليكن في ذاكرتنا دائماً، أن استعلان المسيح فينا هو برهان محبة الله نحو العالم، واستعلان الآب والابن فينا هو برهان قيام الوحدة، فهو بحد ذاته كرازة للعالم.

أي أن الوصية الجديدة التي يشدد عليها المسيح في نهاية رسالته، تهدف نحو خلاص العالم واستعلان ملكوت الله والحياة الأبدية.

وهكذا، كما بدأنا إنجيل يوحنا بحركة محبة الله للعالم، هكذا تنتهي غاية رسالة المسيح في الإنجيل.

اعتذار: نحن هنا لا نقدم موضوعاً مستوفياً عن المحبة في العهد الجديد، ولكننا التزمنا بحدود المناسبة وفي إطار مفهوم وصية المسيح.

٣٦: ١٣ «قَالَ لَهُ سَمْعَانُ بطرسُ: يَا سَيِّدُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَجَابَهُ يسوعُ: حَيْثُ أَذْهَبُ لَا تَقْدِرُ الْآنَ أَنْ تَتَّبَعَنِي، وَلَكِنَّكَ سَتَتَّبَعُنِي أَخيراً».

إنطلاق القديس بطرس بهذا السؤال بعد وصية المسيح بالمحبة، يوضح أن مغادرة المسيح الشبيكة أمرٌ شَدَّ انتباه التلاميذ، لأن بيان الموصي بالمحبة وتوضيح الغرض منه وهو لكي يعلم العالم أنهم تلاميذ المسيح، يعني بكل صراحة أن المسيح سيذهب ويختفي وسيتركهم وحدهم. هذا الأمر حيرهم، وأظهر جانب الضعف فيهم.

«يا سيد إلى أين تذهب؟»:

وأصلها باللاتيني: Quo vadis domine؟، والتي بُني عليها الفيلم السينمائي الديني المشهور "كوفاديس"، وقصته مأخوذة من سفر أبوكريفا "أعمال بطرس وبولس"، وهي القصة الجميلة لاستشهاد القديس بطرس في روما؛ إذ لما انتهز بطرس فرصة، وهو محكوم عليه بالإعدام صلباً، هرب من الجلادين قبل تنفيذ حكم الاستشهاد، وانسلّ خارجاً من روما، فقابله الرب، وظهر كأنه عابراً به وذاهب إلى روما، ففوجئ بطرس بالمسيح نفسه أمامه فسأله: يا سيد إلى أين أنت ذاهب؟ فبادره الرب بنظرة عتاب ["لأصلب بدلاً منك"]. وهي تذكيرة لاذعة لادعاء بطرس في قوله

للمسيح في الليلة التي أسلم فيها ذاته : «إني أضع نفسي عنك .» (١٣ : ٣٧)

« حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني ولكنك ستبغني أخيراً » :

يصرخ إرميا ، وكأنى به ينادي بطرس من بعيد : «إن جريت مع المشاة فأتعبك ، فكيف تُباري الخيل ، وإن كنت منبطحاً في أرض السلام ، فكيف تعمل في كبرياء الأردن ؟» (إر ١٢ : ٥)

فبطرس ، ليلة الصليب ، يسأل الرب : «يا سيد إلى أين تذهب ؟» ، لأنه كان يُضمّر في قلبه أن يقلّد أليشع النبي في جريه وراء إيليا ، وكأنه يريد أن يصعد معه ، والرب أدرك ذلك بالروح ، وكان الرد خالصاً : «لا تقدر الآن أن تتبعني» . ولكن لم يحرمه الرب من نظرة تطلّعية من وراء الأفق : إنه سيتبغني أخيراً ، أو بالحري سيأتي الرب ليأخذه بيده ، لأن قصة هروبه من الموت معروفة ، فلولا حضور الرب إلى روما خصيصاً ليردّه إلى صليبه المقلوب ، لما عثر بطرس على الباب الذي منه يتبع الرب أخيراً !! وهنا يليق جداً أن نذكّر القارئ بقول الرب لبطرس في نهاية رواية ق . يوحنا : «ولكن متى شُخِطَ ، فإنك تمُدُّ يديك ، وآخرين ينطقك ، ويحملك حيث لا تشاء .» (يو ١٨ : ٢١)

و «حيث لا تشاء» هي إشارة بليغة إلى هروبه من الصلب الذي صحّحه له الرب .

١٣ : ٣٧ «قال له بطرس : يا سيّد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن ؟ إني أضع نفسي عنك» .

إنها لخطورة بالغة أن تأخذ الإنسان حرارة الثقة بالذات ، ليتكلم و يقرّر و يعبّر بما يفوق قدره ومقداره . وأخطر من ذلك أن يُقلّد الإنسان أمثلة أعلى من قامته ، فيبدو في أعين الناس أقل مما هو ، أي أقل مما وهبه الله . لأن الفرق بين قامته الأصلية وبين ما ادّعى لنفسه اختلاصاً يُخصم من أصل رصيده . هذا هو قانون المسيح : «من له سيُعطى . ومن ليس له فالذي يظنه له يُؤخذ منه .» (لو ١٨ : ٨)

هذا الأمر خطير ، وخطير للغاية ، في الأصول التربوية المسيحية ، أي في بناء النفس الروحي وفي الجهاد النسكي . فالله لا يطالبنا أن نعطي أكثر من قدرتنا ، أو نبذل من رصيد وهمي سواء في الصحة أو الإيمان . والله أعطى وقسّم المواهب ، وعلى قدر ما أعطى يُطالب . فالذي يدّعي بأنه يقدر أن يبذل أو يخدم ، وهو لم يأخذ ، يُلام ويتضفّف ويتقهقر .

فبطرس الذي رأى نفسه أكفاً من يستطيع من التلاميذ أن يلزم المسيح ، أو حتى أن يموت

عنه، هكذا نجده قد تخلف في منتصف الطريق. ولما عزم أكثر من عزمه أن يرافقه حتى ولو إلى الموت، انتهى عزمه عند الجواري في الدور الأرضي، وجلس يستدفئ مع الخدم. والذي مذ في عافيته — ليشهد في صف المسيح — دون أن يكون لها امتداد من قوة الإيمان، أنكر المسيح عند استجواب جارية!!! وبدل أن يقول مجرد قول: نعم أنا تلميذ المسيح، وإذا لزم الأمر يُقسم بالحق: «ابتداً يلحن ويحلف أنني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه» (مر ١٤: ٧١) — عفارم — وأخيراً جلس خارج الباب يُعزي نفسه بكاءً مرّاً. وصحّ قول الرب لبطرس، ولي ولك أيها القاريء العزيز: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو ١٥: ٥)

٣٨: ١٣ «أجابه يسوع: أتضع نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات.»

لقد اهتم الإنجيليون الأربعة بتسجيل نبوة المسيح هذه عن «بطرس والديك»، إذ سجلوا تحقيقها تسجيلاً مؤثراً للغاية، وكان أدقهم وأقدرهم في التسجيل هو القديس مرقس، لأنه أخذ البيانات من فم بطرس نفسه.

لم يكن بطرس يدري هوّل المعركة التي يسير المسيح نحوها، ولا إزاء من تسجّلت؟ ولا لحساب من سيكون الحساب؟ بل وفوق هذا كله لم يدرك بطرس من هو المسيح الذي يقول إنه مستعد أن يضع نفسه من أجله؟ فالمعركة فوق طاقة جميع البشر مجتمعين، إنها ضد من استعل على الله نفسه، أي الشيطان الذي دوّخ العالم كله والذي قال في قلبه: «أصعد إلى السموات، أرفع كرسي فوق كواكب الله... أضع فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العليّ. لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب.» (إش ١٤: ١٣-١٥)

لقد أشفق الرب على شجاعة بطرس المنهارة، ولكي يردعه حتى لا يرتكب حماقة، أعلن له أقصى ما يمكن أن يبلغه من حدود الدفاع عن الرب بدون الرب، ذلك قبل أن ينفجر نور النهار أو يصيح الديك، أو يظهر كوكب الصبح المنير، أو يُستعلن نور العالم في القلوب، لأنه في ظلمة الرؤيا وعمّة القلب سينكر بطرس سيّده ثلاث مرات، وعمداً مع الإصرار، وبلقن وحلفان وبشهود عيان.

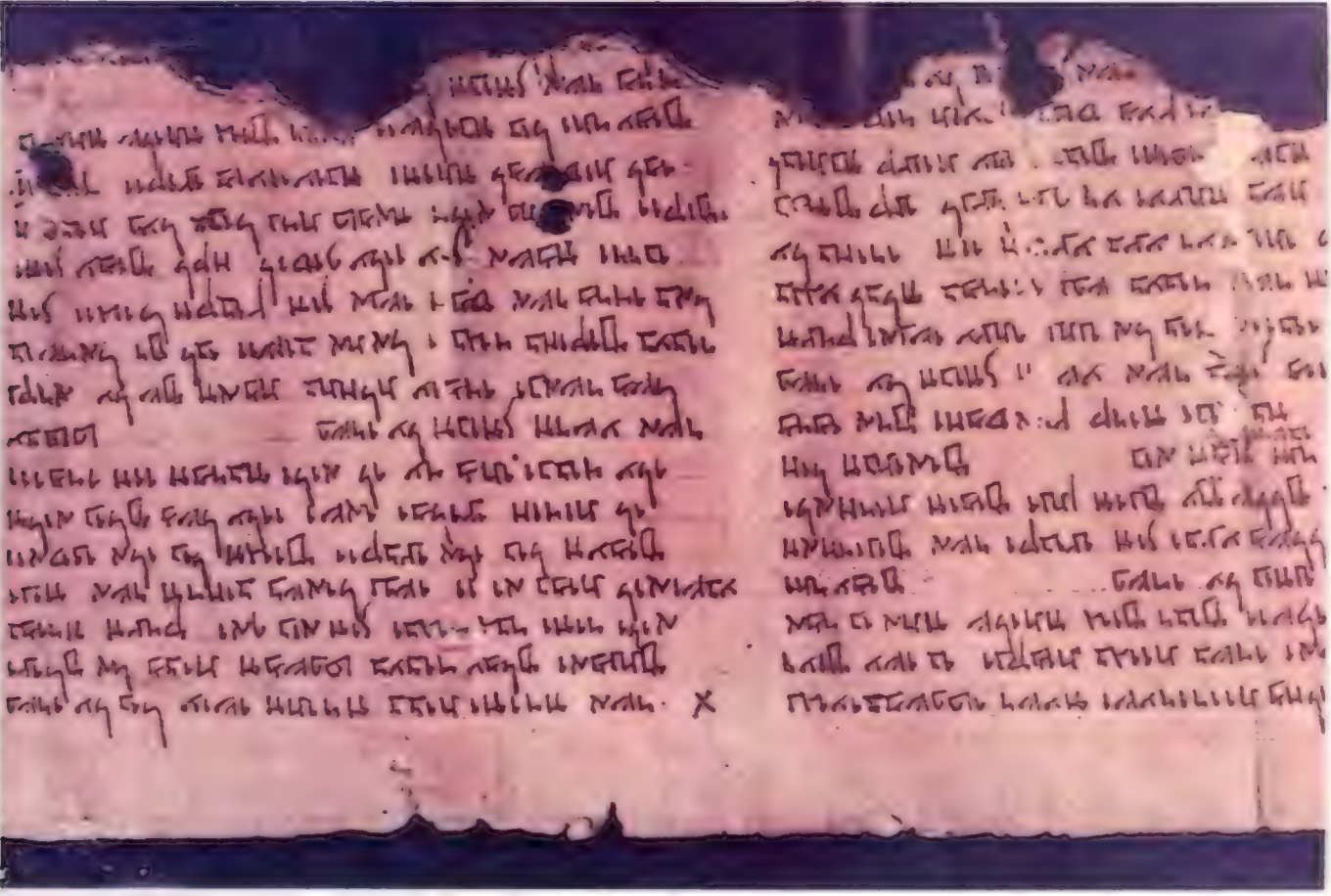
ولكن، في النهاية، وبعد أن أمّده المسيح بصلاته وروحه القدوس، استطاع القديس بطرس أن يحقق ما ظن وما قال، ووضع نفسه من أجل المسيح، وحقّق أمنية حبه، ومات مصلوباً شهادة أمام

العالم كله .

وهذا هو الدرس الفريد الذي يطرحه أمامنا ق. يوحنا كباقي الإنجيليين : أن بطرس كان مثلك ومثلي، بحسب الجسد لا شيء، مُكَايِرٌ، شُجَاعٌ بلا قوة، مُقْدَامٌ بلا رَوِيَّة، مُعْتَدُّ بلا أصل، متسرَّخٌ سريع الندم، مدَّعي الأولوية دون دعوة أو تزكية. ولكن عندما لمستَه النعمة، انقلبت موازينه غير المتزنة، وصار بعد أن حلَّ عليه الروح القدس أوَّلَ من نَظَقَ بلسانِ يومٍ أن تقسَّمت موهبة الألسن، وأول واعظ ارتجت له المنابر، وصاحب أول حصاد لحساب رب الحصاد، ثلاثة آلاف نفس يهودية نقية اعتمدوا في يوم واحد. وكانت هي أول كنيسة في العالم.

فبطرس هو أقوى عمود من ثلاثة أعمدة، حملت سقف وأسقفية كنيسة أورشليم، وأول مَنْ مَلَأَ كَيْسَهُ بعملة سماوية مسكوكة باسم يسوع المسيح الغالي القيمة، دفع منه ثمن شفاء أعرج من بطن أمه، كان يُحْمَلُ على الكتف أربعين سنة (راجع أع ٣: ١-٤: ٢٢). فكانت أول معجزة بعد معجزات المسيح أجراها من داخل الهيكل أمام كهنة وفريسيين وآلاف من شهود عيان في رواق سليمان؛ حيث اتخذها بطرس فرصة، وأخذ يوبِّخ بلا رحمة الذين بجهالة صلبوا رب المجد، ولما هددوه مع يوحنا صلَّيا مع بقية الرفاق صلاة تزعزع لها المكان (راجع أع ٤: ٢٣-٣١). وهكذا جاهر بطرس بالإيمان، وشدَّد إخوته حسب الوصية، ثم مَنَظَّفُوهُ، وحيث لا يشاء صلبوه، وهكذا تبع المسيح أخيراً حسب الوعد!





أحد المخطوطات التي عُثِر عليها ضمن مخطوطات البحر الميت في وادي قمران. وهي تعوي تفسيراً على نبوة جيفوق

«وقلت لكم الآن قبل أن يكون. حتى متى كان تؤمنون.» (يو ١٤: ٢٩)

«فأحاسي الرب وقال اكسب الرؤيا وانفضها على الأنوار لكن يركض قارئها. لأن الرؤيا بعد إن يجد: وفي نهايتها تكتم ولا تكذب إن توب

فانظرها لأنها ستأتي إنيانا ولا تاتخر.» (حب ٢: ٢ و٣)

الأصحاح الرابع عشر

حديث الوداع الأول

الحديث عن الآب والمضي إليه

- (أ) المسيح يعزّي تلاميذه بالرجاء السماوي .
- (ب) يعرف نفسه بأنه الطريق والحق والحياة، وأنه واحد مع الآب .
- (ج) يعلّمهم بتأكيد استجابة الصلاة التي تُقدّم باسمه .
- (د) يوصي بالمحبة والطاعة .
- (هـ) الوعد بإرسال الروح القدس المعزّي .
- (و) يترك سلامه لهم .

تمهيد: جولة حول الأصحاح بأكمله:

القديس يوحنا، في الأصحاحات القادمة، يصف لنا المسيح من مستوى عملي وقيادي، كيف قاد تلاميذه بهدوء فائق الوصف في أعنف عاصفة هوجاء يمكن أن تواجه جماعة صغيرة للغاية، كقطيع وديع من خراف مُحاصرة من كل ناحية، ووسطها ذئبٌ فاجرٌ يقوي لتسمعه الذئاب في الخارج، لتتعرف على المكان وعلى أسراره. والراعي يُطمئن خرافه أن لا تضطرب ولا تجزع، فقد اشترى حياتها بدمه، وهو ضامنٌ سلامها، وها هو ذاهب في رحلة سماوية وسيعود بعدها إليهم مُحملًا بالأخبار السارة والمفرحة، ليسلمهم سر الطريق الصاعد إلى فوق، وسوف يتحدث مع الآب بخصوصهم مع توصية خاصة أن يتسمّع الآب نفسه أصواتهم. وقد أخذ يصف لهم صورة الآب، فأراهم نفسه مؤكداً لهم أنه هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وأنه هو والآب واحد في كل شيء، وفاجأهم بكشف أعظم سرٍّ عند الآب، وهو الروح القدس الذي يوحدُهما بالحب، واعداً بأنه سيطلب من الآب أن يرسله إليهم ليُعزّيهم عن فراقه لهم بالقيان، وليملأهم بالمعرفة وكل الحق، ليتذكروا كل ما قاله لهم وما عمله أمامهم، حتى يتكلموا بكلمته عينها ويشهدوا بها ولها مقروعة ومكتوبة. ثم ترك المسيح لهم سلامه الخاص، الذي ينسكب من السماء من فوق مناطق العقل والاضطراب، فيكون لهم مصدر أمان سماوي واطمئنان دائم في كل زعازع العالم ومكايد الشيطان. وسلامه هذا سيكون عِوضَ سلام العالم الذي يعطيه باليمين ويسحبه بالشمال، يمنحه

اليوم وينزعه غداً، وبالنهاية هو قبض الريح.

وفي نهاية الحديث، اكفهر وجه الرب لمنظر، لم يتبيته يوحنا ولا التلاميذ، إذ ظهر للمسيح رئيس العالم قادماً للحرب، ولكن عبثاً يحارب، فليس له في المسيح مأخذ. لم يؤخذ المسيح، ولم يرتد، بل كفى عن الحديث، وأعلن عن انتهاء زمان الأحاديث إلا قليلاً. ثم أمرهم أن يغادروا المكان فوراً، لأن العدو كان يترقبهم بهم، ولم يشأ الرب أن يقبض عليهم داخل البيت.

يعتقد العالم اللغوي وشارح الإنجيل Burney^(١) أن في الآيات من (١-١٠) يوجد شعر أرامي منظوم على أساس كل أربعة توقيعات وحدة شعرية. لذلك فهي تحوي خطأ فكرياً موحداً.

١ : ١٤ « لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ».

بعد أن حذر الرب بطرس، وهو مقدم التلاميذ، أنه سينكره هذه الليلة ثلاث مرات، صمت بطرس، وصمت أيضاً التلاميذ، مع جزع ورعدة؛ لأنه إن كان الرب ذاهباً ليموت، وإن كان هذا هو يهوذا، وهذا هو بطرس أيضاً، فمن نكون نحن؟

لقد ملأ الحزن قلوبهم ... وفجأة قطع الرب الصمت بكلمات، افتتح بها كوى السماء لتفيض سلاماً في قلوب التلاميذ. فكانت كلمات الرب هذه تُعتبر الدرة الثمينة في إنجيل المسيح.

« لا تضطرب قلوبكم » :

« يضطرب » :

كلمة « يضطرب » باليونانية ταρασσω^(٢) وباللاتينية Turbata .

فإن كنا قد عرفنا سابقاً أن المسيح « اضطرب بالروح » (٢٧ : ١٢ و ٢١ : ١٣)، فاضطراب المسيح لم يكن عن فقدان الصلة بالآب، التي هي قاعدة الثبوت العليا، ولا عن خوف لأنه لم يرهب للموت جانباً، إذ وطأ هامته بقدميه، ولا كان اضطرابه بسبب الخوف من المجهول لأنه كان « عالماً بكل شيء ». ولكن اضطرابه، كما علمنا، كان رد فعل الجسد حول المعركة الروحية التي

^١ Brown, op. cit., p. 623.

(٢) كلمة « يضطرب » ταρασσω ، والمصدر منها « الاضطراب » ταραχή ، وهي كلمة معروفة في علم النفس بأنها حالة فكرية تأتي بسبب الخوف من المجهول أو بسبب شدة الحزن أو الشك الكثير، ويُنقضى لها الدواء المشتق من اسم الداء وهو نراكسان. وعكس ταραχή هو ἀταραξία وهي تعني الطمأنينة وهندوء النفس أو عدم المبالاة أو البرود الفلسفي.

كان قابضاً على زمامها. فاضطراب المسيح شيء واضطراب التلاميذ شيء آخر، فلاضطراب لا يتملك على الإنسان، إلا إذا تخلخل رباط الإيمان بالله. فاضطراب التلاميذ كان بسبب تزعزع رباط الإيمان بالله.

«قلوبكم» :

الترجمة العربية متصرف فيها، فهي في الأصل اليوناني مفرد $\eta\ \kappa\alpha\rho\delta\acute{\iota}\alpha$ ، وهذا أسلوب أرامي وعبري. و«القلب» في المفهوم الشرقي هو مصدر الشعور. أما في اللغة القبطية، فالقلب (Ⲅⲏⲧ) هو مصدر جميع العواطف والفهم والذكاء والغباء أيضاً، فالرجل الذكي يُسمى ⲡⲉⲩ-Ⲅⲏⲧ والرجل القوي الشجاع يُسمى ⲭⲁⲣ-Ⲅⲏⲧ والرجل الرحيم ⲩⲉⲡ-Ⲅⲏⲧ والرجل الغبي Ⲅⲧ-Ⲅⲏⲧ أي بلا قلب أصلاً.

و«تضطرب» باليونانية تُستخدم كالعربية في اضطراب البحر أيضاً، والشبه بين اضطراب القلب واضطراب أمواج البحر مصطلح يستخدمه الوحي الإلهي في الكتاب كثيراً. فالخوف من الموت، وأخطر منه الخوف من المجهول، يطيح بفكر الإنسان فلا يعود يستقر له قرار. والمعروف في الاختبار الإيماني، أن سبب الخوف دائماً وبلا استثناء هو فقدان الصلة مع الله. فأمان الإنسان الوحيد هو في تطلعه نحو الله والإمساك به بالإيمان، فإذا ركّز الإنسان فكره في الواقع المفزع أمامه يغرق في الحال، هذا كان حال القديس بطرس أيضاً، إذ لماذا بدأ يغرق والرب واقف أمامه؟ : «ولكن لما رأى الريح شديدة، خاف؛ وإذ ابتداء يغرق، صرخ قائلاً: يا رب نجني. ففي الحال مدَّ يسوع يده، وأمسك به، وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت» (مت ١٤ : ٣٠-٣١). أي، لما ركّز رؤيته في الريح، فقد رؤيته للمسيح، وهكذا فقد قاعدة ثبوته فوق الماء.

وهنا الرب أيضاً لا يتكلم مجرد كلمة «لا تضطرب قلوبكم»، بل يمدُّ يده لينتشل التلاميذ، فحينما يأمر المسيح، فأمره يتخذ بقوة الكلمة الحية، ويحمل تنفيذه في طاعته، وهو، مع المعونة الإضافية التي يمنحها لهم بالكلمة، يذكّرهم بالقاعدة الثابتة التي ينبغي أن يربطوا، أو يكونوا قد ربطوا فيها ثقتهم وهي: الإيمان بالله.

«أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي» :

«الإيمان» باللغة الأرامية (لغة ق. يوحنا) تعني «الثبوت» (firmness)، لأن قاعدة الثبوت الجوهريّة أو «الثبوت الحق» هو الله، في الأدب العبري. فالذي يؤمن بالله يعني الذي يثبت في الله

أو يشترك في ثبوته، كما في الصخر، فالله «صخر الدهور» (إش ٢٦: ٤)، أي الثابت على مرّ الأيام وكرّ السنين.

خطر الثنائية في اللاهوت ينبغي أن نحترس منه دائماً، عندما نضع المسيح نفسه في مقابل الله أو الآب، فالمعنى هنا هو: إن كنتم تؤمنون بالله فأنتم تؤمنون بي أيضاً، وبالضرورة، حتى وإن كنتم لا تعرفون الآن!! وهنا يلزم أن نربط هذه الآية بالكلام الوارد بعدها، لأنه يعطيها الرؤية اللازمة والتوهج اللاهوتي المطلوب. فالمسيح بعد ذكره الله، يعود ويذكره باسم «أبي» (٢: ١٤)، ثم يذكره باسم «الآب» (٦: ١٤)، وبذلك يكون المعنى، بعد ضم الصفات، كالآتي:

أنتم تؤمنون بالله، هذا جيد جداً، وأنا أترككم لأذهب إلى الله، الذي هو أبي، وهو الآب (أبوكم). فإن كنتم تؤمنون بالله حقاً، وهذا صحيح وواجب، فإيمانكم بالله فيه الكفاية ليجعلكم تؤمنون بي.

إذن، فاربطوا ثقتكم ورجاءكم بما هو فوق، ولا تنظروا إلى مفازع الموت وتهديداته، لأن الموت وارد حتماً كل حين. لهذا أنا ذاهبٌ إلى الآب لأُعِدَّ لكم هناك مكاناً، حتى إذا دعاكم داعي الموت — وهو حتماً سيدعو — فأنا آتي سريعاً وأخذكم.

وهو بهذا الكلام، يجعل من موته مهمة عظيمة في السماء تختص بهم هم، أما موته بالنسبة له، فهو مجرد سفر إلى موطنه السعيد الذي يذهب إليه ليعود أيضاً لتكون معه دائماً. فلماذا الخوف، ولماذا الاضطراب؟

وحتى سفره السعيد هذا، لا يكون كأنه بلا عمل بل هو، في الحقيقة وواقع الأمر، يعبد طريقاً إلى الله، ومنه إلينا، ليعود إلى الآب، ومعه دائماً أبناء كثيرون إلى المجد (عب ٢: ١٠)، لأن كل ما يصنعه المسيح هو لأجلنا.

٢: ١٤ «في بيت أبي منازل كثيرة، وإلاّ فأني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً».

الصحيح ينبغي أن تُقرأ هذه الآية هكذا: «في بيت أبي "مواضع" كثيرة»، لأن البيت هو المقابل الروحي للهيكل الذي قال عنه المسيح: «بيتي بيت الصلاة يدعى» (مت ٢١: ١٣)، «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو ٢: ١٦)، وأما المواضع الكثيرة أو المساكن الكثيرة في البيت،

فهي المقابل للأروقة. والأروقة بها عُرف كثيرة (١ مل ٦ : ٦ و ٥)، وقد وصف القديس بولس الرسول ذلك: «فلنا في السموات بناءً من الله، بيت غير مصنوع بيدٍ أبدئي.» (٢ كو ٥ : ١)

و"المواضع" قال عنها القديس بولس أيضاً: «فإننا في هذه أيضاً نثنُّ، مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا، الذي من السماء.» (٢ كو ٥ : ٢)

«منازل كثيرة» $\mu\omicron\nu\alpha\iota$:

الكلمة اليونانية منحوتة من $\mu\omicron\nu\eta$ وتعني «مسكن دائم» أو «بيت» (وليس «منزل»). وهي التي جاءت في الآية (٢٣): «وإليه نأتي وعنده نصنع بيتاً (هنزلاً)»، أي إقامة دائمة!!

ولكن كلمة هنزل باللغة العربية خاطئة ومُفسدة للمعنى، لأن «المنزل» غير «البيت». فالمنزل يعني مكاناً ينزل فيه الإنسان عابراً وليس مُقيماً، ومنه النزل أي الخان أو الأوتل حيث الإقامة الدائمة منعقدة؛ أما البيت فللإقامة الدائمة. وفي كتابات هامة للقديس إيرينيئوس (ضد الهرطقات)، الجزء الخامس، المقطع ٣٦ : ١٢) قطعة ينقلها لنا من أقوال الشيوخ Elders، ويقصد بهم بابيلاس^(٣) وغيره، يُفهم منها أن الـ $\mu\omicron\nu\alpha\iota$ هي «المساكن» أو «المواضع» الدائمة للطوباوين التي تتمايز في المجد، ولكنها ليست مقيدة، بل ينتقل داخلها الطوبائيون من درجة إلى درجة أعلى.

ويقول في $\mu\omicron\nu\alpha\iota$ ، أيضاً، القديس كلémentس الإسكندري، أنها أماكن متراقية من مجد إلى مجد، وأن الله له $\mu\omicron\nu\eta$ الخاصة به.

وهنا يلزمنا أن نشير إلى المكان الرهباني الجغرافي المجاور لمنطقة القلاي، بجوار هرموبوليس بارفا (دمهور الآن)، والذي كان يُسمى $\mu\omicron\nu\alpha\iota$ ؛ هذه الكلمة سُميت بالعربية «الْمُنَى» بالمدّة المفتوحة دون ترجمة لجهل المترجم. وحقيقة الأمر أن الآباء الرهبان كانوا يرون في حياتهم وسُكناتهم صورة سماوية على الأرض، فأطلقوا على مساكنهم هذه اللفظة المستعارة من إنجيل يوحنا، أي المواضع أو المساكن أو البيوت السماوية $\mu\omicron\nu\eta$.

«والآنَ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ، أَنَا أَمْضِي لِأَعْمَدَ لَكُمْ مَكَاناً» :

احتار علماء الكتاب في شرح هذه الآية ولكنهم استقروا على أنها استفهامية منفية، هكذا: [إذا لم يكن هذا حقيقياً — أي أنه ليس في بيت أبي منازل كثيرة، فهل كنت قد قلت

³ ICC, Bernard, *op. cit.*, pp. 531-533.

لكم إني أمضي وأعد لكم مكاناً ؟]

والمعنى يزداد وضوحاً إذا أخذنا أيضاً بمفهوم المسكن في سفر العبرانيين :

«وأما المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة، فبالمسكن الأعظم والأكمل، غير المصنوع بيد، أي الذي ليس من هذه الخليقة. وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب ٩: ١١ و١٢)، «حيث دخل يسوع كسابق لأجلنا» (عب ٦: ٢٠). هذه الآية تنطبق انطباقاً عجيباً وعميقاً على آية إنجيل يوحنا، وتشرحها، وتشرح كيف وبماذا هيئاً لنا المسكن السماوي، وكيف دشّنه بدمه، حتى يصلح لسُكنى الخطاة.

«أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً»:

الموضوع كله تعزية، الرب يهون على أحبائه ثقل الفراق، ويدخل إلى الحقيقة الروحية مباشرة، فالإقامة في الأرض خرافة، الإقامة الحقيقية والدائمة هي فوق، الأرض ليست «موضِعاً» للروح بل هي أولاً وأخيراً مقبرة حزينة للجسد، والجسد مهما تجمل فالذبول مآله. إذن، فالرجاء كله يتحتم أن يُربَطَ بالموطن الحقيقي، وعند مَنْ؟ عند الآب. وللابن عند الآب مجال إلهي، كله مجد وبهاء وسلطان، كان قد تخلّى عنه ليتفرغ إلى مهمته على الأرض بالجسد.

والآن قد آن الأوان للعودة إلى الأحضان الأبوية واستعادة المجد الذي له عند الآب واستلام كل سلطانه على قوات السموات، ليس كابن الله فقط، بل وابن الإنسان أيضاً، فالابن يعود إلى الآب حاملاً البشرية فيه. فعندما يوطّد سلطانه بوضعه الجديد من جهة «بشريته»، أي عندما يوطّد «للإنسان» مكانة جديدة لدى الآب، ويوطّن الإنسان بعد غُرْبته الطويلة في موطنه الأول مع الله، من داخل البنوة العزيزة والفريدة التي له عند الآب، ويطمئن أن الحضن الأبوي يَسَعُ الإنسان الجديد المتبني في ميراث بُنُوته الإلهية الوحيدة، حينئذ يعود ليأخذ الإنسان المتقدي والمبرّر والمتقدّس والمولود جديداً من الماء الحي والروح المحيي، المغسول بالدم الإلهي، المتهييء بالنعمة، والمستضيء بالنور الإلهي لميراثه الجديد في النور الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السموات.

وربما تكون هذه المهمة، أي توطين الإنسان عند الله مرة أخرى، هي أعظم وأخطر عمل للمسيح سيقوم به عند الآب بعد تكميل مهمة الصليب، فهي النتيجة النهائية وختام التدبير الإلهي المتحصل من عمليتي التجسد والفداء.

أما تعدد «المنازل» في البيت الأبوي فراجع إلى درجات الاستنارة والإنارة. فعالم الله فوق، هو

عالم النور، ولا يوجد فيه أية خليقة غير منيرة. لذلك يقول عنه سفر الرؤيا إنه ليس فيه شمس ولا قمر، بل الله والخروف سراجة (رؤ ٢١: ٢٣). فالمسيح هو النور الحقيقي، وباتحادنا به بالسر الآن يعطينا استنارة فقط، تُنشّط الذهن الروحي لإدراك ما لا يُدرك ورؤية ما لا يُرى، وهذا عربون ما سيكون بالقيامة أي بالاستعلان والتجلي، حينما يتغيّر جسدنا المعتم، جسد الخطية المظلم، ليكون على شِبّه جسد مجد المسيح المضيء (في ٣: ٢١). وهذا هو قول المسيح نفسه: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت ١٣: ٤٣)، بأنوار تتعدد وترقى درجاتها، تبعاً لتعدد وتميّز درجات الاستنارة الذهنية فيما يخص الإلهيات الآن.

والكلام يكاد يكون واضحاً أنه، منذ الآن، أمامنا طريق الاستنارة بالكلمة وعمل البر مفتوحاً لتنقية القلب، لأن أنقياء القلب هم الذين يعاينون الله (مت ٥: ٨)، لنستزيد منه قدر ما نشتهي، وقدر ما نطلب ونسعى ونجتهد بالحب والحق، بانتظار القيامة والتجلي بنور المسيح، حينئذ نأخذ مواضعنا المناسبة لاستنارتنا في المنازل العليا المُعدّة في نور القديسين: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم.» (مت ١٣: ٤٣)

١٤: ٣ «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً».

هنا يلطف المسيح من أثر صدمة الفراق، ويجعلها كأنها ضرورة حتمية، من أجل التلاميذ والعالم، فالمعنى يحمل العودة، والعودة ذات شأن وشئون، من أجل ضمان الخلود، فكأنني بالمسيح يقول لهم: أنتم الآن «غرباء» و«يتامى»، ولا يمكن أن أترككم كذلك، فلا بد أن أمضي لأُعد لكم «موطناً» في «بُنوة» الله، وآتي مرة أخرى، لا من أجل الخطية وغفرانها بعد، بل من أجل ميراث ومجد مُعدّ!! «هكذا المسيح أيضاً بعدما قدّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية، للخلاص للذين ينتظرونه» (عب ٩: ٢٨)، وبأسلوب اللاهوتي: هي فرقة وفتية الآن، لحساب اتحاد أبدّي آت.

«آتي أيضاً»:

يجيء المسيح الثاني أمر، وإن كان قد وقَّعه المسيح مُسبقاً على مستوى الزمن، إلا أنه لا يُستغلَن زمنياً، فلا هو معروف متى سيكون أو كيف سيكون، لأن ظهوره سيكون مقصوداً على ذوي البصائر المفتوحة بالروح فقط: «قال له يسوع: إن كنتُ أشاء أنه يبقى حتى أجيء، فماذا لك؟! اتبعني

أنت.» (يو ٢١: ٢٢)

+ «والآن، أيها الأولاد، اثبتوا فيه، حتى إذا أظهر، يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.»
(١ يو ٢: ٢٨)

+ «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يُظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو.» (١ يو ٣: ٢)

+ «وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر، الذي يَهَبُهُ لي، في ذلك اليوم، الربّ الديّان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذي يحبون ظهوره أيضاً.» (٢ تي ٤: ٨)

+ «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو ٣: ٤)

+ «فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها ننتظر أيضاً مخلصاً هو الرب يسوع المسيح، الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا، ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.» (في ٣: ٢٠ و ٢١)

و«مجيء المسيح»، في لاهوت إنجيل يوحنا، غير محدود، فهو، كما لخصه في المقدمة، في صورته الدائمة والمستمرة على مدى الزمن والأزمان كلها: «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم» (يو ١: ٩)، أي أن المسيح — كنور العالم — هو في حالة مجيء مستمر ومتعدد «آتياً» ἐρχόμενον . فهو آتي، ويأتي، وآت، وسيأتي: «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان، والذي يأتي، القادر على كل شيء» (رؤ ١: ٨)؛ «لأنه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطيء» (عب ١٠: ٣٧)؛ «لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم.» (يو ١٤: ١٨)

وواضح أن مجيء المسيح خبرة إيمانية، فهو حالة استعلان أو ظهور أو حلول الحضرة الإلهية في الحياة الحاضرة كاختبار فرحة الإيمان بحضور المسيح، أو حالة انطلاق الروح بعد الموت واستعلان المسيح المفاجيء للروح وحصولها على حالة غبطة فائقة، أو مع مجيء الروح القدس للتوبيخ والتبكيّ والإندار، وظهور المسيح بمظهر القاضي والديان لرذع النفس، وفتح طريق التوبة أمامها، أو في مجيئه اليومي والأسبوعي في الكنيسة، لقيادة صلواتها ومسيرتها، وتقديس أسرارها، ومنح نفسه لأولادها، أو في مجيئه الأخير لإخضاع كل شيء ولتغيير هيئة العالم، واستعلان سماء جديدة وأرض جديدة. كل هذا واقع في صميم مجيء المسيح كحقيقة أبدية فائقة على الزمان ولكنها مُشعلنة فيه.

«أخُذْكُمْ إِلَيَّ» :

التعبير اليوناني أغنى من العربي، وأكثر عمقاً : παραλήψομαι ὑμᾶς πρὸς ἑμαυτόν : أي «أستقبلكم إلى نفسي»، حيث كلمة πρὸς باليونانية تفيد استمرار الاندفاع نحو الآخر. وكأنما التلاميذ، وهم مدفوعون بالشوق الشديد ومنجذبون بالروح نحو المسيح، من جراء الحب أو العشق الإلهي الذي احترقت به قلوبهم، إذ بالمسيح يستقبلهم و يضمُّهم إلى حضنه فيكمل عجز اندفاعهم نحوه، يجذبهم إلى نفسه حسب شدة قوة حبه الفائقة على حبهم؛ وما نقص من استحقاقهم للقرب منه، يعوّضه باستحقاق برّه القادر أن يوحدهم بنفسه.

وهنا يلزمنا، أيها القارئ العزيز، أن ننوّه بالفارق الكبير بين ما نستمتع به الآن من استعلانات حضرة المسيح التي نلّقم بها في صلواتنا وحبنا وشدة فرحتنا التي تغمر مشاعرنا وكأننا بلغنا المنتهى، وبين ما أعدّه لنا المسيح في ملكوته؛ الأمر الذي لو تأملناه، هانت علينا الآن كل آلام الزمان الحاضر مع أوجاع الجسد وهموم العالم...

«حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً» :

ما دفعه المسيح في تعذيبات الذبح وكل التخريمات التي فُرِضت عليه ودَفَعَهَا راضياً، سيذهب إلى الآب ليأخذ ثمنها بالكامل، كحقوق ثابتة تضاف بكاملها لحسابنا. فالمجد الذي يسترده، يُعطى له مضافاً إليه اتساعات تَسَعُ كل مدعوّيه الذين دعاهم ولَبُوا الدعوة لوليمة مجد سمائي، تهتز لها كل العروش والسيادات. إنها حفلة عرس الخروف والكنيسة، مزينة بكامل زينة المسيح عريسها. وتاج البُنُوّة الإلهية، الذي للمسيح الفريد والوحيد في السلطان والعظمة والرئاسة، يتسع ليشمل رؤوس كل المدعوين، الذين رفعهم من درجات العبيد إلى درجة أصدقاء وأحباء العريس، بصكّ التبنّي المكتوب والمختوم بالدم؛ لأن العريس، وهو ابن الله الوحيد — المونوجانيس — أخذ في تغرُّبه على الأرض جنسية البشر، وبهذا أعطى البشرية حقّ التجنُّس بجنسية العريس، فنالوا استحقاق التواجد الدائم معه، وكأنهم صاروا أهلية له، أو «أهل بيت الله» (أف ٢: ١٩)، أو عروساً مع عريسها في خدر سمائي واحد.

قول المسيح : «حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً»، تعبير لاهوتي يعبر عن كيان غير مفترق، بحسب عمل شدة قوته، وتفاضل غنى نعمته، التي أكمل بها عجز الإنسان في عيني الله، هذا العمل الذي انتهى إلى عمل وحدة غير مفترقة مع المسيح والله (يو ١٧). أما بحسب العيان، فقد رأى ق. يوحنا هذه الكينونة غير المفترقة على صورة راج ورعية : «... هؤلاء هم الذين يتبعون

الخروف حيثما ذهب... لأنهم بلا عيب قدام عرش الله.» (رؤ ١٤ : ٥ و ٤)

وقد عاد المسيح وركز على هذا الوجود أو الكيان المتلازم بينه وبين أحبائه، في صلاته الأخيرة للآب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧ : ٢٤)

لذلك كان مُنتهى شهوة القديسين أن يفلتوا من سطوة الجسد ويكونوا مع المسيح: «فإني محصور من الاثنين، لي اشتهاه أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً، ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم.» (في ١ : ٢٣ و ٢٤)

١٤ : ٤ «وتعلمون حيث أنا أذهب، وتعلمون الطريق.»

المسيح يفترض في تلاميذه، أو هو يدعوهم إلى هذا الافتراض، أنه بحسب كل ما سمعوه منه حتى الآن وكل ما صنعه أمامهم، فهم يعرفون أنه ذاهب إلى الصليب، ومن الصليب إلى أبيه. وبذهابه إلى الصليب بإرادته، وكأنه ذاهب إلى مهمة خاصة وعاجلة، ثم بارتفاعه — عن طريق الموت — إلى الآب كمن يقدم تقريراً عن اكتمال مهمته، يكون قد افتتح طريقاً جديداً من الأرض إلى السماء ومن الإنسان إلى الله، طريقاً صالحاً لعبور كل الذين نالوا العتق من حكم الموت.

ثم جاء سؤال توما وسؤال فيلبس، فاستقبلهما المسيح كما استقبل حديث تلميذي عمواس — فيما بعد — حيث أكمل عجز الفكر البشري وتخلّفه عن متابعة استعلانات الروح من واقع الحوادث.

ألم يقدم لهم، منذ ساعة، جسده المكسور ودمه المسفوك؟ ألم يخرج أمامهم يهوذا بعد أن أخذ شهادة من الرب أنه المعين من قِبَل الشيطان لتسليم الرب للموت؟

١٤ : ٥ «قال له توما: يا سيّد لسنا نعلم أين تذهب، فكيف نقيّد أن نعرف الطريق؟»

ما معنى الذهاب إلى الآب، وما معنى إعداد المكان، وكيفية العودة؟ ما أسرار هذه الرحلة التي لم يسمع بها أحد قط ولا خَطَرَتْ على قلب بشر؟ هل ستأخذه مركبة نارية؟ هل ستقوده ملائكة؟ هل على سلم يعقوب؟ ثم إلى أين، هل إلى حضن إبراهيم؟ أم إلى حضن أعلى؟ وكيف يتبعونه في طريق لا يعرفونه، فكيف يقول لهم: تعرفون الطريق؟ تسرّع على كل حال!!

ثم إن الصعوبة التي قامت في ذهن التلاميذ كانت تدور حول كيف يُنشىء الموت أملاً ورجاءً؟ لأن «القيامة» كانت مخفية عن أذهانهم. والموقف هنا شبيه بموقف مرثا، فهي تعرف أن أخاها سيقوم في اليوم الأخير، ولكن ما علاقة ذلك بالمسيح؟ مما جعل المسيح يعلن نفسه لها أنه هو «القيامة والحياة»، وبرهن لها ذلك بالفعل، إذ أقام أخاها من الموت.

توما هنا يسأل عن معنى الذهاب وكيفية الذهاب وإلى أين يكون الذهاب، فكيف بعد هذا يعرفون الطريق؟ لقد بدا لهم الموضوع على مستوى جسدي، فتحيرت عقولهم كتلميذي عمواس، مما اضطر المسيح أن يقول له، كما قال لمرثا: «أنا هو القيامة والحياة»، ولكن بصورة أخرى: «أنا هو الطريق والحق والحياة». مرثا لم تفهم علاقة القيامة بالمسيح، وتوما لم يفهم علاقة «الطريق» بالمسيح. الموت وقف ليست كل منافذ التفكير والأمل عند مرثا، وكذلك أيضاً عند توما. ولكن عند توما، كانت العقبة هي في «حقيقة» الموت كطريق حياة، هذا كان أمراً صعباً «كحقيقة».

فالمسيح فسر كل هذه الخفيات واستعلنها «في نفسه» أنه هو الطريق، وهو الحقيقة التي تعلن الطريق وتقود إليه، وهو الحياة كنهاية وغاية. وبمعنى مختصر ولكن يفوق التصور الجسدي ولا يمكن أن يمسكه العقل، أن الذي يمسك بالمسيح يكون قد عبر الطريق دون أن يجوزه، وعبر الموت دون أن يعبر رُعبه، ويكون قد قام دون أن يموت، بل يكون قد بلغ موضعه في السماء واستقر دون أن يغادر الأرض، أو يكون قد غادرها، سيّان. ألم يقل المسيح مرة أنه هو ابن الإنسان الذي على الأرض الذي هو في السماء؟ (راجع يوحنا ١٣: ١٣)، وكأنه هنا وهناك بآن واحد، ونزل وصعد دون أن يغادر لا هنا ولا هناك، وأنه وهو معنا لم يغادر حضن الآب، وألم يقل لهم في بكور أيام تلمذتهم أنهم من الآن... «يروون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يوحنا ١: ٥١)؟ فليمن كانت الملائكة تصعد بهذه السهولة؟ إلا للإنسان، لتمهد له الصعود؟ ولمن كانت تنزل؟ إلا لنا، لكي تمسك بأيدينا لنصعد بسهولة، فكيف لا يصعد الإنسان؟ والسلم قد أقامه لنا من جسده الذي ثبت به الأرض بالسماء، وأطعمهم به علناً ليثبت فيهم إلى الأبد ويثبتون فيه، فلا يحتاجون إلى من يُعرفهم الطريق بعد، إذ هو قائم في داخلهم، وسقاهم دمه ليسكن فيهم روحه الأزلي، ليصيروا من الروحيين إلى الأبد، إذا نفصوا غُربتهم عن الأرض والأرضيين.

ألم يظهر الله في الجسد، فصار معنا، لكي بالجسد نصير في الروح ونظهر معه؟ ألم يلتصق ببشريتنا، فصار واحداً منا، لنتصق بروحه، فنصير فيه واحداً مع أبيه؟ «وأما من التصق بالرب فهو روح واحد» (١ كورنثوس ٦: ١٧)، ألم يتغرب عندنا قليلاً ليفك أسر غربتنا، ويأخذنا لنستوطن

عنده إلى الأبد؟ ألم يأخذ من الآب كل شيء: «وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه...» (يو ١٣: ٣)، ليعطيه لنا، ليمكّننا من العودة معه إلى الآب، لنرث كل شيء: «وأنه من عند الله خرج (إلينا)، وإلى الله يمضي (ونحن معه)»؟ (يو ١٣: ٣)

١٤: ٦ «قال له يسوع: أنا هو الطريقُ والحقُ والحياةُ، ليسَ أحدٌ يأتي إلى الآبِ إلّا بي».

ثم ما هو الطريق؟ نحن قلنا، كما قالت الرسالة إلى العبرانيين، أن: «... لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس، بدم يسوع طريقاً كرّسه لنا حديثاً، حياةً، بالحجاب أي جسده» (عب ١٠: ١٩ و ٢٠). ولكن أيضاً ما هو الطريق؟

لو علمنا أن جوهر رسالة المسيح تقوم على فعلين أساسيين أكملهما المسيح:
الفعل الأول: هو استعلان الآب السماوي. فالمسيح، وهو الابن المتجسد، استطاع بصفته هذه، أي من خلال بنوته المطيعة المُجِبّة للآب، أن يعلن لنا الآب — والأفضل أن نقول يَسْتَعْلِن لنا الآب — لأن الإعلان يختص بالمعرفة عن شيء مُدْرَك، أما الاستعلان فهو معرفة الخفيات وما لا يُدْرَك. فالمسيح استطاع بتعليمه وبروحه الأزلي وطاعته المطلقة للآب، أن يستعلن لنا الآب غير المُدْرَك ولا المعروف، وذلك من خلال تكميل مشيئته والعمل بوصاياه: «أنا قد حفظت وصايا أبي» (يو ١٥: ١٠). «الله لم يَرَهُ أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر.» (يو ١: ١٨)

هذا هو الفعل الأول والهام جداً الذي قام به المسيح، وهو استعلان الآب للعالم.

أما الفعل الثاني: فهو أنه، وهو حامل لجسد البشرية، استطاع كابن الصعود به إلى الآب من حيث جاء، وذلك من خلال قوة قيامته، وبواسطة روح الحياة الأبدية التي فيه: «... أنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي.» (يو ١٣: ٣)

بهذين الفعلين: أي باستعلان الآب للعالم، وبرفع البشرية التي فيه إلى الآب السماوي، يكون المسيح هو الطريق الوحيد الموصّل إلى الآب، باستعلان شخص الآب في نفسه، وبالوصول إلى الآب، وهو حامل لجسم بشرتنا. وبذلك يكون المسيح حقاً وبالفعل الطريق الوحيد إلى الآب، ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلّا به.

أما فيما يخص الردّ على سؤال توما، فقد أصبح على توما أن يفهم من كلام المسيح أن المسيح

ذاهب إلى الآب، ردًا على قوله: «لسنا نعرف أين تذهب»؛ وأن المسيح، بموته عنا وقيامته بنا وصعودنا معه إلى الآب، يكون هو الطريق الوحيد المؤدي بنا إلى الآب، ردًا على قوله: «فكيف نعرف الطريق؟»

والمسيح بقوله المختصر والمركّز والمشدّد: «أنا هو الطريق» — $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \eta\ \delta\delta\acute{o}\varsigma$ — حيث التشديد يأتي مُركّزاً في «أنا» (أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$)، وحيث «أنا» ككيان حي إلهي — أنا وليس أي كيان أو شيء آخر — حيث تأتي «أنا» لتجيب على كل ما هو مطلوب للمعرفة، وكل ما هو «كيف»، وبأي «قوة»، وبأي «استحقاق»، وبأي «عمل». فتكون المسألة لا تعود تحتل سؤالاً واستفساراً عن الذهاب وعن الطريق، يكفي الإنسان أن يمسك بالمسيح ليصل إلى الآب: «لأن به لنا كلينا قدوماً، في روح واحد، إلى الآب» (أف ٢: ١٨)، لأنه هو الطريق بكل مستلزماته، من معرفة كل الحقائق عنه، ومن الحصول على جوهر الحياة اللائقة به.

وبقول الرب هذا، يكون المسيح قد قطع خط الرجعة على أي ادّعاء بأي وساطة أخرى، لأي علم أو معرفة أو روح، ليشارك من قريب أو بعيد في الوصول إلى الله. فهو طريق الخلاص الوحيد الموصل للآب، كما رأيناه سابقاً في (١٠: ٩) أنه هو الباب الوحيد أيضاً.

«أنا هو... الحق والحياة»:

المسيح لا يعلم الحق عن الله، بل هو الحق الإلهي، هو الله الابن، وهو استعلان «الآب» في ذاته مباشرة وبلا أي وسيط آخر. فهو «الحق» وهو الوحيد الذي يشهد للحق: «لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أُتيتُ إلى العالم، لأشهد للحق». (يو ١٨: ٣٧)

أي أن الذي يدرك المسيح، يدرك الله الآب. فالمسيح هو استعلان للآب، يستعلنه في ذاته من خلال «الكلمة والعمل».

كذلك «الحياة»، فالمسيح لا يمنع حياة غير حياته، وحياته هي ذاته: «فيه كانت الحياة» (يو ١: ٤)؛ «فمَنْ يأكلني، فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧). وحياته هي الحياة الأبدية، وهي حياة الآب، وهي رسالته: «أُتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو ١٠: ١٠)، وكلماته هي روح وحياة (٦: ٦٣)، والذي يسمع كلام المسيح يحيا ولو كان ميتاً (٥: ٢٤)، «ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه». (٢٠: ٣١)

كثير من الشراح لم ينتبهوا إلى أن المسيح يركّز على الفصل بين الطريق، والحق، والحياة، فهو

كل واحد من هذه؛ فهو الطريق، وهو الحق، وهو الحياة. الطريق يؤدي إلى الآب، والحق هو استعلان الآب، والحياة هي في ذاته وفي الآب.

لذلك لا يستقيم القول بأن الطريق يؤدي إلى الحق والحق يؤدي إلى الحياة، هذا خلط بين النظريات الفكرية والواقع الإلهي القائم بالكيان الذاتي في المسيح. فالمسيح، بالكيان الذاتي، هو الطريق الموصل إلى الآب، وبالكيان الذاتي يستعلن الحق، وهو الآب فيه، وبالكيان الذاتي هو الحياة، فيه وفي الآب. فالمجال هنا لا يتسع لنظريات يصطنعها الفكر البشري، لتولّف بين الطريق والحق والحياة وكأنها مواضيع، هذا خروج عن المعنى اللاهوتي الصحيح، فهي «ذات» وليست موضوعاً.

كذلك يقول أحد العلماء الكبار، وهوتوما الأكويني، في نظريته التي وضعها في القرون الوسطى بأن المسيح هو طريقٌ بحسب بشريته، ولكنه هو الحق والحياة بلاهوته. هذا تمزيق للمسيح لا يقبله الفكر اللاهوتي الصحيح. فبشرية المسيح لا وجود لها بدون لاهوته، ولا عمل لها خارج عمل لاهوته. وجسد المسيح صار طريقاً حديثاً إلى الأقداس العليا بلاهوته لأنه «جسد الكلمة»، و«الكلمة المتجسد» قام بقوة الحياة الإلهية التي فيه، وصعد كجسد مجد الابن الوحيد. ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه وهو يقول: «أنا هو» *ἐγώ εἰμι* «الطريق»، فهو يعبر عن كيانه الذاتي الإلهي الكلي وليس عن «جزء» منه أي جسده؟؟ وللاسف قد جرى مجرى هذا العالم الكبير كثير من العلماء المحدثين بلا وعي^(١).

كذلك أيضاً يرى بعض علماء اللاهوت الغربيين^(٢) أن «الطريق» هو الأساس و يأتي بعد ذلك «الحق» و «الحياة»؛ بمعنى أن المسيح هو الطريق وأن الحق والحياة هما مجرد شرح للطريق، وهذا خلط لا ينبغي أن يكون. والخطأ واضح هنا، لأن المسيح اتخذ كلاً من الطريق والحق والحياة معياراً لاهوتياً قائماً بذاته، وكلاً بمفرده جعله هويته، أي منسوباً لذاته وكأنه هو، بمعنى: أنا هو الطريق، أنا هو الحق، أنا هو الحياة! فالطريق والحق والحياة لم تعد صفات في ذاتها يمكن التمايز والتواصل بينها، بل صفات لذاته. وذاته يستحيل التمايز فيها ما هو أول وثان وثالث. هذه الصفات التي اتخذها هويّة ذاتية له، طرحها أقام تلاميذه لتكون ملكاً لهم بالإيمان به، فيعرفون الطريق به، ويعرفون الحق فيه، ويعرفون الحياة معه؛ والمعرفة في الإلهيات خبرة وممارسة وشركة. وهكذا يطرح المسيح أمامهم معرفته، لتكون لهم منهجاً كاملاً للحياة الأبدية مع الله.

^١ Brown, *op. cit.*, pp. 619-622.

^٢ Ibid.

لذلك سنسمعه يوضح هذا، بكل بيان، بقوله: «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رأيته فقد رأي الآب». كلام الرب هنا يؤكد للقارىء أن المسيح يركز على نفسه، أي على ذاته هو، «أنا هو *ἐγώ εἰμι*»، فلا طريق خارج عنه، ولا حق بدونه، ولا حياة إلا فيه، ولا آب إلا بواسطته وفيه.

كذلك، لا ينبغي أن تغيب عنا البداية التي بدأ بها الحديث: «لا تضرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي». فالرب وجد التلاميذ في حالة انزعاج لأنهم شعروا أنهم على وشك أن يفقدوا المسيح، وأنهم بذلك سيصيرون يتامى، فاختلفت موازين إيمانهم، وضاعت من أمامهم علامات الطريق. وأصبح على الرب أن يشبثهم في قاعدة إيمانهم بالله، ويقدم لهم نفسه — أي ذاته — كحقيقة دائمة حية، كغاية لكل شيء، فهو باقٍ لهم، وإن ذهب إلى الآب فسيأتي، وفي ذهابه وبعثه يكون قد عبّد الطريق لهم في ذاته، وأنه هو باقٍ لهم بذاته وبجسده ودمه، مصدر الحق لاستعلان كل حقائق الله في ذاته، وهو أيضاً باقٍ لهم ينبوع الحياة الأبدية التي تسري لهم من ذاته فلا يخافوا من الموت.

«ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي»:

الآن قد استعلن لهم أن الله هو آب وابن معاً، فأصبح من البين والواضح أن القصد الأساسي للاستعلان الذي جاء في ملء الزمان، بواسطة تجسد الابن وظهوره، هو وصول الله للإنسان، ثم وصول الإنسان إلى الآب. هذا أكمله الابن بتجسده أولاً، ثم بموته وقيامته وصعوده إلى السماء وجلسه عن يمين الآب. فهي عملية أكملها الابن في ذاته حسب مشورة الآب، ليصالح العالم لنفسه بواسطة المسيح، فأصبح الوصول إلى الآب في المسيح وبواسطته حقيقة إلهية وبشرية بأن واحد، يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح الدخول إلى الآب هو من داخل الحياة الأبدية التي في المسيح والتي يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح واضحاً أنه من المستحيل الوصول إلى الله بدون المسيح، لأن الله «آب وابن»، إذن: «كل من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً» (١ يوحنا ٢: ٢٣)، حتماً وبالضرورة، لأن الآب لا يوجد ولا يُرى إلا بالابن وفيه.

وهكذا يقرر المسيح أن: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي». وواضح أن الطريق الذي اتخذه الله بواسطة المسيح، ليبلغ به الإنسان إلى الحقيقة الإلهية والحياة الأبدية معه كان: أولاً: نزل باللاهوت إلى الطبيعة البشرية في ذاته بسر إلهي لا يُنطق به. ثانياً: استعلن هذا السر منظوراً ومحسوساً ومدركاً في ذاته بالقول والعمل، ليوصله إلى كل إنسان «كحق».

ثالثاً: ثم سكب حياته بموته، ليمنحها لكل مَنْ يتقبلها بالسرو وبالروح القدس، ليحيا في الله إلى الأبد.

هذه الثلاث الخطوات يقدمها المسيح لتلاميذه وللعالم في ثلاث عمليات أو ثلاثة أعمال روحية:

أولاً: الإيمان بابن الله آتياً إلى العالم بالجسد.

ثانياً: قبول حقيقة استعلان سر الله الآب في المسيح.

ثالثاً: قبول حياة المسيح المنسكبة بالموت والمُستعلنة بالقيامة والممنوحة بالروح القدس في السر.

هذه الثلاثة الأعمال الروحية هي المعبر عنها: «أنا هو الطريق والحق والحياة»، والمشروحة باختصار في قوله: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي».

٧: ١٤ «لو كنتم قد عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمَنِ الْآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ».

مراجعة وعتاب لا بد منهما. كم سنة وأنا معكم أعلن لكم نفسي «أنا هو» وأستعلن في ذلك أبي أيضاً؟ كم من الإعلانات قدّمْتُها لكم عن مَنْ هو أنا ومن هو أبي؟ ثم كَمْ من الآيات والمعجزات الكاشفة، الواحدة تلو الأخرى والواحدة أوضح من الأخرى، لتدركوا رسالتي وتدركوا مَنْ أُرسلني؟ والآن تسألونني عن أين أنا ذاهب؟ وتسألونني عن الطريق التي تذهبون أنتم فيها ورائي؟

لقد لَخَّصَ ق. يوحنا في مقدمة إنجيله رسالة الابن الكلمة المتجسد في آية واحدة: «الله لم يَرَهُ أَحَدٌ قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خَبْرٌ» (يو: ١٨). لقد استعلن الابن ظاهراً في الجسد، ليعلن الآب غير المرئي، ليكون منظوراً فيه؛ وهذا ما أوضحه سفر العبرانيين بقوله: «الله ... كلّمنا... في ابنه... الذي به أيضاً عمِلَ العَالَمِينَ، الذي، وهو بهاء مجده ورسم جوهرة وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً (*ἐγὼ εἶμι*) أفضل منهم» (عب: ١ : ١-٤). «الذي رأي فقد رأى الآب» (١٤ : ٩)، لأن الابن والآب واحد، فإن نُظِرَ الواحد (بالروح) نُظِرَ الآخر، وإن عُرفَ الواحد (بالروح) عُرفَ الآخر. الابن والآب ذات واحدة، إن قال الابن: «أنا هو الكائن بذاتي *ἐγὼ εἶμι*»، كان الآب هو المتكلم بفم الابن — لأن هذا هو اسم الآب —

وكان الابن متكلماً باسم الآب. إن صنع الابن آية، فهي مشيئة الآب مُقَلَّنة. وإن أجرى الابن قوات، فهي قوة الآب مُقَلَّنة. وإن رأيتُموني مصلوباً، فهذه وصية الآب مُطاعة، وإن رأيتُموني أسلم الروح، ففي يد الآب أستودعها، ومن يده آخذها. وموتي هو موتكم، أموته لأجلكم لأحييكم بقيامتي. حياتي هي بالآب، وفي الآب قائمة، حياتي أعطيتكم، فأعطيتكم الآب الذي فيّ، أنا أظهرتُ ثبوتي في الآب بتكميل وصيته حتى الموت، فإن ثبُتُ في وصيتي حتى الموت ثبتم فيّ، وثبُتُ في أبي أيضاً. لقد عرَّفْتُكم نفسي بحياتي، وعرَّفْتُكم حياتي بموتي، وعرَّفْتُكم أبي الذي يعمل فيّ.

«ومن الآن تعرفونه وقد رأيتُموه»:

«من الآن»، هنا، تعني «من هذه الساعة»، ساعة المحنة العظمى التي تكمل فيها كل مشيئة الآب وكل طاعة الابن، فتستعلن رسالة الحب الأبوي في قمة بذلها، ورسالة حب الابن في قمة طاعتها وسحقها. والرائي يرى الآب من خلال تكميل عمل حبه الفائق في ابنه من نحونا، سواء بالصليب أو بالقيامة: «لا أزال شاكراً لأجلكم، ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا (لتروا) ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحننا، نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات.» (أف ١ : ١٦-٢٠)

وليلاحظ القارئ أن كلمة «تعرفونه» هنا: «من الآن تعرفونه» تأتي في زمن المضارع القابل للاستمرار، كما يوحي اللفظ اليوناني γινώσκετε، أي من ساعة الآلام هذه التي تبلغ شدتها بالموت، وقمَّتْها بالقيامة، واستعلان كل ذلك يوم الخمسين. ولكن الآلام عند المسيح، وفي إنجيل ق. يوحنا، هي هي المجد بعينه، والمجد في قمة استعلانها، حيث تُرى المحبة متجليةً بدمها، ومرة الآب تحيطها من كل جانب: «أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم» (إش ٥٣ : ١٠)، «الآن، تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه.» (يو ١٣ : ٣١)

إن أعظم استعلان للآب حَقُّه المسيح، هو بتكميل مشيئته في قبوله للموت، إذ من هذا المنطلق تفجَّرت «الحياة الأبدية» من دمه المسفوك، والتي فيها استعلن الآب: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدُّك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... أنا أظهرتُ اسمك للناس

... وعرفتهم اسمك وسأعرفهم، ليكون فيهم "الحب" الذي أحببتي به، وأكون أنا فيهم. «
(يو ١٧)

فالآب غير مُدْرِك ولا منظور، استطاع الابن أن يعلنه في نفسه ويعرف العالم به قولاً وعملاً، إنما فقط للذين آمنوا وقبلوا الابن. لأن الآب لا يُدْرِك ولا يُرى قط إلا في الابن (أي في البُتُوَّة التي له): «ليس أحد يعرف من هو الابن، إلا الآب ولا من هو الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له.» (لو ١٠: ٢٢)

وفي لحظات تجلي الابن، التي انفعل لها التلاميذ مراراً وتكراراً وصرخوا وشهدوا أنه هو ابن الله الحي، لفت المسيح نظرهم: «إن لحمًا ودمًا لم يُعلن لك، لكن أبي الذي في السموات.» (مت ١٦: ١٧)

أي أن بتجلي الابن، كان الآب يتجلى للتلاميذ من خلال الرؤية الإيمانية الروحية: «الذي رأيته فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). على أن معرفة الآب لم تكتمل للتلاميذ إلا بعد الصمود وحلول الروح القدس، الذي استعلن لهم سر الابن والآب، استعلاناً هو الرؤيا بعينها. لذلك نسمع ق. يوحنا يفتخر بمعرفة الآب التي سلمها للأبناء: «أكتب إليكم، أيها الأحداث، لأنكم قد غلبتم الشرير، أكتب إليكم أيها الأولاد لأنكم قد عرفتم الآب» (١ يو ٢: ١٣)، حيث تقع معرفة الآب عملياً عند ق. يوحنا على التوازي مع غلبة الشرير، واضعاً أمام أولاده بعد ذلك المضادة العظمى بين محبة العالم ومحبة الآب: «إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب» (١ يو ٢: ١٥)؛ بمعنى أن معرفة الآب، يكون صدق وجودها من واقع فعلها المنحصر في بُغْضَة شهوة الأشياء الزائلة التي في هذا العالم. والقديس بولس الرسول يعطي نفسه نموذجاً: «... قد صُلبَ العالم لي، وأنا للعالم.» (غل ٦: ١٤)

ويا قارئي العزيز، إن الذي يذوق صليب المسيح من داخل بُغْضَة واضطهاد العالم له، وبُغْضَتِهِ هو للعالم واحتقاره لأباطيله، يدرك عملياً معنى معرفة الآب بل وتُسْتَعْلَن له، بل وتنسكب فيه محبته.

لذلك، فقول المسيح: «ومن الآن تعرفونه»، أي من ساعة الصليب، قول صادق يحمل سر نصرته المسيح في معركته مع العالم: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء.»؛ «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو ١٤: ٣٠؛ ١٦: ٣٣)، لأنه حينما اكتملت وصية الآب بالموت، وَجَبَ

استعلان شخصه !

كذلك يلزم، للغاية، أن ندرك كم كانت «معرفة الآب» رسالة هامة جداً عند المسيح، بل وكأعز ما جاء ليعلنه ويُسلّمه للتلاميذ، وبالتالي للعالم كله، وعلينا أن نتمعن في قوله عن ذلك :
 — «وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح، وقال : أحمّدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه (معرفة الآب) عن الحكماء والفُهَمَاء وأَعْلَنْتَهَا للأطفال . نعم، أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك . والتفت إلى تلاميذه وقال : كلُّ شيء قد دُفِعَ إليّ من أبي، وليس أحدٌ يعرف من هو الابن إلاّ الآب، ولا من هو الآب إلاّ الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له، والتفت إلى تلاميذه على انفراد، وقال : طوبى للعبون التي تنظر ما تنظرونه (شخص الآب في صورة المسيح)، لأنني أقول لكم إن أنبياء كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون (الله)، ولم ينظروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون (صوت الآب)، ولم يسمعوا.» (لوقا ١٠ : ٢١-٢٤)

ولم يدرك التلاميذ معنى هذه الطوبى وقيمتها العظمى، إلاّ بعد أن حلّ عليهم الروح القدس وعرفهم سر الآب في الابن : «وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١ يوحنا ٣ : ١٠)

على أنه يتبقى أمامنا استجلاءً إضافيٍّ لمعنى «ومن الآن تعرفونه، وقد رأيتموه»، فإن كنا قد رأينا أن الذي استطاع أن يؤمن حقاً بالمسيح ويحبه في ذاته، يكون قد رأى فعلاً الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور : «الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣ : ١٦)؛ كذلك، والعكس أيضاً صحيح، فإن كلّ مَنْ بلغ الإيمان الحقيقي بالله وأحبه من كل قلبه بإخلاص العبادة والتقوى، فإنه حتماً سيكشف له الآب عن المسيح أنه هو صورته الخاصة ورسم جوهره.

لذلك، فالذين رفضوا المسيح يكونون قد برهنوا عملياً أن ليس لهم إيمان حقيقي كامل بالله، ولا محبة صادقة أو تقوى مخلصية، وإلاّ كيف يرفضون وينبذون صورة مَنْ أحبه وآمنوا به ؟

أما التلاميذ فيقول لهم الرب : «من الآن»، أي من خلال الصليب والقيامة، سيبلغون حتماً إلى الإيمان الصحيح بالمسيح أنه فعلاً ابن الله، وبالتالي سيستعلن لهم الآب في المسيح على أساس إيمانهم الصادق بالله، لهذا بدأ المسيح قوله بهذه الحقيقة : «أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي.»

وفي موضع قادم سينمعي المسيح إيمان اليهود الكاذب بالله، مؤكداً أنه بسبب عدم إيمانهم الحقيقي أو الصادق بالله أخطأوا معرفة المسيح، وعثروا فيه، وأبغضوه: «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً ... وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو ١٥ : ٢٣-٢٥)

كما أنه في موضع سابق أراد المسيح أن يؤكد لسامعيه، أنه جاء حاملاً كل ملامح مَنْ أرسله قولاً وعملاً، واسماً وروحاً، ومشيةً وحُباً، لذلك فإنه يصبح من تحصيل الحاصل أن الذي يراه يكون قد رأى مَنْ أرسله بالفعل وبالصدق: «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني. والذي يراني، يرى الذي أرسلني» (يو ١٢ : ٤٤-٤٥). وهكذا يتضح أمامنا الآن، بكل جلاء، قوله عن الآب: «من الآن تعرفونه، وقد رأيتموه».

١٤ : ٨ «قال له فيلبس: يا سيّد أرنا الآب وكفّانا».

سؤال حَسِّي، يخرج بالذهن، أو ينم عن ذهن، خارج دائرة اللاهوت كلية، فيلبس يريد أن يرى بعينه اللامحدود والمطلق، كطفلٍ يحاول أن يقيس الأوقيانوس^(٦) بمسطرة، أو يجمع الرياح في كفه. لقد تهيأ له أنه كما يرى المسيح بالعين وهو الابن، إذن فالآب قد يُرى على هذا القياس، غير مُدرك أن تجسّد الابن هو الذي وقر للعين أن تراه جسدياً فقط، ورؤية العين لا توفر رؤيا اللاهوت قط. وهذا يعني أن فيلبس لم يرَ المسيح قط، ولم يعرفه بعد.

فإنه لم يره أحد قط (يو ١٨ : ١٨). وإن كان الله قد ظهر في الجسد، فهو ظهور بيسر الإيمان وليس بالعيان؛ أما الجسد فوعاء حل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو ١٦ : ١٦). الجسد يُرى ويُسمع ويُلمس بالحواس، واللاهوت فيه لا يُرى ولا يُحس إلا بالروح. فالله أخذ جسد إنسان ليتكلم مع الإنسان بالكلمة، والكلمة هي أيضاً منطوقة جسدياً، فالجسد للكلمة وعاء، ومن داخل وعاء الصوت المسموع والمحدود يسكن اللاهوت بكل ملئه الفعّال، وهو الذي لا تَسَعُ السموات والأرض.

فإذا أخذت كلمة المسيح جسدياً، فلن تُسمع إلا مجرد صوت إنسان نعرف أباه وأمه (يو ٤٢ : ٦)، وإخوته وأخوانه أليسوا جميعاً عندنا (مت ١٣ : ٥٥ و٥٦)؟ ... ولكن إذا سكنت «الكلمة» قلب الإنسان بغنى اللاهوت الذي فيها، احتضن الإنسان الله وأدرك أبعاده التي لا

(٦) الأوقيانوس كلمة يونانية الأصل Ὠκεανός تعني المحيط أي البحر العظيم.

تُدرك ولا تُحدِّد: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا كلمتي τὸν λόγον τὸν ἐμὸν (أي اللوغس)» (يو ٨: ٤٣). هنا سَمِعَ الكلمة، هو تقبُّل حقيقة المسيح، بمعنى انفتاح الوعي المسيحي لتقبُّل الله: «وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله.» (أف ٣: ١٩)

الله لاهوت، لاهوت خالص، ليس له جسد ولا وعاء يظهر فيه أو يتكلم منه. ولكن من أجل هذا، تجسد الابن، فصار وعاءه يتكلم فيه الله الآب ويعمل. جسد الابن يُظهر الابن للعين جسداً فقط؛ ولكن إذا تكلم الابن أو عمل، يظهر فيه الله الآب غير المنظور المتكلم والعامل في الابن وبه.

فيلبُّس أخفق تماماً أن يرى الآب المتكلم والعامل بالابن وفيه، هذه السنين كلها!! وبكل صراحة، فإن فيلبُّس لم يَرِ اللاهوت في الابن، وإلاً لكان رأى الآب حتماً؛ لهذا فإن سؤال فيلبُّس أحزن قلب المسيح، وجعله ينظر إلى تعب السنين هذه وكأنها بلا فائدة...

٩: ١٤ «قال له يسوع: أنا معكم زمناً هذه مدته، ولم تعرفني يا فيلبُّس. الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أننا الآب».

المسيح يندهش كيف أنه لم يُستغلَّن بعد كما ينبغي عند التلاميذ، حتى يتعرف عليه فيلبُّس؟ حيث يجيء التركيز على «أنا معكم»، ولم يقل المسيح «أنت معي». فالملامة التي يطرحها المسيح يطرحها على أساس احتجاب لاهوته عن فيلبُّس والبقية دون سبب، فلا هو يوم واحد قضاء مُتكلماً أو عاملاً أفعالاً لم يعملها أحد غيره قط، ولا هو شهر ولا سنة، بل ثلاث سنوات ويزيد وعن قرب شديد، وهو يُستغلَّن الآب الذي فيه بالكلمة والعمل! ولكن إخفاق فيلبُّس في إدراك لاهوت المسيح، وهو التعرف الصحيح على المسيح: «لم تعرفني»، لم يكن نتيجة تقصير في اجتهاد فيلبُّس. فالاستعلان لا يأتي كثمرة للاجتهاد بل لانفتاح الذهن الروحي، الأمر الذي يتوقف أساساً على مقدار عدم ارتباط الروح بالماديات وعلى الاستعداد لفقدان الصلة بالعالم.

فحينما يتحرر الإنسان من جذب العالم، ويتحرر من الجسد والخوف من الموت، يبدأ يُستغلَّن ما وراء العالم وما وراء الموت. وهذا الأمر قد أثبتته الأيام، بل الساعات القليلة القادمة، أن فيلبُّس كان مربوطاً فعلاً بالعالم ولا يزال، بل لا يزال أيضاً يخاف من الموت، فقد ترك معلمه وهرب مع البقية ساعة المحنة، خوفاً من القبض عليه والمحاكمة والعقاب: «هوذا تأتي ساعة، وقد

أنت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي...» (يو ١٦: ٣٢). فكيف يستقيم مثل هذا السلوك مع ذهن يفترض أنه قد استعلن لاهوت المسيح، وتعرف على حقيقة المسيح، كابن الله وكحامل للآب في كيانه؟

لذلك صح أن تحيي مراجعة المسيح لفيلبس على أساس طول الزمان الذي توفر لفيلبس، لكي يقرر ويُنفذ فكُّ رُبطهِ من العالم والجسد والخوف، كاستجابة لوعظ المسيح وإرشاده وإعلانه واستعلانه، حتى يتسنى له الدخول في مجال الروح والإلهيات، فيدرك حقيقة المسيح، وتنفك من أمام ذهنه رموز استعلان الآب في المسيح، وهو ما كان شُغلَ المسيح الشاغل.

يستحيل لأي إنسان أن يتعرف على المسيح كإله — ومعرفة الإلهيات أخذ واشتراك، أو يُستعلن له لاهوته ووحدته مع الآب — والاستعلان بصيرة من الله، والإنسان لا يزال منجذباً نحو محبة العالم، لأن: «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤: ٤)، أي بُغْذ ورفض.

«الذي رأي، فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أننا الآب»:

هنا حقيقة صارخة مفضوحة، وهي أن فيلبس لم يَرَ المسيح بعد. هنا عتاب آخر لا يخلو من الملامة، وهولفت نظر حزين إلى حقيقة مقطوع بها ما كان ينبغي أن تفوت على فيلبس وهي: أن الآب منظور في الابن بالنظرة الروحية العميقة. فحياة المسيح كلها استعلان للآب فيه، فإن كان فيلبس يطلب رؤية الآب، فعليه أن يُعيد النظر في رؤية المسيح، لأن كل رسالة المسيح قولاً وعملاً، هي لاستعلان الآب الذي فيه.

١٤: ١٠ «ألسنت تؤمن أنني في الآب، والآب فيّ، الكلام الذي أكلّمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال».

هنا دعنا نترك موضوع الرؤيا جانباً، ونعود إلى الإيمان من حيث كونه حقائق الله في الحياة مع الإنسان، والتي أعلنها المسيح مراراً وتكراراً، وهي أن المسيح، كابن، كيانه هو في كيان الآب، ويظل قائماً فيه، وغير منفصل عنه، لأنهما كيان واحد، ذات واحدة: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). أما الجسد الذي أخذه الابن لذاته ووحدته بلاهوته، فقد دخل في هذا الكيان دخولاً أبدياً متميزاً، كإنسان في ابن الله، فشملته وحدة الابن بالآب بالضرورة. وهكذا صار المسيح بآن واحد يُعبّر عنه بـ «ابن الإنسان — الذي هو على الأرض — الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣)، بل وإنه، وهو متجسد، بقي كما كان في حضن الآب، كأعظم تعبير عاطفي عن الكيان المتحد، أو

وحدة الكيان للمسيح في الآب والآب في المسيح : «الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبّر.» (يو: ١٨)

هنا يلزم العقل البشري أن يرتفع فوق القصور المادي للأمر، لأننا الآن نتكلم عن طبيعة الله التي ليست من طبيعة الماديات، ولكننا مُرْعَمُونَ، أو بالأصح، مُصرِّح لنا أن نتكلم كبشر عما هو للمسيح بسبب الجسد الذي أخذه منا وكيف وُحده بذاته الإلهية.

أما في الماديات، فلا يوجد قط هذا التصوّر الذي نتصور به تساوي شيئين أو شخصين تساوياً مطلقاً أي تساوياً كلياً، لأن المطلقات أو الكليات هي صفة ما فوق الطبيعة، وبالتحديد هي صفة الله. فالله مدرك كامل يدرك، ولكن لا يدرك كماله.

والحقيقة العظمى المطروحة للإدراك بالنسبة للإنسان، هي **الابْتَوَة والبُتَوَة في الله** (٧): «الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو: ١٢: ٤٥)؛ وصفه الابن صفة مطلقة وكلية في الله، لأنها من صميم جوهره وطبيعته، والآب كذلك صفة مطلقة وكلية في ذات الله. لذلك، فسهولة غاية السهولة، نقول إنهما واحد، لأن جوهرهما واحد وذاتهما واحدة، أي متحدان كُليّة الاتحاد على وجه الإطلاق الإلهي، فهما واحد. هذا سهل الإدراك فيما نحن نتكلم عن الله، ولكن تصوّره مادياً يكون عسيراً غاية العسر، بل تعترضه الاستحالة، لأنه لا يوجد في الخليقة كلها أو في المخلوقات عامة ما يناظر هذا التساوي. لأن جوهر المخلوقات، عموماً وبلا استثناء قط، مُرَكَّب، أما جوهر الله فبسيط لا ينقسم قط، وذات الله كاملة أزلية.

لذلك لا يلجأ المسيح في شرح وحدته مع الآب إلى التشبيه، ولا إلى أسلوب التعليم، ولا يستحثّ الفهم البشري ليدرك هذه الحقيقة الإلهية، ولكنه يلجأ إلى الإيمان، وهو التصديق على حقائق ليست أصلاً من اختصاص العقل وليست من اختصاص طبيعة الإنسان، ولكن مجرد التصديق عليها يرفع مخصّصات الذهن فوق طبيعته ليدخل بالروح أو بالنعمة الموهوبة إليه والمُضافة عليه إلى مجال الإلهيات ليتقبّل معرفة حقائق الله. وتقبّل حقائق الله والتصديق عليها، وهو المعبر عنه بالإيمان، يعطي الإنسان شركة فيها. لأن إدراك الله بالتصديق والإيمان لا يمكن فصله عن طبيعة الله، حتى يصبح معلومة قائمة بذاتها؛ هذا مستحيل.

فمعرفة الله بالإيمان هي دخول إلى الله مُصرِّح به، والدخول في طبيعة الله هو أخذُ وشركة

وامتلاك، وهذه هي نعمة الله في عطاء ذاته المجاني. هذا العمق، أدركه الآباء العظماء اللاهوتيون الأوائل، فقالوا باختصار إن اللاهوتي هو من دَخَلَ إلى الله وخرج وخبر.

والمسيح، بقوله لفيلبس: «أأنت تؤمن أنني أنا في الآب والآب في؟»، وهو سؤال يستنكر النفسي، يستحشّه أن يخرج من دائرة الجهالة ليدخل إلى دائرة معرفة طبيعة الله، يدخلها بسهولة الإيمان، بتصديق كلمة الله. المسيح يأخذ بيد فيلبس، أو بالأصح، يأخذ بيد عقله ليدخل إلى دائرة ما فوق العقل ليتقبل بالإيمان، ليس مجرد معرفة حقيقة الابن في الآب والآب في الابن، بل يتقبل معرفة أخذ واستيعاب ليتبرر بها ويحيها أو يحيا بها، إنها هي الحق، بل هي روح الحياة: «مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله» (١ يوحنا: ١٥). هذا هو الدخول بالإيمان إلى طبيعة الله، والثبوت فيها!!

«مَنْ هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١ يوحنا: ٥). هذا هو الخروج من طبيعة العالم والمادة، الذي يؤهل للدخول إلى طبيعة الله، حيث الغلبة هنا هي العبور المنتصر فوق العالم.

«مَنْ له الابن (بالإيمان)، فله الحياة (في الله). وَمَنْ ليس له ابن الله، فليست له الحياة» (١ يوحنا: ١٢)، هذا الامتلاك للحياة الأبدية هو بالدخول بالإيمان إلى حقيقة طبيعة الله، وذلك بإدراك حقيقة ابن الله:

«الذي يؤمن بالابن (دخل بالإيمان في طبيعة الله)، له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن (لم يدخل إلى معرفة حقيقة الله)، لن يرى حياة، بل يمكث (في الطبيعة البشرية الساقطة) عليه غضب الله» (يوحنا: ٣٦). هذا هو الفارق الهائل بين البقاء في محيط العقل المادي، وبين تجاوزه بالإيمان، لإدراك ما هو ليس من طبيعة الماديات. وهو نفس الفرق بين الموت والحياة، بين البقاء في الخطية تحت الغضب الإلهي والدخول إلى نعمة الله، وهذا هو قيمة الإيمان وعمله.

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي،
لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال»:

هذا ما يعبر عنه سفر العبرانيين بقوله: «الله، بعد ما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه...» (عب ١: ٢ و١).

فالله كلّمنا في المسيح، لم يكن الكلام الذي تكلم به المسيح كلاماً بشرياً بل هو كلام الله،

لذلك وصفه المسيح أن: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦: ٦٣)، وأن من يسمعه يحيا ولو كان ميتاً (يو: ٢٤ و ٢٨ و ٢٩)، لأن الكلام يحمل طبيعة الله الحية والمحياة. فكلام المسيح فعلٌ نافذ المفعول، لا يرتد فارغاً (إش: ٥٥: ١١)، ولعازر يشهد على ذلك.

ويلاحظ أن المسيح يقدم برهان وحدة كيانه في الآب والآب فيه على مستويين، الأول: الكلام، والثاني: الأعمال، وواضح أن الرب يهدف بهما إلى تحديد شخص الآب الحال فيه على مستوى الفكر والقوة، وهو تغطية كاملة لوجود الآب كأقنوم إلهي فعال. فكان كلام المسيح بمثابة إعلان لصفات الآب جميعاً، كما كانت أعمال المسيح استعلاناً لسلطان الآب ومشيته من نحو الإنسان. فكان الآب يهدف بكلامه، بفم المسيح، إلى مخاطبة ذهن الإنسان، لإثارة بصيرته بقوة الروح القدس في كلمته ولفتح آفاق رؤيته الروحية، ليدخل الإنسان أكثر في أعماق معرفة الآب ليعده للحياة معه بواسطة المسيح. كما كان الآب يهدف، من وراء أعماله الإعجازية التي كانت كآيات تشير إلى شخصه العامل والفعال، إلى توصيل «الفعل» الإلهي الناطق إلى الطبيعة، لكي يبدأ يأخذ عمله في طبيعة الإنسان العاجزة، ليرفعها إلى مستوى خليفة أخرى جديدة ومنيرة.

فمعجزة تحويل الماء إلى خمر تحوي سر التحول من طبيعة ميتة إلى طبيعة حية؛ ومعجزة شفاء المُقْعَد المشلول بعد ٣٨ سنة تحوي سر تصحيح ما فسد في الطبيعة العتيقة، ورفعها إلى مستوى الصحة؛ ومعجزة تفتيح الأعمى المولود هكذا من بطن أمه تحوي سر عمل النور الإلهي في الطبيعة العتيقة المظلمة لتأخذ النور والاستنارة؛ ومعجزة إقامة الميت بعد أن أُنثِن تحوي سر القيامة الجديدة للإنسان للحياة الأبدية.

وهكذا كانت أعمال المسيح هي استعلاناً لمشيئة الآب بخصوص القوة الإلهية، التي قصد أن يثبها في طبيعة الإنسان، ليؤهلها للحياة الأفضل، أي الروحية.

وبكلام أكثر وضوحاً، كان الآب العامل والمتكلم في المسيح قد بدأ خطته العظمى في تجديد طبيعة الإنسان وصياغة ذهن جديد فيه، منذ أن بدأ المسيح يركز للإنسان بملكوت الله. وكان المسيح يقدم نفسه للناس دائماً، كالمثل الأعلى للإنسان الجديد، الذي يسمع الآب ويطيع، ولكن كانت طاعة المسيح بصورة ممتازة، إذ كانت طاعة المثل للمثل!!

ولا ينبغي أن يفوتنا أبداً، أن الآب أرسل ابنه متجسداً ليتكلم فيه معنا، ولنسمع بأذاننا صوت الآب غير المسموع الذي انحجب عنا كل الأزمنة السابقة، أزمنة تغرب الإنسان على الأرض.

فالمسيح عاد بالإنسان إلى جنة عدن الجديدة، فردوس الله الروحي، حيث اجتمعنا فيه مع الآب مرة أخرى، في شخص ابنه، وسمعنا صوت تعزيتته وانسكبت علينا محبة ونعمته، عوض اللعنة القديمة.

لذلك، ينبهنا المسيح دائماً أبدأ: «الكلام الذي أكلّمكم به، لست أتكلّم به من نفسي، لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال».

١١:١٤ «صدّقوني أنني في الآب، والآب فيّ وإلا فصّدّقوني لسبب الأعمالِ نفسيها».

يلتجئ المسيح إلى شهادة نفسه لنفسه، حينما يتحدث إلى أخصائه، معتمداً على ما سبق وقاله: «وإن كنتُ أشهد لنفسي، فشهادتي حق» (يو ٨: ١٤)، وهذا يُعْتَبَر بالنسبة لنا تنازلاً ما بعده تنازل. فالالحاح الرب على توصيل رسالة الآب التي تتفجّر في أحشائه جعلته وكأنه يتوسّل لدينا أن نقبل ما هو لحياتنا وما هو لسلامنا. إن أقصى ما يشتهي المسيح، وكأنه طعامه الفاخر، هو أن يعمل مشيئة الآب الذي أرسله. ومشيئة الآب تتركز في إسماع البشرية وعودتها إلى الحياة مع الله، أما سعادة المسيح الخاصة جداً فتتركز في توصيلنا إلى الآب، لنشترك في نفس الحب الذي به يحب الآب الابن: «وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني، وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو ١٧: ٢٥ و ٢٦).

المسيح هنا انتقل من مخاطبة فيلبس إلى مخاطبة التلاميذ، فهي رسالة الجميع. وعوض أن يقول: «الحق الحق أقول لكم»، أراد هنا أن يسند هذا الحق بشهادته الخاصة، وكأنه يرهّن نفسه ويجازف بكل ثقله الإلهي والبشري معاً، ليرفع ما يقوله إلى مستوى الصدق المختوم بختم الله، لكي يقبلوا هذه الحقيقة الجوهرية بكل يقين، والتي يتوقف عليها كل الإيمان، بل كل الخلاص، وينتهي عندها كل غاية استعلان المسيح للآب: «أنني في الآب والآب فيّ». هذا الوجود المتبادل يجعل بالفعل كل ما للآب للابن وكل ما للابن للآب، ويشتغلن، بقوة، الذات الواحدة للآب والابن؛ وهذا هو السرّ الأعظم للثالوث، باعتبار الروح القدس هو ثالث الأقانيم، وهو ينبثق من الآب في الابن، وهو الذي يوثّق هذه الوحدة وينقلها إلى أذهاننا كحقيقة محيية!

أما إذا أخفق أي إنسان في تصديق المسيح، كشاهد صادق فيما لنفسه، فإن المسيح يعود ويتنازل عن حتمية شهادته، مشيراً إلى أعماله الفائقة للطبيعة التي عملها كآيات تشير وتحكي عن سلطان الآب الذي يعمل به المسيح وكأنه سلطانه: «... وإلا فصّدّقوني لسبب الأعمالِ نفسها».

فالأعمال تتكلم من ذاتها وتؤمن أن ما يقوله المسيح عن نفسه صِدْقٌ؛ لأن ما يعملُه، يشهد أن سلطانه هو من سلطان الله وعلى مستواه. أما كَوْنُ الآب هو العامل بالمسيح أو أنَّ المسيح هو العامل بالآب، فسيان! يكفي أن المسيح في الآب والآب في المسيح، فهذه حقيقة العمل ذاته.

١٢: ١٤ «الحقُّ الحقُّ أقولُ لكم، مَنْ يُؤْمِنُ بي، فالأعمالُ التي أنا أعملُها، يعملُها هو أيضاً، ويعملُ أعظمَ منها، لأنِّي ما يَصُ إلى أبي».

في الآيات السابقة (٨-١١) كان التركيز على العلاقة الداخلية بين الآب والابن، والآن ينتقل المسيح لتوضيح هذه العلاقة بالنسبة للتلاميذ.

وفي الآيات الأخيرة، كان التركيز على الأقوال والأعمال التي يعملها المسيح بأنها معمولة بالآب، أو أن الآب الحائِث في المسيح هو الذي يعمل الأعمال.

ومن هذا المنطلق، يبدأ المسيح يسلم تلاميذه هذه الحقيقة الإلهية. والحقائق الإلهية أو اللاهوتية لم تستغلنها المسيح من أجل أن يدركها العالم في ذاتها، كحقائق الله وحسب، بل ولكي يحياها المؤمنون ويعملوا بها. فهنا نحن بصدد الأعمال التي يعملها المسيح، والتي هي في حقيقتها يعملها الآب الحائِث في المسيح، هذه الأعمال عينها أعطي للذين يؤمنون بالمسيح (وبالآب حتماً) أن يعملوها.

والنقطة الهامة في الموضوع والتي لا ينبغي أن تفوت على عقولنا، هي أن المؤمنين يعملون أعمال المسيح نفسها، ولكنهم بحسب مجرى الكلام لن يكونوا هم العاملين لهذه الأعمال، بل المسيح، بل الآب في الحقيقة وعين الأمر! أما تلك الأعمال التي كان يعملها المسيح، فقد كانت قاصرة على فترة محددة وعلى غاية محددة، محورها استعلان الآب والتمهيد لرسالة الخلاص بالصليب. أما بعد صعود المسيح إلى الآب، ونواله كل سلطان مما في السماء وما على الأرض واستعادة مجده الأسنى، فالمسيح سوف يعمل حتماً فيهم وبهم هم أعمالاً أعظم، تتناسب مع طول الأجيال وضيق الأيام وشدة اضطهاد العالم، وتتناسب كذلك مع استعلان الخلاص وتكميله، ومجد المسيح العامل فيهم والحال فيهم، ومع أعوازا الكثيرة وطلباتنا مهما غالينا فيها: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم ... لكسي تمتلثوا إلى كل ملء الله، والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف ٣: ١٧-٢٠)

ونعود وننبه ذهن القارئ، أن ذهاب المسيح إلى الآب هو محور الحديث كله، ولسان حال الواقع، حسب موضوع الحديث وإلحاح الساعة، فالمسيح يعدّد لتلاميذه مميزات موته وصعوده وذهابه إلى الآب، من حيث أنها ستعود عليهم بفيض من القوة الغامرة ليعملوا ما كان يعمل به هو أمامهم، تلك الأمور التي أبهرتهم، بل وكيف أنهم سيعملون أعظم منها بسبب صعوده وذهابه إلى الآب. وهو في ذلك يجاهد ليرفع عنهم مسحة الحزن والكآبة والخوف من جهة، ومن جهة أخرى هو يسبق الزمن والحوادث ويكشف لهم ما سيكون، حتى إذا كان، يزدادون إيماناً وثقة وقوة، ويشعرون بحقوقهم الممنوحة لهم رسمياً حسب الوعد، ليطالبوا بها ويتمسكوا بسلطانها، لتكميل خدمة الخلاص وتمجيد المسيح والآب.

والآن، أيها القارئ العزيز، أرجو أن ألفت نظرك إلى أن هذا الوعد غير مقصور على التلاميذ، فأرجو الرجوع إلى نص الآية إذ تقرأ: «الحق الحق ... قن يؤمن بي (أي كل من يؤمن بي)» ... فأنت مُستهدف لهذه العطية الفائقة. فإن كنت تشعر بالخجل والصغر دون أَلطاف الله (٨) وعظم سخائه، فلا مانع، ولكن لا تُشكّ في صدق وعده. ثم إنني أشرح لك لماذا تستكثر على نفسك أن تعمل أعمالاً أعظم مما عمل المسيح، فالسبب ينطوي على نقطتين:

الأولى: ظنك أنك أنت الذي ستعمل، وهنا أحيلك لما سبق وأوضحنا: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا.» (في ١٣: ٢)

والثانية: أن عمل المسيح فينا يبدو، بحسب خداع البصر، غير متكافئ مع ضعفنا وهوان طبيعتنا وأخطائنا التي يحسبها علينا الضمير بإلحاح.

ولكن أنبّه ضميرك، أن الرب سبق وقاس هذه المفارقة الخطيرة بين ما هو لائق لنا، وما هو لائق له، بقوله في الآية السابقة أن عطاياه ستكون: «أكثر جداً مما نطلب أو نفكر»، لأنها ستكون «بحسب القوة التي تعمل فينا». فالأمر يخصّ المسيح أولاً وآخرأ، فأمسك به، يُتمسك بك ...

١٣: ١٤ «وقهّما سألتُم باسمي، فذلك أفعَلُهُ، لِيَتِمَّجِدَ الآبُ بِالابْنِ».

هنا مزيد من التوضيح بحسب الشرح الذي قدمناه، أن المسيح هو العامل فينا. ولكنه يتمادى

(٨) «صغير أنا عن جميع أَلطافك وجميع الأمانة التي صَنَعْتَ إلى عبدك.» (تك ٣٢: ١٠)

في رفع حدود الطلب إلى أقصى تصوُّرنا ويزيد: «مهما». وهنا يسأل سائل: هل هذا معقول أن كل ما يطرأ على فكري أو قلبي، أطلبه، فأخذه؟

هنا أيضاً الرد منبثقُ ضمناً في «القوة التي تعمل فينا»، التي تباشر التنفيذ من قِبَلِ الله. وهي لن تكون غير قوة الروح المشير والمدبِّر. لأن كلمة «مهما سألتكم» تفيد حالة صلاة وتوسُّل ولجاجة، والصلاة الصحيحة الفعَّالة هي تحت هيمنة الروح القدس بصورة قانونية: «لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأناتٍ لا يُنطقُ بها» (رو٨: ٢٦). هكذا يتبين أنَّ «مهما سألتكم» تقع ضمن اختصاصات الروح القدس، الذي يُقدِّم السؤالات بضمنا، بكل حكمة وفطنة بما يليق أن يُقدِّم لله الآب، ليكون السؤال حسب مشيئة الله!! ويلاحظ أن السؤال يُقدِّم إلى الآب باسم المسيح، والمسيح يقوم بالتنفيذ: «أنا أفعله»، والاستجابة هنا تكون أكيدة بقدر استيفاء تقديم السؤال، بحسب القوانين المعمول بها في دائرة الله، وهي كالآتي:

١ - يلزم أن يكون الروح القدس هو صاحب الاستشارة والموَكَّل إليه التدبير على طول المدى، سواء في حالة ما قبل السؤال، أو حالة السؤال، أو حالة ما بعد السؤال، بمعنى أن يكون الإنسان عائشاً في ملء تدبير الروح القدس.

٢ - أن يكون الروح القدس مشتركاً إشتراكاً محسوساً في تقديم السؤال، ولدى الضمير شهادة برضى الروح القدس وموافقته على كل كلمة من كلمات السؤال. وهنا إذا توفر ذلك حقاً، فإن الإنسان يحس في الحال أثناء الصلاة أن الصلاة استُجِبت.

٣ - أن يكون السؤال مقدِّماً للآب، كما من فم ابنه يسوع، لأن الذي يوازن سؤالنا ويزيد هو برُّ المسيح الشخصي.

٤ - أن يكون السؤال مُقدِّماً باسم المسيح، لأنه يستحيل استحالة كلية أن تبلغ كلماتنا مسامع الآب إلا بواسطة المسيح: «لأن به لنا كليتنا قدوماً في روح واحد إلى الآب» (أف ٢: ١٨)، لأنه هو الطريق الوحيد والباب الوحيد الموصل إلى الآب؛ «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥: ٥)، لأن المسيح هو الحامل لصك غفران خطايا كل إنسان وهو يتراءى أمام الله الآب «ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩: ٢٤)، حاملاً أسماءنا المكتوبة على كفه - كل واحد باسمه - محسوباً: «براً وقداً وفداءً»

(١ كو ١: ٣٠)، لكل من يتقدم به إلى الله (عب ٧: ٢٥). وهكذا إذ نُزْفِقُ اسم المسيح بسؤالنا الذي نقدمه للآب، نكون كمن يُزْفِقُ كل وثائق الصلاحيات التي تجعل السؤال مستجاباً.

«لitemجد الآب بالابن» :

واضح من تسلسل المعاني، أن الاستجابة تكون من عند الآب، والتنفيذ بواسطة المسيح. وهنا يكمن سرُّ تمجيد الآب، لأن المسيح إنما ينفَّذُ بكل سخاء الآب وحبّه، بحسب صلاحياته لدى الآب، والتي حازها لنا بالصليب، حتى إنه أصبح قادراً أن «يملأنا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩)، أي أن يملأنا بالعطايا والنعم والمواهب المذخرة لنا في قلب الآب بلا حدود، والتي كانت محجوزة عنا بسبب عدم لياقتنا روحياً؛ ثم لما صار المسيح وسيطاً مؤتمناً، فكَّ حجوزاتها، واستعلن كل سخاء الآب من نحونا: «لأن الآب نفسه يحبكم.» (يو ١٦: ٢٧)

وهكذا صار المسيح، بتنفيذه لكل استجابة نناها من الآب من جهة سؤالاتنا، هو سبب تمجيد للآب دائماً، وسبب استعلان حبه وسخاء عطائه الذي لا يُحدُّ. ونحن لا يمكن أن ننسى ما كرره المسيح كثيراً جداً، أن الابن لا يعمل من نفسه شيئاً، أي أن أعمال المسيح التي يعملها لنا لتغطية كل أعوازنا وسؤالاتنا هي بالآب معمولة ولمجده. وبالنهاية، تكون طلباتنا وسؤالاتنا التي نطلبها هي لمجد الله! فكيف لا نطلب وكيف لا نلجُ في السؤال والطلب، إن كان ذلك لحساب مجد الله؟

١٤: ١٤ «إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئاً بِاسْمِي، فَإِنِّي أَفْعَلُهُ».

تكرار حرفي للآية السابقة، فهل من جديد فيها؟ واضح في الآية ١٣ السابقة، أن عمل المسيح في الاستجابة لسؤالنا، وضعه المسيح كعملٍ يدخل ضمن رسالته الخاصة بالنسبة للآب: «لitemجد الآب بالابن»، فهو يُقَرِّب من أن يكون واجباً على المسيح بالنسبة للآب، أو بتعبير أصح، عملاً وظيفياً من اختصاص الابن المتجسد نحو الآب، فهو يدخل ضمن رسالة الخلاص. وهذا، بحد ذاته، أمرٌ يُسَعِدُنَا إسعاداً، إذ يجعل سؤالاتنا وطلباتنا لدى الآب عملاً يهتم الآب جداً، وبالتالي يهتم المسيح ويُسرّه.

أما في الآية ١٤، فهو عمل يدخل في العلاقة المتوطدة بيننا وبينه. فهو بمثابة وعد خاص يضع فيه المسيح كل إمكانياته رهن سؤالنا، وأنه وإن كان ليس له هدف مباشر، إلا أنه يتضمن استعلان قدرته الفائقة بالضرورة، لذلك فهو لمجد المسيح بلا نزاع. كذلك «باسمي» تشير إلى اسم

المسيح الخاص، حيث الاسم في لاهوت العهد القديم يعبر عن الشخص بكل قوته وكرامته. هذا بالإضافة لما كان يقوله المسيح « ἐγὼ εἰμι »، الذي هو في الحقيقة اسم الهوية لله، الذي كان يعمل المسيح تحته وبقوته وفي وجوده وحلوله.

وهكذا يكون الدعاء بالاسم، أو الصلاة أو السؤال باسم المسيح، حالة تواجد شخصي للمسيح، وهو استدعاء ودخول في الحضرة الإلهية لابن الله المتجسد بكل يقين. لذلك فصراخ الكاهن:

Ἦεν ἕραν ἡφῶτ nem Πῶνρι nem Πῖπνετμα ἑοοταβ

أي: «باسم الآب والابن والروح القدس» في بداية صلاة الإفخارستيا، وعلى الخبز والخمر، هو استدعاء الثالث للحلول، كما هو أيضاً ثقلة للموجودين في الهيكل للدخول في الحضرة الإلهية التي للثالث الأقدس، فهي عملية تقديس وتجلي بأن واحد.

وهكذا، فكأن المسيح باعطائهم حق النداء والسؤال «باسمه»، يكون كمن أبقى على حضوره السري معهم في كل حين، كلما احتاجوه كمصدر قوة وعمل وعزاء. كل هذا وقره المسيح لتلاميذه ولكل المؤمنين به، تعويضاً عن غيابه في المنظور الجسدي.

١٤:١٥ و١٦ «إن كنتم تحبوني، فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب، فيعطيكُم مُعزّياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد».

ترتيب الآيات يبرز هنا نوراً باهراً يخطف الأبصار، ويُلهب القلوب: ففي الآية (١٢) وضع المسيح الإيمان كأساس، ثم بنى فوقه في الآية (١٥) برج المحبة، بارتفاع الوصايا؛ وعلى القمة، كتاج، يستقر الروح القدس ككشاف يضيء إلى أقصى حدود النواحي البعيدة، إلى الأبد!

أما الإيمان، فالمسيح جعل طبيعته تُختبر بالأعمال والأسئلة الفائقة عن الحب حينما تُستجاب! (اقرأ الأعداد ١٢ و١٣ و١٤). أما المحبة، فجعل المسيح طبيعتها تُختبر بالفضيلة المحفوظة والمصونة (١٥). أما بيت الروح القدس في القمة، أو في القلب، فيشع منه عزاءٌ ونعيمٌ وسرورٌ عوّض عزاءٍ على وشك أن يفقدوه ظاهراً!

في الآية (١٥)، صوت الوداع وبيان الموصي. فالمعلم حدّد الساعة، وحديثه السابق صار كله في حكم الوصايا: وصايا الحب والتواضع والوداعة، وأمانة الراعي، وقول الحق، والصفح عن الجبهالات وعدم الدينونة، حتى ولو كانت الخطية قائمة على يد شهود عيان، ومكافأة الإساءة

بالصلاة، واللعنة بالبركة، والعداوة بالمحبة، وألفه الخُدام حتى إلى غسل الأرجل لثلاث تلامخ الخدمة، وعدم الجري وراء الكرامة، وأخيراً أمانة الشهادة. فإذا كان المسيح قد صادف هوى النفس وصار لها كعريس، كانت هذه الوصايا كلها وأكثر؛ وإلا غُسر على النفس حتى احتمال الإساءة!... هي وصايا الروح، عِوض وصايا العدو والجسد، فالروح إلى نمو، والجسد إلى زوال.

أما في الآية الثانية (١٦)، فيفصح منها عطرٌ أزكى من الناردین الخالص، ولكن يتخللها رنة حزن، فهي تحمل بروتوكول وداع الأقانيم على مستوى التسليم والتسليم: فمُعزٌ ذاهبٌ ومُعزٌ آتٍ. الذاهب ذاهبٌ ليجلس في المقدس الأعلى، ليغيب بالنظر عن أرض الإنسان؛ والآتي آتٍ ليقیم بغير رؤيا في معية الإنسان إلى أبد الآبدين. والآب سُرٌّ بأن يستقبل (الذاهب) حاملاً روح الإنسان؛ ومنبهجٌ بأن يرسل الآتي وهو ملء روح الله!!

أما نسبة الآية الثانية (١٦) إلى الآية الأولى (١٥)، فهي علاقة حبٍّ بحبٍّ؛ فإن أحببنا أحببنا، وإن حفظنا وصاياهم، أرسل لنا مَنْ يذكّرنا بها ويشرحها لنا، ويخطئها في قلوبنا، ويعزينا عن كل غرامة يفرضها العالم علينا بسبب الأمانة. لأن وصايا يسوع يبغضها العالم ولا يطبق مَنْ ينطقها، ويفرض عليها غرامات فادحة، فيتلقف الروح القدس هذه الغرامات عنا ويحوّلها برّاً وسلاماً...

وأخيراً نودُّ أن نلفت نظر القارئ، إلى أن الرب هنا يقصر وصيته الختامية على حفظ وصاياهم الخاصة، التي تأخذ سلطانها الإلهي من فمه، ولا يذكّر لوصايا سيناء وموسى والألواح التي كانت سراجاً منيراً، في سماء ليل شعب، ضاقَ بها وضاقَت به، إلى أن انفجر نور النهار، واستُغْلِنَ شمس البرليضيء على العالم كله.

١٧: ١٤ «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه، لأنه ما كُتِبَ معكم، ويكون فيكم».

«روح الحق»:

وأيضاً حقٌّ بحقٍّ، وحقٌّ عوضاً عن حقٍّ، كما مُعزٌ عوضاً عن مُعزٍّ، فالمسيح كان لهم «الحق»: «أنا هو... الحق» (١٤: ٦). فإن كان الفم البشري الإلهي للابن المتجسد الذي ينطق بالحق سيختفي عن ناظريهم وأسماعهم، فهذا الآب يرسل لهم «روح الحق» الذي ينطق في أفواههم وقلوبهم، ليسمعهم العالم كله!... كان الحق الذي يقوله المسيح ويعمله هو الإعلان عن الآب

الكائن في الابن والحال في تجسده؛ والحق الذي يقوله ويعمله الروح فيهم وبهم يكون هو الإعلان عن الابن، وإستعلان اللاهوت في تجسده، وبالتالي إستعلان الآب الذي في الابن والذي لا يُعرف ولا يرى بدونه ...

وق. يوحنا يتدرج في كشف الحق الذي بالمسيح وفيه، والذي بالروح القدس وفينا، هكذا: فبالنسبة للحق الذي هو المسيح يقول: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية — (أنا هو الطريق والحق والحياة)» (يو ١٤: ٦). «(١ يوح ٥: ٢٠)

وبالنسبة للحق الذي بالروح وفينا يقول: «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا، أنه قد أعطانا من روحه، ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصاً للعالم. من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله.» (١ يوح ٤: ١٣-١٥)

«وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (١ يوح ٣: ٢٤).

وشرح كلام ق. يوحنا هو كالاتي بالنسبة للحق بالمسيح ثم بالروح القدس:
+ بالنسبة للمسيح: أنه فتح بصيرة التلاميذ ليعرفوا الحق من كلامه وحسب الكتب، وذلك قبل مجيء الروح القدس هكذا: «هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم ... حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب ...» (لو ٢٤: ٤٤ و ٤٥)

وهذه هي «البصيرة» التي يتكلم عنها ق. يوحنا، وهي لمعرفة الحق، الذي ركّزه ق. يوحنا بهذه الجملة المختصرة، والتي هي كل الحق: «هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية»، تماماً كما عرّف المسيح نفسه لهم: «أنا هو الطريق والحق والحياة».

+ بالنسبة للروح القدس: أولاً، كانت عطية الروح القدس الأولى والعظمى أنه حلّ هو فيهم، وذلك باستحقاق عمل المسيح الفدائي والخلاصي، وبحلول الروح القدس فيهم تهيأ هيكلهم لقبول ألوهية المسيح، لأن الروح القدس أرسل ليعمل لحساب المسيح، يعلنه ويعطيه، وهذا يوضحه القديس بولس غاية الوضوح: «لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة، بروحه، في الإنسان الباطن؛ ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم ...، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله (حيث ملء اللاهوت: الآب والابن والروح القدس).» (أف ٣: ١٦ و ١٧ و ١٩)

وبحلول الروح القدس والمسيح في وعي التلاميذ، الذي انتهى إلى ملء كيانهم الروحي، فإنه ينطلق ليشهد فوراً لهذا الثبوت والملء، وبالتالي، فإن هذا الثبوت وهذا الملء يصبحان شاهداً على أن الروح القدس قد أعطي لهم، ويشهد لعملية الخلاص العظمى، أن الآب أرسل ابنه مخلّصاً للعالم، ويعترف أن يسوع هو ابن الله!! هذا هو الحق الذي بالروح القدس والذي صار في التلاميذ وكل المؤمنين.

«لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه»:

نحن هنا أمام مواجهة حادة بين روح الله، وهو روح الحق؛ وروح العالم، وهو روح الضلال والتزييف. لقد دخل المسيح هذه المواجهة عينها باعتباره الحق، في مقابل رئيس هذا العالم باعتباره المُضِلُّ والكذاب، فكان الصليب، الذي به دخل الخلاص إلى العالم، واكتسب الإنسان حياة ما بعد الموت. والآن، يبدأ الروح القدس عمله على أساس الصليب، وعلى نفس المواجهة وشذتها. فكما لم يقبل العالم الحق الذي في المسيح، بل أبغضه، أشد البُغض، ورفضه أشدَّ الرفض، ولم يشأ أن يعرفه أبداً هكذا: «وأما الآن، فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم أبغضوني بلا سبب» (يو ١٥: ٢٤ و ٢٥)، «ولكن ينبغي أولاً أن يتألم كثيراً، ويُرفض من هذا الجيل» (لو ١٧: ٢٥)، «لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ٨: ١٩)؛ كذلك على هذا المستوى، واجه العالمُ الروحَ القدسَ باعتباره روح الحق الذي يشهد لكل الحق. واجهه بعدم القبول، أي بالرفض والبُغضة، أولاً ضد التلاميذ الذين يعمل فيهم الروح القدس: «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته، ولكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يو ١٥: ١٨ و ١٩)، «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي، لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني» (يو ١٥: ٢٠ و ٢١). ومن بعد التلاميذ، الكنيسة كلها وإلى نهاية الدهور.

وهكذا يتضح من كلام المسيح، أن عدم قبول العالم للروح القدس هو بسبب أنه يشهد للمسيح، والمسيح غير مقبول، لأن المسيح يشهد للحق، أي للآب، باستعلان الآب الحال فيه بالكلمة والعمل: «إنما يفعلون بكم هذا كله، من أجل اسمي.» (يو ١٥: ٢١)

«الاسم»: اسم ابن الله الذي رَفُضَهُ، يعني رَفُضَ الآب، وبالتالي عدم قبول إرسالية الآب لابن الخلاص العالم. أي بصريح العبارة، فإن العالم يرفض الخلاص من أصوله، لأن العالم

يعمل تحت سلطان روح الضلالة ولحسابه. وهكذا، فإن الخلاص يبقى وقفاً على كل من يرفض العالم، بل ويغض العالم، وذلك بأن يرفض أن يعرف أو يتعرف على روح الضلالة الذي في العالم! لذلك كانت الآية: «إن أحب أحد العالم فليست فيه حبة الآب.» (١ يوحنا ٢: ١٥)

«لا يراه ولا يعرفه»:

العالم لا يرى الروح القدس ولا يعرفه. الرؤيا هنا بالاثنتين: رؤيا العين المجردة، ورؤيا العقل الروحي. فد «العالم» هنا، يُعَبَّرُ به عن الأشخاص الطبيعيين الذين يعيشون، بحسب ظواهر الوجود المادي، لا يرون الروح على أي حال، لأن الروح جوهر إلهي، فلا هم بالعين يرونه، لأن ليس له مظهر، ولا بالعقل يدركون كُنْهه أو ماهيته، لأنه حقٌّ، والحق درجة في المُدْرَكَاتِ أعلى وأعمق من المظهر بلا قياس. فكلُّ مظاهر العالم من مصنوعات ومخلوقات تحوي في أعماقها بالضرورة لَمْسَةً الخالق الذي صنعها؛ فهي تحوي حقاً، ولكنها ليست الحق، لأن المظاهر كلها زائلة والجوهر الخالق أزلي وأبدي:

«لأن غضب الله مُقَلَّنٌ من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم، الذين يحجزون الحق بالإثم. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة، تُرى منذ خلق العالم مُدْرَكَةً بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته، حتى إنهم بلا عذر.» (روا: ١٨-٢٠)

يلاحظ هنا أن محور هذه الآية، هو كلمة الوحي: «لأن الله أظهرها لهم»، فهي عطية فائقة على عقل الإنسان الطبيعي المخلوق، وفوق قدرته الطبيعية المحدودة بإدراك الظواهر فقط. هذا الإمتياز أعطي للإنسان هبةً، أن لا يكون غريباً عن الله، ولكن هذا الإمتياز ليس من روح العالم أصلاً، بل من الله.

و يلزمنا هنا أن نوضح أن «الإنسان الطبيعي» مخلوق ليرتقي إلى «إنسان روحي». ففي صميم خلقة الله للإنسان — كما نتصوره في آدم — يوجد مركز للإدراك الإلهي، وإلاً لما عرف آدم الله، وأحبَّه، واستمع إليه، وخشي منه حينما تعدَّى على وصيته. لذلك، نستطيع بكل يقين أن نقول، إن عقل الإنسان له مركزٌ فوق كل مراكزه الشعورية الطبيعية، لإدراك ما هو فوق الطبيعيات، أي إدراك الله وكل «أمر الله غير المنظورة». هذا المركز الفائق والممتاز، ينشط ويترقَّى بالممارسة، أي بالإشتغال في أمور الله: «وأما الطعام القوي للبالغين، الذين بسبب التمرُّن قد صارت لهم الحواس مُدْرَبَةً على التمييز بين الخير والشر» (عب ٥: ١٤). وهذا يؤدي إلى يقين

الشعور بالله، ثم الإيمان به، ثم التأهل لأخذ الروح القدس، أي روح الله.

فالإيمان بالله لا يأتي من فراغ، وإلا ما أصبح له ثواب وعقاب. ولكن، بإهمال الإنشغال بالله والتوقف عن تشغيل هذا المركز الخاص الفائق والممتاز، تضعف وتفقد حساسيته، فتصبح معرفة الله غير واضحة، ثم صعبة، ثم مستحيلة، ثم مجهولة كلية؛ وكأن الله صار غير موجود، وذلك بسبب نشاط مراكز العقل الحسية الأخرى وانشغالها الزائد بالظواهر، والانغماس في الأخذ منها لإشباع نهم العقل، والتعدي حتى على المركز الفائق الخاص بالله وتغطية احتياجاته بالأمور الحسية وظواهر الأمور. هنا ينحصر الإنسان في صفته الدنيا، وهي كونه إنساناً طبيعياً، أي إنسان العالم، وليس إنساناً الله بعد. هذا ما يعبر عنه بولس الرسول بقوله: «هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحد إلاً روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية، بل بما يعلمه الروح القدس، قارنين الروحيات بالروحيات. ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله، لأنها (أي أمور الروح) عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفها (يعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله)، لأنه إنما يُحكم (أي يُدرك) فيها روحياً. وأما الروحي، فيحكم في كل شيء، وهو لا يُحكم فيه من أحد. لأنه من عرف فكر الرب فعملمه؟ وأما نحن فلنا فكر المسيح» (١ كو ٢: ١١-١٦ ترجمة عن الأصل اليوناني).

وإني أنتهز هذه الفرصة، يا قارئ العزيز، لأرسم أمامك صورة واقعية للعالم والأشياء التي في العالم القابلة كلها للزوال: «والعالم يمضي وشهوته» (١ يو ٢: ١٧)، في مقابل أمور الله الباقية والثابتة إلى الأبد: «مولودين ثانية، لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد. لأن كل جسد كعُشب، وكل مجد إنسان كزهرة عُشب. العُشب يبس وزهره سقط. وأما كلمة الرب فتثبت إلى الأبد.» (١ بط ١: ٢٣-٢٥)

فالعالم يقوم على الظواهر والمحسوسات، وهذه كلها تتغير وتتبدل وتزول. وظواهر العالم التي يصادفها الإنسان في حياته، تأخذ وجودها في وجدانه، لأنها تتحرك ببطء نحو الزوال، فلا يشعر بزوالها إلاً بصعوبة. ولكن لو أمكن تصورها وهي تتحرك بسرعة أكثر، كأن يتصور اختزال فترة تعليمه في المدارس من عشرين سنة إلى عشرين دقيقة، لظهرت وكأنها خيال عابر. ولكن هي كذلك في الحقيقة، فكل ظواهر الحياة خيالات تتحرك على شاشة العقل ببطء، فترسخ فيه، وكأنها وقائع وحقائق، وهي في حقيقتها ليست إلاً صوراً تظهر لتزول. ولكن وراء هذه الصور توجد

الحقيقة، وخلف هذه المظاهر والأقنعة يوجد الجوهر القائم والثابت، وهي اليد الإلهية التي تديرها وتتحكم في ظهورها وتلاشيها، والتي تحدد أزمنة بقائها وزوالها، وتبرز للنفس البشرية أهميتها أو تفاهتها، لتزداد النفس معرفة، وتنمو في الفهم والحكمة، وترقى في أحاسيسها ومذكراتها في درجات تصاعديّة تقترب بها النفس إلى جوهر الحقيقة أو الحق القائم خلف هذه المناظر والظواهر والصور المتحركة التي تسوقها الطبيعة وتتفنن فيها من جانبها، بإيعاز من الخالق، لتُرغّب النفس فيها. وهكذا يبقى الله، في النهاية، بالنسبة للنفس الواعية، هو الغاية العظمى من حركة العالم، باعتباره الحقيقة أو الحق الذي يُشبع قلب الإنسان، أو على وجه الأصح لن يُشبع منه أبداً. فعالم الله والروحانيات، هو أصدق ما تحتاجه النفس، فالنفس البشرية مخلوقة على صورة الله، والصورة لا ترتاح إلا على أصلها، كما يرتاح المثل إلى المثل.

ولكن أن يبقى الإنسان مشدوداً إلى هذه الصور الزائلة والمناظر والخيالات وحسب، و يكتفي منها بالتغيير والتبديل، ويتعزى من زوال بعضها بظهور غيرها، فهذه مهزلة. شأنه في ذلك شأن شاب طائش لا يشبع من النظر إلى الأفلام السينمائية، يخرج من عرض ليدخل عرضاً آخر، يصرف ماله وزمانه مستمتعاً بخيالات، تظهر له كأنها حيّة وهي قد تكون لممثلين صارت أجسادهم تراباً وقصتهم خرافة.

فالعالم، يا صديقي، عالم أقنعة وخيالات يحيطه الخداع من كل جانب. وعليك أن تدرك أن كل ما هو قابل للإزدواج فهو خداع، فالفرح الذي يمكن أن ينقلب حزناً هو خداع؛ الفرح والحزن كليهما!... كذلك الصحة والمرض، والسلام والكآبة، والنور والظلمة، والحياة والموت، والغنى والفقر، والعلم والجهل، والاطمئنان والخوف. فكل ما يمكن أن ينقلب إلى ضده هو صورة متحركة، وهو خداع؛ أما «الحق» فهو قائم في كل هذه المتضادات، قائم ثابت، لا يتغير، ولا يتبدل، والذي عنده «روح الحق»، يأخذ من الصورة وما هو ضدها، يأخذ من الفرح قدر ما يأخذ من الحزن ليرتفع فوق الفرح والحزن جميعاً. يأخذ من الغنى قدر ما يأخذ من الفقر، ليرتفع فوق هذا وذاك؛ ولا يظّالّه الغنى بفروره، ولا يظّاه الفقر بشكّيه!

أما الذي ينحاز إلى العالم، فلن يقرّ له قرار؛ يعيش بين المتضادات، إلى فوق، ثم إلى أسفل وبالعكس، إلى أن يحطّه اليأس، وتأكل أيامه المتغيّرات. لذلك يقول الرب: «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا» (يو ١٤: ٢٧). كما يقول: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو ١٦: ٢٢)؛ «كل من يشرب من

هذا الماء يعطش أيضاً، ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد؛ بل الماء الذي أعطيه، يصير فيه ينبوع ماءٍ، ينبع إلى حياة أبدية III» (يو: ٤ : ١٣ و ١٤)؛ «اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يُعطىكم ابن الإنسان، لأن هذا، الله الآب قد ختمه... أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقْبَلْ إليّ فلا يجوع، وَمَنْ يُؤْمِنْ بي فلا يعطش أبداً... مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية.» (يو: ٦ : ٢٧ و ٣٥ و ٥٤)

هذه هي طبيعة العالم وعطاياه، وهذه هي طبيعة الله وهباته. وهكذا، فالحق الذي يعطيه المسيح: «أنا هو الحق»، لا يزول، ولا يؤول إلى الضد أبداً، فالحق واحد دائماً، لا ينشئ ولا يتجزأ، ولا يتغير، وهو هو من طبيعة الله، وهذا هو جوهر عطاياه.

«روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه»:

كلمة «أَنْ يَقْبَلَهُ» تأتي باليونانية بمعنى يستقبله $\lambda α β ε ι ν$ = receive، والآن نستطيع أن ندرك عمق المعنى اليوناني لكلمة يستقبله، إذ أن إنسان العالم — أي الإنسان الطبيعي الفاقد لمراكز الوعي الروحي — ليس لديه جهاز الاستقبال الذي يدرك به الحق المطلق، لأن كل إدراكه العقلي حيّ قائمٌ، ومقصود على إدراك المظاهر والصور فقط؛ أما كلُّ ما يخص طبيعة الله، أي الحق كجواهر، فهو مفقود عنده أو غير موجود ولا يمكن إدراكه، وبالأخص ما يتعلق باستعلان هذه الطبيعة في الآب والابن والروح القدس. على أنه يستحيل استقبال الروح القدس إلا في القبول لحقيقة المسيح متجسداً: «هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟» (أع: ١٩ : ٢)

وتقول الآية أن العالم لا يستطيع أن يستقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. جيد، لأن العالم قائم على رؤية المظاهر والصور، والمعرفة لدى العالم قائمة على التحليل الذهني لهذه المظاهر والصور، والروح القدس ليس له منظر ولا مظهر ولا صور، لأنه أقنوم إلهي غير مخلوق وغير متجسد، فهو ليس من هذا العالم بالمرّة، ولكنه قائم فيه كمدبّر، ومحبي وضابط للخلقة، حالٌ في كل مكان، وماليء الكل، وأصل الصلاح، ومعطي الحياة لكل ذي جسد. ييكت العالم على خطاياها من داخل ضمير الأتقياء، وبالأكثر تجاه الذين يرفضون الإيمان بابن الله. لذلك فإن وظيفة الروح القدس الأولى في العالم، أن يشهد لبرّ المسيح داخل قلوب المؤمنين، وينطق بأفواههم، ويدين كل الذين انحازوا وراء العالم ورئيسه. لذلك يبقى الروح القدس غير مقبول للذين أحبوا العالم الحاضر، وحجّتهم أنه غير منظور لديهم، وأن كل ما هو غير منظور أو محسوس غير معروف، فهم ينكرونه، كما ينكرون الابن والآب بالضرورة، لأن كلَّ مَنْ لا يقبل الروح القدس، لا يدرك الآب والابن. هذه هي

طبيعة العالم، وطبيعة الله تبقى غريبة عن طبيعة العالم، إلى أن يُقبل الروح القدس، المنوط به استعلان كل أعماق الله للإنسان:

+ « ما لم ترَ عين، ولم تَسْمَعْ أذن، ولم يَخْطُرْ على بال إنسان، ما أعدّه الله للذين يحبونه. فأعلنه الله لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله، لأن مَنْ مِنَ الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحد إلا روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لتعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. » (١ كو ٢ : ٩-١٢)

« وأما أنتم فتعرفونه، لأنه ما كُتِبَ معكم، ويكون فيكم »:

ما كُتِبَ معهم الآن بمكوّثهم مع المسيح، ولكن لما يُرفع المسيح سيجيء الروح القدس ليقم فيهم^(٩)!

التلاميذ هنا عيّنة من باكورة الإنسان الذي أفرزه الله، ليقف معه ضد العالم. فسلوك الطبيعة الجديدة للإنسان في التلاميذ والمؤمنين، هو عكس سلوك طبيعة العالم تجاه الروح القدس. العالم لا يراه ولا يعرفه، وأما التلاميذ والمؤمنون فيعرفونه. العالم لا يقبله، وأما التلاميذ والمؤمنون فيقبلونه: « اقبلوا الروح القدس » (يو ٢٠ : ٢٢)، وبذلك يميّكث معهم. والحرف اليوناني المستخدم هنا ليوضح المعية هو (παρά)، وهو يفيد الشركة والوجود مع By the side of، كما جاء في قول المسيح: « بهذا كلّمْتُكم وأنا عندكم » (١ كو ٢ : ٢٥) « . παρ' ὑμῖν μένων » (يو ١٤ : ٢٥)

« ويكون فيكم »:

والحرف اليوناني هنا (ἐν) ويفيد السكنى الفردية الشخصية (الخلول). كما شرحها المسيح بقوله: « الآب الحال فيّ، هو يعمل الأعمال. » (يو ١٤ : ١٠)

وهنا، ومن استخدام الحروف اليونانية، يتبين لنا أن المسيح يهد في أذهان التلاميذ كيفية تعامل الروح القدس معهم كشخص يحلّ محلّه: فكما كان المسيح عندهم « بهذا كلّمْتُكم وأنا عندكم » (يو ١٤ : ٢٥)، هكذا سيدخل الروح القدس في شركة دائمة أبدية معهم ككنيسة. ثم

(٩) في الأصل اليوناني الفعل الأول «ما كُتِبَ» في الزمن المضارع والفعل الثاني «يكون» في المستقبل:

ὅτι παρ' ὑμῖν μένει (present) καὶ ἐν ὑμῖν ἔσται (future).

كما كان الآب حالاً في المسيح، وكان هو الذي يعمل الأعمال التي كان يعملها المسيح باتفاق مدهش، هكذا سيحل الروح القدس فيهم حلولاً فردياً وشخصياً، ليعمل فيهم وبهم كل الأعمال التي كان يعملها المسيح.

ولكن هذا الحلول الذي ستناؤه طبيعة التلاميذ بالروح القدس، لن يكون كحلول الآب في المسيح، لأن حلول الآب في المسيح هو حلول الآب في الابن على أساس الذات الواحدة في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة؛ أما حلول الروح القدس في الطبيعة البشرية، فهو حلول تقديس حيث تُستهدف كل من الطبيعة والشخصية البشرية لعملية تغيير وتجديد، بشبه الخلق الجديد، لاكتساب الصفات المسيحية على غط الصفات التي اكتسبها لنا المسيح بتجسده وتألمه وصلبه وقيامته وصعوده إلى السماء: «تعلموا مني» (مت ١١: ٢٩)، «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٥: ٤)، «أنتم فيّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ٢٠)، «أنا فيهم، وأنت فيّ، ليكونوا مُكمّلين إلى واحد.» (يو ١٧: ٢٣)

١٨: ١٤ «لا أترككم بتامس، إني آتي إليكم».

لا يزال المسيح يُعزي تلاميذه عن الفراق الذي سيواجهونه بعد موته وقيامته وذهابه إلى الآب. لقد أدرك المسيح مقدار تعلق تلاميذه به كأب وتعلقه بهم كأولاد: «يا أولادي، أنا معكم زماناً قليلاً بعد» (يو ١٣: ٣٣)، وكلمة «أولاد» هنا تأخذ صورتها المحبّة جداً على مستوى الأولاد الصغار τέκνα، «إذ كان قد أحب خاصته، ... أحبهم إلى المنتهى.» (يو ١٣: ١)

فإن كان المسيح قد شرح لهم ضرورة ذهابه إلى الآب، وأوضح لهم أن هذا الفراق سيكون لصالحهم، إذ سيرسل لهم الروح القدس المعزي، روح الحق، ليُمكث معهم ويكون فيهم؛ إلا أنه كان يدرك أن ذلك لا يُغنيهم عن عودته إليهم ورؤيته لهم.

«إني آتي إليكم»:

حيث فعل «آتي» هو في زمن المضارع المستمر بلا حدود ولا نهاية، وهو الذي ورد في الأصحاح الأول بهذا النحو: «كان النور الحقيقي... آتياً إلى العالم» (يو ١: ٩)، أي يظل يأتي ويأتي ليفضي كل الزمان إلى مآلانه. فوعد المسيح لتلاميذه: «إني آتي إليكم»، هو وعد «المجيء الدائم» الذي تحقّق أولاً بعد القيامة، بظهوره مرايت معدودة. ولكن بعد حلول الروح القدس يوم الخمسين، ظل مجيئه على مستوى الإقامة الدائمة الروحية في الكنيسة: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

فوجود المسيح في الكنيسة، هو وجود عضويّ عامل ودائم، لأن المسيح بالنسبة للكنيسة كالرأس بالنسبة للجسد: « وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل. » (أف ١ : ٢٢ و ٢٣)

ومعروف أن حلول الروح القدس، سواء كان ذلك في الكنيسة أو في الأفراد المؤمنين، إنما يتم لحساب المسيح، بمعنى أن وجود الروح القدس يكشف في الحال عن وجود المسيح. وحتى العزاء الذي يضطلع به الروح القدس في قلوب المؤمنين، يقوم على أساس استعلان الروح القدس لشخص المسيح، وتجليه — في كل مواقفه المحببة — داخل قلوب المؤمنين. وقد أمّدنا بولس الرسول بصورة للصليب، واقعية ومؤثرة، استعلنها الروح القدس في قلب بولس لشخص المسيح بالنسبة لبولس نفسه، فتأوه مُعَلِّناً عن صدقها: « الذي أحببني وأسلم نفسه لأجلي. » (غل ٢ : ٢٠)

وهكذا يأخذ الروح القدس من أعمال المسيح العامة، ويصوّرها للمؤمن كعملٍ شخصيٍ يخصه هو بالدرجة الأولى، لذلك نجد الرب يذكر إرساله للروح القدس أولاً، ثم يذكر مجيئه الشخصي لكل واحد!! لأن مجيئه إنما يُستعلن ويصوّر بواسطة الروح القدس الساكن في القلب.

ويلزم أن ننوه هنا أن الروح القدس هو روح الآب وروح الابن، فهو يحمل الوحدة الإلهية الكائنة بين الآب والابن، بقدر ما يحمل طابع الآب وطابع الابن، أي الحب الأبوي والحب البنوي معاً. فإما لغنى المجد الذي يرضع منه قلب الإنسان، حينما يحل فيه الروح القدس و يقيم. بل وإن الروح القدس يحمل رُبط الألفة والانسجام للوحدة القائمة بين ابن الله وابن الإنسان، ويحمل القوة التي جعلت وصيّرت الكلمة جسداً (لو ١ : ٣٥)، والتي أقامت المسيح من القبر في اليوم الثالث (رو ٨ : ١١). والروح القدس، روح الحق، بسكنته في قلب الإنسان، يغذي فكر الإنسان على الحق بالكلمة، كما يغذي روحه بهذا الحق، إنما بالفعل والقوة، ليدرك الإنسان ويرتقي إلى نصيبه في التبني، وشركة ميراثه مع المسيح في الله. إنه يأخذ من الرأس، ويعرف بالسر الأعضاء في الجسد، ويظل يملأ، حتى إلى كل ملء الله.

« لا أترككم يتامى » :

هذه إشارة بليغة إلى موته، حيث الموت الذي بدأ بخطو إليه بقدميه، والذي به يتيم التلاميذ إلى زمن؛ وهذه هي الجملة التي أوحى بالرد عليها مباشرة: « إني آتي إليكم »، ليرد تيئتهم إلى بُسُوّة جديدة لأبوة جديدة، التي هي بدورها إشارة بليغة إلى قيامته. فإن كان بموت المسيح يصبح التلاميذ يتامى، فبقيامته ومجيئه إليهم يدخلون توماً في عهد التبني وحنو الآب الدائم.

١٩:١٤ «بعد قليل لا يراني العالم أيضاً، وأما أنتم فسترونّني، إني أنا حيّ، فأنتم ستحيّون».

في الحقيقة، إن العالم لم يَرَه أبداً متجلياً على حقيقته «أنا هو *ἐγώ εἰμι*»، وإنما كان يراه كمواطن جليلي لا أكثر، وبهذه الرؤية يكون العالم قد قارب أن يفقد هذا المواطن الجليلي، إذ لم يَعدْ له أكثر من اثنتي عشرة ساعة يقضيها بين المحاكمات. أما تلاميذه، فقد «رأوا مجده» بالاستعلان — أي بالرؤيا الروحية — وآمنوا به. فإن كان سيختفي عنهم بالأنظار ساعات قليلة، فلن يظهروا لهم ثانية متجلياً برؤيا المجد، ولا يعود يختفي عن عيون إيمانهم قط: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً، ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع ١٠: ٤١ و٤٠)

«إني أنا حيّ»:

المسيح يَغرُ هنا على الموت، وكأنه لم يكن، لئلا يفقد نظر تلاميذه إلى قوة القيامة الكائنة فيه، فهو يرى نفسه هنا حيّاً وكأن القيامة كائنة في كيانه لا تفارقه. وبهذه الحياة الأبدية التي فيه، يضمن لتلاميذه معه شركة أكيدة فيها. ألم يقل: «وكلُّ مَنْ كان حيّاً وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد.» (يو ١١: ٢٦)

هذا القول يلتقطه بولس الرسول ويشهد له، من واقع حياته هو أيضاً الكائنة في حياة يسوع وبها: «الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح» (أف ٢: ٤ و٥)؛ «مع المسيح صُلِّيتُ، فأحيا — لا أنا — بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياء الآن في الجسد، فإنما أحياء في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي.» (غل ٢: ٢٠)

تركيز بولس الرسول هنا على قوة الإيمان الفعالة بالروح، لبلوغ شركة فعلية مع المسيح الحي، لنوال حياة دائمة بحياة المسيح وفيها. لأنه بحسب إيمان القديس بولس، فكلُّ مَنْ آمَنَ بالمسيح، يُصبح له شركة في المسيح: في موته، وفي قيامته، وفي حياته، وجلسه معه في السماويات؛ من أجل هذا تجسد ابن الله، ليعطينا هذه الحياة.

وعن كيفية حياته وامتدادها في تلاميذه بالروح يوضح المسيح هكذا:

٢٠:١٤ « في ذلك اليوم تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ ».

« في ذلك اليوم تعلمون »:

هنا واضح أنه يوم الاستعلان، وهو بلا شك يوم الخمسين، عندما حل الروح القدس، روح المعرفة والفهم، روح الاستعلان والكشف، وأول مَنْ سَيَسْتَعْلِنُه وسيشهد له الروح القدس هو المسيح، أنه ابن الله، الحقيقة التي من أجلها كتب ق. يوحنا إنجيله كله: « لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه » (يو ٢٠: ٣٠ و٣١)؛ الأمر الذي أكمله الروح القدس منذ يوم الخمسين فصاعداً، باستعلان علاقتنا بالمسيح، إذ يشهد بولس الرسول على شهادة الروح القدس في أعماقه: « لَأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ... أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبْنِي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ يَا أَبَا الْآبِ. الرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضاً يَشْهَدُ لِأَرْوَاحِنَا أَنَّا أَوْلَادُ اللَّهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلَاداً، فَإِنَّا وَرَثَةُ أَيْضاً، وَرَثَةُ اللَّهِ، وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ... » (رو ٨: ١٤-١٧)

وعلى مدى سفر الأعمال كله والرسائل، يشهد الروح القدس أن المسيح هو ابن الله. فأول عمل عمِلَه بولس الرسول بعد أن اعتمد، هو الكرازة بابن الله: « وتناول طعاماً فَتَقَوَّى... وللوقت جعل يركز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله » (أع ٩: ١٩ و٢٠). وهكذا تم قول الرب أن: « في ذلك اليوم تعلمون أَنِّي أَنَا فِي أَبِي ».

« أَنِّي أَنَا فِي أَبِي »:

هذا اصطلاح لاهوتي، أي يختص بطبيعة الله، ويفيد الوحدة القائمة بين الآب والابن، هذه الوحدة تؤمنها وحدة الطبيعة أي الجوهر. وجوهر الله هو ألوهيته؛ فالآب والابن جوهرهما واحد، ولا يوجد ثنائية في جوهر الله، لأنه بسيط غير منقسم ولا مركّب. والآب والابن صفات جوهرية أي صفات لطبيعة الإله الواحد. والآب والابن ذات واحدة، كاملة كمالاً مطلقاً؛ ويستحيل أن تكون الذات الكاملة آباً فقط أو ابناً فقط، فكل ذات هي آب وابن معاً. وإذا أخذنا الذات البشرية، أي الإنسان، نجده كذلك. فكل ذات (أي أنا وأنت) هي ابن ثم هي أيضاً أب، أي أن الذات فيها البُتُوَّة وفيها الأبُوَّة، كامنة، تُظهِرُهَا عوامل زمنية ونُضْجِيَّة. ولكن ذات الله كاملة أزلياً وأبدياً، فيها الأبُوَّة والبُتُوَّة معاً، لا متقدِّم فيهما ولا متأخِّر، ولا مُسْتَحْدَث فيهما ولا مُتَغَيِّر.

لهذا، فإن الآب والابن هما بالطبيعة متحدان ليكونا الذات الإلهية الواحدة — الله. ومن السهل بعد ذلك أن نقول، أن الآب في الابن كائن، وأن الابن في الآب كائن، وأن لهما المشيئة الإلهية الواحدة التي للذات الواحدة. ومن السهل البين أن تمارس الأبُوَّة في الله رسالتها بالانعطاف والحب

نحو البنوة وتعلنها، خاصة بعد التجسد، وأن تمارس البنوة رسالتها بالطاعة والحب، بعد التجسد، نحو الأبوة.

فلما شاء الله أن يخلص الإنسان بنفسه بأن يرفعه إليه، ويَهَبُ الحياةَ الأبدية، بَذَلَ البنوة التي فيه، أي ابنه، ليتجسد. وهكذا ظهر الله في الجسد، وهو الابن، وأطاع الآب، حتى أكمل رسالة الخلاص. وقد استطاع المسيح أن يبرهن عملياً، بحياته وموته وقيامته، أنه هو والآب واحد، قولاً وعملاً وسلوكاً. ولما حلَّ الروح القدس على التلاميذ، أكمل الروح القدس الشهادة للمسيح أنه ابن الله، وأنه واحد مع الآب، الأمر الذي صار محور الكرازة وأساس الخلاص.

«وأنتم فيَّ وأنا فيكم»:

المتكلم هنا هو المسيح ابنُ الله المتجسد، ولولا تجسده لما استطاع أن يقول هذا القول، ولكنه لما أخذ الطبيعة البشرية واتحد بها، استطاع أن يقول: «أنا فيكم»، أي في طبيعتكم، و«أنتم فيَّ» أي طبيعتكم صارت فيَّ. وهذا، بحد ذاته، هو الذي فتح أمامنا المجال لتجرباً ونطالب — بحق هذا التجسد — أن يكون لنا شركة معه أو فيه أو في حياته على وجه الأصح، وأيضاً أن يكون له وجود وشركة في حياتنا، بل هو الذي دعانا إلى تلك الشركة ومنحنا حقوقها بالتجسد. هذه الشركة مع المسيح كابن الله، الذي دعانا إليها، ومنحنا كل حقوقها، هي أيضاً حالة اتحاد. ولكن هناك فرقٌ شاسعٌ بين كلمة المسيح: «أنا في أبي» وبين «أنتم فيَّ وأنا فيكم». ففي الأولى، يقوم الاتحاد على أساس وحدة الطبيعة أي الجوهر الإلهي، وهو ينشئ ذاتاً واحدة؛ أما الوجود المتبادل في الحالة الثانية، فهو لا يرفع الفوارق ولا يوحد الذات بل يعطي حقوقاً مجانياً ويُعَبِّرُ عنه بمفهوم الشركة في حياة المسيح: «فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢: ٢٠)؛ «مَنْ يَأْكُلْ جسدي ويشرب دمي، يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦)؛ «فَمَنْ يَأْكُلْنِي، فهو يحيا بي.» (يو ٦: ٥٧)

هذا الاتحاد الذي يدعو إليه المسيح في موضع آخر: «أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣)، هو أيضاً حالة شركة، ويعبر عنها ق. يوحنا هكذا: «وأما شِرْكَتنا نحن، فهي مع الآب، ومع ابنه يسوع المسيح» (١ يو ١: ٣). وهذه الشركة لا يمكن أن تبلغ مداها الحقيقي سواء بالإدراك أو بالفعل، إلا في الحياة الأخرى، حيث يكون فيها الله الكلُّ في الكل، ولكنها تبدأ تتحقق منذ الآن جزئياً، وقليلًا قليلًا، على مستوى الاستعلان بواسطة الروح القدس، وعلى مستوى الفعل بتقديس الروح أيضاً، وذلك بالتغيير والتجديد المتواصل، بخلق الإنسان العتيق ولبس الجديد

الذي يتجدد حسب صورة خالقه، وعلى أساس الإتفاق الكامل في العمل والمشية مع الروح القدس، لتكميل الحياة المسيحية.

وإليك، أيها القارئ العزيز، محاولة مختصرة غاية الاختصار للتعبير عن اختبار الشركة مع المسيح بالروح، حيث نتبع النفس وهي تنطلق من عُقَلِهَا، لتطلع على الطبيعة الإلهية، وتتألف معها، من خلال نافذة الروح القدس. حيث تُفَاجَأُ النفس — من خلال وعيها الجديد المتفتح — برؤية الحقيقة لأول مرة، فتبدو الحقيقة كأنكشاف فجائي في الرؤيا الشخصية، حيث تُدرك النفس حقيقة المسيح المنيرة، بالإحساس الواعي لحضوره الإلهي.

هذا الإحساس ينطبع في النفس، ليخفظ فيها خطوطاً أبدية لا تفارق النفس مدى الحياة، وحيث صورة المسيح لا تفارق النفس الواعية بوجوده، وكأنه يلزم الروح: «أنتم فيّ وأنا فيكم». إنه نوع من الاتحاد الروحي العميق، تكتسب منه الروح تكاملاً جديداً، في كل اختبار، يقربها أكثر من المسيح، ويزيد وعيها نوراً وإدراكاً بألوهيته البسيطة المتناهية في البساطة. حيث يتذوق الإنسان حياة أخرى تماماً، بمواصفات جديدة على الفكر تماماً، أقوى ما فيها هو الفرح والسلام اللذان يسكنان في القلب: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فَرَحَكم منكم». (يو: ١٦: ٢٢)

ثم يبدأ الوعي المسيحي فيتحرك بنور حضرة المسيح، فينكشف أمامه سرُّ الخلق، وسرُّ التجديد، وسر القيامة والخلود، لا كأن هذه معارف جديدة، بل باعتبارها خصائص النفس ذاتها. أما الزمن، فيغيب بماضيه وحاضره ومستقبله عن وعي الإنسان، فلا يعود يشعر بمرور الساعات والأيام، أو تتابع الليل والنهار، إذ تستغرق النفس في رؤيتها وهي تتبع المسيح في حياته وكلماته، وهو متجلي في أفق النفس بملء بهائه، فتختفي من أمام العين كل الصور والمناظر، وهي في موضعها، فلا تعود العين الروحية تصطدم إلا بالحقائق وهي تتكشف أمامها. ولا يعود للبصر الروحي حواجز مادية تمنعه عن التغلغل في الوجود الروحي اللا محدود واللامحاصر. لا يعود البصر بالعين هو واسطة الرؤيا، بل تنفتح حواس الروح لتعامل مع الحقائق الإلهية بوعي جديد. وهكذا تدخل الروح في بيتها الأبوي: «في بيت أبي مَنَازِلُ كثيرة... أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأُعْهَدْتُ لَكُمْ مكاناً، آتي أيضاً وأأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً». (يو: ١٤: ٢ و ٣)

٢١:١٤ «الذي عنده وصاياي وحفظتها، فهو الذي يُحبني، والذي يُحبني، يُحبه أبي، وأنا أُحبه، وأظهر له ذاتي».

آية اختبارية يطرحها المسيح أمام عُشاق الحب الإلهي، ليستكمل فيهم ظهوره الإلهي. حينما قال المسيح في موضع آخر: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ٢٠)، لم يقلها عفويًا، وكأنه يسند قلبهم بالكلمة، ولكنه كان فِعْلاً وحقاً على وعد مع المحبين والعاشقين وحافظي عهده ووصاياهم، وليس بمجرد التواجد غير المُعلن، ولكن بالظهور الحقيقي المُستغلٍ للروح المنفتحة الخواس والقادرة على اجتلاء الرؤية.

وهل للرب وصايا فوق بساطة المحبة، التي لا تعرف أن تفرق بين صديق وعدو، أو تميز بين جميل وذميم، أو تُفضل مادحاً على قاذح. أو هل له وصية أقوى من اتضاع الإخلاء الصادق من كل ادّعاء الكرامة، وطلب المجد الدنيوي، والتسابق على الظهور، وشهوة المديح والسيادة. لقد أوصى الرب وأكد على أهمية الصلاة بدون قَلْبٍ، حتى تَشْتَعْلَن قوتها، ولَمْح على حتمية الطلبة ليلَ نهار، حتى ينسكب الروح القدس الحامل لكل أسرار الحياة. لقد شرح الرب، وأوضح الشرح بالتمثيل، كيف تقوم قوة الكرازة على أيدي الكارزين، حينما يغسلون أرجل بعضهم البعض، ليؤمن العالم أنهم تلاميذ الرب حقاً، ثم جعلها وصية عملية لكل الخادمين، لا حفلة تمثيل على مسرح الكنيسة.

لقد أوصى الرب الذين ثَبَتُوا وجههم نحو أورشليم العليا، أن لا يلتفتوا إلى الوراء ليودّعوا الأهل والأقرباء، مُحذراً إياهم أن أعداء الإنسان يكونون هم أهل بيته، إن هو طلب وجه الرب. وأنه بقدر ما يترك الإنسان من مباهج الدنيا وعواطف اللحم والدم، بقدر ما يأخذ مائة ضعف، كيلاً مهزوزاً مُلبداً، من مباهج الحياة الأبدية.

لقد أوصى الرب كثيراً بالأذن التي تسمع، والعين التي تبصر، والقلب الجيد الذي تنبت فيه الكلمة لتعطي ثمارها، وطوب حبة الخنطة التي فضّلت أن تموت، من أن تبقى وحدها، ووعداها بشمر كثير. ووصايا الرب تُنْسَك بعضها ببعض، والواحدة تجرّ الأخرى، لأن قوة خفية تنبع منها، لا نسكت ولا تهدأ، حتى تأني على الكل.

«يحبه أبي»:

«الذي عنده وصاياي» هي الأساس الذي عليه تقوم كل علاقة كلية وجزئية مع الله منذ القديم. فاحترام كلمة الله، هو التكريم الحقيقي والمباشر لشخص الله: «أكرم الذين يكرموني،

والذين يحتقرونني يصفرون.» (١ صم ٢ : ٣٠)

وأين ومتى وكيف نُكْرِمُ الله؟ إلا في كلمته واسمه. فكلمة الله واسمه يحملان شخصه، وينوبان عن وجوده، ويعملان عمله، والمسيح — تبارك اسمه — هو كلمة الله مُشَخَّصَة ومنظورة، وهو الحامل لاسمه $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\lambda\eta\mu$ ، فالتعامل الموقر مع المسيح هو تعامل مباشر مع الآب، وكيف نتعامل مع المسيح إلا في وصاياه؟ فالذي عنده وصايا يسوع، عنده الرب نفسه. والذي جلس تحت كلماته يتأدب بها ويتهذب، هو الذي اختار النصيب الصالح الذي لن يُنزع منه (لو ١٠ : ٤٢). «ومن ثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً» (٢ يو ٩)، «والذي يحب كثيراً، يُغفر له الكثير» (راجع لو ٧ : ٤٧)، أي يصير من المقربين إلى الآب.

وفي القديم، تعلمنا أن الله — الحكمة — يمكن أن يتبادل معنا الحب مباشرة: «أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إليّ يجدونني» (أم ٨ : ١٧)، وما التبكير إلى الله — أو إلى حكمته — إلا الصلاة، والهديز بكلمته الحية، في بكور النهار وبكور الحياة معاً.

والآن، وقد تجسد الكلمة، وسمعنا من فمه وصية جديدة، صار حبُّ الوصية هو حبُّ الابن والآب معاً. وردَّ الفعل عند الله لا يزال قائماً، فالذي يحبُّ الابن يحبه الآب؛ وحينما يحبُّنا الآب، فهذا معناه أنه تمت المصالحة وأثمر الصليب والغفران، ودخلنا فعلاً في ميراث البنين.

«وأنا أحبه»:

محبة الرب لنا قائمة على الصليب، أما بعد الصليب فهي مُخَضَّبَة بالدماء، حيث لا يمكن أن يكون حبُّ أعظم من هذا. ولكن «الذي» عنده وصايا يسوع، وقد حفظها في قلب واع «وعمل بها وعلم» (مت ٥ : ١٩)، فهذا يكون قد دخل في عهد نشيد الأنشاد، وتأهل أن يطلع على سر الحب الإلهي، ويكون قد انتقل من ميراث البنين إلى ميراث العروس، هذا يقول عنه القديس بولس الرسول إن: «مَنْ التصق بالرب، فهو روح واحد.» (١ كو ٦ : ١٧)

«وأظهر له ذاتي»:

الكلمة اليونانية $\epsilon\mu\phi\alpha\nu\lambda\sigma\omega$ تفيد معنى «يعرض بوضوح وبشكل بارز»، وهي نفس الكلمة التي جاءت في ظهور المسيح أمام الله: «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليُظَهَرَ الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ٢٤)، لذلك، فهي تفيد أكثر بكثير من معنى الاستعلان المنظور لشيء كان خفياً وأُظهِرَ والتي تأتي هكذا:

ἀποκαλύπτω، ولا هي ظهور شيء كان غير معروف سابقاً: φανερώ . ومعروف أن ظهور المسيح العلني المجسم والواضح لا يمكن أن تحيط به العين في حالتها الطبيعية، لأن المسيح الآن هو في حالة مجده الإلهي، الذي يفوق قدرة إحساس العين، إذ يتحتم أن يكون الروح متداخلاً وفعالاً في الحواس الروحية، حتى يتمكن الإنسان المؤمن، وليس المؤمن فقط، بل مَنْ بَلَّغَتْ روحه درجة نقاوة القلب والصفاء، بممارسة المحبة والهديز في كلمة الحياة، لكي يدرك المسيح في ظهوره الإلهي الفائق لمظاهر المادة والعالم.

ويلزم أن ننتبه جداً لتصريح الرب في هذا الأمر الفائق، إذ يقول إنه هو الذي سيُظهر ذاته، بمعنى أنه سيمارس عملاً فائقاً أو إعجازياً. وهذا يجعل ظهوره عملاً خاصاً به، يعطيه كيفما يشاء، ومتى شاء، ولكنه جعله في متناول كل إنسان: «الذي عنده وصاياي، ويحفظها، فهو الذي يحبني»، أي يؤدي شروط المحبة.

أما ظهور الرب، فيقين كالفجر، رآه بولس وهو ناظر إليه من السماء، في ضوء منتصف النهار، بوجه يلمع أكثر من الشمس، لأن الشمس وكل الأنوار هي ظلال وأقنعة للنور الحقيقي؛ فالأقنعة تختفي، والظلال تنمحي، حينما تفتح عين الروح ليتجلى أمامها النور الحقيقي، ويظهر عالم الروح على حقيقته، والرب يبرأجه.

لولا النور (المسيح) ما كان الظل (الخليقة)، ولكن الظل لا وجود له من ذاته، بل الوجود هو للنور وحده: «بنورك نرى نوراً» (مز ٣٦: ٩)، إذ لا يعود البصر بالعين بل تفتح حواس الروح المضيفة، لرؤية النور الحقيقي، فلا تعود الرؤيا تصطدم بالظلال (جوامد المادة)، بل تخترقها بلا عائق، وكأنها شفافة، دون أن تفارق موضعها، أو تضيع معالمها وأشكالها. وليست جوامد المخلوقات وحدها هي التي تخترقها أشعة الخلود فتذوب صورها المتباينة، بل وكل ما يصدر عن المادة والإنسان من الانفعالات الشئانية الهوجاء ذات الصعود والهبوط والدفع المتواصل، من نور وظلمة، وفرح واكتئاب، ورجاء وشقاء، وراحة وعناء، وميلاد وموت، هذه كلها تخترقها أشعة الخلود الصادرة من مصدر الخلق، من النور الحقيقي، من وجه يسوع فتهدأ وتكف جميعاً، ولا يبقى إلا الوجود الحقيقي الموحد، في مجال الإله المتجلي بنور لا يُدنى منه، في هدوء الأبدية اللامتناهية، وتستجلي أشعة النور تناسب من مصدرها الخالق، لتملأ كل الوجود، تُغذ وتخرق كل ما يصادفها، وبها يستنير الذهن الذي يطير على أجنحتها، ليتفشى بها الوجود، ويستجلي بها الموجودات، وكأنه ملتحم بالوجود الكلي، لا ينتهي عند حد أو أفق، فتتسع دائرة العقل الروحي، وتتقدس حركاته،

ولا يعود يرتاح أو يبتهج إلا في إرادة خالقه، وذلك حينما يخضع لها برفق ودون عناء، ويُصغي إلى الصوت الآتي إليه من الأبدية: «شاول شاول لماذا تضطهدني...» (أع ٩: ٤)

القديس بولس الرسول خبّرنا خبر اليقين عما رأى وسمع وعان، حينما حُمل بالروح، وطار على أجنحة النور، واخترق كل ظلال الأرض والسماوات، حتى السماء الثالثة، التي تصف فيها الرؤيا، ليتجلى عالم الروح دون أقنعة أو ظلال أو خيالات، حيث لا تعدو الحركات المادية تؤثر على الرؤيا أو تزيّف المنظور، وحيث تتحرر الروح، و ينفّث الوعي المسيحي، ليرى ما لم تَرَهُ عين، ويسمّع ما لم تسمعْه أذن، ويعي ويدرك ما لم يحظّرْ على قلب بشر، هذا أعلنه له الله خاصة، وكشف له بالروح كل مكنونات قلبه، أو كما قال بولس نفسه: «حتى أعماق الله!!» (١كو ٢: ١٠ و ٩)

ولكن، واحسرتاه! كنا نظن أنه قادر، بل أقدر منّ يستطيع أن يصف ويُسهب في الوصف، عن هذا الذي رأى، ولكنه كفّ عن النطق! غير أنه، بحذق الكاتب الماهر، حوّل المناظر إلى كلمات، وأخضع الرؤيا إلى تعاليم وعبارات. وظهور الرب له، بالبيان الروحي حوّلته إلى استعلان إنجيلي، وسلّمنا الرؤيا كبشارة: «وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بُشِّرْتُ به، أنه ليس بحسب إنسان، لأنني لم أقبّله من عند إنسان، ولا علّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.» (غل ١: ١٢ و ١١)

وهكذا، أيها الإخوة، كان الإنجيل الذي بشّر به بولس الرسول أحد مناظر الرب وإعلاناته: «إنه لا يوافقني أن أفتخر، فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته، أعرف إنساناً (هو بولس نفسه) في المسيح قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد، لست أعلم، أم خارج الجسد، لست أعلم، الله يعلم، اختُطِفَ هذا إلى السماء الثالثة... اختُطِفَ إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطقُ بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها.» (٢كو ١٢: ١-٤)

فقول الرب: «الذي يحبني أحبه، وأظهر له ذاتي»، هذا حقّقه لبولس الرسول إنجيلاً وبشارة، وعلماً ودراية، وحكمة روحية لم يُدانيه فيها أحد. فقد وقّع مناظر الرب على الكتابة، فكانت مبادئ وتعاليم، جعلت حياة ربنا يسوع المسيح، وكأنها صورة إلهية متألفة بالمجد والجلال. وحوّل صورة ذات الرب إلى إدراك، ومعرفة للاهوت المسيح، صار العقل يلبسها كإكليل مجد، لا يدانيه إكليل، في كل معارف بني الإنسان.

وق. يوحنا الإنجيلي رأى «ذات» الرب في رؤياه على هيئة ابن الإنسان، بعد أن عرفه باسمه:

+ «وسمعت ورائي صوتاً عظيماً، كصوت بوق، قائلاً: أنا هو الألف والياء، الأول والآخر... فالتفتُ لأنظر الصوت الذي تكلم معي، ولما التفتُ، رأيت سبعَ منابرٍ من ذهب، وفي وسط السبع المنابر شُبَّة ابن إنسان، متسربلاً بثوب إلى الرجلين، و متمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب، وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج، وعيناه كلهيب نار، ورجلاه شُبَّة النحاس النقي، كأنهما محمَّتان في أتون، وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه، ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها.» (رؤا : ١٠-١٦)

هنا لا نريد أن ندخل في شرح سفر الرؤيا. ولكننا بصدد «ظهور» علني للرب يسوع، حسب وعده الذي وعد أمام تلاميذه. ها هو يعلن ذاته، مستحسناً أن يظهر كابن الإنسان، وسط الكنائس على مدى عصورها السبعة حتى ختام الدهور، وهو قائم بينها بلباس الخدمة الأبيض المسترسل إلى القدمين، وطوق الذهب حول الصدر كرئيس كهنة الخيرات العتيدة، وشعره أبيض كالثلج بصورة «قديم الأيام»، وهو الله، عند دانيال النبي، وعيناه كلهيب نار تمحّص ضمائر القائمين على الخدمة، ورجلاه كنحاس محمّي في أتون، تصلح أن يدوس بها معصرة الآلام وحده على هامة أعدائه، وصوته كهدير مياه كثيرة، لأنه صوت الروح المتدفق بالحياة، تتكّس فيها كل كلماته التي خرجت من شفّتيه، لأن حرفاً واحداً منها لا يسقط. وفي يده اليمنى سبعة كواكب، الحاملة لمصائر المختارين من كل الناس والشعوب، وعليها أسماؤهم. ومن فمه يخرج سيف ماض ذو حدين، وهو سيف القضاء بكلمته، وحُدّ الدينونة — بحسب إنجيله — العتيدة أن تأتي على كل المسكونة، ووجهه كالشمس وهي تضيء في ملء قوتها. فهو هو نور العالم، ومعه لا يوجد شمس ولا قمر.

هكذا يُظهر المسيح ذاته — كما يتراءى له — وحسب حاجة الناظرين. فهو يظهر كمعلم غريب ومُسافر لتلميذي عمواس، والربّ العالي الممجّد في أعلى السموات لشاول، ورئيس الكهنة على كنائس الدهور ليوحنا الرائي، وابن الإنسان الجالس عن يمين العظمة في السماوات لإستفانوس الشهيد، ومسيح الصليب في روما لبطرس الهارب من حكم الموت!

٢٢: ١٤ «قال له يهوذا، لبس الإسخريوطي: يا سيّد ماذا حَدَثَ حتى إنك مُزِعج أن تُظهر ذاتك لنا، وليس للعالم.»

«يهوذا» اسم مزعج. لقد تيقظ له ق. يوحنا بسرعة وأضاف ما ينفي عنه عار سميّه؛ ربما كان

هذا في بدء المناذاة بإنجيل يوحنا على مستوى الوعظ من على منبر كنيسة أفسس . فحينما نَظَقَ بهذا الاسم رأى الوجوه قد اكفهرت، فاستطرد في الحال، وأصلح الحال : « ليس الإسخريوطي » !

كان آخر منظر ليسوع نَحَظَ خطوطه العميقة والمفرحة في قلب التلاميذ وفكرهم، هو يوم أحد الخوص، يوم دخول أورشليم الأخير، حين أعلن يسوع نفسه ملكاً بفم تلاميذه والأطفال، والمفهوم سرّاً لديهم أنه — ولا شك — هو المسياً الآتي، والباقي إلى الأبد. ألم ينادي علانية باقتراب ملكوت الله؟ إذاً، فلماذا هذا التغير المفاجيء في الحظّة؟ لماذا يحبس ظهوره على خاصته دون العالم؟ ولكن الفارق بين ما قال الرب، وما فهم يهوذا — ليس الإسخريوطي — هو: على أي مستوى يَتمَلِكُ يسوع المَسيّا؟ وعلى أي مستوى يظهر ويعلن ذاته؟ فالرب يتكلم عن السموات، ويهوذا يفكر في الأرض. الرب يعلن عن ألوهيته، ويهوذا ينظر إلى الجسد.

١٤ : ٢٣ « أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ : إِنْ أَحْبَبْتَنِي أَحَدٌ، يَحْفَظُ كَلَامِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً ».

«إليه نأتي» :

مفتاح هذه الآية، وما قبلها، يأتي في كلمة «نأتي» بالجمع — الآب وأنا — حيث كأنما يردُّ المسيح على يهوذا — ليس الإسخريوطي — قائلاً: إن أردت أن تعرف ماذا حدث، وماذا سيحدث، وأين أظهر، وكيف ولَمَنْ أظهر، فاعلم أنني سأكون مع الآب؛ وهذه إشارة مباشرة إلى لاهوته ووحدانيتته مع الآب، والكلام هنا يأتي موازياً لما قاله لفيلبس: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، وحيثما سيكون الآب سأكون أنا!! فإن أردت أن تراني، وإن أردتني أظهر لك ذاتي، فاعمل ما يحبه الآب، والآب يحبُّ مَنْ أَحْبَبَنِي، وليس أحدٌ يستطيع أن يحبني إن لم يحفظ كلامي!... حيث «كلامُ» المسيح يعني هنا، الإنجيل بل الكتاب المقدس ككلمة موحدة الهدف، وليست الوصايا المقسّمة والمتعددة الأهداف، وحيث الحفظ هو حِفْظ القلب، لا العقل وحده، وحفظ القلب لا يكون ولا يدوم، إلّا بالممارسة عن حُبِّ وشَغَفٍ!

«وعنده نصنع منزلاً» :

«عنده» باليونانية παρ' αὐτῆς وهي تفيد إقامة التميّة، وليس إقامة الحلول. ونحن نذكر أن علاقة الروح القدس بالتلاميذ والمؤمنين كانت: «ماكن معكم παρ' ὑμῖν ويكون فيكم ἐν ὑμῖν» (يو ١٤: ١٧). أي التواجد أولاً على مستوى تواجد المسيح — قبل الصليب — معهم

كمعلم وقائد ومُلهِم ومُخلص، ثم تواجد المسيح فيهم بعد القيامة والصعود والجلوس عن يمين الله: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧)، وهذا لا يتم إلا بالروح القدس.

فهنا، في هذه الآية، يعود المسيح ويخبرهم، أنه في جو المحبة، ومن خلال التمسك بالوصايا، وباللهج في «الكلمة» التي أعطاها ككل، ليس فقط يأتي الروح القدس والمسيح ويكونان معهم للقيادة والتعليم والشهادة والدفاع عن الإيمان؛ بل ويأتي الآب أيضاً مع المسيح ليصنع منزلاً $\mu ο ν ή ν$ في قلوبهم، كأب يسكب عليهم من روح أبوته، فيستمتعون بالبنوة لله، وينادونه بالروح الصارخ فيهم بالحب: «يا أبا الآب»: «لننال التبني، ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبا الآب.» (غل ٤: ٦-٥).

المنازل السماوية المعدة لنا فوق، والمنازل التي يصنعها المسيح والآب معنا الآن:

وهكذا يستعلن لنا المسيح «المنازل السماوية» فوق، التي أعدها المسيح ليأخذنا إليها، لنكون معه ومع الآب: وما كل حين ومنذ الآن، وبقيناً، عندما نخلع الإنسان الترابي ونستوطن عند الرب في النهاية. والقديس بولس عاين المنازل السماوية العليا، واطّلع على أمجادها، ولم يكن واثقاً هل كان ذلك بالجسد أم خارج الجسد، ولكنه كان واثقاً أنه رأى وعاين، وشاهد وشهد، لعظمة تلك المنازل العليا. وأيضاً هو القديس بولس نفسه، الذي يؤكد لنا مراراً أن الرب كان ينزل عنده من حين إلى حين، ليتكلم معه في وسط الضيقات مُرشدًا ومُشجّعًا: «فقال الرب لبولس برؤيا في الليل: لا تَخَفْ، بل تكَلِّمْ، ولا تسكت. لأنني أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك، لأن لي شعباً كثيراً في هذه المدينة.» (أع ١٨: ٩ و ١٠)

والرب نفسه وصف تواجده مع بولس، كَمَن يوجد في إناء مختار يستريح فيه: «فقال له (لحنانيا) الرب: اذهب، لأن هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أُمَمٍ وملوك وبني إسرائيل.» (أع ٩: ١٥)

وهكذا، أَعْطَيْنَا هذه السُّكنى بالروح مع الآب والابن، فوق، في المنازل العليا. وتَنَازَلَ الآب والابن ليسكننا عندنا هنا، تحت، في منازل كخيمة مؤقتة يعدّانها في قلوبنا، ليحملا معنا حرَّ النهار، ويشتركا معنا في ضيق الحياة. وهذا تنازل ما بعده تنازل من جهتهما، وتكريم ما بعده تكريم من نحنوا، إذ بذلك نفهم أننا لسنا يتامى، بل صِرْنَا فعلاً «أهل بيت الله» (أف ٢: ١٩)؛ وأنه قد صَدَّقَ الوعد الذي وعد: «وها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

ثم علينا أن ندرك ونتحقق، أن هذه السكنى لها ما يشهد عليها في أعماقنا، فهي حقيقة ناطقة ومحسوسة، هذا يؤكد ق. يوحنا: «وَمَنْ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، يَثْبِتُ فِيهِ (فِي الْمَسِيحِ)، وَهُوَ (الْمَسِيحُ) فِيهِ، وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّهُ يَثْبِتُ فِيْنَا، مِنَ الرُّوحِ الَّذِي أُعْطَانَا» (١ يوحنا ٢: ٢٤). وأيضاً: «بِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّا نَثْبِتُ فِيهِ وَهُوَ فِيْنَا، أَنَّهُ قَدْ أُعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ.» (١ يوحنا ٤: ١٣)

«فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله، إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.» (٢ كورنثوس ٦: ١٦)

وهذه الآية مجموعة من عدة نبؤات كالآتي: خروج ٢٩: ٤٥، ولاويين ٢٦: ١١ و١٢، وإرميا ٣١: ٣٣ و٣٨: ٣٢، وحزقيال ١١: ٢٠ و٣٦: ٢٨ و٣٧: ٢٦:

«وأقطع معهم عهد سلام، فيكون معهم عهداً مؤبداً، وأقرهم، وأكثرهم، وأجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد، ويكون مسكني فوقهم، وأكون لهم إلهاً، ويكونون لي شعباً.» (حزقيال ٣٧: ٢٦ و٢٧)

وينبغي أن نلاحظ أن ما صنعه الله قديماً من تواجده في وسط الشعب في خيمة الاجتماع وحلوله في الهيكل المصنوع بالأيادي، الذي كان صورة أو شبه السماويات وظلها، هذا حققه الله بالفعل بذاته بسكناه في الكنيسة كجسده السري:

[أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبية وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتنظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه. الملائكة ورؤساء الملائكة قيام، السارافيم ذوو الستة الأجنحة، والشاروبيم الممثلون أعياناً، يشترون وجوههم من بهاء عظمة مجده، غير المنظور ولا المنطوق به، يسبحون بصوت واحد، صارخين قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، ربُّ الصاباؤوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس.] (١٠)

وبحلوله في قلب المؤمن، كهيكله الخاص تماماً، يكون كمن أعاد كتابة نواميسه وكلمته من على الألواح الحجرية إلى ألواح القلب اللحمية وإلى أذهانهم الروحية: «قد سمعتم أنه قيل للقديسين... أما أنا فأقول...» (راجع متى ٥)

وإليك، أيها القارئ العزيز، أسوق كلمة توضيح، أن هذه الوعود تمت بكل صدق ودقة، وقد

عاشها القديسون واختبروها، وشهدوا لها في الكنيسة الحية الخالدة. فعليك يقع اللوم، إذا لم تكن قد اختبرت شهادة الروح القدس في قلبك، واستمعت بالوعي الروحي المسيحي الذي فيك إلى صوت الروح، وهو يهتف في أعماقك: يا أبا الآب، وتلذذت بتعطفات أبوة الآب الحانية، وعاشرت المسيح الوديع المتواضع بالحب المتبادل، ومسكت بيده، ومسك بيدك ليتغير بك مضائق العالم وأهواله، وذقت تعزيزات الروح القدس، وانسكبت من عينيك دموع الفرح، وطفرت قلبك فيك من قوة الروح المشتعلة بنار المسيح. فهذه حقائق أشد يقيناً من كل ما وعيناه في هذا العالم، والحب يعرف هذا.

٢٤: ١٤ «الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي. والكلام الذي تسمعونه، ليس لي، بل للآب الذي أرسلني».

المسيح، هنا، ينفي إمكانية مجيئه وسكنائه في القلوب، عن الذين أحبوا الظلمة، فأبغضوا النور لزماً، والذين أحبوا العالم الحاضر فأنجرفوا في تياره وعديموا حباً لله تماماً، والذين حفظوا علوم الدنيا وغرقوا في فلسفات هذا العالم وأغانيه ولهوه ومسرّاته، فجهلوا وتنكروا لله وكلماته.

والمسيح، هنا، يشهد على نفسه، أن كل ما قاله وسمعه منه هو من الآب وله؛ لذلك فالذين لم يقبلوه ولم يحفظوه، هؤلاء صيّرُوا أنفسهم غرباء عن الآب وأعداء: «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤: ٤). والمسيح، هنا، يردُّ من بعيد على كلام يهوذا — ليس الإسخريوطي — لماذا سيظهر لهم وليس للعالم. هنا المسيح يُبرز السبب بدقّة ووضوح، وهو انعدام المحبة وتجاهل الوصية. فمحبة العالم تفصل الإنسان عن الله، ومحبة الله تفصل الإنسان عن العالم. والذي يمارس أعمال الظلمة، يُبغضُ النور وأعمال النور رغماً عنه، بل ويثبّد على أبناء النور.

«والكلام (الأصح «الكلمة» اللوغس بالمفرد) الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني»:

كرر المسيح، في أوضاع كثيرة، أن الآب هو المصدر الذي يتكلم منه المسيح ويستمد فكره، بقصد استعلان الآب في ذاته، واستعلان وحدته الذاتية مع الآب، ورفع الكلام الذي يتكلم به إلى مستوى الرسالة الإلهية — اللوغس الخارج من عند الآب — الكلمة — التي إذا قبلها الإنسان بالأذن الروحية، واحتفظ بها في قلبه، ومارس مُحَتَوَاهَا الروحي، فإنه يدرك سر الآب والابن، سر الحب الإلهي، ويحياه ويلتحم به.

١٤: ٢٦ و ٢٥ «بهذا كلّمْتُكم، وأنا عندكم، وأما المُعزّي (الباراكليت)، الروح القدس، الذي سُبْرِيلُهُ الآبُ باسمي، فهو يعلمُكم كلَّ شيءٍ، ويدُكِّرُكم بكلَّ ما قُلْتُهُ لكم».

المسيح هنا يُجِيل جميع ما قاله في هذا المساء. وقد شعر المسيح، مراراً، أن التلاميذ لم يكونوا على مستوى الفهم الصحيح لهذا الكلام، الأمر الذي لم يمنع المسيح من الاستمرار في الحديث، مستنداً على أن الروح القدس حينما يحلُّ عليهم، سيُدكِّرهم بكل ما قاله ويشرحه لهم. وهذا ما تم بالفعل، إذ نحن هنا في إنجيل يوحنا بصدد تسجيلات هي من إلهام الروح القدس بلا نزاع، والتي بلغت من العمق والدقة في المعاني، والترتيب في سردها، درجة أرهقت أذهان جميع العلماء، بسبب الحكمة المذهلة التي كُتِبَتْ بها هذه الأحاديث. ويكفي أن يطلع القارئ على الأصحاح السابع عشر، ثم يسأل كيف سجل ق. يوحنا صلاة المسيح هذه بكل العمق والدقة اللذين فيها، والوقت كان مساءً، (وغالباً كان المكان جبل الزيتون)، والظلام يلفُّ المكان كله، والعقول متحيرة مما يحدث أمامهم، والمخاطر التي كانوا يتوقعونها كل لحظة؟ نعم، كيف كتب ق. يوحنا، أو كيف وُغِي كلمات هذه الصلاة التي جاءت كلماتها، بل وحروفها، موزونة بكل دقة بميزان اللاهوت بما يفوق كل حكمة الإنسان وإدراكاته. نعم، كيف تم ذلك؟ وكيف احتفظ بها ق. يوحنا أكثر من ستين سنة حتى دَوَّنَها؟ أليس هذا هو الروح القدس الذي كان حاضراً في ذهن ق. يوحنا، حسب وعد المسيح، ليرفع فكره كلمة كلمة إلى فكر المسيح نفسه: «أما نحن فلنا فكر المسيح» (١ كو ٢: ١٦). فكما كان المسيح يتكلم بفم الآب، هكذا كان ق. يوحنا يكتب بفكر المسيح، والروح القدس يوحى إليه بالإنجيل كلمة كلمة، كما يقول القديس بطرس: «مسوقين من الروح القدس». (٢ بط ١: ٢١)

«الباراكليت الروح القدس» (١):

ويلاحظ هنا أن الاسم الكامل لشخص الروح سبق أن وضعه الإنجيل: «الباراكليت» وهو اسم عَلِمَ مذكّر، بعد أن كان «روح الآب» و«روح الابن» و«الروح القدس» كلها تأتي في حالة الحياد الجنسي أي لا مذكر ولا مؤنث τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον. أما الباراكليت فهو، وإن كان يعبر عن صفة، إلا أنه يجيء كاسم شخص مذكّر عاقل، تماماً على مستوى أل آب وأل ابن ὁ παράκλητος.

«يرسله الآب باسمي» :

هنا يتذكر القارئ أن المسيح جاء باسم الآب : «أنا قد أتيت باسم أبي» (يوه : ٤٣ : ٥) = أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\lambda\mu\iota$ ؛ وها هو الروح القدس يأتي باسم المسيح . فكما كانت مهمة المسيح هي الإعلان والتعريف بالآب وتمجيده ، هكذا الروح القدس ، فمهمته هي الإعلان عن المسيح ، والتعريف بالابن وتمجيده : «ذاك يمجّدني ، لأنه يأخذ ممّا لي ويخبركم» (يوه : ١٦ : ١٤) ، «... روح الحق الذي من عند الآب ينبثق ، فهو يشهد لي» (يوه : ١٥ : ٢٦) . وكما كان المسيح لا يتكلم من نفسه بل من الآب ، هكذا الروح القدس «لا يتكلم من نفسه ، بل كلّ ما يسمع يتكلم به» (يوه : ١٦ : ١٣) . وكما أن المسيح اقتصرت رسالته التعليمية على التلاميذ ، كذلك الروح القدس ، فإن رسالته تقتصر على الكنيسة .

المسيح فتح وعي الرسل ليتقبّلوا سرّ الآب ؛ والروح القدس أعطى الكنيسة الوعي المسيحي لتقبل سرّ التجسد : أن «يسوع ربّ» (١ كو ١٢ : ٣) ، وأن «الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣ : ١٦)

ويلزم أن ندرك المعنى الإنجيلي لكلمة «الاسم» الذي طالما شرحناه (١٢) ، والذي يفيد الشخص الإلهي وطبيعته وقوته وعمله وقوله ومشيبته . لذلك جاء قول المسيح : «يرسله الآب "باسمي"» ، أي يرسله حاملاً مهمة الكشف والإعلان والتسليم لشخص المسيح ، من حيث أفتومه الإلهي ، وطبيعته ، وقوته ، وعمله ، وقوله ، ومشيبته .

وهذا المعنى يوضحه ، على المستوى العملي ، قول القديس بولس : «أن تتأثّدوا ، بالقوة ، بروحه ، في الإنسان الباطن ، ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم ، وأنتم متأصلون ومتأسّسون في المحبة» . (أف ٣ : ١٦-١٨)

«يرسله الآب» :

«يرسله» هنا فعلٌ يأتي في صيغة المستقبل الدائم ؛ فالروح القدس هو في حالة إرسال دائم من الآب ، للإعلان وللتكميل والشهادة فيما يخص الابن المتجسد ، وإرساليته ، أي الخلاص ؛ كما أن «يرسله الآب» تحييء في زمن المستقبل الدائم بمعنى امتداد إرسالية الابن . فكأن المسيح لا يزال يكمل إرسالية الآب له ، من واقع إرسالية الروح القدس للكنيسة كلها !

«يُعلّمكم كلّ شيء ، ويذكّركم بكل ما قلته لكم» :

عمل الروح القدس كان يؤدي هاتين الوظيفتين : يعلّم ، ويذكّر . أي يعلّم بحسب قدرته

الفائقة في الاستعلان لكل الأمور التي تخصُّ المسيح في شخصه، والتي تختصُّ بالخلّاص، وأسرار الحياة مع الله: وأيضاً يذكر التلاميذ بأقوال المسيح وكلماته، كما خرجت من فم المسيح، بمزيد من الاستنارة، وقوة البصيرة، وحدة الذكاء والذاكرة. وهذه كلها واضحة في إنجيل يوحنا ورسائله، وبقية الأناجيل والرسائل.

وقوله: «يعلّمكم كل شيء»، يوضح قول المسيح لتلاميذه: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق.» (يو: ١٦: ١٢ و١٣)

٢٧: ١٤ «سَلاماً أترك لكم. سَلامي أُعطِيكم، ليس كما يُعطي العالمُ أُعطِيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا تزعج.»

«واقطع معهم عهد سلام، فيكون معهم عهداً مؤبداً.»
(حز: ٢٦: ٣٧)
«ويُدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً، قديراً، أباً أبدياً،
رئيس السلام.» (إش: ٩: ٦)

«سلام»:

أصل الكلمة العبرية هو «شالوم»، وهي في العهد القديم ذات معانٍ واستخدامات كثيرة، وأكثرها يختص بالحياة في الدنيا. ويقابلها باليونانية: إيريني *eirēnē*. وفي الاستخدامات المدنية، ينحصر معناها في المعنى المقابل للعداوة؛ أما في الاستخدامات في أسفار العهد الجديد، فتنتطلق انطلاقة رأسية بارعة لتشرح العلاقة الصحيحة مع الله، التي هي أصل ومنبع كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وما يتحكّم في سلوكه وصفاته وأهدافه وكل حياته، ليس الحاضرة فقط بل والمستقبل أيضاً!!

ولا تكفي مئات الصفحات لتجمع فيها أصل وتفرعات هذه الكلمة الخصبة جداً، فهي نظير «المحبة». فالله محبة، والمسيح هو إله «السلام» (٢ كو: ١٣: ١١، في: ٤: ٩)، وهو الذي صالحنا مع الله، بعد عداوة، فأسس فينا «السلام» «بدم صليبه» (كو: ١: ٢٠) أخذاً وعطاءً، فنحن الآن «لنا سلام مع الله» (رو: ٥: ١)، «والمسيح هو سلامنا» (أف: ٢: ١٤)، والسلام الذي يعطيه الله يسكن عقولنا، وهو «بفوق العقل» (في: ٤: ٧)، أي يرفعه فوق ذاته، ويُدخله في الهدوء والسكينة

الإلهية، وكذلك يسكن قلوبنا «وَمَعْلَكَ عَلَيْهَا» (كو٣: ١٥)، فيوقف اضطرابها وجزعها و يُدْخِلُهَا في مجال الفرح الإلهي الذي يسود على الضيق والألم وَمَعْلَكَ فوقه: «فَرَجِيحٌ فِي الرَّجَاءِ، صَابِرِينَ فِي الضَّيْقِ» (رو١٢: ١٢)، «وَسَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.» (في ٤: ٧)

وهكذا، فإن مجال سلام الله في الإنسان هو في القلب والعقل كليهما، القلب منبعٌ والعقل مُصَبٌّ.

«سَلاماً أَتْرِكَ لَكُمْ. سَلامِي أُعْطِيكُمْ»:

السلام الذي يتركه المسيح، والسلام الذي يعطيه، هنا، هو في موضعه اللائق تماماً، لأن الرب يتكلم ويُركِّز على الفراق. وفي الآية (٢٥) قال: «بِهَذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ»، فهو الآن على أهبّة الذهاب، وكأنه يُقْرِؤُهُم السلام قبل ذهابه.

ولكن السلام عند المسيح يعني شيئاً مختلفاً عن السلام عند العالم: «ليس كما يعطي العالم أُعْطِيكُمْ». والمسيح هنا يذكر السلام في وضعين: الوضع الأول عهدٌ، إنه يقطع عهداً مؤثداً يتركه لهم، بوضعه العام بدون تعريف: «سَلاماً أَتْرِكَ لَكُمْ». والوضع الثاني، سلامه الخاص: «سَلامِي أُعْطِيكُمْ». أما السلام الأول بغير تعريف، فهو ليس التحية التي اعتاد أن يقولها لهم: «شالوم»، ولكنه في مفهومه الوداعي الأخير: «أتركه»، بمعنى «التركة» كميراث، بعد عشرة ستدخل تسجيلها النهائي لبداية عهدٍ جديد. أما سلامه الخاص في وضعه الثاني، فهو «عطية» أو هبة، من نوع عطية الحياة الأبدية، وصفة دائمة لها: «وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الْأَبَدِ.» (يو١٠: ٢٨)

فالمسيح هنا يَهَبُ تلاميذه هبة السلام الإلهي الذي يفوق العقل (في ٤: ٧)، وَمَعْلَكَ عَلَى الْقَلْبِ (كو٣: ١٥)، وَيُهْدِي الْأَقْدَامَ إِلَى طَرِيقِ السَّلامِ (لو١٩: ٧٩)، وَثَمَرُ بَرِّهِ يُزْرَعُ فِي السَّلامِ (يع٣: ١٨)، وَيَحُلُّ عَلَى أَبْنَاءِ السَّلامِ (لو١٠: ٦)، وأخيراً، سوف يتجلى بحلول الروح القدس ليدوم معهم ولهم إلى الأبد.

ويلاحظ أن المسيح كرّر عطيته للفرح مع السلام، وأيضاً فرحه الخاص: «وَأَتَكَلَّمُ بِهَذَا فِي الْعَالَمِ، لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلاً فِيهِمْ» (يو١٧: ١٣). لأن الفرح والسلام صِثْوَانِ عَزِيزَانِ لَا يَفْتَرِقَانِ. والسلام، إذا اقترن مع الفرح، فهو في مفهوم الإنجيل سَبَقٌ تَذَوُّقِي لطبيعة الحياة الأبدية، منتهى أَمَلِ الْإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ: «لَأَنْكُمْ بِفَرَجٍ تَخْرُجُونَ، وَبِسَلامٍ تَحْضُرُونَ. الْجِبَالُ وَالْآكَامُ تَشِيدُ

أمامكم ترثماً، وكل شجر الحقل تُصَفَّق بالأأيادي، عِوَضاً عن الشوك يَنْبُت سرّو، وعِوَضاً عن القريس يطلع آس، ويكون للرب اسماً علامةً أبديةً لا تنقطع» (إش ٥٥ : ١٢ و ١٣)، «لأن ليس ملكوت الله أكلًا وشرباً، بل هو بَرٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس» (رو ١٤ : ١٧)، «وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لُطف، صلاح، إيمان.» (غل ٥ : ٢٢)

ويلاحظ أن كلّاً من الفرح والسلام الذي يَهَبُهُ المسيح، سواء للتلاميذ أو للذين يؤمنون به، هو عطية روحية سماوية فائقة، يعطيها المسيح للذين يحبُّونه، الآن في هذا الزمان الحاضر ليحوّل به طبيعة الموت داخلنا (بسبب الخطية) إلى حياة (بسبب برّه الشخصي). الأمر الذي لَخَّصه في قوله : «بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو ٥ : ٢٤)

كما يلاحظ بشدّة قوله : «ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم» (يو ١٦ : ٢٢)، بمعنى أنه يوازن كل أتعاب وضيقات الزمان الحاضر ويغلبها، على مستوى : ليس كما يعطيكم العالم، أعطيكم أنا سلامي !!

والسيرُّ في هذا السلام القوي الدائم والفرح الكامل المقيم، هو أنهما سلام المسيح الشخصي وفرح المسيح الشخصي، الذي يمارس بهما الإعلان عن حضوره وعمله في القلب : «كَلِّمْتُكُمْ بهذا، لكي يثبت فرحي فيكم ويَكْمُل فرحكم» (يو ١٥ : ١١)، بمعنى أن فرحي يتحول فيكم إلى فرحكم، فيصبح فرحاً ثابتاً في المسيح وبه !! وهذه هي النتيجة الحتمية لقوله : «اثبتوا في محبتي» (يو ١٥ : ٩)، «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٥ : ٤). وهذا هو ميدان الجهاد المطروح أمام المسيحي.

«ليس كما يعطي العالم أعطيكُم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» :

نعم، فعطية المسيح إلهية، روحية، ثابتة باقية إلى الأبد؛ أما عطية العالم فهي تبدو ناضرة، مخضرة، زاهية، جميلة إلى زمن، كالزريع اليانع والزهرة الجميلة، ولكن سرعان ما يذبل الزرع، ويجف الزهر فيسقط. فسلام العالم مع الناس ومع الجسد إلى يوم أو إلى ساعة، وحزنه وغمه وقلقه إلى أيام وسنين. ما يُعطى باليمين يأخذه بالشمال، وما يُوهب في الشباب يُنزع في الشيخوخة. وأن يدوم في العالم سلام، فهذا ضَرْبٌ من المحال، فأعظم سلام يعطيه العالم للإنسان هو سلام الموت؛ أما سلام المسيح، ففوق أنه يبقى ويدوم، فهو يسود فوق اضطرابات الحياة، ويرفع القلب والفكر فوق زعازع الدنيا : «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم.» (يو ١٦ : ٣٣)

«لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» :

موقف التلاميذ بفراق المسيح سيكون غاية في الحرج؛ غنمات مُسْتَضَفَّة وسط ذئاب شريرة

للقتل وسفك الدماء، ولكن هوذا المسيح يستودعهم وديعة السلام، ضامناً لهم وللكنيسة كلها بهم، ومن بعدهم، هذا السلام كعطية فائقة. وقد أثبتت كل الأزمنة السالفة، بكل محنها البالغة حد الهول، صِدْقَ الرب.

و«السلام» في الأصل العبري يأتي من أصل «سالم»، أي غير منقوص أو مفقود شيء مهمما اعتُدي عليه. وبهذا تَغْنَى إشعياء النبي: «يجعل الخلاص أسواراً ومُثْرَسَةً. افتحوا الأبواب لتدخل الأمة السبارة الحافظة الأمانة. ذو الرأي المسكّن تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك متوكلٌ.» (إش ٢٦: ١-٣)

المسيح لما أعطى سلامه الخاص، حقّ له أن يُنبّههم عن الاضطراب، لأن سلامه يُعْتَبَر قوة غالبية ومنتصرة فوق كل أسباب الاضطراب. ثم ينبغي أن نفهم أن المسيح هنا يعطي «أمرأ»: «لا تضطرب قلوبكم، ولا ترهب»، هذا أمر واضح وصريح، فهو وصية، ووصية المسيح تحمل وعداً إلهياً وكأنها دُعَاء، ودُعَاء الله له قوة التنفيذ في داخله. فكل أمر للمسيح يحمل في طاعته قوة التنفيذ. وقد شرحنا الاضطراب سابقاً (انظر شرح الآية ١٤: ١)، أنه يكون بسبب الخوف من المجهول، كنتيجة لانقطاع الرُّبُط التي تربط القلب بقاعدته الثابتة الأمانة، وهو الله. كذلك الرهبة، وهي الجزع، وتكشف عن فقدان الإيمان، أيضاً كنتيجة للارتباط بالجسد والعالم. والرهبة والخوف هما على قمة الخطايا التي تحرم الإنسان من الحياة الأبدية (رؤ ٢١: ٨).

وقد صارت عطية السلام، كقوة، تُوهَبُ من فم الرسل والتلاميذ ضمن أهم مؤهلاتهم: «وأَيُّ بيت دخلتموه، فقولوا أولاً سلاماً لهذا البيت. فإن كان هناك ابن السلام، يحلّ سلامكم عليه، وإلا فيرجع إليكم» (لوقا ١٠: ٥ و٦). وقول الرب إن السلام يرجع إليهم في حالة عدم استحقاق أخذه، يفيد إفادة قاطعة أن السلام قوة روحية فعّالة من الله، تخرج مع النطق لتسكن القلب والفكر، وتقلّ النفس. فإذا لم تجد لها مكاناً في الآخرين، تعود مرة أخرى إلى ناطقتها، لتسكن فيه وتُزيده سلاماً، لأن كلمة الله لا تعود فارغة: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليّ فارغة، بل تعمل ما سُرِرتُ به، وتنجح فيما أرسلتها له.» (إش ٥٥: ١١)

والرسل والتلاميذ وكلّ خدام الله الأمناء الأقوياء بالروح، أعطي لهم أن يمنحوا سلام الله الذي يتبعهم أينما ساروا وأينما حلّوا، كقوة روحية مرافقة.

وقد أخذت الكنيسة هذا الدعاء الوداعي للمسيح «سلامي أعطيكم»، ووضعت في فم الكاهن

ليعطيه للشعب — أهل بيت الله — عند بدء كل صلاة: السلام للجميع *Ирини паче* ،
 وختاماً لكل صلاة: «اذهبوا بسلام، سلام الرب مع جميعكم». وفي كلا الدعائين يكون ردُّ
 الشعب: «ومع روحك أيضاً». وهذا الدعاء يستمد قوته من عطاء المسيح، فسلام المسيح هو قوة
 الصلح الذي أقامه المسيح بين الإنسان والله بدم صليبه (كو ١: ٢٠)، وكأننا يفتح الكاهن الصلاة
 باستحقاق دم المسيح، ليمسك سلام المسيح على عقول المؤمنين، ليشاركوا في العبادة بأذهان
 صالحة، ويختتمها بعطاء السلام، كوديعة في قلوبهم، يعيشون بها في مواجهة آتاع الحياة.

٢٨: ١٤ «سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ، لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لِأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الْآبِ، لِأَن أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي».

كانت هذه الآية موضع اجتهد ونقاش ومساجلة وحوار؛ بل ومقاومة، وقد اتخذها الهراطقة
 أساساً لإيمانهم الخاطيء وعقائدهم المنحرفة، إذ اعتبروها تفيد أن الابن أقل من الآب من جهة
 طبيعته، أي أنه ليس مساوياً للآب من جهة اللاهوت.

إن محور الجدل والمحاولات الكثيرة التي أرهقت اللاهوت المسيحي في هذه الآية هي قول
 المسيح: «لأن أباي أعظم مني». وفي هذه المعلومة، إذا انحرف الفكر عن البساطة الإعجازية
 التي فيها، يسقط في هوة تقسيم اللاهوت إلى أعظم وأقل، وبالتالي وضع الابن في وضع متدنٍّ عن
 الآب، ورفع الآب إلى درجة المسنول عن الابن.

وسنعرض للقارئ الشرح ونقدمه على جزئين:

الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون».

الجزء الثاني: «لأن أباي أعظم مني».

وسوف نقدم الجزء الثاني على الجزء الأول لأن هذا يستلزمه الشرح، بسبب تقديم المسيح كلمة
 «لأن» *γάρ* في الجزء الثاني من الآية، وهذا يجعل الجزء الأول «كنتم تفرحون» تابعاً للجزء
 الثاني من الآية: «لأن أباي أعظم مني».

فترتيب الشرح يكون هكذا: «لأن أباي أعظم مني، لو علمتم ذلك، لكنتم تفرحون لأنني أنا
 ذاهب ثم آتي إليكم». ولكن قوة الآية تكمن في جزئها الثاني الذي قدّمناه هنا.

وبإدخال الأمر نقول، إن شرح الآية يستلزم دائماً التمسك بموضعها في الكلام. فلا يصح إطلاقاً

أن نخلع الآية من مجرى الحديث ومن موضعها في الكلام، لكي نشرحها بمفردها، ونقيسها على الأصول اللاهوتية، بطرق اجتهادية تأملية.

فإذا أخذنا الآية التي نحن بصدددها، ومحورها هو: «لأن أبي أعظم مني»، نجد أن الظروف التي أوحت إلى قولها هي كالآتي:

أولاً: المسيح يتكلم في هذا الأصحاح وما قبله وما بعده عن الفراق الذي سيتم بينه وبين التلاميذ، بذهابه إلى الآب، وهو يجتهد ليوضح لهم أهميته.

ثانياً: روح التعزية التي حاول المسيح أن يحيط بها تلاميذه، حتى يخفف عنهم الحزن والضيق الذي ألم بهم.

ثالثاً: محاولة التهوين من شأن الموت الذي سيجوزه، باعتباره فترة قصيرة، يقوم بعدها، ويتراءى لهم، ويكون معهم وهم معه.

رابعاً: إن الموت الذي سيجوزه هو الوسيلة الهامة جداً التي بها سينطلق إلى الآب، مفتتحاً طريق الخلود، حاملاً معه المختارين.

خامساً: إن ذهابه إلى الآب هو مرتبط ارتباطاً أساسياً بإرسال الروح القدس، الذي سيقوم بتعزيزتهم وتعليمهم وتذكيرهم بكل ما قاله لهم وعمله لهم، وأنه سيكون معهم وفيهم عِوَضاً عنه، بل ويكشف لهم حضوره الدائم.

سادساً: تأكيدهم أن ذهابه إلى الآب، ولو أنه سيفقد رؤيته، إلا أنه «خَيْرٌ لهم أن أنطلق» (راجع يوحنا ١٦: ٧) من أن يبقى معهم. فهنا، ذهاب المسيح إلى الآب هو حالة قِيَمَها المسيح، أنها أعظم وأكثر خيراً بالنسبة لهم هم.

واضح، إذن، أن قول المسيح: «لأن أبي أعظم مني» هو مقولة خاصة بالظروف المحيطة بها وهي ذهاب المسيح إلى الآب، الذي هو حالة أفضل للتلاميذ وأكثر خيراً بالنسبة لهم. وهذا يجب أن يجعلهم يفرحون. لأن النتائج المتحصلة من ذهابه إلى الآب قد أجمَلَهَا لهم بقوله أنه إذا انطلق، سيطلب من الآب أن يرسل لهم باسمه معزياً آخر، هو الروح القدس. والروح القدس سيتولى شرح وتذكير التلاميذ بكل ما قاله المسيح، بالإضافة إلى أنه سيستعلن لهم كل الحق، ويُعرفهم بكل شيء، ويكشف لهم حقيقة المسيح وكل ما يختص به، لأنه سيكون واسطة حلول

المسيح فيهم، بالإضافة إلى أنه سيمجد المسيح فيهم وبهم، أي يجعلهم شهوداً وآيات لتمجيد المسيح.

هذا كله سيكون ثمرة ذهابه إلى الآب، فكيف لا يفرحون، إن كانوا قد أحبوا المسيح حقاً؟

الجزء الثاني: «لأن أبي أعظم مني»:

حينما يقول الابن إن أبي أعظم مني، فهو يتعرض لقانون الأبوة والبُنوة، في وضعه الإلهي الأمثل، الذي منه خرجت كل الأبوة وبُنوة في العالم، فالآب أعظم من الابن ليس لأنه أعظم جنساً، فاللاهوت في هذا واحد لا ينقسم ولا يتعالى، أو يتعظم في نفسه على نفسه، فالجوهر، أي الطبيعة، في الله واحد وبسيط غير متجزئ.

ولكن لما يقال أن جنس بني آدم هو بُنُوَّةٌ وأبُوَّةٌ، أو بالاختصار أن جنس الإنسان كجنس هو وحدة أو «واحد» يقوم على الذات الإنسانية التي فيها الأبوة والبُنوة، فالإنسان ذكراً كان أو أنثى هو إنسان، أي جنس واحد، وأصلاً خلق الله الجنس الإنساني ليكون واحداً وأنت المرأة كجزء منه وضيعة من ضلوعه، لذلك يُقال أن الرجل والمرأة حينما يتزاوجان، يصيران مرة أخرى جسداً واحداً.

فلو ارتفعنا إلى جنس الألوهة، وهو واحد حتماً، فهو حتماً يقوم على الذات الواحدة التي تمثله أو تُكوِّنه، وهذا الجنس يقوم بالتالي على الأبوة الواحدة الوحيدة والبُنوة الواحدة الوحيدة في الذات الكاملة الواحدة. وكوْنُ الآب أعظم من الابن في ذات الله الواحدة لا يفرق ولا يشي في الذات، ولكن هذا هو قانون الأبوة والبُنوة في الله، الذي انبثقت منه كل أبوة وبُنوة في العالم بقانونها الأدبي، أن الآب يكون دائماً أعظم من الابن، أدبياً، وليس طبيعةً، ولا جنساً، ولا موهبةً، ولا قوةً، لأن الأعظم في الأبوة الإنسانية لا يفيد أي صفة كانت سوى صفة الأبوة، أو اسم الأب في الذاتية البشرية وحسب.

فكون الآب أعظم من الابن، فهذا هو قانون قيام الذات الذي يضمن وحدتها وكمالها، فالله الآب يعطي الله الابن ليس لأنه أعنى ولا أقوى، ولكن منطق الذات المتكاملة يحتم بالحب عطاءً وأخذاً لتصير الذات مكتفية بذاتها وفي ذاتها. والحب يمثل العطاء الأعظم والأقوى في الذات الإلهية: «فالآب يحب الابن»، لأن هذا هو قانون الأبوة المحتسب، والابن يحب الآب، إنما كَرَدٌ فعلي مساوٍ تماماً، فهذا أيضاً قانون وفعل البُنوة

الحتامي. وهذا الحب المتبادل، يعطي للذات اكتفاءها. لذلك حينما يقول المسيح باعتباره الابن: «أبي أعظم مني»، فهو يشير إلى علاقة، فالحب في الله هو طبيعة العلاقة القائمة في الذات المتكاملة. لذلك، فالذات الإلهية هي «الاكتفاء» المطلق الوحيد (الكائن بذاته).

لذلك يقول المسيح في الأصحاح الخامس: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يوه: ٢٦)، فهو لم يُعْطِ حياة بل «أعطاه» أن يكون له حياة في ذاته. هذا أيضاً هو قانون الأبوة والبنوة العام. وفي الإنسان يكون نفس الوضع، لو أخذناه ليس على مستوى الفرد الواحد كأب إنما لو أخذناه على مستوى الذات الإنسانية الواحدة كجنس، فإن الأبوة في الذات الإنسانية أعطت بكيانها أن يكون للبنوة حياة في ذاتها. وهذه الحقيقة لا تظهر على مستوى الفرد الواحد في الجنس البشري إلا على مستوى النسل. حيث يعطي الأب حياة لابنه بالنسل، فتظهر الحياة، وهي تنتقل من الأب إلى الابن. وهذا حكم حكم الموت، لأنه بدون أن ينسل الإنسان تتوقف حياته على الأرض وتتلاشى الذات الإنسانية من العالم المادي. فلكي تظل الذات الإنسانية كائنة، وقائمة على الأرض، نَحْتَم عليها أن نَسْلَم شَقْلَةَ الروح التي فيها، بالنسل، إلى خَلْفِها، لتبقى وتدوم على الأرض.

أما الله فهو الكائن بذاته، والحيُّ بجوهره الذي لا يعرف الموت ولا التغير، وهو قائمٌ دائماً بذاته ليس فيه ظل دوران (الحركة و يتبعها الزمن)، فهو فوق الزمان والأكوان، وكلُّ كيانٍ يستمدُّ منه كيانه، وهو هو، لا يتغير، ولا يتبدل، وسنوه لا تفنى!!

لذلك، فالذات الإلهية منزَّهة عن النسل لذاتها. لأن الأبوة فيها دائمة بحياتها الأزلية فيها، والبنوة دائمة بحياتها الأزلية فيها أيضاً. فلا الأبوة تحتاج إلى مَنْ يقيمها، فهي قائمة دائمة، ولا البنوة تحتاج إلى مَنْ يُكْمِلُها، فهي كاملة مع الآب في ذات واحدة.

والأبوة في الله غير منحصرة في ذاتها، بل تُعْطِ عطاءً أزلياً وأبدياً، كل ما لها للابن. والابن غير منحصر في هذا الميراث الأبوي، بل يعمل به لحساب الآب، فكلُّ غِنَى ميراثه في الآب يرده للآب، عملاً، سواء كان الحب أو المجد أو الكرامة، حتى أن الابن — كما عرفناه في المسيح — سُمِّي بل تعيَّن لنا رباً — لمجد الآب!! «ويعترف كلُّ لسان أن يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب.» (في ٢: ١١)

والمجد الذي أعطاه الآب للابن: «المجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم» (يوه: ١٧: ٥)،

رَدَّه الابن للآب أعمالاً: «أنا مَجَّدْتُكَ على الأرض» (يو ١٧: ٤)؛ والحب الذي أعطاه الآب للابن: «الحب الذي أحببته به» (يو ١٧: ٢٦)، رَدَّه المسيح للآب بصورة منظورة لنا، في ذبيحة محبته على الصليب، صُلِّحاً للعالم كله مع الآب: «أي إن الله كان في المسيح مُصَالِحاً للعالم لنفسه» (٢ كوه: ١٩)، وتطهيراً لكل خطاة الأرض: «الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة؛ كَلَّمَنَا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ؛ الذي، وهو بهاء مجده، ورَسَمُ جَوْهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي.» (عب ١: ١-٣)

وبالاختصار، وبشمول يفوق العقل، فإن كل ميراث الابن في الآب، أو بمعنى آخر كل غنى الروح والمعرفة والمجد كميراث للابن، منحه الابن للذين آمنوا بالآب وبه. فورث الإنسان مع الابن في الله، الأمر المذهل للعقل، فقد صرنا بالمسيح وفيه «ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو ٨: ١٧). وأهم ما في هذا الميراث هو «البُنُوَّة» الدائمة، فهذا هو الملكوت الممنوح للإنسان، ميراث خيرات الله الروحية كبنين. وهكذا، بقدر ما ورث الابن الآب، رَدَّه للآب مشمولاً بدخول الإنسان هذا الميراث عينه، ليستوعب هذا الغنى الأبدي اللانهائي.

ولكن ميراث الابن للآب لا يشمل عطايا خارج الكيان الجوهرى في الذات الإلهية، لأن كل ما للآب هو للابن، وكل ما هو للابن هو للآب: «وكل ما هو لي، فهو لك. وما هو لك، فهو لي» (يو ١٧: ١٠). لهذا يقول المسيح: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). ولكن يتضمن العطاء والأخذ في الله بين الآب والابن تواجد الآب في الابن والابن في الآب. فكل واحد يعطي ذاته للآخر، بصورة فائقة، بحسب الطبيعة الفائقة لله. ولكن حتى هذا التواجد المطلق بين الآب والابن، استثماره الابن في الإنسان، لحساب غنى اللاهوت. فكما تواجد «الابن» في الجسد البشري، فتجسد، وصار «ابناً للإنسان»، وهو حامل البُنُوَّة الإلهية وكل غناها وميراثها؛ هكذا أعطى الإنسان، بصورة ما، كل من يؤمن ويقبل الابن المتجسد، أي المسيح، أن يتواجد الابن فيه، على قدر ما يطيق الإنسان ويحتمل: «اثبتوا فيّ، وأنا فيكم» (يو ١٥: ٤). وعاد يخاطب الآب بهذا القول العجيب: «ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط (التلاميذ)، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو ١٧: ٢٠ و٢١)

والمسيح، لكي يمهد هذا التواجد العالي القدر ويجعله مناسباً وممكناً، يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً، كما أننا نحن واحد.» (يو ١٧: ٢٢)

ثم يعود المسيح ليطبق التوازي في الوجود — مع حفظ الفارق بين ما للاهوت وما للإنسان — هكذا: «أنا فيهم، وأنت فيّ، ليكونوا مُكَمَّلين إلى واحد.» (يو ١٧: ٢٣)

وهنا، وفي كل مرة يشدد المسيح أن هذا الوجود الجديد للإنسان في عمق الصلة الأبوية والبنوية في الله هو آية، دائماً تكون لحساب الآب ليراها العالم: «ليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني.» (يو ١٧: ٢٣)

وهكذا تبدو رسالة الابن المتجسد في العالم كلها لحساب الآب.

وهكذا، أيها القارئ العزيز، ينكشف سر الإيمان المسيحي الأعظم، الذي كان مخفياً مدى كل الدهور السالفة، الذي أعلنه الله بإرساله الابن إلى العالم متجسداً، ليستعلن لنا «سر الآب والابن»، الذي به صار تجديد الخليقة البشرية ورفعها إلى مستوى البُنُوَّة لله، ومنحها كل مميزاتها، لحياة أبدية مجيدة، لسعادة الإنسان وفرحه، عِوَضَ كآبة عبودية الدهور السالفة والحزن والتنهد والبكاء تحت سُخْرَةِ الشيطان والجسد، الذي كتب به الإنسان تاريخه السالف.

نستخلص من هذا، أن الآب أعظم من الابن لأن هذا هو قانون الأبوَّة والبُنُوَّة؛ كذلك فالآب يعطي والابن يأخذ، وهذا أيضاً قانون الأبوَّة والبُنُوَّة، وهذا يرتد على الذات ليعطيها الاكتفاء والكمال والوحدانية الخصبية.

وبالنهاية، نكون قد بلغنا العمق والفنى في قول المسيح: «أبي أعظم مني»، والذي ينتهي إلى الاكتفاء والتكامل في الذات الإلهية، على أساس هذه الصفة التي تميز الأبوَّة تمييزاً أدبياً مُطلقاً، وهذا التمييز يجعل الذات الإلهية مُجِبَّة ومحبوبة، عاملة غير ساكنة، متكلمة غير صامتة، بل متكلمة سامعة، مُريدة فاعلة، ناظرة ومنظورة، راسلة ومُرْسَلة، عالمة ومتعلمة، مجيدة وممَّجدة.

وباختصار، هي ذات كاملة كملاً مطلقاً، مكثفية في كيائها اكتفاءً مطلقاً. فالذات الإلهية، كآب وابن، واحدة، ووحدتها غير واقعة تحت العجز والقوز. فوحدانية الله خِصْبَةٌ، ومن خصوبتها يفتني العالم. هذا، وعلى أساس ذلك، نسمع من فم المسيح أسرار هذا التكامل بين الآب والابن:

+ «لأن الآب يحب الابن، ويُرِيه جميع ما هو يعمل.» (يو ٥: ٢٠)

+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني، وأتمم عمله.» (يو ٤: ٣٤)

+ « لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلا ما ينظر الآب... » (يوه : ١٩)
 + « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمعُ أدين، ودينونتي عادلة. » (يوه : ٣٠)
 + « لأنني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني. » (يوه : ٣٠)
 + « تعلّمني ليس لي، بل للذي أرسلني. » (يوه : ١٦)
 + « أنا هو، ولست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلّم بهذا كما علّمني أبي. » (يوه : ٢٨)
 + « الذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه. »
 (يوه : ٢٩)

+ « أنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعه من الله. » (يوه : ٤٠)
 + « لأنني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني. » (يوه : ٤٢)
 + « لكنني أكرم أبي، وأنتم تهينونني. » (يوه : ٤٩)
 + « لأنني لم أتكلّم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا
 أتكلّم. » (يوه : ١٢ : ٤٩)
 + « الكلام الذي أكلّمكم به، لست أتكلّم به من نفسي، لكن الآب الحال فيّ هو يعمل
 الأعمال. » (يوه : ١٤ : ١٠)

هذه هي الأُبُوَّة في الله، وهذه هي البُئُوَّة في الله، ليس بينهما أيّ تنافر أو شقاق أو تعالٍ .
 يستحيل لأي إنسان يتمعن هذه الآيات أن يعثر على أي انقسام أو ثنائية، فالوحدة المطلقة بين
 الآب والابن والتكامل المطلق في الذات، يضمنها الحب المطلق من الآب نحو الابن، والطاعة
 المطلقة من الابن للآب. فالآب يشاء، والابن يكمل المشيئة بنفس القوة، والآب يتكلّم والابن
 يعلّم بنفس الكلام وببنفس الحكمة، والآب يعمل والابن يعمل بنفس القوة والافتقار.

فإذا قال الابن أن « الآب أعظم مني »، فلائه « آب » فقط والابن يُكرم الآب لأنه « ابن » :
 « لكنني أكرم أبي، وأنتم تهينونني » (يوه : ٤٩). ولكن إذا خرجنا خارج هذه الدائرة الخاصة جداً
 والنورانية الفائقة بين الآب والابن، أي ندخل إلى ما يخصنا نحن من هذه الأُبُوَّة والبُئُوَّة الإلهية،
 نسمع من المسيح التساوي المطلق في الكرامة والمجد.

« لكي يُكرم الجميع الابن، كما يُكرمون الآب. مَنْ لا يُكرم الابن، لا يكرم الآب الذي أرسله. » (يوه: ٢٣)

= كرامة واحدة للآب والابن = إله واحد.

« أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي. » (يوه: ١٤: ١) = الإيمان بالآب يُحتمل الإيمان بالابن، لأنهما ذات واحدة.

« أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل. » = العمل واحد بين الآب والابن. (يوه: ١٧)

« أنا والآب واحد. » (يوه: ١٠: ٣٠) = واحد في الجوهر والذات = إله واحد.

« وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي. » (يوه: ١٧: ١٠) = كل صفات ومميزات الآب هي في الابن وكل صفات ومميزات الابن هي في الآب = وحدة الصفات والمميزات.

« الذي رأي، فقد رأى الآب. » (يوه: ١٤: ٩) = الله الآب غير منظور. الله الابن هو منظور الآب. = الآب والابن منظور واحد.

« أنت أيها الآب فيّ، وأنا فيك. » = الكيان الواحد. (يوه: ١٧: ٢١)

« وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته. » (يوه: ١٧: ٣)

= معرفة الآب والابن فيها الحياة الأبدية.

هذه الآيات، تشير، بتأكيد، أن عمَل الآب غير الظاهر بعمله الابن في الظاهر، كذلك المشيئة وكل شيء، فالآب والابن لهما عمل واحد ومشيئة واحدة.

وفي الختام نقول، إن المسيح إذا قال: « أبي أعظم مني »، فذلك لأنه هكذا ينبغي أن يرى الابن أباه، فالآب يتحتم أن يكون عظيماً في عين الابن، لتكون الذات الإلهية كآب وابن عظيمة في تكاملها ووحدتها. أما من جهة العمل، فالتساوي في المشيئة والقدرة والحكمة هو مطلق بين الآب والابن، وأما من جهة الكرامة والمجد والعبادة والسجود فهو واحد بلا تفريق.

الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون»:

يلاحظ القارئ أن هناك صلة قوية وأساسية بين قوله: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون»، وبين قوله: «لأنني قلت أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني».

«لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون»:

هذه المعادلة قائمة بذاتها، كحقيقة أساسية في الإيمان المسيحي، لأن كل مَنْ أَحَبَّ المسيح، أحبه المسيح؛ وحب المسيح معه الفرح الدائم، الفرح الذي لا يُنْقَطُ به ومجيد: «الذي، وإن لم تروه، تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرح لا يُنْقَطُ به ومجيد.» (١ بط ١: ٨)

هذا ليس تعليماً بل اختباراً، وهو اختبار صادق مفتوح لكل مَنْ يريد. ولكن المسيح يكمل هذا الاختبار، بأن يسبِّه بسبب آخر هام، وهو: «لأنني قلتُ أمضي إلى الآب»، أي أن هذا بعد ذاته ينبغي أن يكون سبباً أيضاً لكي تفرحوا، إن كنتم تحبونني!

فلماذا يكون ذهاب المسيح إلى الآب سبباً لكي تفرح، إن كنا صادقين في محبة المسيح؟

هنا يمكن أن نفهم أن فرحنا يكون، إما للمسيح الذي نحبه لأنه سيكتسب مكاسب أخرى لحسابه، أو يكون فرحنا لأنفسنا بسبب المسيح الذي نحبه لأنه سيكتسب مكاسب أخرى لحسابنا.

أولاً: مكاسب المسيح حينما يمضي إلى الآب لأن الآب أعظم منه:

واضح أن مضيَّ المسيح إلى الآب، معناه أنه يختم رسالته الجسدية على الأرض ليبدأ رسالته عند الآب، أي ينتقل من الرسالة الأقل إلى الرسالة الأعظم. وهذا يشمل عدة مكاسب لا تُعدُّ ولا تُحصى، نذكر منها القليل الذي يُشعِّفنا به درايتنا بسر الإنجيل:

+ بادئ ذي بدء، سيقدم إلى الآب ذبيحته الحية، ليقف أمام الآب بجسده، كخروف قائم على عرش الله كأنه مذبوح (رؤ ٥: ٦). وهذه إضافة عجيبة ورهيبة لمركز الابن عند الآب، إذ سيأخذ الابن وصفاً جديداً دائماً لدى الآب بالنسبة لنا:

+ «بعد هذا نظرتُ، وإذا بابٌ مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرتُ في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالسٌ ... يخترُ الأربعة والعشرون شيخاً (قسيساً) قدامَ الجالس على العرش، ويسجدون للحَيِّ إلى أبد الآبدين، ويطرحون أكاليلهم أمام العرش،

قائلين : أنت مستحق، أيها الرب، أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخلقْتَ.

ورأيتُ على يمين الجالس على العرش سيفراً مكتوباً من داخل ومن وراء، مختوماً بسبعة ختموم (سفر الدينونة). ورأيت ملاكاً قوياً ينادي بصوت عظيم : مَنْ هو مستحق أن يفتح السفر ويفك ختمومه؟ ... فقال لي واحد من الشيوخ : لا تَبْكُ، هوذا قد غَلَبَ الأسدُ الذي من سبط يهوذا أصل داود، ليفتح السفر ويفك ختمومه السبعة. ورأيتُ فإذا وسط العرش ... خروف قائم كأنه مذبوح ... فأتى وأخذ السفر ... ولما أخذ السفر، خرَّت الأربعة الحيوانات والأربعة والعشرون شيخاً أمام الخروف، وهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً، هي صلوات القديسين، وهم يترغنون ترنيمة جديدة قائلين : مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختمومه، لأنك ذُبِحتَ واشتريتنا لله، بدمك، من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض ونظرت وسمعتُ صوتَ ملائكةٍ كثيرين حول العرش ... وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم : مستحق هو الخروف المذبوح، أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.

وكلُّ خليفة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر، كل ما فيها، سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف : البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الأبدين ... فقال لي : هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف، من أجل ذلك هم أمام عرش الله، ويخدمونه نهائراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحلُّ فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حية، ويمسح الله كلَّ دَمعةٍ من عيونهم. » (رؤ ٤ و ٥ و ٧)

فكيف لا يفرح، ليس التلاميذ فقط، بل كلُّ من آمنوا بذبيحة المسيح الحية! وهو جالس وسط عرش الله أبيه.

+ ونفرح له لأنه سيدخل ملكوته : «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده.» (لو ٢٤ : ٢٦)

هذا الملكوت الذي أعطاه إياه أبوه العظيم في أبوته : «شاكرين الآب الذي أهَّلنا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو ١ :

١٢ و ١٣)، فكيف لا يفرحون، إن كانوا فعلاً قد أحبوا المسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه؟

+ « لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات، فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمَّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضاً؛ وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل. » (أف ١ : ١٨-٢٣)

فكيف لا يفرحون بالمسيح وللمسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه، إن كانوا يحبونه حقاً؟

+ « فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفِعْ إِلَى كُلِّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ، فَاذْهَبُوا، وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ، وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. » (مت ٢٨ : ١٨ و ١٩)

فكيف لا يفرحون لأنه ذاهبٌ إلى الآب إن كانوا يحبونه حقاً؟

+ « إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً (خلَّص المسيبين تحت الخطية وأخذهم كأسرى الرجاء)، وأعطى الناس عطايا. وأما أنه صَّعِدَ، فما هو إلا إنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نزل، هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات، لكي يملأ الكل. » (أف ٤ : ٨-١٠)

فكيف لا يفرحون للمسيح لأنه ذاهب إلى أبيه، إن كانوا يحبونه حقاً؟

ثانياً: مكاسبنا التي تدعونا أن نفرح، لأن المسيح ذاهبٌ إلى أبيه إن كنا نحبه: أسباب لا حَصَرَ لها تدعونا أن نفرح ونتهلل لذهاب المسيح إلى أبيه.

+ « بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً. » (عب ٩ : ١٢)

+ « لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها، ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا. » (عب ٩ : ٢٤)

+ « وأما هذا، فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد، له كهنوت لا يزول، فمن ثَمَّ يقدر أن يخلص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حيٌّ في كل حين، ليشفع فيهم. »

(عب ٧ : ٢٤ و ٢٥)

+ «وإن أخطأ أحد، فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار.» (١ يوحنا ٢: ١)
 + «أنا أمضي لألحذ لكم مكاناً، وإن مضيتُ، وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً.» (يوحنا ١٤: ٢ و ٣)

+ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها، يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، لأنني ما مضى إلى أبي. ومهما سألتكم باسمي فذلك أفعله، لئتمجد الآب بالابن.» (يوحنا ١٤: ١٢ و ١٣)

+ «وأنا أطلب من الآب، فيعطيكُم معزياً آخر، ليملك معكم إلى الأبد ... وأما أنتم فتعرفونه لأنه ما كُت معكم، ويكون فيكم، لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم.» (يوحنا ١٤: ١٦-١٨)

+ «وأما المعزّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويدّركم بكل ما قلته لكم.» (يوحنا ١٤: ٢٦)

+ «الحق أقول لكم، إنكم أنتم الذين تبغتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (متى ١٩: ٢٨)

+ «وأنا أجعل لكم، كما جعل لي أبي، ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ...» (لوقا ٢٢: ٢٩)

+ «لأنه إن كنا، ونحن أعداء، قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً، ونحن مُصالحون، نخلص بحياته. وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضاً بالله ربنا يسوع المسيح، الذي نلنا به الآن المُصالحة.» (رومية ١٠: ١١ و ١٢)

+ «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً، فإننا ورثة أيضاً، وورثة الله، ووارثون مع المسيح.» (رومية ٨: ١٦ و ١٧)

وهكذا، في هذه الآية المزدحمة بالمعاني اللاهوتية (يوحنا ١٤: ٢٨)، التي أثيرَ فيها ذوو البصائر الكليلة، وطوّحت بهم في عدم الإيمان بوحدة الأبوة والبُوة، وبساواة الابن للآب في المجد والكرامة، رأينا كيف أسس بها هذا الإنجيل مبدأ تعظيم الأبوة، ليس على حساب تعالي الآب عن الابن في أيّ القدرات أو الاختلاف بينهما في أيّ الصفات، بل على أساس تكريم الابن للآب المردود من الآب للابن بنفس المقدار والقوة. فإن كان الآب أعظم من الابن، فالابن هو الوارث والمالك لهذه العظمة وحده، وهي مردودة له، لأنه الواحد الوحيد الذي له أن يقول لله

«أبي» بنوع الملكية والتخصص. فالله هو أبوه خاصة، والابن وحده هو الذي يملك الله كآب.

فإن قال الابن: «أبي أعظم مني»، فعظمة أبيه هي له، وهي له خاصة، وهو يملكها، بل وقد أتى هو لكي يستعلنها في نفسه، وذهب إلى الآب ليُفَدِّقَ منها علينا.

وبالنهاية، يلزم أن نفهم وننظر إلى تسامي عظمة الأبوة الإلهية على لسان المسيح «الابن» في هذه الآية، أنها في نطاق الوحدة والتساوي المطلق بين الآب والابن في جوهر اللاهوت الواحد، بكل خصائصه وشمائله.

أما بالنسبة للآية، ككل، فإن الذي يحب المسيح حقاً ويؤمن أنه ذهب إلى الآب فعلاً، فهو الذي ينال وعد مجيئه، ووعد إرساله الروح القدس من عند الآب.

٢٩: ١٤ «وَقُلْتُ لَكُمْ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ، تَوْمِنُونَ».

«الآن»:

«الآن» هنا هي ساعة المحنة التي ابتدأت بالفعل: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيس هذا العالم خارجاً» (يو ١٢: ٣١). لقد أحاط المسيح ذهن التلاميذ بكل الجوانب المظلمة لهذه التجربة القادمة، فكان «صادقاً وأميناً» (رؤ ٣: ١٤)، ولكنه أعطاهم كل الدلائل الواثقة، التي يمكن أن يعتمدوا عليها ليعبروا هذه المحنة، دون أن يتزعزعوا: «لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي» (يو ١٤: ١). ولكن المسيح اعتمد كثيراً على ما بعد المحنة، حينما يكتشف التلاميذ — ونحن معهم — صدق وأمانة المسيح في كل ما قال، قبل أن يحدث، بخصوص المحنة العظمى التي سيجوزها: الموت!! بكل أهواله؛ ليجدوا في القيامة تحقيق الوعد، ليصير إيمانهم بالمسيح وثيقاً، وإلى الأبد، وعلى مستوى الإيمان بالله: «أقول لكم الآن، قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أنني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ ». (يو ١٣: ١٩)

«قلت لكم»:

ما قاله المسيح في كل ما يختص بالآلام المزمعة والمحنة التي سيواجهها التلاميذ لفترة قصيرة للغاية، هي بحساب الزمن لم تَزِدْ عن ثلاثة أيام، ولكنها بحساب استعلان أعمال الله فهي مُخَاضُ الدهور السالفة كلها، منذ واجه الإنسان خروجه من لَدُنِ الله.

لقد تحمّل التلاميذ أصعب فترة انتقال واجهتها البشرية، ولا يمكن وصف صعوبتها وحقيقتها،

إلّا بما وصفه المسيح: «أنتم ستحزنون، ولكن حزنكم يتحول إلى فرح. المرأة وهي تلد تحزن، لأن ساعته قد جاءت. ولكن متى وَلَدَتِ الطفل، لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح، لأنه قد وُلِدَ إنسانٌ في العالم. فأنتم كذلك، عندكم الآن حُزْنٌ. ولكنني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم.» (يو ١٦ : ٢٠-٢٢)

ولكن اسمع الوجه الآخر لهذا الحزن وهذه المحنة، إنها «التجديد»: «أنتم الذين تبغتموني في التجديد παλιγ-γενεσίᾳ» (مت ١٩ : ٢٨). حيث هذه الكلمة اليونانية من أصل γένεσις، حيث يصير معنى الكلمة: يولد ثانية أو يولد من جديد، أو تفيد معنى «العودة من السبي». وعلى العموم تفيد في العهد الجديد: «القيامة» أو التجديد بالمعمودية^(١٣).

هذا الوصف، بكل عمقه، ينطبق على كل إنسان مسيحي، حينما يعاني نفس المحنة بكل أبعادها، لينتقل من الظلمة إلى النور، فيجوز المخاض بعينه، ليُستغلن له المسيح المُقام، ليشرق عليه نور القيامة، فيقوم، ليعيش جذّة الحياة كإنسان جديد، خليفة جديدة تحيا في فرح المسيح الدائم وسلامه ونصرته فوق العالم. حيث لا يعود ينظر الماضي بحزنه وضيقه وكآبته، إلّا كفترة تحضير قصيرة للغاية، مهما تكون قد أكلت من طول العمر وعرضه، يكفي أن يصير ما بقي من العمر في دائرة الوعد الإلهي بقيادة الروح القدس (١٤ : ٢٦).

١٤ : ٣٠ «لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيسَ هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء».

«كثيراً»: πολλά

لا يمكن أن يستقيم المعنى هنا بدون كلمة «كثيراً»، لأن المسيح استمر بالفعل يتكلم ويعلم، ولكن لقدر محدود. أما لماذا قال المسيح: «لا أتكلّم أيضاً معكم...». فهو بسبب إحساسه الفائق باقتراب الشيطان، «رئيس هذا العالم»، ممثلاً في الأشخاص الذين استخدمهم في مهمته المفضوحة، وبالتالي انتهاء زمن الكرازة والتحضير لعملية الخلاص العظمى. أو بمعنى أوضح، أن المسيح أكمل رسالة استعلان الآب بالكلمة، سواء بالتعليم، أو الآية، وقد حان تكميل رسالة الخلاص بذبيحة نفسه المحددة منذ الدهور. فالشيطان لا يتجاسر أن «يأتي»، دون إذن صادر من الآب ومن الابن أيضاً: «فبعد اللقمة دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت تَعْمَله فاعمله بأكثر سرعة.» (يو ١٣ : ٢٧)

¹³ Liddell & Scott, A Greek English Lexicon.

والمسيح قدير في الإحساس بخطوات العدو: «قوموا لنذهب، هوذا الذي يسلمني قد اقترب» (مر ١٤: ٤٢)، ويهوذا ليس في الحسبان، فهو مجرد آلة، ولكن إحساس الرب مُركّز تجاه رئيس العالم نفسه.

«رئيس هذا العالم»:

هذا الاصطلاح لم يرد في أسفار العهد الجديد إلا في هذه الآية، وفي الآية الأخرى ٣١: ١٢ و ١٦: ١١، وذلك في إنجيل ق. يوحنا. ولكن الاصطلاح المقابل الذي ورد في إنجيل القديس لوقا يُفهم من الحديث الذي جرى له مع المسيح على جبل التجربة: «ثم أبعده إبليس إلى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهنَّ، لأنه إليَّ قد دُفع، وأنا أعطيه لمن أريد.» (لوقا: ٤: ٦ و ٥)

أما القديس بولس الرسول فقد أعطاه لقب «إله الزمان»: «ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً، فإنما هو مكتوم في الهالكين، الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢ كو ٤: ٤ و ٣). حيث كلمة الدهر = αἰῶνος تفيد هذا الزمان أو هذا العالم. كما سمّاه بولس الرسول: «رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية.» (أف ٢: ٢)

كما سمي أعوان إبليس: «ولاة العالم»، من «رؤساء وسلاطين» شريرة، «وأجناد الشر الروحية»:

+ «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات.» (أف ٦: ١٢)

ولكن إزاء كل الأسماء الضخمة التي خلعت على الشيطان، وكل جنوده، وبالرغم من سلطانه الذي يدّعيه على ممالك العالم ومجدها، فقد أثبت المسيح تفاهة مُنتهاه، فمظهره مُرعب حقاً: «عندما يأتي العدو كنهراً»، ولكن نهايته تافهة جداً «فَتَفْخَهُ الرب تدفعه» (إش ٥٩: ١٩ — قارن مع ٢ تس ٨: ٢). ولقد صال يهوذا الإسخريوطي وجال، كأخطر آلة استخدمها الشيطان فعلاً (تلميذ من التلاميذ الاثني عشر)، ولكنه انتهى إلى خُلقٍ نفسه.

كذلك، فإن لنا أن نتأمل تلك الثورة الكبرى التي قادها الشيطان ضد المسيح، أثناء خدمته على الأرض، والتي انتهت بأعظم انتصار شكلي ضد المسيح، بأن استطاع استصدار حُكم صُلْبٍ

ضده من أعظم محكمتين للعدل في العالم : محكمة السنهدريم ، ومحكمة روما ؛ وكيف انتهت إلى فضيحة المحكمتين مع فضيحة الشيطان وأعوانه : « إذ جرّد الرياسات والسلطين ، أشهرهم جهاراً ، ظافراً بهم فيه (في الصليب) . » (كو ٢ : ١٥)

وليستبه القارىء ، ويتشجع ، فإنه إزاء قوة الشيطان على القتل : « ذاك كان قتلاً للناس من البدء » (يو ٨ : ٤٤) ، تقف قوة « الحياة الأبدية » $\kappa\omega\iota\eta$ في المسيح .

وإزاء الكذب — قوة الشيطان الأولى للتزييف والقتل — تقف قوة « الحق » $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ التي تُحيي في المسيح .

فالقتل جسدي ، والجسد زائل بطبيعته ؛ أما الحياة الأبدية فهي الخلود بالروح مع الله . الكذب هو حيلة الشيطان للغش ، التي يحبك بها المكائد ويزور بها الحقائق إلى حين ، أما الحق « الأليثيا » فهو القائم الدائم ، الذي له الغلبة النهائية بالحياة الأبدية .

فشكراً لله ، الذي أعطانا في المسيح يسوع الحق والحياة ، لنغلب بهما العالم ورئيسه .

« وليس له في شيء » :

بمعنى أن ليس في شيء يقع تحت سلطانه . كل إنسان ، للشيطان فيه شيء ، لهذا يطالب بدعوى الموت ثمناً للخطية ، ولكن المسيح يُقدّم نفسه للموت بحرية إرادته ، ثمناً لخطايا غيره . المسيح لم يكن من هذا العالم : « لأنهم ليسوا من العالم ، كما أنني أنا لست من العالم » (يو ١٧ : ١٤) ، « أنتم من هذا العالم ، أما أنا فلست من هذا العالم » (يو ٨ : ٢٣) ، قال هذا لليهود .

فالمسيح ليس من هذا العالم ، لذلك فرئيس هذا العالم ليس له فيه شيء بالضرورة . هذا يعني ، بصورة غير مباشرة ، أنه بلا خطية واحدة ! « من منكم يبكتني على خطية . » (يو ٨ : ٤٦)

هذا ، من جهة لاهوت الخلاص ، غاية في الأهمية ، لأنه يكون بالتالي قد مات من أجل غيره ، وهذه هي الكفارة العظمى :

— « على قدر ذلك ، قد صار يسوع ضامناً لعهد أفضل . وأولئك (كهنة العهد القديم) قد صاروا كهنة كثيرين ، من أجل منعهم بالموت عن البقاء . وأما هذا ، فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد ، له كهنوت لا يزول . فمن ثمَّ يقدر أن يُخلص أيضاً إلى التمام ، الذين يتقدمون به إلى الله ،

إذ هو حيٌّ في كل حين لِيَشْفَعَ فيهم، لأنه كان يليق بنا رئيسُ كهنة مثل هذا، قُدُّوس، بلا شرٍّ ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم؛ مثل رؤساء الكهنة، أن يُقدِّم ذبائح، أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدَّم نفسه!» (عب ٧ : ٢٢-٢٧)

٣١ : ١٤ «ولكن ليفهم العالمُ أنني أحبُّ الآب، وكما أوصاني الآب هكذا أفعلُ. قوموا ننطلق من ههنا».

الكلام هنا يحتاج إلى توضيح، لأن الآيتين مرتبطتان معاً، والمعنى هو:

ولو أنني لست من هذا العالم، وليس لي خطية واحدة مدين بها لرئيس هذا العالم، إلا أنني سمحتُ للشيطان أن يأتي إليّ، وسمحتُ لنفسي أن أموت، كمديونٍ عن خطايا كل العالم؛ ولكن ليس هذا تطوعاً مني، ولكن ليفهم العالم أنني أحبُّ الآب، والآب أوصاني أن أموت، وأفدي العالم بحياتي، لذلك أنا أفعل هذا مدفوعاً بحبِّ أبي وطاعتي لوصيته.

ثم أن المسيح يعلم أن هذه التضحية العظمى، بأن يقف أمام رئيس العالم، مدينوناً بالخطية، مسفوكاً دمه، وهو ديان العدل لكل المسكونة أحياء وأمواتاً؛ نعم كان يعلم أن ثمن كل هذا هو مغفرة خطايا كل العالم، وانتزاع سلطان الإدانة من الشيطان إلى الأبد، لذلك قال: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم.» (يو ١٦ : ٣٣)

«قوموا ننطلق من ههنا»:

هنا نواجه الصليب، أليس عمله أن يعلن حب الآب وينفذ وصيته؟

لقد تلاكأوا في الجلوس، بل وناموا في جشيماني، مثلما نعمل نحن الآن؛ ولكن إنَّ أجلاً أو عاجلاً سنتبعه: «ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو ١٣ : ٣٦)

إنه القائد، يهتف بجنوده أن لا يهابوا، وأن يتقدّموا، هوذا رئيس هذا العالم آتٍ، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب، قوموا ننطلق للمقابلة! «والسيد الرب يعينني، لذلك لا أخجل. لذلك جعلت وجهي كالصوّان، وعرفت أنني لا أخزي. قريب هو الذي يبرّرني. مَنْ يخاصمني؟ لنتوقف! مَنْ هو صاحبُ دعوى معي، ليتقدّم إليّ: هوذا السيد الرب يُعينني، مَنْ هو الذي يحكم عليّ... السيد الربُ فَتَح لي أذناً، وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد!!!» (إش ٥٠ : ٧-٩ و ٥)

الأصحاح الخامس عشر

حديث الوداع الثاني

الوحدة العضوية مع المسيح

عودة على ذي بدء:

لقد بدأ حديث المسيح مع تلاميذه، على العشاء، بعد غسل أرجلهم (الأصحاح ١٣)، بشرح معنى هذا الإجراء كأعداد للإرسالية العظمى، حيث كان التركيز على اتضاعهم بعضهم لبعض كمُرسلين أو كُرُسلٍ وتلاميذ. فكما غسل هو أرجلهم، وهو الذي أرسلهم، ينبغي أن يصنعوا كذلك بعضهم لبعض، ضماناً لنجاحهم وافتهم وسلامهم لحساب الرسالة.

ثم بدأ المسيح حديث الوداع الأول (الأصحاح ١٤)، وكان عن فراقه لهم، وذهابه إلى الآب، وكان أكثر الأحاديث عاطفية، وكان كله للتشجيع والاطمئنان أنه سيعود إليهم.

والمسيح يبدأ هنا (في الأصحاح ١٥) حديثاً فردياً دون أيّ تحاور مع أحد، حيث يُعتبر هذا الحديث المفرد (مونولوج) أطول حديث في إنجيل يوحنا، وهو يستغرق الأصحاح الخامس عشر كله وحتى الآية (١٥) من الأصحاح السادس عشر. ويأتي الفكر فيه مترابطاً، أولاً عن اتحاد بتلاميذه والمؤمنين، ثم ثمن هذا الاتحاد من اضطهاد العالم. فالمسيح يؤكد، بصورة قاطعة وعملية، أنه متحد بتلاميذه اتحاد الأصل في الكرم بالأغصان. وهذه الحقيقة ممتدة إلى جميع المؤمنين به. فالحديث عن فراق مؤقت، يوازنه حضور دائم في سر الشركة الأبدية. وكما عانى المسيح من اليهود، عداوةً وبغضةً واضطهاداً، فلا بد أن يشترك معه في هذا النصيب كل من اتحد به.

المسيح يصور شكل الكنيسة، وعلاقته الدائمة بالمؤمنين بعد انطلاقه. **الكرمة:**

سر دوامها، وسر قوتها هو من الداخل، وهو «المحبة»، كأغصان مشمرة، وكأعضاء عاملة معاً وفي المسيح وفي الآب. **الكنيسة:**

يضطهد الكنيسة بدون سبب، على مستوى المسيح، ولأجل اسمه! لأن رسالة المسيح يمارسها تلاميذه. **العالم:**

الباراكليت: روح الحق، يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون في العالم.

١:١٥ «أنا (هو) الكرمة الحقيقية وأبي الكرّم».

وكأنما يعلن المسيح هنا أنه أكمل حضوره التاريخي في العالم، بل وما هو فوق التاريخ أيضاً، فقد زُرِعَت الكرمة، إسرائيل الجديدة: جذورها في السماء وأغصانها على أرض الإنسان، وأكمل كيانها المنظور وغير المنظور، فقد أخرجت أغصانها الغضة، وجرى فيها عصيرها ودبَّت الحياة الإلهية في أعماقها، وهي على وشك أن تعطي ثمارها!!

ونحن هنا لا زلنا نعيش جو العشاء الأخير، إفخارستيا الذبيحة — و«عصير الكرمة» وكأسها الخلاصي هو عنصرها الأول السرائري — ثم نحن لا زلنا في حديث الوداع، ومشاعر الفراق الأليم. المسيح يتكلم عن الذهاب إلى الآب والمجيء، كل هذا ضمّنه استعلان نفسه «بالكرمة»، تصويراً يحمل الحقائق في شكل الرموز، هي ليست رموزاً ولكن حقائق في سرٍّ — لا يخفى عن الذهن المفتوح — لأن الكرمة وكأسها الممزوج على العشاء الأخير تضمّن، بالفعل، الذهاب إلى الآب وكذلك المجيء:

+ «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء». (١ كو ١١: ٢٦)

فإن كان المسيح، في الأصحاح الرابع عشر، قد تكلم شارحاً الذهاب والمجيء، ففي الأصحاح الخامس عشر وضح كيف نعيش هذا الذهاب وهذا المجيء، وكيف نشهد له!

وحينما يقول المسيح: «أنا هو» فهو يتكلم عن حقائق سماوية ثابتة^(١) (الأليشيا) تدخل لأول مرة إيماننا وحياتنا. فالكرمة عندما أخذت هذه الیسمة الإلهية: «أنا هو»، أصبحت حقيقة ممتدة عبر الدهور وفي السماء: «وأقول لكم، إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي» (مت ٢٦: ٢٩). ولكن هذا لا يفهم على أن المسيح يشرب من كأس الخلاص في السماء، بل المعنى أنه — وهو في السماء الآن، وهو في ملكوت أبيه، لا يزال يشاركنا كأس الخلاص في إفخارستية الأحد، التي يمارس حضورها، ويتولى بنفسه تقديم سرّ الدم والجسد فيها لكل مختاريه: «لأنني أقول لكم: إني لا أشرب من نتاج الكرمة، حتى يأتي ملكوت الله» (لو ٢٢: ١٨). فانقطاع المسيح من مشاركة تلاميذه في وليمة الإفخارستيا لم يتعقّب كثيراً، فلم يكن أكثر من أيام حينما عاد إليهم بعد القيامة وشاركهم

إفخارستيته من جديد. وهذا هو إيمان الكنيسة الأرثوذكسية، أن المسيح يقوم بإجراء سر العمداد وسر الإفخارستيا بنفسه، أما الكاهن فهو خادم الروح حسب (٢).

«أنا هو الكرمة»:

أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ ، المسيح يتكلم على مستوى الذات الإلهية: «أنا الكائن بذاتي». المجال، هنا، لا يشمل المقارنة أو التشبيه. فما يجيء بعد ذلك من صفات، لا يحتمل القول بأنه مثل من الأمثال. فـ «الكرمة» هنا هي في موضع ذات المسيح وصفته الإلهية — «أنا هو» — إنما في الواقع البشري، الكنيسة!! هذا هو المقابل السرائري للقول: «والكلمة صار جسداً». فالامتداد بالمعنى هو: والكلمة صار جسداً ليُصبح كنيسة! فالكنيسة هي غاية التجسد: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة» (أف ١: ٢٢)، «وهو رأس الجسد، الكنيسة.» (كو ١: ١٨)

فعلء المسيح الإلهي انفتح علينا لما تجسد، أي لما اتحد بجسدنا:
 + «فإنه فيه يجلُّ كلُّ ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه.» (كو ٢: ٩ و ١٠)
 وبالمقابل، لما اتحدنا بالمسيح — إيماناً وثبوتاً ومحبةً — صرنا أعضاء في جسده:
 + «هكذا، نحن الكثيرون، جسدٌ واحدٌ، في المسيح، وأعضاء بعضاً لبعض كلُّ واحد للآخر.» (رو ١٢: ٥)

+ «وأما أنتم فجسد المسيح، وأعضاؤه أفراداً.» (١ كو ١٢: ٢٧)
 + «لأننا أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥: ٣٠)

«الكرمة الحقيقية» (٣): ἀληθινή

أول ما تكلم إنجيل ق. يوحنا عن «الحقيقي» ἀληθινή كان بالنسبة للنور الحقيقي (١: ٩) τὸ φῶς τὸ ἀληθινόν، باعتباره نور الله الفائق للطبيعة في كيانه وعمله.

ثم تكلم عن «الحق» (١: ١٧) ἡ ἀλήθεια، باعتبار أن المسيح هو الذي أعلنه وأدخله إلى العالم، في شخصه، إذ هو حاملٌ لملء اللاهوت.

وبعد ذلك تكلم المسيح عن «الحبز الحقيقي» (٦: ٣٢) τὸν ἄρτον τὸν ἀληθινόν، باعتبار أنه عطية الله، وهو هو المسيح ذاته متجسداً، حيث صار جسد المسيح ذبيحة مقدمة لله

(٢) أنظر كتاب «العصرة» في «الروح القدس الرب المحيي»، للمؤلف، ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) راجع المدخل ص ٢٧٠-٢٧٢.

للفداء، صُرح للإنسان أن يأكل منها سرًا بالإيمان، ليعيش إلى الأبد.

والآن، يقدم لنا المسيح نفسه كرمة حقيقية $\eta \alpha \mu \pi \epsilon \lambda \omicron \varsigma \eta \alpha \lambda \eta \theta \iota \nu \eta$ ، على أساس أن الآب هو الكرّم، فهي كرمة ذات مصدر إلهي سماوي. هنا الجسد، والحياة في المسيح، وشخصه الكلّي ككلمة، يفتح على الإنسان ليقبل الاتحاد به بسرّ إلهي، ليصير الإنسان عضواً حياً في المسيح على مستوى الغصن في الكرم. ويقف الآب حارساً لهذا الإلتحام والثبوت، لأنه ثبوت إلهي هو وليس مادياً، يفتح على الآب حينما يفتح على الابن.

المقارنة هنا بين هذه الكرم الحقيقية والكرمة التي هي ليست حقيقية، تقوم على أساس صفة «الحق»: الأليثيا، وهي صفة الطبيعة الإلهية التي لها البقاء الأزلي، أي الخلود، وعدم التغير أو الفساد؛ حيث الكرمة التي في المقابل، لا بد وأنها وقعت تحت التحول والفساد. إرميا النبي يصف هذا التحول المؤسف لشعب إسرائيل، والمُكنّى عنه بالكرمة: «وأنا قد غرسْتُ كرمة سورق، زرع حقّ كلها. فكيف تحولت لي سُروغ جَفَنَةٍ غريبة. فإنك وإن اغتسلت بنطرون وأكثرت لنفسك الأشنان، فقد نُقشَ إثمك أمامي، يقول السيد الرب» (إر ٢: ٢١ و٢٢). والترجمة عن الأصل السبعيني تكون هكذا: «وأنا قد غرسْتُ كرمة ذات ثمار طيبة، صُنُفُها المزروع جيّدٌ بالحق كلياً، فكيف تحولت إلى كرمة غريبة مُرّة؟ فإنك حتى وإن اغتسلت بالنطرون، وأكثرت لنفسك الصابون، فقد نُقِشَ إثمك أمامي، يقول السيد الرب».

والمعنى واضح: فثعب إسرائيل هو الكرمة التي غرسها من أصول جيدة جداً وكلياً، سواء في الإثمار أو في نوعها المؤسّس على الحق، وهو الإيمان بالله والتقوى بفضائل العبادة. ولكن تحول الشعب مع السنين عن الله، واقترف أعمالاً رديئة، وصار كالعنب المرّ. وإذا تحولت الكرمة إلى مثل هذه المرارة، فلن تفيدها تطهيرات الناموس ولا إلى ألف مرة، أو تنفعها المخصّبات ولا إلى أقصى حد من الكثرة!! هنا كان ولا بد أن تُقَطَّع الكرمة الرديئة لتُزرع كرمة الأليثيا!

نعم، كان ولا بد لكي يحيا آدم مع الله مرة أخرى بعد أن تعدّى وفَسَدَ، أن يزرع له الله شجرة حياة ليأكل منها ويحيا؛ عوض الشجرة التي أكل منها عن تعدّ، فمات.

كانت شجرة الحياة التي في وسط الجنة هي بعينها المنوط بها استعلان الله الآب في الميعاد المعيّن، حينما يبلغ آدم قامة الإنسان الكامل في الإدراك، فكان الأكل منها آنذاك يفتح عينيه لإدراك معرفة سرّ الله والحق والخلود، فيخلد. ولكنه أكل قبل الميعاد، وعن تعدّ، فانفتحت عيناه

على المعرفة للخير والشر معاً، دون أن يكون له قوة على التمييز، ولا قوة على الانحياز إلى الخير.

فلما أكل عن تعدُّ، نال المعرفة. ومع المعرفة، لصق به الانحياز إلى الشر.

فمجداً لله! الذي أقام لنا الكرمة الحقيقية التي تُثمر «الحق» والحق كلياً، «أنا هو... الحق» (يو: ١٤: ٦)، فالذي يأكل منه تفتح عيناه على «الحق» وعلى «الحياة»، فيعرف الحق والله، ويحيا: «فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو: ٦: ٥٧)

وليس لاحظ القارئ، أن المسيح في الكلام قدَّم «أنا هو» على كلمة «الكرمة». «أنا هو الكرمة الحقيقية»، لكي يقطع خط الرجعة على كل فكر يحاول أن يفلت من هذه الحقيقة، ليحوِّلها إلى مجرد التأمل، أو التحديق في المُثل العليا: «فأنا هو الكرمة» يعني أنه قد أُدْخِلَ بالفعل والحق والواقع «الكرمة الحقيقية» بكل خصائصها الإلهية، إلى عالم الإنسان الجديد، ليأكل منها بالحق أكلاً حقيقياً، لينشئ في الإنسان ليس فقط معرفة «الحق»، بل والحياة في الحق: «فمن يأكلني فهو يحيا بي»، وليس فقط معرفة الحياة الأبدية مع الله وفي الله بل والثبوت في هذه الحياة: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو: ٦: ٥٦)

فليُنظر القارئ ويتحقق، بل ويتثبت، فهنا في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا، يؤسِّس المسيح جنة جديدة للإنسان، وفي وسطها الكرمة الحقيقية، شجرة الحياة الأبدية، حيث هنا لا يحذر الله أن لا يأكل منها الإنسان وإلا يموت، بل إن الله يحرِّضنا، بلسان ابنه، أنه إن لم نأكل منها موتاً نموت!!! «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم.» (يو: ٦: ٥٣)

الكرمة هنا سماوية، حية، ومُحيية، وبشرية، بأن واحد، قائمة في العالم وهي ليست من العالم، بسبب الأغصان، لذلك فقد دخلت تحت عناية الآب مباشرة. الإنسان أصبح على امتداد يد الله، بكل حنو الآب، وصرامة الكرام.

ولكن منذ القديم، والوحي الإلهي يتنقل بين الكرمة، وشخص ابن الإنسان، وكأنما هما معاً، أو واحد^(١).

«يا إله الجنود ارجعني، اطلع من السماء، وانظر وتعهَّد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسه

(١) راجع المدخل ص ٢٠١ و ٢٥٦-٢٥٧.

يَمِينُكَ، والابن الذي اخترته (٥) لنفسك ... لتكن يَدُكَ على رَجُلٍ يمينك، وعلى ابن آدم الذي اخترته لنفسيك. فلا نرتدَّ عنك. أحياناً فندعُو باسمك. يا رب إله الجنود، أرجعنا، أُنِرْ بوجهك فنُخلِّصَ.» (مز ٨٠: ١٤-١٩)

المسيح في هذا الأصحاح يحدد هوية الكرمة الحقيقية، حيث لا يذكر قط إسرائيل؛ ولكنه يعلن، بقوة، ما جاء في المزمور عن «رجل يمين الله»، «والابن»، «وابن الإنسان» بقوله «أنا هو» *ἐγώ εἰμι*

وفي الكرمة الحقيقية، التي هي جسد المسيح السري وأعضاؤه نحن، تتوزع الأعمال بين الآب والابن هكذا: فالابن يحمل في جسده المؤمنين الذي ثبتوا فيه، كأنهم أعضاء له من لحمه وعظامه، يعطيهم من جسده طعاماً ومن دمه شرباً، وهكذا من خلال المفهوم السرائري، إذ بعد أن حملهم في جسده أعضاء، حمل خطاياهم عنهم غافراً وماسحاً لكل ذنوبهم، مقدماً إياهم إلى أبيه الكرم.

أما الآب وهو الذي، في القديم، غرسها على الأرض: «كرمة من مصر نقلت، طردت أمماً وغرستها» (مز ٨٠: ٨)؛ فهو في الجديد أيضاً، الغارس في السماء. وبولس الرسول يصف عمل الله الآب في الكنيسة بكل قوة ووضوح هكذا: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح، أبو المجد، روح الحكمة والإعلان في معرفته (معرفة الله الآب)، مُستتيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته (دعوة الله الآب)، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين (ميراث الله الآب)، وما هي عظمة قدرته الفائقة (قدرة الله الآب) نحنوا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته (قوة الله الآب)، الذي غيَّله (الله الآب) في المسيح إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات (رجل يمينه)، فوق كل رئاسة، وسلطان، وقوة، وسيادة، وكل اسم يُسمَّى، ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً. وأخضع كل شيء تحت قدميه (قدمي يسوع المسيح)، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة، (الكرمة) التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف ١: ١٧-٢٣)

واضح هنا عمل الله الآب بالنسبة للكنيسة، أي الكرمة. فهو الذي «جعل» المسيح رأساً لها. وهو الأصل والسبب الذي يقف وراء كل ما عمله المسيح من أجلنا. و«من أجلنا» نجيء واضحة كل الوضوح في رسالة أفسس هكذا: «وما هي عظمة قدرته الفائقة نحنوا نحن المؤمنين (أعضاء الجسد، أغصان الكرمة)، حسب عمل شدة قوته، الذي عمله في المسيح ...» (أف ١: ١٩ و ٢٠)

(٥) «اخترته» جاءت في الترجمة السبعينية: «قوته» أو «شدته».

إذن، فالله الآب هو الذي أقام الرأس، وثبت الأعضاء حسب عمل شدة قوته في المسيح: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ، إن لم يجتذبه الآب» (يو٦: ٤٤). لذلك، يجيب المسيح نفسه على هذه الحقيقة بقوله: «كل ما يعطيني الآب فإليّ يُقبل، ومن يُقبل إليّ، لا أخرجته خارجاً» (يو٦: ٣٧)، «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد إلا ابنُ الهلاك، ليتم الكتاب.» (يو١٧: ١٢)

وقصد المسيح، كابن، هو أن تثمر الأعضاء، وذلك لكي يقدم أثمارهم للآب، كما قدم هو نفسه للآب: «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بشمر كثير، فتكونون تلاميذي.» (يو١٥: ٨)

فإذا نظرنا إلى الكرمة (الكنيسة) ككل، فإننا نسمع من القديس بولس أن الله هو الذي يُسميها، بمعنى أنه هو يعتني بها ويتسيطر على كيانها: «إذاً، ليس الغارمُ شيئاً، ولا الساقى، بل الله الذي يُسمي ... فإننا نحن عاملان مع الله، وأنتم فلاحه الله، بناءً الله» (١ كو٣: ٧ و٩). ولكن يلزم أن ندرك أن الآب لا يعمل بدون الابن، أي المسيح: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد اكتملته.» (يو١٧: ٤)

٢: ١٥ «كل عُصْفي فيّ لا يأتي بشمر، ينزعه. وكل ما يأتي بشمر يُنقى، ليأتي بشمر أكثر.»

هنا عمل الكرام في الكرمة هو، بالدرجة الأولى، مع الأغصان وليس مع المسيح؛ لأن بقية الصفات التركيبية للكرمة خلاف الأغصان، سواء الجذروما يتبعه من رّي ومُخصّبات، لا وجود لها في تشبيه المسيح لنفسه وللمؤمنين بالكرمة. وأيّ محاولة اجتهادية لاقتحام مجال التفكير فيها يُخرج تشبيه المسيح عن الغرض والمهدف والواقع. فالكرمة، فوق كل شيء، ليست نباتاً، والأغصان ليست خشباً وورقاً، والثمر ليس عنباً، وإلاّ نصبح وكأننا نشرب دم أنفسنا؟ فالكرمة هي جسد المسيح، وجسد المسيح السري هو الكنيسة، والأغصان هم المؤمنون «من لحمه وعظامه»، والثمار هي الإيمان والمحبة والشهادة.

فقول المسيح أنه الكرمة الحقيقية هو على مستوى قوله: «أنا هو الطريق.» فالمسيح، بتجسده ثم موته ثم قيامته، أوصل الإنسان بالله. والمسيح، ككرمة، أعطى فرصة للإنسان، من خلال التحامنا بجسده الذي فيه ملء اللاهوت، أن يجعلنا في مواجهة الآب وفي تناول يده للتقية والمزيد من الإثمار.

عمالان يقوم بهما «(الآب)» في صميم حياة الكرمة، فهو ككزّام يطلب الثمر، وعلى أساس الثمر يتعامل مع الأغصان. فالغصن غير المثمر ينزعه، لأنه يعطل نمو الكرمة، وينزل بمستوى الإثمار (أي مجد الله)، والغصن المثمر يعتني به، وينقيه، ليأتي بمزيد من الثمر (أي مزيد من المجد).

+ أما السنزُ أو القَطْعُ، فبقدر ما هو كارثة للغصن، إلا أنه نافع وجيّد ولائق للكرمة؛ علماً بأن الغصن غير المثمر لا ينفع فيه التنقية أو التقليم. والأمثلة على هذا الغصن المنزوع من الأصل كثيرة: فأمامنا يهوذا، كيف لما قطعه الله، قطع هو نفسه، ووقع ومات وجفّ، ولكن ربما كان القطع الأكثر خطورة في حياة الكرمة، أي في حياة الكنيسة، قديمها وجديدها، هو قطع إسرائيل ذاتها، ولو أن الوصف يعطيه بولس الرسول على الزيتون: «فستقول: قُطِعَتْ الأغصان (إسرائيل) لأظّم أنا، حسناً، من أجل عدم الإيمان قُطِعَتْ، وأنت بالإنسان ثَبَّتَ ...» (روا ١١: ١٩ و ٢٠)

+ وأما التنقية: καθαίρει فهي غريبة على مفهوم الأغصان والشجر، لأنها تفيد التطهير الروحي، والتطهير يتعامل مع النجاسة والشهوة بكل أصنافها! واضح من ذلك أن المسيح، باستخدامه لفظة التطهير، أراد أن يعطي للكرمة هنا مفهومها الروحي الصافي. أما بالنسبة للغصن، في مفهومه كفصن شجرة: فإذا انشغل بكثرة الأوراق مثلاً بإزالة الزائد منه هو تطهير، الذي يوازي التباهي بالأعمال والجمال والشكل عند المؤمن المسيحي؛ الذي يستحق، إزاء هذا، نوعاً من إختزال شيء من جماله أو قوته: «ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أُغِطِيتُ شوكةً في الجسد، ملاك الشيطان، ليلطمني، لئلا أرتفع.» (٢ كو ١٢: ٧)

«ليأتي بثمر أكثر»:

الله، منذ القديم، يعطي الاعتبار في اقتناؤه لشعبه على مستوى الثمر الأكثر، وقد أوضح ذلك مراراً، وعلى مستوى الكرمة والعنب!! «لأَنْثِيْدَنَّ عَنْ حَبِيْبِي نَشِيْدٌ مُجِيْبِي لِكْرْمِهِ. كَانَ لِحَبِيْبِي كَرْمٌ عَلَى أَكْثَمَةِ خَصْبَةٍ، فَتَقَبَّه، وَنَقَّى حِجَارَتَهُ، وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَق (كلمة عبرية = طيب الثمر)، وَبَنَى بَرْجاً فِي وَسْطِهِ، وَنَقَّرَ فِيهِ أَيْضاً مَعْصَرَةً، فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عَنْباً فَصْنَعَ عَنْباً رَدِيئاً. وَالْآنَ، يَا سَكَانَ أُورُشَلِيمَ وَرِجَالَ يَهُودَا (هم المقصودون)، احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي، مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضاً لِكْرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْ لَهُ؟ لِمَاذَا إِذَا انْتَظَرْتُ أَنْ يَصْنَعَ عَنْباً، صْنَعَ عَنْباً رَدِيئاً؟ فَالْآنَ، أَعْرِفْكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي، أَنْزَعُ سِيَّاحَهُ، فَيَصِيرُ لِلرَّعِي، أَهْدِمُ جِدْرَانَهُ، فَيَصِيرُ لِلدُّوْسِ — تَخْرِبُ أُورُشَلِيمَ وَهَيْكَلَ —، وَأَجْعَلُهُ خَرَاباً لَا يُقْضَبُ وَلَا يُنْقَبُ، فَيَطْلُعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ، وَأَوْصِي الْغَيْمَ أَنْ لَا يَمْطُرَ عَلَيْهِ مَطْراً.»

(إش ٥ : ١-٦)

فلينتبه القارئ إلى أسلوب المسيح في إنجيل يوحنا، الفصن الحى في الكرمة لا يُترك وشأنه، فكلُّ غصن مُطالَب بالثمر، فإما ثمرٌ، فحياة؛ وإما لا ثمر فلا حياة! ليست هناك أنصاف حلول. حتى الثمر القليل مُطالَب بأن يصير كثيراً!

هذا الثمر في الكرمة الإلهية الحقيقية ليس كالثمر في كرمة إسرائيل، أي مجرد الانتظام في أعمال الناموس. فالثمر، في العهد الجديد، رُوحى هو، وفي إنجيل يوحنا بالذات هو «المحبة»، الثمرة الممَّجدة التي لها رائحة المسيح الذكية، بحسب بولس الرسول (٢ كو ٢ : ١٥). وأما بحسب يوحنا الرسول: «كل مَنْ يحبُّ فقد وُلد من الله، ويعرف الله؛ وَمَنْ لا يحب، لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١ يو ٤ : ٧ و٨)، «مَنْ يثبت في المحبة، يثبت في الله، والله فيه» (١ يو ٤ : ١٦). وبالنهاية تكون المحبة هي علامة «الحياة»، وغيابها علامة الموت. «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة» (١ يو ٣ : ١٤). «مَنْ لا يحب أخاه، يبق في الموت؛ كلُّ مَنْ يبغض أخاه، فهو قاتل نفس.» (١ يو ٣ : ١٤ و١٥)

القديس أغسطينوس يوضح ذلك بقوله :

[الفصن يصلح فقط لواحد من اثنين، إما في الكرمة مثمراً، أو للحريق.]^(١)
« اذهبوا وامشوا بين صفوف كرمهم وحطّموها... انزعوا أغصانها، لأنهم ليسوا للرب »
(إر ١٠ : ١٠ حسب الترجمة السبعينية).

١٥ : ٣ «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام (الصحيح : «الكلمة») الذي كلّمتمكم به».

ما سبق المسيح وقاله عن الكرمة والكرّام والأغصان بصفة عامة — (الكنيسة) — يعود ويوضحه بصفة خاصة للتلاميذ. فأولاً، أراد أن يوضح لهم أنه هو شخصياً قد أكتمل عمله من نحوهم «الآن». فالتعليم الذي أعطاهم، على مستوى الكلمة الحية، الفاحصة، والبنائية، والمؤنّبة، والمعزّية، والمُسْتَعْلِنة للحق الإلهي، قد أجزله لهم بكل حكمة، حتى إنهم أصبحوا فعلاً أطهاراً بسبب هذا التعليم. ولا ننسى أنه سبق أن أعلن لهم ذلك : «الذي قد اغتسل، ليس له حاجة إلا إلى غسل رجله، بل هو طاهر كله، وأنتم طاهرون، ولكن ليس كلكم. لأنه عرف مُسلّمه»

^١ Aug., op. cit., Hom. LXXXI:3.

(يو ١٣ : ١١ و ١٠). وسنرى في الآيات القادمة ماذا كان ينقص التلاميذ بالفعل. فهم بالرغم من أنهم أنقياء بسبب التعليم، إلا أنه كان ينقصهم الثبات فيه، وهذا ما ركّز عليه المسيح كثيراً. وهذا ما ظهر في تفرّقهم ساعة المحنة، وتزكّهم المسيح وحده!! مما يكشف عن إرادة غير متعلمة جيداً للحق آنشد. فالثبوت في المسيح، لا يظهر إلا في ساعة الضيق، في أوقات الخسارة والاضطهاد، في المرض الشديد والألم، في التهديد بالتعذيب أو النعمة. هنا قوة الكلمة في تثبيت الغصن أو العضو، والإرادة الثابتة في إرادة المسيح لا تتزعزع، بل ترتقي إلى سلام داخلي، وهدوء، وصبر بديع!

والملاحظ هنا أن الآب ينقي، والابن ينقي، فهو عمل مشترك؛ الآب ينقي بالتجارب النافعة، والابن ينقي بالكلمة المطهرة.

أطهار: καθαροι

كلمة «أطهار» ولو أنها تختص بالروحانيات، ولكن العهد القديم استخدمها أيضاً في مواضع مشابهة للكرمة. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى المنبع الذي أشار إليه المسيح في العهد القديم، بصورة سرية غاية في الروعة:

«ومتى دخلتم الأرض، وغرستم كل شجرة للطعام، تحسبون ثمرها غُرْلَتَهَا (أي نجاستها) «ثلاث سنين» تكون لكم غُلْفَاء — غير طاهرة — ἀπερίκάθατος لا يؤكل منها، وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قُدْساً لتمجيد الرب، وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها لتزيد لكم غُلَّتَهَا، أنا الرب إلهكم.» (لا ١٩ : ٢٣ — ٢٥)

ويكاد هذا التشبيه بألفاظه هو الذي قيل في الكرمة: «غرستم»، «ثمرها»، «لتمجيد الرب»، «بهذا يتمجد أبي، أن تأتوا بثمر كثير» (يو ١٥ : ٨). «لتزيد لكم غلتها» = «يأتي بثمر كثير».

وإذا لاحظنا أن المسيح يتكلم هنا في نهاية خدمته على الأرض التي استغرقت بحسب إنجيل يوحنا «ثلاث سنوات» ونصف تقريباً، إذن فمثّل الكرمة قيل في السنة الرابعة، حيث أصبحت أغصان الكرمة طاهرة وثمرها قُدْساً لتمجيد الرب.

وهنا ينطلق أمامنا المجال لمعانٍ أعمق لكلمة «أنتم أطهار». فالأمر لا يختص بالخطايا، شأنهم شأن الشجرة في أرض الميعاد، وقد جازت سنين الاختبار الثلاث. فالآن، ليس ما يمنع أن يصبح

إثمارهم قُدساً للرب، بمعنى النضج الكامل الذي يليق بالآب : «إذ طَهَّرَ بالإيمان قلوبهم .»
(أع ١٥ : ٩)

ولكن في ختام هذه الآية، نود أن نحفظ بقول الرب : «أنتم أنقياء لسبب الكلام الذي كلَّمْتُكم به .» فكلمة المسيح لها هذه القوة، لها أن تُطَهَّرَ وتُقَدَّسَ، وتُخَيَّي، وتَلِدُ من جديد!! فهل يمكن أن نسر لها كل يوم متعلِّمين ومتلمذين؟ إن الإنجيل هو سرُّ القداسة!

١٥ : ٤ «أَثْبِتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ، كما أن الغُصْنَ لا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِشَمْرِ مِنْ ذَاتِهِ، إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ، كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ!»!

«اثبتوا» : μένετε, μένειν

هذه الكلمة جاءت في أسفار العهد الجديد ١١٢ مرة، منها ٦٦ مرة في إنجيل ورسائل ق. يوحنا وحده : ٤٠ مرة في إنجيله و ٢٣ مرة في رسالته الأولى و ٣ مرات في رسالته الثانية.

وإنجيل يوحنا يستخدم هذا الفعل للتعبير عن الحلول، أو التلازم غير القابل للتغيير، بنوع من التحصين بين المؤمنين ممثّلين في التلاميذ. ويُقصدُ بذلك الحلول غير المتغير، أن يُزَقَّعَ الواقع المسيحي في العبادة والإيمان على ما يدّعيه فلاسفة اليونان من خبرات التأمل وبلوغ العقل حالات الاتصال بالنور، التي تكون في أعظم حالاتها وقتية، وإلى لحظات خاطفة. كذلك يفرّق بين العبادة المسيحية وبين تلك اليهودية القائمة على حالات حلول الروح وقتياً على الأنبياء، وهذا كان أفخر خبرات إسرائيل.

لذلك يقرر الإنجيل، أولاً وبوضوح، أن الله يشبث في المسيح : «الآب الحال فيَّ»
ὁ πατήρ ὁ ἐν ἐμοὶ μένων هو يعمل الأعمال .» (يو ١٤ : ١٠)

هنا كلمة «الحال فيَّ»، تُترجم : «الآب الحال فيَّ بثبوت دائم». هذا هو نموذج الحلول الثابت المحصّن. ثم يستخدم الإنجيل هذا الثبوت نفسه بنفس الكلمة في حالة ثبوت المؤمنين في المسيح كما المسيح فيهم : «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ مُعَـمَـلٌ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو ٦ : ٥٦). هنا تطبيق عملي لثبوت الله في المسيح، حيث إذ يتناول المؤمن جسد المسيح ودمه يحلُّ المسيح ويشبُّثُ في المؤمنين على مستوى عمل جسده ودمه؛ وعمل الجسد والدم هو: الفداء، والتقديس، وإعطاء الحياة التي فيهما، لتبقى وتدوم في المؤمنين.

وفي الرسالة الأولى للقديس يوحنا يضع التوازي بين ثبوت المسيح في الآب وثبوت المؤمنين في المسيح على المستوى العملي هكذا: «من قال إنه ثابت $\mu\epsilon\upsilon\epsilon\iota\nu$ فيه (في المسيح)، ينبغي أنه كما سلك ذاك (المسيح)، هكذا يسلك هو أيضاً» (١ يوحنا ٢: ٦)، بمعنى أن المسيح أثبت ثبوته في الآب بطاعته حتى الموت، هكذا يكون ثبوتنا نحن في المسيح. ثم ينتقل ق. يوحنا من الثبوت الشخصي في المسيح إلى الثبوت في «المسحة»، أي نعمة الروح القدس التي نالها المؤمن وقت العماد بدهن الزيت ووضع اليد، ليس من جهة الشكل بل بالفعل، وهو الإستنارة الروحية والإفراز:

«وأما أنتم، فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة $\mu\epsilon\upsilon\epsilon\iota$ فيكم، ولا حاجة بكم إلى أن يُعَلِّمكم أحد، بل كما تُعَلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حق وليست كذباً؛ كما عَلَّمَتْكُمْ، تثبتون $\mu\epsilon\upsilon\epsilon\tau\epsilon$ فيه.» (١ يوحنا ٢: ٢٧)

أما عن قوله: «فهي ثابتة فيكم»، فهذا وعدُ الله — الحق — من جهة عطاياه فهي بلا ندامة (روا ١١: ٢٩)، أي أنه يتحتم علينا أن نؤمن، ونثق، ونشكر، معاً، أن مسحة القدوس التي نلناها منه مرة هي ثابتة فينا إلى الأبد، هذا من جهته هو. أما ما تُعَلِّمُه هذه المسحة لنا، فهو أن نثبت فيه كما هي ثابتة فينا، وهذا حق، ولا يحتاج إلّا إلى ثقة الإيمان واليقين بصدق عمل الله.

ثم ينتقل ق. يوحنا من الثبوت في المسحة، إلى الثبوت في عمل المسحة، وهو المحبة: «من يثبت في المحبة، يثبت $\mu\epsilon\upsilon\epsilon\iota$ في الله، والله فيه» (١ يوحنا ٤: ١٦). وهذا هو قمة الثبوت المتبادل على المستوى العملي والواقعي. فالحب الحقيقي من كل القلب والفكر والقدرة موصّل إلهي جيد بين الله والإنسان والإنسان والله، حيث يتجلى ثبوت الله بثبوت «الكلمة» (يو ١٥: ٧)، وثبوت الحق (٢ يوحنا ٢)، وثبوت الحياة (١ يوحنا ٣: ١٥)، وهذه كلها هي علائق الخلاص المُشْتَهَى.

لقد أعطى المسيح لنفسه هذا التقييم أنه هو الكرامة الحقيقية، بقصد واحد أن يحدد موضع التلاميذ أو المؤمنين منه. وهنا يحدد المسيح مدى قوة الوحدة السرية والإلهية التي تربطه بالتلاميذ، والتي تربط التلاميذ به بالتالي. ولكن يعود ويوضح، أن هذا الاتحاد العضوي الوثيق الذي يربط التلاميذ والمؤمنين به، يتوقف على الثبوت، وهنا الشرط القاطع المانع: فإما ثبوت فائماً، وإلّا فلا إثمار البتة.

«لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته»:

الثمر الروحي من إيمان ومحبة وشهادة هو من عمل المسيح، كمنبع، والروح القدس كموصّل؛

وهو ليس اجتهداً من صنع الذات البشرية، وإلاّ يصير ثماراً مزيفة، لها الشكل والاسم وليس لها الفعل والقوة: «لهم صورة التقوى، ولكنهم منكرون قوتها، فأعرض عن هؤلاء.» (٢ تي ٣: ٥)

وللأسف الشديد، فإن الكثرة في العاملين باسم المسيح فاقدون لهذا الثبوت الداخلي والعضوي، الذي عن طريقه يأخذون بالروح القدس ثمر بَرِّ المسيح ويقدمونه كما هو، بل هم يجتهدون من ذواتهم، ويعرضون ثمر فكرهم وتصوراتهم، وهذا كله ينطق بأنه من صنع ذواتهم، إذ يكون فاقداً لقوة تقوى الإيمان والثبوت في المسيح:

«وأكتبُ إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس ... أنا عارف أعمالك أن لك اسماً أنك حيٌّ وأنت ميت. كُنْ ساهراً وشَدِّدْ ما بقي، الذي هو عتيد أن يموت، لأنني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله.» (رؤ ٣: ٢ و١)

«... إن لم يثبت في الكرامة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ»:

المسيح يوعّي التلاميذ أن لا يعتمدوا على بَرِّ أنفسهم، متكئين على المواظبة على أعمال الناموس وكأنها تجعلهم مُثمرين لله. فهذا عهد جديد، لا يقوم على الجهد الإنساني من أي نوع، بل على الاتحاد بالمسيح والثبوت في هذا الاتحاد، حيث يصير المسيح نفسه فينا هو العامل، والمُريد أن نشاء وأن نعمل. وبذلك يكون العمل هو عمل الله، لمجد الله. فكل عمل ليس مصدره الله، فهو لا يمجّد الله، بل يمجّد ذاتنا. «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، أمثا نحن أيضاً بيسوع المسيح، لتبرّر بإيمان يسوع، لا بأعمال الناموس، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرّر جسدٌ ما.» (غل ٢: ١٦)

والمسيح سبق وأعطى نفسه مثلاً للعمل الذي يكون مصدره الله «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلاّ ما ينظر الآب يعمل» (يو ٥: ١٩)، «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا، وأن تعملوا من أجل المسرة» (في ٢: ١٣). وهذا صحيح في حالة واحدة، وهي عندما يسلم الإنسان نفسه لتدبير نعمة الله.

وليلاحظ القارئ، أن كل أمر يعطيه المسيح هو وصية، وكل وصية تحمل قوة الوعد الإلهي، لذلك فهي تحمل قوة تنفيذها في الطاعة لها. فلا يرتبك الإنسان قط في أوامر المسيح، فهي بمثابة دُعاء يصدره، ومعه بركة وقوة التنفيذ. فهنا المسيح يأمر: «اثبتوا فيَّ»، وهو المسئول عن قوة الإستمرار والفعل، أي فعل الثبوت، لكل من يطيع من القلب. وحتى الجزء الثاني الذي لا يبدو أن يكون أمراً في شكله، فهو في واقع الأمر: «وأنا فيكم»، حيث يكون المعنى: «وليكن أيضاً

ثبوتي فيكم ...». فهو أمر بمعنى «اقبلوا ثبوتي فيكم». وهكذا، فهو أمر يحتاج إلى طاعة، بانفتاح القلب لدخول المسيح للعمل: «بسبب هذا أخني رُكبتني لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمَّى كل «أبوة» πατριά في السموات وعلى الأرض، لكي يُعطىكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة، بروحه في الإنسان الباطن، ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم». (أف ٣: ١٤-١٧)

والآن، أيها القارئ العزيز، هل تؤمن بصدق المسيح؟ ثم هل تؤمن بأمانة المسيح في تكميم ما وعده به؟ ثم هل لك قلب بسيط في الإيمان، لتثق بأن ما وعد الله به، هو يتممه بكل دقة، بحسب غناه في المطاء؟ إذن، فثِقْ أنك ثابت في المسيح، والمسيح ثابت فيك، وعليك أن تعمل بحسب مشورته، معتمداً على صدق مواعيده.

ولكن اعلم، أيها القارئ العزيز، أن الإنسان المسيحي ليس مختاراً أن يثبت في المسيح أو لا يثبت، لأن في الآية (٦) القادمة تحذيرٌ مُريعٌ لدينونة، نحن لسنا قادرين أن نحمل عقوبتها على الإطلاق؛ فهو يقول: «إن كان أحدٌ لا يثبت فيَّ يُطْرَحُ خارجاً، كالغصن، فيجف ويجمعونه، ويطرحونه في النار فيحترق». (يو ١٥: ٦)

ولكن في مقابل هذا التحذير بهذا المصير، يوجد تشجيع ما بعده تشجيع، حينما يثق الإنسان بصدق وعد المسيح، ويطرح نفسه أمامه متوسلاً أن يكون غصناً مُثمرًا، أو عضواً لائقاً بجسد المسيح، فإنه يُسمَع له فوراً، ويعطيه الرب قوة إضافية ترفعه فوق ضعفه، فوق موته، فوق كل الظروف المعاكسة، لينال من الرب تحقيق وعده. وهذا يقدمه المسيح في الآية (٧) القادمة: «إن ثَبَّتُمْ فيَّ، وَثَبَّتَ كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون، فيكون لكم». ونحن لا نطلب إلا دوام الثبوت، بقوة من عنده.

ولكن عودة على ذي بدء: «أنتم أطهارٌ من أجل الكلام (الصحيح = «الكلمة») الذي كلَّمْتُكم به». إذن، فكلمة المسيح (اللوغُس) هي الصلة العظمى والأقوى للثبوت في الرب، ولخلوله في القلب. وشهادة الضمير والنمو والإثمار هي علامة.

١٥: ٥ «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يَثْبُتُ فيَّ وأنا فيه، هذا يأتي بِثَمَرٍ كثير؛ لأنكم بِدُونِي لا تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شيئاً».

الرب يشير إشارة مباشرة إلى العلاقة العضوية، حيث يوضح أنه الآن مصدر الحياة الحقيقية

بالنسبة لهم، فالكرمة الحقيقية لا بد وأن تعطي أغصاناً حقيقية. الإشارة هنا إلى بلوغ منتهى قصد الله من الإنسان، إذ أصبح يستمد الحياة الحقيقية بصفة ثابتة من المنبع الإلهي.

هذا شرحٌ توقيعيٌّ على الآية الثالثة في المقدمة: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو: ١: ٣)، حيث يدين الإنسان بكل وجوده وكيانه وحياته ونور بصيرته لله. وهنا يقدم المسيح تفسير ذلك على المستوى العملي كيف يكون!! كيف يعتمد الإنسان بإرادته على الله، ليستمد كيانه وحياته، ويحقق تدبير الله منذ «البدء» فيما يخص العلاقة الوثيقة بينه وبين الخالق. والمسيح يكشف السر عن طريقة تطهير الإنسان مما لوّثه العالم فيه؛ فالكلمة حينما تخاطب القلب والضمير، فهي بعينها الكلمة التي خَلَقَتْ، فإن كانت لها القدرة أن تخلق، فإن لها القدرة أن تصحح وتعيد إلى الأصل وتغذي بالحق. بل ولا تزال هي هي الكلمة التي تزرع كل يوم أعضاءً جُددًا في الكرمة الممتدة، ليس نحو البحر كالسابق، بل نحو السماء؛ وهي تغسل وتطهر كنيسة برُمَتها عَبر الدهور، والكل يسير وينمو حسب قصد خالقها: «... صادقين في المحبة، ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس، المسيح.» (أف: ٤: ١٥)

كلُّ ذلك على أساس مفصل الحياة الذي يربط الخشب في الكرمة بالحياة، ليستمد عصير الحق والنور والحب.

«الذي يثبت فيّ وأنا فيه، هذا يأتي بشمر كثير»:

الخشب في الفرع لا يُقَيَّم بحسب طبيعته إلا بالنار، ولكن الفرع الثابت في الكرمة يُقَيَّم بالشمر، قيمة الغصن تكمن في الشمر، وبالشمر يُقَيَّم كلُّ غصن لدى الكرام، وبالصبر وطول الأناة ودوران الشتاء بتجاربه ومحبي الصيف بخيراته، يزداد الفرع ثبوتاً ويزداد إثماراً، طالما كان مفصل الحياة - الكلمة - سليماً عاملاً... الفروع المثمرة هي غنى الحياة المسيحية، وكرامة متزايدة للكرمة، ومجد للكرّام! لذلك فالغصن صاحب الشمر الكثير، هو موضع مسرة للكرمة لمزيد من العطاء والغذاء، وهو مجد للكرّام يأخذ منه ويوزع بالأحضان.

والمهم، أيها القارئ العزيز، لا أن نفهم ماذا يعنيه الشمر الكثير وما هي أنواعه، فهي بالصدق متعدّدة جداً، وتكاد لا تكون ثمار كل مؤمن في المسيح مثل ما للآخر، ولكن المهم جداً أن نفهم هذا الكلام على أنه وَعْدٌ، وعد يضمنه المسيح، لأنه هو الذي سيعطي الشمر. فالمطلوب أن نصدق الوعد، ونتقدم بثقة الإيمان، لندخل في عهد الثبوت بلا تردّد، غير حاسبين تكاليفه، والرب متكفلٌ بها، وغير ناظرين إلى ضعفنا، فالضعيف إذا ثبت في الكرمة لا يعود يُحَسَبُ ضعيفاً، فالشمر هو من

سخاء الكرمه وليس من صُنع الغصن، علماً بأن الثبوت متبادل. فحلول المسيح في الضعيف، أيُّ قوة يعطي؟

«لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»:

هذا يعني أن كل ما نفعله بدون المسيح ليس شيئاً؛ هو محسوب ضمن خشب الغصن، وليس له قيمة في حساب الكرمه. أعمالاً كثيرة جداً نعملها من ذواتنا ولإرضاء نزواتنا، وكلها ليست مُدرّجة في حساب الكرمه، بل هي العدم، عينُ العدم. مع أننا لو أخضعنا ذواتنا للمسيح، لقميل بنا المسيح أعمالاً يتمجد بها الآب، ولحُيبت في حساب الحياة الأبدية. هكذا قال الإنجيل بالروح: «كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ٣). فالذي عمله «الكلمة» المسيح «كان»، وصار هو الحياة، والذي لم يعمله المسيح ظل هو العدم. لذلك، كلُّ من ينفصل عن المسيح، يصير هو العدم بالضرورة، حيث لا ثمر البتّة، لا قليل ولا كثيراً!! وكلُّ من اتحد وثبت في المسيح، صار «كلُّ شيء».

«أن تفعلوا شيئاً»:

هنا «الفعل» يقصد به المسيح العمل الروحي، الذي يدخل ضمن تدبير الآب السماوي. فالتلاميذ هم الذين أسس بهم ملكوته، أي الكنيسة على الأرض، التي وُضِعَ عليها أن تكمل عمل المسيح في العالم عبّرَ الأجيال والدهور، وكان لكل تلميذ عمل ورسالة، وهكذا كانوا بكور ثمرة الكرمه التي ملأت العالم. والآن، لا تزال الكرمه تعمل، وتثمر، وتجدد أغصانها. ولا يزال يُقاس كل غصن بقياس الثمر الذي يعطيه لحساب الملكوت، ويُقاس الثمر بقياس مقدار الثبوت في المسيح والتأصل فيه. وحساب الكرمه يُحسب بحساب الثمر، والأغصان تُقيّم بتأصلها في المسيح. فالكرمه، أي الكنيسة، هي كرمه ثمر، وليست مجرد أغصان ولا مجرد أوراق. فحبة الحنطة وقَعَت وماتت، لتعطي ثمرأً كثيراً. فالمسيح، إن كان كرمه، فهو يطلب ثمرأً؛ وإن كان حبة حنطة، فهو يطلب ثمرأً. وهكذا، فهو بحياتنا يطلب ثمرأً كأغصان؛ وبموتنا، يطلب ثمرأً كحنطة في سنابل، ثلاثين وستين ومائة.

٦: ١٥ «إن كان أحد لا يثبت فيّ، يُطْرَحَ خَارِجاً كَالْفُصْنِ، فَيَجِفُّ، ويجمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ، فَيُحْتَرِقُ».

عدم الثبوت في الكرمه يعني الانفصال حتماً، لأن الغصن كيف يعيش؟ وعلى مَ يعيش؟ فالكرمه تسنده حتى لا يسقط، وتغذيه حتى لا يموت. المسيحي إذا ابتعد عن المسيح، وبالأخص

الذي يدّعي أنه غصن وله ثمر، فإنه يتعرّى من سر البقاء في الروح وسر القيام في النعمة، فتجفّ الكلمة من فمه، ويتذبّل.

«يُطْرَحُ خَارِجاً»:

اللفظ اليوناني يوضح، مثل العربي، أن الإطار في الخارج ليس فقط يعني الانفصال من الكرمة، بل والخروج من دائرة الكرمة، حيث الكرمة هنا تعني بستان الكرمة بأكمله، وهذه إشارة بليغة إلى الكنيسة. فالمسيحي الذي ارتأى أن يعيش بإمكانياته ومعرفته ومواهبه وجذقه الذاتي، غير المستمّدة من سرّ الكرمة ككل، فإنه لا يُحَسَّب من الكرمة في شيء. فجسد المسيح السري يحمل أغصاناً ثابتة ثبوتاً، تشهد عليه ثمارها التي تغلّها لحساب الكرام في حينها الحسن.

«ويجمعونه ويطرحونه»:

في الأصل اليوناني يأتي الفعلان بالجمع «يجمعونه ويطرحونه»، بمعنى: كلّ الذين تعاهدوا مع روح الضلال ليستقلوا بذواتهم، ويستغنوا عن مصدر حياتهم وخلاصهم الأبدي (مت ٢١: ٤١) — وهذه إشارة خطيرة لانحراف المؤمنين آخر الزمان والذي سيكون بالجملة — ولهذا المنظر نبوة سبقت بفم حزقيال النبي لتصف هذا العمل على الواقع:

+ «لذلك قلّ لبني إسرائيل، هكذا قال السيد الرب... كلّ إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغرّبين في إسرائيل، إذا ارتد عني، وأضعّد أصنامه (أخطر الأصنام هي الذات) إلى قلبه، ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه (انشغل ببلذّاته)، ثم جاء إلى النبي ليسأله عني، فإنني أنا الرب أجيبه بنفسي، وأجعل وجهي ضدّ ذلك الإنسان، وأجعله آية ومثلاً، واستأصله من وسط شعبي، فتعلمون أنني أنا الرب.» (حز ١٤: ٦-٨)

الإشارة هنا واضحة نحو المؤمنين الذين تأصّلوا في المسيح: معمودية، وإيماناً، وإعلاناً، واسماً؛ ولكنهم إمّا لم يأتوا ثماراً بالمرة، أو كانوا قد أتوا بثمار ثم انحصروا في ذواتهم، وكفّوا عن الإثمار الحقيقي، واكتفوا بجمال الأوراق، وهي المواهب الطبيعية. هنا انفصال الأغصان أو المؤمنين سرّي، لأن لا أحد يلمح انفصاحهم ظاهرياً، ولكن الكرام وحده هو الذي يعرف الثمار وصيغتها، ويعرف من أين انحصرت العُصرة عن أن تغذي الفرع بالغذاء الملكي الذي يتحول إلى ثمار. وكيف استغلّ الفرع عُصرة الكرمة، ليحوّلها إلى أوراق دون ثمر.

«يطرحونهم في النار، فيحترقون» (حسب النص اليوناني):

لا تزال نبوة حزقيال منبعاً خصباً لهذا المنظر:

+ «يا ابن آدم ماذا يكون؟ هل عود الكرم (خشب) فوق كل عود (خشب) أو فوق القضيبي الذي من شجر الوعر (الغابة)؟ هل يؤخذ منه عود (خشب) لاصطناع عمل ما؟ أو يأخذون منه وتبدأ ليعلق عليه إناء ما؟ (طبعاً خشب العنب لا يصلح أبداً). وهوذا يُطرح أكلاً للنار. تاكل النار ظرفيه، ويُحرقُ وسطه، فهل يصلح لعمل؟ هوذا حين كان صحيحاً، لم يكن يصلح لعمل ما. فكم بالحري لا يصلح بعد لعمل إذ أكلته النار فاحترق؟ لذلك، هكذا قال السيد الرب، مثل عود الكرم بين عيدان الوعر (الغابة) التي بذلتها أكلاً للنار، كذلك أبذل سكان أورشليم.» (حز ١٥ : ٢-٦)

وهكذا، أيها القارئ العزيز، يكرر الرب الإله نفس القول، لا لسكان أورشليم، بل لأهل بيته، لأعضاء جسده، الذين دفع دمه الثمين ثمناً لإثمارهم لحساب الآب صاحب الكرم. مثل شجرة التين التي حملت ورقاً دون ثمر، فلعمري المسيح (في إنجيل متى ٢١ : ١٨ ومرقس ١٢ : ١١-١٤)، تشبيهاً للذين حوّلوا نعمة الله والروح إلى مظاهر جسدية ومجد دنيوي. فالثمر الصادق والثبوت الصادق هو طلب الرب قديماً وجديداً، والالتصاق بالرب من عدمه هو أيضاً طلب الرب قديماً وجديداً. أما العقاب بالنار، فهو صادق منتهى الصدق، حتى لو قُسمناه على آخر ما وصل إليه علم الذرة والطاقة. فآخر صورة للمادة قبل أن تُخلي مكانها في عالم الوجود الظاهري هي النار!!! ولا ينبغي أن نأخذ النار في عقاب الله بالصورة المادية، ولكنها تعبير عن غضب الله كما عرفها الله مرة في سفر التثنية بمنتهى الوضوح هكذا: «إنه قد اشتعلت نارٌ بغضبي، فتتقد إلى الهاوية السفلى، وتاكل الأرض وغلتها، وتحرق أسس الجبال.» (تث ٣٢ : ٢٢)

وآخر صورة يقدمها المسيح لنا، وهي كفيلة أن توقف كل ضمير مهما غاب عنه التعقل كل أيام حياته، قول الرب في إنجيل القديس متى: «وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت ٨ : ١٢)، أو باختصار، كما قالها القديس أغسطينوس:

[إما في الكرمة أو في النار.] (٧)

٧ : ١٥ «إن ثبتم فيّ، وثبتت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم.»

هذا وعد مقدس ثابت كثبوت السماء من فوق، والأرض من تحت؛ كحقيقة لا تحتاج إلا إلى تصديق وعد الله تصديقاً بسيطاً، كتصديق الطفل لوعده أبيه. هذا نُطقُ الله بالحق، يلزم أن نختبره،

بل يلزم أن نحققه ونعيشه، أولاً بالثبوت القلبي وليس الثبوت بالفكر. والثبوت القلبي ينتشر في كل أعضاء الجسم والنفس والروح، فيخضع الكل بمقتضى صدق الوعد، لأن الله «قال فكان» (مز ٣٣: ٩). نعم ويتحتم أن يكون!

وليلاحظ القارئ هنا، أنه لا يقول كما في الآية (٤): «وأنا فيكم»، بل: «وثبتت كلامي فيكم». هنا ثبوت «كلام المسيح» يعني ما قلناه من قبل، أي تصديق وعد المسيح في هذه الكلمات، بكل ما أوتينا من إرادة وفكر وقلب. أي أن ثبوت كلام المسيح فينا، يصير جزءاً من كياناتنا الذي نعيش به؛ حيث تصير الأذن ماهرة في سماع صوت المسيح من خلال الكلمات، أي تفرز «اللوغس» من جملة الكلام. «لماذا لا تفهمون كلامي τὴν λαλίαν لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (وصحتها كلمتي) = τὸν λόγον.» (يو ٨: ٤٣)

القلب الصالح، صاحب الكثر الصالح، يعرف نبرة صوت المسيح، ويستخلصها من كل أصناف الأحاديث. فالمسيح يخاطبنا من وسط كل أحداث اليوم، ومن خلال كل ما نسمع، من جيد وردي!!!

«تطلبون ما تريدون فيكون لكم»:

واضح هنا أن الطلب سيكون حتماً من واقع كلام المسيح، سيكون صدئ لإرادته. لأن كلام المسيح يصبح مادة نصنع منها كل ما نريده ونشتهيه، وخارجاً عن كلام المسيح لا نريد ولا نشتهي، وإلا نكون غير ثابتين في كلام المسيح حسب الوعد. هذا بالإضافة إلى أن الذي يثبت في المسيح والمسيح فيه، لا يعود يطلب شيئاً في المستقبل، لأنه لا يخشى المستقبل، بل هو محصور في حاضر الملكوت، ولا يتمنى ولا يشتهي إلا أن يبقى في ملكوته: «اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزداد لكم» (لو ١٢: ٣١). والذي ذاق هذا الكلام، يفهم كيف يطلب، وماذا يطلب، وكيف يُستجاب إلى ما يطلب، بل ويفهم لماذا وعد المسيح وعداً ثابتاً وأكيداً أنه لا بد يستجيب، لأن طلباتنا حينئذ تهمة، بل تكون موضع مسرته، لأنها تكمل عمله!!!

«ما تريدون»: δ ἐὰν θέλητε

وتعني الحرية المطلقة في الإرادة، وهي ليست مجازفة من المسيح، لأنه يعلم أن الذين ثبت فيهم كلام المسيح وثبتوا فيه، تصبح إرادتهم الحرة حسب حرية البنين لا العبيد، والابن يطلب ما يسر الأب، لأن مشيئة الابن الذي قبل التعليم وثبت فيه، هي مشيئة صالحة.

ق. يوحنا يشرح مستوى هذه الحرية وسببها: «أيها الأحباء، إن لم تَلْمُنَا قلوبُنَا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضية أمامه.» (١ يوحنا: ٢٢ و ٢١)

«فيكون لكم»:

باللغة اليونانية γενήσεται ، وباللاتينية fiet وتعني «يُصنع» أو «يُعمل». وكان الطلبة ذات فعل تنفيذي. والسر هنا كائن في تماثل الإرادة والمسرة عند الطالب وعند المنفذ. بل يتمادى بولس الرسول، بصفته الفصن الممتاز الذي ضرب القياس المعلى في الإثمار والثبوت، فيقول: «والقادر أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف ٣: ٢٠). وهنا يكشف بولس الرسول سر استجابة الطلب بهذه الصورة الفريدة: «أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر»، وهو سر «القوة التي تعمل فينا»، وهي قوة مسرة ومحبة الله الآب التي يستودعها أولاده الذين أحبهم، لأنهم أحبوا ابنه يسوع المسيح.

فإذا نظرنا إلى الأغصان ككل، أي الكنيسة، فإنه بحسب قوة الله التي فيها من الداخل تكون قوتها من الخارج، وقوة الله العاملة في الكنيسة من الداخل، هي نتيجة ثبوت دائم في كلام المسيح، وتمسك به إلى المنتهى.

٨: ١٥ «بهذا يتمجد أبي، أن تأتوا بثمر كثير، فتكونون تلاميذي».

هذه الآية تحوي من الدسم السماوي ما يُشبع الروح. والمعنى عميق. «بهذا»، بأي شيء؟ هذا الحرف البسيط يَجُرُّ كل ما سبق. أي أنه بشبوتكم في، ثم بشبوتكم في كلامي، وبالتالي ثبوتي فيكم، الذي ينشئ بالضرورة استجابة صلواتكم وطلباتكم، كونها تتفق وإرادة الآب السماوي، — هذا كله هو ما يجرُّ وراءه هذا الحرف «بهذا» — ثم يلحمه فيما هو آت من الكلام: «أن تأتوا بثمر كثير»، كنتيجة مباشرة لاستجابة الصلاة. ثم يضع المسيح الخاتمة التي تكشف سر الكلام بأكمله: «فتكونون تلاميذي»، بمعنى أن الثمر الكثير الذي سيتحصل من طلباتكم، هو نفس الثمر الذي ماتت حبة الحنطة لتأتي به: «ولكن إن مات، تأتي بثمر كثير.» (يو ١٢: ٢٤)

وهنا ينكشف في الحال أن عمل التلاميذ أو المؤمنين على ممر الدهور هو تكميل لعمل المسيح، وبالتالي: «تكونون تلاميذي»؛ «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم.» (مت ٢٨: ١٩)

هنا يتضح المعنى المتسع للتلمذة للمسيح. فالمسيحية تلمذة، الإيمان تسليم، والثمر هو برهان صِدْق التلميذ الذي حمل النير والرسالة. الكرم كلها فروع مُثْمرة، الكنيسة كلها تُسَبِّح بضم واحد، وتعطي الكرامة والسجود والمجد الدائم لِمَنْ أَحَبَّهَا وفداها بدم ابنه الحبيب.

«يتمجد أبي»:

نعم، إن كان ثبوتنا في المسيح وثبوت المسيح بالتالي فينا ينشئ ثماراً على مستوى التلمذة للمسيح، أي لخدمة الملكوت واستعلان، وبيع النفوس لحسابه، الذي هو منتهى الثمر وأفخره، فهذا حتماً وبالضرورة يمجّد الآب السماوي ويُفَرِّجُ قلب المسيح: «نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (١ بط ١: ٩)، «لكي يَرَوْا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السموات.» (مت ١٦: ٥)

والآن، نلخص الكلام، ليظهر منه قانون العلاقة التي تربطنا بالمسيح والآب السماوي. فعلاقتنا الوثيقة بالمسيح والإنجيل وتمسكنا الشديد بمواعيده تجعلنا نُثْمِر. وإثمارنا على مستوى المسيح، هو أساس علاقتنا بالآب السماوي، وهذا هو غاية إيماننا وحياتنا.

ولكي تبقى «كلمة السر» في كل هذه الآيات، وهي الثبوت، فليتنا نلقي عليها نظرة أخيرة: أنْ نَثْبُتَ في المسيح، هو أن يصير المسيح حقيقة حياتنا التي نعيش فيها، بل نعيش من أجلها، بل نعيشها. أن يَثْبُتَ كلام المسيح فينا، هو أن يصير كلامُ المسيح، كلُّ كلام المسيح، حقيقة نأخذها كما هي، نصدقها كما هي، نعيشها كما هي، آية آية، كلمة كلمة، وعداً بوعد.

٩: ١٥ «كما أَحَبَّنِي الآبُ، كذلك أَحَبَّكُمْ أَنَا، أَثْبُتُوا فِي قَهْبِي».

هنا سرُّ التحام الفُصْن في الكرم. هنا الكشف عن مادة العصير التي تغذي الفُصْن وتُثْمِيه، هنا داعي الثبوت وقيمته. فالثبوت ممتدٌ من الآب، وراجع إلى الآب من الابن، هنا النموذج الإلهي الأعظم الذي ينبثق منه المثل — الفُصْن: «أنا الكرمُ وأبي الكرّام». سر الفُصْن الملتحم في الكرم ممتدٌ، ومنبثقٌ من سر الكرم الملتحم بالآب. الآب يحب الابن، والحب سر الوحدة أو الوجدانية القائمة بالآب والابن. حبُّ المسيح لنا هو سرُّ الالتحام، سر الوحدة، التي جاء الابن ليؤسسها مع بني الإنسان لحساب الله: «أنا فيهم، وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣). هكذا صار الفُصْن في تناول الكرّام العظيم المخوف غير المنظور، هكذا صرنا تحت تهذيب وتنقية الآب، وبذلك قرَّبنا هو إليه، ورفَقنا إلى مستوى البنين، بل الأحباء: «لكني قد

سَمِّيتُكُمْ أَحِبَاءَ، لِأَنِّي أَغْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَهُ (العصارة) مِنْ أَبِي. » (يو ١٥: ١٥)

لا ينبغي هنا أن نخطئ فنفهم كلمة «أغلمتكم» أنها تهذيب فكري أو زيادة معرفة؛ بل هي توصيل أسرار الآب التي يعيشها الابن. معرفة الآب ليست ثقافة فكرية ولا فهماً لاهوتياً، بل هي أخذ، هي قبول، هي امتلاك، «اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢٢)، فهي معرفة على مستوى التعرف على الله أبينا وأبي ربنا يسوع المسيح. والذي يتعرف على أبيه الجديد (الابن الضال حينما عاد) يتعرف عليه بالأحضان وليس على مستوى الفكر اللاهوتي على بُعْد!! وحب الآب للابن أعطاه المسيح لنا: «... ليكون فيهم الحب الذي أحببته به، وأكون أنا فيهم» (يو ١٧: ٢٦). محبة المسيح والآب هنا هي محبة فائقة على المعرفة الطبيعية التي للإنسان، لا يستطيع العقل أن يبلغ مداها أو يحيط بها، هو يعيش فيها فقط، ويتنعم، ولكن لا يُفَلِّفُهَا بالفكر أو يتعظم: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩). معرفة المحبة بالوعي المسيحي العالي تملأ الإنسان بلا كيل، تملأه بملء أسرار الأبوة الحانية المترفة، فلا نصير بعد غرباء عن الله: «لأن به لنا كليتنا (اليهود المنتصرين والأمم)، قدوماً، في روح واحد، إلى الآب. فلستم، إذاً، بعد غرباء ونزلاء، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف ٢: ١٨ و ١٩)

«كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا»:

المسيح يوضح نوع ومستوى المحبة التي أحبنا بها، فهي محبة آب لابن. المسيح تبثنا بالحب لحساب أبيه، ليضمنا معه في بؤته الرفيعة القدر والمجد: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى ندعى أولاد الله» (١ يو ٣: ١). الآن، ولو أننا أولاد الله بالحق، ولكن لا نستطيع أن نرى أنفسنا على مستوى هذه البوة العالية، بسبب نقص الرؤية، وبسبب أعمال العبيد التي لا زلنا مرتبكين فيها: «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يُظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (١ يو ٣: ٢)

ولكن حينما ينتهي دهر هذا العالم، سواء بالانتقال أو بالنهاية الأخيرة، ويشتعل المسيح، حينئذ سنراه كما هو، كما عرفناه تماماً، الابن الوحيد في حضن الآب. ولكن العجب أننا سنشغلن أنفسنا في نوره، فنرى أنفسنا فيه في نفس بؤته: «نكون مثله»، ملتجئين بها كامتياز بالنعمة، التي تقيمنا أمام الآب بلا لوم في نفس هذه المحبة.

«اثبتوا في محبتي»:

لقد حق له أن يشجعنا ويلج في دعوته، فالشمن الذي ندفعه ثمناً لثبوتنا لا يمكن أن يتوازي مع

الغاية والنهاية التي تكلمنا عنها. أن نثبت في محبة المسيح، فهذا يعني أن نصير أحياء، نصير أبناء، نتحد معه، نرث من مخصصاته كابن الله، نصير محبوبين لدى الآب، نترأى أمام الله في ظل محبته، بل في نورها، كأبناء ولا نعود ندعى عبيداً، وينتهي منا زمن الحزن والكآبة والتنهّد، وتبطل عداوة العالم الذي يغرينا بأباطيله، ليحرمتنا من حقنا وحياتنا الأبدية.

أن نثبت في محبة المسيح، فهذا لا يزيد عن كوننا نصّدق دعوته هذه ونقبلها في داخل أنفسنا، ونتبادل معها حباً بحب، وهي هي نفسها التي تُريدنا ثبوتاً فيه. فوصية المسيح تحمل قوتها سرّاً في داخلها، والذي ينفذها يكشف أن الوصية تحمل سرّاً تنفيذها، وتكشف معناها للجاهل، أكثر مما تكشفه للعالم، وللطفل الذي يتهجى الكلمات أعظم من الفيلسوف صاحب الاسم والدرجات. فوصية المسيح تؤخذ ولا تُدرس، وتُقبل ولا تُفحص، فإذا أخذت وقُبلت كما هي، فهي تكشف أعماقها لصاحبها وتشرح أسرارها لمنفّذها.

والذي يشرح الوصية ويفسر معناها، دون أن يختبرها أو ينفذها، فهو كمن يصوّر الماء على الحائط للعطشان، ويقول إن هذا هو الماء؛ هذا يقوله القديس مار إسحق.

إذا حقّ للمسيح أن يُليح علينا أن نثبت في محبته؛ فهذا هو الباب، وهذا هو الطريق.

١٥ : ١٠ «إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ، تَثَبُّتُونَ فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي، وَأَثَبْتُ فِي مَحَبَّتِهِ».

إِنْ «حَفِظْتُمْ» : τηρήσετε

الكلمة اليونانية تحمل معنى أكثر من الحفظ. فهي تعني الملاحظة الشديدة الدقيقة، وتعني السهر الدائم على الشيء، والحراسة الدائمة، والاعتناء والانتباه نحو الشيء.

وهل يمكن أن يتم هذا الاهتمام بالوصية بهذا القدر، إذا لم تدخل حيّز التنفيذ الفعلي؟ الأمر هنا يتعدّى محيط الفهم، والاستذكار، والهديذ، والتأمل؛ ليدخل دائرة الفعل الجاد المتشبع بالوعد.

المسيح يعطي نموذجاً للفهم الصحيح لكلمة «حفظ» بما أجراه هو بنفسه من جهة «وصايا أبي». فما هي «وصايا» الآب التي أعطاها له الآب والتي حفظها الابن؟

عندنا صورة طبق الأصل من هذه الوصايا جميعها، محفوظة في محفوظات دار النبوة، في خزانة

العهد القديم . نقدم للقارىء صورة منها للحفظ والوعي .

أولاً : تسلم إشعيا النبي صورة من هذه الوصايا حوالي سنة ٧٠٠ ق.م . ليعلنها مُسَبِّقاً ، وهي التي كان قد تسلمها الابن من الآب منذ الأزل وقد جاء في هذه الوصايا :

١ — أن يأخذ الابن منظر الإنسانية التي فسدت وصورة الإنسان على مستوى بني آدم ، بلا صورة حسنة ولا جمال إطلاقاً :

« كان منظره كذا مُفسِداً أكثر من الرجل ، وصورته أكثر من بني آدم » (إش ٥٢ : ١٤) ليس في الشكل طبعاً ولكن في التنازلات بالكرامة .

« لا صورة له ولا جمال ، فنظر إليه ، ولا منظر فنشتهيه . » (إش ٥٣ : ٢)

٢ — أن يحتمل الابن احتقار الناس وخذلانهم له ، واتهاماتهم الموجهة ، ويختبر الأحران المرة ، وأن لا يهتم الناس برؤيته ، ولا يعتدُّ به أحد من الناس .

« مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ ، رَجُلٌ أَوْجَاعٌ ، وَمُخْتَبِرُ الْحَزْنِ وَكَمِئْتٍ عَنْهُ وَجُوهُنَا ، مُحْتَقَرٌ قَلَمٌ نَعْتَدُّ بِهِ . » (إش ٥٣ : ٣)

٣ — يضربه الناس ، وَيُذَلُّ وَيُجْرَحُ وَيُسْحَقُ وَيُؤَذَّبُ (بِالسَّيَاطِ) وَيَسِيلُ دَمُهُ . دون أن يكون مستحقاً لشيء من هذا .

« لَكِنْ أَحْزَانُنَا حَمَلَهَا ، وَأَوْجَاعُنَا تَحَمَّلَهَا ، وَنَحْنُ حَسْبَانَا مُصَابِأً ، مَضْرُوباً مِنْ اللَّهِ وَمَذْلُولاً ، وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا ، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا ، تَأْدِيبٌ سَلَامُنَا عَلَيْهِ ، وَبِخُبْرِهِ شَفِينَا . » (إش ٥٣ : ٥ و ٤)

٤ — يتحمل الابن إثم جميع بني البشر ، ويُظلم ، ويتذلل لظالميه ، ولا يحتاج أو يفتح فمه ، إلى أن يُؤَارَى في القبر :

« الرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا . ظَلِمَ ، أَمَّا هُوَ فَتَذَلُّ ، وَلَمْ يَفْتَحْ فَااه ... مِنَ الضَّغْفَةِ وَمِنَ الدِّينُونَةِ (المَحْكَمَةِ) أَخَذَ ، وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الْأَحْيَاءِ : [يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب ، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ ، وَصَلَبُوهُ ، وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمَزْمَعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ . وَلَكِنْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ الْيَوْمَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْذُ حَدَثَ ذَلِكَ » (لوقا ٢٤ : ١٩-٢١) ... وَجُعِلَ مَعَ الْأَشْرَارِ قَبْرُهُ . » (إش ٥٣ : ٦-٩)

وختم إشعيا النبي على صدق هذه الصورة التي تسلمها بالروح بالوحي، التي هي نص الوصايا التي أعطاها الآب لابن، وقبل الابن تنفيذها، حفظها حفظاً، وعاش لتنفيذها، ومات لتكميلها: «قد اكمل.» (يو ١٩: ٣٠)

ثانياً: وقد كشف الله عن عيني عقل بولس الرسول، ليرى شخصية المسيح على حقيقته قبل التجسد وبعده، أي بعدما أطاع وصايا الآب، ونفذها بالحرف الواحد هكذا:

«فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً: [أي «إن حفظتم وصاياي ... كما حفظت أنا وصايا أبي»]، الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلصة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب.» (في ٢: ٥-٨)

هنا بولس الرسول يطلب أن يكون لنا فكر المسيح من جهة حفظ وصايا الآب عملياً. وبولس الرسول نفسه حفظ وصايا المسيح بجدارة، لا عن ظهر قلب بل على ظهره، ٤٠ جلدة إلا واحدة خمس مرات وتحت حدّ السيف:

«في الأتعاب أكثر، في الضربات أوفر، في السجون أكثر، في المبتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات قبلتُ أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرّات ضُربتُ بالعصي. مرة رُجمتُ. ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (أي عمق البحر)، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار من جنسي، بأخطار من الأمم، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر، بأخطار من إخوة كذبة.» (٢ كو ١١: ٢٣-٢٦)

ولكن ليس كل تلميذ ولا كل رسول كان كبولس، لأنه هو نفسه يقول مُقارناً نفسه بجميع الرسل هكذا: «أهلم خدام المسيح؟ أقول كمختلّ العقل، فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر.» (٢ كو ١١: ٢٣)

وبذلك يقدم لنا الإنجيل، في بولس الرسول، نموذجاً أعلى للغصن الذي ثبت في المسيح، وحفظ وصاياه، تحت أسوأ ظروف قابلها رسول أو أي مؤمن آخر، حيث يظهر حفظه وتمسكه بوصايا المسيح متعادلاً مع «الشمر الكثير» الذي مجّد به الآب. وبولس الرسول، في النهاية، يوضح هذه المعادلة بقوله: «وقتٌ إنحلالي قد حَصَرَ، قد جاهدتُ الجهادَ الحسن، أكملتُ السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليلُ البر الذي يَهَبُهُ لي، في ذلك اليوم، الرب الديّان العادل. وليس

لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً.» (٢ تي ٤ : ٦-٨)

هكذا، وعلى هذا القياس، يدعونا المسيح أن نكون مثله، وأن لا نستثقل وصاياه، لأنه كما قلنا نقول أيضاً، إن وصية المسيح تحمل قوة تنفيذها في طاعتها، كما أن وصيته تؤخذ ولا تُفحص، وهي هي نفسها تحمل لحسابنا الثمر المتكاثر الذي يَجِد الآب.

«إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي» :

علاقة حفظ الوصية بالثبوت في محبة المسيح، هي أن الثانية نتيجة حتمية للأولى، أي أننا إن كنا نريد أن نثبت في محبة المسيح ثبوتاً مستمراً ودائماً لا ينقطع، فلتكن الوصية بين عينينا، نحفظها كمُثْقَلَةِ العَيْن. ولا يمكن شرح ذلك شرحاً نظرياً، وإلاّ نكذب، فسرُّ المحبة كائن وكامن في طاعة الوصية، كيف يكون ذلك؟ هذا يعرفه مَنْ ينفِّذ الوصية. الأمر يختص بخبرة عملية وليس فكرة نظرية، لأننا بصدد «سر المحبة» التي تفوق العقل والمعقول. اسمع هذا التقرير من فم المسيح: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني» (يو ١٦: ٢٧). فَمَنْ ذا الذي يستطيع أن يصف محبة الآب، أو يشرح ماهيتها؟ هي سِرٌّ مُظْلَقٌ داخل سر محبة الابن، ومحبة الابن في تناول يدنا، لأن الوصية هي المفتاح الذهبي لهذا الكنز السمائي.

١١: ١٥ «كَلَّمْتُكُمْ بهذا لكي يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ».

«كلمتكم بهذا»: ταῦτα λελάληκα ὑμῖν

بكررها الرب في حديث الفراق هنا سبع مرات، في يو ١٥: ١١؛ ١٦: ١ و ٤ و ٦ و ٢٥ و ٣٣؛ ١٤: ٢٥). وهي طبق الأصل من المقولة نفسها في العهد القديم التي تركزت في سفر حزقيال: «أنا الرب تكلمت» ἐγὼ κύριος λελάληκα (حز ٥: ١٣ و ١٥ و ١٧؛ ٦: ١٠؛ ١٧: ٢١ و ٢٤ وغيرها). وهكذا يتوازي أسلوب المسيح هنا مع رنة النبوة، لعله يوقظ عقول الذين يفتشون الكتب لكي يجدوا فيها الحياة الأبدية.

اثبتوا فيّ، ثم اثبتوا في كلامي، ثم اثبتوا في محبتي، ثم اثبتوا في فرحي. هذا تدرُّج عملي، يمر عليه كلُّ مَنْ يمسك بالمسيح. والغصن يَثْبُت في الكرمة، فيثْبُت سريان العصارة فيه، فيثْبُت فيه الثمر، وبالنهاية يَثْبُت الفرح. والمعنى السري وراء هذا عميق للغاية.

الثبوت في المسيح يكون بالإيمان. وهو يؤدي إلى الثبوت في كلام المسيح، الذي يكون

بالتصديق الكامل . وهذا يؤدي إلى الثبوت في المحبة ، وهذا يكون بانفتاح الوعي على شخص المسيح وقبوله كعريس حقيقي : « أما صديق العريس ، الذي يقف ويسمعه ، فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس . إذاً فرحي هذا قد كَمُلَ » (يو ٣: ٢٩) . وهذا يؤدي إلى الثبوت في الفرح ، الذي يكون هو بلوغ ثمرة الحب عملياً ، وهو البذل . وق . يوحنا يشرح هذا المسلسل عملياً في رسالته الأولى هكذا :

« بهذا نعرف أننا قد عرفناه ، إن حفظنا وصاياه . مَنْ قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب ، وليس الحق فيه ، وأما مَنْ حَفِظَ كلمته ، فحقاً في هذا قد تَكَمَّلَت محبة الله . بهذا نعرف أننا فيه . مَنْ قال إنه ثابت فيه ، ينبغي أنه كما سلك ذاك ، هكذا يسلك هو أيضاً . » (١ يو ٢ : ٣-٦)

« كَلَّمْنُكُمْ بهذا » :

المسيح يكشف القصد والغاية من سر الكرامة ، التي من خلال أوصافها شَرَحَ المسيح حتمية الثبوت فيه ، وفي كلامه ، وفي حبه ، وفي فرحه . هذا على مستوى عملي جداً .

« يثبت فرحي فيكم » ، « ويكمل فرحكم » :

فرح المسيح غير فرح التلاميذ والمؤمنين عامة . فرح المسيح كلي وكامل ؛ بينما فرح التلاميذ وكلّ مؤمن يحتاج إلى تكميل . فالأول ينسكب في القلب : « فيكم » ، والثاني يأخذ ليمتلئ : « يُكْمَل » .

فرح المسيح : في ذبيحته التي قدّمها للآب عنا فُقِّبَت ، لأنها كاملة ومقدسة .
فرحنا : هو في خدمة ذبيحة المسيح ؛ هو أيضاً ذبيحة سواء بالبذل أو بالصلاة أو بالتسبيح ، ولكن ذبائحنا كلها ناقصة ، لذلك فرحنا غير كامل ، ويحتاج دائماً إلى ذبيحة المسيح لتُجبر نقصها ، ويداوي عجزنا ، ويحجز عنا عوامل إفساد العالم والذات ، لتصير ذبيحتنا كاملة فيه ومقبولة أمام الآب السماوي ، لِيَكْمُلَ فرحنا . فرحنا يظل ناقصاً ، إلى أن يحتضنه المسيح ، ويغذيه بدم ذبيحة محبته . فأعظم فرح ، وأصدق فرح ، وأكمل فرح ، هو فرح الخلاص .

والآن ، منظر الكرامة بأغصانها المثمرة ، وبيد الكرام تُقَلَّم وتُنَقَّى ، وتُقَطَّع ، طرحه المسيح داخل وعينا المسيحي ، لكي يفتح على معنى الثبوت وخطورته ، وحتمية الشمر والتنقية ، ورغبة القطع والإلقاء في النار . والقصد النهائي هو تصوير الكنيسة ، وهي جسده ونحن أعضاء من لحمه وعظامه ، وعمل الأعضاء في خدمة الكرامة : « ... لأجل تكميل القديسين ، لعمل الخدمة لبُنيان

جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح ... صادقين في المحبة ننمو في كل شيء، إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً، ومقترناً بمؤازرة كل مفصل، حسب عمل، على قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنياته في المحبة.» (أف ٤ : ١٢-١٦)

ونلاحظ العلاقة بين «تطلبون ما تريدون فيكون لكم»، وبين «يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم»، هذا اختبار يعرفه جيداً كل من دخل فيه، أن استجابة الصلاة هي إدُّن بالدخول في مجال الحب الإلهي، ومن ثمَّ تَذَوُّق «الفرح الذي لا يُنْقَطُ به وبمجيد». وذلك لسببين: الأول، التخلص من ربة وكثافة وضغطة العالم الحاضر؛ والثاني تذوق السمائيات التي فيها تتَّعَمُّ النفس بالنور والبهجة التي للسمائيين. لأن الفرح والبهجة هما طقس السمائيين.

+ «ومفديُّ الرب يرجعون، ويأتون إلى صهيون، بترُّم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهَّد.» (إش ٣٥ : ١٠)

+ «الشعب السالك في الظلمة، أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت، أشرق عليهم نور. أَكْثَرَتِ الأمة، عَظُمَتْ لها الفرح، يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد، كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة.» (إش ٩ : ٢ و ٣)

+ «لأنكم بفرح تخرجون، وبسلام تحضرون. الجبال والآكام تشيد أمامكم ترثماً، وكلُّ شجر الحقل تصفَّق بالأيدي.» (إش ٥٥ : ١٢)

+ «بل افرحوا وابتهجوا، إلى الأبد، في ما أنا خالق، لأنني ها أنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً، فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي، ولا يُسمع بَعْدُ فيها صوتُ بكاء ولا صوتُ صراخ.» (إش ٦٥ : ١٨ و ١٩)

+ «ترغبي يا ابنة صهيون، اهتفي يا إسرائيل، افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم... الرب إلهك في وسطك جبار. يخلص. يبتهج بك فرحاً، يسكت في محبته. يبتهج بك بترُّم.» (صف ٣ : ١٤ و ١٧)

والفرح عنصر خلاصي، لا يمكن أن يوجد إيمان حقيقي بدونَه، ولا رجاء يُعَرَّفُ بدون فرح، ولا روح قُدُّس بدون فيض منه :

+ «وليسملاككم إله الرجاء كلَّ سرور (فرح) وسلام، في الإيمان، لتزدادوا في الرجاء، بقوة الروح القدس.» (رو ١٥ : ١٣)

هذا الاختبار عاشه آباء الجيل الأول بملء زخمه الروحي السمائي :

+ « وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت (الإفخارستيا)، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب. » (أع ٢: ٤٦)

و ينبغي أن نلاحظ المعنى الخفي في قوله : « يَثْبُتُ فرحي فيكم ، ويكمل فرحكم » ، لأن المسيح يطلب دائماً أن كل ما فيه من حق وحياة ، هكذا ينتقل إلى المؤمنين به . وهذا هو السر الأساسي في إلحاح الرب على الثبوت فيه ، حتى يتم انتقال كل ما له إلينا . كذلك إلحاحه على الثبوت في كلامه ، حتى ينتقل كل حق وروح وحياة في كلامه إلى أعماقنا ، وكذلك الثبوت في محبته ، حتى تنتقل محبة الآب له إلينا .

١٢: ١٥ « هذه هي وصيتي ، أن تُحِبُّوا بعضكم بعضاً ، كما أحببتكم » .

يلاحظ أن قيمة المحبة عند المسيح لها القدر المثلّي ، ليس كأنها وصية محددة ، بقدر ما هي روح كل الوصايا . فهي تشمل كل الوصايا ، ثم تتركز وكأنها وصية واحدة ، لأنها فريدة في معناها ومبناها . وأساس قيمة المحبة عند المسيح ، أن رسالته قائمة عليها وبها . فأصل الرسالة هكذا : « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد... » (يو ٣: ١٦) . فد « محبة الآب للعالم » حملها المسيح معه إلى العالم ، لتتضمن روح كل تعاليمه ووصاياه ، التي كان القصد الأساسي منها أن يشرح ويكشف ويستعلن للعالم « محبة الله الآب » له ، ثم لكي تأتي ذبيحة المسيح على الصليب لتعبّر أعظم وأقوى تعبير عن « محبة الآب للعالم » التي أعلنها المسيح على الصليب واستعلنها في قيامته ؛ لأن القيامة من الأموات أظهرت بوضوح أن المسيح مات بإرادته ، متحملاً كل ما لأتس الموت من عناء وألم وظلم ومرارة وهوان ، إمعاناً في الإعلان العملي الفعّال عن محبة الآب ، لأن موت المسيح على الصليب أنشأ فداءً وخلاصاً وبراً وفرحاً وسلاماً للعالم . وهكذا تكشّفت محبة الآب عن ثمار غاية في الهناء للعالم المظلوم المتألم ، تحت عبودية الخطية والشیطان .

من هنا جاءت وصية المسيح بالمحبة ، لأن محبة الآب التي أتى بها المسيح لا تسكن ولا تعمل إلا في قلوب لها هذه الصفة عينها . فالمحبة الإلهية لا تعمل إلا في مجال المحبة . وبمعنى أكثر خطورة ، يكون الصليب — وهو الذبيحة المتضمنة محبة الآب — لا يعمل إلا في القلوب التي أحبّت .

من هنا جاء أيضاً إلحاح ق . يوحنا على المحبة ، باعتبارها الرّجيم الجديد الذي يولد منه الإنسان لله : « كل مَنْ يحب ، فقد وُلِدَ من الله » (١ يوح ٤: ٧) . لماذا ؟ لأن الذي انفتح قلبه على المحبة ،

يقبل عمل ذبيحة الصليب الفدائي، الذي هو أساس ميلاد الخليقة الجديدة.

فالصليب، هو هو حبُّ الآب عملياً لفدائنا من الموت، ولولادتنا للحياة الأبدية، ولتبثُّنا
لنفسه :

+ « بهذا أظهرتُ محبة الله فينا، أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم، لكي نحيا به. »
(١ يوحنا : ٤ : ٩)

« هذه هي وصيتي أن تحبوا... » :

تظهر المحبة هنا أنها « وصية » المسيح، ويلزم أن نتذكر أن المسيح يتكلم من موقف الفراق،
فهو حديث الوداع، أي حديث من يستودع « وصايا » لتلاميذه.

وصيغة الجملة هنا باليونانية شَرْطِيَّة، في المضارع الدائم، وترجمتها الحرفية : « حتى تكونوا
مُحِبِّين »، وهذا التصريف في الجملة يفيد الديمومة في المستقبل، فهذه وصية المسيح للكنيسة كلها
على مدى الدهور.

والمحبة التي يستودعها المسيح لتلاميذه، كوصيته الأخيرة، تظهر هنا كأنها وصية مفردة، ولكن
هذا يأتي بنوع من التركيز الشديد على المحبة، فالمحبة تسود على كل الوصايا، وقد عبّر المسيح عن
ذلك بقوله : « إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي » (يوحنا : ١٤ : ١٥)، « الذي عنده وصاياي
ويحفظها، فهو الذي يحبني » (يوحنا : ١٤ : ٢١)؛ وذلك في مقابل وصية المحبة كمفرد : « هذه هي
وصيتي أن تحبوا... » : « وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً » (يوحنا : ١٣ : ٣٤).
والتبادل بين الجمع ἐντολαί (وصايا)، والمفرد ἐντολή (وصية)، فيما يخص وصية المحبة،
نراه بالمقابل نفس التبادل بين الثبوت في « الكلمة » كمفرد τὸν λόγον^(٨) : « إن كان أحد
يحفظ كلامي (كلمتي λόγον) فلن يرى الموت إلى الأبد » (يوحنا : ٨ : ٥١)، « إن أحبني أحد يحفظ
كلامي (كلمتي λόγον) »؛ والثبوت في « الكلام » كجمع λόγους^(٩) : « الذي لا يحبني
لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونوه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني » (يوحنا : ١٤ : ٢٤)،
كذلك « الكلام » كجمع ῥήματα : « إن ثبتتم فيّ وثبتت كلامي فيكم... » (يوحنا : ٧ : ١٥)

(٨) للأسف فالأمثلة هنا جاءت في ترجمتها باللغة العربية غير دقيقة، فهي في اليونانية بالمفرد « كلمة »، وليس بالجمع

« كلام ».

(٩) الترجمة هنا صحيحة وهي الجمع.

وق. يوحنا لمح في كلام المسيح هذا الانتقال بين المفرد والجمع بالنسبة لوصية المحبة، فافتبسها، ورددها في آيتين متلاحقتين هكذا: «وهذه هي وصيته، أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح، ونحب بعضنا بعضاً، كما أعطانا وصية» (١ يوحنا ٣: ٢٣)، «ومن يحفظ وصاياها، يثبت فيه، وهو فيه.» (١ يوحنا ٣: ٢٤)

فالمحبة وصية قائمة بذاتها، بالدرجة الأولى، ولكنها تجمع في ذاتها كل الوصايا: «المحبة التي هي رباط الكمال» (١ يوحنا ٣: ١٤)، «لأن من أحب غيره، فقد أكمل الناموس.» (١ يوحنا ٣: ٨)

أما وُصِفَ المسيح لخطورة المحبة وامتدادها، فتشمل كل الكتاب: «فقال له يسوع: تحبُّ الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى؛ والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين، يتعلّق الناموس كله (أسفار موسى الخمسة) والأنبياء!» (متى ٢٢: ٣٧-٤٠)

وينبغي أن لا يفوتنا تركيز المسيح على المحبة المتجهة نحو الآخرين، سواء لبعضنا البعض، أو حتى للأعداء، لأن عشرة إسرائيل الكبرى كانت احتكارها لمحبة الله وحبسها حبساً مطلقاً مؤبداً عن الأمم (الأنجاس في نظرهم). والمسيح جاء ليفك أسر محبة الله، التي احتكرتها إسرائيل لنفسها، وجعلها ترف على وجه الأرض كلها بلا مانع، تُحيي وتُنعش النفوس. ولأول مرة يُسمع في الأرض كلها، أن إنساناً يمكن أن يحب عدوّه! ليس دين من جميع الأديان على الأرض كلها، منذ خلقت الأرض وخلق الإنسان، قال بصيغة الأمر: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (متى ٥: ١٤). لأن وصية المسيح هذه مستمدة من صليبه: «ونحن أعداء (مع الله)، قد صُلِحنا مع الله، بموت ابنه.» (روم ٥: ١٠)

إن وصية المسيح بمحبة الأعداء، ألقاها أمامنا كأمر أكثر منها وصية!! أما قوة تنفيذها، فهو المتكفل بها، إن نحن عزمنا من كل القلب على تنفيذها، لأن المسيح لا يأمر أمراً من فراغ، بل هو يبني دستور وصايا على أساس ما عمِلَ هو، وعلى أساس ما هو مستعدُّ أن يعمل أيضاً، حتى يجعل لمحبة الآب عرشاً له في قلب العالم.

١٣: ١٥ «ليس لأحدٍ حُبٌّ أعظمُ من هذا: أن يَضَعَ أحدٌ نفسه لأجل أحبائه.»

الكلام هنا عميق للغاية. فليس معناه، كما يبدو لأول وهلة، مجرد تقييم عظمة المحبة

بإمكانية أن يموت «أحد»، أي يضع نفسه لأجل أحبائه. ولكن المسيح هنا يشير إلى أن موته الذي مات به عن أحبائه، ينبغي أن يؤخذ على أنه غاية المحبة! فالمحبة مُطَالِبَةٌ بأن يكون لها هدف وغاية، وهي إمكانية أن يضع الإنسان نفسه من أجل الآخرين.

فحرف الإشارة هنا: «هذا»، لا يعود على الحب، كأن يُقال: «حب أعظم من هذا الحب»، ولكن «هذا» تعود على «أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه». وبهذا يكون المعنى، أن الحب العظيم هو الذي يكون هدفه أن يضع الإنسان نفسه لأجل أحبائه. وهذا ما فهمه ق. يوحنا وشرحه في رسالته الأولى هكذا: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١ يوحنا ٣: ١٦)

«لأجل أحبائه»:

المسيح لم يضع نفسه من أجل أحبائه (القديسين)، بل من أجل الخطاة، والذين هم في عداوة مع الله (هؤلاء هم أحبائه): «ونحن أعداء (مع الله)، قد صولحنا مع الله بموت ابنه» (روم ٥: ١٠). فالمعنى المقصود من «الأحباء»، هو أولئك الذين دُعُوا ليدركوا هذه المحبة. ولكي نفهم ذلك بسهولة، نضع القديس بولس مثلاً لذلك، حينما قال: «الذي أحببني، وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ٢٠)، مع أن المسيح مات من أجل شاول عدو الكنيسة ومضطهد المسيحيين والشاهد على قتل إستفانوس! ولكن لما أدرك شاول حقيقة موت المسيح، تيقن أن المسيح مات من أجله، لأنه كان يحبه حتى وهو في وحل خطاياهم وجرائمهم!! فإذا أردنا أن نشرح المعنى أكثر، يكون هكذا: المسيح وضع ذاته من أجل أحبائه الخطاة والأثمة والمجرمين، وكل مَنْ تلوّث أيديهم وقلوبهم بالخطايا. هؤلاء هم أحبائه يسوع.

أما إذا أردنا التطبيق، فيكون ذلك بحسب قول ق. يوحنا: «ينبغي أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة»؛ الخطاة والمنبوذين والذين ليس لهم مَنْ يحبهم أو يعطف عليهم!! بهذا، وبهذا وحده، يكون الغصن حقاً وبالْحَقِيقَةِ هو ابن الكرمة، والراضع من عصارتها!!

والأمر ليس بمستغرب، فأولئك المبشرون الأوروبيون والأمريكان الذين برّح الحب بقلوبهم من نحو إخوتهم في البشرية من الأجناس الأخرى، جعلهم يتركون بيوتهم وعائلاتهم وحياتهم الهنيئة، ليذهبوا في مجاهل أفريقيا في القرن الثامن عشر ليبشروا أهلها الذين كانوا من آكلي لحوم البشر، وقد كان بالفعل من أكل منهم بعد أن شوي لحمه بالنار!! ولم يجزع الفوج وراء الفوج، ولا ارتدوا إلى الوراء، حتى نجحوا وربحوا البلاد السوداء وجعلوا أهلها من أبناء النور.

هذا هو «الحب المسيحي» في مضمونه ومعناه وأهدافه : إنه حبٌّ ذبائحي، نازٌّ ألقيت على الأرض ! ما لبثت أن أشعلت كل شعوب الأرض : «فكونوا متمثلين بالله، كأولاد أحياء، واسلكوا في المحبة، كما أحببنا المسيح أيضاً، وأسلمَ نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة.» (أف ٥ : ١ و ٢)

١٤ : ١٥ «أنتم أحبائي، إن فَعَلْتُمْ ما أوصيكم بِهِ.»

«أحبائي» φίλοι (خيلاًني) :

المسيح هنا يسلم تلاميذه المخلصين لقب إبراهيم أب الآباء : «وتم الكتاب القائل : فآمنَ إبراهيمُ بالله، فحُيِّبَ له برّاً، ودُعِيَ خليلَ الله : φίλος θεοῦ» (يع ٢ : ٢٣)، «إبراهيم حبيبي δὲν ἠγάπησα»، «وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي (حبيبي)» (إش ٤١ : ٨). وبالفعل قد كان، وصار أن الرسل أصبحوا هم آباء الكنيسة الأوائل وأعمدتها !

المسيح هنا ينبه ذهن تلاميذه إلى وضعهم الممتاز بالنسبة له . لقد سبق وقال لهم : «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»، والآن يفسرها «أنتم أحبائي». ولكن لكي يرفع هذه الدرجة إلى المستوى القانوني لكي تكون درجة لكل مَنْ يشاء، وضع لها الشرط الذي يعطيها هذه الكفاءة : «إن فَعَلْتُمْ ما أوصيكم بِهِ». وهنا يقصد ما سبق وأن أعطاه كوصية خاصة : «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو ١٥ : ١٢) ؛ بمعنى أن التلاميذ طالما كانوا على الحب الإلهي قائمين، فهم أحبباء المسيح . ولقد ظل التلاميذ أمناء على هذه الوصية بصورة واضحة للغاية، بعد صعود المسيح : «هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبه مع النساء، ومريم أم يسوع، ومع إخوته» (أع ١ : ١٤). وما تخلّوا قط عن وصية المسيح، وحبّه، والأمانة له، حتى استودعوا أجسادهم قبور الاستشهاد .

١٥ : ١٥ «لا أعود أَسْمِيكُمْ عبيداً، لأن القَبْد لا يعلم ما يعمل سيّدُهُ، لكني قد سَمَّيْتُكُمْ أحبباءً، لأنني أَعْلَمْتُكُمْ بكل ما سمعته من أبي.»

نحن لا زلنا في الكرمة الحقيقية والأغصان التي اكتسبت صفة «الحقيقية» بالانتساب إلى الأصل، لم تُعَدْ بعدُ أغصانَ كرمة بريّة، بل كرمةٌ غرسها الآب بيده، والأغصان نمت عليها، وصارت شريكة في أصلاتها السماوية، وورثة لكل أثمارها الفاخرة، وأهمها الصليب .

الكُرمة الأولى التي نقلها من مصر، أتلَفَتْها أيدي الكُرَّامين الأردِياء الأجرَاء، ولكي يرثوها اختطافاً، ذبحوا ابن الكُرَّام الحقيقي، ظناً منهم أنها تؤول إليهم، لكن الكُرَّام انتزعها من أيديهم، وعَوَضَ الصورة والرمز غَرَسَ الكُرمة الحقيقية، التي جَذَرُها في السماء، وأغصانها مَشَت الأرض، ومَلَأَت كل ربوعها. لم تَعُدْ الأغصان تذكر عهد العبودية، بل صارت تمتُّ إلى أصلها السماوي، لقد نالوا حق البُسُوَّة، فصاروا من جنس المحبوب الوحيد، أحياء كالأصل، ليس بنوع الإنعام الصوري أو الرمزي، ولكن من واقع الدم الإلهي الذي امتزج بالدم، واللحم باللحم. فالأغصان صارت من لحمه وعظامه. ليسوا عبيداً بعد، بل محبوبين في المحبوب: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم أحببتموني.» (يو ١٦: ٢٧)

«... أحياء، لأنني أعلمتكم»:

مصدر الحب المنسكب عليهم هو «استعلان الآب لهم». ليس كأنه معرفة فكر أو اكتساب معلومات، بل هو قبول حقيقة، فالاستعلان الذي أكمله المسيح الابن لتلاميذه بالنسبة للآب هو استعلان الكُنه والكيان، استعلان «أنا هو الكائن بذاتي». «الله لم يَرَهُ أحد قط» (يو ١٨: ١٨)؛ ولكن الابن رآه ويعرفه، لأنه هو الابن الوحيد الكائن في حضنه الأبوي، هو الكائن في الآب، والآب كائن فيه. لقد استعلن المسيح الآب لتلاميذه، بأن كشف لهم حقيقة ذاته، والابن والآب واحد في الكيان والذات، فلما رأوا الابن، رأوا الآب؛ فلما استعلن لهم حُبّه، استعلن لهم حُبّ الآب، وكل علم وعمل علّمه لهم وقاله أمامهم، كان هو الآب الذي عرفوه وسمعوه ورأوه، ولما أسلمهم ذاته سلّمهم الآب الذي فيه.

كان موسى خادماً في بيت الله، أميناً حقاً، ولكنه كان خادماً هو وكل إسرائيل من بعده؛ إلى أن جاء الابن الوريث، فصار البيت في يد صاحبه. موسى كخادم، بنى بيت الله من جلود معزى وخشب، وقَدَّم فيها الذبيحة غنماً وبقرأ، أما الابن فأقام بيت الله من جسده: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيّمه... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو ٢: ١٩ و٢١)، ثم رفع الحجاب الثقيل عن أعيننا، فرأينا، وإذا بنا نحن جسده، أهل بيته: «خذوا كُلُّوا هذا هو جسدي!» (مت ٢٦: ٢٦)

لقد انتهى عهد العبيد، بانتهاء الناموس والخيمة والذبيحة من تيوس وعجول؛ والكهنة الأجرَاء. وجاء عهد الآب والابن المذبح، وشرب الإنسان واغتسل، وبيّض ثيابه في دم الحمل، بدعوة من الآب.

وهكذا رُفِعَ اسم الإنسان وَقَدَّرُهُ من رتبة العبيد، خادمي دم تيوس وعجول، إلى أبناء وأحباء متناولي دم ابن الله، حينما شربوا فيه روحه الأزلي، الذي جَدَّدَ خِلْقَتَهُم الأولى، فصاروا على شكل خالقهم في القداسة والحق.

هذا هو علم الآب واستعلانه، الذي قاله المسيح لهم في حديث الفراق المعزّي: «لأنّي أغلّمتكم كلّ ما سمعته من أبي»؛ «والسامعون يحيون» (يوه: ٢٥)، «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يوه: ١٧: ٣)

وليلاحظ القارئ، أن المسيح قال لهم هذا الكلام (يوه: ١٥: ١٥)، بعد أن أقام فصحه الأزلي بإفخارستية العشاء الأخير، وسلّمهم كأس دمه فشربوه، وقسّم لهم جسده وأكلوه.

١٦: ١٥ «ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم، وأقامتكم، لتذهبوا وتأتوا بشمري، ويدوم ثمركم. لكي يعطيكم الآب كلّ ما طلبتم باسمي.»

الله هو صاحب المبادرة في كل ما يمتُّ إلى الإنسان من الخيرات السماوية.

وحينما قال المسيح لتلاميذه: «أنتم أحبائي...، لا أعود أسميكم عبيداً»، فهو هنا يوضح أنه هو ابن الله صاحب مبادرة تقريبتهم إلى نفسه والآب، وبالتالي صاحب مسؤولية دعوتهم العظمى هذه. إنه الآن يوثّق دعوتهم واختيارهم، ليرفع عنهم صعوبة مسؤولية المهمة الخطيرة وثقلها، خاصة حينما يتلفتون فلا يجدونه أمامهم "إلى حين"! وفي الأصول الدنيوية يختار التلميذ معلمه الذي يتلقى على يديه المعرفة، والتلميذ هو الذي يرفع معلمه إلى مواضع التكريم والتجلّة. ولكن المسيح يقلب موازين العالم، لأنه هو الإله المعلم الذي يختار من يعلمهم، ومن يرفعهم من الرتبة الدنيا إلى ذات مرتبة معلمهم في الكرامة والمجد: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أنا نحن واحد.» (يوه: ١٧: ٢٢)

«والاختيار» هنا متعلق صميمياً بكلمة «لتذهبوا». هنا دعوته لهم كأحباء هي ذات هدف ورسالة وليست مسألة محبة شخصية أو عواطف تبيت في الصدور، بل لاختيار الرسولية والخدمة وتمثيل الكنيسة في العالم، لأن حبه لهم هو لتكميل حب أبيه للعالم! أما كلمة «يدوم ثمركم»، فهذا تشهد عليه الكنيسة حتى اليوم، ونشاهده في كل أنحاء العالم، فثمر الرسولية لا يزال حياً جديداً مجدداً.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح حمل بالفعل ثقل الرسولية مع الرسل، وحقق بالفعل مسؤوليته في اختيارهم «ليذهبوا». فقد عضدهم بقوة فائقة، حتى حطموا أعتى إمبراطورية للوثنية، والتي كانت قد ملكت العالم فكراً وثقافة وسلطاناً وجبروتاً وضلالاً!

لذلك، أية قوة وأية شجاعة وأي اقتحام يملكه الذين لم يختاروا لأنفسهم أن «يذهبوا»، بل كان اختيارهم من عنده، «كما هرون أيضاً» (عب ٥: ٤)!!

ويلاحظ مدى تحمّل المسيح لمسئولية الإرسالية في قوله: «أقمّتكم لتذهبوا، وتأثروا بثمر، ويدوم ثمركم». فهو المتكفل بعد اختيارهم بكيف وأين يذهبون، ثم كيف وكم يأتون بالثمر، ثم إلى متى يدوم ثمرهم!!

وليس ذلك فقط، بل هو المتكفل بكيف يعطيهم الآب كل ما يطلبون (باسمه)، سواء فيما يخصهم شخصياً أو يخص مخاطر ذهابهم، أو جمع ثمارهم، أو تثبيت ثمارهم. وهكذا تلتحم الصلاة المستجابة، بالطاعة، مع الثمر المتكاثر!!

«لتذهبوا»:

هنا إشارة واضحة أنهم هم الذين سيبدأون بالذهاب، أي يتركون الالتصاق ببعضهم ويعلمهم، لينطلق كل في طريقه. وهي إشارة توقيت لبدء رحلة الكنيسة عبر العالم.

«ثم خرج نحو الساعة الثالثة (ساعة حلول الروح القدس)، ورأى آخرين قياماً في السوق بظالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم، فأعطيكم ما يحقّ لكم، فمضوا» (مت ٢٠: ١٣)؛ «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦: ١٥). لقد أطاع الرسل الأمر، وانفصلوا عن معلمهم بالجسد، ليتحدوا معاً وبه بالروح إلى الأبد، ليسلموا العالم لمسيح الملكوت، لا لمسيح التاريخ، ومُسَلَّل رسوليتهم، كما هو، من وضع يد معلمهم ونفخة فمه!!

«يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي»:

الآن يطمئن المسيح أنه سلّمهم العلاقة المباشرة بالآب!! لقد استعلن لهم الآب في نفسه، واستعلن لهم كل ما عند الآب، بكل ما قاله وعمله. فالآن، عليهم أن يتجهوا مباشرة للآب، ليطلبوا كل ما يشاءوا، حيث «اسم» المسيح هو ضمان الاستجابة الأكيد، إذ يتدخل في الحال، ودمه على يديه، لتصبح كل صلاة وكل طلب، ملتحمة بصوت دمه: «أنتم ... إلى وسيط العهد

الجديد، يسوع، وإلى دم رؤس، يتكلم أفضل من هايل.» (عب ١٢: ٢٤)

وهنا يلزم أن ننبه، أن الصلاة في أصولها تُقدّم للآب باسم يسوع المسيح، في الروح القدس. وأي إغضالي للآب، يُخلُّ بأصول الصلاة والعبادة. فالمسيح أكمل رسالته، بأن سلّمنا ليد الآب، أما هو فبقي وسيطاً ضامناً للعهد. وعلينا أن ننتبه جداً لقوله: «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يُحبّكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتُم أنني من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٦ و ٢٧)

التلاميذ، ثم الكنيسة، في مواجهة العالم: (١٥: ١٨ - ٢٧).

- اختلاف الطبائع، هو الذي سيحتّم المواجهة.
- ويفغّي الاختلاف، الجهل بحقيقة الآب والابن.
- ولكن العالم ليس له عذر في هذه العداوة، لأن حقيقة المسيح مُعلّنة عملياً وبشهود.
- وعلى التلاميذ أن يكملوا الصراع، الذي بدأه العالم مع المسيح.
- ولكن الروح القدس، سيقدم المعونة والشهادة في وقتها.

المحبة المسيحية، تولّد في العالم المعاكس بغضة:

١٥: ١٧ و ١٨ «بهذا أوّصيتكم، حتى تُحبّوا بعضكم بعضاً، إن كان العالم يُبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم.»

وأول مواجهة كشفت عن صدق إنذار المسيح بعد بدء الكرازة هي هكذا: «ودعوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم، فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُيِّبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه.» (أع ٥: ٤٠ - ٤١)

الصراع هنا بين الإيمان الثابت في محبة المسيح، وعدم الإيمان الثابت في محبة العالم، هو صراع بين محبة النور ومحبة الظلمة؛ بين معرفة الله الآب وابنه يسوع المسيح، وبين الجهل بالآب والابن معاً؛ بين أبناء الله وأبناء هذا الدهر. ق. يوحنا يتكلم هنا عن هذا، كمختبر، في رسالته الأولى: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى ندعى أولاد الله. من أجل هذا لا يعرفنا العالم، لأنه لا

يعرفه. » (١ يوحنا ٣ : ١)

واضطهاد العالم وبُغْضَتِهِ لتلاميذ الرب ومؤمنيه الأتقياء المخلصين، يبدو دائماً ومنذ أول يوم، غريباً جداً في أعين مُتَّقِيهِ !

«أيها الأحباء، لا نستغربوا البُلُوَى المحرقة (مشتعلة أو نارية) التي بينكم حادثة، لأجل إمتحانكم، كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشركتم في آلام المسيح، افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين. إن عُبِّرْتُمْ باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحلُّ عليكم. أما من جهتهم، فيُجَذَّفُ عليه، وأما من جهتكم فيُمتَجِد. فلا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره، ولكن إن كان كمسيحي (بتألم)، فلا ينجس، بل يمتَجِد الله من هذا القبيل ... فإذا الذين يتألمون بحسب مشيئة الله، فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين في عمل الخير. » (١ بطرس ٤ : ١٢-١٩)

وهكذا ظهر بوضوح أن المحبة، كوصية أولى وعظمى، ركَّزَ عليها المسيح قبل الفراق هنا، ولآخر مرة، لأنها الدرع الوحيد لمواجهة صدام العالم. فمحبة التلاميذ للمسيح، وثبوتهم فيه، ثم محبتهم نحو بعضهم البعض، وقفت تصدُّ عنهم عُثْفَ بغضة العالم للمسيح ولهم. وواضح للغاية، أن بُغْضَةَ العالم واضطهاده كانا موجَّهين ضد فضائل المسيحيين، وليس لأخطائهم وعيوبهم وتعدَّياتهم. وهذا الموقف يُدْكَرُنا بشيء من التطابق بين موقف الفريسيين والأعمى الذي فتح عينيه المسيح، المتهم بأنه فتح عينيه في سبِّ. فـ «العالم» هنا هو في موقف الفريسيين تماماً في الأصحاح التاسع، والأعمى الذي فتح المسيح عينيه هم التلاميذ الذين دخلوا النور، والمسيح هو هو المتهم الأول الذي كَسَرَ القوانين المزعومة.

ومن تسلسل الآيات السالفة، يتضح كيف، وبحكمة إلهية بالغة الدقة والرتابة، أسس المسيح في التلاميذ أساس المحبة الثابت، ثم كشف بعد ذلك عن عنف المقاومة المضادة المزمعة أن تواجههم، حتى يحتملوها بجدارة. وكأنما يُعدُّ الكنيسة لتاريخها الطويل في جهادها ضد العالم.

«إن كان العالم يفضكم، فاعلموا أنه قد أَبْغَضَني قبلكم» :
«فاعلموا» :

تأتي بصيغة الأمر. الرب يرفع ذهن التلاميذ على مستوى «اذكروا» التي جاءت موازية لها في الآية (٢٠) بعد ذلك. وهذه وتلك، ولكي ينفتح وعي التلاميذ لالتقاط صورة صحيحة لِمَا أكمله

العالم مع المسيح، تنطبعان على ذاكرتهم وذاكرة الكنيسة على الدوام، لتكونا للتلاميذ والكنيسة من بعدهم عوناً شديداً لاحتمال المصادمات المتكررة، والتي لن تنقطع.

فإن كان العالم قد أبغض المسيح واضطهده بشدة وبمرارة، فيلزم فهم السبب الكامن وراء هذه العداوة التي لا تعرف التعقل. فالمسيح كان في العالم (على مستوى اليهود)، مصدر قلق ونكد ورعب وارتباك وخوف شديد. فقداسته فضحت فجورهم، ووداعته استفزت وحشيتهم، وتكريمه وتمجيده للآب هيج عداوتهم له وللآب، والحق الذي فيه جمعهم على الكذب وتلفيق التهم: «إن كنت قد تكلمت ردياً، فاشهد على الردي، وإن حسناً، فلماذا تضربني؟» (يو ١٨: ٢٣)

فالمسيح قد صار للتلاميذ النموذج الكامل، الذي يسند قلوبهم في وقت هياج العالم وسخطه، والذي يستمدون منه قوة على الاحتمال والصبر، بل والفرح في الضيق: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في عرش الله. فتفكروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه، مثل هذه، لئلا تكلوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب ١٢: ٢ و ٣)

ويخاطب القديس أغسطينوس مَنْ تسوّل له نفسه أن يخور ويلقي السلاح هكذا: [إن أنت استعفيت من أن تحمل مع المسيح بغضة العالم، فأنت تعفي نفسك من أن تكون في الجسد]. ليس الفحص في الكرامة؟ والعضو يحمل ما يقع على الرأس في الجسد. فإذا كان العضو سيتمجد حتماً مع الرأس، فكيف لا يحمل معها هم المقاومة نصيباً بنصيب؟ إن احتمال ثقل التجارب في العالم، مهما كان شكلها ومصدرها، لهُوَ ختمٌ للملكوت السموات، وعلامة صحة لالتحامه في الجسد وقربه من الرأس! فإن كان اتحادنا بالمسيح وحيه هو الذي يوقعنا تحت غضب العالم، فمرحباً!

١٥: ١٩ «لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته. ولكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يُبغضكم العالم.»

العالم يفرّم مَنْ يخرج من تحت نيره، بل ويناصبه العدا. إنها مهانة عظيمة لرئيس هذا العالم، أن يخرج من تحت يده إنسان يقف قبالة ليشهد ضده.

لقد تجمعت الشياطين — كما تجتمع على المسيح بيلاطس وهيرودس وقيافا ويهوذا — على الفتى الغض أنطونيوس قديس براري مصر وهو ابن العشرين سنة وواجهوه بهزأة: [يا صبيّ العمر

والعقل، كيف تجاسرت ودخلت بلادنا (البراري القفرة التي ليس بها ماء)، ولكن الفتى صَبَرَ وثابر، وردَّ عليهم: [أنا أصغر من جميعكم، فلماذا اجتمعتم عليّ كلكم]، وبالنهاية مَلَكَ أنطونيوس ناصية البراري لحساب النسك والعبادة والتسبيح المتواصل الذي لم ينقطع، ليس في مصر وحدها، بل وفي كل العالم.

كلام المسيح يحمل حقيقة معزّية للغاية، فكلُّ بغضة نواجهها في العالم، دون أن نكون نحن سبباً فيها، فهي تُحَسَّبُ، حتماً، دليلاً على اختيار الرب لنا: «أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم». واختيار الرب قائم أساساً على أننا لسنا من هذا العالم، والعالم لا يليق أن يكون لنا وطناً ومقرّاً، لذلك فكلُّ حقد وبغضة يتاصبنا بها العالم، يذُكِّرنا بالرجاء الذي لنا عند الرب: «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو٨: ١٧)

«لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته»:

ما أشد ألفة الخطاة بعضهم ببعض، يجذبون بعضهم البعض لارتكاب الإثم والمعصية بسخاء وبذخ. إنها تظهر لهم وكأنها محبة وعلى مستوى التضحية والبذل، حتى ليكاد الأبرار يغيرون من هذه الألفة وهذا السخاء وهذا البذل المجنون. ولكن كل ذلك يتم بدفع من الشيطان، حتى يفرض الواحد منهم في الوحل دون أن يدري، وهو مسرور غاية السرور. وإن للعدو قدرة على إخفاء العاقبة والنهاية المُرّة التي تنتظر هؤلاء المتسابقين في وضع الأغلال في أعناقهم، حتى لا يكون قيام.

محبة العالم لأخصائه هي محبة للاستعباد، لنزف الشباب والمال والجمال والكرامة والعمر!

«يحب خاصته»: τὸ ἴδιον ἐφίλει

«خاصته» هنا، وإن كانت تفيد الأشخاص المنجذبين إليه، كما يتراءى لأول وهلة، ولكن هي تفيد في الحقيقة الذين أصبحوا عبيداً له. فالعالم يحب الذين له، الذين يعملون لحسابه. والفاعل العاقل المضمر هنا، هو الشيطان رئيس هذا العالم: «أنتم من أيّ هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس من البدء.» (يو٨: ٤٤)

ويلاحظ القارئ، أن المسيح يكرر كلمة «العالم» خمس مرات في الآيتين ١٨ و ١٩، وذلك عن شعور منه بخطورة هذا العدو، وتوعية لنا أن نأخذ الحيطة، ونضع خطورته في الاعتبار.

٢٠: ١٥ «أذْكُرُوا الْكَلَامَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ، لَيْسَ عَبْدٌ أَكْبَرُ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي، فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ. وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلَامِي، فَسَيَحْفَظُونَ كَلَامَكُمْ».

واضح أن هذا النص وارد في إنجيل يوحنا أصحاح ١٣: ١٦. فبالرغم من أن التلاميذ، في نظر المسيح، ليسوا عبيداً بل أحبباء، ولكن في نظر أنفسهم ينبغي أن يدركوا أنهم عبيد الله.

فالسيد والمعلم الذي غسل أرجلهم ليعيدهم للإرسالية العظمى، الآن يكشف لهم مجد الإرسالية على مستوى مجد إكليل الشوك والصليب. لأنه حقاً لا يليق أن الرأس — المقدس — يلبس إكليلاً من شوك، والأعضاء يجلسون على أرائك من حرير، أو أن يُلقَّب رب الكنيسة بـ «بعلزبول»، وأهل البيت ينعمون بالألقاب: «إِنْ كَانُوا قَدْ لَقَّبُوا رَبَّ الْبَيْتِ بـ «بعلزبول»، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَهْلُ بَيْتِهِ» (مت ٢٥: ١٠). وَإِنْ هَبَّتْ رِيحُ الْعَالَمِ الْعَاتِيَةِ عَلَى الْكُرْمَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَرَنَحَ الْأَغْصَانُ.

والرب هنا لا يريد أن يواجه التلاميذ بمصيرهم المحتم، من جهة الاضطهاد، مباشرة، حتى لا يجزعوا؛ ولكنه في خنوع وتوعية ورفق، وضع نفسه في المقدمة كعبئة، وتركهم يقيسون على أنفسهم: «إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي، فَسَيَضْطَهَدُونَكُمْ». ثم بتوعية أكثر وأعمق، أراد أن ينبه ذهنهم أن يتذكروا كيف كان اليهود يترصدونه «ليضطادوه بكلمة» (مت ٢٢: ١٥) من كلامه، يؤوّلونها كما يشاءون، حتى ينصبوا له الفخاخ. فلا ينتظر التلاميذ من المقاومين لهم إلا نفس الأسلوب، والذين للعالم لن يحترموا كلامهم، فالرب يضعه على مستوى كلامه: «إِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلَامِي، فَسَيَحْفَظُونَ كَلَامَكُمْ»، بل سوف يؤوّلون ويحوّرون ويعوّجون، لعلهم يفوزون بحجة للمنازعة والتشهير أو الحكم، لإفساد تعليمهم في أذهان الناس.

٢١: ١٥ «لَكِنَّهُمْ إِنْما يَفْعَلُونَ بِكُمْ هَذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ اسْمِي، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الَّذِي أَرْسَلَنِي».

«لكن» وبال يونانية ἀλλὰ، تفيد الانتقال بالمعنى وبالحدث إلى تكملة متصلة به، ولكن جديدة. فالمسيح يكشف أن سر الاضطهاد سيكون هو بسبب الارتباط بالمسيح، والفصل المتحد بالكرمة نصيبه من نصيب الكرمة، والمناداة باسم المسيح لها تكلفة باهظة: «وَدَعُوا الرُّسُلَ، وَجَلَدُوهُمْ، وَأَوْصُوهُمْ أَنْ لَا يَتَكَلَّمُوا "بِاسْمِ" يَسُوعَ، ثُمَّ أَطْلِقُوهُمْ. وَأَمَّا هُمْ، فَذَهَبُوا فَرِحِينَ مِنْ أَمَامِ الْمَجْمَعِ. لِأَنَّهُمْ خَسِبُوا مُسْتَأْهِلِينَ أَنْ يَهَانُوا مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ» (أع ٥: ٤٠ و٤١). وبطرس الرسول

أيضاً يركّز على الاسم: «إِنْ عُيِّرْتُمْ بِاسْمِ الْمَسِيحِ، فَطُوبَى لَكُمْ، لِأَنَّ رُوحَ الْمَجْدِ وَاللَّهُ يَحُلُّ عَلَيْكُمْ.» (١بط ٤: ١٤)

لماذا اسم المسيح في العالم مكروه، والعالم يناصبه العداء؟ ثم لماذا هذا الاسم هكذا محبوب جداً لدى المؤمنين الصادقين؟

إن اسم المسيح هو هذا: «ابن الله الحي»، وهذا الاسم يحمل استعلان حقيقة الله الآب التي جاء الابن لاستعلانها. وفي استعلان الله كآب، واستعلان المسيح كابن متجسد، يجمع كل مفهوم الخلاص والفداء والمصالحة. فالله أرسل ابنه إلى العالم، ليصالح به العالم لنفسه. والابن تمّ مشيئة الآب، بأن صالح العالم بذبيحة نفسه. وهكذا بالصليب، انفتح باب العودة لكل خطاة العالم من سلطان الشيطان والظلمة إلى الله. لأجل هذا لا يطبق العالم، الذي يعمل لحساب الظلمة، سماع اسم ابن الله. فأبناء الظلمة يبغضون أبناء النور، هذه حقيقة كل الدهور. أما الذين آمنوا باسم ابن الله، وقبلوه، فيكونون قد انتقلوا من الظلمة إلى النور، ودخلوا في عهد بُتُوّة صادقة لله، وصاروا أبناءً وأحباءً بعد أن كانوا عبيداً وأعداءً. لذلك صار اسم ابن الله هو قوتهم وفخرهم وحصنهم، إزاء بغضة العالم لهم وللإسم!

«لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني»:

إن معرفة سر الآب والابن الذي يتضمن إرسالية الابن إلى العالم، هو من أعرق مخصّصات الله، التي جعلها سرّاً مكتوماً منذ الدهور السالفة، ولم يُعرّف به أحد، إلى أن استعلن للتلاميذ والرسل: «أنه بإعلان عرّفني بالسّر... سرّ المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، أن الأمم شركاء في الميراث، والجسد، ونوال موعده في المسيح بالإنجيل.» (أف ٣: ٣-٦)

لذلك فإن سرّ الآب والابن استُودع لدى الرسل، واستلمته الكنيسة من يد الرسل، وبالروح القدس. وفي معرفة هذا السر، وبه، أُعطيت الحياة الأبدية للمؤمنين: «هذه هي الحياة الأبدية، أن تعرفك أنت الإله الحقيقي وتُحَدِّثك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ٣)

وهكذا أصبحت معرفة الله «الآب» مقصورة على الذين قبلوا «الابن»، وآمنوا بالصليب والفداء، ونالوا الحياة الأبدية. والذي لا يعرف إرسالية ابن الله، يستحيل عليه معرفة الآب، وبالتالي فهو يحدّف على الآب والابن دون أن يدري، إنه يسيء إلى نفسه!! «يا أبنا اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو ٢٣: ٣٤)

ولكن ليس عذرٌ للعالم، لأن المسيح استعلن سرَّ الآب والابن،
وسرَّ الخلاص بالقول والعمل : (يو ١٥ : ٢٢-٢٥).

إن الرب، وقد وُضِّح السبب والحقيقة التي سيقوم عليها حقد العالم وبغضته لتلاميذه، أوضح أيضاً أن هذا العداء السافر ليس له عذر، ولكن سيكون مفروضاً فرضاً عليهم. ولهذا بدأ يشرح كيف أكمل شهادته ضد العالم، سواء بالقول أو العمل، جاعلاً معرفة الآب ظاهرة. وقد جاءت شهادة المسيح لنفسه وللآب في وضع متوازٍ موزون :

+ « لو لم أكن قد جئتُ وكلمتُهم، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن، فليس لهم عذر في خطيتهم،
الذي يبغضني، يبغض أبي أيضاً ».

+ « لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً، لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن فقد رأوا،
وأبغضوني أنا وأبي ».

٢٢ : ١٥ « لو لم أكن قد جئتُ وكلمتُهم، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عُذرٌ في خطيتهم ».

« قد جئتُ » :

هذه الكلمة تحمل معنى كبيراً وممتداً، فهي تشير إشارة واثقة إلى أن مجيئه يحوي تحقيق الوعود النبوية السابقة لمجيئه، وانتظار كل شعب إسرائيل بفارغ الصبر، شعباً ورؤساء، وهوذا قد جاء!! اليهود ليس لهم أي عذر في عدم التعرف على المسيح، بل لم يكن هناك أيُّ داعٍ لبغضته بهذا المقدار، ومحاربتة أينما ذهب، وهو يشرح ويوضح بالقول والعمل المعجزي؛ بل وإن القول أيضاً كان على مستوى الإعجاز، مع إشارات قوية أشار بها إلى حقيقة نفسه، أنه المسيا الذي ينتظرونه من واقع أكبر وأقوى وأصدق نبوة كانت تشير إشارة مباشرة إلى مجيئه على لسان موسى : « يقيم لك الربُ إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون...، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطلبه. » (تث ١٨ : ١٥ و ١٨ و ١٩)

والحقيقة أن اليهود بلا عذر، فقد كانت لهم القدرة والفهم لمعرفة المسيح والتعرف عليه تماماً، باعتباره المسيح الآتي، بل وإن منهم مَنْ نجح بسهولة في معرفته والإيمان به، لذلك فهذه المقاومة العنيدة، والبُغضة العنيفة، والقسوة في المصادرة، توضح أنهم أشلّموا ذواتهم للشيطان، وأنهم كانوا مُفرضين، ومنحازين لشهواتهم الجامحة المجنونة.

«لَمَّا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ» :

هذا التعبير سَبَقَ أن قاله المسيح لهم بوضوح، عندما قاوموا المسيح، وأرادوا قَتْلَهُ، لأنه شفى أعمى، مولوداً من بطن أمه أعمى، وأعطاه موهبة البَصَر في يوم سبت، فقال لهم: «لو كنتم عمياناً، لما كانت لكم خطيئة» (يو: ٩: ٤١). لأن أمامهم إنساناً أعمى منذ ولادته وَهَبَهُ النور والرؤيا، فما رأوا الآية، ولا نظروا إلى المعجزة، بل انحازوا إلى عمى قلوبهم وتعصّبهم الأعمى للحرف الذي يعبدونه عوض الروح.

وحرف «هم» في قوله: «هم خطيئة» الذي هو في الأصل اليوناني الفعل ἔχω بمعنى: «يملك، يقتني» خطيئة، هو اصطلاح وارد في العهد القديم، يفيد أن الإنسان بجهله وشره يكتسب لنفسه خطيئة، أو يحمل أو يقبل أو يستلم خطيئة λαμβάνω: «لكن مَنْ كان طاهراً، وليس في سفر، وترك عمل الفصح، تُقَطَّعْ تلك النفس من شعبها، لأنها لم تُقَرَّب قربان الرب في وقته، ذلك الإنسان يحمل λήψεται خطيئته.» (عد: ١٣)

وبذلك تظهر خطورة قول الرب على اليهود: «لَمَّا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ»، أي لما حملوا على أنفسهم خطيئة. وهذا الاصطلاح عبّر اليهود عنه أحسن تعبير عندما قالوا لبيلاطس: «دمه علينا، وعلى أولادنا» (مت: ٢٧: ٢٥). فالاصطلاح: «لَمَّا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ»، يشير إلى ثبوت خطيتهم عليهم، لأن العمل الذي عملوه في مقاومته وصلبه، كان بدون وجه حق!! «وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم»، لأن توضيح المسيح لرسالته وإرسالته وكلامه عن الآب وعن نفسه، كان فيه الكفاية. بمعنى أنه ليس عن جهالة قاوموه، أو عن قلة معرفة، وعن إلتباس في الفهم، بل بإصرار وعناد وحقْد جنوني، ما كان له دافع على الإطلاق!!

٢٣: ١٥ «الذي يُبَغِضُنِي، يُبَغِضُ أَبِي أَيْضاً».

هذه الآية تدخل في المفهوم اللاهوتي التجريدي، فالذي ليس له الابن، فبالضرورة ليس له الآب (١ يو: ٢: ٢٣)! كما أن الذي يؤمن بالابن، فله الآب أيضاً. والذي يحب الابن، يحبه الآب

بالضرورة. هنا يتضح ببساطة أن الابن والآب واحد، هما ذات واحدة فيها ملء البُتوة كشخص، وملء البُتوة كشخص، وهما ذات واحدة كاملة، وكل ما يصيب الابن يصيب الآب حتماً. والابن تجسّد، ليعلن في نفسه الآب، ويستعلن بكلامه وأعماله كلام الآب وأعمال الآب. لذلك، فالمسيح هو صورة الآب المتجسدة، هو إنسان من حيث تجسّده أو هيئته الإنسانية، ولكن هو الإله من حيث حقيقة ذاته وجوهره. لذلك، فمن أبنُصّ المسيح، أبنُصّ الآب حتماً.

٢٤: ١٥ «لو لم أكن قد عمِلْتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري، لم تكن لهم خطيئة. وأما الآن، فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي».

هنا تأكيد القول بالعمل يتسجل تاريخياً: «الآن فقد رأوا وأبغضوني». والعمل الذي عمله المسيح، يفوق في إثباته القول. لأن العمل كان عظيماً، كان مملوءاً حباً وعظفاً وحناناً وقوة، كان ينطق نطقاً بوجود الله نفسه عاملاً: «الآب الحال فيّ، هو يعمل الأعمال» (يو ١٤: ١٠). والتي يمكن ترجمتها ترجمة صحيحة عن الأصل اليوناني هكذا: «الآب الحال فيّ يعمل أعماله» (١٠). والمعنى، أن الآب، بالمسيح، يعمل مشيئته، ويعلن عن ذاته، ويقرب من الإنسان، بواسطة يسوع المسيح، اقتراباً عجيباً، وجهاً لوجه، وفماً لأذن، ويداً لعين (الأعمى).

نحن الآن، وعلى بعد، نستطيع بقوة الإيمان والامتداد باليقين الروحي أن نحس تماماً بالآب، ونكاد نراه في شخص يسوع المسيح. فما بالك بالذين عاينوا، ورأوا، وشاهدوا، ولمسوا هذه الحقيقة، التي عبّر عنها تلميذٌ مُخْلِصٌ وصادق، بقوله: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسْته أيدينا، من جهة "كلمة الحياة"، فإن الحياة أَظْهِرَتْ، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأظْهِرَتْ لنا. الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح، ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (١ يو ١: ١-٤). هذا يوحنا الحبيب تلميذٌ يهودي، مفتوح العينين والقلب؛ هذا رأى وشاهد ولمس وعان وآمن؛ وينقل لنا خبرته حيّة نابضة بالروح، ونحن — بالإيمان — أيضاً لمسنا معه، وشاهدنا معه، وعايثنا معه، لأننا نؤمن، والإيمان رؤيا!

وهكذا، فإن شهادة المسيح للآب ولنفسه بالكلمة والتعليم، هي استنفارٌ للوعي الروحي فينا، لإيقاظه، ليقوم ويعي. أما شهادة المسيح بالأعمال، فهي مقارعة للفكر، أن يتيقظ، ويدرك،

ويتيقن مما يرى، ويستخلص الحق بالعيان!!

«... أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري»:

صحيح أن أنبياء كثيرين عملوا معجزات خارقة، فموسى معروف بعجائبه العشرة التي ضرب بها المصريين، وشق البحر الأحمر، وعَبَّره ماشياً هو وشعبه، وطلب فنزل المن، وضرب الصخرة فجرى ماء، وصنع حية نحاسية، كلٌّ مَنَ نظر إليها شُفيَ من لدغة الحيات. ويشوع بن نون فلق الأردن ليعبر الشعب وسطه، وبصلاته أوقف حركة الأرض أمام الشمس. وشمشون، أروى عَظَشَه من نبع ماء خرج من المكان الذي رمى فيه لُحي حار ميت. وإيليا صعد إلى السماء في مركبة نارية، وأليشع أقام ميتاً. ودانيال تمشَّى في الجب وسط أسود شرسة جائعة. والثلاثة الفتيّة القديسون تمشَّوا في وسط أتون النار المرتفعة تسعة وأربعين ذراعاً.

ولكن، لا هؤلاء، ولا غيرهم قط، قيل عنهم هكذا: «ولما صار المساء، إذ غربت الشمس، قَدَّموا إليه جميع السُّقَمَاء والمجانين، وكانت المدينة كلها مجتمعمة على الباب، فشفي كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة، وأخرج شياطين كثيرة، ولم يَدْعُ الشياطين يتكلمون، لأنهم عرفوه.» (مر١: ٣٢-٣٤)

كذلك: «وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع، وضعوا المرضى في الأسواق، وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هذب ثوبه، وكلُّ مَنَ لَمَسَه شُفيَ» (مر٦: ٥٦). وقال عنه القديس متى: «فأخرج الأرواح بكلمة، وجميع المرضى شفاهم، لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو أَخَذَ أَسقامنا، وحمل أمراضنا.» (مت٨: ١٦ و ١٧)

فأعمال المسيح الإعجازية لم تكن مجرد معجزة صنعها في حياته، بل كانت حياته معجزة، وكلها معجزات. فإذا جئنا إلى الأعمال الفردية، كفتح الأعمى المولود من بطن أمه وكيف صنع له مُقْلَةً عينٍ من الطين، فنحن هنا أمام خالق، لا صانع معجزات! والذي أقام لعازر بعد أربعة أيام في القبر، وقد أَثْنَّ أيضاً، هنا نحن أمام الديان الذي يقيم الموتى ويُحيي مَنَ يشاء. كل هذا كان عمله المسيح لا ليُظهِر قوته، بل ليشتملن رسالته، لكي تنطق أعماله بحقيقة الله فيه.

٢٥: ١٥ «لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم، إنهم أبغضوني بلا سَبَب».

هنا المسيح يرتفع بالعمل الرديء الذي عملوه فيه، فيراه في ضوء كلمة الله، أنه بالرغم من كل

ما قصدوه من الشر، فقد تمَّ به، دون أن يدروا ودون أن يشاءوا، قصد الله الأزلي الذي استودعه الله بالنبوة في ناموسهم.

«في ناموسهم»:

خطر أن يفصل المسيح بين ناموسه الإلهي و"ناموسهم"، فقد أرداه أرضاً، وعزَّكه عن رضى الله إلى الأبد! فلم يَعدْ بعد هذه اللحظة يُدعى ناموسَ عهدِ الله، بل «ناموسهم»، ناموس الكُرامين الأردباء الذين تعاهدوا على قتل ابن صاحب الكرم، فترَبَّصوا به، في يوم فصحهم، وعوض خروف الفصح، ذبحوا حَمَلَ الله الوديع!

«الكلمة المكتوبة في ناموسهم»:

هذه هي الكلمة المكتوبة في ناموسهم: «لا يَشْتِ بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامزُ بالعين الذين يُبْغضونني بلا سبب» (مز ٣٥: ١٩)، ثم تكررت في مزمور آخر: «أكثر من شعر رأسي، الذين يُبْغضونني بلا سبب.» (مز ٦٩: ٤)

«بلا سبب»: δωρεάν، وفي الفولجاتا اللاتينية gratis:

«بلا سبب» لا تفي بالمعنى الذي جاء في اليونانية واللاتينية، فهي تفيد الهدية المجانية، أو بدون مقابل! وفعلاً، فالعمل الذي عملوه في المسيح، لو حاول الإنسان أن ينتحل لهم أي عذر أو أي داع، فلا يجد؛ لأن كل التهم التي أقاموها ضده، كانت غير جادة، وقد تعبوا في تلفيقها. وليست تهمة واحدة من التهم التي قدموها، كانوا يؤمنون بأنها صحيحة! كذلك، فكل مرة أقدموا فيها على رَجْمِ ادعاء منهم أنه كَسَّر الناموس وتعَدَّى على وحدانية الله، لم يستطيعوا أن يبلغوا فيها حداً قاطعاً، لأنه ردٌّ عليهم وأفحمهم، فسقطت الحجارة من أيديهم، وتفرقوا شَذَر مَذَر.

والواقع أن قداسة المسيح واستقامته الحادة، جعلت عداوتهم له وُبْغضتهم إياه تافهة بلا أي معنى، بل وتافهة أقصى ما تكون التافهة، فأوقفهم مواقف الدينونة، كلما رفعوا عقيرتهم عليه!! وتكشفت عداوتهم أنها عداوة صافية مائة بالمائة، لا يسندها أيُّ مبرر! وهذه تُحسب، في مفهوم الدينونة، أنها تعبير مكشوف عن «سِرِّ الإثم» الذي يعمل في أبناء المعصية، والذي سيكشفه يوماً الله الديان: «لأن سِرَّ الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يُرْفَعَ من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيُسْتَقْلَن الأثيم، الذي الربُّ يُبيده بنفخة فيه، ويُبْطِلُهُ بظهور مجيئه.» (٢ تس ٢: ٧ و٨)

وإزاء هذا العنف المجنون للأثمة الذين قاوموا المسيح، وهم متهيثون لمقاومة تلاميذه والكنيسة

المولودة حديثاً، ارتأى الآب والمسيح أنه لا بد من أن يسند التلاميذ والكنيسة بالروح القدس، المدافع القوي، والمحامي القدير، والشفيع، والشاهد.

الآيات ١٥: ٢٦ و ٢٧:

إزاء مقاومة رسالة المسيح وإنكار اليهود لعمله واسمه وفكره، كان من الطبيعي أن يُرسل المسيح الروح القدس، القوة الإلهية الجبارة، التي تشهد وتدعو سرّاً القلوب الأمانة التي تقبل الكلمة، وتحتاج إلى إقناع وشهادة وتشجيع، فيؤديها الروح القدس. وبهذا يُحيّد القوة الأثيمة العاملة في اليهود وغير اليهود والتي تتربص بالمؤمنين وتطارد الكارزين. وقد أثبت الروح القدس في ذلك المجال بلاءً فائق القوة والوصف. وكان الروح القدس لسان شهادة في التلاميذ لحساب المسيح والآب.

ثم يجيء بعد ذلك الأصحاح السادس عشر، ليصف عمل الروح القدس في مساندة ومؤازرة التلاميذ.

٢٦: ١٥ «ومنى جاءَ المُعزِّي - الباراكليت - الذي سأرسله أنا إليكم، من الآب، رُوح الحق، الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي».

«المُعزِّي»:

ليست هذه الكلمة ترجمة دقيقة للأصل اليوناني، ولكنها ترجمة جزافية للكلمة الأصلية التي هي «الباراكليت». وكان يجب أن تُتركَ كما هي، لأن «الباراكليت» هنا اسم وليس صفة (١١). والباراكليت $\delta \text{ παράκλητος}$ باللاتينية تترجم advocatos.

«أُرسله "أنا" إليكم من الآب»:

هنا الضمير $\epsilon \gamma \omega$ عليه تركيز زائد، لإبراز صفة الألوهية، فالمسيح هنا هو الابن الذي بذهابه إلى الآب سيرسل الأقنوم الثالث الروحي، وهو «روح الحق» الإلهي. وقد أوضح المسيح بعد ذلك في الأصحاح السادس عشر الآية السابعة، أن إرساله مُتعلّق بانطلاق المسيح بعد تكميل خدمته على الأرض بالصليب: «لكنني أقول لكم الحق، إنه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتاكم المعزّي.» (يو ١٦: ٧)

(١١) راجع شرح الآية ٢٦: ١٤. وراجع أيضاً المدخل ص ٢٤٧ وما يليها.

وهنا، نحن بصدد أخرج ساعات المسيح، وهو يتكلم عن الفراق، مما جعله يسبق ويشجعهم بخصوص ما سيُقابلهم من ضيقايت و بُغْضِة العالم، موضحاً ما عاناه المسيح نفسه في العالم، أصبح الحديث عن سلطانه اللاهوتي بإرساله الروح القدس ذا قيمة عظيمة لتشجيعهم، فهو يؤسس فيهم الثقة الكاملة في شخصه وسلطانه الإلهي، كما يؤمنهم إزاء عنف الاضطهاد القادم، وذلك بإرساله الروح القدس.

«من الآب»، «من عند الآب»: παρά

تفيد الموضع، أي من جانب الآب، ولا تفيد الخروج من المنبع (١٢)، لأن الحرف المنوط به توضيح الخروج من داخل المنبع هو في اليونانية ἐκ أو ἐξ خارجاً من (out of)، وقد جاءت واضحة في مر ٣٠: ٥: «القوة التي خرجت منه» = ἐξ.

«روح الحق»: τὸ πνεῦμα τῆς ἀληθείας

الأليشيا هنا هي استعلان الحقيقة الإلهية (في المسيح)، وهي لا تُقَلَّم قط، ولكن تؤخذ بالروح وتصديق الحق: و«الروح القدس والحق» يوجدان ويعملان معاً: «ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له» (يو ٢٣: ٤). وكلُّ منهما يشرح الآخر ويزكيه. ويلاحظ أنهما معاً علامة أكيدة ودائمة على الحياة فوق الطبيعية، والدخول في مجال الاسكاتولوجيا، أي أمور الآخرة، التي يقول المسيح عنها أنها «الآن»: «تأتي ساعة وهي الآن» (يو ٢٣: ٤ و ٢٥: ٥)، لأن «الآن» في المسيح، هو والمستقبل شيء واحد، وهو بعينه استعلانُ الحضور الإلهي فوق الزمن؛ لأن استعلان الحق بالروح القدس للإنسان معناه تعامل الله مباشرة مع الإنسان، حيث يتقدس الإنسان، أي يصير بجملته بحيا لله وليس للعالم.

وقد تكرر سابقاً هذا الوصف للروح القدس في يو ١٤: ١٧، وسينكرر أيضاً في ١٦: ١٣. وقد ذكره ق. يوحنا في رسالته الأولى ٤: ٦. ويلاحظ أن إرسال روح الحق هو مناسبة من واقع الحال، لكي يقف ضد روح الباطل والتزييف في العالم: «كلُّ روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد، فليس من الله، وهذا هو روح ضد المسيح.» (١ يو ٤: ٣)

ومعروف أن الله هو «الحق». فهنا واضح أن «روح الحق» هو روح الله. فالروح القدس هو

الأقنوم الذاتي في الله الواحد مع الآب والابن. والمسيح قال: «أنا هو الحق»، فهو «روح المسيح» أيضاً. لذلك واضح أنه سيُرسله، ليشهد للحق الذي في المسيح تجاه العالم المقاوم. كما أنه الوحيد الذي له السلطان الصادق لشرح كلمة الله، والتذكير بها، والتعريف بما ستؤول إليه: «ويخبركم بأمور آتية» (يو ١٦: ١٣). ولكن سواء الشهادة للحق أو شرح الحق الذي في المسيح والكلمة أو التذكير بها والتنبؤ بما ستؤول إليه، فهذه ليست مجرد صفات للروح القدس، ولكنها من صميم طبيعته. وهذا يُلاحظ من تركيب كلمة الروح على كلمة الحق كمضاف إليه، فالحق يُصير ملك الروح وله.

«من الآب ينبثق» ἐκπορεύεται وباللاتينية procedit:

وهي تفيد معنيين: معنى الخروج من داخل، والخروج هذا نفسه هو إرسال. وهنا نجد أن الفعل الملازم للروح القدس بالنسبة للمسيح يأتي أولاً في «المستقبل»: «سأُرسله»، لأن إرساله متوقف على عمل سوف يكمله المسيح بعد الصليب، وهو الانطلاق إلى الآب.

ثم يأتي الفعل الآخر وهو خاص بالروح القدس والآب: «ينبثق»، ويأتي في المضارع بصفة الاعتياد، أي من عند الآب يخرج، فهو فعلٌ لازمٌ فوق مفهوم الحركة، وهو نفس المعنى الذي يُستخدَم بخصوص المسيح أنه من عند الآب يخرج. من هذا نفهم، أن إرسال الروح القدس بواسطة الابن من عند الآب بعد أن يكون قد تمجد، هو في الحقيقة التكميل النهائي لعمل الحلقة الأولى التي اضطلع بها الكلمة سابقاً بالروح القدس. وفي نفس الوقت نفهم من قول المسيح أنه سيرسل الروح القدس من عند الآب، أن ذلك يستعلن الصلة الذاتية والجوهرية بين الآب والابن والروح القدس وموضع الروح القدس وعمله في الثالوث «من الآب بالابن».

«من الآب»:

يلاحظ هنا أنه لم يقل: «من "أبي"»، لأن العمل الذي سيقوم به الابن والروح القدس هو لحساب الإنسان، الذي أصبح الله بالنسبة له هو «الآب» بواسطة الابن والروح القدس. لذلك فإن رسالة الروح القدس هنا هي خاصة بالإنسان.

«يشهد لي»:

لشرح شهادة الروح القدس، الرجاء الرجوع إلى المدخل صفحات ١١٧ و ١١٨ و ٢٥٢. ولكن ينبغي أن نوضح هنا أن الروح القدس سيضطلع بمفرده بالشهادة للمسيح خارج عمل التلاميذ، أي أنه سيشهد بواسطة التلاميذ، وسيشهد هو من تلقاء ذاته، وذلك في قلوب المؤمنين مباشرة بعمل

الإلهام والنعمة، في كل ما يخص حياة المسيح وأقواله وأعماله. كذلك بتوجيه المؤمنين للقيام بأعمال، هي بحد ذاتها تصير شهادة للمسيح، وهذا هو العمل الأعظم للروح القدس والذي بقي في الكنيسة، وهو باقٍ إلى الأبد: «لأنه ما كُتِّ معكم ويكون فيكم». (يو ١٤: ١٧)

واضح هنا أن الروح القدس هو روح مناداة وإعلان! ينطق بالكلمة في الأفواه وفي القلوب، في فم الكارز، وقلب السامع معاً وفي نفس الوقت؛ وبدون عمل الروح القدس في الشهادة للمسيح، لا الكارز يستطيع أن يستجلي الكلمة بالروح ويستعلن قوة وحق المسيح فيها، ولا السامع يستطيع أن يحسها ويقبلها ويعمل بها!

لذلك يلزم، بل يتحتم أن نعلم، أن الروح القدس هو الشاهد الشرعي الوحيد، الذي به ومن خلاله يشهد التلاميذ، وتشهد الكنيسة، وتتحرك القلوب للإيمان والعمل بالإيمان!

علماً بأن الشهادة بالروح القدس للمسيح ليست فضيلة، أو واجباً أو عملاً يتعزى به التلاميذ أو الكنيسة على مدى العصور، بل إن الروح القدس تعيّن لمقارعة العالم وتحطيم كبريائه وإخماد حركة الكذب والتزييف فيه فيما يخص حقيقة الله وعبادته. لذلك فالعمل بالروح القدس هو تجنُّد لحمل الحق ضد الباطل في العالم، هو عمل جذّي وخطير يختص بالله نفسه، وسنقرأ عنه بعد ذلك هكذا: «يَبْكَتُ الْعَالَمُ» (١٦: ٨)؛ بل ومن شهادة الروح القدس غير المحدودة، تأتي شهادته للتلاميذ أنفسهم أنهم حقٌّ وحسب الحق: «دِيمَتْرِيُوسُ مَشْهُودٌ لَهُ مِنْ الْجَمِيعِ وَمِنْ الْحَقِّ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَيْضاً نَشْهَدُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ شَهَادَتَنَا هِيَ صَادِقَةٌ». (٣ يو ١٢)

ولكن يلزم أن ننتبه إلى قيمة قول المسيح: «الذي من عند الآب ينبثق»، حيث «يَنْبَثِقُ» تأتي في المضارع بالصيغة الدائمة. لذلك فشهادة الروح القدس لحقِّ المسيح مستمدة أصلاً من الآب: «وَالْآبُ نَفْسَهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي» (يو ٥: ٣٧)، فالآب يشهد لابن بالروح القدس لأن: «لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الْابْنَ إِلَّا الْآبُ». (مت ١١: ٢٧)

وأخيراً — وهذا هو في الحقيقة عمل الروح القدس الأول والأساسي — اضطلاع الروح القدس بإلهام التلاميذ لكتابة الأناجيل وكل الرسائل، أي أسفار العهد الجديد. فهذه تُعْتَبَرُ شهادة الروح القدس للمسيح بالدرجة الأولى. ونستطيع أن نقول إن الروح القدس هو الذي اضطلع بوضع أسس الإيمان للكنيسة منذ اليوم الأول وحتى اليوم.

٢٧:١٥ «وتشهدون أنتم أيضاً، لأنكم معي من الابتداء».

لاحظ أن صيغة: «وتشهدون أنتم أيضاً»، تأتي في أعقاب بغضة العالم للمسيح، ومقاومته لتعاليمه ولإرساليته، وبالأخص فيما سيكون بعد ذلك من جهة قيامته من الأموات. لذلك، فشهادة التلاميذ تأتي من واقع ضرورة الشهادة ضد واقع العالم المعاند، وتزييف الحقيقة بأديان الوثنية الكاذبة التي تتكلم عن الله. فالشهادة في هذا المجال ضرورة لحساب الحق، أكثر منها واجباً مفروضاً على التلاميذ أو المؤمنين يؤدونه بحسب مسرتهم. لذلك، فالتفريط فيها تفريط في الحق والله، وليس مجرد إهمال واجب، علماً بأن كل مطالبة بالشهادة يقف وراءها المسيح نفسه: «في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني، لا يُحسب عليهم، ولكن الرب وقف معي وقوّاني، لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم، فأُنقذت من فم الأسد.» (٢ تي ٤: ١٦ و ١٧)

«لأنكم معي من الابتداء»:

لا زلنا في أعقاب صورة الكرمة الحقيقية والأغصان الثابتة في الكرمة منذ الابتداء، ونحن الآن بصدد الثمر الذي يأتي صورة طبق الأصل من الكرمة، يحمل صفاتها وينطق بحقيقتها.

والمسيح يتكلم هنا عن رحلة الكرازة منذ يومها الأول، إنها تاريخ حياة حياة، هذا نلاحظه بوضوح في تدوين إنجيلي القديس متى والقديس لوقا، إذ تتبعا كل شيء من الابتداء بتدقيق. إنها دعوة المسيح وإلحاح الروح القدس لتسجيل حوادث وأعمال كلها للخلاص، ولكن القديس مرقس ارتأى أن يبدأ الرحلة وتاريخها بحسب الأنبياء بعمل الروح القدس في المعمدان، ثم بالمسيح. أما ق. يوحنا فانطلق من البدء الأزلي، لأنه يبدو أن ق. يوحنا انكشف له سير البدء الأزلي فوق البدء الزمني، فاكتمى به معتمداً على تسجيلات السابقين له في التسجيل التاريخي.

ويلاحظ أن ق. يوحنا جمع بين التسجيلين فيما يخص الأقوال والأعمال، وفيما استعلن له خاصة بالروح القدس من واقع خبرات روحية سرية وخاصة جداً.

وعلى العموم، نلاحظ في نهاية هذا الأصحاح، سواء فيما يخص شهادة الروح القدس أو شهادة التلاميذ، صورة جميلة ومختصرة لنهايات الثلاثة الأناجيل الأخرى التي تتلخص في: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ، فَاهْبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَعَمِدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ، وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ»

(مت ٢٨ : ١٨ — ٢٠). وما حدث بالفعل يسجله سفر الأعمال مطابقاً تماماً لما جاء به ق. يوحنا هنا في الأصحاح الخامس عشر:

«ونحن شهوداً له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً، الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.»
(أع ٥ : ٣٢)

كذلك أيضاً، وبصورة واضحة زاهية، فيما يخص متابعة رحلة خدمة المسيح، ووصف سفر الأعمال كيف اعتنى التلاميذ جداً بالشهادة لها: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ المعمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحد منهم (بدل يهوذا الإسخريوطي الذي سلم المسيح) شاهداً معنا بقيامته.»
(أع ١ : ٢١ و ٢٢)



«أنا هو الكرمة الحقيقية وأنتم الأغصان.» (يو ١٥ : ٥)

تاج أثري منقوش عليه أغصان متشابكة لكرمة، يظهر فيها عنقود العنب مع الورقة الخضراء بالتبادل.
(من دير أنبا إرميا بسقارة — القرن السادس)



حائط المبكى (السور العربي لأورشليم)

وهو جزء من السور الذي بناه هيرودس حول الهيكل الثاني عام ٢٠ قبل الميلاد. وقد أبقى
 سبطس على هذا الجزء من السور بجواره ليصاحبه لتكون شاهداً للأجيال القادمة على عظمتهم
 حمود الرومان الذين استطاعوا هدم الهيكل كله. من عظمة الدين يهود وعظمة الساكنين فيه.

الأصحاح السادس عشر

حديث الوداع الثالث

الانطلاق والعودة

الآيات الخمس عشرة الأولى من هذا الأصحاح تُعتبر من جهة المعنى تكملة للحديث السابق (الأصحاح الخامس عشر)، وهي عن المعاناة التي سيواجهها التلاميذ بعد انطلاق المسيح، من اضطهاد مجامع اليهود لهم، ثم من أباطرة روما ومحاكمها، كميراث يسلمونه للكنيسة من بعدهم، وسيكون هذا الاضطهاد على شكل غير دينية كاذبة. وبسبب عنف هذه المواجهة الدموية «يقتلونكم»، فسيكون الروح القدس هو المرشد للحق، والمحامي، والشفيع لهم، أمام محاكم العالم، والمعزّي، الذي سيخبرهم مقدّماً بما سيأتي عليهم، ليكونوا على استعداد، كما أنه سيستعلن مجد المسيح في قلوبهم حتى يهوّن عليهم الألم والعذاب، ويتحول إلى شركة حقيقية في مجد المسيح.

وبعد ذلك وحتى نهاية الأصحاح، يكشف لهم أخيراً عن انتهاء زمن وجوده أمامهم بالجسد المنظور: «بعد قليل لا تبصرونني»، ولكن يكشف لهم أيضاً عن حتمية عودته سريعاً ليتراءى لهم هم خاصة، دون العالم، حيث يتحدث معهم عن الآب علانية دون أمثال، وهي نفس النصوص التي أوردها ق. يوحنا في إنجيله. ثم يخبرهم بانفتاح طريق الآب لهم، فيسألونه مباشرة باسم المسيح، لأن الآب يحبهم وسيستمع لكل طلباتهم. ثم يلخص لهم إرساليته من أولها إلى آخرها في آية واحدة: «خرجتُ من عند الآب، وقد أثبتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم، وأذهب إلى الآب». (يو: ١٦: ٢٨)

ولكن في نهاية الحديث، يكشف لهم عن سر ضعفهم الشنيع، كيف سيهربون هذه الليلة، ويتفرقون، ويتركونه «ليدوس المعصرة وحده» (راجع إش: ٦٣: ٣)! ولكن سلام المسيح الذي فيهم سيرتد إليهم سريعاً، وينتهي حديث الإنجيل كله بهذه الآية: «ثقفوا أنا قد غلبتُ العالم».

١:١٦ «قد كَلَّمْتُكُمْ بهذا، لكي لا تَغْشَوْا».

«كَلَّمْتُكُمْ بهذا»^(١):

لقد أجمل المسيح كل ما قاله، ليس فقط عن اضطهاد العالم الذي ينتظرهم بعد انطلاقه، بل وعن كل ما قاله بخصوص اتحادهم به مثل اتحاد الأغصان في الكرمة وثبوتهم في وصاياه ومحبه، وعن قانون المحبة العظمى وهو بذل النفس عن رِضَى على مستوى محبة المسيح لهم التي كلفته الصليب، كذلك عن استعداد الآب لسماع كل طلباتهم، واستجابته لهم من أجل اسم ابنه الذي أحبوه وآمنوا به؛ كل ذلك حتى يبقوا أمناءً للرسالة التي وُضِعَتْ عليهم تجاه العالم، لتكميل مشيئة الآب وعمل الابن، وذلك بمساعدة الروح القدس، وحتى يتحملوا ثَقْلَ مقاومة العالم.

«لكي لا تَغْشَوْا»: σκανδαλισθητε

العشرة كانت مُخِدِّة بالتلاميذ، فقد سبق أن سقط بعض منهم وانطرحوا خارجاً: «فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا (أكل الجسد وشرب الدم)، فقال لهم: أهذا يعثركم؟ σκανδαλίζει» (يو: ٦: ٦١). ولقد تعقَّب المسيح «العشرة» في أصولها، وعرفها قائلاً: «إن كان أحدٌ يعيش في النهار لا يعثر، لأنه ينظر نور هذا العالم، ولكن إن كان أحدٌ يعيش في الليل يعثر، لأن النور ليس فيه» (يو: ١١: ٩ و ١٠). وطبعاً هو سبق وقال: «أنا هو نور العالم، مَنْ يتبعني فلا يعيش في الظلمة» (يو: ٨: ١٢)، فواضح أن معنى العشرة في هذه الآية هو إلقاء نير المسيح والتنكُّر له. وقد حدث ذلك أثناء حديث المسيح عن الجسد والدم: «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه» (يو: ٦: ٦٦)، لأن النور انحجز عنهم، فغَشِيَتْهُمْ الظلمة.

ق. يوحنا يُبرز سطوع النور باستعلان مجد المسيح والإيمان به: «أكتب إليكم ما هو حقٌ فيه وفيكم، أن الظلمة قد مضت، والنور الحقيقي الآن يضيء» (١ يو: ٢: ٨). ونور ق. يوحنا هو «المسيح».

إن العشرة التي كانت تهدد الرسل — (اليهود أصلاً) — هي من اليهود إخوتهم في الدم واللحم والميراث والتراث، لأن الغيرة الكاذبة على الدين اليهودي، ومجد شعب إسرائيل في صورته المادية، جعلت مقاومة اليهود للمسيح (النور) فوق ما يتصور العقل من: البغضة، والعنف، والتنكيل:

«لأنني أشهد لهم أن لهم غيرة لله، ولكن ليس حسب المعرفة» (رو ١٠: ٢). لهذا السبب قدم المسيح لتلاميذه كل وصاياه وتشجيعاته السابقة، ليكونوا مُسَبِّقاً على علم بما سيحدث، مع وعده بمؤازرتهم بالروح القدس، ليصمدوا أمام قوة السلطان الرسمي للمحاكم اليهودية ومحاكم روما بعدها. صحيح أن شهادتهم للمسيح وللإسم (إسم ابن الله) في العالم ستواجه بمقاومة واضطهاد ومرارة؛ ولكن يوجد ما هو أشد مرارة وخسارة، بل وكارثة، تنتظر المرتدين الذين يغلبهم العالم لنفسه. لذلك فإن أعظم سند قدمه لهم المسيح في حديثه كان في آخر آية: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم». ولَمَنْ غَلَبَ المسيح العالم، إلا للذين آمنوا وتبعوه ليرثوا الأجداد العليا. ويرد ق. يوحنا على غلبة المسيح للعالم بقوله: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا» (١ يوه ٤: ٤). إن جُوزَ العالم وظلمه ودينونته لهم، لا يمكن أن تعادل خسارة المجد الذي ينتظرهم أو شناعة الدينونة التي ستواجههم: «من ينكرني قدام الناس، أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السموات». (مت ١٠: ٣٣)

٢: ١٦ «سُيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ، بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ، أَنَّهُ يَقْدَمُ خِدْمَةً لِلَّهِ».

«سُيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ»:

هذه كانت خطة اليهود التي نفَّذوها في أيام المسيح: «لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا، أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح، يُخْرَجَ من المجمع» (يو ٩: ٢٢). وكلمة «تعاهدوا» تعني أنهم أخذوا قراراً بإجماع السنهدريم فصار قانوناً رسمياً. كذلك، فإنه بسبب هذا القرار ظل كبار الشخصيات التي آمنت بالمسيح تحتفظ بإيمانها سرّاً، خوفاً من تطبيق هذا القرار عليهم: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله». (يو ١٢: ٤٢ و٤٣)

ولكن بحسب ثقة العلماء من المسيحيين المتضلعين في نظام اليهود التشريعي ومن ربيين، يظهر أن اصطلاح «خارج المجمع» «ἀποσυνάγωγοι» إجراء بُدِيَءَ في تنفيذه في أيام المسيح فقط، فكان يُحسب مثل هذا الشخص غير مسموح له بحضور الصلوات أو الاحتفالات الرسمية؛ وهذا الإجراء أقل قليلاً من إجراء الحرمان الكلي من شركة رعوية إسرائيل، أي الانفصال الكلي عن شعب الله^(٢).

^٢ Bultmann, *op. cit.*, p. 335 n. 5.

«وخارج المجمع» هو حكم يحرم الشخص أيضاً من حق حماية التصاريح الدينية التي يتمتع بها اليهودي العادي. ويقول العالم بولتمان في نفس الموضع أن هذا الإجراء ظل معمولاً به منذ أيام بولس الرسول حتى الشهيد يوستين أي حتى سنة ١٦٥ م.

وكان ردُّ القديس بولس الرسول على إخراجهم من المجمع أنه اعتبر أن الكنيسة هي إسرائيل الجديد «الحقيقي»، ووضع قانونه الجديد المضاد: «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة، فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله.» (غل ٦ : ١٥ و ١٦)

ولما حدث حرّم كامل للمسيحيين الذين من أصل يهودي، بدأت الكنيسة نصير هي المقابل للمجمع، حيث تجرى فيها العبادة بالروح كاملة.

«بل تأتي ساعة، فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله» :
«بل تأتي ساعة» :

تعبير عن تدرج أعمال النعمة والتكامل بالمسيحيين، من حرمان العبادة في المجمع اليهودية، إلى الحرمان الكامل من الانتساب إلى العبادة اليهودية، ثم تزداد إلى درجة سفك الدماء، على اعتبار أن سفك دماء المسيحي هو خدمة لله، أي بنوع «الذبيحة» التي تُقدّم للإله المزيّف، سواء لدى اليهود الذين ضلّوا تماماً عن معرفة الله الصحيحة: «لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو ١٦ : ٣)، أو عند الوثنيين الذين بلا إله حلة.

«كل من يقتلكم» :

«كل» هنا توضح انتشار الروح العدائية إلى ما هو خارج اليهود أيضاً. فاليهود هم الذين بدأوا بهذا السلوك الشيطاني وسلّموه للوثنيين. وقد وصف المسيح مجمعهم في سفر الرؤيا بأنه صار مجمع الشيطان بالفعل: «وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً، بل هم مجمع الشيطان» (رؤ ١٩ : ٢)، «ها أنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، ها أنذا أصيّرهم يأتون ويسجدون أمام رجلك، ويعرفون أنني أنا أحببتك.» (رؤ ١٩ : ٣)

وقد زاد عليه الوثنيون ادعاءات كاذبة، بأن المسيحيين يقتفون جرائم، وهي من صنع خيالهم طبعاً^(٣)، وذلك لكي يوقعوهم تحت عقوبات القوانين بدون وجه حق.

^٣ Tacitus, *Annals*, XV.44. Suet (Nero) 16, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 226.

«يقدم خدمة لله»: λατρείαν προσφέρειν τῷ θεῷ

واضح من النص اليوناني أن كلمة «خدمة» هي الخدمة الطقسية العبادية، وكلمة «يقدم» هي الكلمة المخصصة لتقديم الذبائح في الطقس اليهودي في عبادة الله. وهذا واضح غاية الوضوح في تقديم المسيح نفسه عندما ذبحوه في عيد فصحهم، باعتباره ثائراً على عبادتهم، كذبيحة استرضاء لإلههم، حتى تنجو الأمة من أيدي الرومان: «إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يو ١١: ٥٠)

وقد صار بعد ذلك تقليداً عرفياً سارت عليه المجامع في اعتبار أن المسيحيين ثائرون على يهوه، لذلك يحل دمهم استرضاءً لوجه هذا «اليهوه». وهذا ما صنعه باستفانوس أول شهداء الكنيسة (أع ٧: ٥٧ و ٥٨): «وأخرجوه خارج المدينة ورجموه». وكان شاول الفريسي الضليع في الناموس، شاهداً على صحة قتله حسب الناموس. وكان لا يصعب عليهم أن يقيموا شهوداً كذبة، كالذين أقاموهم ضد المسيح، ليتمسوا ذبيحتهم مثل الشهود الذين أقاموهم ضد القديس إستفانوس: «وأقاموا شهوداً كذبة يقولون هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلم كلاماً تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس.» (أع ٦: ١٣)

فقتل المسيحيين — حسبما سبق وقال المسيح — صار عند اليهود المتعصبين الغيورين، عن جهل وجهالة، نوعاً من التقوى ترضي الله! وهذه الحقيقة المخزية مسجلة في كتاب المدراس اليهودي، حيث أخذوا حادثة العهد القديم أيام موسى وما صنعه فينحاس الكاهن (عدد ٢٥: ٦-١٥)، عندما قتل الرجل الإسرائيلي الذي اقتنى زانية من المديانيين علناً، فقتله مع الزانية، فاعتُبر ذلك تكفيراً عن ما صنعه الآخرون: «فكلم الرب موسى قائلاً: فينحاس بن أليعازر بن هرون الكاهن قد ردّ سخطي عن بني إسرائيل، بكونه غار غيرتي في وسطهم، حتى لم أفن بني إسرائيل بغيرتي» (عدد ٢٥: ١٠-١١). ويقول المدراس تعقيباً على هذا: [هل هذا قيل على أساس أنه قدّم قرباناً؟ لا، ولكن ليعلمهم أن كل واحد يسفك دم إنسان شرير فكأنه قدّم تقدمة (ذبيحة)] — المدراس على سفر العدد ٢٥: ١٣^(٤).

وبولس الرسول يشهد على هذا التعليم وهذا السلوك الجاهل بقوله: «فأنا ارتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصري، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم؛ فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطان من قِبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يقتلون ألقيت

^٤ Westcott, *op. cit.*, p. 226.

قرعة بذلك. وفي كل المجامع كنت أعاقبهم مراراً كثيرة، وأضطرهم إلى التجديف، وإذا أفرط حنقي عليهم، كنت أطردهم إلى المدن التي في الخارج.» (أع ٢٦ : ٩-١١)

وبولس الرسول أيضاً يوضح لنا صلة هذه الجرائم التي كان يرتكبها بالغيرة على الناموس هكذا: «فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية، أنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أتباعي في جنسي، إذ كنت أؤفر غيرة في تقليدات آبائي.» (غل ١ : ١٣ و ١٤)

١٦ : ٣ «وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفتوني.»

واضح أن كل خطأ جاهل نصنعه بإرادتنا، يكون نتيجة حتمية لجهلنا بالله: «أنا الذي كنت قبلاً مُجَلِّفًا ومُضْطَهِّدًا ومُفْتَرِيًا. ولكنني رَحِمْتُ، لأنني فعلت بجهل في عدم إيمان.» (١ تي ١ : ١٣)

وهكذا، إذ سبق الرب فأوضح ذلك لتلاميذه وللمؤمنين إلى منتهى الدهور، جعلهم لا يرتاعون من عنف الاضطهاد، ولا يحنقون على قاتليهم: «يا أبتاه اغفرهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو ٢٣ : ٣٤). في هذه الآية يكشف الرب الأساس الذي يقوم عليه اضطهاد العالم للمسيحيين خاصة، وهو عدم انكشاف حقيقة الآب وحقيقة رسالة الابن التي هي موضوع شهادتهم بالدرجة الأولى، والتي هي نفسها مصدر خلاص وغنى بل وفرح وسلام الإنسان المسيحي. فإن كان قد قيل عن المسيح أنه تعلّم الطاعة مما تألم به: «مع كونه ابناً، تعلّم الطاعة مما تألم به، وإذا كُمل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب ٥ : ٨ و ٩)؛ فقد صارت اضطهادات العالم بكل صنوفها فرصة للشركة فيما تألم به المسيح على نفس المنوال: «إن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكم.» (يو ١٥ : ٢٠)

١٦ : ٤ «لكنني قد كلمتكم بهذا، حتى إذا جاءت الساعة، تذكرون أنني أنا قلتُ لكم. ولم أقل لكم من البداية لأنني كنتُ معكم.»

«لكن» : ἀλλὰ

وكأنما يسترجع الرب الحديث من أوله، متأسفاً للغاية أنه ربما يكون قد أخطأهم بهذا السبق في الإعلان عما سيعانونه، ولكن الضرورة حكمت بذلك، حتى إذا جاءت ساعة الاضطهاد يكونون

على بيئنة تماماً مما يحدث لهم : أولاً أن ذلك هو من أجل اسمه ؛ ثانياً لأن هؤلاء المضطهدين لا يعرفون الآب ولا الابن، فهم عن جهل يصنعون كل ما يصنعونه بهم . وهكذا إذ يتذكر المؤمنون كلام الرب، يدركون أن ما يحدث لهم وأمامهم هو معروف تماماً ومكشوف أمام الله، وحينئذ يتشجعون أن عين الله عليهم .

والمسيح، إذ يضطر أن يخبرهم بهذا كله الآن، لأنه ماضٍ إلى الآب ولن يروه، وحينما كان معهم لم يكن من المناسب أن يتكلم معهم لأن حديث الساعة هو للساعة، فإنهم لما كانوا في حضنته كان يحفظهم من الذئاب ؛ ولكن يتحتم الآن، وبعد أن تعلموا كيف يجاهدون الجهاد الحسن أن يتركهم لخوض المعركة لنوال النصر : «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لوقا ٢٤: ٢٦). والمسيح ضامن لهم هذه النصر الآن، بسبب عطية الروح القدس الذي سيعطيهم القوة والمعرفة والشهادة، والحق كل الحق .

١٦ : ٥ «وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي» .

هنا محور الحديث كله وسببه، فقد انتهت رسالة المسيح بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنفسه، فأمامه الرحلة الخالدة من الصليب إلى السماء من حيث أتى ؛ رحلة تبدأ حينما تبلغ الآلام ذروتها، «لأنه لاقى (يليق) بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام» . (عب ٢: ١٠)

ولكن المسيح يعتب على التلاميذ المغموين والمهمومين في حزنهم، سواء من جهة الفراق المحتمي الذي أدركوا حقيقته أو بسبب ما حدثهم عنه المسيح من جهة المصير الذي ينتظرهم في العالم من بغضة وعداوة ومطاردة وقتل ! هذا وذاك ابتلع تفكيرهم كلية فلم ينتبهوا أن يسألوا المسيح إلى أين سيمضي : «وليس أحد منكم يسألني أين تمضي» !! التلاميذ في حزنهم لم يدركوا : «أين تمضي» ، الذي كان ينبغي أن يكون سؤالهم الملح، الأمر الذي يعنيهم بالدرجة الأولى أكثر ألف مرة من التفكير في مصيرهم بعد ذهاب المسيح . ثم يعود المسيح يعاتبهم :

١٦ : ٦ «لكن لأنني قلت لكم هذا، قد قلا الحزن قلوبكم» .

على م الحزن ؟ التلاميذ كانوا يتشبثون بوجود المسيح معهم بالجسد المنظور . كانوا مبهورين بأيام ابن الإنسان على الأرض . كانت فرحة دخوله وخروجه معهم قد جعلت من الأرض ملكوتاً منظوراً

ملموساً ومُعاشاً. التلاميذ كانوا على حق؛ كيف يُفَرِّطون بمصدر فرحتهم العظمى؟ لقد رأوا فيه الحياة الأبدية التي عند الآب وقد أظهرت، لقد عاشوها مضاعفاً، لمسوها، وشاهدوها عن قُرْب: «كلام الحياة الأبدية عندك» (يو: ٦٨)، إلى مَنْ نذهب بعد أن تذهب؟

«لِيُقَبِّلَنِي بِقُبْلَاتِ فَمِهِ لِأَن حُبَّكَ أَطِيبُ مِنَ الْخَمْرِ،

لِرَائِحَةِ أَدهَانِكَ الطَّيِّبَةِ، اسْمُكَ دهنٌ مُهْرَقٌ،

لِذَلِكَ أَحْبَبْتُكَ الْعَذَارَى،

اجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَتَجْرِي...،

تَحْتَ ظِلِّهِ اشْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَثَمَرَتِهِ حُلُوةٌ لِحَلْقِي...،

شِمَالَهُ تَحْتَ رَأْسِي، وَبِمِينِهِ تَعَانَقْنِي...،

فِي اللَّيْلِ عَلَى فَرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تَحِبُّهُ نَفْسِي، طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ،

إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الْأَسْوَاقِ، وَفِي الشُّوَارِعِ،

أَطْلُبُ مَنْ تَحِبُّهُ نَفْسِي، طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ...،

أَرَأَيْتُمْ مَنْ تَحِبُّهُ نَفْسِي؟ فَمَا جَاوَزْتُهُمْ إِلَّا قَلِيلاً،

حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تَحِبُّهُ نَفْسِي، فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِجْهُ...،

فَتَحْتُ لِحَبِيبِي، لَكِنْ حَبِيبِي تَحَوَّلَ وَغَبَرَ،

نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَذْبَرَ،

طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ، دَعَوْتُهُ فَمَا أَجَابَنِي...،

مُعَلِّمُ بَيْنِ رِبُوعَةٍ، رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيز...،

ظَلَعْتُهُ كَلْبَنَانِ، فَتَى كَالْأَرَزِ،

حَلَقُهُ حَلَاوَةٌ، وَكُلُّهُ مَشْتَهِيَاتٌ.

هَذَا حَبِيبِي، وَهَذَا خَلِيلِي...،

أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي، الرَّاعِي بَيْنَ السُّوسَنِ...،

أَنَا لِحَبِيبِي وَإِلَيَّ اشْتِيَاقُهُ...،

اجْعَلْنِي كَخَاتَمٍ عَلَى قَلْبِكَ، كَخَاتَمٍ عَلَى سَاعِدِكَ،

لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ قُوَّةٌ كَالْمَوْتِ، الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَآوِيَةِ،

لِهَيْبِهَا لَهَيْبُ نَارٍ لَطْفَى الرَّبِّ،

مِيَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْفِئَ الْمَحَبَّةَ، وَالسُّيُولُ لَا تَغْمُرُهَا،

إِنْ أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ كُلُّ ثَرَوَةٍ بَيْتِهِ بِدَلِّ الْمَحَبَّةِ، تُحْتَقَرُ احْتِقَاراً» (سفر نشيد الأنشاد).

« قال له سمعان بطرس: يا سيد إلى أين تذهب (دومينه كوفاديس؟ Domine quo Vadis?) » (يو ١٣: ٣٦)

« يا سيد لسنا نعلم أين تذهب. » (يو ١٤: ٥)

مع أنهم لو عرفوا حقيقة الآب وحقيقة ذهابه إلى الآب، لكان لهم الفرح عِوَضُ الحزن. ولكن لأنهم لم يعرفوا بعد ماذا بعد ذهابه، صاروا متشَبِّهين بوجوده، وفضلوا عدم ذهابه.

لقد انحصر التلاميذ في مسرَّة العشرة الحلوة التي أسسها المسيح معهم، لأنه كان قد أحبهم جداً: «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى...» (يو ١٣: ١)

ولكن كل مضمون أفراح التلاميذ كان — في الحقيقة — بسبب استعلاناته الخفية لشخصيته وعلاقته بالآب، فإن كانت هذه قد تسببت في تعلُّقهم به وحبهم له، فذهابه إلى الآب سيحقق لهم هذا الاستعلان نفسه أضعاف أضعاف.

٧: ١٦ «لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزّي، ولكن إن ذهبتُ أُرْسِلْهُ إِلَيْكُمْ».

لقد أخفى الحزن حقيقة إرسالية المسيح عن التلاميذ التي لن تأخذ استعلانها النهائي إلا بعد تكميل الآلام والانطلاق إلى الآب. لذلك يتجاوز المسيح حالة حزنهم، ويكشف لهم حقيقة انتهاء رسالته معهم، وضرورة انطلاقه ليأتي الروح القدس ليحلَّ محلَّه، لتكميل استعلان المسيح للتلاميذ والكنيسة، وقيادة التلاميذ لتكميل عمل المسيح على الأرض.

لاحظ أن قول المسيح: «إنه خير لكم»، هو تنبيه لذهن التلاميذ أن تكميل مشيئة الآب ينبغي أن يكون محل رضى مشيئة التلاميذ أيضاً، فمسرَّة الآب يلزم أن توافق مسرَّتنا. فالخير كل الخير هو دائماً في اتباع رأي الله.

«أقول لكم الحق»:

الرب هنا لا يقصد التأكيد وحسب، بل وينبه الأذهان، أنه يستعلن حقيقة أساسية ينبغي أن تصبح قاعدة للإيمان. فذهاب المسيح إلى الآب عن طريق الصليب هو لحسابنا؛ لذلك فحزن التلاميذ ورغبتهم في عدم انطلاق المسيح، معناه خسارة جسيمة لهم، لأن رسالته معهم بلغت نهايتها، وتكملها إنما سيكون بالروح القدس.

ومن واقع ما حدث بالفعل، عرفنا أن الروح القدس فوق أنه استعلن لنا حقيقة المسيح، فهو حَقَّق وجود المسيح الدائم معنا وإلى منتهى الدهر، وكأن المسيح لم يغادر الأرض: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). وهكذا صار انطلاق المسيح سبباً في بقاء حضوره وسط الكنيسة على الدوام بالروح القدس.

بقاء المسيح مع تلاميذه، يَحصر عمل المسيح في اتضاعه في الإعداد لصليبه، في استعلان الأمور الآتية فقط دون تحقيقها، كالاخلاص والفداء وحب الآب والتبني والمجد العتيق. ولكن انطلاق المسيح غَبَّر تحقيق الصليب، وهو قمة أعمال طاعته واتضاعه، حيث قاعدة انطلاقه إلى الآب مُحَمَّلاً بمصالحة العالم وعلى يديه ذبيحة الخلاص؛ يكون قد حقق بالفعل كل ما كان يخبرهم عنه ويستعلنه لهم.

انطلاق المسيح يحقق دخوله في المجد الذي له، حينئذ لا يعود يخبر تلاميذه بالخبر أو يُسْتعلن لهم بالمعرفة، بل يحقق لهم العطاء نفسه، عطاء الخلاص والفداء والحب الأبوي والتبني والمجد، وهذا العطاء يتم لهم بالروح القدس الذي يأخذ ممَّا للمسيح الممجَّد ويخبرهم ويعطيهم. فانطلاق المسيح أنتج عمليتين: الأولى أنه حَقَّق للبشرية كل ما سبق واستعلنه بالإنجيل، والثاني إرسال الروح القدس الذي يسَلِّمهم غنائم الابن الممجَّد: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيته» (يو ١٧: ٢٢). وباختصار نقول، إن المسيح حَقَّق كل ما قاله، وحَقَّق ذاته كابن الله، وحَقَّق سلطانه بانطلاقه، أي بقيامته وصعوده إلى الآب: «وتعيَّن ابن الله بقوة، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو ١: ٤)

إذن، فحديث الوداع هذا في جملته لم يحمل فقط توعية لتلاميذه أو تعزية نفسانية ترفع عنهم أحزانهم وثقل الخبر عن نفوسهم، ولكن هذا الحديث بالذات، المبني أصلاً على الكرامة والأغصان، هو لإعلان حقيقة الوضع الكياني الروحي الدائم للمسيح بالنسبة للتلاميذ والتلاميذ بالنسبة للمسيح، وبالتالي تصوير كنيسة المستقبل بالصورة السماوية الواقعية، وخاصة فيما هو للروح القدس، العامل الأساسي الجديد في علاقة المسيح بالتلاميذ والكنيسة.

وإن كان المسيح بانطلاقه وإرساله الروح القدس، قد نقل رؤية التلاميذ له من محدودية الجسد والمواطن كظاهرة تاريخية، إلى دائرة الرؤية الإلهية الكاملة والمطلقة كحقيقة اسكاتولوجية، أي أخروية، يعيشونها بالفعل، فقد أسَّس بهذا منهجاً حياً للكنيسة كلها عبر الدهور والأبد. فالمسيح، بالنسبة لنا الآن، هو أوضح وأشمل وأكثر استعلاناً مما كان للتلاميذ بالجسد، وهذا هو قيمة

«الانطلاق» الذي ركّز عليه المسيح، لكي يكون للتلاميذ مصدر الفرح، وليس الحزن.

ولكن يتحتم أن نضيف أن المسيح لم يتغير في نفسه من وجوده كظاهرة تاريخية إلى حقيقة إسكاتولوجية، فالله هو الله على الأرض وفي السماء. ولكن الذي تغير وتغير جداً، هو رؤية التلاميذ للمسيح التي أثّرت على كياناتهم ونقلتهم من واقع أرضي إلى واقع سماوي، من حالة السؤال الدائم كيف ولماذا وإلى أين أنت ذاهب، إلى حالة الإجابة عن وعي كامل ومفتوح، إلى بشارة مفرحة، إلى نقل كل خبراتهم الحية إلى الآخرين.

ومنظر التلاميذ الحزاني والمسيح أمامهم، يحكي لهم عن انطلاقه وهو في غاية السرور: «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب، مستهيناً بالحزني، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢: ٢). هذا الموقف هو المثل المطابق للآب الذي سمح بأن يسحق ابنه بالحزن وهو مسرور، بسبب المجد الذي سيجوزه والصلح الذي سيقمه! «أما الرب فسرّ بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم، يرى نسلًا تطول أيامه (كنيسة الدهور) ومسرة الرب بيده تنجح» (إش ٥٣: ١٠). على هذا الأساس المتين، شبّه المسيح حُزن التلاميذ بامرأة ماخض قربت على الولادة، فحزنها سيولّد سروراً، لذلك لا يلتفت أحد إليها وهي تصرخ متوجّعة!! فحزن التلاميذ كان بسبب تعلقات جسدية وقتية زائلة هي من صنع التاريخ، وسيبتلعها الماضي، أما انطلاق المسيح فهو البقاء الأزلي، وهو المستقبل الحي، الذي سيبقى هو كما هو، فرح لا يُنطق به ومجيد.

والخطر هنا مُخدق بنا نحن، إذا اشتبهنا التعرف على المسيح أو حاولنا تحقيق وجوده لنا بالعيان، هو أو عطاياه من مواهب تخدم الوجود الأرضي أو الزمني، فكأنما نجلب على نفوسنا أحزاناً بلا رجاء كأحزان التلاميذ لما واجهوا انفصال الأزلي عن الوقي؛ لأن كلّ ما هو زائل، يرافقه الحزن والندم، حينما يسلبه منا الزمن.

وكما التلاميذ، نحن أيضاً، لا يليق أن نقبض على الأزلي بأيدينا لتُبقيّة لمُتعة عيوننا وآذاننا. يتحتم أن نحزن كما حزنوا، حينما نمزّق عن أنفسنا كل ما تعلقت به أنفسنا من جهة النظر والسمع بل وحتى العواطف الجسدية. نحن الآن نقبض على المسيح بالإيمان، لا باليد ولا بالعيان. تأكيد الإيمان لا يوازيه تأكيد على الأرض، إنه النعيم المقيم. بالإيمان نحصل عليه (على المسيح) داخل قلوبنا كحقيقة لا تفارقنا: «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧). بالإيمان نمتلئ بروحه القدوس: «امتلكوا بالروح» (أف ٥: ١٨). وإذا حلّ المسيح في القلب وامتلاً بالروح القدس، يتحرر الإنسان من الجسد، من الفكر، من الناس، من الزمن ومن العالم. لا بد

أن نمارس أحزان الشُّرك والفراق، إن كنا نود أن نذوق الفرح الدائم الذي لا يُنزع مثلاً. الروح القدس يشرُّ بأحزاننا الأرضية، بل يشجعنا على اقتحامها، لأنه سيؤسس في موضعها أفراحه الدائمة.

١٦: ٨-١١ «ومنى جاء ذاك، يُكثِّتُ العالمَ على خطيئة، وعلى برٍّ، وعلى دينونة. أما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على برٍّ فلأنني ذاهبٌ إلى أبي ولا تروني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيسَ هذا العالم قد دِينَ».

«يُكثِّتُ» : ἐλέγξει

الترجمة العربية لهذه الكلمة اليونانية لا تفي بالمعنى الذي يقصده الإنجيل. لذلك لزم شرح المواضع التي جاءت فيها هذه الكلمة في العهد الجديد والقديم لتوضيح المعنى المقصود.

في العهد الجديد: تأتي دائماً مع المفعول به كشخص، وتعني تماماً التوضيح للشخص بشأن خطيئته ودعوته إلى التوبة. وغالباً ما يكون ذلك سراً وفي الخفاء بين اثنين كما جاءت في (مت ١٨: ١٥): «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك»... كذلك جاء ذلك في (أف ٥: ١١): «ولا تشركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة بل بالحري وبخوها»، طبعاً يقصد توبتهم وليس التشهير بهم، ولكن قد يكون ذلك في وسط الجماعة ولكن بفهم المدبر لها، كما جاء في (١ تي ٥: ٢٠): «الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقيين خوف». كذلك كما في (تي ١: ٩): «مُلازماً للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم، لكي يكون قادراً أن يَعْظَ بالتعليم الصحيح، ويوبِّخَ المناقضين»، هذا في أمر تعيين الأسقف. ومن الأمور الهامة أن يأتي هذا المعنى كعمل للرب الممجَّد بالنسبة لأعضاء جسده على الأرض: «إني كلُّ مَنْ أَحَبَهُ، أُوْبِخُهُ وَأُوْدِبُهُ، فَكُنْ غَيُوراً وَثَبّاً.» (رؤ ١٩: ٣)

ويأتي هذا الفعل ἐλέγξω بمعنى المستذنب بالنسبة للمسيح كدَيَّان حينما يأتي في مجده: «ليصنع دينونة على الجميع ويعاقب جميع فُجَّارِهِمْ على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها، وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلم بها عليه خُطَاة فُجَّارٌ.» (يهوذا ١٥)

فصحة ترجمة ἐλέγξω هنا ليس «يعاقب» ولكن «يثبت عليه الجريمة» أي «يُسْتَذَنُّهُ» ويقنعه بجريمته أولاً قبل أن يدينه»، (بالإنجليزية convict)، لأن كلمة «يدين» جاءت أولاً واضحة وعامة في أول الآية.

وقد استخدم المسيح نفسه هذه الكلمة بهذا المعنى على نفسه، بمعنى أنه يستحيل على أحد أن

يستدنبه، أي يثبت عليه خطية واحدة: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْغُتْنِي عَلَى خَطِيئَةٍ» (يو: ٨: ٤٦). وهنا كلمة «يَبْغُتْنِي» لا تفي بالمعنى، لأنها في دائرة الحديث عن المحاكمة، فقد حكم المسيح على اليهود هنا أولاً بأنهم: «أنتم من أي هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» (يو: ٨: ٤٤)، ثم بعد ذلك تحدّاهم: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْغُتْنِي عَلَى خَطِيئَةٍ». والكلمة بصيغة المبني للمجهول ἐλεγχόμεαι تأتي بمعنى قبول التوبيخ الشديد إزاء مواجهة الشخص واستدنابه وشدة وقع ذلك عليه: «أما هيرودس رئيس الرُّبْع، فإذا قد توبخ منه (من المعمدان) لسبب هيروديا...» (لو: ٣: ١٩). وأيضاً بصيغة المبني للمجهول ἐλεγχόμενοι: «ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية، هوّ تخين من الناس كمتعدّين.» (يع: ٢: ٩)

وهكذا نرى أن الفعل ἐλεγξει «يَبْغَتْ العالم» لا يعني فقط «يَبْغَتْ» أو «يُوبَّخ»، أو «يُعَيَّر»، أو «يُستدنب» بمعنى إثبات خطية فقط، ولا حتى يُفيد معنى كشف الخطية وإعلان الخاطئ، ولا فضح الخطية وعرضها، ولكن يفيد توضيح الخطية على أساس إيجابي لغاية هي أن يقف صاحبها موقفاً صحيحاً، أو بمعنى أوضح لينتقل صاحبها من الخطية للتوبة. فهو يهدف مباشرة إلى «تلمذة تعليمية» أو «تعليم تهذيبي وتأديبي». وهذا المعنى يأتي متكاملأ تقريباً في الآية (٢ تي: ٣: ١٦): «كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم، و"التوبيخ"، للتقويم، والتأديب الذي في البر». وهكذا اضطر بولس الرسول لكي يعطي كلمة «التوبيخ» كل مضمونها وضعها بين التعليم والتقويم والتأديب.

فهذه الكلمة خصبة جداً وغنية بالمضمون التعليمي الهادف للتصحيح، وتعتبر إحدى الكلمات الهامة جداً في العهد القديم التي تبرز حرباً إيجابية على الخطية والتعدي والجهالة^(٥).

وفي هذا المعنى تأتي هذه الكلمة في الآية التي نحن بصدددها، لتفيد أن الروح القدس له دور كبير وخطير في العالم قبل أن تأتي الدينونة الأخيرة. و«العالم» هنا المقصود به ليس الأفراد أو الهيئات، ولكن الروح العامة لمضمون كلمة «العالم».

وفي سياق هذه الآية، فإن الروح القدس له دور أساسي في إدخال معايير جديدة على معايير العالم القديم، سواء كان عالم اليهود المحدود الضيق، أو عالم اليونان التائه وراء الفكر الفلسفي المتخبط في ظلمات الجهالة الوثنية التي بلا حدود.

وأول معيار يُدْخِلُهُ الروح القدس على العالم، هو المعيار الجديد لمفهوم «الخطية».

^٥ Kittel, *Theol. Dict. of NT*, Vol. II, p. 474f.

«يبكت العالم على خطية»:

وكلمة «الخطية» هنا تأتي بدون تعريف «أل»: *peri hamartias* «على خطية»؛ هذا يفيد أن العالم حتى مجيء الروح القدس إليه، لم يكن لديه معيارٌ صحيحٌ عن «الخطية» المعرفة بـ «أل» كخطية معلومة يُحاكَمُ عليها و يُحاكَمُ بمقتضاها. ولكن هنا، فإن الروح القدس، كمدّج عام، يُدْخِلُ لأول مرة في تاريخ العالم المعيار أو الميزان الأساسي للخطية التي سِيْحَاكَمُ و يُدَان عليها العالم أمام دِيّان الأرض كلها وهي: «عدم الإيمان بابن الله»، كما جاء من فم الرب الدِيّان «... لأنهم لا يؤمنون بي.» (يو ١٦: ٩)

والروح القدس، إذ يقف تجاه العالم كمدّج عام لأول مرة في تاريخه الطويل، يفرض القانون الجديد الذي سِيْحَاكَمُ العالمُ بمقتضاه. إنما يتكل، في نشر بنود هذا القانون، على التلاميذ الذين أرسلهم «يسوع» — الرب الإله — مرّتين منه كمعلمين، لتلمذة الخليقة كلها، مؤازرين بالروح القدس والشهادة، ومدّعين بالآية والكلمة!! وقد كان؛ فقد خرج صوته إلى كل أقطار الأرض، على حد تعبير النبوة (مز ١٩: ٤).

فإن كان، في البدء، قد جاء النور إلى العالم «ولم يعرفه العالم» (يو ١: ١٠)، فالآن دخل الروح القدس إلى العالم ليجعل من النور مصابيح تضيء الملايين من قلوب البشر: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦). والروح القدس يُلهب و يُشعل هذا اللهب الذي لا ينطفئ، حتى يأتي الرب الدِيّان: «جئت لألقي نارا على الأرض (العالم كله)، فماذا أريد لو اضطرمت.» (لو ١٢: ٤٩)

الروح القدس الآن له دور فعال في كل أنحاء العالم بالنسبة لخطية واحدة، وهي التي تتفرع منها كل الخطايا، وبمحاصرتها وكشفها تنحصر كل خطية العالم وهي: «عدم الإيمان بابن الله».

«يبكت العالم على بر»:

لا يمكن أن يكون عدلاً ولا حقاً، أن يدخل في الميزان القضائي للعالم المعيار الذي تُقاس به خطايا وانحرافات العالم التي على أساسها ستتم المحاكمة والدينونة، دون أن يوازنها أسباب البراءة التي سيثاب عليها ويتبرأ.

والآن، وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بواسطة الإنجيل عدم نفع برّ الناموس وقصوره الفاضح عن أن يُبريء إنساناً في ساحة قضاء الله، بل على النقيض رأينا إنساناً فريسيّاً متضلعاً في الناموس، مهذباً

ومتدرباً بالفكر والضمير على ما هو البر بالناموس، غيوراً فيما هو الله بالنسبة لقضاء بر الناموس، وهو شاول، وجدناه يحكم بقتل إنسان بريء ويشهد عليه وهو مرتاح الضمير، وهو إستفانوس الذي يظهر بعد ذلك أنه شهيد المسيح، أي شهيد البر الأبدي ! وبذلك يكون الناموس قد حكم على نفسه بعدم نفعه، وبطلانه لتبرئة الإنسان.

أما العالم الوثني فلم يكن له برٌّ، ولم يعرفه، لأن عبادة الأوثان كانت تتمجد بالزنا والفجور.

لأجل هذا دخل الروح القدس إلى العالم ليستنذب العالم على برِّه الكاذب، أو على عدم وجود «بر» له على وجه الإطلاق، ثم وليقوده إلى «البرِّ» الحقيقي الذي أسسه المسيح بموته دافعاً ثمن خطايا العالم كله بشفك دمه، الذي بروحه الأزلي برأ كل خطاة الأرض، وهبّأهم للوقوف أمام محكمة الدينونة الأخيرة بلا لوم.

ولكي يظهر «برُّ ابن الله» وتظهر قوته الأزلية على تبرئة كلِّ مَنْ آمَنَ به أمام الله الآب، وذلك لما قام من الأموات وصعد أمام أعين تلاميذه كشهود، ذاهباً إلى الآب ليبقى إلى الأبد شافعاً في المذنبين مبرئاً كل من آمن بدمه؛ وضع المسيح قانون عمل الروح في العالم على هذا الأساس: أنه «يَبْغَتْ على برِّ»، «لأنِّي ذاهب إلى الآب»، «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى للملائكة، كُرِّزَ به بين الأمم، أُوْمِنَ به في العالم، رُفِعَ في المجد.» (١ تي ٣: ١٦)

وارتفاع المسيح في المجد وعدم رؤيته بعد، هو بحد ذاته برهان غلبته على العالم، كما هو برهان على أنَّ ليس لرئيس العالم أيُّ مأخذ على المسيح، وهذا دلالة على برِّه الكامل والكلي.

أما أساس البر الذي بالمسيح فهو ليس بالعيان: «ولا تروني أيضاً»، بل بالإيمان وحده «إيمان ابن الله»، الإيمان الذي له القوة والفاعلية، بما هو في غير مقدور العيان بالمرَّة. فقوة عمل الإيمان تنقل الجبال. لذلك، فالبر الذي بإيمان ابن الله هو قوة العالم الجديد التي تفوق كل قوة عرفها العالم حتى الآن أو سيعرفها، والذي يوم أن تستعلن للعالم حقيقة الإيمان ببرِّ ابن الله، فسوف يدخل (العالم) في أعجب أحقابه التاريخية، أو بالحري سوف يرتفع فوق التاريخ.

«وَيَبْغَتْ العالم على دينونة، لأن رئيس هذا العالم قد دِينَ»:

إن أعظم محكمتين في العالم عرَّاهما المسيح وفضحهما أمام التاريخ هما:

محكمة اليهود : المنعقدة على لواء السنهدريم ، برئاسة أعظم حكماء اليهود ودارسي قانون التوراة وحرفية قضاء الناموس ،

ومحكمة روما : ومن ذا الذي لا يعرف القانون الروماني الذي أخذت به كل دساتير العالم ، وصار النواة الأولى لكل تشريع معروف لدى العالم كله . فالقانون الفرنسي وليده ، والقانون الإنجليزي ابنه الأصغر .

لقد انضم صوت قضاة محكمة السنهدريم إلى صوت قضاة محكمة الرومان ، وأدانوا ابن الله أنه خاطيء ، ومذنب ، ومجذف ، ومضلل ، وحكموا عليه بإجماع الرأي أنه مستوجب الموت صلباً .

ولكن قام المسيح من الموت ناقضاً حكم الموت ، كاشفاً بطلان أحكام اليهود ، موضحاً خروجها عن الحق وموجباً إيقافها إلى الأبد . كما كشف بطلان أحكام الرومان وخروجها عن الحق ، ونجّاهم من أن تصلح للحكم على مصير العالم وضمان الناس .

وهكذا دخل الروح القدس إلى العالم ، ليستنذب العالم أولاً على ما فعل ، وعلى دينونه الكاذبة القائمة بتحريض من رئيس عالم الكذب والضلal ، الذي أدانته المسيح بالصليب وعلى الصليب ، إذ فضح كذبه وأنه قتال للناس منذ البدء ؛ إذ ضبطه متلبساً بالحكم بالقتل على إنسان أنه خاطيء ومُذنب بحسب أحكامه الكاذبة والمزورة ، وهو في حقيقته ابن الله الذي بلا خطية ولا لوم ، والذي لم يوجد في فمه غش !!

وهكذا رفع الروح القدس يد رئيس هذا العالم عن أن تتدخل بعد اليوم ، ولا أن يكون له صوت ما في الدينونة التي سيتولاها ابن الله : « فطرح التين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله ، طرَح إلى الأرض ، وطرحت معه ملائكته . وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء : الآن صار خلاص إلَهِنا وقدرته ومُلْكُهُ وسلطان مسيحه ، لأنه قد طرَح المُشْتَكِي على إخواننا ، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلَهِنا نهائياً وليلاً ، وهم غلبوه بدم الحروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت . » (رؤ ١٢ : ٩ - ١١)

لقد غلب المسيح العالم : « ثقوا أنا قد غلبتُ العالم » ، وصار هو ديّان الأحياء والأموات .

الوعد باستئناف الكلام فيما بعد

آيتان هامتان جداً جاءتا في عروض بقية هذا الأصحاح، تفيد وعد المسيح باستئناف الحديث فيما بعد — أي بعد تكميل مشيئة الآب.

الآية الأولى: «إِن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.» (آية ١٢)

الآية الثانية: «قد كلمتكم بهذا بأمثال، ولكن تأتي ساعة حين لا اكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية.» (آية ٢٥)

من هاتين الآيتين نفهم أن المسيح استأنف حديثه هذا الذي لا يستطيعون الآن أن يحتملوه، وهو طبيعياً الخاص بموته ومعناه، والذي تلقاه بولس الرسول بدقة وعمق فائقين، بإعلان خاص به. والحديث الآخر عن الآب، وهو العلاقة بين الآب والابن، والتي تلقاها ق. يوحنا وسجلها لنا في إنجيله بصورة فريدة.

١٢: ١٦ «إِن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.»

لقد سبق المسيح وأعلن لتلاميذه أنه قد عرفهم بكل ما عند الآب: «لكني قد سميتكم أحبائه، لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يوه: ١٥: ١٥)، موضحاً بذلك اكتمال تعاليمه الخاصة باستعلان مشيئة الآب من جهة الإيمان بالآب والابن، والميلاد الجديد للإنسان، والصلاة بالروح والحق، والدينونة التي أعطيت له، وأنه بالإيمان بالآب والابن يُعطى الانعتاق من الدينونة والانتقال من الموت إلى الحياة؛

وأن مجرد سماع صوت الابن كفيل للمريض أن يُشفى، والخطيئة ليتجدد، والميت ليقوم؛ وأنه بصفته الابن الكائن في حضن الآب، فهو الوحيد الذي يخبر بكل ما عند الآب ويعمل كل أعمال الآب ويُحيي من يشاء، وأنه هو الذي كتب عنه موسى، فهو رجاء ونهاية الناموس؛

وأنه بكلمة يُشبع الألوف من خبز الأرض ومن خبز السماء الذي هو جسده، الذي يعطيه للعالم، باذلاً إياه لخلاص كل من يؤمن به، وأن جسده ودمه هما طعام الحق، ومن يأكلهما يحيا إلى الأبد ويشبع فيه، وأنه هو الماء الحي الذي كل من يؤمن ويشرب من تعاليمه لا يعطش إلى العالم بل ينبع فيه الروح إلى حياة أبدية، وأنه هو نور العالم ونور الحياة للناس، وكل من يتبع

تعاليمه يعيش في نور الله ولا تظنى عليه ظلمة العالم وهمومه، وقد فتح عيني أعمى منذ ولادته ليرى بالفعل نور الحياة والعالم؛

وأن الإيمان بابن الله يعتق الإنسان من عبودية الخطية وبه ينال حرية أولاد الله، فلا يعود تحت سلطان الخطية القاتل؛ وأن التبني لله بالمسيح هو فوق التبني لإبراهيم، لأن المسيح كائن قبل إبراهيم، وأن إبراهيم نفسه كان يشتهي أن يراه؛

وأنه هو الراعي الصالح، ويعرف أولاده، وأولاده يعرفونه، وأنه سيضع حياته من أجلهم ليرفع عنهم تهديد الشيطان، وأن الشيطان لن يستطيع أن يخطف منه ابناً له؛

وأنه هو القيامة والحياة، وقد أقام لعازر من الموت، ليؤمنوا أنه هو الذي يقيم الموتى ويحييهم.

وعلى العشاء الأخير كشف لهم سر موته القادم، الذي به سينال المؤمنون غلبة الموت في سر جسده وسر دمه، وسيقبلون سر القيامة لتسكن فيهم.

ولكن كل ذلك والتلاميذ لا يفهمون ما يقول، ولكنهم قبلوا الكلام وحفظوه، لأن تفسيره قبل حدوثه صعبٌ عليهم لا يحتملونه وعسير عليهم غاية العسر، الأمر الذي نفهمه نحن الآن، وبعد أن تم، يكون بمنتهى اليُسْر.

لذلك ختم على أحاديث تعاليمه، التي هي كلها بشارة الإنجيل؛ وأبقى منها أسرار موته وقوته، وأسرار قيامته وقوتها، وشركة المؤمنين فيها. وقد خصَّ بولس الرسول بشرحها واستعلان كل أسرارها في رسائله، والتي جاءت تنمة لتعاليم المسيح في الأناجيل وشرحاً لكل أسرارها. «... أنه بإعلان عرّفني بالسر، كما سبقْتُ فكتبْتُ بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيالٍ أُخَر لم يُعرَف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرُسُل القديسين وأنبيائه بالروح. ... الذي صرْتُ أنا خادماً له، حسب موهبة نعمة الله المُعطاة لي، حسب فعل قوته، لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيْتُ هذه النعمة، أن أبشّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله، خالق الجميع يسوع المسيح، لكي يُعرَف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة.» (أف ٣: ١٠-٣)

«وأعرفكم، أيها الإخوة، الإنجيل (البشارة المفرحة) الذي بشرْتُ به، أنه ليس بحسب

إنسان، لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علّمتُهُ، بل بإعلان يسوع المسيح. ... لكن لما سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي، ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه فيّ لأبشّره بين الأمم، للوقت لم أستشير لحمًا ودمًا، ولا صعدتُ إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي بل انطلقتُ ... ثم بعد ثلاث سنين صعدتُ إلى أورشليم لأتعرّف ببطرس، فمكثت عنده خمسة عشر يوماً، ولكنني لم أرَ غيره من الرسل، إلاّ يعقوب أخا الرب.» (غل ١ : ١١-١٩)

وكلام بولس الرسول الذي تلقاه بإعلان خاص من الرب يسوع، الذي ظهر له، والذي فسّر فيه سر الإيمان، وسر الخلاص، وسر الشركة، وسر التبني، وسر الميراث الأبدي للمؤمنين، كل ذلك في موت المسيح وقيامته، ظلّ أيضاً كلاماً صعباً، كما وصفه المسيح تماماً حتى في أيام الرسل أنفسهم. وهذه هي شهادة بطرس الرسول: «كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له، كما في الرسائل كلها أيضاً متكلماً فيها عن هذه الأمور التي فيها أشياء عسرة الفهم، يحرفها غيرُ العلماء وغيرُ الثابتين كباقي الكتب (الأنجيل) أيضاً لهلاك أنفسهم.» (٢ بط ٣ : ١٥ و ١٦)

ولكن هذه الأسرار كلها تولّى الروح القدس بواسطة رجال الكنيسة المُلهَمين على عمر العصور شرحها وتوضيحها، فصارت كلماتها حلوة مضيئة تنير العيين، وتُلهب القلب، وتفتح طريق الخلاص بلا عائق أمام كل من يجلس إليها متعلماً ساهراً كل يوم.

ونلاحظ في كلام المسيح في هذه الآية قوله عن صعوبة احتمال ما يريد أن يقوله بأنه «الآن»^(٦)، وذلك لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، وهو العامل الأول في استعلان ما صُعِبَ من الأقوال.

الروح القدس وعمله مع التلاميذ ليعدهم للمستقبل: (١٦ : ١٣-١٥).

لقد أوضح المسيح علاقة الروح القدس بالعالم، كون العالم لا يستطيع أن يراه أو يعرفه، طالما كان العالم في حوزة ضلالة الشيطان (١٤ : ١٧). ولكن المسيح حَصَرَ عمل الروح القدس في العالم في حدود عمل التلاميذ بالشهادة في مواجهة العالم، للتعريف بما هي خطية العالم، وما هو البر المرفوض، وما هي الدينونة الحتمية التي سيقع تحتها والتي لا يزال يجهلها.

(٦) راجع شرح ذلك في المدخل ص ٢٥٣-٢٥٤.

وهنا يبدأ المسيح ليوضح عمل الروح القدس بالنسبة للتلاميذ لكي يعدّهم للمستقبل.

لقد سبق المسيح في الأصحاح الرابع عشر وحدّد أعمال الروح القدس كالآتي:

+ «معزياً آخر لي مكث معكم إلى الأبد» (١٤: ١٦) بمعنى تكميل عزاء المسيح لكنيسته على مدى الدهور.

+ روح الحق الذي يعرفه التلاميذ: «لأنه ما كُث معكم، ويكون فيكم» (١٤: ١٧). وهذا حال الكنيسة أيضاً.

+ «يُعَلِّمكم كل شيء، ويدّركم بكل ما قلته لكم» (١٤: ٢٦). وهذا أيضاً يستمر مع الكنيسة إلى مدى الدهور.

وفي الأصحاح الخامس عشر، وبالإضافة إلى ما سبق، حدّد أعمالاً أخرى:

+ أن الروح القدس يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون بواسطته أيضاً (١٥: ٢٦ و ٢٧).

ثم في الأصحاح السادس عشر، يضيف المسيح على الأعمال السابقة أعمالاً أخرى:

+ «يرشدكم إلى جميع الحق» (١٦: ١٣)

+ «يخبركم بأمر آتية» (١٦: ١٣)، مثلما حدث مع ق. يوحنا حينما كان في الروح في جزيرة بطمُس وأملأه سفر الرؤيا بأصحاحاته الاثني والعشرين.

+ «يأخذ مما لي ويخبركم» (١٦: ١٤)، وبذلك «يمجّدني»، «وكل ما للآب هو لي»، بمعنى أن الروح القدس يستعلن للتلاميذ كل ما للآب وما للابن، وهذا ما حدث مع ق. يوحنا في إنجيله.

والواقع أن هذه العطايا المكثفة، والموعود بها للتلاميذ، حدثت بالفعل، وكان من نتيجتها

العملية كتابة الأناجيل الأربعة والرسائل كلها وسفر الرؤيا مع سفر الأعمال، وبشارة المسكونة!!

وهذا الوعد المكثف بالعطايا، أجّل المسيح استعلائه حتى آخر لحظة من خدمته على الأرض.

ولكن من مضمون هذه العطايا والمواهب الغنيّة، بدا المستقبل بالنسبة للتلاميذ، والكنيسة من بعدهم، مشرقاً حقاً من جهة الروح والحياة مع الله. وفي أحاديث المسيح عن الفراق، جاء هذا الحديث أقواهم وأكثرهم عزاءً بالنسبة لعزائهم الخائرة من هول الموقف الغامض المجهول أمامهم.

ثم، أيها القاريء العزيز، أليس هذا الموقف عينه لا زلنا نحن نعانيه من جهة المستقبل

الغامض بالنسبة للكنيسة في العالم؟ فما أشد ما نرى اليوم أمامنا في كل أنحاء العالم، وخاصة في الغرب، والذي بدأ يتغرب عن قاديته!! ولكن عزاء الروح القدس، بنوع العزاء الذي تلقاه التلاميذ يوم الخمسين، والذي لا يزال حيًا عاملاً في الكنيسة في قلوب المؤمنين الأمناء، والذي يقوي ويثبت ويُعزّي بالرجاء غير المنظور، يجعلنا نثق ونتيقن من نصره الكنيسة بقاديته على قوى الظلمة التي أحاطت بعقل الإنسان واستعبده لحساب هذا الدهر.

فقتام الظلمة المحيطة بالعالم المتقدم في العلم والمعرفة الأرضية، ليس أشد من قتام حكم أباطرة الرومان وانحلال العالم الوثني في أيام الكنيسة الأولى والتي بدأت بالاثني عشر!! والروح القدس هو هو، نفس النار التي أُلقيت على الأرض ولن تنحصر.

يكفي أن نواجه المستقبل، أقوىاء بالإيمان، مستندين على الروح القدس وليس بسبق المعرفة. وكلمات المسيح تضيء لنا العالم مهما تعم في ذاته؛ والروح يفرح قلوبنا، مهما تكشفت فوقنا أحزانه.

١٦: ١٣ «وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية».

فليلتفت القارئ: فهذه الآية هي «وَعَدُ مُقَدَّس» يختص بالفرد كما الجماعة، هي حق من حقوق كل من آمن ووثق وصدق كلام الله. لاحظ هذا الاتفاق: «روح الحق» يرشدكم إلى «جميع الحق»، كما نلاحظ أن الحق هنا مُعرّف بـ «أل»؛ فهو يتجه مباشرة إلى المسيح!

فروح المسيح يرشدكم إلى كل الحق الذي في المسيح. والمعنى البسيط المباشر والعمل، أن الذي حاز رِفْقَة الروح، فإنه ينال استعلان المسيح في ذاته: «والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). فالحق الذي في المسيح يعني المسيح تماماً كما هو، مُشْتَعْلناً بشخصه وحببه وفرحه وقوة كلامه. وق. يوحنا يرى أن ما تحقّقه هنا جزئياً، يكمله هناك كلياً: «لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣: ٢). والقديس بطرس يمتنعنا بفرح المسيح من خلال قوة الإيمان: «الذي، وإن لم تروه تحبونه؛ ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنْقَلُ به، ومجيد». (١ بط ١: ٨)

«والحق» الذي يقصده المسيح هنا ليس هو الحق العقلي المجرد، عند اليونانيين، بل الحق

الفعال بالروح في القلب والفكر، العامل في النفس لمعرفة المسيح واستعلان كل ما قال وعمل.

كذلك الحق في قول المسيح هنا ليس كالحق في العهد القديم كما جاء في المزامير مراراً وتكراراً، فالحق في العهد القديم هو الناموس والسلوك بحسب أوامر الناموس حرفياً. أما الحق، عند المسيح، فهو معرفة الآب والابن، هو الله ذاته، هو استعلان الابن وإرسالته من عند الآب. فإن كان الحق عند اليونانيين يحرر الفكر من الجهل، والحق عند اليهود يحرر الجنس كشعب غير مُستَغْبَدٍ للأمم؛ فالحق عند المسيح يحرر من الخطية والشيطان والعالم.

«يرشدكم إلى جميع الحق»:

لاحظ أن المسيح أكمل استعلان الحق للتلاميذ بكل تعاليمه وأقواله وأمثاله وآياته، والآن نحن بصدد التأمين على تعليم المسيح هذه السنين الطوال. والتأمين هو على عاتق الروح القدس. فهو سيرشدهم إلى جميع الحق الذي قاله المسيح، كلمة كلمة، لذلك أكمل المسيح القول كالآتي:

«لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلم به»:

أي أن الروح القدس لا يضيف تعاليم جديدة، بل يرشد إلى كل تعاليم المسيح. والمسيح سيتولى الكلام والروح القدس ينقله إلى القلب كما هو. فالابن كما كان يسمع من الآب ويتكلم، كذلك الروح القدس كما يسمع من المسيح ينطق في القلب. فكما أن الابن كان عمله استعلان «الآب» بالكلمة، كذلك الروح القدس سيتولى استعلان المسيح «الابن» في ذات الكلمة! لذلك يقول المسيح بعد ذلك: «كل ما للآب هو لي». والعجيب أن بالروح القدس يصير كلُّ ما للمسيح مستعلنًا أيضاً لنا. هنا تمام وكمال استعلان الله!

ولكن من الوجهة العملية الاختبارية، فإن الروح القدس لا ينقل كلام المسيح كما هو بالحرف، بل يكشف النور الذي فيه، ليس من زاوية واحدة بل من ألف زاوية إن شئت. فالآية الواحدة يشرحها الروح القدس مرات ومرات، وكل مرة بنور جديد. هذا معنى «يرشدكم» إلى جميع الحق» بألوانه الزاهية، والتي ينير بها القلب كل مرة جديداً، ولكن الحق لا ينتهي أبداً ولا يُحَدُّ. ولكن حذارٍ من مزج التأمل الشخصي بادعاء أنه استعلان الروح القدس، ولا حتى الإلهام الخاص الذاتي الذي ينبع من مزاج الإنسان وفكره. فاللهام الروح القدس لا يجيد عن حق المسيح، واستعلان الروح القدس يشهد به الحق الذي يختزنه الإنجيل ككل.

«ونخبركم بأمر آتية» :

«ونخبركم» : ἀναγγελεῖ

هذه الكلمة تستخدم دائماً في معنى البشارة والإعلان والاستعلان أيضاً. لذلك، فالآية هنا محصورة في دائرة البشارة، أي عمل الروح القدس بالبشارة، بالأمور الخاصة بالمسيح، سواء في الأعمال التي ستنتم قريباً أي القيامة والصعود، أو التي ستنتم في المستقبل البعيد أي المجيء الثاني، والذي تلقى ق. يوحنا رؤيته حينما كان سجيناً في جزيرة بطمس : «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.» (رؤ ١٩ : ١٠)

ولكن، ليحذر الإنسان من أن يظن أن للروح القدس عملاً في العهد الجديد مثل الذي كان في القديم، أي التنبؤ بمستقبل الخلاص؛ فالخلاص قد أكمل، ولم يَعدْ له تكميلٌ على الأرض. لذلك لم يَعدْ للروح القدس عمل فيما يختص بتمليك أراضٍ أو دفاعٍ في الحروب أو نُصرةٍ على أعداء الجسد، فالإنسان المسيحي أصبحت سيرته في السماويات. مع ملاحظة أن كلام المسيح كله يختص دائماً بمستقبل الإنسان الروحي؛ فكل كلمة تحمل ضوءاً يلقيه الروح القدس في قلب الإنسان ليتعرف به على ماذا ينبغي أن يفعله في مستقبله. فعلى المستوى العملي للإنسان المسيحي، فإن الروح القدس يُلْقِيهِ أولاً بأول من خلال كلمة الإنجيل عن كل ما هو قادم بالنسبة له، وما ينبغي أن يفعله في كل ساعة قادمة، فحياتنا بالروح القدس هي ممتدة إلى قُدَّام، وتسبق الزمن : «أُنسى ما هو وراء، وأُمْتَدُّ إلى ما هو قُدَّام.» (في ٣ : ١٣)

ولكن حتى عمل الروح القدس في أن يخبرنا بأمورنا القادمة بالنسبة لما يجب أن نعمله روحياً، سواء أعمال توبة، من صوم وصلاة، أو من أعمال خدمة ومحبة وبذل، فهي في دائرة المسيح والإنجيل، ولا تخرج قط عما هو للمسيح، لأن اختصاص الروح القدس هو أن يأخذ مما للمسيح ويخبرنا؛ ومن ذاته لا يخبر بشيء : «أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً.» (١ يو ٢ : ٦)

١٦ : ١٤ «ذاك يُمَجِّدُنِي، لأنه يأخذ مما لي وَيُخْبِرُكُمْ.»

المجد هنا هو استعلان حقيقة المسيح الإلهية كابن الله الوحيد، وهذا يدخل في صميم القول : «يرشدكم إلى جميع الحق.» وهنا تمجيد الروح القدس لشخص المسيح، لا يُفهم على أنه يزيد على حقيقة المسيح شيئاً، بل إن استعلان حقيقة المسيح تماماً هي التمجيد الكامل له. ويلاحظ هنا أن عمل الروح القدس في تمجيد الابن هو المقابل والمكمل لتمجيد الابن للآب. بهذا نفهم أن الذات

الإلهية آب وابن وروح قدس مجيدة حقاً، فهي تقبل المجد وتعطيه لذاتها. هذا هو الإكتفاء الذاتي لله المذهل للعقل، فالله لا يحتاج إلى تمجيد أحد، لا ملائكة ولا بشر، فهو ممجد في ذاته بذاته، وكامل مكمل في المجد!

فحينما نقول «المجد لله» أي الذكصا الكبرى، فنحن ننطق بما هو حاصل، لا نضيف شيئاً على الله بل نُسَبِّح بمجده! لذلك فاستعلان الله في قلب الإنسان، هو اشتراك فعلي في تمجيده. واستعلان الروح القدس لله، كآب وابن، لا يكون من محيط إدراكات الإنسان المادية، بل هو ولوج حقيقي إلى دائرة ما فوق الطبيعة، إلى ما لله. فكلمة «يخبركم» = ἀναγγελεῖ «يعلم إعلناً فائقاً» (declare)، أي يكشف كشفاً إنجيلياً مُفْرِحاً. فكل إعلان يعلنه الروح للإنسان، هو دخول حقيقي في حق المسيح، في فكره الإلهي، في حبه «الفائق المعرفة» (أف ٣: ١٩)، في علاقته السرية بالآب.

١٥: ١٦ «كل ما للآب هُوَ لي. لهذا قلتُ إنه يأخذ مِنِّي ويخبرُكُمْ».

المسيح ينبه أذهاننا، أن مجده هو مجد الآب، وأن كل ما يخبرنا به الروح القدس عن المسيح فهو عن الآب أيضاً. أي أن الروح القدس يمدُّنا باستمرار بمعرفة الآب والابن، أي الله في خصائص ذاته الجوهرية، لأن استعلان علاقة الآب بالابن هو موضوع خلاصنا؛ فحبُّ الآب للابن، صار من نصيبنا أن نشترك فيه بقدر استعلاننا له. وعلاقة الابن بالآب من جهة طاعة المشيئة حتى الصليب، هي حياتنا التي نستمدّها من قوة موته، من قوة دمه.

فطاعتنا للمسيح ووصاياه، وفي قمتها أن نبذل حياتنا من أجل الآخرين، هي مستمدة أصلاً من قوة طاعة المسيح للآب. لذلك، فإن قول الرب إن: «كل ما للآب هُوَ لي»، هو أصل وقوة قوله: «يأخذ مِنِّي ويخبرُكُمْ»، فهو بالسماح للروح القدس أن يأخذ كل ما للمسيح ويخبرنا، يعني أن يستعلن لنا كل ما للآب، وهذا في الحقيقة تكميل سرّي ورائع لقوله لتلاميذه: «لأنني أعلمتُكم بكل ما سمعته من أبي» (يو ١٥: ١٥). وهذا الاستعلان الإخباري الإنجيلي للمسيح الابن وللآب هو بعينه الذي يُدْخِلُنَا في السر الرهيب الأعظم: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣). بمعنى أن الروح القدس سيتولى إدخالنا في سر الآب والابن، بالاستعلان المتواصل. هذا السر عينه هو المدخل الوحيد إلى كمال الوحدة التي نحن مدعوون إليها معاً في الله: «مكملين إلى واحد»، والتي عبّر عنها بولس الرسول: «إلى أن ننتهي جميعاً إلى وحدانية الإيمان،

ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١٣)

نعم، فالسبيل الوحيد للوحدة التي تبتغيها الكنائس، كما قلنا مراراً، هو أن يتحد كلُّ منها أولاً بالمسيح بالتقوى، بالعبادة بالروح والحق، بالاستعلان، لاستعلان حق المسيح الذي هو وحده يوحد ويؤلف، والوحدة لا تكون ولن تكون إلا في «حق المسيح»، وليس في الكلام عن المسيح.

قد أزفت الساعة، الحزن الحتمي ينشأ الفرح حتماً: (١٦: ١٦—٢٤).

للإنسان المسيحي الحقيقي؛ الحزن دائماً يتبع الماضي، وهو دائماً جسدي؛ وأما الفرح المتحصل بالنصرة فهو مستقبلي دائماً ويمتد في المستقبل، وهو دائماً روحي. ولكن أن ينجح الإنسان في حصر الحزن وتجاوزه بالرجاء الكائن في الإيمان، فهو بهذا يدخل في الفرح ويتشيق رؤيته. والإنسان الذي يختبر الحزن ويغلبه ويعيش الفرح حتى في الحزن، يكون قد قهر الزمن والجسد.

والإنسان المسيحي مدعو أن يختبر الحزن ويعيش الفرح: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماناً.» (١ يوح ٥: ٤)

الزمن القليل:

ἐτι μικρόν χρόνον μεθ' ὧν	٣٣: ٧ = «أنا معكم زماناً يسيراً بعد.»
ἐτι μικρόν χρόνον	٣٥: ١٢ = «النور معكم زماناً قليلاً بعد.»
ἐτι μικρόν μεθ' ὧν	٣٣: ١٣ = «أنا معكم زماناً قليلاً بعد.»
ἐτι μικρόν	١٩: ١٤ = «بعد قليل لا يراني العالم أيضاً، أما أنتم فترونني.»
μικρόν	١٦: ١٦ = «بعد قليل لا تبصرونني.»

١٦: ١٦ «بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي، لِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْآبِ.»

لقد ظل الزمن يتضاءل ويتناقص حتى انتهى الزمن:

— «أنا معكم زماناً يسيراً بعد.» (٣٣: ٧)

— «أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (٣٣: ١٣)

— «بعد قليل لا تبصرونني.» (١٦: ١٦)

هذا التدرج البديع في سياق الحديث المنسّق عن انتهاء الزمن وانسحابه من فترة وجود المسيح

على الأرض ومع تلاميذه، يوضح مدى يقظة المسيح وحساسيته لأمرين :

الأمر الأول : لمحدودية رسالته المحسوبة بالساعة : «لم تأت ساعتي بعد» (يو: ٣)، قالها في أول ظهوره العلني في عرس قانا الجليل ؛ و«قد أتت الساعة» (يو: ١٧: ١)، ليلة العشاء الأخير!!

الأمر الثاني : رقة مشاعره من نحو تلاميذه، وتأثره لتأثرهم الشديد من صدمة الفراق!! لقد ظل الزمن يتقلص وينسحب من حول بهجة اللقيا والعشرة المتواصلة بين التلاميذ والمسيح، حتى انتهى : «بعد قليل لا تبصروني» .

بعد قليل لا تبصروني : οὐ θεωρεῖτέ με

بعد قليل تروني : ὄψεσθε με

ق. يوحنا يقدم لنا في هذه الآية، ومن خلال هاتين الكلمتين، منهجاً فكرياً غاية في الأهمية اللاهوتية على الواقع المسيحي الحي. فقد استخدم الكلمة الأولى للرؤية وهي θεωρεῖτε لتعبّر عن رؤية شبه صحيحة، رؤية فكرية لا رؤية حق، رؤية تصوّر وليس رؤية واقع، مع أنها مستخدمة في رؤية المسيح بالجسد في الجسد المادي!! ثم استخدم الكلمة الثانية للرؤية وهي ὄψεσθε لتعبّر عن رؤية صحيحة، رؤية الحق كما هو، بلا أي خيال فكري، أو أي تصوّر عقلي بشري!! مع أنها مستخدمة لرؤية المسيح القائم من الموت بالجسد الروحاني الممجّد!

هذه المحاولة المعكوسة من ق. يوحنا، يحاول بها البرهنة على أن رؤية التلاميذ للمسيح، قبل أن يتمجّد، لم تكن رؤية تامة أو صحيحة، من حيث أنهم رأوه كإنسان وكانوا يحاولون بالجهد أن يتصوروه عقلياً بأنه أكثر من إنسان فلم يُفْلِحوا كثيراً. من هنا، صمم ق. يوحنا على أن رؤية التلاميذ للمسيح قبل أن يُسْتَعْلَن في مجده كانت رؤية ناقصة تعتمد على العقل، لأن المسيح لم يكن مُسْتَعْلَناً استعلاناً كاملاً. أما رؤية التلاميذ للمسيح بعد القيامة، وبعد أن اسْتُعْلِن في مجده، فهي هنا الرؤية الصحيحة، رأوه على حقيقته الممجّدة، رأوه إلهاً : «ربي وإلهي» (توما) (يو: ٢٠: ٢٨)، رأوه غالباً الموت في ملء ملكوته وحياته الأبدية، رأوه بالعين الروحية المباشرة التي تَسْتَعْلِن الحق حقاً دون تزييف الفكر.

ومعروف لدى الصوفيين، أو في اللاهوت التصوفي، أن التاورية θεωρία هي «رؤية العقل»، وهي تختلف من إنسان لإنسان في رؤية الشيء الواحد، لأنها تعتمد على خواص كل عقل بحد ذاته؛ في الاتساع والتصور والإدراك والفهم. وفي اللاهوت التصوفي، تُعتبر التاورية قمة

الاستعلان.

ولكن هنا، عند ق. يوحنا، يستصغر هذه الرؤية وهذه الكلمة «التأورية»، ويجعلها قاصرة عن أن ترى الحق، فاستخدم رؤية «العين» الطبيعية كعضو إبصار للأمور الطبيعية، باعتبار أنها ترى الأشياء على حقيقتها، استخدمها ليُعبر عن مقدار الحق الذي رآه التلاميذ بأعينهم الروحية للمسيح المُقَام والممَجَّد، باعتبار أنه هو المسيح الحقيقي، على حقيقته، وليس كما كان، مختفياً في الجسد ومُستترأ به عن الرؤية الصحيحة للإنسان.

وكأنما المسيح يريد أن يقول لتلاميذه: أنتم الآن لا ترونني على حقيقتي بالرؤية الصحيحة، ولكن بعد قليل حينما «أكمل» استعلاني وأظهر في مجدي، حينئذ ترونني حقاً؛ سواء كان بعد قيامته أو أثناء صعوده أو حتى في استعلان ذاته، كما رآه شاول وهو في طريقه إلى دمشق، وبالأكثر من يوم الخمسين فصاعداً، حيث يتدخل الروح القدس ليعطي صورة للمسيح هي الحق كل الحق!!

وأخيراً، وكما يقول ق. يوحنا، فإنه حينما يُظهِرُ المسيح — ونُظْهِرُ نحن معه في المجد كقول بولس الرسول: «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظْهِرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣: ٤) — «إذا أُظْهِرَ، نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (١ يو٣: ٢)، وهنا أيضاً، يستخدم ق. يوحنا للتعبير عن رؤية الحق بالحق، كلمة «نراه»: $\delta\psi\acute{o}\mu\epsilon\theta\alpha$.

١٦: ١٧ - ١٩ «فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا هُوَ هَذَا الَّذِي يَقُولُهُ لَنَا: بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تَبْصُرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي، وَلَأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْآبِ. فَقَالُوا: مَا هُوَ هَذَا الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ؟ لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ. فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ: أَعَنْ هَذَا تَسْأَلُونَنِي بِمَا بَيْنَكُمْ، لَأَنِّي قُلْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تَبْصُرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي؟»

ق. يوحنا يتكلم هنا، ويصور لنا منظر التلاميذ، كشاهد عيان دقيق الملاحظة، يسجل حركات التلاميذ مع تعبيراتهم تسجيلاً غاية في الواقعية، فيوضح حالة الارتباك التي ألمت بهم مع عدم الفهم للكلمات؛ وبالأكثر حزنهم العميق الذي أشكَّت أفواههم. فلم يسألوه عما يجيش في صدورهم وهم ذاهلون، بل اكتفوا بالتعجب وهم يطرحون أسئلتهم بعضهم لبعض. والذي استرعى انتباههم وكرروه مراراً: «ما هذا القليل الذي يقول عنه؟ لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ»، لأن المسيح لم

يَقُلْ: «بعد قليل من الزمن»، ولكن اكتفى بقوله: «بعد قليل».

ولكن ارتباكهم وحيرتهم وتساؤلهم لم يَفِثَ عن المسيح، فبادرهم بقوله:

٢١: ١٦ «الحق الحق أقول لكم: إنكم ستبكون وتنوحون، والعالم يفرح. أنتم ستحزنون، ولكن حزنكم يتحول إلى فرح. المرأة وهي تلد، تحزن، لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى وَلَدَتِ الْفَلَّ، لا تعود تذكر الشدة، لسبب الفرح، لأنه قد وَلَدَ إنسان في العالم».

حينما يقول المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، فهو يعطي حقاً جديداً على معلوماتنا، ويستعلن لنا سرّاً يدخل في صميم إيماننا. فالكلام كان موجّهاً للتلاميذ، ولكنه موجّه للكنيسة كلها وكل أولاد الله أينما كانوا، فإيمان الإنسان المسيحي يفصله عن شكل هذا العالم ومعاييره الوهمية خاصة ما يُحزن وما يُفرح، فكل ما يُحزن العالم هو خسارة في الجسد أو في المادة، الجسد بحياته وصحته وعاطفته وقربته ونسبه له أو للآخرين أيّاً كانوا، آباء وأمهات وزوجات وأخوة وأخوات وأولاداً. والمادة هي كل ما يُبَاع ويُشْتَرى ويُقْتنى. أما ما يُفرّحه، فهو الربح في كل ما مضى مما يخص الجسد والجسديات أو المادة والماديات.

ولكن ما يُحزن المسيحي، هو ما يفقده بالروح، وما لا يحققه من مشيئة الله ووصاياه؛ وأما ما يُفرّحه، فهو رضى الله، وتكميل مسرة مشيئته، وتحصيل هباته التي بلا كَيْل وبلا ندامة.

هذا التباين الجذري بين ما يُحزن وما يُفرح، بين العالم والإنسان المسيحي، جعل المعايير بينهما يتعاكس وضْعُها تماماً، فما يُحزن هذا يُفرح الآخر، وما يُفرح الأول يُحزن الثاني.

وعلى هذا القياس المتعاكس، أعطى المسيح مثلاً مادياً، فيه يتضح أن الحزن الجسدي يؤول إلى فرح نفساني، حيث يُقيّم الحزن أنه خداع أو نوع من التزييف. فالمرأة بتشهّي الطفل، ولكن حينما يحمل وقت ولادته، تعاني شدة الآلام في ولادته فيعتربها الحزن، ولكنه حزن يحمل في طياته الأمل والرجاء والفرح، وسريعاً ما يتحول بالفعل إلى فرح؛ هكذا الإنسان المسيحي، فهو يرجف من البذل رجفاناً، يرهب الصوم الشديد إذا حتم به الروح، ويجزع من إدارة الخد الآخر للمعتدي اللاطم على الوجه أو على الظهر، ويؤكل قلبه أكلاً حينما تُسلب أمواله أو يُهان اسمه، أو تُهدد كرامته من أجل الاسم الحسن. ولكن حينما ينتهي العالم من فعلته الشنعاء التي يفعلها، وهو راضٍ ومسرور ومُشَفٍّ، وحينما ينتهي كل شيء وتعود النفس تحسب حساب المكسب والخسارة أو

حساب البيدر كما يقولون، أي الزرع والحصاد، حيث يُزْرَع بالدموع و يُخَصَّد بالابتهاج، حينئذ نتهلل فرحاً، فالمكسب الروحي لا يُقَاسُ عظمة بتفاهة الخسارة:

+ «ودَعُوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُيِّبُوا مستأهلين أن يُقَانُوا من أجل اسمه.» (أع ٥: ٤١ و ٤٠)

+ «لأنكم رثيتم لقيودي أيضاً، وَقَبِلْتُمْ سَلْبَ أموالكم بفرح، عالمين في أنفسكم أن لكم مالا أفضل في السموات وبقايا، فلا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة.» (عب ١٠: ٣٤ و ٣٥)

والمرأة التي تحزن بإرادتها على رجاء الفرح القادم، هي الكنيسة التي كان يسمى كارزها حاذياً رجله بإنجيل البشارة، يجوب مجاهل البلاد والصحاري والقفار، محتملاً أقصى ما يكون من التعب والمقاومة والمعاثر التي بلا عدد، في سبيل أن يكتسب ابناً جديداً للمسيح، يُلْذِه في العالم لحساب الله، وبعد أن يضمه إلى حضن أمه، ينطلق مُنْشِداً، ناشداً ولداً آخر، غير ذاكر التعب، من أجل الثمر المتكاثر.

كذلك الإنسان المسيحي، حينما يَتَزَم أن يترك كل شيء، ليتبع المخلص، حيث تبدو هذه الخطوة كأنها قفزة في الفراغ، وتأخذه الرهبة إلى حين، لأنه يحسُّ، وهو يَتَغَبَّر اختبار الانتقال من حضن العالم إلى حضن المسيح، من الإلتحام بالزمن إلى الإلتحام بالخلود، يحسُّ بالجزع والخسارة والتشرك كَمَنْ يعبر من الموت إلى الحياة أو من رحم العالم المظلم إلى نور الحياة الأبدية، ولكن سرعان ما تستقبله الحقيقة $\eta \alpha \lambda \eta \theta \epsilon \iota \alpha$ ، مجسمة في شخص المسيح، ويفشاه النور والسلام والفرح المقيم.

ثلاثة عوامل تقذف الإنسان من رَجَم العالم المظلم إلى نور الحياة مع الله:

العامل الأول: الإيمان الواثق بصدق مواعيد الله وقوته في كلماته.

العامل الثاني: الروح القدس الذي يتبع الإيمان أتباعاً.

العامل الثالث: قوة جذب الآب السرية غير الملحوظة.

هذه هي العوامل الثلاثة، وقوة الآب أعظمها.

٢٢:١٦ «فأنتم كذلك عندكم الآن حزن. ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم».

الحزن الأكبر قادم على التلاميذ؛ فحزن الفراق غطاء الحزن على منظر المسيح وهم يقيدون يديه ويقودونه كشاة تساق إلى الذبح، وهو صامت، وكأنه مقهور، ثم منظر المحاكمة من بعيد، وهم يلطمونه على الخد، والعسكر يضربونه على الرأس، ثم يمددونه على الصليب ويدقون الحديد في يديه ورجليه، وهو حزين منكس الرأس يُسلم الروح! أي حزن مثل حزن كهذا، وأي نحيب نجبت به النسوة وهن يلطمن على خدودهن: «والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً ويثخن عليه» (لو ٢٣: ٢٧)، على فتى الناصرة الغض، وهو منحنٍ واقع تحت ثقل الصليب!! حزن التلاميذ ونحيب النسوة ستظل تردد أصداءه السموات، بانتظار ظهوره، حين ينعكس هذا الحزن وهذا النحيب واللطم على صالبيه ومُسلميه: «هوذا يأتي مع السحاب، وستنظره كل عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض، نعم آمين.» (رؤ ١: ٧)

وفي الحقيقة، قد سبق الأنبياء ووصفوا هذا الحزن وهذا الفرح، بنفس المثل الذي قاله المسيح عن المرأة عندما تلد، فلم يفت على إشعياء النبي أن يعرج بالنبوة على التلاميذ الخائفين بعد موت المسيح، والمتجمعين في العلية، والباب مغلق عليهم من الخوف، وهم مختبئون، ولكن كان كل ذلك إلى لحظة!! «بعد قليل تروني»:

« زِدْتُ الأمة، يا رب، زِدْتُ الأمة (ببنين جدد) تمجدت (بالقيامة)، وسعت كل أطراف الأرض (لاستقبال إيمانك)، يارب في الضيق طلبوك، سكبوا مخافتة (دُعَاء) عند تأديبك إياهم (ما قبل السيّئ). كما أن الحبل التي تقارب الولادة تتلوى وتصرخ في مخاضها، هكذا كنا قدامك يا رب، حَبِلْنَا تَلَوَّيْنَا ... تحيا أمواتك، تقوم الجثث، استيقظوا ترغموا با سكان التراب ... هلم يا شعبي، ادخل مخادعك، وأغلق أبوابك خلفك، اختبئ نحو لَحِيظَةٍ (μικρόν) حتى يعبر الغضب، لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه » (إش ٢٦: ١٥-٢١)

ثم يعود إشعياء، يضيف مقياس زمان الحزن القليل بالنسبة لعظم الفرح المستديم، كما يقول بولس الرسول: «فإني أحييت أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيق أن يُستغلن فينا» (رو ٨: ١٨). فحزن التلاميذ لم يَدُم أكثر من ثلاثة أيام، بعدها وُلِدَتْ أُمَّة بكاملها، وأولادها ملأوا كل أقطار الأرض! والعجيب أن يصف إشعياء التلاميذ بأنهم يمثلون أورشليم القديمة وهي

تَمَخَّضُ، والرب نفسه يولدها، فينفتح رحم أورشليم المُغَلَّقِ لَتِلْدَةٍ وتفرح، أي يفرح التلاميذ ويفرح معهم كلٌّ مَنْ أَحَبَّوْهَا — أي مَنْ أَحَبَّ الآباءَ — فإنهم جميعاً يصيرون أولادها، أي أولاد الكنيسة، أورشليم الجديدة، أُمُّنا الحرة:

«قبل أن يأخذها الطَّلُقُ، وَلَدَتْ. قبل أن يأتي عليها المَخَاضُ، وَلَدَتْ ذَكَراً. مَنْ سَمِعَ مثل هذا؟ مَنْ رَأَى مثل هذه؟ هل تَمَخَّضُ بِلَادٌ في يومٍ واحدٍ، أو تُوَلِّدُ أُمَّةً دفعةً واحدةً؟ فقد مَخَضَتْ صهيون، بل وَلَدَتْ بَنِيهَا. هل أنا أُمِخَضُ ولا أُوَلِّدُ، يقول الرب. أو أنا المولِّد. هل أغلِقُ الرحم، قال إلهك. افرحوا مع أورشليم، وابتهجوا معها يا جميع مُحِبِّيها، افرحوا معها فرحاً، يا جميع النائحين عليها. لكي ترضعوا وتشبعوا من ثدي تغزياتها. لكي تعصروا وتتلدذوا من دِرَّةٍ (ضِرْعٍ) مجدها ... فترضعون، وعلى الأيدي تُحْمَلُونَ، على الركبتين تُدَلَّلُونَ، كإنسان تُغْزِيهِ أُمُّهُ، هكذا أعزِّيكم أنا، وفي أورشليم تُغْزُونَ، فَتَرْوَنَ، وتفرح قلوبكم» (إش ٦٦: ٧-١٤)

و يضيف هوشع النبي:

«من يد الهاوية أفديهم، من الموت أخلصهم، أين أوبأوك (٧) يا موت؟ أين شوكتك يا هاوية؟ تختفي الندامة عن عيني.» (هوشع ١٣: ١٤)

ويكاد رنين نبوءة إشعياء يُسمع سمعاً في كلام هذا الفصل من إنجيل ق. يوحنا، بل أحياناً نفس الألفاظ، فكلمة السر التي احتار فيها التلاميذ، يذكرها إشعياء بنفس حروفها: «أدخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك اختبئ» (إش ٢٦: ٢٠). وهي نفس الكلمة التي قالها الرب: «بعد قليل μικρόν تروني»، والتي وقَّعها ق. يوحنا بعد ذلك على ما تم بالفعل: «ولما كانت عشية ذلك اليوم، وهو أول الأسبوع، وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع» (يو ٢٠: ١٩). كذلك قول إشعياء: «فَتَرْوَنَ وَتَفْرَحُ قلوبكم»، جاءت على لسان المسيح: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم».

وواضح من روح النبوات في أسفار العهد القديم، فيما يختص بآلام الحَبَلِ وفرحة الولادة، أنها جاءت تعبيراً عن الموت والقيامة. فأقوى تعبير عن الألم الاختياري، هو ألم الولادة، والتعبير عن الفرح الحتمي الذي يعقب الألم هو الولادة. لذلك، لم يكن المثل الذي قدَّمه المسيح عن المرأة التي

(٧) «أوبأوك» جاءت في السبعينية η δίκη أي حكمك. وفي الترجمة الإنجيلية plagues وترجم أحياناً: «أين أسبابك يا موت». وقد ترجمها بولس الرسول: «أين شوكتك يا موت» (١ كور ١٥: ٥٥)، وهذا أجل حيث الشوكة هي بمثابة عَضَّة الحية.

جاء ميعاد ولادتها، إلا تعبيراً عن اقتراب ساعة الموت. وقول المسيح عن «القليل» أو «الزمن القليل» هو تعبير عن قِصَرِ فترة الموت، كذلك عن صغر حجم ألم الموت بالنسبة للقيامة كحياة أبدية وفرح أبدي. والتلاميذ جازوا، بالحقيقة، بالمشاركة مع المسيح هذه المحنة، محنة ألم الموت، مضافاً إليها ألم الفراق، وفزع الخوف من اليهود، ولكنها كانت «إلى قليل»، كما خرجوا من المحنة هذه — بعد قليل — بخروج المسيح من القبر التي وصفها إشعياء: «لأن هذا الرب يخرج من مكانه.» (إش ٢٦: ٢١)

ويكاد مَثَلُ المخاض والألم ينطبق على المسيح نفسه، فهو بعبوره آلام الموت ومروره من خلال القبر إلى السماء، وَلَدَ لنا في العالم إنساناً جديداً.

أما فرح التلاميذ: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم»، فهو لسببين، الأول: النصر الباهرة التي قهر بها المسيح الموت والهاوية، والتي عبّر عنها هوشع النبي أروع تعبير: «أين أوباؤك يا موت أين شوكتك يا هاوية»؛ والسبب الثاني هو الرب البُقَامُ، بقيامة الرب صارت بالفعل قيامتهم من موت محقق وبأس مقيم، وقام العالم معهم، وقُتْنَا نحن أيضاً وفرحنا، حيث فَرَحْنَا في قلوبنا لا يستطيع العالم ولا الموت أن ينزعه منا. وهكذا تحوّل العالم أيضاً من فرحه، كغالب، ضد المسيح بحكم الصلب والموت، إلى مغلوب ومقهور بقيامة المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٢). والترجمة الأدق: تشجعوا، أنا قد غلبت العالم.

وقول المسيح هنا يأتي في صيغة المتكلم: «سأراكم»، وجاءت في مقابل «بعد قليل لا تبصرونني»، ثم «بعد قليل ترونني». هنا المسيح يفيض على التلاميذ من مجده الأستى بعد قيامته. فرؤية الله لنا، فيها اعتبار غاية الاعتبار أكثر ألف مرة من أن نسعى نحن لنراه فلا نستطيع، ويكفي التلاميذ مجداً أن المسيح يتطلع عليهم من مجده. فمع رؤية المسيح لهم تنسكب عليهم فَرَحَتُهُ، مع انسكاب نور عينيه! ولأنه فرح الله فلن يستطيع أحد أن ينزعه منهم: «لأن فرح الرب هو قوَّتكم» (نح ٨: ١٠). وهنا مقارنة مبدعة بين: «الحزن القليل» الذي عَمَّرُوهُ، والفرح المقيم الذي سيبلغونه.

كذلك فَمَثَلُ المخاض والولادة، عند بولس الرسول، استخدمه ليعبّر عن ميلاد الإنسان الجديد، حيث يظل هو — أي بولس الرسول — يعاني آلام المخاض كأثْم (كنيسة)، إلى أن يولّد الإنسان على صورة المسيح. أي أن المسيح نفسه يتصوّر في هذا الإنسان الجديد، وكأن الإنسان يُولد جديداً بصورة المسيح عينها: «يا أولادي، الذين أتمخض بكم أيضاً، إلى أن يتصوّر المسيح فيكم»

(غل ٤: ١٩). في هذا المثل، نرى بولس وهو يعبر عن الرسولية ككل، وعن الكنيسة أيضاً بالدرجة الأولى، أنه وهو رجل يتمخض كوالدة، ويلد إنساناً جديداً له صورة المسيح. هذا التعبير جيد بالنسبة للكنيسة، وقد صوّرها سفر الرؤيا بهذه الصورة عينها في الأصحاح الثاني عشر.

٢٣: ١٦ «وفي ذلك اليوم لا تسألوني شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم».

«في ذلك اليوم»:

يوم ينفتح عهد جديد من العلاقات فوق الطبيعية، حينما يستعلن التلاميذ ملء مجد المسيح المُقام، وقد سبق أن أوضح المسيح ماذا يكون في ذلك اليوم هكذا: «في ذلك اليوم، تعلمون أنني أنا في أبي، وأنتم فيّ، وأنا فيكم.» (يو ١٤: ٢٠)

هذا اليوم هو اليوم الذي انفتحت فيه أعين التلاميذ على حلول الروح القدس يوم الخمسين، واستمر هذا اليوم إلى هذا اليوم! فعرفوا الحق كل الحق. عرفوا أن المسيح في الآب، ونحن مدعوون بالوعد الإلهي والروح القدس لنكون: «أنتم فيّ، وأنا فيكم». وحينما تبلغ المعرفة بالروح إلى هذا الملء يمتنع السؤال، حينئذ تبلغ «الطلبة» حد الإجابة الفورية، فملء المعرفة يؤهل لصحة الطلبة، ويؤكد ملء الفرح.

لقد سأل التلاميذ أسئلة كثيرة، حتى ملء المسيح من أسئلتهم، التي تدل على أنهم كانوا دائماً غير فاهمين، أو بالمعنى المسيحي أنهم لم يكونوا على مستوى الحياة الأبدية أو الإنسان الجديد، أو بحسب تعبير بولس الرسول إيجابياً: «وأما نحن، فلنا فكر المسيح» (١ كو ٢: ١٦)! فلم يكونوا في ذلك الوقت على مستوى فكر المسيح ورسالته. لذلك يسبق المسيح الآن، ويريح أفكارهم وضمايرهم الحائرة عن ما هو بعد هذا: «القليل الذي يقول عنه»، لأنهم بعد قليل فعلاً سيبلغون حالة الاستعلان الكامل عن المسيح وعن أقواله ورسالته، حتى إنهم في ذلك اليوم لن يحتاجوا قط أن يسألوه شيئاً من هذا، لأنهم سيكونون عارفين بكل شيء؛ كما يذكر بولس الرسول في إحدى رسائله: «أشكر إلهي في كل حين من جهتك، على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح، أنكم في كل شيء استغنيتم فيه، في كل كلمة وكل علم، كما بُنِّت فيكم شهادة المسيح، حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما.» (١ كو ١: ٤-٧)

«الحق الحق أقول لكم، إن كلَّ ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم»:

المسيح هنا يحوّل فكر التلاميذ من حالة السؤال ερωτήσετε، إلى حالة الطلب αἰτήσετε^(٨). ففي الحالة الأولى يأتي السؤال بسبب عدم الفهم للمعرفة؛ أما في الحالة الثانية، فهنا الطلب بمعنى أن الإنسان يطلب شيئاً بالصلاة، ويلتمس أخذه، وهو يساوي تماماً الانتقال من حالة الجهل والظلمة إلى حالة الدالة كمن يسعى في النور، حالة الفرح الدائم الذي فيه يكف كل سؤال من فكر الإنسان.

إن السير في قول المسيح: «في ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً»، يكمن في الآية السابقة: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم». هذا ليس تعليماً فكرياً، بل توفيقاً وتسجيلاً اختبارياً، علينا أن نؤمن به ونتذوقه، لأن من يبلغ حالة الفرح هذه، يبلغ حتماً أو تلقائياً، حالة الاكتفاء الكلّي بالله، ينسى كل سؤال، ينسى نفسه لأنه يكون مُبتلعاً في فرح حضور الرب، لأن كلمة «سأراكم» تعني أننا نكون واقعين تحت عينيه في مجال وجوده وعمله. وحالة الفرح التي نبلغها في وقوعنا تحت رؤية المسيح، ليس لها أي سبب. إنها بعد ذاتها اختبار الحياة الأبدية جزئياً. فأن نحيا أمام الله الآب والمسيح، فهذا معناه أن نفرح فرحاً هو فرح الحق ἀλήθεια، فرحاً جوهرياً، لأن طبيعة الحياة مع الله لها فرح الله والمسيح الذي لا يُنطق به، ولا يُدرَك سببه، لا نستطيع أن نستزيده، ومعه لا نطلب إلا مجد الله. هذا الفرح الكلّي في طبيعته، طلبه المسيح للتلاميذ في الأصحاح السابع عشر بقوله: «ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم». (يو ١٧: ١٣)

وفي المقابل، فإن فرح العالم له أسبابه الكثيرة وشروطه، ولكن لا يمكن أن يفرح أحد بحسب العالم بدون سبب. لا يوجد في العالم فرح حقيقي، لذلك فكل فرح فيه يتناقض من ذاته، ويتلاشى، وقد يترك مكانه غوراً وحزناً.

ولكون فرح المسيح فرحاً حقيقياً ودائماً، فلا يستطيع أحد انتزاعه منا، لأنه ليس من سبب يمكن أن يُبطله. فرح «ذلك اليوم» هو فرح أبدي: «ومفديّو الرب يرجعون، ويأتون إلى صهيون بالترنم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي، ابتهاج وفرح يدركانهم. يهرب الحزن والتنهّد. أنا أنا هو مُقرّيكم». (إش ٥١: ١١ و١٢)

«من الآب»:

كانت الأسئلة توجّه سابقاً للمسيح بسبب غياب الروح القدس، وانعدام الصلة المباشرة مع

الآب؛ أما بعد ذهاب المسيح إلى الآب — الأمر الذي كرره المسيح مراراً ليرسخ في ذهن التلاميذ أن هذا «خيرٌ لهم» — فإنه بذهاب المسيح إلى الآب حاملاً على يديه دم ذبيحته الكفارية، استعاد المسيح للإنسان صلته الأولى بالله، كاملةً غير منقوصة. وصار دخولنا إلى الله الآب بلا مانع: «فإذ قد تبررنا بالإيمان، لنا سلام مع الله برَبنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى (الآب) هذه النعمة، التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله.» (رو١ : ٢٥)

لذلك، رفع المسيح صلتنا لتكون مع الله الآب مباشرة، إنما باسم يسوع المسيح، الذي به نلنا المصالحة والتبني، ولذلك وجَّه المسيح تلاميذه نحو الآب لتكون طلبتهم إليه، واعداء أن كل ما يطلبونه باسمه يعطيهم. على أن عطية الآب الأولى والعظمى، هي الروح القدس نفسه (راجع لوقا : ١١ : ١٣)، الذي بواسطته يعطي الآب عطاياه.

«باسمي» :

اسم المسيح ليس مجرد ذكر «المسيح» ككلمة نضعها في الصلاة الربانية «بالمسيح يسوع ربنا». هنا اسم «المسيح» يعني وجوده وعمله، سواء في سماع الصلاة لدى الآب أو في الاستجابة لها. أن نطلب من الآب باسم المسيح، يعني أن نطلب في حضرته كخروف مذبح يترأى أمام أبيه، ودمه عليه يَسْتَمع ويتكلم ويشفع ويظهر. والصلاة التي نصليها، يزكيها، لتدخل إلى الله بلا لوم، ويحمل الروح القدس الاستجابة لنا مع العطية. لذلك، فهي صلاة تُسمع لدى الآب بالضرورة وتُستجاب، لأن حضرة الابن تقوِّيها وتلبسها المسرة. فليس باستحقاق برِّنا يسمع الآب لصلاتنا، بل باستحقاق دم المسيح وبرِّه، الذي أعاره لنا لنعمل تحت لوائه.

الآن نستطيع أن نفهم أن الله الذي تُسَمَّى «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» (خر٣ : ١٦)، هذه الصفة التي كانت فخر عبادة إسرائيل؛ قد أخذ صفته الأعلى من نحونا: «إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد» (أف ١ : ١٧)، «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح.» (أف ١ : ٣)

لقد انتقلت صلتنا بالله من نسبة إلى الآباء القديسين بني البشر إلى صلتنا بالله في نسبه لابنه الوحيد. الصفة الأولى كانت بتوسط برِّ الإنسان، أما الصفة الجديدة فهي جوهرية، هي صميم استعلان الله الآب لنا في حقيقة الجوهرية بتجسُّد ابنه وتأثُّسه، وبتوسط برِّه ودم صليبه. في القديم كان شعب إسرائيل قد اعتفى من الاقتراب إلى الله أو سماع صوته، فاستجاب الله للشعب ووعد بأن يقيم لهم النبي الذي يتكلم بصوت الله، ويكون كلام الله في فمه، ويتكلم بكل ما يوصيه الله. وطبعاً ليس موسى، لأن موسى هو الذي نقل هذا الكلام للشعب، بل كان هو المسيح:

« يُقِيمُ لك الرب إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لكلاً أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطلبه. » (تث ١٨ : ١٥-١٩)

هذا هو يسوع المسيح كلمة الله وصوته والحامل لاسمه، الذي قدّمنا إلى الله أبيه لنستمع إليه ونطلب منه.

أما طلبية الإيمان التي نتقدم بها إلى الآب، فهي تعمل عملها، وتنجح نجاحاً، حيث قوة الإيمان لا تكون مستمدة من قوتنا ولا متوقفة على طهارة أيدينا وبرّنا، بل تنبع من شدة ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته، ومن يقيننا، الذي لا يتزعزع، أن كل ما قاله الله قاله ليتّم وليتحقق لنا وفينا، وأن كل أمر قاله المسيح هو وصية الله، وكل وصية تحمل قوة تنفيذها فيها ولا تحتاج لقوة أخرى لتنفيذها، سوى الإيمان الصادق بها. كلام المسيح كالْمسيح، والمسيح قال: «مَنْ يَأْكُلْنِي، فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧)، كذلك كل كلمة قالها المسيح فهي للأخذ والأكل: «وُجِدَ كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأنني دُعِيتُ باسمك، يا رب إله الجنود» (إر ١٥: ١٦). وأن نأكل كلام المسيح، يعني أن نحيا به ساعة بساعة، لأنه روح وحياة.

ومرة أخرى نقول، إن ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته هي من ثقتنا بالله المطلقة. وثقتنا بالله ومواعيد الله وكلام الله لا تتوقف على برّنا وطهارة قلوبنا، فقلوبنا لا تخلو من ملامة، ولكن ق. يوحنا يزيد ثقتنا بالله وكلامه ومواعيده مضاعفاً حينما يقول: «لأنه إن لامَثْنَا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء. أيها الأحياء إن لم تَلْمُثْنَا قلوبنا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه» (١ يو ٣: ٢٠-٢٢)، فثقتنا المطلقة بالله تغطي عجزنا وتزيد: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته، يسمع لنا» (١ يو ٥: ١٤). واسم المسيح كفيّل أن يغطي كل عيب فينا، فهو ضامن لصدق وعده: «اسألوا تُعْطَوْا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفْتَحَ لكم.» (مت ٧: ٧)

٢٤: ١٦ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً.»

«الآن» لا يزال في «الوقت القليل» μικρόν الذي لم يُشْتَعْلَن فيه بعد اسم المسيح

بالكامل، والتلاميذ ليسوا بعد على مستوى الطلبة، فهم لا يزالون حَيَارَى، وصدمة الفراق أسكتت أفواههم وعقولهم. فالطلبة الروحية، التي هي نفسها الصلاة، لم يفتح بابها، لا في قلوبهم ولا عند الآب، فالمسيح لم يُكْمَل بعد، ولم يُعرَف أنه المخلص والفادي.

أما الأمر الآتي بعد ذلك: «اطلبوا» αἰτεῖτε، فهو تصريح مُسَبِّقٌ ومُتْلَقٌ، يستخدمونه بعد انطلاقه، أي بعد كمال استعلانهِ، لذلك جاء فعل الأمر في الصيغة الدائمة أو المستمرة، لا كأنه أمر بالصلاة والطلبة مرة واحدة αἰτήσατε (كما جاءت في مر ٦: ٢٢ αἰτήσον)، ولكن كتصريح مرور دائم نحتوم باسم المسيح، يقدمونه للآب، فتدخل به الصلاة والطلبة إلى الآب، حينما وكلما طُلبت. لأنه بموت المسيح على الصليب سيكون قد رُفِعَ الحجاب الفاصل بين الإنسان والله، وافتُتِحَ قُدْسُ الأقداس الأعلى في وجه الإنسان، وذلك بدخول الابن متجسداً حاملاً بجسده ذبيحة نفسه، ليدشّن بها عهد الصلح والسلام والحب مع الآب السماوي:

+ «وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً.» (عب ٩: ١٢)

+ «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس (لنترأى أمام وجه الآب)، بدم يسوع، طريقاً كرّسه لنا حديثاً، حياً بالحجاب أي جسده، وكاهن عظيم على بيت الله؛ لنقدم بقلب صادق، في يقين الإيمان، مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير، ومفتسلة أجسادنا بماء نقي، لنتمسك بإقرار الرجاء راسخاً، لأن الذي وَعَدَ هو أمين.» (عب ١٠: ١٩-٢٣)

«ليكون فرحكم كاملاً»:

فَرَحُ «الآن» القليل μικρόν هو قليل، لأنه زمني، ويطفئه الحزنُ المفسد، فهو ليس فرحاً؛ أما الفرح الذي سيسكبه المسيح عليهم حينما يشرق بوجهه من السماء ويطلع عليهم: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم»، فهو فرحه الخاص، مثل سلامه الخاص الذي تركه لهم وديعةً ثمينةً وميراثاً وتراثاً لعهد السلام، من رئيس السلام. هكذا «الفرح» الإلهي الذي يرافق السلام والحب الإلهي، العطايا الجديدة من السماء الجديدة، التي افتتحها المسيح لعبور الإنسان.

يُختبر المتصوفون «الفرح» على أنه حالة اختطاف العقل rapture، ليعيشوا فيه لحظات، ثم يرتدون سريعاً للواقع الأليم. لكن ليس هذا فرح المسيح؛ فرح المسيح انفتاح داخلي على «الكلمة» الحية الفعالة، لتستقي النفس منها الفرح كغذاء يُشبعها ويروّيها، تدخل إليه، كلما دخلت فيها. فرحُ المسيح الذي في وصاياه هو سرداب سرّي يوصل إلى الآب، حينما تمتد فيه الروح من خلال

الوصية تجدد نفسها وجهاً لوجه مقابل الحقيقة المهيبة لشخص الآب، فتحشّه وإن كانت لا تراه: «أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو ١٧: ٢١). «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣). هذا هو «الفرح الكامل» الذي وهبه لنا المسيح بأن «نكمل» علاقتنا بالآب، أن يصير لنا دخول إلى الآب بإيمان المسيح، أن نتذوق بهجة الحياة الأبدية مُستبقاً.

وليلاحظ القارئ المدقق، الفرق بين «يَكْمُل فرحكم» πληρωθῆτε كما جاءت في (يو ١٥: ١١)، وبين ما جاء هنا بمعنى الفرح الكامل الثابت والدائم «ليكون فرحكم كاملاً» (على الدوام) ἡ πεπληρωμένη التي جاءت أيضاً في يو ١٧: ١٣ حيث جاءت ترجمتها الحرفية بالإنجليزية: having been fulfilled. وقد استخدم ق. يوحنا نفسه هذا الوضع لمعنى الفرح الكامل والثابت في رسالته، كحالة ناتجة حتماً من «الشركة في الآب والابن»: «لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً ἡ πεπληρωμένη». (١ يو ١: ٣ و ٤)

المسيح يختتم تعليمه، وَيَعِدُّ بالإستنارة وبمزيد من الخبرة:

— «تأتي ساعة... أخبركم عن الآب علانية».

— «الآب نفسه يحبكم».

— «أنا لست وحدي».

— «في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

٢٥: ١٦ «قد كلّمْتُكم بهذا بأمثال. ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية».

الأمثال، والعلانية: ἐν παροιμίαις & παρρησίᾳ

«الأمثال» بالعبرية هي الماشال mashal وهي قريبة من المسائل الحسابية، لأن الأمثال تحتاج إلى ما تحتاج إليه المسائل الحسابية من فهم واستفسار. والمقابل لها عند الآباء هي الأبوفثجماتا "apophthegmata" (١).

وحينما قال المسيح : « كَلَّمْتُكُمْ بهذا » ، لا يقصد فقط الكلام الوارد في الآيات السابقة ، ولا حتى فيما يخص مثل الكرمة والمرأة عندما تلد ، بل الإنجيل كله . لأن « كَلَّمْتُكُمْ بأمثال » يأتي في مقابلها « أَخْبَرَكُمْ علانية » . فهنا المقصود ليس الكلام في حد ذاته ، بل مستوى الكلام ومستوى فهمه ، الأول كان بدون عطية الروح القدس ، فالفهم كان صعباً على مستوى الفكر ، والثاني يجيء على مستوى عمل الروح القدس في الاستعلان ، حيث يصير الكلام واضحاً على مستوى الوعي الروحي .

وقد ثبت ذلك بالفعل بالنسبة للتلاميذ أمامنا ، ففي ١٣ : ٣٦ نسمع القديس بطرس يسأل : « يا سيد إلى أين تذهب ؟ » ، وفي ١٤ : ٥ يسأل القديس توما : « يا سيد لسنا نعلم أين تذهب » ، وفي ١٣ : ٢٨ : « وأما هذا ، فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كَلَّمَهُ به » ، وفي ٨ : ٢٧ : « ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب » ، وفي ١٣ : ٧ : « لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ، ولكنك ستفهم فيما بعد » ، وفي ٨ : ٢٨ : « متى رفعتكم ابن الإنسان ، فحينئذ تفهمون أنني أنا هو » .

بل وهذه المواقف التي تدل على عدم الفهم لكلام المسيح كثيرة وواضحة جداً في الأناجيل الأخرى أيضاً (أنظر على سبيل المثال مر ٧ : ١٨ ؛ مر ٨ : ٢١ ؛ ٩ : ٣٢ ، لو ٩ : ٤٥ ؛ ١٨ : ٣٤) (١٠) . ولكن الكلام في الإنجيل عامة هو صعب بالحقيقة ، إذا انبرى له عقل الإنسان ليفهمه ، لأن العقل وحده ليس من طبيعة كلمة الله . الكلام نفسه ليس صعباً ، ولكنه صعب إذا دخل إليه الإنسان من مستوى دون مستواه . فمستوى « الكلمة » إلهي سماوي أخروي ، ليس من هذا الدهر ولا لهذا الدهر . الإنجيل هو كتاب الحياة الأبدية ، هو وثيقة تدخل بها السماء ، هو دليل طريق نسترشد به في السير نحو الله ، هو حلٌّ للغز الحياة المتناقضة على الأرض في هذا العالم ، هو الدواء المخصص للذين غَشَّتهم الحية وسَرَى سُمُّها في الجسد ؛ فهو ترياق عدم الموت . فأين مستوى العقل البشري من هذه الأمور ؟

ولكن التلاميذ حينما قَبِلُوا الروح القدس « في ذلك اليوم » دخلوا في العلانية ، انفتح وعيهم الروحي المسيحي بالروح القدس ، لأن عمل الروح القدس هو : « يرشدكم إلى جميع الحق » . هذا هو الانفتاح على الحياة الأبدية ، وبالتالي على كلام المسيح : « يُذَكِّرْكُمْ بكل ما قلته لكم » . هذه هي العلانية أن يدركوا في الإنجيل أسرار ملكوت السموات وبالأكثر « سر الآب والابن » ، الذي هو قمة الاستعلان . فرسالة المسيح يمكن أن نلخصها في كلمة « استعلان الآب » الذي كمل في

قوله : « الآب نفسه يحبكم » .

و« البارثيسيا » أي « العلانية » لا تأتي بكلام جديد ولا تشرح الكلام ، فالكلام في الإنجيل باقي كما هو بحروفه ، ولكن وعي الإنسان هو الذي يفتح ليقبل كلام المسيح مجدداً وهو منطوق بالروح ، وكأنه مصوّب لقلبه ، وكل كلمة كأنها يد إلهية تكشف الغطاء عن معنى جديد فيها ، ومعنى وراء معنى ، شيء لا ينتهي والكلمة هي هي .

وقول المسيح : « تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال ، بل أخبركم عن الآب علانية » ، هذه الساعة هي ساعة كل واحد حينما يُخضع قلبه ، لا ذهنه ، لسلطان الإنجيل ، وذلك حينما يلتزم بالكلمة ويجلس ساهراً يفتش بالروح عن نفسه في الإنجيل ، ويبحث عن وجوده وكيانه في وصاياه : « طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم » (أم ٨ : ٣٤) . وقد أدرك ذلك بولس الرسول فكتب مشدداً : « واطبوا على الصلاة ، ساهرين فيها بالشكر » (كو ٤ : ٢) ، وحذّر من أجلها القدوس الساهر على كلمته ، ليجريها ، بقوله : « فاذا ذكر كيف أخذت وسمعت ، واحفظ وتُب ، فإني إن لم تسهر ، أقدم عليك كلص . » (رؤ ٣ : ٣)

ويلزم أن نفهم أن العلانية موجودة في كلام المسيح ، ولكنها تحتاج إلى الأذن المفتوحة والعين المفتوحة . لقد طلب اليهود أن يكلمهم المسيح علانية ويكشف عن الألغاز والألحجيات والأمثال ، فكان ردّه أنه كلّمهم بالعلانية ولكنهم لا يفهمون ، لأن ليست لهم آذان ولا قلوب تتقبل العلانية !! « فأحاط به اليهود وقالوا له : إلى متى تُعلّق أنفسنا ؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرأ (علانية) » *παρησια* . أجابهم يسوع : إني قلت لكم (جهرأ) ، ولستم تؤمنون » (يو ١٠ : ٢٤ و ٢٥) . الإيمان بصدق المسيح وأمانة مواعيده وكلامه ، هو الذي يرفع الحجاب عن كلمات المسيح ، فتظهر العلانية ويتجلى الآب !!

هل المسيح لم يكلم اليهود عن رسالته ، وعن سر علاقته بالآب ، وعن من أين أتى ، وإلى أين يذهب ؟ هل لم يصنع أمامهم وفيهم أعمالاً تشهد أنه هو هويوهو الذي كان يدلّهم في القديم ؟ أي نبي صنع جملة ما صنع المسيح أمامهم وفيهم ؟ أي نبي استعلن صلته بالله هكذا : « أنا والآب واحد » ؟ ولكن صدّق إشعياء النبي حينما قال عنهم : لهم عيون تبصر ولا يبصرون ولهم آذان تسمع ولا يسمعون ، قد غلظ قلب هذا الشعب !!!

ولكن أليس هذا الكلام عينه مُصَوَّباً إلينا ، ألسنا نقول قولتهم : « نريد العلانية » ؟ ونتمنى يا ليت المسيح يعلن نفسه لنا ؟ يا ليت يظهر فجأة فنؤمن به ؟ أليس هذا هو القلب الغليظ والعين

الكليلة والأذن التي انسدت وانصدت عن أن تسمع الصوت المحيي: «مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه: ٢٤). هل سمعنا؟ هل حيناً؟ هل نشعر أنه لا دينونة الآن علينا؟ هل انتقلنا من الموت إلى الحياة؟ وإلا فنحن لم نسمع الصوت بعد!

لقد بلغ التلاميذ حالة الاستعلان هذه، وبلغوها كاملة، فبلغوا قمة المعرفة بالحق وبالله، والأنجيل تشهد بذلك وبالأخص ق. يوحنا الذي كتب إنجيله بعد أكثر من ٦٠ سنة من سماعه هذا الكلام!! لقد كتبه بالاستعلان، والاستعلان يطلُّ على القارئ في كل آية، بل في كل كلمة!! هذا إن كان القارئ على مستوى الاستعلان؛ وإلا فإنجيل يوحنا أكثرهم ألغازاً وأحجيات!!

٢٦:١٦ «في ذلك اليوم تطلبون باسمي. ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم».

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتيج ونفزع فيه» (مز ١١٨: ٢٤)، يوم حلول الروح القدس على الكنيسة الأولى، الذي لم تغيث شمس ولن تغيث إلى الأبد، هذا هو يوم النار الإلهية التي ألقيت على الأرض لتُضرم الحب والمعرفة والنور في قلب الإنسان، يوم يوثيل النبي الذي رأى الروح وهو ينسكب على كل بشر وعلى العبيد والإماء. ومنذ ذلك اليوم بدأ الرسل يطلبون باسم «فتاك يسوع»، فيسمع الآب ويستجيب: «ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلاً الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة (علانية) μετὰ παρρησίας». (أع ٤: ٣١)

أن يطلب التلاميذ باسم الرب ويستجيب الله، هذا الكلام يأتي مكرراً لما سبق في الآيات ١٦: ٢٣؛ ١٥: ٧ و ١٦؛ ١٤: ١٣ و ١٤. ولكن الجديد هنا هو قول المسيح: «ولست أقول لكم إني أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم».

لكي لا نبتعد عن المعنى الصحيح لهذه الآية، يلزم أن نضع الشرط الأساسي لسماع واستجابة الطلبة لدى الآب وهو: «باسمي». فنحن نطلب باسم المسيح، وقد قلنا سابقاً: أن نطلب باسم المسيح، فهذا يعني أن نتقدم إلى الآب في وجوده، في حضرته، في دمه، في آلامه. ففي كل كلمة نرفعها للآب، لا تترخي أعيننا عنه، وهو قائم أمام الآب كخروف مذبوح ودمه عليه!

إذن، المعنى هنا أنه قد تَمَّت المصالحة، وانفتح الطريق المباشر إلى قلب الله وأذنه، ونحن لا نحتاج بعد أن نصرخ إلى المسيح أن يتكلم عنا كما كان يفعل شعب إسرائيل. لقد زالت الرعدة من قلوبنا من نحو الله كنار آكلة، لقد أكمل المسيح لنا كل صلاحية الدخول إليه والوقوف أمامه بلا لوم، وذلك في دم ذبيحته: «ويصالح الاثنين (يهوداً وأمماً) في جسد واحد مع الله، بالصليب، قاتلاً العداوة به. فجاء وبشركم بسلام، أنتم البعيدين والقريبين، لأن به لنا كليناً قدوماً في روح واحد إلى الآب، فلستم إذاً بعد غرباءً وتُزلاً بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف ٢: ١٦-١٩)

كان عمل المسيح الأعظم أن «يستعلن لنا الآب» في شخصه، ويعرّفنا بكل ما عنده: «لأنني أغلّمتُكم بكل ما سمعته من أبي» (يو ١٥: ١٥)، وهذه المعرفة بالآب صيرتُنا أحياء، بعد أن كنا بجهلنا عبيداً: «لا أعود أَسْمِيكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكنني قد سَمَّيتُكم أحياء لأنني أغلّمتُكم بكل ما سمعته من أبي» (يو ١٥: ١٥)، ومعرفة الآب ليست علماً وفهماً، بل رفع حواجز وفوارق.

كانت هناك ضرورة حتمية أن يتوسط المسيح، فيتكلم بلساننا أمام الآب عنا، وذلك عندما كان حجاب الخطية حاجزاً بين قلوبنا وقلب الله. لذلك كان فيلبس على حق، عندما تأوّه وقال للمسيح: «أَرِنَا الآب وكفانا» (يو ١٤: ٨). لأن الآب كان، بغير المسيح، محجوراً عنا، وكنا نحن محجوزين عنه، هكذا صرخ إشعياء متوجعاً: «حقاً أنت إله مُخْتَجِبٌ يا إله إسرائيل المخلص» (إش ٤٥: ١٥)، وداود يستصرخ الله: «لماذا تحجب وجهك وتنسى مدّلتنا وضيقنا.» (مز ٤٤: ٢٤)

ولكن الأمر لم يَعدْ كذلك، بعد أن ارتفع المسيح بجسده ذاهباً إلى الآب، «بدم نفسه دخل مرةً واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب ٩: ١٢). لقد رُفِع الحاجز المتوسط، وأعطانا رتبة البنين، وأهلّنا للدخول بإيمان عن ثقة.

بهذا المعنى يقول المسيح: «لست أقول لكم إنني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم». ليس كأن دور المسيح في التوسط والشفاعة قد انتهى، بل هو هو الذي يقُدُّمنا إلى الآب، وكأنه يقول لنا: تكلموا، اطلبوا، لا تخافوا، الآب يسمع لكم، الآب يحبكم، لأنني أكملت كل ما يرضيه.

فإن كان قد أصبح لنا رئيس كهنة يرثي لضعفاتنا (عب ٤: ١٥)، فقد أصبح بواسطته الله لنا أباً، يعاملنا كبنيين وأحباء: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدعى أولاد الله.» (١ يوح ٣: ١)

٢٧: ١٦ «لأن الآب نفسه يُحبُّكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتُم أنني من عند الله خَرَجْتُ».

المسيح يوضح هنا أكثر، لماذا أصبح من غير الضروري أن يسأل المسيح الآب من أجلنا، فالسبب هو أننا نحب ابنه، وقد أوضح المسيح هذه المحبة المتبادلة وما تُشِئُهُ: «الذي يحبُّني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). فعلاقتنا بالآب توطدت بسبب حبنا للمسيح ابنه.

يلزمنا أن نفهم أن حبنا للمسيح هو استجابة لمحبه: «لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوح ٤: ١٩)، كذلك محبة الآب، فهي سبَّاقة على محبتنا: «في هذا هي المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١ يوح ٤: ١٠). محبة الله، سواء الآب أو الابن، هي أحد أسرار الله التي كانت مَخْفِيَّةً عن الإنسان بسبب طبيعته التي اشتبكت مع التعدي والعداوة، فأصبحت متغربة عن سِرِّ الله. لذلك جاءت مبادرة المحبة من طرف الله، واستجابتنا لها، فأدخلتنا في سِرِّها المعجيب. فلما قَبِلْنَا المسيح، اكتشفنا فيه محبته المجانية والسخية: «أحبنى وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ٢٠)، فأحببناه كالترام، لأن موته من أجلنا أَسَرَ قلوبنا: «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢ كو ٥: ١٤). ومن هنا دخلنا في سر محبة الآب، واكتشفنا ما كان مخبئاً عنده لنا. لذلك يكرر ق. يوحنا هذا بانفعال: «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوح ٤: ١٩). ولكن يبقى مفتاح سر محبة الآب لنا موجوداً في حُبِّنا للمسيح، الذي كشف لنا سِرَّ محبة الآب، وفتح الطريق أمامنا لنتقبَّلها من يديه: «مباركُ الله أبوربنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين، وبلا لوم قُدَّامه في المحبة.» (أف ١: ٣ و ٤)

«وآمنتُم أنني من عند الله خَرَجْتُ»:

هذه الحقيقة اللاهوتية يتوقف عليها خلاص العالم. فرسالة المسيح في العالم هي أن يؤمن العالم أن الله «أرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١ يوح ٤: ١٠). هذا هو الرجاء الحي الذي عليه يعتمد لواء الكرازة في كل كنائس العالم. لذلك لم يكف المسيح عن التركيز عليها في صلاته الأخيرة

لدى الآب: « كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم » (يو ١٧: ١٨)، « ... ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني » (يو ١٧: ٢١)، « ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد، ليعلم العالم أنك أرسلتني » (يو ١٧: ٢٣)، « أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني. » (يو ١٧: ٢٥)

« من عند الله خرجت »: παρά τοῦ θεοῦ ἐξῆλθον

« من عند » παρά، اصطلاح لاهوتي يعني « من جوار ». هنا تأكيد ضمني على وجود الابن مع الآب أو في الآب، فالابن ترك موضعه متغرباً في جسد إنسان، هذا الاصطلاح كان لا يمكن أن يُقال إذا لم يكن التجسد. فقبول التجسد، جعل الابن يُرى على الأرض وكأنه ترك موضعه، وهو في الحقيقة، ومن الوجهة اللاهوتية الخالصة، لم يترك، فالابن قائمٌ دائماً في حضن الآب، ولكنه إذ وُجد في الجسد، ظَهَرَ وكأنه خرج من عند الله، (أو "من عند الآب" على وجه أصح، حسب كثرة من المخطوطات). لذلك يقال أنه، وإن كان على الأرض يُرى، فهو في السماء قائمٌ: « وليس أحداً صعد إلى السماء، إلّا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء. » (يو ٣: ١٣)

لذلك، أصبح الخروج من عند الآب، في معناه اللاهوتي، هو التجسد، الذي أكمله على أساس العودة إلى الآب محملاً بالبشرية المفدّية التي حملها عليه!

لذلك، فالإيمان بأن المسيح خرج من عند الله، يعني الإيمان برسالة المسيح للعالم، ويعني الإيمان بالتجسد، الذي هو رجاء كل العالم.

٢٨: ١٦ « خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أترك العالم وأذهبُ إلى الآب. »

قولٌ على قول!! هذا هو كل الإنجيل، مختصر الإيمان والعقيدة، مجمل الإرسالية — تاريخ الخلاص: الإرسال، الميلاد، الآلام، الصعود! والرب هنا يتكلم بلغة عقائدية، الرب يؤسس بهذا المنطوق عقيدة الجماعة، تلاميذ وكنيسة. الكنيسة إذن ليست من صنع معلم عظيم أو ائتلاف جماعة مسحورة بمعظمة فيلسوفها، بل وليست حركة بشرية من حركات التاريخ الإنساني الطويل، بل عمل من أعمال استعلان الله للإنسان على الأرض. دخلت العالم من فوق، من فوق التاريخ، لم تأخذ وجودها من تطور الفكر البشري، ولا هي درجة من درجات ارتقاء الثقافة أو الفلسفة

الإنسانية؛ بل هي اقتحام فكر الله للزمن الإنساني الخامل المتعطل، ودخول الله المفاجيء والمباغت لطبيعة الإنسان التي فقدت تاريخها الإلهي ونسيت الصورة التي انحدرت منها وانحطت إلى مستوى الحيوانية التي جعلت في البدء سيدة عليها.

«خرجت من عند الآب»: ἐξῆλθον ἐκ

هو تعبير لاهوتي يفيد وحدة الجوهر والذات، ذلك بداعي التجسد. وبدون التجسد، لا خروج ولا دخول في اللاهوت. فالله غني عن الحركة والزمن، فهو محور كل الوجود، بل هو الوجود الكلي المطلق The whole presence. هذا الوجود الكلي المطلق غير المحدود صار محدوداً في شكل الجسد، وظل غير محدود في الجسد وخارج الجسد. خرج من عند الآب لأنه «رأيناه بعيوننا» (١ يوحنا: ١) بدون الآب، مع أنه، بالحق والجوهر والإيمان، لم يغادر الآب لحظة واحدة ولا طريقة عين. فالآب والابن واحدٌ مطلق، لا ينقسم ولا يفصل إلى إلهين. فهما ذات واحدة في شخصين متحدتين: الآب في الابن والابن في الآب، بل هما الواحد الكامل في أبوته وبُتوته. الابن تجسد، فرثي وحده في الجسد، مع أنه قائم دائم في أبيه.

«أتيت إلى العالم»:

«عمانويل الله معنا». هذا في لغة اللاهوت إخلاء، وفي لغة الإنسان تنازل وتواضع، تنازل عن هيئة لاهوته الممجدة غير المنظورة، ليأخذ هيئة إنسان - عبد - في العالم، له منظر إنسان متضع، لا يشتهي أن ينظر إليه أحد. وكانسان، أخذ طبيعة الإنسان لنفسه بكل متعلقاتها وأتاعبها وهمومها، ما عدا الخطيئة الدخيلة على طبيعة الإنسان، فلم يأخذ جذراً منها ولا فرعاً؛ وُلد بدونها من عذراء طاهرة وبالروح القدس، وعاش قاهراً كل حركاتها، سيداً على الجسد والعالم: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يوحنا: ١٦: ٣٣). والذي يغلب العالم، فهو حتماً وبالضرورة غالب الجسد!

ومجيء المسيح إلى العالم كان هو رسالته، أخذها من الآب لما جاء ميعاد خلاص العالم واكتملت فيه دواعي محبة الله. وأخذ المسيح على عاتقه تكميل رسالة حب الآب من نحو العالم، وكان مضمونها أن يصلح هذا العالم الشارد للآب. وشروء العالم، كان بتحريض الشيطان، فبات العالم مقهوراً لكل شهوات الدنيا، وضلالة الفكر، وخداع العقل، وزيف الحق. فكانت رسالة الابن أن يستعلن الحق لفكر الإنسان باستعلان الله، ويفدي الجسد بحمل خطاياها في جسده، ويقهر الخطيئة التي قهرته، ويغلب الموت الذي تغلب عليه، فقام من الموت وجروحه في جنبه ويديه، وأعطى الإنسان غلبته هذه على الخطيئة والموت، لا بقوة مثل قوته، بل بنعمة قوته،

وباستحقاق دمه يغفر الخطايا ولا تعود تُحسبُ، وَيَهَبُ نعمته لتقديس الجسد والنفس والروح معاً.

«وأيضاً أترك العالم» :

تَرَكَ العالم، في المنظور البشري، ولكنه بقي فيه بيسرٍ حضرته الدائمة كوعِدٍ وعهدٍ: «بعد قليل لا يراني العالم، أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو ١٤: ١٩)، برؤيا الإيمان والروح، لا بالخيال ولا بتدريب العقل بالتاوريا الصوفية، بل برؤية حقيقية من واقع استعلانه لذاته: «والذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، «وظهر للأحد عشر» (مر ١٦: ١٤)، «الذين أراهم أيضاً نفسه حياً براهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله» (أع ١: ٣)، «وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى اورشليم، الذين هم شهوده عند الشعب» (أع ١٣: ٣١)، «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً، ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات» (أع ١٠: ٤٠ و٤١). نعم، وهو لا يزال يظهر منذ قيامته وحتى اليوم، حسب وعده المقدس: «الذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، فهو القائل لبولس الرسول: «لكن قُمْ، وقف على رجلك، لأنني لهذا ظهرتُ لك، لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت، وبما سأظهر لك به.» (أع ٢٦: ١٦)

«وأذهب إلى الآب» :

الذهاب المبارك، الذي تم به مجيء الروح القدس المعزّي، ليبقى مع التلاميذ والكنيسة أبد الدهر، ويكون فيهم: «ما كنتُ معكم، ويكون فيكم» (يو ١٤: ١٧)، ويستعلن المسيح ويمجّده ويدنّو بكل كلمة قالها المسيح، لتكتب كما هي في الإنجيل، وليشهد للمسيح في التلاميذ، وبالتلاميذ والكنيسة.

لقد ذهب إلى الآب ودمه عليه، ليبقى شفيع الخطاة أبد الدهر، وليصير دمه لدى الآب متكلاً عن الخطاة المعترفين بخطاياهم، المتمسكين بدم العهد، فتُغفر خطاياهم أولاً بأول، ويغتسلون ويبسّضون ثيابهم باستعداد العرس: «حيث دخل يسوع كسابقٍ لأجلنا» (عب ٦: ٢٠)، لندخل معه إلى ما داخل الحجاب، لتتراءى أمام وجه الآب بلا لوم. وجلس عن يمين الآب ببشريتنا، فجلسنا فيه ومعه، في مواضع الكرامة والمجد، وعوملنا معاملة البنين، وأخذنا نصيباً وميراثاً مع القديسين محفوظاً لنا في السموات.

شجاعة مفتعلة واندفاع في إيمان صحيح، يفوق الإيمان الحاضر:

٢٩: ١٦ «قال له تلاميذه: هُوَذَا الْآنَ تَتَكَلَّمُ عَلَانِيَةً، وَلَسْتَ تَقُولُ قَتْلًا وَاحِدًا».

المسيح لم يقل «تأتي ساعة وهي الآن»، بل قال: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية». و يقيناً، لم تكن هذه الساعة التي يتكلم فيها، ولا يمكن أن تكون، لأن المعنى المقصود هو: بالاستعلان بالروح القدس سوف يتكلم المسيح إليهم، ويخبرهم على مستوى الروح، وليس الأذن. لذلك فتصورهم أن هذا الذي يقوله المسيح هو «العلانية» أو الاستعلان، سابق جداً لأوانه. صحيح أن اعتراف التلاميذ الذي جاء بعد ذلك بخصوص أنه خرج من الله، هو إيمان صحيح للغاية، ولكنه يسبق ويتعدى واقع إيمانهم، فإيمانهم والمتقدم عليهم، بطرس، جاهر علناً وأمام العالم وشهود أنه لا يعرف المسيح، وأكد ذلك بقسم أمام جارية.

ولكن شجاعة التلاميذ هنا وحرارة إيمانهم، إنما جاءت انعكاساً وصدئاً لشجاعة المسيح وثقته العالية جداً بنفسه. فلما غاب عنهم، غابت شجاعتهم، وغاب إيمانهم بسرعة لا يصدقها العقل. ولكن الإنسان هو الإنسان، وبدون نعمة الروح القدس، سيكون هو الإنسان دائماً.

٣٠: ١٦ «الآن نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ، لِهَذَا نَزِمُنُ أَنَّكَ مِنَ اللَّهِ خَرَجْتَ».

كلام التلاميذ هنا هورْدٌ مباشر على ما قاله المسيح لهم في الآية (١٩) من هذا الحديث، حينما قال ق. يوحنا: «فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: أَعَنْ هَذَا تَسْأَلُونَنِي فِيمَا بَيْنَكُمْ، لِأَنِّي قُلْتُ ...». وهنا في هذه الآية (٣٠) يُظْهِرُونَ اندهاشهم لمعرفة لما في قلوبهم وأفكارهم، ويعبرون عن اندهاشهم باعترافهم بأنهم أصبحوا على يقين من أن المسيح «عالمٌ بكل شيء»، ولا يحتاج أن يسأله أحد، بل هو يعرف ما في القلوب، ويرد عليها من تلقاء ذاته: «لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه، قبل أن تسألوه» (مت ٦: ٨)، «إني قبلما يدْعُونَ، أنا أجيب». (إش ٦٥: ٢٤)

ولكن حتى اعتراف التلاميذ بهذا العلم بكل شيء، لا يأتي في مفهومه الإلهي المطلق بمعنى المعرفة الكلية لله Omniscience، ولكن معرفة قلوب التلاميذ وحسب، وهذا اعتراف ناقص.

«لهذا تؤمن أنك من الله خرجت»: ἀπὸ θεοῦ

وهي تفيد الإرسالية، وهو يستخدم لكلمة «من» حرف جرّ غير ἐκ أو παρά. هذا إيمان عام لا يدخل إلى عمق حقيقة لاهوت المسيح، ولقد سبق نيقوديموس وقاله: «يا معلم، نعلم أنك قد أثبت من الله معلماً...» (يو: ٣: ٢)، وهنا استخدم نيقوديموس أيضاً حرف ἀπὸ التي تفيد الإرسال ولا تفيد الخروج الجوهرى اللاهوتى الذي يقتصر التعبير عنه على استخدام حرفي παρά أو ἐκ، ولو أن التمييز بين هذه الحروف لا يأتي بدقة، لأن الرواية الإنجيلية تشغل الفكر أحياناً عن التحديدات الدقيقة.

ولكن على كلّ، كانت ردود التلاميذ محصورة في واقعهم الزمني «الآن»، في حين كان كلام المسيح يختص بما سيكون. لذلك كان اجتهاد التلاميذ للتعبير عن المستقبل بمعرفتهم المحصورة في الحاضر فقط، هو اجتهادٌ مشكورٌ، ولكنه ناقص، ولا بد أن يكشفه المسيح لهم.

٣١: ١٦ «أجابهم يسوع: الآن تؤمنون».

في هذه الآية، يأتي الظرف الزماني للتعبير عن الحال في أضيق حدوده، أي في هذه اللحظة «الآن»: ἄρτι، وليس اللفظة المستخدمة عن الزمن المطلق «الآن» بمعنى الحاضر دون حدود vov. واستخدام ق. يوحنا لهذا التعبير، توجيه ندرك منه صلة الحادث الآن، بما سيحدث الآن بعد قليل. والمعنى الذي يقصده المسيح، هو عمل مقارنة موجّهة للتلاميذ بين إيمانهم «الآن» وهروبهم بعد قليل وتركه وحده للمحاكمة والموت. وهكذا يأتي تسلسل الكلام: «الآن تؤمنون... الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصّته وتركوني وحدي»! وقصد المسيح من هذا، أن إيمانهم «الآن» ليس على مستوى قدرتهم واحتمالهم، ولا هو قادر على أن يواجه الواقع الذي يتطلبه الإيمان.

المسيح هنا لا يسأل ولا يوبّخ، لأنه بحسب منهج إنجيل ق. يوحنا في نظره تجاه التلاميذ، فهو لا يوبّخهم ولا يُظهر عيوبهم، ولا يقلل من قدراتهم^(١١). فهو بنفسه في ٨: ١٨ فتح أمامهم الطريق ليهربوا وينجوا بحياتهم! لذلك، فالمعنى هنا يقتصر على مراجعة التلاميذ أنهم «الآن» ليسوا على مستوى الإيمان، ولا قُبل لهم باحتمال مواجهة ما يتطلبه الإيمان، فعليهم أن لا يتكلوا على مثل هذا الإيمان الناقص، وكأنما لسان حالهم هو: «أومن يا رب، فأعِنْ عدم إيماني». (مر: ٩: ٢٤)

(١١) أنظر المدخل ص ٢٦٢-٢٦٣ و ٣٥٢.

ولا شك أنه بصلاة المسيح من أجلهم، خلصوا من هذه الساعة، كما حدث لبطرس حينما تمادى في التعبير عن إيمانه في نفس هذا الموقف: «يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك "الآن"، إني أضع نفسي عنك». — فِكْرُ طفولي، حينما ينبري الطفل لِيُقْنِعَ أباه أنه قادر أن يحميه — فكان ردُّ المسيح: «أَتَضَعُ نفسك عني؟» نفس كلام المسيح للتلاميذ: «الآن تؤمنون؟»، «الحق الحق أقول لك لا يصبح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات.» (يو ١٣ : ٣٧ و ٣٨)

وهكذا، وفي وقت المحنة، حينما يقع الإنسان في مأزق العدو ومحاصرته، حيث تُطلب الشهادة أو الإستشهاد، فلولا صلاة المسيح وموازرة الروح القدس، لوقفنا جميعنا موقف بطرس أو التلاميذ في محنتهم.

١٦ : ٣٢ «هَؤُذَا أَنَا نَآتِي سَاعَةً وَقَدْ أَتَيْتِ "الآن"، تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِيهِ، وَتَتَرَكُونَنِي وَخَدِي، وَأَنَا لَسْتُ وَخَدِي لِأَنَّ الْآبَ مَعِي.»

المسيح هنا لا يراجع ولا يؤاخذ ولا يوبِّخ، ولكن يشرح لهم عِظَمَ الضربة التي ستقع عليهم من قِبَلِ العدو لِيُخَلِّجَ إيمانهم وِيُرْعِبَهُمْ رعباً، حتى يهربوا و يتركوه وحده. فالقصد النهائي من تجربة العدو لهم، هو أن يبقى المسيح وحده، إمعاناً من الشيطان في تحطيم وحدة الجماعة، ليتعرى المسيح من أي مساندة أو معونة. وهذا لم يَفُتْ على الوحي المقدس أن يُلَقِّنَهُ لِلأنبياء، حتى يصبح عمل العدو نفسه معرّى إزاء إيمان الجماعة بعد ذلك، حينما تلتئم وتراجع مواقفها، وتدرك أن عمل العدو ضدهم وضد المسيح داخل ضمن المشورة الإلهية: «استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رَجُلٍ رِفْقَتِي، يقول رب الجنود. اضرب الراعي فتشتت الغنم، وأردَّ يدي على الصغار» (زك ١٣ : ٧). وهذه النبوة عينها ردَّدها المسيح نفسه أمام التلاميذ، قبل أن تبدأ المحنة: «حينئذ قال لهم يسوع: كُلُّكُمْ تَشْكُونُون فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِي فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرِّعْيَةِ» (مت ٢٦ : ٣١). ثم عاد القديس متى ليعلِّق على ذلك بعد أن بدأ العدو ضربته: «وأما هذا كله فقد كان، لكي تُكَمَّلَ كُتُبُ الأنبياء، حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.» (مت ٢٦ : ٥٦)

«وتتركونني وحدي»:

ليست هذه مُعَاتِبَةً، فقد تَعَيَّنَ في الأزل أن يتألم المسيح وحده، ولا معين! هذا المنظر يصفه إشعياء النبي، في عظمة وشموخ، فيجعل الصليب وكأنه قمة النصر في حرب خفية ضُروب، يدوس فيها كراديس الأعداء وجحافل الظلمة ومملكة الشيطان، وكأنها شعوب متراصة:

« مَنْ ذَا الْآتِي مِنْ أَدُومَ ؟ بَثْيَابِ حُمْرٍ مِنْ بُضْرَةٍ ؟
 هَذَا الْبَهِيُّ بِمَلَابِسِهِ ، الْمَتَعَطِّمْ بِكَثْرَةِ قُوَّتِهِ ؟
 أَنَا الْمَتَكَلِّمُ بِالْبَرِّ ، الْعَظِيمُ لِلْخَلَاصِ !!
 مَا بَالُ لِبَاسِكَ مُخَمَّرٌ ، وَثِيَابِكَ كَدَائِسِ الْمَعْصِرَةِ ؟
 قَدْ دُسْتُ الْمَعْصِرَةَ وَحْدِي ، وَمَنْ الشُّعُوبُ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ أَحَدٌ .
 فَدُسْتُهُمْ بِغَضَبِي وَوِطْطُهُمْ بِغَيْظِي
 فَرُشْتُ عَصِيرُهُمْ عَلَى ثِيَابِي ، فَلَظَخْتُ كُلَّ مَلَابِسِي .
 لِأَنَّ يَوْمَ الثَّقَمَةِ فِي قَلْبِي ، وَسَنَةٌ مَفْدِيَّةٌ قَدْ أَتَتْ .
 فَنَظَرْتُ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعِيَ ، وَتَحَيَّرْتُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَاضِدٌ
 فَخَلَّصْتُ لِي ذِرَاعِي ، وَغَيْظِي غَضَدَنِي .
 فَدُسْتُ شُعُوبًا بِغَضَبِي ، وَأَشْكَرْتُهُمْ بِغَيْظِي
 وَأَجْرَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ عَصِيرَهُمْ . » (إش ٦٣ : ١-٦)

« وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لِأَنِّي الْآبُ مَعِيَ : »

هنا ينبري داود بالنبوة ليصف منظر الرب في وحدته ، وقد أحاط به اليهود يصرون بأستنانهم ،
 والنقمة تملأ قلوبهم وعيونهم ، والتف حول العسكر والشامتون يدقون الحديد في يديه ورجليه وهو
 ينادي الله !! « لَأنه قد أحاطت بي كلاب ، جماعة من الأشرار اكتنفتني ، ثقبوا يدي ورجلي .
 أحصي كل عظامي ، وهم ينظرون و يتفرسون في . يقسمون ثيابي بينهم ، وعلى لباسي يقتربون . أما
 أنت يا رب ، فلا تبتعد ، يا قوتي أسرع إلى نصرتي ، أنقذ من السيف نفسي ، من يد الكلب
 وحيدتي . » (مز ٢٢ : ١٦-٢٠)

فِي سَلامٍ ، وَفِي الْعَالَمِ ضِيقٌ :

٣٣ : ١٦ « قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا ، لِيَكُونَ لَكُمْ فِي سَلامٍ . فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ ،
 وَلَكِنْ ثِقُوا ، أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ . »

بهذه الآية يكون قد انتهى حديث المسيح الأخير ، وانتهى تعليم المسيح في إنجيل يوحنا .
 هنا يستدرك المسيح ما قاله التلاميذ ، وما أجاب به عليهم ، كونهم ستركونه وحده ، ويتفرقون
 كل واحد إلى خاصته ، أي بيته وأهله ومهنته ! ثم يكشف المسيح عما كان يقصده من كلامه

هذا: «ليكون لكم في سلام»، وذلك حينما يتم بالفعل ما تنبأ به المسيح عن هروبهم وتركه وحده، فيتذكرون ما قاله، وحينئذ يستردون إيمانهم وثقتهم بالمسيح. لأن وديعة المسيح التي تركها لهم، وإن غابت بعض الوقت عن أعينهم «سلاماً أترك لكم» (يو ١٤: ٢٧)، فهي قائمة وثابتة فيهم لن تغادرهم.

والذي يهمنا جداً في هذه الآية، قول المسيح: «ليكون لكم في سلام»، فهو لم يقل: «ليكون لكم سلام»، بل «ليكون لكم في سلام»، فحينما نهزم أمام التجربة، كما انهزم التلاميذ في محنة الصليب، وحينما نفقد السلام الذي فينا، فإنه يتبقى لنا «سلام في المسيح»، فسلام المسيح هو القوة المُنْذِرة لنا، حينما تنتهي قوتنا. يكفي أن نلقي همناً عليه (١ بط ٥: ٧)، لنجد فيه سلامنا المفقود: «لأنه هو سلامنا.» (أف ٢: ١٤)

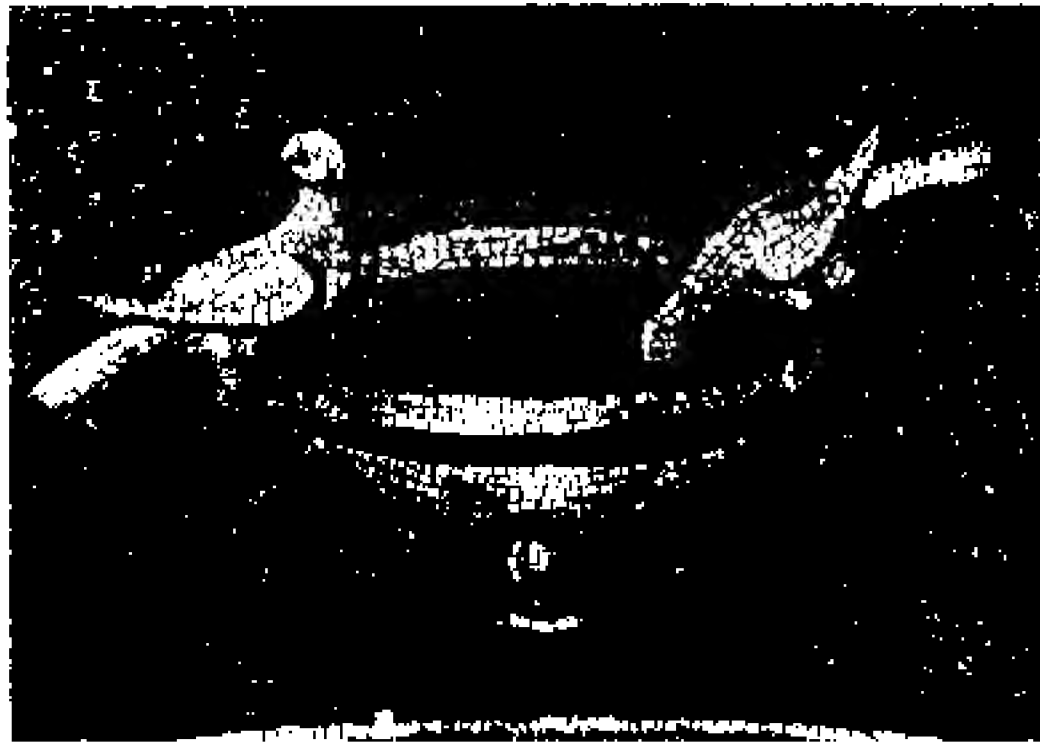
أنظر كيف تحول انهزام التلاميذ إلى نُصرة، وشكُّهم إلى يقين، وحزنهم إلى فرح إنجيلي ملأ المسكونة كلها. إن خبرة التلاميذ في هذا التحول القوي والغالب، سَلِّمُوها للكنيسة. الكنيسة بعد ذلك عبرت مثل هذه المحنة، ومحنٍ بلا عدد أقوى من محنة التلاميذ، وغَلَبَتْ، وها هي غالبية وستغلب؛ والسُرُّ هو سلام المسيح الذي تركه لها ميراثاً ثابتاً دائماً لها: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت ١٦: ١٨)

ولياخذ القارئ المقارنة التي وضعها المسيح بين سلامه وبين ضيق العالم: «ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضيق». المسيح يضع نفسه مباشرة في المقابل المضاد للعالم. هذه هي الحقيقة بغير موارد، فالذين للمسيح تماماً يضطهدهم العالم حتماً. ولكن السلام الحقيقي في المسيح يوازن الضيق في العالم، مهما تعالى ويزيد. بمعنى أن الذين في المسيح هم فوق العالم دائماً. لذلك أكمل المسيح المعادلة المنتصرة بقوله: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم». فالذين هم في المسيح ولهم سلام «في» المسيح، قد غلبوا العالم. هذه المعادلة لخصها ق. يوحنا بقوله في رسالته الأولى: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا.» (١ يوح ٤: ٤)

والآن يلزمنا أن ندخل قليلاً في اختبار الإيمان والسلام في المسيح، لنذكر حقيقة غلبة العالم، لأن هذا بالحقيقة هو الميراث المسيحي العملي، الذي استلمناه من الإنجيل ومن القديسين الأوائل والشهداء والأتقياء، الذين اختبروا المسيح وعاشوه، وغلبوا العالم وعَبَرُوا: فالإيمان العملي بالمسيح هو الثقة الكاملة والمطلقة بكل الكلام الذي قاله. فكل آية أعطاها لنا، هي كنز مغلق، سَلِّم لنا لكي نغتنى بما تحويه الآية من مواعيد صادقة وأمانة. كل وصية للمسيح، تحمل وعداً منه بالتنفيذ،

فإذا آمنا حقاً بكلام المسيح وتمسكنا به بقلب واحد غير منقسم، يكون لنا فيه كل الوعد تماماً كما وعد.

فقلوه هنا: «ليكون لكم في سلام» معناه أنه يتحتم أن يكون لكم «في سلام»، إن كنتم تؤمنون، فهل تؤمن أيها القارئ العزيز؟ المسيح يعرض سلامه مجاناً، ومقابل ضيقات العالم. ولكن يلزم أن نرث منه هذا السلام، الآن مُسَبِّقاً، حتى إذا جاءت الضيقات انبرى سلام المسيح في قلوبنا ليخفف من كبرياء التجربة، مهما كانت عنيفة، ويخففها ثم يخففها حتى يضعها تحت رجلك. هذه هي غلبة العالم، وهذا هو إيماننا الذي تغلب به العالم.



«أيها الأب قد أنت الساعة. مجد ابنك لمجدك ابنك أيضاً، إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ١-٣)

جزء مقتطع من رسم بالفسيفساء يحوي رسم القديسين بطرس وبولس الرسولين وهما يعطيان، وقد وُضع أسفلهما هذا الجرن وبه الماء الذي تستقي منه الحمامتان، رمز الماء الحي، أي الروح القدس.
(من كنائس رافنا - القرن الخامس)

ملخص أحاديث الفراق

والآن، ونحن داخلون إلى صلاة المسيح الأخيرة، ينبغي أن نلقي نظرة إلى مجمل أحاديث الفراق، لأنها تُعتبر المدخل الوحيد لفهم صلاة المسيح الأخيرة، لأن العلاقة بين أحاديث المسيح السابقة على هذه الصلاة والصلاة نفسها، وثيقة للغاية.

لقد رأينا أن الأحاديث الأخيرة تدور حول محور واحد أو غاية واحدة، أن «نتحد بالمسيح»، بمعنى الإيمان الفعلي بالمسيح المصلوب والقائم من الموت، إيماناً نمارسه بحياتنا. فالاتحاد بالمسيح المصلوب، نمارسه بعبورنا نفس الضيقات والاضطهاد والألم والرفض والصلب، إذا تحتم؛ بشجاعة المسيح وصبره. واتحادنا بالمسيح القائم من الموت؛ نمارسه في آلامنا وضيقاتنا واضطهاداتنا وفي الرفض وتهديد الموت؛ بالفرح والتهليل والسلام الداخلي، كمن جازوا الموت بالقيامة الأكيدة، ولكن غلبوا العالم بكلمة شهادتهم.

ولكن هذا المحور الدوّار، أو الهدف الواحد، الذي يتغلغل كل حديث قاله المسيح وكلّ تصوير صوّره، يمكن تحديد مفرداته كالآتي:

أ — الحديث بدأ بغسل الأرجل، وقد جعل المسيح مفهوم هذه العملية محدداً في قوله لبطرس: «إن كنت لا أغسلُك، فليس لك معي نصيب» (يو ١٣: ٨). إذن، فغسل الأرجل يدخل في عمل المسيح الكرازي، أي نفس إرساليته. الفسيل هو تكريس أرجل تلاميذه، لإرسالية الكرازة بإنجيل الخلاص، إنجيل الموت والقيامة! فبكراسة التلاميذ بالإنجيل، دخلوا في نصيب المسيح على الأرض بالصليب، وفي السماء بالمجد المذخر لهم عند الآب، وفي الكنيسة نالوا كرامة مع المسيح. فهذا عقّب المسيح على غسل الأرجل بقوله: «الذي يقبل من أرسيله، يقبلني، والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني.» (يو ١٣: ٢٠)

ب — وحدة التلاميذ معاً، هي الرباط الذي يربطهم، فلا يؤثر فيهم الفراق — كتلاميذ للرب أمام العالم. لذلك، فالوصية الجديدة لمواجهة العالم هي المحبة، محبة بعضهم البعض (١٣: ٣٤). ولكن محبة على مستوى وطبيعة محبة المسيح لهم، أي أن يكونوا دائماً على استعداد البذل حتى الموت، بعضهم للبعض ومن أجل الكنيسة. والصورة المصغرة، هي أن يغسلوا أرجل بعضهم البعض، لتبقى وحدة الرسولية والكرازة، وتبقى رسالة المسيح.

ج - محبة المسيح لتلاميذه، تحققت بعودة المسيح إليهم (١٤ : ١-٩)، فتأكدت وحدته معهم. فبعد أن ماتت حبة الحنطة وحدها، قامت، فجاء زمن الثمر الكثير الذي مثله المسيح بالكرمة والأغصان، الذي هو أبهى وأعظم تصوير للوحدة بين المسيح والكنيسة. فالثمر لا يأتي إلا عن طريق «الوحدة»، معاً، وبالمسيح (١٥ : ١-٩).

د - فالثمر الذي تُشِئُه وحدة التلاميذ، معاً وبالمسيح، هو في الحقيقة وفي الأصل، فِئْلٌ لمحبة الآب التي استُغْلِنَتْ في المسيح، وهو نفسه (أي الثمر الكثير) يُعْتَبَرُ رِذْأً مباشراً على محبة الآب. «بهذا يتمجد أبي أن تأثروا بثمر كثير، فتكونون تلاميذي» (يو ١٥ : ٨). فالثمر، الذي هو خدمة اسم الآب والمسيح في العالم لتكميل رسالة الخلاص، هو الرد الصحيح والمباشر على محبة الآب لنا التي استُغْلِنَتْ في المسيح، هو (أي الثمر) في الحقيقة وبالنهاية عمل الوحدة التي تمت في المسيح.

هـ - حتى الاضطهاد الذي سيجوزه التلاميذ في العالم، هو ثمرة الوحدة مع المسيح، وحدة عضوية كذايت في ذات. نسمعها قوية من فم المسيح نفسه، وهو في السماء : «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أع ٩ : ٤)؛ وكان المسيح يتألم بتألم أعضاء جسده على الأرض. هذا الاتحاد العجيب والسري الذي كشفه المسيح في قصة شاول، هو أعمق تعبير عن «وحدة» حقيقية قائمة بين المسيح والتلاميذ، أي الكنيسة. «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي.» (يو ١٥ : ٢٠ و٢١)

و - وحتى إرساله الروح القدس، كان ويكون لتعميق الوحدة واستعلان أسبابها وموجباتها، والحفاظ عليها بين المؤمنين والمسيح والآب.

ز - والمحبة التي تكلم عنها المسيح في كل أحاديث الفراق، ليست محبة كلام ووعد، بل محبة فعلٍ وعطاءٍ واتحادٍ سري، له نتائج الفورية : «لا أعود أَسْمِيْكُمْ عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكنني قد سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَاءَ، لأنني أَعْلَمْتُكُمْ بكل ما سمعته من أبي.» (يو ١٥ : ١٥)

ولكي يثبت قوله، بل فعله هذا، كشف عن سِرِّ موته أنه موْتُ بداعي الحب لفداء مُحِبِّيه؛ لكي يموت لأجلهم، يفديهم من الموت ويعطيهم حياته (١٥ : ١٣). هذه هي «محبة الاتحاد». فأن يموت المحب لأجل أحبائه ليحييهم معه إلى الأبد، فهذا أقوى «فعل لاتحاد المحبة» عرفه الإنسان على الأرض، «ليس لأحد حبٌ أعظم من هذا» (يو ١٥ : ١٣)، «أحْبَبْنِي، وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأجلي.» (غل ٢ : ٢٠)

ح - وأوضح مظاهر «محبة الاتحاد»، أو «الاتحاد بالمحبة» في أحاديث الفراق، هي ذات هذه الأحاديث عينها، كونها جرت بين «حبيب ومن أحبهم». فهي تنطق بكيف يكون الاتحاد بين المسيح والإنسان!! وعلى م جرت هذه الأحاديث؟ أليس عن حب الآب ومعرفة ورؤيته والحياة الأبدية عنده والذهاب إليه؟ وهل يكون حديث الاتحاد وممارسته أكثر من هذا؟

ط - والواضح أن كل العلاقة التي تربط المسيح بتلاميذه وأتباعه ومحبيه، جرت على أساس ما هو حادث بينه - أي بين المسيح - والآب، ليس كنموذج - وحسب بل كمصدر فعال ومثيل، يحثني به المثل، وينهل منه. فإن كان المسيح قد قصد الوحدة بينه وبين محبيه قصداً، ونفذ بالفعل السري ذلك تنفيذاً، حين فرّق جسده عليهم وأسقاهاهم كأس دمه، فالأمر كان في حاجة أشد الحاجة لإعطائهم صورة مسموعة للوحدة «الأصل»، والمثل الإلهي القائم بين الآب والابن. فكانت صلاة (يوحنا أصحاح ١٧).

ثم ما هي صلاة يوحنا ١٧؟

+ هي الإخلاء الكلّي بالروح، في ذبيحة حب، مطعمة بالطاعة القصوى، قبل الإخلاء التاريخي على الصليب!!
- «أيها الآب، قد أتت الساعة، مجد ابنك»!
- «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته»!

+ هي صعود حقيقي بالروح إلى الآب، ومعه قلوب وأرواح محبيه، قبل الصعود الجسدي المنظور بالعين.

- «لست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك».
- «أيها الآب، أريد أن هؤلاء يكونون معي، حيث أكون أنا».

+ هي عمل تقديسي فوري يتم بعد كل كلمة، كما ينطقها تكون، لأن الآب يسمع له في كل حين، ويستجيب في الحال!
- «قدّسهم في حقك».

- «ولأجلهم أقّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق».

+ هي ممارسة اتحاد فائق بالروح مع الآب، والتلاميذ داخلون بالسر في دائرة الاتحاد غير المنظور.

— « كما أنك أنت، أيها الآب، فيّ وأنا فيك »

— « ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » .

+ هي سكبٌ روحيٌ للحب الأبوي، انسكب فيهم، إيداناً بسكنى المسيح !

— « ليكون فيهم الحب الذي أحببته به » .

— « وأكون أنا فيهم » .





سك جنسان جت صل المسح الصلاه الاحمره

الأصاحاح السابع عشر صلاة المسيح للآب

[وبعد ما أعطى تلاميذه كل التعاليم فيما يختص
بالخلاص، وأكمل معرفتهم وهياهم لمواجهة
التجارب، نقل الحديث إلى صلاة.]^(١)
القديس كيرلس الكبير

مقدمة:

مقارنة بين صلاة المسيح الأخيرة في إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى:

+ صلاة (يوحنا ١٧) المدموعة بالمجد والتجلي، وغلبة العالم، والتي فيها يستعلن المسيح لاهوته
على مستوى الوحدة غير المنفصلة مع الآب، يقابلها في الثلاثة الأناجيل الأخرى، وفي نفس المكان،
صلاة جثسيماني بأحزانها ودموعها وسجودها وعرقها المتصبّب كالدم، مع طلب إعفاء من شُرْب
هذه الكأس، لو أمكن! فهل من تفسير؟

نعم، فهذه مضادة paradox، مثل كل المتضادات في حياة المسيح التي نشأت من كون أن:
«الكلمة صار جسداً» بلغة إنجيل يوحنا (١: ١٤)، أما بلغة القديس بولس فهي: «الله ظهر في
الجسد» (١ تي ٣: ١٦). لذلك يلزم أن لا نقرب المقارنة بين هاتين الصلاتين، إلا على أساس
الرؤية المتكاملة لشخص المسيح، باعتباره «الإله المتجسد». لأننا بهذا نرى في الصلاتين معاً
منتهى حقيقة المسيح الإلهية والبشرية معاً، في ضوء الإخلاء الذي اكتمل بالمجد، واتضاع العبد
الذي ارتفع إلى أن استوى على العرش في مُلكه الأزلي مع الآب، لتسجد له كل ركة ما في السماء
وعلى الأرض.

+ لذلك ينبغي غاية الانتباه أن نفرّق بين رؤية المسيح لنفسه التي يتحرك بها ويتصرف ويعلن

^١ Cyril the Great, *op. cit.*, p. 478.

ما يراه صالحاً للإعلان، ويحبس ما لا يلزم أن نعرفه قبل الأوان، وبين ما نراه نحن بعجز إدراكنا الذي لا يرقى أبداً إلى حقيقة ذاته، فأحياناً نراه إنساناً فيما لا ينبغي أن يكون، ثم نراه إلهاً فنستكثر عليه ما للإنسان؛ فمثلاً، نستكثر جداً في أنفسنا ما يقوله سفر العبرانيين أنه: «قدّم بصراخ شديد ودموع، طلباتٍ وتضرعاتٍ للقادر أن يخلصه من الموت، وسُمعَ له من أجل تقواه» (عب ٥: ٧). في حين أن هذا هو عمله الأعظم الذي من أجله نزل من السماء؛ لكي يحمل من أجل الإنسان هذا الحزني عينه، وهذا الضعف المشين بكل ما يعنيه وينطوي عليه، من رهبة الموت ورعبته، ومن الجزع من مواجهة فراغ القبر وعَدَمِيَّته؛ لكي يقوم بالإنسان — هذا الذي حمله في نفسه — منتصراً غالباً ودائماً الموت تحت رجله؛ لكي لا يسود عليه الموت بعد، وكأنه صار إلى العدم، بل لكي يلاشي هذا الموت وجبروته، فيتحول موت الإنسان إلى مجرد انتقال إلى حياة أفضل، أي سماوية. فالصراخ والدموع والرعدة والجزع، حوَّها له جميعاً إلى هتاف النصر وسلطان الغلبة، بل واستحقاق مجد!

+ فصلاة المسيح في يو ١٧ هي وقفة للمسيح لمراجعة رسالته، في شموخ لاهوته كما جاءت في إنجيل يوحنا. أما صلاة جثسيماني بانبطاح المسيح على الأرض — كما جاءت في الأناجيل الثلاثة — فهي قمة ذلَّة الإنسان التي تبثَّها المسيح عن الإنسان، كمدخلٍ لائق للصليب. فهذه وتلك هي المضادة التي نشأت أصلاً من «تجسد الكلمة»، والتي فيها وبها دُعِيَ الإنسان من سُكْنَى القبر إلى سُكْنَى السماء.

+ لقد جاءت لتعبّر عن أعلى مستوى لشركة الابن مع الآب، وأجلى صورة لابن الإنسان المُسْتَعْلَن كابن الله، مسيَّاً الدهور، حاملَ الاسم العظيم «أنا هو» *ἐγώ εἰμι*، «وكان الكلمة الله» (يو ١: ١)، «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢)، «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، «الذي رأي، فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ٩)

+ وصلاة جثسيماني كما جاءت في إنجيل مرقس ١٤: ٣٢، بدموعها وتضرعاتها، جاءت لتستعلن تنازل الابن، كيف أخلى ذاته وأخذ شكل العبد! وكيف «أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس» (غل ٤: ٤)، وكيف «أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد» (رو ٨: ٣)، وكيف «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان، وُضِعَ نفسه، وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في ٢: ٧ و٨). وكيف وُضِعَ قليلاً عن الملائكة «من أجل ألم الموت، لكي يذوق، بنعمة الله، الموت لأجل كل

واحد، لأنه لاقَ بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آيت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يُكَمَّلَ رئيسَ خلاصهم بالآلام» (عب ٢ : ١٠ و ٩)، وكيف أن «الذي في أيام جسده، إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات، للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه؛ مع كونه ابناً، تعلَّم الطاعة مما تألَّم به» (عب ٥ : ٧ و ٨)، وكيف «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب، مستهيناً بالحرى» (عب ١٢ : ٢)، «فتفكروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه، لئلا تكلُّوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب ١٢ : ٣)

+ وق. يوحنا، وإن قدَّم لنا صلاة المسيح في (يو ١٧) رافعاً المسيح إلى قمة الاستعلان الإلهي، لم يفُتْه أيضاً أن يسجِّل بعضاً مما سجلته الأناجيل الأخرى والرسائل من مظاهر اتضاعه وضعفه البشري. ففي الأصحاح ١٢ الآية ٢٧، سجَّل له: «الآن نفسي قد اضطربت، وماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة». كذلك، وفي موجة الحزن الأليم الذي اجتاح النسوة وهنَّ يتكيئن على لعازر، انتبه المسيح وهو في مواجهة سلطان الموت، وفي الحال تراءت أمامه ساعته القادمة تحمل نفس المنظر والمشاعر، فاضطرب أيضاً و«بكى يسوع.» (يو ١١ : ٣٥)

+ فإن كان في صلاته في (يو ١٧) قد رفع عينيه نحو الآب، لكن لم يغب عن عينيه أيضاً صورة الصليب بمرِّواته القادمة، وظلمة القبر البارد، ولكن كانت القيامة حاضرة فيه أيضاً والمجد المُستَرَدُّ! هذه كلها كانت داخلية حتماً في اعتباره وهو يصلي، ولكن كان قد جمعها كلها في رؤية واحدة وكأنها قد تمت!! ألم ينته من كسر جسده وسفك دمه مُسبقاً على العشاء؟

+ بل إن خلفية هذه الصلاة في (يو ١٧) التي أعطتها هذه القوة والشموخ والرزانة والجلاء البصري المنقطع النظير، مع السلام الذي يفوق العقل بالرغم من ظل الصليب المنعكس على نفسه بكل ثقله. هذه الخلفية كانت قائمة على أساس أنه قد انتهى مع نفسه وتخطى الألم الكثير الذي ينتظره. فعندما رفع عينيه إلى السماء، كان يتطلع إلى رحلة المجد القادمة، بعد أن استوفى في ضميره الرضى برحلة المذلة وكل مقاومة منتظرة: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم.»

+ لقد حبس أنين الألم القادم في صدره؛ ورعباً مواجهة الموت ومَن له سلطان الموت ألقاها خلف ظهره إلى حين؛ والدموع التي هطلت في مشهد الباكين على لعازر ألحَّت عليه، فالمشهد واحد، فجفَّت في عينيه حينما تطلَّع إلى الآب. وشعور الرغبة في الإغفاء من الكأس وساعة الظلمة كانت على شفّتيه، ولكنه أجَّلها إلى ما بعد أن ينتهي من تقديم حساب

- الوكالة، وتسجيل وصيته الأخيرة من نحو تلاميذه والكنيسة القادمة من وراء الدهور.
- + فلما استوثق من سماع الآب له، كما أنه هوفي كل حين يسمع للآب، انطلق مع تلاميذه صوب جشيماني صامتاً؛
- + ليبيكي هناك مع كل الذين بكوا موتاهم، ليستوفي أحزان بني الإنسان؛
- + وسجد وأمن في السجود للآب، ليقدم آخر تعبيرات الخضوع والطاعة وواجبات التوبة عن كل جهالات الإنسان؛
- + وتصبب الحرق كالدم من جبين آدم الثاني، استيفاءً للعنة «عرق الجبين» التي اكتسبها آدم الأول، لما عصى الله وخرج من لُدْنِهِ ملوماً محسوراً (تك ٣: ١٩)؛
- + وتحت ظلال أشجار جشيماني أخذت نفسه تحزن وتكتب حزناً حتى الموت، ليتقياً الشهوة التي استقرت في أحشاء أبوينا الأولين، التي ورثاها لكل مَنْ أتوا بعدهما، حينما أكلا من الشجرة وأتيا الحرام.
- + في هذه الليلة الخالدة (يو ١٧)، أكمل المسيح في صلاته مع الآب منتهى استعلان لاهوته. وفي جشيماني (مر ١٤: ٣٢)، استعلن المسيح بدموعه وسجوده وعرقه المتصبب كالدم ملء تجسده...
- + ولم يجد صعوبة أن ينتقل من الأولى إلى الثانية، أليس هو الذي انتقل من حضن الآب بلء مسرته، ليحتضن الإنسان؟ تاركاً مجد السماء، ليعيش على أرض الأحزان؟
- + وقف المسيح في صلاته (يو ١٧) مرفوع الرأس باعتباره «الكاهن الأعظم»، يستمد ويستبرئ ذمته أمام الآب ليكون أهلاً لتقديم ذبيحته، ليس عن نفسه، فهو لم يوجد فيه خطية ولا في فمه غش، ولكن من أجل العالم كله بمفهومه الإنساني البائس، على مستوى كل فرد على حدة!
- + أما في صلاته في جشيماني (مر ١٤: ٣٢)، فكان هو الذبيحة والخروف نفسه! يُساق إلى الذبح، منحنيّاً، ساجداً حتى الأرض، باكياً، صارخاً، يستنزف شحنة عواطفه حتى يحتفظ بهدوئه وصمته لدى حاكميه وصاليه! لقد صلب المسيح ذاته قبل أن يصلبه العالم، واستدعى كل آلام الموت، ليجوزها بإرادته قبل أن تأتي عليه، فأكمل النبوة بيديه، قبل أن

يكملها فيه الشامتون: «أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مُصاباً مضروباً من الله ومذلواً.» (إش ٥٣: ٤)

الجلال الذي أحاط بصلاة المسيح في (يو ١٧):

منذ أول آية في الأصحاح السابع عشر، بدأ الجو الذي يحيط بالتلاميذ والمسيح يدخل في هدوء مفاجيء، كهدوء السماء، مع رهبة وهيبة وجلال!، يحسها القارىء إن كان حقاً على مستوى إنجيل يوحنا...

والانطباع الشديد الذي يلقي بظله على فكر القارىء، أننا أمام مواجهة حقيقية بين الآب والابن؛ إنه حديث السماء، حديث الله مع نفسه، فيما يخص مستقبل الإنسان...

نحن لا نعلم بالضبط أين صلى المسيح صلاته هذه:

هل في العلية؟ لقد سبق أن قال: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو ١٤: ٣١)؛

هل في الطريق؟ وهل يمكن أن تقوم صلاة مثل هذه بين الغادي والرائح؟

هل في جثسيماني؟ ربما! لكن يقول العالم وستكوت ومعه آخرون^(٢)، إن الظن الغالب الذي يوحى به روح الكلام، أن هذه الصلاة قُدمت إلى الآب في الهيكل. ويرجح ذلك، خبر سجله المؤرخ اليهودي يوسيفوس^(٣) أنه كان من عادة رؤساء الكهنة أن يفتحوا أبواب الهيكل في منتصف الليل للشعب، وخاصة الخُجاج، لحضور صلاة الفصح. فهل عرّج المسيح على الهيكل مع تلاميذه، لكي يتخاطب رسمياً مع الآب، ويضع أساس كنيسة الدهور القادمة؟ ربما.

ومما يرجح ظننا هذا — أي احتمال حدوث صلاة المسيح في الهيكل — ما جاء في بداية الأصحاح الثامن عشر، حيث يقول معقّباً على الصلاة مباشرة: «قال يسوع هذا» وخرج مع تلاميذه إلى عُبر وادي قدرون» حيث كان بستانٌ دخله هو وتلاميذه» (يو ١٨: ١). والمعروف أن وادي قَدْرُون يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، حيث البستان المدعو «جثسيماني». وهكذا ينحصر المعنى أن «خروج» المسيح هو وتلاميذه كان من الهيكل بعد الصلاة.

على كل حال، كان هدوء ذلك الليل في هذا الميعاد، وهذه المناسبة، في هذا المكان، يُزيد الشعور بخطورة الموقف.

² Westcott, *op. cit.*, p. 237.

³ Jos., *Ant.*, XVIII, 2.2.

كل هذا جعل من هذه الصلاة نقطة تحوّل عظمى في تاريخ، لا الجماعة الأولى وحدها، بل والكنيسة على مدى الدهور والعالم كله ! لقد كانت البدء الحقيقي لاستعلان العلاقة الإلهية التي بدأت تربط الله بالإنسان، والدعوة العليا التي تلقّاها الإنسان من خلال هذه الصلاة، ليدخل في وحدة مع الله وشركة. ويكفي برهاناً على ذلك وتوثيقاً، أن تسجيل هذه الصلاة العلنية هكذا في الإنجيل أعطت الفرصة لكل إنسان أن يسمع هذا الحديث، ويفهمه، ويحتفظ به لنفسه، ويأخذه كوثيقة لحسابه إن يشاء !!

والمسيح حينما بدأ صلاته، بدأ وكأنه في حالة تجلّي، مُعطياً للعالم ظهره، لبدأ رحلته السريّة الظاهرة نحو الآب. وكان المسيح يصلي بتركيز شديد، موجّهاً كل مشاعره نحو الآب، ولكن كان التلاميذ حاضرين في صلاته وكأنه يستعلن لهم أقصى ما يمكن من أسرار حياته الخاصة وتعاليمه ومشاعره، كاشفاً لهم ومن أجلهم صلته السرية بالآب، وكنا نحن أيضاً حاضرين بصفتنا كلّ الذين يؤمنون بكلامه، ولا زلنا حاضرين نسمع صوت الابن يصلي من أجل الكنيسة، وكلّ الذين يؤمنون به وبكلامه.

وصارت صلاة المسيح هذه كنز إلهامات للكنيسة على مدى الدهور، تستمد منها دستور إيمانها، ومفردات تعليمها، وضوابط سلوكها، ومنتهى رجائها!

أما قلب هذه الصلاة النابض، فهو قول المسيح: «ولأجلهم أقّـدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق» (يو ١٧: ١٩). بمعنى أن المسيح ارتضى وتعيّن منذ البدء أن يجعل نفسه ذبيحة خاصة من أجل العالم، لكي يقدّم التلاميذ ذواتهم أيضاً ذبائح حية ومقبولة في ذبيحة المسيح، وهكذا يستمر الخلاص حيّاً فعّالاً، حتى يتغير وجه العالم، وبهذا ينتهي عمل المسيح بتكريس البشرية لله!

تقسيم الصلاة:

من العسير تقسيم الصلاة تقسيماً منهجياً صحيحاً، لأنها صلاة؛ والمسيح لم يبوّنها مُسبقاً، بل كان يعود إلى ذكر الأمر نفسه في مواضع متباينة.

ولكن بقدر الإمكان قسّمها الشُّراح إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: (١-٥): حيث يقدّم الابن نفسه إلى الآب في المجد المشترك.

القسم الثاني: (٦-١٩): يقدّم وصيته للآب فيما يخص التلاميذ الحاضرين معه الصلاة.

القسم الثالث: (٢٠-٢٦): يقدّم وصيته للآب فيما يخص الكنيسة على طول المدى.

القسم الأول فيما يخص صلته بالآب : (يو ١٧ : ١-٥).

حيث يصلي من أجل :

- ١ - مجده الذي يُنشئ مجداً للآب .
- ٢ - عمل الابن على الأرض من حيث غايته .
- ٣ - من حيث أسلوب عمله على الأرض .
- ٤ - من حيث اكتمال عمله حسب المواصفات المعطاة .
- ٥ - طلب استعادة مجده السالف على أساس اكتمال كل شيء .

١٧ : ١ «تكلّم يسوع بهذا، ورَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: أَيُّهَا الْآبُ قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ، فَجِدْ أَبْنُكَ لِيُجَدِّكَ أَبْنُكَ أَيْضاً».

«تكلّم يسوع بهذا» :

واضح هنا العلاقة الصميّة بين التعليم السابق وبين هذه الصلاة، صحيح أنها كانت نقلة مفاجئة ولكن دون انقطاع في المنهج العام، فهو انتقال من التعليم فيما يخص الخلاص إلى الدخول العملي في سيرّ الفداء .

كانت آخر جملة قالها المسيح قبل دخوله في الصلاة هي : «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم» (يو ١٦ : ٣٣) ! كان هذا هو المدخل الرسمي لصلاة التكريس التي كرّس فيها نفسه للموت، كآخر مرحلة في مراحل خطة الخلاص التي جاء بها من عند الآب .

و«أنا قد غلبتُ العالم» معناه تقديم الوثيقة التي تعني أنه غلب كل شيء في العالم، ولا يوجد فيه خطيئة واحدة تمنعه من أن يقدم ذبيحته لأجل الآخرين، وليس عن نفسه . فبطهارته وقداسته الكاملة تأهل أن تكون ذبيحته شاملة لكل العالم، لأنه غلب في معركة العالم . وبناءً عليه، فقد استحق أن تُقبل ذبيحته على أساس استعلان مجده جنباً إلى جنب، حتى تُفهم الذبيحة أنها ذبيحة إلهية، لها ما لها من أثر وفاعلية دائمة، ذبيحة الغالب، وكلُّ من يشترك فيها يشترك في انتصارها . فهي ذبيحة إنتصار لحسابنا، كما يقرر ذلك ق . يوحنا في رسالته الأولى : «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد وُلِدَ من الله، ... لأن كل من وُلِدَ من الله يغلب العالم . وهذه هي

الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا. مَنْ هو الذي يغلب العالم؟ إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١ يوه: ١ و٤ و٥)

وما هي «غلبة العالم» بالنسبة للذين آمنوا بالمسيح واشتركوا في ذبيحته، قولاً بالإيمان، وعملاً بأكل الجسد وشرب الدم؟ هي اقتفاء حياة المسيح والاقتداء به: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو: ٢: ٤٩)، «لكن ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبتُه من أجل المسيح خسارة. بل إنني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء، وأنا أحسبُها نقايَةً لكي أربح المسيح.» (في ٣: ٧-٨)

غلبة العالم هي الانتباه، حتى لا نتعلق بالمادة أو بمظاهر العالم الجاذبة «للمرغبة»، المعشوقة لاستعباد الحواس؛ وهي إما خداع راقٍ كالجمال والحب والفن، وإما خداعٌ منحطٌ كالجنس ولذة الأكل والشرب. لذلك نجد أن عنصر «غلبة العالم» سيصبح أساساً لتنويع درجاتنا في السماء، كنهاية النهاية: «مَنْ يَغْلِبْ، فسأُعْطِيهِ أَنْ يجلسَ معي في عرشي، كما غلبتُ أنا أيضاً وجلستُ مع أبي في عرشه» (رؤ: ٣: ٢١)؛ وهذا بحد ذاته أعلى مستويات الوجود الروحي للإنسان، الذي آمن بالمسيح واقتفى أثر حياته وتقوى بها.

والملاحظ أن غلبة المسيح على العالم بحياته، أعطته بالضرورة أن يغلب الموت بموته: «رئيسُ هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو: ١٤: ٣٠). وصار لقب المسيح في السماء «الغالب»: «خرج غالباً، ولكي يغلب» (رؤ: ٦: ٢). وغلبة المسيح منحها لنا كشركة في موته وقيامته، بهذه هتف بولس الرسول: «يَغْظُمُ انتصارُنَا بالذي أَحَبَّنَا» (رو: ٨: ٣٧)، أي أن المسيح كمنتصر سيمسك بيدنا لنتنصر ونغَبِرَ. فالانتصار أساس الانتقال من العالم إلى الله؛ لأنه لما أكمل المسيح الانتصار على العالم، تهيأ للانتقال إلى الآب.

«ورفع عينيه نحو السماء وقال»:

هنا انتقل المسيح بنفسه وبسامعيه ودخل مباشرة في الحديث على المستوى الإلهي، فرفع عينيه إلى السماء، يعني اتجه بكل كيانه نحو الوجود الإلهي المطلق، فالسماء رمز الحاضرة الإلهية الدائمة. ولأول مرة يسمع الإنسان حديثاً سرياً بين الابن والآب السماوي. فالحديث موجّه للآب مباشرة، ولكن على مستوى الأذن البشرية لتسمع، والقلب ليفهم، ويرتقي بوعيه الروحي للمدارك الإلهية العالية. فالإنسان في هذه الصلاة، وبهذه الصلاة، مدعوٌ رسمياً للدخول في هذه الشركة السرية بين الابن والآب، من خلف الابن الواقف يصلي بنا.

«أيها الآب» (٤):

هكذا جاءت الترجمة اليونانية. ولكن الأصل العبري الذي تكلم به المسيح هي اللفظة المشهورة أبًا $\alpha\beta\beta\alpha$ وبالإنجليزية Father. والنطق بهذه الكلمة معناه الاتجاه المباشر بين المسيح وأبيه السماوي. ولكن لم يقل: «يا أبانا»، فالصلاة لا تُحسب أنها عامة وكأنه واحد من العامة. ولم يقل «يا أبي»، لذلك فالصلاة تُحسب هنا أنها ليست سرّية خاصة، فهي داخلة في الصفة التي تجعلها صلاة البشرية كلها بفهم المسيح بين الابن والآب بأن واحد. لذلك يقولها علناً وبالصوت المسموع: «أيها الآب»، ويُحسب هذا استعلاناً وكشفاً لسر العلاقة المباشرة والاتصال الجوهرى الذاتى بين الابن والآب في وضعه المطلق، هذا الذي استلمته الكنيسة وعبرت عنه أيضاً بالنداء «يا أبًا الآب»: «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف (من الله بعد) بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ "يا أبًا الآب"» (رو ٨: ١٥)، وقد كررها بولس الرسول لترسخ في أذهاننا كميرات حقيقي: «ثم بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه (البُنوّة) إلى قلوبكم، صارخاً يا أبًا الآب» (غل ٤: ٦)، وكأن المسيح في قلوبنا يدعو الآب بدالة البنوّة.

ففي الحقيقة، هذه الصيغة التي خاطب بها المسيح الله: «أيها الآب»، توضح كيف يحصر المسيح نفسه في الجنس البشري، لا كواحد بل كمَن يمثّل الإنسان ككل، ولكن بجرأة تفوق قامة البشرية، إنها جرأة مَنْ هو وحده يعرف الآب، وله الآب، وهو آت إليه!

«قد أتت الساعة»:

لاحظ أن المسيح كان يعرف ميعاد الساعة بالضبط، بل وما تحمله هذه الساعة من المهانة والمجد، من الذلّة والرفعة، من الموت والقيامة! فلما كان العالم يستحثّها للمجيء: إما بدفع المسيح للظهور في مجده سواء من أمه أو من إخوته؛ وإما لاستعلان المهانة المخبأة فيها وذلك من اليهود ورؤساء الكهنة؛ كان المسيح يحجزها بسلطان: «لم تأت ساعتي بعد» (يو ٢: ٣). ولكن الآن أدرك أنه قد استنفذ زمانه على الأرض، وحن موعد الكأس ليشرّبها بكل ما فيها، وليعبر إلى الآب

(٤) نقول باختصار أن «الآب» هو مصدر القوة الإلهية المفكّرة الواعية اللانهائية، ومصدر النور والحياة والإرادة والقُداسة والمحبة التي لها القوة لتجذب كل شيء. و«الابن» هو الفعل: الفعل لقوة الآب وفكره ووعيه، وهو كلمة هذا الفكر وفعل حياة الآب وعمل إرادته، والمنفذ لحبه المطلق. لذلك كان بالضرورة أن الفعل (الكلمة) يكون هو الخالق، كفعل إرادة الآب لخلق. وهو أيضاً وبالضرورة، الخالق للكائنات الروحية كفعل حياة وروح مطلق للخلق الواعي. و«الروح القدس» هو روح الآب، وروح الابن، قوة الحياة المطلقة في الآب والابن، فهو الشاهد لما بين الآب والابن، شهادة مدركة ومنطوقة في الآخرين، وهو قوام الحياة وديمومتها ونورها وسر غبطتها واتحادها بالله.

عُبر الصليب والهوان: «وأما يسوع، قبل عيد الفصح، وهو عالمٌ أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب (أخذ الكأس وذاق وأعطى التلاميذ)» (يو ١٣: ١). المسيح كان يعلم أنه (أي العبور) ليس هو موتٌ بل انتقالٌ!! في ذلك يقول القديس أغسطينوس:

[وقد بيّن (المسيح) أن الزمن كله، وأن كل مناسبة عمل فيها عملاً، أو سمح بشيء ما أن يُعمل، فإن ذلك كله هو بتدبير منه، بينما هو لا يخضع للزمن.]^(٥)

«مَجِّد ابْنَكَ، لِمَجِّدِكَ ابْنُكَ أَيْضاً»:

هذا هو مضمون الساعة، فقد أتت الساعة التي يتمجد فيها الابن. وقد سبق وأن أعطى المسيح لهذه الساعة مضمونها: «وأما يسوع فأجابهما (فيلبس وأندراوس) قائلاً: قد أتت الساعة، ليمجد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣). كما أن طلب التمجيد هذا يغطي مضمون هذا الجزء الأول من الصلاة (١-٥).

والتمجيد هنا هو في مفهوم المسيح استعلان طبيعته الإلهية للعالم. وحقيقة طبيعته تظهر للعالم بواسطة قيامته المنتظرة، أي انتصاره على الموت؛ التمجيد الذي يستحقه بالفعل في مقابل انتصاره على العالم. فهنا طلب المسيح يختص بصميم الإعلان عن رسالته للعالم للخلاص المنشود. على أن قيامته علناً وصعوده إلى الآب ستؤول حتماً إلى استعلان وتمجيد الآب! حيث يتضح أن خطة الخلاص تبتدىء بإرسال الآب للابن لخلاص العالم، وتنتهي بذهاب الابن إلى الآب، مُتِمِّماً هذا الخلاص. وهكذا تُستعلن حقيقة وطبيعة الآب، باستعلان حقيقة وطبيعة الابن، الأمر الذي عبّر عنه المسيح: «مَجِّد ابْنَكَ، لِمَجِّدِكَ ابْنُكَ أَيْضاً». هذا يفسره بولس الرسول بمنتهى الوضوح والقوة في رسالته إلى فيلبس: «لذلك رَفَّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم. لكي تحبوا، باسم يسوع، كلُّ رُكبة مَئِنَّ في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كلُّ لسان أن يسوع المسيح هو "رَبُّ" (اسم يَهْوَه في القديم) لمجد الله الآب.» (في ٢: ٩-١١)

وبلاحظ من هذا الطلب في الصلاة، أن «مَجِّد ابْنَكَ» تحييء وها هدف مباشر: «لِمَجِّدِكَ ابْنُكَ». هنا واضح العلاقة الصميمة والمتبادلة على المستوى الواحد بين مجد الابن ومجد الآب، كما يتضح بالمنطق أن أيّاً من مجد الابن أو مجد الآب لا يُستَعْلَن بدون الآخر، فالارتباط بين مجد الابن ومجد الآب جوهرى ولكن المطلوب في النهاية هو مجد الآب! لهذا يلزم أن نربط هذا الطلب: «مَجِّد ابْنَكَ لِمَجِّدِكَ ابْنُكَ أَيْضاً»، بطلب سابق ألحَّ عليه المسيح وهو في بدء التجربة: «الآن نفسي قد

اضطربت، وماذا أقول، أيها الآب نَجِّنِي من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة، أيها الآب مَجِّد اسمك. فجاء صوت من السماء: مَجَّدْتُ وأَمَجَّدْتُ أيضاً» (يو ١٢: ٢٧ و ٢٨). وكان تعقيب المسيح على هذا الصوت: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو ١٢: ٣٠). واضح أن هذا الطلب السابق كان هو الطلب لتمجيد اسم الآب، وذلك بالتدخل في عمل المسيح الذي عمله باسم الآب، والقصد أن يتمجد الآب بموت المسيح، حينما يستعملُ غلبته على الموت بالقيامة، فيتمجد عمل المسيح كله، وبالتالي الاسم الذي يعمل به ومن أجله!

وهنا في هذه الآية (١٧: ١) يتكرر الطلب بوضوح، على أساس أن تمجيد الابن يُنشئُ تمجيد الآب، وهو القصد والنهاية. ثم لا ننسى، أنه تطبيقاً للآية الأولى (١٢: ٣٠)، فإن طلب المسيح المجد من الآب، لم يكن من أجل نفسه، بل من أجل السامعين، أي التلاميذ والعالم من بعدهم، وبالنهاية "ليتمجد الآب".

كذلك، فإن قول الآب من السماء ردّاً على طلب الابن في الآية (١٢: ٢٧): «مَجَّدْتُ وأَمَجَّدْتُ أيضاً»، يوضح أن الآب مَجِّد اسمه في أعمال المسيح كلها، وهو يتمجد في ختام عمله بقيامة المسيح من الموت!

هنا أيضاً بالمثل في الآية (١٧: ١)، فإنه بقدر ما سيتمجد المسيح بالقيامة من الأموات، هكذا سيتمجد الآب حتماً: «... الذي أقامه الله» (أع ٢: ٢٤). ومجمل تعليم المسيح لخصه المسيح في "السعي لمجد الآب" هكذا: «مَنْ يتكلّم من نفسه، يطلبُ مَجِّد نفسه، وأما مَنْ يطلب مجد الذي أرسله، فهو صادق، وليس فيه ظلم». (يو ٧: ١٨)

تماماً كما يلخص المسيح كل عمله على الأرض، أنه كان لحساب الآب، أي لمجده ولاستعلانه: «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته. أنا مَجِّدُكَ على الأرض... أنا أظهرتُ اسمك للناس». (يو ١٧: ٤ و ٦)

والمعنى البسيط الذي نستنبطه من مفهوم المجد بالنسبة للمسيح، هو في الواقع استعلان لاهوته وسلطانه المطلق على الموت، أو بمعنى إنجيلي عملي: استعلان قوة قيامته الإلهية وذهابه إلى الآب وجلوسه عن يمينه: و«المجد» في مفهومه الأساسي كأصلٍ ومنبع، هو طبيعة الله في مفهوم سموه المطلق والفائق، وبقدر القرب منه ينتقل المجد إلى الآخرين. فللملائكة «مجد»، ولأرواح

كُتِرَ به بين الأمم، أومِنَ به في العالم (أخيراً أدرك العالم حقيقته)، رُفِعَ في المجد (آخر منظر سماوي له).» (١ تي ٣: ١٦)

كذلك يلزم أن ننتبه أن «مجد» المسيح ليس صفة يمكن أن ندركها بمفردها، لأنها كما سبق وقلنا هي استعلان حقيقته الإلهية التي لا تُدْرَكُ إلا بالإيمان، ومن خلال عمله الذي أكمله على الأرض والذي لا يزال يكمله عنا في السماء. وغاية استعلان المسيح، هي أن يدرك العالم حقيقته الإلهية الجوهرية، أنه والآب واحد في المجد؛ إلى هنا ينتهي عمل المسيح وينتهي معه التاريخ. فالتاريخ كله وُضِعَ لكي ينتهي عند كمال استعلان المسيح، أي بلوغ الخلاص الكلي.

١٧: ٢ «إِذْ أُعْطِيَتْهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ، لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أُعْطِيَتْهُ.»

«إِذْ»: καθώς

«إِذْ» أنت هنا بمعنى «كما»، كما جاء في الآية ١٧: ٢٢: «ليكونوا واحداً، كما καθώς أننا نحن واحد»؛ وأيضاً في ١٧: ٢١: «ليكون الجميع واحداً، كما καθώς أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك». فالمعنى هنا هو التساوي في المناسبة. لذلك، فهذه الآية تشرح لزومية وأحقية ما سبق، بمعنى أن يطلب المجد على قياس، أو بداعي، أنه أُعْطِيَ سلطاناً ليعطي الحياة الأبدية لكل جسد!

هنا القول: «أُعْطِيَتْهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ»، تفيد بحد ذاتها ألوهيته المطلقة. ف«كُلِّ جَسَدٍ» تعني «كُلِّ بشرٍ» بتعبير العهد القديم. وهذا هو سلطان الله وحده! «يا سامع الصلاة إليك يأتني كُلُّ بَشَرٍ» (مز ٦٥: ٢). وإعطاء الابن الحق بإعطاء الحياة الأبدية لكل بشر، هي واحدة من المُطْلَقَاتِ التي استلمها الابن، فقد أعطاه الآب كُلَّ شيء بصورة مطلقة: «الآبُ يَحِبُّ الابنَ». وقد دَفَعَ كُلَّ شيء في يده» (يو ٣: ٣٥)، «يسوع وهو عالمٌ أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه...» (يو ١٣: ٣)، وأعطاه الدينونة: «الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كُلَّ الدينونة للابن.» (يو ٥: ٢٢)

من هذا يتبين أن المسيح كان يخدم خدمة المجد، وهذا معنى قول الصوت من السماء: «مَجَّدْتُ» (يو ١٢: ٢٨)، أما طلب المسيح للمستقبل فقد حُفِظَ له بوعده: «وَأَمَجَّدُ أَيْضاً».

ولكن للأسف فإن خدمة المجد هذه، بالرغم من أنها كانت في صميم المجد، إلا أنها لم تكن

مفهومة ولا مُدْرَكَةٌ، بل وكان مُفْتَرِياً عليها. هذا يعني أن مجد المسيح في أعماله وحياته كلها على الأرض، كان مختبئاً في النهاية، أو أنه كان يعمل على أساس استعلان النهاية.

«على "كل" جسد... "لكل" مَنْ أُعْطِيَتْهُ»:

المعنى قد يبدو متضارباً، إذ كيف أُعطي الابن سلطاناً على كل جسد، ثم يعود و يقتصر الفعل على مَنْ أُعطاه الآب فقط؟! فهل للمسيح سلطانٌ على مَنْ يريد الآب أن يعطيهم حياة أبدية؟ نعم، فسلطان الابن مُطلق بالفعل على كل جسد، ولكن منهم مَنْ لن يقبل الحياة الأبدية التي يدعو إليها الآب، برفضه المسيح، هؤلاء يبقى سلطان المسيح عليهم للدينونة وليس للحياة الأبدية!! ولكن ما هي الحياة الأبدية التي أُعطي الابن سلطاناً أن يعطيها لنا؟

١٧: ٣ «وهذه هي الحياة الأبدية أَنْ تَعْرِفُوا أَنَّ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَخَدَكْ، وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتُهُ».

الحياة الأبدية (٦):

أ — هي اسم قد استخدمه المسيح — في إنجيل ق. يوحنا — للتعبير عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، وعن عطائه لهذه الحياة.

فلأن له هذه الحياة في ذاته، مثل الآب، فهو يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ مثل الآب (٥: ٢١ و ٢٦). ولأنه نزل من السماء، ودخل العالم ملتجماً فيه بتجسده، فقد أَعْطَى العالم هذه الحياة بجسده (٦: ٣٧).

وفوق كل شيء، فهو يمنح حياته لأخصائيه الذين يلتصقون به ويتبعونه من كل قلوبهم (١٠: ٢٨)، وللذين يسمعون ويدخل صوته إلى أعماق قلوبهم (٥: ٢٤). وبسبب كل هذا العطاء المتعدد الوسائل للحياة، يقول المسيح إنه هو «الحياة» (١١: ٢٥)، كقوة فعالة مُحْيِيَّة.

ولكن كل هذا العطاء يتركز في تقديمنا إلى الله أبيه من خلال عطائه لهذه الحياة (١٤: ٦).

أما الوسائل التي استودعها سر الحياة لكي نُقَرِّبَهَا ونُحْنِ في موضعنا على الأرض، دون عناء، فهي تكمن في سر الشكر بكسر الخبز وشرب الكأس بعد البركة (الإفخارستيا) (٦: ٣٥ و ٤٨)، وفي سر الماء بالدفن فيه، وكأننا نموت لنحيا ونقوم معه (المعمودية) (٣: ٥)، وفي سر الكلمة (٤: ١٠).

و ٦٣ : ٦ و ٦٨ : ٦)، وفي سر الإيمان الحقيقي (٣٨ : ٧).

أما كُنْه هذه الحياة بالمفهوم الإنساني الاختباري، فهي النور الحقيقي (٧) — أنا هو نور العالم — ونور الحياة (١٢ : ٨)، «والحياة كانت نور الناس» (يو ١ : ٩)، النور الذي يدخل الإنسان فيضيء كيانه ويفتح وعيه، ليدرك نفسه فيدرك خالقه. يدخل الإنسان في النور، فيدرك الله، ويعيش في حضرته (١ يو ١ : ١-٤)، لأن «الله نور» (١ يو ١ : ٥)

ب — «والحياة الأبدية» في إنجيل ق. يوحنا هي المقابل «ملكوت الله» في الثلاثة الأناجيل الأخرى. غير أن اسم «ملكوت الله» هو تعبير من تعابير التراث اليهودي، يفهمه اليهود على أساس أن الله كان يملك على إسرائيل على المستوى الفكري الضيق. في إنجيل يوحنا، المسيح يخاطب العالم كله، فالحياة الأبدية بالنسبة له هي الحياة الأفضل والأعلى والدائمة، بالمقارنة مع الحياة الأقل التي يألفها الناس عامة تحت نور الشمس على الأرض، وفي «ظل الله» وليس في نوره، حياة طبيعتها المادة المحسوسة التي تقيم أودها من أكلٍ وشربٍ وتنفسٍ، يحكمها الزمان والمكان والحرارة والجاذبية، ويحدّها الطول والعرض والارتفاع. الحياة الأبدية ليست كذلك، فهي حياة متحررة من كل ضوابط المادة. فإن كانت الحياة الحاضرة يلزمها عقل الحسيات والمذكرات الحسية، فالعقل لا يصلح كأداة لمعرفة الحياة الأبدية. هنا تنبri الروح الواعية بالعقل العالي الواعي، الذي يدرك المطلقات، من نوع طبيعة الحياة الأبدية نفسها؛ هذا العقل يعمل الآن بصورة جزئية، لذلك فالإنسان أعطي له في هذا الزمان إدراك الله والحياة الأبدية إدراكاً جزئياً.

وكلمة «الحياة الأبدية» ليست غريبة عن الفكر والتراث اليهوديين، فهي واردة في الأسفار بمفهوم معنى الخلاص، بصيغة مبهمة. ولكي نفرق بين الحياة في العالم والحياة مع الله، أعطي للحياة صفة الديمومة الإلهية «الأبدية». فكلمة «الحياة» وهي مُعرّفة وموصوفة بالأبدية، تُعرف وتُقرأ على مستوى الإنسان، أما على مستوى الله والمسيح، فلا يقال أنه الحياة الأبدية بل «الحياة»، — كقوة وليس كاسم — فهو الذي يخلق الحياة وقيمها، وهذا يتضح من وصف المسيح لكلماته الخارجة من فمه بل من كيانه الإلهي: «الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة» (يو ٦ : ٦٣)، لأن «الكلمة»، في المفهوم الاعتباري العالي، هي تعبير عن الذات والكيان (يو ٦ : ٦٨).

ج — فإذا فهمنا الحياة الأبدية على ضوء معنى ملكوت الله، فهي الحياة التي يملك الله عليها

بروحه، حيث يحيا الإنسان بقيادة روحه القدوس، وحسب مشيئته، سواء بالفكر أو بالعمل وجعله الغاية لكل شيء. ودخول الإنسان الحياة الأبدية هو كدخوله ملكوت الله، وكأن الإنسان يولد للحياة أعلى، ليس عشوائياً كما يُؤلَّد الإنسان من بطن أمه، بل بالوعي الجديد لحياة أخرى، حيث عامل الإيمان هو الأساس، فيرتقي الإنسان بأفكاره وأعماله وكل مَلَكَاَتِهِ، وكأنه خُلق من جديد. وفي الحياة الأبدية — التي يحصل عليها الإنسان — يكون الله قُطْبُهَا الجاذب وعنصر ديمومتها الفعَّال، يستمد منه الإنسان صفاته الجديدة، حيث يُقال — عن حقٍّ — أن الإنسان يصير شريكاً في الطبيعة الإلهية: «بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وَهَّبَ لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي نصيروا بها شُرَكَاءَ الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.» (٢ بط ١ : ٤ و ٣)

وتكون حيازة الحياة الأبدية، هنا، كالعربون، كسَبَقِ مَذَاقٍ، وهناك بالامتلاك والإقامة. لهذا يُقال عن حقٍّ أننا نرث ما لله في المسيح يسوع كأبناء بالتبني.

د — إعطاء الحياة الأبدية:

هنا يجيء إعطاء الآب السلطان لابن على كل جسد، أي على الخليقة البشرية كلها، ليعطي الحياة الأبدية حسب مشيئة الآب، في هذا الزمان استعلاناً سرياً لماهية «الابن» المتجسد، فهو يمتلك الحياة في ذاته أولاً: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يوه ٥ : ٢٦). ثم إن له سلطان الله في إعطاء الحياة الأبدية منذ الآن: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي (مستقبلاً) إلى دينونة، بل (الآن) قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يوه ٥ : ٢٤)

معنى ذلك أن الآب والابن يشتركان معاً في إعطاء الحياة الأبدية، حسب نص الآية: «ليعطي حياة أبدية لكل من أعطته»؛ المسيح يعطي بالفعل، والآب بالمشيئة والاختيار. ويستحيل فصل الفعل عن المشيئة المتممة له، ولا المشيئة عن الفعل؛ فالآب «والابن المسيح» يعطيان الحياة الأبدية؛ وبناء على ذلك يتحتم أن تكون الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن معاً، بحيث لو قال المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» فقط، لاستحال الأمر، لأن الحياة الأبدية أُعطيت بالابن يسوع المسيح. فبدون الابن يسوع المسيح، لا تكون حياة أبدية للناس. وكما أنه بغياب الحياة الأبدية، تغيب معرفة الله في ذاته، وهي المعرفة المؤدية لخلاص الإنسان، وتنحجب طبيعة الله كآب وابن عن الوعي البشري؛ كذلك فإنه بدخول

الحياة الأبدية، تنكشف حقيقة الآب والابن، ويدرك الإنسان سِرَّ الله والخلاص.

من هذا يتضح حتمية ذكر: «يسوع المسيح الذي أرسلته»^(٨) مع «يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك»، لأن معرفة الآب والابن هي جوهر الحياة الأبدية، وهي جوهر الإيمان بالتالي؛ هي معرفة ليست بالفكر المجرد، بل بطاقة الحياة الواعية العاملة لحساب الله والحياة الأبدية، كقوة وعي إيماني تُقَرِّبُنَا إلى الله، وتُخَصِّرُنَا أمامه.

هـ — ولكن ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار؟

لكي نعرف ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار اليومي، يلزم أن نعرف أولاً الفرق بين الحياة الأرضية التي تنتهي بالموت، وبين الحياة الأبدية التي لا يوجد فيها موت. فالحياة المائنة كلها متغيّرات؛ فالفرح المعروف فيها قابلٌ للتغيير وينقلب إلى حزن، والسلام ينقلب إلى قلق واضطراب، والحب ينقلب إلى بُغْضَة وكراهية، والأمل والرجاء إلى يأس وقنوط.

أما طبيعة الحياة الأبدية، فكلُّ صفاتها وأحوالها دائمة، غير قابلة للتغيير للمضد، بل إلى الأفضل دائماً.

والآن، فإن كلَّ مؤمن بالمسيح لا بد وأن يكون قد جاز فترة من فترات الفرحة الروحي المُبْهِج، وحمل آثارها في نفسه، يذكرها فتنتعش روحه، سواء كان ذلك على أثر سماع عظة أو قراءة كتاب روحي أو فصل من الإنجيل أو أثناء الصلاة. تلك اللحظات التي لا زالت منطبعة في نفسه وروحه، هي لحظة من لحظات الحياة الأبدية، ومذاقها فوق الطبيعة، وهي كافية أن تعزّي الإنسان أثناء مصادماته لتجارب الحياة. ولكن يوجد مؤمنون جازوا فترات أطول، من هذا النوع من الفرحة أو السلام أو الغبطة الروحية، حيث صارت لهم مجالاً دائماً يلوذون به في مواجهة العواصف وزعازع الحياة الأرضية.

وما يُقال عن الفرحة، يقال عن السلام الروحي، وكل تذوّقات نعيم الحياة الأبدية الأخرى التي تطفح على النفس، فتملأها هدوءاً وطمأنينة ورجاءً وعفةً وقداًسة وتمجيداً دائماً والتصاقاً حاراً بالرب. وهؤلاء الذين يذوقون هذه، يختبرون الصلاة بالروح، والسجود بالروح، والتسبيح بالروح، ببهجة تفوق العقل.

(٨) راجع المدخل ص ١٦٢.

هذه هي الحياة الأبدية، وهذا هو سَبَقُ مذاقها. وأوضح صفاتها، أن أثرها لا يزول على مدى عمر الإنسان كله، وهي تجعله يَسْخَرُ من تقلُّبات الأيام والسنين، وتبقى حصناً أميناً للنفس.

هذه هي الحياة الأبدية المبهجة التي سوف نحيا ملئها فوق. هذه هي الحياة الأبدية التي هي عينها الحضرة الإلهية، وهي نفسها تذوق العِشْرَةَ مع المسيح، بل هي حياة المسيح والآب. لذلك يقول ق. يوحنا، إنه لما أظهرت الحياة الأبدية في شخص يسوع المسيح، والتي كانت مخفية في الله، ورآها في شخصه، وشاهدها بروحه في تعاليمه، ولمسها بقلبه وروحه لَمَسَ اليد، صارت له شركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (اقرأ ١ يوحنا : ١-٤)؛ أي أن معرفة الآب وابنه يسوع المسيح، بالاستعلان، هي عينها الحياة الأبدية، وهي عينها الشركة مع الآب والمسيح! بل والإخبارُ بها يعطي نفس الشركة: «الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١ يوحنا : ٣)

«أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»:

«يعرفوك»: γινώσκωσι

صيغة الفعل هنا استمرارية، فنحن هنا بصدد الحياة الدائمة والأبدية. والمعرفة هنا منصبة على «أنت الإله الحقيقي وحدك» أي الآب؛ و«يسوع المسيح الذي أرسلته» هو الابن المتكلم عن نفسه ولكن بصيغة الغائب. ومعرفة الله ليست كمعرفة الناس أو الأشياء أو المعارف العالمية. فإدراك معرفة الدنيا هي العقل المحسوس العامل بالمشي البشري. وأما معرفة الله، فلا تُؤْتَى بالعقل، بل بالوحي الروحي، وهو العقل أو الذهن العالي المختص بالمُطَلَّقات؛ وهذا يكتسب المعرفة بالاستعلان، أي يُسْتَعْلَنُ له الحق، فيدركه. والاستعلان يأتيه من فوق، من خارج الكيان الإنساني، بالخبر الإلهي، أي بالبشارة بأمور الله المُفْرِحَةِ والسارة، سواء بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة أو الرؤيا: «إن كان منكم نبي للرب. فبالرؤيا أَسْتَعْلِنُ له، في الحلم أكلِّمه؛ وأما عبيدي موسى، فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فمأ إلى فم وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز، وشبهة الرب يُعَاين.» (عد ١٢ : ٦-٨)

والمسيح افتتح عهد الملكوت أو الحياة الأبدية للإنسان، على مستوى كلمته: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦ : ٦٣). هنا المسيح يُعَرِّفُنَا بالحياة التي فيه، بواسطة سماع الكلمة وقبولها: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو ٥ : ٢٤)

التعرُّف على المسيح، هو هو التعرُّف على الآب، لأن رسالة المسيح هي استعلان الآب الذي فيه، بالكلمة والعمل: «الذي رأيته، فقد رأي الآب» (يو ١٤: ٩). فالمسيح هو مُستعلن الآب. والتعرُّف على المسيح والآب، هو الحياة الأبدية. على أن المعرفة هنا لا يمكن أن تسمى معرفة فكرية أو عقلية، بل معرفة بالاستعلان، أي كشف الحقيقة؛ والحقيقة لا تنكشف إلاً لمستحقيها، أي تُستعلن للآخذين فقط. فالله يُستعلن، أو يُعرف معرفة حقيقية، لأخصائه، أي الذين له، أي الذين امتلكهم وامتلكوه. فالمعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن، كما يعلن ق. يوحنا: «فإن الحياة أُظهِرَتْ، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأُظهِرَتْ لنا. الذي رأيناه وسمعناه، نُخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١ يو ١: ٣ و ٢)

واضح هنا أن «الحياة» هي المسيح، و«أُظهِرَتْ» بالتجسد، وقد استعلنت في المسيح، فعرفوا الآب والابن. وما أدركه ق. يوحنا بالاستعلان المباشر بمعاشرته للمسيح نفسه، ينقله لنا، أي ينقل الاستعلان الذي حصل عليه، ينقله لنا بالخبر، ونحن من هذا الخبر نحصل على الاستعلان كاملاً بالإيمان بصدق الإنجيل. أما ق. يوحنا، فبالاستعلان الذي بالإيمان حصل على شركة في المسيح والآب، وهو يدعونا إلى نفس الشركة معه، على مستوى تصديق الإيمان لقبول الاستعلان. هذه هي «معرفة» الآب والابن.

كما نلاحظ في هذه الآية (١٧: ٣) أن «معرفة الآب» تساوي «معرفة يسوع المسيح»، في بلوغ الحياة الأبدية. هذا التساوي هو على مستوى الفعل والعمل. هنا ممارسة حقيقية نحصل بها حالياً على الغبطة، التي هي عربون سعادتنا القادمة الدائمة. ولكن ملء معرفة الآب والمسيح مدخرة لنا في الحياة الأخرى، التي هي بعينها ممارسة سعادة الحياة الأبدية ذاتها.

في سفر الرؤيا نجد أن الصفات الأساسية التي بها يُخاطبُ الله الآب هي نفسها التي يُخاطبُ بها ويوصف المسيح الممجَّد. ففي الآية (٦: ١٠) نسمع أرواح الشهداء تصرخ لدى الله قائلة: «وصرخوا بصوت عظيم قائلين: حتى متى أيها السيد "القدوس والحق" لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض»، ثم نجد الوحي يصف المسيح بنفس الصفات: «هذا يقوله "القدوس الحق"، الذي له مفتاح داود، الذي يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح.» (رؤ ٣: ٧)

«أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» :

المسيح يوجّه الكلام للآب. ولكن كما يوجّه المسيح الكلام للآب، نوجّه نحن نفس الكلام للمسيح، حيث نقول: «أنت الإله الحقيقي وحدك». لأن صفة الألوهة هي للآب كما للابن، وصفة الحق هي للآب كما للابن، لأن الحق في المفهوم اليهودي ينصبّ على أمانة الله، واستقامة وصاياه، واستجابته لسؤال الإنسان البارّ، ووفائه بوعده إذا وعد. هنا يظهر الاتجاه الفعلي العملي «للحق». وبالمفهوم الهليني (أي اليوناني)، فإن الحق هو ما ليس «شبهة حق» $\psi\epsilon\ddot{\upsilon}\delta\omicron\varsigma$ ، فهو ليس خيلاً أو كذباً، أي الاتجاه الفكري التصوري. والمسيح هو كذلك بالمفهومين: فهو «الصادق الأمين» (رؤ ١٤: ٣؛ ١٩: ١١). وصفة «الواحدية» هي للآب كما للابن، لأنها صفة الطبيعة والجوهر الإلهي أساساً. فالطبيعة الإلهية بسيطة بساطة مطلقة، أي غير مركبة، فالإنسان له طبيعة مركبة من جسد ونفس وروح، الله ليس كذلك. فالله روح كليّ مُطلق، لهذا يستحيل معه الثنائية، كما يستحيل فيه التقسيم أو الانقسام. فالله واحد كليّ صافٍ، فالآب واحد، والابن واحد، لأن جوهرهما واحد بسيط غير منقسم قط.

من هنا نفهم صفة الواحدية لله، أنها صفة جوهرية من واقع طبيعته وليس من جهة عدده؛ فحينما نقول: «الله واحد» فنحن نتمق طبيعته، لا درءاً لتعدد الآلهة، ولكن وصفاً لحقيقة الله ذاته، على أن «الواحد المطلق» هو بآن واحد «الحق المطلق»، وهو هو «الإله الواحد» حتماً.

ولكن المسيح جاء ليعلن الآب المحتجب. فمعرفة الآب يستحيل أن تتم بدون المسيح، الذي جاء ليستعلنه، ويستعلنه في ذاته، وفي طبيعته. فذكر المسيح مع الله الآب، هو بقصد التكميل الاستعلاني وليس الإضافة. وكما أن الابن يمجّد الآب، والآب يمجّد الابن، كذلك فالابن يستعلن الآب، والآب يستعلن الابن بالروح الذي أرسله. لذلك، يستحيل معرفة أحدهما بدون الآخر. لذلك يقول المسيح ما هو مُعْتَبَر أنه تحصيل حاصل، أن «الحياة الأبدية هي أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته». وكأنما هو يقول: إن الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن، الله الواحد بذاته.

والمسيح لم يَقل هذا بصيغة المتكلم، لأن المنطق يمنع القول بأن الإله الحقيقي هو «أنت وأنا»، فقال بصيغة الغائب: «أنت، وهو»، حيث مضمون «هو» في المفهوم اليهودي اللاهوتي بحسب الأسفار المقدسة تعني «الإله» في أبلغ تعبير سرّي، هذا إذا جاءت من موقف المتكلم،

كما وردت بالعبري مئات المرات في الأسفار المقدسة Ani ho «أنا هو» الله^(٩) $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$.

وتطبيقاً لما قلناه، نقرأ للقديس يوحنا في رسالته الأولى: «ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١ يوح ٥: ٢٠). وواضح هنا أن ق. يوحنا يعطي للمسيح كل الصفات التي لله الآب بلا تفريق، وهذا يعني بصورة جلية أن المسيح يسوع هو الاستعلان الكامل لله الآب الحامل لكل صفاته، الذي فيه وبه يُعرف الله الآب معرفة حقيقية وكاملة، وأن ملء الله الآب الكامل فيه.

١٧: ٤و «أنا مَجِّدُكَ على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته. والآن مَجِّدْنِي أنت أيُّها الآب عند ذاتك، بالمجد الذي كان لي عندك قَبْلَ كَوْنِ العالم.»

الآيتان هنا مترابطتان، وكأنهما شطران لبيت شِعْرٍ واحد. مضمونه: «أنا مجدتك على الأرض، والآن مجدني أنت في السماء». كان المجد الذي طلبه المسيح في أول صلاته: «مَجِّد ابْنَكَ»، يختص بتدخل الآب لتكميل باقي المهمة العظمى، وهي الجزء الأكثر إيلاماً وإذلالاً لابن الله في عملية الموت، بكل ما تشمله من العار والهزيمة الصورية.

أما المجد الذي يطلبه هنا، فهو مجد الاستحقاق للعمل، وكأنه قد أكمل «الآن» على الأرض وهو على عتبة الانطلاق إلى الآب. إذ لم يَعدْ سببٌ للبقاء في حالة الإخلاء التي بقي فيها حين تكميل المهمة العظمى.

أما طلب المجد في البداية، فالمسيح قدّمه بصيغة الغائب غير المباشرة: «ابنك». ولكن هنا يُقدِّمُ الطلب بصيغة المتكلم: «أنا»، لأن الأول يختص بعلاقة عامة، الابن بالآب. أما في الثاني فيسوع المسيح يتكلم على الأرض بمواجهة في حالة التجسد، وقد أكمل الابن المهمة. ولكن في كلتا الحالتين تظهر العلاقة الوثيقة بين الآب والابن بصورة صارخة.

«أنا مَجِّدُكَ على الأرض»:

الرسالة التاريخية أَكْمِلَتْ، وهي بحكم المنتهية، وجاهزة الآن لتقديم الختام. صحيح أنها في اتضاع العبد، ولكن العبد نجح في اتضاعه الكامل وطاعته المطلقة في تنفيذ المهمة، وأكمل استعلان

(٩) راجع المدخل ص ٢٢٠-٢٣٠.

الآب بالقول والعمل والآية. وهذا قمة التمجيد للآب. فتمجيد الآب تمّ باستعلان أبوتيه للمسيح وللإنسان في كل العالم. هذا نراه اليوم بعد ألفي سنة بصورة فائقة النجاح، فالكلُّ ينادي الآب: «يا أبانا»، بألوف وملايين الأفواه والقلوب، في كل يوم، بل في كل لحظة.

أما تمجيد المسيح على الأرض، فقد تمّ باستعلان بُتوته لله، وهذا صار دستور إيمان كل مسيحيي العالم.

وأما تمجيده في السماء، فقد حازه بالدرجة الأولى، إذ صار المسيح والآب واحداً في كل إيمان.

ومن الآن وإلى الأبد سيظل تمجيد الله الآب يتم عن طريق تمجيد الابن يسوع المسيح وبه. فبدون الابن، لا يُمَجَّد الآب، لأنه لا يوجد إلا وسيط واحد بين الله والناس، يسوع المسيح، ولأن بدون استعلان الابن (تمجيده) لا يُشْتَعْلَن الآب (تمجيده). فالتمجيد هو إعلان الحق. فهو والاستعلان واحد.

«العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته»:

«أكملته» ἐτελείωσα ، تفيد الكمال أكثر مما تفيد الانتهاء منه، ويتضح ذلك من المقابل اللاتيني consummasti، وقد سبق أن استخدم الإنجيل نفس اللفظة «أكمل» كمعيار أساسي وضعه المسيح نصب عينيه منذ البداية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم τελειώσω عمله» (يو: ٤: ٣٤). واللفظتان العريبتان «أكمل» و«أتمم» لا تفيدان صميم المعنى الذي يهدف إلى الكمال "perfect" أي التكميل على مستوى الكمال. فعمل المسيح يفوق معنى الأداء وحسب!!

وقول المسيح عن العمل "ككل" أنه قد «أعطي له»، يفيد أنه يعمل عمل طاعة المشيئة الأبوية. فالعمل لم يَحْتَرُهُ المسيح لنفسه، لذلك حُسِبَ بالفعل أنه ذبيحة وفداء، كإسحق تحت يد إبراهيم مربوطاً. وقد سبق المسيح وأوضح هذا مراراً: «لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» (يو: ٣٦). لهذا يستعذب النُّسَّاك والرهبان الطاعة، وبالأخص إذا كانت تحت يد شديدة، للقيام بأعمال شاقة أو حقيرة، إذ تُحسب لدى الضمير الصاحي والنفس الواعية أنها ذبيحة مقبولة لدى الله. ولا يستثقل العمل الحقير إلا الجُهَّال الذين لم تفتح بصيرتهم بعد على ذبيحة المسيح. ولذلك قيل أيضاً عن موسى النبي: «... مفضلاً بالأحرى أن يُذلَّ مع شعب الله، على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية، حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر، لأنه كان ينظر إلى المجازاة.» (عب ١١:

(٢٦ و ٢٥)

«والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك، بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم»: الآن في فم المسيح رفيقة الساعة التي جاء من أجلها، وقد أكمل ذبيحة التاريخ الطوعية التواضعية بحسب مشيئة الآب قماماً وكمالاً، وقد أضمر لنفسه ما أضمر اليهود ضده وكما صمم عدو البشرية لهم، أن يُكْمَل ذبيحة تواضعه بذبيحة موته موت الصليب. والآن المسيح يطلب أن يرتفع ابن الإنسان من الأرض إلى السماء، لأن عمل المسيح على الأرض وعمله في السماء وحدة واحدة لا تتجزأ!! والآن، وهو يطلب المجد والبهجة، كختام لعمله المضني على الأرض الذي أكمله في عمق التاريخ الإنساني الحزين، يطلب في الحقيقة تجلّي تاريخ الإنسان وبلوغ نهايته المفرحة، وبالتالي تجلّي الخليقة العتيقة، بعد أن دان عالم الظلمة الذي رفض أن يتبع النور، وطرح رئيسه خارج دائرة التجديد، وقاد عالم الإنسان في النور كخليقة أخرى قماماً، وأدخلها في مجالها الأعلى الأخرى. وهي وإن بدت محصورة نوعاً ما في شخصه، إنما كان هو ولا يزال كباكورة وكسابق لأجلنا. فالذين دخلوا معه، ويدخلون كل يوم، هم شهادة مدموغة بالتحول الحفي واليومي الذي يتغير به العالم دون ضجيج. وهكذا تم، بالمسيح، القول الأول: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس.» (يو: ١: ٣)

«عند ذاتك»: παρά σεαυτῷ

حيث تُترجم أحياناً «عند» وأحياناً «مع»: ففي الآية (يو: ٨: ٣٨): «أنا أتكلّم بما رأيت عند أبي»، وفي الآية (يو: ١٤: ١٧): «... لأنه ما كنت معكم ويكون فيكم». ولكن بالنسبة للمسيح والآب، فمجد الابن ومجد الآب هما المجد الواحد للذات الإلهية. فكلمة «عند ذاتك» تأتي هنا بمعنى الاتصال اللاهوتي المباشر الذي يفيد استعلان الوحدة القائمة بالمجد في الله بين الآب والابن. هنا عودة إلى القول الأول: «وكان الكلمة الله» (يو: ١: ١)، لأن طلب المسيح أن يأخذ المجد الذي كان له عند ذات الآب قبل كون العالم، هو بالنسبة لنا مقارنة استعلانية واضحة بين حالة المسيح الآن في الجسد، وحالته قبل تجسّد «الكلمة». الآن في تحلّ طوعي عن مجده لتأدية مهمّة لا تقبل الظهور في المجد، لأنها مهمّة تحمل عار الإنسان ودلّه تحت الخطية والناموس، وقبل هوان الموت كعقوبة عن كل ذي جسد. ومن الآن يتطلع المسيح لما كان له قبل التجسد، أي يستعلن لاهوته، لتستعلن وحدته مع الآب، هاتان اللتان لم تفارقاه قط، لا بالروح ولا بالجسد ولا لطرفة عين؛ ولكن الإخلاء كان على مستوى الإخفاء عن أعين الناس ومدارك الشيطان. والآن يطلب المسيح الاستعلان لما هو له — عند ذات الآب — قبل الخليقة، أمام تلاميذه واليهود والعالم كله، حتى تبلغ رسالة تواضعه وطاعته حتى

الموت على الصليب ذروة قوتها وفعلها الفدائي الخلاصي . فالذي تألم وصلب وقبر وقام ، لم يكن هو ابن الإنسان وحسب ، بل هو هو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب .

وفي قول المسيح : « بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم » ، تصريح بلاهوته كحقيقة ينبغي أن يُعترف بها ، فقبل كَوْنِ العالم لم يكن إلا الله وحده !

هذا الطلب الذي يطلبه المسيح الآن ، أي استعلان حقيقة نفسه كابن الله وطبيعته الإلهية ، كان قد ألمح إليه سابقاً حينما أَعَثَر فيه تلاميذه لما قال عن أكل جسده وشرب دمه : « فاعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا ، فقال لهم : أهذا يُعْثَرُكم ؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً ؟ » (يو : ٦١ و ٦٢)

ويأتي الطلب الأول والطلب الثاني بخصوص المجد ، في تطابق بديع مع مجد الآب واستعلان الذات الواحدة التي تتبادل المجد في ذاتها هكذا :

أنا مَجِّدُكَ على الأرض ، فمَجِّدْنِي أنت عند ذاتك في السماء .

أنا أعلنت حقيقة أبوتك فيّ — أي في ذاتي — للناس ، أعلن أنت حقيقة بُتوتِي فيك ، أي في ذاتك .

أنا استعلنت حقيقتك في عمق الزمان وفي العالم ، استعلن أنت حقيقتي الآن في الأزلية قبل كَوْنِ العالم .

والآن ، أيها القارئ العزيز ، قد يبدو في نظرك أن طلب المسيح المجد لنفسه واستعلان لاهوته ووحدته مع الآب ، أمراً هيئناً وتحصيل حاصل ، وكأنه ليس من جديد في الموضوع . ولكن لننبه القارئ ، أن المسيح الآن يحمل جسد الإنسان ونفسه وروحه وفكره في ذاته ، فهو مثقل بطبيعة عاجزة غريبة كل الغرابة عن طبيعة الله !! فصعوبة هذا الطلب لا تخص المسيح « كابن الله » في ذاته ، الذي لم يفارقه مجد اللاهوت ؛ ولكن هذا يخص تجسده ، أي طبيعة الإنسان الذي فيه ، أنت وأنا وكل خاطيء مثلاً !! المسيح يطلب استحقاق ما لا يحقُّ ، بجراءة منقطعة النظر ، تسندُها طاعته حتى الموت ، أن يكون للإنسان الذي فيه ولطبيعته البشرية هذه الشركة في المجد عينه الذي يطلبه كابن الله !! فهذا الطلب هو بحد ذاته أعظم أعمال المسيح التشفعية لحساب الإنسان ، باستحقاق ذبيحة طاعته ، فهو الذي يحمل إكليل جوهر الفداء والخلاص لبني الإنسان ، والذي ينتهي بالمجد !

+ «ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مُخَلَّصُونَ، وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع.» (أف ٢: ٥ و٦)

+ «... وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله.» (أف ٣: ١٩)

+ «الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.» (في ٣: ٢١)

+ «شاكرين الآب الذي أَهْلَنَا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أَنْقَذَنَا من سلطان الظلمة، وَنَقَّلَنَا إلى ملكوت ابن محبته.» (كو ١: ١٢ و١٣)

+ «متى أظهرَ المسيحُ حياتنا، فحينئذٍ تُظهِرُونَ أنتم أيضاً معه في "المجد".» (كو ٣: ٤)

+ «وَنُشْهِدُكُمْ لكي تسلكوا كما يحقُّ لله، الذي دعاكم إلى ملكوته "ومجده".» (١ تس ٢: ١٢)

+ «الأمر الذي دعاكم إليه بإنجيلنا، لاقتناء "مجد" ربنا يسوع المسيح.» (٢ تس ٢: ١٤)

+ «والله كل نعمة، الذي دعانا إلى "مجده" الأبدى في المسيح يسوع.» (١ بط ٥: ١٠)

+ «لأنه لَاقَ بِذَلِكَ الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آتٍ بأبناءٍ كثيرين إلى المجد، أن يُكَمِّلَ رئيسَ خلاصهم بالآلام.» (عب ٢: ١٠)

+ «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجّد أيضاً معه.» (رو ٨: ١٧)

والآن، ليعلم كل إنسان، أن المسيح ابن الله هو جالس الآن بجسدنا هذا عينه عن يمين الله، ينتظر ذهابنا إليه. والبشرية فيه، بعد أن تمجّد بها، صارت هكذا شريكة في مجد الله. هذه هي الخليقة الجديدة والإنسان الجديد.

وهذا يتضح بأبلغ بيان في طلب المسيح الذي سوف يقدمه في الآية (٢٤):

«أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحبيتني قبل إنشاء العالم.»

وإن كنا سوف نقدم الشرح الوافي لهذه الآية البليغة في محلّها، ولكن ما يهمنا هنا في الآية (٥)

التي نحن بصدددها، هو: «يكونون معي، حيث أكون أنا»، فهنا شركة في المجد البنوي لله!!، ثم «لينظروا مجدي»، ليس بنظر العين، بل بشركة الرؤيا والإدراك والمعرفة الإلهية الفائقة، ثم «الذي أعطيتني» تفيد بكل وضوح المجد الإضافي الذي حازه المسيح «كابن الإنسان» لحساب الإنسان.

وقد ألمح المسيح لهذه الشركة القائمة في المجد الفائق عن الزمن والرؤية العينية الآن، عند قوله لبطرس: «حيث أذهب، لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستبيني أخيراً» (يو ١٣: ٣٦). وأخيراً، هذه الشركة تفيد الأخروية (الإسكاتولوجيا) والتي جازها بطرس على الأرض وقت الشهادة تحت حد السيف، وكما رآها إستفانوس وهو تحت رجم الحجارة:

«وأما هو فَشَخَصَ إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس، فرأى مجد الله، ويسوع قائماً عن يمين الله. فقال: ها أنا أنظر السموات مفتوحة، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله.» (أع ٧: ٥٥ و ٥٦)



القسم الثاني : فيما يخص التلاميذ : (يو ١٧ : ٦-١٩).

وتتركز الصلاة في استعلان الآب للتلاميذ :

- (أ) كيف استعلن الآب ، وكيف قبلوه : (٦-٨).
- (ب) كيف كان يحفظ التلاميذ ، وقد حان وقت تركهم : (٩-١١).
- (ج) العمل السابق ، والعمل اللاحق : (١٢ و ١٣).
- (د) محنة التلاميذ في العالم : (١٤ و ١٥).
- (هـ) المسألة المطلوبة من أجلهم : (١٦-١٩).

بعد أن أفرغ المسيح ما في قلبه علناً ، فيما يخص نفسه ، لدى الله أبيه وأمام تلاميذه ، اتجه بطلبه من أجل تلاميذه .

ويلاحظ أن عمل المسيح الذي أكمله على الأرض في حدوده الضيقة كان يشمل في الحقيقة الوعد بالتكميل الأعظم ، في حدوده اللانهائية في السماء لدى ارتفاعه وعودته إلى الآب !

ونحن نجد في سؤاله الآب من أجل نفسه : «مجدني» اتجاهاً سرياً ولكن ملحوظاً نحو التلاميذ ، فالمجد الذي يطلب هو يخص التلاميذ والإنسان عموماً . والآن من داخل سؤاله المجد لنفسه يسأل من أجل تلاميذه أن : «احفظهم» (١١) ، «وقدّسهم» (١٧) ؛ وأن المجد الذي يُلح عليه من أجل نفسه والآب إنما يتجه في الواقع وضمناً إلى تكميل خلاص التلاميذ والعالم الذي بدأه بتجسده . والآن هو يطلب له الكمال .

أ - كيف استعلن الآب وكيف قبلوه :

١٧ : ٦ «أنا أظهرتُ اسمَكَ للناس الذين أعطيتني مِنَ العالم . كانوا لَكَ ، وأعطيتهم لي ، وقد حَفِظُوا كلامَكَ» .

المسيح يقدم تلاميذه على ثلاثة مستويات :

الأول : علاقتهم بالمسيح : «أنا أظهرتُ اسمَكَ للناس» .

الثاني : علاقتهم بالآب : «كانوا لك» .

الثالث : من واقع حالهم : «قد حفظوا كلامَكَ» .

وكل مستوى من هذه المستويات جعله المسيح سبب سؤال وطلبه، والثلاثة معاً يكوّنون الصورة المتكاملة للتلمذة الصحيحة التي يودّها لهم ويعمل من أجلها.

«أنا أظهرتُ اسمك للناس» :

«أنا أظهرتُ اسمك» تأتي متوازية ومتساوية لقوله : «أنا مَجِّدْتُكَ» (عدد ٤)، والاثنان يقمان تحت بند الاستعلان. فقد أكمل المسيح استعلان الله «كآب» له وللآخرين ؛ له بنوع الخصوصية، وللآخرين بالنعمة المنحدرة بتوسُّطه، وذلك بكل إصرار وتكرار، ليس في قوله وعمله فحسب بل وبحياته. وقد وضح أن هذا الاستعلان كان جديداً بالفعل على الذهن اليهودي، بالرغم من ادعائهم البنيويّة لله. وكم هو واضح في قول إشعياء النبي وهو يصف المسيح : «وأنا الرب إلهك، مُزْعَج البحر فتعجُّ لُجَجُهُ، رب الجنود اسمه. وقد جعلتُ أقوالي في فمك، وبظلي يدي سترتُك، لغرس السموات، وتأسيس الأرض، ولتقول لصهيون: أنتِ شعبي.» (إش ٥١ : ١٥ و ١٦)

بثلاثة أمور أظهر المسيح اسم الآب :

أولاً: بكونه هو الابن الذي أطاع الآب حتى الموت، لأنه باستعلان بُؤته الخاصة الجوهريّة لله، أظهرَ وأعلن أُبُوّة الله.

ثانياً: بإعطاء تعاليم الآب وكلماته تحت اسم الآب : «أنا هو εἰμι εὖ (٤٢٦).» (*)

ثالثاً: بصنع القوات والآيات التي تعلن عن الآب الحالّ فيه. وكل نور أدخله المسيح إلى عالم الإنسان بإعلان الحق وممارسة الحب كان في الحقيقة هو بهاء أو شعاع مجد الآب، ورسم أو صورة لجوهره.

ولكن ليس الكل قبل هذا الاستعلان، فالاستعلان أعطي تماماً، ولكن الذين انفتحت أعينهم وقبلوا حقيقة رسالة المسيح كابن، هم هؤلاء الذين عبّر عنهم المسيح : «لناس الذين أعطيتني». فالاستعلان العام لأبُوّة الله، قبله الناس، إنما على مستوى التلاميذ أولاً، الذين اجتذبهم الآب، كعيّنة نموذجية وخميرة، حسب قوله السابق : «لا يقدر أحدٌ أن يُقبِلَ إليّ، إن لم يجتذبه الآب» (يو ٦ : ٤٤)، «لا يقدر أحدٌ أن يأتي إليّ، إن لم يُعْظَ من أبي» (يو ٦ : ٦٥). والحقيقة أن الذي يجتذبه الآب، يجتذبه الابن بالضرورة : «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أُجذبُ إليّ الجميع» (يو ١٢ : ٣٢). والمسيح يختار أيضاً : «ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم

(*) راجع المدخل ص ٢٣١ وما يليها.

وأقمتُكم...» (يو ١٥: ١٦). ولكن على الناس أن يطيعوا هذا الاختيار، أو يرفضوه كيهودا، ليصيروا عِبْرَةً للرافضين. ولكن كان عمل المسيح العام، هو إظهار اسم الله الآب لشعب إسرائيل أولاً: «أخبرُ باسمك إخوتي. في وسط الجماعة أَسْبِّحُكَ.» (مز ٢٢: ٢٢)

«من العالم»:

تفيد أن الله اختارهم وأخرجهم من حياة العالم: «ولكن لما سَرَّ الله، الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه فيَّ لأبشِّر به بين الأمم، للوقت لم أَسْتَشِيرَ لحماً ودماً، ولا صعدتُ إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقتُ إلى العربية» (غل ١: ١٥-١٧). هنا في هذا الوصف للدعوة يتضح كيف يدعو الله الذين له، حيث يكمن في هذا الكلام المعنى المتسع والعميق لقول المسيح: «كانوا لك». فدعوة بولس الرسول كان يقف خلفها علاقة مع الله ذات أبعاد لا يعرف مداها إلا الله وحده، أي أن بولس كان لله أولاً، ثم أعطاه الله للمسيح، فصار بولس للمسيح. وهكذا وراء كل إنسان دعاه الله إلى ابنه، قصة وحكاية ذات أبعاد غائرة في القلب والضمير والوجدان بين الإنسان والله، قصة حق مستعلن، وحب طاغ، ومشاعر قلقة وملتهبة قادها الله إلى ملكوت ابن محبته!!

«كانوا لك، وأعطيتهم لي»:

كان التلاميذ يمثلون في الحقيقة الشعب المختار، وبسلوكهم تجاه المسيح كانوا «إسرائيليين حقاً لا غش فيهم»، وأثبتوا بذلك أنهم «خاصة لله» يهو، وبذلك اعتبرهم المسيح أنهم كانوا يتبعون، بإيمانهم الإسرائيلي، الله الذي جاء المسيح ليستعلنه الآن كآب. وبإيمانهم بالمسيح، وضح أن الآب سلمهم للابن ليكمل خلاصهم وفداءهم.

«وأعطيتهم لي»:

«خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية... أبي الذي أعطاني إياها» (يو ١٠: ٢٧-٢٩). «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد» (يو ١٧: ١٢). هنا، يتضح أن عمل الآب في اجتذاب النفوس يسبق عمل الابن، وهذا حتمي. والإنسان يعرف أولاً الله، وحينما يُخْلِصُ الإنسان في عبادته لله، يكشف له الله عن طريق الخلاص ويُعَرِّفه بابنه: «وكانت نبيّة حنّة بنت فنوئيل من سبط أشير، وهي متقدمة في أيام كثيرة، قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها. وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة، لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً، فهي في تلك الساعة وقفت تسبِّح الرب، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين

فداءً في أورشليم» (لو ٢ : ٣٦-٣٨)؛ «وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان. وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل. والروح القدس كان عليه. وكان قد أوحى إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب، فأتى بالروح إلى الهيكل، وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال: الآن تُطلقُ عبدك، يا سيد، حسب قولك، بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعدته قدام وجه جميع الشعوب.» (لو ٢ : ٢٥-٣١)

حثة النبوة وسمعان الشيخ كانا لله، وأخلصا جداً في إيمانهما بالله، فشاء الله أن يكمل إيمانهما بإيمان المسيح.

واضح أن العمل يبدأ بالآب، وينتهي بالابن عبّر الروح القدس، ليستقر الثالوث في قلب الإنسان. واختيار التلاميذ وكل المؤمنين الذين لم يكونوا يعرفون إلا الله، كان على أساس أن أرواحهم كانت ملتهبة فيهم مُسبقاً. ونحن نقرأ في بداية إنجيل يوحنا، كيف كان التلاميذ يبعثون عن الخلاص بكل قلوبهم: «وجدنا (المسيّا) الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء.» (يو ١ : ٤٥)

«حفظوا كلامك»: τὸν λόγον σου

الترجمة العربية هنا تجاوزت المعنى، فالصحيح هو: «حفظوا "كلمتك" اللوغس». فالمعنى هنا عميق، ويفيد أنهم استعلنوا كلمة الله التي هي المسيح، باعتباره جوهر التوراة، وبذلك كرموا كلمة الله في شخصه، و«حفظوها»، بمعنى أدركوا سرّها؛ فسهروا عليه وأبقوه في كنز قلوبهم، وهكذا أبقوا الآب والحق في معرفتهم!

هذا المعنى شرحه المسيح سابقاً: «إنه مكتوب في الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله، فكل من سمع من الآب وتعلّم يقبل إليّ» (يو ٦ : ٤٥). هنا «سمع من الآب» تكشف عن قلب انفتح على صوت الله وقبل سرّ الكلمة.

وهنا بطيب لنا أن نكشف عن القوة المستترة في قول المسيح هذا، فحفظ كلمة الله هو هو التلمذة الحقيقية لله والمسيح، وهو يعني السهر على الإنجيل بتقديم أسفاره وجديدها، لاجتلاء كنوزه وبركاته المذخرة لنا: «طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم... لأنه من يجدنني يجد الحياة وينال رضائي من الرب» (أم ٨ : ٣٤ و ٣٥). وما من قديس أو واعظ ملهم إلا وكان السهر على الإنجيل والكلمة طعامه وشرابه وفرحه وعزاءه.

وكلمة «يحفظ» τηρεῖν الكلمة» في إنجيل يوحنا ورؤياه تعني السهر عليها، يقابلها في الإنجليزية watch وليس guard، أي «يسهر» وليس «يحرس»، فعكس «يسهر» على الكلمة هو «يرفضها ويزدري بها ولا يعتبرها»، أما عكس «يحفظها» بمعنى «يحرسها» هو أنها تسقط منه وتضيع. ومن هذا نفهم أن حفظ الكلمة بمعنى السهر عليها هو قبولها قبولاً شهيئاً: «وُجد كلامك فأكلته. فكان كلامك لي للفرح، ولبهجة قلبي، لأنني دُعيتُ باسمك، يا رب إله الجنود.» (إر ١٥: ١٦)

والمزمور حينما يقول: «أما الآن فحفظت قَوْلَكَ (كلامك، اللوغس)» (مز ١١٩: ٦٧)، فهو يعني: «أدخرته لنفسي دُخْراً». فالمسيح يشبه الملكوت بإنسان باع كل ما عنده واشترى اللؤلؤة الكثيرة الشمن وحفظها (مت ١٣: ٤٦)، وكذلك بالذي وجد الكنز في حقل، ومن فرحه باع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل (مت ١٣: ٤٤). هذه الأمثلة كلها تدور حول قيمة كلمة الخلاص، أي الإنجيل، بالنسبة للحياة. فاللؤلؤة والكنز هما كلام الله، في تعبير المسيح، وقد أعطى المسيح لذلك مثلاً أقوى وضوحاً في مثل الزارع: «الذي في الأرض الجيدة هو الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيّد صالح، ويشمرون بالصبر... فانظروا كيف تسمعون.» (لو ٨: ١٥ و ١٨)

لذلك فقول المسيح عن التلاميذ أنهم «حفظوا كلامك» هو الإعلان عن سر التلمذة الصادق والوحيد، وهو سر التقدم أيضاً والنمو والانفتاح. ولعل أقوى قيمة لمفهوم حفظ الكلمة عند المسيح، جاء في قوله: «الحق الحق أقول لكم، إن كان أحد يحفظ كلامي، فلن يرى الموت إلى الأبد.» (يو ٨: ٥١). وهكذا أصبح حفظ كلام المسيح في القلب، هو بذرة الحياة الأبدية التي تحوّل قلب الإنسان إلى ملكوت الله.

وإن أنسى فلن أنسى في حياتي ما قرأته عن السائح الروسي، لما أشعل أخوه الأكبر النار في كوخهم الوحيد، بعد أن سرق مذكرات أبيهم ليخفي فعلته الشنعاء، وفرّ هارباً، وكان السائح الروسي راقداً مع زوجته في الدور الأعلى، فدلت زوجته من النافذة، وقفز وراءها، وذهبا كلاهما يسيران في الشارع خاليّ الوفاض من كل ما امتلكاه، إلّا الإنجيل في نسخة مخطوطة جلسا على قارعة الطريق يقرآن فيه؛ فأخذت زوجته تبكي، فسألها: لماذا تبكين يا أختي؟ فقالت له: كلام الإنجيل يا أخي حلو يُعزّيني عن كل ما فقدت!

٧:١٧ «وَالآنَ عَلِّمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أُعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ».

هنا يشرح المسيح معنى أو ثمرة حِفْظِهِمْ لكلمة الآب، أو معنى سهرهم على تعاليم المسيح وفهمهم لسرّ الآب المتكلم فيه والعامل الأعمال. فالكلمة أضاءت بصيرتهم وألهمت قلوبهم، وفتحت أعينهم، وأدخلتهم في نور الحق والحياة، وحكمتهم بكل حكمة.

«عَلِّمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أُعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ»:

إذا أردنا أن نترجم هذا القول إلى أبسط معنى، فهو أن التلاميذ أدركوا أنني جئت لأستعلنك قولاً وفعلاً وعملاً وحياة!!

«الآن»: ٧:١٧

إن وَضَعَ هذا الظرف الزمني «الآن» هنا في هذه الآية خطير. فهو تعبير صادق عن وقفة أمام الموت! وبهذا يصبح معنى اكتمال معرفتهم بأن كل ما للمسيح هو من عند الآب، يعني أنهم بلغوا إلى حد الصلة التي تربطهم وسوف تربطهم إلى الأبد بالمسيح، لا كإنسان بُعد، لأنه هو بحد ذاته استعلان الآب؛ فإزاء الموت الذي كان كفيلاً سابقاً أن يفك بل أن يقطع كل رباط بين الإنسان والإنسان، «الآن» لن يجرؤ الموت أن يصنع هذا مع المسيح بالنسبة لتلاميذه!! لذلك، فهو يدخل إلى محنة الموت واثقاً من متانة الرباط، الذي لن يَفْصِم عُزَى العلاقة التي تربطهم به!!

٨:١٧ «لَأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي أُعْطَيْتَنِي قَدْ أُعْطَيْتُهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِّمُوا يَقِيناً أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي».

المسيح يصعد بالدرجات نفسها التي صعد بها التلاميذ، موضحاً أولاً أن حِفْظَهُمْ كلمة الآب المُعَلَّنَةِ بالمسيح وفيه، هو الذي أوصلهم إلى معرفة أن كل ما للمسيح هو من الآب، ثم يرتقي إلى درجة اليقينية التي بلغوها، موضحاً أن سرّها كان في أن المسيح سلّمهم تسليماً وأعطاهم عطاءً كل ما استلمه وكل ما أعطاه له الآب، وكان قبولهم للكلمة هو سرّ يقينهم بكل هذا. وهذا في الحقيقة أحد الأسرار المخفية في الإنجيل بخصوص كلمة الله أو وصيته وأوامره، فإنه بمجرد قبولها بالإيمان على أساس تصديق الله تصديقاً مطلقاً لا يقبل افتراض الشك ولا يطلب البرهان، ولا يعتمد على المشاعر والعواطف المخادعة، بل تصديقاً قلبياً دون تدخّل العقل الفاحص — فإن الكلمة، أو الآية أو الوصية أو الأمر الإلهي، يتحول في القلب إلى قوة تنفيذ!! فكلام الله ووصاياه، مهما بلغت في مظهرها الخارجي أنها صعبة التنفيذ أو حتى بلغت حد الاستحالة لدى العقل، فإنه

بمجرد قبولها بالتصديق الكامل، تبدأ قوتها الكامنة تعمل في الحال. فكلام الله يحمل قوة تنفيذه في داخله لدى الذين يؤمنون بصدق الله وأمانة وعده.

وعليك أيها القارئ أن تلاحظ ذلك في ترتيب الأفعال التي جاءت في هذه الآية:

أعطيتهم الكلام، وهم قبلوا (بالإيمان)، وعلموا، يقيناً، وآمنوا باليقين، وبالنهاية بلغوا الإدراك الكلي الواثق بالمسيح ورسالته أنه خرج من عند الآب، كخروج الشعاع من مصدر النور، وأن الآب أرسله لتكميل الفداء والتقديس. هكذا يتحول القبول بالتصديق إلى علم، ثم إلى يقين، ثم إلى إيمان واثق، فاستعلان للحق. أي من علم إلى خبرة حية وشركة!! وعلى هذه الخبرة الحية والشركة الفعلية تأسست كنيسة الله التي نحيا خبرتها وإيمانها الحي اليوم. ولكن تبقى الحقيقة الأولى والأعظم أهمية «قبلوا»: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو: ١٢)

«عَلِّمُوا يَقِيناً»: ἐγνώσαν ἀληθῶς

هنا الترجمة العربية جاءت بتصرف، فهي «علموا حقاً وبالحقيقة». فالعلم بالحق، هو أكثر من اليقين. لأن الإنسان قد يتيقن من العلم بالشيء، ولكن يظهر أن يقينه جاء غير صحيح. ولكن إن كان العلم هو عن حق، أو باكتشاف الحق، فهو الاستعلان الإلهي، لأن الحق هو الله؛ وهذا العلم بالحق لا يقبل الزئيف على وجه الإطلاق. على أن قبول العلم بالحق لا يأتي بالفهم والملاحظة أو المنطق والقياس، ولكن قبول الحق يأتي بالخضوع والطاعة المذعنة تحت سلطان كلمة الله! وهذا ينشئ، ليس مجرد إيمان أعمى بالعقيدة، بل إيماناً يسنده استعلان الحق، إيماناً منفتحاً على الله. فالإيمان الحقيقي هو حياة وسلوك في نور معرفة الله، والإيمان الحقيقي يظل حياً بالكلمة يستمد نموه من سرّها بلا انقطاع.

«أني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني»:

«أني خرجت من عندك» هي نفسها «أنت أرسلتني»؛ ولكن الأول هو فعل الابن والثاني هو فعل الآب. الأول يفيد عملية التجسد، والثاني يفيد عملية الصليب ومهمة الفداء.

والمسيح سوف يبني على هذا المعنى قوله فيما بعد: «إني لست من هذا العالم»، وسوف يبني عليه إيمان التلاميذ بأنه خرج من عند الآب، وأن الآب أرسله، وأنهم أيضاً أصبحوا ليسوا من هذا العالم، باعتبار أن إيمانهم بهذا يفصلهم عن العالم و يضمهم إلى الابن الذي خرج والآب الذي أرسل!! إذ تصبح حياة التلاميذ مستمدة من الله كأصل وجودهم وليست مستمدة من العالم!!

والعالم رفض المسيح وذبحه، وبذلك أثبت أن المسيح ليس منه، وكذلك التلاميذ، فقد رفضهم العالم بشدة وقتلهم، وأثبت أنهم ليسوا من العالم (يو ١٥ : ١٨-٢١). ويعلق على ذلك ق. يوحنا في رسالته الأولى بقوله: «لا تتعجبوا، يا إخوتي، إن كان العالم يبغضكم» (١ يو ٣ : ١٣). «هم من العالم، من أجل ذلك يتكلمون من العالم، والعالم يسمع لهم. نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا.» (١ يو ٤ : ٦ و ٥)

ب - كيف كان يحفظ التلاميذ، وقد حان وقت تركهم:

١٧ : ٩ «من أجليهم أنا أسأل. لست أسأل من أجل العالم، بل من أجل الذين أعطيتني لأنهم لك.»

«أنا أسأل» : ἐγὼ ἐρωτῶ

تأتي بمعنى «أصلي»، وهكذا ترجمت بالإنجليزية : I pray ، وهو نوع رفيع من السؤال. وهذا الاصطلاح، وإن كان شائعاً في العهد الجديد في معاملة الناس في التخاطب معاً وليس للصلاة، إلا أن ق. يوحنا قد اختص به فقط دون جميع الأسفار، في مخاطبة الله. فهو سؤال يُقدَّم كطلب، بدالة، ولم يستخدمه إلا المسيح في مخاطبة الآب.

هنا المسيح يفرّق بين الذين لله وبين الذين عليه. فالذين كانوا لله الآب وأعطاهم للمسيح الابن، هؤلاء الذين «قبِلُوا» كباكورة لجميع الذين «يُقبَلون» الابن حتى نهاية الدهور، هم الأعمدة التي ستقوم عليها الكنيسة وتبقى وتدوم.

المسيح هنا يطابق الصوت القائل لإرميا النبي : «وأنت فلا تصلّ لأجل هذا الشعب، ولا ترفع لأجلهم دعاءً ولا صلاة، ولا تلجّ عليّ لأنني لا أسمعك» (إر ١٦ : ٧). والسبب قاله المسيح، ردّاً على سؤالهم : «إلى متى تعلق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح، فقلّ لنا جهرًا؟ أجابهم يسوع : إني قلتُ لكم ولستم تؤمنون... لأنكم لستم من خرافي» (يو ١٠ : ٢٤-٢٦)، وأيضاً : «لو كان الله أباكم، لكنتم تحبونني، لأنني خرجت من قبل الله وأتيت؛ لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (= كلمتي «لوعس»). أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو ٨ : ٤٢-٤٤)

أما من جهة محبة الله للعالم ومحبة المسيح له، والتي كلفته ذبيحة نفسه على الصليب من أجل كل العالم، فهي قائمة لا تستثنيها الصلاة ولا تتغاضى عنها، فذبيحته نفسها هي أعظم صلاة

قُدِّمَت لخلاص كل العالم: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩). ولكن المسيح يصلي هنا خاصة من أجل الذين سيتركهم في العالم، العتيد أن يضطهدهم ويقتلهم أيضاً!

فالعالم المحبوب من الله سيردُّ الحب إيماناً، والذين لا يؤمنون سيُخرجون أنفسهم بأنفسهم من دائرة حب الآب وذبيحة الابن. المسيح أمرنا أن نحب أعداءنا ونبارك لاعيننا ونصلي من أجل الذين يسيئون إلينا ويطردوننا، لأنه بذلك يُشْتَعَلُّ فينا حب المسيح، وتُشْتَعَلُّ ذبيحة صليبه، ويتجلى الفداء والبذل. فإذا رأى ذلك الأعداء يؤمنون، وإذا لم يؤمنوا ربحتنا نحن أنفسنا.

والمسيح هنا يسأل ويصلي من أجل الذين سيقعون فريسة اضطهاد العالم الذي استثنى نفسه من إيمان المسيح وحب الآب؛ فمن أجل هؤلاء، هو لا يسأل، لأنهم أَوْقَعُوا أنفسهم تحت دينونة وليس تحت تشفع صلاته: «الآن دينونة هذا العالم.» (يو: ١٢: ٣١)

١٧ : ١٠ «وكلُّ ما هُوَ لي فهو لك، وما هُوَ لك فهو لي، وأنا مُمَجَّد فيهم.»

هذا هو المعيار الجديد الذي يضع الآب والابن على مستوى واحد يقوم على أساس تبعية أو ملكية التلاميذ، أي المؤمنين فرادى أو ككنيسة. فالتلاميذ، وكذلك المؤمنون، يُعتبرون تابعين لله الآب، بقدر ما هم تابعون للمسيح. وبمعنى أعمق، يُعتبر الإيمان بالمسيح تأكيداً لتبعية المؤمن لله الآب. وكذلك، فإن المؤمن بالله، يصير إيمانه حقيقة مؤكدة، إن كان يؤمن بالمسيح ويتبعه، ذلك لأن استعلان حقيقة الله هي كائنة بصورة فريدة في المسيح يسوع الابن المتجسد.

فالآن، ها هو المسيح بنفسه وافقَّ يسأل الآب ويصلي من أجل تلاميذه، أليس ذلك تأكيداً لصدق تبعيتهم لله والمسيح، وعلى أنهم يستمدون من الله والمسيح حياتهم ووجودهم، وليس من العالم؟! وهذا هو سرُّ صلاة المسيح لأجل تلاميذه، والمؤمنين، والكنيسة ككل، التي باستمداد حياتها ووجودها من الآب والمسيح، أصبحت ليست من هذا العالم، وبالتالي فإنها أصبحت في حاجة شديدة — بل وتستحق كل استحقاق — أن يسأل المسيح الآب من أجلها، ولو أن الآب نفسه يحبُّ كلَّ مَنْ أحب الابن، فهو لا يحتاج بعد أن يسأله المسيح من أجلها.

ولكن في قول المسيح: «وكلُّ ما هُوَ لك فهو لي»، نقلة سرية إلى التعريف به، أي بشخصه، أكثر من التعريف بمنْ هُوَ له. فقول المسيح: «كل ما لي فهو لك»، يمكن أن يقوله كل واحد. ولكن قوله لله الآب: «وكلُّ ما لك فهو لي»، هو قول لا يجروء عليه ملاك ولا إنسان، كان مَنْ

كان، أو أي مخلوق، غير الابن الذي له ما للآب وهو واحد معه. هذا يحققه لنا سفر الرؤيا، بأن يعطي للمسيح ما للآب تماماً هكذا:

+ «قائلين بصوت عظيم: مستحق هو "الخروف المذبوح" أن يأخذ القدرة، والغنى، والحكمة، والقوة، والكرامة، والمجد، والبركة.» (رؤ ٥: ١٢)

ثم يعود سفر الرؤيا و يعطي لله الجالس على العرش هذه السبعة العظام هكذا:

+ «وخرُّوا أمام العرش على وجوههم، وسجدوا "لله"، قائلين: آمين. البركة، والمجد، والحكمة، والشكر، والكرامة، والقدرة، والقوة لإلهنا إلى أبد الأبدن. آمين.» (رؤ ٧: ١١ و ١٢)

لذلك، فقول المسيح بعد ذلك: «وأنا ممجَّد فيهم»، واقع في دائرة ما للآب حتماً وبالضرورة. فإن كان المسيح ممجَّداً فينا، فهو بالتالي تمجيد للآب. فالمسيح هنا يقَدِّم للآب واحداً من أعظم نجاحاته أكمله لحساب الله: أن صار الإنسان البائس العاجز مصدر تمجيد لله على مستوى استعلان حقيقة الآب والابن. وإن كان يبدو هذا أنه لحساب الله شكلاً، فالحقيقة هي أن الإنسان هو الذي فاز بهذه الرتبة العليا: أن يعطي المجد لله، ويلهج بتسبيح الآب وحب الابن.

وإنها حقيقة جديرة بالتعريف والتأكيد، أنه ليس في جميع أعمال الإنسان وأقواله أعظم وأجل من أن يمجَّد الله ويسبَّح بمجده. فالتسبيح بمجد الله، هو عمل الملائكة، وإكليل الأرواح البارة المتكللة في السماء، التي لا تكف عن تقديس الاسم المبارك وتقديم الشكر والسجود المتواصل والمجد الدائم. يعرف هذا الذين يحبون التسبيح ويؤمنون السهر فيه، ويعترفون بما حصلوه من بركات، وتحصلوا عليه من قربى ورؤيا وسماع!

«وأنا مُمجَّد فيهم»:

مرة أخرى يلزم أن نفهم أن تمجيد المسيح يعني «استعلان حقيقة» بنوته لله وطبيعته وصفاته وأعماله. والآن، قد أصبح المسيح مُستعلنًا بكل صفاته في تلاميذه، بكل يقين الإيمان أنه ابن الله الآتي إلى العالم، وهو هكذا في الحقيقة: «وأنا ممجَّد فيهم»، حيث انطبعت فيهم صفاته، وذلك إلى الدرجة التي إن أردت فيها أن تعرف مَنْ هو المسيح، فتأمل في حياة التلاميذ وسيرتهم وأعمالهم وكلامهم، فستعرف مَنْ هو المسيح حقاً. فالاستعلان بالنسبة للحقائق الإلهية هو شركة فيها، لذلك فالتمجيد والدوام فيه، هو الإرتفاع بالسيرة الذاتية من الأرض إلى السماء: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠). لذلك، فالتسبيح بمجد الله والمسيح هو دخول سرِّي في ذلك المجد.

١٧ : ١١ «ولست أنا بَعْدُ في العالم وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك. أيُّها الآب القدوس، احفظهم في آسِمِكَ "الذي" أعطيتني، ليكونوا واحداً كما نحن».

«ولست أنا بعد في العالم» :

هنا علّة هذه الصلاة بمجملها، فلولا أنه قد أكمل رحلته، ووجّه وجهه شَطْرَ السماء لما صلّى من أجلهم، إذ كان يكفيهم أنه معهم. ولكن الآن وقد حان الوقت أن يتركهم وحدهم ليدخل في عمله الأعلى طبيعة وشأناً، وهو أن يتراءى أمام الآب متشفعاً عنهم؛ لذلك وقف يمارس مقدّماً عِيْنَهُ منظورة من عمله غير المنظور والدائم إلى مدى الدهور، عن الذين له، طالما بقوا وحدهم في هذا العالم.

«وأنا آتي إليك» : ἐρχομαι

الفعل «آتي» في المضارع الدائم، والمقابلة بين حالات المسيح الثلاث التي فيها يوصف المسيح أنه «آيت»، تحتاج إلى تأمل :

١ — «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو ١١ : ٢٧)

٢ — «وأنا آتي إليك أيُّها الآب القدوس.» (يو ١٧ : ١١)

٣ — «آتي أيضاً وأخذكم إليّ.» (يو ١٤ : ٣)

وكان الزمن مُلغى، فهو آيت باستمرار إلى العالم، وآيت إلى الآب وآيت إلينا ليأخذنا! ولكن لكل حالة فعلها الخاص بها، وكل حالة مترتبة على ما قبلها، وهي تبدو وكأنها جديدة، مع أنها ليست بجديدة. فالزمن وحده يتغير عندنا، أما عنده هو فلا يتغير: «بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضاً ترونني» (يو ١٦ : ١٦)، «ولست أنا بَعْدُ في العالم»، و«لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم» (يو ١٤ : ١٨)، «وأنا آتي إليك»، «وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو ١٦ : ٣٢)

تأمل في ذلك بولس الرسول فقال :

+ «وأنت يا رب (يعني المسيح الذي مُسح بزيت البهجة أكثر من رفقاءه)، في البدء أُسِّسْتَ الأرض، والسموات هي عمل يديك. هي تبيد، ولكن أنت تبقى. وكلُّها كثوب تَبْلَى، وكرداء تطويها فتتغير. ولكن أنت أنت، وسينُوك لن تَفْنَى.» (عب ١ : ١٠-١٢)

وأيضاً :

+ «يسوع المسيح هو هو، أمساً واليوم وإلى الأبد.» (عب ١٣ : ٨)

ففي الظاهر الزمني، سيتركهم المسيح وحدهم؛ ولكن في الحقيقة، فإن ذهابه للآب هو دخوله في نطاق القوة الأكثر فعالية، وهذا يُزيد من قُرْبِهِ إليهم، تماماً كما سبق وقال عن نفسه: «وتتركوني وحدي، وأنا لستُ وحدي، لأن الآب معي.» (يو ١٦: ٣٢)

ولكن الحقيقة الأشد عزاءً، هو أنه طالما كان معهم على الأرض، فقد كانوا منه على بُعْدٍ! ولكن لما تركهم وحدهم ذاهباً إلى الآب، أصبح وهو في السماء متحداً بهم وهم به متحدون، وعن قرب. لذلك كان يقول لهم مراراً: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو ١٦: ٧)!! ولذلك عينه قال لتوما: «لأنك رأيتني، يا توما، آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوْا» (يو ٢٠: ٢٩). هذه الطوبى، هي الاتحاد عينه بالروح. أما إيمان العيان، فلا يزال يحتاج إلى الطوبى!!

والرؤيا العينية لا تفيد الإيمان شيئاً: «وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو ١٥: ٢٤) والعيان لا يسعف اللحاق بالمسيح: «لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستبغضني أخيراً.» (يو ١٣: ٣٦)

ولكن عدم رؤياه، رؤيا العين، لا يمنع أن يرانا هو: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو ١٦: ٢٢) فنمتلىء به حباً وفرحاً. «الذي وإن لم تَرَوْه، تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا تَرَوْه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرح لا يُنطقُ به ومجيد.» (١ بط ١: ٨)

«أيها الآب القدوس»:

بعد أن أوضح المسيح أن تلاميذه سيتركون وحدهم في العالم، وأنه آتٍ إلى الآب، يُصبح دورُ الآب وارداً بصورة مُلحّة؛ وبسبب أن العالم قوة معادية للإيمان ومركز تجارب، يكون الالتجاء إلى «قداسة» الآب أمراً حتمياً. فالنداء هنا من واقع الحال، وليس مجرد تسمية.

الالتجاء المسيح إلى «قداسة» الآب، هو بحد ذاته، يكشف عن خطورة وضع التلاميذ في غيابه بالنسبة لإمكانية ابتلاع العالم لهم. هنا تبلغ الصلاة ذروة توسُّلها الواقعي. فد «قداسة» الآب هي حصن الذين في العاصف تجاه قدرة العالم على ابتلاع الضمائر الجزعة والواقعين تحت التهديد والوعيد والخوف أو الإغراء والترغيب.

هنا يبدو واضحاً، لماذا علّمنا المسيح أن نخاطب الآب طالبين أن: «يتقدس اسمك». فهنا اللفظة في طلب تقديس اسم الآب، من حال واقعنا المهتد كل يوم ولحظة في العالم؛ فالشر محيط، والجذب عنيف، والإغراء ملبّس بقوة شيطانية. فالالتجاء إلى اسم الله القدوس ليتقدّس في حياتنا

وأفكارنا وعيوننا وقلوبنا وضماثرنا، هو قوة غالبية وحصن منيع: «اسم الرب برج حصين، يركض إليه الصديق ويتمتع.» (أم ١٨: ١٠)

وسوف تكمل هذه الطلبة بالآية القادمة: «قدسهم في حقك»، حيث يُجري الآب فيهم فعل قداسته، ليحوّهم من العالم إلى نفسه، من المستوى الجسداني إلى الروحاني، من الزئيف إلى الحقيقة، من الزائل إلى الأبدى.

«احفظهم في اسمك "الذي" أعطيتني»:

لقد أجمع العلماء المختصون بالمخطوطات أن «الذي أعطيتني» هنا تختص بالاسم وليس بالتلاميذ. وكذلك الاسم الوارد في الآية (١٢) الآتية بعد ذلك. ويقع هذا المعنى موقعاً لاهوتياً قوياً وصحيحاً، وهو مطابق تماماً لما جاء بالنبوة عن المسيح: «لأن اسمي فيه» (خر ٢٣: ٢١). فالاسم هو الاستعلان الحقيقي للشخص، والمسيح حاز هذا الاستعلان حياة ذاتية لنفسه، فكان يقوله وكأنه له، أو كأنه هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ «أنا هو»، وهو اسم «يَهْوَه» في كل أسفار العهد القديم.

وحياة المسيح لاسم الله، معناه حياته الكاملة لطبيعة الله وقوته وصفاته. وهذا واضح من قول الله لموسى مُنبهاً بخصوص النبي الذي سيقمه مثله أن «اسمي فيه»، بجعل عصيانه موجباً للقضاء وللدينونة ولا غفران، وهو هنا يتكلم عن المسيح: «احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه، لأنه لا يصفح عن ذنوبكم، لأن اسمي فيه» (خر ٢٣: ٢١)، «وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تحبشوا، باسم يسوع، كل رُكبة مَن في السماء، ومَن على الأرض، ومَن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربُّ، لمجد الله الآب.» (في ٢: ٩-١١)

كل هذا يوضح أن المسيح يستعلن الآب استعلاناً ذاتياً. لذلك، يصبح معنى «احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» يعني «أعلن ذاتك لهم»، فهذا هو الحفظ البالغ منتهى القوة بالنسبة للإنسان الذي يواجه قوى العالم الشريرة!! وهذا الإعلان الذاتي لله — الذي هو الاسم في جوهر معناه — قائم في «الكلمة»، في الإنجيل، في تعاليم المسيح التي تركزت في استعلان الآب بالدرجة الأولى. والمسيح بعد ما أكمل، باشر هذا العمل للتلاميذ: «فتح ذهنهم ليفهموا الكتب.» (لو ٢٤: ٤٥). هذا هو نفسه استعلان ذات الله، وهو بعينه الحفظ الذي يعطي المناعة ضد قوى العالم السلبية.

وصلاة المسيح لكي يحفظهم الآب «في اسمك الذي أعطيتني» تطلب أن يُثبتهم الآب في صفات أبوته، التي هي فعالة في المسيح كابن، لكي يعيشوا معاً في دائرة وجوده وعمله ومشيته.

«في اسمك» : ٤٧

الاسم هنا طاقة وقوة. والحفظ هو، إما بإدخال التلاميذ في مجال فعل الاسم أي الاستعلان الذاتي، وإما شمول التلاميذ بهذه الطاقة لتدخل فيهم. الأولى تكون بفعل استعلاني يجذب القلوب إلى مجال قوته، والثانية بفعل نعمة تنسكب داخل قلوبهم بحسب منتهى خيرية الله.

وفي التراث اليهودي التَّقْوَى الذي ورثته الكنيسة، فإن مجرد النطق باسم الله يُدخلنا في مجال قوة عمله، وكأنه هتاف بحضور الله أو بالدخول في حضرته. وقد دخل ذلك في صميم الطقس الدُعائي، فالصلاة تُفتتح باسم الآب والابن والروح القدس، والتقديس يتم بدعاء الاسم على الماء ليصير مقدساً للتقديس والتعميد، وعلى الخبز والخمر ليصيرا إلى الجوهر الجسدي الإلهي، وعلى رأس المريض وبدهنه فيُشْفَى. وباختصار، فلا يجري أيُّ طقس في الكنيسة إلا بدعاء الاسم، الذي هو بمثابة الحضرة الإلهية. وباسم الله الآب والابن والروح القدس، تُبَنَّى الكنيسة، وتَتَقَوَّى، وتعمل، وتُبَشِّر. وبدون اسم الله الآب والابن والروح القدس، لا توجد كنيسة. لذلك، فكلُّ عمل العالم هو أن يُخفي اسم الثالوث عن المؤمنين به، أو يزعم سلطانه في القلوب، أو ينتزعه كلية بجحد الإيمان، أو الإلحاد، أو التماذي في الملذات التي تغمر القلوب ليُنسى الاسم.

على أن نسبة «القدوس» للآب، تفيد السلطان المطلق والفائق للآب، الذي يفصله كل الفصل عن الخطية والخطاة والعالم المخلوق الذي ينحرف عن التعبد له : «لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا، قدوس = بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات» (عب ٧: ٢٦). هنا، الجزء الثاني «انفصل عن الخطاة» شَرِّح للجزء الأول «قدوس بلا شر» !!

ومن هنا تكون قوة قداسة الآب في حفظ تلاميذه والمؤمنين من سلطان العالم الخاطيء! «لأنني (أنا) الله، لا إنسان، القدوس في وسطك، فلا آتي بسخط». (هو ١١: ٩)

«ليكونوا واحداً كما نحن» :

الوحدة المطلوبة هنا هي أساساً للحفظ، فاحفظهم في اسمك، لأنهم في العالم، بأن تجعلهم واحداً. والوحدة ليست مجرد ألفة العشرة ورابطة المودة والإجماع على الرأي أو المشورة، بل هي وحدة الطبيعة التي تأخذ قوتها وتحقيقها وانسجامها الفائق من المسيح وفيه. فالمسيح في وحدة مع الآب، قائمة بحضور التجسد. والقصد أن قوة الوحدة التي في التجسد مع الإنسان، ثم قوة الوحدة بين المسيح والآب هي القوة التي يطلبها لنا لتجعل كل المؤمنين في المسيح واحداً. هكذا يطلب المسيح

للتلاميذ أولاً أن يكونوا واحداً بهذه القوة، فتكون الكنيسة في قوة الاسم.

والوحدة، كقوة نابعة من وحدة الآب والمسيح، والتي يطلبها المسيح، لا يقصد أن تأتيهم مفروضة عليهم من خارجهم، بل يطلبها لتنشأ فيهم من داخلهم، وذلك بثبوتهم في الاسم، وبالكلمة، وبالصلاة؛ الأمر الذي استجاب له الآب بقوة في تكميل وعده بإرساله قوة الروح القدس الفعالة لهذه الوحدة عينها، كما حدث فعلاً يوم الخمسين.

والإنسان ينزع بطبيعته إلى هذه الوحدة، ولكنه يخطئ دائماً الوسيلة، كما اجتمع في بابل قديماً. فالجمعيات والجماعات والمؤسسات والنوادي والرحلات والرياضات، كلها محاولات للوحدة، ولكنها وحدة كاذبة تجمع على الظواهر وليس على الحقائق والجوهر. تجمع على الراحة والفسحة والتسلية والمرح والمسرات واللهو، وكلها خداع يزول مع الوقت، وربما تؤول إلى الضد، وغالباً تنتهي بمزيد من الفرقة والعداوة والانقسام، وربما الخطية والانحدار للاستغراق في الفردية.

أما الوحدة الحقيقية، فهي التي يطلبها لنا المسيح في اسم الآب وحفظه وقوة استعلان ذاته وجذبِهِ، وهي تقوم على تقديس الاسم واستعلان الحق الإلهي في الكلمة. لذلك، فالإنجيل والصلاة هما وحدهما منبع الوحدة بين أعضاء جسد المسيح. والوحدة التي طلبها المسيح وقد تمت بالفعل بقوة الروح القدس، هي الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية. لقد كان الرسل والتلاميذ بذرتِها الأولى، وصلاة المسيح كانت المخاض الذي وُلدت منه يوم الخمسين، وسيثر العليّ الذي حفظها في العالم من العالم حتى اليوم!

وقوة الاسم — إذا تمسك بها كل واحد — هي بحد ذاتها قادرة أن توحد وترفع الفوارق بين طبائعهم، وتخفي ذواتهم عن أعينهم، وتُخلي مشيئاتهم من أنفسهم، وذلك حينما يتوقف جُذْبُ العالم لشهواتهم ويتحرك الروح فيهم. وهذه هي الصورة التي أرادها لهم المسيح، فكانت:

+ «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات. وصار خوف في كل نفس، وكانت عجائب وآيات كثيرة تُجرى على أيدي الرسل. وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركاً، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحد احتياج. وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة، وإذا هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مُسَبِّحِينَ الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب كل يوم يضمُّ إلى الكنيسة الذين يَخْلُصُونَ.» (أع ٢ : ٤٢-٤٧)

ولكن لنُعَدْ إلى : «أيها الآب القدوس احفظهم» ، فالوحدة التي يطلبها المسيح هي داخل نطاق عمل الاسم القدوس ، فهي وحدة تقديس وطهارة . لأنه خارج القداسة والتقديس ، يوجد العالم ؛ والقداسة والتقديس في مضمونها الفعلي هي الانفصال عن ما هو للعالم . هنا تكون الوحدة التي تجمع التلاميذ ، هي بُعْدُ كُلِّ مِنْهُمْ وانفصاله عن ما هو للعالم ، وهذا لا يتم إلا بالانجذاب المشترك نحو الآب والقداسة لتستمد الجماعة أو الكنيسة حياتها من مصدر خارج العالم ، من قريبهم من الآب والابن ، من قوة استعلان الآب وعمله بالإنجيل . أما هذا الاتجاه التقديسي فسيوفي المسيح حَقَّهُ في بقية الصلاة والتوسل (١٧ : ١٧-٢٣) .

وبعد أن يعمل اسم الآب في الجماعة ، أي الكنيسة ، ويوَحِّدها معه وفيه ، تبقى أبعاد أسرار هذا الاسم فائقة عن الزمان الحاضر . ففي هذا الاسم يكمن الميراث المحفوظ لنا في السموات : «مَنْ لَهُ أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس : مَنْ يَغْلِبْ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنْ الْمُخْفَى ، وَأُعْطِيهِ حَصَاةَ بَيْضَاءَ ، وَعَلَى الْحَصَاةِ "اسم" جديد مكتوب لا يعرفه أحدٌ غير الذي يأخذ .» (رؤ ١٧ : ٢) ؛ «وهم سينظرون وجهه ، و"اسمه" على جباههم .» (رؤ ٢٢ : ٤)

ج - العمل السابق والعمل اللاحق :

١٢ : ١٧ «حينَ كُنْتُ معهم في العالم ، كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ "الذي" أعطيتني ، حَفَظْتُهُمْ ، وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، إِلَّا ابْنُ الْهَلَاكِ ، لِيَتِمَّ الْكِتَابُ» .

إن صلاة المسيح التي يقدمها في هذا الأصحاح هي أصلاً لإلغاء الفوارق الزمنية ، في اعتبار العناية الإلهية . ويكاد المعنى يكون هكذا : لما كُنْتُ معهم في العالم بالجسد ، كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ ، وَالْآنَ لَا تَتْرَكُهُمْ أَنْتَ حِينَمَا آتِي أَنَا إِلَيْكَ ، بَلْ اشْمَلُهُمْ بِحِفْظِكَ وَرَعَايَتِكَ . وهذا يتسحب ، بالتالي ، على كل الأجيال الآتية هكذا : هذا الجيل ، جيل التلاميذ ، أنا كُنْتُ معهم بالجسد أحفظهم ، فالأجيال القادمة ليَكُنْ نصيبهم محفوظاً في اسمك الذي هو اسمي : «عَمَدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ .» (متى ٢٨ : ١٩) !

كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ ἐτήρουν ... حَفَظْتُهُمْ ἐφύλαξα :

الفعل الأول : «كنت أحفظهم» وتعني «سهرت عليهم» (kept them) . والفعل الثاني : «حفظتهم» بمعنى «حرستهم» (guarded them) ، سهرت عليهم بالتعليم ، فحفظت قلوبهم . بالاستعلان الحق في اسمك . وحفظتهم ، وحرستهم ، وحيتهم من جَذْبِ العالم ، وذلك بأن حصرت

قلوبهم في دائرة معرفتك .

والفعلان يفيدان قدرة المسيح على استعلان اسم الآب، أي صفاته، لهم وتعليمهم بكلماته وتعريفهم بكل ما عند الآب. وهذا بالطبع ظل مذكراً لنا بالإنجيل، كما علم به تلاميذه، مضافاً إليه الاستعلان الفائق بالروح القدس الذي أصبح يُعرفنا بكل الحق، ويذكرنا بكل ما قاله المسيح.

والآن، وقد ذهب إلى الآب، وجلس عن يمينه، أصبح وجوده أكثر وضوحاً لنا الآن مما كان بالجسد مع تلاميذه آنذاك .

«ولم يهلك منهم أحد»:

هذه ثمرة الحفظ والسهر والحماية التي أعطاها المسيح لتلاميذه، الذين أثمرت فيهم تعاليمه وكلماته المحيية واستعلانه لمحبة الآب التي قبلوها، فانسكبت في قلوبهم فلم يُفقد أحد، وظلوا محفوظين ومحروسين في الاسم وقوته. وكان الرب مرتاحاً لموقفهم، ولكن كان يُعليه ذلك التلميذ الذي هو مزعم أن يسلمه!

«إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب»:

كان يهوذا في فكر الرب آنذ، ولكن لم يذكر اسمه، لأن حساسيته تجاه الخطاة كانت رقيقة للغاية، شأن الراعي الصالح، وقد بلغت ذروتها تجاه صالبيه: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٢: ٣٤). أما يهوذا فلم ينظر المسيح إليه منذ البدء كتلميذ قط، وإنما كابن الهلاك: «أليس إني أنا اخترتك الاثني عشر، وواحد منكم شيطان، قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مزمناً أن يسلمه، وهو واحد من الاثني عشر.» (يوحنا ٦٧: ٧١ و٧٠)

لقد دخل في جماعة الاثني عشر لكي يسقط منها، وصار تلميذاً لا ليتلمذ على معلمه بل ليسلمه! لم يكن غنمة، بل ذنباً اندس في وسط الغنم. لم يكن من عمل الفادي أن يحرسه، بل أن يحترس منه، لم يشتت من تعليمه وحبه وثقته، شأنه شأن شمس التي يشرقها على الخطاة، فقد سلمه الصندوق ليبرر ضميره تجاهه، وهو عالم أنه يسرقه، ووهبه ما وهب التلاميذ من الحب والثقة، ولكنه خانهما.

«ابن الهلاك»:

إن وُصف المسيح ليهوذا بهذه الصفة، لم يكن بقصد أن يدينه أو يحكم عليه، بل ليوضح لماذا

فَقَدْ وَهَلَكَ . فَيَهُودَا اخْتَارَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، وَصَمَّمَ عَلَيْهِ ، وَنَفَّذَ خَطَّتَهُ ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَلْمِيحَاتِ الْمَسِيحِ وَتَصَرُّعَاتِهِ ، بَلْ وَكَثُرَ كُلُّ الْعَوَاقِقِ الَّتِي وَضَعَهَا الْمَسِيحُ فِي طَرِيقِ خِيَانَتِهِ ، بِاللُّطْفِ حِينًا ، وَالْوَعِيدِ أَحْيَانًا ، بِالْحُبِّ مَرَّةً وَبِتَهْدِيدِ الدِّينُونَةِ مَرَارًا . وَلَكِنْ فِي النِّهَايَةِ فَرَّطَ فِيهِ الْمَسِيحُ : « مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ ، فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ » !! (يوحنا ١٣ : ٣٧) ، لِذَلِكَ فَ« هَلَاكَ » يَهُودَا لَا يَحُطُّ قَطُّ مِنْ قَدْرِ الْمَسِيحِ ، كَمَعْلُومٍ ، وَلَا يَقِلُّ مِنْ شُمُولِيَةِ فِدَائِهِ : « أَمْ تَسْتَهِينُ بِغَنَى لَطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَثَاتِهِ ، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لَطْفَ اللَّهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ . وَلَكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ ، وَقَلْبِكَ غَيْرِ الثَّابِتِ ، تَذْخِرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلَانَ دِينُونَةِ اللَّهِ الْعَادِلَةِ . » (روم ٢ : ٤ و ٥)

لَقَدْ اخْتَارَ يَهُودَا بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ الدَّورَ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ النُّبُوءَاتُ وَيَكْمُلُ الْمَكْتُوبُ ، وَاخْتَارَ الْمَسِيحُ لَهُ مَعَ الْإِثْنِي عَشَرَ بِالرَّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ الْمُسَبِّقَةِ لِمَصِيرِهِ وَالدَّورَ الَّذِي سَيَقُومُ بِهِ ، لِيَتِمَّ الْكِتَابُ ! « لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ ، أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ ، لَكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ : الَّذِي يَأْكُلُ مَعِيَ الْخُبْزَ ، رَفَعَ عَلَيَّ حَقِيقَةً » (يوحنا ١٣ : ١٨) . وَالْكِتَابُ الْمَذْكُورُ هُنَا هُوَ الْمَزْمُورُ ٤١ : ٩ : « أَيْضًا رَجُلٌ سَلَامَتِي ، الَّذِي وَثَّقْتُ بِهِ ، آكُلُ خُبْزِي رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَةً » ، وَالْكَلَامُ هُنَا عَلَى اخْتِوْفَلٍ (اقرأ ٢ صم ١٧ : ٢٣) .

« قَدْ جَعَلْتَ قَدَامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ ... فَاخْتَرْتُ الْحَيَاةَ لَكِي نَحْيَا » (تث ٣٠ : ١٩) . وَلَكِنْ يَهُودَا اخْتَارَ الْمَوْتَ دُونَ الْحَيَاةِ . أَنْ يَهْلِكَ إِنْسَانٌ وَهُوَ فِي رَفَقَةِ الْمَسِيحِ وَوَاحِدٌ مِنَ التَّابِعِينَ لَهُ حَتَّى النِّهَايَةِ ، لَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ « ابْنًا لِلْهَلَاكِ » . لَقَدْ اخْتَارَ يَهُودَا أَنْ يَهْلِكَ مِنْ أَعْلَى وَأُمَيِّزَ مَوْضِعَ لِلْأَمَانِ وَالْخَلَّاصِ !! وَلَا عَشِيبَ عَلَى الْمَخْلُصِ ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ قَدْ اخْتَارَ الصَّلِيبَ لِنَفْسِهِ ، فَلَا عَيْبَ أَنْ يَخْتَارَ أَدَوَاتِهِ !

١٣ : ١٧ « أَمَّا الْآنَ ، فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ ، وَأَتَكَلَّمُ بِهَذَا فِي الْعَالَمِ ، لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَجِي كَامِلًا فِيهِمْ » .

الْمَعْنَى هُنَا جَمِيلٌ وَعَمِيقٌ لِلْغَايَةِ . فَالْمَسِيحُ عَلَى الْأَرْضِ يَتَكَلَّمُ ، وَلَكِنْ مِنْ مَنْطَلَقِ تَكْمِيلِ الرِّسَالَةِ ، وَهُوَ فِي حَالَةِ التَّأَهُّبِ لِتَرْكِ الْعَالَمِ وَالْإِنْطِلَاقِ إِلَى الْآبِ . فَالْكَلَامُ يَأْخُذُ طَابِعَهُ الْأُخْرَوِيَّ . وَالتَّلَامِيذُ يَسْمَعُونَ حَدِيثَ السَّمَاءِ وَكَأَنَّهُ تَمُّ فِي السَّمَاءِ . وَالْمَسِيحُ يَقْصِدُ هَذَا قَصْدًا ، حَتَّى يَشْعُرَ التَّلَامِيذُ بِوُجُودِهِمْ فِي حَضْرَةِ الْإِبْنِ وَالْآبِ . فَالْكَلَامُ يَخْصُصُهُمْ . وَوُجُودُهُمْ فِي حَضْرَةِ الْآبِ ، يَسْمَعُونَ الْإِبْنَ مُتَكَلِّمًا عَنْهُمْ ، يَسْأَلُ وَيَطْلُبُ مِنْ أَجْلِهِمْ هُوَ بَعِينُهُ عَيْنُهُ مِنْ وَجُودِهِمُ الْأُخْرَوِيَّ الْمَزْمَعُ أَنْ يَكُونَ ، الَّذِي يَشْلُدُهُمُ بِالْفَرَحِ الْآخِرِ أَوِ الْأُخْرَوِيَّ ، وَهُوَ الْفَرَحُ الْكَامِلُ فِي طَبِيعَتِهِ الْأُخْرَى ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ

أَغْلَسْتَهُمْ بِهِ : «اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً» (يو ١٦: ٢٤)، والآن هو يطلب، وهم بالسُّرُّ يأخذون، ليكون فرحهم كاملاً فيهم!

ومعروف في التقليد اليهودي أن الفرح لن يكون فرحاً كاملاً، إلا في أيام المِسيَّا! ولكن هنا فرح أعظم، وهو فرح الابن حينما يستودعه تلاميذه بأن يسلمهم إلى حِفْظ الآب القدوس.

فرح المسيح الخاص، الآن يبلغ ذروته وهو يترك العالم ذاهباً إلى الآب، وهو هو نفس الفرح الذي يريد أن يُسِيرَ به لتلاميذه عَبْرَ هذه الصلاة. إذ، وهم محفوظون ومحروسون في اسم الآب، يكونون وكأنهم قد انتقلوا من هذا العالم إلى الآب، أو بالحري انتقلوا من الموت إلى الحياة. ولم يَعْذُ للعالم سلطانٌ عليهم!

هنا يطيب لنا أن نقول للقارئ، إن هذا اختبارٌ حيٌّ يبلغه الإنسان بالصلاة، حينما ينطلق بروحه نحو الآب والمسيح، تاركاً العالم خلف ظهره، حيث يكون لسان حاله : «مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ، وَمَعَكَ لَا أُرِيدُ شَيْئاً فِي الْأَرْضِ.» (مز ٧٣: ٢٥)

د - محنة التلاميذ في العالم:

١٤: ١٧ «أنا قد أعطيتهم كلامك، والعالم أبغضهم، لأنهم ليسوا من العالم، كما أنا أنا لست من العالم.»

«كلامك» : τὸν λόγον «كلمتك» بالذكر:

المسيح يشدد على «أنا ἔγω» باعتبار وجوده الكامل، مشيراً بذلك أن استعلان كلمة الله حَقُّه بذاته وفي ذاته. ولما قَبِلُوا استعلان الآب وكلمته، و«تَقَوُّوا من ضعف» (عب ١١: ٣٤)، وظهروا أمام العالم بشخصيتهم الجديدة وكلمة الآب في فهم، أبغضهم العالم بُغْضاً بائناً قاطعاً، إذ لم يَعْذُ لهم شكل العالم ولا لغته!!

وهكذا إذ صارت لهم هياتهم الأخروية الجديدة، نبذهم العالم، وعزَّهم وأبغضهم، لما اعتزلوا هم العالم وأبغضوا أعماله. ولكن هذه هي بعينها هيئة الرسولية في العالم. جماعة تحيا الحياة الجديدة التي تستمدّها من الله، مولودين ولادة جديدة أخرى من فوق بالروح من خارج العالم، ولكنها تعيش على دَرْبِ الصليب المؤدي إلى الحياة الأبدية إلى فوق، ولكنها تبقى في العالم لتتلقى

منه الضربات الموجعة، لأنها ليست من شكله ولا تتكلم لفته. هذه هي محنة الرسولية المحبوبة عندهم: «ودعوا الرسل، وجلدوهم وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُسِبُوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع ٥: ٤١و٤٠). وهذه المحنة عينها ورثتها الكنيسة عبر الدهور فَرِحَتْ في الضيقات، تفتخر بآلامها من أجل اسمه، ككنيسة رسولية، لها سمات الرب يسوع، كأغصان مشبته في الكرمة الحقيقية التي جذرها في السماء. وقد حَسِبَ خادم المسيح أن خدمته أفضل، إن كان يتلقى إزاءها ضربات أو قرا!

+ «ولكن الذي يجترىء فيه أحد أقول في غباوة أنا أيضاً أجترىء فيه ... أهتم بخُدام المسيح (الرسل)؟ أقول كمختلُّ العقل: فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر، في الضربات أوفّر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمسَ مراتٍ قبلتُ أربعين جلدة إلاً واحدة، ثلاث مراتٍ هُزِبتُ بالعِصِيّ، مرةً رُجِمتُ، ثلاث مراتٍ انكسرتُ بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (المياه)، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطارٍ من جنسي، بأخطارٍ من الأمم، بأخطارٍ في المدينة، بأخطارٍ في البرية، بأخطارٍ في البحر، بأخطارٍ من إخوة كذبة، في تعب وكدٍّ في أسفارٍ مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وعُري.» (٢ كو ١١: ٢١-٢٧)

ويلاحظ في هذا السجل الافتخاري بالآلام، أن بعضها كان بفعل الأعداء المقاومين لإنجيل المسيح، ولكن بعضها أيضاً ساقه عليه رئيسُ هذا العالم بنوع من التعقُّب والانتقام. فالذي ينسحب من هيئة هذا العالم ليحيا لله، يدخل مباشرة في مواجهة سافرة مع العدو وأتباعه.

لقد وُهب للكنيسة أن تتألم، إنها الشركة السرية مع المسيح في آلامه، التي هي سمة المفدين والمعيّنين للحياة الأبدية، إنها إكليلُ المجد الذي سيوضع على رؤوس الذين يصبرون إلى المنتهى نظير إكليل الشوك الذي يتلأأ الآن على رأس المسيح، وهو جالس عن يمين العظمة في السموات.

إنها الزوفا التي يغسلنا بها المسيح الآن من قَدَرِ العالم، لنؤهلَ لِمَسحةِ الدم والخلاص.

المسيح هنا في هذه الآية، يدافع عن تلاميذه وكل المضطَّهدين من أجل اسمه، الذين سيُشربون من كأس آلامه واضطهاده. المسيح هنا شفيع حقيقي، وباراكليت شرعي، له حقُّ الدفاع، لأنه حاملٌ ثوبِ المحاماة المغموس بدم صليبه، فهو وحده له حق إقامة الدعوى والخصومة ضد العالم.

الذي قتله بالفش والكذب والخداع، وذلك لحساب كل الذين يدخلون شهوداً لآلامه وصلبيه. فقضية الصليب مرفوعة حتى إلى نهاية الدهر، والشهود يتوارثون الشهادة جيلاً بعد جيل: «تكونون لي شهوداً» (أع ١: ٨)؛ «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً.» (يو ١٥: ٢٦ و ٢٧)

١٥: ١٧ «لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير».

حين أعيى إيليا النبي من اضطهاد إيزابل، «سار في البرية مسيرة يوم، حتى أتى وجلس تحت رَتمَةً، وطلب الموت لنفسه، وقال: قد كفى الآن، يا رب، خذ نفسي، لأنني لست خيراً من آبائي» (١ مل ١٩: ٤). ليست هكذا خدمة الرسولية والبشارة المفرحة بملكوت الله والمناداة بإنجيل الخلاص!!

المسيح هنا يوعّي التلاميذ بصلاته، حتى لا يقعوا في خطأ إيليا، فلا يكلّوا في الضيقات: «كسي لا يتزعزع أحد في هذه الضيقات، فإنكم أنتم تعلمون أننا موضوعون لهذا. لأننا لما كنا عندكم، سبقنا فقلنا لكم إننا عتيدون أن نتضايق، كما حصل أيضاً وأنتم تعلمون.» (١ تس ٣: ٤ و ٣)

«(من الشرير)» ἐκ τοῦ πονηροῦ ، وفي اللاتينية Ex malo :

في اللغة اليونانية لا يتضح من هذه التسمية «الشرير»، نوع الجنس إن كان مذكراً أو مؤنثاً. ولكن الذي أخذ به معظم العلماء، أنه مذكّر وأنه يقصد الشيطان بالذات، رئيس هذا العالم، لأن الشر في العالم نابع من سيطرته على نفوس الناس: «والعالم كله قد وُضع في الشرير» (١ يو ٥: ١٩). والاصطلاح «(من الشرير)» = ἐκ τοῦ πονηροῦ واضح. «(وفي الشرير)» = ἐν τῷ πονηρῷ ، هو المقابل لعبارة «(في المسيح)» ἐν Χριστῷ . فكما يعيش المؤمنون في دائرة قوة المسيح وحفظه، يعيش الآخرون في قوة الشرير وإغرائه. ومعروف أن علاقة الإنسان بالشر هي علاقة شخصية. والمسيح، وهو عالم بأصل الشر ومصدره، يصلي أن يحفظ الآب أولاده من سلطان وتأثير الشرير المخادع والمقتحم، ليس فقط من جهة أعماله الظاهرة، بل ومن سلطانه الخفي غير المنظور، حتى لا يقع أحد في حباله: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢ كو ٢: ١١)

وحينما يضع المسيح هذه المقابلة بوضوح بين «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير»، فهو يؤكد رسوخ الكنيسة في العالم، كمكان عملها الوحيد، الذي ينبغي أن تتعاطاه بفرح في وسط الضيقات، كما يقول بولس الرسول: «تعلمون أننا

موضوعون لهذا» (١ تس ٣: ٣). والعالم، كما أنه مركز الشر، هو أيضاً بالكنيسة مركز الشهادة.

وحينما يقول: «بل أن تحفظهم من الشرير»، فهو يؤكد عمل الخدمة الرسولية في وسط الشر وتجاه الشر وفي وسط الأشرار، دون الرضوخ للشر أو التنازل معه أو إليه. فالحفظ من الشرير لا يعني الهروب من مواجهته، بل الهروب من إغرائه وإغوائه.

وصلاة المسيح من أجل التلاميذ أن يحفظهم الآب من الشرير، مرادفة لما جاء في الصلاة الربانية التي علمنا فيها المسيح أن نطلب النجاة من الشرير. وهو أيضاً تراث يهودي استلمه اليهود من يعقوب أب الآباء في دعائه للبركة على أولاد يوسف: «الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم، الملاك الذي خلصني من كل شر، يبارك الغلامين...» (تك ٤٨ : ١٥ و ١٦). وقد دخل الكنيسة منذ البدء كدعاء رسمي سجلته لنا الديدأخي — والديدأخي هو كتاب «تعليم الرسل الاثني عشر» (١٠٠م — ١٥٠م) اكتشف سنة ١٨٨٣م — في الصلاة الليتورجية على القربان: الباب العاشر بند ٥: [أذكر يا رب كنيستك، وأنقذها من كل شر، واجعلها كاملة في حبك].

وفي قول المسيح سابقاً: «احفظهم في اسمك»، وقوله هنا: «احفظهم من الشرير» ترابط شديد. فالاسم القدوس يحيط النفس بجو القداسة، وبستار الطهارة يخفي عن عينها الشر، ويبطل قوة العدو وسهامه فلا تصيبها. ولكن «احفظهم من الشرير» لا ينحصر المعنى في الحماية، بل ويمتد ليشمل المقاومة حتى الموت، لأن الأخطر أن ينهزم الإنسان أمام سطوة الشرير فيضع حداً لجهاده المبرر ضد الشر، فيقبل غوايته منهزماً، ويخضع لمطالبه. لذلك، فدعاء المسيح لتلاميذه بالحفظ من الشرير يؤمن شهادتهم للمسيح، حتى ولو بلغ الضيق حد الموت: «لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢: ٤). فكلما تعاظم الضيق، تعاظمت الشهادة: «فلما سمعنا هذا، طلبنا إليه نحن والذين من المكان أن لا يصعد إلى اورشليم. فأجاب بولس: ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي؟ لأنني مستعد ليس أن أربط فقط بل أن أموت أيضاً في اورشليم، لأجل اسم الرب يسوع» (أع ٢١: ١٢ و ١٣)، «وفي الليلة التالية وقف به الرب وقال: ثق، يا بولس، لأنك كما شهدت بما لي في اورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضاً.» (أع ٢٣: ١١)

وقد كان! وأصبحت المصادمة مع الشر فرصة عظيمة للشهادة.

هـ - المسألة المطلوبة من أجلهم :

١٦ : ١٧ «لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ» .

هذا تكرار يُقصد به التعقيب على الآية السالفة والتمهيد للآية القادمة : فاحفظهم من الشرير، لأنهم ليسوا من العالم — كما أنا — ولأنهم ليسوا من العالم، قدّسهم في الحق، حتى يُحفظوا من الشرير، و يغلبوه كما غلبت !

وهنا «ليسوا من العالم» تعني أن حياتهم ورجاءهم وحبهم وفكرهم شاغل أصبح من الله، وفي الله، وليس من العالم، أو في العالم. هنا أصبح الحفظ حقاً لهم، والتقديس جزاءً واجباً يستحقونه. وقوله أنهم «ليسوا من العالم كما أنني أنا لست من العالم»، يوضح أنهم استمدوا من المسيح هذا الكيان الفائق، أنهم أغصان مشبّعة في الكرمة، وهو تلميح للاتحاد الكائن في المسيح بالتجسد، كيف حصل فيه الإنسان على الانتماء الكلي لللاهوت !!؟

وهكذا انفتح الباب أمام البشرية أن تتحد بالله وتنجو من التبعية للعالم كياناً وفكراً وعملاً وهدفاً : «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في ٣ : ٢٠)، «فإن كنتم قد قُسمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق» (كو ٣ : ١)، «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً.» (في ١ : ٢٣)

١٧ : ١٧ «قَدْسَهُمْ فِي حَقِّكَ، كَلَامُكَ هُوَ حَقٌّ» .

«قدّسهم في الحق» : ἀγιάσον... ἐν τῇ ἀληθείᾳ

الترجمة العربية جاءت بتصرف، فالأصل اليوناني هو : «قدّسهم في الحق»، وليس «قدسهم في حقك»، أي دون إضافة.

الطلبية الأولى التي طلبها المسيح للتلاميذ كانت : «احفظهم في اسمك»، و «أن تحفظهم من الشرير»، على أساس أنهم ليسوا من العالم، وهم باقون في العالم. هذه الطلبية في حدود العالم : «لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (١٧ : ١٥)

الطلبية الثانية : أن «قدّسهم في (حقك) الحق». هنا الطلبية جاءت خارج حدود العالم. الحقيقة هنا عميقة وممتدة، فالمسيح يطلب لتلاميذه من الآب الثقلّة العظمى لكيانهم الشخصي، من تبعيتهم للعالم إلى تبعيتهم لله، لتنتقل حياتهم وأفكارهم ورغباتهم وتعلقاتهم من عالم الشهوات

والماديات التي كانوا مرتبطين بها ومنفعلين لها، إلى حياة «الحق» ἀλήθεια ، التي منها وبها تشغلي الأفكار والرغبات والتعلقات لخدمة الله، حيث يتصفى الجسد بتقديس الروح ويتنحى من القيادة العشوائية، ليعطي للنفس المتحررة من ربة العالم والماديات القدرة على السيادة والحركة والانطلاق لتكميل خدمة المسيح الكفارية، بالبذل على مستوى المحبة المتطهرة.

المسيح يدرك عمق وخطورة هذه الطلبة التي نوه عنها فيما يخص نفسه قائلاً: «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجدف، لأنني قلتُ إني ابن الله» (يو ١٠: ٣٦). لقد قدسه الآب قبل أن يرسله، بأن أعطاه اسمه القدوس، وبالمعنى اللاهوتي الكامل أعطاه وجوده وحضرته بالكامل: «الآب الحال في» (يو ١٤: ١٠)، «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع "لكلامي" الذي يتكلم به "باسمي" أنا أطلبه.» (تث ١٨: ١٨ و ١٩)

وها هوذا نفسه يطلب لتلاميذه أن يقدسهم الآب!! فلننتبه إلى علو وخطورة هذا الطلب: «قدسهم في حقك»، ثم يردف الطلبة حالاً بالإرسالية على مستوى تقديسه وإرساله هو: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم.» (يو ١٧: ١٨)

هنا يربط المسيح بين تقديس الآب له، وتقديس الآب لهم؛ هذا التوازي يحمل معاني كبرى؛ كذلك فهو قائم على أساس إرسال الآب له كما على إرساله لهم!! وهنا التوازي في الإرسالية خطير، بل ويزيد الأمر ربطاً وانسجماً وخطورة حينما يضيف أيضاً ومباشرة قائلاً: «ولأجلهم أقديس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو ١٧: ١٩). الآب يقدسهم بالروح وهو يقدسهم بالدم!! أما تقديس المسيح لهم بالدم فمعروف، أما تقديس الآب فهو سر من الأسرار العالية.

والأمر، يا قارئ العزيز، تتعدى أهميته وخطورته حدود تلاميذه، فهو إنما يعلن بهذا قداسة الكنيسة وإرساليتها في العالم على أساس تقديس الآب والابن لها، فهو يطلب لها تقديس الآب من فوق من الأعالي لتصير كنيسة السماء على الأرض مُتَّعِبَةٌ ولكن محفوظة بالدم، على أساس تقديس نفسه لها، حتى تبقى في العالم، وهي ليست من العالم، ويكون لها قوة وسلطان الله الآب والابن في تقديس أولادها واحداً فواحداً وواحدة فواحدة، لحفظهم من الحياة بحسب دنيا الفرور والشرور والماديات والشهوات والجسد، ثم نقلهم إلى الحياة بالروح في تقديس الحق.

ما هو تقديس الحق :

إن صلاة المسيح لدى الآب من أجل تقديس التلاميذ، والكنيسة بالتالي، هي مُبتدأ الأسرار، فهذا هو سر التقديس الأعظم الذي انحدرت منه ومقتضاه كل الأسرار.

والتقديس في الحق هو بحد ذاته التخصيص لله وللحياة الأبدية، أو هو الانتقال من الخضوع والانفعال لأعداء الحق الثلاثة، العالم والجسد والخطية، ورأسها الشيطان أبو التزييف والكذب، إلى الحرية، حرية أولاد الله، من كل صور وخداعات العالم المتركة في الخطية المتسيطرة بالغش على الجسد، بتزييف أوهام يفرسها الشيطان في الفكر والتصور والعاطفة، لينخدع لها الإنسان ويقبلها، فينطوي تحتها كعبد: «إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيئَةِ.» (يو ٨: ٣٤)

الحق: الله هو الحق الكلّي، والمسيح هو الحق، والروح القدس هو روح الحق. الحق واحد، بسيط، لا ينقسم أبداً، ولا يُرى منقسماً على ذاته.

العالم: «العالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١ يوح ٥: ١٩). وهكذا بسبب تزييف الشيطان لكل ما هو حق فيه — لأنه لا يملك العالم بالحق، ولكن يملكه بالغش، ويملك الغش الذي فيه!! — لذلك جعله مركز الانقسام والازدواج الصارخ فأصبح الخداع يحيط العالم، ويتغلغل أجل ما فيه. فالجمال مثلاً: كل جمالي تتربص به الخديعة لاصطياد الجُفَّال. والفرح؛ كل فرح سرعان ما ينقلب إلى حزن، والفرح الذي لا يدوم هو خداع، والفرح الذي ينقسم على ذاته ويتحول إلى حزن يكشف عنصر الخداع في الفرح والحزن كليهما. لذلك يقول المسيح، فاضحاً عنصر الخداع في الفرح الذي يعطيه العالم، هكذا: «ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ قَرَحَكُمْ منكم» (يو ١٦: ٢٢). وعلى مستوى الفرح، يعطي المسيح السلام: «سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو ١٤: ٢٧)

هنا يكشف المسيح الازدواج المؤلم في السلام الذي يعطيه العالم، فهو سرعان ما ينقلب إلى قلق واضطراب وضيق يخلق النفس. وهكذا فالسلام الذي يمكن أن ينقلب إلى كآبة، هو خداع، السلام والكآبة كليهما.

والجسد: هو ملتقى الخداع الذي يبثّه تزييف رئيس هذا العالم: «فإني أُسَرُّ بناموس الله، بنحسب الإنسان الباطن، ولكنني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني، ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. وبحي أنا الإنسان الشقي مَنْ يَنقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟» (رو ٧: ٢٢-٢٤)

وبنظرة واحدة مرتفعة عن العالم، نرى كيف ينتهي الجسد و يؤول إلى فساد و تراب، فيتضح مدى الخداع الذي عاش فيه بين الصحة والمرض، والغنى والفقر، والشبع والجوع، والعطش والإرتواء، والعلم والجهل، والمتعة والحرمان، والريضى والغضب، والاطمئنان والخوف، والنور والظلمة وأخيراً الحياة والموت؟ فبنظرة من الأعالي، ترى الروح وهي في مقرها السماوي مدى زيف هذا الازدواج المؤلم الصارخ الذي يعبت بالانسان و يظنه الإنسان، وهو واقع تحته، أنه حق، وهو الخداع والسراب، عين الخداع وعين السراب!!

ولكن ليس وحدها العين الروحية للنفس وهي في السماء تكتشف هذا الخداع، بل وعين الإنسان الذي تقَدَّس بالحق هنا على الأرض، ودخل مجال تقديس الآب والمسيح، فقد أُعْطِيَ له أن يرى مهزلة هذه الازدواجية، ولكن أُعْطِيَ أن يعيش فوقها، ويراها، ولكن لا يُمَسِّكُ منها؛ يعيشها، ولكن لا تعيش فيه، لأنه يحيا الحقيقة، يحيا النور الدائم والفرح الدائم والسلام الدائم، يأكل الخبز السماوي الباقي إلى الأبد، «المأكل الحق»، فلا يجوع أبداً، ويشرب ماء الحياة ودم الخلاص المحيي فيرتوي أبداً ولا يعطش أبداً لأنه «المشرب الحق». و يحيا حياة الأبد، لا يخشى الموت وما يؤدي إلى الموت، فلا يموت أبداً «فقد انتقل من الموت» الخداع «إلى الحياة» الحقيقية التي ليس فيها موت أو خداع. والحق يعلو الزمن، وكل ما يغيره الزمن، وكل ما يفنيه الزمن. وهذا تاج الإنسان الذي قَبِلَ تقديس الآب والمسيح.

المسيح حينما أكمل كرازته، وضمن خلاص الإنسان وتحريره من الخطية وخداع العالم، قال قولته الغالية: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً» (يو ١٢: ٣٢). دينونة العالم يعني الحكم على الخداع والتزييف الذي فيه، بظهور الحق الإلهي، وبدء عمله على مستوى الإنسان. أما طَرْحُ رئيس العالم خارجاً، فهو بعينه عَزْلُ قوة التزييف، واستعلان قوة الحق التي بدأت تُفَرِّزُ الكذب والغش الذي يلفُّ به الشيطان الخطية، والتي بها قتل الإنسان لذلك دعاه المسيح: «مُتَّالاً للناس من البدء.» (يو ٨: ٤٤)

وهكذا، وبعد أن قال المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم» (يو ١٦: ٣٣)؛ صَلَّى إلى الآب قائلاً: «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته» (يو ١٧: ٤)، وعليه فقد استطاع أن يتقدم بطليسته العظمى الآن: «قَدَّسْهُمْ فِي حَقِّكَ»، بمعنى أن يملك الحق فيهم، فلا ينجذبوا قط إلى العالم، بل بالحري يكونون نوراً للعالم يبدد ظلمته الخادعة، ومُضَدَّرَ توبيخ يفصح أكاذيبه: «ولا تشركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحري وبُخوها.» (أف ٥: ١١)

تقديس الحق: ليس هو إجراءً ظاهرياً، بل هو انفتاح الوعي الداخلي للإنسان بقوة الروح الذي يسكبه الآب على التلاميذ، والذي كان يومَ الخمسين قَمَّةَ استعلانهِ. الوعي المسيحي بعمل الروح القدس، يعمل على رفع رؤية الإنسان وإدراكه، فهو بسهولة يكشف كلَّ خداع العالم والشيطان: «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢ كو ٢: ١١)، وبالتالي، فهو يصبح قادراً على أن يتعامل مع الظلمة بكل أفكارها وأدواتها، يدركها منذ أول حركتها، ويطاردها، ويطردها، لأنه يكشف زَيَّفَها وخطورتها وعدمها: «قاوموا إبليس، فيهرب منكم» (يع ٤: ٧)، هروب الظلمة أمام النور. لذلك، فالذي يسلك في الحق، يغلب العالم! «فرحت جداً لأنني وجدتُ من أولادك بعضاً سالكين في الحق، كما أخذنا وصية من الآب.» (٢ يو ٤)

القديس يوحنا أدرك قوة الحق وفعله ودخوله إلى العالم بالمسيح: «لأجل هذا أظهر ابن الله، لكي يَنْقُضَ أعمال إبليس.» (١ يو ٣: ٨)

«النور»:

وهو التعبير عن الحق في أوسع معانيه، مُشَخَّصاً في المسيح يسوع، وقد جاء إلى العالم، فارتكز الحق على الأرض ارتكازاً أبدياً مُشَخَّصاً وَمُسْتَقْلَناً في المسيح وكلمته وأسراره وإنجيله وكنيسته.

ولكن الحق ليس كالكذب، وليس كالخداع الذي يُغوي الجاهل، فالحق لا يستهوي إلا مَنْ انفتحت بصائرهم، فاستجَلَّتْ النور في مصدره، أما الذين يستهويهم الزَيْفُ والوهم والكذب والحق المغشوش، فلا يرون في النور نوراً بل حرماناً للمذات وهمية مائتة: «النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يو ٣: ١٩). فالإنسان الأعمى لا يرى إلا ما هو تحت رجله!!

وليس الانجذاب إلى الخداع هو قطعة مع النور فحسب، بل إنه ولكي ينفضح عنصر الكذب والكذاب الذي فيه، فإن مُحِبَّ الظلمة تجده باغضاً للنور أيضاً: «لأن كل مَنْ يعمل السيئات يُبغض النور، ولا يأتي إلى النور (الصلاة، الكنيسة، خدام الله) لئلا تُوَبَّخَ أعماله.» (يو ٣: ٢٠)

ولا يمكن أن يتقابل الحق مع الكذب والخداع، أو صاحب هذا مع صاحب ذاك، فهذا كأس حياة وهذا كأس موت، ولا يمكنك أن تجمع النور مع الظلمة؛ ليس لأن الظلمة شيء أو لأن الكذب شيء، بل لأنه هو اللاشيء، وحتماً يؤول إلى العدم. الظلمة والكذب تأخذ وجودها الكاذب خلف الحق، فهي قائمة لأنها تزَيِّف الحق وتزَيِّف النور، ولولا النور ما كانت ظلمة، ولولا الحق ما كان كِذْبٌ. فإذا عَمَّ الحق والنور يوماً، تلاشى الكذب والظلمة حتماً!!

«الله نور، وليس فيه ظلمة البتة» (١ يوحنا ١: ٥). هذا يقيناً، فهو الحق كل الحق. فالنور والحق ليسا صفات لله بل هما طبيعة قائمة فعالة فيه. فلا وجود للحق بدون الله، فهو صاحبه الوحيد. فالحق والنور قوى إلهية لا تُدرك قط في طبيعتها، لأن مَنْ ذا الذي يدرك طبيعة الله؟ وإنما نحن ندرك فعلها في الإنسان: في فكره، فينعكس النور على عقل الإنسان الواعي للمعرفة الفائقة فيخضع الإنسان أمام الله؛ وفي قلبه وروحه، فتنتطبع المحبة، التي هي محصلة فعل النور مع الحق، فينجذب قلب الإنسان نحو الله. لذلك «إن قلنا إن لنا شركة معه — (ومسيرة ومعرفة لله) — وسلكنا في الظلمة، نكذب ولنسأنا نعمل الحق» (١ يوحنا ١: ٦)، «مَنْ قال إنه في النور، وهو يبغض أخاه، فهو إلى الآن في الظلمة... وفي الظلمة يسلك، ولا يعلم أين يمضي، لأن الظلمة أعمت عينيه.» (١ يوحنا ٢: ١١ و٩)

ثم ما هو سلام الله الكامل؟ إلاً حينما يملك الحق بالكامل؟ وما هو الإلتضاع الحقيقي إلاً حينما يُستعلن النور في قمة قوته؟ ثم ما هي القداسة أو التقديس إلاً حينما تُستعلن طبيعة الله بمفاعيلها، فتحول طبيعة الإنسان القابلة للخداع والتزييف، إلى طبيعة محصنة بالحق وقوته، وبالنور وقوته، فلا يعود الإنسان يُحمَلُ بكل ربح، بل يثبت في الله: «الله محبة، ومَنْ يثبت في المحبة، يثبت في الله والله فيه.» (١ يوحنا ٤: ١٦)

أما الحق، وأما النور، فقد استعلننا للعالم في شخص يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» (يوحنا ٨: ١٢)، «أنا هو... الحق...» (يوحنا ١٤: ٦)، بالقوة في الأعمال الإلهية، وبالفعل في حياة شخصية ملؤها الحب الذي بلغ قمته في الصليب وفي أعمال المسيح وحبّه المبذول، استعلنت أبوة الله فيه واستعلنت بُشُوتُه الفريدة لله، فكانت قمة الحق الذي عرفناه، فتحررنا من الخطية التي ملكت علينا، ومن الشيطان الذي أَقْسَدَ وَغَيَّبَنَا، ومن العالم الذي زَيَّفَ الحق في أعيننا، هذا عندما فدانا الابن بدمه، وكفَّرَ عن كل ذنوبنا، وجعنا في جسده، ووَحَّدَنَا وَقَدَّمَنَا إِلَى اللَّهِ أَبِيهِ، فَتَبَّنَّا.

ومن جهة هذا التحصيل الحاصل، يقول ق. يوحنا: «إننا نحن من الله، والعالم كله قد وُضِعَ في الشرير. ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح» (١ يوحنا ٥: ١٩ و٢٠). هنا يكشف ق. يوحنا قُطْبَيَّ الحق والخداع، في مواجهة. ثم يختم على استعلان معرفة يسوع المسيح هكذا: «هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١ يوحنا ٥: ٢٠). نعم، فقد وَضَحَ أن المسيح هو الإله الحق بسبب الحق الذي استعلن فيه لنا — إذ لم يوجد فيه غش، وإذ قام من الأموات ونِلْنَا منه خلاصاً ونصرة على العالم: «مَنْ هو الذي يغلب العالم، إلاً

الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١ يوه: ٥). والحق الذي استعلنه المسيح وعاشه، أعطاه كما عاشه، فأثبت بالفعل أنه هو الإله الحق، لذلك يضع ق. يوحنا مقابل المسيح الآلهة الكاذبة بفشهم المفسود: «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح... أيها الأولاد، احفظوا أنفسكم من الأصنام آمين» (١ يوه: ٢٠ و ٢١)، وما الأصنام إلا أدوات عبادة الشيطان: المال بأجاده الكاذبة، والملذات، والشهوات التي حللتها العبادة المغشوشة.

عبد الخطية المتعبد للملذات الجسد وشهوات النفس الجسدية، العائش في دنيا الأوهام، يشعر بنفسه شعوراً محدوداً ضيقاً وكأنه محصور في الجسد ودنيا الأطماع والجسديات. أما الذي تقدس بالروح لله وعبادته واستعلن له الحق، فإنه يشعر وكأن نفسه وروحه قد تحررتا من ضيق الجسد وانحصار أطماعه ورغباته وملذاته الكاذبة، فلا يعود للجسد وجوده الطاغى وكأنه كل شيء، بل وتفقد الآمال والأطماع والملذات والشهوات جمالها المخادع، وتنحط قيمتها وتنحصر في عين الروح، وتنحط حتى تصبح تحت قدميه، فتبدو مُبْتَذَلَة يحيطها الندم، وتسرح الروح حُرَّة في عالم الله الواسع، يقودها روح الله من حق إلى حق ومن سمو إلى سمو، فتكبر النفس مع الحقيقة وتتسع مع الحق، فلا تعود الدنيا تَسْعُها باتساع آفاقها، إذ يبدأ الخلود ينبض في القلب فترتفع مُدْرَكَات الروح، وتدخل في غبطة استعلانات الله، وهي تمتد نحو مصدر الخلود والحياة الحقيقية. وهكذا تبدأ النفس تخلع أردية أوهامها السابقة، وتندم وتتأسف على الشاعر الكاذبة التي لصقت بها، وتخلع أرديتها المزيفة من القلق والضيق والغضب والحسد والحقد والنقمة والخصام والتهديد والوعيد والحزن والكآبة مع الفرح الكاذب والتهليل المصطنع والآمال الترابية، التي هي كلها أبناء الزنى الروحي والجسدي ومخلفاته المخزية:

+ «لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحراراً من البر، فأني ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تَسْتَحُون بها الآن. لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الآن، إذ أعتقتم من الخطية، وصرتُم عبيداً لله، فلكم ثمركم للقداسة، والنهاية حياة أبدية.» (روا: ٢٠-٢٢)

وبعد أن قال المسيح عن تلاميذه إنهم ليسوا من العالم كما أنه هو ليس من العالم، عاد وقال: «أما هؤلاء، فهم في العالم، وأنا آتي إليك» (يو ١٧: ١١)، ثم عاد وقال: «ولست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو ١٧: ١٥)

واضح هنا أن التلاميذ كانوا قد بدأوا في الانسحاب من مظاهر العالم الكاذب، فلم تعد هذه

المظاهر مصدر انفعال وقبول وحوار وتمثلك، ولم تعد حواسهم تعمل وفق العالم في غياب الله والحق؛ «وقد حفظوا كلامك» (يو ١٧: ٦)، فصار كلام الله حافظاً لهم، حارساً لانفعالاتهم، متدخللاً إزاء طغيان العدو إذا طغى. هنا تنبهي قوة الحق في كلام الله، تعمل بسلطانها في قلب الإنسان، لضبط القوة المخادعة الشريرة التي دأبت على تخريب طبيعة الإنسان، لضمها إلى سلطان رأس التخريب والخراب.

وهكذا يأتي طلب المسيح من أجل تقديسهم في الحق: «قدسهم في حقك»، لكي يصيروا مكرسين للحق وخدمته، يمسكون بالحياة الأبدية فيصIRON في مأمن من مزيقات عدو الحق. يعيشون في العالم خارج مظاهر العالم وأغلفته الكاذبة، لأنه حينما يتحررون من كذب العالم وخداعه، لا يكون من داع بعد لأخذهم من العالم، بل بالأولى بالعمل فيه بروح الله، وهو روح الحق، لإبطال خداعه: «يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيئَةٍ، وَعَلَى بُرٍّ، وَعَلَى دِينُونَةٍ.» (يو ١٦: ٨)

«كلامك هو حق»:

كلام الحق، أو الكلام الذي هو حق، ليس حروفاً مكتوبة، ولا منطوقة أو مسموعة، ولا مُصَوِّرة في الذهن؛ بل هو إعلان الله للوعي الداخلي للإنسان. وما «الكلمة» إلا مرشد وقائد ومُشير للروح الأمين المصدقة لله، المفتوحة العينين، المستعدة للمقابلة!

«الكلمة» تقود الذهن الملهب بالحُب والوقار لتُدخله إلى حضرة الله الأب، فترسم على صفحة النفس صورة الله ينقشها شعاع نور الحق، فتتعَدَّل النفس، وتبَدَّل وتتصَحَّح وتتقدَّس، حيث تحترق منها كلُّ شوائب الخداع والظنون والجهالة، وكل صور العالم الكاذبة، وتنطبع فيها ملامح الله في القداسة والحق! «كما هو حق في يسوع، أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور (الخداع) $deceit = \alpha\pi\acute{\alpha}\tau\eta\varsigma$ ، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله، في البرِّ و قداسة الحق.» (أف ٤: ٢١-٢٤)

«كلام الله» هو واسطة الدخول إلى الله، «الكلمة» هي باب يفتح على طبيعة الله القدوسة. لا أحد يدخل غير «الكلمة الحق» إلى الله إلا ويتقدَّس. ولكن العبرة ليست في «الكلمة» في حد ذاتها، تلك المكتوبة أو المقرَّوة، ولكن العبرة في النية والقصد والضمير التي بها نقرب «الكلمة» كما يكون الاقتراب إلى الحق. فإن لم يكن القصد هو الدخول إلى الله، وإن لم يكن القصد من الدخول إلى الله هو كشف الحال وتغيير الأحوال، ونوال التغيير، والتقديس حسب الوعد، فالكلمة تفوتنا، ونحن نفوتها: «لذلك يجب أن ننتبه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نفوته»

(عب ١: ٢). فلنعلم، بكل يقين الإيمان والاختبار، أن الكلمة في الإنجيل كانت ولا تزال إلى الأبد مصدر تقديس ملايين من نفوس أولاد الله، الساعين لمعرفة الحق وخدمته: فقد فتحوا الإنجيل برعدة الخطاة، واقتربوا من الكلمة وكأنها كنز الحق، فانفتح لهم الكنز، فاغترفوه، وصاروا قديسين بالحق والعمل والشهادة.

كل هذا، كان السبب فيه ومنشأه وقوته صلاة المسيح من نحو تلاميذه والكنيسة: «قدّسهم في الحق. كلامك هو حق!»! فصار التلاميذ قديسين مقدّسين في الحق. نطقوا الحق، وعلموه، ثم كتبوه، فكان لنا إنجيلاً. ناطقاً بقداسة هؤلاء التلاميذ وبالحق الذي قدّسهم.

١٨: ١٧ «كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم».

تقديس التلاميذ الذي يطلبه المسيح من الآب، يطلبه ليس لكي يترفع به التلاميذ وينعموا، بل ليقتحموا به ظلمة العالم، وليحطموا به أعظم بناء بنته الآلهة الكاذبة لأكبر إمبراطورية ظهرت في العالم، والتي استولى عليها الشيطان كملك وجلس في هياكلها كإله. قداسة التلاميذ لم تزدهم مجداً في عين العالم، بل سخرية وشقاء وبلاء وسجناً وسيفاً وقبر شهادة. كانت إرساليتهم إرسالية آلام. ولكن آلام هؤلاء القديسين كانت كفيلة بأن تهدم حصون الشر. وعلى أنقاض أعمدة الباطل وقبّابه، قامت كنيسة الله، عمود الحق وقاعدته.

المسيح الكلمة، قدّسه الله، وأرسله إلى العالم (يو ١٠: ٣٦) ليشهد لحق الآب، فشهد ودُبح. «هكذا» أرسل المسيح تلاميذه إلى العالم، ليشهدوا وهم تحت حدّ السيف وعلى الصليب عينه.

«كما καθὼς أرسلتني ... أرسلتهم»:

«كما» = «كاثوس» وهي هنا لا تفيد المشابهة، بل تفيد الشرح والتوضيح، حتى إنه لا يصح أن نفصل أبداً إرسال الآب للمسيح عن إرسال المسيح لتلاميذه، فالثانية مشروحة ومستمدة من الأولى. وكما كان لا بد من تقديس المسيح مُسبقاً لكي يُرسل إلى العالم: «الذي قدّسه الله، وأرسله إلى العالم...» (يو ١٠: ٣٦)، كذلك فإن تقديس الآب للتلاميذ كان ضرورة حتمية، حتى يستطيع المسيح أن يرسلهم إلى العالم: «كانوا لك — فقدّسهم في حقك، لكي إذا ما أعطيتهم لي، أرسلهم».

كان نظر المسيح مثبتاً نحو إرسالته التي قدّسه الآب لها، وكان ينظر إلى استمرارها. لهذا أعدّ

منذ البدء الذين سيُرسلهم، اختارهم، وتَلَمَذَهُمْ، وأَعْلَمَهُمْ بكل ما عند الآب، وأسماهم أحياء، لأنه أخذهم من يد الآب: «كانوا لك، وأعطيتهم لي» (يو ١٧: ٦)، كانوا عبيد يَهْوَه الأتقياء، المختارين من نسل المختارين! وصاروا مسيحيين. لقد قَدَّمهم إلى الآب أبيه، كأولادٍ وليس بقَد عبيدًا، جاهزين للتقديس، لأنه كان قد أعدَّ لهم موطنًا آخر، الموطن الذي منه أتى: «هؤلاء (أصبحوا) ليسوا من العالم كما *καθώς* إني لستُ من العالم». ونجح أن ينقل قلوبهم، فلم يمودوا يطلبون وطنهم الأول بل وطنًا أفضل أي سماويًا. ولما أتت الساعة، ونَحَتَمَ الفراق والانطلاق، أوصى الآب أن يقدِّسهم تقديس من يُرسلهم.

وليُنْتَبِه القارئ إلى تسلسل الأفكار. فإن تقديس الآب المُسَبِّق للمسيح، أهله أن يقول: «أنا لستُ من العالم»، وهذا أهله للرسالة. وليس التلاميذ كالمسيح، إذ تحتم أن يصيروا أولاً «ليسوا من العالم»، ليتأهلوا للتقديس، ثم الإرسال.

١٩: ١٧ «ولأجلهم أَقْدَسُ أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مُقَدَّسِينَ في الْحَقِّ».

ليس إنسانٌ قط بمستطيع أن يقول: «أقدِّس ذاتي»، بل ولم يُعْطَ للإنسان قط أن يُقَدَّسَ تقديساً، فالتقديس هو عمل الله وحده؛ لأن التقديس هو أن يصير الإنسان من خاصَّة الله. فالله وحده هو مَنْ يَعْيِّن خاصَّتَه، ويقيمهم تحت ولايته وخدمته ونعيمه. وللإنسان فقط أن يطلب التقديس، ولكن لا يعطيه قط. هو يطلب أن يكون من خاصَّة الله، ويظل يرجو ذلك رجاءً.

أما المسيح، فهو يَرُدُّ على تقديس الله له بأن يستجيب بنفس القَدْر والقصد، فيقدِّس ذاته للآب تقديساً. وهنا، تقديسُ الآب لابن يتساوى مع تقديس الابن نفسه للآب، فهذا بحد ذاته إعلان مساواته في الألوهة؛ بمعنى أنه بقدر ما اختار الآب أن يخصص الابن المتجسد ليمثله في العالم تمثيلاً، بقدر ما استجاب المسيح وقطع على نفسه أن يحيا ويموت له وحده خاصة، وقد أكمل، حتى بحياته يتقدس تلاميذه لله أبيه، باتِّباع تعاليمه ووصاياه التي أخذها من الآب وأعطاهها لهم، ويموتون هم أيضاً عن العالم موتاً، فيتقدمون كذبايح لله وللحق: «وأما من جهتي، فحاشا لي أن افتخر إلاً بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي، وأنا للعالم». (غل ١: ١٤)

في العهد القديم الذي جاء المسيح ليكمِّله ثم يستوفي قصده، كان التقديس لله هو من نصيب البِكْرِ. والمسيح هو بِكْرٌ، بحكم مولده البشري، وبِكْرٌ بحكم قيامته من الأموات حيًّا بالروح القدس، أي بِكْرُ الخليقة الجديدة: البُكُورِيَّة الأولى وضعت تحت حكم التقديس، والبُكُورِيَّة الثانية

أَهْلَتَهُ أَنْ يَقْدَّسَ هُوَ النَّاسَ. كَمَا أَنَّهُ هُوَ بَكْرُ اللَّهِ لِأَنَّهُ الْابْنُ الْوَحِيدُ لِلآبِ لَيْسَ عَنْ وَلَادَةٍ وَلَكِنْ بِالطَّبِيعَةِ، فَالْوَحِيدُ (الْمُونُوجَانِيْسُ) بِالطَّبِيعَةِ هُوَ بَكْرٌ بِالتَّسْمِيَةِ أَوْ اللَّقَبِ: «هُوَ يَدْعُونِي أَنْتَ أَبِي، إِلَهِي وَصَخْرَةَ رِجَائِي. وَأَنَا أَيْضاً أَجْعَلُهُ بَكْراً أَعْلَى مِنْ مَلُوكِ الْأَرْضِ» (مز ٨٩: ٢٦ و ٢٧)؛ «وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ "البكر" إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ وَلِتَسْجُدَ لَهُ كُلُّ مَلَائِكَةِ اللَّهِ.» (عب ١: ٦)

وَالْمَسِيحُ، بِاعْتِبَارِهِ الْبَكْرُ الْمُقَدَّسُ لِلَّهِ، يَقُولُ عَنْهُ سَفَرُ الْعِبْرَانِيِّينَ إِنَّهُ دَخَلَ الْعَالَمَ لِيَصْنَعَ مَشِيئَةَ اللَّهِ حَيّاً وَمَذْبُوحاً: حَيّاً بِطَاعَتِهِ الْكَلِيَّةِ، وَمَذْبُوحاً لِتَقْدِيسِ الْإِنْسَانِ:

+ «عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ — [«مَتَى أَدْخَلَ الْبَكْرُ إِلَى الْعَالَمِ» (عب ١: ٦)] — يَقُولُ ذَبِيحَةً وَقَرْبَاناً (حَيَوَانِيّاً) لَمْ تُرَدْ، وَلَكِنْ هَيَّأَتْ لِي جَسَداً. بِمَحْرِقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلخَطِيئَةِ لَمْ تُسَرَّ. ثُمَّ قُلْتُ (أَنَا) هَآنَذَا أَجِيءُ، فِي دَرْجِ الْكِتَابِ — (مز ٤٠: ٦) — مَكْتُوبٌ عَنِّي لِأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اللَّهِ. إِذْ يَقُولُ أَنْفَافاً إِنَّكَ ذَبِيحَةٌ وَقَرْبَاناً وَمَحْرِقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلخَطِيئَةِ لَمْ تُرَدْ وَلَا سُرِرْتُ بِهَا، الَّتِي تُقَدَّمُ حَسَبِ النَّامُوسِ. ثُمَّ قَالَ: هَآنَذَا أَجِيءُ، لِأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اللَّهِ: يَنْزِعُ الْأَوَّلَ لِكَيْ يَثْبُتَ الثَّانِي: فِيهِذِهِ الْمَشِيئَةُ نَحْنُ مُقَدَّسُونَ بِتَقْدِيمِ جَسَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَرَّةً وَاحِدَةً.» (عب ١٠: ٥ — ١٠)

فَإِذَا فَحَصْنَا هَذِهِ الْإِشَارَاتِ مَعاً بِتَرْتِيبٍ، يَتَضَحُّ مِنْ تَقْدِيسِ الْبَكْرِ لِلَّهِ حَسَبِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَتَعْبِيرِهِ: «إِنَّهُ لِي» (خر ١٣: ٢)، أَنَّ الْمَسِيحَ يَكْشِفُ سَراً كَانَ مَكْنُوناً فِي الْأَزَلِيَّةِ وَخَطِيراً! وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سَبَقَ أَنْ قَدَّسَهُ بِالْمَشِيئَةِ، وَأَرْسَلَهُ لِلْعَالَمِ. ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْمَشُورَةِ الْأَزَلِيَّةِ لِيَكُونَ الْابْنُ الْمُتَجَسِّدُ «مُخَصَّصاً لِلَّهِ فِي الْعَالَمِ» كَمَا رُسِّلَ، وَذَلِكَ لِتَقْدِيسِ الْبَشَرِيَّةِ. هَذَا هُوَ الْمَعْنَى: «فِيهِذِهِ الْمَشِيئَةُ نَحْنُ مُقَدَّسُونَ بِتَقْدِيمِ جَسَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَرَّةً وَاحِدَةً.»

ثُمَّ أَنَّ النَّبُوَّةَ تَأْتِي فِي (مز ٤٠: ٦)، لِتَكْشِفَ التَّمْهِيدَ لِهَذِهِ الْمَشِيئَةِ الْأَزَلِيَّةِ: أَنَّ اللَّهَ رَفَضَ الذَّبَائِحَ وَالْقَرَابِينَ، وَلَمْ يُسَرَّ بِالمَحْرِقَاتِ؛ إِذْ صَارَتْ مَشِيئَةُ الْآبِ مَتَرَكَّةً فِي تَقْدِيمِ الْمَسِيحِ الَّذِي سَبَقَ فَخَصَّصَهُ، أَيَّ قَدَّسَهُ، لِتَكْمِيلِ هَذِهِ الْمَشِيئَةِ، فَهَيَّأَ لَهُ جَسَداً يُكْمَلُ بِهِ هَذِهِ الْمَشِيئَةُ.

ثُمَّ يَعُودُ الْمَسِيحُ وَيَكْشِفُ كَيْفَ طَابَقَ مَشِيئَةُ الْآبِ بِمَشِيئَتِهِ الْخَاصَّةِ الْحُرَّةِ، كَابْنٍ فِي الْأَزَلِيَّةِ، وَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْمَزْمُورِ ٤٠: ٨ بِقَوْلِهِ مَجِيئاً لِمَشِيئَةِ الْآبِ هَكَذَا: «أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلَهِي سُرِرْتُ». أَيَّ أَنَّ مَشِيئَةَ الْآبِ، مِنْ نَحْوِ تَقْدِيمِ الْمَسِيحِ ذَبِيحَةَ عِوَضٍ كُلِّ الذَّبَائِحِ الْمَرْفُوضَةِ الَّتِي لَمْ تَكْمَلْ مَسْرَةً الْآبِ، طَابَقَتْ تَمَاماً وَفِي الْأَزَلِيَّةِ أَيْضاً مَشِيئَةَ الْابْنِ الشَّخْصِيَّةِ فِي تَقْدِيمِ جَسَدِهِ بِمَسْرَةٍ، كَذَبِيحَةِ خَطِيئَةٍ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ. بِمَعْنَى أَنَّ مَشِيئَةَ الْآبِ صَدَرَتْ لِلابْنِ، كَوْصِيَّةٍ مِنْذُ الْأَوَّلِ، وَقَبْلَهَا الْابْنُ فِي الْأَزَلِيَّةِ، وَنَقَّذَهَا بِالْجَسَدِ فِي مَلَأِ الزَّمَنِ كِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.

وَهَكَذَا، وَفِي إِنْجِيلِ ق. يُوْحَنَّا، يَكْشِفُ الْمَسِيحُ عَنِ التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ لِنُبُوءَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّتِي

التقطت صورة مُشَبَّهة لِمَا دار بين الآب والابن في الأزلية، عما سيحدث حتماً في الزمن، وذلك حسب قول المسيح نفسه عن نفسه، أنه حان الزمن ليكمل الوصية، هكذا: «لأجلهم أنا — (الآن) — أَقْدَس ذاتي». ويجيء سفر العبرانيين ليكشف هذه الدراما، في صورتها الأزلية وفي توقيعها العملي على مسرح الزمن، ثم ينتهي بذلك إلى مفهوم التقديس في العهد الجديد: «فبهذه المشيئة نحن مقدَّسون»!! سواء المشيئة بصورتها الأزلية أو بتطبيقها العملي: «بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب ١٠: ١٠). وقول سفر العبرانيين هذا، يوضح بأجلى بيان ما قاله بولس الرسول أيضاً من جهة هذه المشيئة الأزلية في رسالته إلى أفسس: «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين، وبلا لوم قُدَّامه في المحبة، إذ سبق فعَيَّنَّا للتبني، بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته». (أف ١: ٤ و ٥)

كما عاد وأوضحها، بقوة، في رسالته إلى تيموثاوس: «الذي خَلَصَنَا، ودعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع، قبل الأزمنة الأزلية». (٢ تي ١: ٩)

«ليكونوا هم أيضاً مُقَدَّسين في الحق»: ἐν ἀληθείᾳ

يلاحظ أن كلمة «الحق» جاءت في اليونانية في هذه الآية بدون «أل» التعريف، فهي تُرَجَّم ليس «الحق» بل «حقاً» أو «بالحق». يعني ليس تقديساً اسماً، كما كان يجري في العهد القديم بإجراء ظاهري، ولكن تقديس إلهي من عمل الله نفسه. وتقديس التلاميذ الذي يهدف إليه المسيح هو على مستوى تقديس ذاته هو: «لأجلهم أَقْدَس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مُقَدَّسين بالحق»؛ لأن تقديس المسيح لذاته هو صميم الحق. والمعنى هنا عميق وخطير، وهو يرمي إلى أن المسيح قُدَّس حياته تقديساً روحياً لله أبيه؛ وقُدَّس موته: أي أن ذبيحة نفسه قُدَّسها لله خاصة، لا على مستوى الظاهر كذبائح الحيوانات التي كانت تُقدَّم قديماً على مذبح المحرقة المصنوع بالأيدي، بل ذبيحة فائقة في طبيعتها وجوهرها، إلهية، دُمُّها دَمُّ أزلِّي، حيُّ بروح أزلِّي. لذلك كان تكفيرها مطلقاً غير محدود، من جهة فعلها، على مستوى المكان والزمان والحياة. هذا هو تقديس المسيح لذاته في حياته ومماته. وهكذا هو يطلب لتلاميذه أن يكون تقديسهم لله من داخل فعل تقديسه، ليس بالمظاهر والاسم، ولكن بأن يشملهم تقديس ذبيحته، ليُحَسَّبُوا أمام الله الآب مقدَّسين بالحق وقديسين بلا لوم (أف ١: ٤)، لهم رائحة المسيح الذكيَّة لدى الآب (٢ كو ٢: ١٥)، والتي «اشتَمها أبوه وقت المساء على الجِلجثة» (التسبحة اليومية — ثيوتوكية الأحد)، رائحة حياة حياة

(٢ كو ٢: ١٦)!!

ومرة أخرى، يلزم التفريق بين تقديس المسيح لذاته، فهو $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ ، هو «الحق»: هو «الله». أما تقديس التلاميذ فهو بالحق، أو حقاً، فهو إنعام إلهي. وبالمعنى العملي، فإن ذبيحة المسيح أعلنت لاهوته بالقيامة من الأموات، لأنها لم تكن ذبيحة ميتة قابلة للفساد، بل ذبيحة لم ترَ فساداً، حية بلاهوتها للحياة، لذلك صارت مُحيية. أما ذبائح التلاميذ، في حياتهم بالكراسة وفي موتهم بالاستشهاد، فهي ذبائح ناطقة شاهدة "بموتهم" للآب والمسيح. «دماء الشهداء بذار الكنيسة».

ذبيحة المسيح ذبيحة الحق المحيي التي فتحت الطريق إلى الحياة الأبدية. وذبائح التلاميذ والشهداء والكنيسة ذبائح مؤهلة للحياة الأبدية، وخدمتها، أي الكرازة بها. ذبيحة المسيح هي ذبيحة تقديس البكر، بكر الإنسان وبكر الله. فكان هو البكر الذي دخل إلى العالم: «متى أدخل البكر إلى العالم، يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١: ٦)؛ والبكر القائم من الأموات: «الذي هو البداء، بكر من الأموات، لكي يكون هو متقدماً في كل شيء» (كو ١: ١٨). فلذلك، أصبح التلاميذ والكنيسة المنتصرة كنيسة أبكار بالضرورة: «رَبَوَاتُهم محفل ملائكة، وكنيسة أبكار، مكتوبين في السموات» (عب ١٢: ٢٢)؛ لأن قداسة بُكورية المسيح الإلهية شملت — إخوته في الموت — أحبائه الذين أحبوه وماتوا من أجله كما مات من أجلهم: «لأن الذين سبق معرفهم، سبق فعينهم، ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين.» (رو ٨: ٢٩)

والسؤال في الختام، هل صرنا مقدسين في حق المسيح، في ذبيحته وقيامته وحياته؟ إنها لا زالت طليبة المسيح من أجلك ومن أجلي. إنها عطية تُسأل، فتُعطى، وتُدرك بالكلمة والسر والإنجيل، فتعاش. والحق لا يصير حقاً فينا، إلا بالتقديس. والقداسة سيرة، قوامها جُحْد العالم والالتصاق بالله: «نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة.» (١ بط ١: ١٥)

تذكرة:

«المكسور لأجلكم.» (١ كو ١١: ٢٤)

«يُسْفَك من أجل كثيرين.» (مت ٢٦: ٢٨)

هذا الدعاء لتقديس التلاميذ: «قدسهم في حقك ... من أجلهم أقديس أنا ذاتي»، يتسحب على الماضي القريب، على ما تم في سر العشاء، والحبيب جالس وسط أحبته، يُطعمهم لحم آلامه،

خبز السماء الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه ، أو يسقيهم دم تقديسه بيديه ! وبشيء من التعمق في المعاني والمقاصد ، نجد أن كل ما صليّ به المسيح في يوحنا ١٧ ، إنما هو تفسير "مِشْتِيكِي" لِمَا جرى على العشاء الأخير ، في نفس الليلة ، فالرَّبُّبُطُ الروحي الخفي بينهما وثيق !

أما كلمة «السر» التي تصل الفعل التقديسي بالدعاء ، فهي «لأجل» و«من أجل» . فالجسد المكسور بالنية أمامهم ولأجلهم أخذه بالروح وأعطاهم بالسرّ ، كسر آلام ذبيحته ، الآلام الشافية والمُحيية ، وبالروح أيضاً سقاهم دمه المسفوك لأجلهم ، وروحه الأزلي فيه قائم للتقديس ، وهذا وذاك قال لهم إنه يُقدِّمُ «لأجلكم» .

فتقديس المسيح سلّمه لنا في ذبيحته تسليماً ، أكلاً وشرَباً : «مأكلاً حقاً ومشرباً حقاً» . (يو: ٦: ٥٥)

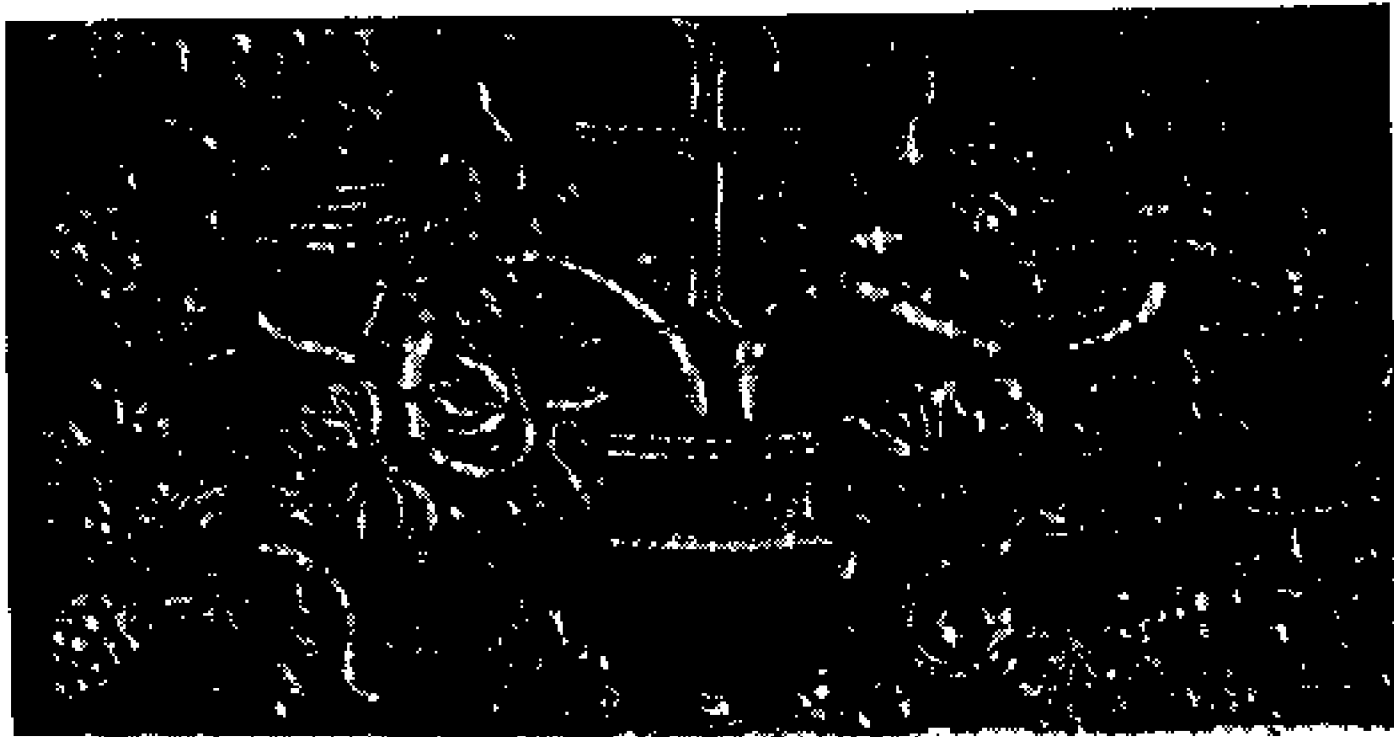
ولكي ينالنا ما نالهم ويكون التقديس لنا كما كان لهم ، قال في دعائه الممتد عبر الدهور : «أنا أَقْدُسُ Ἐγὼ ἁγιάζω» بالفعل الحاضر الدائم ولم يقل «قَدِّسْتُ» . فالأمر لم يكن محصوراً في تمثيل السر أو إعطاء نموذج مرة ، بل سرّه قائمٌ دائمٌ فيه وفينا ، فهو «مكسور κλωμενον» بصيغة المضارع الدائم present participle : «هذا هو جسدي "المكسور"» ، نعم ، المكسور مع كل نفس مكسورة ، و«هذا هو دمي الذي "يُسْفَكُ"» ، أو «المسفوك» ἐκχυννόμενον بفعل مضارع ممتد present participle ، مسفوك مع كل نزيف ينزفه الإنسان إزاء آلام الزمان الحاضر من أجله : «إن كنا نتألم معه ، لكي نتمجد أيضاً معه .» (رو: ٨: ١٧)

وتقديس المسيح أو قداسته هو مثل مجده ومثل بُنُوته لله ، فهذه وإن كانت كلها أزلية إلا أنها استُعْلِنَتْ لنا «لأجلنا» ، لتكون لنا كما كانت له وسواء كانت قداسته ، أو كان مجده أو بُنُوته لله ، فهذه كلها ليست صفات إلهية جامدة فيه static ، ولكنها صفات استُعْلِنَتْ استعلاناً ، كعمل بالنسبة للعالم والإنسان ، وكانت بقصد أن ننال نصيباً فيها . فتجسده وميلاده ، كبشر ، أعلن اتضاعه الفائق على كل اتضاع «مِنْ أَجْلِنَا» . وموته الفدائي العجيب أعلن حُبّه التقديسي والأزلي الفائق والمتعظم على كل حب «مِنْ أَجْلِنَا» . وقيامته أعلنت مجده العالي فوق أعلى السموات «مِنْ أَجْلِنَا» . وهذا كله ليشمل الإنسان بكل شمائله وينقلنا إلى مستوى بُنُوته ليقدمنا إلى أبيه ، لتحيا وتجلّى خليقتنا مقدسة في الله من جديد .

ولكن هل هذا كله محبوس ومقصور فقط للعصر الأخروي القادم ، الذي نتحرق إليه شوقاً من

خلف ستار الموت الكثيف؟

إننا مدعوون إليه الآن لنحياه كما سنحياه هناك، هنا في وسط ضيق العالم الحاضر الخائق، كسَبَقِ مَذَاقِ أو عربون؛ وإلا فلماذا التقديس؟ والتقديس لا يُرى إلا على ضوء هذا العالم، لأن التقديس لا يعني لنا الآن إلا جحداً لهذا العالم بكل شروره وأباطيله ووسائله المملوءة غشاً وكذباً ورياءً: «لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو: ١٧: ١٥)



ينبوع الحياة

نقش على اللوح المقدس للمذبح (من القرن السادس). ويظهر فيه كأس الإفخارستيا وقد ظهرت أغصان الكرمة وكأنها نمت من داخله، بتوسطها اختصار اسم المسيح ومن حوله طاؤوسان رمز الخلود. وكل هذا يرمز إلى نعمة الحياة الأبدية الكامنة في سر الإفخارستيا المسمى: ترياق عدم الموت.

(من كنائس رافنا — إيطاليا)

القسم الثالث : المسيح والكنيسة :

المسيح يصلي من أجل الكنيسة : (يو ١٧ : ٢٠-٢٦).

هنا يرتفع المسيح بصلاته من الواقع التاريخي، التلاميذ، إلى الأفق الممتد عبر الدهور؛ ومن الوحدة المحدودة للاثني عشر (آية ١١)، إلى الوحدة التي بلا حد : « ليكون الجميع واحداً » ؛ ومن المعرفة المغلقة للتلاميذ بحضوره، إلى المعرفة المستعنة بالروح والممتدة عبر العالم كله.

٢٠ : ١٧ « ولستُ أسألُ من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي، بكلامهم ».

نظرة المسيح للكنيسة القادمة لا تخرج عن حيز الفعل المضارع الحاضر الممتد : « الذين يؤمنون τῶν πιστευόντων » وليس « الذين سيؤمنون ». وهكذا لم يجعل الكنيسة تحت رحمة الزمن المترامي، بعيداً عن عينيه المرفوعتين نحو السماء، ولا كأنها غائبة عن حضوره. فكما أنه يرى التلاميذ أمامه، ويُسْمِعُهُمْ صوته، ويسأل لهم وعنهم، هكذا يرى كنيسة الألفي سنة الآن، وكأننا حاضرون نسمع له، تحت بركة يديه الموضوعتين على رؤوس تلاميذه.

« يؤمنون بي بكلامهم » : διὰ τοῦ λόγου

الترجمة العربية تصرفت، والأصل اليوناني : « يؤمنون بي "بكلمتهم" (= اللوغس) ». وفرق بين الإيمان بالكلام والإيمان « بالكلمة ». فـ « الكلمة » في المفهوم الروحي الخالص « اللوغس » هي التعبير عن « الحق ». لذلك جاء هنا التعبير عن الإيمان بـ « الكلمة » وليس بـ « الكلام »، فهي ليست مسألة صياغة حديث أو كثرة ألفاظ، بمعنى أن الإيمان ليس منطوق كلمات، بل إن جوهره كلمة واحدة، وتعني الحق. وهذا المعنى مُضَمَّرٌ في الكلمة التي قبلوها من المسيح، والتي هي لتعبير عن طبيعة « اللوغس ». لذلك فـ « الذين يؤمنون بي بكلامهم » تفيد الذين يعيشون في الإيمان لـحق، أو يعيشون في الإيمان!! وكان المسيح يرى، على امتداد الدهور، الذين له، أمام عينيه، يصلي من أجلهم!!

وهكذا، يكفيننا أن نكون تحت مرمى ناظره : « ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم ».

٢٣-٢١:١٧ «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني. وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني».

يُلاحظ أن المسيح تدرّج، في صلاته من أجل التلاميذ، من الحفظ في اسم الآب (١١)، إلى التقديس في الحق (١٧)، ثم إلى الوحدة في الآب والابن (٢٣-٢١)

هذا في الواقع تدرّج منهجي؛ لأننا إذا حفظنا في اسم الله، ونحن في العالم، فإننا نتأهّل للتقديس في الحق، وإذا تقدّسنا في حق الله، نتأهّل لهذا الاتحاد في الله، الفائق الوصف.

موضوع الوحدة أو الاتحاد بالآب والابن (١)

في الأصحاح السابع عشر

أولاً: الوحدة، كما سبق وعلم بها المسيح تلاميذه،

قبل أن يجعلها موضوع صلاته لدى الآب:

لقد وردت هذه الآيات المتوالية، في الأصحاح السابع عشر، للتعبير عن الوحدة أو الاتحاد بالله في صلاة المسيح كالآتي:

١ - الآية (١١): «أيها الآب القدّوس، احفظهم في اسمك "الذي" أعطيتني، ليكونوا واحداً كما نحن».

٢ - الآية (٢١): «ليكون الجميع واحداً؛ كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».

٣ - الآية (٢٢): «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد».

٤ - الآية (٢٣): «أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد».

وبالعودة إلى الأصحاحين العاشر والرابع عشر، نجد أن المسيح علّم تلاميذه، كاشفاً سرّ الوحدة بينه وبين الآب، ثم مُغلّياً عن قصده المبيّت في نفسه، من جهة وحدة التلاميذ والكنيسة به هكذا:

١ - يو ١٠: ٣٨ : «ولكن إن كنتُ أعمل ، فإن لم تؤمنوا بي ، فآمنوا بالأعمال ، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» .

وهذا هو المقابل لآية الصلاة في يو ١٧: ٢١ و٢٣ .

٢ - يو ١٤: ٢٠ : «في ذلك اليوم ، تعلمون أنني أنا في أبي ، وأنتم فيَّ ، وأنا فيكم» .
وهذا هو المقابل لآية الصلاة في يو ١٧: ٢٣ .

ومن هاتين الآيتين ، يتضح لنا منهج المسيح في بلوغ الوحدة :

+ فمن الآية (١٠ : ٣٨) ، يقدم المسيح موضوع الوحدة بينه وبين الآب ، أنه **مطلب أساسي** يتحتم أن نبلغه :

أولاً : بالمعرفة ؛ وثانياً : بالإيمان : « لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا في الآب » .

أي أن ذلك يتم على أساسين :

الأول : الإيمان التصديقي بالروح ، بدون برهان : « تؤمنوا بي » .

والثاني : برهان الأعمال التي عملها المسيح ، ولم يعملها أحد غيره : « فآمنوا بالأعمال » .

وقد كانت هذه الآية هي التمهيد والسبب في الآية الثانية :

+ الآية يو ١٤: ٢٠ ، والتي فيها يضيف المسيح على استعلان وحدته بالآب استعلان وحدتنا في المسيح والمسيح فينا ، وبالتالي نحن (في المسيح) في الآب : « تعلمون أنني أنا في أبي ، وأنتم فيَّ وأنا فيكم » .

وقد قدم المسيح هذه الحقيقة الإيمانية العظمى : « إني أنا في أبي ، وأنتم فيَّ وأنا فيكم » ، كاستعلان سيتم في وقته : « في ذلك اليوم ، تعلمون » ، وهو اليوم الذي فيه تحقق التلاميذ بالفعل من قيامة الرب وصعوده وجلوسه عن يمين الآب مجدداً ؛ و« ذلك اليوم » نحن نعيشه الآن ، وكل يوم ، متحققين من ، ومُستغلّين بالروح والإيمان ، الوحدة التي أكملها المسيح فينا ولنا مع الآب .

ثانياً : العلاقة الوطيدة بين « المعرفة » ، ووحدة الوجود المتبادل (الاتحاد) ،

في إنجيل يوحنا (١١) :

على أساس ما سبق أن أوضحه المسيح من جهة استعلان الوحدة القائمة بين الآب والابن ،

(١١) راجع ما جاء أعلاه في شرح الآية ١٧: ٣ تحت عنوان « أن يعرفوك » : المعرفة للآب والابن هي بينهما شركة مع الآب

نسوق إلى القارئ هذه العلاقة بين «المعرفة المتبادلة» و«الاتحاد المتبادل» كما يؤكدُها إنجيل يوحنا.

أ - يو ١٠: ١٥ «الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب» = المعرفة المتبادلة.

يو ١٤: ١٠ «ألست تؤمن أنني في الآب والآب فيَّ» = الاتحاد المتبادل.

واضح هنا أن المعرفة المتبادلة في ذات الله، قابلها وجود متبادل، أي اتحاد.

هنا يلزمنا أن ننتبه، ونحن بصدد الحديث عن طبيعة اللاهوت، أننا نتعامل مع المُطْلَقَات. فمعرفة الآب لابن معرفة مطلقة، لذلك يقابلها حتماً معرفة الابن للآب معرفة مطلقة. وهاتان المعرفتان، اللتان هما معرفة واحدة بالضرورة، يقابلهما الوجود الكياني الكلي أو المطلق المتبادل بين الآب والابن، فالآب موجود كلياً في الابن، والابن موجود كلياً في الآب. وهذا الوجود هو مطلق، بحكم الجوهر الإلهي الواحد، لذلك فهو وجود كياني واحد: «أنا والآب واحد.» (يو ١٠: ٣٠)

ثم يعود إنجيل يوحنا، ويعطينا هذه المماثلة في الآب والابن على مستوى الإنسان والله، أي أن معرفة الإنسان للآب والابن تنشئ وجوداً في الآب والابن، ولكن، بسبب أن معرفة الإنسان محدودة جداً، فوجوده في الآب والابن محدود بمعرفته.

ب - يو ١٤: ٧ «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتُم أبي أيضاً،

ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» = معرفة الإنسان للآب والابن.

يو ١٧: ٢١ «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» = اتحاد في الابن والآب.

وعلينا أن ندرك: ما هو مستوى المعرفة هذه التي يقصدها المسيح^(١٢)؟

لأننا هنا بصدد معرفة توصل إلى الاتحاد، أو منبثقة منه، فهي ليست معرفة فكر؛ ويكفي أن ندرك أنها معرفة تقابلي أو تماثلي على وجه ما، معرفة المسيح للآب: «أبي هو الذي يمجّدي، الذي تقولون أنتم إنه إلهكم، ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه» (يو ٨: ٥٤ و٥٥). ونحن نعلم تماماً أن هؤلاء الفريسيين يُثَقِّنون معرفة الله بالفكر، ويفتخرون بتفوقهم في المعارف الإلهية. ولكن المسيح يعتبر أنهم: «لستم تعرفونه»! إذن، هي معرفة كشف الحق، أو استعلان الحقيقة الإلهية

(١٢) نرجو الرجوع إلى كتاب المدخل باب المعايير الروحية الفصل الرابع تحت حرف ب رقم ٣ (ص ١٥٥-١٥٧)، وبالأخص

الفقرة الأخيرة.

الغائبة عن اليهود، وأهمها وأخصها هي أن الآب والابن واحد، وأن الآب في الابن والابن في الآب. ومن قوله: «لو كنتم عرفتموني، لعرفتم أبي أيضاً»، يتضح أن المسيح يقصد بـ«معرفة»: استعلان بُنُوته للآب، وبالتالي فإن معرفته توصل حتماً لمعرفة الآب.

هنا «المعرفة» التي يقصدها المسيح هي استعلان الحقيقة الإلهية! وهذا يحد ذاته «سرُّ الله»^(١٣). وسر الله لا يُستعلن إلا للمدعوين للاشتراك فيه، أي الاشتراك في هذا السر، أي الشركة في حقيقة الآب والابن: «إن السيد الرب لا يصنع أمراً، إلا وهو يعلن سرّه لعبيده الأنبياء» (عا: ٣: ٧). «سرُّ الرب لخائفيه.» (مز: ٢٥: ١٤)

ق. يوحنا يربط ربطاً مباشراً بين استعلان سرِّ الله المخفي في الله، وبين الشركة في حقيقة هذا السر هكذا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم «بالحياة الأبدية»، التي كانت عند الآب «وأُظهِرَتْ لَنَا». الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١ يو: ١: ٣ و٢)

وبولس الرسول يربط أيضاً بين سرِّ الله، واستعلان هذا السر المخفي، ونوال الشركة في مضمون هذا السر، أي الشركة في المسيح هكذا: «الذي في أجيال أُخِرَ لم يُعرَف به بنو البشر، كما قد أُعْلِنَ الآنَ لِرُسُلِهِ الْقَدِيسِينَ وَأَنْبِيَاءِهِ بِالرُّوحِ، أَنَّ الْأُمَمَ شُرَكَاءُ فِي الْمِيرَاثِ وَنَوَالِ مَوْعِدِهِ (الروح القدس)، فِي الْمَسِيحِ، بِالْإِنْجِيلِ» (أف: ٣: ٥ و٦)؛ «وأُنِيرَ الْجَمِيعُ فِيمَا هُوَ شَرَكَةُ السَّرِّ الْمَكْتُومِ مِنْذُ الدَّهْرِ فِي اللَّهِ.» (أف: ٣: ٩)

إذن، فكل مَنْ يُسْتَعْلَن له سرُّ الله الآب والابن، فإن هذا يعني أنه صار شريكاً في ميراث البُنُوَّة والحياة الأبدية، أي أنه يكون قد دخل في شركة مع الآب وابنه يسوع المسيح، بالروح.

ثالثاً: مستويات الوحدة التي يطلبها المسيح لتلاميذه والكنيسة؛
من الآية ٢١-٢٣:

لودققنا في عرض المسيح لِطِلْبَتِهِ التَّشْفِيعِيَّةِ لَدَى الْآبِ، مِنْ جِهَةِ «الوَحدة المسيحية»، نجدها على ثلاثة مستويات، في ثلاث طِلْبَاتٍ، جاءت في الأصحاح السابع عشر مماثلة للثلاث الصلوات، مع السجّادات الثلاث التي قدّمها في جثسيماني، كما جاءت في الثلاث الأناجيل الأخرى:

(١٣) راجع المدخل ص ١١٣ وهامش (١) عن «سر الله الأعظم» الذي هو العلاقة بين الآب والابن.

المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً» .
 المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» .
 المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مكملين إلى واحد» .

المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً»:

لا يقصد المسيح هنا أن يجتمعوا معاً في وحدة أو اتحاد مظهري تحت اسم، تجمعهم أهداف واحدة، أو تجمعهم الأخلاق الواحدة أو الاسم الواحد أو حتى منطوق الإيمان الواحد! لأنهم هم مؤمنون جاهزون. لأن المسيح الآن يطلب من أجل «الذين يؤمنون بي بكلامهم»، أي يطلب الوحدة للذين هم جاهزون في الإيمان الواحد بالكلمة! لذلك يلزمنا أن نلاحظ أن الوحدة التي يطلبها المسيح تأتي هنا أعلى من الإيمان، ومكملة له. فهي وحدة داخلية جوهرية حقيقية بالروح، مثلها المسيح تمثيلاً بالوحدة الكائنة في الآب والابن!! والتي هي ليست وحدة إيمان ولكنها وحدة «ذاتية»، أي وحدة «كيان واحد وطبيعة»، وحدة ليس فيها ثنائية ولا كثرة.

ويلزمنا أن ننتبه أن المسيح يطلب هنا الوحدة، بعد أن أكمل طلبته لهم سابقاً أن «يحفظهم في اسمه القدوس» في العالم، ثم «يُقَدِّسهم في الحق»؛ والآن يطلب لهم، بعد أن تأهلوا بالحفظ في الاسم القدوس وتقَدَّسوا في الحق، أن يبلغوا «الوحدة».

فلو انتبهنا أيضاً إلى ما حدث للإنسان بعد أن أخطأ آدم، كيف تَفَتَّتَتْ وتحطمت فيه صورة الله، وفقد وحدانيته التي كان يتراءى بها في حضرة الله؛ لفهمنا لماذا الآن يطلب المسيح «للجميع» هذه «الوحدة»؟ لكي، مرة أخرى، يتراءى بها أمام الله في هيئة «كنيسة واحدة» مقدسة بلا عيب!! هذا نفهمه بكل يقين من شرح القديس بولس الرسول في قوله:

+ «وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين، لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة، لبُنيان جسد المسيح (الكنيسة)، إلى أن ننهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان، ومعرفة ابن الله، إلى «إنسان كامل»، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١١-١٣)

يلاحظ هنا هذا التدرج التكاملي: «وحدانية الإيمان»، ثم «معرفة ابن الله»، إلى «إنسان كامل»، إلى «قياس قامة ملء المسيح»، وكل من هذه التأهيلات، حتمي لبُلوغ الغاية، ولكن التدرج هام للغاية، فوحدانية الإيمان توصل إلى معرفة ابن الله، أي استعلان سر الله، أي سر

علاقة الآب بالابن والحياة الأبدية. واستعلان سرّ الله بالمعرفة الروحية، يوصّل إلى «الإنسان الكامل»، وهو قصد المسيح من صلاته من أجل الوحدة، أي الإنسان غير المنقسم على ذاته، الإنسان الجديد المنطبعة فيه صورة الله الواحد، المعبر عنه بـ «جسد المسيح السري»، أي الكنيسة، كنيسة الإنسان في المسيح، والمسيح في الإنسان، والتي لها بالضرورة «قياس قامة ملء المسيح».

هنا نفهم أن الله قسّم في الكنيسة المواهب على قدر استعداد وإيمان كل عضو فيها: «كما قسّم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان» (رو ١٢: ٣)، لكي تعمل المواهب في الأعضاء، والأعضاء بالمواهب، لتكميل «وحدة الكنيسة» في كل شيء، حتى تبلغ في النهاية إلى صورة المسيح الكاملة، التي يعبر عنها بولس الرسول هكذا: «إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف ٤: ١٣). ولكن على الأعضاء من جهتهم أن «يجتهدوا للمواهب» (١ كو ١٢: ٣١). فمستولية الوحدة، بعد أن أعطى الله كل إمكانياتها للكنيسة، أصبحت واقعة عليها وأصبحت الكنيسة مسئولة عنها: «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، جسداً واحد وروحاً واحد، كما دُعيتُمْ أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد: ربّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة» (أف ٤: ٣-٥). وهنا أيضاً نلاحظ أن بولس الرسول يلحّ في طلب «الوحدة» للكنيسة، بممارسة التصالح الذي لا يهدأ لكي تكون الوحدة بمثابة (= «كما دُعيتُمْ») للإيمان الواحد الذي أخذوه!! أي أن الوحدة مطلوبة كضرورة حتمية، لأنها مطلبُ الإيمان، الأعظم، والأول والأخير (١٤).

وعليّنا أن نلاحظ أن الأساس الأول، الذي بمقتضاه يطلب المسيح الوحدة عبّرَ الدهور، هو من أجل «الذين يؤمنون بي، بكلامهم»؛ هذا الأساس يجعل الوحدة مؤسسة على الإيمان، أي أصالة «الكلمة» المسلّمة من المسيح للرسل، ومن الرسل للذين على بُعْدٍ. بالتقليد والتسليم الرسولين وهذا ما عبّر عنه بولس الرسول: «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوغ المسيح نفسه حَجَرُ الزاوية.» (أف ٢: ٢٠)

المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»:

هنا ينتقل المسيح في سؤاله من أجل وحدة الكنيسة في ذاتها، إلى الوحدة «فينا»، أي: في المسيح والآب!

واضح هنا أن بلوغ الكنيسة حالة الوحدة في ذاتها، هو الذي يؤهلها للاتحاد بالمسيح والآب، وهذا ظاهرٌ من تسلسل الإرتقاء بمفهوم الوحدة: «ليكون الجميع واحداً، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».

فالمطلبة بدأت أولاً بأن: «يكون الجميع واحداً»، كعطية من لدن الآب، يهبها للكنيسة بسكب مواهب الروح في أعضائها، هذا «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»، فوحدتهم في ذاتهم تصير سبباً ومناسبة لكي يصيروا واحداً في المسيح والآب، أي تؤخّدهم في الابن والآب.

ولكن المسيح يعطي نوعية خاصة للوحدة التي يطلبها للكنيسة المتحدة في ذاتها، لتحياها في الآب والابن، وهي وحدة: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك»، «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»!!!

وهنا يلزمنا أن نفهم الآتي:

**حدود التشبيه بين الوحدة الإلهية القائمة بين الآب والابن،
وبين الوحدة المطلوبة للكنيسة المتحدة لتحياها في الآب والابن:**

أولاً: ماهية النموذج الذي يقدمه المسيح:

«كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك».

يُلاحَظ من هذا التصريح الإلهي أن المعنى ينصبُّ في أن الكيان الذاتي للآب قائمٌ في الابن، كما أن الكيان الذاتي للابن قائمٌ في الآب. هذا يمكن فهمه بصورة أوضح، حينما ندرك أن «الأبوة» في الله هي خاصة بـ«البُتوة». وكذلك البُتوة في الله خاصة بالأبوة. بمعنى أن الآب أب للابن وخذّه، وأن الابن ابنٌ للآب وخذّه. كذلك أيضاً نفهم أن الابن ليس ابناً لنفسه، بل هو كله للآب؛ والآب ليس أباً لنفسه، بل هو كله للابن. هذا الوجود الكياني المتبادل كلياً، يجعل للآب والابن «كياناً واحداً ذاتياً». وهذا يعني أن «الله واحد أحد»، أو أن الله ذات واحدة آب وابن.

هذه الخاصية الإلهية، لو أردنا تشبيهها مجرد تشبيه بما يمكن أن يكون لدى البشر من تشبيه، لتصوير الوحدة، فهي تعني أن لا يكون الإنسان لنفسه، وأن يكون قادراً على أن يعطي نفسه أو يبذلها لله، أو للآخرين من أجل الله. وهذا أكمله ابن الله المتجسد، كإنسان، حينما وضع نفسه

لله، وأسلمَها له حتى الموت، طاعة له وحباً، مُبرِّهناً، على مستوى الناس، أن الابن كله للآب بالحقيقة!!! وكان ذلك نموذجاً لنا في كيف نطيع الله ونحبه، ونبذل النفس حتى الموت، فيصير الإنسان كله لله! وهذه صورة عملية لبلوغ حقيقة الوحدة مع الله.

بولس الرسول بلغ هذه الصورة عملياً، وعبرَ عنها بقوله: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياء الآن في الجسد، فإنما أحياء في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ٢٠)، «كي يعيش الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢ كوه ١٥: ١٥)، «ولكنني لست أحتسب لشيء ولا نفسي ثمينة عندي.» (أع ٢٠: ٢٤)

بولس الرسول بلغ الوحدة السرية في المسيح، وبالتالي في الآب، من واقع الحياة والاختبار الشخصي، قبل أن يطرح ذلك كعقيدة: «جسد واحد وروح واحد، كما دُعيتُمْ أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد.» (أف ٤: ٤)

ثانياً: ماهية النموذج الذي يقدمه المسيح، في قوله مخاطباً الآب:
«كلُّ ما هولي فهو لك، وما هو لك فهو لي».

هنا يهدد المسيح، في صلاته، لمعنى الوحدة وكيفية بالنسبة للكنيسة. فكما عبر عن تبادل الوجود الكلي الذاتي بين الآب والابن لتصوير أعلى نموذج عن الوحدة في صورتها الإلهية المطلقة، يعود ويعبر عن هذه الوحدة ذاتها بتبادل «كلُّ» πάντα مخصّصات الآب للابن والابن للآب، كنتيجة حتمية لتبادل الوجود والكيان. فهي ليست وحدة ذات وكيان فحسب، بل وحدة مخصّصات وإمكانات أيضاً. وهذه الخاصية الإلهية، لو أردنا تشبيهها بمجرد تشبيه، بما يمكن أن يكون لدى البشر لتصوير الوحدة، هي تعني أن لا يكون لأحد شيء لذاته: «مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ» (مت ٥: ٤٢). وقد بلغت الكنيسة الأولى هذا الحد من الوحدة العملية بالفعل: «وجميع الذين آمنوا، كانوا معاً، وكان عندهم كلُّ شيء مشتركاً. والأملاك والمقتنيات، كانوا يبيعونها ويقيمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحد احتياج. وكانوا، كل يوم، يواظبون في الهيكل بنفس واحدة» (أع ٢: ٤٤-٤٦)؛ «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كلُّ شيء مشتركاً» (أع ٤: ٣٢)؛ ولكن يلزم أن نفهم ذلك على المستوى الروحي.

ثالثاً : ماهية النموذج في محبة الآب لابن والابن للآب، الذي يقدمه المسيح ليكون معبراً عن الوحدة التي يطلبها من أجلنا،
 في قوله : « ليفهم العالم أنني أحب الآب » (يو ١٤ : ٣١)،
 ومن قوله : « الآب يحب الابن، وقد دفع كل شيء في يده » (يو ٣ : ٣٥)،
 كذلك : « كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا » (يو ١٥ : ٩)،
 وأخيراً : « ليكون فيهم الحب الذي أحببني به » (يو ١٧ : ٢٦) ؟

المحبة المتبادلة بين الآب والابن، صفة جوهرية، أي هي من صميم طبيعة الله؛ لذلك فهي تبرز لتكون برهاناً على الوحدة المطلقة في الآب والابن. فالمحبة في الله ليست وليدة إرادة أو عاطفة أو انفعال، من واقع الصلة بين الآب والابن، ولكنها متجذرة أزلياً في طبيعة الله، فهي صفة ملازمة حتماً للوحدة. لذلك، فحينما نأخذها نموذجاً لنا لتكون قرينة للوحدة المطلوبة، فلا يجب أن تُحسب أنها معيار أخلاقي يُحتذى به ليؤهل للوحدة، ذلك لأنها أُعطيت لنا على مستوى التشبيه والتشبه، لأن حرف « كما » الذي يأتي دائماً للتشبيه هو على مستوى الشرح لا على مستوى المطابقة : « كما أحبني الآب » (يو ١٥ : ٩)، « كما أحببني » (يو ١٧ : ٢٣)؛ وأيضاً تشديد المسيح على التمثيل بالمحبة الأزلية الكائنة بين الآب والابن : « لأنك أحببتي قبل إنشاء العالم » (يو ١٧ : ٢٤)، لا يقتصر فيها على التشبيه وإنما يُقصد به أن هذه المحبة ستكون لنا مصدر انسكاب قوة محبة، عاملة فينا، وعلى مستوانا البشري. وهذا صار واقعاً بالفعل : « لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا، بالروح القدس المُعطى لنا » (رو ٥ : ٥). هذا الحب المنسكب علينا من الآب بالروح القدس، هو أعظم بُرْهان على حدوث وحدة حقيقية مع الآب والمسيح. وهذا جاء نتيجة لصلاة المسيح وتشفّيه بالكلمة والدم !

ومن هذا نفهم أن المحبة التي يحثنا المسيح أن نحب بها، سواء بعضنا لبعض أو نحبه هو أو الآب، للتدليل على صدق بنوئتنا لله أو وحدتنا في المسيح به، ليست على مستوى الأخلاق ولا العاطفة كإرادة تحضر وتغيب، ذلك لأن هذه المحبة هي محبة مُشابهة بل ومستمدّة من محبة الآب لابن ومحبة الابن للآب، فهي محبة من طبيعة الروح لا الجسد، أي محبة فائقة للطبيعة البشرية، أو بالمفهوم الإلهي هي « موهبة »، كما سبق وقلنا : « لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا ».

من هنا تنقشع الغمامة التي تعتم الفكر، حينما يسأل الإنسان متحيراً : كيف نقيم حدّ

الوصية: «أحبوا أعداءكم» (مت ٥: ٤٤)!! هنا استحالة أن يكون ذلك على مستوى الإرادة أو العاطفة!! ولكن هذا يمكن إتمامه فقط في حالة واحدة وهي أن تكون المحبة هي «محبة الله»، المحبة الروحية الفائقة، الموهوبة لنا، والعاملة بالروح القدس، لتذليل كبرياء الإنسان، وإعلاء لإتضاع المسيح. هذه المحبة التي سبق وأن عملت فينا ونحن أعداء لله وخطاة: «الله، الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح، بالنعمة أنتم مخلصون» (أف ٢: ٤ و ٥ وراجع روم ٨: ١٠). هذه هي المحبة القادرة بالفعل أن تحب حتى الأعداء، والتي سمّاها بولس الرسول بالمحبة الفائقة المعرفة: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩)، والتي تكون أقوى دليل على أن الإنسان بلغ الوحدة مع الله، الذي أحب العالم، وهو يشرق شمسُه على الأشرار والأبرار سواء بسواء.

المحبة أحد التزامات الوحدة:

واضح أن المحبة كوصية أولى وعظمى، كما طلبها المسيح لنا من الآب، وكما طلبها منا مراراً، ليست مفروزة كعمل أخلاقي كما سبق وقلنا، لأن العمل الأخلاقي يعجز عن أن يلغي الذات في وصية محبة الأعداء؛ كما أن العمل الأخلاقي يَقْصُرُ عن أن يُقَدِّمَ الذات فِدْيَةً من أجل الآخرين. فالمحبة هِبَةٌ روحية وعطية؛ وعلى هذا الأساس يطالبنا بها المسيح، إذ كما أخذناها كهبة نعطيها كهبة أيضاً بل بالمقابل: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ٢٠)، ويقابلها: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١ يوح ٣: ١٦)

من هنا جاءت وصية المحبة كحالة التزام: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو ١٥: ١٢). والتزام المحبة حتمي، لا مفرّ منه، في اللاهوت المسيحي: «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد وُلِدَ من الله ويعرف الله. ومن لا يحب، لم يعرف الله، لأن الله محبة.» (١ يوح ٤: ٧ و ٨)

المحبة هنا ثمرة حتمية للعلاقة الإيمانية التي تربطنا بالله، وغيابها يعني غياب الإيمان المسيحي كله، وغياب الله من حياتنا. أما حضور المحبة ونشاطها وفرحها بالبذل من أجل الآخرين، فهذا يعني حضور الله في روح الإنسان وقلبه، وإعلاناً عن إيمان حار وفعّال.

ق. يوحنا يجعل ثبوت المؤمن في المحبة دليلاً قاطعاً على الثبوت في الله، وثبوت الله فيه، أي

دليل حالة اتحاد: «الله محبة، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي المحبة، يَثْبُتْ فِي الله، والله فيه.» (١ يوحنا: ١٦)

صحيح أن المحبة، هبة عظمى مجانية، ولكننا لا نأخذها إلا لنعطيتها. وعطاؤها هو هو بذل النفس وانكارها حتى الموت. ومن لا يتشجع ويعطيها، تُسحب منه، فيبيت بلا محبة، ويمسى غريباً عن صليب المسيح. أما الذي تَشَجَّع «وَأَبْغَضَ ذاته» «وَأَهْلَكَهَا»، بمعنى أَهْلَكَ كبرياءها وجعلها تحت أقدام الآخرين، حُبّاً لهم وللمسيح، وذلك حسب الوصية، أي من أجل المسيح والإنجيل، فقد عاش بل وقد انتقل من الموت إلى الحياة: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة. وَمَنْ لا يَحِبُّ أخاه يَبْقَى فِي الموت.» (١ يوحنا: ٣: ١٤)

إذن، فالوحدة التي وهب لنا الله أن نبلغها في المسيح في الله، ليست بدون مقابل أو التزام؛ فالذات أو الذاتية في الإنسان يلزم أن تكون «الأنا ἐγώ» هي ضحيّتها الأولى، «مع المسيح صُلِبْتُ، فأحيا، لا أنا οὐκέτι ἐγώ، بل المسيح يحيا فيّ» (غل ٢: ٢٠). فإن كانت «الأنا» التي فيّ قد ماتت، فقد انفتح لي باب الحب على مصراعيه، فأحبُّ أعدائي، حتى صالبيّ، وأبارك مَنْ يلعن ذاتي، لأنني قد دَفَقْتُها في قبر المسيح، أَصْلَيْ لِمَنْ يُسِيءُ إلى نفسي، ويطاردها، فنفسى لم يَعُدْ لها حساب عندي بعد (راجع أع ٢٠: ٢٤)، إنها ليست هنا!!!

رابعاً: الفرق بين «الوحدة في الله»، وبين الوحدة المطلوب أن تكون لنا فيما بيننا، أو بيننا وبين الآب والابن:

وحدة الله في ذاته: «أنا والآب واحد»، «أنا في الآب، والآب فيّ»، «كل ما هولي فهو لك وكل ما هولك فهو لي»؛ هذه الوحدة الإلهية الفائقة تقوم على أساس التساوي المطلق بين الآب والابن في الذات وفي كلّ منهما، حتى إن كلمة «التساوي» هنا هي أضعف من أن تُعَبِّرَ عن الحقيقة، لأن لفظة «تساوي» هي وليدة القياس والله لا يُقاس؛ والأصح أن نقول أنهما واحد، لأن الله مُطْلَقٌ في صفاته، فوحدة مطلقة، وبلا قياس، ومُتَرْقَّةٌ عن مفهوم العدد. لذلك، يستحيل أن يكون للوحدة في الله شبيهة في الإنسان، وإنما ساقها المسيح للشرح والتمثيل وليس للطباق أو المساواة، لأنه إذا استحال حتى القياس بالتساوي بين إنسان وإنسان، فكيف يمكن أن يبلغا اتحاداً على مستوى الله؟

فالاتحاد، أو الوحدة التي يطلبها لنا المسيح فيما بيننا ثم فيما بيننا وبين الآب، هي وحدة تتناسب قبل كل شيء مع تفرّدنا واختلاف أجناسنا وتباين طبائعنا. فنحن لسنا متساوين في

كياننا الداخلي، في أي شيء البتة، إلا في الخطية والمعجز والقصور الروحيين.

لذلك، فالوحدة التي يطلبها لنا المسيح، لا تقوم البتة على ماهية أشخاصنا أو ما هو لنا، بل على أساس أن نتساوى فيه والآب، وليس تساويننا في ذاتنا. فبقدر ما تنسكب فينا قوة وحدة المسيح في الآب، سواء من جهة الحب بينهما أو من جهة الحق أو القداسة، بقدر ما نبتدىء نحن نتساوى ونتقارب ونتحد بهذه القوة الخارجة عنا والآتية إلينا من لَدُن الله. فمحبة الله تحضُّرنا، فتلغي عداواتنا وتُهيئ على انقساماتنا؛ وحقُّ المسيح والآب يصهر أفكارنا وقلوبنا، فيبدّد جهالاتنا، ويوقف حماقاتنا ويقُدّس أرواحنا وأجسادنا: «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق» (يو ١٧: ١٩)؛ ونور معرفة المسيح والآب ينسابان في طبائعنا الروحية ووعينا «بالكلمة»، فنُسْتَقَلُّ لنا الوحدة الكائنة في المسيح والآب بقوة تُدْخِلُنَا في الإحساس والوجود الفعلي في حضرة الآب والابن بلا أي عائق فكري. وهكذا نتحد فيما لله، وليس فيما لنا، ونصير واحداً بسبب الروح الواحد الذي نستقي منه (١ كو ١٢: ١٣)، والجسد الواحد الذي نغتذي عليه: «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ، جسدٌ واحدٌ، لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد.» (١ كو ١٠: ١٦ و ١٧)

فإن فسرنا معنى قول المسيح مراراً: «أنتم فيّ وأنا فيكم»، عملياً في حياتنا اليومية، يكون المعنى هو التبادل غير العادل بالمرة بين ما له وما لنا، كقول الأبصلمودية السنوية: «هو أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له، فلنسبِّحه ونمجِّده ونُرِده علواً» (مرد ثيوتوكية الجمعة). نعم، فالوحدة التي سعى إليها المسيح نحونا هي تبادلُ القوة والطاقة. ولكن للأسف، أوبيا للسعادة، فهو تبادلٌ ليس على مستوى التساوي كما للآب والابن، بل على أساس تغطية عجزنا بكماله وجُبران نقصاننا بملئه. فهو فينا بملكه وكماله، ونحن فيه بعجزنا ونقصاننا؛ هو فينا بقداسته الكلية، ونحن فيه بلا قداسة بالكلية. ولكننا بالنهاية صرنا مملوئين فيه، أحباءً وقديسين وبلا لوم أمام الله.

الوحدة والملء:

القديس بولس يُعبّر عن أسمى صورة للاتحاد بالمسيح بقوله: «فإن فيه يحلُّ كلُّ ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو ٢: ١٠ و ١١). فما هو «ملء اللاهوت»؟ وما هو «ملء اللاهوت جسدياً»؟ أما «ملء اللاهوت» فهو للابن قبل تجسده، وهذا هو الذي عبّر عنه المسيح بقوله: «الآب فيّ»؛ وهذا ليس لنا أن نُقَرِّبه، أو حتى نُظْلِعَ عليه؛ أما «ملء اللاهوت

جسدياً» فهو ملء اللاهوت الذي صار في الجسد من أجلنا، منظوراً، ولموساً، ومُشاهدًا، كما يقرر ق. يوحنا: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولمَسْهُ أَيْدِينَا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظْهِرَتْ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية، التي كانت عند الآب وأظهرت لنا... وأما شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (يو ١: ١-٣)

فملء اللاهوت جسدياً هو ملء الله، الذي جعله في متناول أَخْذِنَا!! «ومن ملئه نحن جميعاً أَخْذِنَا، ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦). أَخْذِنَا من ملئه الإلهي القداسة، الحياة الأبدية، والحب، والوداعة، وتواضع القلب، والنور، والخبز الحقيقي، وماء الحياة، أَخْذِنَا قُدُوسِيَّتَهُ برضاه: «من أجلهم أَقْدَسُ. أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مُقَدَّسِينَ في الحق» (يو ١٧: ١٩). كل هذا وأكثر عَبَّرَ عنه المسيح بقوله: «أنا فيهم». وبقوله: «أنا فيكم»، «وأنتم فيّ»، يكون المسيح قد عبَّرَ تعبيراً مزدوجاً عن اتحاد غير منفصم. وهكذا صارت طرقُ الله التي كانت في القديم تعلو عن طرفنا (إش ٥٥: ٩، رو ١١: ٣٣) عُلُوَّ السَّمَوَاتِ عن الأرض، صارت هي نفسها لنا طريقاً وباباً: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو الباب» (يو ١٠: ٩). وَفَكَّرُ الله الذي كان يعلو عن أفكارنا، صار هو هو بذاته «فَكَّرْنَا». فما هو فكر الله إِلَّا «الكلمة»، كلمة الله الفاتكة عن الإدراك، الخالقة السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وكلَّ ما فيها، أُنْتَنَا على الأرض متجسدة ومتأنسة في هيئة إنسان، لنسمعها من فم الله، سَمَعَ الأذن، ونراها رؤيا العين، ونلمسها لَمَسَ اليد. فأدركناه، بل وصار لنا فِكْرُهُ: «وأما نحن فلنا فِكْرُ المسيح» (١ كو ٢: ١٦). والنور الذي لم يعرفه العالم سابقاً، عرفناه. والقداسة والبر الإلهي، أمورُ الله غيرُ الْمُقْتَرِبِ إليها حتى بالفكر، صارت كلها في متناول حياتنا: «الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسةً وقداءً» (١ كو ١: ٣٠). نعم لقد أسَّسَ المسيح، بسرَّ تجسده وصلبيه، أسَّسَ الاتحاد المقدس.

الوحدة كعطاء ونعمة:

وقد صَوَّرَ المسيح في سفر الرؤيا هذه الوحدة العملية التي يسعى إليها من نحننا هكذا: «هأنذا واقفٌ على الباب وأقْرَعُ. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب (باب الحب)، أدخل إليه، وأتعشى معه، وهو معي» (رؤ ٣: ٢٠). هو يتعشى من صحن هموم الإنسان وأوجاعه وأنيته، يتعشى متقاسماً معه لُقْمَةُ الشقاء والتغرب. والإنسان يتعشى معه — بالنعمة — من صحن أفراحه وبهجة خلاصه، ويتناول من يده خُبْزَ حُبِّهِ وَخَمَّ استيطانه!!

إن وحدة الآب والمسيح تقوم على التساوي كلياً وفي كل شيء، فهي وحدة ذات وكرامة ومجد وكمال مطلق. فالوحدة بين المسيح والآب هي طبيعة جوهرية، أما الوحدة التي لنا في المسيح والآب فهي نعمة ورحمة، هي تفضل، هي هبة، هي مجرد إشعاع فقال لوحدة المسيح والآب، حتى لا تبقى الوحدة في الله بلا عمل فـ «نحن عمَلُهُ.» (أف ٢ : ١٠)

ولكن يُلاحظ أن المسيح لم يطلب "الوحدة" لتلاميذه، إلا بعد أن قدّم شهادته للآب أنهم: «قد حفظوا كلامك» (يو ١٧ : ٦)، وأنهم أصبحوا: «ليسوا من العالم» (يو ١٧ : ١٤)، فهي ليست بلا ثمن كلية.

المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد»:

المسيح هنا يسمو بالوحدة التي يطلبها لنا، أولاً: فيما بيننا، وثانياً: فيما بيننا وبينه والآب، ثم أخيراً: إلى تكميلها إلى الكمال.

والإنجيل يعبر عن «التكميل» بكلمة *teteleiōmenoi* ، وهي لا تعني تكميل الناقص، بل تكميل الكمال، وتُترجم بالإنجليزية: *perfected*. فالذين اتحدوا بالابن والآب، لم يعودوا ناقصين يحتاجون إلى التكميل بل هم مهَيَّأون لقبول الكمال. فالمسيح سبق ومنحهم خصائصه بقوله: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد»، أي ليبلغوا "كمال" الوحدة. هذا الكمال عبّر عنه بولس الرسول بقوله: «لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣ : ١٩)، حيث يستخدم الكلمتين: «تمتلئوا» = *πληρωθῆτε* ، و«الملء» = *πλήρωμα* ، وهي المرادف تماماً لتكميل الكمال. كما عبّر عنها ق. يوحنا بقوله: «مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئته نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو ١ : ١٤ و ١٦). وبولس الرسول يستخدم مرة أخرى كلمة «الملء» فيما يخصنا من ملء لاهوته، وذلك على مستوى الملء الذي له، ولكن على قدر ما تنسج له طبيعتنا العاجزة: «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو ٢ : ١٠). حيث لا يتحول الملء الإلهي الذي له إلينا، ولكن نصير باتحادنا به مملوئين فيه! وهذا أوضحه بولس الرسول أيضاً في قوله: «بسبب هذا أحنى ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح، الذي منه تُسمّى كل عشيرة (أبوة = *πατρία* = *fatherhood*) في السموات وعلى الأرض، لكي يُعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة، بروحه في الإنسان الباطن، ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تذكروا مع جميع

القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا بحبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله. والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف ٣ : ١٤ - ٢٠). ولكي ننبه ذهن القارئ إلى محور القوة في هذه الآيات نوجز الخلاصة كالآتي:

+ «يعطيكم... غنى مجده... بروحه... ليحلّ المسيح... في قلوبكم... تدركوا مع جميع القديسين (الكنيسة)... تمتثلوا إلى كل ملء الله... بحسب القوة التي تعمل فينا».

ومرة أخرى نختصر المعنى لتبرز القوة كالآتي:

+ «يعطيكم... مجده... المسيح في قلوبكم... تدركوا... ملء الله... بحسب القوة التي تعمل فيكم».

وهذا هو روح كلمات المسيح يذكرها ق. يوحنا: «أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا مكتملين إلى واحد». واضح أن عطية المجد التي يعطيها الآب للمسيح لحسابنا، والتي سلمها لنا المسيح، تكون سرّ الملء لبلوغ كمال الوحدة في المسيح والآب.

ولكن ما هو المجد الذي أعطاه الآب للمسيح، فأعطاه المسيح لنا؟

قطعاً ليس هو مجد الألوهة الذي «للكلمة الله» المساوي للآب، فهذا المجد ليس مُعْطًى لابن، بل هو من خصائص لاهوته. ولكن المقصود هنا هو المجد الذي أُعطي لابن حال تجسّده لحسابنا. فهو مجد فائق، وإنما على مستوى إدراك الإنسان ليبلغ به الإنسان في النهاية كمال الشركة في المسيح والآب. فما هو هذا المجد المُعْطًى؟ والذي هو لنا وتحت حسابنا؟

توجد آيات بسيطة غاية البساطة تشير إلى هذا المجد مثل: «... لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو ٧ : ٣٩)، أي لم يكن قد صُلب. فهل آلام الصليب هي المجد الذي أُعطي للمسيح ليكمله لحسابنا؟ ثم قول المسيح ليلة العشاء الأخير، وهو يقسم جسده مصلوباً بالنيّة قبل أن يُصَلَّبَ «بأيدي الأثمة»: «قال يسوع: الآن قد تمجّد ابن الإنسان، وتمجّد الله فيه. إن كان الله قد تمجّد فيه، فإن الله سيمجّده في ذاته، ويمجّده سريعاً.» (يو ١٣ : ٣١ و٣٢)

واضح أن المسيح يتكلم عن مجد الصليب، إذ ينعتة زمنياً: «سريعاً»، وأن بالصليب سيتمجّد المسيح، وسيتمجّد الله الآب. فإن الأنبياء سبقوا وتنبأوا بآلام المسيح والمجد المتأتّي منها: «باحثين أي وقت، أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق فشهد بالآلام التي

للمسيح والأعجاد التي بعدها.» (١ بط ١: ١١)

وقد حدث بالفعل، إذ قد «رُفِعَ (المسيح) في المجد» (١ تي ٣: ١٦) من بين الأموات! «ودخل إلى مجده» (لو ٢٤: ٢٦)، و«جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب ١: ٣)، مسيِّباً مجداً لله الآب من كل لسان وشعب وأمة في كل زمان ومكان وإلى أبد الأبدين، وهكذا صار الصليب بما يحتويه من جوهر الاستعلان: «متى رفعتكم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أنني أنا هو» (يو ٨: ٢٨) — وما يؤدي إليه — مجداً، ومؤدياً إلى مجد، وممجّداً الآب، وسبباً للمجد لكلِّ مَنْ يحمل أو يتحمّل عاره!!

وهذا المجد عينه، مجد الاستعلان لحقيقة الله الخلاصية، وما يؤدي إليه من احتمال الآلام، ببذل الذات حتى الموت، موت الصليب، شهادة للابن والآب؛ قد تحول بجملته لحساب الإنسان، لكلِّ مَنْ يتألم من أجل اسم المسيح: «... أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي، وأنا أجعلُ لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (لو ٢٢: ٢٨-٣٠)

وبولس الرسول يقولها واضحة مختصرة: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه» (رو ٨: ١٧). ثم يشرحها بوضع يفوق التساوي والتعادل بقوله: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقَاسُ بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو ٨: ١٨). وبطرس الرسول يقول بنفس القول: «إن عُيِّرْتُمْ باسم المسيح فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحملُ عليكم.» (١ بط ٤: ١٤)

هذا هو المجد الذي أعطاه الله الآب للابن حَالِ تجسده، أي «آلام الصليب»، لكي يفتح به المسيح طريق المجد للإنسان، ثم يسلم هذا الصليب عينه لكل من أحبوه وآمنوا به. لكي يبلغ الإنسان، بنفس الآلام التي كان قد وُضِعَ تحتها بسبب خطيئته، بعد أن حوّلها له المسيح إلى آلام من أجل اسمه، طاعة لله وحباً للآب والمسيح، فصارت له سبب مجد، بعد أن كانت بسبب خطيئته. وهكذا، ومن نفس عقوبة الإنسان الأولى، صنع له المسيح إكليل مجد لا يفنى ولا يتدنس ولا يفسحل، محفوظاً له في السموات! وهذا هو المجد، الذي إذ نتحصّل عليه، نصير مؤهلين لشركة «الوحدة» وسرّها.

وهكذا أيضاً، وبالتالي، فكما فتشت الخطيئة الإنسان — بالآلام المتنوعة التي كانت على

مستوى اللعنة، ومزقته تمزيقاً، وشوّهت صورة الله فيه، استطاع المسيح أن يحوّل هذا التفشّت، بهذه الآلام عينها، وبجسد الخطيئة نفسه وبلعنة الآلام عينها — يحوّلّه إلى وحدة !!! إذ بجسده الممزّق، جَمَعَ شَمْلَ البشرية الممزّقة، ووَحَّدَها في نفسه وفي جسده وفي روحه !!! «لأنه جعل الذي لم يعرف خطيئة، خطيئة لأجلنا، لنصير نحن براءً الله فيه» (٢ كوه : ٢١)، «المسيح اقتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعونٌ كلُّ مَنْ عُلِقَ على خشبة.» (غل ٣ : ١٣)

هكذا صار الصليب هو المجد، وروح المجد، وإكليل المجد، الذي وُهِبَ للإنسان أن يتقلّده، كمثل المسيح، كأعلى وسام للكمال يدخل به إلى شركة المجد والوحدة مع المسيح والآب. والآن، تصبح آية صلاة المسيح ساطعة بنور أخاذ: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ... ليكونوا مكملين إلى واحد»!

علاقة كمال الوحدة بتكميل الآلام:

وهكذا لاقَ بنا أن نبلغ كمال الوحدة بمجد الآلام، كما لاقَ به هو أن يبلغ الكمال بالآلام: «لأنه لاقَ بذلك الذي من أجله الكلُّ وبه الكل، وهو آتٍ بأبناءٍ كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيسَ خلاصهم بالآلام» (عب ٢ : ١٠)، «وإذ كُمل، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب ٥ : ٩). هنا علاقة سرية وطيدة بين كمال المسيح الذي بلغه بالآلام، وبين أن نُكَمِّل نحن إلى واحد. فهنا شرح عملي لعلاقة الآلام وسُمُوها بمجد الخلاص بالصليب. هذا الصليب الذي تأهل به «ابن الإنسان»، بنوع ممتاز كابن الله، المُشْتَأَمِن على كل سرِّ الله، ليصنع صلحاً وسلاماً أبدياً بين الخليقة وخالقها، وليكشف بواسطته عن سرِّ وحدته مع الآب، هذا السرُّ بكل عمقه وسره وسموه، سلّمه المسيح لخواصه، لا ليتصالحوا فقط مع الله بدم صليبه بل ليتحدوا أيضاً به، ليُصالحوا الآخرين بالله: «ولكن الكلُّ من الله، الذي صالحنا لنفسه يسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة. أي إن الله كان، في المسيح، مُصَالِحاً العالم لنفسه، غير خاسِبٍ لهم خطاياهم، وواضِعاً فينا كلمة المصالحة. إذاً، نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢ كوه : ١٨ - ٢٠)، «من غَفَرْتُمْ خطاياهم، تُغْفَرْ لَهُ.» (يو ٢٣ : ٢٠)

واضح هنا مبدأ «التكميل بالآلام» الذي بلغه المسيح، فبلغ به المجد، وأعلن به عن وحدته بالآب، وكيف سلّمه لنا خلاصاً. فصرنا، بتكميل الآلام عينها «من أجل اسمه»، شُرَكَاءَ بمجد ووحدة وعلاقة سرية معه ومع الآب، وسُفَرَاءَ لله فوق العادة.

نعم، فليس في كل ما عمله الإنسان ما هو مثل الآلام التي للشهادة، إذ لها قدرة أن توحد الإنسان في نفسه والآخرين والله، وتورث مجد الحياة الأبدية: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يعلن...» (١ بط ٥: ١)

الوحدة المسيحية أعظم شهادة لرسالة المسيح في العالم،
وأوثق برهان لمحبة الآب الخالصة:

٢٣: ١٧ «أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني».

حينما يُستعلنُ المسيح فينا فتوحد معاً فيه، وتوحدنا شركة الآله، حينئذ تصير وحدتنا وتصير شركة آلامنا مصدراً دائماً ومستمراً، يدرك منه العالم صدق رسالة المسيح؛ كما ينبع من وحدتنا فيه ومن شركة آله، شهادة صادقة لمحبة الآب لنا، كما نبع من الصليب الشهادة لمحبة الآب للمسيح حينما استعلن مجد الله فيه.

إن أشد ما يتأثر به العالم ويقنعه برسالة المسيح المصلوب، هو استعلان سر الصليب في المسيحيين، وذلك حينما يتألمون من أجل اسمه، شاكرين، فرحين، متحدين، كقول بطرس الرسول: «إن عُيِّرْتُم باسم المسيح فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحلُّ عليكم.» (١ بط ٤: ١٤)

هنا يبرز عاملان يستندان طلب المسيح للوحدة المسيحية: الأول أن يؤمن العالم برسالة المسيح، والثاني: إمكانية انسكاب محبة الله الأبوية في قلوب المؤمنين.

إذن، واضح، وللأسف الشديد، أن في غياب الوحدة المسيحية ضياع الفرصة من العالم لكي يؤمن برسالة المسيح، وضياع الأمل من الكنيسة لانسكاب محبة الآب؛ وإن كانت هناك نماذج قليلة وفردية لا تزال تبث رسالة المسيح في العالم بنموذج وحدتها، حيث تشهد لها محبة الآب التي تلهب قلوب متقيها.

والوحدة المقدسة، أو الاتحاد المقدس في المسيح والآب، هي في اللاهوت المسيحي "هبة" جعلها المسيح في تناول سؤالنا وإلحاحنا وسعينا المقدس بالروح. وهي هبة سماوية، لا تتطلب إلا أن يخضع لها الموهوب بالشكر، ويثبت استحقاقه لها بالطاعة الروحية الباذلة للجسد ومشيته حتى

الموت والمحبة الصادقة عديمة الغش، حتى يستعلن الله ذاته ووجوده بلا مانع في القلب. وإن الرب يسوع المسيح جعل هذا «الاتحاد المقدس» موضوع اهتمامه حتى آخر لحظة من حياته على الأرض، وختمه بدمه على الصليب، وفتح الباب للدخول فيه بإرساله الروح القدس الذي يقودنا نحوه بالصلاة.

و«الاتحاد المقدس» بالمسيح والآب «هبة»، وهي التي سنكتسب بها الخلود، وقد مُنحت لنا بمقتضى صلاة المسيح، الذي عَصَّدها بصليبه، وأحدرها لنا من غُلُوِّ سمائه بدمه. فهي فائقة حقاً، ومتعاضمة في المجد، بحسب غُلُوِّ مجد مُعْطِيهَا. ونحن ننظر إلى هذه الهبة ونرتعب، بسبب عدم لياقة خساسة طبيعتنا، ولكن عندما ننظر إلى غُلُوِّ سخائه في المجد وعظمة قدرة محبته الفائقة نحونا، ونتمعن في استحقاق الثمن المدفوع لعطائنا، نقول: نعم نشكرك، أيها الآب، لأنك أعطيتنا هذا الاتحاد المقدس في المسيح، لنحيا معك، استجابة لدُعَاءِ ابنك الوحيد ودمه الذي به اشتَرانا من الأرض لك.

٢٤: ١٧ «أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أُعْظِيتَنِي، يَكُونُونَ مَعِي، حيثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أُعْظِيتَنِي، لأنك أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ».

كلمتان تصدران هذه الآية، لتعطيها ثِقْلاً روحياً؛ الكلمة الأولى: «أريد» θέλω: فالمسيح هنا لا يتوسل، بل يريد، لأنه إذ يختم تَوسلاته التي قَدَّمَهَا لِلآبِ من أجل الوحدة — وهو على الأرض — وذلك من مُنْطَلَق ما قبل الصليب، بدأ يتكلم ويطلب من منطلق — مجد — ما بعد الصليب: «أريد»!!

المسيح هنا يكشف عن دالة البُنُوَّة عند الابن، الذي يكون قد أكمل مشيئة الآب، إنه يضع على الآب تكليفاً يتوازن مع التكليف الذي وضعه الآب عليه!!!
علماً بأننا لا نستطيع أن نفرِّق كثيراً بين أن يطلب المسيح، أو أن يُطالَبَ، أو بين أن يصلي، وأن يتوسل، وأن يريد، لأنه ضامن الإجابة: «وأنا علمتُ أنك في كلِّ حين تسمع لي» (يو ١١: ٤٢). كما يعلم أن إرادته هي إرادة الآب، وإرادة الآب هي إرادته، فهو لا يَمِلِي إرادته على الآب، بل يعبِّرُ بإرادته عن إرادة الآب!! ولكن هي لغة الدالَّة حينما تبلغ أقصى وثوقها.

ونلاحظ أن المسيح استخدم سابقاً كلمة «أنا أسأل» = ἐγὼ ἐρωτῶ، وهي أيضاً لغة الدالَّة التي لم يستخدمها أحد في مخاطبة الله إلا المسيح. ولكن هنا ينتقل إلى التعبير الأعلى والأكثر وثوقاً

في الاستجابة: «أريد θελω»، كمن يتكلم بسلطان؛ ليس سلطانه لدى الآب، ولكن بالسلطان الذي أعطاه إياه الآب: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته». (يو ١٧: ٢)

ويطيب لنا أن نقارن بين «أريد»، هنا، فيما بعد الصليب بالنسبة لأحبائه، وبين «لا أريد» وهو تحت الصليب بالنسبة لنفسه!! «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن، لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت». (مر ١٤: ٣٦)

أما الكلمة الثانية: ذات الثقل العالي، فهي أن هؤلاء «يكونون معي» حيث أكون أنا! فهذا هو مجد الوحدة وإكليلها الفاخر.

لقد سبق وأعلن المسيح عن هذه "الإرادة" التي تلح في داخله من أجل أحبائه: «إن كان أحد يخدمني، فليتبني، وحيث أكون أنا، هناك أيضاً يكون خادمي، وإن كان أحد يخدمني يُكرمه الآب» (يو ١٢: ٢٦). وواضح أنه إن كنا نتبعه هنا على درب الصليب، فسوف نتبعه هناك في دروب أمجاد العُلا: «هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب، هؤلاء اشتروا من بين الناس، باكورة لله وللخروف، وفي أفواههم لم يوجد غش، لأنهم بلا عيب قدام عرش الله». (رؤ ١٤: ٥)

ولقد عبّر المسيح مرّة عن هذه الإرادة المحبّة إليه، أن يكون أحبّاءه معه حيثما يكون، وذلك بتأكيد في صورة "وعد": «وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو ١٤: ٣). ولقد أفصح المسيح مرة أيضاً لبطرس الرسول أنه (أي بطرس) سيتبعه من فوق ذات الصليب إلى هناك في ذات المجد: «حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستبني أخيراً». (يو ١٣: ٣٦)

ولكن ما لنا نبتعد كثيراً عن سر «هؤلاء الذين أعطيتني»؟ أليسوا هم هم العروس؟ الكنيسة المفديّة، المغسولة، والمطهّرة، التي بلا عيب ولا دنس، كيف لا تكون حيث يكون، وكيف لا تبقى عن قريب، بل وأقرب المقرّبين، لترى مجده، بل تُقاسمه إياه؟ ثم أليس هو الوعد الذي وعد ليوحنا، في رؤياه، كآخر ما يقوله الروح للكنائس السبع: «من يغلّب، فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبتُ أنا أيضاً، وجلستُ مع أبي في عرشه» (رؤ ٣: ٢١). وعجيب أن يطابق هذا الوعد، بحروفه، مع آخر كلمة قالها المسيح في كل تعاليمه التي جاءت في نهاية الأصحاح السادس عشر: «... ولكن ثقوا أنا قد غلبتُ العالم». (يو ١٦: ٣٣)

ولكن السؤال الذي يتحتم الإجابة عليه هو: ما الفرق بين المجد الذي سبق أن رآه التلاميذ في المسيح وهو معهم: «وحلّ بيننا ورأينا مجده مجدداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو: ١٤: ١)، والمجد الذي عاد المسيح يطلب من الآب أن يراه هؤلاء التلاميذ وهم معه: «أريد أن هؤلاء ... يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي» (يو: ١٧: ٢٤)؟

ق. يوحنا في الآية ١: ١٤، يتكلم عن المجد الذي استطاع أن يستوعبه من خلال "حجاب الجسد"، سواء جسد المسيح وهو في حالة الإخلاء، أو جسد التلاميذ الذي لا يستوعب إلا جزئياً، وكما من خلال مرآة، "كما في لغز"، ولا يبلغ إلا إلى «بعض المعرفة». (١ كو: ١٣: ١٢)

ولكن المسيح هنا يتكلم عن رؤيا مجده، وهو في كامل استعلان لاهوته في السماء مع الآب، وهي رؤيا لا يحجز عنها الجسد شيئاً من جلالها، بل رؤيا الكلّ والكمال، التي عبّر عنها ق. يوحنا أيضاً في رسالته هكذا: «لأننا سنراه كما هو». (١ يو: ٣: ٢)

والذي نلاحظه بوضوح أن حالة «يكونون معي حيث أكون أنا»، هي حالة أشدّ استعلاناً وعلانية من: «أنا فيكم وأنتم في»، والتي تمثل الوحدة في مفهومها الحاضر! لأن المسيح يكون فينا، ونكون فيه الآن «بالإيمان» فقط: «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف: ٣: ١٧). والوحدة المتأتمية من ذلك هي وحدة "سرّ" أو سرّائية غير منظورة: «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي، يَثْبِتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو: ٦: ٥٦). وهذه الوحدة بالحلول وبالسرّ يعوّقها الجسد، ويحدّ من فاعليتها واستعلانها، ويُنْقِصُ من بهجتها، بسبب عجزه وقصوره ورغباته المعاكسة. لذلك حقّ للمسيح أن يطلب لنا ما فوق الحلول والسرّ، يطلب التواجد معه في حالة استعلان ورؤية كاملة، ترتقي إليها الروح، بعد أن تطرح عنها الفاسد وتلبس عدم الفساد.

ولكن المسيح كمادته أخرجتم عن ذكر ما ذا سيراه المؤمنون هناك، فهو يسكت دائماً عن ذكر ما لا طاقة لنا بمعرفته: «إِنْ كُنْتُ قَدْ قَلْتُ لَكُمْ الْأَرْضِيَّاتِ، وَلَسْتُمْ تَوَافِقُونَ، فَكَيْفَ تَوَافِقُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمْ السَّمَوِيَّاتِ» (يو: ٣: ١٢)، أو كما حاول بولس الرسول أن يصفها: «ولا يسوعُ لإنسان أن يتكلّم بها» (٢ كو: ١٢: ٤)، إذ أنها «لا تخاطر على قلب بشر» (أنظر ١ كو: ٢: ٩).

ولكن الذي نعرفه والذي نثق فيه بالروح، أننا سنستوعب من مجده الأسنى قدر ما تستطيع الروح أن تستوعب، في غيبة جسدنا المعتم هذا، وسنرى العلاقة الأزلية بين الآب والابن، وسينفذ فينا شعاع مجد لاهوته لينطبّع علينا بهاء صورته ولن تُمَحَى منا إلى الأبد: «ولكن نعلم أنه إذا أظهر

نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (١ يوحنا ٣: ٢)، «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (١ كورنثوس ٤: ٤)

لأنه إن كان قد أعطي لنا الآن أن نكون «نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، كما في مرآة، نتغيّر إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» (٢ كورنثوس ٣: ١٨)؛ فماذا حينئذ لا تكون مرآة، بل يكون هو هو بجلء لاهوته، وقد تخلّى عن إخلائه، واستردّ جلال جوهر مجده، والجسد فيه يتلألأ بضياء نور الآب، الذي ليس فيه ظلمة البتة. فإذا كانت صورته في المرآة تنطبع علينا لتتغير إليها من مجد إلى مجد، فماذا يكون حينئذ ندخل الأقداس العليا لتتراءى معه أمام أبيه لنستأمن على سر الأزلي، ونور الخلود، وحب الآب للابن، وشركة ميراث الوحيد المحبوب؟

ولكن يُستدلّ من قول المسيح، أنه «يريد» أن يكون المؤمنون به معه حيث يكون، أن الموت هنا في فكر المسيح غير محسوب البتة وكأنه لا يكون. فقد ألغى المسيح الموت بالنسبة للذين يؤمنون به، كما ألغى الحياة بصورتها المادية المتعارف عليها: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمَنَ بي ولو مات فسيحيا.» (يوحنا ١١: ٢٥)

«لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»:

المجد هنا ليس هو مجد «الكلمة»، ولكنه مجد الكلمة «المتجسد»: «وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت، لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تحنوا باسم يسوع كلُّ رُكْبَةٍ مَن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، ويعترف كلُّ لسان أن يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب.» (في ٢: ٨—١١)

ومعلوم في اللاهوت المسيحي، أنه يمتنع أن يُقال عن «مجد» الابن قبل تجسده، أنه «مُعْطَى»، بل هو مجد واحد للآب والابن سواء بسواء، فهو حقُّ الأزلي. أما المجد «المُعْطَى»، فهو المجد الذي اكتسبه المسيح بطاعته للآب بآلامه الطوعية حتى الصليب: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مَكْتَلّاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوقَ بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب ٢: ٩). وعلينا أن نتمعن النظر في الرباط الوثيق بين غاية المسيح في التجسد وبين طِلْبَتِهِ هذه: أن نكون شركاء مجده الذي حازه بالصليب؛ لأنه إن كانت غاية التجسد هي الصليب، وغاية الصليب هي أن يصنع لنا تطهيراً، فغاية التطهير الذي نلناه هو أن يؤهّلنا لأن نرتفع إليه ونبقى معه حيث هو: «بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة»

في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عب ١ : ٤ و ٣)؛ ثم لِمَنْ أعدَّ هذا المكان: «في يمين العظمة في الأعالي» إلّا لنا؟ «وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وأخذكم إليّ. حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو ١٤ : ٣)

هذا المجد هو "مجد مُصَالِحَة الله مع الإنسان"، أو هو عودة مجد الإنسان المتصالح مع الله الذي استردّه المسيح للبشرية، بالثمن الذي دفعه بالصليب غالياً، لذلك حقّ له ولنا أن يعطيه لنا كما أُعطي له: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧ : ٢٢). هذا مجدُ المُصَالِحَة مع الله، الذي دخلنا فيه، فاتحدنا في ظلّ حب الله الذي انسكب علينا كبنين، بنفس حبّ الآب للمسيح كقوله: «وأحبّتهم كما أحبّيتني.» (يو ١٧ : ٢٣)

حبّ الله الآب للابن الأزليّ هو، وليس مستحدثاً قط: «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا» (مت ١٧ : ٥). وحبّ الله الآب للابن الوحيد لم يتغيّر بالتجسد، ولم يتناقص، بل امتدت بمجالاته نحو العالم بالتجسد: «هكذا أحبّ الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣ : ١٦). لقد امتدّ مجال حبّ الله الأبوي لابنه الوحيد، فشمل كل الذين آمنوا به وقبلوه، إذ أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله. لقد نلنا بالتبني عيّنة من حب الله الأزلي للابن: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»، و«أحبّتهم كما أحبّيتني». المسيح هنا يستشهد بحب الآب له قبل إنشاء العالم، ليدعّم طلبه أن تصير محبة الآب بالمثل وعلى مستوى الزمن والدهر لأخصائه الذين أحبّوه، وآمنوا به، وحلوا صليبه. فشركاء آلامه، كيف لا يكونون شركاء مجده وحب الآب له؟

لقد حقّ للمسيح أن يطالب الآب، وليس يطلب فقط («أيها الآب أريد...»)، أن نكون معه، نتأمل مجده الذي اكتسبه لحسابنا، ونحيا في مجال حبّ الله الأزلي له، لأنه اشترانا بدمه لحساب الآب وأدخلنا عهد التبني، وأكمل لنا المصالحة مع أبيه بجروحه النازفة، وشوك لعنة الأرض، الذي أدمى أقدام الإنسان، لِبِسِه عوضاً عنا كإكليل فوق رأسه: «فكيف لا يَهَبُنَا أيضاً معه كلّ شيء.» (رو ٨ : ٣٢)

٢٥ : ١٧ «أيها الآب البارّ، إنّ العالم لم يعرفك. أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عَرَفُوا أنك أنت أرسلتني.»

تعقيب بديع على بنود الصلاة كلها، يُبرز سببها، ويسند ضرورتها. وكأنه يريد أن يقول:

«أيها الآب البار، أنا طلبتُ طلباتي هذه كلها على أساس برك الفائت قبل كل شيء! ثم أنا طلبت، وأطلتُ طلباتي، وعمقتُها، لا شيء إلا لأن العالم لم يعرفك بعد. والآن، وقد أرسلتني إلى العالم، وأنا وحدي الذي أعرفك، لذلك توسلتُ إليك من أجل الذين اجتذبتهم أنت إلي من العالم. وهؤلاء عرفوا يقيناً أنك أنت الذي أرسلتني، لذلك أسألك من أجلهم، وأنت أصلاً المتكفل بهم، لأنهم لك وقد أعطيتهم إلي».

«أيها الآب البار»:

هي المقابل المساوي لقول المسيح في آية سابقة: «أيها الآب القدوس» (يو ١٧: ١١) ولكل صفة يذكرها المسيح للآب يلحقها بما يناسبها من الطلب: «أيها الآب القدوس، احفظهم في اسمك (القدوس)... ليسوا من العالم كما أنني أنا لست من العالم. قدسهم في حقك» (يو ١٧: ١١ و ١٦ و ١٧). المقارنة هنا قائمة بين العالم والتلاميذ، والطلب أن يحفظهم من العالم الشرير بأن يقدسهم في الحق الإلهي. أما في هذه الآية: «أيها الآب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»:

«الآب البار» = πάτερ δίκαιε

«البار» هنا صفة تشمل العدل والرحمة معاً، وقد تترجمُ بالعدل فقط، كما أوردها ق. يوحنا: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل δίκαιος حتى يغفر لنا خطايانا» (١ يو ١: ٩)، وهكذا وَضَعَ صفة «العدل» في الله على مستوى غفران الخطية في الإنسان، وهذا أعلى مستوى لفهوم العدل الرحيم أو «البر» الذي يفوق تصور الإنسان.

وهكذا يستعلن لنا المسيح صفة العدل «البار» في الأبوّة، ليعبر بها عن الحب المتفجر من قلب الآب، الذي يتجاوز حدود العالم الضيق في ذاته.

المقارنة هنا أيضاً بين العالم الذي لم يعرف الآب، والتلاميذ الذين عرفوه — عبر المسيح. ولكن هنا لا يطلب المسيح شيئاً، ولكن يقرر حقيقة واقعة، أن هؤلاء إذ قبلوا الإيمان بإرسالية الآب للمسيح، وعرفوا «اسم» الآب، حقاً لهم كبنين عند بر الآب، أن يكون فيهم حب الآب للابن! ذلك من واقع بر الله الآب، إذ ليس من المعقول أن يكون نصيبهم كنصيب العالم الذي لم يعرفه.

وكأننا، مرة أخرى، أمام إبراهيم وهو يحتاج الله: «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن

تُسميت البارَّ مع الأثيم، فيكون البارُّ كالأثيم، حاشا لك. أذَّيَّانُ كل الأرض لا يصنع عدلاً؟»
(تك ١٨: ٢٥)

«إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»: المعرفة هنا تقع في ثلاثة أوضاع: العالم «لم يعرفك»، أنا «عرفتُك»، هؤلاء «عرفوا أنك أنت أرسلتني». أما معرفة العالم، فهي الجحود والإنكار، أما معرفة المسيح فهي «الاستعلان». وأما معرفة المسيح، والذين آمنوا بإرسالية المسيح، فهي الحياة الأبدية التي استُعْلِنَتْ: «هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته». (يو ١٧: ٣)

ومرة أخرى نكرر: إن "معرفة الله"، في المفهوم الروحي الاختباري، هي شركة (١٥)، لأن الحقَّ الإلهي لا يُسْتَعْلَنُ إلَّا لِمَنْ استحق أن يقبله.

واضح هنا أن المسيح يدين العالم، في ختام صلاته، وفي قرارة قلب المسيح مرارة، لأن عدم معرفة العالم للمسيح والآب تأتي بلا سبب: «أبغضوني أنا وأبي... أبغضوني بلا سبب» (يو ١٥: ٢٤ و ٢٥). وبولس الرسول أؤكد هذا مراراً: «لأنه إذ كان العالم في حكمة الله، لم يعرف الله بالحكمة» (١ كو ١: ٢١)، «حتى إنهم بلا عذر، لأنهم لما عرفوا الله، لم يعجّدوه أو يشكروه كإله». (رو ١: ٢٠ و ٢١)

ولكن يعود المسيح ليطيّب قلب الآب: «أما أنا فعرفتُك». والمسيح هنا يتكلم بضم الإنسان الجديد، بضم الكنيسة التي اشتراها من بين كل شعوب الأرض طُرّاً والتي لَقَّنها «عِلْمَ معرفته».

٢٦: ١٧ «وعرَّفْتُهُمْ آسَمَكَ، وسأعرِّفُهُمْ، ليكونَ فيهم الحبُّ الذي أحبَّيتني به، وأكونَ أنا فيهم».

التعريف "باسم الله" جاء هنا على مستوى استعلان الله في ذاته، أي استعلان أبوته القائمة في الابن الذي أرسله، وهو هو استعلان "الحقِّ ذاته". والحق ليس إلَّا الله في ذاته، وكل ما عداه هو حقٌّ فقط، بمقدار خضوعه وانسجامه مع الله. و"اسمُ الله"، معرفته هي هي الحياة الأبدية.

أن يعرف المسيح الناس "باسم الله الآب"، هو أن يعرفهم بالحق الإلهي، لينقضوا عنهم كل ما هو مزيف وزائل ومنتز بالموت. فإن كان اسم الله هو الحق الأليثيا ἀλήθεια، فكل ما عداه هو التزييف ψεῦδος. والمسيحيون المؤمنون حقاً، يدعوه ق. يوحنا في رسالته الثانية: «الذين قد عرفوا الحق.» (١يو٢)

وأن يعرف المسيح الناس "باسم الله الآب"، فلا يكون هذا من على بُعد، ولا كأنه على مستوى الفكر؛ بل يعني أنه استودع "الاسم" قلوبهم، ليعيشوا ويخلصوا به؛ ليستنبروا بنوره، لا كمعرفة بعد، بل كقوة حياة لا تزول.

والتعريف باسم الله الآب، ليس عملاً يمكن أن يكمل أو يمكن أن ينتهي، بل هو عمل الابن منذ أن تجسد وإلى أبد الأبد، عمل يغطي الزمن، ويمتد في الأبدية. فالله مدرك كامل، يُدرك، ولكن لا يُدرك كماله. لذلك أردف المسيح القول: «عرفتهم اسمك» بقوله: «وسأعرفهم». فهو عمل المسيح حتى وإلى ما بعد الصليب. لقد وعد بذلك، حينما وعد بإرسال الروح القدس: «فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣). ولكن معرفة الله في المستقبل، تقوم فقط وتمتد على أساس المعرفة في الحاضر الزمني، فالذي أسقط من حسابه التعرف على اسم الله الآب هنا بسبب مشقة الصليب، ظالم هو، إن ظن أنه يعرض ما فاتته هناك! ولكن معرفة اسم الله الآب في الحاضر مهما كانت شاقة، ويكتنفها الآلام، فهي تبدو جلية وعظيمة القدر، حينما تكمل وتمتد هناك.

فإذا سكن اسم الآب في قلوب متقييه عن وعي، فقد سكن الحب الأبوي حتماً وبضمان سُكنى المسيح: «وأكون أنا فيهم». لكن حب الآب، يستحيل أن نذوقه في غيبة الابن المحبوب. لذلك صح القول: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو١٦: ١٦)، والمسيح يوجه نظرنا إلى أصل ومتبع حب الآب هكذا: «لأن الآب نفسه يُحبكم، لأنكم أحببتموني» (يو١٦: ٢٧). هذا الحب الأبدي الذي يتفجر من قلب الآب، كالنور الذي يتفجر من قلب الشمس، استطاع المسيح، بالروح القدس، أن يحوله في أمواجه الجارفة نحو قلوبنا. ولكي يضمن سخاء انسكابه، أمّن على ذلك بوجوده الدائم: «وأنا فيهم».

لهذا كان شغل المسيحي الشاغل، أن يحوز على حلول المسيح في القلب: «لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون، ومتأسسون في المحبة.» (أف ٣: ١٦-١٨)



وادی قدرون

غُثِرَ المسيح عدة مرات، سواء وهو ذاهب إلى الهيكل أو وهو صاعد إلى جبل الزيتون، وحيث
قضى الليل في جنسيمانى مساء الخميس المقدس.
هذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون ومدينة أورشليم، ويحوي أربعة مداخل قديمة العهد،
بمعقد أنها لأبشالوم وبهوشافاط والقديس يعقوب والقديس زكريا.



أقدم سحرة ريمون في سنان حبيمان

الجزء الخامس : إنجيل الفداء

(الأصحاحات ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١)

هذه الأصحاحات تشمل :

أولاً — التسليم

[١٨: ١ — ١١]

ثانياً — المحاكمة أمام الهيئات الدينية، المحاكمة أمام الدولة الرومانية [١٨: ١٢ — ١٩: ١٦]

ثالثاً — النهاية

[١٩: ١٧ — ٤٢]

رابعاً — القيامة (الحياة الجديدة)

[٢٠]

خامساً — صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية

[٢١]

الأصحاحان الثامن عشر والتاسع عشر

مقدمة: خصائص الأصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر

في إنجيل يوحنا:

+ يرتفع فيهما ق. يوحنا فوق السرد التاريخي لحوادث الآلام والصلب، ليجذب انتباه القارىء إلى ما تحمله الحوادث من معاني هامة.

+ فالآلام، والموت، وحتى القيامة، تحمل أقصى الاستعلان عن شخصية المسيح.

+ كلُّ حَدِيثٍ وكلُّ قَوْلٍ جاء معه، يحمل في أعماقه صفة الآية، التي تشير إلى مضمون يتفوق كثيراً عن مجرد السرد التاريخي الذي جاء به هذا الحدث وهذا القول.

+ ليس من الصواب أن نعتبر ما أضافه ق. يوحنا في رواية الآلام والصلب أنه تكميل لما جاء في الثلاثة الأناجيل، بل الصواب هو أن هذه الإضافات تنطلق من قاعدة شاهد عيان كان على قُرْبٍ وثيق مع المسيح في كل تحركاته، إذ لازمه ولم يتخلَّ عنه لحظة واحدة، مما أهله أن يَصِفَ، عن ملء الرؤيا والمعرفة المباشرة، الأمر الذي لم يتسنَّ لبقية التلاميذ.

ق. يوحنا، في سرده لحوادث الآلام والصلب، اكتفى — كباقي رواية الإنجيل — بمواقف اختارها خصيصاً دون بقية الحوادث والآيات، ليَتَّخِذَ منها أساساً يبني عليه القصد الكلي والنهائي من الإنجيل، وهو استعلان شخص المسيح باعتباره ابن الله، الأمر الذي اعتبره دستوراً للإيمان المسيحي والحياة الأبدية، واعتبرته الكنيسة من بعده كذلك.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نستخلص من رواية ق. يوحنا عناصر استعلانية واضحة تكشف عن لاهوت المسيح، وهو يجوز آلامه.

أولاً: المسيح جاز الآلام عن مشيئة وإرادة طوعية:

١٨: ٤ «فخرج يسوع وهو عالمٌ بكل ما يأتي عليه، وقال لهم: مَنْ تطلبون؟» .

١٨: ٨ «قد قلت لكم: إني "أنا هو" فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون» .

١٨: ١١ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد، الكأس التي أعطاني الآب ألا

أشربها؟» .

٣٦: ١٨ «أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسلّم إلى اليهود».

٢٨: ١٩ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كَمُلَ. فلما يتم الكتاب قال أنا عطشان».

٣٠: ١٩ «فلما أخذ يسوع الخَلَّ، قال: قد اكْمِل ...».

ثانياً: الحوادث تنطق أن المسيح كان يكْمُل بآلامه خطة إلهية مرسومة مُسَبِّقاً:

٩و٨: ١٨ «فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون، ليتم القول الذي قاله: إن الذين أعطيتني، لم أهلك منهم أحداً!».

١١: ١٨ «الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟».

١١: ١٩ «أجاب يسوع لم يكن لك عليّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أُعْطِيت من فوق».

٢٤: ١٩ «فقال بعضهم لبعض: لا نُشَقُّه، بل نقترع عليه، لمن يكون. ليتم الكتاب القائل: اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة».

٢٨: ١٩ «فلما يتم الكتاب، قال: أنا عطشان».

ثالثاً: سمات التفوق الإلهي من داخل ذلّة القبض، وغُصّة الآلام، وعار الصليب:

٦: ١٨ «فلما قال لهم إني أنا هو، رجعوا إلى الوراء، وسقطوا على الأرض».

٢٠و٢١: ١٨ «أجاب يسوع: أنا كلَّمْتُ العالم علانية. أنا علَّمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود دائماً، وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء، لماذا تسألني أنا؟ أسأل الذين قد سمعوا ماذا كلَّمْتُهم».

٣٧: ١٨ «فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم، لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتي».

٣٦و٣٧: ١٩ «لأن هذا كان، ليتم الكتاب القائل: عَظْمٌ لَا يُكْسَرُ منه. وأيضاً يقول كتاب آخر: سينظرون إلى الذي طعنوه».

أما العناصر الجديدة التي ساهم بها إنجيل يوحنا في خزانة الإنجيل، فنحن نلخصها في الآتي:

- ١ - كلمات القوة والسلطان لحظة القبض عليه: (١٨: ٤-٩).
 - ٢ - الفحص والمحاكمة أمام حنان (رئيس الكهنة): (١٨: ١٣-٢٤).
 - ٣ - الاجتماع الأول بين اليهود وبيلاطس، الذي أعقبه إجراء سري لاستجواب بيلاطس له: (١٨: ٢٨-٣٧ و ١٩: ٩-١١).
 - ٤ - الاستهزاء الأول بالمسيح وهو مقبوض عليه. وخروج بيلاطس بجملته المشهورة: «هوذا الإنسان»: (١٩: ٢-٥).
 - ٥ - إصرار بيلاطس على كتابة ما كتب بخصوص ملك اليهود: (١٩: ٢١ و ٢٢).
 - ٦ - تسليم المسيح والدته القديسة مريم العذراء للتلميذ الذي يحبه يسوع: (١٩: ٢٥-٢٧).
 - ٧ - الجملة الأخيرة: «أنا عطشان»، و«قد أكمل». (١٩: ٢٨-٣٠).
 - ٨ - طعن جثب المسيح بالحربة، وخروج دم وماء: (١٩: ٣١-٣٧).
 - ٩ - عودة نيقوديموس علناً، وقيامه بواجب الأمانة التي أخفاها طويلاً في الظلام: (١٩: ٣٩).
- وقد برزت في رواية ق. يوحنا إضافات، استطراداً للشرح الضمني، هي ذات وزن تاريخي للرواية، وعلى غاية من الأهمية، وتوضح أن الذي يقوها شاهد عيان وخبير بأمور الرب:
- ١ - «قال يسوع هذا (صلاة يوحنا ١٧)، "وخرج" مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان يستأن ...» (١٨: ١).
 - ٢ - «وكان يهوذا مُسلّمه يعرف الموضع، لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه.» (١٨: ٢)
 - ٣ - «ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف، فاستلّه، وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه اليمنى. وكان اسم العبد ملّخس.» (١٨: ١٠)
 - ٤ - «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغميد، الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (١٨: ١١)
 - ٥ - «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه.» (١٨: ١٢)
 - ٦ - «ومضوا به إلى حنان أولاً، لأنه كان حَمًا قيافا، الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (١٨: ١٣)
 - ٧ - «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند

رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة. « (١٨: ١٥)

٨ — «وأما بطرس فكان واقفاً عند الباب خارجاً. فخرج التلميذ الآخر الذي كان معروفاً

عند رئيس الكهنة، وكلم البوابة، فأدخل بطرس. « (١٨: ١٦)

٩ — «قال واحد من عبيد رئيس الكهنة، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه: أما رأيتك أنا

معه في البستان؟» (١٨: ٢٦)

١٠ — «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صُبُح. ولم يدخلوا هم إلى دار

الولاية، لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح. « (١٨: ٢٨)

١١ — «وكان استعداد الفصح، ونحو الساعة السادسة، فقال لليهود: هوذا ملككم.»

(١٩: ١٤)

١٢ — «فخرج وهو حامل صليبه، إلى الموضع الذي يُقال له موضع الجمجمة، ويقال له

بالعبرانية جلجثة.» (١٩: ١٧)

١٣ — «وكتب بيلاطس عنواناً، ووضع على الصليب، وكان مكتوباً: يسوع الناصري ملك

اليهود.» (١٩: ١٩)

١٤ — «ثم إن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع، أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام، لكل

عسكري قسماً. وأخذوا القميص أيضاً، وكان القميص بغير خياطة، منسوجاً كله من فوق.»

(١٩: ٢٣)

١٥ — «وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد

قط.» (١٩: ٤١)

الآلام والصليب ساعة بساعة

يقدم لنا الأسقف التقليدي والعالم الكتابي وستكوت حوادث القبض والمحاكمة والآلام والصليب مَوْقَعَةً على الساعات في جدول زمني رتيب، نقدمه للقارئ، على أساس الساعة المعمول بها الآن في العالم. أما الحساب الزمني لساعات اليهود، والتي لا تزال تعمل بها الكنيسة، فنضعها بين أقواس:

الساعة	الحادثة الزمنية
الواحدة بعد نصف الليل (السابعة من الليل)	أ - معاناة الآلام في صلاة البستان. ب - ظهور يهوذا مع الجند والخنّام. ج - القبض على المسيح، والذهاب به إلى منزل رئيس الكهنة.
الثانية بعد نصف الليل (صباحاً) (الثامنة من الليل)	المحاكمة الأولية أمام حنان، بحضور قيافا.
الثالثة بعد نصف الليل (صباحاً) (التاسعة من الليل)	محاكمة قيافا، ومجلس السنهدريم في اجتماع غير عادي.
الخامسة بعد نصف الليل (فجراً) (الحادية عشر من الليل) (١)	أ - خروج حكم السنهدريم (١). ب - وساقوه إلى بيلاطس حيث الفحص الأول في دار الولاية.
الخامسة والنصف (صباحاً) (منتصف الثانية عشر من الليل)	أ - الفحص أمام هيرودس. ب - الجلد، والاستهزاء الأول في قصر هيرودس.

(١) لو ٢٢: ٦٦: «ولما كان النهار (الفجر)، اجتمعت مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجملهم».

مت ٢٧: ١: «ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة، وشيوخ الشعب على يسوع، حتى يقتلوه».

مر ١٥: ١: «وللوقت، في الصباح، تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله، فأوثقوا يسوع، ومضوا به، وأسلموه إلى بيلاطس».

السادسة والنصف (صباحاً)	النطق بالحكم من فم بيلاطس.
(منتصف الساعة الأولى من النهار)	
السابعة (صباحاً)	الاستهزاء الثاني للعسكر «بالملك».
(الساعة الأولى من النهار)	
التاسعة (صباحاً) قبل الظهر	أ — بدء الصلب (٢).
(الساعة الثالثة من النهار) (٢)	ب — رفض الخل.
الساعة الثانية عشرة ظهراً	بدء التزج الأخير.
(الساعة السادسة من النهار)	
من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة	
الثالثة (من السادسة حتى التاسعة) (٣)	«كانت ظلمة على الأرض» (٢).
الساعة الثالثة	النهاية : «قد اكتمل» !
(الساعة التاسعة من النهار)	

(٢) مر ١٥: ٢٥ : «وكانت الساعة الثالثة، فصلبوه».

(٣) مت ٢٧: ٤٥ : «ومن الساعة السادسة، كانت ظلمة على الأرض إلى الساعة التاسعة».

مر ١٥: ٣٣ : «ولما كانت الساعة السادسة، كانت ظلمة على الأرض كلها، إلى الساعة التاسعة».

لو ٢٣: ٤٤ : «وكان نحو الساعة السادسة، وكانت ظلمة على الأرض كلها، إلى الساعة التاسعة».

أولاً: التسليم

(١٨: ١-١١)

والآن قد حانت الساعة ليقدم المسيح ذبيحة نفسه،
علناً، أمام التلاميذ والعالم والتاريخ.

١٨: ١ «قال يسوع هذا، وخرَجَ مع تلاميذه إلى غُبرِ وادي قَدْرُون، حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ،
دَخَلَهُ هُوَ وَتَلَامِيذُهُ».

«خَرَجَ»: ἐξῆλθεν

لأول وهلة، تفيد هذه الكلمة أن الرب خرج من العلية التي كانوا مجتمعين فيها، ولكن في موضع آخر، وفي نهاية الأصحاح الرابع عشر، بعد الحديث على العشاء، نسمع الرب يقول: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو ١٤: ٣١)، كإفادة للخروج من العلية. لذلك يعلّق بعض الشُّراح على الخروج هنا، أنه كان من أحد الأزوقة في الهيكل التي عرّج عليها الرب في طريقه إلى جثسيماني في جبل الزيتون^(٤).

ويرجع ذلك، العالم وستكوت، بسبب قول الإنجيل أنه خرج إلى غُبرِ وادي قدرون، وهو الوادي الذي يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، بمعنى أن الرب اجتاز الأرض من الغرب — ناحية الهيكل — إلى الشرق. وهذا لا يتأتى، إلا إذا كان خارجاً من الهيكل، وغالباً من باب دمشق، وهو المرسوم عليه الكرمة الذهبية بأفروعها الممتدة. ولكن الذي يُريدنا شعوراً بصدق هذا الاحتمال، هو الإحساس الشديد الذي يُخلّقه المسيح في صلاته التي قدّمها إلى الآب بالحضرة الإلهية المهيبة التي يصوّرها الهيكل: «بيتي بيت الصلاة يُدعى» (مت ٢١: ١٣). خاصة وهو يرفع بصره بعيداً، نحو الكنيسة الجديدة الأزلية، حيث السجود للآب سيكون بالروح والحق!

و«قَدْرُون» هو نهر يجفّ صيفاً، فيترك قاعه جافاً كالوادي، ليمرّ فوقه المارة.

ولكن يبدو أن ق. يوحنا اعتنى أن يقدم لنا هذا الوصف التفصيلي للرحلة الحزينة للمسيح، وهو خارجٌ من المدينة صوب جبل الزيتون، مُطارِداً من التلميذ الخائن والشعب الأحق، ليعطينا

⁴ Westcott, *op. cit.*, p. 337; The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 379.

نفس الصورة النبوية لداود «ملك إسرائيل»، وهو خارج باكياً حافي القدمين، هارباً من وجه «ابنه» أبشالوم الطامع في مُلك أبيه، متسلحاً بمشورة أخيتوفل، وبجيش من الشعب الأحمق الذي أغواه ضد أبيه:

+ «وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم، وجميع الشعب يعبرون، وعبر الملك في وادي قدرون، وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية.» (٢ صم ١٥: ٢٣)

+ «وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون، كان يصعد باكياً، ورأسه مغطى، ويمشي حافياً، وجميع الشعب الذين معه غطّوا كل واحد رأسه، وكانوا يصعدون وهم يبكون.» (٢ صم ١٥: ٣٠)

أما أبشالوم الابن الجاهل، فأصابه سهم في ظهره وعُلّق على شجرة ميتاً. وأما أخيتوفل، صاحب المشورة، فذهب وخنق نفسه (٢ صم ١٧: ٢٣)!!

«... حيث كان بُستان، دخله هو وتلاميذه»:

هذا هو بستان «جشيماني»، الاسم الذي أطلقه كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس. ويحكى لنا المؤرخ يوسيفوس اليهودي، أن مثل هذه البساتين الصغيرة كانت منتشرة على جبل الزيتون، وكانت تُدعى بالبراديسوي παράδεισοι أي «الجّئات».

وكلمة «جشيماني» من مقطعين «جاث — شمّاي»، وتعني «معصرة الزيت»:

+ «مَنْ ذا الآتي من أدوم بشياب حُمْرٍ من بُصرة، هذا البهيّ بملابسه، المتعظّم بكثرة قوته؟ أنا المتكلّم بالبرّ، العظيم للخلاص. ما بال لباسك مُحمّرٌ وثيابك كدائس المعصرة؟ قد دُشْتُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد. فدُشْتُهم بغضبي، ووطئتهم بغيظي، فرُشّ عصيرهم على ثيابي، فلطختُ كل ملابسي. لأن يوم النعمة في قلبي، وسنة مفديي قد أتت.» (إش ٦٣: ١-٤)

كثير من الشُّراج والقديسين الأوائل تغنّوا ببستان جشيماني كبستان، أو بالتعبير الإنجيلي الصحيح جنة παράδεισος، وبتعبيرنا «جنيّة» أي تصغير «جنة»، وذلك في مقابل جنة عدن، فكما فقد الإنسان الأول فيها هويته، إذ طغى عليه الشيطان وأغواه وأخذّره إلى الأرض عرياناً، مفضوحاً، ميتاً بجهله؛ جاء ابن الإنسان ودخلها مصلياً، وانتقم للإنسان، بأن أسقط الشيطان من السماء كالبرق المنطفىء، وأخذّره إلى الهاوية، مُكبّلاً بقيود الظلام، وأعاد آدم إلى رتبته الأولى حيّاً، غالباً الموت، لميراث نعيم الحياة الأبدي.

وربما يكون ق. يوحنا قد وضع موضوع المقابلة في أمر جنة عدن والبستان = «الجنة» ضمن اعتباره، إذ يكرر مرة أخرى أن موت الرب وقيامته كانا في بستان (جَنَّة) أيضاً: «وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، وفي البستان قبرٌ جديد لم يوضع فيه أحد قط» (يو ١٩: ٤١). بل وأمعن في أمر البستان، أن مريم توهمت أن المسيح القائم من الموت أنه هو «البستاني»: «فظننت تلك أنه البستاني، فقالت له: يا سيِّد إن كُنْتُ أنت قد حَمَلْتَهُ، فقلْ لي أين وضعته وأنا آخذه» (يو ٢٠: ١٥). ولم تعلم مريم أنه «البستاني» الحقيقي، الذي قُلِّح لنا الفردوس الجديد، يوحى آدم الذي أفقَدنا الفردوس الأول.

«دخله هو وتلاميذه»:

واضح أن البستان له أسوار وباب. لقد كان مكاناً مختاراً للرب والتلاميذ لقضاء أوقايت وأيام للراحة والصلاة والتأمل. هنا يذكر الإنجيل التلاميذ بكامل عددهم: «تلاميذه»، بعد أن أسقط يهوذا، فتلاميذ المسيح لا يجمعهم عَدَدٌ، بل يجمعهم الحب والإيمان اللذين فقدهما يهوذا، ففقد نفسه، ولم يفقد التلاميذ شيئاً بفقده.

لم يذكر ق. يوحنا شيئاً عن معاناة الرب في الصلاة التي اشتهرت بها جثسيماني، ولكن لم يغفل ق. يوحنا مرارة الروح التي صُلِّي بها المسيح في جثسيماني، وعمق المعاناة التي جازها، وصرخة الجَزَع التي خرجت لتعبّر عن ثقل التجربة؛ ولكنه ذكرها مُسبقاً عَبْرَ أحاديث هادفة، ولم يشأ أن يركّز عليها تركيزاً كباقي الإنجيليين. لقد ذكرها في موضوع تعليمي يليق بموت الذات الإرادي في موضوع موت حبة الحنطة، وضمها إلى ساعة الصليب، ليفهمها القارئ اللبيب:

+ «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة، ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ، فهي تبقى وحدها؛ ولكن إن هاتت، تأتي بثمر كثير. مَنْ يحب نفسه يهلكها، وَمَنْ يبغض نفسه في هذا العالم، يحفظها إلى حياة أبدية... الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب، نَجِّنِي من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ، إلى هذه الساعة. أيها الآب، مَجِّد اسمك... الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً. وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أُجذبُ إليَّ الجميع. قال هذا، مشيراً إلى أية ميتة كان مُزِعِماً أن يموت.» (يو ١٢: ٢٣-٣٣)

نعم، هكذا استوفى ق. يوحنا كلَّ تعبيرات جثسيماني وكل أنينها وتنهداتها، بل وكل رِغَدَتِها وجَزَعِها، ولكنه صَبَّها صَبّاً في قالبٍ تعليميٍّ. اسمع كيف يسرد ق. يوحنا قول المسيح — في

جثسيماني — عن موضوع «شُرِبِ الكأس»، مخاطباً بطرس — وكلّ بطرس — الذي تجرّع من شُرْبِها، مع أنه شربها في النهاية: «اجعل سيفك في الغمد، الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟» (يو ١٨: ١١)

واضح أن ق. يوحنا ثبت نظره على الصليب كمجد، والآلام كطريق للمجد، والموت كانتصار. هكذا اختزل ق. يوحنا محنة جثسيماني في جملة واحدة: «الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟» (يو ١٨: ١١)

٢: ١٨ «وكان يهوذا مُسَلِّمُهُ يَعرِفُ المَوْضِعَ. لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه».

القول فيه دفاع عن كَوْنِ المسيح لم يخرج من المدينة وذهب إلى ظلال شجر جبل الزيتون هروباً من يهوذا والمطاردين، فالقديس يوحنا يؤكد أنه المكان المختار الذي كان يلجأ إليه المسيح كثيراً. والمسيح، كيوحنا، يعلم أن يهوذا يعرف الموضع جيداً، فكأنه ذهب إلى هناك لا هروباً من التسليم بل تسهلاً للخائن أن يكمل مشورته: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة»!!! فوقت الاختباء قد ولى، والآن هي ساعة العلانية.

ويبدو أن بستان جثسيماني كان يمتلكه سرّاً أحد تلاميذ الرب، تماماً كالعليّة التي تم الاجتماع فيها، فالقديس متى يلمح على ذلك: «اذهبوا إلى المدينة إلى فلان (سرّ)، وقولوا له: المعلم يقول: إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع تلاميذي.» (مت ٢٦: ١٨)

وفي رواية القديس مرقس لحادث جثسيماني، يذكر عرضاً أمراً عجيباً يلقه السر من كل جانب، إذ يذكر بالحرف الواحد أنهم وهم داخل البستان، أقبل عليهم يهوذا ومعه جمع كثير، ويردّ ويقول: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لئس خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمسكوني، ولكن لكي تكمل الكتب. فتركه الجميع، وهربوا. وتبعه شاب لابساً إزاراً على عُزِيهِ، فأمسكه الشبان، فترك الإزار، وهرب منهم عرياناً.» (مر ١٤: ٤٨-٥٢)

والمعتقد أن هذا الشاب لم يكن إلا صاحب البستان «جثسيماني»، حيث كان فيه يؤانس ضيوفه ويرحب بهم، ثم ذهب لينعس بإزار خفيف على عُزِيهِ. ثم هبّ من نومه على ضجّة العسكر، وأراد أن يتبع المعلم، وأخيراً هرب بجلده، وساعده عُزِيهِ على ذلك. ولم يكن هذا الشاب

أيضاً حسب التقليد إلاً مرقس الرسول، صاحب العلية أيضاً، وهو الوحيد الذي كتب قصة عُزْيه وهَرَبِه، كما أنه هو الوحيد الذي ذكر اسم البستان «جثسيماني»، وقد أخذ عنه القديس متى وحده هذا الاسم!

«لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه»:

«اجتمع»: συνήχθη

واضح من اللفظة اليونانية أن البستان كان مَحْصَصاً «لاجتماع» الرب مع تلاميذه، بمعنى اجتماع للصلاة والتعليم والقيادة الروحية أكثر منه مكان راحة واستجمام: «خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة» (لو ٦: ١٢)، «وكان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبسّ في الجبل، الذي يُدعى جبل الزيتون» (لو ٢١: ٣٧). وربما إذ كان التلاميذ قد تعودوا النوم هناك، أنهم بمجرد أن تركهم المسيح ليصلي فإنهم ناموا جميعاً! بل وربما على هذا الأساس، اعتقد يهوذا أنه سيُدهمُ الرب والتلاميذ وهم نيام، كما اعتادوا في الأيام السابقة.

كذلك واضح من الآية: «اجتمع هناك كثيراً»، أن تواجد المسيح في أورشليم لم يقتصر على موسم الفصح هذه المرة فقط، فإنجيل يوحنا يذكر زيارات المسيح لأورشليم لثلاثة أعياد فصح خلّت، مع الأعياد الأخرى الرسمية، وهو في هذه المرة لم يغادر أورشليم منذ عيد المظالّ وحتى هذا الفصح الأخير.

١٨: ٣ «فأخذ يهوذا الجُنْدَ وخُذَّاماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين، وجاء إلى هناك بمساعيل ومصابيح وسلاح».

وأخيراً، انضمت قوات الظلمة معاً على ثلاث درجاتها: تلميذ من الخاصة الاثني عشر المختارين؛ ورؤساء كهنة وفريسيون — حكماء صهيون — محتفين وراء خُذَّامِهِمْ؛ ثم سيفارة عن هيئة هذا العالم، والكل بقيادة الشيطان: فبالنسبة للتلميذ، قال المسيح بخصوصه: «فَقَمَسَ اللقمة، وأعطاهها ليهوذا سمعان الإسخريوطي. فبعد اللقمة، دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت عمله، فاعمله بأكثر سرعة.» (يو ١٣: ٢٦ و ٢٧)

وبالنسبة لرؤساء الكهنة والفريسيين، حكماء إسرائيل، فقد خصّهم المسيح بالقول: «أنتم من أي هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء.» (يو ٨: ٤٤)

أما عن هيئة هذا العالم، فقد سخرها رؤساء الكهنة لخدمة أغراضهم وهم أبرياء. هؤلاء خرجوا بمشاعل يفتشون عن النور الحقيقي الذي ينير كل العالم مُسلّحين، يتسّرون بالسلاح خلف رُغبتهم. وعند أول مواجهة سقطوا على الأرض، وسيوفهم في أيديهم.

ومن الآية (١٢) القادمة، التي يذكر فيها ق. يوحنا: «الجُند، والقائد، وخدام اليهود» (يو: ١٨: ١٢)، يتضح من اللغة اليونانية نوعٌ وعددُ العساكر ورُتبة القائد: «الجند»: *σπεῖρα*، ومقابلها باللاتينية *menipulus*، وتعني الأورطة، وتعدادها حوالي ٢٠٠ جندي. وهي ثلث الفرقة المكلفة أصلاً بحراسة الهيكل، ومقرها قلعة أنطونيا شمال شرقي الهيكل.

«والقائد»: *χιλίαρχος*، وهو كما يتضح من اليونانية رئيس ألف، وهي رتبة كبيرة.

أما كلمة «خُذَّاهَا» من عند رئيس الكهنة التي جاءت في الآية (١٢) تحت «خدام اليهود»، فهي في اللغة اليونانية *ὕπηρέται*، وترجمتها «ضُبَّاطاً» *officers*. وهؤلاء، بعضهم ضباط رومانيون مكلفون بخدمة حراسة الهيكل، ولكنهم كانوا يأتُمرون بأمر أعضاء السنهدريم لحفظ الأمن، بالنسبة لخدمة الهيكل، خاصة في أيام الأعياد^(*).

ومن هذه المجموعة المشكّلة من كافة اختصاصات القوات الرومانية واليهودية، يتضح مقدار الرُغبة التي ملأت قلوب رؤساء الكهنة والفريسيين والسنهدريم من جهة خطورة القبض على المسيح، لا خوفاً من هياج الشعب، كما يدّعون، بل بسبب الرُغبة من شخص الربّ.

وقد اعتنى ق. يوحنا في تعداد أنواعها ودرجاتها وعددها ضمناً ليعطي صورة حقيقية لمشهد القبض المخيف والمرعب.

كذلك من قول المسيح في إنجيل القديس متى: «أنتظرُ أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي، فيقدّم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة، فكيف تُكَمِّلُ الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون» (مت: ٢٦: ٥٣ و٥٤)، نستشفُّ أن المسيح كان يهدىء من رُوع بطرس، الذي ارتاع من كثرة الجند، وخرج من هدوئه وبدأ يضرب بالسيف.

وهذا كله لا يمكن أن يجري بهذه الضخامة والسهولة، بدون ترتيب مُسبقٍ مع الحكومة

^١ Westcott, *op. cit.*, p. 252.

الرومانية. وإذا لاحظنا مجريات الحوادث بدقة، نجد أن دورة الفحص لقضية المسيح انتهت عند قيافا بعد منتصف الليل، ثم في الحال رحّلوا المسيح إلى دار الولاية، أي مقر الحكومة الرومانية.

ويقول ق. يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية وكان «صُبْحٌ» (يو: ١٨: ٢٨). كلمة «صُبْحٌ» هنا، ترجمة غير معبرة تماماً، فهي باليونانية πρωτ، وتعني «مبكراً جداً» أي early بالإنجليزية. وتكمل الكلام: «فخرج بيلاطس إليهم...» (يو: ١٨: ٢٩)

هذا الاهتمام من جانب بيلاطس وخروجه باكراً جداً، حوالي الساعة الخامسة صباحاً لمقابلة المشتكين، وقبوله فحص القضية في الحال أمرٌ يثير الدهشة، ويُخفي وراءه سعاية ضخمة من رؤساء الكهنة إن لم تكن مؤامرة مُدبّرة مع بيلاطس نفسه. إلى هذا الحد بلغ تدبير رؤساء الكهنة، أو بلغة العصر «التكتيك» (*)، الذي يحوطه الشكُّ في ذمة هؤلاء وهؤلاء!

ومن جهة أخرى لا تخلو من الأهمية، فهناك ما جاء في إنجيل القديس متى من جهة بيلاطس: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إيتاك وذلك "البار"، لأنني تألمتُ اليوم كثيراً في حلم من أجله» (مت: ٢٧: ١٩). ولكنه ضرب بتحذير امرأته عرض الحائط. ويعلق القديس متى على ذلك بقوله: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوع حرّضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويُهْلِكُوا يسوع» (مت: ٢٧: ٢٠). يتضح من هذا، يُقل الضغط الذي مارسه رؤساء الكهنة بوسائلهم على الحاكم الروماني المهزوز.

١٨: ٤ «فَخَرَجَ يَسُوعُ، وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ تَطْلُبُونَ؟».

لم يتركهم المسيح ليقترحوا أسوار البستان، بل خرج إليهم. لقد شعر المسيح بضرورة الملاقاة لاهوتياً، إذ لم يكن ممكناً أن يُعطي للشّرّ فرصة لمباغته ابن الله. والعكس في اللاهوت صحيح، إذ أن عمل الله في الأساس، هو أن يباغت الشرير في عُقْرِ داره؛ لذا خرج للمباغته، وهو عالم بكل ما سيأتي عليه، لأنه أراد به بل لأنه نزل من السماء ليلاقيه!

كانت رؤية المسيح سبّاقة لاكتشاف مجيئهم واقتربهم قبل أن يكتشفوا هم وجوده: «هوذا ابن

(*) «التكتيك» كلمة من أصل يوناني، وتُستخدم في وصف بعض الأفعال والوسائل التي يبلغ بها المرء أو الهيئات سرياً إلى أهداف قريبة، حيث قد يصاحبها أحياناً، وعلى الأخص في مجال السياسة والحرب، بعض الخيل والخداع والمكر والتمويه، للوصول إلى الهدف المنشود.

الإنسان يُسَلِّمُ إلى أيدي الخطاة. قوموا لنذهب (للملاقاة)، هوذا الذي يَسَلِّمُنِي قد اقترب» (مر ١٤ : ٤١ و ٤٢). لقد تمت المقابلة داخل البستان، لأنه يبدو أن المسيح فتح لهم الباب، بدليل أن نسيب «مَلْخُس» الذي قطع بطرس أذنه اليمنى قال لبطرس متعرِّفاً عليه: «أما رأيتُك أنا معه في البستان؟» (يو ١٨ : ٢٦)

«عالمٌ بكل ما يأتي عليه»:

هذا اصطلاح فريد، يوضح أن الآلام أتت عليه من فوق، ولم تقترح إرادته، كان يعلمها مُسَبِّقاً، بل أعدَّ نفسه لها منذ ما قبل التجسد. لم يسقها عليه أحد مهما كان: «لم يكن لك عليَّ سلطان البتَّة، لو لم تكن قد أُعْطِيت من فوق». (يو ١٩ : ١١)

«وقال لهم: من تطلبون؟»:

مبادرة، بل مباغتة غير متوقَّعة، لم يكن يخطر لهم على بال أن الرب نفسه سيلاقيهم. لقد ظنوا، على أقصى تقدير، أنه أحد التلاميذ، لم يتعرَّفوا عليه على أضواء مشاعلهم الخافتة، ولم يُشعِّفهم ضوء القمر وهو في اكتمال استدارته، فالليلة ليلة الرابع عشر من نيسان. لقد أدرك المسيح عجزهم عن التعرف عليه، فتقدَّم بسؤالٍ مَنْ هو مُشْفِقٌ على جهلهم، وقد أعدَّ لهم المفاجأة، إذ نوى أن يُعلن لهم عن "شخصه"، لا عن اسمه فحسب!

١٨ : ٥ «أجابوه: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ. قال لهم يَسُوعُ: "أَنَا هُوَ" *ἐγώ εἰμι*. وكان يهوذا مُسَلِّمُهُ أيضاً وإيفاً معهم».

اللقب فيه استهزاء، فهو الذي يدور على ألسنة غير المؤمنين به، لأنه قَرُئُ أن يُقال: «يسوع الناصري» *τὸν Ναζωραῖον*، وأن يُقال «يسوع الذي من الناصرة» *τὸν ἀπὸ Ναζαρέτ* كما جاء في التعريف الإنجيلي به (يو ١ : ٤٥).

«أنا هو»: *ἐγώ εἰμι*

بحسب الفهم البسيط، فإن المسيح هنا يعلن عن نفسه باعتباره أنه هو الذي يطلبونه، يسوع الناصري. ولكن كان مصاحباً لهذا النطق، استعلانٌ فائقٌ لشخصه، أرادته المسيح إرادة، لكي يستخدمه كمساومة لفك الطوق عن التلاميذ المحاضرين!

أما يهوذا، فوقف مشدوهاً، والقُبلة ميتة على فمه، فقد ألغى المسيح تدبيره، وأفقده قيمة المبادرة التي قام بها، إذ أعلن المسيح عن نفسه بل عن شخصه الإلهي.

٦:١٨ «فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ *ἐγώ εἰμι*، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَقَطُوا عَلَى الْأَرْضِ».

واضح هنا أيّما وضوح، أن المسيح رفع الحجاب عن شخصه، فظهر بمجده إلى اللحظة، فكان ذلك أشدّ مباغتة، تدافعوا على الأثر إلى الوراء: القائد والجند وفرقة الحرس، وسقطوا على الأرض، وسيوفهم وعصيّتهم ومصابيحهم ومشاعلهم بأيديهم أمام المسيح، وهو واقف بقامته في جلال مهيب. كان هذا هو صورة مصغرة لقول الكتاب: «عندما يأتي العدو كنهر، فنفخة الرب تدفعه» (إش ٥٩: ١٩). وكانت هذه من المرات القليلة جداً التي استخدم المسيح فيها سلطانه، وهدفه الوحيد في ذلك لا أن ينجو من أيديهم بل يُنَجِّي تلاميذه، في سبيل أن يتم لهم مسعاهم، ويُسلم نفسه لهم بحرية إرادته: «فلما رأيته، سقطت عند رجله كميّ، فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً لي: لا تخف، أنا هو الأول والآخر.» (رؤ ١٧: ١٧)

الآن علم القائد وأعضاء فرقته والحرس مَنْ هو الذي يطلبون القبض عليه، والآن أصبح من السهل على المسيح أن يطلب، وكأنه على مستوى الأمر، أن يُطلق سراح تلاميذه.

٧:١٨ «فَسَأَلَهُمْ أَيْضاً: مَنْ تَطْلُبُونَ؟ فَقَالُوا: يَسُوعَ النَّاصِرِيُّ».

محاولة من المسيح لتلطيف الجو، وإعطائهم فرصة لاسترجاع وعيهم وشجاعتهم. وكأن تكرار السؤال بمثابة تذكيرهم بواجبهم المكلفين بتتبعه. ولكن بعد سقوطهم أمامه، عرفوا تماماً كيف يلتزمون حدود القبض، وفي الحدود الواجبة، بل ويصفون تماماً لما يقول.

٨:١٨ «أَجَابَ يَسُوعُ: قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي، فَدَعُوا هَؤُلَاءِ يَذْهَبُونَ».

«استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود. إضرب الراعي، فتشتت الغنم، وأرد يدي على الصغار.» (زك ١٣: ٧)

الآن يُمثلي المسيح شروطه، لم يتوسل المسيح، بل كان يأمر، وذلك من موقع التفوق على القائد والجند، ولم يكن أمامهم إلا قبول الشرط.

الذين يُشْتَرُونَ بِالمال، كانوا في المقدمة. وَهَمَّ واحدٌ منهم بشيء من الخشونة، وألقى يده على المسيح؛ فأثار هذا المنظر بطرس، فعَمِلَ ما عمل. وربما لم يلاحظ ذلك القائد ولا الجنُد، لأنهم كانوا على بُعْدٍ.

والذي أنقذ بطرس من القبض عليه، هو سرعة تحرك الرب، بأن مدَّ يده وشفى أُذُنَ ذلك العبد، كما جاء في رواية القديس لوقا: «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة، فقطع أُذنه اليمنى، فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولس أُذنه، وأبرأها.» (لو ٢٢ : ٥١-٥٣)

«مَلُخَس» : Μάλχος

وهو اسم العبد، ويبدو أنه اسم عربي لأن أصل الاسم بعد حذف الأداة « os » يكون «مَلِك» وهو أصل الكلمة، بحسب تحقيق علماء اللغة.

١١ : ١٨ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد. الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟».

«السيف والكأس» !!

لقد وضع المسيح، بهذه الآية، المعيار الأعلى، أو المُعَلَّى، للإيمان المسيحي.

فالمسيحي لا يمد يده بالسيف إزاء الخطر، بل يتقبَّل كأس الموت طواعية!
فالدفاع عن النفس، عمل غير مشروع على حَمَلَةِ الصليب! فالذي يحمل الصليب، لا يحمل الخنجر. ولماذا السيف، والموت ربح؟ «لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح» (في ١ : ٢١). لقد صُلِّيَ المسيح في جثسيماني، منذ لحظات، بحسب البشرية التي فيه: «أَجِزْ عني هذه الكأس» (مر ١٤ : ٣٦). ثم عاد المسيح، بعد أن أكمل الصلاة وسلَّم الإرادة ليد الآب: «ولكن، لِيَكُنْ، لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت» (مر ١٤ : ٣٦ ب)؛ وبهذا جعل الكأس، إذا تحتم بكل ما يحمله من خطر، «عطية» مباشرة من يد الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (يو ١٨ : ١١)

بطرس أراد أن يحمي المسيح بسيفه ليعظِّله عن الصليب!! فكَّرَ غلطته الكبرى التي نال عليها توبيخاً مُرّاً! «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.» (مت ١٦ : ٢٢ و ٢٣)

الذين يُشْتَرُونَ بِالمال، كانوا في المقدمة. وهَمَّ واحدٌ منهم بشيء من الخشونة، وألقى يده على المسيح؛ فأثار هذا المنظر بطرس، فعَمِلَ ما عمل. وربما لم يلحظ ذلك القائد ولا الجنْدُ، لأنهم كانوا على بُعْدٍ.

والذي أنقذ بطرس من القبض عليه، هو سرعة تحرك الرب، بأن مدَّ يده وشفى أذنَّ ذلك العبد، كما جاء في رواية القديس لوقا: «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه اليمنى، فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولس أذنه، وأبرأها.» (لوقا ٢٢ : ٥١—٥٣)

«مَلُخُس» : Μάλχος

وهو اسم العبد، ويبدو أنه اسم عربي لأن أصل الاسم بعد حذف الأداة «os» يكون «مَلِك» وهو أصل الكلمة، بحسب تحقيق علماء اللغة.

١١ : ١٨ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغميد. الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشرُبُها؟»

«السيف والكأس» !!

لقد وضع المسيح، بهذه الآية، المعيار الأعلى، أو المُعلَى، للإيمان المسيحي.

فالمسيحي لا يمد يده بالسيف إزاء الخطر، بل يتقبَّل كأس الموت طواعية!
فالدفاع عن النفس، عمل غير مشروع على حَمَلَةِ الصليب! فالذي يحمل الصليب، لا يحمل الخنجر. ولماذا السيف، والموت ربح؟ «لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح» (في ١ : ٢١). لقد صلَّى المسيح في جثسيماني، منذ لحظات، بحسب البشرية التي فيه: «أَجِزْ عني هذه الكأس» (مر ١٤ : ٣٦). ثم عاد المسيح، بعد أن أكمل الصلاة وسلَّم الإرادة ليد الآب: «ولكن، لِيَكُنْ، لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت» (مر ١٤ : ٣٦ ب)؛ وبهذا جعل الكأس، إذا تحتم بكل ما يحمله من خطر، «عطية» مباشرة من يد الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشرُبها؟» (يو ١٨ : ١١)

بطرس أراد أن يحمي المسيح بسيفه ليعظله عن الصليب!! فكرر غلطته الكبرى التي نال عليها توبيخاً مُرّاً! «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.» (مت ١٦ : ٢٢ و ٢٣)

ثانياً — المحاكمة المزدوجة

- أ — المحاكمة الأولى أمام المحكمة الكنسية (١٢:١٨—٢٧).
ب — المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية (١٦:١٩—٢٨:١٨).

مقدمة:

أ — المحاكمة الأولى: أمام المحكمة الكنسية: (١٢:١٨—٢٧).

لقد انفرد ق. يوحنا في إنجيله بسرد وقائع المحاكمة الكنسية. ومن لغة الرواية يُستدلُّ أنه كان حاضراً وشاهدَ عيانٍ: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة» (يو ١٨: ١٥). «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه.» (يو ١٨: ١٩)

وقبل أن نخوض في خطوات المحاكمة الكنسية، وجدنا من المفيد أن نُظْلِعَ القارئ على القوانين اليهودية الكنسية التي جمعها العالم وستكوت^(٦)، والتي كان معمولاً بها في ذلك العهد تقريباً، من واقع كتب المِشْنَاه. علماً بأنه من العسير تحديد زمان كتابة هذه القوانين التي جاءت تحت رأس عنوان «السنهدريم». ومن هذه القوانين نستشف، إلى حد ما، كيف اتفق بعضها مع الإجراءات التي اتَّخَذَتْ في محاكمة المسيح، وكيف ابتعدوا جداً في كثير منها عن أصالة التقليد:

١ — القضايا الخاصة والمخالفات الرئيسية، يصير الحكم فيها بواسطة مجمع من ثلاثة وعشرين عضواً: (الفصل الأول مقطع ٤).

٢ — القضايا الخاصة بمحاكم إدعاء الثبوت — أي الثبوت الكاذبة — يصير الحكم فيها على وجه الخصوص بحضور المجمع الكبير للسنهدريم، أو واحد وسبعين عضواً: (الفصل الأول مقطع ٥).

٣ — بخصوص الشهود، يلزم أن يُفحصوا بدقة، وعلى انفراد، في جميع الأحوال. على أن اتفاق اثنين منهم يُعتبر كافياً وصحيحاً: (فصل ٣ مقطع ٦؛ فصل ٥ مقاطع ١ وما بعده).

٤ — في القضايا الرئيسية، يُختبر الشهود اختباراً خاصاً من جهة دوافعهم التي أتت بهم

^٦ Westcott, *op. cit.*, pp. 262-263.

للسهادة، و يُحذِّروا من جهة خطورة هلاك النفس: (الفصل ٤ مقطع ٥)، على أن لا تُقبل شهادة عن طريق السماع المنقول.

٥ — يجلس القضاة على شكل نصف دائرة، على أن يجلس الرئيس في الوسط، حتى يواجه الكل بعضهم وجهاً لوجه: (فصل ٤ مقطع ٣).

٦ — في القضايا الرئيسية، يُرتَّب كل شيء، حتى يُعطى للمتهم حق الاستفادة من جنوح القضية نحو الشك! وحينئذ تؤخذ أصوات المُبرِّئين أولاً: (فصل ٤ مقطع ١).

٧ — في القضايا المدنية، يمكن أن تستمر المحاكمة و يُفرغ منها في الليل. على أن التقرير يمكن أن يخرج في نفس يوم فحص القضية.

٨ — في القضايا الرئيسية، تصير المحاكمة فقط بالنهار؛ بينما الحكم بالبراءة يمكن أن يُنطق به في يوم القضية نفسه، لكن النطق بالاتهام والإدانة لا يُنطق به إلا في اليوم الثاني للقضية. على أن مثل هذه القضايا لا يجوز فحصها مساء السبت ولا في عيد: (الفصل ٤ المقطع ١؛ الفصل الخامس مقطع ٥).

٩ — في حالة الاتهام، يلزم أن يُمنح المتهم أربع أو خمس مرات حسب مقتضيات الحاجة، ليأتي بحُجَجٍ و التماسات جديدة: (فصل ٦ مقطع ١).

١٠ — في ختام الاتهام والإدانة، يُستَحَثُّ المتهم أن «يعترف»، حتى لا يهلك فيما بعد: (فصل ٦ مقطع ٢).

١١ — يتقدم المُدَّان منادٍ، ويقول بصوت عالٍ: إن فلان الفلاني ابن فلان الفلاني ذاهبٌ للرجم بسبب كذا وكذا من السيئات. والشهود عليه هم فلان وفلان، وكلُّ مَنْ يستطيع أن يدلي ببيانات تثبت براءته فليتقدم، و يُعطى الأسباب: (فصل ٦ مقطع ١).

١٢ — في قضايا التجديف يُفحص الشهود فحصاً شديداً فيما يخص اللغة التي استخدمها المتهم، فإذا ثبتت صحة شهادة الشهود ثبوتاً قاطعاً يقف القضاة و يشقُّون ثوبهم: (فصل ٧ مقطع ٥).

١٣ — المجذوف يُرَجَّم. (فصل ٧ مقطع ٤)

١٤ — بعد رجس المجذوف، يُعلَّق على المشنقة: (فصل ٦ مقطع ٤)، و يُنزل عنها في المساء، ليدفن في مقبرة عامة، تُعدُّ خصيصاً لهذا الغرض: (فصل ٦ مقطع ٥).

ب - المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية: (١٨ : ٢٨ - ١٩ : ١٦).

«رئيس هذا العالم يأتي، وليس له في شيء.» (يو ١٤ : ٣٠)

لقد أثبتت كل التحقيقات التي قام بها بيلاطس، سواء مع اليهود أو مع المسيح أنه لا توجد علة واحدة توجب الحكم عليه. لقد اعتنى ق. يوحنا أن يسجل ما كرره بيلاطس علناً، لثلاث مرات، كَوْنُ المسيح بريئاً تماماً:

١ - «أنا لست أجد فيه علة واحدة.» (يو ١٨ : ٣٨)

٢ - «إني لست أجد فيه علة واحدة.» (يو ١٩ : ٤)

٣ - «خذوه أنتم واصلبوه لأنني لست أجد فيه علة.» (يو ١٩ : ٦)

بل إن نية القاضي استطاع أن يكشفها ق. يوحنا بوضوح، أنها اتجهت منذ أول المحاكمة وحتى نهايتها ناحية التبرئة والإطلاق: «من هذا الوقت، كان بيلاطس يطلب أن يطلقه.» (يو ١٩ : ١٢)

لقد اختلى بيلاطس بيسوع مرتين:

الاختلاء الأول: يستفسر عن لقب «ملك اليهود»، وانتهى الحديث الأول عند تصريح المسيح: «لهذا قد وُلِدْتُ أنا ... لأشهد للحق» (يو ١٨ : ٣٧)، فوقف بيلاطس عند كلمة «الحق»، وارتعب، وخرج ليعلن تقريره الأول: «أنا لست أجد فيه علة واحدة.» (يو ١٨ : ٣٨)

الاختلاء الثاني: عندما سمع بيلاطس من اليهود أن «المسيح ابن الله»، «ازداد خوفاً، فدخل أيضاً إلى دار الولاية وقال ليسوع: من أين أنت؟؟» (يو ١٩ : ٨ و٩). وانتهى الحديث بتصحيح مفهوم بيلاطس، أن له سلطاناً ليصلب أو يُطلق المسيح، ولكن السلطان إنما يأتيه من فوق، أما هو فليس له على المسيح سلطان البتة!! «من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يُطلقه» (يو ١٩ : ١٢)، لا لشيء إلا لأنه لا بد وأنه اقتنع بما قاله المسيح مباشرة.

واضح أن المحاكمة أمام بيلاطس انتهت بوقوف المسيح في المستوى الأعلى، وقوف الائق من قضيته، في الوقت الذي ملأ الخوف قلب القاضي.

أما وثوق المسيح، فلأنه كان قد قَبِلَ حُكْمَ القضية من فوق قبل أن يُنطق بها، بل قبل أن يولد: «لهذا قد أتيتُ إلى العالم» (يو ١٨ : ٣٧)، «الكأس التي أعطاني الآب ...» (يو ١٨ : ١١)، «لم يكن لك عليّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق» (يو ١٩ : ١١). أما ازدياد خوف

بيلاطس، فلأنه سيحكم على بريء، وليس فيه علة واحدة. ولكنه، للأسف، حَكَمَ تحت تأثير تهديد اليهود: «إن أطلّقت هذا، فلست مُجِباً لقيصر. كلُّ مَنْ يجعل نفسه ملكاً، يقاوم قيصر» (يو: ١٢: ١٩)، «فلما سمِعَ بيلاطس هذا القول، أخرج يسوع وجَلَسَ على كرسي الولاية ... فحينئذ أسلّمَهُ إليهم ليُضَلَبَ.» (يو: ١٩: ١٣ و١٦)

من كل هذا، نفهم من صميم التقرير الذي يقدمه ق. يوحنا بذكاء ومهارة قانونية، وكشاهد عيان، أن الحكم الروماني المدني في قضية المسيح كان قائماً على غير أساس، بحسب ما تنصُّ عليه أصول القوانين الجنائية الرومانية، فقد نطق القاضي ثلاثاً أن المتهم ليس فيه علة واحدة، وأنه بحسب الضمير كان عاملاً لإطلاقه؛ وأن الحكم صدر، فقط وفي آخر لحظة، تحت التهديد، والقاضي في حالة: «ازداد خوفاً» من جهة المتهم. أما من جهة القاضي نفسه، فقد نجّى نفسه بأن أصدر حُكْمَ الإدانة، وهو غير مقتنع؛ وكان في حالة فقدان إرادة الحياد المطلق الذي ينص عليه القانون الروماني.

اليهود فقدوا مَلِكَهُمُ والمسيّا والله:

الذي خسر القضية هم اليهود فقط: «قال لهم بيلاطس: أَأُضِلُّبُ مَلِكَكُمْ؟ أجاب رؤساء الكهنة؛ ليس لنا مَلِكٌ إِلَّا قَيْصَرُ!» (يو: ١٩: ١٥). وهكذا، وفي سبيل حقدهم على المسيح وتعرُّق قلوبهم بشهوة قتله، فرَطُوا في الله الذي اعتبروه منذ الدهر أنه ملك إسرائيل، بل والله الذي كان يعتبر نفسه فعلاً ملك إسرائيل، خسروه بالإعلان العلني الذي نطقوه أمام الأمم، والذي يشبه سبق حَتِّهِم في الله ملكهم سابقاً:

«فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له ... فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب ... فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم.» (١ صم ٨: ٥-٧)

وحتى قول بيلاطس: «أُضِلُّبُ مَلِكَكُمْ»، فلم يكن عن غير وعي بل: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً.» (مر ١٥: ١٠)

الشرح :

أ - المحاكمة الأولى : أمام المحكمة الكنسية : (١٨ : ١٢ - ٢٧) .

١٨ : ١٢ « ثم إن الجُند والقائد وخدام اليهود ، قبضوا على يسوع ، وأوثقوه » .

« إلهي إلهي لماذا تركتني ... لا تتباعد عني لأن الضيق قريب ...
 أحاطت بي ثيران كثيرة ... ففروا عليّ أفواههم ، كأسد مفترس مزجر ...
 لأنه قد أحاطت بي كلاب ، جماعة من الأشرار اكتشفني ... أنقذ من
 السيف نفسي » (المزمور الثاني والعشرون) .

« فيا رب الجنود ، القاضي العدل ! فاحص الكلّي والقلب ، دعني أرى
 انتقامك منهم ، لأنني لك كشفت دعواي . لذلك ، هكذا قال الرب ، عن
 أهل عناثوث ، الذين يطلبون نفسك ، قائلين : لا تتبأ باسم الرب فلا
 تموت بيدنا ... هأنذا أعاقبهم . يموت الشبان بالسيف ، ويموت بنوهم
 وبناتهم بالجوع ، ولا تكون لهم بقية ، لأنني أجلبُ شرّاً على أهل عناثوث ،
 سنة عقابهم . » (إر ١١ : ٢٠ - ٢٣)

« الجند » :

أورطة σπεῖρα وعددها حوالي ٢٠٠ عسكري ، والقائد χιλιάρχος رئيس ألف ، وخدام
 اليهود ὑπηρέται الضباط المكلفون بخدمة الهيكل والرؤساء (اليهود) .

يُلاحظ في إعادة ذكر هذه الأسماء المخصصة لتشكيل الجند ، أن ق . يوحنا يضعها في بداية
 الجملة ، بنوع من الضغط والتركيز للأهمية .

« وأوثقوه » :

كان يطيب لجميع الآباء القديسين الأوائل الذين شرحوا هذا الإنجيل ، أن يقفوا عند هذه
 الكلمة كثيراً ويتذكروا معها كيف أمسك إبراهيم ابنه إسحق وأوثقه : « فلما أتيا إلى الموضع الذي
 قال له الله ، بنى هناك إبراهيم المذبح ، ورثب الحطب وربط (أوثق) إسحق ابنه ، ووضعه على
 المذبح فوق الحطب . » (تك ٢٢ : ٩)

والملاحظ ، سواء في موضوع ربط إسحق أو المسيح ، أن الاثنين يشتركان معاً في عدم المقاومة ،
 بل كانا في صورة خضوعية مذهلة . ولكن ما كان لإسحق أن يقاوم وهو تحت يد أبيه ، إذ لم يكن

معقولاً قط أن يُبْدي أية مقاومة، وهو واثق من شدة رحمة أبيه الذي يحبه حباً كنفسه. ويتسحب الأمر نفسه على المسيح، وهو في الظاهر واقع بين أيدي جماعة أشرار هربت الرحمة من قلوبهم، وتحرّقت أسنانهم لافتراسه بسيوف وعِصيّ، لكنه وقف موقف إسحق عينه، إذ كان في الحقيقة واثقاً أنه تحت يدي أبيه السماوي الذي أحبه كوحيد له: «الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟» (يو ١٨: ١١)

وهكذا لما لم يجد القائد والجنّد والخذّام أية مقاومة، مدّوا أيديهم عليه وأوثقوه، هذا الذي أعطى للإنسان أن يربط ما في السماء ويحلّه، ربطوه بحبل!!، هذا الذي كسّر مصاريح النحاس وقطّع حديد الهاوية وفكّ أسرى الجحيم، ربطوه بحبال!... اليد التي ضمّدت جراحهم، ولمس حنائها قلوبهم، وشفت مرضاهم، وأقامت موتاهم، ربطوها بحبال!... هذا الذي فكّ قيود خطاياهم، وحلّ رباط الشيطان عنهم، وأطلقهم أحراراً، قبضوا هم عليه وأوثقوه!

لقد صدق موسى حينما خاطبهم بالقول: «أَلربّ تكافثون بهذا، يا شعباً غيباً غيرَ حكيم، أليس هو أباك ومُقتنك، هو عملك وأنشاك.» (تث ٣٢: ٦)

لسنا ندري لماذا أوثقوه، وهو الذي قدّم نفسه طواعية، ولكن ليتم القول الذي قيل في هذا المقام: «أوثقوا الذبيحة برُبط إلى قرون المذبح.» (مز ١١٨: ٢٧)

ملابسات محاكمة المسيح

توجد بعض أركان خاصة جاءت في المحاكمة ذات مدلولات هامة، يفيدنا كثيراً لو جمعناها وتتبعناها في أصولها وأسبابها ومعانيها، ودرسنا معاً إلى أي حدّ، يمكن أن تهدم الأساس الذي قامت عليه هذه القضية.

١ - واضح، بدء كل ذي بدء، أن قضية المسيح لا تتركز على أصول جنائية، أو حتى مخالفات يمكن أن تعطي لها الشكل القضائي، والذي بمقتضاه تُحتسب قضية صحيحة، وذلك من واقع سبق تحدي المسيح للجهات القضائية بقوله: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْغُتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ. فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ، فَلِمَاذَا لستم تؤمنون بي؟» (يو ٨: ٤٦). وهم لم يستطيعوا بالفعل أن يقيموا عليه أية

حجة. كذلك، ومن واقع تحدّيه لرئيس الكهنة عند أول استجواب له: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: أنا كلّمْتُ العالم علانية. أنا علّمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل (أي تحت نظركم وسمْعِكُم، وكنتم تشاركون في الأسئلة، وتستمعون إلى الأجوبة)، حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء، لم أتكلّم بشيء. لماذا تسألني أنا؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمْتهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلتُ أنا؟» (يو ١٨ : ١٩-٢١). ولم يستطع رئيس الكهنة أن يردّ، أو يستطرّد في الأسئلة.

ولكن هناك سؤال نقدمه نحن إلى قيافا: ألا تعلم حقيقة كل ما قاله المسيح وعلم به؟ ثم ألا تعرف حقاً تلاميذه جميعاً وبالأخص يوحنا؟ وإلاً لماذا استحلّفتُهُ بالله الحي أن لا يعلّق أنفُسكم ويقول صراحة هل هو المسيح ابن الله؟ أليس لأنّ تعاليمه أذهلت عقولكم، وصغّرت نفوسكم، وبكّنت ضمائركم؟

٢ - هذه القضية مُستَوْجِبَةُ السقوط قانونياً من واقع ضرورة «ردّ القاضي»، إذ سبق له الحكمُ فيها قبل رفعها وقبل القبض على المسيح. وهذا ألمَحَ إليه ق. يوحنا، عند ذكر اسم رئيس الكهنة المكلف بالمحاكمة هكذا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود، أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو ١٨ : ١٤)

٣ - تقديم المسيح للمحاكمة أمام «حنان» ليبيدي رأيه أو ليحكم، كان عملاً غير قانوني بالمرة. فحنان ليس رئيس كهنة، بل كان رئيس كهنة وغُزل منذ مدة. ولكن الأمر الوحيد الذي جعله يقوم بهذا الإجراء غير القانوني، أعلنه ق. يوحنا متهمكماً عند ذكر اسم حنان هكذا: «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، ومضوا به إلى «حنان أولاً»، لأنه كان حياً قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو ١٨ : ١٢ و١٣)

وهنا في هذه الآية يوجد ثلاثة أمور يلزم الانتباه إليها:

أولاً: أنه لم يذكر أن حنان رئيس كهنة، فكيف يُقدّم إليه وبأي صفة يحاكمه؟

ثانياً: يقول ق. يوحنا ويشدّد: «ومضوا به إلى حنان أولاً». هنا كلمة «أولاً» لا يمكن أن تغيب عن ذهن الرجل القانوني، فهي تهكّمية إلى أقصى حد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ق. يوحنا يعقّب على الثلاثة الأناجيل الأخرى أنها لم تذكر محاكمة المسيح أمام «حنان»، بل ذكرت مباشرة أنها كانت أمام قيافا. فالقديس يوحنا يقرر هنا حقيقة لم ترد في باقي الأناجيل، يعلمها هو تمام العلم، لأنه كان حاضراً تلك المحاكمة الباطلة!

ثالثاً: يعمود ق. يوحنا ويشرح السبب الذي دعا إلى تقديم المسيح إلى «حنان أولاً»، وهو أنه «كان حياً قيافاً»^(٧). وهذا هو المؤهل الوحيد والباطل الذي أعطاه هذا الشرف أن يحاكم المسيح.

٤ - في كل رواية ق. يوحنا عن المحاكمة الكنسية، سواء أمام «حنان» أو أمام رئيس الكهنة قيافا، لم يورد ق. يوحنا أي إشارة إلى أي اتهام استقروا عليه، لا كأنه أغفل ما تم داخل قاعة المحكمة في دار رئيس الكهنة، ولكن تأكيداً منه أنهم لم يمسكوا على المسيح خطية واحدة.

فإذا رجعنا إلى الثلاثة الأناجيل الأخرى، نجد في إنجيل القديس متى كيف تعلّق قيافا بتصريح قاله المسيح وشقّ ثيابه^(٨)، إدعاءً كاذباً منه أن المسيح جَدَّفَ على الله، وهكذا أصدر حكمه بالإجماع أن المسيح جَدَّفَ أمامه وأن لا حاجة بعد إلى شهود. أما الذي قاله المسيح، ردّاً على إلحاح قيافا واستحلافه له هكذا: «وأما يسوع، فكان ساكناً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت. وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً: قد جَدَّفَ، ما حاجتنا بعد إلى شهود، ها قد سمعتم تجديفه.» (مت ٢٦: ٦٣-٦٥)

فإذا دققنا في ردّ المسيح، نجد أنه لم يجَدَّفَ ولم يدّج لنفسه شيئاً. بل ردّ عليه قائلاً: «أنت قلت»؛ ثم أكمل كلامه بنبوة دانيال. فكيف يفسّر قيافا ردّ المسيح الإيجابي أنه تجديف. حتى ولو قال: نعم أنا المسيح — كما جاء في إنجيل القديس مرقس — فهل هذا تجديف؟ ولكن المسيح بأسلوبه المتواضع الرقيق غير المتهجم ولا المتعالي، قال: «أنت قلت». أما باقي الكلام فهو نبوة دانيال التي قيلت والتي لا بد أن تتحقق، فكيف يكون هذا تجديفاً؟ «ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت!» (مت ٢٦: ٦٦). إن هذا حكم افتراء لا يقوم على واقع ولا يستند إلى حقيقة.

(٧) يقول عنه العالم هنجستنبرج: «تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان لم يكن بناءً على أية وظيفة رسمية كان يقوم بها حنان في ذلك الوقت، بل إن قيافا كان مديناً لصره حنان بمركزه الذي رفعه إليه كرئيس كهنة، وهو هنا يردّ الجميل الذي ناله على يديه». Hengstenberg, *op. cit.*, p. 351.

(٨) يقول العلامة إدريزهايم اليهودي المنتصر، إن رئيس الكهنة إزاء التجديف يقف علناً ويشقّ ثوبه الخارجي وثوبه الداخلي شقاً لا يمكن إصلاحه. Edersheim, *op. cit.*, Vol. II, p. 561.

كذلك نرى أن بعض الملابس، كما جاءت في سرد رواية المحاكمة، كانت على شيء من الغموض، ويهمننا أن نوضحها للقارئ حتى تصير خطوات المحاكمة واضحة.

١ — يقول إنجيل يوحنا إن «الجند والقائد وخُدام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، ومَضَوْا به إلى حنان أولاً، لأنه كان حياً قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو ١٨ : ١٢ و١٣)

٢ — ثم يستطرد: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع، وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.» (يو ١٨ : ١٥)

هنا يلزمنا أن نوضح أن «دار حنان»، و«دار رئيس الكهنة قيافا» هي دار واحدة(*)، وكان كلٌّ منهما يباشر مهامه في مكان منفصل داخل الدار الواحدة، وكانت قاعة المحكمة مشتركة بينهما^(٩). علماً بأن حنان كان صهراً لقيافا، وكان رئيساً للكهنة سابقاً.

كذلك يقول الإنجيل: «وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة» (يو ١٨ : ٢٤). وهنا أيضاً، المسيح لم ينتقل من دار رئيس الكهنة إلى مكان آخر، بل انتقل من أمام حنان إلى أمام قيافا في نفس الدار^(١٠).

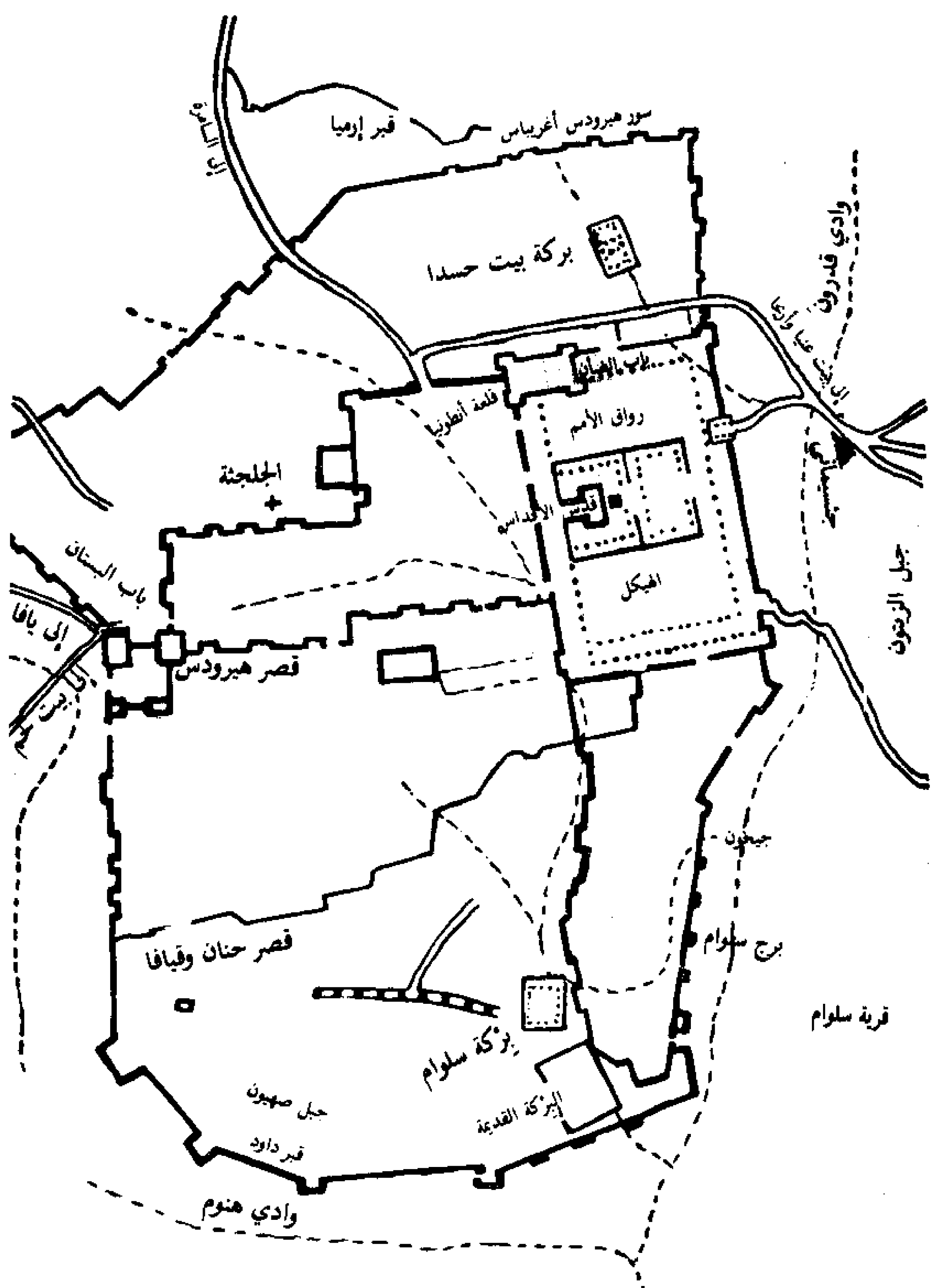
٣ — كذلك يقول إنجيل يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية» (يو ١٨ : ٢٨). وبهذا يكون ق. يوحنا قد أغفل المحاكمة التي تمت أمام السنهدريم! وهذا ليس صحيحاً، لأن مجلس السنهدريم انعقد أيضاً في دار رئيس الكهنة حيث كان حنان أيضاً. فالمسيح لم يخرج من دار رئيس الكهنة إلا إلى دار الولاية، كما ورد في إنجيل القديس مرقس: «فمضوا بيسوع إلى رئيس الكهنة فاجتمع معه جميع رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة (أي مجمع السنهدريم بكامل هيئته).» (مر ١٤ : ٥٣)

وظل هذا المجمع مجتمعاً حتى الفجر: «وللوقت في الصباح (الساعة الخامسة)، تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله. فأوثقوا يسوع ومَضَوْا به وأسلموه إلى بيلاطس.» (مر ١٥ : ١)

(*) إلى الآن، ومن واقع الآثار، مسجل على خريطة أورشليم موضع دار رئيس الكهنة، ومكتوب عليه: "قصر حنان وقيافا". انظر الخريطة.

^٩ Hengstenberg, *op. cit.*, p. 353.

^{١٠} Ibid., p. 352.



خريطة أورشليم أيام المسيح

أما كون ق. يوحنا قد أغفل ذِكرَ المجمع، فالسبب واضح، وهو أنه اعتبر منذ البدء أن الكلمة والحكم النهائي كانا كليهما بيد قيافا وحده، وأنه سبق وأن أصدر حكمه قبل المحاكمة!! وأن المجمع قال بقول قيافا، فلم يكن له وجود فعلي في المحاكمة.

إزاء كل هذا الخلل الواضح في مجريات المحاكمة الأولى أمام الهيئات الكنسية اليهودية، نفهم لماذا لم يعط ق. يوحنا للنتائج المترتبة على هذه المحاكمة أي اهتمام، بل كان اتجاهه مصوّباً ناحية المحاكمة الثانية المدنية أمام بيلاطس والتي وقف عندها طويلاً.

وفي الحقيقة والواقع، نرى وبكل تأكيد، أن ميعاد محاكمة المسيح أمام الهيئات الكنسية قد تأخر عن مواعده كثيراً، بل تحطّى الوقت المسموح به لرئيس الكهنة وكل مجمع سنهدريم اليهود وفرّيسييه وحكمائه للقيام بواجبهم إزاء أُسُس ديانتهم وتقاليدهم وكل تعاليمهم التي نقضها المسيح من الأساس. فلو كانت الأمة اليهودية صاحبة حقاً لواجباتها الدينية وبقيادة رؤسائها، لكانت حقت مع المسيح طويلاً وطويلاً جداً بمجرد ظهور المعمدان وشهادته للمسيح وبدء خدمة المسيح العلنية التي بدأت هكذا: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم...» (مت ٢١: ٥)

أما الآن، وقد مضى على كرازة المسيح ثلاث سنوات ونيف، فالوقت ليس هو وقت محاكمة المسيح، بل هو حقيقة وقت محاكمة الأمة اليهودية محاكمة عسيرة للغاية!! إذ أين كانوا هذه السنين الطوال، وتعاليم المسيح قد ملأت ربوع البلاد طويلاً وعرضاً؟ وكيف يفسرون وجود مسيح الدهور كلها والفادي، هذا الذي تَرَجَّئُهُ كل الأجيال بكل آبائها وأنبيائها، بينما هو في وسطهم قائم، يعلم في المجمع والهيكل، ويشفي ويصنع المعجزات، وإلى ثلاث سنوات!!!

إن محاكمة المسيح بعد ثلاث سنوات وأكثر من ظهوره وتعاليمه هي أكبر فضيحة، بل ومهزلة، لأمانة الرسالة اليهودية التي حملها رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون، وهم لم يكونوا عليها أمناء قط: «لا تظنوا أنني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى، لكنتم تصدّقونني لأنه هو كتب عني.» (يوه ٥ : ٤٥ و ٤٦)

١٨ : ١٣ «وَقَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانٍ أَوَّلًا لِأَنَّهُ كَانَ حَمًّا قَيَافَا الَّذِي كَانَ رَئِيسًا لِلكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.»

«حنان» :

وهو حنان بن شيث، حسب تسمية المؤرخ يوسفوس. كان واحداً من أكبر الشخصيات

اليهودية. ولقد تبوأ عرش رئاسة الكهنوت من سنة ٧م. حتى السنة ١٤-١٥م.، حينما أسقطه فاليريوس جراتوس الحاكم السابق على بيلاطس، ومن بعده تقلد الرئاسة الكهنوتية ابنه أليازر إلى سنة ١٦-١٧م، أي سنة واحدة، ومن بعده جاء يوسف قيافا نسيبه - الذي تزوج ابنته - والذي بقي في الرئاسة حتى سنة ٣٥-٣٦م^(١١). ومن بعد قيافا تولى الرئاسة ابن آخر لحنان، هو يوناثان سنة ٣٦-٣٧م، ومن بعده تولى على الرئاسة ثلاثة آخرون من أولاده، أي أولاد حنان، ثاوفيلس ٣٧-٤١م، متياس ٤١-٤٤م، وكان آخرهم حنان الصغير سنة ٦٢م (?) الذي حل اسم أبيه، أي كان اسمه حنان بن حنان، وهو الذي مّد يده وقتل يعقوب أخا الرب^(١٢). والمعروف عن هذه العائلة أنها عائلة الرشوة والدسائس الدينية.

وقد وردت إشارات في التلمود، أن رؤساء الكهنة في أيام حنان وبقيادته كانت عبارة عن عصابة لها الصفة الدينية شكلاً فقط، وكانت غير وطنية، يحتكرون الزمانيات، وأغلبهم دُخلاء، أي ليسوا من فلسطين أصلاً، وحنان يقال أنه من الإسكندرية، وقد استدعاه هيرودس ليعاونه في خطته، وكانت الحكومة تناصرهم. وكان حنان محور النشاط السياسي للسندريم الذي كان شبه معطل رسمياً (انظر فارار، «حياة المسيح»، ص ٧٢٢ و٧٢٣).

وفي التلمود (كتاب سجلات وتواريخ وعلوم اليهود)^(١٣)، يذكر المؤلف بلا احتياط أنه قمت اللعنة على بيت حنان وعلى سيرتهم التي أشتوها «فحيح الأفعى»، ولم يكن قول المعمدان عنهم إلا مضداً لسيرتهم: «يا أولاد الأفاعي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرَبُوا مِنَ الْغَضَبِ الْآتِي.» (مت ٣: ٧)

وفي الواقع لم يذكر أحد من الإنجيليين هذه العلاقة التي تربط حنان بقيافا إلا ق. يوحنا، وحينما يذكره هنا دون أن يذكر أنه كان رئيس كهنة، فهو ينبّه ذهن القارئ أنه يمارس الرئاسة خلسة وبالقوة الشخصية التي فرضها على نسيبه^(١٤). كما يلاحظ القارئ أن ق. يوحنا يذكر تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان قبل قيافا، مع أن قيافا هو رئيس الكهنة الرسمي، وذلك لكي يؤكد طغيان حنان على سلطة رئيس الكهنة من جهة، ومن جهة أخرى لكي يلمّح إلى ضعف شخصية رئيس الكهنة قيافا.

ولكن من الواضح جداً أن هذا كان هو التدبير المتفق عليه مع بيلاطس، لأنه من غير المعقول

^{١١} Josephus, *Ant.*, XVIII.2,1f.

^{١٢} Ibid., XX.8,1.

^{١٣} *Pesach* 57, quoted by Derenbourg, p. 232.

^{١٤} Hengstenberg, *op. cit.*, p. 357.

أن يأمر القائد الروماني بأخذ يسوع إلى منزل حنان وهو ليس رئيس كهنة في اعتبار الحكومة الرومانية. فالأصول الواجبة هي أن يؤخذ إلى دار الولاية أولاً، ثم على أسوأ الفروض إلى دار رئيس الكهنة الرسمي. ولكن أن يُذهَبَ به أولاً إلى دار حنان، فهذا إجراء غير قانوني مكشوف، يكمن وراءه عوامل غير عادية، تُخلُّ إخلالاً شديداً بحياد المحاكمة والوالي ورئيس الكهنة. وليس عبثاً أن يضع ق. يوحنا هذه الكلمة: «أولاً» في هذا الموضع، إلا لينبّه القارئ إلى هذا الخلط الخطير.

كما يلاحظ القارئ أن الحامية العسكرية الكبيرة العدد (٢٠٠ جندي على الأقل)، وبقيادة القائد «رئيس ألف»، انسحبت فوراً بعد تسليم المسيح لحنان (؟) هذا إجراء عسكري يُتَعَجَّب منه! وكان الحامية العسكرية كانت تعمل لحساب حنان!!!

وبهذا يراجع ق. يوحنا، بأسلوبه الناقد المهذب، على صحة المحاكمة، كَوْنُهَا كانت خارجة عن العُرْفِ التقليدي وعن أصالة القانون: [فلم تكن المحاكمة أمام حنان إلا إجراءً سياسياً] (١٥). وسوف يلاحظ القارئ أنه، حتى بينما كان المسيح يقف أمام رئيس الكهنة قيافا، كان يجري ذلك (يو ١٨: ١٩) في دار حنان نفسه (١٦). وهذا يتضح لنا أكثر بالرجوع إلى أيام المَعمَدان، حينما ظهر المَعمَدان في أيام الاثنين كليهما: «في أيام رئيس (واحد) الكهنة حنان وقيافا...» (لو ٣: ٢)، حيث لم يكن هنا حنان رئيس كهنة بالمرّة ولكنه كان يمارس الوظيفة خلسة من خلف قيافا نسيبه، وهذا واضح ومفصّل بسبب مجيء الوظيفة بالمفرد: «في أيام رئيس الكهنة» التي يمارسها اثنان!! والذي يتقدم هو المقتصب.

وواضح من حادثة تطهير الهيكل من جهة وقف البيع والشراء وطرْد البائعين والصيارفة، أن هذا العمل كان له أكبر وأخطر الأثر على أطماع وسياسة حنان، فهو الذي كان يدير هذه الحركة التجارية كلها، وكانت الأموال تنهال عليه كالنهر. فبهذا العمل الذي أثاره المسيح، والذي نبّه أذهان اليهود الأتقياء والغيورين بل والفريسيين الأمناء، إلى فضيحة سلوك حنان ونسيبه قيافا، هذا العمل شكّل أساس عداوة وحقد وتربُّص في قلب حنان لا يُنسى. لهذا ظل يعمل بوحى هذه الحادثة، ليل نهار، حتى يقضي على المسيح بأي ثمن (١٧).

^{١٥} Edersheim, *op. cit.*, p. 546.

^{١٦} Hengstenberg, *op. cit.*, p. 546.

^{١٧} Edersheim, *op. cit.*, p. 547.

وهذا واضح من محاولة إقامة شهود ضده بأنه قال إنه قادر أن ينقض الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام (مر ١٤: ٥٨)، في حين أن المسيح قال ذلك عن هيكل جسده وليس عن هيكل اليهود. كذلك نفس موضوع تطهير الهيكل الذي كان يفرغ حنان وقيافا، كان هو موضوع الشماتة الأكثر عندهم عندما اطمأنوا إلى صليبه: «يا ناقض الهيكل وبانيته...» (مر ١٥: ٢٩)

وليفهم القارئ مدى خطورة فهمهم الخاطئ لقول المسيح أنه قادر أن ينقض الهيكل — أي هيكل اليهود — ويبني غيره في ثلاثة أيام. فهم تصوروا أنه فعلاً سيقوم بثورة، وبالتالي سيغير نظام الهيكل بأجمعه ليعمل هيكلًا جديدًا يتناسب مع تعاليمه الجديدة. فإذا أضفنا إلى ذلك، الأثر الذي تركته حادثة مقابله لخُدّام الهيكل — وهم ضباط على مستوى عال من الدراية والمعرفة "officers"، والذين أرسلهم رؤساء الكهنة للقبض على يسوع، فلما استمعوا إليه وتأثروا بكلامه، أحبوه وآمنوا به: «فجاء الخُدّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام: لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان. فأجابهم الفريسيون: أعلّكم أنتم أيضاً قد ضللتهم. أعلّ أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم التاموس هو ملعون.» (يو ٧: ٤٥-٤٩)

ولكن قد تحققت مخاوفهم بصليبه، فقد نُقضَ الهيكل القديم المصنوع بالأيدي، وأقيم الهيكل الجديد غير المصنوع بالأيدي. وقُضي على هيكل اليهود، وانتهى رؤساء الكهنة من قاموس العبادة اليهودية!

ولكن المتابع لتاريخ سلوك حثّان من جهة التربّص للمسيح منذ ظهوره، وحتى لتلاميذه من بعده، يدرك لماذا قدّم قيافا المسيح للمحاكمة أولاً أمام حثّان، وبالإضافة إلى التكتيك السياسي، كونه يعلم مدى العداء الذي كان يُكنّه للمسيح، فقد قدّمه له إرضاءً لنزواته، واستطاع أن يحبك القضية منذ البداية بغش الأفعى ودهائها. وفي غالب الظن أن حثّان هو الذي تعاهد مع يهوذا، وأرسل معه الجند والقائد والضباط. وقد لعبت الأموال دورها، فكان يُغديقُ على يهوذا عطفاً وأموالاً، مما شجّعهُ أن يلعب هذا الدور الخاسر.

ولكن ق. يوحنا صرّب عرض الحائط بكل محاكمة حنان، ولم يورد منها أي نص، بحسب ما كانت تستحق في نظره.

وقد ورث ابن حنان الأصغر نفس هذا العداء والحقد، واستطاع أن ينفثه في يعقوب الرسول

المدعوُّ أخا الرب، فتجراً على قتله هو وكثيرين معه^(١٨)، مجازفاً بوظيفته، بتحدّيه للسلطة الرومانية التي لم تكن تسمح أبداً بهذا التعدي على حقوقها السياسية، فيما يخص حياة أو موت الأفراد الذين تحت حكمها، ومستغلاً أيضاً غياب الحاكم الروماني، وكان ذلك حوالي ٦٢ م. ولم يرد ذكر هذه الحادثة إلا في تاريخ يوسفوس^(١٩). ويعقوب هذا غير يعقوب أخي يوحنا، الذي قتله هيرودس مبكراً جداً كما جاء في سفر الأعمال (أع ١٢ : ١ و ٢).

«الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة» :

كان رئيس الكهنة إذا اختير مرة، يبقى إلى نهاية حياته حاملاً الرتبة وكرامتها، حتى ولو نُحّي عن العمل لأي سبب أو نُحّي عنها. ولكن إذا نُحّي عن القيام بمهام وظيفته رسمياً، فكان لا بد أن يُخلّفه آخر، كما في حالة حنان الذي خَلَفَهُ قيافاً في إدارة الشؤون الدينية للبلاد، والتكلم رسمياً باسم الأمة اليهودية، فهو الناطق بلسانها لدى الجهات الرسمية الرومانية. أما قول ق. يوحنا: «كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»، فهو لا يعني أن رئاسة الكهنوت كانت بالمناوبة سنوياً. ولكن بلغة يوحنا الروحية، فإن «هذه السنة» تعني سنة خيبة آمال اليهود ونهاية مجدهم، وبداية تعاستهم؛ ولكنها في نفس الوقت هي «سنة الرب المقبولة»، أو سنة الخلاص الأبدي للعالم. فهي «سنة» وليس «كل السنين»، إذ استُعلن فيها الأول والآخر، البداية والنهاية، وهي التي عرفت في القديم بكلمة «هذا اليوم»، «وتلك الأيام»، «وآخر الزمان».

١٤ : ١٨ «وكان قيافاً هو الذي أشار على اليهود، أنه خيرٌ أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ عن الشعب».

الإشارة هنا إلى ما ورد في إنجيل يوحنا (١١ : ٤٩ و ٥٠) : «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافاً، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون، أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

وكما سبق وقلنا، هذه لغة ق. يوحنا التي يضرب بها ذات اليمين وذات اليسار، فهو يعلن بها مُسَبِّقاً ماذا ننتظره من الحكم الذي يصدره إنسان له هذا التفكير وهذه المعرفة وهذا المستوى من سهولة القتل بلا سبب، والغاية الكاذبة عنده تبرر الوسطة الدنيئة. ولكن أسلوب ق. يوحنا لا

¹⁸ Josephus, *Antiquities*, XX.9.1, quoted by Hengstenberg, *op. cit.*, p. 352.

¹⁹ Westcott, *op. cit.*, p. 267.

يقف عند هذا الحد، فهو يضرب بعصيّ الإنجيل فوق رأس القضاء اليهودي العايب بالحق، والملفّق، بغير حياءٍ. إذ كما سبق وقلنا أن هذا الإعلان القضائي المقدم من ق. يوحنا هو بمثابة: «ردّ المحكمة»، وإعلان لفساد ذمة القاضي، وبالتالي سقوط الدعوى والقضية، لأن القاضي قيافا سبق وأعلن مقدماً عن الحكم الذي سيُبرمه والذي في سبيل إبرامه — حتماً — سيُلْقَى التهم المناسبة ويزوّر الشهود ليبلغ قصده المبيّت في نفسه، والذي أعلنه على مسامع مجمع السنهدريم.

ولكن لم يَفُتْ على بيلاطس أن يكتشف هذا السلوك المبيّت، ولا هذه الأساليب السفلى، فقد أظهر من كلامه ومن مشاعره، سواء تجاه زمرة رؤساء الكهنة أو تجاه المتهم المبرأ، ما جعل الإنجيليين يسجلون للقاضي هذه اللفتة: «فأجابهم بيلاطس قائلاً: أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود، لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً.» (مر ١٥: ٩ و ١٠، مت ٢٧: ١٨)

ويلاحظ أنه سواء في عملية القبض، أو في بدء المحاكمات، أو في حضور الصلب، لا نجد أيّ ذكرٍ للفريسيين على الإطلاق. ويبدو أنهم انسحبوا من هذه العمليات وتركوا لزمرة رؤساء الكهنة (الصّديقين) وكل من يتبعهم، القيام بهذه المهمة. ومن المعتقد أنهم كانوا غير متفقين فيما بينهم: «انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً، هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو ١٢: ١٩)، «وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً (سنهدريمي أي فرّيسيّ، بحسب تحقيق كثير من العلماء) هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» (لو ٢٣: ٥٠ و ٥١). «وجاء أيضاً نيقوديموس (فرّيسيّ بحسب رواية إنجيل يوحنا ٣: ١) الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مُرّ وعود، نحو مائة منّا.» (يو ١٩: ٣٩)

١٥: ١٨ «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ مقروفاً عند رئيس الكهنة (قيافا)، فدخّل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.»

ق. يوحنا يورد هذه المعلومة الهامة، ليوضح بها أولاً أنه كان شاهد عيانٍ لكل ما سيرويه، فهو والقديس بطرس، دون جميع التلاميذ الذين آثروا الهروب، تبعاً يسوع.

ولكن عند الباب، احتجّ بطرس لأنه لم يكن معروفاً بالوجه، أما يوحنا فدخل، لأنه بحسب تعبيره، كان معروفاً عند رئيس الكهنة؛ وهنا «قيافا» هو المقصود وليس «حنان». وبالتالي كان يوحنا معروفاً لدى الخُدام والبوابين.

هذه المعرفة الخاصة عند رئيس الكهنة هي التي جعلته يعرف العلاقة الأسريّة بين حنان وقيافا،

وهي التي أهلتته أن يعرف عبد رئيس الكهنة بالاسم، الذي قطع بطرس أذنه بالسيف، كذلك جعلته يتعرّف على نسيب ملّخس أيضاً من بين الخدام!! وهي التي أهلتته أن يدخل دار رئيس الكهنة في أخطر المواقف دون حرج، بل وهي التي أهلتته أن يأمر البوابة أن تسمح لبطرس بالدخول، بل هذه المعرفة الخاصة أيضاً هي التي جعلته يوضح لنا أن الجارية التي أنكر بطرس المسيح أمامها في الثلاثة الأناجيل هي البوابة!

وعلاقة ق. يوحنا برئيس الكهنة تلقي ضوءاً كثيراً على رواية إنجيله. فهو، وإن لم يكن ذا قرابة برئيس الكهنة، فهو على الأقل يحمل المؤهلات الدينية والروحية والتقليدية التي تتناسب مع إنسان معروف لدى رئيس الكهنة، وله من الدالة والجُرأة أن يدخل داره بلا استئذان، وأن يدخل رفيقاً لمتهم على أعلى مستوى من العداوة والخطورة بالنسبة لرئيس الكهنة وكل عشيرته؛ بل وله من الدالة أن يأمر البوابة أن تسمح بدخول شخص آخر غريب ومشكوك في أنه أحد أتباع المتهم.

والسؤال هو كيف أن البوابة والخدم لم يتصرفا تجاه ق. يوحنا، كما تصرفا مع بطرس، بالرغم من علمهم الأكيد أن ق. يوحنا أحد تلاميذ المسيح؟ اللهم إلا إذا كان ق. يوحنا يمثّل بقرابة، وليس مجرد معرفة، لرئيس الكهنة؟

ولكن، وبصورة غير مؤكّدة، يقص لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أن ق. يوحنا والقديس يعقوب البار أخوا الرب كانا يلبسان أثناء الخدمة في عهدهما المسيحي تاجاً Mitre من نفس النوع الذي يلبسه رؤساء الكهنة، وعليه القلادة الذهبية pétalon الخاصة برئيس الكهنة (٢٠). وهذا يكشف عن أن أسرة كل منهما كانت تمتّ بصلة أكيدة إلى الكهنوت. ونحن لا ننسى أن ق. يوحنا كان من تلاميذ المعمدان الأوائل، وبقيناً أنه كان قبل تعرّفه على المعمدان يلتبس النور من مصادره التقليدية، أي من الهيكل ومن علمائه. وأخيراً باع كل شيء واشترى اللؤلؤة!!

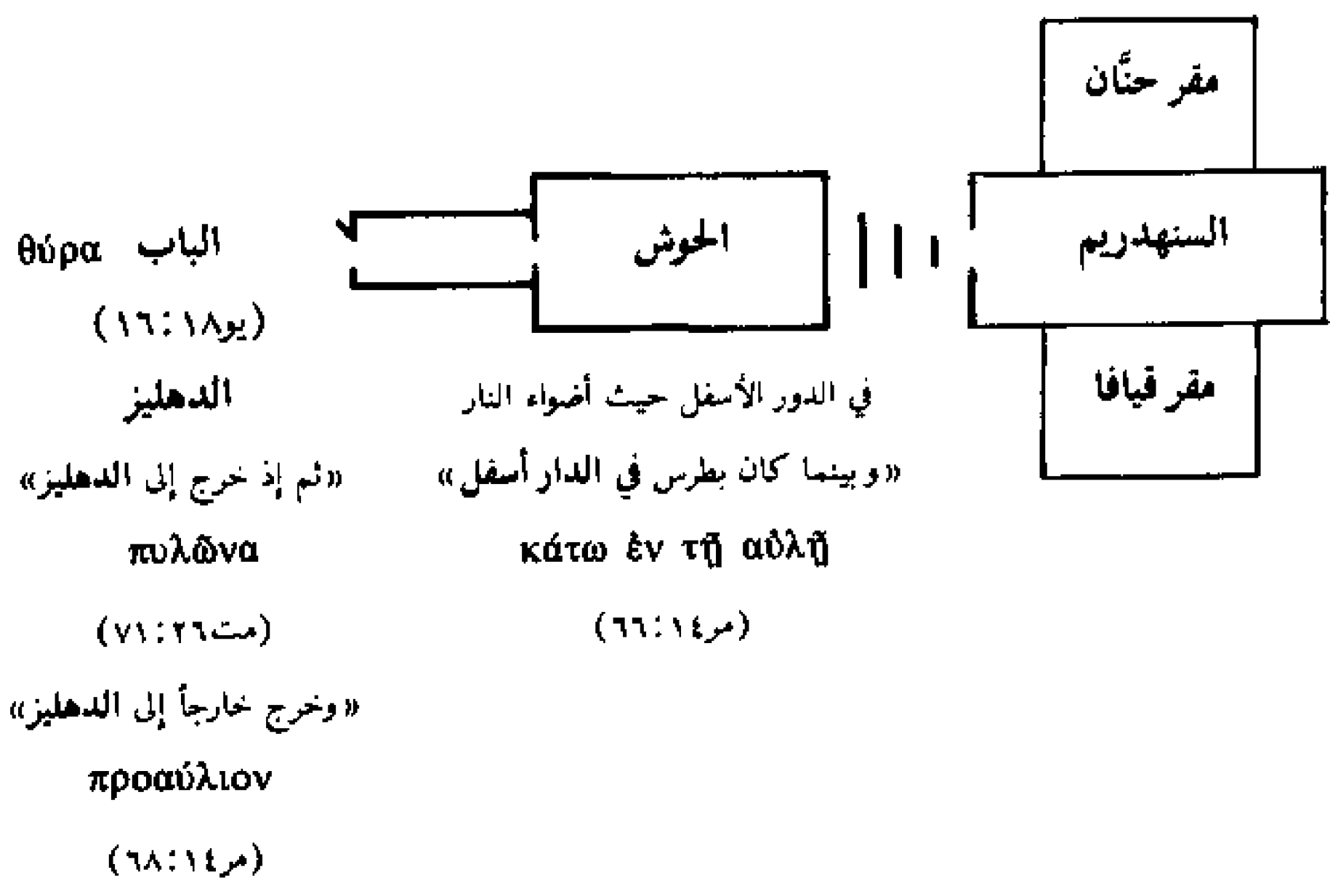
إن سيرة ق. يوحنا قبل المسيح كانت شديدة الشبه بتلك التي للقديس بولس، أما بعد المسيح فهما مؤتلفان في الروح، وفي الوعي المسيحي النادر، وفي الرؤى السماوية.

«دار رئيس الكهنة»:

بحسب تحقيقات بعض العلماء، ومنهم هنجستنبرج ووستكوت، يبدو أن قصر حنان كان

²⁰ Euseb., *H.E.*, V.24; Epiphan., *Adv. Haer.*, LXXVIII.14, quoted by Westcott, *op. cit.*, p. 256.

مكان اجتماع «رئاسة الكهنة»؛ خاصة وأنه توالى على رئاسة الكهنة — كما علمنا — أولادُه من بعده. وهذا قيافا أيضاً، وقد تزوج بنت حنان، فقد كان من الطبيعي أن يبقى مقر اجتماع رئاسة الكهنة كما هو في دار حنان حيه. وهذا يوضح لنا كيف تمت المحاكمة الأولى والمحاكمة الثانية، دون أن ينتقل المسيح خارج الدار. كما يتضح لنا بالأكثر كيف أن بطرس بقي في موضعه في الطابق السفلي، حتى أكمل إنكاره المهود إلى ثلاث مرات، دون أن ينتقل خارج الدار.



رسم يوضح مكان المحاكمة ومقر حنان وقيافا والسنهدريم. والفَسْحَةُ (الحوش) في الدور الأرضي، حيث اجتمع العبيد والخدم. ثم الدهليز، وهي الطَّرْقَةُ بين الباب والحوش.

والمعروف في التاريخ اليهودي، أن السنهدريم وهو الجهة القضائية العليا المنوط بها الفحص والحكم في القضايا الكبرى التي تختص باليهود، قد توقف عن العمل أربعين سنة قبل خراب اورشليم، أي في أيام المسيح. وقد مُنِعَ من الاجتماع في الدار المخصصة بالسنهدريم المسماة جازيت Gazit. كذلك فإنه بحسب التقليد اليهودي، كان لا يجوز لمجمع السنهدريم أن يحكم بالموت إلا داخل داره الرسمية هذه المسماة جازيت. لذلك اجتمع اجتماعاً غير قانوني في دار حنان

المتسعة، بناءً على استدعاء رؤساء الكهنة، وذلك بعد منتصف الليل للتصديق الشكلي على أحكام رؤساء الكهنة (٢١).

١٦: ١٨ «وَأَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ وَاقِفًا عِنْدَ الْبَابِ خَارِجًا. فَخَرَجَ التَّلْمِيذُ الْآخَرُ الَّذِي كَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَكَلَّمَ الْبَوَابَةَ، فَأَدْخَلَ بطرس».

حينما استقرق. يوحنا في الداخل، وعن قُرْبٍ من سيده، عاد يطلب صديقه بطرس. أما بطرس فكان راضياً بوقوفه خارج الباب، لأن الإساءة التي ارتكبها في حق عبد رئيس الكهنة كانت تقلقه خوفاً من أن يُكتشف أمره، إضافة إلى لمسة من الرعدة سرت في أوصاله، زادها البرد وظلمة الليل، وبدأ يسأل نفسه لماذا أنا هنا؟!

وأخيراً فتحت البوابة، وظهرق. يوحنا، ودعا بطرس للدخول في صمت. هنا يمدُّنا ق. يوحنا للمرة الثانية، وبشيء من التأكيد، بصورة صادقة واثقة عن شجاعته الهادئة الثابتة، ويكرر على مسامعنا مرة أخرى معرفة رئيس الكهنة له، ليمهد لحديثه مكاناً واثقاً في إيماننا، كمن يتكلم عن سماع ورؤيا.

بينما اتجه بطرس إلى جماعة الخدم والعبيد، واندسَّ بهدوء بينهم، راضياً أن يكون كأحد المتفرجين، أو على الأقل من الذين لا يعينهم أمر «هذا الرجل». كان هذا قد استقر في قرارة نفسه، كقرار لم يستطع أن يخفيه، لما اضطرَّ أن يعلن عن علاقته «بهذا الرجل».

أ — «فَأَنْكَرَ قَائِلًا لَسْتُ أَدْرِي وَلَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ.» (مر ١٤: ٦٨)

ب — «فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ أَنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ.» (مر ١٤: ٧١)
لقد ارتضى بطرس أن يجلس بين الناكرين، فأنكر.

١٧: ١٨ «فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ الْبَوَابَةُ لِبَطْرُسَ: أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضًا مِنْ تَلَامِيذِ هَذَا الْإِنْسَانِ، قَالَ ذَاكَ لَسْتُ أَنَا».

ولج بطرس داخل الدار بشيء من الارتباك، وكمن يريد أن يُخفي شخصيته، ولكن البوابة تفرَّست فيه في ضوء مصباحها الخافت، وتطلعت إلى شكله وعينه، وكانت على شيء كثير من الذكاء والفراسة، فخمَّنت، وأصابته الحقيقة. وفي تساؤل غير واثق بادرته بسرعة: «ألسَّ أَنْتَ

أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟». لم تقصد البوابة شيئاً غير وُضِعَ في موضعه، إنها مجرد بوابة. فقولها «أيضاً» يفيد أنها كانت قد تعرّفت على ق. يوحنا أولاً أنه تلميذ «هذا الإنسان». وها هي ترى ق. يوحنا يتفرّق بزميله، فكيف لا يكون تلميذ هذا الإنسان أيضاً؟ هنا خانت بطرس شجاعته وارتجّ عليه الأمر، بحث فلم يجد في خزانة إيمانه حبة خردل. ولمح من بعيد صورة ملّخس بين العبيد الواقفين، أو تصوّر ذلك، فأخذته الرعدة، وبسرعة أراد أن ينفي عنه كل شيء: «لست أنا». وكأنه التقط الاستنكار من فم البوابة: «أأنت أنت؟»، وحوّله إلى جواب: «لست أنا». لقد سهّلت عليه الرد، كالحية التي أغوت حواء.

«لست أنا»: οὐκ εἰμι

في لغة إنجيل يوحنا، هذا القول هو النقيض البغيض للقول المحبوب المُهاب لاسم المسيح وجوده «أنا هو» I am = ἐγώ εἰμι. لقد ألغى القديس بطرس بقوله هذا οὐκ εἰμι وجوده وكيانه، لأنه فقدهما في الحقيقة لما أنكر تلميذته لذلك الذي يستمدُّ منه وجوده وكيانه!!!

أما ق. يوحنا، فتجاسر ودخل ليكون بجوار الرب، فكان كمن ارتكن إلى حصن؛ وأما القديس بطرس فاكفى أن يكون بعيداً بين البُعْداء فزلاً، ولكن أن يتبع بطرس المسيح ولو من بعيد، أفضل من أن يظل بعيداً ولا يتبعه!!! وكان ممكناً بعد أن تعرّفوا على بطرس أنه كان في البستان، ولولا قليل لعرّفوا أنه هو صاحب السيف، أن يوقعوا به أذية ومهانة، ولكن: «ولكني طلبتُ من أجلك...» (لو ٢٢: ٣٢)، كانت صلاة المسيح من أجله حصناً حصيناً ومِتْجناً ومِشْراً.

١٨: ١٨ «وكان العبيد والخدّام واقفين، وهم قد أضرموا جَمَراً لأنه كان برّداً. وكانوا يَضْطَلُّونَ، وكان بطرس واقفاً معهم يَضْطَلِّي.»

لقد انسحب القائد والجند ولم يتبقَّ إلا عبيد رؤساء الكهنة وضباط الحراسة اليهود، هؤلاء تجمعوا معاً في فَسْحَةِ الدار في الدور الأرضي، وأضرموا جِراً، أي أوقدوا فحمًا وليس خشباً. ومعروف أنه في أيام الفصح في ١٤ نيسان، غالباً يكون الجو دافئاً إلا في بعض السنين. لهذا يقول ق. يوحنا: «لأنه كان برّداً»، مُعَبِّراً أن ذلك كان على غير المعتاد.

أما ذِكْرُ الجَمَرِ المُتَّقَدِ وهو يتلألأ ويرسلُ وَهْجَةً النير هنا وهناك، فلأنه هو الذي فضح بطرس في الحقيقة. لأن الذي ينقل لنا هذا المشهد بدقة ليس ق. يوحنا بعد، لأنه دخل إلى مقر المحاكمة ولم يَعدْ يعرف ماذا حدث كشاهد عيان، ولكن هنا يعطينا القديس لوقا ما سمعه من شهود عيان

هكذا: «ولما أضرمو ناراً في وسط الدار وجلسوا معاً، جلس بطرس بينهم، فرأته جارية (البوابة عند ق. يوحنا) جالساً عند النار πρὸς τὸ φῶς (أي في مواجهة نور الجمر). فتفرّست فيه، وقالت: وهذا كان معي» (لو ٢٢: ٥٦). لقد ساعد ضوء الجمر على التعرف على شخصية بطرس.

ويكمّل لنا القديس مرقس في إنجيله، على لسان القديس بطرس نفسه، حسب التقليد: «فلما رأت بطرس يستدفئ، نظرت إليه، وقالت: وأنت كُنْتَ مع يسوع الناصري. فأنكر قائلاً: لست أدري ولا أفهم ما تقولين. وخرج خارجاً إلى الدهليز προαύλιον (الطرفة الخارجية بين الفسحة الوسطى والباب)، فصاح الديك. فرأته الجارية أيضاً وابتدأت تقول للحاضرين: إن هذا منهم، فأنكر أيضاً. وبعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس: حقاً أنت منهم، لأنك جليلي أيضاً، ولُغتك تشبه لغتهم، فابتدأ يلعن ويحلف أنني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه. وصاح الديك ثانية، فتذكر بطرس القول الذي قاله له يسوع: إنك قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات. فلما تفكّر به بكى.» (مر ١٤: ٦٧-٧٢)

واضح من رواية القديس مرقس أن بطرس لم يغادر دار رئيس الكهنة، بل كان أسفل الدار يَضْطَلِّي، والمسيح فوق يُحَاكِّمُ، أولاً عند حنان، ثم عند رئيس الكهنة قيافا وبالتالي السنهدريم.

١٨: ١٩ «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه».

«شهود زور يقومون، وعمّا لم أعلم يسألونني.»
(مز ١١: ٣٥)

«لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن فليس لهم عُذْرٌ في خطيتهم.» (يو ١٥: ٢٢)

الكلام هنا يتبع مباشرة الآية (١٤)، أي بعد أن أجرى حنّان تحقيقه غير الرسمي، وهذا واضح من تعقيب ق. يوحنا في نهاية تحقيق قيافا، إذ يقول مستدركاً: «وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة.» (يو ١٨: ٢٤)

قيافا رئيس الكهنة يبدأ تحقيقه الرسمي بكل دقة وترتيب حسب الأصول القضائية تماماً. نعم، لأنه بقدر ما يكون الحكم المُعَدُّ مُسَبِّقاً غير عادل وغير معقول بالمرّة، بقدر ما تكون إجراءات المحاكمة غاية في الدقة وحسب الأصول بكل انضباط. هذه سُنّة المُحَقِّقِينَ المُفْسِدِينَ،

وفلسفة القضاة الذين لا يخشون الله ولا الضمير، حينما ينوون تعويض القضاء والتدليس على الضمير، يستمعون للدفاع بكل انتباه ويناقشون المتهم بكل حرص وأدب، ويطلبون فرص الدفاع ويكررون نظر القضية في جلسات تلو جلسات دون تعب أو قمل. ثم ينطقون بالحكم الظالم الغاشم المتعسف بأقل كلمات وفي أدب جم، ثم يشرحون أسبابه بإسهاب ويمنطق القضاء العادل الذي يخشى الله والحق والتاريخ. هكذا حققوا مع المسيح بكل اهتمام، وقتلوه بغير اكتراث.

رئيس الكهنة سأل المسيح عن «تلاميذه» أولاً، ثم عن «تعليمه». لم يكن القصد معرفة من هم تلاميذه لأنهم كانوا يعرفونهم، وق. يوحنا يقف كعينة فاحرة من هذه الزمرة. ولكنه كان يسأل عن مدى العلاقة التي تربطه بتلاميذه، لأن بيت القصيد في التهمة والاثام أنه جعل نفسه «ابن الله»، وبالتالي فهو — بحسب ادعائهم هذا — يكون فوق السلطة الكهنوتية والراكب فوق رؤوسهم! وتلاميذه هم، والأمر كذلك، رؤساء كهنة بالدرجة الأولى والقيّمون على الرسالة وانتشارها والمعلّمون المنوط بهم تعليم الشعب. هذا أمر يخص رئيس الكهنة من الاتهام. أما الإعداد لتقديم الاتهام للرومان، فلأنه «المسيح الملك»، فتلاميذه بالتالي يكونون هم الحُكّام والقوّاد والمنوط بهم القيام بالثورة. هذا دور التلاميذ الذي يُسأل عنه.

أما من جهة «تعليمه»، فقد جمع مُسبقاً من فم المسيح ما يكفي لتغطية الحكم بالرجم، وأعطى آئذ علامة التزكية للنطق بالحكم فيما بعد بأن «شقّ ملابسه» أمام السنهدريم، حسب التقليد القضائي. وهو الآن يريد المزيد ليستوفي من فمه مسببات الحكم.

ولكن المسيح قوّت عليه البند الأول من جهة تلاميذه، فلم يلتفت إليه أصلاً، لأن مبدأ المسيح الذي حرص عليه منذ البدء: «أن لا يهلك منهم أحد» (يو: ٦: ٣٩ و ١٧: ١٢). ثم ابتدأ المسيح يهاجم فكرة التعليم السري، التي يدور حولها قيافا، وكأنها خطة خفية عن مملكة وملكوت بعده بالشفرة، ليُعلنه في الوقت المناسب لينصب نفسه «مسيحاً الملك». وهذا من واقع الاتهام الذي قدّمه لبيلاطس، كما جاء في إنجيل لوقا: «ومنع أن تُغطى جزية لقيصر، قائلاً، إنه هو مسيح ملك» (لو: ٢٣: ٢). وهذا هو الذي حدا ببيلاطس أن يسأله — كما جاء في إنجيل يوحنا: «ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود» (يو: ١٨: ٣٣). هنا واضح أن ق. يوحنا يكمل ويشرح عَرَضاً ما جاء في إنجيل لوقا.

٢٠ : ١٨ «أجابته يسوع أنا كلَّمْتُ العالمَ علانيةً. أنا علَّمْتُ كلَّ حينٍ في المَجْمَعِ وفي الهيكلِ، حيثُ يجتمعُ اليهودُ دائماً. وفي الخفاءِ، لم أتكلَّم بشيءٍ».

«أنا كلَّمْتُ ... أنا علَّمْتُ» :

واضح كيف أن المسيح لكي يفوِّت على قيافا الإجابة عن «التلاميذ»، ابتداءً يركّز بصورة قوية وشاحنة على نفسه : «فأنا ... أنا» تحمل المجاهرة القوية الصلبة والشجاعة.

ويلاحظ أن كلمة «أنا كلَّمْتُ ... أنا علَّمْتُ»، يجيء كلُّ منهما في التصريف الكامل المنتهي (الماضي التام perfect) لتمهّد لآخر كلمة قالها، بعد التطبيق العملي على الصليب، لكل ما قال وعلم : «قد اكْمِلَ» (يو ١٩ : ٣٠)

كما يتضح من مجيء كلمة «أنا كلَّمْتُ» قبل «أنا علَّمْتُ»، أن التعليم الذي يسأل عنه قيافا لم يكن سرّياً ولا بالشَّفَرَة أو الرموز، بل بالكلام العلني الحرّ، المسموع والمفهوم لدى «العالم»، وكلمة «العالم» هنا تشمل كل درجات الناس بلا تمييز، تلاميذ وغير تلاميذ : «كما قلت لليهود ... أقول لكم أنتم الآن» (يو ١٣ : ٣٣). والعلنية التي يفتخر بها المسيح، تجيء موبّخة وفاضحة للسرّية التي اتّخذها قيافا ومن معه في خطة القبض عليه والتخاير السري مع يهوذا ودفع الثمن له ! وتدبير هذه المحكمة وجمع شهود الزور. ثم يعود المسيح ويخصّص تعاليمه لكل العالم على مستوى العلانية في البيوت والشوارع إلى : «أنا علَّمْتُ كل حين في المجمع، وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود، وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء». لاحظ هنا تأكيد المسيح على موضوع «الخفاء».

واضح أن المسيح يقدّم نفسه كمعلّم دولة أولاً على مستوى «العالم»، ثم معلّم الشعب اليهودي كافة بكل فئاته، حيث استمع إليه رؤساء كهنة وكتبة وفرّيسيون، خاطبهم وخاطبوه وناقشهم وناقشوه. إذن، لم يكن معلّم جماعة، أو شيخ طريقة، أو صاحب مذهب، أو إمام شيعة، بل هو الناطق بكلمة الله في كل مكان وزمان ولكل إنسان !

«وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء» :

«لم أتكلّم بالخفاء في مكان من الأرض مُظْلِمٍ. لم أقل لنسل يعقوب باطلاً اطلبوني. أنا الرب متكلم بالصدق، مُخَبِّرٌ بالاستقامة» (إش ٤٥ : ١٩)

إن أقوى ما كان في تعاليم المسيح وإعلاناته هي «العلانية»، بل وأقوى إعلان نطقه كان لقيافا هذا عينه، حينما توسّل إليه مُستحليفاً بالله: «والذين أمسكوا يسوع، مَضَوْا به إلى قيافا رئيس الكهنة ... وقال له: أَسْتَخْلِفُكَ بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أَنْتَ قُلْتَ (أو نعم كما قُلْتَ)؛ وأيضاً أقول لكم من الآن تُبْصِرُونَ ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء.» (مت ٢٦: ٥٧ و ٦٣ و ٦٤)

وفي إنجيل القديس مرقس جاءت العلانية صارخة: «فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أنت المسيح ابنُ المَبارِك؟ فقال يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر ١٤: ٦١ و ٦٢)

بل ولم يصرّح المسيح قط أن ما يَعْلَم به يبقى في الخفاء: «الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعون في الأذن، نادوا به على السطوح» (مت ١٠: ٢٧). المسيح هنا يشجب كل تعليم سرّي، لأن كل تعليم سرّي يخلو من الحق. أما الحق فهو علم العلانية ومعرفة النور، ويكفي أن يقول المسيح كمعلّم: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦). على الجبل علّم، وفي الطريق علّم، وفي البيوت وفي الخلاء وفي القفر وعلى شاطئ البحر وأمام القبر علّم! بالليل مع نيقوديموس الذي آثر الظلام علّم، وفي منتصف النهار ضرب ميعاده مع السامرية وعلم، وعلى مدى النهار كله وحتى خار الشعب، علّم وأطعم. اختار السبت للمجامع، والأعياد للهيكل. وما قاله هنا وهناك سمعناه كلنا، وفي كل مكان، وفي الدنيا كلها الآن. وحديث القلب الخاص جداً في العلّية لتلاميذه — الذين أحبّهم إلى المنتهى — على العشاء الأخير، صار حديثنا، بل صار إنجيلنا، بل صار طَقْسَنَا نرتّل به، ونسبّح، ونهدّ فيه الليل مع النهار!

هذه الإجابة التي ردّ بها المسيح على سؤال قيافا، نسمعها بصورة أخرى يقولها المسيح لبعثة قيافا عينه، التي تسلحت بالسيوف والعصي للقبض عليه كما على مجرم ثائر ضد الأمة، هكذا: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لُصّ خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل اُعلّم، ولم تمسكوني، ولكن لكي تُكتمل الكتب» (مر ١٤: ٤٨ و ٤٩). وكان قيافا أراد، ببعثة القبض عليه، أن يصوره بصورة المجرم الثائر.

٢١: ١٨ «لماذا تسألني أنا؟ إسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمْتُهُمْ، هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قُلْتُ أنا.»

واضح جداً من قول المسيح هذا أنه، في الحقيقة، إنما كان يخاطب السامعين أنفسهم!! رؤساء

الكهنة والمحققين. يخاطب، إن لم يكن شجاعتهم ليدلوا بشهادتهم لو أرادوا — هذا لو كانت لهم حرية الإرادة — فضماثرهم!! ثم أنه في قول المسيح هذا، رَجْعَةٌ قانونية على المحقق المتحامل المدَّلس. فبحسب القانون اليهودي، يلزم حضور شهود الدفاع أولاً لتبرئة ذمة المتهم^(٢٢)! هو هنا يطلب شهود الإيجاب، أي يطلب تعديل وضع المحكمة!! فالوضع القانوني الصحيح في المحاكمات اليهودية العريقة في القدم أن المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته. ولكن المسيح كان، في قرارة نفسه ولسان حاله، قد أكمل التعليم والأجوبة والشهادة والبراهين الكلامية التعليمية والإعجازية، والوقت لم يعد وقت شهادة وسؤال وجواب، ولكن هي شدة وضيق كان عليه أن يجوزها في صمت، لو أمكن!

ثم أليس هو الذي تكلم جهراً أمام مجلس السنهدريم مُعلنًا بنوته لله وصدق مسيانيته؟ وإننا، في الحقيقة، نلمح في قول المسيح: «لماذا تسألني»، رفضاً مقنعاً للإجابة، وهو ما نسمعه في الأناجيل الأخرى أنه صمت وأنه لم يردْ بشيء!! «فقام رئيس الكهنة في الوسط، وسأل يسوع قائلاً: أما تُجيبُ شيء ماذا يشهد به هؤلاء عليك. أما هو فكان ساكناً، ولم يُجبْ بشيء.» (مر ١٤ : ٦٠ و ٦١، مت ٢٦ : ٦٢ و ٦٣)

ثم كيف يجيب المسيح على قاضٍ صم وأعلن عن قتله؟ لقد أعينَ رئيسُ الكهنة، لكي يجمع شهادات زور، فلم يوفق أبداً: «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع، لكي يقتلوه، فلم يجدوا» (مت ٢٦ : ٥٩ و ٦٠)، «لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً، ولم تتفق شهادتهم.» (مر ١٤ : ٥٦)

ولكن حينما حلَّ دور الشهادة للحق أمام المجمع عن بُنوته لله، وأمام بيلاطس عن ملكوته، أجاب الإجابة القاطعة: «وشهد الاعتراف الحسن»، وهو الأمر الذي صار من صلب إيماننا: «أوصيك أمام الله الذي يحمي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن.» (١ تي ٦ : ١٣)

٢٢ : ١٨ «ولمَّا قالَ هذا، لَطَمَ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفًا، قَائِلًا: أَهَكَذَا تُجَابِئُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟»

لقد سجَّل إشعياء النبي هذا المنظر قبل أن يحدث بستمائة سنة وصوَّره أروع تصوير: «بذلتُ

²² Sanh. f.32.1; f.40.1, quoted by Lightfoot (Hor., Hebr. ver. 15).

ظهري للضاربين، وخديّ للناثقين (في السبعينية: للطم $\rho\alpha\lambda\iota\sigma\mu\alpha\tau\alpha$)، وجهي لم أستر عن العار والبصاق» (إش ٥٠: ٦)، [وخديك أهملتهما للطم] (القديس الغريغوري القبطي).

لم يكن العبدُ أسوأ من سيّده، فلو كان رئيس الكهنة "الأضعف" احترام حقوق المتهم بحسب القانون، ما تجرأ العبد ومدّ يده على رئيس الكهنة "الأعظم".

٢٣: ١٨ «أجابته يسوع: إن كنتُ قد تكلمتُ ردياً ($\kappa\alpha\kappa\omega\varsigma$)، فاشهدْ على الرديّ، وإن حسناً، فلماذا تضربُني؟»

المسيح هنا لا يردُّ على العبد، بل على قيافا حامي التوراة، وهل أعطت التوراة هذا العبد علة هذا التعدي: «لا تُسَبِّ الله، ولا تلعن رئيساً في شعبك» (خر ٢٢: ٢٨)، وقد قرأها القديس بولس «رئيس شعبك لا تَقُلْ فيه سوءاً $\kappa\alpha\kappa\omega\varsigma$ » (أع ٢٣: ٥). فالمسيح هنا يسأل رئيس المحكمة الذي رأى ووافق على اللطم. إن القانون يقول: «لا تقل سوءاً»، فما هو هذا سوء الذي تكلمتُ به حتى تعطي لعبدك الحق في الإساءة؟ وأنا لم أتكلم سوءاً، بل حسناً!! لقد احتسب المسيح هذه الإساءة — دون سبب — أنها مُخِلَّةٌ بإجراءات المحاكمة وخروجاً على القانون والتوراة. ونجدد الإشارة هنا، إلى أن القانون اليهودي ينص على أنه ليس للقاضي الحق إلا ليطرح المذنب، إذا ثبت عليه الذنب، ثم يأمر بعد ذلك بالجلد في حدود كرامة الإنسان "لئلا يُحتَقَر في عينيك"!!!

+ «إذا كانت خصومة بين أناس، وتقدّموا إلى القضاء ليقتضي القضاء بينهم فليبرروا البار، ويحكموا على المذنب. فإن كان المذنب مستوجب الضرب، يطرحه القاضي، ويجلدونه أمامه على قدر ذنبه بالعدد. أربعين يجلدُهُ، لا يَزِدْ، لئلا إذا زاد في جَلْدِهِ على هذه ضربات كثيرة، يُحتَقَر أخوك في عينيك.» (مت ٢٥: ١-٤)

ولكن كان هذا مبتدأ الأوجاع، فقد زحفت ساعة الظلمة، وتحرك العقرب على يد هذا العبد المتعوس، وبعد ذلك وبتحريض من رئيس الكهنة، اكتملت الآلام، كما جاء في الأناجيل الأخرى:

+ «حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (أعضاء السنهدريم)... ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون. فأجابوا وقالوا: إنه مُستوجب الموت. حينئذ بصقوا في وجهه، ولكموه، وآخرون لطموه. قائلين: تنبأ لنا أيها المسيح مَنْ ضَرَبَكَ.» (مت ٢٦: ٦٥-٦٨)

+ « فابتدأ قومٌ يبصقون عليه، و يغطون وجهه، ويلكمونَه، ويقولون له: تنبأ. وكان الخُدام يلطمونه. » (مر ١٤: ٦٥)

+ « والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع، كانوا يستهزئون به وهم يجلدونَه. وغطوه وكانوا يضربون وجهه، ويسألونه قائلين: تنبأ مَنْ هو الذي ضربك؟ وأشياء أُخر كثيرة، كانوا يقولون عليه، محذفين. » (لو ٢٢: ٦٣-٦٥)

وقد انقسمت الآلام والتعديات على المسيح إلى ما كان منها قبل النطق بالحكم من فم قيافا، وما بعد النطق بالحكم، أي بعد انتهاء المحاكمة. وكانت التي قبل النطق بالحكم هي السبّة العظمى في القانون اليهودي، ودلالة قاطعة على أن المحاكمة كانت على مستوى التشفي (٢٣).

لماذا؟ إشعيا يتأمل ويتعجب والروح يجيب!

+ « مخذول من الناس، رجل أوجاع، ومُختبر الحزن... مُحترق فلم نعتد به!! نحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلواً؟... »

لكن: أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها،... مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديبٌ سلامنا عليه ويخبره ($\mu\omega\lambda\omega\pi\iota$ = Bruises كدمات أو رض أو سحق) شُفينا! ظلم، أما هو فتذل، ولم يفتح فاه؛ كشاة تُساق إلى الذبح... ضُرب من أجل ذنب شعبي... على أنه لم يعمل ظلماً، ولم يكن في فمه غش! أما الرب فسُرب أن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة إثم. » (إش ٥٣: ٣-١٠)

الآن أدركت لماذا ضرب المسيح بالكف على وجهه،
فأسرع ينفي عن نفسه نفياً باتاً أنه يستحق اللطم!
لكي يصير عارُ اللطم الذي كان عليّ أن أحتمله،
احتمله وجهه ثمناً مدفوعاً عن عاري أنا،
وأ تبرأ عن اللطم الذي استحقته لتأديبي،

(٢٣) وكثيرون تساءلوا لماذا لم يُدِرَّ المسيح الحذاء الآخر حينما لطم على الحذاء الأول؟
يردُّ على ذلك القديس أغسطينوس قائلاً:

[إن وصايا المسيح لا تُثَمُّ بالجسد، ولكن باستعداد القلب، لأنه يمكن أن إنساناً غاضباً حاقداً يحوّل الحذاء الآخر. ولكن كم يكون من الأفضل للإنسان أن يكون في ملء السلام الداخلي، ليردَّ بجواب فيه الحق، ويهدوء الفكر يُميك نفسه باستعداد لاحتمال آلام أكثر تأتي عليه.]

ألم يقل إشعياء: «تأديبٌ سلاهُنا عليه»!! (إش ٥٣: ٥)

الآن فهمتُ لماذا عرَّض المسيح وَجْهَهُ للبصاق!!
إنه ثمن فضيحتي الذي سَتَر به خزيي.

اقشعري يا نفسي وارنعي،
فعارُكِ حَمَلَهُ على وجهه لظماً وبُصاقاً،
ليجعلكِ بلا لوم أمامه.

ليس مجاناً اغتسلنا بل تقدَّسنا بل تبررنا،
بل بالثمن الغالي الذي تقشعر منه السماء والأرض معاً.

أربعون جلدة إلا واحدة، تحمَّلها على ظهره الغضُّ بنأوْهايت وأنين وآلام مبرَّحة،
واللحم ينهراً والدم يتفجر.
والعقوبة أصلاً هي عقوبتي، فالجناية جنايتي،
والذنب ذنبي، والتعدي صَنَعَتُهُ حماقتي.

ذوبي يا نفسي خجلاً، وانطرحي إلى الأرض، وعفري وجهكِ بالتراب،
فالثمن المدفوع لتبرئتكِ لا تطيقه السماء،
والأرض كلها تميد من تحته!

٢٤: ١٨ «وكانَ حَتَّانُ قد أرسلَهُ مُوثَقاً إلى قَيَافَا رئيسِ الكَهَنَةِ».

هذه الآية ليس موضعها هنا، ولكنها أتت استدراكية، استدرك بها الكاتب ما كان يجب أن يقول قبل البدء في المحاكمة أمام قيافا قبل الآية: «فسأل رئيس الكهنة يسوع...» (يو ١٨: ١٩)، لأن حَتَّان أنهى تحقيقاته المبدئية قبل أن يرسله «مُوثَقاً» إلى قيافا. وكلمة «مُوثَقاً» هي الإشارة الوحيدة للإدانة.

وإلى هنا تكون قد تمت التحقيقات المبدئية أمام «حَتَّان» شكلياً، ثم التحقيقات التسجيلية في مضابط الجلسة أمام قيافا ومجلس السنهديرين. على أن التقليد اليهودي والتقليد المسيحي معاً، لا يقول أي منهما أن المسيح حوكم أمام السنهديرين رسمياً^(٢٤)، وهي التحقيقات التي انتهت بتمزيق رئيس الكهنة ثوبه إعلاناً عن تجديف سجَّله على المسيح، زوراً، وأشهد عليه السنهديرين، وهَيَّج الأعضاء، فقاموا على المسيح وصنعوا به كل ما أرادوا. وهذا جاء في إنجيل القديس مرقس

²⁴ Edersheim, *op. cit.*, p. 556.

من الآية (٥٥) حتى الآية (٦٥) من الأصحاح الرابع عشر.

٢٥: ١٨ «وَسَمْعَانُ بُطْرُسُ كَانَ واقِفاً يَضْطَلِي. فَقَالُوا لَهُ: أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تَلَامِيذِهِ؟ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ: لَسْتُ أَنَا.»

هذا الإنكار هو الثاني لبطرس، وقد تم في نهاية التحقيقات أمام حنان، وكان الداعي لهذا الإنكار هو بمناسبة ظهور المسيح موثقاً، وهو يمرّ محروساً بالخدم من مكان حثان، إلى مكان قيافا، إذ كانت فرصة جديدة للخدم، لإعادة النظر في هذا الغريب الجالس وسطهم دون أن يتعرفوا عليه.

٢٦: ١٨ «قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَمِيدِ رِئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَهُوَ نَسِيْبُ الَّذِي قَطَعَ بطْرُسُ أُذُنَهُ: أَمَا رَأَيْتَكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبَسْتَانِ؟»

هنا تظهر إمكانيات ق. يوحنا في التعرف على أهل بيت رئيس الكهنة وخُذَّامه، التي تشير إلى احتمال شديد للقراءة أكثر منها للمعرفة عند بيت رئيس الكهنة. كانت هذه اللفتة من نسيب مَلْخُس مُرْعبة بالنسبة للقديس بطرس، لذلك أسرع في النفي.

٢٧: ١٨ «فَأَنْكَرَ بُطْرُسُ أَيْضاً، وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكِ.»

هذا هو الإنكار الثالث لبطرس، والآن وقد تم العدد المتفق عليه، إذ صاح الديك بالفعل! هنا، في هذه اللحظة، كانت قد تمت المحاكمة أمام قيافا والسندريم، وخرج يسوع موثقاً في طريقه لبيلاطس، وكان لا بد أن يمر بالفَسْحَة في الدور الأرضي التي كان بطرس واقفاً فيها مع الخدم يصطلي. وكان تدبير الله للخلاص أن مرَّ الرب بجوار القديس بطرس في اللحظة التي أنكر فيها، فصاح الديك، ونظر إليه، فانتبه بطرس وقرأ ما في عيني الرب، هذا بحسب إنجيل القديس لوقا: «فَقَالَ بطْرُسُ: يَا إِنْسَانُ، لَسْتُ أَعْرِفُ مَا تَقُولُ. وَفِي الْحَالِ، بَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ صَاحَ الدِّيكِ. فَالْتَفَتَ الرَّبُّ وَنَظَرَ إِلَى بطْرُسَ. فَتَذَكَّرَ بطْرُسُ كَلَامَ الرَّبِّ، كَيْفَ قَالَ لَهُ إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ تَنْكُرْتَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَخَرَجَ بطْرُسُ إِلَى خَارِجٍ، وَبَكَى بِكَاءٍ مَرَّةً.» (لو ٢٢: ٦٠-٦٢)

أما ق. يوحنا، فبحسب أسلوبه المحافظ جداً، لم يشأ أن يورد أي إشارة لإدانة القديس بطرس، أو الحظ من كرامته، شأنه في ذلك مع بطرس شأنه مع جميع التلاميذ الذين كانوا موضع

تكريم دائماً في إنجيل يوحنا (٢٥).

وواضح أن اهتمام ق. يوحنا في تسجيل حادثة إنكار بطرس، ومثل تسجيله لبقية الحوادث، كان منصباً على توجيه النظر ناحية لاهوت المسيح، وكيف تمّ ما قاله المسيح لبطرس بالحرف الواحد: «وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون.» (يو ١٤: ٢٩)

«لا تُحرّف حق فقيرك في دَعْوَاه. ابتعد عن كلام الكذب، ولا تقتل البريء والبار، لأنّي لا أبرّر المذنب.» (خر ٢٣: ٦ و٧)

«هكذا قال رب الجنود قائلاً: اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة، كلُّ إنسان مع أخيه، ولا تظلموا... ولا يفكر أحدٌ منكم شراً على أخيه في قلبكم. فأبوا أن يصفوا، وأعطوا كتفاً معاندة، وثقلوا آذانهم عن السمع... فجاء غضبٌ عظيم من عند رب الجنود.

فكان كما نادى هو، فلم يسمعوا، كذلك يُنادون هم فلا أسمع، قال رب الجنود، وأغصّفهم إلى كل الأمم الذين لم يعرفوهم. فخربت الأرض وراءهم، لا ذاهب ولا آتب، فجعلوا الأرض البهجة خراباً.» (زك ٧: ٩-١٤)

في ختام رواية محاكمة المسيح أمام رؤساء الكهنة — ومجلس السنهدريم من الباطن (٢٦) — لا نعثر على قرار واضح أُجري عليه التصويت، ولا حتى إجراءات قانونية واضحة. وهذا ما لا يخفى على القارئ، أن رؤساء الكهنة ومجلس السنهدريم لم يكن له أي سلطة قضائية للمحاكمة أو لإصدار قرارات في عهد الحكم الروماني: «لا يجوز لنا أن نقتل أحداً» (يو ١٨: ٣١). وكل ما عملوه هو الإنهاء إلى قرار موحد يستطيعون تقديمه لبيلاطس، ليحكم لهم بمقتضاه، إن أمكن. فالمسألة كانت مجرد اجتهد بالنسبة لهم، وقد استخدموا كافة وسائل الضغط والترغيب، ثم

(٢٥) أنظر المدخل ص ٢٦٣ و٢٥٢ وأيضاً شرح الآية يو ١٦: ٣١.

(٢٦) معروف أن مجلس السنهدريم كان قد توقف عن إصدار قرارات رسمية أربعين سنة قبل هدم الهيكل وأورشليم.

الإرهاب، ليبلغوا إلى غايتهم.

وقد كشف بيلاطس العوامل النفسية الواضحة والصارخة التي حرّكتهم ضد المسيح، والتي استخلصها من قضيتهم ودعواهم، فوق كل صراخهم وإدعاءاتهم: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً» (مر ١٥: ١٠). كما كشف بيلاطس عدم استنادهم على أي أدلة واضحة أو صادقة لإقامة هذه الدعوى برمتها، وبالتالي المطالبة بصلبه.

- ١ — شهادة بيلاطس ثلاث مرات بعدم وجود علة واحدة في المسيح (يو ١٨: ٣٨؛ ١٩: ٦ و ٤).
- ٢ — «وأيّ شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليُصلب.» (مت ٢٧: ٢٣).
- ٣ — «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم.» (مت ٢٧: ٢٤)
- ٤ — «أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود.» (مر ١٥: ٩)
- ٥ — «قد قدّمتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصتُ قدامكم ولم أجِد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً لأنني أرسلتكم إليه. وها لا شيء يستحق الموت ضنع منه.» (لو ٢٣: ١٤—١٥)
- ٦ — «فقال لهم ثالثة: فأيّ شرّ عمل هذا؟ إني لا أجِد فيه علة للموت.» (لو ٢٣: ٢٢)

ب — المحاكمة الثانية: أمام المحكمة المدنية: (١٨: ٢٨—١٩: ١٦).

الملك السماوي أمام الحاكم الروماني:

يختص إنجيل يوحنا بمفرده بالكشف عن التحقيقات الخاصة التي أجراها بيلاطس مع المسيح في غياب اليهود، وقد جاءت على مرتين: (١٨: ٣٣—٣٧ و ١٩: ٨—١١).

ولكننا نسمع عنها باختصار بالغ في رواية القديس متى ٢٧: ١١. كما تأتي عرضاً كمُسَلِّمة من المُسَلِّماتِ الإيمانية العالية القيمة جداً في وصية القديس بولس الرسول الأخيرة لتيموثاوس هكذا: «أوصيك أمام الله الذي يُخَيِّ الكَلَّ، والمسيح يسوع، الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن» (١ تي ٦: ١٣). من هذا نستنتج أن ق. يوحنا يلزم أن يكون قد رافق المسيح ودخل معه دار الولاية، وربما كان هذا أسهل بكثير من دخوله مع المسيح دار رئيس الكهنة. كما يتضح ذلك أيضاً من شرح ق. يوحنا للغة بيلاطس سواء لليهود أو للمسيح، فقد كانت بوضوح وإسهاب، في حين أن ما ورد في الثلاثة الأناجيل عما تم لدى بيلاطس كان باختصار وبدون ترتيب.

ورواية ق. يوحنا لمحاكمة المسيح لدى بيلاطس يمكن تقسيمها إلى فواصل واضحة؛ ما تم منها داخل دار الولاية (البريتوريون πραιτώριον) وما تم منها خارج الدار:

الجزء الأول:	خارج دار الولاية	وفيه يطالب بيلاطس اليهود بنفاذ حكم الإعدام الذي نطقوه (١٨: ٢٨-٣٢).
الجزء الثاني:	داخل دار الولاية	«الاعتراف الحسن»: المسيح ملك (١٨: ٣٣-٣٧).
الجزء الثالث:	خارج دار الولاية	الإعلان الأول عن براءة المسيح؛ وموضوع باراباس (١٨: ٣٨-٤٠).
الجزء الرابع:	داخل دار الولاية	الحكم بالجلد، والاستهزاء الأول (١٩: ١-٣).
الجزء الخامس:	خارج دار الولاية	الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح: «هوذا الإنسان»، «ابن الله» (١٩: ٤-٧).
الجزء السادس:	داخل دار الولاية	مصدر السلطان، والخطية الأعظم (١٩: ٨-١١).
الجزء السابع:	خارج دار الولاية	تهديد القاضي. يحيا قيصر، وليُثَمِّت المسيح (١٩: ١٢-١٦).

الجزء الأول من سير القضية

خارج دار الولاية (٢٨: ١٨ — ٣٢)

بيلاطس واليهود. المطالبة بالإعدام والردُّ بالرفض

٢٨: ١٨ «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان ضُبُحٌ، ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية، لكي لا يَتَنَجَّسُوا، فَيَأْكُلُونَ الْفِضْحَ».

إن آخر مرحلة عُبِّرَ عليها المسيح في المحاكمة لدى رئيس الكهنة، كانت باشتراك جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب حيث قرروا قتله، وذلك حسب رواية إنجيل القديس متى: «ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه، ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البُطِّي الوالي.» (مت ٢٧: ١ — ٢)

كانت أحكام اليهود — مهما أخذت من رسميات — بلا قوة وغير قابلة للتنفيذ بدون السلطة الرومانية. أما دار الولاية، فبالرغم من أنه كان لها مقرٌ رسميٌّ في قصر خاص كان قد بَنَاهُ هيرودس الملك على التلال الغربية الشمالية لمدينة أورشليم، إلا أن المعروف أن بيلاطس كان مقره المؤقت في قلعة أنطونيا Antonia في الشمال الشرقي، لأن مقره الدائم كان في مدينة قيصرية. إلا أنه كان ينتقل من مقره الرسمي، إلى أورشليم، في الأعياد، ليحرف بنفسه على الأمن والنظام^(٢٧)، لأن المدينة حينذاك تكون مكتظة باليهود الآتين من الشَّتات، الذين يبلغ عددهم في الفصح ما يقرب من ثلاثة ملايين^(٢٨).

«وكان ضُبُح πρωτ (٢٩) (الفجر):»

هذا التعبير الروماني، يقابله في تقسيم الزمن اليهودي، الهزيع الرابع من الليل (ويبدأ من الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى الساعة السادسة صباحاً). ومعروف في القانون اليهودي أنه يُحظَرُ إصدارُ حكمٍ بالموت أثناء الليل.

²⁷ Hengstenberg, *op. cit.*, p. 364.

(٢٨) فردريك ولهم فارار: «حياة المسيح»، ص ٦١٤.

²⁹ Westcott, *op. cit.*, p. 258.

وهكذا عُقد السنهدريم بكامل هيئته في الصباح، ليوافقوا على حكم الليل، لمجرد استيفاء الشكليات القانونية، وهذا هو العبث — عين العبث — بروح القانون (٣٠).

ولكن ظل القرار الذي أخذوه بالإجماع في الصباح مخالفاً لنص القانون اليهودي، وهو أن حكماً بالموت لا يصدر في يوم المحاكمة، إذ لا بد أن يؤجل إلى يوم آخر غير يوم المحاكمة. ولكنهم، باعتبارهم الهيئة العليا المهيمنة على الشؤون القانونية، أعطت لنفسها الحرية أن تعبت بالقانون، ظناً منها أنه لن يوجد من يؤاخذها. ولكن العالم كله، وكل جيل، وفي كل أمة، يشهد الآن على فساد ذمة القضاة اليهود الذين تولوا الحكم على يسوع.

ذهبوا إلى دار الولاية في وقت مبكر للغاية، مع أن القانون الروماني ينص على انعقاد المحكمة بعد شروق الشمس على كل حال (٣٠). ولكن يبدو أنهم كانوا على ميعاد مع بيلاطس، وأنه هو الذي أرسل الحامية العسكرية. ومعروف أن حثان — أغني أغنياء اليهود — كان على صلة بكل الذين في دار الولاية، وأنه كان يرشو الجميع بالأموال. ولكن بيلاطس ظل محتفظاً برأيه فيما يختص بالحدود التي تفصل بين قضاء اليهود والقضاء الروماني.

«ولم يدخلوا، لكي لا يتنجسوا، فياًكلون الفصح»:

كانوا يخشون نجاسة الجسد، ولا يخشون سفك دم بريء!! وصح فيهم قول المسيح أنهم: «يصفون عن البعوضة و يبلعون الجمل.» (مت ٢٣: ٢٤).

قبل أن نخوض في إثبات تقليد إنجيل ق. يوحنا في كَوْن المسيح ذُبَح في يوم ١٤ نيسان، وهو ميعاد ذبح الخروف (٣١)، يلزم أن نوضح الآتي:

أولاً: ذُبَحْ خروف الفصح، حسب الناموس، يكون في يوم ١٤ نيسان قبل الغروب بين العشائين، أي: (من الساعة الثالثة حتى الساعة السادسة بالتوقيت الإفرنجي) (٣٢).

ثانياً: اليوم اليهودي يبدأ من بعد غروب الشمس حتى غروب الشمس في اليوم التالي (أربع وعشرون ساعة).

ثالثاً: يوم ذبح الخروف يسمى يوم الفصح، أو عيد الفصح، وهو ١٤ نيسان. واليوم الذي

³⁰ Ibid.

(٣١) أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، طبعة ١٩٧٢، ص ١٤٣-١٦٢.

³² The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. xcii.

يليه وهو ١٥ نيسان يسمى أول أيام العيد، وهو أول أيام عيد الفطير، وفيه محفل رسمي. ففي يوم الفصح يُذبح الخروف وقت الغروب. ويكون أكلُ الفصح بعد الغروب، أي يدخل في يوم ١٥ نيسان، وهو أول يوم لعيد الفطير.

رابعاً: بعد يوم ١٤ نيسان يبدأ أسبوع الفصح الذي لا يؤكل فيه خميراً قط بل فطير، ويسمى عيد الفطير. ولكن عدد أيام أكل الفطير هي ٨ أيام، لأن في يوم ١٤ نيسان يُقطع الخمير، ويُصنع الفطير.

خامساً: بحسب رواية الثلاثة الأناجيل، يبدو أن المسيح صنع العشاء الأخير في غروب يوم الفصح نفسه أي في ١٤ نيسان، وأنه صُلبَ ثاني يوم، أي أنه في ١٥ نيسان بدأ عيد الفطير.

سادساً: بحسب رواية إنجيل يوحنا، يبدو أن المسيح صنع العشاء الأخير قبل يوم الفصح (٣٣)، لأنه يعلم أنه هو نفسه سيكون خروف الفصح: «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩)، وأنه صُلب يوم ١٤ نيسان، وهو يوم ذبح الخروف — عن علم سابق وقصدي. والمسيح بذلك يكون قد ألغى الفصح اليهودي بذبح الخروف، وأسس الفصح المسيحي بذبح نفسه. وهذا يؤكد شهادة بولس الرسول القوية: «لأن فصحنا أيضاً المسيح، قد ذُبح لأجلنا، إذاً لنعيّد ليس بخميرة عتيقة، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الإخلاص والحق.» (١ كور: ٥: ٧ و٨)

سابعاً: إمكانية التوفيق بين رواية الثلاثة الأناجيل ورواية إنجيل يوحنا قام بها كثير من العلماء، وأثبتوا صحة الروايتين، محاولين التوفيق بينهما:

١ — فمثلاً في الثلاثة الأناجيل، وفي إنجيل يوحنا، معروف أن ليلة العشاء الأخير كانت هي ليلة التسليم.

٢ — من رواية القديس لوقا، يتضح أن القيامة حدثت يوم الأحد. ومعروف أن الكنيسة عيّدت يوم الخميس بحسب سفر الأعمال (الذي هو ملحق لإنجيل لوقا) من تلك السنة إلى اليوم بعد خمسين يوماً وكان يوم الأحد ولا يزال. ومعروف في التاموس أن

³³ Brown, *op. cit.*, p. 556: "Jesus ate with his disciples a meal that had Passover characteristics".

حساب يوم الخميس هو بعد خمسين يوماً بعد أول سبت من عيد الفصح مباشرة. وعيد الفصح سنة صلب المسيح، إذا حسبناه يوم السبت أي بحساب الخميس يوماً يكون ١٤ نيسان هو يوم الجمعة ميعاد ذبح الخروف، وهكذا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا تماماً:

«ثم تحسبون لكم من غده السبت (أول سبت بعد عيد الفصح)، من يوم إتيانكم بحزمة التريديد، سبعة أسابيع تكون كاملة، إلى غده السبت السابع، تحسبون خمسين يوماً، ثم تقرّبون تقدمة جديدة للرب ... وتنادون في ذلك اليوم عينه محفلاً مقدساً يكون لكم» (لا ٢٣ : ١٥ و ١٦ و ٢١)، وهو عيد الخميس.

٣ - معروف أن المسيح صنع عشاء الفصح في بداية يوم رفع الخمير وبدء الفطير، يوم ١٤ نيسان، لأن هذا اليوم يبدأ بعد غروب يوم ١٣ نيسان (الخميس) مباشرة. وفي هذا اليوم صنع العشاء الأخير ١٣-١٤ نيسان، بدأه في غروب الخميس وأكمّله في دخول الجمعة، وفي منتصف نهار ١٤ نيسان رُفِعَ على الصليب. إذن، فالمسيح أكمل العشاء الأخير في الساعات الأولى من ١٤ نيسان، وقُدِّم ذبيحة نفسه على الصليب في الساعات الأخيرة ليوم الفصح ١٤ نيسان أيضاً.

ومن هذا يتضح أن اللبس في مفهوم عشاء الخميس وفصح الجمعة هو بسبب عدم فهمنا لنظام توقيت اليهود؛ لأن يوم الخميس، بحسب التوقيت الإفرنجي الآن، ينتهي في منتصف ليلة الخميس عشية الجمعة؛ أما بحسب توقيت اليهود، فيوم الخميس ينتهي الساعة السادسة في غروب شمس يوم الخميس عشية الجمعة. لذلك حينما نقول إن العشاء الأخير تأسس في مساء الخميس، يكون هذا التعبير مساوياً للتعبير اليهودي أن العشاء الأخير تأسس في الساعات الأولى من يوم الجمعة الذي يبدأ بعد غروب شمس الخميس مباشرة.

٤ - التلمود اليهودي، مسجّل فيه اليوم الذي صُلب فيه المسيح هكذا: [أن يسوع علّق على خشبة في مساء الفصح] (٣٤).

٥ - قول المسيح في إنجيل متى: «المعلّم يقول إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع

تلاميذي» (مت ٢٦: ١٧). فكلمة: «وقتي قريب»، يتضح من هذا التعبير أن الرب لا يقصد الفصح الرسمي بل عشاء فصحياً يصنعه تحت اضطراب (٣٥) عدم إمكانية إقامة الفصح الرسمي مع التلاميذ بسبب «وقتي قريب»، أي أن «الساعة» ستكون هي ساعة ذبح الخروف، وقد صنعه خصيصاً ليؤثس فيه سر دمه وجسده.

٦ - قول المسيح: «شهوةً اشتهيْتُ أن آكل هذا الفصح معكم، قبل أن أتألم، لأنني أقول لكم إنني لا آكل منه بعد، حتى يُكْمَلَ في ملكوت الله» (لوقا ٢٢: ١٥ و١٦). ومن هذا التعبير يتضح أن الرب، وهو عالم أنه لن يأكل هذا الفصح رسمياً مع تلاميذه، صنع هو هذا الفصح مُسَبِّقاً، ليؤثس فيه سر الشكر والحب، لأن هذه هي شهوته الحقيقية.

٧ - هذا كله، يكشف سرّه ويوضحه توضيحاً بليغاً ق. يوحنا في تسجيله لهذا العشاء: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالمٌ أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحبَّ خاصَّته الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى، فحين كان العشاء...» (يو ١٣: ١ و٢).

هنا يأتي تصريح ق. يوحنا القاطع، أن المسيح صنع الفصح الخاص الذي قَدَّم فيه جسده ودمه سراً للعالم، قبل أن يصنعه عملياً وعلناً على الصليب. وكان بالفعل يتحتم أن يكون ذلك قبل عيد الفصح، فإن كان كلا الفصحين واحداً، ففصحُ الخميس يُقدَّم أعظم شرح لما تمَّ في فصح الجمعة، وسرُّ فصح الخميس يستمد قوته وفِعله من فصح الجمعة. وكان يستحيل على الكنيسة أن تفهم فصح الصليب أو تنتفع به، إلا بتأسيس فصح الخميس!!

٨ - واضح من تسمية الخبز الذي أخذه المسيح على يده باعتباره جسده أنه خبز خير: «خبز» ἄρτος، وليس «فطيراً» ἄζυμα، في حين أنه في يوم الفصح يتحتم تحتتماً أن يكون فطيراً، والكنيسة المسيحية لا تزال تستخدم الخبز المختمر، وحتى الكنيسة الكاثوليكية كانت تستخدم الخبز الخمير وليس «البرشامة» (الفطير) حتى القرن الحادي عشر (٣٦).

³⁵ R.H. Fuller, cited by: The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 782.

³⁶ See: A.J.B. Higgins, *New Testament Studies*, Vol. 1, (1954-55), p. 2028 note 3.

٩ - لم يُذكر في طقس عشاء الرب، في الثلاثة الأناجيل، المكونات الأساسية لعشاء الفصح الرسمي، وهي الأعشاب المرة والخروف.

١٠ - استخدم كأس واحد من الخمر، مرّة على الجميع، في حين أن طقس عشاء الفصح الرسمي يتحتّم أن يكون في يد كل واحد كأسه، أثناء بدء قراءة خدمة الفصح.

١١ - ذهب المسيح من أورشليم إلى جثسيماني خارج المدينة، هو ممنوع يوم العيد.

١٢ - حمل بطرس سيفاً، هو أمر محرّم قطعاً يوم العيد.

١٣ - مجيء سمعان القيرواني من الحقل، وهو الذي سخره لحمل الصليب، يعني أنه كان يعمل في ذلك اليوم، وهو أمر محرّم قطعاً يوم العيد.

١٤ - شراء يوسف الرامي الكتّان والحنوط، أمر مستحيل يوم العيد، فلا محلات مفتوحة، ولا سماح للبيع والشراء في يوم العيد.

١٥ - مكتوب في إنجيل يوحنا: «وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة فقال لليهود هوذا ملككم» (١٩: ١٤)، «ثم إذ كان استعداد، فلكني لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت...» (١٩: ٣١). هذا هو الاستعداد «الجمعة» الذي يسبق الفصح.

وهنا ينقسم العلماء إلى مجموعتين: مجموعة تقول بأن «أكل الفصح» (يو ١٨: ٢٨) عند ق. يوحنا هو ذبح الخروف الفصحي، بينما العشاء الفصحي هو يوم الجمعة ١٤ نيسان. وهذه المجموعة يتبعها بعض الآباء القديسين الذين شرحوا إنجيل ق. يوحنا مثل القديس كيرلس الكبير ومن العلماء: ماير Meyer، كيم Keim، دي برشانسيه De Pressancé، بوير Baur، نياندر Neander (حاخام يهودي مُتنصّر)، دووت Dewet، إيرارد Ebrard، إيفالد Ewald، وستكوت Westcott، جوديه Godet، لوكة Lücke وآخرون.

أما المجموعة الأخرى فتقول بأن يوم الصلب ليس هو يوم الفصح ١٤ نيسان، بل إن يوم الفصح هو ١٥ نيسان، وأن يوم الجمعة هذا يتبع الفصح فقط وهو المخصّص لأكل «الشجيرة»، وليس الفصح، وهي ذبيحة سلامة إضافية للعيد، وهؤلاء لا يعنوننا، لأننا نعتقد أن الرأي الأول هو الأصح.

قول للقديس كيرلس الكبير في هذا المعنى:

[«اقضوا قضاءً عادلاً ولا تقتلوا البريء ولا البار» ، كان هذا نص الناموس . ولكن هؤلاء الرؤساء لم ينجلوا ، كَوْنُ أدلة الإتهام لم تُشعِفهم ليقيموا دعواهم ضد المسيح ، بل إذ وجدوا أن قيامهم أصلاً ضد المسيح بلا سبب (!) ، وإذ هم ممنوعون من قتله بأيديهم ، وقد اقترب ميعاد ذبح الكفارة ، فإذ قُرِبَ ميعاد ذبح خروف الفصح بحسب الناموس ، ولو أنهم كانوا فاقدين قوته — أحضروه إلى بيلاطس معتقدين بجنونهم أنهم لن يحملوا وزر إهراق دمه ظلماً ما داموا لم يسفكوا دمه بأيديهم ، فأحضره ليُقتل بيد آخر؛ مع أن الذي أضروه في قلوبهم مخالفٌ بجملته لقانون موسى .] (٣٧)

واضح هنا أن القديس كيرلس الكبير يقول بأن يوم صلب المسيح هو ١٤ نيسان ميعاد ذبح الخروف .

والسبب الأول على أن قول ق . يوحنا هو ما يخص أكل الفصح الرسمي ، وأن اليهود لم يدخلوا دار الولاية لثلا يتنجسوا فيمتنع عليهم أكل الفصح الرسمي ، هو أن معظمهم كان رؤساء كهنة وكهنة ، وهم المنوط بهم ذبح خروف الفصح باعتباره عملاً طقسياً رسمياً في الهيكل . فالأمر لا يختص بالأكل فقط وإلا كان مجرد الاستحمام بعد غروب الشمس يعطيهم حق الأكل من الفصح ، ولكن الذي منعهم بالفعل هو خوفهم من تعطيل طقس ذبح الخروف الذي يتحتم أن يكون في الغروب . فإذا تنجسوا ، امتنع عليهم الاقتراب من طقس الذبح حتى إلى ما بعد الغروب .

أما السبب الثاني : الذي يؤكد أن يوم الجمعة هذا هو يوم الفصح ١٤ نيسان ، الذي يُذبح فيه الخروف ، فهو أنه يتعذر ، بل ويستحيل أن يكون يوم الخميس وهو يوم القبض على المسيح ومحاكمته طول الليل ، هو اليوم الذي يذبحون فيه الفصح ، لأن هذا معناه أن صُلبَ المسيح يكون بالتالي في العيد (١٥ نيسان) ، الأمر الذي تحاشاه اليهود ما أمكن .

السبب الثالث : يُلاحظ أن رؤساء الكهنة وجميع السنهدريم أرادوا أن يتحاشوا إصدار حكمهم بموت المسيح ، حسب الأصول القضائية الناموسية ، ثاني يوم بعد التحقيق ، لثلا يكون ذلك في العيد ١٥ نيسان ، فاضطروا اضطراراً أن يصدروه في نفس يوم التحقيق ١٤ نيسان في الفجر ، مخالفين بذلك قواعد الناموس ، ولكن عن اضطرار تورطوا فيه .

٢٩:١٨ «فَخَرَجَ بِيلاطُسُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: آيَةُ شِكَايَةِ تَقْدُمُونَ عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ».

لا بد أن بيلاطس أخذ علماً بعذر اليهود عن الدخول إلى دار الولاية، ولعلمه بتعصبهم العنيد لعوائدهم الدينية لم يَشَأْ أن يُرْغِمَهُمْ، بل خرج هو خارج دار الولاية، وبدأ يستجوبهم بشيء من الرسمية.

«آية شكاية تقدمون على هذا الإنسان»؟

تعبير يحمل كثيراً من المعاني والأحاسيس، فهو أولاً يعرف موضوع هذه القضية جيداً، فهو الذي أصدر الأمر للقائد بالقبض على يسوع بناءً على طلب وإلحاح من رؤساء الكهنة، وكان سلوك القائد يدل على أنه كان هناك توصية خاصة بترحيل المقبوض عليه إلى المكان الذي عيَّنه اليهود «بيت حثان»، وهو بيتٌ غير رسمي. ولكن معروف أن هناك علاقات بين هذا الرئيس المتقاعد وكل الهيئات الرسمية.

والسؤال هنا، لماذا يبدو بيلاطس وكأنه يتجاهل القضية برمتها؟ بل وسؤاله يحمل شيئاً من الارتياب في نيَّات اليهود، بل ومن قَوْلِهِ: «هذا الإنسان»، يبدو وكأنه يعطف نوعاً ما على وضعه.

هنا يفيدنا أن نأتي بقول للقديس متى، له وزنه: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار. لأنني تألمتُ اليوم كثيراً في حُلمٍ من أجله» (مت ٢٧: ١٩). إذن، فامرأة بيلاطس، وبالتالي كل أسرته، وشخصه أيضاً، يعرفون ماذا كان يجري من وراء الكواليس في الخفاء، ويعلمون مَنْ هو «هذا البار»، وهم قد سمعوا عنه الشيء الكثير والكثير!! في سؤال بيلاطس، شيءٌ من الاستنكار لِمَا عملوه واتفقوا عليه، ولكل الإتهامات التي لُفِّقَتْ مُسَبِّقاً، وبلَّغَتْ أَسْمَاعَ بيلاطس من بعيد. وقد ظل هذا السؤال على فم بيلاطس طوال المحاكمة، إذ لم يكن مقتنعاً قط بكل ما يقولونه ويطلبونه، وإلى آخر لحظة.

«بيلاطس»:

هو خامس والي على البلاد (أي اليهودية، وهي الجزء الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم)، وذلك من سنة ٢٦ م وظل حتى سنة ٣٦ م. ويصفه العلامة فيلو اليهودي الإسكندري أنه [متخطرس، إنسان لا يمكن أن يُضَبَّطَ، يُبْغِضُ العوائد اليهودية المتعصبة المتحيزة. وقد اشتبك كثيراً مع اليهود فأظهر طباعاً شرسة، له نوبات من الغضب الذي يثير أحاسيس الناس بقسوته،

فمن الممكن أن يحكم بالإعدام بدون محاكمة وبدون اتهام، كما اشتهر أنه بلا إنسانية [٣٨].

٣٠ : ١٨ «أجابوا، وقالوا له : لو لم يكن فاعِلَ شرٍّ، لما كنّا قد سلّمناه إليك».

صُدم اليهود من سؤال بيلاطس، إذ لم يكونوا مستعدين لأي تردّد، فكشفوا في الحال عن آخر ما في نيّتهم من الأمر ملّحين أن ينفّذوا حُكْمَهُمْ، في اقتضابٍ وخشونةٍ ووقاحةٍ، وفي الحال كان ردُّ بيلاطس على رغبتهم في الاستقلال برأيهم، أن : «خذوه أنتم واصنعوا به كل ما تريدون»، بجفاء أشدّ، مُلْمَحاً إلى أن ناموسهم طالما هو مقبّد — إذ كان ممنوعاً عليهم إصدار أحكام بالإعدام — إذاً، فيلزم أن يخضعوا للقانون الروماني.

٣١ : ١٨ «فقال لهم بيلاطس : خذوه أنتم، واحكموا عليه حسبَ ناموسِكُمْ. فقال له اليهود : لا يجوز لنا أن نقتل أحداً».

يكاد بيلاطس أن يسخر «بهم» و «بناموسهم» : «خذوه أنتم» واحكموا عليه حسب «ناموسكم»، إنما بشيء من التعالي والفطسة، في مقابل وقاحتهم.

واليهود، وإذ ضيق عليهم الخناق هكذا، لم يكن أمامهم أي اختيار غير أن يعلنوا عن طلبهم ويقفوا عنده بعناد وإصرار، واختاروا من الاتهام ما يجعل بيلاطس ينتبه إلى خطورة مطلبهم، وإلى حتمية النظر فيه لأنه من صميم اختصاصه.

«لا يجوز لنا أن نقتل أحداً» :

أما «القتل» فهو فعلاً من اختصاص المحكمة الرومانية وحدها. ولكن كان في اعتبارهم أنهم لم يأتوا إلى بيلاطس ليناقشهم في حكمهم الذي حكموا به وانتهوا منه، إنهم يطلبون التنفيذ وحسب !

وعند هذه النقطة الحرجة للغاية، يتدخل ق. يوحنا، ويرفع عنا هذا الكابوس الضاغط على صدورنا نتيجة مسلك رؤساء الكهنة هذا، والذي بلغ هنا أقصى ما يحتمل بشرٍّ، وذلك بجملة إعتراضية :

٣٢:١٨ «لَيْتَمَ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ، مُشِيرًا إِلَى آيَةِ مَيْتَةٍ كَانَتْ مُزْمِعًا أَنْ يَمُوتَ».

لأنه معروف أن اليهود لو كانوا هم الذين نفذوا الحكم الذي انتهوا إليه بقتل المسيح، لثم ذلك بحسب الناموس — «احكموا عليه حسب ناموسكم» — رجماً بالحجارة. ولكن المسيح أعلن مراراً أنه سَيُصَلَّبُ!! وبتعبير إنجيل يوحنا أنه سَيُرْفَعُ أو يرتفع عن الأرض، كما رفع موسى الحية النحاسية على العصا، في البرية. وليس ذلك فقط، بل إن المسيح سبق وأعلن أن ابن الإنسان يُسَلَّم لأيدي الأمم!!

من هذا نفهم ونتأمل في أعاجيب سياسة الله. كيف دخلت الأمم في قلب الأمة اليهودية، وتعيّن بيلاطس على اليهودية حتى يشترك اليهود والأمم، ممثلين عن العالم كله، في تقديم ذبيحة الفداء والخلاص عن اليهود وأمم العالم كله!! كما هو مكتوب: «ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يُسَلَّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويُسَلَّمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به، ويجلدوه، ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم» (مت ٢٠: ١٨ و ١٩)، الأمر الذي تممه اليهود والأمم بالفعل والحرف الواحد!

وفي موت المسيح على الصليب، استعلن على الملأ كيف تنازل المسيح عن حياته متكبداً في ذلك أفدح الآلام والمهانة والمذلة، ليكمل كل عقوبة ممكنة عن كل من يستحق العقوبة، فيبرّر مجاناً كل من يؤمن بهذا الصليب وآلامه! أما من وجهة نظر تورااة اليهود، فقد أكمل اللعنة التي ينبغي أن يتحملها الإنسان وحده كميراث آدميته، لما عُلق على الحشبة!!

عجيب هو هذا القديس، يوحنا الإنجيلي، كيف استطاع في هذه اللحظة التي اشتبكت فيها السياسة اليهودية مع السلطة الرومانية لتقدح منها نار الغضب مع الكبرياء، والتعصب مع العنف، فيفكّ هذا الاشتباك المعقّد المفزع بأن يرده إلى سرّ الخلاص والفداء، وحتمية الصلح بالصليب؛ كما رسمها المسيح نفسه المحسوب أنه هو الذي وضع الحلقة التي قام بتنفيذها، دون أن يدري المتنازعون!!

وربما يعطينا القديس لوقا مفتاحاً سهلاً ندخل به إلى سر تحول قلب بيلاطس من قاض يستنكر الاتهامات التي كان يصبها رؤساء الكهنة على المتهم: «أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟» إلى قلب يأمر بالصلب! يقول القديس لوقا: «وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: إنا وجدنا هذا يُفسد الأمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر قائلين إنه هو مسيح ملك» (لو ٢٣: ٢). فكان وقع هذا الاتهام شديد الوطأة بالنسبة لبيلاطس. ولو أنه تعجب أن هؤلاء الكهنة المتعصبين الثائرين يقولون

هذا، وهم كانوا دائماً على نزاع وتمرد مع السلطة الرومانية بسبب امتناعهم عن الإلتزام بدفع الضرائب. كان رياؤهم ممزوجاً بخبث شنيع، مسنوداً بصياح وهياج شعبي منشق بدعوى الوطنية، وهو مدفوع دفعاً ليلعب دور التهديد. لقد أحس بيلاطس بنذير الشؤم يزحف نحو كرسيه!!

ولكن لم يَفُتْ على بيلاطس، كما لا يمكن أن يفوت على القاريء، أن هذه التهمة عينها لو صَحَّت — وهي إدعاء مناداته بعدم إعطاء الجزية لقيصر، وهي التهمة التي يتسترون وراءها — لكان يمكن أن تَرْفَع من شأن هذا المتهم المطلوب قتله ليكون زعيم الأمة اليهودية والمنادي بخلاصها، لأنهم كانوا في تلَهْف على مثل هذا المخلّص، لولا ما يحملونه نحوه من حقد وحسد وظيفية.

الجزء الثاني من سير القضية

داخل دار الولاية: (١٨ : ٣٣ — ٣٧)

((الاعتراف الحسن))

١٨ : ٣٣ «ثم دَخَلَ بيلاطس أيضاً إلى دارِ الولاية، ودَعَا يَسُوعَ، وقالَ له: أنتَ ملكُ اليَهُودِ؟».

هذا الفحص السري داخل دار الولاية الذي جرى بين بيلاطس والمسيح دون حضور رئيس الكهنة، ولا شهود من أي نوع، يختص به ق. يوحنا وحده في إنجيله، فقد اختص وحده بسرد وقائع محاكمة المسيح أمام حثان أيضاً بدون شهود. لذلك، فالمعروف أن ق. يوحنا كان حاضراً في كلٍّ من المحاكمتين (٣٩).

هذا السؤال الأول الذي سأله بيلاطس للمسيح، نجده في الأناجيل الأربعة على السواء، لأن هذا اللقب «ملك اليهود» استرعى انتباه بيلاطس، لأنه خطير بحد ذاته، فهو يحمل وراءه حركة تعصّب لـ «ملك اليهود»، كما يحمل وراءه أطماعاً وخططاً، وهذا ما قصد اليهود قصداً أن يرسموه في فكر بيلاطس. لقد سمع بيلاطس هذا اللقب عن المسيح أول ما سمع، وذلك عندما «... دخل أورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: مَنْ هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (مت ٢١ : ١٠ و ١١)، «قائلين مبارك الملك الآتي باسم الرب، سلامٌ في

السماء ومجد في الأعالي» (لوقا ١٩: ٣٨)، «أوصنا (خلصنا)، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل.» (يوحنا ١٢: ١٣)

هذا المتناف المدوي، الذي ملأ سماء أورشليم، ورج الهيكل، وأرعب قلوب رؤساء الكهنة، لم يثس حثان ولا قيافاً أبداً: «فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع، والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون: أوصنا لابن داود، غضبوا، وقالوا له: أسمع ما يقول هؤلاء» (متى ٢١: ١٥ و ١٦)، «... يا معلم انتهر تلاميذك فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكث هؤلاء، فالحجارة تصرخ» (لوقا ١٩: ٣٩ و ٤٠). أما الآن، فقد جاء وقت التشفي وتصفية الحساب... ولم يدري هؤلاء الحاقدون والمتشفون أن هذا اليوم هو يوم التجلي وتنصيب الملك على خشبة، هو يوم الخلاص الآتي من الأعالي فعلاً، يوم سلام في السماء ومجد على الأرض حقاً، يوم إعلان بدء مملكة أبينا داود الأبدية، مملكة المسيح أصل وذريئة داود، كوكب الصبح المنير.

والآن يسمع بيلاطس هذا اللقب من رؤساء الكهنة وحشود الشعب المأجور والمدفوع على أنه هو علّة للصلب: «وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً (بخصوص لقب الملك). فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً: أما تجيب بشيء. انظر كم يشهدون عليك. فلم يجب يسوع أيضاً بشيء، حتى تعجب بيلاطس» (مر ١٥: ٣-٥). هذه المواجهة أغفلها إنجيل يوحنا، ولكن القانون الروماني يحتم أن تكون كل شكوى في حضور المتهم، ولكن ذلك تم قبل أن يدخل بيلاطس إلى دار الولاية، وذلك بحسب رواية مرقس الرسول. فدخل بيلاطس دار الولاية واستدعى المسيح سراً وبدأ يسأله كما في الآية السابقة (١٨: ٣٣)، لا كمتأثر بطبيعة المتهم الهاديء الصامت، ولكن كمتعجب من سلوك متهم مُقدّم للموت، وكأنه لا يبالي بالموت. ولو كان هؤلاء المتعظشون إلى الدماء صادقين في إلصاق هذه التهمة السياسية عليه، فأين أتباعه ومعاونوه؟، أين الذين يشعّون لتخليكه؟ كان هذا يدور في فكر بيلاطس ويتعجب!!

١٨: ٣٤ «أجابته يسوع أين ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني».

ليس هذا جواباً، بل سؤالاً من المسيح، تحذيراً خطيراً، وذلك لكي يفرق بيلاطس بين ما يشعر به هو من جهة الحق وبين ما يسمعه كذباً وتلفيقاً من اليهود. أما إن كان الآخرون هم الذين يقولون عني هذا، ففي توراتهم مكتوب إني لهذا وُلدتُ بقسم الله من فوق: «أقسم الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه، من ثمرة بطنك أجعلُ على كرسيك» (مز ١٣٢: ١١)، لا كملك

وحسب، بل وملك الملوك ورب الأرباب، لا كَمَلِكٍ على أجساد، بل على أرواح وضمائر وقلوب!!
كرسيّ ليس على الأرض، بل في السماء، ومجلسي عن يمين عرش الله!

المسيح لا يجاوب، بل يسأل مرة أخرى، ماذا يعني بيلاطس من سؤاله، هل لكي يعرف الحقيقة: «أمن ذاتك تقول هذا»؟ وكأن ضميرك يطلب الحق؟ أم آخرون يدسّون عليك اللقب لتحاكمني بمقتضاه؟ هل هذا اللقب يُعْنِيكَ أنت «ذاتك» (شخصياً)؟ وهنا «الملك» يأخذ معناه الروحي العالي الذي لا يتعارض مع وظيفتك وسياستك ورئيسك! أم أنه يعني الشاكين، الذين يُلبسون اللقب ثوب السياسة والخيانة والغدر؟

لقد نجح المسيح في استجوابه لبيلاطس أن يصحح عنده مفهوم لقب «ملك». فإن كان هو من ذاته يقول هذا، فهو لقب صحيح مائة بالمائة، لأنه يكون قد قاله عن وعي صادق؛ أما إن كان نقلاً عن آخرين فهو مرفوض من المسيح، كما هو مستنكر من بيلاطس سواء بسواء!! وإلا أين أعواني وما هي مظاهر مُطالبتي بالملك؟

٣٥: ١٨ «أجابته بيلاطس: أَلْعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟ أَتُنْتُكَ ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ. ماذا فعلت؟».

لقد فهم بيلاطس الدرس تماماً، وعن صحة، مما يفيد أن روحه بالفعل تتحرك فيه، لأنه يردُّ على الاحتمال الأول كأنه بالإيجاب: «أَلْعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟»، لأن الذي يقول عنك أنك ملك بالحق يلزم أن يكون يهودياً، أو ينبغي أن يصير يهودياً، ولكنني على غير استعداد. أنا روماني، ووظيفتي محقق، ماذا فعلت؟ إجابة بيلاطس فيها وعي حقيقي، وفيها أيضاً رَجْعَةٌ عن الحق والوعي!!

«أَتُنْتُكَ τὸ ἔθνος τὸ σόν رؤساء الكهنة أسلموك إليّ»:

«أَتُنْتُكَ» بالمعنى السياسي الجنسي: «أمة اليهود»، أسلمتُ مَلِكَ اليهود؟ يا للعجب عند بيلاطس! لأن أشدَّ ما كان يتوق إليه اليهود هو أن يرزقهم الله بملك يحرّرهم من نير الرومان، هذا كان يعلمه بيلاطس تمام العلم. والآن هم يقدّمون مَنْ يقولون إنه ملك اليهود، ليقتل: «إلى خاصّته جاء، وخاصّته لم تقبله» (يو: ١١: ١١). بيلاطس يتبرأ من أي مفهوم «للملك» قال عنه المسيح، لا المفهوم الإلهي ولا المفهوم السياسي، وألقى اللوم المضاعف على أمته وعلى رؤساء الكهنة!! «ضمعوا أنتم هذا الكلام في آذانكم، إن ابن الإنسان سوف يُسَلَّمُ إلى أيدي الناس» (لو: ١٩: ٤٤)، «إن إله إبراهيم ويعقوب، إله آبائنا، مجّد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه

أمام وجه بيلاطس، وهو حاكم بإطلاقه. « (أع ٣: ١٣)

ويكاد ردُّ بيلاطس أن يكون صارخاً، مؤكداً للمسيح أنه إذا كان هو الآن بين يدي الحاكم الروماني، فأنتك اليهودية ورؤساء الكهنة هم الذين جحدوا ملوكيتك — كانت ما كانت — وكلُّ مؤهلاتك.

ماذا فعلت: أو ما هو السبب في كل هذا؟ هذا ما كان يحير بيلاطس بالفعل.

٣٦: ١٨ «أجاب يسوع: مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود، ولكن الآن ليست مملكتي من هنا.»

«كنت أرى في رؤى الليل، وإذا مع شُحُب السماء مثل ابن إنسان، أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه. فأعطني سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطانٌ أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دا ٧: ١٣ و ١٤)

لا يزال المسيح يفتح وعي العالم على حقيقته: «أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يو ٨: ٢٣). وهذا هو سرُّ التعارض الهائل الذي أنتج هذا الهياج، وهذه المحاكمة، وهذه المرارة. أما «ماذا فعلت»، فالرد الذي لا يُقال ولا يُسمع: ما فعلتُ هو أنني نزلتُ إلى الأرض، جئتُ إلى خاصَّتي، النور أضاء في الظلمة، والظلمة لم تدركه. أنا ملكُ السلام، ومملكتي هي الحق، وخدَّامي هم أبناءُ النور.

حينما طلبتم القبض عليَّ سلَّمت نفسي لكم في سلام وخضوع، لأن ملكوتي لا يُضبره القيود ولا يُشينه القبض ولا المحاكمة، ولا الموت يجوز عليه، فهو فوق هذا وذاك!

لستُ كأمتي، أنا لا أعتبركم أعداءً لي، فأنا صديقُ العالم كُلِّه. وحتى لو كنتم أعداءً أمتي، فأنا أحبُّكم، لأنني أنادي: «أحبوا أعداءكم» (مت ٥: ٤٤)، فكيف تظنُّ فيَّ العُنف؟ مملكتي ليست هنا ولا من هنا، فأنا أستمذُّ سلطاني من فوق، وخدَّامي هم أيضاً ليسوا من هذا العالم، كما إنني أنا لستُ من هذا العالم. فلو كانت مملكتي من هذا العالم وخدَّامي (officers) من هذا العالم، لكانوا الآن يحاربون عني حتى لا أسلم إلى اليهود.

«لكي لا تُسَلِّم إلى اليهود»:

اليهود هنا، ومن فم المسيح، ليسوا يهود التوراة، ولا إسرائيل الله، ولا الشعب المحبوب المختار، بل يهود العالم والسياسة الذين جعلوا «بيت أبي بيت تجارة» (يو ١٦: ٢)، والذين يُصَفُّون عن البعوضة تأففاً من النجاسة، ويبلعون الجمل بما حَمَلَ بلا ملامة، الذين ينهبون بيوت الأرامل، وليعلِّموا يُطيلون الصلوات، الذين جلسوا على كرسي موسى يُعلِّمون الحق، وعملوا أعمال أبيهم، الذي كان قتالاً للناس منذ البدء!

واضح هنا لماذا اشترط المسيح، لكي يُسَلِّم نفسه لهم طواعية، أن يتركوا التلاميذ يذهبون أحراراً!! لأن المسيح أراد أن يُسَلِّم نفسه في سلام، ورفض أن يكون له في الضيق أعوان! كذلك، فإن ردَّ المسيح هنا على بيلاطس يشرح معنى ما قاله القديس متى في إنجيله: «إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟» (مت ٢: ١ و ٢). كما يشرح أيضاً معنى «ملكوت السموات»؛ فهي «مملكتي التي ليست من هذا العالم».

خُدامي هم خُدامكم، وخدام العالم كله، لأنهم كما قلتُ ليسوا من العالم أصلاً. أسلحتي هي الحق والبر والحب والفرح والسلام؛ جئتُ لأغزو بها قلب العالم كله. أما وسائلتي في الاستيلاء على القلوب عُتْوَةٌ، فهي الوداعة والانتصاع والحب الباذل حتى الموت.

حكومتي تقوم على أساس أن السيّد هو الذي يَخْدِمُ، ويغسل أرجل الذين يخدمهم؛ والأول هو الذي يجلس آخر الكل، والعظيم منهم هو أصغرهم. حربي مُعَلَّنَةٌ على الخطية، ولا مهادنة، والذي يريد أن يُسَخِّرنا ويأخذ ثوبنا، فإننا نخلع له الرداء أيضاً؛ والذي يسخرنا ميلاً نسير معه اثنين.

هذه مملكتي، وهذه سماتها، وشروطها.

«والآن مملكتي ليست من هذا العالم».

٣٧: ١٨ «فقال بيلاطس: أفأنت إذا قَلِيك؟ أجاب يسوع: أنت تقولُ إنِّي قَلِيك. لهذا قد ولدتُ أنا، وهذا قد أتيتُ إلى العالم، لأشهد للحق. كلُّ مَنْ هو مِنَ الحقِّ، يَسْمَعُ صَوْتِي».

جملة نصفها استفهامي، ونصفها تعجبي، بروح تهكمية نوعاً. إجابة المسيح: «أنت تقول»، معناها أن ما قاله بيلاطس يقع في موضع لا يقبل النفي ولا الإيجاب! فلا هو يقبل هذا اللقب من فم بيلاطس، ولا هو يرفضه؛ لأن بيلاطس يضع اللقب في موضع الفهم اليهودي كما سمعه منهم

دون أن يلتفت إلى المعنى والشرح الذي قاله المسيح. ثم ابتدأ المسيح يوضح له المعنى الحقيقي لما قاله بيلاطس نفسه :

«لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم» :

[هنا يورد القديس يوحنا النص الوحيد الذي يفيد ميلاد المسيح].

«لهذا قد وُلِدْتُ أنا»، تجعل لموحيته سبقَ تعيين. فهو لم يُولَدْ كأَيِّ إنسان لكي يعيش أولاً، ثم الظروف هي التي تحدد إمكانية أن يكون ملكاً، بل إنه وُلِدَ ليكون ملكاً؛ أو أنه تعيّن ملكاً قبل أن يُولَدْ، فلما وُلِدَ استُعْلِنَ ملكاً بالضرورة، أي أن ملكوته غير مُستَعْدِث ولا هو زمني، فهو معيّن قبل الزمن، وقائم في الزمن بلا تعيين أي بلا حدود، فهو ملكوت، من فوق يستمد وجوده، وهو أزلي! هذا هو الاعتراف الحسن أمام محكمة تمثل أقوى دولة في العالم آنئذ.

«ولهذا قد أتيتُ إلى العالم» :

توضيح ما بعده توضيح، أنه ليس من هذا العالم، وأن كيانه الدائم فوق العالم، ولكن «لهذا» — أي «لقيام مملكته أو ملكوته في العالم بين الناس»، هو أتى إلى العالم من خارج العالم : «تجسد».

فالمسيح هنا، لا يجيبُ بكونه ملكاً فقط، بل هو يجيب ليؤكد لبيلاطس أن مملكته قائمة على أسس ثابتة وأزلية، وأنها لا تستمد قوتها أو وجودها من سلطة أرضية، ولا من أي قوة أرضية. علماً بأن كلمة «أتيتُ» ἐλπίλυθα تفيد الإتيان المستمر غير المنتهي، وليس كما جاءت في الترجمة العربية كفعلٍ ماضٍ مُنتهِ، فهو آتٍ، ويأتي، وسيأتي، ويبقى «آتٍ إلى العالم» : هذا هو الاعتراف الحسن، والجملة كلها تفيد لاهوته.

«لأشهد للحق» :

هنا، الحق هو مفهومه المطلق، أي الحقيقة الكلية، التي هي المجال الذي يحيا ويعمل فيه المسيح.

والإنسان الذي ينفتح قلبه وتنفتح بصيرته لهذا الحق، يدرك في الحال معنى ما يقوله المسيح بمجرد أن يسمعه.

والمسيح يشهد للحق، لا كأنه يشهدُ لشيء خارج عنه، بل هو يشهد للحق باستعلان ذاته، وعلاقته بالله أبيه، لأنه هو الحق! = هذا هو الاعتراف الحسن.

« كلُّ مَنْ هو من الحق » :

أي « كلُّ مَنْ يستمدُّ من الحق فِكْرَهُ وقوله وعمله وسلوكه ، كلُّ مَنْ جعل الحق مصدراً يستمد منه حياته ، كلُّ مَنْ أَحَبَّ الحقَّ وعَشِيقَتَهُ وسار على هدايه ووحيه... » . هذا ، حتماً ، يسمع صوت المسيح ويفهمه ؛ وصوت المسيح يصير له حياة أبدية : « الحق الحق أقول لكم : إن مَنْ يسمع كلامي ، ويؤمن بالذي أرسلني ، فله حياة أبدية » (يوه : ٢٤) . المسيح ، هنا ، يخاطب ضمير بيلاطس وكلَّ ضمير لكل إنسان .

« الاعتراف الحسن » الذي شهد به المسيح أمام بيلاطس ، شمل عناصر الإيمان جميعاً :

أ — أنه وُلِدَ لِيُغْلِقَ ملكوت الله بالحق الذي يقوله ، ويملكه ، ويملك عليه .

ب — أنه نَزَلَ من السماء ، وأتى إلينا على الأرض ، ليؤسس ملكوت الحق .

ج — كلُّ مَنْ يسمي ويحْدُ في أثر الحق ، يُشْتَقَلُّ له المسيح والحق والحياة .

١٨ : ٣٨ (أ) « قَالَ لَهُ بِيلاطُسُ : مَا هُوَ الْحَقُّ ؟ » .

لم يرفض بيلاطس كلام المسيح ، ولكنه لم يفهمه ، ولم يجد في داخله مدخلاً إليه ؟ ويُلاحَظ أن كلمة « الحق » الذي يستفسر عنه بيلاطس لا يأتي قبلها (في الكلمة اليونانية الأصلية) أداة التعريف « أن » ἡ — ἀλήθεια . أما « الحق » الذي يتكلم عنه المسيح فهو « الحق » مُعَرَّفاً بـ « أل » ἡ ἀλήθεια لِيُغْطِي وَيَنْطَظِي مفهوم الحق الكلي . وهذا يوضح أنه لم يعثر على مفتاح الحق الحقيقي . سؤال بيلاطس يخلو من الجدّة ؛ سؤال مَنْ لا يعرف ، وَمَنْ لا يريد أن يعرف ، سؤال نصفه حزين ، يمثل العجز والقصور ، والنصف الآخر استنكاراً ، يمثل الجهل والتمادي فيه ، لأن بيلاطس أراد أن يبحث عن الحق في الحياة الأرضية ، وفي حياة الإنسان الأرضي . والحق لا يوجد في الزائلات ، فكلُّ ما هو متغيّر ليس حقاً ، ولا يؤول إلى حق ، وكلُّ ما هو زائل يحكم على نفسه بالخداع والتفاهة . الحق يبقى إلى الأبد ، ولا يؤول إلّا إلى حق أكثر .

« الحق عند المسيح » هو « كلامك هو حق » مخاطباً الآب (يوه : ١٧ : ١٧) . كلُّ ما يصدر من الله هو الحق . ولأن عمل المسيح الأول ، هو استعلان الله ، وكلمة الله وعمل الله وإرادة الله ، لذلك فالمسيح وكل ما يقوله المسيح هو « الحق » . لذلك قال : « أنا هو الطريق والحق والحياة » (يوه : ١٤ : ٦) ؛ ولأنه يوصل إلى الله ، فهو الطريق الواحد الوحيد الحقيقي ، ولأنه يوصل إلى الله ، فهو الحياة الأبدية ، وكل مَنْ يسمع لصوته ، يحيا إلى الأبد .

«معرفة الحق» هي، بآن واحد، الدخول فيه^(٤٠)، والحياة به وامتلاكه. لذلك كل مَنْ يعرف الحق، يتحرر من كل باطلٍ وفاسد، فالحق يحرّر. ولأن المسيح ابن الله، فقد وَهَبْنَا أَنْ نتحد به لنبلغ إلى بُنْوَةِ الآب، لذلك «فالابن يحرّر»: «فإن حرّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو: ٨: ٣٦)

والحق حينما يحرّر يقُدّس، أي يحفظ الإنسان من الشر والعالم، يحفظه في الله الله: «قُدّسهم في حقك» (يو: ١٧: ١٧). فالحق والله، والحق والمسيح، والحق والحرية، والحق والقداسة، والحق والحياة الأبدية، هي متساويات مطلقة. والحق لا ينقسم، ولا يتجزأ، فهو كلُّ مُطْلَق. لذلك، فهو مصدر الوحدة الحقيقية. لذلك أيضاً، فالذين أحبوا الحق وعاشوه، هم واحد، لأنهم صاروا متحدين في الواحد وبالواحد، فالحق يوحد، وهو رجاء الإنسان المتفتت.

الحق واحدٌ أحدٌ مُطْلَق. لذلك، كلُّ ما هو قابل للإزدواج، وكل ما ينقلب إلى ما هو ضده، هو خداع وزائل^(٤١).

فالنور الذي ينقلب إلى ظلمة، هو خداع، النور والظلمة كلاهما. أما النور الحقيقي، فهو لا ينطفئ قط، وليس فيه ظلمة البتة.

والفرح الذي ينقلب إلى حزن، هو خداع، الفرح والحزن كلاهما، أما الفرح الحقيقي فهو لا يُنزع قط، ولا يقدر العالم أن يلغيه.

والسلام الذي يتحول إلى قلق واضطراب، هو خداع، السلام والقلق كلاهما، لأن السلام الحقيقي يبّد كل قلق واضطراب في العالم.

والحياة التي تنتهي بالموت هي خداع، الحياة والموت كلاهما، أما الحياة الحقيقية فليس فيها موت، وهي حياة أبدية.

كلُّ مَنْ يعرف الحق، يفتح وَغْيُهُ المسيحي، ويدرك الغش والخداع. والإنقلاب والتقلب هما

(٤٠) سبق أن شرحنا هذا المبدأ في سياق شرح الآية يو: ١٤: ١٠ صفحة ٨٣٦: «نقبل حقائق الله والتصديق عليها... يعطي الإنسان شركة فيها»؛ وأيضاً في شرح الآية ١٧: ٣ صفحة ١٠٢٢: «المعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن».

(٤١) راجع شرح ذلك بأكثر تفصيل في شرح الآية يو: ١٤: ١٧: صفحات ٨٥٠-٨٥١.

الأساس الذي يقوم عليه العالم بكل مظاهره وأبعاده، لأن «العالم كله قد وُضع في الشرير» (١ يوه ٥: ١٩)، ولأن رئيس هذا العالم «ليس فيه حق» (يو ٨: ٤٤). ولا يمكن أن يتألف الحق مع الخداع، فكأنس الله ليس فيها موضع لكأس الشيطان (١ كو ١٠: ٢١).

لذلك، فأولاد النور يفضون أعمال الظلمة، وأولاد الحق يقاومون إبليس فيهرب منهم!

وتماماً تماماً، كما لا يمكن أن يتعامل النور مع الظلمة، فالنور أيضاً يبّد الظلمة أينما وكيفما كانت، والظلمة لا تُدرك النور قط. لذلك، إن قلنا أننا في الحق أو أن لنا شركة مع الله، ثم سلطنا في الظلمة، نكذب وليس الحق فينا (راجع ١ يوه ١: ٦).

وق. يوحنا أقوى من أدرك قطبي الحق والخداع: «نعلم أننا نحن من الله، والعالم كله قد وُضع في الشرير» (١ يوه ٥: ١٩). أما الحق فقد أسسه المسيح: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، وأعطانا بصيرة (الوعي المسيحي) لنعرف الحق. ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يوه ٥: ٢٠)

وبسؤال بيلاطس للمسيح: «ما هو الحق؟»، يتضح أنه نسي، إلى حين، أن من يسأله عن الحق هو مستهم مقدّم للإعدام. ولكن المسيح أنشأ بوجوده أمام بيلاطس مجالاً ذا تأثير على فكره، جعله يشرح ببصره فيما هو أعلى من قامته: ما هو؟ ما هو الحق؟

وإلى هنا فقد بيلاطس صبره تجاه تحجّي اليهود على المسيح، وإزاء هذه الاتهامات الهابطة التي لا تتناسب قط مع هذا الإنسان الشامخ والمتعظم في تفكيره، الذي جاء ليشهد للحق! لقد عيل صبره، وتحركت فيه أحاسيس العدالة، فانفجرت فيه غصبة الحاكم الروماني، وصمّم أن ينتزع من هؤلاء الملقّين حق إطلاقه:

+ «ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود، وقال لهم: أنا لست أجد فيه علة واحدة».

الجزء الثالث من سير القضية

خارج دار الولاية (١٨ : ٣٨ (ب) — ٤٠)

الإعلان الأول عن براءة المسيح

١٨ : ٣٨ (ب) «ولما قالَ هذا خَرَجَ أيضاً إلى اليَهُودِ، وقالَ لهم: أنا لَسْتُ أَجِدُ فيه عِلَّةً وَاحِدَةً».

كان حديث المسيح مع بيلاطس، هو الذي أقنع بيلاطس أن يخرج إلى اليهود ويعلم عن براءة المسيح من كل التهم التي وُجِّهَتْ إليه. فكانت هذه صفة غير متوقَّعة لرؤساء الكهنة، الذين كانوا قد أخطأوا كل الخطط أن ينتهوا من المسيح بأسرع ما يمكن.

وكان ردُّ فعل رؤساء الكهنة واليهود سريعاً ومتسقاً:

+ «فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب، وقال لهم: قد قدَّمْتُ إليَّ هذا الإنسان كَمَنْ يُفسد الشعب، وها أنا قد فحصْتُ قدامكم، ولم أجِد في هذا الإنسان عِلَّةً مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً، لأنِّي أرسلتكم إليه، وها لا شيء يستحق الموت صُنِعَ منه! فأنا أؤدبه وأطلقه. وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحداً».

«فصرخوا بجملتهم قائلين: خُذْ هذا، وأطلق لنا باراباس!»...

«فناداهم أيضاً بيلاطس، وهو يريد أن يطلق يسوع. فصرخوا قائلين: اضِلِّيه اضِلِّيه».

«فقال لهم ثالثة: فأَيُّ شرِّ عَمِلَ هذا؟ إنِّي لم أجِد فيه عِلَّةً للموت! فأنا أؤدبه وأطلقه».

«فكانوا يلجئون بأصوات عظيمة طالبين أن يُصَلَّبَ».

«فَقَوِيَّتْ أصواتهم، وأصوات رؤساء الكهنة.» (لو ٢٣ : ١٣ — ٢٣)

لم يكن الشعب، من نفسه، يطلب باراباس ولا أن يُصلب المسيح، ولكن كان هذا قد لقَّنه لهم رؤساء الكهنة: «فهتج رؤساء الكهنة الجمع لكي يطلق لهم بالحرِّي باراباس.» (مر ١٥ : ١١)

المفارقة هنا شاسعة بين هدوء واتزان ورجاحة فكر بيلاطس، في مقابل هياج وخُبثٍ وعُنفٍ وفقدان أعصاب رؤساء الكهنة، ممثلي الله والشعب المختار.

وقفة قصيرة

مراجعة قانونية في أسلوب الاتهام:

كيف يطلب رؤساء الكهنة أن يُطلقَ لهم باراباس، وهو منهم مسجون بالفعل ومُدانٌ كفَاعِلٍ شرٍّ، بنفس التهم وأكثر مما يلصقونها بالمسيح؟

«وذلك كان قد طُرِحَ في السجن، لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتلٍ» (لوقا ٢٣: ١٩). (فتنة أدَّت إلى إزهاق أرواح، وتعني نوعاً من المظاهرات أو الثورات المحدودة، سياسية أو اجتماعية، من نوع تلك التي يقوم بها أرباب المِهَنِ أو الصناعات أو أحزاب الأمة من أجل مبادئ عامة). كما يتضح من رواية مرقس الرسول أن باراباس سجينٌ سياسي: «وكان المسمى باراباس موثقاً مع رفقائه في الفتنة، الذين في الفتنة فعلوا قتلاً.» (مر ١٥: ٧)

وكان الهياج والصخبُ المصطنعُ المغالى فيه جداً، من جهة شكله وأسبابه إزاء صمت المسيح وهدوئه وسكوته، سبباً لإقناع بيلاطس أكثر، ببراءة المسيح. لقد أدرك بيلاطس، في هدوء وذكاء، الحقيقة التي أعلنها القديس متى: «لأنه عَلِمَ أنهم أسلموه حسداً.» (مت ٢٧: ١٨)

١٨ : ٣٩ و ٤٠ «ولكم عِجَابٌ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ وَاحِداً فِي الْفِضْجِ، أَفَتَرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟ فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ قَائِلِينَ: لَيْسَ هَذَا، بَلْ بَارَابَاسَ، وَكَانَ بَارَابَاسُ لَيْصاً.»

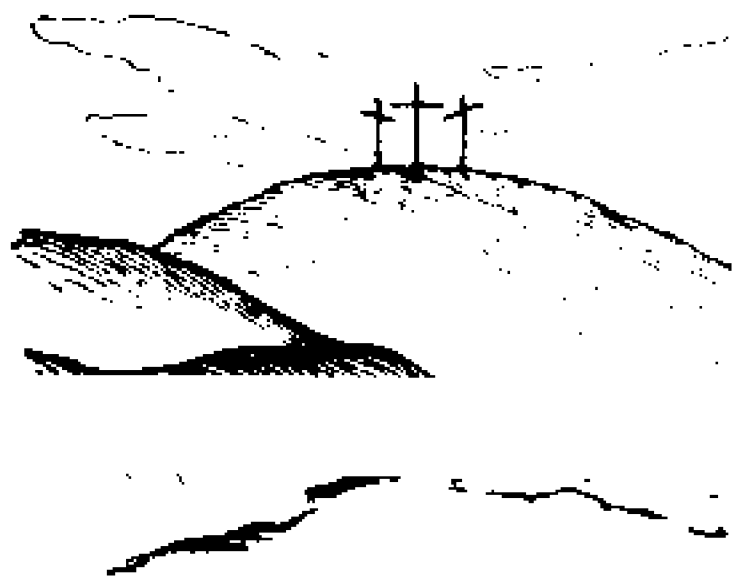
[اليهود يعطون الكرامة للفسق قاتل، ويُلقون إلقاءً في قتل البار!!].

«أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود»:

هذا تعبيرٌ خطيرٌ يمسُّ الاتهام الذي ترجى اليهود أن يُصلب المسيح بسببه! بيلاطس هنا يَسْخَرُ، لا من ملك اليهود ولا من اليهود، بل من رؤساء الكهنة الذين أَلَبَسُوهُ هذه التهمة!! وَكَوْنُ بيلاطس يقول — بعد فحصه على أساس بنود الاتهام كلها — أنه يُطْلِقُ هذا الملك، فهذا معناه مباشرة أن المسيح ليس هو ملكاً بحسب إتهام رؤساء الكهنة بأنه ملكٌ يمنع جباية الضرائب لحساب قيصر (أي ينادي بالتححرر من نير الرومان). فلو كانت مثل هذه التهمة محتملة مجرد احتمال، لكان قد احتجزه لتكميل الفحص، ولكنه الآن برأه تماماً من كل تهمة، وأهمها أنه «ملك سياسي»

يطلب بمُلك!

ولكن واضح أن بيلاطس وهو يسمى لإطلاق المسيح، لم يتخذ الطريق القانوني، ولا استخدم سلطاته كقاضٍ يقطع بالأمر بدون مشورة الشعب. لقد انزلق بيلاطس وراء فكرة الاستعانة بالشعب ضد رؤساء الكهنة، يستفتيه في أمر إطلاق المسيح في العيد حسب عادة اليهود في إطلاق أحد السجناء، وكان كأنه يستجدي الشعب، وهذا ضعف ورخاوة قضائية معيبة. ولكن الشعب، وبسرعة، تلقن من فم رؤساء الكهنة ماذا يقول، وبالعكس ما يطلب بيلاطس، أي أن يُطلق لهم باراباس^(٤٢)، ويُصلب المسيح. لقد أسقط بيلاطس بين يدي نفسه، وفوت عليه رؤساء الكهنة هذه المحاولة التي خرج منها خاسراً مُضغضاً.



(٤٢) «باراباس» نُظِّفَهَا الصحيح بار - أباس، - بار أبًا - أي تعني ابن الأب الذي يُنطق: أباس، حسب تفسير إدريهايم



موضع البلاط

حيث يُعتقد أنه الموضع الذي جلس فيه بلاطس على كرسي الولاية. «في موضع يقال له «بلاطس» والعربية حنا». لتحاكم المسيح (يو: ١٩: ١٣).

اكتشف هذا المكان الأثري بين عام ١٩٣١ و١٩٣٧ راهب وراهب من مدرسة الكنائس المقدس في أورشليم. ويوجد بجانب هذا الموضع دير أسسه فرنسي مشير اسمه الأب ألفونس رابيسون من استراسبورج الذي أتى إلى أورشليم عام ١٨٥٥ واستمر المكان المجاور هذا الموضع وبنى فيه ديراً للراهبات.



«جلجنة» أي «جمعة» (بو:١٩:١٧)

جذبته القبر. في عام ١٨٨٣ لغت نظر القائد البريطاني الجنرال نشارلس غوردون مظهر هذا التل الصحري الذي ينسبه الخممة البشيرة، وحقن أن يكون هذا الموضع هو الجلجنة التي نعى «الخممة»: وعلى الأخص أنه يوحد بالقرب منها قبر منحوت في الصخر،
يرجح أنه يرجع إلى القرن الأول الميلادي. (أنظر صفحة ١١٩٧)

الأصحاح التاسع عشر

الجزء الرابع من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩ : ١-٣)

الجلد بدون حكم مُسبقٍ - والاستهزاء بالمسيح كملك

١٩ : ١ «فحينئذٍ أَخَذَ بِيَلَاطُسُ يَسُوعَ، وَجَلَدَهُ».

«بذلتُ ظهري للمضاربين، وخديّ للطم، ووجهي لم
أشتر عن خيزي البصاق.» (إش ٥٠ : ٦ حسب الترجمة
السبعينية)

«وبجلداته شَفِينًا...» (إش ٥٣ : ٥ حسب الترجمة
السبعينية)

لا يزال بيلاطس يأمل في إطلاق المسيح. ورأى أنه يمكن إرضاء الشعب الهائج بإجراء عقوبة
شكلية - دون حكم رسمي - تستدرّ عطف الشعب، فأقدم على هذا العمل وهو مقتنع ببراءة
المسيح، وقد أعلن ذلك وعمل على إطلاقه، لهذا قام بعملية الجلد: «إني لم أجد فيه علّة للموت،
فأنا أودّبه وأطلقه.» (لو ٢٣ : ٢٢)

وهنا تجدر الإشارة للتنبيه، أن هذا التجاوز المُجحف الذي تورّط فيه بيلاطس بعملية الجلد
والاستهزاء، كان - دون أن يدري - أساساً لاهوتياً للخلاص، لأن المسيح أكمل به ما هو
مستحق توقيعه بالفعل من العقوبة على الإنسان، فحمله هو على ظهره ورأسه ليعطينا حق البراءة.
فالآلام، والجلد على الظهر، والاستهزاء الذي احتمله المسيح، إضافياً فوق الموت، استكمل به
المسيح الخلاص اللازم لنا. لذلك تحمّل هذه الآلام من يد الحاكم الروماني، وهي غير اللازمة وغير
القانونية أيضاً، إذ لم تثبت عليه تهمة واحدة من التي سُجّلت في عريضة الدعوى.

وقد نفّثن بيلاطس في الاستهزاء بالمسيح، بقصد أن يُجرّده من كرامة الملوكية التي كرهها
اليهود، وذلك فقط استرضاءً لهم. وواضح أن جميع أنواع التهكمات التي أُجريت عليه، أُجريت

للتهزئة بملوكيته فقط :

«فَقَرُّوه وأَلْبَسوه رداءً قَرْمِزِيًّا» ، وهو اللون الخاص بملابس الملك .
 «وَضَمَّرُوا إِكْلِيلًا من شوكٍ ، ووضعوه على رأسه» ، وواضح أنه كان بمثابة إكليل الغار الذي يوضع على رأس الملوك الراجعين من الانتصار!!
 «وقصبة في يمينه» ، هي قضيب المُلْك .
 «وكانوا يَجْتُون قُدَّامَهُ» ، كما يسجد الناس للملوك عادة .
 «ويستهزئون به قائلين : السلام يا ملك اليهود» .
 «وبصقوا عليه» ، أقصى ما يمكن أن يُهانَ به ملك .
 «وأخذوا القصبة ، وضربوه على رأسه» ، أي على إكليل الشوك ، استهزاءً بملوكيته (مت ٢٧ : ٢٨-٣٠) .

ولم يدِرِ الحاكم أنه إنما يكْمُل كأس آلام الخلاص ، ليستطيع بها المسيح أن يسترّد للإنسان كرامته وملوكيته أمام الله أبيه . وبإكليل الشوك الذي أَلْبَسَهُ أخيراً فوق رأس المسيح ، أعاد للإنسان بالنهاية إكليل المجد الذي كان قد نُزِعَ منه : «الذي أَحَبَّنَا ، وقد غَسَلَنَا من خطايانا بدمه ، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه ، له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين .» (رؤ ١ : ٦و٥)

تصحيح المفهوم :

+ يقول القديس كيرلس الكبير : [إنه جُلِدَ ظُلْماً] (في شرحه لإنجيل يوحنا — صفحة ٦٠٦) .
 + يتنبأ لكثيرين ، أنه بعد الحكم بصلب المسيح ، أعاد الجند الجَلْد والاستهزاء مرة أخرى . وهذا خطأ يلزم التنبيه إليه . وقد نتج هذا من اللَّبَس الحادث في سَرْد الرواية . فمثلاً ، في إنجيل مرقس يقول بغاية الوضوح هكذا : «وأَسْلَمَ يسوع — بعد ما جَلَدَهُ — لِيُصَلَّبَ» (مر ١٥ : ١٥) ، بمعنى أنه بعد أن جلده بيلاتس أمام الجموع ، وهو في حالة الاستهزاء ، ولا بَسَّ إكليل الشوك والثوب الأرجواني ، بقصدٍ من بيلاتس أن يكتفي بذلك ، وبعدها يأمر بإطلاقه ، هاج الشعب وزاد الصخب ، وطلبوا صَلْبَهُ ، فبِئْسَ من كل محاولات الإفراج عنه وسَلَّمَهُ لهم لِيُصَلَّبَ . ولكن القديس مرقس جمع كل ما تم من عمليات الجَلْد والاستهزاء ، ولم يفصلها — أثناء سرده — عن الصلب ، بل أضافها لها ، لأنه لم يُشِرْ سابقاً إلى المحاولة التي قام بها بيلاتس لإطلاقه ، والتي استلزمت الجلد والاستهزاء !

+ كذلك في إنجيل القديس متى نجد أنه جَمَعَ عملية الجلد والاستهزاء مع الصلب . لأنه أيضاً

لم يتعرض لمحاولة بيلاطس لإطلاق المسيح بالمرّة.

+ أما إنجيل لوقا، فكان واضحاً للغاية في سرد هذه الأحداث، إذ فصل بين محاولة إطلاق المسيح وبين الحكم بالصلب. وبعد النطق بالحكم بالصلب، لم يذكر أيّ شيء عن تجلّد أو استهزاء.

+ ولكن في إنجيل يوحنا اتضحت الحقائق، إذ سُرِدَتْ رواية محاولة بيلاطس إطلاق المسيح ومعها التجلّد والاستهزاء. ولما لم تأتِ هذه المحاولة بالنتيجة التي كان يطلبها بيلاطس، اضطر اضطراراً وتحت التهديد، أن يُسَلِّمَ لهم يسوع ليُضَلَّبَ مباشرة، دون أي تجلّد أو استهزاء.

+ ولكن حتى وإن كانت الكتيبة قد اجتمعت فعلاً على المسيح بعد النطق بالحكم، كما يفهم خطأ من سرد إنجيلي متى ومرقس، وأكملت تمثيليتها بل تمثيلها بالملك، فهذه العملية تتناسب فعلاً مع الوحشية الرومانية لدى الجنود.

+ وحينما يقول كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس: «وبعدما استهزأوا به، نزعوا عنه الرداء — الثوب الأرجواني — وألبسوه ثيابه، ومَضَوْا به للصلب» (مت ٢٧: ٣١؛ مر ١٥: ٢١)، فإنه يُفْهَمُ من هذا أنه بعد ما تمت عملية الاستهزاء العلني أمام اليهود خارج دار الولاية، ولم تأتِ بالنتيجة التي كان يترجها بيلاطس وهي أن يتمكن من إطلاق سراحه بعد ذلك، أدخل المسيح مرة أخرى إلى دار الولاية، ونزعوا عنه إكليل الشوك والثوب الأرجواني (رمز الملوكية)، وذلك ليتسنى — بمقتضى كرامة القانون وهيبة المحكمة — محاكمته بملابسه العادية. فحكموا عليه وسلّمَ لهم ليصلبوه.

وقد كشفت لنا أبحاث الحفريات الحديثة في أورشليم التي قام بها الضابط وارن Warren، عن صالة كبيرة تحت الأرض، قرر مستر فرجسون بعد فحصها أنها المكان الذي تألم فيه المسيح وجُلِدَ واستهزئ به. وهي في موقع قلعة أنطونيا — مركز دار ولاية بيلاطس — وفيها لا يزال هناك عمود مقطوع، تاجه قائم بمفرده، وليس له اتصال بتركيب هيكل المبنى (لأن الصالة مقببة بقبو يعملو العمود، ولكن دون أن يتلامس معه، وواضح أنه العمود الذي كان مُسْتَعْمَداً لربط المحكوم عليه وجُلْدِهِ). وتاريخ هذه الصالة يرقى إلى زمن هيرودس^(١).

^١ Fergusson, *The Temples of the Jews*, p. 176-242; cited by Westcott, *op. cit.*, p. 268.

٢:١٩ «وَضَفَرَ الْعَشَكْرُ إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ، وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ الْأَرْجَوَانِ».

«مُخْتَقَرٌّ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلٌ أَوْجَاعٌ وَمُخْتَبَرُ الْحَزَنِ
... مُخْتَقَرٌ فَلَمْ نَقْتَدِّ بِهِ.» (إش ٥٣: ٣)

كان هذا العمل بأمر بيلاطس، ليمثلوا بالمسيح تمثيلاً كاملاً تحت الإهانة، وقد أتقنوا جداً عملية الاستهزاء بكل صنوف الوقاحة المتاحة، وقد فلت زمام تعقلهم، لأن الأمر صادر من رئيسهم!

«ضَفَرَ الْعَشَكْرُ إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ، وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ»:

القصد أن يهزأوا بملوكيته، فألبسوه إكليلاً من شوكٍ عِوَضَ إكليل الغار الذي يُطَوَّقُونَ به الملوك عند رجوعهم من انتصاراتهم. ولكن أَلَمْ يَقُلْ الْمَسِيحُ: «ثِقُوا أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ» (يو ١٦: ٣٣)؟ لقد رجع المسيح من نصرته العظمى غالباً العالم ورئيسه وكل مصادِر الخطية والموت والهلاك، وحمل لعنة الإنسان في جسده، فَلَاقَ بِهِ أَنْ يَلْبَسَ إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ رَمَزَ لَعْنَةَ الْإِنْسَانِ: «مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ ... شَوْكًا وَحَسَكًا تُثَبِّتُ لَكَ.» (تك ٣: ١٧ و ١٨)

كان منظر المسيح وهو لابس إكليل الشوك، هو منظر الإنسان مطروداً من أمام وجه الله، خارجاً من جنة عدن، حاملاً اللعنة والشوك، ومُستقبلاً التعب والشقاء. وها هو المسيح قد وقى العقوبة بكل بنودها، وما بقي منها إلا الموت، آخر عدو للإنسان، والذي هو (أي المسيح) وشيكٌ أن يدوسه ليعود بالإنسان إلى حيث خرج.

يعتقد بعض العلماء أن نوع هذا الشوك اسمه العلمي هو: *Lycium spinosum*، وهو موجود بكثرة في أورشليم، وأشواكه حادة جداً، إذا انفرست في اللحم تُدْمِيه. ويقول آخرون إنه نبات *Poterium spinosum*، واسمه العبري «سَارَح» أو «سيراخ».

«وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أَرْجَوَانٍ»:

«مَنْ ذَا الْآتِي مِنْ أَدُومَ بِثِيَابٍ حُمْرٍ، مِنْ بُضْرَةٍ، هَذَا الْبَهِيُّ بِمَلَابِسِهِ ...
مَا بَالُ لِبَاسِكَ عَمْرُؤُ، وَثِيَابُكَ كَدَائِسِ الْمَعْصِرَةِ؟
قَدْ دُشْتُ الْمَعْصِرَةُ وَحَدِي، وَمِنَ الشُّعُوبِ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ أَحَدٌ.»
(إش ٦٣: ١-٣)

«وَهُوَ مُتَسَرِّبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بَدَمٍ، وَيَدْعِي اسْمَهُ كَلِمَةَ اللَّهِ.»
(رؤ ١٩: ١٣)

وهو الثوب الذي خلعه عليه هيرودس تهكماً من ملوكيته أيضاً، عندما أرسله بيلاطس إليه، لما علم هذا أن المسيح من الجليل. وكان هيرودس والي الجليل، ولكنه كان مقيماً في أورشليم، «فاحتقره هيرودس مع عسكره، واستهزأ به، وألبسه "لباساً لامعاً"، وردّه إلى بيلاطس.»^(٢) (لو: ٢٣: ١١)

ومعروف أن لباس الملوك هو الأحمر اللامع.

١٩ : ٣ «وكانوا يقولون: السلام يا قَلْبَ الْيَهُودِ، وكانوا يَلْطَمُونَهُ».

+ «في ظُلُمي فرحوا واجتمعوا، اجتمعوا عليّ شاتمين ولم أعلم، مزّقوا ولم يكفّوا.» (مز: ٣٥: ١٥)

كانت هي تحية قيصر الرسمية: Hail Caesar — Ave Caesar، كما كان يقولها الألمان هتلر: «هايل هتلر». وهي التي أخذ عنها كلمة «السلام الملكي»، ليقال بالموسيقى وليس بالفم؛ وهي تحية الملوك العظام.

لم يدر هؤلاء الجنود البؤساء أنهم فعلاً يحيّون ملك الملوك، «ورئيس ملوك الأرض» (رؤ: ١: ٥)، ولم يكن استهزاؤهم إلاّ استهزاءً بجهالتهم وعمى عيونهم، التي نَصَحَ عليها اليهود فعميوا بعماهم!

«وكانوا يَلْطَمُونَهُ»:

كان المسيح، بعد الجلد، ينزف دماً، وظهره متورّم تحتاحه الآلام، كموجاتٍ مربعة تسري في جسده المهرأً بلا توقف، ثم بدأوا يَلْطَمُونَهُ على الوجه وعلى الرأس: «وَبَصَقُوا عَلَيْهِ، وَأَخَذُوا الْقَصَبَةَ، وضربوه على رأسه.» (مت: ٢٧: ٣٠)

«إِسمي أيتها السموات وأصفي أيتها الأرض ...،

رَبِّيتُ بَنِينَ وَنَشَأْتُهُمْ، أما هم فَعَصَوْا عَلَيَّ،

الثور يعرف قانيه والحمارُ مِغْلَفَ صاحبه، أما إسرائيلُ فلا يعرفُ،

شعبي لا يفهم!!

وَيْلٌ لِلأمة الخاطئة، الشعبِ الثقيلِ الإِثْمِ، نسلِ فاعلي الشرِّ، أولادِ مُفْسِدِينَ!!

² The Pulpit Commentary, *op. cit.*, pp. 416-417.

تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء...،
كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم، من أسفل القدم، إلى الرأس ليس فيه صحة!
بل جرح، وأحباط، وضربة طرية، لم تُعَصَّر ولم تُغَصَّب ولم تُلَيَّن بالزيت.
بلادكم خربة، مدنكم مُحَرَّقة بالنار!!» (إش ١ : ٢-٧)

«وكانوا يقولون: السلام يا ملك اليهود، وكانوا يلطمونه»! هذا هو سلام العالم، سلامٌ بالفم
ولَظْمَةٌ باليد، وحقٌ للمسيح أن يقول: «سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم...»
(يو ١٤: ٢٧)

الجزء الخامس من سير القضية

خارج دار الولاية (١٩ : ٤-٧)

الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح

«هذا هو الرجل» ECCE HOMO، «جعل نفسه ابن الله»

١٩ : ٤ «فَخَرَجَ بِيلاطُسُ أَيْضاً خَارِجاً. وَقَالَ لَهُمْ: هَا أَنَا أَخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ، لِتَعْلَمُوا أَنِّي
لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً».

كانت حيرة بيلاطس واضحة، فلو كان لديه من الأدلة ما يكفي للحكم، لَحَكَّمَ. ولكن لم
يكن أمامه أية أدلة يستند عليها، بل كان أمامه من الأدلة الدامغة على براءته، ما جعله يكاد
يتوسل ملتجئاً براءته. وقد أقدم على فِعْلَةٍ شنعاء، بأن ظَلَمَهُ ظُلْماً قاسياً وعنيفاً، لِيُرْضِيَ ظُلْمَ رؤساء
الكهنة القساة وعنفهم! ولسان حاله أنه: يهون جُلْدُهُ، حتى الدم، وتهون إهائته حتى التراب،
أمام تبرئته من الصلب! ولكن هيهات، فبحسب لسانه هو: «ما كُتِبَ قَدْ كُتِبَ»!

«ها أنا أخرجهم إليكم لتعلموا أنني لست أجِدُ فيه عِلَّةً واحدة»:

بيلاطس يحاول أن يوقظ روح الإنسانية في اليهود، ويدفعهم دفْعاً إلى روح العدالة، بإعلانه
الجمهوري عن براءة مَنْ يتهمونه، براءة لا يشوبها الشك ولا «عِلَّةً واحدة»!! ويستدر رحمتهم بمنظر
المسيح الدامي والمُهَان جداً! هذا كله من وراء المسيح، فالمسيح كان حتى هذه اللحظة داخل دار
الولاية: «ها أنا أخرجهم إليكم».

«لست أجد فيه علة واحدة» :

«رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» .

وبيلاطس هنا يدين نفسه إدانة مُخزِية . فلماذا، إذن، وبأي حق، وبأي إنسانية، تأمرُ بتجليده بضربايت قد تؤدي إلى موته، وتأمرُ باهانته هكذا وهو بريء!!

١٩: ٥ «فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً، وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ الشَّوْكِ، وَثَوْبَ الْأَرْجَوَانِ. فَقَالَ لَهُمُ بِيَلَاطُسُ: هُوَذَا الْإِنْسَانُ (الرجل) ECCE HOMO» .

+ «يا جميع عابري الطريق، تطلعوا وانظروا إن كان حزنٌ مثل حزني...»
(مراثي ١: ١٢)

+ «بَلَيْتَ عِظَامِي. عند كل أعدائي صرْتُ عاراً،... ورُغِباً لمعارفي...
الذين رأوني خارجاً هربوا عني، نُسيْتُ من القلبِ مثل الميت،
صرْتُ مثل إناء مُثْلَفٍ، لأنني سمعتُ مذمةً من كثيرين،
الخنوف مستديرين بمؤامرتهم معاً عليّ، تفكَّروا في أخذ نفسي.» (مز ٣١: ١٠-١٣)

+ «اذكُر يا رب عار عبيدك الذي أحتمله في حضني!!
...، الذي به عيَّر أعداؤك...، عيَّروا آثار مسيحك!!» (مز ٨٩: ٥٠)

+ «كان منظره كذا مُفسداً أكثر "من الرجل"، وصورته أكثر من بني آدم...
لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. محترقٌ ومخدول من
الناس،

رجُلٌ أوجاع ومُخْتَبِرُ الحزن، وكُمُستَر عنه وجوهنا.
مُحْتَقَرٌ فلم نعتد به، لكن أحزاننا حَمَلَهَا، وأوجاعنا حَمَلَهَا،
ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومَذْلُولاً،
وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا،
تأديبٌ سلامتنا عليه، وبخبره شُفِينَا...
والرب وضع عليه إثمَ جميعنا.

ظَلِمَ، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه...،

ضُربَ من أجل ذنب شعبي.» (إش ٥٢: ١٤ — ٥٣: ٩)

«هوذا الإنسان» ECCE HOMO :

هوذا الإنسان ليس ملكاً بعد، لقد رفع عنه كل كرامة، «الذي له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور.» (١ تي ١: ١٧)

ألبسه الهُزء والسُّخريّة، «(اللابسُ النور كثوب» (مز ١٠٤: ٢)،
أزال بهاءَ منظره، وحطّم قوته «(البهي بملابسه، المتعظم بكثرة قوته» (إش ٦٣: ١)،
ألبسه تاجَ الشوك، وهو الذي «(على رأسه تيجان كثيرة.» (رؤ ١٩: ١٢)

قال لهم: «هوذا الإنسان»، لعلهم يتعرفون عليه في أخوة الإنسانية وآلامها!! فبحذوه كإنسان متألم، وهو الإله المتمجّد، ملك الملوك وربّ الأرباب. أهانوا خروجه إليهم، الذي سيأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته القديسين ليدين المسكونة بالعدل: «(العار قد كثرَ قلبي فمرضتُ، انتظرتُ رقة، فلم تكن، ومعزّين فلم أجد.» (مز ٦٩: ٢٠)

هوذا الإنسان!! هذا هو التجسّد! نعم وكيف صار الكلمة جسداً! هذا هو الإخلاء في أعماق مظاهره ومعانيه! كيف صار الإله «(في هيئة عبد» (راجع في ٢: ٧)؟ ولم يكتفِ بهيئة العبد، بل حمل على هيئة العبد عارَ العبيد والأسياد ومذلة بني الإنسان، ودفع بمذلة ثمنَ كبريائنا، تمهيداً ليدفع بموته ثمن موتنا ويعطينا الحياة!

هذه هي طاعة العبد، أدخلوه دار الولاية، فدخل. وألبسوه عار الإنسان، فلبس. وأخرجوه ليكون منظراً للناس والملائكة، فخرج. هو راضٍ بكأسه الذي أخذه من يد الآب ليشر به رشفة رشفة!

في يوم ميلاده، يوم إعلان تجسده، ظهرت الملائكة في السماء جوقات جوقات تُسبِّح للملكها وتُعبّد مُهلّلة، ولكنها في هذا اليوم انحصرت مذعورة، وصمتت السماء، استعداداً لساعة الظلمة على الأرض.

أما بيلاطس فخاب رجاءه لأنه ترجى أن يسمع كلمة رحمة من اليهود، فسمع «(اصليه» «(اصليه»، لأن لصوص الكرم تعاهدوا وتربّصوا: «(فلما رآه الكرامون تأمروا فيما بينهم قائلين: هذا هو الوارث هلموا نقتله، لكي يصير لنا الميراث.» (لو ٢٠: ١٤)

٦: ١٩ «فلما رآه رؤساء الكهنة والخدّام، صرّخوا قائلين: آصليبه آصليبه. قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم، وآصليبه، لأنني لست أجد فيه علة».

نعم، لا يكفيهم الجلد على الظهر، ولا الضرب على الرأس؛ واللطم والبصاق على الوجه لا ينفعان شيئاً! هذا كله لا يكفي لغسل خطاياهم ورفع تعدياتهم، هذا لا يكفي ولا يصلح قط ليكون ذبيحة للفداء، إنهم بروح جميع الأنبياء يطلبون بل ويصرخون بأعلى أصواتهم أن «يذبح المسيح»، فليس أقل من الذبح فداءً، ولا دون الصليب خلاصاً.

«خذوه أنتم واصلوبه، لأنني لست أجد فيه علة»:

قول بيلاطس يُترجم هكذا: أنا غير موافق على صلب المسيح، إذا كنتم مُصممين على صلبه، فخذوه كما أتيت به، واصلوبه أنتم! قالها بيلاطس مع شيء من السخرية.

أراد بيلاطس أن ينقّض عن نفسه تحمّل «دم البار»: «لست أجد فيه علة واحدة» (يو: ١٨: ٣٨)، «إياك وذلك البار» (مت: ٢٧: ١٩). وبقوله مرة ثالثة: «لست أجد فيه علة»، وضع القضية بكافة ملابساتها على رؤوسهم وحملهم دم فريستهم! وكل نتيجة أعمالهم. إن تصريح بيلاطس بهذا الوضوح والعلانية، جعل اليهود وحدهم هم المسئولين عن صلب المسيح أمام هيئة القضاء العالي في السماوات، ولذى ذوي البصيرة من الروحيين والأنبياء: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه، معلّقين إياه على خشبة» (أع: ٥: ٣٠). وليس هنا ذكر لبيلاطس، أو الرومان! «إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائنا مجّد قّناه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو حاكم بإطلاقه، ولكن أنتم أنكرتم القُدّوس البارّ، وطلبتُم أن يوهب لكم رجل قاتل، ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك.» (أع: ٣: ١٣-١٥)

وهذا ذكر تاريخي يُبرّئ بيلاطس من دم المسيح حقاً. ولكن الخطأ الذي وقع فيه، هو أنه لم يستطع أن يقف عند قوله، بمعنى أنه لم يستطع أن ينفذ ما يعتقد من جهة تبرئة المسيح. هنا لعنة السياسة، فسياسة الدولة تضحي بالحق في سبيل سلامة كيائها: يموت هو ولا أموت أنا. هذا هو عجز السياسة!! وعجز السياسة يأكل من جسم القانون!!

٧: ١٩ «أَجَابَهُ الْيَهُودُ: لَنَا نَامُوسٌ، وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللَّهِ».

رفضَ باثٌ للمساومة التي دخل فيها بيلاطس. وما كان يجب عليه أن يفتح باب الحوار مع الشعب والشاكين، في أمر إزهاق روح بريء. ثم الخطأ الثاني أن يخيّرهم بين إطلاقه من عدمه، بأن يوازنه بمجرم محترف محكوم عليه بالفعل.

اليهود هنا يزكّون طلبهم بضغط، مُعتبرين أن حُكمهم «إلهي»، وما عليه إلا التنفيذ، كما تراءى لهم، أو ربما كما أعطتهم الدولة الحاكمة من ضمانات في عدم التدخل في شئونهم الدينية. فالناموس اليهودي يقول بحسب سفر اللاويين (١٦: ٢٤): «مَنْ جَدَّفَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، يَرْجَمُهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ رَجْماً، الْغَرِيبُ كَالْوَطَنِيِّ، عِنْدَمَا يَجْدَفُ عَلَى الْاسْمِ، يُقْتَلُ».

ولكن ما هو عمل بيلاطس كقاضٍ تأكد له بالفحص الشخصي والسماع المتأنّي لليهود من براءة المسيح؟ بالإضافة إلى معرفته السابقة كوالي للبلاد بشئون قيام هذه الحركة الجديدة التي يقودها المسيح في البلاد والتي يتبعها كثيرٌ من الشعب والرؤساء، هل كان من واجبه، بل بالأحرى هل هو في حدود صلاحياته، أن يبرّيء إنساناً يتهمه اليهود بمخالفات دينية تدخل في اختصاصات رؤساء الكهنة؟

الجزء السادس من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩: ٨-١١)

الإعلان عن مصدر السلطان الذي يحكم به بيلاطس، والخطية الأعظم التي يتحمّلها رؤساء الكهنة وحدهم

٨: ١٩ «فَلَمَّا سَمِعَ بِيَلَاطُسُ هَذَا الْقَوْلَ أَزْدَادَ خَوْفاً».

لقد أحسَّ بيلاطس بالرهبة تشري في كل كيانه، منذ تحدث مع المسيح في اختلاّته الأول معه (١٨: ٣٣-٣٨)، وسماعه القول الذي قاله المسيح والذي يوحى بأصله الإلهي، ورسالته فوق العادة من أجل الحق في العالم كله. وهنا، وعند سماعه بأصل المسيح يُعادُ وصفه مرة أخرى بأكثر

وضوح أنه ابن الله، زاد إحساسه بالخوف. إذ الآية لا تقول أنه ابتداء يخاف بل «ازداد خوفاً». وقد انعكس هذا الخوف على الإجراء الذي كان قد عمله في التواء، إذ أمر بجلده؛ صحيح أنه جلد إنساناً له علاقة بالآلهة اليهودية مُرسلاً من عالم آخر! إن العبادات الرومانية ليست غريبة عن هذا اللقب: «ابن الله»، خصوصاً وأن عبادات الشرق كان لها إشعاعات مؤثرة في السنين الأخيرة. فبولس الرسول يحكي لنا، بل ويستخدم معلومة مستمدة من أشعارهم: «كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذُرِّيَّتُهُ.» (أع ١٧: ٢٨)

فالسؤال الذي بدأ يُرعب قلب بيلاطس، هل سيجرّه اليهود لكي يدخل في حرب مع الآلهة؟ «وإن كان من الله، فلا تقدر أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً» (أع ٥: ٣٩)... لقد بدأ يزداد عنده، مع الخوف، الإحساس بالشؤم في هذه القضية. وكان بيلاطس على حق في كل أحاسيسه. فالواقف أمامه هو حقاً وبالحقيقة ابن الله، الذي تهتز وتسجد أمامه كل عروش السموات والأرض. وكان على حق، كل الحق، عندما أحسّ بالشؤم من صراخ اليهود الذي ظل يرنّ في أذنه حتى اليوم: «اصلبه اصلبه»، فقد تلوّثت يده بالفعل بدم «ذلك البار»، الذي لم تكن حقيقته عن زوجته ببعيدة...

إن إحساس بيلاطس بالخوف، ثم بازدياد الخوف بتقدم القضية نحو لحظة الصلب، يكشف تماماً عن أن أحاسيس هذا الرجل كانت صادقة. وصراخه في وجه اليهود مرات ثلاث: «أنا لا أجد فيه علة واحدة»، هو ليس فقط الصدق والحق، بل هو النبوة القويّة التي تستمد وحيها من فم المسيح: «مَنْ مِنْكُمْ يَبْكُنُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ.» (يو ٨: ٤٦)

١٩: ٩ «فدخل أيضاً إلى دار الولاية، وقال ليسوع: من أين أنت؟ وأما يسوع فلم يُعْطِهِ جواباً.»

«طَلِيمَ، أما هو فتدلّ، ولم يفتح فاه، كشأن تُسَأَلُ إلى الذئح،
وكنعجة صامتة أما تجاربيها، فلم يفتح فاه.» (إش ٥٣: ٧)

«من أين أنت؟» :

هل أتيت من نسل إنسان؟ أم من كائن إلهي: أمِنَ السماء أنت أم من الأرض؟ «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس، رفعوا صوتهم بلغة ليكأونية قائلين: إن الآلهة تشبّهوا بالناس، ونزلوا إلينا.» (أع ١٤: ١١)

كان من الصعب جداً على المسيح أن يقول لليهود من أين هو: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح، فقل لنا جهرأ» (يو: ١٠: ٢٤). ولما قال لم يصدقوا: «أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون» (يو: ١٠: ٢٥)، فكم وكم يكون لبلاطس؟ لا يمكن بالكلام أن يدرك إنسان من هو المسيح، لا بد من الاستعلان، والوسيلة الوحيدة لدى المسيح لكي يعرف بيلاطس من هو حقاً، هي أن يُصلب!! حتى يعرف، ليس بيلاطس وحده، بل كل العالم! لهذا كان صمتُ المسيح، لم يكن تمثلاً، أو عزوفاً عن الكلام، لأنه لا يستطيع أن يزيد على ما قاله سابقاً (١٨: ٢٥)، أما استعلائه الكلّي، فيستحيل، لأن عقارب الساعة لم تكن قد بلغت السادسة بعد!

كان الذي يُقْلِقُ بيلاطس الآن، هو الإجراءاتُ العنيفة التي اتخذها في حقه، لقد بدأت تضغط على أعصابه، إنه يودُّ أن يعرف نفسه هل هو بريء فيما صنع، أم أنه واقع تحت اتهام الآلهة!! لذلك حاول بصورة أخرى أن يبتز من المسيح الجواب:

١٠: ١٩ «فقال له بيلاطس: أما تُكلِّمُني؟ ألسنتُ تعلّم أن لي سلطاناً أن أصليتك، وسلطاناً أن أُظْلِقَكَ؟».

لم يكن بيلاطس، بهذا القول، يُزهِبُ المسيح. كما لم يكن يهّد، بل كان يتوسّل باسم السلطان *ἐξουσία* الذي في يده. لم يرفع السلطان فوق المسيح، بل جعله تحت أمره، لو هو أَسْرَ إليه بسرّه، فيريح نفسه ويُنير الطريق أمام النطق اللائق بالحكم. أن يصمت المسيح، في نظر بيلاطس، وأمام الناس، وفي أي مكان وزمان، فهذا معقول ولا ضرر يتأتى منه، أما الآن فأنا بيلاطس، لي الكلمة الأخيرة لأُشَدِّلَ بها الستار على هذه القضية العنيفة! فكيف تصمت ولماذا؟ كان بيلاطس الروماني يظن في بادئ الأمر، أن على المسيح أن يرتجف أمامه، وبالنهاية انعكس الوضع.

المسيح لم يكسر صمته بالنسبة للسؤال، بل أراد أن يصحح لبيلاطس من أين يستمد مصدر سلطانه، في أن يَصْلِبَ أو يُظْلَقَ! المسيح لم يكن مشغولاً فيما سيحدث له على يد بيلاطس، بل عينه كانت فوق، مسلّطة على الآب الذي خرجت من لدنه المشورة الأزلية، لتتم في وقتها على يد بيلاطس أو غيره.

أما صمتُ المسيح، مع جلال هدوئه، فقد صوّر في قلب بيلاطس الرد على سؤاله: «من أين

أنت ؟» (٣).

١١:١٩ «أجاب يَسُوعُ: لِمَ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانُ الْبَتَّةِ، لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لَذَلِكَ الَّذِي أَسَلَّمَني إِلَيْكَ، لَهُ خَطِيئَةٌ أَعْظَمُ».

هذا التصور المديد الذي تصوّره بيلاطس في أمر سلطانه، أنه هكذا كما يريد يفعل، هو الذي حرّك المسيح ليردّه إلى الصواب، ويضعه هو وسلطانه تحت التدبير السماوي العالي.

كان هذا، من فم المسيح، القول الفضل في العلاقة بين السلطة المدنية والسلطة الإلهية في حكومة الناس والعبث بمصائرهم.

فليس تعيين الحاكم والقاضي من قِبَلِ السلطة المدنية العليا كالإمبراطور، يعطيه السلطان المطلق أن يعمل كما يشاء أو حتى كما تشاء السلطة العليا التي تُشرف عليه وتراجعه بمقتضى القوانين الوضعية. إذ لا يزال فوق حكومة الناس حكومة الله، فالله يضع حدوداً لصاحب السلطان لا يتعداها: «ليس سلطانٌ إلّا من الله، والسلطين الكائنة هي مُرتبة من الله.» (رو ١٣: ١)

حينما قال المسيح لبيلاطس: «لو لم تكن قد أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ αὐθεν» ، فقد كان يشير إلى المكان الذي أتى منه، ردّاً على سؤال بيلاطس: «من أين أنت؟» هذه أوّليات المعرفة الإنجيلية لسلطان الله في العالم وعلى الناس: «قامت ملوك الأرض، واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع، الذي مَسَحَتْهُ، هيرودس وبيلاطس البنطسي، مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سَبَقَتْ فَعَيَّنَتْ يَدُكَ ومشورتك أن يكون» (أع ٤: ٢٦-٢٨)، «هذا أخذتموه مُسَلِّماً بمشورة الله المحتومة، وعلمه السابق وبأيدي أئمة صلبتموه وقتلتموه» (أع ٢: ٢٣). فإن كان بيلاطس يحكم بسلطان، ففوق سلطانه الشخصي، هناك القانون الذي يعمل بسلطانه. فيقدر أمانته للقانون، يكون أميناً في سلطانه. وفوق القانون والسلطان المدني، عينُ الله التي لا تغفل ولا تنام!!

(٣) جاء في قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن بيلاطس البنطي، أنه بحسب يوسابيوس القيصري في تاريخ الكنيسة (H.E. II,7) قد انتحر. ولكن في التقليد الشرقي أنه صار مسيحياً هو وزوجته كلوديا بروكيولا Claudia Procula. والتقليد القبطي، كما يقول قاموس أكسفورد، أنه صار شهيداً وقديماً. وتعيّد له الكنيسة الأثيوبية في يوم ٢٥ يونيو. أنظر كتاب: «حياة المسيح»، فردريك و. فارار، تعريب: د. جورجى يوسف عقداوي، ١٩٤٩، ص ٧٧٠.

بيلاطس لم يكن أميناً في سلطانه الذي يعتز به ، بل أساء إليه ؛ فبينما هو ينطق بالبراءة ثلاثاً ، نطق بالإعدام تحت الخوف والإرهاب . هذه تُحسب له خطية إزاء القانون ، وبالتالي إزاء الله . ولكن الذي دسّ هذه القضية ، بل هذه الخطية ، في يد بيلاطس ، يتحمل أضعاف ما يتحمّله بيلاطس . يقول المسيح : « لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم » !!

فبيلاطس أخطأ في الالتزام بالقانون والسلطان الذي أعطاه أن يقضي ، وهو قانون مدني ، تحت عين الله على كل حال . أما قيافا — ومنّ معه — فقد فاق في خطئه كل تعقل وكلّ تصوّر ، فقد استخدم " القانون " ، أي الناموس الإلهي نفسه وسلطانه الذي أخذه من الله ، استخدمه لتفريق تهمة القتل : « لنا ناموس ، وحسب ناموسنا يجب أن يموت » (يوحنا ١٩ : ٧) . بيلاطس أخطأ في الالتزام بالقانون المدني فله خطية ، وقيافا واليهود استخدموا القانون الإلهي وسلطان الله في ارتكاب خطية قتل عمداً مع سبق إصرار واعتراف ، فلهم خطية أعظم !

الله هو الذي دفع المسيح ليد قيافا — ومنّ معه — ويد بيلاطس ، لا لكي يحكم قيافا — ومنّ معه — بقتله مخالفين الناموس ، بل ليتعرّفوا على المسيا حسب الناموس ، ودفعه لبيلاطس لكي يحكم بيلاطس بحسب عدل القانون الروماني ، وليس لكي يُلغي القانون الروماني ، بسلطانه الشخصي ، فيحكم بسلطانه بغير ما يحكم به القانون الروماني ! ولكن لأن الكأس ، كأس الآلام المبرّحة والفضيحة والإهانة والصليب والدم المسفوك ، قد تسلمها المسيح من الله راضياً بمشورة الله الأزلية ، وإن كانت خلّفت خلاصاً لنا ومجداً له — إلا أن الخير الوفير المترتب على شرب المسيح لكأس الموت ، لا يمكن أن يشفع أبداً في خطية بيلاطس والخطية الأعظم التي لقيافا ومنّ معه !

نعم ، كان لا بد أن يموت المسيح ، ولكن موت المسيح كان لا بد له من قلب الإنسان الخائن ونفوس طامعة وحاقدة وقلوب جامدة وشخصيات مهزوزة ، وهي حاضرة في كل زمان ومكان . لم يُصِف الله على خبيثهم ، ولا كلّفهم بتشغيل مواهبهم الشيطانية ، بل ترَكهم يعملون حسب مشيئاتهم وغرائزهم ، « حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النسور » (مت ٢٤ : ٢٨) . ولكنهم ، وقت الحساب ، يقفون في الصفّ وخطاياهم أمامهم !!

وقيافا ، كان بحكم وظيفته التي أعطاهها له الله ، له الامتياز الأول والأعظم في التاريخ اليهودي كله ، ومن بين جميع رؤساء الكهنة منذ أن قامت للكهنة رئاسة على يد هارون ، وذلك أن يتعرّف على المسيا ويقدمه للشعب والعالم !!

قيافا خيَّب آمال هارون، أباء الأول في كرامة كهنوته؛ وخيَّب آمال موسى نبيه في نبوته؛ وخيَّب آمال داود، مَلِكِهِ الأغرَّ في ملوكيته؛ وخيَّب آمال الآباء جميعاً والأنبياء الذين اجتهدوا بكل جهد، ووصفوا المسيح الآتي بكل الإشارات والإمارات، حتى يُسَهَّل على الكهَّان ورؤساء الكهَّان في ملء الزمان أن يتعرَّفوا عليه. ولكن قيافا ونسبته اشتركا في التربُّص بالمسيح، الابن الوحيد الوريث، كلصوص الكرم، ووضعوا الخُطْطَ، ونصبوا الشَّرَاكَ، خارج الكرم في جثسيماني، وقالوا: «هلموا نقتله» (مت ٢١: ٣٨). استخدموا سلطانهم الكهنوتي، وناموسهم الإلهي، وزوَّروا الحقائق، ولفَّقوا التُّهم، وقبضوا عليه، وأوثقوه كيْلَص، وأسلموه للحكم، وتوسَّلوا بكل وسيلة لدى بيلاطس القاضي الأممي أن يَحْكَمَ لهم. ولما أحسُّوا أنه كشف حسدهم وكيدهم وغشَّهم، بينما هو طالبٌ بإطلاقه، تمسَّحوا في الحال في قيصر الملك الوثني، وادَّعوا الرعوية له، وجحدوا الله ملكهم الأبدي، وأنكروا مسيحهم الأزلي، وباعوا أَمَتَهُمْ ثمناً لقتل مسيَّا الدهور ومسيح الخلاص.

«لذلك الذي أسَلَمَنِي إِلَيْكَ، له خطية أعظم»:

كانت هذه هي آخر كلمة قالها المسيح في ختام هذه المحاكمة، وكانت بمثابة كشف الحساب النهائي لكل القضاة بكل أتعابهم، وأصحاب الأدوار الذين قاموا بتكميل قصة الصليب، وحيث أعلن المسيح أنه هو الديَّان الحق الوحيد، الذي سوف يَمَثُلُ أمامه كل الذين خانوا الحق والأمانة، وتعدَّوا القانون والناموس عمداً، وباعوا ضمائرهم وإلههم في سبيل أجبادهم الشخصية وأطماعهم الدنيوية.

الجزء السابع والأخير من سير القضية

خارج دار الولاية (البريتوريون) (١٩: ١٢-١٥)

تهديد القاضي. فليحيا قيصر، وليَمُتَ المسيح!

١٩: ١٢ «من هذا الوقت، كان بيلاطس يطلب أن يُطْلَقَهُ. ولكن اليهود كانوا يصرِّخون قائلين: إن أطلقتَ هذا، فلست مُجِيباً لقيصر. كلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً، يُقاوِمُ قيصرَ».

«من هذا الوقت»:

ليس بعد هذا الوقت، ولكن لحظة قال المسيح قَوْلَتَهُ وكشف لبيلاطس: إن «العليَّ متسلِّط في

مملكة الناس، وأنه يعطيها مَنْ يشاء ... وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذنصر رفعت عينيَّ إلى السماء، فرجع إليَّ عقلي، وباركتُ العلي، وسبَّحتُ، وحمدتُ الحيَّ إلى الأبد، الذي سلطانه سلطانٌ أبدي، وملكوته إلى دَوْرٍ قَدَوْرٍ. وَخُسِبَتْ جَمِيعُ سَكَانِ الأَرْضِ كُلِّ شَيْءٍ، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض، ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل ... الذي كل أعماله حقٌّ، وطَرَقُهُ عدلٌ، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يُذَلِّه. » (دا : ٤ : ٣٢ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٧)

فعندما أدرك بيلاطس ما قاله المسيح، تأكّد له خوفه الذي خافه، وابتدأ يسمي (يطلب) بنفسه، وليس لدى اليهود، أن يُطْلِقَه. ولكن إصرار بيلاطس على الإطلاق، كان يقابله من قيافا المتربّص ازدياذ وهياج في الصراخ، فكانت وراءه جوقة خُذَّام (ضباط) الهيكل المدرّبة والملقّنة متى وكيف يعلو صوتها! كان سعي قيافا ومن معه لسفك دم المسيح، جنونياً، رصد له كل قوته وماله وسلطانه ودهاءه، وبمساعدة الشيطان! « هذه ساعتكم، وسلطان الظلمة. » (لو ٢٢ : ٥٣)

« إن أطلّقتَ هذا، فلستَ محبّاً لقيصر، كلُّ من يجعل نفسه قَلِيكاً يقاوم قيصر. » :

ليحبيا قيصر، وَلَيَمُتْ المسيح!! وفي جنون وفقدان وعي المسئولية عن ثبات الأمة وكرامتها، استهان قيافا بيهوديته وانزلق إلى التهديد، حتى راهن بولائه لله، في سبيل سَفْكِ دم المسيح، وارقي تحت رجلي قيصر، متقمصاً الولاء للإمبراطورية الرومانية والدفاع عن « الحب والأمانة » لقيصرها!! وكان ذلك منه بقصد اكتساب الحق بعدئذ في إلقاء التهمة على بيلاطس، أنه يخون أمانته وحبّه لقيصر، بل ويقاومه متسبباً في قيام الثورة ضد روما!!

وهكذا، وبعد ما استفرغ قيافا اللعب بكل أوراقه الدينية، من جهة الولاء للناموس، وتعدي الناموس، والإلترام بالناموس « لنا ناموس »، وبعد أن وجد أن كل ذلك كان لعبة مكشوفة لدى بيلاطس، الذي حينما وَزَنَها بميزان العدالة وَجَدَ أنه ليس فيه عِلَّةٌ واحدة مما يقولون! أسرع قيافا بالورقة الأخيرة والخطيرة، ورقة اللعب بالسياسة، وترك الولاء للناموس وصاحب الناموس للإلتجاء إلى الولاء لقيصر وحبّ قيصر، لمحاولة زعزعة كرسيّ بيلاطس من تحته بالإلتجاء إلى الشكاية لقيصر!

ولكن يا للحزن المرير؛ كان مجرد التهديد بهذه السياسة، بإعلان الولاء لقيصر، معناه إعطاء الله القَفَا دون الوجه. فكان هذا السلوك المشين من رئيس كهنة، بمثابة تَرْكِ عبادة الله الحي والسجود للأوثان! وهكذا، وفي ساعة، انقلبوا من يهودٍ متعصّبين للناموس إلى رومان متعصّبين لقيصر!! وكانت هذه التهديدات الخطيرة قد لَقَّنَها قيافا لُخْذَامِهِ (الضباط)، ولكل الشعب،

ليصرخوا بها صراخاً بلغ عنان السماء، وظلّ يتردد في أذن يوحنا ستين سنة! وظلت تردده أجواء السماء والأثير، وتردده الأيام إلى يوم الدين!

«مُحِبّاً لقيصر *Amicus Caesaris*» :

هذا النعت ليس تركيباً من ألفاظ اليهود، بل كان هذا «لقباً» للضباط العظام الذين يقومون بأعمال جلييلة لحساب الإمبراطورية، وبالتالي لقيصر. ولكن اللقب المضادّ وهو «ليس محباً لقيصر»، معناه نوع من الخيانة، أو نعت لمن يتكلم ضد قيصر: «*crimen majestatis*»^(٤). ومعروف أن طيباريوس قيصر كان ذا أذنٍ مفتوحة لكل وشاية!!^(٥)

ولنلاحظ القارىء، كيف انتقل اليهود من الوضع الأقل في الاتهام (بالكلام): «ليس محباً لقيصر»، إلى الوضع القاتل: «يُقاوم قيصر»، الذي معناه الخيانة والثورة السافرة.

فلو أخذنا في الاعتبار — وهذا مهم للغاية — أنه كان معروفاً لدى اليهود أن بيلاطس كان على غير وفاق مع قيصر^(٦)، بالإضافة إلى معرفتهم الوثيقة بالتصرفات الأخرى، سواء كانت رشاوي، أو تجاوزات أخلاقية ووظيفية، لأدركنا مدى خطورة هذا التهديد عليه.

١٩: ١٣ «فلما سمع بيلاطس هذا القول، أخرج يسوع، وجلس على كرسيّ الولاية في موضع يُقال له: البَلَاظ، وبالعبرائية جَبَّاثا».

بمجرد أن أدرك بيلاطس ما يُخَطِّطه اليهود، وأنهم على استعداد فعلاً أن يبيعوا أنفسهم لقيصر ليتخلصوا منه، لم يكن أمامه إلا حلّ من اثنين: إما الوقوف مع الحق والقانون، وبالتالي مع المسيح لتبرئته، وإما الانسحاب نهائياً من أمام العاصفة الهوجاء وتسليم المسيح لهم ليصنعوا به ما يريدون. وفي الحل الأول فقط، تكون المجازفة بكرسيه وربما بحياته هو. لذلك فضّل الحل الثاني: فلأحيا أنا، وليُمتّ المسيح! وقد تغلّب الخوف من قيصر على خوفه من المسيح. فقد أيقظت فيه تلوّجات اليهود بالالتجاء إلى قيصر، القسوة التقليدية التي لا تعرف الرحمة.

«أخرج يسوع، وجلس على كرسي الولاية» :

كان المسيح داخل دار الولاية، فأخرجوه خارجاً. وجلس بيلاطس على كرسي الحكم، بمعنى

^٤ Hengstenberg, *op. cit.*, p. 397. وتعني في اللاتينية: «مجرم في حق الجلالة»!

^٥ The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 421.

^٦ Josephus, *Ant.*, XVIII.3.1.2.

جلس ونطق في الحال بحكم الصليب. وهنا يكمل القديس متى هذا المشهد هكذا:
 «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغبٌ، أخذ ماءً وغسل يديه قدام
 الجمع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البارّ، أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب، وقالوا: دمه علينا
 وعلى أولادنا.» (متى ٢٧ : ٢٤ و ٢٥)

«جَبَاثَا Gab-Baitha (٧)»: Λιθόστρωτον

ومعناه «الرصيف الذي يتبع البيت»، وهو مكان مرتفع مستدير، يقع بين قلعة أنطونيا وبين
 الهيكل، حيث كلمة Baitha أي «البيت» تعني هنا «الهيكل». هذه الأوصاف كلها هي
 ذكريات شاهد عيان.

١٩ : ١٤ «وكان استعدادُ الفصح، ونحوُ الساعة السادسة، فقال لليهود: هُوَذَا
 مَلِكُكُمْ».

بعد ما حدّد ق. يوحنا المكان الذي فيه نُطِقَ بالحكم، حدّد اليوم ثم حدّد الساعة. أما اليوم
 فحدّده بالنسبة للفصح، وليس لأيام الأسبوع، كما يقول بعض الشراح. فهو يوم الاستعداد
 للفصح، ولكن كلمة «الاستعداد» تُستخدم كالعادة لتدل على الاستعداد للسبت أيضاً، ولكن ق.
 يوحنا أوضحها صراحة أنه استعداد للفصح. ولكن الحاصل أنه كان يوم الجمعة وهو بطبيعته يسمى
 الاستعداد للسبت «باراسكيفي» (παράσκευή)، ففي هذه السنة كان الاستعداد للفصح هو
 أيضاً الاستعداد للسبت، لأن عيد الفصح كان يوم السبت.

وفي مكان قادم (الآية ١٩ : ٣١) عاد ق. يوحنا وأوضح ما يدلُّ دلالة قاطعة أن يوم عيد الفصح
 في هذه السنة كان يوم السبت بقوله: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً»، أي كان يوماً مقدساً
 كونه عيد الفصح، ومُقدَّساً كونه يوم السبت أيضاً.

«الساعة السادسة (من النهار)»:

يقول العلماء، ومنهم وستكوت، إن التوقيت الذي سجّل به ق. يوحنا الساعات، كان توقيتاً
 على غرار التوقيت الغربي في روما، وكان سائداً في شمال آسيا الصغرى^(٨)، وهو التوقيت بالساعة

^٧ Westcott, citing the Talmud, *op. cit.*, p. 272.

^٨ Westcott, *op. cit.*, p. 282.

الرسمية التي يُذَبِّحُ فيها الفصح (١)، والتي يُبَدَأُ فيها بأكل الفطير (١٠).

هنا يبدو قول القديس بولس الرسول مفضلاً على الواقع والتقليد حرفاً بحرف : «إِذَا، نَقُّوا مِنْكُمْ الْخَمِيرَةَ الْعَتِيقَةَ، لَكِي تَكُونُوا عَجِيناً جَدِيداً كَمَا أَنْتُمْ فَطِير. لِأَن فَصَحْنَا أَيْضاً، الْمَسِيحَ، قَدْ ذُبِحَ لِأَجْلِنَا. إِذَا، لَنَعَيِّدَ لَيْسَ بِخَمِيرَةَ عَتِيقَةَ وَلَا بِخَمِيرَةَ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ، بَلْ بِفَطِيرِ الْإِخْلَاصِ وَالْحَقِّ.» (١ كور ٥ : ٧ و٨)

وهنا حَبْنُكَ للتاريخ الخلاصي. فإن الساعة التي خَلَّصَ اللهُ فيها إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبُودِيَةِ مِصْرَ وَسُخْرَةِ فِرْعَوْنَ، كَانَتْ هِيَ نَفْسُ السَّاعَةِ الَّتِي انْخَبَلَتْ فِيهَا إِسْرَائِيلَ وَقَدَّمتْ فِيهَا عَرِيْسَهَا لِیُذَبِّحَ، لِیَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمَ مِنْ عِبُودِيَةِ الْخَطِيئَةِ وَسُخْرَةِ الشَّيْطَانِ. نَعَمْ، وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ، حَلَّ الْأَصْلُ مَحَلَّ الصُّورَةِ، وَذُبِحَ حَمَلُ اللهِ عِوَضَ الْخُرُوفِ الدَّاجِنِ، وَاسْتُعْلِنَ الْمَخْلُصُ الَّذِي عَبَّرَ بِشَعْبِهِ؛ فَانْتَهَى الطَّقْسُ، وَبَلَغَتْ الذِّكْرَى مِنْتَهَى تَحْقِيقِهَا، وَفُضِّحَ مِصْرَ صَارَ فَصَحَ الْعَالَمِ.

«هُذَا قَلِيكُم» :

+ «أَنَا هُوَ الرَّجُلُ !!

الَّذِي رَأَى مَذَلَّةً بِقَضِيبِ سَخَطِهِ،
أَبْلَى لِحْمِي وَجِلْدِي. كَسَّرَ عِظَامِي،
ثَقَلَ مِئْسَلَتِي، فَلَا أَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ،
مِثْلَ ظَرْفِي، وَمَرْقَنِي. جَعَلَنِي خَرَاباً،
مَذْقُوسَةً وَنَصَبَنِي كَفَرِضٍ لِلسَّهْمِ،
أَدْخَلَ فِي كُلِّيَّتِي نِيَالَ جُفْعَتِهِ،

صِرْتُ ضُحْكَةً لِكُلِّ شَعْبِي، وَأَغْنِيَهُمْ الْيَوْمَ كُلَّهُ،
أَشْبَعَنِي مَرَاتِرَ، وَأَزْوَائِي أَفْسُتُنِي، وَجَرَّشَ بِالْحَصَى أَسْنَانِي،
ذِكْرًا تَذَكُّرُ نَفْسِي، وَتَنْحِنِي فِيَّ،

جَيِّدٌ أَنْ يَنْتَظِرَ الْإِنْسَانُ، وَيَتَوَقَّعَ بِسَكُوتٍ خِلَاصَ الرَّبِّ !» (مراثي ٣ : ١-٢٦)

هنا بيلاطس يقول الحقيقة، دون أن يدري. فحقاً بالحقيقة «هُذَا مَلِكُكُمْ» !! ولكن عيونهم لا تُبْصِرُ، وَأَذَانُهُمْ لَمْ تَسْمَعْ !! هُنَا بِيلَاطُسُ يَسْخَرُ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الْمَسِيحِ، بَلْ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ

* Bultmann, citing others, *op. cit.*, p. 664.

¹⁰ Ibid.

ق. يوحنا لم يكن يسخر، بل هو يسجل أمام التاريخ، أنه في هذا اليوم وفي الساعة السادسة صدر الأمر الإلهي بأن يُرْفَعَ ابنُ الإنسان عن الأرض، ليجذب الجميع، ويملك على العالم.

١٥: ١٩ «فصرخوا: خُذْهُ خُذْهُ أَصْلِيْهِ. قَالَ لَهُمْ بِيلاطُسُ: أَضْلِبُ قَلْبَكُمْ؟ أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: لَيْسَ لَنَا قَلْبٌ إِلَّا قَيْصَرٌ».

«فصرخوا»: ἐκραύγασαν

وتعني: «صرخوا بصوت واحد عالٍ، وبجميع الأصوات كلها». إنهم يجحدون أي علاقة تربطهم بالملك المسيح. خُذْهُ خُذْهُ، وكأنه أصبح عاراً عليهم، وهم يتبرأون من وجوده. اضليه، ليستخلصوا من تعبيره وتبكيته لهم ولأعمالهم. كانت شهوة رؤساء الكهنة في التخلص من المسيح ممزوجة بالتشفي، فلم يكن أقل من الصلب يريح نفوسهم، التي أقلقها فيهم.

«قال لهم بيلاطس: أَضْلِبُ ملككم»:

هنا بيلاطس يُضمر لليهود إحراجاً ما بعده إحراج. فنحن لو نحينا جانباً نظرة اليهود، أن هذا إدعاء من المسيح، وأنه ليس ملكاً، نجد هنا بيلاطس يُطلق سؤالاً عاماً قد لا ينصب على المسيح! أَضْلِبُ ملككم؟ وفي الحقيقة، فإن ملكهم هنا، في ضمير ق. يوحنا، هو الله. كان يجب أن يلتفت رؤساء الكهنة إلى هذا التحذير، فهو عيس كرامة اليهود، ولكنهم قَبِلُوا المهانة، وزادوا عليها لأنفسهم.

«أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا قَلْبٌ إِلَّا قَيْصَرٌ»:

لينتبه القارئ، فالذي يردُّ هنا هذه المرة ليس اليهود عامة، ولا رؤساء الكهنة والخُدام أصحاب جوقه المتأف، ولكن رؤساء الكهنة فقط، ممثلو الأمة اليهودية، فهؤلاء هم الذين يستنكرون أن يكون لهم ملك. كيف؟ وأين الله؟ لقد طمسوا معالم إيمانهم وفخر أمّتهم، لقد جَدَّفُوا تحديفاً.

كيف؟ ومن الذي قال: «إننا دُرِّيَّة إبراهيم ولم نُشْعَبِد لأحد قط» (يو: ٨: ٣٣)؟ أهكذا يبيعون حريتهم، ويقبلون العبودية علناً في سبيل سَفَكِ دم مخلصهم؟! لقد مات رجاؤهم في المسيا إلى الأبد، ليس لنا ملكٌ إِلَّا قَيْصَرُ! نعم، هذا حق، لأنهم أنكروا ملكهم، بل أسلموه لقيصر ليقتله لهم!! انزلاقهم في منحدر السياسة الرهيب، أسقطهم بالنهاية في يد قيصر، وجعلهم يتنازلون برضاهم عن ملكوت الله، واستبدلوه بملكوت العالم ورئيسه!

لقد تخلصوا من المسيح، وارتاحوا لقيصر، لقد جحدوا ملوكيته أولاً، ثم تمادوا فجحدوه كلية.
لقد سمع الله هذا الصوت من السماء، وكتب أمامه سيفر تذكيرة، واستجاب. كما حدث في
أيام صموئيل النبي: «فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم
لم يرفضوك أنت، بل إياي رفضوا، حتى لا أمليك عليهم.» (١ صم ٨: ٧)

هم طلبوا أن يملك عليهم قيصر، فملكه الله عليهم بالفعل، فاستعبدتهم، وأذلهم، وخرّب
أورشليم فخّر مدائنهم؛ مدينة الملك العظيم صارت هي وهيكلمهم مُحْرِقَةٌ بالنار، ذَبَحَ كهنتهم على
مذبح ذبائحهم، نجّس قُدْسَ أقداسهم، نفاهم إلى أقصى الأرض وشتّتهم في جميع ممالك العالم:
«عجيف هو الوقوع في يدي الله الحي!» (عب ١٠: ٣١)

في نهاية هذا المشهد، لا يسعنا إلا أن نقول إن اليهود وبيلاطس، على السواء، متهمون
بالخيانة، اليهود للسلطان الذي أخذوه من الله وللمبادئ والناموس ومليكهم الإلهي، وبيلاطس
لمركزه كقاضٍ ووالي، وأمانته للحقيقة والعدالة.

ثالثاً - النهاية

(١٩ : ١٦ - ٤٢)

في هذا الجزء من رواية المسيح يختص إنجيل يوحنا ببعض الوقائع، التي لم يذكرها أحد غيره من الإنجيليين :

(أ) الإصرار على كتابة العنوان (٢٠ - ٢٢).

(ب) الوصية الأخيرة بخصوص والدته العذراء القديسة مريم والتلميذ المحبوب (٢٨ - ٣٠).

(ج) الطعن بالحربة في جنب المسيح وخروج الدم والماء (٣١ - ٣٧).

(د) خدمة نيقوديموس للجسد (٣٩ - ٤٢).

(هـ) يوحنا شاهد عيان حتى الآية (٣٥).

وينقسم هذا الجزء من الإنجيل إلى العناصر الآتية :

١ - الصَّلب (١٦ - ٢٢).

٢ - المرافقون للصليب (٢٣ - ٢٧).

٣ - النهاية : « قد أكمل » (٢٨ - ٣٠)

٤ - طلبان يُقَدَّمان إلى بيلاطس، يستجيب لهما في الحال (٣١ - ٤٢).

ويلاحظ في رواية ق. يوحنا أن أسلوبه يتميز بالتلميح المستمر لتكميل ما قيل بالأنبياء في العهد القديم، سواء من جهة النبؤات أو تحقيق الصور (٢٤ و ٢٨ و ٣٦ و ٣٧)، رافعاً المسيح إلى مُرتَفَع المجد، فوق مجرى حوادث الآلام. مؤكِّداً إرادة الله والمسيح في كل ما يحدث، وبصورة خاصة، يقف عندها ق. يوحنا وقفة استعلان وإشارة وتنبيه، عندما يطبع على الرب صورة « الحَمَلِ الفصحى » كمنذوح وماكول.

١ - الصلب

(٢٢-١٩:١٦)

١٩:١٦ «فحينئذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصَلَّبَ. فَأَخَذُوا يَسُوعَ، وَمَضَوْا بِهِ» (١١).

«أخذوه»: παρέλαβον

أي قبلوه منه، وهي نفس الكلمة التي جاءت في الأصحاح الأول «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله οὐ παρέλαβον». وهكذا أسلوب ق. يوحنا في اختياره للكلمات يحمل وراءه الشرح والمقارنة والتهكم والاستعلان، بطريقة غاية في الجِدْقِ، أو على الأصح غاية في الاستنارة. فاليهود لم يقبلوه من يد الله، ولا من الآباء، ولا من نبوات الأنبياء ليفرحوا به ومحبه، ويصيروا به أبناء الله الحي؛ بل قبلوه من يد بيلاطس الوالي الأممي ليصلبوه، قبلوه كمُدَّعي البِنُوَّةِ لله، وكمُضِلِّ الشَّعب ومفسد الأمة، بل وفاعل شر وكاسر الناموس، كمقاومٍ لقيصر، وهادمٌ للهيكَل؛ قبلوه ليسفكوا دمه، ويشفوا غليلهم فيه ويقبلوا دمه عليهم وعلى أولادهم إلى الأبد!

تَسَلَّمُوا فريستهم، وأسرعوا، فلم يَعدْ من الزمن ما يكفي أن يواروه التراب قبل حلول السبت وهو العيد، حيث لا يحلُّ بقاء أجساد معلقة على خشبة.

كانت لُحْفة ونشاط وتشفِّي اليهود الغيورين على اليهودية وعلى الناموس وعلى الحرف القاتل، متساوية تماماً مع لُحْفة الجنود الرومان المتعصبين لخطرسة الجنس الروماني المتفوق المتعصب لسيادته، وكان كل منهما يسعى للفتك بفريسته!! «لماذا ارتجبت الأمم... قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الربِّ وعلى مسيحه.» (مز ٢: ٢١)

بيلاطس لم ينطق بنفسه بالحكم، كما تقتضي الأصول المتبعة في القضايا، وهذا نتحققه أيضاً من الأناجيل الثلاثة. فقد سلَّمه لرؤساء الكهنة ومَضَوْا بِهِ (مت ٢٧: ٢٦؛ مر ١٥: ١٥؛ لو ٢٣: ٢٥). لقد حاول أن يختزل إجراءاته ضد العدالة، إلى أقصى حد ممكن. فكان مُسَاقاً في هذه القضية ضد إرادته (١٢). وهذا واضح غاية الوضوح، في رواية إنجيل القديس متى: «فلما رأى

(١١) حسب الفاتون الروماني، يتحتم أن يمر يوحنا — على الأقل — بين يوم إصدار الحكم بالإعدام ويوم تنفيذه. ولكن لم تكن الفواتين الرومانية مرعية في هذه القضية بصورة عامة. (Edersheim, A., op. cit., p. 582).

بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً (محاولاته المتكررة لإطلاقه)، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجمع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب، وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا. (مت ٢٧ : ٢٤ و ٢٥)

فبهذا الإجراء وهذه السياسة التي سار عليها بيلاطس من أول القضية لنهايتها، أصبح اليهود وعلى رأسهم رؤساء الكهنة هم وحدهم المتحملين تنفيذ سفلك الدم، بل وتنفيذ الحكم إرادياً، (لأن عسكر الرومان قاموا بالعمل) بمقتضى قانون غريب عنهم — أي الصلب، لأن الموت صلباً ليس في صلب الناموس، بل هو وسيلة رومانية وثنية.

كما يُلاحظ القارئ المدقق، أن بيلاطس لم يقل «أسلمه إليهم ليصلبوه» كمن يعطيهم حق الصلب، بل النطق الوحيد فيما يختص بالصلب جعله بيلاطس مبنياً للمجهول وفاعله غير محدد «ليُصلب». صحيح أنهم لم يصلبوه بأيديهم، ولكن هم الذين صلبوه، وإنما بأيدي الأمم، وهي أيدي أقوام أئمة: «وبأيدي أئمة صلبتموه وقتلتموه» (أع ٢ : ٢٣)، «ورئيس الحياة قتلتموه... ونحن شهود لذلك.» (أع ٣ : ١٥)

ولكن كما سبق وقلنا، فإن كلاً من اليهود وبيلاطس مدانان بالخيانة للحق والقانون والعدالة، وبالتالي لله !!

١٧ : ١٩ «فخرج، وهو حامِلٌ صليبه، إلى الموضع الذي يُقال له موضع الجُفْجَمَةِ. ويُقال له بالعبرانية جُلْجَنَةُ.»

«خرج» : ἐξῆλθεν

«فقال الرب لموسى: قَتْلًا يُقْتَلُ الرجلُ. يَرْجِهْ بِحِجَارَةٍ كُلَّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ.» (عدد ١٥ : ٣٥)

«فأخذ إبراهيم حطب المحرقة، ووضعهُ على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين.» (تك ٢٢ : ٦)

خرج خارج المدينة، فمكان المحاكمة كان قريباً من الباب الشمالي الغربي المؤدي إلى خارج المدينة، حيث مكان الصلب.

ولكن في كلمة «خرج» معاني روحية التقطها القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين: «فإن

الحيوانات التي يُدْخَلُ بدمها عن الخطية إلى الأقداس، بيد رئيس الكهنة، تُحَرَّقُ أجسامُها خارج المحلة. لذلك، يسوع أيضاً، لكي يقدَّسَ الشعب بدم نفسه، تألم خارج الباب. فلنخرج، إذاً، إليه خارج المحلة، حاملين عَازَهُ (الصليب)، لأنَّ ليس لنا هنا مدينةٌ باقيةٌ، لكننا نطلب العتيدة. « (عب ١٣ : ١١-١٤)

طريق الآلام VIA DOLOROSA (١٣):

هو الطريق الذي سار فيه المسيح وهو حامل صليبه من أمام قلعة أنطونيا، أي دار الولاية، من المرتفع الذي يُقَالُ له جَبَّاثَا، أي البلاط، ماراً بشوارع المدينة، حيث استقبلته النسوة بالبكاء والنواح، ليس على مستوى المعرفة والروح، بل من منظره الذي كان يستدرُّ الدموع من الصخور، لو عزَّت دموعُ الإنسان. ولكن المسيح أبى بشدة أن يُبكي عليه وهو مصدر الفرح السماوي الذي لا يؤول إلى حزن: «وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يَلِطُنَّ أيضاً وَيُتَخَنَّ عليه. فالتفت إليهن يسوع وقال: يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن، لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقر والبطون التي لم تَلِدْ، والثديّ التي لم تُرَضِع ... لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس» (لو ٢٣ : ٢٧-٣١).

والذي يُلَفَت النظر، أنه لا يزال في كل يوم جمعة، وقبل الفصح، كل سنة، وحتى اليوم يُقام احتفالٌ بمسيرة في طريق الآلام عينه، حيث تسير نفس الجموع ويشكل النساء فيها الجزء الأعظم، وبكاؤهن لم يجف. وتقف المسيرة في أربع عشرة محطة، بعضها مأخوذ اسمه من الكتاب المقدس، والآخر من التقليد، وينتهي طريق الآلام الآن عند كنيسة القبر المقدس حيث تقام صلاة احتفالية كبرى بواسطة آباء الفرنسيكان (أنظر الصورة).

«حاملٌ صليبه»:

حينما حمل المسيح الصليب، اختفى مفهوم الصليب من العالم كأداة للموت والتعذيب؛ وحلَّ محلَّ هذه الصورة المرعبة المفهوم الجديد للصليب، كرمز الإيمان والرحمة والرقّة والبذل والإسعاف والحب والسلام والقداسة والكرامة والمجد؛
يحمّله الأطفال للفرح،
ويحمّله الشباب للنصرة الأخلاقية،

(١٣) هذا الاسم أصبح تقليداً يُقام له الشعائر الدينية يوم الجمعة الحزينة في أورشليم. وأول من رثيه هم جماعة الفرنسيكان منذ القرن الرابع عشر، ولا يعرف التقليد القبطي عنه شيئاً. ونحن نعتبر أنه منذ أن وُلد المسيح في بيت لحم حتى رفعوه على الصليب وهو في «الفيادولوروزا Via Dolorosa» أو على وجه الأصح منذ أن تجسّد!!

وتحملة النساء للعبة والطهارة،
 ويحملة الرجال للحكمة والكمال،
 ويحملة الرهبان كسلاح على الصدر والظهر،
 ويحملة الشيوخ كغلبة على العالم،
 تحمله الهيئات للرحمة المجانية،
 وعلامة الإسعاف في المخاطر والإنقاذ المجاني،
 كأعلى ما بلغت إليه المشاعر الإنسانية،
 وترفعه الجيوش علامةً لوقف القتال وطلب الصلح والسلام،
 ويحملة الملوك مرضعاً في تيجانهم للكرامة والمجد.
 وصار للمصليب عشرات الأشكال ومئات الألوان، وصار هو الوحدة الزخرفية المفضلة لتكميل
 كل الفنون.

كان يثنُّ تحت ثقله، وهو الحامل كلَّ شيء بكلمة قدرته. عرقه يتصبب ويتساقط من جبينه،
 وهو منحني، فكان يتقطر ممزوجاً بالدم، من الأشواك المغروسة حول رأسه، لم يذُق طعاماً ولا ماءً
 ولا نوماً منذ عشاء الخميس. الظَّهْرُ مُتَوَرِّمٌ وجروحُه تنزف، والوجه مُتَأَلِّمٌ من اللطم، والرأسُ
 مرضوضٌ من الضَّرب، والمهانة أحتت نفسه فيه، وبلغ به الحزن حتى الموت قبل الموت! «تطلعوا
 وانظروا، إنَّ كان حزنٌ مثل حزني» (مراثي ١: ١٢)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت!!»
 (مت ٢٦: ٣٨). لقد سبق أن أحسَّها قبل أن تأتي عليه!!

الدوار ألَمٌ به، عيناه لم تعودا تنظران الطريق، موجات الوجع تلو موجات، ونوباتٌ من الرَّغَدَةِ
 العصبية تسري وتعصف بالجسد، «من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جُرح وأحْبَاطٌ
 وضربة ظريَّة لم تُعصر ولم تُعصب ولم تُكَلِّن بالزيت» (إش ١: ٦)، هاوية ليس لها قرار، يُشيعه
 إليها جمهور الشامتين!!

«إن المياه قد دَخَلَتْ إلى نَفْسي، غَرِقْتُ في حَمَاءٍ عميقة وليس مقرٌّ،
 دَخَلْتُ إلى أعماق المياه، والسَّيْلُ غَمَرَنِي،
 تَعَبْتُ من صُراخي، يَبِسَ حَلْقِي، كَلَّتْ عَيْنَاي...،
 أكثر من شعر رأسي الذين يُبَغِضُونَنِي بلا سبب،
 اعتَرَّ مُسْتَهْلِكِي أَعْدَائِي (فوقي) ظُلماً،

حينئذٍ رَدَدْتُ الذي لم أخطفه ، ...

لأنني من أجلكِ احتَمَلْتُ العارَ، غَطَيْتُ الْخَجَلَ وجهي،
صِرْتُ أجنبيّاً عند إخوتي...، وَتَغْيِيرَاتُ مَعْيَرِكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ...،
نَجَّيْتَنِي مِنَ الظِّلْمِ فلا أُغْرَقَ، نَجَّيْتَنِي مِنْ مُبْغِضِيٍّ وَمِنْ أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ،
لَا يَغْمُرُنِي سَيْلُ الْمِيَاهِ وَلَا يَبْتَلَعُنِي الْعُنُقُ، وَلَا تُطَبِّقُ الْهََاوِيَةُ عَلَيَّ فَاهَا...،
أَنْتِ عَرَفْتَ عَارِيَّ وَخَزِييَّ وَخَجَلِي، قَدْ أَمَكَ جَمِيعُ مُضَايِقِيَّ،
الْعَارُ قَدْ كَسَرَ قَلْبِي فَمَرَضْتُ،
أَنْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ وَمُعْزِينَ فَلَمْ أُجِدْ. » (مز ٦٩ : ١-٢٠) (*)

من دار حَتَّانٍ إِلَى دَارِ قِيَافَا، إِلَى دَارِ هِيرُودَسَ، إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ، مِنَ الدَّخْلِ إِلَى الْخَارِجِ، وَمِنَ الْخَارِجِ إِلَى الدَّخْلِ، مَهَانَةٌ تَلَوَّ مَهَانَةً، وَمِنَ تَعْذِيبٍ إِلَى تَعْذِيبٍ، مُصَنَّفَاتٌ مِنَ الضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ وَالْفَضِيحَةِ صَنَّفَتْهَا قُلُوبُ رُؤَسَاءِ وَخِدَامٍ وَجُنُودٍ، أَعْظَمُهُمْ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الرَّحْمَةَ، وَأَقْلَهُمْ وُلِدَ فِيهَا. جَمَعَتْهُمْ جَمِيعاً قِسْوَةُ الْإِنْسَانِ، وَحَرَّكَتَهُمْ طَاعَةُ الشَّيْطَانِ!

سَارَ حَامِلاً عَارَ الصَّلِيبِ، مَحْمُولاً بِمَجْدِ اللَّهِ، مَنَحْنِيّاً تَحْتَ ذُلَّةِ الْخَطَاةِ، شَاغِخاً بِعَمَلِ الْخَلَاصِ. فِي الْمَهِيئَةِ كإِنْسَانٍ، مُعْشَرٌ فِيهِ رُؤَسَاءُ الْيَهُودِ، فَقَتَلُوهُ؛ وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، فَارْتَاعَ مِنْهُ قَاضِي الرُّومَانِ، وَعَمَلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ. «لَدِينُونَةُ أَتَيْتِ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يُبْصَرَ الَّذِينَ لَا يَبْصُرُونَ، وَيَعْمَى الَّذِينَ يَبْصُرُونَ» (يو ٣٩: ٩). لَاهُوتُهُ لَمْ يَفَارِقْ نَاسُوتَهُ، لِيَكْمُلَ نَاسُوتُهُ أَشْنَعَ صَنُوفِ الْأَلَمِ وَالذَّبْحِ، لِنَبْلُغَ بِهِمَا الْخَلَاصَ!

النِّسْوَةُ لَمْ يَحْتَمِلْنَ مَنَظَرَهُ، فَتَوَجَّعْنَ، وَلَطَمْنَ، وَنَحْنُ؛ «أَمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ» (إش ٥٣: ١٠)، وَأَمَّا نَحْنُ فَتَعَبَدَهُ حَامِلاً الصَّلِيبَ وَنَسَجَدَ لْجَسَدِهِ الْمَمْرَّقَ وَدُمِهِ الْمَسْفُوكَ، وَنَقَبَلْ جُرُوحَهُ الَّتِي بِهَا شُفِينَا وَحَيِينَا. ضَعْفُهُ صَارَ لَنَا قُوَّةٌ، وَانْحِنَاؤُهُ صَارَ لَنَا اسْتِقَامَةٌ، وَسَقُوطُهُ تَحْتَ الصَّلِيبِ صَارَ لَنَا قِيَامَةٌ. خَطَوَاتِهِ عَلَى طَرِيقِ الْآلَامِ Via Dolorosa صَارَتْ لَنَا طَرِيقاً نَعْبُرُ بِهِ مِنَ الضَّيِّقِ إِلَى الشَّقَةِ، وَمِنْ هَوَانِ الْأَرْضِ إِلَى مَجْدِ السَّمَاءِ. فَإِنْ كُنَّا نَبْكِي، نَبْكِي عَلَى خَطَايَانَا، الَّتِي حَمَلَتْهُ ثِقَلٌ هَذِهِ الْآلَامِ، وَلَكِنْ حَزْنُنَا حَتْمًا يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ لِلْخَلَاصِ.

(*) داود النبي كتب مزاميره قبل المسيح بألف سنة، وهو يصف صلب المسيح هنا وصفاً هو الواقع بعينه.

«إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة ويقال له بالعبرانية جلجثة» :

لقد احترق الموكب، والمسيح في المقدمة، المسافة من دار الولاية (قلعة أنطونيا) حتى إلى ما بعد باب سور المدينة الشمالي الغربي الذي يُدعى باب دمشق — وقديماً كان يُدعى «باب إسطفانوس» — لأن خارج هذا الباب رحلوا الشهيد الأول للمسيحية. أما بعد خروج المسيح من باب المدينة، فكانت الحقول المتاخمة وطريق رئيسي، وهنا وبحسب رواية القديس مرقس، نُقل حمل الصليب على الجسد المنهوك: «فسخروا رجلاً مجتازاً (نحو المدينة) كان آتياً من الحقل وهو سمعان القيرواني، أبو الكسندروس وزوفس، ليحمل صليبه»^(١٤) (مر ١٥: ٢١)، وفي إنجيل القديس لوقا: «رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كنَّ يلطمن أيضاً ويُنخن عليه.» (لو ٢٣: ٢٦ و ٢٧)

عندما نزل المسيح من فوق جبل الزيتون داخلاً إلى أورشليم، بكى عليها لأنها لم تعرف زمان افتقادها. والآن، وهو خارج منها، هم يبيكون لأنهم لم يعرفوا أن هذا هو زمان افتقادهم.

«موضع الجمجمة» = عبراني "Γολγοθᾶ"، يوناني "Κρανίον"، لاتيني "Calvaria" : تقول المصادر التقليدية أن هذا الاسم يرجع إلى أن جمجمة آدم كانت مدفونة هناك. ويرجح العلماء أن هذا الاسم هو صفة لشكل المرتفع الذي كان يتم فوقه عمليات الصلب، إذ أن شكله الجغرافي (الأرضي) يشبه الجمجمة (أنظر الصورة).

وكان الموضع خارج باب المدينة وبالقرب منها، على بُعد دقائق: «لأن المكان الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة» (يو ١٩: ٢٠)، وكان المكان بقرب مدافن أخرى وعلى الطريق الرئيسي^(١٥). وتقول أحد المصادر اليهودية أن هذا المكان بالذات كان مخصصاً للرجم، وفيه توجد «مغارة إرميا»^(١٦). وكان المسطح المرتفع شبه هضبة، ولها شكل الجمجمة، تعلو قليلاً عن الأرض المجاورة، حيث يوجد بستان، وفي البستان صار أقدس مكان على الأرض، مغارة جديدة منحوتة، هي التي استودع فيها يوسف ونيقوديموس الجسد الطاهر، وربما كان يملكها القديس يوسف الرامي كما سيجيء.

(١٤) واضح أن ذكر اسم هذا الرجل بالتفصيل يرجع إلى قبوله الإيمان ودخوله المسيحية حيث صار معروفاً في الكنيسة. وتوجد إشارات نحو هذا الاسم (رو ١٦: ١٣).

^{١٥} Edersheim, A., *op. cit.*, Book II, p. 585.

^{١٦} Ibid.

١٨:١٩ «حيث صَلَّبُوهُ وَصَلَّبُوا آثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ».

«وكان المجتازون يُجَدِّفون عليه وهم يهزؤون رؤوسهم
قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلّص نفسك
إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب،
وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزئون مع الكتبة
والشيوخ قالوا: خلّص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها،
إن كان هو ملك إسرائيل فليُنزل الآن عن الصليب فنؤمن به.
قد اتكل على الله فليُثَبِّتْهُ الآن، إن أراد، لأنه قال: أنا ابن الله.»
(مت ٢٧: ٣٩-٤٣)

«فأرى الدم وأغبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك».
(خر ١٢: ١٣)

ق. يوحنا يَعْبُرُ على صلب المسيح عبوراً، بِذِكْرِ «الكلمة» فقط دون أي مزيد من الوصف أو
التوضيح، إما لفظاعة الآلام، أو لرغبة النظر، أو حتى لتعير المعيرين، تماماً كما عَبَّرَ على حادثة
الجلد بِذِكْرِ الكلمة فقط، مع أن الصليب هو قمة الحوادث كلها وقمة الآلام كلها.

والرومان هم وحدهم الذين جعلوا هذا العقاب على مستوى المجرمين الخطيرين، وخصصوه
بالأكثر للعبيد، وكانوا يَنكَلُون بالمحكوم عليهم شرّاً تنكيل. ويقول الخطيب شيشرون الروماني عن
عملية الصلب: [إنها قسوة ورُغْبٌ] (١٧).

وللأسف كانت رجل اليهود قد انزلت في استخدام هذه العقوبة قبل ذلك. فالمعروف في
التاريخ، أن رئيس الكهنة ألكسندر حناؤس، سنة ٨٨ ق.م.، صَلَّبَ ٨٠٠ شخصاً في وقت
واحد (١٨). ولما جاء الإمبراطور قسطنطين الأول وقبِل الإيمان المسيحي، ألغى الحكم بالصلب
وانتهى نهائياً من العالم بمنشور تحذيري.

لقد ورثت الكنيسة القبطية هذا المنهج الروحي الميتافيزيقي في التعبير والتصوير عن الصلب
والآلام. فمن أجل التقاليد القبطية المعروفة التي عبّرت عنها بالتصوير، بإحدى الأيقونات
القديمة، لصلب المسيح، أنها صوّرتة وهو بكامل ملابسه (أنظر الصورة)، وليس بحالة العُزّي كما

¹⁷ Brown, Raymond E., *op. cit.*, p. 900.

¹⁸ Josephus, *War*, 1, IV, 68, 97.

يظهر في الصور الأجنبية التي دخلت خلصة إلى الفن القبطي بعد ذلك. كذلك، فإنه محظور في الفن القبطي التعبير عن آلام الشهداء بالتصوير. فأى صورة لأي شهيد، مهما كان نوع استشهاده، تُصوّر والشهيد لابس ملابسات بيضاء وعلى رأسه إكليل مرصع، وفي يديه سعة نخيل رمز النصر، دون أي إشارة فنية عن الألم الذي جازه. لأن الصلب لا يُرى عند الروحانيين، أو بالعين الروحية، في إطاره الجسدي المحدود، بل يُنظر بالمنظر المعقول أنه «موت لِقْداء» و«ألم لخلاص» و«بذل لحُب» و«وضع للنفس لقيامه». وهكذا يمتنع، بحسب الفكر اللاهوتي السليم، أن يُنظر للصليب نظرة جسدية محصورة ومتوقفة فقط عند الآلام والعذاب، بل لا بد من الانطلاق بها فوراً لرؤية القيامة الكائنة فيه والحياة والغفران والمجد وبهجة الخلاص، حتى إن الكتاب المقدس نفسه عبّر عن حادثة الصلب بالمجد: «... لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعْد» (يو ٧: ٣٩)، أي لم يكن قد صُلب.

وفي الحقيقة، نجد أن تراث الغرب التقليدي هو الذي يتماهى جداً، بل ويتوقف كثيراً عند الإحساس بالصليب، والحياة في آلامه، والتأمل في تعذيب المسيح، وعبادة قلبه المطعون وجروحه الخمسة. أما التراث الشرقي فيحيا القيامة ويتوقف عندها كثيراً، ولا يرى الصليب إلا في نور القيامة. وإلى الآن كثير من الشرقيين، تحببهم التقليدية اليومية وعلى مدار السنة هي: «خرستوس أنستي»، أي «المسيح قام».

«وصلبوا اثنين آخرين معه، من هنا ومن هنا، ويسوع في الوسط»:

«ما هذه الجروح في يديك؟ فيقول: هي التي جُرِحتُ بها في بيت أحبائي.» (زك ١٣: ٦)

«ثقبوا يدي ورجلي. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرون في.» (مز ٢٢: ١٦ و ١٧)

يقول عنهما كل من القديس متى والقديس مرقس إنهما كانا لصين: «وصلبوا معه لصين واحداً عن يمينه وآخر عن يساره، فتم الكتاب القائل: «وأحصي مع أئمة»» (مر ١٥: ٢٧ و ٢٨)، ويقول القديس لوقا إنهما: «صلبوه هناك مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره» (لو ٢٣: ٣٣)، وكلمة «مذنب» هنا *κακοδργος* لا تفيد «مذنب» بل «مجرم» *criminal*. وغير إشارة إشعيا النبي المشار إليها في إنجيل القديس مرقس، يجب الإشارة هنا أيضاً إلى المزمور ١٦: ٢٢: «جماعة من الأشرار اكتتفتني (أحاطوا بي)».

ويختص القديس لوقا وحده بسرد الحديث الذي دار بين اللصين وخاصة كلام اللص التائب:

«أَوَ لَا أَنْتَ تَخَافُ اللَّهَ» (لوقا ٢٣ : ٤٠)، وَتَعْجَبِي هُنَا عَلَى اللَّصِّ الَّذِي يَخَافُ اللَّهَ!! ثُمَّ بَيْنَ التَّائِبِ وَالْمَسِيحِ الَّذِي قَالَ لِلْمَسِيحِ : «اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ» (لوقا ٢٣ : ٤٢)، وَهِيَ الْمَقْطَعُ الْمَحْبُوبُ الَّذِي تَسَبَّحُ بِهِ الْكَنِيسَةُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ الْعَظِيمَةِ أَوِ الْحَزِينَةِ، سَاعَةَ ذِكْرِ الصَّلُوبِ، وَتَرُدُّهُ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، وَكَأَنَّ كُلَّ مُتَعَبِّدٍ يَنْطِقُ بِلسَانِ هَذَا اللَّصِّ الطُّوبَاوِيِّ الَّذِي سَرَقَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ بَعْدَ سَرَقَةِ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ كَانَ فِيهِ بَارَقَةٌ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، قَادَتْهُ إِلَى التَّوْبَةِ. وَالْكَنِيسَةُ تَنَاجِيهِ أَنَّهُ «الْحَلُّوُ اللَّسَانَ وَالْمَنْطِقَ»، ثُمَّ تَوَازَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَاشَرُوا الْمَسِيحَ، وَتَأَمَّلُوا بِمَجْدِهِ عَلَى الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ، وَكَيْفَ أَعُوزَهُمْ هَذَا الْإِيمَانُ وَقَتَ الْمَحْنَةِ؛ وَتَقَارَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَطْرُسَ التَّلْمِيزِ الْيُوقْدَامِ، صَاحِبِ السِّيفِ الْمَسْلُوقِ، وَالَّذِي سَمِعَ الصَّوْتِ آتِيًّا مِنَ الْمَجْدِ الْأَسْنَى : «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ، لَهُ اسْمَعُوا» (متى ١٧ : ٥)، كَيْفَ أَنْكَرَ بَيْنَمَا اللَّصُّ آمَنَ وَاعْتَرَفَ بِهِ وَهُوَ عَلَى الْإِقْرَانِيِّينَ!! وَفِي التَّقْلِيدِ الْقِبْطِيِّ يُقَالُ أَنَّ اسْمَ هَذَا اللَّصِّ «دِيمَاسُ»، وَقَدْ رَدَّ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ، فَاسْتُجِيبَتْ طَلْبَتُهُ فِي الْحَالِ : «الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِيَ فِي الْفَرْدُوسِ» (لوقا ٢٣ : ٤٣)، مِمَّا يُوَضِّحُ لَنَا بِأَجْلَى بَيَانٍ، أَنَّ بِالصَّلِيبِ افْتَتَحَ الْمَسِيحُ الْفَرْدُوسَ الْمَفْقُودَ، وَاسْتَرَدَّه لِحَسَابِ الْإِنْسَانِ. وَإِنْ أَوَّلُ قَدَمٍ وَطِئَتْهُ كَانَتْ هِيَ قَدَمُ هَذَا اللَّصِّ الطُّوبَاوِيِّ «مَلِكِ التَّائِبِينَ» يَسِيرُ وَرَاءَ «مَلِكِ الْمَجْدِ». وَكَانَ هَذَا إِيْذَانًا بِدُخُولِ أَفْوَاجِ الْخَطَاةِ التَّائِبِينَ مِنْ كُلِّ لِسَانٍ وَأُمَّةٍ وَشَعْبٍ!!

وَفِي الْحَقِيقَةِ تَقْدُمُ الْكَنِيسَةُ الْقِبْطِيَّةُ هَذَا الْفَصْلَ الْكَنَسِيَّ رَسْمِيًّا، مَسْنُودًا بِالْأَلْحَانِ مِنَ الْخُورَسِ عَلَى مَدَى وَقْتٍ لَيْسَ بِقَلِيلٍ، كَدَرَسَ تَعْبِيرِي ذِي وَزْنٍ عَالٍ، مِنْ جِهَةٍ مَعْنَى انْفَتْاحِ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ الْبَسِيطِ الَّذِي يُورِثُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ. الْإِيمَانُ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى بَرَاهِينٍ وَنُصُوصٍ وَمَعْرِفَةٍ وَعِلْمٍ. فَاللَّصُّ، وَهُوَ فِي أَشَدِّ مَحْنَةٍ، آمَنَ بِالْمَسِيحِ الْمَصْلُوبِ مَعَهُ، وَهُوَ عَلَى مَسْتَوَاهُ فِي نَفْسِ الْمَحْنَةِ وَالْمَهَانَةِ وَقَسَوَتِهَا! لَا تَعْلِيمَ وَلَا إِغْرَاءَ وَلَا فَهْمَ وَلَا مَنْطِقَ، فَهِيَ وَمُضَّةٌ مِنَ النُّورِ الْحَقِّ، انْفَتَحَ لَهَا قَلْبُهُ فَرَأَى الْمَسِيحَ فِي مَجْدِهِ وَفِي مَجِيئِهِ الْآتِي فِي مُلْكِهِ. فَتُنْقَضُ الْفَهْمُ، كَانَ كَمَا أَحَسَّ الْقَلْبُ. كَيْفَ اشْتَهَى أَنْ يَذْكُرَهُ الْمَسِيحَ بِمَجْدٍ ذِكْرٍ وَهُوَ آتٍ فِي مَجْدِ مَلَكُوتِهِ، فَكَانَتْ لَهُ شَهْوَتُهُ وَأَعْظَمُ، إِذْ رَافَقَ الْمَسِيحَ فِي رَحَلَتِهِ لَانْفَتْاحِ الْفَرْدُوسِ الْمَغْلُوقِ، وَلَمْ تَذْهَبْ نَفْسُهُ إِلَى الْهََاوِيَةِ، فَكَانَ أَوَّلُ الْغَالِبِينَ لِلْمَوْتِ وَالتَّاجِينَ مِنَ الْهََاوِيَةِ وَرَاءَ الْمَسِيحِ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِالْقِيَامَةِ وَالْمَجِيءِ الثَّانِي.

وَفِي تَقْلِيدِ الْإِنْجِيلِ بِحَسَبِ الْقَدِيسِ لُوقَا، كَانَ هَذَا النُّطْقُ الْمَلَكِيُّ لِلْمَسِيحِ عَلَى الصَّلِيبِ هُوَ النُّطْقُ الثَّانِي، لِأَنَّ الْأَوَّلَ قَالَ فِيهِ : «يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.» (لوقا ٢٣ : ٣٤)

أما لماذا لم يذكر ق. يوحنا حديث اللص مع المسيح وردّ المسيح عليه، فيقول العالم والمؤرخ الكنسي إدرزهايم اليهودي المتنصّر إنه يبدو أن ق. يوحنا، وبعد أن سلّم بيلاطس المسيح للعسكر للصلب، انطلق بسرعة إلى المدينة، وأحضر الأم العذراء القديسة مريم وأختها، ومريم زوجة كليوباس ومريم المجدلية. فلم يكن يوحنا حاضراً بداية عملية الصلب ولا الأم القديسة (١٩)، ولهذا لا نجد في إنجيل ق. يوحنا ذكراً لأيّ من التعميمات التي كان الشامتون يُعيّنون بها المسيح، سواء كانوا من رؤساء الكهنة أو الذين ساروا في موكبهم، فلم يذكر إنجيله شيئاً من ذلك قط. وهذا، بحسب ذاته، يوضح لنا إلى أي مدى كان القديس يوحنا يعتمد على المشاهدة والسماع الشخصي في تسجيلاته.

١٩: ١٩ «وكتب بيلاطس عُنواناً ووَضَعَهُ على الصَّليبِ وكان مكتوباً يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ».

«عنواناً» Titulus , τίτλον :

يلاحظ أن ق. يوحنا يستخدم الاصطلاح اللاتيني الرسمي. وكان من عادة الرومان أن يضعوا فوق رأس المصلوب لوحة بها اسمه وعِلَّةُ صَلْبِهِ، كما يتضح ذلك من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس متى: «وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود.» (مت ٢٧: ٣٧)

ومن كلام ق. يوحنا يفهم العلماء — بحسب أصول اللغة — أنه يقصد أن بيلاطس كتب بنفسه هذا العنوان، ومن كلمة: «كتب» ἔγραψε يفسرون أنه كتب هذا العنوان، بعد أن شئعوا المسيح إلى المكان المعد؛ بل ويعتقدون أيضاً أن بيلاطس هو الذي أمر بصلب المسيح في الوسط.

وعلى كل حال — سواء كتابة العنوان أو الوضع الذي صُلب فيه المسيح — فبيلاطس عبّر وإلى آخر لحظة، عن المرارة والسخط الذي كان يشعر به طوال المحاكمة من اتهام اليهود، وخاصةً لَمَّا رُكِّزوا — بغير حق وبغير وعي — على كونه «ملك». فهو هنا ضرب سهمين في طلقة واحدة، فأصاب كرامة اليهود في الصميم، الأمر الذي احتج عليه رؤساء الكهنة بشدة، فقابل احتجاجهم بإصرار على ما كتب؛ والسهم الثاني ألغى به كل صدى لصراخهم من جهة استخدامهم هذا اللقب لتهديد بيلاطس لدى قيصر، فالآن «ملككم قد مات» وفرصتكم في الشكاية قد ماتت

أيضاً ! ولكن لا يستبعد بعض الشراح أن بيلاطس كان يَكُنُّ للمسيح شعوراً فائقاً، أراد أن يعبر عنه (٢٠).

وهكذا، وبالنهاية، حقق بيلاطس رغبة قيافا التي ظل يحلم بها ويعمل لها : « أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها. » (يو ١١ : ٤٩ و ٥٠)

وهذه النبوة نفسها كانت، في وجهها المنظور لقيافا، أن يهلك المسيح هلاكاً لتنجو الأمة من الرومان، الأمر الذي أكمله بقتل المسيح بسكين الحقد والتشفي، وأهلك أمته، بحماقته، هلاكاً؛ لأنه لم يُخَيِّن الرؤيا ولم يُفَسِّر الحلم كدانيال المبارك، ولكنه كان كهامان الذي أعدَّ الصليب ليصلب نفسه عليه.

أما في وجهها غير المنظور ليوحنا وللمسيح ولنا، فهي أن يُقَدِّم المسيح ذبيحة على مذبح محبة الله، فيقوم، لينجو من الهلاك مَنْ آمَن من اليهود، ويخلص العالم، ولا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به !

٢٠ : ١٩ « فقرأ هذا العنوان كثيرُونَ من اليَهُودِ لأن المكانَ الذي صُلبَ فِيهِ يَسُوعُ كان قَرِيباً من المَدِينَةِ وكان مَكْتُوباً بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ. »

يُعتقد أن الوضع الأصح كما جاء في بعض المخطوطات، أن اللاتينية قبل اليونانية.

كان المكان لا يبعد عن سور المدينة أكثر من بضع دقائق، وكان على الطريق العام — Highway — المؤدي إلى دمشق. فبطبيعة الحال قُرِئَ من كثيرين، بل من عشرات الألوف، سواء الخارجين أو الداخلين إلى المدينة أو المسافرين نحو الشمال. ويُلاحظ أن الوقت هو الفصح، وكان يؤمُّ أورشليم عدة ملايين من اليهود الذين في الشتات من جميع أنحاء العالم، وبكل اللهجات واللغات. وهكذا حلوا معهم الأخبار، وملأوا الدنيا ومهدوها للبشارة بالمصلوب الذي تعيَّن بالقيامة من الأموات أنه ابن الله، ملك الملوك ورب الأرباب؛ حيث صار الصليب هو عرش النعمة الذي نستمد منه القوة والخلص والحياة، بل وبه ومن عليه، نَمْلِكُ معه.

أما ترتيب اللغة التي كتب بها العنوان هنا، فهو بحسب التقليد الرسمي : أولاً اللغة الوطنية

التي تخص البلد (العبرية)، ثم لغة الدولة الرسمية (اللاتينية)، ثم اللغة العامة (اليونانية). وفي الحقيقة، فإن هاته اللغات الثلاث توافق لغة «الدين» ثم لغة «المجتمع» ثم اللغة «الفكرية». وكأنما كان عمل الرومان حتى وفي صلب المسيح أن يهدوا للكراسة بالمسيح على مستوى العالم بمستوياته الثلاثة: الدينية والاجتماعية والفكرية.

وكانت قد بدأت حركة تنوير العالم بكل ممالكه وفرض اللغة اليونانية على جميع البلاد، كلغة رسمية للتكلم بها، والتعامل مع الحكومات الرومانية المحلية. كما بُدِءَ بشق الطرق العامة الرئيسية لتربط ممالك الدنيا كلها مع روما — ومن هنا جاء المثل المشهور: كلُّ الطرق تؤدي إلى روما! — بل وعلى كل طريق وُضِعَتْ العلامات التي تدلُّ على عدد الفراسخ التي تبعد عن قلب روما من أول الطريق حتى نهايته. كل هذه، كانت الدولة الرومانية جاذبة في تنفيذه، وكأنما كانت تمهد للكراسة بملكوت الله في العالم كله.

٢١: ١٩ «فقال رؤساء كهنة اليهود لبلاطس: لا تكتب عليك اليهود بل أن ذاك قال أنا ملك اليهود».

لأول مرة يكتب ق. يوحنا «رؤساء كهنة اليهود»، وكأنما يضعها ق. يوحنا في مستوى ملك اليهود.

لقد أدركوا في الحال، وربما قبل أن يُعَلَّقَ العنوان على الصليب، أن بيلاطس قصد تسجيل تهمتهم على أنها حقيقة رغماً عن أنفهم. قابله محتجين وبلغة شبه آمرة: «لا تكتب»، اللهجة التي قابله بيلاطس بجفاء ظاهر وتعالى الحاكم الأمر.

ويلاحظ في المقابلة بين ما كتبه بيلاطس بخصوص كلمة «ملك» إذ وضع لها أداة التعريف (أَنَّ) والنسب معاً لليهود: «الملك الخاص باليهود» ο βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων ليجعل منه الشخصية الملكية الأولى. فكان احتجاج اليهود وطلبهم أن يَكْتُبَ «ملك» بدون أداة التعريف، ليعطوها صفة الإدعاء وليس الحقيقة: «قال أنا ملك» βασιλεύς εἰμι. وكأنما أراد بيلاطس أيضاً، ومن جهة أخرى، أن يجردهم من قتلقتهم الكاذب، ونسبهم المزعوم لقيصر: «ليس لنا ملك إلا قيصر»، ولكن لا هذا ولا ذاك!!

٢٢:١٩ «أجاب بيلاطس ما كُتبتُ قد كُتبتُ».

إن تعالي بيلاطس في الرد وعناده في عدم التغيير، يُعبّر عن وقفة الحاكم الروماني المعتدّ بعمله الرئاسي. ولكن وراء صوت بيلاطس الحاكم، كان صوت الحكومة الأعلى التي تُعلي ماذا ينبغي أن يكتب التاريخ، وماذا يسجل؛ لأن من فوق الصليب هذا، ومن تحت هذا العنوان عينه، طالب المسيح بمُلْكِهِ الحقيقي. فقد نصّب المسيح نفسه على الصليب ملكاً بجدارة، إلى أبد الآبدين: «دُفع إليّ كلُّ سُلطَانٍ في السماء وعلى الأرض» (مت ٢٨: ١٨). ولم تكن الكتابة التي كُتبت إلا إعلاناً ثابتاً أبدياً، أملاه بيلاطس على كل ممالك العالم، ليسود ويملك على العالم، وبكل لغة! «ما كُتبتُ قد كُتبتُ» — «أحتي الآن لا تفهمون.» (مت ١٦: ٩)

٢ — المرافقون للصليب

(١٩: ٢٣-٢٧)

٢٤ و ٢٣: ١٩ «ثم إنَّ العَسْكَرَ، لَمَّا كانوا قد صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ، وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْماً. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضاً، وَكَانَ الْقَمِيصُ بغيرِ خِيَاظَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ من فَوْقُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا نَشْقُهُ، بَلْ نَفْتِرِغْ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ. لِيَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقُوا قُرْعَةً. هَذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ».

«إلهي إلهي لماذا تركتني ...»

كلُّ الذين يروني يستهزئون بي. يفرحون الشفاء،

ويُثْفِضُونَ الرَّأْسَ، قائلين، اتكل على الرب، فليُنَجِّهْ، لِيُنْقِذَهُ لِأَنَّهُ شَرٌّ

به ...»

كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامي، صار قلبي كالشمع،

قد ذاب في وسط أوعائي. يَبْسُتُ مثل شَقْفَةٍ قوتي

ولَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي ...»

جماعة من الأشرار اكتفتني، ثقبوا يدي ورجلي،

أُخْصِي كُلَّ عَظَامِي، وهم ينظرون ويتفرسون في،

يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يفترعون. «(مز ٢٢: ١-١٨)

«العسكر»:

هم عساكر الرومان، الذين تحت إمرة بيلاطس خاصة. بعد أن انتهوا من رفع المسيح، جلسوا تحت الصليب يقتسمون الغنيمة. ومن النصّ يبدو أن الجو كان بارداً، إذ أن المسيح كان يلبس أربعة أنواع من الثياب، منها ما كان على الرأس وحول الكتف، ومنها ما يذثر به فوق الجسد، ومنها الملابس الداخلية، وتحتها كان يلبس قميصاً منسوجاً نسيجاً واحداً بغير خياطة. هذه كلها، جرّده منها، وبقي ما يستر جسده فقط. لأنه وإن كان الرومان قد اعتادوا أن يصلبوا ضحاياهم عرايا تماماً (كما نرى قماثيلهم التي نحتها أشهر مثاليهم)، إلا أنه في الشرق، وعند اليهود، كان محظوراً حسب الناموس أن يُعرى المحكوم عليه من كل ملابسه (٢١).

و يصف العلامة اليهودي المتنصر إدرزهايم بشيء من التفصيل، ومع ذكر الأسماء، كل أنواع هذه الملابس (٢٢).

كان عدد العساكر أربعة، فكان من السهل تقسيم الملابس الخارجية، وهي تنطق بالعبرية «لابوس» Labus، أما القميص وبالعبرية Ketonet فهو ثوب رئيس الكهنة، وهو قصير إلى الركب فقط: «وفي وسط السبع المئزر ثبته ابن إنسان، متسربلاً بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه، بِمِنْطَقَةٍ من ذهب» (رؤا: ١٣)، وهو — بحسب وصف إدرزهايم — ثمين جداً، وهو الذي يلبسه رؤساء الكهنة لأنه خاص بالناذيرين، وهو منسوج من أوّله إلى آخره بغير قطع ولا خياطة. وهذا الطقس بدأ به موسى أيام خدمته، فكان يلبس مثل هذا الثوب الأبيض بدون خياطة، ويخدم به أمام الله (٢٣).

وهكذا ذهب المسيح، كرئيس كهنة، بملابسه المستورة في الداخل إلى الصليب، لياشر تقديم الذبيحة. ولأنه هو الحمل، نُزِعَ عنه الرداء وهو صامتٌ أمام من يَجُرُّهُ!!

«فقال بعضهم لبعض: لا نشقّه، بل نفرع عليه لمن يكون»:

لقد أطال الشُّرَاحُ قديماً وحديثاً الحديث عن هذا القميص، واتفقوا على أنه يمثل الكنيسة التي لا تنقسم، كقول القديس كبريانوس، الذي يضيف أنه «منسوج كله من فوق»، أي أن وحدة الكنيسة مقرّرة ومُعانة من فوق، من الله، وليس لإنسان أن يُمزّقها. ويزيد على ذلك العالم بولتمان

²¹ Brown, R.E., *op. cit.*, p. 902.

²² Edersheim, *op. cit.*, p. 592.

²³ Ibid.

— وهو غير تقليدي — فيقول على ضوء الأبحاث والتعاليم الرابية في التلمود وغيره، إن هذا الثوب هو مثل الثوب الذي صنعه الله لآدم، وأعطى مثله لموسى ليعخدم به. ويقول آخرون، إنه مثل قميص يوسف الخاص الذي أعطاه له أبوه علامة الحب، الذي نزع من عليه إخوته ولَقَّخوه بالدم، ثم ألقوا قرعة على يوسف نفسه، يموت أو لا يموت (٢٤).

ولكن بهذه الأعمال التي كان يقوم بها العسكر في غير اكتراث، وبالمنظر الدامي أمامهم وكأنهم بلا شعور إنساني، كانوا مدفوعين، يوقعون أعمالهم على صوت داود النبي الآتي من وراء الزمان كلمة كلمة، كما قالها في المزمور الثاني والعشرين أعلاه.

«هذا فعلة العسكر»:

لفتة لتأكيد الفعل: تقسيم الثياب وإلقاء القرعة، والفاعل «العسكر»، وردّه إلى المستوى التاريخي والتبوي، بشيء من الضمان الشخصي كشاهد عيان.

ولا يفوتنا هنا، في أسلوب ق. يوحنا، كيف يوزع في ختام المشهد الأدوار التي قام بها كل فريق حسب نوع عمله، ويردّه إلى النبوة الخاصة به، وكمن يُوقَّع الحوادث على النبوات.

فالأول: بيلاطس (كملك): كتب ما يخصه: «هذا هو ملك اليهود» إعلاناً للعالم كله.
والثاني: رؤساء الكهنة: «ينبغي أن يموت إنسان واحد عن الشعب»، وبهذمهم هيكَل جسده، هدموا هيكَل عبادتهم.

الثالث: اللص: قدّم التوبة مُغْلِناً عن أول ثمرة للصليب: «اليوم تكون معي في الفردوس». وهو أول نُطقٍ ملكيٍّ من فوق عرش الخلاص.

الرابع: العسكر: اقتسموا ثيابه، وألقوا قرعة على القميص، اكتفوا من اللؤلؤة بصندوقها.
الخامس: النسوة: أتَيْنَ لِيُقَدِّمْنَ مُشَارِكَتَهُنَّ القلبية بعواطف النساء، كمندوبين فوق العادة عن البشرية التي في المسيح: «يا امرأة».

السادس: التلميذ الذي كان يحبه: في صمت، قدّم ما يجب أن يُقدِّم من أمانة التلمذة للمعلم الذي «أحبهم إلى المنتهى».

السابع: المسيح يسوع: «يا امرأة هوذا ابنك ... هذه أمك». البشرية التي في المسيح تُسلم الأمانة لمن يستحقها، ويرى «الكلمة صار جسداً»، يستودعه المسيح للكنيسة.

٢٥:١٩ «وكانت واقفات عند صليب يسوع أمّه، وأخت أمّه، (و) مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية».

كان الذين يحيطون بالصليب نوعين من الناس: نوع العسكر الذين يقومون بوظيفتهم الكريهة، ومعهم رؤساء الكهنة والمُعَيَّرُونَ، ومعهم جوقة الهتّافِ الملازمين لهم، يرددون أصواتهم، وربما بالشن.

أما النوع الثاني، فكانوا واقفين على بُعد، في بدء عملية الصلب، ولكن بعد أن خفّت حِدّة العملية وتفرّق رؤساء الكهنة ومنّ معهم، لأن الساعة التاسعة كانت بالنسبة لهم من أخرج الساعات التي يتحتم عليهم أن يكونوا فيها داخل الهيكل يؤدّون وظائفهم من جهة الصلوات وإعداد خراف الفصح. فلما ابتعد الأعداء، اقترب الأحباء، وهن النسوة اللاتي أحضرهن يوحنا ووقف معهن بحرسهن.

وكُنَّ مجموعتين: المجموعة الأقرب للمسيح، وهُنَّ مريم الأم العذراء القديسة، وأختها. والمجموعة الثانية، مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية. هذا الترتيب والتفصيل بين الأسماء، أخذ به أكثر العلماء تدقيقاً، ومنهم العالم والأسقف وستكوت (٢٥).

ويوضح لنا هذا الترتيب بالنسبة للنسوة الثلاث القديس متى هكذا: «وكانت هناك نساء كثيرات يتظرُنَّ من بعيد، وهُنَّ كُنَّ قد تبعن يسوع من الجليل، يَخْدِمُنَّه، وبينهنَّ مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب ويوسي، وأم ابني زبدي» (مت ٢٧ : ٥٦ و ٥٥). فإذا طابقنا هذه الأسماء على الأسماء الواردة في إنجيل القديس مرقس: «وكانت أيضاً نساءً ينظرُنَّ من بعيد، بينهنَّ مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصغير، ويوسي وسالومة» (مر ١٥ : ٤٠). بهذه المقارنة يتبين لنا أن أم ابني زبدي هي سالومة. وهي التي جاء ذكرُها في إنجيل يوحنا مع القديسة مريم هكذا: «وأختها». ونحن نعلم أسلوب ق. يوحنا في ذكر الأسماء، فهو يمتنع نهائياً في إنجيله عن ذكر اسمه أو اسم أمّه، أو حتى اسم أمّ المسيح.

والأمر المحيّر للعلماء هو أن ذكر «مريم المجدلية» يجيء هنا مفاجأة باعتبارها شخصية معروفة دون إشارات سابقة! أو أي تفسير.

ويلاحظ أيضاً أن ق. يوحنا حرص على وصف مريم أنها زوجة كلوبا، بدل أن يقول مريم

أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسَى، لثَلَا يُظَنَّ من جهة «يعقوب» أنه أخوق. يوحنا. كذلك نجد أن القديس مرقس حرص أن يصف يعقوب بالصغير، لثَلَا يُظَنَّ أنه يعقوب أخو القديس يوحنا. لأنه كان يوجد شخصان باسم «يعقوب»، واحد منهما، وهو الأكبر سنّاً هو يعقوب ابن زَبْدِي، أخو يوحنا. كذلك، ولأن القديس متى أورد اسم «ابن زَبْدِي»، فلم يجد ضرورة أن يصف يعقوب بـ «الصغير».

والملاحظ كذلك، أن ق. يوحنا يسلك في ترتيبه لذكر الأسماء سلوكاً إنجيلياً واعياً، فيجعل القديسة مريم الأساس، ويضيف إليها «أختها» إضافة دون أن يذكر اسمها لأنها أُمُّه، ولأنه يبدو أن القديسة مريم العذراء لم يكن لها إلاّ أختٌ واحدة، هي أُمُّ يوحنا.

وبعد ذلك، يذكر مريم الأخرى زوجة كليوباس، وآخر الكل يضع مريم المجدلية، مع أن كلاً من القديس متى والقديس مرقس يضعها في المقدمة لِمَا كان يبدو أنها ذات أهمية وتقوى كثيرة بين النسوة.

ويقول كلٌّ من «وستكوت» و«هنجستبرج» و«إدرزهايم»، ومعهم شُرَّاح كثيرون، أن كلوبا أو كليوباس، هو خَلْفَاؤُس أو «خَلْفَى»، الذي ورد اسمه في إنجيل القديس متى، كوالد لأحد التلاميذ المدعوَّ يعقوب، المدعوُّ هنا بالصغير: «فيلبس و برثولماوس توما ومتى العشار يعقوب بن خلفى ولَبَّائُس الملقب تَدَّائُس». (مت ١٠: ٣)

أي أن المريمات الثلاث اللاتي كُنَّ عند الصليب، هنَّ: مريم القديسة العذراء أم المسيح، ومريم أم يعقوب الصغير أحد التلاميذ وهي زوجة كلوبا أو كليوباس، ومريم المجدلية.

وفي نهاية عملية الصلب وانفضاض معظم الملتقّين حول الصليب، تسبّى للعذراء مع ق. يوحنا الاقتراب من الصليب فصارا في مواجهة المسيح.

٢٦: ١٩ «فَلَمَّا رَأَى بَسُوعُ أُمَّهُ وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا، قَالَ لَأُمِّهِ: يَا أَمْرَأَةً، هُوَذَا ابْنُكَ».

بعد أن انجلت الظلمة التي خيَّمت على الأرض حُزنًا على قتل النور الذي انحجب عن قلوب صالبيه، وقفت العذراء القديسة مريم تحت الصليب — مصلوبة!! تَشَخُّصٌ نحو ابنها، وسيُفَّتَ يجوز في نفسها، كما سبق وأنبأت به نبوة سمعان الشيخ، حينما كانت تحمل ابنها طفلاً، وهي تدخل

المهيكل لتكمل عنه القرايين !! « وباركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضِعَ لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاوَم، وأنت أيضاً تجوز في نفسك سيفٌ، لتُغلَنَ أفكارٌ من قلوب كثيرة» (لوقا: ٢: ٣٤ و٣٥). لقد كانت على علمٍ سابقٍ بما هو حادث أمامها الآن، فالمسيح سبق ووعاها بكل ما سيحدث له، كما قال لتلاميذه، حتى إذا كان، تستطيع من وراء حزنها أن تُدركَ سرَّ الذبيحة والخلاص والمجد. لم تكن آلام المسيح غريبةً عنها، فلحمه من لحمها ودمه من دمها، وسر القداسة وُحِدَ الآلام بينهما. لم نسمع أنها صرخت، كما لم نسمع أنه صرخ. فالآلام امتصَّها الجسد، والروح هيَّمتت، فكان الصمت وكان الهدوء.

هذه هي الأم، هذه هي المرأة، الوحيدة من بين كل الناس التي شاركت المسيح آلامَ صليبه! حول الصليب تجمَّع الشامتون والهاقدون، ولم يكن أحدٌ يذرف دمعاً إلا هذه الأم، التي بكَّت بالدمع الهَتُون (*)! لقد نابت عن البشرية في وداع فاديها.

يلاحظ أن إنجيل يوحنا يستظهر هنا على الأناجيل الثلاثة في أمر النسوة حول الصليب. فبينما نجد الأناجيل الثلاثة يلخِّصون موقف النسوة في نهاية مشهد الصليب باختصار، ويتفقون على أنهنَّ كنَّ ثلاثاً فقط، وكُنَّ واقفاتٍ على بُعدٍ يُشاهدنَّ فقط، ولم يذكروا حضور العذراء القديسة مريم؛ نجد أن إنجيل يوحنا ينفرد بالعدد أربع من النسوة، ويُقسمهنَّ إلى قسمين: اثنتان منهن قريبات وأخصاء للمسيح، أمُّه وأختُ أمه، واثنتان ذوات صلةٍ التلمذة فقط وهما مريم أم أحد التلاميذ — يعقوب الملقَّب بالصغير — ومريم المجدلية.

كذلك ينفرد إنجيل يوحنا بذكرِ العذراء مريم، وبذكرِ نفسه التلميذ المحبوب، وكيف اقتربا من الصليب، فكانا على مستوى النَّظَرِ والسمع والكلام للمسيح المرتفع على الصليب. وظهور القديسة مريم العذراء فجأة مع ق. يوحنا، يوضح ببيان أن ق. يوحنا ترك مشاهد الصلب الأولى، وأسرع بإحضار الأم الحزينة، لإحساسه الذي لم يَخِبْ قط بما يريد المسيح أن يقوله لأمِّه، ككلمة وداع أخيرة يستودع بها أثقلَ وأقدسَ قلبٍ بعد قلبه. إن الإنسانية، في المسيح، تؤدي دور بنوَّتها المُخْلِصة للأُمومة.

وهذا لم تسجِّله الأناجيل الثلاثة، لأن يوحنا وحده فقط كان هو الحاضر، وهو وحده الذي سجَّل هذا الحضور.

(*) "دمع هتون" = الدمع المتواصل.

«التلميذ الذي كان يُحِبُّه» :

إن وضع هذه الصفة لهذا التلميذ في هذا المكان والزمان يُنبئ في الحال بما سيكلفه به المسيح .

«يا امرأة» : Γύναι :

أعطى المسيح لأمه صفتها الأولى : «يا امرأة» ، والمسيح يرفع البشرية — التي منها أخذ — من صفتها الخاصة به كأُمِّه ، إلى مستواها العام للإنسان ككل ، أُمَّنَا . فهي ، بموته ، تأخذ صفة الأمومة للتلميذ ، وبالتالي للكنيسة كلها .

فالمسيح هنا لا يُسَلِّم أُمِّه باعتبارها الخاص به وحده ، بل يُسَلِّم — فيها — البشرية التي قَبِلَتْ — من أجليه — قوة العليِّ وتقدَّست بحلول الروح القدس فيها ليأخذ منها ابنُ الله الوحيد القدوس جسَدَهُ المعلق الآن على الصليب ، والمزعم أن يحتلَّ يمين العظمة لله . فكما أن الجسد المقدس صار جسَدَنَا ، هكذا ينبغي أن الأم التي حملت به وولَدَتْهُ تصير أُمَّنَا .

المسيح هنا يرد الأم — المرأة المولود منها — إلى صفتها الطبيعية «امرأة» ، ولكن في وضعها الجديد ، الذي يعلو فوق حواء الأولى عُلوَّ المسيح عن آدم .

نحن لا نولد الآن من مريم العذراء ، نحن نوَلَدُ بالروح من المسيح ، ونعيش بالروح من الجسد الإلهي بدمه الإلهي والروح الأزلي الذي فيه . ولكن كلٌّ مَنْ يُوَلَدُ من المسيح بالروح ، يحمل في ولادته الروحية الجديدة علاقة المسيح بالأمِّ التي ولدته بالجسد حتماً .

إن كان كلُّ ابن لآدم يولد الآن ، وله علاقة متسلسلة حتمية «بحواء» ، فهذه «المرأة حواء» هي أمُّ عامة لأجسادنا ، فكيف نولد الآن من المسيح ولا تكون لنا علاقة «بالأمِّ العذراء» التي وَلَدَتْهُ . هذه «المرأة مريم» هي أمُّ عامة لأرواحنا . والمسيح بقوله لمريم العذراء أُمِّه : «يا امرأة» يضمها في مستواها الروحي العام للإنسان عامة ؛ كأُمِّ ليوحنا التلميذ المحبوب أولاً ، وكأُمِّ لكلِّ مَنْ أَحَبَّ المسيح وأحَبَّهُ المسيح بالتالي .

«هوذا ابْنُكَ» :

إن العذراء القديسة مريم لم يكن لها أبناء قط إلاَّ المسيح ، وهوذا المسيح يهبها يوحنا ابناً بالتبني ، عوضاً عنه ، يسند قلبها المكسور .

المسيح لم يَخْتَرِ العذراء مريم لتكون أُمًّا له ، بل لقد تَعَيَّنَتْ أُمًّا له من السماء بقوة يمين العلي وروحه القدوس . فمن السماء ، اتخذها أُمًّا ، وتَعَيَّنَتْ لذلك مُسَبِّقاً بوعود ، وتقديس ، ونبوءات ، رآها

إشعياء النبي: «ها العذراء تحبل، وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٤). إنها ثمرة قَسَمِ إلهي صَدَرَ من فم العليّ، أن تخرج من نسل داود في الميعاد لِيَمْلُكَ الخَارِجُ من أحشائها مُلْكُهُ الأبدي. والذي بَشَّرَها بِالْحَبْلِ الإلهي ملاك، والذي حضر الولادة ملاك.

وإن كان المسيح، بهذه اللفظة: «هوذا ابنك»، قد رفع ق. يوحنا إلى مرتبة الأنخوة بالنسبة لنفسه أي للمسيح: «لا يستحي أن يدعوهم إخوة» (عب ٢: ١١)، فكيف نستحي أن ندعو أمّه أُمًّا؟

كذلك لا ننسى أن القديسة مريم العذراء هي من أصل يَسَّى، من جذر داود، التي بواسطتها يستمدُّ المسيح علاقته بـداود والآباء، كابن له: «أوصيًا لابن داود» (مت ٢١: ٩)، ومنها يستمدُّ المسيح علاقته بالقَسَمِ الذي أقَسَمَ به الله لداود من جهة مملكته الأبدية: «أَقَسَمَ الرَّبُّ لداود بالحق لا يَرْجِعَ عنه، من ثمرة بطنك أجعلُ على كرسيك» (مز ١٣٢: ١١)، «حينئذ كلمت برؤيا تَقِيَّتِكَ... وجدتُ داود عبدي، بدهن قُدسي مسحته... أنا أيضاً أجعله بِكراً أعلى من ملوك الأرض... وكُرْسِيَهُ مثل أيام السموات... والشاهد في السماء أمين.» (مز ٨٩: ١٩-٣٧)

معنى هذا، أن القديسة مريم العذراء هي الصلة القائمة والدائمة بالجسد بالآباء والأنبياء والسماء، التي يستمد المسيح غَيْرَهَا كُلَّ وعود الله لداود والأنبياء كافة. فكأنما تسليم القديسة العذراء مريم «أُمِّ» المسيح إلى يوحنا ليكون هو ابنها ولتكون هي «أُمًّا» له، هو بمثابة تسليم العهد القديم بمواعيده الصادقة والأمانة التي تحققت في المسيح ليوحنا، وبالتالي للكنيسة، لتكون للكنيسة، كما كانت مريم العذراء للمسيح، صلة حيّة ثابتة ودائمة بكل ميراث وتُراث الآباء والأنبياء، وتكون الكنيسة الجديدة بمثابة الابن بالتبني (للعهد القديم)، الابن الذي وَرَثَ من أمه أعبادها وتراثها وهي محفوظة ومُصَانَّةٌ في كَنَفِهِ.

إن وصية المسيح كآخر وصية، وهو على الصليب، هي وَمُضَةُ النور التي ربطت العهدين (٢٦).

٢٧: ١٩ «ثُمَّ قَالَ لِلتَّلَامِيذِ: هُوَذَا أَنَا أَنَا. وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التَّلَامِيذُ إِلَى خَاصَّتِيهِ».

«أخذها التلاميذ إلى خاصته»:

إلى صميم رسالته، إلى عِلْيَةِ صِهْيُون ويوم الخمسين، إلى الكرازة منذ لحظتها الأولى.

كان ق. يوحنا مرتبطاً بالقديسة مريم أم المسيح برباط الدم، فهو ابن أختها سالومة. فكان أقرب إليها بالروح وبالجسد من إخوة الرب الذين كانوا إخوة من يوسف خطيب مريم، أي إخوة ليس بالدم ولا حتى بالنسب، لأن يوسف لم يتزوج العذراء بل ظلّ خطيبها فقط، يرعاها حتى مات. وهوذا ق. يوحنا يأخذ دور يوسف في الرعاية مرة أخرى.

الله يرفع الأمومة والبنوة بارتفاع المسيح على الصليب من مستوى الدم واللحم، إلى مستوى الوحدة الروحية لبناء الكنيسة، الكنيسة التي بُنِيَتْ على الأمومة الإلهية والبنوة الرسولية. والملاحظ أن المسيح لما ارتاح إلى هذا الإجراء الذي صنعه، وكان آخر إجراء من إجراءات الخلاص، قال: «قد اكْمِلَ».

القديس أفرآم السرياني يَتَغَنَّى بأشعاره — في القرن الرابع — وهو يتأمل العذراء القديسة تحت أرجل المسيح المصلوب واقفة، فيراها صورة متجلية للكنيسة. ويضيف قائلاً: كما أن موسى عيّن يشوع ليرعى الشعب من بعده، هكذا، وبصورة ما، عيّن المسيح يوحنا، ليرعى أمّه العذراء، أي الكنيسة، من بعده (٢٧).

«ومن تلك الساعة، أخذها التلميذ إلى خاصته»:

كان للقديس يوحنا منزل في أورشليم، ولو أن إقامته كانت في الجليل؛ وذلك حسب تحقيق كثير من العلماء. ولقد نفّذ التلميذ الوصية في الحال، فلم تحضر العذراء الساعة الأخيرة ولا يوحنا، وذلك عن قصد، لأنها كانت ساعة لا تطيقها مشاعر الأم. لقد أسرع بها يوحنا إلى بيته، ولهذا نجد أن وصف ق. يوحنا للساعات الأخيرة للصلب مُخْتَصَرٌ، فهو كان غائباً في البداية، ولم يحضر عند إنزال الجسد.

يُلاحظ هنا أهمية هذا التسجيل بالنسبة لعقيدة الكنيسة بخصوص عذراوية القديسة مريم أم المسيح، فهنا يُنْعِنُ الآباء العظام القديسون أثناسيوس وإبيفانيوس وإيلاريون، في اتخاذ تسليم العذراء ليوحنا البتول وليس لإخوة الرب أو لأي أحد آخر، برهاناً واضحاً هادئاً رزيناً كَوْنُ العذراء لم يكن لها أولاد سوى المسيح ابنها وابن الله.

والمعروف بحسب التقليد، أن القديسة مريم العذراء بقيت مع ق. يوحنا تمارس حياة التقوى

²⁷ Koehler, Th., cited by Brown, R.E., *op. cit.*, p. 924.

والشهادة في أورشليم مدة إحدى عشرة سنة^(٢٨) بعد موت الرب، وتنيحت عن ٥٩ سنة. ومكان قبر القديسة العذراء مريم يقع في وادي قدرون. ولما جاءت الملكة هيلانة، بَتَّتْ عليه كنيسة. والكنيسة الموجودة الآن بناها الصليبيون (أنظر الصورة).

كما يوجد تقليد آخر، أنَّ العذراء رافقت ق. يوحنا في سفره إلى أفسس وعاشت ودُفِنَتْ هناك^(٢٩)، لأنه يوجد حتى الآن — في تركيا الحديثة — على أحد التلال الواقعة على بُعد خمسة أميال من سلقوك Selçuq، وهي أزمير أصلاً، واسم التل بانايا كابيولو Panaya Kapulu، قبر للعذراء القديسة يحكي في صمت وإصرار أن العذراء رافقت يوحنا في كل مكان ذهب إليه.

٣ — النهاية: قد اكْمَلْ

(١٩ : ٢٨ — ٣٠)

الموت الإرادي

٢٨ : ١٩ «بَعْدَ هَذَا، رَأَى (عَلِمَ) يَسُوعُ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلَكَى يَتِمُّ الْكِتَابُ قَالَ: أَنَا عَطْشَانٌ».

«لَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي.» (مز ١٥ : ٢٢)

«وَفِي غَطْشِي يَسْقُونِي خَلًّا.» (مز ٦٩ : ٢١)

إذ أكمل المسيح رغبته في تسليم أمّه إلى يوحنا، وبعد أن اكْمَلَ الإطار الكلي للخلاص حسب الترتيب الذي بدأه: «وهو عالمٌ بكلِّ شيء»، والآن رأى، وصحتها عَلِمَ، أن كل شيء قد كَمَلَ.

«كُلُّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ» : τετέλεσται

يُلاحَظُ المقابلة بين قول ق. يوحنا «قد كَمَلَ»، وقول المسيح بعد ذلك «قد اكْمَلْ» τετέλεσται، وهي نفس اللفظة. وقد اهتم ق. يوحنا، منذ البدء، بمقابلة كُلِّ أحداث الآلام بما جاء عنها في النبوات، حاملاً ذلك شهادة ذات وزن إنجيلي عالٍ للغاية. والآن، يؤكد أنه لكي يتم الكتاب، يورد هنا قمة الآلام ونهايتها: أي قول المسيح: «أنا عطشان». وق. يوحنا هو

²⁸ Westcott, *op. cit.*, p. 276, quoting Nicephoros Callisti (+c. 1350 *Hist. Eccl.* 11.3).

²⁹ Westcott, *op. cit.*, p. 276.

الوحيد الذي سَجَّلَ هذا القول للمسيح، الذي به يدرك العالمون ببواطن الأمور، وخاصة الأطباء، ماذا يعني: «أنا عطشان» بالنسبة للمسيح الذي لم يتأوّه أو يشتكي من أي ألم سابق في أنواع العذاب التي صادفها، بل يصفه الوصف كما تنبأ عنه النبي، أنه "كشاة سيق للذبح، ولم يفتح فاه". ولكنه هنا لم يستطع، بل فتح فاه اضطراراً، كإنسان بلغ به العذاب ما بعد أقصاه، لأنها لحظة الاحتضار الحتمي، لفقدان كل الدم، حيث بلغ الإحساس بالعطش إلى مراكز المخ العليا، التي لا يمكن لإنسان التحكّم فيها. وهنا، العطش يحمل داخله قمة «كل شيء»، أي كل التعذيب اللائق بالخلاص، الذي يوازنه «قد اكمل»، لأن وراء العطش القاتل لا يتبقى إلا تسليم الروح.

يُلاحظ هنا أن ق. يوحنا ضمّن القول: «رأى يسوع أن كل شيء قد كَمَلَ»، كل ما سبق وسجّله الإنجيليون الثلاثة، سواء من جهة التعبير من كل فئة، أو من جهة ساعات الظلمة الثلاث، وانشقاق حجاب الهيكل، والزلزلة، وشهادة رئيس الجند، وقول المسيح: «أَلُوِي أَلُوِي لَمَّا شَبَقْتَنِي»، وتفسير الجموع الخاطيء لهذا القول. لأن تركيز ق. يوحنا كان على شخص المسيح نفسه، وعلى ما فات على الإنجيليين تسجيله من أقواله وهو على الصليب.

وكل شيء قد اكمل، في نظر المسيح، يعني أن كل ما يلزم لذبيحة الخلاص وتقديمها أمام الأب قد استوفاه لقيام حياة جديدة للإنسان. فقد اكملت خَلْقُ السماوات الجديدة والأرض الجديدة ليسكن فيها البر، على نَمِط ما صنعه الله بالكلمة في البدء حينما «اكملت السموات والأرض وكل جُثديها». وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل «(تك ٢ : ١ و ٢)، وهوذا المسيح قد فرغ للتوّ، في اليوم السادس، ليدخل راحته في اليوم السابع أيضاً ليستريح من كل أعماله التي عمل.

لقد استجابت الطبيعة لكلمة المسيح: «قد اكمل». فابتدأ العالم القديم يعطي إشارات أنه تداعى أمام العالم الجديد الذي خُلق، فتزلزلت الأرض، وتشققت الصخور، لأن صخر الدهور المُقْتَطَع بغير يد من لحم الإنسان ودمه، صار هو الجبل الذي يملأ العالم والسماء، وهو الذي سَحَقَ العالم الوثني سحقاً مع رؤساء وسلاطين عالم الظلمة. كما تداعى النظام القديم للعبادة المرتبطة بالعالم القديم، فانشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، وكأنها وقْصَة من السماء أتته من فوق لتُلغى وجوده، لَمَّا انشق جنب «الحجاب الجديد» — أي جسده — ليفتح عالم الله على الإنسان، وليصير طريقاً للعبور إلى قُدُس أقداس الله. وانحلَّ سلطان الموت لحظة قبول المسيح للموت في

داخله، فظفرت به الحياة التي فيه، وحاصرته، وأطبقت عليه، وسحقته سحقاً، فبطل عمله. وتفتحت القبور وخرجت أجساد الراقدين، تستقبل فجر اليوم الجديد الذي صنعه الله لأزمة الخلاص (مت ٢٧ : ٥٢ و ٥٣).

هذا التكميل أو التتميم فهمته الكنيسة، كما قاله المسيح تماماً: «وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت، تمموها، إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علّة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل، ولما تمّموا (أكمّلوا) ἐτέλεσαν كل ما كُتِبَ عنه، أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبر» (أع ١٣ : ٢٧-٢٩). يلاحظ القارئ في هذه الآية صدقاً قوياً لتسجيل ق. يوحنا، وبنفس الكلمات، فهو تقليد كُتِبَ قبل أن يكتب يوحنا إنجيله.

لقد كانت مسرّة الرب أن يعمل في السبت، والآن قد أكمل تعاليمه، بل وآلامه، قبل أن يلوح السبت ليدخل، ونحن معه، إلى راحته الأبدية في سبت الله الروحي.

٢٩ : ١٩ «وكان إناء موضوعاً مملواً خللاً، فملاؤا إسفنجة من الخل، ووضعوها على رؤوسهم، وقدموها إلى فيه».

هذا الإناء يذكره فقط ق. يوحنا، كذلك نوع هذا الخل οἶνος، وهو نوع من النبيذ الفاسد، يشربه القسّكر لخصه (٣٠). ولكن وجود إسفنجة وقصبة أو زوفا خاصة لرفعها، يُعني تماماً أنها جزء من ترتيبات الصليب كلها، كانت موجودة ومُعَدّة لمثل ذلك العمل. فالوعاء للإسفنجة، والإسفنجة للوعاء، لأنه يستحيل إعطاؤه كأساً ليشرب (٣١). وقد اشتركت الأناجيل كلها في ذكر هذا المشهد، ولكن ق. يوحنا هو الوحيد الذي يقول أنه قَبِلَ أن يشرب. وواضح أن تقديم الخل كان عملاً فيه نوع من الرحمة، وليس المقصود به المضايقة.

³⁰ Brown, R.E., *op. cit.*, p. 909.

(٣١) ويقول العالم جون ليون موريس في كتابه: «الإنجيل بحسب القديس يوحنا» ص ٨١٤ نقلاً عن آخرين، أن من تقاليد قوانين السهرديم المعمول بها مُنْذُ القدم: [إذا اقتيد أحد من الناس للقتل، فإنه يعطى جرعة من الخمر، مُذاباً فيه قطعة من اللبان (المُر) حتى تتخلد حواسه. لأنه مكتوب: «أعطوا مُشْكِراً لمن سيهلك، وخرّاً لمرّي النفس. يشرب وينسى» (أم ٣١ : ٦). وقد صار التعليم أن النساء الشريفات في أورشليم كنّ تعودن أن يَمُنَّ بتقديم هذا].

٣٠ : ١٩ «فلما أخذ يسوع الخلَّ قال: قد اكْمِلَ. وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ».

هنا يذكر الكتاب أن المسيح رَضِيَ أن يشرب من الخلِّ. أما في بداية الصلب، كما جاء في إنجيل القديس متى (٢٧: ٣٤)، رفض المسيح المشروب المخدِّر حينما قدموه إليه، وكان خللاً ممزوجاً بمرارة، ليلطف من آلام الجسد المبرَّحة، ولكن المسيح جاء «ليذوق الآلام لأجل الكل» وقد «لَاقَ ... أن يُكْمَلَ رئيس خلاصهم بالآلام» (عب ٢: ١٠)، و«ينبغي أن المسيح يتألم بهذا» (لوقا ٢٤: ٢٦). وأخيراً، ذاق الخلَّ ليستطيع أن ينطق الكلمة الأخيرة: «قد اكْمِلَ»، ويكْمَل الكتاب القائل: «وفي عَظْشِي، يَشْقُونِي خَلًّا.» (مز ٦٩: ٢١)

وواضح في إنجيل ق. يوحنا، أنَّ المسيح أسْلَمَ الحياة وهو في ملء الحياة، ومالكاً لكل قواه. وتَمَّ قوله: «ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي، لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨). وإن كان المسيح قد طلب هنا أن يشرب، فلكي يستطيع أن ينطق الكلمة الأخيرة — بصوت عالٍ كما جاء في الأناجيل الأخرى، لهذا قيل: «فلما أخذ ... قال».

«قد اكْمِلَ»:

«العمل الذي أعطيته لأعمل قد اكْمَلْتُهُ.» (يو ١٧: ٤)

إنها صرخة النَّصْرِ الأخيرة، فقد اكْمَلَ عملاً، يشقُّ على أي كاتب ماهر أن يصفه، بل يشقُّ على أي تصوُّر أن يصفه. لم يَسْتَطِعْ ق. يوحنا، بكل ما كان له من وعي إنجيلي ورؤيوي أن يزيد على هذا كلمة، أو يشرح ما تحويه بكلمة. ففي ظنِّه أن كُتِبَ الأرض لا تَسْعُها، ولا الأرض تَسْعُ الكتب إذا كُتِبَتْ. فقد أكمل عملاً أخذه من الآب، وأكمله بكل شروطه التي عرفناها والتي لم نعرفها بعد، أن ينزل من الحِضْنِ الأبويِّ، ويلبس عار الإنسان عوض النور الذي يلبسه. وأن يصير في الهيئة كَعَبْدٍ، ويتَّضع تحت أرجل عبده، أن يأخذ خطية الإنسان أخذاً، لتدخل جسده دخولاً، فيَقْبَل بها اللعنة قبولاً! فيصبح بالخطية واللعنة قابلاً للمدَّة، مُتَقَبِّلاً للإذلال، ومستحقاً للموت، بسبب ما وَضَعَهُ على نفسه، لا بسبب ما وَضَعَهُ عليه الآخرون. منظوراً للناس، كأنه مستحقُّ الضرب والإذلال، وهو مضروب ومُذَلٌّ بسبب ما أخذه عنا. ومن واقع ما حمله من شرِّ الإنسان، طمع فيه الشيطان، إذ وجد له فيه مدخلاً وليس مأخذاً! لأنه من الداخل، كان ما كان، نورٌ ليس فيه ظُلْمَةٌ البتة، قدَّوس بلا عيب ولا شر.

زحف عليه الموت حتى غَطَّاه، عن حق وعدالة، لأن الخطية التي لَبِسَهَا واللعنة التي صار إليها

هما والموت رفيقان وصيَّوَان لا يفترقان! فلا يمكن أن يؤخذ واحد ويترك الآخر، فأخذهما كليهما ليوفي بالواحد كَيْلَ الآخر! فبالموت، داس الموت، لما داس الخطية، وبالحياة والقدوسية التي له، انفصل عن الخطية والخطاة، وارتفع إلى أعلى السموات، بعد أن صنع تطهيراً أبدياً لخطايانا، وجلس في يمين العظمة في الأعالي (عب ١: ٣).

قام، حقاً قام، ولكن لم يكن في ذلك عَجَبٌ، لأن القيامة كانت فيه، قبل أن يموت، وفي الموت، وما بعد الموت، فهو الحيُّ الأزلِّي الذي لا يموت. ولكن العَجَبُ العجَاب والمعجزة الكبرى أن يموت مَنْ هو حقاً «القيامة والحياة». يقولون إنه مات بالجسد! ولكن، وحتى هذا الجسد، كيف يموت وهو الذي وُلِدَ من الروح القدس، ومن عذراء تقدّست بالروح القدس؟ فله جسدٌ بلا خطية، وعاش. ولم يَقْبَلْ أن يدخل على جسده خطية، فأعلن المسيح إعلاناً: «من منكم يُنْكُتُنِي على خطية؟» (يو ٨: ٤٦)، متحدياً لا الأعداء، بل فكر الإنسان؟ فكيف يموت جسدٌ مثل هذا، والموت هو استحقاق الخطاة: «لأن أجرة الخطية هي موت» (رو ٦: ٢٣)؟ هنا معجزة المسيح والصليب والموت. فلولا أنه أخذ منا عنصر الموت، أي الخطية، وقَبَلَهُ في جسده قبولاً، وارتضى بملء إرادته أن يقف من الله أبيه موقف الإنسان المتعدي عَوَضَ المتعدين، ليقبل منه التخلي مع مَنْ قَبَلُوا التَّخْلِيَةَ من الله، لا شكلاً، بل بالحقيقة، وإلا ما استطاع أن يلطمه عبْدُ رئيس الكهنة، ولا أن يَبْصِقَ في وجهه أعضاء السهدير، ولا أن يهزأ به العسكر، ولا أن يذَّوّه على الصليب، ولا أن يتجرأ عليه الموت ويدخل إلى أعماقه!!

أن يموت المسيح بالحقيقة، فليست هذه معجزة الإنسان، بل معجزة الله، أن يبذل ابنه الوحيد بذلاً، ويتركه للموت تركاً، بل ويسحقه بالحزن سحقاً! ومعجزة موت المسيح كلها، هي معجزة حُبٍّ وقداسة. حُبُّ الله للعالم الساقط واللاهي عن سقوطه! وقداسة المسيح التي ألْبَسَهَا الخطية والموت لبساً! فحُبُّ الله الآب للإنسان وازن ثَقُلَ الصليب والآلام لابنه الحبيب، فتعادلا، وفاض الحبُّ ولا يزال فائضاً! وقداسة المسيح وازنت «عنصر» الخطية في «الإنسان» بكل صنوفها وقُبْحِها، وفي الناس جميعاً كل الناس، فَرَفَعَتْهَا عن كاهل الإنسان، بل مَحَتْهَا محوً، بعنصرها القاتل، كما من جسد المسيح المُقَام، كذلك من كل جسد في المسيح يؤمن بمن مات وقام! فهذا الخلاص «قد اكْمِلَ» «وتمَّ الفداء».

«ونكس رأسه» وصحتها «أمان (أو أحنى) رأسه» κλίνας :

الذي لم يَكُنْ له أين يسند رأسه، أسندَهَا أخيراً على الصليب كما على حضن الله. لأنه «كان

ينبغي أن المسيح يتألم بهذا، ويدخل إلى مجده» (لو ٢٤: ٢٦)، «لأن الذي دخل راحته، استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله من أعماله.» (عب ٤: ١٠)

«وأسلم الروح»:

رآه إشعياء، بالنبوة، في هذا المنظر عينه: «أنه سَكَبَ للموت نفسه» (إش ٥٣: ١٢). لم تؤخذ رُوحه منه كبشر؛ بل سَكَبَ هو، بنفسه، رُوحه بإرادته، كمن يذبح ذبيحة ويشكب روحها مع دمها. هكذا المسيح قَبِلَ سَفْكَ دمه بيد الذابحين، أما رُوحه فسَكَبَهَا بيده في يد الآب سَكِباً. فأَسْلَمَهَا له تسليماً، كمن يستودع وديعة، هو وشيك أن يستردها: «يا أبتاه في يديك أَسْتَوْدِعُ رُوحِي.» (لو ٢٣: ٤٦)

□□□

والآن، يليق بنا أن نسترجع من إنجيل ق. يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى، ما قاله المسيح على الصليب. هي سبع كلمات:

ما قبل الظلمة التي جاءت على الأرض:

- ١ — «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو ٢٣: ٣٤)
- ٢ — «الحق الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.» (لو ٢٣: ٤٣)
- ٣ — «يا امرأة هوذا ابنتك ... هوذا أمك.» (يو ١٩: ٢٦)

أثناء الظلمة:

- ٤ — «إيلي إيلي لَمَا شَبَقْتَنِي.» (مت ٢٧: ٤٦؛ مر ١٥: ٣٤)

بعد الظلمة:

- ٥ — «أنا عطشان.» (يو ١٩: ٢٨)
- ٦ — «قد اكْمِل.» (يو ١٩: ٣٠)
- ٧ — «يا أبتاه، في يديك أستودع رُوحِي.» (لو ٢٣: ٤٦)

هي سبع كلمات لم يخبرها إنجيل واحد بأكملها، ولكن الأربعة معاً احتووها، لتخرج لنا هكذا، باتحاد الأصوات، كما من قيثارة بيد داود!

٤ - طلبان يُقدَّمان إلى بيلاطس،

يستجيب لهما في الحال

(٤٢-٣١:١٩)

الأول: طلب تكسير السيقان للتعجيل بالموت: (٣٧-٣١:١٩).

٣١:١٩ «ثمَّ إذْ كانَ استعداداً، فلَكي لا تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ، لِأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيماً، سَأَلَ الْيَهُودُ بِيلاطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا».

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل من عُلق على خشبة.» (غل ٣: ١٣)

ق. يوحنا ينفرد بسرد دقائق هذه الحادثة، ويركّز كثيراً على أهميتها بشهادته.

«(الاستعداد): παρασκευῆ»

هو اليوم السادس من الأسبوع في العادة. الآن «اليهود»، ويقصد بهم ق. يوحنا أعضاء السنهدريم، وهم لا يزالون يناورون، وقد تمموا شهوة حقدهم، وأكملوا تزييف قضية القتل حتى النهاية؛ سبقوا وذهبوا إلى بيلاطس يطالبون بضرورة إنزال الجسد من على الصليب تمييزاً لحرفية الناموس: «وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقتل، وعُلّقته على خشبة. فلا تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الخَشَبَةِ، بَلْ تَذْفِئْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. لِأَنَّ الْمَعْلُوقَ مَلْعُونٌ مِنْ اللَّهِ. فَلَا تُنْجَسْ أَرْضُكَ الَّتِي يَعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث ٢١: ٢٢ و٢٣)

ولأن في ظنّهم، لن يموت المسيح سريعاً، وهكذا يدخل (السبت) اليوم التالي للصليب فتتنجس به الأرض وهو معلق، طلبوا مُسَبِّقاً بكسر سيقان الكل أي المسيح واللصين، ليعبّجوا من الآن بموته. وواضح من هذا، الاتجاهُ إلى مزيد من التشفّي لكسر ساقيه وهو حيٌّ!! بالإضافة إلى الاطمئنان إلى أنه يموت أيضاً ميتة لا قيام منها حينما تكسر ساقاه! وكان الطلب، ولو أنه لا يدخل في صلاحية القانون الروماني ويمكن رفضه (٢٢)، إلا أن بيلاطس وافق عليه.

وكلمة «الاستعداد» تجوز على يوم ما قبل السبت كما تجوز على يوم ما قبل العيد، فالثلاثة الأناجيل أخذوها بمعنى الاستعداد للسبت، أما ق. يوحنا فأخذها بالاعتبارين أي اعتبار السبت، ولأن هذا السبت هو المحسوب أول أيام الفطير وهو «عيد الفطير» اعتُبر يوم هذا السبت عظيماً: «سبعة أيام تأكلون فطيراً، اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم. فإن كل من أكل خيراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع تُقَطَّعُ تلك النفس من إسرائيل. ويكون لكم في اليوم الأول محفل مقدس. وفي اليوم السابع محفل مقدس. لا يُعمل فيهما عمل ما، إلا ما تأكله كل نفس، فذلك وحده يُقتل منكم.» (خر ١٢ : ١٥ و ١٦)

السبت العظيم:

كان لا بد أن يأتي هذا السبت هكذا عظيماً، ليس على مستوى أيام طقس اليهود بعد، بل على أزمنة الخلاص، وكل ساعاته مقبولة، لأنه كان لا بد أن يدخل المسيح بعد عناء الصليب وتكميل الرسالة الشاقة جداً إلى راحة سبَّته العظيم، الذي أشرق شمسُه في السماء وليس على الأرض، ليبقى سبتاً إلهياً إلى أبد الأبد. لم يُخلق سبتٌ، منذ أن خلق الزمن وإلى أن يزول الزمن، مثل هذا السبت الذي دخل فيه المسيح إلى راحته وأدخلنا معه حيث لا زمن بعد، بل حياة أبدية وسيرة مقدسة مكتوبة مُفرداتها في السموات: «فَلْتَخَفْ أنه، مع بقاء وعدٍ بالدخول إلى راحته، يُرى أحدٌ منكم أنه قد خاب منه ... فَلْنَجْتَهِدْ أن ندخل تلك الراحة.» (عب ٤ : ١ و ١١)

ويوم الاستعداد يبدأ من مساء الخميس، من الساعة السادسة وحتى الساعة السادسة مساء يوم الجمعة عشية السبت. وبعض الشراح الذين ينحازون لتوقيت الثلاثة الأناجيل الزمني، يعتبرونه يوم ١٥ نيسان، مثل بولتمان وكثيرون، وآخرون يعتبرونه ١٤ نيسان اليوم الذي يُذَبِّح فيه الفصح، والذي صُلب فيه المسيح، مثل وستكوت وريمون براون وآخرون كثيرون، حيث يوم ١٦ نيسان يكون أيضاً عيداً رسمياً هو عيدُ ترديد حُزْمَةِ الباكورة، أي باكورة القمح:

«وكلم الرب موسى قائلاً: كلّم بني إسرائيل، وقل لهم: متى جئتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم وحصدتم حصيدَها، تأتون بحزمة أول حصيدكم إلى الكاهن، فيردّد الحزمة أمام الرب للرضا عنكم، في غد السبت يرددها الكاهن.» (لا ٢٣ : ٩-١١)

وهذا السبت هو السبت الأول بعد الفصح. أما «غد السبت» بالنسبة للمسيح ولنا، فهو عيد القيامة، حيث قدّم المسيح نفسه للآب كباكورة من بين الراقدين، كحصادٍ وفير جداً لحبة الحنطة التي ماتت يوم الجمعة!! فعندما كان رئيس الكهنة وزمرته منهمكين في استلام باكورات الشعب

منذ فجر الأحد، والشعب كله مسرّعاً لإسراعاً لتقديم باكوراته، كان المسيح قد قام وقدّم نفسه باكورة، وابتدأ يجمع أول حزمة من حصيده من المريمات والتلاميذ، ليرفعها ويردّها على المذبح الناطق السمائي، رائحة بخور تدخل إلى عظمة الآب السمائي.

ويلاحظ أن كلاً من إنجيلي القديس مرقس والقديس يوحنا يتفقان، كل واحد مع الآخر، في كون المسيح صُلب يوم الجمعة، وهو يوم الاستعداد: «ولما كان المساء، إذ كان الاستعداد، أي ما قبل السبت، جاء يوسف الذي من الرامة مُشيرٌ شريف، وكان هو أيضاً مُنتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسوع» (مر ١٥ : ٤٢ و٤٣). ولكن يتفق إنجيل القديس متى مع القديس لوقا في أن ذلك اليوم كان ١٥ نيسان، أي ثاني يوم ذبح الخروف، في حين أن إنجيل يوحنا يؤكد في مواضع كثيرة، كما سبق وذكرنا، أن المسيح صُلب يوم الفصح ١٤ نيسان.

«لكي لا تبقى الأجساد على الصليب»:

كان القانون الروماني يُمنع في التشهير بالمجرمين، فكان يُبقي على أجسادهم معلقة على الصليبان ربما لأيام، وحتى لكي تفتك بها طيور السماء، وذلك عبرة للمجرمين، ولزيادة هيبة القانون. ولكن الناموس اليهودي يمنع ذلك، باعتبار أن مَنْ عُلّق على خشبة هو ملعون من الله، فإذا بقي على الخشبة لثاني يوم فإنه ينجس الأرض، أي أرض إسرائيل! «فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله. فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث ٢١: ٢٣)

«أن تُكسر سيقانهم» (٣٣): Crurifragium (اصطلاح كسر السيقان):

كانت الآلة التي تكسر بها السيقان مطرقة خشبية ثقيلة. وكانت هذه العملية بحد ذاتها عملاً وحشياً، لا يطبق الإنسان النظر إليها، وكانت الآلام الناتجة لا يمكن وصفها. وكان هذا الإجراء عقوبة قائمة، بحد ذاتها، عند الرومان، والآن أرفقوها بالمصلوب. ولكنهم بالنسبة للمصلوب المعلق الذي تتعذب روحه من طول فترة النزاع الأخير، ربما كان يُحسب هذا عمل رحمة (أعتقد أنها حتى للحيوان لا تُعتبر رحمة). والمعروف أن المصلوب قد يمكث على الصليب في نزعه الأخير ربما إلى أيام (٣٤). لهذا نجد أن بيلاطس، في إنجيل القديس مرقس، يتعجب كثيراً من سرعة موت الرب

(٣٣) في الحفريات الحديثة في اورشليم، وُجد هيكل عظمي لرجل من القرن الأول. وُجد كلا ساقيه مكسورين.

See: Brown, *op. cit.*, p. 934.

^{٣٤} Edersheim, *op. cit.*, p. 613.

على غير العادة.

وفي العادة، لم تكن تكمل الوفاة بتكسير الساقين، فكان يجري على المصلوب ما هو معروف في القضاء بـ *coup de grâce* أي «الضربة القاضية من أجل الرحمة» بحد السيف، أو بضربة *percussio sub alas*، وتعني ضربة عنيفة تحت الإبط والذراع ممدودة^(٣٥) أو بطعنة حربة مصوَّبة للقلب لتقضي في الحال على المتألم^(٣٦). وهذه كانت تُعتبر ملحقاً لعقوبة الصلب، لتقليل زمن النزاع للموت.

واليهود اختاروا سحق العظام للساقين. ولكن احتراسهم الشديد جداً للقضاء على المسيح، جعلهم حتى وبعد موته يستوثقون من غرضهم بطعنة الحربة.

٣٢:١٩ «فأتى العسكر وكسروا ساقَي الأول والآخِرِ المصلوبِ معه».

العسكر كانوا أربعة، فكان لكل مصلوب حارسه. بهذا تفهم لماذا ذكر اللسان أولاً مع أن المسيح في الوسط. فكل حارس كمل الأمر الصادر إليه، فلما جاء الحارس المنوط بحراسة المسيح، رأى أنه مات، فامتنع عن إجراء الكسر. وهكذا كُسِرَت ساقا اللصِّ المجذوف والتائب كليهما. فالعالم لا يستطيع، في صبِّ غضبه، أن يفرِّق بين البار والشرير، فحادثة واحدة تحدث لكليهما: لواحد تُحسَبُ له نِعْمَةٌ، ولآخر تُحسَبُ له نِعْمَةٌ، لواحد يأخذها كأجر، والآخر يأخذ عنها الأجر!!

٣٣:١٩ «وأما يسوع، فلَمَّا جاءوا إليه، لم يَكْسِرُوا سَاقِيهِ، لأنهم رأوه قد ماتَ».

«لأنهم رأوه قد مات»:

الرب مات سريعاً! هذا كان موضع تعجب بيلاطس، الذي أراد أن يستوثق من هذه الحقيقة، فاستدعى قائد المائة، وسأله وتحقق فعلاً أنه مات: «فتعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً، فدعا قائد المائة، وسأله: هل له زمانٌ قد مات؟» (مر ١٥: ٤٤)

إن كان القديس بولس انتهى أن ينطلق وهو صحيح وسليم يذبُّ على الأرض، فكيف تكون نفسُ الرب بعد هذا العذاب المرير، لقد كان الموت بيده كما كانت الحياة، فلما استوفى متطلَّبات

³⁵ Ibid., quoting others.

(٣٦) فرار، «حياة المسيح»، ص ٧٨١.

الموت وعلاماته، وأكمل نزيه الذبيحة بالقدر الذي يكفي لخلاص العالم، اكتفى الرب بهذا الحد وانطلق: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو ١٦: ٧)، فلماذا التأخير في إتيان الخير؟

النفس بقدر تعلُّقها بالعالم، والأهل والأحبَّة، ومسرَّات الدنيا، تتعَوَّق في الجسد كثيراً، لا تشاء أن تفارقه. والرب أنهى معركته مع العالم، وسلَّم الأم للحبيب، وكانت أمامه في الأعالي مَسْرَّات عظمى تنتظره، فلماذا التعوُّق على الأرض؟ وبقدر ما كانت أعمال الأرض الكثيرة، التي أعطاه الآب ليكملها، تشدُّه كما يشدُّ الجوعُ والعطشُ الإنسانَ للجري وراء الأكل، بقدر ما أسرع في فكِّ الرُّبُط عنها، لمَّا أكملها حتى النهاية، كالشبعان الذي يزهد الأكل في النهاية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو ٤: ٣٤)، «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤)، «قال قد أكمل ونكَّس رأسه وأسلَّم الروح». (يو ١٩: ٣٠)

وكلُّ إنسان يسلم الروح، تتنكَّس رأسه عن غير إرادة. أما يسوع فنكَّس رأسه أولاً، ثم أسلم الروح، هذه بإرادته وتلك بإرادته، ليبقى سيداً على الموت لمَّا يستقبله. فقد استدعى المسيح الموت، ومات، كما استدعى الإنسان النوم ونام: «لي سلطان أن أضعها»، «ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي» (يو ١٠: ١٨). فالموت، في اعتبار الرب، ليس أكثر من نوم تعقبه اليقظة: «لعاذر حبيبنا قد نام، لكنني أذهب لأوقظه... وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم يسوع حينئذ علانية: لعاذر مات» (يو ١١: ١١-١٤). وذهب، وبالفعل أيقظه!... وداود في المزمور لم ير في موت الرب وقيامته معاً إلا كنائم ثمل من الخمر استيقظ فجأة: «فاستيقظ الرب كنائم كجبارٍ معيَّطٍ (ملتهب) من الخمر، فضرب أعداءه إلى الوراء، جعلهم عاراً أبدياً» (مز ٧٨: ٦٥ و ٦٦)، «لماذا تطلبن الحي بين الأموات، ليس هو ههنا، لكنه قام». (لو ٢٤: ٦ و ٥)

وبعدما سلَّم المسيح أمه لتلميذ سبق فأحبَّه، وسلَّم الجسد لفريسي سبق وولَّده مع غنيٍّ له قبر، سبق فأعدَّه، حينئذ انسلَّ من الجسد الميت، لمهمة أخرى كانت تنتظره إذ «ذهب فركز للأرواح التي في السجن». (١ بط ٣: ١٩)

١٩: ٣٤ «لكنَّ واحداً من العسكِرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِخَرْبَةٍ، وَلِلوَفْتِ خَرَجَ دَمٌ وَقَاءٌ».

«فينظرون إليَّ، الذي طعنوه، وينوحون عليه كنائج على وحيدٍ له.»

(زك ١٢: ١٠)

«وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ لَا يَكُونُ نَوْمٌ... وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ مِيَاهَا حَيَّةٌ تَخْرُجُ مِنْ أُورُشَلِيمَ، نَصْفُهَا إِلَى الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَنَصْفُهَا إِلَى الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ... وَيَكُونُ الرَّبُّ مَلِكاً عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ.» (زك ١٤ : ١٨ و ١٩ و ٢٠)

لقد كان ذلك ليستوثق الحراس من صحة موت المسيح. وكان الطعن بالحربة إحدى الوسائل القانونية للإجهاز على المحكوم عليهم بالموت للتعجيل بالموت. ولكن يد النبوة كانت هي التي حرّكت هذا الشك في قلب ذلك العسكري، ليتّهم ما كان مقضياً به على الأرض.

«الحربة»: باليونانية λόγχη وباللاتينية Lancea :

وهي الحربة التي نراها الآن في أيدي الجنود الحثالة. وطعنة الحربة تخترق الجسم بسرعة شديدة، فهي مدببة الطرف، حادة إلى أقصى حد. ويقول العلماء، أنه لكي تصل إلى القلب وتمزّقه، وهذا هو الغرض الأساسي من الطعن، يلزم أن تأتي الضربة من اليمين إلى اليسار. وهذا هو ما تسلمناه بالتقليد تماماً، فالمتوارث عند الآباء أنه طعن في جنبه الأيمن.

«وللوقت خرج دمٌ وماءٌ»:

«الذي أحببنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه.» (رؤ ١ : ٥)

«وقد غسّلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف.» (رؤ ١٤ : ٧)

اهتمام ق. يوحنا لهذه الحقيقة بشهادة موثقة من الحق، جعل الآباء ينظرون إليها نظرة روحية ولاهوتية خاصة. لأن اشتغال ق. يوحنا الأساسي هو الشهادة للاهوت المسيح، وأول وأهم معنى لخروج الدم والماء من جسد المسيح الميت هو الأمر الذي يخالف طبيعة الإنسان، هذا يعني أن الجسد مات، ولكن لم يَرَفْسَاداً وبالتالي فهو جسد ابن الله حقاً.

— فخرج الدم والماء معاً شيئاً، وخرج الدم له معناه، ثم خرج الماء له معناه أيضاً.

— فخرج الدم والماء معاً، يذكّرنا بكأس العشاء، وهو كأس الإفخارستيا الممزوج (٣٧). فنحن هنا أمام صورة حياة لذبيحة ميّنة، على مستوى التحقيق البشري، بالرؤيا العينية، والمعاناة الفاحصة، وشهادة شهود جنود متمرّسين في القتل. وفي نفس الوقت، ذبيحة حياة على المستوى

(٣٧) «(الحكمة) دَبَحَتْ ذَبَحَهَا، مَزَّجَتْ خَمَرَهَا، أَيْضاً رَتَبَتْ مَائِدَتَهَا... هَلَمُوا كُلُوا مِنْ طَعَامِي، وَاشْرَبُوا مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي

مَزَجْتُهَا.» (أم ٩ : ٢ و ٥)

الفائق على الطبيعة، فينبوع الدم والماء، ولو أن له الشكل والقوام والمادة الطبيعية، ولكنه في مناسبة وفي وضع يخالف كلياً وبصورة قاطعة كل دلائل الموت الطبيعي وعلاماته التي تَمَّت وكمُلَّت. فالحياة هنا التي يتحرك بها الدم والماء، هي حياة فائقة عن علامات الحياة الطبيعية للدم. إذن، فهي جسدٌ مَيِّتٌ بحسب الإنسان، وهي، وبأن واحد، ذبيحة حية ناطقة على المذبح الناطق السمائي، بحسب الإيمان، تعلن أنه قد تمَّ الفداء، وأن العقوبة استُكْمِلَتْ، فتم الغفران أيضاً. فالموتُ بآلامه قُبِلَ بكل شروطه من الحي الذي لا يموت، وبه استطاع البارُّ أن يبرِّزَ كثيرين.

كذلك، نحن هنا أيضاً أمام صورة حيّة طبق الأصل من ليلة العشاء: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين لغفرة الخطايا» (مت ٢٦: ٢٨). فخرج الدم والماء من جسد المسيح الميت، هو بمثابة ينبوع الحياة الأبدية، الذي انفتح على الكنيسة على يد ق. يوحنا وبشهادته. فالكأس الذي قدّمه المسيح ليلة العشاء، بعد أن قَسَمَ ومزَّق الجسد، والدم فيه على مستوى السرِّ، استعلنه اليوم والجسد مُمزَّق (مكسور) بالفعل، والدم مسفوك بالحق. فهناك إفخارستيا سرّية، وهنا إفخارستيا علنية مشروحة.

— أما خروج الدم بحد ذاته، سائلاً يسيل ويجري، ويخضّب الجسد، فهذا علامة الحياة ولا شك، ولكن أيّ حياة؟! قدم المسيح هو «روح أزلي»، «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله، بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحي». (عب ٩: ١٤)

وعلى خروج «الدم» من جنب المسيح المطعون، ورثنا صلاة القسمة السريانية التي يقولها الكاهن وهو «يقسم الجسد»:

هكذا بالحقيقة تألم	كلمة الله بالجسد،
وذبح وأحتى رأسه على الصليب،	وانفصلت نفسه من جسده؛
أما لاهوته فلم ينفصل قط	لا من نفسه ولا من جسده.
وطهر في جنبه بالحربة	وجرى منه دم وماء غفراناً لكل العالم،
وتخضّب بهما جسده	وأنت نفسه واتحدت بجسده،
وعوض الخطية المحيطة بالعالم	مات الابن بالصليب.
وردنا من التدبير الشمالي	إلى اليميني،
وأمن بدم صليبه ووحد	وألف السمائيين مع الأرضيين،

والشعب مع الشعوب

وفي ثالث يوم

واحد هو عمانوئيل

وغير منقسم إلى طبيعتين،

أن هذا الجسد لهذا الدم،

أنت هو المسيح إلهنا

فوق الجلجثة

أنت هو حمل الله

اغفر ذنوبنا، واترك خطايانا

والنفس مع الجسد.

قام من القبر.

وغير مفترق من بعد الاتحاد،

هكذا نؤمن، وهكذا نعترف، وهكذا نصدق،

وهذا الدم لهذا الجسد.

الذي طمّن في جنبه

بأورشليم لأجلنا،

الحامل خطية العالم،

وأقمنا عن جانبك اليمين.

[القسمة السريانية]

بهذا المعنى يقدم لنا العالم وستكوت، بكل جرأة، وهو أسقف كرسي درّهام بإنجلترا، وكان أحد لوردات مجلس العموم في زمانه، يقدم لنا هذا التفسير بهذا المعنى:

[نحن نؤمن، أنه من اللحظة التي مات فيها المسيح بدأ جسد الرب يأخذ استعداداه بالتغيرات التي انتهت باستعلان القيامة. وأن خروج الدم والماء من جنبه، يلزم أن يُعتبر كعلامة حياة من موت. وهي تكشف عن حقيقة بشريته — وبمعنى سري — دوام الحياة البشرية فيه. فهو، ولو أنه ميّت، فهو ميّت بالنسبة لحياتنا المائتة، إلا أن الرب كان حيّاً، وبينما كان معلقاً على الصليب أعلن علناً أنه ينبوع لقوة التطهير والحياة التي كانت تتبعه حيّاً وميّتاً.] (٣٨)

— وأما خروج الماء بعد ذاته، فهو يذكّرنا في الحال بقول الرب: «مَنْ آمَنَ بِي، كما قال الكتاب، تخرج من بطنه أنهار ماءً حيّاً. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يَقْبَلُوهُ» (يو: ٧: ٣٨ و٣٩). إذًا، أصبح خروج الماء من جنب المسيح، هو بالحريّ أعظم تعبير عن الروح الذي استغلّين مُنسكباً من جسد المسيح الميت! وهل مات المسيح إلّا لكي يعطينا حياته؟ إذن، فالماء الذي خرج من جنب المسيح كان يحمل الحياة. ونحن لو تأملنا في سر المعمودية، باعتباره سرّ الموت مع المسيح، لانتبهنا في الحال أننا في المعمودية ننال الاغتسال الروحي بالماء، الذي خرج من جنب المسيح الميت الحامل للحياة. أي أننا، إذ نموت معه، ننال الحياة من سرّ

الماء لنحيا كما هو حيٌّ. فسرُّ المعمودية هو سرُّ موتٍ مع المسيح، لحياة مع المسيح. وبمعنى آخر هو ولادة جديدة؛ لأن الولادة الجديدة — الثانية — تحتُم موتاً مسبقاً للولادة الأولى. وموتُ هذه الولادة اللحمية ماته المسيح من أجلنا، حتى نجوز مباشرة بموته إلى الولادة الثانية الروحية، أي نحيا معه. هكذا نفهم أن الماء الخارج من جنب المسيح، هو حقاً خارجٌ من جسدٍ ميت، ولكنه حقاً بالحقيقة مُحيي وحاملٌ الحياة الجديدة لميلاد الإنسان الجديد. فهو أعظمُ تعبير لاهوتي عن سر المعمودية.

ونقدّم هنا بعض تفسيرات للآباء القديسين والعلماء الأولين:

أولاً: الشرقيون:

١ — كلوديوس أبوليناريوس **Claudius Apollinarius** (٣١):

هو قديس تُعيّد له الكنيسة الغربية إلى الآن في ٨ يونيو، عاش في القرن الثاني سنة ١٧٠ م. وله كتابات وصلت إلينا أسماؤها وبعض محتوياتها، ولكن معظمها ضاع. كان مدافعاً قوياً عن الإيمان، له دفاع قوي ضد ماركوس أوريليوس، ويعتبر أول من شَرَح معنى خروج الدم والماء، وقد نَسَبَهُما إلى الكلمة **λόγος** — كلمة الإنجيل — والروح **πνεῦμα** التقديسي، بمعنى أنهما شهادة تاريخية وسرية.

٢ — أوريجانوس:

مصري إسكندري (١٨٥ — ٢٥٤ م). وهو عالم لاهوتي وشارح للإنجيل (وله أخطاء مأخوذة عليه). وقد أخذ عنه القديس جيروم رأيته في الدم والماء أنهما علامتا حياة في الجسد الميت:

[في كل الأجساد الميتة يتجمد الدم ولا يخرج منها ماءٌ نقي. ولكن نجد في المسيح العجيبة في جسده، أنه وحتى بعد الموت كان في الجسد دم وماء، خرجا من جُنبه] (٤١).

٣ — كيرلس الأورشليمي:

نسب الدم والماء إلى نوعي المعمودية، معمودية الماء ومعمودية الدم:

[إن المخلص إذ قد فدى العالم بالصليب، لما طُعن في جنبه، أعطى الدم والماء حتى إن البعض في أيام السلام يعتمدون بالماء، والآخرين في أيام الاضطهاد يعتمدون بصبغة دمائهم، أي بدم موتهم] (٤١).

³⁹ Idem., p. 284.

⁴⁰ Origen, *Contra Celsus*, II, 36, 39.

⁴¹ Cyril of Jerusalem, *Cat.* III.10.

٤ - يوحنا ذهبي الفم (عظة ٨٥):

[ليس كأنه بدون سبب أو كأنها صدقة أن يخرج هذان من جنب المسيح. ولكن لأن الكنيسة تأسست بهذين معاً. والذين انفتحوا على الإيمان يعلمون هذا، إذ أنهم وُلِدُوا ثانية من الماء، وأطعموا من الدم والجسد. إذًا، فهذان السرّان ابتدأ من هنا، حتى حينما تتقرب إلى الكأس المقدس الرهيب، تعلم أنك تشرب في الحقيقة من ذات الجنب المطعون]^(٤٢).

٥ - القديس كيرلس الكبير الإسكندري:

[إن الرب قد عيّن هذه الحقيقة لتكون هي الصورة الأولى ليسرّ الأولوجيا (الإفخارستيا) وسر المعمودية المقدسة. لأن المعمودية المقدسة هي بالحقيقة من المسيح ابتدأت، وبالمسيح تكمل، وقوة الأولوجية المقدسة تنبع لنا من جسده المقدس]^(٤٣).

٦ - القديس اغريغوريوس (النزينزي):

[ومزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية التي هي جنبك الإلهي غير الفاسد هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح فاض لنا منه ماء ودم، هذان الصائران طهراً لكل العالم]^(*)

(القديس اغريغوريوس، صلاة القسمة)

٧ - أبوليناريوس من لاوديكيا:

[الرب قدّم لنا جنباً عوضاً عن جنب، فالمرأة - حواء - التي أتت من الجنب، الشر الذي أتى منها حلّه الرب بالآمه، لأن من جنب أتت المشورة التي أفسدت الإنسان، ولكن من الجنب المقدس تبع لنا ماء ودم، وبهما اغتسل العالم من خطاياها. والمادتان اللتان كانتا تعملان بانفراد في الناموس، جاءتا معاً فيه، كان في الناموس رش الدم للتطهير، والماء للتقديس. لأن كل شيء قد رُتّب مُسبقاً، ليكون بجسد المسيح، الدم والماء الأقدسان، حتى وإن كان الجسد قد مات بالفعل على الوضع البشري، إلا أنه يملك في نفسه قوة الحياة

⁴² Chrysostom, *op. cit.* Hom. LXXXV.

⁴³ Cyril the Great, *op. cit.*, p. 645.

العظمى] (٤٤).

ثانياً: العلماء والآباء اللاتين (الغرب):
تيرتليان:

[الاستشهاد هو معمودية أخرى. والدم والماء، عنصرًا للتطهير والتقديس، نبعًا من الجنب المجروح للرب ... فلنا تطهير ثانٍ قائم بذاته، هو تطهير بالدم، الذي قال عنه الرب: «لي صِبْغَةٌ أَضْطَبِغُ بِهَا» (لوقا ١٢: ٥٠). وها هو ذا قد اضطبغ وجاء لنا بالماء والدم. وإذا نعتمد بالماء، نتمجد بالدم. نُدْعَى بالماء، ونُخْتَارُ بالدم. لهذا أرسل لنا هاتين المعموديتين من جنبه المجروح، حتى إن كلَّ مَنْ يُؤْمِن، يغتسل بدمه، والذي يغتسل بالماء يستعدُّ لشرب الدم، [لقد مات، لكي من الجرح الذي أصاب جنبه، تتشكل الكنيسة الأم للأحياء بالحقيقة] (٤٥).

ق. أمبروسيوس:

يأخذ نفس أفكار أوريجانوس ثم يشرحها:

[بعد الموت يتجمد الماء في أجسادنا، ولكن من الجسد الذي لا يفسد، مع أنه ميت، نَبَتْ منه حياة لكل، الماء والدم اللذان خرجا منه، الماء للإغتسال، والدم للفداء] (٤٦).

ق. أغسطينوس:

[إن رقاد آدم (لكي يصنع الله من ضلعه حواء)، كان موتاً للمسيح؛ لأنه لما عُلق على الصليب بلا حياة، وُطِعَ جنبه بالحربة، خَرَجَ منه دم وماء، ونحن نعلم أنهما السَّرَّان اللذان بهما بُنِيَت الكنيسة، التي هي رمز حواء] (٤٧).

هكذا يرى القاريء أن موضوع خروج الدم والماء من جنب المسيح، احتلَّ ركنًا هاماً من تفسيرات الآباء في الشرق والغرب، الذين ردُّوه إلى العناية الإلهية، كتدبير سابق تأسيسه منذ خروج حواء من جنب آدم، ومنذ أن ضربت الخطية جذورها السامة في طبيعة الإنسان وقتلته. وقد

⁴⁴ Westcott, *op. cit.*, p. 284.

⁴⁵ Westcott, *op. cit.*, p. 285.

⁴⁶ Ibid.

⁴⁷ Augustine, *De Civitate*, xxii,c.17.

استعلن الآباء عموماً في هاتين العلامتين «الدم والماء» العنصرين المؤسسين لسرّي الكنيسة، الإفخارستيا والمعمودية، أو بالمعنى الذي يحويه «الدم والماء» سرُّ استبدال الموت بالحياة في الاغتسال بالماء الحيّ الخارج من جنب المسيح، الميت؛ وذلك بعد الانفكاك من أسر العبودية للخطية، بالفداء بسرّ الدم الذي نبع من الجنب المطعون، أي من الذبيحة الحية!

هذا الحادث يسجله ق. يوحنا في رسالته الأولى.

ولكن عند تدوين ق. يوحنا لإنجيله، كانت قد ترسخت في ذهنه هذه الرؤية الواقعية التي رآها وهو واقف تحت الصليب، والكنيسة (الأم) مستندة على ذراعيه. وقد سجّلها في رسالته قبل كتابة إنجيله بزمان ليس بعيد، ووثّقها أيضاً بالشهادة، ثم رفع شهادته إلى مستوى شهادة الحق، أي الله:

«هذا هو الذي أتى بجاءٍ ودم، يسوع المسيح. لا بالماء فقط، بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق.» (١ يوح ٥: ٦)

المعنى المختبئ هنا هام للغاية، فكلمة «أتى» فيها إفادة تاريخية قائمة على انتظار سابق، بلا شك حدّده الله بواسطة الأنبياء. وتشديد ق. يوحنا على تلقيب المسيح بأنه «يسوع المسيح»، يفيد أن «الماء والدم» يتعلّقان به شخصياً من واقع رسالته وشخصه الإلهي (المسيّا = يسوع) المُستعلن. أي أن عنصري الماء والدم يتعلّقان تعلّقاً أساسياً بوظيفة المسيح الخلاصية وطبيعته الإلهية، ويعلنان هذا، لأن ق. يوحنا سيتمادى بعد ذلك ويجعل هذين العنصرين يشهدان للمسيح ولنا.

الدم:

بلا شك يتعلّق «الدم» هنا بما تمّ على الصليب؛ فالمسيح «جاء بالدم» من واقع ذبيحته. والدم على الصليب هو عملُ الفداء، الذي هو موضوع مجيئه الأساسي. فينبوع الدم الذي انفتح بالحربة، بعد كمال الموت أي بعد تكميل ذبيحة الفداء، هو بعينه ينبوع الفداء والخلاص. فالمسيح جاء بهذا الدم، وإن كان بشكله وقوامه الطبيعي، ولكن أيضاً بمستواه «الإلهي»، «بروح أزي»، «وبقوّة الفدائية» بسبب «ذبيحته الكفارية»، «وقوّة الحياة» التي فيه التي «لا تزول»، وذلك عيوض رشّ ديم الحيوانات المذبوحة في العهد القديم، والتي كان مفعولها قاصراً على تخليص الجسد من العقوبة الجسدية. وفي هذا المعنى، وبهذا الدم، أصبحت كلمة «الفداء بالدم»، وعمل الدم الإلهي، بكل معانيها الروحية العالية التي وردت في الأسفار المقدسة، منبثقة

من هذا الدم المنسكب حياً من الجُثْبِ المَيِّتِ المطعون، لذبيحة المسيح الفدائية.

+ فبهذا الدم صرفنا نحن غير اليهود قريبين من الله والمسيح: «ولكن الآن في المسيح يسوع، أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريبين بدم المسيح.» (أف ٢: ١٣)
+ وبهذا الدم تم الصلح بين مطالب الله العالية وعجزنا الفاضح: «عاملاً الصلح بدم صليبه.» (كو ١: ٢٠)

+ وبهذا الدم يتم تقديس الإنسان ودخوله في العهد الجديد لله: «... دم العهد الذي قُدِّسَ به.» (عب ١٠: ٢٩)

+ وبهذا الدم يعبر عنا ملاك الهلاك لتنجو: «وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم.» (رؤ ١٢: ١١)

+ وبهذا الدم نحصل على الكفارة فلا نُطَالَبُ بِدَيْنِ الموت: «... بالإيمان بدمه، لإظهار برّه، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة.» (رو ٣: ٢٥)

+ وبهذا الدم نحصل على التبرير المجاني باعتبار الدم ثمناً مدفوعاً عن كل الخطايا: «متبرّرون الآن بدمه.» (رو ٥: ٩)

+ وبهذا الدم نكون قد اغتسلنا من كل دنس وتعدّ، وصرنا أظهاراً أمام الله: «غسلنا من خطايانا بدمه.» (رؤ ١: ٥)

+ وبهذا الدم يكون المسيح قد اشترانا من العالم لحساب الله أبيه، لنحيا معه: «... واشترَيْتَنَا لله بدمك.» (رؤ ٥: ٩)

+ وبهذا الدم نتطهر من جميع خطايانا: «ودم يسوع المسيح ابنه، يطهّرنا من كل خطية.» (١ يو ١: ٧)

واضح أيضاً هنا أن اللاهوت المسيحي المتركّز في عملية الفداء والكفارة والخلاص، يدور كله حول «الدم»، ولكن أية حالة من حالات الدم؟ لا بد أن يكون الدم الذي له هذه الفعاليات والصلاحيات العظمى، دماً مسفوكاً، دم ذبيحة اكْمِلَتْ حتى الموت التام، دماً حياً، فيه قوة حياة أبدية من ذبيحة إلهية مئة موتاً اختيارياً، ولكن بلا أي عيب ولا لوم. وهذه الشروط جميعاً تنجم في الدم الخارج من جُثْبِ المسيح المطعون، بعد أن قال: «قد أكمل»، وقد شهد شهود محايدون بصحة وكمال موته، بعد أن تأكدوا، بطعنة قاتلة، التي لم تَزِدْ الموت موتاً، ولكنها فجّرت من الموت حياة!!

الماء:

كان الماء الخارج من جنب المسيح الميّت يشبه الماء الذي صبّه إيليا على الذبيحة ولحستها النار الإلهية وقت إصعاد الذبيحة، والقصة شائعة وهي كالآتي: كان إيليا يتحدث أنبياء البعل الذين قدّموا ذبيحتهم فلم يقبلها الله، فقدّم هو ذبيحته، ووضع الماء عليها للتمجيز، أو لإظهار معجزة قبول الله لذبيحته كالآتي: «ثم رتب الحطب، وقطّع الثور، ووضعه على الحطب، وقال: املاؤا أربع جرّات ماءً، وضّبوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال: ثنّوا، فثنّوا. وقال: ثلثوا، فثلثوا. فجرى الماء حول المذبح، وامتلأت القناة أيضاً ماءً. وكان عند إصعاد التقدمة، أن إيليا النبي تقدّم وقال: أيها الرب، إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل، ليُعَلِّمَ اليوم أنك أنت الله في إسرائيل، وأني أنا عبدك، وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبني، يا رب، استجبني. ليعلّم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله، وأنت أنت حوّلت قلوبهم رجوعاً. فسقطت نار الرب، وأكلت المحرقة، والحطب، والحجارة، والتراب، ولحست المياه التي في القناة.» (١ مل ١٨ : ٣٣-٣٨)

كانت «المياه» في ذبيحة إيليا هي المعجزة الأولى، لأن عنصر الماء عنصر يقاوم النار، ويمكن أن يطفئها إذا لم تكن ناراً إلهية، لها شكل النار المادية، ولكنها فائقة ومتفوقة عن كل عجزها، ولها القدرة أن تُشعل الماء كالحطب سواء بسواء.

هكذا كان خروج الماء من ذبيحة المسيح يخالف ويقاوم معنى الموت الذي ماته، لو لم يكن موت المسيح الذي ماته موتاً له شكل الموت الجسدي ولكنه موت فائق عن عجز الجسد، وله قدرة أن يطفىء الموت ذاته ويُحيي الجسد!

حينما تقدم المسيح ليعتمد من يد يوحنا المعمدان، امتنع هذا وقال: «أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ. حينئذ سمح له» (مت ٣ : ١٤ و ١٥) إذأ، فالمعمودية في نظر المسيح هي تكميل للبرّ.

الماء الخارج من ذبيحة المسيح هو لتكميل البرّ. لذلك ذكره ق. يوحنا في إنجيله بعد الدم، وليس قبل الدم. المسيح لما صعد من ماء المعمودية، انفتحت السموات، ونزل روح الله وحلّ على المسيح، واستقر، وصوت الآب من السماء قال: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». هذا كله يستعلن لنا معنى المعمودية وقوّتها عند المسيح، وفيه، بل ومنه أيضاً. فهي أولاً مرتبطة بالسماء من فوق، وعلاقتها أساسية بروح الله، فهي سرّ من أسرار السموات، وسرّ يقوم فيه روح الله بالعمل الأساسي. أما قوتها فواضحة في استعلان البنوة لله الحائزة على مسرة الله. وماء الأردن تحت

يد يوحنا، استعلن لنا سر المعمودية الأعظم في المسيح. إلى هنا تنتهي مهمة المعمودية يوحنا، أي تنتهي باستعلان وقيام المعمودية القائمة في المسيح بالروح. هنا تسليم وتسليم، ماء المعمدان يسلم ماء الروح في المسيح، فينتهي عمله.

معمودية يوحنا انتهت، أي توقفت، بخروج ماء الحياة من جنب ذبيحة المسيح المطعون؛ التي هي المعمودية الجديدة من جنب المسيح، حيث بدأت الحياة الجديدة للإنسان بروح الله وبدأ فعل برّ العهد الجديد يملأ العالم: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت ٢٨: ١٩)

والآن، لننظر مرة أخرى لنبوع الماء والدم الفائض من جنب ذبيحة المسيح المطعون وهو ميّت، كيف امتدّ هذا ينبوع — ينبوع الدم والماء — امتداداً تاريخياً وسرياً بأن واحد، من ناموس موسى كمعصر للتطهير المادي والتقديس الشكلي في العهد القديم؟

«الماء والدم»:

الماء، كان في العهد القديم لغسل الأدوات أو لغسل الجسد للتطهير المادي من الدنس الشكلي؛ كمجرد غسيل.

والدم، وهو دم حيوانات، كان يُستخدم بالرش أيضاً للتطهير الشكلي: «لأن موسى بعد ما كلّم جميع الشعب بكل وصية بحسب الناموس، أخذ دم العجول والثيران، مع ماء وصوفاً قرمزيّاً وزوفاً^(٤٨)، ورشّ الكتاب نفسه وجميع الشعب، قائلاً: هذا هو دم العهد الذي أوصاكم الله به. والمسكن (الميكال) أيضاً وجميع آنية الخدمة، رشّها كذلك بالدم، وكلّ شيء تقريباً يتطهّر حسب الناموس بالدم، وبدوم سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب ٩: ١٩—٢٢)؛ حيث المغفرة، هي رفع عقوبة جسدية عن خطية اقترفت بدون عمدٍ ضد وصايا شكلية للناموس.

بهذا يتجلى أمامنا مسار التاريخ وسرّ الله، من ناموس موسى إلى ناموس المسيح، فينبوع الماء والدم الخارج من جنب المسيح يحمل نفس العنصرين إنما للتطهير والتقديس الروحي للعهد الجديد: «دم المسيح الذي، بروح أزلي، قدّم نفسه لله بلا عيب، يطهّر ضمائرنا من أعمال ميتة

(٤٨) واضح أن اختيار ق. يوحنا كلمة «زوفا» بدل القصبة التي استخدمها القديس مرقس، كان لكي يبيّن ذهن القارئ للمقابلة بعد ذلك بين العهد القديم والعهد الجديد فيما يخص رشّ الدم: «فملاؤا إسفنجة من الخل ووضعوها على زوفا وقدموها إلى فيه.» (يو ١٩: ٢٩)

لتخدموا الله الحي» (عب ٩: ١٤)، «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُشَفِّكُ من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت ٢٦: ٢٨)

كذلك الماء الذي كان «لغسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرة» (مر ٧: ٤)، أصبح ماء المعمودية الجديدة بالروح، ماءً لغسل الخطايا: «قُمْ، واعتمد واغسل خطاياك» (أع ٢٢: ١٦)، ماءً يُغْتَسَلُ به للخلاص: «لا بأعمال في برِّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني، وتجديد الروح القدس» (تي ٣: ٥)، وماءً لميلاد جديد للإنسان بالروح، لميراث ملكوت الله: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو ٣: ٥)

هكذا نرى أن شهادة ق. يوحنا لهذا السر الذي استُغْلِنَ في آخر لحظة بطعنة الحرب، والذبيحة معلقة على الصليب، ربطت ربطاً محكماً بين تسلسل الدور التاريخي بالنسبة لعمل الماء والدم في العهد القديم الذي لم يكن له أي قيمة من جهة الروح، وعمل الماء والدم بجوهرهما الروحي، بل الإلهي، في العهد الجديد، كونهما نبعاً من ذبيحة المسيح الفدائية بعد تقديمها على الجلبشة وقت المساء:

«هذا هو الذي أتى بماء ودم، يسوع المسيح، لا بالماء فقط، بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق.» (١ يو ٥: ٦)

ق. يوحنا في رسالته الأولى، يحذّر من الانتحاء ناحية الفضل بين عمل الماء وعمل الدم، فالفداء حتميّ، وله الأولوية في قبول المسيح وفي شهادة الإيمان. لذلك وضع ق. يوحنا الشهادة لخروج الدم قبل الماء (يو ١٩: ٣٤). فقبل العماد، يلزم الاعتراف والشهادة بالدم المسفوك بموت المسيح على الصليب كفارة للخطايا. هنا يجوز العماد، ويكون العماد بمثابة ختم الروح على الخليقة الجديدة المقدّسة لله. ق. يوحنا لا يقبل فصل السرّين، ويؤمن بعملهما معاً.

ولقد انتحى الآباء، في إقامة سر الأولوجيا (الإفخارستيا) منذ بكور ممارسته في الكنيسة سواء في تعاطيه أو في شرحه، إلى مزج الخمر بالماء لهذا الغرض بالذات، أي لجمع فعل الدم والماء الخارجيّين من جنب المسيح معاً في كأس واحدة.

وإليك طعن في صحة تقديم كأس الإفخارستيا بدون مزجه بالماء:
[ليت الأرمن يخزّون، الذين لا يمزجون الماء بالخمر في الأسرار، لأنه يبدو أنهم لا يؤمنون

بمخرج الماء — بل الدم فقط — من جنب المسيح التي هي المعجزة الأعظم [٤٩].

ثيوفيللاكت.

وثيوفيللاكت هذا كان بطريركاً لبلغاريا في القرن الحادي عشر. وهويتبع القديس ذهبي الفم في آرائه، وقد شرح كل العهد الجديد بلغة سهلة وتأمل عميق.

«والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح، والماء، والدم، والثلاثة هم في الواحد.» (١ يوح ٥: ٨)

واضح أن جمع «الماء» و «الدم» و «الروح» معاً كثلاثة على التساوي، هو محاولة لجعلها شهادة قانونية من ثلاثة: «على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر.» (تث ١٩: ١٥)

وبلاحظ أن مفردات هذه الآية جاءت لغوياً هكذا: كلمة «الروح» (محاييد) $\tau\delta$ ، و «الماء» (محاييد) $\tau\delta$ ، و «الدم» (محاييد) $\tau\delta$ ثم في الحال يرفع الكاتب المحايد إلى حالة المذكر العاقل في لفظة «ثلاثة»، سواء في البداية بقوله: «هم يشهدون» $o\acute{\iota} \mu\alpha\rho\tau\upsilon\rho\omicron\upsilon\nu\tau\epsilon\varsigma$ ، أو في النهاية بقوله: «والثلاثة هم ...» $o\acute{\iota} \tau\rho\epsilon\acute{\iota}\varsigma$.

وق. يوحنا جعل شهادة الدم والماء والروح، كلاً من الثلاثة له شهادة في الإنسان كقوة. ولكن ق. يوحنا لما أضاف «الروح» و «الدم» و «الماء» معاً، صار الثلاثة ولهم ضمير مذكر سالم. أي أن «الثلاثة» يُعبّرون بفم شخصي واحد، بمعنى أن كلاً من الماء والدم ينطق بالروح في الإنسان نُطقاً، بفعل الله الذي تمّ. ففي المعمودية، الروح يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، والدم في الإفخارستيا: «إلى وسيط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رُش، يتكلم أفضل من هابيل.» (عب ١٢: ٢٤)

وفي الحقيقة إن الذي يشهد للمسيح في العالم من داخل الكنيسة، هو الماء في المعمودية، والدم في الإفخارستيا، والروح في التكريس والتقديس من داخل هذه الأسرار: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (١ كو ١١: ٢٦)، «ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع ٥: ٣٢)

والإهتمام البالغ الذي ركّز به ق. يوحنا على ينبوع الدم والماء الخارج من جنب ذبيحة المسيح

المطعون، والذي استجبنا نحن أيضاً له ورَكَّزنا على تركيزه، إنما كان لسبب لاهوتي واضح، وهو أن ق. يوحنا يرى في الجسد المصلوب على الصليب قمة إنجيل الخلاص، ومنتهى عمل الله للفداء، وأنه هو هو «حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم»، كما سمع ذلك من فم معلمه الأول المعمدان (يو: ١: ٢٩)، وهو ينبّه ذهن القارئ إلى أن الدم والماء الخارجين من جَنْبِ المسيح، يحملان له الغُسلَ الحقيقي من خطاياه، والتقدّيس الداخلي لحياة جديدة، والدخول في عهد المسيح بدمه. وهو يعدّد في رسالته، ويكشف، عمل الروح القدس من خلال سَرِّي الدم والماء، والشهادة الحية الشخصية التي يشهد بها الروح والماء والدم بفم واحد للمسيح في داخلنا أنه ابن الله، وأنه أعطانا الحياة الأبدية. فإذا قبلنا شهادة الروح للمسيح، صارت لنا حياة أبدية؛ وكل ذلك في تسلسل بديع:

«والذين يشهدون — للمسيح — في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد»،

«هذه هي شهادة الله، التي قد شهد بها عن ابنه»،

«من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه»،

«وهذه هي الشهادة، أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه»،

«مَنْ لَهُ الابن، فله الحياة؛ ومن ليس له ابن الله، فليست له الحياة.» (١ يو: ٥: ٨-١٢)

١٩: ٣٥ «والذي عاينَ شَهِدَ، وشَهادَتُهُ حقٌّ. وهو يَعْلَمُ أنه يقولُ الحقَّ، لتؤمِنُوا أنتم».

ق. يوحنا يعلن صراحة أنه كان شاهد عيان، وليس بالمشاهدة العابرة. بل إنه «عاين»، أي تحقق من الرؤيا، وكلمة «شَهِدَ» تفيد هنا أنه سجَّلها في إنجيله، وهو نفسه يختم على هذا التسجيل أنه حقٌّ، لسبب هام وخطير، لا يستطيع أن ييوج به علناً، وهو لا يخرج عن أن الروح القدس كان يوضّح له الحقائق التي يرى بالإلهام والفهم، ويؤكد له بالروح صحة ما يمليه عليه ويكتبه.

ثم يعود ق. يوحنا يختم على صدق روايته ومُعَاتِنَتِهِ لهذه المعجزة فيقول، إنه يعلم أنه يقول الحق، بمعنى أنها ليست رواية شخصية من رؤيا شخصية، إنه في كمال إدراكه ووعيه المسيحي وليس عن دهش أو منظر معقول أو غيبة. بمعنى أن الإلهام الروحي من الروح القدس لم يأتِه وهو في غيبوبة، بل وهو في صحو الذهن وكمال ملكة الإدراك والتمييز. أما لماذا هذا الإثبات لصحة

ما كتب، فهو ليؤمن القارىء. ليس مجرد الإيمان بخروج الدم والماء فقط بل بكل ما كتبه. فغاية ق. يوحنا من إنجيله هي الإيمان الكلي بالمسيح!

٣٦:١٩ «لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل عظم لا يكسر منه».

ق. يوحنا بقوله: «هذا كان ليتم الكتاب» يجمع بين حادثة عدم كسر عظام الساقين مع حادثة طعن جنبه بالحربة، لأن الأولى تسببت في الثانية. وهنا موضع التدبير العجيب، فلأنهم وجدوه قد مات، فلم يجدوا ضرورة لكسر الساقين، وهكذا تحاشى التدبير الإلهي أن تُمسَّ عظام المسيح بأذى، وذلك بحسب الطقس والنبوة معاً. ولكن لكي يتأكدوا من موته بالأكثر لجأوا إلى طعن جنبه بالحربة، فكان هذا بدوره تدبيراً آخر لتمام النبوة، وفي نفس الوقت لتستغلن قوة الحياة النابعة من ذبيحة الموت.

«عظم لا يكسر منه»:

الإشارة المباشرة هنا لطقس خروف الفصح الذي كان هو الرسم التحضيرى لذبيحة الفصح الحقيقية، كما سبق الشرح في الآية ١٩:٣١ وما بعدها. أما الإشارة الثانية، فهي تخص تميم النبوة «كثيرة هي بلايا الصديق، ومن جميعها يُنجيه الرب، يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر.» (مز ١٩:٣٤ و ٢٠)

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: وهل كان المسيح يجوز هذه الحوادث المحددة ليتم المكتوب عنه في النبوات؟ والجواب على هذا هو العكس تماماً، فالله سبق وأنبا بالروح على فم الأنبياء على مدى عصور مختلفة ومتباعدة ما سيلاقيه المسيح عند مجيئه. والسبب في ذلك هو غاية في الأهمية والخطورة، وهو لكي حينما يتم المسيح المكتوب عنه، يتعرف عليه حَفَظَةُ الناموس والأنبياء، ولا يكون عُذْرُ البتة لمن ينكره أن يَتَنَكَّرَ له: «لو لم أكن قد جئتُ وكَلَّمْتُهُمْ، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عُذْرٌ في خطيتهم» (يو ١٥: ٢٢)، «لو كنتم تصدقون موسى، لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك، فكيف تصدقون كلامي» (يو ١٥: ٤٦ و ٤٧)، «فتشوا الكتب، لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي.» (يو ٥: ٣٩)

فالإيمان بالمسيح، في بداية الكرازة، كان يقع بين النبوة وتتميمها؛ لأن ما سبق وكتبه الله بالروح على قلوب الأنبياء ونطقه على ألسنتهم، كان يلزم حتماً أن يتم! ولهذا السبب كان التشديد

على إجراء طقس تقديم الفصح وأكله بكل حَذَرٍ وتَدْقِيقٍ، حتى يتسلط نورُ النبوة الطقسي على ذبيحة المسيح في حينها، للتعرف عليه والحفاظ على هيكل جسده سالماً: «لا يُبْقُوا منه إلى الصباح، ولا يكسروا عظماً منه، حسب كل فرائض الفصح بعملونه.» (عد ٩: ١٢)

ولعل الأمر المشدّد عليه بأن «لا يبقى منه إلى الصباح»، هو الذي كان وراء سرعة إنزاله من على خشبة الصليب لتكتمل فيه ملامح الفصح، خلواً من كرامة السبت التي ظهرت في الطريق.

وإن كان الأمر في الطقس يختص بخروف الفصح بحد ذاته، فماذا كان يضيره لو تكسّرت كل عظامه؟ أو لو بقي منه شيء إلى الصباح، إن كانت هي مسألة أكل وذكرى وتاريخ؟ ولكن كان الطقس يحمل ملامح إلهية دقيقة وحساسة، ليبرز في الميعاد الصورة المجيدة للفصح الحقيقي الذي عظمه هو هيكل الله، الذي لا يستطيع أحد أن يفسده، بل هو الإنسان الجديد الكامل في كل شيء حسب صورة خالقه، بل هو الكنيسة التي لا غيب فيها! فنحن، وعلى ضوء حقيقة ذبيحة المسيح الإلهية، لو عُذْنَا إلى تدقيقات الطقس، نجد كيف أحاط الناموس ذبيحة الفصح القديم بهيبة وجلالٍ وتقديسٍ تفوق في اهتمامها البالغ ما تستحقه ذبيحة حيوانية! وذلك كان، في الحقيقة، هو سَبْقُ تصويرٍ بارعٍ لحقيقة ومضمون الفصح الإلهي! ومجد القيامة بذات الهيكل الجسدي الذي مات مُقَاماً في المجد والكرامة.

٣٧: ١٩ «وأيضاً يقولُ كتابُ آخر: سَيَنْظُرُونَ إلى الذي طَعَنُوهُ».

الإشارة هنا إلى سفر زكريا: «وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات، فينظرون إليَّ (أنا) الذي طعنوه، وينوحون عليه، كنائج على وحيد له، ويكونون في مرارة عليه، كمن هو في مرارةٍ على بَكْرِهِ» (زك ١٢: ١٠). ولكن ق. يوحنا، هو نفسه، سبق في سفر الرؤيا وسجّل هذا المشهد الحزين لعودة المسيح وجنبه هو كما هو مفتوح، فيتعرّف عليه الذين طعنوه سواء بالحربة، أو بالتجديف، أو الإنكار، أو بالخطية: «هوذا يأتي مع السحاب، وتنظره كلُّ عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض، نعم آمين» (رؤ ١: ٧). ولكن من حيث تكميل النبوة، يكون المقصود هو سفر زكريا فقط. وقد عدّل ق. يوحنا ما جاء في السبعينية في قول النبي من: «فينظرون إليَّ» بصيغة المتكلم، إلى «ينظرون إلى الذي طعنوه» بصورة الغائب ويقال أن هذا هو الأصح.

وهكذا، كما جاءت الطعنة لتكميل نبوة سابقة، هكذا أيضاً جاءت الطعنة كعلامة مرافقة

لجنب المسيح، حيث ستكون علامة تبكيت مُرّ للذين طعنوه، كالذي ذاقه بطرس عند صياح الديك بعد أن أنكر من أحبه.

ولنا مقابلة أخرى وشيكة مع جنب الرب المفتوح، الذي وضع توما يده فيه فصرخ: «ربي وإلهي». وهكذا أصبح الجنب المفتوح في إنجيل ق. يوحنا علامة تكميل نبوة سابقة منذ الدهر السالف، وعلامة استعلان قادمة في الدهر الآتي، كما أنه علامة تعريف وإيمان، والجرح طري ينطق بالقيامة من الأموات. منه خرج سرّان، وتشكّلت كنيسة، وانفتح لنا باب السماء عبّر الحجاب الذي شقته الحرّبة المباركة.

الثاني: طلب جسد يسوع:

«مبادرات محبة نشطة من تلاميذ، جريئة، ولكن في الخفاء»!

٣٨: ١٩ «ثم إن يوسف الذي من الرّاقية، وهو تلميذ يسوع، ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود، سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع. فأذن بيلاطس فجاء وأخذ جسد يسوع».

هنا، وفي الآية القادمة، نشر بحركة صحوة بين تلاميذ خاملين كانوا في الظلّ، أو بحسب تعبير ق. يوحنا: «خفية لسبب الخوف»، هذا من جهة هذا الرجل المقدّام يوسف الرامي. أما من جهة نيقوديموس، فيسرع ق. يوحنا ويعرّفنا بزيارة الليل والظلام، هناك في البداية!

الموت الذي شتت صف تلاميذ النهار، ورحلات الحب ودروس الجبل، جذب الصف الثاني من تلاميذ الخفاء والخوف وزيارات الليل؛ لأن جلال الموت لمعلم محبوب، يشعل نار الجرأة في بعض القلوب النبيلة. والعرفان بالفضل والجميل، له عُشاقه ورؤّاده في وقت المحنة وزمن الملّات. والمحبة الصادقة، لا تهاب المخاطر، وإن كان يُحسب لها الحساب.

«يوسف الذي من الرامة»:

«الرامة»: ويختلف على موقعها العلماء، فمنهم من يقول إنها المدينة المعروفة باسم «رام الله» (٥٠)، وآخرون «الرملة» (٥١)، وآخرون «رامتايم صوفيم» (٥٢) بلد صموئيل النبي. وكون

⁵⁰ Brown, R.E., *op. cit.*, p. 938.

⁵¹ Ibid.

⁵² Ibid.

يوسف هذا من الرامة أصلاً، يعني أنه كان مستوطناً في أورشليم بداعي وظيفته التي عُيِّن فيها كـ "مشير" في السنهدريم، مما اضطره للإقامة في أورشليم. وأن يُذكر أن له «قبراً جديداً» بجوار سور المدينة في بستان، يعني أنه مستوطن حديثاً مما كلفه أن يكون له ملك أرض، وأن يحفر له فيها قبراً: «فأخذ يوسف الجسد ولفّه بكتّان نقي، ووضعه في "قبره الجديد" الذي كان قد نحتُه في الصخرة.» (مت ٢٧ : ٥٩ و ٦٠)

هذه الأمور، لو تأملناها معاً، لشعرنا بالعناية الإلهية التي هيأت هذا الإنسان بهذه الظروف معاً. وقد تجمعت له صفات ذكرت في الأربعة الأناجيل هي غاية في الكرامة.

فالقديس متى يقول عنه: «رجلٌ غنيٌّ». وهنا الإشارة واضحة لسفر إشعياء: «وجعل مع الأشرار قبره ومع غنيٍّ عند موته.» (إش ٥٣ : ٩)

والقديس مرقس يقول: «مُشيرٌ شريف، وكان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسوع.» (مر ١٥ : ٤٣)

والقديس لوقا يقول: «وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً. هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» (لو ٢٣ : ٥٠ و ٥١). ثلاث صفات عالية القدر، وآخرها هي التي أهلتها لهذا الموقف الأخير، والصالح والبر هما اللذان أهلاه لشرف التلمذة ولرفض رأي اليهود وعملهم الدنيء.

أما ق. يوحنا، فاكتمى باللقب الأكثر شرفاً: «وهو تلميذ يسوع»، وإن كان قد سبق وألمح إلى موقفه في الآية (١٢ : ٤٢): «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو ١٢ : ٤٢ و ٤٣)

ويلاحظ أن الصفة التي يذكرها القديس لوقا كونه «مُشيراً» (βουλευτής)، تعني، بحسب العلامة إدرزهايم، أنه عضوٌ في مجلس السنهدريم^{٥٣}، خاصة ما أضافه بقوله إنه «لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم». «فالرأي» هنا هو رأي مجلس السنهدريم الأخير، «وعملهم» هو الإجراءات التي اتُخذت في سبيل القبض عليه أو صليبه.

والقديس مرقس يستعلن لنا الصفة البارزة في هذا العضو الصالح والبار، أنه كان «متجاسراً»

⁵³ Edersheim, *op. cit.*, p. 615.

في ذهابه إلى بيلاطس شخصياً وطلبه جسد يسوع، مما يكشف ضمناً عن موقف لا بد أن يكون قد وقفه إزاء زملاء السوء في المجلس المشئوم، إذ لا بد أنه حَجَبَ صوته ولم يُعْطِهِم الموافقة على ما قالوه وعملوه. كما أن أقوال الأناجيل الثلاثة عن هذا الرجل توضح كيف كان يجتمع مع التلاميذ ومع المسيح، ويكشف نيات وأعمال مجلس السنهدريم والرؤساء. من هنا نعتقد أن بواسطته صارت المعرفة للتلاميذ بكل التفاصيل الدقيقة لمجريات الحوادث في الجانب الآخر سواء قبل الصليب أو بعده.

«سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع»:

لقد سبق أن وافق بيلاطس لرؤساء اليهود على هذا الطلب ضمناً مع طلب تكسير سيقان المصلوبين الثلاثة: «سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم، وَيُرْفَعُوا.» (يو ١٩: ٣١)

ولكن يوسف هذا ذهب بمفرده ليمنحه بيلاطس حق استلام الجسد وإنزاله، فأذِنَ له بيلاطس بنوع من الإمتياز، لأن هذا الإجراء لم يكن سهلاً، إذ كان الولاة عادة يتعاطون رشاي لمنح مثل هذه التصاريح^(٥٤). ولكن بيلاطس أعطى تصريحه بإيجابية سهلة، وكان هذا العمل النبيل آخر ذكرٍ لاسمه في الإنجيل.

وليس من السهل أن نعبر على الاسم المبارك «يوسف» دون أن نشير إلى العناية الإلهية التي احتفظت بهذا «الغني، المشير، الصالح، البار، المتجاسر»، كتلميذ ولكن في سرٍّ، إلى الميعاد الذي جُهِزَ له، بل وربما وُلِدَ من أجله، ليستلم الجسد المقدس الذي للابن الوحيد من فوق خشبة الصليب، الأمر الذي لم يتجاسر عليه لا تلميذ من التلاميذ ولا حتى قريب من المقرَّبين. ولا شك أن هذه الصفات الخمس أهَّلت هذه المهمة الجليلة والخطيرة والخرجة جداً بأن واحد!

ثم هل لنا أن نتأمل في ما عمله «يوسف مصر» في أبيه «إسرائيل» المتغرب في مصر، كيف «وقع يوسف على وجه أبيه، وبكى عليه وقبَّله، وأمر يوسف عبدة الأطباء أن يُحَنِّطُوا أباه، فحَنَّطَ الأطباء إسرائيل ... فقال فرعون اصعد وادفن أباك كما استخلفك ... ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل مُلْكَ قَبْرِ، من عِفْرُونَ الحثي أمام ممراً.» (تك ٥٠: ١٣-١)

ووجه المقارنة يتعدى الأسماء والمواقف، ويدخل في صميم اللغة، فقد استخدم ق. يوحنا

لفظة: «فأخذا جسد يسوع ولقّاه بأكفان مع الأطياب، كما لليهود عادة، أن يُكفّنوا $\epsilon\nu\tau\alpha\phi\iota\acute{\alpha}\zeta\epsilon\iota\nu$ »، وهي نفس كلمة «يحنّطوا» كما جاءت في سفر التكوين في تكفين إسرائيل على أيدي أطباء يوسف: «وأمر يوسف عبده الأطباء أن يحنّطوا $\epsilon\nu\tau\alpha\phi\iota\acute{\alpha}\sigma\alpha\iota$ أباه».

وهذا هو يوسف الجديد، يحنّط ويدفن جسد إسرائيل الجديد، في قبره الذي نحتة جديداً، الذي اشتراه مُلْكُ قَبْرِ أَمَامِ سور أورشليم الغربي.

٣٩:١٩ «وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً، وهو حامِلٌ مزيجٍ مُرٍّ وعودٍ، نَحْوَيْتِهِ قَنّاً».

«وجاء أيضاً نيقوديموس»:

«نيقوديموس» هو المعروف في التلمود باسم نيقوديموس بن جوريون، وأنه كان غنياً جداً، ويقال أنه في حفل زواج ابنته قدّم لها عريسها صداقاً قيمته مليون دينار ذهبي. وفي التقليد القديم يُذكر أنه تنصّر وصار مسيحياً. وفي روايات التاريخ يُقال أنه مات في حصار أورشليم (٥٠°).

بداية الآية تشير إلى موقف موحد حدث بالضرورة بين يوسف ونيقوديموس، فهما عضوان في مجلس السنهدريم، وكانا ولا شك على رأي مخالف لرأي المجمع والرؤساء، بل وعلى مستوى المعارضة للإجراءات والأعمال التي اتخذها رؤساء الكهنة، والتي كانت في نظرهما غير قانونية، فوق أنها شائنة وفظيعة، بالنسبة لمعلم يعلمون أنه قد أتى من الله معلماً؛ بل ويؤمنون به؛ بل وينتظرون على يديه ملكوت الله (راجع يوحنا ٣: ٢؛ يوحنا ١٢: ٤١؛ مرقس ١٥: ٤٣).

ونيقوديموس سبق له أن حاول الدفاع عن قضية المسيح، ولكنه ارتدع تحت رادع إرهاب الفريسيين: «قال لهم نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم، أعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟ أجابوا وقالوا له: أملك أنت أيضاً من الجليل؟ فتش وانظر إنه لم يَقمُ نبيٌّ من الجليل، فمضى كل واحد إلى بيته» (يوحنا ٧: ٥٠-٥٣). لذلك كان يجمعهما للأسف «الخوف من الفريسيين» بصفتهما عضوين في مجلس السنهدريم، وكانا يعلمان المصير المرعب إذا هما جاهارا بتلمذتهما للمسيح: القطع من السنهدريم، وربما من شعب إسرائيل، وهذا كان هو السيف المُسلّط.

وواضح أنهما تعاهدا، بعد أن رأيا المسيح قد رُفِعَ على خشبة الصليب بالفعل، أن يوزَّعا الأدوار على نفسيهما بغاية السرعة لأن غروب الشمس كان وشيكاً. فاضطلع يوسف بشراء الكتان النقي للقت الجسد، ونيقوديموس قام بشراء مزيج المر والعود. كما عُهد إلى يوسف بعملية طلب جسد يسوع من بيلاطس لصفته البارزة وهي الجسارة «τολμήσας». ثم تقابلا عند الصليب، وقد فارقهما الخوف والرعب من الفريسيين وابتدعا عملهما بجسارة وعلانية بانزال الجسد المقدس، بكل كرامة، لأن روح الله كان ثالثهما.

«وهو حاملٌ مزيجَ مرٍّ وعودٍ نحو مئة مناً»:

«كلُّ ثيابك مرٌّ وعودٌ وسليخة.» (مز ٤٥: ٨)

«بسلام تموت، وبإحراق (أطياب الدفن) آبائك الملوك
الأولين الذين كانوا قبلك، هكذا يحرقون لك ويندبونك
قائلين: آه يا سيد.» (إر ٣٤: ٥)

«مرٌّ وعود»:

أما المرُّ فهو المادة الراتنجية المستخرجة من سيقان شجرة معروفة باسم «كوميضورا مولول Commiphora molmol»، وتنمو في شبه الجزيرة العربية. واسم المادة بالعبرانية كالعربية «مرٌّ». وقد أخذ الأوربيون الاسم كما هو: Myrrh. وقد ذُكر كثيراً في مواضع عديدة من العهد القديم.

والمرُّ له مفعول مطهّر، ويستخدم في الطب على هذا الأساس، وهو معروف منذ القدم، من أكثر من ألفي سنة، وقد استخدمه قدماء المصريين في التحنيط (هيرودوت ٢: ٨٦)، كما استخدمه بنو إسرائيل في عمل المسحة المقدسة (خر ٣٠: ٢٢). ويُضرب به الأمثال في التعطير. وكان أحد مكونات الهدايا التي قدمها المجوس للمسيح في بيت لحم (مت ٢: ١١)، كما قُدِّم للمسيح على الصليب ممزوجاً بخل (مر ١٥: ٢٣).

أما «العود»:

فهو غالباً المادة المستخرجة من شجرة تسمى بشجرة الفردوس، وخشبها يسمى خشب النسر، واسمها العلمي Aquilaria agallocha، وتنمو نواحي آسيا الإستوائية. وهو أيضاً ثمين للغاية يوزن بوزن الذهب، ورائحته نفاذة تبقى لسنين عديدة. وهو أيضاً مذكور في الكتاب المقدس. يُضْرَبُ به المثل «كشجراتٍ عودٍ غرَسَها الرب» (عد ٢٤: ٦)، «كلُّ ثيابك مرٌّ وعودٌ وسليخة (قِرْقَة)».

(مز ٤٥ : ٨)

أتى نيقوديموس وهو حامل هذه الهدية التذكارية الثمينة جداً سواء في قيمتها المالية العالية التي يُقدّرُها العلامة إدرزهايم بمقدار ما يساوي الآن مئتين وخمسين جنيهًا إنجليزيًا، آتذ^(٥٦)، أو في قيمتها بالنسبة للجسد المقدس — بحد ذاته — أو قيمتها بالنسبة للبشرية ككل وهي تستودع جسد ابن الله سِرَّ مجدها وخلاصها، جسد إكليلها وفخرها كابن الإنسان، أو قيمتها في المقابل بالنسبة لما صنعه اليهود عامة والرؤساء الذين أهانوا اسمهم، واسم اليهود، واسم إسرائيل، واسم شعب الله المختار، بل واسم الإنسانية جميعاً بما فعلوه بهذا الجسد الطاهر.

والمزيجُ منهُما هو أبسط ما يمكن أن يُسمَّى بمواد للتحنيط، أي لحفظ الجسد من الفساد، حسب العادة التي اكتسبوها من فراعنة مصر بتحنيط أجساد عظمائهم؛ لأن المزيج الكامل للتحنيط يتعدى العشرات من الأصناف.

والكمية التي ذكرها ق. يوحنا، ليست في الحقيقة مُبالغاً فيها، لأن لفَّ الجسد كله يحتاج إلى مثل هذه الكمية التي يساوي وزنها بالموازين الحالية ما يقرب من ٣٦ كيلو.

ونحن نقرأ في تحنيط جسد «آسا» الملك: «ثم اضطجع آسا مع آبائه ... فدفنوه في قبوره التي حفرها لنفسه في مدينة داود، وأضجعوه في سرير كان مملوًا أطياباً وأصنافاً عطرة حسب صناعة العطارة، وأحرقوا له حريقة عظيمة جداً.» (٢ أي ١٦ : ١٣ و ١٤)

ويُحكى في التلمود اليهودي:

[إنه عند دَفْنِ غَمَلائيل الأكبر، عملوا له حريقاً من الأطياب والعطور بلغ ٨٠ رطلاً (الرطل ٣٦٠ جراماً تقريباً) فلما سألوا أونكيلوس (أحد الرَبِّيِّين) عن سبب هذه الكثرة ردَّ قائلاً: أليس غملائيل أفضل من مائة ملك (مثل آسا)؟] ^(٥٧)

واضح، إذاً، أن الكثرة التي حملها نيقوديموس من الأطياب هي في الحقيقة تعبيرٌ رائعٌ وصامتٌ عن التوقير الملكي الذي كان يُكَنُّه هذا الفرّيسي المتمرس في تاريخ ملوك آبائه.

ولكن لا يفوتنا أن هذه الأطياب الحلوة، ذات الرائحة اللذيذة والمُسيِّرة، هي أيضاً تعبير آخر

⁵⁶ Edersheim, *op. cit.*, p. 618.

⁵⁷ Hoskyns, *op. cit.*, p. 537.

عن صنف الذبيحة المقدّمة، كما رتب لها — ليس الأنبياء وحسب، بل والمسيح نفسه كان يرى أن ذبيحة حبّه لا بد أن تكون عطرة الرائحة عند أحبائه كما هي عند أبيه : « فأخذت مريم مناً (واحداً بـ ٣٠٠ دينار) من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها. فامتلاً البيت من رائحة الطيب ... فقال يسوع : اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته. » (يو ١٢ : ٣ و ٧)

ولقد اختزنّت الكنيسة المرتشدة بالروح أطياب الرب وعطوره التي تركها مع أكفانه في القبر الفارغ، واعتبرتها ذخيرة حياة أو مسحّة موت لقيامة، عجنتها بالزيت الطيب وصنعت منها دهن ميثرونيها $\muύρον$ وأوقفته على مسح المعمّدين الخارجين من جرن المعمودية، الذين دُفِنُوا مع الرب لشركة موته، فتمسحهم بهذا الميرون عينه، كمشحة قيامة من الأموات لشركة الرب في قيامته. وظلّت هذه الذخيرة، تتناقلها أيدي الأساقفة الأمتاء على ممرّ الأجيال، وحتى زماننا هذا. وصدق في ذلك قول بولس الرسول : « لأننا رائحة المسيح الذكية لله » (٢ كو ٢ : ١٥)، وكأن بولس الرسول يرى مفدّي الرب ذبائح سرور، تفيح منها رائحة ذبيحة المسيح : « واسلكوا في المحبة، كما أحبنا المسيح أيضاً، وأسلم نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة. » (أف ٥ : ٢)

١٩ : ٤٠ « فأخذوا جسد يسوع، ولقّاه بأكفان مع الأظلياب، كما لليهود عادة أن يكفّوا. »

وتحقّق قول الرب في الحال والتو، إذ لما ارتفع، جذب إليه أكثر التلاميذ بُعداً وأشدّهم خوفاً، وأقلّهم إيماناً، عربوناً « للجميع » !! « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع. » (يو ١٢ : ٣٢)

وإن كان الملائكة قد خلّقوا لأعمال وخدمات تعيّنوا لها وتعيّنت لهم، فيوسف ونيقوديموس ولدا، معيّنين في المقاصد الأزلية، لخدمة الجسد المصلوب وتكريم جروح الرب.

لقد تبدد خوف يوسف وتحول إلى جسّارة ما بعدها جسّارة، وليل نيقوديموس الذي كانت تحلو له فيه الزيارة، والظلام حالك، تحول له إلى نهار ومجاهرة. لقد أفاض عليهما الجسد تباشير من أنوار العهد الجديد. وكان الروح الذي أسلمه يسوع على الصليب اتخذ طريقه في الحال، وتوزّع على قلوب الذين كانوا ينتظرون ملكوت الله !

«فأخذوا جسد يسوع ولفَّاه بأكفان مع الأطياب»:

حملوا الذي يحمل المسكونة كلها على كَفِّه؛ وأنزلوا الذي علقوه على خشبة، وهو الذي «يُعلَّق الأرض على لا شيء» (أي ٢٦: ٧). كنز الحياة حملوه ميتاً على الأذرع، وأسندوا الرأس التي تسند الأكوان، وتقيم الجبال الرواسي، فلا تميد!

طَيَّبوا الجسد، وهو منبع الطيب، وعظَّروه، وهو الذي «يجعل البحر كقِذْرٍ عطارة». (أي ٤١: ٣١)

لفَّوه بالكتان، وهو اللابس النور كالثوب، وكفَّنوا بالدموع، مَنْ هو مصدر الفرح والابتهاج. في صمت مهيب، تبادلوا إحكام الرباط، «والكلمة» بين أيديهما بلا حراك، وهو يعدُّ لجسده القيامة!

«وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ»:

ق. يوحنا يستخدم كلمة «لَفَّاه» *ἐδησαν* في إعداد الجسد للدفن، وتأتي بمعنى «رَبَطَ» Bound. كذلك يستخدم كلمة «الأكفان» بالجمع *ὀθονίοις*، بمعنى أن القماش مقسَّم لكلِّ عضوٍ بمفرده.

أما كلُّ من القديس متى والقديس مرقس والقديس لوقا، فيستخدمون كلمة مشابهة *ἐνετύλιξεν* تُرجمت بالعربية «لَفَّ» أيضاً، وتأتي بمعنى «لَفَّ» صحيحاً *wrapped*. كما تأتي كلمة «الكفن» بالمفرد بدون اصطلاح الدفن، كمجرد قماش «لَفَّه بكثانٍ نقي» *σινδόνι καθαρῷ* (مت ٢٧: ٥٩).

والفارق في المعنى يبدو وكأن في إنجيل يوحنا أن يوسف ونيقوديموس أجريا عملية التكفين الأصولية، وهي ربط كل ذراع وكل ساق بأشرطة من الكَفَن، كذلك لفَّوا الجسد كله والرأس بمفرده.

أما في الأناجيل الأخرى، فتبدو العملية وكأنها مُجرد لفَّ الجسد بثوب واحد من الكتان على سبيل التكفين المبدئي، ليتم تكفينه حسب الأصول، بعد انقضاء السبت.

وهكذا يأتي تقليد ق. يوحنا في التكفين محيياً لآمال الذين يأخذون بقصة اكتشاف كَفَن تورين Turin shroud المنطبع عليه صورة جسد المسيح ووجهه. وهذا الكَفَن هو قطعة واحدة من

القماش بطول ١٤ قدماً، وأقل من أربعة أقدام عرضاً. وأول ذكر لاكتشاف كفن تورين حدث سنة ١٣٥٣م في كنيسة ليراي Lirey بمدينة تروي Troyes بفرنسا. ولو أنه حدث ذكّر لهذا الكفن قبل ذلك بمائة سنة في نواحي تركيا^(٥٨). وقد قامت بعض الهيئات العلمية الأمريكية حديثاً بتحليل الألوان المنطبعة على الكفن وأثبتوا أنها لا تحمل أي أثر عضوي، بل أصبغاً من أكاسيد ومعادن.

«مع الأطباء»: ἀρωμάτων

يبدو أن المرء والعود كانا على هيئة مسحوق، وقد أضيف إليهما بعض الزيوت العطرية، فتكون مزيج سائل يمكن دهن الجسد به قبل ربطه.

«كما لليهود عادة أن يكفّنوا»:

عادة اليهود هذه سبق أن وصفها القديس يوحنا في دفن لعازر: «فخرج الميت ويداه، ورجلاه مربوطات بأقمية، ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع خلّوه ودعوه يذهب.» (يو ١١: ٤٤)

الساقان اللتان سارتا على الماء ولم تميدا، ربطوهما بقمط! والذراع التي فكّت أسر شعب إسرائيل (مز ٧٧: ١٥)، قَمَطَوهَا بِرِبَاط! والرأس مع الوجه بمنديل لفّوه، وحجبوه، وأنت الذي «تحجب وجهك، فترتاع (كل خليقة).» (مز ١٠٤: ٢٩)

لقد تعلم اليهود من المصريين كيف يحنّطون الجسد. ولكن احتفظ اليهود بتمسكهم أن لا يُفصل من الجسد شيء؛ في حين أن المصريين كانوا ينزعون الأعضاء الأكثر تحللاً مثل المخ والأحشاء، فكانت توضع في قوارير خاصة بجوار التابوت، بعد أن يُجرّوا عليها أصولاً أخرى للتحنيط.

والمصريون كانوا يحنّطون برجاء عودة الروح من العالم الآخر؛ وأما اليهود فكانوا يحنّطون لمجرد تكريم الجسد.

وأما يوسف ونيقوديموس، فبينما كانا منهماكين في خدمة الجسد الممزّق، كانت النفس تعمل عملها العظيم لكرازة العالم الآخر: «مُمتاتاً في الجسد، ولكن مُحيى في الروح، الذي فيه أيضاً ذهب فكَرَزَ للأرواح التي في السجن.» (١ بط ٣: ١٨ و١٩)

⁵⁸ Brown, R.E., *op. cit.*, pp. 941-942.

وهكذا كَسَرَ المسيح السبَّ حتى في موته، إذ ذهب وكرز للأرواح المحبوسة في سجن سَبْيِ خطاياها، بانتظار القادي الذي ألقى عليهم ظلَّ صليبه، فانفكت قيودهم، وقادهم صاعداً في موكب نصرته: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا.» (أف ٤: ٨)

٤١: ١٩ «وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، وفي البستانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ، لم يُوضَعَ فيه أحدٌ قط.»

حلوا الجسد بين أيديهم، وساروا به، وهو الذي تسير الأفلاك والنجوم على هُذاه! من فوق رابية الجلجثة، انحدروا قليلاً حيث أعدَّ يوسف بستاناً ونحت فيه قبراً بوحى من الروح وبإلزام. ولم يدرِ آتئذ أنه وضع الأساس لأقدس بقعة على الأرض، لتبنى عليها أعظم كاتدرائيات العالم عبْرَ كلِّ العصور والأزمان، ليؤمَّها شعوب الأرض طُرّاً، وحيث يطرح على أعتابها الملوك تيجانهم، ويحنون الرؤوس والرُكَب. لقد أراد يوسف قبراً لدفن موتاه! فصار قبراً لإعلان القيامة والحياة! وسواء في بستان جثسيماني، حيث تألم متوجَّعاً، أو في بستان الجلجثة، حيث حَمَلَ لعنة الخطية في الجسد حتى القبر، فالمسيح يُعيد في أذهاننا صورة آدم كيف خالف وهو في بستان الفردوس، وكيف حلَّ عليه العقاب وحلَّت عليه وعلى أولاده لعنة الموت، وذلك تمهيداً للقيامة من البستان أيضاً التي بها أعاد آدم وبنوه إلى الفردوس مرة أخرى.

«قبرٌ جديد لم يوضع فيه أحد.» :

مضادة كبرى، أن يُستودع جسد الابن الوحيد في قبر، ليس لدى الإنسان وحسب، بل ولدى الملائكة، إذ حسبوها أيضاً مضادة أعظم من أن تُحلَّ: «لماذا تطلبين الحيَّ بين الأموات.» (لو ٢٤: ٦)

فإن كان ولا بد أن يُسندَ الجسد القدوس في قبر، فلا بد أن يُخلَى القبرُ من معناه، فلا يكون قبراً قط فيما كان وفيما سيكون، لأن الذي توشَّده هو قاهرُ الموت ومُقيمُ الحياة!

والذي لا تَسَعُ السمواتُ العلَا، إنَّ وَسْعَهُ قبرٌ فهو السماء الجديدة بعينها.

وصَخْرُ الدهور، لا يسكن الصخور؛ وإن هو سَكَنَتْها فهي قُدَّتْ من خلود.

والجسد، بالرؤيا العتيقة، هو قِسْطُ المَنِّ، وهو هو لوحا العهد! فجسد «الكلمة» لا يحتويه لَحْدٌ؛ وإن احتواه، فهو تابوت عهد الله الذي مَقَرَّه السماء: «وانفتح هيكل الله في السماء، وظهر تابوت

عهده في هيكله.» (رؤيا ١٩: ١٩)

السلام للقبر، مخزن الحنطة، وأهراء الحياة، الذي اختزن فيه «يوسف» مؤونة الدنيا، لِسَدِّ عِزِّ عِجَافِ السنين لكل العالمين!

السلام للقبر، الذي انهزمت فيه ظلمة الموت، وخرج النور ليضيء طريق الخلود.
السلام للقبر، الذي اُخْتَجَزَ الأطياب والحنوط، التي سَقَطَتْ عن الجسد، فَصَنَعَتْ منها الكنيسة مَسْحَةَ الروح والحياة، لِيَعْبَرَهَا أولادها نهر الموت، كَعَبَاءَةِ إيليا التي سقطت عنه، ففَلَقَ بها أليشع الأردن، وعَبَرَ.

٤٢: ١٩ «فَهِنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ، لَسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ، لِأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً».

الآية اعتذارية عن عدم تقديم كل واجبات التكفين أو التجنيز. فعامل السرعة هو الذي حتم اختصار الإجراءات في تكريم الجسد، من جهة؛ وعامل السرعة بسبب اقتراب السبت، من جهة أخرى، هو الذي حتم اختيار هذا القبر الخاص بيوسف، كَوْنَهُ قَرِيباً من الجلجثة، حيث الصليب.

«هناك وضعوا يسوع»:

في سفر الأعمال يبرز «فعل الوضع في القبر» كمرادف حتمي لفعل القتل! فالموت لا يُصْبَحُ موتاً إلا إذا أصبح الجسد موضوعاً في قبر: «... إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقْتَلَ، ولما تَمَّوا كُلَّ مَا كُتِبَ عَنْهُ، أَنزَلُوهُ عَنِ الْخَشَبَةِ، وَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِ.» (أع ١٣: ٢٧-٢٩)

يلاحظ القارئ في هذا الوصف المؤثر الحزين اللائم أن وضع الجسد في القبر، بالرغم من أنه تمَّ على يدين حانيتين لصديقين مؤمنين: يوسف ونيقوديموس؛ إلا أن فِعْلَ الوضع في القبر كان في نظر القديس لوقا كاتب سفر الأعمال، عملاً جحودياً وعدائياً من أمة اليهود التي خانت عريسها وقتلته، ثم دفنته بيديها! وكأن دَفْنَهُ هو التكميل لشماعة مَوْتِهِ. ولكن الدفن، في الوجه اللاهوتي، أُعْطِيَ توكيداً لموته، وبالتالي لا كتمال موجبات الفدية.

لقد شُدَّ المسيح على أن تكون هذه آيَّته التي يعطيها لجيل فاسق وشرير، «جيلٌ شريرٌ وفاسقٌ، يطلب آية، ولا تُعْطَى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال» (مت ١٢: ١٢).

٣٩ و ٤٠). ليس جزافاً أن يقول المسيح «قلب الأرض» καρδία ، لم يَقُلْ «تحت التراب» ولا «في باطن قبر» بل في «قلب الأرض» ἐν τῇ καρδίᾳ ، مُشيراً إلى المركز الأعظم الذي يحتجز الأرواح، والذي انطلق هو إليه ليقوم برسالة التبشيرية في عالم الأرواح المحبوسة، على مستوى يونان الذي اتخذته المسيح مثلاً — عن قضيده — بسبب إرسالته بالمناداة لخلاص أهل نينوى.

وهذا ما يراه القديس بولس، في نزول المسيح إلى القبر بالجسد، مشيراً إلى نزول آخر على مستوى الكرازة: «إذ صعد إلى القلاء، سَبَى سَبِيّاً، وأعطى الناس عطايا، وأما أنه صعد، فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نَزَلَ، هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يَمْلَأَ الكلَّ» (أف ٤ : ٨ — ١٠). وبهذا يُحْكِمُ القديس بولس الربط اللاهوتي بين «نزول المسيح» إلى القبر بالجسد ومنه لنزول النفس إلى أقسام الأرض السفلى، وبين صعوده إلى أعلى السموات. فكما أنه، بنزوله، أَفْرَغَ من البشرية كلَّ أَوْزَارِ خِزْيِهَا وعقوبتها حتى التراب؛ هكذا، بصعوده، مَلَأَ الكلَّ حتى إلى أعلى السموات. ويُلاحَظ تأكيد بولس الرسول على النزول أولاً، كسببٍ وعِلَّةٍ وَقُوَّةٍ صعوده: «وأما أنه صعد، فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً».

فسلامٌ للقبر، محطَّ «قلب» كلِّ الأرض، محطَّ «الأقسام السفلى». والجسد فيه مُسَجَّى، بانتظار تكميل الرسالة، بخروج المقيدين في الهاوية، المقيدين بالذُّكِّ والحديد، المسيبين في ظلمة الخطية، والمأسورين منذ الدهر في الجحيم بقيود من لهُ سلطان الموت.

هوذا أشرق عليهم نورٌ، فَكَّ أسرى الرجاء، وسبى سَبَى الجحيم، وصَعِدَ بهم كجَبَّارٍ، وهم في موكب نصرته، وعلى رؤوسهم فرحٌ وابتهاجٌ أبدي.



المجدل

ونفخ على نعد ٤ أميال من طبرية. وحالياً هي قرية صغيرة للصيادين. ولكنها في أيام المسيح كانت ذات أهمية كبيرة. وهي مدينة مريم المجدلية، التي شفاها المسيح، والتي كانت أول من أظهرها المسيح بعد قيامته، إذ كانت أول من توجه إلى القصر فجر القيامة (يو ٢٠: ١-١٤).

الأصحاح العشرون رابعاً : القيامة ἡ ἀνάστασις أي «الحياة الجديدة»

مقدمة :

«القيامة حدث يفوق التاريخ»:

١ — القيامة من بين الأموات «بذات الجسد» الذي صُلب، وبجروحه، وبطعنة الحربة النافذة إلى القلب؛ هذا الفعل الذي أجراه المسيح في نفسه، هو فعل غريب على البشرية. وكلمة «القيامة»^(١) التي دخلت قاموس المسيحية، ليست أصلاً من كلمات بني آدم؛ إنها تختص بعمل لا يختص بالأرض ولا بأية خلقة، إن في السماء أو على الأرض.

القيامة حدث هبط إلينا من السماء: «إن يُؤْلَم المسيح يَكُنْ هو أول قيامة الأموات» (أع ٢٦: ٢٣)، ومفهومه يفوق العقل والحواس والمشاعر والتفكير وأعماق الضمير، لأنه يفوق اللحم والدم. إنه فعل خلقة جديدة في صميم الخلقة العتيقة، أضافت إلى الإنسان سواء في فكره أو كيانه بُعْداً جديداً سماوياً.

لذلك ينبغي أن يستعد الفكر الآن قبل أن نخوض في كيف ظهرت القيامة واستُعلنت ورُئيت وُسُمعت وُجُسَّت ولُمِسَتْ، يلزمنا في هذا ذهن مستعد لقبول حقائق جديدة لا تُقاس بأي حقائق أو قياسات سابقة في تاريخ الإنسان ومفهومه، وإن كانت هي — في ذات الوقت — حقائق ليست وهمية أو تصورية أو رؤيوية بل حقائق واقعية يمكن أن تمسكها العين مسك اليد، وتلمسها اليد لمس اليد لليد، وتتحسسها كما تحس العظم واللحم. ولكن بالرغم من واقعيتها الصلبة فهي لا تمتُّ إلى واقع الإنسان!

لأنه يلزم أن نعرف من بولس الرسول أن هذا الذي يقوم من الموت هو جسدٌ روحاني: «هكذا

(١) إذا فحص القارئ في فهرس الكتاب لا يجد لكلمة «القيامة» أي شواهد من أسفار العهد القديم.

أيضاً قيامة الأموات، يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد، يُزرع في هوان ويُقام في مجد، يُزرع في ضعف ويُقام في قوة، يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً، يوجد جسم حيواني (أو نفساني ψυχικός) ويوجد جسم روحاني» (١ كو ١٥ : ٤٢-٤٤). والجسم الروحاني لا يُقاس بعد بقياسات الجسم الحيواني؛ إنه يحتاج لعيون روحانية لكي تراه — أو على وجه الأصح — يحتاج إلى البعد الروحي في قياسات العين الترابية لكي ترى العين ما لم يكن في حيز طبيعتها.

هذا من جانب الإنسان، أما من جانب المسيح المُقام، فقد أوضح القديس بطرس الرسول — بوصفه قد اختبر شخصياً — أن المسيح أعطى من الله أن يصير ظاهراً، بمعنى أنه كان يُظهر ذاته بإرادته للذين انتخبهم ليكونوا شهود قيامته وليس للجميع: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع ١٠ : ٤٠ و٤١)

والصعوبة كل الصعوبة هي بسبب سلطان الموت الذي استبد بوعي الإنسان أشد استبداد، حتى إنه ألقى ستاراً من الظلمة كثيفة العتامة على كل ما هو بعد الموت! فالموت تصوّر في شعور الإنسان ولا شعوره أنه العدم، عين العدم! هكذا تجبر الموت على وعي الإنسان وتسيطر ظلاماً وعسفاً وكذباً وبُهتاناً. والسبب في ذلك لا يخفى على الإنسان الروحي. فالموت بحدّ ذاته عقوبة، وعقوبة الموت رسخت في كيان الإنسان كعقدة لا تُحلّ، وعقدة الموت لا يتخللها رجاء بالحياة، أي رجاء. وهكذا قتل الموت فكرة الحياة بعد الموت قتلاً، وبدّد مجد الروح وما للروح! لذلك أصبحت القيامة، وهي الحياة بعد الموت بكل ملء الحياة، داخلية في نطاق المستحيل لمن صدّق الموت وعاش عقده واستسلم لعقوبته: «ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت.» (رو ٧ : ٢٤)

لذلك نعود ونقول، إنه بالرغم من أن القيامة ظهرت علناً كحقيقة تُرى وتُسمع وتُجس بلء الحواس وملء المشاعر، إلا أن عقدة الموت هزّت الواقع المنظور والمحسوس هزاً عنيفاً وحاولت بكل جهد أن تلغي المنظور الغاء، وأن تُدخل الواقع الحي المتكلم أمامها في دائرة الخيال عنوةً وتجبّراً:

+ «فقال لهما يسوع لا تخافا...» (مت ٢٨ : ١٠)، مع أن المسيح نفسه كان قائماً بشخصه تماماً كما كان!

+ «ولكن بعضهم شكوا...» (مت ٢٨ : ١٧)، مع أن المسيح أراهم كل العلامات أنه هو هو!

+ «فخرجن سريعاً وهربن من القبر، لأن الرعدة والحيرة أخذتا هن، ولم يقُلن لأحد شيئاً

لأنهن كُنَّ خائفات. » (مر ١٦: ٨)

+ « فلما سمع أولئك أنه حيٌّ، وقد نظرته (المجدلية)، لم يصدّقوا » (مر ١٦: ١٣)، مع أنه سبق وأخبرهم بكل ما سيحدث!

+ « وذهب هذان وأخبرا الباقيين فلم يصدّقوا ولا هذين » (مر ١٦: ١٣)، بالرغم من تكرار الشهادة!

+ « أخيراً ظهر للأحد عشر، وهم متكئون، ووثّق عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدّقوا الذين نظروه قد قام. » (مر ١٦: ١٤)

+ « وإذ كُنَّ خائفات ومنكّسات وجوههن إلى الأرض، قال لهن: لماذا تَظْلُبْنَ الحيّ بين الأموات. » (لو ٢٤: ٥)

+ « فقام بطرس وركض إلى القبر، فاتحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجباً في نفسه مما كان. » (لو ٢٤: ١٢)

+ « فقال لهما: أيها الغبيان والبطيخا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده » (لو ٢٤: ٢٥ و٢٦)، حتى العقل وحتى القلب تفهقرا أمام حقيقة القيامة!!

+ « وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، فقال لهم: ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم، انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو، جسّوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا، أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدّقين من الفرح ومتعجبون، قال لهم: أعندكم ههنا طعام... فأخذ وأكل قدامهم. » (لو ٢٤: ٣٦-٤٣)

+ « ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبِي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. » (يو ٢٠: ٢٧)

بهذا الجزع، والخوف، والرعدة، والخيرة، وعدم الإيمان، والتعجب، وعدم التصديق، بل والغباء وقساوة القلب، استقبل التلاميذ «القيامة»، ولهم في ذلك الحق، كل الحق، فهم أموات بالخطية وأولاد المائتين الذين ماتوا جميعاً، وعلى بكرة أبيهم، لا يعرفون إلا لغة الموت، أما ما هو بعد الموت فليس له لغة، وإن وُجدت فليس لها وعي يدركها.

كل هذا يجعلنا، حينما نتعرض لرواية القيامة التي حدثت على مستوى التاريخ، أن نتيقن أنها

لا تمتدُّ إلى التاريخ بصلة. فالموت هو ختم نهاية التاريخ لكل إنسان، وليس من بعد الموت تاريخ لإنسان قط. فأن يقوم المسيح من الموت حياً بجسده، وبجروحه القاتلة وطعنة جنبه النافذة، يتكلم ويُحْيِي، ويكشف جروحه في يديه ورجليه وجنبه، ويأخذ يد توما ويضعها في مكان الحربة؛ فهنا حديث ما فوق التاريخ، وأحاسيس خاصة بجسد القيامة، ولغة الحياة الجديدة التي دخلت عالم الإنسان.

إذاً، يتحتم على الإنسان الذي يريد أن يؤمن بالقيامة أن يبدأ يتعلم علّم ما بعد الموت، وكلام ما فوق التاريخ، وحديث ما يخص الحياة الجديدة للإنسان. وليس معقولاً قط أن يُفَسَّحَ المجال هنا لناقدٍ يقيس بقياساته العتيقة ما يخص الحياة الجديدة.

كذلك على قارئ القيامة في الأناجيل الأربعة أن يستعد لسمع متفرقات موقّعة بغاية الصعوبة على التاريخ من الذين عاينوا وسمعوا وشهدوا، كلٌّ على قدر ما اتَّسع وعيه لإدراك هذا الحدث الجلل الفائق الإدراك الذي لا يمتُّ للطبيعة البشرية بأية صلة. والقارئ إن وعى ذلك تماماً، وعى القيامة وهتف مع الكنيسة الأولى: المسيح قام، بالحقيقة قام!

٢ — ولكي نمهّد للوعي المسيحي أن يدرك «القيامة»، يلزم بالأساس أن نضع في الاعتبار أننا في تعاملنا مع المسيح فنحن نواجه «الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦). فمعجزة المسيح العظمى هي الموت وليست القيامة، لأن المسيح هو القيامة والحياة، وهو ابن الله المتعالي جداً عن مفهوم الموت، وحتى بعد تجسده لم يكن فيه خطية واحدة. ومعروف أن الموت هو عقوبة الخطية، فكيف يموت مَنْ هو القيامة والحياة، وَمَنْ هو المتعالي عن الموت، وَمَنْ هو بلا خطية قط؟ فكَوْنُ المسيح يقبل أن يدخله الموت، فهذه هي معجزة الفداء، وقد استلزم منه أن يقبل الخطية، بمعنى أن يُحسب متعدياً حقيقياً ليتسنى للموت أن يدخله كعقوبة! دفع ثمنها بالفعل ومات وقُبر. ولكنه دفع ثمنها ليس عن نفسه بل من أجل الإنسان ليعفي الإنسان من الموت كعقوبة التعدي أو الخطية.

الموت دخل إلى المسيح، فمات المسيح حقاً، وقُبر، وبقي ميتاً من الثالثة بعد ظهر الجمعة إلى فجر الأحد ما يقرب من ٣٦ ساعة. ولكن لم يستطع الموت أن يتعامل مع جسد المسيح أكثر من انفصال النفس عن الجسد، بمعنى أنه لم يقرب الفساد خلية واحدة من الجسد: «لا تَدْعُ قدوسك يرى فساداً» (أع ٢: ٢٧)، لأن الجسد كان في حراسة روح الحياة باستعداد القيامة. لذلك، فالمسيح مات ليقوم، ويقوم بذات الجسد في ملء كماله وجروحه عليه، وعلامات الموت صارت

برهان وصدق القيامة. والقيامة صارت برهان وصدق التجسد «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (روا: ١٠٣)(٢)

(٢) إذا أراد القارىء أن يستزيد من معنى القيامة وقوتها فيمكنه أن يرجع إلى هذه المقالات بتواريخها التي ألفت ليلة عيد القيامة منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٨١ :

المقالات التالية يجدها القارىء في كتاب: «سلسلة الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية، الجزء الرابع: القيامة والصعود»:

١٩٥٨	أحد توما وإضافة «حقاً قام»	١٩٧٤	إنجيل آلام وأعياد قيامة
١٩٥٩	المسيح قام... حقاً قام	١٩٧٥	لأعرفه وقوة قيامته
١٩٧٠	القيامة والمصالحة	١٩٧٧	قيامتنا كلنا
١٩٧٠	القيامة والفداء في المفهوم الأرثوذكسي	١٩٧٨	وظهر لبطرس
١٩٧١	وأراهم نفسه حياً براهين كثيرة	١٩٧٨	فرح القيامة
١٩٧٨	الإيمان بالمواعيد	١٩٧٨	قيامة المسيح من بين الأموات أنشأت طبيعة جديدة تستمد كيائها وعملها منه شخصياً
١٩٧١	بين الإيمان والرؤيا	١٩٧٨	قوة القيامة مستترة في الموت الإرادي
١٩٧١	يا سمعان بن يونا أتخبرني؟	١٩٧٨	القيامة والعمل الروحي بالنسبة للخليقة الجديدة
١٩٧١	القيامة حدث فوق الطبيعة	١٩٧٩	القيامة كحياة
١٩٧٢	عيد القيامة يوم الخليقة الجديدة	١٩٨٠	أين شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية
١٩٧٣	القيامة إيمان قائم على مشاهدة فائقة	١٩٨١	القيامة
١٩٧٤	القيامة حياة وشهادة	١٩٨١	

وبالإضافة إلى هذه المقالات يمكن الرجوع إلى المقالتين التاليتين اللتين نُشرتا في مجلة مرقس:

— «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي» (يونيو ١٩٨٣).

— «من الصليب إلى القيامة» (أبريل ١٩٨٥).

صفحة المجد في تاريخ الإنسان

انفتاح سفر الحياة الأبدية

بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات وجروحه عليه

(٢٠: ١ - ٢٩)

ق. يوحنا يكتب عن قصة القيامة التي عاصرها في أيامه، لكنيسة تعيش القيامة بالفعل على مدى ستين سنة سالفة، وعلى دراية بتاريخ حوادثها من واقع ثلاثة أجيال.

لذلك، لا نتوقع من ق. يوحنا تدقيقات في السرد التاريخي. ولكنه يطرق المواقف البارزة التي رسخت في قلبه وذهنه، والتي قرّضت عليه الإيمان بالقيامة فرضاً، عن اقتناع جارف بدّد الحزن المرير الذي خلّفته حوادث الصلب، وأطاح بشعور الشك والخوف. لذلك جاءت تقاريره عن القيامة كردّ حاسم للموت على الصليب بعذاباته.

وكما هبطت حوادث الآلام والموت في تصويراته لحوادث الصلب إلى مستوى العدم واليأس والتشتت والبؤس معاً للتلاميذ، ارتفعت تصويراته للقيامة في المقابل إلى مستوى الإيمان الكامل واليقين والتجّمع والفرح لنفس التلاميذ. وهذا الانقلاب الجذري السريع في حياة التلاميذ، هو بعدّ ذاته برهان حاسم لصدق القيامة وقوة فاعليتها.

محتويات الأصحاح العشرين:

المنظر الأول: عند القبر (١: ١٨):

١ - رؤية القبر مفتوحاً:

(أ) (٢٠: ١ و ٢) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، وتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ.

(ب) (٢٠: ٣ - ١٠) بطرس والتلميذ الآخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللقائف

موضوعة بحرص. فيتمجب الأول ويؤمن الثاني.

٢ - المسيح يظهر للمجدلية:

(أ) (٢٠: ١١ - ١٣) المجدلية تنظر داخل القبر، فتجد الملائكة.

(ب) (٢٠: ١٤ - ١٨) المسيح يظهر للمجدلية بجوار القبر، فتخطىء معرفته، ويلفت نظرها بأن

يدعوها باسمها . والمجدلية تبشّر التلاميذ أنها رأت الرب .

المنظر الثاني: في العلية، والتلاميذ مجتمعون:

١ - (٢٠: ١٩-٢٣) في مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذ، ويُحييهم، والتلاميذ يفرحون برؤية الرب. ثم يفتتح سفرَ الإرساليات في العالم. ويؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا.

٢ - المسيح يظهر خصيصاً للأحد عشر من أجل توما في العلية.

(أ) (٢٠: ٢٤ و ٢٥) توما كان غائباً عن الاجتماع الأول، ويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ.

(ب) (٢٠: ٢٦-٢٩) في الأحد الثاني (الأوكتاف Octave = اليوم الثامن من القيامة)، المسيح يظهر للتلاميذ المجتمعين ومعهم توما، والمسيح يدعو توما أن يرى ويتحسس جروحه. توما يعلن المسيح رباً وإلهاً. والمسيح يطوّب الذين آمنوا ولم يروا.

المنظر الأول : عند القبر

(١٨ : ١ - ٢٠)

١ - رؤية القبر مفتوحاً فارغاً : (١٠ : ١ - ٢٠) .

(أ) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، فتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ : (٢٠ : ١ و ٢) .

١ : ٢٠ « وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً، والظلام باقٍ، فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر » .

« أنا أحب الذين يحبونني،

والذين يُكرِّمون إليَّ يحدونني. » (أمثال ٨ : ١٧)

« وفي أول الأسبوع » : τῇ δὲ μιᾷ τῶν σαββάτων

وترجمتها الحرفية : وفي « الأول للسبت » ، لأن السبت محسوب أنه تاج الأيام في التعبيرات العبرية، لذلك فكل أيام الأسبوع تُحسب من بعده، أي الأول للسبت يعني (الأحد)، الثاني للسبت يعني (الاثنين)، وهكذا. فالسبت يحمل في طياته كل الأسبوع، حتى إن كلمة «السبت» قد تأتي بمعنى الأسبوع كله. ففي قول الفريسي المتفاخر بتقواه : «أصوم مرتين في الأسبوع» : δις τοῦ σαββάτου (لو ١٨ : ١٢) تأتي كلمة «السبت» بمعنى الأسبوع كله، لأنه يحتويه بكرامته .

وقد صار هذا الاصطلاح «أول الأسبوع» أي «الأحد» هو اليوم الذي كرمته القيامة فوق السبت وكل أيام الأسبوع. ويسميه الآباء القديسون اليوم «الثامن» = الإكثاف، أي يوم ما بعد الأسبوع، أي يوم ما فوق الزمان بالحساب الإنساني. لأنه يوم الرب .

وهذا التعبير يأتي موازياً لليوم الأول في الخليقة، الذي سُمِّي «الأسبوع» أي السبعة الأيام للخليقة كلها من خلفه، أي بعده وقياساً عليه. ففي اليوم الأول قبل أن توجد الأيام الأخرى بدأ الله الخليقة الأولى مبتدئاً : «ليكن نور» (تك ١ : ٣). هكذا في «أول» الأسبوع «الأحد» قام المسيح من الموت ليبدأ الخليقة الجديدة : «أنا هو نور العالم (الجديد)» .

« باكراً، والظلام باقٍ » :

لم يهدأ لها بالٌ ولم يغمض لها جفنٌ . لقد أعدت الحنوط مع الزميلات المريمات بعد أن انقضى

السبت، ثم باتت تنتظر الفجر، أسرعت أكثر من الباقيات، وكانت أوّل من وُلّج باب أورشليم الذي يُطلُّ على الجُلجثة ... كان أملها الوحيد أن تطيّب جسد مَنْ أَسَدَى إليها الشفاء والمحبة، وما كانت تظن أنها ستسمع اسمها من فمه مرة أخرى، وتراه حيّاً بل وأكثر حياة. والذي يذوق محبة المسيح، يستعذب سَهَر الليالي، والإسراع إليه والظلامُ باقٍ. ولكن فوق كل شيء، يا لشجاعة تلك المرأة العجيبة!

أين التلاميذ؟ أين بطرس والزّمرّة كلها؟ ألا يتراءى أحد عند القبر باكراً إلاّ هذه المرأة؟ وهل للنساء السّيرُ في الظلام، واقتحام المخاطر، والتواجد عند القبر خارج أسوار المدينة؟! منذ أن صُلبَ الرب، والتلاميذ يلوذون بالصمت، وهم مشلولو الحركة، والخوف يعصف بهم من كل جانب. ولكن هذه النكسة التي تكشف عن فداحة عشرة الصليب، هي هي عينها التي تضاف إلى مجد القيامة «وقوتها»، التي استطاعت أن تغيّر مثل هذه الرّغبة والجبانة إلى قمة الشجاعة والمجاهرة وفصاحة البشارة، التي هدّت أركان أعشى إمبراطورية ظهرت في التاريخ، ومعها سرطان الوثنية التي كانت تنخر في جسم البشرية كلها.

إذا جمعنا ما يقوله القديس مرقس على ما يقوله ق. يوحنا فيما يخص ذهاب النسوة إلى القبر، تبرز الحقيقة؛ يقول القديس مرقس:

«وباكرأ جداً في أول الأسبوع أتّين إلى القبر، إذ طلعت الشمس.» (مر ١٦: ٢)

واضح من رواية القديس مرقس، أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة (أم ق. يوحنا) قُشن من بيوتهن «باكرأ جداً، والظلامُ باقٍ»، كقول ق. يوحنا. ولكن مريم المجدلية سَبَقَتْهُنَّ مُسرعة إلى القبر، فوصلته سريعاً قبل أن ينقشع الظلام تماماً، فتسجّلت شهادتها أولاً وبمفردها في إنجيل يوحنا، أما أم يعقوب وسالومة فوصلتا ببطء وكانت الشمس قد طلعت. وهكذا تبدو المجدلية الأولى دائماً بين التقيات.

«فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر»:

ق. يوحنا يتميز باستخدامه الاصطلاح: «مرفوعاً» بالنسبة للحجر الموضوع على فوهة القبر، تماماً كما وصف فتحة القبر والحجر عليها في قصة لعازر: «وجاء إلى القبر، وكان مغارة، وقد وُضِعَ عليه حَجَرٌ، قال يسوع ارفعوا الحجر» (يو ١١: ٣٨ و٣٩). وهذا يوحي أن الحجر الموضوع على فوهة القبر يكون مستديراً، ساقطاً في مجرى محفور له، يلزم إمّا رفعه، أو دحرجته، حسب الأناجيل الأخرى.

والحجر عادة يكون ثقیلاً^(٣)، ويلزم أكثر من رجل لدخرجته أو رفعه من مكانه، «مَنْ يُدْخِرْجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ... لَأَنَّهُ كَانَ عَظِيماً جِداً.» (مر١٦: ٤٣)

٢: ٢٠ «فَرَكَضَتْ، وَجَاءَتْ إِلَى سِمَعَانَ بُطْرُسَ، وَإِلَى التَّلْمِيزِ الْآخَرِ، الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يَحِبُّهُ، وَقَالَتْ لهُمَا: أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ.»

جاءت إلى القبر مسرعة كأول زائر، وخرجت مسرعة كأول بشير، كانت السرعة إلى مستوى الركض تكشف عن مقدار الלהفة وشدة التأثير. ذهبت أولاً لبطرس، ومن هذا نستدل على أن مركز القديس بطرس لم يهتز بالرغم من الشَّقَّة التي وقع فيها قبل صياح الديك منذ ٤٠ ساعة لا غير. وتكرار القول عن ذهاب المجدلية: «إلى» سمعان بطرس، و«إلى» التلميذ الآخر، يكشف عن أنهما كانا يقطنان كل واحد في بيت بعيداً عن الآخر. وكونها تختار هذين الاثنين من بين التلاميذ، يكشف عن التساوي في المركز الأول بين القديسين بطرس ويوحنا. ولكن من شهادة القديس مرقس الإنجيلي، يبدو أن تعيين اسم «بطرس» كان بواسطة ملاك (مر١٦: ٧).

«أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»:

هذا التقرير يكشف عن أن المجدلية، إما اكتفت برؤيتها الحجر مرفوعاً عن فم القبر كدلالة على أن الجسد رُفِع أيضاً من القبر، سواء بيد اليهود، أو بيد آخرين ليضعوه في المكان الأليق؛ وإما أنها تحققت وهي عند القبر أن الجسد فعلاً كان مرفوعاً وغير موجود. والاحتمال الأول هو الأكثر توقّعاً.

وقولها «لسنا نعلم» بالجمع، يفيد أن آخرين يشاركونها هذا التقرير، فرمما أن النسوة كنّ قد حضرن أيضاً وشاركنها في اكتشاف الحجر مرفوعاً.

ويا له من تعبير غاية في الوقار: «أخذوا السيد»، أي الرب، وهو ينم عن إحساس عميق بأن المسيح لا يزال — بعد مأساة الصلب والإهانة والموت والدفن — هو السيد الأكرم والمتعالي. إنها المحبة الصادقة، هي التي تصوّر للعين والقلب كل ما هو عظيم ومجيد لمن تحبه النفس؛ والقول الشائع هنا صحيح: «وعينُ الحبِّ (الرضى)، عن كل غيبٍ كَلِيلَةٌ».

ولكن إذا عدنا إلى شهادة بقية النسوة وبقية شهادة المجدلية، ننتهي إلى حقيقة راسخة مرئية

رؤى العين، لخصها القديس لوقا عن لسان تلميذني عمواس في إنجيله في آية واحدة: «بل بعض النساء متا حيرتتا، إذ كنَّ باكرأ عند القبر. ولمَّا لم يجدن جسده، أتبن قائلات إنهن رأبن منظر ملائكة قالوا إنه حيُّ» (لو ٢٤: ٢٢ و ٢٣)؛ ... ثم يكمل شهادة النسوة بشهادة بعض التلاميذ قائلاً: «ومضى قوم من الذين معنا (يقصد بطرس ويوحنا)، إلى القبر، فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو ٢٤: ٢٤)

و يلاحظ القارىء في آخر الآية القول: «وأما هو فلم يروه»، الذي يفيد أن النسوة رأيته كما قرر القديس متى: «وفيما هما منطلقتان (مريم المجدلية ومريم الأخرى) لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما. فتقدّمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له.» (مت ٢٨: ٩)

لذلك ينبغي لنا أن نفحص جيداً، وبتمعن، في تقرير المجدلية الذي قدّمه إنجيل يوحنا باختصار زائد: «أخذوا السيّد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»، إذ نلاحظ أنها لم تكن تبكي، بل قدّمت تقريرها بعد أن قطعت المسافة كلها ركضاً. إذن، فهي كانت مُفَعّمة بمشاعر صاحبة يحدوها نوع من الأمل، فلما فقدته عادت إلى القبر الفارغ تبكي.

ثم لينتبه القارىء لحركتين تحملان معهما إحساساً قوياً، بأن شيئاً هاماً وخطيراً قد حدث، ركّض المجدلية لتخبر بطرس ويوحنا، ثم ركّض بطرس ويوحنا بالتالي لاستطلاع الأمر، ثم ركّض يوحنا بالذات ركضاً فائقاً ليسبق. هذا الركض اللاهث المتلهف لمعرفة ما حدث، يحمل معنى الأمل الذي كان شبه نائم في أعماق وجدانهم جميعاً: هل قام الرب؟ وأين هو؟ القبر الفارغ وحده، أي عدم وجود الجسد، لم يقنع المجدلية، ولم يقنع بطرس كدليل على قيامة الرب، إنهم كانوا يبحثون عن دليل آخر للقيامة. فالمجدلية تعلق على ما بعد القبر الفارغ: «أين وضعوه»، إنها تبحث عما سبّب الفراغ للقبر. أما بطرس، فبعد أن نظر القبر الفارغ، وحتى الأكفان نفسها موضوعة وحدها، لم يفهم شيئاً، فالقيامة عنده كانت تحتاج إلى دليل آخر: «فقام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى، ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجباً في نفسه مما كان.» (لو ٢٤: ١٢)

إذاً، نفهم من هذا جيداً، أن القبر الفارغ وحده وحتى الأكفان التي وُجدت كما هي ملفوفة بلفّتها، والجسد منسحب منها، ومنديل الرأس في موضع الرأس وليس بداخله الرأس، لم تكن كافية لتكون العامل الأساسي للإيمان بالقيامة — إذا استثنينا إيمان ق. يوحنا، وهو الوحيد الذي رأى القبر فارغاً والأكفان وحدها «فآمن».

أي أن القيامة استُغْلِثَتْ من خلال ظهور الرب نفسه. وَلَيَمَنْ ظهر أولاً وكان أكثر ظهوراً؟
إلا لمن كانت المحبة تتأجج في قلبها تأججاً: «الذي يحبني ... أحبه وأظهر له ذاتي.»
(يو: ١٤: ٢١)

أما «إيمان» ق. يوحنا بالقيامة مباشرة قبل أن يظهر له المسيح شخصياً، كالمجدلية، فهو نموذج
الإيمان الأعلى غير القائم على العيان (النقيض الشديد لإيمان توما). وإيمان يوحنا هو الذي استلمته
الكنيسة كلها كميراث رسولي فائق القدر، وعليه نحن نعيش الآن: «الذي وإن لم تروه تحبونه،
ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبهجون بفرح لا يُنْطَقُ به، ومجيد» (١ بط ١: ٨)؛
«طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو: ٢٠: ٢٩)

(ب) بطرس والتلميذ الآخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللفائف موضوعة
بحرص، فيتعجب الأول، ويؤمن الثاني: (٢٠: ٣-١٠)

٢٠: ٣ «فخرج بطرس والتلميذ الآخر وأتيا إلى القبر».

التعبير يوحى بأن كلاً منهما خرج من بيته في طريقه إلى القبر، فتلاقيا في الطريق، وتابعا
الركض معاً نحو القبر.

هنا في هذا الموضع، يكشف لنا القديس لوقا في إنجيله عن كيف استقبل التلاميذ عموماً
رسالة المجدلية بفتور ممزوج بعدم التصديق، والتقليل من انفعال المجدلية ومن معها إلى درجة
الإتهام بالهذيان «... اللواتي قلن هذا للرسل، فترأى كلامهن لهم كالهذيان، ولم يُصدقوهن.»
(لو: ٢٤: ١٠ و ١١)

ولكن يخص إنجيل لوقا بطرس من دون التلاميذ بمراجعة موقفه بسرعة، وقيامه وذهابه للقبر
راكضاً، كما جاء في إنجيل يوحنا: «فقام بطرس وركض إلى القبر» (لو: ٢٤: ١٢). ولكن في
موضع آخر من رواية القديس لوقا وحينما يروي بشارة النسوة على لسان تلميذي عماوس، نستشف
أن بطرس لم يذهب وحده إلى القبر هكذا: «بل بعض النساء منا حيرتُنَّ، إذ كنَّ باكراً عند القبر
ولما لم يجدنَّ جسده، أتين قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حيٌّ. ومضى قوم من الذين
معنا إلى القبر، فوجدوا هكذا، كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو: ٢٤: ٢٢-٢٤)

٢٠ : ٤ «وكان الاثنان يرْكُضَانِ معاً، فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الْآخَرُ بِطَرَسَ وَجَاءَ أَوَّلًا إِلَى الْقَبْرِ».

عن قصد وإصرار ولَلَفَتَ نظر القاريء، يَسْجُلُ ق. يوحنا لنفسه هذا السَّبْقَ، ويخطيء من يقول بعامِل السن، أن هذا شاب وذاك متقدم في السن، فالآيات القادمة تَحْطِئُ مثل هذا الزعم، لأن السرعة في الجري لو كانت من رعونة الشباب، ما تأخر يوحنا عامداً، ولم يدخل القبر، إذ ترك هذا السَّبْقَ لبطرس توقيراً واحتراماً للسن.

إذاً، فالسبب واحد ووحيد هو أن يوحنا هو: «التلميذ الذي يحبه يسوع». وهذا قصد ق. يوحنا أن يوحى به للقاريء ليفهمه. فمحبة المسيح له جعلت له أجنحة يطير بها أكثر من أن يجري، هذا لم يَنَسُهُ ق. يوحنا قط، فقد كان يوماً فريداً وساعة فريدة في حياته. وليفهم القاريء أن ق. يوحنا أخْفَى اسمه واستبدله بـ: «التلميذ الذي يحبه يسوع»، وعلى مستوى إنجيله كله يبرهن على صدق دعواه. وهنا، فأن يسبق يوحنا بطرس، فهذه مسألة تعبير عما تفعله المحبة. فالذي يريد أن يجري إلى المسيح ويسبق، تَلْزِمُهُ قوة المحبة. أما لماذا يَصْرُقُ ق. يوحنا أن يَسْجُلَ لنفسه هذا التفوق على بطرس، فهو لكي يوحى للقاريء أيضاً تلميحاً لماذا اختاره المسيح ليسلمه أمّه، وليس بطرس.

٢٠ : ٥ «وَانْحَنَى فَتَنَظَرَ الْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ».

كان المكان الذي يوضع فيه الجسد في غرفة منخفضة نوعاً ما عن الغرفة الخارجية للقبر حيث كانت تجتمع النسوة للتحنيط والبكاء؛ فكان على الواقف خارج غرفة الجسد أن ينحني على فتحة الباب لينظر ما بداخل غرفة الدفن حيث الجسد يكون مسجى على مصطبة (أنظر الرسم).

أما كَوْنُ يوحنا لم يدخل، فهذا قطعاً ليس لعامل الخوف أو الرهبة أو النجاسة من لمس القبر — كما يقول بعض الشُّراح؛ ولكن لأن بطرس كان قد وصل، فأعطاه الفرصة ليكتشف الأمر أولاً. والذي يوضح ذلك، أن فعل «نَظَرَ» الذي استخدمه ق. يوحنا في تعبيره عن استطلاع ما في داخل القبر جاء باليونانية βλέπει، ويفيد النظرة العابرة البسيطة من بُعد. أما الفعل الذي استخدمه لاستطلاع بطرس لما دخل القبر فهو θεωρεῖ، ويفيد التطلع مع التأمل الفاحص عن قُرب. وما نشأ عن اختلاف النظرتين: البسيطة والمتعمقة، أن بطرس استطاع أن يرى منديل الرأس الذي كان داخلاً على بُعد، أما يوحنا فلم يَرَهُ.

وكل هذه الدقة في وصف ق. يوحنا لحادث دخولهما القبر، كانت بسبب انطباع هذه

قطاع طولي للجلجثة والقبر المقدس

١ القبر المقدس

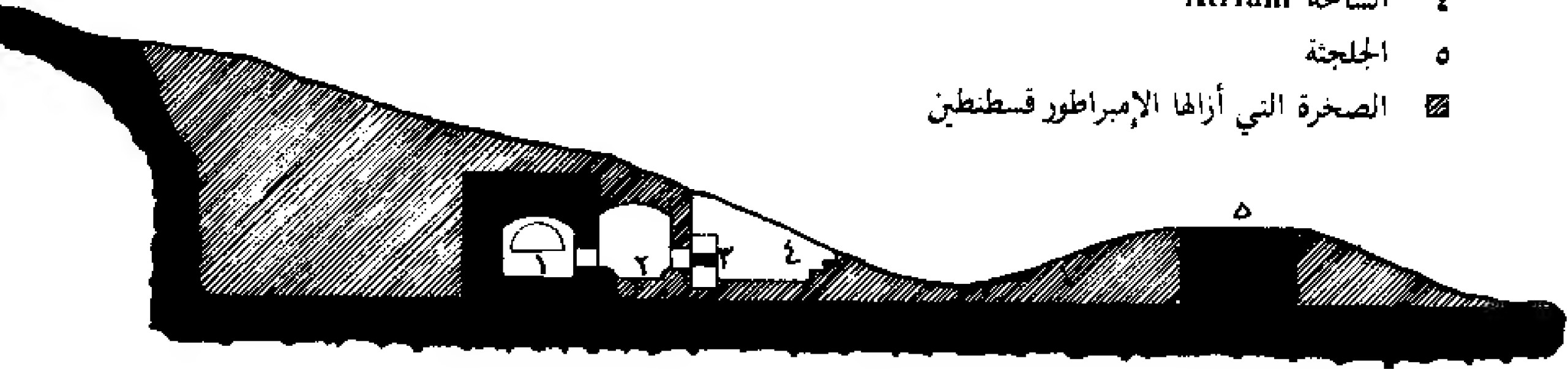
٢ الفسحة

٣ الحجر الذي وُضع على القبر

٤ الساحة Atrium

٥ الجلجثة

الصخرة التي أزالها الإمبراطور قسطنطين



مقياس ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠ ٣٥ أمتار

الحوادث بشدة في ذهن ق. يوحنا وهو يصفها من واقع حضورها في ذهنه، الذي لم يفارقه أكثر من ستين سنة!!

وليلاحظ القارئ أن الفكر الذي كان طاغياً على كل من بطرس ويوحنا، والذي دعاها إلى الجري ودخول القبر والفحص، كان بسبب رواية المجادلة أن: «السيد أخذوه». فكان السؤال الذي يفتشون عن جواب له هو: هل الجسد قد أُخِذَ من القبر فعلاً؟ وكيف؟ ومن هم الذين تجرأوا على ذلك؟

ولعل رواية ق. يوحنا هذه، وكيف ابتدأ بخبر: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، بالرغم من أنها جاءت معقدة للتفكير في القيامة، فتقصد الروح القدس والوحي منها كان هو فحص القيامة فحصاً متأنياً؛ لا يبدأ من الصفر فقط بل ومن تحت الصفر. فهذا الخبر السلبي: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، هو فرض تكذيب القيامة، من هذا المستوى بدأ القديسان بطرس ويوحنا معاً يفحصان موضوع القيامة حتى انتهى بهما الأمر إلى يقين الظهور الإلهي.

٦:٢٠ «ثم جاء سمعان بطرس يتبعه، ودخل القبر، ونظر الأكفان موضوعة».

كان دخول بطرس سريعاً جريئاً تحمله الלהفة لمعرفة كيف «سُرِق» الجسد، ولكن بدخوله داخل غرفة الدفن — وهي مظلمة بطبيعة الحال — استلزم منه نظرة فاحصة متأملة؛ فأخذ يجول ببصره وبكل انتباه وإعمال التفكير والذكاء والملاحظة، فللحال اصطدم بالحقيقة شبه العظمى أن اللفائف التي كُفِنَ بها الجسد هي هي، وموضوعة في مكانها. إذأ، فالجسد لم يُسَرَق: هذه هي الحقيقة الأولى التي كانت تهم الراوي في روايته، لتفتح مجرى القيامة قبل استعلانها بظهور المسيح قائماً من الموت. وهنا نفى كل تفكير في أي شيء غير القيامة.

وكلمة «اللفائف موضوعة»، وبعد ذلك في الآية القادمة: «والمنديل ... ملفوفاً في موضع وحده»، هو وصف يختص بنفي إمكانية السرقة نفياً قاطعاً، لأن اللفائف كانت بحسب كلمة «موضوعة»، والمنديل بحسب كلمة «ملفوفاً في موضع وحده»، وليس مع اللفائف بل «ملفوفاً وحده»، هذا الوضع في جملة يصور الجسد كيف كان راقداً مُسَجَّى، ثم انسحب من داخل اللفائف دون أن يُفْقِدَها نظامها التي كانت ملفوفة به حول الجسد. هذا المنظر، بحد ذاته، يُذهل العقل الذي عُبر عنه في إنجيل لوقا: «فمضى متعجباً في نفسه مما كان».

٧:٢٠ «والمندبل الذي كان على رأسه ليس موضوعاً مع الأكفان، بل ملفوفاً في موضع وَخْدَهُ».

كان وضع المندبل مكتملاً لشكل الجسد كما كان مسجى سابقاً؛ فهو لم يُفك من حول الرأس ليوضع مع اللفائف، ولا اللفائف فُكَّت من مكانها ومن لفتها حول الجسد. كان المنظر ينطق نُظْلاً بأن الجسد غادر الكفن ... لقد طرح أردية الموت لبني الموت، ليلبس النور كالشوب (مز ١٠٤: ٢)، وخلع أثواب الجسد ليلبس الجلال (مز ٩٣: ١). لم تُفك يَدُ بشرى، ولا يَدُ سارقٍ، بل انفك هو من الكفن، كما دخل العلية والأبواب مغلقة!! أَلَمْ يَقُلْ سابقاً: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق» (يو ٨: ٢٣)!!

لقد وقف تفكير بطرس عند حد استحالة سرقة الجسد، بدليل الأكفان الموضوعة في مكانها، ولكن لم يتقدم إلى فكر القيامة الذي يحتم الاعتقاد بالحياة التي لا تخضع لقوانين هذه الحياة. وبهذا انحصر في لغز يصعب حله.

٨:٢٠ «فحينئذٍ دَخَلَ أيضاً التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر، ورأى فآمن».

رأى يوحنا ما رأى بطرس، اللفائف الموضوعة والمندبل بعيداً عنها موضوعاً بحرص وحده، وكل شيء في ترتيب ونسق طبيعي، ولا علامة لأي يد تدخلت في خروج الجسد من الكفن. ولكن الصمت عند بطرس والتعجب مما كان، ارتفع عند يوحنا إلى حدّ «الإيمان» ولكن ليس بالقيامة، وإلا لكان الإنجيل قد ذَكَرَ ذلك بوضوح، ولكن «الإيمان» كان بأن شيئاً قد تمَّ!! وإن نور فجر هذا الإيمان العريض بالمسيح كان يُخَوِّى فيه بصيصُ تكميل وعد المسيح. ولكن إلى هنا توقّف الإيمان عند يوحنا بانتظار استعلان أكثر. على كل حال، لم يكن غيباً كتلميذَي عِمْنَواس، أو بطيء الإيمان بالقلب، فقد تسحّبت عليه أنوار القيامة، ولكن من بُعد. ق. يوحنا يقدم اختباره للإيمان دون أن يرى؛ هو إيمان، ولكن لا يحزم ق. يوحنا أنه إيمان مباشر بالقيامة، بل كان ممهداً لها بكل تأكيد. ق. يوحنا نعرفه بعد ذلك في حادثة صيد السمك بعد القيامة، كيف عرف الرب تلقائياً دون الآخرين، «إنه الرب». هو حَدْسٌ إلهاميٌّ أكثر منه تحقيقٌ رؤيا أو إدراكٌ نظري.

٩:٢٠ «لأنهم لم يكونوا بعدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ، أَنَّهُ يُنْبِئُ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْأَمْوَاتِ».

هنا يقدم لنا ق. يوحنا حقيقة جوهرية، وهي أن الأسفار المقدسة بالرغم من النبوات المرشدة

والهادية إلى حقيقة المسيح لم تكن هي القائد للتلاميذ للتعرف على القيامة، بل الحوادث المتتابعة هي التي أَلَمَعَتْ في ذهنهم، وأعطت للأسفار المقدسة فرصة لفرض ذاتها: الحجر المرفوع من على القبر، القبر الفارغ، بشارة المجدية والنسوة، الأكفان الموضوعة بمفردها وبنظام؛ هذا كله في الحقيقة يوضح لنا بأجلى بيان أن التلاميذ لم يكونوا قط مستعدين لتقبل القيامة، ولم يكن في ذهنهم أي تهديد من واقع الأسفار المقدسة، مما يفيد أن القيامة كحدث فائق اقتحمت مجاهم الفكري اقتحاماً، وفرضت ذاتها عليهم كموضوع إيمان.

وق. يوحنا كان دقيقاً وواضحاً وصريحاً في ذكر ضعف إيمان التلاميذ وتباطؤ ذهنهم في قبول هذه الحقيقة: «لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات». وهذا بدوره يوضح لنا منتهى صدق القيامة بحد ذاتها، فهي حَدَثٌ إلهيٌّ دخل إلى عالم التلاميذ عُثْوَةً، وبدون تهديد، ولا باستعداد سابق. كما كشف لنا هذا التباطؤ الشديد أن كل الشهود، شهود العيان بدون إيمان، صمتوا جميعاً. ولكن، للأسف الشديد، فإن صراحة الإنجيل في سَرْدِ نُقْطِ ضعف إيمان التلاميذ وبُطْء قبولهم لحقيقة الإيمان، اتخذ بعض النُّقَادَ والهرطقة والمقاومين للإيمان المسيحي كمحاولة لمهاجمة القيامة ونفي حدوثها. وهكذا يتبين للقارئ، كيف أن نُقْطَ القوة في استعلان الحق الإلهي تتحول عند المحرومين من نور النعمة إلى نُقْطِ ضعف، وأن أسباب الإيمان الشديدة الصدق تصير عند الفاقدين للبصيرة الروحية، أسباب هُزْءٍ وتجديف ومقاومة.

«يعرفون الكتاب»:

ق. يوحنا هنا لا يشير إلى مجمل الأسفار، بل إلى كتاب واحد بالذات، وغالباً يقصد المزمور السادس عشر، وهو الذي استشهد به بطرس الرسول بعد الخمسين: «لذلك فرح قلبي وابتهجيت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً. لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدعُ تقيك يرى فساداً.» (مز ١٦: ٩ و ١٠)

ويعلّق بطرس الرسول في سفر الأعمال على هذا النص، موضحاً بشدة أنه نصُّ بُوَّةِ القيامة بالدرجة الأولى هكذا: «أبها الرجال الإخوة يسوع أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود، إنه مات، ودُفن، وقبره عندنا حتى هذا اليوم، فإذا كان نبياً وعلم أن الله حَلَفَ له بقسم أنه من ثمرة صُلْبِهِ يقيم المسيح حسب الجسد، ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلّم عن قيامته المسيح، أنه لم تُترك نفسه في الهاوية، ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا، أقامه الله، ونحن جميعاً شهود لذلك.» (أع ٢: ٢٩-٣٢)

٢٠ : ١٠ «فَمَضَى التَّلَامِيذَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِيهِمَا».

واضح أن لكل منهما موضعه، أو خاصته، كما جاءت في اليونانية: πρὸς αὐτούς، ق. يوحنا في بيته الخاص مع القديسة العذراء مريم، والقديس بطرس في العلية مع التلاميذ في بيت يوحنا مرقس. و يعطينا القديس مرقس صورة حزينة يختم عليها اليأس هؤلاء التلاميذ المجتمعين في العلية مع كل الذين من خاصتهم هكذا: «فذهبت هذه، وأخبرت الذين كانوا معه (مع يسوع)، وهم ينوحون ويبكون.» (مر ١٦ : ١٠)

هذا هو منظر التلاميذ قبل القيامة. وحتى بعد أن رأوا الحجر مدحرجاً والقبر فارغاً واللفائف موضوعة في مكانها، ذهبوا إلى مواضعهم صامتين، وحتى المحبوبة بقيت عند القبر الفارغ تبكي.

٢ - المسيح يظهر للمجدلية: (٢٠ : ١١ - ١٨).

(أ) المجدلية تنظر داخل القبر فتجد الملائكة: (٢٠ : ١١ - ١٣).

٢٠ : ١١ «أَمَّا قَرْنَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي، وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي آنَحَتْ إِلَى الْقَبْرِ».

الأنجيل الثلاثة تتفق في ذكر زيارة واحدة لمريم المجدلية إلى القبر، وق. يوحنا هو الذي ينفرد بذكر الزيارة الأولى التي تمت باكراً جداً، ثم يذكر الزيارة الثانية ببيانات أوفى؛ والقصد هو توضيح تدرج استعلان القيامة خطوة خطوة، بكل دقة.

وهذا التدرج نلاحظه أيضاً في سياق الرواية هكذا:

١ - المجدلية ترى الحجر مرفوعاً والقبر فارغاً، فتقول: «أخذوا السيد».

٢ - يوحنا يرى أولاً الأكفان موضوعة ولم يدخل.

٣ - بطرس يرى اللفائف وحدها ومنديل الرأس وحده، فيتقدم خطوة: أن الجسد لم يؤخذ.

٤ - يوحنا يرى أيضاً كل هذا، فيؤمن.

كذلك نرى التدرج الذي يعتني ق. يوحنا بتسجيله للقيامة في استخدام ثلاثة أفعال مختلفة لفعل «يرى»، بالنسبة ليوحنا أولاً، ثم بطرس ثانياً، ثم يوحنا ثالثاً:

١ - فيوحنا أولاً نَظَرَ βλέπει الأكفان موضوعة، نظرة بسيطة عابرة.

٢ - بطرس ثانياً نَظَرَ θεωρεῖ الأكفان والمنديل، نظرة تأملية فاحصة.

٣ - و يوحنا ثالثاً رَأَى εἶδεν فأمن، وهي نظرة تصديق وإيمان.

واضح أن المجدلية بعد أن أخبرت بطرس و يوحنا، تبعتهما هي أيضاً إلى القبر، وربما تركض أيضاً، إذ لما خرج التلميذان من القبر كانت المجدلية خارجاً. أما التلميذان فخرجوا من القبر، وذهبوا، كُلُّ في طريقه، وكان القبر لم يعد فيه ما يحلُّ لغز المسيح طالما ليس فيه الجسد. أما المجدلية فتشبّثت بالقبر ولم تغادره، وكأنها تطالب القبر أن يحلَّ لغز نفسه، وتستعطفه ببكائها أن رجاءها كان لا يزال منعقداً عليه. ويعبر القديس أغسطينوس عن وقفها هذه هكذا:

[إن ضعف طبيعتها والمشاعر الجياشة في قلبها سمّرتها في الموضع].

لم تحاول الدخول إلى غرفة الدفن ولكنها تشجعت وانحنت أيضاً لتنظر هي الأخرى. إنه وحي الروح فيها، وقد اجتذبتها نور السماء من داخل القبر.

١٢: ٢٠ «فَنَظَرْتُ مَلَائِكَيْنِ بِيَظَي جَالِسَيْنِ، وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالْآخَرَ عِنْدَ الرَّجْلَيْنِ
خَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا».

«يا جالساً على الكروبيم أشرق... أيقظ جبروتك وهلم
لخلاصنا...» (مز ١٠٨: ٢ و ١٠٩)

هذه أول مرة يذكر فيها ق. يوحنا شيئاً عن ظهور فعلي للملائكة. وضع الملاكين هنا في غاية الأهمية اللاهوتية، لأنه يمثل مطابقة لما نصّت التوراة في مكان الحضرة الإلهية من الشاروبيم فوق غطاء التابوت المسمّى: «كرسي الرحمة» أو «الغفران»: «فاصنع كروباً واحداً على الطرف من هنا، وكروباً آخر على الطرف من هناك... وأنا أجمع بك هناك، وأتكلم معك من على الغطاء، من بين الكروبيين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به.» (خر ٢٥ : ١٩-٢٢)

وهنا وضع الملاكين على طرفي مصطبة القبر حيث كان الجسد موضوعاً، يشير إشارات بليغة إلى مركز الجسد الإلهي المسجّى بمفهوم الحضرة الإلهية، وإلى قداسة المكان على المستوى العالي كموضع الحضرة الإلهية؛ كما يشير إلى أن القبر صار بمفهوم تابوت العهد الجديد بلا نزاع، ليس في مكانه ومظهره، لأنه فارغ، ولكن في معناه. فمن القبر استعلنت القيامة التي هي الركن والسند للإيمان المسيحي، واستعلن المسيح ابن الله. أما جلوس الملاكين وليس وقوفهما فهو يشير إلى انتهاء نوبتهما في الحراسة، بعد أن قام المسيح وغادر القبر. فمجرد وجودهما جالسين عند طرفي القبر هو بمثابة إشارة، أول إشارة، بالقيامة. وبالفعل كان الملاكان — أو الرجلان الإلهيان بحسب إنجيل لوقا — أول من أعلن القيامة: «لماذا تطلّبنّ الحي بين الأموات؟ ليس هو هنا لكنه قام.» (لو ٢٤: ٦)

ولكن في إنجيل يوحنا كان عمل الملائكة هو تحديد مكان وضع الجسد، «واحدًا عند الرأس والآخر عند الرجلين». وهذا التحديد الملائكي هو بحد ذاته شهادة فائقة ليقين موت الرب و يقين الدفن. إنه ختم تصديق لكل رواية ما بعد الصليب، وبالتالي إشارة صامته ولكن دامغة أنه قام. لقد كان عمل الملائكة هو استعلان سرّ القبر وسرّ القيامة، الأمور التي فاقت قدرة بطرس والآخرين، ثم تحويل البكاء والمويل إلى بشارة وتهليل.

وكان ظهور الملائكة في قبر المسيح، كحراس سمائيين، ردًا حاسماً دامغاً على القول أنهم أخذوه ولسنا نعلم أين وضعوه، بل تبكيتاً وتقريعاً مُراً على اليهود الذين حاولوا أن يشيعوا هذا الإدعاء.

لقد اعتنى ق. يوحنا أن يوضح، بالبرهان السمائي، إلى أي مدى كان الجسد والقبر في حوزة السماء وحراسة جبابرة الأرواح العليا.

وإن وجود الملائكة في قبر المسيح هو مِصْدَاقٌ وِفَاقٌ لقول المسيح لبيلاطس: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو ١٨: ٣٦). فهذا الجنود يحرسون جسد رب الجنود. لقد رافقوه في ميلاده (لو ٢: ١٣)، وفي تجربته (مت ٤: ١١)، وفي جثسيماني (لو ٢٢: ٤٣)، وفي قبره وفي قيامته وفي صعوده (أع ١: ١٠)!!

السلام للقبر مهبط الملائكة وبيت النور، الموضع الذي انطلقت منه بُشْرَى الحياة.

٢٠: ١٣ «فقالا لها يا امرأة لماذا تبكين؟ قالت لهما: إنَّهم أخذوا سيّدي ولستُ أعلم أين وضعوه».

[لماذا الطيب والنحيب...

إن زمن البكاء قد انقضى، لا تبكين،

بل بشرن بالقيامة للرسل.]

(الأبصلمودية المقدسة السنوية).

«يا امرأة لماذا تبكين»؟

ليس هذا سؤالاً بل مراجعة وعتاب.

لقد هال الملائكة في يوم ارتفاع الرب بالمجد إلى أعلى السموات، أن يقف البشر في القبر ويكون

وينوحون، وعلى أيديهم حنوط للجسد، والجسد قام وصار أعلى العليين!

«أخذوا سيدي»:

لا تزال الفكرة التي تسلطت عليها، أنهم «أخذوا الجسد». ولا تزال هي تبحث وتفكر: «أين وضعوه؟». فالحنوط على كتفها وهي تؤذ أن تحنط الجسد مهما كان وبأي ثمن، والبكاء يقطع نياط قلبها، وقد كثفت عيناها عن أن ترى قيمة لأية قيمة، حتى للملاكين اللذين يحدثانها! أنا أريد «سيدي» وحسب.

عجيب في عينيها وفي مسامعها أن يسألها الملاك: «لماذا تبكين؟» إنه «سيدي»، أخذه، كيف لا أبكي؟ إن غيبة المسيح عنها ألغت حضرة الملائكة أمامها؛ بل ألغت الخوف والجزع من كل رهبة، فلم تغد للملائكة مكانة بعد غياب «سيدي»، ولسان حالها بالنسبة للملاكين هو: إن كنتما تعرفان أين وضعوه قولاً لي وإلاً فلماذا الكلام؟

(ب) المسيح يظهر للمجدلية، فتخطيء معرفته ويلفت نظرها بأن يدعوها باسمها، والمجدلية تبشر التلاميذ أنها رأت الرب: (٢٠: ١٤-١٨).

٢٠: ١٤ «ولما قالت هذا، التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع».

لما احتار الملاكان من بجاجة هذه المرأة وعنادها، استغاثا بالرب فأغاثهما، وظهر خلفها. فلما ظهر، جفَلَ الملاكان وتغيّرت جلستهم؛ لمحت المجدلية هذا منهم ورأت أعينهما مسلطة على أمر خطير خلفها، فأدارت وجهها لترى، فكان يسوع، ولكنها لم تعرفه. كانت عيناها مملوءتين بالدموع، بل بالحزن والهموم، ولكن الرب يتراءى بالفرح. فالفرح نور القيامة، وضوؤها الذي به نرى الرب والسماء والآب والحياة الأبدية.

«بعد قليل لا يراني العالم أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو ١٤: ١٩)، المجدلية كانت لم تخرج بعد من نطاق العالم، إنها كانت تعيش ماضيها، والماضي غريب دائماً عن الجديد، و«هوذا الكل قد صار جديداً» (٢ كور ٥: ١٧).

المعمدان كان يعيش قبل أزمنة الجديد «وأنا لم أكن أعرفه» (يو ١٩: ٣٣)، فلما جاء زمن الاستعلان، رآه، وعرفه، وسمع صوته، وفرح، وأعلن شهادته؛ والمجدلية لما دخلت زمن الاستعلان عندما ناداها الراعي باسمها، عرفته. فانطلقت للبشارة بأنها «رأت الرب».

تماماً كما حدث للتلاميذ بعد انقضاء «ليل» الصيد الفاشل، الذي يمثل النكسة نحو عالم الشقاء وصيد الطعام البائد، فلما ظهر الرب على الشاطئ لم يعرفوه لأن غمّ الفشل ونكد السهر الخاسر أفقدهم القدرة على رؤية «الطريق والحق والحياة»؛ إلا يوحنا الذي كان جالساً وسط المركب، يهدس بأفكار الحب، وسط أنين الخسارة واللعنات على ليل ناء عليهم بكلّ كليل، وانجلى دون سمكة واحدة يتقاسمونّها، فلما وقعت عيناه على الإنسان الواقف على الشاطئ نسي همّه، وقلبه ذلّه على الحبيب، فصرخ: «إنه الرب». فيا لبؤس وشقاء العمل بدون لمسات الحب!

١٥: ٢٠ «قال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟ فظنت تلك أنه البستاني. فقالت له: يا سيّد إن كنت أنت قد حملته، فقل لي أين وضعته وأنا آخذه».

«في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته،
إنني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي،
طلبته فما وجدته
وتجدني الحرس الطائف في المدينة،
فقلت: أرايتم من تحبه نفسي،
فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم
أرّخه!!!» (نش ٣: ١-٤)

«يا امرأة»:

كانت هذه أول كلمة نطق بها المسيح بعد القيامة.

أعاد المسيح استنكار الملاكين لبكائها في يوم فرح السمايين، لماذا تبكين؟
المسيح القائم من الموت يتساءل أكثر مما يسأل، من تطلب هذه المرأة؟ أو كيف تطلب الجسد الميت وهو حي؟ هو نفس استنكار الملاكين للنسوة والمجدلية في إنجيل القديس لوقا: «لماذا تطلبين الحيّ بين الأموات» (لو ٢٤: ٥)، «...اذكرن كيف كلمكنّ وهو بعد في الجليل، قائلاً: إنه ينبغي أن يُسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة، ويُصلب، وفي اليوم الثالث يقوم.» (لو ٢٤: ٦ و ٧)

يُلاحظ أن المسيح يسأل المجدلية عن «من» تطلب، مع أنها تطلب شيئاً (ماذا) وليس «من». هنا محاولة لردّها إلى موضوع طلبها الذي ينبغي أن يكون شخص المسيح وليس جسده.

المسيح، هنا، يتوسّم في المجدلية جلاء البصر!! إنه واقف أمامها، «إنه حي»، فينبغي أن

تحيا بحياته، فلا تبكي موته ومواتها .

«إنه يراها»، فكان عليها أن تفرح، لا أن تبكي، وأن يدوم فرحها!! «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم.» (يو: ١٦: ٢٢)
إنه يتكلم معها، وقد «سمعت صوته»^(١) فيتحتم أن تقوم هي من موتها، لا أن تبكي موته!!

إنه قام من القبر، فكان ينبغي أن تكون قد قامت معه، لا أن تعيش في قبره!! ولكن المجدلية تعود تجترّ جهالتها، وفي عثمة الرؤيا تظنّه البستاني، فتستعطفه أن يدلّها على الجسد!! لقد تجاهلت سؤاله، لقد فقدت كل رؤيا لكل ما بعد القبر. إنها فقط تريد أن تحيا باكية على جسد تأخذه لنفسها، لتُشبع بؤس حبّها بالبكاء والنواح عليه!

هكذا الإنسان الذي يفقد رؤيا القيامة والقائم من بين الأموات، إنه يعيش ذكرى أمواته، يرتاح بالنواح عليهم، ويجوس بين مقابرهم — إن لم يكن برجله فيفكره — يندب أيامهم إلى أن تفتي أيامه!

«وأنا آخذه»:

في تفجر عواطف حبها رأت في قوتها الكفاءة التي يمكن أن تجعلها تحمله بنفسها لنفسها. وهكذا إن كان الإيمان يقدر أن ينقل الجبال، فالحب قادر أن يحمل الأهوال!

١٦: ٢٠ «قَالَ لَهَا يَسُوعُ: يَا مَرْثَمُ. فَالْتَقَتْ إِلَيْكَ، وَقَالَتْ لَهُ: رَبُّونِي، الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ.»

ناداها بالاسم كما نادى لعازر، نبّه روحها فاستيقظت من موت حالها، دخل صوت ابن الله (يوه: ٢٥)، إلى أعماق نفسها التائهة في مجاهل القبر، فكك عنها أكفانها، فانفتحت عيناها وأبصرت نور القيامة «رَبُّونِي»!!

ناداها باسمها، كراخ ينادي خرافه بأسمائها فتعرفه حالاً، وتتبعه. حينما كانت تطلبه في القبر، كانت قد نأت بعيداً عن درب الحظيرة، فناداها من فوق، من عالم النور والقيامة، فعرفته بعض المعرفة، تذكرت فيه صوت نداء المعلم لها، فحسبته أنه لا يزال هو المعلم، في يوم من أيام

(١) راجع شرح الآية يوه: ٢٥: ٢٥ في موضعها: «يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون».

ابن الإنسان، ولكن هيهات، هذا لا يعود، إنه لم يعد «ربوني» بل رب القيامة، التي باسمها افتتح سجلات الخلود.

١٧: ٢٠ «قال لها يسوع: لا تلمسيني لأنني لم أضعد بعدُ إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم، إني أضعدُ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

كان المسيح هو هو بلحمه وعظامه، فحقاً لها أن يطير صوابها. أرادت أن تُخضع الوهم للحقيقة، لم تطق أن تبقى ناظرة إليه تسمعه، لقد اندفعت نحوه تثبت به بكل قواها، أرادت أن تطوّقه بذراعيها فتقبض عليه قبضاً حتى لا يفلت منها. إنها اكتشفته وحدها، فهو لها وحدها: «أين وضعته وأنا آخذه»، نسيت التلاميذ والناس: «حبيبي لي (وحدّي)، وأنا له.» (نش ١٦: ٢)!!

أرادتها مصارعة كمصارعة يعقوب مع الملاك وحتى الفجر: «لا أطلقك إن لم تباركني» (تك ٣٢: ٢٦)، ولما ضجر الملاك من تثبت يعقوب به وهو ماسك بتلابيبه ضربه على حُقّ فخذه حتى يفلت من يديه؛ هذا لم يُرِده المسيح، لم يشأ أن يلمسها بسوء، فاكتمى أن حذرهما: «لا تلمسيني».

إن كان «الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠)، فكيف لهذه أن تعانقه؟
توما لما لمس حقيقته، صرخ «ربي وإلهي»! لقد رجّه اللاهوت رجاً، وسرى فيه سريان النار في الحطب، فكيف لهذه أن تضم النار في حضنها ولا تحترق.

فرق أن يقول هو: «جسّوني والمسّوني» (راجع لو ٢٤: ٣٩)؛ وأن نحاول نحن أن نجسّه ونلمسه، فهو وحده الذي يُخضع طبيعة جسده الإلهي للجسّ أو اللمس في حدود إحساسنا، لأنه أصلاً لا يُحسّ. أما نحن، فيستحيل أن نبلغ من أنفسنا مستوى مَجَسّته ومُلامَسّته بطبيعتنا؛ أو هل يمكن أن تجسّ النار؟ أو يلمس النور؟ أو يُعانق الهواء؟

النسوة تمسكن بقدميه كإله، وخررنّ ساجداً عابداً، فارتضى. ولكن أن تلمسه «امرأة» لمسة الصداقة كمعلم سبق وشفأها، فهذا غير وارد. لقد تغيرت هيئته، وتغيّرت وظيفته. إنه في لحظة العبور وليس الإقامة، ولسان حاله: «إني صاعد إلى أعلى السموات، لتجشولي كلُّ ركبة ممن في السموات ومن على الأرض. إني صاعد لأفتح لكم الطريق إلى الحياة الجديدة، إلى الأب

والتي، لتكونوا حيث أكون، لا لتعيشوا معي وحسب بل وتعيشوا فيّ. لا تلمسوني أو نجسوني بقُدّ، لتأكلوا منّي، أو لتستمتعوا بي، بل لتتحدوا بي بل لتأكلوني، فأصير فيكم وتصيرون فيّ».

لقد كان النور معهم زماناً قليلاً، وها الآن لم يَعدْ زمانٌ. فالنور يومض في ابن الإنسان ومضّته الختامية على الأرض، ليصعد النور لأبي الأنوار، ويكفيها منه الغسق مدى الأيام. لقد حَسِبَتْ النور لها وحدها، فقال لها: اذهبي خبّري «إخوتي»، إني صاعدٌ إلى أبي ليكون أباكم كلكم، صاعدٌ بأخوتي التي لكم ومنكم التي قدّمْتُها ذبيحة لكم، ومن أجلكم، أمام إلهي وإلهكم، لتتشاركوا معي في بُنُوْتي لأبي، فيكون أباكم.

القيامة أعطت المسيح طبيعته المهيأة للإقامة في الأعالي وعن يمين العلي. الجسد المُقام من الموت، لم تناسبه الإقامة على أرض الإنسان تحت طبيعة عالم الناس. «أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق.» (يو ٨: ٢٣)

أن يقوم المسيح من بين الأموات، فلا بد أن يصعد أيضاً، فالقيامة تمهيد للصعود، والصعود تكميلُ القيامة.

والصعود الذي تكلم عنه القديس لوقا في سفر الأعمال شيء، والصعود الذي يتكلم عنه المسيح هنا في إنجيل يوحنا شيء آخر. الأول يتبع مراحل الفداء الأربع: التجسد (الميلاد)، والموت (الصلب)، والقيامة، ثم الصعود، في تدرّجها المحسوس والمنظور لنا. أما الصعود في إنجيل يوحنا، فهو العمل السّري غير المنظور، والخاص بالمسيح في علائقه السرية بالآب؛ لأنه من جهة علاقة المسيح بالآب، لا يمكن التفريق «الزمني» بين القيامة والصعود، فهما عمل واحد لدى الآب، عبّر عنه المسيح: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أُجذب إليّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢)، حيث يشير هنا إلى ارتفاع الجسد على الصليب، والارتفاع من الموت بالقيامة، والارتفاع بالصعود. هذا كله عند المسيح والآب، عمل فدائي واحد متكامل. لذلك لا يصح هنا في قوله: «إني صاعد، وأصعد» اللجوء إلى التمييز الزمني في الأفعال.

ولأن المسيح هو ابن الإنسان، لذلك صحَّ أن يقول إن الله إلهٌ؛ ولأنه هو ابن الله أيضاً حقَّ له أن يدعو الله «أبي». وأن يجمعهما لنفسه معاً «أبي وإلهي» فهو يوضح بُنُوْتَه الإلهية المتجسدة كطبيعة.

وقد اعتنى القديس بولس الرسول جداً في إظهار نَسَبِ الله للمسيح، كإله، مؤكداً على بشرية

المسيح تماماً، بحسب تسجيل ق. يوحنا، وذلك في مواضع كثيرة: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته» (أف ١: ١٧). ويلاحظ أن الترجمة العربية في الآيات التالية خرجت عن النص الدقيق كالاتي: «مبارك (الله) إله وأبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله كل تعزية.» (٢ كو ١: ٣)

«لكي تمجدوا (الله) إله وأبا ربنا يسوع المسيح بنفس واحدة وفم واحد.» (رو ١٥: ٦)
«مبارك (الله) إله وأبو ربنا يسوع الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح.»
(أف ١: ٣)

وقد حذفت الترجمة العربية حرف «و» καὶ الواقعة بين «الله وآب»، فضاغ مفهوم نسب الله للمسيح «كإله» توكيداً لبشريته، من ناحية، ونسبته الطبيعية اللاهوتية لله كآب من الناحية الأخرى. «فالله» في الآيتين السابقتين يجمع الصفتين معاً بالنسبة للمسيح «إله وآب» تماماً كما قال المسيح للمجدلية.

وأن يطلقهما معاً بالنسبة لنا «أبوكم وإلهكم»، يوضح ماذا صار لنا بموته وقيامته وصعوده من مشاركتنا في مخصّصاته كنعمة وهبت لنا.

وهذا ينطق به نطقاً قوله: «قُولي لإخوتي». هذا الاصطلاح الأول من نوعه، وبعد القيامة، يفيد الوضع الجديد الذي صار للإنسان والكنيسة المؤمنة بقيامة المسيح؛ فبالتعليم عن كل ما عند الآب، صار التلاميذ «أحباء» (يو ١٥: ١٥)، أما بالقيامة من الأموات فقد اكتسب المسيح لهم علاقة إلهية به، وبالتالي بالآب: «إخوتي» وبالتالي «أبوكم».

المسيح، بالنسبة للتلاميذ بعد القيامة، لم يعد هو المسيح ابن الإنسان النازل من السماء، وكلام الحياة الأبدية عنده، بل المسيح الذي صعد إلى الآب وعاد بالحياة الأبدية ليسكبها علينا بغنى. لقد حقق وعده: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو ١٦: ٧). لقد عاد من عند الآب بعد أن أسس المكان والمنازل، ومعه عطية الآب: «الروح القدس»! الذي أعطاهم في نفس المساء.

ويلزم أن ننتبه إلى التفريق المتعمد الذي أوضحه المسيح بقوله: «أبي وأبيكم»، فهو لم يقل «أبونا»، بل «أبي» خاصة «وأبوكم» عامة، «أبي» بالطبيعة «وأبوكم» بالنعمة والتبني الذي وهبه لنا المسيح كشركة في بؤوته.

كذلك «إلهي» خاصة، لما تنازل وأخلى ذاته وأخذ شكل العبد، وصار إنساناً بإرادته — غير مخلوق — من تحت لاهوته، «والهكم» عامة، كعبيد اقتناهم الله لنفسه من خليقته.

١٨:٢٠ «فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَأَخْبَرَتْ التَّلَامِيذَ أَنَّهَا رَأَتْ الرَّبَّ وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هَذَا».

في اليونانية «جاءت»، و«أخبرت» تفيد الحال والتو، بمعنى أنها تركت الرب راضية في الحال، لتقوم ببشارتها ἀγγέλουσα الأولى لعالم الإنسان الجديد، للكنيسة التي قبلت هذه الكلمة: «قد رأيتُ الرب»، كإنجيل الحياة الجديدة، وبشارة الملكوت الذي دب منذ تلك اللحظة في روح التلاميذ، وإلى الآن يتفرّخ ألفي سنة، ولا يزال، ثم إلى الأبد.

لقد خرج النص في الترجمة العربية عن الأصل، وحوّل البشارة إلى الغائب «أنها رأت الرب»، ولكن النص اليوناني واضح وأكد: «مبشرة التلاميذ: قد رأيتُ الرب».

ἀγγέλουσα τοῖς μαθηταῖς ὅτι ἑώρακα τὸν κύριον

وهكذا تبوّأت المجدلية الصدارة في سجل البشارة كأول إنسان رأى المسيح قائماً من بين الأموات، وكأول بشر نادى بالقيامة.

السلام لمريم بنت ذات البرج^(٥)، التي حرست حراسات الليل حتى تقبلت أول شعاع النور...

السلام للتي بكّرت جداً، والظلام باقٍ، تسعى، يقودها الحب، تطلب تكريم من تحبه، فوجدها ووجدته.

التلاميذ رأوا القبر قبراً فارغاً؛ وهذه رأتها سماء مزيّنة بالملائكة. هؤلاء لما دخلوا القبر ما طلبوا شيئاً؛ وهذه تشبّثت ببكاءٍ تطلب جسد من تحبه، حتى استغلّين لها صاحبها في ملء الحياة وقوتها.

هؤلاء عادوا صامتين من القبر إلى حيث أتوا؛ وهذه تسمر قلبها ورجلاها في الحجر كالحجر، تتأوّه، والدموع ملء عينيها، فاستحقت أن ترى مجد الله!

(٥) المجدل هو البرج العالي الذي تنساقبة لرؤية المسافات على بُعد، انظر مقالة: «الوعد — تأملات في الميلاد»، ضمن كتاب: «أعياد الظهور الإلهي»، طبعة ١٩٨٠، ص ٤٥: "ميجدال عذر = برج القطيع".

السلام لمبشرة صهيون، أول مَنْ قَطَفَ من ثمرة شجرة الحياة، وأعطى التلاميذ، فأكلوا، وانفتحت أعينهم، وعابنوا النور، وادَّثروا بثوب الخلاص.

السلام لِمَنْ استؤمنت، أول مَنْ استؤمنَ على رؤية الرب المُقام، وعلى سماع أول كلمة من فيه.

السلام لِمَنْ تسجَّل اسمها، أول ما تسجَّل في سفر الخلود وسجلات ملكوت السموات. بوركَّت يا مجدية الأناجيل الأربعة، وبوركَّت دموعك وجرائئك ولجأجتك وأمانتك للجسد.

شهوةً اشتهيت تكريم الحبيب الميت، وتطبيب الجسد، فاستحققت حبَّ الحي ونوال رائحة المسيح الزكية ببشارة الحياة.

المنظر الثاني : في العلية والتلاميذ مجتمعون

(١) ٢٠: ١٩-٢٣ : في مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذ الخائفين وهم مجتمعون و يعطيهم السلام، والتلاميذ يفرحون برؤية الرب . المسيح يفتح سيفر الإرساليات للعالم، ويؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا .

١٩: ٢٠ «ولما كانت عَشِيَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأُسْبُوعِ، وَكَانَتِ الْأَبْوَابُ مُغْلَقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ وَقَالَ لَهُمْ: سَلَامٌ لَكُمْ».

ينفرد ق. يوحنا بذكر حوادث ومناظر لم يأت عليها الإنجيليون الثلاثة : الأبواب المغلقة، الخوف من اليهود، غياب توما، السلطان بالروح القدس .

من ملاحظات ظهور المسيح للمجدلية، واضح أنه كان لا بد سيظهر للتلاميذ، كما كانت بشارة المجدلية الحافز السريع لاجتماع التلاميذ مع الترقب والانتظار. وهذه تمهيدات لازمة بالفعل لجو الاستعلان .

والمعتقد أن عدداً كبيراً من الأخصاء كانوا مجتمعين غالباً في العلية حيث صنع الرب عشاءه الأخير، هذا يتأكد لنا من رواية القديس لوقا بخصوص عودة تلميذتي عمواس إلى التلاميذ المجتمعين : «فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم» (لوقا : ٢٤: ٣٣)، كما يتأكد لنا من الصورة الموازية لاجتماعهم يوم الخميس : «ولما دخلوا، صعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها... هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلب مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته.» (أع : ١ : ١٣ و ١٤)

«عشية ذلك اليوم» :

كان هو اليوم المشهود والخالد في تاريخ الكنيسة، بل على وجه الصدق في تاريخ الإنسان . فقد استعلن المسيح غالب الموت الذي هو عدو الإنسان الأول والأخير . ووهب للإنسان الحياة الجديدة التي لا سلطان للموت عليها . ونفخ في الإنسان من روح الله القدوس ليتقبل قوة الحياة التي لا تموت، عوض نفخة الله في نفس آدم التي أطفأتها لعنة العقوبة، فساد عليها الموت كتأديب .

ويُلاحظ أن المسيح اختار يوم الأحد بالذات، ليقُدَّسه للكنيسة بحضوره في وسط التلاميذ. ونقول يوم الأحد بالذات وهو اليوم الذي قام فيه، لأنه عاد وظهر مرة أخرى للتلاميذ ولتوما في يوم الأحد التالي، وليس يوم السبت أو أي يوم من أيام الأسبوع الأخرى!

من هنا يتأكد لنا بكل قوة وبيان أن المسيح قصد قصداً تقديس يوم الأحد ليكون «يوم الرب» على مدى الدهور، وهو يوم القيامة، فصار كلُّ يوم أحد للكنيسة يوم القيامة. وهذا هو تقليد الكنيسة الثابت.

وبحسب التقليد الإفخارستي الذي عاشته الكنيسة ألفي سنة، فيوم الأحد هو يوم الإفخارستيا بالأساس. والمعروف والثابت من تقليد الإفخارستيا أن الرب يظهر فيه وقت «كسر الخبز»، أي أثناء التقسيم، أي القسمة، تماماً كما ظهر في العلية وسط التلاميذ المجتمعين. فنحن على ميعاد مع الرب في إفخارستية كل أحد^(٦).

كذلك، ومن التقليد الرسولي الذي يقدِّمه لنا ق. يوحنا في سفر الرؤيا، نعلم أن ق. يوحنا أخذ بالروح في يوم الأحد وتسلَّم أسرار السبع الكنائس والأمور الخاصة بالأزمة الصعبة التي ستأتي على العالم. وهكذا نفهم أن يوم الأحد تعيَّن ليكون يوم الاستعلان والكشف لأسرار الله والمسيح.

«وكانت الأبواب مغلقة، حيث كان التلاميذ مجتمعين بسبب الخوف من اليهود»:

كانوا عشرة تلاميذ من الاثني عشر، فيهوذا سقط من حساب الاثني عشر، وتوما تغيب، وعلى أغلب الظن أنه غادر أورشليم إلى وطنه كما صنع تلميذاً عمواس في ذلك اليوم أيضاً، اللذان عادا قبل المساء مُسْرِعَيْن إلى العلية بعد أن ظهر لهما الرب.

أما الأبواب المغلقة والخوف من اليهود، فهذا إعلان صريح عن غياب الإيمان بالرب، وغياب مفهوم القيامة وقوتها جملة وتفصيلاً، بل وغياب عنصر الرجاء، الأمر الذي نلمسه بشدة في حديث تلميذَي عمواس، الذي يعطينا صورة لما كان يدور الحديث حوله في العلية قبل ظهور الرب: «فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابِستين؟ فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟ فقال (يسوع) لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنساناً نبياً

(٦) كان تقليد الكنيسة الذي سارت عليه كل العصور السالفة يحدّد يوم الأحد للاحتفال بالإفخارستيا. ولكن قليلاً قليلاً بدأ ينحل هذا التقليد، حتى فقد يوم الرب كثيراً من هيئته وقدسيته (أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص ٣٩٨).

مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب. كيف أَسَلَمَهُ رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه. ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن مع هذا كله، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك. بل بعض النساء منا حَيَّرَتْنَا إذ كُنَّ باكراً عند القبر. ولما لم يجدن جسده، أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي.» (لو ٢٤ : ١٧-٢٣)

وذكر «الأبواب» المغلقة بالجمع، يفيد مدى الخوف والرعدة، فباب البيت الخارجي، والباب الموصل إلى العلية، وباب العلية، كلها أحكم غلقها بمتاريس وأقفال. وتعبير ق. يوحنا لا يخلو من الرمز، فغياب «أنا هو الباب» المفتوح على السماء، ينشئ حتماً إغلاقاً على النفس بكل الأبواب الممكنة.

ولكن، والخوف يحيط بالتلاميذ من كل جانب، حضر تلميذا عمواس على عَجَلٍ، يلهثان من الركض، ليخبرا المجتمعين أنهما رأيا الرب وكسر الخبز بيديه، وشرح لهما «من موسى وجميع الأنبياء والمزامير مفسراً لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو ٢٤ : ٢٧). وهنا تطابقت شهادة المجدلية، والنسوة، مع القبر الفارغ والأكفان وحدها، وغياب الجسد! فكادت القيامة تحاصرهم وتملأ عليهم تفكيرهم. ولكن وحتى بعد ظهور الرب لهم، في عشية ذلك اليوم، نسمع أيضاً وبعد أسبوع وفي عشية الأحد التالي عن خوفهم واجتماعهم والأبواب المغلقة عليهم. لقد كانت القيامة يتنازعها عتمة فكرية من صُنع الواقع المرير، وخبرة أهوال الصليب، وجبروت السنهدريم ورؤساء الكهنة، عتمة لم تنقش قط إلا بعد أن لبس التلاميذ قوة من الأعالي يوم الخمسين، ونطق فيهم الروح القدس بقوة تفوق كل سلطان العالم.

«فجاء يسوع ووقف في الوسط» :

دخل الرب إلى حيث كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مغلقة عليهم. هذا أول مفهوم لطبيعة القيامة، فالقيامة من الموت لم تعد تخضع بعد لكل ما هو خاضع للموت، أي الطبيعة البشرية بكل القوانين التي تحكمها وتتحكم فيها المادة والمكان والزمان والجاذبية والحركة والحرارة والضغط والأشكال والألوان التي كلها تختص بالمادة، فالجسد القائم من الموت هو جسد روحاني له عالمه الروحي، وله قوانينه الروحية. وكل أعمال الروح هي معجزة لدى المادي.

ظهور الرب «وَسَطَ» التلاميذ ألغى الأولويات والترتيب والكرامات في حضرة الرب، فالكل في الحضرة الإلهية واحد! ومن ذا يتجرأ في حضور الله ليرى نفسه أعلى من أخيه.

«سلام لكم»:

ليست هي تحية بل عطية: «سلامي أعطيكم»، وليس كما يعطي أهل العالم السلام بعضهم لبعض، أو كما يُعَدُّ الملوك والرؤساء شعوبهم بالسلام وهم أحوج الناس إليه. سلامُ المسيح هنا، أنشأ فيهم الفرح في الحال والتو، «فرح التلاميذ إذ رأوا الرب» (يو ٢٠: ٢٠). وهكذا ابتداءً يُدخلهم الفرح وسط الخوف الشديد الذي كان يعترهم من اليهود. هذه أول مفاعيل القيامة وأشدّها وأكثرها دواماً: «ولكني سأراكم أيضاً ففرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو ١٦: ٢٢). إنها بهجة القيامة، أمضى أسلحة الإيمان التي تغلب بها أهوال العالم ومخاوف الشيطان ومقاومة الأشرار. فالمسيحي الذي قام مع المسيح لا يعود يرهب الموت وكل تهديدات الموت، لأن حياته ممتدة فوق الموت وأهواله، لأن سيرته مكتوبة في السماويات.

٢٠: ٢٠ «ولمّا قالَ هذا أَرَاهُم يَدْيِهِ وَجَنَبَهُ. فَفَرَحَ التَّلَامِيذُ إِذْ رَأَوْا الرَّبَّ».

مسيح القيامة هو مسيح الصليب: «لا تَخَفْ. أنا هو الأول والآخر، الحيُّ وكنت ميتاً، وها أنا حيُّ إلى أبد الأبدين.» (رؤ ١٧: ١٨ و ١٩)

لا يمكن أن تُفهم القيامة إلاّ على توقيعات الصليب وجروحه وموته، ولا يمكن أن يُفهم عذاب الصليب ومعنى الموت، إلاّ على نور القيامة. المسيح الذي مات مصلوباً أمام أعينهم، وكأنه قُضي «وقُطع من أرض الأحياء»، ها هو هو بجروحه المميّة، واقف أمامهم حيّاً في ملء قوة الحياة. الموت الذي تراءى لأعينهم أنه ساد عليه وأنزله القبر، طرحه المسيح عنه وداسه، وقام بذات الجسد وذات الروح شاعراً فوق الموت ومن له سلطان الموت.

جروح اليدين والرجلين لم تُشَفَّ، ولا الجنب المفتوح التأم، وكأن الجسد اقتبل روح الشفاء، بل احتفظ المسيح بجروحه الفائرة وجنبه المفتوح كعلامة الموت الذي جازه، احتفظ بها كلها كما هي؛ لأن الجسد الذي قام لم يُعَدَّ يستمد حياته من عناصر الحياة على الأرض، بل من فوق، من الحياة التي له خاصة: «كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته» (يو ٢٦: ٢٦). فصارت علامات الموت وسمّاته، شهادة للموت الذي جازه والقيامة التي قام. «ورأيت ... وسط الشيوخ، خروف قائم كأنه مذبوح ...» (رؤ ٦: ٦)، «مستحق أنت أن تأخذ السفر، وتفتح ختمه، لأنك دُبُحْتُ واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ ٩: ٩)

سِمَاتُ الموت التي تقبّلها الرب في الجسد، صارت هي سمات القيامة والمجد، ومن جروحه

وجنبه المفتوح يخرج لنا الآن الشفاء والعزاء والحياة والمجد.

[اقتل أوجاعنا بآلامك المشفية المحيية . وبالمسامير التي سُمِّرت بها ، أنقذ عقولنا من طياشة الأعمال الهيولية (= الأعمال المادية) والشهوات الجسدية] (الأجبية — الساعة السادسة).

«فرح التلاميذ إذ رأوا الرب»:

هنا فعل «يرى» ἰδόντες ملؤه الإيمان. لقد حقق الرب وعده لهم: «أنتم كذلك عندكم الآن حزن، ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو ١٦: ٢٢)

إنها تجربة واختبار فريد من نوعه حظي به التلاميذ، وقصده الرب قصداً، ليكون خبرة لكل من آمن بالمسيح بالإيمان الرسولي المسلّم بالروح.

يلاحظ القارئ أن المسيح دخل إلى حيث كانوا مجتمعين والأبواب مغلقة، هذا شأن جسد القيامة، الجسد الجديد للخلقة الجديدة الروحانية. ولكن المسيح، وبالجسد القائم من الموت، وبمواصفاته الجديدة غير المنظورة ولا الملموسة، أخضع جسده للرؤيا واللمس لتصير لدى التلاميذ، وبالتالي لدى الكنيسة، الخبرة الحقيقية والصادقة بحقيقة القيامة بالجسد وصدقها: «وأعطى أن يكون ظاهراً ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم؛ لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع ١٠: ٤٠ و٤١)

«فرح التلاميذ»:

هنا الفرح من نوع خاص جداً، لا يمتُّ بصلة إلى أي من أنواع الفرح التي نعرفها واختبرناها على الأرض. هذا الفرح هو فرح الروح بالروح، وهو ينسكب على النفس نتيجة استعلان فائق، وهو هنا المسيح نفسه.

وهذا الفرح يشمل ثلاثة مفاعيل:

الأول: توقُّف الحواس الجسدية، دفعة واحدة، ومعها كل المؤثرات العصبية التي تؤثر على المخ بمراكزه الأربعة والعشرين، وهكذا يتوقف الخوف والاضطراب والحزن والقلق بكل صنوفه.

الثاني: انفتاح النفس على المجال الروحي أمامها بلا عائق، فتتسلل النفس وتمتد لتستجلي الحقيقة المستعلنة أمامها، المسيح الواقف في الوسط.

الثالث: تتقبَّل النفس، بقدر استعدادها، قُوَى الروح المنبعثة من المسيح من سلام ونور وسكينة.

هذا الاختبار الروحي نفسه يمكن أن نحصل عليه أثناء تأملنا في الحقائق الانجيلية إذا بلغ الإيمان التصديق الكلي لكل ما يقول الرب .

لذلك، فالفرح المنسكب علينا من الله في هيئة استعلان، هو مصدر قوة لا يُستَهان بها لدى الإنسان، وقد عبّر عن ذلك العهد القديم بمنتهى الوضوح هكذا: «لأن فرح الرب هو قوتكم.» (نح: ٨: ١٠)

٢٠: ٢١ و ٢٢ «فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً سَلامٌ لَكُمْ، كَمَا أَرْسَلَنِي الْآبُ أَرْسَلُكُمْ أَنَا. وَلَمَّا قَالَ هَذَا، نَفَخَ وَقَالَ لَهُمْ: آفْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ.»

في هاتين الآيتين يُرسي المسيح قواعد التقديس والإرسالية للتلاميذ، والتي سبق أن طلبها من الآب في صلاة الوداع (يو: ١٧: ١٧ و ١٨).

+ في البداية يعيد المسيح إعطاءهم السلام، فالسلام الذي أعطاهم في البداية في حديث الوداع (يو: ١٤: ٢٧) هو لحساب أنفسهم الخائفة الجزعة، ليصيروا مهئين لتحمل الرسالة بأعبائها الخطيرة. أما عطية السلام الثانية هنا، فهي لحساب الإرسالية، هي ذخيرة وأمانة، لكي كما قبلوا السلام لحساب الآخرين، يُعطونه للآخرين من عند الله والمسيح: «وحين تدخلون البيت سلّموا عليه. فإن كان البيت مستحقاً، فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقاً، فليرجع سلاطكم إليكم.» (مت: ١٠: ١٢ و ١٣)

+ ثم يعطيهم المسيح مهمة الإرسالية، لا كأنها عمل منفصل عنه يقومون به بأنفسهم، بل كعملٍ ممتدٍّ منه، ومتصل به، ومكتمل له. فإرسالية المسيح للرسول تقوم على أساس وغط وقوة إرسالية الآب للمسيح (التي هي أساس الإنجيل كله). هذا سبق المسيح وأكّده في صلاته الختامية: «كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم.» (يو: ١٧: ١٨)

المسيح، في صلاته، كان قد أكمل الإطار الكلي للمهمة العظمى التي أرسله الآب لتكميلها، ولم يبقَ منها آثدٌ إلّا صبغها بالدم، لتصير كلها أعمال فداء. ولأنه كان قد أكمل العمل، حقاً له أن يرسلهم أو، على وجه التحديد، أن يصوّر لهم إرساليتهم على أساس ختم الرسالة المزمع أن يضعه على الجسد: «وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان» (مت: ٢٣: ٢٠)؛ أما الآن، وقد اصطبغت إرساليتهم بالدم وخُتمت، فقد صارت جاهزة للاستعلان والكراسة. وكما لم يكن، وحده، يعمل

أعمال إرساليته: «لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني ... والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي، لأنني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو ٨: ١٦ و ٢٩)، كذلك وهو في طريقه إلى السماء أعطاهم المعزّي - الآخر - ليكون «معهم ويمكث فيهم». فالإرسالية الرسولية كريمة ومجيدة للغاية، فهي نابعة من إرسالية الآب للمسيح، وتابعة لإرسالية المسيح، وممسوكة ومُقاداة بالروح القدس.

لذلك، يكرر المسيح هنا هذه الحقيقة، كأساس: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا». وهنا ليست المساواة في الإرسالية هي المقصودة، بل الامتداد، والمؤازرة، والديمومة، والاحتفاظ بالمصدر الذي تقوم عليه ومنه الإرسالية. ق. يوحنا هو أول من يشير إلى ذلك، ولكن في اقتضاب شديد، إذ غيّر الفعل فقط، فجعل إرسالية الآب له على فعل ἀπέσταλκεν، وإرسالية المسيح للتلاميذ πέμπω.

والفرق بين الفعلين دقيق للغاية، لأن ورودها كثيراً ما كان متبادلاً بلا فرق، ولكن في إنجيل ق. يوحنا يلاحظ العلماء أن فعل ἀποστέλλω جاء على لسان المسيح فيما يخص إرساليته من الآب باعتبارها إرسالية فائقة، أي ذات سلطان على اليهود والتلاميذ، إذ أن وراء إرساليته، الله الآب نفسه، حيث الإرسالية يتبعها تكليف عالٍ.

أما فعل πέμπω، فيتردّد في إنجيل يوحنا بمعنى الإرسالية وحسب، دون تكليف محدّد^(٧). لذلك، فهذه الآية تحمل التقليد اللاهوتي للإرسالية الذي فهمته الكنيسة ووعّته وقَدّسته للغاية. إن الرسولية مقصورة على الاثني عشر (متياس حلّ محل يهوذا)، كامتياز رسمي دخل فيه بولس الرسول باختیار فوق العادة: «فقال له الرب اذهب، لأن هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام الأمم وملوك وبني إسرائيل ... قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك ... لكي تبصر وتمتليء من الروح القدس ...» (أع ٩: ١٥ و ١٧)

وإن المُرسَل يحمل كرامة الذي أرسله: «الذي يقبل من أرسيله يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو ١٣: ٢٠)

ويلاحظ هنا أنه بعد أن أعطاهم التكليف بالإرسالية، قدّسهم بنفخة الروح القدس للعمل، باعتبار أن الإرسالية عمل مقدس، أي خاص بإعلان الله: «لأجلهم أقّّس أنا ذاتي، ليكونوا هم

⁷ Kittel, G., TDNT (Theological Dictionary of the New Testament), Vol. 1, p. 404.

أيضاً مُقدَّسين في الحق» (يو ١٧: ١٩). وهنا يعطيهم المسيح الروح القدس، وهو روح التقديس والشهادة معاً، لأنه هو الناطقُ فيهم والذي يعرفهم بالحق!

ومنذ هذه اللحظة التي أرسى فيها المسيح قاعدة الإرسالية على الرسل، مقدَّساً إياهم بالروح القدس، والكنيسة تحمل هذه الإرسالية بجدارة بالتتابع الرسولي، من الرسل إلى الآباء الرسولين، إلى الآباء القديسين خلفاء الرسل، إلى الآباء الأساقفة — رؤساء الكراسي القانونية — في كل المسكونة المعتبرين خلفاء الرسل. وبذلك صار إيمان الكنيسة مدموغاً بالرسولية، فهو يُسمَّى منذ مجمع نيقية بـ «الإيمان الرسولي». ووُضِعَ في قانون الإيمان هكذا: «نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية».

ومن جهة الإيمان الحيِّ الذي نعيشه اليوم كأفراد وجماعة، فهو يقوم على ما تم للرسل في عشية ذلك اليوم، مُضافاً إليه «شهادة الرسل» بعد ذلك، التي تملأ الأسفار المقدسة. فنحن نستمتع بإيمان مسيحي، متأسس على نُطقٍ إلهيٍّ، واثني عشر رسولاً، شهودٍ عيانٍ، وإلهام الروح القدس، بالإضافة إلى ما تسجَّل في الأسفار المقدسة من الوحي المقدس، سواء بالنبوة في العهد القديم، أو بالاستعلان المشاهد في العهد الجديد.

ولكن الإمتياز الأعظم الذي صار لهذا «الإيمان الرسولي»، أنه كان وظل ولا يزال يستمد قوته وسلطانه وكرامته من المسيح بالدرجة الأولى: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله، يقبلني. والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني.» (يو ١٣: ٢٠)

ويلاحظ أنه كما أن الإرسالية، التي عُقد لواؤها على المسيح أولاً من عند الآب، تآزرت وتقدَّست في مضمونها الظاهر للعالم بالروح القدس، وظهر هذا واضحاً للغاية سواء في تقديس العذراء بالروح القدس لقبول الحمل الإلهي: «مولود من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم» (قانون الإيمان)، أو بحلول الروح القدس على المسيح وقت العماد بصورة ظاهرة لاستعلان المسحة الإلهية ودفع الإرسالية بالروح القدس؛ كذلك الإرسالية التكميلية التي عُقد لواؤها المسيح على الكنيسة الممثلة بالرسل القديسين، تآزرت وتقدَّست في مضمونها الداخلي والخارجي بالروح القدس.

ونلاحظ من كلا الأناجيل وسفر الأعمال أن الروح القدس أُعطي أولاً للتلاميذ، ثم حلَّ عليهم ثانياً في يوم الخمسين:

أولاً: بعد القيامة مباشرة بنفخة الروح القدس من فم المسيح، تماماً كما نفخ الله الخالق في جُبلة الإنسان لما خلقه فصار آدم نفساً حيّة. ففي نفخة القيامة هذه صار الإنسان خليفة جديدة حيّة تتنفس بالروح القدس لحياة أبدية.

«نفخ»: ἐμφυσάω

وهذه هي المرة الأولى والوحيدة التي فيها ترد هذه الكلمة في العهد الجديد. وهي تفيد «ينفخ في» بالمعنى الشائع في العهد القديم أنه «نفخ الحياة»، وهي خاصة بالله وحده: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ ἐνεφύσησεν في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حيّة.» (تك ٢: ٧)

«هكذا قال السيد الرب هلمّ يا روح من الرياح الأربع وهُبّ على هؤلاء القتل ليحيوا.» (حز ٣٧: ٩)

هكذا أعطى المسيح القائم من الأموات للتلاميذ شركة في روح حياة القيامة التي فيه، وهذه الروح ليست فقط روح قيامة بل وأيضاً روح غسيل وتطهير وإحراق، لأنه لم ينفخ فيهم روحاً وحسب، بل الروح القدس. و«القدس» هنا يفيد التقديس والتطهير والغسل والإحراق للتأهيل للحياة الجديدة: «لكن اغتسلتم بل تقديستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١ كو ٦: ١١). وهذا هو ما يتضمنه قول المسيح للتلاميذ: «أما أنتم فستعمّدون بالروح القدس» (أع ١: ٥). بل وهذا هو تحقيق قول المسيح للتلاميذ: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩)، وهي حياة قائمة من موت لا يسود عليها الموت ثانياً قط.

وقد أخذت الكنيسة الشرقية عامة والقبطية خاصة عن إنجيل يوحنا عملية نفّخ الروح القدس في طقس العماد، فصار «النفخ» عملية طقسية يتكامل بها سر الخليقة الجديدة، بالماء والروح، كوعد المسيح. وقد امتد عمل «النفخ» كإعطاء روح من الله في بعض الأعمال الطقسية الأخرى عند بعض الكنائس، وفي الكنيسة القبطية قديماً، كما في إعطاء الحلّ من الخطايا في سرّ التوبة والاعتراف. ولكن هذا التقليد ضَعُف في أيامنا وبُطِّل. كذلك كان هذا يجري في طقس رسامة «أبونا» الرأس الحبشي على الكنيسة الحبشية، وذلك بأن ينفخ البطريرك القبطي أسقف الإسكندرية في قُرْبَة حتى يملأها من نَفْسِهِ ويرسلها بيد مخصوص لتُفتح في وجه المختار فتتم رسامته بالتتابع الرسولي بتقديس الروح^(٨).

^٨ Brown, op. cit., Vol. II, p. 1023.

وكما خلق الله الإنسان في البداية على صورته، هكذا خلقه المسيح بعد القيامة بالروح القدس على صورة خالقه في البروقداسة الحق (أف ٤ : ٢٤)، وواضح غاية الوضوح أنها «إعادة خلقه» على مستوى الروح القدس لإعطاء الحياة الأبدية.

- + «لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع.» (أف ٢ : ١٠)
- + «إذ خلعتكم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه.» (كو ٣ : ١٠ و ٩)
- + «إن كان أحد في المسيح فهو خليفة جديدة...» (٢ كو ٥ : ١٧)
- + «... تلبسوا الإنسان الجديد، المخلوق بحسب الله في البروقداسة الحق.» (أف ٤ : ٢٤)
- + «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم.» (غل ٤ : ١٩)

وهكذا في هذه الليلة الخالدة في تاريخ الكنيسة السمائي، إذ بعدما أكمل المسيح الإنجيل، خلق المسيح من الرسل، بنفخة فمه، باكورة خلايقه بالروح القدس لميراث جديد في السماء لحياة أبدية: «شاء فوَلَدْنَا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلايقه.» (يع ١ : ١٨)

ثانياً: حلول الروح القدس على التلاميذ المجتمعين يوم الخمسين، فواضح أنه كان لحظة الانطلاق لبدء الخدمة والكراسة بقوة الروح القدس: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً...» (أع ١ : ٨). لذلك نسمع أنه بمجرد أن حلَّ الروح القدس «ابتدأوا يتكلمون بالسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع ٢ : ٤). لذلك فحلول الروح القدس يوم الخمسين على باكورة الخليقة الجديدة المقدسة، يُحسب أنه كان قوة الدفع للإرسالية والكراسة والشهادة بالروح القدس، التي صوّرها الله جهاراً بالنار المتحوّلة إلى ألسنة ناطقة بكل لغات الأمم!! والتي سبق أن ألمح إليها المسيح بقوله: «جئت لألقى ناراً على الأرض...» (لو ١٢ : ٤٩). وهذه هي النار التي تُضرم روح الحب والبذل والتضحية والشجاعة والشهادة في قلوب الأتقياء حتى اليوم وإلى الأبد.

وللقديس كيرلس الكبير شرح للتفريق بين عمل عطية الروح القدس للتلاميذ بالنفخ من فم المسيح وبين حلول الروح القدس يوم الخمسين عليهم وهم مجتمعون، ورأيه هنا يُعتبر الأوفق والأكمل:

[إن مخلصنا أعطى الروح بواسطة العلامة الظاهرة وهي «نفخته» للتلاميذ القديسين، باعتبارهم باكورة للخليقة المجددة. لأن موسى يكتب فيما يخص خلقتنا في القديم أن الله

«نفخ» في أنف الإنسان نفخة الحياة. فكما تشكل في البدء وجاء إلى الوجود، هكذا بالمثل يتجدد. وكما أنه تشكل آنذاك في صورة خالقه هكذا الآن بالمثل، فبالشركة في الروح يتغير على شكل خالقه. لأن الروح يطبع صورة المخلص على قلوب الذين يقبلونه، وهذا بكل تأكيد لا يسمح لأي تساؤل. لأن بولس يستحث بوضوح الذين سقطوا في الضعف تحت إلزام العودة للتمسك بالناموس بهذه الكلمات: «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم» (غل ٤: ١٩). لأنه يقول إن المسيح لا يتصور فيهم إلا بالاشتراك في الروح القدس والحياة بمقتضى ناموس الإنجيل... لأنه يلزم لنا نحن أيضاً أن ندرك هذه الحقيقة، أي أنه أحذر لنا الروح ليمنحه لنا أيضاً.

ولكن في أيام عيد الخمسين المقدس، عندما أذاع الله نعمته بوضوح أكثر معلناً عن الروح القدس الذي في قلوبهم، ظهرت لهم ألسنة من نار، لا كأنها تعني بداية لعطية الروح القدس في قلوبهم، بل بالحرى لتشير إلى بدء الزمن الذي فيه وُهِبَتْ لهم عطية اللغات (الألسن). ومكتوب هذا حقاً إنهم «بدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع ٢: ٤). ولاحظ أنهم «بدأوا يتكلمون» وليس «بدأوا يقبلون التقديس»... وهذا كان من عمل الروح الذي فيهم. ^(٩)

وأيضاً للقديس يوحنا ذهبي الفم رأي في الفرق بين عطية الروح القدس بعد القيامة وحلول الباراكليت يوم الخمسين، ولكنه رأي غير مأخوذ به:

[إلا أنه لا يكون الإنسان عطناً إذا أُكِّد أنهم أيضاً قبلوا قوة روحية ما ونعمة، ليس لكي يُقيموا موتى أو يصنعوا معجزات، ولكن لكي يفرّجوا الخطايا... ولكنهم من جهة الحالة الأخرى، أي بعد الأربعين يوماً فإنهم تقبلوا قوة صنع المعجزات... وصاروا شهوداً بواسطة صنع المعجزات.] ^(١٠)

وهذا الرأي الذي يقول به القديس ذهبي الفم يقوم على أساس ورود كلمة «الروح القدس» (في يو ٢٠: ٢٢) بدون أداة التعريف «أل»، فاعتُبر ذلك نوعاً من القوة وليس هو الروح.

ولكن هذا القياس مرفوض من علماء اللغة المقتدرين الذين قالوا بأن ورود كلمة «الروح» بدون أداة التعريف هو مثل ورودها بأداة التعريف، لا فرق، وذلك بناءً على استقرارات متعددة من

^٩ St. Cyril, *op. cit.*, pp. 675-677.

^{١٠} St. John Chrysostom, *Hom. LXXXVI*, p. 325.

مخطوطات مختلفة^(١١). وأيضاً يُذكر الروح بدون التعريف في مواضع لا يمكن إلا أن تكون للتعبير عن الروح القدس نفسه وبشخصه، مثل ما جاء في سفر الأعمال ٢: ٤. لذلك لا نستغرب بأن لاهوتيي الأرثوذكس الروس^(١٢) يرفضون رأي ذهبي الفم في هذا الموضوع.

وكثير من الشراح المقتدرين يجدون في عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ القمة النهائية للعلاقات الشخصية التي تأسست بين المسيح والتلاميذ^(١٣).

ولقد كان موضوع عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ موضوع جدل لاهوتي عنيف عند الكنائس الخلقيدونية. فالمجمع المسكوني الخامس (٥٥٣ م) — وهو غير معترف به عند الأرثوذكس غير الخلقيدونيين — شجب عقيدة ثيودور الموبسويستي لقوله إن المسيح بعد القيامة لم يعط الروح القدس في الحقيقة ولكن الأمر كان مسألة شكلية كأنه مجرد وعد^(١٤). وهكذا نستطيع أن نقول أن شرح القديس كيرلس الكبير لهذا الموضوع هو الأصح والأكمل.

وبلاحظ القاريء أن المسيح لم ينفخ الروح القدس على التلاميذ واحداً واحداً، لأن الروح القدس لا يُعطى بكيل أو بالتقسيم، بل أُعطي للتلاميذ عطاءً كلياً وقبلوه ككل، كجسد واحد ككنيسة مجتمعة متحدة، فحتى القديس توما رسول الشك — الذي كان غائباً في هذه الليلة — وإن لم يكن أهلاً لتقبله في البداية، الأمر الذي تسبب في تغيبه قصداً، لكن عندما آمن — لما رأى — قبله في الحال قبول التلاميذ قدراً بقدر. وليس توما وحده بل الكنيسة أفراداً وجماعات في كل أنحاء الأرض قبلت الروح القدس لما قبله التلاميذ، لأنه لم يُعط الروح لأسماء وأشكال وأعداد ولكن للإنسان — كل مَنْ يؤمن — كخليقة جديدة. فالكنيسة الكارزة في العالم وُلدت وتقدست في المسيح والروح، ثم أرسلت يوم الخمسين وكان التلاميذ باكورة مقدسة لهذه الخليقة المولودة بالكلمة والروح.

ولكي يثق القاريء في عمومية وشمولية فعل الروح القدس في الكنيسة خُلواً من زمان ومكان، لنا مثال في قصة حلول الروح على السبعين شيخاً في جماعة إسرائيل، عندما أخذ الله من الروح الذي على موسى وأعطى هؤلاء الشيوخ فتنبأوا، ولكن كان اثنان منهم غائبين بعيداً في المحلة ولم

¹¹ Brown, *op. cit.*, p. 1023.

¹² Cassien, Serge Besobrasoff, *La Pentecôte Johannique*, pp. 156-59. Cited by Raymond E. Brown, *op. cit.*, p. 1023.

¹³ C.H. Dodd, *The Interpretation of the Fourth Gospel*, p. 227.

¹⁴ Brown, *op. cit.*, p. 1038.

يحضرا هذا المشهد الرهيب. ولكن الروح باغتتهما وحلّ عليهما بالمثل وهم بعيداً داخل المحلة. فلما غار يشوع تلميذ موسى، إذ كيف يتنبأ هذان الشيوخان وهما لم يحضرا طقس الرسامة والتنصيب؟ وفي غيرته احتج لموسى: «يا سيدي موسى ازدعّهما. فقال له موسى: هل تغار أنت لي؟ يا ليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذ جعل الرب روحه عليهم!!» (عد ١١ : ٢٤-٢٩). وقد تم ما نطق به موسى كليم الله وصار بالفعل يوم الخمسين وما بعده سكبياً متصلاً للروح القدس على كل مَنْ آمَن واعتمد للرب.

وعليّنا أن نلاحظ الصلة بين الإرسالية وعطية الروح القدس للتلاميذ، أنها صلة متبادلة وجذرية. فلا إرسالية بدون عطية الروح القدس، ولا عطية الروح القدس دون كرازة أو شهادة.

٢٣: ٢٠ «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرْ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمِسَّكَتْ».

«وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس مَنْ يُغلق، و يُغلق وليس من يفتح.» (إش ٢٢: ٢٢)

هذه الآية ملتزمة بالآية السابقة، أي بعطية الروح القدس، في نفخة الحياة الجديدة في المسيح المُقامة من الموت ثم بالإرسالية الممتدة من الآب أيضاً. وهكذا يكون غفران الخطايا وحجزها عن الغفران داخلاً في عمل الروح القدس المباشر، وفي نطاق خدمة الإرسالية، أي خدمة الخلاص.

هذه الآية، من واقع منطوقها، سلاحٌ خطير ذو حدّين: حدٌّ يقطع الخطية ويفرزها عن الداخل في الحياة الجديدة، وحدٌّ يقطع الخاطئء نفسه عن جسد الكنيسة الحي حتى لا يفسدها.

وقد ذهب المفسّرون لهذه الآية كل مذهب، ولكن لا يعنيها في شرحها إلّا ما جاء في منهج الفكر الأرثوذكسي الكنسي.

رأي القديس كيرلس الكبير:

[بأية طريقة، وبأي معنى وهب المخلص تلاميذه الكرامة التي تليق فقط بطبيعة الله وحده؟ لقد فكّر (الرب) أنه من الموافق أن الذين وُهبوا مرة روحه، وهو الرب الإله، ينبغي أن يحوزوا قوة مغفرة أو مَسْك الخطايا، فكيفما صنعوا يكون الروح القدس الساكن فيهم هو الذي يغفر أو يمَسْك هذه الخطايا حسب مشيئته، على أن العمل الذي يعمل يكون بواسطة الإنسان.

وحسب ما أرى، يكون أن الذين نالوا روح الله، يغفرون أو يمسون الخطايا على

مستويين :

الأول : فهم يدعون إلى المعمودية الذين هم أهل لهذا السير، من واقع نقاوة حياتهم واختبار مدى تمسكهم بالإيمان، كذلك فإنهم يؤخرون ويستثنون الذين لم يبلغوا بعد إلى استحقاق هذه النعمة الإلهية.

الثاني : وفي معنى آخر، هم يغفرون ويمسون الخطايا بأن يزجروا ويعزلوا أبناء الكنيسة (أي المعمدين)، كما يمنحون العقول للذين تابوا. تماماً كما قطع بولس ذلك الذي اقترف الزنا في كورنثوس : «لهلك الجسد حتى تخلص النفس» (١ كور ٥ : ٥)، ثم عاد وقبله في الشركة «حتى لا يُبتلع من فرط الحزن.» (٢ كور ٧ : ٧) [١٥]

ولقد كان هذه الآية الخطيرة تاريخ حافل باختلاف الآراء خاصة في الكنيسة الكاثوليكية، ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين المتحررين في الكنيسة الرومانية وبين التقليديين، إلى هذا اليوم. ولكن الرأي الذي يكاد أن يكون سائداً هو الرأي الذي قال به القديس كيرلس الكبير بأن الحبل والمسك للخطايا يخص سرّي العماد والتوبة، أي ما قبل العماد وما بعد التوبة (١٦).

المعروف أن آباء الكنيسة على مدى الثلاثة القرون الأولى، ركّزوا على مغفرة الخطايا وتمسكها فيما يخص المعمودية فقط. ونرى هذا واضحاً في قانون الإيمان : «ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا». وإنجيل ق. يوحنا يشير إلى هذه الحقيقة إشارة قوية في قصة تفتيح عيني الأعمى بالاغتسال، الذي هو رمز العماد، باعتبار أنه عاد بصيراً، لأن خطاياَه غُفِرَتْ، في مقابل عدم إيمان الفريسيين الذين وضعهم الرب في مستوى العميان — أي غير المعمدين — على أساس عدم غفران خطاياهم : «فخطيتكم باقية» (يو ٩ : ٤١). وفي هذه القرون الثلاثة الأولى، كان الاتجاه عنيفاً ضد مغفرة الخطايا بعد المعمودية. ولكن يأتي إنجيل القديس لوقا، ليشير إلى الغفران والمسك للخطايا، في معنى التوبة، بصورة واضحة في قول المسيح نفسه : «وقال لهم : هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم.» (لو ٢٤ : ٤٦ و٤٧)

وإنجيل يوحنا يعطي أيضاً الانطباع بأن مغفرة الخطايا موصولة بالكراسة، لأن كلام المسيح

^{١٥} Cyril the Great, *op. cit.*, p. 680.

^{١٦} Brown, *op. cit.*, p. 1039.

يعطي فكراً واحداً متصلاً بين الإرسالية، ونفخة الروح القدس، ومغفرة الخطايا. ولكن سواء في إنجيل القديس لوقا، أو ق. يوحنا فمغفرة الخطايا متركَزة نوعاً ما وبصفة مبدئية في الدعوة للمعمودية، التي هي غاية الكرازة، وهي الخاصة «بالأهم». ولكن واضح من رسالة القديس يوحنا الأولى ربط مغفرة الخطايا بالاعتراف أي التوبة (راجع ١ يوحنا ١: ٩).

والملاحظ من روح إنجيل يوحنا أن موضوع مغفرة الخطايا وعدم مغفرة الخطايا يأتي بصورة رئيسية كمنهج اختطه المسيح نفسه؛ بمجيئه إلى العالم، كنور وقداسة وبر: «فقال يسوع: لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يُبصرون — (المعمودية لمغفرة الخطايا) — و يعمى الذين يُبصرون (حرمان المدَّعين المعرفة والمتجاهلين لخطاياهم من مغفرة الخطايا)» (يوحنا ٩: ٣٩). وعلى هذا المنوال تماماً، يكون التلاميذ المُرسَلون من قِبَل الرب ليقوموا بنفس رسالة المسيح: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.» (يوحنا ٢٠: ٢١)

ولكن لا يزال لاهوت القديس يوحنا يُسيِّج حول موضوع مغفرة الخطايا، حتى لا يتسرَّب إلى الذهن أن مغفرة الخطايا من عدمه هي تحت سلطان رسول أو تلميذ أو أي بشر، خلواً من تدخُّل ومتابعة إلهية وتصديق، وذلك بما قدَّمه في رسالته الأولى: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويُطَهِّرنا من كل إثم» (١ يوحنا ١: ٩). المسيح هنا هو قابلُ الاعتراف بالدرجة الأولى بل هو المعرَّف الإلهي الحقيقي في سر الاعتراف، ويزيد أنه يطهِّر الضمير والنفس. أما الرسول أو التلميذ أو الأسقف أو الكاهن فما هو إلاَّ خادِمُ السر، يأخذ الاعتراف، ليس لنفسه، بل ليقدِّمه إلى المسيح:

[ثم يصعد الكاهن إلى الهيكل ويعطي البخور فوق المذبح عن اعتراف الشعب جميعه في عشية وباكر والبولس، وهو يقول: «يا الله الذي قَبِلَ إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدوس الذي دُعي علينا»] (رفع البخور سر اعتراف الشعب — الخولاجي المقدس).

ويعود ق. يوحنا ليوضح في رسالته الأولى وظيفة المسيح الدائمة أمام الله، متشفِّعاً عن خطايانا كدَّينِ علينا، دفع ثمنه كاملاً: «وإن أخطأ أحد، فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفَّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط (المعمدين) بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١ يوحنا ٢: ١ و٢)، كل المدعوِّين للإيمان به.

ويستحتم في هذا المضممار الخاص بإعطاء الكنيسة سلطان مغفرة الخطايا، أن يكون إيماننا

بالغفران الكامل لكل خطايانا التي نعترف بها، قائماً ومتأسساً في الفكر والقلب والشعور على سفك دم المسيح على الصليب (١٧)، ثمناً كاملاً ليس للغفران فقط بل ولتطهير الفكر والقلب والضمير. ويضبط هذا الإيمان آيتان:

الأولى في العهد القديم: «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب ٩: ٢٢؛ راجع لا ١٧: ١١)، حيث كان دم تيوس وعجول مذبوحة تكفر عن خطية المعترف، ولكن إلى طهارة الجسد فقط لأنه دم حيواني.

أما في العهد الجديد، قدم يسوع المسيح «كما من حل بلا عيب» (١ بط ١: ١٩)، قيل عنه: «إنه حل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩). وأيضاً: «لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجسين، يقدس إلى طهارة الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح، الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب، يظهر ضمائركم من أعمال ميته لتخدموا الله الحي». (عب ٩: ١٣ و ١٤)

وهكذا ترى، يا عزيزي القاريء، أن الإيمان الإنجيلي الكامل بمغفرة الخطايا ينبغي أن يتغلغل إلى أعماق «الضمير» ليُطهره تطهيراً كاملاً بل وإلى التقديس. وهكذا يكون سر الاعتراف والتوبة لمغفرة الخطايا، له التأثير النفساني الفعال القادر أن يصحح ويشفي، ليعيد للإنسان نفساً سويةً، بعد أن تكون قد أفسدتها الخطية وأمراضها.

وأما قوة فعالية دم المسيح، فتوضح الآية أنه قائم على أساس «الروح الأزلي»، أي روح الله القدوس، قدم المسيح الذي سفك على الصليب، دمٌ حيٌّ وحياته أزلية، أي دائمة فيه، منذ أن سفك وإلى اليوم وإلى الأبد، فقدرته الذبائحية على الغسل والتطهير والتقديس قائمة وقادرة قدرة

(١٧) صلاة التحليل التي يقرأها الكاهن على المعترف في سر الاعتراف (وهي المعروفة باسم «تحليل الابن» وتقال أيضاً في نهاية رفع البخور)، توضح كيف أن سلطان مغفرة الخطايا الذي سلمه المسيح للرسول في هذا المساء بنفخة الروح القدس، هو مؤسس أصلاً على عمل المسيح الكفاري على الصليب:

[أيها السيد الرب يسوع المسيح، الابن الوحيد، وكلمة الله الآب،

الذي قطع كل رباطات خطايانا من قِبل آلامه المحلصة المحيية،

الذي نفخ في وجه نلاميذه القديسين ورسله الأطهار، وقال لهم:

اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياهم، غُفرت لهم، ومن أمسكتموها عليهم أمسكت.

أنت الآن أيضاً، يا سيدنا، من قِبل رسلك الأطهار أنعمت للذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيسك

المقدسة، أن يغفروا الخطايا على الأرض...]

(الخلاصي المقدس).

لانهائية إزاء خطية العالم كله.

على أن كلاً من الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية تحصر السلطة الرسولية لمغفرة الخطايا وإمساكها في الرتبة الكهنوتية وفي داخل سر التوبة بأصول وواجبات وشروط، وقد انحصرت تقريباً في معاملة الشعب بعد المعمودية. وقد عالج هذا الأمر مجمع ترنت Trent (١٥٤٥ - ١٥٦٣ م) الخاص بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وهو المجمع الثامن عشر، وكان مخصصاً ضد البروتستانت الإصلاحيين، وأدان كل من يقول بأن سلطان مغفرة الخطايا هو لكافة المؤمنين في الكنيسة. كما زاد بأن هذا السلطان لا يتبع رسالة بشارة الإنجيل بل هو سر قائم بذاته (؟)، ولو أن كثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك المحدثين لا يرون أن هذا القرار يتناسب مع قصد الآية الواردة في إنجيل يوحنا، فالآية واضحة أنها تخص قوة الكرازة ذاتها من جهة الله نفسه لمغفرة الخطايا في المسيح أو مَسْكُهَا^(١٨).

والخطأ الحادث والمستمر هو التماذي في استخدام هذا السلطان بمفهوم يخرج عن تحديدات الروح في الإنجيل حسب هوى الشارح.

ولو أن إنجيل يوحنا لم يتعرض للخطايا وغفرانها بالنسبة للمعاملات الشخصية مع الآخرين، إلا أننا نفهم من إنجيل القديس متى أنه علينا أن نفرق بين خطايا تُقترف وتمس الإيمان أو العقيدة أو العبادة أو الله أو الكنيسة أو جسد الإنسان ذاته (كالزنا)، باعتبار أن الجسد تَقَدَّس بالمعمودية والروح القدس في الأسرار وخاصة الاشتراك في جسد ودم المسيح، فصار جسد الإنسان هيكلاً لله وعضواً في جسد المسيح كالغصن في الكرمة؛ وبين خطايا تُقترف في المعاملات الشخصية مع الناس والإخوة لتمسُّهم بالسوء.

فالخطايا التي تُقترف ضد الله وكل ما يخصه، يدخل غفرانها بالدرجة الأولى في سلطان الكنيسة. أما الخطايا في التعامل الشخصي مع الناس والتي تمسُّهم بالسوء، فيتحتّم طلب الغفران أولاً ممن أسأنا إليه مع الاستعداد للتغريم: «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخذْ معك أيضاً واحداً أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقلْ للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار» (مت ١٨ : ١٥-١٧)؛ «حينئذ تقدم إليه بطرس وقال:

¹⁸ Brown, *op. cit.*, p. 1041.

يا رب كم مرة يخطيء إلیّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات. « (مت ١٨ : ٢١ و ٢٢)

وواضح جداً من هذا العرض أن على الفرد المؤمن واجب الغفران أو قانون الغفران. إذ يتحتم أن يكون جاهزاً وبلا استثناء، حتى ولو أخطأ الإنسان نحوه سبعين مرة سبع مرات؛ بمعنى أنه ليس في يد المؤمن سلطان حرّ لمغفرة الخطايا للآخرين بل هو واجب وقانون حتمي مفروض عليه. وقول المسيح أنّ عليك، كمؤمن، أن تغفر لمن أخطأ إليك سبعين مرة سبع مرات، يحمل ضمناً أنّ ليس لدى المؤمن أي حقّ لعدم الغفران. «فمشك الخطايا» ليس من سلطان المؤمن قط، بل رّفعه المسيح من يد المؤمن ووضعه في نصابه القانوني: «وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين...، وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة». هنا يأتي دور الكنيسة القانوني في مسك الخطيئة على الخطيئة المكابر والمعاند، وفرزه من الكنيسة: «وإن لم يسمع من الكنيسة، فليكن عندك كالوثني والعشار»، بمعنى أن الكنيسة تقطعه من عضويتها، إذ لم تعُدّ أخاً في الإيمان بل وثنياً يعبد البغضة والعداوة و يبخر للذات.

الاعتراف "بالزلات": ἀμαρτίας

يعطينا القديس يعقوب صورة محدودة لتصريح الكنيسة وتحت سلطانها بمكاشفة المؤمنين بعضهم بعضاً بالخطايا، بمعنى الاعتذار عن كل إساءة في وقتها حتى لا تثقل ضمائرهم من نحو بعضهم البعض: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا». (يع ٥ : ١٦)

واضح هنا أن نوع الخطايا ليس موجّهاً للإيمان أو الله أو الكنيسة، بل هي أخطاء شخصية. وقد ربط القديس يعقوب هنا بين الخطايا والأمراض، وبين الاعتراف الفردي والصلاة. وهذا التصريح من رئيس كنيسة أورشليم أمّ كنائس العالم آتئذ يأتي بعد أن أوضح دور قسوس الكنيسة الأساسي في دهن مسحة الزيت والصلاة ومغفرة الخطايا المتسببة في المرض.

لذلك لا نجد هنا في القول: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات»، أي انتقال أو تنازل لسلطان الكنيسة الرسولي لمغفرة الخطايا أو إمساكها إلى عامة المؤمنين، بل هي على مستوى الأمر أو التوصية، كعمل مبدئي في غاية الأهمية والضرورة، تستكملة الكنيسة بقوتها وسلطانها الرسولي الفائق المستجاب لدى الله في السماء.

القيمة السرية والتمينة لسلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة :

يقدم لنا القديس يعقوب الصلة السرية والخطيرة بين الخطية والمرض، وبالتالي بين غفران الخطية وقوة الشفاء عند الكنيسة المفتحة لأولادها : «أمريضٌ أحدٌ بينكم، فليُدْعُ شيوخ الكنيسة فيُصلُّوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فَعَلَ خطية تُغْفَرُ له .» (يع ٥ : ١٤ و ١٥)

هنا يسجل لنا القديس يعقوب نوعاً هاماً من قيمة سلطان مغفرة الخطايا الذي استودعه الرب في قلب الكنيسة، فهو هنا ليس منطوقاً بالجل أو الغفران بل يُقدَّم على مستوى صلاة يقودها قسوس الكنيسة المجتمعون مع أهل المريض من أجل الشفاء باستخدام زيت المسحة المفروض أنه يحمل قوة وحضور الروح القدس . هنا يكشف لنا القديس يعقوب أن غفران الخطية الذي في سلطان الكنيسة والعامل بالروح القدس في سر المسحة هو أساس الشفاء، باعتبار أن هذا المريض علته الخطية . بهذا يكون سلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة بمثابة قوة وذخيرة لشفاء أجساد ونفوس وأرواح المؤمنين .

التوبة μετάνοια والغفران :

«ولكن الآن يقول الرب ارجعوا إليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح، ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم لأن رؤوف رحيم، بطيء الغضب، وكثير الرأفة .» (يؤ ٢ : ١٢ و ١٣)

«قد محوتُ كَفَيْمَ ذُنُوبِكَ، وكسحابة خطاياك . ارجع إليّ لأنني فديتُكَ .» (إش ٤٤ : ٢٢)

أوضح تعبير عن علاقة التوبة بمغفرة الخطايا، هو ما قاله بطرس الرسول بعد حلول الروح القدس مباشرة لشعب إسرائيل النادم والباكي : «توبوا وارجعوا لتُشْحَى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع ٣ : ١٩). ولكنها أولاً وقبل كل شيء وصية الرب المخلص فيما يخص عمل مغفرة الخطايا، كما قالها بعد القيامة بحسب إنجيل القديس لوقا : «وقال لهم ... أن يُكرَّر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم .» (لو ٢٤ : ٤٦)

وقد سبق الرب في تعاليمه أيضاً أن ربط المغفرة بالتوبة ربطاً لا محيص عنه : «وإن أخطأ إليك أخوك فوبّخه، فإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ... قائلاً أنا تائب، فاغفر

له. « (لوقا ١٧ : ٤٣)

أما ربط التوبة نفسها بالخلاص، فقد جعلها المسيح كالأساس : «إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون» (لوقا ١٣ : ٣). أما مركز التوبة والتائب في السماء، فوصّفه المسيح كذلك : «أقول لكم، إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب...» (لوقا ١٥ : ٧)

إذن، لا توجد مغفرة للخطايا إلا بالتوبة، فمغفرة الخطايا تكون فقط للتائب كحالة حاضرة ومستمرة. لذلك لا يمكن أن نعبر على هبة المسيح في إنجيل يوحنا للرسول بأن كل ما يغفرونه يُغفر وكل ما يمسكونه يُمسك، حيث يأتي فعل الغفران والمسك في حالة الفعل التام المستمر أي يكون مغفوراً ويكون ممسوكاً، إلا ويكون نتيجة مباشرة للتوبة الدائمة، والمسك يصير نتيجة مباشرة لمن رفض حياة التوبة.

وما هي التوبة؟

التوبة في اللغة اليونانية هي بحسب الحرف «تغيير الفكر»، ولكن المعنى في اللغة الأرامية التي كان يتكلم بها المسيح تعني أكثر وأعظم من هذا: فهي بحسب الفحص الدقيق تحمل معنى^(١٩):

- ١ - حالة الإنسان فيما يخص كل كفاءاته،
- ٢ - مبادرة عبادية تحمل تحولاً نحو الله بتصميم وعناد،
- ٣ - ليس الكف عن سيرة سابقة أو التكفير عنها بتحمل تضحيات وعقوبات وحسب، بل لا بد وأن تشمل نزوعاً جديداً نحو المستقبل،
- ٤ - تغيير جذري في العقيدة والإيمان، أو بمعنى أبسط معرفة أعمق وأصح بالله ودراية واعية بإرادته المقدسة،
- ٥ - استجابة واضحة لنداء نعمة الله، وانتهاز فرصة الخلاص التي يعرضها الله.

والتوبة ولو أنها حالة قلبية داخلية للإنسان، ولكن يتحتم أن يكون لها أفعال وردود أفعال ظاهرة وعلنية، كأعمال رحمة ومحبة وتواضع : «فاعملوا أعمالاً تليق بالتوبة.» (لوقا ٨ : ٨)

فالصوم مثلاً له أعمال :

- ١ - «أليس هذا صوماً أختارُهُ (أنا الله) : حلّ قيود الشر، فكّ عُقد النير (أي إطلاق

^{١٩} Schnackenburg, Rudolf, *The Moral Teaching of the New Testament*, p. 25-26.

سراح الذين نعاقبهم ونستعبدهم)، وإطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير (القيود التي وضعناها على من كانوا تحت سلطاننا).» (إش ٥٨ : ٦)

٢ — «أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكن التائهين إلى بيتك».

٣ — «إذا رأيت عرياناً أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك».» (إش ٥٨ : ٧)

النتيجة: «حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك، وتنبت صحتك سريعاً، ويسير برك أمامك، ومجد الرب يجمع ساقتك. حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول هاأنذا».» (إش ٥٨ : ٩ و ٨)

٢ — المسيح يظهر للأحد عشر خصيصاً من أجل توما في العلية:

أ — توما كان غائباً عن الاجتماع الأول، ويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ: (٢٠ : ٢٤ و ٢٥).

٢٠ : ٢٤ «أما توما — أحد الاثني عشر — الذي يُقال له التوأم، فلم يكن معهم حين جاء يسوع».

«وكان روح الله على غزريا بن عوديد، فخرج للقاء آسا وقال له: اسمعوا لي يا آسا وجميع يهوذا وبنيامين. الرب معكم ما كنتم معه. وإن طلبتموه، يوجد لكم. وإن تركتموه، يترككم».» (٢ أي ١٥ : ٢ و ١)

توما:

«ديديموس» باليونانية المترجم بالتوأم، تعني ضمن ما تعني في لغة ق. يوحنا المِستِيكية — أي السرية — معنى أنه واحد باثنين، وهي ما توضحه ولادة التوائم (Twin). فكون توما واحداً باثنين، ثم تقول الآية إنه واحد من الاثني عشر، فهو هنا يعني أنه يكمل بالسّر مكان التلميذ الذي كان معدوداً من الاثني عشر وسقط؛ لأن "الاثني عشر" هو الاصطلاح الذي تحمله الكنيسة عوض الاثني عشر سبطاً، خلواً من أعداد وأسماء وحظوظ فردية. هذا كان يدركه بطرس الرسول تماماً حينما دعا الأحد عشر إلى اجتماع عاجل وإلى صوم وصلاة، ليعين آخر عوض يهوذا الذي صار من نصيب الشيطان، حتى يكمل نصاب الكنيسة (*). لا عدداً بل اسماً دهرياً:

(*) نصاب: عدد من الناس لا بد منه لكي يتم الاجتماع ويصبح قانونياً (عن: «المعجم العربي الأساسي»، ص ١١٩٨).

« وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال، وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله لها مجد الله ولمعانها، شبه أكرم حجر كحجر يشب بلوري، وكان لها سور عظيم وعال (سور الخلاص)، وكان لها اثنا عشر باباً (مداخل التعليم الرسولية)، وعلى الأبواب اثنا عشر ملاكاً (حراس التعليم الصحيح)، وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل (الجديد) الاثني عشر (رسولاً) ... وسور المدينة كان له اثنا عشر أساساً، وعليها أسماء رُسل الحروف الاثني عشر. »
(رؤ ٢١ : ١٠ - ١٤)

لقد أنهت أخبار المحاكمة الشنيعة والصلب والموت للمعلم المحبوب، على كل أمل في بقاء توما في أورشليم مع الرفقة على ما يُظن. وربما يكون قد قفل راجعاً إلى بلده، وهي في غالب الأمر ليست في الجليل بل اليهودية، فهو كان - على ما يُعتقد - من الخمسة التلاميذ الأوائل الذين تبعوا الرب في بداية خدمته في اليهودية قبل الجليل ولكن لما ترامت إليه أخبار القيامة، رجع إلى أورشليم. وهذا ما تم بالحرف الواحد لتلميذَي عمواس اللذين قفلا راجعين إلى مدينتهما، يلفهما اليأس والحسرة.

أما لماذا تسرّع توما في الانسحاب من دائرة الأحداث هكذا دون بقية التلاميذ، فواضح من الحديث القادم أن اليأس كان قد استبدّ به أكثر من جميعهم، فكان ردّ فعل النعمة أنها انسحبت من دائرة حياته - مؤقتاً - وهكذا ينكشف سلوك توما، التراجع، كما تتبين معاملة الله للمتراجعين: « الرب معكم ما كنتم معه، وإن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم. »
(٢ أي ١٥ : ٢)

فغياب توما عن ذلك الحدث العظيم، سببه توما نفسه، ولكن تقف وعود الله بلا ندامة: « وهل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسئون، وأنا لا أنساك. » (إش ٤٩ : ١٥)

٢٥ : ٢٠ « فقال له التلاميذ الآخرون: قد رأينا الرب. فقال لهم: إن لم أنبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن. »

الإنجيل لم يذكر لنا حادثة توما هذه المخجلة لكي يحطّ من قدر توما، بل لكي يوضح صعوبة الإيمان بالقيامة. فإنجيل القديس متى يذكر أن أكثر من واحد منهم شكوا: « ولما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا » (مت ٢٨ : ١٧). هذه هي صراحة الإنجيلي في روايته، التي من واقعها ندرك صدق الرواية وصدق القيامة ذاتها. وإنجيل القديس مرقس لم تفتّ هذه المحنة الإيمانية لدى

السمع، فهي جزء لا يتجزأ من الحقيقة: «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووثج عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا الذين نظروهم قد قام.» (مر ١٦: ١٤)

وهنا يزيد القديس مرقس من لوم التلاميذ الذين لم يؤمنوا إذ كان يجب أن يصدقوا الذين نظروهم قد قام. وهذه تعود وتنعكس علينا لا محالة، فنحن أمام هذه الحالة عينها. فرواية القيامة بلغتنا على يد شهود عيان كثيرين، فالإيمان بها أصبح يحقُّ القبول من اليمين بالمديح، كما يحقُّ الشك من الشمال بالتوبيخ. أما الطوبى، أي السعادة، فهي نصيب الذين يؤمنون ولا يطلبون لا العيان ولا شهادة العيان، لأن الحق يضيء قلوبهم.

إذاً، فرواية توما لا تخصُّ توما ولا التلاميذ، بل هي حدثت لتكون ركناً ركيناً في استعلان شخص المخلص، كجزء حيٍّ في درجات سلم استعلان قيامة المسيح، كظوق نجاة للذين ستعصف بهم شكوك مثل شكوك توما!

وق. يوحنا يقدم لنا رواية توما على التوازي مع رواية تلميذّي عمواس التي قدمها القديس لوقا. فكلُّ من الروايتين حَظَّتْ بظهور الرب خاصة. ولكن حَظِّي كلُّ منهما بالتوبيخ المناسب.

«قد رأينا الرب»:

نفس ما قالته المجدلية: «قد رأيتُ الرب».

لم تكن رؤيا وحسب بل وفرحاً، هي شهادة ستبقى خالدة أبد الدهر تردها كلمة «آمين»، من كل مَنْ في السموات والأرض، بانتظار الاستعلان المنظور الذي تراه كل عين آمنت أو لم تؤمن. أما التي آمنت، فبستهليل تردد صدها السموات وسماها السموات، وأما التي لم تؤمن فبالبكاء والنحيب على الذي طعنوه بلسانهم أو جحودهم أو ارتدادهم.

لم تقع هذه البشارة المفرحة عند توما موقع التصديق، عن قصد من النعمة، ليكون أباً ومرشداً لكل الذين صاروا بعقولهم قوامين على قلوبهم، ومدّوا أيديهم وأصابعهم عِوضَ البصيرة ليتحسسوا بها طريق الحق. لقد صار توما في تاريخ الإيمان إمام الشكّاكين. ولكن يا ليت كل من يشكُّ، ينطق بالنهاية بما نطق به توما.

«فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه لا أؤمن»:

جروح الصليب مميّنة، فكيف تصبح علامة حياة؟ إنه تعجيز!! ولكنها هي حقاً معجزة!! توما

يطلب المستحيل بالعيان واللمس، يطلب اقتران الموت بالحياة والحياة بالموت، فكان له ما شاء!!
إنها حقاً القيامة!!

توما أراد أن يمسك بنار اللاهوت، فمسك ولم يحترق، إنه فُضِّل التجسد ومجد القيامة!!

توما أراد أن يمثّل بيده طعنة الحربة، وكمثل يَد موسى، دخلت برصاءً بعدم الإيمان، وخرجت تضيء بصراخ الإيمان (خر ٤: ٦). إن أهوال الصلبوت ضيّعت من عقل توما كل معقولة الحياة من بعد الموت، لقد أصابت المسامير فكر توما بأكثر مما أصابت به يد الفادي، الفادي قام بيديه في ملء الحركة والحياة، وفكر توما تسمر بالموت وبقي بلا حراك. الجثب المفتوح بالحربة صار كهوة في إيمان توما، تفصل الميت عن الحياة، مع أن الدم والماء النازفين منه، كفيلا بأن يُحييا كل الأموات.

«لا تؤمن»:

لقد جازف توما بكل إيمانه، لقد وضع إيمانه بالمسيح قائماً من الموت في كفة، ورؤية عينيه ولمس يده لآثار المسامير وطعنة الحربة في الكفة المقابلة! لقد ظن توما أن الإيمان بالقيامة رهنُ نظر العين ولمس اليد!!

ولكن المسيح نفسه عندما ظهر للتلاميذ المجتمعين «أراهم يديه وجنبه»، فتوما وإن كان يطالب بحقّه الرسولي، كتلميذ له، في الرب المُقام ما كان للباقيين في غيابه، إلا أن ما كان ينقص توما حقاً والذي وبّخه المسيح على فقدانه، كما وبّخ الآخرين، فقد كان هو الإيمان: «ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروهم قد قام» (مر ١٦: ٢٤)، وهنا يستحيل الأخذ بنموذج توما ليكون نموذجاً لنا للإيمان. ولكن نموذج توما الذي شك واشترط لإيمانه الرؤيا واللمس، هو نموذج رسولي وحسب، قرّره الرب أن يكون، وقرّر له الاستجابة، فظهر له بمقتضى نفس شروطه، ليؤمن، فلا يبقى هو، ولا أحد غيره، غير مؤمن بعد!!

أما ما انتهت إليه خبرة القديس توما والتي ينبغي أن تنتقل إلينا، أنه ليس بالعيان ولا باللمس يكون الإيمان بل بتصديق الخبر الإنجيلي، بطاعة الكلمة، بالاستجابة لنداء الروح القدس!! «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩)

٢٠:٢٦ «وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلَامِيذُهُ «أَيْضاً» دَاخِلًا وَتُومًا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ
وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةً، وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: سَلَامٌ لَكُمْ».

لا يزال التلاميذ في أورشليم ولا يزالون مجتمعين؛ إن حقائق القيامة وظهور الرب رَبَطَتْ
قلوبهم بالمكان الذي ظهر فيه، لم يعودوا قادرين على مبارحة أورشليم. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر
مزيداً من الاستعلان والظهور. لقد بدأت تتبلور في قلوبهم رسالتهم، ولكن لم يكونوا حائزين بعد
على «القوة» اللازمة للحركة.

كان يوم الأحد الذي قام فيه الرب وظهر لهم فيه «أَيْضاً» في المساء، كان قد أخذ قُدْسِيَّة
خاصة زادت بصورة مؤكدة بعد أن ظهر لهم وللمرة الثانية في نفس المكان ونفس المساء، مساء
الأحد. وهكذا تقررَت عليَّة أورشليم أن تكون مركز ميلاد الكنيسة في أورشليم، كما تقرر يوم
الأحد ليكون يوم الرب، يوم القيامة، يوم الظهور والاستعلان.

في هذا يقول القديس كيرلس الكبير:

[إِذَا، هُوَ لَسَبَبٍ صَالِحٍ لَنَا عَادَةً أَنْ يَكُونَ لَنَا اجْتِمَاعَاتٌ مُقَدَّسَةٌ فِي الْكَنَائِسِ فِي الْيَوْمِ
الثَّامِنِ (الأحد). وَيُسْتَحَبُّ أَنْ نَسْتَعِيرَ لُغَةَ التَّشْبِيهِ بِالْإِنْجِيلِ فَتَقُولُ، وَكَمَا تَسْتَلْزِمُهُ الْحَاجَةُ،
نَحْنُ نَقْفُلُ الْأَبْوَابَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ يَأْتِي الْمَسِيحُ وَيُظْهِرُ لَنَا جَمِيعاً مَنْظُوراً وَغَيْرَ مَنْظُورٍ بِأَنْ
وَاحِدٍ، غَيْرَ مَنْظُورٍ بِصِفَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ وَمَنْظُوراً بِالْجَسَدِ (فِي الْإِفْخَارِسْتِيَا). وَيَجِيزُ لَنَا أَنْ نَلْمَسَ
جَسَدَهُ الْمُقَدَّسَ وَيُعْطِيَهُ لَنَا أَيْضاً. لِأَنَّا بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَنَحْنُ نُوَقِّلُ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْإِفْخَارِسْتِيَا
الْمُقَدَّسَةِ، نَسْتَقْبِلُ الْمَسِيحَ فِي أَيْدِينَا (٢٠) بِغَرَضٍ أَنْ نُؤْمِنَ يَقِيناً أَنَّهُ حَقّاً أَقَامَ هَيْكَلَ
جَسَدِهِ] (٢١).

كان اجتماع التلاميذ وتوما معهم بمثابة دأج دعا الفادي للظهور: «حيثما اجتمع اثنان أو
ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ٢٠). ولكن هنا ليس اثنان أو ثلاثة، بل
«أول كنيسة» تجتمع بكامل هيئتها، ليعطي لها المسيح أول درس في الإيمان غير المعتمد على
المنظور.

(٢٠) كان الطقوس قديماً ينص أن يعطي الكاهن جسد في يد المتناول، والمتناول يضعه في فمه (انظر كتاب: «الإفخارستيا
والقداس»، للمؤلف، ص ٤٢٦ و ٤٥٢ و ٧٢٥).

«فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط»:

اللغة التي صيغت بها هذه المعلومة «فجاء يسوع» توضح في اللغة اليونانية أنه كان هناك نوع من الترقب^(٢٢)؛ وهذا ما نعتقده نحن بكل تأكيد. فالآن قد حاز التلاميذ على عطية الروح القدس الكفيل أن يجعلهم يشعرون «بالأمور الآتية»، وخاصة فيما للرب ومجيئه. ولكن الذي يُلهب قلوبنا نحن أيضاً، هو كيفية ظهوره بكامل عظمة هيئته، وفي وداعة بشريته ولطف محبته، بل ونقول بروح نشيد الأنشاد: يا لطلعته البهية، يا لبأس منظر عينيه كغالب الموت وقاهر الهاوية، يا لبهاء نور الآب الذي يشع من كل كيانه، تخرج من جروح يديه ورجليه طاقات وموجات من الأشفية والأدواء لعلاج كل أوجاع البشرية، ومن خلف جنبه منظر كنهر الحياة ليغطي كل أمم وشعوب الأرض للاغتسال بغسل الحياة، لاستنشاق نسيم روح الله. هكذا جاء يسوع خصيصاً ليتحدث مع توما بشأن عدم لياقة عدم إيمانه، بعد سنين هذا عددها وهو يسقيه فيها من روح نعمته.

جاء يسوع ووقف «في الوسط»، صحيح أنه جاء خصيصاً لتوما، ولكن حينما يظهر المسيح يظهر في الوسط فهو للجميع والجميع له. ليس كبير أو صغير بينهم، فالكل فيه كبير والكل فيه كريم مُكرَّم.

«وقال: سلام لكم»:

ليست هي مجرد تحية، ولكنها وديعة يستودعها الرب لكنيسته: «سلامي أعطيكم» فالرب لا يُقرىء السلام، بل يُعطيه، بل يسكبه ويثبته بثاً، ليثري في القلوب والأفكار والأرواح، ليقبى ويدوم ويترسخ داخل النفس، تلتجىء إليه يوم العاصف فتجده، وتستغيث به في الضيقة فتسربل به.

ويلزم أن ننتبه أن التلاميذ كانوا لا يزالون خائفين، لأن الأبواب كانت لا تزال مغلقة عليهم. فكان المسيح، بإعطائهم السلام، كمن يقول لهم: «أما خوفهم فلا تخافوه، ولا تضطربوا، بل قدسوا الرب الإله في قلوبكم.» (١ بط ٣: ١٤ و ١٥)

٢٧: ٢٠ «ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا، وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنيبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً».

عجيب أن الرب يعيد نفس الكلمات التي نطق بها توما وهو يتحدث مع زملائه، فكان الرب

كان واقفاً يستمع إلى شروط توما المغلظة، لم يعاتبه ولا حتى آخذه، بل بلطف يفوق كل لطف، أخضع جسده الذي ترتعب منه الأجناد السماوية لرؤية عين توما، وَلِلْمَسِ أَصَابِعِهِ. عَرَى جُرُوحَهُ، وجنبهُ المفتوح جعله في متناول يده!

وهكذا احتفظ الرب بعلامات الموت لجعلها برهان الحياة، وآثار الذلة والانسحاق لجعلها أسباب المجد!

ولعل إخضاع الرب جُرُوحَهُ النازفة لِلْمَسِ أَصَابِعِ توما، كان قمة استعلان الموت في الحياة وقمة الحياة في الموت. وهذه هي القيامة نصّاً وفصّاً. ثم، أما كان ق. يوحنا صادقاً في رؤياه لما قال في افتتاح إنجيله: «وكان الكلمة الله»؟ وهكذا بَقِيَتْ هذه الحقيقة العظمى تحتاج إلى برهان، إلى أن تَجَسَّد الكلمة ودُبح على الصليب وقام، إلى أن باشرها توما بالروح والعين المفتوحة قبل أصابع يديه، فصرخ: «ربي وإلهي».

ولكن ماذا كان وَقْعُ كلمات الرب المُقام على توما، حينما ردّد على مسامعه كُلُّ الكلام والشروط التي قالها للتلاميذ، متحدّياً جميعهم ليؤمن بقيامة الرب؟ أعتقد أنها فوق أنها أخجلته، فقد جعلته في غير حاجة لأن يمدّ يده أو إصبعه. ولكن حينما مدّها وحينما لمس إطاعةً للأمر الذي صدر له، كان قد بلغ الإيمان في قلبه حدّ الصراخ بالشهادة. خبرة العين الروحية ابتلعت خبرة عين الجسد، ولمسة الروح في القلب ظفّت على لمسة اليد.

«لا تَكُنْ غيرَ مؤمنٍ، بل مؤمناً»:

لم يكن توما غيرَ مؤمنٍ، لهذا ظهر له الرب. وإلّا لو كان فعلاً غيرَ مؤمنٍ، لما ظهر له الرب على الإطلاق؛ لقد قلنا إن عطية الروح القدس التي نفخها الرب في التلاميذ كانت جماعية لا فردية، كانت في جسم الجماعة المتحدة، وليس على مستوى فردٍ دون فردٍ. وهكذا انتقلت من فم المسيح للرسل، ومن الرسل للكنيسة، ككلّ، كجسدٍ حيّ. القديس توما، إذاً، لم يكن غريباً عن جسم التلاميذ، جسم الكنيسة، ولا عن عطية الروح القدس، ولكن لما استبدّ به الشك، كَوْنَهُ اسْتُشْنِيَ من رؤية الرب، كان يطلب حقّه في الرؤيا العينية، وزاد عليها لَمَسَ الأصابع، إمعاناً في الوثوق الذي يطلبه. بمعنى أن توما كان في طريقه إلى الإيمان في حالة حصوله على ما احتاجه إيمانه: «أومن، يا سيد، فأعِنْ عدم إيماني.» (مر ٩: ٢٤)

الرب تنازل إلى مستوى شروط توما، ليقطع على توما — وعلى كلِّ مَنْ يذهبُ مذهبه — الطريق إلى عدم الإيمان!

ولكن الذي اعتاد على أسلوب ق. يوحنا في التلطيف الفائق الوصف عند سرد سلوك التلاميذ خاصة (٢٣)، يدرك كيف يُخَفَّف هذا الإنجيلي الوديع المحب من عنف أسلوب المسيح في مقارعة التلاميذ الذين قَسُوا قلوبهم، ولم يبلغوا سريعاً إلى درجة الإيمان الفوري حسب رواية القديس مرقس: «أخيراً ظهر للأحد عشر (توما في الحسبان) وهم متكئون (ثاني مرة أي الأحد الثاني)، ووبخ عدم إيمانهم وفساوة قلوبهم، لأنهم لم يُصَدِّقُوا الذين نظروهم قد قام.» (مر ١٦: ١٤)

ولكن هاتين الرؤيتين لكلام الرب، هما في الحقيقة لموضوع واحد رآه القديس مرقس بما كان من ضعف التلاميذ، ورآه ق. يوحنا بما سيكون من لطف المسيح للتلاميذ، الأول رآه يستحق التعنيف، والآخر رآه يستحق التشجيع.

٢٨: ٢٠ «أجاب توما، وقال له: رَبِّي وإلهي».

«هو يدعو باسمي وأنا أجيبه. أقول هو شعبي وهو يقول الرب إلهي.» (زك ١٣: ٩)

هذا الخطاب الموجّه للمسيح رأساً من القديس توما هو، نصاً وحرفاً، نفس الخطاب الموجّه من أي إسرائيلي نحو يهوه الله. وهكذا بلغ الإنجيل بالفعل والقول إلى أقصى ما عبّر عنه المسيح أن يكون: «لكي يُكْرِمَ الجميع الابن، كما يُكْرِمُونَ الآب» (يوه: ٢٣). وتم بالفعل قول المسيح الذي قال: «فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أنني» «أنا هو *ἐγώ εἰμι*» (يوه: ٨: ٢٨)

إن نُطِقَ القديس توما: «ربي وإلهي» يكون قد وقّع على المنظور الحي ما قاله ق. يوحنا في رؤياه للكلمة: «وكان الكلمة الله».

هذه هي قمة الاستعلانات التي تتبّعها هذا الإنجيلي الدقيق الدؤوب. إنها قمة إنجيل يوحنا، التي ما أن بلغها هذا القديس، حتى تنفس الصَّعْدَاءَ وأرخى الفكر وسجّل الخاتمة: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قَدْأَمَ تلاميذه لم تُكْتَبْ في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يوه: ٢٠: ٣٠ و ٣١)

(٢٣) أنظر كتاب: «المدخل لشرح إنجيل يوحنا» من حيث أسلوب القديس يوحنا في وصف سلوك التلاميذ ص ٢٦٣ و ٣٥٢. وانظر أيضاً ما جاء في سياق شرح الآية ١٦: ٣١.

والذي يزيد من قيمة هذا الاستعلان الذي استلهمه القديس توما من رؤية الرب المقام، أنه يأتي بعد أسبوع كامل من عذاب الشك وليل الظنون. فهو وإن تأخر عن التلاميذ ثمانية أيام في التعرف على القيامة وتصديقها، إلا أنه سَجَّلَ للكنيسة أول اعتراف علني بألوهية المسيح، خرج منه بتلقائية تعبر عن الحق الذي رآه كاعتراف إيمان بلغ الذروة، ليس في كل الأناجيل ما يضاهيه.

يتفق معظم الشراح في أن القديس توما لم يمدَّ يده نحو الجسد المقدس، ولم يكن في حاجة أن يتفرَّس في ثقب المسامير باليدين، ولا تحسَّس الجنب المفتوح، وإن خالف ذلك كثيرون أيضاً^(٢٤)؛ بل إنه، حال ظهور الرب والأبواب مغلقة، أخذ في دهشة، وانفتحت بصيرته في الحال فنطق بما نطق. لقد شعر، والرب أمامه بلحمه وعظامه، بهيئته الجديدة المجيدة وبصوته هو هو، أن كل مطالب ضعف إيمانه السابق من جهة رؤية أثر المسامير والجروح والجنب المفتوح، هي أتفه من الحقيقة المعلنة أمامه.

إن ظهور الرب بحال قيامته كان كفيلاً بأن يغيّر، لا فكر توما بل روحه وحياته. إن ظهور الرب قوة، فالقيامة هي المجال الإلهي الفائق، الذي إذا دخله الإنسان يفقد رؤيته لنفسه والعالم، وكأنها أقنعة، يخلعها ليرى الحقيقة الدائمة، ولا يعود يرى نفسه إلا في الله: «ربي وإلهي».

إنه يذكر نفسه بياء الملكية = μου مرتين «ربي وإلهي»، تأكيداً منه أن مَنْ يراه واقفاً أمامه، يرى نفسه فيه ويراه هو في نفسه، وكأنه يرّد بلسان صاحب نشيد الأنشاد: «أنا الحبيبي، وحبيبي لي» (نش ٣: ٦). إنه تعبير عن إيمان حيٍّ محسوس وشخصي. وقول توما للمسيح: «إلهي» = (my God) = ὁ Θεός μου، إنما يعبر تعبيراً حياً صادقاً منظوراً بالروح لقول المسيح: «الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ٩)

لقد صار له المسيح وصار هو للمسيح، فاستغّلن له المسيح في ذاته رباً وإلهاً. لقد تعرّف على الله في المسيح، وتعرّف على المسيح في الله!!

وأخيراً، أدرك توما أن المسيح ليس لِلْمَسِّ اليد أو نَظَرِ العين!! فهو الملء الذي يملأ الروح والبصيرة والقلب، الملء الذي لا تَسْغُه عين ولا يحيطه فكر.

وكان ردُّ المسيح على اعتراف توما: «ربي وإلهي»، أن أمّن على إيمانه، موافقاً على إعلانه

²⁴ Schnackenburg, *op. cit.*, Vol. III, p. 332.

بلاهوته كمن أصاب الحقيقة بكلمة، فلولم يكن المسيح إلهاً بالحق، ما كان قد ارتضى بهذا الإعلان!! ولولم يكن المسيح والآب واحداً، ما رأى توما ما رأى!! لقد رأى توما المسيح كما يريد المسيح نفسه أن يُرى!

أما «رَبِّي» فهي تخصُّ إيمان توما بالمسيح «المعلّم» الذي أكل وشرب معه، وما هو واقفٌ أمامه. إنها كصرخة المجدلية «رَبُّونِي»، تعبّر عن إيمان القيامة. وأما «إِلَهِي» فتخصّه مُشْتَغَلًا في حقيقته الأزلية، إذ ارتفع توما بإعلان حَازة، به رأى الله في المسيح! إنها رؤية حقٌّ، للحقِّ، لقد واجه توما المسيح في حقيقة ذاته: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ٩)

وهكذا، بقدر ما انحط إيمان توما حتى شكَّ في القيامة، بقدر ما أعطى للقيامة معيارها الإلهي العالي. وهكذا أثمر ظهورُ الرب للتلميذ الضعيف الإيمان، قوة إيمانية باقية تسند الكنيسة على مدى الأزمان.

ولكن حذارٍ أن نفهم من هذا أن ظهور الرب لتوما كان ظهور «العيان»، إذ يتحتم أن نفهم أن الظهور الإلهي الذي كان يظهر به المسيح بعد القيامة لم يكن ظهوراً تتحكم فيه العين البشرية وتفحصه. إنه ظهور إعجازي، يحتاج إلى عين روحية مفتوحة، إلى وعي روحي فائق عن وعي الجسد والحواس؛ يحتاج إلى عمل الروح: «وحيثُ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو ٢٤: ٤٥). أو القول الآخر الأكثر انطباقاً الذي تم بالحرف الواحد لتلميذَي عمواس: ففي الأول كان المسيح سائراً معهم ولم يعرفاه: «ولكن أُمسكتُ أعينهما عن معرفته» (لو ٢٤: ١٦). ولكن، في النهاية، تمت المعجزة من خلال إفخارستيا: «فلما اتكأ معهما، أخذ خبزاً، وبارك، وكسر، وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما.» (لو ٢٤: ٣٠ و ٣١)

بهذه الرؤيا وحدها، يمكن التعرف على المسيح كإله، على أساس الآية التي قالها الرب: «الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو ١٢: ٤٥). هنا يستحيل أن تكون رؤية العين هي التي ترى مَنْ أرسل الرب؛ إنها حتماً وبالضرورة رؤية الروح، «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١ كو ٢: ١٠). وهذه هي رؤية الإيمان، بمعنى رؤية منشؤها التصديق، ونهايتها التعرف على الله في المسيح والمسيح في الله. هنا بلغ توما عن حقِّ رؤية المسيح الإله: «رَبِّي وإِلَهِي».

٢٩: ٢٠ «قَالَ لَهُ يَسُوعُ: لَأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا، آمَنْتَ. ظَلَوْنِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا».

أخيراً ظهرت رثة التوبيخ والعتاب في صوت المسيح لتوما؛ لأنه ما كان لائقاً بتلميذٍ عاشر

الرب، وسمع منه أنباء القيامة العتيدة، بل ورأى قوتها عياناً عند قبر لعازر، مع تنبيه دائم ركّز عليه الرب: «قلتُ لكم قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون» (يو ١٤: ٢٩). فلما «كان» ما سبق وأنبأ عنه المسيح، وحدث كما قال، لا آمن توما ولا صدّق مَنْ رأوا وآمنوا!!

لقد شابه توما بطرس في ضعف إيمانه، فذاك صُلّي المسيح من أجله، حتى لا يفنى بصيصُ إيمانه الذي كان كَفَتِيلَةً مُدَخَّنَةً، ودخانها يعمي العيون: «فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل (المسيح)!!» (مت ٢٦: ٧٤ ومر ١٤: ٧١). أما هذا، فظهر المسيح له خصيصاً، وأراه جروحه، وأخضعها لِلْمَسِّ يده، حتى يصير مؤمناً ولا يكون غَيْرَ مؤمنٍ بعد!!

ولكن شكراً لك، أيها القديس توما، لأن بشكّك ورثتنا الطوبى، أحسن الطوبى μακάριοι!

«أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان، لخلاصٍ مستعدٍ أن يُعلن في الزمان الأخير، الذي به تبتهجون، مع أنكم الآن إن كان يجب تُحزّنون يسيراً بتجارب متنوعة ... الذي وإن لم تَرَوْهُ تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطقُ به ومجيد.» (١ بط ١: ٨-٥)

وفي نهاية هذه الآية المجيدة التي ورثتنا الطوبى، نلفت نظر القارئ أنها تحمل بين طيّاتها عزمَ المسيح على الانسحاب الأخير، بحيث لا يراه أحدٌ، بعدُ، إلا بالإيمان. وهكذا عبّر إنجيل يوحنا عن الصعود دون أن يَصِفَهُ.

القصد الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا: (٢٠: ٣٠ و ٣١).

٢٠: ٣٠ «وآياتُ أُخَرٍ كَثِيرَةٍ، صَنَعَ يَسُوعُ قَدَّامَ تَلَامِيذِهِ، لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ».

والآن، وقد أنهى ق. يوحنا إنجيله الذي كثّف فيه من الآيات ذات المدلول الإلهي، وخاصة آيات القيامة، رفع عينيه نحو الأفق، نحو مستقبل الأجيال القادمة الذين كتب لهم هذا: «الكتاب» بكل صدق الروح وحراسة النعمة، وكتب هذه الكلمات. إنه الآن يخاطبك، أيها القارئ السعيد، باعتبارك أنك بُلِّغْتَ الرسالة.

لقد سبق ق. يوحنا وأن وقف هذه الوقفة عينها، ناظراً إلى الماضي بكل آياته ومعجزاته الباهرة، ولكن ليس في غمرة فرح القيامة لبشارة الأمم كما هو هنا الآن، إنما في أسى وحزن،

وقد امتد ظل الصليب ليُغطّي كل الآيات التي صنّع، ليلقى عليها مسحة من الجحود والعمى والصّمم التي أصابت الأمة المختارة: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها، لم يؤمنوا به ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله، يا ربُّ من صدّق خبرنا، ولمن استُعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدرُوا أن يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم، وأغلظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويشعروا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم.» (يو ١٢ : ٣٧-٤٠)

ولكن هنا يسجل لنا ق. يوحنا، كتلميذ أمين ومحبوب، شهادة ذات وزن رسولي وإنجيلي، أن الآيات التي صنعها المسيح سواء وسط الشعب في اليهودية أو أورشليم (يو ٢ : ٢٣) أو الجليل شيء لا يحصره عدُّ، وبوجه خاص يذكر هنا «(قدام تلاميذه)»، وهو بصدد الظهور للقديس توما، لكي يرفق بها ظهورات الرب بعد القيامة، كنوع هام وممتاز من المعجزات التي اعتبرها آيات تتكلم وتشير إلى لاهوته بلا نزاع. ومعلوم، على وجه العموم، أن المسيح اقتصر ظهوره على تلاميذه بعددهم الرمزي (الاثنى عشر)، وأيضاً بعد ذلك بعددهم العام نحو «(خمسئة أخ)» (١ كو ١٥ : ٣-٨)، معتبراً أن هذه الظهورات كانت آيات تشير كلها وتتكلم عن صحة موته وقيامته، تأكيداً لرسالة الفداء التي أكملها كابن الله المتجسد.

ويلاحظ القارئ كيف جعل ق. يوحنا هذه الآية: «(وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه)»، تأتي ملتحمة بشهادة القديس توما «(ربي وإلهي)»، لكي تصير كنموذج يؤكد به للقارئ القصد من كل الآيات التي اختارها وسجلها: «(لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله)»، معتبراً أن اعتراف توما بألوهية المسيح هو المعيار النهائي للإنجيل كله.

ويعود ق. يوحنا ويذكّرنا أن إنجيله الذي كتبه، إنما لا يمثل كل أعمال الرب، بل هو مختارات من آياته قولاً وعملاً، وكأنما يعتذر ق. يوحنا للقارئ الذي كان يريد أن يطلع على كل أعمال الرب. فهو بصريح العبارة يعترف أنه لم يكتب سيرة المسيح = Biography، ولكن اختار للقارئ، الذي يريد أن يؤمن بابن الله ويكون له الحياة الأبدية، ما يكفي لإيمانه. أما بقية أفعال المسيح وأعماله فهو يتركها للمؤمن لكي يستلمها من المسيح رأساً، ألم يستلم بولس الرسول ما يكاد أن يكون إنجيلاً بأكمله، ما لم يستلمه الآخرون؟ إذن، يكفي للقديس يوحنا أن يوصلنا إلى المسيح الحيّ، والباقي يتركه للمسيح الذي حسب قول القديس بولس الذي لم يَره: «(أحبني وأسلم نفسه لأجلي)» (غل ٢ : ٢٠)

وهذا الأسلوب أيضاً نقرأه للقديس لوقا: «(وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشّرهم)»

(لو ٣: ١٨)

وفي هذه اللفتة العميقة في نهاية إنجيله، يريد ق. يوحنا أن يسرّب إلى وجداننا «غنى المسيح الذي لا يُستقصى» (أف ٣: ٨)، والملء الذي يملأ الكل (أف ١: ٢٣)، من ذا الذي يستطيع أن يحيط به؟؟

وق. يوحنا بهذا التقرير، إغا يلفت نظرنا إلى استعداد المسيح أن يكمل ويستزيد من الآيات والعلم والمعرفة لمن أصبح مستحقاً للكمال والاستزادة، أليس هو القائل: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً، لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحملوها الآن» (يو ١٦: ١٢)؟

٣١: ٢٠ «وأما هذه فقد كُتِبَتْ لَتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ولكي تكونَ لكم إذا آقْتُم حياةً باسمِهِ».

هدفان أساسيان كانا يعملان في قلب هذا القديس وعلكان عليه كل تفكيره، عندما كان يكتب إنجيله، لكي يخرج بهما القارئ من قراءته:

الأول: الإيمان بيسوع أنه هو المسيح ابن الله، وهذا هو جوهر المسيحية.

الثاني: وهو مترتب على الأول، أن تكون له حياة أبدية، وهذا هو جوهر الخلاص، فلا مسيحية بدون خلاص.

أما الهدف الأول، وهو الإيمان بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فاعتبره ق. يوحنا في رسالته الأولى أنه هو غلبة العالم: «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١ يوه ٥: ٥)

ما معنى هذا؟ معناه أن العالم بأبجاده وغروره وشهواته قادر أن يبتلع حياة الإنسان، وأنه لا توجد أية قوة أو وسيلة تنقذ الإنسان من طغيان العالم، إلا الإيمان بابن الله! لماذا؟ لأنه هو الذي تجسّد وصار إنساناً، وغلب العالم بموته عن العالم: «ثقوا أنا قد غلبت العالم.» (يو ١٦: ٣٣)

وما هي غلبة العالم؟ هي الحصول على الحياة الأبدية مع الله، التي لا يمكن أن يعرفها العالم أو يعطيها. فالمسيح، وهو ابن الله، مات عن العالم وقام حيّاً، إذ كان لا بد أن يقوم، فافتتح بحياته الحياة الأبدية لكل من يؤمن بموته (يسوع) وقيامته (المسيح ابن الله).

وهكذا، فالهدف الثاني الذي من أجله كتب ق. يوحنا إنجيله : أن «تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه». فـ «الإيمان» بالمسيح ابن الله يحمل في شهادته غلبة المسيح على العالم، يحمل قوة موت المسيح عن العالم، كما يحمل قوة قيامة المسيح من الأموات، أي يحمل الخلاص بكل معناه ومبثاه، وبالتالي يحمل حياة المسيح ابن الله التي انفتحت على كل من يؤمن به : «لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ١٥ : ٣)

«حياة باسمه» :

اسم المسيح حينما ننطقه فهو شهادة، واعتراف، وصلُّ إيمان، وشركة معه بالحب في موته وحياته.

واسم الله، بحسب لاهوت العهد القديم، هو الله حاضراً وقائماً وفعّالاً. لذلك كان محظوراً أن ينطق اليهودي باسمه (٢٥)، لأن النطق باسم الله هو استدعاء لحضرته، أو بمثابة الدخول في حضرته التي لا يطبقها أي إنسان مهما كان طاهراً. أما اسم المسيح، وهو على التوازي، بل التساوي مع اسم الله، فهو الحامل لحضرة المسيح الحي. ولكن المسيح مات من أجل كل خاطيء ليُحييه : «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤ : ١٩)، لذلك أصبح اسم المسيح الذي يحمل وجوده الشخصي، هو الحياة الأبدية.

ق. يوحنا يحاصرنا منذ بدء إنجيله بهذه الحقيقة، حيث يبدأ في تعريفنا بالمسيح، وهو الكلمة اللوغس بقوله : «فيه كانت الحياة»، ولما تجسّد وابتدأ «يتكلم»، قال هو عن نفسه : «إن الكلام الذي أكلمكم به هو روحٌ وحياة» (يو ٦ : ٦٣)، ولما تكلم مع الأعمى أبصر، ولما سمع لعازر الميت صوته، قام حيّاً. هذا هو المسيح الذي يقدمه للقارئ في ختام إنجيله : «لكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه».

الصورة الإنجيلية العامة لظهورات الرب،

والتسجيلات التي ازدحمت بها أسفار العهد الجديد عن مفردات عقيدة القيامة

بحسب الإيمان الذي ورثته الكنيسة من شهادة الرسل والتلاميذ

حتى كتابة إنجيل يوحنا سنة ٩٥-١٠٠ م

وكلها بشهادة شهود، وبالتدرج بحسب التاريخ الزمني تقريباً

١ — «ولما قالت هذا، التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع. فقال لها يسوع: يا امرأة لماذا تبكين، مَنْ تطلبين، فظننت تلك أنه البستاني فقالت له: يا سيد، إن كنت أنت قد حملته، فقل لي أين وضعته، وأنا آخذه. قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك وقالت له: رَبُّونِي، الذي تفسيره يا معلّم ... فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا.» (يو: ٢٠: ١٤-١٨)

+ ظلت حواء تبكي على الفردوس المفقود، وتطلب لنفسها ذلك الفادي الذي يعود بها إلى شجرة الحياة، حتى وُلِدَ لها في المجدل بُنْتُ ورثت بكاءها في طلب الفادي. هذه لما رآته رؤيا العين ظننته البستاني، مع أنه هو شجرة الحياة بعينها. ناداها باسمها، فعرفت فيه صوت الله. ولما أرادت أن تأخذه لنفسها، أرسلها لتدعو آدم أولاً.

٢ — «فحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر (يوحنا)، الذي جاء أولاً إلى القبر ورأى فأمن.» (يو: ٢٠: ٨)

+ أول إيمان ورثته الكنيسة، ورثته من قلب التلميذ المحبوب. لم يَرِ المسيح، ولم يَرِ الجسد، بل رأى قبراً فارغاً ولفائف ملفوفة بلفَّتْها في مكان الجسد وبوضعه. فأدرك القيامة، قبل أن يرى القوائم من الأموات، ووثق بنصرة الحياة على الموت، قبل أن يشهد ويرى ويلمس الحياة التي كانت عند الآب. إيمانه صار إيمان الكنيسة، إيمان الحب والبتولية، إذ جعلت الرهبنة أساساً لها، ولا تزال ترضع من ثدي تعزيات آباء الصحاري، والقيامة هي لنا — كما كانت لهم — حياتنا كلنا ورجاؤنا كلنا.

٣ — «جاء يسوع، ووقف في الوسط، وقال لهم: سلامٌ لكم. ولما قال هذا، أراهم يديه وجنبه، فرح التلاميذ، إذ رأوا الرب.» (يو: ٢٠: ١٩ و٢٠)

+ أول تسجيل جماعي للقيامة: الكنيسة الأولى بالأحد عشر وُلدت، فاقدة للخائن، فصدق فيها القول أنها بلا عيب كسيدها. ظهور المسيح المُقامِ ملكٌ لكلِّ مَنْ يراه؛ فلا يقول أحدٌ بَعْدَ لأخيه اعرف الرب، لأن «الجميع يكونون متعلّمين من الله» (راجع يوحنا ٦: ٤٥). أراهم يديه ملائكة جروحاً، ومن الجروح يفيض شَبْعُ سرور، وأراهم أيضاً جنبه المفتوح نابعاً منه «نهر صافٍ من ماء حياة لامعاً كبُلُورٍ خارجاً من عَرِشِ الله والخروف.» (رؤيا ٢٢: ١)

٤ — «فأجاب الملاك وقال للمرأتين: لا تخافا أنتما، فإنني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا، لأنه قام كما قال، هلمّا انظرا الموضع الذي كان الرب مضطجعاً فيه، واذهبا سريعاً قولاً لتلاميذه إنه قد قام من الأموات ... وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما، وقال: سلامٌ لكما. فتقدّمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسوع: لا تخافا، اذهبا قولاً لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني.» (متى ٢٨: ٥-١٠)

+ شهادة الملاك بقيامة الرب تُحدّث عن صدى القيامة، كيف أذيعت أولاً في السموات، والنسوة كنّ أول من تلقّين الخبر على الأرض من فم الملاك. امتزج عندهما الخوف بالفرح العظيم، لما علمتا بالقيامة، فمهّد الفرح العظيم في قلبيهما لانفتاح أعينهما لرؤية الرب لما لاقاهما. فلما أمسكتا بقدميه كانتا كمن أمسكتا بالحياة الأبدية، وسجدتا، وكان سجودهما أول عبادة بالروح قدّمت للمسيح على الأرض. وانطلقت حواء تبشر آدم بالعودة إلى الفردوس.

٥ — «وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس ... وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما. ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته ... فقال لهما: أيها الغبيّان والبطيّان القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، أمّا كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده. ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء، يفسّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب ... فلما اتكأ معهما، أخذ خبزاً، وبارك، وكسّر، وناولهما، فانفتحت أعينهما، وعرفاه، ثم اختفى عنهما ... فقاما في تلك الساعة (في الغروب) ورجعا إلى أورشليم، ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم، وهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان. وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كسّر الخبز.» (لوقا ٢٤: ١٣-٣٥)

+ القيامة أنشأت هيئة أخرى جديدة للإنسان تختلف عن هيئته الأولى، لأن نوع الحياة تغيرت، فبيئة الأرض شيء نحن نعلمه، وبيئة القيامة هي السماء. وحواسنا لم تتدرب على معرفة السمائيات بعد، إلا كعطية خاصة.

+ باثنين معاً تصحَّ الشهادة بقيامة الرب، كانا منطلقين نحو عالم الإنسان، واليأسُ يملأ قلوبهما، بنية العودة إلى العمل اليومي شبه المائت. قابلهما الرب في منتصف الطريق ليردَّهما مرة أخرى إلى الصليب والبشارة بقيامته، كانت عبوستهما نوعاً من الغباء الذي تُنشئه القراءة في الأسفار دون معرفة وإيمان. والقيامة تسير بجوارهما على استعداد أن تتجاوزهما، إن هما أبطأ أكثر في غبائهما. ولكن إلحاحهما وتوسلهما ومحبتهما للغرباء واستعداد ضيافتهما، أنقذهما من ابتعاد القيامة عنهما. فلما ألزما القيامة أن تحلَّ عندهما — حتى في جهلهما بها — حلَّت، ولم تستغلن نفسها لهما إلا في الإفخارستيا، وفي لحظة القسمة، أي كسر الخبز.

والغبيان صاروا عالمين بيسر الله، والبطيئا الإيمان في القلب انطلقا بالشهادة.

٦ — «وأما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل، حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكَّوا. فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت ٢٨: ١٦-١٩)

+ استعلان القيامة يُنشئ في الحال عند الإنسان روحَ عبادة حارة لا تنطفئ، لأنه يسكن القلب: «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو ٨: ١١). واستعلان القيامة هو استعلانُ لسلطان المسيح المتفوق على السماء والأرض. واستعلان سلطان المسيح يتحول في القلب إلى قوة كرازية، تكفي لكرازة جميع الأمم، ولصنَّع كل من يؤمن بصيغة الحياة الأبدية.

٧ — «وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال: سلامٌ لكم. ثم قال لتوما: هاتِ إصبعك إلى هنا، وأبصر يديَّ، وهاتِ يدك وضَعْها في جنبِي، ولا تكنْ غيرَ مؤمنٍ بل مؤمناً. أجاب توما وقال له: ربي وإلهي.» (يو ٢٠: ٢٦-٢٨)

+ القيامة أعطت الإنسان الجديد سلطاناً على مغاليق عقلٍ وقلبٍ وباب العالم، وحرَّرتَه من

قيود وقوانين الطبيعة. وغياب القيامة أنشأ الخوف والرعبة في قلب التلاميذ، فالإيمان بالصليب بدون القيامة لا يغير شيئاً من طبيعة الإنسان العتيق.

دخول القيامة في القلب الخائف المغلق يعطيه «السلام». توما هو نظير العالم الشكّاك. وأصبع الشك إذ تلامس مع إصبع الله في جرح الصليب، أنتج الإيمان بربوبية المسيح. واليد الجاحدة حينما مسّت الجنب المفتوح، أحسّت بدم القداء النازف من القلب المطعون، فحقّ لها الصراخ بالوهية الفادي.

٨ — «بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية ... فقال لهم يسوع: يا غلمان، أعمل عندكم إداماً (صَيْد)، أجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرّون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: «هو الرب ...» (يو ٢١: ١-٢٤). حينئذ جرى حديث المسيح للقديس بطرس خاصة.

+ واضح أن القيامة هنا تعتمد على فعل فائق من جهة المسيح، يجعل جسده ظاهراً لمن يختاره لكي يراه، رؤية طبيعية بحواسه الطبيعية، وإنما بفعل وسيط من طرف المسيح.

القيامة هنا للتلاميذ الحائثين والراجعين إلى مهنتهم القديمة في الصيد، بعد أن قال لهم: هلم أجعلكم صيادين للناس، هي لتوبيخهم وردّهم إلى السير المستقيم. فالمركب هي السيرة، والصيد في الشمال هو الانحراف نحو الخطأ والفسل الذي انتهى بهم إلى الإخفاق الكلي. والصيد على اليمين، هو تعديل المسار لصيد الناس، والكراسة بالذي يلهمهم الصواب، وليس بهواجس الفكر والجري وراء الذات. والصيد الكثير، هو الصيد الروحي. والمئة والثلاث والخمسون سمكة: الثلاث سمكات لليهودية والمئة والخمسون لشعوب الأرض كلها.

٩ — «الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه، بعدما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم، الذين أراهم أيضاً نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعدما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله...» (أع ١: ١-٣)

+ القيامة هنا كان لها عملان رئيسيان: الأول استعلان شخصيته القائمة من الأموات ببراهين

كثيرة ولمدة طويلة ولأشخاص مُنتخبين قادرين على الشهادة. والثاني استكمال استعلان الأمور المختصة بملكوت الله التي كان قد أُجِّلَ التعليم بها.

١٠ — «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحدٌ منهم شاهداً معنا بقيامته...» (أع ١ : ٢١ و ٢٢)

+ واضح هنا أن التلاميذ أحسُّوا بعظم أهمية الشهادة الكاملة لقيامة الرب كعمل كرازي بالأساس، للكنيسة التي هي عامود الحق وقاعدته المؤسسة على الاثني عشر رسولاً. كما أنه واضح، هنا، ذِكرُ الصعود، باعتباره الارتفاع الذي به أنهى المسيح رسالته التعليمية ووجوده المنظور على الأرض الدنيا، كما رأوه بأعينهم.

١١ — «يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مُسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي أئمة صلبتموه وقتلتموه. الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه.» (أع ٢ : ٢٢ — ٢٤)

+ هنا يعلن القديس بطرس أن عملية الصلب والموت هي أصلاً خطة موضوعة بمشورة الله، تُصوِّرها النبوات، وكلُّ دقائقها محسوبة حَسَبَ علم الله السابق، وكذلك بالضرورة قيامته المرسومة بكل تأكيد. فالله، بعد أن أكمل بالمسيح ابنه عقوبة الموت وأوجاعه على بني الإنسان، فألغى العقوبة، أقام المسيح من الموت الذي لم يكن ممكناً أن يُمسك منه، لأنه حيٌّ بالله، فقام منتصراً على عدو الإنسان الأول والأخير الذي هو الموت.

١٢ — «أيها الرجال الإخوة يسوعُ أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفن، وقبره عندنا حتى هذا اليوم. فإذا كان نبياً وعلم أن الله حَلَفَ له بقَسَمِ أنه من ثمرة صُلْبِهِ يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعاً شهود لذلك.» (أع ٢ : ٢٩ — ٣٢)

+ قول داود: «ولن تَدْعُ قَدُّوسك يرى فساداً» لم يكن على داود، لأن داود أكله الدود، ولكن هذه النبوة استُغْلِثَتْ بكل وضوح وقوة في قيامة الرب من الأموات، التي أَعْلَنَتْ في الحال أن الجسد

لم يَفْسَد، فصارت هذه النبوة هي التي تشير إلى القيامة مباشرة، والتي استشهد بها الرسل والتلاميذ بكلمة «حسب الكتب».

١٣ — «ولكن أنتم أنكرتُم القدُّوس البارَّ، وطلبتُم أن يوهَّب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك.» (أع ٣: ١٤ و ١٥)

+ هنا القيامة من الأموات جاءت في مواجهة إنكارٍ لقداسة المسيح وبرِّه والتجرؤ الأعمى على قتل مَنْ هو في الحقيقة رئيس الحياة.

١٤ — «إليكم أولاً إذ أقام الله فتاه يسوع، أرسله يبارككم برِّدٍ كلِّ واحد منكم عن شروره.» (أع ٣: ٢٦)

+ أصبحت قيامة المسيح استمراراً لكراسة المسيح، على مستوى التبكييت للتوبة والرجوع عن الخطية.

١٥ — «وبينما هما يخاطبان الشعب، أقبل عليهما الكهنة وقائدُ جُئِدِ الهيكل والصدوقيون، متضجرين من تعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات.» (أع ٤: ٢ و ١)

+ القيامة من الأموات صارت المسامير التي تُدَقُّ كل يوم في قلب رؤساء الكهنة، وطعنة موجهة في جنب الصدوقيين.

١٦ — «فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل، أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات، بذاك وقف هذا أمامكم صحيحاً. هذا هو الحجر الذي احتقرتموه، أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية. وليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسمٌ آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص.» (أع ٤: ١٠-١٢)

+ أول فاعلية ظهرت واستُعْلِنَتْ علناً نتيجة لقيامة المسيح من الأموات، كانت في «قوة اسم» يسوع المسيح، الذي بمجرد أن استدعاه بطرس حلَّت قوة قيامة المسيح على الأعرج من بطن أمه، فقام في الحال ومشى وجرى أمام الناس. فصار معلوماً أن الدعاء باسم المسيح المُقام من

الأموات، هو بمثابة حضور المسيح شخصياً وبرهان دائم بقيامته. والإيمان بالقيامة، صار القوة الأساسية للكراسة بالعهد الجديد: «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤذون الشهادة بقيامة الرب يسوع، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم.» (أع ٤: ٣٣)

١٧ — «إله آبائنا أقام يسوع، الذي أنتم قتلتموه معلقين إِيَّاه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا، ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع ٥: ٣٠-٣٢)

+ القيامة التي قامها المسيح بيمين الله، كوعده للآباء، هي في حقيقتها ارتفاع، أي تمجيد لاستعلان رئاسته الكلية والشاملة على السماء والأرض، ولاستعلان قوة الخلاص العامل للتوبة ومغفرة الخطايا التي كان يعيشها التلاميذ ويمارسونها بتفوق.

١٨ — «يسوع الذي من الناصرة، كيف مسح الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً، ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم، الذي أيضاً قتلوه مُعلقين إِيَّاه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذي أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع ١٠: ٣٨-٤١)

+ بطرس الرسول يقرر أن القيامة في اليوم الثالث كانت علنية، وصار المسيح ظاهراً، ولكن القيامة انحصرت في أشخاص انتخبهم المسيح ليكونوا شهوداً. هؤلاء أظهر المسيح نفسه لهم؛ ويقرر القديس بطرس أنه هو والتلاميذ أكلوا وشربوا معه بعد قيامته، وذلك إمعاناً في تقرير القيامة الجسدية، وفي حقيقة قيامة «اللحم والعظم»، كما شدد عليها المسيح.

١٩ — «وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل. ولما تمموا كل ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات، وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب. ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لآبائنا، إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم، إذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني... أنه أقامه من الأموات غير عتيد

أن يعود أيضاً إلى فساد... وأما الذي أقامه الله فلم يَرِ فساداً. « (أع ١٣ : ٢٧-٣٧)

+ قيامة المسيح بجسده وجروحه عليه، أثبتت صدق النبوة أنه قدوس ولم يَرِ فساداً في القبر، لذلك فقيامته هنا نهائية أبدية، لا يمكن أن الموت يسود عليه قط مرة أخرى. وهذا معناه أنه الآن حيٌّ ويبقى حيًّا إلى الأبد، وذلك لأجلنا «وأما أنتم فتروني. إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٨). ويشدد بولس الرسول أن المسيح بعد القيامة ظهر أياماً كثيرة للذين اختارهم، ليكونوا شهوداً لدى الشعب والعالم، وبهذا تم وعد الله الذي وعده للآباء ولنا نحن أولادهم.

٢٠ — «إن يؤلم المسيح، يَكُنْ هو أول قيامة الأموات، مزمعاً أن ينادى بنور للشعب وللأمم. « (أع ٢٦: ٢٣)

+ القيامة من الأموات تستعلن أن آلامه وموته كانا فدائيين، وهذه أول قيامة حدثت في تاريخ الإنسان، وهدفها إنارة اليهود والعالم.

٢١ — «فإنني سلّمتُ إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وأنه دُفن، وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه ظهر لصفاء، ثم للاثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ، أكثرهم باقٍ إلى الآن، ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين. وآخر الكل كأنه للسَّقِطِ ظهر لي أنا. « (١ كو ١٥ : ٣-٨)

+ بولس الرسول يصنّف ظهورات الرب هكذا: ظهر أولاً لبطرس، ثم الاثني عشر تلميذاً (ناقص واحد وهو يهوذا)، وهم الأخصاء جداً، ثم ظهر مرة واحدة لخمسمئة من الأخصاء التلاميذ كانوا مجتمعين، وبولس يعرف أكثرهم وربما قابلهم. وبعد ذلك ظهر ليعقوب، وواضح أنه أخو الرب، ثم ظهر لكل الرسل، وواضح أنه ظهر لهم تبعاً وليس مرة واحدة، وأخيراً ظهر له. ويبدو أن ظهور الرب لبولس الرسول هنا: «أما رأيتُ الربَّ» هو غير الرؤية التي رآها وهو في طريقه إلى دمشق. وكان منطوق الاعتراف الإيماني الذي رسخ بالتسليم في الكنيسة الذي استلمه بولس من الرسل، يضم أربع فقرات: أن المسيح مات من أجل خطايانا، وأنه دُفِنَ لثلاثة أيام في القبر، وأنه قام في اليوم الثالث، وأنه ظهر. وهذا الإيمان مُوقَّع على نبوات الكتب المقدسة.

٢٢ — «ولكن إن كان المسيح يُكرِّزُ به أنه قام من الأموات، فكيف يقول قومٌ بينكم إن ليس قيامة أموات. فإن لم تكن قيامة أموات، فلا يكون المسيح قد قام،

وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم، ونوجد نحن أيضاً شهوداً زوراً لله، لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح.» (١ كوه ١٥: ١٢-١٥)

+ نحن نؤمن بقيامة الأموات، لأن المسيح مات من أجلنا، وليس من أجل نفسه، وقام من أجلنا لأنه هو القيامة وجوهرها؛ وكان لا يمكن أن يبقى في الموت، فقيامة المسيح هي قيامتنا. فإن كنا لا نقوم، يكون هذا معناه أن المسيح لم يقم من الموت، وهذا تحديف على المسيح، وتكذيب للرسول، ولكل الذين شهدوا بقيامته.

٢٣ — «وتعيّن ابن الله، بقوة، من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات؛ يسوع المسيح ربنا.» (روا ٤: ٤)

+ القيامة من الأموات استغلّنت الروح القدس الذي أقامه، والروح القدس بالتالي استعلن حقيقة بُنُوته لله التي كرز بها.

٢٤ — «بل من أجلنا نحن أيضاً، الذين سيُحسَب لنا (براً)، الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات، الذي أسلم من أجل خطايانا، وأقيم لأجل تبريرنا.» (روا ٤: ٢٤ و ٢٥)

+ كل مَنْ يؤمن بموت المسيح، يُرفع عنه ثقل خطاياه، وكل مَنْ يؤمن بقيامته بقوة الله يتبرر، كما آمن إبراهيم بأمر الله، فقدّم ابنه للموت على أساس أن الله قادر أن يقيمه من الموت، فحسب الله له إيمانه برأ.

٢٥ — «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائنة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (روا ٨: ١١)

+ روح القيامة الذي كان في المسيح وهبه المسيح ليسكن فينا فيقيمنا من الموت.

٢٦ — «والله قد أقام الربّ وسيقيمنا نحن أيضاً بقوة.» (١ كوه ٦: ١٤)

+ الله أقام المسيح بقوة خاصة خُصّصَتْ من أجلنا.

٢٧ — «عالمين أن الذي أقام الرب يسوع، سيقمنا نحن أيضاً بيسوع ويُحضرنا معكم.» (٢ كور ٤: ١٤)

+ القوة الإلهية التي أقامت جسد المسيح من بين الأموات، هي الآن عاملة فينا بالإيمان بالمسيح.

٢٨ — «وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام.» (٢ كور ٥: ١٥)

+ كنا نعيش كأموات للخطية، فمات لأجلنا لنعيش كأحياء له.

٢٩ — «لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش، لكي يسود علي الأحياء والأموات.» (رو ١٤: ٩)

+ كان الأموات في الخطية أحراراً من المسيح، فلما مات المسيح من أجل الخطاة مَلَكَ على الأموات ليُحييهم.

٣٠ — «لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيُخضِرُهم أيضاً معه.» (١ تس ٤: ١٤)

+ الذين ماتوا في الإيمان بالمسيح، هم الآن أحياء معه وسيظهرون معه.

٣١ — «إن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالس عن يمين الله.» (كو ٣: ١)

+ الذين يؤمنون بقيامة المسيح وجلسه عن يمين الله، ارتبطت قلوبهم به.

٣٢ — «الذي مثاله (مثال قُلُك نوح) يُخلِّصنا نحن الآن — أي المعمودية — لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح الذي هو في يمين الله، إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مُخَضَّعة له.» (١ بط ٣: ٢٢ و ٢١)

+ المعمودية أساسها دم المسيح الذي يطهر ضمير الإنسان تجاه الله، لأن المسيح دخل إلى

الأقداس العليا ودمه عليه .

٣٣ — « اذكر يسوع المسيح المُقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلي . »
(٢ تي ٢: ٨)

+ ذكُرُ قيامة المسيح بصورة منطبعة على القلب والذهن ، هي أساس الحياة الجديدة للإنسان .

٣٤ — « وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم
العهد الأبدي... » (عب ١٣ : ٢٠)

+ الله أقام المسيح بصفته الراعي ورئيس الكهنة الأعظم ، أقامه ودمه عليه كعهد جديد أبدي
للسلام بين الله والإنسان .



بحيرة طبرية (الجزء الغربي من بحر الجليل)

«بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية.» (يو: ٢١: ١)

الأصحاح الحادي والعشرون خامساً - صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية

موضوع الأصحاح الحادي والعشرين في إنجيل القديس يوحنا:

كثير من الشراح عثروا في هذا الأصحاح، واعتبروه أنه مضاف بيد غير يد ق. يوحنا. ولكن يتفق أكثر التقليديين منهم أنه من وضع ق. يوحنا وبنفس أسلوبه ولغته وبعض تعبيراته المحببة إليه^(١).

والسبب الذي حدا بقول هؤلاء أنه مضاف بيد آخر، هو الأصحاح العشرون الذي أتى بخاتمة واضحة لرواية الإنجيل. ولكن إنجيل يوحنا، كإنجيل بحسب التقليد الرسولي، لا ينتهي عند آيات ظهور الرب لتلاميذه، بل هو يذكر حتماً الإرسالية للعالم والأمم كنهاية للإنجيل باعتباره البشارة المفرحة التي يلزم توصيلها تحت رعاية المسيح وبوعد مؤازرته، بل وبدوام حضوره، وذلك مثلما أتى ذكرها (أي ذكر الإرسالية) في الأناجيل الثلاثة على مستوى الأمر:

إنجيل القديس متى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين.» (مت ٢٨: ١٩ و ٢٠)

إنجيل القديس مرقس: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يندن. وهذه الآيات تتبع المؤمنين. يُخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بالسنة الجديدة، يحملون حيّات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون. ثم إن الرب بعد ما كلمهم، ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله.» (مر ١٦: ١٩-١٥)

إنجيل القديس لوقا: «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب (أسفار العهد القديم)، وقال لهم: هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي، أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن

^١ Westcott, Plummer, & Hoskyns.

يُكْرَزُ باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدأً من أورشليم، وأنتم شهود لذلك. وها أنا أرسل إليكم موعداً أبي، فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي. وأخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا، ورفع يديه، وباركهم؛ وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأصعد إلى السماء. (لو ٢٤: ٤٥-٥١)

ولكن بشيء من التدقيق، نكتشف أن القديس لوقا سجل لنفسه هذه الخاتمة كتاباً آخر بأكمله، هو سفر الأعمال، ذاكرةً فيه ظهور الرب وبركته للتلاميذ وإرسالته لهم والوعد بالروح القدس ومؤازرته لهم بقوة من الأعالي، ثم كرازة التلاميذ في أورشليم والسامرة، وإلى روما وأقصى الأرض؛ ومسجلاً للمسيح صوراً رائعة لحضوره أثناء خدمة التلاميذ وتوعيته لهم وتشجيعهم.

ولكن ينفرد إنجيل يوحنا في تقديم هذه الخاتمة عينها، وإنما في رموز من داخل قصة وحديث.

فالحقائق الجوهرية المختبئة في الرموز هي:

- (أ) الإرسالية إلى العالم، ككنيسة معذبة في ليل التجارب، وتحت خطر الاعتماد على القدرات البشرية،
- (ب) ثم حضور الرب الفعلي، بعد دروس التجارب، وإعطاء المشورة الحسنة في وقتها الحسن،
- (ج) وطاعة الكنيسة لوصية المخلص على رجاء قوة كلمته وكيف تثمر،
- (د) ونجاح الكنيسة في اكتساب الأعداد الضخمة بقوة سرية تفوق التوقعات،
- (هـ) ذلك كله بوسائل الكرازة البسيطة وأمية التلاميذ، التي وراءها صئارة الروح القدس.
- (و) وعيد الكنيسة الإفخارستي، الذي يكلل العمل بحضور الرب وخبرته جاهز في يديه يُشعلُ القلوب بجمر محبته.

أما الرموز في داخل القصة فهي في المقابل حرف بحرف أليف وباءً بباء:

- (أ) قصة صيد سمك دعا إليه القديس بطرس، تعذبوا فيه طول الليل ولم يصطادوا شيئاً.
- (ب) في الصباح وقرب الشاطئ ظهر الرب، وقال: ألقوا الشبكة على الجانب الأيمن.
- (ج) فألقوا الشبكة بالفعل على الجانب الأيمن.
- (د) وجذبوا الشبكة، وإذ هي ممتلئة سمكاً كبيراً ١٥٣ عدداً.
- (هـ) ولم تتخرق الشبكة مع هذه الكثرة من السمك.
- (و) ثم جاء يسوع، وأخذ الخبز، وأعطاهم، وكذلك السمك: ونظروا جراً موضوعاً.

ثم يعود ق. يوحنا، وعلى ضوء قصة صيد السمك، يقدم حواراً حياً بين المسيح والكنيسة، ممثلة في بطرس، وهو في أضعف حالاته، يُوصيها فيه بالرعية التي أوثقت عليها، وشروط الراعي:

(أ) المُرْسَلُ والخادم، الشرط الأساسي لتقدمه على الآخرين أن يكون أكثرهم حباً للمسيح: «يا سمعان بن يونا أتجني أكثر من هؤلاء؟ ... أتعلم حملاني».

(ب) والكنيسة، رأس مالها في الرعاية هو محبة المسيح: «يا سمعان بن يونا أتجني؟ ... ارفع غنمي».

(ج) والكنيسة، قمة مسؤوليتها هي أن تُطعم كل الرعية من فائض حبها: «يا سمعان بن يونا أتجني؟ أتعلم غنمي».

ثم يعود ق. يوحنا أيضاً ليعطي، من خلال اللغة السرية، كيف يتقدم الخادم أو الكارز، وبالتالي الكنيسة، من حداثة الاعتماد على الذات إلى رزاة التسليم المطلق للروح القدس، لكي يُقتاد بالروح حتى ضد هواه ليشبع المسيح حتى الصليب:

«لما كُنْتُ أكثر حداثة (في الروح) كُنْتُ تُمَنِّطُ ذاك، وتمشي حيث تشاء؛ ولكن متى شِخْتُ، فإنك تمُدُّ يدك، وآخر يُمَنِّطُك، ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمناً أن يمجد الله بها. ولما قال هذا قال له: اتبعني.» (يو ١٨: ١٩)

وأخيراً يلقي ق. يوحنا ضوءاً على رُكني الكنيسة الأساسيين:

الخدمة العاملة، ويمثلها القديس بطرس، والتي تعيش دائماً بانتظار الصليب.

وحياة التأمل الرهباني، ويمثلها ق. يوحنا، والتي تعيش وتبقى كما هي إلى أن يجيء الرب.

وهكذا، وبالنظرة الفاحصة، نجد أن الأصحاح الأخير في إنجيل يوحنا يستوفي شروط التقليد الرسولي في أصالة خاتمة الإنجيل، بطرح العمل الرسولي في شكله الإرسالي، تحت رعاية المسيح وتدخله المباشر، وإعطاء شروطه ومواصفاته، ولكن في قالب القصة وبصياغة رمزية تنطق بالمضمون اللاهوتي والروحي.

تقسيم الأصحاح:

ينقسم الأصحاح إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المسيح والتلاميذ: (١: ٢١-١٤).

الثاني: المسيح والقديس بطرس: (١٥: ٢١-١٩).

الثالث: المسيح والقديس يوحنا: (٢١: ٢٠-٢٣).

القسم الأول المسيح والتلاميذ

(١٣ : ٢١ - ١)

١ : ٢١ «بعد هذا أظْهَرَ أيضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ للتلاميذ على بحر طبرية. ظَهَرَ هكذا».

«بعد هذا» :

تجيء في هذه الآية لتربط بين ظهورات الرب في أورشليم بعد قيامته مباشرة، وبين ظهوره بعد ذلك في الجليل لتلاميذه أيضاً على بحر طبرية.

«أظْهَرَ أيضاً يسوع نفسه» :

واضح من هذا التعبير أنه بعد القيامة، يكون الجسد الروحي فائقاً عن الحواس البشرية، فلا يمكن رؤيته بالعينين الجسديتين. فلكي يمكن أن يعلن المسيح عن وجوده، يتحتم أن يُخضع جسده الروحاني للرؤية العينية. وهذا أيضاً ليس بكافٍ، بل يلزم أن تفتح بصيرة الإنسان الروحية ليتحقق من الرؤية ومن شخص الواقف أمامه، وإلا فلن يمكنه أن يتعرف على شخص الرب؛ وهذا ما يقول عنه الإنجيل في مواضع أخرى عديدة بأنه : «أُمِسِكَ عن عينيه» فلم يرَ أولم يتعرف على المسيح كالمجدلية، فهي أولاً ظَنَّتْهُ أنه البستاني، وبعد ذلك أدركته فقط أنه «المعلم»، ثم انفتحت بصيرتها وتحققت أنه الرب : «... أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا.» (يو ٢٠ : ١٨)

فعمليات الظهور التي أجراها المسيح في نفسه بعد القيامة هي عمليات تنازلية يُجريها في نفسه، وهي لا تقل إعجازاً عن بقية المعجزات، وهي قريبة الشبه من التجسد. أما القصد الأساسي منها، فهو الإيمان بأنه انتصر على الموت بنفس الجسد الذي مات به ليفتح طريق الخلود والحياة الأبدية للبشرية، بأن يَهَبَ قوة قيامته للذين يؤمنون به : «الذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظْهَرُ له ذاتي.» (يو ١٤ : ٢١)

ويلاحظ أن قول الإنجيل : «أظهر أيضاً يسوع نفسه»، يحمل معنى مسرة الإرادة، فالمسيح كان يُظْهِرُ ذاته لأحبائه عن مسرة : «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو ١٦ : ٢٢). وإظهار المسيح لنفسه وهو في حالة القيامة، تعني إنجيلياً وبحسب لاهوت ق. يوحنا، أن الحياة الأبدية نفسها قد

استُعْلِنَتْ : «فإن الحياة أُظْهِرت، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظْهِرت لنا» (١ يوحنا ٢: ٢). فجسد القيامة كان يحمل الحياة الأبدية. وبظهور جسد القيامة، أظهرت الحياة الأبدية التي كانت مخفية عند الآب. وفي نفس الوقت، فإن ظهور الحياة الأبدية يشمل حتماً وبالضرورة غلبة العالم وغلبة رئيس العالم : «لأجل هذا أُظْهِر ابن الله، لكي ينقُض أعمال إبليس.» (١ يوحنا ٣: ٨)

حينما كان المسيح مع التلاميذ قبل الصليب، كان «يُظْهِرُ هُم مجده»، كما حدث في عُرس قانا الجليل، لكي يتأكدوا من «لاهوته»، وأنه «ابن الله»!! أما بعد القيامة المحسوبة أنها بحد ذاتها مجدٌ، وأنها برهان بُنُوته لله (روا ٤: ٤)، فيكفي أن يُظْهِر نفسه ليتحققوا أنه هو يسوع المسيح.

حينما كان معهم قبل أن يُصلب، كانوا يقولون له : «يا معلّم، كُلْ»، فكان يرد عليهم : «أنا لي طعام لآكل، لستم تعرفونه أنتم» (يوحنا ٤: ٣٢)؛ أما بعد القيامة : «قال لهم : أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل، فأخذ، وأكل، فذّامهم.» (لوقا ٢٤: ٤٢ و٤٣)

في الأولى، أراد أن ينبه ذهنهم أنه ليس مجرد إنسان جاء ليأكل ويشرب، بل ليتمم رسالة إلهية؛ وفي الثانية أراد أن ينبه ذهنهم أنه لا يزال هو الإنسان، وأنه في ملء التجلي بالألوهة، وأن القيامة في مجد الله لم تلغ صفاته البشرية.

حينما كان ابن الله معهم قبل الصليب، قيل عنه أنه «الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦)؛ أما بعد أن مات وقام، قيل أنه «أُظْهِرَ نفسه». الحالة الأولى، وهي التجسد، كان وراءها معجزة الإخلاء لِيُظْهِرَ الله في جسد إنسان؛ والحالة الثانية هي بحد ذاتها معجزة التجلي، ليظهر جسد الإنسان الطبيعي في مجد الألوهة، وليُثَبِّت أن القيامة هي مجال حياة جديدة متوافقة مع طبيعة الإنسان، ولكن متفوقة بصورة عظيمة عن واقع الماديات.

على بحر طبرية:

ق. يوحنا، دون جميع الإنجيليين، ينسب بحر الجليل إلى مدينة طبرية، وهي مدينة استُخْدِثَتْ على بحر الجليل كعاصمة للمنطقة. وهي مدينة فخمة، ولكن خليعة، بناها هيرودس لنفسه عندما كان رئيس رُبُيع على الجليل. وتسمى هذه البحيرة أيضاً في إنجيل يوحنا (١: ٥) بحيرة جِثَّيسَارْت وتُعني «جنة السرور». وق. يوحنا لا يذكر متى عاد التلاميذ من أورشليم إلى الجليل حسب أمر

الرب بعد القيامة.

٢: ٢١ «كَانَ سَمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوَامُ، وَنَثَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ، وَابْنَا زَبْدِي، وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلَامِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ».

سبعة تلاميذ، خمسة منهم معروفون، وهم من ضمن «الاثني عشر»، أما الاثنان الآخران فيسبدو أنهما من عامة التلاميذ غير الرسل، لذلك لم يشأ ق. يوحنا أن يُرَبِّكَ القارىء باسميهما. أما كَوْنُ الكاتب يذكر ابني زبدي في آخر المجموعة، مع أن «يوحنا» يُذَكَّرُ دائماً بعد بطرس هو وأخوه يعقوب، فهذا يكشف عن هويّة الكاتب أنه ق. يوحنا بعينه. ولكن ليس جزافاً أن يذكر الكاتب اسم سمعان بطرس مع توما على رأس هذه القائمة وهم ذاهبون في مأمورية مخجلة، فبطرس لا يزال تحيطه الشكوك بعد حادثة الجارية والديك، ومعه توما الذي أفرَزَ نفسه من «الاثني عشر» في موضوع الإيمان بالقيامة، مما اضطر الرب أن يظهر من أجله خصيصاً حتى يداوي انفصاله عن الجماعة ويردّه إليها كصاحب شهادة، أما بطرس فإن عودته للجماعة استلزمت هذه القصة بكاملها. أما ابنا زبدي أي «يعقوب ويوحنا»، فقد رافقا بطرس في هذه الرحلة كارهين مُكْرَهَيْن، لأنهما مرتبطان ببطرس أصلاً من جهة هذه المهنة، مهنة الصيد: «وكذلك أيضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدي اللذان كانا شريكَي سمعان.» (لوقا : ١٠)

ولكن ليفهم القارىء، أن ليس جميع هؤلاء السبعة أصحاب صيد، ولكنها كانت لهم بمثابة رحلة مع الرفاق، ولم يكن لهم دور ذو بال في هذه القصة كلها.

٣: ٢١ «قَالَ لَهُمْ سَمْعَانُ بُطْرُسُ: أَنَا أَذْهَبُ لِأَتَصَيَّدَ. قَالُوا لَهُ: نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ، فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ، وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمَسِكُوا شَيْئاً».

هل هي رَدَّةٌ نحو العالم لاستئناف المهنة؟ عسيرٌ على النفس غاية العُسر أن تقبلها على التلاميذ، بعد أن أدركوا القيامة وقبلوا إرسالية من فم الرب، مع نفخة الروح القدس للتجديد! لولا أن القديس لوقا يثبِّتنا بمعلومة توضح أن الرب توقَّع منهم هذا بالفعل، وسهَّلَ لهم هذه العودة إلى حين أن يقبلوا القوة العظمى من الأعالي، التي أركبتهم على مَثْنِ سفينة الخلاص، ودفعتهم في بحر الكرازة بلا عودة، بعيداً عن شاطئ الوطن، لترسو بهم هناك على شاطئ الأبدية السعيدة: «ثم قال لهم: حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن (بعد تركهم مؤقتاً لمهمة الصليب) مَنْ لَهُ كَيْسٌ فليأخذه، ومزود (صيد السمك)

كذلك، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فُلْيَبِغْ ثَوْبُهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا. « (لو ٢٢ : ٣٥ و ٣٦)

بل وق. يوحنا نفسه ألمح إلى ذلك في إنجيله : « هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته (بيته ومهنته) وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي لأن الأب معي. « (يو ١٦ : ٣٢)

وحتى بعد أن نال التلاميذ قوة الروح القدس في يوم الخمسين وانطلقوا يكرزون، وبعد أن أصبحت الخدمة بحد ذاتها هي المهنة التي استحوذت على كل نشاطهم ووقتهم واهتمامهم، وبعد أن أفرزوا أنفسهم للصلاة وخدمة الكلمة غير مهتمين بشيء ولا حتى بترتيب الأكل والشرب، إذ عينوا لها طبقة خاصة من الدياكونيين للقيام بمطالبها؛ نسمع من بولس الرسول أن بعضهم كان يكذّب ويعمل بيديه ليُقيت نفسه والآخرين معه : « لأننا لم نملك بلا ترتيب بينكم، ولا أكلنا خبزاً مجانياً من أحد، بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلاً ونهاراً، لكي لا نثقل على أحد منكم » (٢ تس ٣ : ٨)، وأيضاً : « فضة أو ذهب أو لباس أحد لم أشته. أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان. « (أع ٢٠ : ٣٤)

القديس غريغوريوس الكبير يقول :

[بطرس عاد إلى مهنته للصيد، ولكن متى لم يُعَدَّ عشاراً يجبي الضرائب، لأنه توجد أعمال لا يمكن مباشرتها بدون الخطية وهي التي لا نستطيع العودة إليها بعد التجديد.]^(٢)

ولكن من واقع هذه القصة عينا سوف نستشف أن عمل اليدين والكد الجسدي لاكتساب لقمة العيش لمن قبلوا الرسالة واستؤمنوا على خدمة، يلزم أن لا يكون بحسب القدرة الذاتية أو الجِدْق والمهارة في فنون المعرفة والصيد مثلاً الذي كان مآله الفشل الذريع بعد ليل المعاناة، بل يكون معتمداً كلياً على « كلمة الرب » وإطاعة الصوت المقدس، الذي غالباً ما يكون مخالفاً للأصول الفئّية كما سنرى، إلا أن نتائجه تكون مذهلة.

والخطأ الذي تعرض له بطرس والآخرين معه، هو أنهم عادوا إلى المهنة الأولى خلواً من خدمة أو كرازة، وقد صحّحها لهم المسيح أنه باتباع الرب يمكن مباشرة العمل كالنموذج الذي أعطاه بولس الرسول بعد ذلك.

² Cited by Schnakenburg, *op. cit.*, p. 470.

«وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً»:

«أما أنا فقلت: عبثاً تعبتُ باطلاً، وفارغاً أفنيتُ قدرتي، لكن حَقِّي عند الرب وعَمَلِي عند إلهي.» (إش ٤٩: ٤)

مع أنه بحسب أصول الصيد يكون الليل في البحيرة أنسب للصيد، ولكن بحسب لغة ق. يوحنا السريّة، فالليل هنا لا يعني ليل الصيد بل ليل الإيمان وظلمة النفس!!

فلو أخذنا بأصول الصيد، يكون عدم مسكهم شيئاً عملاً غير عادي، أما بحسب سر إنجيل ق. يوحنا، فلو أخذنا الليل باعتباره ليل الإيمان وظلمة النفس — أو بالمفهوم العملي «غياب المسيح» — يكون عدم صيدهم ولا سمكة واحدة هو عين الحق وصلب الصواب جزاءً بجزاء!! وعلى المستوى الرمزي يكون الشرح أجمل وأجمل.

فاسم المسيح بالكامل هو مجموع حروف السمكة "IXΘΥΣ"، فغياب المسيح هو غياب السمك جملةً وفراذى.

هو الذي أَمَرَ السمك أن يسلك غير مسالكهم، والبحر ليناصبهم، هربت فنونهم من بين أيديهم، وخابت كل أحابيلهم، يطرحون الشباك ويجمعونها كما طرحوها، طار صوابهم، وكَلَّتْ أيديهم مع قلوبهم، ناءَ الليل بكلّكليه، فتمثّوا الصباح ولم يأت، تناجوا فيما بينهم لعلّ يوناناً آخَرَ بينهم؟ حسبوه حظاً عاثراً والعثرة هي في إيمانهم. ظنوا أن نزهةً للنفس يمكن أن تعوضهم عن أحزان أتباع الصليب، فاستبدلوا صيد الناس بصيد السمك، ولكن الرب كان لهم بالمرصاد.

٤: ٢١ «ولَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّ التَّلَامِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ.»

«ثم صرخ كاسدو: أيها السيد أنا قائم على المرصد دائماً في النهار، وأنا واقف على المحرّس كل الليالي... يا حارس ما من الليل؟ قال الحارس: أنى صباح وأيضاً ليل، إن كنتم تطلبون فاطلبوا، ارجعوا، تعالوا!!» (إش ٢١: ٨-١٢)

بحسب لغة ق. يوحنا، إذ تنهى ليل الإيمان عن خسارة حتماً، فإن الرب يشرق من السماء، فيطارد النور الظلمة، ويكون صباح!!

وهكذا تبدو المقابلة صارخة بالمفارقة :

التلاميذ والليل والبحر والعذاب والجوع والبرد والشباك فارغة، والرب والصبح والشاطئء وجر النار وفي يمينه «شَبْعُ» سرور!!

الرب سمع أنيهم، عندما بلغ إخفاقهم حد اليقين، عندما أدركوا خطأ ما تورطوا فيه، عندما بلغ الدرس أقصاه، عندما تبددت منهم شهوة المهنة، عندما ذاقوا منها عُلْمَ الإخفاق. نظروا، وإذا هو الفجر، ويسوع واقفٌ على الشاطئء!!

كان قد انقضى الليل، وما انقضى الليل من قلوبهم. أشرقت الشمس، والظلمة ما تزال تلف أفكارهم. فظهر يسوع، وما عرفوه!! عثروا في النور، لأنه لم يكن لهم عندئذ نور! لقد استبدَّ بهم اليأس والحزن كما استبد بالمجدلية، فظهر لها يسوع وما عرفته، لأن الحزن يُفسد البصيرة، والحسرة على أفراج مضت تودي بشفافية الروح! حَزَنَ التلاميذ على صيدٍ مفقود، وكان كحزن يونان على يقطينته التي أُوذَتْ بها الريح: «فقال الله ليونان: هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال: اغتظت بالصواب حتى الموت» (يونان ٤: ٩). يا لخطأ التعلق بأهداب الدنيا ومسرَّاتها...

«ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطئء»:

كلمة «الصبح» πρωτας لا تفيد الصبح والشمس ساطعة كما نعرفه، بل بكور الصبح وهو «الفجر». والفجر هو الذي يعقب الليل وليس الصبح. وق. يوحنا يستخدم اللفظتين الليل والفجر في معنيهما الروحي المِستَيكي كما استخدمه القديس بولس الرسول: «قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمالَ الظلمة، ولنلبس أسلحة النور» (رو ١٣: ١٢). ق. يوحنا يصف المسيح وهو على شاطئء الأمان يستقبل أولاده الراجعين من خوض بحر العالم، مثقلين بالإخفاق والجهد معاً! منظرٌ وضعه هذا القديس بقياسه النموذجي، تراه الكنيسة في ليل جهادها حينما تتكل على قوتها أو غناها أو برّها الذاتي، فيصيبها الإخفاق والإعياء، ويناصبها الدهرُ العداء، كما يراه كل فرد سواءً بسواء، في جهاده اليومي العاثر أو بعد غيبة طويلة في طريق الأشواك أو طريق الذئاب، يعود بجروحه، وقدماه تَدْمِيان، وإذا هو الفجر والرب واقفٌ على الشاطئء.

٢١: ٥ «فقال لهم يسوع: يا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَامًا. أَجَابُوهُ: لا».

في الأصل اليوناني يأتي السؤال بالنفي: «أما عندكم إدام؟» وهو سؤال كَمَن هو عالم

بالحال أنه بالفعل ليس عندهم ما يؤكل بالمرّة.

كلمة «إدام» بالعربية جميلة، والكلمة اليونانية تعني «الغموس»، أي ما يمكن أن يؤكل به الخبز، أو تُبلع به اللقمة، حيث غياب ما تُبلع به اللقمة، كناية عن الفقر المُدقع وبؤس الحال.

والرب لا يسأل في الحقيقة، ولكن يمهّد لما هو عازم أن يصنع. فهو شريك عَوَزِهِم: «في كل ضيقهم تضايق» (إش ٦٣: ٩). فالأب الغني لا يطيق إملاق أولاده (*).

«أجابوه لا»:

قولٌ مُقْتَضِبٌ ورائه همٌّ ثقيل، وخِزْيٌ ما بعده خِزْيٌ، فهم أثمة الصيادين. هذا حال الإنسان الذي يتغرب عن إلهه ويذهب برجليه إلى الكورة البعيدة. ولكن بينما كان الابن المتغرب يأكل الخرنوب مع الخنازير، كان الأب يُسَمِّن العجل ليوم عودته. ولقد أعدَّ المسيح لمحبيه التائهين في ليل البحيرة وليمةً سَوَّاهَا على جمر حبه، وأمر أسراب السمك أن تتجمع نحو اليمين.

٦:٢١ «فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الْأَيْمَنِ فَتَجِدُوا. فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجِدُوا مِنْ كَثَرَةِ السَّمَكِ».

قبل أن نحاول فهم هذه الآية، يلزم أن نردّ مفرداتها إلى ما يمكن أن تعنيه روحياً:
«فالشبكة» في الإنجيل: «يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع...» (مت ١٣: ٤٧)

«والجانب الأيمن» في لغة الإنجيل هو الجانب المكرم والمحبوب، وفي الأسماء اسم بنيامين يعني «ابن «اليمين»» أي ابن المحبة والإعزاز. وعند «يمين» الرب تقف الخراف المختارة (مت ٢٥: ٣٣)، والمسيح يجلس عن «يمين» الله، وعن يمين مذبح البخور ظهر الملاك لزكريا (لوقا ١١: ١)، «وجبروت خلاص يمين (الرب)» (مز ٢٠: ٦)، أي عمل ذراع الله اليمين أي «المسيح».

كان التلاميذ لم يستخدموا الجانب الأيمن! أي أن صيدهم كان من الجانب الشمال، هذا تعبير مستتيكي، وليس في الواقع المنظور، بمعنى أن جهادهم كان شمالياً، حيث الشمال يعني التدبير المناقض للحق والأصول، بل والنعمة أيضاً. أما التدبير اليميني فهو الذي بحسب الحق

(*) أي: افتقار أولاده.

والأصول وبرعاية النعمة. هكذا أخذت الكنيسة هذا المعنى واستخدمته في صُلب الإفخارستيا : ففي القسمة السريانية أثناء تقسيم الجسد، وهو الجزء الأكثر سرّاً في القداس (٣) يصيح الكاهن قائلاً: [وَعَوِضَ الخَطِيئَةِ المحيطة بالعالم، مات الابن بالصليب، وردّنا من التدبير الشمالي إلى التدبير اليميني.] (الخللاحي المقدس — القسمة السريانية).

ومن واقع هذه الصلاة، يتبين أن الكنيسة تعتبر أن الإيمان اليهودي بحسب الناموس كان هو التدبير الشمالي الذي كانت تحيط به الخطية، وقد نقلنا المسيح بموته إلى التدبير اليميني، أي الإيمان بابن الله ملء النعمة.

نفهم من هذا، أن قول المسيح للتلاميذ أن يلقوا الشباك إلى الجانب الأيمن من السفينة هو بمثابة دعوة إلى الكرازة باسم المسيح، حيث الشبكة هي شبكة الروح القدس المطروحة على العالم وكل الأمم بالكرازة، والسفينة هي الكنيسة التي أُعْطِيَتْ أن تبلغ بالمسيح إلى شاطئ الأبدية السعيدة بعد أن عبرت ليل الناموس بلا صيد يُذَكَّرُ أو حتى بلا صيد بالمرّة!

«فَأَلْقُوا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثَرَةِ السَّمَكِ»:

لقد ألقى بطرس بالفعل أول عظة يوم الخمسين فمسك سمكاً كثيراً جداً: «فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس.» (أع ٢: ٤١)

نعم ومنذ ذلك اليوم والشبكة مطروحة، ولكن لم يجذبوها بعد، ولن يستطيع أحد قط أن يجذبها بسبب الصيد الذي لا يُخْصَى ولا يُعَدُّ، ولن يجذبها إلا ملائكة الله من أربعة أطراف الأرض، يوم يأتي الرب ونراه على الشاطئ فعلاً ويتعرف عليه المحبّون!

٧: ٢١ «فَقَالَ ذَلِكَ التَّلَمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبَطْرُسَ: هُوَ الرَّبُّ. فَلَمَّا سَمِعَ سمعان بطرس أَنَّهُ الرَّبُّ أَتَرَّرَ بِثَوْبِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ عُرْتَاناً وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ».

ق. يوحنا دائماً في إنجيله صاحب رؤية يُغْذِيهَا الإيمان: «ورأى وآمن» (يو ٢٠: ٨). والقديس بطرس صاحب حركة وسرعة. هنا ق. يوحنا عرف الرب مباشرة، لأن الاستعلان الذي يقدم المسيح نفسه به ليس طبيعياً بل فائقاً للطبيعة، لا تراه العين الجسدية إلا إذا كانت مفتوحة على

الروح . وق . يوحنا يعيش العين المفتوحة : «الذي يحبني يحبه أبي ، وأنا أحبه ، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤ : ٢١) . إن إنجيل يوحنا يلزم جداً أن يفهم ويُعرف أنه إنجيل المحبة التي لها الاستعلان ، وصاحبه كتبه من واقع أنه محبوب : «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» . لذلك ينبغي أن نتوقع فعلاً أن يكون هو الأول — أو ربما الوحيد — الذي يتعرف سريعاً على الرب أينما وكيفما ظهر!! وهنا نجد أن ق . يوحنا يوحى إلى القارئ بهذا المعنى تماماً ، كونه يقول عن نفسه : «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» قبل أن يقول «إنه الرب» !

ويا للخجل الذي يكاد يمسك مني القلم! ... كيف أن ق . يوحنا يظهر متسرلاً بالروح والنعمة والعين المفتوحة ، يقابله في نفس المكان والزمان والمقام القديس بطرس عرياناً . وقد حاول الشراح الأجانب أن يهؤنوا من كلمة «عريان» ، وجعلوها أنه خالع ثوبه الخارجي فقط . ولكن الذي يعرف مهنة الصيادين في الشرق ويعاشرهم ، يعلم تماماً أن الصياد يضطر لخلع ملابسه الداخلية ويكون نصفه الأسفل عرياناً تماماً لأنه يضطر دائماً إلى النزول في البحر . فهنا القصة على الواقع صحيحة ومحبوكة ، ولكن على المستوى الرمزي تكشف حال بطرس أنه كان في غاية الحاجة أن «تشتري مني ذهباً مُصَفًّى بالنار (الإيمان) لكي تستغني ، وثياباً بيضاً لكي تلبس ، فلا يظهر خِزْيُ عُزَّتِكَ .» (رؤ ١٨ : ٣)

«اُتْرَرْ... وألقى نفسه في البحر» :

هذا التصرف عكس ما هو متوقع طبيعياً ، أن يخلع الإنسان ملابسه ويلقي نفسه في البحر . إذن ، كان القديس بطرس في وضع غير طبيعي ، كان يرى نفسه عرياناً أمام عيني ذاك الذي يرى خفايا الضمائر والقلوب . سَتَرَ جسده ، والقصد الحقيقي أن يطلب سَتَرَ ضميره . فالقديس بطرس ولو أنه بكى بكاءً مرّاً بعد أن أنكر سيده ، إلا أنه لم يسمع بعد كلمة تُريح قلبه . وهوذا الآن «الرب» على الشاطئ ، فهي فرصته العظمى وبالدرجة الأولى .

ق . يوحنا بارع في تصوير المناظر التي تُرى بالعين الجسدية محبوكة وجيدة ، بينما هي بآن واحد تصوّر مناظر روحية تخلب الأبواب وتذيب القلوب . فهذا المنظر عينه ، منظر القديس بطرس وهو يلقي بنفسه في المجهول سابحاً من البحر إلى الشاطئ ، متسرلاً بثوب يستره ، هو نفسه منظر النفس وهي خارجة من بحر العالم ومحيطه الخائق ، تسعى نحو خالقها ، سابحة في أجواء الروح المجهولة ، لتلقَى مَنْ هو فاتح ذراعيه على شاطئ الأبدية يستقبل مُثَقِّيه ...

٨:٢١ «وَأَمَّا التَّلَامِيذُ الْآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الْأَرْضِ، إِلَّا نَحْوَ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ وَهُمْ يَجْرُونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ».

التركيز في الرواية والوصف واضح أنه متجه نحو القديس بطرس، أما ذكر بقية التلاميذ فهو لتكميل الرواية. السفينة مثقلة، تجر خلفها الشبكة الملائة بالسماك الكبير. فبالإضافة إلى ثقل السمك، فالسمك يحاول أن يسبح في الاتجاه المعاكس للقرب من الشاطئ. أما مسافة المئتي ذراع فهي حوالي مئة ياردة أي ست وتسعون متراً تقريباً.

منظر بديع، والكنيسة تحتضن المخلصين الذين انتشلتهم من أعماق بحر العالم، تجرهم جرّاً بالتعليم والخدمة والتعزية، وهم ممسوكون في شبكة الروح القدس، والرسل والتلاميذ والخدام الأمناء على كل درجاتهم واقفون يوجهون السفينة، وهي تسير الهويّتي بعد أن تكون قد بلغت مناطق الأمان على شاطئ الأبدية، والقباب الذهبية لأورشليم السماوية تحطف الأبواب.

٩:٢١ «فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الْأَرْضِ، نَظَرُوا جَمِراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً».

إنها الوليمة التي أعدّها الرب للواصلين إلى الشاطئ، تشير من بعيد وبصورة مصغرة للغاية إلى قوله السابق: «وَأَنَا أَجْعَلُ لَكُمْ كَمَا جَعَلَ لِي أَبِي مَلَكُوتاً لَتَأْكُلُوا وَتَشْرَبُوا عَلَى مَائِدَتِي ...» (لو ٢٢: ٢٩ و٣٠)

على كل حال هي مائدة قد أعدّها الرب، والجمر فيها أساسي كالخبز، وإن كان السمك لا يدخل في مضمون الإفخارستيا إلا أنه من جهة اسمه العام ΙΧΘΥΣ هو طعام الإيمان، الإيمان «بيسوع المسيح ابن الله المخلص»، وهذه الكلمات الخمس هي مدلول الحروف الخمسة في كلمة «إخثوس» (السمك) $\text{Ιησοῦς Χριστὸς Θεοῦ Υἱὸς Σωτὴρ (=ΙΧΘΥΣ)}$

١٠:٢١ «قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمْ الْآنَ».

هم لم يمسكوه بحذقهم، ولكنه هو الذي جمعه لهم في شبكتهم! هذا الصيد الثمين يمثل باكورة الذين انضموا إلى الإيمان، وهو موضوع مسرة التلاميذ، والرب نفسه بنوع ممتاز: «مِنْ تَعَبِ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ ... أَقْسِمُ لَكُمْ بَيْنَ الْأَعْزَاءِ، وَمَعَ الْعِظْمَاءِ تَقْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ، وَأَحْصَى مَعَ أَثْمَةٍ، وَهُوَ حَلَّ خَطِيئَةَ الْكَثِيرِينَ، وَشَفَعَ فِي الْمَذْنُبِينَ» (إش ٥٣: ١١ و١٢)

١١:٢١ «فَصِيدَ سِمَعَانُ بُطْرُسُ، وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الْأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكًا كَبِيرًا، مِئَةً وَثَلَاثًا وَخَمْسِينَ. وَمَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ».

سبق وأن ألمحنا أن مفهوم الشبكة بلغة الإنجيل هي دعوة الملكوت المطروحة على نفوس الناس، وهي مغزولة بالسَّداة الرسولية ولُحْمَةِ الروح القدس، وعبونها تضيق لتصطاد أضعف أولاد الله. وهي إما تُطْرَحُ على مستوى الناموس فتسمى «ظَرْحَةً شِمَالِيَّةً» أو التدبير الشمالي فلا تصطاد شيئاً حتى ولو سهر الساهرون الليل بطوله؛ وإما تُطْرَحُ على مستوى اليمين، على كلمة الرب، فيكاد لا يفلت منها إلا ما هو غير قابل للصيد.

ولقد سبق القديس لوقا القديس يوحنا في وصفه رحلة مشابهة كانت واضحة اللمسات، مطابقة لمتطلبات الشرح الروحي الخالص. كما قدم القديس متى في إنجيله الأساس الذي يمكن أن نبني عليه الشرح:

القديس متى:

«يَشْبَهُ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ شَبَكَةً، مَطْرُوحَةً فِي الْبَحْرِ وَجَامِعَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ. فَلَمَّا امْتَلَأَتْ، أَصْعَدُوهَا عَلَى الشَّاطِئِ، وَجَلَسُوا وَجَمَعُوا الْجِيَادَ إِلَى أَوْعِيَةٍ، وَأَمَّا الْأَرْدِيَاءُ فَطَرَحُوهَا خَارِجًا. هَكَذَا يَكُونُ فِي انْقِضَاءِ الْعَالَمِ، يُخْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَيَفْرِزُونَ الْأَشْرَارَ مِنْ بَيْنِ الْأَبْرَارِ.» (مت ١٣: ٤٧-٤٩)

القديس لوقا:

«وَلَمَّا فَرِغَ مِنَ الْكَلَامِ قَالَ لِسَمْعَانَ: ابْعِدْ إِلَى الْعَمَقِ وَأَلْقُوا شَبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ، فَأَجَابَ سَمْعَانُ وَقَالَ لَهُ: يَا مَعْلَمُ، قَدْ تَعَبْنَا اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَمْ نَأْخُذْ شَيْئًا، وَلَكِنْ عَلَى كَلِمَتِكَ أُلْقِي الشَّبَكَةَ. وَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ أَمْسَكُوا سَمَكًا كَثِيرًا جَدًّا، فَصَارَتْ شَبَكَتُهُمْ تَتَخَرَّقُ... وَمَلَأُوا السَّفِينَتَيْنِ حَتَّى أَخَذَتَا فِي الْغَرَقِ.» (لوقا ٥: ٧-٤)

القديس يوحنا:

«وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يَمْسِكُوا شَيْئًا. وَلَمَّا كَانَ الصَّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ... فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الْأَيْمَنِ فَتَجِدُوا. فَأَلْقَوْا، وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ... وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الْأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكًا كَبِيرًا، مِئَةً وَثَلَاثًا وَخَمْسِينَ. وَمَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ.» (يو ٢١: ٣-١١)

الشرح :

أولاً : المكونات المشتركة في الثلاثة الأناجيل ومدلولها الروحي .

المركب ، البحر ، الشبكة ، السمك .

الكنيسة ، العالم ، المناداة بالملكوت ، المؤمنون .

ثانياً : المفارقة بين قصة إنجيل لوقا وقصة إنجيل يوحنا ، ومدلولها على أساس إنجيل متى :

القديس لوقا

القديس يوحنا

أ - المركب لم يفارق البحر =

الكنيسة في الحاضر

ب - المسيح لم يفارق المركب =

المسيح يقود الكنيسة في الحاضر

ج - السمك لم يفارق المركب =

المؤمنون في جهاد الحاضر

د - المركب أخذت في الفرق =

طغيان العالم على الكنيسة

هـ - الشباك تتخرق =

أتعاب الكرازة وتجار بها

و - السمك لم يُفَرَز، جيد مع رديء =

المؤمنون تحت الاختبار

المركب بلغت الشاطئء =

الكنيسة بلغت الأبدية

المسيح على الشاطئء =

المسيح يستقبل المخلصين

السمك قدموه على الشاطئء =

المخلصون يُقدّمون إلى المسيح

المركب وصلت بكامل سلامتها =

الكنيسة المنتصرة على شاطئء الأبدية

الشباك لم تتخرق =

تجلى الملكوت

السمك كبير كله ومعدود ١٥٣ (١) =

إحصاء المفدين المعروفين بالاسم

١٢: ٢١ «فإن لهم يسوع: هَلَسُمُوا تَغَدُّوا. ولم يجسر أحد من التلاميذ أن يسأله من أنت؟ إذ كانوا يعلمون أنه الرب».

«تغدوا» : ἀριστήσατε

هي " افطروا " وليس «تغدوا». فالوقت هو الصباح الباكر!! كان التلاميذ واجفين ينظرون إليه متمجبين، يعرفونه تماماً أنه هو، ولكن غير واثقين ولا يستطيعون أن يسألوه بسبب هيئته

المضاعفة، فهو المسيح نفسه، ولكن في حالته الجديدة الفائقة على الإدراك والحواس! كيف يكون هو؟ ولكن هو هو!!

وهكذا، وبعد أن رست السفينة ونزل التلاميذ وانتهى القديس بطرس من جر الشبكة وهي بكامل هولتها وأزيد، كان المسيح على قُرب، وهم الآن يتقدمون نحوه ببطء تملأهم الرهبة والهيبة. انعقد لسانهم، فهو يكلمهم وهم صامتون، ينظرون إليه بدهشة، ولم يستطيعوا أن يبادروه لا بسؤال ولا بتحية، ولكنهم تقدموا خاضعين، ثم توقفوا على بُعْدٍ ينتظرون منه المبادرة.

«هلموا تغدوا»:

المسيح أينما كان، يُطعم الذين يتبعونه. في القفر أظفَعَتهم بالخبز والسّمك، وهنا حتى على شاطئ الأبدية يستقبل بالخبز والسّمك الآتين إليه خائرين من هول ليل العالم الطويل وشقاء إخفاقات الصيد التي مرّت حياتهم. هوذا يطعمهم مما له، كما عضّد ملكي صادق في القديم إبراهيم بخبز وخمر وهو راجع من هول معركة كَدَرٍ لَعَوَمَر (تك ١٤: ١٨). فكانت أول صورة من صور إِفخارستية محبة الله نحو أبي الإيمان، تنوِجاً للحرب التي خاضها. أما هنا، فهي إكليل ختام صُورِها جميعاً، وإن كان الخمر فيها غائباً، فذلك لأن عمل الدم قد استوفى زمانه، وليس حربٌ بعد^(٥).

١٣: ٢١ «ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ، وَأَعْطَاهُمْ، وَكَذَلِكَ السَّمَكُ».

كان ردُّ المسيح على توقُّفهم الحذر وتوقُّعهم المبادرة منه، أن تقدّم المسيح نحوهم بالفعل واقترب من المائدة التي أعدّها. ولكن لا يذكر هنا أي حركة من حركات الإِفخارستيا المعتادة، فلا هو نظر إلى فوق، ولا هو كسر، ولا هو بارك. والسبب واضح، فالمنظر يصوّر شاطئ الأبدية. فنحن «الآن» فوق، والكسْرُ انتهى بانتهاء زمان الصليب! والبركة كملت، والآن وقت حصيدها. وهكذا لا يبقى من الإِفخارستيا إلّا شركتها: «وأعطاهم». فالخبز هو شركة جسده في قمة تجلّيه، والسّمك رمز الحياة الذي يحمل اسمه I,X,Θ,Y,Σ «يسوع المسيح ابن الله المخلص».

وعن هذه الشركة الأخيرة يقول القديس أغسطينوس:

[وبهذا «الغداء» يستعلن كيف تتم بركة الشركة الفائقة القدر Super eminent]^(٦).

(٥) [ولا تنتهي الحرب نُكَلَّل، نعم نُكَلَّل في الوطن السعيد].

^٥ Augustine, *op. cit.*, p. 444.

و يقول القديس أغسطينوس أن ق. يوحنا بهذه الآية يكون قد انتهى من إنجيله (٧).

١٤ : ٢١ « هذه مرّة ثالثة ظهرَ يسوع لتلاميذه بعد ما قام من الأموات ».

لا يمكن أن يكون قصد ق. يوحنا أنه ظهر لتلاميذه ثلاث مرات وحسب، ولكن كان قصده في الحقيقة كما يرى القديس أوغسطينوس أن هذا هو يوم ثالث للأيام التي ظهر فيها المسيح لتلاميذه، باعتبار أن يوم القيامة بظهوراته العديدة هو اليوم الأول، واليوم الثامن لقيامته هو الثاني، وهذا هو الثالث (٨). ولكن يرى العالم وستكوت (٩) أنه يقصد الظهور الخاص بالتلاميذ مجتمعين.



⁷ Ibid.

⁸ Ibid.

⁹ Westcott, *op. cit.*, p. 302.

القسم الثاني المسيح والقديس بطرس

(١٩-١٥:٢١)

[ودعا يعقوب بنيه وقال لهم اجتمعوا لأتبيثكم
بما يصيبكم في آخر الأيام.] (تك ١: ٤٩)

١٥:٢١ «فَبَعْدَ مَا تَغَدَّوْا، قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ: يَا سِمْعَانَ ابْنَ يُونَا، أَتَحْبِبُنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ لَهُ: نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ. قَالَ لَهُ: آرْغِ خِرَافِي.»

«فبعد ما تغدّوا»:

تماماً وعلى نمط ما تم بعد الإفخارستيا الكبرى التي قدم لهم فيها جسده ودمه، حيث بعد أن قام عن العشاء وغسل أرجلهم، وجلس وأعطاهم وصية المحبة، «قال له بطرس: يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن، إني أضع نفسي عنك. أجابه يسوع: اتَّضَعْ نَفْسَكَ عَنِّي؟ الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ، لَا يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تَنْكَرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.» (يو ١٣: ٣٧ و٣٨)

وبعد العشاء أيضاً: «قال لهم يسوع كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب أنني أَضْرِبُ الرَّاعِي، فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أُسَبِّقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. فَأَجَابَ بَطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: وَإِنْ شَكَّ فَيْكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لَا أَشُكُّ أَبَدًا. قَالَ لَهُ يَسُوعُ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ، إِنَّكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ دِيكَ تَنْكَرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ لَهُ بَطْرُسُ: وَلَوْ اضْطَرَرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ، لَا أَنْكَرُكَ.» (مت ٢٦: ٣١-٣٥)

وللأهمية القصوى يلزم أن نقرأ مرة أخرى هذه الآية التي سبقت آية بطرس هذه والتي جاءت هكذا: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، حيث يأتي هذا الوعد ليخفف من تأثير إنكار بطرس وكأنه يتناساه، وبهذا يأتي سؤال المسيح للقديس بطرس — في إنجيل يوحنا — بعد القيامة وفي الجليل أيضاً حسب النص الإنجيلي السابق، ليزيد من صدق رواية ق. يوحنا ومن دقَّتْها وَحَبَّتْ موضوعها وتتميم وعد الرب بالحرف الواحد!

أما في إنجيل القديس لوقا فجاءت هكذا: «وقال الرب: سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبتُ من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت

على المحبة، جاعلاً المحبة الشرط الأساسي للكنيسة لاختيار مُرْسِلِيهَا وخدامها: رؤساء أساقفة وأساقفة وكهنة وكل مصافّ خُدامها. وهنا تُقدّم المحبة على الإيمان، على أساس أن المحبة الصادقة تحوي حتماً إيماناً صادقاً: «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.» (١ كو ١٣: ١٣)

كان الرب قد أبدى رفضه فيما سبق لأية محاولة للتسابق على أيهم أكبر: «وكانت بينهم أيضاً مشاجرة، من منهم يُظنُّ أنه يكون أكبر. فقال لهم: ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يُدعَوْنَ محسنين. وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدّم كالخادم.» (لو ٢٢: ٢٤-٢٦)

أما قول المسيح: «أكثر من هؤلاء»، فهذا بالنسبة للوضع الرسولي أو للخُدام على وجه العموم، ولكن الرب هنا يضع شرطاً للتقدّم في الخدمة أو الرئاسة، فالأكثر حُباً يُستأَمَنُ للخدمة الأكثر، وهذا حقٌّ، فالمحبة وحدها هي التي تتسع للعمل الأكثر.

«نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك»:

يوافق القديس بطرس على سؤال الرب أنه كان يحبه، ولكن تأتي الموافقة خُلُوعاً من ادّعاء الأكثرية في المحبة، فلقد تعلّم بطرس أن لا يقَدِّم نفسه على الآخرين، وهذا تصحيح مليح لمواقفه السابقة. وهذا يلزم أيضاً أن يكون منهاجاً لكل مُرْسَل وخدام. فليس لإنسان قط، كان مَنْ كان، قديساً أو نبياً، أن يدّعي لنفسه الحب الأكثر للمسيح.

كذلك يأتي ردُّ بطرس مسنوداً بالتسليم لمعرفة الرب، فمحبة بطرس حتماً يعرفها المسيح، وهو لا يدّعي لنفسه محبة إلاً بالقدر الذي يعرفه الرب. لقد تنازل القديس بطرس عن غُلُوع مشاعره الخاصة التي فضحته وأخرجته عن حقيقة ما له وما فيه. وهذا أيضاً يتحتم أن يكون منهاجاً لكل مُرْسَل وخدام في كنيسة الرب، أن لا يشهد لنفسه إلاً بالقدر الذي يشهد به الآخرون له وعنه!!

«أرغ غنمي»:

«أرغ» (βόσκει)، ومعناها الدقيق: «أطعم»، لأن «أرغ» (ποιμαίνει) جاءت بعد ذلك بالنسبة للقطيع، و«غنمي» تعني «حملاني» في اليونانية. ولكن في عدة أبحاث عميقة قام بها علماء مدققون في أصول اللغة اليونانية^(١٠) واستخدامها، اتفقوا على أنه بالرغم من تعدد

^{١٠} Brown, *op. cit.*, p. 1102-1106.

الكلمات المعبرة عن المحبة مثل: «أغابي»، و«فيلي»، أو أفعال الإطعام والرعاية مثل «بوسكين» و«بويمينين»، أو أسماء القطيع بين «حملان» و«خراف» و«غنم»، إلا أنها جميعاً لا تختلف في معناها، فهي كلها «محبة»، وهي كلها «رعاية»، وهي كلها «غنم»، وذلك في الثلاثة الأسئلة التي طرحها المسيح على القديس بطرس.

وفي قول المسيح «ارغ غنمي»، يضع المسيح القديس بطرس في موضع الرسولية الصحيح، بعد أن كان قد أفرز نفسه بإنكاره المسيح ثلاثاً. وهنا يشدد القديس أغسطينوس جداً على قول المسيح «غنمي» باعتبارها غنم الرب، مكرراً مراراً ومرايت أن يلتفت المُرسَلُ أو الخادم المؤمن على الرعية إلى أنها غنم الرب، وليست غنمه هو، معطياً نصائح نافعة وجيدة وكثيرة جداً لمن يطلع عليها^(١١).

والملاحظ أن كلمة «غنمي» يقابلها في إنجيل القديس متى «كنيستي»: «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها». (مت ١٦: ١٨)

فإذا أضفنا إلى هذه التصريحات ما قاله الرب لبطرس في إنجيل القديس لوقا: «وأنت متى رجعت، ثبت إخوتك» (لو ٢٢: ٣٢)، يتبين لنا مدى سخاء الرب المنقطع النظير في تشجيع القديس بطرس: «ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفني إيمانك» (لو ٢٢: ٣٢)، لكي يعود ويتبوأ مركزه بين التلاميذ، بل وفي الكنيسة على مدى الدهور. ولكن تشجيع المسيح لم يبلغ أبداً حدّ منتهى الرئاسة على كل الرعية أو التلاميذ. فليتذكر القارئ جيداً أن الرب شجب المشاجرة بينهم حول مَنْ فيهم يكون أكبر!!! فلماذا تكرر الكنيسة «المشاجرة» عينا لتكون جزءاً من إيمان الكنيسة؟؟؟

٢١: ١٦ «قال له أيضاً ثانية: يا سمعان بن يونا، أتجيبني؟ قال له: نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك. قال له: ارغ غنمي».

المسيح يكرر السؤال الأول، ولكن يحذف منه الجزء الخاص بـ «أكثر من هؤلاء»، وكأنه اكتفى من رد القديس بطرس بأن حذفها من قلبه كما حذفها من رده، فلم تعد تقلق الرب من جهة الرعاية المزمع أن يلقيها عليه.

¹¹ Augustine, *op. cit.*, p. 446.

ولكن التكرار انحصر في «المحبة» فقط، وكأن الرب لم يكتفِ باعتراف القديس بطرس الأول أنه «يحب المسيح»، فهو هنا يطلب المزيد. فليس عبثاً يكرر المسيح السؤال عن المحبة!! وليس عبثاً يخرج الكلام من فم المسيح وكأنه يعتمد على التصحيح، والمزيد من طرف القديس بطرس وحده.

ولكن لينتبه القارئ، فالمسيح عندما كرر السؤال عن محبة بطرس له، كان ينبه القديس بطرس أنه يأخذ من المسيح طاقة حب جديدة يضيفها على ما عنده. فالمسيح لا يسألنا عمّا عندنا كأنه من عندنا؛ ولكن على أنه من عنده: «لأنه مَنْ يَمَيِّزُكَ؟ وأي شيء لك لم تأخذه، وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١ كو ٤: ٧)

وهكذا عندما أعطى المسيح فرصة للقديس بطرس أن يعيد النظر في مستوى محبته على محبة المسيح، كانت فرصته لبطرس أن يستزيد من المحبة أخذاً وعطاءً.

وعلى مستوى طاقة المحبة الثانية، ثنى له المسيح لياقة الرعاية على غنم الرب.

١٧: ٢١ «قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: يَا سَمْعَانَ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي. فَحَزَنَ بُطْرُسُ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً أَتُحِبُّنِي. فَقَالَ لَهُ: يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أَحِبُّكَ، قَالَ لَهُ يَسُوعُ: آرَعْ غَنَمِي».

كان حزن القديس بطرس في المرة الثالثة يرجع لإحساسه بأنه كان دون المستوى اللائق برسول، إذ تذكر الفراغ المخيف الذي كان يملأ قلبه تجاه المسيح أثناء المحاكمة لما سأله ثالث مرة عن علاقته بالمسيح فأنكر!! هنا حُزِنَ بطرس عند سؤال الرب الثالث، إذ تذكر أيضاً بكاءه المرّ بعد إنكاره الثالث (مر ١٤: ٧٢). وهنا كان ردُّ بطرس هو التسليم الكلي للمسيح: «يا رب أنت تعلم كل شيء»، على مستوى الاعتراف بكل ضعفه؛ فقط «أنا أحبك»!! لقد قبل المسيح اعتراف بطرس، وقبل محبته، وزادها له ثلاثة أضعاف!!! فصار بطرس راعياً أميناً للغاية على غنم الرب. والدليل القاطع على صلاح القديس بطرس وصلاحه كراعٍ في نظر الرب، أن أردف الرب في الحال بالنبوءة له كيف سيضع نفسه عن الخراف!! «أية ميتة كان مزمناً أن يجد الله بها.» (يو ١٩: ٢١)

لقد ظلت كلمات الرب ونصائحه تترنُّ في قلب القديس بطرس حتى أواخر أيامه، والتي منها

صاغ نصائحه للأساقفة نظرائه : «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم ، أنا الشيخ رفيقهم ، والشاهد لآلام المسيح ، وشريك المجد العتيد أن يُقْلَن : ارعوا رعية الله التي بينكم ، نُظَّاراً (أساقفة) ، لا عن اضطرار بل بالاختيار ، ولا لربح قبيح بل بنشاط ، ولا كَمَن يسود على الأنصبة بل صائرين أمثلة للرعية . ومتى ظهر رئيسُ الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يَبْلَى .» (١ بط ٥ : ١-٤)

١٨ : ٢١ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لك : لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً ، كُنْتَ تُنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ ، وَلَكِنْ مَتَى سَخِثَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ ، وَآخِرُ يَمْنُطُوكَ وَيَحْمِلُوكَ حَيْثُ لَا تَشَاءُ .»

بعد أن تأكد الرب أو بالحري بعد أن تأكد بطرس من نفسه من جهة محبته للرب ، وبعد أن حمَّله الرب رعاية غنمه ، أي استأمنه على الرسولية في كنيسته ، بدأ الرب يؤكد لبطرس ماذا ينتظره في مستقبل الأيام . ولكن الرب وضعها كمقارنة بين حرية الخدمة التي ينعم بها في حدائته ، وبين ما ينتظره من شدة سِيَحْمَل عليها وتُفَرَضُ عليه في شيخوخته . ولكن ليس القديس بطرس وحده هو الذي يُفَرَزُ له هذا النصيب ، ولكنه منهج خدمة الكنيسة كلها الذي افتتحه الرب بنفسه : «وكان يُقْتَادُ بِالرُّوحِ فِي الْبَرِيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُجَرَّبُ مِنْ إِبْلِيسَ .» (لو ٤ : ١ و ٢)

وواضح من هذا أن «الآخر» الذي سيمنطق القديس بطرس ويحمّله حيث لا يشاء — وهو مفروود الذراعين — هو هو الروح القدس ، فهو الذي يقتاده حيث سِيُضَلَّبُ وحيث لم يكن يشاء أولاً . فمعلوم من قصة استشهاد بطرس أنه بعد صدور الحكم عليه بالصلب استطاع الهرب من السجن ، ولكن في خروجه سريعاً من روما قابله الرب في الاتجاه العكسي فسأله بطرس : «إلى أين أنت ذاهب يا رب Domine quo vadis ؟» «كوفاديس» ، فردَّ عليه الرب : لأُصَلِّبَ بدلاً منك ، فعاد بطرس أدراجه وسلَّم نفسه للصليب ، وأبى إلا أن يُصَلَّبَ منكساً ! إذ حسب أنه كثير عليه أن يُصَلَّبَ كالْمَسِيحِ .

ومعلوم أن بطرس استشهد سنة ٦٤ م على يد نيرون ، أي بعد حديث الرب هذا بحوالي ٣٤ سنة . ولكي يوضح الرب له أنه سيختطُّ له منهجه بالتمام ، عاد مباشرة وللتوقُّل له كلمة السرِّ : «اتبعني» !!

١٩:٢١ «قالَ هذا مُشيراً إلى آيَةٍ مَيَّةٍ كَانَ مُزِمِعاً أَنْ يَمَجِّدَ اللَّهُ بِهَا. وَلَمَّا قَالَ هَذَا، قَالَ لَهُ: أَتَبْعُنِي!!»

يعلق ق. يوحنا هنا على الكلام بحسب ما كان وما صار، لأنه يكتب إنجيله هذا سنة ٩٥ م تقريباً، والقديس بطرس استشهد سنة ٦٤ م، وصار ذلك معلوماً لدى الكنيسة كلها^(١٢)، كيف مَجَّدَ القديس بطرس الله بموته، وهكذا أخيراً قَبِلَ الله استعدادَه الذي قاله في بكور حياته: «لو اضطررتُ أن أموتَ معك... إني أضع نفسي عنك...»!!!

هكذا وضع القديس بطرس ذاته حُبّاً في المسيح والكنيسة، وهكذا مات على الصليب سعيّاً وراء الذي أحبه ومات!! وتم قول الرب حرفياً: «ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو ١٣: ٣٦)

لقد ظل القديس بطرس يترقب واجفاً مجيء مَنْ سَيَمْلِكُهُ ويحمله حيث لا يشاء كل يوم، إذ حسب ذلك أنه لائقٌ مهما كانت مشيئته. لذلك نسمعه يقول في رجفة اليقين: «عالمًا أن خَلَعَ مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً.» (٢ بط ١: ١٤)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[هذه هي خاتمة حياة الذي أنكر، والذي أحب، الذي تاه عَجَباً بظنونه، والذي انحنى بالمذلة من جرّاء انكاره، الذي اغتسل بدموعه، والذي استحسن اعترافه، ثم تكلل بآلامه! هذه كانت خاتمة ما بلغ: أن مات على حب مكتمل لاسم مَنْ صمم أن يموت معه ولكن منكساً.]^(١٣)

(١٢) رسالة كلémentس الأول ٤: ٥، الشهيد يوستين: الدفاع ٣٥: ١، ترتليان 15,3 scorpiae، بوسابيوس القيصري: «تاريخ الكنيسة» ٢ و ١١: ٣ وقد ذكر صلبه مُنْكَساً.

¹³ Augustine, *op. cit.*, p. 445.

القسم الثالث

المسيح والقديس يوحنا

(٢١ : ٢٠ - ٢٣)

٢٠ : ٢١ «فالتفت بطرس، ونظر التلميذ الذي كان يسوع يحبّه يتبعه، وهو أيضاً الذي أنكأ على صدره وقت العشاء وقال: يا سيّد من هو الذي يسلّمك».

ق. يوحنا هنا يضع نفسه في الصورة في ختام إنجيله ليؤكد وجوده الحي في الجماعة وفي الإنجيل معاً. وهنا يحاول الربط بينه وبين القديس بطرس، الأمر الذي نجده دائماً موجوداً في الإنجيل عامة؛ فـ «بطرس و يوحنا» صنوان عزيزان لا يفترقان. فنحن لا ننسى أنهما هما الاثنان كانا يتبعان معاً الرب وهو مقبوض عليه في طريقه إلى بيت حنان: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع» (يو ١٨ : ١٥)، والاثنان ركضا معاً إلى القبر. وحتى في هذه الآية يحاول أن يذكر القارئ بموقعهما على مائدة العشاء عندما أوماً القديس بطرس من الطرف الآخر للمائدة (١٤) نحوق. يوحنا لكي يسأل الرب عن الحائن من يكون! وبآين واحد يحدد ق. يوحنا موقعه من المسيح — على الصدر من جهة الشمال حتماً حسب التقليد (أي ملاصقاً للقلب)، ثم يزيد من إزاحة الستار عن علاقته مع الرب بقوله: «كان يسوع يحبه».

أما كون ق. يوحنا حسب قول القديس بطرس كان «يتبعه»، فهنا كلمة «يتبعه» تبدو لأول وهلة أنه كان يسير خلف المسيح. ولكن لغة ق. يوحنا تضرب باليمين وبالشمال، أي تشير إلى الواقع المتحرك وتهدف إلى الروح الثابت الأزلي. فالمعنى الروحي، أن ق. يوحنا لم يكن في حاجة أن يدخل مدرسة المحبة التي مرّ القديس بطرس على فصولها الثلاثة بغاية الصعوبة، ثم فاز بالرسولية بعد محنة وامتحان وصار من الثابتين. فالقديس يوحنا هو ابن محبة المسيح، وقد وُلد يوم استضافه الرب (يو ١ : ٣٩)، وتسجّل في سجل الحب الإلهي يوم أن انحنى على صدر يسوع، ويوم أن ترك التلمذة خلف المعمدان واتّبع الحمل الذي يرفع خطية العالم. فإن كان بطرس قد رآه الآن بعد القيامة «يتبع»، فقد كان منذ أن نادى المسيح بالملكوت، هو أول التابعين.

٢١:٢٠ «فلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ هَذَا قَالَ لِيَسُوعَ: يَا رَبُّ وَهَذَا مَا لَهُ؟».

لقد ظنَّ بطرس في نفسه أكثر مما ينبغي أن يَظن. ظن أنه يعودته إلى مركزه في الجماعة الرسولية بهذا السخاء، ونواله صك تكريم الشهادة بين الشهداء، أن يسود على الجماعة ويقود. وكان أول اختبار له على ق. يوحنا، ندّه في الحبِّ وفي القُرْبَى، فكان بطرس يتلهف على أن يعرف مستواه بالنسبة لموقع هذا التلميذ الآخر بين الرسل التابعين وبين الشهداء المكرَّمين، فابتدر الربُّ بالسؤال «وهذا ما له؟». يقصد: أنا عرفت موقعي وبدأيتي، وهذا ما نصيبه؟ فكان السؤال برُمته خارج اختصاصه بل وخارج اللياقة؛ ورحم الله أمرئاً عرف قَدْرَ نفسه!! فلقد كان وَقَعُ السؤال عند الربِّ موقعاً غير حسن وهل يُسأل الربُّ عن مشيئته؟

٢٢:٢١ «قَالَ لَهُ يَسُوعُ: إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ، فَمَاذَا لَكَ، أَتَبْغِي أَنْتَ؟».

الرد هنا عميق ومتشعب؛ يضرب في الواقع، ويضرب حتى إلى منتهى الزمن؛ يكشف عن ألوهة متفوّقة، وسلطان على الزمن وعلى الموت والحياة، وعلى مصائر الناس وأقدار الناس. فالمسيح يستعملن وجوده القائم والدائم، وكيف يقبض على زمام الكنيسة في تحركها عبر الزمن برُسُلها وآبائها وأنبيائها، يحدد أيامهم ويقيس أعمارهم بخطة تنتهي حتماً بمجيئه.

كان سؤال بطرس يختص بمشيئة المسيح قبل أن يختص بحياة يوحنا، لأن حياة رسول لا تحددها الأقدار المحتومة، بل مشيئة الله المحتومة التي لا يفك ختمها إلا المسيح، مضيفاً عليها، أو مختزلاً منها كما يشاء؛ لأنه كالأب يُخَيِّي مَنْ يَشَاءُ!

وقول المسيح: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى إِلَى أَنْ أَجِيءَ»، ليس هو افتراضاً للجدل، بل هو حق قائم بالحقيقة. فالذي أقام لعازر من الموت بعد أن أُنْتِنَ، أعسيرٌ عليه أن يُبْقِيَ يوحنا لا يموت؟ والذي قام من بين الأموات ناقضاً الموت وأوجاعه، أكثيّرٌ عليه أن يفصل بين يوحنا والموت؟

ولكن هل قالها الربُّ كمجرد ردٍّ لبطرس كي لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي؟ أم يقصد بها قصداً يُلَوِّحُ بإجراء ينوي أن يأتيه؟

لم يكن سؤال القديس بطرس نابعاً من ذاتية تتحرق شوقاً لمعرفة مصائر الرسل، بقدر ما كان يشعر أنه يمثل في كنيسة الله حركة ناشطة وعملاً، هما من واقع طبيعته التي هدَّ بها له المسيح لتعمل

على مستوى الروح.

وكان يشعر أن ق. يوحنا يمثل الحب الهاديء الوديع المتأمل والمتأجج كالنار شديدة الفعل بطيئة الحركة. فكان بطرس يصبو أن يدرك في يوحنا مسار هذه القوة الفعالة، كما أدرك هو في نفسه مسار حركته التي ستنتهي بالشهادة! كانت غيرة بطرس من يوحنا كثيرة مرثا من مريم. لقد ضجّت مرثا من قعود أختها تحت رِجْلَي المسيح تسمع كثيراً ولا تعمل شيئاً؛ بينما هي قد هدّها الجهد وأجهدتها الحركة في أعمال كثيرة لخدمة ضيافة الرب. وأخيراً انفجرت، لا في مريم، بل في المسيح تؤاخذ به بصراحة: «يا رب أما تُبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقلّ لها أن تعينني» (لو ١٠: ٤٠). فكان الرب لها لائماً، ولسلوكتها مؤاخذاً، وعلى أسلوبها مُعْتَفاً، مع أنه كان يحبها، وأعطى لمريم الطوبى لأنها اختارت النصيب الصالح، «الذي لن يُنزع منها». (لو ١٠: ٤٢)

وهنا تجيء كلمة: «لن يُنزع منها»، بالنسبة لمريم موازية ومطابقة لقوله لبطرس بالنسبة ليوحنا: «أنه يبقى حتى أجيء». فحياة ق. يوحنا ومنهجه وأسلوبه، واضح أنه يَمُتُّ بصلة وثيقة لأسلوب مريم ومنهجها. فكلُّ منهما اختار المحبة والاستماع إلى «الكلمة» والتأمل فيها واتّباع الرب من كل القلب، وكلاهما فاز بإعجاب المسيح واستحوذ على محبته. وهذا كان بالنسبة لمريم «النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها»، وبالنسبة ليوحنا كان يشاء أن يبقى إلى الأبد. ولكنه، فيما يبدو لنا، أن المسيح أبقي على منهجه وإنجيله يحياه عاشقوه في كل العالم عوضاً عنه إلى أن يجيء. وأليست الرهبانية الباقية إلى الأبد صورة لحياة يوحنا؟؟ هذا هو ق. يوحنا وهذه هي حياته الهادئة التي تحياها له الكنيسة ولسوف تحياها له الرهبنة إلى الأبد!

أما بطرس فليس له أن يتذمر، فالرب سبق وأن ثبّت اسمه وثبّت إيمانه النشيط الشجاع العمّال في الكنيسة، على نفس المنوال وإلى الأبد: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسةي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها»^(١٥) (مت ١٦: ١٨)، وها هي الكنيسة تحيا إيمانه، فتزلزل أبواب الجحيم كل يوم.

لقد استؤمن بطرس على مفاتيح ملكوت السموات، وأما يوحنا فاستؤمن على أسرار السماء ذاتها

(١٥) الصخرة هنا بحسب القديس أغسطينوس هي المسيح في اعتراف بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، شرح إنجيل

واطلع على كل ما هو عتيد أن يكون، وشاهد السماء الجديدة والأرض الجديدة، وقاس مع الملاك
أورشليم السماوية، وعان عرش الله، وتعرف على كل الأجناد السماوية!

والآن: «بطرس» مات وإيمانه لا يزال يتكلم بعد! ...
و«يوحنا» مات ولا يزال حبه يُسَبِّح به تسابيح الأزل ...

«فماذا لك؟ أتبعني أنت»:

ليس من شأن القديس بطرس أن يتابع حياة الرسل الآخرين، إن حدود مسئوليته تقف عند
أتباعه هو للمسيح وحسب. فإن عاش يوحنا حتى مجيء المسيح فهذا ليس «له» ولا يخصه، وإن
مات شهيداً أو بغير شهادة، فهذا أيضاً ليس له، يكفيه هو أن يتبع المسيح. هذا الرد ينفي أن يكون
المسيح قد أعطى لبطرس حق الرئاسة على الرسل ولا حتى الإشراف أو القيادة. الرب أعطى
بطرس أن يشدد إخوته عندما يرجع من محنته بعد أن ذاق مرارة الإنكار وحيرة الجحود. فكما تثبت
إيمانه بصلاة الرب عنه، هكذا كان ينبغي أن «يثبت» بإيمانه إخوته عن اختبار.

ولقد كان بطرس حقاً عموداً ثابتاً وقوة مركزية ذات إشعاع وسط التلاميذ. وقد أبدى شجاعته
في مواجهة رؤساء الكهنة وعنف سلوكهم واتهمهم علناً وبكل قوة بتحليل جرم قتل المسيح «رئيس
الحياة قتلتموه» (أع ٣: ١٥)، حتى ضجّ منه رؤساء الكهنة واستصرخوه ليكفّ عنهم: «فلما
أحضروهم، أوقفوهم في المجمع، فسألهم رئيس الكهنة قائلاً: أمّا أوصيناكم وصية أن لا تعلموا
بهذا الاسم، وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان.
فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغي أن يُطاعَ الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم
قتلتموه معلقين إياه على خشبة، هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً، ليعطي إسرائيل التوبة
وغفران الخطايا.» (أع ٥: ٢٧-٣١)

كان بطرس بالنسبة للكنيسة قلبها الخفاق، ولسانها الناطق، وروحها الوثابة، جريء جرأة
الأسد، لا يلين ولا يهادن في مواجهة النظام اليهودي وعتو الرئاسة الكهنوتية. فاستطاع أن يحفظ
«الكيان الرسولي» مستقلاً عن سطوة النظام اليهودي، فجعل له مكانة لا تقل عن مكانة
السنهدريم وسلطانه، وعلى يديه بزغ نجم الكنيسة الأولى في فلسطين مبشراً بشروق شمس المسيحية
على العالم كله.

«أتبعني أنت»:

وكانت كلمة المسيح هذه لبطرس، هي آخر كلمة قالها المسيح بحسب إنجيل يوحنا، والمعتقد أن بعدها اختفى عنهم! وهي لم تُكُتَب لبطرس فقط، بل كدعوة لكل قارئ وسامع.

٢٣: ٢١ «فدافع هذا القول بين الإخوة أن ذلك التلميذ لا يموت، ولكن لم يقل له يسوع إنه لا يموت، بل إن كنتُ أشاء أنه يبقى حتى أجيء فمَآذا لك».

المعنى الذي دافع به ق. يوحنا عن الخطأ الذي ارتكبه الإخوة (التلاميذ) بقولهم أن ق. يوحنا لا يموت، ينتهي بنا إلى فهم حقيقة أراد ق. يوحنا أن نفهمها دون أن يكتبها، وهي أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح شيء وأنه لا يموت شيء آخر؛ أو بمعنى آخر أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح لا يستلزم حتماً أن لا يموت؛ أو بمعنى أوضح، أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح يمكن أن يكون حتى ولومات، وهذا ما اعتبرناه لغة ق. يوحنا السريّة التي قصد بها قيام ودوام الكنيسة الروحية التأملية المتبتّلة^(١٦)، التي تحيا روح ق. يوحنا وإنجيله من بعده، تسبح المسيح وتمارس الحب والتصوّف mysticism، أي الحياة بحسب أسرار الروح التي يمثّلها إنجيل يوحنا وتمثّلها الحياة الرهبانية الحيّة المتعفّفة، والمتخصّصة في الصلاة والتسبيح، والتي ستبقى إلى أن يجيء الرب!!

وبحاول بعض شُرّاح إنجيل يوحنا أن يتخذوا من دفاع هذا القديس عن ضرورة موته، أنه كان قد مات بالفعل. ولكن الرد على هذا أنه لو كان قد مات فما هي الحاجة للدفاع عن ضرورة موته؟

وأيضاً فإن الآية القادمة (٢٤: ٢١) توضح بأجلى بيان أن ق. يوحنا الذي قال هذا، كان ما زال حياً وأنه هو الذي كتب هذا وشهد بهذا!! وأنه بقوله هذا، يكون قد نقل هذه القضية لحكم الزمن والتاريخ إن كان هذا الأمر سيحدث من عدمه!

وكما كان القديس بطرس يترقب كل يوم الضيف الذي سيُمطِّطُه ويحمّله حيث لا يشاء: «عالمًا أن خلّع مسكني قريب، كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً» (٢ بط ١: ١٤)، كذلك كان ق. يوحنا يشتهي كل يوم مجيء الرب ليحمّله على السحاب. هكذا كتب بيده خاتمة سفر رؤياه، ردًا على ما جاء على لسان الرب في الرؤيا: «أنا آتي سريعاً. آمين. تعال أيها الرب يسوع». (رؤ ٢٢: ٢٠)

¹⁶ Jerome, Book I, Against Jovinian.

٢٤:٢١ «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق».

هذه الآية تُبرز شخصية ق. يوحنا كتلميذ، ورسول، وشاهد لحياة المسيح وموته وقيامته، ثم كاتباً لهذا الإنجيل، مُلقياً بكل ثقله ومؤهلاته السابقة للتصديق على كل ما جاء في إنجيله.

وبصورة سرّية ومبدعة، ينقل كل هذه المؤهلات من شخصه لإنجيله، فهو يقدم لنا إنجيلاً يحمل ختم التلمذة المدموغة بالحب والأمانة والصلة الفريدة بالمسيح؛

ويحمل ختم الرسولية المستودع فيها كل أسرار المسيح التي اطلع عليها بصفة خاصة جداً، لا نعلم إلا بعضاً من أسبابها وخصوصيتها بسبب شخصيته المحافظة المُقترة في الشرح والمجئمة عن الإسهاب!

ويحمل ختم الشهادة، ولا نقصد هنا شهادة العين بل شهادة الروح. وشهادة الروح هي الحق، لأنها تقوم على الاستعلان، أي على رؤية ما لا يُرى، بتدخل المشيئة الإلهية لزيادة المعرفة.

«نعلم أن شهادته حق»:

ق. يوحنا يدرك الأصول التقليدية اليهودية في الشهادة، فهي لا تستقيم بواحد يشهد لنفسه حيث تكون شهادته ليست حقاً. هذا قاله المسيح نفسه عن نفسه سابقاً: «إن كنتُ أشهد لنفسي، فشهادتي ليست حقاً» (يوه: ٣١)، ولو أنه عاد ونفى أن يخضع لمقولة يهودية وهو ابن الله: «وإن كنتُ أشهد لنفسي، فشهادتي حق، لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.» (يوه: ٨: ١٤ و١٦)

فالقديس يوحنا يعطي شهادته بصورة الجمع: «نحن نعلم»، فمَنْ هم «نحن»؟ لقد تهرَّب الشُّراح من تفسير هذه الآية. ولكننا بصورة مبدئية، إذا عدنا إلى كيفية وظروف كتابة إنجيل يوحنا^(١٧)، نرى أن التقليد يقول إن بعض الرسل (كما يذكر نصُّ للعلامة اكلمندس الإسكندري، ووثيقة موراتوري) مع بعض الأساقفة فيما حول أفسس، كانوا العامل المحرك للقديس يوحنا بمحاولتهم المتكررة ورجواتهم له أن يكتب إنجيله. هنا يقول بعض الشُّراح^(١٨) إن

(١٧) نرجو العودة إلى كتاب: «المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا»، فصل: "ظروف وملابسات كتابة إنجيل القديس يوحنا وزمانها"، ص ٤٥ وما يليها.

هؤلاء في مجموعهم يحملون مسئولية التصديق الأخير، فقد أعطاهم ق. يوحنا أن يكتبوا — عن أنفسهم — هذا المقطع من الآية: «ونحن نعلم أن شهادته حق».

ولكن ليست هذه هي الحقيقة، لأننا إذا عدنا إلى أسلوب ق. يوحنا في الكتابة عن نفسه فيما يخص المسيح والحق، نجده دائماً يتكلم بصيغة «الجمع» مُعْتَبِراً نفسه جزءاً لا يتجزأ من جسم الجماعة الرسولية بكاملها، أي الكنيسة المعاصرة للمسيح والشاهدة له^(١٩). لذلك نجده قد استهل رسالته الأولى بهذه الشهادة الجماعية هكذا:

+ «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة.» (١ يوا: ١)

وعلى هذا المنوال ظل يكتب الرسالة كلها بصيغة الجمع من أول آية إلى آخر آية:

+ «ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١ يوا: ٤)

+ «ولكن نعلم أنه إذا أظهر، نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (١ يوا: ٣)

+ «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة.» (١ يوا: ٣)

+ «ونحن قد نظرنا ونشهد، أن الآب قد أرسل الابن مُخْلِصاً للعالم.» (١ يوا: ٤)

+ «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً.» (١ يوا: ١٩)

+ «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يوا: ٥)

إذاً، فواضح من هذا كله، ومن خاتمة إنجيل يوحنا التي أتت بصيغة الجمع هذه، أن شخصية ق. يوحنا نفسه تقف تماماً وراء هذه الشهادة التي ختم بها ق. يوحنا إنجيله كما هي في رسالته أيضاً.

وهكذا يتبين للقارئ أن موضوع شك العلماء في أن ق. يوحنا هو الكاتب لهذه الخاتمة، هذا الفرض الذي استنبطوه من هذه الآية، أنه هو نفسه موضوع اليقين عندنا بكل يقين!!

٢٥: ٢١ «وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ. آمِينَ.»

العجيب في هذه الآية، أنها تكشف أنه لا يزال فكر ق. يوحنا ووعيه الروحي بعد المائة سنة

التي بلغها من عمره يحتفظ بهذه الصور المكدسة من أعمال الرب وكلماته، وما تُشعُّه في قلبه من معانٍ، والتي يهذُّ بها في ليله ونهاره. وق. يوحنا لا يلجأ إلى التهويل ليصف ضخامة الحصيلة الروحية التي يعيها من حياة المسيح وأعماله، ولكن الأعماق التي تتوالى في ذهنه من خلف كل حادثة، والعمقُ منها ينادي عمقاً، هي التي صوّرت له كيف تضيق الدنيا بعجائب المسيح! وهل يمكن أن يتسع العالم لمعطيات الله وملكوته؟

انتهى

عيد القديسة العذراء مريم

٢٢ أغسطس ١٩٨٩ م

ما كنت يا عزيزي القارئ أودُّ أبداً أن أنتهي من شرح إنجيل القديس يوحنا،
فعلى مدى سنوات ثلاث كاملاً عشت في نعيم هذا السفر،
أستمع كل يوم بل كل ساعة بأصوائه التي تبهر النظر الروحي.
ولكن الذي يعزّيني أن الرب قوّاني بالرغم من ضعفِي ووهن إمكانياتي
لكي أنقل للقارئ شيئاً من ذخائر نعمته في هذا الإنجيل،
ليعيش فيها، ليس ثلاث سنوات
بل الحياة كلها.

فهرس الآيات

(م = المدخل ؛ ش ١ = الجزء الأول من الشرح ؛ ش ٢ = الجزء الثاني من الشرح)

				أخنوخ (من الأبوكريفا)			
٩٩١	ش ٢	٤١ - ٤٠ :	١٠	١٩٧	ش ١	١٠ :	٤
١٢٥٣	ش ٢			١٣١٩	ش ٢	١٢ - ١٠ :	٣٩١
١٢٨٤	ش ٢			١٣١٩	ش ٢		٤٩١
٣٦٧	ش ١	٤٢ - ٤٠ :		٣٠	م	١٣ :	أعمال الرسل
١٣١	م	١٨ - ١٧ :	١١	٣٤	م	٢٢ - ١٨ :	١٣١٧
٣٢	م	٢ - ١ :	١٢	٨١١	ش ٢	٣١ - ٢٣ :	٩٩١
١١٢٨	ش ٢			١١٨٢	ش ٢	٢٨ - ٢٦ :	٥٠٠
٢٩	م	٢ :		٣٦١	ش ١	٣١ :	١٢٨٨
٣١٥	ش ١	١ :	١٣	٩٨٦	ش ٢		٢٦٧
١٢٤	ش ١	٢٤ - ١٦ :		١٠٧٥	ش ٢	٣٢ :	١٠٥٠
٢٤٢	م	٢٢ - ٢٢ :		١٣٢٠	ش ٢	٣٣ :	١٢٨٩
١٣٠	ش ١	٢٥ :		٧٠٤	ش ١	١٨ - ١٧ :	١٢٧١
١٢١٥	ش ٢	٢٩ - ٢٧ :		١٣٢	م	٢٠ :	١٢٨٠
١٢٤٩	ش ٢			١٣٥٣	ش ٢	٣١ - ٢٧ :	٩٢٤
١٢٢١	ش ٢	٢٧ - ٢٧ :		١٩٧	ش ١	٣٠ :	١٢٤
١٩٧	ش ١	٣٠ :		١١٧٨	ش ٢		٩٤٤
٩٩١	ش ٢	٣١ :		١٢٤	م	٣١ - ٣٠ :	١٣١٨
٧١٥	ش ١	٣٥ :		١٣٢٠	ش ٢	٣٢ - ٣٠ :	١٢٨٩
٦٦٩	ش ١	٣٦ :		٩٤٤	ش ٢	٣٣ :	١٢٩٠
١٩٧	ش ١	٣٧ :		١٢٣٥	ش ٢		١٣١٨
١١٨٠	ش ٢	١١ :	١٤	١١٨٠	ش ٢	٣٩ :	١١٨٢
٩٧	م	١٠ - ٧ :	١٥	٣١٠	ش ١	٤١ - ٤٠ :	١١٩٣
٩٠٢	ش ٢	٩ :		٩٢٨	ش ٢		١٠١٤
٥٥	م	١٦ :		٩٣٢	ش ٢		٧٤٠
٣٥	م	٢٢ :		٩٧٤	ش ٢		١٢٥٥
٣٥	م	٣٢ :		١٠٤٩	ش ٢		١٢٦٨
٧٣٤	ش ١	٩ :	١٦	٧٥٨	ش ١	٧ :	١٣١٨
٤١	ش ١	٢٨ :	١٧	٩٥٠	ش ٢	١٣ :	٢٣٦
٤٤	ش ١			١٢٣	م	٩ :	٢٠٣
١١٨٠	ش ٢			٧٥٥	ش ١	٥٢ - ٥١ :	١٣٣٦
٣٦٧	ش ١	٣١ - ٣٠ :		١٩١	ش ١	٥٣ :	١٠٤٤
٨٢٥	ش ٢	١٠ - ٩ :	١٨	١٢٥	م	٥٥ :	١٠٧٥
٢٨٧	م	٢٥ - ٢٤ :		٧٣٤	ش ١		٩٢٠
٥٧	ش ١			٨٠١	ش ٢		٤٦٠
٥٧	ش ١	٧ - ١ :	١٩	١٠٢٩	ش ٢	٥٦ - ٥٥ :	٨١١
٨٥١	ش ٢	٢ :		٩٥٠	ش ٢	٥٨ - ٥٧ :	١٩٧
٢٠	م	٢٧ - ٢٦ :		٢٦٣	ش ١	١ :	١١٥٩
٣٦	م			٢٦٣	ش ١	٨ - ٥ :	١١٧٨
١٩	م	٢٥ :		٢٥	م	١٤ :	٧٤٦
١٠٧٥	ش ٢	٢٤ :	٢٠	٢٤	م	١٧ - ١٤ :	١٣١٩
١٠٧٨	ش ٢			٢٦٤	ش ١		١٣
٥٠٢	ش ١	٢٦ :		٣٥	م	٢٥ :	١١٩٣
١٢٣٢	ش ٢	٢٤ :		٨٦٣	ش ٢	٤ :	١٣٥٣
١٠٥١	ش ٢	١٣ - ١٢ :	٢١	٩٩٩	ش ٢		١٢٩٨
٧١٠	ش ١	٢٧ - ٢٤ :		٢٥٩	ش ١	٥ - ٤ :	٢٥٨
٤٧	ش ١	٧ - ٦ :	٢٢	٤٨	ش ١	٥ :	٥٧١
٢٣	ش ١	١٥ - ١٤ :		٨٦٥	ش ٢	١٥ :	١٣١٩
١٢٣٤	ش ٢	١٦ :		١٢٨٦	ش ٢	١٧ - ١٥ :	١٣١٩
٤٧	ش ١	١٧ :		٨٥٦	ش ٢	٢٠ - ١٩ :	١٣١٩
١١٣٩	ش ٢	٥ :	٢٣	٤٠٢	ش ١	٢٥ :	١٣١٩
٢٧٧	ش ١	٨ :		١٢٤	ش ١	٢٨ - ٢٧ :	٤٩٣
١٠٥١	ش ٢	١١ :		٣٤٣	م	٤٣ - ٣٧ :	٧٠٢
٩٥١	ش ٢	١١ - ٩ :	٢٦	١٣٢٠	ش ٢	٤١ - ٣٨ :	١٨٨
٤٧	ش ١	١٣ :		١٩٧	ش ١	٤٠ :	٢٠٤
٤٩	ش ١			٨٥٥	ش ٢	٤١ - ٤٠ :	٢٠٥

٥٩	م	١٦-	١٥:	٤	٦٣٩	١	١٩:	٢	٨٦	١	١٥-	١٣:	٢٦
٢٠٠	م				٨٢٢	٢			٩٩١	٢		١٦:	
٧٣٧	١	٢٣-	٢١:		٨٦٥	٢			١٢٥٢	٢		٢٣:	
١٠٥٩	٢	٢٤-	٢١:		١٠٧٣	٢	٢٠:		١٣٢١	٢			
١٢٨٩	٢		٢٤:		٤٠١	م	٥-	٣:	٧٥٦	١	٢٧-	٢٥:	٢٨
١٢٨٩	٢				١٢١	م	٦-	٣:	٦٢٧	١			
٩٢٤	٢	٢-	١:	٥	١٧٥	م							
١٢٤٥	٢		٢:		٩٢٣	٢			٩٨٠	٢			
٧٦٢	١	١٤-	٨:		٩٦٣	٢	١٠-	٢:	١٢٧٧	٢			
٩٥٧	٢		١١:		١٠٧١	٢	٦-	٥:	٣٥	١	٤-	٣:	
١٠٥٥	٢				٥٩	م		٦:	٤٣٠	١			
٢٤٣	١	١٤-	١٢:		٢٠٠	م			٦٣٣	١			
٦٦٩	١		١٤:		١٧٥	١		٨:	٩٨٨	٢			
٩٥٦	٢		١٨:		١٣١٢	٢			٥٨	م		٤:	
٣٥٤	١		٢٠:		٢٣٦	١	١١-	٨:	١٦٠	م			
٣٥٨	١				١٠٧١	٢		٩:	١٠٦٣	٢			
٢٨٥	م	٢٦-	٢٥:		٥٨١	١		١٠:	١٠٦٣	٢	٥-	٤:	
٥٩	م		٢٠:		٦٩٤	١		١٢:	٥٨	م		٥:	
٢٦٠	م				٩٠٥	٢	١٧-	١٤:	٤٣٠	١			
٦٩	١				١٠٨٢	٢	٢٠-	١٤:	٣٤٠	١	١٠-	٩:	
٧٠	١				١٧٥	١		١٦:	٧٥٠	١		١٠:	
٤٤١	١				٨٦٩	٢	١٨-	١٦:	٥٩	م		١١:	
٤٥٠	١				١٠٩٣	٢			٣٥	١	١٢-	١١:	
٤٥٤	١				٨٤٦	٢	١٩-	١٦:	٣٥٩	١	١٤-	١٢:	
٦٣٨	١				٨٨	١		١٧:	٤١٨	١		١٣:	
٨٩٤	٢				٨٦٥	٢			٥٠٠	١			
١٢٦	م	٢٢-	٢١:		٩٥٦	٢			٢٥٧	١	١٤-	١٣:	
٨٨٨	٢		١٢:	٦	٨٠٧	٢	١٨-	١٧:	٨٣٠	٢	٢٠-	١٦:	
٧٨٦	٢		١٥:		٥٦٩	١	١٩-	١٧:	١٢٧٧	٢		١٧:	
٢٨٦	م		٢:	١٨	٦٢٣	١			٨٩٧	٢	٢٣-	١٧:	
				الأصنام	٨٤٠	٢	٢٠-	١٧:	٨٨٤	٢	٢٣-	١٨:	
٣٩١	م		٢٩:	١	٨٨	١		١٩:	٨٩٧	٢	٢٠-	١٩:	
٣١٤	١		٣٠:	٢	٩٢	١			٨٩٤	٢		٢٢:	
٤٢٦	١		١٣:	٣	١١١	١			١١١	١	٢٣-	٢٢:	
٤٢٦	١		١٨:		٨٣٤	٢			٨٥٤	٢			
٣٩٠	م		١٩:		٨٤٣	٢			١٧٥	١		٢٣:	
١٥٧	١		١٧:	٨	٩١٣	٢			١٣١٢	٢			
٨٦٠	٢				٩٦٩	٢			٣٦١	١	٥-	١:	٢
١٢٥٩	٢				١٠٢٨	٢			٤٠٩	١		٢:	
٣٩٠	م		٢٢:		١٠٧٧	٢			٨٨٨	٢			
٤٣	١	٢١-	٢٩:		١٠٨١	٢			٣٩٦	١		٤:	
٣٩٠	م		٢٠:		١٧٥	١		٢٠:	٨٥٥	٢	٥-	٤:	
٩٨٥	٢		٢٤:		٢٨٢	١			١٠٧٧	٢			
١٠٣٣	٢	٢٥-	٢٤:		٩١١	٢			١٠٢٨	٢	٦-	٥:	
٣٩٠	م		٢٥:		١٠٧٣	٢	٥-	٣:	٤٦٣	١		٦:	
٤٢٤	١	٦-	١:	٩	١٠٧٥	٢		٤:	٣٥١	١		٨:	
١٢٢٤	٢		٢:		٢٣٧	م		٥:	٤٠	١		١٠:	
٨٧	م		٥:		٤٦٣	١		٨:	١٠٨١	٢			
١٢٢٤	٢				٦٦٠	١			١٢٨٩	٢			
٤٢٦	١		٢٠:	١١	١٢٤٨	٢			١٤٣	م		١٢:	
١٠٤٢	٢		١٠:	١٨	٨٨٤	٢	١٠-	٨:	١٢٣١	٢		١٣:	
٢٧٧	١		٢٦:	٢٣	١٢٥٠	٢			١٤٣	م	١٥-	١٣:	
١٢١٥	٢		٦:	٣١	٧٣٦	١		١٠:	٨٧٠	٢		١٤:	
				أيوب	١٠٧٢	٢	١٣-	١١:	٩٩٦	٢			
٧٢	١		١:	٥	٢٠٠	م	١٣-	١٢:	٩٨٧	٢	١٩-	١٦:	
٢٣٣	م		٨:	٩	٩١٩	٢	١٦-	١٢:	٦٣٩	١		١٨:	
٤٠٨	١				١١١	١		١٣:	٨٢٦	٢			
٢٣٣	١		١٧:		١١٢	١			٨٤٢	٢			
٥٩٠	١	٩-	٨:	١٠	٩٧٠	٢			٦١٤	١	١٩-	١٨:	
٥٩١	١	١٢-	٩:		١٠٧٣	٢			٩١٣	٢			
٢٣٠	١	١٦-	١٣:	١٧	٩٠٦	٢		١٥:	٨٢	١		١٩:	

٢٤٦	٤:	٤١	١٨٣	١	١:	٣	١٢٤٦	٢	٧:	٢٦
٩٢٤	٨:		١٨٣	١	١٤:		٥٩٠	١	٢-	٤:
١٥٧	١٠:		١٨٣	١	٣:	٤	٣٣٣	١	٨:	٤٠
١٨٣	٤-	١:	٢٧٧	١	٣:	٤-	١٢٤٦	٢	٣١:	٤١
٥٣٢	٧-	٦:	١٨٣	١	٤:		آیام ثانی (أخبار)			
٦٥٠			٩٠٠	٢	١:	٥	٧٠٨	١	١٩:	١٣
١٥٧	١٠:	٤٣	٢٧١	٧-	١:		١٣٠٠	٢	٢-	١:
٢٢٩			١٨٣	١	٣:		١٣٠١	٢	٢:	
٢٤٤			١٢٦	١	١:	٦	١٢٤٤	٢	١٤-	١٣:
٥٣٦			٧٥٧	١			٧١٠	١	٢٠-	١٨:
١٥٧	١١-	١٠:	٦٧	١	١٠-	١:	ارمیا			
٧٩٣	١٢-	١٠:	٧٥٧	١	٥:		١٦٠	١	٥:	١
٦٤١			٢٢٠	١	١٠-	٩:	٢٤٥	١	٢:	٢
٢٢٨	٢٥:		٧٥٥	١			٢٥	١	٧:	
٢٣٣			٥٧٤	١	١٠:		٢٧٩	١	١٣:	
٢٧٩	٣:	٤٤	١٢١١	٢	١٤:	٧	٣٨٩	١		
٢٧٩			٥٩٢	١	٦:	٨	٢٧٥	١		
٤٩٩			١٨٤	١	٢-	١:	٨٩٥	٢	٢٢-	٢١:
١٨٣	٦:		٥٢	١	٢:		٥٥٠	١	١٠-	٦:
١٢٩٨	٢٢:		٥١٨	١			٦٢٠	١	١٥:	
١٥٧	٨:	٤٥	٩١٩	٢	٢-	٢:	١٥٤	١	٣:	٤
١٩٧	١٥:		٢٠٣	١	٦:		٩٠٠	٢	١٠:	٥
٢٥			٢٧٩	١			٥٥٤	١	٢١:	
١٠٤			٨٧٠	٢			١٩١	١	١١:	٧
٩٨٧			٩١	١	٧:		١٠٣٧	٢	١٦:	
١٥٧	١٨:		٧٥٠	١			٦٦	١	٢٤:	
١٥٧	١٩:		١٥٨	١	١:	١١	٧٠٨	١	٥-	١:
١٩٢			٧٠٦	١	١٢:		١٣٩	١	١٩:	١١
٢٢٩			٢٨٤	١	٢-	٢:	٢١٤	١	٢٢-	٢٠:
١١٣٦			٢٨٥	١			١١١٨	٢	٢٣-	٢٠:
١٥٧	٤:	٤٦	٤٧٦	١	٦-	٢:	١٦٠	١	٣:	١٢
١٥٧	٩:		٢٧٩	١	٣:		٨٠٩	٢	٥:	
١٥٧	٨:	٤٧	٨١٠	٢	١٥-	١٣:	٩٨١	٢	١٦:	١٥
١٥٧	١٠:		١٣٣٣	٢	١٢-	٨:	١٠٣٤	٢		
١٥٧	١٢:	٤٨	١٦٦	١	٢٢:	٢٢	٢٤٦	١	١٠:	١٧
٢٢٧	١٢-	١٢:	٦١٠	١			٢٨١	١	١٤-	١٣:
٢٤٥			١٢٩٢	٢			٢٩١	١	٣-	١:
١٥٧	١٧:		٦٨٨	١	٨:	٢٥	٢٦٩	١	٤-	١:
٢٢٩			٨٧٣	٢	٣-	١:	٦٠٧	١		
٢٤٥			٨١٧	٢	٤:		٦٢٠	١	٤:	
٥٠٠	٢١-	٢٠:	٩٧٥	٢	٢١-	١٥:	٢٢٧	١	٢٤-	٢٣:
٢٠٢		٤٩	٩٧٦	٢	٢٠:		١٨٤	١		٢٥
١٣٣٣	٤:		٩٧٧	٢	٢١:		٢٣٠	١	٨-	٧:
٢٠٢	٥:		١٧٨	١	٩-	٧:	١٠٠	١	٣٤-	٢١:
٢٠٢	٦:		٢٩٠	١	١٨:	٢٩	٢٢٢	١		
٤٥			٣٣٠	١	١٩-	١٨:	٨٦٦	٢	٣٣:	
٢٧٧	٧-	٦:	٤٩	١	٢٦:	٣٠	٤٣٤	١	٣٤-	٣٣:
٥٢٣	١٠-	٦:	١٩٢	١	٢٨-	٢٧:	٨٦٦	٢		٣٢
٢٠٥	٧:		٢٣٠	١	٦-	٤:	١٢٤٣	٢	٥:	٣٤
٤١٢			٢٩٠	١	٥:		٦١٢	١	٦:	٥٠
٤٧٥	٨-	٧:	٤١٤	١	١٠:		اشعیا			
٣٥٩			٣٠٢	١			١١٧٥	٢	٧-	٢:
٣٩١	١٠-	٨:	٩١٩	٢			٢٣٤	١	٣:	
٢٠٢	٩:		٤١٤	١	٣:	٣٧	١١٩٥	٢	٦:	
٢٠٢	١٠-	٩:	٢٩٩	١			١٨٩	١	١٧-	١٠:
٢٨٤	١٠:		٩٩	١	٥-	١:	٢٧٨	١	١٦-	١٥:
٢٨٣			١٣١	١			١٣٥	١	١٦:	
٢٨٤			٩٩	١	٥:		١٨٣	١	١:	٢
٦٣٨	١٦-	١٤:	٢٦٩	١	١١-	١٠:	١٨٣	١	٣:	
١٣٠١	١٥:		١٥٧	١	٤:	٤١	١٨٦	١		
٣٠٨	١٨:		٢٢٧	١			١٨٦	١	٤:	

٢٧٣	١	٢٠-	١٧:	٣٣	٩٣٨	٢	٨-	٧:	٢	٧٢١	١	١١:	١٥
٢٧٤	١	٢٠-	١٨:		٨٨٨	٢		٨:	٢	١٩٠	١	١٦:	١٦
٢٩٠	١				١٠٢٨	٢		١٤:	٢	٨٣	١	٦:	١٧
٥٣٩	١		١٣:	٤٠	١٣٣٢	٢		٨:	٣	٥٢٩	١		
٥٣٩	١		١٩:				تكوين			١٢٦	١	١٥:	١٨
١٠٥١	٢	١٦-	١٥:	٤٨	١٢٥٩	٢		٣:	١	١٥٧	١		
٢٧٣	١	٢٢-	٢٠:		٢١٤	١	٨-	٦:		٤٠٥	١		
١٣٤٣	٢		١:	٤٩	٦٤٥	١		٢٦:		٧٦٥	١		
١٢٤١	٢	١٣-	١:	٥٠	١٢١٤	٢	٢-	١:	٢	٣٨٥	١	١٩-	١٥:
		نيطس (رسالة)			١٢٨٨	٢		٧:		٩٣٤	٢		
٩٥٧	٢		٩:	١	٤٢٦	١		٩:		٩٨١	٢		
٢٠٨	١		٥:	٣	٤٢٦	١		١٠:		١٣٣	١	١٨:	
٢١٦	١				٢٦٠	١		٢٣:		٢٩٨	١		
١٢٣٤	٢				٥٣	١		١:	٣	٧٦٥	١		
٢٨٥	١	٦-	٥:		٥٣	١	٤-	٢:		٣٥٦	١	١٩-	١٨:
		تيموثاوس الأولى			٥٥٨	١	٤-	٣:		٧٦٤	١		
٩٥١	٢		١٣:	١	٥٥٨	١		٥:		١٠٥٣	٢		
١١٧٧	٢		١٧:		٦٢٦	١	١٠-	٩:		٣٨٤	١	١٩:	
٧٨١	٢		٤:	٣	٥٣	١		١٥:		٥٢٩	١		
١٠٨	١		١٦:		٢٥٦	١	١٧-	١٦:		٧٦٥	١		
١٢٤	١				١١٧٣	٢	١٨-	١٧:		١٢٦	١	٢٢-	٢٠:
٢٣	١				١٠٠٧	٢		١٩:		٨٣	١	١٥:	١٩
٣١	١				٤٢٦	١		٢٢:		١٢٣٥	٢		
٧٧	١				٦١٢	١				٢٧٨	١	٨-	١: ٢١
٢٢٧	١				٦١٢	١		٢٤:		١٢١٩	٢	٢٣-	٢٢:
٦٢٨	١				٦٣	١		٢٦:	٤	١٢٢١	٢		٢٣:
٨٣٢	٢				٦٣	١		٢٤:	٥	٥١١	١		٢٢: ٢٢
٨٦٩	٢				٦٤	١		٩:	٦	٥١١	١	٢٤-	٢٣:
٩٦٠	٢				٦٤	١	١٢-	١١:		٥١١	١	٢٦-	٢٥:
١٠٠٤	٢				٤٤٤	١		٤:	٩	٥١٢	١	٢٩-	٢٨:
١٠١٦	٢				١٣٤١	٢		١٨:	١٤	١١٣٩	٢	٤-	١: ٢٥
١٠٨٣	٢				٢٢٢	١		٢:	١٥	٦٦	١	١٩-	١٨: ٢٦
١٢٥٥	٢				٢٢١	١			١٧	٢٩١	١	٨-	٤: ٢٧
١٣٣٠	٢				٢٢٥	١				٢٧٣	١	١٣-	١١:
١٣٠	١		٨:	٤	٦٣٧	١				٢٩٠	١		١٢:
٩٥٧	٢		٢٠:	٥	٥٧٤	١	٢-	١:		٢٤١	١		١٩: ٣٠
٦٣٧	١		١٠:	٦	٢٣٣	١	٦-	٤:		١٠٤٧	٢		
٧٣٩	١				٥٤٩	١		٢٥:	١٨	٤٤	١		٢٠:
٧٧٩	٢				١٠٩٢	٢				٧٦٦	١	٢٦-	١٤: ٣١
١٣١	١		١٢:		١٠٢	١	٢-	١:	٢٢	٧٦٥	١	٢٧-	٢٦:
١١٣٨	٢		١٣:		١١٩٣	٢		٦:		٦٦	١	٢١-	١: ٣٢
١١٤٤	٢				١٨٢	١	٨-	٧:		١١١٩	٢		٦:
١٣٠	١		١٦:		١٣٩	١		٨:		٦٤	١	١٢-	٨:
٤٧	١				١١١٨	٢		٩:		٩٠٩	٢		٢٢:
		تيموثاوس الثانية			١٣٩	١		١٠:		١٥٧	١		٢٩:
١٠٦٣	٢		٩:	١	٥٧٢	١	١٤-	١١:		٢٢٩	١		
١٣٢	١	١٠-	٩:		٣٤٩	١		١٦:		٢٣١	١		
١٣٢٤	٢		٨:	٢	٢٣٣	١	١٨-	١٦:		٢٤٤	١		
٩٠٤	٢		٥:	٣	٢٢٥	١		٢٤:	٢٦	٥٣٦	١		
٩٥٨	٢		١٦:		٢٤٥	١				٧٦٥	١	٤٧-	٤٦:
٣٦٧	١		١:	٤	٢٠٦	١				٢٧٤	١	٢٨-	٢٦: ٣٣
٩١٧	٢	٨-	٦:		١٥٩	١	٢٤-	١٨:	٢٧	١٥٩	١		١٠: ٣٤
٣١٠	١	٨-	٧:		١٥٩	١	١٥-	١٠:	٢٨			تسالونيكي الأولى	
٣٥٢	١				١٨٤	١		١٢:		١٠٢٨	٢	١٢:	٢
٨٢١	٢		٨:		١٢٢	١	١٥-	١٢:		١٠٥١	٢		٣: ٣
٩٤٣	٢	١٧-	١٦:		٦٠٩	١	١٧-	١٢:		١٠٥٠	٢	٤-	٣:
		جامعة			١٦١	١		١٧:		٦٧٠	١	١٣:	٤
٢١٩	١		٥:	١١	١٧١	١	٢٧-	٢٢:	٢٩	١٣٢٣	٢	١٤:	
		حبشوق			٨٤١	٢		١٠:	٣٢	٦٩٦	١	١٦:	
١٠٠	١		١٤:	٢	١٢٧٥	٢		٢٦:		٢٩٤	١	٢٣:	٥
		حزقيال			٩٤	١		٣٠:				تسالونيكي الثانية	

٣٦٤	١ ش	١٤-	١٣:	٧	٣١	١ ش	١٤-	١٣:	٣	٩١٧	٢ ش	١٣:	٥
٤٤٥	١ ش				١٥٧	١ ش		١٤:		٩١٧	٢ ش	١٥:	
٧٥٠	١ ش				٥٧٣	١ ش				٩١٧	٢ ش	١٧:	
١١٥٩	٢ ش				٢٢٠	١ ش		١٥:		٩١٧	٢ ش	١٠:	٦
٢٠٠	٢ ش	٢٧-	١٣:	٧	٢٢٥	٢ ش				٢٢١	١ ش	١٩:	١١
٢٠١	٢ ش		٢٨:		٩٨٠	٢ ش		١٦:		٨٦٦	٢ ش	٢٠:	
٥٨١	١ ش		٢٧:	٩	١٣٠٣	٢ ش		٦:	٤	٤٠٢	١ ش	١٩:	١٣
٦٤	١ ش		١٣:	١٠	٦٤٣	١ ش				٩٠٨	٢ ش	٨-	٦: ١٤
٦٤	١ ش		٢١:		٧٠	١ ش		٢٢:		٩٠٩	٢ ش	٦-	٢: ١٥
٦٤	١ ش		١:	١٢	٢٢١	١ ش	٣-	٢:	٦	٢٥٣	١ ش	٨:	١٦
٦٧٧	١ ش		٢:		٢٢٧	١ ش				٧٨٥	٢ ش	٩:	
٣٠٩	١ ش		٣:		٢٢٥	١ ش		٣:		٩١٧	٢ ش	٢١:	١٧
٥٩٠	١ ش				٢٢٢	١ ش		٥:	٧	٩١٧	٢ ش	٢٤:	
٣٢٤	١ ش		٢٢:		٣٨٤	١ ش	١٢-	١٠:		٢٥٢	١ ش	٢٠:	١٨
				رويا	٧١٦	١ ش	٦-	٣:	١٢	٢٢١	١ ش	٣١:	
١٩٠	١ ش	٢-	١:	١	٨٧	١ ش	١١-	٥:		٧٩٣	٢ ش	٢٤:	٢٤
٣٢٨	١ ش				١١٩٨	٢ ش		١٣:		٢٣٧	١ ش	١١:	٢٣
٤٠٠	١ ش				١٢٢٠	٢ ش	١٦-	١٥:		٢٦٩	١ ش	١٠-	١: ٢٤
٢٣	١ ش				١٠٢٢	٢ ش		٢:	١٣	٦٠٧	١ ش	٣١-	١:
٣٥	١ ش		٤:		٥١٩	١ ش		٢١:		٦١٤	١ ش	٢:	
٦٣٤	١ ش				٢٢٦	١ ش		١٨:	١٤	٢٢٨	١ ش	١٥:	
٢٢٢	١ ش		٥:		٢٤٤	١ ش				٢٤٥	١ ش	١٥:	
١١٧٤	٢ ش				٢٢٨	١ ش		٢٦:	١٥	٢٢٠	١ ش	٢٣:	
١٢٢٤	٢ ش				٢٧٣	١ ش		١٥:	١٦	٦٢٧	١ ش	٢٣:	
١٢٣١	٢ ش				٤٠٣	١ ش		١٨:		٢٤٥	١ ش	٢٠:	
٣١٩	١ ش	٢-	٥:		٤٠٣	١ ش		٢٠:		٦٢٩	١ ش	٣١:	
٣٢٥	١ ش				٢٨١	١ ش		٦:	١٧	٢٧٧	١ ش	٢٦-	٢٥: ٢٦
١١٧١	٢ ش				٤٩٩	١ ش		٦:		٢٢١	١ ش		
٢٠٢	١ ش		٦:		٥٢	١ ش		١٦:		٢٧٨	١ ش	٢٧-	٢٥:
٢١١	١ ش	٩-	٦:		٦٥	١ ش	٦-	٥:	١٩	٢٧٧	١ ش		٢٧:
٢٢٦	١ ش		٧:		٢٢٧	١ ش		١١:	١٩	٨٦٦	٢ ش		٢٨:
٢٢٧	١ ش				٢٢٦	١ ش	٣-	٢:	٢٠	٢٨١	١ ش		٣: ٢٧
٢٢٣	١ ش				٢٢٦	١ ش		٥:		٣٦٠	١ ش	٢٤-	٤:
٩٩	١ ش				٢٥٨	١ ش		٥:		٢٨١	١ ش	٥:	
٥٣٩	١ ش				٩٤	١ ش	١٩-	١٨:		٢٢٧	١ ش	٦-	٥:
٩٧٥	٢ ش				١١٣٩	٢ ش		٢٨:	٢٢	٢٤٥	١ ش	٦:	
١٢٣٨	٢ ش				١١٤٣	٢ ش	٧-	٦:	٢٣	١٢٨٨	٢ ش		٩:
٢٤٥	١ ش		٨:		١٩٠	١ ش		١٥:		٧٣٦	١ ش	١٠-	٩:
٢٣١	١ ش				١٩٢	١ ش	٢١-	٢٠:		٢٢٢	١ ش	١٤-	٩:
٢٣٢	١ ش				١٠٤٢	٢ ش		٢١:		٧٣٦	١ ش		١٠:
٢٣٤	١ ش				٣٩٤	١ ش	٢-	١:	٢٤	٢٤٥	١ ش	١٤-	١٢:
٢٤٢	١ ش				٣٩٩	١ ش	١١-	٩:		٢٢٨	١ ش	١٤-	١٣:
٤١٤	١ ش				٩٥	١ ش	١١-	١٠:		٧٥٠	١ ش		٢٥:
٢٠	١ ش				٩٨	١ ش	١٧-	١٥:		٨٦٦	٢ ش		٢٦:
٢٥	١ ش				٩٥	١ ش		٨:	٢٥	٨٧٠	٢ ش		٢٦:
٥٩٥	١ ش				١٢٧٠	٢ ش	٢٢-	١٩:		٩٣	١ ش		٢٧:
٦٣٤	١ ش				٩٤	١ ش		٢٢:		٩٥	١ ش		٢٧:
٧٢٧	١ ش				٧٠٥	١ ش		٣٠:	٢٨				حكمة
٨٢١	٢ ش				٨٦٦	٢ ش		٤٥:	٢٩	٤٥	١ ش	٢٣:	٢
٤١	١ ش		٩:		١٢٤٣	٢ ش		٢٢:	٣٠	٥٥٧	١ ش	٢٤-	٢٣:
٢٢٨	١ ش				١١٩	١ ش	٢٠-	١٨:	٢٣	٣٩٠	١ ش		٢٣: ٧
١٩٠	١ ش	١١-	٩:		٤١٢	١ ش	٢٣-	١٨:		٣٩١	١ ش	٢٥-	٢٢:
٣٥	١ ش		١٠:		١٦٢	١ ش		٢٠:		٣٩٠	١ ش		٢٦:
١٩٠	١ ش	١١-	١٠:		١٢٧٥	٢ ش		٢٠:		٣٩١	١ ش		٢٧:
٨٢٣	٢ ش	١٦-	١٠:		١٠٥	١ ش	٧-	٥:	٣٤	٣٩٠	١ ش		٢٩:
٣٥	١ ش		١١:		٩٤	١ ش	٩-	٦:	٣٧	٣٩٠	١ ش		٣٠:
٢٣٢	١ ش		١٢:		٩٣	١ ش	٣٥-	٣٤:	٤٠	٣٩٠	١ ش		٢: ٩
١٢٠٥	٢ ش		١١:						دانيال				خروج
٢٥١	١ ش		١٦:		١٤٧	١ ش		٢٥:	٣	٢٢٤	١ ش	١٤-	١٣: ٢
١٠١	١ ش		١٦:		١١٨٥	٢ ش	٣٧-	٣٢:	٤	٢٢١	١ ش	١٤-	١٣: ٣
٢٢٢	١ ش		١٧:		١٩٩	١ ش	١٤-	١٣:	٧	٢٤٤	١ ش	١٤-	١٣:

١٩٠	م	١٤-	١١:	١٩	٣٢٦	م	٩:	٥	٣٣٤	م	١٧:
١١٧٧	م		١٢:		٣٣٣	م			٣١	م	
٣٦	م	١٣-	١٢:		١٢٣١	م			١١١١	م	
٣٣٣	م		١٣:		١٢٨٣	م			٣٤٥	م	١٨- ١٧:
٣٣٤	م				٣١١	م	١٠:		١٢٨٣	م	
٣٠	م				٣٢٦	م	١٢:		٣٤٢	م	١٨:
١١٧٣	م				٣٣٣	م			٦٧	م	٢- ١:
٣٣٣	م		١٤:		١٠٣٩	م			٣٢٧	م	١٧- ٢:
٤٣	م				١٢٥	م	١٣-	١٢:	٣٥	م	٣:
٣٧	م	١٢-	١٤:		٣٢٨	م		١٣:	٣٥٦	م	٧:
٥٥٦	م		٢:	٢٠	٣٣٣	م			٤٢٦	م	
٣٦١	م		٦:		٥٣	م	٢:	٦	٥٥٤	م	
٦٦٩	م		٦:		٧٧٨	م			٢٥	م	٨:
٣٢٩	م	١٣-	١١:		١٠١١	م			٣١	م	٩:
٢٥٩	م	٢-	٢:	٢١	٣٢٠	م	٤:	٧	٣٦	م	
٣٢٨	م		٣:		٧٣٦	م	٩:		٦٨	م	
٥٢١	م	٢٥-	٥:		٧٢٥	م	١٠-	٩:	٣٢٦	م	
٣٤٦	م		٦:		١٠٣٩	م	١٣-	١١:	٩٤٩	م	
٤٤	م				٣٢٥	م		١٤:	٣٨	م	١٧:
٣٧٥	م				١٢٢٤	م			١٠٤٥	م	
٣٨٣	م				٣٨٣	م		١٦:	٣٢٨	م	١٨:
٤٢٦	م				٣٨٥	م			٣٣٣	م	
٧٥٨	م		٨:		٣٧٩	م	١٧:		٣٤٦	م	٢٣:
٨٧٣	م		٨:		٣٣٣	م	٨:	١١	٢٠٠	م	
٢٥٩	م	١٠-	٩:		٨٧	م	٨:		٣٢٨	م	٢٧:
٧٧٦	م	٢٧-	٩:		٣٣٦	م			٣٣٣	م	
٢٦٩	م		١٠:		٣٢٧	م	١٥:		٩٠٤	م	٢- ١:
١٣٠١	م	١٤-	١٠:		٣٣٤	م			٣٦٩	م	٣- ١:
٢٦٣	م		١٤:		٣٣١	م	١٧:		٩٨٥	م	٣:
٣٣٠	م		٢٢:		٣٣١	م	١٨:		٣٢٨	م	٥:
٢٦٩	م				١٢٤٩	م	١٩:		٣٣٣	م	
٨٢٠	م		٢٣:		٢٥٩	م	١:	١٢	٣٣٣	م	٧:
٥٢٣	م	٢٤-	٢٣:		٣٢٦	م	٥-	٤:	٤٦٨	م	
٢٧٩	م		١:	٢٢	٥٥٦	م		٩:	١٠٢٢	م	
٢٨٦	م				٩٦١	م	١١-	٩:	٢٠	م	٩- ٧:
١٣١٥	م				٣٢٧	م		١٠:	٣٢٦	م	٩:
٤٢٦	م	٢-	١:		٧٤٧	م	١١-	١٠:	٩٤٩	م	
٣٣١	م		٣:		٣٢٥	م		١١:	٣٣٠	م	١٢:
١٠٤٥	م		٤:		٣٣٣	م			٣٣٤	م	١٤:
٣٣١	م		١٥:		٢٧	م			٨٨٦	م	
٣٣٣	م		١٦:		٥٣٤	م			١٠٢٣	م	
٥٩	م				١٢٨	م			٦٠٣	م	١٧- ١٦:
٦٢٧	م				٧٣٥	م			٦٠٤	م	١٨:
٣٣١	م		١٧:		١٢٣١	م			١٢٣٧	م	
٢٧٥	م				٣٢٧	م	١٧:		٣٤٣	م	١٩:
٧١	م		٢٠:		٦٣٣	م	٨:	١٣	٩٥٧	م	
٤٦٤	م				٨٢٣	م	٥-	٤:	٣٢٨	م	٢٠:
١٣٥٤	م				١٠٨٧	م	٥-	٤:	٧٣٦	م	
٧٩٦	م	١٤-	١٣:	٢	٣٢٧	م		١٢:	١٠٨٠	م	
				رومية (رسالة)	٣٠٧	م	١٢-	١٥:	١٠١١	م	٢١:
٣٣٥	م	٢-	١:	١	٣٢٨	م		٥:	١٠٨٧	م	
٨٥	م	٣-	١:		٢٠٢	م		١٤:	٦٠٩	م	١:
١٠٣	م		٣:		٣٣٣	م		١٤:	٦١١	م	
٢٦٦	م		٤:		٢٥٩	م	٨-	٧:	١٢٥	م	١١:
٤١٨	م				٧٧٦	م	٨-	٧:	٣٢٣	م	١٤:
٧٤٩	م				١٧٩	م	٩-	٧:	٣٢٦	م	٥- ٣:
٩٥٥	م				٣٢٨	م		١٠:	٣٣٣	م	٥:
١٣٢٢	م				٣٣٣	م			١٣٩	م	٦:
١٣٣٠	م				٣٨٩	م			٨٨٢	م	
٦٠	م				٩٦٨	م			١٢٨٣	م	
			٥:		١٠٢٣	م			١٣٨	م	٩- ٨:

٤٦٨	١	١٠:	١٠	٦٦٠	١	١٨:	٧	٢٩٤	١	٩-	٨:
٧٨٧	٢	١٥:		١٠٥٤	٢	٢٤-	٢٢:	٨٤٨	٢	٢٠-	١٨:
٢٧٤	١	٢١:		١٤٠	١		٢٣:	٤١	١	٢٠-	١٩:
٣١٥	١			١٢٥٢	٢		٢٤:	١٠٩٢	٢	٢١-	٢٠:
٢٢٠	١	٦-	٥:	١٢٨	٢	٢-	١:	٥٢	١	٢٢-	٢١:
٦٢٧	١	٢٠-	١٦:	١١٧	١	٤-	١:	١٥٥	١		٢٨:
٨٩٩	٢	٢٠-	١٩:	١٢٢	٢		٢:	٤٦٤	١		
٢٢٣	١	٢٩-	٢٥:	١٢٤	٢		٢:	٥١٥	١	٣-	١:
٧٠	١		٢٩:	٨٥	١		٣:	٣٦٦	١	١٠-	٢:
٩٠٣	٢			٢٢٨	١			١٠٤٧	٢	٥-	٤:
٧٥٧	١		٢٢:	١٠٠٥	٢			١٢٤	٢	٧-	٦:
١٠٨٠	٢		٢٣:	٥٢٨	١	٤-	٣:	٥٥	١		٩:
١٠٧٣	٢		٣:	١٢٢	٢		٦:	٥٠	١	١٥-	١٤:
٨٩٤	٢		٥:	٧٢٨	١	٧-	٦:	٦٠٤	١		١٩:
٨٧١	٢		١٢:	١٢٣	٢		١٠:	١٢٢١	٢		٥:
١١٨٢	٢		١:	١٩٧	١		١١:	١٦٤	١		١٩:
٩٢٢	٢		٨:	٨٥٤	٢			١٦٤	١		٢٠:
١٢٣٤	٢		١٢:	١٢١٦	٢			٩٧	١		٢١:
٦٨٦	١		٨:	١٢٢٢	٢			٩٩	١		٢١:
١٢٢٣	٢		٩:	١٢٣	٢	١٤-	١٣:	١١٥	١	٢٢-	٢١:
٢١١	١		١٧:	٧٦	١	١٦-	١٤:	١٦٤	١	٢٥-	٢١:
٨٧٢	٢		١٧:	٨٥٦	٢	١٧-	١٤:	٤٤٠	١		٢٣:
١٢٧٧	٢		٦:	١٠١٢	٢		١٥:	٩٤	١		٢٥:
٩١٩	٢		١٣:	١٥٧	٢	١٧-	١٦:	٩٥	١		
١١٩٧	٢		١٣:	٦٤٦	١			١٢٢١	٢		
٩٣	١		١٠:	٨٨٥	٢			٥١٥	١		٥:
٦٥	١	١٢-	١٠:	٣٠٣	٢		١٧:	١١٢	١	١٦-	١٤:
٣٠٠	١	٥-	٣:	٨٧٨	٢			١٣٠	١		١٧:
١٨٥	١	١٣-	١٢:	٩٣١	٢			١٦٠	١		
١٩٣	١			١٠٢٨	٢			١٩٨	١		
١١٤٣	٢	١٤-	٩:	١٠٦٥	٢			١٩٧	١		٢٤:
٧٢٨	١		٩:	١٠٨٢	٢			١٢٢٢	٢	٢٥-	٢٤:
٧٢٩	١			١٢٣	٢		١٨:	٨٧٠	٢		١:
٧٢٩	١	١٠-	٩:	٩٧٥	٢			٩٨٠	٢	٢-	١:
٦١٤	١	٥-	٤:	٥٤٣	١		٢١:	٦١٤	١		٢:
٦٠٨	١	١٢-	٤:	١٢٢	٢		٢٣:	٦١٥	١		
٦٢٤	١	١٣-	٧:	١٢٢	٢	٢٥-	٢٤:	١٠٧٦	٢		٥:
١٢٢٣	٢		١٠:	٨٤٢	٢		٢٦:	١٠٧٧	٢	١٠-	٨:
١٢٣٨	٢			١٢١	٢		٢٩:	١٢٢١	٢		٩:
١١٩٩	٢		٦:	١٠٦٤	٢			٩٢٢	٢		١٠:
٦١٩	١		٧:	١٠١٥	٢		٣٠:	٩٢٣	٢		١٠:
٩٩٤	٢		٧:	٢٢٤	١		٣٢:	٨٨٥	٢	١١-	١٠:
١١١١	٢		٧:	٢٢٨	١			١٢٢	١		١٧:
١٣٠٧	٢		٩:	١٠٩٠	٢			١٢٤	١		
١٢٢٤	٢	٩-	٦:	١٤٣	٢	٢٤-	٢٣:	١٢٤	١		٢١:
٤٨٤	١		١٦:	٣٧١	١	٢٤-	٢٣:	١٢٤	١		٤:
١٩٠	١		٢١:	٣٦٣	١		٢٤:	١٢٤	١		
٣٩١	٢		٢٤	١٧٤	٢	٢٩-	٢٥:	١٠٣	١		
٣٩١	٢	٦-	٥:	٥٨٢	١		٢٦:	١٢٤	١		١١:
٢٨٣	٢		٨:	١٠١١	٢		٢٧:	٦٧٩	١		
			٢١:	٧٢٧	١	٢٦-	٢٣:	١٢٤	١		١٣:
				٣٠٦	٢		٢٥:	٥٤٧	١	١٨-	١٦:
				٢١٢	١	٢٦-	٢٥:	٥٠	١	٢٠-	١٩:
٩١٩	٢	١٧-	١٤:	٢٩١	٢		٢٨:	٥٤٧	١	٢٢-	٢٠:
٧٢٩	١	١٧-	١٥:	٤١٠	١		٢٨:	١٠٥٨	٢	٢٢-	٢٠:
				٢٧٧	١		٢٨:	١٢١٧	٢		٢٣:
٨٦٠	٢		٢٠:	٧٧٧	٢		٢٨:	١٦٤	١		٧:
١١١٧	٢	٧-	٥:	٩٤٨	٢		٢:	٥٧٦	١	٩-	٨:
١١٩٠	٢		٧:	٤٣٥	١		٨:	١١٧	١	١٢-	١١:
٢٢٠	١	١٠-	١:	١٩٧	١		٩:	٣٣٠	١	٢٥-	١٤:
٢٢٠	١		١٣:	٢٢٦	٢	١٣-	٩:	١٠٨	١		١٥:

[illegible]

٢٠٦	١	١٢:	٦	٩٧٨	٢	١٩:	٤	٤٣٦	١	٨-	٥:	١٢
١٣٦	١	٢٤:	٧	١٢٨٩	٢			١٠٦	١	٨-	٦:	
١٠٢	١	٣٤:	١١	١٢٩٠	٢			١٠٢١	٢			
١٧١	١	١٢-	١١:	٥٧٦	١	٢٥:		١١٩٣	٢		٣٥:	١٥
٤٠٢	١	٥:	١٩	٥٧٧	١	٣٠:		١٦٠	٢	٥-	٤:	١٦
كولوسي (رسالة)				٥٧٧	١	٣١:		٤٩٩	١		١١:	٣٠
٨٨٣	٢	١٢-	١٢:	٥٧٧	١	١:	٥	٢٢٨	١		٧:	٢١
١٠٢٨	٢			١٧٢	٢	٦:		٢٣٤	٢	٣٥-	٢٢:	٢٢
٢١١	١	١٣:		١٣٤	٢	٢٢:		١٢٤٣	٢		٦:	٢٤
١٠٧	٢	١٥:		٨٧٢	٢	٢٢:		٩٥٠	٢	١٥-	٦:	٢٥
٨٤	١			١٣٣	٢	٢٥:		٩٥٠	٢	١١-	١٠:	
٢٠٤	٢	١٧-	١٥:	٢٥٤	٢	٢:	٦	٧٠٥	١	٢١-	١٨:	٢٧
٢٣	١	٢٠-	١٥:	٨٣١	٢	١٤:		٤٧٦	١	٣٨-	١٢:	٢٩
٦٢	١		١٦:	١٠٦١	٢	١٤:		٨٣	٢		٣٠:	٣٥
٣٩	١	١٧	١٦:	٩٤٩	٢	١٦-	١٥:	عزرا الرابع (أبو كريف)				
٤١	١					فيلبي (رسالة)		٤٩١	١	٥١:	١٣	
٤٣	١			١٣٣	٢	٢١:	١	غلاطية (رسالة)				
١٣٢	٢	١٨:		٢٨٣	٢			٤٠١	٢	١٢-	١١:	١
٨٩٤	٢			٧٤٠	١			٢٣	١			
١٠٦٤	٢			١١١٣	٢			٨٦٢	٢			
١١٠	١	١٩:		١٠٥٢	٢	٢٣:		٤٨	١	١٣-	١١:	
١١١	١	٢٠-	١٩:	٨٢٣	٢	٢٤-	٢٣:	٩٦٤	٢	١٩-	١١:	
٧٤٩	١		٢٠:	٩١٦	٢	٨-	٥:	٩٥١	٢	١٤-	١٣:	
٨٧٠	٢			٨٦	١	٧-	٦:	١٠٣٢	٢	١٧-	١٥:	
٨٧٤	٢		٢٠:	٢٢	١	١١-	٦:	١٨	٢	٢-	١:	٢
١٢٣١	٢			٤٦٥	١		٧:	٣٩	٢	١٠-	١:	
٣١٠	١	٢٤:		٤٨٧	١			٣٤	٢		٩:	
١٨٦	٢	٩:	٢	٥٦٨	١			٣٥	٢		٩:	
٨٦	١			٧٨٢	٢			٩٠٤	٢		١٦:	
٩٢	١			٧٨٣	٢			١٣٣	٢	٢٠-	١٩:	
١١١	١	١٠-	٩:	١١٧٧	٢			١٧٢	٢		٢٠:	
٦٤٥	١			١٠٠٥	٢	٨-	٧:	٨٨	١			
٨٩٤	٢			٢٣٦	٢	١١-	٨:	٣٤٨	١			
١٠٧٩	٢			١٠٨٩	٢	١١-	٨:	٥٢٤	١			
٩٢	١	١٠:	٢	١٠١٣	٢	١١-	٩:	٦٢٥	١			
١٠٨١	٢			١٠٤٢	٢			٦٧٩	١			
٥٤	١	١٥-	١٤:	٨٠١	٢		١٠:	٧٣٧	١			
٩٨	٢		١٥:	٤٠٧	١		١١:	٨٠٤	٢			
٨٨٩	٢			٥٩٤	١			٨٥٤	٢			
٢١٧	١	١:	٣	٧٤٣	١			٨٥٥	٢			
١٠٥٢	٢	١:		٨٧٧	٢			٨٥٧	٢			
١٣٢٣	٢			٢٤٥	١	١٣:		٩٢٣	٢			
٦٧٩	١	٤-	١:	٣٤٨	١			٩٨٨	٢			
١٣١	٢	٤-	٢:	٨٤١	٢			٩٩٩	٢			
٦٨٠	١		٤:	٩٠٤	٢			١٠٧٥	٢			
٧٨١	٢			١٣٢	٢		١٦:	١٠٧٧	٢			
٨٢١	٢			٧٣٧	١	٨-	٧:	١٠٧٨	٢			
٩٧٢	٢			١٠١١	٢			١٣١١	٢			
١٠٢٨	٢			٩٦٨	٢		١٣:	١٠٨٤	٢		١٣:	٣
١٠٨٩	٢			٤٠٥	٢		٢٠:	١٢١٩	٢			
١٢٨٩	٢	١٠-	٩:	٤١٥	٢			٥٧١	١		١٦:	
٩٢٢	٢		١٤:	١٠٣٩	٢			٥٧٦	١			
٨٧١	٢		١٥:	١٠٥٢	٢			١١٥	٢	٢٥-	٢٣:	
٣٥٤	١	١٧:		٨٢١	٢	٢١-	٢٠:	٣٠١	١		٢٨:	
٩٨٥	٢	٢:	٤	٧٨٤	٢		٢١:	٥٧٦	١		٢٩:	
كورنثوس الأولى (رسالة)				٨٢٠	٢			٥٧٧	١			
٩٧٨	٢	٧-	٤:	١٠٢٨	٢			١٠٠٥	٢		٤:	٤
٥٢	١		٢١:	٨٧٠	٢		٧:	٤١٣	٢	٧-	٤:	
١٠٩٢	٢			٨٧١	٢			٨٦٥	٢	٦-	٥:	
٢٠٤	٢	٢٤-	٢١:	٨٧٠	٢		٩:	١٠١٢	٢		٦:	
١١٠	٢		٣٠:			فضاء		٦٢٢	١		٩:	

١٠٨٤	٢	٢٠-	١٨:	٥	٨٩٤	٢	٢٧:	١٢	٢٩٢	٢	٢٠:	١
٧٩	١		١٩:		١٠٧٣	٢	٣١:		٦٩١	١		
٨٧٨	٢				١٥٠	٢	٩:	١٣	٨٤٣	٢		
١٠٨٤	٢		٢١:		١٠٨٨	٢	١٢:		١٠٨٠	٢		
١٢٢	٢		٩:	٦	١٥٠	٢	١٢-	١٢:	١٢٥	٢	٨:	٢
٨٦٦	٢		١٦:		١٣٤٥	٢	١٣:		١٠٨٨	٢	٩:	
٢٠٧	٢		٩:	٨	٤٠٠	٢	٣٢:	١٤	٨٦٢	٢	١٠-	٩:
٥٣	١		٣:	١١	١٣١١	٢	٨-	٣:	١٥	٨٥٢	١٢-	٩:
٦١٥	١	١٥-	١٣:		١٣٢١	٢			١٤٧	٢	١٠:	
١٠٤٩	٢	٢٧-	٢١:		١٣٢٢	٢	١٥-	١٢:	١٣٠٩	٢		
٩١٦	٢		٢٣:		١٩٧	١		١٥:	٨٤٩	٢	١٦-	١١:
٩١٦	٢	٢٦-	٢٣:		١١١٢	٢	١٨-	١٧:	٨٦٨	٢		١٦:
٤٠٢	١		٢٣:		٦٦٩	١		١٨:	٩٧٨	٢		
٨٦٢	٢	٤-	١:	١٢	١٣١	٢		٢٠:	١٠٨٠	٢		
١٠٨٨	٢		٤:		٢٦٤	١		٢١:	٢٢٤	١	٢-	١:
٨٩٩	٢		٧:		١٣١	٢		٢٣:	٨٩٨	٢	٨-	٧:
٦٦٣	١		٩:		٢٣٩	١		٢٤:	١٣٤٧	٢		٧:
٧٩٢	٢				٣٤١	١	٢٦-	٢٥:	١٢٩٣	٢		٥:
٨٧٠	٢		١١:	١٣	٤٠	٢		٣٣:	٨٧	١		٧:
			لاويين		١٠١٥	٢		٤١:	١٣٩	١		
٧٠٥	١		٨:	٨	٢٦٨	١	٤٤-	٤٢:	١١٤٨	٢	٨-	٧:
٢٢٦	٢		٤٤:	١١	١٢٥٣	٢			١١٨٨	٢		
١٥٧	٢	٤٥-	٤٤:		١٣٢	٢		٤٩:	٣٠٤	٢	٩-	٤:
٢٧٧	٢	٧-	٥:	١٤	٤٠٤	٢		٥٥:	١٢٨٨	٢		١١:
٩٤	١		٢:	١٦	٩٧٦	٢			٤٢٢	١		١٣:
٢٦٦	٢		١٠:	١٧		٢	كورنثوس الثانية (رسالة)		١٣٢٢	٢		١٤:
٢٨٧	٢		١١:		١٢٧٧	٢		٣:	٥٩	٢		١٥:
١٢٩٥	٢				١٣٢	٢		٢٢:	١٤٣	٢		١٧:
٢٦٦	٢		١٦:		٤١٨	١			٨٢	١		
٢٢٦	٢		١٢:	١٩	١٢٩٣	٢		٧:	٥٢١	١		
٢٢٧	٢		١٤:		٧٤٧	١		١١:	٧٦٠	١		
٢٦٧	١		١٨:		١٠٥٠	٢			٨٢٤	٢		
٨٠٤	٢				١٠٥٦	٢			٨٦٠	٢		
٩٠١	٢	٢٥-	٢٣:		٩٠٠	٢		١٥:	٥٩	٢		١٩:
٥١١	١		١٠:	٢٠	١٠٦٣	٢			٤٠٤	٢	٢٢-	٢٩:
٧١٨	١	١٢-	١٠:	٢١	١٢٤٥	٢			٦٢٢	١		٣:
١٢٢٠	٢	١١-	٩:	٢٣	١٣٢	٢	١٦-	١٥:	٢٠٤	٢		٦:
١١٤٩	٢	٢١-	١٥:		٧١٥	١			٢٣٦	٢		
٤٧٥	١	٢٦-	٢٤:		١٠٦٣	٢		١٦:	٢٣٧	٢		
٢٢٠	٢		١٦:	٢٤	١٣٢	٢		٦:	٧٨	١		١:
٢٢١	٢				٢٣٦	٢			٢٨١	٢	٤-	٣:
١١٧٩	٢				١٢١	٢		١٨:	٤٤٩	١		١٠:
٦٥	١		٢٣:	٢٥	١٣٥	٢			٤٣٩	١	١٠-	٣:
٦٥	١		٥٥:		١٠٨٩	٢			٢٢٩	١		٤:
٨٦٦	٢	١٢-	١١:	٢٦	٨٨٨	٢	٤-	٣:	٢٨١	٢	٦-	٥:
			لوقا (انجيل)		٧٦١	١		٦:	٢٧٥	٢	٨-	٧:
٢٩٥	٢	٤-	١:	١	١٣٣	٢		١٠:	٤٤٩	١		
٣٨	٢		٥:		١٣٣	٢		١١:	٤٧٨	١		
١٢٣٥	٢		١١:		١٣٢٣	٢		١٤:	٦٩٣	١		١٣:
١٣٠	١		١٧:		١٣٥	٢		١٦:	٤٠٢	١		١٦:
٢٣	٢		٢٢:		٩٣	١		١:	١٠٧٩	٢	١٧-	١٦:
٢٣	٢		٢٥:		٨١٨	٢			١١٦٤	٢		٢١:
٤٠٤	١				١٣٤	٢	١٠-	١:	١٠٦٤	٢		٢٤:
٩٥	١				٨١٨	٢		٢:	٢٨٣	٢		٢٦:
١٠٣	١				٢٦٦	١		١٠:	٧٨٦	٢		
١٤٥	١				٩٨٨	٢		١٤:	١٢٣٥	٢		٢٦:
٤١٨	١				١٠٧٥	٢		١٥:	٧٩٦	٢		٢٧:
٨٥٤	٢				١٢٢٢	٢			٢٣٦	٢		٣:
٣٨	٢		٣٦:		١٧٥	١		١٧:	٨٦٩	٢		١٢
١٠٨	١	٤٢-	٤١:		١٢٧٢	٢			١٠٧٩	٢		١٣:
١٧٢	١		٤٦:		١٢٨٩	٢			٥٩	٢		٢٧:

۱۲۲۹	۲ ش	۵۰:	۱۲	۳۵۱	۲ ش	۵۰-	۳۶:	۷	۵۷۰	۱ ش	۴۷-	۴۶:
۱۲۹۹	۲ ش	۳:	۱۳	۶۶۲	۱ ش		۴۶:		۵۷۱	۱ ش	۵۵-	۴۶:
۳۵۲	۱ ش	۲۸-	۲۷:	۸۶۰	۲ ش		۴۷:		۵۹۸	۱ ش	۵۳-	۵۱:
۴۹۶	۱ ش		۳۴:	۴۵۶	۱ ش		۱۰:	۸	۶۰۳	۱ ش		
۱۱۳	۱ ش		۱۱:	۱۰۳۴	۲ ش	۱۸-	۱۵:		۵۷۰	۱ ش	۵۵-	۵۴:
۲۸۱	۱ ش	۲۳-	۱۶:	۸۰۹	۲ ش		۱۸:		۵۵	۱ ش	۶۶-	۵۹:
۳۱۱	۱ ش	۲۳-	۱۶:	۱۰۲	۱ ش	۴۲-	۴۱:		۶۰	۱ ش	۷۹-	۶۷:
۳۱۱	۱ ش		۲۴:	۶۸۵	۱ ش		۴۶:		۱۲۵	۱ ش	۷۷-	۷۶:
۶۲۲	۱ ش		۵:	۶۹۷	۱ ش		۵۵:		۷۸۷	۲ ش		۷۹:
۱۲۹۹	۲ ش		۷:	۳۹۳	۱ ش		۱۰:	۹	۸۷۱	۲ ش		
۶۰۳	۱ ش		۱۵:	۳۹۱	۱ ش	۱۷-	۱۰:		۱۴۳	۱ ش		۸۰:
۶۵۷	۱ ش	۳۱-	۱۹:	۲۹۸	۲ ش		۱۲:		۵۸۸	۱ ش		۱۱:
۵۷۵	۱ ش	۳۱-	۲۲:	۴۰۱	۱ ش		۱۷:		۱۲۷۱	۲ ش		۱۳:
۶۹۷	۱ ش		۳۱:	۴۰۲	۲ ش		۱۸:		۱۰۳۳	۲ ش	۳۱-	۲۵:
۱۲۹۹	۲ ش	۴-	۳:	۹۱	۲ ش	۲۱-	۲۰:		۴۸۵	۱ ش	۳۰-	۲۹:
۲۶۷	۱ ش	۱۸-	۱۵:	۱۰۳	۱ ش		۲۶:		۹۳	۲ ش		۳۲:
۲۱۱	۱ ش		۲۱:	۴۶۳	۱ ش				۵۲	۱ ش		
۲۲	۲ ش		۲۴:	۹۷	۱ ش	۳۵-	۲۸:		۴۶۰	۱ ش		۳۴:
۸۴۷	۲ ش		۲۵:	۱۳۹	۱ ش	۳۱-	۳۰:		۷۴۶	۱ ش		
۱۲۵۹	۲ ش		۱۲:	۴۷۶	۱ ش	۳۳-	۳۰:		۱۲۰۹	۲ ش	۳۵-	۳۴:
۱۱۳	۱ ش		۱۴:	۷۴۵	۱ ش		۳۵:		۳۲	۲ ش		۳۵:
۴۶۷	۱ ش		۲۸:	۱۱۵۸	۲ ش		۴۴:		۱۰۳۳	۲ ش	۳۸-	۳۶:
۲۱۰	۱ ش		۲۹:	۹۸۴	۲ ش		۴۵:		۱۸۷	۱ ش		۳۷:
۹۸۴	۲ ش		۳۴:	۷۷۷	۲ ش		۵۱:		۱۸۷	۱ ش		۴۶:
۷۲۹	۱ ش		۳۰:	۲۶۹	۱ ش	۵۶-	۵۲:		۱۹۱	۱ ش		۴۹:
۷۲۴	۱ ش	۴۴-	۳۷:	۳۳	۲ ش	۵۴-	۵۳:		۱۰۱۱	۲ ش		
۷۲۹	۱ ش		۳۸:	۴۰۴	۲ ش		۶۰:		۱۸۰	۱ ش	۵۱-	۴۹:
۱۱۵۷	۲ ش			۸۷۳	۲ ش	۶-	۵:	۱۰	۳۳۹	۲ ش		۵۲:
۳۵۱	۲ ش	۳۹-	۳۸:	۸۷۱	۲ ش		۶:		۴۱۲	۲ ش		
۱۱۵۷	۲ ش	۴۰-	۳۹:	۲۹۰	۲ ش		۹:		۷۰۲	۱ ش		۲:
۶۸۷	۱ ش		۴۱:	۲۰۰	۲ ش		۱۶:		۱۱۲۶	۲ ش		
۶۸۹	۱ ش			۷۲	۱ ش		۱۷:		۱۲۹۹	۲ ش		۸:
۷۰۸	۱ ش	۴۲-	۴۱:	۶۱۰	۱ ش	۲۰-	۱۹:		۳۵۰	۲ ش		۱۵:
۱۹۱	۱ ش		۴۶:	۵۹۸	۱ ش		۲۱:		۵۶	۱ ش		
۱۹۱	۱ ش			۶۸۷	۱ ش				۱۳۰	۱ ش		
۱۲۳	۱ ش		۱۲:	۸۳۳	۲ ش	۲۴-	۲۱:		۲۳	۲ ش		۱۶:
۱۱۷۷	۲ ش		۱۴:	۸۳۱	۲ ش		۲۲:		۱۰۹	۱ ش		
۶۷۳	۱ ش		۳۸:	۳۱۰	۱ ش	۲۴-	۲۳:		۱۳۱۲	۲ ش		۱۸:
۵۴	۲ ش	۲۴-	۲۲:	۴۰۰	۱ ش		۲۴:		۹۵۸	۲ ش		۱۹:
۲۳۳	۱ ش		۲۴:	۲۶۷	۱ ش	۳۶-	۳۳:		۲۱۸	۱ ش		۱:
۱۱۰۷	۲ ش		۳۷:	۸۰۶	۲ ش	۳۷-	۳۶:		۱۳۴۸	۲ ش	۲-	۱:
۵۱۰	۱ ش	۳۸-	۳۷:	۶۶۱	۱ ش		۳۸:		۸۸۸	۲ ش	۶-	۵:
۳۵۳	۲ ش		۳:	۶۷۵	۱ ش				۷۸۷	۲ ش	۱۱-	۱۰:
۱۱۵۰	۲ ش	۱۶-	۱۵:	۴۸۲	۱ ش	۳۹-	۳۸:		۴۸۵	۱ ش		۲۲:
۸۹۳	۲ ش		۱۸:	۶۶۵	۱ ش	۴۰-	۳۸:		۳۱۹	۱ ش		۲۵:
۷۹۵	۲ ش		۲۴:	۳۵۱	۲ ش	۴۲-	۳۸:		۳۵۰	۲ ش	۱۱-	۱:
۱۳۴۵	۲ ش	۲۶-	۲۴:	۶۵۸	۱ ش				۱۳۳۹	۲ ش	۷-	۴:
۳۵۲	۲ ش	۲۸-	۲۴:	۱۳۵۲	۲ ش		۴۰:		۱۳۳۱	۲ ش		۱۰:
۷۸۷	۲ ش	۳۰-	۲۷:	۸۶۰	۲ ش		۴۲:		۳۳۵	۱ ش		۵:
۷۸۱	۲ ش		۲۸:	۱۳۵۲	۲ ش				۱۱۰۷	۲ ش		۱۲:
۱۰۸۳	۲ ش	۳۰-	۲۸:	۹۸۰	۲ ش		۱۳:	۱۱	۱۰۲	۱ ش		۱۲:
۸۸۵	۲ ش		۲۹:	۵۶۴	۱ ش		۱۵:		۶۹۷	۱ ش		۱۵:
۱۳۳۸	۲ ش	۳۰-	۲۹:	۲۹۰	۲ ش		۲۰:		۱۴۱	۲ ش		۲۲:
۱۳۴۴	۲ ش	۳۴-	۳۱:	۶۴۸	۱ ش		۲۹:		۴۰۸	۲ ش		
۴۷۱	۱ ش		۳۲:	۴۳	۱ ش		۶:	۱۲	۶۵۸	۱ ش		
۱۱۳۳	۲ ش			۲۴۸	۲ ش		۱۱:		۲۹۰	۲ ش	۲۳-	۲۲:
۱۳۴۶	۲ ش			۱۱۰	۲ ش		۱۳:		۶۱۰	۱ ش		۲۶:
۳۵۲	۲ ش		۳۵:	۹۱۰	۲ ش		۳۱:		۵۸	۱ ش	۲۸-	۲۶:
۱۳۳۲	۲ ش	۳۶-	۳۵:	۳۵۳	۲ ش		۳۹:		۳۷۵	۱ ش	۳۰-	۲۹:
۴۴۶	۱ ش		۴۲:	۹۵۹	۲ ش		۴۹:		۲۱۵	۱ ش		۳۰:
۱۲۷۱	۲ ش		۴۳:	۷۹۴	۲ ش		۵۰:		۶۵۸	۱ ش	۳۹-	۳۶:

١٨٧	١	١:	٤	١٢٦٣	٢	١٢:	٢٤	٧٢٥	١	٤٤:	٢٢
٢٨٧	١	٢:		١٢١٥	٢	٢٥-	١٢:	١١١٣	٢	٥٢-	٥١:
٣٩٧	١	٣:		١٢٤	٣	٢٢-	١٥:	٢٥٢	٣	٥٣:	
٤٠٧	١	٤:		١٢٠٩	٢		١٦:	٥١	١		
٤٧١	١	٩:		١٢٨٢	٢	٢٣-	١٧:	٦٦٧	١		
٤٧١	١	١٠:		٩١٥	٢	٢١-	١٩:	٧٢٤	١		
١٢٧١	٢	١١:		١٢٦٢	٢	٢٣-	٢٢:	٧٧٧	٢		
١٨٠	١	١٢:		١٢٦٣	٢	٢٤-	٢٢:	٧٩٨	٢		
١٦٨	١	١٧:		١٢٦٢	٢		٢٤:	١١٨٥	٢		
٢٠٢	١			١٢٥٤	٢	٢٦-	٢٥:	١١٣٤	٢	٥٦:	
٢١١	١			١٢٧	٣		٢٦:	٢٥٤	٣	٦٠-	٥٨:
١٥٦	١	٢٢-	١٨:	٢٤١	١			١١٤٢	٢	٦٢-	٦٠:
٢١٠	١		١٩:	٨٨٣	٢			١١٤٠	٢	٦٥-	٦٣:
٢١٠	١		٣:	٩٥٢	٢			١١٠١	٢	٦٦:	
٨٢٠	٢		٨:	١٠٨٣	٢			٩٠	٣	٢:	٢٣
٥٢١	١		١٤:	١٢١٦	٢			٤٨٣	١		
٩٢٢	٢			١٢١٨	٢			١١٣٥	٢		
٥٩٠	١	١٦-	١٤:	٢٨٠	١		٢٧:	١١٥٥	٢		
١٠٩	١		١٦:	١٢٨٢	٢			٢٤١	٣	٤:	
٦١٧	١			١٢٠٩	٢	٢١-	٢٠:	٢٥٤	٣	٢٢-	٤:
٩١٢	٢			١٢٨٠	٢		٢٣:	٢٤١	٣		١١:
٩٥٩	٢			٦٩٦	١	٢٨-	٢٦:	١١٧٤	٢		
٩٧	٣	١٧:		١٢٥٤	٢	٤٣-	٢٦:	١١٦٥	٢	٢٣-	١٣:
١١٥	٣			١٢٧٥	٢		٢٩:	٤٨٣	١		١٤:
١١٦	١			٢٤١	٣	٥١-	٤١:	١١٤٤	٢	١٥-	١٤:
٥١٢	١			١٢٣٠	٢	٤٣-	٤٢:	١١٦٦	٢		١٩:
١١٦	١	١٨-	١٧:	٢٨٠	٣		٤٤:	١١٤٤	٢		٢٢:
٨٦٠	٢		١٩:	١٩٨	١	٤٥-	٤٤:	١١٧٠	٢		
١٦٤	١		٢١:	٨٤٦	٢			١١٩٢	٢		٢٥:
١١٢٤	٢			١٠٤٢	٢		٤٥:	١١٩٧	٢	٢٧-	٢٦:
١٦٤	١	٤٣-	٢١:	١٢٠٩	٢			٩٧٥	٢		٢٧:
١٨٢	١			١٢٢٧	٢	٥١-	٤٥:	١١٩٤	٢	٣١-	٢٧:
١١٦	١	٢٩-	٢٨:	١٢٩٨	٢		٤٦:	٦٨٨	١		٢٨:
١٠٧٥	٢		٤٢:	١٢٩٣	٢	٤٧-	٤٦:	٧٢٢	١		٣١:
٨٠٦	٢	٤٥-	٤٣:	٣٥٥	٣		٤٩:	١١٩٩	٢		٣٣:
٨٠٦	٢		٤٤:			متى (انجيل)		٥٢٨	١		٣٤:
١٠٧٧	٢			٢٢٩	٣		١:	٩٣٢	٢		
١١٥٩	٢			٢٢٩	٣		١٨:	٩٥١	٢		
٥٢	١	٤٥:		٤١٨	١		٢٠:	١٢٠٠	٢		
٩٩٢	٢	٨:	٦	٢٣	٣		٢٣:	١٢١٨	٢		
٢١١	١	١٠:		٤٦٣	١			١٢٠٠	٢		٤٠:
١١١٢	٢	١٢:		٥٨١	١			١٢٠٠	٢		٤٢:
٢١٥	٣	٢٢:		١١٦٠	٢	٢-	١:	١٢٠٠	٢		٤٣:
٤٩٦	١	٧:	٧	٧٣٣	١		٢:	١٢١٨	٢		
٩٨١	٢			١٢٤٣	٢		١١:	١١٠٢	٢		٤٤:
٤٨٥	١	٨:		١٨٠	١	٢٣-	٢٢:	٧٤٠	١		٤٦:
٢٦٥	١	٢٠-	١٩:	١٣٦	١		١:	١٢١٨	٢		:
١٠٠	١		٢٩:	٢١٠	١		٢:	٧٠٧	١	٥١-	٥٠:
٢١٠	١		١١:	٢١١	١			١١٢٩	٢		
٥٧٥	١	١٢-	١١:	١١٢٥	٢		٧:	١٢٤٠	٢		
٦٢٥	١			١٢٩	١	٩-	٧:	٢٨	٣	٥٦-	٥٥:
٩٠٩	٢		١٢:	٥٧٥	١	١٢-	٧:	١٢٥٤	٢		٥٦:
٩٣٧	٢	١٧-	١٦:	٧٤	١		٩:	١٢٥٤	٢		٥٦:
٢٠٥	٣		٢٢:	٢٢	٣		١١:	١٢٧٣	٢		٥٦:
٤٠٤	٣			١٠٩	١			١٢٢٣	٢	٦-	٥:
١٥٧	١			١٤٢	١	١٥-	١٢:	١٢٧٠	٢		
٢٥٢	١		٦:	١٢٣٢	٢	١٥-	١٤:	١٢٧٣	٢	٧-	٦:
٦٢٣	١			٧٨٢	٢		١٥:	١٩٧	١		٧:
٢٢٩	٣		٢٧:	١٤٦	١		١٧:	١٢٦٣	٢	١١-	١٠:
٦٨٤	١		٣٠:	٢٥٨	١			١٢٥٤	٢		١٢:
٦٨٥	١			١٨٢	١		٥٤:	١٢٦٢	٢		

191	1	13:	21	833	2	02-	00:	13	064	1	24:	9
817	2			147	1		08:		207	1	28-	27:
1103	2			291	1	21-	13:	14	1208	2	3:	10
190	1	10:		298	1		10:		290	1	8-	7:
1107	2	12-	10:	401	1		20:		1280	2	13-	12:
190	1		16:	297	1		21:		739	1		20:
909	2		18:	408	1		22:		739	1		
1184	2		28:	411	1	28-	20:		932	2		
908	2		41:	816	2	31-	20:		1137	2		27:
178	1	14-	2:	93	1		9:	10	43	1	21-	29:
210	1		11:	82	1		14:		948	2		22:
783	2	12-	11:	94	1				200	1		40:
460	1	14-	13:	602	1				206	1	7-	1:
922	2		10:	69	1		24:		408	1	7-	2:
922	2	40-	27:	194	1		4:	16	141	1		0:
236	1	44-	41:	1204	2		9:		180	1		6:
603	1		2:	402	1		13:		78	1		
74	1		9:	1226	2	19-	10:		142	1		11:
070	1			48	1		17:		08	1	10-	12:
112	1		12:	149	1				131	1		14:
97	1		13:	831	2				202	1	10-	14:
613	1		14:	70	1		18:		181	1	24-	20:
187	1	17-	16:	996	2				162	1		27:
336	1		24:	1346	2				436	1		
1147	2			1302	2				942	2		
700	1		22:	166	1		19:		143	1		28:
187	1		20:	471	1	22-	22:		004	1		29:
186	1		27:	1113	2				803	2		
194	1	28-	27:	98	1		2:	17	204	1	20-	29:
191	1		28:	88	1	2-	2:		240	1	8-	1:
187	1		1:	82	1		0:		187	1		6:
194	1		2:	691	1				190	1		
081	1		10:	1090	2				283	1		
1182	2		28:	1200	2				410	1		8:
99	1		20:	123	1		10:		183	1		18:
612	1		1:	08	1	12-	10:		696	1		19:
178	1	13-	1:	123	1	13-	11:		218	1		20:
210	1			131	1		12:		218	1		
200	1		21:	907	2		10:	18	222	1		
1220	2		22:	1296	2	17-	10:		290	1		28:
200	1	40-	20:	1304	2		20:		211	1		
721	1		40:	1297	2	22-	21:		461	1		20:
483	1		0:	482	1		1:	19	1200	2	40-	29:
717	1		7:	600	1				283	1		41:
718	1			483	1		17:		283	1		42:
608	1	13-	7:	739	1	29-	27:		200	1	00-	48:
661	1		7:	142	1		28:		147	1		9:
661	1		13:	164	1				706	1	10-	14:
624	1	12-	14:	880	2				428	1		17:
1100	2		17:	887	2				200	1	21-	20:
1106	2		18:	927	2	4-	3:	20	000	1	29-	27:
407	1		26:	470	1		10:		147	1		43:
920	2			460	1		16:		820	2		
169	1	28-	27:	1100	2	19-	18:		820	2		
1064	2		28:	28	1	21-	20:		1034	2		44:
1220	2			1280	2		22:		1034	2		46:
1224	2			740	1		28:		1229	2	49-	47:
178	1		29:	728	1	7-	2:	21	240	1		04:
893	2			1211	2		9:		480	1		
994	2		21:	298	1	11-	10:		180	1		00:
619	1	22-	21:	1106	2				478	1		

٥٦٤	١	٣٠-	٢٨:	٣	١٣١٥	٢	١٠-	٥:	٢٨	١٣٤٣	٢	٣٥-	٣١:	٢٦
٥٦٤	١		٣٠		١٣١٢	٢		٩		١٣٤٤	٢		٣٣	
٧٥٦	١		١٢:	٤	١٣٥٣	٢		١٠		٣٤٠	٢	٣٩-	٣٦	
٢٤٥	١		١٩		١٣١٢	٢	١٩-	١٦		٦٨٧	١		٣٨	
٤١١	١	٤١-	٣٧		١٣٥٣	٢		١٧		٧٣٥	١			
٦٦٦	١		٣٨		١٣٠١	٢				٧٤٠	١			
٢٨٠	٢	٤١-	٣٨		٦٣٣	١		١٨		١١٩٥	٢			
٤١١	١		٤٠:		٦٣٣	١				٧٠٨	١	٥٠-	٤٩	
١٧٦	١	٣٠-	٢٧:	٥	١٢٠٤	٢				٧٢٠	١		٥٠	
٩٤٠	٢		٣٠		٨٨٤	٢	١٩-	١٨		٧٨٠	٢			
٣٤٠	٢		١:	٦	٩٤٤	٢	٢٠-	١٨		١٦٢	١		٥٣	
١٨٢	١	٤-	١		٢١٧	٢		١٩		١١٠٨	٢	٥٤-	٥٣	
١٨١	١	٦-	١		٧٢	١				٩٩٤	٢		٥٦	
١٨٠	١		٣		٧٨١	٢				١١٣٧	٢	٦٤-	٥٧	
٤٨٥	١		٢١		٩١١	٢				٧٠٨	١	٦٠-	٥٩	
٩٨٢	٢		٢٢		١٠٤٥	٢				١١٣٨	٢			
٣٩١	١	٤٤-	٣٠		١٢٣٣	٢				١١٣٨	٢	٦٣-	٦٢	
٤٠٨	٢	٤٤-	٢٢		١٢٢٦	٢	٢٠-	١٩		١١٣١	٢	٦٥-	٦٣	
٢٩٥	١		٢٤		٢٩٢	٢		٢٠		١١٣٩	٢	٦٨-	٦٥	
٢٩٨	٢	٣٥-	٢٤		٩٦	١				١١٣١	٢		٦٦	
٣٤٧	٢	٤٤-	٢٤		٨٠٢	٢				١١٣١	٢		٧١	
٣٤٨	٢	٤٤-	٢٧		٨٥٣	٢				١٣١٠	٢		٧٤	
٣٩٨	١	٤٠-	٢٩		٨٥٩	٢				١١٠١	٢		١:	٢٧
٤٠١	١		٤٢		٨٦٥	٢				١١٤٦	٢	٢-	١	
٤٠٨	١		٤٥		٩٥٥	٢				٦٢٤	١	٧-	٣	
٤٠٨	١	٤٦-	٤٥						مرفس (انجيل)	١٨٧	١		٥	
٣٤٧	٢	٥٢-	٤٥		٢٣	٢		١		١١٤٤	٢		١١	
٤٠٩	١	٤٨-	٤٧		١٢٥	١	٤-	١		١١٢٩	٢		١٨	
٤١٠	١		٤٨		٣٤٧	٢	٨-	٤		١١٦٦	٢			
٣٤٨	٢		٥٠		٣٤٧	٢		٧		١١٠٩	٢		١٩	
٤١٠	١		٥١		١٠٩	١				١١٥٣	٢			
٩٣٧	٢		٥٦		٣٤٨	٢	١١-	٨		١١٧٨	٢			
٢٧٩	٢	٧-	٢:	٧	١٨٠	١		٩		٢٩٨	٢		٢٠	
١٧٤	١	٤-	٣		٢٤٩	٢	١١-	١٠		١١٠٩	٢			
١٢٣٤	٢		٤		١٦٢	١		١٣		١١٤٤	٢		٢٣	
٩٣	٢		٧		٣٤٧	٢		١٤		٢٧٨	٢		٢٤	
٩٨٤	٢		١٨		١٦٨	١				١١٤٤	٢			
٩٨٤	٢		٢١:	٨	٣٣٥	٢	١٥-	١٤		١١٨٧	٢	٢٥-	٢٤	
٥٩١	١	٢٥-	٢٣		٤١٢	٢				١١٩٣	٢	٢٥-	٢٤	
٢٨٩	١	٢٥-	٢٤		٢٤٨	١				٢٧٨	٢		٢٥	
٤٠٢	٢		٢٧		٢٤٧	١		١٥		٦٨	١			
٣٤٧	٢		٢٩		٢٩	٢		١٩		٧٠٥	١			
٣٤٨	٢				٢٩	٢		٢٠		٩٣٥	٢			
١٩٩	٢	٣١-	٢٩		٢٩	٢				١١٩٢	٢		٢٦	
١٩٧	١		٣١		١٥٦	١		٢١		١١٧١	٢	٢٠-	٢٨	
٤١٣	٢		١:	٩	٤٨٥	١	٢٢-	٢١		١١٧٤	٢		٢٠	
٧٤٥	١		٧		١٩٥	٢		٢٢		١١٧٢	٢		٢١	
١٩٧	١		٩		٦١٢	١				١٢١٦	٢		٢٤	
١٣١	١		١٣		١٥٦	١		٢٩		١٢٠١	٢		٢٧	
٣١٦	١		٢٤		٩٣٧	٢	٣٤-	٢٢		١١٩٨	٢	٤٣-	٢٩	
٩٩٣	٢				٦٨٤	١	٤٣-	٤٢		٩٠	٢		٤٢	
١٣٠٦	٢				٦٨٥	١		٤٣		٧٠٥	١			
٣٤٧	٢		٢٠		١٦٨	١	٢٠-	١٨:	٢	١١٠٢	٢		٤٥	
٩٨٤	٢		٢٢		٤١٠	٢		٢٧		١٢١٨	٢		٤٦	
٢٩٩	١		٤١		٣٤١	١	٢٨-	٢٧		١٨٧	١		٥١	
١٣٠	٢		٤٣		٣٣٥	١		٢٨		١٢١٥	٢	٥٢-	٥٢	
١٣٠	٢				٦٨٧	١		٥:	٣	٢٨	٢	٥٦-	٥٥	
٢١٠	١		٤٧		١٥٧	١	١٩-	١٦		١٢٠٧	٢			
٣٤٧	٢		١:	١٠	٣٢	٢		١٧		١٢٤٦	٢		٥٩	
٤٨٢	١				٢٥٩	١		١٨		١٢٤٠	٢	٦٠-	٥٩	
٦٥٠	١				٤٧٨	١	٣١-	٢١		١٩٤	١	٦٤-	٦٢	

۱۲۶۸	۲	۱۰-	۹:	۱۶	۱۱۳۲	۲	۶۸:	۱۴	۱۱۶	۱	۹-	۲:	۱۰
۷۴۰	۱		۱۰		۸۱۰	۲	۷۱		۴۰	۱		۶	
۳۰۸	۱		۱۱		۱۱۳۲	۲			۲۱۰	۱		۱۰	
۳۹۶	۱				۱۳۱۰	۲			۱۳۰	۱		۱۷	
۴۲۷	۱				۱۳۴۷	۲	۷۲		۲۰۴	۱			
۹۵۹	۲		۴:	۱۹	۱۱۰۱	۲	۱:	۱۰	۲۱۰	۱		۲۳	
۱۳۳۵	۲		۶:	۲۰	۱۱۲۲	۲			۱۳۰	۱		۳۰	
۱۲۰۴	۲	۱۸-	۱:	۲۲	۱۱۵۷	۲	۵-	۲	۳۴۷	۱		۳۲	
۱۲۱۳	۲		۱۵		۱۱۶۶	۲		۷	۶۱۵	۱	۴۵-	۴۲	
۱۱۹۹	۲		۱۶		۱۱۴۴	۲		۹	۷۰۳	۱		۴۵	
۱۱۹۹	۲	۱۷-	۱۶		۵۴	۱	۱۰-	۹	۳۴۷	۱		۴۶	
۹۹۵	۲	۲۰-	۱۶		۱۱۲۹	۲			۷۵۹	۱		۴۷	
۱۰۲	۱	۲۰-	۱۹		۵۲۸	۱	۱۰:	۱۵	۳۴۷	۱	۱۰-	۱	۱۱
۶۹۰	۱		۲۰		۱۱۱۷	۲			۷۲۹	۱		۲	
۱۰۳۲	۲		۲۲		۱۱۴۴	۲			۳۴۹	۱		۹	
۳۹۹	۱	۲-	۱	۲۳	۱۱۶۵	۲	۱۱		۷۵۹	۱			
۶۱۸	۱	۳-	۱		۷۵۹	۱	۱۲		۹۰۹	۲	۱۴-	۱۲	
۶۲۶	۱				۱۱۷۱	۲	۱۵		۱۹۱	۱		۱۷	
۶۳۸	۱		۴		۱۱۹۲	۲			۷۰۴	۱	۱۲-	۸	۱۲
۴۵۶	۱		۱۴:	۲۵	۱۱۷۲	۲	۲۱		۶۷۷	۱		۱۸	
۶۴۸	۱				۱۱۹۷	۲			۱۲۶	۱		۲۶	۱۳
۱۰۷۱	۲				۱۲۴۳	۲	۲۳		۳۴۹	۱		۳	۱۴
۱۰۲	۱		۱۶		۱۱۰۲	۲	۲۵		۷۱۶	۱		۳	
۲۷۸	۱		۶:	۲۶	۳۵۰	۱	۲۶		۷۱۸	۱			
۳۸۸	۱		۱:	۲۷	۱۱۹۹	۲	۲۸-	۲۷	۳۴۷	۱	۹-	۳	
۴۵	۱				۱۱۲۷	۲		۲۹	۶۵۸	۱			
۵۲۱	۱				۹۰	۱	۳۲		۳۴۹	۱		۵	
۵۲۳	۱				۱۱۰۲	۲	۳۳		۶۸۴	۱			
۳۲	۱		۳:	۲۹	۱۲۱۸	۲	۳۴		۷۱۹	۱			
۶۹۵	۱	۸-	۴		۲۸	۱	۴۰		۷۲۱	۱	۹-	۶	
۱۱۷۶	۲	۱۲-	۱۰:	۳۱	۱۲۰۷	۲	۴۰		۳۴۹	۱		۷	
۹۱۰	۲		۹:	۳۳	۱۲۲۱	۲	۴۳-	۴۲	۳۴۷	۱	۲۶-	۱۷	
۱۲۳۷	۲	۲۰-	۱۹:	۳۴	۱۲۴۰	۲	۴۳		۳۴۹	۱		۱۸	
۲۲۸	۱		۵:	۳۵	۱۲۴۲	۲			۴۰۷	۱		۲۲	
۱۱۳۴	۲		۱۱		۱۲۲۲	۲	۴۴		۴۵۴	۱	۲۴-	۲۲	
۱۱۷۴	۲		۱۵		۲۸	۱	۱	۱۶	۸۰۰	۲		۲۴	
۱۰۲	۱		۱۷		۱۲۶۰	۲	۲		۸۰۶	۲			
۶۸	۱		۱۹		۱۲۶۱	۲	۴-	۲	۳۴۹	۱		۲۰	
۹۳۸	۲				۱۲۶۱	۲	۷		۱۰۰۵	۲		۳۲	
۲۸۵	۱		۸:	۳۶	۱۳۵۴	۲	۸		۱۰۰۷	۲			
۲۷۹	۱	۹-	۸		۱۲۶۹	۲	۱۰		۷۴۲	۱		۳۶	
۴۲۶	۱				۱۳۵۴	۲	۱۲		۱۰۸۷	۲			
۱۲۳	۱				۹۹۱	۲	۱۴		۱۱۱۳	۲			
۴۴	۱				۱۳۵۴	۲			۱۱۱۰	۲	۴۲-	۴۱	
۴۳۳	۱				۱۳۰۲	۲			۷۸۸	۲		۴۳	
۴۵۲	۱				۱۳۰۷	۲			۸۸۸	۲			
۵۲۴	۱				۹۲۷	۲	۱۵		۳۴۷	۱	۵۲-	۴۳	
۶۰۲	۱				۲۱۷	۱	۱۶		۱۱۱۲	۲	۴۷-	۴۴	
۷۶۰	۱				۱۳۰۳	۲	۲۴		۳۵۰	۱		۴۷	
۸۶۱	۲						مهرانی ارضیا		۱۱۳۷	۲	۴۹-	۴۸	
۳۳۹	۱		۳۲:	۳۷	۱۱۷۶	۲	۱۲:	۱	۱۱۰۶	۲	۵۲-	۴۸	
۱۰۶۲	۲		۶:	۴۰	۱۱۹۵	۲			۱۱۲۲	۲		۵۳	
۱۰۶۲	۲		۸		۱۱۸۸	۲	۲۶-	۱:	۱۱۳۸	۲		۵۶	
۱۰۱	۱		۹	۴۱	۶۳۸	۱	۲۴:	۳	۱۱۲۷	۲		۵۸	
۳۰۴	۱						مهرامیر		۱۱۳۸	۲	۶۱-	۶۰	
۱۰۴۷	۲				۱۱۹۲	۲	۲-	۱:	۱۹۹	۱	۶۲-	۶۱	
۷۹۲	۲	۱۰-	۹		۲۰۰	۱		۹:	۱۱۳۷	۲			
۲۷۹	۱		۱:	۴۲	۱۹۰	۱		۲:	۱۱۴۰	۲		۶۵	
۲۷۹	۱		۲		۱۹۹	۱	۵-	۴	۱۱۳۱	۲		۶۶	
۴۶۶	۱	۱۸-	۱۷:	۴۴	۱۹۰	۱		۷	۱۱۳۴	۲	۷۲-	۶۷	
۹۸۷	۲		۲۴		۴۴۰	۱		۳:	۱۱۳۱	۲		۶۸	

٥٩٢	ش	٢٠: ٢٠	٧٥٠	ش	٤- ٣: ٨٩	١٢٤٣	ش	٨: ٤٥
٢٢٨	م	١٤: ١	٢٨٠	م	٩- ٨:	١٢٤٤	ش	
٥٨	ش	١: ٣	٤٠٨	ش	٩:	٢٢٦	م	١٠: ٤٦
١٢٨	ش	:	١٢١١	ش	٣٧- ١٩:	٣٣٢	ش	٧: ٤٩
١٢١	ش	٣	١٠٦٢	ش	٢٧- ٢٦:	٤٢٩	ش	
١٤١	ش		٤٧٧	ش	٣٧- ٣٦:	٢٢٣	ش	١٥- ١٤: ٥٠
١٨٤	ش		١١٧٦	ش	٥٠:	٢٨٨	ش	٣: ٥١
٧٢٧	ش		٥٨٦	ش	١٥: ٩١	٢٧٧	م	٩- ٧:
٤٨٤	ش	٢- ١:	٧٢٥	ش	١٣- ١٢: ٩٢	٢٢١	ش	١٠:
١٨٥	ش	٤- ١:	١٢٦٧	ش	١: ٩٣	٢٩٧	ش	١١:
٥٢٣	ش	٢: ٤	٢٠٩	ش	٢- ١: ٩٧	٧٧٩	ش	١٠: ٥٤
٥٨	ش	٥:	٢٠٩	ش	١: ٩٩	٧٧٩	ش	١٨:
١٣٠	ش		٥٢١	ش	٢: ١٠٤	٥٦٣	ش	٥- ٤: ٥٨
١٣١	ش		١١٧٧	ش		٢٧٩	م	١: ٦٣
		نحميا	١٢٦٧	ش		٢٨٠	ش	
٣٢٦	ش	١: ٣	١٢٤٧	ش	٢٩:	١٠١٦	ش	٢: ٦٥
٩٧٧	ش	١٠: ٨	٢٧٣	م	٤٠: ١٠٥	٢٨٠	م	٧:
١٢٨٥	ش		٢٧٦	م	١١- ٩: ١٠٦	١٥٢	ش	٦: ٦٦
٢٧٣	م	١٥: ٩	٥١٨	ش	١٤- ١٠: ١٠٧	٥٦٣	ش	١٨:
٤٢٣	ش		٦٨٩	ش	١٦- ١٤:	٦٠٠	ش	
٦٦١	ش	٣٢: ١١	٢٨٠	م	٣٠- ٢٣:	١١٩٦	ش	٢٠- ١: ٦٩
٢٩١	ش	٢٨: ١٣	٤١٠	ش	٣١- ٢٣:	١٩٢	ش	٣:
		نشيد الأنشاد	٤١٣	ش	٣٠- ٢٩:	٦٨	ش	٤:
٧٧٨	ش	٤- ٢: ١	٧٩٧	ش	٦- ٤: ١٠٩	١٩٢	ش	
٧١٨	ش	١٢:	٧٥٠	ش	٤: ١١٠	٩٣٨	ش	
١٢٧٥	ش	١٦: ٢	٤٩٩	ش	٨: ١١٤	١٩٢	ش	٩- ٧:
١٢٧٣	ش	٤- ١: ٣	٧٢٦	ش	٢٥: ١١٧	١٩٢	ش	٩:
٢٨٥	ش	١٢: ٤	٦١٣	ش	٢٠: ١١٨	٦٩٥	ش	١٨- ١٧:
٢٨٦	ش		٧٢٧	ش	٢٢:	١١٧٧	ش	٢٠:
٢٨٦	ش	١٥:	٩٨٦	ش	٢٤:	١٩٢	ش	٢١:
٧٧٩	ش	١: ٥	١١١٩	ش	٢٧:	١٢١٣	ش	
١٣٠٨	ش	٣: ٦	١٠٦	م		١٢١٦	ش	
٧٢٥	ش	٨- ٦: ٧	١٠٣٤	ش	٦٧:	١٩٢	ش	٣١- ٣٠:
		هوشع	٦٦	م	٩٦:	١٩٣	ش	٣٤- ٣٢:
٢٥٢	ش	٢١- ١٩: ٢	٢٨٨	ش	١١٧:	٤٢١	ش	١٦: ٧٢
٣٠٢	م	٢٣:	١١٥٧	ش	١١: ١٣٢	٨٣	ش	٢٥: ٧٣
١٥٩	م	٣: ٥	١٢١١	ش		١٠٤٨	ش	٢٥:
٥٢٢	ش	٧- ٤:	٣٣٠	ش	٨- ٧: ١٤٦	١٢٤٧	ش	١٥: ٧٧
١٥٦	م	٣- ١: ٦			مكابيين الاول	٢٧٦	م	١٦:
٦٥	ش	٣- ١: ٩	٥٨١	ش	٢١- ٤١: ٤	٤٠٨	ش	١٩- ١٦:
١٥٤	م	١٢: ١٠	٧٢٤	ش	٥١: ١٣	٤١٠	ش	
٧٠	ش	١: ١١	٧٢٥	ش		٢٧٦	م	١٩:
٧٤٩	ش	٤:			مكابيين الثاني	٦١٧	ش	٢٠:
١٠٤٣	ش	٩:	٥٨١	ش	٩: ١	٢٧٥	م	١٣: ٧٨
١٩١	ش	٧: ١٢	٧٢٤	ش	٤: ١٤	٤٢١	ش	٢٥- ٢٤:
٢٢٣	ش	٤: ١٣	٧٢٥	ش		٢٧٣	م	٢٥:
٩٧٦	ش	١٤:			ملوك الاول ذول	١٢٢٣	ش	٦٦- ٦٥:
		يشوع	٦٦٩	ش	١٠: ٢	٦١٧	ش	٧١- ٧٠:
٢٧٦	م	٨: ٣	٨١٨	ش	٦- ٥: ٦	٢٦٩	م	٧٢- ٧٠:
٢٧٦	م	١٤:	٢٦٥	ش	٢٥- ٢٣: ١٦	٢٦٨	م	١٣: ٧٩
٨٤	م	١٩: ٧	٣١٩	ش	٢٤- ٢٢: ١٧	١٢٧٠	ش	٢- ١: ٨٠
٥٩٧	ش	١٩:	١٢٣٢	ش	٣٨- ٣٣: ١٨	٢٥٦	م	
٢٧٣	ش	٣٢: ٢٤	١٠٥٠	ش	٤: ١٩	٨٩٧	ش	
		يعقوب (رسالة)	٧٥٥	ش	١٠:	٢٧١	م	١٧- ٨:
٧٠	ش	١٨: ١	٤١٢	ش	١٣- ١١:	٢٧٢	م	١٧- ٨:
٧٣	ش				ملوك الثاني	٢٥٦	م	١٤:
١٢٨٩	ش	٢٥:	٤٦٣	ش	١١- ١: ٢	١٨٢	م	١٥- ١٤:
٨٢	م	١: ٢	٢٧٦	م	٨:	٢٠١	م	١٩- ١٤:
١٢٥	م	٩:	١٣١	ش	١١:	٨٩٧	ش	
٩٥٨	ش		٥٠٦	ش	٢٥: ١٤	٥٨٦	ش	٧: ٨١
						٦٤٣	ش	٨- ١: ٨٢

٤٤٨	١	١٤:	١	١٢٠	٩:	١	٩٢٤	٢	٢٣:	٢
٤٦٣	١			١٢١			٨٧١	٢	١٨:	٣
٥٢١	١			١٤١			٧٣٨	١	٤:	٤
٥٢٦	١			١٧٨			٨٣٥	٢		
٦٩١	١			٢٢٢			١٠٥٦	٢	٧:	
١٠٠٤	٢			٦٢٥	١		١٢٩٨	٢	١٥- ١٤:	٥
١٠٨٨	٢			٧٢٧	١		١٢٩٧	٢	١٦:	
١٢٧	٢	١٦- ١٤:		٨٢١	٢				يهوذا (رسالة)	
١٤٦	٢			٨٥٣	٢		٥٥٧	١		
٢٨٨	٢			٨٩٤	٢		٩٥٧	٢		١٥
٣٣٩	٢			١٥٥	٢	١٠:			يوحنا (إنجيل)	
١٠٨١	٢			٢٩١	٢		٢٩	٢	١:	١
١٠٨	٢	١٧- ١٤:		٩٥٩	٢		٣٠	٢		
١٧٩	٢	١٥:		٥٤	٢	١١:	٧٩	٢		
١٢٤	١			٩٦	٢		١٧٨	٢		
٧٥٩	١			٢٩١	٢		١٧٨	٢		
٦٨	٢			٤٧٤	١		١٩٢	٢		
١١٠	٢	١٦:		٥٣٩	١		١٩٣	٢		
٢٥٩	٢			٥٧٤	١		٢١٦	٢		
٤١٢	٢			١١٥٨	٢		٢٢٢	٢		
٩٢	١			٢٥٦	٢	١٣-	٢٣٤	٢		
١٧٥	١			٦٠	٢	١٢:	٢٣٩	٢		
٤٠١	١			٧٦	٢		٢٩٠	٢		
٨٣٣	٢			١٦٨	٢		٤١٥	٢		
١٠٨٠	٢			٢٠٤	٢		٥٥	٢		
١٠٩٣	٢			٢٢٣	٢		١٠٠٥	٢		
٢٠	٢	١٧- ١٦:		٢٩١	٢		١٠٢٦	٢		
٨٥	٢	١٧:		٧٠٥	٢		١٩٣	٢	٢:	
١١٠	٢			٧٠٧	٢		١٩٣	٢		
١١٥	٢			١٠٣٦	٢		٨٤	٢		
١٨٦	٢			٥٨	٢	١٣- ١٢:	٧٨	٢	٣:	
٤٠	١			٢١٤	٢		٢٩٠	٢		
١٠٥	١			٦٣٢	١		٥٥	٢		
٤٢٤	١			٦٤٠	١		٩٠٦	٢		
٨٩٤	٢			٢٢٣	٢	١٣:	٩٠٧	٢		
١٤٧	١	١٨- ١٧:		٢٠٨	١		١٠٢٦	٢		
١٠٧	٢	١٨:		٠	٢	١٤:	١٢١	٢	٤:	
١٢٠	٢			٣١	٢		١٣٥	٢		
١٦١	٢			٥٢	٢		١٣٦	٢		
١٢٣	٢			٥٧	٢		١٤١	٢		
١٧٨	٢			٦١	٢		١٧٨	٢		
١٧٩	٢			٦٩	٢		١٨٨	٢		
١٨٠	٢			١٤٧	٢		٢١٣	٢		
١٨١	٢			١٦٣	٢		٢١٦	٢		
١٨٢	٢			١٧٨	٢		٢٩٠	٢		
١٩١	٢			١٨٠	٢		٢٧٩	٢		
١٩٣	٢			١٨١	٢		٤٨٥	٢		
٢٢٣	٢			١٨٧	٢		٥٢٠	٢		
٢٤٠	٢			١٩٠	٢		٨٢٦	٢		
٢٤٢	٢			٢٠٨	٢		١٠١٨	٢		
٣٥	٢			٢٩٣	٢		٦١	٢	٥:	
٣٧٠	٢			٢٢٣	٢		١٢٠	٢		
٤٣٦	٢			٢٢٨	٢		١٧٨	٢		
٧٥٧	٢			٢٣٤	٢		٢٩٠	٢		
٨٢٥	٢			٢٣٩	٢		١٢٥	٢	٦:	
٨٢٩	٢			٢٣٩	٢		١١٦	٢	٧- ٦:	
٨٣٣	٢			٢٩١	٢		١٢٤	٢	٧:	
٨٣٦	٢			٢٩٦	٢		١٤٠	٢		
٩٢٥	٢			٤٠٧	٢		٧٩	٢	٨- ٧:	
٢٩٨	٢	١٩:		٤١٥	٢		٦٣	٢	٩- ٨:	
٣٥٠	٢	٢٠- ١٩:		٤٠	٢		١١٦	٢		

93		17:	2	200		41:	1	240		28-	19:	1
91				70		42:		247		21-	19:	
212				1244				78			20:	
229				170		43:		116		23-	22:	
817				270				202			24:	
1170				290				204		23-	26:	
80		19:	2	717				248		24-	27:	
229				240		44:		76			27:	
243				182		40:		179				
701				200				247				
100	21-	19:		171				124				
920				1022				240			28:	
09		21:		1110				211				
128				97		47:		717				
229				182				20			29:	
243				200				98				
787				122		49- 47:		178				
07	22-	21:		207				182				
1211		22:		80		48:		297				
207	20-	22:		90		49:		101				
171		24:		147				221				
202				178				294				
78	20-	24:		182				201				
202		20:		182				717				
219		28:		200				1028				
478		1:	2	207				1148				
1129				72				1222				
240	11-	1:		149				1290				
292		2:		80		00:		240		24-	29:	
207				97		01:		179			20:	
202				178				210				
000				182				117		24-	21:	
992				197				249				
1242				197				127				
08		2:		201				179			22:	
270				709				249				
228				711				1272				
294	0-	2:		824				418		24-	22:	
210				107		1:	2	178			24:	
217	7-	2:		128				182				
178	7-	2:		717				207				
270	8-	2:		240		11-	1:	207				
207		4:		240				297				
07		0:		971		2:	2	07				
248				1012				09				
249				200		2:	2	208				
270				122		11:	2	717		27-	20:	
287				127				29		29-	20:	
1017				292				09				
1224				180				240		01-	20:	
09		6:		088				178			27:	
70				709				182				
147				772				07				
407				220		12:		201				
287	8-	7:		227		12:		29			29:	
70		7:		709				1200				
212				727		17-	12:	100			40:	
270				240		22-	12:	76			41:	
207		9:		207				89				
409				207		17-	10:	178				
80		10:		100		17-	10:	182				

٥٦	ش	٣٢:	٣	١٤٤	م	١٧:	٣	٣١٤	م	١٠:
٢٢٣	ش			٢٠٨	م			٥٠٥	ش	
٢٥٠	ش			٢١٠	م			١٥٨	م	١١:
١٨٠	م	٣٣- ٣٢:		٣٤٦	ش			٣٢٠	م	
٢٢٣	ش	٣٣:		٥١٣	ش			٥٦	ش	
٣٧٦	ش			٧٦٢	ش			١١٤	م	١٣- ١١:
٤١٨	ش			.	م	١٨:		٣٤٧	ش	
٤٢٠	ش	٣٤- ٣٣:		١٠١	م			٣٤٧	ش	
٢١٠	م	٣٤:		١٣٩	م			١٩٦	م	١٢:
١١٣	ش			١٦٩	م			١٩٧	م	
١٧٥	ش	٣٤:		١٨١	م			١٠٨٨	م	
٤٣٥	ش			٢٣٦	م			١٢٦	م	١٣:
١٧١	م	٣٥:		٣٩٧	م			١٩٩	م	
١٨١	م			١٠١	ش			٣٤٠	م	
١٩١	م			٣٤٤	ش			٣٤٢	م	
١٩٢	م			٣٦٦	ش			٩١	ش	
٢٠٦	م			٥٥	م	١٩- ١٨:		٩٥	ش	
٢٠٧	م			١٢٩	م	١٩- ١٨:		١٢٠	ش	
٢٠٨	م			٥٥	م	١٩:		١٢٢	ش	
٢١١	م			١٠٤	م			٤٦٢	ش	
٤١٢	م			١٢٠	م			٤٦٣	ش	
١١١	ش			١٥٢	م			٥٣٤	ش	
٣٤٦	ش			١٧١	م			٨٢٤	ش	
٣٧٧	ش			٤٨	ش			٨٣٥	ش	
١٠١٦	ش			٤٩	ش			٩٨٩	ش	
١٠٧٦	ش			٦٠٢	ش			١٩٦	م	١٤:
١٤٩	م	٣٦:		٦٠٤	ش			١٩٧	ش	
٢٠٧	م			٧٣٨	ش			٧٤٧	ش	
٢٠٨	م			٧٩٨	ش			٧٤٨	ش	
٣٤٦	ش			١٠٥٦	ش			٩٩	م	١٥- ١٤:
٥٣٢	ش			١٤٤	م	٢١- ١٩:		١٣٦	ش	١٥:
٨٢٧	ش			٧٦٣	ش	٢١- ١٩:		١٣١٣	ش	
٤٧٨	ش	١:	٤	١٢٠	م	٢٠:		٧٨	م	١٦:
٣٠٢	م	٣-	١:	١٥٢	م			١٠٨	م	
٣٤٥	م	٤٢-	١:	١٠٥٦	ش			١٢٧	م	
٢٥٠	م	٢:		٩٣	م	٢١:		١٧١	م	
٢٤٧	ش			١١١	م			١٧١	م	
٣٤٥	م	٥:		٥٤٦	ش			١٧٢	م	
٦٨٧	ش	٦:		٣٢٤	ش	٢٢:		١٨١	م	
٦٨٧	ش	٧:		٣٢٥	ش			١٨٧	م	
٣٠٧	م	٩:		٣٤٥	م	٢٠- ٢٢:		٢٠٨	م	
٣٥٤	ش	١٠:		٣٤٥	م	٢٣:		٢٠٨	م	
٤١٧	ش			٣١٥	م	٢٦:		٣٢٠	ش	
١٠١٧	ش			٣٤٨	ش			٣٤	ش	
٣٤٥	م	١١:		٦٣	م	٢٨:		٤٣	ش	
٢٧٥	ش			٣١٥	م			٦٢	ش	
٢٧٥	ش	١٢:		١١٧	م	٢٠- ٢٨:		٧٥	ش	
٥٦٧	ش			١٦٨	ش	٢٩:		١٠١	ش	
٨٠	م	١٣:		٢٦٨	ش			١٠٤	ش	
٢٨٢	م	١٤- ١٣:		٩١٨	ش			٢٣٨	ش	
٨٥١	ش	١٤- ١٣:		٢٥٨	م	٢٠- ٢٩:		٢٧٩	ش	
١٣٧	م	١٤:		٥٨	ش	٢٠- ٢٩:		٣٤٦	ش	
٢٠٣	م			١٨٢	م	٢٠:		٣٥٧	ش	
٣٨٩	م			٢٤٨	ش			٤٤٥	ش	
٢٧٥	ش			١٦٥	م	٣١:		٦٩٠	ش	
٤٢٧	ش			٢٠٧	م			٧٤٨	ش	
٤٢٥	ش	١٥:		٢٠٨	ش			٨٠٤	ش	
٢٠٦	م	١٩- ١٧:		٣٤٧	ش	٢٢- ٣١:		٩٢٠	ش	
١٢٣	م	١٩:		١١٤	م	٢٣- ٣١:		١٠٩٠	ش	
٢٠٧	م			٧٠	ش			٢٠٩	م	١٧- ١٦:
١٤٣	م	٢٠:		٢١٣	ش	٣٤- ٣١:		٩٣	م	١٧:

229	24:	0	249	11:	0	194	21-20:
400			226	13:		00	24-20:
27			294	14:		79	
92			230			190	21:
241			231			423	
220			240	18-12:		728	23-21:
238			98	17:		94	22:
281			114			92	
467			181	17:		200	
248			208	17:		201	
207			214	17:		227	
278			293	17:		182	
280			294	17:		261	23:
826			410	17:		422	
828			238	17:		940	
872			881			248	24-23:
982			298	18-17:		207	
1017			181	18:		109	24:
1019			210			147	
1021			179	19:		128	
1122			179			89	20:
224	20-24:		181			207	
129	20:		208			108	26:
126			22			222	
210			27			207	
408			247			277	27:
234			880			278	
238			904			207	29:
208			110	21-19:		288	
023			171	20:		420	24-21:
207			208			1220	22:
282			212			297	24:
927			412			248	
940			879			200	
1274			27	22-20:		202	
130			242	22-20:		271	
103			208	21:		272	
198			231			879	
209			44			1020	
211			220			1222	
210			234			212	28:
44			238			240	29:
229			267			147	42:
277			1017			179	
402			208	22:		207	
877			211			182	44:
1017			238			297	40:
1019			277			240	04-47:
1282			1017			240	
192	27-26:		208	23:		201	47:
117	27:		238			129	48:
211			402			290	
224			881			201	04:
229			1207			201	1:
277			21	24:		1220	
222			129			240	2:
218	28:		127			192	3:
224			128			200	0:
224			147			128	7:
828			189			98	9:
129	29-28:		221			299	10:

79	08-	27:	7	281	1	22:	0	208	29- 28:	0
129	29-	28:		212	2	23:		229	1	
260	1			222	2			201	1	
210	29:			227	1			202	1	
208	1			219	2			120	2	30- 28:
228	1			102	2	22:		120	2	29:
229	1	30:		281	1			222	2	
27	20-	31:		287	1			270	1	
99	2			228	1			228	2	
99	2	32:		208	1			112	2	30:
212	2			282	1	20- 22:		227	1	
272	2			288	1	20:		002	1	
292	2			1122	2	21- 20:		280	2	
212	20-	32:		110	2	27- 20:		112	2	31:
272	2	33:		222	1			02	1	
179	2	34:		029	1			020	1	
299	2			97	2	27:		1200	2	
108	2	30:		02	1			79	2	29- 31:
202	2			108	1			128	1	32- 32:
221	2			222	1			220	2	32- 32:
220	2			90	2	27- 27:		210	2	33:
272	2			1227	2			117	2	32- 33:
282	2			220	1	1:	7	22	2	32- 33:
292	2			220	1			71	2	32:
282	1			227	2	12- 1:		112	2	
222	1			291	1	10- 1:		112	2	
298	1			200	1	2:		02	1	
101	2			200	2	2-		272	1	
1017	2			222	1	2:		282	1	
222	1	32:		709	1			112	2	30:
09	2	37:		208	2	0:		210	2	32:
101	2			208	2	7:		211	2	
101	2	37:		208	2	7:		212	2	
211	2			228	2	12- 7:		02	1	
212	2			1022	2	10:		227	1	
218	1			228	1	12:		227	1	
222	1			217	1			201	1	
222	1			702	1			277	1	
298	2			292	1	12- 12:		112	2	27- 32:
1017	2			20	2	10- 12:		112	2	37:
227	1	38:		298	1	10:		210	2	
212	2	39:		222	1			212	2	
277	1			227	1	21- 12:		02	1	
202	1			220	2	20- 17:		118	1	
1120	2			280	2	19- 18:		922	2	
228	20-	39:		207	2	19:		92	2	38- 37:
271	1			108	2	20:		272	1	
278	1	22-	39:	222	2			29	1	39- 37:
128	2	20:		228	2			20	2	20- 37:
209	2			220	2	20:		221	2	38:
218	2			220	2	22:		202	2	
222	1			91	2	20- 22:		92	2	
222	1			201	1	22:		02	1	
280	1			228	1			288	1	
108	2	21:		127	2	27:		272	1	
220	2			108	2			1227	2	
222	2			192	2	27:		110	2	20- 39:
222	1	22-	21:	292	1			272	1	21:
227	1	22:		228	1	27:		287	1	
222	2			207	1			202	2	22:
222	1	27-	23:	209	1			272	1	
09	2	22:		201	2			272	1	

1031	2	60:	2	87	1	07- 00:	2	101	م	44:	7
210	1	66:		203	م			102	م		
947	2			270	م			111	م		
188	م	68:		321	م			210	م		
207	1			807	2			213	م		
307	1			891	2			318	م		
490	1			902	2			240	1		
638	1			1088	2			304	1		
903	2			130	م	07:		898	2		
1018	2			108	م			1031	2		
1018	2			189	م			101	م	40- 44:	
208	م	69- 68:		191	م			1033	2	40:	
347	م			210	م			1310	2		
348	م			270	م			122	م	46:	
478	1			283	م			123	م		
100	م	69:		292	م			230	1		
179	م			111	1			236	1		
171	م	70:		304	1			136	م	47:	
208	م			388	1			147	م		
791	2	71- 70:		401	1			108	م	48:	
1046	2			446	1			179	م		
301	م	1:	7	621	1			240	م		
181	1			680	1			388	1		
699	1			761	1			1017	2		
497	1	2:		807	2			274	م	00- 48:	7
146	1	0:		826	2			77	م	00:	
736	1			807	2			168	م		
483	1	8:		891	2			62	1		
474	1	10:		947	2	61:		388	1		
347	م	14- 10:		1027	2	62- 61:		136	م	01:	
218	م	11:		191	م	62:		108	م		
299	م	12- 12:		197	م			179	م		
470	1	13:		634	1			212	م		
207	1	10:		86	م	63:		241	م		
190	م	16:		132	م			273	م		
207	1			136	م			274	م		
347	1			187	م			270	م		
003	1			248	م			292	م		
880	2			200	م			388	1		
393	م	17- 16:		220	م			681	م		
488	1			292	م			299	م	02:	
377	1	18- 16:		309	م			227	1		
303	1	18:		393	م			483	1		
003	1			294	1			191	م	03:	
1014	2			334	1			203	م		
470	1	19:		347	1			260	م		
477	1			423	1			87	1		
699	1			446	1			891	2		
83	م	23:		446	1			236	1	04- 03:	
470	1	20:		467	1			203	م	04:	
699	1			024	1			87	1		
324	1	26:		826	2			92	م		
91	م	27:		838	2			286	1		
003	1	28:		1018	2			368	1		
91	م	29- 28:		1018	2			606	1		
100	م			1021	2			680	1		
171	م	29:		1313	2			681	1		
103	1			101	م	64:		801	2		
470	1	30:		171	م			109	م	00:	
302	م	32:		207	م			274	م		
470	1			09	م	60:		1060	2		

179	22:	8	480	12:	8	462	23:	7
232			004			970		
222			947			032	22-	23:
21			1000			238		24:
21			1018			210		
91			1007			802		
221			202	12:	12:	032		20:
032			88	12-	12:	037		
727			272			238		26:
188	20:		207		14:	182		27:
190			238			288		
21			07			019		
118	26:		272			281	28-	27:
207			490			284		
247			829			477		
247			112	10-	14:	018		
744	27:		034			207	29-	27:
984			1200	16-	14:	101	21-	27:
107	28:		470		10:	137		28:
108			098			288		
188			762		10:	019		
196			210		16:	1018		
197			120			200	29-	28:
214			279			1226		
232			1282			127		29:
244			100		17:	284		
744			82	18-	17:	288		
749			112		18:	800		
880			112			1082		
982			108			1199		
1082			208			630	22-	42:
1207			210			470		43:
221	29:		212			202		40:
120			07			494		
279			279			177	26-	40:
880			020			1127	22-	40:
1287			678			190		46:
107	31:		238	19-	18:	612		
28	32-	31:	94		19:	202	22-	47:
299	32-	31:	214			127		
70		32:	274			200		00:
110			429			82	01-	00:
109			847			1242	02-	00:
100			026		21:	108		02:
97	33:		108		22:	120		9:
1189			160			88		12:
040	36-	22:	160			141		
71		24:	160			108		
77			221			179		
167			238			188		
1004			240			202		
109	20-	24:	282			241		
209		20:	22			242		
244			889			220		
000			1109			207		
246	26-	20:	1267			48		
71		26:	1270			71		
97			1276			72		
110			160	24-	22:	202		
109			144		24:	288		
167			108			477		

٤٦	١	٥:	٩	١٥٢	٤٧-	٤٦:	٨	٢٠٩	٣٦:	٨
٢٨٩	١			٤٢٩				١٠٥		
٥٨٢	١			٩٥		٤٧:		١٠٧		
٦٣٦	١			١٦٥				٢٨٨		
٧٦	٧-	٦:		٢٢١				٥٤٢		
٧٦		٧:		٦٤٨	١			٦٣٦		
٢٢٩				٥٤٥	١	٤٨:		١١٦٢	٢	
٢٤٥				٢١٤		٤٩:		٤٧٥	١	٣٧:
٢٤٥		١١:		٨٨٠	٢			٥٤٥	١	٤٢- ٣٧:
٩٨		١٤:		٢٥٢	١	٥٠- ٤٩:		١٨٨		٣٨:
٢٠٢		١٦:		٤٨٨	١			٢٠٩		
٦٣٥	١			٤٧٥	١	٥٠:		٢٤٧	١	
٩٤٨	٢	٢٢:		٢٨	١	٥١:		٢٤٧	١	
٥٩٥	١	٢٧:		٦٨١	١			١٠٢٦	٢	
٢٨٩	١	٣٧- ٣٥:		٩٢١	٢			٢٥٦	١	٤٠- ٣٨:
٢٢٩		٣٨- ٣٥:		١٠٢٤	٢			٩٥		٣٩:
١٢٩		٣٨- ٣٦:		٥٤٥	١	٥٣- ٥١:		٥٤٤	١	
١٤٤		٣٩:		٢٩٢		٥٢:		٢٢١		٤٤- ٣٩:
٢٩٧				٤٠٢				١١٨	١	٤٠:
٦١	١			٢٨٢	١			٤٧٥	١	
٢٨٩	١			٥٤٥	١			٦٩٩	١	٤٠:
٧٦٢	١			٢١٤		٥٤:		٨٨٠	٢	
١١٩٦	٢			٩٤		٥٥- ٥٤:		٥٤٤	١	٤١:
١٢٩٤	٢			١٥٠				٥٥٠	١	
٧٦٢	١	٤١:		١٥٧				١١٢		٤٤- ٤١:
٩٣٥	٢			١٠٧٠	٢			١٥٩		
١٢٩٢	٢			٥٤٥	١	٥٨- ٥٤:		٢١٠		٤٢:
١٦٦	٣-	١:	١٠	٩٧		٥٦:		٢٤٧	١	
٧٨		٥:		٥٤٨	١			٤٥٠	١	
١٥٨		٧:		٢٠	١	٥٨- ٥٦:		٨٨٠	٢	
١٥٨				٥٢٨	١			١٥٢		٤٤- ٤٢:
١٧٩				٥٤٥	١	٥٧:		١٠٢٧	٢	
٢٤١				٩٧		٥٨:		٢٩	١	٤٣:
٢٧٠	٨-	٧:		١٥٨				٦٤٨	١	
٢٦٩		٨:		١٩٢				٧٥٧	١	
١٦٦		٩:		٢٠٦				٨٢٤	٢	
٢٠٢				٢٢١				٩١٠	٢	
٢٤١				٢٢٢				٩٤		
٨٢٦	٢			٢٤٤				٢٩٩		٤٤- ٤٣:
١٠٨٠	٢			٤١٢				٤٣٥	١	
٢٩٦		١٠:		٥٥	١			٥٤٥	١	٤٧- ٤٣:
٤٠٢	١			١٠٨	١			١٤٢		٤٤:
٨٢٦	٢			٢٨٢	١			١٥٧		
١٣٥		١١:		٢٨٨	١			١٦٧		
١٥٨				٢٢٤		٥٩:		٢٢١		
١٧٩				٦٩٩	١			٢٢٦		
٢٢١				٤٨	١	٦٩- ٦٨:		٥١	١	
٢٤١				٢٩٥		٢:	٩	٨٨٩	٢	
٢٧٠				٢٢٧	١	٢-		٩٢١	٢	
١٧٨	١			٦٦٢	١	٢:		٩٥٨	٢	
٢٨٩	١			٢٩٥		٤-		١٠٥٥	٢	
٦٨٦	١			٢٢١		٤:		١١٠٧	٢	
٧٤٠	١			٢٥٢				١١١		٤٨- ٤٤:
٧٩	١٤-	١١:		١١٩		٥-		١٠٨		٤٦:
١٥٨		١٤:		٦٦٧	١			٢٢١		
١٦١				٧٠		٥:		٥٢	١	
١٧٩				١٢١				٨٨٩	٢	
٢٤١				١٤٤				٩٥٨	٢	
٢٤٥				٢٧٤				١١١٩	٢	
١٥٠	١٥-	١٤:		٢٩٢				١١٨٠	٢	
٤٥٢	١			٢١٢				١٢١٧	٢	

١٠٨	م	٢٥: ١١	٧٦٠	١	٣٠: ١٠	١٦٢	م	١٥: ١٠
١٣٦	م		٨٣٥	٢		٢٦٨	م	
١٣٧	م		٨٧٨	٢		٢٢١	م	
١٥٨	م		٨٨١	٢		١٠٧٠	٢	
١٦٢	م		١٠٠٥	٢		٧٠٥	١	١٦- ١٥:
١٧٩	م		١٠٧٠	٢		٥٩	م	١٦:
٢٣١	م		٦٩٩	١	٣١- ٣٠:	٩٣	م	
٢٤١	م		٢٩٩	م	٣١:	٢٥٨	م	
٢٤٥	م		٢١٤	م	٣٢:	٢٥٨	م	
٣١٥	م		١١٨	١		١٧٢	م	١٧:
٤١٢	م		١٧٨	١		٢١٢	م	
٤١٢	م		٢٧٦	١		٢١٢	م	١٨:
٨٩	١		١٩٥	م	٣٣- ٣٢:	٢١٤	م	
٢٨٩	١		٢٣٤	م	٣٣:	٦٥٧	١	
٤٥٣	١		٢٤٣	١		٦٦٠	١	
٦٥٦	١		٢٧٩	١	٣٥:	١٢١٦	٢	
٦٧٣	١		٢٠٥	م	٣٦:	١٢٢٣	٢	
١٠٠٥	٢		٢١٠	م		٥٨٠	١	٢٣- ٢٢:
١٠١٧	٢		١٠٣	١		١٨٧	١	٢٣:
١٠٨٩	٢		٣٦٢	١		١١٤	م	٢٤:
١٢٧	م	٢٦- ٢٥:	٣٨٩	١		١١٨١	٢	
٩٢	١		٤١٨	١		٩٨٥	٢	٢٥- ٢٤:
٨٥٥	٢	٢٦:	٤٦٨	١		١٠٣٧	٢	٢٦- ٢٤:
١٤٧	م	٢٧- ٢٦:	٦٣٠	١		١١٤	م	٢٥:
١٤٩	١		١٠٥٣	٢		٢١٤	م	
٢٠٦	م	٢٧:	١٠٦٠	٢		٢٣٤	م	
٦٨٢	١		٢١٤	م	٣٧:	٥٦	١	
٧٢٧	١		٢٧٦	١	٣٨- ٣٧:	٣٧٦	١	
١٠٤٠	٢		٤٢٩	١		٦٥٠	١	
٦٥٩	١	٢٨:	٥٦٨	١		١١٨١	٢	
٦٥٩	١	٣٠:	٦٨	م	٣٨:	٥٤	م	٢٦:
٦٥٩	١	٣٢:	١٣٩	م		٤٣١	١	٣٠- ٢٦:
٦٥٩	١	٣٣:	٢٩٥	م		٢٥٧	١	٢٧:
٧٤١	١		١٠٦٩	٢		٣٨٩	١	٢٨- ٢٧:
٦٥٩	١	٣٥:	٤٨٢	١	٤٠- ٣٩:	١٦٨	م	٢٩- ٢٧:
١٠٠٦	٢		٢٤٥	م	٤٠:	١٠٣٢	٢	
٦٦٤	١	٣٧:	١٣٦	١		١٧٤	م	٣٠- ٢٧:
٦٥٩	١	٣٨:	٦٥٨	١	٢: ١١	٨٧١	٢	٢٨:
١٢٦١	٢		١٢٧	م	٤:	١٠١٧	٢	
١٢٦٠	٢	٣٩- ٣٨:	٣٣٧	١		٤٣٠	١	٢٩- ٢٨:
١٢٦	م	٤٠:	٣٦٢	١		٢١٢	م	٢٩:
١٣٩	م		٥٨٨	١		٢١٤	م	
٤١٢	م		٦٥٩	١		١٩	م	٣٠:
٦٥٩	١		٧٤٤	١		٥٧	م	
٢١٠	م	٤٢- ٤١:	٦٥٩	١	٥:	١١٤	م	
٧٤٥	١	٤٢:	٦٥٩	١	٦:	١٧٣	م	
١٠٨٦	٢		٢٢٥	١	٧:	١٨١	م	
٦٩	م	٤٣:	٥٨٩	١	١٠- ٩:	١٩١	م	
٢٤٥	م		٩٤٧	٢		١٩٢	م	
٣١٦	م		٢٥٣	م	١٠:	٢٠٨	م	
٣٢٤	م		٧٩٨	٢		٢٣٢	م	
٣٨٩	١		١٢٢٣	٢	١٤- ١١:	٢٣٤	م	
٦٥٩	١	٤٤:	٦٥٩	١	١٥:	٣٢٨	م	
١٢٤٧	٢		٧٦	م	١٦:	٣٧	١	
٧٣١	١	٤٥:	٣٠٦	م		٢٥٤	١	
٧٣١	١	٥٠- ٤٥:	٣٠٩	م		٢٨٩	١	
٣٠٢	م	٤٧:	٦٥٩	١	١٨:	٤٣٦	١	
٣٩	م	٥٠- ٤٧:	٦٥٩	١	١٩:	٥٥٤	١	
٩٧	م	٤٨:	٦٥٥	١	٢٥- ٢٤:	٦٣٠	١	
٣٠٣	م	٥٠- ٤٩:	٢٢٤	م	٢٦- ٢٤:	٦٤٩	١	
١١٢٨	٢		٥٧	م	٢٥:	٧٠٠	١	

948	2	23-	22:	12	1014	2	27:	12	1202	2	00-	29:	11
701	1		23:		1014	2	28-	27:	900	2		00:	
1240	2				028	1	31-	27:	208	2	02-	00:	
123	2	20-	22:		213	2		28:	202	2	02-	01:	
27	1				230	2			219	1			
833	2				212	2			220	1			
289	1	00-	22:		100	1			92	2		02:	
836	2		20:		000	1			707	1			
1309	2				1016	2			209	2		02:	
232	1	26-	20:		289	1	30-	28:	721	1			
120	2		26:		1014	2		30:	240	2		02:	
126	2				167	2		31:	202	2		07:	
202	2				198	2			292	1			
013	1		27:		222	2			247	2	8-	1:	
207	1	28-	27:		287	2			208	1			
270	1				223	1		31:	201	2	2-	2:	
102	2		28:		230	1			222	1			
122	2				000	1			229	2		3:	
120	2				722	1			201	2			
229	2				886	2			1220	2			
098	1				888	2			229	2		0:	
188	2		29:		1038	2			271	1		6:	
210	2				171	2		32:	282	1		7:	
220	1				022	1			1220	2			
227	1				220	1			229	2		8:	
278	1				722	1			227	2	10-	12:	
002	1				1021	2			229	2		13:	
880	2				1000	2			289	1			
212	2	00-	29:		1220	2			718	1			
213	2				1276	2			1107	2			
27	1				721	1		33:	100	2	17-	13:	
126	2		00:		91	2		34:	201	2	19-	13:	
188	2				196	2			127	1		16:	
227	2		1:	13	197	2			719	1			
222	1				70	2		30:	721	1		18:	
220	1				102	2			202	2		19:	
222	1				109	2			201	1			
766	1				119	2			292	1			
802	2				119	2			702	1			
902	2				122	2			1129	2			
1012	2				229	2			196	2		22:	
790	2	2-	1:		221	2			197	2			
1100	2				202	2			220	2			
202	2		2:		970	2			800	2			
202	2		3:		119	2		36:	1012	2			
211	2				122	2			127	2	22-	22:	
277	1				122	2			720	1			
002	1				71	1			1100	2	22-	22:	
778	2				221	1			228	2		22:	
820	2				709	1			202	1			
820	2				102	2		20-	911	2			
1016	2				1211	2			089	1		20:	
202	2	12-	2:		27	1		21-	228	2		26:	
220	1				289	1		22-	1087	2			
06	2		7:		000	1		29-	229	1		27:	
982	2				21	1		20:	226	1			
782	2		8:		000	1			218	1			
998	2				28	1		21:	286	1			
901	2	11-	10:		1222	2			720	1			
262	2	17-	12:		1220	2		22:	777	2			
179	2		13:		202	2		23-	810	2			

1080	200	7: 12	1343	200	38- 37: 13	202	200	16: 13
1137	200		349	200	38: 38:	789	200	
1162	200		08	200	1: 12	932	200	
07	10-	7:	148	200		161	200	18:
162	200	7:	309	200		280	200	
214	200		873	200		304	200	
118	200		881	200		1047	200	
1070	200		887	200		108	200	19:
309	200	8:	410	200	3- 1:	232	200	
030	200		217	200	9- 1:	672	200	
987	200		999	200		882	200	
390	200	9- 8:	214	200		200	200	20:
07	200	9:	329	200		262	200	
68	200		462	200		781	200	
146	200		477	200		998	200	
162	200		808	200	3- 2:	1282	200	
162	200		880	200		1287	200	
192	200		310	200	4- 2:	349	200	21:
309	200		030	200		682	200	
412	200		238	200		741	200	
32	200		318	200		810	200	
37	200		287	200		171	200	22:
100	200		490	200		1107	200 27-	22:
107	200		1040	200		471	200	27:
118	200		1087	200		720	200	
240	200		1090	200		887	200	
428	200		462	200	4:	984	200	28:
426	200		462	200		302	200	20:
760	200		490	200		202	200	
829	200		240	200	5- 4:	127	200	21:
831	200		310	200		197	200	
864	200		904	200		202	200	21:
881	200		60	200	6:	389	200	21:
1000	200		108	200		000	200	21:
1022	200		110	200		830	200	
1308	200		114	200		196	200 22-	21:
1309	200		136	200		1082	200	
309	200	10- 9:	108	200		127	200	22:
114	200	10:	179	200		41	200	22:
188	200		231	200		68	200	
191	200		232	200		210	200	
191	200		241	200		030	200	
208	200		310	200		803	200	
232	200		28	200		970	200	
294	200		46	200		1136	200	
37	200		62	200		321	200	24:
120	200		100	200		921	200	
240	200		107	200		998	200	
248	200		161	200		140	200	20:
003	200		442	200		212	200	
640	200		402	200		207	200	
802	200		042	200		030	200	26:
880	200		004	200		890	200	
902	200		781	200		904	200	
936	200		790	200		984	200	
1003	200		817	200		1029	200	
1070	200		840	200		1041	200	
1162	200		846	200		1087	200	
110	200	11- 10:	892	200		1349	200	
376	200		1017	200		1047	200	27:
232	200	11:	1007	200		994	200 28-	27:

07	1	14: 17	202	27- 26: 10	1244	2	13: 10
002	1		212		140	2	14- 13:
869	2		284		268	1	10- 13:
960	2		21		28	2	10:
170	2	10:	960		143	2	
1040	2	12:	1000		173	2	
992	2	19:	108	27:	210	2	
227	2	22- 20:	262		118	1	
887	2		07		247	1	
800	2	22:	917	1: 16	202	1	
808	2		77	2:	913	2	
872	2		227		962	2	
1041	2		94	2:	969	2	
1004	2		949	2	987	2	
1067	2		672	4:	999	2	
1274	2		917		1277	2	
1282	2		490	0:	09	2	16:
1284	2		462	7- 0:	230	2	
1229	2		917	2:	986	2	
220	2	23:	490	7:	1022	2	
694	1		490		169	2	18:
986	2		000		222	2	
222	2	24:	870		847	2	19- 18:
694	1		929		227	2	20- 18:
1048	2		1041		1027	2	21- 18:
19	2	20:	1222		160	2	19:
299	2		1277		901	2	20:
118	1		198	11- 7:	169	2	21- 20:
406	1		202		847	2	
917	2		028		999	2	
101	1	26:	071	8:	429	1	22:
214	2	27- 26:	942		1124	2	
204	1		1009		1227	2	
694	1		101	9- 8:	69	2	23:
928	2		209	9:	220	2	
170	2	27:	210	10:	822	2	20- 23:
201	2		462		110	2	24:
208	1		242	11:	190	2	
002	1		888		210	2	
690	1		201	12:	411	2	
842	2		202		07	1	
917	2		1212		276	1	
920	2		299	12- 12:	647	1	
1092	2		870		648	1	
206	2	28:	202	14- 12:	600	1	
240	2		20	13:	1041	2	
241	2		108		28	1	20- 24:
410	2		110		282	1	
462	1		117		021	1	
002	1		149		847	2	
946	2		249		1092	2	
002	1	20:	412		192	1	20:
672	1		869		117	2	26:
1142	2	21:	940		118	2	
1207	2		941		249	2	
120	1	22:	960		200	2	
206	1		1092		07	1	
708	1		222	14- 13:	869	2	
720	1		209		20	2	27- 26:
820	2		20	14:	117	2	
977	2		110		201	2	

1091	233	11: 17	407	133	4: 17	1040	233	32: 17
101	233	12:	878	233		1041	233	
211	233		898	233		1222	233	22:
218	233		1010	233		222	233	
220	233		1021	233		27	233	
278	233		1000	233		272	233	
727	233		1222	233		729	233	
898	233		000	233	0 - 4:	821	233	
1022	233		800	233	1 - 4:	872	233	
1120	233		290	233		890	233	
462	233	13:	1012	233		917	233	
871	233		08	233	0: 1	990	233	
979	233		192	233		1010	233	
982	233		27	233		1000	233	
120	233		22	233		1087	233	
188	233		100	233		1172	233	
28	233		028	233		1212	233	
889	233		222	233		209	233	1: 17
1081	233		291	233		297	233	
128	233	10- 14:	292	233		227	233	
202	233		877	233		971	233	2- 1:
1002	233	10:	08	233	2: 17	230	233	
1008	233		101	233		222	233	0- 1:
1022	233		120	233		220	233	2:
1091	233	17- 17:	212	233		211	233	
110	233		220	233		78	233	
28	233		202	233		278	233	
1122	233		278	233		220	233	
1122	233		027	233		222	233	
1280	233	18- 17:	229	233		1010	233	
1040	233	22- 17:	1009	233		1087	233	
211	233	18:	1021	233		71	233	3: 17
402	233		1081	233		112	233	
989	233		212	233	7:	121	233	
1002	233		77	233	8:	102	233	
80	233	19:	170	233		122	233	
172	233		188	233		210	233	
200	233		211	233		20	233	
1009	233		211	233		20	233	
1002	233		208	233		110	233	
1079	233		228	233	9:	282	233	
1080	233		08	233		292	233	
1287	233		101	233	10:	022	233	
170	233	21- 20:	170	233		281	233	
878	233		192	233		881	233	
172	233	21:	202	233		927	233	
211	233		227	233		922	233	
207	233		222	233		1010	233	
220	233		229	233		1029	233	
90	233		292	233		1092	233	
402	233		878	233		1122	233	
221	233		881	233		211	233	4: 17
807	233		170	233	11:	292	233	
881	233		211	233		292	233	
982	233		220	233		220	233	
989	233		222	233		200	233	
1012	233		228	233		200	233	
122	233	22:	1040	233		202	233	
127	233		1008	233		272	233	
127	233		1027	233		278	233	
170	233		1028	233		278	233	

1120	ش	21-	19:	18	069	ش	22-	20:	17	170	ش	22:	17
78	م		20		829	ش				210	ش		
97	م				100	م				211	ش		
1098	ش	21-	20		172	م				202	ش		
930	ش		22		220	م				111	ش		
1122	ش		22		292	م				260	ش		
1124	ش				247	م				879	ش		
1181	ش		20		027	ش				927	ش		
202	م	27-	20		022	ش				900	ش		
728	ش		21		722	ش				1017	ش		
1110	ش				727	ش				1090	ش		
1109	ش		28		807	ش				798	ش	22-	22:
1122	ش				878	ش				09	ش		22:
1109	ش		29		912	ش				122	ش		
200	م		31		1071	ش				107	ش		
202	م				1008	ش			1	170	ش		
1123	ش				247	م	11-	1	18	187	ش		
01	م	22-	31		202	م	2-	2		191	ش		
90	م		32		202	م		2		211	ش		
1120	ش				292	ش				200	ش		
90	م	22-	32		207	م		2		221	ش		
221	م	27-	32		220	م				90	ش		
1179	ش	28-	32		1097	ش				112	ش		
202	م		30		222	م	0-	2		278	ش		
200	م		31		222	ش				022	ش		
222	م				108	م		0		807	ش		
1098	ش				108	م		1		802	ش		
1271	ش				222	م				807	ش		
90	م	27-	31		189	ش				879	ش		
92	م		37		1098	ش				912	ش		
112	م				108	م		8		929	ش		
07	ش				222	م				982	ش		
072	ش				992	ش				989	ش		
722	ش				1097	ش				1071	ش		
827	ش				1098	ش	9-	8:		1090	ش		
1098	ش				212	م		9:		08	ش		22:
1117	ش				200	م		10:		127	ش		
1117	ش				212	م		11:		101	ش		
01	م	28-	27:		220	ش				128	ش		
110	م	28-	27:		722	ش				180	ش		
202	م		28:		1097	ش				192	ش		
202	م				1098	ش				211	ش		
1117	ش				1107	ش				228	ش		
1117	ش				1117	ش				27	ش		
1178	ش				1119	ش				22	ش		
200	م	20-	28		1108	ش		12:		100	ش		
1117	ش		2:	19	701	ش	12-	12:		102	ش		
202	م	7-	2		1120	ش				278	ش		
202	م		7		200	م		12:		000	ش		
1117	ش				1120	ش				020	ش		
222	ش	7-	7		20	م		10:		222	ش		
1182	ش		7		28	م				729	ش		
207	م	8-	7		1112	ش				822	ش		
1117	ش	9-	8		1122	ش				1028	ش		
222	ش	11-	10		1200	ش				1071	ش		
202	م		11		1121	ش		17:		71	ش		20:
202	م				202	م		18:		100	ش		
208	ش				1112	ش		19:		102	ش		
270	ش				1127	ش				211	ش		
028	ش				1121	ش				289	ش		
1098	ش				021	ش	20-	19:		299	م	21-	20:

١١٥	١	٢٠: ٢١- ٢١	٩٨	٢٦: ١٩	١١١٠	٢	١١: ١٩
٢٥٥	١		١٠٩٨	٢٧- ٢٦:	١١١٦	٢	
٢٨٢	١		٢٠٥	٢٨:	٧٣٠	١	١٢:
٨٥٦	٢		٢٠٥	٢٩:	١١١٦	٢	
١٢٠٧	٢		١١٢٩		١١١٦	٢	
٢٣	٢	٢١:	٣٤٥	٤١:	١١١٧	٢	
٦٠	٢		١١٠٥		٧٦	٢	١٢:
٦٥	٢		٦٨٧	٢: ٢٠	١١١٧	٢	
١٣٦	٢		١٣١٤	٨:	٧٠٥	١	١٤:
١٩٠	٢		١٣٣٦		١١٥١	٢	
٣١٢	٢		٧٧٧	٩:	٩٠	٢	١٤: ٢١-
٣٢٢	٢		١٣١٤	١٨- ١٤:	٢٠٣	٢	١٥:
٣٤١	٢		٣٤٥	١٥:	٢١٢	١	
٣٩٦	٢		١١٠٥		٧٠١	١	
٧٣	١		٧٦	١٦:	١١١٧	٢	
٧٥	١		٢١٥	١٧:	١١١٧	٢	١٦:
٢٦٣	١		٣٤١		٧٦	٢	١٧:
٣٦٢	١		٤٦٣		٣٤٥	٢	
٨٢٦	٢		١٣٢٩	١٨:	٦٣٢	١	
٣٤٥	٢	١: ٢١	١٥٤	١٩:	٣٥٠	٢	١٩:
١٣١٧	٢		٩٧٦		١١٩٧	٢	٢٠:
٣٥١	٢	١٩- ١:	١٣١٤	٢٠- ١٩:	٢٠٨	١	٢٣:
٣٤٥	٢	٢:	١٢٨٣	٢٠:	٦٦	٢	٢٣: ٢٤-
١٥٧	١		٢١٠	٢١:	١٠٩٨	٢	٢٤:
١٣٢٩	٢	١١- ٢:	٧٨٦		٣٨	٢	٢٥: ٢٧-
٦٨	٢	٥:	١٢٩٤		٢٠١	٢	٢٦:
٢٨٦	٢	٦:	٢٤٨	٢٢- ٢١:	١٢١٨	٢	٢٦: ٢٧-
٢٢	٢	٧:	٥٦	٢٣- ٢١:	٣١	٢	٢٧:
٧٨٤	٢		٢٥٥		٢٠١	٢	٢٨:
٢٦٢	٢	١٥:	٢٦٢		٢٠٦	٢	
١٧٠	٢	١٧- ١٥:	٢٥٠	٢٢:	٣٧٩	١	
١٧٢	٢	١٦:	٣٥٩		٦٨٧	١	
٦٢٠	١		٨٥٢		١٠٩٨	٢	
٨٠٩	٢	١٨:	٩١٣		١٠٩٨	٢	
٩٣	١	١٩- ١٨:	١٢٩٠		١٢١٨	٢	
١٣٢٨	٢		١٦٥	٢٣- ٢٢:	١٩٢	١	٢٨: ٢٩-
١٣٤٧	٢	١٩:	١٠٨٤	٢٣:	١٢٣٣	٢	٢٩:
٤٣	٢	٢٣- ٢١:	٣١٠	٢٥:	١١٦	١	٣٠:
٢٢	٢	٢٢:	٤٠٥		١٤٦	١	
٣١٨	٢		٢٨٣		٢٠٥	١	
٨٢١	٢		١٣١٦	٢٨- ٢٦:	٣٤١	١	
٧٠	٢	٢٤:	٣١٠	٢٧:	٦٣٢	١	
١١٧	١		١٢٥٤		٦٨٦	١	
٣٠	١		١٧٩	٢٨:	٧٤٠	١	
٥٦	١		١٩٢		٩١٦	٢	
١٣١٧	٢		٢٣٧		١٠٩٨	٢	
١٣٥٤	٢		٣٠٥		١١٣٦	٢	
٦٦	٢	٢٥١	٣١٠		١٢٢٣	٢	
٣٩٨	٢		٣٤١		٢٩٩	٢	٣١:
٦٥٥	١		٩٧١	٢٩:	٣٤١	١	
			٣١٠		١١٥١	٢	
			٩٦		١١٨٧	٢	
			٦٤٩		١٢٣٧	٢	
			١٠٤١		١٢٤١	٢	
			١٢٦٣		٩٨	٢	٢٣:
			١٣٠٣		٤٠٠	٢	٢٣: ٢٦-
			٢٩٥	٣٠:	٢٨٤	٢	٢٤:
			٢٩٨		٣٥٩	٢	
			٦٢	٣١- ٣٠:	١١٧	٢	٣٥:
			٢٩٣		٢٦٠	٢	
			٢٩٥		٥٦	٢	

بروحنا الاول (رسالة)

٤٩	١		١٠٤١		١٢٤١	٢	٢٣:
٣٩٠	٢		١٢٦٣		٩٨	٢	٢٣: ٢٦-
٩٧	٢		١٣٠٣		٤٠٠	٢	٢٤:
٩٩٠	٢		٢٩٥	٣٠:	٢٨٤	٢	
١٣٥٦	٢		٢٩٨		٣٥٩	٢	
٣٠	٢	١: ٢-	٦٢	٣١- ٣٠:	١١٧	٢	٣٥:
٦٨	٢		٢٩٣		٢٦٠	٢	
١٣٥	٢		٢٩٥		٥٦	٢	
٤١٣	٢					٢	

٥٤٦	١	٨:	٣	٩١٨	٢	٦-	٣:	٢	٢١	١	٢-	١:	١
١٠٥٢	٢			٧٨	٢		٤:		١٠٨٠	٢	٣-	١:	
١٣٣٠	٢			٤٥٢	١		٦:		٢٢	١	٤-	١:	
٧٥	١	٩:		٩٠٣	٢				٩٣٦	٢			
١٠٦	١			٩٦٨	٢				١٠١٨	٢			
٢٠٨	١			٣٢٢	٢		٨:		١٠٢١	٢			
٢٨٦	١			٤١٥	٢				١٦٢	٢		٢:	
٦٤٠	١			٩٤٧	٢				٣٢٠	٢			
٥٥٧	١	١٢-	١١:	١٢٢	٢	١١-	٨:		٤٠٤	٢			
٥٥٦	١		١٢:	٣٣	٢	١٠-	٩:		٤٥	١			
٣٢٢	٢		١٣:	١٠٥٧	٢	١١-	٩:		٣٨٢	١			
١٠٣٧	٢			٣٢١	٢		١١:		٤٥٣	١			
١٧١	٢	١٤:		٨٣١	٢		١٣:		١٣٣٠	٢			
٣٢١	٢			٤١	٢	١٤-	١٣:		٦٧	٢	٣-	٢:	
٤٠٥	٢			٣٢١	٢		١٤:		١٠٢٢	٢			
٦٧٩	١			٢٨٦	١				١٠٧١	٢			
٨٠٧	٢			٧٤٧	١				٣٥٩	١	٤-	٢:	
٩٠٠	٢			٨٣١	٢		١٥:		٨٣٢	٢		٢:	
١٠٧٨	٢			٨٤٨	٢				٨٥٧	٢			
١٣٥٦	٢			٨٤٩	٢		١٧:		١٠٢١	٢			
٣٣	٢	١٥-	١٤:	٤١	٢		١٨:		١٧٤	٢	٤-	٢:	
١٤١	٢			٦٣	٢				١٩٠	٢			
٩٠٠	٢			٣١٩	٢		٢٠:		٢١١	٢			
٥٥٧	١	١٥:		١١٠	٢	٢١-	٢٠:		٢١٣	٢			
٩٠٣	٢			٥٤٣	١	٢٢-	٢١:		٩٨٣	٢			
١٧٢	٢	١٦:		٦٣	٢		٢٢:		٤٩	٢		٤:	
٣٢١	٢			١٤٩	٢		٢٣:		٣٢٢	٢			
٩٢٣	٢			٣٢٠	٢				١٣٥٦	٢			
١٠٧٧	٢			٩٣٥	٢				٧٨	٢		٥:	
٣٣	٢	١٩-	١٨:	٢٦٣	٢		٢٤:		١٢٢	٢			
١٧٣	٢			١٤٩	٢		٢٧:		١٢٢	٢			
١٤١	٢	٢١-	١٨:	٣١٩	٢				٤٧	١			
١٤٤	٢	٢١-	١٩:	٢٨٦	١				٥١	١			
٩٨١	٢	٢٢-	٢٠:	٩٠٣	٢				١٠١٨	٢			
٩١١	٢	٢٢-	٢١:	٤١	٢		٢٨:		١٠٥٧	٢			
٣٢١	٢		٢٢:	٧٨	٢				٧٦١	١	٦-	٥:	
٦٩٥	١			٣١٩	٢				٣٢٠	٢	٧-	٥:	
٣٢١	٢	٢٣:		٨٣١	٢				١١١	٢		٦:	
٩٢٣	٢			٧٥	١	٢٩:			١٢٢	٢			
٨٤٦	٢	٢٤:		٢٠٨	١				١٠٥٧	٢			
٨٦٦	٢			٥٤٦	١				١١٦٤	٢			
٩٢٣	٢			٩١٣	٢		١:	٣	١٦٩	٢		٧:	
٦٤	٢	٢-	١:	٩٢٩	٢				٢٦٦	٢			
٣٢٣	٢		٢:	٩٨٨	٢				١٢٣١	٢			
٨٥	١			٣٢٣	٢	٢-	١:		٧٨	٢		٨:	
٣١٨	٢	٢-	٢:	٧٥	١				١١١	٢			
٩٤٠	٢		٣:	١٥١	٢		٢:		١٦٩	٢	٩-	٨:	
٦١٣	١	٦-	٥:	٩٠	١				٢١٦	٢			
١٠٣٧	٢			٢٠٩	١				٣١٩	٢			
١١١	٢	٦:		٨٣١	٢				١٠٩١	٢		٩:	
٣٢١	٢			٩١٣	٢				١٢٩٤	٢			
٥٦٢	١			٩٦٦	٢				٧٨	٢		١٠:	
٩٤٠	٢			٩٧٢	٢				١٦٩	٢			
١٤٠	٢	٧:		١٠٨٨	٢				٢٦٦	٢			
٧٥	١			١٠٨٩	٢					٢			
١٠٧	١			١٣٥٦	٢				٨٨٥	٢		١:	٢
٢٠٨	١			٥٤٦	١	٢-	٤:		٢٦٦	٢	٢-	١:	
٩٢٠	٢			٣٢١	٢		٥:		٣١٩	٢			
٣٣	٢	٨-	٧:	١٤١	١				١٢٩٤	٢			
١٧٢	٢			١٦٦	٢	٩-	٧:		٧٠٧	١		٢:	
٩٠٠	٢			٣٢١	٢		٨:		١١١	٢	٤-	٣:	

٧٥	١	٨:	٥	١٠٧٧	٢	٨-	٧:	٤
١٢٣٥	٢			١٤٠	م	٢١-	٧:	
١٢٣٦	٢	١٢-	٨:	٣٠	م		٨:	
٣٢٠	م		٩:	١٧٠	م			
٧٥	١			٣٣	م		٩:	
١١٣	م	١٠-	٩:	١٨١	م			
٢٥٧	١			٣٢٠	م			
٣٧٧	١			١٠١	١			
٣٦٦	١	١٢-	٩:	٢٤٠	١			
١١٣	م		١٠:	٩٢١	٢			
٧٤٥	١			٣٣	م		١٠:	
١١٣	م	١٢-	١١:	٩٨٨	٢			
١٣٥	م			٣٢٣	م		١٢:	
٤٥٤	١			٨٦٦	٢		١٣:	
٨٣٧	٢		١٢:	٨٤٦	٢	١٥-	١٣:	
٦٠	م		١٣:	٩٧	١		١٤:	
٣٢٢	م			١٣٥٦	٢			
٣٢٣	م			٣٢١	م		١٥:	
٧١	١			٨٣٧	٢			
٩٨١	٢		١٤:	١٢٢	م		١٦:	
٦٦٢	١	١٥-	١٤:	٣٢٢	م			
٦٩٥	١			٩٠٠	٢			
١٦٧	م		١٨:	٩٠٣	٢			
٦٤٠	١			١٠٥٧	٢			
٧٤٧	١		١٩:	١٤١	م		١٧:	
١٠٥٠	٢			٣٣	م		١٩:	
١٠٥٤	٢			١٤٠	م			
١١٦٤	٢			١٧٢	م			
١١٢	م	٢٠-	١٩:	٩٨٨	٢			
١٠٥٧	٢			١٣٥٦	٢			
١٠٨	م		٢٠:	٣٣	م		٢٠:	
١٣٥	م			٣٣	م		٢١:	
٤٥٤	١			١٧١	م			
٨٤٦	٢			٢٦٧	م		١:	٥
١٠٢٤	٢			٣٢٣	م			
١١٦٤	٢			٧٢	١			
١٣٥٦	٢			٢٠٨	١			
١٠٥٨	٢	٢١-	٢٠:	٥٥١	١			
يوحنا الثانية (رسالة)				١٠١١	٢	٥-	١:	٥
١٠٩٣	٢		١	١٤٠	م		٢:	
٢٨٦	١		٢	١٤٧	م		٤:	
٩٠٣	٢			٢٦٧	م			
١٠٥٦	٢		٤	٣٢٢	م			
٣١٩	م		٧	٧٤٧	١			
٨٦٠	٢		٩	٩٤٨	٢			
٤٠	م		١١-١٠	٩٧٠	٢			
يوحنا الثالثة (رسالة)				٩٩٦	٢			
٩٤٢	٢		١٢	١٦٩	م	٥-	٤:	
يونان				٢٦٧	م		٥:	
١٣٣٤	٢		٩:	١٠٥٨	٢			
يوثفيل				١٣١٢	٢			
١٦٩	١		٥:	١٠٩	م		٦:	
١٢٩٨	٢	١٣-	١٢:	١١٠	م			
١٧٠	١		٢٤:	١١٨	م			
٢٢٧	م		٢٧:	٢٦٦	م			
٨٤	١		٢٨:	٣٥٩	م			
٢٧٩	١			١٢٣٠	٢			
٢٨٥	م	٢٩-	٢٨:	١٢٣٤	٢			
٢٢٢	١			٢٨٥	م	٨-	٦:	
٥٠٠	١			٢٦٠	م		٨:	
١٨٣	١		١٦:	٢٦٦	م			

فهرس الاقتباسات من كتابات آباء الكنيسة

(م = المدخل ، ش = الشرح)

أبولونيوس	أنتونيوس الكبير
م ٤٠	ش ١٣٠ و ١٣١
أبوليناريوس (من لاودكية)	أوريجانوس
ش ١٢٢٨	م ٣١ و ٣٥ و ٤٩ و ٢٨٦ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٦٤
إبيفانيوس	٣٨٦ و ٣٦٥
م ٣٩ و ٤٠ و ٥٣	ش ١١٠ و ٢٢٨ و ٥١٠ و ١٢٢٧ و ١٢٢٩
ش ٢٢٨ و ٤٧٨ و ١١٣٠ و ١٢١٢	إيرينيوس
إبيكتاتوس	م ٢٢ و ٣٥ و ٣٧ و ٤٠ و ٤٢ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٩ و ٥٠
م ٤٢	و ٦٣ و ٢٨٦ و ٣٨٥ و ٤٠٣
أثناسيوس الرسولي	ش ٨١٨
م ٢٣ و ٣٦٤ و ٣٦٦	إيلاريون
ش ٦٧٩ و ٦٩٣ و ٧٨٩ و ١٢١٢	ش ١٢١٢
أثيناغوراس	بابياس
م ١٦٦	م ٤٢ و ٤٩
أغسطينوس	ش ٨١٨
م ٢٢ و ٢٩ و ٥١ و ٢٥٢ و ٢٦٠ و ٣٣٦ و ٣٤٣ و ٣٦٧	باسيليوس
ش ٢١ و ٣١ و ٤٢ و ٧٤ و ١١٠ و ١١٣ و ١٢٠ و ١٦٢	ش ٤٥
٢٠٨ و ٢١٢ و ٢٢٨ و ٢٤٧ و ٢٥٥ و ٤٣٥ و ٤٦٠ و ٥٠٩ و ٥١٥	بنتينوس
٧٨٥ و ٩٠٠ و ٩٠٩ و ٩٣٠ و ١٠٠٣ و ١١٤٠ و ١٢٢٩ و ١٢٧٠	م ٤٨ و ٣٤٢
١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٦ و ١٣٤٩ و ١٣٥٢	بوليكاربوس
إغناطيوس	م ٣٥ و ٣٧ و ٤٠ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ و ٢٦٤
م ٤٢ و ٢٦٤ و ٢٨٦ و ٤٠٣	٤٠٣
أفرام السرياني	بوليكراتوس
ش ١٢١٢	م ٣٨ و ٤٧ و ٤٨
أمبروسيوس	ترقلبانوس
م ١٨٢	م ٣٥ و ٤٠ و ٤٩ و ٥٠ و ٢٨٠
ش ٢٢٨ و ٥٠٩ و ١٢٢٩	ش ٢٠٨ و ١٢٢٩ و ١٣٤٩

م ٢٩ و ٣٥ و ٤٠ و ٤٢ و ٥٠ و ٦٣ و ٦٤ و ٣٦١ و ٣٦٨
ش ٢٠٨ و ٥٠٩ و ٥٩٢ و ٨٠٥ و ١٣٥٤

ديديموس الضرير

ش ٤٣٥

روفينوس

م ٣٦١

غريغوريوس الكبير

ش ١٣٣٢

غريغوريوس القزويني

ش ١٢٢٨

غريغوريوس النيسي

ش ٢٢٨

فيكتورينوس

م ٥٢

كاسيان

م ٤١

كبريانوس

م ٢٨٦

ش ٥١٠ و ١٢٠٥

كلوديوس أبوليناريوس

ش ١٢٢٧

كليمنس الإسكندري

م ٢١ و ٣٥ و ٣٩ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٤ و ٣٠٥ و ٣٤٢ و ٤٠٢
و ٤١١

ش ١٥٠ و ٢٠٨ و ٨١٨ و ١٣٥٥

كليمنس الروماني

ش ١٣٤٩

كيرلس الأورشليمي

م ٢٦٠

ش ١٢٢٧

كيرلس الإسكندري

م ٢٤ و ١٢١ و ٢٨٦ و ٣٦٥ و ٣٦٦

ش ٢٥ و ٩١ و ١١٠ و ١١٢ و ١٤٩ و ٢١٥ و ٣١٤ و ٣٢٥

٦٠٦ و ٦٧٨ و ٦٨٧ و ٦٩٣ و ٧٣٠ و ١٠٠٤ و ١١٥١ و ١١٥٢

و ١١٧١ و ١٢٢٨ و ١٢٨٩ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ و ١٣٠٤

هرماس

م ٥١

هيپوليتوس الإسكندري

ش ٤٦٤

هيپوليتوس الروماني

م ٢١ و ٤٨ و ٤٩ و ٢٨٦ و ٣٨٥

هيغيسيوس

م ٣٩

هيراكليدس

ش ١١٠

يوجنا ذهبي الفم

م ٣٠ و ٣٥ و ٢٦٠ و ٣٦٣ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٧

ش ٢١ و ٣٨ و ٤٢ و ١١٠ و ١١٢ و ١٣٧ و ١٤٢ و ١٤٣

و ١٤٦ و ٢٤٧ و ٢٥٥ و ٣٢٥ و ٣٢٨ و ٣٤٦ و ٣٦٢ و ٥١٠ و ٦٤٩

و ٧٨٥ و ١٢٢٨ و ١٢٣٥ و ١٢٩٠ و ١٢٩١

يوسابيوس

م ٢١ و ٣٠ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٠ و ٤٢ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧

و ٤٨ و ٤٩ و ٦٤ و ٢٦٤ و ٣٤٢ و ٣٥٧ و ٣٦١ و ٤١١

ش ١١٣٠ و ١١٨٢ و ١٣٤٩

يوستينوس

م ٥١

ش ١٣١ و ١٤٣ و ٢٠٨ و ٢٢٨ و ٩٤٩ و ١٣٤٩

فهرس موضوعي

لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

(م = المدخل ؛ ش = الشرح)

ooo

الآب :

ورود الكلمة بصورتها المطلق في إنجيل يوحنا :

م ٢١٠

ش ٣٧٦—٣٧٩ و ٤٣٤—٤٣٦ و ٤٥١—٤٥٥

و ٥٢٧—٥٢٩ و ٦٤٣—٦٤٩ و ٧٦٣—٧٦٦ و ٨٦٧—٨٧٠

و ١٢٨٥—١٢٨٨

— الله الآب :

م ٢١٠

ش ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٧ و ٤١٩ و ٥٥١

الآب والابن :

م ٢٠٧

ش ٥٢٩ و ٦٤١ و ٦٤٢ و ٦٤٦—٦٤٩ و ٨٣٤—٨٣٧

— الآب أرسل الابن :

م ٢١٠

ش ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٧ و ٣٧٦—٣٧٩ و ٤١٩

و ٤٣٤—٤٣٦ و ٤٥١—٤٥٥ و ٥٢٧—٥٢٩ و ٥٥١

و ٦٤٣—٦٤٩ و ٧٦٣—٧٦٦ و ٨٦٧—٨٧٠ و ١٢٨٥—١٢٨٨

— الآب يحب الابن :

م ٢١٢

ش ٢٥٨ و ٣٤٩ و ٦٣٠ و ٩١٢—٩١٣

— الآب يعطي الابن :

م ٢١١

ش ٢٥٨ و ٣٥٢ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٧٦—٣٧٩

و ٤٢٢—٤٢٣ و ٦٣٩ و ٧٦٣ و ٧٦٤ و ١٠١٦ و ١٠١٧ و ١٠١٩

و ١٠٢٤—١٠٣٧ و ١٠٤٠—١٠٤٢ و ١٠٤٨ و ١٠٤٩

و ١٠٨٠—١٠٨٣ و ١٠٨٩

— الآب يشهد للابن :

م ١١٢ و ٢١٣

ش ٣٧٩ و ٥٢٩

الآب والإنسان : الله أبونا بالتبني :

م ٢١٥

ش ٦٩—٧٧

— ونحن أبناءه أي المؤمنون باسمه :

ش ٦٩ — ٧٥

أبي : ورود الكلمة بصورتها التخصصية من فم المسيح :

م ٢١٤

ش ١٨٩—١٩١ و ٣٤٠ و ٣٨٣ و ٤٢٢ و ٥٣٠ و ٥٤٠

و ٥٦٤ و ٥٦٧ و ٦٣٢ و ٦٣٩ و ٦٤١ و ٦٤٦ و ٨١٧ و ٨٢٩

و ٨٥٦—٨٥٩ و ٨٦٤ و ٨٩٣ و ٩١٢ و ٩١٤ و ٩٢٤ و ٩٢٥ و ٩٣٦

و ٩٥٧ و ١٢٧٥—١٢٧٧

الطريق من الآب وإليه :

م ٢١٦ و ٢١٧

الابن :

ورود الكلمة بصورتها المطلق في إنجيل يوحنا :

م ٢٠٨

ش ١٠٣ و ١٠٤ و ٢٣١ و ٢٤٠ و ٢٥٨ و ٣٤٦ و ٣٤٨

و ٣٤٩—٣٥٤ و ٣٦٢ و ٤٣٢ و ٤٣٣ و ٥٤٦ و ٥٤٧

و ٨٤١—٨٤٣ و ١٠٠١

— ابن الله :

م ١٨٢ و ٢٠٤

ش ١٤٧ و ١٦٠ و ١٣١٠

+ في الدينونة :	+ كائن منذ الأزل :
م ١٤٢-١٤٥	م ١٨٠
ش ٣٥٢ و ٣٦٩-٣٧١	ش ٣٠ و ٣٨ و ٥٧٣ و ١٠٨٩ و ١٠٩٠
+ خاضع للآب ، بالرغم من المساواة :	+ قبل إبراهيم :
ش ٣٦٩-٣٧١ و ٨٣٧-٨٣٩ و ٨٧٤-٨٨٧	ش ٥٧٣
+ في وضع التجسد والإخلاء :	+ مولود من الآب :
م ٢٠٩ و ٢١٠	م ١٨٠
ش ٨٦ و ٩٩	ش ٥٥١ و ٥٥٢ و ٩٨٩ و ٩٩٠ و ١٠٣٥
- ابن الله والعالم :	+ في حضن الآب :
+ يبذل نفسه من أجل العالم :	م ١٨١
م ١٣٥	ش ١١٩-١٢٢
ش ٢٢٨-٢٣٨ و ٤٣٨ و ٦١٦-٦٢١ و ٩٢٢-٩٢٤	- هدف إنجيل يوحنا إثبات أن المسيح ابن الله :
+ بجرر الإنسان :	ش ١٣١٠
ش ٥٤٦ و ٥٤٧	- الابن الوحيد والحبيب «مونوجينيس» :
+ يحبه :	م ١٨٠ و ١٨١
ش ٢٢٨-٢٣٨ و ٧٧٥-٧٧٩ و ٩١٢-٩١٤ و ٩٨٨	ش ١٠١ و ١٠٣ و ١١٨ و ٢٣٨
و ٩٨٩ و ١٠٨٥ و ١٠٨٦	- مساواته للآب في كل شيء (وحدة الجوهر والذات) :
+ يمنحه حياة أبدية :	م ٢٠٧
م ١٣٦-١٣٨	ش ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٦٤١ و ٦٤٢ و ٦٤٦-٦٤٩
ش ٢٢٨-٢٣٨ و ٢٨٣-٢٨٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦	و ٨٣٥-٨٤٠ و ١٠١٠-١٠١٦ و ١٠٣٨ و ١٠٣٩
و ٤٢٢-٤٢٥ و ٤٣٢ و ٤٣٣ و ٦١٣-٦١٥ و ٦٣٧ و ٦٣٨	+ في القدرة :
و ٦٧٧-٦٨٢ و ٧٣٧-٧٣٩ و ٧٦٣-٧٦٦	ش ٣٤٠-٣٤٢ و ٣٤٦-٣٤٩ و ٣٥١ و ٣٥٢
و ١٠١٦-١٠٢٤	+ في المعرفة :
+ يقيمه في اليوم الأخير :	م ١٦١ و ٢٠٥
م ١٣٨	ش ٢٠٠ و ٤٦٤-٤٦٦ و ٤٩١ و ٤٩٢ و ٥٢٤-٥٢٦
ش ٣٦٤-٣٦٩ و ٤٣١-٤٣٥ و ٤٤٧	و ٥٣٠ و ٥٣١ و ٦٢١-٦٢٣ و ٧٨٠ و ٧٨١ و ٨٢٩-٨٣٣
- ابن الإنسان :	و ١١٠٩ و ١١١٠
م ١٨٣ و ١٩٦-٢٠٣	+ في المشيئة :
+ ثلاث مجموعات لاستخدام لقب ابن الإنسان :	م ٢٠٧
م ١٩٧	ش ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٧١ و ٤٣١
١ . ابن الإنسان ينزل من السماء ويصعد ثانية :	+ في المجد :
م ١٩٦	م ١٢٥
ش ٢٢٥-٢٢٧ و ٤٦٢ و ٤٦٣	ش ٨٤١-٨٤٣ و ١٠٢٤-١٠٢٨
٢ . ابن الإنسان يرتفع على الصليب :	+ في إحياء الأموات :
م ١٩٦	م ١٢٩ و ١٣٥
ش ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٥٣٩ و ٥٤٠ و ٧٤٨-٧٥٠	ش ٣٥٩-٣٦٩

٣. ابن الإنسان يتمجد:

م ١٩٦

ش ٧٣٤-٧٣٦ و ٧٩٩-٨٠١

+ ملائكة الله صاعدة ونازلة على ابن الإنسان:

م ١٩٦

ش ١٦٠-١٦٢

+ يبذل جسده عن حياة العالم:

م ١٩٦

ش ٤٣٧-٤٤٢

+ يعطي جسده ودمه مأكلاً ومشرباً حقيقياً:

م ١٩٦

ش ٤٤٤-٤٤٦

- البشر أولاد الله بالتبني:

+ مولودون منه:

م ٢١٥

ش ٦٩-٧٧

+ مولودون من فوق:

ش ٢٠٧ و ٢٠٨

+ مولودون من الماء والروح:

ش ٢١٦-٢٢٢

إبراهيم:

ذرية إبراهيم:

م ٩٧

ش ٥٤٤ و ٥٤٧-٥٤٩

+ أولاد إبراهيم الذين يملكون أعماله:

م ٩٧

ش ٥٤٧-٥٤٩

+ إبراهيم تهلل برؤية يوم الرب:

م ٩٧

ش ٥٧٠-٥٧٢

+ المسيح كائن قبل إبراهيم:

م ٩٧

ش ٥٧٣-٥٧٧

إتحاد (= وحدة):

- الاتحاد بالله أو وحدة الشركة مع الآب والابن:

م ١٧٣-١٧٦

+ «أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠):

م ١٧٣

ش ٦٤١ و ٦٤٢

الاتحاد بالله هو جوهر رسالة المسيح:

م ١٧٣ و ١٧٤

ش ١٠٤٣-١٠٤٥ و ١٠٦٨-١٠٨٦

+ المحبة توحدنا بالله:

م ١٧٤

ش ٨٥٦-٨٦٦ و ٩١٢-٩٢٢

+ عمل الروح القدس في وحدتنا مع الآب والابن:

م ١٧٥

ش ٩٦٨-٩٧٠

+ الاتحاد بالمسيح بالاشتراك في جسده ودمه:

م ٢٠٣

ش ٤٤٩-٤٥١

+ الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والابن:

م ٢٦٠ و ٢٦١

ش ١٠٧٢-١٠٨٦

+ إتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية:

م ١٩٩-٢٠٣

ش ٨٩-٩١

أخ:

المحبة الأخوية:

م ١٧٠-١٧٣

ش ٨٠٤-٨٠٨ و ٩٢٠-٩٢٤ و ٩٢٨ و ٩٢٩

المسيح دعائنا إخوة له:

م ١٧٣

ش ٩٢٤-٩٢٦ و ١٢٧٥

إخوة الرب:

م ٣١

ش ٤٧٨

اختيار:

- المسيح يختار الله:

م ١٨٠ و ١٨٣

ش ١١٩ — ١٢٢

— المعين من الله دياناً :

م ٢١١

ش ٣٥٢

— قدسه الآب وأرسله للعالم :

م ٢١٠

ش ٦٤٣ — ٦٤٦

— إسرائيل الشعب المختار :

م ٩٣ — ٩٥

ش ٦٤ — ٦٩

— اختيار المسيح للاثني عشر :

م ٣٠٤ — ٣١١

ش ٤٦٩ — ٤٧١ و ٧٩١ و ٧٩٢

— ولكل من يعطيه الآب له :

ش ٤٣٤ و ٤٣٥ و ٦٠٦ — ٦١٠ و ٦٣٧ — ٦٤١

— يرجع لاختيار الآب :

ش ٤٢٩ — ٤٣١ و ٦٣٩

— وهو اختيار للحياة الأبدية :

ش ١٠١٦ و ١٠١٧

— المسيح يعرف خاصته وخاصته تعرف صوته :

ش ٦٢١ و ٦٢٢

— مختارون من كل العالم :

ش ٦٢٤ — ٦٢٩

— ويضع نفسه من أجلهم :

ش ٦١٦ — ٦٢١

— ولا يقدر أحد أن يخطفهم من يده :

ش ٦٣٩ و ٦٤٠

— الذين ليسوا من خاصته لا يؤمنون به :

ش ٦٣٦ و ٦٣٧

إرادة الله / مشيئة الله :

— كل ما يريد يفعل ، كل شيء به كان :

ش ٣٨ — ٤٣

— تطابق كامل بين إرادة الله وفعل كلمته :

ش ٣٦

— المسيح طعامه أن يعمل مشيئة الذي أرسله :

ش ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٧١ و ٤٣١

— مشيئة الآب حياة أبدية لكل من يؤمن بالابن :

ش ٤٣١ — ٤٣٣

— معرفة مشيئة الله هي بالسلوك حسب وصاياه :

ش ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٥٩٩ و ٦٠٠

استعلان :

هو الكشف عن أسرار الله :

م ٩٧ — ٩٥

— طابع إنجيل يوحنا استعلان إلهي مرتب وموقع تاريخياً :

م ٦٦ — ٧١

— لقب الكلمة كأساس لاستعلان بنوة المسيح لله :

م ٢٠٤ و ٢٠٥

— استعلان الكلمة المتجسد :

ش ١٩ — ١٢٢

+ فهو الكلمة الكلية المطلقة :

ش ٢٠

+ وهو المدرك الكامل الذي يُدرك لكن لا يُدرك كماله :

ش ٢٠

+ الأول والآخر، البداية والنهاية :

ش ٢٥

+ الكائن بذاته :

ش ٢٦

— مراحل استعلان الكلمة : (أنظر الكلمة) .

— التدرج في الاستعلان من أجل عجز الإنسان :

ش ٦٣ — ٦٩

— المسيح يعلن عن لاهوته وشخصيته الماسيانية في

خطوات متتابعة :

ش ٣٣٨ — ٣٦٩

— إنجيل الاستعلان :

ش ٣٨٨ — ٧٥٩

+ استعلان طبيعة المسيح المحيية وشخصه السماوي :

ش ٣٩٠ — ٤٧٣

+ استعلان طبيعة المسيح الروحية :

ش ٤٧٤ — ٥٠٦

+ استعلان طبيعة المسيح النورانية :

ش ٥٠٨ — ٦٠٤

+ استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا :

ش ٦٠٦ - ٦٢٩

+ استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب :

ش ١٤٥ و ٦٣٠ - ٦٥٢

+ استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت :

ش ٦٥٤ - ٧٠٨

+ استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم :

ش ٧١٤ - ٧٥٢

— ختام لإنجيل الاستعلان :

ش ٧٥٣ - ٧٥٤

— ملخص لإنجيل الاستعلان :

ش ٧٥٤ - ٧٧٢

— استعلان الآب السماوي :

ش ٨٢٥

— الإعلان الأعظم عن سر الحياة والإعلان المطلق فيه :

لمختاري الله :

ش ٦٣٠ - ٦٣٩

اسم الله :

+ « أنا هو » :

م ٢١٨ - ٢٤٦

+ الاسم في لاهوت ق. يوحنا :

ش ٧٢

+ الإيمان باسم ابن الله وباسم الثالوث هو حالة تجلي

وحضور إلهي :

+ الدعاء باسم الله وباسم الثالوث هو للحضور والتجلي

والمشاركة :

+ الدعاء باسم الثالوث في الإفخارستيا وفي كل أسرار

الكنيسة :

ش ٨٤٤

+ مناداة القديسين بأسمائهم للحضور والمعونة :

+ الإيمان باسم يسوع أنه المسيح هو انتقال من العهد

القديم للجديد :

+ اسم الآب « أنا هو » أعطي للمسيح :

ش ٧٤٣

+ المسيح يطلب من الآب أن يمجّد اسمه فيه :

ش ٧٤٤

+ مهما سألنا باسم المسيح يفعلنا لنا :

ش ٨٤١ - ٨٤٤

+ الامتلاء بالروح القدس يعطي استجابة فورية لكل ما

نطلبه باسم المسيح :

ش ٩٧٨ - ٩٨٢

+ الفرح الكامل ثمرة استجابة الطلبة باسم المسيح :

ش ٩٨١ - ٩٨٨

○ لأن الآب نفسه يحب الذين أحبوا الابن وآمنوا بأنه

خرج من عند الآب :

ش ٩٨٨ - ٩٩١

+ المسيح استعلن الآب للناس :

○ بكونه الابن الذي أطاع الآب حتى الموت :

○ بإعطائه تعاليم الآب وكلماته باسم الآب « أنا هو » :

○ بصنع الآيات والقوات التي تعلن عن الآب الحال

له :

ش ١٠٣٠ و ١٠٣١

+ صلاة المسيح لكي يحفظ المؤمنين في اسمه الذي أعطي

له :

ش ١٠٤٢ و ١٠٤٣

○ بأن يكونوا واحداً بقوة الوحدة التي للآب والابن :

ش ١٠٤٤ - ١٠٤٧

+ المسيح عرفنا باسم الله باستعلان الله في ذاته :

ش ١٠٩٢ و ١٠٩٣

أم يسوع :

مريم أم الرب في عرس قانا الجليل :

ش ١٧١

مريم أم الرب في كفرناحوم :

ش ١٧٩

نحن عارفون بأبيه وأمه :

ش ٤٣٣

مريم عند صليب يسوع « فلما رأى يسوع أمه » :

ش ١٢٠٧ و ١٢٠٨

أنا هو : Ego Eimi

م ٢١٨ - ٢٤٦

— لقب « أنا هو » في أسفار العهد القديم :

م ٢٢٠ - ٢٣٠

ش ٣٠ و ٣١

— لقب «أنا هو» في إنجيل يوحنا:

م ٢٣١—٢٤٣

ش ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٤٠٨ و ٥٣٢ و ٥٤٠ و ٥٧٣ و ٥٧٧

و ٧٩٢ و ٧٩٣ و ١١١٠—١١١٢

— مقارنة بين الملقب في العهد القديم وإنجيل يوحنا:

م ٢٤٤—٢٤٦

ش ٣٩٠ و ٤٣٣ و ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٩٢ و ٥١٨ و ٥٢٣

و ٥٢٩ و ٦١١ و ٦١٢ و ٦١٦ و ٦١٧ و ٦٢١ و ٦٧٧ و ٦٧٨ و ٧٣٩

و ٨٢٠ و ٨٢٥ و ٨٢٨—٨٩٤ و ٨٩٧—٩٠٥ و ١٠٨٦

إيمان :

— أحد المعايير الروحية التي يقوم عليها إنجيل يوحنا:

م ١٤٦—١٥٢

— أعظم هبة:

م ١٤٦

— معنى الإيمان في إنجيل يوحنا:

م ١٤٦ و ١٤٩

+ الإيمان بالمسيح بصفته الكلمة الذاتي الناطق بسر الآب:

م ١٤٨

ش ٧١ و ٧٢

+ الإيمان بالمسيح بصفته الابن الوحيد الذي في حضن الآب:

ش ١١٧ و ١١٨

+ لذلك فهو الطريق الوحيد لمعرفة سر الله الآب ونوا عطاياه:

م ١٤٨

ش ٨٢٨ و ٨٢٩

+ الإيمان بالمسيح كابن وحيد يعن عن أبوة الله بالقول والعمل والآية:

م ١٤٨

ش ٣٣٨—٣٦٩ و ٤١٩ و ٤٢٠

+ الإيمان بالمسيح هو الذي يُدخل البشرية إلى محبة الآب وبنوته:

ش ٥٤١—٥٤٢

+ الإيمان بالمسيح هو الذي يحرر البشرية من كل عبودية وقبول الحياة الأبدية:

إنجيل :

ما هو الإنجيل وكيف نقرب إليه:

م ٣٣٥

كتب إنجيل يوحنا: شخصيته وألقابه وصفاته وخدمته وتلاميذه:

م ٢٨—٤٤ و ٤٥—٥٢

ظروف وملابسات كتابة الإنجيل وزمانها:

م ٤٥—٦٥

— شهادات من التفنيد الكنسي المبكر:

م ٤٥—٥١

— الأسباب المتعة لكتابة الإنجيل:

م ٥٢—٦١

— الغرض الأساسي من كتابته:

م ٦٢

ش ١٣١٠—١٣١٣ و ١٣٥٥—١٣٥٨

— القديس يوحنا يشهد لإنجيله:

ش ١٣٥٥—١٣٥٨

— تفنيد بعض الآراء فيما يخص الغرض من كتابته:

ش ٦٣—٦٥

طابع إنجيل يوحنا:

م ٦٦—٧٢

الخلفية العبرية في أسلوب إنجيل يوحنا:

م ٧٥—٨٠

إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى:

— نقط التلاقى والاختلاف ومجمل الأبحاث من جهة

علاقة إنجيل يوحنا بالأناجيل الأخرى:

ش ٦٠٦ — ٦١٥	م ١٤٨
أي الخصرة المنظورة لله الموصل للآب :	ش ٥٤٣ و ٥٤٦ و ٥٤٧
ش ٦٠٩	— عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله :
باب الخراف بصورتها المفردة ؛ باب الحياة :	م ١٤٩
ش ٦١١	ش ٤١٨ — ٤٢٠
المسيح هو الباب للجميع ، خراف ورعاة ؛ باب	— موقع المعرفة من الإيمان : الإيمان ثم المعرفة ، ثم تعود
الخلاص :	المعرفة ترشح الإيمان ؛ وتبقى المعرفة في الأبدية ويتخلف
م ٢٤٣	الإيمان :
ش ٦١٣ و ٦١٤	م ١٥٠
بارا كليت ، الروح القدس المعزي :	ش ١٠٩٢ — ١٠٩٣
+ أصل الكلمة ومفهومها :	المعرفة ثمرة الإيمان الفاخرة :
م ٢٤٧ و ٢٤٨	م ١٥١
+ عمل الروح القدس في إنجيل يوحنا :	ش ١٠٩٢ — ١٠٩٣
م ٢٤٨ و ٢٤٩	الإيمان ليس للجميع بل للمختارين والاختيار يتوقف على
١ — الشاهد للمسيح :	الإيمان :
ش ١٤٤ — ١٤٩ و ١٣٩ — ١٤٢	م ١٥١ و ١٥٢
٢ — العامل الأساسي في فاعلية الأسرار :	ش ٤٣٤ و ٤٦٤ و ٦٣٧ و ٦٣٨
أ — المعمودية :	علم الله السابق بإرادة الإنسان الصالحة أو النالفة :
ش ٢١٤ — ٢١٩	ش ٥٦٢ و ٧٥٥ — ٧٥٧ و ١١٦٠ — ١١٦٢
ب — الإفخارستيا :	معوقات الإيمان :
ش ٤٥٧ — ٤٦١	م ١٥٢
٣ — عماد الاقتراب لله بالعبادة :	ش ٢٤١ — ٢٤٤ و ٣٨٤ و ٥٥١ — ٥٦٢
ش ٢٩٣ — ٢٩٧	الإيمان والأعمال :
٤ — أساس وقوة الخدمة :	م ١٥٢
ش ١٢٨٥ — ١٢٩٩	ش ٣٦٦ — ٣٦٩
٥ — مقارنة الروح القدس لروح العالم :	آية :
ش ٩٥٧ — ٩٦١	الآيات في إنجيل يوحنا ؛ مرات ورودها ؛ معناها :
٦ — عمله مع التلاميذ ليعمدهم للمستقبل :	م ٢٨٩ — ٢٩٦
ش ٩٦٤ — ٩٦٩	مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة أناجيل ومفهوم
+ تعريفه :	الآيات في إنجيل يوحنا :
— روح الشهادة والإعلان :	م ٢٩٣
م ٢٤٩ و ٢٥٠	باب :
ش ١٤٤ — ١٤٩ و ١٣٩ — ١٤٢	المسيح باب السماء والسماء مفتوحة به :
— روح الحق :	ش ١٦١ و ١٦٢ و ١١١ و ١١٢
م ٢٥٠	المسيح باب الخراف :
ش ٨٤٥ — ٨٥٣	

— المعزي، والمعلم بكل شيء:

م ٢٥٠ و ٢٥١

ش ٨٦٩ و ٨٧٠

— المنبثق من الآب:

م ٢٥١ و ٢٥٢

ش ٩٣٩ — ٩٤٣

— المبكّت:

م ٢٥٢ و ٢٥٣

ش ٩٥٧ — ٩٦١

— المخبر بأمور آتية:

م ٢٥٣ و ٢٥٤

ش ٩٦٤ — ٩٦٩

+ لا يأتي إن لم ينطلق المسيح:

م ٢٥٢ و ٢٥٣

ش ٩٥٤ — ٩٥٧

بدء:

البدء الذي بلا بدء:

ش ٢٥

بدء الخليقة الجديدة غير بدء التكوين:

ش ٢٥

تفيد الأزلية:

ش ٣٠ و ٣٢

«في البدء كان الكلمة» وعلاقتها بـ «أنا الكائن» =

«أنا هو»:

ش ٣٠ — ٣٢

بر:

الروح القدس يبكّت العالم على خطية وعلى بر وعلى

دينونة:

ش ٩٤٧ — ٩٦١

بيت الله (الهيكل):

السيد يأتي إلى هيكله بفتة؛ المسيح يدعو بيت أبي؛

جعلوه بيت تجارة؛ «غيرة بيتك أكلتني»:

ش ١٨٤ — ٢٠٠

تطهير الهيكل في بداية خدمة المسيح وفي نهايتها:

ش ٢٠٠

في بيت أبي منازل كثيرة:

ش ٨١٧ — ٨٢١

تجديد:

إنجيل التجديد بداية خدمة المسيح؛ مقابلة واضحة بين

القديم والجديد:

ش ١٦٤ — ٣١٢

١ — معجزة تحويل الماء إلى خمر؛ ماء التطهير والخمر

الجديدة (دم المسيح):

ش ١٦٨ — ١٨٢

٢ — تطهير الهيكل: هيكل أورشليم وهيكل جسد الرب

المقام:

ش ١٨٤ — ٢٠١

٣ — الحديث مع نيقوديموس:

ش ٢٠٢ — ٢٢٣

— ملكوت الله بالمعرفة وملكوت الله بالميلاد الثاني من

فوق؛

— الحية النحاسية المرفوعة على خشبة، وابن الإنسان

المصلوب لكي لا يهلك كل من يؤمن به:

ش ٢٢٤ — ٢٤٥

٤ — المعمدان يكمل شهادته عن المسيح:

— الذي من فوق هو فوق الجميع:

ش ٢٤٦ — ٢٦٢

٥ — الحديث مع السامرية: بئر الماء المعطش، والماء الحي

الذي من يشربه لا يعطش أبداً:

— السجود في جبل أورشليم والسجود لله بالروح والحق:

— مسيا الآتي والمسيح الحاضر بشخصه «أنا هو»:

ش ٢٦٣ — ٣١٣

٦ — الحديث مع التلاميذ:

— طعام الجسد وطعام عمل مشيئة الله؛

— الأنبياء زرعوا بالدموع، والتلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا

فيه:

ش ٣٠٤ — ٣١٢

تجلي:

ش ٩٨ و ١٣٢ — ١٣٣ و ١٣٩ — ١٤٠

تحرير :

والناطق بكلمة الله في كل زمان ومكان ولكل إنسان :

ش ١١٣٦

« إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً » : التحرر من عبودية الجهالة والخطية بالثبوت في كلام المسيح :

ش ٥٤١ - ٥٦٥

تلمذة :

— المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه :

ش ١٤٩ - ١٥٢

— شهادة التلاميذ :

ش ١٥٢ - ١٦٢

— المسيح يبدأ آياته بتحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه :

ش ١٧٩

— حديث المسيح مع تلاميذه عن عملهم الكرازي :

ش ٣٠٦ - ٣١٠

— رجوع الكثيرين من التلاميذ ، الذين ظنوا أتباعه غنيمة وكرامات :

ش ٤٦٥ و ٤٦٦

— بطرس يعلن تمسك الاثني عشر بالرب لأن كلام الحياة الأبدية عنده :

ش ٤٦٦

وهم آمنوا وعرفوا أنه المسيح ابن الله الحي :

ش ٤٦٧ - ٤٦٨

— ولكن المسيح يعلن أنه هو الذي اختارهم وواحد منهم شيطان :

ش ٤٦٩ - ٤٧١ •

— التلمذة الحقيقية ثبوت في كلام المسيح :

ش ٥٤١ - ٥٤٣

— التلمذة شهادة الأعمى الذي أبصر وثنى الطرد من المجمع :

ش ٥٩٨ - ٦٠٢

— أحاديث الوداع مع التلاميذ : غسل الأرجل :

ش ٧٧٤ - ١٠٠٣

— دليل التلمذة المحبة المتبادلة بين التلاميذ :

ش ٧٧٤ و ٨٠٤ - ٨٠٨

— لن يتركهم يتامى ، الوعد بإرسال الروح القدس المعزي :

ش ٨٤٤ و ٩٣٩ و ٩٦٤

— يترك سلامه لهم :

تسليم :

المسيح عالم بمن هو الذي سيسلمه :

ش ٤٦٤ و ٤٦٩ و ٤٧١ و ٧١٩ و ٧٢٠ و ٧٨٨

و ٧٩١ - ٧٩٨

الشيطان وضع في قلب يهوذا أن يسلم المسيح :

ش ٧٧٩

رؤساء الكهنة أسلموه لبيلاطس حسداً :

ش ١١٥٨

أسلمه إليهم ليصلب :

ش ١١٩٢ - ١١٩٣

ونكس رأسه وأسلم الروح :

ش ١٢١٦

تعليم :

دعوة المسيح بالمعلم « رابي » :

ش ١٥٣ و ١٦٠ و ٢٠٦ و ٢٥٠ و ٣٠٤ و ٤١٥ و ٥١٠ و ٥٨٣

و ٦٦٧ و ٦٨٣ و ٧٨٩

معنى اللقب « رابي » في المفهوم اليهودي ، وخطأ

نيقوديموس في تقديره :

ش ٢٠٦

قبول المسيح لهذا اللقب من التلاميذ مع تصحيح المفهوم :

ش ٧٨٩

تعليم المسيح ليس له بل للذي أرسله :

ش ٤٨٦ - ٤٨٨ و ٥٣٩ و ٥٤٠

المسيح لم يعلم شيئاً في الخفاء ؛ فهو معلم العالم كله

— ماء الشطهير للجسد تحوّل إلى خمر لتقدّيس الروح بدم

— مضايقات العالم لهم ومعاناتهم بعد انطلاق المسيح : المسيح :

ش ١٧٤ — ١٧٩

ش ٩٢٨ و ٩٤٧

— ماء بثر يعقوب والماء الذي يشرب منه لا يعطش أبداً :

— صلاة المسيح من أجل التلاميذ ومن يُؤمن به

بواسطةهم :

ش ٢٧٦ — ٢٨٧

ش ١٠٠٤ — ١٠٨٥

— المسيح الصخرة الروحية النابع منها ماء الحياة :

تلاميذ للمسيح ولكن خفية :

ش ٤٧٤ — ٥٠٠

ش ١٢٣٩

○ خبز الحياة بين التوراة والمسيح :

— التلميذ الذي كان يسوع يحبه :

م ٨٦ و ٨٧ و ٢٧٣ و ٢٧٤

— المن والمسيح الخبز الحي النازل من السماء :

ش ٧٩٥ و ١١١٤ و ١٢٠٤ و ١٣٥٠

ش ٣٩٠ — ٤٠٧ و ٤٢٠ — ٤٣٧

— المسيح يعطي جسده ودمه مأكلاً ومشرباً حقاً :

توراة / ناموس / عهد قديم وصلته بإنجيل يوحنا :

م ٧٣ — ١٠٢

ش ٤٣٧ — ٤٥٦

+ التوراة والترجمة السبعينية :

○ الخمر بين التوراة والمسيح :

م ٨١

م ٨٧

+ مفهوم الناموس في العهد الجديد :

— تحويل الماء إلى خمر :

م ٨٢

ش ١٧٤ — ١٧٩

+ الناموس في إنجيل يوحنا :

○ النور بين التوراة والمسيح :

م ٨٣ — ٨٥

م ٨٨

— الناموس والنعمة :

— الحياة نور الناس :

ش ١١٤ — ١٢٢

ش ٤٤ — ٤٩

— الناموس والختان :

النور والظلمة :

ش ٤٨٨ — ٤٩٠

ش ٤٩ — ٥٤ و ٥٩٣

— الناموس لا يدين إنساناً لم يسمع منه :

المعمدان يشهد للنور الحقيقي :

ش ٥٠٤ — ٥٠٦

ش ٥٤ — ٦٢

— حكم الناموس في خطية الزنا :

المسيح نور العالم :

ش ٥١٠ — ٥١٧

ش ٥١٨ — ٥٢٤ و ٥٨٩ و ٧٥١

— الشهادة في الناموس :

○ مسيا التوراة في إنجيل يوحنا :

ش ٥٢٩

لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي :

— الناموس والسبت :

م ٨٩ و ٩٠

ش ٥٩٤ — ٥٩٦

— «لقد وجدنا مسيا» :

○ الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح :

ش ١٥٤

م ٨٥ و ٨٦

— «مسيا يأتي ويخبرنا بكل شيء» :

— دراسة التوراة تؤدي إلى الحياة الأبدية :

ش ٢٩٨

ش ٣٨٠ — ٣٨٢

— المسيح هو المسيا وهو يهوذا :

○ ماء الحياة بين التوراة والمسيح :

ش ٢٩٩

م ٨٦ و ٢٧٥ — ٢٧٩

□ المسيا لا يعرف أحد من أين يأتي:

م ٩١

ش ٤٩٠-٤٩٢

□ المسيا لا يموت:

م ٩١

ش ٧٥٠

○ دراية إنجيل يوحنا بالنسبة للعهد القديم:

— إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله:

م ٩٣-٩٥

— الإسرائيليين الحق:

م ٩٦

ش ١٥٩

— الهيكل بيت الله «بيت أبي»:

م ٩٦

ش ١٨٩-١٩٣

— الخلاص من اليهود:

م ٩٦

ش ٢٩٠-٢٩٣

— فتشوا الكتب:

م ٩٦

ش ٣٨٠-٣٨٢

— إبراهيم نهل برؤية يوم المسيح:

م ٩٧

ش ٥٧٠-٥٧٧

— حلم يعقوب تحقق:

م ٩٧

ش ١٦٠-١٦٢

— يثري يعقوب لا تروي بل الماء الحي:

م ٩٧

ش ٢٨٢-٢٨٧

— موسى تنبأ عن المسيح:

م ٩٧

ش ٣٨٤ و ٣٨٥

— السبت اليهودي والراحة الحقيقية:

م ٩٨

ش ٣٣٩-٣٤٤ و ٥٩٤-٥٩٦

— الفصح اليهودي والمسيح خروف الفصح:

م ٩٨

ش ١٣٦-١٤١ و ١٤٩-١٥١ و ١٢١٩

— الحبة النحاسية وصليب المسيح:

م ٩٨

ش ٢٢٨-٢٣٧

— المن السماوي والخبز النازل من السماء:

م ٩٩

ش ٤٢٠-٤٣٣

○ النبوات عن المسيح في إنجيل يوحنا:

م ٩٩-١٠٢

— هو الهيكل الجديد:

ش ١٩٢-١٩٨

— هو الملك الآتي:

ش ٧٢٣-٧٣٠

— سعة زمان الملك الآتي:

أ — يكون الجميع متعلمين من الله:

ش ٤٣٤ و ٤٣٥

ب — من آمن به تجري من بطنه أنهار ماء حي:

ش ٤٩٧-٥٠٠

— الذي أكل خبزي رفع علي عقبه:

م ١٠١

ش ٧٩١ و ٧٩٢

— نبوة إشعياء عن أعمال المسيا وعدم إيمانهم به:

م ١٠١

ش ٧٥٣-٧٥٧

الثبات في المسيح:

— هدف المسيح أن تثبت فيه ونتحد به:

م ١٧٣-١٧٦

ش ٩٠٢-٩١١

+ بالثبات في كلمته:

ش ٣٧٩ و ٣٨٠

+ وأكل جسده وشرب دمه:

ش ٤٤١-٤٥٦

+ وحفظ وصاياهم:

ش ٩١٤-٩١٧

+ والثبات في محبته :

ش ٩١٢ - ٩١٤

+ بهذا يثبت فرجه فينا :

ش ٩١٧ - ٩٢٠

ثمر :

حقول الخدمة ابيضت للحصاد :

ش ٣٠٦ - ٣٠٨

والحاصل يجمع ثمرًا للحياة الأبدية :

ش ٣٠٨ و ٣٠٩

حبة الحنطة لا تأتي بثمر إن لم تمت :

ش ٧٣٤ - ٧٣٩

من لا يأتي بثمر هو قريب من الحريق :

ش ٨٩٨ - ٩٠٩

من يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر :

ش ٨٩٩ - ٩٠٢

الثبات في المسيح ضرورة للإتيان بثمر :

ش ٩٠٢ - ٩٠٧

بهذا يتمجد الآب أن نأتي بثمر كثير فنكون تلاميذ

المسيح :

ش ٩١١ - ٩١٢

جسد :

الكلمة صار جسداً :

ش ٨٤ - ٩٢

- وحل بيننا :

ش ٩٣ - ٩٦

- المولود من الجسد والمولود من الروح :

ش ٧٣ - ٧٧ و ٢١٦ - ٢١٨

- هيكّل جسد المسيح المقام في ثلاثة أيام :

ش ١٩٦ - ١٩٨

- جسد المسيح ودمه :

ش ٤٣٧ - ٤٥٦

- الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً :

ش ٤٥٧ - ٤٦١

حب / محبة :

المحبة والاتحاد بالآب والابن :

م ١٧٠ - ١٧٦

ش ١٠٧٦ - ١٠٩٣

- الفرق بين « الأغابي » و « الفيلين » :

م ١٧٠

- إنجيل يوحنا إنجيل المحبة : الله محبة :

م ١٧١

- المحبة فعل بذل :

م ١٧٢

□ هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد :

ش ٢٣١ - ٢٤٠

□ « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل

أحبائه » :

ش ٩٢٢ - ٩٢٤

□ « لهذا يحبني الآب لأنني أضع نفسي » :

ش ٦٣٠

□ « أتحبني ؟ ارفع غنمي » :

ش ١٣٤٣ - ١٣٤٩

- الإيمان العامل بالمحبة :

م ١٧٢

□ الحب هو الحق : نحب بالعمل والحق :

م ١٧٣

□ « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي » :

ش ٨٤٤ و ٨٥٩ و ٨٦٠

□ « تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم » :

ش ٨٠٤ - ٨٠٨ و ٩٢٠ - ٩٢٢

- محبة الله سابقة ودخولنا في محبة الآب تلغي عبوديتنا :

م ١٧٣

□ « أحب خاصته الذين في العالم ... إلى المنتهى » :

ش ٧٧٨

□ « كما أحبني الآب أحببتكم » :

ش ٩١٢ - ٩١٤

□ « أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به » :

ش ٩٢٤ - ٩٢٨

□ « الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني » :

ش ٩٨٨ و ٩٨٩

□ صلاة المسيح ليكون فينا الحب الذي للآب والابن :

ش ١٠٧٦-١٠٩٣

— المحبة المسيحية تولد في العالم المعاكس بغضة :

ش ٩٢٨-٩٣٩

□ «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني» :

ش ٥٥١

□ «الذي يعمل السيئات يبغض النور» :

ش ٢٤٣

حرية :

— الحرية بالإيمان بالمسيح والثبات في كلامه ومعرفة الحق

والحق يحررنا :

ش ٥٤١-٥٤٣

— الحرية هي التحرر من عبودية الخطية :

ش ٥٤٦ و ٥٤٧

— لا سبيل إلى حرية البنين إلا بابن الله :

ش ٥٤٦ و ٥٤٧

حفظ (استيعاب، ملاحظة، طاعة / حراسة / حماية) :

— من يحفظ كلام المسيح لن يرى الموت إلى الأبد :

ش ٥٦٥

— المسيح يعرف الآب ويحفظ قوله :

ش ٥٦٧-٥٦٩

— «من يبغض نفسه في هذا العالم، يحفظها إلى حياة

أبدية» :

ش ٧٣٧-٧٣٩

— حفظ الوصايا دليل محبة الله والذي لا يحبه لا يحفظ

كلامه :

ش ٧٣٧-٧٣٩

— المسيح يطلب من الآب أن يحفظ تلاميذه في اسمه :

ش ١٠٤٢ و ١٠٤٣

— لا كان في العالم كان يحفظهم ... وحفظهم :

ش ١٠٤٥-١٠٤٧

— لا يسأل أن يأخذهم من العالم بل أن يحفظهم من

الشرير :

ش ١٠٥٠-١٠٥١

حق :

«الحق» الكلمة المفضلة على لسان المسيح :

م ١٠٦

— معناه العبري : الأمانة، الصدق، الديمومة، الثقة

المؤكد :

م ١٠٦

— معناه اليوناني : الحقيقة المضادة للغش، أو الحقيقة

المضادة للمظهر :

م ١٠٧

— في المسيح تصالح المعنيان :

م ١٠٧

— الحق في إنجيل يوحنا تعبير عن المسيح كمعرفة تجمع في

مسيحها كمال الأصول :

م ١٠٧

— المسيح كلمة الله استعلان كامل لذات الله ولطبيعته :

«الابن الوحيد ... هو خبّر» :

م ١٠٧

ش ١١٣-١٢٢

— وهو استعلان كامل للحياة الأبدية :

م ١٠٨

ش ٦٧٧-٦٨١

— المسيح قال : «أنا هو الحق» :

م ١٠٨

ش ٨٢٦-٨٢٨

— بتجسد المسيح رأينا مجده مملوءاً نعمة وحقاً، والنعمة

والحق به صارا :

ش ١٠٥-١٠٧ و ١١٤-١١٧

— «من يثبت في الحق يثبت في الله»، و«من يفعل

الحق يقبل إلى النور (الله)» :

م ١٠٨

ش ٢٤٤

— الله روح وعبادته بالروح والحق :

ش ٢٩٣-٢٩٧

— «وتعرفون الحق والحق يحرركم» :

م ١١٠

ش ٥٤١-٥٤٣

— جسده ودمه مأكّل حق ومشرب حق :

م ١٠٩

ش ٤٤٧-٤٤٩

— الروح القدس يرشدنا إلى جميع الحق:

م ١٠٨

ش ٩٦٦ و ٩٦٧

— ويضطلع بإعلان الحق وإعلان المسيح معاً:

م ١١٠

ش ٩٦٨-٩٧٠

— الحق يقدر الإنسان بالكلمة:

م ١١٠

ش ١٠٥٢-١٠٦٦

— معرفة الحق بالتقوى ومحافة الله ولا يقبلها من يتبع

إبليس الكذاب:

م ١١١

ش ٥٥٥-٥٦٢

— المسيح جاء ليشهد للحق، وكل من هو من الحق يسمع

له:

ش ١١٦٠-١١٦٤

— الشهادة للحق: (أنظر أيضاً: شهادة):

م ١١٨-١١٢

— «الحق الحق أقول لك...»:

ش ٢٠٧ و ٢١٤ و ٢٢٣ و ٨١٠ و ١٣٤٨

— «الحق الحق أقول لكم...»:

ش ١٦٠ و ٣٤٦ و ٣٥٥ و ٣٥٩ و ٣٦١ و ٤١٦ و ٤٢٢ و ٤٣٦

و ٤٤٤ و ٤٤٦ و ٥٦٥ و ٥٧٣ و ٦٠٦ و ٦١١ و ٧٣٤ و ٧٩٠ و ٧٩٣

و ٨٤٠ و ٩٧٣ و ٩٧٩

حكم:

«لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً»:

ش ٤٨٩ و ٤٩٠

— حكم المسيح حق:

ش ٥٣٨

— محاكمة المسيح: الأولى:

ش ١١١٨-١١٤٣

— محاكمة المسيح: الثانية:

ش ١١٤٤-١١٩٠

— تنفيذ الحكم:

ش ١١٩٢

حمل الله:

ش ١٣٧-١٤٢ و ١٤٩-١٥١

حياة:

م ١٣٠-١٤١

— الحياة في أسفار العهد الجديد:

م ١٣٠

— الحياة عند ق. بولس الرسول:

م ١٣١-١٣٥

— الحياة في إنجيل ق. يوحنا:

م ١٣٥-١٤١

+ فيه كانت الحياة:

م ١٣٥

ش ٤٤

+ الحياة نور الناس — علاقة الحياة بالنور:

ش ٤٥-٤٩

+ نور مفرقة الله هو الحياة:

م ١٤١

ش ٤٥ و ١٠١٧-١٠٢١

+ شجرة الحياة:

ش ٤٦ و ٤٢٦

+ خبز الحياة:

م ٨٦ و ١٣٦ و ٢٧٣ و ٢٨٢

ش ٤٦ و ٤٢٢ و ٤٢٧-٤٢٧ و ٤٣٧-٤٤٢

+ ماء الحياة:

م ٨٦ و ١٣٦ و ٢٧٥-٢٨٢

ش ٢٧٩-٢٨٧ و ٤٩٨-٥٠٠

+ المسيح هو الحياة:

م ١٣٥

ش ٤٦ و ٦٧٧-٦٨٢ و ٨٢٥-٨٢٨ و ٨٥٥

+ كلامه هو روح وحياة:

م ١٣٦

ش ٤٥٧-٤٦٠

— من يؤمن به له حياة أبدية:

م ١٣٦-١٣٨

ش ٢٢٨ - ٢٣٠ و ٢٣٨ و ٣٥٥ - ٣٥٨ و ٤٣٢ و ٤٣٦
٦٧٧ - ٦٨٢

— المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية:

م ١٣٩ - ١٤١

ش ٩١٤ - ٩٢٠

— الحياة توصل إلى معرفة أعماق الله:

م ١٤١

ش ١٠١٧ - ١٠٢١

— الحياة والدينونة:

م ١٤٢

ش ٣٥٥ - ٣٥٩ و ٣٦٤ - ٣٧١

— من يأكل جسد المسيح و يشرب دمه له حياة أبدية:

م ١٣٥

ش ٤٤٤ - ٤٥٦

— الحياة الأفضل:

ش ٦١٥

— بذل نفس بنفس لإعطاء حياة:

ش ٦١٦ - ٦٢٠

— غاية إنجيل يوحنا « لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن

الله ، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه »:

م ١٣٦

ش ١٣١٢ و ١٣١٣

خاصة الله :

الخاصة هم شعب إسرائيل / ابنه البكر:

م ٩٣ و ٩٦ - ١٠٢

ش ٦٣ و ٧٠

المسيح إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله:

م ٩٣ - ٩٥

ش ٦٣ - ٦٩

أما الذين قبلوه فهم خاصته الجديدة:

ش ٦٩ و ٧٠

وهم أولاد الله المولودون منه وشركاء الطبيعة الإلهية:

ش ٧٧ - ٧٠

وهو الراعي الصالح الذي يعرف خاصته وخاصته تعرفه:

ش ٦٢١ - ٦٢٣

وهم خرافه الأخرى من كل العالم:

ش ٦٢٤ - ٦٢٩

وهو أحب خاصته إلى المنتهى:

ش ٦٢٤ و ٧٧٥

خبز:

— خبز الحياة بين التوراة والمسيح:

م ٨٦

— رمز الخبز النازل من السماء:

م ٢٧٣ و ٢٧٤

— رمز الخبز والماء معاً:

م ٢٨٢ - ٢٨٨

— معجزة الخمس الخبزات والسمكتين:

ش ٣٩١ - ٤٠٤

— الخبز البائد والخبز الباقي للحياة الأبدية:

ش ٤١٦ - ٤١٨

— الخبز النازل من السماء:

ش ٤٢٠ - ٤٢٧ و ٤٣٧ - ٤٤٢

— هو جسد المسيح الذي يبذله عن حياة العالم:

ش ٤٤٣ - ٤٥٦

— « الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبيه »:

ش ٧٩١ و ٧٩٢

— مائدة الخبز والسمك بعد القيامة:

ش ١٣٢٨ - ١٣٤٢

ختان:

السبت يُكسر بالختان، فكم بالأولى شفاء إنسان بأكمله:

ش ٤٨٩ و ٤٩٠

خدمة:

+ خدام الأسرار:

ش ١٧٣ و ١٧٤

+ يلزم للخدام أن يتبع منهج سيده حاملاً الصليب:

ش ٧٣٩ - ٧٤٠

+ الذي يخدم المسيح بكرمه الأب:

ش ٧٣٩

+ خدام اليهود المكلفون بخدمة الهيكل قبضوا على يسوع:

ش ٧٣٩

+ بطرس وسط الخثام :

ش ١١٣٢ - ١١٣٤

+ خادم يلطم المسيح :

ش ١١٣٨ - ١١٤١

خراف :

+ الله يرعى شعبه بمشابة راعي يرعى خرافه :

م ٢٦٨ - ٢٧٠

+ الخراف تعرف صوت راعيها :

ش ٦٠٩ و ٦١٠ و ٦١٢

+ خراف خاصة وخراف ضالة :

ش ٦١٢

+ الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف :

ش ٦١٦ - ٦٢٤

+ جمع الخراف لتكون رعية واحدة وراع واحد :

ش ٦٢٤ - ٦٢٩

خطية :

م ١٦٤ - ١٦٧

- الخطية مصدرها أسفل ، من الأرض والجسد

والشيطان :

م ١٦٢ - ١٦٧

ش ٥٢٣ - ٥٣٧ و ٥٥٥ - ٥٥٦

- المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه :

م ١٦٦ و ١٦٧

- الخطية العلة الأولى لمرض الإنسان وموته :

ش ٣٣٧

- لا يدين الخاطيء إلا الذي بلا خطية :

ش ٥١٣ و ٥١٤

- المسيح أدان الخطية وبرأ الخاطيء لأنه بلا خطية :

ش ٥١٥ و ٥٦١

- خطية رفض المسيح نتيجتها موت مؤبد :

ش ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٣٦

- «من يعمل الخطية هو عبد للخطية» :

ش ٥٤٦

- «من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى» :

ش ٥٨٣ - ٥٨٧

- «الله لا يسمع للخطاة» :

ش ٦٠٠ و ٦٠١

- الخطية باقية على الذين يحسبون أنفسهم أبراراً

ومبصرين :

ش ٦٠٢ - ٦٠٤

- الروح القدس يبكت على خطية :

ش ٩٥٧ - ٩٥٩

- سلطان مغفرة الخطايا وعلاقته بالمعمودية والاعتراف :

ش ١٢٩٢ - ١٣٠٠

خلاص :

م ١٦٧ - ١٦٩

- الخلاص بالإيمان بابن الله الذي بذل نفسه من أجل

حياة العالم :

ش ٢٢٨ - ٢٤٠

- المسيح جاء ليخلص العالم لا ليدينه :

ش ٢٣٩

- باب خلاص الإنسان بالولادة من فوق :

ش ٢٠٧ - ٢١٦

- الذي في يده لن يهلك :

ش ٦٣٧ - ٦٤١

- الإفخارستيا ترياق الخلاص وعدم الموت :

ش ٤٣٨ - ٤٤٢

- العبادة بالروح والحق سلاح المؤمن للخلاص

والمحاربة :

م ١٦٨

ش ٢٩٥ - ٢٩٧

- الخلاص من الخطية بدم المسيح لكل من يعترف بها :

م ١٦٨

ش ١٢٩٢ - ١٣٠٠

خمر :

- الخمر بين التوراة والمسيح :

م ٨٧

- تحويل الماء إلى خمر ومغزاها السري :

ش ١٧٢ - ١٧٩

دم :

«دمي مشرب حق» :

ش ٤٤٤ - ٤٥٢

خروج الماء والدم من جنب المسيح :

ش ١٢٢٤ - ١٢٣٦

دينونة :

خلفية إنجيل يوحنا : إما الحياة أو الدينونة :

م ١٢٩ و ١٤٢ و ١٤٥

المسيح جاء لا ليدين بل ليخلص :

ش ٢٣٩ - ٢٤١ و ٧٦١ - ٧٦٣

— ماهية الدينونة : النور جاء إلى العالم وأحب الناس

الظلمة أكثر من النور :

ش ٢٤٢ - ٢٤٥ و ٦٠٢ - ٦٠٤

— الآب أعطى كل الدينونة لابن الذي ينفذ كل مشيئة

الآب :

ش ٣٥٢ و ٣٦٣ و ٣٦٩ - ٣٧١

— الذي يؤمن بالابن ومن أرسله لا يدان :

ش ٢٤٠ و ٢٤١ و ٣٥٥ - ٣٥٩

— الدينونة في القيامة الأخيرة :

ش ٣٦٤ - ٣٦٩

— لا يدين الخاطيء إلا الذي بلا خطية :

ش ٥١٣ و ٥١٤

— المسيح أدان الخطية وبراء الخاطيء لأنه الوحيد الذي

بلا خطية :

ش ٥١٥ و ٥٦١

— الناس يدينون حسب الجسد :

ش ٥٢٧ و ٥٢٨

— الآن دينونة هذا العالم ورئيسه :

ش ٧٤٥ - ٧٤٧

— كلمة المسيح تشهد وتدين في اليوم الأخير :

ش ٧٦١ - ٧٦٦

— الروح القدس يبيّن العالم على خطية وعلى بر وعلى

دينونة :

ش ٩٥٩ - ٩٦١

ذكر / تذكر :

تذكر التلاميذ لما هو مكتوب :

ش ١٩٢ و ١٩٧ و ١٩٨ و ٧٣٠

الروح القدس يعلمنا كل شيء ويذكّرنا بكل ما قاله
المسيح :

ش ٨٦٨ - ٨٧٠

رؤيا :

— كلمة «يرى» عند ق. يوحنا وردت على ستة

تركيبات :

ش ٩٦

+ θεωρειν = الرؤيا الخاصة بالاستعلان وبالإيمان :

«رأينا مجده» :

ش ٩٦ - ١٠٠

وهي رؤية الإيمان بلا عيان :

ش ١٣٠٩ - ١٣١٠

— الله لم يره أحد قط الابن الوحيد هو خير :

ش ١١٧ - ١٢٢

+ θεωρειν = رؤيا المشاهدة فوق العادة : «رأيت الروح

نازلاً...» :

ش ١٤٤

+ θεωρειν = رؤية ما هو أعظم : «سوف ترى أعظم من

هذا» :

ش ١٦٠

= رؤية الحق كما هو : «من الآن نرون السماء

مفتوحة...» :

ش ١٦١

«إن آمنت ترين مجد الله» :

ش ٦٩١

«ثم بعد قليل أيضاً نرونني» :

ش ٩٧١

+ θεωρειν = الرؤية الذاتية : «وما رآه وسمعه به يشهد» :

ش ٢٥٦

«ليس أحد رأى الآب إلا الذي من الله» : «أتكلم بما

رأيت عند أبي» : «يا سيد أرى أنك نبي» :

ش ١٨٩ و ٤٣٦ و ٥٤٨

«ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» :

ش ٨٣٠

«أخبرت التلاميذ أنها رأت الرب» :

ش ١٢٧٨

«قد رأينا الرب» :

ش ١٣٠٢

+ θεωρῶν = رؤية بالقلب والفكر الروحي المدرب

بالكلمة : «كل من يرى الابن ويؤمن به...» :

ش ٤٣٢ و ٤٣٣

«إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت» :

ش ٥٦٥

«الذي يراني يرى الذي أرسلني» :

ش ٧٦٠

«بعد قليل لا يراني العالم أيضاً وأما أنتم فترونني» :

ش ٨٥٥

«بعد قليل لا تبصرونني» :

ش ٩٧١

+ ἰδεῖν = «إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى

وفرح» :

ش ٥٧٢

«قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه» :

ش ٧٥٧

«طوبى للذين آمنوا ولم يروا» :

ش ١٣١٠

رسول ؛ إرسالية ؛ مُرسَل :

— الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطان الحل

والربط : °

م ٢٦٢

ش ١٠٦٠ و ١٠٦١ و ١٢٨٥ و ١٢٩٧

— مركز الرسل في الكنيسة :

م ٢٦٣

ش ٣٠٩ و ٩٤٣ و ١٠٨٥ و ١٠٩٢

— «كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا» :

ش ٥٥

— رسالة يوحنا المعمدان : الشهادة للمسيح :

ش ٥٧ و ٥٩ و ١٤٤ و ١٤٧ و ٢٥٢

لم يأت من نفسه :

ش ٥٥٠ — ٥٥٥

— رسالة ابن الله إلى العالم : ليخلص العالم :

ش ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٧

ليعمل مثبته الذي أرسله :

ش ٣٠٤ و ٣٧١ و ٤٣١ و ٤٣٢ و ٥٨٧

— من بكرم الابن بكرم الآب الذي أرسله :

ش ٣٥٣ و ٤٥١ و ٤٥٢

— أعماله تشهد بأن الآب قد أرسله :

ش ٣٧٦ — ٣٧٩

— الآب الذي أرسله أيضاً يشهد له لأنه معه :

ش ٣٧٩ و ٥٢٧ و ٥٢٩ و ٥٣٩ و ٥٤٠

— عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله :

ش ٤١٩ و ٤٢٠ و ٧٥٩

— إرسالية المسيح على أساس وحدته بالآب ومساواته له :

ش ٥٥١ و ٥٥٢ و ٦٤٣ و ٦٤٥

— تعليم المسيح من الآب رأساً :

ش ٤٨٦ — ٤٨٨

— الله الحق الذي أرسله المسيح لا يعرفه إلا المسيح :

ش ٤٩١ و ٤٩٢

— وسيمضي إلى الذي أرسله :

ش ٤٩٥ و ٤٩٦

— الذي يراه يرى الذي أرسله :

ش ٧٥٩ و ٧٦٠

— الذي يقبل المرسل يقبل الراسل :

ش ٧٩٣

— إرسالية الروح القدس من الآب باسم المسيح :

ش ٨٦٨ و ٨٦٩

ومن المسيح من عند الآب :

ش ٩٣٩ — ٩٤٢ و ٩٥٤ و ٩٥٧

رعاية ؛ راعي ؛ رعية :

— مواصفات الراعي الصالح :

ش ٦٠٦ — ٦٢٥ و ٦٣٩ و ٦٤٨

— رعية واحدة وراع واحد :

ش ٦٢٥ — ٦٢٩

— المحبة للمسيح شرط الرعاية «أنحني. ارع خرافي» :

ش ١٣٤٣ — ١٣٤٨

رمز :

الرموز في إنجيل يوحنا :

م ٢٦٨ — ٢٨٨

+ رمز الراعي الصالح :

م ٢٦٨ — ٢٧٠

ش ٦٠٦ — ٦٢٩

+ رمز الكرم :

م ٢٧٠ — ٢٧٣

ش ٨٩٢ — ٩٠٩

+ رمز الخبز النازل من السماء :

م ٢٧٣ — ٢٧٥

ش ٤٢٠ — ٤٣٤ و ٤٣٧ — ٤٥٦

+ رمز المياه :

م ٢٧٥ — ٢٨٨

○ الوجه السلي للمياه :

ش ٤٠٨ — ٤١١

○ الوجه الإيجابي للمياه :

ش ٢٧٩ — ٢٨٧ و ٤٩٧ — ٥٠٢

+ رمز الخبز والماء معاً :

م ٢٨٢ — ٢٨٨

روح : (أنظر باراكليت) .

سبت :

م ٩٨

+ المسيح يشفي في السبت واليهود يعتبرونه تقصاً

للناموس :

م ٨٣ و ٨٤

ش ٣٣٥ — ٣٤٤ و ٥٩٤ — ٦١٠

+ الناموس يسمح بكسر السبت لأجل الختان، والمسيح

شفى إنساناً بأكمله في السبت :

ش ٤٨٩ و ٤٩٠

+ سبت الفصح يُحسب عظيماً :

ش ١٢١٩ — ١٢٢١

سجود :

+ النفس التائبة تطلب السجود :

ش ٢٩٠

+ سجود اليهود بمعرفة :

م ٩٦

ش ٢٩١ — ٢٩٣

+ السجود لله بالروح والحق :

ش ٢٩٣ — ٢٩٧

+ السجود قرين الإيمان بالله :

ش ٦٠١ — ٦٠٢

سر / أسرار :

الأسرار الكنسية في إنجيل يوحنا :

م ٢٦٤ — ٢٦٧

الميلاد من فوق من الماء والروح وسر المعمودية :

ش ٢٠٧ — ٢٢٢

الماء الحي والمعمودية :

ش ٢٨٠

الماء الحي وعطية الروح القدس :

ش ٤٩٨ — ٥٠٢

نفتيح عيني المولود أعمى بالاغتسال في بركة سلوام

وعلاقته بالمعمودية :

ش ٥٩٠ — ٥٩٢

بركة بيت حننا وتحريك الماء شق تصوير للمعمودية :

ش ٣٢٨ و ٣٢٩

تحويل الماء إلى خمر وسر الإفخارستيا :

ش ١٧٣ — ١٧٨

معجزة إشباع الجموع وسر الإفخارستيا :

ش ٣٩٠ — ٤٠٤

الخبز النازل من السماء وسر التناول من جسد الرب

ودمه :

ش ٤٢٢ — ٤٥٦

حضور المسيح والعدراء في عرس قانا الجليل وسر الزيجة :

ش ١٧٠ — ١٧٩

نسخ الروح القدس في وجه التلاميذ وإعطائهم سلطان

غفران الخطايا وعلاقته بسرّي الكهنوت والاعتراف :

ش ١٢٨٥ — ١٢٩٩

سلام :

سلام المسيح غير سلام العالم :

ش ٨٧٠-٨٧٤

سلام في شخصه لأنه غلب العالم :

ش ٩٩٥-٩٩٧

قال لهم : «سلام لكم» :

ش ١٢٨٠-١٢٨٨ و ١٣٠٤ و ١٣٠٥

سلطان :

+ سلطان الانتساب لله «خاصة الله» :

م ٩٣

ش ٦٣ و ٧٠

+ كان لشعب إسرائيل فقط :

ش ٧٠

+ ثم أعطي بلا قيود للمؤمنين كأفراد :

ش ٧٠

أن يصيروا أولاد الله ، أي المؤمنين باسمه ، شركاء الطبيعة الإنسان الذي هو في السماء :

الإلهية :

ش ٧١ و ٦٣٢

+ النطق باسم الله له قوة وسلطان الحضور الإلهي :

ش ٧٢

+ سلطان البنوة لله ليس بالولادة الجسدية بل الولادة من

فوق ، من الله :

ش ٧٣ و ٢٠٧

من الماء والروح :

ش ٢١٤-٢٢٠

+ الابن له كل سلطان الآب :

ش ٣٣٨-٣٧١

فقد دفع كل شيء إلى يديه :

ش ٧٨٠

+ وأعطي سلطان أن يدين لأنه ابن الإنسان :

ش ٣٦٣

+ المسيح له سلطانه المطلق على الموت والحياة معاً ؛

وبحريره المطلقة قدم ذبيحة نفسه استجابة لوصية الآب :

ش ٦٣٠-٦٣٤

+ سلطان المسيح على إعطاء الحياة الأبدية :

ش ٦٣٣

يعطيه لكل من أعطي له من الآب :

ش ١٠١٦-١٠٢٤

+ أعطي للتلاميذ السلطان باسمه على مغفرة الخطايا :

وإجراء المعمودية لقبول الميلاد الجديد :

ش ٦٣٣

+ ليس لأحد سلطان ما لم يُعَظ من الآب :

ش ٦٣٢ و ١١٨٢

سماء / سماويات :

الروح نازلاً مثل حمامة من السماء :

ش ١٤٤

افتتاح السماء بمجيء المسيح :

ش ١٦١ و ١٦٢

الأرضيات والسماويات في كلام المسيح :

ش ٢٢٣ و ٢٢٤

الذي صعد إلى السماء هو الذي نزل من السماء ابن

الإنسان الذي هو في السماء :

ش ٢٢٥-٢٢٧

لا يأخذ أحد شيئاً إلا ما أعطي من السماء :

ش ٢٥١ و ٢٥٢

الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع :

ش ٢٥٥

المسيح هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه

الإنسان ولا يموت :

ش ٤٣١ و ٤٣٣-٤٤٢

سمع :

«من يسمع كلمتي ويؤمن بالذي أرسلني له حياة

أبدية» :

ش ٣٥٦-٣٥٨

الأموات يسمعون صوت ابن الله فيحيون :

ش ٣٥٩-٣٦٢

في القيامة يسمع الذين في القبور صوت ابن الله فيقومون

للدنونة :

ش ٣٦٤-٣٦٥

قدرة الابن المساوية لقدرة الآب في تنفيذ كل ما يسمعه

من الآب :

ش ٣٦٩-٣٧٠

المسيح صوت الآب وهيبته وكلمته :

ش ٣٨٠ و ٨٦٧

من يسمع من الآب يقبل إلى المسيح :

ش ٤٣٤ و ٤٣٥

لا يفهم كلام الله إلا بالأذن الروحية :

ش ٥٥٣ - ٥٥٥ و ٦٣٧ و ٦٣٨

الذي من الله يسمع كلام الله ، « خرافي تسمع صوتي » :

ش ٥٦٢ و ٥٦٣ و ٦٣٧ و ٦٣٨

الآب في كل حين يسمع تلاميذه :

ش ٦٩٢ و ٦٩٣

الذي يسمع ولا يؤمن بدينه الكلام الذي سمعه :

ش ٧٦١ - ٧٦٦

كل ما يسمعه الروح القدس يتكلم به ويخبرنا :

ش ٩٦٦ و ٩٦٧

كل من هو من الحق يسمع صوت الله :

ش ١١٦١ و ١١٦٢

شفاء :

شفاء ابن خادم الملك :

ش ٣١٤ - ٣٢٠

شفاء المفلج :

ش ٣٢٩ - ٣٣٧

الشفاء في السبت ليس نقضاً للناموس :

ش ٤٨٩ و ٤٩٠

شفاء المولود أعمى :

ش ٥٨٣ - ٥٩٣

شهادة :

+ الحق والشهادة :

م ١٠٦ - ١١٨

+ شهادة الآب :

ش ٣٧٢ - ٣٧٩ و ٥٢٩

+ شهادة المسيح لنفسه حق لأنه لا يطلب مجداً من

الناس :

ش ٣٧٢ و ٣٧٣

ولأنه ليس وحده :

ش ٥٢٩

ولأنه يتكلم بما يعلم ويشهد بما رأى :

ش ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٥٦ و ٣٥٧

ولأنه الحق وأتى ليشهد للحق :

ش ١١٦١

+ أعمال المسيح تشهد له :

ش ٣٧٦ - ٣٧٩ و ٦٣٦ و ٦٣٧

- لأن مهما عمل الآب فهذا يعمله الابن كذلك :

ش ٣٤٦ - ٣٥١

- لأنه لم يعملها أحد غيره :

ش ٨٣٩ و ٨٤٠

- لأن من يؤمن به يعمل أعماله وأعظم منها :

ش ٨٤٠ - ٨٤١

+ شهادة الأسفار المقدسة :

ش ٥٤ - ٦٠ و ١٠٨ و ١٠٩

+ شهادة يوحنا المعمدان :

ش ٥٤ - ٦٠ و ١٠٨ و ١٠٩

- الجواب بالنفي :

ش ١٢٦ - ١٣٣

- الجواب بالإيجاب :

ش ١٣٤ - ١٣٦

- الشهادة للمسيح ابن الله :

ش ١٣٦ - ١٤٩

- المعمدان يسلم الوديعة :

ش ١٤٩ - ١٥١

- المعمدان يكمل شهادته :

ش ٢٤٦ - ٢٥٩

- المسيح يتكلم عن شهادة يوحنا له :

ش ٣٧٤ - ٣٧٦

+ شهادة التلاميذ :

- عند اختيارهم :

ش ١٥٢ - ١٦٢

- شهادتهم بعد القيامة :

ش ٩٤٣ - ٩٤٤

- شهادة يوحنا الإنجيلي :

ش ١٢٣٦ و ١٣٥٥ - ١٣٥٧

+ شهادة الروح القدس :

ش ٩٣٩ - ٩٤٢ و ٩٦٦ - ٩٦٩

شيطان / إبليس / رئيس العالم :

— ذاك كان قتالاً للناس منذ البدء :

ش ٥٥٥ — ٥٥٧

— ولم يثبت في الحق :

ش ٥٥٨ — ٥٦٠

— من يعمل الشر هو من إبليس أبيه :

ش ٥٤٩ — ٥٥٦

— المسيح اختار التلاميذ وواحد منهم شيطان :

ش ٤٦٩ — ٤٧١

— اليهود يشتمون المسيح أن به شيطان :

ش ٤٨٩ و ٥٦٣ — ٥٦٥ و ٦٣٤ و ٦٣٥

— الشيطان ألقى في قلب يهوذا خيانة المسيح :

ش ٧٧٩ و ٧٨٠

— بعد اللقمة دخله الشيطان :

ش ٧٩٦ و ٧٩٧

— هو رئيس هذا العالم الذي هُزم بالصليب :

ش ٧٤٦ و ٧٤٨

— ولكنه ليس له في المسيح شيء :

ش ٨٨٨ — ٨٩٠

— الروح القدس وعمله ضد رئيس هذا العالم :

ش ٩٦٠ — ٩٦١

صعود :

— ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء :

ش ٢٢٥ و ٢٢٦

— لا تلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي :

ش ١٢٧٥ — ١٢٧٨

صليب :

— الحية المرفوعة في البرية رمز لصليب المسيح :

م ٩٨

ش ٢٢٨ — ٢٣٠

— المسيح بموته مرتفعاً على الصليب جذب إليه الجميع :

ش ٧٤٨ — ٧٥٠

— رؤساء الكهنة والخدام صرخوا « اصلبه اصلبه » :

ش ١١٧٨

— بيلاطس لا يجد فيه علة للصلب :

ش ١١٧٨

— ويدّعي أن له سلطاناً أن يصلبه أو يطلقه ، والمسيح

يصحح قوله :

ش ١١٨١ — ١١٨٤

— تكرار صراخ اليهود : اصلبه ، وبيلاطس يسأله :

« أأصلب ملككم ؟ » :

ش ١١٨٩ و ١١٩٠

— ثم أسلمه إليهم ليُصلب ، فخرج وهو حامل صليبه :

ش ١١٩٢ — ١١٩٧

— وصلبوا معه اثنين :

ش ١١٩٨ — ١٢٠١

— عنوان على الصليب : يسوع الناصري ملك اليهود :

ش ١٢٠١ — ١٢٠٤

— المرافقون للصليب :

ش ١٢٠٤ — ١٢١٣

— انزال جسد الرب من على الصليب :

ش ١٢٣٩ — ١٢٤٨

طريق :

— المسيح افتتح طريقاً من الأرض إلى السماء :

ش ٨٢٣

— التلاميذ يسألون عن هذا الطريق :

ش ٨٢٣ — ٨٢٥

— المسيح يجيب : « أنا هو الطريق ... » :

ش ٨٢٥ — ٨٢٩

طعام :

— « طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله » :

ش ٣٠٤ و ٣٠٥

— اعملوا لا للطعام البائس بل للطعام الباقي :

ش ٤١٦ — ٤١٨

طلبة :

— استحالة الإيمان بدون طلب المجد لله وحده :

ش ٣٨٤

— طلب المسيح وليس عطاياه :

ش ٤١٦ و ٤١٧

— الذين يطلبون المسيح ولا يجدونه :

ش ٤٩٦ و ٥٣٢ و ٥٣٣

— الله يطلب الساجدين له بالروح والحق :

ش ٢٩٥

— «إن ثبتتم في وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون

فيكون لكم» :

ش ٩٠٩ — ٩١١

— «كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم» :

ش ٩٧٨ — ٩٨١

— «اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» :

ش ٩٨١ — ٩٨٣

ظلمة : (أنظر: نور).

عرس / عريس / عروس :

— سر الكنيسة كمعروس المسيح :

م ٢٥٨ و ٢٥٩

ش ١٧٨

— حضور المسيح وأمه وتلاميذه في عرس قانا الجليل :

ش ١٦٨ — ١٧٩

— من له العروس فهو العريس أما صديق العريس فيخرج

لصوت العريس :

ش ٢٥٢ — ٢٥٤

عطاء :

— الناموس بموسى أعطى :

ش ١١٤ — ١١٧

— ليس أحد يأخذ شيئاً إن لم يُعْطَ من السماء :

ش ٢٥١ و ٢٥٢

— ليس بكليل يعطي الله الروح :

ش ٢٥٧

— عطية الله :

ش ٢٧٩ و ٢٨١ و ٤١٧

— الآب أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته :

ش ٣٦٢

— وأعطاه سلطاناً أن يدين :

ش ٣٦٣

— وأعطاه أعمالاً ليكملها :

ش ٣٧٧ — ٣٧٩

— ليس موسى أعطاهم الخبز من السماء بل الآب يعطيهم

الخبز الحقيقي من السماء :

ش ٤٢٢ — ٤٢٥

— كل ما يعطيه الآب للابن فالله يقبل ولا يخطفهم أحد

من يده :

ش ٤٢٩ — ٤٣١ و ٦٣٩ — ٦٤١

— عطية الروح القدس :

ش ٥٠١ و ٨٤٤ — ٨٤٧

— عطية السلام :

ش ٨٧٠ — ٨٧٢

— العمل الذي أعطاه الآب للمسيح قد أكمله :

ش ١٠٢٤ و ١٠٢٥

— المسيح أظهر اسمه للناس الذين أعطاهم الآب له :

ش ١٠٣٠ — ١٠٣٣

— وهم علموا أن كل ما أُعْطِيَ هو من عند الآب :

ش ١٠٣٥ و ١٠٣٦

— الآب أعطى اسمه للابن :

ش ١٠٤٢ — ١٠٤٥

— المجد الذي أعطاه الآب للمسيح فأعطاه المسيح لنا :

ش ١٠٨٢ — ١٠٩٠

عمل / أعمال :

— أعمال المسيح هي أعمال الله وهي معجزات في نظرنا،

لاستعلان طبيعة المسيح الإلهية وإظهار مجده (أي التجلي) :

م ٢٩٤ — ٢٩٦

— شهادة نيقوديموس القاصرة عن أعمال المسيح :

ش ٢٠٦ و ٢٠٧

— طعام المسيح أن يعمل مشيئة الذي أرسله ويتمم عمله :

ش ٣٠٤ و ٣٠٥

— وليس كطلب الناس لكي يؤمنوا به ويعبدوه :

ش ٣١٦

— وإنما لتكميل أعمال الخليقة التي بدأها مع الآب ولا

يزال يعمل معه :

ش ٣٤٠ — ٣٤٢

— مهما عمله الآب فهذا يعملُه الابن كذلك :

ش ٣٤٦ — ٣٤٩

— لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما يعملته :

ش ٣٤٩ — ٣٥١

— الأعمال التي أعطاها الآب للابن ليكملها هي تشهد

له :

ش ٣٧٦ — ٣٧٩ و ٦٣٦ و ٦٣٧

— المولود أعمى وأمثاله فرصة لإظهار أعمال الله فيه :

ش ٥٨٧ — ٥٩١

— والمسيح يعمل أعمال الذي أرسله ما دام نهار :

ش ٥٨٨ و ٥٩١

— أعماله تشهد أن الآب فيه وهو في الآب :

ش ٦٤٦ — ٦٤٩ و ٨٣٥ — ٨٤٠

— وكل من يؤمن به يعمل أعماله وأعظم منها :

ش ٨٤٠ — ٨٤٤

— خطية الذي لا يؤمن هي أن المسيح عمل أعمالاً لم

يعملها أحد غيره :

ش ٩٣٦ و ٩٣٧

— العمل الذي أعطاه الآب لكي يعملته قد أكمله إلى

الكمال :

ش ١٠٢٥

— الذي يعمل السيئات يهرب من النور لئلا توثق

أعماله :

ش ٢٤١ — ٢٤٣

— أما من يعمل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله

أنها بالله معمولة :

ش ٢٤٤ و ٢٤٥

— اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة

الأبدية :

ش ٤١٦ — ٤١٨

— عمل الله أن تؤمن بالذي هو أرسله :

ش ٤١٨ — ٤٢٠

— من يعمل مشيئة الله يعرف المصدر الإلهي لتعليم

المسيح :

ش ٤٨٦ و ٤٨٧

— من يعمل الخطية هو عبد للخطية وابن إبليس :

ش ٥٤٦ — ٥٥٦

عيد / أعياد اليهود في إنجيل يوحنا :

— أول فصح لليهود يحضره الرب بعد بدء خدمته :

ش ١٨٥

— صاحبه تطهير الهيكل :

ش ١٨٦ — ١٩٩

— في أول عيد للفصح آمن كثيرون باسمه ، ولكنه لم

يأمنهم على نفسه :

ش ٢٠٠

— صعود يسوع ثانية لأورشليم في عيد لليهود هو عيد

الخمسين أو عيد الفصح الثاني :

ش ٣٢٥ و ٣٢٦

— وفيه صنع معجزة شفاء مريض بيت حسدا :

ش ٣٢٦ — ٣٣٣

— المسيح في أورشليم في عيد المظال :

ش ٤٧٤ — ٤٨٤

— محادثاته في منتصف عيد المظال :

ش ٤٨٤ — ٤٩٧

— محادثاته في اليوم الأخير من العيد :

ش ٤٩٧ — ٥٠٦

— تكملة حديث المسيح في اليوم الأخير من عيد المظال :

ش ٥١٩

— الموضع الذي تكلم فيه الرب :

ش ٥٣١

— المسيح ظل في أورشليم حتى عيد التجديد :

ش ٥٨٠ — ٥٨٢

— فيه شفى المولود أعمى :

ش ٥٨٣

— وفيه تكلم المسيح عن مثل الراعي الصالح :

ش ٦٠٦ — ٦٣٥

— وفيه سأله اليهود : إلى متى تعلق أنفسنا ، وردده عليهم :

ش ٦٣٥ و ٦٥٠

— قبل عيد الفصح الأخير بستة أيام في بيت عنيا :

ش ٧١٥

— الجمع الذي جاء إلى العيد يستقبل المسيح بالسعف في

أورشليم :

ش ٧٢٣

— قبل عيد الفصح، ليلة العشاء الأخير:

ش ٧٧٥ و ٧٧٦

— في الصباح الباكر في يوم عيد الفصح، جاءوا بيسوع إلى دار الولاية:

ش ١١٤٦ — ١١٥٢

— الاستعداد للفصح يوم الجمعة، طلبوا انزال جسد الرب من على الصليب:

ش ١٢١٩

— السبت العظيم:

ش ١٢٢٠

ش ٨٧٤ — ٨٨٦

كيف يثبت فرح المسيح فينا ويكمل فرحنا:

ش ٩١٨ — ٩٢٠

حزن المسيحي الذي يتحول إلى فرح لا ينزع منه:

ش ٩٧٣ — ٩٧٨

اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً:

ش ٩٨١ — ٩٨٣

فرح التلاميذ برؤية الرب بعد القيامة:

ش ١٢٨٣ — ١٢٨٥

قبر:

تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوت ابن الله:

ش ٣٦٤ — ٣٦٦

إقامة لعازر بعد بقاءه في القبر أربعة أيام:

ش ٦٧٤ — ٦٩٧

دفن جسد يسوع في قبر جديد:

ش ١٢٤٨ — ١٢٥٠

القبر الفارغ:

ش ١٢٥٩ — ١٢٦٧

قداسة : (أنظر أيضاً : باراكليت).

الابن الذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم:

ش ٦٤٣ — ٦٤٦

المعزي الروح القدس:

ش ٨٦٨ — ٨٦٩

الآب القدوس:

ش ١٠٤٠ — ١٠٤٢

الذين آمنوا: احفظهم في اسمك (أيها الآب):

ش ١٠٤٢ — ١٠٤٥

وقدسهم في حقك:

ش ١٠٥٢ — ١٠٥٩

لأجلهم أقديس أنا (المسيح) ذاتي:

ش ١٠٦١ — ١٠٦٣

ليكونوا هم (التلاميذ) مقدسين في الحق:

ش ١٠٦٣ — ١٠٦٦

غسل / اغتسال :

اغتسال المولود أعمى في بركة سلوام وإشارتها إلى المعمودية:

ش ٥٩٠ — ٥٩٣

— غسل الأرجل:

غسل الأرجل خدمة المحبة:

ش ٧٧٤ — ٧٨٥

بطرس الرسول يتمنع:

ش ٧٨٥ — ٧٨٩

الرب يشرح للتلاميذ قصده من غسل أرجلهم:

ش ٧٨٩ — ٧٩١

فرح :

صديق العريس يفرح فرحاً من أجل صوت العريس:

ش ٢٥٢ و ٢٥٣

فرح الممجدان وجميع الآباء والأنبياء قد كمل بمجيء المسيح:

ش ٢٥٤

الزارع والحاصد يفرحان معاً في جمع الثمر للحياة الأبدية:

ش ٣٠٨ و ٣٠٩

إبراهيم تهلل بأن يرى يوم الرب فرأى وفرح:

ش ٥٧٠ — ٥٧٢

فرح المسيح لأجل إيمان التلاميذ:

ش ٦٧٢ و ٦٧٣

حبنا للمسيح يجعلنا نفرح لانطلاقه إلى الآب:

ش ٨٩٧ — ٩٠٠

+ لا يقدر الغصن أن يأتي بشمر من ذاته :

ش ٩٠٢ — ٩٠٩

الكلمة (اللوغُس) :

— لماذا اللوغُس :

م ١٨٥

— من أين أتى. القديس يوحنا بهذا اللقب :

م ١٨٧

م ٢٦ و ٢٧

— المسيح يعلن أنه هو الكلمة :

م ١٨٨ و ١٨٩

ش ٢٧ و ٣٠ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٧ و ٤٩ و ٧٦٣ و ٧٦٦

و ٨٣٩ — ٨٣٥ و ١٠٣٥ و ١٠٣٦ و ١٠٤٨ و ١٠٤٩

— ق. يوحنا يسلمنا سر معرفته للوغُس :

م ١٨٩ و ١٩٠

— رؤية ق. يوحنا للوغُس :

م ١٩٠ و ١٩١

+ كان في البدء :

م ١٩٠ و ١٩١

ش ٢٥ — ٣٢

+ عند الله :

م ١٩١

ش ٣٣ — ٣٥ و ٣٧ و ٣٨

+ مع الله :

م ١٩١

ش ٣٤

+ في الله :

م ١٩١

ش ٢٤ و ٣٧

+ هو الله :

م ١٩٢ و ١٩٣

ش ٣٥ و ٣٦

+ هريسوع المسيح قبل التجسد :

م ١٩٢

ش ٢٠

+ الكلمة الكلية المطلقة :

م ١٨٩

ش ٢٠

+ كلمة الحياة :

م ١٨٧ و ١٨٨

ش ٢١

+ الله متكلماً :

م ١٩٣

ش ٢٢

+ هو يهو :

م ٢١٨ — ٢٤٦

ش ٣١ و ٦٧ و ٦٨

— معنى الكلمة اللوغُس :

م ١٩٤

ش ٣٠ و ٤٨٦ و ٥٣٧ و ٥٣٨

— لم يُؤخذ من الفلاسفة :

م ١٩٥

— الكلمة صار جسداً :

م ١٨٠ و ١٨٧

ش ٧٧ و ٨٤ و ٨٢٧

+ يسوع المسيح : كلمة الله المتجسد، منظور الله وإيقونة

الله :

ش ٢٣

+ استعمال الكلمة المتجسد :

ش ١٩ — ١٢٢

○ أول استعمال للكلمة في الخلق فهو علة الوجود وقوة

دوامه :

ش ٣٢ و ٣٩ — ٤٣

○ ثاني استعمال للكلمة في العالم المخلوق كنور وحياة :

ش ٣٢ و ٤٤ — ٤٩ و ٦٢ و ٦٣

○ ثالث استعمال للكلمة في خلقة الإنسان على صورة

الله :

ش ٣٢ و ٨١

○ رابع استعمال للكلمة في التجسد :

ش ٣٢

— كلمة الله وكلمة الإنسان :

ش ٣٦ و ٣٧

— الكلمة فيه وبه الحياة:

م ٣٥

ش ٤٤ و ٤٥ و ٣٥١ و ٣٦٢

كنيسة:

— الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل يوحنا:

م ٢٥٥

ش ١٢٨٥ — ١٢٨٨

+ تعريف شعب المسيح:

م ٢٥٦

ش ٦٩ — ٧٧

+ قاعدة العبادة الكنسية:

م ٢٥٦

ش ٢٩٣ — ٢٩٧

+ الفردية والجماعية في الكنيسة: في مثل الكرمة:

م ٢٥٦ و ٢٥٧

ش ٨٩٢ — ٩٠٩

+ الفردية والجماعية في الكنيسة: في مثل الراعي

الصالح:

م ٢٥٨

ش ٦٠٦ — ٦٢٩

+ سر الكنيسة كمروس المسيح:

م ٢٥٨

ش ٢٥٢ — ٢٥٤

+ سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح:

م ٢٦٠

ش ١٢٢٢ — ١٢٣٧

+ الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والابن:

م ٢٦٠

ش ١٠٦٧ — ١٠٩٣

+ النظام وتدير الخدمة في الكنيسة:

م ٢٦١

ش ٧٧٤ — ٧٩١

+ الإرسالية وتنصيب الرعاية ومنحهم سلطاناً لغفرة نبي:

الخطايا والكراسة:

م ٢٦٢

ش ٧٩٣ و ١٢٨٥ — ١٣٠٠ و ١٣٤٣ — ١٣٤٩

+ مركز الرسل في الكنيسة:

م ٢٦٣

ش ٩٣٩ — ٩٤٤

+ رؤية الكنيسة من الداخل:

م ٢٦٣

— الأسرار الكنسية: (أنظر أيضاً: سر / أسرار):

م ٢٦٤

مَثَل : أمثال :

مثل الراعي الصالح:

م ٢٥٧ و ٢٥٨

ش ٦٠٦ — ٦٢٩

مثل الكرمة:

م ٢٥٦ و ٢٥٧

ش ٨٩٢ — ٩٠٩

الإنجيل كله كان على مستوى الأمثال:

ش ٩٨٤

تأتي ساعة حين لا يكلم المسيح تلاميذه بأمثال بل

يخبرهم علانية عن الآب:

ش ٩٨٤ — ٩٨٦

مجيد :

النور والمجد كمعيار للتدرج المنهجي لإنجيل يوحنا:

م ١١٩ — ١٢٨

معاني المجد في المفهوم اللاهوتي:

م ١٢٣

إظهار المجد لا يفيد رؤية عينية بل منظر معقول:

م ١٢٣

ش ٩٦ — ١٠٠ و ١٧٩

تعرف نشايل على مجد المسيح رؤية عقلية لعظمته الإلهية:

م ١٢٣

ش ١٥٩ و ١٦٠

نعرف السامرة أيضاً على مجد المسيح «يا سيد أرى أنك

م ١٢٣

ش ٢٨٩

الثلاثة الأناجيل وبقية الأسفار اقتصرت على إعلان مجد

المسيح بعد القيامة: لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

م ١٢٤-١٢٦

إنجيل يوحنا أعلن مجده في حياته على الأرض:

م ١٢٦

المسيح لا يقبل مجداً من الناس:

ش ٣٨٢

الناس لا يقدرّون أن يؤمنوا وهم يقبلون مجداً من بعضهم البعض:

ش ٣٨٤ و ٧٥٨

المسيح لا يطلب مجد نفسه بل مجد الذي أرسله:

ش ٤٨٧ و ٤٨٨ و ٥٦٧ و ٥٦٨

موت لعازر كان لإعلان مجد الله ليتمجد ابن الله به:

ش ٦٦٣ و ٦٦٤ و ٦٩١

أول ظهور علني لمجد المسيح على مستوى العالم هو الصليب:

م ١٢٧

ش ٤١٩ و ٧٣١ و ٧٣٤ و ٧٥٧ و ٧٩٩ و ٨٠١ و ١٠١٣

مجد الابن من مجد الآب:

ش ١٠١٣-١٠١٦

تمجيد الآب على الأرض باستعلان أبوته وتمجيد المسيح باستعلان بنوته لله:

ش ١٠٢٤-١٠٢٥

بهذا يتمجد الآب أن تأتي بشمر كثير:

ش ٩١١ و ٩١٢

المسيح ممجد في تلاميذه:

ش ١٠٣٩

وهو يطلب لتلاميذه أن ينظروا مجده المعطى له:

ش ١٠٨٢-١٠٨٥ و ١٠٨٩ و ١٠٩٠

الروح القدس يمجّد المسيح لأنه يأخذ بما له ويخبرنا:

ش ٩٦٨ و ٩٦٩

القيامة: صفحة المجد في حياة الإنسان:

ش ١٢٥٧-١٢٥٧

مجيء المسيح:

ش ٨٢١ و ٨٥٣ و ٨٥٤ و ٨٧٥

مسيا: المسيح:

لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

م ٨٩-٩١

ش ١٥٤ و ٢٩٧ و ٢٩٨

المسيا لا يعرف أحد من أين يأتي:

م ٩١

ش ٤٩١ و ٤٩٢

المسيا لا يموت:

م ٩١

ش ٧٥٠

مشيئة الله: (أنظر: إرادة الله).

معجزة:

معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى:

م ٢٨٩ و ٢٩٠

مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل ومفهوم الآيات والمعجزات في إنجيل يوحنا:

م ٢٩٣-٢٩٦

أنظر أيضاً: آية: عمل / أعمال.

معرفة:

علاقة الإيمان بالمعرفة:

م ١٤٦-١٥٢

ش ١٠٣٥-١٠٣٦

المعرفة الإلهية في إدراكها الواقعي العملي هي الحياة الأبدية:

م ١٥٣

ش ١٠١٧-١٠٢٤

معرفة الله في الفلسفة اليونانية:

م ١٥٣

معرفة الله عند العبرانيين:

م ١٥٣

معرفة الله عند ق. يوحنا:

م ١٥٥-١٥٧

+ العالم لم يعرف الله الكائن فيه والذي كوّنه:

م ١٥٥

ش ٦٢ و ٦٣

+ لا يمكن الإدعاء بمعرفة الله بينما الأعمال تشهد بعكس ذلك :

م ١٥٦ و ١٥٧

ش ٥٦٨ و ٥٦٩

تعرفون أنني أنا هو :

م ١٥٧

ش ٥٣٩

معرفة التآله ومعرفة الاتحاد :

م ١٥٨

ش ٩١٤ - ٩١٧

معرفة الحق والحق يحرر :

م ١٥٩

ش ٥٤١ - ٥٤٣

معرفة الله للإنسان : يعرف خاصته ؛ يعرف من البدء من هم له ؛ يعرف الجميع ؛ يعرف من اختارهم ؛ لا يقبل إليه أحد إلا من اجتذبه الآب :

م ١٥٩ - ١٦١

ش ٢٠٠ و ٤٣٤ و ٤٦٤ و ٤٦٩ و ٦٢١ و ٧٩١ و ٧٩٢

+ رؤية الله :

- المسيح هو الوحيد الذي يعرف الآب ؛

- لا يمكن أن نعرف الآب إلا بالمسيح ؛

- من يرى المسيح يرى الآب ويعرفه :

م ١٦١ - ١٦٣

ش ١١٧ - ١٢٢ و ٤٩١ و ٤٩٢ و ٦٢١ و ٦٢٢

و ٨٢٩ - ٨٣٥

معمودية : (أنظر أيضاً : سر / أسرار).

معمودية يوحنا المعمدان للمسيح :

ش ١٢٤ - ١٤٩

عماد المسيح لم يكن إلا وسيلة لاستعلانه والتعرف عليه : اليهود :

ش ١٤٢ - ١٤٩

سر المعمودية والولادة من الماء والروح :

ش ٢١٤ - ٢١٩

مغفرة :

المغفرة حكمم براءة فائهم على فداء حياة بحياة ونفس بنفس :

ش ٥١٠ - ٥١٧

لا يدين إلا الذي بلا خطية ، وهو الذي يقدر أن يغفر

ويرى :

ش ٥١٥ - ٥١٧

سلطان مغفرة الخطايا :

م ٢٦٢

ش ١٢٩٢ - ٣٠٠

ملك ؛ ملكوت ؛ ملاك ؛ ملائكة :

+ المسيح ابن الله الذي يرد الملك لإسرائيل :

ش ١٦٠

+ المسيح فتح السماء بتجسده وملائكة الله يصعدون

وينزلون على ابن الإنسان :

ش ١٦١ و ١٦٢

+ ملكوت الله : يذكرها إنجيل يوحنا مرتين فقط :

م ٣٣٨

ش ٢٠٨ - ٢١٢ و ٢١٦

الولادة من فوق ورؤية ملكوت الله أو التعرف عليه :

ش ٢٠٨

الولادة من الماء والروح ودخول ملكوت الله بالمعمودية :

ش ٢١٦

+ ملاك الماء لشفاء الأمراض المستعصية :

ش ٣٢٨

+ محاولة الشعب أن يختطفوا المسيح ليجعلوه ملكاً أرضياً :

ش ٤٠٥ - ٤٠٧

+ دخول المسيح أورشليم كملك ، وصراخ الشعب

« مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل » :

ش ٧٢٣ - ٧٣٢

+ محاكمة المسيح أمام بيلاطس بتهمة إدعائه أنه ملك

اليهود :

ش ١١٥٦ - ١١٦١

+ بيلاطس يبرئ المسيح من تهمة الملك السياسي :

ش ١١٦٦

+ الاستهزاء بالمسيح كملك :

ش ١١٧٠ - ١١٧٧

+ بيلاطس يطلب أن يطلقه واليهود يهددونه بأنه ليس لهم

ملك إلا قيصر :

ش ١١٨٤ - ١١٩٠

+ بيلاطس يضع عنواناً على الصليب: «يسوع الناصري ملك اليهود»:

ش ١٢٠١ - ١٢٠٤

+ ملائكة القيامة:

ش ١٢٧٠ و ١٢٧١ و ١٣١٥

موت: (أنظر: حياة ، قيامة).

مياه ؛ ماء :

+ رمز الماء النابع من الصخرة:

م ٢٧٥

أولاً: رمز المياه في العهد القديم:

م ٢٧٥

— الوجه السلبي للمياه:

م ٢٧٥

ش ٤٠٨ - ٤١٣

— الوجه الإيجابي للمياه:

م ٢٧٦

١. المياه النابعة من جنب الصخرة:

م ٢٧٦

ش ٤٩٨ - ٥٠٠ و ١٢٢٤ - ١٢٣٦

٢. مياه التطهير:

م ٢٧٧ - ٢٧٨

٣. الله مصدر المياه الحية:

م ٢٧٩

ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد:

م ٢٧٩ - ٢٨١

— السير على المياه كعدو يهدد بالموت:

م ٢٨٠

— المسيح هو الصخرة: إن عطش أحد فليقبل إليّ

و يشرب:

م ٨١٠ - ٢٨٢

ش ٢٧٩ - ٢٨٧ و ٤٠٨ - ٤١٣ و ٤٩٧ - ٥٠٠

— من جنب المسيح المطعمون خرج ماء ودم لخلاص

العالم:

م ٢٨١ و ٢٨٢

ش ١٢٢٤ - ١٢٣٦

+ رمز الخبز والماء معاً:

م ٢٨٢ - ٢٨٨

— المسيح يعطي خبز الحياة وماء الحياة:

م ٢٨٣

ش ٤٢٥ - ٤٢٧

— سر المعمودية والماء الحي:

م ٢٨٤ - ٢٨٧

ش ٢١٤ - ٢١٦ و ٤٩٧ - ٥٠٠

— سر الإفخارستيا والخبز الحي:

م ٢٨٧

ش ٣٩٩ - ٤٠٣ و ٤٢٥ - ٤٢٧ و ٤٣٧ - ٤٥٦

نبي ؛ نبوات :

— المعمدان ينفي عن نفسه أنه «النبي»:

ش ١٣٣

— السامرية ترى في المسيح أنه نبي:

ش ٢٨٩

— المولود أعمى يرى في المسيح أنه نبي:

ش ٥٩٦ - ٦٠٠

— الشعب الذي رأى آية إشباع الجموع قال إنه بالحقيقة

النبي الآتي إلى العالم:

ش ٤٠٥ - ٤٠٧ و ٥٠٢ و ٥٠٣

— رؤساء الكهنة والفريسيون أنكروا نبوته بحجة أنه لم

يقم نبي من الجليل:

ش ٥٠٣ - ٥٠٦

— النبوات التي جاءت في إنجيل يوحنا وعن المسيح:

م ٩٩ - ١٠٢

+ «مكتوب غير بيتك أكلتني»:

ش ١٩٢ و ١٩٣

+ «مكتوب في الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من

الله»:

ش ٤٣٤ و ٤٣٥

+ دخول المسيح أورشليم وما جاء عنه في الأنبياء:

ش ٧٢٣ - ٧٣١

+ خيانة يهوذا: «ليتكم الكتاب: الذي أكل خبزي رفع

علي عقبه»:

ش ٧٩٢

+ نبوة إشعياء عن تنكر الشعب المختار للمسيح :

ش ٧٥٣-٧٥٧

+ « لستم الكتاب القائل : عظم لا يكسر منه » :

ش ١٢٣٧ و ١٢٣٨

+ « وأيضاً : سينظرون إلى الذي طعنوه » :

ش ١٢٣٨ و ١٢٣٩

+ النبوات عن قيامته :

ش ١٢٦٧ و ١٢٦٨

نعمة :

وحيد الآب المملوء نعمة وحقاً :

ش ١٠٥-١٠٧

من ملكه نحن جميعاً أخذنا ، ونعمة فوق نعمة :

ش ١٠٩-١١٤

«لأن الناموس بموسى أعطي ، أما النعمة والحق فبیسوع

المسيح صاراً» :

ش ١١٤-١١٧

النور :

م ١١٩-١٢٢

— الحياة نور الناس :

م ١٢١

ش ٤٤-٤٦

— النور يكشف الظلمة :

م ١٢٠

ش ٤٩ و ٦٠٢-٦٠٤

— والظلمة تتمقبب النور ولن تدركه :

م ١٢٠

ش ٤٩-٥٤

— النور الحقيقي هو الله :

م ١٢٠

ش ٤٥

المسيح هو النور الحقيقي الآتي إلى العالم :

م ١٢٠

ش ٦٠-٦٢ و ٥١٨-٥٢٤ و ٥٨٧-٥٩٠

والمؤمنون به هم نور العالم :

م ١٢٢

ش ٧٥١

والظلمة هي العالم الرافض للنور :

م ١٢٠

ش ٤٩ و ٦٠-٦٣ و ٢٤١-٢٤٤ و ٧٥١

نور الاستعلان :

م ١٢١

ش ٧٦٠ و ٧٦١

النور والحب يقابلهما الظلمة والبغضة :

م ١٢٢

ش ٥١٨-٥٢٤

النور بين التوراة والمسيح :

م ٨٨

هيكل : (أنظر أيضاً : بيت الله).

تطهير الهيكل :

ش ١٨٤-١٩٣ و ١٩٩

انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه :

ش ١٩٣-١٩٨

المسيح يعلم في الهيكل :

ش ٣٣٦ و ٣٣٧ و ٥١٠ و ٥٧٣ و ٦٣٥ و ١١٣٦

وحدة : (أنظر : اتحاد).

وصية :

وصية الآب للمسيح :

+ أن يضع نفسه ليأخذها أيضاً :

ش ٦٣٠-٦٣٤

+ ماذا يقول وماذا يتكلم :

ش ٧٦٣-٧٦٦

+ كما أوصاه الآب هكذا يفعل :

ش ٨٩٠

— وصية المسيح لنا :

+ «وصية جديدة أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم

أنا» :

ش ٨٠٤-٨٠٨ و ٩٢٠-٩٢٢ و ٩٢٨

+ «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» :

ش ٨٤٤ و ٨٤٥ و ٨٥٩ و ٨٦٣

+ ألقابه :

+ « إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي » :

م ٢٩

ش ٩١٤-٩١٧

+ صفاته كما تظهر في الإنجيل :

+ « أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به » :

١. أول من تبع يسوع :

ش ٩٢٤-٩٢٦

٢. جليلي :

٣. معروف عند رئيس الكهنة :

ولادة : أولاد الله : (أنظر أيضاً : معمودية).

٤. واحد من الثلاثة المقربين للمسيح :

— الذين قبلوا المسيح أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد

٥. التلميذ الذي كان يسوع يحبه :

الله :

٦. عاين التجلي :

ش ٦٩-٧٣

٧. رافق يسوع في المحاكمة حتى الصليب :

— الذين وُلدوا من الله :

٨. سلمه المسيح مريم أمه لتبقى معه بعد صلبه :

ش ٧٣-٧٧

م ٣٠ و ٣١

+ من فوق :

ش ١٥٠-١٥٣ و ٧٩٥ و ١١٢٨ و ١٢٠٨

ش ٢٠٧ و ٢٠٨

و ١١٢٩-١١٣٢ و ١٢٠٨-١٢١٣

+ من الماء والروح :

+ بوانرجس :

ش ٢١٤-٢١٦

م ٣٢

— « المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو

+ رسول المحبة :

روح » :

م ٣٢ و ٣٣

ش ٢١٦-٢٢٢

+ القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر الأعمال :

يوحنا :

م ٣٤

— يوحنا المعمدان جاء للشهادة ليشهد للنور :

+ القديس يوحنا الرسول في أفسس :

ش ٥٣ و ٥٤

م ٣٥-٣٨

+ رعاية القديس يوحنا لأسقفية :

— شهادة يوحنا المعمدان :

م ٣٩ و ٤٠

ش ١٢٤-١٥١

+ القديس يوحنا في جزيرة بطمس :

— يوحنا المعمدان يكمل شهادته :

م ٤١

ش ٢٤٧-٢٥٩

+ تلاميذ القديس يوحنا :

— رأي المسيح في شهادة يوحنا عنه :

م ٤٢

ش ٣٧٤-٣٧٦

+ « يبقى حتى أجيء » :

— يوحنا الرسول والإنجيلي كاتب إنجيل يوحنا :

م ٤٣

+ شخصيته :

ش ١٣٥١-١٣٥٤

م ٢٨

صورة الغلاف

لقد أعطى التقليد المسيحي لكل إنجيلي من الإنجيليين الأربعة شعاراً خاصاً، يُفصح عن المضمون الفكري العام للإنجيل المختص به. وقد أعطى للقديس يوحنا الإنجيلي رمز «النسر»، لأنه خلق في سماوات الروح وأعطانا صوراً خاطفة للمسيح في وجوده قبل التجسد.

والصورة المرسومة هي لنشر جسر، افترض سمكة ضخمة. والسمكة في التقليد المسيحي المبكر جداً هي شعار المسيحي الذي كان يتعارف به المسيحيون مع بعضهم، برسمها أو بكتابة اسمها ΙΧΘΥΣ وهذه الحروف الخمسة هي اختزال اسم المسيح وصفته، وتعني: «يسوع، المسيح، ابن، الله، المخلص». فالصورة تعني القدرة الفائقة للقديس يوحنا على استعلان اسم المسيح وصفاته.